Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 41 - June 2002
مجلة شهرية . العدد الواحد والأربعون . السنة الرابعة . يونيه ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات

فلسطين : ما جرى وما يجرى

وما العمل ؟ / الأمان فى العمق /

الإسرائيلى والانتفاضة / الدين

والسياسة فى الشرق الأوسط / التحالف

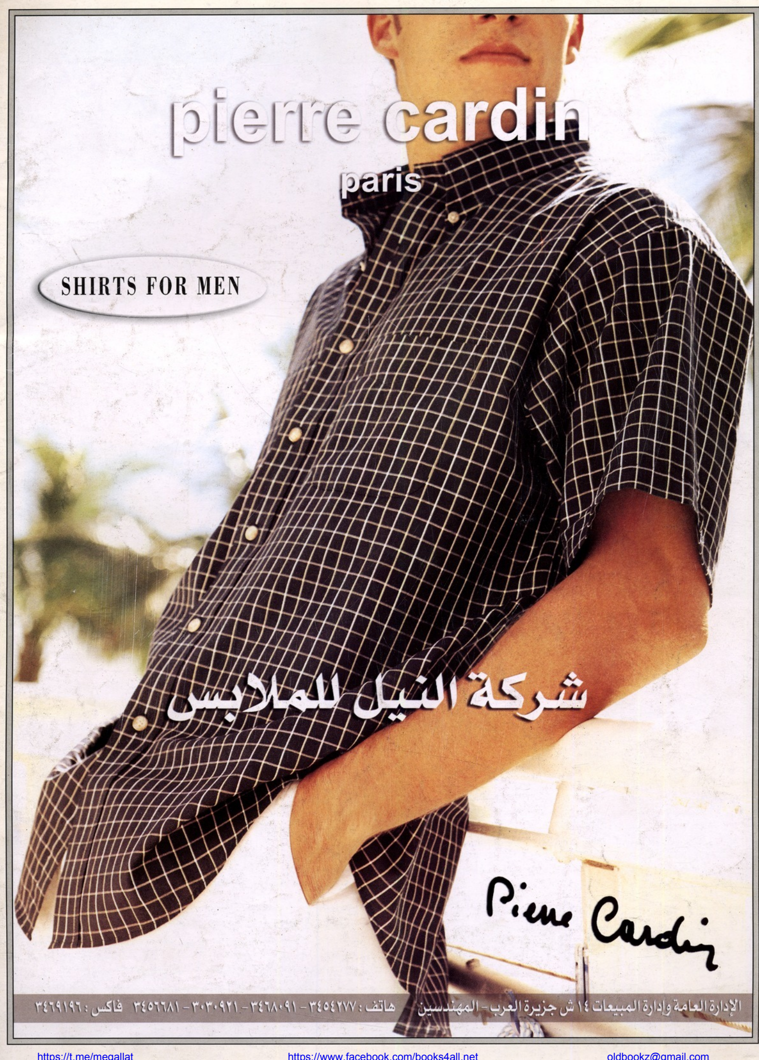
بين الصهيونية واليمين المتطرف

ألغاز الفن التجريدى

محاولة للفهم

محمد حسنين هيكل

٧ رصاصات .. وحرب !


pierre cardin
paris
SHIRTS FOR MEN
شركة النيل للملابس
Pierre Cardin
الإدارة العامة وإدارة المبيعات ١٤ ش جزيرة العرب - المهندسين هاتف : ٣٤٥٤٢٧٧ - ٣٤٦٨٠٩١ - ٣٠٣٠٩٢١ - ٣٤٥٦٦٨١ فاكس : ٣٤٦٩١٩٦

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد الحادي والأربعون
يونية ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

❝ تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة ❞

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إبراهيم عبدالكريم.. باحث فلسطيني.
- جاك فلام.. أستاذ تاريخ الفن في معهد بروكلين وفي جامعة سيتي بنيويورك.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفي.
- شوقي ضيف.. رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- طارق البشري.. كاتب ومؤرخ.
- طارق علي.. روائي وكاتب بريطاني من أصل باكستاني.
- عبد العظيم أنيس.. أستاذ الإحصاء الرياضي المتفرغ، بجامعة عين شمس.
- عزمي بشارة.. نائب عربي في الكنيست الإسرائيلي.
- عمرو كمال حمودة.. خبير في شئون الطاقة.
- فرانسيس فوكوياما.. مفكر أمريكي من أصل ياباني.
- محمد حسنين هيكل.. صحفي.
- محمد السماك.. كاتب لبناني.
- محمد عبد الرحمن يونس.. محاضر في جامعة الدراسات الأجنبية ببكين.
- محمود المراغي.. صحفي.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجي - محمد حاكم - سعد الدين شحاتة - أحمد اللبّاد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص. ب: ٣٢ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمة..

مابعد الدماء..

ربما يكون مثيرًا - ولكن مفهومًا - أن تمنح الحكومة الإسرائيلية فجأة منصة فى الإعلام الرسمى الإسرائيلى (الراديو والتليفزيون) لمسؤولين فلسطينيين كبار ليتناقشوا - أو بالأحرى ليتحاربوا - حول «الإصلاح الديمقراطى». ليس فقط فى المكان الخطأ، بل ربما أيضا فى الزمان غير المناسب.

هل نجح الإسرائيليون فى فرض أجندتهم، بعد أن سالت كثيرٌ من الدماء .. والكرامة؟

السؤال - على صعوبته ومرارته - لابد من طرحه رغم الصخب والضجيج .. والإلهاء.

كما لابد من مقاومته، رغم ما قد يبدو من صحة فى ماقاله بن جوريون قبل نصف قرن من أن «العرب المثقلين أصلاً بتناقضاتهم الداخلية، نفسهم قصير.. فهم قد يستطيعون تعبئة جهودهم لفترة زمنية محدودة، لكنهم إذا طال الوقت تراخت تعبئتهم، وضعفت حماستهم، وأخذتهم شواغل أخرى غير تلك التى جمعت بينهم..».

فى العدد الماضى من «وجهات نظر» قدمنا «قراءة فيما يجرى» من حصار واجتياح ومقاومة.. ونبهنا إلى أن شارون - بغض النظر عن مانشتات الصحف العربية - لم يفعل أبدًا أكثر من تنفيذ استراتيجيته «المعلنة» وأنه - وبغض النظر أيضًا عن كل الأمنيات، والنفخ الإعلامى فى وعود واشنطن، والقراءة الانتقائية لتصريحات البيت الأبيض - ماض فى خطته، بلا كلل أو ملل أو أى جهد للإخفاء والمواراة.

فى هذا العدد نتابع قراءة الحدث. فيكتب عزمى بشارة عن رؤيته لـ «ماجرى .. ومايجرى.. وما العمل؟» موضحًا - مرة أخرى - هدف شارون السياسى من عدوانه الأخير والمتمثل فى تغيير أجندة المفاوضات السياسية بحيث لا تشمل قضايا مثل القدس واللاجئين والاستيطان. وإنما لتتمحور - أو بالأحرى لتختزل - فى المسائل المتعلقة بـ«كيان فلسطينى»، مساحته، صلاحياته، علاقاته مع العرب ومع إسرائيل وبالطبع، وقبل كل شيء «التزاماته الأمنية».

ويبين بشارة كيف يحاول شارون من خلال رجال علاقاته العامة «بيريز ونتنياهو» أن يعرض ماجرى ويجرى بلغة مفهومة أمريكيًا: فضرب البنى التحتية (يقابله ضرب معسكرات التدريب فى أفغانستان)،اعتقال الآلاف (يقابل معتقل جوانتنامو)، اغتيال وإعدام الأسرى والمعتقلين المناضلين (يقابله بن لادن مطلوب حيًا او ميتًا). وكيف أن العقبة الأساسية أمام جهد العلاقات العامة الإسرائيلى الهادف إلى اختزال الموضوع الفلسطينى إلى« مسألة إرهاب»، يتمثل فى حقيقة وجود حالة اسمها الاحتلال والاستيطان. والتى ترتبط بالضرورة بحالة من التمييز العنصرى والأبارتهايد، الذى يتناقض بالتالى مع حق تقرير المصير والانتخابات الحرة.



وينبه عزمى بشارة إلى أننا لم ننتبه بعد إلى أن نظام الأبارتهايد المزمع إقامته فى فلسطين قد بات علنياً - ورسمياً - إذ فى خضم النقاش حول جرائم الحرب التى ارتكبتها إسرائيل فى جنين ونابلس وأثناء اجتماع عرفات باول يوم الأحد ١٤ أبريل أقرت الحكومة الإسرائيلية إقامة مناطق عازلة كثيفة التواجد العسكرى بمظاهر فصل مادية وعنصرية ديموجرافية حادة على الأرض حول المدن الفلسطينية القريبة من الخط الأخضر: طولكرم وجنين والقدس. تتمثل فى عوازل أمنية يصل عرضها فى بعض المناطق إلى خمسة كيلومترات. تحول عملياً التجمعات الفلسطينية إلى معازل خلف أسلاك شائكة وحواجز وأسوار. وتتحول معها فعلياً المناطق (أ) التى كانت تحت مسؤولية السلطة الفلسطينية الأمنية إلى مناطق (ب) بمسؤولية أمنية إسرائيلية تدخلها إسرائيل متى شاءت و«عند الحاجة».

سيعمد شارون إذن إلى استخراج خطته القديمة حول «مرحلة انتقالية طويلة المدى» إن لم يكن حتى يموت آخر فلسطينيى ٤٨، «ليصبح الحل أسهل» كما يقول إيهود باراك، فعلى الأقل سيتكفل واقع الكانتونات العنصرية تدريجيًا وبفعل متطلبات الحياة اليومية بفرض أجندة مفاوضات جديدة لا تدور حول القدس أو اللاجئين أو المستوطنات أو الحدود بل حول شروط وظروف التعايش فى ظل الظرف الانتقالى المفروض. ويصبح مضمونًا، ولو إلى حين، وأدُ كل الآمال والطموحات.



ملهاة المؤتمر الإقليمى المقترح، الذى وصفه موظفون امريكيون كبار بـ «أننا نعد لسهرة شرق أوسطية»، وضع له شارون شروطًا لا يعادلها فى فجاجتها إلا شروط بيريز للجنة التحقيق الدولية فيما جرى فى جنين. والتى وصلت فى حينه، وقبل أن ترفضها إسرائيل أصلا، وننسى نحن الأمر برمته، إلى حد اشتراط ألا تصدر اللجنة تقريرًا عن أعمالها!! فشارون اشترط للمؤتمر: ١- الا يحضر عرفات، سواء أبقاه الفلسطينيون على رأس السلطة أو استبعدوه. وهو الأمر الذى يجرى التحضير له حاليًا. ٢- الا يحضر السوريون أو اللبنانيون. وألا تحضر بالطبع ملفاتهم المعلقة. ٣- الا تكون مبادرة السلام العربية أساسًا للمؤتمر. فضلاً عن استبعاد مبدئى لمرجعيات مدريد ومقررات أوسلو وغيرها مما تم الاتفاق أو حتى التوقيع عليه سابقًا.

لسنا إذن - رغم تطمينات التهدئة الإعلامية - بصدد مفاوضات سلام. بل «حوار عربى / إسرائيلى بعد العدوان، أى بعد أن يتذوق العرب نتائج العدوان وسياسة القوة الإسرائيلية». ويصبح مجرد ذهابهم إلى هناك إذعانًا للشروط الإسرائيلية التى ليس أقلها استثناء عرفات.

يرى عزمى بشارة أن الأولوية ليست الآن للمعركة الدبلوماسية بل للمقاومة أولاً. و«لمعركة شعبية تشن عالميا وفى العالم العربى بلغة ديموقراطية مفهومة ضد مجرمى الحرب الإسرائيليين. هذه المعركة كفيلة بنشر المزاج السياسى اللازم لاستقبال المعركة السياسية والدبلوماسية القادمة ضد نظام الأبارتهايد».



فى ضرورة المقاومة يتفق المستشار طارق البشرى مع الأكاديمى والسياسى عزمى بشارة، مؤكدًا ما نعرفه من أنه فى مرحلة التصاعد المتبادل بين طرفى الصراع، فإن من يقف أولاً يكون هو الهالك والمهزوم.. وما من مرة فى الصراع العربى الصهيونى الأمريكى بادرنا فيها بقبول إلقاء السلاح إلا ودارت علينا الدوائر. ومشيرًا إلى أن القول بأن السلام خيار استراتيجى، يقال أمام مستعمر استيطانى يملك السلاح النووى، هو قول لا يفضى إلا إلى الاستسلام.

ويستعرض البشرى ما بدا أنه مفارقة كبيرة بين الاستجابات الشعبية القوية للانتفاضة ووقائعها. وبين الاستجابات الرسمية الحكومية بترددها وارتعاشها ولعثمتها قولاً وفعلاً. ورغم أن البشرى يلفت الانتباه إلى أنه من الطبيعى أن يوجد دائمًا قدر من التباين بين الموقف الرسمى الحكومى «المثقل بعلاقات وتبعات..» وبين الموقف الشعبى «الأقل قيودًا والأسرع استجابة». إلا أنه ينبه إلى خطورة اتساع هذا التباين عن درجة معينة، يصبح بعدها أكثر مما تحتمله علاقات الاستقرار بين الجانبين.

ويركز البشرى على المفهوم الحقيقى للأمن القومى والذى لا تتباين حياله بالضرورة مصلحة الجماعة عن مصلحة الدولة. مدللاً بأمثلة من التاريخ على حقيقة أن الدولة التى تقع تحت التهديد المباشر لقوة احتلال عسكرى «مجاورة» ولا تملك القدرة على درء هذا التهديد عن نفسها.. يصبح القول «باستقلالها» محل نظر!



من زاوية أخرى يناقش محمد السماك وعبدالعظيم أنيس وطارق على كيف اختلطت على مدى التاريخ أوراق السياسة بالدين والعقائد.. والأساطير. وكيف ألقت النصوص والمأثورات دائمًا بظلالها «المقدسة» على الصراع فى الشرق الأوسط. وفى حين يقدم «أنيس» و«على» رؤيتين جديدتين للحروب الصليبية، يكتب محمد السماك عن المرتكزات الدينية للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط. معتبرًا أن العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل ليست علاقة تأييد ودعم ومساندة. وليس صحيحًا أن إسرائيل تلعب دور الشرطى الأمريكى فى الشرق الأوسط. وبالتالى فإنه ليس صحيحًا أن المبالغة العربية فى التجاوب مع المصالح الاستراتيجية الأمريكية تلغى دور هذا الشرطى أو تعطله.

الحقيقة - يقول السماك - أن العلاقات الأمريكية الإسرائيلية تتجاوز حدود المصالح السياسية والاقتصادية والأمنية، وبالتالى فإنه مهما قدم العالم العربى/ الإسلامى من تنازلات وتضحيات للولايات المتحدة، ومهما أبدى من استعداد للتوافق معها وحتى السير فى ركابها، فإن ذلك لن يغير أبدًا من الموقف الأمريكى الثابت من إسرائيل. ذلك لأن هذا الموقف يترجم فى حد ذاته «ثوابت إيمانية» تتعدى المصالح وتتجاوز الحسابات السياسية.



وأيًا ما كان الرأى فيما ذهب إليه السماك ويؤيده فيه كثيرون، وفى القيمة النسبية لتأثير الدين على السياسة فى أمريكا، فالثابت أنه لا يمكن تجاهل الأبعاد الدينية للصراع فى الشرق الأوسط. وكفى بمعضلة القدس نموذجًا (الأقصى/ الهيكل - البراق/ المبكى..).

والثابت - ثانيًا - أن جورج دبليو بوش هدد قبل أيام «إيران التى يحكمها متطرفون يعادون صديقتنا إسرائيل..» حسب نص تصريح الرئيس الأمريكى الذى ندد - فى التصريح ذاته - بمحاولة طهران الحصول على أسلحة نووية. رغم حقيقة أن إسرائيل هى الدولة النووية الوحيدة فى المنطقة.. وهى الوحيدة غير الخاضعة للتفتيش من الوكالة الدولية للطاقة الذرية فى فيينا.

والثابت - ثالثًا - أنه رغم الدماء فى جنين.. والمبادرات فى بيروت.. والتنازلات فى شرم الشيخ، اقترح حزب الليكود (الأغلبية فى إسرائيل) برفض الدولة «غرب الأردن» أيًا ما كان الشكل، ومهما تكن الضمانات.

لم يستوقف الخبر واشنطن كثيرًا. ولكن المراهنة العربية على حياد أمريكى «مأمول».. مازالت للأسف هى الحصان الوحيد الذى نراه فى الحلبة المقامة منذ سلمنا مبكرًا جدًا بأن ٩٩٪ من أوراق اللعبة.. هناك.

وجهات نظر

فوكوياما فى كتاب جديد: نهـــاية التــــاريخ

قفز اسم فرانسيس فوكوياما إلى الشهرة، حين لفت الأنظار فى عام ١٩٩٢ بكتابه الشهير «نهاية التاريخ». وفيه روج لفكرة مؤداها أن العالم بعد سقوط حائط برلين قد انتهى إلى أفضل عالم ممكن فى تاريخ الإنسانية: عالم انتصر فيه نظام الرأسمالية القائمة على الديمقراطية الليبرالية فى مواجهة الشيوعية. ومن ثم فإن التقدم السياسى قد وصل إلى نهايته. وبلغ فيه التطور التاريخى منتهاه. وبعدها بعام واحد - فى ١٩٩٣ - ظهر أستاذ العلوم السياسية فى هارفارد صامويل هنتنجتون بكتابه الذى تضمن نظريته عن «صراع الحضارات» بدلاً من نهاية التاريخ. وبينما لقيت نظرية هنتنجتون اهتمامًا واسعًا وتعرضت لمناقشات مستفيضة، ازدادت حدتها بعد أحداث سبتمبر الأخيرة والهجوم الذى تعرضت له واشنطن ونيويورك، واجهت نظرية فوكوياما عن «نهاية التاريخ» نقدًا لاذعًا. وقيل أن مارجريت تاتشر عندما سمعت عن نظرية فوكوياما، كان رد فعلها بالغ السخرية حين قالت: «نهاية التاريخ أم بداية الكلام الفارغ؟!»

برغم التحفظات الشديدة التى لقيتها نظرية نهاية التاريخ، وفى مقدمتها أن حركة التقدم العلمى والإنسانى لا يمكن تقييدها، ومن ثم فلا بد أن ينجم عنها تغيرات اجتماعية وسياسية لم تخطر ببال فوكوياما ونظريته، إلا أن رؤيته التاريخية وجدت صدى عند كثير من السياسيين. واعتبرها خافيير سولانا المفوض العام للشئون السياسية والأمنية فى الاتحاد الأوروبى - على سبيل المثال - انعكاسًا للوضع العالمى الراهن الذى نعيش فيه، تحت سيطرة نظام سياسى واحد وقوة عالمية مهيمنة واحدة.



** يعود فوكوياما فى كتابه الجديد وقد تراجع عن كثير من طروحاته ليطرح أسئلة مثيرة بالغة الأهمية، تتعلق بمستقبل الإنسان والإنسانية: هل «الإنسان العاقل» Home SaPiens هو الحلقة الأخيرة فى سلسلة التطور التى شهدتها عملية الانتخاب الطبيعى عبر آماد زمنية طويلة، أم أننا نقف على أعتاب ثورة بيولوجية تقودها الهندسة الوراثية بعد أن أمكن التوصل إلى أسرار الجينوم البشرى، وأصبح بوسع التكنولوجيا الحيوية أن تغير الطبيعة البشرية، وترتقى بالإنسان إلى ما بعد الإنسانى»؟

ولنتخيل مستقبلاً تتحقق فيه هذه الصورة لعالم جديد مختلف أمام القارئ: مجموعة من الأشخاص الذين تجاوزت أعمارهم مائة عام، يعيشون داخل مستوطنة أو مستعمرة تضم جماعة من الناس، تم تعديل وعلاج جيناتهم أو خصائصهم الجينية.. النساء فيهم يشبهن عرائس الباربى والرجال أقوياء مفتولو العضلات. تنضح وجوههم بالوسامة والصحة. لا يعانون أمراض الشيخوخة. طعامهم مهندس وراثيًا وممزوج بعقار البروزاك (الذى ينزع عن الإنسان رغباته وطموحاته). بينما أطفالهم فى الأربعينيات أو الستينيات من العمر، يتجرعون المعرفة عن طريق عقار الريتالين. وخارج الأسوار العالية التى تحميهم من تطفل المتطفلين، تعيش جماعات أخرى من الناس المسنين، الأقصر عمرًا، والأسوأ حظًا، المعلولون بأمراض لا برء منها، والمحرومون من مزايا العلاج بالجينات.. هذه هى صورة المجتمع التى يتخيل فوكوياما أن ثورة التكنولوجيا الحيوية قد تؤدى إليها.

** هذه التطورات التى تقلق كثيرًا من العلماء والبيولوجيين بشأن النتائج المترتبة على تقدم تكنولوجيا الجينات، سوف تكتب صفحة جديدة فى تاريخ الحياة الإنسانية. قد تمكن الإنسان من تحديد جينات أطفاله، بكل ما يترتب على ذلك من مؤثرات اجتماعية ومشكلات أخلاقية تقوده إلى عوالم جديدة لم يطرقها الإنسان من قبل، وتفتح أمامه تحديات صعبة عن معنى الوجود الإنسانى، وعن فكرة المساواة التى هى جوهر الإنسان والتعبير الصادق عن مكانة الإنسانية.

وفى هذا الإطار قدم فوكوياما عددًا من السيناريوهات التى تناقش مستقبل مرحلة «ما بعد الإنسان»، أى المرحلة التى ستتحكم فيها التكنولوجيا الحيوية فى قدرات الإنسان وخصائصه ومدى صحته وسعادته.. وما يمكن أن يترتب على ذلك من صراعات اجتماعية وسياسية إذا أساء الإنسان استخدام هذه الإمكانيات العلمية الجديدة، وجعلها قاصرة على فئة فى المجتمع دون أخرى.

وفى كل الأحوال يظل هناك سؤال بدون جواب، وهو: هل يخاطر العلم فى سعيه الدائب إلى اكتشاف الجديد، إلى تدمير الإنسانية كما عرفناها أم إلى فتح آفاق جديدة أمام سعادة الإنسان؟

المحـــرر

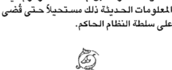
كتابان حددا المستقبل واحتمالاته المخيفة فى القرن العشرين، هما كتاب جورج أرويل «١٩٨٤» (المنشور عام ١٩٤٩) وكتاب الدوس هكسلى «عالم جديد رائع» المنشور فى عام ١٩٣٢.

احتوى الكتابان على قدر من البصيرة أكثر مما كان يدركه أى شخص فى ذلك الوقت، لأنهما تركزا حول تكنولوجيتين مختلفتين كان مقدرًا لهما الظهور والتشكل فى الجيلين التاليين. كتاب «١٩٨٤» يدور حول ما نسميه الآن تكنولوجيا المعلومات: حيث كان أهم شىء وراء نجاح المملكة الشمولية مترامية الأطراف، جهاز يسمى تيليسكرين (الشاشة التى تنقل الصور عن بعد)، وهى شاشة مسطحة بحجم الحائط يمكنها فى وقت واحد إرسال الصور واستقبالها من كل أسرة إلى الأخ الأكبر مما جعل الحياة الاجتماعية مركزية إلى حد كبير فى ظل وزارة الصدق ووزارة الحب، وسمح للحكومة بإلغاء الخصوصية ومراقبة كل كلمة وفعل عبر شبكة ضخمة من الأسلاك.

وعلى العكس من ذلك كان كتاب «عالم جديد رائع» يدور حول ثورة تكنولوجية كبيرة أخرى توشك أن تقع، وهى ثورة التكنولوجيا الحيوية. إنها تخليق البشر ليس فى الأرحام، وإنما فى الأنابيب كما نقول الآن؛ والعقاقير التى توفر سعادة فورية للناس؛ وتحفيز الإحساس عن طريق الأقطاب الكهربية المزروعة؛ وتعديل السلوك من خلال التكرار خارج حيز الإدراك، أو إعطاء جرعات من الهورمونات الاصطناعية.

وحيث يفصلنا نصف قرن على الأقل عن نشر هذين الكتابين، فإننا نرى أنه بينما كانت توقعاتهما التكنولوجية دقيقة بصورة مذهلة، فإن توقعات «١٩٨٤» السياسية كانت خاطئة كل الخطأ.

فبعد خمس سنوات فقط من عام ١٩٨٤، وفى سلسلة من الأحداث الدرامية التى كانت ستبدو قبل ذلك وكأنها من قصص الخيال العلمى، انهار الاتحاد السوفيتى وإمبراطوريته، واختفى ذلك الخطر الشمولى الذى كان أورويل قد أثاره فى كتابه. ومرة أخرى سارع الناس لبيان أن هذين الحدثين - انهيار الإمبراطوريات الشمولية وظهور الكمبيوتر الشخصى، وغير ذلك من تكنولوجيا المعلومات غير المكلفة، من أجهزة التلفزيون والراديو إلى الفاكس والبريد الإلكترونى - لم يكونا بعيدين. فقد اعتمد الحكم الشمولى على قدرة الأنظمة على احتكار المعلومات، وما إن جعلت تكنولوجيا المعلومات الحديثة ذلك مستحيلاً حتى قُضى على سلطة النظام الحاكم.



وأما كتاب «عالم جديد رائع». فقد ثبت أن كثيرًا من التكنولوجيات التى تصورها هكسلى، مثل إخصاب الأنابيب، والأمومة البديلة، والعقاقير التى لها تأثير مُغَيِّر على الإدراك والسلوك، والهندسة الوراثية فيما يخص صناعة الأطفال، هى أشياء موجودة الآن بالفعل أو تلوح فى الأفق. ولكن هذه الثورة بدأت بالفعل؛ وينبئ هذا السيل اليومى الجارف من التقدم فى التكنولوجيا الطبية الحيوية وإنجازات مثل اكتمال مشروع الجينوم البشرى بالمزيد من التغيرات الخطيرة التى توشك أن تحدث.

وفيما يتعلق بالكوابيس التى أثارها هذان الكتابان، بدا لى «عالم جديد رائع» أكثر غموضاً وتحدياً. حيث لا يظهر الشر فيه شديد الوضوح فهو عالم ينال فيه كل إنسان ما يريد، القوة فيه لا تجدى، ولابد من إغواء الناس بدلاً من إكراههم على العيش فى مجتمع مقيد بنظام معين. وقد قُضى فى هذا العالم على المرض والصراع الاجتماعى، ولا وجود فيه للاكتئاب أو الجنون أو الشعور بالوحدة والبؤس العاطفى، كما أن الجنس مفيد ومتاح فى أى وقت. ولم يعد هناك من يتخذ الدين مأخذ الجد، كما ألغيت فيه الأسرة البيولوجية ولم يعد هناك من يقرأ شكسبير أو يفتقد تلك الأشياء، مادام الجميع سعداء وأصحاء.

Our Posthuman Future:
Consequences of the Biotechnology Revolution

مستقبلنا ما بعد البشرى
عواقب ثورة التكنولوجيا الحيوية

Francis Fukuyama
Profile, 2002.



ليست نهاية التاريخ

مرحلة ما بعد الإنسان



فرانسيس فوكوياما

ويبدو من هذا أن هكسلي كان محقًا، وبأن أبرز تهديد تمثله التكنولوجيا الحيوية هو احتمال أن تتغير الطبيعة البشرية، وبالتالي تنقلنا إلى مرحلة «ما بعد الإنسان» التاريخية. وهذا مهم لأن الطبيعة البشرية موجودة، وهي مفهوم له دلالته، وكانت بمثابة استمرار مستقر لتجاربنا كجنس من الأجناس. وهي كذلك تُحَدِّد، بالاشتراك مع الدين، الذي هو أكثر قيمنا أهمية. وتشكِّل الطبيعة البشرية كل أشكال الأنظمة السياسية المحتملة وتقيدها، ولذلك فإن أية تكنولوجيا لديها من القوة ما يكفي لإعادة تشكيل ما نحن عليه ستكون لها عواقب ربما كانت خبيثة فيما يخص الديمقراطية الليبرالية وطبيعة السياسة ذاتها. وأحد أسباب عدم كوني شديد التفاؤل هو أن التكنولوجيا البيولوجية، على عكس الكثير غيرها من أشكال التقدم العلمي، تمزج الفوائد الجلية بالأضرار الخفية في حزمة واحدة متماسكة تمام التماسك.

قد تكون هناك منتجات للتكنولوجيا الحيوية التي ستكون كذلك واضحة فيما يتعلق بالأخطار التي تمثلها للبشرية - مثل الجراثيم الفائقة، أو الفيروسات الجديدة، أو الأطعمة المعدلة وراثياً التي لها ردود أفعال سامة. وكما هو الحال بالنسبة للأسلحة النووية أو تكنولوجيا النانو، فإن التعامل مع هذه الأشياء أسهل ما يكون، لأننا ما إن نحدد خطورتها حتى يمكننا التعامل معها على أنها خطر واضح وصريح.



إن هناك سيناريوهات ثلاثة، يعد احتمال وقوعها أمرًا واردًا على مدار جيل أو جيلين:

يتصل السيناريو الأول بالعقاقير. فنتيجة للتقدم الذى شهده علم العقاقير العصبي، اكتشف علماء النفس أن الشخصية البشرية أكثر مرونة مما كانوا يعتقدون من قبل. والحادث أن العقاقير التى لها تأثير مُغَيِّر على الإدراك والسلوك، مثل بروزاك وريتالين، يمكن أن تؤثر على سمات كالاعتداد بالنفس والقدرة على التركيز، ولكنها تميل إلى إحداث قدر كبير من الآثار الجانبية غير المرغوب فيها، ومن ثم يتم تجنبها إلا في حالات الضرورة العلاجية الشديدة. ولكن في المستقبل، سوف تسمح معرفة الجينوميا لشركات الأدوية بتفصيل العقاقير بشكل شديد التحديد حسب التركيبات الوراثية الخاصة بكل مريض على حدة، مما يقلل إلى حد كبير الآثار الجانبية غير المرغوبة. وسوف يتدفق متبلدو المشاعر حيوية نشاطاً؛ ويصبح الانطوائيون منفتحين على الناس؛ ويمكنك أن تتخذ لنفسك شخصية يوم الأربعاء

صندوق ٨١٣٩٥/٢٢٧

PROZAC

بروزاك

أحمد اللباد

وأخرى فى عطلة نهاية الأسبوع. فلم يعد هناك عذر لأى إنسان كى يكتئب أو يحزن؛ بل إن من هم سعداء «فى العادة» يمكنهم إسعاد أنفسهم أكثر وأكثر دون أن يشغلوا بالهم بالإدمان، أو بأضرار المخ طويلة المدى.



وفى السيناريو الثانى، يسمح التقدم الذى شهدته أبحاث الخلية الأصلية للعلماء بأن يولدوا بالفعل أى نسيج فى الجسم، مما يجعل متوسط العمر يقفز إلى ما فوق المائة عام. فإن كنت بحاجة إلى قلب أو كبد جديد، فإنك تزرعه داخل التجويف الصدرى الخاص بأحد الخنازير أو إحدى البقرات؛ كما أنه بالإمكان إصلاح الأضرار التى تلحق بالمخ من جراء الإصابة بمرض الزهايمر والسكتة الدماغية. والمشكلة الوحيدة هى أن هناك الكثير من الجوانب الغامضة فيما يتعلق بالشيخوخة.

حتى أن صناعة الكيمياء الحيوية لم تتوصل بعد وبصورة كاملة إلى طريقة إصلاحها: فالناس يفقدون مرونتهم الذهنية ويزدادون تشددًا فى آرائهم كلما تقدموا فى العمر، ومهما كان مقدار سعيهم، فإنه لا يمكنهم جعل أنفسهم جذابين من الناحية الجنسية لبعضهم البعض، فيظلون تواقين إلى شركاء فى سن الإنجاب. وأسوأ ما فى الأمر أنهم يرفضون التنحى عن مواقعهم تاركين الفرصة لأبنائهم وأحفادهم وأحفاد أبنائهم. ومن ناحية أخرى فقد لا يبقى غير عدد قليل ممن يملكون القدرة على الإنجاب التقليدى بحيث يبدو وكأن الأمر لا يهم أحدًا.




وفى السيناريو الثالث، سوف يفحص الأثرياء الأجنة قبل زرعها لكى يحصلوا على أبناء أقرب ما يكونون إلى الكمال. ويمكنك إلى حد كبير تحديد الخلفية الاجتماعية لأى شاب أو شابة من خلال مظهره وذكائه؛ وإذا لم يكن شخص ما عند حسن ظن مجتمعه به، ألقى باللائمة على الاختيارات الوراثية من جانب والديه، بدلاً من أن يلوم نفسه. وتنقل الجينات البشرية إلى الحيوانات، بل وإلى النباتات، بغرض البحث وإنتاج منتجات طبية جديدة؛ كما تُضاف الجينات الحيوانية إلى بعض الأجنة لزيادة تحملها الجسمانى ومقاومتها للمرض. ولا يجرؤ العلماء على إنتاج كائن خرافى نصفه إنسان ونصفه الآخر قرد، رغم استطاعتهم ذلك؛ لأن الشباب قد يأخذهم الشك فى أن زملاءهم فى الفصل الأقل منهم مقدرة هم فى حقيقة الأمر ليسوا بشرًا بالمعنى الكامل من الناحية الجينية. لأنهم ليسوا كذلك فى الواقع.

وقد كتب توماس جيفرسون قرب انتهاء حياته: «لقد أوضح الانتشار العام لنور العلم للجميع الحقيقة الملموسة، وهى أن السواد الأعظم من البشر لم يولدوا وعلى ظهورهم سروج، كما أنه لم تولد قلة وفى أقدامها أحذية ذات مهاميز ولديها الاستعداد لركوبهم بطريقة مشروعة». وتقوم المساواة السياسية المحفوظة فى إعلان الاستقلال على الحقيقة التجريبية الخاصة بالمساواة الإنسانية الطبيعية. ومع أننا متفاوتون تفاوتًا كبيرًا كأفراد وتبعًا لثقافاتنا، إلا أننا نشترك فى الإنسانية التى تتيح لكل كائن بشرى الاتصال بقوة بكل كائن بشرى سواه على هذا الكوكب والدخول معه فى علاقة أخلاقية. والسؤال المطلق الذى تثيره التكنولوجيا الحيوية هو: ماذا سيحدث للحقوق السياسية لو أننا استنبطنا بعض الناس ممن على ظهورهم سروج، وآخرين ممن فى أقدامهم أحذية ذات مهاميز؟





مع أننا متفاوتون تفاوتا كبيرًا كأفراد وتبعًا لثقافاتنا، إلا أننا نشترك فى الإنسانية التى تتيح لكل كائن بشرى الاتصال بقوة بكل كائن بشرى سواه على هذا الكوكب والدخول معه فى علاقة أخلاقية. والسؤال المطلق الذى تثيره التكنولوجيا الحيوية هو: ماذا سيحدث للحقوق السياسية لو أننا استنبطنا بعض الناس ممن على ظهورهم سروج، وآخرين ممن فى أقدامهم أحذية ذات مهاميز؟





إلى أين ستقودنا مثل هذه العقاقير التى تغير الحالة المزاجية مثل بروزاك وريتالين؟

الاعتداد بالنفس مفهوم سيكولوجى عصرى، وهو شىء يقال للأمريكيين دومًا، إنهم بحاجة إلى المزيد منه. إلا أنه يشير إلى جانب مهم من جوانب النفسية البشرية، وهو الرغبة التى لدى الناس جميعًا فى التقدير. والكائنات البشرية، بما لديها من ذاكرة وتعلم وقدرة ضخمة على التفكير المجرد، قادرة على توجيه جهودها من أجل التقدير إلى الأيديولوجيات، والمعتقدات الدينية، والمناصب الجامعية، وجوائز نوبل، وعديد من أشكال التكريم الأخرى. إلا أن المهم هو أن الرغبة فى التقدير لها أساس بيولوجى، وأن هذا الأساس يرتبط بمستويات مادة السيروتونين فى المخ.

ولهذا السبب يبدو عقار مثل بروزاك ذا أهمية كبيرة من الناحية السياسية. ويقول هيجل إن العملية التاريخية البشرية برمتها كانت بدافع من سلسلة من الكفاح المتكرر من أجل التقدير، ومعه بعض الحق فى ذلك. فالحقيقة أن كل التقدم البشرى كان منتجًا فرعيًا لحقيقة أن الناس لم يكونوا راضين قط بما يحظون به من تقدير؛ ومن خلال الكفاح والعمل وحده استطاع الناس تحقيق ذلك التقدم. وبعبارة أخرى، كان لا بد من اكتساب المكانة. وتتماشى مع ذلك الآن صناعة الأدوية الأمريكية، التى تقدم الاعتداد بالذات فى زجاجة برفع معدل السيروتونين فى المخ عن طريق عقاقير مثل زولوفت وبروزاك.

ولا شك أن هناك الملايين من المكتئبين إكلينيكيًا فى أنحاء العالم الذين تقل مشاعرهم الخاصة بقيمة الذات كثيراً عما ينبغى أن تكون عليه. ومن أجل هؤلاء، يعد بروزاك، وما على شاكلته من عقاقير، نجدة من السماء. إلا أن مستويات السيروتونين المنخفضة لا تكشف عن حالة مرضية واضحة المعالم، ويفتح وجود بروزاك الطريق أمام الوصف الشهير الذى وضعه بيتر كرامر، مؤلف كتاب «الاستماع إلى بروزاك»، لعلم العقاقير التجميلى: أى تناول عقار من العقاقير ليس من أجل قيمته العلاجية، بل لمجرد أنه يجعل المرء يشعر أنه «أفضل».

وإذا كان الإحساس بالاعتداد بالنفس على هذا القدر من الأهمية بالنسبة للسعادة البشرية، فمن ذا الذى لا يرغب فى المزيد منه؟

وإذا بدا أن بروزاك ضرب من حبة السعادة، فقد ظهر ريتالين ليقوم بدور أداة صريحة للضبط الاجتماعى. وهو يستخدم الآن لمعالجة متلازمة تعرف باسم اضطراب نقص الانتباه المفرط ADHD، وهو «مرض» أشيع ربطه بالصبية الصغار الذين يجدون مشكلة فى الانتباه داخل قاعات الدرس.

وريتالين منبه للجهاز العصبى المركزى المرتبط كيميائيًا بالمواد الموجهة مثل الميتا أمفيتامين والكوكايين. وآثاره الفارماكولوجية تشبه إلى حد كبير آثار العقارين السابقين، حيث إنه يزيد مدى الانتباه، ويخلق إحساسًا بالنشوة والابتهاج، ويوجد مستويات قصيرة المدى من الطاقة، ويسمح بقدر أكبر من التركيز. وإذا أُفرط فى تناول الريتالين كانت له آثار جانبية مشابهة لتلك الناتجة عن الميتا أمفيتامين والكوكايين، بما فى ذلك الأرق ونقصان الوزن. وهذا هو السبب فى أن الأطباء الذين يصفون ريتالين للأطفال يوصون بأن تكون هناك «إجازة من العقار» بشكل دورى.

وهناك تماثل مزعج بين بروزاك وريتالين. فالأول يوصف بكثرة للنساء المكتئبات اللائى يفتقرن إلى الاعتداد بالنفس؛ فهو يعطيهن المزيد من الإحساس الذكرى الأول الذى يحدث فى وجود مستويات مرتفعة من السيروتونين. بينما يوصف ريتالين للصبية الذين لا يريدون أن يجلسوا ساكنين فى قاعات الدرس لأن الطبيعة لم تصممهم بحيث يتصرفون على هذا النحو. والجنسان معًا يُدفعان برفق نحو تلك الشخصية الوسطية الخنثى، الراضية بنفسها والمطيعة اجتماعيًا، التى هى النتيجة الصحيحة سياسيًا القائمة حاليًا فى المجتمع الأمريكى.

وليس بروزاك وريتالين سوى الجيل الأول من العقاقير التى لها تأثير مُغَيِّر على الإدراك والسلوك. ففى المستقبل، سيكون بالفعل تحقيق كل ما يتصور الخيال الشعبى أن الهندسة الوراثية تحققه بشكل أسرع من خلال علم العقاقير العصبى. وربما تستخدم فئة من العقاقير تعرف باسم benzodiazepines (مجموعة من المركبات الكيماوية التى تستخدم كمضادات للاكتئاب ومهدئات ومنومات ولاسترخاء العضلات)، للحد من القلق والمساعدة فى الحفاظ على اليقظة المريحة ولكنها نشطة، وإحداث النوم فى فترة أقصر، دون أن تكون هناك آثار جانبية للتهدئة. وقد تستخدم محفزات أسيتيل الكولين، لتحسين القدرة على معرفة حقائق جديدة، والاحتفاظ بالمعرفة، وتحسين القدرة على استرجاع الوقائع. وقد تستخدم محفزات جهاز الدوبامين لزيادة قدرة التحمل والتحفيز. وأخيرًا، قد يكون من الممكن التحكم فى الجهاز المهدئ الباطنى لتقليل الإحساس بالألم وزيادة عتبة البهجة.

ولسنا مضطرين للانتظار حتى وصول الهندسة الوراثية البشرية كى نتصور زمنًا نستطيع فيه زيادة الذكاء والذاكرة والحساسية العاطفية والقدرة الجنسية، وكذلك نقلل الميول العدوانية ونتحكم فى السلوك بطرق كثيرة أخرى. فقد رُبطت هذه المسألة فعلاً بالجيل الحالى من العقاقير التى لها تأثير مُغَيِّر على الإدراك والسلوك، وسوف تبرز أكثر وأكثر مع تلك التى ستظهر عما قريب.



ماذا يحدث حين يمتد العمر بالإنسان حتى ١٥٠ سنة؟

تُكرِّس مهنة الطب لفرضية أن كل ما يهزم المرض ويطيل العمر هو شىء مفيد بلا شك.

والخوف من الموت أحد أعمق المشاعر الإنسانية وأقدمها، ولذلك فمن المفهوم أنه ينبغي علينا الاحتفاء بأي تقدم في التكنولوجيا الطبية تساعد على إبعاد شبح الموت. ولكن الناس يشعرون بالقلق بشأن نوعية الحياة التي يحيونها كذلك - وليس فقط مقدارها. ومن الناحية المثالية، فإن المرء قد لا يحب أن يعيش زمنًا أطول وحسب، بل كذلك ألا تتعطل قدراته المختلفة عن العمل حتى ذلك الحين الذي تدركه فيه الوفاة في نهاية الأمر، كي لا يعيش فترة من الضعف والوهن في آخر حياته.

وبينما أدى الكثير من التقدم الطبي إلى تحسين حياة كبار السن، فقد كان للكثير منه أثر عكسي بإطالته جانبًا واحدًا من جوانب الحياة وزيادة التبعية. فمرض ألزهايمر - وفيه تبلى أجزاء بعينها من المخ، مما يؤدي إلى فقدان الذاكرة ثم الخبل في نهاية الأمر - مثال جيد لذلك، لأن احتمال الإصابة به يزداد زيادة تناسبية مع العمر. ففي الخامسة والستين، يحتمل إصابة شخص واحد فقط بمرض ألزهايمر؛ وفي الخامسة والثمانين تكون النسبة واحدًا من بين كل ستة. وعليه فإن الزيادة السريعة في عدد من يعانون من مرض ألزهايمر في الدول المتقدمة نتيجة مباشرة لزيادة متوسط العمر، حيث زيدت صحة الجسد دون زيادة مقاومة هذا المرض العصبي.

والواقع أن هناك فترتين من كبر السن أطالتهما التكنولوجيا الطبية، على الأقل بالنسبة لمن هم في العالم المتقدم. وتمتد الفئة الأولى من ٦٥ حتى الثمانينيات في بعض الأحيان، حيث يتوقع الناس أن يحيوا حياة تتسم بالعافية والنشاط، مع وجود الموارد الكافية للتمتع بها. والكثير من الكلام الطيب عن إطالة العمر يتعلق بهذه الفترة، والواقع أن ظهور هذه المرحلة الجديدة من الحياة، باعتبارها أملاً واقعيًا بالنسبة لمعظم الناس، يعد إنجازًا يفخر به العلم الحديث.

والمرحلة الثانية من العمر المتقدم، وهي الفئة الثانية، أكثر إشكالية بكثير. فهي الفترة التي يصلها معظم الناس حاليًا ببلوغهم الثمانين، حين تتداعى قدراتهم ويعودون إلى حد كبير إلى حالة من التبعية أشبه بالطفولة. وتلك هي الفترة التي لا يحب المجتمع التفكير فيها، حيث تتعارض مع مُثُل الاستقلال الشخصي الذي يعتز به معظم الناس.

وسوف يعتمد الأثر الاجتماعي لزيادة متوسط العمر المستمرة على أحجام نسبية من هاتين المجموعتين، وهو ما سيتوقف بدوره على «توازن» ما يحدث في المستقبل من تقدم في إطالة العمر. وقد يكون أفضل سيناريو هو ذلك الذي تؤخر فيه التكنولوجيا في الوقت ذاته عمليات الشيخوخة الموازية - كأن يكون ذلك باكتشاف المصدر الجزيئي الشائع للشيخوخة في الخلايا الجسدية، وتأخير هذه العملية في أنحاء الجسم. وفشل الأجزاء المختلفة في القيام بوظائفها سوف يحدث في الوقت ذاته، ولكن متأخرًا؛ وهناك كثيرون ينتمون إلى الفئة الأولى، أما من ينتمون إلى الفئة الثانية فأقل منهم.



وقد يكون أسوأ سيناريو هو الخاص بالتقدم الذي يتسم بقدر كبير من عدم التوازن، ونعثر فيه، على سبيل المثال، على سبل للحفاظ على صحة الجسم دون أن نتمكن من





بينما أدى الكثير من التقدم الطبي إلى تحسين حياة كبار السن، فقد كان للكثير منه أثر عكسي بإطالته جانبًا واحدًا من جوانب الحياة وزيادة التبعية. فمرض ألزهايمر - وفيه تبلى أجزاء بعينها من المخ، مما يؤدي إلى فقدان الذاكرة ثم الخبل في نهاية الأمر - مثال جيد لذلك، لأن احتمال الإصابة به يزداد زيادة تناسبية مع العمر



دفع التدهور العقلي المصاحب للتقدم في العمر. وقد تسفر أبحاث الخلية الأصلية عن طرق لزرع أجزاء جديدة من الجسم. ولكن ما لم يكن هناك علاج موازٍ لمرض ألزهايمر، فلن تؤدي هذه التكنولوجيا الجديدة المدهشة سوى إلى السماح لمزيد من الناس بالبقاء في حالات إعاشية لسنوات أطول مما هو ممكن في الوقت الراهن.

فإذا حدث انفجار في عدد من ينتمون إلى الفئة الثانية فقد يطلق عليه «سيناريو التمريض المنزلي القومي»، حيث يعيش الناس حتى سن المائة والخمسين، ولكنهم يقضون الخمسين سنة الأخيرة في حالة من الاعتماد الطفولي على من يتولون رعايتهم.

وهناك العديد من الأسئلة التي لا جواب لها بشأن ما ستكون عليه الحياة التي من هذا النوع في المستقبل، حيث لم يشهد التاريخ البشري قط مجتمعات متوسط أعمارها ما بين الستين والسبعين، أو أكثر. فماذا عساها ستكون صورة ذلك المجتمع عن نفسه؟ إنك إذا ذهبت إلى حامل صحف تقليدي بأحد المطارات ونظرت إلى الناس المنشورة صورهم على أغلفة المجلات لوجدت أن أعمارهم قد تكون في أوائل العشرينيات، فهم الأغلبية العظمى ذات المظهر الجيد التي تتمتع بصحة جيدة. وبالنسبة لمعظم المجتمعات التاريخية، كانت تلك الأغلفة ستعكس منتصف العمر الفعلي للمجتمع ككل، وإن لم تعكس مظهره أو صحته. فماذا ستكون عليه أغلفة المجلات بعد جيلين آخرين، حين يكون من هم في أوائل العشرين من أعمارهم مجرد أقلية ضئيلة من السكان؟

هل ستظل لدى المجتمع الرغبة في أن يظن نفسه صغيرًا، ومتحركًا، وجذابًا، ومعافى، مع أن الصورة تنتقل من الواقع الذي يراه الناس حولهم إلى درجة أكثر تطرفًا مما هو عليه الحال الآن؟ أم أن الأذواق والعادات سوف تتغير، مع انهيار ثقافة الشباب بشكل نهائي؟

الاختيار غير الطبيعي

الإصرار على فكرة المساواة في مكانة الإنسان لها أسباب معقدة. فمن ناحية هناك قوة العادة، أو ما أسماه ماكس فيبر في يوم من الأيام «شبح المعتقدات الدينية الميتة» التي مازالت تنتابنا. ومن ناحية أخرى هناك نتاج الصدفة التاريخية؛ وكانت النازية أهم حركة سياسية تنكر صراحة فرضية المكانة الإنسانية العامة، وكانت النتائج المرعبة الخاصة بسياسات النازيين العنصرية وبمحاولات تحسين النسل، كافية لإقناع هؤلاء الذين عرفوها طوال الجيلين التاليين.

ولكن هناك سببًا مهمًا آخر للإصرار على فكرة عالمية المكانة الإنسانية يتعلق بما قد نسميه طابع الطبيعة ذاتها. فقد ثبت أن الكثير من الأسس التي حُرِمَت بناء عليها جماعات بعينها من نصيبها في المكانة الإنسانية أنها مجرد مسألة أحكام مسبقة، أو تعتمد على ظروف ثقافية وبيئية يمكن تغييرها.

وقد ثبت عدم صحة الأفكار التي تقول إن المرأة على قدر كبير من اللاعقلانية أو العاطفية بحيث لا يمكنها المشاركة في السياسة، أو أن أحجام رؤوس المهاجرين من جنوب أوروبا صغيرة وإنهم أقل ذكاء من هؤلاء الذين يقيمون في شمال أوروبا، وذلك بناء على بعض التجارب العلمية الصحيحة. و لا ينبغي أن يدهشنا كذلك كون النسق الأخلاقي لم ينهر انهيارًا تامًا في الغرب في أعقاب القضاء على الإجماع على القيم الدينية التقليدية، ذلك أن النسق الأخلاقي ينبع من داخل الطبيعة البشرية نفسها، وليس شيئًا يجب فرضه على الطبيعة البشرية بالثقافة.

هذا كله قد يتغير نتيجة للتكنولوجيا الحيوية. وأوضح خطر ماثل الآن هو أن الاختلافات الوراثية الكبيرة بين الأفراد سوف تضيق وتصبح مجمعة داخل جماعات اجتماعية مميزة. واليوم، يضمن «اليانصيب الوراثي» أن ابن الأب الثري أو الناجح لن يرث بالضرورة المواهب والقدرات التي خلقت الظروف التي أدت إلى نجاح الأب. وبطبيعة الحال، كان هناك دائمًا قدر من الانتقاء الوراثي: فالناجحون يميلون إلى الزواج من بعضهم، إلى درجة أن نجاحهم القائم على أسس وراثية سوف ينقل إلى أبنائهم فرصًا أفضل في الحياة. ولكن في المستقبل سوف يوضع كل ثقل التكنولوجيا الحديثة في خدمة تحسين أنواع الجينات التي تنقل إلى ذرية المرء. ويعني هذا أن النخب الاجتماعية قد لا تنقل الميزات الاجتماعية وحسب بل تغرسها وراثيًا كذلك. وقد لا يشمل هذا الصفات كالذكاء والجمال وحسب، بل كذلك السمات السلوكية مثل المثابرة والمنافسة وما شابههما.

و يرى كثيرون أن اليانصيب الوراثي غير عادل، لأنه يحكم على بعض الناس بأن يكونوا أقل ذكاء، أو أسوأ مظهرًا، أو يعانون من شكل أو آخر من أشكال الإعاقة. إلا أنه من ناحية أخرى شديد المساواة، حيث يجب على كل إنسان أن يشارك فيه، بغض النظر عن طبقته الاجتماعية أو عنصره أو الجماعة العرقية التي ينتمي إليها. فيمكن أن يكون لدى أغنى رجل ابن لا يصلح لشيء. وعندما يحل الاختيار محل اليانصيب فإننا نفتح سبيلاً جديدًا يمكن أن تتنافس فيه الكائنات البشرية، وهو سبيل يهدد بزيادة التباين بين قمة التراتب الاجتماعي وقاعدته.

إن ما سيفعله ظهور الطبقة العليا الوراثية لفكرة المكانة الإنسانية العامة أمر يستحق التأمل. فاليوم يعتقد الكثيرون من الشباب النابهين والناجحين أنهم يدينون بنجاحهم لمصادفة مولدهم وتنشئتهم، التي لولاها لكان من المحتمل أن تأخذ حياتهم مسارًا مختلفًا تمامًا. وهم، بعبارة أخرى، يشعرون أنهم محظوظون، كما أنهم قادرون على الشعور بالتعاطف مع هؤلاء الأقل حظًا منهم.

ولكن إذا أصبحوا «أبناء بالاختيار» أي أن آباءهم قد اختاروهم بمواصفات وراثية معينة، فإنهم قد يعتقدون بقوة أن نجاحهم ليس مسألة حظ وإنما نتيجة لاختيار صحيح وتخطيط جيد من جانب آبائهم، ومن ثم فهم يستحقونه. وسوف ينظرون ويفكرون ويتصرفون، بل وربما يشعرون، بطريقة تختلف عن هؤلاء الذين لم يخترهم آباؤهم بالطريقة التي اختاروهم بها، وربما وصل بهم الحال في وقت من



الأوقات إلى أن يظنوا أنهم مخلوقات مختلفة. باختصار، فإنهم قد يشعرون أنهم أرستقراطيون، وأنه على عكس الأرستقراطيين القدامى سيُرجع حقهم المشروع في الأصل العريق إلى الطبيعة وليس العرف.

واحتمال سماح التكنولوجيا الحيوية بظهور طبقات وراثية جديدة أشار إليه وأدانه مرارًا من توقعوا شكل الحياة في المستقبل. ولكن يبدو كذلك أن الاحتمال العكسي يحظى بقدر كبير من الاعتبار - حيث سيكون هناك دافع إلى وجود مجتمع أكثر مساواة بكثير من الناحية الوراثية. ذلك أنه يبدو من غير المحتمل إلى حد كبير أن يجلس الناس في المجتمعات الديمقراطية الحديثة في حالة من اللامبالاة وهم يرون النخب تغرس الميزات وراثيًا في أبنائها.



والواقع أن هناك أشياء قليلة في سياسة المستقبل يحتمل أن تثير الناس كي يتقاتلوا بشأنها. ولا أعني بذلك المعنى المجازي للقتال، أي مباريات الصياح بين الرؤوس المتحدثة في المناقشات التلفزيونية أو في الكونجرس، بل حمل البنادق والقنابل واستخدامها ضد أناس آخرين. وهناك القليل جدًا من القضايا السياسية الداخلية اليوم في ديمقراطياتنا الليبرالية الغنية المكتفية ذاتيًا مما يمكن أن يثير غضب الناس بشدة، ولكن شبح الظلم الوراثي الناشئ قد يقض مضاجع الناس ويدفع بهم إلى الشوارع.

وإذا غضب الناس بما يكفي من «الظلم الوراثي»، فسوف يتخذ رد الفعل مسارين. أول هذين المسارين وأكثرهما معقولية هو منع استخدام التكنولوجيا الحيوية لتحسين الصفات البشرية والامتناع عن التنافس في هذا المجال. ولكن فكرة التحسين قد تصبح من الجاذبية بحيث لا يمكن التخلي عنها؛ أو قد يثبت أنه من الصعب فرض قانون يمنع الناس من تحسين أطفالهم؛ أو قد تعلن المحاكم أن ذلك من حقهم. وفي هذه الحالة يظهر الاحتمال الثاني، وهو استخدام التكنولوجيا نفسها للارتقاء بالقاعدة.

هذا هو السيناريو الوحيد الذي يُقبل فيه رؤية إحدى الديمقراطيات الليبرالية تعود إلى نشاط اليوجينيا (تحسين النسل البشري) الذي يخضع لرقابة الدولة. فقد كان الشكل القديم لليوجينيا يفرق بين المعوقين والأقل ذكاء بمنعهم من إنجاب أطفال. وفي المستقبل قد يكون من المحتمل توليد أطفال أكثر ذكاءً، وأكثر صحة، وأكثر «طبيعية».

وإعلاء شأن القاعدة أمر يمكن تحقيقه فقط من خلال تدخل الدولة. فمن المحتمل أن تكون تكنولوجيا التحسين الوراثي باهظة التكاليف وتنطوي على بعض المخاطر، ولكن حتى إذا كانت رخيصة وآمنة نسبيًا، فإن الفقراء ومن يفتقرون إلى التعليم سيظلون لا ينتفعون بها. ولذلك فسيكون من الواجب تعزيز الخط الأحمر الساطع الخاص بالمكانة الإنسانية، عن طريق السماح للدولة بالتأكد من أن أحدًا لم يسقط خارجه.

وسوف تكون سياسة توليد كائنات إنسانية مستقبلية شديدة التعقيد. فحتى الآن يعارض اليسار الاستنساخ والهندسة الوراثية وما شابههما من تكنولوجيات حيوية لعدة أسباب، منها النزعة الإنسانية التقليدية، والهموم البيئية، والشك في التكنولوجيا وفي الشركات التي تنتجها، والخوف من اليوجينيا «تحسين النسل البشري». ويسعى اليسار منذ زمن بعيد إلى تقليل أهمية الوراثة لمصلحة العوامل الاجتماعية في تفسيره للمحصلات الإنسانية. فاليساريون يرون أنه لكي تدعم الهندسة الوراثية من أجل المحرومين، لابد أولاً من الاعتراف بأن الجينات مهمة في تحديد الذكاء وغيره من أنماط المحصلة الاجتماعية.

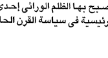
ويرى فوكوياما أن اليسار في أوروبا أكثر عداءً للتكنولوجيا الحيوية منه في أمريكا الشمالية. وكثير من عدائه تغذيه الحركات البيئية القوية في أوروبا والتي قادت على سبيل المثال حملة ضد الأطعمة المعدلة وراثيًا. (ولم يتضح بعد إن كانت أشكال بعينها من النزعة البيئية المتشددة سوف تترجم إلى عداء للتكنولوجيا الحيوية البشرية أم لا. فبعض المدافعين عن البيئة يرون أنفسهم مدافعين عن الطبيعة ضد الكائنات البشرية، ويبدو أنهم أكثر اهتمامًا بالأخطار التي تتعرض لها الطبيعة غير البشرية من الطبيعة البشرية نفسها).



ومازال الألمان بشكل خاص على قدر كبير من الحساسية تجاه أي شيء تفوح منه رائحة اليوجينيا أي استخدام التكنولوجيا الحيوية في تحسين النسل. وقد أثار الفيلسوف بيتر شلوترديك عاصفة من الاحتجاجات عام ١٩٩٩ حين رأى أنه سرعان ما يصبح من المستحيل على الناس رفض قوة الاختيار التي توفرها التكنولوجيا الحيوية، وأن توليد شيء ما «بعد» الإنسان التي أثارها نيتشه وأفلاطون لم يعد من الممكن تجاهلها. وقد أدانه ضمن من أدانوه عالم الاجتماع هابرماس، الذي عارض الاستنساخ في سياقات أخرى.

وقد بدأ بعض اليساريين يعدون مرافعة ضد الهندسة الوراثية. ويقول جون رولز في كتاب A Theory of Justice إن التوزيع غير المتكافئ للمواهب الطبيعية ظلم من الناحية الوراثية. ولذلك فإنه ينبغي طبقًا لرولز أن تستخدم التكنولوجيا الحيوية لتحقيق تكافؤ الفرص عن طريق الارتقاء بالقاعدة، على فرض النجاح في حل المشكلات المتعلقة بالأمان والتكلفة وما شابه ذلك.

ومن المستحيل معرفة أي من هذين السيناريوهين - أحدهما خاص بالظلم الوراثي والآخر بالمساواة المتزايدة - هو الذي سيقع. ولكن ما إن تتحقق إمكانية التحسين الطبي الحيوي حتى تصعب معرفة الطريقة التي لا يصبح بها الظلم الوراثي إحدى نقاط الخلاف الرئيسية في سياسة القرن الحادي والعشرين.



مـا هو مســتـقــبـل مــا بـعــد الإنسـان؟

يعتقد فوكوياما أنه على الرغم من أن جزءًا كبيرًا من عالمنا السياسي يقوم على وجود «جوهر» إنساني ثابت فربما نكون على وشك الدخول في المستقبل ما بعد الإنساني، الذي ستمنحنا فيه التكنولوجيا القدرة على تغيير ذلك الجوهر شيئًا فشيئًا بمرور الزمن. وكثيرون يؤمنون بهذه القدرة، تحت راية الحرية الإنسانية. وهم يريدون تحقيق أكبر فائدة ممكنة من حرية الآباء في اختيار نوع ما لديهم من أطفال، وحرية العلماء في متابعة البحث، وحرية المستثمرين في استغلال التكنولوجيا لتحقيق الثروة.

ولكن هذا النوع من الحرية سيختلف عن كل أشكال الحرية الأخرى التي تمتع بها الناس من قبل. فقد كانت الحرية السياسية من قبل تعني حرية السعي لتحقيق تلك الغايات التي حددتها لنا طبائعنا. وهذه الغايات ليست محددة تحديدًا صارمًا؛ فالطبيعة البشرية شديدة المرونة، ونحن لدينا سلسلة كبيرة من الاختيارات التي تتلاءم مع طبيعتنا. ولكنها ليست قابلة للتشكيل إلى ما لا نهاية، وتشكل العناصر الثابتة - وخاصة ما يميز نوعنا كبشر من تدرج ردود الأفعال العاطفية - مرفأ آمنًا يسمح لنا بالاتصال بقوة مع سائر الكائنات البشرية.

قد يكون مقدرًا لنا بصورة أو بأخرى أن نعتاد على هذا النوع من الحرية، وقد نتعمد في المرحلة التالية من التطور والارتقاء، تولي مسئولية تركيبتنا البيولوجية بدلاً من تركها لقوى الانتخاب الطبيعي العمياء. ولكن إن نحن تولينا ذلك، فلا بد أن نفعل ذلك وعيوننا مفتوحة. ويفترض كثيرون أن العالم ما بعد الإنساني سوف يبدو إلى حد كبير أشبه بعالمنا هذا - حيث يتسم بالحرية والمساواة والرفاهية والرعاية والتعاطف والإنسانية - ولكنه سيكون فيها رعاية صحية أفضل، ويعيش الناس حياة أطول، وربما كان هناك قدر أكبر من الذكاء عما هو عليه الحال الآن.



هناك العديد من الأسئلة التي لا جواب لها بشأن ما ستكون عليه الحياة التي من هذا النوع في المستقبل، حيث لم يشهد التاريخ البشري قط مجتمعات متوسط أعمارها ما بين الستين والسبعين، أو أكثر. فماذا عساها ستكون صورة ذلك المجتمع عن نفسه؟





ولكن «العالم ما بعد الإنساني» قد يصبح عالمًا أكثر تراتبية وتنافسًا من ذلك العالم القائم بالفعل، ونتيجة لذلك يكون زاخرًا بالصراع الاجتماعي. أو قد يكون عالمًا لا وجود فيه لفكرة «الإنسانية المشتركة»، لأن لدينا جينات بشرية مختلطة مع تلك الجينات الكثيرة الخاصة بالكثير من الأنواع الأخرى بحيث لم تعد لدينا فكرة واضحة عن ما هو الكائن البشري. أو قد يكون عالمًا يعيش فيه الشخص المتوسط عيشة طيبة في قرنه الثاني، جالسًا في دار للرعاية، متمنيًا الموت الذي لا يدركه. أو قد يكون نوعًا من الطغيان الذي تصوره «عالمًا جديدًا رائعًا»، ينعم فيه الجميع بالصحة والسعادة ولكنهم ينسون معنى الأمل والخوف والكفاح.

ولسنا مضطرين لقبول هذه العوالم المستقبلية تحت راية الحرية الزائفة، سواء أكانت حرية حقوق الإنجاب غير المحدودة أو حرية البحث العلمي التي لا تحدها أية قيود. كما أننا لسنا مضطرين كذلك أن نعتبر أنفسنا عبيدًا للتقدم التكنولوجي الحتمي، حين لا يخدم هذا التطور غاياتنا الإنسانية. فالحرية الحقيقية معناها حرية المجتمعات السياسية في حماية القيم التي تعتنقها، وهذه الحرية هي ما نحتاج إلى ممارسته فيما يتعلق بثورة التكنولوجيا الحيوية في الوقت الراهن.■

ترجمة: أحمد محمود

ما جرى وما يجرى وما العمل؟



عـــــزمي بشـــــارة

لم ينجح شارون، ولم تنجح إسرائيل في عدوانها، بإحداث تغيير جدى في الأوضاع السياسية والأسئلة السياسية المطروحة والمتعلقة بالاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية منذ العام ١٩٦٧. ومع ذلك يسود شعور عام بنشوء مرحلة جديدة تعيشها المنطقة، والقضية الفلسطينية بشكل خاص. نقول هذا رغم أن الهدف السياسي من عدوان شارون كما نفهمه هو تغيير أجندة المفاوضات السياسية بحيث لا تشمل قضايا لا حل لها بنظره، مثل القدس واللاجئين والاستيطان. والهدف أن تتمحور هذه المفاوضات السياسية حول أجندة الكيان الفلسطيني، مساحته، صلاحياته، علاقاته مع العرب ومع إسرائيل والتزاماته الأمنية بالطبع.

في هذا السياق طرح شارون موقفه «المؤيد» لقيام دولة فلسطينية. وقد صوت حزب الليكود يوم ١٢مايو ٢٠٠٢ ضد موقفه هذا لأسباب متعلقة بالصراع على النفوذ داخل هذا الحزب، وضيق بذلك هامش مناورته الدولي. وقد وجد شارون أصلا صعوبة في ترجمة عدوانه إلى إنجازات سياسية ولا حتى باللغة الأمريكية، ناهيك عن الأوروبية.

ولكن هذا الموقف الليكودى الذى خلط التعنت الأيديولوجي بالمزايدة الحزبية الداخلية كشف أيضًا عن الهوة الكبيرة الفاصلة بين الاعتبارات العربية والإسرائيلية في المبادرة والتحرك السياسي. هكذا اتضح أنه عندما كان العرب يعدون لمبادرة سلام عربية عشية قمة بيروت ترضى الولايات المتحدة كانت إسرائيل تعد للعدوان على الشعب الفلسطيني، مجتمعًا وسلطة. وعندما اجتمع قادة المثلث العربي المهم في شرم الشيخ لإصدار بيان يؤكد الرغبة في السلام ونبذ العنف، أصدرت لجنة الليكود المركزية قرارًا يعارض الدولة الفلسطينية حتى بالتفسير الشاروني.




باشرت الحكومة الإسرائيلية بعد اسبوعين من العدوان بترتيب إنجازاته السياسية التي يتوجب أن تقدمها للمجتمع الإسرائيلي الذى دخل في حالة «ترانس» أو «اكستازا» من نشوة لا بد لحكومة إسرائيل أن تقولبها وأن تحولها شعوريًا الى نشوة انتصار. ومن هنا أهمية اعتقال مروان البرغوثي الرمزية والقضاء بكل ثمن على جيوب المقاومة في جنين ونابلس، ومن هنا إصرار شارون على اعتقال من تدعى إسرائيل أنهم على علاقة باغتيال زئيفي. يجب أن يبرر شارون بداية الحرب ونهايتها بـ«إنجازات» عينية يعرضها على المجتمع الإسرائيلي، وربما أيضا على الولايات المتحدة. فحتى شارون لا يستطيع الاكتفاء بالحالة الشعورية الهستيرية لتبرير ما قام به. عليه أن يبرر ويفسر ويشرح. وإذا كانت المهمة المعلنة للحرب هي «القضاء على البنية التحتية للإرهاب» فعليه أن يظهر ولو بالديماجوجية كيف تم ذلك.

ويحاول شارون أن يعرض «الإنجازات» بلغة مفهومة أمريكيًا من تراث العدوان الأمريكي على الشعب الأفغاني بشكل يبرر العدوان الإسرائيلي: ضرب البنى التحتية (يقابله ضرب معسكرات التدريب في أفغانستان)، اعتقال الآلاف (يقابل معتقل جوانتنامو)، اغتيال وإعدام الأسرى والمعتقلين المناضلين (يقابله بن لادن مطلوب حيًا أو ميتًا). قد تجد إسرائيل مقابلا أمريكيا لقصف المدنيين ولكنها لن تجد مقابلا للنزعة التخريبية لجنودها ولسرقة الممتلكات ولمنع العلاج عن الجرحى.

والأهم من ذلك كله أن إسرائيل لن تستطيع أن تختزل الموضوع الفلسطيني إلى «مسألة إرهاب»، ولا حتى في الولايات المتحدة ذاتها. وذلك لوجود حالة اسمها الاحتلال والاستيطان. قد لا يفهم الرأى العام الأمريكي ما يفهمه الرأى العام الأوروبي عن حالة الاحتلال الكولونيالي، وقد يعتبر الاستيطان كلمة ذات دلالات إيجابية تذوقها المواطن الأمريكي من الذاكرة الجماعية حول تاريخه وتاريخ بلده الاستيطاني كما نقلت إليه عبر برامج التدريس والأفلام والأغاني. ولكن المواطن الأمريكي يفهم كلمة التمييز العنصري والأبارتهايد، كما يفهم مطالب ديموقراطية من نوع حق تقرير المصير والانتخابات الحرة، وهكذا. وكلها مطالب يناضل الفلسطيني من أجلها. سيكون من الصعب بل المستحيل إلغاء الحق الفلسطيني أو تهميشه كقضية إرهاب حتى في الولايات المتحدة ذاتها.

ويصح هذا، كما يصح غيره من آفاق العمل السياسي، إذا ما طور الفلسطينيون - كحركة سياسية ومجتمعية وكحركة تحرر، وبشكل لا يحتمل التأجيل - الاستراتيجية اللازمة للتعامل مع الوضع الجديد الذى نشأ بعد العدوان الإسرائيلي الأخير والشامل، خاصة بعد أن دفع شارون بسياسات القوة إلى حدودها القصوى، وكشف بذلك عن حدود سياسة القوة. من هنا ننطلق إلى مستقبل النضال الفلسطيني بالبناء على ما حصل، ولكي لا نبدأ من الصفر.



في خضم النقاش حول جرائم الحرب التي ارتكبتها إسرائيل في جنين ونابلس وأثناء اجتماع عرفات مع باول يوم الأحد ١٤-٤، أقرت الحكومة الإسرائيلية اقتراح شارون وجيشه إقامة مناطق عازلة كثيفة التواجد العسكرى بمظاهر فصل مادية حادة على الأرض حول المدن الفلسطينية القريبة من الخط الأخضر: طولكرم وجنين والقدس.

وإضافة لحملة الاعتقالات الواسعة الهادفة إلى ضبط النضال الفلسطيني والتحكم به يشكل قرار الحكومة الإسرائيلية يوم ١٤ أبريل الماضي بالفصل الديموجرافي الأمني في مناطق جنين وطولكرم والقدس نقطة فصل وتحول بين ما قبل العدوان وما بعده. لأنه يشكل بداية علنية لنظام الأبارتهايد المزمع إقامته في فلسطين. لقد أعلن شارون في جلسة الحكومة أن الخطوط التي سيرابط على طولها الجيش الإسرائيلي ليست حدوداً سياسية. الأمر الذى يؤكد أن القرار الحكومي الإسرائيلي ليس بداية لانسحاب من طرف واحد وإنما هو إقامة لنظام أبارتهايد من الفصل العنصرى الديموجرافي كحقيقة واقعة وبدون صفة دستورية أو رسمية. فما دام شارون لا يجد شركاء فلسطينيين للتفاوض حول « مرحلة انتقالية طويلة المدى» فإنه سيفرض هذه المرحلة من طرف واحد. وأى تعديل على هذا الفرض الإسرائيلي سوف يتطلب توجها فلسطينيا للتفاوض عليه، الأمر الذى سيتكفل تدريجيًا وبفعل متطلبات الحياة اليومية بفرض أجندة مفاوضات جديدة لا تدور حول القدس أو اللاجئين أو المستوطنات أو الحدود بل حول شروط وظروف التعايش في ظل الظرف الانتقالي المفروض. وإذا ما رغب الفلسطينيون بتطوير المفاوضات سياسيا مع إسرائيل، فسوف تدور المفاوضات حول الكيان السياسي الفلسطيني وحدوده وطبيعة علاقاته مع إسرائيل. فقط في هذه الحالة تنسحب إسرائيل إلى حدود سياسية متفق عليها، ولو كمرحلة انتقالية، ولا علاقة لهذه الحدود بقضايا الحل الدائم وأوسلو.

لقد كان قرار مجلس الأمن بضرورة انسحاب القوات الإسرائيلية من المدن التي اجتاحتها قرارًا ناقصًا وعاجزًا فإسرائيل سوف تخرج منها بغض النظر عن هذا القرار وعن «الضغط الأمريكي»، لأنها لا تريد ولا ترغب بإدارة حياة السكان. والأهم من ذلك أنها تريد الحفاظ على وضع يمكنها من العودة لتنفيذ تفتيش أو اغتيالات متى شاءت وأينما شاءت وضمن معايير جديدة من التجاهل و«التمسحة» تجاه هذه الممارسات الإسرائيلية.

ولكن جرائمها يجب ألا تمر بغير عقاب، ويكمن التحدى السياسي في تحويل «انسحابها» نحو الحصار والجريمة المنظمة إلى بداية المعركة ضد نظام الأبارتهايد. فتجلي «الانتصار» الإسرائيلي على قرى الفلسطينيين ومدنهم ومخيماتهم، يكون برأى شارون ورئيس أركانه بفرض شروط إسرائيلية من طرف واحد على الأرض دون مفاوضات، أهم هذه الشروط المادية التي تفرض على الأرض هي هذه العوازل الأمنية بعرض مئات الأمتار وحتى خمسة كيلو مترات، والتي تحول التجمعات الفلسطينية إلى معازل خلف أسلاك شائكة وحواجز وأسوار. في ظل هذا الأبارتهايد تتحول المناطق (أ) التي كانت تحت مسؤولية السلطة الفلسطينية الأمنية إلى مناطق (ب) بمسؤولية أمنية إسرائيلية تدخلها إسرائيل متى شاءت و«عند الحاجة»، إلا إذا «تعاون» الفلسطينيون أمنيا مع إسرائيل. وتشكل إقامة نظام الأبار تهايد من الفصل العنصرى المحكم إضافة إلى هذا النظام أو التشكيل الأمني الجديد الترجمة العملية، هدف هذه المهمة العسكرية العدوانية الحقيقي.



لقد نشأ وضع جديد بعد العدوان الإسرائيلي الأخير، وليس الآن الوقت لمناقشة خلفيات هذه الحالة الجديدة والاستراتيجيات الفلسطينية، أو انعدامها، في المرحلة السابقة وما يهمنا الآن هو تشخيص طبيعة المرحلة القادمة رغم وعبر هذا الدمار المخيف. لا الحالة انتصار فلسطيني، معنوى أو مادى، ولا الحالة قريبة من الترانسفير، الذى يحوله بعض الندابين إلى موضوع طبيعي للنقاش. ولا يجب أن يطرح مثل هذا الموضوع كأنه إمكانية وسيناريو من ضمن إمكانيات عديدة، بل كأنه آخر الدنيا، وليس فقط للفلسطينيين.

سمات الوضع الجديد:

١- حالة الفصل العنصرى المقبلة، ويتطلب التعامل معها استراتيجيات نضالية موحدة ذات طابع وطني ديموقراطي يميز حركة تحرر وطني تناضل من أجل العدالة والمساواة ضد العنصرية والاستيطان الكولونيالي والقمع والعنف الاحتلالي المستخدم. هذه استراتيجية تتضمن المقاومة لجعل حالة الاحتلال ذات ثمن للاحتلال ولكن بشكل يمكن المجتمع الواقع تحت الاحتلال من احتمال هذه المقاومة على المدى البعيد.

٢- تحول أمريكا من حليف إسرائيل في الصراع إلى طرف فيه. وهذا يعني أنه من غير الممكن الاعتماد على هامش استقلال في الموقف الأمريكي تلعب فيه دور وسيط منحاز لصالح إسرائيل. وتحول أمريكا إلى طرف لا يعني أن الخيارات يجب أن تتراوح بين مواجهة شاملة معها من ناحية او توسلها من ناحية أخرى، وإنما يجب أن يعني هذا عدم توقع إنجازات من الاستراتيجية الدبلوماسية الأمريكية القائمة. يجب مواجهة الموقف الأمريكي سياسيا خارج وداخل الولايات المتحدة في المجتمع الأمريكي أيضا. وهذا لم يتم حتى الآن فقد انتقلت منظمة التحرير الفلسطينية من النضال من أجل اعتراف أمريكي إلى توسل الهامش الدبلوماسي الأمريكي المستقل عن التحالف مع إسرائيل في المفاوضات.

٣- تكشف عجز الحالة العربية الرسمية بشكل فاضح. فكل ما صدر رسميا عن الدول العربية أثناء هذه الحرب ورغم كل الجعجعة هو اجتماع لوزراء الخارجية العرب يوم ٦ أبريل أقر التوجه لمجلس الأمن بغرض طلب فرض عقوبات على إسرائيل بموجب الفقرة ٧

من ميثاق الأمم المتحدة التي تلزم بتنفيذ قرارات مجلس الأمن، ثم ما لبثوا أن تراجعوا عن قرارهم.

هذا كل شيء. عن هذا تمخضت الحالة السياسية العربية. المسؤول العربي متعاطف مع الفلسطينيين وحاقد عليهم في الوقت ذاته لأنهم يكشفون له عن عجزه. ويضطرونه إلى إحراج ذاته وإحراج الولايات المتحدة لو أراد أن يرخي لتعاطفه العنان، ولو أراد أن يتفاعل مع مزاج شعبه السياسي. قد يدفع هذا الشعور إلى التآمر مع الولايات المتحدة إذا كان من غير الممكن أو المرغوب مواجهتها.

٤- وضوح قوة الحالة الشعبية العربية وتعاطفها مع القضية الفلسطينية ولو بدون قيادات سياسية مبلورة، ويتضح أيضا أن هذا العامل الشعبي العربي يشكل ضاغطا أساسيا على حكومات المنطقة وعلى اعتبارات الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن القضية الفلسطينية الحية فعلا في ضمير الأمة تكاد تتحول بالنسبة للحالة الشعبية العربية إلى سياسة هوية وإلى تأكيد على الهوية العربية، وترجمة المعاناة والتناقضات إلى اللغة الفلسطينية المشروعة الموجهة ضد الآخر، الإسرائيلي، بدلا من النظام الحاكم.

٥- ضغط أمريكي على الدول العربية الحليفة لتلعب دورًا أكبر في «ترشيد» القيادات السياسية الفلسطينية المختلفة.

ورغم تورط الولايات المتحدة في العدوان الإسرائيلي وتواطئها معه، إلا أن إسرائيل لم تظهر تفهما لحاجات الولايات المتحدة الأمريكية بعده وأثناءه. ولم تعر إسرائيل نداءات بوش أي اهتمام، كما لم تستعجل أية مهمة تفهما لحرج الولايات المتحدة مقابل حلفائها من الأنظمة العربية. ولم تكتف إسرائيل بذلك بل أوفدت رؤوس الكونجرس من ديموقراطيين وجمهوريين للتأثير على رئيس الولايات المتحدة ليس فقط لصالح العدوان الإسرائيلي، بل أيضا لمساعدة إسرائيل أن تحصد نتائجه السياسية.



ولم يكتف شارون بصمت كولن باول في المؤتمر الصحفي في القدس أثناء زيارته المكوكية للمنطقة بعد العدوان، وامتناعه عن التعبير حتى عن الموقف الأمريكي العلني من الانسحاب الإسرائيلي من المدن الفلسطينية، بل تجاوز ذلك إلى طرح تصوره لـلأبارتهايد كرؤية سياسية يتمخض عنها العدوان. لم يجد باول فكرة سياسية إسرائيلية واحدة ذات قيمة يتقدم بها للفلسطينيين أو للعرب. ودون ذلك لا يستطيع باول، ولا حتى بمساعدة بعض العرب، إقناع الفلسطينيين بمناقشة موضوعات وهمية مثل وقف إطلاق النار (بين من ومن؟)، أو إعطاء تأكيدات حول «مكافحة الإرهاب» في المستقبل. لم تتبن السلطة الفلسطينية أثناء العدوان وحتى اليوم المقاومة كخيار استراتيجي، ولكنها مع ذلك لا تستطيع أن تفاوض بتعابير مثل «وقف إطلاق النار»، أو ضرورة «مكافحة الإرهاب». ويبدو أن إسرائيل والولايات المتحدة كانتا «تطبخان» معادلة ما، تمكن الإسرائيليين من الادعاء أن في حوزتهم، بعد أن «أنجز» العدوان ما «أنجز»، جوابا سياسيا على المبادرة العربية للسلام من قمة بيروت، عندما قام نتنياهو بإحباط هذه المحاولة.

لقد استنتجت الإدارة الأمريكية الحالية من فشل الإدارة السابقة في كامب ديفيد أن السبب يعود جزئيا إلى عدم منح الدول العربية دورًا كافيًا فيه وفي الإعداد له، وأن القيادة الفلسطينية لا تستطيع وحدها، دون سند عربي واسع، التوصل إلى تسوية على قضايا

كبرى مثل القدس واللاجئين. وتحاول إسرائيل استغلال هذا الاستنتاج الأمريكي لاقتراح مؤتمر إقليمي للسلام.

ويعتبر المزاج السياسي العربي عموما النموذج العربي ـ الدولي المشترك للتفاوض أفضل من المسارات المنفردة وتناقضاتها. ولذلك يبدو اقتراح شارون وكأنه تبنٍّ لاستنتاجات الإدارة الأمريكية الحالية بما يتوافق مع المزاج السياسي العربي. ولكن اقتراح شارون ليس اقتراحا لمفاوضات سلام بل لحوار عربي إسرائيلي بعد العدوان، أي بعد أن يتذوق العرب نتائج العدوان وسياسة القوة الإسرائيلية. ويشترط شارون استثناء عرفات، الأمر الذي يعني تقبل العرب أهداف العدوان الإسرائيلي الأخير كحقائق ناجزة. كما لا يقبل شارون مبادرة السلام العربية أساسا للمؤتمر الإقليمي الذي يقترح، وهو بالتالي مؤتمر غير ملزم للحوار وليس للتوصل إلى تطبيق شروط تسوية متفق عليها.

والأنكى والأمر أن المؤتمر الدولي لا يدعو سوريا ولبنان للمشاركة، وذلك لتتحول هذه إلى مطالب. فإذا استهجن البعض عدم دعوتهما تصبح الدعوة إنجازا. لقد أحسنت سوريا ولبنان صنعا بعدم الرد إطلاقا على موضوع المؤتمر، دلالة على عدم أخذ هذه الفكرة بجدية، وحتى دون انتقاد تغييبهما لئلا يفسر ذلك كمطلب.

كما أن الرد العربي في قمة شرم الشيخ على اقتراح المؤتمر الإقليمي بالتمسك بمبادرة بيروت يعني عدم قدرة إسرائيل على فرض الهزيمة على العرب. لقد ولد هذا الاقتراح بتشويهات حادة وتحاول الولايات المتحدة إحياءه بالتنفس الاصطناعي. ولكن قرار مؤتمر الليكود ضد دولة فلسطينية يعرقل هذه المحاولة.

ما جرى وما العمل؟





في ظل المعطيات الحالية يبدو أن الاقتراح المادي والملموس الوحيد الذي يواجهه الشعب الفلسطيني هو اقتراح الأبارتهايد، ويجب أن تقابله سياسات مقاومة ملموسة ذات استراتيجية موحدة. يتطلب واقع الأبارتهايد في حالة فرضه برنامجًا سياسيًا واستراتيجية مقاومة موحدة مشتقة منه. هذه الاستراتيجية وحدها قادرة أن تستثمر حتى التضحيات الأخيرة التي تمت في غيابها، فهي قادرة أن تبدأ بشن الحملة على إسرائيل كدولة أبارتهايد كولونيالي تعج بمجرمي الحرب الذين يجب محاسبتهم. ليست الأولوية الآن للمعركة الدبلوماسية بل لمعركة شعبية تشن عالميا وفي العالم العربي بلغة ديموقراطية مفهومة ضد مجرمي الحرب الإسرائيليين. هذه المعركة كفيلة بنشر المزاج السياسي اللازم لاستقبال المعركة السياسية والدبلوماسية القادمة ضد نظام الأبارتهايد. مع شارون بلغت سياسة القوة الإسرائيلية حدودها، والعمل السياسي الفلسطيني والمقاومة الفلسطينية بعدها إذا كانت محكومة باستراتيجية هي ربح صاف للفلسطينيين وخسارة لإسرائيل.

علام نتناقش؟

منذ فك الحصار عن مكتب الرئيس الفلسطيني يدور في المجتمع الفلسطيني نقاش حي يتوقع من شعب حي، وقد انتشرت حالة النقاش انتشار النار في الهشيم فلم تترك حارة ولا منتدى ولا صحيفة إلا وتملكتها. هنالك حمى من النقاش والنقد والنقد الذاتي تذكر بما بعد أيلول ١٩٧٠ وما بعد لبنان ١٩٨٢ وما بعد أوسلو. فهل نحن أمام «ما بعد» أخرى لا يأتي بعدها جديد؟ وهل تستطيع القوى القائمة أن تأتي بجديد.

ولأن النقاش يدور في حلقات متوازية أشبه بثقافات فرعية subcultures وجماعات منفصلة اجتماعيا وسياسيا. فلا يبدو أن هنالك حوارا اجتماعيا شاملا تستفيد منه قيادة موحدة لحركة تحرر وطني، بل وتبادر له في المنعطفات التاريخية الحادة. ولا أدري إذا كان النقاش الدائر في رفح ذا علاقة بالنقاش الدائر في رام الله، وإذا كان النقاش الدائر داخل حركة «فتح» مرتبطًا بشكل من الأشكال بالحوارات الدائرة في الفصائل الأخرى أو في الشتات. وقد لمست جانباً مهماً من النقاشات الدائرة والأسئلة المتطايرة من وإلى كافة الاتجاهات من خلال الاحتكاك مع القوى الفاعلة والناس في الداخل وفي الشتات والعالم العربي وطبعا في المناطق المحتلة عام ٦٧ وفي لقاءات مفتوحة مع جماهير واسعة عقدت مؤخراً معي في الناصرة والقدس المحتلة ثم في دولة الإمارات العربية المتحدة وفي شيكاغو وفيلدلفيا لمست نفس نوع الأسئلة الذي يقلق الجمهور العربي. وهو وإن طرح بصياغات متشابهة من قبل قيادات أيضًا في الصحافة وغيرها إلا أنه يخفي دوافع ونوايا مختلفة.

لقد فرض المد الجماهيري الفلسطيني صياغة كافة الأسئلة بلغة متشابهة ألا وهي لغة ضرورة «الإصلاح». ولكن لغة الإصلاح تخفي نوايا ودوافع سياسية مختلفة. فمن دعاة الإصلاح من يعتقد أنه كان على القيادة الفلسطينية قبول ما طرح في كامب ديفيد وتجنب الانتفاضة، ومن دعاة الإصلاح أيضًا من يرى أن الطريق لتحقيق الأهداف الوطنية بعد إملاءات كامب ديفيد تمر عبر المقاومة، ولكنه يسأل أية مقاومة وكيف؟



لم يعد بالإمكان إذاً الاكتفاء بكلمات وصياغات مثل ضرورة الإصلاح. لقد طرحت هذه الصياغات والتعابير بعد أيلول ١٩٧٠ وبعد اجتياح ١٩٨٢ وبعد حرب الخليج الثانية وبعد أوسلو وأثناء عمل السلطة الفلسطينية في السنوات الثماني الأخيرة، وكان الإصلاح ينتهي عادة بتصليح وضع دعاة الإصلاح على مستوى البعد أو القرب من عملية صنع القرار.

ولا شك أن الحاجة ملحة لترتيب مؤسسات السلطة الوطنية الفلسطينية، وأن الحاجة ماسة أيضا لترتيب عملية اتخاذ القرار بشكل أكثر ديموقراطية، وأن تتضح فيه أهمية الوزير مقابل غير الوزير وأهمية مؤسسة مثل اللجنة التنفيذية ل م.ت.ف. وغيرها في عملية صنع القرار والاتصالات الدولية والمحلية، وقيمة ووزن حركة «فتح» كتنظيم سياسي في السلطة، ثم أهمية غيرها من الحركات السياسية ووزنها في عملية صنع القرار أو أخذ معارضتها بعين الاعتبار ضمن إجماع وطني على ثوابت لا تطالها هذه المعارضة.. هذه الأسئلة مصيرية ولكن يجب أن تطرح في السياق السياسي القائم حالياً وإلا فقدت معناها بالنسبة للجمهور الواسع. فالشعب الفلسطيني يسأل حاليا أسئلة سياسية متعلقة بمصير المواجهة مع الاحتلال، والحل السياسي للأزمة، ويتساءل عن البرنامج السياسي لدى قادته.

لا شك أنه في مراحل اليأس والإحباط تنتشر نظرية المؤامرة ويتبعها التخوين، ولكن دور المثقف المسيس في قيادة النقاش حاليا يشمل تجنيب الجمهور نظرية المؤامرة والخيانة، كما يشمل قيادة الحوار باتجاه طرح القضايا المحورية والمصيرية.



تبدأ الاستفادة السياسية من ترتيب محاور النقاش بصياغة السؤال التالي:

١) هل الحركة الوطنية الفلسطينية هي حركة تحرر وطني أم دولة قيد التكوين؟ يجب أن يحسم هذا السؤال من أجل إقرار نمط العمل والسلوك السياسي. لقد بقي هذا السؤال معلقاً منذ بداية الثمانينيات، ولكنه اكتسب أهمية خاصة مع قيام سلطة فلسطينية مرتبطة باتفاقيات من ضمنها اتفاقيات أمنية. تشتق من حسم هذا السؤال على هذا النحو أوذاك توجهات مختلفة تماماً في التعامل مع مفاهيم ووقائع مثل: «سلطة ومعارضة»، «وحدة وطنية»، «تنسيق أمني». حسم السؤال باتجاه حركة التحرر الوطني المناضلة من أجل الاستقلال عبر خيار مقاومة الاحتلال يطرح مسألة استراتيجية المقاومة. ولكن دون حسم هذا السؤال لا توجد استراتيجية مقاومة، بل توجد «عملية سياسية» من ناحية و«عمليات مقاومة» من ناحية أخرى لا تربطهما إلا علاقة التعارض أو الإزعاج المتبادل أو التواطؤ غير المتجانس في بعض الحالات. أما إذا حسم السؤال باتجاه الدولة قيد التكوين فهذا يعني الاعتقاد أن العملية السياسية التدريجية الجارية والمنطلقة من كيان سياسي فلسطيني قائم ومعترف به على الساحة الدولية «يحترم تعهداته واتفاقياته» ستؤدي إلى قيام دولة فلسطينية مستقلة على خطوط قريبة مما طرح في كامب ديفيد، أو ما بين كامب ديفيد والمبادرة السعودية. ويفترض أن تكون واقعية هذا المنطلق بدون مقاومة بحد ذاتها موضع نقاش.

لقد برز بعد العدوان أكثر من مؤشر على رغبة الولايات المتحدة أن تلعب دورا بهذا الاتجاه بشرط أن يحول عرفات إلى شخصية رمزية تحركها محاور ومراكز قوى مقربة أمريكيا. ولكن لا ضمان أن تنجح الولايات المتحدة بفرض حل كهذا على إسرائيل، ولا ضمان لنجاح خطتها فلسطينيا. ولكن الجولات المكوكية ستبدأ ومن الضروري بلورة موقف فلسطيني منسق عربيا تجاه هذه المحاولات.

بطرحنا هذا السؤال نحن لا نقصد أن على الحركة الوطنية الفلسطينية أن تختار بين السياسة والمقاومة، كما أننا لا نقصد الاختيار بين المقاومة والتفاوض، بل على العكس من ذلك نحن نرمي إلى الجمع بين السياسة والمقاومة، وبين المقاومة والتفاوض إذا لزم الأمر، ضمن استراتيجية واحدة. فهل هي استراتيجية تحرر وطني تتضمن عناصر السياسة والمقاومة والبناء الذاتي أم هي استراتيجية دولة تتعامل مع ذاتها ومع الدول الأخرى كأنها دولة في صراع حدود مع دولة أخرى.



ومن غير المعقول القبول لا دوليا ولا فلسطينياً بحالة من الفصل بين السياسة والمقاومة، ثم الاحتفاظ بحالة من «التواطؤ» ذي الحبل القصير المصداقية بين العنصرين. والمقصود هو استنكار العمليات واستخدامها في الوقت ذاته سياسيا كإثباتات فشل سياسة إسرائيل الأمنية. في هذه الحالة تخسر السياسة العالمين، عالم المقاومة وعالم الصالونات الدبلوماسية. كما أنه من غير الممكن القبول فلسطينيا بحالة الصراع على الوراثة كأن الدولة قد تكونت، أو انتشار الفساد البيروقراطي في هذه المرحلة من التحرر الوطني ترافقه كليشيهات التحرر الوطني والمبالغة باستخدام الرموز حول الدولة والكيان كتعويض عن النقص في الواقع. كما أن المجتمع الفلسطيني لم يعد يقبل بالتنافس بين الفصائل على تبني «عملية»، خاصة أن جدواها السياسية غير ثابتة لأنها لا توضع ضمن تصور شامل للنضال الفلسطيني يشمل العلاقة الجدلية بين الوسيلة والهدف.

وقد أعربنا عدة مرات عن رأينا أن الحسم يجب أن يتجه باتجاه استراتيجية حركة التحرر الوطنى ضد حالة كولونيالية استعمارية أصبحت أكثر وضوحاً للعالم بعد العدوان الأخير. فقد أزال هذا العدوان آخر الأوهام حول وجود كيان فلسطينى سياسى ولو بنصف سيادة فى علاقة تكافؤ من أى نوع مع إسرائيل، ولكن مسألة حركة التحرر الوطنى تطرح السؤال الثانى:

٢) ما هى استراتيجية حركة التحرر الوطنى الفلسطينى فى المرحلة الراهنة؟

يجب أن تجمع حركة التحرر الوطنى بين العمل السياسى والمقاومة المشروعة ضد الاحتلال بحيث يحكم الهدف السياسى وطبيعة الأدوات المتوافرة والأهمية المتفاوتة لساحات العمل المختلفة وغيرها من العوامل نوعى النشاط. يهدف العمل السياسى إلى تعبئة الرأى العام الفلسطينى والعربى إلى التأثير على الرأى العام الأمريكى والأوروبى والإسرائيلى ويجب أن يتلاءم عمله مع استراتيجية المقاومة. ولا تتألف المقاومة من مجموعة «عمليات» تقيم كل واحدة بشكل منفرد، بل هى استمرارية، عملية، صيرورة تحكمها الغاية، والغاية هى تحقيق الهدف السياسى. والتقدم نحوه هو الحكم الوحيد فى اختيار هذه الأداة أو تلك.

٣) ولكن هل يمكن تحقيق ذلك دون وجود قيادة سياسية موحدة؟

لا يمكن انتقاء الأدوات النضالية بشكل موضوعى ومحاكمة جدواها ونجاعتها بمدى تقريبها لمجمل الحركة الوطنية من الهدف، كما يستحيل الانسحاب التكتيكى والمناورة وغيرهما إذا كان هنالك تنافس ومزايدة على مستوى قيادة حركة التحرر الوطنى. أى إذا لم تتوافر قيادة مركزية قادرة على صنع القرار وفرضه، إن كان هجوميًا أو تراجعًا. ولا يمكن أن يتم ذلك على المستوى الفلسطينى بعد كل هذه التجربة الطويلة إلا بالحوار والقيادة الموحدة، كل أسلوب آخر يؤدى إلى مجابهات ومواجهات أهلية.



«يلف» النقاش الشعبى حالياً و«يدور» حول هذه القضايا ولكنه لا يلامسها ولا يجابهها. ويبدو لى أن القوى المساهمة فى النقاش على مستوى القيادة ترغب بالابتعاد عن هذه القضايا إلى نقاشات على مستوى صراعات النفوذ تحت شعارات الإصلاح. ولا بأس بصراعات النفوذ لو كانت تمثل وجهات نظر متباينة. والسياسة فى هذه الحالة من بين أمور أخرى عديدة هى أيضا صراع على النفوذ. ولكننا نرى السياسة مستمرة بقوة القصور الذاتى. ولا يبدو الفرق واضحاً بين الحصار وفك الحصار. وأن القيادة الفلسطينية فى حالة إدارة أزمات. والمبادرة ما زالت إما بيد شاب فجر نفسه فى عملية استشهادية، أو بيد شارون، أو حكومة الولايات المتحدة. ولا يمكن أن تكون القيادة الفلسطينية فاعلة بالأساليب القديمة وما دامت تتجنب الأسئلة الثلاثة أعلاه.

بعد العدوان

من بين نتائج العدوان الإسرائيلى على الشعب الفلسطينى، مجتمعاً ومؤسسات، يمكن اعتبار التغييرات فى الوضع الداخلى الفلسطينى هى الأكثر حساسية وخطورة. فقد تكون الهزة الداخلية الفلسطينية تطوراً محموداً، وقد تتطور إلى كارثة حقيقية.

فإذا فتحت هذه الطريق إلى الأسئلة الصحيحة المؤدية إلى القناعة بضرورة إقامة قيادة وطنية موحدة ذات برنامج سياسى مرحلى موحد واستراتيجية مقاومة موحدة، فقد تتحول جدلياً إلى بركة حقيقية من ناحية تنظيم وضع مؤسسات الشعب الفلسطينى. أما إذا لم يتم تلخيص التجربة كما حصل فى حالة الأردن ١٩٧٠ ولبنان ١٩٨٢ عبر طرح الأسئلة الضرورية المؤدية إلى القناعات الصحيحة، فسوف يؤدى الزلزال إلى المس بهيبة السلطة بشكل مجرد فحسب دون أن يقود إلى طرح الأسئلة الصحيحة، وسوف تفتح الطريق نحو الفوضى السياسية والاجتماعية والتسيب والانحلال.

وهذا ما تبثه «النقاشات»، أو الحرب الكلامية، بين قيادات فى السلطة والأجهزة الأمنية للشارع الفلسطينى، منذ أن رفع الحصار عن مبنى المقاطعة فى رام الله. ويتساءل الجمهور الفلسطينى: علام يدور النقاش؟ وهل آن الأوان لصراعات النفوذ أو لاقتسام الكعكة، وأين الكعكة أصلاً؟

لم يحن الوقت بعد لصراعات النفوذ. ففى ظروف ضعف السلطة لا تعنى الصراعات داخلها إلا حالة انحلال. ويساور الشك أوساطًا واسعة من الشعب الفلسطينى أن الصراع يدور حول «الوراثة» فى حياة الرجل، لأن حسم هذه المسألة يحسم أيضاً أى مجموعات النفوذ يتحكم بالقرار السياسى فى حياته، كما يدور الصراع حول تحويل ياسر عرفات إلى رمز (رمز فعلى يعنى رئيسًا رمزيًا وليس لقب الرمز) كما كتب مارتين إنديك، السفير الأمريكى السابق فى إسرائيل (يديعوت أحرونوت،١٢-٥-٢٠٠٢). هذه دون شك مشكلة، وخاصة أن هذا الشك يغذى يوميا بازدياد المؤشرات على صراع سياسى يرافقه صراع على النفوذ تتابعه الولايات المتحدة بدقة.

ولكن المشكلة الأساسية والأكثر خطورة هو نشوء حالة انحلال يزيدها حدة الحصار الذى يقطع أوصال الشعب الفلسطينى ويضعف مؤسساته بالفعل الاحتلالى السياسى والاقتصادى.



ولا بد أن تؤدى حالة الانحلال والتسيب وضعف المؤسسات التى تعكس شرعية وطنية شاملة إلى نشوء مليشيات مسلحة فى حالة انتشار الأسلحة، خاصة مع توفر كم كاف من السجال السياسى الوطنى والقومى والإسلامى والحمولى لتبرير قيام أصغر مليشيا فى أصغر حى. ولن تلبث هذه أن تبرر ذاتها بضرورات الحماية والمصلحة الفردية لدى أعضائها، وبعدم الثقة بالقيادات الفصائلية أو القيادات المركزية. ومن هنا لا تقود الطريق بالضرورة إلى الصومال وأسياد الحرب الصوماليين. فالمجتمع الفلسطينى أقوى بنية، وكل هذا يتم فى ظل الاحتلال وبوجود حركة وطنية ومؤسسات ذات تاريخ وتراث وتقاليد. ولكن حالة الفوضى الاجتماعية ممكنة بأشكال فلسطينية وليس بالضرورة صومالية. وهى تقلل من قدرة المجتمع الفلسطينى على الصمود، والنضال ضد الاحتلال.

ما زال الاحتلال قائماً على شكل حالة أبارتهايد تحيط بالمدن الفلسطينية، وقد كرست إسرائيل معياراً جديداً باجتياح مدن الضفة الغربية ومخيماتها فتقتل من شاءت ومتى شاءت.

ويعانى الشعب الفلسطينى فى ظل حالة الحصار من سلسلة معقدة ومتشابكة لا تعد حلقاتها ولا تفك ولا تحصى من الإجراءات والعقوبات، بدءًا بالحاجز ومنع الماء عن قرى بيت فوريك وبيت دجن مثلا (هل سمع أحد بذلك؟) وشل حركة الاقتصاد إلى الاغتيالات المستمرة دون ضجة إعلامية. وتحاول إسرائيل فى ظل حالة الحصار والعقوبات الفردية والجماعية هذه أن تسجل إنجازات سياسية إما عبر حالة فوضى سياسية فلسطينية تؤكد حالة غياب الشريك التفاوضى، وإما عبر إيجاد شريك سياسى فلسطينى فى المفاوضات يوافق على تغيير أجندة المفاوضات مقابل دولة فلسطينية بمفهوم شارون أو بوش، أو بالمفهوم الوسط بينهما.

لقد قررت الحكومة الإسرائيلية وسلطة البث إبان الحرب على الشعب الفلسطينى ألا يمنح المسؤولون الفلسطينيون منصة فى

انتقلت منظمة التحرير الفلسطينية
من النضال من أجل اعتراف أمريكى
إلى توسل الهامش الدبلوماسى الأمريكى
المستقل عن التحالف مع
إسرائيل فى المفاوضات



الإعلام الرسمى الإسرائيلى، الراديو والتليفزيون. ولكن فجاة ودون سابق إنذار فتحت الميكروفونات أمام قيادات فلسطينية أساسية. وقام هؤلاء بقوة الاستمرار وكأنهم على منصة فلسطينية بالاحتراب الكلامى على المنصة الإسرائيلية كأنهم يتكلمون على منصة الصديق لا الخصم. ولم يتساءل هؤلاء: لماذا تغير فجاة الموقف الإسرائيلى؟ لماذا فتحت فجاة هذه المنصة أمامهم؟

ليس الإنسان بحاجة إلى عقل سياسى حاد بشكل خاص لكى يرى المصلحة الإسرائيلية بصب الزيت على نار هذا الصراع العديم العلاقة مع مصالح الشعب الفلسطينى. وهو بالتأكيد ليس نقاش إصلاح ديموقراطى من أى نوع. والإصلاح السياسى الديموقراطى الفلسطينى لا يمر عبر الإذاعة الإسرائيلية الرسمية.

تثبت ظاهرة التسيب والانحلال الآخذة بالانتشار أن طريق الإصلاح لا يمكن أن يمر إلا عبر الشرعية الوطنية ومؤسساتها، وأن هذه غير ممكنة حالياً بعد العدوان الإسرائيلى دون حوار وطنى شامل بين السلطة والمعارضة وداخل السلطة يقود إلى قيادة وطنية موحدة ذات برنامج سياسى موحد، على الأقل لمرحلة وجودها (مثل أى قيادة سياسية)، وذات استراتيجية موحدة تجمع بين السياسة والمقاومة.

ولن تقوم قيادة وطنية موحدة إذا لم تقتنع القوى السياسية الفلسطينية باعتبار المصلحة الوطنية العليا فوق المصالح الفئوية الضيقة، وأن التعددية والنقاش والحوار يتم فى إطار هذه المصلحة الوطنية العليا المتفق عليها والمشتقة من الأهداف الوطنية النضالية المتفق عليها. كما لن تقوم قيادة وطنية موحدة بالأدوات القائمة وحدها، أى بأجهزة السلطة. وأمر الساعة هو إجراء حوار وطنى شامل يؤدى إلى قيام لجان شعبية فى القرى والمدن والمخيمات الفلسطينية تصلح قاعدة وطنية شعبية لهذه القيادة الموحدة.



ونحن لا نقلل من أهمية التناقض الذى من الممكن أن ينشأ بين القيادة الموحدة وهيئات السلطة المركزية، وبين اللجان الشعبية وأجهزة السلطة الوطنية المحلية. لا توجد سلطة تقبل بازدواجية السلطة. ولهذا أيضا طالبنا أن يحسم المزاج السياسى الفلسطينى مسألة حركة تحرر وطنى أم دولة. عندها تستطيع مؤسسات السلطة القائمة أن تتعايش وتتعاون محليا مع اللجان الشعبية ذات الطابع السياسى، كما تستطيع مؤسسات مثل المجلس التشريعى، وهى تحتاج بنفسها إلى تفعيل وتنشيط، أن تتعاون مع قيادة وطنية موحدة، وليناقش المجلس مثل هذا الموضوع، وليشارك أيضًا بإقرار طبيعة هذه القيادة. وعندما توافق السلطة على هذا التوجه سيكون بالإمكان أيضًا تشخيص الإشكالات الممكنة ووسائل التغلب عليها خاصة بين السياسى، المتمثل بالقيادة الموحدة، والتنفيذى، أى أجهزة السلطة.

أما إذا لم يتم التوصل إلى صيغة من هذا النوع فلا بد من إجراء انتخابات سياسية، وأن تخاض معركة لتحويل هذه الانتخابات إلى نوع من التعبير عن حق تقرير المصير، يتوجب على العالم أن يحترم نتائجه السياسية. وليس لدينا أدنى شك أن هذه النتائج سوف تحرج إسرائيل. ولا مانع أن تؤدى الانتخابات إلى ائتلاف شامل هو تعبير أكثر ديموقراطية عن القيادة الوطنية الموحدة. ولكن هذا التوجه يشترط أن تشارك فى الانتخابات قوى مستقلة حتى لو كانت جديدة، وألا تقاطع المعارضة الانتخابات، وأن تمنح الشرعية لمنظمات تعتبر أمريكيا وإسرائيليًا منظمات إرهابية للمشاركة فيها. وهذه معركة أخرى تستحق أن تخاض، لأنها تنسجم مع القضية الوطنية والهدف السياسى. هذه المعارك هى تعبيرات ديموقراطية عن حق تقرير المصير، وتصب فى النضال ضد الاحتلال.

انطباعات:

لماذا تصمت العلوم الاجتماعية عن أسباب ودوافع السلوك السياسى الفلسطينى عندما لا تنجح الاستراتيجيات بضبطه؟ من المفروض أن العلوم الاجتماعية قد وجدت لتقدم محاولات على الأقل بالتفسير العلمى لمثل هذه الظواهر. فلماذا تنتشر الغيبية الاستشراقية فى تفسير السلوك النضالى الفلسطينى وتصمت العلوم الاجتماعية التى لا يخلو الاستشراق منها عن تفسير ظاهرة تزايد عدد الشباب الفلسطينى المستعد لدفع حياته ثمنا لتدفيع الطرف الآخر، المحتل، ثمنا؟ ليس بالإمكان تبرير هذه الظاهرة، وقد تحولت إلى ظاهرة للأسف الشديد، وليس بالإمكان الدفاع عنها أخلاقيا إلا عبر التضحية بقيمة الحياة باعتبار أن هنالك قيمًا أسمى منها مع الثمن الأخلاقى والاجتماعى المترتب على ذلك. وإذا كان من الصعب تبرير الظاهرة، فإن العلوم الاجتماعية لا ترضى بأقل من محاولة التفسير. ولا يمكن أن تكتفى بتراوح «التفسير» السائد بين طلب

ما جرى وما العمل؟

الجنة انطلاقا من «عقلية» يحدد طبيعتها «عقل» استشراقى وبين اعتبارها حالة يأس. فاليأس قد يؤدى فى حالات نادرة إلى الانتحار، ولكن لا اليأس ولا القنوط يؤدى إلى عملية استشهادية موجهة فى خدمة قضية. وطلب الجنة لا يتناقض مع بناء الحياة الدنيوية واستمرارها، بل ويبنى عليها، وإذا طرأ تناقض فهو لا يصلح لتفسير السلوك السياسى والاجتماعى بل يحتاج بذاته إلى تفسير.

عندما سيحلل علماء الاجتماع الذين يطمحون إلى ما هو أعمق من التقرير الصحفى أو عندما يرغبون بتجاوز تعبئة الاستمارات الإحصائية لينتهوا إلى تحليل أقل من صحفى بشأن المعاناة الفلسطينية وإسقاطاتها على السلوك السياسى للفلسطينيين، إذا كانت توضح شيئا بنظرهم، أود أن يجدوا أمامهم الخلفية الانطباعية التالية، التى لا تطمح إطلاقا أن تقدم شرحا، والتى من المفترض أن يلمسها أى باحث ميدانى مدرب الحواس وغير متبلد الإحساس قبل أن يعد نماذجه النظرية وأدواته التفسيرية.



إن قياس القمع الإسرائيلى بعدد الضحايا الفلسطينيين وعدد البيوت المهدمة وقصف المدنيين وعدد المعتقلين بمحاكمة وغير محاكمة وحده لا يكفى. هذا احتلال استعمارى، والاحتلال الاستعمارى يكرس ذاته باستخدام القمع والقوة. ويزداد استخدام القوة كلما ازدادت وتيرة مقاومة الاحتلال. ولكن فى عصر لم تبق فيه احتلالات كولونيالية يفترض أن تزداد حساسية الرأى العام العالمى لجرائم الاحتلال. ولكن ذلك لا يحصل فى حالة الفلسطينيين بالشكل الذى يولد ضغطا دوليا كافيا- ويتم رسميا فقط بعد التأكيد على توازن بين المحتل والواقع تحت الاحتلال فى دوامة وحلقة عنف مفرغة. هذه المساواة بين المحتل والواقع تحت الاحتلال تؤدى إلى شعور فلسطينى مضاعف بالظلم.

ثم إن المحتلين لا يكذبون عادة بشأن عنفهم الكولونيالى وضرورته. ولكن إسرائيل الرسمية تتحدث وكأنها هى الواقعة تحت الاحتلال. وهى تحتاج إلى كم هائل من الأكاذيب لكى تعطى المبرر لهذه المساواة بين المجرم الأصلى وعنفه وبين الضحية وعنف الضحية- أى المقاومة. لذلك يضطر الفلسطينيون أن يستمعوا إلى ضابط إسرائيلى يقول فى مؤتمر صحفى إن «إرهابيين فلسطينيين يختطفون كهنة فى كنيسة المهد»، وهو يقول ذلك دون أن يرمش له جفن. أى أن الكذب ليس مذمة بنظره أو بنظر رؤسائه ومرؤوسيه. كيف يشعر إنسان مضروب فى المحكمة عندما يلف المعتدى «ابن العيلة» رأسه ويدعى أن المضروب ابن العائلة الفقيرة قد اعتدى عليه وأن هذا «الاعتداء» نابع من عقلية المضروب وعقليته الإجرامية بعد استعراض تاريخه وسلوكه وألفاظه مراهنا على الفرق بينهما بالسمعة والشكل والمكانة الاجتماعية وبالقدرة على عرض ادعاءاته بلغة الحاكم ممثلا بمحامين يعاقرون مع القضاة نفس أوقات الفراغ. تخيلوا حالة الغضب والمرارة والعجز التى يشعر بها الضحية وكيف لا يخطر بباله كيف يجن ويبدأ بالتكسير فى القاعة عندما يشعر أن بعض المحلفين بدأوا يصدقون الكذبة، ثم ما يلبث أن ينكسر أمامهم ويبدأ بالتوسل، وما إن يفقد أعصابه حتى يبدأ المجرم المحترف الهادئ الأعصاب بهز رأسه بإيماءات العارف الحكيم: ألم أقل لكم؟ فتزداد الضحية عصبية لتلعن المجرم والمحلفين أيضا.

اضرب هذه الصورة حسابيا بألف كذبة فى اليوم يسمعها ليس من تعرض للضرب بل من فقد وطنا ثم أخا أو أبا، أو من فقد بيته، أو من لا يستطيع الوصول إلى المستشفى، أو من لا يستطيع أن يوصل زوجته التى يحب إلى غرفة الولادة، فيفقد رجولته على الحاجز مع عجزه عن إنقاذ طفله الوليد، أو من أصابه حصار بول من المعتقلين الذين لم يسمح لهم بالتبول فأبوا أن يتبولوا فى ثيابهم. تخيل أيها الباحث كيف يحس أولئك عندما يسمعون الكذب الإسرائيلى؟ الظاهرة الميدانية الانطباعية المهمة الأولى أمام الباحث إذا هى: تأثير كذب المجرم على أعصاب الضحية.



شقت طريق الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين بالدبابة والبولدوزر، بالقتل والتدمير، بالمجزرة والمصادرة.... ولكن الاحتلال الإسرائيلى يختلف عن بقية الاحتلالات بأنه يحتل الأعصاب أيضا. إنه عصابى استحواذى الطابع حتى ليخطر ببال الإنسان المتوسط أنهم يريدون الدخول تحت جلده. لا شىء يبرر منع سيارات الإسعاف من الوصول إلى الجرحى غير الرغبة بتعذيب الناس بشكل سادى. صحيح أن المجتمع الإسرائيلى هو الوحيد بين المجتمعات الكولونيالية الذى يردد فى اللحظة بشكل موحد أية فرية يطلقها الناطق بلسان جيشه من نوع أن الفلسطينيين يستخدمون سيارات الإسعاف لنقل الأسلحة أو لتهريب المطلوبين. وتوهم هذه الفرية سامعها أن الفلسطينيين لا يستخدمون سيارات الإسعاف لنقل الجرحى إلا فيما ندر. لا يمكن تفسير إنزال امرأة مريضة من سيارة إسعاف على حدود القدس والبدء بتفتيش السيارة ببطء بحيث يفطن كل جندى على حدة لجانب نسوا تفتيشه، وبإهانة لم يتلقها الزوج بعد، والزوجة ممددة إلى جانب الحاجز على نقالة المرضى. ووجوه الجنود عابسة كأنهم ينفذون مهمة عسكرية مصيرية، ولكنهم يتبادلون تعابير تعقبها ابتسامات عندما يتبادلون النظرات بخبث. يتلهون.

لا يقوم جيش بفرض منع التجول أسابيع متواصلة لا يستطيع خلالها الناس العمل أو التزود أو مجرد التنقل أو سد أتفه الحاجات أو أكثرها إلحاحا، حتى «ينهى تساهل كافة مهامه». لا يقوم جيش نظامى باعتقال جميع الناس فى كافة المناطق فى بيوتهم إلى أن «يفرغ من مهامه» إلا إذا تملكته الرغبة بتلقين الناس درسا، أو لأن الغضب والعصبية استحوذا عليه لأنه لا يستطيع قصف هذه المدن بالطائرات ومحوها من ناحية ولا يريد التضحية بأى من مشاته من ناحية أخرى، لذلك فهو يقوم بإذلال الفلسطينيين ليس كخطوات وقائية (محسوبة) فحسب بل كخطوات انتقامية (استحواذية ولا عقلانية)... سيريهم من هم وماذا يساوون، سينتقم الجندى لأمه الغاضبة على الفلسطينيين لأنه لا يمكن محوهم عن الأرض من الجو، وهى بالتالى مضطرة للقلق على ابنها الذى لم يسعده الحظ أن يقبل فى سلاح الطيران والمتواجد فى طولكرم بنفسه شخصيا. فجلالته لم يفلح أن ينتدب عنه طائرة أو صاروخ طوماهوك يمحو وسط المدينة. وجندى آخر يحاول إذلال الفلسطينيين ليجمع مادة للحديث مع رفاقه فى البار أو المقهى عند «خروج» أول سبت بعد الخدمة: كيف يتصرف هؤلاء الفلسطينيون إذا «نهرتهم»، أو إذا طلبت منهم خلع السراويل والمشى بدونها من الحاجز، و«كيف تصرف رب البيت عندما أمرنا زوجته أن تعد لنا الطعام بعد أن قمنا بتفتيش البيت».

ماذا يفعل الفلسطينى الذى رآهم يسرقون المتاجر وينهبون المكاتب إذا قرأ ترجمة خبر عن صحيفة «يديعوت أحرونوت» أن مجموعة من الجنود الإسرائيليين تناولت طعام العشاء على طاولة عائلة فلسطينية بعد اقتحام بيتها ثم أبى أفرادها إلا أن يجمعوا بضع مئات من الشيكلات لتعويض العائلة، كان الفلسطينيين «يجرسنون» للأسياد حتى وهم تحت الاحتلال، وكان الإسرائيليين «ضباط وجنتلمن» عند المقدرة؟ وفى الاحتلال الإسرائيلى لا يمكن الحفاظ على الانفصام المفيد فى الشخصية الكولونيالية،ضابط وجنتلمن، والذى يمكن من العفو عند المقدرة، عندما يتميز الاحتلال عن البيت. فى الاحتلال الإسرائيلى لا يتميز البيت عن الاحتلال لا بآلاف الأميال الجغرافية ولا بالبعد التاريخى. البيت هو الاحتلال، والفارق هل هو احتلال ١٩٤٨ أم ١٩٦٧ (هكذا يعيرنا بعض النواب الليكوديين فى الكنيست: إذا أردتم استرجاع نابلس فلماذا لا تطالبون باسترجاع يافا، وما الفرق إلا ١٩ سنة؟) والمسافة التاريخية والجغرافية بينهما لا تقيم انفصاما بالشخصية. ولذلك يتقمص الجندى بسهولة ويسر شخصية المحتل، ويحتاج إلى جهد نفسى وأخلاقى أكبر لكى يقاوم تقمصها.الظاهرة الانطباعية الثانية التى يجب أن تلفت نظر الباحث هى ذلك الاستحواذ اللاعقلانى العصابى القادم من التطابق بين السياسة الأمنية والانتقام والعقاب فى تعامل الجندى الإسرائيلى المتوسط مع الفلسطينيين أبناء المكان. يتضمن كل احتلال افتراضا عنصريا مهينا للواقع تحت الاحتلال يتمحور أساسا حول تفوق المحتل عليه. ومن دون هذا الافتراض الأيديولوجى يصعب تبرير موقع السيطرة والتحكم. ولكن الاحتلال الإسرائيلى لا يكتفى بهذا التبرير المضمر أو السافر، بل يتجاوز ذلك إلى احتكار دور الضحية، باعتبار اليهودية ضحية العنصرية الأوروبية الاستعمارية وغير الاستعمارية بامتياز، ثم يتجاوز دور الضحية إلى التنظير الأيديولوجى للضحية الحقيقية فى سياق الاحتلال. «من الصعب أن يكون الإنسان فلسطينيا» يقول شارون. إنه يطمح إلى تفهم معاناة الفلسطينيين بعد التسبب بها ورفع منسوبها للضغط عليهم. أما جولدا مائير فقد أعلنت: «لن نسامح الفلسطينيين لأنهم يجبرون أولادنا على قتلهم».

يزعج الواقع تحت الاحتلال نفسية المحتل، ومعاناته النفسية «لاضطراره» أن يقمع تنافس معاناته فى أفضل الحالات، هذا إذا لم تتفوق عليها. علينا أن نتخيل وضعا تجمعت فيه جمهرة من الناس حول جريح ينزف بعد أن طعنه سارق، وأخذت بالصراخ طلبا لأخصائى نفسانى لمعاينة المعتدى السارق بدلا من سيارة إسعاف للمعتدى عليه. لا ينبع الاهتمام الدولى بالقضية الفلسطينية من الاهتمام المباشر بها بل من الاهتمام المحلى فى كل دولة على حدة، ومن الاهتمام الدولى بالمسألة اليهودية المتشابكة مع قضايا الهوية القومية والذاكرة التاريخية فى سياق لا علاقة له بفلسطين ولا بقضية فلسطين، وتشكل فيه المعاناة الفلسطينية عاملا ثانويا وغير مباشر فى تعديل وإعادة إنتاج وتعريف هذه الهويات. أعاق هذا التعامل الدولى مع القضية الفلسطينية حلها لأنه منع صياغتها كمسألة كولونيالية، وزادها تعقيدا. ولكن عوامل الإعاقة هى ذاتها عوامل تقييد درجة القمع، بهذا المعنى لا يقتل الفلسطينى بنفس سهولة قتل الإندونيسى أو السودانى. لقد قتل المئات أثناء مواجهات بين متمردين وحكومة أوغندا وقتل عشرات المواطنين الإندونيسيين فى مواجهات بل غارات طائفية. فى نفس الأسبوع الذى جذب فيه النقاش على عدد شهداء مخيم جنين اهتمام وسائل الاتصال العالمية، وهل وقعت فيه مجزرة مقصودة ضد المدنيين أم جرائم حرب، وقعت مجازر أخرى فى مناطق أخرى لم تلفت نظر الرأى العام. إن ما يعقد حل المسألة الفلسطينية هو ذاته ما يقيد أيدى إسرائيل عن ارتكاب جرائم أكثر فظاعة بسهولة أكبر لم تمنع إنسانية إسرائيل جيشها من محو مخيم جنين

أو البلدة القديمة في نابلس عن الأرض، بل منعتها نفس العوامل التي تجنبها التعامل الدولي معها كحالة استعمارية. ليست إسرائيل كلية القدرة. ولكن إسرائيل تمن على الشعب الفلسطيني بأنها لم ترتكب جرائم أكبر، وكان على الشعب الفلسطيني أن يشكر القدر الذي ورطه مع إسرائيل وليس مع دولة أخرى، لا تسأل هي عن الرأي العام، وهو بدوره لا يسائلها. ولو أجرينا حسابا فظيعا، بحكم تعريف الحساب عندما يتعلق بحياة البشر، لوجدنا أنه كلما اقترب الفلسطيني في الفضاء الفيزيائي من إسرائيل كلما ازدادت قيمة حياته ومعاناته. فالفلسطيني في لبنان يقتل في غارة إسرائيلية بسهولة أكبر من ابن الضفة الغربية، الذي قد يسهل موته مقارنة بالفلسطيني المواطن في إسرائيل الذي يبرر مقتله المطالبة بلجان تحقيق رسمية. وكان قيمة حياة الإنسان الفلسطيني تتناسب عكسيا مع مدى بعده عن إسرائيل.

شعور فظيع أن تشتق قيمة حياة الضحية من مدى قربها من القاتل. يضاعف هذا الاشتقاق الشعور بالغبن وعدم الإنصاف، كما يزيد من الشعور بحالة انسداد الأفق لدى الواقع تحت الاحتلال إذا كانت البوابة إلى اعتراف العالم بمعاناته هي ذاتها التي تفتح على الفاعل المحتل المستعمر لتمر الضحية إلى العلم عبر منطقه ومشاعره وتبريراته. لذلك تحل المعاناة النفسية والعصبية محل ذلك الجزء من المعاناة الجسدية الذي تنبع منه أهمية الفاعل لا قيمة الضحية. وهذه ثالثة الظواهر التي تميز حالة المعاناة الفلسطينية.



لم يحصل في تاريخ الاستعمار أن دعي هذا الكم من نخب المحتلين والواقعين تحت الاحتلال إلى الحوار في العواصم الأوروبية. كما لم يحصل أن اشتقت أهمية الواقع تحت الاحتلال من قدرته على خلق موازاة حوارية مع المحتل. ولم يسبق أن اخترع هذا العدد من الكتاب والمثقفين لغرض أن يجلسوا بمقابل مثقفي المحتلين في جلسات حوار واعتراف متبادل. ولم يسبق أن شوهت ثقافة الشعب الواقع تحت الاحتلال إلى هذه الدرجة، بحيث أصبح امتحان المثقف لا إبداعه بل ابتداعه، أي اختراعه كمثقف لغرض الحوار، قبوله لحالة التكافؤ الوهمية مع مضطهد شعبه التي تجعل منه مثقفا مشوها. تقابل هذه السابقة ردة الفعل الرافضة بشكل مطلق التي تحول صاحبها أيضا إلى حالة خاوية فقيرة المضمون لأنها معتمدة كليا على الرفض كردة فعل للآخر. ولم يسبق أن أنجبت «اللياقة السياسية» politically correct هذه الكمية من الأوهام حول المساواة والتكافؤ على المستوى الرمزي بين غير المتساوين وغير المتكافئين مما يضيف من عوائق المساواة على المستوى الفعلي.

يغرق الفلسطيني بالرمزية ليس فقط كتعويض عن فقر الواقع وإنما لأن حالة التوازي والتكافؤ الكاذبة والخادعة تحتاج إلى قدر كبير من الرموز بغرض المنافسة، من المقارنة الكاذبة بعدد المثقفين والإنتاج الثقافي إلى التنافس بين دولتين بالاعتراف الدبلوماسي على المستوى العالمي. يدخل الفلسطيني في حالة منافسة خادعة ومخادعة ومعروفة النتائج بدلا من حالة الصراع الواضح مع المحتل، حيث المطلوب ليس أن تتفوق بل أن تتحرر من الاحتلال.

ويغرق المثقفون الذين يخلطون بين الاعتراف بمواهبهم وبنديتهم وبين الاعتراف بحقوق شعبهم في هذه الرمزية المريحة لأنصار السلام لدى الشعب المحتل، فهم يعترفون رمزيا بندية هؤلاء كبديل رمزي عن إحقاق الحقوق للشعب الفلسطيني والنضال من أجل ذلك. ومن هنا العشق الخاص لصناعة الهوية وقضاياها فيما وراء الدفاع عنها وتطويرها، هذه الهوية التي ينوب فيها أبطال هذه السياسة عن شعبهم بحكم تمثيلهم لهويته.

لم يسبق في تاريخ المستعمرات أن طلب من الواقع تحت الاحتلال أن يضمن أمن المحتل. ولكن صناعة التكافؤ والتوازي الكاذبة لا تتطلب هذا فقط بل تتطلب ضمان أمن المحتل نفسيًا أيضًا. ولم يسبق أن طلب من الواقع تحت الاحتلال أن يعترف لا بالمحتل القائم فحسب بل بمعاناته وبذاكرته التاريخية وبحقه الموازي.





المسئول العربي متعاطف مع الفلسطينيين وحاقد عليهم في الوقت ذاته لأنهم يكشفون له عن عجزه. ويضطرونه إلى إحراج ذاته وإحراج الولايات المتحدة لو أراد أن يرخي لتعاطفه العنان، ولو أراد أن يتفاعل مع مزاج شعبه السياسي



تتعامل الحالة الإعلامية العربية مع المعاناة الفلسطينية بالمقاييس العربية. ويسمع الفلسطيني أخبار شعبه ومدينته وحارته من الإعلام الفضائي العربي. لقد باتت حتى أخبار الحي تمر عبر مصفاة الفضائيات، وبات الفلسطيني يتعامل ليس فقط مع معاناته بل مع صورتها في وسائل الإعلام العربية. ولا تتعامل وسائل الإعلام العربية مع معاناة الفلسطينيين بالمقاييس العربية فحسب، بل ويتناسب فيها حجم المعاناة مع قدرتها على التعبير عن ذاتها فضائيا. ويصطنع السياسيون في بعض الحالات معاناة فضائية ليكتسب موقفهم شرعية. فالشرعية الفضائية لا تشتق من صحة أو صدق الموقف بل من الاعتراف بمعاناة صاحبه. وإذا لم يكن اعتقال يختلق اعتقال أو ضرب أو ملاحقة ليصبح السياسي ضحية. وتشاهد ضحايا الضرب والاعتقال الفعليين بحسرة تحول المعاناة إلى أداة بيد الأقرب إلى الإعلام لاكتساب الشرعية، فيضاف الإحباط إلى المعاناة الجسدية، كما تنشأ حالة الارتباك واختلاط الكذب بالحقيقة، والأنكى من هذا كله تحول الكذب إلى تعبير عن الحقيقة. وإذا لم ينجح السياسي الإعلامي بالتحول إلى ضحية، أو ببث صورة الضحية عن ذاته وهو الأمر الأهم، فإنه يتحول إلى ممثل للضحايا وناطق باسمهم. وإذا لم يكن قادرًا على جعل الموقف السياسي يعبر عن المعاناة بالنضال التحرري بهدف وضع حد لها، يصبح تضخيم المعاناة تثبيتا أكيدا للشرعية والمكانة في أوساط مستهلكة للإعلام. ويؤدي تضخيم المعاناة إلى المس بالمصداقية خارجيا، كما يؤدي إلى تآكل القدرة على الصمود داخليا. ترتبط القدرة على الصمود إلى حد بعيد بصدق التعبيرات عن المعاناة. فإذا شعر الإنسان الذي يواجه القمع في حياته اليومية أن هنالك من يستفيد من معاناته من خلال التعبير الكاذب عنها، أو من خلال تقمصها، بل وسرقتها، فإن قدرته على الصمود تمس إلى حد بعيد.

في كل حركة وطنية تعيش طفيليات على جراح الناس المفتوحة وقيحها. ولكن الاهتمام العربي والدولي بالقضية الفلسطينية جعل بالإمكان الارتقاء بالتطفل إلى مرتبة الصناعة وتحويل الـ«قضية الفلسطينية» إلى هدف أو غاية أو إلى واقع معاش ينبغي الحفاظ عليه. من هنا تم الانتقال بالحركة الوطنية من حب فلسطين وحب الحرية لشعبها إلى حب القضية الفلسطينية، ومن الحياة الحقيقية المعاشة إلى الولع بالرموز المعبرة عن «القضية». لقد نشأت حول «القضية» دراما إعلامية تمثيلية تسمح بكم هائل من التمثيل والكذب الصريح بغرض اكتساب الشرعية من استخدام لغة القضية، بما فيها التظاهر والاحتجاج المحسوبان وغيرهما مما لا يدفع صاحبهما ثمنا ويكسبه شرعية.

يقتضي حب فلسطين كشعب محتل وكبلد محتل التضحية في معركة التحرير ضد الاحتلال. ولكن التضحية في هذه الحالة ليست هدفا قائما بذاته، بل يحاول المناضلون تجنب التضحية خاصة إذا كانت بحياة الآخرين. ولكن التعبير عن حب القضية الفلسطينية، بدلا من الفلسطينيين، يتم بالمعاناة أو تقمصها رمزيا وتحصيل اعتراف بذلك ضمن الحيز العام. ولكن هذه المصلحة باستمرار القضية الفلسطينية كحالة خطابية صوتية تقتضي التضحية بحياة الآخرين، ومن ثم المبالغة بحجمها ترضية للضمير وتعويضا صراخيا عن عدم المشاركة بالتضحية، ومحاولة لتحقيق أعظم استفادة، بدل أعظم فائدة، ممكنة من هذه التضحيات.



تصلح صنمية القضية غطاء لمن لديه مصلحة باستمرارها، كما يمطها ويمغط كلاشيهاتها الجاهزة ذلك الذي استنتج ضرورة تصفيتها لتغطية صفقات تبرر بجمل «القضية» الجاهزة غير المركبة من كلمات ولا معاني بل من استعارات وصور. «الصمود والمقاومة البطوليان» يصلحان لتبرير «المضي في نفس الطريق» دون تلخيص العلاقة بين الوسيلة والهدف، أي بين الوسيلة ونجاعتها، أي بنفي صفة ومعنى الأداة النضالية عن الوسيلة. كما يصلح «الصمود والنضال البطوليان» لتبرير العودة لقبول ما لم يقبل والتأكيد بالتالي على أن الانتفاضة خطأ تأسس على خطيئة الرفض، ذلك لأن هذا الصمود لم ينفع بتحريك العالم العربي، كما يدعي التصفويون زورا، ولأنه لم يعدل ميزان القوى المختل لصالح إسرائيل...تختلط صنمية القضية حابل الدوجمائية والجمود العقائدي الفارغين بنابل البراجماتية المتبجحة ولكن الفارغة من أية إنجازات هي الأخرى.

هذه الصنمية تمكن من إطلاق الهتاف العجيب الغريب «عالقدس رايحين شهداء بالملايين» !! كيف بالملايين؟ ولماذا بالملايين؟ ومن سيبقى بموجب روح هذا الهتاف ليحتفل بتحرير القدس؟ وهل تحرير القدس هو الهدف أم تحرير الشعب لتكون القدس عاصمة؟ كان الشعب الفلسطيني سيناقش هذه الأسئلة لو أخذ الهتاف بجدية. ولكنه يعرف انه لا علاقة بين هذا الهتاف وتلك الممارسة. تماما كما يدرك العرب خواء خطيئة الزعماء العرب الذين يريدون التضحية بـ«مليون» مواطن في الحرب مع إسرائيل. فهم من ناحية يدركون عدم جدية وغياب نية المسرفين بحياة ملايين المواطنين في خوض الحرب. ولكن هذه التصريحات من ناحية أخرى تذكرهم بالاستهتار بحياة المواطنين، وحياة المواطنين اليومية ضحية دائمة لممارسات هؤلاء. تؤدي صنمية القضية إلى تناسب عكسي بين ضخامة الشعارات وضآلة الممارسات.

تشكل لغة «القضية» والمعتاشين عليها كصناعة من رفضيين وتصفويين مصدر ارتباك شديد للحالة السياسية والشعورية الفلسطينية يعبر عنها بالانتقال السريع من الحماس الجارف والرافض لأي اعتبارات يمليها الواقع، والتهريج الذي لا يدع الحقائق تربكه، والذي يصدق كل إشاعة عن البطولة، إلى اليأس والقنوط القاتلين، ثم إلى التشكيك بكل شيء، هذا التشكيك المصاغ دائما وأبدا بلغة المؤامرة، والذي يصدق أية إشاعة عن «الخيانة» هذه المرة. هذه هي الظاهرة الرابعة التي تنتصب بعناد لا يترك مجالا للباحث للتهرب. تتعلق هذه الظاهرة بالإرادة السياسية، والإرادة السياسية هي العامل الأكثر أهمية في مرحلة التحرر الوطني خاصة بالنسبة لمن يعمل ضمن اختلال في موازين القوى في غير صالحه كمعطى، كما هو الحال في النضال ضد الاستعمار.

لقد نشأت ازدواجية تمنع الجمع بين المبدئية والعقلانية: فإما مبدئية غيبية ودوجمائية تنص بجمل جاهزة وإما عقلانية متلملظة تبحث عن طريقة لطرح تذوق الهزيمة بشكل عقلاني. تمنع عصبية وارتباك الحالة الفلسطينية التقييم العقلاني النقدي للمراحل. ويمنع غياب التشخيص والتقييم النقديين إمكانية وضع استراتيجية نضالية.

وما يحتاجه الشعب الفلسطيني، ما يحتاجه الفلسطينيون الآن هو تلخيص نقدي لا يمر مر الكرام على مجريات الأحداث ويصلح أساسًا لمناقشة استراتيجية سياسية تشمل برأينا استراتيجية مقاومة ضد الاحتلال. لم تتم مثل هذه المناقشة للتجارب السابقة في لبنان والأردن والكويت لأن الحالة الفلسطينية تحللت إلى حالات متناقشة كل في داخله، فجهاز منظمة التحرير هو جسم قائم بذاته لا علاقة لاعتباراته بنقاش الشارع. ولديه مجموعة مصالح واعتبارات إقليمية ودولية لا تؤثر فيها نقاشات الشارع الفلسطيني المنقسم أصلا إلى شوارع يمكن اللجوء إلى أحدها تجنبا للاعتراف بالفشل في الآخر بل لكي يكون بالإمكان اعتبار الفشل نصرا يحتفى به. وبهذا المعنى فإنها قيادة لا تهزم ولا تقهر بمعنى أنها لا تعترف بالفشل، أي فشل. وربما يكمن الفرق بين أزمة أبريل ومايو من العام ٢٠٠٢ وبين سابقاتها في غياب شارع سياسي فلسطيني يصلح لاستقبال القيادة الفلسطينية بعد الضفة والقطاع. وقد يحتم ذلك ضرورة الاستماع إلى ما يقال.

كلمة أخيرة

إذا كانت المقاومة أمرا مذموما، فلماذا تغنى الجميع بالمقاومة التي صمدت أياما طوالاً في مخيم جنين بناء على قرار المقاومين؟ وإذا كانت المقاومة أمرا محمودا فلماذا لم يدع المتغنون بها إليها؟ ناهيك عن ممارستها عندما يتطلب الأمر ذلك.

فلسطين.. الأمان فى العمق

طارق البشرى

[١]

في السبعينيات، جنحت سفينة مصرية في شاطئ الإسكندرية، وتهشمت جوانبها، أيامها قال لى صديق عزيز كان من ربابنة السفن الكبيرة: «إن ربان السفينة الجانحة أخطأ بالاقتراب من الشاطئ عندما اشتدت به الريح وعلا الموج، كان الأحرى به ألا يقترب من الشاطئ وأن يدخل بسفينته فى عرض البحر». سألته متعجبًا وكيف يكون عرض البحر الهائج آمن على السفينة من الشاطئ الأقل هياجًا، فأجابنى بأنه عندما يشتد الريح ويعلو الموج، فأمان السفينة فى العمق، إنها إن اقتربت من الشاطئ ضربتها الأمواج على صخوره فتتكسر، أما فى العمق فهى كلها أمواج فى أمواج، إن ضربها موج تلقاها موج آخر وحملها.. وعندما تعصف الريح ويثور الموج فالأمان فى العمق.

وعندما يصف القرآن الكريم فى سورة «هود» حادث الطوفان، نعرف أنه لما علا الماء وتفجرت به ينابيع الأرض وهطلت به أمطار السماء، وظل يعلو على الأرض ويعلو. هرب ابن نوح من الماء وظل يصعد ويصعد لئلا يصله الماء، حتى بلغ قمة الجبل، ولكن المياه علت وعلت حتى أدركته فكان من المغرقين، أما نبى الله نوح عليه السلام، فادرك بالحكمة الربانية أن الأمان ليس فى الهرب ولكن فى المواجهة، وأن الأمان لا على صخور الشواطئ، ولكنه فى عمق البحار الهائجة، وأن الأمان من الموج فى الموج نفسه، فلما بلعت الأرض ماءها واقلعت السماء وغيض الماء، ساعتها فقط استوى نوح بسفينته على الجبل.

ونحن الآن، على هذه الأرض، منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بدأت الرعود الأمريكية، ومن ٧ أكتوبر ٢٠٠١ بدأ ضرب أفغانستان، ومن ٢٨ مارس ٢٠٠٢ تصاعد الاجتياح الصهيونى الأمريكى لمدن فلسطين بالضفة الغربية.. فالعاصفة قوية والريح شديدة والموج هائج، وكل ذلك يتصاعد ويبلغ العراق حيث جبل الجودى الذى استوت عليه سفينة نوح، ومع ذلك فليس من بين ربابنة الدول العربية من أدرك حكمة نوح عليه السلام، وليس منهم من ابتعد عن صنيع ابن نوح، وما منهم إلا من جنح بسفينته إلى صخور الشاطئ، هاربًا من الموج آويًا إلى ما تتكسر عليه الضلوع.

ونحن نعرف من فنون إدارة الصراع أنه فى مرحلة التصاعد المتبادل بين طرفى الصراع، فإن من يقف أولاً يكون هو الهالك والمهزوم. إلا أن يكون «متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة»، أى إلا أن يكون باقيًا على عزم القتال موصول الأعمال به ولم يُلق سلاحه، وما من مرة فى الصراع العربى الصهيونى الأمريكى بادرنا فيها بقبول إلقاء السلاح إلا ودارت علينا الدوائر.

ونحن يتعين علينا أن نستدعى الحكمة من شعر أبى الطيب المتنبى عندما يقول:

تفرست فى الآفات حتى تركتها
تقول أمات الموت أم ذعر الذعر

[٢]

نحن هنا لا نتكلم عن العنف الحتمى، لكننا نتكلم عن وجوب المواجهة حتمًا بالطريقة المناسبة، وإن كان العنف هو الخيار المطروح والراجح الآن، وأنه هو السبيل الذى لابد من ولوجه فى الحالة الفلسطينية الراهنة والمعيشة، وإن السعى الصهيونى للضم القسرى للأراضى المحتلة والإبادة المقصودة للشعب الفلسطينى والتهجير المزمع بالقوة، كل ذلك لا يواجه إلا بالمقاومة العنيفة. وما كان يمكن لانتفاضة «أطفال الحجارة» فى ١٩٨٧ إلا أن تتطور من طرفيها فى انتفاضة القدس فى ٢٠٠٠، فيصير الأطفال شبابًا وتصير الحجارة رصاصًا ومتفجرات.

وإسرائيل مجتمع استيطانى لايزال ينشأ ويتوسع، والمجتمعات الاستيطانية لا تنشأ بالحق إنما تنشأ بالقوة، والمعادلة التى تتبناها هى: القوة، ثم الأمر الواقع، ثم ما يدعى بعد ذلك من حقوق، وهكذا قامت الولايات المتحدة ذاتها، ولا يقابل ذلك إلا بالمَنَعة المادية أولاً، والمقاومة العنيفة أولاً أيضًا، ولا يجرى إقناع المعتدين عن طريق الحقوق وإنما عن طريق الإفشال المادى للسعى العدوانى العنيف، وإلا بأن القوة سترتد أضرارًا مادية للمعتدين وإيجاعًا جسمانيًا لهم، وأن المعتدى لن يحقق كسبًا بعدوانه، بل إن خسارته المادية والبشرية تفوق ما يعوِّل عليه من كسب.

ونحن لا نتنازع مع العدوان الإسرائيلى الأمريكى حول أرض غريبة عنا يطمع فيها كلانا، بمعنى أننا لسنا طرفًا فى صراع بين متنازعين، ولكننا نحن موضوع الصراع ذاته، نحن موضوعه وأحد طرفيه فى ذات الوقت، وهذا الوضع يعطينا مزيّة لا تكون لغيرنا قط، وهى مزية لا ينفد معينها، وما من بلد غلبه المعتدون على أمره وانتهى جهاده ضدهم إلا بردّ الاعتداء. وقد تكسرت إمبراطوريات أمام هذا الصبر والتصميم. والصبر والمصابرة، وطول النفس يأتيان من أنه فى صراع الوجود وفى مجال الدفاع عن الذات، يمكن للجماعة أن تُغلب مرة ومرات، ولكنها مجتمعة - أو أيًا من قواها منفردة - لا تملك أن تتنازل عن الحق فى الوجود الحاضر أو فى البقاء المستقبل، والأجيال تتوالى ولا يؤثر فى حقوقهم ما انضغطت به إرادة أسلافهم. ونلحظ الآن أن المعلقين يكتبون أن مسألة فلسطين هى أقدم مشكلة فى عالم اليوم، وهذا صحيح لأنه لا نهاية لمثل هذه المسائل إلا باسترداد الوجود لمن أُريد إفناؤهم أو إزاحتهم. وفلسطينيو الشتات وهم بضعة ملايين الآن، لايزال حقهم فى العودة إلى ديارهم قائمًا لديهم ولدينا جميعًا.

أما المعتدون فهم ليس لديهم هذا النوع من الحقوق طويل المدى، أو هذا النوع من الحقوق العابر للأجيال، إنهم فى الغالب يبحثون عن المنفعة وعن الربحية، والأمر يتعلق بحساب الربح والخسارة ومجالات القوة والهيمنة، بمعنى أن الأهداف هنا تتعلق بالكسب المادى واستغلال الثروات، أو تتعلق بالمواقع الإستراتيجية والعسكرية لضمان الانتشار وتأمين طرق المواصلات الدولية، أو تتعلق بالوجود السياسى فى مواقع الهيمنة، وعلى أى من هذه الأهداف فإنه إذا فسدت إمكانات تحقق الهدف بسبب جدية المقاومة واستمرارها وتحديها للأهداف المطلوب تحققها، إذا حدث ذلك يكون فشل المشروع.. وهنا نجد أن نوع المنافع التى كانت مرجوة هى منافع قصيرة المدى نسبيًا وقابلة للتغيير والاستبدال، وأن عدم تحققها وظهور عدم إمكان ذلك يؤدى إلى استبدال غيرها بها وإلى تنحيتها، فيحمل المعتدى عصاه ويرحل.

وإذا كان يمكن القول بأنه لا مهرب من استخدام العنف عند مواجهة استعمار استيطانى قائم على كسب الأمر الواقع بالقوة أو يتوسل لذلك بإبادة أصحاب الحق وأصحاب الأمر الواقع القائم، بالإزاحة أو بالقتل، إذا كان هذا هكذا، فإنه يتعين القول بأن للمقاومة العنيفة ضوابط، فهى أولاً تمارس فى الأرض المحتلة عادة وليس خارجها، وهى تمارس ضد الطرف المعتدى عسكريًا كان أو متخذًا سمتًا مدنيًا، وهى مع تنامى الصراع تتنامى وتتسع دائرتها الجغرافية. وتتصاعد وتتمدد وسائل القوة حسب خطط العدو المعتدى وحسب ما يستخدمه من أدوات العنف، والتصعيد حتمى لمن يبغى النصر بما يشمل ذلك من المصابرات والتحرف للقتال والتقاط الأنفاس، ولكن دون إلقاء السلاح ودون كسر إرادة الاسترداد، مع ملاحظة أنه لا عنف إلا فى الأرض المعتدى عليها، ولا عنف إلا ضد المعتدين، وهذا مما يُستقرأ من حالات المقاومة الوطنية التى عرفناها فى العالم عن التاريخ المعاصر.

واستقراء هذه الحالات أيضًا، يظهر أن للعنف درجات، من حيث مداه الإقليمى، ومن حيث وسائله، بدءًا من الحجارة كما حدث فى انتفاضة ١٩٨٧، حتى كل أشكال حروب العصابات، ولا يفرق أسلوب عن أسلوب إلا بالملاءمة الواقعية والخبرة العملية وفنون المواجهات، وهذا ما أظن أن القارئ المتابع المهموم بهذه القضايا يدركه جيدًا. إنما ما أقصد أن أشير إليه هما أمران:

أولهما: أنه متى كان العنف بأى من أساليبه المناسبة لا محيص عن استخدامه فى مقاومة المعتدين، فإنه يصير هو الأسلوب الحاكم لغيره من الأساليب الأدنى، بسبب تكلفته وضحاياه، ولأن التكلفة البشرية له باهظة الثمن دائمًا، ولأنه لم يلجأ إليه إلا لثبوت عدم إمكان نجاح المقاومة بغيره، ومن ثم فهو مفترض فيه أنه الأبلغ مقصدًا.

وثانيهما: إن كل أساليب المقاومة السلمية المشروعة بعد ذلك، سياسية أو اقتصادية أو إعلامية، تكون ممكنة ومطلوبة فى إطار خدمتها للأسلوب الأكثر حسمًا، وكلها مطلوبة وليست مستبعدة بطبيعة الحال، ما بقى التقدير السائد أنه لا مناص من استخدام العنف من أجل التحرير، وما بقى كل من هذه الوسائل محكومًا بالوسيلة الأحسم، تهيئة وتيسيرًا وإتاحة وتطويرًا وكفالة استمرار.

إنه عند القول بلزوم استخدام العنف فى حركات التحرير ومقاومة المعتدين، فإن ذلك لم يكن أبدًا اختيارًا من بدائل متاحة.. تفضى كلها إلى ذات الغاية من مقاومة جادة وتحرير

إن القول بأن السلام خيار إستراتيجي، يقال أمام مستعمر استيطاني يملك السلاح النووي، هو قول لا يفضي إلا إلى الاستسلام

مرتقب، لأن اتباع سبل العنف، يعني بالنسبة لحركات التحرير والجهاد الاستعداد لتحمل خسائر باهظة في أعز ما تملك الجماعة المقاومة وهو النفوس البشرية والأرواح، وما من جماعة مستعدة لأن تقدم أرواح أبنائها إلا اضطرارًا، وذلك مصداقًا لقول الله سبحانه وتعالى: «كُتب عليكم القتال وهو كره لكم». لذلك فإن القول بأن السلام خيار إستراتيجي، يقال أمام مستعمر استيطاني يملك السلاح النووي، هو قول لا يفضي إلا إلى الاستسلام لأنه لا سلام إلا من خلال استخدام أساليب عنف مناسبة في هذه الحالة.

[٣]

بدأت انتفاضة الأقصى في ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠، وهي مستمرة بإذن الله حتى التحرير، ومضى عليها إلى الآن عشرون شهرًا، وخلال هذه المدة انعقدت مؤتمرات حكومية للدول العربية والإسلامية عدتها أربعة مؤتمرات، وانعقدت على مستوى القمم أي رؤساء الدول، كان أولها مؤتمر قمة الدول العربية الطارئ الذي انعقد مع بدايات الانتفاضة، ثم تلاه مؤتمر قمة الدول العربية الدوري الأول بالأردن في مارس سنة ٢٠٠١، ثم مؤتمر قمة الدول العربية الدوري الثاني ببيروت في مارس سنة ٢٠٠٢، وخلال ذات الفترة انعقد مؤتمر قمة الدول الإسلامية في قطر.

وقد أظهر الأمر مفارقة كبيرة بين الاستجابات الشعبية القوية للانتفاضة ووقائعها وبين الاستجابات الرسمية الحكومية بترددها وارتعاشها ولعثمتها قولاً وفعلاً.

ومن الطبيعي أن يوجد دائمًا قدر معتبر من التباين بين المواقف الحكومية وبين المواقف الشعبية، والحكومات أبطأ حركة وأقل انطلاقًا وأكثر قيودًا، في حين أنها أفعل وأكثر تأثيرًا. لأنها تملك اتخاذ القرار وتنفيذه، بما يقتضي ذلك من تجميع للمعلومات وشبكات تنظيم وقدرة تحريك وإمكانية مالية ومادية متاحة في أيديها، ولكنها في الوقت ذاته حكومات مسئولة عن إدارة الشئون العامة للجماعة من حيث المرافق العامة كلها، ومن حيث الخدمات العامة جلها، من أول الطرق والكباري والترع إلى المدارس وسياسات الاقتصاد، وهي من ناحية أخرى عضو في الجماعة الدولية وهي شخص من أشخاص القانون الدولي بما يفرضه عليها ذلك من علاقات وتبعات وبما ييسره لها أيضاً من مصالح ومنافع.

وفي المقابل فإن الحركات الشعبية هي أخف حركة وأسرع استجابة وأقل قيودًا، وهي وإن كانت أقل خبرة وأضعف في إمكانيات التنفيذ بما لا يقارن، إلا أنها في النهاية لابد مؤثرة في الدولة وفي حركتها ونهجها، والدولة ما وجدت إلا لخدمة الجماعة، وما بقيت إلا لأن بقاءها على المدى الطويل يعيد انتظام حياة الجماعة واستقرار وضعها ورتابة حركتها المعيشية.

وأن التباين بين الموقف الرسمي الحكومي والموقف الشعبي، وإن كان أمرًا واقعًا ووضعا مفهوماً، إلا أن اتساع هذا التباين عن درجة معينة، يهدد أمن الدولة واستمرارها بنظامها وسياستها المتبعة، ويلقي عليها عبء أن تعدل من هيئة السياسات المتبعة ومن جذورها العميقة، وإن لم تفعل فإنها تتعرض في العاجل أو الآجل إلى أن تتعدل هذه السياسات والهياكل السياسية على رغمها، من خارج النظام القائم وبأساليب تتراوح في الحدة واللين، وتتراوح في الفجائية والتدرج، وتتراوح أحيانًا في العنف والسلم، وكل مشروط بوقته وموازينه وملابساته الداخلية والخارجية.

وما يستدعي التنبيه أن هذا التباين بين الحكومي والشعبي ليس فقط أكثر مما تحتمله علاقات الاستقرار بين الجانبين، وليس فقط مما يمكن رأب الصدع بشأنه بالدعايات الإعلامية وذكر أنصاف الحقائق، وباللف والدوران ووسائل التدويخ الفكري من محترفي الصياغات الفكرية، ولكنه تباين يتعلق فيما أظن بأوثق المسائل التي تصل وتربط بين الحكومات وشعوبها، وهي مسائل الأمن القومي.

وأقول للمرة الثالثة فيما كتبته أخيرًا أن كفالة الأمن القومي هي أهم من كفالة الماء والخبز، وتهديده هو أفدح من تهديد الجماعة في مائها وخبزها، بل على وجه الدقة فإن قضايا الماء والخبز هي بعض عناصر الأمن القومي، ويفوقها خطرًا وجود دولة عنصرية توسعية تكتسح أهالينا اكتساحًا من أراضيهم وتبيدهم إبادة أو تزيحهم إزاحة، وشعبها المستوطن المجلوب من الخارج يؤيدها وينتخب الأكثر قدرة من ساسته وحاكميه على الإبادة والقتل والتدمير، وتمتلك كل أسلحة التدمير والقتل بما في ذلك السلاح النووي، ولا تكف عن التطلع إلى كل الأراضي المحيطة.

أن يصل الأمر إلى أن حكومات مهددة في نفسها وشعوبها تكرر القول دائمًا بأن السلام هو خيارها الاستراتيجي الذي لا محيد عنه، وتصير الوسيلة هدفًا، ويصير السلام عنصرًا يطمئن المعتدي أنه لن يواجه ما يتهدده في عدوانه، وأن يصل الأمر إلى أنه حتى بالنسبة للـ«أسلحة السلمية» مثل سلاح المقاطعة أو التأثير في السياسة البترولية أو غيرذلك، تصدر تصريحات حكومية رسمية حازمة بأن أيًا من ذلك لن يستعمل، وأنه إذا استعملته إحدى الدول العربية فستعوض الأخرى النقص الناتج عن ذلك، أن يصل الأمر إلى هذه الدرجة من الجانب الرسمي، وإلى نقيضه من الجانب الشعبي، فيتصل سيل المظاهرات الشعبية أسابيع في البلاد العربية كلها حتى في البلاد التي لم يعرف أهلها التظاهر من قبل قط، وفي بلاد لم يعتد أهلها على التظاهر السريع، وفي بلاد تواجه حكوماتها حركة التظاهر بما اعتادت مواجهتها به من قمع وتصفية، وأن تكون هذه المظاهرات واضحة التعاطف مع المقاومة المسلحة التي تستخدمها حركة تحرير الشعب الفلسطيني وتطالب بدعمه ومشاركته، أن يصل الأمر إلى هذا التناقض فإن الظاهرة خطيرة فعلاً في إمكانية تحقق الاستقرار من بعد، ما بقي التباين بهذا الحد وفي هذه المسألة الفارقة.



[٤]

إننا إذا حاولنا تلخيص تاريخنا السياسي عبر القرنين الماضيين، سواء في مصر أو في أي من بلاد العرب والمسلمين، فسنلحظ أنه من الناحية الشعبية يتلخص في حركات التحرير الوطني ضد الاستعمار الغربي. وسنلحظ أنه من الناحية الحكومية يتلخص في موقف الحكومات الوطنية من قضايا الأمن القومي، وحيث يكون الحكم وطنيًا يكون كل همه استكمال استقلالية الإرادة السياسية وكفالة استمرارها، وحيث لا يكون كذلك تتولى الحركات الشعبية نقد الحكومة ومقاومتها فيما تقاوم ومحاولة تصويب مسارها.

إننا على مدى هذين القرنين بدأنا أولاً نعاني من الضغوط الاقتصادية والسياسية والمحاصرة والتغلغل البشري الأوروبي من رجال الأعمال والمغامرين والامتيازات الأجنبية والتدخل باسم حماية الأقليات المسيحية (ذلك ما حدث في الدولة العثمانية)، ثم جاء الاحتلال العسكري الغربي لبلادنا قطرًا قطرًا مع هيمنة الدول المحتلة وسقوط الإرادة الوطنية لهذه الدول، وذلك على مدى خمسين سنة من الربع الأخير للقرن التاسع عشر حتى الربع الأول للقرن العشرين، ثم بدأت حركات التحرر الوطني يشتد عودها لإجلاء الاحتلال العسكري الأجنبي وذلك على مدى الخمسين سنة التالية حتى أوائل السبعينيات.

وفي هذه الفترة من ظهور حكومات التحرر الوطني، وجلاء القوات الأجنبية عن بلادنا ظهرت أشكال جديدة للسيطرة الغربية على بلادنا، بدأت في الثلاثينيات من القرن العشرين في صيغة معاهدات الدفاع المشترك بين دول الاستعمار القديمة الكبرى وبين أقطارنا حديثة العهد بالاستقلال، ثم تطور ذلك بعد الحرب العالمية الثانية إلى اتفاقات الأحلاف العسكرية بين تلك الدول الاستعمارية الكبرى وبين أقطارنا، وهناك من خضع من بلادنا وهناك من قاوم مجاهدًا من أجل استكمال إرادته السياسية.

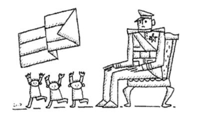
وفي هذه الأثناء ظهر الشكل الجديد، وهو إنشاء دول تستفيد من ضمانات القانون الدولي من حيث عدم جواز التدخل في شئونها الداخلية ومن حيث الحماية الدولية لها باسم حماية استقلالها، ولكنها دول لا تؤدي من الوظائف إلا ما يناسب أهداف الدول الاستعمارية الكبرى وأطماعها، سواء بالنسبة لاستنفاد الثروات الطبيعية المحلية لصالح هذه الدول الكبرى، أو بالنسبة لتكوينها قواعد عسكرية تمكن من الهيمنة السياسية على الشعوب المحيطة بها أو القريبة منها، ويجري ضمان أداء هذه الدول المصطنعة لهذه المهام دون غيرها عن طريق أنها تكون دولاً بغير شعوب ثابتة ومستقرة وقديمة في أي من هذه الأقاليم، ويكون ذلك عن طريق التهجير إليها من الخارج، فيصير الأجانب بها أكثر من المواطنين، أو يصير حديثو العهد فيها أضعاف السكان الأصليين، أو تصير موطنًا للمهجرين إليها بدلاً من سكانها الذين تجرى إزاحتهم بالقوة المسلحة وبالإبادة أو الترحيل مثل ما يحدث في إسرائيل.

والمهم في ذلك أن وجود قوة احتلال عسكري تتخذ هذا الشكل الدولي. لا يعتبر في يقيني أنها دولة مستقلة، ولا يعتبر في ظني أن من جاورها من دول وأقطار وأقاليم هي دول أو شعوب مستقلة بريئة من وصف الاحتلال العسكري الأجنبي لها، يكفي أن هذه الشعوب والدول المسماة بالمستقلة تقع تحت

أن كفالة الأمن القومي هي أهم من كفالة الماء والخبز، بل على وجه الدقة فإن قضايا الماء والخبز هي بعض عناصر الأمن القومي، ويفوقها خطرًا وجود دولة عنصرية توسعية تكتسح أهالينا اكتساحا من أراضيهم







التهديد المباشر «للقاعدة العسكرية / الدولة»، يكفى أن هذه الشعوب والدول المسماة بالمستقلة لا تملك القدرة على درء هذا التهديد عن نفسها، والاحتلال الانجليزى لمصر عندما أجلى قواته المسلحة عن المدن المصرية وركزها كلها بالقاعدة العسكرية التى أنشاها فى منطقة قناة السويس فى سنة ١٩٤٧ لم يشعر مصرى واحد أن ثمة استقلالاً تحقق، ونحن الآن بالمثل لا ينبغى أن نتوهم أن استقلالاً لنا تحقق ما بقيت إسرائيل (القاعدة العسكرية / الدولة) المهددة لحدودنا ومجتمعاتنا ودولنا، وهكذا الأمر بالنسبة لسوريا ولبنان والأردن، وهو كذلك بالنسبة للسعودية وما جاورها والعراق وغيرها.

والحادث أن إسرائيل حطمت المفاعل النووى العراقى فى أواخر السبعينيات لأنه يهددها، وأنها تنظر بريب إلى المفاعل الباكستانى وإلى تسلح إيران، والحال من قبل أن بريطانيا أعلنت الحرب على ألمانيا الهتلرية عام ١٩٣٩ عندما سيطرت ألمانيا على ميناء دانزج فى بولندا، ودون أن تقترب ألمانيا من الجزيرة البريطانية. وعرف العالم كله أن بريطانيا بإعلانها الحرب لم تكن تبدأ حربًا ولا كانت تعتدى على غيرها، بل الظن الغالب أنها تدفع عن نفسها خطرًا وشيكًا ظاهر النية فى عدوانه جهير العزم على التوسع، وأن حالنا نحن العرب بالنسبة لإسرائيل أظهر من حال بريطانيا بالنسبة لألمانيا فى ١٩٣٩. ومسائل الأمن القومى لا تقف عند الحدود الجغرافية، إنما تهتم بحجم الضغوط على الإرادة السياسية وحجم التهديد للجماعة.

ونحن نعرف من تاريخنا الحديث فى مصر، أن موضوع الاستقلال الوطنى ومدى تحرر الإرادة السياسية الوطنية هو الموضوع الذى حكم كل نظمنا السياسية واستقرار حكوماتنا. وفى دراسة سابقة لى عن معدل تغير الحكومات فى مصر بين الأحزاب السياسية فى ظل دستور ١٩٢٣، وعلى مدى ثلاثين سنة تلت صدوره، تبين أنه ما من تغيير وزارى أساسى جرى فى هذه الفترة إلا وكان بسبب يرجع إلى فشل مفاوضات مع الإنجليز أو إفشال مفاوضات معهم، أى أنه ما من مسألة تتعلق بنظام الحكومة إلا وكانت متصلة اتصال سببية بالمسألة الوطنية. وهذا ما أدى بى إلى اعتناق مبدأ عن التقويم التاريخى للأحداث المصرية يتعلق بأن الديمقراطية كانت دائمًا منظورًا إليها فى إطار خدمتها للمسألة الوطنية، وأن الصلة بين المسألتين صلة لا تنفصم، وهى لم تنفصم.

واتصل هذان الأمران بصورة أعمق وألزم لما ظهرت المسألة الفلسطينية، فتغير نظام الدولة كله فى مصر بعد هزيمة ١٩٤٨ فى فلسطين، وتغير النظام السياسى والاجتماعى كله فى مصر كذلك بعد حرب ١٩٦٧. وإذا ذهبنا إلى التاريخ البعيد فى بداية القرن التاسع عشر، وجدنا أن تهديد الأمن القومى للدولة العثمانية الذى ظهر فى هزيمتها أمام روسيا واضطرارها لإبرام معاهدة كشك قينارجى فى ١٧٧٤ هى ما به بدأت مشكلة الأمن الجماعى لهذه الدولة، ومن يومها خلع سلاطين وقتل سلاطين وجرت ثورات، وأبيد جيش الانكشارية وقامت جمعيات سياسية سرية وعلنية، جرى كل ذلك بحثًا عن توفير عناصر الأمن الجماعى للدولة والمجتمع.

وبالمثل فإن حملة عسكرية فاشلة على مصر جرت من الفرنسيين فى ١٧٩٨ ولم تستطع أن تستمر أكثر من ثلاث سنوات، هذه الحملة قضت تمامًا على نخبة سياسية ظلت تحكم مصر منفردة مائتين وخمسين سنة وتشارك فى حكم مصر مع العثمانيين مائتين وثمانين سنة تالية، وهى نخبة المماليك، قضى عليها ظهور فشلها فى حماية مصر وأمنها من غارة الفرنسيين عليها. وسقطت إلى غير رجعة لها فى التاريخ كله.

وقد قصدت أن أذكر هذه الأحداث فى غير ترتيبها الزمنى لكى تظهر دلالتها السياسية بأقوى مما تظهر دلالتها التاريخية المستقاة من تتالى أحداث التاريخ، كما قصدت أن أركز الأحداث المشار إليها فى رؤوس موضوعات حتى لا تصرفنا التفاصيل عن التنبه للدلالات العامة.



[٥]

أظهرت الأحداث الفلسطينية الجارية الآن، أن بلادنا ليست فى تمام السيطرة على قرارها السياسى. وإن نقص السيطرة هنا عندما يتعلق بمسائل الأمن القومى إنما يعتبر نقصًا فى السيادة. لأنه يفيد عدم توافر القدرة على تحريك الإرادة السياسية إلى ما يوفر الحماية لأمن الجماعة تجاه مخاطر الخارج، وهذا قيد على الاستقلال السياسى.

أخشى أن أصل إلى فكرة أن الأحداث الأخيرة تكاد تشير إلى أنه لم يعد للكثير من الدول العربية سياسة خارجية، أقصد سياسة تصدر فى الأساس - وقبل كل شىء وبعد كل شىء - عن صوالح الشعوب والجماعات العاجلة والآجلة، وإدراك بالالتزام بما يحقق هذه الصوالح، على مستويات الإعداد الداخلى والتوجه الاقتصادى والخيارات المتاحة من حيث العلاقات مع الدول الأخرى ووجوه تبادل المنافع معها.

إن فلسطين محتلة، وسوريا فيها أرض محتلة من خمس وثلاثين سنة، ومصر عادت لها سيناء منزوعة السلاح لا تستطيع مصر أن تحميها بقواتها المسلحة إلا من غرب قناة السويس، ومن يذهب من المصريين إليها لعمل أو لترف لا يتمتع - فى عمله ولا فى ترفه - بحماية القوات المسلحة المصرية، ولا يطمئن على نفسه من عدوان إسرائيلى عسكرى يأتيه وهو فى طابا أو دهب أو نويبع أو شرم الشيخ، من على بُعد خطوات من المياه الإقليمية المصرية فى خليج العقبة ويمكن للإسرائيليين اختطاف أو اغتيال أى أحد منا فى سواحل خليج العقبة بأسهل مما حدث منهم فى لبنان وتونس من نحو عقدين من السنين، وجيش إسرائيل على بعد بضعة عشر كيلومترًا، وجيش مصر على بعد مائة كيلو متر وبضع عشرات من الكيلو مترات. والجزيرة العربية ومنطقة الخليج بها دولنا العربية التى تعتمد فى كل دخلها على ناتج البترول، ووسط آبارها وحوافها. وفى المياه القريبة قواعد عسكرية أمريكية برية وبحرية.

وفى مصر، نحن ننتج نصف القمح الكافى لكى يأكل المصريون الخبز، وذلك طبقًا للأرقام التى يدلى بها الرسميون فى صحف مصر السيارة، ومناطق إنتاج القمح فى العالم هى فى الأساس الولايات المتحدة وكندا وأستراليا، وراسمو السياسة الإنتاجية فى مصر يعرفون ذلك من عشرات السنين، ولهم خطط وسياسات، والأرقام معروفة سلفًا ومتوقعة من حيث مستقبل الزيادة السكانية ومستقبل استهلاك القمح ومستقبل إنتاج القمح، كل ذلك معروفة حساباته من الستينيات والسبعينيات، فليس مما يتذرع به أحد الآن أن يقول إنه فوجئ بنقص أو أنه فوجئ بهذا القيد على سياسته الخارجية.

وبالمقابل فإن وزارة الثقافة فى مصر - حسبما ذكرت صحيفة الأسبوع فى أول أعداد شهر مايو - أعدت حفلاً لفرقة فنون شعبية بالقلعة، ثم فوجئوا بأن السفير الإسرائيلى يبلغهم بعزمه على حضور الحفل للترفيه عن نفسه، ورفض ما ذكر له من أن وجوده يثير خواطر المصريين بما قد يهدد سلامته، فألغت الوزارة الحفل كله، لأن مصر لا تستطيع أن تقول للسفير الإسرائيلى «لا» ولا تستطيع أن تفرض عليه ما تراه من مسئولية عليها فى حفظ أمنها، وهكذا تسقط الإرادة الوزارية ما بين «الخبز» وما بين «المسرح»، ناهيك عن أن يكون ثمة شىء آخر.

ونحن فى الفكر السياسى الذائع الآن، صارت أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية هما العالم، منذ السبعينيات، وصارت أقوال الساسة الأمريكيين وكتابات المفكرين السياسيين الأمريكيين هى العلم، ونكاد - إلا من عصم ربك - نكرر ما يقولون، على مدى خمس عشرة سنة، فإذا قيل «نظام عالمى جديد»، قلنا «نظامًا عالميًا جديدًا»، وإذا قيل «العولمة» قلنا «العولمة»، وإذا قيل «صراع الحضارات» قلنا «صراع الحضارات» ثم قدمنا على استحياء تعديلاً بأنه «تواصل الحضارات» لأنه لا طاقة لنا اليوم بلفظ الصراع، وإذا قيل «الإرهاب» قلنا «الإرهاب»، والصفحات تملأ، والأحبار تهرق، والندوات تعقد، وموجات الأثير تزدحم، ثم يأتى شارون ورجاله فنقول «لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده» (الآية الكريمة من سورة البقرة).

وأن موضوع استكمال الإرادة الوطنية يكاد أن يكون مغيبًا، ولا أحد يثير الآن أن لنا شوقًا إلى استكمال الإرادة الوطنية واستكمال ما يتعين أن نرنو إليه من توفير كفالات أمننا القومى من النواحى السياسية. والعجيب أن إسرائيل تبدى المزيد من القلق وادعاء الحق فى ألا يوجد سلاح ذو دمار شامل فى إيران مثلاً، وفى باكستان أيضًا على بعد آلاف الأميال منها، ونحن فى «مصر المحروسة» لا نكاد نشعر بخطر وجود سلاح نووى على بعد لا يكاد يذكر من حدودنا الشرقية، وعلى بعد أقل من مائتى كيلو متر من القاهرة، وهو فى يد دولة توسعية دخلت معنا فى أربع حروب من قبل ويحكمها استيطانيون متهوسون، ويحترفون القتل الجماعى للشعب العربى فى فلسطين. ونواجه ذلك بأننا ضد أن يستخدم الفلسطينيون المطرودون من ديارهم أو المهددون بالطرد والمضروبون أبدًا من مستعمريهم، نحن ضد أن يستخدم هؤلاء العنف مع جلاديهم.

محسوم لدىَّ فيما أظن أن الحرب النظامية لا مجال لها فى هذا الصراع القائم بين العرب وإسرائيل، ومحسوم فيما يظن أنه متى استبعدنا الحروب النظامية بحسبانها وسيلة فى هذا الصراع، فيتعين أيضًا أن نستبعد وأن نتفادى ما يفضى إلى حروب نظامية من سياسات وأوضاع.

ولكن من المحسوم أيضًا أن بفلسطين أرضًا محتلة من إسرائيل وأن الاحتلال الإسرائيلى غير مشروع فى كل منطق ونظام دولى قائم، ومحسوم أيضًا أن إسرائيل تهدد الأمن الجماعى العربى وأن وجودها يجهض أبدًا إمكانيات النهوض والتنمية فى بلادنا.

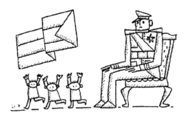
ومع تعارض «المحسومين الأولين» مع «المحسومين الأخيرين» فلا بد أن يوجد طريق ثالث، وهذا الطريق الثالث هو طريق المقاومة الشعبية بكل صورها وأشكالها، شريطة أن يشارك فيها الشعب العربى فى جميع الأقطار،



فى الفكر السياسى الذائع الآن، صارت أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية هما العالم، منذ السبعينيات، وصارت أقوال الساسة الأمريكيين وكتابات المفكرين السياسيين الأمريكيين هى العلم، ونكاد - إلا من عصم ربك - نكرر ما يقولون، على مدى خمس عشرة سنة







فالصراع دام ونحن العرب جميعًا طرف فيه.

والطريق الثالث أيًا كانت مسالكه، له مخاطره بالنسبة للشعوب في المقام الأول وبالنسبة للدول في نطاق ما، ولكن لكل سياسة ولكل قرار يتخذه فرد أو جماعة أو هيئة أو دولة، له دائمًا وجوه مخاطر، كما أن للسكوت والجمود وللمواقف السلبية مخاطرها أيضًا، وقد تكون مخاطرها أفدح. ومن يرد أن يتجنب المخاطر تمامًا فعليه ألا يأكل وألا يشرب لقيام احتمال حقيقي بأن ثمة «فيروس» في الطعام، ويكفينا دائمًا أن نفكر في احتمالات المخاطر المقدرة وأن نقلل من هذه الاحتمالات، وأن نفكر في أساليب تدارك ما نستطيع من آثارها ونخفف من المضار المتوقعة، مع وجود الاستعداد لتحمل ما لا يمكن تفاديه مما يسعه البذل والفداء.

ومن نحو عشرين سنة، وفي محاضرة كان يلقيها المؤرخ العسكري الوطني الغيور اللواء المرحوم حسن البدري، عن الصراع العربي الإسرائيلي، سئل عن حجم الخسائر، فتكلم وأسهب في الشرح، ثم قال إننا دائمًا سنجد أن الهزيمة في الصراع أبهظ تكلفة وأفدح نفقات وأعظم خسائر وأشد خرابًا.

[٦]

في سنة ١٩٥١ عندما ألغت حكومة الوفد في مصر معاهدة الدفاع المشترك بين مصر وبريطانيا، صارت القاعدة العسكرية البريطانية في مصر والقوات المسلحة الإنجليزية في وضع غير مشروع، وصارت مكافحة هذا الوجود العسكري الأجنبي ولو بالسلاح مكافحة مشروعة، وحدث ذلك كله في موجة من الحماس الوطني العارم، وتكونت فرق الفدائيين للكفاح المسلح، حتى أنه أنشئ معسكر للتدريب على العمليات الفدائية داخل حرم جامعة القاهرة، كان يقبل المتطوعين فيه من طلبة الجامعة. وفي تلك الأيام كانت المظاهرات تملأ مدينة القاهرة والإسكندرية والأقاليم يوميًا، واحدة منها بالقاهرة، قدر حجم المشاركين فيها بمليون متظاهر، وكانت الصحافة الوطنية مليئة بأخبار الحوادث المتتابعة للأعمال الفدائية وبالتحميس لها.

في هذه الأجواء ظهر ثمة شعار سياسي كتبت عنه الصحافة وردده هتافات المتظاهرين، يطالب الحكومة أن تصدر قانونًا يلغي القانون الذي يمنع حمل السلاح بغير ترخيص والذي يعاقب على مخالفة ذلك بالحبس نحو ستة أشهر. وكنت أعجب من هذا المطلب، وأتساءل: هل هذا الفدائي الذي أعد نفسه للشهادة، ولأعمال يغلب على ممارسها أن يبذل حياته، هل يخشى من عقوبة يحتمل أن تطبق عليه تؤدي إن ثبت فعله إلى أن يحكم عليه بالحبس ستة أشهر؟ أم أنه يطلب الإقرار بشرعية فعله، ولكن شرعية فعله لم تكن وقتها تحتاج إلى تشريع يعترف له بها، لأن مصر كلها كانت على حماس بالغ بهذا الصنيع.

الحقيقة أنني لم أعرف بعد ذلك وعلى مدى السنين أي جدوى لمثل هذا المطلب، إلا أنه صادر عن مجرد حماس وعن روح خطابية يمكن أن تؤدي أكثر مما تفيد، لأن استجابة الدولة لهذا المطلب من شأنها أن تضعها في حالة حرب مع القوات البريطانية، بما يترتب على ذلك من نتائج مواجهات عسكرية نظامية غير متكافئة أبدًا.

أتذكر ذلك جيدًا عندما أسمع اليوم أصواتًا كثيرة تدعو دولها العربية إلى ما أسمته هذه الأصوات «فتح الحدود» مع إسرائيل لوصول الفدائيين العرب إلى الانضمام إلى زملائهم في فلسطين، كما لو أن الحدود عليها أسوار مبنية وأبواب مغلقة تفتح بقرار سياسي أو بقرار إداري، وكذلك الدعوة التي تذيع أحيانًا تطالب الحكومات بأن تعلن «الجهاد» على إسرائيل، وكأن الجهاد يحتاج إلى إذن من الدولة لكي يبدأ ولكي يكون مشروعًا.

والحاصل أن أيًا من هذين المطلبين، لو أن دولة من دولنا استجابت إليه بالطريقة المطلوبة، لكان ذلك بمثابة اشتباك في حرب نظامية مع إسرائيل، وهو أمر لا أظنه واردًا في تفكير من يطالبون بأي من هذين المطلبين، إنما قد يكون الدافع إليه هو حث الحكومات لكي تتخذ موقفًا أكثر وضوحًا وصلابة في مواجهة العدوان الإسرائيلي. وهذا الدافع مع مشروعيته إلا أن التعبير عنه بإعلان فتح الحدود أو إعلان الجهاد هو تعبير يجاوز حدود المعقول والمطلوب، كما أنه غير مفيد، لأن من المعروف أن ما يضبط من عمليات التهريب عبر الحدود لا يمثل أكثر من نسبة قليلة مما يجرى تهريبه فعلًا، وهذا يحدث بالنسبة لأقوى الدول العربية من حيث الانضباط الأمني، ناهيك عن الدول الأقل قدرة فمن يريد أن يمارس لا يحتاج إلى سبق إجازة بفتح الحدود.

ومن جهة أخرى، فإن من يطلب الجهاد وينضم للمقاومة بروح الفداء، لن يخشى أن تعتقله شرطة بلده، كما أنه لا يخشى يقينًا أن يتربص به المتربصون عند الطرف الآخر. والدول والحكومات لا تسمح مسبقًا بأي تحرك شعبي واسع ومطرد، إنما هو يحدث بموجب الأمر الواقع، وتضطر الحكومات إلى السكوت عنه في إطار الملاءمات السياسية التي تقدرها. وكل ذلك فيه من الدفع والجذب ما فيه، وأن التحركات السياسية تبدأ بالممارسة، وتستمر بالإصرار وبالدأب وبقبول حجم ما من المخاطر وحجم ما من التضحيات. وأن مخاطر مواجهة تحرك شعبي لحكومته في القضايا الوطنية، هي مخاطر أهون كثيرًا من مخاطر مواجهة قوى الاحتلال العسكرية، التي تبغي حركات المقاومة الشعبية مواجهتها في النهاية.

وفي النهاية فإن موضوع المواجهة في الصراع العربي الإسرائيلي، وإن اختلفت الأوضاع بشأنه بين مواقف الحكومات ومواقف الشعوب، وإن ظهرت سياسات حكومية لا تحقق الوضع الأمثل لهذه المواجهة، وإن بدا في مسلكها ما يعوق ويعرقل تحريك وجوه المقاومة الشعبية على قدر الطاقة التي يستطيعها شعبها، إن بدا كل ذلك مما يستلزم النقد والمواجهة بأساليب الحوار والمواجهات المشروعة السلمية، إلا أنه ينبغي ألا يغيب عن الذهن أمران:ـ

أولهما: أن مسائل الأمن القومي وعلى رأسها بالنسبة لنا هذا الصراع العربي الإسرائيلي، هذه المسائل لا تتباين فيها مصلحة الجماعة عن مصلحة الدولة، إذا نظر إلى الأمر في أبعاده السياسية العامة، وبالنظر المستقبلي البعيد. وإذا بدا أحيانًا استغراق من أجهزة الدولة في حماية ما يسمى بأمن النظام والخوف من شعبها، وإذا بدا نوع من الوهن وخفوت الإرادة السياسية خوفًا من الخارج أو ارتباطًا بقواه الأجنبية، فلابد في النهاية أن تتعدل الموازين لصالح حماية الأمن القومي، والوطنيون يضعون بعضًا من رهانهم على هذا التحول والتعديل.

ثانيهما: أجهزة الحكومة كلها في بلاد مثل مصر تتكون من مهنيين هم مواطنون ووطنيون في الغالب الأعم من تكوينهم الاجتماعي والثقافي والسياسي. وهم بأصولهم الاجتماعية وتوجهاتهم السياسية وتشكلهم الثقافي يعكسون الطابع الغالب الذي يتشكل منه التيار السياسي الثقافي الأساسي في بلادهم. وهم بحركتهم التلقائية في نشاطهم، وفي حدود الانضباط المعتبر للخضوع الرئاسي وللهرمية الإدارية، يغلبون بقدر ما يستطيعون ما فيه الصالح الوطني العام، وخاصة في القضايا ذات الإجماع الشعبي المتعلق بأمن الجماعة وصوالحها القومية العامة، وأن جزءًا من رهاننا يتعلق بتقدير هذا العنصر وحساب آثاره الإيجابية في أي تحرك شعبي يبغي في النهاية الصالح الوطني العام تجاه مخاطر الخارج.

وأن المشكلة غالبًا في مثل هذه الأمور تكون مع القرار السياسي ومع مبعث الإرادة السياسية، والوطنيون يضعون بعضًا من رهانهم هنا على تقديرهم لوطنية هؤلاء المهنيين الذين تتكون منهم أجهزة الحكم والإدارة والأمن الجماعي. ونحن في النهاية شعبًا وأجهزة دولة، وفي مسائل الأمن الجماعي للأمة وفي المسألة الوطنية، يصيب الضارب منا ما يصيب المضروب، وإن أي رشاش ينجرح به الضارب بقدر ما يُصاب به المضروب.



[٧]

وفي النهاية فإن الولايات المتحدة الأمريكية هي التي أسقطت مفهوم الشرعية الدولية، وهي لا تترك أية فرصة لصديق لها ولا لعميل أن يقنع ساذجًا منا بأنها ليست خصمًا لنا، ولا أنها دون إسرائيل في خصومتها للعرب، في فلسطين وفي غيرها من القضايا المثارة. وهي وإسرائيل لا تتركان فرصة لصديق لهما أن يقنع ساذجًا وطنيًا بأنهما تبغيان أي نوع من السلام معنا ولا بأن تعترفا بآدمية هذا الذي نسميه «نحن العرب». وليس أمامنا إلا الاغتراب الكامل عن المنطق الأمريكي الإسرائيلي.

والولايات المتحدة الأمريكية، بمسلكها الدولي في العقد الأخير، وبخاصة في السنة الأخيرة، لم تعد تهتم بضرورة وجود أية صياغة فكرية لأي نمط للشرعية يستر تصرفاتها وأفعالها، ولم يعد يهمها أن يقوم ثمة نوع من التقبل العام لمنطقها أو لنمط شرعيتها، كما كانت تسعى قديمًا أيام حربها الباردة مع المعسكر الاشتراكي ودوله بقيادة الاتحاد السوفيتي.

وهذا النمط من التجبر البواح ومن السفور العنصري ومن استخدام القوة بغير ساتر شرعي ولا شبه شرعي لها، ومن الزهو والخيلاء، كل هذا يخفف عنا جهودًا فكرية كثيرة، كانت يمكن أن تصرف لكشف مستور أو تبيين عورات خفية، أو توضيح أضاليل أو تكذيب أكاذيب، وصارت القوة المادية المعتدية تواجه بقوة الصدور العارية وبروح الشهادة، وصارت الدنيا تواجه بالآخرة.

والسؤال الأخير: ألم نلحظ من وقائع التاريخ بدوله وأنظمته المتتابعة، أن هذا التجبر والقهر والشراسة كانت في الغالب من ملامح نهاية العصور ومن مظاهر الانحدار والأفول بالنسبة للدول العدوانية.

إن الولايات المتحدة الأمريكية
هي التي أسقطت مفهوم الشرعية الدولية،
وهي لا تترك أية فرصة لصديق لها ولا لعميل
أن يقنع ساذجًا منا بأنها ليست خصمًا لنا،
ولا أنها دون إسرائيل في
خصومتها للعرب



وعـــى زائـــف واعترافـــات مبتورة

إبراهيم عـبـدالكريم

▪▪ تبين التقاليد التي درجت عليها النخبة الأكاديمية والثقافية الإسرائيلية في تعاملها مع الأحداث، أنها تعبّر عن مفاهيم شريحة خاصة تمتلك مهارات عالية نسبياً في التوصيف واقتراح الحلول.

لهذا السبب، على نحو رئيس، يولي الإسرائيليون - ولاسيما دوائر صناعة القرارات - اهتماماً ملحوظاً لما يصدر عن هذه الشريحة من رؤى وتصورات. ويتم التركيز على أن أي مسيرة تغيير في النطاق الإسرائيلي يجب أن تبدأ على المستوى البحثي. وهو ما يفسر، ولو جزئياً، لماذا تعمل في إسرائيل عشرات المراكز والمؤسسات وصناديق التمويل في ميادين الأبحاث السياسية والاجتماعية وشؤون الصراع والسلام.



وقد جرت قراءة نتائج الانتفاضة، لدى مجموعة من الأساتذة والمثقفين الإسرائيليين، بالتنميط الصهيوني الشائع، الذي يتجاهل التعيُّنات الملموسة، لتقديم صيغة ذهنية مادتها المصطلحات الأكاديمية التضليلية. ومن ثم جاءت هذه القراءة مغايرة للواقع القائم وتصب في خدمة الإنشاءات الأيديولوجية الصهيونية.

وجرت قراءة النتائج ذاتها للانتفاضة، لدى مجموعة أخرى، بالرضوخ إلى بعض مقتضيات الواقع والاستجابة الخجولة إلى ضرورة تسمية المولود باسمه. قطع هؤلاء شوطاً في الاعتراف بجزء من الحقائق، لكنهم راحوا عند نقطة معينة يغادرون منحى تحليل الظاهرة إلى مسار آخر تبتعد نهايته عن المآل المنطقي والواقعي.

وبذلك أصبحت التوصيات التي قدمتها الأوساط الأكاديمية والثقافية الإسرائيلية بمثابة «تنويع» في إطار الوحدة الأيديولوجية والسياسية. وحتى لا يظهر هذا التقدير كما لو أنه يتعلق بعموميات أو بأحكام مسبقة، تفصح النصوص التي نشرها العديد ممن ينتمون إلى تلك الأوساط عن تعبيرات واضحة غنية عن التأويل.

من الصمت إلى التأتأة:

انساقت النخبة الأكاديمية والثقافية الإسرائيلية وراء الرواية التضليلية التي قدمتها حكومة إيهود باراك لمفاوضات كامب ديفيد وطابا، والتي ألقت باللوم على الفلسطينيين في رفض يد إسرائيل الممدودة للسلام وفي عدم تجاوبهم مع التنازلات التي قدمها الجانب الإسرائيلي خلال تلك المفاوضات.

كان صمت أهل القبور هو السمة الرئيسة عموماً التي قابلت بها تلك النخبة سياسة حكومة باراك وخليفتها حكومة شارون. ورأت في جرائم الاحتلال والحصار والقمع ضد الفلسطينيين دفاعاً عن النفس وعمليات مشروعة لاجتثاث الإرهاب. وأمام ضغوط الواقع، راحت تظهر أصوات همس وتأتأة تطرح تصورات متآكلة وحلولاً مجتزأة، منها - مثلاً - مذكرة أعدتها مجموعة من ٣٣ شخصاً من رجال الفكر والأدباء والنشطاء في ما يسمى «قوى اليسار والسلام» قدمت (مطلع العام ٢٠٠١) إلى القيادة الفلسطينية للشروع في مفاوضات والتوقيع على اتفاق سلام. وبعد أن حددت المذكرة طبيعة الحل الذي تتصوره بإقامة دولتين لشعبين، أوضحت عدم موافقتها على عودة اللاجئين إلى وطنهم (ضمن ما يسمى الخط الأخضر) لأن ذلك يعني تصفية دولة إسرائيل (يديعوت أحرونوت ٥/١/٢٠٠١) ونشرت مجموعة من المثقفين الإسرائيليين بياناً (في هآرتس ١٧/٣/٢٠٠٠) تضمن مواقف تقترب من التوجهات الإسرائيلية العامة الشائعة، بخصوص «العنف المتبادل» و«الكراهية في الجانبين» وغير ذلك من التراكيب التي تتجنب ذكر إرهاب الدولة وتتعمد تبسيط الصراع وتحميل الجانب الفلسطيني مسؤولية ما يحدث..

لم تخرج المحاولات الأخرى عن هذا النطاق، وكان الجميع تقريباً ينتظرون ما سوف تسفر عنه المواجهة غير المتكافئة بين قوات الاحتلال وقوى الانتفاضة، استناداً إلى معرفة مسبقة بالحصيلة. وهو ما يعني أن الأوساط الأكاديمية والثقافية كانت شريكة للأطر العسكرية والسياسية في نهجها الدموي الموجه للشعب الفلسطيني وانتفاضته.



THE JERUSALEM POST

www.jpost.com

TUESDAY, APRIL 9, 2002 • 27 NISAN 5762 • 25 MUHARRAM 1423





صحف إسرائيل.. هآرتس (يمين)، جيروزاليم بوست، هاتسوفيه (يمين ديني) معاريف (يمين)

كعينة من المواقف الفورية للمثقفين الإسرائيليين خلال بدايات الانتفاضة، قال غرشون شيكد (أستاذ الأدب العبري المشهور) لقد بت أولي أهمية أكبر لمسألة الأمن والشعور بثقة أقل تجاه الفلسطينيين (الحياة الجديدة ٢٤/١٠/٢٠٠٠). ووجه عاموس عوز (الأديب الإسرائيلي البارز) الدعوة إلى أنصار السلام في إسرائيل لتعديل مواقفهم. لماذا؟! لأن العناد الإسرائيلي زال، ومع ذلك فالفلسطينيون ليسوا مستعدين لصنع السلام مع إسرائيل، إذ إنهم يطالبون بحق العودة الذي يعني تصفية إسرائيل ونزع الحق المبدئي للشعب اليهودي في تقرير المصير والقضاء عليه بأن يتحول إلى أقلية تخضع لحسن نوايا المسلمين (يديعوت أحرونوت ٦/١/٢٠٠١). ورأى مروس أوفريش (محاضر في معهد الهندسة التطبيقية بحيفا) أن الفلسطينيين لا يتصرفون وفق قواعد العالم الغربي المتحضر ويرفضون لعب دور الشريك البراجماتي الذي يقبل المصالحة والحل الوسط والحياة الهادئة (هآرتس ٢١/٥/٢٠٠١). أما الشاعرة القومية البارزة نعمي شيمر فقد اعتبرت أن «الغاز النازي أهون وأقل وطأة من القتل العربي» (معاريف ٢٨/١٠/٢٠٠١).

وفق هذا النسق من الادعاءات، تعتبر الانتفاضة الفلسطينية عملاً مداناً، وتتم عملية تبديل للأمكنة بين القاتل والضحية. وتكون النتيجة المترتبة على ذلك، تنصُّل إسرائيل من الجرائم المقترفة بحق الفلسطينيين.

ومن التعليلات التي سيقت في معرض الحديث عن سكوت النخبة الأكاديمية والثقافية عما سمي «حالة الاستخدام الإسرائيلي المفرط للقوة»، ذهب الكاتب والمؤرخ البارز توم سيجف إلى أن الفلسطينيين هم الذين اضطروا الإسرائيليين أصحاب الميول «ما بعد الصهيونية» للعودة إلى رحم الصهيونية. قبل الانتفاضة - يتابع سيجف - كان الإسرائيليون أكثر انفتاحاً، لكن الانتفاضة أحيت «المشاعر الوطنية» لدى الإسرائيليين (الأيام ٢٩/١/٢٠٠٢). وقال نظراء سيجف من «المؤرخين الجدد» إن المقدرة على التعاطف مع الفلسطينيين تلاشت تقريباً منذ انهيار أكثر محادثات السلام شمولاً بين الجانبين (في يوليو ٢٠٠٠).

تحـرير أم وجـود؟

بعد أن تبنت النخبة الأكاديمية والثقافية الإسرائيلية عقم المراهنة على تركيع الفلسطينيين، راحت تظهر - وخاصة بعد عام ونصف من الانتفاضة - أوصاف جديدة على الفعل الفلسطيني، لكن دون الاستجابة لاستحقاقات هذه الأوصاف. وبتعبيرات

كـــيـف يـقـــرأ
الإســـرائـيـلـيـــون
الانـتـفــاضـــة؟

ميخائيل يائير (أستاذ القانون والمستشار القضائي الأسبق للحكومة) تحولت الانتفاضة إلى حرب تحرير قومية للشعب الفلسطيني، وتعلمنا مسارات التاريخ ودروسه أن أي شعب لا يمكن أن يرضى بالخضوع لسلطة شعب آخر، وستكون نهاية نضاله للتحرر هي الانتصار. إننا نعرف ذلك ونفهمه، لكننا نتجاهله (هآرتس ٢٠٠٢/٣/٤) ويصف الكاتب والمفكر المشهور ب. ميخائيل الحرب التي تشنها إسرائيل على الفلسطينيين بأنها ليست حرب وجود ولا حرب اللا مفر ولا «حرب تحرير» ثانية ولا حرب على حياة الدولة - طبقاً لزعم الكثيرين في إسرائيل - لكنها حرب على المناطق، حرب بسبب المستوطنات، حرب الذين يصرون على التمسك بغنائم الأيام الستة والمستعدين لسفك الدماء وارتكاب كل رذيلة باسم إيمانهم الوثني بقدسية الأرض. إنها - يتابع ميخائيل - حرب حمقاء وجنونية، زائدة وعديمة الفائدة، فرضت على الشعبين بأيدي مجموعة صغيرة من المخبولين والمتدينين والشوفينيين، اليهود والمسلمين (يديعوت إنترنت ٢٠٠٢/٣/١٠). هكذا إذن يتقاسم - في نظره - طرفان مناصفة مسئولية هذه الحرب، لا فرق بين القاتل والضحية، أو بين اللص والحارس. ولدى محاولة وضع المسألة في سياقها الصحيح، تبرز في الحال محاولة لتمرير مفاهيم دوجمائية (دون بيِّنة) تقفز فوق طبيعة المشروع الصهيوني، كأن يقول يورام كينوك (وهو واحد من كبار الرموز الفكرية والثقافية الإسرائيلية) إنني لا أعرف ما الذي يجب عمله، من جانب لا نريد السيطرة على ثلاثة ملايين عربي، ومن جانب آخر أنا لا أريد أن يتجول الأشخاص هنا مع أرقام زرقاء على أيديهم..



قلة هم الذين غامروا بين جموع الأساتذة والمفكرين والمثقفين الإسرائيليين في النظر إلى الصراع من زاوية منفرجة. فماذا وجدوا؟! .. البروفيسور موشي تسوكرمان (رئيس معهد التاريخ الألماني في جامعة تل أبيب) أدرك حالاً أن بداية الفكر الصهيوني كانت خطأ، حيث انسحب اليهود من النضال داخل البلاد التي كانوا فيها إلى تبني فكرة العودة إلى فلسطين (الاتحاد - حيفا ٢٠٠١/١١/٢٩). ومع تكرار الخطأ في المستقبل، باحتلال المناطق الفلسطينية عام ١٩٦٧، كان هناك من طلب العفو على طريقة أفرايم كيشون (الكاتب الساخر الهنجاري المولد الذي حصل على جائزة إسرائيل لعام ٢٠٠٢) قائلاً: عذراً لأننا انتصرنا (الأيام ٢٠٠٢/٣/١٩). والمعنى الكامن وراء ذلك، هو ثقل ما ترتب على الاحتلال من أعباء على كاهل إسرائيل، بالمنظور الاستراتيجي / التاريخي. فالاحتلال أو ما يسميه ميخائيل بن يائير «اليوم السابع لحرب الأيام الستة» حوَّل إسرائيل من مجتمع أخلاقي (...) واثق بعدالة كيانه السياسي(...) إلى مجتمع قامع ومضطهد لشعب آخر ويمنعه من تحقيق تطلعاته القومية الشرعية، من مجتمع صادق (...) إلى مجتمع غير صادق و مستعد لتوسيع تسلطه على حساب أطلال وخرائب شعب آخر (هآرتس ٢٠٠٢/٣/٤). هل ثمة حاجة للإشارة إلى النصف المظلم من المعادلة؟! إذا كان طرفها الثاني صحيحاً واعترافاً بالواقع، فبأي معايير يتم الحديث عن الأخلاقية والعدالة والصدق كصفات لإسرائيل؟!



أمام ارتفاع منسوب الفعل السياسي والعسكري الإسرائيلي، النافي والتدميري للشعب الفلسطيني، لم يستطع بعض الأساتذة والمثقفين الإسرائيليين رؤية الصورة المشوهة لإسرائيل في مرآة السلوك المتبع ضد هذا الشعب على المستويين الجاري والاستراتيجي. فأخذ هؤلاء يعاينون حالة الاحتلال، ويسجلون اعترافات نستشف منها محاولة لخفض ضغوط الاحتقان الذاتي. يقول ميخائيل بن يائير: اخترنا وبتشوق التحول إلى مجتمع كولونيالي، تجاهلنا المواثيق الدولية، صادرنا الأراضي، نقلنا المستوطنين من إسرائيل إلى المناطق المحتلة، عملنا المجازر وقطعنا اللحم الحي ووجدنا لكل ذلك المبررات. وبتلهفنا للتمسك بنتائج الحرب أقمنا جهازي قضاء / الأول في إسرائيل متطور وتقدمي وليبرالي(...) والثاني في المناطق المحتلة ظالم ومجحف، وفرضنا عملياً حكم أبرتهايد هناك (هآرتس ٢٠٠٢/٣/٤). واختار يوسف زيف (محاضر بالفلسفة والعلوم في كلية وينجت ودار معلمين الكيبوتسيم) توجيه خطاب إلى كل ضابط أو جندي يخدم في المناطق المحتلة، نبهه فيه أنه حتى إذا كانت الحرب عادلة، لا يعني ذلك أنه مسموح فيها بأي شيء. من المحظور - يقول زيف - تحويل المدنيين إلى أهداف والقيام بعقوبات جماعية وهدم البيوت وردم آبار المياه وإهانة الأشخاص وإذلالهم عند الحواجز. ومن المحتمل أن تجد نفسك هناك، في المحاكم الدولية لجرائم الحرب، خاصة إذا كنت ضابطاً (هآرتس ٢٠٠٢/١/١٤). وإزاء التجاوزات الفظيعة والإيغال في هذه الأنماط وسواها من الممارسات، أبدى بعضهم جرأة غير معهودة، كحالة أبراهام عوز (أستاذ المسرح في جامعة حيفا) الذي شبه ممارسات جنود الاحتلال بممارسات النازيين، وصاح: «إن في كل واحد منا آيخمان صغيراً»(هآرتس ٢٠٠٢/٣/٢٢). إنه مجرد توصيف، لكنه على أي حال خطوة متقدمة، تصبح ذات أهمية حين لا تكون نهاية المطاف، بل بداية في طريق مفترض هو طريق التغيير.

لا يجد الأكاديميون والمثقفون الإسرائيليون عناءً في تحديد التداعيات المتصورة لسياسة إسرائيل إزاء الفلسطينيين. واستباقاً للنهاية الحتمية، انبرى بعضهم للتحذير من الكارثة التي ستحل بإسرائيل جراء استمرارها بنهجها الحالي.. أ.ب. يهوشع (أحد كبار الأدباء الإسرائيليين) يصف الواقع القائم بأنه حالة جنون مطلق، جراء ربط الدورة الدموية الإسرائيلية بنظيرتها الفلسطينية (يديعوت إنترنت ٢٠٠٢/٢/١٨). ويؤكد عامي إيلون (الذي انتقل من رئاسة الشاباك إلى طاقم للتفكير والتقديرات) أن إسرائيل تسير بأعين مفتوحة نحو كارثة وجودية تتمثل بنهاية الدولة الصهيونية في حال استمرار الوضع الراهن (معاريف ٢٠٠٢/٢/١) خاصة أن العرب - باعتقاد المؤرخ الإسرائيلي «الجديد» بني موريس - لا يمكنهم قبول شرعية إسرائيل وامتلاك اليهود ثلاثة أرباع فلسطين.

بدائل وتصـــورات للحل:

بغية عدم ترك الباب مفتوحاً على التوقعات، عمد بعض الأكاديميين والمثقفين الإسرائيليين إلى بلورة العديد من المقترحات التي توخت تغذية النقاشات حول سبل الخروج من نفق المواجهة مع الفلسطينيين. ويمكن تصنيف هذه المقترحات وفق ثلاثة أنماط، هي:

- **نمط «الحل الإسرائيلي»**، الداعي إلى استباق الزمن وتخريب القوة التي حشدها الفلسطينيون والتي تقود العرب إلى شن حرب لإبادة إسرائيل - حسبما يقول البروفيسور آرييه الدار - بحيث يتم اختيار الزمان والمكان المناسبين لتشن إسرائيل حرباً إلزامية وتطلق النار على رأس عرفات، عندها فقط يمكنها ضمان وجودها في هذه البلاد.
- **نمط «دولتين لشعبين»**، سواء عبر المفاوضات وتقديم التنازلات التي ستضطر إسرائيل إلى تقديمها آجلاً، والخروج من الدائرة السحرية، بتقديم سبب للطرف الفلسطيني كي يتخلى عن العنف / بعبارات الأديب دافيد جروسمان (يديعوت إنترنت ٢٠٠٢/٢/١٨). أو بطرح مبادرة إسرائيلية لإنهاء الاحتلال وإقامة خط حدود مغلق ومحصن حسب الواقع الديمجرافي، والاعتراف بقيام دولة فلسطينية مع البحث عن حل شامل بين إسرائيل والعرب.
- **نمط «الخيار الأردني»**، الذي يبدو أنه لا يزال بين الملفات الإسرائيلية المفتوحة. والتبرير هو أن الدولة الفلسطينية تثير مشكلة استراتيجية أساسية، هي: كيف يمكن التأثير عليها حتى لا تكون معادية وليس لها مطالب داخل إسرائيل. وبعد التركيز على المخاطر الكامنة بموافقة إسرائيل على قيام دولة فلسطينية، يقع الاختيار على حل الدمج الفلسطيني - الأردني مع ضمانات معينة / دعوة يحزقئيل درور، أستاذ العلوم السياسية والإدارة في الجامعة العبرية (القدس المقدسية ٢٠٠٠/١١/٣٠).

إذا كانت هذه الأنماط تتفق على وجود مشكلة تتطلب الحل، إلاّ أنها تشير إلى حالة من التخبط والارتباك في تحديد طبيعة الحل الذي يصمد على المدى التاريخي. وتبدو معالم الخلل واضحة في التصورات المعروضة، بالقفز فوق مشكلة اللاجئين.

إســـقــاط حق العـــودة:

ثمة إجماع إسرائيلي شامل تقريباً على أن عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم تعني نهاية الدولة اليهودية. وبطبيعة الحال يلخص هذا الإجماع المفهوم العنصري لهوية الدولة وحصريتها الاثنية، عبر المحافظة على الأغلبية اليهودية فيها، ونجد في معالجة الأساتذة والمثقفين الإسرائيليين لهذه المسألة ثلاث صيغ رئيسة، هي:

- صيغة الرفض المطلق لحق العودة واعتباره «سيارة مفخخة»، مع إمكانية مساهمة إسرائيل في حل لمشكلة اللاجئين .
- صيغة الاعترافَ الإسرائيلي بمشكلة اللاجئين والإقرار بالألم والمعاناة المرتبطة بها وتحمل المسؤولية ولو الجزئية عن وقوعها.
- صيغة ترك مشكلة اللاجئين للزمن، مع التركيز على تطبيق حل سياسي عملي يتضمن قيام الدولة الفلسطينية.

هنا إذن تبدأ قضية الصراع العربي - الإسرائيلي، وهنا تنتهي. وما لم يجد حق العودة طريقه إلى الاعتراف به، تظل مشكلة اللاجئين الكاشف الحقيقي للنظم الفكرية والسياسية والعملية السائدة في الأوساط الأكاديمية والثقافية الإسرائيلية. وتظل هذه الأوساط في حالة مشابهة للحيتان التي تفقد إحساسها بالاتجاه، دون أن تدري أن الموت ينتظرها على الشاطئ. ■



- تقارير دولية: غسيل الأموال قد يصل إلى (٥) بالمائة من دخل العالم!
- مصر: الكبار يغسلون فى عواصم الغرب والصغار يغسلون فى قطعة أرض!
- موسكو: بوتين أيضًا متهم
- باكستان: (٣٠٠) مليار دولار مشبوهة على حدود أفغانستان
- الإمارات: تجميد أموال (٣٠) شركة ومنشأة بطلب من واشنطن
- غسيل الأموال من المخدرات والرقيق الأبيض إلى «إرهاب ١١ سبتمبر»
- فى البدء، كانت الأموال القذرة تتجه إلى محلات الغسيل والكى!



أموال الأنابيب
أو المال الحرام

محمـــــود المـــــراغى

حين نشر الخبير الاقتصادى الباكستانى إكرام الحق دراسته عن غسيل الأموال، وكان ذلك قبيل ١١ سبتمبر الشهير، لم يكن يعرف أن الدراسة سوف تكون ورقة رئيسية فى ملف سبتمبر وحرب الإرهاب!

كانت الدراسة معنية بحكاية المخدرات فى كل من باكستان وأفغانستان وعرجت على عالم الجريمة المنظمة، لكنها تنبهت ـ وفى وقت مبكر ـ إلى ذلك الخيط الذى يربط بين المجالين: الإرهاب والحشيش، حتى أنه يمكن القول إن زواجًا قد تم بين المخدرات والتطرف وعالم السياسة، وأن هناك ـ كما يقول إكرام الحق ـ «تنظيمات إرهابية اكتسبت نفوذًا بفضل إمكاناتها المالية التى تقدر بآلاف المليارات والناتجة من تجارة المخدرات».

والقراءة الجديدة للدراسة والتى تم نشرها قبيل صيف عام ٢٠٠١ ربما تقدم لنا أيضًا التفسير لذلك الفخ الذى وقعت فيه باكستان فتحولت من حليفة للأفغان إلى رأس رمح ضدهم، وباتت تأتمر بما تراه واشنطن دون حذف أو تعديل.. ذلك أنها قد تم الإمساك بها مرتين، الأولى حين بدت كمورد رئيسى للبشر الذين تعلموا فى معاهدها الإسلامية وراحوا ينضمون إلى طالبان، والمرة الثانية وهى التى تبرزها الدراسة، حين بدت كقناة تمويل رئيسية لأنشطة (طالبان ـ القاعدة)، أما التفاصيل التى يقدمها الاقتصادى الباكستانى فهى مذهلة، حيث يبلغ نصيب الشبكات الباكستانية فى تجارة الهيروين العالمية حوالى مائة مليار دولار سنويًا، أى نحو ثلث الحجم العالمى لهذه التجارة.. أو هى (١٠) بالمائة مما يتم غسله سنويًا فى العالم من أموال قذرة.. واللعبة تبدأ على الحدود الأفغانية ـ الباكستانية حيث يبلغ سعر الكيلو جرام ـ بالجملة ـ ألف جنيه إسترلينى، ثم يتضاعف (٢٠ ـ ٢٥) مرة حين تصل البضاعة إلى بريطانيا، ويستمر تزايد السعر فى سوق التجزئة ليصل إلى (٤٢) ألف جنيه إسترلينى، أى أنه أكثر من سعر المنبع بحوالى (٤٢) مرة..!

وهذه الأرباح الهائلة هى التى تغرى بالمخاطرة، وبينما تسعى الأموال القذرة للوصول إلى المشروعية عبر عمليات غسل وتطهير وإخفاء، فإن بعضها يذهب لتمويل تنظيمات سياسية تزداد نفوذًا ونشاطًا بفضل التمويل الضخم القادم من عالم المخدرات، والذى تقبله هذه التنظيمات ذات الطابع الإسلامى ربما بمنطق (الضرورات تبيح المحظورات)، وربما بفتاوى تجعل المخدرات شيئًا غير الخمر، ويجوز للمسلم أن يزرعها وينقلها ويتداولها ويستهلكها (!) ومن هنا، وإذا كان تنظيم القاعدة أو طالبان ـ على سبيل المثال ـ ذا أيديولوجية إسلامية وجهادية، فإنه قد يستبيح زراعة وتجارة المحظور دوليًا من أجل غاية يرى التنظيم أنها مشروعة. إنه طريق (اللا مشروع) للوصول إلى (المشروع) وهو هنا: الجهاد من أجل الإسلام!

صدرت الدراسة قبل سبتمبر، وكانت واشنطن أيضًا معنية بالقضية ولكن من زاوية بعيدة عن الإرهاب وعالم السياسة، فقامت عناصر من المباحث الفيدرالية الأمريكية (إف.بى.آى) بتدريب كوادر أمنية باكستانية على مكافحة عمليات غسل الأموال القذرة والتصدى للجرائم المالية التى أصبح نجاحها ـ كما تقول سفيرة أمريكية هى ويندى تشامبرلين ـ «حافزًا رئيسيًا للفساد وانتشار العلل الاجتماعية». بل إنها الحلقة التى تجعل الجريمة مفيدة وذات ثمرات وإغراء.

أصدرت الخارجية الأمريكية تقريرها هذا فى مايو (٢٠٠١) ولم تتنبه ويندى تشامبرلين مساعدة وكيل وزارة الخارجية والمعنية بمكافحة غسل الأموال والتى تم ترشيحها بعد ذلك للمكان المناسب وهو العمل كسفيرة لبلادها فى باكستان ـ لم تتنبه لتلك العلاقة التى أشار لها إكرام الحق بين المخدرات والإرهاب، وإن كانت قد نبهت لأهمية إعلان الحرب على مافيا غسل الأموال والذين يتعاملون ـ وفقًا لتقديرها ـ فى تريليون دولار سنويًا!

فى تلك الفترة أيضًا، وقبل سبتمبر بأحداثه المروعة، وبالتحديد فى شهر أغسطس (٢٠٠١) نشرت مجلة «نيوزويك» أن تحقيقات أوروبية تجرى مع مدير إحدى الشركات الروسية ـ الألمانية حول عمليات غسل الأموال، وأن التحقيقات (قد تمتد للرئيس الروسى فلاديمير بوتين) والذى تولى مسئولية إدارة هذه الشركة لبعض الوقت.. أما الشركة نفسها فكان منسوبًا لها (وهى شركة سباج كما ينطقونها بالألمانية) أنها سهلت عمليات غسل الأموال لعصابات المافيا الروسية ومهربى المخدرات فى كولومبيا.

ونحن لا نعرف ما انتهى إليه التحقيق، لكننا نعرف ومن سياق ما جرى نشره أن الرؤساء أيضًا يمكن مساءلتهم طبقًا للقواعد الأوروبية ـ والتي باتت دولية ـ فى جريمة جديدة اسمها غسل الأموال، والتى لم يكن بعيدًا عنها رؤساء دول سابقين مثل: سوهارتو، ماركوس، وعدد من الرؤساء الأفارقة.. وربما غيرهم أيضًا، وهو ما تشير له دراسة مجلة (Impact) الصادرة عن هيئة التمويل الدولية فى ربيع عام (١٩٩٩) تحت عنوان «جحيم الفساد».



فى هذه الدراسة يروى فيليب سيجال ـ صاحب الدراسة ـ أن النتائج السالبة لظاهرة الفساد وغسل الأموال تمتد من الاقتصاد إلى السياسة، وبينما قد يفيد منها الأثرياء فإن الفقراء يدفعون الثمن.. ويضرب مثلاً بما حدث فى إندونيسيا حيث احتكر أصدقاء وأقرباء الرئيس الأندونيسى السابق سوهارتو صناعة الطاقة، وجرى بناء مشروع مشترك (إندونيسى ـ أمريكى) تشارك فيه شركة جنرال الكتريك، وكان نص العقد يقضى بشراء المراجل اللازمة للمشروع من شركة أجنبية أخذ توكيلها المحلى أحد أبناء سوهارتو، ولكن بتكلفة إضافية تحملها المستهلك مقدارها عشرون مليونًا من الدولارات.. والأمر متكرر: الفساد يحدث، والتكلفة تزيد، والمستهلك يدفع!

وفى حالة سوهارتو، الذى تنازل عن جزء كبير مما نهب قبل أن يرحل، استمرت المعلومات تتدفق عن أموال خارج البلاد.. فهل كان ذلك عبر قنوات شرعية، أو من خلال وسيلة من وسائل غسل الأموال: بنوك وأسهم وسندات وعقارات وشركات وهمية؟

على أى حال فإنه الفساد عند القمة، يدخل عبر الباب الملكى، وربما عبر أكبر البنوك العالمية.. وبينما كان الأمر يتعلق قبل سبتمبر بجرائم مثل المخدرات والدعارة وتجارة السلاح.. فإنه ـ وبعد سبتمبر ـ بات فى بؤرة الاهتمام، ذلك أنه ارتبط ـ وعلى نطاق واسع ـ بتمويل الإرهاب وما جرى فى واشنطن ونيويورك، وحينذاك أصبحت الدول العربية والإسلامية فى مركز الأحداث «فمن هنا نبدأ» كما ترى واشنطن بعد أن تكشف لها خيطان:

* الأول، مشاركة عدد غير قليل من أبناء الدول الخليجية وبعض المصريين فى أنشطة تنظيم القاعدة أو التردد على أفغانستان، وجزء منهم قد تم القبض عليه وجرى نقله إلى قاعدة «جوانتانامو».

* الثانى، خروج بعض الأموال الخليجية إلى أفغانستان أيضًا، مما حدا بالإدارة الأمريكية لطلب تجميد بعض الحسابات فى الإمارات العربية والتفتيش على حسابات كثيرة فى دول أخرى.

ولم يكن ذلك الإيقاع المتسارع فى نهاية (٢٠٠١) وبدايات (٢٠٠٢) هو بداية خيط الاهتمام عربيًا بقضية غسل الأموال، فقبلها كان الإلحاح قائمًا من قبل اللجنة الدولية المعنية بهذا الأمر، وكانت الاتهامات لبعض الدول العربية بأنها حقل خصب لغسل الأموال.. وهى اتهامات تحولت بعد سبتمبر للحديث عن تمويل الإرهاب من خلال (أعمال الخير) التى باتت متهمة فى كل مكان، ومن خلال منظمات الخير المنتشرة فى الخليج والتى أصبحت موضع شك من وجهة النظر الأمريكية.. وربما من وجهة نظر أمنية خليجية!



وهكذا ازداد الاهتمام عربيًا بالقضية بتحرك من البنوك المركزية، وبإصدار تشريعات لتجريم غسل الأموال لأول مرة.. والأخطر بتعاون مفتوح مع الولايات المتحدة «لتعرف. وتراقب. وتطارد. وتأمر ـ أحيانًا ـ بالمصادرة ليس للأموال القذرة وحدها، وإنما للأموال النظيفة أيضًا وهى الأكثر بطبيعة الحال!

على أى حال فقد بات «غسل الأموال»، أو قصة الأموال الهاربة فى الظلام على الأجندة العربية، وبات ذلك مواكبًا لاهتمام دولى متزايد تعكسه الدراسات المنشورة، والتحركات السياسية والاقتصادية والتى تستهدف إقامة حلف دولى جديد يواجه حلف المفسدين، والمرتشين، وأصحاب الجريمة المنظمة وجماعات الإرهاب أيضًا.

[١]

فى دراسة نشرتها مجلة (فورين بوليسى) ـ عدد مايو،

☞

يونيـه (٢٠٠١) يروى - Nigel Marris (Cotterill) شيئًا من التاريخ فيقول إنه منذ ثلاثة آلاف عام تقريبًا كان التجار الصينيون يحاولون إخفاء أموالهم حتى لا يستولى عليها الحكام، فكانوا يخبئونها في أشكال مختلفة من الأنشطة مثل امتلاك بعض الأصول غير السائلة، وربما كان ذلك هو أول نشوء لفكرة غسل الأموال.

القصة، كما قلت، عمرها ثلاثة آلاف عام لكن عامر التميمي رئيس الجمعية الاقتصادية الكويتية يروى لنا قصة أخرى عمرها ثلاثة عقود فقط فيقول: «إن مصطلح غسل - أو غسيل - الأموال ظهر في الولايات المتحدة لأول مرة خلال السبعينيات حيث لاحظ رجال مكافحة المخدرات أن التجار الذين يبيعون للمدمنين بالتجزئة تتجمع لديهم - في نهاية كل يوم - فئات صغيرة من النقود الورقية والمعدنية وعادة ما يتجهون إلى محلات غسيل الملابس لغسل الأموال الملوثة بآثار المخدرات بالبخار أو الكيماويات أو لاستبدالها بنقود من فئات كبيرة يمكن إيداعها بالبنوك.. ومن هنا نشأ مصطلح غسل الأموال، والذى قد يحمل أيضًا تحويل الأموال القذرة إلى أموال نظيفة لا تحمل شبهة الجريمة».

وبصرف النظر عن أصل الكلمة فإن القصة لم تبدأ هكذا، ولم تخرج التنظيمات والمعاهدات الدولية لكى تواجه نفرًا يتجه لمحلات الغسيل والكى!

لقد تحدثنا طويلاً عن الاقتصاد الخفى والاقتصاد الأسود.. فهل تكون هذه هى البداية؟

الإجابة أيضًا بالنفى، فنقطة البدء هى كعكة الاقتصاد العالمى التى تزداد حجمًا بسرعة هائلة، وحركة الأموال التى تتسارع وتيرتها، وعالم التكنولوجيا والكمبيوتر الذى جعل انتقال الأموال يتم بضغطة إصبع على جهاز إلكترونى، كما جعل انتقال الملكية وبالمليارات كل يوم، عبر أوامر إلكترونية للبورصات وأسواق المال.. فكيف يمكن التحكم فى كل ذلك؟

فى تقرير (التنمية فى العالم) الذى أصدره البنك الدولى (٢٠٠١) أن صافى تدفقات رءوس الأموال الخاصة فى مجموعة الدول ذات الدخل المنخفض والمتوسط قد ارتفع من (٤٢,٦) مليار دولار عام (١٩٩٠) إلى (٢٦٨) مليار دولار عام ١٩٩٨.. أى أنه تضاعف أكثر من ست مرات فى ثمانى سنوات، بل إنه فى بلد مثل البرازيل قد تضاعف نحو مائة مرة فى نفس الفترة!



ودون الدخول فى تفاصيل حركة رءوس الأموال عبر الحدود الدولية فقد كانت الكعكة كبيرة، وتضم الاقتصاد الرسمى الذى تسجله الأرقام وتعلم عنه الحكومات الكثير من أسراره، والاقتصاد غير الرسمى أو الاقتصاد الخفى والذى يضم المشروع وغير المشروع، البائع المتجول الذى لا تعرف عنه الضرائب شيئًا، وبائع المخدرات الذى يدخل فى مجال الاقتصاد الأسود، ويسعى لتبييض وجهه أمام المجتمع، أو لتبييض أمواله حتى لا تكون مطاردة إلى غسل هذه الأموال، لتخرج (بيضاء من غير سوء) فيضع المال الملوث فى أوعية مختلفة مثل شراء الذهب أو التحف أو العقارات أو الشركات الحقيقية أو شركات (الواجهة).. ثم يعيد سحب النقود ليودعها فى البنوك التى تملك حاسة الشم، لكنها وإزاء مصدر مشروع لا تستطيع إلا أن تقبل ما يُقدم لها من أموال.. ومن بعدها يبدأ التوجه الحقيقى للأموال كما يريدها صاحبها.

إنها مثل لعبة «السلم والثعبان» التى يتسلى بها الأطفال، فلا تكاد العين وهى تنظر لبداية اللوحة أن تعرف كيف الوصول إلى النهاية. فالتعرجات، والطرق الملتوية كفيلة بالتمويه.

أيضًا فهى «أموال الأنابيب» إن جاز التعبير، فمثلما ينجب الرجل من زوجته دون لقاء جنسى وعبر أنبوبة تضم سائل الرجل والمرأة.. فإن نفس الشيء يحدث فى غسيل الأموال حيث يلتقى المال وهدفه النهائى الوصول إلى النشاط المشروع عبر عالم سرى لا تراه الأعين!

والبداية قد تكون أيضًا أموالاً نظيفة وناتج نشاط مشروع، لكنها ورغبة فى التهرب من الضرائب الباهظة، أو رغبة فى الهروب من أنظمة وطنية تمنع تحرك رءوس الأموال، حينذاك قد يلجأ رأس المال للفرار عبر وسائل غير مرئية، وعبر بنوك وأنشطة فى الداخل أو فى الخارج، وبينما كان نظام الحسابات السرية، والتى قد يصبح اسم صاحبها مجهولاً، وسيلة جيدة للتخفى فإن هناك بلادًا قد اشتهرت بغسل الأموال وإعطاء شهادة صلاحية للانتقال إلى مختلف أنحاء العالم!

فى كتاب يحمل اسم «فخ العولمة» تأليف: (هانس - بيتر مارتين وهارالد شومان) قصة طويلة حول «الواحات الضريبية» التى تستقبل الأموال الهاربة من نيران الضرائب فى أماكن أخرى، فتأتى إلى هذه الجنات وتتمتع بإعفاءات كاملة أو شبه كاملة، وتتحرك فى المصارف بحرية دون أن يسألها أحد: (من أين لك هذا؟).

ويقول مؤلفو الكتاب - الذى قام بترجمته للعربية د. عدنان عباس على - أنه «من الكاريبى وعبر لشتنشتاين هناك ما يقرب من مائة منطقة متناثرة تدير منها المصارف وشركات التأمين وصناديق الاستثمار أموال زبائنها الأثرياء.. وبينها مثلاً جزر (الكايمن) الكاريبية والتى تخضع - رغم استقلالها - للتاج البريطانى وتضم (١٤) ألف مواطن فقط ولا تزيد مساحتها على (١٤) كيلو مترًا مربعًا.. وهذه الجزيرة وحدها تضم خمسمائة مصرف مسجل، وبعض هذه المصارف ينتمى لبنوك عالمية شهيرة.. ومثل الكايمن، تأتى إمارة لوكسمبورج، وإمارة لشتنشتاين وجزيرة جيرسى الواقعة فى القنال الإنجليزى.. وغيرها».

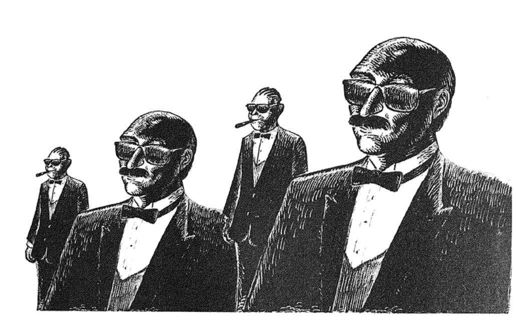
[٢]

يدافع البعض جزئيًا عن عملية غسل الأموال حين تكون اضطرارية ويضرب (نيجل موريس) المثل فى دراسته بمجلة (فورين بوليسى - مايو، يونية ٢٠٠١)، يضرب المثل بالبيض الذين صادرت زيمبابوى أراضيهم، وبرجال الأعمال فى نيجيريا الذين أقاموا اقتصادًا موازيًا خارج نيجيريا بسبب قواعد التحويل الصارمة للعملة النيجيرية والذى استمر طويلاً.. وتتحدث الدراسة عن التهرب من الضرائب وهو تهرب يعنى أن جزءًا من الأرباح المشروعة وهى الأموال المتهربة قد بات غير مشروع، وأصبح كما يشير الباحث مثل نقطة الحبر إذا اختلطت بالماء لوثته، لكن فصلها عنه يصبح مستحيلاً.. وهكذا تكون الأموال بعد أن تدخل إلى باب البنك ويقبلها الشباك.

المنابع إذن متعددة، والأحجام هى ما جعلت الاهتمام الدولى متزايدًا حتى أن لجنة دولية لمكافحة غسيل الأموال قد أنشأتها أوروبا، ثم باتت تنظيمًا عالميًا إضافة لبرنامج الأمم المتحدة لمكافحة المخدرات وغسل الأموال.

ورغم أن تقدير حجم الأموال التى يتم غسلها سنويًا مختلف عليه لأنه جزء من «المال الحرام» الذى يصعب حصره، فإن الأرقام تتفاوت بين ستمائة مليار دولار وألف وخمسمائة مليار دولار. يقدر تقرير للبنك الدولى أن الحجم عام (١٩٩٩) كان ستمائة مليار دولار ويقول تقرير صادر من صندوق النقد الدولى أن الأموال التى تم تبييضها عام (٩٨) تتراوح ما بين (٦٠٠ - ٧٠٠) مليار دولار وهو ما يعادل فى الحدود الدنيا (٢٪) من الناتج المحلى لكل دول العالم، بينما يرتفع الحد الأعلى - وفق تقديرات أخرى إلى (٥٪) من دخل العالم و(٢٥٪) من التجارة العالمية وأكثر من سبعة أضعاف مجموع الصادرات السنوية لمنظمة أوبك من النفط، وما يوازى ثلاثة أضعاف مجموع احتياطيات البنوك!

وتتفق تقديرات اللجنة المالية الدولية لمكافحة غسيل الأموال مع صندوق النقد فى تقديراته التى تذهب إلى أن غسل الأموال يتراوح بين (٢ - ٥) بالمائة من الناتج العالمى، ويقدر د. إكرام الحق فى دراسته المشار إليها سابقًا أن ما يتم غسله سنويًا يبلغ نحو تريليون (ألف مليار) دولار، بينما يقدر د. شريف بسيونى الخبير بالعلاقات الدولية والقانون الجنائى الدولى حجم تجارة المخدرات وحدها بخمسمائة مليار دولار سنويًا، ويرى د. حمدى عبد العظيم نائب رئيس أكاديمية السادات للعلوم الإدارية أن حجم الاقتصاد الخفى فى مصر فى منتصف التسعينيات (١٩٩٤) قد بلغ (٣٢,٧) مليار جنيه بينما بلغت قيمة المخدرات المتداولة حوالى (٣) مليارات جنيه سنويًا ويتم غسل (٧٠٪) منها فى البنوك وأسواق المال محليًا وعالميًا، وتستند هذه الدراسة الأخيرة على أرقام وزارة الداخلية التى تشير لضبط (١٤)



ألف قضية فى عام ١٩٩٤، وتقول الدراسة انه إذا كان المعلن أو المضبوط لا يتجاوز (٤٠) بالمائة فى العادة مما يتم تداوله فإن الرقم الحقيقى لما يتم تداوله ـ ومن ثم غسله أو غسل معظمه ـ يصل إلى ستة مليارات من الجنيهات كل عام، وبينما يغسل الصغار أموالهم فى مشروع أو قطعة أرض فإن الكبار يتجهون للعواصم الغربية فى أغلب الأحيان.



فى كل الأحوال فإننا أمام أرقام هائلة، ولنا أن نتصور دورتها فى الاقتصاد سواء فى مصر أو العالم العربى أو العالم الخارجى.

** فالبداية نشاط غير مشروع يقتطع من الاستثمار القومى حصة لا بأس بها، وبينما تكون الدولة فى حاجة إلى مستشفى ـ على سبيل المثال ـ فإن الأموال تذهب لشراء أسلحة صغيرة أو مخدرات أو اقتناء غانيات وأطفال يعملون فى سوق الرقيق الأبيض!

والسؤال: هل ننظر للأنشطة غير المشروعة كنشاط اقتصادى فى النهاية، يضيف للدخل القومى عبر رافديه الشهيرين: الأجور وعوائد التملك.. أم اننا نعتبر شره أكثر من خيره، إن كان هناك خير على الإطلاق؟

صحيح أن الأنشطة غير المشروعة تلد دخولاً وفرص عمل لكنها تبتعد عن أى جانب أخلاقى أو قانونى وترتكب كل ما يضر المجتمع، وفى جانبها المالى فإنها تقتطع من الاستثمار القومى، والاستهلاك القومى الرشيد وتذكى أنشطة «اقتصاد المغامرة» إن جاز التعبير، فالنقود الرخيصة والتى تأتى بكميات غير معتادة فى الأنشطة الاقتصادية المشروعة.. تخرج من أيدى أصحابها ببساطة فيضاربون على أسعار السلع والأراضى، وربما يقيمون ليالى ألف ليلة وليلة فى أفراحهم كما تروى بعض الحكايات فى مصر.

وتتسم المرحلة الأولى بأنها قد تضم أكثر من نشاط واحد فيكون التحالف بين مختلف فروع الجريمة، فتاجر المخدرات قد يتحول إلى تاجر سلاح بشكل غير مشروع والاثنان يحتاجان إلى حماية فيلجآن لعصابات القتل وعصابات التزوير والتزييف. إنه تحالف الجريمة تلتقى فيه نوعيات متعددة تعمل تحت السطح وبعيدًا عن أعين المجتمع!

** بعدها، تبدأ المرحلة الثانية، مرحلة نقطة الحبر التى تختلط بالماء فلا نستطيع أن نفصلها، وهنا تتعدد الوسائل، وبينما لا يلفت المنحرف الصغير (مثل الموظف المرتشى) الأنظار حتى لو ذهب إلى البنوك يودع فيها أمواله.. فإن المنحرف الكبير يبقى هو المعنى بالوصول إلى شباك البنك ليودع فيه نقوده، ثم يسحبها وقد أصبحت أموالاً مشروعة..

ومن ثم تدخل المرحلة الثالثة وهى مرحلة الدخول إلى المشروع عبر مشروعات وأنشطة عادية، ولكن ما بين المرحلة الثانية والثالثة أى مرحلة الدخول والخروج من المصارف أو البورصات أو المؤسسات المالية يكون الحذر ويكون الفساد والإفساد فيبحث صاحب الأموال عن مصرفى يحميه أو مسئول يعطيه البراءة!

[٣]

هذه الدورة ذات الطبيعة الخاصة هى التى تجعل شعار الحملة العالمية لغسل الأموال هى «اعرف عميلك»، بمعنى انه عندما تزيد الإيداعات فى البنوك عن رقم معين (وهو عشرة آلاف دولار فى الولايات المتحدة مثلاً) أو عندما يشك موظف البنك فإن السؤال يصبح ضرورياً عن مصدر الأموال، ولكن وحتى نصل إلى هذه النقطة فإن أربعين وسيلة عمل ونصيحة قانونية أصدرتها اللجنة المالية لمكافحة غسيل الأموال والتى تضم أكثر من ثلاثين دولة، وتعتبر مسئولة عن تطوير السياسات الهادفة إلى مكافحة عمليات غسل الأموال، وملاحقة العوائد المتأتية عنها للكشف عن مصادرها غير المشروعة ولمنع إعادة استخدام هذه العوائد فى أنشطة غير شرعية.

التوصيات تم وضعها عام ١٩٩٠، وجرت مراجعتها وتطويرها وصدرت معدلة عام ٩٦ لتطبقها الدول الأعضاء وغير الأعضاء، ولتصبح بعد ذلك دستورًا يحدد الدول المتعاونة والدول المتهمة بعدم التعاون ومن ثم غسل الأموال فى نطاقها.

وتبدأ التوصيات بأهمية التصديق على أحكام معاهدة الأمم المتحدة لعام (١٩٨٨) والخاصة بالمخدرات والمعروفة باسم معاهدة فيينا وتمتد لأهمية أن تصدر الدول المختلفة التشريعات التى تحدد نطاق الجريمة الأصلية «المخدرات مثلاً» والجريمة التابعة «غسل الأموال»، كما تحدد الهيئات المسئولة عن ذلك وتنظيم التدابير التى تشمل: حق المصادرة، حق التتبع للأموال والممتلكات، تجميد الأموال والحجز عليها فى التحقيق، إبطال العقود، إنزال العقوبات، وتبادل المعلومات محليًا ودوليًا وبما يجعل كل المؤسسات المالية والتجارية مسئولة عن تطبيق القانون وليست البنوك وحدها.. ولكن، وعندما تصل التوصيات إلى دائرة البنوك فإنها ترفع الشعار السالف ذكره (اعرف عميلك) فغير مسموح بفتح حسابات بأسماء مجهولة أو وهمية أو دون التعرف على المركز القانونى للعميل أو عنوان إقامته ومجال نشاطه.

التوصيات، أو الوصايا تتعدد بعد ذلك لتشمل جوانب فنية كثيرة، مثل حفظ السجلات لمدة خمس سنوات على الأقل، ومثل تصميم نظام للإبلاغ عن المخالفين والمشتبه فيهم دون أن يصاب الموظف الذى يقوم بذلك بأذى.

وتمتد الوصايا من مجال الداخل وتطوير أجهزته وتشريعاته إلى مجال الخارج وأهمية فتح قنوات بين الدول لتبادل المعلومات.. وتبادل المتهمين أيضًا مع إبرام معاهدات دولية على غرار معاهدة المجلس الأوروبى حول غسيل الأموال، وهى واحدة من اتفاقيات ومعاهدات أبرزها:

١ـ اتفاقية فيينا (١٩٨٨) لمكافحة الاتجار غير المشروع فى المخدرات والمؤثرات العقلية.

٢ـ مبادئ الرقابة الحصيفة، أو هكذا جرت تسميتها من لجنة بازل، ويرتبط أحد هذه المبادئ بعملية غسل الأموال.

٣ـ توجيه المجلس الأوروبى فى يونيو (٩١) حول هذا الأمر.

٤ـ الاتفاقية العربية التى عقدت عام (١٩٩٤).

وقد تم تتويج ذلك بالنشاط الدءوب للجنة الدولية لمكافحة غسيل الأموال (F.A.T.F) والتى نشأت فى قمة الدول الصناعية السبع عام (٨٩) وأصدرت توجيهاتها الأربعين السابق الإشارة إليها عام (٩٠) ثم عدلتها وراجعتها عام (٩٦) واللجنة تضم دولاً من أوروبا وأمريكا اللاتينية وآسيا ومجلس التعاون الخليجى.

جريمة غسل الأموال إذن جريمة مستحدثة، بل هى ابنة العقود أو السنوات الأخيرة من القرن العشرين، وهى جريمة تابعة، بل هى محاولة لمحاصرة مجموعة من الجرائم عن طريق حرمانها من عائدها المادى أو عن طريق الإمساك بتلابيبها من الطرف الأخير للجريمة: الربح المتحقق والأموال الظاهرة



[٤]

جريمة غسل الأموال إذن جريمة مستحدثة، بل هى ابنة العقود أو السنوات الأخيرة من القرن العشرين، وهى ـ كما قلت ـ جريمة تابعة، بل هى محاولة لمحاصرة مجموعة من الجرائم عن طريق حرمانها من عائدها المادى أو عن طريق الإمساك بتلابيبها من الطرف الأخير للجريمة: الربح المتحقق والأموال الظاهرة.

وعالم الجريمة ـ كما هو معروف ـ عالم متسع يشمل ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ المخدرات، والخطف والابتزاز والاحتيال والسرقة والاختلاس والرشوة وتهريب الأسلحة والبضائع وقطع الغيار الآدمية والدعارة والاتجار فى السوق السوداء والتهرب الضريبى والاقتراض من البنوك والاستيلاء على أموالها أو تهريبها للخارج والاتجار فى السلع الفاسدة وتزوير الشيكات والمضاربة غير المشروعة فى أسواق الأوراق المالية.

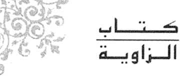
القائمة طويلة أضيف إليها فى الآونة الأخيرة وبشكل ملح: قضية الإرهاب، والتى كانت وراء تجميد أرصدة ثلاثين شركة مشتبهًا فى أمرها بدولة الإمارات العربية وكان ذلك فى (٢٠) نوفمبر عام (٢٠٠١) أى بعد سبعين يومًا من أحداث (١١) سبتمبر وبناء على طلب من الولايات المتحدة، وإن لم يفصح قرار البنك المركزى بالإمارات عن ذلك.. وقد شمل قرار التجميد عددًا من الشركات التجارية ومحطات البنزين والمطاعم ومحلات المجوهرات، فهل كان لهذه المنشآت علاقة بتمويل الإرهاب الذى ضرب الولايات المتحدة؟ أم أن التجميد تم تطبيقًا لقانون مكافحة غسل الأموال والذى كان قد صدر قبل ذلك بأسابيع؟



على أى حال، فإن سلسلة من الإجراءات قد تمت فى الدول العربية استجابة للضغوط التى مورست للدخول فى حملة غسل الأموال أو درءًا للاتهام الذى جرى توجيهه بالفعل لبعض البلاد مثل مصر والتى جاء اتهامها بعدم التعاون فى الحملة الدولية بسبب عدم إصدارها للقوانين والترتيبات المنظمة لذلك، وهو ما يتم تداركه حاليًا.. وهو نفس الاتهام الذى جرى توجيهه لدولة الإمارات والتى أعلنت بدورها ـ على لسان محافظ المصرف المركزى يوم (٨) سبتمبر (٢٠٠١) أنها قد توصلت إلى اتفاق مع مجموعة العمل المالى الدولية لتأجيل تقرير الفريق بشأن تصنيف الدول غير المتعاونة إلى فبراير عام (٢٠٠٢).

فى هذه الآونة أيضًا، النصف الثانى من عام (٢٠٠١) أوقفت شرطة البحرين خمسة من رجال الأعمال الذين يحملون الجنسيتين القبرصية والأردنية بتهمة غسل أموال حجمها (٥٠) مليون دولار، وكان ذلك تطبيقًا لقانون مكافحة غسل الأموال الذى أصدرته البحرين فى يناير من نفس العام.

بعدها، وفى فبراير من هذا العام (٢٠٠٢) ألغى النائب العام اللبنانى قرارًا قد صدر بملاحقة



كتاب الزاوية



حالة حصار

محمود درويش (١٣ مارس ١٩٤١)

ولد بقرية «البيرة» فى سهل عكا. خرج مع الخارجين بعد اجتياح القرية فى ١٩٤٨، قضى مع عائلته عامًا فى لبنان، عادت بعده العائلة إلى فلسطين. صدرت مجموعته الأولى «عصافير بلا أجنحة» فى ١٩٦٠. وتتابعت مجموعاته وهو يقضى أيامه بين السجن والإقامة الجبرية. فى ١٩٧٠ خرج للدراسة فى موسكو. لكنه قرر ألا يعود. جاء إلى القاهرة، ومنها إلى بيروت حيث استقر زمنًا وأصدر مجلة «الكرمل». وخرج من بيروت بعد اجتياحها فى ١٩٨٢. وظل محمود يراوح بين المدن العربية والأوروبية، ويكتب الشعر فى كل الأحوال. رفض درويش «اتفاق أوسلو»، واستقال من «اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير»، ولم يعد إلى فلسطين إلا فى ١٩٩٦، وأقام فى رام الله.

أهم أعماله الشعرية: «عاشق من فلسطين» ١٩٦٦، «أحبك أو لا أحبك» ١٩٧١، «محاولة رقم ٧» ١٩٧٣، «تلك صورتها.. وهذا انتحار العاشق» ١٩٧٥، «مديح الظل العالى» ١٩٨٣، «حصار لمدائح البحر» ١٩٨٤، «ورد أقل» ١٩٨٦، «هى أغنية.. هى أغنية» ١٩٨٧، «أرى ما أريد» ١٩٨٨، «أحد عشر كوكبًا» ١٩٩٢، «لماذا تركت الحصان وحيدًا؟» ١٩٩٥، «سرير الغريبة» ١٩٩٩ و«جدارية» ٢٠٠٠.

ومن أعماله النثرية: «يوميات الحزن العادى» ١٩٧٣، «شىء عن الوطن» ١٩٧٥، «ذاكرة للنسيان» ١٩٨٦ و«فى وصف حالتنا» ١٩٨٧.

«حالة حصار» آخر أعماله، وهى قصيدة طويلة كتبها الشاعر فى رام الله، فى يناير ٢٠٠٢.



ثلاثة لبنانيين - أحدهم يحمل الجنسية الأسترالية - بتهمة تبييض الأموال وبناء على طلب هيئة التحقيق الخاصة لدى مصرف لبنان المركزى والتى تعنى بمكافحة غسل الأموال.

وفى نفس الشهر - فبراير - كانت كل من مصر واليمن والكويت تعد مشروعات قوانين حول هذا الأمر، وقد وافق مجلس الشعب المصرى بالفعل فى شهر مايو الماضى على مشروع القانون بعد أن كان مجلس الشورى قد وافق عليه قبل ذلك بأيام.

ويبدو أن المطاردة بالاتهامات كانت وراء موجة القوانين التى تعالج هذا الأمر فى مختلف البلاد العربية، وفى حالة مصر التى جرى إدراجها ضمن الدول غير المتعاونة والتى تجرى مناقشة تشريع جديد لهذا الغرض، فإن الدوائر المسئولة ترى أن غسل الأموال لم يكن مباحًا، لكن مواجهته كانت تتم من خلال قوانين تعالج الجرائم الأصلية مثل المخدرات، كما أن مصر ملتزمة باتفاقية الأمم المتحدة (فيينا - ١٩٨٨) وقد أصدر البنك المركزى فى يوليو (٢٠٠١) تعليمات للبنوك للحيلولة دون غسل الأموال.. أى أن المواجهة قد بدأت قبل اللجوء لقانون خاص جرى الاختلاف حول أثره وهل يمكن أن يحاصر الجريمة ويطارد أموال الإرهاب (وإن لم تظهر فى مصر)، أم أنه يزيد من مشاكل البنوك ويدفع رءوس الأموال للهرب من القنوات الشرعية، ومن ثم يؤثر على حركة الاستثمار.

[٥]

فى حالة مصر تثار علامات استفهام عديدة.

* فإذا كان محافظ البنك المركزى قد أصدر منشورًا فى منتصف عام (٢٠٠١) يقضى بعدم وضع أى قيود على الإيداعات النقدية بالعملات الأجنبية فى حالة سداد مديونيات العملاء تجاه البنوك، أو حالة فتح اعتمادات مستندية أو بيع عملات أجنبية مقابل الجنيه المصرى.. إذا كانت هذه هى التوجيهات ألا تفتح الباب لعمليات الغسيل إذن؟ وهل يتم إلغاء هذا المنشور - والذى استهدف جمع عملات صعبة - بعد صدور القانون الجديد؟

* وإذا كانت البورصة قد شهدت طفرات جذبت مستثمرين أجانب، فهل كان يتم التحقق من هوية أموالهم، وأنها ليست مالاً حرامًا؟

* ونفس السؤال يتم توجيهه فى عملية الخصخصة، فالعين دائمًا على أفضل العروض، وأعلى الأسعار، وأيسر الطرق للبيع.. فهل كانت العين مفتوحة أيضًا على ذلك الجانب الذى نتحدث عنه، وهو جانب «المال الحرام»، وهل كانت الأموال «المنهوبة» من البنوك المصرية والتى تم بها شراء مشروعات عامة أو إنشاء مشروعات مع انسحاب المال المملوك للمستثمر فى الوقت المناسب.. هل كان استخدام هذه الأموال - وربما فقدها - حلالاً أم حرامًا؟

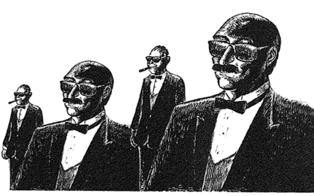
* وهل كانت ظاهرة تركز الإقراض فى عدد محدود من رجال الأعمال عنصرًا حافزًا للاستثمار.. أم مشجعًا لهروب رءوس الأموال إلى الخارج، بموجب سماح يضمنه قانون النقد الأجنبى الذى يعطى تسهيلات تزيد عما هو مطبق فى بريطانيا.



القانون فى مصر يسمح بتحويل الأموال بلا قيود، لكن البعض - وهروبًا من المسئولية أو خضوعًا لمقتضيات معينة قد يلجأ أيضًا لعمليات غسل أموال، تختفى بعدها الثروات خارج مصر.

أقول: إنه تركز الإقراض وأمامى دراسة مصرفية تشير إلى أن (٣٤٣) عميلاً قد حصلوا - فى نهاية مارس (٢٠٠٠) - على ٤٢٪ من حجم الائتمان فى مصر، وأن ثمانية عملاء قد حصلوا وحدهم على (١٢,٤) مليار جنيه، وبعض هؤلاء (خرج.. ولم يعد).

قضية غسل الأموال إذن قضية مهمة، لكن الأهم: مجموع السياسات التى تضمن السلوك المالى والاقتصادى القويم.. والسياسات هنا: تشريع، وتنظيم، ومؤسسات، ورقابة، ومحاسبة.. وقبل ذلك وبعده: شفافية تسمح بنشر الحقائق ونشر المفاسد أيضًا. إنها قضية الديموقراطية وحرية المعلومات والتى لم تعد - كما تقول مؤسسات دولية كالبنك الدولى - تنفصل عن قضية الاقتصاد.. فالديموقراطية فى النهاية هى الطريق القويم لاتخاذ القرارات فى السياسة والاقتصاد والمجتمع.



[٦]

فى البدء، كما قلت، كان الفساد. فهو الأصل ومن أرباحه يقتطع البعض ما يحتاج إلى «غسل وكى وتطهير»!

والفساد، سياسى واقتصادى، وطبقًا للأدبيات الدولية، فإن الفساد قد انتقل من السفح «صغار الموظفين» إلى القمة «كبار الموظفين والمسئولين» كما أنه انتقل من المحلية إلى العالمية، وبعد أن كان قرين التوسع فى الوظائف التى تقوم بها الحكومات، بات فى عصر اقتصاديات السوق شاملاً (العام والخاص).

(شهدت الآونة الأخيرة فى مصر تقديم عدد من كبار المسئولين السابقين للمحاكمة بتهمة الفساد، كما شهدت تقديم رئيس أحد الأحزاب للمحاكمة بتهمة الابتزاز عن طريق صحيفة الحزب، وشاعت جرائم المال العام التى يرتكبها أفراد من القطاع الخاص).

وبينما يضع البعض تعريفًا للفساد أنه الدخول إلى عالم الجريمة «بالملابس الرسمية» ويقول آخرون: «إن الفساد هو أن تبيع الحكومة بأجر معلوم».. بينما تأتى هذه التعريفات الساخرة فإن الدراسات الدولية تشير إلى أن بداية الفساد استغلال للسلطة، وهى - فى أغلب الأحيان سلطة عامة تفرض الضريبة وتحصلها وتعفى منها، وتعطى التراخيص أو تحجبها، وتشترى وتبيع من خلال مناقصات دولية ومحلية. إنها سلطة المنح والمنع يمارسها موظف كبير أو صغير، فإذا انحرف بسلطته، أو قام بتعقيد الإجراءات ليقوم بتسهيلها بمقابل مادى، فإن الفساد يكون قد بلغ ذروته.

لكن الفساد ليس مجرد نقيصة أخلاقية. إنه أيضًا عرض من أعراض سوء التنظيم والإدارة، ومن ثم فقبل أن يصيح «امسك حرامى»، فإنه لابد أن نصيح مطالبين بنظم إدارية وسياسية أفضل. أما الدليل فهو ما جاء فى تقرير مؤسسة الأهرام عن الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية لعام (٢٠٠٠) والذى تناول أسباب قضية الفساد فى الوطن العربى، فتحدث عن لعبة إخفاء المعلومات، ومشكلة غياب المساءلة، وقضية انخفاض أجور الموظفين وتضارب الاختصاصات وعدم وضوح اللوائح.

(تعترف مصلحة الجمارك فى مصر بأن الإجراءات بالغة التعقيد حتى أنها تحتاج لإنشاء مهنة مخلص ليقود المتعاملين داخل الدوائر الجمركية!!)

ولكن لماذا احتلت قضية الفساد اهتمامًا عالميًا؟

لقد نشأت بيئة دولية جديدة فى التسعينيات. غاب التناحر الذى خلقته الحرب الباردة وبدأ التنافس السلمى على الأسواق.. وبات كسب الأسواق على أساس قاعدة «الأفضل» أمرًا مستهدفًا.. ولكن لأن البعض «يدفع» فإنه يستحوذ على الصفقات الدولية الكبرى وينفذ إلى الأسواق على حساب الآخرين.



هكذا كان الأمر - مثلاً - مع شركات ألمانية وأمريكية كبرى.. وهكذا كانت البداية فى ألمانيا التى أعلنت النيابة العامة فيها أن صناعة البناء الألمانية كانت تدفع (١٠) مليارات مارك سنويًا كرشاوى للمسئولين.. وفى ألمانيا أيضًا تم التحقيق مع شركة أوبل لتقاضى (٦٥) من المسئولين التنفيذيين بها للرشاوى!

ومن ألمانيا إلى روسيا ودول شرق أوروبا يستمر المشهد.. وقائع فساد لا تتوقف حتى باتت القضية همًا دوليًا يستحق البحث لأن الرشوة تقضى على فكرة المنافسة فى اقتصاد السوق، وهو ما حدا بالعالم لإبرام معاهدة دولية لمكافحة الرشوة.

وفى عالمنا العربى، وعلى ما أظن فإن المجهول أكثر من المعلوم، وآليات الفساد متوافرة بأكثر مما هو متاح فى الدول المتقدمة.

فى الدول العربية تختلط السياسة بالأعمال، وهذا باب واسع للفساد.. وفى بلادنا العربية تتراجع الرقابة الشعبية وتغيب الديموقراطية إلا قليلاً.. ومن ثم يصبح الكشف عن المفاسد مهمة الأجهزة الإدارية التى قد تكون ذاتها مرتعًا للفساد.. وتحت إشراف مسئولين قد يكونون فاسدين.

فى بلادنا أيضًا، تتراجع الحساسية تجاه الأخطاء ويلعب احتكار السلطة وعدم تداولها دورًا فى تكريس الفساد.

ومع ذلك فإن حديث الفساد الذى ازداد إيقاعه فى الفترة الأخيرة، وتصدى بعض البرلمانات لمظاهر الفساد، واهتمام الصحافة بالقضية، وإنشاء بعض الدول - مثل الأردن - لمديريات «مكافحة الفساد»، كل ذلك يمثل خطوة إيجابية، قد يساعدها المناخ الدولى الجديد الضاغط من أجل تحجيم الفساد، والأهم: عملية ضبط الإيقاع وتنظيم الجهود فى حملات مخلصة وحقيقية.

إننى لا أتوقع مجتمعًا متطهرًا.. طاهرًا.. نقيًا، لكن ما نرجوه قدرًا أقل من الفساد يحمى المال العام، ويحمى مصالح المجتمع، ويحمى ما تبقى لدينا من قيم روحية.

أما الحل، فهو ما تذهب له المؤسسات الدولية الآن.. ابحث عن الأنظمة، وابحث عن المؤسسة.

الديموقراطية تزيد الانتماء، وتوفر الحيوية والمشاركة والشفافية تجعل كل شىء «على المكشوف» مما يسهل الرقابة والمتابعة.. وسيادة القانون هى ما يمنع الانحراف.

* هل ننشئ منظمات لمحاربة الفساد، كما فعلت بعض الدول؟

* هل نعيد النظر فى طريقة التصرف فى المال العام فنوفر شفافية أكثر فى عملية الخصخصة، وننشر فحواها أولاً بأول؟

* هل نشدد القوانين لنجعل المال الحرام من الكبائر؟

كل ذلك مطلوب، فأسوأ ما تفعله أمة أن تكون حكوماتها للبيع والشراء.. وأن يكون الدخول إلى الفساد بالملابس الرسمية! سواء فعلها الصغار، أو فعلها الكبار من وزراء سابقين أو لاحقين.

القضية ليست غسل الأموال، رغم أهمية مطاردة هذه الأموال، لكن القضية هى ما وراء ذلك. فالأفيال تخرج من ثقب إبرة.. هكذا تعودنا فى بلادنا. ■

كتاب الزاوية

حالة حصار

(٢)

هنا، عند مُنْحدرات التلال، أمامَ الغروبِ

وفُوَّهَة الوقت،

قُرْبَ بساتينَ مقطوعة الظلِّ،

نفعَلُ ما يفْعَلُ السُّجَناءُ،

وما يفعلُ العاطلون عَن العَمَل:

نُربِّي الأمَلْ.

***

بلادٌ على أُهْبَة الفجر،

صرنا أقَلَّ ذكاءً،

لأنَّا نُحملقُ فى ساعة النصر:

لا لَيْلَ فى ليلنا المُتَلألِىء بالمدفَعيَّة

وأعداؤنا يُشْعِلون لنا النورَ

فى حلكة الأقبِيَةْ

***

يقولُ على حافَّة الموت:

لم يَبْقَ بى مَوْطِىء للخسارة،

حُرٌّ أنا قُرْبَ حُرِّيتى

وغدى فى يدى . . .

سوف أدخُلُ، عما قليلٍ، حياتى

وأُولَدُ حُرّاً بلا أبَوين،

وأختارُ لاسمى حروفاً من اللازوَرْد

آمن بها ريجان وكارتر



المسيحية الصهيونية فى أمريكا

تقف الدبلوماسية العربية متلعثمة أمام تفسير الموقف الأمريكي المؤيد لإسرائيل فى كل الحروب والاعتداءات التى تشنها على العالم العربى. لماذا تغامر الولايات المتحدة بتعريض مصالحها وسمعتها المعنوية للخطر؟ ولماذا تضرب عرض الحائط بالصداقة مع العالم العربى (٣٠٠ مليون) ومع العالم الإسلامى (مليار و٢٠٠ مليون)؟ بل ومع شعوب العالم فى الشرق وفى الغرب التى تؤمن بحقوق الإنسان وتدعو إلى احترام المواثيق والقوانين الدولية؟ ولماذا تدافع عن المجازر التى ترتكبها إسرائيل وتؤيدها على حساب كل هذه القيم والمبادئ الإنسانية؟.

فى الأساس هناك خطأ فى صياغة هذا السؤال الذى يتردد على كل شفة ولسان جيلاً بعد جيل. والخطأ هو فى الاعتقاد بأن الولايات المتحدة تؤيد إسرائيل. إن هذا الاعتقاد الخاطئ يؤدى إلى نتائج خاطئة. فالعلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل ليست مبنية على التأييد وعلى الدعم والمساندة. وليس صحيحاً أن إسرائيل تلعب دور الشرطى الأمريكي فى الشرق الأوسط. وبالتالى فإنه ليس صحيحاً أن المبالغة العربية فى التجاوب مع المصالح الإستراتيجية الأمريكية يلغى دور هذا الشرطى أو يعطله.

الحقيقة هى أن العلاقات الأمريكية ـ الإسرائيلية تتجاوز حدود المصالح السياسية والاقتصادية والأمنية. وبالتالى فإنه مهما قدم العالم العربى ـ الإسلامى من تنازلات وتضحيات للولايات المتحدة، ومهما أبدى من استعداد للتوافق معها وحتى للسير فى ركابها، فإن ذلك لن يغيّر أبداً من الموقف الأمريكي من إسرائيل. ذلك لأن هذا الموقف يترجم فى حدّ ذاته ثوابت إيمانية تتعدى المصالح وتتجاوز الحسابات السياسية.

وحده الشرق الأوسط من دون مناطق العالم الأخرى يخضع فيه القرار السياسى الأمريكي إلى هذه الثوابت الإيمانية. وما اللوبى الصهيونى الفعال والواسع النفوذ فى الولايات المتحدة سوى أداة واحدة من أدوات عديدة أخرى توظف هذه الثوابت الإيمانية لمصلحة إسرائيل.

من أجل ذلك لا بد لفهم خلفية الالتزام الأمريكي بإسرائيل من فهم هذه الثوابت ومن معرفة موقعها فى عملية صناعة القرار الأمريكي.



فى عام ١٨٩٧ عُقد فى مدينة بال السويسرية المؤتمر الصهيونى الأول بدعوة من الصحفى اليهودى النمساوى تيودور هرتزل. ولكن قبل ذلك بثلاثة قرون انطلقت الحركة الصهيونية المسيحية من هولندا وبريطانيا. ثم استوطنت وتجذرت فى الولايات المتحدة.



محمد السمّاك

فى الأساس كانت الكاثوليكية تقول بأن العصمة للكنيسة التى يمثلها البابا. بعد حركة الإصلاح الدينى التى انطلقت من ألمانيا بقيادة مارتن لوثر وكالفن وغيرهما أخذت تلك الحركة بنظرية تقول إن العصمة للكتاب المقدس.

كانت الكاثوليكية تتمسك بنظرية القديس أوغسطين بأن ما ورد فى الكتاب المقدس بشأن مملكة الله قائم فى السماء وليس على الأرض. وبالتالى فإن القدس وصهيون ليسا مكانين محددين على الأرض لسكن اليهود ولكنهما مكانان سماويان مفتوحان أمام كل المؤمنين بالله. بعد حركة الإصلاح الدينى وُضعت تفسيرات أخرى تقول بالواقع الأرضى لمملكة الله، وبوعد الله المقدس لليهود وبوكالتهم عن الله فى إقامة مملكته، وبالعودة الثانية للمسيح وشروطها وبالألفية وحتميتها.

وهكذا ومنذ منتصف عام ١٦٠٠ بدأت الحركة البروتستانتية دعوة اليهود إلى مغادرة أوروبا والعودة إلى فلسطين لإقامة مملكة الله. أوليفر كرمويل راعى الكومنولث البريطانى فى انطلاقته الأولى دعا إلى تهويد فلسطين تمهيداً لعودة المسيح.

وفى عام ١٦٥٥ نُشر كتاب للقس البروتستانتى الألمانى بول فليجن هوفر قال فيه إن اليهود سوف يتحولون إلى المسيحية بمجرد الظهور الثانى للمسيح لأنهم سوف يعتبرونه واحداً منهم. وأن من مستلزمات هذا الظهور الثانى عودة اليهود إلى البلد الذى منحهم الله إياه عبر إبراهيم وإسحق ويعقوب.

وهكذا تكونت الأدبيات الدينية التى تجعل من اليهود المؤتمنين على الخطة الإلهية التى يتحدد بمقتضاها مصير البشر جميعهم. والتى تجعل من إقامة دولتهم المدخل الوحيد الذى لا بد منه للعودة الثانية للمسيح، وهى العودة التى تحسم مصير صراع الإيمان والكفر والتى تنتهى بانتصار المسيح وسيادته على العالم مدة ألف عام ومن ثم تقوم الساعة.

من خلال هذه الأدبيات أصبح الإيمان بمساعدة اليهود فى إقامة دولة فى فلسطين نوعاً من العبادة التى تعبر عن المشاركة الإنسانية فى تحقيق الإرادة الإلهية. حتى أن اللورد أنطونى أشلى كوبر الإصلاحى الإنجليزى الشهير قال فى عام ١٨٣٩ «إن اليهود رغم أنهم غلاظ القلب وغارقون فى المعصية وينكرون اللاهوت فإنهم ضروريون بالنسبة للأمل المسيحى فى الخلاص». والرغبة فى الخلاص المسيحى كانت الحافز الدينى وراء قيام الحركة الصهيونية المسيحية بمعنى مساعدة اليهود على إقامة دولتهم فى فلسطين بالذات. وحتى لا يتعرض الضمير المسيحى البروتستانتى إلى أى عذاب، رفع اللورد كوبر الشعار الذى

تبناه من بعده كل الصهاينة المسيحيين وهو أن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.

تولى الترجمة العملية الأولى لهذا الشعار اللورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانية في ذلك الوقت (وكان عمّ اللورد كوبر) وذلك من خلال إنشاء قنصلية بريطانية في القدس في عام ١٨٣٩ وتعيين وليم يونج أحد المؤمنين بالصهيونية - المسيحية نائباً عاماً للقنصل، وقد حددت مهمة يونج برعاية مصالح اليهود وحمايتهم وتسهيل إقامتهم وتشجيع عودتهم. في ذلك الوقت كان عدد اليهود في فلسطين كلها والتي كانت جزءاً من الامبراطورية العثمانية يبلغ حسب وثائق القنصلية البريطانية نفسها ٩٦٩٠ شخصاً فقط. كان للقنصلية البريطانية حق حماية اليهود الأجانب في فلسطين بموجب اتفاق إذعان فرض على السلطنة العثمانية. إلا أن الحماية البريطانية شملت اليهود العثمانيين أيضاً. أدى هذا الأمر لأول مرة في التاريخ الحديث إلى اعتبار كل اليهود أمة واحدة مهما اختلفت اثنياتهم وجنسياتهم.

وفي عام ١٨٤١ كتب هنري تشرشل (ضابط الأركان البريطانية في الشرق الأوسط) إلى موسى مونتجيور، رئيس مجلس الممثلين اليهود في لندن: «لا أستطيع أن أخفي عليك رغبتي الجامحة في أن أرى شعبك يحقق مرة أخرى وجوده كشعب. إنني أعتقد أنه يمكن تحقيق الهدف بدقة، ولكن لا بد من توافر أمرين لا غنى عنهما، أولاً: أن على اليهود أنفسهم أن يتحملوا الأمر على الصعيد العالمي وبالإجماع، ثانياً: أن على القوى الأوروبية أن تساعدهم». ويعكس هذا الموقف مدى تقدم الفكر الصهيوني للمسيحية الإنجيلية على اليهودية. حتى إن العديد من قادة اليهود في ذلك الوقت كانوا ينظرون إلى عمليات تشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين، مقصودة في حدّ ذاتها لإخراجهم من أوروبا تحت غطاء ديني.

في عام ١٨٤٥ اقترح إدوارد بتفورد من مكتب المستعمرات في لندن «إقامة دولة يهودية في فلسطين تكون تحت حماية بريطانيا العظمى، على أن ترفع الوصاية عنها بمجرد أن يصبح اليهود قادرين على الاعتناء بأنفسهم». وقال: «إن دولة يهودية ستضعنا في مركز القيادة في الشرق بحيث نتمكن من مراقبة عملية التوسع والسيطرة على أعدائنا والتصدى لهم عند الحاجة».

وهكذا بدأ استخدام مخطط توطين اليهود في فلسطين ينتقل إلى الميدان السياسي من غير أن يخرج من تحت المظلة الدينية. وهذا التلازم لا يزال مستمراً حتى اليوم.

في السادس من فبراير ١٩٨٥، ألقى بنجامين نتنياهو، وكان سفير إسرائيل لدى الأمم المتحدة، خطاباً في الجمعية العامة للمنظمة الدولية قال فيه: «ان كتابات المسيحيين الصهيونيين من الإنجليز والأمريكان، أثرت بصورة مباشرة على تفكير قادة تاريخيين مثل لويد جورج وآرثر بلفور وودرو ويلسون، في مطلع هذا القرن. إن حلم اللقاء العظيم أضاء شعلة خيال هؤلاء الرجال، الذين لعبوا دوراً رئيساً في إرساء القواعد السياسية والدولية لإحياء الدولة اليهودية».

كان نتنياهو واضحاً في إقرار الحقيقة التاريخية عندما قال: «.. لقد كان هناك شوق قديم في تقاليدنا اليهودية للعودة إلى أرض إسرائيل. وهذا الحلم الذي براودنا منذ ٢٠٠٠ سنة، تفجّر من خلال المسيحيين الصهيونيين».

إذا كانت الحركة الصهيونية المسيحية انطلقت من الأدبيات الدينية للكنيسة البروتستانتية في بريطانيا وهولندا وألمانيا، فإن الولايات المتحدة حملت شعلة هذه الحركة وسهرت - ولم تزل - على قيادتها حتى إن ثمة اعتقاداً دينياً يجرى تعميمه وترسيخه في الضمير الديني الأمريكي مفاده أن الله يعاقب من يسيء إلى إسرائيل ويُحسن إلى من يساعدها. وأنه ببركة دعم الولايات المتحدة لإسرائيل تتنزل بركات الله على الشعب الأمريكي رزقاً وخيراً وأمناً وسلاماً.

في عام ١٦٤٢ منحت جامعة هارفارد الأمريكية أول شهادة دكتوراه في تاريخها. كان عنوان الأطروحة «العبرية هي اللغة الأم». أول كتاب طبع في الولايات المتحدة كان «سفر المزامير» (IPsalm) أول مجلة صدرت في الولايات المتحدة كان اسمها «اليهودي» «The JeW».




في مطالع الهجرة من أوروبا إلى أمريكا، اعتبر الإنجيليون المهاجرون العالم الجديد بمثابة كنعان الجديدة New Canan، واعتبروا ملك بريطانيا جيمس الأول الذي اضطهدهم بمثابة فرعون الجديد، واعتبروا إنجلترا التي هربوا منها بمثابة مصر، واعتبروا الهنود الحمر في أمريكا بمثابة الأسباط العشرة المفقودة من بني إسرائيل، حتى انه عندما تاهت إحدى الجماعات البروتستانتية من طائفة المورمون في الصحراء الأمريكية قبل أن تصل إلى ولاية يوتاه وتستقر فيها، شبهت عملية التيه بتلك التي تعرّض لها بنو إسرائيل في صحراء سيناء، ولذلك أطلقت هذه الجماعة على نهر كولورادو الإسم التوراتي القديم نهر باشان.

وقد بلغ من تأثير الصهيونية المسيحية على الرواد الأوائل في أمريكا حداً اقترح معه الرئيس جيفرسون اتخاذ رمز لأمريكا يمثل أبناء إسرائيل تظلّلهم غيمة في النهار، وعمود من نور في الليل بدلاً من شعار النسر، وذلك توافقاً مع ما يتضمّنه سفر الخروج.

تبنى مؤسس الكنيسة المورمونية، القس جوزف سميث، نظرية البعث اليهودي في فلسطين. وارتفعت منذ العام ١٨١٤ م الدعوات الأمريكية الإنجيلية لتوطين اليهود في فلسطين. أحد رواد الحركة الصهيونية المسيحية الأمريكية القس وردر جريسون (Warder Gresson) هاجر من أمريكا إلى فلسطين واعتنق اليهودية، وعمل مستشاراً للحكومة الأمريكية في القدس، ثم قنصلاً عاماً لها في العام ١٨٥٢ م. وكان نشاطه يتمركز حول موضوع واحد وهو إقامة وطن يهودي في فلسطين. وتحقيقاً لذلك، انشأ مستوطنة زراعية يهودية، ووطّن إنجيليين أمريكيين ويهوداً فيها، بدعم من مؤسسة يهودية - مسيحية - إنجليزية.



توالت بعد ذلك حركات الاستيطان بتمويل من رجال أعمال أمريكيين، فقامت مستوطنة «جبل الأمل» إلى الغرب من يافا في العام ١٨٥٠ م، وكان إقبال الصهاينة المسيحيين على الاستيطان أشد من إقبال الصهاينة اليهود. وذلك «انتظاراً للعودة الثانية للمسيح».

ومنذ ذلك الوقت بدأت الأرض الدينية الأمريكية تفرخ منظمات وهيئات أهلية غايتها توفير الدعم المعنوي والمادي من أجل تحقيق النبوءات التوراتية بإعادة اليهود إلى فلسطين. من أوائل هذه المنظمات «الفيدرالية الأمريكية المؤيدة لفلسطين» Pro-Palestine Federation of America التي أسسها في العام ١٩٣٠م. القس تشارلز راسل Ch, E. Rusell، ومنظمة «اللجنة الفلسطينية الأمريكية» American Palestine Committee التي أسسها في العام ١٩٣٢ م السيناتور روبرت واجنر R. Wagner، وضمّت ٦٨ عضواً من مجلس الشيوخ و٢٠٠ عضو من مجلس النواب وعدداً من رجال الدين الإنجيليين ورجال أعمال وأساتذة جامعات، وصحافيين وأدباء مشهورين. كما تأسست في العام ١٩٤٢ م. منظمة «المجلس المسيحي لفلسطين» Christian Council Of Palestine على قاعدة وعد بلفور وتحقيقاً له، من القساوسة البروتستانت ومن شخصيات مالية وسياسية وحكومية بارزة. رفعت هذه المنظمات شعار الأرض الموعودة، وشعار الشعب المختار، وربطت بين الشعارين، وعلّمت الناس أن أفضل عمل يقوم به المسيحي تقرّباً إلى الله، هو المساهمة المادية والمعنوية في تحقيق إرادة الله بإعادة اليهود إلى فلسطين تمهيداً لعودة المسيح.

تبنى الكونجرس الأمريكي قرار المؤتمر الصهيوني الذي عُقد في نيويورك في العام ١٩٤٢ م، واتخذ في العام ١٩٤٤ م، قراراً «تتعهد الولايات المتحدة بموجبه ببذل قصارى جهدها من أجل فتح أبواب فلسطين أمام اليهود للدخول إليها بحرّية ولإتاحة الفرصة أمامهم لاستعمارها حتى يتمكّن الشعب اليهودي من إعادة تكوين فلسطين يهودية ديمقراطية حرة».

لقد استعمل الكونجرس الأمريكي عبارة إعادة تكوين فلسطين بدلاً من العبارات التي استعملها المؤتمر الصهيوني في بيان مؤتمرنيويورك وهي تكوين دولة يهودية في فلسطين، فكانت الصهيونية المسيحية أشدّ مغالاة وأكثر تطرفاً من الصهيونية اليهودية!!

يوجد في الولايات المتحدة (٧٦٧٥٤٠٠٩) بروتستانتيين ينتمون إلى ٢٠٠ طائفة. أكثر هذه الطوائف مغالاة في تبنّي العقيدة الصهيونية هي الطائفة التدبيرية Indispensationalism التي يبلغ عدد أتباعها ٤٠ مليوناً تقريباً. وتعرف المجموعة باسم الانجلوساكسون البروتستانت البيض White Anglo-Saxon Protestant (W.A.S.P.) وهي تضمّ الشخصيات الأبرز في المجتمع الأمريكي سياسياً واقتصادياً وتربوياً وإعلامياً وعسكرياً.

أثناء زيارة إلى واشنطن قام بها رئيس الحكومة الإسرائيلية الأسبق نتنياهو، حرص على الاجتماع بشخصية معروفة من هذه الشخصيات هو القس جيري فولويل.

في هذا الاجتماع سأل فولويل: إلى أي مدى تستطيع إسرائيل أن تتخلى عن المزيد من الأرض للفلسطينيين من دون أن تعرّض أمنها للخطر؟.

ردّ نتنياهو: الواقع اننا لا نستطيع أن نتخلى إلا عن القليل جداً.

وكان تعليق فولويل: ولا إنش.

ومن هذه الشخصيات أيضاً بات روبرتسون، صاحب برنامج «نادى السبعمائة» التليفزيوني الذي يستقطب وحده ١٩ بالمائة من الأمريكيين (١٦ مليون عائلة). وجيمي

بلغ من تأثير الصهيونية المسيحية على الرواد الأوائل في أمريكا حداً اقترح معه الرئيس جيفرسون اتخاذ رمز لأمريكا يمثل أبناء إسرائيل تظللهم غيمة في النهار، وعمود من نور في الليل بدلاً من شعار النسر، وذلك توافقاً مع ما يتضمّنه سفر الخروج

سواغرت، صاحب ثاني أكبر محطة تليفزيون إنجيلية في الولايات المتحدة ويستقطب عشرة بالمائة من المشاهدين (أكثر من ٩ ملايين عائلة).

ومنها كذلك جيم بيكر وأورال روبرتس وكينين كوبلاند وريتشارد دي هان وريكس همبرد، ويملك كل منهم محطة تليفزيونية إنجيلية تبشيرية.



تؤمن هذه المجموعة من الشخصيات الدينية بأن إرادة الله متمثلة بقيام إسرائيل. وأن الله يساعد من يساعد إسرائيل ويعادي من يعاديها. وأن قيام إسرائيل يؤكد توافر الشرط الذي طال انتظاره من أجل العودة الثانية للمسيح. وبالتالي فإن الدفاع عن إسرائيل هو عمل ديني يتعلق بثوابت إيمانية وليس مجرد موقف سياسي يتأثر بالمتغيرات من الأحداث.

إن في الولايات المتحدة، الدولة العلمانية (والتي ينص دستورها على فصل الدين عن الدولة) ١٤٠٠ محطة دينية يعمل فيها ٨٠ ألف قسيس إنجيلي أكثريتهم الساحقة من أتباع هذه المدرسة التي تعتبر إسرائيل تجلياً إلهياً وتجسيداً لنعمه من أجل خلاص بني البشر!!.

لذلك ما أن تواجه إسرائيل أزمة أو مأزقاً، حتى يتحرك هذا الجيش الإعلامي - الديني عبر شبكة الكنائس ومحطات الإذاعة والتليفزيون وسلسلة المطبوعات اليومية والأسبوعية التي تتولى إصدارها.

ينطلق التحرك من مقولة ثابتة من مقولات هذه الحركات الدينية، وهي أن القوانين الدولية الوضعية لا تطبق على إسرائيل لأن إسرائيل تختلف عن كل الكيانات السياسية الأخرى في العالم من حيث إن وجودها هو تجسيد لإرادة إلهية وليس استجابة لحاجة إنسانية. وتالياً فإن ما يجب أن يطبق على إسرائيل هو الإرادة الإلهية التي وردت في الكتب المقدسة وأبرزها الوعد الإلهي لشعب الله المختار.

من هنا فإن حكومات إسرائيل - أياً كان رئيسها - في حلٍّ ليس فقط من قرارات الأمم المتحدة (٤٢٥ و٣٣٨ و٢٤٢ و١٩٤) (والآن ١٤٠٢ و١٤٠٣)، ولكنها في حلٍّ حتى من أي اتفاق عقدته حكومة إسرائيلية سابقة إذا تبين أن هذا الاتفاق يتناقض مع مصالح الشعب المختار أو مع الوعد الإلهي، مثل اتفاق أوسلو!!.. وهذا ما يفعله الجنرال شارون الآن.

في كتاب «النبوءة والسياسة» Prophecy and Politics للكاتبة الأمريكية جريس هالسل - كانت تكتب خطابات الرئيس الأسبق ليندون جونسون - تقول الكاتبة من خلال تجربتها في العمل في البيت الأبيض: «إنه في كل مرة يجتمع مجلس الأمن القومي لاتخاذ قرار يتعلق بالشرق الأوسط، يُدعى ممثل من هذه الكنيسة الإنجيلية تحديداً حتى يأتي القرار متوافقاً مع الإيمان بالنبوءات الدينية الواردة في التوراة والتي وضعت هذه الكنيسة تفاسير وترجمات حديثة لها. وفي كل مرة يتم انتخاب رئيس أمريكي جديد يتولى أحد رموز هذه الكنيسة ترأس قداس حلف اليمين الدستورية. ولقد حلف الرئيس كلينتون اليمين الدستورية أمام أحد قادة هذه الحركة القس بيلي جراهام».

تؤمن هذه الحركة بالعودة الثانية للمسيح. وبأن لهذه العودة شروطاً منها قيام دولة صهيون وتجمع يهود العالم فيها، ولذلك تعتبر مساعدة إسرائيل واجباً دينياً وليس مجرد عمل سياسي مرتبط بحسابات المصالح. وتؤمن هذه الحركة الأصولية أيضا بأنه بموجب تدبير إلهي أيضا تتعرض الدولة اليهودية إلى هجوم من غير المؤمنين، وخاصة من المسلمين والملحدين. مما يتسبب في وقوع مجزرة كبيرة تدعى «هرمجيدون» نسبة إلى موقع المجزرة في سهل مجيدو الذي يقع بين الجليل والضفة الغربية. في هذه المجزرة تستعمل أسلحة مدمرة كيماوية ونووية، ويقتل فيها مئات الآلاف من المهاجمين، ومن اليهود معاً.





العالم يتحرك بسرعة كبيرة نحو هرمجيدون.
القس بيلي جراهام



«سيناريو» هرمجيدون كما يرسمه هال ليندسي أحد أبرز قادة الحركة في كتابه «نهاية الكرة الأرضية العظيمة» يفترض:

١- قيام إسرائيل.

٢- عودة اليهود من الشتات إلى أرض الميعاد.

٣- إعادة بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى.

٤- تعرّض إسرائيل إلى هجوم كبير من الكفار (المسلمين والمسيحيين غير المؤمنين بالعودة الثانية للمسيح).

٥- قيام ديكتاتور يكون أسوأ من هتلر أو ستالين أو ماوتسي تونج يتزعم القوات المهاجمة.

٦- خضوع مناطق واسعة من العالم لسيطرة هذا الديكتاتور الذي يعادي اليهود.

٧- تحول ١٤٤ ألف يهودي إلى المسيحية الإنجيلية بحيث يصبح كل واحد منهم مثل بيلي جراهام (القس الإنجيلي الأمريكي المعروف) ينتشرون في العالم لتحويل بقية الشعوب إلى الديانة الإنجيلية.

٨- وقوع معركة هرمجيدون النووية التي تتسبب في كارثة بيئية ضخمة.

٩- ارتفاع المؤمنين بالولادة الثانية للمسيح وحدهم وبالجسد وبمعجزة إلهية فوق أرض المعركة، ونجاتهم من الكارثة، بينما تذوب أجسام بقية البشر في الحديد المنصهر.

١٠- حدوث كل ذلك في غفلة عين.

١١- نزول المسيح بعد سبعة أيام إلى الأرض وحوله جميع المؤمنين به.

١٢- يحكم المسيح العالم لمدة ألف عام بعدل وسلام حتى تقوم الساعة (الألفية).

من أتباع هذه الكنيسة شخصيات أمريكية سياسية ودبلوماسية وإعلامية وعسكرية تتبوأ مراكز قيادية بارزة. كان منهم مثلاً الرئيس السابق رونالد ريجان.

لقد أصبح تقليديا دعوة شخصية دينية أو أكثر من هذه الكنيسة إلى البيت الابيض في كل مرة يجد الرئيس الأمريكي نفسه مدعواً لاتخاذ قرار جوهري يتعلق بالشرق الأوسط. أهمية مشاركة الشخصية الدينية هي العمل على توجيه القرار السياسي الأمريكي بحيث يتوافق مع إرادة الله. وفي مفهوم هذه الحركة الكنسية الأصولية، فإن إرادة الله تحددها التفسيرات الموضوعة لمجموعة من النبوءات الدينية التي ورد ذكرها في بعض أسفار التوراة والعهد القديم، مثل سفر الرؤيا، وسفر حزقيال، وسفر يوحنا، وغيرها. من هذه النبوءات معركة هرمجيدون التي يتبعها مباشرة الظهور الثاني للمسيح.

في مارس من عام ١٩٨١ نقلت مجلة نيويورك تايمز عن أحد كبار شخصيات هذه الحركة وهو القس جيري فولويل أن الرئيس ريجان قال له «جيري.. إنني أحيانا أومن باننا نتوجه بسرعة كبيرة نحو هرمجيدون».

وفي أكتوبر من عام ١٩٨٣ قال الرئيس ريجان أمام لجنة العلاقات العامة الأمريكية الإسرائيلية: «إنني أتساءل إذا كنا نحن الجيل الذي سيشهد معركة هرمجيدون. إن النبوءات في العهد القديم تصف تماماً الوقت الذي نمرّ فيه..».

العلاقة بين العمل السياسي - العسكري والإيمان الديني بهذه النبوءات، هي علاقة مباشرة. ذلك أن هذه الحركة الكنسية تعلم أتباعها أن من واجب الانسان المؤمن أن يوظف كل إمكاناته وقدراته لتحقيق إرادة الله. وأن الله يختار من الناس من يؤهلهم ويمكنهم من القيام بهذا الدور المساعد لتحقيق الإرادة الإلهية. ولذلك كان الرئيس الأسبق ريجان يقول إنه يتمنى أن يمنّ الله عليه بشرف كبس الزرّ النووي لتحقيق إرادة الله في وقوع هرمجيدون ومن ثم بظهور المسيح.

هذا يعني «أن الإيمان بهرمجيدون يتطلب إنتاج الأسلحة المدمرة. وقد أنتجت. وهو يتطلب خلق الظروف المواتية لاستعمال هذه الأسلحة في المكان الذي تحدده النبوءات، للظهور الثاني للمسيح، وهذا المكان هو الشرق الأوسط.

وردت كلمة هرمجيدون مرة واحدة في الإنجيل وتحديدا في المقطع السادس عشر من الفصل السادس عشر من سفر الرؤيا: «وجمعهم كلهم في مكان يدعى بالعبرية هرمجيدون».

وفي الفصل ٣٨ و ٣٩ من سفر حزقيال وصف لما يحدث: «ستنهمر الأمطار وتذوب الصخور وتتساقط النيران وتهتز الأرض وتتساقط الجبال والجدران على الأرض في وجه كل أنواع الإرهاب».

ويفسر القس هول ليندسي الحلم الذي ورد في سفر يوحنا بأن - يوحنا - رأى في الحلم جرادا له أذيال العقارب: «بأنها طائرات هليكوبتر كوبرا التي تطلق من أذيالها غاز الأعصاب»!!. وهي الطائرات التي استخدمها الجيش الإسرائيلي في قصف مدن ومخيمات الضفة الغربية، وخاصة مخيم جنين.



في كتابه الشهير «نهاية الكرة الأرضية العظيمة» يقول القس ليندسي: «بعد أن أصبح اليهود أمة بدأ العد العكسي للمؤشرات التي تتعلق بالنبوءات الدينية.. قيام إسرائيل كان في حد ذاته أول مؤشر ثم احتلال القدس، ومن المؤشرات المنتظرة بناء هيكل سليمان».

واستناداً إلى هذه النبوءات فإن العالم كله سوف يتمركز حول الشرق الأوسط. وخاصة حول إسرائيل في الأيام الأخيرة. إن كل الأمم سوف تضطرب وسوف تتورط بما يجري هناك. وباستطاعتنا الآن أن نرى كيف أن هذا الأمر يتطور ويأخذ مكانه الصحيح في مجرى النبوءات تماماً.. كما تأخذ الأحداث مواقعها في الصحف اليومية».

ومنذ العام ١٩٧٠ والقس الإنجيلي المعروف بيلي جراهام يردد في مواعظه التي تنقلها شبكات التليفزيون الأمريكية: «إن العالم يتحرك بسرعة كبيرة نحو هرمجيدون، وأن الجيل الحالي من الشباب قد يكون آخر جيل في التاريخ». هذا القس هو الذي أدى صلاة الاحتفال بأداء القسَم للرئيس بيل كلينتون لدى تسلمه سلطاته رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٩٢. ثم إن

الرئيس جورج بوش - الابن - أقسم اليمين أمام القس جراهام الابن، الذى أعلن بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ «أن الإسلام ليس فقط مصدر الإرهاب، بل إنه الشيطان نفسه».

وعندما زار الرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر إسرائيل فى مارس ١٩٧٩ ألقى خطابا أمام الكنيست) وكان يعمل على إقرار معاهدة الصلح بين مصر وإسرائيل قال فيه: «جسّد من سبق من الرؤساء الأمريكيين الإيمانَ بأن جعلوا علاقات الولايات المتحدة مع إسرائيل هى أكثر من علاقات خاصة، إنها علاقات فريدة لأنها متأصلة فى ضمير الشعب الأمريكى نفسه وفى أخلاقه وفى دينه وفى معتقداته. لقد أقام كلاً من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، مهاجرون رواد، ثم إننا نتقاسم معكم تراث التوراة».

طبعا كان يمكن أن يبدو سيناريو هرمجيدون وأدبيات الحركة الأصولية الإنجيلية الأمريكية مجرد خزعبلات أو هلوسة دينية، ولكن عندما يكون من بين المؤمنين بها إيمانا شديدًا وصادقًا رؤساء (ريجان - كارتر)، ووزراء (وزير الدفاع السابق جسبار وينبرجر) وغيرهم من كبار الشخصيات الأمريكية السياسية والعسكرية التى تتبوأ مراكز قيادية حتى الوقت الحاضر..

وعندما توزع نسخ من كتاب هول ليندسى على كل أعضاء البيت الأبيض وموظفى البنتاجون وقادة القوات الأمريكية، وعلى جميع أعضاء الكونجرس (الشيوخ والنواب)، وعلى حكام الولايات وكل الشخصيات النافذة، عندما يحدث ذلك بهذه العلانية، فإن السياسة الخارجية للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط تصبح مجرد ترجمة لهذا المفهوم الإنجيلى المتهوّد - للمسيحية».

ويعكس الموقف الذى اتخذه يوم الثلاثاء ٢٤ أكتوبر ١٩٩٥ الكونجرس الأمريكى بمجلسيْه الشيوخ والنواب، باعتبار القدس عاصمة لإسرائيل وبنقل مقرّ السفارة الأمريكية إليها من تل أبيب، مدى قدرة الحركة الأصولية على التأثير فى صناعة القرار الأمريكى.



من خلال ذلك يتبين بوضوح أن الأصولية الإنجيلية لا تقتصر على مجرد تقديم تفسيرات معينة لمفاهيم دينية محددة، ولكنها تحاول أن تصنع المستقبل وفقاً لهذه التفسيرات وعلى قاعدتها. ومن خلال الموقع الممتاز الذى تتبوأه فى مصنع القرار الأمريكى (والذى يتحكم فى مصائر العالم ومقدراته) لم يعد يجوز، ولم يكن جائزاً فى الأساس، تجاهلُ دورِها وتأثيرها ونفوذها. فقرار الكونجرس بشأن القدس لم تمله مصالح أمريكية. وهو لا يقع فى إطار حركةَ السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط، ولكن أملته معتقدات دينية أصولية. وبات على السياسة الأمريكية أن تتكيف معه وأن تعيد النظر فى سلوكها وفقاً لمقتضيات الالتزام به كمعطى إلهى مقدّس. إن هذا الموقف المبدئى يؤكد التواصل بين التفسير الصهيونى للعهد القديم الذى تعتمده هذه الحركات الدينية الأمريكية والقرار السياسى الأمريكى فى الشرق الأوسط.

فى ضوء هذه المرتكزات الدينية للسياسة الأمريكية فى العالم العربى، فإن من السذاجة اتهام الإدارة الأمريكية، سواء كانت إدارة جمهورية أو ديموقراطية، بممارسة ازدواجية المعايير سواء بالنسبة للتعامل مع القرارات الدولية أو بالنسبة لإدانة انتهاكات حقوق الإنسان أو الاعتراض على تجاوزات القانون الدولى. ذلك أن إسرائيل هى فى الأساس خارج هذه المعايير وفوق الأنظمة والقوانين لأنها، فى الإيمان الأمريكى، تجسيد لإرادة إلهية مقدسة. فأى مسّ بها هو انتهاك للمحرمات، وتحدٍّ للمشيئة الربانية، كما تقول هذه الكنيسة فى تعاليمها.

ولترجمة هذا الإيمان عملياً عُقد فى عام ١٩٨٥ (أى بعد مرور٨٨ عاماً على المؤتمر الصهيونى الأول الذى عقد فى عام ١٨٩٧) فى المدينة السويسرية نفسها - بال - وفى الفندق نفسه، وفى القاعة نفسها من الفندق، وفى الشهر نفسه أغسطس، مؤتمر استثنائى للكنائس الإنجيلية التى تعتبر قيام صهيون أمراً لا بد منه تمهيداً للعودة الثانية للمسيح.

وجه الدعوة إلى «المؤتمر الصهيونى المسيحى» الدكتور دوجلاس يونج مدير المعهد الأمريكى لدراسات الأرض المقدسة. وترأسه الدكتور فان ديرهوفين رئيس الكنيسة الإنجيلية الهولندية. وحضر المؤتمر التأسيسى ٥٨٩ شخصية دينية من الولايات المتحدة وأوروبا، ومن كنائس مماثلة فى دول أفريقية وآسيوية أخرى بلغ عددها ٢٧ دولة.

ومنذ ذلك الوقت يُعقد مؤتمران فى شهر أغسطس، الأول للحركة الصهيونية - اليهودية استكمالاً لمسيرة المؤتمر الأول الذى نظمه ثيودور هرتزل فى عام ١٨٩٧، والثانى للحركة الصهيونية المسيحية الذى أعدّه دوجلاس يونج.



انبثقت عن مؤتمر ١٩٨٥ منظمة جديدة تحمل اسم «السفارة المسيحية الدولية». ومهمتها توظيف النفوذ المعنوى والمادى للكنيسة (بعض الكنائس الإنجيلية الأمريكية) من أجل تحقيق النبوءات التوراتية المتعلقة بظروف العودة الثانية للمسيح وأهمها إقامة دولة صهيونية وتجميع اليهود فيها حتى يظهر المسيح فيهم للمرة الثانية وفقاً لما تقوله هذه النبوءات.

وقد عملت السفارة المسيحية الدولية على تحقيق معظم الأهداف التى أعلنتها فى عام ١٩٨٥، ومن أبرزها نقل يهود الاتحاد السوفيتى السابق إلى إسرائيل، وإنهاء المقاطعة ضد المصالح الإسرائيلية، وحمل دولة الفاتيكان وأسبانيا الكاثوليكيتين على الاعتراف بإسرائيل وتبادل التمثيل الدبلوماسى معها، والضغط على دول أوروبة الشرقية والوسطى لتطبيع علاقاتها مع إسرائيل، ودعوة العالم إلى الاعتراف بالقدس عاصمة أبدية موحدة لإسرائيل. وقد لعبت هذه المنظمة الدور الأبرز فى استصدار القرار الأول عن مجلس الكونجرس الأمريكى (الشيوخ والنواب) فى أبريل ١٩٩٠، الذى نصّ على دعوة الإدارة الأمريكية إلى الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل، ثم باستصدار القرار الثانى فى عام ١٩٩٥ بنقل مقرّ السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس.

صحيح أن الكنيسة الكاثوليكية، والكنيسة الأرثوذكسية، وكذلك العديد من الكنائس الإنجيلية الأمريكية تعارض عمليات التهويد العقدى والسياسى وتعتبرها تشويها للمسيحية الحقيقية وتضليلاً للمسيحيين المؤمنين، إلا أن الصحيح فى الوقت نفسه أن الدور السياسى الذى تقوم به منظمة السفارة المسيحية الدولية تحت العباءة المسيحية، يكاد يصبح الدور الأهم فى التأثير على صياغة القرار الأمريكى من قضايا الشرق الأوسط والصراع العربى - الإسرائيلى.

تبنّت هذه المنظمة اسم «السفارة المسيحية الدولية» توصيفاً للمهمة التى تقوم بها. وهى أن تكون بمثابة سفارة فى مختلف دول العالم للدفاع عن إسرائيل ومصالحها. ولذلك أقامت فروعاً لها فى معظم الولايات الأمريكية وأطلقت على رئيس الفرع لقب قنصل. ومهمة الفرع جمع التبرّعات لبناء المستوطنات اليهودية وشراء الأراضى من أصحابها العرب، وبيع سندات الدعم لإسرائيل، والاتصال المباشر مع ممثلى الولايات من مستوى البلدية المحلية حتى الكونجرس لحثّهم على الدفاع عن مصالح إسرائيل.

وللسفارة المسيحية الدولية فروع فى عدد كبير من دول العالم تقوم بالمهمة نفسها. ويشكل المؤتمر السنوى الذى تعقده فى شهر أغسطس من كل عام مناسبة لتقييم المنجزات التى حققتها، ولوضع برنامج عمل للعام الجديد.

وتتولى هذه المنظمة بشكل أساسى تنظيم عمل ٢٥٠ هيئة وجمعية أمريكية (غير يهودية) تعمل فى الولايات المتحدة على قاعدة تفسيرات صهيونية لما يُعتقد أنه نبوءات توراتية تتعلق بعودة اليهود إلى فلسطين وإقامة دولة صهيون التى يظهر فيها المسيح ثانية مخلصاً الإنسانية من الشرور التى تغرق فيها.

لقد تجاهل العالمان العربى والإسلامى هذه الحقائق منذ أوائل القرن الماضى، ودفعنا جميعاً وما زلنا ندفع ثمن تجاهلها غالياً جداً. آن الأوان لأن نضع حداً لهذا التجاهل ولمواجهة الحقائق بشجاعة وتصميم وبنفس طويل. إن المفتاح لسياسة أمريكية متوازنة فى الشرق الأوسط ليس سياسياً، وهو ليس فى المصالح الأمريكية فى المنطقة. المفتاح هو فى العقيدة الدينية التى تتحكم فى صياغة القرارات الأمريكية تجاه هذه المنطقة. هل هذا يعنى أن على العالم العربى - الإسلامى، الاستسلام للأمر الواقع؟.. أبداً.

إن المجتمع الأمريكى مجتمع متدين ومنفتح. وفى الولايات المتحدة كنائس إنجيلية مناوئة لهذه العقيدة الصهيونية. وفيها كنائس كاثوليكية وأرثوذكسية محلية قوية وواسعة الانتشار تعتبر هذه العقيدة تشويهاً للمسيحية وتهديداً لها. ومن خلال التعاون معها يمكن على الأقل التخفيف من غلواء هذا التطرّف اليمينى الدينى الذى يستقوى بآلة إعلامية تليفزيونية ضخمة تروّج لأفكاره ولمبادئه وتمكّنه من استخدام حضوره قوة انتخابية وقوة ضغط معنوية مؤثرة.



إسرائيل فى الإيمان الأمريكى تجسيد لإرادة إلهية مقدسة والمساس بها انتهاك للمحرمات





إننا نتمنى لو أن منظمة المؤتمر الإسلامى وجامعة الدول العربية، وغيرهما من المنظمات القومية والإسلامية، تعمل على وضع خطة عمل بالتعاون مع مجلس كنائس الشرق الأوسط ومع مجلس الكنائس العالمى، ومع مجلس الكنائس الأمريكى، من أجل الترويج لأدبيات دينية فى المجتمع الأمريكى تفك الارتباط بين إسرائيل والخلاص المسيحى.

لقد كان التجاهل أمراً سيئاً. ولكن الانكفائية سلبية أسوأ منه. ■

حـرب المأثـورات والأسـاطيـر
الدين والسياسة فى الشرق الأوسط

الحروب الصليبية

منظور إسلامى

عبد العظيم أنيس

خلال القرون الأولى من الحكم الإسلامى كان الحجاج المسيحيون إلى بيت المقدس قادرين على زيارة الأماكن المقدسة. وكانوا يصلون إلى تلك الأماكن عن طريق البلقان والأناضول وسوريا، أو عن الطريق البحرى إلى مصر أو فلسطين. وعن هذا الطريق وصلت إلى أوروبا أنباء الحياة المتقدمة والإنجازات العظيمة للعالم الإسلامى



هذا الكتاب أسطورى بكل المقاييس من ناحية اعتماده على المئات من المراجع العربية والإسلامية عند إعداده، ومن ناحية دسامة البحث وعمق التحليل وموضوعيته، وهو يقع فى أكثر من ستمائة صفحة من القطع العريض، فضلاً عن أنه محلى بعشرات الصور الفوتوغرافية لمساجد وقلاع وأسلحة حربية وزخارف وآثار فنية. ولذا فليس غريبًا أن يشار إليه فى المراكز العلمية الأوروبية بأنه عمل مذهل فى اتساعه ودقته وموضوعيته.

مؤلفة هذا الكتاب هى الأستاذة كارول هيلنبراند Carole Hillenbrand أستاذة اللغة العربية فى جامعة إدنبرة. وقد صدرت الطبعة الأولى فى عام ٢٠٠٠.

إن الإنسان ليدهش عندما يكتشف أنه فى المكتبة العربية الحديثة لا يوجد كتاب يغطى هذا الموضوع المهم التغطية اللائقة. فباستثناء كتاب د. سعيد عاشور (الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين والمغول فى العصر المملوكى)، وكتاب الباحث السورى ذاكار (الحروب الصليبية) الذى تنتقده كارول بشدة لأنه يحتوى على العديد من الروايات والاقتباسات دون تحليل لها... باستثناء هذين الكتابين لا توجد مراجع علمية حديثة، مع أنه من الواضح وعلى ضوء أحداث الصراع الحالى العسكرى والسياسى بين العرب وإسرائيل وموقف الغرب (خصوصًا أمريكا) المالئ لإسرائيل، أقول من الواضح إن الحروب الصليبية ليست مجرد تاريخ قديم عفى عليه الزمن، بل له دلالته العظمى فى فهم طبيعة الصراع الحديث بين الشعوب العربية، وبين الغرب حول قضية الاستيطان والاستقلال.



ونحن لا ندعى أن التاريخ يعيد نفسه، أو ربما الأدق أن نقول إن التاريخ يعيد نفسه ولكن فى مستوى آخر. ذكرتنى بهذا الانقسامات بين حكام العالم العربى فى مصر والشام أيام الحروب الصليبية كما هى الانقسامات بين الحكام العرب فى عالم اليوم.

كما ذكرتنى بهذا حكاية الكاتب الأمريكى الأحمق ريتشارد لورى الذى نادى مؤخرًا فى مجلة ناشيونال ريفيو الأمريكية بضرب مكة بالقنابل الذرية! فإذ بى أجد فى كتابنا الحالى (الحروب الصليبية) إشارات واسعة إلى القائد الصليبى ريناld أوف شاتيلون، قائد منطقة الكرك والشوباك (الأردن حاليًا) والذى كان معروفًا لدى المسلمين باسم أرناط Arnat. كان هذا الرجل الصليبى متخصصًا فى قطع طريق قوافل الحجاج الذاهبين إلى مكة والمدينة. ولقد بنى قلعة الكرك «شرق البحر الميت»، وكان الهدف هو تهديد الطرق الرئيسية التى تمتد من سوريا إلى مصر ثم الجزيرة العربية، رغم وجود معاهدات بين المسلمين والفرنجة لعدم التعرض لقوافل الحجاج بأى سوء.

ففى عام ١١٨٤-١١٨٥م ضرب قائد منطقة الكرك من الفرنجة عرض الحائط بالمعاهدة بينه وبين المسلمين وهاجم قافلة من قوافل الحجاج، وقيل إنه فعل ذلك بالاتفاق مع بدو محليين، وقد أساء معاملة الحجاج ووضعهم فى أقبية وزنازين، فلما أشاروا إلى المعاهدة بين المسلمين والفرنجة قال لهم ساخرًا: «قولوا لمحمد أن يفك أسركم».

وعندما سمع صلاح الدين بهذه القصة أقسم على أن يقتل ريناld بنفسه عندما يتحقق النصر، ويحكى الكتاب أن ريناld قام عام ١١٨٢م (٥٧٨هـ) بعمل كسب به كراهية شديدة من المسلمين. فقد ذهب جنوبًا فى البحر الأحمر وهدد المدن المقدسة فى الحجاز بهجوم بحرى لتدمير الأماكن المقدسة فيها لولا أن أسطولاً بحريًا مسلمًا تحت قيادة حسام الدين لولو أفشل هذه الخطة وأوقع رجال ريناld فى الأسر، وإن كان قد أفلت يومئذ من هذا المصير. وتقول المصادر التاريخية إن حسام الدين قد أرسل الأسرى من الفرنجة إلى منى (قرب مكة) لتقطع رؤوسهم هناك حتى يكونوا عبرة لكل من يهدد مقدسات المسلمين.



وتشير مؤلفة الكتاب إلى القصة المعروفة عندما أسر صلاح الدين عددًا من قادة الصليبيين فى معركة حطين (١١٨٧م/٥٨٣هـ)، وتقول إن هذه القصة تجد إبرازًا واسعًا فى المصادر الإسلامية، التى تميز بين المعاملة الطيبة التى عامل بها صلاح الدين قادة الفرنجة ومعاملته لريناld عندما وقع فى الأسر فى معركة حطين.

فقد قدم صلاح الدين الماء المثلج لملك الفرنجة (جاى) الذى شرب ثم ناول الماء لريناld الذى شرب هو أيضًا، عندئذ قال صلاح الدين: هذا الملعون شرب دون إذنى ولذا فهو مستبعد من حمايتى وأمانى.

ثم ذكره بما قاله للحجاج عن الرسول محمد وقال له: إننى الرجل الذى سوف ينتقم لمحمد منك ولتذهب روحك إلى الجحيم، ثم قام بقتله على التو. هذه هى الرواية التى ترد فى كتاب مؤرخ صلاح الدين المعروف بابن شداد.

ينشغل الكتاب بأحداث مسيرة الحروب الصليبية طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر، لكنه فى فصوله التسعة لا يكتفى بهذا بل يبحث عددًا من الموضوعات المهمة ذات الصلة، كيف كان المسلمون ينظرون للفرنجة عندئذ (أنماط دينية وعرقية) وبعض الجوانب المهمة عن حياة المسلمين فى تلك الفترة، ومفهوم الجهاد كما نظر له المفكرون المسلمون، ثم طبيعة الأسلحة التى استخدمت فى تلك الحروب، وعلى وجه الخصوص القلاع التى بناها الصليبيون لحماية مواقعهم والأساليب التى استخدمها المسلمون لتدمير هذه القلاع باستخدام سلاح المنجانيق فى حصارها، ثم ضربها بقذائف من نار، وهو العمل الذى أثبت به المسلمون - خصوصًا الظاهر بيبرس ومن تلاه من سلاطين المماليك - تفوقهم الحربى على الصليبيين.

وتخصص المؤلفة فصلاً كاملاً عن كيفية إدارة الحرب وفصلاً أخيرًا لتأمل الحروب الصليبية والدروس المستخلصة منها فى العصر الحديث.



إن أول لقاء لأوروبا مع المسلمين كان نتيجة السياسة التوسعية للدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول عام ٦٣٢م. بعد ذلك بقرن عبر المسلمون جبال البرينز واستولوا على أرض تمتد من شمال الهند حتى جنوب فرنسا. وللقرنين التاليين ظل ميزان القوى بين أوروبا والعالم الإسلامى فى صالح المسلمين بشكل حاسم. فقد تمتعوا بنمو اقتصادى واسع كما ازدهرت ثقافتهم وعلمهم بشكل رائع. ومنذ عام ٧٥٠م جرت صياغة الدولة العباسية فى ظل ثقافة إسلامية فارسية وتولى حماية هذه الدولة جيش من الأتراك العبيد.

وفى القرنين الحادى عشر والثانى عشر تعمق التفتت السياسى لهذه الامبراطورية العباسية وساعد هذا الوضع على ظهور الأوروبيين فى شرق المتوسط وبدأت عملية

The Crusades: Islamic Perspectives

(الحروب الصليبية: منظور إسلامى)

Carole Hillbrand

Routledge, 2000, 648p

إحياء السلطة المسيحية فى إسبانيا. ولقد أعقب التواصل التجارى فى البحر الأبيض مكاسب بحرية ضد المسلمين. فقد استولى النورمان على صقلية من المسلمين واستطاع أهل شمال إسبانيا أخذ طليطلة وبدأوا تقدمًا ساحقًا جنوبًا. أما البيزنطيون - جيران العالم الإسلامى - فقد قاموا بغارات ناجحة فى شمال سوريا واحتفظوا لفترة وجيزة ببعض المدن الحدودية.

خلال القرون الأولى من الحكم الإسلامى كان الحجاج المسيحيون إلى بيت المقدس قادرين على زيارة الأماكن المقدسة. وكانوا يصلون إلى تلك الأماكن عن طريق البلقان والأناضول وسوريا، أو عن الطريق البحرى إلى مصر أو فلسطين. وعن هذا الطريق وصلت إلى أوروبا أنباء الحياة المتقدمة والإنجازات العظيمة للعالم الإسلامى. ولا يوجد شك عند مؤلفة الكتاب أن المسلمين كانوا عندئذ أصحاب حضارة وثقافة أرقى من حضارة الأوروبيين وثقافتهم.

ولكن المسلمين كانوا منقسمين سياسيًا ما بين الأتراك السلاجقة فى الشرق الأدنى (سوريا وفلسطين) وبين الفاطميين فى مصر. وحتى فى الشام كانت هناك إمارات إسلامية مختلفة بين حكامها المحليين صراعات وقتال. وعندما أدرك البابا وملوك أوروبا هذا الوضع المتضعضع للعالم الإسلامى وتفكك القوى الإسلامية، وعندما بدأت تصل إلى أوروبا شائعات عن حاكم فاطمى سيىء (الحاكم بأمر الله) يقوم باضطهاد المسيحيين فى مملكته ثم فى سوريا وفلسطين، ثم توج هذا كله بشائعة تدميره لكنيسة القيامة فى القدس، أصبح الجو مهيئًا لصرخة البابا إربان الثانى لمسيحيى أوروبا بضرورة الدفاع عن الأماكن المسيحية المقدسة فى الشرق.



وهكذا بدأت الحروب الصليبية الأولى.

فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر كانت سوريا وفلسطين ميدان صراع حاد بين الأتراك السلاجقة الذين كانوا يحكمون الجزء الشرقى من العالم الإسلامى وبين السلطة الفاطمية ومركزها مصر. إن الفاطميين يدينون بأيديولوجية يمقتها المسلمون السنة خصوصًا أنها كانت تهدد الخلافة فى بغداد التى كان الأتراك السلاجقة يقومون بحمايتها، وكان المسلمون فى غالبيتهم يعتبرون أن الأتراك وجيوشهم شر لا بد منه نتيجة تفوقهم العسكرى وحماسهم الدينى. وقد عبر الغزالى عن هذه الحقيقة فى كتبه، مع ذلك كان من الصعب على أهل سوريا وفلسطين تحمل الوجود التركى على أرض المشرق.

أما فى الأناضول (تركيا حاليًا) فقد كان الوضع السياسى غير مستقر. لقد فقد البيزنطيون العديد من المدن للسلاجقة الأتراك، ثم تشكلت سلطنة سلجوقية فى قونية، حكمت أجزاء من الأناضول وجعلت مرور الحجاج المسيحيين القادمين من أوروبا إلى بيت المقدس أمرًا محفوفًا بالمخاطر.

وكما أوضحنا فقد تميز العقد الأخير من القرن الحادى عشر بضعف سياسى فى سوريا وفلسطين وتفكك وعدم استقرار لحياة المسلمين. وتوالى وفاة الوزير الأول نظام الملك وأعقبه وفاة السلطان السلجوقى ملك شاه عام ١٠٩٢م، ثم وفاة الخليفة الفاطمى المستنصر عام ١٠٩٤ فى القاهرة. وكل هذا ترك فراغًا سياسيًا. ولم تستطع الدولة الفاطمية أن تحقق السيادة التى تحققت لها فى النصف الأول من القرن الحادى عشر، بل امتلأت بالصراعات داخل الأسرة الفاطمية ذاتها.

هذه هى الظروف التى جعلت البابا إربان الثانى فى ٢٧ نوفمبر ١٠٩٧ يوجه خطابه الكنسى لتشكيل جيش أوروبى «لإنقاذ الأماكن المقدسة من الاضطهاد



الحروب الصليبية
منظور إسلامي

الإسلامي» وفي عام ١٠٩٧م تشكل جيش أوروبي مختلط تحت قيادات عسكرية متعددة من غرب أوروبا. ووصل إلى القسطنطينية في اتجاهه نحو الأناضول نحو بيت المقدس.

وهكذا بدأت أولى الحملات العسكرية التي عرفت في التاريخ الإسلامي باسم «حروب الفرنجة» والتي عرفت في التاريخ الأوروبي باسم الحروب الصليبية.



حققت الحملة الصليبية الأولى نجاحات حربية مهمة رغم تنوع قيادتها. فقد استولى الفرنجة على العاصمة السلجوقية إزنك في يونيو ١٠٩٧، وأوقعوا هزيمة كبيرة بالجيش السلجوقي بقيادة السلطان أرسلان في معركة دوريليوم في يوليو ١٠٩٧، وحاصروا إنطاكية في شمال سوريا، ثم خرج جزء من قوات الصليبيين إلى مدينة الرها واستولوا عليها في مارس ١٠٩٨ وأقاموا عليها أول إمارة صليبية سميت «إمارة الرها» وقد سقطت إنطاكية في أيدي الصليبيين في يونيو ١٠٩٨ أما الجائزة الكبرى (بيت المقدس) فقد سقطت في يد الفرنجة في ١٥ يوليو ١٠٩٩.

وهكذا تكونت أربع إمارات صليبية: إمارة القدس، وإمارة الرها، وإمارة إنطاكية، وإمارة طرابلس.

وسوف نلاحظ أن الفرنجة لم يفلحوا في الاستيلاء على مدينتين رئيسيتين في المنطقة: دمشق وحلب.

ولقد تمثل رد فعل المسلمين لنجاح الحملة الأولى في الضياع وفقدان الاتجاه أو المهادنة والانشغال بقضايا داخلية، وحاول مفتي دمشق الاستنجاد بالخليفة في بغداد دون جدوى، وقد شهدت تلك الفترة استيلاء الفرنجة على معظم موانى ساحل الشام فضمنوا بذلك وصول الإمدادات لهم من البحر. لكنهم كانوا أقل نجاحًا عندما حاولوا الاتجاه شرقًا. فالرها هي الإمارة الوحيدة في وادي دجلة والفرات التي وقعت في أيديهم، لكن مما له دلالة أن هذه أول إمارة استعادها المسلمون حربيًا.

والعلامات الأولى على الصحوة الإسلامية تمثلت في جهود زنكي الذي استعاد الرها من الصليبيين سنة ١١٤٤م. وسقوط الرها في أيدي المسلمين يمكن اعتباره أول صحوة للمسلمين بعد الغزو الصليبي الأول.

لكن زنكي قُتل على يد أحد عبيده عام ١١٤٦م، وكان هذا العمل سندًا لاشك للفرنجة.

لكن نورالدين (ابن زنكي) استطاع في المرحلة التالية أن يجمع بين السياسات القوية والحماسة الدينية، وأدرك بثاقب فكره أن تحقيق النصر على الصليبيين يتطلب توحيد مصر وسوريا. وبدأ في حصار إمارة إنطاكية.

إن فقدان الفرنجة للرها وتهديد نورالدين لإنطاكية قد أدى إلى قيام الحملة الصليبية الثانية تحت قيادة كونراد الثالث (إمبراطور ألمانيا) ولويس السابع (ملك فرنسا). ولم تنجح هذه الحملة وفشلت في الاستيلاء على دمشق. وقد استولى نورالدين على دمشق عام ١١٤٥م وأعلن نفسه الحاكم الأعلى لسوريا. ثم تحول اهتمامه إلى مصر التي كانت تشهد صراعًا عنيفًا بين الفاطميين أنفسهم. وعندما طلب بعض رجال البلاط الفاطمي المعونة من نورالدين أرسل لهم جيشًا بقيادة القائد شيركو عام ١١٦٨لمنع استيلاء الصليبيين على مصر، وبموت شيركو تولى القيادة مكانه ابن أخيه صلاح الدين.

وبذلك تحققت الوحدة بين مصر وسوريا وتأكدت شرعية الخلافة العباسية السنية. وربما كان من الممكن وقوع الخلاف بين صلاح الدين ونورالدين، لكن وفاة نورالدين قضت على هذا الاحتمال.



في السنوات ١١٧٤ ـ ١١٩٣م اتجهت جهود صلاح الدين لإخضاع خصومه وخلق جبهة متحدة بين مصر وسوريا ضد الصليبيين. وفي النهاية هزم الصليبيين في معركة حطين ٤ يوليو ١١٨٧، ثم اتبع هذه الاستيلاء على القدس في ٢ أكتوبر ١١٨٧م وبنهاية ١١٨٧م لم يبق في يد الصليبيين إلا صور. وقد عين صلاح الدين العديد من أقربائه في مدن الشام الرئيسة خالقًا بذلك اتحادًا كونفيدراليًا هو على رأسه واستمر هذا من بعده في حكم أسرة الأيوبيين.

عندما استولى الصليبيون على بيت المقدس وضعوا صليبًا كبيرًا على قبة الصخرة. وحولوا المسجد الأقصى إلى مسكن لإقامة فرسان المعبد. وبالطبع كان أول ما فعله صلاح الدين عندما دخل بيت المقدس انتزاع الصليب من على قبة الصخرة وإعادة الاعتبار إلى المسجد الأقصى.

إن هزيمة حطين وسقوط القدس في يد المسلمين قد دفع بثلاثة من أقوى الملوك الأوروبيين: فردريك بارباروسا من الإمبراطورية الرومانية المقدسة، فيليب ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا لقيادة الحملة الصليبية الثالثة التي استولت على عكا عام ١١٩١. ورغم هذا ورغم انتصارات أخرى على جيش صلاح الدين فقد انتهت الحملة الثالثة بهدنة عام ١١٩٢، اتفق فيها على أن يحكم الصليبيون الشريط الساحلي للشام بينما تظل القدس في يد المسلمين.

وبعد ذلك بعام مات صلاح الدين، وعادت الصراعات من جديد بين السنة (دمشق) والشيعة (مصر)، وركز الصليبيون على مهاجمة مصر معتقدين أنها مفتاح استعادة القدس.

وأصبحت مصر هي الهدف الأول من الحملة الرابعة عام ١٢٠٢م. لكن هذه الحملة لم تحارب المسلمين بل انتهت بالاستيلاء على القسطنطينية عام ١٢٠٤م وهكذا نشأت الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية خلال الفترة من ١٢٠٤م ـ ١٢٦١م.

أما خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين فلم يتجهوا إلى محاربة الصليبيين بل اتجهوا للمهادنة معهم. وكان سلطان مصر (الملك العادل) أخو صلاح الدين هو الحاكم في القاهرة عندما بدأت الحملة الصليبية الخامسة عام ١٢١٨م بالهجوم على مصر والاستيلاء على دمياط. ثم مات العادل في نفس العام وتولى بعده ابنه الملك (الكامل) الذى استعاد دمياط عام ١٢٢١م.

وفي عام ١٢٢٨م وصل فردريك الثاني (ملك صقلية) على رأس حملة على فلسطين وفضّل الملك الأيوبي (الكامل) عقد معاهدة معه بدلاً من محاربته. وبمقتضى هذه المعاهدة استرد الصليبيون القدس وبيت لحم والناصرة ومناطق أخرى، وأثار هذا الاستسلام من السلطان الكامل غضبًا واسعًا في العالم الإسلامي.

لكن قوات خوارزمية آتية من آسيا الوسطى بعد الاكتساح المغولي لها قد استغلت ضعف قوات الصليبيين التي كانت تحمي القدس فهاجمتها واستولت عليها. وهكذا عادت القدس إلى الحكم الإسلامي من جديد. ومع ذلك استطاعت حملة لويس التاسع غزو مصر والاستيلاء على دمياط عام ١٢٤٩م ومنها اتجهت إلى القاهرة. لكن لويس التاسع حوصر في المنصورة ووقع في الأسر وفشلت الحملة.

وهكذا بدأت المرحلة الأخيرة من وجود الصليبيين في المشرق العربي! بسقوط الحكم الأيوبي في مصر واستيلاء المماليك على الحكم عام ١٢٥٠م، الأمر الذى أدى إلى تدعيم القوى المضادة للصليبيين واتخاذ الإجراءات الضرورية للقضاء عليهم. إن مجرد توحيد مصر وسوريا من جديد قد سلب من الصليبيين القدرة على النصر. والسلطان المملوكي الظاهر بيبرس ذو الإرادة الحديدية كان هو الشخصية الرئيسية التي قضت على الصليبيين. وخلال سنوات ١٢٦٥ ـ ١٢٧١ استرد بيبرس العديد من المدن التي كانت في أيدي الصليبيين.

وقد استمرت هذه الانتصارات من بعده على يد قلاوون واستولى على مرقاب وطرابلس، ثم قام ابنه الأشرق في ١٢٩٣م بالقضاء النهائي على الصليبيين والاستيلاء على صيدا وصور وبيروت وكانت هذه هي نهاية الحروب الصليبية.

يبقى أن نشير إلى بعض النقاط المهمة في الكتاب. من هذه النقاط نظرة المسلمين كما تبدت في كتاباتهم آنذاك إلى الفرنجة وعاداتهم الاجتماعية. وتعتمد المؤلفة في هذا الصدد على مرجعين عربيين: كتاب أسامة بن منقذ (كتاب الاعتبار). ثم كتاب ابن جبير وهو أندلسي، تعود على علاقات حميمة مع المسيحيين وبالتالي كان قادرًا على اتخاذ نظرة أكثر موضوعية في هذا السياق.

لكن يمكننا إجمال نظرة المسلمين للفرنجة آنذاك في صفتين: قلة النظافة والانحلال الجنسي.

ويحكي أسامة بن منقذ أن الصليبيين عندما اكتشفوا الحمّامات العامة في المشرق بدأوا ينتظمون في التردد عليها، بينما ادعى أنهم في أوطانهم الأصلية لم يكونوا يستحمون إلا مرة واحدة أو مرتين في العام وبالماء البارد. ويحكي أسامة القصة التالية نقلاً عن سليم بن معرة النعمان الذى كان يعمل في حمّام والد أسامة، يقول سليم: «أقمت حمّامًا كمصدر للرزق، وقد جاء إليّ فارس من الفرنجة الذين لم يتعودوا على تغطية النصف الأسفل من الجسم عند دخول الحمّام بينما كنت أغطي النصف الأسفل من جسمي بغطاء . ومد الفارس يده وانتزع الغطاء ورماه ووجد أنني قد حلقت شعر عانتي. فقال لي: «سليم، بأمانة ديانتي افعل لي نفس الشيء». ففعلت ما طلبه. ثم قال الفارس لخادمه، أخبر زوجتي أن تأتي إلى هنا، وعندما جاءت نامت على ظهرها وصنعت لها ما صنعت لزوجها، وأخيرًا شكرني وأعطاني نقودًا مقابل خدماتي».

الأمر الثاني هو مشكلة اللاجئين التي ترتبت على الحروب الصليبية فقد هرب آلاف اللاجئين من مناطق القتال إلى دمشق وحلب وإلى مصر



تمثل رد فعل المسلمين لنجاح الحملة الأولى في الضياع وفقدان الاتجاه أو المهادنة والانشغال بقضايا داخلية، وحاول مفتي دمشق الاستنجاد بالخليفة في بغداد دون جدوى

والعراق. وتقول مؤلفة الكتاب أن حركة اللاجئين كانت على أشدها في السنين الأولى من الحروب الصليبية من ١١٠٦م/ ٤٩٢هـ حتى سقوط طرابلس في ١١٢٤م/ ٥١٢هـ. وعلى ذلك فقد استمرت حركة اللاجئين حتى منتصف القرن الثاني عشر. وترصد المؤلفة قيام هبّات شعبية ضد الصليبيين في منطقة نابلس خصوصًا إذ قام الفلاحون بالهجوم على الصليبيين الذين احتموا في قلاعهم قبل وصول جيش صلاح الدين.

ثم تأتي النقطة الثالثة عن طبيعة المعارك والأسلحة المستخدمة. لقد تعوّد المحاربون الأتراك على الحرب وهم فوق ظهور خيولهم، ولقد لعب هؤلاء الفرسان دورًا أساسيًا في جيوش نورالدين وصلاح الدين، وسمعتهم كرماة كانت مشهورة حتى قبل وصول الصليبيين، وهم قادرون على الظهور والاختفاء ووضع الكمائن واختيار أوقات الهجوم ومكانه ثم الاختفاء قبل أن يجد الخصم الوقت للرد.

وعلى عكس الجيوش الإسلامية التقليدية المكونة من قلب وميمنة وميسرة فإن الأتراك كانوا متجمعين في مجموعات صغيرة تحاول أن تحيط بالعدو من جميع الاتجاهات، وهذه المجموعات رغم انفصالها كانت قادرة على أن تدعم بعضها البعض لزيادة الضغط على العدو.

وهناك جانب آخر ذو أهمية قصوى في معارك المسلمين ضد الصليبيين، وهو أسلوب حصار القلاع. وتقول المؤلفة أن دراسات أكاديمية في أوروبا قد أوضحت أن مفتاح انتصار المسلمين في نهاية الأمر إنما يعود إلى إعداد خطط دقيقة لحصار المواقع الصليبية، وتشير المؤلفة على وجه الخصوص إلى أن أسلحة الحصار التي اتبعت للهجوم على صفد (الظاهر بيبرس) قد صُنعت في عكا ودمشق وحملت على ظهور الجمال إلى صفد. وقد أشرف الظاهر بيبرس بنفسه على هذا العمل وكانت لديه المصادر لإقامة هذه الأسلحة بسرعة وضرب القلاع بالمنجنيق. وقد اتبع هذا في هجومه على صفد وعرسوف وقلعة شقيف وأماكن أخرى.

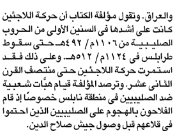
بقي أن نشير إلى أن الأثر الأساسي الذي تبقى بعد الحروب الصليبية، هو فتح أبواب التجارة بين الشرق وأوروبا. لقد تم توقيع عدد من المعاهدات التجارية بين سلاطين المماليك وبلدان أوروبية مثل جنوا وأراجون. وحتى أوائل القرن الحادي عشر كان مركز ثقل التجارة مع الغرب هو بغداد، لكنه انتقل بعد الحروب الصليبية إلى مصر.

أما العثمانيون فقد كانت لديهم نوايا انتقامية من أوروبا المسيحية. ووصل رد الفعل العثماني للغزو الصليبي إلى قمته في القرن السادس عشر. فقد غزا العثمانيون البلقان ثم المجر والوصول إلى أبواب فيينا. والحق أن شبح التهديد التركي ظل معلقًا في سماء أوروبا طوال القرن السادس عشر.

وهكذا فإن الانتقام الإسلامي استمر لمدة طويلة، هكذا تقول مؤلفة الكتاب. ■

بعض الجروح التاريخية لا يمكن أن تلتئم

عودة إلى الحروب الصليبية!





طارق علي

■■ على مدى ما يقارب ٣ قرون (من ٨٠٠ حتى ١١٠٠ ميلادية) ظلت الحضارة العربية - وكانت أكثر الحضارات تقدمًا آنذاك إذا استثنينا الصين - تعتبر نفسها لا تقهر.

وقد تعين على الأوروبيين أن يتعلموا اللغة العربية لاكتساب أفضل المعارف المتاحة آنذاك خاصة في العلوم والفلك والجغرافيا، وكان ذلك من الأسس التي أقامت عليها أوروبا نهضتها بعد ذلك.

إن التأثير العربي محسوس في أبنية ومضامين الأعمال الأدبية الكبرى لسرفانتس ودانتي. كما أن عدد سكان دمشق والقاهرة وبغداد مجتمعة كان يتجاوز مليوني نسمة في نفس الوقت الذي لم يكن يقطن لندن أو باريس أكثر من ٥٠ ألف شخص.

وهذا ما جعل السلاطين والأمراء العرب يشعرون بالذهول والصدمة عندما جاءت الحملة الصليبية الأولى كالإعصار الهائل في العقد الأخير من القرن الحادي عشر لتهاجمهم في عقر دارهم. ولم يأخذ الخليفة العباسي في بغداد على محمل الجد قدرات وقوة هؤلاء الأوروبيين «البرابرة» العسكرية، ولذلك كان سقوط القدس ذا تأثير كارثي على الجميع في المنطقة خاصة السكان المحليين.



وكانت العواطف الدينية هي الوقود الذي غذى رغبات المحاربين الأوروبيين في الغزو والاستحواذ. واحتفل هؤلاء المحاربون بالنصر بأن غسلوا شوارع المدينة المقدسة بالدماء.

وتعرض يهود القدس للحرق وهم أحياء، بينما كانت النساء والأطفال المسلمون وقود المذابح التي ارتكبها جنود الحملة الصليبية. إضافة إلى ذلك تعرضت كثير من المساجد وكل المعابد اليهودية تقريبًا للدمار.

إن ما حدث كان بمثابة «ديكتاتورية الصليب» التي أدت إلى أن تخيم على المنطقة بأكملها سحابة سميكة ملوثة من الهمجية التي جلبها هؤلاء المنتصرون.

وربما جاء اعتذار الفاتيكان بعد ٩٠٠ عام عن الفظائع التي ارتكبها الصليبيون متأخرًا، لكنه مع ذلك أصاب هؤلاء الذين مازالوا يتبنون وجهة النظر الغربية بشأن هذه الحملات الصليبية بالذهول.

Warriors of God: Richard the Lionheart and Saladin in the third Crusade

(محاربو الرب: ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين في الحملة الصليبية الثالثة)

James Reston JR

Doubleday, 2001, 364 PP., $ 27.50

وإحدى مزايا كتاب «محاربو الرب» أنه يوضح لماذا كان هذا الاعتذار ضروريًا. ويقول المؤلف جيمس ريستون (الابن) إن الحملات الصليبية التي تواصلت على مدى مائتي عام أطلقت العنان لسعار مجنون من الكراهية والعنف غير المسبوقين في العصور التي سبقت عصر التكنولوجيا وكوارث هتلر.

وقد كتب المؤلف تاريخًا غير منحاز، بل ومنعشًا للذاكرة عن الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٧ - ١١٩٢) وهو كتاب يستحق مكانًا على رف مكتبة أي مهتم بالتاريخ.

يبدأ المؤلف عمله بالحديث عن نصر عربي وهو دخول السلطان الكردي صلاح الدين المظفر إلى القدس عام ١١٨٧. وقد حرّم صلاح الدين صراحة أعمال الانتقام وأصر على أن تعود المدينة إلى سابق مكانتها، وأن تكون مفتوحة للمتعبدين من أبناء الديانات السماوية الثلاث. وحصل اليهود على أموال من الدولة لإعادة بناء معابدهم.

إن الإسلام على مدى تاريخه، وباستثناءات قليلة، أقام علاقات ودية مع اليهودية. وكان الانتهاك الأبرز لهذه العلاقات ما حدث في منتصف القرن العشرين مع زرع دولة استيطانية يهودية هي إسرائيل في فلسطين على حساب السكان العرب المحليين. لقد عوقب الفلسطينيون على جريمة ارتكبها الأوروبيون بحق اليهود. وأدى ذلك إلى اندلاع حروب عربية يهودية. ومازال سكان المنطقة العربية ينظرون إلى القدس على أنها مدينة محتلة، وفي مساجدهم يبتهل مسلمو اليوم ويصلون من أجل أن يعود صلاح الدين لينقذهم.

ولكن كما يقول ريستون، فإن طريق صلاح الدين إلى القدس لم يكن مفروشًا بالورود، إن مهاراته السياسية هي التي مهدت الطريق للانتصارات العسكرية. لقد بدا صلاح الدين متحفظًا وفي بعض الأحيان غير حاسم، لكن استراتيجيته الهادئة والبسيطة أتت أكلها. وكان أعظم نجاحاته المهمة توحيد مصر وسوريا. وكسلطان لكلتا المملكتين أصبح أكثر قوة من الخليفة العباسي، كما أنه اكتسب القدرة والخبرة على توحيد العرب في جيش موحد وإن كان ذلك قد تم بصعوبة بالغة، وعن طريق هذا الجيش استطاع في النهاية طرد المسيحيين من القدس.

لقد كان صلاح الدين حاكمًا متواضعًا غير قابل للفساد. كما أنه كان مؤمنًا ملتزمًا، ولكن دون أثر للتطرف، وكان كثيرون من مستشاريه المقربين في ديوان حكمه في القاهرة من اليهود، كما أن الأقباط المصريين حاربوا في صفوف جيشه. إن هذه القدرة على توحيد فئات السكان المحليين هي سر نجاحه.



وخصم صلاح الدين الرئيسي في الحملة الصليبية الثالثة كان ريتشارد «قلب الأسد» الذي توجه إلى الأرض المقدسة لاستعادة القدس من أيدي الكفرة الملحدين.

وربما كان ريتشارد قلب الأسد شجاعًا في الميدان، لكنه كان على عكس الأسطورة التي أحاطت به وهو أنه روبن هود الذي يأخذ من الأغنياء لصالح الفقراء. فقد كان قاتلاً وحشيًا يقتل ضحيته بدم بارد. وفي طريقه إلى القدس ذبح أعدادًا كبيرة من اليهود الأوروبيين فيما يمكن أن يكون سيناريو مرعبًا لما كان يمكن أن يحدث منه عند دخول القدس، ولكن من رحمة الله أنه لم ينجح إطلاقًا في استعادة القدس إلا أنه استولى على عكا وأقام طريقًا من الدم هناك ولو دخل القدس لكان مصير المسلمين واليهود فيها لا يختلف عن مصير سكان عكا.

لقد تركت الحملات الصليبية، وهذا مفهوم، علامة فارقة وعميقة على الضميرين العربي والأوروبي ويستعيد المؤلف ما حدث في يوليو ١٩٢٠، عندما غزا الجنرال الفرنسي هنري جورو دمشق، حيث وقف أمام قبر صلاح الدين المجاور للمسجد الكبير وصاح.. «ها قد عدنا يا صلاح الدين. إن وجودي هنا يكرس انتصار الصليب على الهلال». ومازال هذا الحادث يصيب العرب حاليًا بحالة لا نهائية من «القرف» والاشمئزاز كلما تذكروه.

سحابة أخرى تخيم على سماء العلاقة بين الغرب والعرب وهي القصف المستمر للعراق، حيث تجاوز عمر الوجود العسكري الغربي هناك الوجود الأمريكي في فيتنام، وينظر كثير من العرب إلى هذا الوجود على أنه حملة صليبية جديدة وذلك بالرغم من عدائهم الشديد لصدام حسين.

إن بعض الجروح التاريخية لا يمكن أن تلتئم.

عن صحيفة هيرالدتريبيون الأمريكية. ■

ألغاز الفن التجريدى

محاولة للفهم

جاك فلام

كان الفن التجريدى فى أواخر الخمسينيات فى أوج ازدهاره واعتُبر محور الارتكاز للفن الحديث. فى ذلك الحين كان الفن التجريدى، الذى نُظر إليه كممارسة راديكالية (أى فنًا ذا بعد سياسى) هو المعادل الموضوعى للفن الجاد.

ولقد اعتبره الكثيرون، فى ذلك الحين، الأسلوب الوحيد الجاد فى الرسم. فكان الاحتفاء الكبير بالتجريديين التعبيريين والتجريديين الأوروبيين الأوائل، مثل بيت موندريان Piet Mondrian وفاسلى كاندنسكى Vasily Kandinsky، مصدره الأساسى القيم الشكلية التى عكستها أعمالهم.

وبمفهوم ورؤية عين الناقد الفاحصة أوضح كلمنت جرينبرج Clement Greenberg أن الفنانين والكتاب، على السواء، قد لقوا تشجيعًا على معادلة التجريد بالتأكيد على التنظيم وانبساط السطح وإخفاء معالم النموذج الذى استلهم منه الفنان عمله، فإذا تصورت عندما تنظر إلى لوحات كاندنسكى أنك لمحت دلالات لأشجار أو جبال أو حتى أرقام أو بنية ما، فإن ذلك كان يُعتبر خطأ فى أسلوب رؤيتك للوحة كما لو كنت مثل بولونيس Polonius (1) تعتمد أن تتصور السحابة مجرد جمل.



هذه الفكرة المبالغ فيها عن النقاء والتجرد مثلت عنصرًا منهجيًا قويًا فى الفن التجريدى حيث يتم تركيز الانتباه بقوة على العناصر الشكلية فى العمل. من هنا فقد حرص جرينبرج وغيره من النقاد على منع المشاهد أو الفنان من خلق إطار ربط بين العمل الفنى والطبيعة. مثل الربط بين شبكة الخيوط فى لوحات جاكسون بلوك Jackson Pollock وبين أغصان الشجر المتشابكة.

لكن الوضع تغير الآن بصورة واضحة. فالفن التجريدى لم يعد يعتبر فنًا راديكاليًا، إذ يُعتبر حاليًا أحد تيارات ممارسات فن ما بعد الحداثة. فبالمقارنة بفن الفيديو وفن الأرض (2) أو الفن الإدراكى والأنواع المختلفة من أساليب الأداء واستخدام التراكيب والأجهزة، أصبح الفن التجريدى يبدو تقليديًا للغاية. الأكثر من ذلك أن الفن التجريدى ذاته قد أصبح يُنظر إليه على أنه أقل تجريدية. فلقد حلل الدارسون مواضيع لوحات كاندنسكى بالتفصيل، ويعتقد الكثيرون الآن أنه يجب أن نتبين مرجعية العمل، كالجبال والأشجار والشكل. وتشير الدراسات الحديثة إلى أن لوحات بولوك التى رسمها بأسلوب التقطير كانت تبدو أحيانًا كتكوين شكلى. كما أن بعض المعارض والكتالوجات أكدت تعدد مصادر الإلهام اللاشكلية فى الفن التجريدى، حيث تبدت هذه المصادر فى الطبيعة والأفكار الفلسفية والعلمية ومذاهب الاستبطان والتأمل العقلى.

والآن وبعد أن مضى وقت كاف يمكننا أن ندرس الفن التجريدى كظاهرة تاريخية مرت بمرحلتين رياديتين، الأولى أوروبية، والثانية أمريكية. مع ذلك فلايزال التساؤل حول كيفية تفسير الفن التجريدى مثار جدل حاد. ففى السنوات الأخيرة تشكك البعض فى عملية التركيز على الشكل، وظهر اتجاه يرى الرسم التجريدى كتنفيذ لدوافع مبرمجة، كأنما أراد الفنانون مجرد توضيح الأفكار فى إبداعاتهم من خلال شفرة سرية أو علامات وخطوط بيانية - ومن الأفكار المثيرة التى ظهرت فى هذا الإطار عدم أهمية المكونات الشكلية للوحات والتشكيك فى رد الفعل الذاتى المركب الناتج عن التحديق بدقة فى اللوحات. وقد يرجع سبب شيوع هذه الأفكار إلى أن معظم اتجاهات الفن المعاصر تركز على الأيديولوجية والسخرية والنقد الاجتماعى، بالإضافة إلى ذلك، فإن الجدية العالية للتصوير التجريدى باعتباره يطمع لنوع من الروحية المطلقة أصبح أمرًا زائلاً. فى هذا الإطار فإن كتاب جون جولدنج John Golding - معابر نحو المطلق - بكل ما يثيره من رؤى فكرية بأسلوب ذكى متدفق والذى اعتمد فيه الكاتب على الست محاضرات التى ألقاها أ.د. ملون A.W. Mellon فى المتحف القومى للفن فى واشنطن عام ١٩٩٧، كتاب يأتى فى التوقيت المناسب.



ورغم أن الكثيرين ممن يستمتعون بالفن التجريدى لايتظاهرون أو يدَّعون فهمه جيدًا، إلا أن هناك شبه اتفاق عام أن الفن التجريدى يعد واحدًا من أهم الابتكارات الفنية فى القرن العشرين. والحقيقة أن الكثير من اللوحات التجريدية تبدو وكأنها تتحدى فكرة أن تكون مفهومة. من هنا فإن إحدى القضايا التى يثيرها جولدنج فى كتابه تتلخص فى كيفية استقاء معنى أو أية دلالة ملموسة من مجرد المتعة الحسية البصرية التى تنشأ من رؤية لوحات لا تحمل مواضيع مفهومة وتزخر بأشكال هندسية أو عشوائية أو مجرد لطشات لونية.. فى البداية يوضح جولدنج رؤيته بقوله:

«إن الفن التجريدى فى أفضل وأعمق حالاته مُحمل بمعان ومضمون ولكى يصبح هذا المضمون مفهومًا يجب أن نجد ابتكارات تصويرية شكلية جديدة لتعبر عنه».

ولتوضيح رؤيته، اختار جولدنج مجموعتين من الفنانين. تتكون المجموعة الأولى من ثلاثة من رواد الفن التجريدى فى أوروبا ممن ابتكروا الفن التجريدى وحددوا معالمه قبل الحرب العالمية الأولى. وهؤلاء الفنانون هم كاندنسكى وموندريان وكازمير ماليفيك Kasimir Malevich. ويخصص جولدنج النصف الثانى من كتابه لأعمال أربعة من كبار الفنانين التجريديين الأمريكيين، وهم جاكسون بولوك ومارك روثكو Mark Rothko وبارنت نيومان Barnett Newman وكليفورد ستيل Clyfford Still، الذين أسهموا فى بعث الحيوية وتجديد شباب الفن التجريدى وإثراء مفرداته وتوسيع آفاق طموحاته فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية.

ورغم أن اختيار جولدنج لهذه الأسماء يثير التساؤل خاصة فى النصف الثانى من الكتاب الذى أغفل فيه ذكر فنانين مثل أرشت جوركى Arshile Gorky وويلم دو كوننج Willem de Kooning وروبرت مازرويل Robert Motherwell مع ذلك فهذا لا ينتقص من أهمية الكتاب ولا قيمته. ولقد جرت العادة أن تكون كتب الفن التجريدى الموجه لغير المتخصصين، موسوعية كمحاولة لتغطية عدد كبير من الفنانين والأساليب والتيارات، الأمر الذى يؤدى إلى سطحية العمل ككل. لكن جولدنج فى كتابه اختار أن يقدم عددًا محدودًا من الفنانين ممن شعر أنهم قد قدموا بالفعل أعمالاً تعكس طموحًا حقيقيًا للوصول لجوهر الفن التجريدى وكيفية تأثيره. من هنا فإن جولدنج يبدى اهتمامًا أكثر بالقيمة الفنية من اهتمامه بتنوع الأساليب، ويركز اهتمامه على فنانين ملهمين يصفهم بقوله: «يقفون على طريق شىء جديد.. الحقيقة التصويرية اللانهائية أو محاولة الوصول لليقين باتجاه المطلق المرئى». فى هذا الإطار يندرج فنانون مثل كوننج ومازرويل اللذين تميزت أعمالهما بتنوعها وبعدها عن المنظور الأحادى.

وفى كتابه لم يلجأ جولدنج لأسلوب واحد فى التحليل، إذ يمزج الكاتب بين الاستقراء والحدس والسيرة الذاتية والمعلومة التاريخية وتحليل ما سطره الفنان نفسه من أعماله واللوحات نفسها. والجدير بالذكر أن جولدنج شخصيًا فنان ومؤرخ، الأمر الذى يوضح عدم إغفاله لحقيقة أن ممارسة الرسم نفسها كفيلة بأن تولد أفكارها الخاصة وأنها فى حد ذاتها يمكن أن تعتبر شكلاً من أشكال التفكير. كذلك فهو يولى اهتمامًا بالتفاصيل المرئية ويمزج بين الإعجاب الشخصى والتحليل للبعد الثقافى.

ومحصلة هذا المدخل الانتقائى التجريدى الذى اختاره الكاتب، تقديم رؤية ذكية تأملية منفتحة بصورة لافتة للنظر لردود الفعل المركبة التى يستثيرها ويتطلبها العمل نفسه. والحقيقة أن كتاب جولدنج يعد واحدًا من الكتب النادرة التى تغطى أساسيات هذا الموضوع بصورة أكثر من جيدة، وهو يعتبر مدخلاً ممتازًا للأشخاص الحديثى التعرف على هذا المجال. فى نفس الوقت فإن الكتاب ثرى ومركب للدرجة

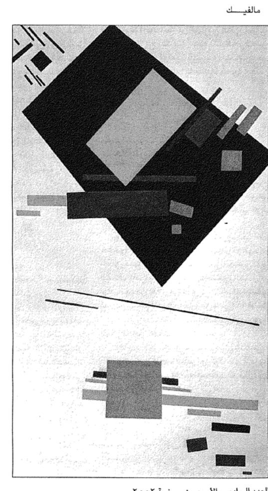
Paths to the Absolute:
Mondrian-Malevich-Kandinsky
Pollock-Newman-and Still

(معابر إلى المطلق: موندريان وماليفيك وكاندنسكى بولوك وستيل)

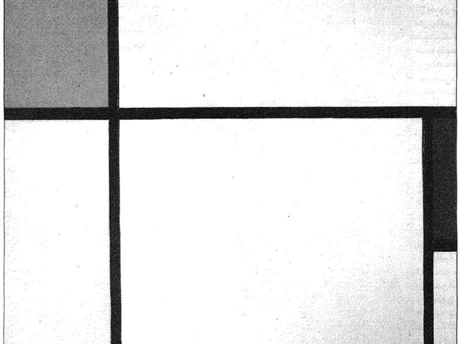
By: John Golding
Princeton University Press, 240PP.,
$60.00

كاندنسكى

مالفيـــك



مـونــدريـــان



رغم أن الكثيرين ممن يستمتعون بالفن التجريدى لايتظاهرون أو يدَّعون فهمه جيداً، إلا أن هناك شبه اتفاق عام أن الفن التجريدى يعد واحداً من أهم الابتكارات الفنية فى القرن العشرين. والحقيقة أن الكثير من اللوحات التجريدية تبدو وكأنها تتحدى فكرة أن تكون مفهومة

التى تستثير شهية من يتصور منهم الإلمام بالموضوع بالفعل.

مرحلة الريادة الأوروبية:

يدرك جولدنج جيدًا المتناقضات والتوترات الكثيرة التى شكلت مصادر الإلهام فى الفن التجريدى منذ بدايته، خاصة التناقضات بين المعنى الخاص والمنطوق العام وظاهر وباطن العمل نفسه. بالإضافة لذلك فإن جولدنج يدرك تمامًا أن الطرق التى نفهم بها الفن التجريدى تنشأ أحيانًا من التوازن المتناقض بين متناقضات المعرفة والإدراك. وعلى سبيل المثال فقد كتب الثلاثة فنانين الأوروبيين التجريديين بتوسع عن إبداعهم. ومن خلال هذه الكتابات استطعنا أن نفهم قدرًا لا بأس به من دوافعهم والمضمون المستتر فى لوحاتهم.

وبالرغم من أن أعمال وأهداف الفنانين الأوروبيين الرواد الثلاثة تختلف، إلا أن جولدنج يشير إلى أنهم جميعًا قد استلهموا أعمالهم من العلوم والأفكار الروحية الغامضة. ورغم أن هذه التركيبة قد تبدو لنا غريبة الآن بعض الشىء، إلا أن العلم والاستبطان فى ذلك الحين قدما طرقًا للوصول إلى ما اعتُبر إدراكًا أعمق للحقيقة، وذلك من خلال تحدى أولوية العالم المادى وتأكيد أهمية القوى والعمليات فوق الأشياء.

والفن التجريدى فى هذه الصورة يمكن أن يعتبر نتاجًا طبيعيًا للفن الفرنسى فى القرن التاسع عشر، وعلى سبيل المثال فلقد أعطى التأثيريون الأولوية لتمثيل الطاقة أكثر من الأشياء الملموسة.

ولفت سيزان الانتباه لمراحل الرسم للدرجة التى تجعلها جزءًا من اللوحة نفسها.

ولقد مضى الأوروبيون نحو خطوة أبعد عندما أعطوا الأولوية لتمثيل القوى والعمليات دونما إشارة محددة للعالم المادى، وعندما جعلوا من تلك العمليات الموضوع الظاهر لأعمالهم الفنية. ويتجلى التأثير العميق للعلوم المعاصرة على نفوس الفنانين بصورة واضحة فى بيان كاندنسكى عام ١٩١٣ الذى أوضح خلاله كيف دفعه انقسام الذرة للمضى نحو الاتجاه التجريدى.. يقول:

«لقد تساوى تقسيم الذرة، فى نفسى، مع سقوط العالم ككل. فجأة تهاوت الجدران الصلبة، كل شىء لم يعد مؤكدًا. أصبح مشكوكا فيه، خياليا.. واهيا.. ضعيفا.. فلن أُدهش إذا ما تحلل أمام عينى حجر فى الهواء ولم يعد مرئيًا.

وهكذا شُغل كاندنسكى وغيره من الفنانين الأوروبيين بفكرة البعد الرابع والمعرفة المتسامية والاستبطان ورؤية العالم من خلال البصيرة. كذلك فقد أثرت الأفكار الغامضة والرؤى ونظريات رودلف شتاينر Rudolf Steimer ـ مؤسس النظرية الألمانية للتأمل والاستبطان ـ فى نفس كاندنسكى منذ المرة الأولى التى استمع فيها لشتاينر فى عام ١٩٠٩. ولقد اجتذبت هذه الأفكار موندريان Mondrian، ليرى أن الحياة كلها تتجه نحو التطور وأن مراحل اكتشاف الحقيقة الكامل يمكن أن تتم من خلال التوازن والتسوية بين القوى المتضادة، وهو المفهوم الذى عكسته أعماله حتى نهاية حياته. أما مالفيك Malevich الذى انبهر بالإمكانيات العلمية والخواص الهندسية الغامضة فقد كان مفتونًا بأعمال أوسبنسكى P.D. Uspensky، أحد حواريى مدام بلافاتسكى التى وضعت فكرة المجتمع القائم على الفكر الاستبطانى.

بالرغم من ذلك فقد وظف كل من كاندنسكى وموندريان ومالفيك هذه الأفكار بطرق مختلفة. فلقد تأثر كاندنسكى بأعمال ماتيس الغرفية وأعطى الأولوية للون فى لوحاته وكتاباته. كما اهتم بالعلاقة بين اللون والموسيقى وأراد أن يعطى لأعماله ثراء موسيقيًا فاصر أن يمنحها صبغة تراكيب التوزيع الأوركسترالى. وعلى عكس كل من موندريان ومالفيك كان كاندنسكى يكون عناصر لوحاته فى المساحة بأسلوب يحفظ الإحساس بالمنظور، بل وكثيرًا ما استعادت مصدر الإلهام المستور للأشياء والمناظر الخيالية المماثلة. وحلل جولدنج منابع الإلهام المراوغة وتكوينات كاندنسكى فى عام ١٩١٣ فيقول:

«الحقيقة أنه قد نجح من حين لآخر فى أن ينأى بنفسه عن التصوير الواضح، والمصادر الفعلية التى أعطت لوحاته مادتها والتى عادة ما تفرض نفسها فى العمل الفنى بصورة لا تقاوم من خلال اللاوعى. بمعنى أوضح أن هذه الأعمال ديالوج مستمر، ثنائية بين الشكل المجرد الذى يلازمه بصورة متزايدة ومجموعة العناصر التى استثارت إلهامه منذ البداية.

وعلى النقيض من ذلك فلقد تأثر كل من موندريان ومالفيك بتكعيبية بيكاسو، فكانت تكويناتهم هندسية ومختزلة. والحقيقة أن أفكار موندريان حول التوازن الديناميكى خير تعبير عن طبيعة الواقع الذى أدى به لأن يقصر أعماله فى النهاية على شبكة من الخطوط السوداء تقطع ساحة بيضاء، تؤكدها مستطيلات من اللون الأول.

فى هذه اللوحات، أراد موندريان أن يقدم فنًا يعبر عن مستوى أعلى للحقيقة، من خلال تجربة متسامية، ومحو ما أطلق عليه الشكل التراجيدى من لوحاته. ويصف هذا الفن بقوله: «يصف نفسه بنفسه.. يعبر عما فوق البشر، ولكنه الأكثر إنسانية فى عمقه وشموليته».

ويرى جولدنج أن لوحات موندريان الناضجة قد عكست إحساسًا جذريًا جديدًا بمساحة اللوحة. ويقول: «إن شمولية سطح اللوحة حولته هو نفسه إلى صورة. فنحن لا ننظر للعناصر التصويرية فى اللوحة ولكن لسطح اللوحة نفسه ككل، ممثلاً لخيال الفنان».

وإذا كانت الواجهة الأمامية المسطحة فى لوحات موندريان ـ على حد قول جولدنج ـ قد محت التمييز بين الشكل والمسطح، بين الشىء واللاشىء، فإن مالفيك قد حافظ دائمًا على الفصل بين الصورة والخلفية، حتى عندما اختزلت لوحاته لمجرد مربعات ومستطيلات على أرضية بيضاء مسطحة. لقد أراد مالفيك هوالآخر أن يصور ما لا يمكن تصويره وإن تميز بطموح فكرى أكبر وأسلوب تشكيلى يؤكد على الأفكار الخيالية. فلقد انبهر مالفيك بالأمر، خاصة عندما يتجسد فى مفهوم البعد الرابع، الذى اعتبره المساحة التى تقع فيما وراء الفهم والإدراك الحسى، والمعادل المضاد للإدراك الفطرى للواقع والخيال. ولقد اعتبر مالفيك هذه البديهيات أصل وهم فكرة العالم الثلاثى الأبعاد الذى نعيش فيه أدنى مستويات الوعى. ولقد شُغل مالفيك بالتناقض الذى تفجره فكرة البعد الرابع.. إذ أن هذا البعد يعنى ضمنيًا اللانهائية ويمكن كذلك أن يتحول لمجرد مسطح فارغ.

وتدريجيًا توصل مالفيك لأشكال المستطيلات والمربعات الطافية على أرضيات بيضاء والتى قال عنها جولدنج «تعبيرًا عن صعود الإنسان نحو الأثير، نحو الضوء الغامض الذى اعتقد العلماء والمؤمنون بالقوى الغيبية أنه يملأ المساحة الفارغة. ويشير جولدنج إلى أن أشكال مالفيك الهندسية قد اعتبرت كونية فى طبيعتها وأن المربعات والمستطيلات فى أعماله التى قدمها بعد عام ١٩١٣ كانت تعبر عن أفكار أوسبنسكى فيما يتعلق «بمكعبات البعد الرابع التى تعبر سماء فضائنا المألوف». من هنا فإن مرحلة النضج الفنى فى أعمال مالفيك يمكن أن تفسر كنقطة الاتصال ما بين العالم الثلاثى الأبعاد الذى نعيش فيه وجودنا الأرضى والفضاء اللانهائى الرباعى الأبعاد الذى يقع فيما وراء إدراكنا.

وقد أثرت أشكال مالفيك الأحادية التفكيكية المختزلة بصورة حادة فى تطور الفن المصغر والإدراكى فى مرحلة لاحقة. وشكلت أيضًا النموذج الأول لما يصفه جولدنج بـ :

«عدد لا حصر له من التجريديين فى مراحل تالية ممن حققوا أهدافهم.. هؤلاء الفنانون وجدوا أنفسهم فى وضع تراجيدى.. فكان التساؤل كيف يصلون لنقطة أبعد وكيف يتفادون تكرار قمة إنتاجهم. ذلك التكرار الذى سيؤدى فى النهاية لاستنزاف أصالة التأثير والمعنى فى أعمالهم».

ولكن هل كان بإمكان مالفيك أن يحتفظ بحيوية إبداعه حتى حقبة الثلاثينيات مثلما فعل كاندنسكى وموندريان؟! يظل هذا السؤال مطروحًا بعد أن اختصر ستالين مستقبل مالفيك كفنان تجريدى بمنعه للفن التجريدى، مما أدى لأن يمضى مالفيك بقية حياته ممارسًا للفن الواقعى. من المدهش أن جولدنج قد تجاهل هذا الجانب من التاريخ الفنى لمالفيك فى كتابه. مع ذلك فإن هذه المشكلة والصور المختزلة كانت بمثابة التحدى للتجريديين الأمريكيين الذين خطوا بالتفكيك خطوة أبعد.



مرحلة الريادة الأمريكية:

بينما كان التجريديون الأوروبيون منشغلين بالوصول لفهم كونى موضوعى، كان الأمريكيون يسعون لتحقيق معنى كونى شامل عميق الذاتية.

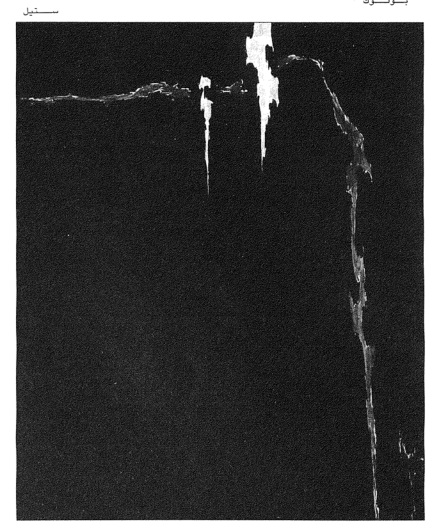
ويشير جولدنج إلى أن الأوروبيين «قد حققوا المطلق وطهروا الفن بفصل ذواتهم عن الصورة، بينما حاول الأمريكيون تحقيق نفس الهدف تقريبًا بإغراق أنفسهم بالكامل فى لوحاتهم من خلال التعمق فى حقيقة أنفسهم ليتحولوا هم أنفسهم لجزء من الفن». فلقد كان الفن التجريدى بالنسبة للأمريكيين معادلاً للتعرف على الذات.

يقول كليفورد «أنا أرسم نفسى، لا الطبيعة». وعندما سألوا بولوك لماذا لا يرسم الطبيعة أجاب «أنا الطبيعة». ثم قال: «إن الرسم هو اكتشاف للذات وكل فنان جيد يرسم نفسه».

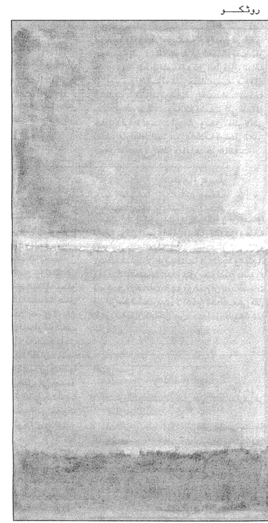
ويعرض جولدنج فى كتابه الكيفية التى خلق بها كل فنان من الفنانين الأربعة نوعًا من الخيال الخاص من المفترض أن يعبر عن المطلق وينتمى للفنان

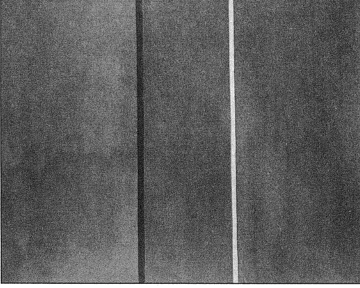
بـــولـــوك

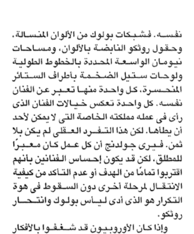
ســـتيل



روثكـــو







نيـــومـــان

نفســه. فشبكات بولوك من الألوان المنسالة، وحقول روثكو النابضة بالألوان، ومساحات نيومان الواسعة المحددة بالخطوط الطولية ولوحات ستيل الضخمة بأطراف الستائر المنحسرة، كل واحدة منها تعبر عن الفنان نفسه. كل واحدة تعكس خيالات الفنان الذى رأى فى عمله مملكته الخاصة التى لا يمكن لأحد أن يطأها. لكن هذا التفرد العقلى لم يكن بلا ثمن. فيرى جولدنج أن كل عمل كان معبرًا للمطلق، لكن قد يكون إحساس الفنانين بأنهم اقتربوا تمامًا من الهدف أو عدم التأكد من كيفية الانتقال لمرحلة أخرى دون السقوط فى هوة التكرار هو الذى أدى ليأس بولوك وانتحار روثكو.

وإذا كان الأوروبيون قد شغفوا بالأفكار العلمية والفكر الاستبطانى، فقد شُغل بولوك ورثكو واستيل بمنطقة اللاوعى والاستبطان والتسامى بالإضافة لتأثرهم بما أطلقوا عليه الفن البدائى، خاصة فن الهنود الحمر. وكانت السيريالية بتركيزها على التعبير عن اللاوعى من خلال الاستكشاف الذاتى للنفس وأساليب أخرى كالحركات التلقائية أثناء ممارسة الرسم، بمثابة المصدر الذى زودهم بأسس إبداعية وأدوات لتكوين الشكل. ورغم أن الفنانين الأمريكيين قد رفضوا قاموس السيريالية وتركيزها على النقد الجنسى والاجتماعى، إلا أنهم شعروا أنه يمكن تحويل تكنيك السيريالية الذاتى لتشكيل متسام غامض. كذلك فلقد أمدهم الفن البدائى بأداة أخرى للوصول للمشاعر الأولية والشمولية التى عبرت عنها فكرة Jung عن الضمير الجمعى والتى استثارت اهتمام بولوك فى أواخر الثلاثينيات.

الأكثر من ذلك، أنه وبما أن الفن الهندى يمثل الفن الأمريكى الأول، فقد منحهم ذلك الفرصة للتحرر من ثقل التقاليد الأوروبية.

شعر التجريديون الأمريكيون أن أحد أوجه قصور الحداثة الأوروبية يتمثل فى فشلها فى مواجهة مشكلة التكرار. وفى محاولتهم للتغلب على تلك المشكلة، لعب حجم اللوحة دورًا مهمًا. فبينما قدم التجريديون الأوروبيون لوحاتهم على وجه العموم بحجم حامل الرسم التقليدى، بدأ الأمريكيون فى استخدام تكوينات ضخمة خلقت علاقة مادية جديدة بين العمل والمشاهد.

ولقد أشار نيومان إلى أن المقياس يعادل المشاعر. كما أوضح جولدنج أن المقياس الضخم فى لوحات بولوك كان يمثل إحالة ليتوافق مع الجسد البشرى فيقول:

> «من الملاحظ أن نسبة كبيرة من أعمال بولوك الكاملة التى استخدم فيها أسلوب الألوان المنسالة أو المسكوبة فى عام ٤٧ والتى تعتبر من أنجح أعماله وأكثرها إثارة، عمودية التكوين وتتناسب مع المقاييس البشرية. (متوسط حجم اللوحة ٦ أقدام و٦ بوصات × ٣ أقدام و٦ بوصات). فى هذه اللوحات نشعر بقوة أن بولوك يقيس حجمه بالنسبة لسطح اللوحة مما يؤدى للإحساس بتوحده العميق مع اللوحة ـ إلى هذا الحد تتحول اللوحة لتواجهه بوجوده الذاتى ـ وهى تسمح له أيضًا أن يعبر خلالها، كما لو كانت مرآة، إلى عالم تتعالى فيه الذات. فالإيماءات عندما تترجم إلى رتم تصويرى تحل محل الفنان، بل يمكن القول إنها تصبح الرمز السحرى.. فالإيماءة شىء رائع ويمكن توظيفها فى إطار الشكل لتكبر ولتفوق الفنان الذى وضعها».



واحد المتناقضات التى نشأت عن هذا الأسلوب فى التصوير الضخم الحجم الذى تبناه الفنانون الأمريكيون أنهم قد أصبحوا أكثر عمومية وفى نفس الوقت أكثر خصوصية من التجريديين الأوروبيين. لقد كان هدفهم أن يجسدوا الحس التراچيدى والمتسامى فى نفس الوقت، وأن يكسبوا التعبير عن الكون لمسة شخصية عميقة. ولقد اعتمدت مراحل تحقيق ذلك، كما لاحظ جولدنج، «على الفروض الميتافيزيقية التى تحولت إلى رؤى خرافية عن الفن لتحوله إلى تظاهرية أو فعل سحرى».

وعلى غرار أسلافهم الأوروبيين، أراد الأمريكيون أن يخلقوا صورًا تجريدية تستعيد وتحفظ الإحساس القوى بالموضوع. ولقد أوضح بولوك أن «الفن التجريدى تجريدى»، ولكنه قال أيضًا وبنفس القناعة «إننى لست تجريديًا تمامًا فى بعض الأحيان وتجريدى فى أحيان أقل» وعن التجريد فى المعرض الخامس عام ٤٧ والذى حمل عنوان Full Fathom Five يكتب جولدنج قائلاً:

> قد يبدو الأمر فى البداية كتكوين لشكلين، خاصة ونحن نعرف أن كثيرًا من أعمال بولوك بدأت بخيال مفهوم. ولكن عنوان العمل يوحى أن الخيال قد غاب وتمزق فى طبقات الألوان التى تجرى هنا وهناك لتتداخل وتتشابك، وفى ظل هذا يضيع العمل فى الألوان الزيتية رغم أن السطح مُحمل بمواد غير تقليدية مثل الأزرار والمفاتيح والأمشاط والسجائر وما شابه ذلك من البقايا التى تشى بوجود الإنسان. بحياة عاشها الفنان خلال ممارسته الفنية.

بل إن الفنانين اللاوصفيين مثل روثكو ونيومان قد استخدموا أشياء لتمثل نقطة ارتحال، حيث أرادوا لأعمالهم أن تعبر عن التجربة الحياتية. فكتب روثكو أن معظم أشكاله لا علاقة لها مباشرة بأى تجربة مرئية خاصة، فمن خلال لوحاته يدرك الفرد القواعد والأحاسيس الانفعالية للكائن الحى.

أما نيومان فقد درس علم النبات والچيولوچيا وبُهر بعلم الطيور، وشعر أن الشكل التجريدى يمكن أن يكون كيانًا حيًا، عربة للأفكار المجردة المركبة، ناقلاً للمشاعر المرعبة وبالتالى فهو واقع.

كذلك فقد حمل نيومان أعماله بالأفكار القبلانية، واستخدم رموزا يهودية فى أبعاد ومساحات لوحاته. ومن الواضح أنه وإن كان مضمون العمل لا يتبدى على الفور أمام عينى المشاهد، إلا أن وضوحه أمام الفنان أمر حيوى للغاية. فهو المرشد الذى يمد الفن بما يطلق عليه جولدنج «الإحساس بالفخامة والغرض الانفعالى».



ويمثل المضمون المستتر الذى يرتبط بالفن التجريدى عنصرًا مهمًا فى كيفية استيعاب العمل. ففى بعض الأحيان يمثل الشفرة أو شرح الصورة المرئية التى يعبر عنها العمل. فى نفس الوقت فبمجرد أن يدرك المشاهد هذا المضمون المستتر لا يمكنه تجاهله. ويوضح جولدنج فى تحليله لما كتبه الفنانون عن أعمالهم أنه يحلو لنا أن نتصور أن ردود أفعالنا تجاه العمل التجريدى ما هى إلا ردود فعل بصرية، لكن الحقيقة أن عددًا من العوامل المنطوقة تلعب دورًا فى هذا. وهذه العوامل لا توجد داخل الصورة الخيالية التى ينقلها الفنان مثلما يحدث فى التصوير السردى التقليدى، ولكنها تتارجح فى مكان ما خارج العمل، فى جسد كبير متنوع مكون من الأفكار التى يقدمها الفنانون فى لوحاتهم ونصوصهم التى خطوها عن أعمالهم وقراءات الآخرين للوحات، وبالطبع أسماء اللوحات.

وإطلاق الأسماء على اللوحات أمر يختلف من فنان لآخر وحتى فى أعمال الفنان الواحد. وعلى سبيل المثال، فقد كان بولوك فى العادة ينمِّر لوحاته متتبعًا الموازير الموسيقية وأحيانًا كان يعطيها أسماءً مثل «نغم الخريف». وهذه الأسماء تؤثر على التجربة البصرية وتحدد منظور اللوحة. ففى كثيرمن الأحيان يطلق الفنان أسماءً على أعماله بعد انتهائه منها بغرض أنها تساعد على تشكيل رد فعل المشاهد. ويشير جولدنج إلى أن نيومان كان يفعل ذلك دائمًا مؤكدًا أن عناوين لوحاته مجرد استعارات، الهدف منها وصف مشاعره وهو يرسم اللوحة.

ويطرح جولدنج فكرة أن إدراك العناصر البصرية المجردة فى الفن التجريدى تحدده إلى درجة كبيرة التقاليد التى تحدد عملية الرؤية ـ ويشير إلى مصداقية هذه الفرضية عندما يرتبط الأمر بالطرق المختلفة التى تحول اللمسة الفنية لجزء مهم فى مضمون اللوحة. فعندما ندرك علامات أو نماذج معبرة فى اللوحة فمرجع ذلك بدرجة كبيرة، أننا تعلمنا أن نقرأ الفن بأسلوب معين. فالخيوط المنسالة فى أعمال بلوك قد تُفسر كتعبير عن التلقائية والعشوائية وعادة ما يتم إدراكها كتعبير عما أطلق عليه الفنان، تجسيد للطاقة والحركة. كما أنه يمكن فهمها كرابطة بين الأفكار والحالة النفسية، مثل غضب الفنان الداخلى.. كتجسيد لمراحل التذكر أو للتعبير عن قوى الطبيعة.

وفى لوحات نيومان، تصبح الخطوط الرأسية أو الاندفاعات، التى تقسم المناطق الواسعة الهادئة للألوان الباردة، أحيانًا أوضح مناطق اللوحة تصويريًا، فيصبح التناقض بين اللمسات اللونية المختلفة فى حد ذاته موحيًا وذا معنى. ويشير جولدنج فى فقرة موحية إلى أن الخطوط فى أعمال نيومان تؤدى مهمة الخط المستقيم ذى الطرفين، الدافع أو المُقسم للأجزاء على جانبيه. مع ذلك فالخطوط تتزامن وتعكس إحساسًا بجمع جزءى اللوحة سويًا. ثم يشير إلى أننا لو حاولنا قراءة لوحات نيومان ونحن ننظر لأعلى نشعر بارتباط الجزءين وعندما ترتحل العين لأسفل تنفصم الرابطة ويتباعد جزءا اللوحة.

لقد أراد التجريديون الأمريكيون أن يمثلوا المطلق. ومن المعروف أن المطلق لا يمكن وصفه إلا بطرق ذاتية. ولكى نسبر أعماق لوحاتهم لابد للمشاهد أن يرتبط بها عاطفيًا وعقليًا، وهذا بالتحديد ما فعله جون جولدنج بصورة تستحق الإعجاب. فهو يوضح أن التناقضات فى الرسم التجريدى لا تلغى قدرته على نقل المعنى، هذا إن لم تكن جزءًا مهمًا من طبيعة هذا الفن. ■

الهوامش

(١) إشارة لشخصية رئيس الوزراء الدانماركى فى مسرحية هاملت.

(٢) فن الأرض يعتمد فيه الفنان على عناصر الطبيعة مثل وضع ستارة على جبل أو تكوين بجوار نهر.

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
ترجمة: سناء صليحة


QUALITY ASSURED FIRM
ISO 9001
SGS
ماك
سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
قطع موكيت
دواسات حمام
سجاد أطفال
مشايات
مطبوع
شرقى
ماك على الإنترنت
www.maccarpet.com

مراكز البيع:

بواقي التصدير والرواكد

مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى ـ نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٢
مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠
الزيتون: ١٣ ش عين شمس ـ ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧
عين شمس : ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول
ت: ٢٩٦٦٥٦٤
الشرابية: ٤٠ شارع الآلايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦
المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين ت: ٠١٠/٥٢٠٠١٩٠
الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠
شبرا: ٦٤ ش روض الفرج ـ دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠
ناهيا: ١٠٧ش ناهيا بولاق الدكرور ٠١٠/١٧١٠٣٨٩
الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة ٠١٠/١٤٥٥١٠٦
العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢
إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٢١٠٧٧٢٦
الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت:٧٧٥٧١٦٨
مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧
المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١٦٥
حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان ـ محطة الجراج ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧
القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٥
بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ٢٢٢٩٧٠٨
صفط اللبن: سنتر الصاوى ـ شارع التحرير ٧٢٠٧٦٩٢
مكرم عبيد: ٣٥ شارع أبو داود الظاهرى ـ مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١
فيصل التعاون: ٣٥٧ شارع الملك فيصل ـ محطة التعاون ـ الهرم٠١٠/١٧١٠٤٩٠-
الصحفيين : ٣ ش النيل الأبيض متفرع من شارع أحمد عرابي ت: ٣٠٣٩٤١٢
السيدة زينب: ٣٨ شارع مراسينا ٠١٠/٦١٨٦٩٤٥
حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧
الأوبرا : ١٠ ميدان الأوبرا محلات إسماعيل علي ت: ٣٩١٤٩٩٩
المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى
دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس
العباسية: ١٥ ش العباسية ـ ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠

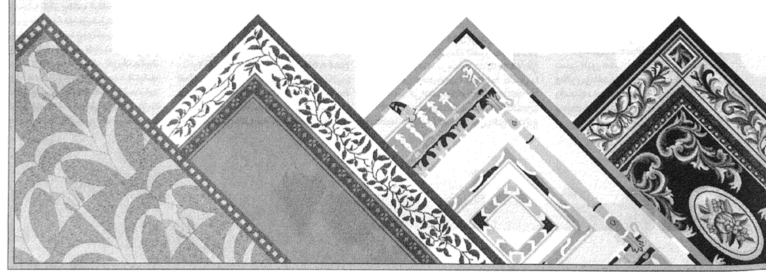
أرقام تليفونات معارض مدن القناه والوجه البحري

العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤
العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨
العاشر من رمضان: دوار العاشر ـ طريق الإسماعيلية
دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى ٠١٠/١٧١٠٣١٢
بلقاس: ش طريق الحرية ـ خلف المحكمة ٠١٠/٦٦٩٨٥٧٧
محرم بك: الإسكندرية ٦ شر آبيدوس من شارع مسجد الحضرى ت: ٠٣-٣٩١٨٤٧٠
دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦
ميت غمر: ٥٢ ش الحرية متفرع من ش بور سعيد ٠١٠/١٧١٠٤٧٠

القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤ ٠١٠/١٧١٠٤٧٩
شبين القناطر: ٩ ش الدلتا ٠١٣٧٢٢٠٣٣
بنها: ش الكوبرى ت: ٢٥٣٩٧٠
السويس: ٣٦٦شارع الجيش ٠١٠/١٧١٠٤٥١
المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش ٠١٠/١٧١٠٤٦٨
طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤
المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤
كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥
الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية ـ فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧
رمادا: برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٥٧٩٧٤٨
العصافرة : ش عثمان إبن عفان بجوار المعهد الديني ٠١٠١٠٠٤٧٣٩
الزنانيرى الإسكندرية ١٠٢ ش الزنانيرى - سيدى جابر ت: ٥٤٦٠٩٩٩
العامرية : ش مجمع سيدي مسعود الإستهلاكي عمارة خميس الهواري ٠١٢/٢٧٥٨٥٠٠
الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩
منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة ـ طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣
دسوق: ش الجيش ـ أمام عمر أفندى ٥٦٥١٥٣
الإسماعيلية: شارع شحتة - السكة الحديد سابقا ٣٥٥٧٦٥
شبين الكوم: ٣ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى
بورسعيد : ميدان المسلة - برج المسلة ت: ٠١٠٥١٣٤١١٤
دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٣٢٨٠١٣
كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧
أبو حماد: ٣٠ ش التحرير برج العزازى ت: ٣٤٠٩٥٤٤
السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧
كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة ٠١٠/١٩٢٢٤٢٨
فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم ـ خلف المحكمة ت: ٠١٠١٩٧٧٥٣٣
كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين ٠١٠/١٣٤٨٣٥٧
العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ٣٦٥٦٥٦

عناوين وأرقام تليفونات المعارض عن الوجه القبلي

سوهاج: ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠
بنى سويف الجديدة: ٣ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨
بنى سويف: ٥ ، ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦
قنا : ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٣٦٤٨
قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا ٠١٠/١٦٦٦٨٩٥
الأقصر: ش مدرسة الصنايع ـ السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى ٠١٠/٧٦١٨١٩
أسيوط: ١٢ ش المدينة المنورة الزهراء ٣٠٦٠٣١
المنيا : ١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٣٥٣٦١٦
الفيوم: ش ٢٦ يوليو عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٢٢٢



محمد حسنين هيكل

«ثورة يوليو: خمسون عاما»



■■ عندما اقتربت الحرب العالمية من نهاياتها سنة ١٩٤٥، كانت الدنيا تعيش حالة شبيهة بظواهر الطبيعة حين يؤذن الشتاء على الرحيل ويبدأ موسم ذوبان الجليد، وتتحول الكتل والمساحات البيضاء المتراكمة على القمم والسفوح إلى سيول تنحدر من مساقطها ويشتد هديرها وتكتسح أمامها ما يعترض طريقها، ثم يزيد الفيضان - فإذا هو الطوفان.

وكذلك حدث لأمم الأرض وشعوبها ما يحدث على تضاريس الطبيعة ومعالمها، فالحرب بالضرورة تجميد للحياة المدنية، وقيد على الأمل، وتعطيل لحق الاختيار، والناس يقبلون - بإدراك أن مطالب البقاء والنصر، لابد أن تكون لها أولوية تسبق ما عداها. لأن أمم الأرض وشعوبها عندما تجد نفسها فى مواجهة تحديات البقاء والنصر - تقبل تطوعا فى زمن الحرب ما لا تقبله غصبا فى ظروف عادية، ورجاؤها أنه حين تحقق التعبئة غايتها وطاقتها بالبشر والموارد، وتقدم التضحية ما عندها دون مساءلة، وتحقق الإرادة ما عزمت عليه وصممت - إذن فإنه فى ذلك الوقت وليس قبله - يذوب الجليد، وتومئ البشائر إلى ربيع آت.

والحاصل أن أمم الأرض وشعوبها التى رأت (سنة ١٩٤٥) بوادر تغيير الفصول، راحت تفتح بالطموح ما أوقفته الحرب بالتجميد، وعندها تحركت التصورات والرؤى، والأفكار والآمال، والمشروعات والخطط، تسابق بعضها بعضا، وتتدافع راغبة فى تأكيد مواقعها ومطالبها على خريطة دنيا جديدة تراها عند الأفق القريب!

ولأن الحرب العالمية الثانية بالذات كانت أقسى وأعنف صراع سجله التاريخ الإنسانى - فإن شتاءها حل طويلا وموحشا، وجليده جاء كثيفا وعميقا، وكان ذوبان الصقيع باهرا وفى بعض اللحظات مخيفا، لأن كرات ثلج فى ثقل الجبال أفلتت وانقضت على السفوح والوديان، تدهمها كأنها مقادير نازلة.



ومع نهايات الحرب العالمية الثانية كانت الظاهرة الطبيعية - الإنسانية، نشيطة وفاعلة على نحو لم يسبق له مثيل فى تاريخ الحروب، لأن ذوبان الجليد بعد هذه الحرب بالذات - فك وأطلق قوى وعناصر مهولة، منها ما كان فى موضعه من الأصل، ومنها ما استجد بفضل ما كان يتفاعل فى العمق تحت الجليد المتراكم!

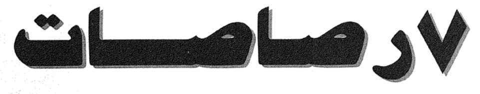
● وعلى سبيل المثال - بداية - فإن الحرب العالمية الثانية كانت أول حرب فى التاريخ يمكن وصفها بأنها «حرب كل الناس»، بمعنى أنها لم تكن حرب فراعنة وقياصرة وأباطرة - ولا حرب أديان سماوية وكتب مقدسة ورسل مكلفين - ولا حرب إمارات وممالك وإمبراطوريات - ولا حرب ماريشالات وجنرالات وجيوش، وإنما كانت - بالفعل - «حرب كل الناس» - والأسباب:

- أن الموارد المطلوبة لتمويل تلك الحرب أوسع من خزينة أى دولة بما تحصله من ضرائب، وعليه فإن ذلك المطلوب لابد أن يتوافر - بالقبول والرضى ليؤخذ من خزائن ومدخرات «كل الناس».

- والجنود الذين تحتاج إليهم المعارك - أكبر من أى جيوش حاربت من قبل، ولذلك تحتاج فى الحشد إلى تطوع «كل الناس».

- والحرب لم تعد جبهات قتال وإنما هى بسبب ظهور الطيران والصواريخ، جعلت المدن والقرى والمصانع والحقول وحتى دور العلم والبحث - أهدافا عسكرية مرصودة، وبالتالى جبهات قتال يقف عليها «كل الناس».

- وقلوب وعقول الشعوب تحولت بظهور



محمود فهمى النقراشى

أمين عثمان

اللورد موين

حسن البنا

أحمد الخازندار

أحمد ماهر

سليم زكى

السؤال الأول: هل كانت الثورة لازمة؟ ٣

الراديو وبعيدا بعيدا عن جبهات القتال، إلى مواقع حرب نفسية تختبر عليها الإرادات الوطنية، والمعنى أن الحرب فى المبتدأ والمنتهى داخل قلوب وعقول «كل الناس».

● وعلى سبيل المثال ـ ثانيا ـ فإن اشتراك الاتحاد السوفيتى ـ وهو دولة الطبقة العاملة المؤمنة بأنها غاية التاريخ (وإن لم تكن نهايته) ـ ودخول الولايات المتحدة الأمريكية (وهى المعتبرة أمل التاريخ لأنها «موطن الحرية والفرصة المتكافئة») ـ جعل المقاتلين ضد النازية على الناحيتين ـ على اختلاف ما بينهم ـ جندا يختلف عما عرفته ميادين القتال سابقا. والداعى أن الرجل العامل (السوفيتى)، والرجل العادى (الأمريكى)، كلاهما جاء إلى الميادين حاملا عقيدة اجتماعية: أحدهما يرفع فى يده حلم «العدل والمساواة»، والآخر يقدم «حلم الطموح والديمقراطية».

ومعنى ذلك أن الحرب نموذجان فى تنظيم وإدارة المجتمعات ـ كلاهما يحارب دفاعا عن وجوده ضد النازية ـ وفى نفس اللحظة يحارب لتأكيد وإعلان تفوقه بعد النصر.

● وثالثا ـ على سبيل المثال أيضا ـ فإن الحرب لم تظهر حاجة ماسة إلى الموارد وقوة النيران فقط، لكنها استدعت عنصرين جديدين: أولهما العلم والتكنولوجيا (قوة رئيسية وليس قوة مضافة ـ كما كان الحال من قبل). وثانيهما الثقافة والفكر (تأثيرا فاعلا وليس تأثيرا مساندا ـ كما جرى فى مرحلة سابقة)، وعندما توصل العلم فى ظروف الحرب إلى اختراقات هائلة فى مجالات غير مسبوقة مثل الفضاء والذرة، فإن الثقافة والأفكار ـ بالتوازى ـ حققت نفاذا مذهلا فى عرضها لوعد المجتمعات المتنافسة بعد نهاية الحرب المشتركة ضد هتلر.

وحين توقفت الحرب لم يكن الطوفان ما ذاب من الجليد فقط ـ وإنما جرف الطوفان معه عناصر صنعتها الحرب فى حد ذاتها، وتخلق كيانها الحى فى رحم ظروفها الصعبة المشبوبة بالنار والمصبوغة بالدم.

وهكذا فإنه عندما انتهت الحرب، كان المشهد الجديد مجتمعات وعقائد متنافسة، وقيما ونظما تعرض نفسها، وعلوما وثقافات وطموحات، تحرك «جموع الرجل العامل» و«الرجل العادى»، و«كتل الناس» فى كل مكان، وبالتحديد أجيالا من الشباب، هى التى حملت عبء الحرب، وهى المشغولة بالمستقبل بعدها.



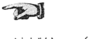
وكان تدفق الطوفان قادرا على بلوغ كل القارات ـ مع اختلافات فى الكتلة والسرعة!

● وما حدث هو أن الطوفان وصل إلى أمريكا الشمالية هادئا طيعا لأسباب، منها أن الولايات المتحدة الأمريكية بعيدة عن ميادين النار، وبالتالى فإن ضرورات تجميد الحياة المدنية أثناء الحرب لم تكن قاسية ـ ومن ناحية ثانية إن وفرة الموارد لم تجعل المتأخرات المستحقة حمولات ثقيلة تضغط وتتعجل ـ ومن ناحية ثالثة إن الولايات المتحدة جاءت إلى الحرب متأخرة، وجاءت واثقة من النصر، فهى عندما شاركت فيها كانت الجيوش الألمانية غارقة فى الشتاء الطبيعى على طول المسافة من وارسو إلى موسكو، والمعنى أن واشنطن لم تشعر بالتوتر أو الخوف فى أى وقت!

والحاصل أنه كان سهلا على الولايات المتحدة استقبال الطوفان، لأنه وصل إلى شواطئها البعيدة موجات استنفدت عنفوانها أثناء عبور المحيط. والأهم أن الولايات المتحدة بكل ما توافر لها من ظروف ـ كانت جاهزة، خصوصا وقد لجأت إليها خيرة عقول العالم واحتمت بها أغلى كنوزه، وقصدت إليها القمم فيما توصل إليه العلم وتطبيقاته، كما تيقظ لديها شباب فى التجربة التاريخية وفى العمر وفى الإمكانيات المتاحة، مع طموح إمبراطورى قادر على تحقيق مشروعه إذا ملك الحكمة (وكانت تلك هى المشكلة).

● وفى أوربا (وهى ميدان القتال الرئيسى) وقع ـ عندما بدأ ذوبان الثلوج ـ أن مؤخرة جيوش الاحتلال النازى أصبحت هدفا مكشوفا، لمقاومة شعبية (فرنسية ـ نرويجية ـ هولندية) فى الغرب، و(بولندية ـ تشيكوسلوفاكية ـ يوجوسلافية) فى الشرق، وقد وجدت هذه المقاومة أن بعض ما حصلت





عليه من الأسلحة الصغيرة التى تركتها الجيوش المهزومة وراءها ـ كالمدفع الرشاش والقنبلة اليدوية واللغم المزروع فى الأرض، يسمح بنوع جديد من القتال المؤثر والفاعل. ويستحق الملاحظة فيما حدث وراء الخطوط فى أوربا ـ أن الأسلحة الصغيرة ظهرت مع المقاومين فى يد بينما اليد الأخرى تحمل منشورات من ورقة واحدة فى الغالب، تدعم إطلاق النار بإطلاق الأفكار، والمثير أن الفكر الذى توافق مع سلاح المقاومة على مؤخرة الجبهات فى الغرب كان من الشرق (الماركسى) معظمه، كما أن الفكر الذى توافق مع سلاح المقاومة فى مؤخرة الجبهات فى الشرق كان من الغرب (الديمقراطى) معظمه.

وكانت وراء ذلك دلالة مهمة ـ تشير إلى أن كل جانب ينادى متشوقا ما يخشى أن يضيع منه، ويبحث فى أى اتجاه عما يراه مكملا لطموحه. بمعنى أن فكرة العدل الاجتماعى تبحث عن الحرية السياسية ـ كما أن الحرية السياسية بدورها تبحث عن العدل الاجتماعى.

وعلى وجه التحديد فقد كان ذلك مجال الحرب الباردة: الثلوج تذوب على القمة ـ والوديان ترتعش من الصقيع!

● وفى آسيا كان الطوفان هادرا. ومع أن بلادا مثل الصين والهند تبدت ساحات مفتوحة لذوبان الثلوج ـ فإن التأثير الأظهر للأحوال الجديدة بان أول ما بان فى إندونيسيا، التى أصبحت أول مستعمرة ترفض العودة إلى ما كانت عليه قبلا. بل إن شعبها وقف وأمسك أقداره بيديه مطالبا بالحرية والاستقلال وباحثا عن حياة جديدة ولو بالثورة المسلحة.

وبالنسبة لإندونيسيا بالذات كانت الظروف مناسبة:

● لأن إندونيسيا بلد كبير يتأثر ويلتف حول بعضه فى أرخبيل هائل يتكون من ثلاثة آلاف جزيرة.

● ولأن القوة الإمبراطورية التى كانت تستعمر إندونيسيا قبل الحرب، بلد أوربي صغير هو هولندا ،فإنها اصطدمت بالحقائق عندما راودها وهم العودة إلى مستعمرتها القديمة، وعندها اكتشفت أن الزمان اختلف.

● وكان الشعب الإندونيسى مهيأ لا ترهبه خرافة «تفوق الرجل الأبيض»، لأن شعب إندونيسيا من ذلك الموقع فى أقاصى الشرق رأى «الرجل الأصفر» اليابانى (ممثلا فى قائد بحرى مثل الأميرال «ياما موتو» قائد الأساطيل اليابانية فى «بيرل هاربور»، والجنرال «ياما شيتا» قائد الجيوش اليابانية فى غزو «الملايو») ـ كلاهما يطارد الرجل الأبيض ويطرده، ثم إن الرجل الأبيض لم يتصرف مثلما تتصرف الآلهة (كما كان الإيحاء الإمبراطورى)، وإنما تصرف هذا «الجبار» المتوهم ـ مثل كل البشر فى أحوال عافيتهم وفى أحوال الوهن!

● مضافا إلى سقوط هذا الضرب من الوهم، فإن الرجل الآسيوى (الإندونيسى) وجد حوله وفرة من الأسلحة الصغيرة تركتها الجيوش اليابانية وراءها (حتى لقد قيل وقتها أن الإندونيسيين فى أيديهم من قطع السلاح ما هو أكثر من أرغفة الخبز).

وكان الطوفان قد سبق الوهم الإمبراطورى ـ وهناك على الجسر الواصل ما بين سنة ١٩٤٤ ـ إلى ١٩٤٥ ـ فإن ثورة إندونيسيا (تحت قيادة ثائر وطنى مسلم هو «أحمد سوكارنو») أعطت النموذج والمثل، وحرضت ولفتت نظر شعوب آسيا وأفريقيا، إلى أنه زمان جديد!

مصر غائبة

في لحظة من اللحظات والطوفان يكتسح ويعم ـ بدا وكأن مصر فى كوكب آخر معزول عما يجرى، أو على وشك أن يجرى، فى هذا العالم ـ فى هذه اللحظة.

ويوم ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ـ تلقى «مصطفى النحاس» (باشا) خطاب الإقالة الذى كان قيد الإعداد منذ اليوم الأول لوزارته التى جاءت بانقلاب عسكرى (بريطانى) مساء ٤ فبراير ١٩٤٢. ومع أن «النحاس» (باشا) كان يتوقع الخطاب، فإن لهجة الإهانة التى حملتها السطور زادت وفاضت، وكاد الرجل أن يفقد أعصابه مع الرسول الذى حمل إليه الخطاب وسلمه له باليد («حسن يوسف» (باشا) القائم بأعمال وكيل الديوان).

والغريب أن الأزمة التى أودت بوزارة الوفد ـ كانت حادثة تافهة بأى معيار (خصوصا فى مناخ طوفان عالمى). فقد حدث أن الملك قصد (يوم ١٤ سبتمبر ١٩٤٤) يؤدى صلاة الجمعة الأخيرة من رمضان (الجمعة اليتيمة) فى مسجد عمرو بن العاص. وتجمع حشد من الناس يهتفون له، ولمح الملك وموكبه يقترب من المسجد لافتة بعرض الطريق تحمل عبارة «يحيا الملك مع النحاس». وعندما نزل من سيارته أشار إلى مدير الأمن العام ـ «محمود غزالى» (بك)، وكان واقفا فى انتظاره يشرف على تأمين موكبه ـ قائلا: «إنه لا يتصور أن يجد اسمه مقرونا باسم أحد»، وهو لا يريد ـ عندما يفرغ من الصلاة ويخرج من الجامع ـ أن يرى تلك اللافتة. واعتبر «غزالى» (بك) ما سمعه أمرا، ودخل الملك بوابة مسجد عمرو بن العاص. وتوجه مدير الأمن العام إلى حيث كان حكمدار («قائد») بوليس القاهرة اللواء (الإنجليزى) «راسل» (باشا) يقف مشرفا على تأمين الموكب الملكى ـ ناقلا الأمر إليه وطالبا تنفيذه. لكن مدير الأمن العام (محمود بك غزالى) لم يكد يعود إلى بيته بعد صلاة الجمعة حتى أبلغه وزير الداخلية «فؤاد سراج الدين» ـ أن «رفعة رئيس الوزراء» هائج بسبب اختفاء لافتة تحمل اسمه. وهو يرى أن ذلك التصرف «عدوان على الشعب»، لأن الذى كتبها واحد من المصريين له حق التعبير عن نفسه ـ! ـ وقد طلب «رفعة الباشا» إجراء تحقيق فيما جرى، وإلى حين إتمام التحقيق فإن «مدير الأمن العام» عليه التزام بيته موقوفا عن العمل!

وتحولت الحادثة إلى أزمة لأن الديوان الملكى اتهم «النحاس» (باشا) بوقف موظف كبير فى الدولة عن العمل لأنه نفذ أمرا ملكيا لم يكن فى مقدوره ـ ولا مقدور غيره ـ أن يعصاه. ثم إن «الملك مصمم على إلغاء قرار إيقاف مدير الأمن العام ـ كما أنه يرفض التحقيق معه».



ومع تحول الحادثة إلى أزمة فإن السفارة البريطانية اهتمت، ولأن السفير نفسه كان غائبا لإجازة فى جنوب أفريقيا، فقد تولى القائم بالأعمال مكانه وهو الوزير المفوض «تيرنس شون» ـ إخطار وزارة الخارجية فى لندن، وبعثت الوزارة تطلب معلومات مفصلة، وهنا كلف «تيرنس شون» ـ قائد بوليس القاهرة (الإنجليزى) «راسل» (باشا) ـ باعتباره شاهد عيان ـ أن يكتب تقريرا عن الواقعة. وبالفعل كتب «راسل» (باشا) ـ وختم بما مؤداه «أن إيقاف «غزالى» (بك) لا معنى له، لأن الرجل كموظف فى الدولة، كان ملزما بتنفيذ أمر مباشر صدر إليه من رئيس الدولة (حتى وإن لم يعجب رئيس الوزراء!)

ومن الواضح أن لندن نفد صبرها وسئمت إقحامها المتكرر فى الشأن المصرى، وكذلك وصل تقرير «راسل» (باشا) إلى وزارة الخارجية البريطانية فى جو مهيأ لقبوله، وكتب القسم المصرى إلى وزير الخارجية البريطانى «أنتونى إيدن» مذكرة مختصرة تعرض نقطا رئيسية لها معانيها:

● «لا يصح لطرف فى مصر أن يستدرجنا إلى الدخول فى منازعات على هذا المستوى، خصوصا إذا كان الاستدراج من حزب الوفد الذى استمرأ هذه العادة. مع ملاحظة أن هذا الحزب أعطى ما عنده ولم يعد فى مقدوره أن يزيد شيئا، وبالتالى فهو عبء علينا».

● ورأينا أن الوقت حان لكى نترك الأمور تأخذ مجراها الطبيعى، مع العلم أن الملك عندما يحس بذلك سوف يبادر إلى إقالة الوزارة دون انتظار.

● واقتراحنا أن تكون تعليماتنا للسفارة فى القاهرة بعدم الدخول طرفا فى هذه الأزمة، وترك الفرصة لفاروق يتحمل مسئولية ما يفعله.

● وتوصيتنا أن نقف بعيدا ونتابع تأثير ما يجرى على الرأى العام، وبعدها تصبح الخيارات مفتوحة أمامنا وفق ما نرى فى حينه.

وقرأ «أنتونى إيدن» هذه المذكرة وكتب عليها بخط يده تأشيرة نصها، «أظن أن ذلك هو الصحيح»! I think that this is right.

توقيع:

أنتونى إيدن ـ ١٩ سبتمبر



وبحقائق الأحوال فإن القصر كان على علم باتجاه الرياح، وربما أن نص رسالة من رئيس القسم المصرى فى وزارة الخارجية البريطانية «بيتر سكريفنر» موجهة إلى القائم بأعمال السفير البريطانى فى القاهرة «تيرنس شون» ـ يكشف هذا التغيير، والنص كالتالى:

لندن وزارة الخارجية سرى جدا

٢٣ سبتمبر ١٩٤٤

عزيزى «تيرنس»

«أشكرك على تقديرك الواضح للموقف السياسى المصرى كما ورد فى برقيتك رقم ١٨٤٤، ومن الظاهر لنا أن العلاقات بين الملك والحكومة وصلت إلى حيث يصعب إصلاحها، وأن التغيير أصبح حتميا. وفى الحقيقة فإن أى وزارة يختارها القصر سوف تكون أقل ضررا مما تسببه الأوضاع الراهنة، وربما يكون فى مقدور وزارة جديدة أن تدير شئون البلاد على نحو أكفأ، وفى كل الأحوال فإن الملك يتحمل مسئولية تصرفه».

وفى هذا السياق توجه «أحمد حسنين» (باشا) مساء يوم ٥ أكتوبر ١٩٤٤، وقابل «تيرنس شون»، بحضور المستشار الشرقى للسفارة البريطانية ـ ودار بين الثلاثة حديث صريح (ولو أنه مزعج) ـ تعرضه برقية السفارة البريطانية إلى وزارة الخارجية فى لندن (تحت رقم ٣٤٦٤ ـ ٤١٣٣٣/ ٣٧١):

«جاء «حسنين» إلى مقابلتى هذا المساء حضر معنا المستشار الشرقى للسفارة.

تحدث «حسنين» عن ظروف حادثة «محمود غزالى»، وشرح أن «النحاس» يعرف أن الملك لم يعد مستعدا للصبر عليه، وأن الإنجليز لم يعودوا مصرين على تأييده، ولذلك فهو يرتب للخروج بذريعة موقف وطنى يثير به مطالب مصرية تدغدغ أحلام الناس بعد الحرب، وذلك لا ينبغى السماح به، لأنه إحراج لأى وزارة تجىء بعد الوفد. أشار «حسنين» إلى أفضلية أن يخرج «النحاس» فورا وبدون بطولة مزيفة(!) وبذريعة تصرف خاطئ تهور فيه بما لا يليق فى حق الملك (حادثة محمود غزالى)، وتكون تلك مسألة لا علاقة للإنجليز بها، ولا يستطيع أحد استغلالها ضدهم.

أضاف «حسنين» «أن هناك تفكيرا فى

يوم ٨ أكتوبر ١٩٤٤، تلقى «مصطفى النحاس» (باشا) خطاب الإقالة الذى كان قيد الإعداد منذ اليوم الأول لوزارته التى جاءت بانقلاب عسكرى (بريطانى) يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ ومع أن «النحاس» (باشا) كان يتوقع الخطاب، فإن لهجة الإهانة التى حملتها سطوره زادت وفاضت

حكومة موالية للإنجليز ترعى مصالحهم وتلبى مطالب الحلفاء مع استمرار الحرب دون أن تتسبب فى مشاكل لأحد».

يعلق «تيرنس شون» فى نهاية برقيته:

«أظن أنهم يريدون إذنا للتصرف، وإذا كان هناك ما تودون إبلاغى به، فأرجو أن أتلقى تعليماتكم سريعا».

وكان سكوت لندن عن الرد، علامة رضا!

يوم ٦ أكتوبر استقر «فاروق» على تأليف وزارة جديدة - لا تكون وزارة قصر (برئاسة حسنين)، وإنما وزارة حزبية (ملكية فى نفس الوقت) - ووقع الاختيار على «أحمد ماهر» (باشا) رئيس حزب السعديين. واتصل «حسنين» بالقائم بأعمال السفارة يستطلع رأيه فى رئاسة «أحمد ماهر» للوزارة، مضيفا إلى ذلك رغبة القصر فى التصرف سريعا لأن الأخبار «وصلتهم» بأن «النحاس» (باشا) يحاول اختلاق موقف وطنى يخرج بعلته».

وأبدى «تيرنس شون» «أن القصر له أن يتصرف كما يشاء»، على أنه لم تمض غير دقائق حتى عاد «حسنين» يتصل بالقائم بالأعمال البريطانى ينقل إليه رغبة «فاروق» فى لقائه على الفور. ويتحفظ «شون» «بمظنة أن استدعاءه لمقابلة الملك فى هذا الظرف يوحى بأن السفارة تتدخل فى تغيير الوزارات المصرية». ويرد «حسنين» (باشا) بقوله: «المشكلة أن جلالة الملك لا يصدقنى قياسا على تجارب سابقة وهو يخشى أننى أُبَسِّط الأمور أمامه، فإذا جاء وقت التصرف والتغيير، اكتشف أنكم غير موافقين، ولذلك يريد أن يسمع منك - وليس منى وبوضوح - أنه ليس لديكم اعتراض على تغيير الوزارة».

ويستطرد «تيرنس شون» فى رسالته إلى لندن (البرقية رقم ١٩٩١/ ٣٥٠٠): «أبلغت «حسنين» أنه يستطيع أن يؤكد للملك حريته فى التصرف كاملة، مع إعفائنا من الظهور علنا فى مقدمة الصورة».

ويستطرد «تيرنس شون» فى برقيته:

قال لى «حسنين» «إن «أحمد ماهر» تعهد أن يقوم بتنفيذ أمين لنصوص وروح معاهدة سنة ١٩٣٦ - ورددت عليه «بأننا نتوقع ذلك من أى رئيس وزراء فى مصر»!

فهمت أن عملية طرد «النحاس» سوف تتم غدا».

يوم ٧ أكتوبر قام الوزير البريطانى «تيرنس شون» بعدة إجراءات:

- بعث برقية إلى السير «مايلز لامبسون» (لورد كيلرن الآن) يخطره بما يجرى فى مصر، بينما هو يقضى الإجازة فى جنوب أفريقيا.

- استدعى «أمين عثمان» (باشا) وألمح له أن الأمور تتحرك بسرعة، واستأذنه «أمين عثمان» إذا كان يسمح له أن يقول «شيئا» للنحاس (باشا).

- تلقى رسالة من رئيس الوزراء المكلف «أحمد ماهر» (باشا) عن طريق «حسن رفعت» (باشا) وكيل وزارة الداخلية - يعرض عليه مشكلة حساسة تواجه «أحمد ماهر»: «فهو يعرف أنه سوف يصبح رئيسا للوزراء بعد ساعات، ويعرف أن السفارة لم تعترض على ترشيحه، لكنه يجد نفسه فى مأزق لأنه لا يستطيع تصور وجوده فى هذا المنصب بينما شقيقه الأكبر (على ماهر) موجود فى السجن، وهو يسأل «هل يمكن أن يطمئن عائلته أن فى وسعه «عمل شىء»». يستطرد «تيرنس شون» «كلفت «حسن رفعت» بإخطار «أحمد ماهر» أن موضوع الإفراج عن شقيقه مسألة عويصة لا ينبغى إثارتها الآن»!

- سمع من اللواء «راسل» (باشا) حكمدار بوليس القاهرة أن رئيس الديوان الملكى «حسنين» (باشا) اتصل به وأبلغه أن تغييرا وزاريا سيعلن عنه فى ساعات، وأن عليه أن يكون مستعدا بما يراه من إجراءات للمحافظة على الأمن فى العاصمة.

وصباح اليوم التالى (٨ أكتوبر) اتصل «حسنين» (باشا) بالسفارة يقول للمستشار السير «والتر سمارت» أن «المسألة سوف تتم اليوم»، وأن كل شىء معد، وأن مساعده «حسن يوسف» فى القطار الآن إلى الإسكندرية ومعه خطاب الإقالة يسلمه للنحاس (باشا) بيده!

ثم يضيف «حسنين»:

«إن «النحاس» (باشا) سوف يفرقع من الغيظ عندما يقرأ خطاب الإقالة «لكنه يستحق». ويستطرد «حسنين» قائلا «إن خطاب تكليف «أحمد ماهر» تم إعداده، وفيه إشارة صريحة إلى أهمية التعاون الوثيق مع الحليف البريطانى الكبير الذى يضحى بالدم فى سبيل حرية الأمم والدفاع عن حقوقها المشروعة»!



كانت مصر منشغلة بوزارة جديدة وبانتخابات تجريها هذه الوزارة. وحضر «النحاس» (باشا) مأدبة غداء فى السفارة البريطانية تكريما له - وتعويضا عن الإهانة الملكية، وقال للقائم بأعمال السفارة البريطانية:

«إن حزبه على استعداد لدخول الانتخابات إذا جرى إيقاف العمل بقانون الأحكام العرفية فترة إجرائها، وقال له مضيفه على الغداء فى السفارة البريطانية «أن وزارته (وزارة النحاس) بعد ٤ فبراير ١٩٤٢ أجرت الانتخابات فى ظل الأحكام العرفية»، ورد «النحاس» على الفور: «لأن تلك الانتخابات جرت وروميل على الأبواب». وخطر على بال السفير استشارة لندن فى هذه النقطة، وترد لندن عن طريق وزارة الحرب برفض اقتراح وقف العمل بالأحكام العرفية فترة الانتخابات.

«لأن الحرب فى أوربا لم تنته بعد». وقرر حزب الوفد مقاطعة الانتخابات رغم أن بعض رجاله دخلوها على مسئوليتهم الشخصية، وجاء مجلس نواب جديد وعلت الصيحة بين أعضائه بضرورة محاكمة «مصطفى النحاس» (باشا).

وكان الذى حدث أن «مكرم عبيد» (باشا) أُطلق سراحه من المعتقل، ودخل وزارة «أحمد ماهر» (باشا) بوصفه وزيرا للمالية (مرة أخرى) ودخل معه أربعة من وزراء حزبه (الكتلة) - قد أعد عريضة اتهام أكثر سوادا من الكتاب الأسود، وأدق توثيقا لأنه استعان بعد دخوله إلى وزارة المالية بمستندات لم يستطع أصحابها إخفاءها فى الوقت المناسب، وبينها مذكرة من السفارة البريطانية مُرسلة للعلم الشخصى لوزير المالية وقتها «أمين عثمان» (باشا)، وهى تحوى معلومات عن صفقات دخل فيها السيد «أحمد الوكيل» شقيق قرينة «النحاس» (باشا)، وصفقات أخرى لغير «أحمد الوكيل» من الأقارب والأنصار. والمذكرة توجه نظر «أمين عثمان» (باشا) إلى ضرورة إفهام رئيسه «النحاس» (باشا) أن ذلك كله يسىء إلى أبعد حد له ولسمعته ولأسرته وللسفارة البريطانية أيضا (بوصفها المسئولة فى النهاية).

وبادر «مكرم عبيد» إلى نشر هذه المذكرة البريطانية فى جريدة أنشأها تحمل اسم حزبه (الكتلة)، واعتبرت السفارة تصرفه «إفشاء سر وخيانة أمانة» - لأن «مذكرة توبيخ «النحاس» (باشا)» (كما كتب السير «والتر سمارت») كانت لعلم «أمين عثمان» (باشا)، ولم تكن للنشر العام، وفى معرض الهجوم على «النحاس» (باشا) وطلب محاكمته.

وقامت السفارة البريطانية بإبلاغ لندن، وتلقت أمرا «بلفت نظر الملك إلى أن الحكومة البريطانية لا تسمح باستعمال أوراقها على هذا النحو، ولا تسمح بمحاكمة «النحاس» (باشا) أو أى من وزرائه، فكل هؤلاء شاركوا فى وزارة تعاونت «معنا» إلى أقصى درجة فى أصعب فترات الحرب، خصوصا لحظة معركة العلمين الخطرة والحرجة».

وتلقى السفير البريطانى السير «مايلز لامبسون» (لورد كيلرن)، الذى عاد من إجازته إلى القاهرة - رسالة تقول له «أنت مفوض من وزارة الحرب بإبلاغ الملك «فاروق» ما يلى:

- إن محاكمة «النحاس» (باشا) تحمل معنى الإساءة إلى هيبة حكومة صاحب الجلالة البريطانية.

- إن حكومة صاحب الجلالة لا تسمح بذلك، لأن الرجل تعاون معنا بإخلاص فى الظروف الصعبة.

- إن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تفضل أن لا يُحاكم أحد من وزراء «النحاس»، ومع أنه سوف يصعب علينا حماية بعضهم، إلا أن المحاولة ضرورية، لأن مثل هذه المحاكمة لأحد وزراء «النحاس» قد تجر رئيس الوزراء نفسه.

وتوقف الحديث عن محاكمة «النحاس» (باشا). وتراجع الملك «فاروق» إلى طرح «حل وسط» يعاقب به رئيس الوفد، بسحب قلادة «فؤاد» الأول منه، وبذلك يسقط عنه لقب «صاحب المقام الرفيع» - وأبدى السفير البريطانى امتعاضه، وكذلك لم تقع محاكمة. كما ظلت قلادة فؤاد الأول فى مكانها حول عنق «النحاس» - ومعها اللقب!



لكن العلاقات عادت إلى نوع من الشد والجذب بين السير «مايلز لامبسون» (اللورد كيلرن) وبين «فاروق»، ومن ذلك مثلا أن السفير تضايق عندما وقع الإفراج عن بعض موظفى القصر من الإيطاليين، وبينهم «أنطون بوللى» (الذى أصبح فيما بعد مديرا للشئون الخاصة للحياة الليلية للملك «فاروق» مع منحه رتبة البكوية)، ولم يكن ضيق السفير البريطانى من قرار الإفراج فى حد ذاته، فقد كان يسلم أن استمرار اعتقال «بوللى» وغيره - لمجرد الاحتياط زمن الحرب - لم يعد له ما يبرره باختلاف الظروف - وإنما كان ضيقه بسبب عودة «بوللى» وغيره من الإيطاليين إلى خدمة القصر. وفى إحدى مقابلات السفير البريطانى مع «عبد الفتاح عمرو» (باشا) - أبدى اللورد «كيلرن» نصيحته بأن هؤلاء «الإيطاليين» لابد أن يخرجوا من القصر. وكان رد الملك (وفى الغالب فإنه لم يتعمده، بل أبدى ملاحظة أمام قائد الطيران البريطانى فى مصر الجنرال «شولتو دوجلاس»، دون أن يخطر بباله أن «دوجلاس» قد ينقلها عنه وتصل إلى السفير البريطانى - والذى حدث أن «دوجلاس» كرر الملاحظة منسوبة إلى صاحبها) وفيها قول الملك: «أن لورد «كيلرن»

فى إحدى مقابلات السفير البريطانى مع «عبدالفتاح عمرو» (باشا). أبدى نصيحته بأن «الإيطاليين» لابد أن يخرجوا من القصر. وكان رد الملك «موافق، سوف أطرد الإيطاليين عندى، إذا طرد السفير البريطانى الإيطاليين عنده» وكانت الإشارة واضحة إلى «جاكلين كاستيلانى» قرينة اللورد «كيلرن»



يطلب منى إخراج الإيطاليين من بيتى، موافق، سوف أطرد الإيطاليين عندى، إذا هو طرد الإيطاليين عنده!»، وكانت الإشارة واضحة إلى قرينة السفير البريطانى «جاكلين كاستيلانى»، وغضب السفير، واتصل بحسن يوسف (باشا) فى الديوان يطلب منه أن يقول للملك «فاروق» «أن نكتته لم تعجبنى» I am not amused.

ـ وساله «حسن يوسف» عن مقصده، ورد السفير بان «فاروق سوف يفهم». وعندما نُقلت الرسالة إلى الملك، أدرك أن ملاحظته أمام «شولتو دوجلاس» وصلت. وأن علاقته باللورد كيلرن عادت إلى التوتر من جديد، وأن شهر العسل بينهما انتهى. ثم إن الخلاف لم يعد فى السياسة، وإنما أصبح شخصيا. وترامى إلى علم الملك أن «كيلرن» يحكى فى مجالسه الخاصة جوانب من تفاصيل العلاقة بين «فاروق» وزوجته «فريدة»، وكان الزواج الملكى بين الاثنين قد تحول إلى فضيحة تتوالى فصولها حلقات، ووجدها السفير البريطانى فرصة لرد الجميل!



ووسط هذه المشاهد العبثية، كان الطوفان يقترب بمصر متخطيا الحواجز، متجها إلى القاهرة!

وكان بعض الطوفان دما، وهو طبيعى لأن القمم المتجمدة التى ذابت ثلوجها عبرت على ميادين القتال محملة بعوالق مع الماء حمراء قانية. وبطبيعة الحال فإن معظم الدم راح يجرى تحت أقدام الملك «فاروق» ومن حوله، باعتبار الوزارة التى خلفت الوفد كانت فى واقع الأمر «وزارة قصر»، أى وزارة «ملك».

والحاصل أن الحكومة استمرت ملكية أربع سنوات كاملة، توالى على رئاسة الوزارة خلالها أربعة رجال ـ بمعدل واحد كل سنة ـ وكانوا بغير استثناء بإرادة القصر وقراره: «أحمد ماهر» (باشا) زعيم السعديين ـ «محمود فهمى النقراشى» (باشا) خليفة لسلفه «أحمد ماهر» ـ «إسماعيل صدقى» (باشا) مستقل ـ «محمود فهمى النقراشى» (باشا) مرة ثانية ـ ثم «إبراهيم عبد الهادى» (باشا) خليفة للنقراشى.

وطوال هذه السنوات الأربع ـ كان الملك «فاروق» يحكم مصر، فهو مصدر شرعية وزارات الأقلية، والقادر على سحب البساط من تحت حزب الأغلبية الذى غاب مرتين: مرة بالإقالة، ومرة إضافية بضباب كثيف من التهم والشبهات طالت الوفد ووضعته فى موقع الدفاع عن رجاله (وحتى عن نسائه!)!

ومن المفارقات أن حكومة الأقلية التى جاءت بعد الوفد لم تكن راغبة فى الاستسلام إلى اعتبارها حكومة قصر، ومن ثم حاولت تحقيق نوع من الاستقلالية، لكنها فى ذلك ولسوء الحظ ذهبت إلى السفارة البريطانية تطلب قدرا من التفاهم «المستقل» المباشر، يوازن أو يقلل اعتمادها على القصر وحده.

لكن محاولة الاستقلال أدت إلى مزالق تسجلها الوثائق البريطانية وبينها رسالة (رقم ٣٠١ / ١٢) ـ يظهر فيها أن «أحمد ماهر» (باشا) بعث إلى السفير البريطانى يسأله «إذا كان يضايقهم» أن يتولى نائبه «محمود فهمى النقراشى» (باشا) وزارة الخارجية بدلا من وزارة الداخلية. ويوضح «أحمد ماهر» داعيه إلى الطلب بأن وجود «النقراشى» (باشا) فى وزارة الداخلية يسبب كثيرا من المشاكل، فهو «عنيد» و«متزمت»، ويعطل الكثير من «الأمور» ـ لكنه فى الخارجية لا يستطيع أن يعطل شيئا.

وكان تعليق السفير البريطانى (كما ورد فى برقيته إلى لندن) «شرحت أننى لا أريد أن أقارب هذه الشئون الداخلية، لكنه إذا طلب منى إبداء رأى، فإننى أفعل ذلك شريطة أن لا يتسرب إلى العلن شيء». أضفت: «أن مشكلة «النقراشى» أنه رجل «ضيق الأفق» وذلك سبب عناده وتزمته. ورأيى بعد ذلك أننى لا أعترض على «نفيه» إلى وزارة الخارجية، لأن ظنى أنه هناك يستطيع أيضا أن يكون مشكلة. واقترحت عليهم إذا أرادوا حلا لمشكلة «النقراشى» فإنهم يستطيعون اختياره رئيسا لمجلس الشيوخ ـ وقيل لى أن هيكل («الدكتور محمد حسين هيكل» رئيس الأحرار الدستوريين) يريد هذا المنصب وأنهم وعدوه به، لإرضاء غروره، ومع ذلك فإذا كان «أحمد ماهر» يريد «النقراشى» فى الخارجية، فانا شخصيا لا أمانع».

وكانت المفارقة أن الوسيط الذى حمل رسالة «أحمد ماهر» ـ هو «عبد الفتاح عمرو» (باشا) ـ رجل القصر! ـ أى أن حكومة الأقلية حين حاولت أن تعطى لنفسها قدرا ولو محدودا من الاستقلالية ـ كان سبيلها أن تفعل ذلك من خلال دهاليز القصر وأبوابه!



ومع ذلك فإن «أحمد ماهر» راح يحاول أيضا عن غير طريق دهاليز القصر وأبوابه، وحدث بعد تشكيل وزارته باسبوعين اثنين بالضبط (٢٣ أكتوبر ١٩٤٤) ـ أن وصل إلى القاهرة وزير الخارجية البريطانى «أنتونى إيدن»، وطلب رئيس الوزراء المصرى الجديد لقاءه برجاء أن يكون اللقاء «شخصيا» أكثر منه «رسميا»، وقام الوزير المفوض البريطانى «تيرنس شون» بترتيب دعوة غداء فى بيته، يجلس حول مائدتها رئيس وزراء مصر مع وزير خارجية بريطانيا وحدهما ـ لكن الوزير البريطانى المفوض عاد يبدى لرئيس الوزراء أنه نظرا لضيق الوقت ورغبة كثيرين فى لقاء «أنتونى إيدن»، فإنه سوف يضطر إلى دعوة «أحمد حسنين» (باشا) أيضا، ومعنى ذلك أن الرجلين لن يكونا وحدهما. ولم يكن فى وسع «أحمد ماهر» أن يعترض على حضور رئيس الديوان الملكى، وكتب «تيرنس شون» تقريرا عن اللقاء (٣٧٨٨ / ٢٠٦) عارضا أهم وقائعه ـ قائلا:

«بدأ وزير الخارجية (إيدن) فأبلغ رئيس الوزراء «أحمد ماهر» أنه راض عما سمعه من تأكيدات عن التزام وزارته بتنفيذ أمين لمعاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا (معاهدة ١٩٣٦)، وهو يأمل أن يتذكر الجميع أن بريطانيا فى هذه الحرب لم تعرض مصر لمخاطر دامية من نوع ما تعرضت له بريطانيا نفسها. ومن ذلك أن الحكومة البريطانية لم تصمم على ضرورة قيام مصر بإعلان الحرب، من ناحية لأنها كانت تعرف أن الجيش المصرى غير مستعد للمشاركة فى قتال. ومن ناحية أخرى ـ لأن إعلان مصر للحرب كان يعرضها ـ دون داع ـ لضرب الكبارى والجسور والموانئ والطرق بطريقة مدمرة. أضاف «إيدن» «إننا استفدنا أيضا من هذا الوضع، فقد كانت كل إمكانيات مصر تحت تصرفنا دون مخاطر كثيرة، ونحن ناخذ ذلك فى الاعتبار».

أشار وزير الخارجية إلى أن التقارير التى قرأها، لفتت نظره إلى عمليات فصل وطرد وتعيين وترقيات استثنائية ـ شملت مئات من موظفى الدولة المصرية. ورد «ماهر» (باشا) بقوله: «إن هؤلاء كانوا من الذين عينتهم حكومة الوفد، ومن أنصارها والمتعاطفين معها، وكلهم لا تستطيع الحكومة الجديدة المعادية للوفد أن تثق بهم». وقال وزير الخارجية البريطانى موجها النصح لرئيس الوزراء المصرى: «إنه يريد أن يقدم للحكومة المصرية نصيحة صديق، مؤداها «أن هذا العنف فى التعامل مع موظفى «الخدمة المدنية» بمعيار الثقة الحزبية، يكسر هذه «الخدمة المدنية» عمليا، لأنه سوف يفقد موظفى الدولة ثقتهم بأنفسهم، والتزامهم بالصالح العام، وتلك ضرورية لمؤسسة «الدولة»، لأن موظفيها المسئولين ينبغى أن يظلوا بعيدا عن التقلبات الحزبية، وإلا فإن نظام «الخدمة المدنية» فى مصر سوف ينهار بمعايير الكفاءة ومعايير الأخلاق.

ورد «أحمد ماهر»: «إن الحكومة لم تطرد من طردتهم لأنهم موظفون فى الدولة، ولكن لأنهم أنصار للوفد». ورد وزير الخارجية «إنه لا يريد التدخل فى شئون مصر، لكنه يخشى أن هناك عملية انتقام واسعة النطاق يقودها «مكرم عبيد»، الذى يبدو مصمما على وضع «النحاس»، وقرينته، و«سراج الدين» أيضا فى القفص!



الرصاصة الأولى: اللورد «موين»

نوفمبر ١٩٤٤

فى ظرف أسبوعين اثنين من اللقاء بين «أنتونى إيدن» و«أحمد ماهر» على الغداء فى السفارة البريطانية ـ أى يوم ٧ نوفمبر ١٩٤٤ ـ دوت فى مصر طلقات رصاص وسال دم، وكان الضحية هو وزير الدولة البريطانى المقيم فى الشرق الأوسط اللورد «موين» ـ ولم يكن اغتياله قتلا عاديا، وإنما اغتيالا سياسيا وراءه مشروع مجمد تحول مع موسم ذوبان الثلوج إلى مجرى سيل على طريق طوفان (مصبوغ بلون الدم).

كان قتلة اللورد «موين» شبابا من جماعة «شتيرن» الإرهابية فى فلسطين: «إلياهو حكيم» و«إلياهو بن تسورى»، وكان وراء الاغتيال مطلب خطير عطله صقيع الحرب وذوبه تغيير المناخ بعدها، وهو مطلب فتح أبواب فلسطين بغير قيود للهجرة اليهودية، تمهيدا لإنشاء دولة يهودية فى فلسطين على أساس وعد بلفور!

وكانت تلك بالفعل كرة جليد أفلتت وانقضت على الشرق الأوسط.

> كان قتلة اللورد «موين» شبابا من جماعة «شتيرن» الإرهابية فى فلسطين، وكان وراء الاغتيال مطلب خطير هو فتح أبواب فلسطين بغير قيود للهجرة اليهودية

● فهناك مئات ألوف من اللاجئين اليهود فى أوربا ينتظرون بعد الحرب أن يجدوا ملاذا لهم. ومع أنهم جميعا - بلا استثناء تقريبا - يطلبون الهجرة إلى الولايات المتحدة - فإن يهود الولايات المتحدة لا يريدونهم هناك، و(يعتبرون توجههم إلى العالم الجديد عبئا على الحياة اليهودية فيه، لأن الأجيال التى سبقت واستقرت فى أمريكا من اليهود لا تريد إضافة تقلق أحوالها أو تزعج آخرين) - وهنا فإن فلسطين تصبح مقصدا (منفى) مثاليا لهؤلاء الذين ينتظرون الملاذ، وخصوصا أن الحجج لتزكية الهجرة إلى فلسطين وراءها أساطير قديمة ومعتقة! وكذلك وراءها عملية تعبئة وتحيز، تقوم بها الوكالة اليهودية سواء فى ذلك جناحها الأمريكى أو جناحها الأوربى، الذى لا يريد بدوره - مثل الجناح الأمريكى - تحمل عبء لاجئين يهود فقراء لا تنتظرهم فرص عمل، فضلا عن أن استيعابهم مثير لمشاعر معادية للسامية لها جذور عميقة فى أوربا. (واليهود الأوربيون الذين «توطنوا» فى مجتمعات غرب أوربا - هم أيضا - لا يريدون أن يجدوا أنفسهم أمام عنصر إقلاق يهودى طارئ).

وبصرف النظر عما يريده الجناح الأمريكى أو الأوربى من الوكالة اليهودية، فقد كان الجناح «الإسرائيلى» لها فى فلسطين (الموشاف) يطالب على عجل بمدد بشرى من المهاجرين يعطى الدولة أساسا لوجود حقيقى فى أرض الميعاد.

(وبالتوافق مع ذلك فإن الحكومة الأمريكية بتأثير نشاط صهيونى مكثف، ونفوذ عناصر يهودية عتية وقوية، تساند هجرة اليهود إلى فلسطين (تحت الانتداب البريطانى)، وتطلب إسقاط القيود التى تفرضها بريطانيا على عدد اليهود المسموح لهم بدخول فلسطين وتحديده فى إطار مائة ألف مهاجر سنويا.

وكان الرئيس الأمريكى «فرانكلين روزفلت» مقتنعا بمنطق اليهود الأمريكيين، أو آملا فى تأييدهم له ولحزبه (الديمقراطى)، خصوصا أن يهود العالم نقلوا ولاءهم من «أوربا» إلى «أمريكا» عن اعتقاد ترسخ لديهم بأنه لم يعد فى مقدور أوربا أن تعطيهم أكثر مما أعطت، وفيه «وعد بلفور» الذى فتح الباب لإمكانية دولة يهودية فى فلسطين، والآن كان ولاء اليهود يتجه للولايات المتحدة الأمريكية، عن اعتقاد بأن تأييدها ونفوذها وقوتها قادرة على تحويل «إمكانية» دولة يهودية إلى «حقيقة» دولة يهودية!

● وكانت بريطانيا تظن أن فتح أبواب الهجرة فى فلسطين أمام اليهود بغير حدود، يمكن أن يصنع مشاكل ليس هذا وقتها - تحرجها مع نظم عربية صديقة، ضمنها الأسرة الهاشمية فى العراق وفى الأردن، وكذلك الأسرة السعودية فى نجد والحجاز، وربما العرب فى أفريقيا أيضا (وبينهم مصر).

وكانت بريطانيا وسط الحرب (١٩٤٣) قد أعطت الضوء الأخضر ببيان ألقاه وزير الخارجية (أنتونى إيدن) فى مجلس العموم، مؤداه «أن بريطانيا تتفهم أمانى العرب فى نوع من الوحدة بينهم، وهى لا تمانع عندما تنتهى الحرب فى قيام جامعة للدول العربية تجسد هذا الطموح».

وكذلك ترددت السياسة البريطانية فى فتح أبواب الهجرة إلى فلسطين، وظنها أن يكون موضوع الهجرة إلى فلسطين محل تراض واتفاق بين الأطراف فى المستقبل (كما حدث سابقا فى مؤتمر لندن قبل الحرب سنة ١٩٣٩)، وإلا تعقدت أمور كثيرة وتشابكت خطوط مختلفة، ونشأت مواقف لا يعرف أحد كيف تتطور.


اللورد موين

ولاحت تلك اللحظة احتمالات صدام بظهور مشروعين فى المنطقة جمدتهما ثلوج الحرب ثم ذوبتهما بشائر الربيع.

● أولهما مشروع الجامعة العربية - تعبيرا عن طموحات تاريخية ومستقبلية تلح على العرب - والآن وقت التحرك نحوها.

● والثانى مشروع إقامة الدولة اليهودية فى فلسطين (إسرائيل) تطبيقا لوعد بلفور، والآن وقت التنفيذ.

وكان المشروع العربى قد سبق إلى إعلان وجوده فى قلب الشرق الأوسط حين سمعت مصر نداء إنشاء جامعة للدول العربية، واستجابت للنداء، رغم أنه على الأرجح لم يكن موجها بالدرجة الأولى إليها - وإنما إلى شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب.

زيادة على ذلك فإن مصر لم تسمع النداء فقط، وإنما وجدت أمة عربية ترحب بها وتدعوها إلى «قدر تاريخى» يبحث عن مستقبل فى عالم متغير، وهكذا شاركت مصر مع العراق وسوريا ولبنان فى الدعوة إلى إنشاء جامعة للدول العربية، ولم تكن بريطانيا متحمسة لمشاركة مصر فيها، لكنها لم تكن معارضة.

وكذلك جرى توقيع بروتوكول بإنشاء الجامعة، وحرص الملك «فاروق» على أن يكون «النحاس» (باشا) هو الذى يوقعه، وكان التوقيع فى حفل مهيب شهده قصر «أنطونيادس» فى الإسكندرية قبل أيام من إقالة وزارة «النحاس» (باشا).



كان الملك «فاروق» على وجه القطع - ووفق ما يظهر فى الوثائق - مهتما بالعمل العربى عموما، وبقضية فلسطين على وجه التحديد. مع أن عددا من خصوم الملك، وخصوصا «مصطفى النحاس» (باشا) فى ذلك الوقت نسبوا ذلك الاهتمام إلى طموح شخصى (يحاول استعادة حلم الخلافة فى شكل آخر) - أو بأنه مجاراة لرأى عام مصرى تشده روابط انتماء عربى - وربما أن الملك «فاروق» فى اهتمامه بما يجرى فى فلسطين، كان إلى حد كبير متأثرا بنظرية الأمن القومى المصرى من أيام جده «إبراهيم» (باشا) (وقبله بكثير)، وهى نظرية تعتبر أمن مصر القومى - شمال حلب.

والأرجح أن الملك «فاروق» فى مشاعره العربية والفلسطينية، كان شابا تفتح على التيارات الفكرية المؤثرة فى زمنه - ثم إنه كملك كان مستعدا وقادرا على المشاركة فى تحويل التيارات الفكرية المؤثرة إلى إمكانية فعل على الأرض، وبالتالى كان «فاروق» جاهزا لتقبل رؤى لا يستطيع رجل فى سن «النحاس» (باشا) استيعابها، بل إن «النحاس» (باشا) هاجم توجهات الملك العربية فى لقاء له مع (اللورد كيلرن) قائلا: «هذا الذى يفكر فيه «فاروق» ويتحدث عنه مسائل أكبر من «عقله» ومن «شخصيته» وكله إيحاءات مجانين مثل «عزام» (يقصد عبد الرحمن عزام باشا - أول أمين عام لجامعة الدول العربية)».

ومهما يكن فإن ملك مصر مضى يفكر فى مبادرات جريئة تحمل الوثائق البريطانية إشارات لها، وأولها رسالة من مكتب رئيس الوزراء فى لندن (١٦/٣/٢١٤٩)، تسأل السفارة البريطانية فى القاهرة بحزم:

«تلقينا معلومات بأن الملك «فاروق» يفكر فى زيارة فلسطين بدعوة من بعض وجهاء القدس العرب، وورد فى أخبار جاءتنا أن «فاروق» قام فعلا بزيارة القدس فى سرية كاملة. وتلك أخبار تدهشنا هنا، وقد سألنا اللورد «جورت» الحاكم العام، ولم نجد عنده علما، وأبلغنا أنه كتب إلى السفارة فى القاهرة يطلب تفاصيل إضافية. لقد فهمنا أن عددا من الوجهاء الفلسطينيين دعوا ملك مصر للصلاة فى «الحرم الشريف»، ونحن نطلب أية معلومات لديكم، وكذلك أى مقترحات لمواجهة مثل هذه الزيارة إذا تأكدت الحقيقة فى شأنها».

وترد بعد ذلك برقية من السفارة البريطانية فى القاهرة مرسلة إلى الحاكم البريطانى العام فى القدس (٢١٤٩ / ١٤٤١) وفيها يقول السفير:

«هناك أخبار عن اعتزام الملك «فاروق» زيارة الشام، بادئا بلبنان وسوريا وكذلك القدس فى طريق سفره من القاهرة أو عودته إليها، ونحن نعتقد أن مثل ذلك عمل خطير من وجهة النظر الأمنية والسياسية، ومن وجهة النظر الأمنية فأنتم أقدر على قياس الخطر، وأما من الناحية السياسية فنحن نرى أن هذه الزيارة أمر غير مرغوب فيه على الإطلاق».

ولم تكن زيارة الملك «فاروق» إلى القدس حتى تلك اللحظة غير دعوة تحمس لها الملك، لكن الحكومة البريطانية تنبهت ومنعت. ورد «فاروق» فى ظرف شهور بخطوة درامية عندما قام بعرض اللجوء السياسى فى مصر على الحاج «أمين الحسينى» مفتى القدس - بعد أن ضاقت به السبل فى أوربا وفى العالم العربى. وجاء ظهور الحاج «أمين الحسينى» فى مصر علنا فى مؤتمر لملوك ورؤساء الدول العربية كان الأول من نوعه، وقد عقد جلساته ليوم واحد فى مقر الاستراحة الملكية فى «أنشاص»، وكانت فلسطين موضوع المؤتمر.



ولم يكن ولى العهد المصرى الأمير «محمد على» راضيا عن توجه «فاروق» نحو العالم العربى، وقصد إلى مقابلة السفير البريطانى على غير موعد ليقول له أنه غير راض لا عن جامعة الدول العربية ولا عن اندفاع «فاروق» نحو فلسطين، وهو يخشى أن تلك التيارات الخطرة قد تأخذ «هؤلاء جميعا» إلى عداء مع بريطانيا يراه «صاحب السمو خطرا». وقد أشار الأمير «محمد على» إلى وزارة «أحمد ماهر» قائلا: «إن حكومة الوفد كانت حكومة قذرة Dirty من نواح عديدة، لكنها على الأقل كانت قادرة على ضبط الأمور، وكان يشير إلى اغتيال اللورد «موين»».

وبصرف النظر عن آراء ولى العهد المصرى، فإن طلقات المسدس التى قتلت لورد «موين» وزير الدولة البريطانية، كانت فى الواقع فاتحة سباق بين مشروعين: مشروع وحدة عربية، ومشروع دولة يهودية، وكلا المشروعين وجد نفسه ذات اللحظة على أمواج طوفان عال من سيول ما كان متجمدا زمن الحرب، والآن وبعد ذوبان الثلوج تدافعت السيول مصبوغة بلون الدم نحو الشرق الأوسط، وبدت تلك مقدمات مواجهة دامية قادمة بين القاهرة وتل أبيب (حتى وإن لم يتنبه أحد!). ■

> كان المشروع العربى قد سبق إلى إعلان وجوده فى قلب الشرق الأوسط حين سمعت مصر نداء إنشاء جامعة للدول العربية، واستجابت للنداء، رغم أنه على الأرجح لم يكن موجها بالدرجة الأولى إليها - وإنما إلى شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب



الرصاصة الثانية: أحمد ماهر

فبراير ١٩٤٥

عندما بدأت طلائع الطوفان - من ذوبان جليد الحرب المصبوغ بالدم - تصل إلى مصر، كانت القاهرة مأخوذة بهاجس وطني يطرح نفسه ويوشك أن يتحول إلى سؤال مُلح بطلب جوابا. وقد لمع في خواطر جمع من المفكرين المصريين أن قرب نهاية الحرب تطرح على مصر سؤال مستقبلها.

وكان سؤال المستقبل قد ظهر ضمنا في سياق بيانات أصدرتها أحزاب الأقلية (السعديين برئاسة أحمد ماهر - والدستوريين برئاسة محمد حسين هيكل باشا - والوطنيين برئاسة حافظ رمضان باشا) - أيام حكم الوفد - والظاهر أن هذه البيانات صدرت بتأثير عاملين:

● عامل حزبي يقصد إلى إحراج حكومة «النحاس» (باشا) ويضغط لكشف عمق علاقتها مع الإنجليز وانصياعها لهم وتنفيذها لما تعتبره هذه الأحزاب «أوامر من السفير البريطاني (المندوب السامي - كما أسمته هذه البيانات).

● وعامل وطني مؤداه أن هذه الأحزاب، ومعها طائفة من أبرز الشخصيات المهيأة بالعلم والالتزام الوطني راحت تحاول بإخلاص أن تستكشف اللازم والممكن لحق مصر في الاستقلال والحرية.

والشاهد أن هذه البيانات التي صدرت عن أحزاب المعارضة ومعها عدد من الساسة المستقلين، وتؤيدها طائفة من نجوم الإدارة المصرية في تلك الأوقات - تأثرت بأجواء ميثاق الأطلنطي الذي أعلنه تشرشل وروزفلت (وسط المحيط سنة ١٩٤٢)، واشتمل على مجموعة مبادئ لتنظيم «العالم الحر»، وتمكين شعوب الأرض من صنع مستقبلها متحررة من الخوف والفقر والاستعباد. وكان ذلك الإعلان نداء إنسانيا عالي الصوت رفيع المقدار يبشر بعالم جديد، يذكر بما بشر به الرئيس الأمريكي «وودرو ويلسون» في النقط الأربعة عشر التي أعلنها بعد الحرب العالمية الأولى، والتي ألهمت أحزابا وطنية عديدة (منها الجومنتانج في الصين - والمؤتمر في الهند - والوفد في مصر، ثم سقط الحلم - أيامها - عاجزا عن تحقيق بشراه؛ لأن الولايات المتحدة انسحبت بعد مؤتمر فرساى، ولم تدخل عصبة الأمم مؤثرة عزلتها وراء المحيط. وضمن أسبابها - هكذا قيل - أن الإمبراطوريات القديمة ليست مستعدة بعد لعهد جديد يحقق لشعوب الأرض آمالها أو بعضا منها).

على أن إعلان ميثاق الأطلنطي هذه المرة قدم عهدا دوليا من نوع مختلف، فهو ليس أماني رئيس أمريكي، وإنما الحلم هو القوة الأمريكية التي جاءت من وراء المحيط مرة أخرى تنقذ أوربا المتهالكة، وتفرض ميثاق «الحرية» شراكة بين كل شعوب الأرض.

وكان ميثاق الأطلنطي مقدمة لاجتماع في «سان فرانسسكو» مطلوب منه صياغة لمبادئ ونظام «الأمم المتحدة» المنتصرة في الحرب ضد النازية والفاشية والعسكرية اليابانية (وهنا أيضا كانت الإشارة الأهم هي التركيز على أمريكا، وذلك بأن يوضع ميثاق الأمم المتحدة في سان فرانسسكو غرب الولايات المتحدة، وأن يكون مقر الأمم المتحدة مدينة نيويورك شرق الولايات المتحدة).

لكن المعضلة أن مصر لم تكن تستطيع الانضمام مع «الأمم المتحدة» المنتصرة في مؤتمر «سان فرانسسكو» لأنها ليست دولة مشاركة في الحرب. ولذلك فطريقها الوحيد أن «تعلن الحرب الآن على ألمانيا»، ويكون ذلك مجرد إجراء شكلي يضمن مقعدا لها في مؤتمر «سان فرانسسكو».

كان «أحمد ماهر» (باشا) رئيس الوزراء متحمسا لإعلان الحرب من ناحية المبدأ (وكان ذلك رأيه من قديم حتى عندما كان إعلان الحرب مخاطرة، واعتقاده أن الحرب تجربة ومدرسة تحتاجها مصر)، والآن وإعلان الحرب مجرد استمارة بطلب الدخول إلى القاعة التي تجتمع فيها الأمم المنتصرة في الحرب لكي تضع ميثاق مجتمع الدول بعد الحرب - فإن قرارا في هذا الشأن يجب اتخاذه.

والملاحظ أن الحكومة البريطانية لم تكن تعارض هذا التوجه، وحسابها «أن الكلام زاد في مصر عن ضرورة تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦، بسبب اقتراب الموعد المقرر لإعادة النظر في بعض نصوصها، وهو عشر سنوات بعد توقيعها (أي سنة ١٩٤٦)، والأجل لم يبق منه غير سنة واحدة، وهي مدة تكفي بالكاد لعملية التفاوض من أجل نصوص قابلة للتغيير (ليس ضمنها التحالف العسكري بين البلدين لأن نصه سار بلا أجل)، وكان حساب الحكومة البريطانية أن المشاركة المصرية في مؤتمر «سان فرانسسكو» - تشغل مصر بإعطائها مقعدا على مسرح دولي واسع، تحلم أن تجد لنفسها مجالا فيه، بينما المرجح (في الحساب البريطاني) أنها سوف تتوه، وفي الحالتين فإنها قد تنشغل هناك عن الإلحاح على مفاوضات تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ (بتوهم بعض المصريين أنها تستكمل حلم الاستقلال) - وإذا شاركت مصر في «سان فرانسسكو» (فقد يكون ذلك تجسيدا للوهم)!.

والمدهش أن «ونستون تشرشل» رئيس وزراء بريطانيا كان هو نفسه الذي ناقش الموضوع مع الملك «فاروق» في اجتماع بينهما يوم ١٧ فبراير ١٩٤٥ (كما فعل الرئيس الأمريكي «فرانكلين روزفلت» الذي جاء على ظهر الطراد كوينسي إلى البحيرات المرة وسط مجرى قناة السويس، ليقابل الملك «عبد العزيز بن سعود» والملك «فاروق بعد انتهاء مؤتمر «يالطا» الذي رتب شئون ما بعد الحرب بين الحلفاء الكبار الثلاثة: الولايات المتحدة - والاتحاد السوفيتي - والمملكة المتحدة (بريطانيا)).

وفي ذلك السباق نحو مصر بين «روزفلت» و«تشرشل» كان باديا أن الشرق الأوسط أصبح ساحة من أهم ساحات المستقبل.

> كان «أحمد ماهر» (باشا)
> رئيس الوزراء متحمسا لإعلان الحرب
> من ناحية المبدأ (وكان ذلك رأيه من قديم
> حتى عندما كان إعلان الحرب مخاطرة،
> واعتقاده أن الحرب تجربة
> ومدرسة تحتاجها مصر)

ما بين الساعة الخامسة والنصف وحتى السابعة من مساء يوم ١٧ فبراير، التقى رئيس الوزراء البريطاني الأشهر «ونستون تشرشل» - مع ملك مصر الشاب، وكان اجتماعهما في بيت الوزير البريطاني المقيم للشرق الأوسط (ليتلتون الذي خلف اللورد موين بعد اغتياله قبل شهرين).

وهناك سجل لمحضر اللقاء في محفوظات مجلس الوزراء البريطاني (يحمل رقم ٨٠١)، والمحضر يجرى على النحو التالي:

تسجيل مناقشة مع ملك مصر ورئيس الوزراء في بيت الوزير البريطاني المقيم.

القاهرة: الساعة ٥,٣٠ - ٧ مساءً.

١٧ فبراير ١٩٤٥

الحضور من الجانب البريطاني:

رئيس الوزراء «ونستون تشرشل»

وزير الخارجية «أنتوني إيدن»

سفير صاحب الجلالة البريطانية «اللورد كيلرن»

الحضور من الجانب المصري:

ملك مصر «فاروق»

(الملك وحده بدون رئيس وزرائه أو رئيس ديوانه أو أي مرافق لتسجيل محضر المقابلة).

بدأ رئيس الوزراء («تشرشل») اللقاء بملاحظة عن التغيير الوزاري الذي جرى أخيرا في مصر، وخرج به «صديقنا» «النحاس» (باشا) ورد الملك «فاروق» قائلا: «إن الوقت كان قد حان للتغيير. وأنه لولا حكومة صاحب الجلالة البريطانية لكان التغيير تم مبكرا. وأضاف ملك مصر: «إنه شخصيا كان يتمنى تغيير وزارة الوفد من أول يوم، ومن حسن الحظ أنه أعطى تلك الحكومة حبل الصبر طويلا، وأنه كما توقع فإن تلك الحكومة شنقت نفسها بهذا الحبل، أضاف الملك من باب التأكيد «تلك الحكومة انتحرت!».

وتساءل رئيس الوزراء («تشرشل»):

«هناك كلام عن محاكمة «النحاس» وبعض زملائه وهذا غير مقبول».

ورد الملك «فاروق» «إنهم متهمون بالخيانة، ولكنه ليس راغبا في محاكمتهم بهذه التهمة. أضاف الملك أن لجان تحقيق برلمانية وقضائية وجدت أدلة إجرامية ضدهم، وهو يرى أن متابعة ذلك إلى نهايته الطبيعية ليس عمله هو، ولكنه مسئولية الوزارة الجديدة».

ورد رئيس الوزراء محذرا «أن الحكومة البريطانية لا تقبل محاكمة «النحاس» - مهما كانت التهم - لأنه خدم بريطانيا العظمى في زمن أزمة».

أضاف رئيس الوزراء «أن هذا على أي حال ليس الموضوع الذي يريد تضييع الوقت فيه، فتلك مشكلة يمكن متابعتها بوسائل أخرى.

انتقل رئيس الوزراء إلى المسألة المهمة

> قال الملك «فاروق» إنه يخشى أن إعلان مصر الحرب بعدما انتهت تقريبا وانتصر الحلفاء وانهزم أعداؤهم، يمكن أن يعطى انطباعا سيئا

المتعلقة بانضمام مصر إلى الأمم المتحدة، وأبدى أن الحكومة البريطانية لا تمانع فى دخول مصر عضوا مشاركا فى إنشاء الأمم المتحدة، وعضوا مؤسسا فى هذه الهيئة التى تضع الأساس لسلم عالمى دائم.

قال رئيس الوزراء «إن مصر فى الواقع تستحق هذه المكافأة لجهودها فى الحرب، مع أنها لم تدخلها رسميا، والآن لم يعد هناك خطر فى استكمال الشكل وإعلان الحرب رسميا حتى تتمكن الحكومة المصرية من استيفاء المواصفات المطلوبة للأمم المتحدة.

وقال الملك «فاروق» «إنه يخشى أن إعلان مصر الحرب بعدما انتهت تقريبا وانتصر الحلفاء وانهزم أعداؤهم، يمكن أن يعطى انطباعا سيئا. وافق الملك عندما عرف أن تركيا سوف تفعل نفس الشىء، وهى كحال مصر لم تدخل الحرب من قبل. أضاف الملك أن مصر يمكن أن تتصرف مثل تركيا، وكذلك مثل السعودية التى أبلغه ملكها «عبد العزيز» أنهم سوف يعلنون الحرب ليكون لهم حق دخول الأمم المتحدة.

قال رئيس الوزراء لملك مصر «إنه سوف يترك وزير الخارجية «أنتونى إيدن» يرتب التفاصيل مع رئيس الوزراء المصرى «أحمد ماهر».

قال رئيس الوزراء «ونستون تشرشل» لملك مصر:

«أريد أن أذكرك - بما قلته لك مرات من قبل - وألح عليه مرة أخرى اليوم وهو أن لديك فرصة رائعة لخدمة شعبك، وذلك فى كل الأحوال واجبك. إن أحوال الشعب المصرى تنادى من يستطيع تحسينها، فليس هناك فى العالم كله مثيل لهذا التناقض الواقع فى مصر بين غنى فادح وفقر مدقع».

كرر رئيس الوزراء هذه الملاحظة مؤكدا أن الشعب المصرى فى حاجة ماسة إلى من يخدمه. قال الملك «فاروق» إنه يحمل هذا الهدف فى قلبه، لكنه مضطر أن يعمل من خلال الوزارة.

لاحظ رئيس الوزراء أن «كلا من مصر والهند لديهما عند بريطانيا أرصدة إسترلينية مقابل خدمات قدمت للمجهود الحربى. ومع أن المجهود الحربى البريطانى أنقذ كلا من مصر والهند، فإن رئيس الوزراء يرى جواز مناقشة هذه المسألة.

لم يعلق الملك «فاروق» على ذلك، ثم قال ملك مصر إنه يأسف أن رئيس الوزراء (البريطانى) ليس لديه وقت كاف فى مصر، حتى يرى كيف يرحب به الشعب المصرى. وأنه (الملك) كان يرغب فى إقامة حفل رسمى كبير فى القصر الملكى يناسب مقام «تشرشل»، ورد رئيس الوزراء «فى المرة القادمة - ربما».

وراء الستار فى تلك الفترة المفعمة بالشكوك وأسباب التردد كان هناك رجل يتحرك، رغم أن دوره يكاد يندثر وسط ركام الماضى، وهذا الرجل هو الفقيه القانونى «عبد الحميد بدوى» (باشا) رئيس قلم قضايا الحكومة. (وكانت الصحافة الشعبية فى مصر


أحمد ماهر

تلقبه بفقيه القرية وتتهمه بتفصيل الفتاوى على هوى الطالبين، ولم يكن ذلك دقيقا بقياس ما هو باق من أعمال الرجل) - كان «عبد الحميد بدوى» (باشا) كما يبدو من قراءة مذكراته وتوصياته إلى رؤساء الوزارات المصرية كفاءة قانونية لافتة فى قدرتها على تأصيل الموضوعات وعرضها، وإسناد المنطق وترتيبه، واقتراح الحلول وبدائلها، وتكشف محفوظات رئاسة مجلس الوزراء عن مذكرة بتاريخ ١٨ فبراير ١٩٤٥، قدمها «عبد الحميد بدوى» (باشا) إلى رئيس الوزراء «أحمد ماهر» (باشا)، وفى هذه المذكرة يحدد «عبد الحميد بدوى» مسارا واضحا، قانونيا وسياسيا يتوالى خطى متصلة:

(أولها ضرورة أن تكون مصر طرفا فاعلا فى تأسيس النظام الدولى الجديد الذى تنشئه الأمم المتحدة، وإذا كان ذلك يقتضى أن تقوم مصر بإعلان الحرب على ألمانيا، فإن «بدوى» (باشا) يرى أن مصر حاربت فعلا، وأن مواردها وإمكانياتها شاركت فى المعركة رغم غياب قوات مسلحة لها على الأرض. والمنطق أن حلفاء أى حرب مطالبون بالدرجة الأولى بإعطاء كل جهدهم لخدمة أهداف التحالف دون النظر إلى عنصر بالذات من عناصر الحرب كالسلاح أو غيره. ولهذا فإن مصر حتى رغم تأخرها فى إعلان الحرب - فإنها استوفت شرطه، وعلى هذا الأساس كانت فتوى «عبد الحميد بدوى» (باشا) أن تعلن مصر الحرب على ألمانيا لأنها ساهمت فى هزيمتها - لكن لا تعلن الحرب على اليابان لأن تلك معركة لم تساهم فيها مصر بشىء.

● ثانيها، أن مصر - مع أصدقاء لها - تستطيع أن تشارك فى الدعوة إلى نظم إقليمية تتعاون مع بعضها لصيانة الأمن والسلام العالمين، ويكون ذلك ترتيبا موازيا لسلطة يظهر أن الحلفاء الكبار (الولايات المتحدة - والاتحاد السوفيتى - وبريطانيا) ينوون الاحتفاظ بها لأنفسهم على شكل هيئة عليا تمثل إرادة المجتمع الدولى ويجرى الحديث عنها من الآن (وذلك ما سمى فى الميثاق بعد ذلك بمجلس الأمن، وكان للكبار فيه تفويض بحق العضوية الدائمة وبحق الاعتراض النافذ (الفيتو).

ويستحق الانتباه أن «عبد الحميد بدوى» (باشا) فى صدد نظم التعاون الإقليمى بدا وكأنه يتحدث بالتحديد عن مشروع نظام عربى، فقد أشار «إلى التواصل الجغرافى والإنسانى، والقرب الحضارى اللغوى والثقافى، ومجال التفاعل مما تصنعه قرابة الجغرافيا والتاريخ».

● ثالثها: أن مصر يحق لها التحضير لمفاوضات مع بريطانيا من الآن لإعادة النظر فى معاهدة سنة ١٩٣٦، والهدف من ذلك ليس إدخال تعديلات على بنود تلك المعاهدة، وإنما الهدف تحقيق توافق بين التزامات مصر المتعددة فى إطار الأمم المتحدة وميثاقها، وبين دواعى التنظيم الإقليمى وإطاره، لأن العلاقة الثنائية المصرية البريطانية التى تم توقيع المعاهدة سنة ١٩٣٦ على أساسها، تغيرت من حولها الأوضاع بما يستدعى تصورات مستجدة تستجيب للأمانى المصرية وتتسق مع تنظيم عالمى متجاوز لنمط العلاقات الثنائية المعروفة.



وكذلك أصبح إعلان مصر للحرب موضوعا مطروحا ومثارا أمام مجلس النواب، والرأى أنه إجراء شكلى بلا تكاليف مستجدة، مقصده تحقيق هدف مستقبلى شديد الأهمية، وهنا كان مستغربا أن تجىء المعارضة له من جانب حزب الوفد.

> كانت حجج الوفد كما جاءت فى مذكرة رسمية أعلنها وقدمها (للسفارة البريطانية أيضا) «أن إعلان مصر للحرب الآن يعرضها لتضحيات جسيمة فى الرجال والأموال وإلى مدى لا يعلم إلا الله مداه»

وكانت حجج الوفد كما جاءت فى مذكرة رسمية أعلنها وقدمها (للسفارة البريطانية أيضا) «أن إعلان مصر للحرب الآن يعرضها لتضحيات جسيمة فى الرجال والأموال وإلى مدى لا يعلم إلا الله مداه»، وأن بريطانيا وعدت مصر بحضور مؤتمر الصلح بعد الحرب مقابل خدمات جليلة أدتها أثناء الحرب للحليف البريطانى والحلفاء الديمقراطيين. وتأسيسا على هذا الوعد فإن مصر لها الحق أن تحضر مؤتمر «سان فرانسسكو» دون إعلان للحرب يكلفها غاليا.

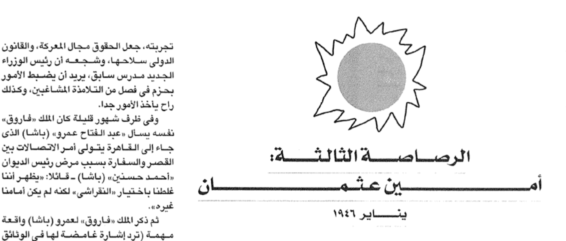
ومع أن «الوفد» يعرف أن الجزء الأصعب من الحرب قد انقضى، فإن المرحلة الباقية خطرة على مصر من حيث إنها سوف تؤدى إلى دمج جيشها فى جيوش الحلفاء ووضعه تحت إمرة قادتهم، كما أن أسطولها التجارى فى البحار يمكن إغراقه بالطائرات، كما أنها قد تصبح مطالبة بقوى عاملة ومساعدة للعمليات. هذا إذا لم يطلب منها أن تبعث بقوات وأسلحة وعتاد وذخائر تشارك فى حروب هجومية! وفضلا عن ذلك فإن قيام مصر بإعلان الحرب لا يتفق مع كرامتها، وكان المعقول أن تعلن مصر الحرب عندما كانت أرضها معرضة للاحتلال أيام كان الخطر داخل حدودها فعلا، أما الآن وقد ابتعد الخطر عن حدودها فإن إعلان الحرب يبدو منافيا للكرامة».

ولم يكن الوفد وحده فى معارضة إعلان الحرب، وإنما تبعه الحزب الوطنى وكذلك جماعة الإخوان المسلمين، واضطربت الخواطر فى مصر بين فريق يرى الأمر ظاهرا بحيث لا يحتاج إلى عناء، وبين فريق آخر يشكك ويتخوف، وبالتالى يعارض ويحرض!

ويوم ٢٤ فبراير ١٩٤٥ كان مجلس النواب مدعوا لاجتماع استثنائى يعرض فيه رئيس الوزراء «أحمد ماهر» قرار إعلان الحرب حتى ينفذ مفعوله بموافقة البرلمان عليه. وتحدث «أحمد ماهر» (باشا) وشرح وجهة نظره أمام قاعة مشحونة بالأعضاء وبالمشاعر، ثم خرج بعد الجلسة يلتقى نواب حزبه، وفيما هو يمر بالبهو الفرعونى، تقدم منه شاب مد يده إليه مصافحا، وظن رئيس الوزراء أن الشاب نائب لا يعرفه، أو موظف فى المجلس يحييه، أو ضيف من شرفات الزوار جاء إلى البهو الفرعونى. وكذلك مد يده، وفى تلك اللحظة كان الشاب وهو «محمود العيسوى» يسحب من جيبه مسدسا ويعاجل «أحمد ماهر» (باشا) بطلقات رصاص ترديه قتيلا على الفور.

وكان «محمود العيسوى» شابا متحمسا تتوزع ولاءاته ما بين الحزب الوطنى وجماعة الإخوان المسلمين.

وكانت تلك هى الرصاصة الثانية بعد رصاصة أولى قتلت اللورد «موين» - وبين الرصاصتين ثلاثة شهور لا تزيد!



الرصاصة الثالثة: أمين عثمان

يناير ١٩٤٦

فور اغتيال «أحمد ماهر» كان اختيار خلف له قضية محسومة، فلم يكن على الساحة عقلا وعاطفة، خيار آخر غير تكليف نائبه «محمود فهمي النقراشي» (باشا). وفي الواقع فإنها كانت نفس وزارة «أحمد ماهر» - و«النقراشي» (باشا) على رأسها بدلا منه.

ووجد رئيس الوزراء الجديد نفسه في وضع شديد الصعوبة، فالملك «فاروق» لا يفهمه، ثم إن السفير البريطاني ضيق الصدر به وقد وصفه في تقاريره وكرر أكثر من مرة: إنه «عنيد إلى حد الغباء وضيق الأفق إلى حد التعصب». بل إن السير «رونالد كامبل» (وهو وقتها وكيل الوزارة المسئول عن الشرق الأوسط) - كتب إلى وزير الخارجية الجديد يقول: «إذا أردنا أن نفهم «النقراشي» فلابد أن نتذكر دائما مهنته، فقد كان في الأصل «مدرسا» ولا يزال حتى الآن يتصرف مع مجلس وزرائه ومع موظفي الدولة كأنهم فصل مدرسة!

يضيف «رونالد كامبل» «أن «النقراشي» بعد الاشتغال بالتدريس انضم إلى الحركة الثورية المصرية، وشارك في العمليات السرية لمقاومة «وجودنا» في مصر وبينها عملية اغتيال السير «لي ستاك» مفتش الجيش المصري. لكن «النقراشي» الآن وفي رغبته للتفاهم معنا «ينفي بشدة أنه شارك في اغتيال السير «لي ستاك»، ونحن لا نظن أنه أمسك سلاحا وصوبه، لكنه كان ضالعا في التحضير والتخطيط لحوادث الشغب التي جرت في تلك الفترة. والسمعة الشخصية للرجل طيبة، فهو لا يقامر ولا يذهب إلى سباق الخيل مثل سلفه، وهو رجل مستقيم في علاقاته العائلية. ولم يحدث أن أثير شك حول ذمته المالية، وإن كان «أمين عثمان» قد ذكر مرة «أن الرجل أمين لأنه لا يعرف كيف تكون الوسائل إلى شيء آخر»!».

وعندما ذهب السفير البريطاني إلى بيت «أحمد ماهر» ليعزي أسرته بعد ساعات من اغتياله، كان الملك «فاروق» هناك أيضا يعزي الأسرة، وكذلك كان «النقراشي» الذي أسندت إليه مقاليد الوزارة، كما كان هناك «مكرم عبيد» (باشا) الذي لم يكن راضيا من أول لحظة عن اختيار «النقراشي» (باشا) لرئاسة الوزارة بتأثير رواسب قديمة عندما كان كلاهما في حزب الوفد قبل خروج السعديين برئاسة «أحمد ماهر» - وقبل انشقاق «مكرم عبيد» (باشا) والكتلة المحيطة به.

وروى السفير البريطاني في تقرير له إلى لندن: «أن «مكرم عبيد» (باشا) كان ثائر الأعصاب، وقد قال للسفير البريطاني «إن «محمود العيسوي» (قاتل «أحمد ماهر» (باشا)) - اعترف من بداية التحقيق أن هناك عشرين شابا مثله يحملون مسدساتهم، وسوف يفرغون طلقاتها في عشرين سياسيا مصريا إذا هم ترددوا في هذه اللحظة أو تقاعسوا».

ويذكر اللورد «كيلرن» في نفس التقرير «أن «مكرم» (باشا) أثار أمامه - وفي ذلك الموقف ضرورة محاكمة «النحاس» (باشا)، قائلا: «هناك لجنة تحقيق فرغت من جمع الوقائع والوثائق ولابد من تحويل تقريرها إلى مجلس النواب للتصرف فيه، لأن البلد لا يقبل الميوعة. وها نحن رأينا نتائجها في اغتيال «أحمد ماهر»».

وفي تقرير لاحق في نفس اليوم كتب اللورد «كيلرن»: «وجدت لازما أن أحذر «النقراشي» من أي تفكير في محاكمة «النحاس»، فلست أريده أن يتخذ خطوة في الاتجاه الخطأ ثم يعتذر عن الخطأ بأنه لم يعرف بما كان بيننا وبين سلفه من اتفاقات. وقمت بالفعل بطلب مقابلته وإخطاره «أن موضوع محاكمة «النحاس» (باشا) - ليس مطروحا على المائدة، وهذا تعهد أخذناه من «أحمد ماهر» (باشا) والملك «فاروق» على علم به، وكذلك رئيس وزراء المملكة المتحدة «ونستون تشرشل»».

وبمقدار ما كان اختيار «النقراشي» لخلافة «أحمد ماهر» ضرورة ظروف - فإن مهام «النقراشي» كانت بنفس ضرورة الظروف امتدادا لشواغل «أحمد ماهر» وأولها ما حدده «عبد الحميد بدوي» (باشا):

● الإعداد لمؤتمر سان فرانسسكو حيث يوضع ميثاق الأمم المتحدة، والآن كانت تلك المهمة التي أعطى «أحمد ماهر» (باشا) حياته لتحقيقها، التزاما مضاعفا باعتباره مطلبا مصريا يطمح للمشاركة في تنظيم عالم بعد الحرب، ثم وفاءً لزعيم السعديين الذي اتخذ الإجراء اللازم حتى تكون مصر ضمن الأمم المتحدة، وهو (إجراء إعلان الحرب) ثم تلقى الرصاص في صدره!

● ثم وهذه هي المهمة الثانية، الإعداد لمفاوضات مع الحكومة البريطانية في شأن إعادة النظر في معاهدة سنة ١٩٣٦ (وهو موعد يحل سنة ١٩٤٦) - وهنا فإن «عبد الحميد بدوي» (باشا) راح يؤسس لقواعد ظلت ملزمة للسياسة المصرية سنوات طويلة، فقد كان رأيه أن أي تعديل لمعاهدة سنة ١٩٣٦ لابد أن يأخذ في اعتباره عنصرين:

- عالم جديد تنشئه الأمم المتحدة ويحكمه ميثاقها - ومصر عضو مؤسس في الاثنين: النظام والميثاق.
- وإقليم لابد من ترتيب شئونه على أساس روابط مشتركة تجمع بين أطرافه - وجامعة الدول العربية هي الشكل الراهن لطموحات الإقليم وضمنها أمنه المشترك.

وفي أسابيع قليلة استطاع «عبد الحميد بدوي» (باشا) تشكيل مجموعة من أفضل كفاءات مصر القانونية، وظنه أن «المفاوض المصري» يحتاج إلى قاعدة علمية يتكئ عليها في وقت تتقرر فيه مصائر. ولعل المشكلة الوحيدة كانت أن «بدوي» (باشا) بتأثير تجربته، جعل الحقوق مجال المعركة، والقانون الدولي سلاحها، وشجعه أن رئيس الوزراء الجديد مدرس سابق، يريد أن يضبط الأمور بحزم في فصل من التلامذة المشاغبين، وكذلك راح يأخذ الأمور جدا.

وفي ظرف شهور قليلة كان الملك «فاروق» نفسه يسأل «عبد الفتاح عمرو» (باشا) الذي جاء إلى القاهرة يتولى أمر الاتصالات بين القصر والسفارة بسبب مرض رئيس الديوان «أحمد حسنين» (باشا) - قائلا: «يظهر أننا غلطنا باختيار «النقراشي» لكنه لم يكن أمامنا غيره».

ثم ذكر الملك «فاروق» لعمرو (باشا) واقعة مهمة (ترد إشارة غامضة لها في الوثائق البريطانية)، ومؤدى هذه الواقعة «أنه عندما كان «تشرشل» في مصر قبل شهور (وفي أعقاب مؤتمر يالطا، وقبل اغتيال «أحمد ماهر»)، أخذ (الملك فاروق) «تشرشل» على جنب وقال له ما مؤداه «أنه ليس هناك داع للإلحاح باستمرار على أهمية «النحاس» (باشا) بالنسبة لهم. فقد فرضوه على (الملك) رئيسا للوزراء، وتركوا أقاربه وأنصاره ينهبون البلد، ثم منعوا محاكمته واعتبروها إهانة لهم. وذلك كله (من وجهة نظر الملك) مسلسل أخطاء لابد أن يتوقف، وهو الآن يطلب فرصة يدير فيها أمور مصر على مسئوليته لمدة خمس سنوات، ثم يحاسبونه بعدها». وقال الملك لعمرو (باشا) ما مؤداه: «أن «تشرشل» وافق على إعطائه يدا طليقة لخمس سنوات». وطبقا لرواية «عمرو» (باشا) (مسجلة بصوته) يستطرد الملك بما مؤداه «أنه أخذ الأمور على مسئوليته» - والآن وبعد اغتيال «أحمد ماهر» لم يكن أمامه غير «النقراشي» وقد عينه رئيسا للوزراء، لكن الرجل يعمل حتى دون أن يقصد على وضعنا في «خناقة» مع الإنجليز».

ويستطرد الملك «فاروق» طبقا للرواية «إنني أول من يريد أن يتخانق مع الإنجليز، ولكن الخناق معهم يجب أن يكون بـ: «شطارة»! «ويضيف الملك «لقد مضى من السنوات الخمس التي طلبتها عدة شهور قليلة، لكني الآن «زهقت» من إمكان عمل شيء!».

في ذلك الوقت كتب القسم المصري في وزارة الخارجية البريطانية مذكرة لوزيرها جاء فيها بالنص: «بصرف النظر عن كل محاولات التمويه التي يقوم بها المصريون فإن طلباتهم تبدو واضحة من خلال النداءات التي تتردد في محافل القاهرة، فهم يريدون ما يلي:

● جلاء كل جندي أجنبي عن مصر.
● سيطرة مصرية كاملة على قناة السويس.
● وحدة أو اتحاد مع السودان.

والذي يزعمه بعض القانونيين المصريين (إشارة إلى بدوي باشا) أن ذلك كله يتسق مع إعلان الأطلنطي ومع مجموعة المبادئ التي توجه مؤتمر سان فرانسسكو المكلف بوضع ميثاق الأمم المتحدة. وفي ذلك فإن المصريين لا يدركون حقائق الحياة الأولية، وعلى سبيل

وجد رئيس الوزراء الجديد «النقراشي» (باشا) نفسه في وضع شديد الصعوبة، فالملك «فاروق» لا يفهمه، ثم إن السفير البريطاني ضيق الصدر به وقد وصفه في تقاريره وكرر أكثر من مرة: إنه «عنيد إلى حد الغباء وضيق الأفق إلى حد التعصب»

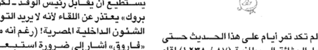
في لحظة من خريف سنة ١٩٤٥ بدا أن اللورد «كيلرن» يقترح عودة «النحاس» (باشا) و«الوفد» إلى الحكم، ولو أدى الأمر إلى تدخل آخر بالدبابات، ولم تكن لندن مستعدة

المثال فإنهم لا يعرفون أن مصر لا تستطيع أن تدافع عن نفسها لأن ذلك يحتاج إلى موارد لا تقدر على احتمالها. والحقيقة أن طيرانا عصريا يستطيع تحويل القاهرة إلى ركام، بالإضافة إلى ذلك «فإن العالم لن يسمح لمصر بأن تكون مسئولة عن قناة السويس لسبب واضح، وهو أن إدارة القناة موضوع لا يخطر في حلم أحد أن مصر مؤهلة له!».

ويتوجه السفير البريطاني اللورد «كيلرن» ويقابل رئيس الوزراء «محمود فهمي النقراشي» (باشا) ثم يكتب تقريرا إلى لندن (رقم ٧٢ / ١١١٦ - ١٧ مارس ١٩٤٥)، يعرض فيه وقائع اللقاء فيقول:

«ذكرت لرئيس الوزراء أنني أتحدث إليه اليوم بغير تعليمات من لندن، لكني قررت مجرد التفكير معه بصوت عال merely thinking aloud - قلت له «إننا نسمع كثيرا عما تسمونه «الأماني الوطنية المصرية» ولا نعرف بالضبط ماذا تقصدون؟ ولا ماذا تعرفون عن حقائق الدنيا بما في ذلك حقائق الحرب. قلت له إن دخل مصر القومي الآن هو في حدود ٨٠ مليون جنيه، ولو أن هذا الدخل خُصص بالكامل للدفاع عن مصر لما كفى. والمسئولون المصريون لا يصح لهم أن ينساقوا وراء كلمات معزولة عن الحقائق!».

ولم يعلق «النقراشي» على ما قلت مباشرة ولا يبدو لي أنه يعرف ما فيه الكفاية لكي يخوض في مناقشة مفيدة، وحاولت أن ألفت نظره إلى أن «الشعارات» لا يمكن أن تكون في حد ذاتها «سياسة»، لكني أشك أن في مقدور الرجل أن يفهم بأكثر مما تسمح به ملكاته»!

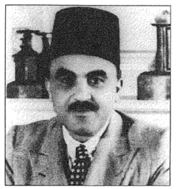


لم تكد تمر أيام على هذا الحديث حتى تسجل الوثائق البريطانية (٨٧ / ١٢٣٨) لقاء بين «حسين سري» (باشا) رئيس الوزراء السابق (حتى يوم ٤ فبراير ١٩٤٢) - وبين السفير البريطاني اللورد «كيلرن». وفي تقريره عن اللقاء يقول اللورد «كيلرن» بالحرف:

«إن «سري» (باشا) متشائم من الأوضاع الحالية، ورأيه أن «النقراشي» رجل ضيق الأفق لا يصلح أن يكون رئيسا للوزراء، وبدوي (يقصد عبد الحميد بدوي باشا) يقف وراءه ويحرك خطواته وهو أسوأ منه. و«مكرم عبيد» يقوم بدور الروح الشريرة في الوزارة.

وفي رأي «سري» (باشا) أن الوزارة الحالية غير قادرة على البقاء أكثر من ثلاثة أشهر. يضيف «سري» (باشا) أنه على تمام الاقتناع بأن البلد ليس جاهزا للحكومة البرلمانية، وليس هناك بد من تأجيل البرلمان سنة كاملة على الأقل حتى إذا كان ذلك تعطيلا للدستور، لكن المشكلة أن الملك ليس متزنا، فهو في شهر يتعامل معه (مع سري باشا) كصديق، وفي الشهر التالي يتعامل معه كعدو».

وتشير وثائق رئاسة الوزارة في بريطانيا أن رئاسة أركان الحرب الإمبراطورية أصبحت مشغولة بكل هذه «الشوشرة» التي تدور في مصر حول معاهدة سنة ١٩٣٦، والتحالف



أمين عثمان

العسكري بين مصر وبريطانيا (وهو على عكس البنود السياسية في المعاهدة ليس قابلا للتعديل) - وفوق ذلك ما يتردد حول قاعدة قناة السويس، ومستقبل القناة ذاتها!

ويجيء اللورد «آلان بروك» رئيس أركان حرب الإمبراطورية إلى مصر - يقابل الملك «فاروق»، ويشرح له «حقائق القوة» في هذا العالم، بصرف النظر عن المواثيق السياسية وإعلانات المبادئ وعملية تأسيس الأمم المتحدة الجارية الآن في «سان فرانسسكو».

ويقابل اللورد المارشال «آلان بروك» أيضا رئيس الوزراء «محمود فهمي النقراشي» (باشا) ويشرح له.

لكن المفاجأة أن «أمين عثمان» (باشا) أبلغ السفير البريطاني أنه يريد لقاء مع رئيس أركان حرب الإمبراطورية ليعرض عليه وجهة نظر «النحاس» في الموقف، لأن المارشال بالطبع لا يستطيع أن يقابل رئيس الوفد - لكن «آلان بروك» يعتذر عن اللقاء لأنه لا يريد التورط في الشئون الداخلية المصرية! (رغم أنه مع الملك «فاروق» أشار إلى ضرورة استبعاد فكرة محاكمة «النحاس» (باشا)، لأن ذلك يؤدي إلى قلاقل في الداخل تؤثر على التوازن العسكري في مصر وحولها).

ولم تكد مهمة المارشال «آلان بروك» تنتهي، حتى عُززت بمهمة قام بها ماريشال آخر هو المارشال «سمطس» وهو السياسي الأقوى نفوذا في جنوب أفريقيا. وكان يعتبر في تلك الأيام من دعامات الإمبراطورية. وجاء المارشال «سمطس» إلى القاهرة وقابل الملك وقابل «النقراشي» ليقول للاثنين: «إن تحقيق الأماني المصرية يحتاج إلى إدخال إصلاحات اجتماعية على أوضاع الناس في مصر أكثر مما يحتاج إلى إخراج القوات البريطانية منها!».



كان «أمين عثمان» مازال يتحرك وظنه أن الحكومة البريطانية نفد صبرها سريعا من وزارات القصر، وأنها الآن جاهزة لتدخل «من نوع ما» حتى لا تفلت الأمور إلى أبعد مما يمكن السيطرة عليه. ويسجل اللورد «كيلرن» في تقرير إلى وزارة الخارجية البريطانية (رقم ١٦٦٢) ما نصه: «جاء «أمين عثمان» إلى الإسكندرية ليقابلني، قال لي أن «النحاس» (باشا) يشعر بالقلق، فالأمور في مصر تتحرك بينما هو مقيد، وهو يخشى أن اللحظة سوف تفلت إذا ظل متخلفا وراء الرأي العام في قضية لها أهمية مثل تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦، وتقدير «الباشا» أن التعديلات المطلوبة على المعاهدة يمكن تسويتها بطريقة هادئة وهو يعرف كيف، لأنه كان رئيس الجبهة الوطنية التي فاوضت سنة ١٩٣٦، وهو الذي وقع على المعاهدة. والآن فإن المسائل المطروحة للبحث هي: مواد التحالف العسكري وما يتصل بها (وهو يعتقد بإمكانية التفاهم حولها) - ثم مشكلة السودان. ويوضح «أمين عثمان» وتسجل التقارير: أن («النحاس» (باشا) لا يرى السودان مشكلة، والحقيقة أن السودان لا يهمه كثيرا لأنه يسلم بأن في السودان الآن حقائق جديدة) - تتبقى بعد ذلك مشكلة الأرصدة الإسترلينية لمصر، هي مشكلة يمكن الاتفاق عليها بروح من التعاون الودي نقدر عليه معا أي هو «النحاس» وأنا («لورد كيلرن»)، وبذات الروح التي تفاوضنا بها معا أول مرة سنة ١٩٣٦.

وبدأ اللورد «كيلرن» يجمع في تصوراته، خصوصا وقد علت أصوات تقول أن «النقراشي» (باشا) «ليس رجل الساعة»، ولبعض الوقت بدا أن الملك «فاروق» يراجع نفسه، أي أنه على استعداد لتغيير «النقراشي» ولكنه لا يريد أن يذهب «النقراشي» لكي يجيء «النحاس» - وفي نفس الوقت فإن نشاط «أمين عثمان» يزيد، ولاحظت وزارة الخارجية في لندن (وهو ظاهر في ملفاتها) أن اللورد «كيلرن» يوشك على تضييع التوازن الضروري لسفير صاحب الجلالة البريطانية في مصر، لأنه عاد إلى تكرار عدم صلاحية «فاروق» لدور ملك دستوري.

وفي لحظة من خريف سنة ١٩٤٥ بدا أن اللورد «كيلرن» يقترح عودة «النحاس» (باشا) و«الوفد» إلى الحكم، ولو أدى الأمر إلى تدخل آخر بالدبابات، ولم تكن لندن مستعدة.

ويستحق الملاحظة أن أول مسألة جرى سؤال وزير الخارجية العمالي الجديد عنها كانت متعلقة بالشئون المصرية، وتمثلت في تقرير من القاهرة عن الاستعدادات الجارية للاحتفال في مصر بعيد ميلاد ملك بريطانيا، وفي التقاليد فإن هذه الاحتفالات كان بين مراسمها عرض عسكري تخرج فيه القوات البريطانية من ثكنات قصر النيل لتمر في طابور يتقدمه العلم البريطاني أمام السفير البريطاني واقفا على منصته وسط ميدان الخديو إسماعيل (ميدان التحرير الآن) ليتلقى تحية القوات ممثلا لصاحب الجلالة البريطانية. وفي هذه الأجواء المصرية الملبدة بالغيوم كان رأي وزير الخارجية البريطاني (نجم العمل النقابي «أرنست بيفن») أن مثل هذا الاستعراض «استفزاز لمشاعر الشعب المصري»، وبالتالي فإنه يلزم إخطار السفير البريطاني في القاهرة بذلك، والتنسيق مع رئاسة أركان الحرب الإمبراطورية بإلغاء الاستعراض البريطاني على ساحة ميدان عام في قلب القاهرة، وإذا كان لابد من استعراض، فالأفضل إجراؤه داخل الثكنات وليس خارجها، وإذا لم تكن الثكنات مناسبة فإنه يمكن نقل الاحتفال إلى نادي الجزيرة!



وكانت تلك إشارة مشجعة، وفسرها الملك على أنها بداية عهد جديد، تقبع فيه القوة البريطانية داخل حدودها. وعاودت الملك ثارات قديمة وظنه أن الوقت مناسب الآن للرد عليها، وهكذا دوى الرصاص في القاهرة مرة أخرى.

ويوم ٥ يناير ١٩٤٦ وفي شارع عدلي، كان الحرس الحديدي للملك «فاروق» يرتب لاغتيال «أمين عثمان» (باشا) بواسطة مجموعة قتل يقودها اليوزباشي «أنور السادات».

وحين عرف وزير الخارجية البريطاني «أرنست بيفن» بخلفيات اغتيال «أمين عثمان» (باشا)، كان تعليقه في اجتماع أمام لجنة الأمن الإمبراطوري العليا يوم ١٠ يناير، كان قوله «إنني عاجز عن تصور قيام رجل هو الرئيس الأعلى للدولة في بلاده بقتل أحد مواطني دولته لأنه يعارض سياسته أو يكرهه شخصيا!

وكانت نوازع الانتقام أقوى - وكان صوت الرصاص في القاهرة - مرة ثالثة - أعلى!

حين عرف وزير الخارجية البريطاني «أرنست بيفن» بخلفيات اغتيال «أمين عثمان» (باشا)، كان تعليقه في اجتماع أمام لجنة الأمن الإمبراطوري العليا «إنني عاجز عن تصور قيام رجل هو الرئيس الأعلى للدولة في بلاده بقتل أحد مواطني دولته لأنه يعارض سياسته أو يكرهه شخصيا!





الرصاصة الرابعة: سليم زكى

ديسمبر ١٩٤٧

كان اغتيال «أمين عثمان» (باشا) بداية تداعيات لعلها لم تخطر ببال الملك «فاروق» وهو يعطى للدكتور «يوسف رشاد» (طبيبه الخاص ومسئول الحرس الحديدى فى شكله الهجومى المستجد) - إشارة البدء فى تنفيذ عمليات الانتقام المسلح من خصومه. وأن تكون التجربة الأولى ضد «أمين عثمان» (باشا) بالذات - فهو فضلا عن الثأر القديم (٤ فبراير ١٩٤٢) يريد إزاحته عن الساحة الآن، لأنه يتحرك بنشاط زائد غرضه إعادة «النحاس» (باشا) إلى الحكم مع وزارة وفدية، حتى وإن اقتضى الأمر تكرار حصار القصر بالدبابات.

وقد رأى الملك «فاروق» أن يسبق الحوادث ويضرب ولو إنه انتظر قليلا لعرف أن محاولات اللورد «كيلرن» لا تجد فى لندن الآن - خصوصا فى عهد حكومة عمال جاءت بها الانتخابات العامة فى بريطانيا - مسئولا مؤيدا أو مستعدا للتأييد. والحقيقة أن وزير الخارجية العمالى الجديد «أرنست بيفن» كان قد اتخذ قرارا بالفعل بأن اللورد «كيلرن» استهلك مدة صلاحيته فى مصر؛ لأنه غرق فى عداواته الخاصة وصداقاته الخاصة، وتلك آفة السفراء دائما عندما تطول خدمتهم فى موقع، وتكون دولهم صاحبة نفوذ عميق حيث يخدمون. وكذلك تقرر نقل اللورد كيلرن من القاهرة إلى منصب آخر (فى جنوب أفريقيا)!

على أنه حين ضرب الملك «فاروق» بسلاح الحرس الحديدى «أمين عثمان» (باشا) مضرجا بدمه (أمام العمارة رقم ٨ بشارع عدلى وسط القاهرة) - فإن السر لم يعد خافيا على رجلين من أقرب الناس إليه.

● أولهما: رئيس ديوانه (ورائده أيام الصبا وزوج أمه وقت الشباب) «أحمد محمد حسنين» (باشا) - وكان «حسنين» على علم بوجود الحرس الحديدى بالطبع لأنه كان فى إطار خطته الأساسية للانتقام من ٤ فبراير ١٩٤٢ (على طريقة «الكونت دى مونت كريستو» - حسب تعبير الملك فاروق). ومع أن «حسنين» (باشا) شعر أن دخول الدكتور «يوسف رشاد» إلى الدائرة القريبة من الملك، نقطة تحول لابد من متابعتها باهتمام، إلا أن رئيس الديوان لم يتوقع أن «تتدحرج» المسائل بهذه السرعة. وقد أدرك «حسنين» (باشا) حتى قبل أن يتحقق من الوقائع، وبمجرد علمه باغتيال «أمين عثمان» أن أصابع الملك «فاروق» كانت هى التى ضغطت على الزناد. وتوقع أن يعرف الإنجليز، وتوقع أنه سوف تترتب على ما جرى مضاعفات، على أن «حسنين» (باشا) لم يعش ليرى هذه المضاعفات.

● وأما الرجل الثانى الذى عرف فهو رئيس الوزراء «محمود فهمى النقراشى» (باشا)، وقد تأخرت معرفته أياما حتى أحس أن تصرفات البوليس والنيابة العامة فى قضية مقتل «أمين عثمان» (باشا) - تتعرض لضغوط محسوسة، كما أن الإعلام الموالى للقصر (وفى طليعته صحف أخبار اليوم) راح يحول القضية إلى نوع من «أفلام رعاة البقر» (حسب تعبير نسبه «حسن يوسف» (باشا) إلى «النقراشى (باشا)). ولم يكن رئيس وزراء الملك معجبا بأمين عثمان، بل إنه يكرهه، لكن ذلك «المدرس القديم» الذى تعود أن يعاقب تلاميذه فى الفصل كان يضربهم بمسطرة، لكنه لا يضربهم بمسدس.

وكان «النقراشى» حائرا فيما ينبغى أن يكون عليه موقفه، فهو يتصور أمامه مهام وطنية:

- فيها أن مؤتمر «سان فرانسسكو» يواصل أعماله لوضع ميثاق الأمم المتحدة، والوفد المصرى هناك تحت الرئاسة الفعلية لعبد الحميد بدوى (باشا) يشارك بجهد مؤثر فى صياغة الميثاق، خصوصا فيما يتعلق بالضمانات التى يمكن كفالتها للدول الصغرى.
- وفيها أن هناك استعدادا للتمهيد لمفاوضات مع الإنجليز تستهدف تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ - على نحو أقرب إلى تحقيق ما أصبح يطلق عليه «الأمانى الوطنية».

على أن الملك «فاروق» أعفى رئيس وزرائه من التردد، لأن الكاردينال الملكى اقنعه بأنه لا يستطيع أن يتحمل مشكلتين فى نفس الوقت مع الإنجليز:

● مشكلة «أمين عثمان» (باشا) - كما سماها (دون أن يصرح بما هو أكثر).

● ثم تشدد «النقراشى» الذى يوشك على إغضاب الإنجليز (بما يجعل أزمة اغتيال «أمين عثمان» مضاعفة).

والحل فى رأيه: أن يخرج «النقراشى» لتغطية اغتيال «أمين عثمان» وأن تجىء وزارة جديدة كان مرشحه لها هو «إسماعيل صدقى» (باشا).

وفى الوقت الذى كلف فيه «صدقى» (باشا) بتشكيل الوزارة، وشكلها فعلا يوم ١٧ فبراير ١٩٤٩ - ذهب «النقراشى» إلى بيته مقهورا ممرورا، ولم يمض يومان، حتى كان ذلك الكاردينال الملكى «أحمد محمد حسنين» (باشا) يلقى مصرعه (١٩ فبراير ١٩٤٦) عندما اصطدمت سيارته مع ناقلة جنود بريطانيين فوق كوبرى قصر النيل. وكان تأثير غياب «أحمد حسنين» (باشا) هائلا على الملك «فاروق». وعلى نحو ما فإن هذا الغياب حرر ملك مصر من عقد غائرة فى الأعماق، ومن قيود تحد انطلاقه، فهو بعد «حسنين» بغير «رائد» يرى له الناس تأثيرا عليه - وبغير «زوج أم» خان والده واحتمى بالملكة «نازلى» - وبغير رئيس ديوان يحتل موقعا قويا فى البلاط يشير منه ويوجه فى الأزمات، بما يجعل الملك نفسه يتردد أحيانا ويعيد النظر فى عوارض خطرت على باله أو سمعها من خاصته الأقربين.

وكان رئيس الوزراء الجديد شخصية غير عادية، فالرجل (وهو من مؤسسى حزب الوفد القدامى والخارجين عليه مبكرا) - شديد الذكاء، واسع الطموح، قوى الأعصاب، قادر على المناورة وعلى القسوة، وغير مقيد بشعبية تحكم تصرفاته، خصوصا إزاء الرأى العام الذى اعتبره «صدى صوت رعاع»!

ومع ذلك فقد كانت لصدقى (باشا) نقاط ضعف خطرة: فمعرفة الرجل بشئون الاقتصاد، شابها اهتمام زائد بشئون المال. ثم إن الرجل كانت له عين تلمح الجمال وتتعقبه، والمشكلة أن معظمه كان جمالا يهوديا، وذلك وضعه فى دائرة علاقات اجتماعية تغطيها الظلال (وإن كان لابد من ملاحظة أن الوثائق البريطانية والفرنسية والإسرائيلية لم يرد فيها ما يدعو أحدا إلى القطع بأن علاقة «صدقى» (باشا) مع اليهود امتدت إلى علاقة مع إسرائيل، وتلك مسألة ثارت حولها شكوك عندما وقف الرجل فى مجلس الشيوخ معارضا لدخول مصر حرب فلسطين فيما بعد).

....

....

[وقد أتيحت لى الفرصة للقاء «صدقى» (باشا) عدة مرات، ضمنها مرة فى يناير ١٩٤٦، حين أجريت معه حديثا صحفيا لمجلة «آخر ساعة» تضمن نقدا شديدا لوزارة «النقراشى». وحدث أن كانت المجلة فى المطبعة فعلا أن اتصل بى «صدقى» (باشا)، طالبا تأجيل نشر حديثه رغم علمه أن الوقت تأخر لهذا الطلب. ولم أكن أعرف وقتها أن داعيه إلى هذا الإرباك الشديد لمجلة تحت الطبع، لكنه - كما اتضح فيما بعد - عرف أن رئاسته للوزارة احتمال قريب، ولم يشأ أن يربط نفسه بحديث صحفى أجراه مسبقا. واتصلت برئيس تحرير المجلة وهو الأستاذ «محمد التابعى»، ويبدو أنه كان أكثر اطلاعا على مجريات الأمور، لأنه أعطى موافقته على تأجيل الحديث، رغم أن تلك عطلة تؤثر على عمل المطبعة وتحمل معها تكاليف إضافية. واتصلت بصدقى (باشا) أقول له إن الحديث سوف يؤجل رغم كل الصعوبات. وبدا «صدقى» (باشا) شديد العرفان، واعدا «أنه سيعوض ما ضاع على آخر ساعة أضعافا مضاعفة». ووفى الرجل بوعده فلم يكد يصبح رئيسا للوزراء بعد أيام، حتى اتصل مكتبه يدعونى للقاء معه، وكان اللقاء فى وزارة الداخلية، وكان «صدقى» (باشا) قد احتفظ بها إلى جانب رئاسته للوزارة - لكننى فى يوم ذلك اللقاء مع الرجل رئيسا للوزراء، أحسست بحاجز يقوم بينه وبينى، فقد جلست أمامه وجاءه تليفون، فهمت أنه من «سليم زكى» (باشا) (حكمدار بوليس القاهرة الجديد بعد اعتزال «راسل» باشا) - وأن هناك مظاهرات فى شوارع القاهرة تتجمع فى ميدان الخديو إسماعيل (التحرير الآن)، ثم سمعت باذنى «صدقى» (باشا) يأمر بالسيطرة على المظاهرات حتى وإن اقتضى الأمر أن «تضربوا فى المليان». وكنت جالسا أمامه، وقد التفت إلىَّ يستأنف حديثه معى من حيث تركه قبل أن يقاطعه تليفون حكمدار بوليس القاهرة!]

....

كان رئيس الوزراء الجديد «صدقى» (باشا) شخصية غير عادية، فالرجل (وهو من مؤسسى حزب الوفد القدامى والخارجين عليه مبكرا) - شديد الذكاء، واسع الطموح، قوى الأعصاب، قادر على المناورة وعلى القسوة، وغير مقيد بشعبية تحكم تصرفاته، خصوصا إزاء الرأى العام الذى اعتبره «صدى صوت رعاع»!



كان الشارع المصرى فى حالة فوران طوال مدة رئاسة «إسماعيل صدقى» للوزارة، فطلقات

> كانت لحسن البنا صلات بالقصر الملكى، الذى حاول فى أكثر من مناسبة أن يستخدم الإخوان لمقاومة الوفد فى الشارع، وأن يجعل الجماعة احتياطيا شعبيا للمؤسسة الدينية الرسمية التى يمثلها الأزهر

الرصاص وسط العاصمة (قتلت أربعة شباب فى ميدان الخديو إسماعيل) ونبهت كل الناس، خصوصا مع اليقظة التى أحدثها الصدام بين مشروعين أطلقهما ذوبان ثلوج الحرب: المشروع القومى العربى معبرا عن نفسه فى جامعة الدول العربية - والمشروع الصهيونى ضاغطا بشدة لإقامة دولة يهودية فى فلسطين.

وبدا الشارع المصرى تلك الفترة مشهدا مختلفا، ذلك أن العادة جرت أن الشارع المصرى وفدى، لكنه بعد كل ما جرى من ٤ فبراير ١٩٤٢ إلى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ - فإن الوفد بدا محاصرا وصوته فى الشارع خافتا، وسرى إحساس بأن هناك تغييرا طرأ على روح الحزب وفكره. والشاهد أن الحزب تلك الأيام لم يعد يخاطب المأمول والمرغوب فيه، وإنما أصبح خطابه موجها إلى ضرورات الأمر الواقع. وبهذا الغياب الوفدى عن الشارع المصرى، فإن الفراغ أصبح حقيقيا - وبقوانين الطبيعة تدافع كل ما كان على هامش الحياة السياسية المصرية يشق طريقه إلى القلب.

هكذا زاد بشدة نشاط الإخوان المسلمين رغم أن موقفهم فى تلك الظروف كان شديد الالتباس، بسبب خيارات متعارضة داخل الجماعة، دفع كل منها إلى اتجاه رغم وجود مركز سيطرة فى ذلك الوقت، وهو المرشد المؤسس (حسن البنا) بنفسه قائما على التنظيم):

● وكانت لحسن البنا صلات بالقصر



سليم زكى

الملكى، الذى حاول فى أكثر من مناسبة أن يستخدم الإخوان لمقاومة الوفد فى الشارع، وأن يجعل الجماعة احتياطيا شعبيا للمؤسسة الدينية الرسمية التى يمثلها الأزهر (وكانت تلك نظرية «على ماهر» وبعض رجاله وأهمهم فى هذه المسألة «صالح حرب (باشا) الذى رأس بعد خروجه من الوزارة جمعية الشبان المسلمين، وكانت هذه الجمعية تنظيما إسلاميا ظاهرا على عكس الإخوان الذين كان بعض نشاطهم يجرى تحت الأرض فى غموض).

● ولعل الإحساس بالغموض كان يؤكده اليقين بأن الإخوان لديهم جناح مسلح يجرى إعداده وتدريبه ليوم حاجة تنشأ له. وكان ذلك حقيقيا لأن «النظام الخاص» للإخوان تحرك إلى أنواع من النشاط جرى رصدها وتسجيلها، وذلك أثار شكوكا تعددت دواعيها من «حجم» هذا النظام الخاص - إلى علاقته بالمرشد العام الذى كان منكرا لوجوده على الدوام - إلى نوع سلاحه - إلى شروط عملياته - إلى غير ذلك مما يثيره فى العادة وجود تنظيم سرى مسلح.

● ولفت النظر بشدة فى تلك الأوقات أن الإخوان المسلمين كانوا يصرفون بسعة، حتى أنهم بدءوا فى إصدار جريدة يومية (أشرف على إصدارها الأستاذ «عبد الحليم الغمراوى» وهو وقتها رئيس قسم الأخبار فى الأهرام)، ولم تكن جريدة الإخوان المسلمين (كذلك اسمها) قادرة على تغطية نفقاتها، على أن خسائرها - فيما بدا - لم تكن تسبب أرقا لأحد.

● ومن الواضح أنه كانت هناك مصادر تمويل سخية بعضها لا يخطر على البال، ومن ذلك ما تسجله وثيقة بريطانية فى تقرير من السير «والتر سمارت» المستشار الشرقى للسفارة البريطانية. وفيها يظهر الأمير «محمد على» ولى العهد وهو يقول للمستشار الشرقى «أنه قدم مساعدات مالية للإخوان المسلمين، لأنهم فى رأيه التنظيم الشعبى الذى حل محل الوفد فى الشارع، وهم بذلك يقدرون على وضع بعض القيود على جموح الملك «فاروق» الذى فقد صوابه تماما، لكنه من المثير أن هناك شواهد على أن الملك «فاروق» نفسه كان يساعد الإخوان المسلمين، كما أن ملفات وزارة الداخلية فى زمن «صدقى» (باشا) تشير إلى مائة ألف جنيه سلمها «صدقى» (باشا) بنفسه إلى أحد أقطاب الجماعة (وتلك دفعة واحدة وقع رصدها).

وبصرف النظر عن أى التباس، فقد كان من الواضح أن الفراغ الكبير الذى أحدثه غياب الوفد، أعطى للإخوان ميدانا فسيحا خاليا، كما أنه سمح بتواجد عناصر أخرى غيرهم تستطيع أن تثير وتحرض مثل (مصر الفتاة).

وكان «صدقى» (باشا) قد توصل إلى مشروع معاهدة مع الإنجليز - سُميت باتفاقية «صدقى - بيفن»، وتم التوصل إليها فى محادثات جرت فى لندن (أكتوبر ١٩٤٦) - وعاد «صدقى» (باشا) يعرضها على مجلس النواب، لكن المعارضة ضدها تصاعدت، وشهدت القاهرة والإسكندرية وعواصم الدلتا والقناة والصعيد مصادمات عنيفة بين المتظاهرين والبوليس.

ومرة رابعة دوى فى القاهرة صوت الانفجار، ولم يكن بالضبط طلقة رصاص وإنما كان قنبلة يدوية قذف بها شاب مجهول من سطح كلية الطب فى القاهرة، ووقعت وانفجرت تحت أقدام «سليم زكى» (باشا) حكمدار بوليس القاهرة الذى نُقل من حيث سقط. ولكنه فارق الحياة!



الرصاصة الخامسة: أحمد الخازندار

مارس ١٩٤٨

وظلت وزارة «إسماعيل صدقى» (باشا) فى الحكم عشرة شهور بالضبط (من ٩ فبراير إلى ٨ ديسمبر ١٩٤٦) - لكنها عشرة شهور باهظة التكاليف على أحوال السياسة العامة فى مصر وممارساتها، فرئيس الوزراء القائم على الحكم لم تكن له قاعدة شعبية لها نواة صلبة تتمدد من حولها أو حتى تتقلص - وفق مجريات الحوادث وتوجهات المزاج الشعبى (مثل الوفد) - ولا كان ذلك الرئيس للوزارة يمثل جماعات الصفوة الاجتماعية من أبناء كبار الملاك الزراعيين مع جمهور محدود يؤيدها أحيانا فى موقف (مثل الأحرار الدستوريين أو السعديين) - ولا كان يمثل قوة مقاتلة تدافع عن مبدأ (حتى وإن أوقعتها الظروف فى الدائرة المفرغة لطلب الانتقام مثل الكتلة)، وإنما كان الرجل فى أحسن الأحوال يمثل مجموعة تضم عددا من أصحاب المصالح المالية الكبرى معظمهم من اليهود والأجانب، كما أن نظرته إلى الشأن العام كانت متأثرة بفكر «أوتوقراطى» يعتقد أن الحاكم القوى أعرف بالمصلحة العامة من الشعب الضعيف، ولعل خروج «صدقى» (باشا) القديم من الوفد وإحساسه بالانسحاق الكامل أمام قوة «سعد زغلول» الطاغية ترك لديه نوعا من الكراهية لفكرة «الشعب»، حتى أنه كان يعتبر أن مجرد التوجه العام بخطاب للناس ضعف لا يصح لحاكم - ولا يزيد عن كونه تملقا لغرائز قطيع لا يعرف لنفسه اتجاها ولا يعى صالحها!

وعلى أى حال فإنه فى تلك الوزارة التى رأسها «صدقى» لعشرة أشهر لم يكن له سند غير رغبة الملك أن يرى «راجل جدع» حسب تعبيره أكثر من مرة أمام «عبد الفتاح عمرو» (باشا). وعلى أى حال فإن المهمة التى عهد بها الملك إلى «صدقى» (باشا) كانت محددة: بالتوصل إلى اتفاق مع الإنجليز يرتب علاقة المستقبل معهم على أساس مقبول، يعفى الملك من تدخلهم فى الشأن المصرى بين وقت وآخر، وتريحه من إلحاح الناس على ما يسمونه «الأمانى الوطنية»، وذلك حتى يكون لديه الوقت لتحسين أحوال المصريين ومكافحة ما كان يسمى ثلاثى «الفقر والجهل والمرض». لكن «صدقى» (باشا) أسرف فى استعمال العنف، وكانت أشد ممارساته للعنف باسم حملة «مكافحة الشيوعية». وكان الملك «فاروق» يؤيد هذه الحملة، لكن مفهوم الملك للشيوعية والشيوعيين اتسع فأصبح «النحاس» (باشا) «بلشفيا» - كذلك رأى الملك وجاهر برأيه - حتى أنه ذكر للسفير البريطانى السير «رونالد كامبل» أن الأيام سوف تثبت أن «النحاس» هو زعيم البلاشفة فى مصر، والآخرين كلهم مثله، وضمن هؤلاء الآخرون كان رئيس وزرائه (إسماعيل صدقى) بضع النقابات المهنية والعمالية، وهيئات التدريس واتحادات الطلاب، والنتيجة أنه برغم ذكاء «صدقى» (باشا)، وبرغم قدر كبير من المعرفة والخبرة، فإن الشهور العشرة التى رأس فيها الوزارة كانت فترة قمع متجاوز، وعندما أحس أنه يفقد معركته فى تمرير مشروع المعاهدة الذى توصل إليه مع «أرنست بيفن» - فإن «صدقى» (باشا) مشى يدوس على الخط الأخلاقى الذى يفصل العام عن الخاص فى الممارسة السياسية.

وقبل أن يخرج «صدقى» (باشا) من الوزارة بشهر واحد، اتصل صباح يوم (من الأسبوع الأخير من شهر



نوفمبر ١٩٤٦) ـ بحسن يوسف (باشا) (وهو وقتها القائم بأعمال رئيس الديوان)، يطلب موعدا عاجلا مع «جلالة الملك» لأمر مهم، وتحدد له الموعد نفس اليوم فى الساعة الواحدة ظهرا. وبقى فى مكتب الملك ما يقارب ثلاثة أرباع الساعة، ثم فوجئ «حسن يوسف» (باشا) بأن الملك يطلبه للانضمام إليه وإلى رئيس الوزراء، وتوجه «حسن يوسف» (باشا) إلى حيث دُعى، وأشار إليه الملك فجلس، وعلى الفور قال «فاروق» موجها كلامه إلى «صدقى» (باشا) قائلا له: «احكى له».

وبدأ «صدقى» (باشا) يحكى «أن فى حوزته الآن ما يكفى للقضاء على الوفد و....». وكان «حسن يوسف» (باشا) كعادته يصغى فى صمت، واستطرد «صدقى» (باشا) يروى «أن المباحث الخاصة» التى تسلمت أجهزة الرقابة على التليفونات (وهى المعدات التى جاء بها ووضعها فى مصلحة التليفونات واستعملها الجنرال «هوليس» رئيس M.I 5 البريطانية زمن الحرب، والتى آلت إلى السلطات المصرية بعد ذلك، والتى تقوم الآن على تسجيل بعض المكالمات بطلب من «القلم السياسى» ـ تمكنت من تسجيل حديثين، وصله تقرير كامل عنهما قدمه الآن إلى «مولانا».

وكان «حسن يوسف» مازال يصغى فى صمت، و«صدقى» (باشا) يحكى له بتوجيه من «فاروق»:

هناك تسجيلان لحديثين تليفونيين:

أولهما، مدته دقيقة ونصف دقيقة بين السيدة «زينب (هانم) الوكيل» قرينة «النحاس» (باشا) وبين «فؤاد سراج الدين» (باشا). والثانى، مدته ست وخمسون دقيقة بين السيدة «زكية (هانم) البدراوى» وبين شقيقها «عبد العزيز البدراوى» (بك).

وواصل «صدقى» (باشا) الحكاية، فعرض «أنه يمكن ترتيب نشر بعض التفاصيل وبعض النصوص مما ورد فى هذين الشريطين، وتدخل الملك «فاروق» مقاطعا بأنه «يمكن لكريم (يقصد كريم ثابت مستشاره الصحفى) أن يتصرف فى الموضوع مع «الجماعة بتوعه» (يقصد الصحفيين) على أساس أن نظل نحن بعيدين، حتى الوزارة نفسها تبقى بعيدة!

وكان إحساس «حسن يوسف» (باشا) بما يسمعه ثقيل الوطأة على أعصابه، وقد أمسك نفسه عن أى تعليق مباشر ومتعجل، خصوصا وهو يعرف ما فيه الكفاية عن شخصية «فاروق» (يعاند إذا عورض!)، وتدخلت الظروف لإعطائه لحظة يستعد فيها، لأن الملك تلقى تليفونا جاءه على الجهاز الخاص الوحيد على مكتبه، وقد رد عليه باقتضاب مكررا ثلاث مرات «نعم» باللغة الفرنسية. ثم التفت إلى «حسن يوسف» الذى راح يعلق وهو يحسب حسابا لكل لفظ، فيقول « إنه يظن أن الأمر يستحق التفكير على مهل، ونستطيع أن ننام عليه يوما أو يومين، وبعدها يكون «مولانا» قد حسبها بحكمته ورأى فيها رأيه».

والتفت الملك إلى «صدقى» (باشا) وتعليقه أن «حسن يوسف «خواف» وعلى أى حال فأنا سوف أفكر حتى «بكره»، ويمكن أن نسأل «كريم» (يقصد كريم ثابت) ـ وأبدى «حسن يوسف» ملاحظة مؤداها أنه يتمنى على جلالة الملك أن يسأل أحدا آخر غير «كريم»، وقاطعه الملك: «وماله «كريم» «. ورد «حسن يوسف»: «كريم (بك) رجل كفء» لكن الخشية أنه بالمهنة كصحفى قد يغلب جانب النشر على ما عداه، والموضوع سياسى أكثر منه صحفى». وسأله الملك «نسأل مين يعنى»؟، وطرح «حسن يوسف» (باشا) اسما بسرعة هو اسم «لطفى السيد» (باشا)، وكان عضوا فى هيئة المفاوضات مع «صدقى» (باشا) (وكان قد ابتعد عن مسار المفاوضات ولم يشأ إحداث أزمة، رغم أنه كان وزيرا للخارجية). ولم يظهر أن الملك اقتنع، وإن عبر عن رأيه بتقاطيع وجهه، ثم قال بعد قليل «نشوف»!

ومضت أيام والشارع السياسى يغلى، والمظاهرات لا تنقطع، والعنف يزيد، وأصوات الانفجار تسمع فى القاهرة، واستقالت وزارة «صدقى» (باشا) ـ بينما المحاولات لاحتواء العنف تفشل رغم مخاوف لم تساور السلطة فقط، لكنها ساورت قطاعات فى المجتمع أيضا، لأن المجتمعات تصاب بالقلق عندما يعلو صخب العنف كلاما وفعلا، ثم يغيب صوت الحوار الهادئ فى أزمنة تتقرر فيها مصائر.

وكان القضاء المصرى فى تلك الظروف ملاذا، وفجأة صباح ذات يوم (من مارس ١٩٤٨)، دوى الرصاص فى القاهرة مرة أخرى، وسقط المستشار «أحمد الخازندار» رئيس محكمة الاستئناف ـ قتيلا، وذنبه أنه أصدر أحكاما بسجن شبان من الإخوان المسلمين تورطوا فى إلقاء متفجرات على منشآت وسط القاهرة مملوكة لمصريين ولأجانب. ورأى «النظام الخاص» فى الجماعة أن يعاقب القضاء، وحكم بالموت فعلا على واحد من أهم رجاله فى ذلك الوقت.

وكان الرصاص هذه المرة متجاوزا لمجال السياسة، نافذا فى قلب فكرة القانون.



الرصاصة السادسة:
محمود فهمى النقراشى

ديسمبر ١٩٤٨

فى الأجواء المكفهرة التى صاحبت خروج وزارة «صدقى» (باشا)، لم يكن أمام الملك «فاروق» سوى خيارين:

ـ إما الاستمرار فى «طابور» الوزارات الملكية، مع تفضيل أن تكون لها أمام الرأى العام صفة سياسية حزبية.

ـ وإما التفكير فى حكومة وحدة وطنية تواجه الفوران الذى حركه موضوع «الأمانى الوطنية» (فى ظروف طوفان يزحف على القارات مثقلا بحمولات متناقضة) ـ وكان معنى التفكير فى وزارة وحدة وطنية أن «مشاركة الوفد» واردة (فى لحظة شديدة الحساسية يظن فيها الملك أنه يستطيع الخلاص نهائيا من الوفد، فيما بعض رجاله يدعونه إلى إمعان التفكير وإعمال الروية).

وتغلب الخيار الأول وعاد «محمود فهمى النقراشى» (باشا) إلى رئاسة الوزارة فى ظروف مضطربة، مثقلة بمطالب عارمة فى الاستقلال والحرية جاء الآن أوانها.

وبعد أسبوع واحد من تشكيل الوزارة توترت العلاقة بين الملك وبين رئيس وزرائه العائد للتفاوض على اتفاق جديد مع الإنجليز على شىء مختلف عن اتفاقية «صدقى بيفن» التى سقطت، أو تعديل بعض شروطها لكى تصبح أكثر قبولا لدى الرأى العام.

كان «النقراشى» (باشا) على موعد مع الملك يعرض عليه سياسته، وطالت المقابلة أكثر مما قدر المسئولون فى الديوان، ثم خرج «النقراشى» (باشا) متوجها إلى مكتب «حسن يوسف» (باشا) وهو يومها مكلف برئاسة الديوان بالنيابة، وبدا رئيس الوزراء مقطب الوجه ـ حزين التقاطيع.

واكتشف «حسن يوسف» (باشا) أن الملك فاتح رئيس وزرائه فى موضوع التسجيلات التليفونية الذى عرضه عليه «صدقى» (باشا) قبل أسبوعين، ثم أبلغه أنه قرر النشر، وأن «كريم ثابت» تصرف (مع أخبار اليوم)، والشرائط بالفعل هناك الآن «عندهم».

وكان «النقراشى» قاطعا وهو يقول لحسن يوسف «إنه أبلغ جلالة الملك أنه لا يستطيع تحت أى ظرف من الظروف أن يقبل هذه «المسألة»، وأن من أشار عليه بها «لا يعرف مصلحة العرش»، وأنه ليس فى وسعه غير وضع استقالته تحت تصرف «مولانا»، وأن الملك طلب منه أن يفكر فى الأمر بمنطق «السياسة»! وليس بمنطق «التزمت»!

ومضى «النقراشى» يقول: «إنه وعد أن يفكر، وهو لا يظن أنه سوف يغير رأيه أبدا، لأن هناك من وجهة نظره «معقول» فى السياسة و«لامعقول». وهو يرى نفسه أمام اللامعقول، ولا يستطيع هنا أن يساير مهما كان، ويأسف إذا كانت استقالته فى مثل هذه الظروف تحرج الملك، ولكنه فى الحقيقة لا يستطيع. وكرر «النقراشى» عدة مرات قوله: «لا يمكن... لا يمكن».

وانقطع الحديث عندما جاء أحد الأمناء يدعو رئيس الديوان بالنيابة لمقابلة «مولانا»، واستأذن رئيس الوزراء، وتوجه «حسن يوسف» (باشا) مهرولا إلى مكتب الملك ليجده غاضبا يبادره «كنت أقول لكم دائما أن «النقراشى» قفْل ولم تصدقونى، والآن يثبت لكم أننى كنت على حق». ثم سمع «حسن يوسف» مرة ثانية ـ ومن وجهة نظر الملك ما جرى بينه وبين «النقراشى»، ولم يكن هناك خلاف كبير بين الروايتين، ولكنه اختلاف وجهات النظر. وفى النهاية كان تعليق «حسن يوسف» (باشا) رجاءه إلى «مولانا» «أن يعطى رئيس الوزراء العائد فرصة لأنه يرتب لمفاوضات مع الإنجليز، وهو كما عرض على «مولانا» على

خطر للملك «فاروق» وربما بسبب تأثير بعض العسكريين البريطانيين من أصدقائه، أنه يستطيع أن يتولى بنفسه عملية التفاوض مع الإنجليز، لأن «النقراشى» تنقصه المرونة الكافية للوصول إلى اتفاق معقول

استعداد لأن يذهب بقضية مصر إلى الأمم المتحدة. ورد الملك بقوله «نشوف».

....

[وبعد خمس سنوات وفى ظروف مختلفة عاد الشريطان إلى الظهور ـ وفى ظروف ملتبسة يجىء دورها فيما بعد.]

....

ومضى «النقراشى» (باشا) يفاوض الإنجليز على الجلاء مع ترتيبات للأمن تضمن لهم وجودا فاعلا فى قاعدة قناة السويس، ضمن نظام دفاع إقليمى ـ لكن الأمور تعثرت لأن مدة الجلاء ظلت موضوع خلاف، وكذلك كانت مسألة شكل وحجم الوجود البريطانى الذى يبقى فى القاعدة للدفاع عن قناة السويس. وزادت حدة المشاعر الوطنية إلى درجة الحُمى، لأن «القضية الوطنية» أصبحت الوعاء الذى احتوى كل مطالب الشعب المصرى، السياسى منها والاجتماعى، وبدا أن الحركة الشعبية تأخذ منحنى ظاهرا إلى اليسار، وكانت تلك هى الفترة التى ظهر فيها جناح تقدمى فى الوفد نفسه يناهض استيلاء اليمين على فكر وقلب الحزب، وكانت طلائع هذا اليسار الوفدى شبابا من أمثال الدكتور «عزيز فهمى» (نجل قطب الوفد الكبير «عبد السلام فهمى جمعة» (باشا) ـ والدكتور «محمد مندور» (أستاذ الجامعة والناقد الأدبى المرموق)، والتف حول الاثنين جمع من الشباب استفزه أن قلب الوفد وفكره فى حاجة إلى «مخلِّص» ينقذ الاثنين ويعود بالحزب إلى ممارسة دوره التاريخى فى قيادة الحركة الوطنية فى أجواء عالمية مفعمة بضرورات التغيير.

وفى تلك الأجواء المتقلبة كانت الحركة الشيوعية المصرية تحاول التقاط الأنفاس والعودة إلى الساحة بعد أن خفت عنها أثقال الضربات الموجعة التى وجهها إليها «إسماعيل صدقى» (باشا) طوال الشهور العشرة التى رأس فيها الوزارة. وكانت الحركة الشيوعية تلك الأيام تعيش مخاضا عسيرا، لأن قضية فلسطين ـ التى طرحت نفسها بشدة ـ أوجدت حالة من الانفصام الحاد بين القيادات الثلاث لتلك الحركة. وكان مصدر التناقض أن هذه التنظيمات الثلاثة كان على رأسها قيادات من اليهود، بينما كان الصف الثانى من الوطنيين المصريين المنتمين إلى الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة. ونقطة التمزق أن القيادات اليهودية على رأس الحركات الشيوعية المصرية لم تر فى قضية فلسطين إلا رأسمالية عربية متعاونة مع الرأسمالية العالمية التى هى فى حالة عداء مع الطبقة العاملة العربية واليهودية معا، وبالتالى فإن فلسطين صراع بين الرأسمالية والطبقة العاملة: عربية ويهودية، أى أن هذا النزاع المتفجر فى فلسطين جزء من صراع أممى وليس مقدمة لصراع قومى. وبدت الأفكار مختلطة ومرتبكة.

على أن الاتجاه العام إلى اليسار جعل السير «والتر سمارت» المستشار الشرقى للسفارة البريطانية يكتب فى تقرير إلى لندن (٢٣١٤) قائلا:

«من قبل بداية المفاوضات فإن عملية التهييج «الشيوعى» ضد بريطانيا ظلت ولا تزال حملات متواصلة تلقى تأييد جماعات وطنية عديدة. وقد زاد هذا التهييج وتكثف فى الفترة الأخيرة، إذ إن المصريين يظنون أنهم عندما يذهبون بقضيتهم ضدنا إلى الأمم المتحدة وإلى مجلس الأمن ـ أن الاتحاد السوفيتى هناك سوف يناصر قضيتهم، وذلك يأخذهم إلى انجراف عام نحو اليسار يظهر جليا حتى فى صفوف حزب الوفد».

لكن الذهاب بالقضية المصرية إلى الأمم المتحدة وإلى مجلس الأمن استولى على أعصاب الجميع وإن كان قد أخذ صورة ذهاب إلى المحكمة (تنظر بالقانون وتحكم بالعدل. وكان ذلك اجتهاد «عبد الحميد بدوى» (باشا) وقد ظل إلى زمن طويل يحكم تصورات مصر ـ وربما كل الدول العربية ـ فى شأن قضاياها الوطنية والقومية).

فى هذا كله كان الملك «فاروق» يشعر أن التيار الجارف يجر البلاد إلى حافة خطرة، ولم يكن متأكدا من قدرة «النقراشى» (باشا) على منع الانحدار. وفى نفس الوقت لم يكن قادرا على التفكير فى بديل، فأى بديل قد يصبح الآن خطوة تمهد لعودة الوفد.

وخطر للملك «فاروق» وربما بسبب تأثير بعض العسكريين البريطانيين من أصدقائه، أنه يستطيع أن يتولى بنفسه عملية التفاوض مع الإنجليز، لأن «النقراشى» تنقصه المرونة الكافية للوصول إلى اتفاق معقول.

ويسجل السفير البريطانى السير «رونالد كامبل» فى برقية له إلى لندن (٤٧/٢٧/٢٤٠) أن مصدرا مقربا من القصر («كريم ثابت» (باشا) وهو المستشار الصحفى لفاروق)، سأل السير «والتر سمارت» ـ (وهو فى نفس الوقت زوج ابنة خاله إيمى فارس نمر) ـ سؤالا محددا: «هل الحكومة البريطانية على استعداد لإعطاء تنازل واضح للملك «فاروق» يمكنه من الأمر بتوقيع اتفاق معهم وبطريقة حاسمة وقاطعة»؟

ـ وبقية السؤال:

«أن الملك يعتقد أنه إذا استطاعت الحكومة البريطانية أن تتفق على أن يتم جلاء القوات البريطانية عن مصر فى ظرف سنة واحدة ـ فإنه قادر على ضمان الباقى كله، وضمنه أى ترتيبات فى شأن قاعدة قناة السويس. وظن الملك أن فكرة «الجلاء فى ظرف سنة» بعد احتلال سبعين سنة صيغة سحرية كفيلة بأن تجعل الرأى العام يوافق الملك على أى اتفاق بشأن قاعدة قناة السويس».

والإضافة بعد ذلك:

«إذا كانت الحكومة البريطانية على استعداد للموافقة، فإن الملك يستطيع أن يتصرف وأن يعفى «النقراشى» من الوزارة، ويجىء بوزارة تنحصر مهمتها فى مجرد التوقيع»!

على أن الملك اشترط أن يظل ذلك العرض سرا، سواء وافقت الحكومة البريطانية عليه أو اعتذرت!

ولم تقتنع الحكومة البريطانية، ورأيها أن مدة السنة التى يطلبها «فاروق» «كصيغة سحرية» ليست كافية، كما أنه من المشكوك فيه أن الملك قادر على توفير مطالب بريطانيا وتأكيد الضمانات المطلوبة لقاعدة فى قناة السويس. ثم إن التفاوض مع الملك مشكلة صعبة، خصوصا إذا كان من الضرورى أن تبقى سرا، وفى كل الأحوال فإن الملك لا يستطيع أن يضمن موافقة شعبية على مشروع اتفاق مع بريطانيا، والنتيجة مشاكل جديدة تضاف إلى مشاكل سبقتها.

ومع تعثر المفاوضات مع «النقراشى» (باشا) وحكومته، والتردد فى التفاوض مع القصر الملكى وسيده ـ بدا ظاهرا أن الخلاف بين مصر وبريطانيا فى طريقه إلى الأمم المتحدة وإلى مجلس الأمن، وأن «النقراشى» (باشا) لا يجد أمامه خيارا آخر، ثم إن هناك ضغطا هائلا يتمثل فى نوع من الجبهة الوطنية يضم كل قوى الشعب المصرى، لكن المأزق فى العواطف المتأججة ـ هو أن الأمم المتحدة ليست محكمة قانون، وحتى إذا كانت كذلك فإن القانون عاجز إذا لم تكن هناك قوة تكفل احترامه، ثم إن القوة معطلة إذا لم تكن هناك إرادة لها كرامة الشرعية.

ظن الملك أن فكرة «الجلاء فى ظرف سنة» بعد احتلال سبعين سنة صيغة سحرية كفيلة بأن تجعل الرأى العام يوافق الملك على أى اتفاق بشأن قاعدة قناة السويس



وانهمك «محمود فهمى النقراشى» (باشا) ومعه مجموعة من أفضل العقول القانونية المصرية فى مهمة ترتيب أوراق الدعوى المصرية أمام مجلس الأمن، وكان القانونى المتميز «عدلى أندراوس» هو المكلف بصياغة عريضة الدعوى الأساسية، لكنه وراء الأوراق والملفات والدراسات، كانت الصورة الحقيقية موجعة:

● من البداية فإن الملك «فاروق» راح يبعث الرسائل واحدة بعد الأخرى إلى السفارة بأن ذهاب رئيس وزرائه بالقضية المصرية لعرضها على مجلس الأمن «ليس عملا عدائيا»، وطبقا لبرقية من السفارة (٢٦٦٣ / ٥٩٣٢٢) ـ قام «حسن يوسف» (باشا) بإبلاغ الوزير المفوض فى السفارة «جيمس بوكر» بأن صاحب الجلالة يريد أن تذهب مصر وبريطانيا إلى مجلس الأمن صديقين، ثم تعودان من هناك صديقين، وإنه بمناسبة الصداقة، فقد يكون ممكنا عندما يذهب الوفد المصرى إلى نيويورك لعرض القضية المصرية على مجلس الأمن أن يظهر للطرفين صديق ثالث يتوسط بينهما.

● وكان الأمين العام لجامعة الدول العربية «عبد الرحمن عزام» (باشا) ـ وهو مقرب من القصر الملكى المصرى، وفى نفس الوقت من القصر الملكى السعودى ـ موجودا وقتها فى نيويورك، يحضر بقية الدورة العادية للجمعية العامة للأمم المتحدة قبل بدء عطلتها الصيفية، وعندما بدا أن «القضية المصرية» فى طريقها إلى نيويورك، فإن «عزام» (باشا) مدد إقامته. وفى لقاء أجراه «عزام» (باشا) مع المندوب البريطانى المناوب لدى الأمم المتحدة السير «هارولد بيلى» (وقد أصبح فيما بعد سفيرا لبريطانيا فى مصر مرتين)، طرح «عزام» (باشا) ونقل عنه السير «هارولد» (١٥٢٨ / ٦٢٩٧٢) قوله:

ـ إنه لابد من وقف التدهور فى العلاقات بين مصر وبريطانيا.

ـ إنه قد لا يكون هناك مفر من طرح قضية مصر أمام الأمم المتحدة ولو لمجرد تهدئة مشاعر مصرية مستثارة، مع أنه يعلم أن هناك محاولات للتأثير على «النقراشى».

ـ بعد العرض على مجلس الأمن ففى الإمكان صدور بيان عن المجلس بتكليف صديقين لمصر ولبريطانيا (المملكة العربية السعودية عن مصر ـ والولايات المتحدة الأمريكية عن بريطانيا) ـ وذلك للعمل على إيجاد نقط التقاء بين الطرفين.

ـ إنه إذا لم يتيسر إصدار قرار بالدعوة إلى وساطة، فالبديل الممكن أن يصدر عن المجلس قرار يدعو مصر وبريطانيا للعودة إلى التفاوض وإخطار مجلس الأمن بما يتوصلان إليه.

● أنه طبقا لرسالة من الشيخ «يوسف ياسين» مستشار الملك «عبد العزيز آل سعود»، فإن الأمير «فيصل» وزير الخارجية السعودية يقوم الآن بجهد لجس نبض الحكومة السورية لمعرفة ما إذا كانت مستعدة بالتعاون مع المملكة (العربية السعودية) للقيام بوساطة بين مصر وبريطانيا تحول دون وقوع صدام بين الطرفين فى مجلس الأمن يعقد القضايا العربية ولا يفيدها.

● أن الملك «فاروق» استدعى «واصف غالى» (باشا) وهو وزير خارجية وفدى سابق، ورجل يملك خبرة دولية لها قيمتها ليسأله عن احتمالات عرض القضية المصرية على مجلس الأمن، وكان رأى «واصف غالى» أن عملية الذهاب بالأمانى المصرية إلى مجلس الأمن سوف يكون فشلا محققا "flop".

واقتنع الملك «فاروق» بما سمعه من «واصف غالى» (باشا) إلى درجة أنه أخبر به «النقراشى» (باشا) ولم يقتنع رئيس الوزراء، لكن «أعصابه تعبت» لأنه أحس بضعف ثقة الملك فى سياسته.



وكان موقف حزب الوفد فى تلك الظروف لافتا للنظر، ففى برقية من السفارة البريطانية (٢٨٠٥ / ٥٩٣٢٢) بتاريخ ١٥ يونيو ١٩٤٧ يرد بند يقول فيه السفير البريطانى فى مصر السير «رونالد كامبل» ما نصه:

«لا يخالجنى شك فى أن الوفد المصرى سوف يبعث برسالة إلى مجلس الأمن مؤداها أن الحكومة المصرية الحالية لا تمثل الأمة المصرية، وأن الأمة المصرية لا تتحمل مسئولية أى شىء يقوم به الوفد الممثل لهذه الحكومة فى مجلس الأمن».

وبعد أكثر من شهر (أى ٢٠ يوليو ١٩٤٧) كان «مصطفى النحاس» (باشا) يبعث رسالة باسم الوفد المصرى إلى رئيس مجلس الأمن يقول فيها: «إن حكومة «محمود فهمى النقراشى» (باشا) لا تمثل الشعب المصرى. وأن الدعوى التى يتقدم بها إلى المجلس قاصرة فى تعبيرها عن المطالب المصرية. وأن حزب الوفد المصرى قرر إرسال ممثلين عنه إلى نيويورك ليتحدثوا هناك باسم «مصر الحقيقية»».

وأعلن فى القاهرة أن وفدا يمثل «النحاس» (باشا) شخصيا، تقدم إلى السفارة الأمريكية فى القاهرة يطلب تاشيرة دخول تتيح له التواجد فى نيويورك، وكان هذا الوفد برئاسة «فؤاد سراج الدين» (باشا) ومعه نقيب المحامين وقتها وهو وفدى معروف - الأستاذ «كامل يوسف صالح».

وراح القصر على الفور ينسى موقفه الأصلى ويحاول استغلال موقف حزب الوفد بتحريض الصحف الموالية له على استنكار رسالة «النحاس» إلى رئيس مجلس الأمن باعتبارها «خنجرا فى الظهر» ضد الوطنية المصرية مما يقتضى محاكمة «النحاس» (باشا) بتهمة الخيانة العظمى. وفى نفس الوقت بعث الشيخ «حسن البنا» مرشد الإخوان المسلمين برسالة إلى رئيس مجلس الأمن يستنكر فيها رسالة «النحاس» (باشا) إليه باعتبارها خروجا عن المبادئ والحقائق.

ويوضح تقرير (فى محفوظات قصر عابدين) - أن مكتب رئيس الديوان الملكى اتصل بحسن رفعت (باشا) وكيل وزارة الداخلية، يسأل عن موعد سفر «فؤاد سراج الدين» (باشا) ومرافقيه إلى نيويورك، وبعد إجراء التحريات اللازمة عاد «حسن رفعت» (باشا) إلى رئيس الديوان بجواب على سؤاله مؤداه: «إن التحريات أظهرت أن «النحاس» (باشا) وقرينته و«فؤاد سراج الدين» (باشا) أيضا يرتبون لقضاء شهر أغسطس فى «مونت كاتينى» (شمال إيطاليا) للراحة والاستشفاء!

والغريب أن «حسن رفعت» (باشا) أخطر السفارة البريطانية بنفس المعلومات مع إضافة زائدة لها معناها. وفى برقية السفارة (٣١٤٠ / ٦٢٩٧٦) يكتب السفير البريطانى السير «رونالد كامبل» ما نصه: «أبلغنا «حسن رفعت» (باشا) - وفى الغالب بإيحاء من القصر - أن «النحاس» (باشا) مسافر إلى أوربا وأن هناك عملاء سوفييت يحتمل أن يتصلوا به هناك، وأن هناك تيارات شيوعية قوية داخل الوفد». ويضيف السير «رونالد كامبل» أننى لست ميالا لتصديق ذلك، لكنه نظرا إلى تنامى قوة الجناح اليسارى فى حزب الوفد، فقد يكون من اللازم وضع «النحاس» (باشا) تحت مراقبة دقيقة خلال رحلته إلى أوربا».

وبالفعل فإن «النحاس» (باشا) وقرينته ومعهما «فؤاد سراج الدين» (باشا) سافروا إلى «مونت كاتينى»، وكان العذر الذى قدم لتفسير ذهاب «فؤاد سراج الدين» (باشا) إلى «مونت كاتينى» بدلا من نيويورك هو أن «النقراشى» (باشا) رفض السماح لممثلى الوفد بالسفر إلى نيويورك».



وذهب «النقراشى» (باشا) إلى نيويورك وعاد منها إلى القاهرة مرة أخرى يتعثر فى أزمات اشتد زحامها وزاد عنفها.

فقد واجهت وزارته إضرابا (قل أن تشهده دولة فى العصر الحديث) قام به البوليس المصرى، وكان غريبا على المواطنين أن يروا أقسام البوليس مغلقة، والضباط المسئولين عن الأمن ممتنعين عن العمل.

وأصبح الخوف مضاعفا حين اندفعت جماعة الإخوان المسلمين فى قلب هذه الفوضى لتقوم بعمليات تفجير ونسف لبعض المنشآت الأجنبية فى مصر (بما فيها دور للسينما ونواد).

كانت هناك أزمة داخلية لاشك فيها، والأخطر أن قضية فلسطين فى تلك اللحظة بالتحديد راحت تطرح نفسها بشدة على كل شعوب الأمة العربية، خصوصا مع إعلان الحكومة البريطانية أنها سوف تسحب قواتها من فلسطين مع انتهاء مدة انتدابها عليها مساء ١٤ مايو ١٩٤٨ - وتماشيا مع قرار تقسيم فلسطين الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩٤٧.



محمود فهمى النقراشى

وارتفعت فى العالم العربى أصوات تنادى بتدخل الدول العربية عسكريا لملء الفراغ فى فلسطين، وإلا استغلت الوكالة اليهودية الفرصة واحتلت بقواتها المجهزة أجزاء فلسطين المقررة لليهود بمقتضى قرار التقسيم، ثم توغلت وجارت على الجزء المخصص للدولة العربية فى القرار.

وكان الملك «فاروق» مع التدخل (وضمن أسبابه - مع التزامه العربى الواضح - رغبة خفية - ربما - فى الهرب إلى الأمام من مشاكل مصر الداخلية)، لكن رئيس الوزراء المصرى «محمود فهمى النقراشى» (باشا) كان معارضا للتدخل، ومنطقه «أن الجيش غير مستعد وأنه لا يريد أن يكشف ضعفه وإلا سقطت حجته أمام العالم، فقد أعلن أمام مجلس الأمن أن الجيش المصرى قادر على ملء الفراغ على قناة السويس إذا انسحبت القوات البريطانية من المنطقة. وإذا ظهر أن الجيش المصرى غير قادر على مواجهة «عصابات يهودية فى فلسطين» فكيف إذن نواجه العالم بادعاء أننا قادرون على الدفاع عن قناة السويس ضد قوى عالمية تطمع فيها؟».

لكن الملك حقق ما أراد واضطر رئيس وزرائه إلى تغيير موقفه (مطمئنا إلى تعهدات ملكية مضمونها أن لديه مصادر أسلحة وذخائر للجيش تكفيه لتحقيق هدفه، وكان التلميح واضحا إلى مصدر بريطانى على صلة بالملك.

وفى الواقع فإن تطمين الملك «فاروق» لرئيس وزرائه - لم يكن من غير أساس وذلك ما تظهره وثائق هيئة أركان الحرب الإمبراطورية من القيادة العامة للقوات البريطانية فى مصر، خصوصا فى الأيام ما بين ١٥ إلى ١٨ مايو ١٩٤٨.

● وبداية فإنه كان فى مقدور الحكومة البريطانية أن ترد مصر عن الدخول إلى فلسطين إذا كان ذلك مرادها.

● وثانيا فإن القوات المصرية مرت فوق كوبرى «الفردان» على قناة السويس، إلى سيناء، ثم إلى فلسطين وتحركت فى منطقة عسكرية بريطانية بغير اعتراض.

● وثالثا فقد حدثت واقعة غريبة مسجلة بتفاصيلها فى تقرير بتاريخ ٢١ مايو ١٩٤٨، ومؤدى الواقعة أن الطائرات المصرية أخطأت فى غارة جوية شنتها على مطار عسكرى وقد حسبته لإسرائيل، ثم اتضح أنه مطار بريطانى لا يزال عاملا فى النقب. وتسببت الغارة المصرية فى تحطيم ثلاث طائرات من طراز سبيت فاير، وفى قتل جنديين بريطانيين وإصابة أربعة، لكن الغريب فى الأمر أن السلطات العسكرية البريطانية أبلغت القيادة المصرية أنها سوف تكتم نبأ الحادث عن الصحافة البريطانية حتى لا يشوش على سمعة الطيران المصرى. وكل ما تطلبه لتسوية الموضوع اعتذار مكتوب للسجلات، والأغرب أن السلطات البريطانية ساعدت على صياغة الاعتذار بحيث يتبدى الخطأ مبنيا على أساس فنى مقبول.

وبالطبع فإن هذه الأجواء كان من شأنها تأييد تلميحات الملك بأن لديه اطمئنانا إلى ضمان، وبالتالى تشيع نوعا من التقبل لقراره بدخول الحرب على مستوى الوزارة وعلى مستوى قيادة الجيش! - ثم استحكم المأزق حين ظهر أن الملك «فاروق» وقع فى خديعة من نوع ما).

وكذلك بدأت حرب فلسطين وتوقفت وقامت دولة إسرائيل واحتلت ٧٨٪ من أرض فلسطين.

(وتلك قصة أخرى).

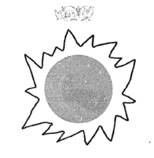
ووسط معارك تشتعل بهدير المدافع، وتخمد بقرارات دولية تفرض على الأطراف هدنة بعد هدنة - كان النظام الخاص للإخوان المسلمين يتحرك فى الداخل المصرى: يحرض ويلقى القنابل ويهاجم المنشآت. وأصدر «النقراشى» (باشا) قرارا بحل جماعة الإخوان المسلمين.

ويوم ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨، قامت القوات الإسرائيلية باختراق الحدود المصرية، وطوقت قيادة الجيش الميدانى المصرى فى العريش. وفى القاهرة دوت طلقات وسقط رئيس الوزراء «محمود فهمى النقراشى» (باشا) مضرجا بدمه أمام مصعد وزارة الداخلية (وكان مسئولا عنها إلى جانب رئاسته للوزارة). وكان القاتل عضوا فى التنظيم الخاص للإخوان صدر إليه الأمر بالقتل انتقاما من «النقراشى» على أساس مسئوليته عن حل الجماعة، وقد ارتدى القاتل «عبد المجيد أحمد حسن» بذلة ضابط بوليس وانتظر رئيس الوزراء فى مدخل وزارة الداخلية وأطلق النار عليه.

واجهت وزارة «النقراشى» إضرابا (قل أن تشهده دولة فى العصر الحديث) قام به البوليس المصرى، وكان غريبا على المواطنين أن يروا أقسام البوليس مغلقة، والضباط المسئولين عن الأمن ممتنعين عن العمل!!



> خلال رئاسته للديوان الملكى - سنة كاملة - قابل «إبراهيم عبدالهادى» (باشا) الملك «فاروق» مرتين لم تزد إحداهما عن نصف الساعة، وأما بقية المدة كلها فقد كان تعامله عن طريق «كريم ثابت»، وأحيانا عن طريق «محمد حسن» المكلف بالخدمة الخاصة لجناح «فاروق» الشخصى



الرصاصة السابعة: حسن البنا

فبراير ١٩٤٩

وتكرر المشهد مرة أخرى فى مصر، فمن قبل - ويوم مصرع رئيس الوزراء «أحمد ماهر»، تقرر أن يخلفه «محمود فهمى النقراشى»، ونفس الشيء تكرر عندما اغتيل «النقراشى»، ووقع الاختيار على خلفه السابق فى الحزب «إبراهيم عبد الهادى» (باشا) رئيسا للوزراء. ولم يكن «إبراهيم عبد الهادى» فى الحزب عندما اغتيل رئيسه يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٤٩، وإنما كان الملك قد استعاره من «النقراشى» رئيسا للديوان، متصورا أنه بذلك يقيم جسرا مع رئيس الوزراء دون أن يضطر للتعامل معه مباشرة فى أى قرار، لأن رأسه ناشفة والملك يريد بديلا له ولا تساعده الظروف، لأن أى خطوة غير محسوبة فى هذا الاتجاه قد تفتح الطريق لعودة الوفد.

وكانت تجربة «عبد الهادى» (باشا) فى القصر محزنة، فالرجل جاء من خارج الدائرة الملكية وعومل فى القصر على أنه «غريب» و«دخيل»، والمزعج أنه باعتراف «إبراهيم عبد الهادى» (باشا) نفسه - أنه خلال رئاسته للديوان الملكى - سنة كاملة - قابل الملك «فاروق» مرتين لم تزد إحداهما عن نصف الساعة، وأما بقية المدة كلها فقد كان تعامله عن طريق «كريم ثابت»، وأحيانا عن طريق «محمد حسن» المكلف بالخدمة الخاصة لجناح «فاروق» الشخصى.

وكان «حسن يوسف» (باشا) تلك الأيام شبه معتزل، فقد ضايقه فى الغالب أن الملك لم يفكر فى ترقيته من قائم بأعمال رئيس الديوان إلى رئيس مكلف به رسميا، وبدلا من ذلك جاء بإبراهيم عبد الهادى (باشا) لشغل المنصب، بعد أن ظل خاليا بعد مصرع «أحمد حسنين» (باشا).



ودخل «إبراهيم عبد الهادى» (باشا) إلى رئاسة الوزارة ولديه مهمتان هما أساس تكليفه:

● المهمة الأولى إيجاد طريقة للتعامل بسرعة، وبأى وسيلة مع الاختراق الإسرائيلى للحدود المصرية وتطويق قيادة الجيش الميدانى فى العريش.

وكان «عبد الهادى» (باشا) قد أراد الاستعانة بالإنجليز، لكنهم طرحوا عليه سؤالا بما إذا كان يطلب مساعدتهم على أساس ترتيبات الدفاع المشترك الواردة فى معاهدة سنة ١٩٣٦ - وتوجه الملك بنفسه ووراءه «عبد الهادى» (باشا) إلى الحكومة الأمريكية، وتدخل الرئيس الأمريكى «هارى ترومان» بالفعل لتحقيق انسحاب يعقبه اتفاق على هدنة تمهد للسلام، وكذلك جرى التمهيد له تحت رعاية الأمم المتحدة (يمثلها الدكتور «رالف بانش» وهو أمريكى أسود يعمل مساعدا للسكرتير العام للأمم المتحدة) وتقرر بالفعل أن تكون هناك محادثات علنية لاتفاقية هدنة فى جزيرة رودس.

● وأما المهمة الثانية فهى الانتقام لمقتل «النقراشى» (باشا) والأخذ بثاره، وقد أحس الشيخ «حسن البنا» أنه مُطارد ومطلوب، وحاول إصدار بيان بإدانة اغتيال «النقراشى» (باشا)، نشره فعلا بعنوان اختاره الشيخ بنفسه «ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين»، كما أبدى استنكاره لما جرى من تحول النظام الخاص للإخوان المسلمين عن المهمة التى أنشئ من أجلها، وهى قتال الإنجليز إلى مهمة لا علاقة لها بالإنجليز وهى اغتيال رئيس الوزراء المصرى.



حسن البنا

....

....

[وشاءت مصادفات أن ألتقى أكثر من مرة بالأستاذ «حسن البنا» فى تلك الظروف، وأن يطلعنى على بيان أعده ليسلمه إلى «عبد الرحمن عمار» (بك) وكيل وزارة الداخلية لينقله إلى رئيس الوزراء. (وكان الأستاذ البنا يرغب فى نشر البيان كاملا فى أخبار اليوم، وفى تلك الظروف رأيت الرجل واستمعت إليه ساعات طويلة.]

....

....

لكن محاولات الأستاذ «البنا» كلها لم تصل لنتيجة ويوم ١٢ فبراير ١٩٤٩ دوى الرصاص فى القاهرة مرة سابعة، وسقط الشيخ «حسن البنا» غارقا فى دمه على حافة سيارة تاكسى، استوقفها أمام جمعية الشبان المسلمين حيث كان لتأخذه إلى بيته، وبدلا من ذلك فإن سيارة التاكسى هرعت به إلى قصر العينى، وهناك تبين أن الرجل لم يفارق الحياة بعد. لكن المشرف على عملية الاغتيال وهو القائمقام «محمد وصفى» (بك) قائد حرس الوزارات أمر بتعقبه و«التخليص عليه» حيث هو، تنفيذا للأوامر (الملك «فاروق» ورئيس الوزراء «إبراهيم عبد الهادى»).

(وقد آثر القائمقام «محمد وصفى» أن يطلق رصاص مسدسه على رأسه وينتحر - عندما عرف فيما بعد فى أعقاب ثورة يوليو - أن سره انكشف، وأن هناك أمرا صدر بالتحقيق معه على أساس وثائق تم ضبطها فى أوراق القسم المخصوص للبوليس السياسى).

....

....

وكان طوفان الثلوج الذائبة قد وصل إلى المنطقة مثقلا بعوالق دم من معارك الحرب العالمية الثانية. وفى مصر بدا أن هذا الطوفان الزاحف قد تحول إلى مستنقع دم تفور وسطه فتن مصرية داخلية يفرقع على سطحها دوى الرصاص!





شوقى ضيف

ورثت الثقافة العربية فى القرون الإسلامية الأولى الثقافات العالمية الهندية والفارسية واليونانية، وابتدأ ميراثها للثقافة الهندية الرياضية فى زمن مبكر، إذ أخذت عنها أرقام العدد، وأضافت إليها الصفر وكان لذلك أثره البعيد فى نظام العدد العالمى، إذ عُرفت فيه العشرات والمئات والآلاف. ونقل الغرب النظام العربى للعدد عن الأندلس إذ نزل به جربرت الذى تقلد البابوية باسم سيلفستر الثانى فى القرن العاشر الميلادى وعرف نظام الأرقام العربية الإسبانية ونقله إلى الغرب وأدخله فى مدارسه، ونقل الغرب النظام العربى للعدد، وشاع فى كل بلدانه، ودفعهم إلى إنشاء بنوكهم وأسواقهم المالية، ولولا العرب وما أخذه الغرب من أرقامهم ما كانت بنوك ولا أسواق مالية فى العالم إلى اليوم.

وقدم وفد هندى فى خلافة المنصور العباسى فى منتصف القرن الثانى الهجرى وفيه رجل ماهر فى معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر أعمالها على مذهب كتاب هندى لهم يسمى جزؤه الأخير «سيد هانت» فأمر المنصور بنقل الكتاب إلى اللغة العربية، ليتخذه العرب أصلاً فى حساب حركات الكواكب، وظل العرب يعملون به إلى أيام المأمون إذ نُقل إليهم كتاب بطليموس فى الحساب والجداول الفلكية المسمى المجسطى فعملوا به. وأمر المنصور بنقل كتب أرسطو إلى العربية ونقل كتاب الأصول لإقليدس وهو فى الأشكال الهندسية أمهاتها ومركباتها.



ومنذ هذا التاريخ أكبَّ العرب على ترجمة الثقافة اليونانية وجميع ما تحمله من علوم وفلسفة. وأسس الرشيد دار الحكمة ووظف بها طائفة كبيرة من المترجمين وخاصة لكتب الثقافة اليونانية وجُلبت كتب كثيرة من بلاد الروم وعمورية وأنقرة، وتبلغ هذه الموجة الجادة للترجمة أقصى غاياتها فى عهد المأمون وعرف أن فى جزيرة قبرص مكتبة تحتفظ بنفائس الكتب الفلسفية والعلمية اليونانية. فالتمس من حاكم قبرص أن يرسلها إليه، فأرسلها، وعهد المأمون إلى طائفة كبيرة من المترجمين فنقلوها إليه.. واستأذن ملك بيزنطة فى أن يرسل إليه وفدًا من كبار المترجمين ليحملوا إلى بغداد روائع الكتب اليونانية، وأجابه إلى ذلك. وأقام المأمون مرصدًا كبيرًا لعلم الفلك وزيجاته، فازدهر هذا العلم الهندى لعهده، وكان من القائمين عليه محمد بن موسى الخوارزمى واضع علم الجبر الذى يفتتح به فى بغداد عصرًا جديداً فى الرياضيات، وعُنى علماء العرب حينئذ بعلم الكيمياء واستعانوا فيه بالترجمة عن اليونانية، وظلوا يزدادون فيه علمًا حتى نبغ فيه جابر بن حيان، فخلف فيه كثيرًا من النظريات فى الإكسير وخواصه، وهو المؤسس الأول لعلم الكيمياء عند العرب. وكان يوحنا بن ماسويه يعكف على تشريح القردة ويعد المؤسس للأبحاث الطبية عند العرب، وكانوا قد أكبوا على ترجمة ما لأبقراط وجالينوس من بحوث طبية ونقلوها إلى العربية.

ونمضى بعد المأمون فنجد الخلفاء يغدقون على المترجمين من اليونانية إغداقًا كبيرًا ويكفى أن نذكر ما أغدقه المتوكل على حنين بن إسحق كبير المترجمين من اليونانية حتى سنة ٢٦٤ للهجرة وقد أهداه ثلاث دور وحمل إليها كل ما تحتاجه من الأثاث والفرش وأقطعه بعض الإقطاعات وجعل له راتبًا شهريًا خمسة عشر ألف درهم.

ووراء الخلفاء أثرياء كانوا يعدون أنفسهم حماة للترجمة والمترجمين وينفقون عليهم أموالاً طائلة مثل ثلاثة إخوة من بنى شاكر وكان اثنان منهم يشغفان بالهندسة وكتبها ويشغف الثالث بعلم الحيل (الميكانيكا).

وكوَّن حنين بن إسحق مدرسة كبيرة للترجمة كان من تلاميذها ابنه إسحق وابن أخته حبيش وغيرهما.

ويذكر لحنين أنه ترجم من اليونانية نحو مائة كتاب ورسالة وكان يعنى أشد العناية بالكتب الطبية اليونانية لجالينوس وغيره، وكان مثله ابنه بينما كان ابن أخته حبيش يعنى بترجمة الكتب الفلسفية لأرسطو وغيره، وجعل المتوكل لحنين طائفة من شباب المترجمين يكتبون بين يديه، ويمرنهم على إتقان الترجمة الدقيقة، ومنهم اصطفن بن باسيل اليونانى الأصل مترجم كتاب ديسقوريدس فى النبات والصيدلة لزمن المتوكل.

وتكاثر المترجمون فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى عن اليونانية كثرة مفرطة، وأكبوا على المأثورات الإغريقية العلمية والفلسفية ينقلونها إلى العربية وكادوا لا يبقون كتابًا لليونان بدون ترجمة أو بدون شرح أو تلخيص حتى ليظن أن جميع كتب اليونان المهمة ترجمت إلى العربية فى القرنين الثانى والثالث للهجرة. ومن يرجع إلى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة تهوله الكثرة الغامرة مما ترجم من عشرات الكتب والرسائل اليونانية.



ولما أوشكوا على الانتهاء من نقل التراث اليونانى العلمى والفلسفى أخذوا يراجعون نقل أسلافهم له، وما وجدوه يستحق



شوقى ضيف

تكاثر المترجمون ـ فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى ـ عن اليونانية كثرة مفرطة، وأكبوا على المأثورات الإغريقية العلمية والفلسفية ينقلونها إلى العربية وكادوا لا يبقون كتابًا لليونان بدون ترجمة أو بدون شرح أو تلخيص حتى ليظن أن جميع كتب اليونان المهمة ترجمت إلى العربية فى القرنين الثانى والثالث للهجرة



المراجعة وإعادة النقل أعادوه، وهذا هو السر فى أننا نجد بعض الكتب يذكر لها أكثر من مترجم، حتى عند بعض المترجمين الكبار لدى الأسلاف مثل ثابت بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨ للهجرة، فقد نقح ترجمة كتاب أرسطو فى النبات من عمل إسحق بن حنين، ونقَّح نقله لكتاب أصول إقليدس فى الأشكال الهندسية ويقول ألدو مييلى صاحب كتاب العلم عند العرب: إن هذا التنقيح يصلح الأصل اليونانى فى غير موضع. ونلتقى بعده مباشرة بخاتمة هذا العصر من المترجمين: متى بن يونس، وكان من أصل يونانى ونقَّح جميع الكتب المنسوبة إلى أرسطو فى المنطق وغيره.

وبذلك ينتهى عصر نقل التراث اليونانى العلمى والفلسفى المزدهر إلى الثقافة العربية، بحيث أصبح جزءًا لا يتجزأ منها، وبحيث يتم العرب ما كان له من ازدهار فى ديارها إذ كان قد أخذ منذ القرن الثالث الميلادى فى الانهيار والتدهور ولم يعد شىء منه معروفًا إلا فى ركن منعزل فى أوروبا ببيزنطة وفى مصر بالإسكندرية، وكان يعانى فيهما مما أصابه من التدهور الشديد، أما فى أوروبا فقد كانت الثقافة اليونانية مجهولة جهلاً تامًا، فلم يكن يعرفها الإيطاليون والفرنسيون والإنجليز والألمان ولا أحد من أوروبا الغربية والشرقية مما وراء بيزنطة يعرفها، إنما يعرفون فقط ما يستمعون إليه من التعاليم الدينية المسيحية على لسان الرهبان والأساقفة، وما قد يقرءونه عندهم من كتب الإيمان المسيحى وحياة القديسين، وليست لهم أى صلة بالثقافة اليونانية وعلومها وفلسفتها التى بلغت غاية الازدهار عند أرسطو، بينما كان العرب ينقلون إلى ثقافتهم فى القرنين الثامن والتاسع للميلاد الثقافة اليونانية، بكل أصولها وفلسفتها وعلومها، وهو أول فضل للعرب على الغرب المسيحى واحتفاظهم له بالثقافة اليونانية، وأضافوا إلى هذا الفضل فضلاً ثانيًا بما زودوا الفلسفة اليونانية والعلم اليونانى به من زاد وَفْرٍ فى النمو والتطور مما يعد معجزة للعرب بجانب المعجزة اليونانية، وانتفع الغرب عن طريق المعجزتين ويبنى عليهما ثقافته وحضارته الحديثة.

ونقف أولاً عند الفلسفة، فقد احتفظ لها أصحابها باسمها اليونانى، وهو الفلسفة، وأضافوا إليه صفة عربية تميزه، هى الإسلامية، لأنها تمزج بين الفلسفة والإسلام، وأول فلاسفة العرب الكندى يعقوب بن إسحق وهو عربى أصيل من قبيلة كندة، وعاش فى القرن الثالث حتى أواخر العقد السادس، وله كتب ورسائل تعد بالعشرات، وتبلغ فى كتاب الفهرست لابن النديم نحو مائتين وأربعين، وتتناول الإلهيات والعلوم الرياضية والهندسية والفلكية والجغرافية والطبيعية والمنطق وهو أول فيلسوف إسلامى وفَّق بين الفلسفة والإسلام وله فى إثبات النبوة كتاب. وكان يرى أن العالم محدث مخالفًا بذلك أرسطو القائل إنه قديم، وأهم نظرية فلسفية له نظريته فى أن العقل مصدر المعارف وتقسيمه إلى عقل فاعل هو الله جل جلاله، وعقل بالقوة فى داخل الإنسان، وعقل بالملكة هو عقل الإنسان بعد حصول المعلومات فيه وعقل مبين يؤدى للغير معقولاته.

ويقول ألدو مييلى إن دى كريمونا الإيطالى كبير المترجمين فى إسبانيا بالقرن الثانى عشر ترجم للكندى كثيرًا من كتبه، وأن لها تأثيرًا عميقًا فى الشعوب اللاتينية الأوروبية.

ونلتقى بعد الكندى بفيلسوف إسلامى كبير هو الفارابى المولود فى فاراب من بلاد الترك وراء خراسان ويقال أنه فارسى، وتلقى فى نشأته علوم الأوائل، وشغف بها فى بغداد، وأكبَّ على كتبها واستوعبها، وأخذ يحاضر فيها عن فهم دقيق وبصيرة وعُنى بشرح كتب أرسطو فى علم المنطق وغيره وقارن بين الفلسفة والإسلام وذهب إلى أن كل موجود إما واجب الوجود وإما ممكن، والله وحده.. هو واجب الوجود وما عداه ممكن الوجود، ولا جنس له ولا تركيب فيه ولا يمكن حدَّه إذ لا يتحيز فى مكان. ونوَّه بالعقل طويلاً، وقال إن الله فيض عنه منذ الأزل مثاله وهو العقل الأول الذى يفيض عنه الفلك. ولروعة أعماله سمَّاه معاصروه المعلم الثانى بعد أرسطو، ومن كتبه البديعة «فصوص الحكم» ولخص فى أوراق منه فلسفته واتخذه ماكس هورتن موضوع دراسة ضخمة، وعنى بوضع موسوعة للعلوم فى عصره سماها «إحصاء العلوم» ترجمها إلى اللاتينية ديتريشى ودى كريمونا الذى ترجم له رسالته فى المدينة الفاضلة وفيها يحاول وضع نظام دولة مثالية، وللدكتور إبراهيم مدكور عنه دراسة قيِّمة، وكانت وفاته سنة ٣٣٩ للهجرة.

وجاء بعده الفيلسوف الإسلامى العظيم ابن سينا المولود بالقرب من بخارى سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م والمتوفى بهمذان سنة ٤٢٨هـ.

أكبَّ فى فواتح حياته على إيساغوجى وإقليدس فى الهندسة والمجسطى فى الفلك، واستغلقت عليه الإلهيات حتى قرأ فيها كتابًا للفارابى فاتضحت له. وتمتزج الفلسفة عنده بالروح الإسلامية، ولقب بالشيخ الرئيس. وينحو فى فلسفته نحو الفارابى، ويتفق معه فى الإلهيات وتفاريع علم المنطق، وكان يرى ـ مثله ـ أن المادة لا تصدر عن الله، لأنه منزه عن كل مادة وجسم، وكان يرى أن الله لا يصدر عنه إلا عقل واحد، وعن هذا العقل يصدر عقل يدير الفلك، وخطا بفلسفته الإسلامية خطوة نحو التصوف.

وأهم كتب ابن سينا الفلسفية كتاب «الشفاء» وهو دائرة معارف كبرى فى المنطق والطبيعيات والميتافيزيقا أو الإلهيات، ويذكر ألدوميلى ترجمة له وترجمة أقسام منه إلى اللاتينية فى العصور الوسطى، وبالمثل عنوا بترجمة كتاب النجاة ودراسته، وهو تلخيص كامل لكتابه «الشفاء»، وأيضًا بكتابه «الإشارات والتنبيهات» وترجم إلى الفرنسية سنة ١٨٩٢. ومما شغل به الغربيون من كتبه كتابه فى الرمد باسم «علاج العين». ولم يكن ابن سينا فيلسوفًا إسلاميًا فقط، بل كان أيضًا طبيبًا عظيمًا، ومعجمه فيه الذى سماه «القانون» شاعت طبعاته فى المدن الغربية شيوعًا كبيرًا حتى ليقال أنه طبع بالغرب فى القرن الخامس عشر ست عشرة طبعة، وطبع فى القرن السادس عشر عشرين طبعة وأول مترجميه دى كريمونا فى القرن الثانى عشر، وتشغل ترجمته ومؤلفاته وترجماتها عند ألدو مييلى ثلاث عشرة صفحة.

ونضم إلى الفلاسفة الإسلاميين الثلاثة السابقين فيلسوف الأندلس فى إسبانيا ابن رشد أهم فلاسفتها، وقد وضع شروحًا مطولة ومتوسطة وموجزة لكثير من مؤلفات أرسطو.

وكل شروحه تُرجمت إلى اللاتينية، وترجم إليها أيضًا كتابه «تهافت التهافت» الذى يرد فيه على كتاب الغزالى «تهافت الفلاسفة» مدافعًا بحرارة عن الفلسفة وأرسطو، كما ترجم كتابه «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» ويريد بالحكمة الفلسفة، ومن قوله فيه: «الحكمة أى الفلسفة صاحبة الشريعة وأختها الرضيعة، وهما مصطحبتان بالطبع ومتحابتان بالجوهر والغريزة، والفلسفة تخاطب الخاصة والدين يخاطب العامة». وحاول أن يوفق بين أرسطو وعلماء الإسلام بالقول بقِدم العالم وحدوثه، فقال إن قِدمه بالقوة وحدوثه بالفعل وهو قديم محدث معًا، ومنذ نقل دى كريمونا الإيطالى وميشيل سكوت الإنجليزى (١٢٣٥م) وهرمان الألمانى (١٢٧٢م) أعماله أخذت تدرَّس فى الجامعات الأوروبية بإسبانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وإنجلترا وانتشرت أفكاره الرشدية على الرغم من مقاومة رهبان الدومينيكان، ولفلسفته وتعاليمه أنصار كثيرون وكان لأفكاره أثر كبير فى قيام حركة التحرير والإصلاح الدينى فى النهضة الأوروبية، وهو يعد بحق خاتمة الفلاسفة الإسلاميين العظام.

فى أوروبا كانت الثقافة اليونانية مجهولة جهلاً تامًا، فلم يكن يعرفها الإيطاليون والفرنسيون والإنجليز والألمان ولا أحد من أوروبا الغربية والشرقية مما وراء بيزنطة يعرفها، إنما يعرفون فقط ما يستمعون إليه من التعاليم الدينية المسيحية على لسان الرهبان والأساقفة

وقد جعل ألفونس السابع (١١٢٦ـ ١١٥٧) طليطلة فى إسبانيا المركز الذى تنتشر منه الثقافة العربية فى أنحاء إسبانيا وأوروبا، وقد دعا



إلى مدينته المترجمين من أنحاء الغرب، وأدخل الثقافة العربية في مناهج المدارس المسيحية يساعده في ذلك أسقف طليطلة رايموندو الذى حفز مدرسة المترجمين الطليطليين على نقل المؤلفات العربية في الفلك والرياضيات والطب والكيمياء والطبيعة وما وراء الطبيعة وفلسفة أرسطو وشروح الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد، وترجمت مؤلفات إقليدس وبطليموس وأبقراط وجالينوس بشروح أعلام العرب وبلغت طليطلة الذروة في عهد ألفونس الحكيم (١٢٥٢ - ١٢٨٤) وهرع إليها المتعطشون إلى مناهل العلم اليونانى والعربى من أمثال سكوت الإنجليزى الذى ترجم بعض كتب أرسطو ولابن سينا والبطروجى وكتب ابن رشد وشروحه على أرسطو إلى اللاتينية، ومثله هرمان الألمانى في كثرة الترجمة لكتب الثقافة العربية إلى اللاتينية، وقد نقل إليها كتب ابن رشد والفارابى.

وبجانب طليطلة ومدرستها الكبيرة في ترجمة الثقافة العربيةكانت مدرسة سالرنو في جنوب إيطاليا، وقد نشأت في القرن العاشر الميلادى، وأتيح لها في القرن الحادى عشر الميلادى قسطنطين الأفريقى من قرطاجة التونسية، وكان قد ثَقَّفَ العربية وعلوم الأوائل، وعرض على روجار الأول ملك صقلية ترجمة الكتب العربية، فشجعه، فرجع إلى تونس واختار له أنفس ما كتبه أطباؤها، كما اختار له روائع ما كتب العرب في الفلك والرياضيات، وكان قد أصبح أسقفًا، فأسس له ديرًا في جبل كاسينو بالقرب من سالرنو، فاغرى رهبان الدير بتعلم العربية وترجمة ما حمله من الكتب العربية، واشترك معهم في الترجمة، ودُرس ما ترجموه في مدرسة سالرنو ومنها نقل إلى الجامعات الأوروبية، وبذلك أصبحت مدرسة الترجمة في سالرنو مركزًا كبيرًا لنقل الثقافة العربية إلى الغرب منذ القرن الحادى عشر الميلادى.

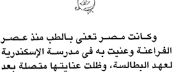
ونقل الغرب عن العرب علوم اليونان والأمم القديمة وما أضاف العرب إليها من نظريات علمية قيمة، وأبدأ بالرياضيات وبعلم الفلك من علومها، فقد صاغ لهم الفزارى في القرن الثانى الهجرى ما للهند فيه ولم يلبثوا أن نقلوا إلى لغتهم ما ذكره بطليموس الإسكندرى من نظريات الفلك وتنشأ عندهم مراصده منذ عهد المأمون وزيجاته وآلاته. ومن كبار علماء الفلك، في منتصف القرن الثالث الهجرى ابن كثير الفرغانى ويقول ألدو مييلى إن لكتابه أصول الفلك ترجمات كثيرة إلى اللاتينية وأثر تأثيرًا محسوسًا في الغرب وله كتب متعددة في الأسطرلاب، ومن الفلكيين بعده أبو معشر البلخى المتوفى سنة ٢٧٢ للهجرة، وله تأثير واسع عند مسيحيى الغرب في العصور الوسطى. ومن كبار الفلكيين في المشرق بعده البتانى في أوائل القرن الرابع الهجرى، وكان له مرصد على نهر الفرات وترجم زيجه إلى اللاتينية وضمنه أرصاد النيرين وإصلاحه لحركاتهما في كتاب بطليموس، ولنالينو كتاب عنه.



وينشط علم الفلك وكل ما يتصل بالرياضيات في جميع البلاد العربية. وخير من يصور ذلك في مصر أبو كامل شجاع بن أسلم في أواخر القرن الثالث الهجرى ويشتهر بتنقيحه لعلم الجبر، ويذكر ألدو مييلى أن له رسالة في المضلع ذى الزوايا الخمس ترجمت إلى الإيطالية والألمانية، مما يدل على أنه كان حاذقًا في الرياضيات والهندسة. ومن كبار علماء الفلك المصريين ابن يونس، ويقول ألدوميلى: كان راصدًا للفلك عالمًا رفيع المنزلة للظواهر السماوية، وبدأ يعمل زيجًا في عهد الخليفة العزيز الفاطمى وأتمه في عهد الخليفة الحاكم، وكان كبيرًا ويشغل أربعة مجلدات ضخام، ويدل على زيادة النشاط الرياضى بمصر والدراسات الفلكية والهندسية والفلسفية حينئذ أن عالمًا رأى في خزانة القصر الفاطمى سنة ٤٣٥ وكان بها في تلك الدراسات ستة آلاف وخمسمائة جزء وكرة نحاس من عمل بطليموس الإسكندرى.

واشتهر في عهد الأيوبيين قيصر بن أبى القاسم المتوفى سنة ٦٤٩ للهجرة وكان مهندسًا كبيرًا. وأقام لأمير حماة في الشام نواعير نهر العاصى، وتنحدر إليها المياه من علو شاهق إلى اليوم، وأنشأ كرة سماوية عظيمة وهى محفوظة إلى الآن في المتحف الوطنى لمدينة نابولى بإيطاليا. ويؤلف البيرونى سنة ٤٢١ كتابه القانون المسعودى في الفلك والتنجم ويقال إنه يتفوق على كل كتاب فيهما. وترجم إلى اللاتينية.

ويزدهر علم الفلك في الأندلس منذ مسلمة المجريطى في أواخر القرن الرابع الهجرى، ويفتتح سلسلة الرياضيين العظام هناك وترجم إلى اللاتينية شرحه لقبة الفلك لبطليموس ورسالة له عن الإسطرلاب. ومن كبار علماء الفلك هناك الزرقالى المتوفى سنة ٤٧٢، وله زيجات أو جداول فلكية واخترع للإسطرلاب أجهزة دقيقة وابتكر في الفلك نظرية جديدة عن كواكب السيارة والحركات الدائرية للنجوم، وأعماله مترجمة إلى اللاتينية ويشتهر بعده جابر بن أفلح الإشبيلى بكتابه في علم النجوم الذى سماه إصلاح المجسطى وترجمه دى كريمونا إلى اللاتينية. ويتالق اسم البطروجى في النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى بكتابه في علم الهيئة الذى قوَّض فيه نظرية بطليموس في كتابه عن الكواكب السيارة ذاهبًا إلى أنها تتحرك في مدارات إهليلجية أو بيضاوية حول الشمس، وكانت نظرية بطليموس قد ظلت تنتقل قرونًا بعد قرون وجيلاً بعد جيل إلى أن هدمها البطروجى، وترجم ميشيل سكوت كتابه إلى اللاتينية سنة ٦١٤هـ ١٢١٧م وبذلك أدخل نظرية البطروجى الفلكية مبكرًا إلى العالم الغربى، وبدون شك اطلع عليها كبلر الألمانى (١٥٧١ - ١٦٣٠م) وصاغ على أساسها نظريته الفلكية المشهورة في مدارات الكواكب السيارة وعُدَّ بها أبا لعلم الفلك الحديث، وهو ليس أباه الشرعى، فأبوه الشرعى البطروجى الإشبيلى العربى. ويلقانا في الهندسة الفضل بن حاتم وله شرح على كتاب الأصول في الهندسة ترجمه إلى اللاتينية دى كريمونا وله شرح على كتاب بطليموس في الفلك. وكما عُنى الغربيون بمباحث الهندسة العربية عنوا بعلم العدد وحساب المثلثات. ومن العلوم اليونانية التى نهض بها العرب نهضة كبيرة الطب وقد نقل العرب عن اليونان لبقراط وجالينوس كل ما ألفاه فيه من كتب ورسائل، وازدهرت دراسة هذا العلم عند العرب ازدهارًا عظيمًا، ومن أكبر أطبائهم محمد بن زكريا الرازى المتوفى سنة ٣٢٠ للهجرة رئيس بيمارستان بغداد وأهم كتبه في الطب كتاب الحاوى وهو موسوعة طبية ضخمة، وترجم كاملاً - وترجمت أجزاء منه - إلى اللاتينية، واستخرج منه مايرهوف ٣٣ ملاحظة إكلينيكية مهمة وفيه وصف لكثير من الأمراض، ومن أشهر مؤلفاته رسالة في الفروق بين الجدرى والحصبة، وهى بحث طبى عالمى وترجمت إلى اللاتينية واليونانية واللغات الحية. ويلى كتابه الحاوى في الشهرة كتاب المنصورى ترجم مرارًا في العصور الوسطى وعصر النهضة، وطبع الجزء الأول منه الخاص بالتشريح طبعة فرنسية، وترجم بروند القسم الخاص بالرمد.



وكانت مصر تعنى بالطب منذ عصر الفراعنة وعنيت به في مدرسة الإسكندرية لعهد البطالسة، وظلت عنايتها متصلة بعد احتراق مكتبة الإسكندرية، أجيالاً بعد أجيال، ونرى عمر بن عبد العزيز حين صار خليفة يستدعى منها طبيبه ابن أبجر، ويلزمه، كما نرى هارون الرشيد يستدعى منها طبيبًا مشهورًا لعلاج إحدى جواريه هو بليطيان، وكان بطريركا لها في القرن الثامن الميلادى، وكانت كثرة أمراض العيون في مصر سببًا في نبوغ أطبائها في الرمد، ولخلف الطولونى في القرن الثالث كتاب النهاية والكفاية في تركيب العينين وأدويتهما، وتالق اسم عمار بن على طبيب العيون في عهد الخليفة الفاطمى الحاكم، واشتهر بنجاحه في إجراء عملية ماء العين «الكاتاراكت» وابتكر لها الإبرة المجوفة التى تمتص ماء العين كما يقول ألدو مييلى، وله المنتخب في علاج أمراض العين. ومن الأطباء الكبار في مصر علاء الدين أبو الحزم بن نفيس القرشى المصرى في العصر المملوكى

بجانب طليطلة ومدرستها الكبيرة في ترجمة الثقافة العربية كانت مدرسة سالرنو في جنوب إيطاليا، وقد نشأت في القرن العاشر الميلادى، وأتيح لها في القرن الحادى عشر الميلادى قسطنطين الأفريقى من قرطاجة التونسية، وكان قد ثقف العربية وعلوم الأوائل، وعرض على روجار الأول ملك صقلية ترجمة الكتب العربية

طبيب الظاهر بيبرس المتوفى سنة ٦٨٧ وكان رئيسًا لأطباء مستشفى قلاوون واكتشف لأول مرة الدورة الدموية الثانية مسجلاً بذلك كشفًا طبيًا مهمًا، ويقول ألدو ميلي إن سرفيتو نقله عنه فى القرن السادس عشر كلمة كلمة. ومما يدل على شهرة مصر فى الطب أن نجد السلطان العثمانى يرسل فى سنة ٧٩٥ إلى السلطان برقوق المملوكى رسالة يسأله فيها أن يرسل إليه بطبيب مختص بأمراض المفاصل، وأرسل إليه رئيس الأطباء ابن صغير ومعه أدوية كثيرة لعلاجه.

ويزدهر علم الطب فى الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الناصر فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى، ولا يلبث هذا الازدهار أن يتوّج بالزهراوى أبى القاسم خلف بن عباس طبيب ابنه المستنصر المتوفى سنة ٤٠٤ للهجرة وهو أعظم الأطباء الجراحين من العرب، وله موسوعة طبية فى ثلاثين جزءًا سماها «التصريف لمن عجز عن التأليف» وجعلها ثلاثة أقسام: قسمًا فى الطب العام والأمراض، وقسمًا فى الصيدلة، وقسمًا فى الجراحة، أرفق به صورًا كثيرة لآلاتها. وتُرجم جميعه وأجزاء منه إلى الغرب مرارًا، وانتشرت ترجماته فى البلدان الأوروبية، ويقول ألدو ميلى إنه نال أسمى درجات التقدير فى أنحاء أوروبا، وظل يدرس فى جامعاتها من القرن الحادى عشر الميلادى إلى القرن السابع عشر كما ظل الأطباء فى الغرب يعدونه إمامهم فى جراحة العظام وحصاة المثانة وتفتيتها وعمليات الفتق والدوالى، وبذلك يعد أبًا للجراحة العالمية كما عد البطروجى أبًا لعلم الفلك وابن رشد أبًا لحركة التنوير الفكرى فى الغرب. ومنذ القرن الخامس الهجرى تشتهر أسرة بنى زهر باطبائها، مثل عبد الملك الذى طبع كتابه التيسير فى الغرب مرارًا ويقول ألدو ميلى: يعد عبد الملك أعظم طبيب إكلينيكى عند العرب ولابن رشد فى الطب كتابه الكليات وفيه يعرض التشريح ووظائف الأمراض وأعراضها والأدوية وعلاجها، وطبعاته تكررت فى الغرب.



وكما ازدهر الطب عند العرب ازدهرت الصيدلة منذ ترجمة كتاب ديسقوريدس فى الحشائش والأدوية، ويشتهر كتاب فيها لسابور بن سهل فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى، وتكثر الصيادلة شرقًا وغربًا، وتشغل الصيدلة القسم الثانى من كتاب الزهراوى السالف، ويشتهر فيها بالقرن السادس الهجرى كتاب الغافقى الأندلسى عن الأدوية المفردة فى العقاقير وقد ترجم إلى اللاتينية. وأهم صيادلة العرب على مر العصور ابن البيطار الأندلسى الذى جعله السلطان الكامل الأيوبى رئيسًا للصيادلة بمصر، وأهم كتبه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» وبه «٣٣٠» دواء عن اليونان والعرب وزاد عليها ٣٠٠ دواء، وترجم إلى الفرنسية والألمانية.

وترجم مبكرًا إلى العربية كتاب الأصول لإقليدس فى الأشكال الهندسية ودفع إلى نشاط كبير فى علم الهندسة وللكندى فيه كتاب ترجمه دى كريمونا إلى اللاتينية، وله ترجمة فرنسية، ويقول ألدو ميلى إنه أثر تأثيرًا ملحوظًا فى: بيكون وَوايتلو. ومن كبار الرياضيين وأهمهم أبو الوفا البوزجانى المتوفى سنة ٣٨٨، ويقول ابن خليكان هو أحد الأئمة المشهورين فى علم الهندسة، وله فيه استخراجات عربية لم يسبق بها ويقول فيه ألدو ميلى: شارح إقليدس وبطليموس عالم أصيل رفيع المنزلة ويقترن اسمه بتنمية حساب المثلثات والمسائل الهندسية. وأعظم المهندسين الرياضيين عند العرب الحسن بن الهيثم البصرى نزيل القاهرة والمتوفى بها سنة ٤٣٠ وقد ظل بها ثلاثين سنة، وفيها ألف كتابه «المناظر» فى علم الضوء والعدسات وفيه يذهب إلى أن الضوء ينشأ من المرئيات لا من العين، كما كان يظن سابقوه، ويدرس ظاهرة الانكسار الجوى والرؤية المزدوجة بالعينين، وهو أول من استعمل الغرفة المظلمة وتحدث ألدو ميلى عن ترجماته وعمَّن تُعَدّ مؤلفاتهم مقتبسة من كتابه البصريات أو مأخوذة منه.

وفى القرن الحادى عشر الميلادى استدعى الملك روجار الثانى ملك صقلية من غرناطة إلى بالرمو عاصمته الشريف الإدريسى ليؤلف له كتابًا جغرافيًا، ويقول ألدو ميلى إنه من علماء العرب الذين اشتركوا فى نقل كنوز العلم العربية إلى الغرب واستجاب لروجار، وظل عنده، وألف له كتابه الباهر: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، وألحق به كرة فضية تزن ثمانمائة أوقية رسم عليها خريطة الأرض وأقاليم شعوبها المعروفة مثبتًا عليها خطوط الطول والعرض لأول مرة فى الخرائط العربية ويقوم الكتاب من الخريطة مقام الشرح والتكملة، وهما بحق كما يقول ألدو ميلى عملان علميان باهران نقلا إلى الغرب كما نقلت الأعمال الباهرة السابقة لأعلام العرب فى العصور الوسطى، وانتفعوا بها انتفاعًا عظيمًا.

ولعلى فى هذه الكلمة الموجزة أكون قد أوضحت تأثير الثقافة العربية فى الثقافة الغربية الحديثة وما أتمت للعلم العالمى من اكتمال دوره الثانى إذ رعته ونمته صورًا متنوعة من النمو وطورته أطوارًا شتى انطلق الغرب بها ينشئ للعلم العالمى دوره الثالث للنهوض بالثقافة الغربية الحديثة.■

كتاب الزاوية

حالة حصار (٣)

أيُّها الواقفون على العَتَبات ادخلوا،

واشربوا مَعَنا القهوةَ العربيَّةَ

(قَدْ تَشْعُرونَ بأنّكُم بَشَرٌ مثلنا)

أيُّها الواقفونَ على عَتَباتِ البيوت،

اخرجوا من صباحاتنا،

نطمئنَّ إلى أنَّنا

بَشَرٌ مثلكُمْ!

نجدُ الوقتَ للتسلية:

نلعب النَرْدَ، أو نتصفَّحُ أخبارَنا

فى جرائدِ أمسِ الجريحِ،

ونقرأ زاويةَ الحظّ: فى عامِ

ألفينِ واثنينِ تبتسمُ الكاميرا

لمواليدِ بُرجِ الحصارْ

* * *

كُلُّ مَوْت،

وإنْ كان مُنْتَظَراً،

هُوَ أَوَّلُ موت

فكيف أرى

قمراً

نائماً تحت كُلِّ حَجَرْ؟

الحمَّامات فى ألف ليلة وليلة

محمد عبدالرحمن يونس

يبدو الحمّام فى ألف ليلة وليلة جنة مصغرة، وفضاء مليئًا بالمتعة، ولذا كان قبلة لشخوص ألف ليلة وليلة: الملوك والوزراء والأمراء الأثرياء والتجار وكبار القوم. وهو فضاء مهم يكاد يضاهى فضاء القصر، بل يفوقه فى بعض الأحيان

يُعتبر الحمّام من أهم الفضاءات المعمارية فى المدينة العربية الإسلامية، كونه يؤدى دورًا وظيفيًا فى خدمة المسلم، من حيث نظافته وطهارته، تمهيدًا لأداء واجب دينى مهم يأخذ طابع القداسة، وهو فرض الصلاة الذى فُرض على كل مسلم ومسلمة فى المدينة الإسلامية. وقد كثرت الحمّامات «فى المدينة الإسلامية كثرة واضحة، ونظمت سلطات المدينة إنشاءها وما يتصل بذلك من تزويدها بمصادر الماء وقنوات الصرف»[1].

ويمكن عد الحمّام مظهرًا حضاريًا من مظاهر الحياة فى المدينة الإسلامية، فالقرآن الكريم والسنة النبوية يحضّان على ضرورة النظافة الشخصية، والاهتمام بالوضوء والاستحمام واستعمال السواك، وتقرر السنة النبوية أن على المسلم أن يستحم مرة على الأقل فى الأسبوع، وبخاصة فى يوم الجمعة. وقد أوصى الرسول الكريم محمد ﷺ المسلمين بالاستحمام فى مناسبات معينة: بعد الجنابة والجماع وفى يوم الجمعة، وعند الحجامة، وبعد غسل الميت. ونظرًا لأهمية الحمّامات، فقد حث رجال السلطة فى المدينة الإسلامية على بنائها. وكان بعض الحمّامات فى المدينة الإسلامية لا يبنى إلا بإذن من والى المدينة، ففى مدينة البصرة كان يتعين على من يبنى حمّامًا أن يأخذ إذنًا رسميًا من الوالى، حتى يستطيع البناء[2].



وقد ارتأى المعمار الإسلامى أن تبنى الحمّامات مجاورة للمساجد، فعلى سبيل المثال: كانت أكثر حمّامات مدينة البصرة العراقية قائمة بجوار مساجدها. وعلى مستوى التشكيل المعمارى الهندسى، فقد عمد المعمار الإسلامى إلى إضفاء طابع الأبهة والفخامة على الحمّامات، إذ أُنشئت «لهذه المرافق واجهات ضخمة وزخارف فخمة، واستخدمت فيها أحدث أساليب الإنشاء وأدق الحيل الفنية المعروفة»[3]. إلا أنه من الملاحظ أن الأساليب المعمارية فى إنشاء الحمّامات الإسلامية ليست إسلامية صرفًا، فهذه الحمّامات مثلها مثل المنشآت العمرانية الإسلامية الأخرى، كالقصور والمنازل الكثيرة وقباب المساجد، متأثرة بالأساليب المعمارية للحضارات التى سبقت الحضارة الإسلامية، وتزامنت معها فى آن. فالحمّام الإسلامى وإن كان مؤسسة اجتماعية صحية إسلامية بالدرجة الأولى، إلا أنه «من حيث البناء والتقليد متأثر بالحمّام الرومانى السابق له».

ولقد حرص المعماريون الإسلاميون على أن تكون الحمّامات فضاء جماليًا تستريح إليه نفس من يدخله، إذ جعلوها كثيرة الأضواء، ومرتفعة السقوف، عذبة المياه، طيبة الرائحة. لأن أبخرة الحمّامات رديئة وكثيرة. ومن مهمة هذه السقوف المرتفعة أن تعين على تخفيف حر أبخرتها. وقد ذكر أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)، فى رحلته المعروفة برحلة ابن جبير، أن حمّامات بغداد كانت «مطلية بالقار مسطحة به، فيُخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل، وحمّامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم، لأن شأنه عجيب، يجلب من عين بين البصرة والكوفة».

وعلى مستوى التخطيط المعمارى الداخلى للحمّامات فى المدينة الإسلامية، فقد كان الحمّام، وبشكل عام، يتألف من ثلاث حجرات: باردة ودافئة وساخنة. فالباردة تطل على الفناء الخارجى، والدافئة تتوسط بين الباردة والساخنة، وماؤها أقل حرارة من الساخنة، أما الساخنة فهى التى يتم الاستحمام بها، وتعلوها قبة قليلة الارتفاع مثقوبة بعدة ثقوب، يكسوها زجاج ملون، من مهمته أن يُضفى على الحجرة جوًا جماليًا مشعًا، لأن أشعة الشمس تنفذ منه، وتشع فى الحجرة عاكسة ألوان الزجاج المختلفة. وكان الماء الساخن يجرى من القدور الساخنة إلى أحواض المياه الموجودة فى الحجرة. وتحتوى الحجرة الدافئة فى بعض الحمّامات على حوضين مائيين، أما الساخنة ففيها أربعة أحواض وجرن، ومغطس مفروش بالرخام.

لقد كانت الحمّامات فى المدينة الإسلامية خاصة وعامة، وكانت الخاصة مقصورة على أفراد السلطة الأثرياء جدًا، إذ من غير المعقول أن يخرج هؤلاء إلى حمّامات العامة كلما احتاجوا إلى الاستحمام، نظرًا لمكانتهم السلطوية العالية. وقد اعتاد خاصة الناس، من أفراد السلطة السياسية، وبعض التجار الأثرياء جدًا، على بناء هذه الحمّامات داخل قصورهم. أما العامة فإنهم لم يألفوا الاستحمام فى منازلهم على الرغم من كبر بعضها. ويذكر الفقيه ابن الحاج الفاسى (أبو عبد الله محمد العبدرى، ٧٣٧هـ/١٣٣٦م) أن «الواحد يشترى الدار أو يبنيها بنحو الألف. ولا يعمل بها موضعًا للوضوء أو للغسل».

وتشير الدراسات إلى أن سلطات المدن الإسلامية أشادت الحمّامات العامة، نظرًا لوظيفتها الدينية من جهة، ونظرًا لاستحالة أن يحتوى كل بيت من البيوت العامة على حمام خاص به، لأن الكثير من هذه المدن كانت تقع فى مناطق أقرب إلى الجفاف الجغرافى ولقد درت هذه الحمّامات العامة على مالكيها أرباحًا كثيرة، نظرًا لكثرة مرتاديها. وها هو أحد أصحاب الحمّامات فى مدينة البصرة يُصرح بمقدار دخله من حمامه قائلاً: «إنى أغتل من حمامى هذا فى كل يوم ألف درهم وطعامًا كثيرًا». وقد كثرت الحمّامات العامة فى المدينة الإسلامية، وعُرف عن بعض هذه الحمّامات أنها كانت طائفية. فعلى سبيل المثال شهد العصر الفاطمى (٢٩٧ - ٥٦٧هـ/٩٠٩ - ١١٧١م) حمّامات خاصة بالمسلمين وأخرى بالطائفة اليهودية، وثالثة خاصة بالنصارى.



وتشير الإحصائيات فى الأدبيات التاريخية إلى أن المدينة الإسلامية كانت غاصة بالحمّامات العامة، وتثبت أرقامًا لا يُستغرب أن يكون فيها كثير من المبالغة. فيذكر ابن خلدون[4] (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م) نقلاً عن الخطيب البغدادى (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧١م)، أن الحمّامات العامة بلغ عددها فى مدينة بغداد، وتحديدًا فى عهد المأمون ابن هارون الرشيد، خمسة وستين ألف حمام. ويذكر أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبى (ت٢٨٣هـ/٨٩٧م)، أن الجانب الشرقى فى بغداد وحده، كان به فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، خمسة آلاف حمام. وجاء فى تاريخ بغداد للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى أنه كان بمدينة بغداد فى القرن الرابع الهجرى عشرة آلاف حمام. ويذكر تقى الدين أحمد بن على المقريزى أن أقل عدد للحمّامات فى بغداد كان فى أيام الخليفة العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ/١١٧٩ - ١٢٢٥م)، إذ بلغ نحو الألفى حمام. وقد حدد على بن الحسن بن عساكر (ت ٥٧٠هـ/١١٧٥م) فى أيامه - فى القرن السادس الهجرى - عدد حمّامات دمشق بسبعة وخمسين حمّامًا. ويذكر جمال الدين بن حسن بن عبد الهادى المعروف بابن المبرد (ت ٩٠٩هـ/١٥٠٣م)، أن عدد حمّامات دمشق وأحيائها التى كانت قائمة فى عهده تقدر بحدود المائتى حمام، وقد روى المقريزى عن ابن عبد الظاهر أن حمّامات مصر (الفسطاط، والعسكر، وأطلال القطائع) قد بلغت فى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م نحو ثمانين حمامًا، فى حين أنها بلغت فى عهده (أى عهد المقريزى، ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) ألفًا ومائة وسبعين حمامًا.

إن هذه الأرقام مؤشر واضح على أهمية الحمّامات العامة فى المدينة العربية الإسلامية، باعتبارها تؤدى خدمات كثيرة لعدد كثير من أفراد المدينة الإسلامية الفقراء الذين لا يستطيعون بناء حمّامات خاصة فى دورهم.

هذا وقد سجلت بعض الأدبيات الإسلامية ما قيل فى الحمّامات من أوصاف وأشعار، ونقتطف منها ما يأتى: «قيل للفضل الرقاشى صف الحمّام. فقال: نعم البيت الحمّام، يُذهب القشاف، ويُعقب النظافة، ويهضم الطعام، ويجلب المنام، وينفى الغضب، ويقضى الأرب». ووصف أحدهم حمامًا خاصًا يمتلكه أحد أولاد الوزراء بمدينة بغداد، قائلاً: «فطاف بى (أى سائس الحمّام) وأبصرت مياهه وشبابيكه وأنابيبه المتخذ بعضها من فضة مطلية بالذهب وغير مطلية وبعضها على هيئة طائر إذا خرج منها الماء صوّت بأصوات طيبة، ومنها أحواض رخام بديعة الصنعة والمياه تخرج من سائر الأنابيب إلى الأحواض ومن الأحواض إلى بركة حسنة الإتقان، ثم منها إلى البستان، ثم أرانى نحو عشر خلوات، كل خلوة «منها» صنعتها أحسن من صنعة أختها».



بعد هذا المدخل ننتقل إلى أهم المقاطع السردية فى حكايات ألف ليلة وليلة التى ذكرت الحمّام، وسجّلت بعضًا من أخباره، وأخبار جواريه الحسان، والشخوص الداخلين إليه.

يبدو الحمّام فى ألف ليلة وليلة جنة مصغرة، وفضاء مليئًا بالمتعة، ولذا كان قبلة لشخوص ألف ليلة وليلة: الملوك والوزراء والأمراء الأثرياء والتجار وكبار القوم. وهو فضاء مهم يكاد يضاهى فضاء القصر، بل يفوقه فى بعض الأحيان. ولأنه فضاء من فضاءات المتعة فإنه يجب أن يكون على درجة عالية من الزخرفة الجمالية. وهذه هى حال حمام التاجر الثرى (أبو محمد الكسلان). إذ يذكر الراوى أن ضيوف أبى محمد الكسلان دخلوا حمامه، «فرأوا حيطانه ورخامه من الغرائب وهو مزركش بالذهب والفضة وماؤه ممزوج بماء الورد». ولأن حمّامات المدينة الإسلامية عبر تاريخها كانت مزركشة، ومزينة بالصور، فقد امتنع بعض المسلمين المتشددين، فى بداية الأمر «عن دخول الحمّامات التى قامت فى مداخلها التماثيل وزينت جدرانها بالصور التى تنم عن الكبرياء والجبروت».

إن الحمّام فى ألف ليلة وليلة فضاء للانتعاش الجسدى، والترويح عن النفس، وهو أكثر الفضاءات التصاقًا بالحياة اليومية «وخاصة بأوجه المتعة فيها. إذ يتوقف عدد غير قليل من الحكايات عند الحمّام (العام) الذى يؤكد رواة الحكايات وشخصياتها أنه «زينة المدينة» وشرط أساسى من شروط اكتمالها».

وتتعدد وظائفه فى ألف ليلة وليلة، ولعل أهم وظائفه هى وظيفته التزيينية التجميلية للشخوص: الإناث والذكور، تمهيدًا لليلة الطقس الجنسى الأولى، وبخاصة عند النساء. فالعروس قبل أن تُزف إلى رجلها يجب أن تدخل الحمّام. وها هى السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد، عندما تزف إحدى جواريها إلى عشيقها، تامر بدخول هذه الجارية الحمّام - لا يذكر الراوى اسمًا لهذه الجارية - قبل أن يدخل عليها الزوج العشيق. يقول الراوى[5]: «فأرسلت السيدة زبيدة إلى القاضى والشهود وكتبوا كتابى عليها «على الجارية»، وبعد ذلك عملوا الحلويات والأطعمة الفاخرة ومكثوا على هذه الحال عشرة أيام أخرى، وبعد العشرين يومًا أدخلوا الجارية إلى الحمّام لأجل الدخول بها».

وللحمام قدرة سحرية على جعل المرأة المستحمة فيه جميلة مشعة، ومثيرة جنسيًا. ومن هنا نفهم لماذا كان رجال السلطة فى ألف ليلة وليلة يلجئون إلى إدخال الجارية الحمّام وتزيينها، قبل الصعود بها إلى قصر السلطان، وإهدائها له تقربًا منه، وكسبًا لمودته، واتقاء

لشره. يقول أحد النخاسين إلى أحد وزراء ألف ليلة وليلة: «خلها «أى الجارية» عندك فى القصر عشرة أيام حتى تستريح فيزداد جمالها. ثم أدخلها الحمَام وغسلها غسيلاً جيدًا وألبسها أحسن الثياب واطلع بها إلى السلطان فيكون لك فى ذلك الحظ الأوفر، فتأمل الوزير كلام النخاس فوجده صوابًا».

لقد كان دخول الجوارى الحمَام واجبًا مفروضًا عليهن، وذلك قبل أن يدخلن مقاصير ملوك ألف ليلة وليلة وأمرائها، ليشعلن طقوس الجنس والمسرات تقديسًا وولاء لهؤلاء الملوك والأمراء. وها هو أحد ملوك ألف ليلة وليلة يأمر خدمه وجواريه «أن يقوموا بخدمتها «أى خدمة الجارية المُحتال عليها والمجلوبة إلى قصره» ويدخلوها الحمَام ويجهزوا لها الحَلْى والحلل(...)، ثم ألبسوها حللاً من ملابس الملوك ووضعوا فى عنقها عقدًا من الجوهر، وساروا بها إلى الحمَام، وخدموها ثم أخرجوها من الحمَام كأنها بدر التمام. ولما وصلت إلى الملك سلمت عليه وقبلت الأرض بين يديه، فحصل للملك بها سرور عظيم». وها هو أحد تجار الرقيق، وبعد أن يشترى نزهة الزمان يُدخلها الحمَام، ويحضر لها إحدى البلانات لكى تقوم بتجميلها، أملاً فى أن يبيعها بسعر باهظ إلى أحد الملوك أو الأثرياء. يقول الراوى عن هذا النخاس: «ثم أدخلها الحمَام «أى أدخل نزهة الزمان» وأتى لها ببلانة، وقال لها: إذا فرغت من غسل رأسها فألبسيها ثيابها(...) فلما فرغت البلانة من تنظيفها ألبستها ثيابها(...) ثم أمرها التاجر أن تتزين بأحسن الزينة. ومشت ومشى التاجر قدامها. فلما عاينها الناس بهتوا فى حسنها، وقالوا تبارك الله أحسن الخالقين، هنيئًا لمن كانت هذه عنده».



وعبر تاريخها الطويل شهدت الحمَامات فى المدن الإسلامية تطورًا حولها إلى مراكز تجميل متخصصة، فبعد أن تخلع المرأة ملابسها فى المقصورة الملحقة بالحمَام، تمضى إلى غرفة البخار، ثم تأتى بعدها المدلكة أو البلانة لتنظيفها وتدليكها. إذ تقوم هذه البلانة بإزالة الشعر عن مختلف الأعضاء، مستعملة بذلك مرهمًا فعالاً مكونًا من الزرنيخ الأصفر والشمع، وأحيانًا تكتفى بالسكر المنعقد بالليمون. فالمرأة فى المدن العربية الإسلامية ـ ومنها بطبيعة الحال كثير من مدن ألف ليلة وليلة ـ كان عليها أن تتعرى أمام البلانة، لكى تدلكها وتزيل عنها الشعر. ومن هنا ليس غريبًا أن يندفع بعض الفقهاء فى المدينة الإسلامية، للنفور من الحمَام، واعتباره بؤرة للفساد. فجلال الدين عبد الرحمن السيوطى (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) قال إنه مكروه للنساء. أما الفقيه ابن الحاج فقد نصح معاصريه من العلماء بعدم السماح لنسائهم بدخول الحمَام «لما اشتمل عليه هذا الزمان من المفاسد والعوائد الرديئة». ويُروى عن رسول الله ﷺ أنه قال[٦]: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخلن الحمَام إلا بمئزر. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخلن حليلته الحمَام. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعدن على مائدة يشرب عليها الخمر، أو يدار عليها الخمر». أما الشاعر الفضل الرقاشى، بعد أن كان قد مدح الحمَام، كما أشير إلى ذلك سابقًا، عاد وعدَه هاتكًا للأسرار، وحارقًا كالنار، حين ذمه قائلاً: «بئس البيت الحمَام، يهتك الأستار، ويُؤلَف الأقذار، ويحرق كالنار».

إذا كان العرف الاجتماعى فى المدينة الإسلامية ألف دخول النساء الحمَام قبل أن يدخل أزواجهن عليهن، فإنه ألف أيضًا أن يدخل الرجال الحمَام ليستحموا ويتزينوا استعدادًا لطقوس الجنس. وفى حكايات ألف ليلة وليلة كانت المرأة السلطوية تطلب من خدمها أن يأخذوا عشيقها إلى

الحمَّام قبل دخوله عليها، ليتهيأ على أكمل وجه جمالي، استعدادًا لأن تشعل له بخور جسدها ومجامره. فزمرد الجارية، وبعد أن تتوجها المصادفات السحرية ملكة على إحدى المدن، وبعد أن تلتقي بعشيقها على شار بعد سنوات طويلة، تأمر بأن يدخلوه الحمَّام، ويزينوه، ويلبسوه أفخر الملابس. يقول الراوي: «ثم أمرت الحاجب أن يمضي به إلى الحمَّام ويلبسه بدلة حسنة من ثياب الملوك ويركبه فرسًا(...) ويمضي به بعد ذلك إلى القصر».



وقد لعب المفهوم الإسلامي دورًا أساسيًا في ضرورة التهيئة التي تقرب بين المحبين، فعلى الزوجة المطيعة والمخلصة، في المفهوم الإسلامي، أن تُرضي طموح زوجها الجنسي، وأن تهيئ له نفسها وجسدها أحسن تهيئة. وكان على الرجل أيضًا أن يستعد لمثل هذه التهيئة أحسن استعداد وبتهيئة مماثلة، حتى يجد لديها قبولاً واستعدادًا نفسيًا وفيزيولوجيا، وبالتالي يجعلها تحبه وتقتنع به بعلاً ولا تخونه في فراشه. يقول أحد الفقهاء: «... نعم إن التهيئة، مما يزيد في عفة النساء، ولقد ترك النساء العفة بترك أزواجهن التهيئة. ثم قال: أيسرك أن تراها على ما تراك عليه إذا كنت على غير تهيئة؟ قلت لا، قال: فهو ذلك، ثم قال من أخلاق الأنبياء (عليهم السلام): التنظيف والتطيب وحلق الشعر وكثرة الطروقة» وسُئل رسول الله ﷺ ما زينة المرأة للأعمى فقال[٧]: «الطيب والخضاب فإنه من طيب النسمة».

وتشير حكاية «الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان» إلى أن حمَّامات ألف ليلة وليلة - مثلها مثل حمَّامات المدينة الإسلامية في أوج ازدهارها - كانت فضاء تجميليًا بالنسبة للرجال أيضًا. إذ يتم بها تجميل الرجال وتنظيفهم وإزالة الشعر عن أجسادهم. وهي بهذا تؤدي للرجال الوظيفة التي تؤديها النساء. فالوقاد في الحكاية يأخذ الأمير ضوء المكان - الذي كان تائهًا وغريبًا في مدينة القدس - إلى الحمَّام ليزيل عنه هيئته الرثة، وينظفه. يقول الراوي: «فمضى إلى السوق «أي الوقاد» وأتى له بمكاري وأركبه حمارًا(...) ثم دخل معه الحمَّام وأجلسه في داخله ومضى إلى السوق واشترى له سدرًا ودُقاقًا، وقال لضوء المكان يا سيدي بسم الله أغسل لك جسدك. وأخذ الوقاد يحك لضوء المكان رجليه وشرع يغسل له جسده بالسدر والدقاق، وإذا ببلان قد أرسله معلم الحمَّام إلى ضوء المكان فوجد الوقاد يحك رجليه(...) فشرع البلان يحلق رأس ضوء المكان، ثم اغتسل هو والوقاد».

إذا كان من مهمة البلان في الحمَّامات الإسلامية، في ألف ليلة وليلة، تنظيف المستحم وإزالة الشعر عن جسمه، فإن على المستحم أن يكون شبه عارٍ أو عاريًا أمام هذا البلان، حتى يستطيع أن يؤدي وظيفته. ومن هنا فقد عاب الفقيه ابن الحاج على رجال عصره «كشف عاناتهم للبلان في الحمَّام لإزالة الشعر منها». ويبدو أنه كان لكل حمام في المدينة الإسلامية مدلك خبير في تدليك عضلات الجسم. ومع زيادة إقبال الرجال على الحمَّامات أُلحق بها «حلاق أو حجام، خبير في حلاقة الشعر، بواسطة أمواس مصقولة لامعة مضمخة بالطيب، وكان يبذل قصارى جهده للعناية باللحى فعليه غسلها وتقليمها وصبغها وتطييبها».

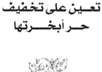


لقد لعب الحمَّام في ليالي ألف ليلة وليلة دورًا محرضًا ومثيرًا لشهوة الرجال والنساء، فهو فضاء حامل لأسباب الإثارة، ففيه الماء

الحمَّامات في ألف ليلة وليلة



حرص المعماريون الإسلاميون على أن تكون الحمّامات فضاء جماليّاً تستريح إليه نفس من يدخله، إذ جعلوها كثيرة الأضواء، ومرتفعة السقوف، عذبة المياه، طيبة الرائحة. لأن أبخرة الحمّامات رديئة وكثيرة. ومن مهمة هذه السقوف المرتفعة أن تعين على تخفيف حر أبخرتها



الساخن المنعش، وفيه روائح العطور، وفيه المدلكون الذين يبعثون النشاط والحيوية في الجسم. وتشير الليالي إلى أن النساء الخارجات من الحمَّام كن يظهرن ألقات شهيات مثيرات جنسيًا للرجال الهائجين الذين لا يستطيعون ضبط شهواتهم المتفجرة، فيندفعون طائعين وراء إغواء أجساد هاته النساء. ففي حكاية «علي نور الدين وأنيس الجليس»، تخرج جارية الوزير الفضل بن خاقان من الحمَّام متألقة، وقد «لبست الثياب الفاخرة فتزايد حسنها وجمالها». وعندما تسمع صوت ابن سيدها علي نور الدين الذي حذروها منه تخرج من مقصورتها لتشاهده، وعندما يشاهد جمالها الأخاذ يهتاج ويندفع معانقًا لها. يقول الراوي: «ثم إنها نهضت على قدميها وهي بأثر الحمَّام وتقدمت جهة باب المقصورة ونظرت إلى علي نور الدين فإذا هو صبي كالبدر في تمامه(...)، وإذا به تقدم من الباب، وفتحه ودخل على الجارية، وقال: أنت التي اشتراك لي أبي، فقالت له: نعم. فعند ذلك تقدم الصبي إليها وكان في حالة سكر وأخذ رجليها وجعلها في وسطه وهي شبكت يدها في عنقه واستقبلته بتقبيل وشهيق وغنج، ومص لسانها ومصت لسانه، فأزال بكارتها».



وإذا كان الراوي يقرن حالة الاغتصاب بفعل السكر، فإنه يمكن القول: إن أهم دوافع الاغتصاب، في بنيته العميقة، عائدة إلى شكل الجارية المثير جنسيًا بعد خروجها من الحمَّام، وقد زادها الحمَّام بهاء وألقًا. وتتكرر حالة اغتصاب الجارية المثيرة الخارجة من الحمَّام في حكاية «غانم بن أيوب وقوت القلوب». إذ يشاهد العبد بخيت ابنة سيده الصبية الجميلة - لا يذكر الراوي اسمًا لها - وقد خرجت معطرة من الحمَّام، وكأنها القمر في ليلة أربعة عشر، - بتعبير راوي الحكاية - فينفلت وحش جوعه الجنسي، وينقضّ عليها، ويغتصبها.

وليس غريبًا أن يصف الراوي وجه الصبية الخارجة من الحمَّام، بأنه كالقمر في ليلة أربعة عشر، هذا إذا عرفنا مدى مهارة مزينة الحمَّام، وخبرتها العميقة في فن تجميل وجوه زبونات الحمَّام، بعد انتهائهن من الاستحمام. فقد شهدت حمَّامات المدينة الإسلامية مزينات ماهرات في تجميل وجوه النساء، إذ كان وجه المرأة المستحمة يدلك بعناية، ثم يزال الشعر المتناثر عليه، ثم تبدأ التزيين بتبييض الأسنان بقشر البيض أو مسحوق الكربون، ثم تقوم المرأة بمضغ قشر الجوز أو الثامول لاحتوائه على رائحة طيبة ولقدرته على شد الشفاه والحنك بفعل طبيعته القابضة، وقدرته على أن يُضفي على اللثة لونًا قرمزيًا لطيفًا. ثم تنثر المزينة على وجه المرأة مسحوق الأرز الممزوج ببياض البيض، ثم تقوم بنزعه، وبعد ذلك تضع مسحوقًا قرمزيًا لإضفاء لون زهري على الوجنتين، ثم تزجّج المزينة حاجبي المرأة بمسحوق من البخور والقار والزرنيخ الأصفر. وأخيرًا يأتي دور العينين، إذ تُكحلان بالكحل الأصفهاني. وبعد هذه العملية التجميلية المعقدة تضفي المزينة آخر اللمسات الجمالية على وجه المرأة، بأن تستخدم مسحوقًا معطرًا، وتشكل به نقاطًا جميلة، أو رسومًا خاصة على الجفون أو على جانب الأنف، وأحيانًا في وسطه، وعادة ما يُنثر على الوجنتين. وللقارئ أن يتساءل بعد عملية تجميلية كهذه، أو مقاربة لها، كيف سيستطيع رجال مدن ألف ليلة وليلة الإسلامية وغير الإسلامية المهتاجون دائمًا، أن يضبطوا هيجاناتهم الغريزية؟

ولا يهتاج رجال ألف ليلة وليلة حين رؤيتهم للجواري المثيرات الخارجات من الحمَّام فحسب، بل يهتاجون وهم في فضاء الحمَّام الداخلي، وبعد أن يستحموا، وبعد أن تكون النساء الجميلات قد غادرن هذا الفضاء، نظرًا لانتهاء دورهن في الاستحمام. ففي حكاية «الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان»، يدخل أحد الحشاشين إلى حمام نظيف، ويستحم بالماء الساخن، ثم يخرج إلى الحوض البارد، وبعد أن يكون جسده قد انتعش بأجواء الحمَّام، يأخذ قطعة حشيش، وينام مستمتعًا بنظافة جسده. عندها يبدأ نشاط عقله الجامح، وتخيلاته صوب الثراء وامتلاك الجواري. ويغفو على وقع هذا النشاط، مستحضرًا العبيد وخدم الحمَّام، والمماليك، والثياب الجميلة وفوط الحرير، والبلان وهو يدلكه، والناس من حوله يخاطبونه مخاطبة الوزراء: «يا مولانا الصاحب»، ثم يخرجونه ويضعونه على فراش عظيم لا يصلح إلا للملوك، ويأتي إليه الغلمان ويكبسونه. وبفعل جو الحمَّام السحري المنعش رأى في منامه صبية «فباسها، ووضعها بين فخذيه، وجلس منها مجلس الرجل من المرأة».



إن الحمَّام في تخطيطه البنائي يثير في أذهان الداخلين إليه، رجالاً ونساءً، مزيدًا من التخيلات والأحلام اللذيذة، وبمجرد الدخول إليه «ينساب المرء في رواقه المتجه إلى أسفل حيث توقظ الغرف الدافئة عالمًا كاملاً من الأحلام، فالاندفاع في أروقته لهو الاندفاع نحو السخونة المتزايدة، ومن ثم الانعزال التدريجي عن العالم الخارجي بمساعدة انتشار البخار الساخن والبارد». ومن شأن البخار الساخن أن ينشط الدورة الدموية عند المستحم، وبالتالي يُنشط الجانبين النفسي والفيزيولوجي عنده، فيجد نفسه مثارًا، ومهتاجًا، ومندفعًا لتفريغ طاقاته النشطة، عندها تندفع أحلامه ورغباته صوب المرأة المُشتهاة، سواء أكانت هذه المرأة واقعية أم تخيلية.

وإذا كان من طبيعة فضاء الحمَّام الداخلي أنه عامل مساعد على تهييج النشاط الجنسي وإثارته عند الرجل والمرأة على حد سواء، فإن رجال المدينة العربية الإسلامية، وبخاصة رجال السلطة، عمدوا إلى إضفاء محفزات جديدة على هذا الفضاء، ليزداد قدرة على تعزيز النشاط الجنسي لدى الداخلين إليه. وتتجلى هذه المحفزات في الصور العارية التي شُوهدت في حمَّامات رجال السلطة، ملوك وأمراء ووزراء، فقد «انتقل التصوير إلى الحمَّامات فصوَّروا داخلها وخارجها وكانت هذه الصور ترمي إلى إثارة الغرائز الجنسية».

وتذكر المصادر أن بعض خلوات حمَّامات الطبقة الحاكمة في المدينة الإسلامية كانت مليئة بالمثيرات الجنسية، من صور النساء والرجال العراة المنقوشة بإتقان جمالي على أرضية الخلوة. وينقل المقَّري التلمساني وصفًا لإحدى هذه الخلوات الموجودة في حمام أحد أولاد الوزراء بمدينة بغداد العباسية، كان قد وصفه سائس هذا الحمَّام:

«ورأيت من العجائب في هذه الخلوة أن حيطانها الأربعة مصقولة صقالاً لا فرق بينه وبين صقال المرآة، يرى الإنسان سائر بشرته في أي حائط شاء منها، ورأيت أرضًا مصورة بفصوص حمر وصفر وخضر ومذهبة وكلها متخذة من بلور مصبوغ بعضه أصفر وبعضه أحمر(...) وتلك الصورة في غاية الحسن والجمال، على هيئات مختلفة في اللون وغيره، وهي بين فاعل ومفعول به، إذا نظر المرء إليها تحركت شهوته. وقال لي الخادم السائس: هذا صُنِع على هذه الصنعة لمخدومي، حتى إنه إذا نظر ما يفعل هؤلاء بعضهم من بعض من المجامعة والتقبيل ووضع أيدي بعضهم على أعجاز بعض تتحرك شهوته سريعًا، فيبادر إلى مجامعة من يحبه(...) وهذه الخلوة دون سائر الخلوات التي دخلت إليها «وهي» مخصوصة بهذا الفعل، إذا أراد «سيدي» الاجتماع في الحمَّام بمن يهواه من الجواري الحسان والصور

الجميلة والنساء الفائقات الحسن لم يجتمع به إلا في هذه الخلوة، من أجل أن يرى كل محاسن الصور الجميلة مصورة على الحائط ومجسمة بين يديه، ويرى كل منهما صاحبه على هذه الصفة».



إن للحمام وظيفة إعلامية مهمة بالنسبة للنساء الجميلات الداخلات إليه، وللغرباء الذين يقصدونه، لأنه فضاء مُباح لاستعراض جمال المرأة أمام زميلاتها، والتباهي عليهن بهذا الجمال، فعندما كانت تدخل المرأة المتفوقة جماليًا كان يشيع خبر جمالها فى أنحاء المدينة، فيعشقها الناس، وتُحاك الحكايات حولها، وترغب النساء المهمات فى المدينة فى مشاهدتها. وهذا ما حدث مع منار السنا زوجة الصائغ حسن البصرى التى تفوق نساء بغداد جمالاً، باعتبارها ابنة ملك جزائر واق الواق. فما إن تدخل هذه السيدة الحمّام، وتنزع ثيابها، حتى تتأملها نسوة الحمّام، وسرعان ما ينقلن أخبارها إلى بيوت بغداد. يقول الراوى: «وقامت وهيّأت حوائج الحمّام التى يحتاجان إليها، وأخذتها «أى أم زوجها حسن البصرى» وراحت إلى الحمّام فلما دخلت قلعت ثيابها فصارت النساء جميعًا ينظرن إليها ويسبحن الله عز وجل، ويتأملن فيما خلق من الصورة البهية، وصارت كل من جاءت من النساء على الحمّام تدخل وتتفرج عليها، وشاع فى البلد ذكرها وازدحمت النساء عليها وصار الحمّام لا ينشق من كثرة النساء اللواتى فيه».

ووفقًا لمنطق التجسس الذى يتحكم فى معظم العلاقات الإنسانية، فى مدن ألف ليلة وليلة بكل فضاءاتها، يصل خبر جمال منار السنا إلى قصر الخليفة هارون الرشيد بوساطة تحفة العوادة، جارية السيدة زبيدة. فما كان من السيدة زبيدة إلا أن أرسلت فى طلب هذه المرأة التحفة الجميلة. تصف الجارية تحفة العوادة منار السنا لسيدتها زبيدة قائلة: «يا سيدتى رأيت أعجوبة ما رأيت مثلها فى الرجال ولا فى النساء، وهى التى شغلتنى وأدهشت عقلى وحيرتنى حتى أننى ما غسلت رأسى! فقالت: ما هى يا تحفة؟ فقالت يا سيدتى رأيت جارية فى الحمّام (...) ما رأى أحد مثلها، لا قبلها ولا بعدها، وليس مثل صورتها فى الدنيا بأسرها». وعندما تحضر منار السنا إلى قصر الخليفة هارون الرشيد، لا تستطيع السيدة زبيدة، أمام هذه المرأة الجميلة، ضبط دهشتها وإعجابها الشديدين، فتقوم وتضم المرأة إلى صدرها تقديرًا لجمالها الأخاذ. مع ملاحظة أن نساء الخليفة والسلطة فى ألف ليلة وليلة قلّما يتنازلن عن مكانتهن السلطوية، ويحتضن المرأة القادمة إلى قصورهن، سواء أكانت جارية، أم وصيفة. غريبة، أم ضيفة عالية الشأن.

ويبدو أن السلطة السياسية فى مدن ألف ليلة وليلة كانت تبث الجواسيس فى الحمّامات، لينقلوا لها ما يجرى داخلها، وليبحثوا لها عن الأشخاص المطلوبين، من خلال علامات فارقة على أجسادهم. ففى حكاية «حاسب كريم الدين وملكة الحيّات»[8]، يُصاب الملك كرزدان بمرض الجذام الخطير، ويعجز أطباء المملكة جميعهم عن شفائه، فيستدعى المنجمين لاكتشاف سر مرضه. ويؤكد هؤلاء، من خلال كتب التنجيم، أن شفاءه يكون على يد شخص يُدعى حاسب كريم الدين، ولا يمكن العثور عليه إلا فى فضاء الحمّام، وبعد أن يتعرى، لأن بطنه سوداء كما يؤكد المُنجمون. عندها يبث وزير الملك جواسيسه فى حمّامات المدينة جميعها ليكتشفوا الشخص المطلوب وهو فى حالة استحمام، ثم يأخذوه إلى قصر الملك. يقول الراوى: «واجتمع عمال الحمّام وكل من كان فيه على حاسب كريم الدين وتكاثروا عليه، ونزعوا عنه الثياب «محبة واحتفاء به» وأدخلوه الحمّام، فبمجرد ما دخل الحمّام وقعد بجانب الحائط وسكب على رأسه من الماء، أقبل عليه عشرون رجلاً وقالوا له: قم أيها الرجل من عندك، فأنت غريم السلطان».

وعلى مستوى البنية الحكائية فى ألف ليلة وليلة، فإن الحمّام يلعب دورًا وظائفيًا ليكون أداة مساعدة على تنمية الوحدات السردية، ومن ثم ارتحالها إلى مدن أخرى تمهيدًا لبناء أحداث حكائية جديدة، كما فى حكاية «حسن الصائغ البصرى»، فدخول منار السنا الحمّام فى هذه الحكاية كان سببًا لنمو الوحدات السردية، وانتقالها إلى قصر الخلافة ببغداد. وكان فيما بعد سببًا لانتقال منار السنا إلى بلادها جزائر واق الواق. ثم أدى هذا الدخول إلى ارتحال زوجها حسن البصرى إلى واق الواق للبحث عن زوجته، وبالتالى أدى هذا الارتحال إلى تشكيل وحدات حكائية جديدة، وأحداث تخييلية مفعمة بالسحر والغرابة، وحروب الجان والسحرة فيما بينهم، فى واق الواق، ومن هنا يمكن القول: إن على كل حكاية من حكايات الأدب الشعبى «أن تخلق جديدًا فى داخلها بالذات، لكى تستطيع شخصياتها أن تعيش»، فالدخول إلى الحمّام فى الحكاية السابقة، هو الذى شكل الوظائف الجديدة التى تقوم بها الفضاءات المكانية الجديدة فى واق الواق، وهو الذى شكل الأبطال الثانويين الجدد الذين ساعدوا حسنًا البصرى، وقدموا له كل الوسائل المساعدة للوصول إلى هذه الفضاءات، لأن الحكاية بكل فضاءاتها المكانية «لم تُصنع قط إلا من الوظائف. فكل شىء فيها يحمل دلالته على مستويات مختلفة».

ويكون الحمّام فى بعض حكايات ألف ليلة وليلة فضاءً صحيًا يدخله الشخوص، احتفاءً بالشفاء من الأمراض الطويلة والمزمنة. فقد تعارفت المدن الإسلامية فى ألف ليلة وليلة، على أن تحتفى بشفاء أبنائها المرضى، من الملوك والأمراء والتجار، وبقية أفراد الطبقات الاجتماعية الأخرى، وذلك بأخذهم إلى الحمّام تعبيرًا عن فرحتها بشفائهم، وتفاؤلاً بهذا الشفاء. ففى حكاية «هارون الرشيد مع الصياد»، يقول أحد أبطال الحكاية لهارون الرشيد عن زوجته: «فلما مرضت مرضًا شديدًا فأحضرت لها الأطباء حتى حصلت لها العافية، فأردت أن أدخلها الحمّام».




إن للحمام فى ألف ليلة وليلة قدرة على تبديد الهموم والأحزان، فهو فضاء تدخله الشخوص - فى بعض الأحيان - لتنسى مصائبها، وتستعيد توازنها النفسى مع ذاتها، والاجتماعى مع مجتمعها وإلى الحمّام تدخل المرأة كئيبة ورثة، وتخرج منه مشرقة، وقد «ظهرت عليها آثار النعمة». وها هى قوت القلوب تُدخل عشيقها غانم بن أيوب، وأمه، وأخته فتنة، أحدَ حمّامات بغداد. وعندما يخرجون يبدون وقد تبددت أحزانهم، و«رُدّت إليهم أرواحهم».

وفى حكايات ألف ليلة وليلة تقترح العجائز على العشّاق المفجوعين فى حبّهم، وتطلعاتهم الجنسية، بعد أن فقدوا عشيقاتهم، أن يستعيدوا توازنهم العاطفى بالذهاب إلى الحمّام. وها هى إحدى عجائز الليالى تطلب من على شار أن يدخل الحمّام، ويقوى عزيمته بعد أن خطف الشطار جاريته زمرد التى أرقته طويلاً، نظرًا لمحبته الشديدة لها. وهنا يصبح الحمّام محفزًا سحريًا لهؤلاء الداخلين فيه، وقادرًا على إضفاء البهجة عليهم، ومدّهم بالقوة، والعزيمة الجديدة، التى تدفعهم للانتصار على فجائعهم.

ويصبح دخول الحمّام فى بعض الأحيان إيذانًا بانتهاء فترة العزاء والحزن على الأهل والأحباء الذين أخذهم هازم اللذات ومفرق الجماعات، بمفردات رواة ألف ليلة وليلة. ففى حكاية «تودّد الجارية»، يحزن أبو الحسن على وفاة والده التاجر البغدادى الثرى حزنًا شديدًا - لا يذكر الراوى اسمًا له - فيقيم العزاء فى بيته

الحمّامات فى ألف ليلة وليلة



يذكر ابن خلدون، أن الحمّامات العامة بلغ عددها فى مدينة بغداد، وتحديدًا فى عهد المأمون، خمسة وستين ألف حمام. ويذكر أحمد بن واضح اليعقوبى (ت٢٨٣هـ/ ٨٩٧م)، أن الجانب الشرقى فى بغداد وحده، كان به فى القرن الثالث الهجرى خمسة آلاف حمام

أيامًا وليالى طويلة، فيدخل عليه أصحابه ويأخذونه إلى الحمّام، ويقدمون له الطعام والشراب والجوارى الجميلات، وبذلك يُنهى طقس الأحزان ليبدأ طقس المسرّات والملذّات.

ويتزامن دخول الحمّام فى بعض حكايات ألف ليلة وليلة مع طقوس الاحتفاء بلقاء الأحبة والأصدقاء والأقرباء الذين باعدتهم الشخصيات الشريرة. ففى حكاية «سيف الملوك وبديعة الجمال»، يلتقى ساعد ابن الوزير فارس مع صديقه الحميم سيف الملوك ابن الملك عاصم بعد غياب طويل، واحتفاءً برجوع فارس يأخذونه إلى الحمّام، ويلبسونه الثياب الفاخرة.

وفى الحمّام يسترخى التجار المنكوبون، بعد أن تكون الرياح الهوجاء قد مزّقت أشرعة مراكبهم، وأغرقت بضائعهم، فهو بالنسبة إليهم فضاء للأمل والرجاء ونسيان المصائب والخسائر المالية، وإعادة المسرّات. فالسندباد البحرى فى السفرة السابعة تقذفه الأنواء إلى مدينة عظيمة بعد أن تحطمت سفينته، فينتشله سكانها، ويأخذه شيخها إلى الحمّام. يقول السندباد: «فسقطت بينهم وأنا مثل الميت من شدة الجوع والسهر والخوف، فتلقانى من بين هؤلاء الجماعة رجل كبير السن وهو شيخ عظيم، ورحب بى ورمى علىّ ثيابًا كثيرة جميلة، فسترت بها عورتى. ثم أخذنى وسار بى وأدخلنى الحمّام وجاء بالأشربة المنعشة والروائح الزكية».

إن الحمّام فضاء جمالىّ حرٌ لأنه يمنح الحرية لبعض النساء، فهو يسهم فى خروج المرأة من فضاء دار زوجها، ومن رتابته، ومن علاقاته المحكومة بمجموعة من القيم والضوابط العائلية، إلى فضاء الأسواق بحركتها التجارية، وصخبها الاجتماعى، وانفتاحها على شرائح اجتماعية عديدة، لأنه كان على النساء المتجهات إلى الحمّام فى المدينة الإسلامية، أن يدخلن الأسواق حتى يصلن إلى الحمّامات، لأن هذه الحمّامات كانت تقع وسط هذه الأسواق، وبجوار المساجد. وهناك فى الحمّام تتحرر المرأة من عبء الضوابط والأعراف السائدة فى منزل زوجها، إذ يسترخى جسدها وسط هالات من البخار، وتفرد روحُها أحلامها العريضة صوب كل ما لذ وطاب. ومن هنا فقد وعى بعض رجال ألف ليلة وليلة خطورة الخروج من المنزل إلى الحمّام، فحذروا نساءهم، ومنعوهن من الذهاب إليه، كما فى حكاية «حسن الصائغ البصرىّ»، إذ يمنع حسن البصرى زوجته منار السنا من الخروج من منزلها والذهاب إلى الحمّام، ويوصى والدته بأن لا تسمح لها بذلك.

وعمومًا يبقى الحمّام فضاءً أساسيًا وحضاريًا مهمًا فى مدن ألف ليلة وليلة. ونظرًا لأهميته، فإنه يجب أن تتوافر فيه عدة شروط. وها هى تودّد الجارية تحدد بعضًا منها عندما يسألها الطبيب الممتحن، وبحضرة الخليفة هارون الرشيد: «فأى الحمّامات أحسن؟». فتجيبه: «ما عذُب ماؤه واتسع فضاؤه وطاب هواؤه. بحيث تكون أهويته أربعة خريفى وشتوى وربيعى وصيفى». وحتى تتأكد فاعليته العلاجية صحيًا يجب ألا «يدخله شبعان». على حد تعبير تودّد الجارية. وهذا الرأى يتفق مع رأى بعض الفقهاء الإسلاميين الذين يؤكدون أن «دخول الحمّام على الشبع» يعدّ «من المهلكات». ويبدو أن على المستحم أن يكون دقيقًا فى مراعاة شروط دخول الحمّام والخروج منه حتى لا يصيبه الأذى والمرض. ففى حكاية «على نور الدين وأنيس الجليس»، يدخل الوزير الفضل بن خاقان، والد على نور الدين، الحمّام، ويخرج منه مبللاً بالعرق، فيصيبه الهواء، ويلزم الوساد، ويطول به السهاد، ويتسلل إليه الضعف، ويشهق شهقة ويموت. وإذا كان

الحمّامات فى ألف ليلة وليلة

يبدو أن السلطة السياسية فى مدن ألف ليلة وليلة كانت تبث الجواسيس فى الحمّامات، لينقلوا لها ما يجرى داخلها، وليبحثوا لها عن الأشخاص المطلوبين، من خلال علامات فارقة على أجسادهم

الراوى يريد أن يقول إنه على المستحم ألا يسرع بالخروج من الحمّام، وهو عرقان، بل يجب عليه أن ينتظر فى بهو الحمّام الخارجى فترة زمنية حتى يجف، وحتى لا يتعرض لتأثير التباينات الحرارية الكبيرة، بين فضاء الداخل المشبع بالحرارة، وفضاء الخارج الأقل حرارة، فإن هذا الرأى يبدو صائبًا على مستوى الصحة الجسدية، لأن هذه التباينات الحرارية التى يتعرض لها الجسم تسهم فى فقدانه لمناعته وقدرته على مقاومة الأمراض. فعلى المستحم، وحتى لا يُؤذى من هذه التباينات الحرارية أن يتدرج فى الخروج من الحمّام، وذلك من الغرفة الساخنة إلى الغرفة الباردة المسماة بـ«غرفة بيت أول»، وهناك فى الغرفة الباردة يقضى بعض الوقت فلا يغادر الحمّام مباشرة إلى الفضاء الخارجى معرضًا نفسه للهواء البارد.



وعلى الرغم من مهاجمة الفقهاء الإسلاميين المتزمتين للحمام، واعتباره فضاءً هاتكًا للأسرار، ومفسدًا لأخلاق النساء، وكاشفًا للعورات، فإنه يبقى فى رأى بعض المؤرخين والباحثين فضاءً لا غنى عنه فى حياة المدينة الإسلامية، فهو من أهم اللذات الأربع فى حياة المسلم. وإذا كانت الحياة مبهجة فى المجتمعات العربية، على الرغم من مآسى مواطنيها، واستبداد خلفائها وسلاطينها، فإن الفضل فى وجود هذه البهجة يعود إلى الحمّام.

ويشير بعض المؤرخين إلى أن الحمّام كان فضاءً ممتعًا للهو، إذ يلعب فيه الولاة ويتسابقون مع خدمهم فى الجرى. ولم يتوان بعض خلفاء الدولة العباسية فى توظيف الحمّام لإشباع نزواتهم الجنسية، والاحتيال على نساء زمانهم الجميلات، وإدخالهن الحمّام، ثم اغتصابهن.

هذه أهم وظائف الحمّامات فى المدينة الإسلامية وملامحها كما جاءت فى بعض نصوص ألف ليلة وليلة الحكائية، وبعض نصوص التراث العربى. وإذ أكتفى بدراسة هذه الوظائف والملامح، فلأنها القاسم المشترك بين جميع حكايات ألف ليلة وليلة التى احتفت بالحمّام، وشكلته، واعتبرته فضاءً مهمًا لنمو أحداثها، وحركة وحداتها السردية. ■

الهوامش

(١) عثمان، د. محمد عبد الستار :المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت العدد ١٢٨، الطبعة الأولى، ذو الحجة١٤٠٨م/آب (أغسطس)، ١٩٨٨م، ص٢٤٦.

(٢) البلاذرى، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م): من كتاب فتوح البلدان، اختار النصوص وقدم لها: د. شوقى أبو خليل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة ١٩٩٧م، ص٤٤٦.

(٣) جرابار، أوليج؛ وآخرون: تراث الإسلام، تصنيف جوزيف شاخت، وكليفورد بوزورث، ترجمة د. حسين مؤنس، ود. صدقى العمد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد الثانى عشر الطبعة الثانية، رمضان ١٤٠٨هـ/ مايو ١٩٨٨م. القسم الثانى من الجزء الأول، ص٢٩٠

(٤) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر «مقدمة ابن خلدون»، تحقيق وشرح: د. على عبد الواحد وافى، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، محرّم ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م: ٨٤٤/٢.

(٥) ألف ليلة وليلة، ١٤٢/١.

(٦) ابن الجوزى، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠١م): كتاب أحكام النساء، تحقيق: زياد حمدان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص٤٥.

(٧) عن/السعدى، صباح: الحياة الجنسية فى الإسلام، ص٣٤

(٨) نظرًا لأن طبعة دار مكتبة الحياة، وهى الطبعة التى اعتمدتها فى دراستى، لا تضع اسمًا لكل حكايات ألف ليلة وليلة، فقد وضعت اسمًا لكل هذه الحكايات التى اقتبست منها، معتمدًا أسماء أبطال هذه الحكايات، وأسماء بعض الشخوص الواردة فيها. وإن لم يكن بعض الرواة قد سموا أسماء أبطال الحكايات، فإنى اكتفيت بوضع إحدى صفات هؤلاء الأبطال، كأن أقول مثلاً: «حكاية خالد بن عبد الله القسرى مع الشاب الجميل»، وما شابه ذلك.

مؤامــــرة الانقــــلاب

■ ٤٨ ساعة فقط هزت أمريكا اللاتينية واحتبست خلالها أنفاس قادة منظمة أوبك. فقد عاشت «فنزويلا» خلال يومين (١١ - ١٣ أبريل ٢٠٠٢) أسرع انقلابين في التاريخ.

الانقلاب الأول «عسكري» أطاح بالرئيس «هوجو شافيز» المنتخب من الشعب عن طريق صناديق الاقتراع. والانقلاب الثانى «مدنى» أعاد الرئيس مرة أخرى إلى قمة السلطة وقيادة البلاد.

كانت لحظة جديدة ومختلفة في تاريخ عالمنا المعاصر والذى يتشكل على نحو آخر منذ سقوط حائط برلين واختفاء الاتحاد السوفيتى وانهيار المعسكر الاشتراكى.

عندما جاء جنرال المظلات «شافيز» إلى مقعد الرئاسة في فنزويلا، انقسمت الآراء حول الحدث.

فالفقراء هللوا لنجاحه وقد سحرهم خطابه الصادق الحماسى وشخصيته الجذابة وبرنامجه الانتخابى الذى تعهد فيه بإجراء إصلاحات جذرية هدفها تحقيق العدالة الاجتماعية وإحداث توازن طبقى من خلال حسن توزيع الثروة البترولية.

جزء من «الإنتلجنتسيا» راهن على التوجهات الاجتماعية للرئيس المنتخب، بينما رأى الجزء الآخر فيه.. زعيماً ديماجوجيا شعوبياً له ميول انتهازية.

أما طبقة الأغنياء ورجال الأعمال فقد اعتبروا «شافيز» مجرد نسخة مكررة من جنرالات أمريكا اللاتينية، الذين يحسنون التحدث للجماهير ويحبون مظاهر السلطان، وسرعان ما ينغمسون في نعيم الأبهة والفساد السياسى.. ناسين أحلام الفقراء.

بدت شخصية «شافيز» محيرة ومثيرة للتساؤلات، وباتت تجربته هي محك الحكم على أصالته أو زيفه.

الصحفيان روبرتو فيشيانو باستور وروبن مارتينيز، تتبعا «التجربة» باهتمام شديد، خلال ثلاث سنوات، ونشرا نتائج التجربة في كتاب صدر العام الماضى، قدما من خلاله تحليلاً عميقاً وموثقاً لتفاصيل التجربة، لأنها وضعت علامة فارقة في النظام السياسى الفنزويلى.

إن انتخاب «شافيز» كان تعبيراً عن إرادة جزء مهم من الجسم الاجتماعى وخاصة الفئات الشعبية المهمشة، والتى عانت من الفساد وانعدام المساواة والعدالة الاجتماعية نتيجة وجود نظام سياسى متجمد يقوم على تعددية مقيدة بقيادة حزب سياسى واحد يسيطر على السلطة منذ أربعين عاماً.

وهذا التجمد أحبط آمال الفقراء وحاصر أحلام الطبقة الوسطى وعطل من تحققها رغم توافر عدة فرص، لم يكتب لها النجاح بسبب غياب الرؤية والإرادة السياسية للنخبة الحاكمة. بينما تمكن شافيز، خلال ثلاث سنوات فقط، كما يروى المؤلفان.. من إجراء تغييرات سياسية واقتصادية ودستورية سريعة ومنظمة ووفقاً لبرنامج محدد، استطاع من خلاله تكوين «الكادر المدنى» الضرورى لمشروع الثورة السلمية وتحقيق الديمقراطية بالمشاركة.



كان رهان «شافيز» في نجاح برنامجه للتغيير على البترول وعلى المجتمع المدنى.

واعتمد في ذلك على تراث فنزويلا الطويل في تحقيق الاستقلالية والتحرر على الصعيد الداخلى وعلى المستوى الخارجى، وهو الجنرال المثقف الواعى بتاريخ بلاده، حيث تأثر منذ نعومة أظفاره بشخصية محرر أمريكا اللاتينية «الجنرال سيمون بوليفار» والذى خاض معارك ضارية مع كافة أنواع الاستعمار الخارجى، وقد غير شافيز اسم فنزويلا من «الجمهورية الفنزويلية» إلى «الجمهورية الفنزويلية البوليفارية» في إشارة موحية ولفتة تقدير أيضاً لمحرر أمريكا اللاتينية.

والشخصية الأخرى التى تأثر بها، كانت لوزير البترول الفنزويلى الشهير الدكتور «بيريس ألفونسو» أستاذ القانون ومؤسس منظمة أوبك.

وهو رجل صاحب رؤية يدرك مدى سيطرة الشركات البترولية العملاقة على سعر البرميل من البترول، وأن أى تغيير لهذا الوضع كان يستدعى قيام جبهة للدول المنتجة له. ويقول ألفونسو: كانت رؤيتى تعتمد على ضرورة التعاون والتضامن بين المنتجين من خلال كيان يحافظ على مصالحهم ويدافع عنها أمام جبهة الدول المستهلكة والاحتكارات البترولية.

ويقول ألفونسو: «إن الفكرة اختمرت في ذهنى بعد أن قام جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس وتصديه للاستعمار في تلك الفترة الحساسة من تاريخ العالم، فقد اكتشفنا إمكانية تحقق السيادة الوطنية على مواردنا لأول مرة».

وبالفعل كان ميلاد منظمة أوبك بالقاهرة عام ١٩٦٠ بعد عدة اجتماعات سرية بين ألفونسو وبين عبد الله الطريقى وزير النفط السعودى في نادى اليخت بضاحية المعادى جنوب القاهرة.

الرئيس شافيز عندما جاء للسلطة عام ١٩٩٨، تولى في نفس الوقت رئاسة منظمة أوبك، ولم يغب عن ذهنه الدور التأسيسى الذى لعبته «فنزويلا» في حياة المنظمة. وكان المشهد البترولى في منتهى الخطورة. فقد تدهور سعر البترول إلى ثمانية دولارات للبرميل، وتوقفت الكرة في ملعب جبهة الدول المستهلكة والتى تمكنت عبر آليات كثيرة من تكثيف درجة التعاون فيما بينها.. ومن خلال تفعيل جهود الوكالة الدولية للطاقة.. في حين تعثرت الأوضاع داخل منظمة أوبك لتفشى الغش في حصص الإنتاج وسيادة الروح الفردية في التكالب على الأسواق، ولم يعد هناك حد أدنى للتنسيق والتعاون من أجل موقف متماسك يحافظ على سعر عادل لبرميل البترول يغطى تكلفة الإنتاج مع هامش ربح يستوفى احتياجات برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية.



ويقول المؤلفان باستور ومارتينيز.. إن برنامج شافيز للتغيير اعتمد على عامودين أساسيين.. البترول والمجتمع المدنى، فلقد أدرك أن القضايا واحدة ومترابطة.. وسعر عادل لبرميل النفط يساهم في تحقيق التنمية.. ووجود مجتمع مدنى قوى يدعم نجاح التنمية.

بالنسبة للقضية الأولى، فإن السعر العادل للبرميل يجب أن يتعدى عشرين دولاراً، ويحتاج الأمر لخطة تحرك فعالة.. وبفضل ديناميكية شخصيته وتحركاته السريعة، قام «شافيز» بزيارات متعددة للمملكة العربية السعودية وليبيا والجزائر ونيجيريا وإندونيسيا والكويت والعراق والمكسيك والنرويج وروسيا.. داعياً إلى إعادة التضامن على مستوى منظمة أوبك وعلى صعيد العلاقة مع الدول المنتجة من خارج المنظمة.. ودافع بقوة عن ضرورة إيجاد سعر عادل لبرميل النفط واعتمد في خطته على تكوين ترويكا متفاهمة مع المملكة العربية السعودية والمكسيك تمثل المحرك الدافع للآخرين.

وبعد أن توصلت الترويكا لرؤية محددة فإنها طرحت إنشاء «آلية لسعر البرميل» تقوم على سعر مركزى وهو خمسة وعشرون دولاراً، وهو سعر عادل للطرف المنتج والطرف المستهلك. وهذا السعر يرتبط بمؤشر الإنتاج، فلو أن السعر ارتفع عن ذلك يقوم المنتجون أوتوماتيكياً بزيادة الإنتاج بمقدار ٥٠٠ ألف برميل.. وعلى نحو آخر، لو انخفض سعر البرميل عن اثنين وعشرين دولاراً، يقوم المنتجون بخفض الإنتاج أوتوماتيكياً بمقدار ٥٠٠ ألف برميل حتى يعود السعر لحالته الطبيعية.

في ذات الوقت «كان شافيز» يقوى من قواعد المجتمع المدنى في البلاد ويبنى الكوادر الضرورية لتيسيره والدفاع عنه لتدعم أسس الديمقراطية بالمشاركة، وليتمكن من تنظيم الجهود الشعبية والفئات القاعدية لتنفيذ برنامجه السياسى للتغيير والقضاء على الفساد بواسطة الثورة من أسفل.

والفكرة من مفهوم «المجتمع المدنى» أنه البوتقة التى تضم «المبادرات الذاتية والجماعية للمواطنين في إطار التنظيمات التطوعية الحرة التى تملأ المجال العام بين الأسرة والدولة ولتحقيق مصالح أفرادها ملتزمة في ذلك بقيم الاحترام والتراضى والتسامح والإدارة السليمة للتنوع والاختلاف».

وعندما أتى خريف عام ٢٠٠١ اتخذ «شافيز» عدة خطوات تنفيذية لبرنامجه عن طريق إصدار ٤٩ قانوناً جديداً، بمثابة عملية ثورية متكاملة على المستوى الدستورى تضمنت إجراء إصلاحات زراعية وإعادة هيكلة قطاع البترول وتقوية دور الدولة بالاشتراك مع المجتمع المدنى في إدارة عملية التنمية.

وبدأت شخصية «شافيز» ودوره التاريخى يثيران حفيظة وضيق الإدارة الأمريكية.. وإذا كانت الثورة من أسفل قد بدأت في فنزويلا.. فإن الثورة المضادة كانت تتهيأ للانطلاق ومن خلال عملية تآمرية شديدة الإحكام.

بدأت قصة الانقلاب الأول «العسكرى»



كان ميلاد منظمة أوبك بالقاهرة عام ١٩٦٠ بعد عدة اجتماعات سرية بين وزير البترول الفنزويلى ألفونسو وبين عبد الله الطريقى وزير النفط السعودى في نادى اليخت بضاحية المعادى جنوب القاهرة



Cambio Politico Y Proceso Consitituyente En Venezuela (1998 - 2000)

(التغير السياسى والدستورى في فنزويلا ١٩٩٨-٢٠٠٠)

برنامج الرئيس هوجو شافيز للتغيير السلمى)

تأليف: روبرت فيشيانو باستور وروبين مارتينيز

دار ألو للنشر - فالينسيا، أسبانيا سنة ٢٠٠١

الفاشل فى فنزويلا

عمرو كمال حمودة

بمقدمة استغرقت شهرين، عندما أجرى «الرئيس شافيز» تغييرات إدارية فى الصفوف الأولى لشركة «بتروليوس دى فنزويلا» وهى شركة البترول الوطنية المملوكة للدولة، عندما أزاح كبار الموظفين الذين طالبوا بضرورة إدخال استثمارات أمريكية فى الصناعة البترولية، وكانوا على تفاهم مع رئيس رابطة رجال الأعمال «بيدرو كارمونا» وله صلة صداقة وثيقة مع الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش.

بدأت الاحتجاجات من مجتمع رجال الأعمال تصل لمقر الرئاسة، ولم يثن ذلك الرئيس عن عزمه.. إلى أن قررت نقابة العمال الرئيسية فى فنزويلا بدعم من أصحاب الأعمال إعلان إضراب عن العمل تضامناً مع كوادر شركة «بتروليوس دى فنزويلا» مطالبين باستقالة الإدارة الجديدة التى عينها الرئيس «هوجو شافيز».

تحركت المظاهرات بفعل فاعل فى العاصمة كاراكاس وتبنت محطة تليفزيون محلية يملكها رجال أعمال بث بيانات وأخبار تحريضية ضد الحكومة.. وبدأ الاهتياج يعم الشوارع وحدثت مواجهات بين أنصار شافيز ومعارضيه أسفرت عن مقتل عشرة أشخاص وإصابة ٩٥ آخرين.. وإذا بالإدارة الأمريكية تعلن فى بكائية للمتحدث الرسمى لوزارة الخارجية عن دكتاتورية «شافيز» وتحطيمه للديمقراطية فى البلاد وشاركهم فى ذلك «بيدرو كارمونا» رئيس رابطة رجال الأعمال فى داخل فنزويلا..

ورغم تحالف اتحاد العمال مع رجال الأعمال فإن «الرئيس» كان ممسكاً بزمام السلطة، تدعمه جماعات المجتمع المدنى. ثم جاءت الخيانة من «الجيش».

بعض الجنرالات، اتضح فيما بعد تحالفهم الوثيق مع رابطة رجال الأعمال.. قاموا يوم ١١ أبريل بتمرد لطرد الرئيس المنتخب من الحكم.

ثم وقف الجنرال «لوكاس رينكون» القائد العام للقوات المسلحة أمام شاشات التليفزيون الحكومى ومن ورائه بعض قادة الجيش، ليعلن تخلى الرئيس عن الرئاسة بعد إجباره على الاستقالة.

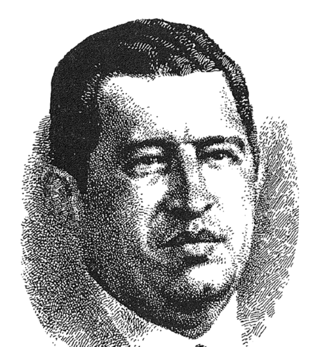
بعد ذلك تم اصطحاب «شافيز» إلى قاعدة «تيونا العسكرية» بضواحى العاصمة كاراكاس حيث احتجز هناك تمهيداً لمحاكمته والنظر فى أمره.

فى نفس الوقت ذهب «بيدرو كارمونا» إلى مبنى التليفزيون ليعلن والابتسامة تعلو وجهه، سقوط الدكتاتورية! وأنه سيرأس حكومة انتقالية، وأنه «يتحمل المسئولية أمام هذا البلد وأمام التاريخ».

وبعد ذلك أصدر عدة قرارات فورية:

* إيقاف العمل بالقوانين التى أصدرها «شافيز».
* إقالة رئيس البرلمان ورئيس المحكمة الدستورية العليا.
* إقالة المدعى العام ورئيس ديوان المحاسبات.
* طرد مجلس الإدارة الذى عينه شافيز لشركة بتروليوس دى فنزويلا.

وفى يوم ١٢ أبريل تحدث إلى الصحفيين الرئيس الجديد لقطاع التسويق فى شركة «بتروليوس دى فنزويلا» قائلاً بالحرف الواحد.. «إن الشركة ستتبع سياسة تصديرية جديدة وفقاً لاحتياجات السوق وليس وفقاً لحصة فنزويلا فى منظمة أوبك».. وقد أفزع هذا التصريح كافة منتجى النفط لأن من شأنه إشعال حرب أسعار بترولية وإغراق الأسواق بالبترول والعودة للمربع رقم واحد الكئيب الذى كانت عليه حالة السوق البترولية عام ١٩٩٨ عشية وصول «شافيز» إلى مقعد الرئاسة.



هوجو شافيز



حلف «بيدرو كارمونا» اليمين الدستورية كرئيس للحكومة الانقلابية يوم ١٢ أبريل وسط انتقادات دولية واتهامات بأن النظام الفنزويلى الجديد غير شرعى.

وبدأت أول أزمة حقيقية عندما أصر المدعى العام «إسياس رودريجيز» على أن الرئيس المخلوع كان ضحية انقلاب عسكرى وأنه لا يزال الرئيس الشرعى باعتبار أن الدستور ينص على قبول «البرلمان» لاستقالة الرئيس.. وهو ما لم يحدث.

وعلى الصعيد الخارجى قام رؤساء «مجموعة ريو» التى تضم تسع عشرة دولة فى أمريكا اللاتينية والمجتمعون بكوستاريكا، بإدانة الانقلاب الذى أطاح بالرئيس المنتخب، ورفضت المجموعة فى بيانها المشترك الاعتراف بحكومة كارمونا ووصفوها بأنها غير شرعية.

وبينما جلس «شافيز» فى قاعدة «فورتيونا» العسكرية وحيداً يفكر فى مصيره.. وقد أصابه الذهول مما حدث.. كان «المجتمع المدنى» يتحرك فى شبه سيمفونية كاملة أذهلت العالم أجمع لتعيد الشرعية للبلاد خلال ٢٤ ساعة فقط.

وكان سلاح الجماهير.. «التليفون المحمول».

والغريب أن فنزويلا تتمتع بأكبر نسبة تستخدم الهاتف المحمول لكل نسمة على مستوى العالم! وعن طريق الاتصال بين الشبكات المدنية انتظمت حركة الجماهير من جمعيات وروابط ومنظمات أهلية ومجموعات شعبية.. وتدفق الأنصار من هنا وهناك إلى أماكن تم تحديدها بعناية.

فإلى قاعدة «فورتيونا العسكرية» حاصر الآلاف محبس «شافيز» منددين بالانقلاب.. وأدى ذلك إلى انسحاب قطاعات معينة من الجيش من مساندة حكومة «كارمونا» وخاصة قوات المظليين الذين أتى منهم شافيز ويعرفون معدنه جيداً.

كما حاصر الآلاف قصر رئاسة الجمهورية «ميرا فلورس» ليمنعوا وصول نائب الرئيس إليه.

واشتبك الفقراء فى أحياء كاراكاس الفقيرة مع قوات الشرطة فسقط عشرة من القتلى وأصيب ما يقرب من أربعين شخصاً.

تراجع الانقلابيون أمام سطوة الجماهير المنظمة.. وأعلنت أقسام من الجيش رفضها لحكومة كارمونا.. وذهب الجنرال رنكون قائد الجيش إلى محبس شافيز وأطلق سراحه ثم اصطحبه إلى قصر «ميرا فلورس» لأن شبح الحرب الأهلية غطى البلاد.

تولت قوات الحرس الجمهورى القبض على قادة الانقلاب الفاشل، ورفض شافيز إيداعهم السجن ولكن تحفظ عليهم فى منازلهم. وأعلن فى حديثه التليفزيونى للشعب.. «يتعين على المعارضة أن تدرك بوعى أن السلطة تأتى بإرادة الشعب وليس بواسطة الانقلاب العسكرى».

ولم تتمكن السيدة «كونداليزا رايس» مستشارة بوش للأمن القومى من كبح جماح سخطها لفشل الانقلاب، فوجهت تحذيرات علنية للرئيس شافيز، والذى أصبحت واشنطن تعتبره العدو الإقليمى الثانى لها بعد الزعيم الكوبى فيدل كاسترو.. وأشارت «رايس» إلى سياسة شافيز غير المهادنة إزاء مساعى واشنطن للسيطرة على قطاع النفط فى بلاده.

عاد «الرئيس المنتخب» إلى الحكم.. واتخذ قرارين.

الأول: إقالة مجلس الإدارة الجديد الذى عينته الحكومة الانقلابية لإدارة شركة «بتروليوس دى فنزويلا».

والثانى: بدء التحقيقات فى ظروف ووقائع الانقلاب.

ومع مضى عشرة أيام من رجوعه للسلطة أجرت معه قناة الجزيرة التليفزيونية مقابلة مطولة يوم ٢٤ أبريل أفصح فيها «شافيز» عن وجود تدخل خارجى فى الانقلاب فى إشارة لدور الولايات المتحدة الأمريكية.

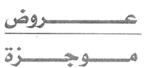
كما تحدث «شافيز» عن أجندة الانقلاب التى وجدوها، حيث كان القرار الأول: خروج وانسحاب فنزويلا من منظمة أوبك وعدم الالتزام بأى حصة إنتاجية ووقف ضخ أى نفط لكوبا.



لقد تساءل الصحفيان روبرتو باستور وروبن مارتينيز فى آخر صفحة من كتابهما الصادر عام ٢٠٠١ عن مصير تجربة «شافيز» وهل سيتمكن الرئيس من المحافظة على ثقة الطبقات الشعبية والمجتمع المدنى؟

لم يتأخر الرد كثيراً.. لقد وقفت الجماهير المنظمة فى شبكة فعالة من الأنساق وراء الرئيس المنتخب وأعادته للسلطة عندما أحست مدى الفزع الذى أثاره لدى «الأعداء» بمواقفه الصادقة المخلصة وبجهده الفائق المضنى لتحسين الاقتصاد الفنزويلى.. فهو الذى ساهم فى رفع سعر النفط من ثمانية دولارات عام ١٩٩٨ إلى ٢٥ دولاراً عام ٢٠٠٢، وهو الذى شدد على دعم الفئات القاعدية فى المجتمع لتدير شئونها بمبادراتها الذاتية والجماعية.. فهى صاحبة رأس المال الاجتماعى وعلى الدولة فقط أن تحافظ عليه ولا تعبث به.

أما الولايات المتحدة الأمريكية، فلم تكتشف التغيرات التى جرت فى العالم.. وأن تجربة الإطاحة برئيس الوزراء الإيرانى مصدق عندما أمم النفط.. غير قابلة للتكرار لأن فنزويلا أصبحت تملك مجتمعاً مدنياً قوياً.. وأنها ليست بالتأكيد إحدى جمهوريات الموز! ■



كتب عربية

مستقبل الديمقراطية فى الجزائر

عدد من الباحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٢، ٣٢٤ صفحة

تأتى هذه الدراسة ضمن مشروع أشمل لدراسة الديمقراطية فى الوطن العربى، تأكيدًا على أنها - الديمقراطية - هى المدخل الصحيح للخروج من مأزق الصراعات التى تعوق مسيرة التقدم فى الوطن العربى، والسبيل إلى تأسيس نظام حكم يرتضيه الجميع ويشكل قاعدة للممارسة السياسية والانتقال السلمى للسلطة.

والدراسة فى سعيها لاستشراف مستقبل الديمقراطية فى الجزائر، بدأت بمعالجة تاريخ التجربة السياسية الجزائرية وتحليل البنى السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية وانعكاساتها على عملية التحول الديمقراطى، وقد لاحظت الدراسة أن الشعب الجزائرى لايزال متمسكًا بتجسيد أهداف ثورة نوفمبر ١٩٥٤ التى سعت إلى التحرير السياسى والاقتصادى وتحقيق التنمية الشاملة وتلبية الحاجات الأساسية للشعب، وتحقيق الوحدة الوطنية ومناصرة قضايا التحرر الوطنى، وإقامة دولة ديمقراطية فى إطار المبادئ الإسلامية، ثم تحقيق العدل والمساواة وسيادة القانون.

وتؤكد الدراسة على أن نجاح التحول الديمقراطى فى الجزائر يقتضى توافر عدة شروط: فهم عميق للأبعاد الاجتماعية وليبرالية متفهمة للعصرنة واعتزاز بمقومات الشخصية الجزائرية وخصوصيتها الحضارية وقابلية للعالمية، وجميع هذه الشروط دعمته وأكدت عليه حركات وأحزاب أسهمت كلها فى مرحلة الكفاح ضد الاستعمار وقدمت تضحيات هائلة مهدت الطريق نحو التحرير والاستقلال.

وتلاحظ الدراسة أن هذه التوليفة مازالت موجودة فى المجتمع الجزائرى، لكنها فى حالة تبعثر، ولم شتاتها بما تمثله من تراث خصب للتراكم الحضارى يعيد بناء المعالم الأساسية لمستقبل الديمقراطية فى الجزائر، وهو ما انتهت إليه ندوة الوفاق الوطنى فى سبتمبر ١٩٩٦ والتى دعت إلى احترام مكونات الهوية الوطنية (الإسلام - العروبة - الأمازيجية) ورفض وإدانة اللجوء إلى العنف للوصول إلى السلطة أو الاحتفاظ بها، واحترام قوانين الجمهورية، واحترام الحريات الفردية والجماعية، واحترام الاختيار الحر للشعب وقبول مبدأ تداول السلطة.

□ □ □

شرفات بحر الشمال

واسينى الأعرج

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٢، ٣٢٠ صفحة



لا يمكن التمييز بحسم بين الواقعى والمتخيل فى نسيج الرواية التى تحكى فترة مريرة ودامية من حياة الجزائر، حين يقرر الراوى - أو المؤلف لا فرق - أن يترك المدينة التى عاش فيها عمره أو أضاعه، بعد ما صارت تحاصره بالموت والنكران والجحود، إلى مدينة أخرى «لوس انجلوس»، يجرب سماء غير السماء وناسًا غير الذين ألفهم وحكايات غير التى سمع.. «الأرض التى عرفتها منذ سنوات تغيرت كثيرًا وسقطت تربتها من يدى كورقة محروقة، أجرب الآن هذه السماء ربما كانت أكثر دفئًا، لقد نسيت - أو كدت - بأن هناك سماء يمكن أن ندفن فيها بعضًا من الأشواق التى نخاف عليها من العطب».

اللغة الشاعرية لا تغيب أبدًا عن صفحات الرواية، ومنذ أن تقلع الطائرة بالراوى فى اتجاه حياته الجديدة تعاوده الذكريات حانية وثقيلة الوطأة فى آن معًا، يستدعى ياسين «فتنة»، وهى كيان يترنح بين الأسطورة والواقع، بين الرمز ودلالاته، ما يجعلها تعبيرًا صادقًا عن الجزائر الوطن المثخن بجراحه وإراقة دماء أبنائه بدعاوى الأصولية والقبلية ونزعات استبدادية وتسلطية موازية.

وفى أمستردام التى كانت معبره إلى أمريكا تتخلق شخوص وتتداعى ذكريات وتتبعثر مصائر، وجميع من يرد ذكره تنتهى حياته بين منتحر «ميمون» وميت كمدًا مثل زليخة ونوارة، أو غائبة فى متاهة أسطورية لا يعرف إن كانت ماتت أو تلاشت فى غياهب الضياع. وكما هو واضح فإن هذا هو المصير ذاته الذى يرى فيه الراوى مصير وطنه وشعبه.. «الجزائر، هو الكائن الأرضى الوحيد الذى يتمنى لو تظل الشمس معلقة فى مكانها طوال السنة وأن لا تغيب أبدًا حتى لا يضطر كل مساء إلى أن يتحول إلى جرذ يبحث له عن أكثر المآوى أمنًا(..) صرنا نكتفى بالأفراح الصغيرة لمواجهة الأوجاع التى تحرقنا من الداخل كالحطب اليابس».

ترى ما الذى رآه الراوى حين أطل على وطنه من شرفات بحر الشمال؟ أوجاعًا وآسى وأحلامًا مجهضة ومسرات صغيرة تعشش فى الذاكرة سرعان ما تتلاشى تحت وطأة واقع قائم.

□ □ □

إغاثة الأمة بكشف الغمة

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٩٠ صفحة



ما رمى إليه المقريزى من حصره المجاعات التى شهدتها مصر منذ عصورها الفرعونية وحتى عام تأليفه لكتابه (٨٠٨هـ)، هو التذكير بأن هذه الحوادث التى شهدها عصره كان لها ما يشابهها وربما ما هو أقسى منها فى أزمنة مضت، بما يعنى أن على الناس المقاومة والصبر واحتمال المكاره إلى أن تنقشع الغمة، أو بحسب قوله: «لا يزال الحاضر منقوصًا حقه مجحودًا قدره، لأن القليل من شره يرى كثيرًا، إذ القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخبر، وإذ مقاساة اليسير من الشدة أشق على النفس من تذكر الكثير مما سلف منها».

وهو يبدأ بأول غلاء شهدته مصر فى زمن الملك السابع عشر من ملوك مصر قبل الطوفان، ويعدد بعضًا من حوادث القحط والمجاعات، ونلاحظ أن المقريزى يسميها «غلوات» جمع «غلاء»، وإن كان الجمع على هذا النحو ليس صحيحًا، لكنه يشير إلى ما قصد إليه المقريزى، واعتباره ما يحل بالناس من كرب وقلة غذاء «غلاء» وليس «مجاعة»، وفى هذا إشارة إلى أن البعد الاجتماعى والسلوكى لا يغيب عن تحليله للنوائب، فهو وإن أشار إلى ندرة الأمطار أو هطولها الغزير الذى يغرق الزرع والحرث باعتبارها مسببات أساسية، فإنه لا يغفل فساد الحكم وشيوع الرشوة والنفاق واحتكار التجار للسلع وتخزينها ليزيدوا سعرها وحجب الكثير منها عن الناس بل وابتعاد الناس عن الأخذ بالأسباب وافتقارهم إلى جوهر الإيمان والتسليم، باعتبار أن هذه كلها أسباب رئيسية للـ «غلوات» كما يسميها.

فهو فى تحليله لأسباب المجاعة التى حلت بمصر فى أوائل عهد الفاطميين (٣٥٨هـ)، يشير إلى الإجراءات التى اتخذها القائد جوهر الصقلى.. «كان مما نظر فيه أمر الأسعار، فضرب جماعة من الطحانين، وجمع سماسرة الغلات فى مكان واحد، ولم يجعل لمكان البيع غير طريق واحدة.

وفى أيام الحاكم بأمر الله وقعت مجاعة مشابهة.. «وكظ الناس بالجوع فاجتمعوا بين القصرين واستغاثوا بالحاكم فى أن ينظر لهم وسألوه أن لا يهمل أمرهم، فركب حماره وخرج من باب البحر ووقف وقال: أنا ماض إلى جامع راشدة، فأقسم بالله لئن عدت فوجدت فى الطريق موضعًا يطؤه حماره مكشوفًا من الغلة لأضرب رقبة كل من يقال لى إن عنده شيئًا منها ولأحرقن داره وأنهبن ماله، فلما عاد الحاكم بأمر الله كانت الغلة فرشت الطريق، «فانحل السعر وارتفع الضرر».

وقد اتخذ عديد من الأمراء والسلاطين إجراءات مشابهة، منها أن يلتزم السلطان وأمراء المقاطعات وكبار التجار بإطعام المحتاجين من مخزونهم، أو تعيين محتسبين لضبط الأسواق ومنع الاحتكار، أو أن يوكل إلى الجهابذة أى «الصيارفة» ضبط العملات وتحسين قدراتها الشرائية.. إلخ.

وفى أحيان أخرى استخدم السلطان الحيلة لمقاومة «الغلوات»، منها ما فعله «المستنصر» فى واحدة من أشد وأقسى المجاعات التى مرت بمصر والتى عرفت بالشدة المستنصرية. حين جمع بعضًا من المسجونين المحكوم عليهم بالإعدام وألبسهم هيئة التجار وجمعهم فى مجلس عظيم وسألهم عن سوء أفعالهم وأصدر عليهم أحكامًا سريعة بالقتل فارتدع التجار الحقيقيين وهرعوا جميعًا إلى مخازنهم وأخرجوا ما فيها وعمرت الأسواق بالخبز وخفضت الأسعار على الناس وزالت الشدة.

والحكايات التى يرويها المقريزى عن معاناة الناس فى سنوات القحط متشابهة وإن كانت بالغة الضراوة والقسوة، ففى كل «الغلوات» أكل الناس القطط والكلاب، بل أكلوا لحوم بعضهم، والأدهش - والأقسى - أن يأكل الناس صغارهم! وكان ذلك فى عام (٥٩٦هـ) فى عهد السلطان العادل أبى بكر بن أيوب، حيث كان الناس يتساقطون من الجوع، وانتشرت الأمراض والأوبئة، وساد الظلم والاجتراء على حدود الله.

وكما أشرنا فى البداية، فإن المقريزى مال إلى التحليل الاجتماعى لما جرى ولم يكتف برد الأمر كله إلى ظواهر الطبيعة، فتحدث عن ولاية الأعمال بالرشوة والفساد.. «فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ إلى مالم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة لتوصله بأحد حواشى السلطان»، كما أشار إلى الزيادات المطردة فى قيمة الضرائب والمتحصلات المفروضة على المزارعين والتى أرهقتهم ورفعت أسعار المحاصيل.

عروض موجزة

والكشف المهم الذى يشير إليه المقريزى هو أن مجىء الفاطميين إلى مصر كان طلبًا واستجداء من المصريين الذين أرهقتهم مجاعات متتالية جرت فى زمن الإخشيديين، وكما نرى فبعض ما يجرى - أو جله - من شرور أنفسنا.

□ □ □

التحالف الأسود: وكالة الاستخبارات المركزية والمخدرات والصحافة

ألكسندر كوكبرن - جيفرى سانت كلير

ترجمة: أحمد محمود

لندن ونيويورك: دار نشر فيرسو



يقول المؤلفان ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير عن هذا الكتاب: «هذه إلى حد كبير قصة سلوك إجرامى، هو فى جزء كبير منه من فعل وكالة الاستخبارات المركزية CIA. إنها قصة عدد ممن تواطأوا فى الصحافة الأمريكية فى تغطية آثار الوكالة. وعندما يجبر هؤلاء الصحفيون على الرضوخ لأنشطة الوكالة الإجرامية، فإنهم كثيرًا ما يلجئون إلى فكرة «العملاء المارقين»، أو على الأقل إلى «الوكالة المارقة» كملاذ أخير. ونحن لا نقبل هذا الفصل بين أنشطة وكالة الاستخبارات المركزية وسياسات الحكومة الأمريكية وقراراتها. وسواء أكان تدخل ترومان فى الصين - الذى أوجد ملوك الأفيون البورميين - أو فكرة قتل كاسترو التى تسلطت على الإخوة كنيدى، أو أوامر نيكسون بـ«مزيد من الاغتيالات» فى فيتنام، فقد كانت وكالة الاستخبارات المركزية على الدوام المُنَفِّذ المطيع لإرادة الحكومة الأمريكية التى تبدأ بالبيت الأبيض».

ويتناول الكتاب تاريخ التحالف الذى يجمع بين وكالة الاستخبارات المركزية وتجارة المخدرات والصحافة؛ حيث تكرر نمط استغلال الوكالة لأرباح المخدرات لدعم الجماعات المناهضة للسلطات الحاكمة، وذلك باستخدام أموال المخدرات لشراء الأسلحة وشراء ذمم الكثيرين، ثم تأتى الصحافة وتكذِّب ذلك. وفى حالات عديدة كانت الوكالة تحمى تجار المخدرات، بل وتدعمهم بأساطيل من الطائرات التى تقدمها لهم لنقل المخدرات والسلاح. وبلغ الأمر حد السكوت عن تهريب المخدرات إلى داخل الولايات المتحدة نفسها والتغاضى عن أثرها المدمر على الشباب الأمريكى، إرضاء لتجار المخدرات الذين كانوا يتولون نقل السلاح من أمريكا إلى نيكاراجوا، لتعود طائراتهم محملة بالكوكايين والماريجوانا. وإذا سقط أى من هؤلاء فى أيدى جهة أخرى من جهات تنفيذ القانون فى أمريكا أو خارجها، كذلك الوكالة تتدخل على الفور لتحول دون التحقيق معه وإدانته، بحجة أن التحقيق معه يعرِّض أمن الولايات المتحدة القومى للخطر، بينما هى تخشى فى الواقع فضح ممارساتها غير المشروعة داخل الولايات المتحدة وخارجها.

وكانت الوكالة فى كل مرة تنكر الاتهامات الموجهة إليها من خلال الصحافة الموالية لها طبعًا - حيث تدعى الصحف أن تلك اتهامات «لا أساس لها» أو «مبالغ فيها» أو «غير مؤكدة» أو «حكايات قديمة». ثم تعود بعد فترة - ولكن بنبرة خفيضة تكاد لا تُسمع - لتعترف بما قيل. حدث ذلك فى تجنيدها للعلماء النازيين، وإجراء التجارب على المواطنين الأمريكيين السود، والسعى لاغتيال كاسترو، والتحالف مع أمراء الأفيون فى بورما وتايلاند ولاوس ومؤامرات أخرى كثيرة.

ويقع الكتاب فيما يزيد على خمسمائة صفحة ويضم خمسة عشر فصلاً من بين عناوينها «تاريخ البارانويا السوداء» و«مشبك الورق: العلوم النازية تتجه غربًا» و«كلاوس باربى وانقلاب الكوكايين» و«حرب الأفيون الأمريكية: الصين وبورما ووكالة الاستخبارات المركزية» و«جيوش ومدمنون: فيتنام ولاوس» و«الحياة الخفية للتجارة الحرة: المكسيك» و«كشف المستور».

وسبق للمترجم أحمد محمود أن قدم للقارئ العربى ترجمات منها «طريق الحرير» و«عالم ماك» و«صناعة الثقافة السوداء» و«تشريح حضارة» - وجميعها ضمن المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة - و«الناس فى صعيد مصر» عن دار عين.

□ □ □

آفاق فى الإبداع الفنى

أحمد عكاشة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١، ٢٦٧صفحة



يبحث الكتاب فى المنطقة الملتبسة بين العبقرية والجنون، بين الإبداع والمرض النفسى الذى قد يصل إلى حد الشذوذ.

وللعبقرية كما يصفها المؤلف معدلان: الذكاء والقدرة على تغيير المجتمع، والشخص العبقرى هو الذى يتجاوز ذكاؤه ١٤٠ نقطة بحسب التصنيفات العلمية التى تشير إلى أن معدل الذكاء فى المتوسط لدى الأشخاص العاديين يتراوح بين ٩٠ و١١٠ درجات، وفى كل الشعوب - حسب الإحصاءات العلمية - فإن ١٪ فقط من الشعب يتجاوز ذكاؤه ١٤٠ درجة. والعبقرى فى اتجاه ما هو الشخص الذى يقدم للإنسانية انتصارًا لم تحرز مثله الغالبية العظمى من أبناء المجتمع.

وفيما يتصل بالفن، فإن ثمة رأيين فى تكوين العبقرى: إما أنه شخص ملهم بقوى غيبية مجهولة، أو أنه شخص غير طبيعى أو مجنون.

وحسب دراسة أجريت على ٣٠١ من عباقرة الإنسانية من بينهم بيرون وجوته ودارون وآخرون، اكتشف «كوكسى» أن أكثر العباقرة ذكاء هم الفلاسفة إذ يبلغ متوسط ذكائهم ١٧٠ درجة، يليهم الأدباء والشعراء والساسة ١٦٠، يليهم العلماء والموسيقيون والمصورون والنحاتون. ولاحظ الباحث أن الاضطرابات النفسية برغم أنها لم تكن غالبة فى طفولة هؤلاء العباقرة، إلا أنها كانت بشكل عام أعلى نسبة بين رجال الفن والمصلحين الاجتماعيين وأقل نسبة فى العلماء. ولاحظ الباحث أيضًا ترابطًا بين بعض أنواع الصرع والعبقرية.

وكثير من عباقرة التاريخ من أمثال الموسيقار هاندل ونابليون وتشايكوفسكى وموليير وتشارلز ديكنز وابن سينا وديستوفيسكى والإسكندر ويوليوس قيصر وبايرون عانوا من الصرع بدرجات متفاوتة، كما أن كثيرًا من الموسيقيين عانوا من الاكتئاب والأمراض النفسية وانعزلوا عن المجتمع مثل بيتهوفن وبرامز وشوبان وهايدن وشوبير. وقد أهدى رحما نينوف طبيبه النفسى الكونشيرتو الرابع للبيانو اعترافًا منه بفضله عليه وعلاجه من الاكتئاب، كما أصيب المؤلف الأوبرالى روسين باكتئاب حاد بعد تلحينه ٣٦ أوبرا، وتوقف ٢٧ سنة عن العمل بعد أن فقد أمه وثروته، وكان فاجنر سيكوباتيًا بامتياز، وقد لاحظ الكثير من الأطباء النفسيين الذين درسوا حياته أنه كان شخصية هستيرية نرجسية عاشقًا لذاته، يميل إلى السمات ضد الاجتماعية، ووصف بأنه شخص أنانى قاس عديم التهذيب يفتقر إلى المشاعر الإنسانية والتعاطف مع الآخرين.

ويقرر المؤلف أن كثيرًا من علماء الموسيقى الذين عاشوا فى القرن التاسع عشر أصيبوا بزهرى الجهاز العصبى الذى كان منتشرًا دون أن تعرف أسبابه وطرق علاجه آنذاك، وهو مرض يصيب المخ وبعض أجزاء من الجهاز العصبى وتظهر أعراضه بعد عشر سنوات أو أكثر من الإصابة الأولى التى تحدث مباشرة بعد العلاقة الجنسية.

ويقدم المؤلف دراسة تحليلية ونقدية لكتاب فرويد عن ليوناردو دافنشى، وكان هذا الكتاب هو أول محاولة يطبق فيها فرويد نظرياته فى التحليل النفسى على شخصية من المشاهير، وقد ركز فيها على ذكريات ليوناردو المبكرة ليقرن إنجازه الفنى والعلمى بالتحليلات الجنسية التى قامت عليها نظريته فى التحليل النفسى، وهى نظرية لاقت اعتراضًا ونقدًا شديدًا من جانب كثير من النقاد الفنيين والمحللين النفسيين.

ويقدم المؤلف دراسة نقدية أخرى عن فان جوخ بوصفه صورة معبرة عن «المناخوليا» أو المزاج السوداوى.

العلاقة بين العبقرية والجنون أو المرض النفسى ليست سوى جزء من الأفكار المهمة التى يثيرها الكتاب، ومنها التشريح النفسى للشخصية المصرية والعلاج بالموسيقى والأدب والطب النفسى ومخ الإنسان ذلك المجهول، ثم موضوعات ذات صلة وثيقة بالمجتمع المصرى وتنميته مثل كيفية علاج ظاهرة التطرف والآثار النفسية والاجتماعية لتدهور البيئة الحضرية والريفية، والنظام التعليمى المصرى وأثره على الصحة النفسية للمرأة، ثم الإيمان والصحة النفسية على عتبة قرن جديد.

□ □ □

سنوات مع الملك فاروق

حسين حسنى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١، ٣٨٢ صفحة



التحق صاحب هذه المذكرات بخدمة القصر الملكى منذ عام ١٩٣٠، وظل منذ هذا التاريخ قريبًا من فاروق والأسرة المالكة، وسعى منذ البداية إلى أن يغرس فيه - أى فاروق - مبادئ الحزب الوطنى التى كان يؤمن بها ويدين لزعمائه ورموزه بالولاء التام، وكان فاروق - حسبما تشير المذكرات - مستجيبًا لتلك المبادئ التى دفعته إليها فطرته السليمة لولا بطانة السوء التى أحاطت بالملك الشاب منذ البداية، والتى بدأت بأحمد حسنين رائد الملك، ثم رئيس الديوان الملكى فيما بعد، وكريم ثابت مستشاره الصحفى وعلى ماهر، وقد كان لكل منهم دور فى إفساد الملك وإقامة الحواجز بينه وبين كل من يمكن أن يسدى إليه نصحًا أو يرشده إلى ما فيه الخير له ولشعبه.

ويسهب المؤلف في شرح الدور الفاسد الذي لعبه كل منهم لإفساد الملك وجرّه إلى طريق الانحراف، وخصوصًا أحمد حسنين صنيعة الإنجليز ورجلهم في مصر، فقد درس في إنجلترا وتطوع في الجيش الإنجليزي في الحرب العالمية الأولى وحين عاد من بعثته الدراسية في أكسفورد عمل سكرتيرًا خاصًا للجنرال ماكسويل قائد جيش الاحتلال.

كان أحمد حسنين طموحًا، وعرف منذ البداية أن تحقيق طموحاته لن يتحقق إلا بالاقتراب من القصر الملكي والارتباط به بأواصر النسب، وبالفعل تزوج من لطيفة هانم كريمة الأميرة شويكار الزوجة الأولى للملك فؤاد، وبعد وفاة الملك فؤاد أيقن حسنين أن الطريق إلى ملك مصر القادم (فاروق) يبدأ من أمه (الملكة نازلي) التي كان يبجلها ويسعى دومًا لنيل رضاها، فنصب شباكه حولها، وكانت الفريسة مستعدة تمامًا للوقوع في شبكة الصياد، بعد سنوات عاشتها سجينة الملك فؤاد الذي كان يكبرها بأكثر من عشرين عامًا، وكان يغار عليها بشدة، فلم يسمح لها بالخروج أو زيارة أحد، أو حتى استقبال أحد دون إذنه، ونشر حولها البصاصين والجواسيس في كل ركن، وما أن مات حتى انطلقت خارج سجنها تعب من متع الحياة، وتعوض ما فاتها.

وحكاية أحمد حسنين ونازلي تحتل حيزًا مهمًا من الكتاب، ليس فقط لأنها مثيرة وينبغي أن تروى، وإنما لأثرها بالغ السوء على الملك الشاب الذي كما كانت أمه ضحية غيرة زوجها وطيشه، كان هو أيضًا ضحية طيشها وطموح رئيس ديوانه وعدم أمانته، وهي العلاقة التي يرى صاحب المذكرات أنها قوضت إلى حد كبير المثل العليا ومبادئ الأخلاق القويمة التي كانت تمثلها أمه ورائده، فخاب ظنه وضاع أمله.. «ومن ثم ليس بمستبعد أن تكون قد انهارت في نفسه - على أثر توالي الصدمات - أركان نوازع الخير ونوايا الإصلاح التي كان يعتز ويؤمن بها إيمانًا عميقًا».

وبعيدًا عن حكاية حسنين ونازلي فإن صاحب المذكرات الذي التزم بألا يروى إلا ما كان شاهدًا عليه أو مشاركًا في صنعه، لا يعفي زعماء الأمة مما آل إليه حال الملك وحال البلاد، بل إنه يحمل النحاس باشا ومحمد محمود باشا وحسين سري باشا مسئولية ما جرى في فبراير ١٩٤٢، إذ أرسلوا إلى السفير البريطاني رسائل يؤكدون فيها أن إنقاذ البلاد لن يتحقق إلا بتغيير الحكومة.

ويقول إن مصطفى النحاس باشا وجه أكبر لطمة لكرامة مصر حين قبل الوزارة على أسنة رماح الإنجليز.. «بل إنه لا يرى في ذلك أي بأس ولا حائل دون إشاعة الابتهاج بين أنصاره والاعتزاز بما نال من فوزه بالحكم، مما دعا أعوانه المحتشدين إلى التهليل للسفير الذي داس على سيادة الوطن وحملوه على أكتافهم وهتفوا بحياته».

إدانة حزب الوفد والتنديد بمواقف زعمائه وديماجوجيتهم وإيثارهم مصالحهم الحزبية والشخصية على المصلحة العامة، سمة واضحة في المذكرات، وهو أمر طبيعي من شخص ظل وفيًا لمبادئ الحزب الوطني القديم وحريصًا على تمثلها، ومذكراته في النهاية، مهما كانت حيدتها ونزاهة كاتبها، تبقى رؤية تعوزها رؤى أخرى كي يكتمل المشهد التاريخي.

□ □ □

المعلومات وتكنولوجيا الاتصال

محمود علم الدين

محمد تيمور عبدالحسيب

٢٠٠٢، ٢٠٠ صفحة



منذ البدء، قام الإعلام على ركيزتين أساسيتين هما المعلومات والاتصال. وطوال عقود تطورت سبل الحصول وتوفير المعلومات، كما تطورت من ناحية ثانية وسائل الاتصال حتى قارب تطورهما الثورة. وبتأثير ثورة الاتصالات والمعلومات صارت احتمالات التطور والتنويع في وسائل الإعلام ومنها الصحافة لا نهائية، وهذا الكتاب يعالج في جزءيه هذين المفهومين، فيتناول في الجزء الأول المعلومات، ويتعرض للمفاهيم والمصطلحات الأساسية المتداولة بشأنها وكذلك نظم المعلومات ومهارتها وبنيتها التحتية وسبل تدفقها، ثم يعرض في الوحدة الثالثة من الجزء الأول للتوثيق المعلوماتي وتطبيقاته في المجالات الإعلامية والصحفية. ويعرض في الوحدة الرابعة لمعنى تكنولوجيا المعلومات وهي في أحد تعريفاتها «خليط من أجهزة الكمبيوتر ووسائل الاتصال من تزاوجهما يوجد مجتمع المعلومات».

ويتناول الجزء الثاني تكنولوجيا الاتصال في وحدتين، فتعرض الوحدة الأولى منه للمرتكزات الأساسية لتكنولوجيا الاتصال ومنها الميكروويف والأقمار الصناعية وأشعة الليزر والألياف البصرية (الضوئية) والحاسبات الإلكترونية والاتصالات السلكية واللاسلكية. ثم تعرض الوحدة الثانية لمجالات تكنولوجيا الاتصال في الإذاعة والتليفزيون والتليفون.

□ □ □

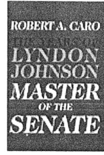
كتب أجنبية

Master of the Senate: The Years of Lyndon Johnson

(سيد مجلس الشيوخ: سنوات ليندون جونسون)

Robert A. Caro

KnopF, 1167PP, $ 35, 2002



لا يتذكر العرب سنوات ليندون جونسون في رئاسة الولايات المتحدة إلا وهي مرتبطة بهزيمة يونيو ١٩٦٧ وبالانحياز الكامل لإسرائيل. وهذا الكتاب هو الجزء الثالث من دراسة ضخمة قام بها المؤرخ روبرت كارو وتتبع فيها حياة ليندون جونسون مما جعله يقضي سنوات طويلة للغاية في إخراج هذا العمل الذي أشاد به النقاد والسياسيون والمؤرخون على السواء. لقد أصدر كارو الجزء الأول من الكتاب عن سيرة حياة جونسون عام ١٩٨٢، ثم نشر الجزء الثاني عام ١٩٩٠ ثم جاء هذا الجزء الذي خصصه فقط لسنوات جونسون في مجلس الشيوخ التي بلغت ١٣ عامًا.

ويقول المؤلف إن جونسون لم يكن يتمتع بالنبل أو الصدق، فقد دخل مجلس الشيوخ للمرة الأولى عام ١٩٤٨ بتزوير واسع النطاق للأصوات وخداع وشراء للأصوات، أي أسوأ ما في العملية الانتخابية على الإطلاق، ثم ظل بعد ذلك يدافع عن مصالح رجال البترول في تكساس الذين يمثلهم واستخدم أحط الوسائل للإطاحة برئيس اللجنة الفيدرالية للطاقة ليلاند أولدز، وهي الوسائل التي استخدمها بعد ذلك السيناتور جوزيف مكارثي لتشويه سمعة رجال شرفاء باتهامهم أنهم خونة وشيوعيون. وقد تمكن جونسون بعد ٤ سنوات فقط من وجوده في مجلس الشيوخ من رئاسة إحدى اللجان، فمارس سلطات واسعة النطاق واستطاع أن يخدم من خلال الرجال الكبار الذين ساعدوا في وصوله إلى مجلس الشيوخ. ويفضح المؤلف أفعال جونسون خلال تلك الفترة مدعمًا كل ما يقول بالوثائق والمعلومات التي أجهد نفسه أشد الإجهاد لكي يحصل عليها.

ومن المفارقة الكبيرة أن جونسون الذي أصبح الرئيس السادس والثلاثين ارتبط اسمه داخليًا بإنجازات كثيرة خاصة على صعيد إنهاء التمييز العنصري ربما لم يكن هو يحلم بها. ويمكن مقارنة طموحه لإحداث هذا التغيير بنفس طموح الرئيس الأمريكي الراحل فرانكلين روزفلت عندما قدم للأمريكيين ما عُرف باسم الصفقة الجديدة.

إن الكتاب الذي يزيد على ١١٦٧ صفحة يمثل كما وصفه جوردون براون وزير الخزانة البريطاني إنجازًا غير مسبوق في كتابة سير الزعماء، وقد بذل فيه المؤلف جهدًا هائلاً بحيث يمكن القول حسب بعض النقاد إنه أعاد اكتشاف جونسون من جديد من جميع الوجوه سواء الإيجابية أو السلبية.

□ □ □

Treason by the Book

(خيانة بالكتاب)

Jonathan Spence

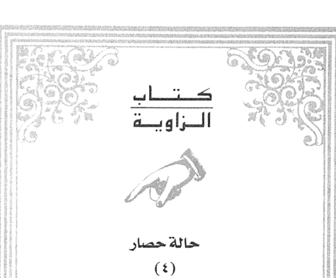
London, Penguin, 2002, 314PP., £7.99



بعد الظهر بقليل في يوم ٢٨ أكتوبر ١٧٢٨ في مدينة كشيان بإقليم شمال غرب الصين قدم شخص ما رسالة إلى الجنرال «يو زون جوبي» أعلى مسئول في ذلك الإقليم. لقد كانت الرسالة دعوة للخيانة تتمثل في مناشدة للجنرال أن يقود تمردًا ضد الإمبراطور يونج زينج رئيس سلالة كوينج الحاكمة. وكان الجنرال «يو» يعلم أن مجرد تسلمه الرسالة يعني بالنسبة له على أقل تقدير إمكانية نفيه إن لم يكن قتله لو وصلت أنباء تسلمه الرسالة إلى الإمبراطور أو أي من رجال القصر.

وقد قرر الجنرال ماذا ينبغي أن يفعله. إن ما فعله الجنرال ورد فعل الإمبراطور والبحث عن واضع تلك الرسالة شغل الصين وإمبراطورها آنذاك لمدة ٧ سنوات.

وخلال كتابه يقوم المؤرخ الصيني جوناثان سبنس بتتبع كل صغيرة وكبيرة في هذه الواقعة المثيرة والتي كانت من أكبر الأحداث في الصين في ذلك الوقت. وقد قدم المؤلف كتابه بشكل أدبي تاريخي جيد بحيث يجد القارئ نفسه أمام قصة شيقة أجاد المؤلف عرضها واستخدم كل قدراته في تقديمها معتمدًا على وثائق سرية باعتباره متخصصًا في تاريخ الصين في القرن التاسع عشر.



كتاب الزاوية

حالة حصار
(٤)

عندما تختفى الطائراتُ تطيرُ الحماماتُ،

بيضاءَ، بيضاءَ، تغسلُ خدَّ السماء

بأجنحة حرَّة، تستعيدُ البهاءَ وملكيَّةَ

الجوِّ واللَّهْو. أعلى وأعلى تطيرُ

الحماماتُ، بيضاءَ بيضاءَ، لَيتَ السماءَ

حقيقيَّةٌ (قال لى رجلٌ عابرٌ بين قنبلتين)

يقولُ لها: انتظرينى على حافة الهاويهْ

تقولُ: تَعَالَ. تَعَالَ! أنا الهاويهْ

* * *

لنا إخوةٌ خلف هذا المدى

إخوةٌ طيِّبون، يُحبُّوننا، ينظرون إلينا

ويبكون، ثُمَّ يقولون فى سرِّهم:

«ليت هذا الحصار هنا عَلَنىٌّ...»

ولا يُكْمِلُون العبارةَ: «لا تتركونا

وحيدين. لا تتركونا»



عروض موجزة

ويمثل الكتاب واجهة جديدة للعالم عن الصين ذلك البلد «القارة» المجهول حتى الآن لكثيرين حتى بين المثقفين والمهتمين بشئون العالم.

□ □ □

Stupid White Men

(رجال بيض أغبياء)

Michael Moore

Regan Books, 2002, 297PP., £18.99



احتل هذا الكتاب لأسابيع عديدة قائمة أعلى المبيعات للكتب فى الولايات المتحدة، ولم يكن المؤلف يتوقع ذلك على الإطلاق، فقد كتب مجموعة من المقالات ثم جمعها فى كتاب يتحدث عن الرئيس الأمريكى جورج بوش الذى يرى فيه المؤلف مايكل مور سارقًا بدرجة رئيس، فهو الرجل الذى سرق البيت الأبيض من آل جور البرىء. ويكتب مور مخاطبًا الرئيس الأمريكى: عزيزى جورج.. هل أنت قادر على أن تقرأ أو تكتب كما يفعل البالغون.. هل أنت مدمن؟

ولا يكتفى المؤلف وهو أيضًا مقدم لبرنامج وثائقى شهير فى الولايات المتحدة بالهجوم على بوش وإدارته بل على المؤسسة السياسية بأكملها فى واشنطن.

ويقول إن أمريكا بلد كل ما فيه يرشح ويمتلئ بالثقوب، وهذه خطيئة النخبة البيضاء الغنية التى استغلت العمال وسممت البيئة. ويستطرد قائلاً: لقد خطفوا الانتخابات ووضعوا رئيسًا ساذجًا بلا عقل يقوم أركان إدارته بوضع أياديهم فى جيوب أباطرة شركات الطاقة.

ولا يكلف المؤلف نفسه بالحديث سوى نادرًا عن حرب بوش ضد الإرهاب، وهو أمر غير متصور حدوثه فى أمريكا حاليًا، لأن كل شىء يؤدى ويخرج من الحرب على الإرهاب. والكتاب كلماته حادة للغاية فى الهجوم على بوش وما فعله، فهو يشير إلى تلك الانتخابات المسروقة المخطوفة التى نشلها بوش وأنصاره من أيادى الشعب الأمريكى.

ولكن رغم ذلك فأسلوب الكتاب ظريف ويجذب القارئ إليه مع أنه يمضى فى فكرته دون أن يوقفه أى شىء، وعلى سبيل المثال يرى أن كل الأمريكيين غير مقتنعين حتى الآن بأى عمل قام به بوش رغم أن استطلاعات الرأى جعلت بوش لمدة طويلة الأعلى شعبية بين الرؤساء الأمريكيين منذ سنوات. ومن الواضح أن المؤلف قد أصدر حكمه شبه النهائى على بوش وأنه رئيس فاشل لا يصلح لشىء، وجاء فقط نتيجة مؤامرة قادها اليمين الأمريكى للإطاحة بآل جور والديمقراطيين. مع العلم بأن حكم بوش مازال أمامه حوالى العامين وهى فترة يمكن أن يتغير فيها الكثير.

□ □ □

La Strategie du Cameleon

(استراتيجية الحرباء)

Jean-Francis Bouoet

Paris: 190 Pages



هناك من الأساليب والتكنولوجيا الجديدة التى تسمح لنا بمعرفة كيف تنظر الحيوانات للعالم الذى يحيط بها وكيف تتكيف معه وكيف تتصرف فيه:

لسنا وحدنا من نتمتع بالذكاء بل لسنا وحدنا من له لغة اتصال متكاملة.

إن أنثى القرد المولودة فى الأسر من فصيلة البونوبو فى جامعة جورجيا لديها مخزون لغوى يبلغ ٣ آلاف كلمة بواسطة ماكينة خاصة بالمعلومات. وهى تكلم وليدها بلغتها الجديدة وتترجمها لوالدتها التى لا تجيدها.

وفى كتاب صغير رائع يستعرض جون فرانسوا بوفيه كتالوجًا مسليًا للخديعة فى العالم مستخدمًا مفردات معبرة كعناوين لفصول الكتاب، مثل: يكذب، يتوارى، يخفى، يتظاهر، يغش.

«لو كانت الطبيعة عيدًا، كما يقول بوفيه، لكان الاحتفال بزى التنكر».. وهو كما نرى يفضل الجمل الرنانة، ففى كتابه السابق تكلم عن المعرفة ذات الصبغة العلمية، ويروج لها على أنها سر قوته.

وفى هذا الكتاب نراه يقدم لنا مهرجانًا عالميًا لما هو خطأ وغير صحيح كما لو أن الطبيعة بأكملها لكى تؤدى وظيفتها لابد لها أن تتبع مقولة مكيافيللى: «إن الذى يخدع سيجد دائمًا من يريد أن يُخدع» وهنا أيضًا لا يوجد خط فاصل بين النبات والحيوان والإنسان. وذلك يمتد من أنثى الحرباء التى تحدد للذكر متى يمكن التقدم واختيار حظه إلى الفتيات الإنجليزيات اللائى تملأ حمرة الخجل وجوههن واللاتى كان داروين منذ سنة ١٨٧٢ يلاحظهن بانبهار.

قـــــراءات جـــــديدة

"إدارة"

Execution: The Discipline of Getting Things Done

(التنفيذ: الالتزام بإنجاز الأهداف)

Larry Bossidy and Rom Charon

Crown Business, 2002, 288PP., $27.50

كيف تحوّل استراتيجية أى شركة إلى واقع؟ يؤكد المؤلفان وأحدهما رئيس مجلس إدارة هانيول انترناشيونال، أن عدم القدرة على تحويل الأهداف إلى واقع - أى التنفيذ - هو أكبر مشكلة تواجه المنظمات.

يبدأ الكتاب بتوجيه اللوم للمديرين الذين يعتقدون خطأ أن جميع أوجه التنفيذ يمكن تفويضها. أما الأسلوب الأمثل الذى ينصحان به المدير فهو أن يقوم أولاً بتحديد أهداف واضحة وواقعية، ثم مساعدة العاملين على تحقيق هذه الأهداف بتوفير المصادر الكافية، والإشراف اللازم، ومحاسبة الموظفين إذا فشلوا ومكافأتهم إذا نجحوا.

يوفر الكتاب أمثلة عملية من شركات معروفة مثل لوسنت وأى تى آند تى، وجنرال إلكتريك وغيرها.

■■■

What Management Is: How it Works and Why It's Everyone's Business

(ماهية الإدارة: كيف تعمل ولماذا تخص الجميع؟)

Joan Magretta, Nan Stone

Free Press, 2002, $ 25.00

فى هذا الكتاب تقوم المؤلفة وهى المحررة السابقة لمجلة «هارفارد بزنس ريفيو» بتلخيص أهم دروس الإدارة، التى جاءت فى كتب آباء علم الإدارة الحديثة مثل مايكل بورتر وبيتر دراكر، وتقدمها فى شكل بسيط يناسب المدير المبتدئ أو المدير المتمرس الذى لم يدرس الإدارة.

"أدب"

The Child that Books Built: A Memoir of Childhood and Reading

(الطفل الذى صنعته الكتب: ذكريات عن الطفولة والقراءة)

Francis Spufford

Faber, 2002, 214PP., £ 12.99

نال هذا الكتاب إعجاب النقاد منذ أن صدر فى أبريل الماضى. مؤلفه الكاتب الإنجليزى فرانسيس سبافورد قدم فيه صنفا أدبيا جديدا: مزيجا من السيرة الذاتية وأدب الرحلات والسيرة الأدبية وعلم النفس والنقد الأدبى. باختصار يكتب فرانسيس سبافورد عن ولعه المرضى بالقراءة وهو طفل لأسباب عائلية معينة، ثم ينتقل لمناقشة ما كان يقرأه فى ذلك الوقت من قصص وروايات وعلاقتها بذاته وتأثيرها على مشاعره ووعيه.

فصول الكتاب تتخذ عناوين مثل «الغابة» و«الجزيرة» و«الحفرة» و«المدينة»، وهى تنصرف إلى نوعية القصص التى كان يقرأها ومعناها بالنسبة له.. فمثلاً الغابة تمثل عالم المجهول الموجود فى القصص الخيالية، أما المدينة فهى القصص التى شكلت وعيه بالمجتمع، بينما «الحفرة» هى تلك القصص التى كانت تستسلم فيها نفسه للرغبات المدمرة للذات مثل القصص الجنسية.

■■■

Letters to A Young Novelist

(رسائل لروائى شاب)

Mario Vargas Llosa

Translated by: Natasha Wimmer

Farrar, Strous & Giroux, 2002, 128PP., $16.00

يكتب روائى بيرو الشهير ماريو فارجاس للوسا اثنى عشر مقالاً عن الكتابة وعلاقتها بالحياة فى هذا الكتاب الذى يشبه فى منهجه كتاب ريلكه الذى صدر منذ مائة عام بعنوان «رسائل لشاعر شاب».

يتحدث للوسا متأملاً عن الأدب، وطبيعة مهنة كتابة الروايات، وعن آرائه فى أدباء آخرين، والروايات المفضلة عنده، وما يجب أن تتصف به الرواية الجيدة من وجهة نظره. الكتاب مترجم للإنجليزية من اللغة الإسبانية.

"إعلام"

مدخل إلى الفن الإذاعى والتليفزيونى والفضائى

ماجى الحلوانى

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٢

عن تاريخ الإذاعة وأهم فترات تطورها وكذلك التليفزيون، ثم نشأة الفضائيات والدور الكبير الذى لعبته فى ظل ثورة الاتصالات وزمن العولمة.

■■■

Al-Jazeera: How the Free Arab News Network Scooped the World and Changed the Middle East

(الجزيرة: كيف تقدمت شبكة الأخبار العربية الحرة العالم وغيرت الشرق الأوسط)

Mohamed El-Nawawy and Adel Iskander

Westview, 2002, 240PP., $24.00

الكتاب يتناول كيف بدأت قناة الجزيرة، وكيف يتم تشغيلها، ونوعية البرامج التى تذاع عليها، وتأثيرها على المشاهدين العرب، وردود فعل الدول العربية والغربية على مواقفها.

عمل المؤلف محمد النواوى، صحفيًا فى وكالة أنباء الشرق الأوسط بالقاهرة وفى مكتب الأسوشيتيد بريس فى القاهرة أيضًا. وهو مصرى مقيم الآن فى الولايات المتحدة الأمريكية ويدرس الصحافة فى جامعة وست فلوريدا. أما المؤلف الثانى، عادل إسكندر فهو مصرى / كندى وباحث متخصص فى الإعلام الشرق أوسطى وهو يدرس الاتصالات فى جامعة كنتاكى.

"اقتصاد"

مصادر الطاقة فى مصر وآفاق تنميتها

محمد منير مجاهد

القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٢

يعرض المؤلف للسياسات الحكومية فى قطاعى البترول والكهرباء بما فيها سياسات البحث واستكشاف مصادر جديدة للطاقة الموجودة بالفعل. كما يتناول عمليات تكرير وتصنيع البترول والتجارة الخارجية وإحلال الغاز الطبيعى محل المنتجات البترولية، وسبل ترشيد الطاقة وحماية البيئة، كما يعرض للبدائل التكنولوجية كاستخدام الطاقة النووية فى توليد الكهرباء وتحلية مياه البحر.

■■■

Reinventing the Bazaar: The Natural History of the Markets

(إعادة اختراع البازار: التاريخ الطبيعى للأسواق)

John McMillan

W.W. Norton & Co, 2002, $ 25.95

السوق هو موضوع هذا الكتاب. يصف المؤلف الأسواق الكبيرة والأسواق الصغيرة ويشرح كيفية عملها، وهو يأتى بأمثال متنوعة: من أسواق الجمال فى الهند وأسواق السمك فى طوكيو إلى المزادات التى تعقد على مواقع شبكة الإنترنت. كذلك يتناول المؤلف دور الحكومة التى يرى أن يدها الخفية أداة أساسية لا غنى عنها فى توفير السلع العامة ووضع القواعد ولعب دور الحكم، وذلك فى أفضل اقتصادات العالم المبنية على السوق.

"تاريخ"

القضية الأرمنية فى الدولة العثمانية

محمد رفعت الإمام

القاهرة: دار نوبار للطباعة، ٢٠٠٢

يتناول المؤلف تاريخ الأرمن فى مصر وفى الدولة العثمانية وكيف مثلوا عقبة فى سبيل قيام دولة عثمانية موحدة، وهو ما أدى إلى اضطهادات عنيفة وترحيلات جبرية ومذابح دموية، وكيف تعاملت الدولة العثمانية مع المسألة الأرمنية.

■■■

Automobile: How the Car Changed Life

(أوتوموبيل: كيف غيرت السيارة الحياة)

Ruth Brandon

Mac Millan, 2002, 468PP., $20.00

التاريخ الاجتماعى للسيارة وتطور تلك الآلة التى غيرت أسلوب حياة البشر هو موضوع هذا الكتاب. تتناول المؤلفة أثر السيارة على المجتمع والمدينة والبيئة. فالسيارة هى السلعة الاستهلاكية الأولى فى العالم، وقد أدى انتشار السيارات إلى إمكانية إنشاء ضواح سكنية خارج المدينة المكتظة لا تصلها المواصلات العامة.

وتذكرنا المؤلفة بأننا نكرر الشكوى من الآثار الصحية والبيئية لعوادم السيارات وننسى كيف أتت السيارة لتنقذنا من تلال المخلفات التى كانت تسببها الخيول وغيرها من الدواب، والتى كانت تمتلئ بها جميع الشوارع والميادين فى أكبر مدن العالم.

■■■

The Rescue of Jerusalem: The Alliance Between Hebrews and Africans in 701 B.C.

(إنقاذ القدس: تحالف العبرانيين مع الأفارقة فى ٧٠١ قبل الميلاد)

Henry T. Aubin

Soho, 2002, 424PP., $30.00

فى بداية القرن الثامن قبل الميلادى، واجهت مدينة القدس جيشًا قويًا من الآشوريين دمر فى طريقه كل ما صادفه من حصون ومدن وجنود، ولكن ما حدث أن الآشوريين تراجعوا بعد أن كانوا قد دخلوا بالفعل إلى القدس، فيما يعتبر واحدًا من أكبر ألغاز التاريخ. فى العهد القديم يفسر هذا التراجع بأنه كان نتيجة لتدخل إلهى. أما المؤرخون، فبعضهم يقول إن وباء ما كان سبب إنقاذ القدس والبعض الآخر يرجع الأمر لإعلان الاستسلام.

يقدم مؤلف هذا الكتاب تفسيرًا آخر، وهو أن الذى تصدى للدفاع عن القدس وشعبها العبرانى فى ذلك الوقت كان ملكًا نوبيًا من قبائل الكوشيين التى تسكن جنوب مصر (من الأسرة الخامسة والعشرين) جاء بجيش من الجنود السود وردع هجمة الآشوريين.

"تراث"

مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك

ترجمة: رفاعة الطهطاوى

القاهرة: دار الكتب والوثائق، ٢٠٠٢

إعادة إصدار لكتاب من كتب أحد رواد النهضة الذى أسهم بجهد أساسى فى طرح إشكالية الشرق والغرب على نحو ريادى ومستنير فى آن معًا. وهذا الكتاب يتناول ملحمة فرنسية دينية تحكى قصة كتبها الأب فينلون واستهدف منها إصلاح الأوضاع فى المجتمع والكنيسة فى النصف الثانى من القرن السابع عشر.

"تعليم"

تكنولوجيا التعليم فى عصر المعلومات والاتصالات

كمال عبد الحميد زيتون

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٢

دخل مصطلح تكنولوجيا التعليم قاموس الحياة التعليمية مع التطورات الهائلة فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات التى تميز زمن العولمة، وانتشرت وسائل الإيضاح كالفيديو التفاعلى والتليفزيون التعليمى والكمبيوتر،

وصارت مؤثرة جدًا في العملية التعليمية والتربوية.

■■■

Classroom Behavior

(سلوكيات الفصل)

Bill Rogers

Paul Chapman, 2002, 175PP.. £16.99

بيل روجرز مستشار تعليم ذائع الصيت في أستراليا وبريطانيا، وهو يلقى المحاضرات في المدارس والجامعات والدورات التدريبية في مجالات إدارة السلوك، وضبط النفس، وأساليب التدريس الفعالة، وحقوق المدرس. وتعرف آراؤه بالتركيز على الأساليب والمهارات العملية وتعاطفه مع حاجات واهتمامات المدرس.

يضم هذا الكتاب أفكاره وكتاباته في هذه المجالات بالإضافة إلى القضايا المتعلقة بكيفية إدارة الغضب، والتعامل مع التلاميذ الذين يهوون الجدال وتحدي المدرسين، والتلاميذ الذين يعانون من اضطرابات سلوكية عاطفية.

دوريات

زوايا

مجموعة من المحررين

بيروت: شركة الضفاف، ٢٠٠٢

دورية جديدة صدر عددها الأول في الشهر الماضي وهي تعنى بالعلاقة بين الإنسان والمكان والاشتباك بين الفرد ومجتمعه وسبل صياغة علاقات جديدة وفق رؤى شابة تقدمية بعيدًا عن الثنائيات المفتعلة التي أفسدت الواقع الثقافي.

روايات وقصص

اعترافات ناس طيبين

فاضل السباعي

دمشق: دار أشبيلية، ٢٠٠٢

مجموعة قصصية تخاطب أحلام البسطاء وتغزلها معهم وتعيد الاعتبار إلى القيم النبيلة التي يمثلها وتتمثل في هؤلاء الناس الطيبين في عالم تحاصره المادية وتوشك أن تزهق روحه.

■■■

أقنعة الصحراء

فتحي إمبابي

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

تدور أحداث الرواية في عوالم مخنوقة مسلوبة الإرادة، عوالم وأجواء الحرب العراقية الكويتية وما نتج عنها من توابع هزت المنطقة والعالم، وضياع كثير من الأحلام العربية وتفتيت القوة العراقية التي كان يمكن أن تمثل إضافة للقوة العربية لو وجهت في اتجاهها الصحيح.

■■■

عودة الرجل السابع

إبراهيم سليمان نادر

العراق: دار الشئون الثقافية، ٢٠٠٢

مجموعة قصصية تعنى أساسًا بالحروب ومآسيها، وكذلك البطولات التي تكشف عنها والضحايا الذين تخلفهم من مدنيين وعسكريين وتأثير الحروب على حياة الناس.

■■■

Family Matters

(مسائل عائلية)

Rohinton Mistry

Faber, 2002, 487PP., $16.99

تدور الرواية في مدينة بومباي التي يصفها المؤلف بأنها «مدينة تحتضر وتتعفن بفعل التلوث والقمامة والفساد». وتتركز حول الحياة الصعبة التي تعيشها أسرة كبيرة وفقيرة، تتعقد حياة كل فرد فيها وينزلق أحدهم إلى التعصب الديني الجنوني، حيث تتخذ الرواية من المشكلات الطائفية الراهنة في بومباي خلفية لأحداثها.

■■■

The Brothers

(الإخوة)

Milton Hatoum

Translated by: John Gleason

Farrar, Strous & Giroux, 2002, 240PP., $23.00

هذه الرواية مترجمة إلى الإنجليزية من اللغة البرتغالية، ومؤلفها برازيلي من أصل لبناني، فازت أولى رواياته بأهم جائزة أدبية في البرازيل عام ١٩٩٠.

هذه الرواية التي تعد الثانية له تدور أحداثها بين مجتمع المهاجرين اللبنانيين في مدينة ماناوس البرازيلية وهي قصة أخوين توأمين؛ يعقوب وعمر، ينجح أحدهما اجتماعيًا ومهنيًا والآخر ينحدر إلى حياة السكر والعربدة في قاع المدينة.

رياضة

Futebol: Soccer, The Brasilian Way

(كرة القدم على الطريقة البرازيلية)

Alex Bellos

Bloomsbury, 2002, 400PP., $25.95

المؤلف يعمل مراسلاً لجريدة الجارديان البريطانية في العاصمة البرازيلية، ووظيفته تغطية كل مكان في البرازيل لمعرفة تأثير البرازيل على كرة القدم، وتأثير كرة القدم عليها.

ينقسم الكتاب إلى خمسة عشر فصلاً، كل منها يركز على جماعة أو شخص معين وعلاقته بهذه الرياضة الشعبية من كبار نجوم اللعبة والساسة الكبار إلى الصبية الهواة الذين يلعبون في الأزقة.

■■■

Channel Four Racing: Complete A-2 Horse Racing

(الدليل الشامل لسباقات الخيل)

Sean Magee

Channel 4 Books, 2001, 320PP., $14.99

دليل شامل لسباقات الخيل في بريطانيا والعالم. يحتوى على أقسام عن جميع السباقات الرئيسية وتاريخ كل منها، إلى جانب طبيعة السباق، ونوع الحصان الذي يلزم للفوز، وقائمة بالفائزين السابقين.

كذلك يحتوى الدليل على أهم معاهد سباق الخيل في العالم وأهم خيول السباق ولغة التسابق، وغيرها من المعلومات ذات الصلة بهذا المجال.

سياسة

العالم على حافة الهاوية

عبد المنعم سعيد

القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٢

ثمة إجماع بين المراقبين والمحللين السياسيين على أن عالم ما بعد أحداث سبتمبر ليس هو العالم قبلها، وقد أثبتت الأحداث التي تلت سبتمبر صدق هذا الحدث، ويتأكد ذلك يومًا بعد آخر، المؤلف يرصد مقومات ما جرى واحتمالات المستقبل.

■■■

أنا عائد من جنوب الجزيرة العربية

أحمد السقاف

الكويت: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٢

يعنى الكتاب بالتاريخ للمسألة اليمنية منذ عام ١٩٥٥، والدور الخليجي في التعامل معها وخصوصًا الدور الكويتي والمساعدات التي قدمتها الكويت لليمن ثقافيًا وسياسيًا واجتماعيًا وماديًا.

■■■

بيت بين النهر والبحر

نوري الجراح

بيروت: عمان. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

حوارات أجراها الشاعر السوري مع عدد من المفكرين والأدباء والنقاد والسياسيين بينهم فيصل دراج ومحمود درويش وحيدر عبد الشافي وحنان عشراوي وإلياس صنبر وآخرون، والحوارات في مجملها تركز على القضية الفلسطينية والأوضاع الراهنة في الشرق الأوسط وتأثيرها على مستقبل القضية.

■■■

تطوير العلاقات المصرية الإيرانية

تحرير: محمد السعيد إدريس

القاهرة: مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، ٢٠٠٢

مرت العلاقات المصرية الإيرانية بفترات من المد والجزر امتدت منذ نهاية السبعينيات وحتى اليوم، غير أن هذه العلاقات تشهد انفراجات حقيقية خلال السنوات الأخيرة يسهم فيها مثقفون وسياسيون رسميون وغير رسميين، والمؤلف يقدم سبلاً لتطوير هذه العلاقات بين دولتين مهمتين يمكن أن تلعبا دورًا بالغ التأثير في تدعيم الاستقرار بمنطقة الشرق الأوسط.

■■■

كراسات السجن

تحرير: ميشيل بروندينو. الطاهر لبيب

ترجمة. كاميليا صبحي

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

يضم الكتاب الدراسات والأبحاث التي قدمت في ندوة عقدت بتونس عن المناضلين القدامى وأساليبهم في الكفاح، وتذكرنا بجيفارا وجرامشي، وتعيد قراءة فكرهم وتأثيرهم على الأجيال الجديدة.

■■■

Elvis in Jerusalem: Post-Zionism and the Americanization of Israel

(إلفيس في القدس: ما بعد الصهيونية وأمركة إسرائيل)

Tom Segev

Hoh/Metropolitan, 2002, 192PP., $23.00

«لقد كانت الصهيونية ناجحة، ولكن زمنها قد مضى.. إسرائيل الآن على أعتاب عصر ما بعد الصهيونية». هكذا يقول توم سيجيف الذي يعد من طائفة المؤرخين الإسرائيليين الجدد، وهو في هذا الكتاب يقدم رؤية جديدة للمجتمع الإسرائيلي المعاصر. إسرائيل الآن من وجهة نظره مجتمع متأمرك إلى درجة احتلال الثقافة الفردية والاستهلاكية محل الهوية الجماعية الصهيونية القديمة.

فالهوية الإسرائيلية التقليدية أصبحت الآن متصدعة بسبب الانقسامات الدينية والعرقية. وقد تحطمت كثير من الأساطير الصهيونية على أيدي المؤرخين من أمثال سيجيف نفسه والأثريين الذين لم يجدوا الدلائل الأثرية التي تدعم القصص الواردة في التوراة. والإسرائيليون يملؤهم الغضب والارتباك، والحروب الثقافية أصبحت على أشدها.

■■■

The Reckoning: Iraq and the Legacy of Saddam Hussein

(العراق وتركة صدام حسين)

Sandra Mackey

Norton, 2002, 416PP., $27.95

تتحدى المؤلفة الاعتقاد السائد في الغرب بأن إسقاط صدام حسين من السلطة سوف يحل مشاكل العراق ـ ومشاكل أمريكا. وفي تناولها لتاريخ العراق الطويل تجد المؤلفة أن أهم سمة لهذا البلد هي ضعفه، فالعراق من وجهة نظرها عبارة عن مزيج من السكان الشيعة والسنة والأكراد الذين لا يربطهم معًا سوى خيط رفيع. لهذا ترى أن العراق ما بعد صدام سيكون أسوأ حالاً من البلقان، وبالتالي سيصبح كابوسًا لكل من الشعب العراقي والإدارة الأمريكية.

سير ومذكرات

ناصر الدين الأسد بين التراث والمعاصرة

عبد العزيز الدوري وآخرون

عمان: مؤسسة شومان، ٢٠٠٢

يتضمن الكتاب فعاليات الندوة التي نظمتها مؤسسة شومان حول الدكتور ناصر الدين الأسد ودوره في الحياة الفكرية

والأدبية. فضلاً عن دراسات لمرافقي رحلته الذين خبروا عن قرب صفاته الشخصية ومنهجه في التفكير.

■■■

نوار عين الصقر

تحرير: سليمان العطار

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

هذه هي أول سيرة ذاتية يكتبها جندي هو الفنان التشكيلي أحمد نوار الذي كان مجندًا في فترة حرب الاستنزاف وشارك في حرب أكتوبر ١٩٧٣، وهو يسرد في عشرين فصلاً بعضًا من بطولاته ومشاهداته وانطباعاته طوال هذه السنوات العصيبة.

■■■

Flaubert: A Life

(فلوبير: حياة)

Geoffrey Wall

Farrar, Strous & Giroux, 2002, 416PP., $27.00

قصة حياة الأديب الفرنسي جوستاف فلوبير الذي ولد عام ١٨٢١ وتوفي عام ١٨٨٠، كما يرويها جيوفري وال الذي سبق وترجم لفلوبير رائعته: «مدام بوفاري». وقد اعتمد على رسائل فلوبير العديدة لصديقه وناشره ماكسيم دوكامب وحبيبته لويز كوليت وغريمته جورج صاند.

يتناول الكتاب شخصية فلوبير ومزاجه العام وعمله بالقانون الذي أهمله في سبيل الأدب، ورحلاته الطويلة إلى مصر، ثم مرضه العصبي الذي يشخصه المؤلف بأنه صرع، وتأثير نجاح والده الطبيب البرجوازي على شخصية فلوبير وأسلوبه في العمل.

■■■

Behind Sad Eyes: The Life of George Harrison

(خلف عيون حزينة: حياة جورج هاريسون)

Mark Shapiro

St. Martin's Press, 2002, $24.95

«الخنفس الهادئ» هو اللقب الذي عرف به جورج هاريسون أحد أعضاء فريق الغناء البريطاني الشهير البيتلز، والذي توفي مؤخرًا في العام الماضي. يستعرض هذا الكتاب حياته وشخصيته سواء داخل الفريق أو خارجه.

■■■

Camille Claudel: A Life

(كاميل كلوديل: حياة)

Odile Ayral-Clause

Abrams, 2002, 280PP., $29.95

اشتهرت النحاتة الفرنسية كلوديل (١٨٦٤-١٩٤٣) بعلاقتها الغرامية بالفنان أوجست رودان، والتي جسدتها السينما الفرنسية في أواخر الثمانينيات في فيلم من بطولة جيرار دوبارديو وإيزابيل أدجاني. يتناول هذا الكتاب سيرة حياتها وتفاصيل علاقتها برودان التي استمرت خمسة عشر عامًا، انتهت بفقدانها لصوابها ودخولها مصحة عقلية لمدة الثلاثين سنة الأخيرة في حياتها.

شعر

الجميلة تنزل إلى النهر

فاروق شوشة

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

قصائد يتغزل فيها الشاعر بالنيل الكريم، ويروي قصة عروس النيل في أبيات شعرية، حيث يهبها النيل الخلد وتهبه الجمال فيزداد بهاء، إنها العلاقة الأبدية بين الناس والنهر، فمصر هبة النيل، كما قال هيرودوت، كما أنها هبة المصريين كما يحلو لآخرين أن يرددوا.

■■■

رعشة في الأفق

أحمد سويلم

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

أربع وثلاثون قصيدة تدور في أفق رومانسي حالم، وتجادل الواقع برؤية عميقة تمثل استمرارًا لمسيرة الشاعر الذي قدم من قبل عدة دواوين منها الطريق، وقلب حائر، والهجرة من الجهات الأربع، وعدة مسرحيات شعرية.

■■■

مدن العتمة

لويس بورخيس

ترجمة: إبراهيم الخطيب

المغرب: دار توبكال للنشر، ٢٠٠٢

مختارات شعرية من بورخيس، مع دراسة لمسيرة الشاعر وأهم الأفكار التي تناولها في قصائده.

علوم

عواقب الثورة البيوتكنولوجية

فوكوياما

ترجمة: أحمد مستجير

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٢

يتوقع المؤلف في ضوء الثورة العلمية التي تشبه الانقلاب بكل ما حملته من تجاوز للتوقعات في مجال الجينات والهندسة الوراثية، أن يستمر هذا التطور وأن تتفجر الأحداث وتنشأ أجيال جديدة من البشر السوبر مما سيكون له تأثير كبير على البيئة وعلى النوع البشري.

■■■

Science In Translation

(ترجمة العلوم)

Scott L. Montgomery

University of Chicago press, 2002, 326PP., £ 13.5

إن تبادل المعرفة العلمية عبر الثقافات كان دائمًا عاملاً أساسيًا في تشكيل الحضارة الإنسانية، وعلى الرغم من الأهمية الهائلة للترجمة في تاريخ العالم إلا أن هذا الموضوع لم ينل اهتمامًا كافيًا حتى الآن. هذا الكتاب يبحث الأدوار المتعددة التي لعبتها الترجمة في تطور العلوم في الغرب منذ العصور الكلاسيكية وحتى الآن. يتناول الكتاب دور العرب في ترجمة الأعمال اليونانية والرومانية إلى العربية ومنها إلى أوروبا مرة أخرى والتي لولاها لما حدثت النهضة كما عرفناها.

ويناقش المؤلف القضايا الفلسفية المتصلة بموضوع ترجمة العلوم ومن ضمنها عدم ثبات النص العلمي، والمفقود في عملية الترجمة، إلى جانب استحالة وجود لغة تقنية عالمية.

■■■

I Have Landed: The End of a Beginning in Natural History

(نهاية بداية في التاريخ الطبيعي)

Stephen Jay Gould

Harmony, 2002, 384PP., $25.95

العالم ستيفن جاي جولد أصبح اسمه مرادفًا للأحياء التطورية (أو النشوئية). هذا الكتاب يضم واحدًا وثلاثين مقالاً نشرت من قبل في مجلة «ناتشورال هيستوري». تستكشف مقالات جاي جولد العلاقات الغامضة التي تربط بين الفن والعلم والعالم الطبيعي.

فكر ديني

أنبياء الله في فلسطين

نبيل آغا

عمان: بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

لأرض فلسطين مكانة واضحة في تاريخ النبوة والديانات، فقد سكن هذه الأرض عدد كبير من الرسل والأنبياء، منهم أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وزكريا وموسى وعيسى، هي أرض الأنبياء والرسالات والدم والخديعة.

■■■

صراع الثقافة الإسلامية مع العولمة

محمد الشبيني

بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢

ينظر كثير من المفكرين العرب والإسلاميين وكذلك التقدميين إلى العولمة بوصفها شرًا يهدد الهوية الحضارية للأمة، ويعتبرون أن المعركة الحقيقية هي بين الثقافة الإسلامية والتوجهات الثقافية والفكرية للعولمة، وهذا بعض ما يشير إليه المؤلف.

فنون

الألحان القبطية روحانيتها وموسيقاها

جورج كيرلس

القاهرة: كنيسة مار مرقس، ٢٠٠٢

دراسة في موسيقى التراتيل الإنجيلية وأصولها، ويبين المؤلف أن هذه الموسيقى الفرعونية تم تناقلها شفهيًا عبر رجال الدين والرهبان، وكيف تم الحفاظ على هذه الموسيقى من جيل إلى جيل.

■■■

فنون السينما

ترجمة: عبدالقادر التلمساني

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

يبحث الكتاب عما وراء الشاشة السينمائية.. أي ما لا يراه الجمهور من إعداد وجهد لإنجاز الفيلم السينمائي، ويشرح أسرار الفن السابع معتمدًا على نماذج تطبيقية خصوصًا من الفيلم الفرنسي من مراحل الإعداد له وحتى عرضه.

■■■

Landscapes

(مناظر طبيعية)

Robert Caputo,

National Geographic Books, 2002, 159PP., $14.99

ما هي اللحظة المناسبة لالتقاط صورة فوتوغرافية لغروب الشمس؟ كيف تلتقط صورة لابنك وهو يلعب كرة القدم؟ ما هي الموضوعات التي تصلح للتصوير بالأبيض والأسود؟ وما هي العدسات المناسبة؟ هذه الأسئلة مهمة بالنسبة لأي شخص يهوى تصوير المناظر الطبيعية ويرغب في إخراج لمسة فنية في الصور التي يلتقطها.

يحتوي هذا الكتاب على نصائح فريق الناشيونال جيوجرافيك، تلك المجلة التي اشتهرت بتصويرها الباهر للمناظر الطبيعية في مختلف أنحاء العالم.

قضايا اجتماعية

الشباب وأزمة التعبير

سيد صبحي

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

يتناول الكتاب عبر فصوله الثلاثة مشكلات الشباب بين اليأس والأمل، حين تغيب القدوة ويتراجع الانتماء ويصير العنف والتطرف والإدمان زادًا يوميًا، وإلى جانب التحليل الاجتماعي والنفسي الذي يقدمه المؤلف، فإنه يقدم استطلاعات يجيب عنها الشباب بأنفسهم.

■■■

Power and Control

(القوة والتحكم)

Sandra Horley, Cherie Booth

Vermillion, 2002, 264PP., £ 7.99

ترى المؤلفة ساندرا هورلي أن العنف المنزلي يزداد في المجتمعات الغربية بشكل كبير. وفي المستقبل سوف تتعرض امرأة من كل أربع نساء للعنف المنزلي. وقد أمضت هورلي عشرين عامًا في مساندة النساء اللاتي يتعرضن للعنف. وهي تحاول تفتيح وعي النساء لحقيقة بعض الرجال الذين يتخفون خلف قناع «الرجل الساحر»، كما تقدم نصائحها لكيفية تصرف المرأة في مثل هذه المواقف لتجنيب نفسها المخاطر الجسدية والنفسية المختلفة.

"لغـــــة"

التفكير العلمى فى النحو العربى

حسن الملخ

فلسطين: الشروق، ٢٠٠٢

دراسة جادة جديدة عن قواعد اللغة العربية وأصولها ودورها فى الحفاظ على اللغة وحمايتها من الضياع، والمؤلف إذ ينفى أى فرصة للاجتهاد فى قواعد النحو، لا يمانع فى مزيد من التبسيط والشرح لها.

■■■

Foundation of Languges

(أساسيات اللغة)

Ray Jackendoff

OxFord University Press, 2002, 498PP., £ 25.00

يعد راى جاكندوف من كبار علماء وأساتذة اللغويات والعلوم المعرفية فى العالم، ومكانته تضاهى مكانة ناعومى تشومسكى فى هذا المجال. فى هذا الكتاب يقدم جاكندوف نظرية شاملة جديدة للعلاقة بين الأصوات والبناء والدلالة فى اللغة، وعلاقتها بالعقل والمخ.

"للأطفـــــال"

The Jar of Olives

(جرَّة الزيتون)

Denys Johnson-Davies

Dar El-Shoruk, 2002, 47PP., L.E 20.00

صدرت هذه القصة ضمن سلسلة كتب أطفال جديدة مستوحاة من التراث العربى ولكن مقدمة باللغة الإنجليزية. مؤلفها هو دنيس جونسون دايفيز الذى اشتهر بترجماته الإنجليزية الرائدة للأدب العربى المعاصر.

استوحى دايفيز قصة «جرة الزيتون» من حكايات ألف ليلة وليلة، وتدور أحداثها فى بغداد أثناء حكم الخليفة العباسى هارون الرشيد، الذى يقوم فى القصة بالاعتماد على حكم صبى صغير فى حل لغز سرقة كبيرة والتحكيم بين طرفيها، وفى ذلك يتفوق الصبى الصغير بأسئلته الذكية على قاضى بغداد. تضم القصة ذكرًا لأهم المدن فى ذلك الوقت مثل القاهرة ومكة وحلب ودمشق والقدس وأصفهان، حيث يزورها بطل القصة أثناء رحلته إلى الحج.

■■■

Secrets

(أسرار)

Jacqueline Wilson

Doubleday, 2002, 219PP., £10.99

قصة مؤثرة عن فتاتين صغيرتين وتأثير كل منهما على حياة صديقتها. إحداهما فتاة سمينة من أسرة ثرية وتعانى من مشكلات مع والدتها وتلجأ لكتابة اليوميات للترويح عن نفسها. الأخرى فتاة نحيفة من أسرة فقيرة تعانى من مشكلات مع والدها، وتكتب هى الأخرى يوميات لتفريغ غضبها. تنشأ صداقة قوية بين الصغيرتين وتحاول كل واحدة مساعدة صديقتها فى التغلب على مشكلتها.

"نقـــد أدبى"

أدبيات الأقصى والدم الفلسطينى

جابر قميحة

القاهرة: مركز الإعلام العربى، ٢٠٠٢

فلسطين هى قضية كل العرب، والأقصى هو قضية كل المسلمين، وقد كتب كثيرون فى هذا المعنى شعرًا ونثرًا، المؤلف يشير إلى هذه الكتابات ويتناولها بالنقد والتحليل. ويقيِّم كيفية تعبيرها عن حقيقة المأساة التى يعانيها الشعب العربى فى فلسطين.

■■■

الشعر الشعبى العربى

حسين نصار

القاهرة: دار الأمل، ٢٠٠٢

دراسة نقدية للشعر الشعبى وموضوعاته، تلقى أضواءً على قضاياه بوصفه أحد الروافد المهمة للتاريخ الاجتماعى، وقد ضم هذا الشعر معارك وشخصيات وأخبارًا عن حكام ومدن ومجتمعات.

■■■

التجربة القصصية النسائية فى الجزائر

باديس فوغالى

الجزائر: اتحاد الكتّاب الجزائريين، ٢٠٠٢

بدأت مساهمات الأديبات الجزائريات فى القصة الجزائرية منذ عام ١٩٥٥، والمؤلف يقدم فصولاً تشتمل على دراسة نقدية للهيكل القصصى النسائى الجزائرى عارضًا لنماذج تطبيقية لكل من نزيهة زاوى، وأوليما المسعودى، وجميلة زنير وأخريات.

■■■

رحلة فى فكر طه حسين

مجاهد عبد المنعم مجاهد

القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢

دراسة نقدية لأهم الأفكار التى عبر عنها طه حسين فى كتاباته التى شغلت الرأى العام لسنوات طويلة وكان بعضها صادمًا لمجتمع محافظ لم يعتد مناقشة ثوابته بهذا العنف والصخب، كما فعل طه حسين فى «مستقبل الثقافة فى مصر» وفى «الشعر الجاهلى» وغيرهما.

■■■

مائة عام من الفكر النقدى

سعيد الغانمى

دمشق: دار المدى، ٢٠٠٢

يعج حق النقد الأدبى بأكوام هائلة من المصطلحات التى تم استيرادها من الغرب كما هى، وبرغم أن هذه المصطلحات هى نبت طبيعى لبيئة مغايرة وحصاد تطور اجتماعى وتراكم ثقافى تم عبر سنوات طويلة، فإنها حشرت فى بيئة النقد العربية مما أوجد حالة من التشويش وعدم وضوح الرؤية، هذا بعض ما يعالجه المؤلف إلى جانب دراسات نقدية تطبيقية عن شعراء وأدباء عرب.

كتـــاب الـزاويـــة

حالة حصار

(٥)

قالت امرأةٌ للسحابة: غَطِّى حبيبى

فإن ثيابى مُبَلَّلةٌ بِدَمِهْ!

إذا لم تكُنْ مَطَرًا يا حبيبى

فكُنْ شجَرًا

مُشبَعًا بالخُصُوبَة.. كُنْ شَجَرا

وإن لم تكُنْ شَجَرًا يا حبيبى

فكُنْ حجرًا

مُشْبَعًا بالرطوبة.. كُنْ حجرا

وإن لم تكن حَجرًا يا حبيبى

فكُنْ قمرًا

فى مَنَام الحبيبة.. كُنْ قمرا

(هكذا قالت امرأةٌ لابنها فى جنازته)

(إلى الليل:) مهما ادَّعَيْتَ المُسَاواةَ

«كُلُّكَ للكُلِّ».. للحالمينَ وحُرَّاسِ

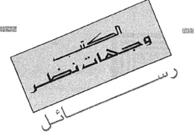
أحلامهم، فلنا قَمَرٌ ناقصٌ، ودمٌ

لا يُغَيِّرُ لَوْنَ قميصكَ يا لَيْل...

***

نُعزِّى أبًا بابنه: «كَرَّم اللهُ وَجْهَ الشهيد»

وبعد قليل، نُهَنِّئُه بوليدٍ جديدْ



ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

ما يجرى فى منطقتنا هذه الأيام.. والملف الذى خصصناه للموضوع فى العدد الماضى (مايو ٢٠٠٢) أثار العديد من الآراء والتعليقات والتعقيبات التى وصلتنا من قراء المجلة.

وهنا بعض منها:

مأزق السلطة الفلسطينية وحتمية العودة للشعب

فى خامس زيارة له إلى البيت الأبيض، أعد شارون ملفًا كاملاً لإثبات ضلوع الرئيس عرفات فى عمليات المقاومة، ولم يحاول إخفاء خطته ودعوته إلى إعادة تشكيل قيادة ومؤسسات السلطة الفلسطينية حتى تتلاءم مع مخططه لفرض سلامه الإسرائيلى على الشعب الفلسطينى، وعندما وقع الهجوم الاستشهادى مساء ٧ مايو جنوب تل أبيب، أصرت أجهزة الدعاية العبرية على لوم الرئيس عرفات. وقطع شارون رحلته وقفل عائدًا لبحث دلالات الحدث وأهمها أنه لا يوجد حل عسكرى للصراع وأن المقاومة مستمرة رغم انهيار البنية التحتية للسلطة واحتلال الأراضى الفلسطينية وحصارها وتقطيع أوصالها.

ولقد أصبحت الصورة أكثر وضوحًا وأهداف الدولة العبرية أكثر تحديدًا بعد أن هدأ إلى حد ما رماد الهجمة الوحشية الشرسة والمدمرة التى شنتها الدولة العبرية على شعبنا الأعزل فى فلسطين المحتلة والتى انتهكت فيها كل المبادئ والقوانين الدولية، وبوجه خاص كل أحكام القانون الدولى الإنسانى، والتى تجاوزت فيها كل الخطوط الحمراء، وتنصلت بها من كل التزاماتها بموجب سلسلة اتفاقيات أوسلو فى إطار مرجعية مدريد، وذلك بدعم صريح من الولايات المتحدة، وصمت مشبوه من الاتحاد الأوروبى وغيره من القوى الكبرى التى وقفت وكأنها عاجزة عن صد المد الشيطانى العبرى الوحشى تحت سمع العالم وبصره، وضربت إسرائيل بقرارات مجلس الأمن الضعيفة عرض الحائط بما فيها تشكيل واستقبال لجنة الأمم المتحدة لتقصى الحقائق، مما أجبر الأمين العام للأمم المتحدة على حلها.

ولا يختلف اثنان على أن الهدف الأول لهجمة ٢٩ مارس العبرية التى اتخذت لها أسماء عدة كان تحطيم البنية التحتية للسلطة الفلسطينية وشل قدرتها على الحركة وإبطاء قدرتها على القيام بمسئولياتها، حتى يتخلص شارون من كل التزامات ونتائج اتفاقيات أوسلو بما فيها وجود سلطة فلسطينية، ويبدأ فى فرض المخطط الصهيونى لسلام إسرائيلى فى ظل كيان فلسطينى خانع وضعيف لا حول له ولا قوة يمكن تزيينه بلفظ دولة ولا بأس من علم ونشيد وطنى و٢١ طلقة وحرس شرف لرئيسها، على أن تكون مهمته الأساسية هى الحفاظ على أمن إسرائيل وإدارة الشئون البلدية وأمور الحكم المحلى بما يرفع أعباءها عن كاهل إسرائيل، دون أن تتعلق بمفاهيم سيادية أو تتبنى آمالاً استقلالية.

وفى حقيقة الأمر لم تكتسب السلطة الفلسطينية يومًا صفة أشخاص القانون الدولى وفقًا للمبادئ والقواعد المعمول بها، بل ظلت فى عرف المجتمع الدولى كيانًا ناقص السيادة لا يرقى إلى دولة، وإن كانت تتجاوز عن المناصب التى خلعت على قياداتها من رئيس ووزراء، وبصرف النظر عما تلقاه قياداتها من مراسم رؤساء الدول والوزراء من بعض الدول للمجاملة، ولدينا على سبيل المثال حكم من مجلس الدولة المصرى فى دعوى ترافع فيها كاتب هذه السطور عن طيار مصرى رفض السماح لأفراد الأمن الإسرائيليين المسلحين بالصعود إلى الطائرة المصرية فى مطار غزة بناء على اتفاق بين السلطة وبين إسرائيل يشير مجمله إلى أن السلطة لا تعتبر شخصًا من أشخاص القانون الدولى العام.

والغريب فى كل ذلك أن انتفاضة الأقصى الباسلة التى قامت فى ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠، كانت فى حقيقتها ثورة على ترتيبات أوسلو بعد أن فقدت كل مصداقيتها فى الشارع الفلسطينى والعربى، بعد أن منحتها الجماهير الفلسطينية ما يقرب من تسع سنوات ناورت فيها إسرائيل بكل قدراتها للتملص من التزاماتها فى اتفاقيات أوسلو بموجب مرجعيات مدريد، وبذلك فمن سخريات القدر أن تتفق أهداف انتفاضة الأقصى بصورة أو بأخرى مع هدف هجمة ٢٩ مارس الشارونية، فى تجاوز السلطة الفلسطينية بعد أن فشلت فى تحقيق المطالب الفلسطينية المشروعة والمتفق عليها، وفى نفس الوقت لم تتماش تمامًا مع رغبات الدولة العبرية فى قبول تسوية مبتسرة وظالمة للنزاع الإسرائيلى الفلسطينى فى كامب ديفيد وما بعدها، كما لم ترق إلى تطلعات إسرائيل فى أن تتولى السلطة مهمة حماية أمنها بوقف وملاحقة كل عمليات المقاومة الفلسطينية الباسلة.

فإذا وافقنا على جدية هذه الطروحات، وبحثنا عن دلالاتها الحقيقية، لوصلنا بالضرورة إلى قناعة سوداوية غريبة ومؤسفة ولكنها حقيقية، بأن السلطة الفلسطينية لم يعد لها من صلاحيات أو اختصاصات تبرر استمراريتها بشكلها الذى انبثق عن اتفاقية أوسلو، وأنها لم تصبح كيانًا مرغوبًا فيه على الجانبين الفلسطينى والإسرائيلى فى آن واحد.

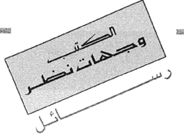
وإذا رجعنا قليلاً إلى الوراء لتذكرنا سلسلة طويلة ومتلاحقة من الملاحظات والانتقادات من داخل السلطة وسط مطالبات بتطهيرها من الفساد والبيروقراطية وتنشيط دورها بعد أن عانت من عدم الفاعلية، وتغيير مؤسساتها بل وقياداتها بالرجوع إلى الشعب عبر صناديق الاقتراع، ووصل الأمر إلى الإيماء بتململ إلى الأسلوب غير الديمقراطى للقيادة السياسية الفلسطينية فى ممارستها لصلاحياتها، وإلى تعويق وتأجيل للحوار والمحاسبة فى مؤسساتها التشريعية والسياسية، وإلى قرارات غير مقبولة من الشارع الفلسطينى تتمثل فى تخاطب تلك القيادات بود وحرارة مع العدو بحجة المرونة، وفى تجريم عمليات نضالية باسلة والقبض على مناضلين شرفاء بدلاً من تقليدهم أوسمة الشجاعة والفداء، وقد رفضت قيادة السلطة عدة مرات إجراء أى تغييرات جوهرية على نظامها وتشكيلها وتوجهاتها بدعوى خطورة المرحلة وحساسيتها. كذلك تميزت فترة التسعينيات بتزايد التناقضات بين عناصر المنظمات المشاركة فى السلطة، وافتقادها لبرنامج موحد أو متفق عليه للعمل الوطنى، واستمرت السلطة تعانى من ذلك النص إلى أن لقنتها فصائل المقاومة على الأرض درسًا لم تستوعبه وهو توحيد برامجها وممارستها النضالية على أرض المعركة ومشاركتها فى أعمال المقاومة فى إطار تنسيق قوى وفعال أثناء احتدام المعارك، الأمر الذى أتاح لضربات المقاومة الكثير من الفاعلية والتأثير على معنويات العدو.

ومن أخطر ما تواجهه السلطة بعد الإفراج العبثى عن الرئيس عرفات (وهو الإفراج الذى يصعب تصور أهدافه لسبب بسيط وهو عدم تمتع عرفات بحرية كاملة للحركة ووجوده دائمًا فى كنف وتحت سيطرة أنياب الدولة العبرية)، هو أن أمريكا وإسرائيل قد أهدرا مصداقيته لديهما، وأصبح التفاهم معهما فى أى تسويات قادمة رهينًا برضوخ عرفات بشكل مهين لإرادة إسرائيل وهو ما يأباه تاريخ الرجل النضالى، أو ببزوغ قيادة بديلة تكون فى طوع التوجهات الإسرائيلية الأمريكية فى ظل رفض شعبى لها وشكوك فى توجهاتها، وهنا نجد الشعب الفلسطينى واقعًا فى مصيدة، فإن احتفظ بقيادة عرفات فلا حل ولا تسوية، وإن برزت قيادة بديلة فلا ثقة ولا مصداقية، وبالتالى يصعب تصور إمكانية التوصل إلى ترتيبات أو تسويات مقبولة من الجانبين فى المستقبل المنظور.

إن وجود سلطة فلسطينية لا تتجاوز اختصاصاتها صلاحيات البلديات والحكم المحلى، أمر لم يتحقق تمامًا منذ نشأة السلطة إلى ما قبل ٢٩ مارس ٢٠٠٢، كما أنه أصبح أمرًا متعذرًا فى الظروف الحالية، ويقتضى الأمر حوارًا وطنيًا شاملاً بين كل الفصائل للاتفاق على استراتيجيات جديدة تتجاوب مع المعطيات الجديدة، وإعادة بناء الصرح المؤسسى الفلسطينى بالشكل الذى يناسب المرحلة الجديدة لضمان استمرار النضال وحصار كل دعوة أو شعور بالهزيمة ومكافحة أى دعوات استسلامية تحت أى مسميات أو أعذار، سواء بالاستمرار فى الهجمات الاستشهادية، أو حتى بالعودة إلى الحجارة، أو بالمواجهة بالـ«آر.بى.جى» وستينجر والهاون والصواريخ البدائية. المهم هو استمرار النضال وعدم التوقيع على تسويات مرحلية تخفى تنازلات خطيرة وتنشر الوعى الاستسلامى وتخضع لإغراءات المعونات الأوروبية والأمريكية وسوق العمل الإسرائيلية.

إن قدر السلطة الفلسطينية أن تتحمل المسئولية السياسية لفشل مرحلة أوسلو بكاملها رغم الجهود المكثفة والمضنية التى بذلتها، والمقاومة الجريئة والصلبة للضغوط المكثفة التى مارستها عليها الدولة العبرية والولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول العربية والصديقة، كما أن قدر شعبنا فى فلسطين هو أن يتحمل العبء الكامل للنضال والمقاومة دفاعًا عن حقوق كل العرب والمسلمين، فى الوقت الذى يغيب فيه الدعم الحقيقى لهذا النضال من النظام العربى الذى يعانى الكثير من السلبيات وتتخلله الكثير من الثغرات وعوامل الضعف، ولكن هذا الوضع المزرى لا يقدر له الدوام، لأن عناصر القوة العربية كبيرة ومؤثرة، وهى أقوى من كل عوامل الضعف، ولأن الشارع العربى لابد أن ينتفض من الخليج إلى المحيط فى نصرة حقوق شعبنا فى فلسطين وحفاظًا على مقدساتنا الإسلامية والمسيحية. وعلى من يعدون المخططات فى كواليس البيت الأبيض والبنتاجون وفى أجهزة المخابرات ومراكز البحوث الإسرائيلية، أن يدركوا أن مشروع هرتزل وبالفور لم ينجح رغم مرور تلك العقود، وأن الشعب العربى يتمتع بالنَّفَس الطويل والقدرة على استيعاب أكثر من كبوة ولكنه بحكم قواه الذاتية الكامنة، وبعمق حضارته لا يمكن أن يُهزَم، فقد تنجح مخططاتهم سنة أو سنوات ولكن العرب سيقلبونها نارًا على هؤلاء الأذكياء، ليرتد ذكاؤهم غباء مفرطًا، وليجلبوا على أهلهم العار والذل ويعودوا للتشرد من جديد، هل هى أضغاث أحلام؟ كلا فالشعب العربى يراها كحقيقة قاطعة ومجسمة ككل من درس ديناميكية الصراع وموازينه بعيدًا عن التخويف بالتكنولوجيا والعولمة وأسلحة الدمار الشامل.

السفير/ إبراهيم يسرى
محام ومحكم دولى



شارون ينفذ استراتيجية ثابتة

تعليقًا على ما قرأت بعدد مايو ٢٠٠٢ ولشد ما فوجئت بكم من المقالات التي تهتم وتتحدث بتركيز عن شخصية شارون وتحليلها وذلك بأقلام مجموعة من كبار المثقفين في العالم العربي، وأود أن أخص تعليقي بالأستاذ يوسف القعيد وهو الذي أظن أنه ما زال يؤمن أن فلسطين دولة مغتصبة من شمال سيناء حتى جنوب لبنان ومن البحر الأبيض حتى نهر الأردن قبل أن يتم زحزحة العقل العربي للمطالبة فقط بالانسحاب من الأراضي المحتلة بموجب قرارات مجلس الأمن ثم تمت الزحزحة حتى يتم التفاوض على هذه الأراضي ثم نتقهقر أكثر حتى نطالب بحدود سبتمبر ٢٠٠٠، والآن مطلوب منا التفاوض على الوضع الحالي كما قال شارون إذا كان هناك تفاوض.

سيدي: السؤال الآن هل شارون هو المسئول عن هذا كله؟ أليس الشعب الإسرائيلي هو الذي اختاره، وأتحدى أي شخص يذكر لي حاكمًا واحدًا لإسرائيل لم يقم بمذابح ضد الفلسطينيين والعرب ولم يقتل الآلاف منهم، إذن الشعب الإسرائيلي كله شارون.

ورد في التحليل أن أمه وأباه قد أهدياه مسدسًا وخنجرًا وهو في سن الخامسة، فنعم التربية تلك التي جعلت منه في يوم حاكمًا لبلاده بموجب انتخابات حرة وليست مزورة، وهو أيضًا لا يطمع في الحكم لأبد الآبدين أو أن يورث الحكم لأحد أبنائه، وهو على مدار تاريخه كله لم يكن في يوم من الأيام عميلاً لأي دولة لا أمريكا ولا غيرها ولم يكن مخلصًا أبدًا إلا لوطنه الذي ولد وتربى به - وإن كان هذا الوطن مغتصبًا من أصحابه - ولا يوجد زعيم خدم قضية بلاده مثل ما خدم شارون قضية بلاده.

فهل يمكن في هذه الحالة أن نعتبره ديكتاتورًا أو خائنًا أو عميلاً؟

سيدي (بالله عليك ماذا تفعل لو كنت مكانه) وأمامك كل هذا الانحناء العربي؟

سيدي إنك تقول إنه لا يمتلك استراتيجية بل هو رجل تكتيكي في تصرفاته وقراراته، فهل هناك رئيس وزراء لإسرائيل يضع استراتيجية لها، بل الاستراتيجية موضوعة منذ زمن طويل، ثم ماذا تفيد الاستراتيجية الآن معنا ونحن في هذا الوضع فليصفعنا ويقتلنا صباحًا ولا نحرك ساكنًا، ثم يمد يده باستعلاء لنا مساء فنهرع بالتقبيل والأحضان ولا مانع من تقبيل الأيادي أيضًا.

سيدي: اللوم ليس على شارون ولا الذنب ذنبه فهو رجل كما قلت يعمل لمصلحة بلاده ولكن اللوم والذنب ذنب من صدق أو حاول أن يجعلنا نصدق أنه سوف يوجد بين (أحمد وداود) سلام ممكن.. ذنب من سيقولون يومًا ما (قتلنا يوم قتلت فلسطين).

سيدي لابد من إيضاح أصل القضية إجماليًا ولا ننشغل عنها بفروع، فعنوان المقال هو (أنا أكذب.. أنا أكره.. أنا أقتل.. إذن أنا شارون) وهل هناك حاكم لإسرائيل لم يكذب ولم يكره العرب ولم يقتلهم، فكلهم شارون أو كلهم إسرائيل أي الألفاظ تشاء أن تختار، فشارون ليس هو حاكم إسرائيل منذ عام ١٩٤٨ ولن يظل حاكمًا لإسرائيل للأبد. ومن يأتي بعده ليس بأفضل منه بالنسبة لنا، وهم قد قالوها مسبقًا أنه لن يأتي أفضل من باراك والآن لن يأتي أفضل من شارون وذلك لأننا قد نجحنا في التوصل لهدم قانون نيوتن (كل فعل له رد فعل مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه)، فهو لا ينطبق علينا فنحن مرتاحون ومصممون وعازمون على أن نظل على هذا الوضع من الانحناء (ولا نرتضي بغير الانحناء بديلاً).

وأخيرًا لا يسعني إلا أن أذكر قول الله ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ في حين أن كثيرًا منا يدعو في صلاته بقوله: اللهم دمر الظالمين بالظالمين وأخرجنا من بينهم سالمين (زي الشعرة من العجين).

ولكم ولصرحنا الثقافي «وجهات نظر» خالص التحية والتقدير.

صلاح خلاف
محاسب

واقع الحال و«عملية هبرون»

في المقالة بعنوان «المؤامرة والسياسة والجريمة» التي كتبها أستاذنا/ محمد حسنين هيكل في مجلة «وجهات نظر» عدد يونيو ٢٠٠١، وقدم فيها عرضًا وتحليلاً لقصة بعنوان «عملية هبرون»، وهو المسمى الرمزي للعملية الاستخباراتية التي خطط لها الموساد الإسرائيلي، بهدف وضع أحد عملائه في المكتب البيضاوي للبيت الأبيض رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية، ليكون ذلك هو «الضمان النهائي الذي لا ضمان بعده ولا ضمان فوقه.. فهو كفيل بأن يحقق لها كل ما تحلم به، وأبعد وأوسع من الحلم أيضًا». ذلك لأن رئيس الوزراء الإسرائيلي - في القصة - يشعر أن إسرائيل تحتاج إلى ضمان أمريكي نهائي يوفر لها طول السنوات القادمة الحاسمة - وفيها التسوية الكاملة النهائية لأزمة الشرق الأوسط - ما لا تقدر عليه جماعات الضغط المؤيدة لها، وما هو أنفع من أغلبية صديقة من الشيوخ والنواب، وما هو أقوى من صف طويل متعاطف من رؤساء تحرير الصحف ومديري الفضائيات وشركات السينما.

يقول سجل زيارة السيناتور الأمريكي جورج ووكر بوش عام ١٩٩٨م لإسرائيل إنه لبس القلنسوة ووقف يذرف الدمع الغزير على الحائط كمؤمن بعودة قتلة المسيح وإعادة بناء الهيكل المزعوم؟!

تقول نهاية قصة «عملية هبرون» إن الرئيس يتم دخوله إلى البيت الأبيض (بعد طحنه نفسيًا بين شقي رحى اليأس والرجاء من نتيجة التصويت) بأغلبية ضئيلة بعد عمليات خداع ولعب وتلاعب في عد وإحصاء الأصوات بالآلات ويدويًا وبعد قرارات محاكم.. وهو ما حدث في الواقع الفعلي!!

يقول واقع الحال إن قراءة ملف «إنرون جيت» في ضوء شمعة «ووتر جيت» وفي وجود النائب البديل الجاهز للقفز.. إن الملف جاهز للنشر في اللحظة المناسبة، ويقوم الملف بدور المسدس المصوب لظهر الرئيس عند أول بادرة لمخالفة التعليمات أو الخروج عن النص، وهو ما يجعله يفضل الموت للعرب الإرهابيين على أن يكون فاشلاً Looser ويوبخه أبوه.

ويقول الواقع المعاش والمرئي في إسرائيل.. إنه قد تشكلت وزارة وحدة وطنية من جميع الأحزاب لتنفيذ المخطط الكبير من خلال تطبيق أسلوب إثارة الفلسطينيين بفعل قذر ومن ثم استغلال رد الفعل كمبرر للتقتيل والتدمير واكتساح الأراضي.. وبدأت الخطة بزيارة شارون للمسجد الأقصى ثم اكتساح الأراضي.. ثم عمليات التدمير للأهداف المدنية.. ثم قتل النساء والأطفال، ومن ثم استغلال رد الفعل عليها بالعمليات الاستشهادية في تبرير عدم التراجع والبقاء النهائي في تلك الأراضي؟

ويتطابق الحال أيضًا مع الشواهد المنشورة داخل الولايات المتحدة الأمريكية، وأيضًا مع سياستها المعلنة والمنفذة في المنطقة. ومنها التقرير الاستراتيجي للسياسة الأمريكية المقدم من السيدة كونداليزا رايس لتلميذها غير النجيب بأسلوب افعل ولا تفعل (محمد حسنين هيكل - وجهات نظر سبتمبر ٢٠٠١). ثم شواهد المؤامرة غير المفسرة - حتى الآن - بدءًا من منح ٤٠٠٠ يهودي إجازة من العمل في برجي مركز التجارة العالمية قبل صباح ١١ سبتمبر. ثم اكتشاف المباحث الفيدرالية لمجموعات تجسس إسرائيلية تم التعمية على أخبارها، وغيرها.. وغيرها مما هو معروف ومنشور في أوروبا ولا يترجم للعربية إلا فيما تنشره الأهرام أحيانًا.

أظنها الحقيقة لأن واقع الحال يؤيد وقائع القصة المنشورة بتفاصيلها في كتاب رجل المخابرات الأمريكي القديم (عملية هبرون) كما فعل من قبل موشي ديان حين نشر خطة حرب الخامس من يونيو. اعتمادًا على أن العرب لا يقرأون، وإن قرءوا لا يفهمون، وإن فهموا لا يفعلون.. لأنهم غير قادرين.. ولأنهم على ضياع رفاهية كراسي الحكم خائفون.

د. حمزة إبراهيم عامر
أستاذ الجيولوجيا التطبيقية

الوقوف على الشاطئ الآخر

أسجل أولاً إعجابي الشديد بآراء وأسلوب الأستاذ سلامة أحمد سلامة من خلال كتاباته. وأرجو أن يتسع صدر المجلة لهذا التعليق السريع، مع ما به من تبسيط.

نعم يا سيدي تظهر الكثير من مفردات اليمين الأمريكي في الخطاب الرسمي الأمريكي رغم أن الدستور الأمريكي يفصل بين الكنيسة والدولة، لأن الفصل بين الدين والدولة، أو ما يعرف بالعلمانية، لا يعني على الإطلاق، وأكرر على الإطلاق، فصل الدين عن المجتمع والناس. في ظل فصل الدين عن الدولة، ليس المطلوب أن يتخلى المرء عن معتقداته الدينية أو عن ممارستها، بل المطلوب أن توفر الدولة الغطاء القانوني الذي يسمح لكثيرين آخرين بالتعبير أيضًا عن معتقداتهم التي قد تختلف عن معتقدات من في السلطة وممارستها إن أرادوا ذلك. هذا هو المناخ الذي يوفر مجالاً من الحرية يسمح حتى لمثل هذا الكاتب الأمريكي الذي ذكرته في مقالك أن يكتب ما يعد هوسًا، لأن الجميع يعلم أنه لن تؤثر مثل هذه الآراء على قرارات الدولة التي تحكمها في نهاية الأمر استراتيجية غير انفعالية تعمل على تحقيق المصالح العليا للبلاد. وأرجو ياسيدي ألا تعتبر هذا من زاوية النظر إلى الغرب بمثالية Idealising the west فمعروف ما يحدث مثلاً إذا ما تناول شخص، حتى لو كان من العلماء، موضوع محرقة اليهود، ولكن هذا حديث آخر.

أرجو يا سيدي أن نتخيل، والخيال والحمد لله ليس لأحد سيطرة عليه حتى الآن، أننا نقف على الشاطئ الآخر وننظر إلى أنفسنا، ونحلل خطابنا من هذا المنظور الغيري. عندها سنرى كيف يبيع ساسة الغرب بسهولة شديدة لناخبيهم، غير المثقفين كطبيعة الجمهور خاصة في أمريكا، فكرة الخطر القادم من دول إسلامية، خاصة إذا امتلكت سلاحًا نوويًا، في ظل خطاب إسلامي ينادي طول الوقت «بتوجيه ضربة لرأس أمة الكفر». ومما يدعو للسخرية والخزي أن حالنا هذا وتهديداتنا الجوفاء واعتقادنا بأن نصر المسلمين قادم لا محالة منطق يلائمهم تمامًا. فمن ناحية يبيعوننا بخسًا على تذاكرهم الانتخابية، ومن الناحية الأخرى يضمنون أن ينشغل تفكيرنا بالبحث في أمور مثل، «هل السلام على المرأة باليد يعد زني؟ وهل زرع الأعضاء حلال أم حرام؟»، بدلاً من التركيز، كل التركيز، في مجالات البحث العلمي وتنمية وتطوير مؤسساتنا حتى يمكن أن نفاخر مرة أخرى، بحاضرنا كما نتفاخر دائمًا بماضينا.

محمد حلمي محمود



التحالف غير المقدس

بين الصهيونية واليمين المتطرف!

يصاب الأوروبيون عادة بصدمة تفقدهم توازنهم، بمجرد أن يرتفع صوت واحد فى إسرائيل يتهم الشعوب الأوروبية بمعاداة السامية. فإذا تجاوب معه صوت مماثل من أحد السياسيين العاملين فى اللوبى الصهيونى الحاكم فى أمريكا، وهو ما يحدث دائمًا، وقال إن أوروبا التى قتلت عدة ملايين فى الهولوكوست تتبنى الآن موقفًا معاديًا للسامية، انهارت أعصاب السياسيين والمسئولين الأوروبيين، ووقع الاتحاد الأوروبى بأجهزته ومؤسساته فى أزمة يعتبرها البعض كارثة.. ويتصاعد معها الإحساس بالضياع إذا ارتبطت تلك الاتهامات بالصراع فى الشرق الأوسط، أو ببعض الانتقادات التى توجه إلى إسرائيل فى تعاملها مع القضية الفلسطينية.

حدث ذلك فى نوفمبر ١٩٦٧، بعد حرب الأيام الستة التى اجتاحت فيها القوات الإسرائيلية سيناء. ووقف الجنرال ديجول فى قصر الإليزيه يوجه نقدًا حادًا لإسرائيل لتورطها فى عدوان يونيو ٦٧، ويقول ما معناه إنه كان يأمل أن تتصرف إسرائيل بقدر من التواضع. ووصف الشعب اليهودى الذى لم يستمع لنصائحه، بأنه «شعب استعلائى، مسيطر، تملؤه الثقة الزائدة بالنفس». وكانت هذه العبارات الهينة اللينة وحدها كافية لتصب حممًا من الهجوم الحاد ضد الزعيم الفرنسى، متهمة إياه بمعاداة السامية. واشتدت الحملة ضده بعد أن أصدر أوامره. وكان قد انتخب رئيسًا لفرنسا قبل يومين من شن الهجوم الإسرائيلى ضد مصر وسوريا. بفرض حظر على صادرات السلاح الفرنسى وقطع الغيار العسكرية لإسرائيل.

ولكن هذا الزعيم التاريخى العملاق لم يتراجع عن موقفه أمام الحملات اليهودية العنيفة، كما يحدث اليوم من جانب كبار الساسة والمسئولين الأوروبيين. فقد كان ديجول هو الذى قاد حركة المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازى. ولم يكن بوسع الصهيونية العالمية أن تمارس معه أساليب الابتزاز السياسى التى تمارسها الآن ضد كبار السياسيين الأوروبيين والأمريكيين الذى يضطرون إلى تغيير مواقفهم وقناعاتهم السياسية، بل وفى كثير من الأحيان بما لا يتفق مع مصالح بلادهم، خوفًا من تهمة العداء للسامية أو بتهمة مساندة القوى اليمينية المتطرفة لأسباب انتخابية داخلية.

وقد اتقن يهود العالم هذه اللعبة القذرة على مر العقود الأخيرة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وما ارتُكِب خلالها من جرائم ضد الإنسانية، كان اليهود بعض ضحاياها، فأصبح من اليسير بفضل أبواق الإعلام اليهودى وفساد الأحزاب والمؤسسات السياسية فى معظم الدول الأوروبية، وفى الولايات المتحدة نفسها، اعتبار أى نقد لإسرائيل وسياساتها لونًا من ألوان المعاداة للسامية أو تدبير بعض الاعتداءات الفردية على أشخاص اليهود ومعابدهم وافتعال مشاجرات عادية، لا تلبث أن تتحول إلى احتقان أو توتر اجتماعى فى القرية أو الضاحية التى وقعت بها.. لإيهام الرأى العام فى هذه الدولة أو تلك، وكذلك الرأى العام العالمى بأن موجة جديدة من معاداة السامية قد تفجرت، وأن اليهود على أبواب «هولوكوست» جديد!!



وفى هذا السياق يمكن فهم الموجة واسعة النطاق من الاتهامات الإسرائيلية الموجهة إلى العالم بمعاداة السامية، والتى تزامنت بشكل خاص مع الانتقادات الشديدة التى وجهتها بعض الدوائر الأوروبية إلى المذابح وأعمال القمع والإبادة التى ارتكبتها إسرائيل فى الأراضى الفلسطينية. إذ يبدو تعاطف هذه الدوائر مع محنة الفلسطينيين أمرًا مكروهًا ومعاديًا لإسرائيل. وعندما نشرت صحيفة «لاستامبا» الإيطالية رسمًا للسيد المسيح طفلاً وهو ينظر من مهده إلى دبابة إسرائيلية ويقول: «لا تقولوا لى إنهم يريدون قتلى ثانية!»، لم يأخذ الإسرائيليون ذلك باعتباره نقدًا للحصار الإسرائيلى لكنيسة المهد فى بيت لحم، بل اعتبروه جريمة لا تغتفر فى معاداة اليهود وإحياء للنزعات العنصرية والفاشية.

غير أن الأمر يبدو عند التحليل أكثر تعقيدًا من ذلك. إذ تسعى العناصر اليهودية من خلال حملاتها ضد الأحزاب والقوى اليمينية وتوجيه اتهاماتها إليها بمعاداة السامية، ليس فقط إلى تحذير القوى الديمقراطية، ولكن إلى تحقيق حد أدنى من التضامن بين اليهود والقوى الفاشية. إن لم يكن بهدف الحصول على تأييدها، فبهدف تحييدها، واستخدام أدواتها دون التعرض للنقد والهجوم. وهذا ما فعلته إسرائيل والقوى الصهيونية العالمية فى الأزمة الأخيرة، حين حاولت لفت الأنظار عن الجرائم والمذابح التى ارتكبتها فى الأراضى الفلسطينية، باستخدام نفس أساليب الإبادة التى طبقها النازى فى تدمير بيوت المدنيين وتعريضهم لعقوبات جماعية وقتل المشتبه فيهم دون محاكمة، ثم اللجوء إلى الترحيل الجماعى «الترانسفير» لأعداد كبيرة من الفلسطينيين.

وقد نجحت إسرائيل إلى حد كبير بهذه الطريقة فى إسكات الأصوات المنصفة التى ارتفعت فى دوائر أوروبية عديدة احتجاجًا على الفظائع الإسرائيلية، وتحت سيف الاتهام بمعاداة السامية أُخرست ألسن وأقلام كثير من الصحفيين والمراقبين وموظفى الأمم المتحدة والهيئات الدولية، بل ونجحت إسرائيل فى وقف قرار مجلس الأمن بإرسال لجنة لتقصى الحقائق حول مذابح جنين، وبدلاً من أن يحاسب الرأى العام العالمى إسرائيل على جرائمها، تحول إلى موقف الدفاع عن النفس من تهمة انبعاث اليمين المتطرف وإحياء نزعات معاداة السامية الأوروبية. وقد وصل الأمر إلى حد تنظيم حركة مقاطعة واسعة لمهرجان كان السينمائى فى فرنسا، وإطلاق دعوة لنجوم السينما الأمريكيين بعدم الذهاب إلى كان، بحجة أن فرنسا صارت من أكثر الدول عداء للسامية.. مع أن حركة اليمين الفرنسية بزعامة حزب لوبان وغيرها من أحزاب اليمين الأوروبى لم تتعرض لليهود فى حملاتها الانتخابية، بقدر ما تعرضت لهجرة المسلمين والأفارقة وطالبت بالحد منها.



إن النظرة الفاحصة لتاريخ اليهود وقيام الدولة الإسرائيلية، لا يدع مجالاً للشك فى أن التجربة الإسرائيلية قامت على استيعاب الخبرات الفاشية والنازية والاستفادة من النزعات العنصرية التى سادت أوروبا وميَّزت تاريخها منذ بداية الحقبة الاستعمارية.. ومن الناحية التاريخية، فإن مشاعر العنصرية والاستعلاء الجنسى والفكرى التى ميزت موقف أوروبا تجاه الشعوب الأخرى، فى مرحلة المد الاستعمارى والحروب الكولونيالية التى استهدفت الاستيلاء على ثروات الشعوب الأفريقية والآسيوية وفرض سيطرتها عليها، ظلت مرضًا دفينًا فى العقل الأوروبى والثقافة الاستعمارية التى أفرزتها. وقد ظل اليهود جزءًا من التراث الاستعمارى الأوروبى، ومازالوا حتى الآن.. لم ينفصلوا عنه كشعب إلا بظهور الحركة الصهيونية والسعى لإقامة دولتهم. وبقيت العلاقة بين اليهود وأوروبا علاقة مركبة حتى الآن. تتميز بالتجاذب والنفور، وبالحب والكره، وبميل دفين للالتحاق بالثقافة الأوروبية من ناحية وادعاء الاستقلال عنها من ناحية أخرى.

ولم يعرف عن التراث اليهودى أنه دافع عن حركات التحرر أو ساعدها. بل كان جزءًا لا يتجزأ من نظام التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا، واتخذ اليهود موقفًا مناهضًا لحركة المساواة بين البيض والسود فى الولايات المتحدة الأمريكية، وتحالفوا مع أنصار التفرقة العنصرية فيها. وهم يطبقون الآن فى المجتمع الإسرائيلى كل الأساليب التى عرفوها فى التعامل مع الفلسطينيين فى دولتهم كمواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة.



فى المؤتمر الذى انعقد فى ديربان لمكافحة العنصرية فى الصيف الماضى، لم تستطع أمريكا بكل نفوذها أن تبرئ إسرائيل من تهمة العنصرية، ولا أن تحصن الصهيونية من مساواتها بالعنصرية واعتبارها شكلاً من أشكالها، بعد أن أصبحت الممارسات الإسرائيلية كقوة احتلال ذات أهداف استعمارية، تحتضن نفس الأنماط التى عرفها التراث الاستعمارى الأوروبى، وتتبنى أنساقًا ثقافية تقوم على فكرة التفوق الجنسى والتمايز العرقى واستنكار حق الشعوب الأخرى فى تقرير مصيرها والدفاع عن وجودها.

ومن هنا يمكن تصور الدوافع والأسباب التى تجعل من إسرائيل وقوى الصهيونية العالمية، المستفيد الأول وربما الأوحد من بعث قوى اليمين المتطرف فى أوروبا، فهناك بغير شك مصالح مشتركة يجنى كل طرف منهما ثمارها بطريقة مختلفة.. أحزاب اليمين الفاشى فى أوروبا تصد جحافل المهاجرين الأجانب من المسلمين والملونين الذين «يلوثون» المجتمعات الأوروبية ويهزون قيمها وعاداتها، ويحصلون على أماكن العمل كأيد عاملة رخيصة، والجماعات اليهودية ذات النفوذ الضاغط على عصب الحياة السياسية والاقتصادية فى الغرب، تطلق صيحة «الخوف من الذئب» بين الحين والحين، فتجنى مزيدًا من التعويضات والمواقع المؤثرة والمكاسب السياسية.. والضحية فى كلتا الحالين واحدة، هى مجموعة شعوب فقيرة مهضومة يسهل ابتزازها واستغلالها سواء فى فلسطين أو فى أفريقيا أو آسيا.. إنه التحالف غير المقدس بين الصهيونية وقوى اليمين المتطرف فى الغرب!

سلامة أحمد سلامة

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 42 - July 2002
مجلة شهرية . العدد الثانى والأربعون . السنة الرابعة . يوليو ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات



ثورة يوليو.. خمسون عاما

ملك تحت الحصار!

محمد حسنين هيكل

شاهد على العصر

يوليو لماذا؟

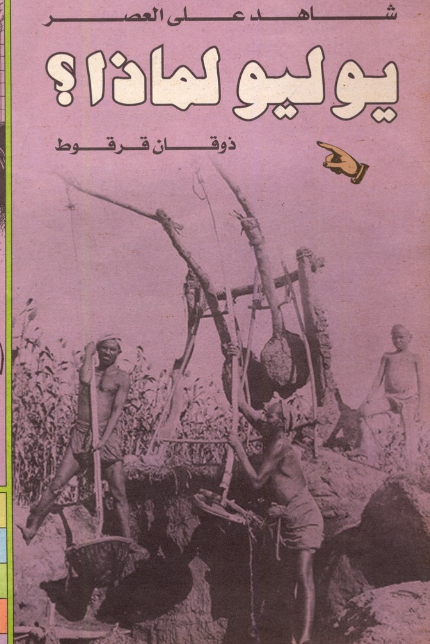
ذوقان قرقوط





ماذا فعلت ثورة يوليو بالاقتصاد المصرى؟

جلال أمين



و.. الأصولية اليهودية

الزمن والفن

جمهورية كرة القدم!

المضحكون الجدد فى مصر

أفيون الشعوب فى زمن العولمة!

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد الثانى والأربعون
يوليـة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى



"تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة"

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

ـ **أحمد فتحى سرور**.. أستاذ القانون الجنائى بكلية الحقوق جامعة القاهرة ورئيس مجلس الشعب المصرى.
ـ **أحمد فؤاد سليم**.. فنان وناقد تشكيلى.
ـ **جمال إسماعيل**.. صحفى.
ـ **جلال أمين**.. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
ـ **جيف ماديك**.. أستاذ مساعد فى العلوم الاجتماعية وكاتب فى جريدة النيويورك تايمز.
ـ **حسن المستكاوى**.. صحفى.
ـ **ديفيد بلانكس**.. أستاذ التاريخ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.
ـ **ذوقان قرقوط**.. كاتب من سوريا.
ـ **رضوان السيد**.. أستاذ الدراسات الإسلامية بالجامعة اللبنانية.
ـ **سلامة أحمد سلامة**.. صحفى.
ـ **طارق الشناوى**.. صحفى.
ـ **عماد جاد**.. خبير بمركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام.
ـ **فاروق عبدالقادر**.. كاتب.
ـ **محمد حسنين هيكل**.. صحفى.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى ـ سعد الدين شحاتة





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عددًا) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص.ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٢٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمــــــة..

مــــن المتطــــرفـون..؟!

أصبحت إسرائيل فصلاً جديدًا فى «التاريخ الكارثى لليهود»! قد تكون العبارة مبالغًا فيها. وقد تكون غريبة اليوم على أسماع الذين استمعوا قبل أيام فقط إلى «إملاءات بوش»، المختلف عليها بالضرورة حسب مخاوف وتمنيات المستمعين الذين «جلسوا» طويلاً بانتظارها. والذين سيجلسون لاحقًا - طويلاً طويلاً - ليختلفوا، بالضرورة أيضًا، حول تفسير معانيها الفضفاضة .. وقياس مدى الالتزام «حرفيًا» بشروطها «مستحيلة القياس».

أيًا ما كان، فصاحب العبارة «بنيامين بيت هالحمى»، وهو أستاذ فى جامعة حيفا ومتخصص فى علم نفس الدين. نقلها عنه الباحث الفلسطينى الجاد «حسن خضر» فى دراسته المهمة «قصر الأوانى المهشمة: دراسات فى نقد الصهيونية» (مدار، المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية، رام الله، مارس ٢٠٠١) .

يستنتج الأكاديمى الإسرائيلى أن الانتفاضة الفلسطينية كانت صدمة كبيرة الحجم للشعب الإسرائيلى كله، وربما كانت الضربة أقوى من زلزال أكتوبر ١٩٧٣، لأنها أعادت الحركة الصهيونية برمتها (قصة نجاح مدهشة تبلغ نحو مائة عام) إلى نقطة الصفر تقريبًا. لقد أجبرت الانتفاضة الأولى، بهذا المعنى، المجتمع الإسرائيلى على فتح عينيه على حقيقة وجوده الاستعمارى فى مواجهة السكان الأصليين، وأخذ الشباب الإسرائيلى، الذى حاولت المؤسسة السياسية اليسارية المنافقة أن تزين له مقولة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، يتساءل عن الحل، وعن الساسة الذين يتكلمون عن الديموقراطية فيما هم يمارسون الاستعمار. ويتوصل الكاتب «الإسرائيلى» إلى استنتاج يراه صادمًا لكل من راهن على «ديموقراطية غربية فى قلب شرق متخلف..»، ويدعو فى الصفحات الأخيرة من دراسته إلى ضرورة التعامل مع قيام الدولة العبرية بوصفها فعلاً كولونياليًا/استعماريًا ينتمى فى طبيعته إلى التفكير الأوروبى، خلال القرن التاسع عشر، الذى كان يستلهم نظريات التفوق العرقى والعنصرية! التى بررت هيمنة الاستعمار على الشعوب الأدنى عرقيًا.



قبل عام بالضبط، وفى يوليو ٢٠٠١ رحل إسرائيل شاحاك، أحد أكثر اليهود مقاومة للعنصرية اليهودية، بعد أن ترك كتابًا مهمًا، تقدم «وجهات نظر» قراءة لبعض فصوله فى هذا العدد، عن «الأصولية اليهودية فى إسرائيل» والقائمة على العنصرية فى أقصى درجاتها تطرفًا. وعلى التفوق العرقى، المتجذر فكريًا. والذى يبدو أنه يتنامى باطّراد داخل المجتمع الإسرائيلى - رغم أنف قرن جديد قد بدأ - ولأسباب مختلفة ومتباينة، لا تخلو من الانتهازية السياسية.

يقدم إسرائيل شاحاك ونورتون ميتسفنسكى (وهو أمريكى يعمل أستاذًا للتاريخ فى جامعة سنترال كونكتكت) فى دراستهما شرحًا لتيارات الأصولية اليهودية وجذورها التاريخية وتأثيرها المتصاعد فى الساحة السياسية وأثرها الفاعل على عمليات اتخاذ القرار السياسى فى الوقت الحاضر. ويبين شاحاك وميتسفنسكى أن الصورة العلمانية الديموقراطية الرائجة فى الغرب عن إسرائيل ليست حقيقية، فالمجتمع الإسرائيلى منقسم إلى أبعد حدود الانقسام، والتيارات الدينية الأصولية منقسمة فيما بينها كذلك حول المعتقدات الدينية واللباس والعلاقة مع العالم الخارجى ومع الآخرين من غير اليهود، وفى النظر إلى ضرورة قيام دولة إسرائيل قبل مجىء المخلص، وفى ضرورة القضاء على المسيحية، وهى أمور مغيبة فى الإعلام الغربى وغير معروفة إلا لدى فئة قليلة من المتخصصين فى الشؤون الإسرائيلية.

ويحاول الكتاب المهم رصد ملامح الطفرة الكبيرة التى حدثت فى النمو الأصولى الإسرائيلى المتطرف فى دولة إسرائيل الحديثة خلال السنوات الأخيرة. والذى لعب دورًا رئيسًا فى اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق رابين، وقتل ٢٩ مسلمًا أثناء الصلاة على يد المتطرف اليهودى أمريكى المولد «جولد شتاين». ويشير المؤلفان إلى أن المناصرين للأصولية اليهودية فى إسرائيل يقاومون العدالة الاجتماعية والمساواة، ويشيران إلى الدراسة التى قام بها عالم الاجتماع اليهودى «بورش كيميرلنج» والتى قال عن نتائجها: إن قيم الدين اليهودى على الأقل فى جانبه الأرثوذكسى والقومى الذى ينتشر فى إسرائيل الآن لا يمكن أن تتماشى أو تنسجم مع قيم الديمقراطية ولا توجد أى متغيرات لا القومية ولا القيم الاجتماعية أو الاقتصادية ولا التعليمية يمكنها أن تؤثر على السلوك الذى يتبناه اليهود الإسرائيليون ضد الديمقراطية، خاصة هؤلاء اليهود مفرطى التدين. ويظهر المؤلفان قلقهما المتزايد تجاه ما يظهره المتطرفون اليهود من ازدراء تام تجاه كل من هو غير يهودى، ويسجلان ما قاله الحبر الأكبر كوك: «إن الفرق بين روح اليهودى وروح غير اليهودى هو أعظم وأعمق من الفرق بين روح الإنسان وروح الماشية». منبهين إلى حقيقة أن تعاليم الحبر الأكبر كوك تتبع بإخلاص وورع من قبل اليهود، هؤلاء الذين قادوا حركة المستوطنات فى الضفة الغربية المحتلة معتمدين على مدرسة التصوف الدينى التى سيطرت على اليهودية فى أواخر القرن السادس عشر وحتى بدايات القرن التاسع عشر، والتى يقول أحد معتقداتها الأساسية بالاستعلاء التام للروح والجسم اليهوديين، فوق الروح والجسم غير اليهوديين، حيث إن الكون قد صنع كلية من أجل اليهود وكان اليهود فى البدء، ثم جاء خلق غير اليهود بعد ذلك «كأمر ثانوى». وهى الأفكار التى عبر عنها بوضوح الحبر إسحق كينسبرج الذى هاجر إلى إسرائيل قادمًا من الولايات المتحدة حين تحدث بحرية عن علو الجينات اليهودية وسمو الروح اليهودية، فيقول فى إحدى كتاباته: «إن كل خلية فى جسم اليهودى جزء من الله، لذا فإن هناك تركيبة خاصة للحامض النووى اليهودى تختلف عن بقية البشر».

ويؤكد المؤلفان أن المتطرفين اليهود مؤمنون بأن الله قد منح هذه الأرض كلها لليهود. وأن العرب الذين يعيشون الآن على أرض إسرائيل «من النيل للفرات» هم لصوص، ويؤكد هذا السياق الحبر «إسرائيل أرييل» الذى نشر أطلسًا يوضح حدود الأرض التى على اليهود أن يحصلوا عليها الآن وأن يحرروها من اللصوص ويقول الحبر «شلوم أفينر» متحدثًا باسم المتطرفين اليهود: «علينا أن نعيش على هذه الأرض بأى طريقة حتى ولو كانت الحرب والقتل، وحتى لو كانت هناك معاهدات سلام، فإن علينا أن نحرض على قيام الحروب لتحرير أرضنا من المغتصبين العرب».



هل لنا أن نستغرب إذن أن يقف الساسة و«المثقفون» فى الغرب الأمريكى مطالبين بفرض الوصاية على ما نعلّمه نحن لأجيالنا القادمة، غير مترددين باتهام ديننا بنبذ الآخر والعنصرية والتعصب، وهو الذى يعلمنا أن الله خلقنا «شعوبًا وقبائل لتعارفوا..» وأن «لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح». أما اليهود الذين تصف مأثوراتهم كل ماعداهم «بالأغيار» وتسقط عنهم صفة «البشرية» ذاتها.. فهم المتحضرون، ولا غبار البتة على ثقافتهم.



إسرائيل شاحاك، اليسارى اليهودى وأستاذ الكيمياء العضوية وأحد الناجين من مذابح الهولوكوست، شهد فى طفولته صعود النازية ونشأ فى أجواء الأعاصير العنصرية التى اجتاحت أوروبا. وكانت عائلته من ضحايا هذا الجو المظلم الذى أصاب دول الغرب، فقُتل شقيقه واختفى والده وانتهى به الحال هو ووالدته فى معسكر الاعتقال. قبل أن يذهب إلى فلسطين معتقدًا - أو واهمًا كما يكتشف فيما بعد - أن أيام العنصرية البغيضة ذهبت إلى غير رجعة، إلا أنه سرعان ما اكتشف مع مجزرة كفر قاسم أن حلم المساواة بعيد عن الحقيقة، وأن الاستيلاء على أراضى الفلسطينيين والعرب كان عملاً عنصريًا خالصًا. وسرعان ما بدأ جهدًا متصلاً لدحض المزاعم الصهيونية القائلة أن فلسطين كانت أرضًا بلا شعب تنتظر شعبًا بلا أرض.

ونشر شاحاك، تأكيداً لنظرته، لائحة مفصلة تبين أن الإسرائيليين دمروا ٣٨٥ قرية من أصل ٤٥٧ قرية عربية كانت موجودة فى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، وأن التدمير الذى نفذ فى هذه القرى ذهب بكل شىء فيها بما فى ذلك المنازل والمبانى العامة والمدافن.

تشاؤم شاحاك، والذى يؤمن بالدولة العلمانية الديموقراطية كحل للصراع الفلسطينى الإسرائيلى، لم يغادره حتى قبل وفاته العام الماضى. إذ لم يتردد أن يرفض بحزم تسمية المفاوضات والترتيبات التى شهدتها المنطقة فى السنوات الأخيرة بالسلام. فهى لا تمثل فى نظره أكثر من هدنة مؤقتة. ومحاولة للسيطرة على الفلسطينيين بوسائل جديدة، مذكرًا فى حوار أخير معه بما قاله رابين (الراحل) فى معرض تبريره لاتفاقيات أوسلو (الراحلة).. قال رابين: «لم يحضر وألداى إلى فلسطين للاهتمام بشئون هؤلاء الناس وحل مشاكلهم، فليحل الفلسطينيون مشاكلهم الحياتية بأنفسهم. مادمنا نواصل السيطرة عليهم».

وكان شاحاك قد قدم للعالم العربى «الذى لا يحسن قراءة العقل الإسرائيلى» دراسة «أوديد اينون» الدبلوماسى الإسرائيلى، التى تكشف استراتيجية إسرائيل القادمة لتفكيك المنطقة من العراق شرقًا إلى السودان جنوبًا. طارحًا السؤال الأهم: هل تستطيع إسرائيل فى العصر الأمريكى أن تعيد رسم خارطة المنطقة مثلما فعلت الدول الأوروبية مجتمعة قبل قرن من الزمان (١٩٠٦)؟

على الأرجح سيظل السؤال فى دائرة اهتمام بعض الذين استمعوا «بعناية» إلى إملاءات بوش.. وأمنياته الطيبة.

وجهات نظر

جمهورية كرة القدم.. شعوبها مليارات

حسن المستكاوي

أشهر مباراة في التاريخ بين الحلفاء والألمان وسط معارك الحرب العالمية!!



■ كان المشهد غريباً لرجل يقف بجلبابه السنغالي الشهير أمام عدسات المصورين وهو يمسك بديك يرمز للمنتخب الفرنسي من عنقه، مداعبًا أو موحيًا بأنه «يخنقه» بعد فوز منتخب بلاده الأفريقي على فرنسا حاملة اللقب في افتتاح مونديال ٢٠٠٢ في كوريا واليابان، فهذه الابتسامة التي غلف بها السنغالي وجهه في اللحظة التي يتوقف فيها الزمن لجزء من الثانية لتسجله الكاميرا، لم يخف بها ما فعلته وصنعته كرة القدم ـ اللعبة الشعبية الأولى ـ في الشعوب. فكلما ازداد فقر البلاد أو القهر السياسي زادت أهمية اللعبة، فهي البديل للأحزاب الغائبة في الشارع السياسي، فيكون الانتماء لفريق تعويضا عن الانتماء إلى حزب، أو هي فرصة لإبداء الرأي في الوضع الاقتصادي بصرخة ضد حكم أو هتاف غير لائق ضد فريق باعتبار أن ساحة الملعب تسمح بالغضب والانفلات. وربما لاتغير نتائج كاس العالم شيئا في السويد أو أمريكا أو فرنسا التي فقدت لقبها في أكبر مفاجآت مونديال الشرق الأقصى، لكن كرة القدم ونتائجها في السنغال أو إيران تفعل الكثير، فقد يكون الهدف انتصارا حضاريا، أو هزيمة للشيطان، ولعل ذلك ما يفسر تصريحات أدلى بها لاعبو السنغال وجماهيرهم بعد الفوز على فرنسا في افتتاح كاس العالم، ولخصه مدرب «أسود التيرانجا» ـ أي العنيدة ـ وهو الاسم الرسمي للفريق السنغالي، فقال: «إن مباراتنا مع فرنسا كانت مواجهة بين البروليتاريا ـ عامة الشعب ـ وبين النبلاء»!



لقد أتاحت ساحة مغطاة بعشب أخضر جميل، تحيط بها مدرجات مزدحمة الفرصة لكي يهتف فيها الآلاف من الناس لفريق أو ضد فريق، ويصرخون، ويفرحون، ويتألمون، ويهاجمون مندوب العدالة ـ الحكم ـ الذي كان يرتدي زيا أسود ثم تعددت ألوانه. وهذا الصراخ والهتاف والانفعال يعود بالبشرية إلى الوراء آلاف السنين. إلى عصر حلبات المصارعة الإغريقية التي كان يتبارز فيها مصارعان بالسيف والدرع أمام القيصر، وتنتهي المباراة بفوز أحدهما، ومقتل الآخر!

وهذا الصراع هو جوهر كرة القدم، وسر جمالها وشعبيتها في الأصل، لكن الممثلة الإيطالية «جينا لولو بريجيدا» لم تفهم هذا السر أبدا، فقالت وهي في أوج جمالها وشبابها في الستينيات عندما ساقتها الظروف إلى ساحة ملعب لكرة القدم: «لماذا لاتعطون كل لاعب بالونة (كرة بالإيطالية) بدلا من هذا الصراع المحموم الذي أشاهده بين ٢٢ لاعبا على بالونة واحدة»؟!

والواقع أن كرة القدم باتت في حياة الشعوب بحجم الكرة الأرضية، وأصبحت نتائجها تمس كبرياء الأمة. وتحولت من مجرد لعبة إلى ظاهرة سياسية واجتماعية عالمية. وتعدت كرة القدم حدود الساحة الخضراء، وعكست كل أشكال الصراع، وجسدت تقسيمًا شاع في نهاية القرن العشرين للعالم، وهو الشمال الغني والجنوب الفقير، بكل ما يحمله الغني في قلبه وعقله من تعال، وغرور، وثقافة، وبكل مايحمله الفقير في قلبه وعقله من تغاض، وصمت، وصبر، وجهل في مواجهة الأول!

لكن تلك نصف الحقيقة، فالنصف الآخر صورة جميلة لرياضة ممتعة، فيها كل القيم النبيلة. فكرة القدم لعبة لها فعل السحر، ففي الأول من يناير عام ١٩١٤ كانت مجموعة من الجنود البريطانيين والحلفاء تواجه فرقة ألمانية معادية في خنادق تفصل بينها الجثث، ووضع الجنود أسلحتهم وخاضوا واحدة من أشهر المباريات في التاريخ وفاز الألمان ٣/٢ وفي اليوم التالي تبادل الفريقان القتال.. فهل هناك أغرب أو أعجب من ذلك؟!

وبينما كان العالم يتذكر ماكتبه الأمريكي صمويل هانتنجتون في منتصف الثمانينيات عن صدام الحضارات بعد أحداث ١١ سبتمبر وتحطم الكبرياء الأمريكي هاهو نفس العالم عاش شهرا كاملا التقت خلاله واتصلت الحضارات، ولو قدر لمصور عبقري أن يلتقط صورة كونية يجسد فيها كل مشاهد وأحداث مونديال ٢٠٠٢ في كوريا واليابان، وساعده الزمن بالتوقف فسوف تسجل عدسته لحظة يلعب فيها العالم ببهجة واستمتاع هناك بعيدا في الشرق الأقصى، ومما لاشك فيه أن الوجه الجميل في كرة القدم هو الذي دفع السياسي السويدي لارس جوستافسون عام ٢٠٠١ إلى ترشيح اللعبة للفوز بجائزة نوبل للسلام، ولم تكن تلك مداعبة ففي تاريخ الرياضة وكرة القدم مشاهد تؤكد قدرتها على إزالة الخلافات وتقريب المسافات بين الشعوب، وأقرب المشاهد بالترتيب الزمني ماحققه المونديال الأخير، فقد أزال تاريخًا من العنف والدم بين كوريا واليابان منذ غزو الإمبراطورية اليابانية لشبه الجزيرة الكورية عام ١٨٦٧ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية !



وكرة القدم باتت مركز قوة عالميًا بجماهيرها وشعبها، وبشعبيتها، وأموالها، وبهذا الجنون بها، ولذلك حرمت شعب كوريا على سبيل المثال من أشهى طعامها، وهو لحم الكلاب بقرار من الاتحاد الدولي الذي منع تقديم وبيع لحم الكلاب طوال فترة كأس العالم، فأي قوة تستطيع أن تحرم شعبا من طعامه المفضل ومن أين أتت تلك القوة؟!

إلا أن الاتحاد الدولي لكرة القدم منح كوريا واليابان مالم يمنحه لغيرهما من قبل، وهو تاليف نشيد للبطولة قامت بإعداده شركة سوني، وتضمن النشيد مقطوعات موسيقية من الدول المشاركة، بجانب موسيقى الدولتين المضيفتين، وألف النشيد الموسيقار الشهير فانجليز، وهي المرة الأولى التي يكون فيها للمونديال نشيد وقد شاركت فيه الطبول الآسيوية، وأصوات الكمان والتشيلو والفيولونسيل، كما غنت الأمريكية أناستاسيا أغنية «بووم» التي تعني ازدهار، وهو العنوان الرسمي لأغنية البطولة، لكن هل كان المقصود من فكرة النشيد الأول في تاريخ كاس العالم الإيحاء بأن كرة القدم أصبحت وطنا؟!

هل اللعبة ذات الشعبية والجماهيرية الطاغية باتت دولة كبيرة لها قوة الدول الكبرى؟!

يقول الاتحاد الدولي للعبة الذي يضم في عضويته ٢٠٤ دول، أن عدد اللاعبين المسجلين رسميا ٢٥٠ مليون لاعب، مما يعني أنه مابين كل ٢٥ شخصا في العالم يوجد شخص واحد يلعب كرة القدم، مع ملاحظة أن عدد الذين يمارسون اللعبات الأخرى في العالم يبلغ ١٢٧ مليونا فقط، ومما لاشك فيه أن هؤلاء اللاعبين ومعهم مجموعات المدربين والإداريين والحكام وغيرهم من العاملين في مجال اللعبة ينتمون لها بحكم حب ممارستها وما يجنونه من هذه الممارسة من مال وشهرة وأضواء. ومن العجيب أن الولايات المتحدة التي تعد فيها اللعبة جديدة هناك ١٨ مليون لاعب، وفي المرتبة الثانية تاتي إندونيسيا ٧،٤ مليون لاعب، ثم المكسيك ٧،٢ مليون لاعب، وفي الصين ٧ ملايين لاعب، وفي البرازيل ٧ ملايين لاعب، وفي ألمانيا ٦،٣ مليون لاعب وفي إنجلترا ٢،٥ مليون لاعب. وذكرت إحصائية الفيفا الصادرة في العام الماضي أن هناك ٢٠ مليون امرأة يمارسن اللعبة، وأن هناك ١،٥ مليون فريق، و ٢٠٠ ألف ناد، وأن عدد الحكام ومساعديهم والمدربين ٥ ملايين.

لكن أين نحن من هذه الأرقام؟

في الواقع لايزيد عدد اللاعبين المسجلين في مصر على ٥٠ ألف لاعب، بينما نجد الرقم أكبر في السعودية حيث يصل إلى ١١٨ ألف لاعب، ونسبة الممارسين في مصر تقل عن ١٪ من عدد السكان، وهي في السعودية ٦٪ بالمقارنة لعدد السكان، بينما نجد اليابان التي تمارس اللعبة حديثا وتهتم بها منذ ١٠ سنوات فقط يصل فيها عدد الممارسين إلى ٣،٥ مليون لاعب بنسبة ٢،٨ ٪ من عدد السكان.

وتلك قضية يطول فيها الحديث، فعدد لاعبي رياضة التنس في الولايات المتحدة يتجاوز الآن ٢٠ مليون لاعب، وهو أضعاف عدد الممارسين لكرة القدم في جميع الدول العربية، فالرياضة في دول العالم الأول جزء من السلوك اليومي للمواطن، وجزء من ثقافته، باعتبار أن الثقافة في أبسط تعريفاتها تعني أسلوب الحياة، فكيف تتكلم، وكيف تأكل، وكيف تلعب، وكيف تقرأ أيضا؟.. فلايوجد مايدعو للتعجب إذا عرفنا أن عدد الإصدارات الجديدة سنويا في الولايات المتحدة يصل إلى ٨٠ ألف عنوان بينما في مصر أكبر الدول العربية لايزيد عدد الإصدارات السنوية الجديدة على ٥ آلاف عنوان، وأي كتاب في أمريكا يوزع مليون نسخة على الأقل، أما في مصر وفي أية دولة عربية لايزيد حجم التوزيع على ٣ آلاف نسخة!

وشعوب لاتقرأ، هي شعوب لاتريد أن تعرف وهي أيضا شعوب لا تلعب، ولا يعنيها أن تلعب. وحب المعرفة يرتبط ـ بالطبع ـ بالتعليم والثقافة وحب الرياضة يرتبط ـ بالطبع ـ بفهمها، وبفهم تأثيراتها على النفس البشرية، فهي ترويح أولا، ثم أنها تعلم الصبر والإرادة والرغبة في النجاح والعمل الجماعي وتعلم أيضا أهم الدروس وهو أن الحياة انتصار وانكسار، ومن يخسر عليه أن يدرك أنه قادر على الفوز. لكن عندما يكون المفهوم أن الحياة، واللعب طبعا، دوما انتصار يكون ذلك هو الجهل بعينه، وتظهر آثاره في سلوكيات البشر فتتجلى الغوغائية وتعلق الهزائم الكبرى على الغير بدءا من الحكم وانتهاء بأمريكا!



ومن أسف أننا جيل ينظر إلى الخلف كلما أراد أن يعتز. جيل وراء جيل عاش مائة عام وهو لايملك سوى التاريخ في شتى المجالات. من بقايا الفتح الإسلامي في الأندلس ومما تركه لنا جابر بن حيان، ومحمد الإدريسي، والبيروني والفارابي وصولا إلى سيد نصير وخضر التوني وزكريا شهاب وحبيب حالقيه!

وربما ليست تلك قضيتنا اليوم، لكن إختصارا لابد أن نفهم أن الإنسان العربي مارس الرياضة من أجل الصيد والحرب، أو كدليل على القوة، ولكنه تاخر عن ممارسة اللعبات التنافسية ٥٠٠ عام، وتاخر عن ممارسة كرة القدم ٥٠ عاما وهو في جميع الأحوال، في شتى اللعبات أو في كرة القدم ظل يرفع الشعار القديم: «العقل السليم في الجسم السليم». الذي يبدو كشعارات بلهاء تعلق على لافتات في المدارس لغرس الروح الرياضية في الأطفال من نوع : «ابتسم عند الهزيمة». وفي كل يوم نموت من الضحك!

ونعود إلى كرة القدم فهذه الأرقام التي تصل إلى الملايين، تتعلق باللاعبين وبالممارسين المسجلين رسميا، أما الذين يلعبون الكرة ويركلونها في الساحات والمدارس والشوارع فهم مئات الملايين، ولذلك

يمكن القول أن كرة القدم هى أكبر جمهورية عرفتها البشرية، وأقدمها أيضا!

من اخترع هذه اللعبة؟

وحتى الآن لا يعرف أحد من بالتحديد «اخترع» كرة القدم أو من ركلها للمرة الأولى أو المجتمع الذى مارسها بصورتها البدائية قبل أن تمارس فى إنجلترا وتنتقل إلى العالم؟

الروايات عن أصل كرة القدم متعددة ومختلفة، لكن من المؤكد أن بعض المنافسات أقيمت خلال الحضارتين اليونانية والرومانية، وهناك رواية عن أن الصينيين مارسوها منذ أربعة آلاف سنة، وكانت اللعبة تسمى««تسو- تشو» tsu- chu كما كتب أحد المؤرخين يقول«: أن اليابان عرفت كرة القدم منذ ١٤ قرنا، وكانت تسمى«كيمارى» kemari أما هوميروس فقد تحدث فى الأوديسة عن«كرة جميلة مشعة»، فيما كتب هيرودوت أبو التاريخ عام ٤٤٨ قبل الميلاد يقول: «عندما زرت مصر وجدت هناك لعبة تسمى لعبة الكرة، يصنعها المصريون من جلد الماعز، ويحشونها بالقطن أو القش، ويركلها اللاعبون بالأقدام بين فريقين يتنافسان حتى تصل الكرة إلى نقطة نهاية لتحتسب بعد ذلك هدفا».

وهناك من يقول أن اليونان مارست كرة القدم فى القرن الخامس قبل الميلاد وهناك من يقول أن الرومان توارثوها، ونقلوها إلى غرب أوروبا ثم إلى بريطانيا عندما احتلوها.

لكن المؤرخين البريطانيين تصدوا لهذه الآراء، وادعوا أن كرة القدم ولدت عندهم، واستدلوا على ذلك بواقعة تاريخية، وهى أن الدنماركيين احتلوا إنجلترا فى الفترة من ١٠١٦ إلى ١٠٢٤ بعد الميلاد، وأن الإنجليز حاربوهم فى معركة دامية كان من أثرها أن الجنود الإنجليز قطعوا رأس القائد الدنماركى، وداسوها بأقدامهم مثل الكرة، وصار هذا فيما بعد تقليدا قوميا، ومن مظاهر الاحتفال بالقضاء على الاحتلال، ورويدا رويدا بدأ بعض الأطفال يقذفون كرة من جلد البقر، واعتبر ذلك فجر ظهور اللعبة واكتشافها فى الفترة من ١٠٥٠ إلى ١٠٧٥ بعد الميلاد!



وفى العديد من الكتب والموسوعات التى تؤرخ بداية كرة القدم رسومات ومعلومات عن ممارستها فى حقول فرنسا، وفى طرقات مدينة البندقية حيث كانت تسمى«الكالشيو» calcio فى القرن السادس عشر، ومازال الدورى الإيطالى يسمى الكالشيو حتى اليوم.

وفى جميع الأحوال كان العنف دائما توءما لكرة القدم وهو مادفع إلى تحريم ممارستها فى بعض الفترات لاسيما فى إنجلترا، فقد منعها الملك إدوارد الثانى، والملك هنرى الرابع، والملك ريتشارد الثانى، كما حرمتها الكنيسة، وظلت اللعبة ممنوعة لمدة ٤٠٠ سنة ثم عادت فى عهد الملك جيمس الثانى.

وقد أجمعت كتب التاريخ على أن إنجلترا هى مهد اللعبة أو الكرة التى عرفها العالم فيما بعد، ففى مدينة دربى شاير أقيمت مباريات

والسياسيون فيها لاعبون!

أسبوعية بين شطرى المدينة، وكانت المباراة تجرى بين المئات من لاعبى الفريقين والملعب هو شوارع البلدة وطرقاتها، وتدريجيا تم تخفيض عدد اللاعبين إلى ٣٠ لاعبا بكل فريق، وجاءت مرحلة ازدهار جديدة للعبة التى بدأت تجذب الشباب والطلبة، ولكنها كانت تمارس بلا قواعد أو قوانين، فالمباريات تجرى على أى ملعب، والكرة تركل بالقدم ومسموح إمساكها باليد،وعدد لاعبى الفريقين يصل إلى ٤٠ لاعبا، والأهداف قليلة لأنه لايوجد مرمى، وإنما مجرد خط نهاية لايزيد عرضه على ٦ ياردات.



فى عام ١٨٢٣ كان وليام ايليس طالبا فى كلية رجبى، وشارك فى مباراة، وأمسك بالكرة ولم يتركها، وجرى بها، حتى وضعها فى المرمى الآخر.

ولما انتقدت هذه المخالفة قام رئيس الفريق بالدفاع عن تصرف أليس بقوله: « إن هذا قد يزيد البهجة فى اللعبة،ويضفى على المباراة لونا جديدا».

وسميت هذه الرياضة التى يتنافس فيها فريقان على الكرة باليد«رجبى» نسبة إلى الكلية، وهنا ظهر الخلاف حول مضمون اللعبة، فهل هو ركل الكرة بالقدم أم إمساكها باليد أم يسمح بركلها بالقدم وإمساكها باليد معا؟

فى عام ١٨٣٠ اتفق الإنجليز على أن تكون لعبة الكرة لعبتين، الأولى هى الرجبى، والتى تعد من أشهر اللعبات الإنجليزية حتى الآن، وتلعب باليد وبالقدم، والثانية هى كرة القدم أو soccer التى يعرفها العالم، وتمارس بالقدم فقط.

وقد ولدت كرة القدم الحديثة رسميا فى ٢٦ أكتوبر عام ١٨٦٣ بانجلترا عندما وضع مستر ترينج الأستاذ فى جامعة كامبريدج أول قانون للعبة وكان من ١٠ مواد.

لماذا غزت العالم؟

تلك باختصار قصة ميلاد اللعبة الشعبية الأولى فى تاريخ البشرية، لكن يبقى السؤال المهم كيف انتشرت ولماذا حظيت باهتمام وحب كل الشعوب، ولماذا أصبحت كرة القدم فى حياتنا بحجم الكرة الأرضية؟ لماذا هى دون كل اللعبات الأخرى؟

من بريطانيا خرجت كرة القدم إلى العالم، فانتقلت لأوروبا أولا، ثم إلى المستعمرات مع جنود الاحتلال، فى أفريقيا، وآسيا، وأستراليا، وحتى إلى أمريكا الجنوبية، وإلى البرازيل، حيث عرف شعبها الكرة على يد مواطن إنجليزى يدعى تشارلز ميللر وقد ولد من أبوين إنجليزيين فى مدينة ساوباولو البرازيلية ثم سافر فى مطلع شبابه إلى وطنه الأصلى حيث عشق الكرة، ولعب لنادى ساوثامبتون وعاد إلى البرازيل فى أواخر القرن التاسع عشر، ونشر اللعبة الجديدة بها ولم تعد كرة القدم مجرد رياضة أو لعبة مثل الألعاب، بل أصبحت مثار اهتمام ورعاية كل دول العالم،وجماهيرها ملايين، آلاف الملايين، ومن كل جنس ولون، والاهتمام بالكرة وصل لدى بعض المشجعين إلى حد الهوس، وهى درجة أعلى وأخطر من العشق.

وإذا كان العنف هو الجانب المظلم للكرة، أو وجهها القبيح فإن لها جوانب أخرى مبهج، وطريفة،وغريبة ووجوه جميلة أيضا، فبالإضافة إلى جماعية اللعبة، وملعبها الكبير، وحجم كرتها الصغير، الذى يكفى لمتابعة خطوط سيرها بسهولة، وتعدد خططها،وماتحويه من مناورات، ومحاورات، ومفاجآت متغيرة ومتجددة. لهذا كله ستجد فى اللعبة القوة والحيوية والديناميكية، وهذا يخلق الإثارة والمتعة، والاستمتاع بموسيقى الأداء الجماعى الجميل الذى ينتهى بالأهداف، التى تأتى من المفاجآت، فتهز القلوب فى المدرجات، كما تهز الشباك!

وفى المدرجات ترى كل ألوان الفنون، والجنون، والعقل أيضا، ترى الانفعال اللذيذ، والانفعال الجميل، وربما يصادفك هذا المشهد: مشجع يصرخ، وبجواره مشجع يضحك، وأمامهما آخر يكاد ينفجر غيظا، وخلفهما رابع يتابع فى صمت ما يجرى فى الملعب، وكله هدوء أعصاب، كأنه يستمع لإحدى سيمفونيات تشايكوفسكى. وشاهدت هذه الصور كثيرا، وشاهدت أناسًا كباراً فى السن وفى المقام، كبارًا جدًا وهم لا يقدرون على مشاهدة مباراة سوى من الوضع واقفًا!

إن جماهير الكرة أسرع الجماهير تحولا واشتعالا، ويذهبون إلى الملاعب وهم متعطشون إلى الأهداف، يهتفون، ويتشاجرون، يطربون، ويصرخون، ويختلفون فى وسائل تشجيعهم، فالطبول هى السلاح أحيانا، والألوان الزاهية على الملابس أو الوجوه هى السلاح فى أحيان أخرى. وفى المدرجات ترى العجب، وتسمع الأهازيج والأغانى المؤلفة فى لحظة، من أجل لاعب، أو لعبة، منتهى الفن، أم منتهى الجنون؟!

لاهذا ولاذاك، ولكنها كرة القدم، وعالمها الذى تجد فيه كل شىء وكل لون!

وبمزيد من البحث نجد أن الكرة، أى كرة، فيها شىء من السحر واللغز، يرتبط بالبشرية، من الكرة الأرضية واستدارتها إلى كرة التنس والأسكواش، على صغر حجمهما!



ومن كرة القدم استمدت شعوب العالم بثقافتها المختلفة كل أشكال وألوان ألعاب الكرة التى ولدت من بطن كرة القدم، تلك اللعبة التى كانت مثل المعارك الحربية فى القرون الوسطى فى بريطانيا، فهى بين مدينتين أو بين قريتين، والهدف أن تصل الكرة إلى المدينة أو القرية الأخرى بكل الأساليب المشروعة وغير المشروعة، وقد تبلورت قوانين كرة القدم التى نمارسها فى العصر الفيكتورى عندما أصبح اللهو المنظم جزءا لايتجزأ من تطور المجتمعات الصناعية، وأول من وضع قواعد اللعبة هم طلبة المدارس فى انجلترا، ومنها كلية «أيتون» وحتى الآن تقام مباراة واحدة سنويا فى تلك الكلية العريقة بنفس القواعد القديمة وبنفس الملابس وانتشرت كرة القدم كما انتشرت الرجبى، وفى الولايات المتحدة الأمريكية لعبة مماثلة للرجبى الإنجليزية هى كرة القدم الأمريكية، وفى أيرلندا لعبة الرجبى الخاصة بها، وفى استراليا لعبة تعد خليطا بين كرة القدم والرجبى تسمى«أستراليان رولز»، وفى ويلز لعبة مشابهة للرجبى تسمى«جايليك فوتبول»، وفى آسيا لعبة تجمع بين الكرة الطائرة وكرة القدم وتسمى«سيباك تاكراو»، وهناك كرة القدم على الدراجات البخارية وتسمى«موتوبول»!

ونعود إلى السؤال: لماذا غزت كرة القدم العالم؟

لأنها ببساطة صورة من صور الحرب المشروعة، والحرب رياضة غريزية عند البشرية، وكرة القدم بتعبير آخر تعد صورة من صور الصراع الجماعى المتكرر، وعن الصراع الجماعى يقول جورج زيفلير الصحفى الفرنسى والكاتب فى الفيجارو:«منذ الأزل والمظهر الذى يحكم العلاقات الإنسانية هو الكفاح، فعندما تهاجم جماعة ما جماعة أخرى فإن رد المجموعة الأخرى هو حتما المواجهة ومنها يأتى التصادم والعنف»!

وكرة القدم لعبة سهلة تمارس فى أى مكان، فى ساحة فى شارع، وبأية أدوات، فلا تحتاج إلى ملابس معينة كما فى الملاكمة أو الكرة الأمريكية أو إلى ألواح خشبية تمثل المرمى كما فى كرة السلة أوشباك كما فى الكرة الطائرة، ولا يلزم لممارستها مضرب كما فى التنس، ولاغرفة مغلقة كما فى الإسكواش، ولا أنهار كما فى التجديف ولا ماء كما فى السباحة، ولاجواد وحواجز كما فى الفروسية، ومن الممكن أن تقام مباراة بين فريقين بكرة من الحجارة، وهى تمارس فى الملاعب المفتوحة والمغلقة، تحت ضوء الشمس وتحت ضوء القمر، وقوانينها بسيطة غير معقدة، وكثيرون حتى اليوم من شعوب العالم لايعرفون قوانين البيسبول مثلا، وهى لعبة شعبية أمريكية فى حين أن كثيرًا من الأمريكيين يعرفون قوانين كرة القدم، وهى ليست من اللعبات الشعبية فى الولايات المتحدة. وكرة القدم لعبة ممكنة للجميع، للأغنياء وللفقراء، للأطفال والرجال وللسيدات أيضا، لقصار القامة ولطوال القامة، فلكى تكون لاعبا بارعا فى كرة السلة أو الطائرة لابد أن تكون طويلا، ولكى تكون مصارعا فذا لابد أن يكون جسدك كتلة من العضلات!

وهناك الآن مواصفات نموذجية للاعب كرة القدم المحترف، فحارس المرمى وزنه ٨٨ كجم وطوله ١٨٨سم، والمدافع متوسط طوله ١٦٩سم ووزنه ٧٢ كجم وقلب الدفاع وزنه ٨٤ كجم وطوله ١٨٧ سم، وهو يجرى فى المباراة الواحدة ٦,٥ كم، أما لاعب الوسط فهو يجرى فى المباراة الواحدة ١٠ كم، وطوله ١٧٩ سم ووزنه ٧٤ كجم، ولاعب الهجوم طوله ١٨٥ سم ووزنه ٨٢ كجم. وهذه المقاييس حديثة، وتتضمن اللياقة والمهارة والخفة والرشاقة والقدرة على التصرف بسرعة، وغير ذلك من مهارات مطلوبة فى عصر الاحتراف. إلا أن اللعبة عامة من جهة الممارسة متاحة للجميع وملاعبها بلاحدود، وعدد لاعبيها غير محدد، فقد يلعبها اثنان، وقد يلعبها عشرون..

لكن علماء الاجتماع يقولون فى أسباب شعبية اللعبة وإنتشارها فى مطلع القرن العشرين :« فى وسط القرن التاسع عشر ولد المجتمع الصناعى الذى أرغم عددا كبيرا من الناس على استعمال الأيدى فى العمل الآلى المرهق، مما حرمهم من النشاطات الخلاقة الأخرى، وعليه فقد وجد الآلاف فى لعبة كرة القدم الجديدة التنظيم الجماعى الذى يعكس صورة من صور حياتهم وفى الوقت نفسه يعطى قيمة إضافية بل وثقافية لاستخدامات الأطراف التى لاتستعمل فى العمل، وهى الأرجل».

والإبداع بالقدم يختلف عن الإبداع باليد، وهذا من أسرار اللعبة فعندما يجيد اللاعب التحكم بالكرة بقدمه، بالمراوغة أو مداعبتها فإن ذلك يثير إعجاب الجماهير، وعندما يسجل لاعب الكرة هدفا بقدمه من مسافة بعيدة فإن ذلك يثير أيضا اعجاب الجماهيرالتى لاتعبر عن نفس القدر من الإعجاب فى الأهداف التى تسجل باليد كما فى كرة اليد والسلة، كما أن أهداف كرة القدم قليلة، وقلتها تزيد من درجة الانفعال بها، بينما فى كرة اليد والسلة نرى هدفا كل دقيقة. ولكى نجعل الصورة أوضح فإن لاعب كرة القدم هو فنان يرسم لوحة بقدمه، وهذا أصعب بكثير من الفنان الذى يرسم نفس اللوحة بيده!

والانفعال الزائد فى كرة القدم اعجابا وانبهارا بالتحكم فى الكرة بالقدم من أسباب شعبية اللعبة، لأن الانفعال فى حد ذاته هدف بشرى غريزى، فالإنسان بطبعه يبحث عن كل مايرفع من درجة الأدرينالين فى الدم، فهو يمنحه شعورا بالإثارة يشتاق إليه فى وسط الحياة الرتيبة المملة!

الاهتمام فى بداية القرن العشرين

وليس ذلك مجرد أفكار أو إقرار لواقع ملموس فى الوقت الراهن فهناك منذ البدايات البعيدة للعبة المنظمة مظاهر اهتمام بها، تشير إلى أنها تحظى بحب الجماهير فى كل مكان، ففى يوم ٢٠ أبريل عام ١٩٠١ أى قبل حوالى مائة عام أقيمت مباراة نهائى كأس إنجلترا فى

السياسى السويدى
لارس جوستافسون
رشح كرة القدم
لجائزة نوبل للسلام!

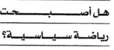
كريستال بالاس وحضرها ١١٠ آلاف متفرج، ومنذ ذلك الوقت أصبحت كرة القدم مرشحة لأن تكون اللعبة الشعبية الأولى. وفي أكتوبر من نفس العام أصدر الفرنسي هنري ديسجرانج صحيفة يومية وكتب فيها مدير تحريرها روبير جيرين أول وصف لمباراة كرة قدم في ١٣ أكتوبر ١٩٠٢، بين منتخبي المجر والنمسا. وتوالى الاهتمام باللعبة بدخول الراديو الذي نقل أول مباراة على الهواء مباشرة في ٢٢ يناير ١٩٢٧ بين فريقي أرسنال وشيفيلد يونايتد ثم عرض التليفزيون لقطات من مباراة ودية لفريقين من أرسنال في ١٦ سبتمبر ١٩٣٧، وكانت أول مباراة تنقل بكاملها على الهواء مباشرة في ٣٠ أبريل ١٩٣٨ بين فريقي بريستون وهدرسفيلد في نهائي كأس إنجلترا باستاد ويمبلي، وتابع المباراة في الملعب ١٠٠ ألف متفرج بينما تابعها من خلال شاشات التليفزيون ١٠ آلاف فقط!

وفي عام ١٩٢٣ فتح استاد ويمبلي أبوابه لأول مرة لاستقبال نهائي كأس انجلترا، وكانت سعة الملعب ٢٦ ألف متفرج وحضر المباراة ٢٠٠ ألف، وعمت الفوضى، وصعد ضابط شرطة إلى المدرجات على جواد أبيض، لإعادة النظام فعرف هذا النهائي باسم: «نهائي الحصان الأبيض»!



وننتهي بالإشارة إلى دراسة قام بها الباحث الفرنسي كريستيان برومبرجر الأستاذ بجامعة بروفانس جنوب فرنسا عن كرة القدم كظاهرة تنسحب آثارها على الفرد والمجتمع، وشاركه باحثان آخران، وكانت الدراسة على جماهير مرسيليا ونابولي وتورينو واستغرقت ١٠ سنوات، وقد درس الباحثون سلوك الجماهير في ملعب كرة القدم، وتوصلوا إلى الملعب يجمع بين المؤيدين وهم الجمهور، وأبطالهم وهم اللاعبون، وأن هذا الملعب أحد الأماكن القليلة التي يستطيع فيها الإنسان أن يفلت من القانون والضوابط والقيود الصارمة التي تنظم حياته في الشارع والمدرسة والعمل والمنزل، ولذلك فهو في الملعب ينفلت، ويفرح، ويصرخ، وينفعل، ويغضب، مثل المجنون، وسط سلوك جماعي مصاب بالجنون مثله، ولا أحد يستطيع أن يحاسبه ويصفه بأنه خارج على النظام والانضباط وأنه مجنون!

ولذلك كانت كرة القدم لعبة القرن العشرين وستبقى لعبة القرن الحادي والعشرين!



هل أصبحت رياضة سياسية؟

ومع تعاظم أهمية كرة القدم ودورها وتأثيرها وسحرها على الشعوب، أصبحت ورقة من أوراق رجال السياسة التي يلعبون بها للوصول إلى الحكم أو تعزيزه، أو باعتبارها وسيلة من الوسائل التي تقرب خطوط الاتصال مع الشعوب التي هي الجماهير!

ويقول الكاتب الأمريكي سيون كوبر في نيويورك تايمز (نشر المقال جريدة الشرق التي تصدر في لندن):

«كرة القدم ظاهرة.. لها مدلولها السياسي، وهي رمز للفوضى ولحكم الأقلية وهي تؤدي إلى إسقاط سياسيين وانتخاب رؤساء، وتحدد الطريقة التي يفكر بها الناس تجاه بلادهم».

وقال: في عام ١٩٨٦ اشترى الملياردير الإيطالي سيلفيو بيرلسكوني نادي إيه.سي.ميلان وأسس بيرلسكوني حزبه السياسي «فورزا إيطاليا» وهو شعار كروي يعني إلى الأمام يا إيطاليا، وأطلق على مرشحي الحزب اسم الزرق، وهو نفس مايطلق على لاعبي المنتخب الإيطالي وفي النمسا قرر اليميني يورج هايدر تحسين صورته برئاسة نادي كارنثن وفي البرازيل يرتدي السياسيون فانلات فرقهم في حملاتهم الانتخابية فكرة القدم هي التي جعلت للبرازيل اسما عالميا مدويا.

وفي الأرجنتين اشترى مارشيو ماكري فريق بوكا جونيورز، أفضل أندية أمريكا الجنوبية، وهو يفكر الآن في منصب محافظ بوينس أيريس، ثم تولى منصبا سياسيا بعد الأزمة الأرجنتينية الطاحنة الأخيرة، وخلال تلك الأزمة التي شهدت ثورة الطبقة المتوسطة، وانهيار العملة اندلعت المظاهرات، وخلالها ارتدى المتظاهرون فانلات المنتخب الأرجنتيني التي كتبوا عليها «باستا» أي يكفي. وأعظم ظواهر المجد الأرجنتيني وهي كرة القدم استخدمت لإهانة الطبقة الحاكمة.

وأضيف هنا معلومة طريفة بشأن موسوليني الذي استخدم كرة القدم لتعزيز حكمه في عامي ١٩٣٤ و١٩٣٨ حيث فازت إيطاليا بكأس العالم. فقد أرسل موسوليني إلى الفريق الإيطالي برقية من ثلاث كلمات عام ١٩٣٨ بعد مباراتهم مع البرازيل في نصف النهائي، التي فازت بها إيطاليا ٢/١ وقبل المباراة النهائية مع المجر على الكأس، وكانت: «الفوز أو الموت»، وفازت ايطاليا ٤/٢ وخرج الحارس المجري تشابو وهو يقول فضلنا إنقاذ حياة فريق عن الفوز!

ولم يختلف الأمر في ألمانيا ففي عام ١٩٤١ خسر المنتخب أمام سويسرا ٢/١ في مباراة لكرة القدم أقيمت بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاد هتلر، فأمر جوبلز وزير إعلامه بعدم إقامة مباريات رياضية عندما تكون النتيجة مشكوكا فيها، وكان ذلك هو المستحيل بعينه فمن أسباب سحر كرة القدم هو الشك في نتائجها!

وعندما خسرت ألمانيا أمام السويد عام ١٩٤٢ قال جوبلز: خرج ١٠٠ ألف من الاستاد وهم محبطون، وبما أن النصر في مباراة كهذه أقرب إلى الناس من أن تغزو مدينة في الشرق فيجب إيقاف المباريات وحظرها.

وكان العديد من أفراد أسرة الرئيس الروماني الأسبق نيكولاي تشاوشسيكو يتبنون أندية، أما لافرنتي بيريا رئيس الشرطة السرية في عهد ستالين الرئيس الشرفي لفريق دينامو موسكو فكان يرسل لاعبي الفرق المنافسة إلى سيبيريا، وحمل حزب العمال البريطاني هزيمته المفاجئة برئاسة هارولد ويلسون في الانتخابات العامة على بطولة كأس العالم عام ١٩٧٠.



ويقول البعض في الولايات المتحدة، إذا أرادت إدارة الرئيس بوش التعرف على التيارات في بعض الدول مثل السودان وإيران وليبيا فإن عليها متابعة كرة القدم في هذه الدول. وفسرت وزارة الخارجية الأمريكية أحداث شغب وقعت في الدوري الليبي لكرة القدم في يوليو عام ١٩٩٦ على أنها من مظاهر الاستياء العام من الحكومة الليبية. وعندما اقتربت إيران من التأهل إلى نهائيات مونديال ٢٠٠٢ خرجت الجماهير الإيرانية تحتفل، ووسط الاحتفالات وقعت أحداث شغب ونهب وهتف البعض «الموت للملالي»، وقيل إن الفريق الإيراني تعرض لضغوط لكي يخسر المباراة الفاصلة أمام البحرين، وكان المعلق الإيراني يتساءل: لماذا لايسجلون ولايسددون؟

وعقب خروج فرنسا من كأس العالم الأخيرة في كوريا واليابان خلطت الصحف الفرنسية أوراق السياسة بورقة كرة القدم فقالت في عناوينها التي صدرت بعد خروج الفريق من الدور الأول: «لوبان.. وخروج أبطال العالم كسرا كبرياء فرنسا»!

وهي إشارة إلى نجاح السياسي اليميني المتطرف لوبان لخوض جولة أخرى أمام الرئيس جاك شيراك في الانتخابات الفرنسية الأخيرة. وفي عام ١٩٩٨ عندما فازت فرنسا بكأس العالم ودارت عدسات المصورين لتسجيل لحظة من أعظم لحظات الشارع الفرنسي قال أحد السياسيين المعارضين تعليقا على صورة جمعت بين لاعبي الفريق البطل والرئيس جاك شيراك:

«إنه لأمر لطيف أن أرى فرنسيًا في الصورة»!

وكانت تلك أيضا إشارة إلى أن معظم لاعبي الفريق الفرنسي من أصول غير فرنسية!

وهكذا أصبحت كرة القدم أداة لرجال السياسة، وأحيانا تحمل بما لايجب أن تتحمله كما حدث في مصر عندما اعتبرت من أسباب نكسة ٦٧ لانشغال القيادات العسكرية بكرة القدم وأنديتها، فكان المشير عبد الحكيم عامر رئيسا لاتحاد الكرة، والفريق أول عبد المحسن كامل مرتجي رئيسا للأهلي، والفريق سليمان عزت رئيسا للأوليمبي، والفريق صدقي محمود رئيسا لنادي الطيران!

وإذا كانت الرياضة أذابت الجليد بين دول، مثل الصين والولايات المتحدة في مطلع السبعينيات فيما عرف بسياسة «البينج بونج» فإنها أشعلت العداء بين دول أخرى وبين أبناء الشعب الواحد أيضا، والأمثلة لاتعد ولاتحصى، فلاينسى تاريخ كرة القدم الحرب التي اندلعت في تصفيات كأس العالم لعام ١٩٧٠.. ففي تصفيات منطقة أمريكا الوسطى والشمالية وقعت الحرب بين هندوراس والسلفادور. فقد وصلتا إلى الدور قبل النهائي، وفي مباراة الذهاب فازت هندوراس ١/صفر وفي مباراة العودة فازت السلفادور ٣/صفر وأقيمت مباراة فاصلة - على أرض محايدة - بالمكسيك، وسجل (رودريجز) هدف الفوز للسلفادور، واعترضت عليه هندوراس، وقامت الجماهير في البلدين بالاعتداء على السفارتين، واندلعت الحرب وتحركت الجيوش والدبابات إلى الحدود (وهما جارتان) وتبادلتا الغارات الجوية، واستمر القتال لمدة ٣ أيام، وتوقفت بعد تدخل المنظمات الدولية.

أما الخصومة التي بين الأرجنتين وإنجلترا فتعود إلى وصف سير الف رامزي مدرب انجلترا في كأس العالم ١٩٦٦ لاعبي الأرجنتين بأنهم «حيوانات»، لأسلوبهم العنيف في اللعب، وزادت حدتها بعد النزاع على جزر فوكلاند عام ١٩٨٢ التي سقط فيها ٦٠٠ قتيل أرجنتيني و٢٠٠ من الإنجليز، ويكفي أن تتابع ردود أفعال الإنجليز بعد الفوز الذي حققه منتخب بلادهم على الأرجنتين في الدور الأول لمونديال ٢٠٠٢ ثم عادت الصحف واستنكرت المبالغة في الاحتفال وتساءلت: هل كانت معركة العلمين؟ في إشارة إلى اعتبار الجماهير الإنجليزية الفوز على الأرجنتين نصرا قوميا.. لكنه كبرياء الأمة الذي غرسته كرة القدم عند شعوب العالم بمافيها الغرب لأن الكرة هي البديل المشروع للحرب!

وأحيانا أخرى تكون الخصومة بين فريقين في شعب واحد لأسباب دينية.

ففي عام ١٩٤٨ في أيرلندا الشمالية في مباراة بين فريقي بلفاست سيلتيك ذي الأغلبية الكاثوليكية وفريق لينفيلد الذي تشجعه أغلبية بروتستانتية وقع شغب ديني وسقط الجرحى، ونفس الأمر بين سيلتيك الكاثوليك ورينجرز البروتستانت وتعود إلى ١٩٠٩ وتكرر الشغب مرات وآخرها عام ١٩٩٩ للسبب نفسه!.



و يعود العداء التاريخي بين ريال مدريد وبرشلونة إلى سبب آخر، وهو الموقف البشري القديم بين السلطة بنفوذها، وبين الشعب، بقلة حيلته، ففي عام ١٩٢٠ منح الملك ألفونسو الثالث لقبًا ملكيًا إلى ريال مدريد مما فسر في مقاطعة كاتولونيا على أنه تحيز إلى ريال

الفيلسوف الفرنسي
ألبير كامو: «كل ما أعرفه عن الأخلاق وواجبات الإنسان أدين به لكرة القدم»!



مدريد كما استمر ذلك في أيام حكم الجنرال فرانكو، الذى استغل الشعبية العريضة للنادى في الحكم. وكانت مقاطعة برشلونة خلال الحرب الأهلية الأسبانية في الفترة من ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ معارضة لحكم فرانكو واستخدم سكان برشلونة اللغة الكاتالونية خلال مباريات الفريق في نوكامب واشتعل العداء بعد انتقال لويس فيجو من برشلونة إلى ريال مدريد، والتقى الفريقان في المسابقة الأوروبية في نوفمبر عام ١٩٤٢ قبل ٤٢ عاما وأخرج برشلونة غريمه من الدور ربع النهائي وكان أول فريق ينجح في إخراج ريال مدريد محتكر البطولة.

كيف أفسدها المال؟

وهكذا مرة أخرى تكون كرة القدم وساحتها الخضراء، حلبة للصراع بكل أشكاله، صراع الجماعة ضد جماعة أخرى، أو صراع السلطة وعامة الشعب، أو صراع رجال السياسة.. لكن هناك الصراع الآخر الذى أفسد الرياضة، وكان ملهما للكاتب البريطاني ميهير بوز الذى أصدر كتابا في نهاية التسعينيات بعنوان: الرياضة فقدت براءتها، تناول فيه كل مظاهر الغش والخداع والعنصرية والرشاوى، والتلاعب في النتائج والمنشطات، وكيف أصبح المال سببا للفساد؟

ولكن كيف دخل المال بجنونه مجال كرة القدم؟

في النصف الثاني من القرن العشرين ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية، وانتظام بطولات كأس العالم شهدت كرة القدم تحولات جديدة وساهم التليفزيون في زيادة شعبية اللعبة منذ نقلت بعض مباريات كأس العالم عام ١٩٥٤ على الهواء مباشرة، ثم أصبح التليفزيون شريكا أساسيا في اللعبة وفي الترويج لها ثم بات الآن مالكا لها، وفي إحصائية دقيقة نجد أن كل مشاهد في الملعب لمباراة واحدة يقابله ١٥ ألف مشاهد عبر شاشة التليفزيون، ووصل مجموع عدد مشاهدى كأس العالم بفرنسا عام ١٩٩٨ إلى ٣٧ مليار مشاهد، والعدد يمثل مجموع من شاهدوا مباريات الكأس كلها، ووصل هذا الرقم في مونديال ٢٠٠٢ بكوريا واليابان إلى ٤١ مليارا. وقد دفعت محطات التليفزيون العالمية ٨٠٠ مليون دولار مقابل الفوز بحقوق بث مباريات مونديال ٢٠٠٢ على الهواء مباشرة ودفعت ١,٤ مليار دولارلنقل بطولة ٢٠٠٦ في ألمانيا، وبطبيعة الحال حددت هذه المحطات مواعيد المباريات بما يتناسب مع المشاهدة العالمية. وباعت مجموعة كيرش الألمانية التى اشترت الحقوق إلى محطات أصغر في شتى دول العالم، ومنها محطة أية أر تى، التى دفعت ٦٤ مليون دولار مقابل البث المشفر في منطقة الشرق الأوسط، وذلك بالاتفاق مع شركة إنترناشيونال إنترتيمنت، وحصل الفيفا على ١,٢ مليار دولار مقابل البث المشفر بينما حصل على ٣٠٠ مليون دولار في البطولة الماضية. وباعت إيه.آر. تى المباريات بسعر ٥٠٠ ريال في منطقة الخليج حوالى ١٣٣ دولارا.



وقد وصل حجم الإنفاق على اللعبة في العالم إلى ٢٢٥ مليار دولار سنويا كما جاء على لسان جواو هافيلانج رئيس الفيفا الأسبق وهو يعلن اعتزاله في عام ١٩٩٤، وهذا الحجم الهائل من الإنفاق يتمثل في شراء محطات التليفزيون لحقوق البث المباشر وشراء الأدوات والملابس وبناء الملاعب وصيانتها، وعقود اللاعبين والمدربين والحكام ورواتبهم، وعلى سبيل المثال شهدت إيطاليا منذ ثلاثة أعوام أزمة بسبب عقود اللاعبين، وخيم شبح الإفلاس على بعض الأندية، ومنها بارما وسمبدوريا وفيورنتينا واضطر بارما إلى بيع مجموعة من نجومه بمبلغ ١٠٠ مليون دولار لسداد ديونه للبنوك، كان منهم الأرجنتيني باتيستوتا والبرتغالي روى كوستا، واضطرت بعض الأندية إلى تحديد سقف لرواتب اللاعبين، فأعلن نادى روما أنه قرر ألا يزيد مجموع رواتب لاعبيه سنويا على ٧٠ مليون دولار. كما باع لاتسيو نجومه، وقرر تقليص رواتب لاعبيه إلى ٦٥ مليون دولار فقط، بينما أنفق يوفنتوس في موسم واحد مبلغ ١٦٥ مليونًا على شراء لاعبين، وترتب على ذلك بيع زيدان وفيلبو إنزاجي.

وتحقق الأندية الكبرى في العالم هذه الأرقام من حصيلة دخل المباريات وحقوق البث التليفزيوني وجوائز البطولات التى تحققها، فبطل أوروبا يحصل على ٤٠ مليون دولار جائزة مالية، وبطل أفريقيا يحصل على مليون دولار، والفارق سببه مفهوم، فالاتحاد الأوروبي يبيع حقوق نقل مبارياته بمئات الملايين من الدولارات أما الاتحاد الأفريقي فقد باع حقوقه بمبلغ ٥ ملايين دولار، وهو إنجاز على أى حال. وأضيف أن للأندية الأوروبية والعالمية حصصًا من حصيلة المراهنات ومن متاجرها الخاصة التى تبيع لجماهيرها شعاراتها وهداياها التذكارية ففريق مثل مانشستر يونايتد يحقق دخلا قدره ٢٧ مليون جنيه أسترليني من متاجره سنويا في المتوسط.

ودائرة أو حلقة المال في كرة القدم باتت متوحشة، لما تدره اللعبة من أرباح فمن أوجه الاستثمار في الأندية الأوروبية «تربية اللاعبين وبيعهم» فيما بعد، وهو مايطلق عليه أكاديميات الناشئين أو مدارس الناشئين، فمن مدرسة ليفربول الإنجليزى تخرج مايكل أوين، أحد أبرز نجوم اللعبة في إنجلترا، فيما أسس نادى إيه. سى. ميلان الإيطالي مدرسة في نيجيريا وينفق عليها، و هذا النادى لهث في عام ١٩٩٩ خلف لاعب غاني موهوب عمره ١٢ عاما ويعيش في الولايات المتحدة، واللاعب يدعى فريدى إدر، وعرض ميلان على عائلة إدر مبلغ قدره ١٢٥ ألف دولار لرعايته أثناء دراسته في أمريكا، بدون التوقيع على عقد احتراف، ورفضت الأسرة العرض مفضلة الانتظار حتى لايتحمل الطفل ضغوطا مبكرة، لكن الفكرة أن ميلان يرغب في استثمار موهبة اللاعب على أن يستفيد به بعد سنوات بإشراكه مع الفريق الأول أو بيعه بملايين الدولارات، وقد اضطر الاتحاد الدولي الى منع عقود الاحتراف للاعبين الأقل من ١٨ سنة بعد أن تحولت المسألة إلى مايشبه تجارة الرقيق!



وفي بطولة كأس العالم الأخيرة بكوريا واليابان كان الصراع مريرا وشديدا بين كبرى شركات الملابس الرياضية، والواقع أن شركة أديداس الألمانية من أبرز المؤسسين لما يسمى بالاقتصاد الرياضي، ففي عام ١٩٧٦ بعد الخسائر التى منيت بها دورة الألعاب الأوليمبية في مونتريال أسس هورست داسلر رئيس شركة أديداس«إدارة خدمات الرياضة والترفيه العالمي».. (ISL) وساهمت بها مجموعة من أهم الشركات اليابانية. وقد أنفقت شركة أديداس في مونديال كوريا واليابان ٤٠٠ مليون يورو بما فيها أجور الدعاية والإعلان، وتمنح الشركة الفريق الفرنسي ١٢ مليون يورو مقابل رعايته، وكانت حددت قبل انطلاق المونديال الأخير مبلغ ٦ ملايين دولار للفريق في حالة الفوز بالكأس، وأنفقت منافستها شركة نايكى ١٠٠ مليون دولار وهذه المنافسة بين أديداس،ونايكى وبوما على كعكة كرة القدم تعني وجود مصالح، وبالتالي لابد من الدفاع عنها بما هو مشروع أو غير مشروع، وعندما أصيب رونالدو نجم البرازيل قبل المباراة النهائية لمونديال ٩٨ مع فرنسا خرجت تفسيرات عجيبة للإصابة، ومنها أن شركة الملابس التى ترعى رونالدو تدخلت في الأمر حتى لايلعب المباراة بحذاء شركة أخرى منافسة ترعى فريق البرازيل، وكان ذلك تفسيرا غامضا للإصابة الغامضة التى وقعت للنجم البرازيلي ليلة المباراة حيث سقط مغشيا عليه بلاسبب مفهوم!.

وفي السابق كان اللعب لمنتخب بلادك شرفا كبيرا، لكنه لم يعد كافيا في السنوات الأخيرة مع انتشار الاحتراف، وقد وعدت أسبانيا - مثلا - لاعبى المنتخب بمكافأة تصل إلى ٤٤٥ ألف دولار في حالة الفوز بكأس العالم الأخيرة، وكان نصيب لاعب المنتخب الفرنسي ٢٩٠ ألف دولار، بينما خصص الاتحاد الألماني ٨٥ ألف دولار لكل لاعب في حالة الفوز بالكأس. ووعد الاتحاد الإنجليزى لاعبى الفريق بمكافأة تصل إلى ٣٦٠ ألف دولار. والمدربون أيضا لهم نصيبهم من الوعود والمكافآت، فقد خصص الكوريون مبلغ ١,٨ مليون دولار لمدرب منتخبهم وهو الهولندى جوس هيدينك في حالة الفوز بالكأس بينما وضع الإنجليز أمام مدرب المنتخب علاوة قدرها ٧٣٠ ألف دولار زيادة على راتبه الذى يبلغ سنويا ٣,٦ مليون جنيه استرليني!

وقد عرفت اللعبة الاحتراف منذ مائة عام لكن البداية الحقيقية لغزو المال كانت في عام ١٩٦٨ حيث بدأت إعلانات الدعاية لبعض الشركات توضع على فانلات الفرق كشكل تجارى غير من مفهوم التعامل مع اللعبة، وبات المهم تحقيق الأرباح.

وهذا المفهوم جذب الشركات التجارية الكبرى لرعاية فرق كرة القدم في كل بلدان العالم، ففي إيطاليا ترعى فيات فريق يوفنتوس والمنتخب، وتمتلك شركة فيليبس الهولندية فريق إيندهوفن وباير ليفركوزن الألماني، وأصبحت الأندية تمتلكها أو ترعاها شركات ألبان، وسيارات، وتليفونات، كما دخلت مجال رعاية الأحداث الرياضية الكبرى العديد من الشركات،ومنها كوكاكولا، وسوني، وزيروكس، وكانون، وتدفع هذه الشركات ملايين الدولارات مقابل ظهور شعاراتها في البطولات الرياضية، وفي مونديال فرنسا ١٩٩٨ دفعت كل من فيجي وكانون ٣٠ مليون دولار من أجل الشراكة بالدعاية الإعلانية.

والمال والاحتراف جعل اللعبة مثل الحمى في العالم أجمع، فاللاعب الذى يملك الموهبة ويقوده حظه إلى أحد الأندية الكبرى يتحول إلى مليونير في غضون سنوات، فلاعب مثل بيليه الذى كان والده ماسحًا للأحذية أصبح مليونيرًا في الستينيات، وديفيد بيكهام لاعب مانشستر يونايتد يتقاضى راتبا سنويا يصل إلى مليون جنيه استرليني وأريكسون مدرب منتخب انجلترا يتقاضى راتبا أسبوعيًا قدره ١٢٠ ألف دولار، والفريق الذى يفوز ببطولة دورى أبطال أوروبا يحصل على جائزة مالية قدرها ٢٧ مليون جنيه استرليني، واقترب حجم الإنفاق السنوى في الدورى الإنجليزى من مليار جنيه استرليني، وباع برشلونة الأسباني حقوق نقل مبارياته تليفزيونيًا في موسم واحد بمبلغ ٨٥ مليون دولار، وانتقل لويس فيجو البرتغالي إلى ريال مدريد بمبلغ ٥٩ مليون دولار، وانتقل الفرنسي زين الدين زيدان من يوفنتوس الإيطالي إلى ريال مدريد بمبلغ ٦٥ مليون وهو ماوصف في حينه بأنه صفقة القرن، وأن زيدان ثمنه يساوى ثمن طائرة إيرباص صغيرة ويصل دخل زيدان الشهرى الى ٢,٥ مليون دولار وريفالدو ٣,٦ مليون دولار، وهناك أكثر من ٥٠ لاعبًا في العالم يزيد دخل أحدهم الشهرى على المليون دولار!

ولاشك أن انتشارالتليفزيون والفضائيات أتاح انتشار كرة القدم، ويمكن نقل مباريات من أقصى مكان في الأرض، فالناس في شنيانج بالصين أو في الخرطوم لايعرفون أن مانشستر مدينة إنجليزية، لكنهم يشجعون مانشستر يونايتد، وكثيرون لايعرفون اسم رئيس جمهورية فرنسا لكن ملايين البشر يعرفون اسم زين الدين زيدان، بل إنه أثناء مونديال ٢٠٠٢ ازدهرت متاجر المليونير الياباني هيروكى ميياجى، وحقق مبيعات هائلة لصور وقمصان دافيد بيكهام والتى بيعت باسم«ديديدو بيكامو» أى دافيد بيكهام كما باع شعارات وهدايا تحمل علامة مانشستر يونايتد، وهذه الشعبية للاعب ولفريق

وصل حجم الإنفاق على اللعبة في العالم عام ١٩٩٤ إلى ٢٢٥ مليار دولار سنويا، ويتمثل هذا الإنفاق في شراء محطات التليفزيون لحقوق البث المباشر وشراء الأدوات والملابس وبناء الملاعب وصيانتها، وعقود اللاعبين والمدربين والحكام ورواتبهم





إنجليزى فى أقصى الشرق البعيد سببها التليفزيون!

ولم يعد غريبًا هذا السباق المحموم بين الدول لاستضافة بطولات كأس العالم لكرة القدم أو بين المدن لاستضافة الألعاب الأوليمبية، فقد باتت الأحداث الرياضية مربحة للغاية، وإذا كانت اليابان أنفقت ٩ مليارات دولار لبناء المنشآت الرياضية، بينما أنفقت كوريا ٥ مليارات دولار، فإن الأرباح المتوقعة تقترب من ضعف حجم الإنفاق، فكوريا وحدها توقعت دخلا يقارب ٩ مليارات دولار بجانب خلق ٣٥٠ ألف فرصة عمل جديدة. ومما لاشك فيه أن الدولتين بالغتا فى الإنفاق حتى أن الفيفا اشتكى من إقامة المباريات على ٢٠ ملعبا، وهو ضعف العدد المطلوب لتنظيم المونديال.

ماذا فعل بيع اللعبة؟

وهكذا لم تعد كرة القدم مجرد لعبة بل صناعة وتجارة، وشأن أى صناعة هناك أطراف لها مصالح، وهى أطراف قوية، تبذل مافى وسعها لبيع اللعبة وللدفاع عن مصالحها، ومع دخول المال والمصالح ظهر الصراع والفساد!

ولعل العاصفة المدوية التى هزت أركان مقر جمهورية كرة القدم القابع فى لوزان بسويسرا قبل مونديال كوريا واليابان تعكس صورة من صور الفساد الذى دخل اللعبة. و كانت رئاسة الفيفا قد خرجت لأول مرة من أوروبا إلى أمريكا اللاتينية عام ١٩٧٤ عندما تولى المنصب الملياردير البرازيلى جواو هافيلانج خلفًا للإنجليزى سير ستانلى راوس، وهو الرجل الذى ظل مصرا على براءة اللعبة ونظافتها، وكان يقول دوما:«لن نبيع كرة القدم إلى الشركات التجارية»، وعانى الاتحاد الدولى من ضيق ذات اليد فى تلك الفترة ثم قام هافيلانج الذى كان يمتلك أربعة بنوك فى ريو دى جانيرو بتقديم أفكار جديدة لانتشال الفيفا من عثرته، وظهرت المشاكل المالية حتى أن الفيفا الذى أودعت فى خزائنه ٢٥٠ مليون دولار بعد بطولة كأس العالم فى الولايات المتحدة ظهر فى حساباته وجود ١٠٠ مليون دولار فقط فتساءل الكثيرون: أين الباقى؟

وكان بلاتر هو العقل المفكر لهافيلانج، وهو وراء نجاح تسويق بطولتى مونديال ١٩٩٠ و١٩٩٤، وجوزيف بلاتر المولود فى مدينة فيسب السويسرية يجيد ٤ لغات ويحمل بكالوريوس فى الأعمال الإدارية والاقتصادية من كلية القانون فى لوزان، تولى منصب رئيس الفيفا عام ١٩٩٨ بعد اعتزال هافيلانج، وعقب فوز بلاتر على منافسه لينارت يوهانسون رئيس الاتحاد الأوروبى ظهر كتاب فى الأسواق هز أركان الفيفا للكاتب البريطانى ديفيد يالوب بعنوان: كيف سرقوا اللعبة؟

واتهم الكاتب بلاتربالفساد، وبدفع رشوة قدرها ٥٠ ألف دولار لكل ناخب يعطيه صوته، وكشف فرح إدو نائب رئيس الاتحاد الأفريقى أنه تلقى مكالمة هاتفية من أحد سفراء الصومال فى دولة خليجية قال له:«هناك عرض من صديق لك لدفع ١٠٠ ألف دولار نصفها نقدا والنصف الآخر كمعدات رياضية لتمنح صوتك إلى بلاتر فى انتخابات الفيفا عام ١٩٩٨ وأثارت تصريحات الصومالى إدو ضجة هائلة قبيل الانتخابات الأخيرة التى أجريت فى ٢٩ مايو الماضى قبل انطلاق المونديال، لكن الساحر السويسرى بلاتر هزم منافسه الأمير الأفريقى عيسى حياتو باكتساح، وهو أمير بحق، ومن أسرة كاميرونية عريقة!




ولم تكن قضية الرشوة هى دليل الفساد الذى أصاب جمهورية كرة القدم فقد تعرض الاتحاد الدولى فى عام ٢٠٠١ لهزة بعدإعلان إفلاس شركة (I.S.L) إنترناشيونال سبورتس أند ليزر«وهى الشريك التجارى للفيفا. وتعدت الأضرار مبلغ مليار دولار، وليس كما أعلن بلاتر ٢٠ مليون دولار فقط. وكشفت التقارير اختفاء مبلغ نصف مليار دولار من أرصدة الفيفا دفعتها شركة كيرش الألمانية لاحتكار نقل مونديال ٢٠٠٢ تليفزيونيا، والواقع أن رئيس الفيفا بلاتر استخدم ٣٦٠ مليون دولار لتغطية إفلاس شركة I.S.L وقبل الانتخابات الأخيرة فجر ميشيل روفينين سكرتير الاتحاد الدولى مفاجأة بكتابة تقرير من ٢١ صفحة عن الفساد المالى للمؤسسة الكروية الكبرى يتهم فيه بلاتر بمنح رشاوى لأشخاص، وسوء إدارة أموال الفيفا، وأن الاتحاد خسر ٥٠٨ ملايين دولار خلال فترة رئاسة بلاتر وأنه منح الروسى فياشسلاف كولو سكوف راتب عامين قيمته ١٠٠ ألف دولار كعضو فى اللجنة التنفيذية وهو لم يكن عضوًا بها. وهذا بخلاف الأموال التى منحت بمبادرة شخصية من بلاتر إلى اتحادات أفريقية مثل التى سلمت إلى سيزار كايزارى رئيس الاتحاد الرواندى وقيمتها نصف مليون دولار.

وأشار روفينين فى تقريره إلى أن الشركة الأمريكية آى. آى. إم عرضت مبلغًا للنقل التليفزيونى بزيادة قدرها ١٠٠ مليون دولار عن ماقدمته شركة آى. إس.إل ثم كيرش، ولكن الكعكة ذهبت إلى مجموعة كيرش الألمانية!

وبالرغم من ذلك نجح جوزيف بلاتر بتفوق وهزم حياتو، ومازال يجلس على مقعد الحكم فى الجمهورية الكبرى، لكنه مهدد باحتمالات نظر قضية الرشوة والفساد فى المحاكم السويسرية فى ديسمبر المقبل، ومن المؤكد أن أركان الفيفا اهتزت، وأن الفساد مهما طال عمره فهو قصير، ولن تموت اللعبة بما فيها من مظاهر نبيلة وجمال،وتنافس شريف، وصراع لايتعدى حدود الساحة الخضراء، وكما قال يوما الفيلسوف الفرنسى الجزائرى الأصل ألبير كامو العاشق لكرة القدم:«كل ما أعرفه عن الأخلاق وواجبات الإنسان أدين به لكرة القدم»!



عن الحرية

تأليف: جون ستيوارت ميل

يعتبر جون ستيوارت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٣) من أعلام الفكر السياسى والفلسفى فى بريطانيا إبان القرن التاسع عشر، وقد ذاع صيته بسبب كتابه المهم عن الحرية والنفعية والحكومة النيابية الذى يدعو فيه إلى الالتزام بمبادئ حرية الفرد التى تقوم على أساسها حرية المجتمع، وهو المبدأ الذى يقول إنه اقتبسه من الشاعر الإنجليزى المعاصر له وليم وردزورث، ومبادئ الالتزام بالواقع ونشدان ما ينفع الناس فيه، أى الاستناد إلى الواقع لا إلى المثل العليا فى إصدار الأحكام على الأشياء، وهو الذى كان والده جيمس ميل يدعو إليه ورباه على احترامه، متبعًا فى ذلك خطى جيريمى بنتام فيلسوف النفعية الشهير.

وقد كتب جون ستيوارت ميل كتابات متخصصة فى شتى المجالات الفلسفية التى شغلت عصره، فوضع نظامًا سماه نظام المنطق عام ١٨٤٣ كان له تأثيره الكبير فى معاصريه، ولم تمض سنوات خمس حتى كتب كتابًا مايزال رجال الاقتصاد يرجعون إليه وهو مبادئ الاقتصاد السياسى (١٨٤٨) كما كتب فى أواخر حياته كتابًا يدعو فيه إلى تحرير المرأة. وكان فى ذلك كله متأثرًا بالفلسفة النفعية مع تحوير بعض جوانبها استنادًا إلى خبرته الشخصية، خصوصًا بعد أن انتخب عضوًا فى البرلمان ومارس الحياة السياسية عمليًا.

وهذا الكتاب الذى نشرته مكتبة الأسرة فى مصر من أمهات كتب الفكر السياسى والفلسفى حتى اليوم، ولا يستطيع دارس لتطور مفهوم الحرية فى القرنين الماضيين أن يغفل جهود ذلك المفكر.



الإصلاح والثورة

قــــراءة فـــى فكـــــــر الطهطـــــــــاوى

رضــــوان الســــيد

سـأل الأمـيـر شكيب أرسـلان (توفي ١٩٤٦م) نفسـه : لماذا تأخر المسلمون، ولماذا تقدم غيرهم؟ ثم راح يجيب عن السؤال على مدى مائتي صفحة. وما كان هذا سؤال رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣م)، لكنّ ذاك السؤال نفسه هو ما انتهى إليه مؤتمر الطهطاوى الذى انعقد بالمجلس الأعلى للثقافة بمصر بمناسبة الذكرى المائتين لولادة «الطهطاوى رائد التنوير» (٢٠ - ٢٢ أبريل ٢٠٠٢).

المعروف أنّ الطهطاوىَ الشابَ الذى جاء من صعيد مصر، ودخل الأزهر، وتخرج فيه، وعُيّن واعظاً وإماماً بالجيش المصرى، ما لبث أن سافر إلى باريس عام ١٨٢٦ م إماماً أيضاً للبعثة التى أرسلها محمد على والى مصر للدراسة فى تخصصات مختلفة. بيد أنّ الطهطاوىَ الذى لم يكن عضـواً بالبعثة، أى أنه لم يكن ذاهباً للتعلُّم، استطاع بجدِّه واجتهاده الشخصى إقناعَ رئيس البعثة (الفرنسى جومار)، ووالى مصر بإدخاله عضواً فى البعثة، حيث تخرج بعد خمس سنين كما تخرج زملاؤه. هم فى العلوم العسكرية والفلك وعلوم البحار والهندسة والطب، وهو فى الترجمة والتاريخ والجغرافيا وعلوم الإدارة. افتتح الطهطاوى انطلاقته بالقاهرة بعد عودته بنشر وقائع الرحلة إلى باريس (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز)؛ والتى تراوحت بين أدب الرحلة، وأدب طلب العلم أو الرحلة فى طلب العلم. ثم مضى قُدُماً على مدى أربعين عاماً ونيف يترجم ويؤلِّف وينشر ويؤسسُ مدرسة الألسُن، وديوان المدارس، ومدرسة الطب، وعدة مؤسسات إدارية؛ ليُنْهى حياته بمقالات فى الاجتهاد والتجديد. وبين هذا وذاك، أى بين «تخليص الإبريز»، والمقالات فى الاجتهاد، كانت كتبه التأسيسية : المرشد الأمين للبنات والبنين، ومناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية، وسيرته للرسول (ص)، وتاريخه لمصر القديمة.



كان سؤال الطهطاوى الأساسى : كيف نتقدم ؟ وما اختلف الباحثون فى مؤتمر الطهطاوى حول هذا الفهم لتجربته، لكنهم اختلفوا فى فهم إجابته عن السؤال. فقد درج الباحثون منذ مطلع القرن العشرين على اعتباره راديكالياً داعيةً للتنوير والتقدم والتحديث والثورة. ودليلُهم على ذلك أنه بدأ حياته الكتابية بالرحلة التى ترجم فيها الدستورَ الفرنسىَ، وقصَّ فيها قصّة ثورة الفرنسيين عام ١٨٣٠ - ١٨٣١ م على مليكهم حيث انقسموا إلى حُرّيين ومَلَكيين، كما وصف فيها حياة الفرنسيين العامة والخاصّة وصفاً فيه الكثير من الجراءة والاستحسان.

المشكلة فى هذا التصور والتصوير أنّ الرجل كان على علاقة حسنة بالسلطة (فيما عدا فترة قصيرة أيام عباس الأول نُفى فيها إلى السودان)، كما أنه مُحافظٌ جداً فى الشأن الدينى، وكتبه ذات بنية تُراثية عميقة الجذور. فهو يفرّق بوضوح بين التقدم والحداثة إذا صحّ التعبير. إذ يحصُرُ التقدم فى الحاجة إلى إنجازاتٍ فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والتعليم (تعليم العلوم العصرية). ومع أنه يدعو للمساواة بين الناس؛ وبين الرجل والمرأة، لكنه لا يرى مشكلةً فى الدين والتفكير الدينى، ويرى أنّ الحاجة ماسّةٌ وحسْبُ إلى التقدم المادى فى المجالات السالفة الذكر، والتى تقدم فيها علينا الفرنسيون والأوروبيون بالدرجة وليس بالنوع. فنحن أمةٌ عريقةٌ فى العلوم والحضارة، ونستطيع بالجَهد والعمل أن نلحقَ وأن نَسْبِق لسابقة التجربة، وللتفوق الخُلُقى والإنسانى، والإيمان الدينى.

انهمك باحثون كثيرون أثناءَ المؤتمر فى عرض قراءات متنوعة لتخليص الإبريز، باعتباره تارةً الأثر الأول لصدمة الغرب بالعربية إذا صحَّ التعبير. بينما راح آخرون يدرسونه باعتباره نصّاً أدبياً فى رؤية الآخَر. وانصرف آخرون لقراءة «المُرشد الأمين» ودلالاته على تقدم الطهطاوى فى فهم قضية المرأة، وفهمه العميق لمسألة التعليم، ومعنى تلقّى العلوم العصرية. وقال فريقٌ ثالثٌ إنه إذا كان «تخليص الإبريز» نصّاً ثورياً تغييرياً؛ فإنّ كتاب «مناهج الألباب» هو التدوين الأوضح لمنهج الإصلاح والبناء.



على أنّ العروضَ الوصفية، والقراءات الكاشفة، ظلّت تدورُ حول فهم «شروط التقدم» عنده. بيتر غران صاحب الدراسة الرائدة : الجذور الإسلامية للرأسمالية (١٩٧٩) قال إنه مقتنعٌ بأنّ الشيخ حسن العطّار (- ١٨٣٥) شيخ الطهطاوى، والناصح بإرساله إلى باريس، هو النهضوى الحقيقى؛ بناءً على رؤيته القائلة إنّ القرن الثامن عشر الميلادى شهد نهوضاً إسلامياً اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً - وهو النهوض الذى قضى عليه الاستعماران الفرنسى والبريطانى لصالح حداثة غربية أو بداية غربية جديدة. وحسب هذه النظرة فإنّ الطهطاوىّ داخلٌ ضمن التغريب التحديثى الذى جاء على يد محمد على فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. ورأى كاتب هذا المقال أنّ ذلك غير صحيح لا بالنسبة للشيخ العطّار ولا بالنسبة للطهطاوى؛ رغم أنّ بينهما فرقاً واضحاً فى فهم «شروط النهوض». العطّار كان يرى ضرورة الإصلاح الدينى شرطاً لوجوه الإصلاح الأخرى. أما الطهطاوى فقد ظلّ مصرًا على أنّ الضرورىّ هو التقدم المادى أو فى مجال الحكمة العملية، كما كان يقول. أمّا الإصلاح الدينى فما كان يرى حاجةً إليه أو أنه لم يكن يحسُ بضرورته. لكن ليس هذا فقط؛ بل أسّس كتبه كلها تأسيساً تُراثياً أو وضعها ضمن التقاليد الموروثة للأنواع أو الأجناس الكتابية. فقد اكتشفتُ أنه نقل عن عشرات المصادر القديمة عشرات الصفحات. كما بنى كتبه على موضوعات وتقسيمات خلدونيّة وماوردية (نسبة لابن خلدون والماوَردى). ويتساوقُ ذلك مع نصوص صريحة له ومتعددة تعتبر التقدم الغربى المادىّ عارضاً يمكن اللحاق به أو استدراكه بالعمل وبالعمل وحسْب؛ وإقامة المؤسسات أو التنظيم، وتدريب الأجيال من البنين والبنات على ذلك؛ مع التمسك بالدين



لا شك أن الشيخ رفاعة كان يملك رؤية للتقدم الذى تقودُهُ الدولة، لكن النجاح متوقف على وعى المواطنين بجدواه، وإسهامهم فيه. وقد كان نموذجُه العالمى لهذا المشروع النظام الفرنسى، ونموذجه الإسلامى دولة محمد على بمصر

الإسلامي، والخُلُق العربي. أمّا الجديدُ في رؤية الطهطاوي - بالإضافة لذلك - فهو رؤيتُهُ الواسعة والسَّمْحة للآخر وفهمه كما يريد ذاك الآخَر أن يُفْهَم. صحيح أنه يستنكر بعض أخلاق الفرنسيين. لكنه في الأعمِّ الأغلب يكتفي بالوصف الدقيق، أو يستطرد للمقارنة وإظهار الشبه بينهم وبين المسلمين. والطريف أنّ بعض المشابهات والمفارقات ما عادت صحيحةً اليومَ أو أنها ما كانت صحيحةً يومَها أيضًا. فهو يقارن بين قول الفرنسيين بالحق الطبيعي، وعلم أصول الفقه عند المسلمين. والحق الطبيعي يقابل الوحي الإلهي، وليس أصول الفقه. وهو يرى أنّ مفتاح فهم الحضارة الأوروبية التحسين والتقبيح العقليان. بينما مفتاح فهم الحضارة الإسلامية التحسين والتقبيح الشرعيان. والأدنى للدقة بالنسبة للحضارة الأوروبية الحديثة القول بالحق الطبيعي. وللحضارة الإسلامية القول بالخَلْق والتكليف. أمّا التحسين والتقبيح الشرعيان فهما خاصّان بما يترتب عليه ثوابٌ وعقابٌ، لكنّ أصول الأشياء بما في ذلك التكليف قائمةٌ على العقل عند أهل السنة أيضًا وليس عند المعتزلة وحسْب؛ كما درج دارسو الطهطاوي على القول والتقرير.

ولعلَّ جزءًا من الاختلاف في فهم منظومة الطهطاوي الفكرية قائمٌ على اعتبار الطهطاوي مُنظِّرًا كبيرًا لتجربة محمد علي الإصلاحية والنهضوية. وهذا صحيح. لكنه بالدرجة الأولى معلِّم. ولذلك أكثر من الترجمة، وأقلَّ من التأليف. فقد ترجم أو أشرف على ترجمة حوالي الأربعين كتابًا، بعضُها يبلُغُ مئات الصفحات. وفي سنيّه العشر الأخيرة أقبل بتكليف رسمي على ترجمة القانون الفرنسي مع لجنة. فالرجل معلِّمٌ بالدرجة الأولى، أمّا محاولاتُهُ الكتابية فينبغي (فيما عدا تخليص الإبريز) اعتبارُها تنظيرًا أو تعليلاً لمسألة التعلُّم والتعليم. وحتى تليماك لفنلون، والتي ترجمها عندما كان بالسودان، لم يترجِمْها لأنها قصة أو تتخذ صيغة رواية؛ بل لأنّها روايةٌ تعليميةٌ لولي العهد، وربما أراد الطهطاوي أن تكون كذلك لأمراء مصر.

هكذا يكون الطهطاوي متأثرًا بطريقة محمد علي حاكم مصر، في التفكير والتعرف، بأكثر مما يريد الباحثون العرب إدراكه أو الاعتراف به: فالمطلوب تعلُّم العلوم العصرية، وممارسة التجارة والزراعة والصناعة بطرائق عصرية، من أجل النهوض والتقدم. أما ما يسمى التفكير العصري أو الإصلاح الديني، فلا حاجةَ إليهما، وقد يكونان مُضِرَّين. وما هكذا فهم خير الدين التونسي ومحمد عبده مسالة التقدم. بل أراداه إصلاحًا فكريًا ودينيًا باعتباره شرطًا للتقدم. أما جمال الدين الأفغاني فقد أراد الإصلاح السياسي بالدرجة الأولى.

ليس المقصود هنا التقليل من شأن فكر الطهطاوي، فقد كان الرجل يعرف التراث العربي والإسلامي معرفة جيدة جدًا. ونعرف الآن أنه كان يملك مكتبة عامرة بالمخطوطات العربية والإسلامية. وقد استخدم مخطوطات ومطبوعات كثيرة من خارج مكتبته. بيد أن الأولوية عنده في الاستخدام كانت لكتب الأدب. وكتب السَّمَر والأخلاق والأخبار، ومرايا الأمراء، والطرائف، وكتب الجغرافية والتاريخ، والطبقات، وآداب الصوفية. أما الكتب الفقهية والكلامية التي استعملها فتنتمي إلى التعليقات والحواشي والمتون المتأخرة. وهي شديدة المحافظة في سائر المسائل وبخاصة ما تعلق منها بالعقائد. وكثيرًا ما لجأ لدعم هذه القضية أو تلك برأي أو فتوى لأحد معاصريه أو شيوخه. والظاهر أنه ما كان مقتنعًا حتى الستينيات من القرن التاسع عشر بالحاجة إلى إصلاح ديني - وهذا يُعلل ضآلة الأفكار المعروضة في رسالته عن الاجتهاد والطابع المدرسي والجدالي الغالب عليها. ويستند هذا الأمر فيما يبدو إلى اقتناع لديه بأن الإسلام؛ بل والبنية الدينية التقليدية للمجتمع وللعلم الديني الأزهري لا تشكل عقبة في طريق التقدم. صحيح أنه يريد من الأزهريين التعرف على العلوم العصرية؛ لكنه يطلُبُ ذلك منهم لكي يستطيعوا تنظيم أمورهم، وفهم التراث الديني والعالَم بشكل أفضل. أما التقدم فهو مشروع الدولة والجماعة وشانهما؛ وهو لا يحتاج للتسويغ إلا من الناحية العقلية المصلحية، والعملية. فالمنافع العمومية التي تُحدِثُ التقدم هي الزراعة والصناعة والتجارة، ولا حاجة فيها إلا لدولة القانون التي تُسوّي بين الرعايا في التعامل، وتضمن حماية الملكية، وتترك الناس يكدُّون ويعملون، استنادًا إلى التجارب والمعارف المكتسبة بالتربية الحديثة. فالدنيا الأوروبية الناجحة هي دنيا علم وعمل وسعي، والتفكير الإسلامي من هذه الناحية ثرى بقيم العدالة والكسب الحلال والعمل الجاد. وصحيح أن هناك من يخلط بين التوكُّل والتواكل، ويستند إلى بعض ما يرد في التراث الديني أو الأدبي؛ لكن المسألةُ مسألةُ وعي واختيار كبيرين. والتربية القائمة على ركنين أساسيين هما الأخلاق الإسلامية والعربية السليمة، والمعارف العصرية، كفيلة بالانتصار للمنافع العمومية. ومما يؤكد على اعتبار الطهطاوي التقدم وعيًا ومعرفة وتربية إصراره على ضرورة تحمُّل المواطنين الأعباء الاجتماعية مع الدولة، سواء بإقبال الأفراد الأغنياء على مكافحة الفقر والعَوَز بالصَّدَقات المنتظمة والأوقاف، أو بإنشاء «الجمعيات التعاونية» للغَرَض نفسه. ومن هذا الباب نقدُهُ لتضاؤل معنى المؤسسة في الوقف مع أنه في الأصل ذو طابعٍ مؤسسي غلاّب.



وهكذا لا شك أن الشيخ رفاعة كان يملك رؤية للتقدم الذي تقودُهُ الدولة، لكن النجاح متوقف على وعي المواطنين بجدواه، وإسهامهم فيه. وقد كان نموذجُه العالمي لهذا المشروع النظام الفرنسي، ونموذجه الإسلامي دولة محمد علي بمصر. وبالوسع القول هنا دونما تجنٍّ على الطهطاوي أو ابتسار أو إسقاط أنه كان يفرق بوضوح بين التقدم والحداثة إذا صح التعبير. بمعنى أنه ما كان يرى ارتباطًا بين مذهب الحرية، كما يسميه، والمجتمع المنتج والمتقدم. فقد ظلت التجربة الفرنسية في التقدم حاضرة في أكثر كتاباته في جوانبها العلمية والاقتصادية والصناعية والإنتاجية والقانونية؛ أما الجانب السياسي البحتُ فقد غاب بعد «تخليص الإبريز» الذي كتبه في عامي ١٨٣٠ و١٨٣١. ولا أرى أن استبدادية محمد علي، وتقليدية أنظمة الحكم بالمشرق، كافيتان لتعليل هذا التجاهل أو ذاك الغياب؛ بل يبدو أن ذلك كان اقتناعًا ذاتيًا لديه، على الرغم من معاناته الشخصية بالإبعاد إلى السودان أيام عباس الأول (١٨٤٩-١٨٥٤).

على أن سؤال المشروع والتقدم، يطرحُ من جديد قضية التراث والمواريث في فكره وكتاباته من حيث الوظائف والدلالات.

أول ما يفجأُ العينَ الفاحصة في تعامل الطهطاوي مع التراث العربي بقاؤه الواعي ضمن التقاليد التأليفية المتعارف عليها، والأنواع الأدبية التقليدية والمتوارثة. فهو يمزج في «تخليص الإبريز» بين النوعين المتوارثين: أدب الرحلات، والرحلة في طلب العلم. ولا شك أن هناك تجديدات في التفاصيل، وتقسيم الفصول اقتضتها الطبائع المتغيرة للرحلة، والتي رجع فيها لبعض المؤلفات الأوروبية، كما ذكر ناشرو إحدى طبعات التخليص.



أما كتابُهُ الرئيس - حسب ألبرت حوراني - «مناهج الألباب المصرية...»، والذي يقول في مقدمته إنه يريدُ من ورائه تهذيب الأخلاق (أي أخلاق الأفراد)، والتوعية بالمنافع العمومية (أي أخلاق الجماعة أو مكاسبها)؛ فإنه يحتذي فيه حذو كتاب الماوردي الأخلاقي المعروف باسم «أدب الدنيا والدين» عندما يؤسسه على أصلين مثل الماوردي تمامًا؛ الأصل الأول قولُهُ ﷺ: «إذا مات ابنُ آدم انقطع عملُهُ إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علمٍ يُنتفعُ به، أو ولدٌ صالحٌ يدعو له». والأصل الثاني، القولُ المنسوب للمأمون العباسي إن أسباب المعاش أو وجوه المكاسب تنقسم إلى أربعة أقسام: زراعة وصناعة وتجارة ونتاج حيوان.

ولا شك أن «مناهج الألباب» كتابٌ نهضويٌّ تتناثر فيه أفكارٌ وموضوعاتٌ حديثةٌ كثيرةٌ؛ لكن الطهطاوي يريد لقارئه أنه يظل مقتنعًا بانتمائه إلى كتب الأخلاق العملية الإسلامية بتكرار ذكر أسباب المعاش ووجوهها في مختلف الفصول، وتكرار الاستشهاد بحديث النبي ﷺ السالف الذكر، وتكرار النقل عن أدب الدنيا والدين للماوردي، فضلاً عن النقول النثرية والشعرية والقصص التراثي الكثير، كما يفعل المؤلفون القُدامى ضمن هذا الجنس الأدبي. والطريف أن الفصل الخاص بمصر، وحب الوطن المصري، والذي تتخلله سطور شديدة الحداثة، منقول في أكثر أجزائه من الأبواب والفصول التي تُعقَدُ لحب الوطن في مؤلفات السمر والأخلاق الكلاسيكية أيضًا.

والأمر نفسه يمكن قولُهُ عن كتابه: «المرشد الأمين للبنات والبنين». فالموضوع يكادُ يكون جديدًا تمامًا. لكن الطهطاوي وضع له مقدمات منها «مقام العقل» المأخوذ من كتاب «روضة العقلاء» لابن حبان البُستي؛ ومنها «ناطقية الإنسان» المأخوذ عن الماوردي، وميل الإنسان للعمران، وفكرته مأخوذة عن ابن خلدون. ثم هناك عشرات الفصول عن النساء وأخلاقهنّ وأشكالهنّ، مأخوذة عن كتاب النساء لابن الجوزي؛ فضلاً عن النثريات والشعريات الكثيرة المأخوذة عن كتب السمر والأخبار التي تتضمن أبوابًا عن النساء.



لعلّ جزءًا من الاختلاف فى فهم منظومة الطهطاوى الفكرية قائمٌ على اعتبار الطهطاوى مُنظرًا كبيرًا لتجربة محمد على الإصلاحية والنهضوية. وهذا صحيح. لكنه بالدرجة الأولى معلم. ولذلك أكثر من الترجمة، وأقل من التأليف

أما سيرته للنبي ﷺ فهي منقولة عن الشفا للقاضي عياض، وللوفا لابن الجوزي، وسيرة ابن هشام وتاريخ ابن كثير، وشرح الشهاب للخفاجي.

وهناك أخيرًا رسالة: «القول السديد في الاجتهاد والتقليد» وإشكاليتها قائمة عن الأثر المنسوب للنبي ﷺ ونصه: «يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد للأمة أمر دينها»؛ أما مادته فمأخوذة من كتاب السيوطي: «الرد على من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض»؛ مع إضافات جدالية لأصدقائه وزملائه من فقهاء الشافعية.



إذا كانت لذة الاستشهاد والقص والسرد والعرض والاستعراض أحد دوافع الاستغراق في الاقتباس والإيراد عند الطهطاوي (من مثل ذكر المقامات الحريرية وأربعة شروح عليها)؛ فلاشك أن التواصل الشكلي والمضموني مع التراث هدفه في الأساس التسويغ. ويمكن الذهاب طبعًا إلى أن الطهطاوي مارس لعبة الاحتذاء والتناص على سبيل الإيهام. لكن الأمر يتجاوز الشكل إلى البنية النصية والثقافية. والتسويغ عنده على أي حال ليس المقصود به الشرعنة أو قضية الحلّ والحُرمة، بل التأكيد على البقاء في السياق الثقافي الكلاسيكي العربي والإسلامي، واجتراح التقدم في الوقت نفسه. وقد يجوز هنا القول إنه كان مقتنعًا بأن العالم لم يتغير إلى حد ضرورة القطيعة مع الموروث. وقد يكون هذا معنى تأكيداته على التشابه بين العرب والفرنسيين في أصول الأخلاق والعادات على الرغم من اختلاف الأحوال والسياقات. فالفروق في الأوضاع الحضارية بين التقدم والتأخر لا تعود لأسباب دينية أو ثقافية؛ بل المطلوب اكتساب المعارف والتنظيم وليس غير لتجاوز التخلف. بل إن الاختلاف في التجربة التاريخية أو الحاضرة لا يدل على الكثير. فالأمة الفرنسية تقدمت بالسعي الجماعي، بينما يتقدم المصريون بقرار من السلطة السياسية. لكن سيختلف الأمر، أي لن تنجح التجربة المصرية، إن لم يستو الوعي بالمنافع العمومية لدى الجماعة، بعد الاندفاعة التي أحدثها ساكنُ الجنان (الجنتمكان).

يستطيع المصريون والعرب والمسلمون التقدم إذن بالمعارف والتنظيم. فهم يملكون الجانب الخُلُقي والمعنوي، الذي يتساوون فيه مع الفرنسيين في بعض الجوانب، ويتفوقون عليهم في جوانبَ أخرى. والذي ينقصهم هو الجانب المادي للتمدن والمتصل بالتجارة والزراعة والصناعة، والذي يندفعون فيه الآن. والذي يُسوِّغُ الذهاب لإمكان ذلك، التجربة الحضارية الزاخرة، والتقاليد الثقافية العريقة التي نملكها، والتي ينبغي استمرار التواصل بها ومعها لتقوية هذا الجانب التأسيسي، الجانب المعنوي. وهكذا فإنّ التواصل الثقافي يدعمُ عمليات التقدم من طريق التأكيد على القيم الإيجابية الحية والفاعلة في ثقافتنا. وفي هذا أيضًا يختلف الفرنسيون عن العرب والمسلمين. فهم تقدموا عندما قطعوا مع الكنيسة بل مع الدين المسيحي أو رغم قطيعتهم معهما. بينما نتقدم نحن بالحفاظ على هذا التواصل لاختلاف التاريخ واختلاف التجربة مع الدين بيننا وبينهم.

فكما نختلف عنهم في القيم الدافعة للتقدم، نختلف عنهم في العلاقة بديننا. فالتحسين والتقبيح، والخير والشر عندنا شرعيان، أي يحددهما الشرع؛ بينما هما عندهم عقليان.



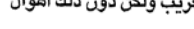
ولا يبدو أن الطهطاوي يرتب على هذا المنطلق أو المفتاح النتائج الأخرى المتصلة بالعلاقة بالإسلام. لكن الدين الإسلامي والعلوم الإسلامية، والتجربة التاريخية الإسلامية؛ كل ذلك حاضر عنده بقوة. وفي حين يستخدم التاريخ الإسلامي، والشخصيات الإسلامية للاستمرار في الدفع باتجاه القيم الفاضلة والإيجابية، يظل شديد المحافظة في العقائد والفقه؛ وفي العقائد أكثر من الفقه. وقد يمكن القول إنه يتحفظ في المسائل الدينية الخالصة في مقابل الانطلاق والتحرر في المسائل المتعلقة بالتقدم العلمي والاجتماعي والاقتصادي والتنظيمي. لكن قد يبدو من ناحية أخرى أنه لا يقيم علاقة جدلية فعلاً بين الأمرين؛ بمعنى أن الدين الإسلامي لا يعارض أو يدعم الإصلاحات العلمية والإدارية في دولة محمد على ودولة التنظيمات العثمانية؛ إلا إذا لاحظنا إصراره على أن التجربة التاريخية الإسلامية حتى أيام العثمانيين كانت تجربة متقدمة حتى بمقاييس الدولة الفرنسية التي رآها، كما إذا لاحظنا إصراره على القيم الأخلاقية والعلمية الإيجابية التي يتضمنها التراث الديني الإسلامي. ولهذا فالراجح أنه كان يقيم مثل هذا التوازن بين المحافظة البالغة أحيانًا في الشأن الديني، والتحرر البالغ أحيانًا أيضًا في مجالات التقدم العلمي والتنظيمي. وهنا تعود إلى الظهور قضية التسويغ؛ بمعنى أنه كما التزم بالتقاليد الكتابية الإسلامية المتوارثة ليشير إلى إمكان استيعابها للتقدم العلمي والمعرفي والاجتماعي وأحيانًا السياسي؛ التزم أيضًا بالتقاليد المحافظة في العقائد والكلام والفقه إظهارًا لإمكان أن تظل مسلمًا محافظًا، وأن تسعى في الوقت نفسه لاكتساب المعارف الحديثة، والتنظيمات الحديثة؛ وإلاّ فما معنى لجوئه إلى متون علم الكلام السنّي الأشعري المتأخرة، ولجوئه إلى كلام شيوخه وزملائه وفتاواهم في العقائد كما في الفقه؟!



إن علينا ألا ننسى أن الطهطاوي كان رائدًا في مجال معرفة التقدم الأوروبي، وفي مجال نقل رؤيته وتجربته لدولته ونخبها الجديدة. و«رؤية العالم» لدى الرواد شديدة الاختلاط والجدلية على عدة مستويات. هناك المستوى الشخصي الذي يجري فيه لدى الشخصيات القوية ـ مثل شخصية الطهطاوي ـ التركيز على الأولويات. والأولوية لدى الطهطاوي كانت اكتساب المعارف «العملية» كما كان يسميها، ونقلها لمجاله الحضاري. أما الأجزاء الأخرى للصورة فإنها تحتفظ بوظائفها أو إن وظائفها التقليدية تتخذ أبعادًا جديدة تتعلق بالتوازن أو الانتظام الشخصي فيجري التأكيد عليها من أجل التماسك بالدرجة الأولى. وهناك مستوى العلاقة بالسلطة. ويبدو أنها كانت متسقة مع أولوية الطهطاوي في نقل المعارف؛ ولهذا ما كانت هناك أزمة لديه من هذه الناحية معها حتى عندما ترجم الدستور الفرنسي. ثم هناك مستوى العلاقة بالمحيط والأساتذة والزملاء القدامى بالأزهر، والجدد بإدارات الدولة. وهؤلاء موقفه إزاءهم مزدوج؛ فمن جهة يريد أن يثبت لهم أنه لم يتغير. ومن جهة ثانية يريد إقناعهم بفوائد المعارف الجديدة.

ويبقى بعد هذا كله التساؤل البالغ الأهمية حول إدراكات الطهطاوي للزمن: فهل كان الطهطاوي يعتبر أن العالم تغيّر، وأن هناك صورة جديدة تمامًا له تبرز للوجود؟ الذي يبدو من كتاباته وخاطراته أنه كان يعتبر المتغيرات كمية وليست نوعية، وأنه يمكن اللحاق بالأوروبيين بسهولة؛ إذ أننا تخلفنا عنهم قليلاً فقط بمقاييس القوة والمعرفة والتنظيم والتقدم. ولنذكر نصًا شديد الدلالة أورده الطهطاوي في مطلع «التخليص» عن فقيه مالكي من ناحية أزوات على مقربة من تمبكتو اسمه مختار الكنتاوي. قال الطهطاوي عنه: «.. ألّف كتابًا سمّاه النزهة جمع فيه جملة علوم؛ فذكر بالمناسبة علم الهيئة، فتكلم على كروية الأرض وعلى سيرها، ووضح ذلك، فتخلص من كلامه أنّ الأرض كروية ولا يضر اعتقاد تحركها أو سكونها! ومات الشيخ سنة ألف ومائتين وعشرين من الهجرة النبوية / ١٨٠٥م» فالتقدم الأوروبي تقدم بالكم وليس بالكيف أو النوع؛ بدليل أن فقيهًا من بلاد كُنت من أطراف الصحراء وصل إلى الحقيقة التي توصل إليها جاليليو: فلماذا لا تستطيع ثقافتنا العريقة، وأمتنا صاحبة الخيرية، استدراك ما فات، والاستعداد لما هو آت؟

فيا دارَها بالخَيف إنّ مزارَها
قريبٌ ولكن دون ذلك أهوالُ





وأخيراً «هل نستطيع بعد هذا الاستعراض أن نجمع سؤالي الطهطاوي وشكيب أرسلان معًا؟ أعني: كيف يحصل التقدم؟ ولماذا لم يحصلْ؟ والطهطاوي قال: يحصل بالتقدم في المجالات المادية. والمحاولة تقودها الدولة؛ لكنّ «الجمعية المدنية» (= المجتمع المدني) ينبغي أن يُساهم ويشارك، وإلاّ فشلت المحاولة. وشكيب أرسلان يعيد الفشل لفساد الفكر الديني، والاختلاف أو الانقسام السياسي، والاستعمار الغربي. ويضع عبد الرحمن الكواكبي (١٩٠٣) المسئولية كلها على كاهل الاستبداد.

كان مؤتمر الطهطاوي بالغ الثراء والجدية. والثقافة سؤالٌ واحتمال، ولا تُقدم إجابات مباشرة أو أنّ تلك ليست وظيفتها. على أنّ ذلك لا يعني أنّ القراءات المتعددة والمتجددة للنص ليست مفيدة. وهناك محظوران: عدم الاستنتاج نتيجة تعدد القراءات أنّ الكاتب لم يقصد شيئاً أو شيئاً محدداً، وهذا ما حاوله بعض المشاركين من أساتذة النقد الأدبي ـ وتجنب الإسقاطات المعاصرة بقدر الإمكان. فلن يفيد في الفهم اعتبار الطهطاوي علمانياً أو متغرباً.

ويبقى أنّ الطهطاوي عاش حياةً جادةً مجاهدةً من أجل النهوض؛ ولولا ذلك، أي لولا جديته، ما كنا لنختلف على فهمه حتى اليوم. ويبقى أيضاً أنّ المأزق مازال مأزقاً؛ وليس مأزقه؛ وعلينا أن نجاهد للخروج منه. ذكر الطهطاوي عن بعض الحكماء (المأمون العباسي) قوله: وجوه المكاسب أو المعايش أربعة: زراعة، وصناعة، وتجارة وإمارة. فيكون علينا أن نتفحّص صحة هذه المقولة في سياقها التاريخي. وأنا أرى بدون تبسيط أنّ وجهة نظر الماوردي والطهطاوي ما تزال تستحق التأمل والنظر، رغم أحلام الثوريين، وجمود التقليديين. ■



لا شك أن «مناهج الألباب» كتابٌ نهضويٌ تتناثرُ فيه أفكارٌ وموضوعات حديثة كثيرة؛ لكن الطهطاوي يريد لقارئه أن يظل مقتنعاً بانتمائه إلى كتب الأخلاق العملية الإسلامية بتكرار ذكر أسباب المعاش أو وجوهها في مختلف الفصول، وتكرار الاستشهاد بحديث النبي ﷺ السالف الذكر


نقترب بخدماتنا منكم..
فى أى وقت وفى كل مكان

أوروبـــا والإســلام:

إن اختــزال القضــايا المعقـــدة فى تصريحـات إذاعية قصيرة ومـقـــالات فى الصـحف يعـد أمـرا سـيـئـا فى حـد ذاته لكن إيمان الرئيس الأمـريكى بهذا المنطق الخاطئ يجعل الأمور أخطر أمنيا على المستوى الكونى

■■ فى السنوات الخمس أو العشر الماضية، أصبحت دراسات العلاقات المسيحية الإسلامية ضربًا من صناعة البحث الأكاديمى. فقد أنشئت مراكز بحثية جديدة، وظهرت دوريات جديدة، وكُتبت كتب جديدة: وطوال الوقت، تتدفق آراء علماء الاجتماع، والمؤرخين، والفلاسفة، والنقاد الأدبيين على الصحافة الشعبية. والجمهور متعطش لهذا النوع من الأشياء. فالناس فى شوق شديد لمعرفة كيف يمكن لحضارتين قويتين ومتعايشتين بأشكال كثيرة أن تصبح كل منهما غريبة على الأخرى ومعادية لها. ونتيجة للحادى عشر من سبتمبر، والحرب فى أفغانستان، والعدوان الإسرائيلى المتجدد على فلسطين، سوف يظل هذا الاتجاه قائماً. ذلك أن الغرب يعيش حالة من القلق. وآخر مرة بدا فيها الإسلام مخيفاً بهذا الشكل كانت فى صيف عام ١٦٨٣.

ففى شهر يوليو من ذلك العام، غزا الوزير قره مصطفى أوروبا، حيث تقدم غرباً عبر أراضى الإمبراطورية الرومانية المقدسة ومعه حوالى ربع المليون من الجنود. وكانت تتقدمه فرقة من الفرسان التتار. وحاصر الترك ومرتزقتهم فيينا لمدة شهرين. وداخل المدينة، خزَّن المواطنون المؤن وأصلحوا التحصينات: وفى الخارج نشر قره مصطفى خيامه، بينما حاول المنقبون وخبراء الذخيرة لديه نقب الأسوار. وفى المناطق الواقعة غرباً كان المسيحيون القلقون ينتظرون أخبار النصر أو الهزيمة. ولو كانت الـ«سى.إن.إن» أو الجزيرة تغطيان الحصار، لكان العالم كله على علم بأخبار الدراما أولاً بأول.

وفى النهاية، جاء الحلفاء للإنقاذ. ولم يكن ذلك لأن أوروبا كانت على رأى واحد. فقد كانت الحملات الصليبية مجرد ذكرى ـ حيث كان العالم المسيحى بأسره يهب فى تلك الأيام للدفاع عن العقيدة. فكل أمة كانت تحارب من أجل مصالحها، ولذلك كان القرن السابع عشر أشبه بقرننا هذا تماماً. إذ وجد لويس الرابع عشر متعة فى محنة النمسا، وتفاوض طواعية مع السلطان؛ بينما أرسل الألمان والبولنديون ـ الذين كانوا أقرب للحدث ـ التعزيزات التى أجبرت الترك والتتار على التراجع عبر السهل المجرى. أما قره مصطفى فقد فر إلى بلجراد بماله وبلواء النبى. وهناك كان مبعوثو السلطان ينتظرون بالحبل الحريرى، وبعد بضعة أيام كان رأس الوزير يُسلَّم إلى استنبول فى كيس من المخمل.

وفيما يتعدى التشابهات مع يومنا هذا، هناك نقطتان لا بد من ذكرهما. النقطة الأولى هى أن رد الفعل الغربى لم يكن موحداً بحال من الأحوال. فقد أرسل بعض الحكام القوات، وتعاون غيرهم مع العدو ـ وكان ذلك يصدق على المستويات كافة: إذ استغلت الحكومات والأفراد على السواء الموقف كل لمصلحته. وكان على القائد الفيينى منع المواطنين من بيع الخبز والخضروات للجنود الأتراك. وكان بعض هؤلاء الجنود مسيحيين سابقين يحاربون مع السلطان. (هل يختلف هذا فى شيء عن الأمريكى الذى يحارب فى صفوف طالبان؟) وبينما هو صحيح أن الخطاب المعادى للمسلمين انساب غرباً من منطقة الحرب ـ كما هو الحال الآن ـ فإنه صحيح كذلك أن الرأى العام كان متبايناً. إذ كان الكل يتساءلون عن الطريقة التى استطاع بها العدو أن ينفذ إلى قلب الأراضى المسيحية فى المنطقة. وجاهد المفكرون من كل مشرب كى يتفاهموا مع المعانى الضمنية لهجوم المسلمين المباغت والضخم.

وينبغى أن تذكرنا تعددية الرأى ورد الفعل ـ الآن وفيما مضى ـ بان الهويات تتبدل: فكل إنسان يرى العالم من منظوره هو ـ وكل إنسان يعمل بناء على ما يراه. وهذا أمر يسهل نسيانه عند عقد مقارنات عريضة عابرة للثقافات. ولكى نناقش المشكلة بطريقة مفهومة، لا بد لنا من التعميمات؛ إلا أن الواقع الأساسى أكثر تدرجاً وتعقيداً مما نحسبه ـ وخاصة حين ندون أفكارنا على الورق. ولكن الصور لا تتبدل أبداً، وخاصة تلك الصور الخاصة بحضارات بأكملها.

كما أن الولاءات البشرية ليست مطلقة. فلا يكفى أن نقول إن هوية شخص ما هى «مسلم» أو «مسيحى» أو «عربى» أو «أمريكى»، لأنه ليس هناك فردان عربيان أو أمريكيان متطابقان. وكما قال أمين معلوف مؤخراً، هناك اختلافات طفيفة، حتى بين الأخوين، تجعلهما يتصرفان بطرق تختلف اختلافاً بيِّنًا فيما يتصل بالسياسة والدين والحياة اليومية. والمشكلة هى أننا نتصرف ونفكر فى كثير من الأحيان وكأن هذا ليس صحيحاً. ذلك أننا كسالى من الناحية الذهنية، و نجمِّع من حين لآخر الناس معاً فى فئات تصورناها سلفاً. ويقودنا هذا إلى أن ننسب لهم مواقف جماعية وجرائم جماعية. ويحذر معلوف من أن الكلمات لم تكن بريئة فى يوم من الأيام، أو بلا عواقب، حتى أنها تساعد على تأبيد الأحكام المسبقة. فهو يقول: «كثيرًا ما تكون الطريقة التى ننظر بها إلى الآخرين هى التى تحبسهم داخل ولاءاتهم الأكثر ضيقاً».



والنقطة الثانية فيما يتعلق بفهم هذا التاريخ الخاص بالاتصال والتصادم هى أن الخطوط الموازية ليست مثل الصلات. وهجوم الحادى عشر من سبتمبر يعيد إلى الأذهان حصار فيينا ـ من ناحية سيل التعليق العام العنصرى المجانب للصواب الذى أعقبه. ولكن هذا لا يعنى بالضرورة أن مواقف العصور الوسطى والمواقف الحديثة المبكرة أدت حتماً إلى ما نشهده اليوم من عنصرية وعنف طائفى. فهناك حلقات، وخاصة فى أماكن مثل أوروبا الشرقية، حيث أوجدت الحدود الضخمة وقرون من الصراع عداوات دامت زمناً طويلاً ـ ولكن حتى هذه العداوات تغيرت بمرور الزمن.

لقد صيغ صراع الحضارات الذى يتحدث عنه المؤرخون فى الغالب فى القرن العشرين، ويعكس اهتمامهم به هموم القرن الحادى والعشرين فى المقام الأول. ولهذه الأسباب فإن الأمم شرقاً وغرباً بحاجة ماسة إلى تحليل تاريخى يقوم على المعلومات ـ بما فى ذلك الغزوات التى وقعت فى الماضى السحيق. إلا أن هذا عمل يحتاج إلى قدر كبير من الحذر والمهارة. فإعادة بناء الخطابات يتطلب سيطرة محكمة؛ وتزداد الحاجة إلى ذلك كلما أوغلت المصادر فى عودتها إلى أقدم المواجهات بين الإسلام والغرب. ومما يؤسف له أن طبيعة التاريخ تجعلنا لا نرى الماضى إلا من منظور الحاضر. وهذا واضح حتى فى الأسئلة التى نطرحها. فنحن نريد أن نفهم الطريقة التى وصلنا بها إلى ما نحن عليه، ولذلك نحاول إيجاد صلات والسير وراء ما تبدو أنها سلسلة أفكار متصلة عبر القرون، وينتهى بنا الحال ـ وهو غير مستغرب ـ إلى انطباع لا يتزعزع عن تراث العداء الغربى المتصل وإرادة القوة.

وهناك كتابان عن تاريخ العلاقات المسيحية الإسلامية يشاركان فى هذه المعضلة. ففى كتاب Europe and Islam يصف فرانكو كاردينى ما يراه أنه ميراث العداء وسوء الفهم. ويبدأ كاردينى بالتوسع الإسلامى فى القرن السابع، حيث يتتبع صدام الحضارات منذ تجلياته الأولى حتى استيلاء طالبان على أفغانستان. وعلى امتداد ذلك يسوق أمثلة من فن الجدل المسيحى والأدب الغربى تبين الطريقة التى تشكلت بها الهوية الغربية من خلال الدفاع عن النفس. والمشكلة هى أنه يفترض أن هذا هو الحال منذ البداية، ولذا فهو يقرأ الماضى من منظور الهموم الغربية المعاصرة. ومساواة العالم المسيحى فى العصور الوسطى بأوروبا الغربية الحديثة مفارقة تاريخية تقودنا حتماً إلى عدم قراءة الموقف الراهن قراءة صحيحة. وسنتناول ذلك بالتفصيل فيما بعد.

أما مينو ريفز فقد نحت منحى مختلفًا. فكتاب Muhammad in Europe هو قصة الطريقة التى تعاملت بها المسيحية مع التحدى الأيديولوجى غير المسبوق بالتشنيع على النبى وقومه. وهدف ريفز هو كشف ما صاغته الآراء الغربية من عبارات مبتذلة وتشويه عن الإسلام. وقد أحسنت فى ذلك. فكتابها الذى يقدم تاريخ التشنيع يلقى الضوء على بعض أوجه القصور المهمة فى الثقافة الغربية. ومع ذلك فالمشكلة، كما هو الحال مع كاردينى، أن هناك عنصرًا خطابيًا أساسيًا، وهو العنصر الذى يقضى على العمل التاريخى القيِّم الذى كان الكتاب سيتضمنه لولا ذلك. فهى، مثلما هو شأن كاردينى، تميل إلى إقحام الحاضر فى الماضى، كما أنها تتغاضى عن حقيقة تغير الظروف عبر الزمن.

وريفز دبلوماسية إيرانية سابقة، وكانت وقت الثورة الإسلامية سكرتيرة الإمبراطورة



يصف فرانكو كاردينى ما يراه بأنه ميراث العداء وسوء الفهم. ويبدأ كاردينى بالتوسع الإسلامى فى القرن السابع، حيث يتتبع صدام الحضارات منذ تجلياته الأولى حتى استيلاء طالبان على أفغانستان



(1) Europe and Islam
أوروبا والإسلام
Franco Cardini
Trans: Caroline Beamish
Blachweu Publighers, 2001
(2) Muhammad in Europe
محمد فى أوروبا
Minou Reeves
Garnet Publighing, 2000)

لماذا تختلف روايات التاريخ؟

ديفيد بلانكس

فرح بهلوى. وهى، مثل كارين أرمسترونج، راهبة كاثوليكية سابقة تكتب حالياً التاريخ الدينى الشعبى، وقد كتبت فى حياتها العملية الثانية كتباً مثل Behind the Peacock Throne (1986) وFemale Warriors for Allah: Women and the Islamic Revolution (1989)

وترغب ريفز فى أن يتمكن قراؤها، وخاصة الغربيين منهم، من تقييم دور أوروبا فى إقامة علاقاتها مع الشرق، والاعتراف بما اقترفته عبر مسيرة التاريخ الطويل وأدى إلى عالمنا المنقسم. ومن المفترض أنها تريد منهم كذلك أن يصلحوا ما فسد. وهى تقول: «من خلال رؤية عالم الآخر بتعاطف وانفتاح وبالاعتماد على البحث والمعرفة القائمين على أسس جيدة وليس على الخرافات - قد تتخلى المواجهة عن مكانها للاحترام المتبادل والتسامح. وما لم يبدأ الغرب فى تكوين رؤية أكثر تعاطفاً وشمولاً عن الإسلام، فسوف تظل مرارة الماضى موجودة، بحيث تغذى الكراهية والعنف والاضطراب السياسى».

وقد كانت موفقة فى ذلك. إلا أنه رغم نبل نوايا ريفز، وطرق بحثها الجيدة، فهناك تناقض بين إصرارها على البحث الموضوعى ورغبتها فى التأثير على الرأى. وكلاهما أمر يستحق العناء. وكل منهما له ما يبرره. ولكن بغض النظر عن مدى متانة الأسس التى يقوم عليها البحث - إن كان للعمل غرض سياسى، فى هذه الحالة، يؤثر على المصالحة بين الغرب المسيحى والشرق المسلم، أو يلقى باللوم من جديد على أوروبا وأمريكا فيما يتعلق بالحالة المزرية التى تعيشها الشئون الدولية - فإنه بغض النظر عن متانة الأسس التى يقوم عليها البحث، سيكون هناك على الدوام ميل إلى الانتقائية بشأن ما لدى المرء من أدلة، كى يستنبط سلاسل من الأسباب والمسببات تكون فيها الصلات واهية، وكى يستخرج جوهر الحضارات، ليضغط المجتمعات كافة فى هويات ثابتة.





وفى تحليل ريفز لمارتن لوثر، على سبيل المثال، تصنف موقفه من الأتراك على أنه عدائى دائماً، وتعرض آراء لوثر على أنها دليل على أن الغرب رفض الاعتراف بما يدين به للثقافة الإسلامية، وخاصة أثرها على النهضة الإيطالية وكل ما تلاها. وهذا مساوٍ للإشارة إلى الفتاوى الخاصة ببعض رجال الدين على أنها دليل على رفض الإسلام الاعتراف بمنجزات العالم الغربى الثقافية والعلمية. والأمثلة التى توردها المؤلفة صحيحة، ولكن السرد الذى تنشئه يتصل صلة وثيقة برغبتها بتعليم الغرب درساً ما.

قد يكون هذا حتميًا، ويظل الكتاب كما قلت مادة جيدة للقراءة، ولكن الواقع اليومى أكثر تعقيداً مما تعترف به ريفز. فحقيقة الأمر أن لوثر كان مذبذبًا فى رأيه بخصوص قوة المسلمين. وتشير ريفز بشكل صحيح إلى الكراسات المعادية للإسلام التى كتبها لوثر فى منتصف حياته؛ ولكنه كان قد عارض من قبل المقاومة المسلحة. وفى كراسة بعنوان «عن الحرب ضد الأتراك»، يعارض لوثر فكرة إرسال الحملات الصليبية وينتقد تفكير البابا بشأن صكوك الغفران والحرب المقدسة. وقد زعم فى ذلك الوقت أن إرسال الحملات الصليبية مناف للرسالة المسيحية. وألقى لوثر باللوم فيما يتعلق بفشل الحملات الصليبية بصورة خاصة على مشاركة رجال الدين: فقد كان خلط العلمانية والروحية يتعارض مع النظام السماوى الذى وضعه الرب. وأضاف أنه من الكفر أن يُنصِّب إمبراطور أو غيره من الأمراء العلمانيين من أنفسهم مدافعين عن الإيمان، حيث إن الحامى الوحيد للإيمان هو المسيح نفسه، الذى لا يحتاج إلى أية مساعدة من أمراء البشر وجيوشهم. ولا ينبغى أن يحارب المسيحيون مبدأ الإسلام بالقوة، وإنما بالأسلحة الروحية والصلاة والمعيشة التى تتسم بالتقوى والورع.



وبالمثل، نجد أن كاردينى، المؤرخ الإيطالى الذى كتب بتوسع عن مسيحية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث، يُسقط على الماضى افتراضات معاصرة (وهى غربية فى هذه الحالة). وفى ظل تأكيده على أن «القوة المحركة التى لا تلين ... وراء الفتوحات الإسلامية فى سوريا والأناضول وشمال أفريقيا وأسبانيا يمكن القول بأنها الدخول فى الدين الجديد»، فليس من المستغرب أنه يقرأ تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية على أنه صراع حضارات. ويبدو كذلك أنه ينسى، ولو نسياناً مؤقتاً، ما يدين به الغرب للثقافة الإسلامية. فهو يتجاهل نماذج مهمة من التعاون المتبادل والبحث والدبلوماسية والتسامح.

ويصف كاردينى علاقات العصور الوسطى بين الإيطاليين والمسلمين بأنها «قتال تعقبه فترات قصيرة من السلام». والواقع أن الأمر كان على العكس من ذلك تمامًا: فقد كانت هناك فترات طويلة من التبادل التجارى السلمى يقطعها اندلاع مفاجئ ومذهل من العنف. كما أنه يقيم صلات مشكوكاً فيها بين «الاسترداد» Reconquista والحملات الصليبية.



كتاب الزاوية

عن الحرية

الحكومة الصالحة

لم يلجأ جون ستيوارت ميل فى كتابه إلى استجداء العاطفة والشعور، ولم يكن لاتجاهات العصر الرومانسى أثر كبير على تفكيره، وإن أضفت على مرآته الفسيحة وانطلاقه الفكرى وفهمه العميق للتاريخ على حججه ومنطقه الاستقرائى عذوبة وحيوية.

كان تفكيره امتدادًا لتفكير القرن الثامن عشر وإيمانه بالعقل، غير أنه كأستاذه بنتام، لم ير فى جمود القانون الطبيعى ما يحقق نظرته للحياة، تلك النظرة التى تقوم على تنمية الفضائل وإذكاء العقل لدى الأفراد فمنفعة المجتمع لا تتحقق إلا بضمان حرية الفرد. وفى هذا الإطار تتحدد غاية الحكومة، فمتى عرفنا الغايات التى تضمنها الحكومة وتعمل على حمايتها وتشجيعها، أمكننا أن نحدد أفضل شكل لحكومة تتكيف مع تلك الغايات وتتلاءم معها.

ولا تقاس الحكومة الصالحة إلا بمقدار ما يتمتع به أفرادها من فضائل الخلق والسلوك والتقدم العقلى العام، أو بعبارة أخرى، بمقدار ما تصطنعه من مواطنيها وما تصنعه بهم، ولا يتأتى ذلك مالم تفسح لكل فرد أوسع مدى لتنمية مواهبه وإذكاء ملكاته، فإن حرية الفكر وحرية العمل هما أثمن ما تقدمه الحكومة لرعاياها.

وليس لأى فرد أو جماعة أن تعوق حرية الإنسان إلا دفاعًا عن النفس، وما من مسوغ لاستخدام القوة المشروعة ضد إرادة الفرد، إلا لمنعه من إيقاع الأذى بالآخرين، فالإنسان سيد نفسه، له مطلق الحرية على جسده وعقله.



صحيح أن الدعاية تبدو متشابهة، إلا أن إحداهما لم تسبب الأخرى. فقد كانت تلك صراعات إقليمية تعكس هموماً محلية أو بالأحرى مباشرة. وصحيح إلى حد كبير أن الحملات الصليبية كانت بتوجيه من الكنيسة، إلا أن القتال جنوب شبه جزيرة أيبيريا سبق تورط البابوية. كما تصبح Chanson de Roland ـ وهى قصيدة من القرن الثانى عشر تصور هزيمة الفرنجة فى جبال البرانس ـ رمزاً لما يسميه كاردينى «الصراع الأبدى بين المسيحية والإسلام». وقبل مجىء التعليم العام الذى بدأ فى القرن التاسع عشر، فليس من المرجح أن يكون معظم الأوروبيين قد سمعوا Chanson de Roland من قبل: خاصة إذا لم يكونوا يفهمون الفرنسية! وإذا كانوا سمعوها، فقد كان ذلك فى سياق ترفيه المساء الخفيف، الذى يشبه إلى حد كبير غناء قصائد الملحمية فى أحد المقاهى. فلم يكن المستمعون على معرفة جيدة تتيح لهم إقامة صلات صريحة بين الأحداث المعاصرة وقصيدة من قصائد الحملات الصليبية عمرها قرون.

والمشكلة هنا هى أن كاردينى، شأنه شأن ريفز، يريد رؤية كل حدث أو نص على أنه ذروة وصراع ونقطة انطلاق ـ كل هذا فى وقت واحد. فإغراء القيام بذلك أمر لا يمكن مقاومته، ومع ذلك فهو نموذج واضح لأخطار فرض البُنى السردية بناء على فهم الأحداث بعد وقوعها. وكما بينًا من قبل، فلا يجب أن نكتب عن المواقف السابقة، وإنما عن مواقفنا نحن. ذلك أننا نسقط همومنا وفضولنا على الماضى، وفى النهاية «يكتشف» الباحثون ما يسمونه «تراث سوء الفهم الثقافى» وكأنه ظاهرة متأصلة تاريخياً كانت تُمارس بشكل جماعى. بعبارة أخرى، فإننا لا نبالغ فى تعميمنا فيما يتعلق بالثقافات الأخرى وحسب ـ ناسين أنها تتكون من ملايين الأفراد الذين لكل منهم رأيه الخاص به ـ بل نبالغ كذلك فى تعميمنا بشأن تاريخ تلك الثقافات. ولا يقال بالقدر الكافى إنه ليس هناك جوهر: فليست هناك قصة واحدة متماسكة ومتصلة تنتظر من يستخرجها ويعيد تجميعها. بل على العكس من ذلك هناك العديد من القصص التى ننتقى منها ونختار ما يروق أكثر من غيره لإحساسنا بـ«حقيقة العالم». ولهذا السبب فإنه من التضليل ربط الفترة من ١٠٩٦ ـ ١١٨٧ بالفترة من ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧، أو الإشارة إلى الدويلات الصليبية على أنها «قطاع وَله من أوروبا فيما وراء البحار»، أو وصف فلاتشر أوف تشارترز، وهو مبشر من العصور الوسطى عاش فى الشرق الوسط، بأنه (pied noir).

ومن الخطورة كذلك أن نرى فى كلمات وأفعال الصليبيين ومبشرى العصور الوسطى نوعاً من «المركزية العرقية»، قبل أن يصك مفهوم العرقية (وهو منتج آخر من منتجات القرن التاسع عشر). وتحرص الصحافة الشعبية حرصاً شديداً على التعلق بمثل هذا التفسير السهل. إن اختزال القضايا المعقدة فى تصريحات إذاعية قصيرة ومقالات فى الصحف يعد أمرا سيئا فى حد ذاته لكن إيمان الرئيس الأمريكى بهذا المنطق الخاطئ يجعل الأمور أخطر أمنيا على المستوى الكونى.



والقضية الأساسية هنا هى أن فكرة «أوروبا» و«الأوروبيين» لم تظهر حتى عصر النهضة، وحتى فى ذلك الوقت كانت مفهوماً يشارك فيه ما يزيد قليلاً على أصابع اليد الواحدة من المفكرين. ولذلك فإنه ليس من الدقة الإشارة إلى أى شخص أو موقف أو حدث قبل عصر النهضة على أنه «أوروبى»، ومن التضليل استخدام المصطلح بصورة موسعة قبل القرن السابع عشر أو الثامن عشر، أى قبل عصر التنوير وبداية عصر الإمبريالية. والاسم اللاتينى Europa قد نجده أحياناً على خرائط العصور الوسطى كاسم لإحدى القارات، ولكن أول كاتب يشتق منه نعتاً هو البابا بيوس الثانى (١٤٥٨-١٤٦٤)، وهو فى الواقع أول من أشار إلى من أسماهم «الأوروبيين». واحتاج الأمر إلى قرون قبل أن يتوقف الغربيون عن تعريف أنفسهم بأنهم «مسيحيون» ويبدءون فى رؤية أنفسهم باعتبارهم «أوروبيين». وبذلك فإن الصليبيين لم يكونوا تجارب مبكرة للاستعمار. صحيح أن بعض القادة العسكريين الغربيين من الأثرياء وأصحاب النفوذ اقتطعوا لأنفسهم ممالك شرقية، ولكن ذلك هو ما فعله بعض الأتراك.

وقد يشعر الأمريكيون الآن بالصدمة بشأن الهجوم على نيويورك بالقدر الذى شعره النمساويون بشأن الهجوم المباغت على مدينتهم الكبرى قبل ٣٠٠ سنة؛ وربما كانت بعض ردود الأفعال المعادية للمسلمين فى أى من الحالتين بنفس القدر من المرارة والقبح الذى فى الأخرى؛ ولكن كما رأينا، فإن السياقات التاريخية والثقافية مختلفة اختلافًا تامًا. وإذا اتفقنا على أن كل الصور

تعكس هموم من رسموها وأيديولوجياتهم، ففى هذه الحالة يكون من السهل رؤية أنه مع أن النماذج المقولبة الغربية الخاصة بالعالم الإسلامى قد تبدو متشابهة فى أوقات مختلفة وفى أماكن متباينة، فهى ليست كذلك فى حقيقة الأمر. فلا يمكن أن تتشابه. ذلك أن العالم تغير. ولكى يرى المرء ذلك، ليس عليه سوى أن يتامل الهيمنة الحالية لأفكار التنوير مثل التقدم، والقانون الطبيعى العام، والموضوعية العلمية، والعلمانية، والنزعة التفاؤلية، والتفوق الثقافى الغربى، والاستشراق ـ ولم يكن لأى من تلك الأفكار وجود قبل القرن الثامن عشر؛ أو يتامل السرعة الكبيرة التى يحدث بها التغير الاجتماعى ـ بما فى ذلك نمو الديمقراطية، والبُنى الطبقية الجديدة، والتوسع الاقتصادى، وإعادة توزيع الثروة، وتكنولوجيات الاتصالات الجديدة، وذلك الحجم الضخم من المعلومات المتاحة، والمستويات غير المسبوقة من التعليم ومعرفة القراءة والكتابة؛ أو يتامل أثر الأحداث المُشَكِّلة فى تاريخ علاقات الشرق والغرب مثل تقسيم الدول الغربية لأفريقيا والشرق الأوسط، واكتشاف البترول، وفترة التحرر من الاستعمار.



وكانت الكراسات المعادية للأتراك التى كانت تطبع فى فيينا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ـ ناهيك عما سبقها من كراسات مثل قصائد الصليبيين ـ مشبعة بوجهة نظر عالم القرون الوسطى المغرقة فى مسيحيتها، وهى وجهة نظر تنذر بالشر وتتسم بالمرض. ومع أن القليل من الكُتَّاب تناول القدرات العسكرية التركية، فإن معظمهم نظروا إلى الخطر التركى نظرة تنبئ بشر مستطير؛ وبالتحديد لأن معظم الكُتَّاب كانوا من رجال الدين، فقد افترضوا زوراً أن السلطان يعتزم إخضاع العالم المسيحى. وظهرت كراسات تدعو للمقاومة المسلحة، وكذلك إلى الصلاة والإصلاح الروحى. وقال أحد الكُتَّاب إن القضاء على الفساد الذى فى الأديرة سوف يساعد فى المجهود الحربى؛ وقال آخر إن المسيحيين لن ينتصروا أبداً لأن جنودهم جميعهم مقامرون وزناة كفرة. وكان بعض المتحدثين البروتستانت يعتقدون أن الأتراك كانوا فى الغالب يكرهون الكاثوليك، وأنه إذا قُضى على البابوية، وشُرحت المسيحية شرحًا صحيحًا للمسلمين، فحينئذ لن تكون لديهم الرغبة فى هزيمتها. ورفض الكثير من المؤمنين بتجديد التعميد (anabap-tists)العنف رفضاً مطلقًا؛ فقد كانوا يشعرون أنه على المسيحيين أن يديروا الخد الآخر، كما جاء فى الكتاب المقدس.

وفيما قبل عصر التنوير، وفى عصر ما قبل الاستعمار، كانت الهجمات المتسمة بالفحش على النبى تختلط بالدعوة المضادة لارتكاب المسيحيين للمعاصى. وفى امريكا الآن، حيث يوجد شعور كبير بأن الإسلام دين فيه بعض الخطورة، إن لم يكن إرهابيًا، نجد أن الشعور المعادى للإسلام يختلط ـ ليس بالدعوة إلى الإصلاح الروحى ـ ولكن بطابع أمريكى خاص من الصلف والاعتقاد بأنهم أفضل الناس. ويُفهم التوصيف الأمريكى لـ«الإرهابى المسلم» فى سياق ثقافى محدد، وهو الهوية المتفردة فى حداثتها التى ترى نفسها على أنها حامى حقوق الإنسان والديمقراطية، ولكنها تعكس فى الوقت ذاته، وبقوة، إحساساً شديد الانعزالية بالتفوق الساذج فى تفاؤله. وفى كلتا الحالتين يصورون المسلم على أنه عنيف ومحب للحرب. ولكن هناك صلات غير مباشرة وغامضة بين نسقى المواقف، ومن المؤكد أنه ليس من بينها ما يمكن تسميته بالتراث الغربى للعداء. وعلى المستوى الأساسى جدًا، لا بد أن نتذكر أنه لم يكن الجميع معادين ـ وأن المجتمعات الغربية، كما هو الحال بالنسبة للعالم العربى، تتكون من أفراد تتباين آراؤهم، وأنه حين ينشأ موقف معاد، فإن المعانى الضمنية تتعارض تعارضاً شديدًا. فبينما كان النمساويون يرون الحصار على أنه علامة من علامات نهاية العالم ـ وكانوا يعدون أنفسهم لما هو أسوأ ـ كان رد فعل الأمريكيين تجاه هجومهم بالانطلاق لجعل العالم على صورتهم هم، وبفرض نظامهم العالمى الجديد. ولا بد لمن تبقوا منا أن يعدوا أنفسهم لما هو أسوأ. ■

هوامش:

(*) (تسمية أوروبية للمستوطن الأوروبى الذى يعيش فى الشرق، بالأخص المستوطنون الفرنسيون فى الجزائر، ومعناه الحرفى «القدم السوداء»). «المترجم»

(*) (طائفة من الطوائف البروتستانتية). «المترجم»

ترجمة: أحمد محمود



كتاب الزاوية



عن الحرية

موطن الحرية

فى حياة الفرد منطقة ليس للمجتمع بها إلا مصلحة غير مباشرة ـ إن كانت له أية مصلحة على الإطلاق ـ وهى تشمل هذا الجزء فى حياة الفرد بل وجميع تصرفاته التى لا تؤثر فى غير الفرد، أو التى إذا أثرت فى غيره أيضًا، فذلك بمحض رغبتهم واختيارهم ورضاهم واشتراكهم، وعندما نقول: لا تؤثر فى غيره، نعنى أنها تؤثر فيه مباشرة ولأول وهلة، لأن كل ما يؤثر فى نفس الفرد قد يؤثر فى الآخرين عن طريقه، تلك المنطقة إذن هى صميم موطن الحرية البشرية، وهى تتضمن:

أولاً: المجال الداخلى للوعى، وهذا يقتضى حرية العقيدة فى أوسع معنى لها، وحرية الفكر والشعور، وحرية الرأى والميول فى جميع الموضوعات عملية أو علمية، مادية أو أدبية، دينية أو دنيوية.

ثانيًا: إن المبدأ يتناول حرية الأذواق والمشارب، بمعنى أنه يطلق لنا الحرية فى رسم الخطة التى نسير عليها فى حياتنا بما يتفق مع طباعنا، وأن نفعل ما نشاء على أن نتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج.

ثالثًا: أنه يتفرع من حرية كل فرد ـ وفى نطاق حدودها ـ حرية اجتماع الأفراد للتعاون على أى أمر ليس فيه ضرر للغير، على أن يكون الأشخاص المجتمعون بالغين راشدين، لم يساقوا إلى الاجتماع بعنف أو إكراه.

ولا يمكن لأى مجتمع أن يتمتع بالحرية دون أن يكفل هذه الحريات بوجه عام مهما كان نظام الحكم فيه.



أكثر عنفًا.. ودموية

عماد جاد

تداعب العودة إلى « المجتمع الديني التقي والورع الذي تواجد في الماضي» خيال العديد من الفرق والجماعات من أتباع الأديان المختلفة، وعلى الرغم من عمومية الفكرة، فإن التركيز انصب على الأديان التوحيدية الثلاثة، وجرى التعبير عن هذا التوجه بمصطلح «الأصولية» Fundamentalism فكان الحديث عن أصولية إسلامية وأخرى مسيحية وثالثة يهودية. وقد حظيت الأصولية الإسلامية بالقدر الأكبر من الاهتمام لاعتبارات عديدة، وكانت اليهودية أقلها من حيث التركيز والاهتمام.

وإذا كانت عملية دراسة الأصولية الإسلامية وأيضا المسيحية لا تحدها عقبات وقيود، فإن دراسة الأصولية اليهودية تخرج عن هذا السياق، فدراسة كل ما له صلة بالديانة اليهودية وتاريخ التجمعات اليهودية في شتى أرجاء العالم تقتضي الإلمام بالكثير من اللغات التي تكلمت بها التجمعات اليهودية لاسيما تلك الخاصة بها والتي شكلت مزيجا من لغات كانت متداولة. أيضا فإن دراسة كل ما له علاقة بالشريعة اليهودية يقتضي الرجوع إلى المصادر الأصلية المكتوبة بالعبرية، وهو أمر أشار إليه إسرائيل شاحاك ونورتون كتسفينسكي مؤلفا كتاب الأصولية اليهودية في إسرائيل، عندما أشارا في مقدمة الكتاب إلى أنهما قد لاحظا أهمية الاطلاع على النصوص العبرية لأنهما وجدا « في الترجمات الإنجليزية المعتادة لنصوص التلمود هناك بعض الفقرات الأكثر حساسية لا تترجم على النحو الصحيح أو يكون بها بعض التحريف عن النص الأصلي».

وبالتالي فإن شقا رئيسيا من مقتضيات الدراسة يتطلب الاطلاع على جوانب معينة يصعب على الدارس «من الخارج» أي من خارج الديانة اليهودية الوصول إليها بسلاسة.

وإذا كانت الملاحظة السابقة لا تعني نفي الفائدة من وراء دراسات خارجية، فإنها تعني أن الفائدة تكون أكبر إذا ما تصدى للدراسة تابع يمتلك قدرا من الموضوعية.

وإذا كانت الأعمال العنيفة التي أقدمت عليها جماعات وتنظيمات أصولية إسلامية، قد جعلت من دراستها حقلا خصبا وغزير الإنتاج، فإن درجة أقل من الاهتمام جرى توجيهها إلى الأصولية المسيحية واليهودية.



وقد أدت رصاصات إيجال عامير، وهو أصولي يهودي، والتي حصدت روح رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين، ثم حصول الجريمة على تأييد العديد من الجماعات اليهودية باعتبارها عملا «مخلصا من يهودي غيور على دينه»، إلى إثارة الاهتمام بدراسة الأصولية اليهودية.

إن دراسة الأصولية اليهودية تكشف عن جوانب غير مطروقة لمقولات تترتب على مسلمة « شعب الله المختار»، ومن قبيل ذلك « أن العالم خلق فقط من أجل اليهود ووجود غير اليهود هو أمر ثانوي» وذلك وفق ما أشار إليه «سيفي راكلسفكي» في كتابه « اليمين الديني الجديد في إسرائيل». وفي نفس الكتاب ينقل راكلسفكي عن الحاخام كوك، الأب الروحي للنزعة المسيانية في الأصولية اليهودية قوله «إن الفرق بين روح اليهود وأرواح غير اليهود على مختلف المستويات، أكبر وأعمق من الفرق بين روح الإنسان وأنفس البهائم».

ودراسة الأصولية اليهودية رتبت بشكل منطقي دراسة الأصولية المسيحية لاسيما من داخل المذهب البروتستانتي، فالعلاقة ارتباطية، إذ إن الكتاب المقدس لدى المسيحيين يحتوي على العهدين القديم والجديد، والأول هو توراة اليهود، كما أن تفسيرات الأصولية

١ ـ الأصولية اليهودية في إسرائيل
إسرائيل شاحاك ونورتون كتسفينسكي
ترجمة: ناصر عفيفي
القاهرة: مؤسسة روز اليوسف ٢٠٠١

٢ ـ في عقر ديار التطرف اليهودي في فرنسا وإسرائيل والولايات المتحدة
عمانويل هيمان
ترجمة سميرة دميان و فوزية ضرار
القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات



وتطرفًا... الأصولية اليهودية!

المسيحية فى طبعتها البروتستانتية تربط ما بين الخلاص والمجىء الثانى للمسيح وبين تجميع اليهود فى أرض فلسطين، ومن هنا نشأت العلاقة الوظيفية بين الأصولية المسيحية فى طبعتها البروتستانتية وإسرائيل، فالثانية تعمل على جلب اليهود من شتى أنحاء العالم لضمان أغلبية يهودية فى إسرائيل وضم أكبر مساحة ممكنة من أراضى الضفة الغربية وقطاع غزة، والأولى ترى فى نجاح مهمة الثانية مؤشرات على اقتراب موعد الخلاص والمجىء الثانى للمسيح، وبالتالى تعمل على تلبية مطالب دعم إسرائيل وتمكينها من تجميع اليهود فى فلسطين.

أيضا فإن دراسة الأصولية اليهودية تكشف بوضوح عن زيف الادعاء بأن إسرائيل دولة ديمقراطية، ناهيك عن كونها الديمقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط كما يروج لذلك. فمن البديهى أن قيمة الديمقراطية لا تقبل الحصر أو التحديد فى عرق أو لغة أو دين، ومن ثم فإن تعريف إسرائيل لنفسها على أنها «دولة يهودية ديمقراطية» يقطع فى ذاته بانتفاء الصفة الثانية، فكونها يهودية ينفى عنها صفة الديمقراطية لأن الصفة / القيمة لا تقبل التحديد والحصر. هذا بالإضافة إلى ما ذهب إليه باروخ كيمرلنج وهو أحد أبرز الدارسين للأصولية اليهودية من قول بأن « قيم الديانة اليهودية على الأقل فى شكلها الأرثوذكسى والقومى الذى يسود إسرائيل لا يمكن أن تتوافق مع القيم الديمقراطية»، مضيفا «أن عداء الأصوليين للقيم الديمقراطية وكذلك لمعظم جوانب الثقافة العلمانية ونمط الحياة السائدة، مغروس بعمق فى المدارس الدينية الإسرائيلية».

يقسم التاريخ اليهودى بصفة عامة إلى أربع مراحل رئيسية، المرحلة الأولى وتشمل الحقبة البابلية والتى كتب خلالها معظم العهد القديم، بدايتها غير معروفة وقد استمرت حتى القرن الخامس قبل الميلاد. ويلاحظ أن اليهودية فى تلك الحقبة كانت مختلفة من جوانب عديدة عن الموجودة الآن. أما المرحلة الثانية والتى تسمى حقبة الهيكل الثانى، فقد بدأت فى القرن الخامس قبل الميلاد واستمرت حتى تدمير الهيكل الثانى على أيدى الرومان عام ٧٠ ميلادية. وتبلورت فى هذه الحقبة أهم خاصيتين وهما انغلاق المجتمع اليهودى والانفصال اليهودى عن كل الأمم الأخرى وظهور مصطلح الأغيار. وقد بدأت المرحلة الثالثة مع تدمير الهيكل الثانى عام ٧٠ ميلادية، وهناك من يراها قد بدأت عام ١٣٥ ميلادية بانتهاء آخر التمردات اليهودية الكبرى ضد الإمبراطورية الرومانية. وقد انتهت هذه الحقبة بظهور الدولة القومية. وعادة ما يشير الأصوليون اليهود إلى الجزء الأخير من هذه الحقبة على أنه العصر الذهبى الذى يرغبون فى نفخ روح الحياة فيه. أما المرحلة الرابعة والأخيرة فقد بدأت فى بلدان مختلفة بأزمنة مختلفة حيث انتقل الكثير من اليهود من عصور ما قبل المعاصرة إلى الأزمنة المعاصرة.

الأصولية داخل المجتمع اليهودى

توجد الأصولية حيث يوجد تجمع يهودى كبير العدد، ولذلك توجد الأصولية فى إسرائيل وفى دول أخرى مثل الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وألمانيا. وعلى حين تفرز الأصولية اليهودية تداعياتها فى إسرائيل والدول التى توجد بها تجمعات يهودية كبيرة، فإن تواجد أقليات يهودية صغيرة بالنسبة لعدد السكان، يجعل نشاطها الرئيسى حشد الدعم المالى والسياسى للأصوليين فى إسرائيل.

وتشير الدراسات الخاصة بيهود إسرائيل إلى أن ما بين ٢٥ ـ ٣٠٪ من اليهود الإسرائيليين ينتمون إلى التيار العلمانى، وأن ما بين ٥٠ ـ ٥٥٪ ينتمون إلى التيار التقليدى، هذا بينما يعد حوالى ٢٠٪ من المتدينين.

وينقسم اليهود المتدينون إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى: الحريديم أو ذوو أغطية الرأس السوداء غير



المشغولة، ويرتدون ملابس سوداء. وتنشط هذه المجموعة عبر حزبين سياسيين الأول حزب يهود التوراة ويمثل اليهود من ذوى الأصول الغربية، والثانى حزب شاس، ويمثل اليهود من الأصول الشرقية وتحديدا الشرق أوسطية.

المجموعة الثانية، المتدينون القوميون، أو ذوو الطواقى المشغولة، ويرتدون ملابس عادية، ويعبر عنهم الحزب القومى الدينى «المفدال».

وقد حصلت الأحزاب المنتمية للمجموعتين فى انتخابات ١٩٩٦ على ٢٣ مقعدا (من بين ١٢٠ مقعدًا فى البرلمان ـ الكنيست) توزعت ما بين شاس (١٠ مقاعد) ويهود التوراة (٤ مقاعد) والمفدال (٩ مقاعد). وقد قفزت حصة هذه الأحزاب إلى ٢٧ مقعدا فى الانتخابات التى جرت عام ١٩٩٩، توزعت ما بين شاس (١٧ مقعدا) يهود التوراة (٥ مقاعد) والمفدال (٥ مقاعد).



وتنطلق الأصولية اليهودية من الإيمان المطلق بالتمييز بين اليهود والأغيار، أى غير اليهود عامة. وترى أن غير اليهود يعملون على الدوام من أجل القضاء على اليهود. وبالتالى فإن ما يرونه من «معاداة السامية» يمثل «اتجاها أبديا لدى الأغيار بلا استثناء، وأن هذا الاتجاه يختلف عن ظاهرة الخوف من الأجانب أو بغض الأقليات». وتكمن هذه القناعة وراء موقف الحاخامات من عملية التسوية السياسية للصراع العربى الإسرائيلى حيث تضعهم رؤيتهم داخل الفريق القائل بصراع الوجود. وبدا ذلك واضحا فى موقف الحاخامين الشهيرين شاخ ولوبوفتشر من معاهدة السلام مع مصر ١٩٧٩، فقد اتفقا على أنه « ليس هناك سلام ولن يكون أبدا لأن المصريين يريدون القضاء علينا».

وضمن هذه الرؤية الشاملة يأتى الفهم الخاص لبعض مقولات رموز هذا التيار فى إسرائيل تجاه عملية التسوية السياسية، والتى تؤيد إمكانية الانسحاب من بعض الأراضى « التى تقع التصور اليهودى باعتبارها أرض إسرائيل». وقد عبر عن ذلك بوضوح الزعيم الروحى لحزب شاس، الحاخام عوفاديا يوسف. يقول الحاخام عوفاديا « إن اليهود ليسوا فى الواقع أكثر قوة من غير اليهود، كما أنهم غير قادرين على طرد غير اليهود من أرض إسرائيل لأن اليهود يخشون غير اليهود...فحتى غير اليهود من الوثنيين يعيشون بيننا دون أن نستطيع طردهم أو حتى نقلهم، فالحكومة الإسرائيلية ملزمة تبعا للقانون الدولى بحماية الكنائس المسيحية فى أرض إسرائيل، على الرغم من أن هذه الكنائس هى أماكن وثنية وديننا يأمرنا بتحطيم الأوثان». ويؤكد الحاخام عوفاديا يوسف كأحد أبرز رموز الأصولية اليهودية على أن التعامل مع غير اليهود فى إسرائيل يتحدد وفق قاعدة مدى الضرر الذى يمكن أن يقع على اليهود، فإذا كان احتمال القيام بعمل ما ضد غير اليهود سيترتب عليه رد يلحق الضرر باليهود، فلا حاجة للقيام بمثل هذا العمل..يقول الحاخام يوسف « إن اليهود عليهم واجب دينى يتمثل فى طرد غير اليهود من دولة إسرائيل، فقط إذا كان ذلك لا يعرض حياة اليهود للخطر»، مضيفا أن أى تنازلات يهودية لغير اليهود فى دولة إسرائيل يجب أن تقوم فقط على اعتبار أن رفض القيام بذلك يمكن أن يعرض اليهود للخطر».

صعود نجم الحريديم فى إسرائيل

حقق التيار الحريدى طفرة فى قوته السياسية فى انتخابات عام ١٩٨٨، وهو النجاح الذى لفت الانتباه بقوة إلى هذا التيار فى إسرائيل، وفى خارجها. وكان هذا النجاح سببا مباشرا فى زيادة الاهتمام بدراسة هذه الفئة والكتابة عنها. واتسمت الموجة الأولى من الكتابات حول «الأصولية اليهودية» بالتركيز على الجوانب الشكلية للظاهرة من أسلوب حياة وطريقة عيش وملبس، كل ذلك دون تناول جوهر الظاهرة، أى فكر الحريديم وأيديولوجيتهم ونظرتهم للعالم خارج إطار حركتهم.

وحتى يمكن فهم جوهر الظاهرة، أى فكر الحريديم ونظرتهم للعالم، لابد من دراسة التعليم الحريدى، فالتعليم لديهم لا يحتوى على أية دراسات علمانية أو إنسانية، أى غير دينية. كما يقوم الحريديم بعزل الطلاب عن العالم الخارجى ويحظر عليهم الاتصال مع «غير المؤمنين». كما أن سلطة المعلم شاملة ومطلقة ويقوم المعلم الأول وناظر المدرسة باتخاذ كل القرارات المتعلقة بحياة التلاميذ بما فيها اختيار الزوجات.

ويؤمن الحريديم بأهمية الدراسات الدينية، إذ يسلمون بأن الفضيلة النابعة من أولئك المنخرطين فى الدراسات المقدسة هى المسئولة عن كل الخير الذى يجنيه اليهود، ولذلك فإن المنخرطين فى الدراسات المقدسة غير مطلوب منهم التضحية بأرواحهم، ويستحقون كل ما يمنحونه من مزايا وإعفاءات.

ولأن أعداد طلبة المدارس الدينية فى تزايد، فإن العبء يتزايد على دافعى الضرائب ومعظمهم من غير المتدينين، وهو ما يثير مشكلة حقيقية مؤداها أن طلبة المدارس الدينية لا يخدمون بالجيش ولا يعملون ويحصلون على مزايا هائلة من الدولة، ويرد الحريديم بأن الله يمنح إسرائيل واليهود الدعم والمساندة ببركة هؤلاء الدارسين « فمعونة الله هى التى تكسب الحروب وليس أداء الجنود».



وفى صحافة الحريديم تفرض قيود صارمة على كل كلمة، فلا تنشر كلمة فى مقال دون موافقة الحاخام المسئول الذى يتولى الإجازة والمنع، كما أن هناك قاموس للكلمات «سيئة السمعة» التى تنتمى إلى عالم الأعداء أو إلى «المدنية الحديثة» ولا يجوز نشرها على الإطلاق مثل كلمات «تليفون، الإيدز والصليب الأحمر».

وتتسم نظرة الحريديم للمرأة بالدونية الشديدة، فيحرم نشر صورة المرأة كما يمنع تماما أن تتبوأ المرأة مكانة رسمية، بل يحرم على الرجال الاستماع إلى غناء المرأة، وذلك يعادل لدى الحريديم جريمة «الزنى». ويذكر إسرائيل شاحاك ونورتون متسفينسكى قصة طريفة للطريقة التى اتبعها المستوطنون من أجل الاستماع إلى أغان نسائية دون ارتكاب «جريمة الزنا».. فيقولا أن مجموعة حريدية تقطن بإحدى المستوطنات أنشأت محطة للإذاعة وأرادت بث أغانى شهيرة لمطربات وهو الأمر الذى رفضه الرقيب الحاخامى «حتى لا يقع خرق للشريعة»...وبعد الكثير من المشاورات اقترح المستوطنون حلا وسطا حظى بالقبول وما زال معمولا به حتى الآن.. يقوم الرجال بغناء الأغانى الشهيرة للمطربات، وبعد ذلك يتم تحويل الأصوات إليكترونيا إلى الطبقات النسائية ويتم بثها عبر الإذاعة!!!



ويخوض الحريديم فى جدل حاد حول قضايا تفصيلية ويعتبرون أن عدم اتباع ما يرونه من قواعد للشريعة يعد جريمة كبرى لا تغتفر. ومن بين القضايا التى يدور حولها الجدل مثلا قضية التبرع بالدم وهل يجوز أن ينقل دم لليهودى المتدين من غير يهودى أو من يهودى علمانى، أى هل يجوز نقل «دم ملوث أو علمانى» إلى يهودى متدين، الأمر الذى يمكن أن يجعل اليهودى التقى يتصرف على نحو شرير أو يخل بالتزاماته الواردة فى الشريعة؟ وللحاخام عوفاديا يوسف فتوى شهيرة فى هذه القضية مؤداها « إن الدم الذى يأتى من طعام حرام ـ أى غير كوشير، بمعنى أنه غير معد وفق الشريعة ـ يمكن أن يؤدى إلى تأثيرات سلبية على من يتلقونه من اليهود وربما يحدث صفات سيئة مثل الوحشية والتبلد. وقد رد الحاخام موردخاى الياهو رئيس الحاخامية السابق فى إسرائيل على الحاخام عوفاديا يوسف معترضا على نقل تطبيق هذا القول على الدم المنقول من اليهودى مؤكدا « أن اليهودى حينما يولد فإنه يولد بدم كوشير». ووافق الحاخام الياهو على نقل الدم من غير اليهود إلى اليهود، ولكنه دعا المتدينين إلى تجنب أخذ دم منهم.

وهناك من تجاوز الموقف برمته مشرعا قتل الأغيار حتى لو كانوا أبرياء أى لم يرتكبوا أى عمل عدائى ضد اليهود، فالحاخام إسحاق جينسبرج يجل باروخ جولدشتاين ـ مرتكب مذبحة الحرم الإبراهيمى فى فبراير ١٩٩٤ وكتب يقول « إن قتل اليهود لغير اليهود لا يعتبر جريمة تبعا للديانة اليهودية، وأن قتل العرب الأبرياء بغرض الانتقام يعتبر فضيلة يهودية».

الحريديم والخلفية العرقية

ومن نظرة اليهودى الحريدى للأغيار ولليهودى العلمانى، ننتقل إلى نظرة الحريديم لبعضهم البعض على خلفية عرقية، فاليهودى الحريدى من أصل غربى، أى الاشكينازى ينظر للحريدى من أصل شرقى، سفاردى نظرة دونية تجعله فى الكثير من الأحيان يتجنب الاختلاط به ويتحاشى تناول الطعام لديه. فبصفة عامة يرفض الحريدى الاشكينازى تناول أى طعام لم يعد تحت إشراف حاخام إشكينازى. وإذا زار الحريدى الاشكينازى، نظيره السيفاردى، فإنه يرفض تناول أى طعام لديه يحتوى على اللحوم، وأحيانا يرفض تناول أى طعام بصفة عامة لدى الحريدى السيفاردى على أساس أنه لم يعد تحت إشراف حاخام اشكينازى، هذا بينما لا يوجد هذا التحفظ لدى الحريدى السيفاردى الذى يتناول أى طعام يقدم إليه من قبل الحريدى الاشكينازى. وقد وصل العداء بين الجانبين إلى درجة طرح مقولات أقرب إلى المسلمات تقول بأن الصراع بين الفئات اليهودية على اختلاف مسبباتها لا يمكن أن تصل فى شدتها وتأججها إلى تلك الكراهية المتبادلة بين الجماعات المختلفة من اليهود المتدينين.

ويعود الانشقاق الحالى بين اليهود الاشكيناز والسفارديم، إلى أنه على مدار القرنين الماضيين، أصبح كل الحاخامات المتميزين تقريبا من الاشكيناز، كما أن المجتمعات غير الاشكينازية شهدت فى نفس التوقيت تناقصا كبيرا فى قيمة الدراسات التلمودية والكتب المنشورة. وحتى عام ١٩٤٨ كانت الصهيونية وهجرة اليهود إلى فلسطين بدعا اشكينازية ونظر اليهود المتدينون إلى الصهيونية باعتبارها مناقضة لليهودية، ومن ثم فإن اليهود المارقين هم فقط الذين يمكنهم أن يصبحوا صهاينة. وهاجر القليل من اليهود الاشكيناز إلى

تنطلق الأصولية اليهودية من الإيمان المطلق بالتمييز بين اليهود والأغيار، أى غير اليهود عامة. وترى أن غير اليهود يعملون على الدوام من أجل القضاء على اليهود



فلسطين بسبب معتقداتهم الصهيونية، والغالبية العظمى من المهاجرين اتخذوا قرار الهجرة لأن حياتهم في البلدان التي كانوا يعيشون فيها، باتت لا تحتمل.



وعلى الرغم من الرؤية الاشكينازية العنصرية تجاه الحريديم من أصول شرقية، فإن حاخام الاشكيناز الشهير، شاخ قد لعب دورا رئيسيا في إنشاء حزب شاس المعبر عن الحريديم السفارديم. وجاءت نشأة حزب شاس بأوامر مباشرة من الحاخام شاخ للحاخامات الذين كانوا يدرسون على يديه في السابق وما زالوا يدينون له بالولاء، بتكوين حزبين حريديين، الأول اشكينازي وهو ديجيل هاتوراة أو راية التوراة، والثاني سفاردي صرف وهو حزب شاس. واعتبر زعماء الحزبين الحاخام شاخ أعلى سلطة روحية وأقسموا على طاعته. وقد جاءت هذه الخطوة من قبل الحاخام شاخ بسبب كراهيته الشديدة للحزب الديني القومي - المفدال - ورغبته في الانتقام منه وتجريده من قوته. وقد تحقق له ما أراد ففي الانتخابات الأخيرة التي جرت عام ١٩٩٩ احتل شاس المقدمة بين الأحزاب الدينية بسبعة عشر مقعدا، وتعادل المفدال مع راية التوراة ولكل منهما خمسة مقاعد.

وبمرور الوقت بدأ حزب شاس يبلور قيادته الروحية، وبرز الحاخام عوفاديا يوسف، الذي شغل في السابق منصب رئيس الطائفة اليهودية في مصر، وتخلص من النفوذ الروحي للحاخام شاخ، وبات يوسف يشكل القيادة الروحية لشاس.

المستوطنون المتدينون

تأسست جماعة «جويش إيمونيم» أو كتلة المؤمنين عام ١٩٧٤ وتنحصر إيديولوجيتها في بناء مستوطنات يهودية على الأراضي العربية المحتلة في حرب يونيو ١٩٦٧، وقد نشأت الحركة وتطورت بفعل دعم شيمون بيريز وزير الدفاع في حكومة رابين في الفترة من ١٩٧٤ - ١٩٧٦، وعندما جاء مناحم بيجن إلى السلطة عام ١٩٧٧ عقد لليكود «تحالف مقدس» مع الحركة ولا يزال مستمرا حتى اليوم. وتنشط الحركة في إضفاء أبعاد ميتافيزيقية على العلاقة بالأراضي العربية التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧ بصفة عامة والضفة والقطاع بصفة خاصة. وفي هذا السياق يقول اتباع الحاخامين كوك الأب والابن ومنهم الحاخام شمرياهو أريلي « إن حرب ١٩٦٧ كانت تحولا ميتافيزيقيا وأن الانتصارات الإسرائيلية حولت الأرض من قوة للشيطان إلى دائرة إلهية». ومن ثم فإن « أي انسحاب من هذه الأرض ستكون له عواقب ميتافيزيقية يمكن أن تؤدي إلى استعادة الشيطان لسلطته على هذه الأرض». وقد بررت الحركة المذابح التي ترتكب بحق أبناء الشعب الفلسطيني على أساس أن هذه الأعمال تأتي من منطلق « تطهير الأرض من الشيطان ومن الإثم الذي يغضب الله». ويعلق إسحاق شاحاك على فكر الحركة بالقول « إن تغيير كلمة اليهودي إلى الألماني أو الآري وغير اليهودي إلى اليهودي يحول موقف الحركة إلى المذهب الذي جعل أوشفيتس ممكنا في الماضي». ويضيف « أن أوجه الشبه بين الاتجاه المسياني السياسي اليهودي والنازية الألمانية ساطعة كالشمس، فالأغيار - غير اليهود - بالنسبة لأصحاب الاتجاه المسياني هم في منزلة اليهود بالنسبة للنازيين.

وللحركة رؤية واضحة تجاه الخدمة العسكرية، فأتباعها يخدمون في وحدات مختارة ولديهم استعداد كبير للقتال، كما ترتفع لديهم معدلات الضحايا بسبب مبادرتهم وإصرارهم والقتال من منطلق عقيدي، وهو أمر يميزهم عن الحريديم الذين يتهربون من الخدمة العسكرية ومن سائر الالتزامات.

كما تشارك الجماعة بقوة في قمع الانتفاضة وتقر بجواز قتل الأطفال العرب، فالحاخام شلومو أفنيري يقول « إن إلقاء حجر على سيارة مارة ليهودي من قبل طفل عربي يعتبر في هذه الحالة مضطهدا لليهود، ويجب أن يُقتل هذا الطفل، فقتل الطفل غير اليهودي في هذه الحالة ضروري لإنقاذ حياة يهودية».

مستوطنات جويش إيمونيم

من بين المستوطنات اليهودية في الأراضي المحتلة تنفرد مستوطنات القدس الكبرى بأهمية خاصة، ويصل عدد اليهود في القدس الكبرى إلى ربع مليون، ولا يزيد عددهم في باقي الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ عن مائة ألف مستوطن، هناك مستوطنات كبيرة مثل أريئيل ويقطنها خمسة عشر ألف مستوطن، وكريات أربع التي يقطنها نحو ستة آلاف مستوطن، وهناك أيضا مستوطنات لا يزيد عدد قاطنيها على المائة. ويشير إسرائيل شاحاك إلى أن المستوطنات الأكثر انعزالا وتعرضا للخطر، هي تلك التي يقطنها المستوطنون المتدينون مثل مستوطنة «نتساريم» بوسط قطاع غزة، فهذه المستوطنة التي تقطنها مائة وعشرون عائلة تقع إلى الشمال منها مدينة غزة وإلى الجنوب بعض أكبر مخيمات اللاجئين.

وينظر اليهود المتدينون إلى اتفاق أوسلو الذي أقام هياكل السلطة الوطنية الفلسطينية، على أنه يمثل فشلا لرؤية الخلاص العاجل، وبالتالي فقد تعمق العداء « لليهود الخونة الذين أفسدوا بمخططهم، مخطط الرب ودفعوا غالبية اليهود إلى تجاهل الأمر الإلهي والسير وراء الخونة». وتم توجيه الاتهام إلى رابين ووزرائه بموجب ما جاء في «القبالاة» التي تقول « إن خلاص اليهود الذي يحدث في أوقات مختلفة لا يوقفه في كل مرة سوى أن تختار غالبية الأمة أن تتبع خائنا».

الخلفية الدينية لاغتيال إسحاق رابين

قُتل إسحاق رابين في الخامس من نوفمبر ١٩٩٥ على يد إيجال عامير أثناء تظاهرة لأنصار السلام في ميدان ملوك إسرائيل. وقاتل رابين، إيجال عامير هو دارس للتلمود تم تدريبه في إحدى المدارس الدينية التي كانت تغرس في أذهان طلابها « أن العنف الذي يمارسه الحاخامات على مر الزمن كان يتم تبعا لكلمة الرب».

ويجد اغتيال رابين مبرراته الدينية في موقف اليهودية التقليدية من «المهرطقين» حيث كانت تحث على معاملتهم معاملة أسوأ من تلك التي يعامل بها غير اليهود أو اليهود الذين تحولوا إلى دين آخر. وهناك سجل طويل لفتاوى حاخامات بتعذيب وقتل وأيضا التمثيل بجثث من يرونهم من المذنبين والمهرطقين، وكانت أدوات القتل والتعذيب توضع في المعابد حيث مكان تنفيذ العقوبة. وفي هذا السياق كتب البروفيسور زئيف جروس بعد دراسة تاريخ العقوبات والقتل في اليهودية «... إن ما توصلت إليه في النهاية وأنا آسف لذلك، هو أنه لا شيء جديدا في اليهودية، فنزع الشرعية والتحريض والكتابة على الجدران وعلى وجه الخصوص صمت الحاخامات في تلك الأزمنة، وكل شيء آخر كان يماثل تماما ما حدث قبل اغتيال رابين».

ويشير عمانويل هيمان في كتاب « في عقر ديار التطرف اليهودي» إلى الجذور التاريخية لقتل اليهود المتهمين بالتعاون مع العدو من منطلقات دينية، بالتأكيد على أن «بصمات التطرف موجودة في كل قصص العهد القديم». كما يشير أيضًا إلى تجربة «السيكير» أي حملة الخناجر والذين كانوا يقتلون بضربات سريعة وخاطفة اليهود «الخونة المتعاونين مع المستعمر ضد مصلحة البلاد». فقد كان «السيكير» يفعلون ذلك اقتناعا منهم بأنهم يمهدون بذلك الطريق لقدوم «المسِّيا» عبر تطهير الأراضي المقدسة من الكفر الذي دنسها وتبارى «السيكير» في عمليات القتل وسفك الدماء.

ويقول هيمان أن السيكير « يجسدون أقصى معاني التطرف في العهد القديم حيث لم يسقط مَن أثر طعنات خناجرهم النافذة عسكر الأعداء وحسب، بل وأيضا اليهود الذين اتهموا بالاستهتار والتراخي نحو الدين أو استقلال الوطن».

ويجد اغتيال رابين مبررات الدينية أيضا في قانونين من قوانين التوراة، كان يتم استخدامهما منذ الأزمنة التلمودية لقتل اليهود، وقد أشار إليهما عامير في تبريره قتل رابين، وهما قانون المُطارد وقانون الواشي. القانون الأول يأمر كل يهودي بقتل أو جرح أي يهودي ينوي قتل يهودي ولا يجرى الاعتماد هنا على المشاهدة المادية، بل تكفي في هذا السياق كلمة من السلطة الحاخامية تقول بأن قانون المُطارد ينطبق على شخص معين. ويلزم القانون الثاني كل يهودي بقتل أو جرح أي يهودي دون قرار من السلطة الحاخامية المعنية، قام بالوشاية لدى غير اليهود وخاصة السلطات غير اليهودية بشأن الأمور اليهودية أو قام بإبلاغها معلومات عن ممتلكات اليهود أو قام بتسليمها أشخاص يهود أو ممتلكات يهودية.

وقبل اغتيال رابين، أكد عشرات الحاخامات الحريديم أن قانوني المُطارد والواشي ينطبقان على رابين وعدد من وزرائه. ويشير هيمان إلى أن جماعة صغيرة أطلقت على نفسها عام ١٩٨٩ «السيكير» لوحت بأنها ستشعل حربا أهلية من جديد بين اليهود وهددت بالنيل من اليهود الخونة. ووفقا لليهود المتدينين تعتبر «أرض إسرائيل» ملكية قاصرة على اليهود ومن ثم فمنح الفلسطينيين السلطة على أي جزء من هذه الأرض يمكن تفسيره على أنه عمل من أعمال «الوشاية» التي تستوجب القتل. ومن جانبه وصف الحاخام موشيه ليفنجر زعيم «جويش إيمونيم» وصف رابين وعددًا من وزرائه وحركة ميرتس بالوشاة.

المؤكد أن هناك جوانب عديدة للأصولية اليهودية التي تجعل عنفها وإرهابها يفوق ذلك الذي ينسب لأصوليات أخرى، بقي أن يجرى التركيز على الأصولية اليهودية وأن تجرى محاولة فهمها عبر الكتابات العبرية وليس الإنجليزية، فعبر اللغة العبرية يكتبون بدرجة أعلى من الحرية ويشرحون نصوصهم دون مواربة. ■



ينظر اليهود المتدينون إلى اتفاق أوسلو الذي أقام هياكل السلطة الوطنية الفلسطينية، على أنه يمثل فشلا لرؤية الخلاص العاجل، وبالتالي فقد تعمق العداء « لليهود الخونة الذين أفسدوا بمخططهم، مخطط الرب ودفعوا غالبية اليهود إلى تجاهل الأمر الإلهي والسير وراء الخونة»

القانون والعولمة

القانون في أي عصر من العصور، وفي أي شعب من الشعوب هو وليد ظروف التاريخ وثمرة تطور المجتمع، ونتيجة لعوامل مختلفة متصلة الحلقات متدرجة مع التقدم والارتقاء.

ويتأثر التغيير الذي يحدثه القانون بتفاعل الحضارات التي انطلقت على أرضيتها مبادئ القانون.

وقد تجلى ذلك في تفاعل الحضارة المصرية القديمة مع الحضارتين اليونانية والرومانية على مسيرة النظم القانونية في ظل هذه الحضارات. ففي الحضارة المصرية القديمة كان القانون الفرعوني أقدم قانون معروف في تاريخ البشرية، وهو يدل - رغم قدمه - على مدى التقدم الحضاري الذي كان يعيشه المجتمع المصري. وقد استمر هذا القانون زمنًا يقرب من ثلاثين قرنًا. ورغم فتح الإسكندر الأكبر لمصر في عام ٣٣٢ق.م وضمها إلى إمبراطوريته، إلا أن القانون المصري ظل مطبقًا على المصريين. وظهر بجانبه قانون جديد هو القانون الإغريقي الذي طبق على المواطنين الإغريقيين الذين استوطنوا مصر. ونتج عن تطبيق القانونين معًا في بلد واحد حدوث تفاعل بينهما أدى إلى ظهور قانون مشترك بين المصريين والإغريق اصطلح على تسميته بالقانون المصري الإغريقي. وحينما ضم الرومان مصر إلى إمبراطوريتهم عام ٣١ق.م ظهر القانون الروماني في مصر. وقد طبق هذا القانون على الرومان وحدهم، وبقي القانون المصري - الإغريقي مطبقًا على المصريين والإغريق. وقد تأثر القانون الروماني بالقانون المصري الإغريقي مما أدى إلى ظهور قانون مختلط اصطلح على تسميته باسم القانون المصري - الروماني. وقد أخذ القانون الروماني الذي قنن في عهد جستنيان بكثير من أحكام هذا القانون.

وقد صممت مصر على أن تؤكد مسيرتها في تحقيق التفاعل الحضاري، فعملت على إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة التي كانت أقدم مركز للبحث العلمي على شاطئ البحر المتوسط، لكي تلعب دورًا جديدًا في الإشعاع الثقافي والحوار بين الحضارات.

هذا وقد كانت مجموعات جستنيان مصدرًا رئيسيًا من مصادر القانون الفرنسي الذي نقل عنه المشرع المصري في القرن الماضي، ولما استرد المشرع المصري سيادته استطاع التوفيق بين طابعه القومي وبين التمشي مع أحدث الاتجاهات القانونية العالمية، فكان كل من القانونين الفرنسي والإيطالي أحد مصادره غير المباشرة. جاء التشريع المصري فحافظ على ذاتيته الثقافية حين استمد بعض مبادئه من النظريات العامة في الشريعة الإسلامية، مسجلاً التفاعل مع الحضارة الإسلامية، فضلاً عن تفاعله مع الحضارات القديمة.

ولا شك أن هذا التطور القانوني يعكس مسيرة التقاء مختلف الحضارات والتي انعكست في حركة التشريع في عدد كبير من بلدان العالم.

ولا شك أن التقاء الحضارات في عالم القانون يكشف عن القيم الأساسية التي تعتنقها كل حضارة والتي يعمل القانون على حمايتها. ولهذا فإن الحوار بين الحضارات لا يجوز أن ينظر إليه بوصفه عملية سياسية بقدر ما يتعين النظر إليه بوصفه مجالاً لاستجلاء القيم المشتركة التي تقوم عليها الحضارات المختلفة والتي تتفق على حمايتها مختلف النظم القانونية مهما تغيرت أساليب هذه الحماية.

ونلاحظ أن حضارة القرن العشرين في عقديها الأخيرين قد اندفعت نحو العولمة القائمة على الحرية الاقتصادية وعلى قانون السوق، من خلال تدفق الاتصالات وثورة المعلومات وتطور نظام التجارة الدولية وحرية انتقال الأشخاص والأموال عبر الحدود الوطنية. وقد دافع أنصار الحرية الاقتصادية عن العولمة باعتبارها ناقلة للتقدم العلمي والتنمية والنمو ومختلف جوانب الثراء العالمي. بينما أنكر خصوم العولمة إقامة النظام الاقتصادي العالمي على إعطاء الأولوية للرأسمالية، واتهموها ووجهوا إليها انتقادات وصلت إلى حد اتهامها بالقسوة والتوحش.

إلا أن العولمة في ذاتها لا يمكن أن تكون كلها سوءًا أو خيرًا مطلقًا. إن تقييمها يتوقف على استخدام قواعدها، ويعتمد على الأهداف التي تعمل من أجلها، ويتوقف على الغايات التي تتوخاها.

إن العولمة أمر بالغ السوء إذا وضعت الإنسان في خدمة المال ولم تضع المال في خدمة الإنسان. إنها أمر بالغ السوء إذا استهدفت إخضاع الدول والشعوب إلى متطلبات الربح والتوسع الاقتصادي للشركات المتعددة الجنسيات. إنها أمر بالغ السوء إن قامت على عدم المساواة وتحبيذ تركيز الثروة في أيدي مجموعة من الدول والشركات، وقامت على إفقار الشعوب. إنها أمر بالغ السوء إذا قامت على ترسيخ الهيمنة الاقتصادية والثقافية لقسم من العالم على قسمه الآخر.

إن العولمة التي تحمل الخير، هي صاحبة الغايات الإنسانية، وهو ما يتوقف على احترامها للتنوع الثقافي، ونبذها لتكريس عدم تكافؤ الفرص في مجال المنافسة.

وقد خلقت العولمة بجميع ملامحها الإيجابية والسلبية طلبًا جديدًا على القانون، تجلى بوجه خاص في القطاع الاقتصادي. كما أدت العولمة إلى إحداث تغيير في الحقائق العلمية والتكنولوجية، وأسهمت في شكل التغيرات السياسية والاجتماعية مما أسفر عن ظهور حقائق اجتماعية تعكس قيمًا جديدة، أثرت على مضمون القانون سواء كان ذلك في نطاق النظام القانوني الداخلي أو النظام القانوني الدولي.



إلا أن التأثير السلبي للعولمة على مبادئ القانون ظهر من خلال ما يؤدي إليه تطبيقها على كل من البلاد الغنية والبلاد الفقيرة، سواء بسواء، إلى الإخلال بمبدأ المساواة بسبب عدم تكافؤ الفرص المتاحة لكل البلاد. ويبدو هذا الإخلال في تطبيق النظام القانوني الذي تفرضه العولمة على دول تختلف مراكزها القانونية من حيث التنمية باختلاف درجات النمو فيها. فالمساواة لا تتحقق إلا بالاختلاف في المعاملة بين المختلفين.

ولنتساءل هل تملك الدول النامية القدرة الإنتاجية والتكنولوجية والقدرة على التسويق التي تسمح لها بالمنافسة في مواجهة الدول الصناعية؟ إن الدول النامية ليست على قدم المساواة مع الدول الصناعية لمواجهة المنافسة الحرة معها وفقًا لقواعد التجارة العالمية.

ولا شك في سوء العولمة إذا استهدفت تبعية الدول وإخضاع الشعوب إلى متطلبات الحصول على الربح، وإلى الهيمنة الاقتصادية للشركات متعددة الجنسيات. لا شك في سوء العولمة التي تكرس عدم المساواة وتركز الثراء في أيدي مجموعة من الدول أو في أيدي مجموعة من الشركات إضرارًا بالشعوب وتعميقًا للفقر والتهميش الاجتماعي.

إلا أن الدول النامية مضطرة من الناحية العملية إلى الخضوع لقواعد منظمة التجارة العالمية خشية تعرضها لجزاءات اقتصادية، وهذا الخضوع يعرضها لمشاكل اقتصادية من أهمها الفقر والبطالة. وهو ما ينطوي على تأكيد وجود قواعد دولية اقتصادية تضعها القوى العظمى بهدف إقامة سوق عالمية تمنحها حق إقامة قواعد قانونية تخضع لها جميع الدول.

وهو ما حققته هذه الدول من خلال إنشاء منظمة التجارة العالمية، وبهذه الروح أعدت منظمة التعاون الاقتصادي من أجل التنمية Ocde سنة ١٩٩٨ الاتفاق المتعدد الأطراف حول الاستثمار (AMI)، والذي منح حقوقًا شبه مطلقة للمستثمرين الدوليين - أي الغربيين - بغض النظر عن احتياجات التنمية في الدول المستقبلة للاستثمار، وكذلك الشأن فإن الضغط الذي تعرضت له الدول النامية بشأن حقوق الملكية الفكرية لوضع قواعد قانونية تحمي مصالح الشركات الكبرى التي تملك براءات الاختراع، بغير مبالاة بالنتائج الضارة التي قد تتعرض لها الدول النامية وخاصة في مجال الدواء.

وهكذا قد يتأثر القانون بتحديات العولمة، حين تحاول العولمة جعله أداة لتنفيذ أهدافها وضمان المصالح التي تتوخى حمايتها.

إلا أنه لا بد من التنبيه إلى ضرورة إحداث التوازن في الحماية بين مختلف الحقوق والحريات، الأمر الذي يتطلب التناسب بين حماية المصلحة الاقتصادية وحقوق الأفراد وحرياتهم، حتى يكون القانون أكثر عدلاً. وهو ما يتطلب من واضع التشريع والقائم على تطبيقه أن يجيد إقامة التوازن بين الهدف الاقتصادي للتشريع وبين سائر الأهداف الاجتماعية، للوصول إلى الحل الأكثر عدلاً. فما يعتبر في بعض الأحوال مخيبًا للهدف الاقتصادي يمكن اعتباره محققًا للعدالة. وكما قال أرسطو والفقيه الروماني كلس: إن القانون هو فن العدل والخير.



وتتحدد قيمة النظام القانوني في مدى ما يحققه من عدالة وأمن قانوني، لا فيما يحققه من إغراق، يتمثل في كثرة القوانين الاقتصادية. كما أنه يجب ألا تسبق القيمة الاقتصادية المتوخاة ما يجب أن يتوافر في التشريع ابتداء من قيمة قانونية بالمعنى الذي حددناه. فهذه القيمة من شأنها أن تعطي للمنتج القانوني قيمة اقتصادية تشجع على الاستثمار والنمو الاقتصادي، الذي لا يمكن أن يتحقق إلا في ظل إطار قانوني يحقق العدالة والأمن القانوني معًا. إن هذا الإطار القانوني هو الذي يسهم في إعطاء المستثمرين والمستهلكين على حد سواء الشعور بالاستقرار الحقيقي الذي يحتاج إليه أي استثمار طويل الأجل. وفي هذا الصدد فإننا نعارض أية عولمة لا تستهدف إلى غير إعلاء سيادة قانون السوق، ونطالب بتوحيد كل الجهود لكي نرى في نصوص القانون كل ما يؤكد احترام حقوق الإنسان، كل إنسان، واحترام كرامته، واحترام العدالة، واحترام خصوصية ثقافته وحضارته.

فالعولمة التي نريدها هي التي تضع في اعتبارها احتياجات الدول النامية من خلال القواعد القانونية التي تنظم النشاط الاقتصادي والتبادلات الدولية، واعتبارات العدالة والمساواة والأمن القانوني. وكل ذلك يتطلب تنويع القواعد القانونية وفقًا لقدرات الدول المنتجة ووفقًا لمتطلبات التنمية عندها. فلا شك أن إتاحة الفرصة للتنمية والرخاء للجميع وفقًا لقواعد العدالة والمساواة هو برنامج طموح يجب أن تعمل العولمة من أجل تحقيقه، وقد لوحظ أن العولمة وما صاحبها من الاعتماد المتبادل بين الدول واهتزاز الحواجز التي تفصل بين سيادة كل دولة وأخرى، قد أسهم في صياغة قيم مشتركة سواء على المستوى الوطني أو على المستوى الدولي. فلم تعد حقوق الأفراد ومصالح المجتمع الوطني هي الشاغل الوحيد للقانون، بل أصبح من شواغله أيضًا مواجهة مصالح المجتمع الدولي وبحث مدى تأثير أعمال الأفراد عليها.

وإزاء ظهور أفكار ومبادئ جديدة تحت تأثير العولمة وانتقال القيم والأفكار من حضارة إلى أخرى تحت تأثير سرعة الانتقال وتقدم وسائل الاتصال، ظهرت الحاجة إلى صياغة قيم

خلقت العولمة بجميع ملامحها طلبًا جديدًا على القانون، تجلى بوجه خاص في الاقتصاد. وأسهمت في شكل التغيرات السياسية والاجتماعية مما أسفر عن ظهور حقائق اجتماعية تعكس قيمًا جديدة، أثرت على مضمون القانون



وحوار الحضارات

أحمد فتحي سرور

مشتركة، وصلت إلى حد العالمية، ومن بينها حماية حقوق الإنسان التي وصلت إلى المستوى الذي أزال الحواجز التقليدية بين القانون الداخلي والقانون الدولي بشأنها.

ومن تطبيقات ذلك احترام حقوق الإنسان في نظامنا الجنائي، ومبدأ شرعية الجرائم والعقوبات، ومبدأ شخصية المسئولية الجنائية ومبدأ شخصية العقوبة، ومبدأ حماية استقلال القضاء وحياده، وقرينة البراءة والمحاكمة العادلة واحترام حقوق الدفاع. وكذلك الشأن إيمان المجتمع الدولي بضرورة مواجهة زيادة الجرائم المنظمة العابرة للحدود، وجرائم الإرهاب الدولي وغيرها من الظواهر الإجرامية التي ضاعفت العولمة من وقوعها، على نحو يهدد الأمن في كل من المجتمع الوطني والدولي معًا. وقد خلقت هذه التغييرات طلبًا ملحًا على النظام الجنائي الدولي، يتمثل في تقنين التشريع الداخلي للجرائم الدولية وظهور النظام القضائي الجنائي الدولي، وامتداد اختصاص القضاء الوطني في بعض الدول إلى جرائم تقع خارج إقليمه. وهو ما يتطلب بالتبعية زيادة التعاون الدولي في مجال الجريمة. هكذا تجاوزت العولمة نطاقها الاقتصادي لكي تمتد إلى النظام القانوني الجنائي الذي يضم الجرائم الدولية التي زادت في هذه الآونة الأخيرة، والذي يثير الحاجة إلى نظام عالمي جنائي يواجه هذه الظاهرة. نظام يؤكد القيم المشتركة التي يجب حمايتها جنائيًا على المستوى الدولي.



على أنه من ناحية أخرى نحذر من القيم التي تخلقها القوة المادية والسيطرة التي تتمتع بها بعض الدول الكبرى، فلا يجوز فرض هذه القيم على سائر المجتمعات، لأن القانون لا يجوز أن يحمي سوى القيم التي يحتاج إليها المجتمع أو يؤمن بها، لا تلك القيم الفوقية التي تفرضها قوة أو سلطة مسيطرة. لا بد للقانون أن يعكس حقيقة الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي والمالي السائد في المجتمع، لا أن يستورد واقعًا في بلد أجنبي وأن يترجم واقعًا يُملى عليه. فلا شك في سوء العولمة التي تكرس السيطرة الاقتصادية الثقافية لجزء من العالم على الجزء الآخر، أو توحد مدلول الأخلاق، أو تؤدي إلى التغريب الثقافي وفقًا لمرجعيات موحدة تعتمد على السيطرة والضغط.

ومن ناحية أخرى، فإننا نحتاج إلى القوة لحماية القانون وكفالة تنفيذه، فلا يجوز أن تتخذ السلطة مهما كانت طبيعتها سواء كانت اقتصادية أوسياسية أو عسكرية، ستارًا لمخالفة الشرعية الدولية. أو تطبيقه بمعايير مزدوجة، أو تطبيقه بصورة انتقائية. كل ذلك يضعف قيمة العدالة ويهز الإيمان بقيم القانون، مما يفتح الطريق أمام الفوضى بسبب عدم الإيمان بعدالة القانون. إن القانون خلق للجميع، ومن أجل الجميع.. فلا يجوز خلق قانون للأقوياء لتطبيقه على الضعفاء؛ فتلك هي بداية الانحلال في النظام القانوني بأسره.

إن حيوية النظام القانوني واستمراره يتوقفان على احتفاظ القيم الاجتماعية المقبولة بقوتها في دفع القانون وقيادته، وكلما تغيرت هذه القيم يتغير القانون سواء كان ذلك في إطار النظام القانوني الداخلي أو في نطاق النظام القانوني الدولي. ولهذا فإنه يتعين على المؤسسات الأكاديمية أن تركز اهتمامها على استجلاء القيم الاجتماعية المقبولة التي نريد الدفاع عنها والتي يتعين على النظام القانوني أن يشملها بحمايته، ولا يمكن في نطاق العولمة أن تتخذ نموذجًا ثقافيًا لأحد المجتمعات لكي نستخلص قيمه المقبولة ونفرضها على سائر المجتمعات. وإنما يتعين احترام التنوع الثقافي للشعوب وخلق مجتمع عالمي جديد يراعي الخصوصيات الثقافية وأنماطها المختلفة. فالحصاد الحقيقي للتفاعل الحضاري يبدو في إقامة نظام قيمي عالمي يراعي التنوع بين الثقافات واحترام هوية كل منها. وعلى هذا النحو يتمكن الإنسان من الخروج من الأزمة الحالية التي خلقتها العولمة لتهديد الذاتية الثقافية للشعوب، من خلال فرض القيم الثقافية للقوى المسيطرة على اقتصاديات العالم، وما تجره بالتبعية من تطبيق مبادئها القانونية على سائر الشعوب، على الرغم مما يكتنف هذا التطبيق من الإخلال بمبدأ المساواة في أجل معانيه.

لقد جاءت العولمة تحت ستار التعاون والتضامن الدولي، ورفع مستوى الحياة والسلام في العالم. ومن خلال مسيرتها سنحت الفرصة لتحقيق التقدم الإنساني بين جميع شعوب الأرض. وهو ما لا يتفق مع فرض ثقافة كونية أو عالمية على هذه الشعوب، أو خلق ثقافة إمبريالية تهيمن على الجميع، لما ينطوي عليه ذلك من أخطار التصادم والتبعية وبما لا يتفق مع الغايات الإنسانية للعولمة.

إن عالم اليوم هو حصيلة ما قدمه الإنسان للإنسان، ما قدمه كل شعب للشعوب الأخرى، من خلال تنوع الثقافات والحضارات. هذا التنوع يجب أن ندافع عنه، وأن نحافظ عليه، فهو مصدر الثراء المتبادل بين الشعوب وهو ضمان التقدم المتوازن داخل الحضارات. فالتجاوزات التي تقع داخل أية حضارة تصححها المبادئ والقيم التي تؤمن بها حضارات أخرى.

وكل ذلك يفرض إقامة حوار حقيقي بين الحضارات والثقافات المختلفة، من أجل فهم ما الذي تجرى عولمته وبواسطة من ولصالح من؟

إن الثقافة ليست سلعة، وخصوصية كل ثقافة يجب أن تعلو على أي اعتبار ولا يجوز للعولمة أن تتحدث باسم الثقافة، بل إنها على العكس يجب أن تتيح التعبير عن الأصالة والخصوصية التي تتمتع بها كل ثقافة. وإذا كانت الديانات تؤدي دورًا محوريًا في خصوصية الثقافات، فإنه لا تناقض بين عالمية الديانات السماوية وخصوصية الثقافات، فالتوازن بين عالمية الدين وخصوصية الثقافة القائمة على هذا الدين، يتحقق من خلال الانتشار العالمي للدين مع الاحتفاظ بالذاتية الثقافية القائمة على هذا الدين والتي تميزها عن غيرها من الثقافات.

إن الاختلافات الثقافية والدينية بين الشعوب هي من الثوابت التي لا يجوز إنكارها. والالتقاء بين هذه الثقافات المختلفة يتيح الفرصة للتفاعل فيما بينها والتعاون معًا لحل ما يواجهها من مشكلات عالمية. ولقد سبق أن أكدت في أكاديمية لينشاي بروما بتاريخ ٢٩ من نوفمبر سنة ١٩٩٩ في الاجتماع الذي نظمته هذه الأكاديمية بناء على دعوة مجلس النواب الإيطالي لبحث حوار الحضارات أننا نرفض ما يروج له البعض بشأن صراع الحضارات، لأن الحضارات نتاج للتاريخ، وهي من صنع الشعوب، والتاريخ ملك للإنسانية، وأكدت أن التفاهم الذي نعيش في ظله ليس ثمرة مفاوضات بيننا، وإنما هو ثمرة سلسلة من الحضارات المتعاقبة ولابد أن نعمل على بناء نظام عالمي يقبل بالتعددية الثقافية والدينية والفكرية.

هذا هو التحدي الحقيقي الذي يواجهنا في عالم القانون عندما نطور قوانيننا لكي تواجه الحاجات الجديدة للعولمة، وبما تتطلبه من تدويل للعلاقات الاقتصادية في ضوء نظام التجارة العالمي وتسهيل الانتقال بين الأشخاص وما قد يصاحب ذلك من غزو ثقافي للدول ذات النفوذ الاقتصادي أو ذات السيطرة، أو تسهيل للهجرة بين الشعوب. وقد اتجهت بعض الدول إلى تعديل قوانين الهجرة فيها للمحافظة على ذاتيتها الثقافية المهددة بخطر الاغتراب الثقافي بسبب زيادة المهاجرين إليها، مما أدى إلى وضع قيود على تراخيص الإقامة وتصاريح الدخول وحق الالتجاء السياسي.

ولا يقتصر الأمر على ذلك في عالم القانون، بل يمتد التحدي الذي صاحب العولمة إلى البحث عن النموذج القانوني للدولة، فلم يعد صالحًا نموذج الدولة المتدخلة في نظام اقتصادي يقوم على قانون السوق، الأمر الذي يثير عدة مشاكل في الدول النامية بسبب التزاماتها الدولية وفقًا للعولمة. إلا أنه أيا كانت عناصر الأزمة في هذه الدول، فإنه من المتفق عليه أن دور الدولة لن يختفي في الاقتصاد في كافة الدول سواء كان ذلك لضمان حسن إدارة اقتصاد السوق، أو من أجل تحقيق التوازن داخل المجتمع. كما أنه بوجه عام يجب على الدولة أن تخلق مناخًا مواتيًا لتنمية المشروعات، فهذه هي المشكلة في جميع البلاد النامية التي تهدف استراتيجيتها إلى جذب الاستثمارات الأجنبية. وأيا كان الأمر في شأن دور الدولة في الاقتصاد فإن تحديد هذا الدور يتوقف إلى حد كبير على القيم الثقافية في كل دولة. فلا يوجد نموذج قانوني موحد لهذا الدور، ولا يمكن نقل نموذج تطبقه دولة ما على دولة أخرى.



إن التفاعل بين الحضارات كان له تأثير على مبادئ القانون. وقد أوضحنا التحديات التي هبت علينا بسبب العولمة سواء من ناحية القيم التي يحميها القانون أو من زاوية الإطار القانوني الملائم لشكل هذه الحماية. ولنتساءل: ماذا سوف يكون عليه عالم اليوم بدون مساهمة علماء الرياضة والفلك العرب، والفلاسفة الإغريق، والمعماريين والرسامين الإيطاليين؟ ماذا سوف يكون عليه عالم اليوم بدون مساهمة الحضارة الصينية، والأفريقية، والهندية، وحضارة جنوب أمريكا؟ لا شك أن الحوار بين الحضارات واحترام الخصوصية الثقافية لكل حضارة هو السياج المنيع في مواجهة الغزو الثقافي الذي قد يصاحب الحضارة التي تملكها الدول الغنية. وفي ضوء هذا السياج يشترك القانون الوطني مع غيره من القوانين الوطنية في القيم التي يتيحها تفاعل الحضارات، ويختلف عنها احترامها لخصوصية قيمه الثقافية.

ولا شك أن الأمل معقود على المؤسسات الأكاديمية ومراكز البحث القانوني لكي تضع دعائم الإطار القانوني الذي يصلح لمواجهة العولمة. وأحسب أن احترام حقوق الإنسان، واحترام الشرعية الدولية، والالتزام بتحقيق العدالة والأمن القانوني هي غايات إنسانية مهمة يجب بلوغها حتى يكون للقانون دور فاعل في إحداث التغيير المنظم والإسراع نحو التطور والتنمية في إطار من تكافؤ الفرص والمساواة.

نحن في حاجة إلى تحويل العولمة أداة للتنمية والرخاء للجميع، وأداة للمساواة والعدالة الاجتماعية، استجلاء للطابع الإنساني الذي يجب أن تكون عليه العولمة.

إن العولمة التي تحترم التنوع الثقافي يجب أن تحقق التنوع في القواعد القانونية التي تضعها لكي تحكم الدول الغنية والدول الفقيرة بما يؤدي إلى تحقيق المساواة فيما بينها من خلال مراعاة الاختلاف بينها بقواعد قانونية تراعي ظروف كل منها. إن ديمقراطية العولمة لا تتحقق إلا باستفادة الجميع منها على قدم المساواة، مما يجعل المخاطبين بها أكثر تضامنًا، ويؤكد غاياتها الإنسانية.

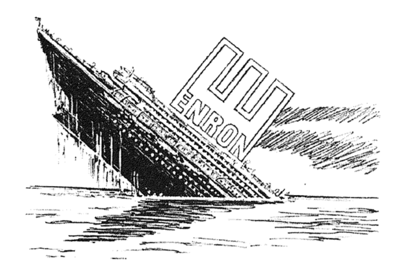
ولا شك أن المهمة صعبة وتقع بالدرجة الأولى على القانون. ومن أجل تحقيق هذه المهمة يجب المحافظة على سيادته الوطنية، وتفسير نصوصه وفقًا للمصالح الوطنية، واحترام النظام العام الداخلي، ويجب أن نعطي ثقتنا للقانون وللقضاء الوطني القائم على تطبيقه، فعليهما تقع مسئولية المحافظة على المصالح الوطنية، وإجراء التوازن بين العالمية والخصوصية، بين الدولية والوطنية، بين القيمة الاقتصادية وقيم العدالة والأمن القانوني، بين النظام العام الدولي والنظام العام الداخلي.

نحتاج إلى القوة لحماية القانون وكفالة تنفيذه، فلا يجوز أن تتخذ السلطة مهما كانت طبيعتها سواء كانت اقتصادية أوسياسية أو عسكرية، ستارًا لمخالفة الشرعية الدولية. أو تطبيقه بمعايير مزدوجة، أو تطبيقه بصورة انتقائية



الغــــواية والخيـــانة!!

قصـــة انهيــــار شــركـــة «إنــــرون» الأمــريكيـــة العمــــلاقـــة



جيـــيف مـــادريك

في ١٦ يونيـة الماضي، كتب المحلفون في إحدى محاكم ولاية تكساس الأمريكية شهادة وفاة شركة «آرثر إندرسون» للمحاسبات والتي لعبت دورًا رئيسيًا في فضيحة انهيار شركة «إنرون» للطاقة العملاقة. وقد أدان المحلفون «آرثر إندرسون» بإعاقة التحقيقات التي أجرتها السلطات التشريعية بشأن انهيار إنرون من خلال إخفاء بل وتدمير الوثائق السرية التي تكشف ملابسات الفضيحة.

ولأن الأمر يتعلق بشركة عملاقة، هي إنرون، حققت نجاحًا غير مسبوق في سنوات قلائل، فقد سعى الرأي العام الأمريكي لمعرفة حقيقة ما حدث، وما هي علاقة الشركة بكبار المسئولين في الإدارة الأمريكية وفي مقدمتهم ديك تشيني نائب الرئيس.

إن سقوط أندرسون، حسب بعض المحللين الأمريكيين، ربما يكون البداية لكشف أسرار اللغز الكبير.

المحرر

Report of Investigation by the Special Investigative Committee of the Board of Directors of Enron Corp.

تقرير لجنة التحقيق الخاصة عن شركة انرون

by: William C. Powers Jr., Raymond S. Troubh, and Herbert S. Winokur Jr.

news. findlaw.com/hdocs/docs/enron/sicriport

[١]

بعد الترويج لشركة إنرون على نطاق واسع، باعتبارها واحدة من الشركات العملاقة في عصر جديد، اتضح أنها إلى حد كبير - بل تكاد تكون بالكامل - من خلق الحيل المحاسبية. إلا أن فضيحة انهيارها ليست نموذجاً منعزلاً لشركة مفردة اندفعت اندفاعاً متهوراً. ذلك أن أكثر أنشطة إنرون خطورة لا يمكن أن يكون قد نُفّذ بدون موافقة الكثير من أفضل المحاسبين المستقلين والمحامين والبنوك التجارية والاستثمارية ومحللي الأمان ووكالات تقدير الديون في البلاد، وبتشجيع منهم، بل وبالتواطؤ معهم. كما أنه لا يمكن أن تكون تلك الأنشطة قد نُفّذت دون أن يكون قد وقع تهاون غير معتاد في واشنطن وأماكن أخرى تجاه أبسط نظم الأوراق المالية وشروط الاطلاع. ويكشف انهيار إنرون، أكثر من أي حدث سواه عن أن هناك شيئاً ما شديد الخطأ فيما يتعلق بالشركات العامة التي تعمل في الأسواق المالية الأمريكية، وبطريقة التلاعب في البيانات دون مراعاة مصالح العملاء أو الزبائن وروح القانون، ناهيك عن معايير الأمانة الأساسية. فالمعلومات المضللة تضليلاً منظماً تشجع على دخول عشرات المليارات في استثمارات مهدرة؛ كما تروج لشركات، بل وصناعات بكاملها، تفتقر إلى الكفاءة وتبقى عليها.

كانت إنرون قد تشكلت من اندماج جرى من خمس عشرة سنة بين شركتي خطوط أنابيب للغاز الطبيعي، هما «هيوستن ناتشورال جاس» و«إنترنورث». إلا أنها لم تكن تعتزم القيام بالعمل كما هو معتاد؛ وما كان ينبغي لها أن تفعل ذلك. ولأن الذي يديرها هو اقتصادي حلو الكلام اسمه كينيث لاي، فقد انتهزت فرصة تحرير أسعار الغاز الطبيعي والكهرباء لتحويل نفسها إلى تاجر استثماري للطاقة، التي هي في الغالب الكهرباء والغاز الطبيعي، في أنحاء الولايات المتحدة وأماكن كثيرة في أنحاء العالم. وعلى وجه التحديد، استفادت الشركة استفادة مبتكرة من الأدوات المالية المتخصصة المعروفة بالمشتقات التي تمكنها من تغطية الاستثمارات. وفي النهاية باتت تتعامل في أدوات كهذه تعتمد على كل شيء له قيمة من كابلات الألياف الضوئية وطباعة الصحف إلى الطقس.

وكانت بورصة وول ستريت والصحافة الاقتصادية تنظر إلى إنرون على أنها شركة من شركات «الاقتصاد الجديد» النموذجية. وقد ابتكرت تكنولوجيا متطورة للتعاملات المالية أذهلت المراقبين، واستفادت استفادة ضخمة من الإنترنت. وكان الكثير من أفكارها جيداً وبعيد النظر. فعلى سبيل المثال، لو كان التعامل في مشتقات الطاقة قد جرى بشكل مشروع لساعد المستفيدين التجاريين والخاصين للطاقة على تقليل الشكوك المستقبلية، عن طريق تمكينهم من تحديد التكلفة - حتى التكلفة التي يمكن أن تزيد بعد عشر سنوات. وكان يمكن لاستخدام الإنترنت للتعامل في المشتقات أن يؤدي إلى الأسعار المنخفضة، للطاقة على سبيل المثال، عن طريق الجمع الفوري بين المشترين والبائعين في مناطق جغرافية شاسعة. وأعلنت إنرون أن أرباحها بلغت حوالي مليار دولار في عام ٢٠٠٠، وجعلتها مبيعاتها تحتل المرتبة السابعة بين أكبر الشركات الأمريكية، طبقاً لقائمة مجلة «فورشن». وفي الوقت نفسه ارتفع سعر سهمها إلى ٩٠ دولاراً، حيث بلغ إجمالي القيمة السوقية لأسهمها ٧٠ مليار دولار. ووصفتها «فورشن» بأنها أكثر الشركات ابتكارًا في البلاد.

إلا أنه اعتباراً من أوائل ٢٠٠١ أخذ سعر السهم في الانخفاض، حيث لم تعد الشركات التي لها علاقة بالإنترنت والاتصالات تحظى باهتمام المستثمرين. ودون علم معظم المراقبين، أو على الأقل بتجاهل من محللي الأوراق المالية، أصبح سعر الأسهم الآخذ في الانخفاض يمثل ضغطاً ماليًا متزايداً على الشركة، التي أفرطت في استخدام أسهمها لضمان القروض وغيرها من الالتزامات ولتجميل الصفقات في أعين المقرضين والمستثمرين الخارجيين. وفجأة استقال مدير عام إنرون جيفري سكيلنج في أغسطس، وبدأت شائعات المشكلة المالية في الذيوع. وأخيراً، وفي شهر أكتوبر، صدمت «إنرون» وول ستريت بإعلانها عن خسائرها التي بلغت ٦١٨ مليون دولار. وأعلنت في اليوم ذاته، وبقدر أكبر من الهدوء، عن تخفيضها حقوق المساهمين بمقدار ١٫٢ مليار دولار. وهبط سعر السهم هبوطاً سريعاً. وفي وقت لاحق من أكتوبر، طلبوا من المدير المالي أندرو فاستوف، الذي قد يكون الشخصية الرائدة في التلاعبات المحاسبية المزعومة، أن يستقيل.



ومن النادر أن تلقى شركة بهذا الحجم الكبير والشهرة نهايتها على هذا النحو من

السرعة. لقد كانت أكبر حالة إفلاس في التاريخ الأمريكي. وفقد الآلاف من العاملين وظائفهم على الفور تقريباً، وسرعان ما سيفقد آلاف غيرهم وظائفهم. ويساوي سهم إنرون الآن بضعة بنسات. وفقد الكثير من العاملين البالغ عددهم عشرين ألفاً مدخرات المعاش التقاعدي الخاصة بهم، بعد أن كانت الشركة قد شجعتهم على شراء أسهم إنرون بسندات المعاش التقاعدي. كما فقدت صناديق المعاشات في أنحاء البلاد مليارات الدولارات في استثماراتها بإنرون.

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه التحقيقات، انتحر كليفورد باكستر نائب رئيس مجلس الإدارة السابق الذي كان قد استقال في وقت سابق من العام الماضي وكان من المقرر استدعاؤه للشهادة. واتضح أن إنرون ومراقبها المالي آرثر أندرسن، يتخلصان من الوثائق. وفي شهر فبراير استقال رئيس مجلس الإدارة كينيث لاي من مجلس الإدارة ورفض الإدلاء بشهادته طواعية أمام الكونجرس. وتزايد احتمال إجراء تحقيق جنائي. وعند استدعاء العديد من مسئولي إنرون للإدلاء بشهاداتهم أمام الكونجرس، رفضوا الإجابة عن الأسئلة، مستشهدين بالتعديل الخامس من الدستور الأمريكي.

وبالنظر إلى سمعة إنرون كشركة للتعاملات المالية، كان من الطبيعي افتراض أن تكون خسائرها تتعلق بأنشطة في عقود الطاقة التي تنظم تنظيماً فضفاضاً والمشتقات المالية التي تخصصت فيها. والمشتقات كما أوضحنا أدوات مالية «مشتقة» من القيمة الممتازة للسهم أو السند أو برميل البترول، أو وحدة الكهرباء، بل والطقس، إلى جانب سلع وأصناف أخرى. وتعطي المشتقات حائزيها الحق في شراء أو بيع تلك الأصول الممتازة في وقت ما مستقبلاً بسعر معين. ومن بين ميزاتها أن المستثمر يكون عليه وضع القليل من المال لشراء أو بيع قدر كبير من الأسهم، أو البترول، أو أية أصول أخرى لا حصر لها. ولكن هذا يجعلها تنطوي على مخاطرة كذلك، ذلك أن الكثير من أسواق المشتقات غير منظم بالمرة.

ولم يفهم أحد معاملات إنرون فهماً أكثر اكتمالاً إلا بعد إشهار إفلاسها. وبينما كان يجري التلاعب في عمليات التعامل الخاصة بالشركة لتضخيم الفوائد، فقد انطوت أكثر التلاعبات تكلفة على استخدام شركات خارج الميزانية وضعت فيها بعض استثمارات إنرون في شركات التكنولوجيا الفائقة والطاقة في الداخل والخارج. وركزت الصحافة في البداية على مقدار الديون التي أخفتها إنرون خارج ميزانيتها. إلا أن الأمر الأكثر أهمية هو أن إنرون حققت باستخدام هذه الاستثمارات أرباحاً لم يسبق لها تحقيقها، حيث غطت الخسائر الضخمة. وهذا هو ما أوضحه التحقيق الداخلي الذي أجراه ثلاثة أشخاص بتكليف من مجلس إدارة إنرون في أكتوبر برئاسة وليام باورز الابن من كلية الحقوق بجامعة تكساس. ووجد تقرير باورز أن إنرون حققت في الفترة من يوليو ٢٠٠٠ إلى أكتوبر ٢٠٠١ أرباحاً مقدارها مليار دولار لم تكسبها بالفعل - أو حوالي ٧٢ بالمائة من إجمالي الأرباح التي قالت إنها حققتها في تلك الفترة.

ولا يزال مقدار ما علمه مسئولو مكتب آرثر أندرسن للمحاسبة عن أنشطة إنرون غير واضح، إلا أن صغار موظفي أندرسن اشتكوا لرؤسائهم من أساليب المحاسبة غير الصحيحة، وأعدم أندرسن آلاف الصفحات من المستندات المتصلة بإنرون. ولم يكن أندرسن مجرد مراجع حسابات، بل كان كذلك مستشاراً في إقامة الشركات موضع البحث. ولو عدنا للوراء لوجدنا أنه من الواضح أنه حتى الخبراء لا يمكنهم تحديد ما كان يجري في إنرون من التقارير المالية أو الطلبات التي تتقدم بها إلى لجنة الأوراق المالية والصرف وأقرها أندرسن. ويعد عدم دفع إنرون أية ضرائب دخل تقريباً طوال خمس سنوات بنقل أرباحها إلى مواقع مختلفة في الخارج تفصيلة صغيرة، مقارنة بتلك التجاوزات الأخرى. فقد أصبح هذا التهرب من الضرائب أمراً عادياً بالنسبة لكثير من الشركات.



وإذا كانت المعلومات التي نعرفها الآن صحيحة، فإن أنشطة إنرون المشكوك فيها لم تكن تلاعباً يمكن إرجاعه إلى «الاقتصاد الجديد»؛ إنه تلاعب وحسب. وإثبات التلاعب يتطلب أن يصدق المحلفون بما لا يدع مجالاً للشك أن إنرون كانت لديها نية الخداع. وربما كانت المستندات المعدومة تحتوي على الدليل. وقيل لي إن أجهزة الكمبيوتر التي أخرجت تلك المستندات يمكن أن تحتوي كذلك على بيانات محيت من عليها باستخدام برامج يسهل الحصول عليها. إلا أن الكثير من المراقبين يعتقدون أنه من المحتمل أن تكون هناك عقوبات جنائية، وأن من المحتمل أن يتحدث بعض المسئولين مقابل حصولهم على الحصانة. وقد يكون من الأيسر مواجهة قدر أقل من الأدلة في المحاكم المدنية. وحالياً يرفع الموظفون والمستثمرون في أنحاء البلاد الدعاوى. وقد يكون النجاح في مقاضاة مديري الشركة ومسئوليها الوسيلة الأكثر فاعلية لإصلاح تلك الممارسات.



وفي الوقت نفسه يوضح تقرير باورز أن العديد من الموظفين كانت بينهم صراعات على المصالح وكانوا يتقاضون أتعاباً مبالغاً فيها مقابل ما يؤدونه من عمل. فقد حصل المدير المالي أندرو فاستوف على ٣٠ مليون دولار من خلال تلك الشركات. وحصل أحد مرؤوسيه، واسمه مايكل كوبر، على ١٠ ملايين دولار. كما باع المديرون أسهم الشركة في الوقت الذي شجعوا فيه الموظفين على شراء المزيد منها. وباع كينيث لاي ما تزيد قيمته على ٢٠٠ مليون دولار، وكان يبيع الأسهم عقب الشكاوى الداخلية بعد أن لفت موظف في الشركة انتباهه إلى الشكاوى الخاصة بالمخالفات المالية. وكانت المشاكل المالية المحتملة معروفة للمديرين قبل أن يعلم العامة بأمرها. وقرر بنك «سيتيجروب»، وهو من كبار مقرضي إنرون، تغطية قروضه من العجز المحتمل في أواخر ٢٠٠٠ وأوائل ٢٠٠١، طبقاً لما ذكرته صحيفة «نيويورك تايمز».

كانت إنرون تعطي المال بسخاء للمشرعين ورجال الصحافة، حيث ساهمت بستة ملايين دولار في الحملات السياسية خلال العقد الماضي، أعطى ثلاثة أرباعها للديمقراطيين. وكان مستقبل إنرون يعتمد اعتماداً كبيراً على تحرير أسواق الطاقة. وكان «لاي» مقرباً من الرئيس بوش، وساهم على سبيل المثال في حملة انتخابات حاكم تكساس بثلاثة أضعاف ما ساهم به في حملة منافسه. والتقى لاي ومديرو إنرون مرات كثيرة بنائب الرئيس ديك تشيني وفريق العمل الخاص بالطاقة التابع له، بينما كانت الحكومة تضع سياسة جديدة للطاقة. وقد رفض تشيني بموافقة من الرئيس بوش تسليم مستندات تتعلق باللقاءات إلى مكتب المحاسبة العام، الذي يقاضيه الآن. وقيل إن تشيني حاول مساعدة إنرون في الخروج من استثمار في محطة لتوليد الكهرباء في الهند. وربما أثر «لاي» كذلك على التعيينات في اللجنة الفيدرالية لتنظيم الطاقة ذات النفوذ.

كما دفعت إنرون للصحفيين والمعلقين السياسيين المشهورين مبالغ كبيرة جداً باعتبارهم «مستشارين»، ومن بين هؤلاء بول كروجمان حين كان يكتب لمجلة «فورشن»، ووليام كريستول من «ويكلي ستاندارد»، وإيروين ستلزر الذي كان يكتب باستمرار في «ويكلي ستاندارد» وكثيراً ما كان يمتدح إنرون، ولورانس كودلوف من شبكة «سي إن بي سي». وكان كريستول يتلقى سنوياً ١٠٠ ألف دولار مقابل عمله كمستشار، بينما يبدو أن الآخرين كانوا يتقاضون مبالغ أقل من ذلك. وقبل أن تنهار إنرون بكثير، أعلن كروجمان، الذي كان في يوم من الأيام يمتدح الشركة ثم أخذ ينتقدها انتقاداً شديداً، من تلقاء نفسه أنه تلقى أموالاً من إنرون. كما كانت إنرون تدعو رجال بنوك استثمارية بشكل فردي إلى شركاتها المربحة، إذ كانت بحاجة إلى هؤلاء المصرفيين للمساعدة في جمع الملايين من المستثمرين الذين لا يعتريهم الشك. فقد كانت إنرون توزع النفوذ بنفس الطريقة التي توزع بها الغاز، ويبدو أنها لم تكن تفرق بين الاثنين.

وكانت أنشطة إنرون تتسم بالتعقيد، غير أنه ليس من الصعب فهم الطريقة التي كان يضلل بها مديرو الشركة المستثمرين، حيث كان ذلك يحدث في بعض الأحيان بالالتفاف حول الأسس الإرشادية المحاسبية، وفي أحيان أخرى بوضع حدود لتلك القواعد. وأهم حقيقة بشأن إنرون هي مدى ضعف أداء الشركة في كثير من الفروع المختلفة الخاصة بأعمالها - إن لم يكن معظمها - حتى وإن كانت وول ستريت تظن أنها مزدهرة. ولم يكن هؤلاء بحال من الأحوال المديرين الأفذاذ الذين كانت الصحافة تتحدث عنهم. فعلى سبيل المثال، قدر آلان سلون من مجلة «نيوزويك» أنها خسرت في أواخر التسعينيات حوالي مليارى دولار كانت تستثمرها في اتصالات واسعة النطاق، ومليارى دولار في المرافق البرازيلية، ومليارى دولار في استثمارات في المياه، ومليار دولار آخر في محطة توليد الكهرباء الهندية. وقد أبدى مديرو إنرون قدراً يدعو للدهشة من العجز في مرات الفشل تلك. ومع ذلك فإنه قبل أن تعلن إنرون انخفاض أرباحها في الخريف الماضي، كان ستة عشر من بين سبعة عشر من محللي الأوراق المالية الذين تتبع عملهم فرانك بارتنوي، أستاذ القانون بجامعة سان دييجو وخبير المشتقات، قد وضعوا توصيات «بيع قوي Strong Buy» و«بيع Buy» على الأسهم. وقبل أسابيع فقط من إعلان إفلاس إنرون في ديسمبر، اعتبرت وكالات تقدير الديون ذات التأثير الكبير - موديز وستاندارد آند بورز وفيتش/إبكا - أن سندات إنرون حازت «درجة استثمار Investment Grade».

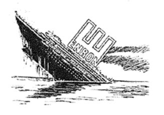
ومن بين خطط إنرون الكثيرة المشكوك فيها، نجد أن أهمها كان يتصل بالشركات التي تتم خارج الميزانية. وتلك الشركات التي ادعوا أنها مستقلة كانت تستغل على نطاق واسع للمساعدة في تمويل الاستثمارات الرأسمالية، وخاصة في صناعة الطاقة. واستغلالها في «شركات الخدمات المالية منتشر إلى حد كبير الآن»، طبقاً لما قاله دوجلاس كارمايكل أستاذ المحاسبة في كلية باروك بنيويورك والنائب السابق لرئيس المراجعة بالمعهد الأمريكي للمحاسبة القانونية العامة.

وسرعان ما صاغت إنرون خدعة شرط الاستقلال. وقد أدار فاستوف وتابعه ميتشل كوبر أهم صراع للمصالح. وكان تعيين فاستوف بموافقة من مجلس الإدارة. ومن ناحية أخرى اختير كوبر إلى حد ما لأن وضعه في الشركة كان متدنياً بحيث لم يكن من الضروري الإعلان عن دوره. وحددت إنرون حينذاك أساليب معقدة لتوفير الثلاثة بالمائة اللازمة من الحصة؛ وكانت في بعض الأحيان لا تراعي هذا الشرط. وأخيراً حصلت على المستثمرين، وبينهم الكثير من أشهر المؤسسات المالية في الولايات المتحدة، لإقراض المال للشركات، وهو ما كان في كثير من الأحيان عن طريق ضمان تسديد الدين من خلال إصدار أسهم إنرون. والواقع إنرون والشركات كانت في العادة شيئاً واحداً في حقيقة الأمر، فالشركات المستقلة بحق لم تكن لتقوم باستثمارات ذات شروط على هذا القدر الكبير من محاباة إنرون.

وطبقاً لما جاء في تقرير باورز، فقد مكنت تلك الشركات إنرون من المبالغة في الأرباح وإخفاء الديون بطريقتين. وكانت أولى هاتين الطريقتين هي بيع إنرون الأصول للشركات، وبذلك تخلق لنفسها أرباحاً دون أن تضطر لتسجيل الالتزام الذي تفرضه الشراكة. بل إن إنرون كثيراً ما فعلت ذلك قبيل

كانت أكبر حالة إفلاس في التاريخ الأمريكي. وفقد الآلاف من العاملين وظائفهم على الفور تقريباً، وسرعان ما سيفقد آلاف غيرهم وظائفهم. ويساوي سهم إنرون الآن بضعة بنسات. وفقد الكثير من العاملين البالغ عددهم عشرين ألفاً مدخرات المعاش التقاعدي الخاصة بهم، بعد أن كانت الشركة قد شجعتهم على شراء أسهم إنرون بسندات المعاش التقاعدي





نهاية ربع السنة، لتضخيم الأرباح التي تنقل إلى وول ستريت. وبعد ذلك كانت غالباً ما تعيد شراء الأصول بعد ذلك، وهو عادة ما تكون فيه فائدة للشراكة، وهو ما يفترض أن القصد منه تلاعب آخر قبل تقرير الربع التالي.

والأمر الأهم هو أن إنرون أنشأت العديد من الشركات التي مكنت الشركة من تغطية الخسائر فيما تسمى استثماراتها التجارية في شركات أخرى. وكان أحد تلك الاستثمارات في «ريذمس نت كونيكشنز» وهو شركة حديثة جداً لتقديم خدمات الإنترنت. وقد استثمرت إنرون في الشركة ١٠ ملايين دولار في عام ١٩٩٩، وارتفع سعر سهمها ارتفاعاً كبيراً، مما جعل حصة إنرون تساوي ٣٠٠ مليون دولار. واستطاعت إنرون تسجيل جزء كبير من هذا الارتفاع في سعر الأسهم على أنه أرباح. ولكنها دخلت بعد ذلك في شراكة أسمتها LJM1، مما اقتضى من LJM1 تعويض أي خسارة تتعرض لها إنرون إذا هبط سعر سهم ريذمز. ومن غير المحتمل أن أية شراكة كانت ستوافق على ذلك التعاقد بدون تعويض مجزي. إلا أن إنرون مكنت LJM1 من الموافقة عن طريق ضمانها ضد الخسائر من خلال وعدها بضخ الأموال من أسهمها. وفي النهاية أفلست ريذمز، ولكن إنرون تحاشت الإعلان عن خسائرها هي في الشركة التي تزيد على ١٠٠ مليون دولار، حسب علمي.

وأدى نجاح تلك الشراكة إلى دخول إنرون عام ٢٠٠٠ في عملية تغطية مشابهة ولكنها أكبر بكثير شملت شركة «نيو باور» التي كانت تبيع الكهرباء في أسواق الجملة والقطاعي، وسرعان ما فشلت كذلك. وغطت إنرون العديد من الاستثمارات الأخرى بهذه الطريقة، مما خلق سلسلة من الشركات المعروفة باسم «رابتور»، إلا أن ريذمز ونيو باور عوضتا معظم الخسائر المعلنة وتعديل أرباحها في الخريف الماضي. وما حدث في المقام الأول هو أنه بينما هبط كذلك سهم إنرون وأسهم المستثمرين التجاريين مثل ريذمز، لم تستطع تلك الشركات الوفاء بالتزاماتها أو الحفاظ على ما يلزم من رأس المال المملوك. والواقع أن الهيكل الاستثماري كان قد ساء في وقت سابق من ذلك العام، وأعد المديرون إصلاحاً مؤقتاً كان يمكن أن يفلح لو كان سهم إنرون قد توقف عن الهبوط. كما بدا أن شروط لجنة الأوراق المالية والصرف للحفاظ على وضع الشركات الأخرى ذات الصلة لم تراع. وأخيراً اتفق أندرسن وإدارة إنرون على ضرورة الإعلان عن الخسائر وتخفيض حقوق المساهمين.

وليس مبلغ المليار دولار الذي اكتشف تقرير باورز ضياعه هو بالضرورة كل ما كذبت إنرون بشأنه. فهو وحده يساوي ثلث أرباح إنرون بعد تسديد الضرائب فيما بين ١٩٩٧ و٢٠٠١. إلا أن فرانك بارتنوي، الذي كتب كتاباً ممتازاً عن تجربته في عمليات المشتقات في شركة «مورجان ستانلي»، وكانت تسمى F.I.A.S.C.O. يعتقد أن أرباح إنرون تضخمت تضخماً كبيراً في العمليات التي لم تحقق فيها لجنة باورز. وهو يقول، على سبيل المثال، إن المتعاملين بالغوا في قيمة ما لديهم من عقود مشتقات وعقود طاقة. فالطريقة التي كانوا يحسبون بها تلك القيم، وهي غالباً ما كانت تتطلب تقديرات أسعار الكثير من السنوات في المستقبل، لم يكن يعلن عنها.

وفي مثال آخر نال حظه من الدعاية للحصول على أرباح لم تكتسب، باعت إنرون مشروعها المشترك مع «بلوكبستر»، وهو سلسلة محال تجزئة لأشرطة الفيديو، لشراكة اسمها Braveheart أنشئت لبيع أشرطة الفيديو حسب طلب المستهلكين. واقترضت Braveheart بدورها ١١٥ مليون دولار من أحد البنوك، على ما يبدو بضمان أسهم إنرون. وأدخلت إنرون ١١٠ مليون دولار أو نحو ذلك من الأرباح المتوقعة في دفاترها، ولكن الأرباح لم تتحقق قط. وذكرت صحيفة «فاينانشيال تايمز» اللندنية أن الشركة كثيراً ما كانت تحصل على أرباح من عقود خدمات طويلة المدى قبل معرفة المصروفات المستقبلية بوقت طويل.



[٢]

وهكذا فإن ما توفر حتى الآن من معلومات يشير بقوة إلى أن جيفري سكيلنج وأندرو فاستوف هما من وضعا معظم تلك الخطط الجريئة. والواقع أن سكيلنج ربما نأى بنفسه في النهاية من الناحية الرسمية وحمَّل فاستوف، الذي رُقي مديراً مالياً للشركة، المسئولية كاملة. وشهد سكيلنج أمام الكونجرس أنه لم يكن لديه علم بالمخالفات المحاسبية في تلك الشركات، وإن زعم مديرون آخرون أنه كان على علم بها. وفي كثير من الشركات، نجد أن المدير الذي يحظى بتأييد رؤسائه يمكن أن يتملق مرءوسيه ويقمعهم بسهولة. فالشركات على أية حال ليست ديمقراطيات.

ولكن كثيرين يتساءلون عن سبب اعتقاد شركة بها هذا العدد الكبير من المديرين الذين على هذا القدر من العلم والمعرفة أنها سوف تنجو بممارساتها شديدة الخداع. قد تكمن الإجابة في سيكولوجية المقامرين التقليدية. فكلما لعبت أكثر فإنك قد تفوز. وربما كان سكيلنج وفاستوف يعتقدان، حتى ذلك الوقت على الأقل، أنه في نهاية الأمر سوف تزدهر استثمارات «الاقتصاد الجديد» وتقيلهما من عثرتهما. وربما قالا لنفسيهما إنهما حينذاك سيجعلان الكل في أحسن حال.

والتفسير الثاني أكثر إزعاجاً. إذ يبدو أن هناك كثيرين آخرين كانوا يفعلون الشيء نفسه. فلماذا كان محاسبو إنرون ومحاموها يقرون تلك الأنشطة؟ إن وول ستريت تموج الآن بمخاوف من أن شركات أخرى بالغت في أرباحها بسبب ممارسات محاسبية على نفس القدر من التضليل وضعتها مكاتب محاسبة ومحاماة كبرى. وتجري لجنة الأوراق المالية والصرف تحقيقاً حول شركة «جلوبال كروسينج». وتنخفض أسعار أسهم شركات مثل «ورلد دوت كوم»، و«ريلاينت سيرفيسيز»، وشركة الأدوية الأيرلندية «إيلان»، وحتى «جنرال إلكتريك» تخوفاً من أنها قد تضطر إلى تعديل أرباحها مع تزايد فحص دفاتر الشركات. وتشير «بزنس ويك» كبير المحاسبين السابق في لجنة الأوراق المالية والصرف لين تيرنر يقدر أن المستثمرين يرون أن أسعار أسهم الشركات تهبط بمقدار ٢٠٠ مليار دولار، حيث عدلت الأرباح بسبب ما قيل فيما بعد إنها أخطاء محاسبية. وهو يرى أن عدد الشركات التي اضطرت لتعديل أرباحها تضاعف منذ عام ١٩٩٧، ويعتقد الخبراء الاقتصاديون في مركز تنبؤات ليفي في تشاباكا بنيويورك أن الأرباح في أنحاء العالم قد تكون مبالغاً فيها بنسبة ٢٠ بالمائة في المتوسط.

وفي الوقت نفسه أقرت واشنطن نفسها المزيد والمزيد من أساليب المحاسبة التي مكنت الشركات من تقدير الأرباح المستقبلية بسخاء، وخاصة حين تأتي الأرباح من التعامل في المشتقات. ويقسو تقرير باورز بصورة خاصة على أرثر أندرسن. فهو يشير إلى أن أندرسن «لم يعلن عن جوهر المعاملات بوضوح كاف يمكِّن قارئ البيانات المالية من فهم ما يجري». كما يرى تقرير باورز أن أندرسن له دور مهم كمستشار في إنشاء شراكة رابتور، حيث حصل على حوالي ٦ ملايين دولار كأتعاب عن تلك الشركات وما يتصل بها فقط.

وبالمثل يرى تقرير باورز أن محامي شركة إنرون، «فنسون أند إلكنز»، كانوا كثيرا ما تطلب منهم المشورة والموافقة القانونية الخاصة بالعمليات المثيرة للجدل. وحادثة واحدة تبين ذلك. ففي أغسطس تلقى كينيث لاي خطاباً من مجهول يحذره من أن محاسبة الشركة مضللة إلى حد كبير. وبعد أسبوع تقدمت كاتبة الخطاب شيرون واتكنز، وهي نائب مدير في إنرون. وأراد لاي التحقيق في مزاعمها، ووافقت الإدارة ومجلس الإدارة على أن يتولى مكتب محاميها فنسون أند إلكنز ذلك الأمر. ومن غير المستغرب أن فنسون وجد أن اتهامات واتكنز غير صحيحة. إلا أنه اتضح فيما بعد أنها جميعها صحيحة.



[٣]

هل نتوقع إصلاحاً جاداً للممارسات التي أتت على إنرون؟ يقول دوجلاس كارمايكل من كلية باروك: «ما لم يحدث ذلك الآن، فلن يحدث في أي وقت آخر». والحقيقة الأكثر وضوحًا التي وجدتها في تقرير باورز هي أن شركتي Chewco وLJM1 انهارتا فقط لأنهما لم تراعيا حداً أدنى معيناً من المعايير الرأسمالية. فلو أن هاتين الشركتين راعتا شرط ٣ بالمائة من رأس المال لكان من الممكن ألا تكشف إنرون عن الكثير من الخسائر، ولاستمرت الخدعة. وقد أدى شرط الثلاثة بالمائة لكيانات الأغراض الخاصة، الذي لم يأت ذكره في القانون، إلى ظهور الأرباح المبالغ فيها والخسائر الخفية في أنحاء أمريكا.

ولا يبدو أن القيادة الفعالة للإصلاح سوف تأتي من البيت الأبيض. فرد الفعل الأول لمستشار الرئيس بوش الاقتصادي الرئيسي خريج هارفارد لورانس لاندسي هو أنه يفخر بأن الحكومة لم تفعل شيئاً لإنقاذ إنرون. فقد قال إن فشلها دليل على «عبقرية الرأسمالية». أما وزير المالية بول أونيل فقد أدلى بملاحظة على نفس القدر من الحمق. وكان حرياً بمدافع أصيل عن الأسواق الحرة أن يغضب من المعلومات المضللة التي أصدرتها إنرون وإساءة استغلالها لثقة المستثمرين الأساسية فيها. ولا بد أن يكون خبراء الاقتصاد الحر من بين أكثر المدافعين المتحمسين عن المعلومات الدقيقة والعمليات التجارية «الشفافة».

وفي يناير الماضي أشار الرئيس بوش إلى



كانت إنرون تعطى المال بسخاء للمشرعين ورجال الصحافة، حيث ساهمت بستة ملايين دولار في الحملات السياسية خلال العقد الماضي، ثلاثة أرباعها للديمقراطيين. وكان مستقبل إنرون يعتمد اعتماداً كبيراً على تحرير أسواق الطاقة. وكان «لاي» مقرباً من الرئيس بوش، وساهم على سبيل المثال في حملة انتخابات حاكم تكساس بثلاثة أضعاف ما ساهم به في حملة منافسه



أن أنشطة كتلك التي تمارسها إنرون لا يمكن التغاضى عنها. ولكن الإصلاحات التى اقترحتها الحكومة حتى الآن ضعيفة، ومنها مقترحات لجنة الأوراق المالية والصرف الخاصة بالرقابة المحاسبية، والقواعد الجديدة الخاصة بسندات المعاش التقاعدى، والحد الأدنى من التزامات الاطلاع الخاصة بالمديرين. إلا أن إجراء هذا الإصلاح على الفور لا يقتصر على حكومة بوش. فبعد الانهيار المذهل لصندوق التغطية «لونج تيرم كابيتال مانادجمنت» عام ١٩٩٨، لم تدع وزارة الخزانة فى حكومة الرئيس كلينتون إلى قواعد جديد كان يمكن أن تحسن الاطلاع بشأن التعامل فى نفس النوع من الأوراق المالية التى كانت إنرون تتعامل فيها. ولم يطالب آلان جرينسبان بصفته رئيس بنك الاحتياط الفيدرالى بشروط اطلاع أقوى. وخلال التسعينيات قلل كل من الجمهوريين والديمقراطيين شروط إعلان الشركات لمعلومات دقيقة. فقد أقروا تشريعاً فى عام ١٩٩٥ لحماية المديرين من مقاضاة المستثمرين لهم. كما منعوا المحاسبين من تبنى شروط اطلاع أقوى تتعلق بحق الاكتتاب بشراء السهم الخاص بالعاملين وكيفية تعويض ما يسمى النية الحسنة فى الاندماجات. وفى عام ٢٠٠٠ وافقوا على تشريع يحرر تماماً التعامل فى مشتقات الطاقة وسواها غير المدرجة فى البورصة.

وبالنسبة للخبراء الاقتصاديين، فقد دعا كثيرون منهم من حيث المبدأ إلى تقديم أسواق رأس المال فى أنحاء العالم معلومات تامة ودقيقة. وأسرع بعضهم بإلقاء اللوم فى الأزمة المالية الآسيوية فى عام ١٩٩٧ على سوء التقارير المالية، وكذلك فعل كثيرون فى وول ستريت وفى مؤسسات الإقراض الدولية وفى واشنطن. وفى ضوء الأحداث الأخيرة، تبدو المؤسسات المالية الأمريكية منافقة بعض الشىء.



وهناك أربعة مصادر لعدم مسئولية الشركات تتطلب الاهتمام. فلا بد من تحسين معايير المحاسبة وممارستها. ويوافق دوجلاس كارمايكل على أن أحد أهم الإصلاحات هو تعزيز التشريعات المتعلقة بالكيانات ذات الغرض الخاص مثل شركات إنرون. كما يقول مثل كثيرين غيره إن وجود جهاز قانونى لمراقبة المعايير المحاسبية وتنفيذها ضرورى. وفى أوائل شهر فبراير بدا الكونجرس مهتمّاً بإصلاح الممارسات المحاسبية أكثر من اهتمامه باتخاذ أية إجراءات أخرى.

كما أن إصلاحات معاشات التقاعد ملحة كذلك. فلا بد من تشجيع العاملين على تنويع ممتلكاتهم. وقد رأى الكثير من العاملين فى إنرون سندات تقاعدهم وهى تدمر، مما يجعلنا نظن أن خسائرهم تثير تساؤلات بشأن المقترحات التى تطالب مؤخراً بخصخصة التامينات الاجتماعية، وهو ما يقتضى إدارة الناس لاستثماراتهم كذلك. ونتوقع أنه سيكون هناك بعض الإصلاح فى ممارسات استثمار المعاش التقاعدى، إلا أنه قد يكون متواضعاً.

وما ينبغى أن يكون واضحاً الآن هو ضرورة تنظيم المشتقات تنظيماً تامّاً. ويقول الخبير الاقتصادى راندال دود، الذى يدير مركز دراسات المشتقات فى واشنطن: إنها لا بد أن تخضع لنفس الشروط التى تخضع لها الأوراق المالية الأخرى. ولا بد من إجبار من يتعاملون فيها على كشف مصادر رأس المال التى تقوم عليه، وعلى الإبلاغ عن التعاملات بدقة، وعلى التسجيل كمشاركين فى السوق. وهو يقول إن مشروعات القوانين المنظمة الجديدة تجرى صياغتها فى الكونجرس، إلا أنه يظن أن فرص الموافقة عليها لا تزيد على ٥٠ بالمائة. وأنا أرى أن تقديره مرتفع.

وأصعب أنشطة الشركات رصداً هى تلك التى تنطوى على صراعات على المصالح. وقد يشترط الكونجرس كذلك على المحاسبين فصل بعض الممارسات الاستشارية عن ممارستهم الخاصة بالمراجعة. إلا أن هذه ليست الصراعات الوحيدة على المصالح التى كشفتها فضيحة إنرون. وبصورة خاصة، فإنه غالباً ما يعمل محللو وول ستريت، الذين ينصحون المستثمرين بخصوص الشركات، فى بيوت استثمار تكسب كذلك مئات الملايين بجمعها المال من تلك الشركات نفسها. والكل يستفيد من جعل أسعار السهم مرتفعة والبيانات المالية تبدو فى حالة جيدة. وفى الوقت نفسه تقدم الصحافة الاقتصادية، وخاصة برامج أخبار المال واسعة الانتشار القليل من الشك، أو عدم الشك، فيما يتعلق بتصريحات هؤلاء المحللين، الذين يتضح أن الكثير منهم متأثرون بمصالح شركاتهم. وقد عرض أحد المحللين الحالة الحقيقية، مما أدى إلى فصله فى العام الماضى لأنه حث عملاءه على بيع أسهم إنرون.

والسؤال الأساسى الذى يبرز من فضيحة إنرون هو إذا ما كان المطلوب من البيانات المحاسبية أن تعكس الظرف الاقتصادى الحقيقى للشركات أم لا. وفى كثير من الشركات، ومن بينها إنرون، كان هناك فى أفضل الأحوال تظاهر بذلك، وكثيراً ما لم يكن هناك وجود حتى لهذا التظاهر. وربما كان أفضل إصلاح شامل، كما يرى بارتنوى، هو إقرار تشريع لجعل الشركات وموظفيها ومديريها ملتزمين قانوناً، لكى لا يخالفوا الشرط العام الذى يقضى بأن يعكس الإعلان الواقع الاقتصادى للشركة.

ويبدو من المشكوك فيه أن يكون هناك قدر كاف من الضغط العام لإحداث مثل هذا التغيير. إذ يبدو أن أكثر القوى نفوذاً فى واشنطن وول ستريت تميل إلى تجاهل عيوب النظام المالى التى كشفها انهيار إنرون. ولم يتضح تماماً بعد ما الذى يقنع الكونجرس بتنفيذ المعايير الأخلاقية التى خانتها إنرون. ■

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
March 14, 2002.

ترجمة: أحمد محمود

كتاب الزاوية

عن الحرية

حرية الفكر

لو أن الناس جميعًا اجتمعوا على رأى واحد، وخالفهم فى ذلك فرد بعينه فى تأييد رأى مخالف، فليس هناك ما يبرر إسكات الناس لهذا الفرد، كما أنه ليس هناك ما يبرر قيام الفرد بإسكاتهم إذا أتيح له ذلك.

ولو كان الرأى ملكية خاصة ليس له قيمة إلا بالنسبة لصاحبه فقط، وإذا كان الضرر المترتب على حرمان شخص من إبداء رأيه ضررًا فرديًا، لكان الأمر مختلفًا بعض الشيء عما إذا كان هذا الضرر سيلحق بقدر ضئيل من الأشخاص أو بفريق كبير منهم.

ولكن الضرر الخاص الذى يترتب على كبت حرية التعبير عن الرأى هو سلب الجنس البشرى بأكمله من الأسلاف حتى الجيل الحاضر من تلك الحرية، سواء فى ذلك الذين ينشقون عن الرأى العام، أو الذين يلتزمون به.

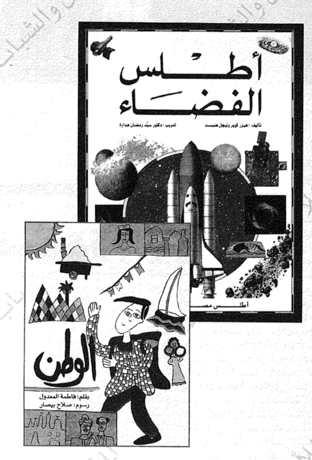
فقد يكون الرأى المراد كبته بالقوة رأيًا صحيحًا. وبالطبع سينكر صحته هؤلاء الناس الذين يرغبون فى إخماده، غير أنهم معرضون للخطأ أيضًا. وليس لهم السلطة التى تتيح لهم تحديد هذه المسألة بالنسبة للناس أجمعين، ومنع كل شخص آخر من إبداء حكمه فيها، فإذا رفضوا الاستماع لرأى ما لتأكدهم من أنه رأى زائف، فذلك بافتراض أن يقينهم هو يقين مطلق، وأن كل كبت لحرية المناقشة معناه افتراض عدم وقوعهم فى الخطأ.

وتكفينا هذه الحجة العامة دليلاً قاطعًا على خطأ القائلين بتقييد حرية الفكر والمناقشة.



بالجوائز العربية والعالمية









★ أو اتصل برقم ٤٠٢٣٣٩٩ ليصلك كتابك المختار إلى منزلك في خلال ٧٢ ساعة.. (القاهرة الكبرى فقط) ★



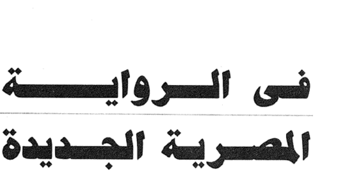








رواية
كُحل حَجَر
خالد اسماعيل
تجليات أدبية
ميريت



فى الرواية المصرية الجديدة

فاروق عبدالقادر

لفتت هذه الظاهرة اهتمام متابعى المشهد الأدبى فى مصر، فقد شهد العام الأخير (منذ منتصف ٢٠٠١ على وجه التقريب) صدور عدد كبير من الأعمال الروائية. أما أن يواصل الكتَّاب الذين رسخت أقدامهم وأسماؤهم - أيًا ما كان الرأى فى أعمالهم ومشروعاتهم - الإضافة لما قدموه، فليس هذا ما أثار الاهتمام (فى ذات الفترة صدرت أعمال جديدة لكلٍّ من علاء الديب وجميل عطية وفؤاد قنديل وسعيد بكر ومصطفى نصر وهالة البدرى وفتحى إمبابى. وسواهم ممن يليهم)، لكن صدور أعمال كثيرة هى الأولى أو الثانية (وفى أحوال قليلة: الثالثة) لأصحابها، الذين تقع أعمارهم - على وجه التقريب، لصعوبة معرفة تواريخ الميلاد على وجه الدقة - بين الثلاثين والأربعين، فاقل القليل من لم يبلغ الثلاثين أو جاوز الأربعين، فهذا ما أثار الاهتمام، وطرح - على الفور - أسئلة مشتبكة: هل هى «موجة جديدة» فى الرواية المصرية؟ هل تمثل هذه الأعمال - سواء من حيث موضوعاتها أو أدواتها الفنية - تجاوزًا أو اختلافًا؟ بم تتميز هذه الأعمال على وجه العموم؟

واضح أننا لن نستطيع مقاربة الإجابة قبل أن نعرض للأعمال ذاتها(١).

هنا أود أن أقول إننى قد استبعدتُ عددًا من الأعمال رأيت أنها دون المناقشة الجادة. هذا من ناحية.

من الناحية الأخرى فإننى بذلت ما وسعنى من الجهد فى السعى لهذه الأعمال، وإذا كان قد فاتنى بعضها فإننى أعتذر لأصحابها، ليس هذا أمرًا مقصودًا لكن قدر الجهد. من ناحية أخيرة فإننى لم أقف عند بعض هذه الأعمال بسبب ما لقيت من حفاوة تختلف أسبابها باختلاف أصحابها، وعلاقاتهم، لكننى حاولت تقديم قراءة أقرب ما تكون إلى الموضوعية، قدر ما تطيق القدرة الإنسانية..« وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرى..».

ولنبدأ - على الفور - بواحدة من هذه الروايات التى حظيت باهتمام واضح هى «عمارة يعقوبيان» لعلاء الأسوانى (وهى روايته الأولى بعد مجموعتين من القصص القصيرة).

والقاهريون الأقحاح - لو صح هذا الوصف - يعرفون هذه العمارة التى تتوسط القاهرة، هى مكان الأحداث، منها يخرج الأبطال وإليها يعودون، والروائى يقدم تعريفًا بالمكان وتحولاته منذ فكر المليونير هاجوب يعقوبيان، عميد الجالية الأرمنية فى إنشائها فى ١٩٣٤، «وتعاقد لبنائها مع مكتب هندسى إيطالى شهير، فجاءت تحفة معمارية جاوزت كل توقع..»، وسكنها نفر من صفوة المجتمع فى ذلك الحين: وزراء وباشوات من كبار الإقطاعيين ورجال صناعة أجانب واثنان من مليونيرات اليهود، وفوق السطح الفسيح «بُنيت خمسون غرفة صغيرة، لا تتجاوز مساحة الواحدة مترين، وتُغلق بأقفال تعطى مفاتيحها لأصحاب الشقق يستخدمونها فى أغراض مختلفة..

وفى عام ١٩٥٢ قامت الثورة فتغير كل شىء، بدأت هجرة اليهود والأجانب خارج مصر، وكانت كل شقة تخلو يستولى عليها أحد ضباط القوات المسلحة، أصحاب النفوذ فى ذلك العهد، حتى جاءت الستينيات فصارت نصف شقق العمارة يسكنها ضباط (..) ثم جاء الانفتاح فى السبعينيات، وبدأ الأثرياء فى الخروج من وسط البلد إلى «المهندسين» و«مدينة نصر»، باع بعضهم شقته فى عمارة يعقوبيان، وخصصها البعض الآخر كمكاتب أو عيادات لأبنائهم حديثى التخرج، أو قاموا بتاجيرها مفروشة للسياح العرب.. (..) وكانت أهم نتائج هذه التحولات انقطاع الصلة بين عالم الغرف الصغيرة فوق السطوح من ناحية، وأصحاب الشقق وساكنيها من الناحية الأخرى.

هكذا إذن، تعكس «عمارة يعقوبيان» وجهًا من وجوه «النُخَب» المصرية - لو صح الوصف - من ثلاثينيات القرن الماضى إلى نهاياته على وجه التقريب، وهى - زمن الكتابة - تقوم على وجود عالمين مختلفين كل الاختلاف: عالم أصحاب الشقق (والمحلات) من جانب، وسكان غرف السطح من «الهامشيين» أو «المهمشين» من الجانب الآخر. من الأول سوف نرى أبطالاً رئيسيين:

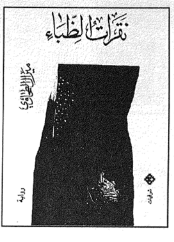
أولهم «زكى البسيونى»: سليل النخبة القديمة التى قوضت ١٩٥٢ عالمها، ومن ثم أحبطت توقعاته المأمولة فى السلطة والقوة، وهو الآن وحيد فى الخامسة والستين، فى حياته متعتان لا يزال قادرًا على ممارستهما، وهو يبدو خبيرًا متفرغًا بهما، ذواقة لهما: الشراب والجنس (لكن هذا لا يمنع أن تخدِّره عاهر وتسرقه!)، وفى حياته كذلك شوكة حادة لا يقوى على انتزاعها هى صراعه مع أخته الأرملة الشريرة (لم تفلح محاولة الروائى فى إكسابها أية ملامح إنسانية، ولم يكن ينقصها سوى أن «تركب المقشة» مثل أية ساحرة شريرة!)، ثم «حاتم رشيد»: الصحفى الكفء الذى يرأس تحرير صحيفة تصدر بالفرنسية فى القاهرة، ابن أستاذ القانون العظيم الذى كان عميدًا لكلية الحقوق من زوجة فرنسية، نشا فى رعاية الخدم فاغتصبه أحدهم وهو فى التاسعة، وبقيت هذه حقيقته الحقة:

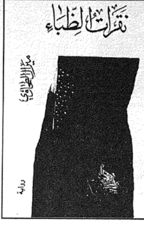
إنه سلبى فيما يجب على الرجال أن يكونوا إيجابيين فيه، وكثيرًا ما القى به شذوذه إلى إذلالات ومهانات شتى، لكنه استقر زمنًا مع عشيق له التقطه من بين جنود «الأمن المركزى» (يقول لنا الروائى إن هذه ممارسة مألوفة فى عالمهم)، وعلى يديه جاءت نهايته الدامية. أغلق الكاتب الدائرة وغسل يده: ما يبدأ بالشذوذ ينتهى للجريمة! ثالث الثلاثة هو «الحاج محمد عزام»: المليونير الكبير، صاحب محلات الملابس أسفل العمارة وشقة فى الطابق السابع منها، فيها أقامت زوجته السرية قبل أن تنقض الاتفاق وتصمم على الاحتفاظ بجنينها. أجهضها الحاج ونبذها بالقسوة اللائقة. من قاع القاع جاء: ماسحًا للأحذية فى مكان منزوٍ من ذات الشارع، اختفى عشرين عامًا ظهر بعدها ومعه الثروة. من أين؟ لا تَسَل، لكن تأكد أنه لن يكون طريقًا مشروعًا، بل أن يكون شريفًا. ذلك حال أثرياء هذا الزمان. ومادامت الثروة قد جاءته، فلم لا يسعى إلى السلطة؟ صحيح: لماذا لا يدخل مجلس الشعب؟ لو تحقق له هذا لعقد الصفقات بالملايين. سيكون الحاج سبيلنا لرؤية فساد رموز السلطة، من «كمال الخولى» المسؤول الخطير فى الحكومة و«الحزب القومى» إلى «الرجل الكبير» المحتجب فلا يراه أحد، لكنه يتقاضى نسبة الربع من أى توكيل يتجاوز عائده مئات الملايين!



من العالم الثانى، عالم السطوح، سوف نرى أهمهم: «طه الشاذلى» وحبيبة صباه «بثينة». طه كان ابن «عم الشاذلى» بواب العمارة، صبى ذكيٍ مجتهد متطلع، استطاع أن يحمى نفسه فشبّ وهو يحمل الحد الأدنى من التشوهات العقلية والنفسية التى يخلقها وضعه المتدنى إزاء أصحاب الشقق وأبنائهم، نجح بمجموع كبير فى الثانوية العامة، لكن وضع أبيه حال بينه وتحقيق حلمه فى الالتحاق بكلية الشرطة (الطريق المختصر للقوة والسلطة)، وفى كلية «الاقتصاد» دفع به وضعه الطبقى نحو فقراء الجامعة، ومنهم - وهى خطوة منطقية ومعقولة - إلى الجماعات الدينية التى ارتبط بها حتى لقى مصرعه فى عملية اغتيال ضابط كبير من «أمن الدولة». «بثينة»: جارته فى السطوح وحبيبة الصبا، ما أن حصلت على «دبلوم التجارة» حتى حدث ما يحدث لكل الفقراء: مات الأب فجأة دون تعويض أو معاش، وكان عليها أن تدخل للغابة تلتمس العيش لها ولإخوتها، وسرعان ما تعلمت كيف تستثير الرجال، وكيف تترك لصاحب المحل الذى تعمل بائعة به أن يعبث بجسدها على أن يفى بالتزامين: أن يُبقى على عذريتها، وأن يدفع لها عشرة جنيهات فى كل













مرة، وكان طبيعيًا أن تفتر علاقتها بطه، ثم تذوى حتى لا يعود لها أثر.



هل يدهشك أن تنتهى الأحداث فى «عمارة يعقوبيان» بحفل زواج بثينة من زكى البسيونى فى «بار حكيم»؟ هل هى مكافأة يمنحها الروائى (المحب لفعل الخير!) لاثنين من أبطاله لقيا كثيرًا من العناء، أم أنها محاولة مرتبكة لوضع نهاية تلملم ما تبقى من خيوط؟ أيًا ما كان الجواب فوراءه ثقل الواقع الموضوعى الذى خنق علاقة الحب بين طه وبثينة. ولن يتسع المقام لمتابعة الشخوص الثانوية والعلاقات والأحداث الصغيرة التى تشكل النسيج الحى للعمل. أكتفى هنا، بملاحظتين حول أمرين يمكن أن يثيرا بعض الخلاف والجدل. الأولى هى أن الشخصية التى تمارس سلوكًا جنسيًا شاذًا ـ بالفعل أو بالإمكان ـ موجودة فى الرواية المصرية منذ «حليم الأكبر» لعادل كامل و«زقاق المدق» لنجيب محفوظ، إضافة لبعض الشخوص الأخرى فى «الثلاثية» و«المرايا» وسواها. أما التناول التفصيلى لحياة هذا الممارس ومشاعره وتفاصيل ممارساته، فموجود فى أعمال من الأدب العالمى المعاصر، عند جان جينيه وسارتر وتنيسى وليامز وسواهم، ولست أجد فى هذا التناول تزيدًا مادام يضيف إلى شخصية صاحبه، وتكوينه النفسى ـ الجنسى، والعوامل التى أدت به لأن يصبح على ما هو عليه. الملاحظة الثانية حول التناول التفصيلى والمسهب كذلك، لمختلف المراحل التى قطعها طه فى رحلته مع الجماعات الدينية، والروائى يتابعها من مرحلة لأخرى: من الاستهواء إلى التنظيم إلى هجرة «المجتمع الجاهلى» لمجتمعهم الخاص، حيث التدريبات القاسية، وحيث العمل على حل مشاكل الشباب الجنسية بتزويجهم من «الأخوات»، إلى الحشد العقلى والنفسى والعاطفى المتقن الذى يؤدى بالمخلصين منهم إلى تمنى الشهادة والموت فى سبيل الله. ولست أرى فى ذلك تزيدًا كذلك، فتلك النماذج موجودة فى مجتمعنا، وهى ليست قليلة ولا خاملة، ولا بأس بأن نراها فى تحولها التدريجى من الهم الخاص إلى العام، فهذا أدعى إلى تبين مواطن الخلل فى الواقع السياسى ـ الاجتماعى الذى يحرم طالبًا ذكيًا مجتهدًا من الالتحاق بالكلية التى يريدها، ثم يسجنه ويعذبه وينتهك رجولته بأكثر الأساليب غلظة ووحشية، فيخرج من سجنه قنبلة موقوتة، ساعية للانفجار والتفجير جميعًا.

من وسط القاهرة لأعماق الصعيد مع خالد إسماعيل وروايته «كحل حجر» والقرية التى يختارها الراوى يحددها تحديدًا: «كوم غريب، مركز طما، محافظة سوهاج». وهى ذات القرية التى تدور فيها، وحولها، روايته الأولى «عقد الحزون، الصادرة فى ١٩٩٩، ولما كانت صورة الحياة فى هذه القرية هى أثمن ما يقدمه خالد، ولما كانت هذه الصورة موجودة ـ على نحو أكثر كثافة ـ فى روايته الأولى، فلنا أن نستخلصها من العملين معًا. والحقيقة أن بينهما كثيرًا من الوشائج يمكننا أن نجملها فى أن الرواية الأولى تكاد أن تنحصر فى القرية وما حولها، حيث حصل الراوى على شهادته الجامعية ويلوب بحثًا عن عمل، وتنتهى بمجيئه إلى القاهرة ليعمل ـ هو الحاصل على الشهادة العليا ـ «نفرًا من الأنفار». الثانية تراوح بين حياة الراوى فى القاهرة، وما يحدث فى القرية حين يزورها أو يستعيد ما حدث له فيها.

وعلى نحوٍ ما يمكن القول إن يحيى حقى قدم ملامح من الحياة الصعيدية فى عشرينيات القرن الماضى (عمل فى مدينة «ملوى» عامين من ١٩٢٧ إلى ١٩٢٩، فى وظيفة «معاون إدارة» التى كانت تقتضيه التنقل بين القرى لأداء عديد من المهام، وتجد هذه الفترة تعبيرين عنها: فى كتاباته النثرية: «خليها على الله» بوجه خاص، وفى قصصه «الصعيديات» فى مجموعتيه «دماء وطنى» و«أم العواجز» بشكل خاص كذلك)، ثم جاء يحيى الطاهر عبد الله ليقدم ملامح أخرى عن صعيد الخمسينيات والستينيات (بدأ كتابة القصة فى ١٩٦١، وقدم من الصعيد إلى القاهرة فى ١٩٦٤، وصدرت مجموعته الأولى فى ١٩٧٠)، وها هو خالد إسماعيل يقدم ملامح من صعيد التسعينيات (خالد من مواليد ١٩٦٨). فما الجديد والمختلف؟

رأى يحيى حقى الصعيد بعينىْ الموظف، ابن العاصمة، لكنه محب متفهم متعاطف، يرى كل شىء فلا يقنع إلا إن وصل لأعماقه، ونظرته الرحبة تضم الطبيعة والإنسان والحيوان فى كلٍ واحد، ولعل أوضح ما فى هذه «الصعيديات» اهتمام الكاتب بوصف قوة الدافع الجنسى وتوثبه للانطلاق وتحقيق الارتواء، رغم ما يتبع هذا الارتواء من دمار: جسدى ونفسى واجتماعى كذلك هذا من ناحية. من الناحية الأخرى ثمة خيوط غير مرئية تحرك مصائر البشر، تتحكم فى حركتها تقاليد راسخة كالقدر (إن هذا ما يحدث فى أهم تلك الصعيديات: «أبو فودة» و«الراعى والغجرية» و«البوسطجى» و«حكاية فى سجن»).

يحيى الطاهر كان مختلفًا. هو ابن هذه الأرض وليس وافدًا إليها من أى مكان آخر. فى أعماله الأولى قدم صورة لحياة الناس فى قرى الصعيد ومدنه الصغيرة: أسرى يضطربون فى واقع قاس (ما أشد حرارة الشمس ووهجها فى قصصه!)، تحكمه علاقات حديدية صارمة، محددة سلفًا، تنتظم طقوس الحياة اليومية حتى أدق تفاصيلها، لون من الثقافة ـ بالمعنى الأنثروبولوجى للكلمة ـ فى مجتمع محاصر، مغلق مثل انغلاق «الطوق والأسورة»، السيادة فيه معقودة للرجل، ولكبار السن منزلة خاصة، والنساء حارسات لهذه السيادة، لا يهم حضور الرجل، الفيزيقى، أو غيابه (بالرحيل أو بالموت) لأنه حاضر دائمًا، فهو «الأب الرمزى» كما يعرفه المشتغلون بالتحليل النفسى، لذا حين يُقتل الأب يصبح الثأر ضرورة لا محيد عنها كى تتواصل الحياة. فى هذا المجتمع المغلق، صارم الحدود والملامح، تصبح الأسرة هى البنية الأساسية التى تنظم العلاقات وتحدد الأدوار، هنا فإن علاقة الأخت بالأخ أوضح العلاقات: الأخت تشتهى أخاها تشتهى الأنثى للذكر، والأم موجودة، ساهرة ـ بروح الرجل ـ على حراسة التقاليد التى وضعوها حاضرين وغائبين. إنه عالم يصطخب بشهوات محاصرة، متوثبة للتحقق، لكن الواقع يعوق تحققها، ويضع لها العقاب الصارم: الدمار أو إيقاع الأذى بالجسد موضع الرغبة. ثم هو عالم تلعب فيه الأسطورة دورًا مهمًا كجزء من الموروث فى المجتمع المغلق، من جانب، ومعادل إنسانى لهذا الواقع، من الجانب الآخر.

واقع الصعيد الذى يقدمه خالد إسماعيل فى روايتيه مختلف من وجوه عدة. والحقيقة أننا نجده عنده «واقعين» لا واحدًا: واقعًا يتمثل فى حكايات «الكبار»: الأب والأعمام والأجداد، من ناحية، والثانى ما يعيشه الراوى («يحيى» فى الأولى و«إبراهيم» فى الثانية) بنفسه، وينتهى فى الأولى بقدومه إلى القاهرة، واحدًا من «الأنفار» رغم شهادته الجامعية، فى حين تتابع الثانية محاولاته للعمل بالتدريس، ثم الصحافة، والبحث لنفسه عن موطئ قدم فى المدينة الكبيرة، وتتجسد محاولاته ـ أكثر ما تتجسد ـ فى السعى لإقامة علاقة تنتهى بالزواج، يُخفق فى ثلاث منها، ويخايله الأمل فى الرابعة.



أحد وجوه الاختلاف يتمثل فى تفكك الأطر التقليدية الراسخة للعائلة، فنحن نجد الأجداد ـ الأشقاء (عبد الله وعبد الحى وعبد الخالق) يتلاحون ويتخاصمون، وينذر أحدهم أن يقاطع أباه حتى لا يمشى فى جنازته أو يتقبل العزاء فيه، وقد أوفى نذره، والأخ «محمود» يرفض استضافة أخيه ـ راوى «عقد الحزون» ـ فيقطع هذا الأخ كل علاقة له بأخيه الوحيد، بل يبلغ هذا الأمر أقصاه: يبصق الابن على أبيه «الخال عبد الستار» ويشهر فى وجهه المطواة!

ملمح ثان هو ظهور «الجماعات الدينية» فى قرى الصعيد ونجوعه، فى «عقد الحزون» يتابع الراوى ظهورهم، واستيلاءهم على جانب من «جرن» القرية أقاموا فيه «زاوية» لهم، وكان على رأسهم اثنان لا يخلو مسلكهما من الشبهات، بل إن بينهم علاقة لواط تعرفها القرية كلها.. «وكل يوم يخطب «عنتر» خطبة بعد العصر، والناس مندهشون من حكمة المولى الذى يمنح العاصى الهداية حتى لو بلغت ذنوبه عنان السماء..»، لكن الرواية لهم بالمرصاد، وكذلك أهل القرية، ليس مهمًا أن نتتبع ممارساتهم. وكبيرهم يتزوج امرأة «منقبة» من طما، أو وهم يبيعون الكراسات والكتب الدينية والأدوية المستخلصة من الأعشاب والتى تداوى كل الأمراض، لكن المهم أن نلقى بالاً إلى ممارساتهم مع الأقباط، وقد فضل كثيرون منهم هجرة القرية.. «اختاروا الحياة بعيدًا عن النجع بعد قيام «الشيخ عبيد» وشبان «إصلاح المنكر» بالاعتداء على القسيس «شاكر».. ضربوه وخلعوا ثيابه وألبسوه جلبابًا عاديًا ثم حملوه إلى «الزاوية».. وأجبروه على أن يقول «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله» ثم أطلقوا سراحه فى الليل.. (..) بعد هذه الحادثة تكررت شكاوى النصارى من سرقة بهائمهم المربوطة فى غيطانهم.. (..) وأُغلقت أبواب بيوت النصارى ثم فوجئنا بأن العمدة و«الشيخ عبيد» و«عنتر» قد اشتروا هذه البيوت، واستقرت الأحوال على أن شبان «إصلاح المنكر» هم «أهل الشريعة» يطبقونها على من يرون أنه مخالف للدين..»، ويعدد الروائى بعض ممارساتهم تلك، ويترك لك جواب السؤال: هل هم حقًا، «يصلحون المنكر» أم هم يشعلون النار ويفسدون كل شىء؟

ملمح مهم ثالث يتبدى فى الاختلاف المتعلق بشيوع الممارسات الجنسية أو المتصلة بها. وإذا كانت «البنت نوال» ـ فى قصة يحيى الطاهر الجميلة «جبل الشاى الأخضر» ـ قد لقيت عقابًا صارمًا أدمى جسدها الصغير لأنها كانت تجد المتعة فى أن تحك فخذيها ببطن الجاموسة وهى راقدة على ظهرها، فإن البنات والصبيان أصبحوا يمارسون ألعابهم الجنسية وأشكال عبثهم الصغيرة هنا أو هناك فى غيبة الكبار. إن «خالد إسماعيل» أكثر صراحة ووضوحًا من سلفيه وهو يزيح الأستار عن الممارسات واللقاءات الجنسية المتخفية وراء واجهات الظاهر. فى روايتيه كلتيهما سوف نجد «عايدة» و«فايزة أم كحكة» و«وديدة»، كلهن يقحبن، ونجد أخريات واقفات على الحد الفاصل بين التعهر الخفى والمعلن، ولعل لهن جميعًا أصولاً عند «نرجس» فى قصة يحيى حقى ذات الجمال








الخشن «أبو فودة». يقول عنها أنها كانت تخون زوجها يوم السوق من كل أسبوع، وتتردد على الموظفين العزاب بانتظام.. «وتضع الثوب الذى يروقها فى قعر قُفتها، تحت البيض وربطة الكتاكيت..». الفرق بين «نرجس» وكل هاته النسوة أن الأولى كانت «بحراوية» وافدة، أما هن جميعًا فمن قلب النجع وأهله، وليس هذا بالفرق الهين!

وقارئ يحيى الطاهر يعرف أن أعماله كلها تنتظم فى منظومتين كبيرتين: الأولى عن حياة الناس فى قريته «الكرنك القديم»، والثانية عن «الرجل الصغير» وضياعه فى المدينة، كذلك أمر خالد إسماعيل، ففى أعماله (وأعنى هنا مجموعتيه القصصيتين أيضًا) المنظومتان، وإننى أعتقد أن ما قدمه عن قريته هو الأفضل والأبقى، ولعل فى «كوم غريب» الكثير الذى لم يقله بعد.



لنواصل تصعيدنا فى مصر العليا إلى الجنوب من «كوم غريب» تقع قرية «الحاجر». أغلب الظن أنها على حدود أسوان، قريبة من مصنع السكر والمعبد على ضفاف النيل. هذه القرية هى موضوع رواية أسماء هاشم (الأولى): «المؤشر عند نقطة الصفر». أهمية هذا العمل، عندى، تتمثل فى وجهين: الأول أنه يكشف تكوّن وعى فتاة من أعماق الصعيد، حصلت على قدر بسيط من التعليم ثم خرجت للعمل فى «بازار»، تخالط السائحين، وتقيم معهم علاقات هشة وعابرة، وتغريهم بشراء الأشياء ذات الطابع «السياحى» التى تمتلئ بها هذه «البازارات». بعد انتهاء عملها تعود لتعبر النهر إلى الغرب، ثم تهبط الطريق المغبّر إلى حيث تقيم «العائلة الممتدة». تلك العائلة، ومن حولها «الحاجر» كلها، هى التى تمثل تمامًا المجتمع المغلق، انغلاق «الطوق والأسورة». ولعل أمارات هذا الانغلاق هى التى تجمع الحكايات المتعددة فى الرواية: حكاية «العمة عائشة»: كانت فتاة جميلة، وكانت «عايقة» كذلك، تهتم بنظافة جسمها وثوبها، وتولع «بالحناء» بوجه خاص.. «يداك لا تخلوان من الحنة، تجلسين أمام باب غرفتك، ترسمين بالحنة قلوبًا وزهورًا وسنابل وتيجان»، هى متأهبة دائمًا لاستقبال الرجل، لكنه لا يأتى! مرة واحدة جاء، لكنه كان غريبًا عن «الحاجر» وليس من أبنائها، فهَوت الأم على الحلم بضربة واحدة، وبقيت العمة عانسًا يدب الذبول إلى روحها والتجاعيد الصغيرة إلى وجهها، تقضى الوقت فى المناكدة والمشاكسة وممارسة طقوس جلب الرجل بشتى الطقوس وحمل الأحجبة والتمائم، وهو لا يأتى. وثمة أيضًا حكاية «زينب»: ابنة عم الراوية وزوجة أخيها، تقول عنها: «تزَوجت أخى» وأنجبا بنتين ذواتى رؤوس ضخمة وأطراف نحيلة لا تقوى على حملهن فيسقطن بعد خطوة أو اثنتين، يستنجدن بالقادم، ويهززن أذرعهن كطيور مكسورة.. (..) الأطباء يقولون إنه تراكم جينات وراثية مرضية نتيجة زواج الأقارب؟ وجدتى لا يعجبها الكلام.. وتقول إن جدى ابن عمها وأنجبت منه الكثير..»، ثم حكاية القريبة التى جاء بها أبوها وعهد بها إلى الجد لأنه لم يجد لها زوجًا ينتمى إلى القبيلة، ولم يجد الجد حلاً سوى أن يعرضها على ابنيه ليتزوجها أحدهما، فتزوجها العم لتشتعل نار جديدة فى البيت الكبير. وهناك، أخيرًا، حكاية الراوية نفسها «سمية»: لقد نجحت فى أن تحقق نوعًا من التوافق مع هذا المجتمع المغلق، أعانها وعيها بحدوده على أن تتواءم معه، وأن تتعاطف مع ضحاياه: تُصغى للعمة وتلاطفها وتتفهم دوافع سلوكها النكد المشاكس، وتأتى لزوجة أخيها - سرًا - بأقراص منع الحمل، وتقول لنفسها، ولنا: «على مدار تشكُل الوعى كانت تتكشف لى تجارب عديدة عن كائنات مقهورة، مفردات فى كيان منظوم لا يمكنها أن تعيش خارج سياقه، خوف حقيقى بدأ يتضخم مع استطالة قامتى.. يحيلنى إلى شىء ضمن أشياء عديدة تكوّن منظومة مجتمع تحركه أعراف خاصة وتعاليم صارمة، ينمو داخل نفسه..».

لكن هذا كله لم ينقذها. كان لا بد أن تصطدم بمنظومة هذه الأعراف الصارمة: خفق قلبها لشاب يعمل مرشدًا سياحيًا فى الفندق المجاور، كانا يلتقيان كل صباح، يعبران عن عواطفهما بالاهتمام الصادق والكلمات المواربة. مرة واحدة - بعد أن لاحت نذر النهاية - كادت الرغبة فى البوح أن تغلبهما: «كانت يدك مرتجفة وكذلك يدى.. حدَّقت فى عينىَّ فرأيتُ الحزن واليأس فى عينيك، وأنت رأيتَ الوَهَن فى عينىَّ، كان كل منا يلوذ بالآخر، غير أننا لم نفعل إلا تبادل ضغطات خفيفة مواسية..». أما لماذا جاءت النهاية فلسبب واضح وصارم: إنه ليس من القبيلة، لكنه من «مدينة الغرباء».

وهذا يؤدى بنا إلى الوجه الثانى من وجوه أهمية هذا العمل، والذى يتمثل فى نجاح الكاتبة فى تصوير الحدود القائمة بين الجماعات الداخلية الثلاث التى تشكّل وجه الحياة فى هذه البقعة - وسواها - من صعيد مصر. تقول الراوية فى نجواها لصاحبها: «كنت أتمنى أن أقول له إن النيل كان يفيض ويغمر بمائه وطميه مساحات شاسعة، فتخرج من تحت طميه الزروع، وتنهض جدران المعابد والمنازل ووجوه بشرٍ يحملون سمرة طميه المتدرجة. كفَّ الآن عن الفيضان وانزوى فى مجرى ضيق.. تاركًا فى الشرق مساحة شاسعة أكسبها المعبد الفرعونى أهمية خاصة، فتشاجر عليها الثلاثة، كلٌ يرى أنه الأحق بها: القبائل القديمة التى تعيش منذ القدم على حافة النيل الشرقية والغربية أيضًا. النوبة المهجرة مستندة إلى تاريخ قديم فى إقامتها على حافته، محاولة استثمار تضحيتها الإجبارية لتوفير مكان مماثل. أما الفئة الثالثة: الوافدون الذين عمَّروا المدينة، ألا يعطيهم هذا الحق فى الزحف ليحتلوا حافة النيل؟ كنت أتمنى أن أقول له إننا، نحن الثلاثة، نتحاور ونتحاور، حوارات قصيرة مبتورة، لكننا لا نمتد خارجنا.. نتحرك إلى دواخلنا فقط».

إنما لهذا تنتهى قصة الحب التى لم تكد تبدأ. لكن الرواية - حين تجنبت تحقيق انتصار زائف لا تسمح به معطيات الواقع الموضوعى، أشارت إلى أمل أن يصبح المستقبل مختلفًا عن الماضى والحاضر: الاعتراف بما يمثله هذا الانغلاق، متمثلاً فى زواج الأقارب، فتسافر «زينب» تلتمس العلاج لطفلتيها فى القاهرة. هذا من جانب. من الجانب الآخر فإن السجلات التى يحتفظ بها الجد فى «قدس أقداسه»، والتى تحوى أسماء أفراد القبيلة وأنسابهم، قد تعرضت للاهتراء والبلى، وترى الراوية فى هذا بصيص أمل قد يفتح نافذة صغيرة يدخل منها صاحبها وسواه.

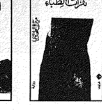
تلك رواية أسماء هاشم: لا تخلو من إسهاب هنا وإطناب هناك، ولا تخلو من تعثر فى التعبير عما تريد الراوية أن تقول، لكن ما أزعجنى حقًا، حتى هممت - أكثر من مرة - بالتوقف عن القراءة، هو الأخطاء اللغوية الفادحة التى لا تخلو منها صفحة واحدة. مازلت غير قادر على التسامح مع مثل تلك الأخطاء: كيف لكاتب أن يكتب «نصًا أدبيًا» وهو لا يعرف لغته، أى لا يعرف أدواته الحقيقية فى التعبير؟

بعيدًا عن الوادى كله تأخذنا ميرال الطحاوى، إلى صحاريه الشرقية والغربية، خاصة الأولى منهما، فى «نقرات الظباء». هو عملها الثالث بعد «الخباء، ١٩٩٦» و«الباذنجانة الزرقاء، ١٩٩٨». وتثبت الكاتبة فى نهاية عملها الأخير أن «الخباء» أعيدت طباعتها ثلاث مرات، وأنه تم اختيارها «كأفضل عمل روائى عام ١٩٩٦، وترجمتها الجامعة الأمريكية فى القاهرة إلى الإنجليزية» كما صدرت فى لغات أخرى، كما تذكر أن روايتها الثانية «فازت بجائزة الدولة التشجيعية فى الآداب عام ٢٠٠٠» كما ترجمت إلى لغات متعددة.

لا عليك من هذا كله، فنحن نعرف أنه لا يدل - بالضرورة - على جدارة الأعمال موضوع «الجوائز» المختلفة، وأن عديدًا من الأسباب قد تكون وراءها، وعلينا أن ننظر للأعمال ذاتها، بمنأى عن تلك الهالات. والحقيقة أن «الخباء» كانت - عند صدورها فى ١٩٩٦، بعد مجموعة من القصص القصيرة - مفاجأة منعشة: عمل صلب متماسك، تستعيد فيه الراوية - فاطمة - عالمًا قديمًا، بل هى تستصفيه من قبضة العدم، ذلك أنه يتراجع تحت خطى النور أو التقدم أو «الحضارة» كما تقول الراوية ذاتها، وهى تقدم أدلتها على تقوض قواعده. إنه عالم البدو، بدو الصحراء الشرقية القريبة من القرى على وجه التحديد. وهى تستحضره بقوة الفن فتبعث الحياة فى طقوسه وممارساته وعاداته وتقاليده وأمثاله و«مجاريده» أو قصائده فى الفرح والحزن. عالم تبدو فيه السيادة للرجل، لكن السيادة الحقيقية هى للأم - الجدة - المؤسسة. صحيح أن الأب هو محور الحياة فى عالمَ فاطمة، لكن الكلمة الأخيرة هى للجدة «حاكمة» - لاحظ دلالة الاسم. هى حارسة التقاليد، القيِّمة عليها، فى حضور الرجل أو غيابه، أهم هذه التقاليد التى تحرص الجدة على التزامها، وتلزم الآخرين بالتزامها، هو ما يتعلق بالمرأة ومكانتها المتدنية. والبيت الذى تعيش فيه الراوية نموذجى لتجليات هذا التدنى، بيت كله من النساء: الأم مريضة ملازمة حجرتها فى بكاء دائم، لا يعيش ممن تنجب سوى الإناث، وثمة أربع منهن، إضافة للأم البديلة والخادمات المقيمات والعابرات. أما الرجل - الذكر - الأب فهو يشرِّق ويغرِّب، يغيب مع قوافله كثيرًا ويحضر قليلاً.. «وحتى حين يأتى فلن تكف (الجدة) عن فرك الدخان، وستلمع عيونها الضيقة الصغيرة بمكر وهى تسأله عن رحلته ومرعاه، يجلس بين يديها ضئيلاً، كأننى لم أر صدره الملىء بالعظمة قبل ذلك، وكأنى لم أره يمشى والكل يركض من رهبته..». وما أكثر الأمثال - التى تمثل ضوابط للسلوك الاجتماعى - التى تطلقها الجدة ضد الإناث، وهى أولهن كما تقول. خذ بعضها: «قيِّدها بقيد حديد، وارميها فى بيت سعيد..»، «اقبرهن قبل أن يقبرن سيرتك وفضائلك..».

تلك رواية أسماء هاشم: لا تخلو من إسهاب هنا وإطناب هناك، ولا تخلو من تعثر فى التعبير عما تريد الراوية أن تقول، لكن ما أزعجنى حقًا، حتى هممت - أكثر من مرة - بالتوقف عن القراءة، هو الأخطاء اللغوية الفادحة التى لا تخلو منها صفحة واحدة











«إن ما هابت السكك، تشرد النعجة..». وها هى الجدة تدلى بأقوالها المأثورة عن البنات: «جلبة شوم، قنايتهم حرام، بضاعة تربيها لغيرك، إن تركتها بارت، وإن بعتها عليك الخسارة.. يكفينا الله شر بلاياهم..»، ثم تقول متباهية بحظها الحسن: «والله ما عاشت لى بنت.. (..) مسافة ما البنية توأوأ يأتيها ستّار الصبايا.. يحمل ويشيل..». (أليس هذا من صميم «ثقافة البدو» لو صح التعبير؟ أليس استمرارًا لتقاليد «الوأد» الشهيرة؟ أليس ترجمة دقيقة للقول البدوى المأثور: نِعْمَ الصهر القبر؟). وليست المسألة أقوالاً فقط، لكنها محددات للسلوك: توافق الجدة على أن تتزوج الفتاتان الكبيرتان من أب وابنه، وبعد اشتداد المرض على الأم، ثم موتها تأتى الأخت الكبرى «صافية» لترعى أختيها، وتظل سنة كاملة لا تعود لبيتها وزوجها الذى تبدو نافرة منه، وحين يأتى هذا ليطلبها تكون كلمات الجدة لها: «يا خلفة السوء، ماذا يقول فينا العربان؟ (..) والله إن ما جمعت خلقاتك وأطعت سيدك ورجلك لأذبحك كيف الذبيحة وأعلقك فى وتد بيته.. ياعاصية.. يا ملعونة..»، ومن عجب أن تدور دورة الأيام، وتموت الجدة، فتشغل «صافية» مكانها على الفور، ويقدم لها موروثها المنطق: «القافلة لا يسيرها إلا الحداء..»، لكن خطو الأيام تحمل مزيدًا من نذر تقوض هذا العالم، من هذه النذر أن الأختين الصغيرتين، من أم أخرى أصبحتا «تَجُران الأوراق، وتمتطيان الدواب، ويسرح بهما الغفر للمدرسة البعيدة..»، وتقول أمهما للراوية مقفلة هذا القوس كله: «آه يا فاطم لو جدتك «حاكمة» رأت ذلك، كانت سفحت دمهما على البوابة.. الزمن رياحه عاتية..».

وإذا كان كل ما فات من تحقير توجهه الجدة لحفيداتها، فإن نصيب «بنات الفلاحين» اللائى يأتين للعمل عندهم أكثر قسوة وبذاءة، فهى تنهرهن وهن يغنين أثناء عملهن فى تجهيز القطن.. «تخرج إليهن بمشيتها العنيفة وجسدها المتخشب: «إخرسى.. إخرسى ياخليعة..» تركلهن بما تطوله يداها: «اخرجن يا بغايا يا قليلات الحياء.. فلاحات مفضوحات بلا ستر.. بغايا..»، ويقينها الذى لا يتزعزع أبدًا أن «الفلاحين أنجاس.. يسرقون كحل عينك..»، والحقيقة أن موقف أولئك البدو من الفلاحين وسواهم يقف على حدود العنصرية وفكرة نقاء الدم. هذا هو الأب يدلِّل ابنته الراوية: «هل تحبين أن تصبحى مثل أميرات الترك؟ تجرين ذيل ثوبك وينحنى الناس للأميرة فاطم الجميلة؟ وسوف يأتى ولىُّ النِّعم نفسه ليخطبك «أطرده مثل كلب.. «فاطم» بنت الأكارم تتزوج من جركسى؟ إنها مهرة عدنانية أصيلة.. اذهب يا تركى يا أحمر..». أليس هذا ما يعنيه أعراب الصعيد حين يقول مثلهم السائر: ياخدها التمساح ولا ياخدها الفلاح؟

إن تلك الجوانب من «ثقافة البدو» - لو صح التعبير مرة أخرى - هى أكثر ما لفت نظر قارئى «الخباء» ومن كتبوا عنها. بقيت نقطتان جديرتان بالإشارة: الأولى هى «المدام» أو «الخواجاية» أو «آن»: أجنبية تتردد على أخبيتهم، وتدرس كل شىء عنهم، وتقول الراوية إنها «تقتنى كل شىء» من طير وحيوان ونبات وزواحف، تأخذ الراوية معها كى تداوى ساقها المهيضة (وينتهى الأمر إلى بترها!)، وتعلِّمها اللغات و«الحضارة» كما تقول، وينتهى الأمر بالراوية كذلك أن تقول عن نفسها: «فاطم انشطرت نصفين: نصفًا يرطن، ونصفًا يهنهن بالمجاريد..». ولأن هذه الخواجاية» (وهى شخصية تجد أصولها عند فتحى غانم فى «الجبل، ١٩٥٧» على سبيل المثال) تكتشف أن فاطمة حكاءة متفننة فهى تقدمها لضيوفها كى تحكى لهم. النقطة الثانية هنا هى ما تحكيه: حكاية موازية متخيلة يبدعها خيال فاطمة عن «مسلِّم» وامرأته «سقيمة» وابنتهما «زهوة»، وهى حكاية كثيرة التفاصيل، تصدر عن التراث الأسطورى، وتعبِّر عن أشواق الراوية وأحلامها.

ولعل هذا كله وراء ما لقيت «الخباء» من اهتمام.



هذا العالم الخاص والمتفرد هَجَرته الكاتبة فى عملها التالى لتعود إليه فى هذا العمل الأخير، ولضيق المجال سنرجئ مناقشة «الباذنجانة الزرقاء» - هنا والآن - لنرى كيف استعادت عالمها القديم. وفى إيجاز يمكن القول إن «نقرات الظباء» هى رواية تمام تقوض هذا العالم وانهيار قواعده. تحالفت عوامل عديدة لتقويضه: بعد ١٩٥٢ استولى النظام الجديد على «إقطاع البدوان» وقُسمت الأرض بين الفلاحين، وراح الأب يبيع لأولئك الفلاحين أنفسهم (والذين ظلوا دائمًا موضع الزراية والاحتقار) ما تبقى له من أرض حتى تظل «المضيفة» عامرة.. «لإيقاد النار بعد النار والقهوة بعد القهوة وذبح شياه جديدة..»، ويدور الحديث دائمًا حول موضوعات ثلاثة لا رابع لها: الأسلاف أو الأجداد وما كانوا عليه من عزٍّ ومنعة (اقرأ: استبداد وتسلط)، والخيول: أنواعها وخصائصها، ثم الصقور أو الجوارح بشكل عام: طباع كلٍّ منها ومزاياه وعيوبه (أكثر من مرة فى العمل قد تحس بأن المعلومات المتعلقة بالخيول والجوارح تجاوزت حدود توظيفها فى العمل، وأصبحت مقصودة لذاتها وغرابتها!). الأب هو ما يتجسد من خلاله تقوض هذا العالم (ولعله ينتهى بموته)، ظل يعيش حكايات الأسلاف والخيل والصيد، والعالم يتغير من حوله وهو لا يبالى أكثر من مرة شهد بنفسه أمارات هذا التقوض: حين ضاق به الحال كتب رسالة إلى الأمير «فيصل آل سعود» يذكره بالعلاقات بين القبائل، ومعاهدة التحالف بين الأسلاف، ولم يتلق ردًا بطبيعة الحال، فقنع بأن يعمل فى خدمة أولئك الذين مازالت خبراته بالخيول والصقور تعنى شيئًا ذا قيمة عندهم: السعوديين و«الكوايتة» ومن إليهم، وانتقاه واحد منهم صحبه إلى رحلات صيد فى جبال الألب وجبال أوزبكستان وسواها ليرى كيف أصبح الصيد «معركة بهيجة يطاردون فيها الطيور باللاسلكى والبنادق الآلية ويحددون مواقعها بالرادار.. (..) بعد أن عاد من تلك السفرة الطويلة علَّق على بابه لافتة باسم «الشيخ مطلق الشافعى السليمى، خبير خيول وصقور..». إنه مصمم على الحياة فى العالم الذى يشهد انسحابه إلى العدم، وهو لا ينسى - فى رقدته الأخيرة - ما فعله الأمير بجوارحه، حين أمر بإطلاقها جميعًا، ثم صادها بالشراك الفجر التالى كى يثبت لهم أنه «حتى الطير الحر يمكن أن تعققه من طعمته..»!



إذا كانت تلك هى «الحياة العامة» للأب، لو صح التعبير، فإن حياته الخاصة يلفها غموض والتباس مقصودان. وقد تقرأ العمل أكثر من مرة وتبقى معك الأسئلة: «مهرة» راوية العمل، من أمها؟ إذا صبرت على فك الخيوط المشتبكة، وحلَلت نقاط الغموض والالتباس التى أشرتُ لأن الكاتبة تصطنعها اصطناعًا كى تضفى على عملها لونًا من الكثافة، وتبتعد به عن البوح والوضوح، فقد تقول إنها ابنة «هند» التى أحاطتها المأساة. تلك المأساة أيضًا عليك أن تلملم خيوطها من هنا وهناك، وقد تقول إنها أخطأت مع ذلك الرسام الأجنبى الذى أقام زمنًا بينهم، ورسم لهم تلك اللوحة التى يتوارثونها، وقد رسم «هندًا» وهى عارية. تزوجها الأب وبعد أن وضعت طفلتها سُجنت حتى الموت.

تزوج بعدها «سهلة»، ابنة العم الآخر، ولا يعرف أحد حقيقة العلاقة القائمة بين الزوجين، لكنها تبدو لنا تعاليًا من جانب الزوجة، واستخذاءً من جانب الزوج، و«النجدية»: الأم - الجدة - المؤسسة، مكافئة «حاكمة» فى «الخباء»، وإن كانت أقل تسلطًا، ربما لأنها «حضرية» بنت مدينة، لا تعرف إن كانت ابنتها «سهلة» ما تزال عذراء أم دخل بها زوجها. وكأنما لا يكفى كل هذا الغموض والارتباك، فتجعل فى حياته امرأة غريبة تعلق بها تعلقًا جنسيًا منذ كان مراهقًا. والآن قل لى أنت: هل يتسق هذا وكون الأب «تلقى تعليمه فى «فيكتوريا كولدج»، وكاد أن يناله ليسانس الأدب الإنجليزى.. (..) ومع ذلك، كان يتحدث (الإنجليزية) بطلاقة ويحفظ أشعار جوته، وهو الذى درَّس لى روايات شكسبير بإنجليزية متميزة وصوت متزن ممسرح..». هذه الصدوع فى بناء الشخصية الرئيسة هى أوضح وجوه الضعف فى «نقرات الظباء». شاءت الكاتبة أن تحشد فيها كل شىء فضاقت حتى تفتتت بما فيها. وينتهى العمل كله بدليل القوافل القديم (وهو إحدى شخصيات «الخباء»)، وقد طعن فى العمر، وأصابه الخَرَف حتى أصبح يهرف بما لا يعرف، كأنه قارئ يرتِّل على قبرٍ دُفن فيه العالم القديم!



ورغم أننى لا أود أن أعيد كتابة ما سبقت كتابته إلا أننى أعتقد أن المشهد سيبقى ناقصًا دون إشارة - وإن تكن موجزة - إلى نجوى شعبان وروايتها «نوة الكرم» (راجع، من فضلك: «بعض ما قال الترجمان، مجلة «المصور»، ١٨/ ١/ ٢٠٠٢). هى روايتها الثانية بعد «الغُر ٢٠٠٠»، وهى، مثلها، تقع أحداثها فى مدينة الكاتبة وإطارها المرجعى: دمياط، لكنها، هنا فى «النوة» دمياط حين كانت ثغر مصر، ميناءها الذى يلتقى عنده النهر والبحر، إليه تأتى السفن من كل مكان، ومنه تخرج إلى كل مكان، على أرضها يلتقى القراصنة والقباطنة والبحارة والصيادون، يأتون من الشمال والشرق، يبقى منهم من يبقى ويرحل من يرحل، وعلى أرضها كذلك - وكما كانت مصر دائمًا - يتعايش المسلمون والأقباط.

والفترة التى اختارتها الكاتبة من التاريخ محددة تحديدًا دقيقًا: وُلد التوأمان «غياث الدين» و«ليث الدين» فى اليوم الأول من العام الأول من القرن السادس عشر، وقبل أن ينقضى عشرون عامًا كان العثمانيون قد دخلوا «مصر المحروسة» و«أعملوا السيف فى رقاب أهلها»، وحمل «سليم» زبدة فنانيها وصُناعها وأسطواتها إلى بلاده. فرَّ «الخزَّاف» (اقرأ: الفنان) من هذا المصير، خرج من «المحروسة» يضرب فى أرض مصر، واستقر زمنًا فى دمياط حيث ارتبط بالفتاة الشبقة المنطلقة «سنانية»: الأخت الصغرى للتوأمين وأختهما الكبرى «ليل». كذلك فرَّ المفزوع»، وكان واحدًا من «الزعران» فى المحروسة، وظل مختبئًا أربعين عامًا قبل أن يخرج إلى العالم فى ١٥٥٧. ولأن دمياط مفتوحة على العالم كله. فقد ارتبط مصير هذه الأسرة



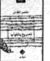
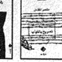
فى «نقرات الظباء». شاءت الكاتبة أن تحشد فيها كل شىء فضاقت حتى تفتتت بما فيها. وينتهى العمل كله بدليل القوافل القديم (وهو إحدى شخصيات «الخباء»)، وقد طعن فى العمر، وأصابه الخَرَف حتى أصبح يهرف بما لا يعرف، كأنه قارئ يرتل على قبرٍ دُفن فيه العالم القديم















الدمياطية العريقة بالبحر: على ظهور السفن قضى التوأمان معظم سنِّى حياتيهما: أصبح «الريس ليث» قرصانًا شهيرًا يجوب البحر غازيًا حتى أصبح «القرصان الرسمى للسلطنة العثمانية»!، أما «غياث» - الذى يفتقد جسارة توأمه فقد عمل سنوات طويلة وكيلاً لأحد التجار فى مارسيليا. حتى «ليل»: امرأة متفردة، شخصية روائية بامتياز: عكفت على تربية إخوتها حتى بلغت العنوسة، لكنها ذات مشاعر متأججة وحياة داخلية ثرية، كانت أشهر «كحكية» - أى صانعة للكعك - فى دمياط، تعرضت لمطاردة «شيخ الطائفة»، وأقامت علاقة مفعمة مع «المجبِّر» الذى يداوى ساقها المهيضة. أقول: حتى «ليل» القابعة فى دمياط لا تبرحها، جاءها قرصان شهير صديق لأخيها «غيث»، أشهر إسلامه وتزوجها، وشمس أنوثتها تتاهب كى تسحب خيوطها الأخيرة!

وأود أن أقف لحظة عند شخصية «الترجمان» (اقرأ: المثقف) الذى سجل لنا كل شىء، ولأنه يعرف الكثير، ولأن موقفه واضح إلى جانب المقهورين والفقراء ضد الظالمين والمتسلطين، فإنه يتعرض مرارًا لألوان قاسية من التعذيب، تركت آثارها على جسده لكنها لم توهن من روحه حتى الرمق الأخير. وقد لقى جزاءه الحق: احتضنه الشعب فأقام قبةً على قبره، وكرَّسه وليًا من أوليائه، وجعل ضريحه إلى جانب ضريح رفيقة أيامه الأخيرة: «المقدسة آمونيت»، الراهبة القبطية الحكيمة، التى وهبت سنوات عمرها كله لخدمة الفقراء ومداواتهم من علل الأجساد والأرواح.

وينعكس طابع العصر على العمل الروائى كله، ولعل أوضح شواهده أن دمياط - من حيث هى ميناء مصر - هى أقرب إلى طبيعة المدن «الكوزموبوليتانية»، يلتقى على أرضها العالم كله: هذا «نور الدين»: أنجبته «ليل» قبل أن تنطفئ شمعتها فى رودس، وأبوه فى البحر، وحين رحلت «ليل» احتضنته آمونيت، أما حين وقفت هذه أمام «محكمة تفتيش» متهمة بممارسة السحر، ونَجَت من الموت بمعجزة، ضاع نور الدين حتى وجد نفسه بين جماعة من المشردين على أرض فرنسا.. فى فرنسا عرف نور الدين مع المشردين الجوع والنوم فى العراء، وفى يوم طرقوا باب كنيسة لطلب الخبز فخرج إليهم راهب حادثهم بالفرنسية التى لا يعرفونها، وطرأ على بال نور الدين أن يحدثه باللاتينية التى علمته آمونيت.. (..) التحق نور الدين بخدمة الكنيسة، ولما ضموه للرهبنة منحوه اسمًا جديدًا: «أوغسطين»، وسوف نراه - فى الصفحة الأخيرة - يركب البحر فى طريقه للتبشير و«نشر اسم الرب بين هؤلاء الذين ليس لديهم الناموس» فى أفريقيا!

ثم هذا «المطراوى»: كبير تجار دمياط وأثرى أثريائها، يملك الأرض والعقارات والبشر والقصر الجميل المطل على النيل، هذا المطراوى ليس سوى الفتى السلافى «ماتياس»: اقتنصه جنود «الانكشارية» من وطنه فى شرق أوروبا، حسب نظام «الدقشرمة» السائد، الذى يقضى باختيار الأقوى والأذكى والأجمل من صبية العائلات الأوروبية المسيحية للالتحاق بالعسكرية العثمانية، على أن يمنح اسمًا جديدًا ودينًا جديدًا..»، ولأن ضابط الانكشارية قنص أكثر من العدد المطلوب، فقد باع بعضهم أرقاء لحسابه. «تنقل ماتياس بين عدد من «اليسارجية» المختصين فى تجارة العبيد بيض البشرة حتى وصل إلى البندقية حيث اشتراه المطراوى الأب لغرض فى نفسه..»، وفى قصره الجميل عاش حياة ليلية يلفها الغموض وتحيط بها الأقاويل، حُملت «سنانية» إلى قصره جارية بعد موت زوجها الخزاف، قامت بينها وبين صاحب القصر علاقة ساخنة قوامها الشبق والتحدى، وبعد أن دبَّ إليهما الملال عمد المطراوى إلى إذلالها. هل مات المطراوى ميتة هادئة كما يحكى صاحبه، أم قتله «غياث الدين» المسلم المتشدد الذى كان يعرف عنه كل شىء؟ لا ضرورة للجواب ولا جدوى منه!

هذه الشخصيات وتلك المصائر.. ألا ترتمى عليها ظلال من عالم الروائى العربى الذى يكتب بالفرنسية (لكن أعماله كلها مترجمة للعربية، وتلقى اهتمامًا كبيرًا من قراء الرواية المعاصرة) أمين معلوف (١٩٤٩-) إن معلوف - من روايته الأولى والشهيرة «ليون الأفريقى، ١٩٨٦» إلى الأخيرة - فيما أعرف - «رحلة بالداسار، ٢٠٠٠» - يُطوِّح بأبطاله على اتساع العالم وامتداد التاريخ. وسواء كان أبطاله يعيشون فى التاريخ القديم أو الحديث (بطل روايته «سلالم الشرق، ١٩٩٦» مولود فى ١٩١٩)، فهم متسقون تمامًا وواقع المرحلة التاريخية التى يعيشونها. على أن هناك فارقًا مهمًا ودالاً: فى حين أن الهم الرئيس فى مشروع أمين معلوف ذو طابع عربى شامل، إلا أن الهم الرئيس فى «نوة الكرم» ذو طابع مصرى خالص: فى حنين البطلتين «ليل» و«آمونيت» إلى مصر وحديثهما عنها، فى الطقوس التى تمارسانها معًا: الرحلة إلى الهرم الأكبر والغفوة داخله التماسًا لشفاء ساق «ليل»، زيارات الأديرة المختلفة المتناثرة فى دلتا مصر وصعيدها، والطقوس التى يمارسها أهل «واحة سيوة» حيث عاش الخزاف مع «سنانية»، والطقوس التى يمارسها شبان وشابات دمياط انتظارًا ليوم القيامة... إلخ.

إن هذه «المصرية» العريقة والراسخة تتخلل العمل كله. فهذه الشخصيات لا يمكن إلا أن تكون مصرية لأعمق الأعماق. خذ مثالاً واحدًا: هذا هو «الترجمان» يضيق بخنوع الناس أمام شتى أشكال الفقر والقهر والظلم والاستبداد، دون أن يثوروا، ها هو يحاورهم ويحرضهم: «إلى متى تظلون منكسرين؟ اجأروا بالشكوى.. تمردوا.. تحدوا.. قولوا لا..» لا يرد أحد من الناس «بإمكانكم أن تقولوا لا دون أن تودعوا فى السجن الشريف، أو تمزقكم السياط والخوزقة والتجريس.. افعلوا كما فعلتم من قبل: انشدوا أشعار السخرية من العيش ومنهم، انظموا الأغانى واحكوا القصص، اكتبوا ليعرف أحفادنا من بعدنا أننا لم نخضع..».

وهذا ما فعله الترجمان.



إن الهم الرئيس فى «نوة الكرم» ذو طابع مصرى خالص: فى حنين البطلتين «ليل» و«آمونيت» إلى مصر وحديثهما عنها، فى الطقوس التى تمارسانها معًا: الرحلة إلى الهرم الأكبر والغفوة داخله التماسًا لشفاء ساق «ليل»

ماذا يمكنك أن تقول لكاتب مثل منتصر القفاش؟ ماذا تقول لكاتب يعرف لغته معرفة جيدة، وله جرأة عليها، ويحقق، كذلك، درجة كبيرة من السيطرة على أدوات القص، ونادرًا ما يخفق فى التعبير عن مشاعر شخصياته واستبطان أدق خلجاتها، ونادرًا ما يخفق فى تقديم وصف - يبدو محايدًا - للأشياء والأماكن. لكن السؤال الرئيس هو: ماذا يفعل بهذا كله؟ فيم يوظف أدواته؟

لننظر فى عمله الأخير «أن ترى الآن» (هو عمله الروائى الثانى بعد «تصريح بالغياب، ١٩٩٦»): إبراهيم شاب يعمل محاسبًا فى فندق كبير تتم تصفيته، وهو يشارك فى إجراء حسابات هذه التصفية، ولديه قلق حول مستقبله العملى بعدها، كل ما لديه مجرد وعود. متزوج من «سميرة» من عامين، ولم ينجبا لعيب فيها. ذات يوم تنبثق فى رأسه فكرة تافهة: أن يقوم بتصوير امرأته.. «تناول الكاميرا - يومها - والتفت إلى زوجته والتقط لها عدة لقطات متتالية وهو يدور حولها، اندفع يصورها دون تفكير فيما يفعله، وداوم على هذا أيامًا عديدة، ورغم اندهاشها أعجبتها اللعبة وصارت تسلم نفسها للكاميرا، وتتخذ أوضاعًا استغربها إبراهيم إلا أنه سعد بها، وأظهر لها كل الرضا بمباغتاتها: فتح روب الحمام عن آخره، نومها على بطنها عارية، خروجها إليه فجأة من غرفة النوم واضعة شمعدانًا مشتعلة شموعه فوق رأسها وتصيح فيه: صورنى..». وسوف تصبح هذه الصور هى الحدث الرئيس فى الرواية القصيرة (١١٨ص)، ستصبح مثل كرة الثلج، كلما انحدرت زاد حجمها وزاد تلوثها. فى حياة إبراهيم صديقة - عشيقة - زميلة سابقة فى الجامعة، وهى الآن مذيعة تليفزيونية، مطلقة بعد زواج قصير. يقول عن علاقتهما: «لا يستطيع أن يوقفها عند حدٍّ فى أى شىء بينهما، فلم تكن الحدود مطروحة فى علاقتهما، واقتنعا بأن راحتهما الحقيقية يجدانها فى وجودهما معًا، ويسعدان بتحقيقها بأى شكل ودون تردد..».

هل تكون «سمراء» هل التى فعلتها؟ هل هى التى «أرسلت خطابًا يضم صور زوجته: بشنب، بعين واحدة والأخرى مطموسة، بجسد انتثر عليه - بقلم الحواجب.. شعر غزير، بقدمين طالت أظافرهما، بنهدين تضخما حتى كادا أن يبتلعا الصورة، والحلمتان كخرطومين طويلين..».

هذه السطور التى نقلتها لك كلها من الصفحات الأولى، أما بقية الصفحات كلها فمخصصة لتداعياتها: هجرت سميرة بيتها، وظل إبراهيم يبذل جهوده فى مصالحتها، خلال هذه المصالحة نتعرف إلى بقية شخصيات الرواية وأهمها «عبد العظيم»: خال سميرة الذى ظهر فجأة فى حياتها ليلعب دور المدافع عنها، وينتشر أمر هذه الصور فتحاصر إبراهيم فى العمل وخارجه، بل تتراكم الصور فى النهاية حتى تملأ شقته.. «بكل قوته دفع إبراهيم باب الشقة، بدت انفراجة دقيقة، استطاع من خلالها فهم أن الصور ملأت الشقة ووصلت إلى السقف وتمنعه من الدخول..».



مثل هذه «التيمات» تعود أصولها إلى مصادر معروفة فى فنون الغرب المعاصرة، هى - على التحديد - مسرح العبث والرواية الجديدة.

ولن يتسع المقام لتقصى هذه الأصول، يكفى القول إن التيمة الرئيسة فى الرواية: تصوير البطل لامرأته ثم تحول هذا الفعل التافه إلى كابوس يصحبه فى ليله ونهاره، ثم تزايد الصور وتكاثرها حتى تملأ شقته وتمنعه من دخولها، تلك التيمة هى ما نجدها فى عمل ارتود أداموف «الغزو»، حيث يغرق البطل فى الأوراق التى كتبها كاتب ميت، وعليه أن يعيد ترتيبها، وهى ما نجده كذلك فى عمل يونيسكو «الخراتيت» حيث تملأ هذه الكائنات البنية

القبيحة الطرقات والبيوت والمكاتب، وتحاصر «بيرانجيه» الإنسان الوحيد الباقي، ونجدها في أعمال أخرى، ثم إن تحول الأمر التافه (صور الزوجة) إلى قضية تشغل الحياة كلها، فلا تفسح مكانًا لسواها، هو أمر متردد في مثل هذه الأعمال، ولنضرب مثالاً واحدًا:

عمل آداموف «لعبة البنج ـ بونج»: يلتقي البطلان في حانة ليلعبا البنج ـ بونج أمام جهاز آلي موضوع فيها، شيئًا فشيئًا يتزايد انشغالهما بهذه الآلة حتى تصبح كل شيء في حياتيهما: إن فكرا فهما يفكران فيها، وإن حلما فهما يحلمان بها، وإن اختلفا فهما يختلفان حولها.

إن كل حياتيهما تصبح معلقة بتلك الكرات الصغيرة التي تتدحرج على الطاولة. يتقدم بهما العمر ونراهما في المشهد الأخير عجوزين مازالا يلعبان البنج بونج.

تناقض طفولي خائب، خيبة الحياة التي أنفقاها ومركز اهتمامهما هذه الآلة، وفي حمى اللعب يقع أحدهما ميتًا، ويبقى الثاني وحيدًا. والحقيقة أنني لم أكن لأندهش لو وقع بطل «أن ترى الآن» ميتًا: هاهو قد فقد عمله، وخسر زوجته، وخسر شقته فلم يعد قادرًا على دخولها، فماذا بقي له وإلى أين يذهب؟ من الناحية الأخرى، فإن في العمل آثارًا من «الرواية الجديدة» ـ الموجة التي علت في الأدب الفرنسي حول ستينيات القرن الماضي ـ من حيث الاهتمام بوصف الأشياء في ثباتها وحركتها، بطيئة كانت أو سريعة، مؤقتة أو دائمة، ثابتة أو متغيرة.

بل إن البطل يمضي خطوة أبعد فيتمنى لو كان شيئًا، وهو في اختياره للشيء الذي يتمنى أن يكونه يكشف عن دوافع أخرى.

إنه يتمنى لو كانت الذاكرة مثل الكاميرا، موضوعه المفضل، وبداية كل ما هو فيه: «ماذا لو كانت الذاكرة مثل الكاميرا، بمجرد إخراج الفيلم منها تصير بلا ذاكرة، مهيئة لاستقبال أفلام أخرى بدون ذكريات من صور قديمة قد تأتيها في أية لحظة..». اختياره لموضوعه: الكاميرا، وراءه كل الأفكار المرتبطة بموضوع «النظرة»، وأن تصبح هنا وهناك في الآن نفسه، والعلاقة بين الأصل والصورة: التطابق والاختلاف، ثم إذا عمد شخص إلى التدخل في هذه الصور، بالحذف أو الإضافة أو إدخالها في علاقات مختلفة أو تحويلها لموضوعات مختلفة، انفتحت كل الأبواب أمام أبهاء المرايا بغير انتهاء.



بقي القول إن هذا البطل يختلف عن «أبطال» الرواية الجديدة ـ لو صح وصفهم بأنهم كذلك ـ في أنه مسرف في تحليل مشاعره واستبطان ذاته، وكشف مختلف ملامح الصورة التي يرى نفسه عليها، أبرز هذه الملامح أنه «لا يفعل» بل «يحدث له». ها هو يتمرد على وضعه ويتمنى شيئًا: «كل ما يريده إبراهيم أن يكون صاحب ذكريات من نوع: «لما حدث هذا قررت، وفعلت، وذهبت، وجئت، وتحملت حتى استطعت..».

لا أن تكون ذكريات من نوع: «لما حدث هذا. قلت وماله؟..».

على أن السؤال الذي يجب أن يطرح هنا على الفور هو: ما جدوى هذا كله؟ بعبارة أخرى: ماذا يريد الروائي أن يقول لقارئه؟

ها قد استولى على وعيه واهتمامه قدر ما استغرقته قراءة عمله، فماذا بعد؟

لستُ ممن يستنكفون السؤال عن «جدوى» العمل أو «رسالته»، فإنني على يقين أنه ما من شيء مجاني، ولستُ أصدّق أن كاتبًا قعد ليكتب عملاً، ثم قدمه للناس كي لا يقول شيئًا، وإلا استحال الأمر لهوًا وعبثًا.

رواية منتصر الأولى «تصريح بالغياب» كانت مختلفة: صياغة طازجة ومتألقة لتجربة مجند شاب قضى الأيام الأخيرة من فترة تجنيده مع سرية صغيرة تقوم بالخدمة في مدرسة لتعليم الفتيات التمريض.

وتتناول هذا العالم الذي ينسج خيوطه الشباب من الجنسين: مجندين وطالبات، عالم سداه ولحمته الحكايات الصغيرة والمشاعر الطازجة وانطلاقات الخيال.

وفيه ـ كما سبق القول ـ صياغات متألقة، خذ مثالاً واحدًا: هذا هو «النقيب الشرفي» خلف مكتبه في ليلة «نوبتجيته»، يستمتع بالحديث إليهم: «البنات يجعلن الجيش فسحة، والفسحة لا بد فيها من حكايات، والحكايات عند العساكر، والعساكر قدامه، وقدامه لا ينطق أحد بكلمة، والكلمة لا بد أن ينطقها هو، وهو يحكي عن بنات زمان.. إلخ».

بمثل هذه الهدايا الصغيرة، استطاع الروائي أن يرشو قارئيه، فينصرفوا عن سؤاله: وماذا بعد؟

أخشى ما أخشاه أن تتحول كتابة منتصر القفاش إلى شيء يشبه تلك الحلوى الهشة التي كنا نسميها «غزل البنات»: تنفث في الفم حلاوة ما أسرع ما تتلاشى فلا يبقى منها شيء، وتلك خسارة أظنها فادحة! ■

وإلى العدد القادم، نطالع معًا مزيدًا من النماذج.

(١) الأعمال الواردة في هذا القسم هي، على الترتيب:
* علاء الأسواني: عمارة يعقوبيان، ميريت، ٢٠٠٢.
* خالد إسماعيل: كحل حجر، ميريت، ٢٠٠١.
: عقد الحزون، الأحمدي للنشر، ١٩٩٩.
* أسماء هاشم: المؤشر عند نقطة الصفر، ميريت، ٢٠٠٢.
* ميرال الطحاوي: نقرات الظباء، شرقيات، ٢٠٠٢.
: الخباء، شرقيات، ١٩٩٦.
* نجوى شعبان: نوة الكرم، ميريت، ٢٠٠٢.
* منتصر القفاش: أن ترى الآن، شرقيات، ٢٠٠٢.
: تصريح بالغياب، شرقيات، ١٩٩٦.

الزمن .. الفن

وعملية تشكيل المتلقى

أحمد فؤاد سليم

حين نتامل منهج القسمة الرباعية فى الوحدة «الأرابيسكية» المكررة، وكذا القاعدة «الشكلية» للمفروكة فى سياق الفن الزخرفى الإسلامى، وكيف تتعامد فوق بعضها بزاوية معقوفة، قابلة للتشطير دون عَدَد، لا نظن أننا بعيدون عن ذلك المعنى الكونى لتعامد الرأسى على الأفقى فى العلامة المصرية القديمة «عنخ»، ولا عن فكرة التربيع للقاعدة الهرمية فى مصر القديمة باعتبار المربع أساسًا لعمارة حُجرة الدفن التى هى حياة الروح، بل هى كذلك مثلما نراها فى قياس «جالينيوس» الرباعى، ومثلما هى فى تشطيرات «ابن سينا» فى «الفيض الإلهى» - من حيث «العقل» و«النفس» و«الجسم» و«العقل الفعال» - بل هى لصيقة حين نقترب من صناعة الفن الخالص، كلما استدعينا الجوهر الرباعى القديم للفن، من حيث دَعاهُ الإغريق «زمانًا، وحركةً، ومكانًا، وسكونًا»، بل إنه هو ذاته ذلك التعامد «الصليبى» داخل مربع يسكن فى محيط الدائرة، وتُلامِس زواياه الأربع أطراف محيطها، كما أخذها «ليوناردو دافنشى» (١٤٥٢ - ١٥١٩)، عن «باوللو فوتروفيوس» فى منتصف القرن الأول الميلادى، وصار إذ ذاك معيارًا لقياس الميزان الجمالى فى الصورة الفنية، وللأنماط المعمارية منذ النهضة الإيطالية.

لقد شغلنى هذا الموضوع خلال السنوات الأخيرة، فبينما كنت أتامل لوحات الفن، كانت تعترضنى متقاطعات أخَذَت على عاتقها إما تشكيل التلقى، وإما تعويقه عن مهمة إلقائه فى الوعى، إذ كانت الصورة الفنية تُجمل فى فضائها تلك «الرباعية الوجودية - بدورها - التى قال بها «هايدجر» عن الماضى والحاضر والمستقبل، ثم هذا «الرابع» المتمثل فى الزمن من حيث هو «تلامُس» لكل تلك الآنات» الكبيرة الثلاثة.. إذ ما هو الفارق بين هرم «خوفو» وبين هرم آخر مماثل فى الحجم تم بناؤه الآن، فوق الأرض الصحراوية نفسها. وكيف يمكننا أن نتلقى الهرم «المتزمِّن» فى «الوجود» الماضى، والهرم المتزمِّن فى الوجود الحاضر، وكيف ينبغى أن نقيس الفارق بين الدرجة العليا للإلقاء فى الوعى، وبين الدرجة الدنيا لذلك الإلقاء. بل، وكيف نرى المشهد إذا عدنا إليه بعد عشر سنوات وقد تغيَّرت علاقاتنا بالأشياء، وبالطبيعة من حولنا، وتغيَّرت الصداقات، والانتماءات، والأيديولوجيات، والعواطف والمصالح كلها مجتمعة، تلك التى تشكل فى مجملها شاهدًا على معنى وجود الذات المتلقية، أى زمنية هنا تعترض وتتقاطع فى مركز «المقاربة»، وأيها تتجاوز الأخرى إلى فكرة «القيمة».

وكيف تكون القيمة هنا فى حوارها مع الوجود المتزمِّن فى الهرم، أهى نسبية متضاعفة، أم هى نسبية متناقصة؟ وما هى تلك الزمنية التى تتقدم عن الأخرى، زمنية المتلقى، أم زمنية العمل الذى تقع عليه عيوننا؟ زمنية الوقائع والنسيج التاريخى، أم هى زمنية الزمان لذاته هو؟

وكيف يتم ذلك التفاعل المذهل بين «الآنات» الحاضرة، وبين «الآنات» التى يمثلها هرم خوفو.

سوف أحاول هنا تفسير ما أريد طرحه من خلال مجموعة نماذج. وسوف نلحظ على التو إمكانية واضحة لمئات النماذج المماثلة، إنما كان هذا الاختيار تلقائيًا وربما متعاطفًا بعض الشيء مع وقائعه.

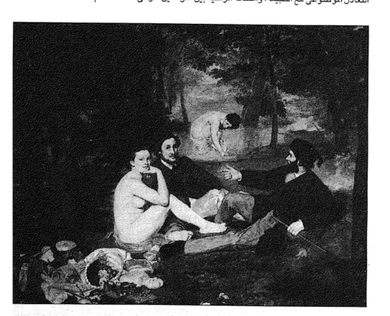
١. جورجيونى. الكونسير الريفى. ويبدو فيها التخاطر بين الأشخاص والطبيعة. وهى تمثل تلخيصًا لثورة جورجيونى على الموضوعات التقليدية، حتى اعتبرها النقاد والفلاسفة فى السنوات الأخيرة مفتاح الفن الحديث قاطبة. فلنلاحظ علاقة التضاد الحالم، والتحليق فوق الواقع، وخلق وضعية جديدة مساوية للطبيعة، وربما تتجاوزها.

وهناك بعض الظن بأن الفنان العظيم (تيتيان) تلميذ جورجيونى قد أكمل هذه اللوحة بعد وفاة جورجيونى، وغالى آخرون فزعموا بأن (تيتيان) قد رسمها هو نفسه فى شبابه تحت تأثير أستاذه جورجيونى.

(موسوعة لاروس، الطبعة الإنجليزية، دار نشر «هاملين». لندن، ١٩٨١ ص ١٣٤، ١٣٥).

ونحن نختلف فى نظرنا إلى العمل الذى يفسر تمامًا منهج وتقنيات جورجيونى التى تعتمد على استرجاعه للخيالى، وللمفردات التى اشتهر بها أسلوبه باعتباره العرى من موضوعات الطبيعة الحية، ولاستخدامه فن المنظر فى كونه معادلاً، وثورة على «الأيقونية»، وهو عكس ما ذهب إليه «تيتيان» فى تصاويره.

٢. لوحة إدوارد مانيه «الغذاء على العشب» ١٨٦٣، زيت على توال مقاس ٢١٠سم × ٢٦٥سم لاحظ التقابل بين جورجيونى ومانيه. اثنان يرتديان ملابس عصرهما، وامرأتان عاريتان تقريبًا. ثم علاقة التعادل الموضوعى مع الطبيعة. والمسافة الزمنية بين اللوحتين حوالى ثلاثمائة عام.



ما هو الفارق بين هرم «خوفو» وبين هرم آخر مماثل في الحجم تم بناؤه الآن، فوق الأرض الصحراوية نفسها؟

النموذج الأول:

لوحة «الكونسير الريفي» أو الخلوي - كائنة الآن في متحف اللوفر - لـ«جورجيوني» - «جورجيو باربارليلي جورجيوني» (١٤٧٧ - ١٥١٠) - التي كان لها الفضل الأول في نقل الصورة من مجرد الرؤية المثالية إلى اللمسة الحسية. حيث قام جورجيوني برسم عاريتين بضّتين، عارمتي التفاصيل إحداهما تعزف «الفلوت» في حديقة عامة بينما ظهر إلى جوارهما رجلان يرتديان الملابس الرسمية لعصرهما.

إن لوحة «الكونسير الريفي» ليست فقط المعجم الأول لمفتاح الفن الجديد، وإنما هي فوق ذلك الأم المباشرة للوحة «غذاء على العشب» لإدوارد مانيه (١٨٣٢ - ١٨٨٣)، إذ رسم «مانيه» عاريتيه على نفس السياق، وبرفقتهما رجلان يرتديان أيضًا الملابس العصرية لزمنهما، وفي وضعات تكاد تماثل نفس وضعات العارية عند جورجيوني، ومثل ذلك أيضًا الشجرة التي اختار لها «مانيه» نفس الزاوية اليسرى للصورة متطابقًا في ذلك مع جورجيوني. لا نقدم هنا نقدًا مقارنًا للعملين المهمين، بل على العكس، نحن نقدم هنا «وجودًا مُتزمنًا» في لوحة جورجيوني، مثلما نقدم أيضًا زمنًا استعاديًا، ومستعارًا في لوحة «إدوارد مانيه» (لاحظ أن بين الصورتين ما يقرب من أربعمائة عام).

إن المسافة التي بينهما هي «زمن»، والمخزون الذي يفصلهما عن بعضهما البعض هو «زمانية»، غير أن «الآنات» عند جورجيوني هي التي تُسعِّر القيمة - فالقيمة هنا في الكونسير الريفي نسبية «متضاعفة» بتوالي «الآنات» - إذ نحن لا يمكننا أن نتصور هذا العالم خلوًا من «الكونسير الريفي» لـ«جورجيوني» مع أن الحال هو ذاته بنفس القدر من لوحة «الغذاء على العشب». فهل هذا الزمن الاستعادي في لوحة «مانيه»، نسبي التناقص في القيمة، أم هو نسبي التزايد في القيمة، وهل «القيمة» هي وحدات من الواقع، والوقائع، والأحداث، والنسيج التاريخي، أم هي «زمانية الزمن» في ذاتها عند التوافق في مستويات، وانساق متشابهة، وماذا لو أزحنا الحديقة الباريسية الغنّاء في لوحة «غذاء على العشب»، واستبدلنا بها المنظر «الفينيسي» الريفي الملهم في لوحة جورجيوني، «الكونسير الريفي».

هل نتقابل مع الفكرة القائلة بـ«تفتيت الزمن» أو بتفجيره - أي إزاحة «الموجود المتزمّن» - أي الماضي الذي أخذ يصير حاضرًا، من جورجيوني إلى مانيه، ومن مانيه إلى جورجيوني، ومن ثم نقف على فتحة البوابة التي سوف تشهد فيض الآنات.

النموذج الثاني:

فلو كان الحال كذلك بين «جورجيوني ومانيه»، على ما بينهما من تشابه واختلاف، فإن الأمر يصير أكثر إمكانًا - أي أكثر انطباقًا لأنه أقل حيرة - في لوحة «وصيفات الشرف» عند كل من فلاسكيز «دييجو فلاسكيز» (١٥٩٩ - ١٦٦٠)، و«بابلو بيكاسو» (١٨٨٢ - ١٩٧٣) هناك ثلاثمائة عام على التقريب، تفصل بين اللوحتين اللتين تحملان نفس الاسم «وصيفات الشرف» (Los Meninas)، وبنفس اللغة الإسبانية ونفس الموضوع، والأشخاص جميعًا، والعناصر، والبناء العام، ومنطقة المركز القياسي، والزوايا، بل ونفس المستويات الثلاثة عند كليهما، والتي يفصح أولها عن الملك «فيليب الرابع» واقفًا مع زوجته خارج اللوحة، حيث تبدو صورتهما منعكسة على المرآة المعلقة داخل اللوحة، ثم المستوى المنظوري الثالث حيث يبدو الباب مفتوحًا على البعد وقد غمره الضوء الخارجي فكشف عن المساحة البعدية بين تصورنا لوقفة الملك وزوجته خارج اللوحة تمامًا. ثم أخيرًا وضعة الأميرة «مارجريت» في مركز الثلث الأدنى من اللوحة. إنه انطباق يكاد يكون كاملاً. وهو انطباق أراده بيكاسو بوعي واحتفال للكشف عن براعة «فلاسكيز» من خلال أشهر لوحات الفن، التي هي منهج الحركة الانطباعية خاصة.

فالاختلاف بينهما هو أيضًا في ثلاث نقاط. أولاها هو هذا الأسلوب الذي يباعد بين الماضي في لوحة فلاسكيز وبين الحاضر في لوحة بيكاسو، أو هو الماضي الذي «أعدمه» الزمن ولكنه ظل مؤثرًا في الحاضر الذي سوف يُعدم في المستقبل وهكذا، بحسب هايدجر. والنقطة الثانية تتمثل في أبعاد هاتين اللوحتين، إذ هي عند «فلاسكيز» (٣١٨-٢٧٦سم) منجزة في العام (١٦٥٦)، زيت على قماش بينما هي عند بيكاسو (١٩٤-٢٦٠سم) منجزة في العام (١٩٥٧) زيت على قماش أيضًا، وأما النقطة الثالثة، فتتمثل في ذلك الاختلاف المفصح عن اليقين الأيديولوجي في لوحة «بيكاسو» حيث رسم «فلاسكيز» وهو يقف أمام حامل الرسم داخل الصورة، فإذا به يبدو عملاقًا متوج الرأس داخل الصورة التي رسمها بيكاسو من أدناها إلى أعلاها بحيث بدا جميع الآخرين أقزامًا، على عكس ما كشفت عنه لوحة «فلاسكيز» حين رسم نفسه وهو يقف داخل الصورة أمام حامل الرسم، فبدا حجمه مماثلاً لحجم الآخرين، فنحن هنا أمام إعلان سياسي كرّس فيه بيكاسو القيمة العليا للفن وللفنان متجاوزًا بسببها الحاكم ومن يحكم.

أما بيكاسو الذي قام بإنجاز أربع وخمسين لوحة تحضيرية لصورة «فلاسكيز» «وصيفات الشرف» قبل أن ينتهي إلى لوحته التي أنجزها في العام (١٩٥٧) هذه، فقد تحرك في «الوجود الزماني» وفجّر الآنات الأكثر تاريخية، حيث الماضي حاضرٌ ومؤثِّر، وبالتالي أزاح التاريخ حين كشف عن وحدات القيمة المتبدّية في آنات الزمن لذاتها.

وماذا يكون الحال إذن عند وجود مستويات متباينة لمجموعات المشاهدين؟

نُذكِّر بأننا لا نتحدث هنا عن مناهج الفن، أو التقنيات، أو الاتجاهات والمدارس، وإنما كلامنا مؤسسٌ على فكرة مؤدَّاها أن الزمن صنو للقيمة، وأن الزمنية «قيمية» بحد ذاتها ما دامت كذلك.

ونأتي الآن إلى المُشاهد الذي قد يكون «عربيًا» فيرى في الملك «فيليب» ابنًا «لفيليب الثالث» الذي كان الدعامة الأساسية التي أدَّت إلى طرد العرب من إسبانيا - ثم إلى «المُشاهد الأوروبي» الذي قد يرى «فيليب» ابنًا لذاك الذي خلّصهم من العبودية العربية. هذان نقيضان تاريخيان يحملان زمنًا ماضيًا، ولكنه زمن لم يتم إعدامه بسبب فلاسكيز، إنما المستويات المتنوعة التي يملكها المُشاهد الاعتيادي، أو المُشاهد المثقف، سوف تكشف في التو عن ذلك العالم الذي لم يدر بخلدنا قط، هذا هو «زمن» «مفتت» إلى «آنات»، أو هو وجود ماض ولكنه متزمِّن في الحاضر، ومؤثر في المستقبل، أو هو ليس بتاريخ بقدر ما هو «علم بالتاريخ» الذي لابد هو بدوره أن يكون زمانيًا.

النموذج الثالث:

نأتي الآن إلى النموذج الثالث، فقد انشغلت برسومات المخطوطات في مقامات الحريري «للواسطي» منذ سنوات بعيدة. وأدركت آنئذٍ أن تلك الرسومات لو قيض لها الآن أن تختار مسرحها الزمني تلك السنوات التي نعيشها في بداية الألفية الثالثة، لقلبت موازين الفكرة الجمالية رأسًا على عقب، ولجعلتنا نعيد النظر في اعتقادنا بجدوى كل من خداع «المنظور» و«التباين الظلي» للعناصر.

لقد اكتشَفْتُ حين تأملتها بعضًا من الوقت - جانبًا من تلك الطرافة والوجاهة، بل والمخاطر الجسورة التي تضمنتها أفكار فيلسوف كبير مثل فيرابند، «بول فيرابند»، حين اعتبر «العلمية» أشد عَجْزًا من «الأسطورية»، إذ لأي سبب - حسب تفنيد فيرابند - يسيطر العلم حتى يصير «أبَوِيَّة» جديدة تحكم السلوك الإنساني، وتكبت العواطف، وتقدم الإرشاد للشعور، متجاهلين تجاهلاً تامًا ذلك الغامض الذي يعيش فينا ويحركنا، بينما أمكن للأسطورة - حسب فيرابند - أن تكشف النقاب عن هذا الجانب القوي الفاعل الذي أسقطه العلم من الحساب.

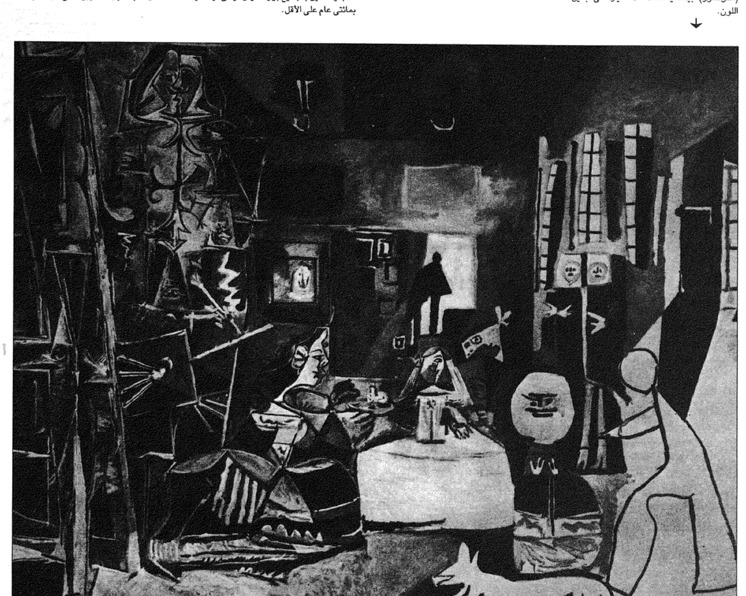
وفي كتابه القيم «نسبية المعرفة العلمية عند فيرابند ١٩٢٤-١٩٩٤» «Feyerabend» من ترجمة «د. محمد أحمد السيد»، حيث يقول بالنص: «لقد أنشأ مخترعو الأسطورة الحضارة، بينما اكتفى العلماء بتغييرها». وهو قول يحمل كل المخاطر الجديدة بإعادة النظر.

ونذكِّر أن دار الكتب القومية في باريس، وهي من أعلى مراتب العلم تصنيفًا، قد وضعت رسوم مخطوطات الحريري التي أنجزها الفنان العراقي الواسطي تحت اسم مشتريها «شيفر» - فأنت إذن لا تعرف في تلك المكتبة سوى «شيفر»، إذا أردت أن ترى عبقرية «الواسطي» - وثمة ذلك الحس «الأسطوري» الذي يوحد الحريري بالواسطي، أي بين الشعر والفن بعد أن فصلت بينهما أعوام قاربت مائة وخمسين.

إذ كتب الحريري مخطوطاته «مقاماته» الخمسين، بينما قام الواسطي «يحيى بن محمود بن يحيى بن أبي الحسن الواسطي» برسمها في ٩٩ منمنمة، عكف فيها على أسلوب الخط المحيط بكل عنصر دون نظر إلى فكرة المنظور، أو تلك النسب المتناقصة للأحجام عند المستويات الأبعد في مساحة المنمنمة - بل كان البعد والقرب والفوق والتحت، في منمنماته شعرية، وشخصية، وعاطفية، وأخلاقية، وجوانية. أي ليست خاضعة «للعلمي»، بل لذلك الغامض في فعل النفس، إذ يتقصى «الواسطي» حركة الخط مبدأه إلى منتهاه، وكانه في رسومه يضع مكانًا «للزمان» والعكس.

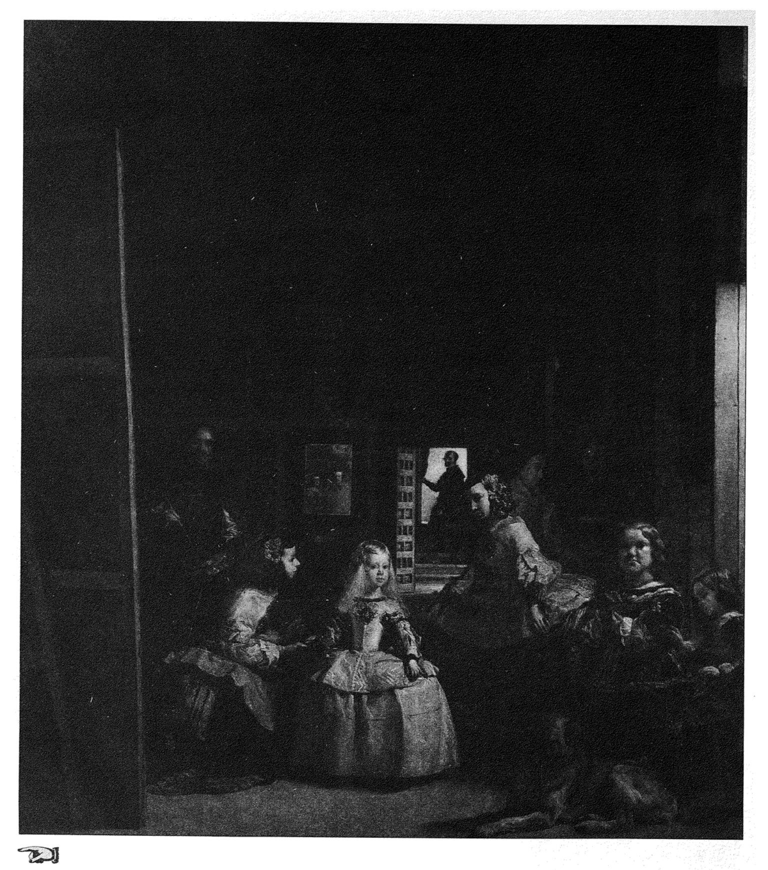
٢ـلوحة بابلوبيكاسو (لوس منيناس) زيت على توال مقاس ٢٥٥×١٩٠سم ١٩٥٧ مقتنيات متحف البرادو بمدريد مع نفس لوحة فلاسكيز. لاحظ نفس العناصر التى شاهدناها فى لوحة فلاسكيز مع استثناءين اثنين:
الأول: صورة فلاسكيز يرسم على اليسار وقد ظهر عملاقًا بالمقارنة لجميع الآخرين.
الثانى: الاعتماد فى بناء العمل على الخط المحيط (الكونتور)، بينما يعتمد فلاسكيز على تباين اللون.

٤ـلوحة «فلاسكيز» (لوس منيناس) الشهيرة أنجزها الفنان سنة ١٦٥٦، على الكانفاس مقاس ٣,٢٣م × ٢,٧٦م، من ممتلكات متحف البرادو بمدريد. لاحظ فلاسكيز نفسه على اليسار يحمل بالتة الرسم أمام لوحة على الحامل. ثم لاحظ مرآة صغيرة فوق رأس الأميرة مارجريت مباشرة حيث يبدو فيها وجها الملك والملكة منعكسين عليها، إذ يوهمنا الرسام بأنهما يقفان على مسافة خارج اللوحة فانعكست صورتهما على المرآة. ولنلاحظ أيضًا البعد المنظورى متمثلاً فى الضوء الساطع الذى يبدو من الباب الخلفى. ثم معادلة فكرة الوفاء بين مارجريت وصديقاتها ووصيفاتها، وبين الكلب الطيب المتمدد فى مقدمة الصورة.
وقد خصص متحف البرادو لهذه اللوحة قاعة بأكملها حتى يتمكن المشاهد من رؤيتها على بعد يسمح لشبكية العين بتجميع بؤر الألوان. وهى لوحة يعدها نقاد الفن الأب الأول للتأثيرية التى ظهرت بعدها بمائتى عام على الأقل.



إن تلك الحركة من المنشأ حتى المنتهى فى الخط المحيط هى فى ذاتها «زمان» يظل حاضرًا ما بقيت المنمنمة لدى المشاهدين. غير أن ذلك ليس هو موضوع كلامنا، وإنما هو الزمن الذى يفصل بين مقامات الحريرى وبين رسوم الواسطى. ثم هو ذلك الزمن الذى بسببه بدأت بعض الدوائر فى معاودة الكشف عن الواسطى فى السنوات الثلاثين الأخيرة. أو لعلها معاودة استحضار «الزمن» الذى كشفت عنه منمنمات الواسطى. إذ أخذ الزمن يتتابع منذ القرن الثانى عشر، وبينما هو كذلك أخذت رسوم الواسطى تزداد حضورًا، وتتدافع قوتها فى بعضها حتى تحررت من «الزمانية» وصارت «لا زمانية» ـ (أى هى صارت صالحة الآن لجميع الآنات، بل هى تلك الطاقة الكامنة فى إعدام الماضى المؤثر فى الحاضر، ثم إعدام الحاضر المؤثر فى المستقبل، ثم إعدام المستقبل ليصير ماضيًا، وهكذا، ثم هى كلمات «فيرابند» التى أخذت على عاتقها مهمة «نبش» «العلم» من أجل ملاقاة الغامض فى الوجود «المتزمن».

ففى كل دورة من دورات تلك الحلقات المتتابعة «الآنات» الزمنية، انشطرت «القيمة» وتبادلت المواقع مع الزمنية. فإذا بالواسطى يبدو ذلك العبقرى دون نظير فى فضاء كل هذا الزمن الذى سبق مولد «جورجيونى» فى القرن الرابع عشر ـ ويبدو لنا الواسطى فى رسومه التسعة والتسعين وكأنه زمن الحريرى، فلذلك نقف متأملين بين زمن «مستعار» وبين زمن أصيل «حاضر». بل نحن أمام زمن مركّب بحسب تفاعل الزمن المستعار من الزمن الحاضر. وأما الزمن الأخير، الذى هو حضورنا نحن كمشاهدين فيبدو وكأنه «وجود



متضاعف»، أى كونه طاقة متفاعلة متحررة من المكان، والزمان معًا.

النمـــــــــوذج الرابع:

على أن الأمر لا يبدو كذلك فى هرم اللوفر بباريس. إذ يبدو الهرم الزجاجى المقام فى متسع منطقة الفناء الداخلى للمتحف العريق، ثلجيًا، قزمًا، حبيسًا فى مكانه. فهو «لا قيمة» له إلا بحسب انتسابه للتاريخى، وليس للزمنى. إذ هو فاقد لهذا النسيج التاريخى الذى تتمحور حوله الآنات.

ولعل هذا الصدام القاسى كفيل بإحداث التفجير الذى سوف يكون مسئولاً عن تفتيت «الزمنية»، و«التزمن» معًا. وهو الذى قد يجلب للمشاهد متعة تأمل هرم خوفو بينما هو ينظر لهرم اللوفر بعين زجاجية، عين عاجزة عن مكابدة فرحة الاجتياز فى الزمن.

غير أننا مع ذلك، نتأمل هذا الصدام الآخر، بين زمن ذلك الهرم الزجاجى ذى الآليات الحاملة الفولاذية، وبين زمن آخر أقل بعدًا من هرم خوفو. إنه هذه المرة صدام بين أساليب حاملة «لآنات» متتابعة، وبين الهرم الزجاجى الذى يمثل عمارة الفكر ما بعد الحداثى. صدام فى أبهاء هذا الفناء العريق لمبنى اللوفر بين ثلاثة مستويات زمنية يضمها مربع اللوفر. تُبرز إحداها روح النهضة الإيطالية فى العمارة الدينية، والثانية تمثل النهج الباروكى للزوايا المتقابلة وتبادل القباب، وأما الثالثة فهى تقدم ما يعرف بالجمال العملى ممزوجًا بالنقائية Purism فى العمارة الداخلية. إنه صدام التوالدات المتزمنة فى الوجود الحاضر، من حيث تم اختراع هذا المصطلح غير الدقيق «ما بعد الحداثة» «-Post Modern



٥ ـ من المقامة الثانية للواسطى «صورة الحارث وهو يجادل زملاءه فى أمور العلم فى دار الكتب بالبصرة والتى كانت منتدى للأدباء والشعراء وإذا برجل كثيف اللحية متغضن الوجه هو أبو زيد السروجى يدخل عليهم ويجلس فى أخريات الناس. وقد حشد الفنان العلماء المشتركين فى الندوة فى مستطيل واحد». «ورص الفنان الكتب أفقيا بعضها فوق بعض على الارفف وفق الطريقة الشرقية بدلا من وضعها رأسية طبقا للطريقة الغربية».
النص بكامله للدكتور ثروت عكاشة من كتابه فن الواسطى، دار نشر دار المعارف ص ٢٤، ٢٥.

ism»، والذى هو فى نفس الوقت قطيعة للحداثة ذاتها، إنه الصدام الذى سوف يخوِّل لهِ إحداث تشظيات مستدعاة من الأزمنة، ثم جدولتها بعد تفتيتها فى الذاكرة المتلقية، ووضعها فى تناقضات من شانها أن تسقط التاريخ، وأن تقوم بإلغاء المنطق، والمعقولية معًا.

إن الهرم الزجاجى ليس سوى مزيج مروع، متضاعف التركيب بين هذا الماضى الذى ظل حاضرًا ومؤثرًا فى الحاضر الذى هو مؤثر فى المستقبل، ممثلاً فى هرم خوفو، وبين الماضى الاقل بعدًا، الذى يقوم الهرم الزجاجى بإزاحته ونفيه، بل وبإعدامه، ممثلاً فى عمارة النهضة الباروكية لعمارة مبنى اللوفر.

وبعد، أليست عملية التلقى ذاتها مرتبطة ارتباطًا لا فكاك منه بذلك المخزون المكون لثقافة فرد ما، ومجتمع ما، فى زمن بذاته. وهل يمكن لأحد منا أن يتلقى جمالية تحتوى على نفس تلك القيمة التى يتلقاها الآخر دون أن يكون رهينًا بذلك المخزون الفاعل لذكريات الثقافة، وبحركة نبضها الفاعل.

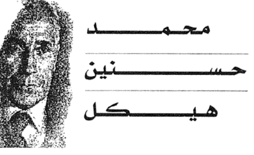
أو لسنا ـ تحت وهم كوننا المؤهلين وحدنا لرسالة الثقافة ـ فى حرب دائمة كُتبت علينا ضد عمليات تنميط التلقى، حتى لا يكون ذلك التلقى أسيرًا لزمان ليس هو زماننا.

ثم ماذا نفعل بينما الزمن هو ذاته يفلت من بين أيدينا، ويتفكك تفكيكًا كلما طلعت الشمس وغربت. ■

هـرم خـوفـو ↑

↓ هـرم اللوفر الزجاجي



محمد حسنين هيكل

ملك تحت الحصار!

■■ إذا كان يمكن وصف يوم أو أسبوع أو شهر في حياة أمة بأنه كان علامة فارقة في تاريخها، فإن شهر ديسمبر ١٩٤٨ هو ذلك الشهر في حياة مصر الحديثة قبل ثورة سنة ١٩٥٢!

(والحقيقة أن تلك السنة ١٩٤٨ ـ في تاريخ العالم العربي تكاد تشبه سنة ١٨٤٨ في التاريخ الأوربي، وكانت تلك سنة تغيرات كبرى، وانقلابات، وحركات عصيان في بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، والنمسا، وإيطاليا، والبرتغال، وروسيا، وصقلية، وحتى سويسرا. وفيها حوصر ملوك ورؤساء وأمراء، وبعضهم سقطت عروشهم مثل «لويس فيليب» ملك فرنسا الذى فر هاربا إلى إنجلترا. وكذلك يمكن القول أن عاصفة الثورة على المجتمعات الأوربية وصلت إلى مجتمعات الشرق متأخرة قرنا بالكامل عنها في الغرب!).

وبصرف النظر عما إذا كان التحديد الزمني. والتخصيص، ممكنا في تاريخ تتواصل حلقاته، وتتسابق أحداثه، وتترتب النتائج فيه على مقدمات سبقتها، فإن شهر ديسمبر ١٩٤٨ شهر لا يترك لباحث أو دارس أو قارئ مجالا غير أن يتوقف عنده ليسمع ما يكاد أن يكون رغم مضى السنين، أجراسا تدق منذرة، ومصابيح حمراء تشتعل محذرة.

والشاهد أن أيام ذلك الشهر تعكس تغيرات هائلة حلت وكان حلولها استحقاقا حان أوانه على المعادلات الحاكمة في الشأن المصرى، وعلى مقدمتها ثلاثية السلطة بين الإنجليز ـ والقصر ـ والوفد.

○ في ذلك الشهر ـ ديسمبر ١٩٤٨ ـ انتقل التأثير الدولي الأهم على القرار المصرى من المملكة المتحدة إلى الولايات المتحدة، أى من الإمبراطورية البريطانية التي شاخت وخفت صوتها إلى الإمبراطورية الأمريكية النازلة على الدنيا كما تنزل الطائرات على مهابطها. ومحركاتها تزعق، وسرعتها تصرخ رغم أن كوابحها تعمل، ثم إن عجلاتها تلامس الأرض كأنه احتكاك نارى بغير شرر!

وباختصار ففي هذا الشهر بدا وكأن الإمبراطورية البريطانية في الشرق الأوسط ـ وجود يشحب، وأن الإمبراطورية الأمريكية زحف يتقدم، مع أنه لا يزال يدعى البراءة وينفى عن نفسه «تهمة» الإمبراطورية، بمقولة أن دوره العالمي في الواقع شركة مساهمة مفتوحة لكل من يريد الدخول إلى زمان جديد يتيح للشركاء نصيبا في الأرباح يأخذها كل جَسور ينظر إلى اليوم وينسى الأمس!

○ وفي ذلك الشهر بدا القصر الملكي مغلقا على نفسه، وبدا الملك «فاروق» فيه مشغولا مهموما بمشاكل تكالبت تحاصره: على المستوى الشخصى الإنسانى، وكذلك على المستوى العام. ولأول وهلة ظهر الملك «فاروق» خائفا من عناصر أفلتت من سيطرته وتحولت إلى مخاطر تقترب من عرشه وتهدد حياته، حتى بدا وكان وصف الأمير «محمد على» ـ ولى عهده ـ في حديث له مع السفير البريطاني قابل للتصديق، رغم أن قائله كاره للملك حاقد عليه. وكان ولى العهد قد ذكر للسفير البريطاني في حديث بينهما «أنا أعرف «فاروق» أكثر منك، إنه «خواف» أبوه زرع في قلبه بذرة الخوف، وأمه تكفلت بالبذرة وحولتها إلى نبت ضعيف لا يقوى على الريح، وخصوصا إذا جاء الريح من ناحيتها. والحقيقة ـ يقول ولى العهد ـ أن «الولد» لا «يعقل» إلا إذا وجد من «يشكمه»، وهو ما لا يقدر عليه أحد في مصر، ولذلك فإن «شكم» الملك مسئوليتكم (الحكومة البريطانية)، وهو في نفس الوقت مصلحته لأنه يعيده للصواب».

وفي ذلك الشهر بالتحديد، كان رهان الملك في فلسطين يخسر، وجيشه يُحاصر، وزوجته «فريدة» تتسلم ورقة طلاقها، وكذلك شقيقته «فوزية»، وأمه تعلن العصيان عليه، والمرأة التي عرض عليها أن تتزوجه وتشاركه العرش والتاج تبعث له من باريس ترفض عرضه وتكسر قلبه!

○ وفي ذلك الشهر بدا واضحا أن قرار الوفد استقر أخيرا في يد «فؤاد سراج الدين» (باشا). وكان القرار في ذلك الحزب عند البداية شراكة بين زعامة «النحاس» وإدارة «مكرم» ـ ثم تحول إلى شراكة نفوذ بين السيدة «زينب هانم الوكيل» و«فؤاد سراج الدين» (باشا). ثم انتهى إلى حالة من الغموض ظهر وسطها «فؤاد سراج الدين» (باشا) وكأنه «وكيل دائرة الحزب ومدير أملاكه»، وتلك ثقافة تقليدية عرفها عصر الملكيات الزراعية الكبيرة في مصر، وكان هذا النجم الصاعد في الحياة السياسية المصرية مستوعبا لهذه الثقافة، وقد نقلها معه من الزراعة إلى السياسة، أى من إدارة تفتيش زراعى واسع إلى إدارة حزب سياسى كبير.

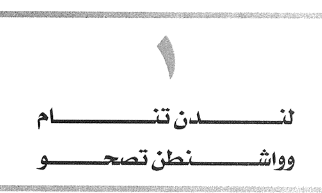
وذلك أدى إلى اختلاف كبير في ممارسات حزب الأغلبية. فالعادة أن الوفد يعتمد على قواعد جماهيرية يستطيع تحريكها عند اللزوم، وعلى مجموعة مبادئ عامة ظلت توجه الرأى العام المصرى طوال مرحلة طلب الاستقلال، بالإضافة إلى قدرة على المناورة السياسية، مع ملاحظة أن أى مناورة يقوم بها أى حزب لابد لها حتى تحقق كامل نتائجها ـ أن تكون قريبة من قواعده الجماهيرية، وموصولة بمشاعر الرأى العام.

لكن الوفد وهو يتحول ـ في ظروف مستجدة، من عقلية حزب جماهيرى شعبى يستشعر آمال الناس ويتقدم للتعبير عنها ويحرك ويحرض ـ إلى دائرة أملاك زراعية شديدة البراعة في جمع المحصول، وتأمين المخازن، وعقد الصفقات، وتوزيع الأقساط وضمان تحصيلها، طرأ عليه تحول أثَّر على شخصيته ذاتها وعلى طبيعة نشاطه!

....

....

[وهذا التصوير لثقافة «فؤاد سراج الدين» (باشا) لا يضيره ولا يسيء إليه، لأن كل شخص يقبل على العمل العام ويدخل ميدانه، يصل إلى هناك ومعه حمولاته الثقافية الكاملة (وفيها الموروث بخصائص الطبيعة، وفيها المؤثر بالبيئة والتربية والقيم الموجهة، وفيها المكتسب بالعلم والمعرفة والتذوق. وأخيرا فوقها المتراكم بالتجربة مع الحياة والناس والظروف)، ولذلك فإن هذا التصوير لثقافة «فؤاد سراج الدين» (باشا) هو في الجوهر توصيف موضوعى يعرض للحقائق دون أحكام قيمة. وغير ذلك وبعيدا عنه فإن قيمة الرجل العام تتأتى، ويكون الحكم عليه بالأهداف العامة، وبالأداء اليومى، وبمقدار ما يضيف أى سياسى من جهد ينجح وينفع.]■



كانت بداية الظهور الأمريكي في القاهرة مجيء «كيرميت روزفلت» ـ ممثلا لمكتب الخدمات الخاصة (الذي تحول فيما بعد إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية). وكان «كيرميت روزفلت» ابنا لرئيس أمريكي سابق هو «تيودور روزفلت»، وبالتالي ابن عم للرئيس الأمريكي الحالي «فرانكلين روزفلت» الذي قاد الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها.

وتبين أول إشارة مكتوبة إلى مجيء «كيرميت» إلى القاهرة في يوميات اللورد «كيلرن» السفير البريطاني العتيد في مصر، وقد سجلها يوم الجمعة ٢٠ سبتمبر ١٩٤٠ ـ على النحو التالي:

«جاء «كيرميت روزفلت» ـ وهو ابن الرئيس الأمريكي الراحل «تيودور روزفلت» للغداء معنا. لم أكن رأيته منذ كنا معا في رحلة صيد في «بكيللنج» ضيوفا على «بيل آستور» و«جون هير». «كيرميت» تطوع الآن في الجيش البريطاني، وجاء يرتدي زي ضابط برتبة «ماجور» في لواء «ميدل سكس»، وكان الغداء مناسبة لطيفة. وكان معنا «هاملتون» و«جراهام» (من الهيئة الدبلوماسية للسفارة البريطانية). مرة أخرى وجدت «كيرميت» شابا حسن المعشر، ولاحظت أنه يتلعثم في كلامه بأكثر مما كان في الماضي. وخطر لي أنه يتعمد ذلك ليعطي نفسه فرصة للتفكير قبل أن يجيب على أي سؤال. وجدت «كيرميت» أيضا أكبر من سنه، وتحدثنا عن دخول أمريكا إلى الحرب، وقال إنه يتعجل دخولها وذلك ما دفعه إلى الالتحاق بالجيش البريطاني. وأنه تحدث في الموضوع مع الرئيس، لكن الرئيس يعطي اعتبارا للموقف الداخلي، رغم أنه في صميم قلبه معنا، وسألته إذا لم يكن التأخير راجعا إلى قرب انتخابات الرئاسة، وأجاب إن ذلك في الغالب صحيح، ولكنه (كيرميت) لا يستطيع أن يقاوم نفاد صبره في انتظار دخول أمريكا إلى الصراع!».

وتكرر تواجد «كيرميت روزفلت» بعد ذلك في مجتمعات القاهرة، حيث تختلط «الطبقة الراقية» المصرية بالصفوة من ضباط الحلفاء (الإنجليز والأمريكيين والفرنسيين وغيرهم) ـ على أنه كان يختفي ويظهر، ثم يعرف أصدقاؤه أنه كان في «جدة» أو في «القدس» أو في «بيروت» أو في «استنبول»، ثم يفهم الجميع أن «كيرميت» يتحرك في محيط واسع، وأنه في هذا المحيط يقوم بدور «ما» هو مسئوليته الحقيقية، والدليل أنه غائب دائما عن وحدته العسكرية البريطانية حتى وإن ظل يرتدي زيها الرسمي!

ويعرف السفير البريطاني اللورد «كيلرن» في القاهرة أن «كيرميت روزفلت» يلتقي بالملك «فاروق» ـ ولا يثير ذلك شكوكا لديه، لكنه لم يلبث أن راجع نفسه في تأثير «كيرميت روزفلت»، وظهر ذلك في برقية منه إلى وزارة الخارجية البريطانية رقم (٤٥/ ٢/ ١٠٥٣) موجها الكلام بالتحديد إلى السير «رونالد كامبل» رئيس إدارة الشرق الأوسط ـ قائلا:

«في لقاء اجتماعي حضره أحد معاوني في السفارة هنا، جلس الملك «فاروق» يتحدث عن تصوراته:

قال «فاروق» «أنه عندما تنتهي الحرب فإن المتاعب الحقيقية سوف تبدأ، لأن الروس (الاتحاد السوفيتي) ـ سوف يباشرون زحفهم السياسي». واستفاض الملك في شرحه قائلا:

«في العادة كان الروس يبدءون دعاياتهم وتحريضهم في بلد، ثم يجيئون بعد ذلك لاحتلاله عسكريا، والآن غيروا الأسلوب، يحتلون عسكريا أولا ثم تأتي الدعاية بعد ذلك لإضعاف أي مقاومة لاحتلالهم. وفي موازين العالم المستجدة فإن القوة الوحيدة التي يمكن أن تتصدى للروس وتقاوم توسعهم هي الولايات المتحدة الأمريكية. وفي ذلك فإن بلدان الشرق الأوسط لابد لها أن تساعدهم». وعندما لاحظ الملك وجود رجل إنجليزي بالقرب منه أضاف «لابد أن تقف بريطانيا مع أمريكا ـ بعد الحرب لمقاومة الشيوعية ـ وأعرف أن الدول الصغيرة هي التي ستدفع الثمن إذا لم تقم الولايات المتحدة بدورها»!

يضيف السفير البريطاني من عنده بعد ذلك ملاحظات واستنتاجات تطول بها برقيته عن الحد المعتاد، ويقول: «إنني لا أريد أن أقرأ في كلام الملك «فاروق» أكثر مما يحتمله، لكن كلامه بهذه الطريقة عن الولايات المتحدة باعتبارها وحدها السد المنيع القادر على صد الشيوعية ـ له معان، أهمها اعتقاده أن الولايات المتحدة ـ دون غيرها ـ تملك موارد القوة القادرة. ومثل ذلك الاعتقاد قد يؤدي به إلى استنتاجات خاطئة يتصور فيها «فاروق» أن سياسته في الدفاع ضد خطر شيوعي يراه، لا يتم بغير تعاون وثيق مع أمريكا».

ويمضي السفير البريطاني إلى «بكائية» طارئة على عجرفته التقليدية أيام خدمته في مصر فيقول:

«من سوء الحظ ـ على نحو ما ـ أننا تحملنا وحدنا الجزء الأول والأخطر من الحرب، ثم جاء الأمريكيون في الجزء الثاني منها، وبالطبع فإن المصريين وفيهم ملكهم، لن يفوتهم ملاحظة أن الأخبار الواردة من ميادين القتال في أوربا ـ وتظهر أن الجيوش الأمريكية والسوفيتية هي التي تقود النصر ضد ألمانيا.

وعندها تبدو لهم الولايات المتحدة عملاقا، ويبدو لهم الاتحاد السوفيتي عملاقا آخر، ولا يخطر على فكرهم أن أمريكا لن تستطيع أن تتحمل التزام الدفاع عن الشرق الأوسط.

إنني آمل أن لا يمر وقت طويل قبل أن يفهم الملك «فاروق» ـ وغيره ـ أن أمريكا لن ترضى بحمل «الطفل» في الشرق الأوسط America will not carry the Middle East baby..

إنني متأكد أن «فاروق» مرعوب من الشيوعية وإذا كان ذلك، فإن عليه أن لا يبحث عن حماية أمريكية، ولكن عليه أن يبحث عن تحسين أحوال شعبه.

لابد أن أضيف أنني أظن أن هناك من يزينون لفاروق لعبة أنه يستطيع استعمال الأمريكان لكي يثير غيرتنا، وذلك ابتزاز لا يصح لنا أن نرضخ له»!

لكن اللورد «كيلرن» لا يهجع لأن «كيرميت روزفلت» يقابل الملك «فاروق» كثيرا، وفي بعض المرات تطول اللقاءات في بيت «كريم ثابت»، وكذلك يقرر السفير البريطاني أن يثير الموضوع مباشرة مع الوزير الأمريكي المفوض «بنكني تاك» ـ ثم يكتب إلى وزارة الخارجية تقريرا عن هذا اللقاء (٢٧١/ ٦٢٩٧٥) يقول فيه:

«رتبت الفرصة لحديث صريح مع الوزير الأمريكي المفوض «بنكني تاك» في شأن الأحوال الراهنة هنا وقد ذكرت له ما يلي:

● المصريون يستغلون مؤتمر سان فرانسسكو لكي يتجاوزوا ضرورة مفاوضات مصرية ـ بريطانية مباشرة، وهذه دسائس «بدوي» (يقصد عبد الحميد بدوي باشا)، وعلى أي حال فسوف يكون لي «كلام قاس» معه حين يعود إلى القاهرة.

● هناك انطباع لدى «الجماعة» هنا بأن بريطانيا منتهية في الشرق الأوسط، وأن مصر لابد لها من الاعتماد مستقبلا على أمريكا، وذلك انطباع أحمق يتجاهل الحقائق، وأهمها وجود تعاون بريطاني ـ أمريكي وثيق في مناطق العالم كله.

● والمصريون كالعادة يظنون أنهم شطار Smart ويحلمون بأن يجعلوا من الطرفين (نحن والأمريكان) ـ خيول سباق، وهو جنون مطبق، وخشيتي أن بعض الناس يشجعون هذه الأوهام، وهي في المحصلة النهائية تضر إمكانيات الدفاع عن الشرق الأوسط.

● قال لي «بنكني تاك» أنه يتفهم ما قلت، وهو لم يترك فرصة لتبديد وهم المصريين بأنهم يستطيعون الإيقاع بين الحليفين الكبيرين (الولايات المتحدة وبريطانيا). لكنه لسوء الحظ يعرف أن «بعضا من رجاله» ينسون أنفسهم في ممارسة مثل هذه الغوايات الخطرة للمصريين، وقد نبه بعضهم مرات إلى تلك السخافة.

● إنني أعرف بوسائلي أن «بنكني تاك» حريص على الدور الخاص لبريطانيا في الشرق الأوسط، وقد نقلت إلى قرينة ولي العهد اليوناني عنه كلاما ينصح فيه ـ حتى اليونانيين ـ بأن «علاقة وثيقة» بين الجميع

من اللورد «كيلرن»
إلى الخارجية البريطانية:
«المصريون كالعادة يظنون أنهم شطار Smart يحلمون بأن يجعلوا من الطرفين (نحن والأمريكان) ـ خيول سباق، وهو جنون مطبق، وخشيتي أن بعض الناس يشجعون هذه الأوهام»



وبين المملكة المتحدة هي الضمان الحيوي لأمنهم، وأن عليهم تقدير أن التحالف «الأنجلو أمريكي» قوي للغاية!».

وفي تقرير لاحق يزيد اللورد «كيلرن» بتسجيل ملاحظة قالها للوزير الأمريكي المفوض ونصها:

«قلت لـ «بنكني تاك» إن الولايات المتحدة لها «مبدأ مونرو» - خط منتصف المحيط الأطلسي والهادي أيضا - الذي أعلنته للقوى العظمى حتى تراعيه وتلتزم به ولا تتدخل في شئون الأمريكتين. وبالنسبة لبريطانيا العظمى فإن لدينا شيئا مماثلا في شأن الشرق الأوسط، ومن الضروري أن يراعيه الجميع ويلتزموا باعتبار أن المنطقة تخصنا وتخص أمننا ومصالحنا الحيوية!».

ثم يروي اللورد «كيلرن» في تقرير (٢٠٦ / ٢٢٣١) واقعة غريبة لا تظهر من حولها أية تفاصيل:

«قال لي الوزير الأمريكي المفوض أنهم استعادوا مبلغ ٤٠ مليون دولار بطريقة معينة «ولا أعرف كيف؟ - ولا من أين حصلوا عليها؟ - أو ممن؟» - وأنهم بسبب ذلك سوف يتركون يدنا طليقة في منطقة الشرق الأوسط!».



ويفاجأ اللورد «كيلرن» - ربما - حين يصله رد على برقياته المتكررة المحذرة من محاولة دخول أمريكي في مصر، ويكتب إليه وكيل الخارجية اللورد «كادوجان» بنفسه (١٦/٣/١٩١٣) قائلا:

صديقي العزيز

قرأت برقياتك الأخيرة، وأرى من المفيد أن يعرف الأمريكان حجم اهتمامنا وصلابتنا فيما يتعلق بدورنا القيادي في مصر، لكني أرجوك ألا تعطيهم الانطباع بأننا نريد استبعادهم نهائيا من هذا البلد. إننا نريد منك أن تنقل إليهم ترحيبنا بتعاون يستلهم روح العلاقة الخاصة البريطانية - الأمريكية في مصر كما في غيرها، لكننا نريدهم في الموضع المناسب والموضوع المناسب أيضا.

ويرد اللورد «كيلرن» على اللورد «كادوجان» (٤٥٩٢١ / ٣٧١) برسالة يقول فيها:

عزيزي أليكس

لا تقلق لأني حريص دائما أن يكون واضحا في كل ملاحظاتي على محاولة الدخول الأمريكي في مصر أننا نتعاون معهم بنسبة ١٠٠٪ - واعتقادنا أن في مصر متسعا لنا وللأمريكان في نفس الوقت، لكني لا أريد أن أترك مجالا للشك في حقيقة أن قناة السويس هي شريان الحياة بالنسبة لنا. وأن اهتمامنا بالدفاع عن مصر متصل بدفاعنا عن أنفسنا.

دعني أضيف أيضا أننا في حاجة إلى أن يتخلص الأمريكان من إغراء العودة إلى العزلة وراء المحيط الأطلنطي كما فعلوا بعد الحرب العالمية الأولى. وأنا واثق أن ذلك لن يتكرر بسبب مطالب أمريكا في بترول الشرق الأوسط، إنني أسلم لهم بهذه المطالب، ولكن ذلك لا يبيح لهم الدخول بغير حدود في مصر لأن تلك بالنسبة لنا مسألة حياة أو موت.

كان اغتيال «النقراشي» (باشا) قد جرى صباح ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨، وعهد الملك إلى «إبراهيم عبدالهادي» (باشا) برئاسة الوزارة خلفا له على الفور، وكانت أول خطوة قام بها رئيس الوزراء الجديد - دعوة السفير البريطاني في القاهرة لمقابلته

ويختم «كيلرن» رده على «كادوجان» بقوله:

ما هو رأيك - هل تراني على حق يا سيدي؟
Am I right sir?



ومن حسن حظ اللورد «كيلرن» أن سير الحوادث أثبت أن مخاوفه مبررة - لكنه لم يكن على حق.

والذي حدث أن حكومة العمال (برئاسة كليمنت آتلي) - وقد جاءت مهتمة ببرامج إصلاح اجتماعي استدعتها إلى السلطة وأقصت المحافظين بزعامة «تشرشل» رغم أنه قائد النصر، ثم تبين لها أنها لا تستطيع التورط في نفقات عسكرية باهظة - وارتأت أن تترك للولايات المتحدة مهمة «تطوير بعض الجيوش في الشرق الأوسط»، وبالذات تلك الجيوش التي طلبت معونة الولايات المتحدة وأولها الجيش التركي. وكان ذلك ما دعا الملك «فاروق» إلى عملية جس نبض يستكشف بها إذا كانت الولايات المتحدة مستعدة لتطوير الجيش المصري عن طريق «مساعدة في التدريب والتسليح». وعندما طرح طلب الملك في اجتماعات التنسيق (البريطاني - الأمريكي)، لم تكن هناك - على عكس المنتظر - معارضة بريطانية، وكانت الخطوة الأولى في تلبية طلب الملك، ضرورة قبول «بعثة عسكرية أمريكية إلى مصر»، وقد وافقت بريطانيا كذلك - وكان المفروض أن مجيء هذه البعثة الأمريكية خطوة أولى على طريق تطوير الجيش المصري - لكن مجيئها أصبح الخطوة الأخيرة أيضا، لأن المسألة توقفت عند هذا الحد. لكن مجرد وجود بعثة عسكرية أمريكية بالفعل في مصر - (ومن حسن حظ اللورد «كيلرن» أنه لم يكن في مصر وقتها، وإنما كان في منصب آخر قرب جنوب أفريقيا) - وكان ذلك استفزازا لأحلامه كما عبر عنها في مرحلة سابقة.

ثم وقع النفاذ الأمريكي السياسي الأكبر في مصر، ذلك الشهر الخطير أيضا ديسمبر ١٩٤٨.



كانت القوات الإسرائيلية قد اجتازت خط الحدود قبل يومين، واخترقت الجبهة المصرية، مهددة بتطويق الجيش الميداني وقيادته في فلسطين.

وكان اغتيال «النقراشي» (باشا) قد جرى صباح ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨، وعهد الملك إلى «إبراهيم عبد الهادي» (باشا) برئاسة الوزارة خلفا له على الفور، وكانت أول خطوة قام بها رئيس الوزراء الجديد - دعوة السفير البريطاني في القاهرة لمقابلته. وكتب السير «رونالد كامبل» إلى وزير الخارجية «أرنست بيفن» برقية سرية يروي فيها تفاصيل المقابلة:

«أبلغت «عبد الهادي» عزائي وأسفي لما جرى لسلفه، وهو في نفس الوقت صديقه وزعيمه قبل أن يصبح «عبد الهادي» رئيسا للديوان ويترك حزب السعديين. وكان «عبدالهادي» متأثرا وقلقا بسبب ما وصلت إليه الأوضاع على الجبهة، وهنا ذكرت له أن «حيدر» (باشا) وزير الدفاع قابلني صباح اليوم، ووجه إلي سؤالا عن أية مساعدات نستطيع تقديمها لهم، وأوضحت لرئيس الوزراء الجديد أنه من المفيد أن تعرف حكومة صاحب الجلالة البريطانية ما إذا كان الطلب الذي قدمه «حيدر» (باشا) بالحصول على معدات حربية وذخائر هو طلب رسمي باسم الحكومة المصرية، وإذا كان الأمر كذلك فعلى أي أساس سياسي وقانوني تم التقدم به؟ ورد «عبد الهادي» (باشا) قائلا: «إن الطلب بالتأكيد مُصدق عليه من قِبَل الحكومة المصرية، وأبدى أن مصر حاولت مخلصة أن تمتثل لقرارات مجلس الأمن، لكن اليهود أظهروا المرة بعد المرة ازدراءهم لسلطة الأمم المتحدة بقيامهم بأعمال عدوانية متكررة، ضاربين عرض الحائط بالهُدنة وبغيرها من قرارات مجلس الأمن، وانتهى الأمر باختراقهم الأراضي المصرية، والحكومة المصرية إذ تطلب أسلحة، فليس الغرض من ذلك هو العدوان، بل لكي تدافع مصر عن نفسها.

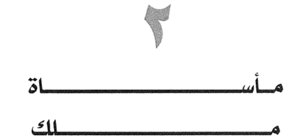
وسألت رئيس الوزراء المصري إذا كان يقترح قيام حكومة صاحب الجلالة برفع الحظر المفروض على الأسلحة من طرف واحد - فإذا كان، فهل أدخل في حسابه أن من شأن ذلك أن يفضي لا محالة إلى رفع الحظر بصورة عامة في المنطقة، مما يترتب عليه أن يتمكن اليهود من الحصول على الأسلحة، وكذلك على المتطوعين بحرية وعلنا، بحيث يصبح الوضع الأخير شرا من الوضع الأول.

وانتهيت بأن أوضحت لرئيس الوزراء المصري أنه متى ثبتت واقعة الغزو اليهودي للأراضي المصرية، فالمتعين أولا أن تتلقى حكومة صاحب الجلالة طلبا رسميا بالمساعدة من الحكومة المصرية، ثم تنظر في الإجراء الذي تستطيع اتخاذه. وأشرت إلى أن التعليمات صدرت إلى سفير صاحب الجلالة بأن أي طلب بالمساعدة من جانب الحكومة المصرية ينبغي أن يتم بموجب المعاهدة الإنجليزية المصرية لسنة ١٩٣٦، وبمقتضاها. وإنه لما يساعدنا كثيرا أن يكون تقديم الطلب المصري فعلا على هذا الأساس.

هناك سجل متفق عليه لهذه المناقشة سوف يرسل إليكم في الحقيبة.

ويُرجى من وزارة الخارجية تمرير ذلك على وفد المملكة المتحدة في نيويورك وواشنطن حسب برقيتي رقم ١٥٥ و٢٠١ على التوالي».

وكان الملك «فاروق» قد تحدث مع السفير الأمريكي في القاهرة بمثل ما تحدث مع السفير البريطاني، وكان الملك يتصور أن بريطانيا سوف تبادر - لكن الذي حدث أن الولايات المتحدة التي قررت دخول المنطقة (البحر الأبيض والشرق الأوسط) - سارعت وتحركت، وكانت البؤرة الساخنة في تلك اللحظة قد انتقلت إلى تل أبيب، مع تقدم عمليات الخطة الإسرائيلية «حوريف». وكتب الرئيس الأمريكي «هاري ترومان» إلى «دافيد بن جوريون» (رئيس الوزراء الإسرائيلي) وراح النفوذ الإمبراطوري في الشرق الأوسط يتحرك عبر المحيط من شاطئ إلى شاطئ - من أوروبا إلى أمريكا.



٢ مأساة ملك

....

....

[لأن هذا الجزء من هذا الحديث يدور حول المأساة الإنسانية للملك «فاروق» وتأثيرها ـ بعيد المدى ـ عليه وعلى تصرفاته، فقد التزمت عند التعرض للوقائع خلاله بضوابط شديدة الصرامة، تفصل إلى أقصى حد ممكن بين العام والخاص. ومع أنى استمعت، خصوصا من السيدة «ناهد رشاد» ومن الأستاذ «كريم ثابت» إلى تفاصيل كثيرة عن المأساة الإنسانية للملك «فاروق»، فإنى أوثر ألا أروى شيئا مما سمعت هنا، لأنه قد يدخل فى «الشأن الخاص» ـ وقد اعتبرت أن ما يحق تناوله كشأن عام، هو ما ورد فى الوثائق كتابة، وما اطلع عليه من يعنيهم الأمر، وما تداولته الأيدى وحفظته الملفات، وكذلك فإن كل تفصيل فى هذا الجزء يعتمد على واحد من ثلاثة مصادر:

ـ ملفات مجلس البلاط الملكى (وهى ضمن محفوظات قصر عابدين وبالذات مجموعة محاضر ومذكرات المجلس عن الفترة ما بين ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠).

ـ دفاتر يوميات قيادة الحرس الملكى وهيئة الياوران، (وكان الياور الملكى الخاص فى تلك الفترة هو اللواء «عثمان المهدى»، الذى أصبح رئيسا لهيئة أركان الحرب، وكان يشغل هذا المنصب فعلا عندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢).

ـ وثائق الخارجية البريطانية وبالذات ما كتبه السفير البريطانى السير «مايلز لامبسون» (اللورد كيلرن فيما بعد) وكان مهتما برصد أخبار الملك «فاروق» وأسرته].

....

....

وفى الحقيقة فإن كافة المصادر تكاد تجمع على أن شهر ديسمبر ١٩٤٨ كان ذروة المأساة الشخصية للملك «فاروق» كرجل وإنسان، ففى اليوم الأول من ديسمبر تظهر فى ملفات مجلس البلاط مذكرة بخط يد «حسن يوسف» (باشا) ـ القائم بأعمال رئيس الديوان وبوصفه أمين مجلس البلاط ـ ومرفوعة إلى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم، وفيها أن الملكة «نازلى» اتصلت به تليفونيا من فندق «فيرمون» الذى تقيم فيه (مع الأميرتين فايقة وفتحية) فى كاليفورنيا ـ كى تبلغه أنها قرأت مثلها مثل كل الناس خبر طلاق الملك «فاروق» من زوجته الملكة «فريدة»، ومعه فى نفس الوقت خبر طلاق أخته الإمبراطورة «فوزية» من زوجها شاه إيران «محمد رضا بهلوى».

وفى المذكرة نقل «حسن يوسف» (باشا) عن الملكة «نازلى» أنها منزعجة لأن خبر الطلاق نُشر دون استئذانها. ونقل عنها «حسن يوسف» (باشا) أنه فيما يتعلق بطلاق «فاروق» فذلك شأن الملك وليس عليه أن يستأذن فيه أحدا، لكن عدم استئذانها فيما يتعلق بالأميرة «فوزية» أمر مستغرب لأنها ابنتها. وجاء فى المذكرة نقلا عن الملكة أن «جلالتها كانت تعرف أن زواج «جلالة مولانا» وزواج «جلالة الإمبراطورة» يواجه «بعض الصعوبات»، لكنها لا ترى ذلك سببا لتجاهل موافقتها».

ونقل سكرتير مجلس البلاط بعد ذلك عن الملكة، شكاوى كثيرة لديها، بما فيها عجزها عن تحصيل حقوق مالية تطالب بها من إيراد ممتلكاتها، ومع ذلك يُقال لها كل مرة أن التحويلات متأخرة، أو أن تحصيل الإيراد ضعيف. وفى المذكرة بعد ذلك نقلا عن الملكة «نازلى» أنها قررت عدم العودة إلى مصر فى الظروف الراهنة. وفى المذكرة أيضا عن الملكة الأم أنها حاولت الاتصال بابنها ولم تنجح، وأنها اتصلت بشقيقها «شريف صبرى» (باشا) الذى أبلغها أنه مثلها «قرأ الأخبار فى الجرائد رغم أنه (على الورق) عضو فى مجلس البلاط!»



كانت علاقة الملك «فاروق» بأمه الملكة «نازلى» علاقة شديدة التعقيد، وذلك أنها فى سنوات صباه خصوصا بعد وفاة والده الملك «فؤاد» (١٩٣٦) وحتى زواجه (١٩٣٨) ـ ملكت تأثيرا شديدا عليه، حتى قيل أنه تحت سيطرتها الكاملة.

ثم طرأ «شىء ما» على هذه العلاقة، عندما عرف «فاروق» أن الملكة «نازلى» تزوجت من «أحمد حسنين» (باشا) مرشده، وأمينه الأول، ورئيس ديوانه ـ ثم إن هذا الشىء الذى طرأ ظل مبهما وغامضا ـ مكتوما فى قلب الملك الابن ـ لا يبوح به.

....

....

[وإن كانت الملكة «فريدة» ـ السيدة صافيناز ذو الفقار كما كان اسمها قبل الزواج وبعد الطلاق ـ روت لى دون تفاصيل «أن معرفة «فاروق» بهذا الموضوع سببت له جرحا عميقا، خصوصا أنه كتم فى نفسه ولم يبح، فقد أراد والدته بقربه تعلقا بها، وأراد رئيس ديوانه إلى جانبه يساعده على ظروف صعبة اعتقد فيها أن الإنجليز يعادونه والوفد يتآمر عليه».

لكن انقلابا مفاجئا نزل على هذه العلاقة عندما قُتل «أحمد حسنين» (يناير ١٩٤٦) فى حادث اصطدام سيارته بلورى عسكرى (من الجيش البريطانى) على كوبرى قصر النيل يوم شتاء ممطر!]

....

....

وكان الملك «فاروق» قد هرع إلى بيت «أحمد حسنين» (باشا) فى ميدان المساحة بالدقى، وطلب من أمين البيت الكتوم «صادق» أن يفتح له غرفة نوم «الباشا»، ودخل الملك وأغلق الباب على نفسه قُرابة ساعة (وظهر فيما بعد أنه كان يبحث عن أية أوراق تكشف عن زواج الملكة «نازلى» بأحمد حسنين أو تشير إلى علاقة بين الاثنين). ثم خرج الملك من بيت (المرحوم) (بتعبير الملك فاروق)، عائدا إلى القصر، حيث أقبل لعزائه عدد من الأمناء يتقدمهم «محمود السيوفى» (بك) ـ وفوجئ «السيوفى» وهو يقدم عزاءه للملك قائلا: «إن خسارة «حسنين» (باشا) كبيرة، لكن البركة فى مولانا»، ورد الملك «فاروق» بلهجة غريبة، «خسارة إيه، كفاية بقى». وكانت دهشة الأمناء بالغة، وسرى فى القصر أن الملك لا يريد أن يعزيه أحد فى «حسنين» (باشا).

ويروى «حسن يوسف» (باشا) أنه بعد غياب «حسنين» بأسبوع، قال له «فاروق» «إنه اليوم فقط يشعر أنه بالفعل ملك». وكان «حسن يوسف» (باشا) يتفهم حجم الضغوط التى كبتها الملك داخل مشاعره، لكنه تمنى لو أنه (الملك) سيطر أكثر على أعصابه حتى لا يشعر من فى القصر (والدولة)، أن الجالس على العرش كان مقهورا ممرورا، (والواقع أن المشهد كان قريب شبه من أجواء شكسبير فى مسرحية «أوديب ملكا»).



ولم تستطع الملكة «نازلى» أن تفهم أكثر من أنه عندما مات «حسنين» اختفى عن أنظار «فاروق» آخر رجل فى مصر كان «يخاف منه»، وكذلك كان قولها إنه «ما كاد «حسنين» يدخل قبره حتى أصبح «فاروق» «نمرودا» يريد أن يظهر قدرته على البطش بكل الناس، حتى أنا أمه التى ولدته وأحبته».

(وفى تعبير «عبد الفتاح عمرو» (باشا) «أن موت «حسنين» أطلق فى مشاعر الملك «فاروق» عداء مكبوتا تجاه والدته، وكأنه كان هناك مخزون من الغضب ضاق به وعاؤه النفسى، فلما انكسر انفجر»).

وفيما بقى من شهور سنة ١٩٤٦ زادت سفريات الملكة «نازلى» إلى الخارج، وابتداءً من سنة ١٩٤٨ حطت رحالها فى الولايات المتحدة، حتى أبلغته عن طريق سكرتير مجلس البلاط يوم أول ديسمبر ١٩٤٨ أنها «لن تعود إلى مصر»!

ولم تكن تلك نهاية قصة الملكة «نازلى»، كما أن هذه القصة لم تكن القصة الوحيدة فى الأحزان الشخصية للملك «فاروق» (بصرف النظر عما إذا كان هو مسئولا عن هذه الأحزان أو كانت المسئولية على غيره).



كانت الملكة «فريدة» (صافيناز ذو الفقار قبل زواجها من الملك وبعد طلاقها منه) ـ هى القصة الأكبر فى حياة «فاروق».

لم تستطع الملكة «نازلى» أن تفهم أكثر من أنه عندما مات «حسنين» اختفى عن أنظار «فاروق» آخر رجل فى مصر كان «يخاف منه»، وكذلك كان قولها إنه «ما كاد حسنين» يدخل قبره حتى أصبح «فاروق» «نمرودا» يريد أن يظهر قدرته على البطش بكل الناس، حتى أنا أمه التى ولدته وأحبته»

....
....

[وحين قابلتها أول مرة في بيت زوج خالتها «حسين سري» (باشا)، كانت مصممة ألا تتكلم عن «فاروق» بأكثر مما هو عام، وفي أقل حد ممكن، وقُصارى ما قالته يومها «إنها تعرف أن «فاروق أحبها» وأنه «والد بناتها»، وهي لا ترغب في الإساءة إليه برواية شيء عن زواجهما وطلاقهما - ثم زادت بنبرة مبهمة أنه في كل ما يُقال فقد كان هو لسوء الحظ البادئ، قالت ذلك وسكتت ثم أضافت على استحياء «والبادي أظلم» كذلك يقول المثل! وابتسمت برقة - وغيرت مجرى الحديث مشيرة إلى مجموعة نخيل في نهاية حديقة البيت الريفي لحسين سري (باشا) على أول الطريق الصحراوي إلى الإسكندرية، وكانت السيدة «ناهد سري» هي التي اختارت للبيت اسمه: «دار الحمد».]

....
....

وليس هناك (طبق كل الروايات) شك أن «فاروق» كان «البادئ»، ولعلها كانت بداية اضطرارية وتعويضية، ذلك أن الملك كان عاشقا لزوجته الشابة - لكنه لم يكن مجربا، فقد كان دون العشرين عندما تزوجها، والنتيجة (وذلك رأي الأميرة فايزة شقيقة الملك «فاروق») - أن الزواج كان «فرحا ملكيا» أكثر منه «فرحا إنسانيا». وترتب عليه (وهو أيضا رأي الأميرة فايزة) أن «فاروق» أراد أن يعوض وبالتالي راح يستعرض، ثم (رأيها كذلك) أن حاشية سوء ساعدته على جعل «الغلط» «طريقة حياة».

(والحقيقة أن هناك اعتبارا مؤثرا لابد من حسابه في الحكم على تصرفات «فاروق» في حياته الخاصة - وذلك أن ظروفه العامة من ٤ فبراير ١٩٤٢ (الانقلاب العسكري البريطاني) وحتى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ (حين أقال وزارة «النحاس» (باشا)) - عزلته تقريبا عن ممارسة سلطته الدستورية كملك، وهمشت دوره السياسي، ومن ثم وجد لديه فراغا لم يعرف كيف يملؤه، خصوصا أن أفقه الثقافي لم يساعده، ثم إن ظروفه العائلية طاردته، وكذلك فإن «الهرب» - حتى في حياته الزوجية - أصبح أكثر من «الغلط» من طريقة حياة!).



ولعل أفضل مرجع تناول محاولة الملكة «فريدة» في الرد على البادئ الأظلم هو كتاب المؤلفة البريطانية «أرتميس كوبر» وعنوانه (القاهرة: سنوات الحرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥). وكان المهم فيما كتبته المؤلفة البريطانية المشهورة أنها أسست ما قالته على الوثائق الرسمية للحكومة البريطانية سنة ١٩٤٣، وضمنها تقارير المخابرات العسكرية البريطانية، إلى جانب تقارير اللواء السير «توماس راسل» (باشا) حكمدار بوليس القاهرة وقتها. وتجيء رواية «أرتميس كوبر» في كتابها بدءا من صفحة ٢٢٩ على النحو التالي:

كانت «فريدة» في أزمة بسبب مغامرات زوجها، وكان أكثر ما يضايقها علاقته المشبوهة بالعاطفة مع النبيلة «فاطمة طوسون» زوجة النبيل «حسن طوسون» ابن الأمير «عمر طوسون»

في بداية شهر مارس ١٩٤٣ أبدى الملك «فاروق» شكوكه من تكرار زيارة زوجته الملكة «فريدة» لرسام بريطاني جاء إلى مصر ضمن القوات البريطانية في ظروف الحرب اسمه الكابتن «سيمون إلويس».

كان هذا الضابط في الأربعينيات المبكرة من عمره، وقد وصل إلى مصر في نوفمبر ١٩٤١ مع الكتيبة العاشرة للهوسار. والحق بقسم العلاقات العامة بقيادة القوات البريطانية في مصر. وبعد وصوله بفترة قليلة ظهر «إلويس» في مجتمعات القاهرة، يرسم لوحات زيتية لعدد من الشخصيات ضمنها السفير البريطاني السير «مايلز لامبسون»، والسيدة «كونسويلو رولو» الزوجة الجميلة للمليونير اليهودي الأشهر في مجتمع الإسكندرية، وغيره من نجوم المجتمع المصري - البريطاني المختلط في تلك الفترة الغريبة. وكان «إلويس» يعتبر نفسه «دون جوان»، وقد قال لأحد أصدقائه أنه يستمتع عندما يرسم لوحة لامرأة جميلة، لكن الإلهام لا يكتمل عنده إلا إذا عرف صاحبة اللوحة بطريقة حميمة.

كان «إلويس» طموحا وقد طلب أن يرسم صورة لملك مصر وملكتها الملكة «فريدة». ولم يكن لدى الملك «فاروق» فيما يبدو وقت، وكذلك فإن الملكة «فريدة» بدأت جلسات طويلة أمام الرسام الإنجليزي، والتقى الرسام بالملكة «فريدة» لأول مرة في بيت خالتها السيدة «ناهد سري» (زوجة حسين سري باشا)، وقد سبق الجلسات اتفاق بين «إلويس» وأحد مسئولي القصر، على أن يتقاضى «إلويس» مبلغ ألف جنيه استرليني عن الصورة، وأن يحصل على نصف أتعابه مقدما مع أمله في أنه إذا وجد الملك «فاروق» وقتا فإن نفس العقد يتكرر معه.

وقبل جلسات الرسم تلقى «إلويس» تحذيرات من أحد مستشاري السفارة بأن يكون حريصا في تصرفاته مع الملكة، لأنه يتعامل مع مجتمع شرقي له حساسياته وتقاليده، ولذلك يجب أن يكون شديد التحفظ في مسلكه، خصوصا في حضرة الملكة.

كانت الجلسة الأولى في قصر عابدين وتكررت الجلسات، ثم أبدى «إلويس» للملكة شكواه من أن حركة الوصيفات من حولها ومقاطعتهن لها تفسد عليه تركيزه، وأبدى أنه من الصعب مواصلة العمل في هذا الجو، وسأل الملكة إذا كان في وسعها أن تذهب إليه في مرسم يعمل فيه لأن ذلك سوف يكون أدعى إلى كمال الصورة.

كان اقتراح «إلويس» - حتى وإن كان مألوفا في مجتمعات غربية - صدمة لوصيفات الملكة في البلاط المصري. لكن «إلويس» أصر على أن مواصلة العمل في قصر عابدين صعبة عليه، وتمكن من إقناع الملكة «فريدة» من أن تذهب إليه حيث يسكن مع عدد من زملائه الضباط - وحيث يعمل أيضا.

كانت الملكة «فريدة» في بواكير العشرينيات من عمرها، وقد أنجبت لزوجها ابنتين هما «فريال» و«فوزية»، ولم تكن قد نجحت في إنجاب ولي للعهد يكفل استمرار حكم أسرة «محمد علي».

وفي ذلك الوقت كانت «فريدة» في أزمة بسبب مغامرات زوجها، وكان أكثر ما يضايقها علاقته المشبوهة بالعاطفة مع النبيلة «فاطمة طوسون» زوجة النبيل «حسن طوسون» ابن الأمير «عمر طوسون»، وكانت سيدة فائقة الجمال، وفي وقت من الأوقات عرض عليها الملك «فاروق» أن تحصل على الطلاق ويتزوجها هو بعد ذلك. في تلك الأيام أيضا كما روت الملكة «فريدة» فإن علاقتها بالملك «فاروق» ساءت إلى درجة أنه لم يعد بين الزوجين خطاب مباشر. وكانت الصلات بينهما عن طريق الوصيفات أو سكرتارية الملك. وكان ذلك هو السبب الذي أبدته «فريدة» لعدم استئذان أحد حتى زوجها في الذهاب إلى مرسم «إلويس» حتى يستكمل رسم صورتها، وكانت بذلك تعرض نفسها ومركزها إلى خطر شديد في مجتمع شرقي متحفظ، خصوصا أنه كان من الصعب إبقاء زياراتها لإلويس سرا. وكانت تذهب كل مرة وفي صحبتها وصيفة اسمها «عقيلة هانم». وكان وصولها كل مرة ملحوظا، وكان للقصر الملكي شبكة معلوماته. وكان أفراد الشبكة من «السفرجية» السودانيين، ومعظمهم على اتصال بمحمد حسن النوبتجي الخاص القائم على خدمة الملك.

كان «سيمون إلويس» يعيش في شقة مع اثنين من ضباط سلاح الطيران هما «سوني ويتني» و«ويتني ستريب» والأخير من أسرة بريطانية - أمريكية وقد قُتل فيما بعد في فرنسا. وكان شريكا «إلويس» في شقته يعرفان بزيارات الملكة السرية إلى مسكنهم ويحرصان على التسلل خارجين منها عندما تجيء. ومن سوء حظهم أن الملك «فاروق» جاء مرة بنفسه إلى الشقة وهم داخلها، ومن سوء الحظ أيضا أنهم وجدوا أنفسهم مضطرين في نفس اللحظة إلى مساعدة «إلويس» على تهريب الملكة «فريدة» ووصيفتها من الباب الخلفي للشقة حتى لا يراهما الملك. وسرت حكايات كثيرة في مجتمعات القاهرة عن علاقة «إلويس» مع الملكة «فريدة». وطلب الملك - عن طريق «حسنين» - إبلاغ السفير البريطاني في القاهرة برغبته في نقل «إلويس» إلى خارج مصر. (ووجه الملك طلبا آخر إلى الجنرال «باجيت» القائد العام).

ويوم ١٦ يناير صدر أمر بسفر «سيمون إلويس» إلى جنوب أفريقيا. وكتب اللورد «كيلرن» في هذا التاريخ في يومياته ما نصه: «كان لابد من الخلاص من «إلويس» وإلا قام الملك «فاروق» بتطليق زوجته». وثار «إلويس» عندما عرف أن ذهابه إلى جنوب أفريقيا لم يكن مؤقتا كما قيل له، وكتب خطابا ملتهبا إلى الملكة «فريدة» حجزته الرقابة البريطانية بسبب ما تضمنه - وبينه غضب «إلويس» على السفير البريطاني الذي تدخل بنفسه لدى الماريشال «ويفل» لنقله من مصر.

والحاصل أن الوثائق والمراجع البريطانية هي أهم المصادر التي تابعت حياة الملك «فاروق» الشخصية، وبالذات تفاصيل ما طرأ على علاقة الملكة «فريدة» والملك «فاروق». وكان «المخبر الأنشط» في المتابعة هو الأمير «محمد علي» الذي تحدث مبكرا جدا مع السير «والتر سمارت» (مذكرة بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٤١، ملخصها (نقلا عن

ولي العهد) «أن الملك «فاروق» في حالة سيئة لأنه اكتشف وجود صداقة حميمة بين زوجته وبين «وحيد يسري» (باشا) (وهو الابن الأكبر لسيف الله يسري (باشا) - زوج الأميرة «سميحة حسين» (ابنة السلطان حسين كامل)، وكان في بداية الأربعينيات من عمره، وجيها ناضجا ومجربا).

وفيما قاله الأمير «محمد علي» أن «فاروق» طارد زوجته إلى بيت الأميرة «سميحة حسين» بظن أنها سوف تلتقي بوحيد (باشا) هناك، وأنه تهور عليها أمام الجميع وفيهم الخدم ولكن الموقف أمكن تداركه.

وبعدها بأسبوعين (٢٤ ديسمبر ١٩٤١) وكان «ولي العهد» المصري يزور السفير البريطاني يهنئه بعيد الميلاد، سأله السير «مايلز لامبسون» عن أحوال الزواج الملكي، وقال الأمير «محمد علي» «أنه لن يكون هناك طلاق»، ثم أضاف «ليس في الظروف الحالية»!



طوال سنة ١٩٤٥ تلح برقيات السفارة البريطانية من القاهرة بشدة على العلاقات بين الملك «فاروق» والملكة «فريدة». وترد بداية الإشارات تلك السنة في صدد الإعداد لمشروع زيارة ملكية يقوم بها ملك مصر وملكتها - ضيفين على الملك جورج السادس وزوجته الملكة إليزابيث سنة ١٩٤٦، لكن كبير الأمناء البريطاني «اللورد لاسيل» بعد أن قرأ عديدا من التقارير السرية لدى المخابرات البريطانية - بعث يسأل اللورد «كيلرن» عما إذا كانت علاقة الزوجين الملكيين المصريين قد ساءت إلى هذه الدرجة، وعما إذا كانت «فريدة» سوف تجيء مع «فاروق»، وماذا يحدث إذا جاء الملك وحده؟

ولم يكن لدى اللورد «كيلرن» جواب واضح، لكنه بعد أربعة أيام كتب (١٥٥/ ٣٠٧) يقول بالنص:

«شخصي وسري - (وزير الخارجية - المكتب الخاص قصر «باكنجهام»).

قبل افتتاح البرلمان الجديد يوم ١٨ يناير تلقينا تقارير مضمونها أن الملك «فاروق» أرسل لزوجته الملكة «فريدة» - قائمة بأسماء الأميرات والنبيلات اللاتي دُعين معها إلى جلسة افتتاح البرلمان في المقصورة الملكية. وعلى قائمة المدعوات لاحظت الملكة «فريدة» وجود اسم النبيلة «فاطمة طوسون»، والأمير «ماهواش طوسون». والملكة «فريدة» تعرف أن النبيلة «فاطمة طوسون» على علاقة حميمة بالملك «فاروق»، وأنهما يلتقيان في بيت الأميرة «شويكار» التي تكرهها الملكة «فريدة» ولا تطيق سماع اسمها. وقامت كبيرة وصيفات الملكة «فريدة» بإبلاغ كبير أمناء القصر بأن الملكة لن تحضر الاحتفال بافتتاح البرلمان، وذلك وضع الملك «فاروق» في مأزق لأنه لم يعد يعرف كيف يبرر غياب زوجته عن المقصورة الملكية.

وعلم «فاروق» كذلك أن الملكة «نازلي» (الملكة الأم) لن تحضر الاحتفال هي الأخرى، فقد أبدت أن غياب «فريدة» وحضور «فاطمة طوسون» يضعها في موقف حرج.

وباعتذار الملكة «نازلي» فإن المقصورة الملكية بقيت فارغة (وهو ما لاحظته زوجات الدبلوماسيين المدعوات للاحتفال وكل حضوره) لأن أميرات الأسرة ونبيلاتها لم يكن في وسعهن الذهاب إلى حفلة افتتاح الدورة البرلمانية في غياب الملكتين.

ويستطرد تقرير اللورد «كيلرن» (إلى الخارجية وإلى قصر باكنجهام) فيقول بالنص:

«إن الصحافة المحلية نشرت في اليوم التالي أن الملكة «فريدة» لم تستطع حضور احتفال افتتاح البرلمان بسبب إصابتها بنوبة برد، لكن المفاجأة التي وقعت لنا هي أن مكتب الملكة اتصل بالسفارة يدعو زوجتي (الليدي جاكلين كيلرن) إلى لقاء فوري مع الملكة - وعرفنا أن غيرها من سيدات السلك الدبلوماسي في القاهرة دُعين أيضا. وأثناء اللقاء قالت زوجتي للملكة «فريدة» وبقصد المجاملة «إننا قلقنا جميعا لأن جلالتك لم تحضري احتفال افتتاح البرلمان أمس»، وكانت المفاجأة الأكبر أن «فريدة» ردت عليها بصوت مرتفع تعمدت أن يسمعه الكل قائلة: «إن كرامتي كملكة لا تسمح لي أن أحضر هذا الاحتفال»، وهذه الملاحظة من الملكة تؤكد لنا ما سبق أن وصل إلينا من معلومات. والمشكلة في القاهرة أنه لا يمكن الاحتفاظ بسر فيها، وكذلك فإنه يبدو أننا سوف نسمع كثيرا في الأيام المقبلة عن العلاقات بين الزوجين الملكيين!



ويوم ٢٤ أبريل ١٩٤٥ يكتب اللورد «كيلرن» إلى لندن (١٥٣١/ ٤٥٩٧٠) يقول ما نصه:

«أتشرف بأن أبعث إليكم بصورة تقرير سري كتبه مصدر موثوق على اتصال بنا (كريم ثابت) عن واقعة بطلتها سيدة اسمها «ليلى شيرين» ضُبطت على مدخل جناح الملك «فاروق» في قصر عابدين، وتحول مشهد ضبطها إلى فضيحة شهدتها الملكة «فريدة» وشاركت في وقائعها.

إن مصدرنا وثيق الصلة بالقصر - والذي نستطيع الاعتماد بالكامل على صحة روايته، قال «إن الملك «فاروق» كان «بريئا» لأنه لم يكن في قصر عابدين من الأصل، وإنما كان يقضي الليلة في استراحته بالفيوم».

يستكمل اللورد «كيلرن» برقيته فيقول:

«إن السيدة التي ضُبطت على مدخل الجناح الملكي اسمها «ليلى شيرين»، وهي سيدة «متسامحة في الفضيلة A lady of easy virtue» وقيل إنها مصابة باضطرابات عصبية عولجت بسببها في مستشفى الدكتور «جيلات» للأمراض النفسية في المعادي. ومن الملاحظ - ولحظوظ الجميع الحسنة - أنه أمكن الحصول على شهادة بعلاجها من مستشفى الدكتور «جيلات» قُدمت إلى النائب العام الذي أصرت الملكة «فريدة» على إبلاغه بواقعة وجود «سيدة غريبة» على باب جناح الملك - قريبا من جناحها!».

يستطرد اللورد «كيلرن» في تقريره يقول:

«من نتيجة الحادث أن الملكة «فريدة» صممت على طلب الطلاق، قائلة إنها تريد أن تترك القصر وتعيش وحدها مع بناتها وتترك



السفير البريطاني يرسل إلى لندن صورة تقرير سري كتبه مصدر موثوق على اتصال بالسفارة (كريم ثابت) عن واقعة بطلتها سيدة اسمها «ليلى شيرين» ضُبطت على مدخل جناح الملك «فاروق» في قصر عابدين، وتحول مشهد ضبطها إلى فضيحة شهدتها الملكة «فريدة» وشاركت في وقائعها

«فاروق» يفعل ما يشاء. وكان الملك في البداية مغتاظا مما جرى ويوافق على إجراء الطلاق فورا، لكن «أحمد حسنين» (باشا) هرع إلى مكتبه عندما عاد من الفيوم يرجوه ألا ينفعل، لأن الأوضاع السياسية الآن (وهو المسئول فيها عن البلد بعد إقالة حكومة «النحاس» (باشا) لا تسمح بمثل ذلك). ونزل الملك فيما علمنا على رأي حسنين، لكننا على ثقة أن موضوع الطلاق سوف يطرح نفسه مرة أخرى، لأن الملكة «فريدة» لم تعد تطيق الحياة مع زوجها. وهو من ناحيته لا يمانع في طلاقها، معتبرا أنها لم تستطع أن تنجب له ولدا يخلفه على العرش. إن الملكة هائجة على نحو خاص من غرام الملك بالنبيلة «فاطمة طوسون»، والعقبة أن «فاطمة طوسون» عليها أولا أن تحصل على الطلاق من زوجها الأمير «حسن طوسون»، وعندما يطلق الملك زوجته «فريدة»، ويطلق «حسن طوسون» زوجته «فاطمة» فإن عمليات الطلاق المزدوجة سوف تخلق موقفا شديد الحساسية»!



وفي ملفات الحرس الملكي (هيئة ضباط الياوران المكلفين بمرافقة الملك والخدمة المباشرة معه)، تقرير بخط يد الأميرالاي «عثمان المهدي» (بك)، (أو ربما بإملائه على أحد موظفي مكتبه) - ترد الواقعة في سطور قليلة:

١٢ أبريل ١٩٤٥

«أبلغت صاحبة الجلالة الملكة عن سيدة ادعت أنها من مربيات الأميرات، وتواجدت إلى قرب الجناح الملكي، وعلى الفور تحرك الأميرالاي «عثمان المهدي» وضبط المدعوة «ليلى شيرين»، وتم إبلاغ النيابة بناء على طلب من حضرة صاحبة الجلالة الملكة، وتم اتخاذ اللازم».

لكن السفير البريطاني ما لبث أن بعث إلى لندن - مذكرة أشرف على إعدادها السير «كين بوين» (مستشار وزارة الداخلية المصرية السابق، وكان يدير وقتها شبكة معلومات نافذة إلى صميم الحياة السياسية والاجتماعية في مصر) - وكانت المذكرة على النص التالي:

«بعد منتصف الليل يوم ١٢ أبريل ١٩٤٥ لاحظت الوصيفة المناوبة للملكة «فريدة» وهي السيدة «نعمت مظلوم» - (كريمة «أحمد مظلوم» (باشا) وهو صهر لأسرة «حسين سري» (باشا) وزوجته السيدة «ناهد» خالة الملكة «فريدة») - عندما خرجت من جناح الملكة لتجري حديثا تليفونيا مع بيتها، أن هناك سيدة ترتدي ملابس السهرة، وتتمشى في الصالون الملحق بجناح الملك (وكان الباب مفتوحا). واندهشت السيدة «نعمت مظلوم» واقتربت من السيدة الغريبة تستطلع أمرها «من هي؟»، و«ماذا تعمل؟» و«ما الذي جاء بها إلى هنا في هذه الساعة داخل الجناح الملكي الخاص؟». ثم سألتها بحدة: كيف دخلت؟ وردت عليها السيدة بهدوء قائلة لها: «من الباب طبعا»! ثم بدا أن السيدة الغريبة تريد أن تنصرف بسرعة، لكن «نعمت مظلوم» أمسكت بها، وسمعت الملكة «فريدة» أصواتا غريبة وهرعت نحو مصدرها، وعندما وقع نظرها على

السيدة المذكورة، صرخت الملكة تطلب «مسدسا» من غرفتها، لأنها لابد أن تقتل «هذه المرأة». وتحت التهديد بالقتل اعترفت المرأة الغريبة باسمها «ليلى شيرين»، وذكرت أنها جاءت إلى هنا مرات من قبل عندما كان الملك يدعوها بنفسه أو بواسطة مكتب الشئون الخاصة (مكتب «بوللي» بك)، وقد أبلغوها بأن جلالة الملك يطلبها، وأن كلمة السر في القصر الليلة هي «المنتزه»!

وتحت تهديد السلاح في يد الملكة «فريدة» جلست «ليلى شيرين» تكتب بخط يدها اعترافا بعلاقتها مع الملك، وقد أخذته الملكة «فريدة» وهي تقول لنعمت مظلوم «هذه المرأة تقول أيضا إنها حامل من فاروق!».

قالت الملكة أيضا إنها لمحت في يد «ليلى شيرين» خاتما عليه صورة للملك «فاروق»، واعترفت لها أنها تلقت الخاتم هدية منه.

وفي هذه اللحظة قامت الملكة بإخطار ثلاثة رجال داخل القصر بالواقعة:

- «مراد محسن» (باشا) ناظر الخاصة الملكية.

- «أحمد صادق» (باشا) قائد الحرس الملكي.

- الأميرالاي «عثمان المهدي» (بك) وهو ليلتها الياور النوبتجي المكلف بالخدمة.

ثم اتصلت الملكة بنفسها بعد ذلك برئيس الوزراء «محمود فهمي النقراشي» (باشا). وأصرت على إبلاغ النائب العام بالواقعة. وكلفت السيدة «نعمت مظلوم» بإبلاغ مأمور قسم عابدين كذلك.

روت الملكة في اليوم التالي أن كل المسئولين في القصر كانوا في حالة ذعر شديد. وأن الأميرالاي «عثمان المهدي» (بك) الياور النوبتجي الذي قال في تحقيق النائب العام أنه توجه إليها بعد دقيقتين ونصف، لم يصل في الواقع إلى حيث كانت إلا بعد خمس وأربعين دقيقة - وكان خلال هذه المدة يحاول الاتصال بأحد من حاشية الملك الموجودين معه في الفيوم لإبلاغه بما جرى، حتى يتلقى «التوجيهات» في كيفية التصرف.

والظاهر من التحقيقات الأولية أن الملك واعد «ليلى شيرين» على اللقاء مبكرا من أول الأسبوع، وبعد عشاء يحضره مع الوفد المصري المسافر إلى سان فرانسسكو (للمشاركة في وضع ميثاق الأمم المتحدة)، ثم حدث أن العشاء ألغي، ونسي الملك بعد إلغائه موعده الغرامي الذي رتبه بعد ذلك العشاء وذهب إلى الفيوم - وهكذا جاءت «ليلى شيرين» في موعدها» ولم تجده.

وبعد مشاورات بين الحكومة والقصر، تقرر اعتبار «ليلى شيرين» مجنونة، وأمكن استصدار شهادة بذلك من مستشفى الدكتور «جيلات»، وبالفعل أودعت مستشفى الأمراض العقلية.

لكن الملكة «فريدة» لم تكن مقتنعة، وقد أبدت رضاها لأنها حصلت من «ليلى شيرين» على اعتراف كامل يثبت استهانة «فاروق» ليس فقط بكرامتها كزوجة، ولكن بقصر عابدين كمقر للعرش، ثم أضافت «إن فاروق بعد ذلك لا يحق له أن يرفع عينه فيها أو يحاسبها على شيء!».

ولم تسكت الملكة عن طلب الطلاق إلا عندما أقنعها رئيس الوزراء «محمود فهمي النقراشي» (باشا) «أن المصالح العليا للبلد لا تتحمل الآن فضائح». على أن الأمر الذي نستغربه جميعا هو «لماذا اختار «فاروق» قصره الملكي لمواعيده الغرامية، وهو القادر على إيجاد مساحة لغرامياته في ألف مكان آخر؟!».

شكرت الملكة «فريدة» «نجيب سالم» على إبلاغه لها بطلاقها من «فاروق» ولاحظت حرجه وهو يقوم بمهمته، ورجته هي إبلاغ الملك بأن يهتم برعاية «البنات» حتى لا يتحولن إلى «بغايا مثل عماتهن»!

وظل موضوع الطلاق بين «فاروق» و«فريدة» واردا بعد ذلك طول الوقت، يكثر الكلام فيه ساعة، ثم يخف ساعة أخرى، حتى جاءت لحظة الحقيقة في آخر ظرف يتحمل تصرفا من هذا النوع وهو شهر نوفمبر ١٩٤٨، وكان شهرا شديد الخطر بالنسبة لأوضاع الجيش المصري في فلسطين، وكانت القوات الإسرائيلية قد استولت على تقاطع الطرق ما بين «مستعمرة نجبا» وحتى «مستعمرة نيتساليم»، وبذلك تمكنت من احتلال شمال النقب، وقسمت الجيش المصري إلى قسمين كل منهما معزول عن الآخر: المجموعة الضاربة التي يقودها القائمقام «أحمد عبد العزيز» وقيادتها في بيت لحم، والمجموعة الرئيسية التي يقودها اللواء «أحمد محمد المواوي» وقيادتها في المجدل على الطريق الساحلي!

وكان ذلك هو الظرف الذي اختاره الملك «فاروق» لإتمام طلاقه، ومعه طلاق ملكي ثان هو طلاق شقيقته «فوزية» من زوجها شاه إيران «محمد رضا بهلوي»!

(وظهر فيما بعد أن الاختيار كان مقصودا بتصور أن الأحداث الكبيرة الجارية في تلك الظروف كافية لتغطي على أخبار الطلاق الملكي وتحشر موضوعه في زحام الأحداث).

والمدهش في الأمر أن الملكة «فريدة» أرادت أن تعرف السفارة البريطانية بالتفاصيل الدقيقة لما جرى معها ساعة الطلاق، وكانت الأميرة «سميحة حسين» ابنة السلطان حسين كامل، (ووالدة وحيد يسري (باشا)) هي التي دعت المستشار الشرقي في السفارة السير «والتر سمارت» لتنقل له على لسان الملكة تفاصيل ما وقع لها!

وكتب السير «والتر سمارت» تقريرا عن لقائه بالأميرة «سميحة حسين» مشيرا إلى أن «سموها» أبلغته بالتفاصيل - نقلا مباشرا عن الملكة «فريدة».

ونص التقرير (٤٨٤/ ٦/ ٥٥٣) كما يلي:

«يوم ١٠ نوفمبر طلب «نجيب سالم» (باشا) مدير الخاصة الملكية مقابلة الملكة «فريدة» على وجه الاستعجال، وأبلغته باستعدادها لمقابلته على الفور في جناحها الخاص، وجاء «نجيب» (باشا) ومعه ظرف سلمه للملكة، وكانت فيه «ورقة طلاق».

قال لها «نجيب سالم» (باشا) أن «جلالة الملك» يعطيها مهلة شهر لكي تجد لنفسها مكانا تقيم فيه وتخرج من القصر الملكي. وأبلغها أن الملك سوف يحتفظ بحضانة «البنتين الأكبر» (فريال وفوزية). لكن الأصغر وهي «فادية» ستظل في حضانتها هي حتى تبلغ سن التاسعة، وسوف تتكفل الخاصة الملكية بكل نفقاتها، وهذه النفقات تشمل كل ما هو لازم لأميرة ملكية من الحضانة والتربية والتعليم والخدمة - وهذه إضافة مستقلة عن التسوية المالية مع الملكة نفسها عقب الطلاق.

وتنقل الأميرة «سميحة حسين» إلى السير «والتر سمارت» بالنص:

«إن الملكة «فريدة» شكرت «نجيب سالم» على إبلاغه بهذه الأخبار ولاحظت حرجه وهو يقوم بمهمته، ورجته هي إبلاغ الملك بأن يهتم برعاية «البنات» حتى لا يتحولن إلى «بغايا مثل عماتهن»! So they do not become prostitutes like their aunts..

وخرج «نجيب سالم» (باشا) مهرولا من جناح الملكة، لكن «أنتوني بوللي» (بك) مدير الشئون الخاصة للملك ما لبث أن وصل إلى جناحها مهرولا يقول إنه يريد جلالتها لكلمة واحدة.

وتنقل الأميرة «سميحة حسين» عن «فريدة» بالنص:

«قال بوللي أنه يحمل رسالة ذات طابع سري من الملك، وهي أن جلالته يريد منها أن تسلم التاج الذي كان في عهدتها، وأن تسلم أيضا كافة المجوهرات التي تلقتها منه عند الزواج أو في مناسبة الزواج، لأن تلك كلها متعلقات ملكية.

وردت «فريدة» بأنها سوف تسلمه التاج الآن، على أنها تريد لفت نظره إلى أن هناك ماسة ضائعة فيه، وأنها تتكفل بشراء بديلة لها توضع مكانها. ثم قالت إنه بالنسبة للهدايا التي جاءتها من الملك عند الزواج أو في مناسبته فتلك أشياء تملكها هي الآن، وأبلغها بوللي أن جلالة الملك مصمم على طلبه، وقامت «فريدة» غاضبة وجاءته بكل ما كان عندها قائلة له «إنه عندما تهدأ أعصاب فاروق فإنها تريد أن تجلس معه على انفراد لحديث طويل».

ذكرت الأميرة «سميحة حسين» «أن الملك «فاروق» كان قد أطلق اسم «فريدة» على «تفتيش زراعي» ملكه مساحته ١٧٠٠ فدان، وسماه فعلا باسم «الفريدية»، لكنه لم يتخذ بعد «الاسم» أية إجراءات، ومن الظاهر أن هذا التفتيش سوف يضيع على الملكة. كذلك أشارت الأميرة «سميحة حسين» إلى أن الملك كان قد أهدى إلى الملكة «فريدة» قصرا قدمه له ابن عمته «محمد طاهر» (باشا) وهو قصر الطاهرة، لكن «فاروق» لم ينقل «عقد الهبة» إلى «فريدة»، وظهر أن هدية ابن عمته له موثقة، وأما هديته إلى زوجته فقد كانت شفوية. وبذلك فإن الملكة سوف تخرج بأقل القليل بعد إتمام الطلاق!».

وصباح ١٧ نوفمبر ١٩٤٨ خرجت الصحف المصرية، وتناقلت عنها وسائل الإعلام العربية والأجنبية - بلاغين صادرين عن ديوان حضرة صاحب الجلالة الملك:

- البلاغ الأول يعلن طلاق الملك «فاروق» من الملكة «فريدة»، والسبب «أن حكمة الله وإرادته اقتضت وقوع الانفصال بين الزوجين الكريمين».

- والبلاغ الثاني يعلن طلاق «الأميرة فوزية» من زوجها «محمد رضا بهلوي» شاه إيران، والسبب «ما ثبت من أن مناخ طهران لا يلائم صحة الأميرة المصرية التي تحملت ذلك المناخ حتى اعتلت صحتها، ولم يعد في مقدورها الاستمرار!».

وفى اليوم التالى دعى «مجلس البلاط» إلى اجتماع عاجل لبحث مسألة طرأت للملك «فاروق» وهى ضرورة إصدار فتوى أو قرار شرعى يمنع الملكة «فريدة» من الزواج مرة أخرى فى حياتها، ويجعل مثل هذا الزواج باطلا مهما كانت ظروفه. وكان داعى الملك إلى هذا الطلب أنه سمع خبرا عن احتمال أن تتزوج «فريدة» من «وحيد يسرى» (باشا)، وقد أراد أن يسبق احتمالات مثل هذا الزواج ويحول دونه.



على أن أغرب ما تكشفه التقارير أن الملك نفسه فى ذلك الوقت كان يريد أن يتزوج مرة أخرى، والعروس التى وضع عينه عليها هى ذاتها النبيلة «فاطمة طوسون»، وقد تصور أن الطريق إليها الآن مفتوح، لأن زوجها النبيل «حسن طوسون» توفى بنوبة قلبية. والأشد غرابة أن الملك كان يعرف أن النبيلة «فاطمة طوسون» التى كانت تعيش فى باريس بعد أن أصبحت أرملة - وقعت فى حب كونت برتغالى واسع الغنى، وكان لديهما مشروع زواج توقف فى منتصف الطريق، لأن النبيلة أصرت على إشهار إسلام الكونت البرتغالى شرطا لإتمام الزواج، ومن جانبه فقد وجد الكونت صعبا عليه التخلى عن مسيحيته، لئلا تكون من ذلك مشكلة لأسرته!

وتكتب السفارة البريطانية فى القاهرة (٤٨٤/٧/٥٥٣) و(١٤١/١٣٠٣) تقارير إضافية:

«لقد ظهر أن التقارير التى وصلتنا عن زواج النبيلة «فاطمة طوسون» من كونت برتغالى سابقة لأوانها، لأن النبيلة ترددت فى النهاية بسبب عدم رغبة خطيبها فى تغيير دينه من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنها تخشى إذا تزوجت من غير مسلم أن تفقد حقوقها، وفيها اللقب الملكى!».

لكن الملك «فاروق» كان أسرع من توقعات السفارة البريطانية، وكان مذهلا أن الملك «فاروق» ركز اهتمامه ذلك الشهر الحاسم فى التاريخ المصرى - وهو ديسمبر ١٩٤٨ - على ترتيب زواجه من النبيلة «فاطمة طوسون»، وكانت أحكام القدر أقوى من رغبات الملوك. والذى حدث أن الملك أوفد ممثلا خاصا له إلى باريس هو «فؤاد شيرين» (باشا)، محافظ القاهرة وقتها، والهدف الظاهر من رحلته تمثيل مصر فى المؤتمر العالمى للبلديات، لكن المهمة الحقيقية وراء الظاهر أن يتفاهم مع النبيلة «فاطمة طوسون» على موضوع زواجها المحتمل من «فاروق». وكانت ميزة «فؤاد شيرين» (باشا) أنه عميد أسرة يربطها نسب مع «فاطمة طوسون».

وسافر «فؤاد شيرين» (باشا) إلى باريس، وقابل النبيلة «فاطمة طوسون» وفاتحها فى موضوع عودتها لتصبح الملكة الجديدة لمصر - وكانت المفاجأة أنها اعتذرت لأن «المشكلة التى كانت تعطل زواجها من الكونت البرتغالى أمكن حلها، وأنهما سوف يتزوجان فى ظرف أسابيع قليلة».

وفشلت مهمة مبعوث الملك فى باريس، وكانت الصدمة ثقيلة الوقع على ملك مصر، الذى حاصرته الهموم العامة والخاصة.



كان ديسمبر ١٩٤٨ مازال يفرض نفسه كشهر تحولات وتغيرات كبرى فى التاريخ المصرى الحديث.

● القوة الاستعمارية الكبرى التى سيطرت فى مصر أكثر من سبعين سنة - تتراجع ببطء أمام الإمبراطورية الأمريكية الجديدة - ومصر التى استبانت هويتها العربية وانتماءها - وجدت نفسها داخلة فى معركة عسكرية ذات طابع قومى لأول مرة فى تجربتها الوطنية - وفى خضم هذه المعركة فإن الحدود المصرية اخترقت بواسطة قوة محلية قامت فجأة فى الجوار.

● وبالتوازى فإن المعادلة الثلاثية لحركة السلطة فى مصر وهى موزعة بين: الإنجليز - والملك - والوفد، تباطأت وتصادف أن التباطؤ وقع والزمام فى يد القصر، وعلى العرش ملك شاب كانت لديه طموحات فى وقت من الأوقات، لكن الرياح دفعته بعيدا عن آماله، ثم وجد نفسه مطلق اليد فى الشأن الداخلى المصرى، وبينما هو متورط بأكثر مما هو صحى لملك، وحتى لإنسان، فقد صمم على معاداة حزب الأغلبية فى البلاد - إلا أن تفرضه عليه دبابات الاحتلال البريطانى، ودبر اغتيالات لبعض خصومه السياسيين بواسطة ضباط من جيشه شكل منهم مجموعات تتربص فى الظلام وتطلق الرصاص وتفجر القنابل.

● ولم يكن حزب الوفد بعيدا عن هذه التحولات والتغييرات، بل إن التغيير الذى لحقه كان الأكثر والأعمق نفاذا، لأن ذلك الحزب كان ممثل الأغلبية الشعبية. ومع أن الانقسامات المتوالية فى صفوفه أخذت منه بما أثر فى حجمه، إلا أنه ظل الأكبر ولو نسبيا، ومع أن صراعا عنيفا دار على عقل الوفد وفكره، احتدم حول «مصطفى النحاس» (باشا) - ثم إن العقل والعاطفة كُتب لهما الانتصار بما لهذا الانتصار من تكاليف - إلا أن الأمل تعلق برجاء أن تؤدى صفعة الإقالة إلى تنبه ويقظة يستعيد بهما الحزب ليس عقله وفكره فقط، وإنما روحه وضميره أيضا (بعد التجربة المريرة فى زمن الحرب ومزالقها وكتبها السوداء!).

ولم تكن الظروف مواتية!

كان «مصطفى النحاس» (باشا) هو الرجل الوحيد القادر على إنقاذ روح الوفد وضميره، واستعادة عقله وفكره، لكن ذلك الرجل لم يكن فى أحسن أحواله كما تكشف الشهادات والوثائق، وتدل التوجهات والتصرفات:

● وبداية - فإن الرجل كان مرهقا من الناحية الصحية والنفسية، فهو يقترب حثيثا من سن السبعين، وسنوات النضال خصمت ضرائبها من حيويته، وأدوية الكلى والأمعاء المتطورة لم تجىء فى وقت ينفعه بحيث تخفف أو تشفى.

● وكان أقرب أصدقاء العمر (وآخرهم «مكرم عبيد» (باشا)) قد تركوه وابتعدوا عنه، ومع أنه كان يملك من القوة الفعلية ما مكنه من





كان «مصطفى النحاس» (باشا) هو الرجل الوحيد القادر على إنقاذ روح الوفد وضميره، واستعادة عقله وفكره، لكن ذلك الرجل لم يكن فى أحسن أحواله

طردهم جميعا من حزب الوفد واحدا بعد الآخر، فإن جزءا من ذاكرته كان يموت مع كل خروج، وكان موت الذاكرة أشد قسوة عندما خرج «مكرم عبيد» (باشا).

● وكانت كراهيته للملك قد زادت بعد أن تكررت محاولات الحرس الحديدى (الملكى) لاغتياله بواسطة كمين ترصده (بقيادة الصاغ أنور السادات) فى شارع القصر العينى سنة (١٩٤٦)، وأطلق الرصاص على سيارته وهو فيها ونجا بشبه معجزة، عندما حال مرور حافلة ترام فى آخر لحظة بين سيارته وبين الرصاص. وتكررت المعجزة مرة ثانية سنة (١٩٤٨) حين قامت مجموعة من الحرس الحديدى (يقودها الصاغ أنور السادات أيضا) بتفجير سيارة مفخخة بجانب سور بيته، وتحت الموقع الذى توجد فيه غرفة نومه، وتهدمت الجدران، وتساقط الأثاث، وطارت الحجارة طائشة، لكن المقادير حمت الرجل من قطعة زجاج كبيرة كان يمكن أن تصيبه لولا سقف «ناموسية» فوق سريره صدها عنه ومنع وصولها إلى جسده وهو نائم لا يستطيع أن يتوقى الخطر!

ولم تمض أسابيع حتى تكررت المحاولة مرة ثالثة، وقامت مجموعة مسلحة من الحرس الحديدى بإطلاق الرصاص على «النحاس» (باشا) وهو يدخل بيته ومعه «فؤاد سراج الدين» (باشا)، ونجا الاثنان من القتل، لكن ثلاثة من الحراس صرعهم الرصاص أمام المستهدفين به (وكان ذلك فى شهر ديسمبر بكل ما دهم مصر فيه من أهوال)!

● وبعد إقالة وزارته فإن «النحاس» (باشا) أصبح مرورا ومحسورا، يحسب أن الإنجليز ورطوه، ثم تخلوا عنه وتركوه للعدو المشترك، وهو ذلك «المجنون» (بتعبير النحاس باشا)، الجالس فى قصر عابدين. وكان أكثر ما حزَّ فى قلب «النحاس» (باشا)، أن الإنجليز - وبالذات حزب العمال الذى جاء إلى الحكم بعد المحافظين - تركوا لفاروق رخصة التصرف دون حسيب أو رقيب، وكذلك وقع اغتيال «أمين عثمان» (باشا)، وتكررت محاولات اغتياله هو نفسه، والأسوأ أن صديقه الكبير وعدو الملك - السفير البريطانى العتيد السير «مايلز لامبسون» (لورد كيلرن) - نُقل من منصبه فى مصر وأرسل (شبه مُعاقب) إلى منصب وهمى اخترعَ له، وهو الإشراف على الولايات الأفريقية العازلة بين روديسيا (زيمبابوى الآن) وبين جنوب أفريقيا.

● فوق ذلك كله كان فارق السن بينه وبين قرينته «زينب (هانم) الوكيل» يحدث آثاره - متزايدة ومتسارعة. ففى الوقت الذى راح هو (قُرب السبعين) يمشى على الجسر من الكهولة إلى الشيخوخة - كانت هى فى الخامسة والثلاثين على ذروة الشباب والنشاط. ولم يكن فى مقدور «النحاس» (باشا) أن يلزم زوجته بإيقاع حياته، فهو لم يعد يخرج ولا أصبح قادرا على الحياة الاجتماعية لأشهر سياسى فى مصر، بما يتطلبه ذلك الوضع من زيارات ودعوات ومجاملات، وكذلك اضطر الرجل أن يترك مساحة واسعة لقرينته، وبالتالى فإن مقتضيات الظروف باعدت بينهما، وكان ذلك يضايقه لكن الضيق لا يظهر عليه، وإن انعكس

مرات على تصرفات قصد أن يُظهر فيها السعادة، فإذا بها تكشف التكلف.

....

....

[وقد رأيت بعضا من ذلك بنفسي أثناء مرتين تناولت فيهما الغداء على مائدة «النحاس» (باشا) في بيته، وكنت قائما في ذلك الوقت على تحرير مجلة «آخر ساعة»، وكان صاحبها الأستاذ «محمد التابعي» قد سافر على عجل إلى أوربا حتى لا يتعرض لانتقام «مكرم عبيد» (باشا) الذي أصبح وزيرا للمالية ومسيطرا على توزيع حصص الورق على الصحف. وكان سبب قلق الأستاذ «التابعي» أنه كُلف بالرد على ما جاء في «الكتاب الأسود»، وقام بالمهمة في سبع مقالات عنوانها «نحن نقدم الدليل على أن مكرم عبيد كذاب». وفي غياب الأستاذ «التابعي» قامت «آخر ساعة» بحملة على الوزير الأستاذ «السيد سليم» وهو من كتلة «مكرم عبيد» بسبب تصرفات جرت في وزارته. وكانت سعادة «النحاس» (باشا) غامرة لأن المجلة فتحت النار على أحد وزراء «مكرم» (على حد ما قاله الأستاذ «محمود سليمان غنام» وهو يبلغني رضا «رفعة الباشا» عن «آخر ساعة»). ويظهر أن «النحاس» (باشا) بمشورة في الغالب من الأستاذ «محمود سليمان غنام» (باشا) أراد تشجيع «آخر ساعة» على مواصلة ما بدأته، وهكذا وجدت نفسي على مائدة «رفعة الباشا» مرتين، ثم توقفت الدعوات لأن الأستاذ «التابعي» باع مجلة «آخر ساعة» إلى دار «أخبار اليوم» (وتلك قصة طويلة أخرى!).]

....

....

ونتيجة لظروف «النحاس» (باشا) فإن حزب الوفد لم يعد فيه غير «فؤاد سراج الدين» (باشا)، والحاصل أن «فؤاد سراج الدين» كان شابا ذكيا طموحا، حلو المعشر، مجاملا، حافظا عن ظهر قلب للخريطة الاجتماعية في مصر وعائلاتها - إلا أنه وبكل شيء في تفكيره ومظهره وتصرفه، أقرب إلى شخصية كبار الملاك منه إلى زعماء الأحزاب، فضلا عن الأحزاب الشعبية العاملة وسط أوسع الجماهير، وبالطبع فإن حسه الاجتماعي متأثر بالوضع الطبقي لأسرته، ثم إن معرفته بالشأن الإقليمي والدولي محصورة بظروف تجربته.

وفي نفس الوقت فقد كان الباقون القُدامى في حزب الوفد مثل (زكي العُرابي - وحمدي سيف النصر - وعبد السلام جمعة - وعبد الفتاح الطويل) - رجالا تهيأوا ليبقوا في الصف الثاني - ولم يتجاوزوه!

وكان وراء هؤلاء في الحزب جيل جديد ظهر، لكنه بعيد - لا يزال - عن مواقع التأثير والفعل، وأبرز رموز هذا الجيل رجل مثل الدكتور «محمد صلاح الدين»، ثم بقايا من الجناح اليساري للحزب تابعت الدكتور «عزيز فهمي» وتفرق شملها حين غيبه الموت مبكرا.

فضلا عن ذلك كان هناك قادمون دعاهم وشجعهم رجال مثل «نجيب الهلالي» (باشا)، وقد ظهر هؤلاء القادمون بعد خروج «نجيب الهلالي» من الوفد، وبقوا فيه بلا سند، وكان هذا الجيل الجديد يضم عددا من أساتذة الجامعات مثل الدكتور «حامد زكي» - على أن هؤلاء كانوا طوارئ على الحزب، لم يندمجوا بعد فيه، ولم يحصلوا على اعتراف واسع بهم داخل تنظيماته ولجانه.

في أغسطس عام ١٩٤٨ - استطاع «فؤاد سراج الدين» (باشا) تحقيق مطلبه الأول، فأصبح سكرتيرا عاما للوفد. وفي أواخر تلك السنة (٢٨ ديسمبر ١٩٤٨). أصبح «فؤاد سراج الدين» (باشا) ممثل الوفد والمتحدث باسم «مصطفى النحاس» (باشا) في اتصالات ومواقف معقدة وسط ظروف أكثر تعقيدا!!

وهكذا فإن الأبواب اتسعت أمام «فؤاد سراج الدين» (باشا) باعتباره الأظهر والأقرب في محيط «النحاس» (باشا)، والأكثر تأثيرا في هذا المحيط. وبالطريقة التي راح «فؤاد سراج الدين» يتحرك بها، فإن أحدا لم يساوره شك في أن هذا النجم الصاعد يرتب نفسه لمكان «مكرم عبيد» (باشا) سكرتيرا عاما للوفد، ولمكانة «مصطفى النحاس» (باشا) على رئاسته.

وفي أغسطس ١٩٤٨ - استطاع «فؤاد سراج الدين» (باشا) تحقيق مطلبه الأول، فأصبح سكرتيرا عاما للوفد. وفي الظروف المصرية مما أحاط بمصر كلها في أواخر تلك السنة (٢٨ ديسمبر ١٩٤٨) - أصبح «فؤاد سراج الدين» (باشا) ممثل الوفد والمتحدث باسم «مصطفى النحاس» (باشا) في اتصالات ومواقف معقدة وسط ظروف أكثر تعقيدا!



كان الملك «فاروق» بنتيجة لحالة الاضطراب العام التي عاشتها مصر وعكست نفسها في ظواهر يراها كل الناس ابتداءً من ضعف الوزارات، وحوادث الاغتيالات، وإضراب البوليس، ونشوب حرب فلسطين، وتطورات هذه الحرب، وتراجع الدور البريطاني وتقدم الدور الأمريكي - يحس بالقلق وربما بالخوف، وكذلك بدأ يفكر في إزاحة المسئولية عن كاهله، ووصل في ذلك إلى درجة التفكير في تأليف حكومة ائتلافية أو حكومة وحدة وطنية، يكون عليها أن تواجه موقفا يتدهور بسرعة لم يكن يتصورها.

وفي إطار التفكير في مثل هذه الحكومة، كان طبيعيا أن يكون اشتراك الوفد موضع بحث، وكان البحث بالطبع يجرى مع سكرتير عام الحزب، خصوصا وهو الأظهر والأقرب في محيط «النحاس» (باشا)، برغم أن العقبة الرئيسية كانت ومازالت شخص «مصطفى النحاس» (باشا).

والحقيقة أن الملك «فاروق» لم يكن يمانع في تأليف وزارة ائتلافية أو وزارة وحدة وطنية، شريطة أن لا يكون رئيسها «مصطفى النحاس» (باشا) - فالكراهية مستحكمة بين الرجلين: أولهما وهو الملك «يحس» في صميم قلبه أن «النحاس» أهانه (في ٤ فبراير ١٩٤٢ وقبل ذلك اليوم وبعده) - وفي المقابل فإن «النحاس» (باشا) عارف بيقين أن الملك حاول قتله بكل وسيلة (بالرصاص مرات وبالسيارات المفخخة مرة).

والنقطة الحرجة في موضوع وزارة ائتلافية أو وزارة وحدة وطنية، أنه إذا جاء وقتها فهي لا تكتسب صفتها المطلوبة إلا باشتراك الوفد - لأن الوفد دون جدال هو أكبر الأحزاب، وبالتالي فإن رئاسة هذه الوزارة لابد أن تكون لزعيمه أي «مصطفى النحاس» (باشا). ويتصل بذلك أن أي وزارة ائتلافية أو وزارة وحدة وطنية هي وزارة مهمة محدودة لها أجل، وبعده فإن الانتقال الطبيعي يكون إلى انتخابات عامة. ومعنى ذلك ومؤداه أنه إذا جاءت وزارة ائتلاف أو وحدة وطنية في سياق الأوضاع الراهنة، فلابد أن يرأسها «النحاس» (باشا) وهو مازال شخصا غير مقبول - فإذا انتهت مهمة هذه الوزارة وحل أجلها بإجراء انتخابات عامة، فإن حصول الوفد على الأغلبية مؤكد وبطريقة ساحقة، ورئاسة «النحاس» (باشا) للوزارة بعدها، حتمية قد لا يمكن تفاديها أو الدوران حولها.

وتلك هي المعضلة.



ولم يكن الملك «فاروق» وحده المصاب بالقلق لما آلت إليه الأحوال - بل كان هناك غيره أصيبوا بالأرق إلى جانب القلق، لأنهم أصحاب مصالح حقيقية في مصر يخشون عليها ويحرصون على ضمانها، ولذلك كان اقترابهم من السياسة - منطقيا. وفي الظروف الطارئة فإنه أصبح حيويا - وكان أول هؤلاء هو المالي الكبير «أحمد عبود» (باشا).

كان «عبود» (باشا) رجلا عالي الكفاءة في مجال الأعمال، وكان يقول عن نفسه إنه «يلمس التراب فيحيله ذهبا» - غير أنه كان يعرف أن تحويل التراب إلى ذهب يحتاج إلى حماية تسبق وتجاري وتلاحق حركة الذهب! - وهنا كانت في حاجة إلى القرب من السلطة إلى أي درجة يستطيع بلوغها.

....

....

[وقلت مرة لعبود (باشا): «إنه رجل يستحيل عليه أن يكون ملكا لأنه لا يحوز المواصفات اللازمة - لكنه يحلم بمقدرة صنع الملوك لأنه يحوز المصالح الملزمة، وذلك وضع شديد الخطر على البلد وعليه أيضا!

وقد سمعني الرجل مطرقا برأسه متأملا!]

....

....

ولم يكن «عبود» (باشا) وفديا، فهو لم ينتم سياسيا، لكن ميله بالمصلحة كان إلى هذا الحزب، والسبب في الغالب هو أن ذلك الحزب هو القادر أكثر من غيره على توفير «الاستقرار» السياسي على الأقل بهيبة الشرعية. وكان القصر (حتى أيام الملك فؤاد) يشك في توجهات «عبود» (باشا) ومساعيه، ولعل ذلك في جزء منه كان يرجع إلى التناقض الطبيعي بين «الملوك» و«الأثرياء». والأثرياء في أوطانهم خصوصا عندما يزيد الثراء وتتجلى مظاهره، فإن الغنى القديم والموروث - يحس بنوع من الغيرة إزاء الغنى الطارئ الذي يعلن عن نفسه متباهيا وأحيانا مستفزا!

وتحفل الوثائق البريطانية سنة ١٩٤٤ بتفاصيل جهود يقوم بها «عبود» (باشا) في لندن للحيلولة دون السماح للملك بإقالة «النحاس» (باشا). وفي رسائل عديدة بتوقيع رئيس القسم المصري في وزارة الخارجية تلك الأيام مجموعة رسائل يقول فيها «بيتر سكريفنر» أن «عبود» (باشا) قدَّم نفسه باعتباره مكلفا من «النحاس» (باشا) (شخصيا).

وطوال السنوات التى تلت إقالة حكومة «النحاس» (باشا) وحتى سنة ١٩٤٨، كان «عبود» (باشا) يتصل ويدعو لعودة الوفد إلى الحكم، لكنه عندما بدأ يتحرك عمليا فى ظروف مواتية لأفكاره، ظهر أن مرجعه فى الوفد هو «فؤاد سراج الدين» (باشا) - وكان اللقاء بين الرجلين حقيقة أشياء.

فالمالى الباحث عن «الاستقرار السياسى» ويجده فى الوفد - لا يرى أمامه فى هذا الحزب - مع نهاية الأربعينيات - غير «فؤاد سراج الدين» (باشا).

ثم إن المالى الراغب فى العمل السياسى من وراء الستار، يجد أرضية مشتركة مع نجم طالع، حتى وإن كان يمارس نفوذه فى الوفد من وراء الستار.

يضاف إلى ذلك أن الوفرة فى الثروة جامع بين الاثنين - ثم إن مشروعات رأس المال تستطيع أن تلتقى بسهولة مع مشروعات النفوذ السياسى، خصوصا عندما تكون السياسة فى صالونات «الأوبيسون» وبعيدا عن سرادقات الفراشة التى لا تفرق بين مهرجانات فيها أو جنازات!

كذلك فإن «فؤاد سراج الدين» (باشا) اقترب لبعض الوقت - ولم يبق طويلا - من تقليد أن أبناء كبار الملاك الزراعيين فى الريف يستكملون وجاهة المدن بعضوية مجالس إدارة الشركات المالية والصناعية، وهنا فإن شركات «عبود» (باشا) مقصد وموقع.

وهكذا فإنه طوال سنة ١٩٤٨ كان «أحمد عبود» (باشا) يراهن على حزب الوفد - وفى داخل حزب الوفد، فقد كان موضع رهانه هو موقع «فؤاد سراج الدين» (باشا)، وأكثر من ذلك فإن «عبود» (باشا) رفع قيمة الرهان، ووصل إلى حد وضع الرصيد كله على رئاسة «فؤاد سراج الدين» لوزارة وفدية يباركها «النحاس» باشا) ويرعاها من بعيد. والغريب أن «عبود» (باشا) لم يخف فى كل اتصالاته ومساعيه تلك الأيام أن «فؤاد سراج الدين» يستطيع أن يجعل «النحاس» يوافق على وزارة وفدية لا يرأسها بنفسه، وإنما ينوب عنه فى رئاستها «فؤاد سراج الدين»!



ومن الصعب تحديد مدى الدور الذى لعبه «عبود» (باشا) لصالح عودة الوفد إلى الحكم، فقد كان يقدم حججه للقسم المصرى فى وزارة الخارجية البريطانية عادة، إلى جانب مرة واحدة أتيحت له الفرصة لمقابلة وكيل الوزارة السير «ألكسندر كادوجان»، وعندما كان يزكى الوفد فإنه كان يشير إلى أن تلك هى النتيجة الحتمية لانتخابات حرة، ومع ذلك فإن سامعيه لم يصدقوا أن الرجل كان نصيرا قويا للديمقراطية، ومن المفيد قراءة تقرير كتبه السفير السير «رونالد كامبل» عندما كان رئيسا لقسم الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية وقابل «عبود» (باشا) بناء على توصية من السفارة البريطانية فى القاهرة، فيقول «سمعنا منه حكاياته المعتادة، فهو يزكى الوفد، ولا يكره الملك، وإنما يقول أن الحاشية المحيطة به تعطيه كل النصائح السيئة - استمعت إلى «الباشا» و«طبطبت» على ظهره، شاكرا له الهدايا التى جاء بها معه وانصرف من مكتبى كما أظن - شديد الرضى!».

وتكتب السفارة فى القاهرة برقية إلى لندن تحاول فيها إظهار أن «عبود» (باشا) «يستحق ما هو أكثر من «الطبطبة» على ظهره»، ويقول السفير:

«إننى أظن أن الرجل يستحق كلمة تقدير منكم، فقد تبرع لصندوق النصر Victory Fund (وهى تبرعات من الأفراد، تجمع من بلدان الإمبراطورية) أكثر من مرة، وقد أعطى أخيرا مبلغ خمسين ألف جنيه إسترلينى، وقبلها تبرع بخمسة وعشرين ألف جنيه إسترلينى لصالح عمال النقل البريطانيين، ولابد أن تلاحظوا أن هذه التبرعات لنا لا تعجب القصر، والرجل يعرف ذلك، ولا يبالى».

ورد القسم المصرى من لندن يقول «لا نعرف ما الذى نستطيع أن نفعله لعبود أكثر من أن نصغى إليه وهو يتكلم، حريصين على أن لا يسمع منا ما يسهل «تأويله». ويضيف القسم المصرى فى برقية أخرى من لندن «أن الرجل يحس أن لديه ما يقوله لنا وهو على استعداد لأن يقوله، ولكنه يريد منا أن نعطيه الإحساس بأننا نسأله، وقد قال صراحة أنه سوف يتكلم فى القاهرة على أساس أننا سألناه رأيه».

ويكتب (رئيس القسم المصرى وقتها «نيفل بتلر») يقول: سألنى عبود سؤالا - قال لى أنه سأله لسفيرنا فى القاهرة، ملخصه «أنه لا يفهم السبب الذى يدعونا الآن إلى الامتناع عن التدخل فى الشأن المصرى. ذكرنى بأننا تدخلنا فى اليونان وفى بلغاريا وفى رومانيا، وأظهرنا إصرارنا على ضرورة إجراء انتخابات حرة فى مصر مع وجود لجنة دولية تشرف عليها»، وقلت لعبود «إن الأمثلة التى ذكرها مختلفة فتلك الأمثلة التى ذكرها كانت لدول خضعت لأعدائنا، وعندما تحررت كان فى مقدورنا أن نملى عليها إرادتنا - والفارق الثانى أننا فى تلك البلدان لم نتصرف وحدنا وإنما تصرفنا ومعنا حلفاؤنا، والمثال الظاهر بالفعل لذلك ما حدث فى اليونان!

أضاف «عبود» (باشا) قائلا «إننا نحتاج إلى اتفاق مع مصر وأى اتفاق لا يحمل توقيع الوفد لا تكون له أية قيمة!».

والمشكلة أن المصريين من أصدقاء «عبود» (باشا) فى القاهرة ليسوا على علم بدخائل الأمور، وكل ما يبدو لهم أن «أغنى رجل فى مصر» يسافر إلى لندن ويذهب إلى وزارة الخارجية، وبالطبع يسمع ويتكلم، وإذن فهو على اتصال وما يقوله مسنود بعلم مطلع على بواطن الأمور.

والآن كان «عبود» (باشا) يضع ثقله وراء «فؤاد سراج الدين»، والمطروح هو مواجهة الظروف المتدهورة إما بوزارة ائتلافية وإما بوزارة وحدة وطنية يشارك فيها الوفد برئاسة رئيس وزراء محايد «ومقبول من الملك»، والأسماء المرشحة لرئاسة هذه الوزارة: «شريف صبرى» (باشا) - «على الشمسى» (باشا) - «حسين سرى» (باشا)، ثم إن هذه الوزارة الائتلافية أو وزارة الوحدة الوطنية يمكن أن تتولى تحديد بعض قضايا الإجماع

طوال سنة ١٩٤٨ كان «أحمد عبود» (باشا) يراهن على حزب الوفد - وفى داخل حزب الوفد، فقد كان موضع رهانه هو موقع «فؤاد سراج الدين» (باشا)، وأكثر من ذلك فإن «عبود» (باشا) رفع قيمة الرهان، ووصل إلى حد وضع الرصيد كله على رئاسة «فؤاد سراج الدين» لوزارة وفدية يباركها «النحاس» باشا) ويرعاها من بعيد

الوطنى وتعقد اتفاقا بشأنها، وبعدها تشرف على انتخابات حرة تكون نتيجتها وزارة وفدية بالطبع، ثم تكون هذه الوزارة الوفدية برئاسة «فؤاد سراج الدين» بقبول وتأييد من «النحاس» (باشا).



وفى أجواء الشك والتردد كتب «تشابمان أندروز» الوزير المفوض فى السفارة - والذى أصبح الدينامو المحرك لنشاطها طوال سنتين حافلتين بالتخبط والاضطراب - تقريرا طلب من وزارة الخارجية فى لندن اطلاع مدير المخابرات فى الشرق الأوسط الجنرال «كلايتون» عليه، وفى ذلك التقرير قال «تشابمان أندروز»:

«قابلت «إدجار جلاد» (باشا) صاحب جريدة الجورنال ديجيت، (وهو مقرب من القصر)، كما أن شقيقه «فيليب جلاد» (باشا) يشغل وظيفة (رئيس القلم الإفرنجى كما كان يُطلق على إدارة العلاقات الخارجية فى القصر الملكى). وكان «إدجار جلاد» مسافرا إلى باريس فى مهمة أبدى لى أنه ليس مرتاحا لها، لكنه مضطر إلى أدائها، وإلا اعتبره الملك «فاروق» متهربا من الخدمة، والمهمة أن الملك يريد توزيع هدايا مالية على بعض الصحفيين الفرنسيين (الذين بدءوا يهاجمونه) - سألنى «جلاد» إذا كان «هيج» (الملحق الصحفى) يستطيع مساعدته مع الصحفيين البريطانيين، وأبديت له صعوبة تحقيق طلبه.

قال لى «جلاد» (باشا) أن «فؤاد سراج الدين» اتخذ خطا يجعل القصر يشعر بالثقة فيه وفى تأكيداته بأن الوفد لن يتصرف بروح الانتقام إذا عاد إلى السلطة. قال: «جلاد» إن الأهم من ذلك هو ما إذا كان «فؤاد» يستطيع تنفيذ تعهداته باسم «النحاس»، أو أن «النحاس» حين تجىء أغلبية وفدية سوف يتصرف كما فعل كل مرة وينشر الوفديين على وجه السرعة فى كل الإدارات الحكومية ويسعى للسيطرة على البوليس - وحتى على الجيش - ويصبح بمثابة ديكتاتور. قال «جلاد» نقلا عن كتاب «فنسنت كيرول»: «مأساة مصر أن الملك يريد أن يحكم، و«النحاس» يريد أن يملك!».

أبلغنى «جلاد» أنه تلقى دعوة على الغداء مع «فؤاد سراج الدين» (باشا) ولا يظن أنه سوف يقبلها لأن هؤلاء الوفديين لا يمكن الثقة بهم على الأقل حتى الآن!».

وتمر أيام قليلة ويكتب «تشابمان أندروز» مذكرة جديدة إلى الخارجية البريطانية:

«التقيت بفؤاد سراج الدين فى بيت «عبود» (باشا) وتحدثت معه لمدة ساعة، ودعوته إلى العشاء فى بيتى هذا الأسبوع، وهذه هى المرة الأولى التى يقبل فيها سكرتير عام الوفد أن يذهب إلى بيت عضو من أعضاء السفارة منذ خروج الوفد من السلطة قبل أربعة أعوام، وأنا أنوى أن أحافظ على هذه الصلة، وأتخلى عن التحفظ الذى اتبعناه فى التعامل مع أقطاب المعارضة المصرية وكأنهم مصابون بالجذام. إن الوفديين خدمونا خدمة جيدة أثناء الحرب، ومازالوا يعلنون صراحة أنهم حلفاؤنا، ونحن

لم نحصل على شيء من جراء تعاملنا مع الحكومات الممثلة للبرلمان الحالي. وبصرف النظر عما يبديه الملك «فاروق» من حُسن النوايا، فإن الوضع الراهن لا يمكن أن يستمر، والبرلمان الحالي تنتهي مدته الدستورية بعد شهور قليلة، وأنا أشك أنه حدث منذ سنة ١٨٨٢ (سنة الاحتلال البريطاني) - أن المصريين تصرفوا بهذه اللامبالاة إزاء حكومة مصرية، وأعتقد أن الشعب لا يمكن أن يواصل هذا الرضوخ، بل إني أعتقد أن هناك انفجارا رهيبا قادما، وما أخشاه أن القوة التي سيطلقها هذا الانفجار ستكون بطبيعتها وقوتها مفاجئة لطرفين تقوم بينهما الآن فجوة عميقة وهما القصر والوفد!



ويواصل «تشابمان أندروز» برقياته وهو يوجهها بقصد للخارجية وللمخابرات في نفس الوقت:

«أبلغني «عبود» ليلة أمس أن «إبراهيم عبد الهادي» (باشا) (خليفة النقراشي باشا)، طلب منه أن يقوم بدور الوسيط بينه وبين الوفد، ويرتب له مقابلة مع «فؤاد سراج الدين». نقل «عبود» طلب «عبد الهادي» إلى «سراج الدين» الذي لم يكن متحمسا، ولكنه طلب من «عبود» (باشا) أن يستشير «تشابمان أندروز» في هذا الأمر. قلت لعبود رأيي وملخصه أن «فؤاد سراج الدين» لن يخسر شيئا من مثل هذا اللقاء، وأنا أومن ببقاء القنوات مفتوحة. أبلغني «عبود» أنه في مثل هذه الحالة فإن «فؤاد» سوف يقبل. قال «عبود» إن «فؤاد» قبل، ولكنه بعد ذلك «أبلغني أنه لا يريد من أحد أن يطلب منه مفاتحة «النحاس» (باشا) في أمر تخليه عن رئاسة الوفد أو رئاسة الوزارة في حالة إجراء الانتخابات وفوز الوفد فيها كما هو متوقع!

قال لي «عبود» «إن الوفد مقتنع بأن المخرج الوحيد للأزمة الراهنة هو التأكيد على إجراء انتخابات حرة مبكرة، وسألني «إذا كنت أظن أن ذلك أفضل مسار يتبعونه» - ورددت عليه بالنفي لأني أعتقد أن الملك ليس مستعدا بعد لهذا الاحتمال، كما أنني أومن بسياسة التدرج». كانت هناك إشاعة في الأسبوع الماضي بأن الملك قد يشكل «وزارة مأموريات» تتفاوض بسرعة معنا وتصل إلى اتفاق يفتح بابا في الأزمة، ومع أنه ظهر أن الإشاعة ليست صحيحة، فإنني تلقيت رسالة من «فؤاد سراج الدين» يعبر فيها عن أمله بأن لا تأخذ الحكومة البريطانية مأخذ الجد مثل هذه الإشاعات، ومن ثم ترتب نفسها لبحث جدي مع وزارة من هذا النوع في موضوع العلاقات بين مصر وبريطانيا، ورجاء «فؤاد» في رسالته «أن لا تقع الحكومة البريطانية في خطأ التعامل مع «هؤلاء الناس» بشأن أي موضوع من موضوعات العلاقة بين البلدين، فكل جهودهم سوف تصل إلى الفشل، والفشل سوف يجعل مهمة الوفد صعبة حين يريد إعادة المياه إلى مجاريها، لأنه عندما يعود الحزب إلى السلطة يصبح من العسير عليه أن يقبل ما رفضه غيره».



كان «فؤاد سراج الدين» يرى إنه يتحتم رأب الصدع بكل وسيلة بين القصر والوفد، ولكن المسألة كيف يمكن طمأنة الملك؟ واستطرد «فؤاد سراج الدين» يقول إنه هو شخصيا ألقى خطابا أخيرا قال فيه «إن الوفد يخضع لسلطة الملك ويدين له بالولاء»

أضاف «فؤاد سراج الدين» أن الأفضل في هذه اللحظة أن تجيء وزارة محايدة، يرأسها شخص موثوق فيه مثل «حسين سري» (باشا).



ويوم ٢٩ ديسمبر ١٩٤٨ يكتب رئيس قسم الشرق الأوسط بوزارة الخارجية البريطانية إلى السفير البريطاني في القاهرة ما نصه:

«اتصل بي السفير المصري «عبد الفتاح عمرو» (باشا) اليوم، أبلغني أن الملك «فاروق» قابلكم وتحدث معكم في شأن «غزو مصر من قِبَل القوات الإسرائيلية». سألته إذا كان الملك «فاروق» في طلبه قد استند إلى معاهدة سنة ١٩٣٦. أجاب بالنفي. قلت له إنني سمعت اليوم عن غزو الأراضي المصرية وطلبت تقارير وافية لم تصل إليَّ بعد، وحتى تصلني هذه التقارير ليس في إمكاني أن أبدي رأيا. قال لي إن حكومته مشغولة بتصفية جماعة الإخوان المسلمين، وأن هذه الجماعة هي عنصر التهييج المعادي لبريطانيا. وقال إن تهدئة الأمور تفتح الباب لوزارة «إبراهيم عبد الهادي» (باشا)، لكي تدخل معنا في ترتيب جديد للعلاقات المصرية - البريطانية. قال إن الإخوان المسلمين تلقوا أموالا طائلة من «روسيا» وأنهم بفضل ذلك حققوا نجاحا كبيرا لدعوتهم وسط الفلاحين(!) والحكومة الآن مصممة على سحقهم. قال لي «عمرو» (باشا) إن الحكومة الجديدة ستترك الباب مفتوحا أمام حزب الوفد إذا قرر الدخول في وزارة ائتلافية، وسألته إذا كان ذلك يعني «النحاس» (باشا)، فقال إن هذه هي العقدة الصعبة التي لم يتوصلوا فيها إلى حل حتى الآن».

تحدث «عمرو» (باشا) عن أحوال الجيش المصري، وقال إنه قابل بعض ضباطه أخيرا وأحس أن شعورهم طيب إزاء بريطانيا العظمى - لكن اليهود بطبيعة الحال عندهم قوات جوية قوية حصلوا عليها من تشيكوسلوفاكيا، والدول الأخرى التي تدور في فلك الروس، مما يجعل المصريين في موقف أضعف تماما. أوضح لي أننا أوقفنا تزويدهم بالسلاح، بينما اليهود يحصلون على ما يريدون من أوربا الشرقية.

سألني «عمرو» (باشا) إذا كانت لدينا رسالة أو رد ما يبعث به إلى الملك «فاروق»، وكان ردي عليه «إننا ندرس الموقف من جميع جوانبه». قال إنه يأمل أن تستأنف المفاوضات بين بلدينا قريبا لترتيب علاقاتنا على أسس ثابتة، لكنه يخشى بعد اغتيال «النقراشي» وما تعانيه مصر من مشاكل - أن استئناف المفاوضات سريعا قد يعطي انطباعا خاطئا».

قلت للسفير «إننا سوف نبقى على اتصال به فور أن نتلقى صورة كاملة للموقف الحالي على الأرض بين مصر وإسرائيل!».

والحقيقة أنه في تلك اللحظات كانت الحكومة البريطانية تعرف أنها لا تستطيع أن تؤثر على إسرائيل، وكانت - شأنها شأن الحكومة المصرية في هذه النقطة - تعتمد على النفوذ الأمريكي - لكن الحكومة البريطانية كانت واثقة أنها تقدر على التأثير في الموقف الداخلي المصري!



ومرة ثانية يلتقي «فؤاد سراج الدين» (باشا) مع الوزير البريطاني المفوض «تشابمان أندروز»، واللقاء في بيت «أحمد عبود» (باشا).

وكان موضوع البحث الرئيسي اقتراحا بأن يقدم الوفد التماسا من نوع ما يعبر عن الولاء للملك - وفي بداية المقابلة يظهر في المحضر الذي كتبه «تشابمان أندروز» أن «عبود» (باشا) بادر إلى إظهار خوفه الشديد من سوء الأحوال، ومع أنه لا يريد أن يفقد ثقة «النحاس» فهو يظن أن فكرة التماس من الوفد إلى الملك ممكنة، خصوصا إذا جاء في صيغة مقبولة من الجميع. وقال «فؤاد» (باشا) إنه يعرف الآن أن الذي طرح فكرة الالتماس هو «حسن يوسف» (باشا)، والفكرة طيبة ولكن السؤال المهم «هل الملك موافق عليها؟»، أو أن «حسن يوسف» يعرضها كاقتراح يجس به النبض، فإذا وجد استجابة من الوفد عرضها على الملك ؟». أضاف «فؤاد سراج الدين» إنه يتحتم رأب الصدع بكل وسيلة بين القصر والوفد، ولكن المسألة كيف يمكن طمأنة الملك؟ واستطرد «فؤاد سراج الدين» يقول إنه هو شخصيا ألقى خطابا أخيرا قال فيه «إن الوفد يخضع لسلطة الملك ويدين له بالولاء».

أضاف «فؤاد سراج الدين»: «إن الوفد مستعد لقطع نصف الطريق على الطريق نحو القصر، ولكن هل يقابله القصر على الطريق ويقبل منه؟ - هذه هي القضية». قال «فؤاد سراج الدين» إنه يستطيع إقناع «النحاس» (باشا) بتقديم التماس للملك؟ والمشكلة إنه لا يوجد حول الملك شخص مأمون يقوم بتوصيله، كل من حول الملك الآن ليست لديهم سلطة، أقواهم «كريم ثابت»، وهو «رجل يفتقر إلى كل حُسن أخلاقي ومتآمر وانتهازي وطماع ولا يمكن الاعتماد عليه بتاتا، لأنه مرتش وبلا أخلاق» - هناك «حسن يوسف» وهو موظف خائف وعاجز عن تحمل مسئولية تقديم المشورة للملك.

في نهاية التدفق المستفيض لفؤاد سراج الدين (باشا) توجه نحوي («تشابمان أندروز») وسأل «هل تلتقي بالملك كثيرا؟»، اعترفت له أنني التقيت «فاروق» مرة واحدة منذ عودتي من الإجازة الصيفية، وكان ذلك عندما دعاني إلى رحلة لصيد البط في نوفمبر الأخير (١٩٤٨)، وأضاف «تشابمان أندروز»: «لكن السفير يقابل الملك كثيرا». وهنا قال «فؤاد سراج الدين» (باشا): «لماذا لا تقومون أنتم بتوجيه النصح إلى الملك، مثل هذه النصائح الآن لا يمكن اعتبارها تدخلا في الشأن المصري من ناحيتكم».



وبعد أسبوعين - يوم ١٩ يناير ١٩٤٩ - كان هناك لقاء جديد بين «فؤاد سراج الدين» و«تشابمان أندروز» في بيت «عبود» (باشا) أيضا، وبحضور

«حسين سرى» (باشا) رئيس الوزراء السابق (وقد أصبح أكثر المرشحين حظا لتشكيل وزارة ائتلافية تواجه أحوالا زاد اضطرابها بالصدام الدموى مع الإخوان المسلمين). وكان «فؤاد سراج الدين» هو الذى تحدث أولا قائلا «إن الوفد فى الأيام الأخيرة قدم تنازلين فى منتهى الأهمية»، (سجلهما «تشابمان أندروز» فى تقريره نفس اليوم إلى وزارة الخارجية البريطانية):

● التنازل الأول أنه - وهذه هى المرة الوحيدة فى تاريخه - على استعداد للمشاركة فى وزارة ائتلافية عليها رئيس غير وفدى.

● والتنازل الثانى أنه على استعداد لمواصلة البقاء فى هذه الوزارة حتى يصل البرلمان الحالى إلى نهاية مدته الدستورية فى نهاية الموسم التشريعى الحالى.

سأله «تشابمان أندروز» إذا كان الوفد يوافق أن تكون الوزارة الائتلافية برئاسة «إبراهيم عبد الهادى» (باشا) رئيس الوزراء الحالى حتى لا يبدو التغيير انقلابا، ورد «فؤاد سراج الدين» بأن «النحاس» (باشا) لن يقبل لأنه يعرف «عبد الهادى» (باشا) من أيام كان فى الوفد ورأيه فيه ليس طيبا. قال «فؤاد سراج الدين» فوق ذلك فهو شخصيا لا يثق فى «إبراهيم عبد الهادى»، فقد التقى به أخيرا فى احتفال أقامه القصر للمؤتمر البرلمانى الدولى، وقال له «عبد الهادى» إنه يريد مقابلته بطريقة شخصية وسرية، وبالفعل ذهب «فؤاد» (باشا) إلى بيت رئيس الوزراء وسمع منه ما لديه، وبما أنه كان لقاءً شخصيا وسريا، فإنه لم يبلغ به أحدا حتى «مصطفى النحاس» (باشا) نفسه، لكنه فوجئ بخبر عن الحديث وبعض التفاصيل مما دار فيه منشورة فى «أخبار اليوم»، وذلك أدى إلى إحراجه بشدة أمام «النحاس» (باشا)!

وفجأة وبدون مقدمات وقرب نهاية الحديث التفت «فؤاد سراج الدين» (باشا) للوزير المفوض البريطانى «تشابمان أندروز» وقال له «إنه من ضمن مخاوفه من الاشتراك فى وزارة ائتلافية يرأسها «إبراهيم عبد الهادى» (باشا) «أنه ينوى المطالبة بعودة الجيش المصرى من فلسطين فورا»، وهو يخشى أنه إذا فعل ذلك، فإن رئيس هذه الوزارة «إبراهيم عبد الهادى» نفسه سوف يذيع ذلك منسوبا إليه، وبالتالى يضع المسئولية فى رقبته وحده».

وقال «حسين سرى» (باشا) الذى كان يحضر الحديث «أن «عبد الهادى» (باشا) أبلغه بأنه أصدر تعليمات إلى جميع الصحف بوقف أى هجوم على الوفد»، وقال «سراج الدين» «إنه يعرف أن «حيدر» (وزير الحربية)، و«حسن يوسف» (وكيل الديوان) - اقترحا على الملك تغيير وزارة «إبراهيم عبد الهادى» فورا، حتى يمكن تشكيل وزارة برئاسة شخصية محايدة يدخلها الوفد، والذى يعارض هذا الاتجاه هو «كريم ثابت»، والسبب أنه يحصل على ألف جنيه شهريا من المصاريف السرية، وهذه حقيقة يعرفها بنفسه من أيام توليه لوزارة الداخلية، وكان المبلغ الذى يحصل «كريم» عليه وقتها ١٥٠ جنيها فقط».

أضاف «فؤاد سراج الدين» (باشا) وسجل «تشابمان أندروز» فى تقريره إلى وزارة الخارجية فى لندن بتاريخ نفس اليوم (١٩ يناير ١٩٤٩) - قوله «إنه متأكد من أن كل المسائل المعلقة بين مصر وبريطانيا العظمى يمكن تسويتها إذا جاءت حكومة وفدية، لكن هناك شرطا أساسيا واجبا وهو أن لا تقدم الحكومة البريطانية فى هذه الأثناء أية تنازلات أخرى لمصر، وهو يقدر أننا فى الشأن اليومى قد نضطر إلى التحرك والتعاون مع أى حكومة مصرية على أساس عملى محض، غير أنه يأمل أن لا تكون هناك محاولات للوصول إلى تسوية أو ما يشبه التسوية، واعتقاده أنه عندما يجىء الوفد إلى الحكم بمفرده فإنه سوف يكون أقوى، وبالتالى أقدر على قطع منتصف الطريق لترتيب العلاقات معنا!».

أضاف «فؤاد سراج الدين» طبقا لما سجله «تشابمان أندروز»:

«الإخوان المسلمون ليسوا وحدهم المسئولين عن موجة الإرهاب الحالية - الشيوعيون اخترقوا الإخوان ويعملون تحت غطائهم، والشيوعيون قبل ستة أشهر حاولوا اختراق الوفد ولكن مناورتهم انكشفت وقُضى عليهم».

وكان آخر ما قاله «فؤاد سراج الدين» (باشا) وسجله «تشابمان أندروز» فى هذا اللقاء:

«إن أحد الوزراء الحاليين أبلغه أن الجيش المصرى فى فلسطين يغلى بالثورة ضد الملك وضد الحكومة الحالية، وأن هناك مجموعة قوية منظمة تنظيما جيدا من الضباط تعهدت بأن تقوم - بعد عودة الجيش من فلسطين - بثورة تستهدف تشكيل ديكتاتورية عسكرية!».

وفى شهر مارس سنة ١٩٤٩ يبدو «أحمد عبود» (باشا) نشيطا فى اتصالاته السياسية فى محاولة السيطرة على أوضاع تزداد ترديا كل يوم، لكنه الآن قام بتعديل تركيبة الاتصالات، والتعديل الأساسى أن «تشابمان أندروز» اختفى وظهر بدلا منه فى بيت «عبود» (باشا) ومع «فؤاد سراج الدين» (باشا) وبحضور «حسين سرى» (باشا) أحيانا - رجل رابع مختلف هو: «كريم ثابت» (باشا).

وكان ذلك شبه انقلاب باعتبار رأى سكرتير الوفد فى المستشار الصحفى للملك.

على أن موضوع الأحاديث ظل كما هو: وزارة ائتلافية تقوم بالحكم حتى انتهاء الفصل التشريعى الراهن (نهاية مدة برلمان سنة ١٩٤٥)، ويشارك فيها الوفد، ويكون عليها - عند انقضاء الأجل فى الخريف - أن تمهد لانتخابات جديدة، قد تجىء بحكومة وفدية.

والسؤال المهم هو: هل يمكن أن تكون الحكومة الوفدية التى تجىء تحت رئاسة وفدى آخر غير «مصطفى النحاس» (باشا)؟

وفى أحد اللقاءات فى بيت «أحمد عبود» (باشا) وجه «كريم ثابت» (باشا) سؤالا مباشرا إلى «فؤاد سراج الدين» (باشا) مضمونه «إن مولانا (الملك فاروق) مستعد أن يقبل وزارة وفدية يرأسها «فؤاد سراج الدين» (باشا) شخصيا، بدلا من «النحاس» (باشا)، ورد «فؤاد سراج الدين» قائلا: «إن ذلك أمر صعب».

ويواصل «كريم ثابت» أسئلته «ألا يمكن لزينب هانم (قرينة النحاس باشا) أن تقنع زوجها بذلك؟



أبلغ «فؤاد سراج الدين» (باشا) الوزير المفوض البريطانى «تشابمان أندروز» «إن أحد الوزراء أبلغه أن الجيش المصرى فى فلسطين يغلى بالثورة، وأن هناك مجموعة قوية منظمة من الضباط تعهدت بأن تقوم - بعد عودة الجيش من فلسطين - بثورة تستهدف تشكيل ديكتاتورية عسكرية!»

ويرد «فؤاد سراج الدين» بسرعة:

«هى نفسها أول من يرفض أن يتولى الوزارة غير «مصطفى» (باشا)».

ويلح «كريم ثابت»: «ولا حتى أنت؟».

ويرد «سراج الدين»: «خصوصا أنا»!



وعلى نحو ما فقد كان الملك «فاروق» يشعر أنه فى سباق مع الزمن، وكان اللورد «شولتو دوجلاس» الذى كان قائدا للطيران البريطانى فى مصر زمن الحرب، وأصبح مقربا إلى الملك «فاروق» وضيفا عليه الآن فى القاهرة بعد سنوات من انتهاء الحرب. وتوجه اللورد «دوجلاس» إلى السفارة البريطانية فى مصر، وقابل المفوض فيها، وبعد اللقاء كتب «تشابمان أندروز» إلى وزارة الخارجية البريطانية (٦٣ ٧٣٤ / ٣٧١) تقريرا يرد فيه بالنص:

«اللورد «دوجلاس» كما تعلمون يقوم بزيارة شخصية لمصر بدعوة من الملك «فاروق»، وقد مر علىَّ وأبلغنى بصفة شخصية بالمعلومات التالية:

١ - جرى اكتشاف محاولة لاغتيال الملك كمقدمة لانقلاب عسكرى تحددت له الفترة من ١٨ إلى ٢١ من شهر يناير. وقد تم اعتقال عدد من المتآمرين، لكن الملك «فاروق» يتوقع حدوث اعتداء على حياته خلال فترة قصيرة.

٢ - علم اللورد «دوجلاس» أن عددا من ضباط الجيش المصرى الشبان الذين ذهبوا إلى فلسطين، زاد سخطهم على الملك، وقد قرروا العمل ضده تحت قيادة «عزيز المصرى» (باشا)، الذى حُددت إقامته أخيرا. وعلم اللورد «دوجلاس» أيضا أنه تم اعتقال ضابطين فى الجيش ضُبطت معهما منشورات ومفرقعات.

٣ - أن الملك «فاروق» قال للورد «دوجلاس» «إنه شخصيا ليس خائفا من أية محاولة لاغتياله، وقد نصحه اللورد «دوجلاس» بأنه لا يستطيع أن يطمئن إلا إذا كان على علم حقيقى بما يدور تحت السطح فى العمق داخل القوات المسلحة».



ولم يكن الملك يعرف ما يجرى للقوات المسلحة فى فلسطين، وقد تحول الجيش إلى خمسة جيوب منعزلة عن بعضها تقريبا:

جيب يضم مجموعة الجيش الرئيسية وهى «مزنوقة» فى قطاع غزة - وجيب يضم قيادة الجيش الميدانى وملحقاتها بين رفح والعريش وصلتها بقواتها على كل الجبهات «مهددة» - وجيب فى الفالوجة وعراق المنشية «محاصر» - وجيب من بقايا قوات المتطوعين ما بين بيت لحم والقدس «مكشوف» - وأخيرا بقية الجيش المصرى الداخلى بما فيها وزارة الدفاع والقيادة العليا وهيئة أركان الحرب، وجميعها «مشتتة» وجهدها «مبعثر».

ومع ذلك فقد كان الملك مازال على اعتقاده بأن الأزمة فى القاهرة، وأنها لا تزال تدور فى الثلاثية التقليدية: القصر - والوفد - والسفارة البريطانية (والأمريكية معها... ربما!). ■

يوليو.. لماذا؟

ذوقان قرقوط

قبل أعداد ثلاثة، وفي تقديم سلسلة مقالاته حول يوليو، طرح الأستاذ هيكل السؤال: هل كانت الثورة في مصر سنة ١٩٥٢ حتمية أم ضرورية؟ ويبدو أن السؤال أو التساؤل استحث المؤرخ والسياسي السوري المخضرم ذوقان قرقوط على أن يرسل لنا بهذا المقال/الإطلالة الذي يحاول فيه أن يرسم ملامح إجابة من خلال عرضه لمشاهد «موثقة» لحال المشرق العربي وكذا حال مصر ما قبل يوليو ١٩٥٢.

المحرر

إني، وإن كنت أمتهن التاريخ.. لم أندب نفسي للإجابة، بدافع مهنتي وإنما كاحد الذين عاشوا فترة ما قبل يوليو وعاني المجريات التي عصفت بالبلاد العربية منذ الحرب العالمية الأولى، ولم يكن المهم تسجيل الأحداث وإنما الأهم صداها في نفوسهم ومعاناتهم لها.

فقد ولدت أثناء الحرب العالمية الأولى وفي وسط تعرض لعواصفها ويمكن أن أكون شاهدًا على التلقي.. فقد تراكمت في أذهان الناس في المشرق العربي منذ الحرب العالمية الأولى إلى جانب مآسي المجاعات وأفواج الجراد والتهجير.. أخبار «ثورة» الشريف حسين، أو الأمير حسين، أو الملك حسين للتحرر من دولة العثمانيين، باسم الجمعيات العربية، بالتحالف مع الإنجليز.. ملأت أخبارها كل بيت. ثم تراكم فوقها ما جلبته فترة دخول الأمير فيصل إلى دمشق من مشاعر وفترة حكمه لبلاد الشام الموحدة - دون معرفة بأن هذه الفترات كانت بتفويض من اللنبي.. إلا أنه ظل في ذاكرة الناس وحدة بلاد الشام كما كانت ملتئمة والتي هي الآن: «لبنان وسوريا والأردن وفلسطين» وهُيئ للناس أن ما كانوا يحلمون به من التحرر من الدولة العثمانية والعيش في وحدة، قد تحقق، تجلت في مجلس وطني وحكومة واحدة وفي الإجماع أمام «لجنة كينج - كراين». وحتى دخول غورو على رأس الجيوش الفرنسية من بيروت إلى دمشق وخروج الملك فيصل وتطبيق سايكس - بيكو وترسيم الحدود بين هذه البلدان ظلت علاقات الوحدة قائمة زمنًا حتى حلت محلّها الإجراءات الجديدة لإبراز كل منها بإعطائها كيان دولة. وفي ظل هذه الأوضاع نشبت الثورات على الانتدابات في كل قطر. بدت كأنما هي عشائرية لا رابط بينها، ولا قيادة تجمعها، وكاد بعض هذه الثورات على الاستعمار ينجح لولا الانقسامات الداخلية إلا أنه بدأ في هذه المرحلة، يظهر قطبان يتجاذبان في بلاد الشام، إلى جانب سياسات الغرب، وبخاصة في سوريا هما: بغداد والرياض. ولم يقيَّض للبلاد من يعلو على هذين القطبين والانقسامات الطائفية والعشائرية وينبرى للعمل القومي.

لقد ترسب في ذاكرة سوريا أنها قلب العروبة النابض، نتيجة لتلك الفترة.. وكانت دمشق مركزًا لمدة طويلة، ضد الاستيطان الصهيوني في فلسطين. لعل ذلك بدأ منذ العهد العثماني وظهور شخصيات في مجلس «المبعوثين» واختلاف التقسيمات الإدارية.. وبعد الانفصال عن تركيا، بدت دمشق مركزًا لنشاط قادة فلسطين: مثل الحاج أمين الحسيني وصبحي الخضرا.. إلخ. وآل النشاشيبي والتل.. وإلى زمن بقي أهم رجالات الحكم في الأردن، بل أهم عائلات عمان من سورية.

وكانت تطوف في ذهن معظم السوريين فكرة أن دمشق هي بييمونت العرب أو بروسيا العرب، أي أنها سوف تقوم بنفس الدور القومي لتوحيد البلاد العربية الذي قامت به هاتان المقاطعتان لتوحيد إيطاليا وتوحيد إمارات ألمانيا. وكتب في ذلك كثيرون، مما سجله أسعد داغر في مذكراته. ولكن رجالات المشرق العربي، في جميع الأحداث التي مرت به بعد ذلك.. ظلوا أسيرىَ سياسة القطبين: بغداد والرياض الإقليميين ولم يستطع أحد منهم تجاوزهما إلى قيادة قومية.

وكان الاعتقاد بأن دمشق بييمونت أو بروسيا العرب قبل ظهور حزب البعث العربي فيها في الأربعينيات من القرن العشرين.

وقد نشأت ظروف بحلول الحرب العالمية الثانية تستجيب لزعامة قومية تعلو على البيئات المحلية والإقليمية، ففي خلال هجوم ألماني خاطف سقطت فرنسا. فحكمت «فيشي» سوريا بإدارة مهلهلة لا تقوى على الصمود أمام أي حركة. وما لبث النزوع القومي في بغداد أن تحرك للتحريض في سوريا بإذاعة من قصر الرحاب يذيع منها الملك غازي بنفسه، اشرأبت نحوها الأعناق من سوريا والعراق فعاجل الإنجليز هذا الملك الواعد بتدبير مؤامرة لتصريفه باغتياله، سرعان ما انكشف وعرفت عناصرها وأشارت أصابع الاتهام إلى نوري السعيد ومع ذلك، ربما كانت من أسباب تألقه لدى السلطات.

قفّت الحركة الوطنية ذلك بوزارة رشيد عالي الكيلاني، وتمرده على أوامر الإنجليز.. حسب الناس أن في هذا التمرد على الإنجليز الثورة المنتظرة للتحرر من الاستعمار وإعادة الأقطار إلى وحدتها. فراحوا يتسابقون إلى اللحاق بها أهم أفواجهم كانت من حمص وحماة وحلب، وشكل الذين لم يلتحقوا منتظمات للتبرع كان أبرزها «نصرة العراق» التي صارت فيما بعد نواة حزب البعث العربي - ولم يبق أحد من الفدائيين الفلسطينيين إلا ولحق بالعراق واتخذ الحاج أمين الحسيني بغداد مقرًا له. والتحق من لبنان عدد من المقاتلين ومن مصر مصطفى الوكيل تولى مع صديق شنشل من العراق الإذاعة وحاول عزيز المصري الإفلات من إسار الإنجليز المضروب حوله في مصر للحاق ببغداد أيضًا فسقطت طائرته قبل أن تغادر حدود القاهرة.. واتضح فيما بعد أن أحاسيسنا نحن شباب ذلك الحين كانت صحيحة، صادقة بالتعبير عن الواقع إذ تنكشف عن أن البلاد كانت تمور بالبؤر الثورية التي تتطلع إلى فرص الانقضاض على الإنجليز خاصة وبقايا الاستعمار عامة للتحرر وإعادة التئامها، فكان مما تكشف الكثير. فمنها مثلاً أن محمد سلمان الوزير بوزارة رشيد عالي الكيلاني يذكر أنه تلقى - وهو يستشفي في الجامعة الأمريكية في بيروت - رسالة بتوقيع جمال عبدالناصر يسأله فيها عن الوسائل التي يمكن بها مساعدة الثورة في العراق.. إلخ.

وإذا كان الإنجليز لم يعرفوا بدقة بمجريات التحرك في المنطقة وتفاصيلها.. فإنهم على الأقل - دون أدنى ريب - كانوا يحسون وهم يسمعون الهتافات تتعالى: إلى الأمام يا رومل، بينما يحرقون أوراقهم في القاهرة للانتقال بمركز مقاومتهم إلى جبل طارق.. بأن الأرض تميد تحت أقدامهم.. الأمر الذي دعاهم إلى القيام بحماقة ٤ فبراير لتبديل الحكم بالقاهرة. ولم يكن بعيدًا عن مثل هذا تصريح ايدن بتأييد قيام روابط أوثق بين البلاد العربية، في مايو ١٩٤١، ثم عندما رأى الدول العربية «الناشئة» لم تتحمّس لهذا التصريح أردفه بتصريح ثان في فبراير ١٩٤٣، أكثر وضوحًا كأنه يستحثهم، يؤكد فيه «تعاطف بلاده مع أي مشروع يقدم لوحدة العرب على أن تأتي المبادرة من العرب أنفسهم ويحظى بتأييد الجميع..».

واتضح الغرض حينئذ لذوي البصيرة أن المراد هو احتواء المشاعر الثائرة بالاستباق قبل أن تنفجر فلا تعود قوى انجلترا، بل والغرب كله، قادرة على التحكم بها.. ولم تلجأ انجلترا إلى القبول بمثل هذا المطلب الوحدوي، الذي تحلم به الشعوب العربية.. إلا مضطرة بضغط الظروف التي تحاصرها. وهي الدولة التي تخطط بوضوح، على الأقل منذ عهد جلادستون للحيلولة دون قيام وحدة عربية.. توجت هذا التخطيط عام ١٩٠٧ بمؤتمر كامبل بانرمن للعمل على بقاء الأمة العربية مقسمة.

وليس لدى أدنى شك أن أحاسيس العرب لم تكن تختلف وإن كانت العقول أقل وعيًا ومعرفة.

فشلت «ثورة» رشيد عالي الكيلاني في بغداد وتشتتت، شنق من شنق، وسجن من سجن، واستمر الذين تجمعوا في أنقرة بقصد المروق إلى برلين يدغدغون آمال الوحدة، تنعشها أخبار نجاح تقدم الجيوش الألمانية في الاتحاد السوفيتي (رجاء الاطلاع على مذكرات أكرم زعيتر) وشاع القول بأن الفرج سيأتي حينئذ، عبر القوقاز على يد الجيوش التي يقودها فوزي القاوقجي ويجتاح بها الشرق العربي.



ولم تكن الحال في سوريا والعراق وفلسطين.. تنعم حتى بشرف «الأحلام» الكاذبة: في بغداد راحت جيوش كلوب باشا «البدوية» المنظمة تنظيمًا حديثًا، تعربد وتخمد النيران، وفي سوريا انهمك كبار «الرجال» في إبعاد شبهة تورطهم في اغتيال الدكتور عبدالرحمن الشهبندر عنهم، غطى انهماكهم على كل شيء فلم يعد يسمع لهم صوت.. ودخلت الجيوش البريطانية - الديجولية، لم يكد أحد يحس بدخولها، والغريب أنها مهدت لهذا الدخول لطرد الفيشيين بآلاف المنشورات المطبوعة في عمان تدعو للوحدة العربية، تولت توزيعها المخابرات الأردنية.. دخلت الساحة يومئذ، فيما عدا هذا الصوت الخافت من الأردن الذي لا يجد أذنًا واحدة مصغية لفقدان الثقة - من الحديث أو المناداة - بأن ثمة أمة عربية عظيمة يجب أن يكون لها دور.

في تلك الظروف التي بلغ فيها زخم القومية العربية الأوج.. كنا نشعر أن أكبر تحدٍّ يطوف بخيالنا هو الوصول بهذه القومية إلى أن تتجسد في نوع من أنواع الوحدة. وإلا فإن مظاهراتنا وإضراباتنا وأصواتنا تذهب هباء.. فالوحدة هي الأمان.. فبدون قصد من أحد أظهرت الظروف أمامنا حقيقة قومية كبرى هي أن المنطقة التي نعيش فيها - رغم كل الدعايات والافتراءات - أصبحت واحدة من وادي الفرات شرقًا إلى ما وراء وادي النيل غربًا ووسطها بلاد الشام، سوريا وفلسطين.. لها خصائص مشتركة وبينها تكامل جغرافي لا يمكن قطعه وأمن يصعب الفصل بين مقتضياته ومصالح متصلة وتماثل ثقافي من نوع فريد ومركز متصل واحد، في القاهرة، ليس من السهل



لابد أن نتذكر.. كان «جنس الفلاح» هذا الذى تزدريه الست التركية، هو البلاد، عندما وفد إليها محمد على.. فانتزع منه أرضه.. وعبثت «بطولات» محمد على، ومظاهر نهضته بعقولنا فحجبت عنا، كيف تحول أصحاب البلاد إلى أن أصبحت نسبتهم فى أواخر حكم أسرة محمد على أكثر من ٩٨٪ من عدد السكان



كان فى الريف المصرى
أحد عشر مليون فلاح لا يملكون سوى
أجرهم اليومى، ولم يكن يزيد فى أحسن الأحوال
على ثلاثة قروش
وهى بالكاد تعيّشه



الفلاح المصرى.. معاناة مريرة على مدى التاريخ

تقويضه.. وبمجرد توفر الظروف القوية لهذا المركز أسكت التنازع السعودى - الهاشمى وأبطل أثره.. وكان المرء يستطيع الانطلاق من بغداد بالسيارة أو بالقطار إلى القاهرة وما وراءها.

حينئذ كان شمل بعضنا يلتئم، بعد انفضاض المظاهرات التى تحدث يومياً، فى مقهى «الطاحونة الحمراء» على ضفاف نهر بردى حيث اعتاد أستاذان من أساتذتنا أن يجلسا، بعد استقالتهما من العمل الحكومى وتهيأ للعمل العام، وحام حولهما استبشار وأمل فى أن يكون الطريق الذى يسلكانه هو المطلوب.

وذات يوم جاءنا إلى هذه الجمعية المرحوم الدكتور شكرى فيصل قادمًا من القاهرة حيث كان يعد رسالة ماجستير فى اللغة العربية، يحمل معه عددين من مجلة «الأنصار» التى تصدر هناك، تتصدر أحدهما صورة حصن فى مكان قاص من روسيا تخرج منه نساء محرمات، كتب تحت الصورة عبارة «حصوننا هناك» وتختتم العدد الثانى صورة خنازير: سود وبيض تتعارك بتعليق تحت الصورة: «الحرب بين الخنازير».. أثارت موضوعات المجلة نقاشًا، استمر حتى الانصراف حول منظورها العربى الإسلامى الجديد ولغتها التى لا تقرأ بصفائها ومنطقها فى تاريخنا منذ أيام عمر بن الخطاب - على حد تعليق ميشيل عفلق حينئذ - وتجاذبنا، قبل أن ينفض سامرنا، الأفضلية لمن يحصل على المجلة أولاً.. وانتهى الأمر فى تجاذبنا إلى الأخذ بمبدأ القرعة. وهكذا كان. وفاز بالأولى الدكتور: جورج طعمة مندوب سورية فى هيئة الأمم.



وعندما جاءنى الدور، بالحصول على مجلة «الأنصار»، كنت قد عملت على الحصول على أعداد أخرى منها؛ وبدا لى فى هذه الأعداد أنها غير إقليمية وأنها تعنى باستجلاء صورة للأمة العربية، من خلال تفهم جديد للـ«جاهلية» وللـ«إسلام»، وما هو إلا شهر حتى صدر العدد الأخير من المجلة، الذى تعلن فيه طلاقها للعمل الكتابى وهجرته وانصراف أصحابها إلى العمل العام، وقد ربطت الإسلام بالجاهلية بعلاقة محكمة إذ قالت فى العدد قبل الأخير: «كانت العرب تحج إلى الله فى عهد انحلال حنيفيتها، قبل ظهور الإسلام، فتقول فى التلبية إلى الله: «لبيك اللهم لبيك! لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك» من أجل هذه الجملة الأخيرة ومدلولاتها فى حياة العرب قام الإسلام. وما هى من آثار العرب فى شىء، وإنما هى من بقايا ذلك الليل الذى اكفهر على الجزيرة العربية فى عهد مجوسيات الفرس فى جنوبها وحبالات اليهود فى شمالها!».

وهُيئ لى أن «الضالة» التى ننشدها هى فى مصر، وعزمت على اللحاق بها.. وكانت تجربة، تجربة طويلة، حديثها طويل.. ليس هنا مكانه الآن.



قُدّر لى أن أجىء إلى مصر مرتين فى فترة ما قبل ثورة ٢٣ يوليو: هذه المرة، ومرة أخرى لإتمام الدراسة الجامعية فى كلية الآداب بجامعة (فؤاد الأول) - جامعة القاهرة اليوم - وجاءت إلى القاهرة فى هذا الوقت أول بعثة. وبالقدر المتاح يمكن لشهادتى أن تؤدى مهمة الإجابة عن السؤال: «هل كانت الثورة فى مصر عام ١٩٥٢ حتمية أم ضرورية؟».

في كتاب د. مريت غالي ود. إبراهيم مدكور: «الإدارة الحكومية» أن المجلس النيابي حُل سبع مرات في عشرين سنة وحُل مجلس الشيوخ ثلاث مرات ولم يستكمل مجلس واحد جميع دوراته.

لم يلفت ذلك المثقفين ولا لفتهم حال البلاد من فقر الشعب وكثرة العاطلين المثقفين من خريجي مدارس وجامعات البلاد، أو من خريجي جامعات أوروبا

عندما قدمت إلى القاهرة لأول مرة كان عدد سكان البلاد، وفقًا لإحصاء عبداللطيف البغدادي «يزيد عدد العاملين فيها من الفلاحين مع عائلاتهم على عشرة ملايين شخص يكاد أن يكون وقتئذ ٩٩٪ من عدد السكان ولا يزيد الأجر اليوميّ الزراعي على ثلاثة قروش ولا يتجاوز عدد أيام العمالة في السنة أربعة أشهر، يعيشون في بؤس بينما يملك البلاد حوالي مليون يتناوبون الحكم».

هؤلاء - ربما فئة منهم بنتيجة الحراك الاجتماعي - من سلالة الذين اصطنعهم محمد علي ليكونوا عماد حكمه، وهم الذين تشكلت لهم «أيديولوجية» تركية، بقيت لا تمت إلى البلاد بصلة، وصفهم أحمد فارس الشدياق في زيارته لمصر قبل وفاة محمد علي، في آخر أيامه بقوله: «فأما رجالها فإن للترك سطوة على العرب وتجبرًا. حتى أن العربي لا يحل له أن ينظر إلى وجه تركي، كما لا يحل له أن ينظر إلى حرم غيره، وإذا اتفق من نوادر الدهر أن تركيًا وعربيًا تمشيا أخذ العربي بالسُّنة المفروضة وهي أن يمشي على يسار التركي، محتشمًا، خاضعًا»، ولشدة ما هاله من انقلاب الأمر تساءل قائلاً: «.. ولم أدر ما سبب تكبر هؤلاء الترك هنا على العرب.. إن النبي كان عربيًا والقرآن نزل باللسان العربي، والأئمة والخلفاء الراشدون والعلماء كانوا كلهم عربًا. أني أظن أن أكثر الترك يجهل ذلك فيحسبون أن النبي كان يقول: شويلة بويلة ابقا لم قبا لم.. لا والله ما هذا كان لسان النبي ولا لسان الصحابة..».

ولم يختلف عن هذا وصف ولي الدين يكن بعد أكثر من سبعين عامًا وهو أصلاً من هذه الفئات إلا أن ولاءه افترق: وفي عودة الروح لتوفيق الحكيم، الصادرة عام ١٩٢٧ يعطينا الحوار بين الأم وابنها محسن نفس الصورة:

قالت الأم لابنها محسن:

- أنت ما تطلعش زييّ أبدًا.

وهنا تنحنح أبوه وقال:

- ولا زييّ

فالتفتت الزوجة إلى زوجها وقالت في تهكم:

- من إمتى يا حضرة العمدة الفلاح. أنت تنكر إني أنا اللي مدنتك وعلمتك الأبهة!

فأجاب زوجها العمدة متقهقرًا:

- الله.. وأنا قلت حاجة؟ طبعًا أنت يا هانم تركية بنت أتراك.

ثـــم:

ما كاد محسن يستقر ساعة في غرفته، بيت العزبة، حتى كان وقت الغداء.. مدت المائدة ووقف على رأسها الخادمان النوبيان كالمعتاد، وجاءت الست يتبعها زوجها ومحسن، وما إن نظرت إلى طبق الخبز «البلدي» على المائدة حتى صاحت:

- الله فين العيش الفينو؟

فغمغم أحد الخادمين:

- مفيش..

فزمجرت الست:

- نسيت تجيب عيش فينو معاك من دمنهور؟

كويس قوي.. وأنا آكل إيه دلوقت؟

- أروح يا ست أجيب من دمنهور وآجي حالاً.

فسكتت الست لحظة.. ثم عادت فقالت، بعد أن ألقت نظرة على الشمس المتوهجة في الخارج:

- الدنيا حر قوي عليك.. قول لواحد فلاح يروح..

وهم بلال بالذهاب ولكنها استوقفته:

- اسمع يا بلال! نادي لي الناظر الكلب..

وخرج الخادم وعاد بعد لحظات بالناظر، فقالت له الست:

- إزاي عايز توكلنا عيش من بتاع الفلاحين، يا راجل يا مغفل!

فأجاب الرجل، دهشًا مبغوتًا:

- دا عيش طازه يا ست.. خبز النهارده الصبح! ومراتي خبزاه خصوصي علشان حضرتك..

فصاحت فيه:

- بلاش قرف، أنا آكل عيش من ده؟ امشي ابعت واحد فلاح حالاً يروح يجيب لي عيش أفرنجي من دمنهور.

- دلوقت يا ست في حر الأيالة!

- أيوه دلوقت في حر الأيالة.

- حاضر يا ست بس..

- بس إيه..؟

- بس جنابك تعرفي إن الفلاح من دول بيشقى في الغيط من الساعة خمسة الصبح وما يصدق تيجي ساعة الضهرية لأجل يرتمي تحت شجرة يستريح بعضشي.

- ما شاء الله! يستريح بعضشي؟ الفلاح يستريح؟ من إمتى العز ده كله؟

- هو مش بني آدم يا جناب الست؟

- امشي بلاش دلع، قوِّم واحد فلاح يجيب عيش من دمنهور وإلا وحياة أبويا الكرباج ينزل على عِمتك دي.. جنس فلاح.





ولابد أن نتذكر.. كان «جنس الفلاح» هذا الذي تزدريه الست التركية، هو البلاد، عندما وفد إليها محمد علي.. فانتزع منه أرضه.. وعبثت «بطولات» محمد علي، ومظاهر نهضته بعقولنا فحجبت عنا، كيف تحول أصحاب البلاد إلى أن أصبحت نسبتهم في أواخر حكم أسرة محمد علي أكثر من ٩٨٪ من عدد السكان.. لم ينبر نصير لهم.. إلا عندما ركنوا إلى قوتهم الذاتية في مكافحة بقاء الحملة الفرنسية وفي صد حملة فريزر والوقوف في وجه عودة الألفي، وفي العمل على تنصيب محمد علي.. أو تواتيهم مناسبات يطفح فيها الكيل، كهبة عرابي أو دنشواي.. أو ثورة ١٩١٩ عندما انفجر ما تراكم في صدور هؤلاء الفلاحين من غل.

وسرعان ما كان التحالف الصامت الثلاثي بين: «مجتمع إدارة الحكم»، على حد تعبير مريت غالي وإبراهيم مدكور والقصر والإنجليز.. وهم الذين يهمهم عدم حدوث تغيير، يبادرون إلى تسوية، يموهون فيها الحقائق: يطمسون رغبات التغيير ويطرحون بدائل.. ملتهبة على نحو ما حصل في ثورة ١٩١٩.

فالشعب الذي هبّ يحاصر الوجود الإنجليزي في كل مكان في المدن والريف وبرهن على أنه في الحرب كما في السلم، ذو شكيمة لا تلين.. أجاد في المحاربة.. وأجاد في المقاطعة، عندما أرادت لندن، بلجنة ملنر التهدئة وكسر حدة العداء.. ولم يخرج على الإجماع إلا من لم يكن من الشعب فماذا حصدت البلاد؟ ماذا حصد «الأهالي» أصحاب البلاد؟!

لقد كتب كثيرًا في ثورة ١٩١٩ وفي «زعامة» سعد والوفد والأحزاب التي انشقت عنه أو ولدت منه.. حتى بلغ الأمر بالكاتبين إسقاط ما ليس من صفات سعد على سعد، بل ما ليس من صفات الوفد والأحزاب المعارضة على الوفد والأحزاب المعارضة.

ولكن الشيء الوحيد الذي لم يكتب فيه هو أن ما آلت إليه ثورة ١٩١٩، كان يستدعي ويتطلب ثورة جديدة على نتائج الثورة.

فالتوكيلات التي استمد منها الوفد شرعيته وظل يستوحي منها، مزرية.. وعلى الرغم من ظهور «شخصيات» عظيمة في صفوف الوفد.. إلا أن الحس السليم بنبض الشعب ظل غائبًا عن ملامسة نفوسهم.

ولم يتميز سعد.. لم يسمع له صوت قبل ١٩١٩ بانتقاد سلطات الاحتلال. ومرت مسألة دنشواي ولم ينبس ببنت شفة وعندما أعفي كرومر من مهمته في مصر كان أحد الذين أقاموا له حفل وداع لتكريمه. وولي نظارة المعارف (وزارة التربية والتعليم) ولم ينتقل دانلوب الذي ينفذ سياسة انجلترا في عزل مصر عن العالم العربي. وبقيت مقررات التعليم على حالها، كما وضعت في زمن كرومر وبقي كتاب سفيدج في تاريخ مصر في المرحلة الابتدائية، هو المقرر، وولي وزارة الحقانية - العدل - ولم يخلف كما في التي قبلها أثرًا بارزًا يشار إليه.. اللهم إلا استقالته بسبب انتصافه لأميرة من أميرات الأسرة الخديوية، من القيّم على أملاكها.

ولم تُلفته أحوال الشعب التي لاشك بأنه كان يراها وهو زائر لقريته قبل أن يجلس في قنطرته التي تتسع لمائتي زائر ويشاهدها في العاصمة.. قبل أن يعلن بيان انتخابه وكيلاً للجمعية التشريعية التي أوجدها الخديوي عباس، مسنحًا لمطالبة البلاد بالدستور، وقال فيه..

«.. أقرأ في الجرائد عبارات الشكوى الدائمة من سكان العاصمة، القاهرة ولاسيما سكان الشوارع الوطنية.. تارة من قلة النور وتارة من قلة الكنس والرش وتارة من قلة التنظيم والرصف.. فإذا انتخبت عضوًا في الجمعية التشريعية فإني لن أدخر وسعًا في عمل ما أستطيع عمله ضمن الحدود القانونية لحمل الحكومة على إزالة شكوى الأهالي من هذا القبيل» - من برنامج سعد الانتخابي عام ١٩١٣ - إلى الجمعية التشريعية.



حينئذٍ كان في مصر أحد عشر ألفًا من الأثرياء الكبار، يمكن تسميتهم بالإقطاعيين، لم تكن لهم صفات إقطاعيي أوروبا، «أرستقراطيين»، لم تكن لهم صفات الأرستقراطية.. التي تورث عن بطولات.. لكنهم ممن اصطنعهم محمد علي وأسرته والإنجليز.. يملكون وحدهم ٧٠٪ من الأراضي الزراعية.

وكان في الريف المصري أحد عشر مليون فلاح لا يملكون سوى أجرهم اليومي، ولم يكن يزيد في أحسن الأحوال على ثلاثة قروش وهي بالكاد تعيشه.

وكان العمال وغالبيتهم في مجال الخدمات حوالي ثلاثة ملايين يعيشون تحت ظروف قاسية.. فلم يحظوا بكلمة من برنامجه السياسي. ولعل أية كلمة منه حسنة فيهم تسقطه في نظر الأحد عشر ألفًا الأثرياء المالكين.. كان يفكر ضمن القانون ويتطلع إلى الأعلى.. وهذا الأعلى كان يأتي من «ولي النعم»، ولم يكن يعلم، أو أنه كان يعلم ويكظم علمه، ككل أبناء مصر «الأصليين» أن «ولي النعم» ومن والاه من صنائع محمد علي والإنجليز هم الذين يعادونه. ففي أوراق العمر، مذكرات الدكتور لويس عوض أنه سأل أباه، عندما نفي سعد زغلول مرة ثانية إلى سيشل بعد خطبته ضد عدلي التي قال فيها أن جورج الخامس يفاوض جورج الخامس، مادامت الناس تحب سعدًا لماذا لا يُعيِّن الملك فؤاد «سعد» رئيسًا للوزارة فيتكلم سعد باشا مع الإنجليز بدلاً من عدلي باشا.

فأجابه أبوه: «الملك تركي وعدلي يكن باشا تركي وعبدالخالق ثروت باشا تركي وتوفيق نسيم باشا تركي وأحمد زيور باشا تركي وحسين رشدي باشا تركي ومحمود باشا تركي وأحمد مظلوم باشا تركي. الباشوات الأتراك وحدهم هم الذين يحكمون مصر، أما

سعد وزعماء الوفد فهم فلاحون وأبناء فلاحين وأبناء الأتراك لن يسمحوا لأبناء الفلاحين بحكم بلادهم».

ذهبت التضحيات فى ثورة ١٩١٩ هباء.

وكانت المحصلة لجنة ملنر. والمقاطعة. والتفتيش عن رئيس وزراء: هل هو رشدى باشا أم هو محمد سعيد باشا، يقدم، «بابهة» للسلطان الجديد، ومادامت لجنة ملنر أخفقت فى التهدئة فلابد من معرفة رأى البلاد أو عُمَد البلاد فى «صيغ» جديدة للحكم، طرحتها الإدارة للإيهام:

- ما رأيكم فى اشتراك الأجانب فى التشريع.
- ما حالة النظام النيابى الحالى والتعديلات المرغوب فيها لتوسيع اختصاص الهيئات العامة والإصلاح الإدارى.

أسئلة تتعلق بمجالس المديريات ونظام تأليفها وسلطتها والتعديل المطلوب لها.

أسئلة عن نظام البلديات وما يراد إدخاله عليها من الإصلاحات.

التعليم ووسائل ترقيته وأسباب الشكوى منه..

ولم يصدر عن القيادات ما يشجب المبدأ فى طرح مثل هذه الأسئلة أصلاً.. ولم يستوقف أحدًا كلام اللورد ملنر لسعد: «إننا الآن فى مصر واضعون يدنا على كل شىء ونريد أن نتخلى عنها فى مقابل شىء واحد وهو أن تعترفوا بمركزنا فيها، لأنه الآن فعلى، ونريد أن يكون شرعيًا، مستندًا إلى قوة عسكرية، نحن نبحث عن مصر منذ أكثر من مائة عام، وهى الآن فى قبضتنا فعلاً ونريد أن يكون مركزنا شرعيًا بقبولكم».

فبأى حق يمكن القبول بوجود الإنجليز، أليس باعتبار دفاع أحمد عرابى عن بلاده خطأ وتدخل الإنجليز ضده صحيحًا؟

بعد ثورة ١٩١٩ لم تعد مصر بحاجة ضرورية لتأمين المصالح البريطانية.. وإنما لمصلحة عالمية فليس يوجد قول اللورد كيرزن فى خطبته بمجلس العموم «.. إلا قليل من الناس ينكرون أنها بذلك مصلحة تهم العالم أجمع ولا ضمانة لمصلحة العالم أفضل من بقاء مصر تحت إشراف دولة عظيمة متمدنة..».

وكان الإيهام بأن ثمة دوافع إنسانية جديدة أدت إلى إعلان مبادئ الرئيس ولسن الأربعة عشر، التى حرص على إعلانها من على منبر أمام جورج واشنطن، مؤسس أمريكا، لا شهادة عليها، سوف تحكم علاقات الشعوب، فإذا بالرئيس ولسن نفسه يعلن اعترافه بالحماية البريطانية على مصر.. ولشدة فرحتها تتسارع «دار الحماية» بإذاعة هذا الاعتراف (٢٢ أبريل ١٩١٩).




ولم يجد الإنجليز سلطانًا ينصبونه أفضل من أحمد فؤاد، الأمير أحمد فؤاد، مكافأة له على الخدمة «البالغة» التى قدمها أخوه الخديوى توفيق فى التآمر معهم على أحمد عرابى.. ولم ينبس أحد ببنت شفة بعد أن خمدت ثورة ١٩١٩ لأن أفراد بيت محمد على لم يكونوا يومئذ موضعًا تخوض فيه الصحف.

إلا أن هذا لم يمنع بعض المتسائلين من أن يتساءلوا بصوت كتيم مع تساؤل بيرم التونسى:

- آه أحمد فؤاد المقامر الذى لا ترحب به أندية القمار لأنه مفلس ولا يسدد ديون القمار.
- أحمد فؤاد الذى يركب الحنطور ولا يدفع للحوذى أجرته.
- أحمد فؤاد الذى يفتح منازل أصدقائه ليلاً ويطلب الطعام.

لعل هذا، إضافة إلى أنه أخو الخديوى توفيق، ما رجح اختيار إنجلترا له ليكون سلطانًا. وفى زحمة الخلاف والانقسام بين سعد وعدلى وجلبة المعارك بين البوليس بقيادة ضباط من الإنجليز وجماعات من الشعب فى كل عاصمة وكل قرية، تم اختيار عروس للسلطان الجديد، دون رضاها، ولم ينتبه أحد إلى أنها خطفت وحبست وهربت وضاعت أحاديث الناس عن زواج السلطان بين أحاديثهم عن بطولة البلاد التى قامت بها الثورة.

لعل الناس نسيت نهائيًا حتى عندما رزق السلطان فؤاد وليًا للعهد هو الأمير فاروق فوفت السلطات الاستعمارية وعدها له بوضع نظام لولاية العهد بكتاب «رفعه» اللورد اللنبى إلى السلطان بمناسبة تهنئته بولى العهد، مؤرخًا فى ١٦ أبريل ١٩٢٠، نشرته الوقائع المصرية فى الجريدة الرسمية، فى عدد غير اعتيادى فى ١٧ منه فأرسل السلطان برقية شكر لملك بريطانيا فى نفس اليوم.

جرى هذا كله ولما تنته بعد ثورة البلاد وتخمد نيرانها. بل ومازالت التوكيلات الشعبية فى طول البلاد وعرضها تجرى لـ«وفد» لنيل الاستقلال.. بالطرق السلمية فى حين يجرى فى القمة على ترسيخ أركان أسرة محمد على وتمكين وجود إنجلترا فى مصر بتعيين سلطان لها وولاية عهد، ينقلب بعد قليل إلى ملك.

وفى ظل هذا التعاقد، المضمر، غير المتكافئ، والتحالف البيّن أريد إجراء مفاوضات بين المحتل والزعامة الشعبية. كانت إنجلترا تبتغى السبر والاختبار والتمييع وتفريغ البلاد من الطاقات، المحبشة، المختزنة.. وكانت الزعامة الشعبية تريد «الاستقلال التام» ولم يقل أحد كيف يمكن أن يكون استقلالاً تامًا فى ظل تحالف مزدوج متحكم ويحكم البلاد من جميع مفاصلها. وبالوصول إلى اختيار عدلى يكن أمكن للطرفين، بمعزل عن القيادة الشعبية الحقيقية، بلورة المفاوضات المصرية - البريطانية فى نقاط تقنع الإنجليز بتحقيق مطالبهم وتوهم المصريين أو الأصح تموه فى نظرهم صورة «الاستقلال» فى تصريح ٢٨ فبراير الشهير.

ولم يكن غريبًا لدى من يعرف حقائق المجتمع فى مصر، أن يقرأ فيما صدر من مذكرات ساسة ذلك الوقت قول إسماعيل صدقى، أحد أعضاء المفاوضين المصريين (من طاقم عدلى) أنه هو صاحب صياغة ٢٨ فبراير إلا أن عدلى لم يقبل بإعلانه إلا بعد أن يصار إلى نفى سعد من البلاد، إذ من الواضح أنه لا قِبَل له فى تحمل تهييجه للبلاد إذا بقى فيها حرًا طليقًا!

ما انتهت الحرب العالمية الأولى، حتى كانت إنجلترا أرست القواعد المتينة، التى يقوم حكمها عليها فى مصر، ففى ١٧ فبراير ١٩١٤ أعلنت الحماية، فكان دليل الحياة الوحيد هو احتجاب جريدة الشعب فى ذلك اليوم لئلا تضطر إلى نشره؛ وغياب ٥٤ طالبًا من طلاب مدرسة الحقوق، وليس كلهم، عن استقبال السلطان حسين كامل عندما جاء لزيارة المدرسة فى ١٨ فبراير ١٩١٥.



التعليم.. قضية مصر المنسية قبل ٢٣ يوليو

وجرى الارتباط بين السلطان حسين كامل والإنجليز فى ظل الحماية، بقبول الخديوية وأصبحت بريطانيا نفسها مصدر عرش أسرة محمد على بصراحة لا لبس فيها إذ وجهت كتابًا إليه تقول فيه: «إن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض عليكم تبوّء هذا العرش السامى»، كدأبها منذ أن احتلت مصر، تتجاوز حقها. ثم بعد أن تقرر هذا التجاوز فتجعله حقًا شرعيًا، تتجاوزه إلى غيره، ويعمل الخديوى على التثبيت. ففى الكتاب الذى عهد به السلطان الجديد لرئيس الوزراء بتأليف وزارته قال: «قد تولينا، بالاتفاق مع الدولة الحامية، عرش السلطنة المصرية على أن يكون هذا العرش من بعدنا لورثتنا، طبقًا للنظام الوراثى الذى سيوضع بالاتفاق بيننا وبينها».

وهكذا، أصبح تولى العرش فى مصر يتم بالإرادة البريطانية، تخضع له الفئات المتنفذة، التى أوجدها محمد على وأسرته.

ففى الوقت الذى كانت فيه القوى الوطنية الحقيقية تتوهم أن الاستعمار أخذ فى التغير كان الوضع فى البلاد، خلفها يسير مسيرته الطبيعية المرسومة بين الاحتلال ورأس الإدارة الذى اختاره.. فعندما رزق السلطان فؤاد - الملك فيما بعد - بعد ذلك الزواج القسرى، الذى غناه بيرم التونسى، وأيًا كانت صحة نسب المولود - وكان الأمير فاروق - وفت السلطات الاستعمارية بتعهدها ووعدها بوضع نظام لولاية العهد فى كتاب، قال الرافعى إن اللورد اللنبى «رفعه» إلى السلطان لتهنئته بولى العهد، مؤرخ فى ١٦ أبريل ١٩٢٠، نشرته الوقائع المصرية فى عدد غير اعتبارى، فى ١٧ منه وهو فى الحقيقة تبليغ بقرار ملك بريطانيا بنظام العرش الموعود، فأرسل السلطان فؤاد برقية شكر على ذلك فى نفس اليوم.

وبهذا يظهر أن العلاقة بين رأس «الإدارة فى مصر» وسلطات الاحتلال لم تتغير عن قبل ثورة ١٩١٩، عن طبيعتها بعد الثورة والتفاف الشعب حول سعد.

كان من أهم ما يؤخذ على حكومات عهد الملكية تزييف الانتخابات وتيسير الفوز بالحكم لأحزاب الأقلية والعبث بالدستور على نحو مشين وإقالة الحكومات دون مراعاة له.

ففى عام ١٩٢٥ تولت الحكم وزارة زيور (باشا)، التى لم يكن لها برنامج سوى التسليم بكامل المطالب البريطانية التى استقالت من أجلها وزارة سعد زغلول، إثر مقتل السردار.. وكانت وزارة سعد قد جاءت إلى الحكم بالانتخابات على درجة واحدة تجرى لأول مرة فى «العالم الثالث» كله. فقامت وزارة زيور بتعديل قانون الانتخاب وجعله على درجتين لمجلس النواب وعلى ثلاث درجات لمجلس الشيوخ. ومع ذلك عندما انعقد مجلس النواب الجديد وأجريت انتخابات الرئاسة فاز سعد وسقط خصمه، فعملت وزارة زيور على حل المجلس من جديد مرة ثانية، ولم يكن مر على انعقاده ما يزيد على تسع ساعات.

وكان على رأس قائمة الساقطين فى الانتخابات وزير الداخلية فى وزارة زيور هذه إسماعيل صدقى (باشا)، الذى يفاخر، فى مذكراته، أنه هو لا البريطانيون، الذى وضع تصريح ٢٨ فبراير، ويعتب على «طبقة» الباشوات لأنهم لم يساندوه.. سقط أمام الأستاذ نجيب الغرابلى وهو من دائرة أخرى، مجهول، نجح عليه، لا لشىء، إلا لأنه مرشح سعد زغلول، الذى كان قد أصبح أسطورة، لدى الشعب بقوة شخصيته. وبما يجسده من آمال، لو كان يرشح حجرًا لفاز.



وفى كتاب د. مريت غالى ود. إبراهيم مدكور: «الإدارة الحكومية» أن المجلس النيابى حل سبع مرات فى عشرين سنة وحل مجلس الشيوخ ثلاث مرات ولم يستكمل مجلس واحد جميع دوراته.

لم يلفت ذلك المثقفين ولا لفتهم حال البلاد من فقر الشعب وكثرة العاطلين المثقفين من خريجى مدارس وجامعات البلاد، أو من خريجى جامعات أوروبا.

كان يلفتهم مجتمع «الأغنياء»

وعلى رأسه مصدر الألقاب، ويجذبهم ويسيل لعابهم. ولا لفتهم أوتوقراطية الملك الشاب المتزايدة - فالدكتور طه حسين، الصعيدى المنشأ، لم يستطع فى مطلع حياته العامة اتخاذ موقف ثابت من هذه الأوتوقراطية وما يرافقها من طغيان.. التزم، على حد قول الدكتور مصطفى عبدالغنى «بالرمز والتلغيز» وعندما تجرأ أكثر وأقدم على نشر مقال فى الهلال بعنوان «قلب مغلق» يشير فيه إلى الملك صراحة بأوصاف حادة، إذا بالملك يصدر أوامره بعدم رضاه عما نشر وبعدم نشر أية مقالات لطه حسين ثانية. ثم تدخل القصر بعد ذلك لمنع ترشيح طه حسين نقيبًا للصحفيين، واستمر موقف طه حسين المتردد هذا، حتى تجاوز منتصف الأربعينيات من القرن العشرين «مرة يؤثر الصمت ومرة يستخدم الرمز». إلى أن ولىَ وزارة فى آخر وزارة وفدية (٢٧ يناير ١٩٥٢) فاقلع عن تردده واستبدل بالرمز والصمت، التهادن والتهاون الشديدين، وفى هذه الوزارة، قبل يد الملك مع الذين قبلوها.

ومع ذلك لم يبدأ بمدح الملك فاروق والإطناب بـ«شمائله» مباشرة، بدأ بمدح أبيه وجده، كانما ذوو فاروق، ليس عليهم خلاف، ويمكن إسقاط صفاتهم «الحميدة» عليه بلا تردد ولا من يؤاخذ من هذه المواقف. ففى الموقف الذى وقفه الدكتور طه حسين بين يدى الملك احتفالاً بالعيد الفضى لجامعة فؤاد (القاهرة حاليًا)، راح يردد عبارات الثناء على والده حتى بلغت ست مرات: والدك العظيم أحمد فؤاد:

«ولقد كان والدك العظيم يا مولاى ملهمًا. إنه حين انشئت هذه الجامعة لم ينشأ معهد من معاهد تحرير المصريين تحرير عقولهم وقلوبهم ودعاؤهم إلى الحرية الكاملة..

.. وأطال الله بقاءك يا مولاى وجعل حياتك كلها عيد العقول لمصر ولقلوبها وللشرق العربى كله..»



وما تكاد تمضى عدة أيام على هذه الخطبة العصماء حتى يكافئ الملك هذا «المثقف» بمنحه رتبة الباشاوية فحلت عقدة لسانه وزال تردده نهائيًا، فإذا بهذا الملك الذى لم تكن صفاته الحقيقية، ولم تكن خفايا حياته المزرية تخفى على من فى مركز طه حسين وعلاقاته، يصبح قدوة لا لشعب مصر فحسب وإنما لشعوب البلاد العربية. فيقف بين يديه فى افتتاح معهد فؤاد الأول بالصحراء ليقول:

«أنت جدير أن تكون أستاذ شعبك فى الخلق، فى الخلق الذى يمس سيرة الفرد فيما بينه وبين الناس وفى الخلق الذى يمس سيرة الشعب مع ملكه وسيرة الملك مع شعبه».

ولم يكن عباس محمود العقاد، الصعيدى الثانى، أكثر تماسكًا من الدكتور طه حسين، وإن كان أكثر قربًا وتمثلاً للصعيد.

٩٨٪ من سكان مصر قبل الثورة كانوا فلاحين

يوليو.. لماذا؟

فهذا الكاتب المعروف بالقسوة فى نقده، كان مثال الليونة فى مديح الملك والإطناب فى إضفاء السجايا الحسنة عليه. فلم يكن يترك فرصة سانحة إلا ويكيل له فيها المديح ويغرق فيه. فبمجرد أن سنحت له الفرصة للقاء الملك بوصفه أحد أعضاء الحزب السعدى والمحرر الملحوظ فى صحيفته (الكتلة) حتى خرج فى اليوم التالى بمقالة طويلة، بمزايا الملك:

«إننى لم أسعد من قبل بفرصة كهذه الفرصة الواسعة لاستجداء طلعة الملك عن كثب والإصغاء إلى جلالته على انفراد، فى جو لا مثيل له بين أجواء اللقاء والحديث لأنه الملك والديمقراطية ممثلين فى شخصه الكريم أجمل تمثيل، مجتمعين فى سماعه وكلماته وإرشاداته أحسن اجتماع.

لقد سمعت فى هذا الحديث الواحد كلام فيلسوف وكلام وطنى غيور وكلام محدث غيور، وطاف بخاطرى ذكر الإيمان وذكر الوطن وذكر الملك وذكر المعاش الذى يشغل قلوب أبناء الحياة. طاف بخاطرى أجمل ما يطوف بالخواطر من أمور الدنيا والدين».

فمنذ أن انحاز العقاد فى عام ١٩٣٧ إلى السعديين، أصبح الملك هو «النائب الأول، الذى يمثل شعبه الوفى أصدق تمثيل»، وأصبحت السجايا تفخر بها الشعوب والتى يسبغها على الملك الشاب هى «الشمائل الديمقراطية من حيث هى مذهب من مذاهب الحكومة أو خلق من أخلاق الطباع».



وبلغ تزلف آل عبدالرازق: مصطفى وعلى، الأخوين، اللذين لم يدعا فرصة تجمعهما بالملك أو مناسبة تخص الملك إلا تزلفا إليه إلى حد المهانة.. لم يتوصل الدارسون إلى استكشاف سر العلاقة الغامضة بينهما وبين الملك، المتميزة بالعداء ومع ذلك بإصرار الملك على الموافقة على ما يسند إليهما مما سيمنحهما الأزهر أو وزارة الأوقاف.. وفيما كان صدور كتاب «أصول الحكم» مدعاة للاستبشار، لخروج الفكر الإسلامى من إسار العقلية المملوكة، إذ بالخطب التى ينبرى لإلقائها على عبدالرازق فى حضرة الملك تعيدنا إلى عهد (ولى النعم)، حيث كان إذا قضت الظروف زيادة الرواتب، فذلك من عطايا الحاكم.. وإذا هطلت الأمطار فمن رضاه على الشعب.. وورد فى إحدى خطبه فى حفل رسمى:

«ورد فى بعض الآثار أن الله جل شأنه قد اختص الأمة الإسلامية بأن يبعث فيها على رأس كل مائة عام من يجدد لها من أمور دينها، ولقد بعث الله جدكم الأكبر على رأس مائة عام، كان قد انتكس فيها أمر المسلمين وضعفت فيها كلمة الإسلام، فجدد ما اندثر من معالم الدين ورفع ما انهار من بنيانه، والآن مولاى وقد مضت على وفاة جدكم الكبير مائة عام يتلفت الإسلام والمسلمون من جديد إلى مبعوث العناية الإلهية الذى أطل زمانه وآن أوانه وإنهم ليلمحون فى قسمات وجهك وفى ثنايا أعطافك صورة مجددة من جدكم الأكبر ويرون فى شبابك المتوثب وفى عزماتك القوية وفى حسن سياستك ويمن طالعك نفحات ندية من تلك الصفات التى كان يتحلى بها فى مطلع شبابه.

مولاى صاحب الجلالة:

إن العناية الإلهية التى اختارتك مجددًا لمجد الإسلام على رأس هذه المائة عام هى الكفيلة بأن تلحظك وتؤيدك وترعاك، تلك هى العناية الإلهية قد اختصتك بمزيد من الرعاية والتوفيق».

كان هذا النفاق والمنافقة يتدفق فى أواخر الأربعينيات من القرن العشرين قبيل ثورة ٢٣ يوليو ومنذ منتصف ذلك العقد، بل قبل، لم تعد العين البصيرة تخطئ مباذل الملك فاروق ومساوئ تصرفاته وسوء حاشيته.

ولعلنا نتذكر أن الظروف حينئذ اختلفت عن الظروف التى هاجت فى زمن محمد على ولمح فيها نوافذ للوثوب منها إلى الحكم.. فالجيش، الذى حدد عدده فى القرن العشرين، لم يعد ذلك الجيش الذى أسسه سليمان باشا الفرنساوى.. وجعل محمد على العربى فيه، ابن الأهالى من أصحاب البلاد. لا يدخل الكلية الحربية، ولا يرقى إلى أعلى من درجة نقيب.. إلخ. لم يعد هذا الجيش رغم ما تضمنت لوائحه من عوائق.. «شبحًا يؤرق به الطاغية الذى على رأس الإدارة فى البلاد.. أحلام الشعب..» وإنما بدا أكثر تفاعلاً مع الشعب من المثقفين وبدا أفراد هذا الجيش - من خلف الرؤوس الكبيرة فيه، المنتمون بالولاء للقصر - يشعرون أنهم أصبحوا العقبة الكأداء فى سبيل ما يطمح إليه الشعب. فقد كتب أحد أفراد هذا الجيش الذين قاموا بالثورة يستذكر: «وكنا نحن الضباط نجد أنفسنا أولى الناس بالحديث عما عليه حال العامة فكم كنا نحس أن الشعب الساخط يرانا شركاء فيما ترتطم به البلد من فساد، وأننا حماة هذا الفساد ومعنى هذا أن الشعب كان يرانا العقبة الكأداء فى سبيل تحقيق ما يطمح إليه وما من شك فى أن هذا كان يجرح كبرياءنا ونحن مع الشعب ومنه.. لقد قوى ما بيننا روح الأخوة الصافية التى حركت منا الضمائر وحفزت فيها الإرادات ووحدت منا الآراء لكى نقوم بعمل لرد الأمور إلى نصابها».

ولابد من أن نتذكر أنه لم يمر عليها عام حتى جاءها من أقصى المغرب، هاربًا من السجن ومن الاستعمار يستنجد بها «أحمد بن بله» باسم مستعار هو مزيانى مسعود.. وبعد أعوام جاء الضباط السوريون يلحون بطلب الوحدة معها هربًا وخوفًا من حرب أهلية، وكانوا يلحون بدافع من الجماهير فى طلب الوحدة رغمًا عن أن بعضهم كانوا متآمرين.

وإلى ٢٣ يوليو لجأت طلائع اليمنيين لإنجاح ثورة اليمن. ولولا صمود ٢٣ يوليو فى القاهرة ما نجحت ثورة العراق.

من هنا كان تهليل دنيا العرب لـ٢٣ يوليو والتصفيق لكلام جمال عبدالناصر لأن العرب أحسوا بكلمته الصادقة تحقيقًا لأمانيهم.

أصبحت بريطانيا نفسها مصدر عرش أسرة محمد على بصراحة لا لبس فيها إذ وجهت كتابًا إلى السلطان حسين كامل تقول فيه: «إن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض عليكم تبوء هذا العرش السامى»

ماذا فعلت ثورة يوليو



جلال أمين

من الطبيعي أن يتساءل المرء، بعد مرور خمسين عامًا على قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، عما فعلت هذه الخمسون عامًا بالاقتصاد المصري. وهذا هو بالضبط ما أحاول الإجابة عنه في هذا المقال.

من المهم أن نلاحظ أن هذه الخمسين عامًا يمكن أن تقسم إلى قسمين يكادان أن يكونا، بمحض الصدفة وحدها، متساويين في الطول، شهدت مصر خلالهما نظامين مختلفين أشد الاختلاف في السياسة الاقتصادية: نظام التدخل الصارم من جانب الدولة في الحياة الاقتصادية، ونظام أقرب بكثير لنظام الحرية الاقتصادية، وهو ما سمي في مصر بـ«الانفتاح الاقتصادي».. إن التاريخ الفاصل بين النظامين لم يكن هو تاريخ وفاة عبدالناصر في ١٩٧٠، بل تدشين سياسة الانفتاح الاقتصادي في ١٩٧٤. بهذا يكون كل من النظامين قد ساد لفترة تقرب من ربع القرن، ومن ثم يكون من المغري جدًا للباحث في الاقتصاد المصري أن يعقد مقارنة بين ما أثمره كل من النظامين وأن يحاول أن يصل إلى قرار فيما إذا كانت لهذا النظام أو ذاك نتائج أفضل من نتائج الآخر. وهذا هو ما حاولت القيام به. ولكني وصلت إلى نتيجة قد تفاجئ القارئ بعض الشيء، كما قد تفاجئ الكثيرين من المتحمسين لهذا النظام أو ذاك، وهو ما سأحاول أن أبيّنه فيما يلي.

في منتصف القرن العشرين كانت مصر تعتبر بلاشك مثلاً ملائمًا جدًا لما كان يسمى وقتها بـ«الدول المتخلفة اقتصاديًا» وعلى الأخص ما كان يعتبر من بين هذه الدول «دولاً مكتظة بالسكان». لم يكن سكان مصر في ذلك الوقت يزيدون كثيرًا على العشرين مليونًا، يعيش أكثر من ٨٠٪ منهم على الزراعة، ولكن مساحة الأرض الزراعية لم تكن قد شهدت زيادة تذكر، من بداية القرن العشرين إلى منتصفه، إذا قورنت بزيادة السكان بنحو الضعف في هذه الفترة (من نحو ١٠ ملايين نسمة إلى نحو عشرين مليونًا). كان متوسط الدخل في منتصف القرن أقل مما يعادل مائة دولار أمريكي في العام، وكان الدخل القومي بالإضافة إلى هذا الانخفاض الكبير في حجمه المتوسط، موزعًا توزيعًا سيئًا للغاية بين السكان، مما كان يعني أن أكثر من ٨٠٪ من السكان كانوا يحصلون على ما يعادل أقل من مائة دولار.

كان من الواضح إذن للجميع أن مصر، فيما يتعلق بالاقتصاد تحتاج إلى ثلاثة أمور رئيسية:

١ـ زيادة متوسط الدخل.

٢ـ إحداث تغيير جذري في الهيكل الاقتصادي بخلق فرص عمالة جديدة في قطاعات أخرى خارج الزراعة، خاصة في الصناعة.

٣ـ تحقيق نظام أكثر عدالة في توزيع الدخل، وعلى الأخص إشباع الحاجات الأساسية للسكان، من تغذية وملبس ومسكن وتعليم وخدمات صحية.. إلخ.

وقد حاولت حكومة الثورة في العقدين التاليين لقيامها (٥٢ ـ ١٩٧٤) تحقيق هذه الأهداف الثلاثة، لا بالاعتماد على قوى السوق، بل بالتدخل المباشر في مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية. من أهم صور هذا التدخل إصدار قوانين الإصلاح الزراعي المتتالية ابتداء من ١٩٥٢، وتمصير ثم تأميم الصناعات الرئيسية (بل وكثير من غير الرئيسية أيضًا) والبنوك وشركات التأمين والكثير جدًا من المشروعات التجارية ومشروعات الخدمات، وتبني سياسة التخطيط المركزي، والتدخل الصارم في التجارة الخارجية، استيرادًا وتصديرًا، وفي تحديد الأسعار، والاستخدام الواسع لوسائل السياسة النقدية والمالية لتحقيق أهداف اقتصادية واجتماعية، والتوسع الكبير فيما تقدمه الحكومة من خدمات مع توفير أهمها بأسعار مدعومة بشدة من قبل الدولة، كما في ميادين التعليم والصحة والإسكان.

إن هذا التدخل الصارم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر لم يكن بأي حال مثالاً نادرًا، إذ كان مثل هذا التدخل ظاهرة شائعة خلال هذه الفترة في مختلف دول العالم الثالث، بل وإلى درجة ملحوظة حتى في العالم الصناعي نفسه. وليس من الصعب تفسير هذا. كانت دول كثيرة من دول العالم الثالث قد حصلت لتوها على الاستقلال السياسي في أعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وتولت مقاليد الحكم فيها حكومات تتمتع بشعبية عالية، بسبب ما بذلته من نضال للحصول على الاستقلال، ومن ثم بثقة عالية في قدرتها على تحقيق غير ذلك من الأهداف. كان أهم هذه الأهداف بعد الاستقلال تحقيق نهضة اقتصادية ونظام اقتصادي واجتماعي أكثر عدالة، فأي الناس أكثر قدرة على تحقيق هذين الهدفين

من نفس تلك الحكومات الوطنية التى جلبت الاستقلال!



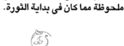
ولكن التدخل الحكومى فى الاقتصاد كان يتمتع أيضًا بشعبية واسعة لأسباب خارجية، وبصرف النظر عن كفاءة الحكومة. ذلك أن هذه الفترة التى نتكلم عنها (٥٢ ـ ١٩٧٤) كانت الفترة التى شهدت أعلى شعبية للأفكار والسياسة الكينزية فى العالم الغربى، التى تعترف بضرورة التدخل الحكومى، وهى أيضًا الفترة التى شهدت ارتفاع معدل المعونات الأجنبية التى تعطيها الدول المتقدمة للمتخلفة، وهى معونات كانت فى الأساس «معونات رسمية» أى من حكومات أو هيئات دولية إلى حكومات، لتمويل مشروعات تقوم هذه الحكومات الأخيرة بتنفيذها، وكانت هذه الفترة هى أيضًا فترة اشتداد الحرب الباردة التى سمحت بدرجة عالية نسبيًا من الاستقلال لحكومات العالم الثالث، فى مواجهة كلتا القوتين العظميين كما كانت هى الفترة التى انهمكت فيها الدول الأوروبية واليابان فى إعادة بناء اقتصادها بعد الخراب الذى سببته الحرب، واهتمت خلالها الولايات المتحدة بالنفاذ إلى أسواق هذه الدول أكثر مما اهتمت بأسواق العالم الثالث. أثناء هذا كله كان نظام التخطيط الشامل وتدخل الدولة فى الاقتصاد يتمتع بسمعة طيبة بسبب ما حققه من نجاح، حتى ذلك الوقت، فى الاتحاد السوفيتى. كل هذا جعل زيادة التدخل الحكومى فى العالم الثالث مبررًا ومرغوبًا فيه بل وضروريًا أيضاً.

فماذا كانت النتيجة فى مصر؟



أما عن نمو الدخل، فبقدر ما كانت النتيجة مبهرة فى النصف الأول (٥٢ ـ ١٩٦٥) من تلك الفترة، كانت سيئة للغاية فى النصف الثانى (٦٥ ـ ١٩٧٥)، فلنضرب الصفح عن الثلاث أو الأربع سنوات الأولى من عمر الثورة (٥٢ ـ ١٩٥٦) فقد كان تركيز الحكومة فى تلك السنوات على أمور السياسة لا الاقتصاد، ومن ثم كانت تلك السنوات الثلاث أو الأربع امتدادًا لما كان يحدث فى الاقتصاد فى السنوات السابقة على الثورة. وإنما بدأ معدل النمو يرتفع بشدة ابتداء من منتصف الخمسينيات وظل مرتفعًا إلى نهاية الخطة الخمسية الأولى فى منتصف الستينيات، فزاد متوسط الدخل (الحقيقى) فى تلك السنوات العشر بمعدل ٣ ـ ٤٪ سنويًا فى المتوسط، ومن ثم يمكن القول بأن متوسط الدخل الحقيقى زاد فيما بين ٥٥ و١٩٦٥ بنحو ٥٠٪ وهو معدل طيب جداً بمعايير ذلك الوقت على الأقل. ولكن ابتداء من منتصف الستينيات دخل متوسط الدخل فى مرحلة ركود، ولم يحقق ارتفاعًا يذكر حتى منتصف السبعينيات، ومن ثم يمكن القول بأنه خلال الفترة كلها التى تقرب من ربع القرن (٥٢ ـ ١٩٧٥) حقق متوسط الدخل الحقيقى زيادة متواضعة تتراوح ما بين ٥٠٪ و٦٠٪.

كان النجاح، خلال هذه الفترة أكبر بكثير فى تحقيق الهدفين الآخرين: تغيير الهيكل الاقتصادى لصالح التصنيع، وإعادة توزيع الدخل. فمما لاشك فيه أن مصر فى ١٩٧٥ كانت قد أصبحت «دولة صناعية» بدرجة أكبر بكثير مما كانت عليه فى ١٩٥٢، إذ أصبح نصيب الصناعة التحويلية فى إجمالى الناتج القومى فى نهاية هذه الفترة ضعف ما كان فى أولها. وكذلك أصبح توزيع الدخل القومى أقرب بكثير إلى المساواة فى ١٩٧٥ مما كان فى ١٩٥٢، وأصبح المجتمع المصرى أقل استقطابًا بكثير، والحجم النسبى للطبقة الوسطى أكبر بدرجة ملحوظة مما كان فى بداية الثورة.



ثم حدث الانقلاب الكبير فى منتصف السبعينيات. لم يحدث كله فى يوم وليلة، بل كنا نستيقظ كل يوم لنرى تراجعًا جديدًا عما فعلته الحكومة فى الخمسينيات والستينيات. الإصلاح الزراعى لم يكتف بوقف تقدمه بل ألغيت الحماية التى كانت تسبغها الحكومة على مستاجرى الأرض إزاء مالكيها، والأسعار جرى تحريرها، واحدًا تلو الآخر، من تدخل الحكومة، وأنواع الدعم المختلفة لشتى السلع والخدمات جرى تخفيضها بشدة أو إلغاؤها، والمشروعات التى كان قد جرى تاميمها خضعت، الواحد منها تلو الآخر، للخصخصة، والاستيراد أطلقت حريته، وسعر الصرف أصبح يخضع أكثر من أى وقت مضى لقوى العرض والطلب، ومعدلات الضريبة على الدخل والثروة خفضت بشدة، كما صدر قانون بعد الآخر لإعطاء المزيد من المزايا للاستثمارات الأجنبية الخاصة.

لم يكن هذا التحول من سياسة اقتصادية إلى نقيضها، هو بدوره، شيئًا نادرًا فى العالم فى ذلك الوقت. فمنذ منتصف السبعينيات أصبح «الانفتاح الاقتصادى» هو شعار العصر، وإذا كان قد سمى بأسماء مختلفة منذ ذلك الوقت، فالجوهر واحد، سواء كان الاسم انفتاحًا أو إصلاحًا اقتصاديًا أو تكييفًا هيكلياً أو عولمة. ومن الشيق بالطبع محاولة معرفة الأسباب الحقيقية وراء هذا الانقلاب، إذ من المؤكد أن السبب لم يكن عبور فكرة عبقرية على ذهن هذا الرئيس أو ذاك، بل كل الدلائل تدل على أن مثل هذه الأفكار فى العادة تُفرض فرضًا على الرؤساء. وإنما تتعلق الأسباب الحقيقية على الأرجح بتطويرات مثل نمو الشركات متعددة الجنسيات وحاجتها إلى غزو أسواق جديدة

بالاقتصاد المصرى؟





مما يتطلب سياسات اقتصادية جديدة فى الدول المطلوب غزوها، وما يرتبط بذلك من تطورات تكنولوجية فى الاتصال والنقل وفى أنماط تقسيم العمل مما يسمح بتقسيم العملية الإنتاجية إلى أجزاء يوزع إنتاجها على عدد كبير من دول العالم، وزيادة درجة التشبع فى الاستهلاك فى داخل الدول المتقدمة اقتصاديًا، وارتفاع مستويات الأجور فيها ارتفاعًا باهظًا بالمقارنة بالدول الأكثر فقرًا فى الجنوب، والبحث عن فرص جديدة للاستثمار فيها أعلى عائدًا مما أصبح من الممكن تحقيقه داخل الدول الصناعية، خاصة بعد أن ارتفعت حدة المنافسة بين هذه الدول نفسها مع انتهاء دول أوروبا واليابان من إعادة بناء اقتصادياتها وأصبحت بالإضافة إلى دول جديدة فى شرق آسيا، مصدر منافسة خطيرة للاقتصاد الأمريكى.

فماذا كانت النتيجة فيما يتعلق بمصر؟

أما عن نمو متوسط الدخل فنلاحظ هنا نمطًا شبيهًا بما حدث فى الفترة السابقة: نموًا مبهرًا فى متوسط الدخل الحقيقى فى السنوات العشر الأولى أعقبه تراخ ملحوظ فى السنوات العشر التالية. ففى السنوات العشر الأولى (٧٥ - ١٩٨٥) شهدت مصر معدل نمو فى الناتج الإجمالى يكاد أن يكون غير مسبوق فى مصر طوال القرن العشرين بأسره، سمح بزيادة متوسط الدخل الحقيقى بمعدل يتراوح بين ٥ - ٦٪ سنويًا. تلا ذلك ما يشبه الركود فى متوسط الدخل فى النصف الثانى من الثمانينيات وأوائل التسعينيات، ولم تتحسن الأحوال كثيرًا فيما بقى من التسعينيات بحيث يمكن القول أن متوسط الدخل الحقيقى خلال ربع القرن كله (١٩٧٥ - ٢٠٠٠) قد زاد بنحو الضعف، ولكن هذه الزيادة يرجع الجزء الأكبر منها إلى ما حدث من زيادة فى السنوات العشر الأولى (٧٥ - ١٩٨٥).

هذه الزيادة فى متوسط الدخل التى تحققت فى فترة الانفتاح الاقتصادى كانت بلا شك أكبر بدرجة ملحوظة مما تم فى الفترة المماثلة فى الطول والتى شهدت التدخل الحكومى الكبير فى الحياة الاقتصادية، والتى زاد فيها متوسط الدخل - كما رأينا - بنحو ٥٠ - ٦٠٪. ولكن فترة الانفتاح كانت أسوأ بكثير من الفترة السابقة عليها فيما يتعلق بالهدفين الآخرين: تغيير الهيكل الاقتصادى وإعادة توزيع الدخل.

ففيما يتعلق بالهيكل الاقتصادى نجد أن نصيب الصناعة التحويلية فى الناتج الإجمالى وفى إجمالى العمالة وإجمالى الصادرات هو الآن أقل مما كان فى ١٩٧٥، فى مقابل ارتفاع نصيب البترول والسياحة وتحويلات العاملين فى الخارج. وفيما يتعلق بتوزيع الدخل نجده الآن أبعد عن المساواة بكثير مما كان فى ١٩٧٥، وأصبح المجتمع المصرى يستحق أن يوصف بأنه «يتكون من أمتين» أكثر مما كان يستحق ذلك فى أى وقت من الأوقات منذ ثورة ١٩٥٢، بل وربما أصبح هذا الوصف ملائمًا الآن أكثر مما كان قبل قيام الثورة.



من هذا الاستعراض السريع لتطور الاقتصاد المصرى فى خمسين عامًا قد يميل المرء إلى استخلاص النتيجة التالية، وهى أن التجربة المصرية فى هذه الفترة تقدم مثالاً يؤيد اعتقاد الكثيرين بأن سياسات الانفتاح الاقتصادى، وإن كانت تغير نمو الدخل فإنها تضر بتوزيع الدخل وبتوازن الهيكل الاقتصادى، بينما سياسة تدخل الدولة الكبير فى الاقتصاد، قد تحسن نمط توزيع الدخل وقد ترفع درجة التنوع والتوازن فى الاقتصاد القومى، بزيادة معدل التصنيع، على الأقل لفترة، ولكنها تضر بمعدل نمو الدخل، خاصة فى المدى الطويل.

والحقيقة أننا كثيرًا ما نصادف من يعتقد فى صحة هذه المقولة، سواء من بين أنصار الانفتاح أو من أنصار التدخل الشديد من جانب الدولة. فأنصار سياسة الانفتاح كثيرًا ما يكونون على استعداد للاعتراف بأن هذه السياسة قد تضر بعدالة التوزيع، ولكنهم سرعان ما يضيفون قولهم إن ثمرات النمو السريع، الذى لابد أن ينتج عن الانفتاح، سوف تتساقط فى المدى الطويل لتصل إلى أيدى الفقراء. إن هذا الفريق أقل استعدادًا عادة للاعتراف بأن سياسة التدخل الكبير من جانب الدولة أفضل من سياسة الحرية الاقتصادية من حيث تأثيرهما على رفع معدل التصنيع، بل يميلون إلى رد فشل الانفتاح الاقتصادى فى رفع هذا المعدل، فى مثل حالة مصر، لا إلى أن مصر تمادت فى تطبيق سياسة الحرية الاقتصادية والانفتاح الاقتصادى، بل يردون هذا الفشل إلى السبب العكسى بالضبط، أى إلى أن مصر لم تصل فى تطبيق هذه السياسة، فى رأيهم، إلى المدى الذى كان يجب أن تصل إليه. بل إنهم كثيرًا ما يلقون بالمسئولية عن هذا الفشل المتمثل فى تراخى معدل التصنيع فى مصر حتى الآن، إلى ما كانت مصر تطبقه من سياسة التدخل الكبير فى الاقتصاد سواء فى الستينيات أو حتى بعد ذلك.

من ناحية أخرى، نجد الكثيرين من أنصار التدخل الواسع من جانب الدولة، على استعداد للاعتراف بأن سياسة الانفتاح قد ترفع معدل نمو الدخل الإجمالى، ولكنهم يعتقدون أن لهذا ثمنًا باهظًا يتمثل فى تدهور توزيع الدخل وفقدان الاستقلال الاقتصادى ومزيد من اختلال الهيكل الإنتاجى. وهم يرفضون، على أى حال، الزعم بأن هذا الارتفاع فى معدل نمو الدخل القومى، الذى قد يحدث نتيجة للانفتاح، سوف يستمر فى المدى الطويل.

كل من الفريقين إذن يصرّ على أن السياسة التى يدعو إليها هى الأفضل، فى المدى الطويل، فى كل هذه الأمور الثلاثة: معدل النمو، ومعدل التصنيع، ونمط توزيع الدخل. والأمر على هذه الصورة قد يبدو غريبًا جدًا إذا ما نظر إليه عالم من علماء الطبيعة الذين لم يتعودوا أن يروا هذه الدرجة من اختلاف الآراء حول قضية من القضايا العلمية. فهؤلاء لابد أن يستغربوا بشدة أن يروا الاقتصاديين، الذين يزعمون أن علمهم يتمتع بدرجة من الانضباط والدقة أكبر مما يتمتع به أى علم آخر من العلوم الاجتماعية، لا يزالون عاجزين عن الوصول إلى اتفاق عام فى قضية على هذا القدر من الأهمية، وهى قضية ما إذا كان الأفضل للاقتصاد القومى أن تتدخل الدولة تدخلاً كبيرًا فى شئون الاقتصاد أو أن تتركه لقوى العرض والطلب دون تدخل يذكر.

كذلك لابد أن يستغرب أى عالم من المشتغلين بعلم من العلوم الطبيعية أن يستسهل الاقتصادى، من هذا الفريق أو ذاك، أن يرد النجاح أو الفشل فى الأداء الاقتصادى، بكل هذه الثقة والحزم، إلى اتباع سياسة اقتصادية بعينها دون غيرها، مع أن الفترة محل البحث، والتى حدث فيها هذا النجاح أو الفشل، لابد أنها شهدت، بالإضافة إلى تطبيق هذه السياسة الاقتصادية أو تلك، مختلف الأحداث والتطورات الأخرى التى لابد أن يكون لها دور مهم فى هذا النجاح أو الفشل. ففى مصر مثلاً، شهدت فترة الخمسين عامًا الماضية أحداثًا وتطورات مهمة للغاية، عدا ما طرأ من تغير على دور الدولة فى الاقتصاد، وكان لابد أن تكون لها آثار بعيدة المدى على النمو الاقتصادى وهيكل الاقتصاد وتوزيع الدخل. لابد أن يكون من باب التسرع والتهور ومجافاة الحكمة إذن، أن نحاول الدفاع عن سياسة اقتصادية معينة ضد غيرها بالاعتماد فقط على ما حدث لهذه المؤشرات الثلاثة مع تغير السياسة الاقتصادية، بينما أشياء أخرى مهمة كانت تحدث فى نفس الوقت.

والحقيقة، كما تبدو لى، أن كثيرًا من العوامل التى أثرت تأثيرًا إيجابيًا على أداء الاقتصاد المصرى، لا يكاد يكون له صلة بنوع السياسة الاقتصادية المطبقة. فالحرب الباردة مثلاً، التى سادت العالم خلال الخمسينيات والستينيات كانت لها آثار إيجابية مهمة على أداء الاقتصاد المصرى، عن طريق ما سمحت به من حصول مصر على كميات كبيرة جدًا من المعونات الأجنبية بشروط ميسرة ومن كلا المعسكرين. والارتفاع الكبير فى أسعار البترول فى ٧٣ / ١٩٧٤ ثم مرة أخرى فى ٧٩ / ١٩٨٠ كان له أيضًا أثر إيجابى مهم على أداء الاقتصاد المصرى، ليس فقط عن طريق زيادة إيرادات مصر من صادرات البترول بل أيضًا، وهذا هو الأهم، بما أدى إليه من زيادة الطلب على العمالة المصرية فى الدول العربية الغنية بالبترول فى الخليج وليبيا، ومن ثم الزيادة الكبيرة فى تحويلات العاملين فى الخارج، التى أدت ليس فقط إلى رفع معدل النمو بل إلى تخفيف حدة الاتجاه إلى مزيد من التفاوت فى توزيع الدخل.

على الجانب السلبى نجد أيضًا عوامل مهمة أدت إلى تدهور أداء الاقتصاد المصرى بصرف النظر عن نوع السياسة الاقتصادية المطبقة. هناك مثلاً الانخفاض الكبير فى أسعار البترول فى ١٩٨٦، وهناك ما يسمى «بالأعمال الإرهابية» التى كانت تؤدى كل حين وآخر، إلى انخفاض كبير فى دخل مصر من السياحة. ولكن أهم العوامل ذات الأثر السلبى على أداء الاقتصاد المصرى، كان بلا شك الاعتداء الإسرائيلى فى ١٩٦٧، الذى أدى إلى فقدان مصر لدخلها من بترول سيناء وإلى إغلاق قناة السويس وإلى انخفاض إيرادات السياحة.. إلخ. كل هذا أدى إلى انخفاض كبير فى حصيلة مصر من العملات الأجنبية أدى بالضرورة إلى انخفاض شديد فى حجم الاستثمار ومن ثم فى معدلات النمو والتصنيع، بل وإلى شل يد الحكومة إلى حد كبير فيما يتعلق بإعادة توزيع الدخل.

ما الذى يعنيه كل هذا؟ إنه يعنى أنه ليس من السهل رد النجاح أو الفشل فى الأداء الاقتصادى المصرى إلى طبيعة السياسات الاقتصادية المتبعة، مادام تطبيق هذه السياسات قد اقترن بعوامل أخرى كثيرة كان لها بلا شك آثارها المهمة على هذا الأداء. والذى يبدو لى هو أن هناك ميلاً، ليس فقط فيما يتعلق بتفسير الأداء الاقتصادى المصرى بل فيما يتعلق بتجارب أخرى كثيرة، إلى المبالغة والتضخيم غير المبرر لأهمية نوع النظام الاقتصادى، من حيث تدخل الدولة أو عدم تدخلها، فى تحديد درجة كفاءة الأداء الاقتصادى، وأن هذا الأثر قد يكون أضعف بكثير مما نظن.

إن التاريخ الاقتصادى مليء بالأمثلة لتجارب اقتصادية ناجحة جدًا، فى ظل تدخل كبير من الدولة، وتجارب اقتصادية ناجحة

الحرب الباردة التى سادت العالم خلال الخمسينيات والستينيات كانت لها آثار إيجابية مهمة على أداء الاقتصاد المصرى، عن طريق ما سمحت به من حصول مصر على كميات كبيرة جدًا من المعونات الأجنبية بشروط ميسرة ومن كلا المعسكرين



جداً أيضًا فى ظل درجة عالية من الحرية الاقتصادية. تندرج فى النوع الأول تجربة الاتحاد السوفيتى خلال الأربعة عقود الأولى التالية لثورة ١٩١٧، وتجربة الحكم النازى فى ألمانيا فى فترة ما بين الحربين، وتجربة تركيا تحت حكم كمال أتاتورك، وتجربة مصر تحت حكم محمد على فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر، وتحت حكم عبد الناصر حتى منتصف الستينيات. أما النوع الثانى فتندرج تحته، ليس فقط تجارب مختلف الدول الأوروبية والولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر، بل أيضًا تجربة اليابان ودول أخرى فى جنوب شرقى آسيا فى القرن العشرين، وكذلك تجارب الدول الأوروبية والولايات المتحدة خلال ربع القرن التالى للحرب العالمية الثانية (٤٥-١٩٧٠).

التاريخ ملىء أيضًا بأمثلة الفشل الاقتصادى فى ظل كل من النظامين الاقتصاديين: نظام التدخل الصارم من جانب الدولة ونظام الحرية الاقتصادية. فمن أمثلة الفشل فى ظل التدخل الصارم للدولة تجربة الاتحاد السوفيتى بعد ١٩٧٠، والصين خلال الستينيات، ومصر فيما بين ٦٥ و ١٩٧٥، ومن أمثلة الفشل فى ظل جرعة عالية من الحرية الاقتصادية، كثير من تجارب دول أمريكا اللاتينية فى فترات مختلفة خلال الخمسين عامًا الأخيرة، ودول جنوب شرقى آسيا باستثناء الصين، فى أعقاب ١٩٩٧، وكذلك مصر منذ ١٩٨٦، فضلاً عن عدد كبير من الدول الأوروبية والولايات المتحدة فى الثلاثينيات من القرن العشرين، وكذلك فى حقب مختلفة من ربع القرن الأخير.



النجاح ممكن إذن فى ظل أى من النظامين الاقتصاديين، ولكن الذى يضع حداً للنجاح ويقلبه إلى فشل، هو فيما يظهر لى أحد أمرين:

إما ظروف خارجية غير مواتية لا تقدر الدولة على الصمود أمامها، بما فى ذلك وعلى الأخص، فى حالة الدول الصغيرة والتى لم تتم ثورتها الصناعية بعد، ضغوط تمارسها قوى خارجية عن وعى بقصد وضع حد لأداء اقتصادى ناجح، أو لتحقيق مصالح اقتصادية لها تتعارض مع هذا النجاح (والمثل الصارخ على هذا اعتداء ١٩٦٧ على مصر)، وإما استشراء الفساد فى جسم الأجهزة القائمة على إدارة الاقتصاد، الأمر الذى يستطيع أن يصيب بالخلل كلا النوعين من النظام الاقتصادى، سواء ذلك القائم على التدخل الصارم من جانب الدولة (كالذى حدث فى الاتحاد السوفيتى منذ أوائل السبعينيات) أو ذلك الذى يطبق نظام الحرية الاقتصادية (كالذى حدث مثلاً فى أندونيسيا وتايلاند وجلب كارثة ١٩٩٧).

هذان العاملان، مدى تعرض الدولة لظروف خارجية مواتية أو غير مواتية، (بما فى ذلك مدى تعرضها لضغوط من قوى أجنبية لتغيير مسارها الاقتصادى) ومدى استشراء الفساد فى أجهزة الإدارة أو عدمه، هما العاملان الأقدر على تفسير اختلاف الأداء الاقتصادى فى مصر (وربما فى دول أخرى كثيرة، خاصة الدول الأصغر والأضعف) من أى عامل آخر يتعلق بنوع النظام الاقتصادى من حيث مدى تدخل الدولة فى الاقتصاد أو عدم تدخلها. ولكن من المهم أن نلاحظ أن هذين العاملين (الضغوط الخارجية والفساد) ليسا دائمًا منفصلين.

إن درجة من الفساد موجودة دائمًا فى الإدارة القائمة بتسيير الاقتصاد، ولكن من المؤكد أن هناك من الظروف ما يشجع على ترعرع الفساد واستشرائه، ومنها ما يشيع مناخًا غير ملائم لنمو الفساد، أو يؤدى إلى كبته أو يقضى عليه فى مهده. إن درجة عالية من العدل الاجتماعى لا تشجع عادة على نمو الفساد، ولكن درجة عالية من الظلم تشجعه. كذلك فإن القوى الخارجية ذات المصلحة فى تغيير مسار الاقتصاد تجد عادة فى شيوع الفساد (أو حتى فى خلقه خلقًا) عاملاً مساعدًا للغاية لتحقيق مآربها، خاصة إذا كان هذا التغيير من الأفضل إلى الأسوأ، فهنا لابد من الاعتماد على مصالح خاصة تتعارض مع مصالح المجموع، وهذا هو الفساد بعينه. إن الشركة متعددة الجنسيات مثلاً، إذا أرادت اقتحام سوق كان مغلقًا أمامها لا تعتمد فى تحقيق هذا الهدف على حجج أيديولوجية أو على إقناع أصحاب الشأن بالفوائد العميمة التى يمكن أن تعود على الدولة من فتح أسواقها. إنها قد تستخدم مثل هذه الحجج كستار من الدخان تدخل من خلاله إلى الدولة المراد اقتحامها. ولكن الوسيلة الفعالة فى فتح هذه الأسواق هى الاعتماد على إغراء بعض أصحاب المصالح الخاصة فى الداخل بترك الباب مفتوحًا، أو بالتظاهر بإغلاقه دون أن يقوموا بإغلاقه بالفعل.

إن من الممكن بالطبع أن نتصور فسادًا ذا مصادر داخلية بحتة، ولكن هذا النوع من الفساد لابد أن يكون بالضرورة محدودًا بحدود مصادر الدخل والثروة الداخلية، أما «الفساد المفتوح» على مصادر الدخل والثروة فى الخارج فهو فيما يظهر لا حدود لما يمكن أن يجلبه إلى داخل البلد من ملوثات.

إن هذين الاعتبارين (التعرض لظروف خارجية غير مواتية والتعرض لملوثات قوية من الخارج) يلخصان فى رأيى الضرر الحقيقى الذى جلبه الانفتاح الاقتصادى كما مارسته مصر ابتداء من منتصف السبعينيات. لم يأت الضرر الحقيقى من «مبدأ فتح الأبواب والنوافذ» بل أتى من فتحها على نحو جعل مصر معرضة للتأثر بأى تيار هوائى يتصادف مروره ببابها، بل وعلى نحو سمح بدخول أى أفاق يريد ممارسة فساده فى الداخل.

وفى هذا أيضًا يكمن فى رأيى أهم دفاع عن تدخل الدولة الصارم فى الاقتصاد فى بلد لم يكتمل نموه الصناعى بعد. لا يكمن هذا الدفاع فى القول بأن الدولة أكفأ دائمًا من القطاع الخاص، أو أكثر تحقيقًا للمصلحة العامة دائمًا، وإنما يكمن فى حاجة مثل هذا الاقتصاد لفترة من الزمن إلى الحماية من الظروف الخارجية غير المواتية ويقوى ما لديها من حصانة ضد الملوثات التى قد تأتى من الخارج. وهذا هو فى رأيى مصدر الأسف الحقيقى على إجهاض تجربة الخمسينيات والستينيات فى التدخل الحكومى القوى فى الاقتصاد. ليس مصدر الأسف أن «الانغلاق» أفضل دائمًا من «الانفتاح»، ولكن مصدره فى رأيى أن الاقتصاد المصرى أُجبر على الانفتاح قبل أن تتكون له الحصانة الكافية ضد التيارات الهوائية العاتية وضد الملوثات الآتية معها. ■



عن الحرية

حرية النقاش

إن بعض الناس يكفيه منك أن توافق على رأيه من غير ارتياب فيه، ولو كنت جاهلاً بالأسباب التى بنى عليها هذا الرأى وعاجزاً عن مدافعته، فإذا تيسر لهؤلاء أن يفرضوا آراءهم على الناس، فسوف يعارضون فى إباحة المناقشة على رغم ما تجلبه من أضرار. فإذا تولوا السلطان بذلوا جهدًا كبيرًا يستحيل معه رفض الآراء السائدة عن فهم واقتناع، وإن كان يمكن رفضها عن جهل وطيش، وذلك لأنه ليس من اليسير تحريم المناقشة تحريمًا تامًا، وعدم السماح بتبادل الآراء إطلاقًا.

ومهما تكن معتقدات الناس فى المسائل الخطيرة حيث يجب أن تتسم بالصواب ـ فجدير بهم أن يكونوا قادرين على الدفاع عنها أمام ما قد يقوم من اعتراض على الأقل.

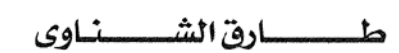
وقد يقول البعض: أنه لا بأس من تفهم الناس الأسباب التى بنيت عليها عقائدهم، ولكن دون فتح باب المناقشة والسماح للمعارضين بالتهجم على العقائد، فإن حماية العقائد لا تستلزم اقتصار الناس على ترديدها. وذلك كمثل الذين يتعلمون الهندسة، فهم لا يكتفون بحفظ رؤوس النظريات، بل حفظ الإيضاحات وفهم المقدمات أيضًا.

وردنا على ذلك أن هذه الطريقة إذا كانت تصلح لتعليم الرياضيات وأشباهها حيث لا يجد المعترض مجالاً للطعن فيها حيث إن الحقائق الرياضية لا تحتمل التأويل إلا على وجه واحد وتقف أدلة إثباتها فى جانب واحد، فإنها ليست كذلك فى جميع المباحث الأخرى حيث يجد الخلاف مجالاً واسعًا، فلا يمكن استنباط الصواب إلا بالمقارنة بين مجموعتين متعارضتين من الآراء والمفاضلة بينهما.









لا نستطيع أن نفسر الثورة التى حدثت قبل خمس سنوات عندما تغيرت خريطة الفن فى مصر وخاصة السينما بمعزل عن الحياة السياسية فى مصر التى يريد لها الناس أن تتغير فى الوجوه والأسماء، لكنها لا تتغير ولا تتحرك وتتمسك بنفس الوجوه والأسماء.

رجل الشارع فى أعماقه يريد التغيير وهو متلهف على ذلك لكن الأمر لم يتجاوز مجرد التمنى والرغبة إلى الفعل والقرار، لأنه لا يملك الفعل وليس فى يده القرار ولهذا يرضى بنجومه فى السياسة والاقتصاد والثقافة، أما نجومه فى الفن فإنه قادر على تغييرهم واستبدالهم إذا أراد، الجمهور يستطيع أن يقول للفنان استمر نحن نريدك أو يقول له شكرًا نكتفى بهذا القدر.

إنه شباك التذاكر.. أكبر سلطة ديمقراطية لا يمكن تزوير إيراداتها لأنها تعبر عن مصالح مادية لا تعرف إلا من يبيع أكثر وله ثمن أكبر ولا تعترف بنسبة ٩٩,٩٪ التى تعودنا عليها إلا إذا كان النجم بالفعل يستحق عن جدارة هذه النسبة، إنها الديمقراطية الوحيدة التى تتمتع بها كل دول العالم الثالث، وهى ليست منحة من الدولة لكنها تأتى فى العادة بعيدًا عن إرادتها حتى لو كان النجم الذى يختاره الناس هو فى النهاية صوت للدولة!!



لو أننا تتبعنا الأرقام منذ صيف عام ١٩٩٧ عند عرض فيلم «إسماعيلية رايح جاى» لاكتشفنا أن النتيجة لم تكن مجرد نجاح فيلم أو نجم، لكنها إرادة جمهور بات لا يطيق صبرًا على التغيير، ولا يهم أنه يختار الأفضل، فلم يكن - إسماعيلية - بالمقياس الفنى هو الفيلم الذى من الممكن أن تتحمس له فنيًا، لكنه فقط من خلال أداء محمد هنيدى البطل الثانى فى الفيلم بعد - محمد فؤاد - البطل الأول.. كان محمد هنيدى من خلال أدائه يجسد مفردات مغايرة تعبر عن رجل الشارع فى العقد الأخير من الألفية الثانية.. كان محمد هنيدى هو صاحب هذه الشفرة السرية التى استطاع أن يفك رموزها ليصبح اللقاء حميميًا بينه وبين الناس.. إن الكوميديان فى العادة هو صوت الناس لأن الكوميديا تسمح بهامش من الانتقاد، والفنان الكوميديان يستطيع أن يلتقط تفاصيل خاصة فى السلوك وأسلوب التخاطب، إنها فى مجملها تشكل النمط الاجتماعى فى العلاقة داخل الأسرة وفى المدرسة والمكتب والشارع.

والفنان المؤدى عليه أن يحسن الاستماع والملاحظة وعليه أيضًا أن يتمتع بالقدرة على الاستقبال قبل الإرسال، لتصبح الرسالة التى يقدمها بعد ذلك للناس ساخنة وعلى موجتهم لأنها أخذت مفرداتهم وتفاصيلهم، إنها أقرب ما تكون للهجة العامية الدائمة التغير حيث تولد كلمات وتحال إلى المعاش كلمات أخرى، ولهذا إذا عطلت وسائل الاستقبال لدى الفنان أصبح يرسل للناس على موجة بعيدة عن مؤشراتهم التى تعودوا على ضبطها على موجة ذات تردد مختلف!!

لقد بدأ هنيدى بإعلان البيان الأول لتلك الثورة وتتابعت القوات الأخرى فى الاقتحام والبيانات الأخرى أيضًا، ولهذا جاء وراءه علاء ولى الدين وهانى رمزى وأحمد آدم وأشرف عبد الباقى، ثم الصف الثانى الذى طمع فى الوصول للصف الأول مثل أحمد عيد وأحمد حلمى ومحمد سعد وأحمد رزق ولم تضق الدائرة على نجوم الكوميديا فقط لأننا بصدد ثورة فنية شاملة، فلقد شاهدنا أحمد السقا يتقدم وهانى سلامة وكريم عبد العزيز يلاحقانه، ووجدنا أيضًا محمد فؤاد يحقق إيرادات ومصطفى قمر يحاول وعمرو دياب يستعد والنجمات الجدد حنان ترك ومنى زكى وحلا شيحة وريهام عبد الغفور ووفاء عامر وأميرة فتحى وغادة عبد الرازق وهند صبرى التونسية ونور اللبنانية تعقد لهن البطولة النسائية!!

وعلى المقابل فإن مواقع عادل إمام ومحمود عبد العزيز وأحمد زكى ونور الشريف ونادية الجندى ونبيلة عبيد وليلى علوى ويسرا وإلهام شاهين قد تغيرت، وبات عليهم إذا أرادوا الاستمرار أن يفكروا فى قوانين أخرى درامية مغايرة وأفكار لم تكن فى العادة لهم ولم يكونوا لها، لكنها المرونة التى ينبغى أن يتحلى بها الفنان إذا أراد الاستمرار داخل الملعب. ولا ينبغى فى كل مرة أن يحرز هو الهدف، عليه الآن أن يرضى بأن يرسل الكرة إلى هداف آخر يعرف أكثر طريق المرمى.

وهذه إطلالة على نجوم الكوميديا زمن الروشنة كما يحبون أن يطلق عليهم ويحلو لنا أيضًا!!





محمد هنيدى حاليًا هو أنجح أفراد جيله على مستوى شباك التذاكر وأكثر النجوم الذين حققوا هذا التماس الجماهيرى، إذ إنه خلق ما يمكن أن نطلق عليه الارتباط الشرطى... الناس بمجرد أن تراه تستعد لا شعوريًا للضحك وقبل أن ينطق هو بالكلمة أو الإفيه أو اللمحة تجد الناس سبقته لتضحك، وهذه منحة خاصة إلا أنها لا تكفى لكى يستمر عطاؤه حيث ينبغى له أن يحيط ذلك بقدر من الذكاء فى الاختيار. ومحمد هنيدى يمتلك ذكاء فطريًا، إنه يقف الآن على مشارف الأربعين من العمر لكن ملامح وجهه لا تزال تتشبث بعالم الطفولة، ولهذا فإنها من الممكن أن تختصر على الأقل من شهادة ميلاده ١٠ سنوات. ويرتدى هنيدى «كاسكيت» على رأسه وتى شيرت يساهمان فى اختصار ٥ سنوات أخرى من الثلاثين، ولهذا فإنه من الممكن أن يؤدى وهو فى الأربعين - كما تشير بطاقته الشخصية - دور طالب جامعى فى الخامسة والعشرين ويفوتها له الجمهور!

هنيدى شأنه شأن أغلب الفنانين بدأ كومبارس صامت فى فوازير لعبت بطولتها شريهان وانتقل فى أدوار صغيرة مع يوسف شاهين فى إسكندرية ليه ١٩٧٩، وخيرى بشارة يوم مر ويوم حلو ١٩٨٨، ثم يقترب من عادل إمام أكثر النجوم جماهيرية ليقدمه فى دور صغير لكنه لافت فى المنسى عام ١٩٩٣ إخراج شريف عرفة، حيث ردد الناس معه هذا النداء الشهير فى الأفلام الأجنبية قصة ولا مناظر، وبعد ذلك بعامين يمنحه داود عبد السيد فى فيلم «سارق الفرح» دورًا لافتًا أيضًا، ثم يعاود اللقاء مع عادل إمام عام ١٩٩٥ الجزء الأول من بخيت وعديلة إخراج نادر جلال، ويكتب عادل إمام المشهد الرئيسى له فى الفيلم، ومن خلال الجماهير الطاغية لعادل إمام يشير الناس إلى موهبة محمد هنيدى ويكسب بهذا نقاطًا عديدة لصالحه.

كان هنيدى بالنسبة لعادل مجرد فلاش يبرق فى فيلم سينمائى هو مسئول عن كل إضاءته بينما هنيدى مصباح صغير.. مثل سليمان نجيب فى أفلام نجيب الريحانى وأقل كثيرًا من الشاويش عطية - رياض القصبجى - فى أفلام إسماعيل ياسين، ولا أعتقد أن عادل إمام تصور أن هنيدى سوف يتجاوز هذا المكان وتلك المكانة! ولن يصبح الشاويش ضابطًا وقائد طابية.

وعلى استحياء وفى أفلام محدودة التكاليف يبحثون عن «المضحكين الجدد» تتم الاستعانة بمحمد هنيدى وعلاء ولى الدين

وأحمد آدم، وكان هنيدى وعلاء قد شكلا «دويتو» مقبولاً من الجمهور لخفة ظله ومقبولاً من شركات الإنتاج لضآلة أجره حيث إنه يحقق شكلاً كاريكاتيريًا القصير ضئيل الحجم «هنيدى» والسمين بإفراط «علاء ولى الدين»!!

كانت نقطة فارقة للاثنين معًا هنيدى وعلاء فى فيلم «حلق حوش» للمخرج محمد عبد العزيز فى مطلع عام ١٩٩٧ الفيلم بطولة ليلى علوى وتحت رعايتها وفقًا لشروطها، فهى الاسم الأكبر وهى المسئولة عن توزيع الفيلم فى الداخل والخارج، لكن هنيدى وعلاء أخذا مساحة درامية أكبر من كل التجارب السابقة لهما، وكان من الممكن أن ينطلقا جماهيريًا فى هذا الفيلم، لولا أن ليلى علوى لم يرضها فى فيلم كوميدى ألا تمارس هى أيضًا الكوميديا ولهذا أفسدت «الطبخة» وتقلصت الضحكات الممكنة لأن المخرج استجاب تمامًا لما تريده ليلى وليس لما ينبغى أن يكون عليه الفيلم الكوميدى، وانطلق بعد ذلك هنيدى وعلاء ومعهما آدم فى تجارب مماثلة مثل سمكة وأربعة قروش للمخرج شريف شعبان حيث كانت البطولة الأساسية لجالا فهمى، والنجوم الثلاثة مجرد أسماك صغيرة!

حتى جاء الفيلم الفارق وجاءت معه الصدفة التى دائمًا ما تتكرر فى دنيا الفن، ويصبح خيرًا من ألف اتفاق وميعاد، وذلك عندما يتم استكمال فيلم «إسماعيلية رايح جاى» لكى يعرض فى شهر أغسطس ١٩٩٧ وهو من الأشهر التى تعد بلغة موزعى ومنتجى الأفلام موسم «حرق الأفلام» ولهذا يقدم الفيلم بأربع نسخ فقط وبلا دعاية تذكر أو لا تذكر. ويتواكب مع عرض الفيلم خروج شريط غنائى لمحمد فؤاد، ويشارك فى الغناء محمد هنيدى بأغنية «كامننا»، الأغنية التى كتبها عنتر هلال ولحنها رياض الهمشرى. وتحقق الأغنية نجاحًا استثنائيًا، وهذه الأغنية كانت ضمن أحداث الفيلم.



ويختلط الأمر على الجمهور، البعض يذهب من أجل مشاهدة هذه الأغنية مرئية بعد أن استمتع بها على شريط كاسيت مسموعة. البعض يذهب لكى يشاهد محمد فؤاد مطربًا فهو نجم له جمهوره. أما محمد هنيدى فلم يكن قد حقق بعد أى تواصل حقيقى مع الجمهور، لا يوجد له جمهور يقطع التذكرة من أجل اسمه، فلم يكن قد حقق بعد هذا الاسم، لكنهم بعد أن يدخلوا إلى دار العرض يراهنون على اسمه. وحدث اللقاء المرتقب وتوحد الناس مع هنيدى، رغم أن فيلم «إسماعيلية رايح جاى» الذى كتبه أحمد البيه وأخرجه كريم ضياء الدين لا يمكن أن يدخل فى إطار الأفلام الجيدة ولا حتى المتوسطة، وأحداثه التى تجرى فى أعقاب هزيمة ٦٧ وقبل انتصار ٧٣، تجد فيها أطباق التليفزيون على أسطح المنازل ويتغنى بجهاز الموبايل - فؤاد وهنيدى - رغم أنه لم يكن قد تم التفكير فى اختراعه فى ذلك التاريخ ولا بعد هذا التاريخ بعشرين عامًا. تسامح الجمهور مع كل أخطاء الفيلم على كثرتها لأنه اكتشف مع محمد هنيدى شفرة جديدة للضحك. ويحسب لمحمد فؤاد أنه لم يمارس سطوة النجوم على محمد هنيدى لا أثناء التصوير ولا فى المونتاج ولا الدعاية، ولهذا أخذ هنيدى مساحته الدرامية وأخذ أيضًا حرية فى أن يضيف ما يراه ملائمًا من الإفيهات ولم يتدخل لا كاتب السيناريو أحمد البيه ولا المخرج كريم ضياء الدين، وبدلاً من أن يعرض الفيلم فى أربع دور عرض ازداد إلى ٢٥ دار عرض، وكان المأمول أن يحقق الفيلم نصف مليون جنيه فارتفع الرقم إلى ١٥ مليون جنيه أو يزيد!! وكان أكبر رقم حققه عادل إمام قبل ذلك هو ٧ ملايين.



أشرف عبدالباقى وياسمين عبدالعزيز فى فيلم «رشة جريئة»



هانى رمزى فى «جواز بقرار جمهورى»



محمد فؤاد وأحمد حلمى فى «رحلة حب»



أحمد رزق وأحمد عيد فى «فيلم ثقافى»

محمد هنيدى نظلمه ويظلم هو نفسه ويظلم أيضًا عادل إمام لو أنه وضع محمد هنيدى فى إطار التلميذ الذى يسير على نفس الخطى، لأن عادل إمام وأفلامه عندما يشارك فى خناقة فإنه يوسع المهاجمين ضربًا بينما هنيدى لا يشارك فى الضرب إنما يقدم نكتة أو يهرب بعيدًا عن الميدان، والناس تصدق ذلك من هنيدى وتتعاطف معه وتغفر له أيضًا هذه الحالة من الخوف. هنيدى ليس «الدونجوان» الذى تحبه الفتيات، من الممكن بالطبع أن تحبه واحدة ويصدق ذلك الجمهور، لكنه لا يتابع طريقة عادل إمام فى أن تحبه كل الفتيات فى الفيلم السينمائى وفى دور العرض، هنيدى هو نموذج لأى متفرج عادى بلا إمكانيات جسدية يعمل لها أى حساب ولا جمال أخاذ وسحر خاص، ولهذا يتوحد معه الجمهور الذى يشعر أفراده - أو معظمهم على أقل تقدير - بأنهم متفوقون عليه. ولهذا فإن فرصتهم أكثر منه فى إقامة علاقات مع الجميلات. ونجحت شركة العدل التى تتكون من منتج وممثل وكاتب وهم محمد وسامى ومدحت فى أن يقع اختيارهم على هنيدى قادم بعد إسماعيلية، وقدموا له صعيدى فى الجامعة الأمريكية على مواصفات هنيدى حيث يؤدى دور طالب يأتى من الصعيد إلى الجامعة الأمريكية. والمخرج سعيد حامد وأمام البنت الحلوة منى زكى مع مساحة وضعت بذكاء إلى أحمد السقا فى دور صديق محمد هنيدى ثم دور مهم لكوميديان قادم «هانى رمزى»، رحلة من الصعيد إلى الجامعة الأمريكية مليئة بهذا التناقض الذى يشتعل بين القيم المختلفة لمجتمع مغلق تمامًا فى صعيد مصر ومجتمع فى وسط مدينة القاهرة لديه دستور مغاير يدعو للانفتاح التام.. حقق الفيلم لمحمد هنيدى ٢٨ مليون جنيه وذلك عام ١٩٩٨ وكان يعرض بجواره فيلم له أهمية فنية وهو «اضحك الصورة تطلع حلوة» للمخرج شريف عرفة وبطولة أحمد زكى وليلى علوى ولم تتعد الإيرادات مليونى جنيه!!

أكد «صعيدى» على أننا بصدد نجم له جمهوره يتابعه ويرتقبه، ولهذا ينتقل هنيدى من صعيدى فى الجامعة الأمريكية إلى «همام فى أمستردام» قاهرى يذهب إلى أمستردام بهولندا، ولم ينسوا أن يضعوا له البنت الحلوة موناليزا والأغنيات ثم أحمد السقا للمرة الثانية فى مساحة درامية أكبر من صعيدى. الفيلم كتبه مدحت العدل وأخرجه سعيد حامد، ثم انتقل هنيدى عام ٢٠٠٠ إلى المخرج نادر جلال مع نفس الكاتب مدحت العدل فى «الواد بلية ودماغه العالية» ووضح أن الاتجاه هو استثمار هنيدى سينمائيًا، تم بعد ذلك تقديم بعض مشاهد من أفلامه فى برنامج تليفزيونى، مثلما حدث فى برنامج رمضانى وهو «أكشن»، وأن هنيدى تحول إلى تميمة للنجاح التجارى. وانتشرت تلك المعادلة تضع هنيدى على أى مشاهد سينمائية من المحفوظات العامة للسينما المصرية تحقق نجاحًا وحقق الواد بلية فى الأسبوع الأول ٥ ملايين جنيه، وبدأت بعد ذلك إيراداته فى التدهور، ولم يتجاوز الإجمالى ١٥ مليون جنيه. وشعر هنيدى بالخطر واعترف بأنه غير سعيد بالفيلم ويحتج على استغلال مشاهد له فى فيلم سينمائى لكى تقدم فى برنامج تليفزيونى، وقال أنه لن يسمح بتعليب مسرحياته وتقديمها سينمائيًا مثلما حدث له فى الأبندا!

شعر هنيدى بالخطر المحدق به ووصل إلى «جاءنا البيان التالى» مع الكاتب محمد أمين والمخرج سعيد حامد، كانت بالفيلم إرهاصة لقضية جادة وهى زيف الإعلام الرسمى. ولكن تقطعت أنفاس الكاتب والمخرج وهنيدى ولم يكملوا ما بدأوه، لأنه

في كل الأحوال فإن الفيلم كان أفضل من الواد بلية ودماغه العالية. ويستعد هنيدي مع سعيد حامد لمعركة هذا الصيف بفيلم «صاحب صاحبه» مع أشرف عبد الباقي الذي ارتضى أن يعمل تحت المظلة الجماهيرية لمحمد هنيدي بعد أن تعثر في البطولة المطلقة.

ولقد أعجبني هنيدي عندما قال «لا» لمن أرادوا استغلاله تليفزيونيًا ومسرحيًا وسينمائيًا، ولكن لا أعتقد أن هنيدي غير قابل - رغم كل ذلك - للاستغلال مسرحيًا وسينمائيًا وتليفزيونيًا، وعليه أن يزداد حرصًا حتى يوقف جمعية مستثمري هنيدي الذي يربحون من البحر وهو حق منفعة لكل البشر يتحول بعد تسويره إلى حمام سباحة أو شاطئ استثماري لصالحهم وعلى هنيدي أن يناضل حتى يظل بحرًا وليس حمامًا للسباحة لأصحاب المصالح!!



مجموعة من المتناقضات.. هذا هو علاء ولي الدين.. إنه الحذر والتردد والخوف وفي نفس الوقت نجد الإقدام والشجاعة والجسارة.

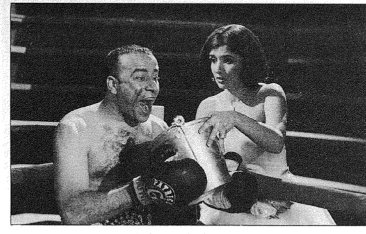
إنه طاقة لا يدري من أين يأتيها كل هذا الحظ ثم تغلق ولا يدري ما هو سر هذا الشقاء ولماذا يكشر له الحظ عن أنيابه.

بدأ المشوار في نفس الفترة الزمنية مع محمد هنيدي وبرغم أن حرف العين يسبق أبجديًا حرف الميم، إلا أن اسم هنيدي كان يأتي في كل اللقاءات المشتركة بينهما سابقًا على علاء «العين لا تعلو عن الحاجب والعين لا تعلو أيضًا على الميم»!!

يرضى علاء ولي الدين بالقليل وكان غير مصدق أنه مطلوب في السينما ويبدو أن معاناته وهو صغير بعد رحيل والده الممثل المغمور سمير ولي الدين حددت له المعادلة وأن العمل هو من أجل تحقيق دخل للإنفاق على العائلة التي أصبح وهو في الرابعة عشرة من عمره مسئولاً عنها. كان عادل إمام حريصًا على أن يمنح علاء ولي الدين دورًا صغيرًا في أفلامه مثل الإرهاب والكباب، والمنسي، وبخيت وعديلة الأول والثاني، حتى رسالة إلى الوالي عام ١٩٩٨، وبينما كان هنيدي قد امتلك الشجاعة لكي يقول «لا» لعادل إمام ويعتذر عن دور صغير، فإن علاء ولي الدين كان يشعر بأن عادل إمام لا يمنحه دورًا يستحقه ولكنه يريد أن يحدد إقامته الفنية في مكان الممثل الكوميدي السنيد، وبرغم ذلك لم يعترض حيث تغلبت عليه روح الاستكانة والخنوع ووافق على هذا الدور رغم أنه كان فنيًا قد تجاوز تلك المساحات الفنية. ويلحق علاء ولي الدين بقطار محمد هنيدي ويقول له بفيلم «عبود على الحدود» أنا أيضًا أحقق الملايين حيث بلغت إيراداته ١٢ مليون جنيه عام ١٩٩٩. كان علاء مجرد مشروع ممكن أن ينجح حيث استشعر المنتجون أن الرغبة العارمة في التغير ليست قاصرة على محمد هنيدي وأن هناك تعطشًا لمن يأتي ويطرق الباب وسوف يأخذه الجمهور بالأحضان والأموال، إلا أن الرقم ظل مفاجأة حتى بالنسبة لعلاء. ولعبت الصدفة دورها أيضًا لأن هذا الفيلم الذي كتبه أحمد عبد الله رشح لإخراجه أكثر من مخرج لا يمتلكون إيقاع مخرج الفيلم شريف عرفة. وليست لديهم موهبته وعندما عرض علاء السيناريو على شريف عرفة قال له: هذا الدور يصلح له نور الشريف!! بعد ذلك بأسبوعين اتصل به وقال له وجدت الحل وتم التعديل ليصبح الفيلم ملائمًا على مقاس علاء ولي الدين وفاتحة خير عليه، وعلى من شاركوه البطولة أحمد حلمي وكريم عبد العزيز حتى غادة عادل التي انطلقت قبل اعتزالها مؤخرًا في عدد من الأفلام!!

علاء ولي الدين لديه موهبة لا تنكر ويمتلك روح الطفل ويستطيع أن يخلق تلك الحالة من التعاطف مع الجمهور، ولكن يحتاج علاء إلى نص سينمائي يتم تفصيله عليه بكل دقة فهو لا يمكن أن يؤدي دور «الدونجوان» ولا الشجيع حتى نقتنع بأن البنت الحلوة تقع في غرامه. واستطاع شريف عرفة والكاتب أحمد عبد الله أن يعثرا على فكرة فيلم الناظر في عام ٢٠٠٠. ويقدم علاء في هذا الفيلم العديد من الشخصيات الدرامية فهو الابن والأب والأم بالإضافة إلى شخصيات أخرى وينجح تمامًا في أداء دوري الأم والأب ويتألق المخرج شريف عرفة في استخراج أفضل لمحات علاء ويحقق الفيلم ١٧ مليون جنيه متفوقًا على محمد هنيدي في فيلمه «الواد بلية» الذي لم يتجاوز ١٥ مليونًا ويعتقد البعض أن علاء يطارد هنيدي على قمة الإيرادات ويتجدد الأمل عند باقي نجوم الكوميديا أمثال أشرف وآدم وهاني رمزي في أن القمة لم تعد قاصرة على هنيدي وأن السباق لا يزال في البدايات وكل الاحتمالات ممكنة. وينتعش علاء ويراوده الأمل في تأكيد موقعه باعتباره القوة الضاربة الأولى في شباك التذاكر مع أحمد عبد الله وشريف عرفة. يقدم ابن عز في ٢٠٠١ وتنهار الإيرادات، ويقع أيضًا علاء ضحية صراع الاحتكار بين شركات السينما، فلقد وجد نفسه في معركتين الأولى سببها ضعف فيلمه فنيًا والثانية صراع السوق. وخرج علاء مثخنًا بالجراح وبضآلة الإيرادات منكس الرأس بين نجوم الشباك وخاصة أن عام ٢٠٠١ شهد عودة هنيدي بفيلمه «البيان التالي» بإيرادات ٢٠ مليون جنيه، كما شهد اقتراب محمد فؤاد بفيلمه المتواضع فنيًا «رحلة حب» ١٠ ملايين، وأن محمد سعد وأحمد حلمي في فيلم «٥٥ إسعاف» حققا إيرادات أعلى من علاء ولي الدين الذي لم يتجاوز ٥ ملايين جنيه!

أعتقد أن علاء ليس مجرد فنان حقق إيرادات من خلال فيلمين متتاليين وتعثر في الثالث وأن الفيلم الرابع محفوف بالمخاطر، أعتقد أن علاء قادر على تحقيق الإيرادات المتتابعة لأن بينه وبين الجمهور تواصلاً وحالة من الدفء إلا أن علاء فنان يتحرك في ظل معادلة فنية ينبغي أن تحسب بدقة، فإذا أحبته امرأة يراعي الكاتب والمخرج أن يصدق الجمهور ذلك، فإذا انتصر في صراع ينبغي أن يكتب بتفاصيل خاصة حتى لا يفقد إمكانية التصديق. علاء ليس هو الممثل السمين الذي يضحك الجمهور على الكيلوجرامات الزائدة، علاء جسد سمين وموهبته ثمينة، ومن هنا فإن ابتعاده هذا الصيف يضعه في موقع التحدي، وأعتقد أن مشروع «كارت إرهاب» الذي كتبه أحمد عبد الله وأسند إخراجه إلى علي إدريس سوف يغلق بابه نهائيًا ليبحث عن مشروع آخر...! إن علاء المتردد تراجع عن «كارت إرهاب» ولهذا انتظر علاء الجسور وهو الشخصية النقيضة في داخله أن تستيقظ لتبحث عن مشروع آخر، ربما يحول هذا المشروع إلى «سلم» يعيد علاء ولي الدين مرة أخرى إلى القمة التي ابتعد عنها بسبب «ثعبان ابن عز».. ربما!



محمد سعد وغادة عادل في «٥٥ إسعاف»



المضحكون الجدد في مصر

لا يستطيع أحمد آدم أن ينسى ولا يريد أيضًا لهما أن ينسيا، أما الذي لا ينساه أحمد فهو أنه عندما بدأ المشوار الفني على المسرح وفي السينما، كان هو الأول سابقًا في الترتيب والتوضيح والحضور كلا من رفيقيه اللدودين هنيدي وعلاء.. وعندما قدم مسلسل «سر الأرض» في شخصية القرموطي، كان هو البطل المطلق بينما علاء وهنيدي لهما أدوار صغيرة بجواره، وهو لهذا لا يريد لهما أن ينسيا ذلك. ولهذا تفلت بين الحين والآخر تصريحاته الغاضبة خاصة من آدم ولا يعلق الصديقان ثم يعاود إطلاق التصريحات وهكذا كان آخر لقاء جمعه مع علاء وهنيدي في نفس عام ثورة «المضحكون الجدد» ١٩٩٧ وفيلما سمكة وأربعة قروش وجاء ترتيب آدم سابقًا لهنيدي وعلاء والتترات وأفيشات الدعاية. وكان يعرض لهم أيضًا في نفس العام فيلم بطولة مشتركة له وهو «ح نحب ونقب» لعبد اللطيف زكي، وتغيرت الخريطة في نهاية ٩٧. قرر آدم ألا يقف مكتوف الأيدي مقيد الطموح ووجدت أيضًا شركات الإنتاج أن طاقة هنيدي لا تتجاوز فيلمًا واحدًا في العام ولهذا عزفوا أن يمنحوا الفرصة لآدم وقدم فيلم «ولا في النية أبقى» إخراج كريم ضياء الدين مخرج «إسماعيلية رايح جاي»، وشارك في الكتابة أحمد البيه مؤلف «إسماعيلية»، ووقف مع آدم في الفيلم في دور صديق البطل «هاني رمزي» إلا أن الإيرادات جاءت في غير صالح آدم، ولهذا تم تسكينه في قائمة نجوم كوميديا الصف الثاني، مثلما كان سعيد صالح ويونس شلبي وسمير غانم في هذا الموقع الثاني بعد عادل إمام سينمائيًا، وحاول آدم تغيير موقعه وقدم التجربة الثانية «شجيع السيما» إخراج علي رجب، عرض على هاني رمزي مشاركته البطولة ولكن هاني كان قد انطلق إلى منطقة أعلى فتجاوز صديق البطل بعد أن أصبح بعد نفسه كبطل قادم. ولهذا اعتذر وتم إسناد دوره إلى ياسر جلال ولم تنصف الإيرادات آدم، وتكرر الأمر بعد ذلك في فيلم «تحت الربع بجنيه وربع» و«الرجل الأبيض المتوسط» تأجل عرضه من الصيف الماضي إلى الشتاء التالي، ولا تزال معركة آدم مستمرة لإثبات أنه نجم شباك في السينما. ولهذا قرر أن ينضم إلى محمد فؤاد وفيلمه القادم.

آدم لم ينس أنه كان الأول على هنيدي وعلاء. ويبدو أن معركة آدم القادمة لن تصبح في أن يطالب بعرض الكوميديا والسينما ولكن فقط في البقاء داخل دائرة نجوم الشباك في السينما حتى لو جاء ترتيبه في المركز الرابع والخامس!!

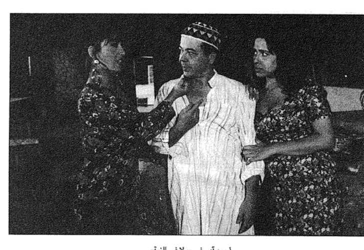
المهم أن يظل في الدائرة.



على سبيل الاستسهال يحاول الموزعون والمنتجون تنميط النجوم خاصة في مجال الكوميديا، ولهذا فإذا كان هنيدي هو القصير وعلاء هو السمين فإن هاني رمزي هو الطويل، وكما تقدم إفيهات للضحك على القصير والسمين، فإن الطويل أيضًا له مواقفه التي تحقق الضحك، وكان من الممكن أن يظل هاني رمزي مقيدًا، في هذا الإطار وخاصة أن شباك التذاكر لا يعترف إلا بالضحكات المضمونة، لكن



هاني رمزي وماجد المصري وأميرة فتحي في «فرقة بنات وبس»



أحمد آدم في «ولا في النية»

هاني من الواضح أنه أهدأ من زملائه ويملك القدرة على أن يذهب إلى ما هو أبعد من تلك الضحكات المباشرة المضمونة، نعم لكنها قصيرة العمر!!

هاني طرق الباب باعتباره أحد التلاميذ في مسرح محمد صبحي وشاهدناه في مسرحية «وجهة نظر» ممثلاً لافتًا وليس كوميديانًا بالمعنى المتعارف عليه، ولكن لديه خفة ظل ملحوظة، وفي مسرح صبحي يكبر فيه النجم إلى مرحلة يتم بعدها فطامه ولا يجوز أن يتجاوز مرحلة الفطام، وهذا هو ما حدث من قبل في مسرح صبحي مع كل من أحمد آدم وصلاح عبد الله، بينما يستمر مع صبحي الفنانون الذين يقفون عند خط لا يتجاوزونه مثل شعبان حسين وعبد الله مشرف ومحمود أبو زيد!!

قفز هاني بعيدًا عن مسرح صبحي إلا أنه لا يذكر تلك السنوات إلا بقدر من الحب والعرفان، رغم أنك تلمح غضبًا ما في نبرة الصوت لا يعلنه هاني رمزي.. يشعر أن من مصلحته أن يكبته لا أن يكتبه!

تابعت هاني رمزي وهو صديق للبطل أو في دور الشرير الذي يواجه البطل مع هنيدي في «صعيدي» أو مع آدم «ولا في النية»، وعلى المسرح وفي التليفزيون دائمًا أجده ممثلاً يتقمص الشخصية حتى جاءت له مساحة أكبر في فيلم «الحب الأول»، أول إخراج لحامد سعيد وهو غير المخرج المعروف سعيد حامد، كان هاني في هذا الفيلم هو متعهد الضحك بينما بطل الفيلم مصطفى قمر متعهد الحب والغناء والتسبيل.

وهاني لديه طموح أبعد ولهذا أقدم على «جواز بقرار جمهوري»، فيلم جريء للكاتب محسن الجلاد والمخرج خالد يوسف، شاركته حنان ترك البطولة. ويبدو أن الرسالة السياسية في الفيلم التي تعرى الفساد وتؤكد على أن كل شيء ينتظره حل من رئيس الجمهورية شخصيًا. وهذه الرسالة لم تكن تشغل بال جمهور السينما من الشباب الذين تتراوح أعمارهم حول العشرينيات لأنهم قطعوا التذاكر لكي يشاهدوا هاني رمزي الذي أضحكهم في «فرقة بنات وبس» و«صعيدي رايح جاي» أن يكرر نفس الضحكات ويلقي عليهم نكتًا متوالية وليس موقفًا دراميًا، أنا بالطبع لا أبرئ ساحة الفيلم نهائيًا لأن هناك بالفعل مسئولية يتحملها أيضًا بناء الفيلم على مستوى البناء والإخراج الذي كان ينبغي أن يتشبع أكثر بقدر أكبر من الفانتازيا لكي تصل رسالته في إطار أكثر إمتاعًا لجمهور السينما، ورغم ذلك فإن هاني رمزي كان لديه إحساس حقيقي بضرورة أن يقدم أوراقًا مغايرة لتلك التي يقدمها هنيدي وعلاء وآدم، هاني يستعد هذا الصيف بفيلم «محامي خُلع» أول إخراج لمحمد يس وتأليف وحيد حامد، يريد هاني أن يقول لأبناء جيله الذين وقف معهم بطلاً ثانيًا أنه قادر على أن ينافسهم بمفرده ويتحمل مسئولية الشباك، فهل يقول له الجمهور حبيتك في الصيف حبيتك في الشتاء؟



جملة واحدة في فيلم سعيد مرزوق «المغتصبون» كانت كفيلة بأن تستشعر أن هذا الممثل لديه حضور وإشعاع خاص، كانت الجملة هي «هو فيه إيه». أما الممثل فهو أشرف عبد الباقي. أتذكر عند عرض هذا الفيلم أنني كتبت اسمه في المقال مرتين. قلت تذكروا هذا الاسم جيدًا، ولا أعتقد أنني كنت الوحيد الذي استشعر ذلك لأن موهبة أشرف كانت قادرة على أن تعلن عن نفسها، ولهذا بعد سعيد مرزوق قدمه رأفت الميهي في دور رئيسي في فيلم «سيداتي آنساتي» وخيري بشارة في «آيس كريم في جليم».. انطلق أشرف في نهاية الثمانينيات ومطلع التسعينيات ولدى الجميع إحساس حقيقي أن أشرف هو «الألفا» القادم بعد عادل إمام فهو كوميديان لا يعتمد لا على قصر قامته ولا طوله، ولا وزنه الزائد، إنه متوسط في كل شيء إلا في شيئين: الموهبة وخفة الظل. ولهذا فإن سعيد مرزوق أسند له بطولة فيلم «آي آي» أمام ليلى علوي وذلك عام ١٩٩٣، ورضوان الكاشف يسند إليه بطولة مشتركة في «ليه يا بنفسج»، والراحل عاطف الطيب يمنحه بطولة آخر أفلامه «جبر الخواطر» عام ١٩٩٨، الفيلم عرض بعد ثورة المضحكين الجدد بعام، ولكن أشرف عرف البطولة قبل ذلك التاريخ ولهذا عندما فعلها هنيدي في «إسماعيلية رايح جاي» عام ١٩٩٧، وجدوا أن لأشرف فيلمًا داخل العلب إخراج عاطف الطيب عام ١٩٩٥، وهو «جبر الخواطر» وعرض الفيلم، لكن الفيلم لم يحقق أي إيراد يذكر أو لا يذكر. ولم تتوقف المراهنة على «أشرف»، المخرج كريم جمال الدين يسند له البطولة في «قضية أمن دولة» أمام يسرا، ويتكرر الأمر مرة أخرى مع إيناس الدغيدي في «كلام الليل» أمام يسرا أيضًا.

ثم ينتقل أشرف ليتحمل البطولة منفردًا في «أشيك واد في روكسي» ١٩٩٩، إخراج عادل أديب ويفشل الفيلم ويلقون باللائمة على حسين الإمام المنتج والملحن والذي اشترك في البطولة، ثم ينتج أشرف لنفسه فيلم «رشة جريئة» ويتفق مع المخرج سعيد حامد والكاتب ماهر عواد ويقدم في فيلمه حكاية ممثل مغمور يطمع في تحقيق شهرة ويقدم جانبًا من مسرحية عطيل ويفشل تجاريًا، رغم أن كل الأوراق كانت هذه المرة في يده، إلا أنه لم يستطع أن يقترب من الجمهور. وكانت التوقعات التي كانت تضع أشرف في المكانة الأولى فهو لم يستطع حتى أن يضع نفسه في دائرة الممكن من النجوم.

ويبقى السؤال كيف خابت التوقعات وأنا أحد هؤلاء الذين كانت توقعاتهم حيث لم يعد أشرف إلى أطراف الدائرة ولم يتشبث حتى في قطار نجوم الكوميديا.. إنه الجمهور صاحب اليد الأطول.. والكلمة العليا. لم يمتلك أشرف تلك المفردات التي تجعله نجم المرحلة.



هؤلاء هم البارزون في دنيا الكوميديا الجدد، لكن الألفية الثالثة حملت أسماء صف ثان يطمع في أن يحتل أيضًا المركز الأول مثل أحمد عيد وأحمد حلمي ومحمد سعد وأحمد رزق.

أحمد عيد يفجر الضحكات بدوره، فهو يقدم الموقف الصامت ورد الفعل الصامت، أتذكر له مشهدًا أو اثنين في فيلم «شجيع السيما» أمام أحمد آدم عندما سأله بهدوء هو تليفون ليلى علوي المحمول اشتراك ولا كارت، أتذكر له أيضًا دوره في «فيلم ثقافي» إخراج محمد أمين، كان مقتصدًا جدًا في تعبيرات الكوميديا لكنها وصلت للناس، وفي فيلم «أفريكانو» إخراج عمرو عرفة أمام أحمد السقا ومنى زكي كان صديقًا للبطل ونجح في إضفاء الإحساس الكوميدي، حتى الآن لايزال «عيد» هو نجم الصف الثاني وهو لا يقاوم وينتظر أن تأتي له الفرصة لكنه لن يسعى إليها ولن يصنعها، فقط ينتظرها، فإذا جاءت فإنه لها وإذا لم تأت فهذا قدره وكفى الله ممثلي الصف الثاني القتال من أجل النجومية.

أحمد رزق كان لافتًا عندما اشترك في دور صغير جدًا في فيلم «إسماعيلية رايح جاي» ثم كان أكثر أبطال «فيلم ثقافي» تلقائية، ولا أنسى له مشهدًا في الكنيسة وهو يخطب في تأبين المرحوم الذي لا يعرفه، وبعد ذلك وقع اختيار رأفت الميهي عليه في فيلم «علشان ربنا يحبك» تقلصت مساحات الضحك وإمكانيات الوعد التي كنا ننتظرها من أحمد رزق، فقد تراجع إلى مشروع نجم مع إيقاف التنفيذ، أتمنى أن يكون الإيقاف مؤقتًا!

أحمد حلمي ارتضى بموقع الصديق الدائم لعلاء ولي الدين، ثم هاني سلامة، ثم محمد فؤاد، ثم كريم عبد العزيز. لم يتحمس له الجمهور إلا في بطولة مشتركة مع محمد سعد في فيلم «٥٥ إسعاف» إخراج مجدي الهواري، وكان الدافع هو رخص ثمن نجمي الفيلم. أغلب الظن أن أحمد حلمي سوف يسير على خطى عبد السلام النابلسي أستاذ أدوار صديق البطل.. ولقد حاول عبد السلام أن يتمرد وأنتج لنفسه فيلم «حلاق السيدات» وخسر فلوسه، لكنه لم يصبح بطلاً. ولا أعتقد أن حلمي سوف يغامر بفلوسه ولن يغامر أيضًا المنتجون بفلوسهم من أجله.

أما محمد سعد فلقد كان لافتًا في دور «اللمبي» في فيلم «الناظر» لشريف عرفة بطولة «علاء ولي الدين»، سعد لديه حضور سارق للعين، ولهذا في بطولة مشتركة في فيلم «٥٥ إسعاف» اقترب من الناس ويستعد هذا الصيف لكي يدخل على الحلبة بطلاً كوميديًا في فيلم «اللمبي» ويعتبرونه هذا الصيف هو الحصان الأسود. هذا السباق المحموم الذي لا يرحم من يسقط أو تتباطأ خطواته.

مرت خمس سنوات على نجوم الضحك الجدد في مصر الذين يقدمون لجمهورهم الوجبات الجاهزة الساخنة السريعة وحتى الآن هم مضحكون بلا مشروع سينمائي مغاير وبلا طموح مختلف، لم يواكب انطلاقهم كتاب ومخرجون يشكلون معهم رؤية أخرى على مستوى الصورة والفكر السينمائي. باستثناء بعض لمحات شريف عرفة الذي ينتمي إلى جيل أسبق حيث كون مع عادل إمام ووحيد حامد ثلاثيًا في عقد التسعينيات. وهناك أيضًا لمحات من سعيد حامد وطارق العريان وساندرا نشأت، ولكن كتاب السيناريو البارزين في هذه المرحلة مثل أحمد البيه وأحمد عبد الله ومدحت العدل ثغرة كبيرة تضرب المضحكين الجدد في مقتل.

ولهذا تظل ثورة هؤلاء معرضة لثورة أخرى مضادة لأنها ثورة ناقصة حملت مفردات جديدة في أسلوب أداء الممثل لكنها تردد نفس النغمات والإيقاعات القديمة، ولا يستطيع النجوم مهما كان لديهم من تواصل جماهيري أن يمتد العمر الفني بهم إذا تم تسكينهم في قائمة النجوم - تيك أواي -.

أنتظر من هؤلاء النجوم قدرًا من الجراة في الدفع إلى الساحة بقوة لكتاب ومخرجين يشاركونهم في نبض وإحساس الروشنة!

وإلا فقل عليهم وعلى ثورتهم السلام.. أو على رأي حكيم: إس إس السلام عليكوا، ولا يفل الروشنة إلا المزيد من الروشنة!!

السينما المصرية و هموم الشباب

جمال إسماعيل

■■ «أفلام» بداية الألفية الجديدة «ذكورية».. تغلب عليها «الكوميديا».. تزيد مشاكل الجيل الجديد ولا تعبر عن طموحاته.. ويكمن سر الإقبال «الجماهيري» عليها في أنها «تقتل» وقت الفراغ و«الكآبة» ومليئة بالضحك والمرح.

إلى أي مدى استطاعت السينما المصرية أن تقترب من الشباب، تصور واقعه الاجتماعي وتعبر عن مشكلاته العامة والخاصة؟ ما هي طبيعة وأبعاد هذه المشكلات الاجتماعية، وما هي «نوعية» هذه السينما؟ ما هي مضامينها وحجم تأثيرها على الشباب وتأثره بها وبما تقدمه كآلية من آليات الثقافة، وكوسيلة اتصال جماهيري ذات قدرة هائلة في التأثير على الجمهور المتلقي، وإحدى وسائل التنشئة الاجتماعية التي تلعب دورًا مهمًا في تشكيل وعي وهوية الشباب، الذي يعد أهم الشرائح التي تحتل مكانة محورية في المجتمع، كما يعد الشريحة الأكثر حساسية إزاء التحولات التي تطرأ على المجتمع، والأكثر شوقًا للتغيرات الاجتماعية؟



تساؤلات ترسم إجاباتها ملامح محاور أساسية لأحدث دراسة أكاديمية تتناول عبر فصولها ومباحثها أهم ملامح مشكلات الشباب في المجتمع المصري، وكيفية اقتراب السينما المصرية من الشباب، ومن تلك المشكلات، في فترات «رصد» تشمل ثلاث حقب تبدأ منذ أوائل السبعينيات، مرورًا بالثمانينيات والتسعينيات، وحتى بداية الألفية الجديدة. وقد انتقت الباحثة عينة لأفلام صدرت في كل حقبة من الحقب الزمنية المختارة، وقامت بتحليل مضمون لتلك الأفلام. واقترن هذا التحليل في تناول أفلام حقبة التسعينيات وبداية الألفية الجديدة، بتحليل كمي وكيفي لمشكلات الشباب، من وجهة نظر الشباب أنفسهم، ومن خلال عينة البحث المختارة من بين طلبة وطالبات جامعات مصرية، حكومية وخاصة. وقد انصبت إجابات الشباب على الأسئلة الواردة ضمن صحيفة الاستخبار الخاصة بالبحث الميداني في الدراسة على الأفلام «الحديثة». الأمر الذي يجعل من آخر حقبة زمنية مختارة من قبل الباحثة نقطة محورية في عرضنا لهذه الدراسة الأكاديمية المتميزة.

عندما تأرجحت الطبقة الوسطى واهتزت

شهد المجتمع المصري خلال عقد التسعينيات، العديد من التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وذلك بفعل محاولات التغلب على الأزمات الاقتصادية عن طريق ترشيد السياسات الخارجية وفتح الباب أمام الاستثمارات العربية والأجنبية، وإفساح المجال أمام القطاع الخاص في مجالات الاستيراد والتصدير وإقامة المشروعات التجارية والخدمية.

وقد صاحب ذلك تخلي الدولة عن سياسات كثيرة كانت تلتزم بها من قبل، كسياسة دعم السلع التموينية وتعيين الخريجين، كما أدى ذلك أيضًا إلى اتساع نطاق المواقع الطبقية الرأسمالية التي شهدت انضمام جماعات جديدة ممن يطلق عليهم «الأثرياء الجدد». وفي هذا الإطار غدا تجميع الثروة هو القناة الرئيسية للحراك الاجتماعي في ظل انتشار وسيادة القيم المادية. وراحت آليات التحول الاقتصادي تعمل على إعمال القوانين العامة للنظام الرأسمالي، قادت إلى ازدياد غنى الأغنياء وفقر الفقراء، واهتز وضع الطبقة الوسطى فتأرجحت وساءت أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، وعانى الملايين من أبنائها من الخوف والقلق على المستقبل، فظهر الاغتراب وعدم الانتماء والانفصال عن المجتمع وما نجم عن هذه الأوضاع من انحرافات وفساد وبلبلة، خاصة لدى الشباب، وهم الشريحة الأكثر حساسية للتغيرات والتحولات، والأكثر تفاعلاً معها وتأثرًا بنتائجها. وفي ظل هذه التغيرات ظهرت مشكلات وظواهر جديدة: حالات التهور واللامبالاة والعنف والزواج العرفي والسري.

السينما المصرية وهموم الشباب
عالية أبو دومة
رسالة دكتوراة غير منشورة..
نوقشت وأجيزت بجامعة عين شمس أبريل ٢٠٠٢

كثرت حالات الطلاق والانفصال والدخول في جماعات ذات انتماءات غريبة عن المجتمع أو متطرفة. انتشرت ظواهر أخرى في المجتمع مثل البلطجة، كنتاج للفوضى الاجتماعية وانشغال الأمن بمحاربة التطرف. زادت جرائم الاغتصاب وقتل الأزواج، وقتل الأبناء للآباء. وبانتهاء الألفية الثانية، وظهور العولمة، ظهر تأثر المجتمع المصري بها، وبغيرها من تغيرات عالمية، وامتد التأثير ليشمل الجوانب الاقتصادية والثقافية والاجتماعية.



وترصد الباحثة، د. عالية أبو دومة، ٥ ظواهر ثقافية تضع أطرًا للمشكلات التي اتضحت معالمها في الحقبة المشار إليها وهي: النزوع نحو التمسك بالشكليات والجمود والتطرف الديني، نزوع استهلاكي شديد وشيوع ثقافة الاستهلاك، انحسار مستوى المشاركة والعزوف عن الحياة العامة، والشعور بالاغتراب وتراخي الولاء القومي والطبقي والاجتماعي وتعاظم الشعور بالفوضى وعدم احترام القانون، وتهديد الثورة العلمية والتكنولوجية لمنظومة القيم. وتأثر الشباب بنمط الحياة الغربية والأمريكية. تلك هي ملامح الواقع الاجتماعي ومشكلاته كما ترصدها الدراسة. فماذا عن «سينما الشباب» في مرحلة التسعينيات وبداية الألفية الجديدة؟

في الجزء الخاص بالتحليل النقدي، السوسيولوجي، لأفلام هذه الحقبة تشير الباحثة «أبو دومة» إلى أن بعض الأفلام جاءت معبرة عن الواقع، «وذلك نتيجة لهامش الديمقراطية، ومناخ الحرية، الذي ساد هذه الفترة وأدى إلى انتعاش حرية الصحافة والأدب والفن، فجاءت الأفلام معبرة مجسدة للمشكلات التي عانى منها الشباب والمجتمع». ولكن إلى أي مدى «كانت معبرة»، وإلى أي حد استفادت السينما، في هذا التعبير، من مناخ الحرية الذي ساد.

من شباب على كف عفريت إلى دماغ بلية

عند تناولها لسينما حقبة التسعينيات رصدت الباحثة ٥٦ فيلمًا تبدأ بفيلم «شباب على كف عفريت» إخراج محسن محيي الدين عام ١٩٩٥، وتنتهي بفيلم «بلية ودماغه العالية» إخراج نادر جلال عام ٢٠٠٠. لاحظت الباحثة، من خلال الملامح العامة لحقبة التسعينيات انتشار الأفلام التي تناولت مشكلة المخدرات والإدمان باعتبارها «تيمة رابحة» تعكس انتشار الظاهرة - اجتماعيًا - كرد فعل لحركة الرواج المادي في أوائل تلك الحقبة، حيث ظهرت طبقة أثرياء جدد، وحيث نشطت حركة تهريب وتجارة المخدرات وأصبحت من وسائل الثراء السريع، كما أصبح الإدمان والتعاطي من وسائل هروب الشباب من المشكلات التي تواجههم، أو لجوء البعض منهم إلى المخدرات كوسيلة للتميز ومسايرة للجو العام السائد في تلك الفترة.

في هذا السياق تشير الدراسة إلى أفلام مثل: اللعب مع الشياطين، المساطيل، بنت مشاغبة جدًا، المشاغبات والكابتن، مراهقون ومراهقات، فارس المدينة، المشاغبون في نويبع، بنات في ورطة، الغرفة ١٢، والقتل اللذيذ. وظهرت في التسعينيات أيضًا الأفلام التي تناولت الفساد بمظاهره المتعددة كالإتجار في العملة والتحكم في أسعارها، سرقة أموال الحكومة والتهرب من الضرائب، الرشوة والمحسوبية، والإتجار في الأغذية والبضائع الفاسدة، وانحرافات كبار المسئولين. ومن هذه الأفلام: الفضيحة، بوابة إبليس، اللعب مع الكبار، الإرهاب والكباب، دماء على الأسفلت، طيور الظلام، بخيت وعديلة، المنسي، وإنذار بالطاعة.

رصدت سينما التسعينيات أزمة الشباب ومعاناتهم الناجمة عن «ظروف اجتماعية واقتصادية» والمتمثلة في الإحباط والاغتراب والرفض. وتناول فيلم «ديسكو ديسكو» تمرد ورفض الشباب للمعايير والقيم والسلطة ممثلة في الآباء والأمهات والقائمين على التعليم. وتعرض الفيلم لانحرافات هؤلاء الشباب ولجوئهم إلى السرقة والإدمان والزواج السري، والدخول في علاقات غير سوية. وكما تعرض فيلم «القتل اللذيذ» لانشغال الأهل عن رعاية الأبناء، أبرز فيلم «بيتزا بيتزا» حالة الضياع التي تعاني منها مجموعة من الشباب الفاقد للهدف، الغائبة عنه هويته، والمتمرد المعترض. لقد تأثرت الأفلام بحركة التغريب و«الأمركة» ويجسد فيلم «آيس كريم في جليم» مشكلة اغتراب الشباب عن واقعهم، حيث الشخصية الرئيسية منتمية للثقافة الغربية، تعيش في مصر لكنها لا تسمع، ولا ترى، سوى الموسيقى والأفلام الغربية، ولا تشعر بداخلها بأي انتماء إلى مصر وثقافتها. وفي فيلم «أمريكا شيكا بيكا» يصبح السفر إلى أمريكا هو الأمل والحلم لمجموعة من الشباب المتباينة الصفات والطبقات والانتماءات. وينتهي الفيلم باكتشاف حجم الأكذوبة في الحلم والأمل. وفي حين يتعرض فيلم «صعيدي في الجامعة الأمريكية» لأزمة الهوية المصرية، وعدم الانتماء لدى بعض فئات من الشباب، يتناول فيلم «هاللو أمريكا» مساوئ المجتمع الأمريكي «المفتوح».



تناولت أفلام سينما التسعينيات مشكلة التطرف والإرهاب كرد فعل للإحباط الاجتماعي والظروف الاجتماعية والاقتصادية التي مر بها المجتمع. وتناولت الباحثة، بالتحليل النقدي، أفلام: الإرهابي، طيور الظلام، وأيضًا هاللو أمريكا. كما رصدت الأفلام التي تناولت مشكلات خاصة بالفتيات «حيث أبرزت السينما مشكلة التعامل مع الفتيات كجسد، والنظر إليهن ككائن بيولوجي في المقام الأول، أو مجرد سلعة تباع وتشترى». «وقد صورت بعض الأفلام الفتيات يعملن كوسيط لتسهيل العمليات التجارية وعقد الصفقات والتأثير على المستثمرين». من بين هذه الأفلام: المساطيل، مراهقون ومراهقات، فارس المدينة، وإنذار بالطاعة. وفي ظل «الثقافة الاستهلاكية» أصبحت الصورة تسعى إلى تحطيم الحاجز اللغوي وإثارة الغرائز وأحلام تحقيق الأماني والشهرة والثراء السريع، لاقتناء السلع المادية والكمالية والملابس والسيارات الفاخرة وغير ذلك من «ثقافة» جسدتها أفلام مثل سوق النساء، الباشا، دماء على الأسفلت، وآيس كريم في جليم. كما رصدت السينما ظاهرة الزواج العرفي في

بعض الأفلام مثل: ديسكو ديسكو، لحم رخيص، يا دنيا يا غرامي، وطيور الظلام.

ركزت سينما التسعينيات على أفلام الحب والزواج: دسوقي أفندي في المصيف، آيس كريم في جليم، مستر كاراتيه، إسماعيلية رايح جاي، اضحك الصورة تطلع حلوة، صعيدي في الجامعة الأمريكية، الحب الأول، شورت وفانلة وكاب، وبلية ودماغه العالية. وتباينت المشكلات التي واجهت الشباب في إتمام الزواج والعثور على الشريك المناسب.

ومن الملامح العامة لسينما الشباب في التسعينيات أيضًا تناول موضوعات ومشكلات جنسية مثل: الكبت، الإثارة، الشذوذ، الأمراض، التحرر، والعجز الجنسي. وظهر ذلك في أفلام مثل المزاج، القاتلة، أمريكا شيكا بيكا، استاكوزا، همام في أمستردام، هاللو أمريكا، فيلم ثقافي، الحب في طابا، والنوم في العسل.

تعرضت سينما التسعينيات لمشكلة البطالة، وحاولت إيجاد حلول غير تقليدية لها، و«تعتبر تيمة الحراك الاجتماعي وانتقال الشخصية الرئيسية من طبقة أدنى إلى طبقة أعلى، من أكثر التيمات تأثيرًا في المشاهدين، إذ تسمح لهم بالتنفيس عن إحباطاتهم وهمومهم الداخلية». وظهرت هذه التيمة واضحة في أفلام إسماعيلية رايح جاي، أمريكا شيكا بيكا، هاللو أمريكا، الناظر، وغيرها من أفلام تغلب فيها «الشباب» على مشكلة البطالة، إما باكتشافه قدرة داخله تجعله ينتقل - فجاة - إلى عمل آخر يرتفع به إلى مكانة أعلى، أو بالهجرة خارج الوطن، أو بالدخول في صفقات مريبة واستغلال نفوذ.

رصدت سينما التسعينيات ظواهر العنف والبلطجة وظهور «الحارس الخاص» كإطار تكميلي لشباب البرجوازية العليا وضرورة للوجاهة الاجتماعية. وظهر ذلك في أفلام منها: اللعب مع الكبار، فارس المدينة، مستر كاراتيه، لا يا عنف، المنسي، الباشا، القتل اللذيذ، وبخيت وعديلة.

مفردات لغوية غريبة في الألفية الجديدة

لاحظت الباحثة عند رصدها لملامح سينما التسعينيات ومدى اقترابها من مشاكل الشباب، أن السمات الغالبة على أفلام نهاية العقد الأخير وبداية الألفية الجديدة، تتمثل في أن معظم الأفلام الكوميدية هزيلة وسطحية، وصفها بعض النقاد بأنها «أفلام بهلوانات» وتميزت عناوينها بالسذاجة والغرابة مثل: ولا في النية أبقى.. عبود على الحدود، الجردل والكنكة، أشيك واد في روكسي، وحنحب ونقب. وترى الباحثة أن مثل هذه الأفلام اتسمت بعدة ملامح هي:

* انتماء الأبطال، أو الشخصيات الرئيسية، إلى فئة الشباب التي تعددت وجوههم وكثر عددهم في الآونة الأخيرة.
* هذه الأفلام لا تقوم على شخصية محورية واحدة.
* شخصيات الأبطال تميزت بأنها منتقاة من هامش المجتمع لكي تعبر عما أفرزته المتغيرات الاجتماعية والسياسية من مشكلات مختلفة لأفراد لم يصبهم أدنى حراك اجتماعي.
* تميزت الأفلام بتكرار حبكات ومفردات سينمائية معينة، من «إفيهات» ونكات وتراكيب لغوية مميزة لكل فيلم، وأغان ورقصات غير معتادة.
* غلبت على مضامين هذه الأفلام تناول تيمة الحراك الاجتماعي والصعود السريع، بضربات الحظ. كما سايرت هذه الأفلام موضة الغناء والحوار الذي لا معنى له مثل: باكالولو، كامننا، يا نانا يا طاطا، وكاجولوه.
* حصرت هذه الأفلام أحلام الشباب في النقود، الدش، الموبايل، السيارة الفاخرة، الحياة المرفهة، والرغبة في مسايرة الموضة وشراء ملابس من «ماركات» عالمية.
* كان لصورة «البطل» تأثيرها الكبير على مشاهدي الفيلم، «لأن الأفراد يضعون أنفسهم - عادة - في موضع الأبطال، ويتقلبون بطريقة لا شعورية الاتجاهات التي يعبرون عنها».

وقد تميزت صور «الأبطال» في هذه الأفلام بأنها صور سلبية تتسم بالسطحية، وبفقدان القدرة على التمييز بين ما هو جاد وما هو وهمي وزائف. وأصبحت الأغاني والمفردات الغريبة في هذه الأفلام جزءًا من ثقافة الشباب.

وقد أظهرت نتائج بحث وتحليل «استمارات الاستبيان» الملحقة بالدراسة الأكاديمية التي نحن بصددها، أن الشباب اكتسبوا معظم المفردات اللغوية الجديدة من الأفلام، فتكونت لديهم ثقافة فرعية خاصة بهم.

لقد كان فيلم «إسماعيلية رايح جاي» سنة ١٩٩٨، بمثابة الضوء الأخضر لهذه النوعية من الأفلام، حيث حقق إيرادات فاقت كل إيرادات الأفلام السابقة، وشغل دور العرض لفترة طويلة، وحقق نجاحًا جماهيريًا ساحقًا. وقد يرجع انتشار ورواج هذه الأفلام إلى كثرة الضغوط والصعوبات التي يواجهها الشباب، الذي وجد في مثل هذه النوعية تنفيسًا له، بالإضافة إلى اقترابها من ثقافته وواقعه ولغته ورغبته في التزود بـ«مصطلحات» جديدة تميزه. وقد وجدت الباحثة أن كثيرًا من الشباب استند عند اختياره للأفلام التي يراها قريبة منه معبرة عنه، إلى تقارب أعمار الشخصيات الرئيسية في هذه الأفلام، مع أعماره.. الأمر الذي أوجد ألفة وتوحدًا عمقتهما اللغة والمصطلحات المستخدمة.

كذلك وجدت الباحثة في تحليلها لإجابات الشباب، أنهم يرون هذه الأفلام قريبة من واقعهم «لأنها تساعد على شغل وقت الفراغ وملئه بالمرح والضحك والبعد عن الكآبة والقيام بالوظيفة الترفيهية المنشودة».

قدرة ليست على قدر الطموحات

في الاستبيان الخاص بآراء الشباب حول مدى قدرة أفلام السينما المصرية، في التسعينيات وبداية الألفية الجديدة، على تجسيد مشكلاتهم، جاءت الإجابات واضحة تؤكد أن القدرة لم تكن على قدر الطموحات وأن نسبة كبيرة من الشباب كانت تنتظر من السينما، وهي تتناول مشاكلها، أن تطرح لها بعض الحلول. وقد أجمع ٢٢٪ من طلبة الجامعات المصرية و١٦٪ من طلبة الجامعات الخاصة، على أن هذه الأفلام لم تستطع أن تعكس مشكلاتهم. وقال الأغلبية أنها عكستها، ولكن إلى حد ما. أما عن الحلول فقد قالت الأغلبية من أفراد العينة، بذكورها وإناثها، أن الأفلام لم تطرح حلولاً للمشكلات بصفة عامة، وإن كانت قدمت - أحيانًا - بعض الحلول الجزئية أو السلبية.

ملمح آخر مهم، من ملامح السينما الحديثة، وربما ملامح المجتمع بشكل عام، أبرزته الدراسة ويتمثل في استمرار طغيان السينما الذكورية. ففي الوقت الذي اهتمت فيه الأفلام بتقديم صورة الشباب في أنماط مختلفة لنماذج متنوعة، جاء تحليل إجابات الطالبات ليبين أن الأفلام لم تبرز صورة الفتاة المصرية بشرقيتها وذكائها وحيائها وشخصيتها المستقلة. لم تبرز صورة الفتيات المسيحيات الملتزمات. أهملت صورة الفتاة الرياضية الناجحة عالميًا، كما أهملت صورة الفتاة العاملة والأم الصغيرة التي تعاني صراع الأدوار والإحباطات اليومية. وركزت في الغالب على التعامل مع الفتاة والمرأة على أنها «لقطات مثيرة» ودمية لعرض الأزياء والإغراء والإثارة.

وعن تناول الأفلام لمشكلة الزواج السري يرى أفراد العينة، من جامعة خاصة أن الأفلام توجه بعض الشباب إلى الزواج العرفي باعتباره الطريق الوحيد في ظل ظروف صعبة». ويذكر شاب في جامعة حكومية أن الأفلام التي تثير الغرائز الجنسية «تضع الشباب أمام مشكلة لا حل لها إلا بالزواج السري». وعن المخدرات تقول فتاة في جامعة حكومية إن الأفلام تدعو إلى تدخينها باعتبارها الحل الوحيد للهروب من المشاكل». ويرى أحد أفراد العينة، من جامعة خاصة «أن عرض المشاهد التي يدخن فيها الأبطال المخدرات ويشربون الخمر وسط أجواء مرح وضحك، يجعل البعض يتمنى لو كان في أماكن هؤلاء الأبطال».

وترى أغلبية العينة أن الأفلام مسئولة عن انتشار سلوكيات ضارة تصورها السينما في تفاصيل «مشجعة»، مثل العنف، السب بالألفاظ البذيئة والركيكة، الانحراف، السرقة والاحتيال، الثقافة الاستهلاكية والملابس الغريبة الفاضحة، وعمليات الاغتصاب.

أولويات.. نتائج.. ورؤية مستقبلية

محوران أساسيان قدمت الباحثة من خلالهما أهم النتائج التي كشف عنها البحث الميداني، هما:

* ترتيب المشكلات الاجتماعية طبقًا لأهميتها من وجهة نظر الشباب.
* علاقة السينما بالواقع الاجتماعي للشباب.

في المحور الأول: احتلت مشكلة الشعور بعدم الانتماء للوطن، كمشكلة سياسية، مركز الصدارة في سلم أولويات واهتمامات الطلبة والطالبات. تليها مشكلة غياب القدوة السياسية والقضايا الوطنية والعربية. وجاءت مشكلة ضعف المشاركة السياسية في آخر الترتيب. وأشار الشباب إلى مشكلة فقدان المصداقية فيما يقال لهم.

وعلى صعيد المشكلات الاقتصادية اتفق الطلبة والطالبات على أن مشكلة البطالة تحتل الصدارة، تليها مشكلة أزمة السكان ثم الفساد والواسطة والمحسوبية. وجاءت «قلة الدخل» و«ارتفاع الأسعار» في المرتبة الأخيرة.

أما الظواهر الانحرافية في المجتمع فقد تقدمتها مشكلة الإدمان ثم اللامبالاة، وبرز اتفاق واضح على أن ارتفاع تكاليف الزواج في مقدمة الأسباب التي تحول بين الشباب وبين الارتباط بالزواج. الأمر الذي يؤدي إلى تفاقم حالات الزواج السري. كذلك توصل البحث إلى وجود إجماع بين الطلبة والطالبات، من العينة المختارة، حول مشكلة تأثير الغزو الثقافي الأجنبي ومخاطرها والنتائج المترتبة عليها، وعلى الثقافة الوطنية القومية. واحتل الغزو الإعلامي المرتبة الثانية في رؤية الشباب للمشكلات الثقافية. كما أرجع الكثير من الطلبة والطالبات، الكثير من المشكلات والظواهر المرضية في المجتمع إلى «عدم الالتزام» والبعد عن الدين. واعتُبر التطرف مشكلة ناجمة عن رد فعل للأوضاع السائدة والفساد الأخلاقي. وقد تبين أيضًا أن الكبت الجنسي هو مقدمة المشكلات «الخاصة» التي يعاني منها الطلبة، واحتلت مشكلة «الإحباط» المرتبة الأولى لدى الإناث، واحتلت مشكلات عدم تحقيق الذات والفراغ وضعف الثقة بالنفس والشعور بالعجز مراتب متباينة لدى الجنسين.



وفي المحور الثاني الخاص بالسينما والواقع الاجتماعي للشباب، من واقع نتائج البحث الميداني: أوضحت الدراسة أن أغلبية العينة، سواء من الطلبة أو الطالبات، يفضلون مشاهدة الأفلام على شاشات التليفزيون سواء القنوات الرسمية أو المتخصصة أو الفضائية. وأجمعت العينة المختارة على تفضيل الأفلام العربية القديمة. وقد يرجع ذلك إلى الحلول المبسطة التي تطرحها هذه الأفلام، والتي غالبًا ما تنتهي نهايات سعيدة وتكون غنائية استعراضية من كلاسيكيات السينما المصرية. وفي الوقت الذي فضل فيه الطلبة الأفلام الكوميدية، فضلت الطالبات الأفلام الرومانسية، وتدنت نسبة الاهتمام بأفلام التراجيديا.

اتفق الشباب، ذكورًا وإناثًا، حول مدى تأثرهم بصورة وسلوكيات الشخصية المحورية في الأفلام، ومحاولة الاقتداء بها وتقليدها في المظهر وأسلوب الحديث والتعامل مع الآخرين.

وفي ضوء ما سبق من نتائج، توقعت الباحثة في رؤيتها المستقبلية، استمرار أزمات الشباب ومعاناتهم من مشكلات اقتصادية وسياسية واجتماعية. كما توقعت أن تتطور أحلام وطموحات الشباب، وتتزايد تطلعاتهم، في ظل الانفتاح الإعلامي والثورة المعلوماتية.

وفي ظل انتشار موجة «أفلام الشباب» من المتوقع أن يزداد تأثر الشباب باللغة السائدة في تلك الأفلام «التي قد ساهمت في تكوين لغة خاصة يتداولونها كجزء من ثقافة خاصة». ومع الانفتاح الإعلامي والتقدم التقني من المتوقع أن تقل نسبة الأفلام القائمة على الإضحاك فقط دون الاهتمام بالمضمون، وأن يتم تناول قضايا الشباب ومشكلاتهم بأساليب وأشكال أكثر عمقًا وموضوعية.

هذه هي محاور ملفات أحدث دراسة حول «السينما والشباب»، تدق بالأدلة والأدوات الأكاديمية العلمية، أجراس الخطر، وتوقظ الشوق وتعلي الأمل في سينما تروى حكايات البشر والأمكنة دون استفزاز «محلي» وبعيدًا عن دوائر أوهام «همام» في أمستردام.

سينما تقدم صورة لا يستبدل فيها «كابوريا» الملاكم الشعبي، حلم الوصول إلى العالمية والتفوق الرياضي، بالتحول إلى ملاكم «ترفيهي» يسلي أسرة ثرية تريد كسر دوائر الملل بالمراهنة على الملاكمات. وأفلام تحارب عادات وتقاليد بالية، تبدد الخوف من المستقبل والمستجدات الثقافية، ويقدم الخيال المبتكر في إبداعاتها بعض حلول لبعض مشكلات الشباب، ولو بالعودة إلى صورة الإنسان القادر على الفعل الإيجابي، والمواجهة، والانطلاق. ■

عـــــروض مـــوجـــزة

كتب عربية

أول حكاية: حكايتي مع الدبلوماسية

جميل مطر

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢، ٢٧٠ص



يعرف قراء مجلة «وجهات نظر» مؤلف هذا الكتاب جيداً، فقد كان أحد الذين شاركوا في تأسيسها والإشراف عليها والكتابة فيها منذ أن ولدت فكرة وحتى صدور الأعداد السبعة الأولى منها. ولكن أغلب القراء يعرفون جميل مطر من خلال ما يكتبه في الصحف والمجلات العربية من تحليلات سياسية متنوعة في العلاقات الدولية والشئون العربية، وكذلك يعرفه الدارسون في العلوم السياسية من خلال كتبه ودراساته ومن خلال مركز الدراسات الذي يديره والذي يؤمه شباب الباحثين للاسترشاد وللاطلاع على أحدث المراجع والدوريات التي تخلو منها أغلب مكتباتنا الجامعية.

ويعد هذا الكتاب الذي صدر منذ ثلاثة أشهر أول فرصة تتيح للقراء معرفة أجزاء من خلفية هذا الرجل الذي وصفه الأستاذ صلاح الدين حافظ في تقديمه للكتاب بالصامت حين يتمرد! ومع هذا فإن الجانب الذاتي في رواية حكاية شاب في العمل الدبلوماسي ليست هي كل ما يشتمل عليه الكتاب، حيث إنه يقدم صورة تفصيلية من داخل وزارة الخارجية المصرية لمرحلة مهمة من تاريخ مصر، تمتد من عام ١٩٥٤ حين التحق جميل مطر بالسلك الدبلوماسي وحتى عام ١٩٦٨ حين اختار ترك العمل الدبلوماسي والعودة إلى الجامعة طالباً في الدراسات العليا في مونتريال.

ربما ما يميز هذه المذكرات أنها تروى رحلة شاب في أول السلم الدبلوماسي بعكس المذكرات التي يروى فيها أصحابها عن إنجازاتهم في مواقع المسئولية واتخاذ القرار، وأعتقد أن هذا هو السبب في طابع التمرد الذي وصفت به. فقد اصطدم الشاب الملتزم والمتحمس لقضية وطنه بممارسات غير مقبولة من بعض السفراء الذين عمل تحت رئاستهم تضر بسمعة البلاد أو تنافي الأمانة وروح المسئولية. ولكن بقدر الصراحة التي روى بها الكاتب تفاصيل تلك الممارسات والأحداث السياسية المهمة التي ارتبطت بها، بقدر السرية التي فرضها على أسماء أبطال هذه الحكايات، وهو موقف باعث على الإزعاج من ناحية ولكنه أيضاً باعث على الاحترام من ناحية أخرى.

تدور حكايات جميل مطر مع الدبلوماسية في نيودلهي، وبكين، وروما، وسانتياجو، وبيونس ايريس، والتي برع في وصف كل منها بشوارعها وأجوائها وناسها وروائحها، جاعلاً من هذا الكتاب نموذجاً من أمتع نماذج أدب الرحلات. فقد استطاع أن يتناول موضوعات مثل علاقة الديموقراطية الهندية والبيروقراطية الصينية بالبنية المجتمعية والثقافية في كلا البلدين، وخلفيات الحرب الباردة التي تحكمت في مصير شيلي وفرضت عليها حكم بينوشيه، بنفس البساطة التي وصف بها نهر لابلاتا، وأسلوب تخطيط المدن الأسبانية، وملاهي روما، ومزارع الشاى في سفوح تلال سيلان.

ومن ضمن الشخصيات القليلة التي ظهرت بأسمائها في مذكرات جميل مطر الشاعر الراحل نزار قباني الذى جمعته بالمؤلف صلة صداقة وزمالة في بكين عندما بدأ الدمج بين وزارتي خارجية مصر وسوريا أثناء دولة الوحدة. كما جمعته تجربة إنسانية رقيقة دارت فصولها بين بيونس ايريس ومونتريال والقاهرة مع بطل السباحة المصرى عبد اللطيف أبوهيف، كشفت عن البطولة الإنسانية التي تلازمت مع البطولة الرياضية في شخصية «تمساح النيل».

إن تشابك التاريخ الشخصي بالتاريخ العام، والوصف الأدبي بالتحليل السياسي في هذا الكتاب يجعل منه مادة شيقة للقراءة. وإذا كانت كتابات جميل مطر وتحليلاته السياسية تتسم بالاتساع في مجالات الاهتمام والتعمق في الأبعاد الثقافية التي تحيط بالظواهر والأزمات الدولية، فإن تأثير الخبرات والتجارب التي كشف عن بعضها هذا الكتاب تفسر هذه السمة إلى حد بعيد.

□ □ □

الاقتصاد المصرى والعولمة

شريف دلاور

القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٢، ١٤٢ صفحة



فرضت العولمة بإجراءاتها أنماطاً جديدة من التفكير في الواقع السياسي والاقتصادي، وباتت كل دولة مطالبة بتحسس مواقعها في النظام الدولي وفقًا لآليات تزول فيها الحدود وتتلاشى الخصوصيات ويسود نظام دولي وحيد.

وربما كان الشق الاقتصادي في العولمة هو الغالب وهو الذي يستدعي قدرًا أكبر من محاولات التكيف.

وكما يشير المؤلف فإن الإشكالية العامة التي تواجه السياسات العامة اليوم في كل الدول تتمثل في التوفيق بين تحرير الأسواق من جانب، ومتطلبات الفئات العريضة من جانب آخر، بعبارة أخرى، إحداث التوازن بين اقتصاد السوق والعدالة الاجتماعية.

وهي مسالة ليست سهلة في ظل إلغاء الإجراءات الحمائية التي كانت تتخذها الدول دعمًا لمنتجاتها وحفاظًا على أسواقها، فضلاً عن التصادم المحتمل بين قيم العولمة الثقافية والخصوصيات الوطنية والقومية.

المؤلف يتعرض لكثير من تلك الإشكاليات ويطرح رؤية علمية لإعادة صياغة السياسات الاقتصادية تعيد الاتزان للوضع الآلي في القطاعات المصرفية بما فيها تعديل أسعار الفائدة وأسعار صرف العملات والإنفاق العام والخاص والتمويل العقاري والمنظومة الضريبية. وكذلك التعامل الفعال مع معطيات العولمة وتحقيق التعاون الاقتصادي العربي.

□ □ □

من حياتي مع الموسيقى

سمحة الخولي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ٣١٠ صفحات



قضت المؤلفة جل سنوات حياتها في رحاب الموسيقى. تدرسها طالبة، ثم تدرسها في معاهدها المتخصصة، إلى أن انتهى بها المطاف عميدة لمعهد الكونسرفتوار ثم رئيسًا لأكاديمية الفنون، وحتى بعد انتهاء حياتها الوظيفية بقيت على صلة بالفن الذى أحبته، أستاذًا غير متفرغ وممثلاً لمصر في المجلس الدولي للموسيقى.

وبرغم شغفها بالموسيقى الغربية، فإن المؤلفة أجادت العزف على آلة العود، وهو ما شهد به لها ممتحنها في الدبلوم النهائي الموسيقي الرائد صقر علي، كما أن شهادتها للدكتوراه من جامعة أدنبرة كان موضوعها الإطار التاريخي والفكري والديني للموسيقى في الحضارة الإسلامية. إلى جانب حصولها على دبلوم الأكاديمية الملكية للموسيقى بلندن في عزف البيانو.

هذه المزاوجة التي تنظر إلى الموسيقى في شمولها دون تفرقة بين شرقية وغربية، تتضح بجلاء في فصول الكتاب الذي تبدأه المؤلفة بفرسان التلحين الشرقي، وتشير إلى عطاء كل منهم وجهوده في مجاله، وأولهم كامل الخلعي الذي يعد كتابه «الموسيقى الشرقي» من عيون كتب الموسيقى المصرية في مطلع القرن، فضلاً عن عديد من الموشحات والأوبريتات التي مازالت محفورة في ذاكرة الموسيقى العربية، وتحدثنا عن الشيخ سلامة حجازي رائد المسرح الغنائي في مصر. الذى نقل فن الغناء من أسلوب غناء الوصلة مع التخت في ليالي السمر والطرب إلى الغناء المسرحي، ثم سيد درويش الذى عبر بالموسيقى المصرية والغناء من صالونات الخاصة إلى الشوارع والأزقة والحواري، ولهذا لُقِّبَ بفنان الشعب «لأن الموسيقى المصرية قبله لم تكن تعرف غير الشجن والوجد والهيام، وبعده كانت الموسيقى تغنى للوطنية وتعبر عن طوائف العمال وتوحي بجو الريف وتسخر من الحكام الطغاة».

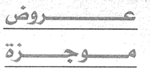
وتتابع المؤلفة عطاء رواد الموسيقى المصرية: زكريا أحمد ومحمد القصبجي وسيد مكاوي ومحمد عثمان. ثم تعرض لأدوار نفر من رواد التأليف الموسيقي بمعناه الأكاديمي من أمثال يوسف جريس وحسن رشيد وأبوبكر خيرت وجمال عبدالرحيم «زوج المؤلفة» الذى تتحدث عن مشوار حياته الموسيقية والتحديات التي واجهها في سبيل دراساته للموسيقى في الخارج.

ومن الصفحات المهمة في الكتاب، تلك التي يضمها الفصل الثالث والذى تعرض فيه لشخصيات تركت أثرًا في مجال الموسيقى دون أن تكون الموسيقى هي مجال بحثها واهتمامها الأصيل مثل العالم المصرى الكبير الدكتور مصطفى مشرفة عميد كلية العلوم الذى أسس الجمعية المصرية لهواة الموسيقى، والمفكر الأديب الدكتور حسين فوزى الذى كانت كتاباته وأحاديثه الإذاعية وبرامجه عن الموسيقى الغربية، سببًا في نشر الثقافة الموسيقية بين قطاعات شعبية عريضة. والشيخ أمين الخولي «والد المؤلفة» المفكر الإسلامي والقاضي الشرعي الذى أشاع باستنارته ورؤيته الثقافية جوًا من حب الفنون واحترامها في وقت نظر إليها بعض المشايخ بوصفها رجسًا من عمل الشيطان.

وكانت دراساته عن اللغة في القرآن الكريم دراسة فنية وأدبية رفيعة. وآخرين من أمثال بهيجة رشيد وعواطف عبدالكريم ويوسف السيسي.

وتخصص المؤلفة القسم الأخير من كتابها لمتابعات نقدية وتحليلية تدور حول الموسيقى وعنها، وكيف يمكن الارتقاء بها وتقريبها من الوجدان الشعبي.

□ □ □



ثورة المعرفة والتكنولوجيا

بشَّار عباس

دمشق: بيروت، دار الفكر، ٢٠٠١، ١٦٠ صفحة



بانتقال العالم من عصر الاقتصاد الصناعي إلى اقتصاد المعرفة في ثمانينيات القرن الماضي، انتقلت المجتمعات إلى طور جديد في تطورها، وصار مجتمع المعلومات هو السمة التي يمكن إطلاقها على عصرنا دون تردد، وتشير إحصاءات يوردها المؤلف إلى أن العلاقة المباشرة بين التنمية وعملية توليد المعلومات واستخدامها، إذ أن أكثر من ٥٠٪ من الناتج الإجمالي في الدول المتقدمة مبني أساسًا على المعرفة، كما يبلغ النمو في قطاع المعلومات في أوروبا حوالي ٣٠٪ أي ما يعادل خمسة أضعاف نمو الاقتصاد العام في أوروبا والبالغ ٦٪ عام ٢٠٠٠، وهو ما يعني أن الاستثمار في مجال المعلومات والتكنولوجيا صار أحد أهم عوامل الإنتاج.

وقد أدركت دول عدة خصوصًا أمريكا واليابان أهمية التعليم في اقتحام مجتمع المعلومات، حيث أعادت الولايات المتحدة النظر عدة مرات في سياستها التعليمية منذ نهاية الستينيات، واعتبر التعليم هدف ذو أولوية في المجتمع الياباني، وكانت النتيجة أن نسبة الاكتشافات الأمريكية المسجلة عالميًا بلغت ٥٥٪ من مجموع الاكتشافات في العالم، وتبلغ النسبة ٢١٪ في اليابان، فيما لم تبلغ النسبة في دول الاتحاد الأوروبي مجتمعة ١٥٪ (تُرى هل هناك معنى للحديث عن نسبة الاكتشافات العلمية في دول العالم الثالث؟).

المؤلف يؤكد على قيمة التكنولوجيا الحديثة في التعليم، ويشير إلى فشل الأساليب التعليمية القديمة المنتهجة في بلادنا، والتي تتجاهل الوسائط المتعددة والتكنولوجيا النقالة والإنترنت والثورة الهائلة في مجال الاتصالات، وهي جميعًا ظواهر حطمت الحواجز الجغرافية وحررت الأفراد من قيود المكان.

ومن ناحية المضمون يشدد الكتاب على أهمية التطور في مجالات تعليم الرياضيات والعلوم بوصفها قاعدة للتقدم التكنولوجي الذي يغذي اقتصاد المعرفة وتنفيذ برامج التنمية الشاملة، ولكن ذلك لا يعني انهدام الأمل في دخولنا عصر المعلومات، فالبلدان العربية - بحسب المؤلف - تمتلك أرضية قوية للانطلاق وبناء نظام للمعلومات العربية، ويورد المؤلف إحصاءات مهمة عن عدد خريجي الجامعات وحملة شهادات الدكتوراه والمختصين في العلوم التطبيقية والهندسية ونسب الإنفاق على التعليم والبحث العلمي، لكنه يعلق على الإحصاءات فيشير إلى انعدام الروابط بين منظومة التعليم وافتقار خريجي الجامعات إلى المعلومات الكافية للتقدم في المجال العلمي. فضلاً عن غياب القرار السياسي الذي يدعم التعاون في مجال تكنولوجيا المعلومات.

ويقترب المؤلف من واقع التعليم العربي ومشكلاته فيشير إلى أن نسبة الأمية بين البالغين تبلغ نحو ٤٨٪ أي نحو ٣٥ مليونًا معظمهم من النساء، كما أن الإنفاق على الفرد في التعليم لا يتجاوز ٣٤٠ دولارًا، فيما يبلغ الإنفاق على الفرد في سنوات التعليم في أوروبا حوالي ٦٥٠٠ دولار، وتبلغ نسبة الإنفاق على البحث والتطوير من العالم العربي حوالي ٠,٤٪ من إجمالي الإنفاق العالمي على الهدف ذاته، ويقدم المؤلف عدة مفاهيم أساسية لتطوير التعليم أبرزها التوازن بين الفلسفة الفردية وتعميق روح الجماعة للارتقاء بالتعليم، ويؤكد في موضع آخر على أهمية التكنولوجيا المناسبة للعملية التعليمية في التعليم عن بُعد والتدريب المهني والتعليم المستمر، ويحدد معايير عدة لهذا الاختيار بما يسمح بتطوير المهارات وتحقيق التفاعلية بديلاً عن التلقين في إطار تكلفة مناسبة واستخدامات سهلة، ويقدم المؤلف دراسة مستفيضة عن التعليم والعولمة مناقشًا مخاطرها وإمكانيات الانفلات من تأثيراتها السلبية والاستفادة من إيجابياتها إلى أقصى حد ممكن.

□ □ □

الموسيقى ومنزلتها في فلسفة الفارابي

سالم العيادي

تونس: دار الوسيطي للنشر، ٢٠٠٢، ٢٠٠ صفحة



يرتبط فهم الفارابي لنظرية الموسيقى بتعريفه لمفهوم النطق، إذ يرى أن هيئة الموسيقى النظرية تنطق. والمعقولية المثبتة للموجود الموسيقي تمثل المبدأ الموجِّه للمشروع الفارابي الذي أعلنه في فاتحة كتابه «الموسيقى الكبير»، حيث قال إن إقدامه على صياغة نظرية الموسيقى يفترض الإقرار بأن الموجود الموسيقي معقول لا تتجاوز أعراضه الذاتية قدرة العقل، كما لا يتعارض مع أسس النسق الفلسفي، وإنما هو امتداد لها، يقول الفارابي: الألحان وما ينسب إليها هي من الأشياء التي تُحس وتُتخيل وتُعقل، وهو هنا يختلف مع التصور الفيثاغورثي الذي جعل من الموسيقى حالة صوفية ومنحة إلهية تعجز عن فهمها وتعقلها أدوات التحليل.

في هذا الإطار يشير المؤلف إلى تمييز الفارابي بين الموسيقى النظرية والموسيقى العملية وكيفية إدراك كل منهما والعلاقة التكاملية بينهما وشروط إدراك هذه العلاقة استنادًا إلى الحس والقياس مع تفضيل الحس بوصفه الحاكم على العقل وليس العكس.

ويصنف الفارابي الموسيقى ضمن علوم التعاليم وهي سبعة: علم العدد وعلم الهندسة وعلم المناظر وعلم النجوم وعلم النجوم التعليمي وعلم الموسيقى وعلم الأثقال وعلم الحيل، وموضوع علم التعليم هو موضوع كلي، وأجزاؤه السبعة تُدرك متكاملة، لكن انتساب الموسيقى إلى علم التعاليم ليس كانتساب علوم العدد والهندسة إليه، فهي نسبة الجزء إلى الكل، وهي نسبة المتأخر إلى المتقدم، و«الكندي» يجعل من علم التعاليم علمًا أوسط بين الطبيعة وما بعد الطبيعة.

بهذه المعاني يمكن القول إن فلسفة الموسيقى وجه من وجوه التفكير في أشكال ظهور الحقيقة، وفي أشكال التواصل الإنساني فيها، مما يجعل فلسفة الموسيقى امتدادًا لفلسفة الحقيقة والسعادة (الحكمة)، وهي - أي فلسفة الموسيقى - من ناحية ثانية، وكما يشير المؤلف، نظرية في الموسيقى التعقلية التي يقترن فيها الإنشاء الجمالي بمعرفة قواعد الإنشاء من ناحية، وبالوعي بالمقاصد المدنية للإنشاء من ناحية ثانية، وهذا ما قصد إليه الفارابي حين كتب في الموسيقى، التي هي وجه من وجوه الفلسفة لديه، وامتداد لاهتمامه الفلسفي الأصلي.

□ □ □

إشكاليات قصيدة النثر

عزالدين المناصرة

بيروت: عمان. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢، ٥٣٢ صفحة



يكاد الوصف الذي يطلقه الشاعر عزالدين المناصرة في كتابه على قصيدة النثر بوصفها «نصًا مفتوحًا عابرًا للأنواع»، أن يكون أدق الأوصاف وأصدقها تعبيرًا عن تلك القصيدة الإشكالية التي بقدر ما أسهم شعراء كبار في ترسيخ وجودها في السنوات الأولى من خمسينيات القرن المنقضي، بقدر ما أساء إليها آخرون حين استسهلوا الإبداع عبرها انفلاتًا - فقط - من قيود الوزن والقافية، دون الارتكان إلى شعرية حقيقية تولد موسيقى الشعر وإيقاعاته الداخلية عبر المعنى واللفظ والدلالة، بديلاً عن الأوزان والقوافي.

يتابع المؤلف اجتهادات «كبار» قصيدة النثر، إذ يجمع كثيرون على أن مقالة أدونيس عن قصيدة النثر في العام ١٩٦٠ هي «أول مقالة نقدية واضحة المعالم عن خصائص قصيدة النثر»، وكما يشير المؤلف فإن الأفكار الأساسية التي انطوت عليها المقالة، اعتمدت بشكل رئيسي على ما كتبته سوزان برنار عن قصيدة النثر بالفرنسية، وهو ما نبَّه إليه الشاعر عبدالقادر الجنابي حين قال بوضوح إن مقالة أدونيس أساءت لمفهوم قصيدة داخل النثر الفرنسي، بهذا المعنى - يضيف الجنابي - فإن أدونيس لم يكتب قصيدة نثر واحدة.

ويقدم المؤلف نقدًا وافيًا لأطروحات أدونيس حول قصيدة النثر وكذلك عن أفكار أنسي الحاج وبول شاءول وشربل داغر ومحمود درويش وأحمد عبدالمعطي حجازي وآخرين.

ويشير إلى الانفجار الذي شهدته قصيدة النثر في الثمانينيات والتسعينيات، وظهور عشرات الأسماء ممن يحسبون أنفسهم على كتابتها، والخلاصة التي يقدمها المؤلف قبل الولوج إلى تحليل عشرات النماذج وتمحيص آراء نقدية عديدة تناولت قصيدة النثر، هي أن حركة الشعر المنثور التي بدأت مع أمين الريحاني عام ١٩١٠ وحركة النثر الشعري التي بدأت مع جبران خليل جبران عام ١٩١٤، قد مهدتا لظهور قصيدة النثر في أواسط الخمسينيات، والتي جاءت محكومة بمرجعية أورو - أمريكية من جهة، وبمرجعية عربية نلمحها في الكتابات الصوفية وأسفار التوراة واللغة الإنجيلية.

ويشير المؤلف إلى مسألة بالغة الأهمية، وهي تحالف كتّاب قصيدة النثر الشباب في الثمانينيات والتسعينيات مع ثلاثة شعراء هم أدونيس وسعدي يوسف ومحمود درويش، ففي مقابل الاعتراف بهم فقط دون منافسيهم، على هؤلاء أن يدشنوا شاعرية جيل الشباب من كتّاب قصيدة النثر، وهي - أي قصيدة النثر - هي قصيدة العولمة، وهي تعبير عن حالة التشظي العربية منذ الحرب الباردة، وهي كذلك تعبير عن حالة التجريد وتبريد اللغة الشعرية الذي ترغبه السلطة، لأنه يلتقي مع مفهوم طمس الهوية الذي تريده العولمة.

ويؤكد المؤلف في ختام خلاصته، أن قصيدة النثر العربية «تعرَّبت»، ولا يمكن تجاهلها، وأنها ينبغي، أن تقرأ كجنس مستقل له هوية خاصة، سواء كانت درجات الشعرية فيها عالية أم هابطة.

عـروض موجـزة

كتب أجنبية

West of Kabul, East of New York
(غرب كابول، شرق نيويورك)
Tamim Ansary
Farrar, Straus and Giraux, 292PP., 2002, $22.00



مـؤلف هذا الكتـاب تميم أنصـارى مولود فى أفغـانسـتان، عـاش طفولته هناك لكنه أمضى مـعظم حـيـاته فى الولايات المتحدة، حيث يعيش الآن كاتبًا صـحفيًا مقيمًا فى ولاية كـاليفورنيا. وبسبب هويته المزدوجة تلك فإنه يمكن أن يتحدث بعمق عن موضوعه بعد أن سكبت قنوات التليفزيون الأمريكية فى أعقاب ١١ سبتمبر كمًا كبيرًا من المعلومات التى اعتبرتها حقيقية ويقينية عن كل شىء ابتداء من الإسلام ومرورًا بالإرهاب وحتى الأفغان. واختار المؤلف عنوانًا موفقًا لكتابه فشرق كابول يعنى أيضًا أنه يتحدث عن الشرق وغرب نيويورك يعنى الحديث عن الغرب، فكان هناك تقابل بين الشرق والغرب، وبين المدينتين. يتحدث أنصارى عن ١٦ عامًا عاشها فى بداية حياته فى كابول وتحديدًا فى خمسينيات القرن العشرين، وكان أبوه الذى ينتمى لأسرة أرستقراطية شاعرًا وأستاذًا للأدب فى الجامعة، ثم مسئولاً حكوميًا. وقد التقى الأب بوالدة تميم أثناء دراسته فى شيكاغو وتزوجها ثم عاد بها إلى أسرته فى أفغانستان.

الجزء الثانى من الكتاب يتحدث عن عودة تميم مرة أخرى مع والدته وأخته إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٤ ثم دراسته فى ريد كولدج فى أوريجون واستقراره وعمله رئيسًا لتحرير إحدى الصحف فى سان فرانسيسكو كما يتحدث أيضًا عن زواجه.

ويشير المؤلف إلى أنه فى بداية الثمانينيات عندما أيقظت الثورة الإسلامية فى إيران طفولته الإسلامية قرر أن يقوم بجولة من خلال شمال أفريقيا وتركيا بحثًا عن الجذور. ويقول تميم إنه لشدة ألمه اكتشف كيف أن مسلمى هذه الدول ليسوا فقط بعيدين عن مستوى الحياة الأمريكية التى يعيشها هو، بل أيضًا عن الإسلام، كما عاشه هو فى فترة طفولته وصباه فى أفغانستان.

ويتحدث المؤلف عن ظاهرة الأصولية الإسلامية ونشأتها ويبدى احتقارًا شديدًا لأسامة بن لادن ومخاوف من الأفكار التى يمثلها هذا الأصولى. ويقول إن الإسلام لا يمثل تهديدًا كما يشاع فى الغرب، بل ذلك النوع من الإسلام المتولد عن الفقر والحرب والشظف الاقتصادى والاجتماعى.

□ □ □

Bad Elements
Chinese rebels from los Angeles to Beijing
(عناصر سيئة: المتمردون الصينيون من لوس أنجلوس إلى بكين)
Ian Buruma
Weidenfeld and Nicolson, £ 20.00, 2002



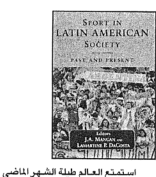
يطرح مؤلف الكتاب أسئلة جريئة عن المستقبل السياسى للصين.. هل يستمر نظام الحكم الشيوعى؟ هل يحدث انتقال سياسى سلمى إلى نظام تعددى؟.. والمؤلف هنا لا يعتقد أنه من الممكن حدوث مثل هذا الانتقال السياسى بشكل سلمى لكن من يعرف ماذا سيحدث.

لقد ظلت الصين على مدى عشرات السنين مجتمعًا مغلقًا على فهم كثير من الغربيين وتحدث البعض عنها بشكل مجرد كما لو كانت لوحة سريالية إلا أن المؤلف فى كتابه يتحدث عنها كمجتمع حى عن مجتمع مؤلف من أفراد وليس فقط من جموع أو حشود، وهذا سر أهمية الكتاب الذى يأخذنا إلى مجتمعات الانشقاق على نظام الحكم الشيوعى فى بكين سواء كانت تلك المجتمعات فى تايوان أو سنغافورة أو الناجين من مذبحة تيان آمين «ميدان السلام السماوى» فى قلب بكين فى نهاية ثمانينيات القرن العشرين. ويتحدث أيضًا عن التجربة الديمقراطية التى يصفها بالمؤدبة فى هونج كونج التى عادت عام ١٩٩٧ إلى حضن الصين الأم وأيضًا عن حركات المعارضة فى داخل البلاد. ومن خلال كل ذلك يطرح أسئلة.. هل التجربة الديمقراطية فى تايوان، التى تطالب الصين بعودتها إليها يمكن أن تتكرر فى الصين؟ أم هل يمكن أن تصاب الصين بعدوى الديمقراطية من هونج كونج حتى لو كانت ديمقراطية غير مكتملة كما يقول المؤلف؟

ويعتقد المؤلف أنه لكى يمكن أن نتطرق إلى إجابات لمثل هذه الأسئلة المستقبلية فإنه لابد من الرجوع إلى الماضى إلى الثقافة الكونفوشية التى عاشت مئات السنين ولازالت فى المخزون العميق للصينى العادى. إن طريق الصين فى المستقبل لن يكون على النمط الذى كان يعتقد كثيرون، بل سيكون لها طريقها الخاص النابع من تاريخها وتجاربها وهذا هو سر عظمة الصين.

□ □ □

Sport in Latin American Society
Past and Present
(الرياضة فى أمريكا اللاتينية: الماضى والحاضر)
J.A.Mangan and lamartine P.DA Costa Editors
Cass, 210PP, £ 42.50, 2002



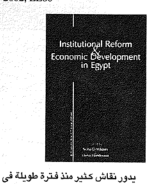
استمتع العالم طيلة الشهر الماضى بمباريات كأس العالم فى كوريا واليابان. وبالطبع كانت فرق أمريكا اللاتينية وفى مقدمتها البرازيل حديث الجميع وإذا كانت انجلترا قد اخترعت كرة القدم فإن أمريكا اللاتينية والبرازيل فى المقدمة هى التى أعطت لكرة القدم طعمًا ورائحة ولونًا بحيث أصبح لا يذكر اسم كرة القدم دون أن يتبادر للأذهان البرازيل والأرجنتين وغيرهما من دول هذه القارة.

إن الرياضة بشكل عام، وفى المقدمة كرة القدم، عامل أساسى فى حياة الملايين فى أمريكا اللاتينية. البعض يقول أنها مخدر وهناك من يقول أنها دين وآخرون يرونها كرنفالاً. لكن الأمر الذى لاشك فيه أن الرياضة هناك ارتبطت بالقومية والتحديث وبالذكورية. لقد كانت الرياضة قوة تحرر وفى نفس الوقت قوة مساندة للديكتاتورية وقد ساعدت فى توحيد القارة وفى إشعال الحروب بين دولها. إنها تخترق التاريخ الثقافى لأمريكا اللاتينية كما لم يحدث فى أى قارة أخرى.

وهذا الكتاب مجموعة من المقالات تشرح تطور وأهمية هذه الظاهرة ثقافيًا، وتتفرع الأبحاث زمنيًا وقطريًا أى من دولة إلى أخرى وكذلك رياضيًا بمعنى الحديث عن فنيات الرياضة وقوانينها، وعلى سبيل المثال فإن توماس كارتر يتحدث فى أحد فصول الكتاب عن دور كرة السلة فى دعم مصطلح ومفهوم الذكورية بين المشجعين فى العاصمة الكوبية هافانا بينما يتحدث فيل ديوك وليزكرولى عن الروابط بين كرة القدم والسياسة فى الأرجنتين.

□ □ □

Institutional Reform And Economic development in Egypt
(الإصلاح المؤسسى والتنمية الاقتصادية فى مصر)
Edited by: Noha El Mikawy
And: Heba Handoussa
Cairo: Auc Press (Paper back), 2002, LE80



يدور نقاش كثير منذ فترة طويلة فى مصر حول مسألة ترابط الإصلاح السياسى والمؤسسى مع الإصلاح الاقتصادى، ويختلف المحللون والخبراء، فهناك من يؤكد حتمية هذا الترابط باعتباره الأساس المتين للتقدم، بينما يشير البعض إلى إمكانية البدء بالإصلاح الاقتصادى على أن يتلوه فيما بعد الإصلاح السياسى ويضربون بالتجربة الصينية مثالاً على ذلك.

وهذا الكتاب الذى أصدرته الجامعة الأمريكية بالقاهرة يتناول هذه القضية الأساسية وهى العلاقة بين السياسة والاقتصاد مع الإشارة إلى تجربة مصر فى التسعينيات ووجهات نظر علماء السياسة والاقتصاديين فى هذه المسألة.

ويقدم الكتاب مجموعة كبيرة ومهمة من المعلومات والبيانات بما فى ذلك استطلاعات رأى عام تفصيلية تشير بما لا يدع مجالاً للشك إلى أهمية أن يسير الإصلاح السياسى جنبًا إلى جنب مع خطوات الإصلاح الاقتصادى.

وتقدم المؤلفتان نهى المكاوى وهبة حندوسة تحليلاً معمقًا عن التشريع المصرى ويلفتان الانتباه إلى ناحية أساسية فى الإصلاح المؤسسى ألا وهى القاعدة المعرفية والمعلوماتية للتشريع وأيضًا الهيكل التنظيمى لصياغة السياسات.

وفيما يتعلق بما حققته مصر من إصلاح اقتصادى فى بداية التسعينيات، فإن المؤلفتين تركزان بشكل رئيسى على معوقات زيادة الصادرات وهى قضية ملء السمع والبصر فى مصر حاليًا، وهناك كلام كثير للغاية عنها دون أن يتحول إلى فعل حقيقى يتمثل فى تحسين فرص الصادرات المصرية فى الخارج.

قـــــراءات جــــــديـدة

اقتصاد

Blue Gold: The Fight to Stop the Corporate Theft of the World's Water
(الذهب الأزرق: المعركة من أجل وقف الشركات عن سرقة مياه العالم)
Maude Barlow and Tony Clarke
New Press, 2002, 296PP., $25.95

في بعض الدول تمت خصخصة المياه، مما أدى إلى ارتفاع معدلات الاستهلاك واستنفاد الموارد. وفي بعض الأماكن يدفع السكان الفقراء ثمنًا أعلى للمياه من السكان الأغنياء. يؤكد المؤلفان على أن المياه حاجة أساسية ويجب أن تعامل بشكل يختلف عن السلع الأخرى ولا يصح وضعها في أيدى الشركات الخاصة. وهما يعبران عن خوفهما من السلطة والقوة التي أصبحت في أيدى الشركات المتعددة الجنسية وتحكمهم في الاقتصاد وفي موارد الطبيعة. وكل هذا يعود لاتفاقات التجارة الحرة التي توقعها الحكومات لتسلم بها إدارة حقوق المياه إلى مثل هذه الشركات.

■■■

Argentina and the IMF
(الأرجنتين وصندوق النقد الدولي)
Michael Mussa
Institute for International Economics, 2002, 80PP., £ 15.95

في هذا الكتاب يحلل رئيس الخبراء الاقتصاديين في صندوق النقد الدولي أسباب الأزمة الأخيرة في الاقتصاد الأرجنتيني والأخطاء التي قام بها الصندوق في تأييده لسياسات اقتصادية غير ملائمة.

أنثروبولوجي

أفارقة بين عالمين
فرنسيس وفيق
القاهرة: مركز الدراسات السودانية، ٢٠٠٢

تميز السودان بتعدد ثقافاته وعناصره الحضارية وهو ما يمنحه خصوبة وخصوصية هائلة بفعل هذا التنوع وتعدد مستوياته، وتمثل قبائل الدينكا صورة من صور هذا التنوع في السودان، وهو ما يدور حوله بحث المؤلف. إذ تنتمي الدينكا إلى الحضارتين الأفريقية والعربية وتكتسب من كلتيهما قدرًا وهو ما يمنحها فرادتها بوصفهم أفارقة بين عالمين: عربي وأفريقي.

بيئة

البراكين والزلازل وأثرها على البيئة
مصطفى محمود سليمان
القاهرة: دار الكتاب الحديثة، ٢٠٠٢

بقدر ما تثيره البراكين والزلازل من أشجان ومخاطر على حياة البشر وبقدر الدمار الذي تلحقه بالناس والممتلكات من ضحايا، فإن لها تأثيرات أخرى بعضها إيجابي وأكثرها سلبي، لكنها إجمالاً تؤثر على البيئة وعلى خصوبة التربة وتغيّر طبيعة التربة ودرجة خصوبتها، هذا بعض ما يناقشه الكتاب.

■■■

The Skeptical Environmentalist
(البيئي المتشكك)
Bjorn Lomborg
Cambridge UP, 2001, 540PP., $ 17.95

المؤلف يتحدى الاعتقاد الواسع حاليًا بأن الوضع البيئي في العالم يتجه من سيئ إلى أسوأ. فبالرغم من كونه عضوا سابقًا في جماعة السلام الأخضر وأستاذا في علم الإحصاء، يرى لومبورج أن الكثير من المنظمات البيئية تستخدم معلومات علمية انتقائية تنتج عنها نتائج مضللة عن القضايا البيئية العالمية التي يتم التصدى لمعالجتها.

وينتهي لومبورج إلى أن أسباب التفاؤل تفوق أسباب التشاؤم بالنسبة لقضايا البيئة في العالم، إلا أن هذه ليست دعوة للتقاعس وإنما دعوة لترتيب الأولويات ومحاربة المشاكل الحقيقية وليس المشاكل المتخيلة.

تاريخ

الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابي في مصر
جوان كول
ترجمة: عنان علي الشهاوي
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

كان مدهشًا ألا يقدر عامة الناس ما قام به عرابي وزملاؤه، بل إن كثيرين حملوه مسئولية الاحتلال الإنجليزي لمصر وأطلقوا على حركته الثورية ونضاله اسم «هوجة»، وقد عانى عرابي عقب عودته من المنفى من الازدراء والإقصاء، لكن المتضمنين والمقدّرين لنضال الشعوب في سبيل استقلالها وضعوا حركة عرابي في إطارها الصحيح، وفي هذا الكتاب استعراض لجانب مهم في تكوين المشاركين في حركة عرابي من حيث أصولهم الاجتماعية وخلفياتهم الثقافية والعلاقات بينهم وبين السلطة العثمانية التي كانت سائدة آنذاك وموقع هذه الحركة في سياق الحركات التحررية في العالم.

■■■

آلهة وأساطير مصر القديمة
روبرت آرمور
القاهرة: الجامعة العربية، ٢٠٠٢

تعددت الآلهة في مصر القديمة حسب عطاءاتها وتصورات المصريين القدماء عنها، فهذا إله الخصب والنماء، وذاك إله الشمس وآخر للخصوبة.. إلخ، وهي فكرة كانت شائعة عند أصحاب الحضارات القديمة حتى جاء أصحاب الأفكار التوحيدية مثل إخناتون الذي دعا إلى عبادة الإلة آتون وحده والانصراف عمن دونه من الآلهة، وقد عبر الأدب والأساطير المصرية القديمة عن هذه الفكرة، وهو ما دارت حوله دراسات المؤلف الذي تحدث عن «رع» عند المصريين القدماء والدلالات الدينية والرمزية في أسطورة إيزيس وأوزوريس، وعدد آخر من النماذج الأدبية والفنية التي تشير إلى فلسفة الشعب المصري وأفكاره عن الآلهة والأديان.

■■■

Barbed Wire: A Political History
(الأسلاك الشائكة: تاريخ سياسي)
Olivier Razac
Translated by: Francoise Knight
New Press, 2002, 112PP., $22.95

ابتدعت الأسلاك الشائكة أول مرة في الولايات المتحدة عام ١٨٧٤ كطريقة رخيصة لحماية المزارع من الحيوانات البرية. ثم ما لبثت أن استخدمت كأداة سياسية لفصل السكان من الأمريكيين الأصليين عن المهاجرين البيض وتحديد إقامتهم. يقول المؤلف الفرنسي لهذا الكتاب إن الأسلاك الشائكة أصبحت تمثل الإدارة السياسية للفضاء وأداة للتنظيم الاجتماعي. وهو يتتبع دورها التاريخي في الحرب العالمية الأولى، حين أحدثت الأسلاك الشائكة ثورة في معارك الخنادق، كما لحق بها تطور آخر عندما أصبحت مكهربة في عصر النازية. ويصل أوليفيه رازاك في دراسته التاريخية إلى دور الأسلاك الشائكة في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأوسط، وما تمثله من إهانة إنسانية وفصل عنصري فج.

حيوانات أليفة

The Other End of the Leash: Why We Do What We Do Around Dogs
(الطرف الآخر من السلسلة: لماذا نتعامل هكذا مع الكلاب)
Patricia Mc Conneli
Ballantine, 2002, 272PP., $ 29.95

تعمل المؤلفة أستاذًا في علم الحيوان ومتخصصة في سلوكيات الحيوان، وهي تتوجه في هذا الكتاب إلى محبي الكلاب من أجل تحسين طرق الاتصال بين الكلب وصاحبه. فلتوفير البيئة الصالحة للكلاب يجب أن نحسن فهمها، والنصيحة الأساسية التي تؤكدها المؤلفة لصاحب الكلب أن يراقب تصرفات نفسه، لأن الكلب يراقبه جيدًا وقد يخطئ في فهم الإشارات التي يطلقها.

■■■

The Character of Cats: The Origins, Intelligence, Behavior, and Stratagems of Felis Silvestris Catus
(شخصية القطط: الأصل والذكاء والسلوك والاستراتيجيات الخاصة بالقطط)
Stephen Budiansky
Viking, 2002, 256PP., $ 24.95

يبحث المؤلف في الطبيعة الغامضة للقطط المنزلية التي تعد أقل الحيوانات الأليفة ترويضًا. وهو يتتبع جينات القطط وخصالها من أجدادها الأفارقة، ويحاول الارتكان إلى نتائج الأبحاث العلمية والمعملية التي لاحظت وسجلت السلوكيات الغريبة للقطط. وهو يأتي ببعض النتائج منها أن القطة وهي مازالت صغيرة تكون كائنًا اجتماعيًا ولكنها تميل للعزلة مع التقدم في السن، كما يفسر الظاهرة الغريبة التي تجعل القطط تتجه صوب الشخص الذي لا يحبها، والسبب في رأيه أن مثل هؤلاء الأشخاص يتجنبون النظر للقطط مما يزيد من اطمئنان القطط إليهم.

■■■

Parrot Training: A Guide to Taming and Gentling your Avian Companion
(دليل لتدريب وترويض الببغاء)
Bonnie Munro Doane
John Wiley, 2002, 216PP., $ 18.99

يقدم هذا الدليل أساليب تدريب مختلف أنواع الببغاءات، كما يناقش أسباب الإقدام على تدريب الببغاء، وانعكاس سلوك مالك الببغاء على نتائج التدريب، وكيفية التعامل مع صغار الببغاءات وتعويدها على الطاعة.

يضم الكتاب فصولا عن تعليم الببغاء الكلمات والتحدث والحيل والألعاب المسلية، وكذلك تدريبه على النظافة.

دوريات

الفن المعاصر
رئيس التحرير: فوزي فهمي
القاهرة: أكاديمية الفنون، ٢٠٠٢

عدد جديد من هذه الدورية المحكمة، تقدم في باب وثائق ثقافية، الوثيقة الأمريكية التي تفرض الهيمنة الثقافية والأيديولوجية الأمريكية على العالم، وتقدم تعليقًا لبعض المفكرين عليها، فضلاً عن الأبواب المخصصة للمسرح والسينما والنقد والتراجم وغيرها.

■■■

نظرة
مدير التحرير: عصام زكريا
القاهرة: سمات للإنتاج الفني، ٢٠٠٢

دورية مستقلة تعنى بتاريخ صناعة السينما سواء من الناحية الإنتاجية بإلقاء الضوء على الشركات الإنتاجية التي أسهمت في النهضة الصناعية لفن السينما مثل شركة محمد بيومي وشركة عزيزة أمير وآسيا وغيرهم، وكذلك من الناحية الفنية والمدارس التي تأثرت بها صناعة السينما في مصر، كما تتضمن الدورية حوارات مهمة عن السينما وعالم المهرجانات.

رواية

رائحة البحر
طالب الرفاعي
دمشق: دار المدى، ٢٠٠٢

رواية جديدة للكاتب الكويتي، ترسم شخصياتها تفاصيل الواقع في إطار من المشاعر المتناقضة مثل الحب والكره والقسوة والرحمة.. إلخ. وصدرت للمؤلف من قبل رواية «ظل الشمس» في القاهرة.

■■■

Cleopatra's Heir

(وريث كليوباترة)

Gillian Bradshow

Forge, 2002, 496PP., $ 25.95

تدور أحداث هذه الرواية التاريخية فى الصحراء المصرية وفى مدينة الإسكندرية القديمة. فالمؤلف وهو أستاذ فى التاريخ القديم استخدم معرفته بالتاريخ اليونانى والرومانى فى نسج روايته التى تقوم على تخيل مصير سيزاريون ابن كليوباتره من يوليوس قيصر.

"سياسة"

التقرير الاستراتيجى العربى لعام ٢٠٠١

رئيس التحرير: حسن أبو طالب

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٢.

يناقش التقرير الاستراتيجى العربى لهذا العام أحداث وتطورات العالم العربى والتفاعلات الإقليمية والصراع العربى الإسرائيلى من خلال البيئة الدولية قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر وبعدها.

■■■

الاتحاد الأفريقى ومستقبل القارة الأفريقية

تحرير: محمود أبو العينين

القاهرة: معهد البحوث والدراسات الأفريقية، ٢٠٠٢

يضم الكتاب مجموعة الأبحاث التى ناقشتها ندوة التحولات الأفريقية فى السنوات الأخيرة، والمشكلات التى ترتبت عليها وكيفية مواجهتها فى إطار الوحدة الأفريقية والتعاون بين دول القارة السمراء فى مواجهة التكتلات العالمية والاختلالات فى موازين القوى.

■■■

الديمقراطية المزعومة فى إسرائيل

محمد صلاح سالم

القاهرة: دار عين للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

أربعة محاور تتناول حقيقة الديمقراطية المزعومة فى إسرائيل، تبدأ بالظروف التاريخية التى مهدت لنشأة إسرائيل على حساب أهل فلسطين، ثم نظام الحكم والأحزاب الفاعلة فى إسرائيل وسيطرة العسكر عليها، وثالثا الطبعة العنصرية للكيان الاستيطانى الإسرائيلى، وأخيرا: التناقض بين طبيعة الدولة الإسرائيلية والمفاهيم الحقيقية للديمقراطية.

■■■

المشاركة السياسية للمرأة - خبرة الشمال الأفريقى

حمدى عبد الرحمن

القاهرة: الجمعية الأفريقية للعلوم السياسية، ٢٠٠٢

رؤية تحليلية لقضية المشاركة السياسية النسوية فى بلدان الشمال الأفريقى، والمسألة الأساسية أن المؤلف يربط بين ارتفاع معدلات التنمية والرفاهية وزيادة المشاركة السياسية للمرأة فى البرلمان وغيره من الجمعيات الأهلية والتجمعات الإقليمية، وهو ربط مهم، فثمة علاقة وثيقة بين الجانبين.

■■■

خطاب الديمقراطية

عبدالغنى أبوالعزم

المغرب: مؤسسة الفن للنشر، ٢٠٠٢

تاسس خطاب الديمقراطية على مبادئ وحقوق الإنسان القائمة على ركيزتين أساسيتين هما الحرية والمساواة، إذ لا ديمقراطية فى غيابهما وهاتان الركيزتان متضمنتان فى كل الديانات السماوية، بما يعنى أنه لا تعارض بين الديمقراطية حتى فى صيغتها الغربية والتعاليم الدينية.

"سير ومذكرات"

ذكريات من حياتى

عبد العظيم أنيس

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢

يعرف الكثير عبد العظيم أنيس بوصفه أستاذا لامعا فى مادة تخصصه «الرياضيات»، لكن أكثر من هؤلاء يعرفونه بوصفه مفكرا يساريا مرموقا ومثقفا له إسهامات مهمة فى النقد والإبداع والحقل الثقافى بعامة، وفى هذه الذكريات يلقى أنيس أضواء على محطات مهمة فى حياته لا يعرفها كثيرون، منها عمله الصحافى بجريدة المساء، واعتقاله فى أواخر الخمسينيات ونضاله فى محافل فكرية وسياسية عديدة، فضلا عمن أثروا فى مسيرته من أمثال طه حسين وثروت عكاشة وجيفارا وآخرين.

■■■

حوارات مع حمدان

عمر الفاروق

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٢

مثّل المفكر الكبير جمال حمدان حالة إنسانية وإبداعية خاصة، سواء بعطائه الفكرى الفذ فى مجال تخصصه «الجغرافيا» أو الموضوعات المهمة التى انشغل بها والتى تصب جميعها فى مجرى الإيمان بدور مصر ومكانتها وتأثيرها فى محيطها خصوصا فى مجلده المرجعى «شخصية مصر.. دراسة فى عبقرية المكان»، وكذلك كتاباته عن الصهيونية واليهودية وخطر إسرائيل على المنطقة، وقد كانت نهايته الفاجعة والمأساوية فى آن معا استكمالا لمسيرة حياته التى جنح فيها إلى العزلة التى كانت سببا فى عطائه الفذ، وهذا الكتاب حوارات مع جمال حمدان عبر عطائه على مدى أكثر من نصف قرن.

■■■

لاجئ فى لندن

حمدى الحسينى

القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠٢

خبرة شخصية يقدمها المؤلف لحياته فى مدينة الضباب التى يعيش تحت سمائها مئات الألوف من العرب والمسلمين، والمؤلف يركز بالذات على شخصيات إسلامية دعوية وراديكالية اتخذت من لندن مركزا لنشاطها من أمثال كمال الهلباوى الذى يحاوره المؤلف، ويقدم رؤية لإعادة - أو محاولة إعادة - الخلافة الإسلامية هناك، ويستحضر رؤاه للعوالم الأخرى للمدنية: الجاسوسية والبزنس والإعلام وغيرها.

■■■

من الصخيرات إلى تازمامارت

محمد الرايس

ترجمة: عبدالحميد جماهيرى

المغرب: دار أفريقيا، ٢٠٠٢

يروى المؤلف معاناة عشرين عاما من التعذيب والحرمان والمعاناة داخل معتقل تازمامارت المغربى، وفى هذا المعتقل شهد المؤلف موت أكثر من ثلاثين معتقلا تحت وطأة التعذيب وخرج ليحكى لنا عن هذه المأساة المروعة.

"شعر"

أيام الزهر

أنيس مسلم

بيروت: التعاونية اللبنانية للتأليف والنشر، ٢٠٠٢

جدلية فلسفية فى العشق والتغنى بالمحبوبة فى زمن طغت فيه الماديات وتراجعت نداءات الأرواح، من نص «الحنين شراعى: الحنين يقطر ذاتى / ينثرها ألحانا على أرصفة المدينة / نسما عليلا ينثرها على شرفات المنازل.

"علم نفس"

الحكمة الضائعة

عبد الستار إبراهيم

القاهرة: عالم المعرفة، ٢٠٠٢

ثمة فكرة شائعة تربط بين الفنون والجنون. والعبقرية والشيزوفرينيا، المؤلف يفند هذه المقولات ويشير إلى ارتباط الإبداع بالحكمة والتفكير العلمى المنطقى، وبعد المسافة بينه وبين الشيزوفرينيا والاضطرابات النفسية ويؤكد على أن الإبداع هو قمة الاتزان والتميز العقلى.

■■■

علم النفس العيادى

مصطفى سويف

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

خمسة فصول عن هذا الفرع المهم لواحد من علماء الاجتماع والنفس الأفذاذ فى مصر والعالم العربى، هى علم النفس العيادى وحياتى وخبرات شخصية والبعد الحضارى فى العمل العيادى والعلاقة بين علم النفس والطب النفسى فى الحاضر والمستقبل.

■■■

Pretending and Imagination in Animals and Children

(المحاكاة والخيال فى الحيوانات والأطفال)

Robert W. Mitchell (editor)

Cambridge UP, 2002, £ 55.00

من المعروف أن أنشطة الأطفال مليئة بالخيال والتقليد أو المحاكاة، ولكن من اللافت للنظر أن الحيوانات أيضا تظهر بأنشطة مشابهة. يسعى هذا الكتاب إلى مقارنة مثل هذه الأنشطة فى كل من الأطفال والحيوانات للوقوف على العوامل النفسية والاجتماعية التى تؤثر على المحاكاة والخيال عند الأطفال.

"علوم"

البدايات.. قصة نشوء الإنسان فى الحياة والأرض والكون

إسحق عظيمون

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

تتعدد الروايات بشأن نشوء الكرة الأرضية ووجود الإنسان فوقها، لكن الرواية الأرجح تشير إلى الانفجار الشديد الذى تعرض له الكون واصطدام عديد من الكواكب والنيازك وطغيان البحار على اليابس مما أدى إلى اختفاء كائنات وظهور كائنات أقدر على التكيف كان بينها الإنسان، هذه قصة البدايات كما يرويها الكتاب.

■■■

النجاة

الناصر لدين الله أحمد عبد الهادى

تحقيق: إمام حنفى سيد عبد الله

القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٠٢

يناقش المؤلف مجموعة من المفاهيم التى قام عليها علم الكلام مثل مفهوم الحرية فى العقيدة الإسلامية، وأفعالنا هل هى مخلوقة أم حديثة و مفاهيم أخرى مثل الجبر والاختيار والقضاء والقدر، ويستخدم المؤلف النصوص القرآنية لتقريب الدلالات.

■■■

Mapping Human History: Discovering the Past Through our Genes

(ترميم تاريخ الإنسان «البشر»: اكتشاف الماضى من خلال الجينات)

Steve Olson

Houghton Mifflin, 2002, 304PP., $25.00

«البحوث الجينية على وشك أن تنهى خبرتنا الطويلة السيئة بالعنصرية»، هكذا يقول المؤلف الذى يتناول النتائج الحديثة للدراسات الجينية واللغوية والأثرية التى تثبت أن كل فرد من الستة مليارات نسمة التى تسكن كوكب الأرض من أصل واحد، وحواء واحدة، التى سكنت مكانا ما فى شرق أفريقيا من حوالى ١٥٠,٠٠٠ عام.

أما التنوع فى الشكل الخارجى للبشر فمصدره الانتخاب الطبيعى والحوادث الجينية. فلا توجد قاعدة لافتراض أساس بيولوجى أو حيوى للفروق العنصرية أو العرقية فى العادات والأمزجة أو أسلوب الحياة.

قـــراءات جـــديـدة

فكر ديني

الإسلام وقضايا الشباب
الشيخ: منصور الرفاعي عبيد
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢
عنيت الشريعة والتعاليم الإسلامية بمعالجة قضايا المجتمع وتنظيم العلاقات بين الناس كي تكون حياتهم أفضل، ومن بين الفئات التي اهتمت بها الشريعة الشباب، خصوصًا مع ظهور مشكلات جديدة ومخاطر مستحدثة مثل شيوع المخدرات والبطالة والزواج العرفي وغيرها، والمؤلف يبسط الحلول الإسلامية لهذه المشكلات وكيفية تجاوزها.

■■■

حقيقة الحجاب وحجية الحديث
المستشار: محمد سعيد العشماوي
القاهرة: مؤسسة روزاليوسف، ٢٠٠٢
يناقش المؤلف الأدلة الشرعية الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية عن الحجاب وتفسير المفتي وعدد آخر من الأئمة لها، ويقدم موقفه من قضية الحجاب والأحاديث التي تشير إليه، ويعرض كذلك لطرق جمع الحديث النبوي وكيفية التمييز بين الصحيح والموضوع منها.

■■■

One People, Two Worlds: A Reform Rabbi and an Orthodox Rabbi in Search of Common Ground
(شعب واحد وعالمان: حاخام إصلاحي وحاخام أرثوذكسي يبحثان عن أرضية مشتركة)
Ammiel Hirsch and Yosef Reinman
Schocken, 2002, 352PP., $ 26.00
تبادل اثنان من الحاخامات اليهود المثقفين أربعين رسالة إلكترونية عبر الإنترنت في مناظرة فكرية استمرت من يناير ٢٠٠٠ إلى أكتوبر ٢٠٠١. اعتمد كل حاخام على آيات من الكتاب المقدس والتلمود وكتابات الفلاسفة والحاخامات للدفاع عن حجته.
تركزت القضايا محل النقاش في كل من وضع المرأة، والصهيونية، والشذوذ الجنسي، والاندماج، ودولة إسرائيل.

فنون

A Passion for Orchids: The Most Beautiful Orchid Portraits and Their Artists
(أجمل لوحات زهرة الأوركيد والفنانين الذين صوروها)
Jack Kramer
Prestel, 2001, 128PP., $29.95
كانت زهرة الأوركيد دائمًا مصدرًا لإعجاب وإلهام الفنانين والكتاب والمؤرخين بسبب جمالها الغامض وأنواعها الكثيرة التي تعد بالآلاف. هذا الكتاب الذي يقدمه أهم خبراء زهور الأوركيد في أمريكا يحتوي على التاريخ الثقافي والفني لهذه الزهرة الفريدة من خلال استعراض ستين لوحة للزهرة لمختلف الفنانين والمصورين.

■■■

Blind Faith: The Miraculous Journey of Lula Hardaway and Her Son, Stevie Worder
(الإيمان الأعمى: معجزة لولا هارداواي وابنها شتيفي وندر)
Dennis Love and Stacy Brown
Simon & Schuster, 2001, 272PP., $24.00
ولد ستيفي وندر مصابًا بالعمى في عام ١٩٥٢ لأب سكير ومتوحش أرغم زوجته على الدعارة لكي تطعم أسرتها، وكان ستيفي وندر يعزف الآلات الموسيقية في الشوارع من أجل قطع النقود المعدنية. وكانت موهبته طاغية حتى احترف العزف على البيانو والهارمونيكا وآلات الإيقاع والأرغن وهو مازال صبيًا، دون دروس من أحد.
يروي هذا الكتاب مشوار ستيفي وندر مع الغناء والموسيقى والشهرة وكيف استطاع أن يعوض أمه عن حياتها المأساوية.

لغة

التخلف الآخر
محمد الزواوي
المغرب: الأطلسية للنشر، ٢٠٠٢
تدور فصول الكتاب حول ما يسميه المؤلف بالتخلف الآخر، وهي ظاهرة لغوية وثقافية ونفسية تنتشر في مجتمعات العالم الثالث المعاصرة ترتبط أكثر بالتخلف اللغوي الثقافي النفسي، وبحسب المؤلف فإن التخلف في هذين المعلمين أي تخلف اللغة العربية وتهميشها يؤدي إلى اغتراب الفرد في مجتمعه ويضاف إلى التخلفات الأخرى في الاقتصاد والصناعة والتكنولوجيا.

■■■

التعريب ونظرية التخطيط اللغوي
سعد بن هادي القحطاني
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢
يستعرض الكتاب الأساليب التي تنتهجها المجامع اللغوية العربية عند وضع المصطلحات. ويتناول بالتحليل القرارات والندوات والأنشطة المتعلقة بالتعريب في المملكة العربية السعودية، وشيوع الكلمات المعربة في مجال الصحافة.

للأطفال

أنا مسئول.. كلنا مسئول
سلسلة النملة
بيروت: جمعية الإنماء الاجتماعي والثقافي، ٢٠٠٢
تدريب الطفل على المسئولية والإحساس بأهمية دوره وتأثيره هو البداية الصحيحة لإدراك معنى الحرية وفي المقدمة منها حرية التعبير، فبهذا التزاوج بين إدراك الحرية والمسئولية معًا يتدرب الطفل على التفكير العلمي وموضوعية التحليل، كما يقدم الكتاب بعضًا من المفاهيم التي يسمع عنها الطفل دون أن تتسع مداركه لاستيعابها على الوجه الصحيح مثل العدالة الاجتماعية والتكافل وغيرها.

■■■

موسوعة كتّاب الأطفال في العالم العربي
إعداد: محمود قاسم
القاهرة: إدارة الطفولة بجامعة الدول العربية، ٢٠٠٢
تتضمن الموسوعة أسماء مبدعي كتب الأطفال في العالم العربي كله، سواء كان هذا الإبداع قصصًا أو ترجمات أو مسرحًا، ويجري الإعداد لطبعة جديدة تتضمن أشهر رسامي كتب الأطفال أو المجلات المتخصصة في مجال الطفل مثل بهجت وبيكار واللباد والتوني وغيرهم.

مدن

الإسكندرية
مجموعة من الأساتذة
القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠٢
خمسة مجلدات من القطع المتوسط ترسم صورة حضارية لمدينة الإسكندرية، التي كانت عاصمة العالم الثقافية في مرحلة تاريخية ممتدة منذ إنشائها في القرن الثالث قبل الميلاد، والسعي لإحياء هذا الدور مع إنشاء مكتبة الإسكندرية واستعادة المدينة كمنارة ثقافية.

مسرح

بيتر بروك
فاروق عبد القادر
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢
يعود اهتمام المؤلف بالمسرحي بيتر بروك إلى بدايات اهتمامه - المؤلف - شخصيًا بالمسرح، وكتابه هذا عن بيتر بروك ليس هو الأول بل سبق له أن أصدر كتيبًا عنه بوصفه واحدًا من الظواهر المسرحية المهمة في القرن العشرين مخرجًا ومؤلفًا وناقدًا، وإلى جانب الدراسات الجديدة عن بيتر بروك التي يضمها الكتاب، جمع المؤلف بعضًا من مقالات نشرها عن بيتر بروك في دوريات ومناسبات مختلفة.

■■■

ثلاث مسرحيات شعرية
حامد طاهر
القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٢
ثلاث مسرحيات يضمها كتاب هي «درويش السقا» و«أربعة رجال في خندق» و«الأشجار ترتفع من جديد»، يجمعها خيط واحد هو رفض الاستسلام للواقع المأساوي وتحدي المخاطر والحلم بواقع جديد، في الأول رفض لقسوة السلطة التركية وآلياتها المتخلفة. والثانية رفض للاستعمار الصهيوني والثأر من اليهود بعد هزيمة يونيه ١٩٦٧، والثالثة رفض للاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين المحتلة ومقاومته بكل الوسائل.

مقالات

تاكسي الكلام
صافي ناز كاظم
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢
مجموعة كبيرة من المقالات في قضايا مختلفة وموضوعات متنوعة نشرتها المؤلفة على مدى ثلاثين عامًا، في النقد والأدب والسياسة والاجتماع والقضايا الدينية والموضوعات الفكرية التي كانت محل جدل في حينها.

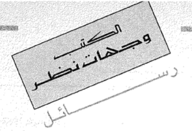
ملكية فكرية

التعليق على قوانين الملكية الفكرية والأدبية
عبد الفتاح مراد
القاهرة: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٢
يتضمن الكتاب التعليق القانوني على القانون رقم ٣٥٤/ ١٩٥٤ بشأن حماية حقوق المؤلف المعدل والقوانين السابقة عليه، وهما قانون براءات الاختراع ١٣٢/ ١٩٤٩، وقانون العلامات التجارية ٥٧/ ١٩٣٩، وعلاقة هذه القوانين بالقانون الجديد لحماية الملكية الأدبية والفنية.

■■■

حقوق الملكية الفكرية: رؤية جنوبية مستقبلية
رءوف حامد
كراسات مستقبلية، المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٢، ٦٦ص
يشير الكتاب إلى حتمية تكتل دول الجنوب من أجل محاولة معارضة وتغيير اتفاقية حقوق الملكية الفكرية، حيث يؤكد أن هذه الاتفاقية تم إقرارها من خلال الجهود الشرسة للشركات المتعددة للجنسية والبلدان المتقدمة.
يحلل المؤلف الدكتور رءوف حامد التناقضات الكامنة في الاتفاقية، كما يضع مقترحًا مفصلاً للتغييرات المطلوبة فيها لكي تتفق مع مصالح شعوب الجنوب.
وفي النهاية يستعرض المؤلف الجديد الإيجابي الذي طرأ على الاتفاقية خلال المؤتمر الوزاري الرابع لمنظمة التجارة العالمية الذي عقد في الدوحة في نوفمبر من عام ٢٠٠١.

■■■



ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها، مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

معرفة كلية أم جهل كلى!

قرأت فى العدد الأخير من مجلة «الكتب وجهات نظر» (يونيو ٢٠٠٢) عرضًا لكتاب فوكوياما الأخير «نهاية التاريخ ليست نهاية التاريخ.. مرحلة ما بعد الإنسان»، وخرجت بانطباع أنه نوع من الدجل الفكرى فى إطار علمى!! وأنه تعبير دقيق عن حالة الغرور بالقوة السائدة الآن فى الولايات المتحدة الأمريكية، وتعبير دقيق عن استغلال الفكرة الطوباوية التى تبشر بنهاية عهد الآثام وبداية عهد جديد من التطهر يقود فيه المسيح المنتظر شعب الله المختار لسيادة العالم المثالى الجديد، وهو - أيضًا - تعبير دقيق عن حالة ادعاء المعرفة (الكلية؟) عندما تسيطر على التفكير حالة الجهل (الكلية؟) نتيجة لطمس الغرور الفكرى على توجيه العقل الصائب والسليم.

كيف؟

المعرفة الشاملة تبدأ من معرفة الأسباب الجزئية، وكنت قد سألت الدكتور/ أحمد زويل سؤالاً جدليًا عن ترتيب الطاقة والمادة والحركة والزمن فى سلسلة السعى إلى معرفة التوازن الكونى الكبير. ولم أكن أنتظر منه إجابة لأن المقام لم يكن مناسبًا للمقال.. بل كنت أقصد إلقاء حجر فى بحيرة الاجتماع التى يضطرب ماؤها بتساؤلات مكرورة أو شخصية.

وجاء عرضكم لكتاب فوكوياما كأنه يصنع المقام المناسب لمقال التفكير والبحث فى الإجابة عن ذلك التساؤل الجدلى. وأيضًا للإطلال على الآفاق المتسعة - بلا حدود - للعلم بالكون الكبير.

التسلسل «المنطقى» للإجابة عن تساؤلى «الجدلى» يقول: إن الطاقة وهى جسيمات شاردة قد تكثفت إلى مادة عندما انتظمت بالحركة (بقوة إرادة كن)، وأنه بحركة المادة ولد الزمن.. والعكس بالعكس.. لو سكنت الحركة (جدلاً).. يقف الزمن.. وتنفرط المادة إلى طاقة شاردة مرة أخرى بلا نظام، وتحاول أن تبحث عن توازن بديل عن الذى كان بالحركة الأولى! هذا يعنى أن الغائية النهائية - لكل ما هو كائن - هى الوصول إلى توازن لن يدرك أبدًا!!

قال طومسون عام ١٨٨٢م: إن الجسم المكهرب تزداد كتلته إذا تحرك وسمى الزيادة بالكتلة الإلكترومغناطيسية، وقال لورنتز عام ١٨٩٥م: انكماش مادة الجسم نتيجة الحركة يحدث على مكوناتها من الإلكترونات فقط وكلما زادت السرعة زاد الانكماش. وكان التساؤل هل هذه الزيادة فى الكتلة مطلقة؟ أى لا تقف عند حد؟

وكان الرد أقصى سرعة هى سرعة الضوء، وهذا يعنى أن هذه السرعة هى حالة التوازن بين أقصى كتلة لجسيم الضوء ووصوله إلى أقصى طاقة لحركته.. فهل مكونات الضوء جسيمات مادة؟ أم هى موجات طاقة؟

وكان الرد من الشاب آينشتين فى نظريته عن النسبية الخاصة وهو فى السادسة والعشرين من عمره حين قال فى تفسير حركة الأجسام المتحركة بسرعات منتظمة:

١- لا وجود للحركة المطلقة لقصور وسائلنا الطبيعية للكشف عن وجودها.. وهذا يعنى أيضًا أنه لا يوجد سكون مطلق.. وهو ما كان يسمى بالأثير.. ولكن بعض من الحركة مطلق.. وبعض آخر نسبى.

٢- سرعة الضوء مقدار ثابت، لا يتأثر بحركة مصدر الضوء، أو حركة راصد الضوء. وهذا يعنى أن مقدار سرعة الضوء هو المعيار الوحيد المطلق.

وهذا يعنى أيضًا ثبات القوانين الطبيعية وصلاحيتها لتفسير الظواهر الحركية والضوئية والكهربائية والمغناطيسية فى جميع المناطق المتحركة بحركة منتظمة.

ثم انطلق آينشتين بعد تقديمه النسبية الخاصة ليقدم النسبية العامة التى جمع فيها بين قانون التغير فى كمية الحركة وقانون الجاذبية لنيوتن، وأمكنه من خلال هذا الجمع أن يفسر ظاهرة الجاذبية الأرضية، وكيف تجذب الشمس الأرض. ثم حاول أن يوحد القوانين فى قانون واحد يفسر الظواهر الكبيرة والصغيرة، مادة أو طاقة، فى داخل الذرات أو بين الأجرام فى الكون الكبير (العاقلة وغير العاقلة بالمعيار الإنسانى). ولكنه مات قبل أن يتم حلمه!

ومن هنا يتضح لنا الخلل الفكرى فى أفكار فوكوياما الأخيرة وادعاءاته عن عصر ما بعد الإنسان؟ حين يقول متسائلاً: هل الإنسان العاقل Homo-sapiens هو الحلقة الأخيرة فى سلسلة التطور التى شهدتها عملية الانتخاب الطبيعى عبر آماد زمنية طويلة، أم أننا نقف على أعتاب ثورة بيولوجية تقودها الهندسة الوراثية بعد أن أمكن التوصل إلى أسرار الجينوم البشرى، وأصبح بوسع التكنولوجيا الحيوية أن تغير الطبيعة البشرية، وترتقى بالإنسان إلى ما بعد الإنسانى؟

لقد أغفل فوكوياما متعمدًا عامل الشمولية لأنه يبشر بسيادة الذين يعرفون أكثر على الكون كله، وظن أن التجارب المعملية (المحدودة) تعطيه الحق فى الاستنتاج والاستنباط السليم، وبالتالى فى تعميم تلك الاستنتاجات وإطلاقها كنظريات تبعث على رهبة واحترام للقائمين بها!! وفى الحقيقة سوف يكون خروج الولايات المتحدة الأمريكية على الإجماع الدولى المنعقد فى اتفاقية كيوتو لوقف الانبعاث الضار للغازات الصناعية أشمل تأثيرًا وأكثر ضررًا على التوازن الكبير بين مكونات الغلاف الحيوى حول الكرة الأرضية من تأثير تجاربها فى الهندسة الوراثية عليه، لأن التأثير الناشئ عن تطبيق نتائج تلك التجارب كمثل تأثير إصابة شخص ما (أو حتى جميع السكان) فى جزيرة ما أو مدينة ما على سطح الكرة الأرضية بالبرد أو الزكام على بقية الجنس البشرى.

لقد مارست الحياة - فى بحثها عن التوازن المنشود بتبادل وتوافيق لا نهائية - على طول التاريخ البشرى ذلك الذى يدعيه بتلك التغيرات التى تحدثها المركبات الكيميائية (مثل بروزاك أو ريتالين أو غيرهما) فى تصرفات الإنسان لأن الوظائف الحيوية فى جميع الكائنات نتيجة لمكونات النظام البيئى حولها Eco-System فى الهواء والماء والغذاء وبها جميعًا تتحدد كيميائية مادة الحياة «الدم» المؤثرة على صفات الكائن وخصائصه وردود أفعاله، وما اختلاف الأجناس على امتداد بيئات الكرة الأرضية إلا نتيجة لذلك التفاعل الدائم منذ بدء الخلق الأول على طول الزمن الممتد حتى الآن.

لقد كان من بين القدماء من هرم حتى أصبح مضرب الأمثال، ومن الفراعنة من وصل إلينا جسده وتجاوز بعمره أقصى المعدلات الحالية (رمسيس الثانى)، فطول العمر قديم وليس مستحدثًا أمريكى الصنع. والذكاء والحيوية صفة عامة لسكان المناطق الدافئة حول حوض البحر الأبيض، والقوة الجسدية والنشاط سمة مميزة للأجناس السوداء وهى صفات عامة لها خاصية الشمولية الناشئة عن توازن دقيق فى النظم البيئية الخاصة بكل نطاق بيئى مميز على سطح الكرة الأرضية.

إن الحوادث الحضارية - الإنسانية - مهما كبرت وعظم تأثيرها مثل ضرب هيروشيما ونجازاكى بالقنبلة الذرية، هى عوارض، الزمن كفيل بغسل آثارها ومحو تأثيراتها. والخلق فى أنابيب كمثل تلك الحوادث عارض، والفطرة أن تحمل المرأة من الجماع مع الرجل وهو الأسلوب الذى يحتمه استمرار الحياة. وقد سجل تاريخ البشرية هلاك المجتمعات التى قننت وحدة الجنس فى الحصول على متعة إطفاء الشهوة.

لقد اكتشفوا فى انجلترا فى أول يونيه ٢٠٠٢ آثارًا تدل على أن الإنسان عاش بها منذ سبعمائة ألف عام! فأى إنسان هذا؟ وما هو جوهره؟ وهل كان مثلنا أنا وفوكوياما؟ لا أظن. فما هو التغيير فى جوهر الإنسان الذى بسببه يقول فوكوياما إننا على أعتاب ما بعد الإنسان؟ إن سيطرة نظرية الغرور الأسطورية التى تبشر بالإنسان فوق الكامل Superman (أو السوبر مان) على الثقافة الأمريكية إنما تنبع من كونها، كما قال عنها عمنا الكبير الأستاذ جمال حمدان فى كتابه «استراتيجية الاستعمار والتحرر - ١٩٨٤» فى ص ٣٨١. «ولا بد للباحث الموضوعى أن يعترف، مؤقتًا أو ظاهريًا على الأقل، أننا بمنطق غريب بل معكوس نعيش أو نكاد نعيش منذ الحرب العالمية الثانية قرن الولايات المتحدة، وأننا نكاد نشهد الآن عصر «أمركة» العالم - سياسيًا كما هو حضاريًا - بعد أن عشنا عصر «الأوربة» فى القرن الماضى. وإذا كان ٤٪ من مساحة العالم فى غرب أوروبا قد نجحت حتى القرن الماضى فى السيطرة على ٩٦٪ من مساحة العالم، فإن ٦٪ من سكان العالم هم سكان الولايات المتحدة يهدفون فى هذا القرن فيما يبدو إلى السيطرة على ٩٤٪ من سكان هذا الكوكب».

إن صورة المستقبل تتحدد بالمدى الذى يصل فيه الكون إلى قدرمن التوازن المطلق، ولن يصله أبدًا!، لأن الوصول إلى السكون غير ممكن أبدًا. ولو وصل المتحرك إلى السكون وقف الزمن، ويتدمر الكون، وهنا تكون نهاية التاريخ الحقيقية ويبدأ من جديد سعى جديد من الطاقة الشاردة لكى تتحول إلى مادة موجهة بالحركة، ومع الحركة يبدأ الزمن الجديد.

إن فوكوياما ابن لثقافة الغرور.. وهى ثقافة المعرفة الناقصة - مهما عظمت - وثقافة التخصص والرؤية الجزئية الدقيقة التى تفتقر إلى شمولية الواقع الفعلى التى تحتم أن يكون الفرد (سواء الجسيم أو ذرة العنصر أو الخلية الحيوية) من أجل المجموع، وأيضًا المجموع (الكون كله) من أجل الفرد (بالمفهوم الشامل).

آفة الغرور تبرر للمؤمن بها اعتقاده الارتقاء إلى قمة جبل يظنه جبل المعرفة وهو فى الحقيقة جبل الغرور أو الجهل بالمعرفة الكلية.

لقد كشف ابن ثقافتنا أحمد زويل ومساعدوه بالعلم التجريبى الفيمتوثانية، وهو نموذج مصغر ودقيق لتزاوج الزمن مع الحركة مع الإنسان العاقل؟ وهو كشف استطاع به تخطى سرعة الضوء (المطلق؟) واستطاع تفتيت الزمن(؟) ونجح فى استخدام ومضات الطاقة (أم المادة؟) كوسيلة فحص، ومن ثم كوسيلة تسجيل، من ثم استطاع رؤية أكبر السرعات فى الحركة بالعين البشرية رغم قصورها؟

د. حمزة إبراهيم عامر
أستاذ الجيولوجيا التطبيقية



كتاب عن الحرب اللبنانية

أرسل هذه السطور إليكم باسمى وباسم العديد من الأصدقاء من قراء مجلتكم والتى نعتبرها منذ صدورها من أهم ما يقدم فى مجال الصحافة المقروءة والمرئية والمسموعة.

وذلك لتقديمها الدراسات المعمقة فى مجالات السياسة والفكر والتاريخ والأدب والفن.. ونحن نعتبر أى عدد منها كتابًا ومرجعًا مهمًا ولا نقرؤها - بل إنها تفرض علينا ألا نقرأها - قراءة عابرة مثل معظم المجلات والصحف، والأهم من ذلك أنها مع مثيلاتها من المجلات - القليلة بل والنادرة فى الوطن العربى - قد كسرت احتكار الفضائيات للإعلام فى هذا الوطن - مع التقدير لجانب غير قليل مما تقدمه تلك الفضائيات - لكن إعلام الفضائيات وبالتالى ثقافته حتى ولو كانت نقية مائة بالمائة لا يمكن أن تغنى عن التلقى عن طريق القراءة التى تحرر خيال القارئ من الصورة والحركة المنظورتين وتسمح له باتخاذ رأى وتكوين وجهة نظر خاصة قد تختلف أو تتفق كثيرًا أو قليلاً مع رأى الكاتب، واختياركم «وجهات نظر» عنوانًا لمجلتكم يبين مدى تقديركم واحترامكم للرأى الآخر، فكل الشكر لما تقدمون وتبذلون «ولن يذهب العرف بين الله والناس».

وباسمى وباسم بعض الأصدقاء القراء أود أن أرسل عبر مجلتكم رسالة إلى الأستاذ الكبير، محمد حسنين هيكل، بل نريد أن نطالبه بتنفيذ وعده الذى ذكره فى كتابه - حرب الخليج أوهام القوة والنصر - ووعده كان أن يؤلف كتابًا عن الحرب الأهلية فى لبنان أو عن الحرب اللبنانية بشكل أدق.

لقد كان للعرب فى الماضى لغات عديدة من مثل - لغة قريش - لغة ربيعة - لغة عدنان... ولقد أنعمت علينا مصر المحروسة - أم الدنيا - على العرب فى القرن العشرين بلغتين جديدتين هما لغتا طه حسين ومحمد حسنين هيكل، رحم الله الأول وأطال بقاء الثانى. ففى لغتى الأستاذين الكبيرين الجرأة فى البحث والطرح والتحليل والسبق فى الكشف عن الماضى والحاضر والمستقبل والقدرة على الربط، وكل فى مجال من مجالات الفكر ولكنهما يلتقيان فى جوهر واحد وهو البحث عن الحقيقة.

لقد كتب الكثيرون عن حرب لبنان لكن قلة منهم كانوا محايدين، وإننا وأعتقد كل العرب بحاجة ماسة إلى رأى الأستاذ هيكل وتحليله واستعراضه الدقيق والموثوق لما جرى فى لبنان منذ حرب ١٩٥٨ حتى حرب ١٩٧٦ وما بعدهما لقد كتب الأستاذ عن حرب السويس وحرب الخليج ويونيو - حزيران وأعتقد أنه آن الأوان لنقرأ له عن حرب لبنان، وأعتقد أن هذه الحرب اختلفت عن الحروب الأخرى التى خاضها العرب - فيما بينهم أو مع الآخرين - فلئن كان مجمل تلك الحروب من أجل الحدود والسيادة والنفط والمصالح الاستراتيجية... إلخ، إلا أن حرب لبنان كانت لها هذه الأهداف وهدف آخر أخطر بكثير، وهذا رأى شخصى أو (وجهة نظر).. وكان ذلك الهدف هو القضاء على أول مشروع علمانى ديمقراطى تقدمى فى العالم العربى بدأه أنطون سعادة وحاول المضى به قدمًا كمال جنبلاط وعدد كبير من المثقفين والقادة الشرفاء فى لبنان وكانت محاولة القضاء هذه بأيد أجنبية وإسرائيلية وعربية - بكل أسف -.

فمن أجل ذلك أشعر أننا بحاجة لقلم الأستاذ هيكل فى هذا الموضوع وأرجو من الأستاذ هيكل أن يجيب عن هذا المطلب من خلال مجلتكم إن أمكن.

ملاحظة: أضم صوتى للقراء المطالبين بفهرس سنوى للمجلة.

المحامى: رفعت عادل بدران
السويداء - سوريا

ملاحظات

لست فى حاجة إلى القول إن مجلتكم الراقية والرصينة تحرص كل الحرص على أن تأتى المقالات وغيرها من المواد الواردة فيها خالية من الأخطاء من حيث المعلومات والحقائق وقواعد اللغة وغيرها، إلا أننى لاحظت بعض الأخطاء فى عدد مايو ٢٠٠٢، ففى مقال (شارون.. من هو.. وماذا يريد؟) يقول د. قدرى حفنى إن شارون عارض إبرام اتفاقية أوسلو ١٩٨٣، كما امتنع فى العام التالى (١٩٨٤) عن التصويت لصالح اتفاقية السلام الأردنية الإسرائيلية، وكلا التاريخين خطأ، فالأول هو ١٩٩٣، والثانى ١٩٩٤ (وقد تكرر هذا الخطأ فى أكثر من موقع بالمقال). كما يقول: صرح «لمجلة التايمز»، والواقع أن التايمز «جريدة» وليست مجلة، إلا إذا كان يقصد مجلة (تايم). وذكر د. قدرى أن اسم عائلة شارون الأصلى هو «شينرمان»، بينما يقول الأستاذ يوسف القعيد فى مقاله (أنا أكذب.. أنا أكره.. أنا أقتل.. إذن أنا شارون) إن الاسم هو «تشيرمان»، فأيهما الأصح؟! كما يشير الأستاذ القعيد فى مقاله إلى «سعيد طه بك» قائد القوات المصرية التى كانت محاصرة فى الفالوجا أثناء حرب فلسطين عام ١٩٤٨. وأود أن أصحح الاسم هنا: فهو الأميرالاى (العميد) السيد طه بك، والذى كان يطلق عليه حينئذ لقب (الضبع الأسود).

د. شعبان عبد العزيز عفيفى
كلية الدراسات التجارية - الكويت



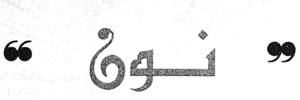
عن الحرية

إصدار الحكم

لا يحتاج من يترك للناس يختارون له طريقته فى الحياة من المواهب سوى خصلة واحدة امتازت بها القرود، وهى ملكة التقليد. أما الذى يختار طريقته بنفسه، فإنه يستخدم كل ما أوتى من مواهب، والواقع أن هذا الاختيار يتطلب من صاحبه أمورًا عدة: أولها التأمل ثم التبصر ثم جمع المقدمات للحكم وهذا يستوجب إثارة الهمة، ثم إصدار الحكم، وهذا يتطلب إعمال ملكة التمييز ثم التمسك بالحكم بعد إصداره، وهذا يحتاج إلى قوة الثبات والحزم. فكلما عظم مقدار التصرفات التى يسير فيها الإنسان على حكم اختياره عظمت حاجته إلى تلك المواهب وعلى قدر ذلك يكون استعماله لها وانتفاعه بها.

وقد يهتدى الإنسان بإرشاد غيره إلى بعض السبل الآمنة فيظل بعيدًا عن مواطن الخطر من غير أن يحتاج إلى شىء مما ذكرناه، ولكن إذا تم له ذلك فما قيمة اعتباره مخلوقًا آدميًا؟! إن الأهمية لا تنحصر فى ماهية ما يصدر عن الإنسان من الأفعال، بل هى أيضًا فى ماهية الإنسان الذى تصدر عنه هذه الأفعال.

إن الشهوات والنزعات هى من أخص صفات الإنسان الكامل، ولا يخشى من طغيانها إلا إذا اختل توازنها. والسبب الحقيقى فيما يقترفه الناس من القبائح ليس قوة الشهوات، ولكنه ضعف الضمائر، وليس من الضرورى أن ترتبط قوة الشهوة بضعف الضمير، فعندما يكون المرء متفوقًا على غيره فى قوة العواطف والشهوات، فإن ذلك يعنى أن نصيبه من مواد الفطرة البشرية أوفر، فهو لذلك أقدر ولاشك على عمل الخير، وإن يكن أيضًا أقدر على ارتكاب الشر.



أفيون الشعوب في زمن العولمة

■ حتى وقت قريب، كانت الكتابة عن الأنشطة الرياضية مقصورة على طائفة محدودة من محرري الصفحات الرياضية في الصحف والمجلات.. قبل أن تتحول في السنوات الأخيرة ومع الانفجار الهائل في اهتمام شعوب بأكملها بكرة القدم، إلى سوق مكتظة بالكتب، يفتح بعضها نافذة ثقافية أمام كتابات أدبية رفيعة، اهتمت بالبُعد الاجتماعي والسياسي والثقافي لظاهرة الولع الشديد بكرة القدم.. ذلك الولع الذي اجتاح شعوبًا وقارات، دولاً كبرى ودولاً صغرى، غنية وفقيرة، متقدمة ومتخلفة.. بدون تمييز بين الطبقات والفئات في درجة التعليم.

ومن هذه النافذة الثقافية يحق لنا نحن المتفرجين غير المحترفين أن نتساءل: هل أصبحت كرة القدم في عصر العولمة هي أفيون الشعوب؟ ليس بالمعنى الواسع الذي أرادته الماركسية حين اتهمت رجال الدين بتوظيفه لحساب الطبقات المستغلة لكي تظل الشعوب مخدرة عاجزة عن المطالبة بحقوقها.. ولكن من حيث الوظيفة التي يقوم بها المخدر في تغييب الوعي لفترة محدودة، هربًا من مشاق الحياة وأعبائها، أو طلبًا للمتعة والتسلية واستجداءً للبهجة وخلو البال.

أضحت كرة القدم أكثر من مجرد لعبة رياضية مثل العشرات من اللعبات الأخرى.. فقد حلت في استغراقها لعشاقها مكان الدين في المعابد والكنائس.. واستغنى بها كثيرون عن الولاءات العقائدية والحزبية، وشكلت نوعًا من إدمان العادة التي يستريح إليها الرجل أو المرأة أو الشاب خارج نطاق حياته اليومية. ولا يكاد يوجد شأن من شئون الحياة يستطيع أن يستولي على اهتمام أكثر من ستة ملايين شخص في لحظة واحدة على اتساع العالم مثل لعبة كرة القدم، التي تخلق جوًا من الإثارة الجماعية، تمتزج فيها متعة البصر ونشوة الفوز واستنفار الحواس، لتتوارى معها إحباطات الحياة اليومية وملل العادة المتكررة، وتهديدات العزلة التي تفرضها طبيعة الحياة المعقدة في هذا العصر.

تنطبق المقولة التي تصف كرة القدم بأنها أفيون الشعوب أكثر ما تنطبق على الشعوب العربية والأفريقية وبعض دول أمريكا اللاتينية، حيث فضاء ملاعب كرة القدم هو الفضاء الوحيد الذي يتمتع فيه الناس بحريتهم كاملة دون رقيب أو حسيب، بتشيع الناس لفريق كروي ضد فريق، بمحض اختيارهم ومزاجهم الخاص، دون إملاء أو إجبار أو رقابة من السلطة، بل وبدون حاجة إلى التعبير عما في قرارة النفس كمواطن وإنسان من محبة أو كراهية، ومن تشجيع أو عداء لفريق أو للاعب.

ويذهب بعض المحللين إلى أن أندية كرة القدم في الدول العربية ملأت فراغ الأحزاب السياسية في معظم دولها التي انعدمت أو وهنت فيها الأحزاب والقوى السياسية إلى درجة التهافت والإهمال من جانب الجماهير. أو حلت محلها في الدول التي لا تسمح بقيام أحزاب سياسية، أو تلك التي اكتفت بالحزب الواحد المهيمن والقائد. ومن ثم بلغت درجة التعصب والتأييد من جانب المشجعين في الدول العربية لناد بعينه حدًا لا تكاد تبلغه في الدول الأخرى التي يتركز فيها التشجيع للفريق القومي باعتباره ممثلاً ومعبرًا عن الإحساس بالكرامة الوطنية.. في ظلها تلتئم جراح الانقسامات وتلم شمل الأمة. وفي الانتخابات الفرنسية الأخيرة كان الرد على الدعوة العنصرية التي أطلقها حزب لوبان. هو تمجيد الفريق القومي الفرنسي الذي يتصدره أبرز اللاعبين من أبناء المهاجرين الأفارقة مثل زيدان. ولعب تزامن الانتخابات العامة في فرنسا مع مباريات كأس العالم لكرة القدم دورًا مهمًا في هزيمة حزب لوبان أو إضعافه على الأقل.

وإذا كانت كرة القدم هي المجال الوحيد الذي يمارس فيه العربي حريته كاملة غير منقوصة، وهي عنصر من عناصر توحيد الأمة وتماسكها والتغلب على النزعات العنصرية والإثنية في عدد كبير من الشعوب الأوروبية ذات الأقليات المهاجرة كما في فرنسا وبريطانيا وهولندا وغيرها.. فإنها تمثل في ثقافات الشعوب اللاتينية مصدرًا من مصادر البهجة والسعادة التي تشكل صورة الشعب في عيون العالم.

وقد حاول المؤلف البرازيلي اليكس بللوز في كتابه «كرة القدم بالطريقة البرازيلية» أن يقدم نوعًا من أدب الرحلات في تصويره لعشق الشعب البرازيلي لكرة القدم.. فالبرازيل في نظر العالم لا يعكس صورتها نهر الأمازون الذي اشتهرت به، ولا الكرنفال بمباهجه الساخنة واحتفالاته الراقصة. بل يعكسها العشق المجنون لكرة القدم. والتي يجد البرازيلي سعادته الحقيقية فيها. ولكن هذا الجنون المغرق بالكرة لا يخفى درجة الفساد المتغلغل في اللعبة، والذي يتطرق المؤلف منه إلى إلقاء الضوء على كثير من أوجه الفساد المتفشي في البلاد. فالكرة هنا هي المدخل لدراسة شعب كالشعب البرازيلي تستولي اللعبة على كل تفاصيل حياته. وقس على ذلك معظم الشعوب اللاتينية. ولهذا السبب يحتل نجم كرة القدم مكانة تفوق مكانة أي رئيس أو سياسي ولا تنطفئ جذوة الحماس له والإعجاب به بمجرد اعتزاله كما يحدث مع الساسة، بل تبقى شعلة الاهتمام به في وجدان الجماهير حية لا تخمد.



لقد كُتب ونُشر الكثير عن دور كرة القدم في السياسة ودور السياسة في كرة القدم. وعن التحول الذي طرأ على هذه اللعبة الشعبية فأصبحت صناعة للنجوم، وسوقًا للمضاربات، واستثمارًا بالمليارات، وصراعًا على المكانة والتفوق في كثير من المجتمعات. ولكن قليلاً من الكتابات تعرضت للبُعد النفسي الذي يغلف هذه اللعبة، ويولِّد شحنات هائلة من الفرح والغضب، من الثورة والتمرد، من المشاعر المكبوتة والانفعالات الطارئة، التي تتحول في حالات كثيرة إلى نزعات عدوانية تدميرية يصعب السيطرة عليها.. ولا تختلف في بواعثها ومنطلقاتها عن تلك التي تجتاح الحركات المناهضة للعولمة، وهو ما يجعل هذه اللعبة الشعبية وسيلة وغاية في آن، وأداة وهدفًا في وقت واحد معًا.

وفي ظل ثورة الاتصالات ووسائل الإعلام وانتشار الفضائيات، أصبح من السهل التلاعب بأمزجة الجماهير واهتماماتها. فحين يصبح تشجيع نجم أو فوز فريق مصدرًا للبهجة والإثارة، والخروج من حالات الاكتئاب والإحباط العام التي تنجم عن أزمة اقتصادية أو إخفاق سياسي أو كارثة قومية هو السبيل لتجاوز الأزمة، فلا غرابة في أن تحظى كرة القدم بهذا الاهتمام الهائل من جميع قوى المجتمع المؤثرة بدون استثناء. ولكنها إذا كانت تحقق منفعة بالنسبة للحكومات أو رجال الأعمال والمستثمرين، فإنها بالنسبة لملايين المشجعين من الأفراد العاديين تمثل حياة كاملة بكل ما فيها من أفراح وأحزان وهزائم وانتصارات.



هنالك من يظن أن التحمس والتعصب لفريق أو لاعب قد يصل بالنسبة للمشجع إلى حد اعتباره نوعًا من العبادة التي لا يتزحزح عنها، والتي تصاحب الشخص طوال عمره من الصغر إلى الكبر بدرجة متصاعدة من الثبات مهما طرأ عليها من التذبذب. ولكن دراسات أجريت في هذا المجال تذهب إلى أن التعصب الكروي هو نوع من التعلق بالخرافات أو الغيبيات وما يتصل بها من تفاؤل وتشاؤم. ينطوي في أحسن الأحوال على خلق عالم تخيلي أو واقع افتراضي تتعايش فيه الأوهام والحقائق، وتجد الانفعالات اليومية للشخص منفذًا للتعبير، وتفريغ شحنات التوتر والقلق في تشجيع فريق والانتصار له، وإطلاق الهتافات والشعارات المسجوعة والأغاني المنظومة التي تمجد لاعبًا أو فريقًا بعينه وتحضه على بذل مزيد من الجهد.

ولاحظ معي تلك الطقوس التي يمارسها المشجعون لكرة القدم.. يلبس الواحد منهم أحسن ما عنده ويتجه إلى الملعب وكأنه ذاهب إلى يوم الزينة.. ينسى همومه الحقيقية وخلافاته العاطفية ومشاكله الشخصية في البيت أو العمل، وتكاليف الدروس الخصوصية ومتاعب العيال، ويخلق لنفسه عالمًا سحريًا مصطنعًا تخيليًا، يعيد فيه إنتاج آماله وطموحاته وتهيؤاته. فإذا حقق فريقه الانتصار وفاز على منافسه، فهي علامة مشجعة إيجابية تومئ بقرب تحقق الآمال. وإذا لم ينتصر فإنه يفرغ توتراته وإحباطاته في صب الشتائم واللعنات على الحكم أو الفريق الآخر أو المشجعين للفريق المنافس.

وبغض النظر عن الانتصارات والهزائم، فإن التعارف مع آخرين لهم نفس المشارب والميول الكروية يخلق جوًا اجتماعيًا يفتقر إليه المرء في حياته اليومية. يتبادل معهم الرأي والمعلومات حول هذا اللاعب أو ذاك.. يكتسب من خلاله أصدقاء ومعارف جددًا. ويخرجه من ملل الوجوه القديمة ويفتح له آفاقًا من المغامرة.



في زمن العولمة، وصدام الحضارات، ونداءات الحرب المتكررة ضد ما يسمى بالإرهاب، واختلاط الرموز والمفاهيم، وثورة المعلومات وحرب النجوم، وعودة التهديدات باستخدام الأسلحة النووية.. خلقت كرة القدم منظومة من القيم التي بسطت سيطرتها على حياة إنسان القرن الواحد والعشرين، لم يعد يمكن الاستغناء عنها، بل أصبحت تمثل نوعًا من الإدمان الجماعي.. يمارسه كل واحد دون أن يشعر ليبلغ ذروة انفعاله في دورات زمنية متعاقبة على مستوى العالم!

سلامة أحمد سلامة



Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 43 - August 2002

مجلة شهرية . العدد الثالث والأربعون . السنة الرابعة . أغسطس ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات

تقرير من واشنطن:

ضرب محور الشر مقابل الحل!

سلامة أحمد سلامة

ثورة يوليو: خمسون عاما

عصر يتهاوى!

محمد حسنين هيكل

الشيوعيون المصريون وثورة يوليو

محمد سيد أحمد

الجزائر: تغييب الجغرافيا وإحباط الحاضر!

محمد الميلى

أمريكا.. الاقتصاد قبل البيئة

حسين عبدالله

كارل بوبر وقرن توهج فيه التفكير العلمى

يمنى طريف الخولى

حاربوا الإرهاب و حاربوا الفقر والجهل أيضا

جوزيف ستيجليتز

فرار الأمريكان من السياسة إلى الإيمان

ريتشارد سينيت

فى معرض الفنان محمد حجى

الوجه الآخر للمقاومة

عزالدين نجيب



الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد الثالث والأربعون
أغسطس ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

ـ **جوزيف ستيجليتز**.. أكاديمى أمريكى وحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد عام ٢٠٠١.
ـ **حسين عبدالله**.. أستاذ اقتصاديات البترول.
ـ **ريتشارد سينيت**.. أستاذ النظرية الثقافية والاجتماعية بكلية لندن للاقتصاد.
ـ **سلامة أحمد سلامة**.. صحفى.
ـ **عز الدين نجيب**.. ناقد وفنان تشكيلى.
ـ **فاروق عبدالقادر**.. كاتب.
ـ **محمد حسنين هيكل**.. صحفى.
ـ **محمد سيد أحمد**.. صحفى.
ـ **محمد الميلى**.. المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة.
ـ **نبيل مطر**.. أستاذ الإنجليزية والإنسانيات بمعهد فلوريدا للتكنولوجيا.
ـ **يُمنى طريف الخولى**.. أستاذ فلسفة العلوم بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى ـ سعد الدين شحاتة ـ محمد حاكم





المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهماً ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٢٠٠ دينار ـ المغرب ٢٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمة..

زيارة إلى أمريكا

قليلون ربما من يَذكُرون ماحدث للأمريكيين من أصل يابانى إبان الحرب العالمية الثانية. ولكن «الصدمات توقظ الذاكرة» كما يعتقد السيكولوجيون. فقبل عشرة أيام فقط قال أحد أعضاء هيئة حقوق الإنسان الأمريكية (لاحظ الجهة) أنه ليس مستبعَدًا أن يطالب الأمريكيون «بإقامة معسكرات اعتقال للأمريكيين من أصول عربية».. إذا وقعت هجمات إرهابية أخرى فى الولايات المتحدة.

التصريح نقلته صحيفة «ميامى هيرالد». وصاحبه هو بيتر كيرساناو. وهو - بالمناسبة - العضو المعَين بالهيئة من قِبَل الرئيس جورج دبليو بوش.

عن «معسكرات اعتقال جماعية على أساس عرقى» يتحدث المسؤول الأمريكى ببساطة شديدة، مؤكدًا أنه إذا «نفذت الهجمات مجموعة من نفس الأصول الاثنية التى ينتمى إليها أولئك الذين هاجموا مركز التجارة العالمى والبنتاجون، فإنك يمكن أن تنسى كل شىء عن حقوق الإنسان».

هذا إذن عالمُ مابعد الحادى عشر من سبتمبر. أو بالأحرى هذه هى أمريكا القرن الحادى والعشرين. والتى أصرَّت فى «ديربان» قبل قيامة سبتمبر أن يُذْعِنَ الجميعُ لما أرادت. وإلا فـ «من ليس معنا فهو ضدنا».. ولم يكن الشعار التهديدى الشهير قد ظهر بعد، ولكنه كان جاثما على صدر كل المحاولين فى كواليس مؤتمر مناهضة العنصرية يومها. كما كان واضحًا كل الوضوح فى قراراته التى خالفت، عندما صدرت، آراء الجميع لتتفق - وفقط - مع الإملاءات الأمريكية / الإسرائيلية.

إلى أمريكا القرن الحادى والعشرين، أو إلى أمريكا after September 11 إذا استعرنا التعبيرَ الأكثر شهرة، والذى يصرُّ عليه الكثيرون، سافر سلامة أحمد سلامة رئيس تحرير هذه المطبوعة، فى زيارة سريعة ليعود إلينا بـ «تقرير من واشنطن» يحاول فيه قراءة المشهد الأمريكى بتلافيفه وتعقيداته المركبة. مشيرًا إلى صعوبة هذه القراءة «ليس فقط لأن نظرة الزائر العابرة أشبه بنظرة طائر يطل على العموميات من عل فلا يرى غير التضاريس الرئيسية وقد لا يلتقط كل التفاصيل، ولكن أيضاً لأن التعتيم المتعمد والسرية الشديدة التى فرضتها إدارة الرئيس بوش على نفسها فى معظم سياستها، تجعل من الصعب حتى على أقرب المقربين وأوثق الحلفاء أن يستقرىء ما يجرى فى عقل الرئيس بوش وما يدور بخاطر الذين يعدون له الخطط والخطب ويلقنونه التصريحات والكلمات والإجابات التى يتعين عليه أن يدلى بها فى مؤتمراته الصحفية وخطبه العامة».

ويحكى سلامة أحمد سلامة ماحدث أثناء زيارته القصيرة لواشنطن حين تكاتف اللوبى اليهودى لإسقاط عضو الكونجرس الديموقراطى الأسود ايرل هيلارد عن ولاية الاباما بعد خمس دورات متتالية احتفظ خلالها بمقعده، وذلك لأنه ضُبط متلبسًا «بالجرم المشهود» بإبداء تعاطفه مع الفلسطينيين. وكيف أن كثيرًا من المراقبين المحايدين يعترفون «بأن اللوبى الصهيونى نجح فى تحالفه مع اليمين المسيحى المحافظ فى تكميم أى مناقشة حرة للأوضاع فى الشرق الأوسط. فلا يكاد يسمح إلا لأنصار إسرائيل بالتصدى للحديث والتعليق فى وسائل الإعلام، وسرعان ما يوصم غيرهم بمعاداة السامية إذا بدا من حديث الواحد فيهم أى نقد لإسرائيل حتى لو كان يهودياً. وحين ظهرت فى بعض صحف أمريكية مثل نيويورك تايمز ولوس أنجيلوس تايمز وسان فرنسيسكو كرونيكل التى لم تعرف طوال تاريخها بمعاداة إسرائيل، بعض التقارير التى تتحدث مجرد حديث ودون تعليق عن المذابح التى وقعت فى جنين أو عن الاحتلال الإسرائيلى، قامت حملة عنيفة تتهمها بالتحيز وعدم الموضوعية فى تغطية أحداث الشرق الأوسط، ومن ثم تدعو إلى مقاطعتها وإلغاء الاشتراك فيها. ونفس الشىء حدث مع محطة سى.إن.إن التى هددت إسرائيل بإغلاق مكاتبها لأنها نقلت بعض مشاهد لا ترضى عنها إسرائيل».



الجنون الأمريكى مابعد سبتمبر، واستثمار اللوبى الصهيونى له هناك، لا يبدو بعيدًا عن استقبال الأوساط الثقافية فى أوروبا وأمريكا لكتاب «طارق على الجديد عن صراع الأصوليات The Clash of Fundamentalisms والذى تعرض له «وجهات نظر» فى هذا العدد. وتتحدد فكرة الكتاب الأساسية بأن العالم يعيش حالة التمزق تحت وطأة الصراع القائم بين أصوليات مختلفة فيما بينها. الأول يكمن فى التنوع الإسلامى، والآخر فى «الامبراطورية الأمريكية - الأم الطبيعية لجميع أنواع الأصوليات». ففى حين احتفى الملحق الثقافى لجريدة التايمز TLS بكتاب سليل العائلة الباكستانية العلمانية النخبوية ذات الاتجاه اليسارى، والذى يعمل حاليًا فى لندن روائيًا ومخرجًا سينمائيًا، انتقدت الـ «نيويورك تايمز» الكتاب بعنف. إذ اعتبر كاتبها «جيرارد دوجروف» أن كتاب الناشط التروتسكى القديم، لم يكن سوى أجزاء مبعثرة لخليط ينقصه الإعداد الكامل، إضافة إلى لغته الصاخبة، وحشده بحكايات غير مناسبة وتفاصيل تاريخية زائفة. فضلاً عن أن الكتاب جاء سيئا كما تقول الـ «نيويورك تايمز» نتيجة إعداده بشكل سريع للحاق بأجواء الحدث «إذ تمنح الأزمات الكبيرة الكتّاب فرصة ذهبية للنشر». الكتاب فى التحليل النهائى للمطبوعة الأمريكية «لا يقوم إلا بتأجيج المشاعر السلبية. وهو يعيد استخدام أساطير ماركسية مستهلكة ونبرة خطابية حادة معادية لأمريكا».



أيّاً ما كان أمرُ اختلاف المثقفين هناك حول كتاب «طارق على»، فإن ما يعنينا يتمثل قبل كل شىء فى السؤال التالى :

أين تقفُ أمريكا ؟ وهل هناك من حكمةٍ فى المراهنة عليها ؟

الإجابة - وبغض النظر عن الأسباب والمبررات، ورغم أنف التنازلات والتواطؤات وحملات العلاقات العامة - تبقى سافرةً وفاضحةً فى الوقائع / المشاهد التالية :

١- قبل شهرين فقط يصوت ٢٥٢ عضواً بمجلس النواب مقابل ٢١، و ٩٤ عضواً من الشيوخ مقابل اثنين ، لإعلان « التأييد المطلق لإسرائيل». ويحرص ٤٢ حاكماً من حكام الولايات الأمريكية الخمسين على حضور اجتماع سكرمنتو الذى دعا إليه اللوبى اليهودى لتأييد إسرائيل .

٢- الثلاثاء ٢٣ يوليو: طائرة إسرائيلية إف ١٦ أمريكية الصنع تحلق فى «أجواء آمنة» كما يقول التعبير العسكرى . وفوق «أراض محتلة» وفق التعبير القانونى ، تقصف تحت جنح الليل مبنى سكنى فى أكثر أحياءِ غزة ازدحاماً وفقراً ، فتقتلُ فى فراش النوم ١٦ فلسطينياً بينهم تسعة أطفال ، وينتشل المسعفون فى ضوء المصابيح اليدوية مائة وخمسين جريحاً من تحت الأنقاض.

شارون يفخر بالعملية الناجحة فلا يفقد ثقة و «احترام» الرئيس بوش .

وعندما يجتمع مجلس الأمن (الدولى) ليبحث فى أمر المذبحة بطلب من المجموعة العربية ، يقف المندوب الأمريكى ليطالب علناً بقرار يندد بالإرهاب «الفلسطينى» (!!)

وربما لا مكانَ - منطقيًا - لعلامات التعجب هنا . فالقاعدةُ المنطقيةُ تقول إن «المقدماتُ تفضى طبيعياً للخواتيم».

وجهات نظر



كوندوليسا رايس



بـوش

التعتيـــم المتعمـد والسـرية الشـديدة التـى فرضتـها إدارة الرئيس بوش علـى نفسها فى معظم سياساتها، تجعل من الصعب حتى على أقـرب المقـربيـن وأوثـق الحلفـاء أن يسـتقرئ مـا يجـرى فى عقـل الرئيس بوش وما يدور بخاطر الذين يعدون له الخطط

سلامة أحمد سلامة

ضرب محور الشر

يبـدو أنه لابد أن يذهب المرء إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لكى يدرك حجم المشكلة التى باتت تواجه العالم العربى فى التعامل مع السياسات الأمريكية، ويحس عمق الهوة التى تفصل بين الجانبين. ليس فقط فيما يتعلق بقضية الصراع العربى الإسرائيلى والانحياز الأمريكى المعلن فى تأييد إسرائيل، ولكن أيضًا فيما يتعلق بالتحول الذى طرأ على الرؤية الأمريكية لمجمل الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى هذه المنطقة من العالم، وازدياد الاقتناع الأمريكى بالحاجة الملحة للتدخل المباشر للعمل على تغييرها بدون حاجة إلى انتظار التطور الطبيعى الذى يفضى إلى التغير الإصلاحى المطلوب.

تبدو سحب العاصفة وهى تتجمع من بعيد، يجرى التخطيط لها بدقة وإمعان فى القاعات المغلقة للبنتاجون والمخابرات المركزية والبيت الأبيض. ولكنها ترسل بين الحين والآخر بصيصًا من الأضواء الإعلامية العاكسة التى تتسرب إلى شاشات التليفزيون وصفحات الصحف، لتجهيز الرأى العام الأمريكى إلى اللحظة الحاسمة التى يتحتم عليه فيها أن يتحمل تكاليف بناء نظام محكم للأمن الأمريكى، يضمن التفوق الكامل والسيطرة التامة على كل عوامل الخطر ومصادر التهديد القائمة والمحتملة.. وهى مراكز للخطر تحددت سلفًا فى عدد من المواقع فى الشرق الأوسط. ولكن شريطة أن تتجنب واشنطن مخاطر الزج بقواتها فى عمليات التحام عسكرية مباشرة. وقد كانت أفغانستان هى «البروفة الأولى» لمغامرة كونية تستعد إدارة الرئيس بوش لخوضها فى مناطق أخرى من العالم مدعومة ومدفوعة بقوى المسيحية الصهيونية التى يزداد نفوذها على المؤسسة الأمريكية الحاكمة، مسنودة بمراكز الأبحاث والدراسات التى يمولها اليمين المحافظ تحت شعار «الحرب ضد الإرهاب».

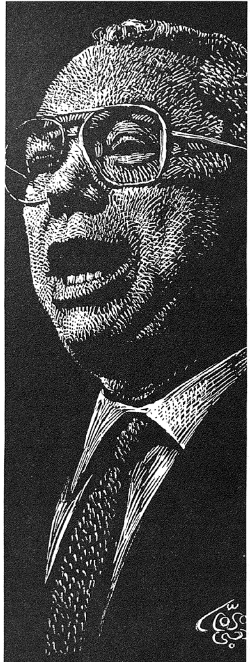


وفى البداية، لابد من تحفظ تفرضه الأمانة بقدر ما تفرضه صعوبة قراءة المشهد الأمريكى فى واشنطن بتلافيفه وتعقيداته المركبة، ليس فقط لأن نظرة الزائر العابر أشبه بنظرة طائر يطل على العموميات من عل فلا يرى غير التضاريس الرئيسية، وقد لا يلتقط كل التفاصيل، ولكن أيضًا لأن التعتيم المتعمد والسرية الشديدة التى فرضتها إدارة الرئيس بوش على نفسها فى معظم سياساتها، تجعل من الصعب حتى على أقرب المقربين وأوثق الحلفاء أن يستقرئ ما يجرى فى عقل الرئيس بوش وما يدور بخاطر الذين يعدون له الخطط والخطب ويلقنونه التصريحات والكلمات والإجابات التى يتعين عليه أن يدلى بها فى مؤتمراته الصحفية وخطبه العامة.

وقد قيل إن السبب فى إقدام كولين باول وزير الخارجية على الإدلاء بتصريحات صحفية عن الاتجاه لعقد مؤتمر دولى خلال شهر أغسطس يجرى خلاله بحث إقامة الدولة الفلسطينية المؤقتة أو ذات الحدود المؤقتة، ثم تراجعه عن ذلك وإغفال بوش كلية لهذه الفكرة فى خطابه الموعود أو المشهود، يرجع إلى أن دائرة ضيقة جدًا من معاونى بوش ـ لم يشارك فيها باول ـ هى التى عكفت على إعداد خطاب بوش حول الشرق الأوسط الذى ألقاه بعد ذلك، وضمت عناصر فاجأت الجميع: بما فى ذلك


تشيني


رامسفيلد


پاول

مقابل الحل

باول نفسه والأطراف العربية التى زارت أمريكا وتباحثت مع بوش ساعات طويلة فى مزرعته بتكساس، وفى كامب ديفيد قرب واشنطن.



منذ اليوم الأول لدى وصولى إلى العاصمة الأمريكية وجدتنى أتابع قضيتين دالتين تعبران دون مواربة عن الأجواء السائدة فى واشنطن وعن طبيعة المزاج الأمريكى الراهن والمشاعر الدفينة التى تحكمه وتحركه.

كانت القضية الأولى تدور حول «قسم الولاء» الذى يؤديه التلاميذ فى المدارس الأمريكية «أشبه بنشيد الصباح»، وفيه يؤكد التلاميذ ولاءهم أو حبهم للوطن «فى رعاية الله» أو «تحت حماية الله» أو «ببركة من الله» وكلها تعبيرات أضيفت أثناء الحرب الباردة عام ١٩٥٤ للربط بين حب الوطن والإيمان بالله، ولم تعجب هذه العبارة التى تقحم «الله» فى حب الوطن والد إحدى التلميذات فرفع دعوى أمام محكمة عليا فى كاليفورنيا يطالب فيها بإلغاء هذه العبارة من القسم الذى يفرضه المدرسون على التلاميذ، لأنها منافية للدستور الذى ينص على الفصل بين الدين والدولة أو بين الكنيسة والنظام السياسى. وما إن أصدرت المحكمة حكمها مؤيدة طلب الأب، حتى هاجت قوى اليمين المحافظ فى أمريكا وتظاهر أعضاء الكونجرس على سلالم مبنى الكابيتول هيل يقسمون عليه الولاء باسم الله تحديًا لقرار المحكمة. وصدر قرار بوقف تنفيذ حكم المحكمة تمهيدًا لنقضه فى محكمة أعلى. وقد وجدت هذه القضية أصداء بعيدة المدى لدى الرئيس بوش نفسه الذى انتقد الحكم. وتعمد فى خطبه يوم الاحتفال بعيد الاستقلال فى ٤ يوليو أن يصوغ خطابه فى عبارات دينية رنانة مؤكدًا على أن الحكمة والعناية الإلهية هى التى قادت خطى الشعب الأمريكى طوال ٢٢٦ عامًا.

لم تكن الأصولية الدينية فى أمريكا أقوى فى أى وقت آخر منها كما هى الآن. فقد امتزج الولاء للدين بالولاء للوطن بدرجة غير مسبوقة، غير أن الظاهرة الدينية فى أمريكا اتخذت أشكالاً أعقد بكثير من ذلك. فعلى حين يجنح اليمين الأمريكى إلى كراهية اليهود بينه وبين نفسه فى الداخل، تقوى وتشتد مناصرتهم لإسرائيل واليهود فى الخارج. وأظهر مثال على ذلك القس بيلى جراهام الذى أُفرج عن محاوراته مع الرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون أخيرًا، وفيها بدا - على عكس مواقفه العلنية المؤيدة لإسرائيل - متبرمًا من سيطرة اليهود على الحياة العامة فى أمريكا.

ويعترف كثير من المراقبين المحايدين بأن اللوبى الصهيونى نجح فى تحالفه مع اليمين المسيحى المحافظ فى تكميم أى مناقشة حرة للأوضاع فى الشرق الأوسط. فلا يكاد يسمح إلا لأنصار إسرائيل بالتصدى للحديث والتعليق فى وسائل الإعلام، وسرعان ما يوصم غيرهم بمعاداة السامية إذا بدا من حديث الواحد فيهم أى نقد لإسرائيل حتى ولو كان يهوديًا. وحين ظهرت فى بعض صحف أمريكية مثل نيويورك تايمز ولوس أنجيلوس تايمز وسان فرانسيسكو كرونيكل التى لم تعرف طوال تاريخها بمعاداة إسرائيل، بعض التقارير التى تتحدث مجرد حديث ودون تعليق عن المذابح التى وقعت فى جنين أو عن الاحتلال الإسرائيلى، قامت حملة

عنيفة تتهمها بالتحيز وعدم الموضوعية في تغطية أحداث الشرق الأوسط، ومن ثم تدعو إلى مقاطعتها وإلغاء الاشتراك فيها. ونفس الشيء حدث مع محطة سي. إن. إن التي هددت إسرائيل بإغلاق مكاتبها لأنها نقلت بعض مشاهد لا ترضى عنها إسرائيل.

على أن هذا التحالف بين اليمين المسيحي الصهيوني واللوبي الإسرائيلي لا يكاد يحظى منا في العالم العربي باهتمام كبير. وطبقًا لما نشر من أدبيات حول هذا التحالف، فقد اتخذ شكله الراهن بمشروع وضعه حزب الليكود عام ١٩٧٨، بهدف متواضع في البداية هو تشجيع الكنائس الأصولية الأمريكية على مساعدة إسرائيل. وتوطدت العلاقة بعد ذلك بين الطرفين أثناء حكومة نتنياهو. ولعب عدد من الشخصيات المسيحية اليمينية المعروفة مثل جيري فالويل وبات روبرتسون (الذي قام بتمويل محطة التليفزيون الناطقة بلسان سعد حداد المتعاون مع القوات الإسرائيلية في جنوب لبنان) دورًا مهمًا في دعم أواصر التعاون.

ويفسر يوري أفنيري - أحد الشخصيات الناشطة في حركة السلام الإسرائيلية - أسباب هذا الزواج الغريب، في الاعتقاد الراسخ لدى المسيحية الصهيونية بأن عودة اليهود من الشتات إلى فلسطين وإقامة دولتهم على كامل التراب الفلسطيني، سوف يحقق النبوءة التوراتية بالظهور الثاني للمسيح. ويضيف أفنيري أن النصف الثاني من النبوءة يقول بأن اليهود لابد حينئذ أن يعتنقوا المسيحية. ومن أعرض منهم فإن مصيره الهلاك في الهولوكوست العظيم «ارماجيدون». وتبدو النبوءة في صميمها معادية للسامية. ولكن دعاة اللوبي الصهيوني لم يكن يهمهم غير التأييد الذي يحصلون عليه لإسرائيل.

ولا يقتصر النفوذ اليهودي على هذا التحالف الديني السياسي، ولكن خطورة النفوذ الإسرائيلي تكمن في تأثيره على المؤسسة التشريعية: أي الكونجرس بمجلسيه النواب والشيوخ. ويقول أفنيري في مقاله المشار إليه «إن سطوة اللوبي الإسرائيلي المالية والانتخابية تلقي بظلالها على الكونجرس، مئات من أعضاء مجلس الشيوخ والنواب يتم انتخابهم بمساعدة مالية من المتبرعين اليهود. وأي تمرد على تعليمات اللوبي كفيل بانتحار العضو سياسيًا.

ولو أن منظمة «الإيباك» - أكبر منظمات اللوبي اليهودي للعلاقات العامة - دفعت بمشروع قرار لإلغاء «الوصايا العشر»: لما تردد ٨٠ عضوًا على الأقل بمجلس الشيوخ و٣٠٠ من النواب في التوقيع عليه فورًا.. وبنفس الدرجة ترهب «الإيباك» الميديا وتضمن ولاءها لإسرائيل».

مصداق ذلك ما حدث أثناء زيارتي القصيرة لواشنطن، حين تكاتف اللوبي اليهودي لإسقاط عضو الكونجرس الديمقراطي الأسود إيرل هيلارد عن ولاية الآباما، بعد خمس دورات متوالية احتفظ خلالها بمقعده.. وذلك لأنه ارتكب المعصية الكبرى بإبداء تعاطفه مع الفلسطينيين، وزيارته إلى ليبيا قبل عدة سنوات. وعلى الرغم من وقوف المنظمات العربية والإسلامية إلى جانبه، إلا أنها أخفقت في مقاومة النفوذ اليهودي الكاسح، وأخرج من السباق في الانتخابات التمهيدية ليحل محله مرشح يخضع بالكامل لتعليمات اللوبي اليهودي، ويتلقى المساعدات المالية لتمويل حملته الانتخابية بسخاء من نيويورك.

وقبل شهرين فقط صوت ٣٥٢ عضوًا بمجلس النواب مقابل ٢١، وصوت ٩٤ عضوًا من الشيوخ مقابل اثنين، لإعلان تأييدهم المطلق لإسرائيل. ويقول جيمس أبو رزق السناتور السابق والذي يرأس منظمة «العرب الأمريكيين ضد التمييز» أن هؤلاء الأعضاء لم يراجعوا ناخبيهم ويأخذوا رأيهم. وأن الأمر لا علاقة له بمدى تعاطفهم أو عدم تعاطفهم مع إسرائيل، ولكنه يتعلق بحجم الأموال والمساعدات التي تتدفق إلى حملاتهم الانتخابية. ويكفي أن نعرف أنه خلال أيام قليلة اندفع ٤٢ حاكمًا من حكام الولايات الأمريكية الخمسين، إلى الاجتماع الذي دعا إليه اللوبي اليهودي في سكرمنتو لإعلان تأييدهم لإسرائيل.

في ظل هذه الضغوط، لم يكن أحد يتوقع أن يكون خطاب الرئيس بوش عن الشرق الأوسط شيئًا آخر غير الخطاب الذي ألقاه. ومازال هناك اعتقاد جازم بأن بوش الأب فقد ولايته الثانية لمجرد أن تجرأ على أن يقول لإسرائيل أنها لا بد أن تدخل في سلام مع العرب. ولن يرتكب بوش الابن نفس الخطأ وهو على أبواب الانتخابات النصفية للكونجرس، كما أن شقيقه «جيب» لا يريد أن يخسر الانتخابات القادمة كحاكم لولاية فلوريدا.

لهذا السبب لم يكن احتفاء شارون بخطاب بوش أقل من احتفاء التحالف المسيحي الصهيوني به.. ومن يكون أشد مسيحية من بوش في مثل هذه الظروف؟

أما القضية الثانية التي فرضتها الأحداث على أجواء واشنطن، ورسمت صورة للمشهد الأمريكي بخطوطه العريضة، فقد دارت حول موضوع يثير خلافًا شديدًا في أمريكا، بشأن وضع الأمريكيين العرب والمسلمين في المجتمع الأمريكي. وهل يمكن اعتبارهم جزءًا لا يتجزأ من الشعب الأمريكي، بعد أحداث سبتمبر أم تستجيب السلطات الأمريكية للدعوات الصهيونية المتطرفة التي طالبت بطردهم وترحيلهم من الولايات المتحدة الأمريكية أو تحديد إقامتهم واعتقالهم كما فعلت أمريكا باليابانيين إبان الحرب العالمية. وظهر هذا الخلاف بصورة حادة عندما أعلن روبرت موللر رئيس جهاز المباحث الفيدرالية (إف. بي. آي) عزمه على الالتقاء بمنظمات الأمريكيين العرب والمسلمين، لطمأنتهم بعد الانتقادات الحادة التي وجهوها لخطاب بوش عن الشرق الأوسط وأعربوا فيها عن خيبة أملهم لانحياز بوش لإسرائيل. وشنت المنظمات اليهودية حملة عنيفة تطالب موللر بعدم التوجه إلى اللقاء أو الحوار مع الأمريكيين العرب، بعد أن ثبت أنهم قدموا تبرعات مالية وعينية إلى منظمتي حماس والجهاد الفلسطينيتين، اللتين كانت الحكومة الأمريكية لتوها قد أعلنت وضعهما على قائمة المنظمات الإرهابية.. ومع ذلك فقد ذهب موللر إلى الاجتماع الذي دعاه إليه المجلس الإسلامي الأمريكي ليقول للمسلمين الأمريكيين أنه يطلب تعاونهم ومساعدتهم في محاربة الإرهاب.

والأمر الذي لا شك فيه والذي يستنتجه المرء دون صعوبة كبيرة من خلال اللقاءات العارضة مع المسلمين الأمريكيين أو الأشخاص الذين تحمل ملامحهم وسحنتهم وربما أزياؤهم شبهة الانتماء إلى بلدان وشعوب الشرق الأوسط، إنهم يواجهون معركة حاسمة تضعهم بطريقة أو بأخرى تحت نوع من الحصار المعنوي والنفسي، الذي سرعان ما ينقلب إلى حصار حقيقي في الحياة العامة. وهي معركة متعددة الجوانب والأطراف: مع تيار يتخذ موقفًا عدائيًا من الإسلام ويسعى لتحويله إلى عدو للغرب بعد الشيوعية.. ومع المتعصبين من أشياع إسرائيل وداعميها الذين يرون في أي نشاط ذي صبغة إسلامية تهديدًا لوجود إسرائيل.. ومع بعض القوى الإسلامية التي ترى في نغمة الاعتدال والعقلانية وفي التعامل مع مؤسسات المجتمع الأمريكي السياسية والمدنية خيانة لصحيح الإسلام ولجماعة المسلمين. ومازالت قيادات الجماعات المدنية للمسلمين الأمريكيين بعيدة عن التواصل مع قواعدها، وينظر إليها على أنها مجرد مجموعة من الأشخاص الذين يبتغون النفع الخاص ويسعون لتحسين علاقاتهم مع السلطات الأمريكية.



هذه ملامح من الصورة ومن طبيعة الأجواء السائدة قد لا تكشف المشهد الأمريكي عن آخره. ولكنه قد يكتمل بنظرة فاحصة إلى التوجهات السياسية التي تحكم الإدارة الأمريكية تحت رياسة جورج بوش الابن.

فقد فاز بوش الابن في انتخابات الرياسة بصعوبة شديدة، أي ببضعة أصوات. أتاحت للتيار اليميني المحافظ أن يفرض رؤاه وفلسفته السياسية بكل قوة في أعقاب التوجهات الليبرالية التي ميزت إدارة كلينتون. ويعتبر بوش - بتنشئته وأفقه السياسي المحدود - خير تعبير عن هذا التيار المحافظ الذي يمثل ما يسمى بالعزلة الجديدة Neo-Isolationism وهي تختلف عن سياسة العزلة القديمة، في انتهاجها لسياسة خارجية تحجم عن التدخل الخارجي في القضايا الدولية، ويقتصر دورها على الدفاع عن المصالح الحيوية المباشرة. مع عدم التورع عن استخدام القوة العسكرية إذا لزم الأمر، ودون حاجة للاعتماد على مساندة الحلفاء أو التشاور معهم. وهو ما يعني العمل على تقوية الاستعداد العسكري الأمريكي ورفع درجته لمواجهة أي أوضاع طارئة تهدد المصالح الأمريكية.. ويعتبر تشيني ورامسفيلد وكوندوليزا رايس من أهم أركانه.

وقد ترتب على ذلك اتخاذ عدد من القرارات التي أثارت دهشة العالم ودهشة حلفاء أمريكا.. حين انسحبت أمريكا من معاهدة حظر الصواريخ البالستية، ثم خرجت على اتفاقية كيوتو للتغيرات المناخية بعد أن كانت أحد الموقعين عليها، وكان آخر الخطوات في هذا الاتجاه التراجع عن الانضمام إلى المحكمة الجنائية الدولية والتهديد بسحب قواتها من البلقان خوفًا من تعرض جنودها لأية مساءلة دولية.



وجاءت أحداث سبتمبر ٢٠٠١، لتدعم هذه الاتجاهات وتمنح القوى اليمينية المتشددة من رجال الرئيس صكًا على بياض لانتهاج سياسات أكثر تشددًا. واتخذت إدارة بوش من «الحرب ضد الإرهاب» حجر الزاوية في صياغة هذه السياسات وفي إقامة تحالف دولي يقدم غطاء لتقسيم العالم إلى دول «مع» أمريكا ودول «ضدها». فمن ليس مع أمريكا فهو مع الإرهاب، وهو جزء من محور الشر الذي آلت أمريكا على نفسها أن تضربه وتقضي عليه.

خلال الأسابيع الأخيرة كشفت إدارة الرئيس بوش عن «مبدأ عسكري جديد» تحدد بمقتضاه شروط الضربة الإجهاضية التي تقوم على مبدأ «اضرب أولاً واشرح فيما بعد». ووضعت استراتيجية عسكرية جديدة لتبرير هذا المبدأ، يتجاوز الاستراتيجية العسكرية السابقة التي لم تعد من وجهة نظرهم ملائمة لمواجهة مخاطر الإرهاب الدولي متمثلاً في بن لادن والقاعدة، وفي تهديدات الدول المارقة التي تملك أسلحة غير تقليدية - مثل العراق وإيران

جاءت أحداث سبتمبر، لتمنح القوى اليمينية المتشددة من رجال الرئيس صكًا على بياض لانتهاج سياسات أكثر تشددًا. واتخذت إدارة بوش من «الحرب ضد الإرهاب» حجر الزاوية في صياغة هذه السياسات وفي إقامة تحالف دولي يقدم غطاء لتقسيم العالم إلى دول «مع» أمريكا ودول «ضدها»





وكوريا الشمالية. ومثل هذه الاستراتيجية لا تتخذ بالضرورة أشكالاً عسكرية بعد أن دخلت الحرب الإلكترونية مجالات الصراع الدولى وتطورت بدرجة غير مسبوقة. وقد كشف الرئيس بوش عن هذه الاستراتيجية أخيرًا فى خطاب ألقاه فى قاعدة وست بوينت العسكرية: وقال فيه «إننا لو انتظرنا حتى يتم تنفيذ التهديدات، لكان علينا أن ننتظر طويلاً.. لا بد أن ننقل المعركة إلى العدو ونفسد خططه، ونواجه تهديداته قبل أن يجد الوقت لتنفيذها!».

من الواضح إذن أن بوش لا يكترث كثيرًا بميثاق الأمم المتحدة، الذى حددت المادة ٥١ منه معنى الدفاع عن النفس واشترطت فى تعريفه أن تتعرض الدولة لعدوان مسلح.. هنا لا يحتاج بوش إلى انتظار وقوع هجوم مسلح، بل يتخذ من مجرد «احتمال» وقوعه مبررًا لتوجيه ضربة مسبقة. وهو نفس المنطق الذى شنت به إسرائيل حرب يونية ٦٧، ودمرت بمقتضاه مفاعل العراق النووى عام ١٩٨١.

من هنا تبدو خطورة تنامى أنصار الاتجاهات الإمبريالية اليمينية داخل الإدارة الأمريكية. وما صحبها من تحريض متصاعد ضد العراق، ومن ارتقاء إسرائيل لدورها المركزى فى التأثير على السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط وبالأخص تجاه القضية الفلسطينية. وتبوؤها لمركز رئيسى فى المشروع الأمريكى الذى تحكمه أفكار التيار اليمينى المحافظ ذى النزعة المسيحية الصهيونية.

فتأييد إسرائيل ليس مجرد واجب دينى كما يرى أصحاب هذه النزعة، على أساس أن الرب قد وعد اليهود بأرض إسرائيل وأن بقاء إسرائيل شرط لعودة المسيح فى نهاية العالم، ولكنه يعبر عن اقتناع هذا التيار بحق إسرائيل فى أن تفعل بالسلطة الفلسطينية ما فعلته أمريكا بطالبان والقاعدة فى أفغانستان وما حولها باعتباره حربًا ضد الإرهاب وإجهاضًا لقوى الشر. والأولى بالإدارة الأمريكية - من وجهة نظر هذا التيار - ألا تقف فى وجه إسرائيل وحملتها ضد الإرهاب الفلسطينى. ومن ثم فإن المشكلة الحقيقية التى يجب أن تهتم الإدارة الأمريكية بها هى العراق وليس الصراع العربى الإسرائيلى. ولو نجحت أمريكا فى تغيير النظام العراقى، فسوف تنجح فى إقامة علاقة جديدة بين أمريكا والعالم العربى. وسوف يكون من السهل بعد ذلك تشجيع التحول الديمقراطى فى الدول العربية التى ظلت الأوضاع فيها مستعصية على الحرية والديمقراطية، وهى التى أنشأت تربة خصبة لمشاعر العداء والكراهية ضد أمريكا والغرب، وأنتجت تنظيم القاعدة وبن لادن والظواهرى وأشياعهما الذين دبروا الهجوم على واشنطن ونيويورك.. ومازالت تهديداتهم تتطاير فى أجواء المدن الأمريكية ومطاراتها فى أشكال وأوقات مختلفة.

فى هذا الإطار، وفى هذه الأجواء، وفى هذا السياق جرت وقائع اللقاءات التى جرت بين بوش والقادة العرب فى مزرعة بوش بتكساس مع الأمير عبد الله ولى العهد السعودى ثم فى كامب ديفيد مع الرئيس حسنى مبارك.

وطبقًا لمصادر مطلعة، شهدت تفاصيل المحادثات التى دارت بين الرئيس بوش والرئيس مبارك، فقد نجحت هذه المحادثات - وقتها - فى الحصول على وعدين قبل أن يلقى الرئيس بوش خطابه الذى أعلن أنه سيحدد فيه سياسة أمريكا إزاء الشرق الأوسط:

الوعد الأول هو الالتزام بتحديد إطار زمنى لقيام الدولة الفلسطينية. والوعد الثانى هو إعطاء عرفات فرصة أخرى لإصلاح الأوضاع الداخلية وإحكام سيطرته الأمنية، واستخدام كل نفوذه لوقف العمليات الانتحارية (الاستشهادية) بشرط ألا يعرف عرفات شيئًا عن هذه المهلة، ليظل تحت الضغط المستمر لتنفيذ إصلاحات جذرية.

وفى يوم ١٠ يونية بعد زيارة شارون لواشنطن التى قطعها بسبب وقوع حادث التفجير فى ريشون ليزيون وقتل فيه ١٥ إسرائيليًا، أدلى كولين باول بحديث لصحيفة «الحياة اللندنية» قال فيها: «إن شارون يعرف أننا لا نوافق على تفكيره بشأن استبعاد عرفات. فعرفات هو رئيس السلطة الفلسطينية، والحكومة الأمريكية تعترف بحكومته. وقد كررت ذلك عدة مرات من قبل».

ولكن بعد عشرة أيام، وقعت خلالها عمليات استشهادية متعددة. فى الوقت الذى كانت تجرى فيه كتابة خطاب بوش الذى سيحدد سياسته فى الشرق الأوسط وهو يتأرجح صعودًا وهبوطًا، وحذفًا وإضافة، وتعديلاً وتصحيحًا، طلب الملحق العسكرى الإسرائيلى فى واشنطن الالتقاء بأحد المسئولين فى مجلس الأمن القومى الأمريكى وأطلعه على صورة شيك بإمضاء عرفات بمبلغ ٢٠ ألف دولار، يصرف لأعضاء منظمة شهداء الأقصى، التى كانت قد أعلنت فى نفس اليوم مسئوليتها عن الحادث الانتحارى الذى وقع يوم ١٩ يونية.

وتقول الرواية التى تتداولها العاصمة الأمريكية، أن هذا الدليل كان حاسمًا فى تغيير موقف بوش ليتخلى ببساطة عن وعوده السابقة التى أعطاها للقادة العرب. وبعد أن عدلت مسودة خطاب بوش نحو ٢٨ مرة، حسم الرئيس الأمريكى موقفه، ووقف يعلن فى مؤتمر صحفى عقده بحديقة الورود فى البيت الأبيض، أنه إذا أراد الشعب الفلسطينى أن يحصل على دعم أمريكا لإقامة دولته، فلابد أن يختار قيادات جديدة لم تتلوث أيديها بالإرهاب. ويقال إن هذا «الدليل» الذى قدمته إسرائيل، هو الذى حسم الخلاف داخل الإدارة الأمريكية، من ناحية بين باول ورجاله فى وزارة الخارجية، الذين كانوا يرون اعتماد خطاب ينطوى على قدر من دبلوماسية الغموض الإيجابى الذى يترك ثقب إبرة لعرفات كى ينفذ منه.. وبين الصقور من أمثال ديك تشينى نائب الرئيس ورامسفيلد وزير الدفاع الذين حثوا بوش على ضرورة انتهاج سياسة قاطعة لا مكان فيها للمهادنة فى «الحرب ضد الإرهاب»، خصوصًا بعد أن تأكدت علاقات عرفات بالعمليات «الانتحارية»، وهكذا منى باول بهزيمة، سحبت زمام المبادرة من بين يديه وتركتها فى أيدى الصقور المتشددين فى مكتب نائب الرئيس تشينى ودوائر البنتاجون ومجلس الأمن القومى. وبالتالى سقطت فكرة المؤتمر الدولى للسلام الذى دعا باول إلى عقده هذا الصيف وذهبت أدراج الرياح. وعاد بوش بذلك إلى موقفه السابق الذى يعطيه الفرصة كاملة لتفادى الاشتباك مع شارون أو التورط المباشر فى مفاوضات مرهقة ومعقدة كالتى تورط فيها الرئيس السابق كلينتون دون جدوى. وقد أعاد بوش تأكيد مواقفه الجديدة أثناء لقائه بالزعماء الثمانية فى كندا، وضاعف هجومه على عرفات والسلطة الفلسطينية مؤكدًا أنه لا يمكن إقامة دولة فلسطينية على أساس الإرهاب والفساد الذى يعشش بين قياداتها.

ومعنى ذلك ببساطة أن الإدارة الأمريكية قد تخلت واقعيًا عن عمل أى شىء للخروج من الأزمة فى الوقت الراهن، بل حتى عن مطالبة إسرائيل بسحب قواتها، تاركة لشارون حرية التصرف.. فى انتظار أن تتحقق الأوضاع الجديدة لكى تفرز قيادات جديدة فى الأراضى الفلسطينية. وبعد أكثر من شهر من خطاب بوش، لم يطرأ أى تغيير على الموقف، فيما عدا ما تقوم به «الاجتماعات الرباعية» التى تضم ممثلين عن أمريكا والاتحاد الأوروبى وروسيا والأمم المتحدة من جهود لسد الفراغ بحجة الإشراف والمساعدة على عملية الإصلاح الأمنى والسياسى والاقتصادى التى طالب بها الرئيس بوش فى فلسطين فى انتظار ظهور قيادات بديلة لعرفات. وهو ما يتفق مع الآراء التى يعبر عنها تشينى ورامسفيلد من أن الصراع الفلسطينى الإسرائيلى لا يمثل تهديدًا حالاً للمصالح الحيوية الأمريكية فى الشرق الأوسط، على العكس من التهديدات التى يمثلها انغماس العراق فى تطوير أسلحة للدمار الشامل.



فى ضوء خطاب بوش الذى جاء صدمة للعالم العربى، رغم كل النيات الحسنة التى أبدتها النظم العربية والجهود المكثفة لمحاولة استخراج أفضل ما فيه من جوانب إيجابية، أو بعبارة أخرى لمحاولة استنتاج ما لا يمكن استنتاجه فيه طبقًا لقوانين القياس المنطقى التى تفترض وجود النتائج فى المقدمات بصورة ضمنية، فإن العاصمة الأمريكية باتت تئز بأفكار ومخططات جديدة تحمل طابع الإمبريالية اليمينية ذات الاتجاهات المسيحية الصهيونية. وتتبلور هذه الأفكار فى اتجاهات مختلفة ولكنها تصب جميعًا فى ضرورة استخدام القوة العسكرية الأمريكية طبقًا لمبدأ الضربة الاستباقية أو الضربة الإجهاضية بهدف إعادة ترتيب الأوضاع فى الشرق الأوسط. وتتفق هذه الأفكار على أن الاستراتيجية الأمريكية وصلت إلى مفترق طرق، ولم يعد أمام الإدارة الأمريكية إلا التدخل لمنع انزلاق الشرق الأوسط إلى حالة من الفوضى التى تجعل من المنطقة مرتعًا للإرهاب، على حد قول جيم هوجلاند فى مقال مهم ظهر بصحيفة «واشنطن بوست» يعبر عن وجهة نظر المتشددين فى الإدارة الأمريكية.

وتعتمد هذه الخطة على مشاركة الناتو أو بعض قوات أوروبية مع قوات أمريكية لتحقق هدفين: محاربة بؤر الإرهاب العالمية ودعم قضايا الديمقراطية فى العالم العربى بما يؤدى للحفاظ على بقاء إسرائيل. وذلك على عكس الداعين لحل القضية الفلسطينية أولاً، قبل أن تتدخل القوات الأمريكية لإزالة أسلحة الدمار الشامل من العراق وقيادته المتحررة. هذا الاتجاه الأخير لم يعد يلقى تأييدًا كبيرًا، بل تغلب الاتجاه الآخر كما بدا من خطاب بوش عن الشرق الأوسط. فقد فهم من الخطاب أنه أعاد ترتيب الأولويات على أساس أن حل العقدة العراقية سوف يسهل حل المشكلة الفلسطينية.. وكلما زاد الاستقطاب بين إسرائيل والفلسطينيين واتسعت الفجوة، كلما أصبح الغزو الأمريكى للعراق أكثر إلحاحًا. ومن بين الأفكار التى يزداد الاقتناع بها طبقًا لهوجلاند، إبقاء القوات الأمريكية فى الأراضى العراقية لعدة سنوات، ليصبح الوجود الأمريكى قاعدة انطلاق للتحول الديمقراطى فى العراق.. بما يجعلها نموذجًا للديمقراطية فى سائر دول المنطقة.. ويشجع على هذا الاتجاه أن معارضة روسيا وفرنسا للتدخل العسكرى الأمريكى فى العراق قد تضاءلت. وشرعت كل من الدولتين فى فتح قنوات اتصال مع المعارضة العراقية. ومن الواضح أن ثمة تنسيقًا مستمرًا بين إسرائيل وخطط الإدارة الأمريكية لغزو العراق.

لا يختلف هذا الاتجاه كثيرًا عن الاتجاه الذى ورد فى ورقة قدمها مارتن أنديك المسئول حاليًا عن مركز أبحاث الشرق الأوسط فى معهد بروكنجز الشهير القريب من الإدارة الأمريكية. وكان أنديك، هذا الأسترالى الأصل من أبرز أركان إدارة كلينتون



الدليل الذى قدمته إسرائيل كان حاسما فى تخلى بوش عن الوعود التى قدمها للقادة العرب.. وهو الذى حسم الخلاف داخل الإدارة الأمريكية، بين باول ورجاله فى الخارجية، وبين الصقور من أمثال تشينى ورامسفيلد لانتهاج سياسة قاطعة ضد الإرهاب بعد أن تأكدت علاقات عرفات بالعمليات «الانتحارية»!



ضــــرب محـــــور الشـــــر...

وسفيرًا سابقًا فى إسرائيل ومديرًا للإيباك اليهودية ووكيلاً للخارجية الأمريكية. وفى هذه الورقة يقترح أنديك وضع «خريطة عمل دبلوماسية» تقوم على توسيع نطاق عضوية «اللجنة الرباعية» بضم مصر والسعودية والأردن إليها - وهو ما حدث فعلاً - وتمارس هذه اللجنة ضغوطها على عرفات لكى يعتزل منصبه الحالى، ويتولى منصبًا رياسيًا شرفيًا، ويترك السلطة الحقيقية لرئيس وزراء منتخب، يشكل حكومة مسئولة أمام مجلس تشريعى منتخب (وهى الفكرة التى اقترحها يوشكا فيشر وزير خارجية ألمانيا فى مشروع مقدم إلى اللجنة الرباعية).

وفى هذه الأثناء يعود جورج تينيت مدير المخابرات الأمريكية لتنشيط «مجموعة عمل أمنية» تشارك فيها مصر والأردن لإعادة تشكيل أجهزة الأمن الفلسطينية بحيث تكون مسئولة عن وقف كل العمليات الإرهابية وأعمال العنف. ويتم خلال ذلك ترتيب انسحاب تدريجى للقوات الإسرائيلية من الأراضى الفلسطينية، دون ارتباط بجدول زمنى محدد.

ولكى لا ينشأ فراغ فى الأراضى الفلسطينية يسمح بعودة المقاومة وأعمال الإرهاب، فإن المجموعة الدولية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية - كما يقترح أنديك فى ورقته - سوف يعهد لها بوضع الأراضى الفلسطينية تحت سيطرتها. ويعقد مؤتمر دولى يعلن إقامة الدولة الفلسطينية «المؤقتة» ولكنه يضع الأراضى الفلسطينية (٤٢٪ من الضفة ومعظم قطاع غزة) تحت وصاية دولية بقيادة أمريكا لمدة ثلاث سنوات تحدد إسرائيل بدايتها ونهايتها. ويتم خلالها التفاوض بين الفلسطينيين وإسرائيل حول الحدود النهائية، وتجرى الانتخابات لقيادات فلسطينية جديدة تتسلم المسئولية السياسية، وهو نفس ما حدث قبل ذلك - كما يقول أنديك - فى البوسنة، وتيمور الشرقية، وأفغانستان. وما يمكن أن يكون قد تم إنجازه خلال هذه الفترة فى العراق.



من واشنطن، يبدو المشهد العربى عبر المحيط مثقلاً بكثير من الضغوط والمشاحنات والخلافات العربية العربية، الناجمة عن الجمود والعجز عن التصرف حيال التعقيدات التى تلف الأزمة. ولأسباب كثيرة، أحجمت الدول العربية وبالأخص كلٌ من مصر والسعودية عن المعارضة الصريحة لمبدأ بوش الذى أعلنه فى خطابه عن الشرق الأوسط والذى جعل نقطة الانطلاق فيه التخلص من عرفات. وتمسكت الدولتان بأن خطاب بوش حوى عناصر متوازنة تحدثت عن قيام دولتين فلسطينية إلى جانب الإسرائيلية، ولكن بعض جوانبه مازالت بحاجة إلى إيضاح. وربما تكون الاجتماعات التى عقدتها «اللجنة الرباعية» بالاشتراك مع «اللجنة الثلاثية» التى ضمت مصر والسعودية والأردن فى نيويورك، ثم الاجتماع الذى عقدته الثلاثية مع الرئيس بوش فى واشنطن قد ساعدت على تقريب الفجوة بين أمريكا والدول العربية، بالاتفاق على «معالجات» معينة، تستهدف بالدرجة الأولى تحقيق الأمن، كما تطالب به إسرائيل. وتخفيف المعاناة عن الشعب الفلسطينى وليس رفع الحصار أو إنهاء الاحتلال فى توقيت معين وإصلاح السلطة الفلسطينية وتجهيزها لإحداث تغييرات قيادية.. ولكن كل هذه «المعالجات» التى اقتربت من الموقف الأمريكى تظل مرهونة بموافقة شارون.. إنها أشبه بصندوق يملك شارون وحده مفتاحه. وليس بوسع بوش إن يُكرِهَهُ على استعماله رغم إرادته. ولن يمكن ترجمة هذه «المعالجات» التى قد تصاب بنكسة شديدة لدى كل عملية من عمليات المقاومة، أو قيام شارون بمذبحة من مذابحة المدبرة كما حدث فى المجزرة الأخيرة فى غزة التى قتل فيها ١٥ من المدنيين وأصيب عدة عشرات من الجرحى، إلا مع بداية عام ٢٠٠٣.. ولا أحد يتوقع أن تنهى إسرائيل احتلالها للأراضى الفلسطينية، لكى تتمكن السلطة من إجراء الانتخابات، حتى هذا التاريخ. إذ لن تكون إسرائيل قد انتهت من إقامة الحاجز الأمنى.. وفى أحسن الظروف فلن تتحقق غير فترة تهدئة على الجبهة الفلسطينية، تسمح لأمريكا بتنفيذ مخططها فى العراق.

وإذا كانت الدول العربية بسبب تهافت وتمزق أوراقها، قد آثرت انتهاج المبدأ القائل: «انضم إلى خصمك إذا عجزت عن هزيمته» IF You Can't Beat Them Join Them فإن الخصم يبدو مصرًا حتى النهاية على عدم ترك الباب مفتوحًا للتقهقر. فإسرائيل ترفض تجميد المستوطنات وغيرها من أساليب بناء الثقة. ولا تعبأ الإدارة الأمريكية بأن تدعو شارون أو تحثه على خلق الظروف الملائمة لإحداث التغيير المطلوب فى السلطة. بل على العكس رفضت حكومة شارون طلب بوش بالإفراج عن المبالغ المتجمدة لحساب السلطة الفلسطينية (٦٠٠ مليون دولار) وأقدمت على إغلاق مكاتب السلطة فى القدس. ولا يمكن فى هذا الإطار تجاهل الحملة التى تجددت بشأن اتهام مصر بالحصول على إمكانيات نووية بمساعدة صينية أو كورية. وكذلك تصعيد الضغط على سوريا بسبب إيوائها لمنظمات إرهابية ودعمها لحزب الله.. فضلاً عن استبعاد سوريا ولبنان اللتين تحتل إسرائيل بعض أراضيهما، من معظم الاتصالات والتحركات الجارية.

ليس من المتوقع فى ظل هذه الظروف أن تتحرك إدارة بوش، فى أى اتجاه من شأنه إثارة خلافات مع شارون ومع التيار اليمينى المحافظ فى الكونجرس. خصوصًا مع تفجر الفضائح المالية الأخيرة وانزلاق الأسواق المالية الأمريكية إلى أوضاع مضطربة واقتراب موعد الانتخابات النصفية للكونجرس. ومع ذلك فلا أحد يضمن بقاء الأوضاع المأساوية فى الأراضى الفلسطينية تحت السيطرة. والمستقبل يبدو محملاً بنذر خريف ساخن يصعب التنبؤ باحتمالاته.

فــرار الأمــريكان

من السياسة إلى الإيمان

ريتشـــارد ســـينيت

■■ ما الذى تعلمته الولايات المتحدة من الحادى عشر من سبتمبر؟ لقد أدت المذبحة إلى تصلب الشرايين ذات النزعة الأحادية فى الحكومة: ففى الوقت الراهن تجرى تسوية الكثير من الحسابات القديمة، مثل عزل كوبا وكوريا الشمالية أو معاقبة إيران، تحت اسم مكافحة الإرهاب. ومع أن الشعب الأمريكي لا يزال غاضبًا، فإن الكثيرين منه يزدادون حيرة من أمر العالم الواقع فيما وراء حدود أمريكا. وقد تتسم شكوى الأمريكيين العاديين التى ينطوى عليها تساؤلهم «لماذا يكرهوننا؟» بالسذاجة، ولكنها تتسم كذلك بسلامة النية وتستحق الرد عليها بإجابات صادقة.

ولكن من يمكنهم تقديم تلك الإجابات الصادقة عجزوا إلى حد كبير عن تقديمها. فالصحافة المطبوعة تنقل تأويل الحكومة على أنه حقيقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. وتزخر موجات الأثير ببرامج مثل The Military Diaries (المذكرات العسكرية) الذى ينتجه ر. ج. كتلر R.J. Cutler ويهدف إلى تقديم «الترفيه العسكرى». وكانت أفلام الدعاية الأمريكية والبريطانية فى فترة الحرب العالمية الثانية تنشر «مذكرات عسكرية» توضح للجنود وجهتهم، وما عليهم القيام به هناك، وأسباب قيامهم به. أما «الترفيه العسكرى» فهو على العكس من ذلك يركز على المشاعر؛ ذلك أن البرنامج الإذاعى يركز على ما يأكله الجنود، والموسيقى التى يستمعون إليها، وكم مضى من الوقت منذ آخر مرة مارسوا فيها الجنس.

وتوضح نزعة نخبوية لا واعية فى الصحافة الأمريكية إلى حد ما سبب اعتقادهم أن ما هو أفضل من ذلك قد يجعل الناس يشعرون بالملل. ولكن كما أشار المذيع التليفزيونى البارز دان راذر Dan Rather مؤخرًا، فإن زملاءه يخشون كذلك وصمة أن يبدو «غير أمريكيين». وبذلك تعكس الصحافة انهيارًا عامًا لليسار الأمريكى عقب الحادى عشر من سبتمبر.



وفى اليوم التالى مباشرة للهجوم، ربما بدت مناقشات الآثار السلبية للنفوذ الأمريكى فى غير وقتها إلى حد كبير. فقد انقلب جمهور القراء ضد سوزان سونتاج Suzan Sontag التى ربطت، فى مقال نشرته فى مجلة «نيويوركر» New Yorker عقب التفجيرات مباشرة، بين النفوذ الأمريكى والغضب القاتل الآتى من الخارج. وكثيرًا ما كان نصيب أستاذ العلوم السياسية تشالمرز جونسون Chalmers Johnson وهو المحلل الجاد والمحافظ ـ تلويث سمعته على أيدى أناس لم يقرءوا كتابه Blowback: The Costs and consequences of American empire (الارتداد: ثمن الامبراطورية الأمريكية وعواقبها)، كما لو كان قد صدق الفرضية الشائعة القائلة إن «أمريكا هى التى جلبته لنفسها». ولكن الصدمة النقدية ما زالت قائمة؛ فالتحليلات التى تتناول لا عقلانية الأصولية الإسلامية فى تزايد، فى الوقت الذى لا تزال فيه مناقشات الآثار العالمية للنفوذ الأمريكى على استحيائها.

ولدى اليسار الأمريكى السبب الذى يجعله منشغلاً بإثبات أن له موقفًا يتسم بالإخلاص والولاء. ويمكننا إرجاع الخوف من أن يبدو المرء «غير أمريكى» إلى حرب فيتنام من ناحية، ومن قبلها إلى المكارثية McCarthyism من ناحية أخرى. إلا أن تعافى الجماهير بصورة عامة من الصدمة المكارثية كان أسرع من تعافى المفكرين، الذين كانوا يرون أن التواطؤ ـ بعلم أو بدون علم ـ مع قوة شمولية أجنبية مسألة باقية لا يمكن الفصل فيها. ولا يزال جيلى يحمل جرحًا محليًا من حقبة فيتنام لن يندمل أبدًا؛ فمعظم الشباب فى الجامعات كانت لديهم الوسائل للهروب من الخدمة العسكرية، وهو ما كان يعنى أن يحارب الفقراء وغير المتعلمين تعليمًا عاليًا فى الخارج بدلاً منا. وهذه الوصمات التى تلطخ شرف اليسار المدنى أتت على قدرة عناصر بعينها على التحدث إلى الآخرين بإيمان صادق.

وتشمل العقبة الأكثر عمومية، التى تحول دون النقاش النقدى المتعلق بشأن الدور الذى قامت به أمريكا فى مشاكلنا الراهنة، المصيرين المتقاطعين للهوية الأمريكية والدين. فغالبية الأمريكيين يؤمنون بالوجود المادى لجهنم، كما تؤمن أقلية كبيرة من المسيحيين أنها اتصلت اتصالاً مباشرًا بالروح القُدُس. وأدى هذا التدين الراسخ بالأمريكيين إلى دعم المستشفيات والمدارس والجمعيات الخيرية التى تقوم على أسس إيمانية. فالدين يؤدى إلى تماسك المجتمع المدنى، وهو ما لا تفعله الحكومة.



نانسى ريجان، جورج بوش، وترنت لوت زعيم الأقلية فى الكونجرس.. أثناء الصلاة



وقد يبدو أن الإيمان الذى لا ينفصل بالرب والوطن هو الذى يحدد كل شيء يعتز به الأمريكيون فى العالم الأكبر. ولكن الصورة أكثر تعقيدًا من ذلك. فقد وضع الجمهور العام منذ مذبحة سبتمبر خطًا ثابتًا بين الإسلام فى حد ذاته والإرهاب ـ وهو كذلك ما فعله الرئيس الأمريكى، الذى يعود إليه الفضل الكبير فى ذلك؛ ويشير استطلاع للرأى أجرى مؤخرًا إلى أن اكثر من ٧٠ بالمائة من الشعب الأمريكى يرفضون الفرضية التى تفتقر إلى العلم وتقول إن الإيمان بالإسلام «يؤدى إلى السلوك العنيف». وتكشف المواقف تجاه إسرائيل عن تعقيد مشابه. فكثير من الأمريكيين اليمينيين، ويمثلهم بيلى جراهام Billy Graham (الذى أفرج مؤخرًا عن أحاديثه المسجلة مع الرئيس نيكسون عن «السيطرة القوية» لليهود على الولايات المتحدة)، معادون للسامية فى الداخل ومدافعون بقوة عن إسرائيل فى الخارج. ولدى اليهود الأمريكيين مواقف تجاه إسرائيل نفسها أكثر تشوشًا من تصريحات زعمائنا الدينيين، حيث يخشون من أن تشكل عواطف الأصوليين اليهود تهديدًا لقدرة إسرائيل طويلة المدى على البقاء.

ومع ذلك فإن طارق على محق فى تسمية كتابه الجديد The Clash of Fundamentalisms (صراع الأصوليات)، كطريقة لتسمية من يحددون الصراع الحالى، وإن كنت لا أظن أنه فهم الأسس الأمريكية الخاصة بالله والوطن فهمًا صحيحًا. فطارق على سليل العائلة الباكستانية العلمانية النخبوية ذات الاتجاه اليسارى، والروائى والمخرج السينمائى الذى يعمل حاليًا فى لندن، يرسم خريطة اشتباكه النقدى مع الإسلام وقوى التشدد الموجودة داخله. والكتاب من أربعة أجزاء هى مراجعة عامة وسريعة للتنوير الإسلامى وانهياره، وبحث أدق تفصيلاً فى العلاقة بين اقتصادات البترول والحركات الدينية فى الشرق الأوسط، ثم السياسة والدين فى باكستان وأفغانستان وكشمير، وأخيرًا نقد قصير وحاد للطرق التى اتبعتها السياسة الخارجية الأمريكية لتضليل العالم الإسلامى.

وقد كُتب «صراع الأصوليات» بأسلوب رفيع وبقدر كبير من الذكاء والحيوية. ونأمل ألا تكون إحدى الفتاوى من نصيب هذه الدراسة الرائعة؛ ومع أن طارق على لا يزال على علمانيته، فهو شديد الوعى بالطريقة التى يمكن بها للإسلام توفير إحساس بالكرامة والعزيمة للفقراء. وما نطلق عليها «أصولية» تمثل إلى حد ما رد فعل تجاه الانهيار الكونى لتلك المؤسسات التى كانت تقيم أود الفقراء فى الماضى.



أما الثقافة الأخرى التى فى صراع الثقافات الذى يصوره هو فمصنوعة من مكونات شديدة الاختلاف. فالأصولية الأمريكية الخاصة بالله والوطن ليست مجرد غطاء للحكم الكونى، بل إنها تمثل تجربة دينية تفرق بين الذات والعالم، مع وجود بعض المؤسسات المهيمنة الثابتة فى الوسط. وقد لاحظت المؤرخة المعاصرة فرانسيس فيتزجيرالد Frances Fitzgerald أن العاطفة الدينية الأمريكية شديدة الفردية وتتجه للداخل، وذلك بسبب أصولها التطهرية. وإذا بدت التطهرية مهددة باستمرار من الفساد الأخلاقى، فإن أزمات

1-The Clash of Fundamentalisms: Crusades, Jihads and Modernity
(صدام الأصوليات الحروب الصليبية والجهاد والحداثة)

Tariq Ali

Verso, 2002, 852P.

2- Two Hours that Shook the World, September 11, 2001: Causes and Cosequences
(ساعتان هزتا العالم ١١ سبتمبر ٢٠٠١.. الأسباب والنتائج)

Fred Halliday

Saqi, 2002, 256P.

فى الوقت الراهن تجرى تسوية الكثير من الحسابات القديمة، مثل عزل كوبا وكوريا الشمالية أو معاقبة إيران، تحت اسم مكافحة الإرهاب

الإيمان كانت تهدد الأفراد أكثر من تهديدها لأحياء المدينة؛ فقد كان الضمير الفردى وليست البيروقراطيات الكنسية هو صلب العقيدة.

والآن، وكما كان الحال فى البداية، يتحدث الضمير فى أى مكان ـ فقد كان يتحدث إلى التطهرى الذى يتجول فى الغابة فيما مضى، والآن يتحدث إلى من يستمعون إلى الإذاعة الدينية وهم يقودون سياراتهم. وإعطاء الصبغة الفردية للإيمان هو السبب، على سبيل المثال، فى أن الكثيرين من الأمريكيين، الذين يعتقدون أن لهم اتصالاً شخصيًا بالإله، يصلون لهذا الاعتقاد من خلال تحليلهم لسلوكهم وليس من خلال دراستهم للكتاب المقدس. وحين حلل ويليام جيمس William Jamesظاهرة اعتناق عقائد جديدة منذ قرن مضى، كان يظن أن إعجاب الأمريكى بأن يصبح المرء «مولودًا من جديد» يكمن فى الرغبة فى تغيير نفسه وليس فى الامتثال لما أمر به الرب. وهذه هى أصوليتنا، أى أصولية الشخص.

وتشجع فيتزجيرالد دراسة السياسة الخارجية، باعتبارها سياسة تعكس بشكل مباشر هذه الرؤية الدينية شديدة الفردية. فهى ومدرستها ترجعان المنطق الدينى لدرع الصواريخ الأمريكى، على سبيل المثال، إلى خوف المدينة من التلوث الفردى من الخارج: فانتهاك الأخلاق لا يأبه بالمصلحة العليا؛ وبذلك تبدو قوى كوريا الشمالية النووية فى إطار الوعى بالخطر أكبر من ترسانة روسيا. وتصبح الأصولية الإسلامية، حين تُفهم على أنها خضوع الضمير الفردى للحكم الجمعى، غريبة إلى حد كبير؛ ويسير التمسك بالنظام الدوجماتى فى اتجاه معاكس تمامًا لتجربة التحول الداخلى الذى ينبغى أن تحرر المرء من أغلال العادة والمؤسسات. والواقع أنه فى أمريكا القرن التاسع عشر كان البروتستانت الوطنيون يشككون فى كاثوليكية المهاجرين «الخانعة» بلغة تشبه إلى حد مخيف تلك المناقشات التى تدور حول الأصوليين الأجانب فى الوقت الراهن.

وبطبيعة الحال فإن «هناك» عالمًا حقيقيًا، وفى لحظات الأزمة ـ كما حدث إبان الحربين العالميتين ـ كان الناس يستجيبون له فى نهاية الأمر. وليست أصولية الفرد أصولية أنانية وحسب، بل إنها تقود إلى احترام صادق تجاه الآخرين، ولكن من زاوية أمريكية مميزة.

وتتضح الطريقة التى يعمل بها الآن هذا الاتجاه إلى الخارج فى عقول المفكرين فى إعلان نوايا بعنوان «ما الذى نحارب من أجله»، كتبه ديفيد بلانكنهورن David Blankenhorn رئيس معهد القيم الأمريكى ويحمل توقيعات نقاد أقوياء آخرين للمجتمع الأمريكى مثل الفيلسوفين جان بيتك الستين Jean Beathke Elstain ومايكل والزر Michael Walzer، وعالم الاجتماع فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama وروبرت بوتنام Robert Putnam، وليس إعلان النوايا هذا مجرد وطنية متعصبة، ولا يدعو بلانكنهورن ومن وقعوا معه إلى مبدأ «العين بالعين». بل إن هدفهم هو بيان أن هناك أوقاتًا لا يكون فيها شن الحرب مسموحًا به أخلاقيًا وحسب، بل ضروريًا من الناحية الأخلاقية، للرد على أعمال العنف المأساوية والكراهية والظلم. وهذا وقت من تلك الأوقات.

ولكى يبرروا موقفهم، فإنهم يناشدون بتلك «القيم الأمريكية» التى لا تخص أمريكا وحدها، بل يشترك فيها ميراث البشرية فى واقع الأمر. وهم يناشدون بصورة أمريكية من الإيمان بالدين باعتبارها أهم تلك القيم. وبينما يعترف بيان المثقفين الأمريكيين بأنه «ليس هناك تراث دينى يتسم بالكمال»، فإنهم يرفضون ما يسمونه «العلمانية الأيديولوجية». (توضح إحدى الحواشى أنهم يقبلون فصل الكنيسة عن الدولة ولكنهم ضد «رؤية العالم التى تقوم على رفض الدين أو معاداة الدين»). وما يؤكدونه هو أن الإيمان بالدين «بُعد مهم من أبعاد الفردية». والواقع أن الإعلان يركز على إبراز صوته الخلاق؛ وبينما يبدو أن الدين، شأنه شأن الوطنية، يوحى بخضوع الذات أو محوها، نجد أن التركيز هنا على «من نحن».

وما لا يوضحه البيان هو كيف سيؤدى الإيمان «باعتباره بعدًا مهمًا من أبعاد الفردية» إلى ضم كوريا الشمالية إلى «محور الشر» الذى تحدث عنه الرئيس بوش. ولا تقيّم الوثيقة أخلاقيات الاستراتيجية الأمريكية الفعلية فى منطقة أفغانستان؛ بل إنها تصر على حقيقة العامل الأخلاقى الخالصة. وأنا أفهم أن تشن الحرب للقضاء على مخزون المجنون صدام حسين من الأسلحة البيولوجية والكيماوية، ولكنى لا أفهم أن تكون لفرديتى علاقة بذلك.

ويكمن منطق «ما الذى نحارب من أجله» فى الانتقال من «أنا أؤمن» إلى «أنا مخلص للمبادئ الأمريكية» إلى النتيجة التى تقول إن «شن الحرب ضرورى من الناحية الأخلاقية». وما يغيب عن هذا المنطق ـ وقد أحيل إلى غياهب العلمانية ـ هو الاقتناع بأننا قد نكتشف مبادئ أخلاقية معيارية فى علاقات البشر المتينة ببعضهم البعض ـ وهناك إقرار عام بأنها مهمة اقتصادية وسوسيولوجية وسياسية شاقة. ويتجاوز منطق الإيمان كل هذه التفاصيل التى يصعب علاجها. وبذلك فإن «ما الذى نحارب من أجله» يبرر، رغم الاختلاف الطفيف فى درجاته وإنسانيته، تسمية طارق على للحظة الراهنة بأنها صراع أصوليات.

وأنا لا أقصد بهذا النقد أى تعليق على إيمان من كتبوا الإعلان. فالخطأ هو أن الإعلان يفعل القليل من أجل إلقاء الضوء على الأخلاقيات التى تليق بالقوة العظمى. وقد وظف كتاب فريد هاليداى Fred Halliday وعنوانه Two Hours That Shook the World «ساعتان هزتا العالم» تلك المسألة بعرض تاريخ تواطؤ أمريكا السابق مع أعدائها الحاليين. وهاليداى الخبير البريطانى بشئون كل من منطقة أفغانستان والشرق الأوسط، ليس معاديًا آليًا لأمريكا. فهو يرى العدالة الحقيقية فى الحملة الأمريكية ضد العراق قبل عقد من الزمان، وإن لم تنطو على عدالة سماوية؛ فقد كانت ترسانة صدام الكيماوية والبيولوجية هى التى بررت الحرب. وهو متشدد كذلك بشأن النخب الإسلاموية؛ ذلك أنه مثل طارق على يعتقد أن التخلى عن مسئوليتها المؤسساتية تجاه شعوبها ساعد على خلق تلك الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تنتعش فيها الأصولية الخلاصية.

وتخلق القيود الزمانية الخاصة بالإنتاج صعوبة ما تتعلق بهذا الكتاب. فمع أنه نُشر فى الولايات المتحدة وحسب، فلم يظهر فى بريطانيا إلا بعد بضعة أشهر من مذبحة سبتمبر؛ ولا تتحد مجموعة هاليداى من الكتابات المتنوعة على مر سنوات كثيرة فى مركز اهتمامها. ولكن هناك حقيقة غير مريحة تتخلل الكتاب بكامله. إذ يوضح هاليداى التواطؤ الأمريكى فى الماضى مع من يهددون أمن أمريكا الآن ـ وهو ليس تواطؤًا مع الشر، وإنما تواطؤ مع الشرير. «والمعاداة الاستراتيجية للإسلام» سياسة يرجعها هو إلى سياسة البترول، وبالأخص إلى أزمة البترول فى عام ١٩٧٣، وفى اللعبة الأخيرة لعبت أمريكا ضد الإمبراطورية السوفيتية. وكأى من ممارسات السياسة الواقعية، كانت «المعاداة الاستراتيجية للإسلام» تشتعل وتخبو حسب الظروف، وهو ما جعل الولايات المتحدة تدخل منذ عقد مضى فى علاقات ودية مع طالبان فى السر. وفى فصل عن السياسة الداخلية السعودية، يبحث هاليداى مرونة أمريكا بشأن خداع الأسرة الحاكمة، والعناصر التى كانت تمول المنظمات التى كانت بدورها تمول الإرهاب. وربما تقرأية سياسة خارجية أخلاقية، على أقل تقدير، المكان والزمان الذى يتحتم فيه التنازل عن بعض القيم من أجل قيم غيرها.

وفى قلب الكتاب تكمن رؤية أخلاقية أكثر إيجابية وبساطة فى التحليل المحكم الذى يقدمه هاليداى للإرهاب كما يفهم «من أعلى» مقابل فهمه «من أسفل». ولكى يعيد طرح هذه المقولة بشكل بسيط، يفرق هاليداى بين «الإرهاب» كتهديد لأمن الآمنين و«الترهيب» الذى هو تهديد القوة من أعلى لمن هم أدنى. وفى هذا السياق تتضمن كل ديانة من الديانات الكبرى نصًا لمناقشة الحرب العادلة، والظروف التى فى ظلها يكون استخدام القوة مشروعًا، ونوع القوة التى يكون من المشروع استخدامها.

ويقول هاليداى إنه لهذا السبب فإن الشكل الفج لـ «مطابقة الإسلام بالإرهاب فيه إساءة استغلال للمصطلح الأخير من أجل أغراض سياسية مثيرة للجدل.... إذ يقصر مناقشة الإرهاب على الدول المسلمة وحدها». ولا يعارض الموقعون على «ما الذى نحارب من أجله» ذلك ـ من حيث المبدأ. إلا أنهم ليسوا مهتمين بما قد يشعر به من لا تقبلهم أمريكا من رعب من قوتها، ولا بالعواقب غير المنطقية الناجمة عن كراهية المرء لعجزه، على الجانب الآخر.



قد يكون هناك اعتراض على عدم وجود عامل تهدئة فى كلام هاليداى الصريح إلى عائلات ضحايا الحادى عشر من سبتمبر، أو على طلبه الزائد عن الحد حين يريد من شعب ما أن يكون ناقدًا ذاتيًا بشأن قوته. ولكنه هو وطارق على يطرحان، وبطريقتين مختلفتين تمامًا، سؤالاً مُلحًا، هو كيف يمكن تأكيد سلامة السياسة العلمانية؟ لقد كانت الولايات المتحدة، مثلها مثل معظم الديمقراطيات الغربية الأخرى، تشهد سقوطًا سريعًا لكل من مشروعية العملية السياسية والساسة فى الجيل السابق. والتهاون بشأن الأخلاق السياسية لا يترك سوى خيارين، هما العودة إلى المشاهد السينمائية ـ وهو ما يمكن تسميته بأسلوب بيرلسكونى Berlusconi Way الذى تناسب فيه المشاهد السينمائية الخاصة بـ «الترفيه العسكرى» الجميع بشكل مأمون جدًا ـ أو اللجوء إلى الدين كمرشد للسياسة.

إن نزاهة السياسة أمر يحتاجه المفكرون الأمريكيون بشدة. فكوننا موصومين فى بعض الأحيان بعدم صدق الإيمان، وفى أحيان أخرى بالنزعة النخبوية غير الواعية، فإننا لم نعد أصواتًا انتقادية موثوقًا بها تعبر عن شعبنا. وليس استعادة تلك المشروعية عن طريق اللجوء إلى العاطفة الدينية، بالولوج بحذر فى «الفردية» الدينية، سوى إعلان عن أن المثقفين هم كذلك أمريكيون صالحون. ويقول فريد هاليداى صراحة إن النفوذ الأمريكى أثار «الظلم الكونى والعداوة الكونية». وهو ما يعنى أن الرد على سؤال «ما الذى نحارب من أجله»، هو أن نيتنا سليمة. وهذا يعادل التراجع عن السياسة؛ وهو ما لن يفيد بكل صراحة. ■

بترتيب خاص مع TLS

ترجمة أحمد محمود

في الذكرى الأربعين لاستقلالها

الجزائر

بين تغييب الجغرافيا وإحباط الحاضر!

محمد الميلي

مجندات جزائريات في جيش التحرير الوطني



برز دور مدينة الجزائر منذ القرن السادس عشر عندما اتجهت امبراطورية ناشئة هي أسبانيا المسيحية إلى احتلال بلدان المغرب العربي خاصة مدنه البحرية، بعد أن نجحت في القضاء على آخر دويلات الأندلس، وهي دولة بني سراج في غرناطة

■■ لم يكن هناك من تصور أن موقع «ارجيل» كما كانت تسمى في العهد البربري (ومعناه المكان المغطى) سوف تصبح له مكانة معتبرة منذ القرن السادس عشر الميلادي.. وكانت قد عرفت باسم «اقسيون» في العصر اليوناني، وهي كلمة مشتقة من كلمة «إيقوسى» اليونانية وتعني «عشرين». يقال أن تلك التسمية مرتبطة بعدد الجزر والصخور التي كانت توجد في مدخلها. ويقال أن ذلك يرجع إلى أسطورة يونانية خلاصتها أن عشرين من رفاق «هرقل» انفصلوا عنه عندما أبحر في طريق عودته من بحر الظلمات إلى اليونان. وإذ لم يتفقوا على تسمية واحدة لهذا الموقع أطلقوا عليه «عشرون» وهو الرقم الذي يعبر عن عددهم كلهم.

بعد ذلك بعدة قرون استقرت بالمكان قبيلة «بني مزغنة» وهي من فروع صنهاجة التي كانت تقطن المناطق التَّلِّية الممتدة من القبائل إلى مصب نهر الشلف. لذلك عرفت «اقسيون» أو «ريقسيوم» في المنطق اللاتيني باسم «جزائر بني مزغنة»، واقتصروا على «الجزائر» بعد ذلك وهو الاسم الذي اشتهرت به خاصة بعد أن سعى «بلقين بن زيري» الصنهاجي إلى إعمارها، قبل أكثر من ألف سنة.

ولاشك أن هذا الموقع على البحر كان أحد العوامل التي ترشحها لأن تتطور وتندمج في ركب الحضارة. فالفضاءات البحرية من شأنها أن تجذب الانسان الذي يبحث عن الثروة والمغامرة والشهرة. فليس من قبيل الصدفة أن يشغل البحر حيزًا كبيرًا في ألف ليلة وليلة، عبر رحلات السندباد البحري ومغامرات «خطّاف العرائس» والممالك التي يسيطر عليها سلاطين الجان في أعماق البحار. إن فضاءات البحر الخالية من العمران الثابت تفسر إلى حد كبير نشأة وتطور الحضارات التي قامت على ضفافه منذ أقدم العصور مثل الحضارة المصرية واليونانية ثم الرومانية.



وتشبه الفضاءات الصحراوية البحار في كونها هي الأخرى كان لها دور في نشأة وتطور حضارات تشكلت حول الواحات. يؤكد ذلك التسمية التي كان أطلقها العرب على الجمل «سفينة الصحراء». هناك أوجه شبه بين فضاءات البحار وفضاءات الصحراء: فمن الحضارات البحرية، لؤلؤ، مرجان إلخ.. وكذلك بسبب نشاط القراصنة، كما تطورت مدن الواحات الصحراوية بفعل ما تشتمل عليه هذه من حدائق وثمار ونخيل، وكذلك بسبب المغانم التي يتحصل عليها فرسان البدو الرحل إثر غاراتهم وفي غزواتهم.

ولعل أحد الفروق الأساسية يتمثل في كون الفراغات الصحراوية تشكل عامل طرد لسكانها، بينما تكون فراغات البحار عامل جذب للمقيمين على شطآنها، وفي كلتا الحالتين تمثل المسالك الصحراوية والمسالك البحرية أحد عوامل ازدهار التجارة التي تؤمن إيصال بضائع وسلع إلى حيث يكون الطلب عليها شديدًا والأرباح التي توفرها مرتفعة.



لكن كلا من الموقع البحري والصحراوي لا ينتج حضارة إن لم يتعانق فيه التاريخ مع الجغرافيا. لأن «الجغرافيا لا تقتصر على دراسة الأرض، إنها تمتد وتشمل كل ما هو حي على سطحها، خاصة الإنسان، والحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبشر» حسب تعبير أندريه سيجفريد.

إن هذا التعريف للجغرافيا يجعل هذه ملتحمة مع التاريخ، في علاقة عضوية تفسر كون كل منهما يعتبر أقدم علوم الأرض، ويتداخل كلاهما مع أولى خطوات الفكر الإنساني، وهذا يعني أن التاريخ هو علم وليس فنًا أو أدبًا فقط، كما حسم في ذلك لوي بوردو منذ عام ١٨٨٨ عندما أكد على أن التاريخ هو «علم ولا يمكن أن يكون غير ذلك».

هذا التلازم هو الذي جعل «بروديل» يستعمل مصطلح «جيو تاريخ» في كتابه «مطامح التاريخ»(١)، ويعرف هذا المصطلح بأنه «هو التاريخ الذي يفرضه المحيط على الناس بما يتضمنه من ثوابت، وهو ما يحدث غالبًا، أو بتقلباته الخفيفة عندما يترتب على هذه عواقب إنسانية». ثم يضيف «إن الجيو تاريخ هو أيضًا تاريخ الإنسان في صراعه مع فضائه، مكافحًا ضده على امتداد حياته الشاقة المجهدة، منتصرًا عليه، متحملاً له مقابل أعمال مدعوة دومًا لأن تتجدد».

إن هذا الترابط بين التاريخ والجغرافيا هو ما تنبه له العظماء في الفترات الحاسمة من تاريخ شعوبهم.

وهذا ما يفسر المكانة التي اكتسبتها مدينة الجزائر منذ أصبحت عاصمة للمغرب الأوسط في العهد العثماني. اكتسبت تلك المكانة بقانون الجغرافيا، «لأن الذي يريد الكلام في السياسة عليه أن يضع أمامه خريطة ينظر إليها ويدرس ألوانها وخطوطها، وحينئذ فقط يحق له أن يتكلم برأي ويجتهد بحكم» حسب تعبير الجنرال دي جول، كما نقله الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل(٢).



تتأكد مقولة الجنرال دي جول هذه عندما نلاحظ أن المدن الكبرى الواقعة على ضفاف المتوسط أدت دورًا أساسيًا، حتى عندما تزحزحت مكانة المتوسط بعد اكتشاف أمريكا، كما يدل على ذلك تاريخ العصر الحديث، بما فيه تاريخ القرن العشرين. ومن الجدير بالتسجيل هنا أن الجنرال دي جول ربط، في حديثه مع الأستاذ هيكل، بين الجغرافيا والسياسة التي هي تاريخ راهن أو هي واقع الحال الساخن قبل أن يصبح تاريخاً باردًا.

برز دور مدينة الجزائر منذ القرن السادس عشر عندما اتجهت امبراطورية ناشئة هي اسبانيا المسيحية إلى احتلال بلدان المغرب العربي خاصة مدنه البحرية، بعد أن نجحت في القضاء على آخر دويلات الأندلس، وهي دولة بني سراج في غرناطة. وقد عزز اندفاعها للسيطرة على أهم موانئ المغرب العربي عوامل رئيسية ثلاثة:

١ ـ الخلافات والحروب بين دويلاته من جهة، ٢ ـ التفوق العسكري الاسباني من جهة ثانية، ٣ ـ دعم المغرب العربي للمسلمين الباقين في الأندلس من جهة ثالثة.

فقد تسبب سقوط غرناطة في بعث تضامن سكان الشمال الأفريقي وزعمائهم مع مسلمي الأندلس، وهو ما عبّر عنه «بروديل» بـ «تجديد الإسلام المغاربي»(٣).

وقد اصطدمت المحاولات الاسبانية، وهي سياسية، بمصاعب مرتبطة بالتضاريس والمناخ، أي الجغرافيا: مساحات شاسعة، بحر دائم الهيجان. جبال وعرة، شواطئ تنعدم فيها المخابئ الآمنة، فضلاً عن عدم معرفتهم بالآبار ونقاط الماء.

لكن ذلك لم يحل دون السيطرة على «مرسى الكبير» في عام ١٥٠٥، وهو ما يعتبره المؤرخون أهم حادث سياسي عسكري عرفته المنطقة. وقد اعتُبِرَ استيلاء الأسبان على مرسى الكبير رد فعل أولي على الثورة التي قام بها مسلمو أسبانيا أو الموريسكيون عام ١٥٠١. إذ لمس الأسبان الخطر الذي يتهددهم من طرف الإسلام المغاربي المتجدد في تحريك تلك الثورة. وما أن تمكن الأسبان من إخمادها حتى شرع كسيماناس في إعداد حملة ضخمة ضد مرسى الكبير.

ذلك أن بروز الخطر الإسلامي أدى إلى تهييج العواطف الكاثوليكية وتعبئة الطاقات الإسبانية ضد موانئ المغرب العربي.

وقد تواصلت محاولات الاحتلال، فكان احتلال مليلة، وهران، بجاية، الجزيرة، الصخرة المواجهة لمدن الجزائر. وقد كانت الملكة إيزابيلا «الكاثوليكية» كما كانت تسمى تسعى جديًا للاستحواذ على مملكة تلمسان. كما فكر أراجون في توطين عدد ضخم من المسيحيين في بعض مدن الساحل الشمالي ـ أفريقيا، فقد راسل في الموضوع بدرو نافارو الذي كان يتبنى فكرة التوطين، قائلاً له في رسالة وجهت في شهر مايو ١٥١٠: «أعتقد أننا إذا أردنا البقاء في أفريقيا، فلا بد أن نسعى لتطبيق الفكرة التي كاتبتموني بها عدة مرات، لأن نحتل وهران وبجاية وطرابلس، وأن نُوطِّن بها الكاثوليك بصورة كلية». كما كتب في شهر أكتوبر من نفس السنة إلى انطونيو دو روفيدا يقول عن بجاية: «يجب أن تتخذوا الإجراءات اللازمة بأن تملأوا المدينة فور احتلالها باتباعنا من الموريسكيين».

لكن محاولة احتلال مدينة الجزائر التي قادها دييجو دو فيرا عام ١٥١٦ فشلت، كما فشلت حملة سنة ١٥١٩، وإن كانت قد نجحت في احتلال جربة عام ١٥٢٠.

وفي عام ١٥٢٩ وجه خير الدين ضربة موجعة للأسبان عندما طردهم من القلعة التي أقاموها على الصخرة المواجهة للمدينة، رغم تحصيناتها.

في عام ١٥٣٥ فشل مارتان دو أوجولو في حملته ضد تلمسان، في الوقت الذي تمكن «شارلتان» من الاستيلاء على ميناء «حلق الواد» بعاصمة تونس. إلا أن هذا الأخير مني بهزيمة ماحقة أمام مدينة الجزائر بعد ذلك بست سنوات. توالت الهزائم الكاثوليكية بعد ذلك، إذ طرد فرسان مالطا من طرابلس عام ١٥٥٤، وخرج الكاثوليك من المهدية عام ١٥٥٨، كما انتهت الحملة ضد مستغانم بكارثة كبرى بالنسبة للكاثوليك الأسبان.



عبقرية خير الدين

على أن ما يفسر المكانة التي احتلتها مدينة الجزائر منذ أن استقر بها الأخوان، عروج وخير الدين، هي «الجيوتاريخ» أي الالتحام بين الموقع والمنحنى التاريخي المتمثل في العبقرية التي كان يتمتع بها خير الدين في المجال الحربي والغزوات البحرية، أي ما يمكن تسميته بالتقاء «عبقرية المكان» مع «عبقرية الزمان» حسب المصطلح المفضل عند أحد عمالقة الفكر الجغرافي والتاريخي وهو المرحوم جمال حمدان صاحب كتاب «شخصية مصر».

فقد تبين أن ميناء الجزائر يمثل موقعًا حربيًا فذا يستطيع التحكم في جميع المسالك البحرية التي تقطع الحوض الغربي للمتوسط.

فالموقع الجغرافي للميناء متصلاً بعبقرية خير الدين الحربية هو الذي يفسر ذلك التطور الذي عرفته الجزائر سياسيًا وذلك الازدهار الذي حققته اقتصاديًا، وخاصة بعد أن نجح خير الدين في طرد الأسبان من حصنهم المواجه للميناء. وقد اغتنم تلك الفرصة فربط الحصن المذكور الواقع على صخرة يحيط بها الماء وشدًها إلى البر بواسطة رصيف يضع البواخر والسفن في مأمن من غلواء البحر وهيجان أمواجه. ولم يكن محض صدفة أن يجعل بعض المؤرخين هذا الحدث



ظل المتوسط محل صراع بين دول أوروبا حتى بعد أن تمكن الاستعمار الفرنسي من السيطرة على مقدرات الشمال الأفريقي. فقد كان موضوع رهان شديد وشد وجذب بين فرنسا والنظام الفاشي في إيطاليا، منذ أن حكمها موسوليني منتصف العشرينيات من القرن الماضي

هو بداية تشكل الدولة الجزائرية التي ارتبط ازدهارها بغزوات البحر.

مالبثت الثروات التي تدرها الانتصارات البحرية أن صارت عامل جذب للقراصنة الأوروبيين الذين أصبحوا يؤمون المدينة، كي يعملوا في أساطيلها بعد أن يكونوا قد اعتنقوا الإسلام.

أثار ذلك حفيظة «هايدو» ضدهم فوصفهم بأنهم «حثالة المسيحيين» وقال عنهم: «يمكن أن نعتبر بأن كل قراصنة الجزائر هم من الذين ارتدوا عن دينهم «المسيحي»، فهم الذين يعرفون جيدًا شطآن الموانئ المسيحية وأراضيها».

وفعلاً فإن الأرشيف الذي يحفظ الوثائق المتصلة بتاريخ المعارك البحرية في تلك الفترة، يسجل بأن عددًا كبيرًا من القراصنة ترجع أصولهم إلى كورسيكا وصقلية وكالابري.

ولا شك أن الخبرة التي يتمتع بها أولئك عسكريًا ودراستهم بالمواقع الأوروبية ومعرفتهم بتضاريسها، بالإضافة إلى الدعم المالي والبشري الذي توجهه القسطنطينية إلى دايات الجزائر، قد جعل أسطولها يسيطر كلية على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، مما أدى إلى إحباط مختلف المحاولات التي كانت تبذلها الدول الأوروبية المواجهة للتخلص من «قراصنة الشواطئ البربرية» كما كانوا يسمونهم. هذا يسجل المؤرخ الفرنسي، بروديل، الذي تخصص في تاريخ حوض المتوسط وجغرافيته أن «الجنود والبحارة الأسبان اصطدموا بأعداء متدربين مهرة، شديدي المراس خبراء في استعمال الأسلحة». هو في نفس الوقت يقدم عاملاً آخر لتفسير السمعة الكبيرة التي اكتساها «رياس» البحر الجزائريون، عندما يقول إن الأسبان قد ساهموا في ذلك بسياسة الإهمال التي انتهجوها ولأنهم لم يخططوا للمستقبل، واستصغروا شأن الجزائريين، «أليس قد خسروا الموقع ـ الصخرة المواجهة لميناء الجزائر لأنهم لم يزودوه في الإبان بالتموين والسلاح؟ إن الهزائم التي مني بها الأسبان أمام الجزائر في ١٥١٦ و١٥١٩، و١٥٤١، والتي أسبغت على أسيادها هالة خاصة ترجع إلى ما عرف عن الطرف الأسباني من إهمال وسوء تنظيم» وبقطع النظر عما قد يكون في هذا التفسير الجزئي من «تبرير» للهزائم الأسبانية، فإن الذي لا شك فيه أن التحام عبقرية المكان وعبقرية الزمان قد ساعد على بناء تلك المكانة التي اشتهرت بها الجزائر. فنفس المؤرخ يسجل فشل إسبانيا في استغلال التجزئة بين الموانئ الجزائرية مثل وهران وبجاية التي ينسب إلى الإسبان تخريبها فحالوا بذلك دون أن تكون «منافسة لمدينة الجزائر.

على أن هناك عاملاً آخر أساسيًا يرتبط هو الآخر بالجغرافيا والتاريخ أي الجيوتاريخ، سجله نفس المؤرخ في كتابه الأساسي «البحر الأبيض المتوسط في عصر فيليب الثاني»، يتمثل في الآفاق الجديدة التي فتحها اكتشاف العالم الجديد أمام الأساطيل الإسبانية والبرتغالية التي انصرفت عن سواحل أفريقيا.

وفعلاً فقد ظلت مخططات احتلال الجزائر محفوظة في مشاريع قيادة أركان الجيش الإسباني حتى القرن السابع عشر، تنتظر فقط الأمر من الإمبراطور أو الملك بتنفيذها، مصحوبة بتوطين مسيحيين فيها. ولم يصدر الأمر، لانشغال المسئولين بالحروب في أوروبا بالإضافة إلى الآفاق الأمريكية الجديدة.

استمر البحر يؤدي دورًا أساسيًا في حياة الجزائريين منذ بدايات العهد العثماني، عدة قرون. ويبدو أن عادة تكدس الجزائريين في الشارع المطل على الميناء يرجع إلى العصر الذهبي للرياس الجزائريين. إذ يقال إن سكان العاصمة تعودوا على ذلك منذ فترة الدايات، ينتظرون الأنباء القادمة من وراء الميناء، حين كان البحر الأبيض المتوسط ميدانًا للمعارك التي اندلعت في إطار الموجة المتأخرة من الحملات الصليبية الموجهة ضد الغرب الإسلامي.

وقد ظل المتوسط محل صراع بين دول أوروبا حتى بعد أن تمكن الاستعمار الفرنسي من السيطرة على مقدرات الشمال الأفريقي. فقد كان موضوع رهان شديد وشد وجذب بين فرنسا الجمهورية الثالثة والنظام الفاشي في إيطاليا، منذ أن حكمها موسوليني منتصف العشرينيات من القرن الماضي. فقد كان هذا الأخير يرى ضرورة احتلال تونس، حتى يتحكم في مضيق صقلية التي تواجه ميناء بنزرت على الضفة المقابلة.

على ذكر تونس يمكن الاستشهاد بما قاله الجنرال دي جول لمحمد المصمودي، سفير تونس، يوم ٩ فبراير ١٩٥٨. كان الرئيس الحبيب بورقيبة قد قرر سحب سفيره في فرنسا احتجاجًا على ضرب القاذفات الحربية الفرنسية لقرية «ساقية سيدي يوسف» الواقعة على الحدود الشمالية مع الجزائر، (وذلك يوم ٨ فبراير ١٩٥٨).

رأى سفير تونس أن يؤدي زيارة للجنرال في بيته بكولومبي، حيث كان يقيم منذ أن اعتزل الحكم مطلع عام ١٩٤٦، أي في بدايات الجمهورية الرابعة.

تحدث الجنرال دي جول بعض الوقت عن فيلم «الوصايا العشر» تلطيفًا للجو، ثم دخل في صميم الموضوع، متخذًا من الجغرافيا والتاريخ مدخلاً للحديث، كما فعل في الستينيات عندما استقبل الأستاذ هيكل في قصر الإليزيه. أكد أن تاريخ العالم يعتمد على الجغرافيا، وأن تاريخ تونس وتاريخ فرنسا يجب أن يظلا مرتبطين، ثم ختم كلامه طالبًا من التونسيين أن يكظموا غيظهم، «حتى لا يشتموا المستقبل» (جان لاكوتور في كتابه الضخم عن دي جول. ومعروف أن المتوسط كان أحد الرهانات التي تحكمت في توجيه أحداث الحرب العالمية الثانية، التي أدى فيها الجنرال دي جول دورًا أساسيًا. والمعروف عن رجل ١٨ يونيو أنه يتمتع بحس استراتيجي كبير؛ ولو أخذت قيادة الأركان الفرنسية برأيه في الحروب الحديثة لكانت قد تجنبت ربما تلك الهزيمة التي منيت بها عندما كان يرأس حكومتها الماريشال بيتان.

كان بول راينو، الذي ترأس الحكومة قبل الماريشال، قد طلب من الجنرال دي جول أن ينضم إلى طاقمه يوم ٦ يونيو ١٩٤٠ مكلفًا بالدفاع الوطني والحرب. وقد كلفه فور التعيين، بمهمة لدى رئيس الحكومة البريطانية أحد العمالقة السياسيين الذي يعرفون أهمية الجغرافيا في السياسة. وكانت مهمته تتمثل في إقناع ونستون شرشل باستخدام الطيران البريطاني لدعم الجيش الفرنسي المحارب على التراب الفرنسي، رغم أن المعركة تبدو آنذاك ميئوسة.



وكان الجنرال دي جول قد فكر جديًا في توظيف الجغرافيا ضد الألمان عندما حاول أن يقنع الحكومة الفرنسية بتطبيق خطته التي تتمثل في تنظيم انسحاب مكثف نحو شواطئ الشمال الأفريقي، يتم بمقتضاها نقل نحو نصف مليون جندي من فرنسا إلى هناك مع استعمال كل الوسائل المتاحة من طيران عسكري ووحدات الأسطول الحربي المرابط في «تولون»، مع دعم الأسطول البريطاني.

لكن هذه الخطة لم تتم لأن أغلبية أعضاء الحكومة الفرنسية كانوا يؤيدون موقف الماريشال بيتان في مطالبته بتوقيع الهدنة مع هتلر بأسرع ما يمكن. وما إن استقالت حكومة بول راينو، حتى خلفتها حكومة الماريشال بيتان، الذي سارع بتوقيع معاهدة منفردة مع ألمانيا ضاربًا عرض الحائط باتفاقية وقعت قبل ذلك ببضعة شهور تلزم كلا من فرنسا وبريطانيا بعدم توقيع أي اتفاقية منفصلة مع الألمان.

كان توقيع الهدنة وفتح أبواب باريس لهتلر وتعاون حكومة «بيتان» مع الإدارة النازية، منعرجًا كبيرًا في حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥، تسبب في متغيرات داخل فرنسا وفي بريطانيا.

رهان واحـــــد وثلاثة تواريخ

يتأكد من كل ذلك مدى أهمية «الجيوتاريخ» في توجيه الأحداث. لكن هناك عاملاً أساسيًا آخر لا يمكن بدونه أن نفهم الأحداث، ولا نستطيع إذا نحن أغفلناه أن نخوض في حديث مسئول عن السياسة، وهو الإنسان أي الإنسان ليس بوصفه فردًا أو مجموعة أفراد، لكن بوصفه كائنًا اجتماعيًا يساهم في تشكيل فكره وصياغة عواطفه مجموعة عوامل مرتبطة بالاقتصاد والجغرافيا والسياسة، فالنمو الديموجرافي الذي عرفته أوروبا في بدايات العصر الحديث هو الذي يفسر تسارع المبادلات التجارية بين دولها، ومضاعفة حجمها. كما أن النمو الديموجرافي بفرنسا وخسارتها للألزاس لورين في حربها ضد الألمان في حرب ١٨٧٠ هو الذي يفسر الدعم الذي أصبح يلقاه المنادون في فرنسا بانتهاج استعمار استيطاني كثيف.

والنمو الديموجرافي الذي عرفته الجزائر بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية هو الذي يفسر المنحى الذي أخذته الحياة السياسية ونجاح الدعوة إلى الاستقلال. هذا العامل مضافًا على عوامل اقتصادية وجغرافية وسياسية واجتماعية هو الذي يفسر النقلة النوعية التي حققتها الجماهير الجزائرية عبر تواريخ ثلاثة يشكل كل منها منعرجًا حاسمًا في تاريخ الجزائر المعاصر: ١٨٣٠، ١٩٣٠، ١٩٥٤.. فعام ١٨٣٠ هو عام احتلال الجزائر، و١٩٣٠ يمثل الاحتفالات الضخمة التي أقيمت بمدينة الجزائر احتفاء بمرور قرن على استعمارها، وعام ١٩٥٤ هو انطلاق العمل المسلح في أول نوفمبر.



تَعَوَّدَ سكان العاصمة الجزائرية منذ عصر الدايات على الوقوف طويلاً في مواجهة الخليج، كما أشرنا، يشاهدون وحدات الأسطول البحري مغادرة أو قادمة محملة بالمغانم.

استمر الوضع نحوًا من ثلاثة قرون، حتى بدأت حركة جزر وانحسار انتهت بهزيمة حكومة الداي وسقوط العاصمة.

كانت صدمة لا تحتمل: السكان الذين تعودوا على ترقب أنباء النصر، صاروا يتفرجون على جحافل جيش أجنبي انطلق من شبه جزيرة «سيدي فرج» ثم ينتشر حتى يدخل العاصمة بعد معارك ضارية.

عقد الذهول ألسنة الناس فأصبحوا لا ينطقون.. شلت الدهشة أطرافهم فلا يتحركون.. طاشت عقولهم من قوة الصدمة فتصوروا مواكب الغزاة أضغاث أحلام وكابوس منام، ظلوا في أمكنتهم جامدين ينتظرون عبثًا يقظة من سبات ثقيل طالت ليلته واشتدت ظلمته.. الفرنسيون لم يهتدوا إلى استنطاق ما شاهدوه؛ تصوروه خنوعًا مطلقًا إن لم يروا فيه نوعًا من الترحيب صامت. ظل الفرنسيون مدة لا يفهمون سلوك الناس ولا يغوصون في عمق أحاسيسهم؛ ولعل هذا هو ما دفع بيليسييه دو رينو إلى أن يكتب عن العاصمة، يصفها بعد ثلاثين سنة من الاحتلال: «تبدو مذبالة متصدعة، يمكن تشبيهها بإحدى بنات الهوى، نال من نضارتها سوء السلوك فذبلت قبل أن تنضج». ويعلق على ذلك كاتب المقال الذي أورد النص: «هذه

المدينة، يبدو أنها لا تؤخذ بل تمنح نفسها» ومن أية ناحية جئتها تبدو أنها «صدرت عن سابق لتمنح نفسها للاحق»(٤).

تلك بعض المظاهر الخداعة لصدمة الهزيمة ووقع الاحتلال، انطلقت المقاومة بقيادة فتية صدرت عن معسكر تسعى لنقل المعارك من البحر إلى البر.. استمرت المقاومة إلى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، دليلاً على شدة الرفض وضراوة الصمود. وإذا كان الأمير عبدالقادر قد انهزم عسكريًا فقد سعى إلى تعويض الاختلال الذي حدث في توازن القوى المادية بين جيوش، بحرب معنوية تحفظ القلوب خفاقة للإسلام، عامرة بالإيمان، ترفض أن يستولي المحتل على العقول بعد أن استحوذ على الأرض.

نجح الغزاة في بسط نفوذهم على كامل البلاد، بعد أن نجحوا في تحييد الجارتين. تمهيدًا لاحتلالهما، ثم تركوا شبهة سيادة للجناحين حتى يتفرغوا للقلب يسدون شرايينه ويستأصلون كل ما كان به هو هو، فلم يتركوا معهدًا مهمًا إلا أغلقوه، ولا وقفًا يخصص ريعه للتعليم إلا ألحقوه بممتلكاتهم، ثم منعوا تعليم القرآن، وحجموا أماكن العبادة، حتى يفقد الشعب كل أمل في النهوض، وتنضب فيه إلى الأبد جذوة المقاومة، تمهيدًا ليوم يأتي فيه جيل جديد يعتز بأنه منحدر من سلالة الغال.. وكانت فترة ركود وسبات، في الظاهر على الأقل.



لم يكد يدور القرن حتى اطمأن الاستعمار، أصبحت جماهير هذه الأرض الشموس فرنسية إلى الأبد، لم يعد السكان يفكرون في تمرد أو ثورة، لقد قُضي على رؤوس المقاومة، ونظمت إبادة عدد ضخم من السكان بمناسبة مجاعة كبرى ذهب ضحيتها مئات الآلاف إن لم يبلغ عددهم المليونين في نظر بعض المؤرخين.

تصور الفرنسيون أنهم دجنوا إلى الأبد أبناءهم، وضمنوا ولاءهم، ترهيبًا بالقمع والبطش والتجويع أو ترغيبًا بالجاه والنفوذ، أو إغراء بالمال والمنصب.

حتى الذين تظاهروا بالاستسلام للأمر الواقع، وتعاونوا مع الفرنسيين كظموا غيظهم وكبتوا ثورتهم، لكن لم يلغوا عواطفهم. يروى أن حاكم مدينة «نبسة» المعروف بجبروته، كان يتجول في شوارعها مع مساعد له جزائري؛ عند مرورهما بالآثار الرومانية والبيزنطية قال الحاكم: انظر هذه الآثار، ألا تدل على عظمة حضارة وقوة إمبراطورية؟ أجابه مساعده: صحيح، ليس أعظم منها إلا القوة التي هزمتها.

مع قيام الجمهورية الثالثة عرف الإعمار والاستيطان الأوروبي منعرجًا كبيرًا: فاعتبار الجزائر فرنسية وضع حدًا لوصفها بـ«المستعمرة» فأصبحت، كما قيل، امتدادًا للتراب الفرنسي. من هنا كان لابد أن تتطور مدينة الجزائر بما يجعل منها «عاصمة أفريقية» كما كتب بعضهم. تعزز هذا الاتجاه بعد فتح قناة السويس في ١٨٦٩، إذ أعطى لميناء المدينة دفعًا جديدًا.

ظهرت آثار التوجه الفرنسي الجديد نحو تكثيف التوطين الأوروبي في مدينة الجزائر على الخصوص: سكانها الذين كان عددهم ٤٢٠٠٠ منهم ٣٤٥٠٠ أوروبي عام ١٨٧٢، صاروا ٨٢٠٠٠، منهم ٦٠٥٠٠ أوروبي، مقابل ٢١٥٠٠ جزائري.

أصبحت المدينة آنئذ هي «رأس الحربة» لسياسة الاستيطان التي تجدد الاهتمام بها في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر. تؤكد ذلك عدة إجراءات قانونية، مثل اشتراط الجنسية الفرنسية لكل من يريد أن يستثمر؛ علمًا بأن مدينة الجزائر أصبحت خلال هذه الفترة عبارة عن حظيرة أشغال ضخمة، مشاريعها مربحة؛ ومثل منح الجنسية الفرنسية لليهود بصورة جماعية عام ١٨٧٠. وفي عام ١٨٨٩ ظهر قانون عرفت مواده بقوانين منح الجنسية الفرنسية بصورة أوتوماتيكية لجميع الأوروبيين غير الفرنسيين، وعرفت المدينة انقلابًا كبيرًا في مجالات الإعمار والاقتصاد فيما بين ١٨٧٠ و١٩٠٠: فالشارع الواسع في مواجهة البحر أنجز عام ١٨٧٤ فقامت حواليه وبالقرب منه أحياء أصبحت وتيرة تطورها ونموها أسرع من السابق، مثل حي باب الواد، وحي إيزلي، وحي بلكور.. كما أن حي مصطفى عرف نموًا كبيرًا بعد أن أصبح بلدية، إذ قفز عدد سكانه من ١٢٠٠٠ عام ١٨٨١ إلى ٤٠٠٠٠ عام ١٩٠٦.. ومدت في نفس الوقت سكك للترام، كما تمت توسعة الميناء، وشيدت محطتان للسكك الحديدية.

كان المردود المرتفع للاستثمار في مدينة الجزائر سببًا في جلب الأوروبيين، إذ كان يعتبر من أضمن الاستثمارات وأرفعها مردودًا بالنسبة لفرنسا نفسها.

وهكذا ارتفع عدد السكان من ١١٥٠٠٠، منهم ٨٥٠٠٠ أوروبي عام ١٨٩٦، إلى ٢٢٦٠٠٠، منهم ١٧٠٠٠٠ أوروبي عام ١٩٢٦، ليصبح غداة الاحتفال بمرور القرن ٣٦٧٠٠٠ نسمة مما يجعل مدينة الجزائر تحتل المرتبة الرابعة بين المدن الفرنسية.

هذا التطور المذهل مع احتفاظ الأوروبيين بأغلبية ساحقة، لم ينل منه الجزائريون إلا شيئًا قليلاً.

فسكان منطقة القبائل الذين انتزعت منهم أراضيهم بعد فشل ثورة المقراني عام ١٨٧١ لم يجدوا إلا حي القصبة الذي تكدسوا فيه، ولم يجدوا من مناصب العمل إلا حمل البضائع في الميناء، وقليل هم الجزائريون الذين سمحت لهم إمكانياتهم بالسكن خارج حي القصبة.

أثناء هذا التطور برز حيَّان متميزان من حيث أصل السكان: حي القصبة الذي كان معظم سكانه من الجزائريين، وحي باب الواد الذي كان معظم سكانه من الأوروبيين من أصل أسباني.

استمر الطابع الفرنسي لمدينة الجزائر يتطور، واستمر صوت الجزائري المسلم مغيبًا حتى كان صيف ١٩٣٠: احتفالات ضخمة بمرور مائة سنة على الاحتلال، تكرس خلالها الحضور الفرنسي وترسخ بصورة لا يمكن معها النيل منه. مواكب حبور وبهجة، واستعراض للقوة في صلف، وتذكير بالانتصارات الحربية من غير مبالاة بمشاعر الجزائريين. ألم يتمكن الاستعمار من القضاء على تاريخ كامل فلم يبق من تلمسان وتيارت ومعسكر ووهران، ومن الجزائر والمدية وكوكو، ومن بجاية وقسنطينة وبونه، ما يشهد بعراقة تاريخ وأمجاد ماض غير لاتيني. قام مكانها ما يشهد بعظمة فرنسا وشدة بأسها. مظاهر عمران متسلطة، تمكن الطبقة الحاكمة الجديدة من السيطرة على كل شيء. طبقة استقدمت من آفاق شتى، فرنسا، أسبانيا، إيطاليا، مالطا، لا يجمع بينها شيء إلا كونها أجنبية عن البلد، تلتقي على كره الأهلي وتجريده من حقوقه، فاستحوذت على الادارة والجيش، وعلى الأرض والاقتصاد، صناعة وتجارة وزراعة، وعلى الثقافة تعليمًا وصحافة وكتابًا.

حتى الجغرافيا غيَّرتها: لم تكتف بتلوين الخرائط التي تمثل الجزائر بنفس لون الخرائط التي تمثل فرنسا، بل ادعت أن البحر الأبيض المتوسط يقسم فرنسا شطرين، كما يقسم نهر «السين» باريس ضفتين.

راحت الجموع الأوروبية تتوافد على الجزائر العاصمة في مظاهر بذخ صارخ، وتقدم مسرحيات تمثل عمليات الإنزال في سيدي فرج، وتجدد العهد بجان دارك، بوصفها بطلة فرنسية ومسيحية.. غير آبهة بمشاعر الأهالي.. دقت الطبول ترحيبًا بوفود القادمين من الداخل صحبة زوجاتهم وأبنائهم وبناتهم وقد لبسوا أزهى الحلل وأجمل الثياب وأغلى المصوغ، يتبخترون مزهوين ويعبرون عن ظفرهم بالجزائر إلى أبد الآبدين.. سالت الخمور أنهارًا، وأضاءت الليالي أنوارًا، لم يعد هناك فرق بين ليل ونهار إذ تواصلا عبر سهرات صاخبة تمتد حتى الصباح.

وكأن كل ذلك لا يكفي، فاختار مؤتمر القربان المسيحي، (المؤتمر الافخاريستي) تلك المناسبة لينعقد في قرطاج، حيث أقام مواكب تمثل القديس لويس، (لويس التاسع).. (كان قد حضر لتونس عام ١٢٧٠ ليقنع ملكها باعتناق المسيحية، ثم يتوجه من هناك إلى مصر قائدًا للحملة الصليبية الثامنة، لكن الموت لم يُمهله): وأعيد تمثيل مسرحية عن «بلانش دي كاستيل» وكبار القادة الصليبيين بملابسهم العسكرية ودروعهم الحربية.

كانت صدمة كبرى أحس بها الوطنيّون نارًا تلفح وجوههم، وسياطًا تمزق جلودهم، ولعنة تاريخ طالت المقدسات.. صدمة ترددت أصداؤها في كل الربوع، شعر بها الشعب على اختلاف فئاته ومستوياته، تحديًا لأعز ما يكسب: ذكرى الأسلاف الذين يعتز بالانتساب إليهم، ذاكرة الأرض التي اختلط أديمها بعرقه ودمه منذ فجر التاريخ وبدايات الدنيا، الدين الذي ربطهم بحضارة من ألمع الحضارات، لغة الثقافة التي تم تغييبها وحُرِّم تعليمها، فلم يعودوا يرددون من قرآنها إلا سورًا قصارًا يتلونها في الصلاة، دون أن يفقهوا لها معنى في معظم الأحيان.

حتى الذين كانوا يتعاملون مع الفرنسيين موظفين في إداراتهم، أو ممثلين في الأرياف لحكامهم، أو يشتغلون في الحقول والمزارع لفائدة معمريهم، أو عناصر النخبة من أطباء وصيادلة ومحامين، كلهم شعروا بوقع الصدمة، فانتكأت من جديد جراح كان يظن أنها التأمت، والتهبت جذوة نار كان يظن أنها خمدت، وتحرك تاريخ كان يظن أنه قبر ودفن إلى غير رجعة.



لم يشعر الأوروبيون بالنار الكامنة تحت الرماد، ولم يتنبهوا إلى أن عددًا من عناصر النخبة التي ثقفتها مدارسهم قد تمثلوا وهضموا إيجابيات الثقافة الفرنسية، فطوعوها واستعملوها في مخاطبة المستعمر، يطالبونه بتطبيق القوانين التي وضعتها فرنسا نفسها، مثل فصل الدين عن الدولة، ومثل المساواة إلخ.. وتوجهوا في الوقت نفسه إلى الجماهير الجزائرية، يكشفون عن التاريخ الذي أريد تغييبه حتى غاب فعلاً عند البعض؛ وبذلك استنهضوا الهمم وأيقظوا النُّوَّم، وخلصوها من تخدير الخرافات والأساطير ومن تأثير المشعوذين الذين كانوا يصورون الاستعمار في صورة القدر المفروض بالإرادة الإلهية، فيجب انتظار تدخل تلك القدرة كي تخرجهم كما أدخلتهم. كما استوحى الجزائريون من الثقافة الفرنسية كيفيات تنظيم الجماهير، وتشكيل الأحزاب، فعملوا تدريجيًا على مخاطبة الناس بما يفهمون ليدخلوا تغييرات على الأفكار والنفسيات يتجاوب معها الشعب، حتى يسترجع الثقة في نفسه ويعتمد على مقدراته وإمكانياته الذاتية.

إلا أن الإدارة الفرنسية صمَّت آذانها عن سماع الأصوات المحتشمة التي كانت تنذرها بأوخم العواقب إن هي لم تستجب للمطالب المرفوعة، واحتقرت حتى أكثر المطالب اعتدالاً.

إذا كانت صدمة ١٨٣٠ أحدثت مقاومة عسكرية في معركة غير متكافئة، فإن صدمة ١٩٣٠ أيقظت ماردًا ضاعف من قوته أنه قضى عقودًا من السنين فاقد الوعي، مخنوق الأنفاس.. راح بتأثير الحركات الوطنية، يتمطط متمهلاً مثل جان سليمان، لكنه اتعظ هذه المرة من درس الأمس، فراح يفتح عينًا ويغمض أخرى، وقد يرفع عبر العين المغمضة شعارًا يخدع، إذ حفظ من دروس التاريخ أن «الحرب خداع»، بوصفها مقولة تحوصل جزءًا من الاستراتيجية التي يريد صاحبها أن يؤمِّن لمشروعه أسباب النجاح خصوصًا إذا كان ضعيفًا يواجه قويًا.

لم يكن هناك على الضفة المقابلة، بين الفرنسيين الذين يملكون الحل والعقد من لاحظ تململ المارد. لم يوجد من ترجم - إلا قليلاً منهم - الهمهمة الخافتة والغمزة المحتشمة.

إذ لم يكن هناك ما يدفع الأوروبيين إلى القلق، فمستقبل الجزائر الفرنسية واعد.. الأهالي؟ لا خوف منهم: لقد قبلوا بالأمر الواقع واستسلموا للقدر المحتوم. أليس دينهم يعلمهم الاستكانة للقدر والرضا بقسمة الله؟ أليس في مشايخهم من لقَّنهم شعار «وافق أو نافق أو فارق».. وافق على وجود الاستعمار، وإن لم يعجبك واقع الاحتلال فتظاهر بأنه يعجبك وأنك له مرتاح، وإن لم تستطع فما عليك إلا أن تسلك مسالك الاغتراب، حيث لا يوجد فرنسيون.

المستقبل بالنسبة للأهالي؟ ألا تعبِّر عنه مدينة الجزائر؟ انظر جيدًا حولك يا من أتاح له الحظ أن يعيش كفرنسي، أسعد أيام الجزائر الفرنسية، خلال الأسبوع الأول من يوليو ١٩٣٠.. هاهي القصبة مقر حكم الدايات بالأمس تضيق بمن فيها وتختنق بالوافدين عليها من داخل البلاد، أهالي انتزعت منهم أراضيهم فصاروا يتكدسون في بناءات آيلة للسقوط، حشودًا متراصة قادمة من زمن غابر، ترنو بعيون جامدة إلى مستقبل كله ظلام ويأس وقنوط.

أما الحياة الحقة فلا تبدأ إلا حيث تنتهي تلك اللاحياة؛ وإذا كان «باب عزون» نهجًا غير واسع مثل الأنهج التي استحدثت في القرن التاسع عشر، فإنه يربط بين «ساحة العود» و«الجنينة» حيث تنطلق المدينة الأوروبية، بمحلاتها الفخمة ومقاهيها الجذابة، وملاهيها المخملية، وفنادقها النظيفة، تصعد نحو «التليملي» و«الأبيار» أي تحاذي البحر حتى تتصل جنوبًا وشمالاً «بمصطفى» و«سانت أوجيه».



ترى لو جمعنا بعض المسنين المعمرين الذين حضروا احتفالات ذكرى القرن مع ممثلي الأجيال الجديدة الذين ولدوا بعد استقلال الجزائر، فماذا يقول بعضهم لبعض، أى ما الحوار الذى يمكن أن يجريه الطرفان؟

وإذا كان هناك أوروبيون قليلو الإمكانيات، لم يحصلوا بعد على موقع فى «ديمون دورفيل» أو «إيزلى» أو «ميشلى» فإن لهم فى «باب الواد» و«بلكور» مرتعًا يشبعون فيه نهمهم إلى الشمس، وحاجتهم إلى الضجيج، ويستطيعون أن يمارسوا هناك لعبتهم المفضلة: التسلط على ابن البلد بصورة أو بأخرى، إن لم يكونوا من الليبيراليين الذين يتعاطفون مع الأهالى، وهؤلاء قلة لحسن الحظ. إن إشباع شهوة التفوق وممارسة هواية التسلط على ابن البلد لا تحتاج دائمًا إلى سوط.. يكفى فى تحقيقها أن تشعر بأن من يصادفك من العرب والقبائل، يخشاك ويرهبك، ابتسامته المكرهة قد تحمل للأوروبى من المتعة ما قد يضاهى المتعة التى تحملها أنات المتألم تحت سياط الجلاد الذى تعود على التلذذ بأنات المعذبين فى أرضهم.

كانت الاحتفالات بالذكرى المئوية فرصة لتنظيم رحلات لأبناء فرنسا الأم تسمح لهم أن يتعرفوا على هذه البلاد التى قد لا يكونون عرفوها إلا من خلال حكايات مثل مغامرات «طارطاران دى طاراسكون» للأديب المعروف (ألفونس دوديه) وبطله الذى كان يتصور أنه يستطيع اصطياد الأسود فى حقول المتيجة.

الواقع أن تلك الاحتفالات انطلقت منذ شهر مايو عندما استقبلت «الجزائر الفرنسية» فى موكب مشهود، رئيس الجمهورية «جاستون دوميرج» (١٨٦٣ - ١٩٣٧) وقد استصحب معه أركان النظام: رئيس مجلس الشيوخ، ورئيس مجلس النواب، وعددًا من الوزراء والنواب، جابوا الأرض من العاصمة إلى «بوفاريك» ومن هناك إلى قسنطينة وعنابة ووهران.

فى «بوفاريك» استقبله رئيس بلديتها «أميدى فروجى»، أحد أساطين الجزائر الفرنسية، فألقى هذا خطابًا جاء فيه:

«عندما قرر الماريشال درووى ديرلان أن يحتل بوفاريك، لم يكن هناك أى عمران مهم: مجرد سوق أسبوعى يسمى «سوق الاثنين».. مكان مشؤوم اشتهر ببئر أسطورية، وأشجاره المنتصبة كأنها مشانق.. وسط مستنقعات، راكدة مياهها، كثيفة أوحالها. تسيطر عليها عزلة خانقة ورتابة رهيبة.. كانت الأدغال تخفى قطّاع طرق يهددون العابرين الذين يتعرضون أيضًا لجراثيم المستنقعات.

عندما يصل إلى قسنطينة، يستقبله واحد من أبرز أعيانها، محمد مصطفى بن باديس، يختم خطابه، بعد أن طرح مطالب معتدلة: «سيدى الرئيس احملوا هذه المطامح واعملوا على ألا تخيب آمالنا فيكم».

وفى العاصمة لا يجد(جاك دورو) أية غضاضة فى أن يقول:«إن مرسوم فبراير ١٩١٩ قد حدد النواب الجزائريين فى المجالس الجهوية بنسبة الربع من مجموع نواب الجزائر (ثلاثة الأرباع من الأوروبيين) وذلك يعنى سيدى الرئيس أنه لا يوجد هنا أى تمييز بين الفرنسيين الأصليين والفرنسيين الأهالى فى مجالسنا التى تمثل خلاصة حية لمستعمرتنا الجميلة».

بدايات مبكرة لمشاعر الإحباط:

بعد أن تصفحت بعض ما قيل فى وصف احتفالات القرن فى ذكرى القرن، رجعت إلى الحاضر، يوليو ٢٠٠٢، ذكرى مرور أربعين سنة على الاستقلال.

ترى لو جمعنا بعض المسنين المُعمَّرين الذين حضروا احتفالات ذكرى القرن مع ممثلى الأجيال الجديدة الذين ولدوا بعد الاستقلال، فماذا يقول بعضهم لبعض، أى ما الحوار الذى يمكن أن يجريه الطرفان؟

لقد تشكلت عناصر الجيل القديم فى غمرة الصراع ضد استعمار استيطانى أعمى، بدت معاركه، فى وقت من الأوقات، كأن الانتصار فيها مستحيل، لذا كان انتصارهم فى معركة الاستقلال عاملاً أساسيًا فى تَشَكُّل شخصيتهم: فماداموا قد انتصروا فى تلك المعركة ونجحوا فى انتزاع الاستقلال فلماذا لا ينجحون فى كسب معارك التنمية.

إلا أن الاختلاف فى الرؤى بين قيادات الجيل القديم انعكس سلبًا على المشهد السياسى، خصوصًا مع ما بدا لكثيرين أنه مجرد صراع على السلطة، ينبع من رغبة كل فريق فى احتكار الحكم والانفراد به دون الآخرين. وهذا ما جعل بعضًا قليلاً من المثقفين والمناضلين يتكهنون بمصير قاتم يقف على طرفى نقيض من المستقبل الزاهر الذى يبشر به الخطاب الرسمى وتتجاوب معه الجماهير غير المطلعة على الخبايا.

أذكر أن وزيرة خارجية فيتنام الجنوبية زارت الجزائر عام ١٩٦٦ ولم يكن بلدها قد استقل بعد. أثناء جلسة عمل فى مقر حزب جبهة التحرير، تحدثت بإسهاب عن مشاكل الحرب ومصاعب الكفاح ومشاريع المستقبل.. أعجب الحاضرون، رجالاً ونساء، ببلاغتها وتصميمها وتفاؤلها. أراد رئيس الوفد الجزائرى إثر الجلسة أن يعرف رأى إحدى الحاضرات كانت ضمن الوفد الجزائرى.. فسألها: ما رأيك؟ أجابته زينب فرحات، فالسؤال كان موجهًا لها، دون أن تتمهل:

- خسارة أن «تتعرض» هذه المرأة ومثيلاتها وأمثالها للاستقلال وتصاب بخيبة الأمل واغتيال الحلم. كانت اللهجة التى نطقت بها حمالة أوجه كما يقال؛ فهم منها البعض أنها مجرد نكتة، وفهم آخرون وهم القلة أنها قصدت أن الاستقلال يكون فى بعض الحالات امتحانًا وبلوى وخيبة أمل نتيجة ممارسات تناقض قيم التحرر.

وأذكر أنى التقيت بعد ذلك ببضعة أشهر مع صديق كنا نعمل سويًا ضمن الفريق المشرف على صحيفة «المقاومة الجزائرية» خلال عامى ١٩٥٦ و١٩٥٧؛ كات أخباره قد انقطعت عنى، سألته، وقد عرفت أن آراءه تختلف عادة عن الآراء السائدة.. ما رأيك فى الأوضاع الراهنة؟ أجاب: لست متفائلاً، لأن «الركبة مايلة». وهو مثل شعبى يضرب لمن يركب الخيل دون دراية بفن قيادتها، وكيفية امتطائها، فهو مدعو للسقوط، ولن يتمكن من إكمال المشوار، ثم حاول ترجمتها إلى الفرنسية قائلاً: «on est mal parti» ، مستعيرًا عنوان كتاب صدر عام ١٩٦٢ بعنوان: «L'Afrique est mal Par-tie» للعالم «روين دوموند».

صدمنى آنذاك تشاؤمه. والواقع أن كلا الموقفين لم يكونا يعبران عن رأى شائع، كل منهما يعتبر شاذًا لا يقاس عليه ولا يؤخذ به، الفكر السائد آنذاك كان لا يزال متأثرًا بما تعودت عليه قيادات الجبهة أثناء حرب التحرير من ممارسات لم تكن تسمح بظهور رأى مخالف، كانت الخلافات تسوى بالسلاح والتصفية البدنية. منطق المعركة المسلحة كان يعتبر أن كل صوت نشاز ورأى مخالف يصب فى خانة العدو.

ساعد على سيادة هذا المنطق عدد من العوامل يصعب حصرها لكن يمكن إجمالها فيما يلى:

أولاً: لم يتمكن الفكر الوطنى ولا منطق المعركة المسلحة بعده أن يقضى على العقلية القبلية والعصبية الجهوية، خصوصًا إذا كانت هذه وُظِّفت قبل ذلك لتعزيز مطلب الاستقلال، وتغذية الثورة، أو استعملت من طرف الأعداء لإجهاض الثورة المسلحة.

وقد ظهر أثر هذا العامل فى بعض التسميات التى أطلقت على هذه الكتلة أو تلك من الكتل المتصارعة على الحكم مثل «كتلة وجدة» و«كتلة الأوراس» و«كتلة القبائل» وفى نفس السياق ظهرت تصنيفات مثل «السنتراليست» (أى أعضاء اللجنة المركزية لحزب الانتصار) و«الميصاليست» (أتباع مصالى الحاج» و«العلاميست» (أتباع جمعية العلماء) إلخ.. وتجدر الإشارة إلى أن هذه التصنيفات لم تظهر فى إطار دراسة علمية تصوِّر خريطة الجزائر السياسية وتضاريسها الفكرية، ولكنها استعملت غالبًا من أجل الطعن فى ثوريتها وإخلاصها وبالتالى تهميشها وإبعادها عن مراكز القرار، هذا إن لم تتهم بالتخاذل أو الخيانة.

ثانيًا: إن الحركة الوطنية بجميع فصائلها وتياراتها كانت قد استعملت الهامش القليل الذى كان موجودًا زمن الاستعمار، مما يسمح به القانون فى مجال تكوين الجمعيات والأحزاب، لكنها لم تستخلص من ذلك ما يمكن تسميته بـ «ثقافة ديمقراطية» فضلاً عن أن تفكر فى العمل على ترسيخ «دولة القانون» عندما تأخذ الحكم خصوصًا أن منطق الاستعمار كان يعطل الاحتكام إلى القانون عندما يكون لفائدة الحركات الوطنية ويلجأ إليه عندما يتعلق الأمر بتطبيق إجراءات قانونية قمعية ضبطت خصيصًا لخدمة الوجود الاستعمارى.

يضاف لذلك أن المنافسة بين فصائل الحركة الوطنية خلال العهد الاستعمارى لم تكن تعتمد دائمًا على النقاش الفكرى؛ كان كل منها ينطلق من منطلق أنه هو وحده الذى يملك الحقيقة و«الصواب». وبناء على ذلك كانت تلك الفصائل تلجأ أحيانًا إلى «العنف» للتغلب على خصومها.

ثالثًا: حَسْمُ الموقف بالنسبة للمعركة المسلحة والتى كان من ينادون بها أقلية (كما هو الشان فى كل حركة طليعية) والنجاح الذى حققوه، عزز منطق امتلاك الحقيقة من طرفهم. لم يهتموا بالبحث عن العوامل العميقة التى أدت إلى تقبل الجماهير لفكرة المقاومة المسلحة ضد الاستعمار، فالمناخ الذى سمح بتقبل الفكرة على نطاق شعبى واسع، ساهم فى تهيئة كل الحركات الوطنية على اختلاف أطروحاتها وفصائلها، كما ساعد عليه موقف الاستعمار نفسه الذى كان يرفض أى حوار خارج إطار «الجزائر الفرنسية»، بنفس القوة التى يرفض بها النقاش داخل إطار «الجزائر الفرنسية» إذا كان ذلك يؤدى إلى الحد من صلاحيات وتسلط الأقلية الأوروبية واحتكارها لكل شىء.

رابعًا: استعمال العنف من طرف جبهة التحرير «لإقناع» المترددين وتصفية المخالفين فى الرأى، عزز منطق «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة».

خامسًا: الظروف الصعبة التى حفت بالكفاح المسلح، وقوة البطش الاستعمارى، والقوات الضخمة التى جندت لتصفية جيش التحرير، تسببت فى مزيد من الإقبال على الالتحاق بصفوف الثورة سواء من طرف الطلبة والمثقفين أى من ممثلى الشرائح الاجتماعية المحرومة. ونظرًا لكثرة الذين استشهدوا من الإطارات العليا والكوادر المتوسطة، فقد خلفهم مناضلون، أكثرهم أميون أى محدودى الثقافة وقليل منهم مثقفون. على أن حاجة الثورة إلى دعاة يبشرون برسالتها فى الخارج، وخاصة فى البلدان الأوروبية والأمريكية والآسيوية والأفريقية دفعتها إلى تكليف الطلبة والمثقفين بتلك المهمة. وكان من نتائج ذلك صعود عدد من الأميين أو محدودى الثقافة إلى مواقع حساسة فى الولايات الداخلية، تولد عن هذه الظاهرة انتشار فكرة أن الرجل الأمى أو شبه الأمى هو الذى أنجح الثورة التى ما كانت لتحقق ذلك النجاح لو اعتمدت على المثقفين.



ساعد ذلك كله على تعطيل العمل الفكرى وتعقيد المثقف، حتى أصبح تمجيد الأمى على حساب المثقف شبه مسلمة لا ينازع فيها الناس.

فى هذا السياق ظهرت بعد الاستقلال فكرة غريبة خلاصتها أن «الفكر فى كل ثورة يسبق الفعل والعمل، ماعدا الثورة الجزائرية فقد سبق فيها الفعل والعمل وتقدم على الفكر».

إن طرح هذه الفكرة لم يكن بريئًا، أي أن الذين رفعوها كانوا متأكدين أنها غير صحيحة، وأن الفكر كان أسبق من العمل في ثورة نوفمبر ١٩٥٤. لكنهم كانوا يدافعون عن رأيهم لأنهم كانوا يملكون زمام الحكم أولاً، ولأنهم كانوا يسعون ثانيًا إلى تغييب دور القيادات الوطنية قبل نوفمبر ١٩٥٤، حتى يحتكروا التاريخ الوطني، ويحتكروا ما سمي بـ «الشرعية الثورية» التي تبرر تعطيل المؤسسات وتعطيل الديمقراطية، وكل ما تستلزمه هذه وتلك من نقاش في العمق.

على ذكر احتقار الثقافة، تجدر الإشارة إلى أن هذه الظاهرة اختفت مع انتشار التعليم بعد الاستقلال، لتظهر من جديد وتتدعم في ظل الاقتصاد المهمش أو تجارة الترابندو التي تدر أرباحًا طائلة، ولا تتطلب مستوى عاليًا من التعليم، لأن الشهادة الجامعية لم تعد تفيد صاحبها في ظل الأوضاع التي عرفتها الجزائر في التسعينيات.

تعطيل الديمقراطية وتشرذم المجتمع وتجميد النمو

ذلك بعض ما يفسر الانصراف بعد الاستقلال عن تعبئة كل الطاقات النضالية والعزوف عن استثمار كل المشارب الفكرية، في حين أن الأوضاع الموروثة عن الاستعمار ومخلفات الحرب، والفراغ الذي أحدثته هجرة الأقلية الأوروبية يتطلب اللجوء إلى كل القوى النضالية والاعتماد على كل التيارات الفكرية.

إن الشعار الذي رفعته الجماهير في مدينة الجزائر خلال صيف ١٩٦٢، عندما ظهرت نذر الصراع على الحكم، والاحتكام إلى القوة العسكرية، وهو شعار «سبع سنين بركات»، أي يكفينا سنوات الحرب السبع، كان يتضمن الدعوة إلى الخروج من دائرة تحكيم القوة والعنف لحسم الخلافات.



وليس من محض الصدفة أن يصف أحد قادة الثورة ذلك الشعار بأنه «مناهض للثورة» لأنه يعني نبذ العنف لحل الخلافات.

والواقع أن مبدأ «أولوية السياسي على العسكري» الذي وضعه مؤتمر الصومام في ١٩٥٦، كان مبدأ سليمًا بقطع النظر عن التأويلات التي أعطيت له آنذاك، إلا أن تعطيل هذا المبدأ في ١٩٥٧ استمر بعد ذلك في صيغ مختلفة. بل لقد تسبب تعطيله في ضرب الذين أوقفوا العمل به لأن الذين تزعموا مطلب تعطيله عام ١٩٥٧ تمت تنحيتهم عام ١٩٦٢ وبعد ١٩٦٢ اعتمادًا على تعطيل ذلك المبدأ.

إن الذرائع التي يلجأ إليها كل حكم في بلداننا من أجل تعطيل المؤسسات الديمقراطية، تتشابه وإن اختلفت صيغها.

فأوضاع الأزمة التي تفجرت عام ١٩٨٨، وتعقدت ابتداء من عام ١٩٩٠ كانت تفرض - ومازالت - تعبئة كل الطاقات الفكرية والإرادات الطيبة والاجتهادات المختلفة للخروج من الأزمة، عبر معالجة أسبابها العميقة، وعدم الاقتصار على معالجة الظواهر الطافية على السطح.

يجب أن نعترف أن كل مرحلة من المراحل التي مرت بها مسيرة الحركة المسلحة أو شهدها مسار التنمية بعد الاستقلال وجدت من مثقفين وأشباه مثقفين من يدافع عن تعطيل الديمقراطية، بعضهم يفعل ذلك عن حسن نية، وبعضهم تدفعه الانتهازية، وقليل هم الذين عبروا عن رأي مخالف وكانت لديهم الشجاعة لكي يجاهروا بالمعارضة.

استمرار الجيل الحاكم عبر الاستنساخ

إن انسداد آفاق الحل وتردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وسياسة احتقار المواطن، لم تؤد فقط إلى انبعاث فكر غيبي متخلف، بل حالت دون تحقيق الانسجام الاجتماعي الذي يتوقف عليه استئناف مسيرة التقدم، لأن تعطيل الديمقراطية يؤدي إلى تشرذم المجتمع ويحكم عليه بالعقم والجمود والتوقف عن النمو.

لا عجب إذن أن تكون أجيال اليوم نهبًا للشك والإحباط، مما يدفع بعض ممثليها لأن يتساءلوا: ما جدوى التضحيات التي بذلها الجيل القديم، وما فائدة الاستقلال إذا كانت النتيجة هي ما نعيشه اليوم من حرمان، كان من أبرز مظاهره سحق الطبقة الوسطى؟ ما فائدة ذلك كله إذا كانت نفسياتنا ممزقة، وعقولنا حيرى، وبطوننا خاوية ولا نرى بصيص نور وسط هذا النفق المظلم الذي أطبق علينا من كل جهة؟

هكذا تبدو الهوة سحيقة بين ممثلي الأجيال الصاعدة وبين ممثلي الأجيال الماضية وبقايا الحرس القديم، سواء كانوا كبارًا في السن، أو شبابًا مستنسخًا.

أيُّ حوار يمكن أن يقوم بين أولئك وهؤلاء؟

ممثلو الجيل القديم يتهمون جيل اليوم بأنهم لا يقدرون تضحيات من سبقوهم، ولا تهمهم إلا مشاكل السكن والخبز والماء.. يقول القدامى للجدد: تجرون فقط وراء المادة، وتتحللون من الأخلاق، ولا ترتبطون بقيم الأمة وثوابت الوطن.

يرد عليهم أبناء الجيل الراهن: أي مكاسب تحققت لنا من إنجازكم الذي تصفونه بالمعجزة (تحقيق الاستقلال) وأي رفاهية لمسناها من تضحياتكم التي تصفونها بـ «الخارقة»، وأي خير رأيناه بفعل انتصاراتكم على الاستعمار التي تسبغون عليها طابع القداسة؟ وقد يضيف بعضهم - وإن كانوا قلة -: لقد استفدتم من رياح التاريخ التي أصبحت تجري بما لا تشتهيه سفن الاستعمار، فتصورتم أنكم صنعتم المعجزة وأنكم تحكمتم في توجيه الرياح.

وقد يضيف بعض مثقفيهم: - إن الثوار الصينيين، كما قال مؤرخ دقيق الملاحظة، قاموا بثورة ضد العالم من أجل أن يندمجوا في العالم، تمردوا على الماضي من أجل أن يمتلكوه، ومن ثم يكون في مقدرتهم أن يواصلوا السير إلى الأمام، بعد أن كيفوا نفسياتهم وعقولهم بما يتطلبه العصر والمستقبل. وأنتم خضتم ثورة عظيمة ضد ماضي وحاضر الاستعمار من أجل أن تظلوا في ماضيكم قابعين، ولأمجاده مجترين، حتى تبرروا بذلك احتكاركم للثروة. بحجة أن الاستقلال قد تحقق بفضل سواعدكم. إنكم إذ تمكنتم من شراء السلام الاجتماعي بفضل عوائد البترول تصورتم أنكم وضعتم أسس دولة مستقرة. إن الأجيال التي سبقتكم كانت تكدح وتناقش، وتقدح زناد الأفكار وتجتهد، وأنتم تفبركون جملاً وتلقون خطبًا خالية من الروح وتنمقون مواعظ لا يؤمن بها حتى من يصفقون لها.

ولو أطلقنا العنان للخيال، لتعددت المآخذ من هنا وهناك. علمًا بأن ممثلي الجيل الجديد لا يتحدثون لغة واحدة: فقد يوجد فيه من يبالغ في الدعوة إلى التغريب والفرنسة، كما قد يوجد فيه من يتزمت في الدين ويحكم بتكفير من يخالفه في الرأي إن لم يستحل دمه.



ومهما يكن من شيء فإن انشغال الجيل الجديد بمشاكل الحياة اليومية وتطرفه في هذا الاتجاه أو ذاك يفرض على ممثلي الجيل القديم أن يسائلوا أنفسهم: من المسئول؟ أي فضاء للحرية أتحناه لهم في الإبان حتى يشعروا بقوة الأفكار المنبثقة عن النقاش الحر والجدل السليم وأهمية التسليم بحق المحاور في الاختلاف.

إن طموح الجيل الجديد لأن يعيش عصره أمر طبيعي.

فمن العبث مخاطبته بلهجة وعظية. ليس معقولاً ولا واقعيًا أن يجبر على الالتفات دائمًا إلى الخلف ليعرف أنه يتقدم. السرعة الشديدة التي يتقدم بها العصر تجعله يتصور عن حق أنه يتراجع بسرعة حتى عندما يتيقن أنه يتقدم ويسير إلى الأمام.

مثله في ذلك مثل سيارة جديدة شديدة السرعة، تجتاز أخرى قديمة أقل سرعة، فإن سائق السيارة الجديدة المسرعة، عندما يلقي نظرة على المرآة أمامه، تعكس له صورة السيارة القديمة التي تجاوزها وتبدو له هذه كأنها تجري بسرعة إلى الخلف.

ماذا ينتظر ممثلو الجيل القديم ومن يحوم في رحابهم ممن كونوهم على صورتهم واستنسخوهم على شاكلتهم، كي يجروا قراءة نقدية في الماضي، ماضيهم بعيدًا عن التبرير الأرعن والتمجيد الأعمى؟ هل ينتظرون أن يستيقظ المارد الذي يبدو نائمًا مستكينًا، فيفاجئهم كما فاجأ مارد ١٩٥٤ جيل المحتفين بمرور قرن على ١٨٣٠.

ألا يبصرون النذر في الأفق التي تبدو قاصرة على منطقة القبائل في حين أنها تشكل إرهاصات تنبئ عن تململ كل الفئات المحرومة في سائر أرجاء الوطن المترامي الأطراف؟ متى يتبين أصحاب الحل والعقد أن الرعود التي تشق سماء تيزي أوزو وبجاية تنبئ في الواقع عن عواصف تختمر في مناطق أخرى؟

خرائط البؤس والحرمان

لقد أعطت مدينة الجزائر اسمها لبلد كامل منذ بدايات القرن السادس عشر الميلادي، أي في زمن كان فيه البحر الأبيض المتوسط هو مركز الدنيا وسرة العالم، أي قبل أن يحتل العالم الجديد مكانة غيرت خريطة العالم ونقلت مركز الثقل القديم إلى نيويورك وواشنطن.

إن الخطر الذي يهدد الجميع في جزائر اليوم، وليس في الجزائر وحدها، الخطر الذي يهدد أجيال الأمس القدامى. وأجيال اليوم الجدد هو أن يؤدي الوضع الراهن، لو استمر إلى تغييب كل من التاريخ والجغرافيا، في حين أن العصر الراهن أي العصر الذي يعيش فيه بعض قليل فوق إمكانيات البلد، وتتعرض فيه الأغلبية الساحقة لموت بطيء، يُلَقِّن المحرومين دروسًا لإتقان صنف جديد من الجغرافيا تصورها خرائط البؤس والفقر والحرمان من جهة والثروة والغنى والتخمة من جهة أخرى.

إن الناس «اللي فوق» إذا تجاهلوا هذه الجغرافيا الجديدة، فإنهم لن يعرفوا أين يكونون ولا على أي بركان أو رمال متحركة يقفون. لأن الجغرافيا في جوهرها تستجيب لأبسط أنواع المعرفة: تحديد الموقع، معرفة طبيعته، تحديد مكان المرء من الموقع، لُبُّ الجغرافيا هو تشخيص الموقع وفهم المكان، أي معرفة الوسط الذي يعيش فيه الإنسان المسئول والوسط الذي يحيا فيه الآخرون أو لا يحيون.

إن قطعة الأرض التي نقف فوقها تتحدد وتتغير بحكم الاقتصاد وبحكم الاجتماع وبحكم التوزيع المجحف للثروة؛ من هنا موجات الهجرة، وحركة الطموحات وخريطة الحرمان والأحقاد.

إن الجغرافيا بهذا المفهوم تخضع للتاريخ الذي يشارك في إنتاجها وتكييفها، كما تشارك هي أيضًا في صنع التاريخ وتوجيه أحداثه.

من هنا ضرورة أن يفكر الناس «اللي فوق» في تعقيدات المواقع الجديدة التي أوجدوها أو تسبب في إيجادها غيرهم.. ضرورة أن يسعوا لإعادة صياغة جغرافيا جديدة، بما يعيد رسم خريطة تتراجع فيها مساحات العداء والبغضاء والحقد، إن أرادوا ألا تتزلزل الأرض تحت الأقدام، وألا تهوى السماء على الرؤوس.

إذا كانت الحداثة مرتبطة بالتاريخ، كما يقول بعضهم، فإن ما بعد الحداثة مرتبط بالفضاءات الجغرافية الجديدة، أي بإعادة صياغة خرائط العواطف والأحاسيس والمشاعر.■

الهوامش

(١) Ferdinand Braudel, (Les ambitions de l'histoire) T. (2) Paris: Fallois, 1997.

(٢) الكتب وجهات نظر، العدد رقم (١٤)، يناير ٢٠٠٠.

(٣) Ferdinand Braudel, (Outour de la Mediteraine), Paris: Fallois, 1996 - P 47).

(٤) Pelissier de Reynaud, (Autrement. N: 55. Mars 1999. p.13)

أمريكا وقمة الأرض

ينعقد فى جوهانسبرج بجنوب أفريقيا خلال الفترة من ٢٦ أغسطس حتى ٤ سبتمبر ٢٠٠٢ ما يطلق عليه قمة الأرض الثانية للتنمية المستدامة Sustainable Development (SD). وكانت القمة الأولى قد انعقدت فى ريو دى جانيرو بالبرازيل عام ١٩٩٢ فى إطار مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية UNCED والذى أقر أجندة القرن الواحد والعشرين .Agenda 21 وتتكون التنمية المستدامة من ثلاثة أنشطة محورية، تتسم بالتكامل والمساندة المتبادلة، بمعنى أن كلا منها يغذى الآخر ويتغذى منه. وهذه الأنشطة هى التنمية الاقتصادية، والتنمية الاجتماعية، وحماية البيئة. وفى إطار تلك الأنشطة يوجد العديد من الأهداف الإنسانية الكبرى مثل خفض حدة الفقر، وتغيير الأساليب غير المستدامة للإنتاج والاستهلاك (أى التى لا تتسم بالكفاءة والترشيد)، وحماية الموارد الطبيعية وحسن إدارتها. كذلك يرتبط بتلك الأهداف الكبرى العديد من الأساليب الكفيلة بتحقيقها مثل رفع كفاءة الحكم والادارة على المستوى المحلى فى كل دولة وأيضا على المستوى العالمى Good governance، وتوفير المناخ المشجع للاستثمار وخاصة بعد أن صار للعوامل الخارجية تاثير عميق على اقتصاد الدول النامية فى ظل العولمة التى تحمل لواءها منظمة التجارة العالمية واتفاقيات جات.

وقد أنشئ فى إطار الأمم المتحدة لجنة التنمية المستدامة وعهد إليها - بين أمور أخرى - بالتحضير لقمة جوهانسبرج. وكان آخر اجتماع لهذه اللجنة على المستوى الوزارى فى بالى بإندونيسيا خلال الفترة من ٢٧ مايو حتى ٧ يونيو ٢٠٠٢ حيث جرى التفاوض على الوثيقة الشاملة التى ستطرح أمام قمة جوهانسبرج والتى يتوقع أن يشارك فيها عشرات الآلاف من كافة المهن والأجناس، ومن بينهم رؤساء دول وحكومات، ممن يعنيهم الحفاظ على الموارد الطبيعية لكوكب الأرض ومواجهة التحديات التى يفرضها النمو المتسارع للسكان وبالتالى ازدياد حاجتهم للغذاء والمياه والمأوى والطاقة والخدمات الصحية والأمن الاقتصادى.



ويتوقع أن يصدر عن قمة جوهانسبرج بيان قمة سياسى وبرامج عمل تستهدف المزيد من تفعيل أجندة القرن ٢١ ومواصلة وتعميق التنفيذ الفعلى للأهداف التى أقرتها القمة الأولى (١٩٩٢) وما تلاها مما أقرته الأمم المتحدة ومن أبرزها إعلان التنمية الألفية Millennium Development Declaration التى تستهدف خفض نسبة الفقراء والمحرومين من وسائل المعيشة الصحية على كوكب الأرض إلى النصف بحلول ٢٠١٥. وسوف تنقسم قرارات قمة جوهانسبرج إلى نوعين: الأول Type(1) وينطوى تحته كل ما تم التفاوض عليه وأقرته الدول بتوافق الآراء، أما النوع الثانى Type(2) فيشمل المبادرات التى ترى بعض الدول الالتزام بها اختيارا وتتضمن خطوات أكثر تقدما لتحقيق أهداف أجندة القرن ٢١، وهذه لا تحتاج إلى مفاوضات وإنما يكفى أن تتطوع الدول الراغبة بالإعلان عنها.

مؤتمر الأمم المتحدة لحماية البيئة

وبينما ينشغل العالم بوضع نظام دولى جماعى للتنمية المستدامة، متضمنا كأحد عناصره الأساسية حماية البيئة الكوكبية والحيلولة دون وقوع كارثة بيئية نتيجة للزيادة المطردة فى حرارة الغلاف الجوى، اختارت الولايات المتحدة الانفراد وحدها بموقف مستقل، إذ رفض رئيسها بوش عقب توليه الرئاسة التصديق على بروتوكول كيوتو، وأعلن فى منتصف فبراير ٢٠٠٢ برنامجه المستقل لمكافحة التغير المناخى مدعيا أنه يخصص لهذا الغرض من التمويل أكثر مما تخصصه أية دولة أخرى، ومتناسيا أن أمريكا هى الدولة الأكثر تلويثًا فى العالم إذ تبث فى الغلاف الجوى ربع الغازات الملوثة.



وفى تبريره لعدم الانضمام إلى بروتوكول كيوتو، يقول بوش أن الالتزام بأهداف البروتوكول يحمل الاقتصاد الأمريكى خسائر كبيرة ويفقدها الملايين من فرص العمل، كما يؤكد أن النمو الاقتصادى يعتبر الحل لقضية التغير المناخى وليس سببا لها، إذ يوفر الأموال التى يمكن استثمارها فى تنمية واستخدام التقنيات الصديقة للبيئة وتقديم حوافز ضريبية لتشجيع الشركات والأفراد على تبنى تلك التقنيات مما يؤدى إلى خفض الملوثات اختيارًا وليس بالإلزام. كذلك يعد بوش بتقديم معونات مالية وتقنية للدول النامية لتمكينها من استخدام تقنيات حميدة للبيئة. غير أنه يعترض على إعفاء الدول النامية فى ظل بروتوكول كيوتو من الالتزام بأهداف محددة ويطالب الصين والهند بتحمل نصيبهما من تلك الالتزامات باعتبارهما من كبريات الدول الملوثة. ويؤكد بوش أنه على الرغم من انسحابه من بروتوكول كيوتو إلا أنه لا يعارض انضمام دول أخرى إليه.

وقد تركز الاهتمام العالمى بالبيئة، بصفة أساسية، فيما تم إنجازه بإشراف الفريق الحكومى الدولى للتغير المناخى UN Intergovernmental Panel on Climate Chang (IPCC) الذى تأسس فى إطار الأمم المتحدة عام ١٩٨٨ وعهد إليه بمهمة تقويم المعلومات المتعلقة بالتغير المناخى من الزوايا العلمية والفنية والاقتصادية والاجتماعية. ومن تلك الإنجازات وضع الاتفاقية الإطارية للتغير المناخى Framework Convention of Climate Change (FCCC) التى اعتمدتها الأمم المتحدة يوم ٩ مايو ١٩٩٢ وعرضت لتوقيع ممثلى الدول أثناء انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية (قمة الأرض Earth Summit) الذى انعقد فى ريو دى جانيرو بالبرازيل يوم ٤ يونيو ١٩٩٢. وتستهدف الاتفاقية الإطارية بصفة أساسية تحجيم مبتعثات Emissions غازات البيت الزجاجى أو الاحتباس الحرارى Greenhouse gases (GHGs) وأهمها غاز ثانى أكسيد الكربون Carbon Dioxide (Co2) مع العمل على استقرار تركز تلك الغازات فى الغلاف الجوى عند مستوى يحول دون وقوع الآثار الضارة بالنظام المناخى. فغاز ثانى أكسيد الكربون ينطلق إلى الغلاف الجوى بمعدلات كبيرة كنتيجة لعوامل طبيعية. ولكن المبتعث من ذلك الغاز بفعل الطبيعة تمتصه عوامل طبيعية كالأشجار والنباتات وبذلك يتحقق التوازن فى المدى الطويل. غير أن النشاط البشرى يطلق أيضا كميات متزايدة من ذلك الغاز مما يؤدى إلى زيادة تركزه فى الغلاف الجوى محدثا ما يعرف بظاهرة البيت الزجاجى أو ما يشبه عمل الصوبة اللازمة لبعض المنتجات الزراعية، وهو ما يؤدى بدوره إلى ارتفاع درجة حرارة الغلاف الجوى المحيط بالكرة الأرضية أو ما يعرف بظاهرة احترار الغلاف الجوى .Global warming ويرى أنصار حماية البيئة أن ذلك التطور من شأنه أن يذيب الغطاء الجليدى فى القطبين الشمالى والجنوبى فيرتفع مستوى المياه فى البحار والمحيطات لكى يغرق الأراضى الواطئة فى الكرة الأرضية. ومن هنا اتجه أنصار حماية البيئة إلى الربط بين ما ينبعث نتيجة للنشاط البشرى من تلك الغازات وبين هذه الظواهر التى تهدد نوعية الحياة على كوكب الأرض.

وقد تعهد الموقعون على الاتفاقية الإطارية FCCC ويبلغ عددهم الآن نحو ١٧٨ دولة بوضع برامج لمواجهة التغير المناخى وتبنى سياسات محلية فى كل دولة لتحجيم GHGs عند مستوى عام ١٩٩٠، وذلك باستثناء الغازات التى تضمنها بروتوكول مونتريال (١٩٨٧) الذى اختص بمعالجة المواد المؤثرة على طبقة الأوزون.

اختارت الولايات المتحدة الانفراد بموقف مستقل، إذ رفض رئيسها بوش التصديق على بروتوكول كيوتو، وأعلن برنامجه المستقل لمكافحة التغير المناخى مدعيا أنه يخصص لهذا الغرض من التمويل أكثر مما تخصصه أية دولة أخرى، ومتناسيا أن أمريكا هى الدولة الأكثر تلويثا فى العالم إذ تبث فى الغلاف الجوى ربع الغازات الملوثة

المتابعة الميدانية للتغير المناخى

يصدر الفريق الحكومى الدولى IPCC تقارير متابعة تستهدف تحسين مستوى الدراسات العلمية والتدقيق فى حساب القياسات التى يتم على أساسها متابعة تطورات التغير المناخى. وقد صدر التقرير الثالث فى يناير ٢٠٠١ بعنوان « Climate Change 2001» حيث استغرق إعداده ٣ سنوات وشارك فى كتابته ١٢٣ من كبار الخبراء يساندهم ٥١٦ خبيرا معاونا وتمت الموافقة عليه بإجماع ١٥٠ مندوبا يمثلون ١٠٠ دولة. ويعتبر التقرير أشمل وثيقة صدرت حتى الآن حول قضية التغير المناخى. وقد تضمن التقرير أحدث ما توصلت إليه الدراسات الجارية من نتائج نوجز أهمها فيما يلى:

(١) إن درجة تركز GHGs فى الغلاف الجوى استمرت فى الازدياد نتيجة للنشاط البشرى وبخاصة التوسع فى استهلاك الوقود الحفرى، إذ ارتفع تركز ثانى أكسيد الكربون وهو أهم تلك الغازات من نحو ٢٦٨ جزءا بالمليون عام ١٧٥٠ إلى نحو ٣٦٥ جزءا عام ١٩٩٨ وهو ما يمثل زيادة مطلقة بنحو ٣١٪ خلال الفترة ١٧٥٠-٢٠٠٠ كذلك دلت القياسات الحديثة على أن هذا التركز قد ارتفع بمعدل ١,٥٪ سنويا فى المتوسط خلال الفترة ١٩٩٠-١٩٩٩.

(٢) إن قوة الإشعاع الحرارى Radiative forcing الناتج من ازدياد GHGs خلال الفترة ١٧٥٠-٢٠٠٠ تقدر بنحو ٢,٤٣ وات Watt لكل متر مربع منها ١,٤٦ وات لازدياد ثانى أكسيد الكربون وحده.

(٣) قدر ما انطلق من ثانى اكسيد الكربون Co2 إلى الغلاف الجوى خلال عام ٢٠٠٠ نتيجة لعوامل طبيعية بنحو ٢١٠ مليار طن كربون مكافىء (طن كربون = ٣,٦٧ طن .(Co2 وقدر ما أطلق من ذلك الغاز نتيجة للنشاط البشرى فى العام المذكور بنحو ٦,٣ مليار طن كربون مكافىء (أى ٢٣ مليار طن Co2) بلغ نصيب الولايات المتحدة منه ١,٥٨ مليار طن كربون أو ما يعادل ٢٥٪ من إجمالى العالم. وبذلك بلغ إجمالى مبتعثات ثانى أكسيد الكربون نحو ٢١٦,٣ مليار طن كربون مكافىء. أما ما تم امتصاصه بعوامل طبيعية كالأشجار والنباتات فى العام المذكور فلم يتجاوز نحو ٢١٣,١ مليار طن كربون.

(٤) ارتفعت حرارة الغلاف الجوى خلال القرن العشرين بنحو ٠,٦ درجة مئوية (مع احتمال ٠,٢ درجة زيادة أو نقصا).

(٥) ارتفعت حرارة الكيلومترات الثمانية السفلى من الغلاف الجوى بنحو ٠,٤ درجة مئوية خلال العقود الأربعة التى انقضت منذ أواخر عقد الخمسينيات حتى عام ٢٠٠٠.

(٦) وفقا للسيناريوهات المختلفة وعددها ٣٥ يتوقع استمرار ارتفاع حرارة الغلاف الجوى بما يتراوح بين ١,٤ و٥,٨ درجة مئوية خلال الفترة ١٩٩٠-٢١٠٠ تبعا لافتراضات السيناريو.

(٧) كذلك تشير السيناريوهات الـ ٣٥ إلى توقع ارتفاع مستوى المياه فى البحار والمحيطات بما يتراوح بين ٩ و٨٨ سنتيمترًا خلال الفترة المذكورة تبعا لافتراضات السيناريو.

(٨) كشفت البيانات المستقاة من الأقمار الصناعية عن احتمال قوى لتقلص طبقة الثلج

الاقتصاد قبل البيئة!

حسين عبد الله

كشفت البيانات المستقاة من الأقمار الصناعية عن احتمال قوى لتقلص طبقة الثلج المتساقط مطرا منذ أواخر عقد الستينيات، كما أن الفترة التى يستغرقها ذوبان الجليد الذى يغطى البحيرات والأنهار فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية قد قصرت بنحو أسبوعين خلال القرن العشرين

المتساقط مطرا Snow منذ أواخر عقد الستينيات. كما تشير القياسات السطحية إلى أن الفترة التى يستغرقها ذوبان الجليد الذى يغطى البحيرات والأنهار فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية قد قصرت بنحو أسبوعين خلال القرن العشرين.

(٩) ويخلص التقرير إلى أنه إذا نجح العالم فى تثبيت الناتج عن النشاط البشرى من مبتعثات GHGs عند مستوى مناسب. فإن الزيادة التى يمكن أن تطرأ على حرارة الغلاف الجوى على مدى قرن كامل لن تتجاوز أجزاء عشرية قليلة من الدرجة المئوية. أما إذا ترك الأمر دون ضوابط فإن ما تقدم ذكره من أضرار سوف يصبح واقعا محققا.



بروتوكول كيوتو

عقد فى كيوتو باليابان على مدى الفترة ١-١١ ديسمبر ١٩٩٧ بحضور ممثلى ١٦٠ دولة حيث تقرر - فيما تقرر - وضع قيود ملزمة للدول المتقدمة Developed لتحجيم GHGs. وانتهى المؤتمر باعتماد بروتوكول كيوتو Kyoto Protocol الذى وضع أهدافا محددة كميا لمبتعثات الكربون فى الدول المتقدمة ودعى لاتخاذ التدابير الكفيلة بتحقيقها خلال فترة محددة.

وعقد مؤتمر الأعضاء الرابع COP4 فى الأرجنتين نوفمبر ١٩٩٨ كما عقد الخامس فى بون نوفمبر ١٩٩٩ وعقد السادس على دورتين الأولى فى لاهاى نوفمبر ٢٠٠٠ والثانية فى بون يوليو ٢٠٠١ حيث تم بحضور ١٧٨ دولة الموقعة على FCCC إصدار اتفاق بون Bonn Agreement متضمنا ما يعرف بكتاب الإجراءات التنفيذية للبروتوكول Operational rulebook. وقد شاركت فى هذا المؤتمر رئيسة وكالة البيئة الأمريكية محاطة بالتخاذل الأمريكى الذى سبقها بإعلان بوش أنه ينسحب من بروتوكول كيوتو، ولم يسعفها البيت الأبيض بالإجابة عن الأسئلة التى وجهت إليها مما زاد فى حدة الحرج الأمريكى.

ويقضى اتفاق بون بإنشاء صندوقين يستخدم أحدهما لمعاونة الدول النامية على تبنى سياسات لمكافحة التغير المناخى والحصول على تكنولوجيات نظيفة، كما تضمن الاتفاق السماح للدول المتقدمة باستخدام التشجير والتخضير Carbon sink الذى يمتص جانبا من المبتعثات الكربونية للوفاء بجانب من التزاماتها. كذلك وضع اتفاق بون الإجراءات التنفيذية لما تضمنه البروتوكول من آليات مرنة تساعد أعضاءه على الوفاء بالتزاماتهم وهى ما سوف نوضحها بعد قليل. ولكن اتفاق بون اشترط أن تمثل الجهود المحلية الجانب الأساسى فى تحقيق أهداف البروتوكول وأن يكون استخدام الآليات المرنة عنصرا مكملا. كذلك أنشأ اتفاق بون لجنة لمراقبة مدى التزام الدول بتنفيذ أهداف البروتوكول وزودت اللجنة بالإمكانيات الملزمة بما فى ذلك إلزام الدولة التى تتقاعس فى خفض طن من التزاماتها بالتعويض عنه بخفض ١,٣ طن خلال المرحلة الثانية التى تبدأ عام ٢٠١٣. وقد

أمريكا
رقمة الأرض



سواء صار البروتوكول نافذا أم لم ينفذ، فإن أغلب المؤشرات تؤكد أن العالم لن يقف مكتوف الأيدي إزاء التغير المناخي الحاصل والذي يزداد تأكيده بما تسفر عنه نتائج الأبحاث العلمية الجارية



عقد مؤتمر الأعضاء السابع في مدينة مراكش بالمغرب في نوفمبر ٢٠٠١ حيث أصدر ما يعرف بمواثيق مراكش Accords التي استكملت بعض ما لم يستكمل في اتفاق بون، ويتوقع أن يستمر استكمال الباقي أثناء انعقاد المؤتمر الثامن في الهند خلال نوفمبر ٢٠٠٢.

أما الآليات المرنة، وهي من أهم ما تضمنه بروتوكول كيوتو، فتشمل ما نصت عليه المادة ١٧ التي تجيز التبادل التجاري في المبتعثات Emission trading بين دول الملحق الأول وإصدار تراخيص كربونية Carbon permits يتم تبادلها بين الدول. كذلك تضمن البروتوكول نظام المشروعات المشتركة Joint Implementation projects الذي نصت عليه المادة ٦ ويسمح بموجبه لدولة من دول الملحق الأول بالاستفادة مما يتم تحقيقه بصورة مشتركة في دولة أخرى من دول الملحق الأول من مشروعات تحقق خفضا في المبتعثات، أو امتصاص جانب منها كمشروعات التشجير والتخضير. ووفقا لنظام المشروعات المشتركة يمكن للدولة المستفيدة، في مقابل ما تقدمه من دعم للدولة التي يتم على أرضها المشروع، وبالاتفاق فيما بينهما، أن تحصل على رخصة موثقة تعفيها من الالتزام بخفض مماثل في مبتعثاتها وتتيح لها فرصة الاستمرار في استهلاك الطاقة الحفرية بقدر ما تعفى منه. وفي تلك الحالة لا تستفيد الدولة التي تحقق المشروع على أرضها بالخفض الذي استفادت به الدولة التي حصلت على الترخيص.






وقد وقعت ٨٤ دولة على بروتوكول كيوتو خلال الفترة المتاحة للتوقيع والتي انتهت يوم ١٥ مارس ١٩٩٩. غير أن البروتوكول لن يصبح نافذا إلا عندما يقوم بالتصديق عليه ٥٥ عضوا من بينهم أعضاء من الملحق الأول (الإلزامي) يبلغ حجم مبتعثاتهم ٥٥٪ من إجمالي مبتعثات أعضاء هذا الملحق عام ١٩٩٠. وحتى نهاية أكتوبر ٢٠٠١ لم يصدق على البروتوكول من أعضاء الملحق الأول سوى رومانيا، وذلك بالإضافة إلى ٤٢ دولة من غير أعضاء الملحق الأول، أي ممن لا يلتزمون بتحقيق أهداف معينة. ومع أن أغلب دول الملحق الأول وبخاصة أوروبا واليابان تتحمس لتنفيذ البروتوكول، إلا أن انسحاب الولايات المتحدة الذي أعلنه بوش عقب توليه الرئاسة جعل باقي المجموعة تتوقف في انتظار ما تسفر عنه المحاولات المبذولة لتغيير موقف الرئيس الأمريكي الذي ما زال يصر على الانسحاب. ومما يذكر في هذا المجال أن مبتعثات الولايات المتحدة لا تتجاوز ٣٥٪ من مبتعثات دول الملحق الأول عام ١٩٩٠ ولذلك يبقى نحو ٦٥٪ من تلك المبتعثات وهو ما يمكن أن يغطي نسبة الـ ٥٥٪ المطلوبة لجعل البروتوكول نافذا.

وسواء صار البروتوكول نافذا أم لم ينفذ، فإن أغلب المؤشرات تؤكد أن العالم لن يقف مكتوف الأيدي إزاء التغير المناخي الحاصل والذي يزداد تأكيده بما تسفر عنه نتائج الأبحاث العلمية الجارية ومن أهمها ما يقوم به الفريق الحكومي الدولي ويقدمه في صورة تقارير متابعة كان آخرها التقرير الثالث الذي عرضنا أهم نتائجه فيما سبق.

مدى تأثر أنماط الطاقة

يتوقع أن تتأثر أنماط استهلاك الطاقة خلال المستقبل المنظور تأثرا جوهريا بما يتخذ على المستوى العالمي من تدابير لحماية البيئة. ذلك لأن حجم مبتعثات الكربون المرتبطة باستهلاك الطاقة يعتمد أساسا على حجم النشاط الاقتصادي معبرا عنه بالناتج المحلي الإجمالي GDP، كما يعتمد على طبيعة خليط الطاقة المستخدمة. وتقاس العلاقة الأولى بحجم ما يستهلك من الطاقة لإنتاج وحدة من الناتج المحلي الإجمالي ويطلق على هذا المقياس «كثافة الطاقة». كما يستدل على طبيعة خليط الطاقة المستهلكة، والذي يضم وقودًا حفريًا إلى جانب وقود غير حفري، بما يعرف «بكثافة الكربون». ومن مؤدى ذلك الارتباط أن محاولة تثبيت حجم مبتعثات GHGs أو خفضها على المستوى العالمي لابد أن يتحقق إما بخفض كثافة الطاقة أي تحسين كفاءتها، أو خفض كثافة الكربون بإحلال وقود ذي محتوى كربوني منخفض محل وقود ذي محتوى كربوني مرتفع، أو بكليهما معا.

ومن المعلوم أن كثافة الكربون، التي تقاس بمقدار ما يتخلف من الكربون عن إنتاج وحدة من الطاقة، تختلف تبعا لاختلاف المكان والزمان. ففيما قبل عام ١٩٩٠ كانت كثافة الكربون في شمال أمريكا هي الأقل بين المناطق الصناعية. أما خلال الفترة ١٩٩٠-١٩٩٩ فقد استطاعت أوروبا الغربية أن تقلص اعتمادها على الفحم من نحو ٨٩٤ مليون طن إلى نحو ٥٤٦ مليون طن، وذلك بإغلاق مناجم الفحم البني في ألمانيا والفحم الصلب في المملكة المتحدة، كما حلت الطاقة النووية والغاز الطبيعي بدرجة كثيفة محل الفحم في فرنسا. وقد نتج عن ذلك التطور أن أصبحت أمريكا الشمالية في الوقت الحاضر المنطقة الأعلى في كثافة الكربون بين المجموعة الصناعية الغربية، ويتوقع أن يستمر الحال على ذلك حتى عام ٢٠٢٠، ولعل مما يؤكد هذا التطور ما يتوقع من تقلص استخدام الطاقة النووية في الولايات المتحدة وإحلال مصادر الوقود الحفري محلها في توليد الكهرباء. وبالمثل، إذا تقلص بدرجة كبيرة حجم الطاقة النووية المستخدمة في أوروبا الغربية فسوف يتعذر الاستمرار في خفض كثافة الكربون. أما المنطقة الصناعية في جنوب شرق آسيا فتشهد تطورا مماثلا لمنطقة أوروبا الغربية فيما يتعلق بانخفاض كثافة الكربون. فاليابان رغم توسعها في استخدام الغاز الطبيعي، مما يؤدي إلى خفض كثافة الكربون، إلا أن تلك الإمكانية ستظل محدودة نتيجة لارتفاع كلفة الغاز الطبيعي الذي تستورده اليابان مسالا. ويبقى الأمل في خفض كثافة الكربون باليابان معلقا بصفة أساسية على التوسع في استخدام الطاقة النووية وهو ما يتوقع زيادته بالفعل.

وبصفة عامة، يعتبر الغاز الطبيعي المنافس الأقوى بين ما سوف يحل من مصادر الطاقة محل الطاقة النووية في مختلف المناطق الصناعية، وذلك لما يتمتع به من صفات بيئية حميدة إذ يعتبر الأقل في محتواه الكربوني يليه البترول السائل ثم الفحم الذي يحتوي على نسبة أكبر من الكربون.

ومع أن الطاقة الكهرومائية، ومن أمثلتها كهرباء السد العالي، تلعب دورا مهما في خفض كثافة الكربون في مختلف الدول إلا أن امكانياتها ستظل محدودة، لأن أغلب المواقع التي تصلح لاستغلال تلك الطاقة في الدول الصناعية قد تم استغلالها بالفعل. وعلى أية حال، فإن نصيبها من الاستهلاك العالمي للطاقة خلال المستقبل المنظور لا يتوقع أن يرتفع فوق نصيبها الحالي والذي لا يتجاوز ٨٪.



ولا يبقى من مصادر الطاقة المتجددة التي يمكن التوسع في استخدامها مستقبلا سوى طاقة الرياح والطاقة الشمسية، وطاقة الكتلة الحيوية. ومع أن استخدام تلك المصادر، التي لا يتخلف عنها كربون، لم يحقق سوى نمو محدود خلال السنوات الأخيرة، إلا أن الالتزام بأهداف بروتوكول كيوتو - متى صار نافذا - أو بأية اتفاقيات بيئية أخرى، يمكن أن يساند اقتصادياتها وأن يدفعها دفعة قوية خلال المستقبل المنظور.

وتختلف التحديات التي تواجهها الدول الصناعية، في مجال مكافحة الأضرار البيئية الناتجة من استهلاك الطاقة، عن نظائرها التي تواجه الدول النامية. فالدول المتقدمة استطاعت أن تحقق ما حققته من نمو اقتصادي بفضل ما أتيح لها من مصادر رخيصة نسبيا من الوقود الحفري. وبالنظر لضخامة المستثمر في المعدات الرأسمالية التي تستخدم ذلك الوقود، فإن تلك الدول سوف تحتاج لوقت أطول حتى تتمكن من إحلال مصادر للوقود ذات محتوى كربوني منخفض محل المصادر ذات المحتوى الكربوني المرتفع، وحتى تتمكن أيضا من استبدال الأجهزة والمعدات اللازمة لذلك الإحلال. ومن هنا يتمثل التحدي الذي تواجهه الدول الصناعية المتقدمة في استنباط سياسات تستهدف حماية البيئة على المستوى العالمي، وتوفر لها، في نفس الوقت، المرونة الزمنية التي يتطلبها تعديل نظم الطاقة فيها بما يحقق تلك الأهداف.

أما بالنسبة للدول النامية، فسوف يتطلب الأمر أن تواصل كفاحها لتحقيق أهدافها التنموية، وإن كان في مقدورها الاستفادة من التجارب التي مرت بها الدول الصناعية في مجال التنمية الاقتصادية والاجتماعية. فالكثير مما يوجد الآن في الدول الصناعية من بنية صناعية ومعدات رأسمالية مستهلكة للطاقة لا يزال نظيره في طور البناء في الدول النامية. وفي ذلك ما يعتبر ميزة ينبغي أن تستغلها الدول النامية لكي تحسن اختيارها منذ البداية فيما تقتنيه من تلك المعدات ومن مصادر الطاقة الأكثر مناسبة لتحقيق الأهداف البيئية والتنموية في آن واحد.

السياسة الأمريكية الجديدة

كما حدث في التجربة الأمريكية السابقة التي بدأت عام ١٩٩٣ بوضع خطة عمل CCAP تتضمن ٤٤ نشاطا لخفض GHGs وانتهت بالفشل وازدياد المبتعثات زيادة كبيرة كما أوضحنا، قدم بوش للعالم برنامجه الجديد في إطار مبهر نوجز فيما يلي أهم معالمه ونتبعه بما نراه من نقاط الضعف:

(١) في تبريره لعدم الانضمام إلى بروتوكول كيوتو، يقول بوش إن الالتزام بأهداف البروتوكول يحمل الاقتصاد الأمريكي خسائر تقدر بنحو ٤٠٠ مليار دولار ويفقدها نحو ٤,٩ مليون فرصة عمل وهو ما يعقد مشكلة البطالة. وبدلا من ذلك يؤكد بوش أنه سوف يطلب في موازنة العام الجديد ٢٠٠٣ رصد اعتمادات تصل إلى ٤,٥ مليار دولار بزيادة ٧٠٠ مليون دولار عن العام السابق. ثم يتجدد طلب الاعتمادات عاما بعد آخر إلى أن يتحقق هدف البرنامج الذي حددت مدته بعشر سنوات. وسوف يخصص الجانب الأكبر من تلك الاعتمادات لتشجيع الاستثمار في تحسين وتطبيق التقنيات الصديقة للبيئة، وبذلك يستمر الاقتصاد الأمريكي في النمو. ويؤكد بوش أن النمو الاقتصادي يعتبر الحل الأمثل لقضية حماية البيئة وليس سببا من أسبابها، إذ يساعد على توفير الأموال اللازمة للإنفاق على الاستثمارات المطلوبة لتنمية التقنيات الصديقة للبيئة. وبمعنى آخر، فإنه بدلا من أن يكون الاختيار بين تحقيق أحد الهدفين على حساب الآخر، إما حماية البيئة أو نمو الاقتصاد، فإن البرنامج الأمريكي يستهدف تحقيق الهدفين معا.

(٢) يستهدف البرنامج الأمريكي خفض كثافة المبتعثات GHGs في الاقتصاد الأمريكي بنحو ١٨٪ خلال السنوات العشر المقبلة. وعلى خلاف بروتوكول كيوتو الذي يستهدف خفض المبتعثات الأمريكية خفضا مطلقا بنحو ٧٪ تحت مستواها عام ١٩٩٠، فإن المعيار الذي يتبناه البرنامج الأمريكي يستهدف خفض كثافة المبتعثات GHGs intensity وهي نسبة ما يطلق في الغلاف الجوي من تلك المبتعثات لكل

دولار من الناتج المحلي الإجمالي GDP. وبمعنى آخر فإن البرنامج الأمريكي يسمح بنمو الدخل والمبتعثات معا، ولكنه يعمل على أن يكون نمو المبتعثات بمعدل أبطأ من معدل نمو الدخل بحيث تقل نسبة المبتعثات إلى الدخل.

وبترجمة هذا الهدف إلى أرقام فإن البرنامج يستهدف خفض ما تطلقه الولايات المتحدة سنويا في الغلاف الجوى من GHGs لكل مليون دولار GDP من نحو ١٨٣ طن مترى كربون مكافئ إلى ١٥١ طن مترى بحلول ٢٠١٢، كما يتوقع أن يبلغ الخفض الإجمالي المتراكم خلال السنوات العشر نحو ٥٠٠ مليون طن كربون مكافئ.



ويؤكد أنصار البرنامج الأمريكي أن الخفض المستهدف يقدر بنحو ٤،٥٪ مما يمكن أن تصل إليه مبتعثات GHGs إذا ظل الحال على ما هو عليه في الوقت الحاضر، وهو خفض يقبل المقارنة بمتوسط الخفض الذى يستلزمه بروتوكول كيوتو بالنسبة لجميع أعضائه.

(٣) يكافئ البرنامج الأمريكي الشركات والأفراد الذين يبذلون جهدا اختياريا لخفض المبتعثات. ولكي يكون هذا الجهد قابلا للقياس فإن البرنامج يتضمن تحسينا على نظام القياس وإعداد التقارير Reporting المعمول به في ظل النظام القائم. ويمثل الاختيار لا الإلزام الفكرة المحورية في البرنامج الأمريكي وأن تكون المشروعات المنفذة يبررها السوق والتكلفة market-based and cost-effective.

(٤) تتضمن الاعتمادات التي سيطلبها بوش ١،٧ مليار دولار للإنفاق على تنمية الأبحاث الأساسية في مجال التغير المناخي، كما تتضمن ١،٣ مليار دولار لتنمية وتطوير تقنيات الطاقة الصديقة للبيئة.

(٥) يستهدف البرنامج الأمريكي منح حوافز ضريبية لتشجيع مصادر الطاقة الصديقة للبيئة (وأهمها الطاقة الشمسية والرياح والكتلة الحيوية والمركبات العاملة بخلايا الطاقة وتوليد الكهرباء بنظام الدورة المركبة..إلخ). وسوف يطلب لهذا الغرض اعتماد ٧،١ مليار دولار على مدى السنوات العشر المقبلة منها ٤،٦ مليار دولار للسنوات الخمس الأولى يخصص منها للعام الأول (٢٠٠٣) مبلغ ٥٥٥ مليون دولار.

(٦) يتضمن البرنامج أيضا طلب اعتمادات متفرقة لتمويل برامج قائمة بالفعل في مجالات أخرى لا تخاطب قضية التغير المناخي مباشرة ولكنها تعكس عليها تأثيرا إيجابيا بطريقة غير مباشرة.

أهم الانتقادات الموجهة للبرنامج الأمريكي

أوضحنا فيما تقدم أهم معالم البرنامج الأمريكي الذى أعلنه بوش في منتصف فبراير ٢٠٠٢ للتعامل مع قضية التغير المناخي. وفيما يلي نوجز أهم ما يؤخذ عليه من نقاط الضعف:

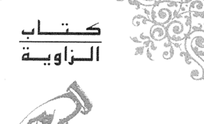
(١) استخدم البرنامج معيارا لقياس المبتعثات يختلف عن المعيار الذى استخدمه بروتوكول كيوتو. فبينما يلزم البروتوكول الولايات المتحدة بخفض المبتعثات خلال عشر سنوات خفضا مطلقا بنحو ٧٪ من مستواها عام ١٩٩٠، فإن المعيار الذى اختاره بوش يستهدف خفض ما تمثله تلك المبتعثات كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي ولكنه يسمح بزيادتها زيادة مطلقة كما سنوضح في الفقرة التالية.

(٢) اختار بوش لسيناريو الوضع القائم بدون تطبيق برنامجه «business-as-usual" معدلات مرتفعة لنمو مبتعثات GHGs بل وتزيد عن التقديرات التي وضعتها وزارة الطاقة الأمريكية، وذلك بغية إثبات أن برنامجه سوف يؤدى إلى تحقيق خفض في كثافة المبتعثات يصل إلى ١٨٪ في نهاية السنوات العشر. ومع ذلك فإن تلك المبتعثات، وعلى أساس نفس الأرقام التي اختارها البرنامج، يتوقع أن تحقق زيادة مطلقة بعد الخفض المذكور تقدر بنحو ١٤٪ وهو ما يقرب من الزيادة التي تحققت خلال السنوات العشر الماضية (من ١٦٧٨ إلى ١٩٠٦ مليون طن كربون مكافئ بمعدل ١٣،٦٪).

(٣) انهالت الانتقادات على البرنامج الأمريكي فور إعلانه. ففي فرنسا قيل أن الطابع الاختياري للبرنامج الأمريكي يدعو للقلق، وأنه بدون وجود روادع ملزمة يفتقر للمصداقية إذ يستهدف تحقيق التغيير المطلوب بدون تكلفة وبدون أن يغير المواطن الأمريكي من أسلوب حياته. ومن ناحية أخرى فإن البرنامج لا يعدو أن يكون وسيلة تجميل ظاهرية window dressing وإن كان لن يغير صورة بوش أمام العالم باعتباره خادما لصناعة البترول الأمريكية. وفي بروكسل أبدت المتحدثة باسم المفوضية الأوروبية أن النظام المتعدد الأطراف (أى كيوتو) يعتبر أفضل الوسائل لمواجهة التحدى الكبير، ولذلك فإن الاتحاد الأوروبي ما زال يأمل أن يعود بوش إليه. وفي بريطانيا انتقد البرنامج على أنه غير كاف وأن التجربة البريطانية أثبتت أنه من الممكن التوفيق بين خفض المبتعثات وبين الاحتفاظ باقتصاد متعاف. وفي اليابان قال وزير البيئة الجديد إن الأفضل للولايات المتحدة العودة إلى كيوتو. أما في ألمانيا فقد امتدح البرنامج الأمريكي لاحتوائه أحكاما تلزم بخفض مبتعثات الزئبق وثاني أكسيد الكبريت وأكاسيد النيتروجين وهي مبتعثات ملوثة للهواء، ولكن البرنامج انتقد على أساس أن تنقية الهواء لا تعالج قضية التغير المناخي الذى يلعب الدور الرئيسي فيها مبتعثات الكربون معبرا عنها بثاني أكسيد الكربون. ولذلك وصف بأنه برنامج عظيم لتحقيق هدف خطأ.

(٤) كذلك صدر من داخل الولايات المتحدة العديد من أصوات الانتقاد، ومنها أن الكونجرس سوف يتردد في تغيير النظام القانوني القائم الذى يطلب بوش إحلال برنامجه محله. ولذلك قيل إن الكونجرس لا يمكن أن يضحى بنظام قانوني قائم في مقابل وعود يقدمها الرئيس ومعاونوه.

وقد قام مؤخرا علماء من ست وكالات فيدرالية أمريكية بإعداد تقرير يعترف بان النشاط الإنساني يتسبب بدرجة كبيرة في احترار الغلاف الجوى وأن الولايات المتحدة ذاتها تواجه مخاطر كبيرة في هذا المجال. غير أن الرئيس بوش اكتفى في مستهل يونيو ٢٠٠٢ بقوله «قرأت التقرير الذى وضعه البيروقراطيون» ثم عاد يؤكد رفضه التصديق على بروتوكول كيوتو. بذلك تظل الإدارة الأمريكية متمسكة بالبرنامج البديل الذى أعلنه بوش في فبراير ٢٠٠٢ وسبق شرحه، كما يظل الموقف الأمريكي الرسمي على نقيض من مواقف الحلفاء الغربيين في أوروبا واليابان، بل ومناقضا أيضا للتيار المتزايد داخل الولايات المتحدة والذى ينادى باتخاذ إجراءات فعالة للحد من احترار الغلاف الجوى. ■



حرب النهر
تاريخ الثورة المهدية

يعد هذا الكتاب هو الثاني الذى ألفه ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني الراحل. وقد كتبه وعمره خمسة وعشرون عامًا.

ولم تشأ المقادير أن يشارك تشرشل في معركة أم درمان للقضاء على امبراطورية الدراويش والثورة المهدية، لكنه استطاع تسجيل تفاصيل الحرب ومعاركها العديدة. وبالرغم من اشتراكه في نهايات المعركة إلا أن وصف تشرشل للاستعدادات لهذه المعركة فاق وصف المعركة ذاتها حسب رأى المؤرخين.

الكتاب يقدم رؤية تشرشل لفترة صاخبة في حياة وادى النيل وهي نهايات القرن التاسع عشر وهو لا يخفى أطماع بريطانيا الاستعمارية في السيطرة على وادى النيل وأطماع الدول الأوروبية الأخرى وخاصة فرنسا في محاولة تقاسم الكعكة مع بريطانيا وهو ما ظهر جليّاً في حادثة فاشودة الشهيرة التي جرت تسويتها عام ١٨٩٩.

ولد تشرشل عام ١٨٧٤ وتعلم في كلية ساند هيرست العسكرية وحارب في السودان وانتخب ممثلاً لحزب المحافظين في البرلمان وتولى العديد من الوظائف الوزارية طيلة النصف الأول للقرن العشرين توجها برئاسة الحكومة خلال الحرب العالمية الثانية وتوفى عام ١٩٦٥.

وقد قام بترجمة الكتاب الأستاذ عز الدين محمود حفيد القائد السوداني الراحل الأمير أرباب الذى أشار إليه تشرشل في ثنايا الكتاب وصدر الكتاب ضمن سلسلة تاريخ المصريين التابعة للهيئة المصرية العامة للكتاب.



الشيوعيون المصريون

محمد سيد أحمد

ليس هذا تاريخا، ولا هو سرد للأحداث في تتابعها الزمني، وإنما هو وجهة نظر، تحتمل الصواب والخطأ، من منظور مشارك في الأحداث كان له موقعه وظروفه، في موضوع خلافي لا يمتّ إلى الماضي فقط.

كثيرون - بالذات في الغرب - اتهموا عبد الناصر بأنه انتهج سياسة حيال الشيوعية والاتحاد السوفيتي أفقدته بالتدريج استقلاليته ومصداقيته. وحتى لو سلمنا بأن هناك قوى أحاطت به وناهضت مثل هذا «الانزلاق»، فإن ما جرى من عمليات «تصحيحية» بعد رحيله لم يكن أمرا من المقرر حدوثه حتما. كان من الممكن أن يفشل أنور السادات في إزاحة ما عُرف بـ «مراكز القوى». إلى أين كانت ستتجه مصر لو كانت هذه «المراكز» قد انتصرت على السادات في مايو ١٩٧١؟

غير أن تجربة عبد الناصر مع اليسار الشيوعي في مصر تدحض هذا الافتراض دحضا كاملا.

كان عبد الناصر ضد الشيوعية. وكان الشيوعيون ضده. وكان الوضع ملتبسا عندما استولى عبد الناصر على السلطة في يوليو ١٩٥٢. كان الشيوعيون منقسمين إلى عدة منظمات. وانعكس الانقسام على حكمهم على عبد الناصر. كان منهم من اتهموا حركة الجيش بالفاشية، وقارنوها بالانقلابات العسكرية التي تكررت كثيرا في أمريكا اللاتينية. وكان منهم من ناصروا حركة الجيش منذ أول يوم، من منظور أناس كانوا على صلة مباشرة ببعض الضباط الأحرار. وكان لعبد الناصر شخصيا قبل الثورة، ولو من باب الاستطلاع، صلة بتنظيمات سرية عديدة ذات توجهات أيديولوجية مختلفة، منها تنظيم شيوعي، «الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني» («حدتو»)، وكان له فيه اسم حركي هو «موريس». ولكن تصدِّي حركة الجيش في نهاية عام ١٩٥٢ لإضراب عمالي في كفر الدوار، وتنفيذ حكم الإعدام في عاملين شاركا في الإضراب هما «الخميسي» و«البقري»، حدث وحَد الشيوعيين في ترجيح كفة التفسيرات السلبية لحركة الضباط. واجتمعت كلمة المنظمات الشيوعية على تشخيصها بالفاشية. فاعتقل الشيوعيون بالجملة، على اختلاف تقييمهم للسلطة الجديدة.



كانت حركة الضباط الأحرار في بداياتها موضع عطف الولايات المتحدة. ورمز ظهور السفير الأمريكي «جيفرسون كافري» بجانب الملك فاروق وهو يصطحبه إلى يخت «المحروسة» لضمان عدم المساس به وهو يغادر لآخر مرة الإسكندرية، إلى حقيقة أن واشنطن لم تكن ضد الحركة وقت قيامها. بل تعاطفتِ معها بادئ الأمر. وربما نظر عبد الناصر إلى الولايات المتحدة الأمريكية بصفتها النموذج الجدير بأن يحتذى. ولكن تطلعه هذا لم يتحقق أبدا. وربما كان السبب الرئيسي في الفشل هو مناصرة الإدارة الأمريكية بشدة لإسرائيل في مختلف العهود.

وبدأ موقف الشيوعيين يتغير من حركة الجيش مع مشاركة عبد الناصر في قمة باندونج، وبالذات عقب العلاقة التي توثقت بينه وبين شو إين لاي هناك، وتدخل هذا الأخير لدى السوفييت - وقتذاك - لطلب مدّ مصر بالسلاح بعد أن رفضت أمريكا تلبية طلبات القيادة المصرية الجديدة في هذا الصدد. لقد نسب إلى تشرشل تدخله لدى الرئيس الأمريكي أيزنهاور لحثه على عدم تسليح الجيش المصري بدعوى أن هذه الأسلحة سوف يستخدمها «ناصر» ضد الجنود البريطانيين المرابطين بالقناة، والذين عملوا تحت إمرة أيزنهاور إبان الحرب العالمية الثانية. فكانت صفقة الأسلحة «التشيكية» (حقيقتها أسلحة سوفيتية). ثم تسلسلت خطوات بعد ذلك أخرجت مصر بشكل زاد وضوحا على مألوف سياساتها قبل الثورة، من أبرزها الاعتراف بالصين الشعبية، ورفض حلف بغداد، ثم انتظار خروج آخر جندي بريطاني من منطقة القناة بمقتضى «اتفاقية الجلاء» عام ١٩٥٤ لإصدار قرار بتأميم شركة القناة، ردا على رفض البنك الدولي تمويل مشروع السد العالي، استجابة لطلب أمريكا.

لقد أخذ موقف الشيوعيين من الثورة يتحوّل بالتدريج من المعارضة إلى التأييد. بل بلغ التأييد حد توحيد الحركة الشيوعية التي ظلت حتى ذاك الوقت منقسمة إلى منظمات متعددة. إذ كان من المستحيل أن تتجه هذه المنظمات إلى المطالبة بإقامة جبهة وطيدة الأركان مع عبد الناصر، الزعيم الوطني - «البرجوازي» - بينما ظلت هي عاجزة عن تحقيق الوحدة فيما بينها! وقد بلغ التأييد لعبد الناصر الذروة يوم إعلانه تاميم القناة. كان مصدق في إيران قد سبق وحاول تاميم شركة البترول الإيرانية، ولكنه فشل في النهاية. ذلك بينما نجح عبد الناصر في تاميم قناة السويس. بل وفي الصمود في وجه العدوان الثلاثي. كان ذلك انتصارا غير مسبوق في وجه الإمبريالية العالمية. وعندما أطلقت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل عدوانها الثلاثي ضد مصر، نهض الشيوعيون بدور مشهود لهم في حركة المقاومة الشعبية في بورسعيد.



لم تكن حركة الجيش وقت ظهورها على ساحة السياسة المصرية الحركة الوحيدة المتسمة - من حيث هويتها - بأوجه التباس، بل ربما اتسمت الحركة الشيوعية المصرية هي الأخرى بالسمة ذاتها. من مبررات ادعائي هذا، السؤال المحوري التالي: لماذا ظلت الحركة الشيوعية في مصر في جل مراحل تاريخها منقسمة إلى عدة منظمات (خلافا للحال في معظم الدول)، ولم تتحد منظماتها، في صورة «حزب شيوعي مصري» مندمج الكيان، سوى مرة واحدة، ولمدة ٩ أشهر فقط، عام ١٩٥٨، ثم انقسمت من جديد؟ كان التعثر في وحدة التنظيم مؤشرا عن خلل في الهوية ربما يقبل أكثر من تفسير. ولي في هذا الصدد تفسيري الخاص طرحته في مناسبات شتى خلال العقد الأخير، ولكن لم تحرص الأطراف التي يعنيها الأمر على مناقشتي بشكل جدّي في هذا المضمار.

والواقع أن المجتمع المصري كان يعج قبل قيام ثورة يوليو بحركات سرية أو شبه سرية متعددة، ذات سمات متنوعة تماما. وكما كانت هناك حركات داخل الجيش قبل استيلاء الضباط الأحرار على السلطة (منها حركات مناصرة لألمانيا، من منطلق أن «عدو عدوي صديقي»)، كانت هناك أيضا حركات داخل الجالية اليهودية في مصر قبل قيام دولة إسرائيل. وجاز لنا القول بأن هذه الجالية، بقدر ما تسيّست، لم تتجه أيديولوجيا فقط إلى الصهيونية، وإنما أيضا إلى الشيوعية.

لم يكن بغريب أن أبدى يهود كثيرون، مقيمون في مصر، تعاطفا مع الحركة الصهيونية وقتذاك. ولم تكن الصهيونية، كعقيدة، مجرّمة بعد. غير أن الجاذب للانتباه أن معظم مؤسسي المنظمات الشيوعية في مصر كانوا شخصيات يهودية، بعضهم عادى بحزم العقيدة الصهيونية. وهذه ظاهرة بحاجة إلى تفسير.

لقد اقتصرت الشيوعية في مصر طوال الثلاثينيات من القرن العشرين على أفراد معدودين، ولم يتحقق لها وجود في صورة حركة أطلقها مثقفون (أبرزهم يهود) إلا في بداية الأربعينيات، وبالذات عام ١٩٤٢، وقت وصول رومل إلى العلمين، وتهديد اليهود في مصر، وربما أيضا في فلسطين، بمصير أقرانهم في أوروبا، لو كان قد قدّر لرومل أن ينتصر في معركة العلمين. كان اليهود بالبداهة مناصرين للحلفاء ضد هتلر. غير أن الحركة الوطنية المصرية كانت ترى، وخاصة بعد حادث ٤ فبراير ١٩٤٢، حيث فرض المندوب السامي البريطاني على الملك فاروق تشكيل حكومة برئاسة النحاس باشا، أن «عدو عدوي» وارد أن يكون «صديقي». وخرجت المظاهرات ترحب بقدوم رومل.

إن تعرّض الجالية اليهودية لتهديد نال من صميم وجودها برر سعي بعض من تطوعوا لحماية كيانها إلى الترويج لأيديولوجية كفيلة بالنهوض بهذا الدور. وفي ١٩٤٢، سنة انتصار الاتحاد السوفيتي في معركة «ستالينجراد» المصيرية، كان واردا أن تزاحم الأيديولوجية الشيوعية الأيديولوجية الصهيونية في هذا الصدد عند الجاليات اليهودية، على الأقل في تلك اللحظة من التاريخ تحديدا، كتعبير عن الأيديولوجية الأكثر قدرة وقتذاك على حفظ هويتهم وتحقيق حاجتهم إلى ملاذ. غير أن هذا أوجد في مصر (وربما أيضا في غير مصر) وضعا شاذا. ذلك أن بروز حركة شيوعية في مصر يقرر مصائرها يهود، الكثير منهم ليسوا مصريين (بل متمصرون، وحتى أجانب) لم يكن بوسعها، بالبداهة، امتطاء المد الوطني الصاعد بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، واستثماره الاستثمار الأمثل.

وعندما أسِّست إسرائيل في ١٩٤٨، راحت السلطات تضع في سلة واحدة، الشيوعيين المصريين المنتمين إلى منظمات شيوعية شملت قياداتها البارزة يهودا، واليهود المنتمين إلى منظمات صهيونية. إن كوادر المصريين الذين جُندوا للحركة الشيوعية في مناخ المد الوطني الذَى أعقب الحرب العالمية الثانية، قد وجدوا أنفسهم معامَلين مِن قبل الدولة معاملة الصهاينة، واعتقلوا مثلهم. وقد حفزهم ذلك للتمرد بقوة ضد أوضاع أفسحت المجال لاتهامهم بموقف غير وطني متواطئ مع الصهيونية، بصرف النظر عن بطلان الاتهام، ذلك أنه لم يكن هناك مجال للتشكيك (على الأقل في ضوء تجربتي الشخصية في هذا الصدد) في صدق نيّات هؤلاء اليهود الذين التحقوا في مصر بمنظمات شيوعية، وناهضوا الصهيونية.

لقد فجرت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ الحركة الشيوعية المصرية من الداخل. وأسفرت الأزمة عن طلب العديد من كوادرها المصريين بضرورة «تمصير» الحركة، بمعنى إحلال قيادات مصرية خالصة محل القيادات اليهودية. ومؤكد أن هذا المطلب لم يكن منفصلا عن الاتهامات التي وجهت إلى الحركة بشأن تركيبها، وتولّي يهود مناصب قيادية فيها، بغض النظر عن صدق نيات هذه القيادات. فكانت مصر في حالة حرب مع إسرائيل. وكانت إسرائيل قد عرَّفت نفسها بأنها الدولة - الملاذ لكل اليهود، أينما وجدوا. فكيف يمكن إفحام خصوم الشيوعية، وإقناع الجماهير باستقامة النضال الوطني (ناهيك عن النضال القومي) للشيوعيين المصريين ضد إسرائيل، بينما تضم قياداتهم عناصر يهودية، حتى مع التسليم بحسن نيات هؤلاء ومعاداتهم فعلا للصهيونية، وتحملهم في كفاحهم تضحيات جسيمة؟

بدت الحركة الشيوعية وكأنما أريد منها أن تحل مشكلة تعلقت بهوية الطائفة اليهودية في مصر، بينما أسِّست إسرائيل للسبب ذاته، وبتعبير أدق، لحل مشكلة اليهود بوجه عام، وهذا تضمن بالتبعية اليهود المصريين، في

كان الوضع ملتبسًا عندما استولى عبد الناصر على السلطة في يوليو ١٩٥٢.
كان الشيوعيون منقسمين إلى عدة منظمات. وانعكس الانقسام على حكمهم على عبد الناصر. كان منهم من اتهموا حركة الجيش بالفاشية، وقارنوها بالانقلابات العسكرية التي تكررت كثيرًا في أمريكا اللاتينية. وكان منهم من ناصروا حركة الجيش منذ أول يوم

وثـــــورة يــــــوليـــــو

ظرف كانت فيه إسرائيل في حالة حرب مع مصر، ومع الحركة الوطنية المصرية. بل إن محاربة الجيش المصرى لإسرائيل قد نمّت وعيه القومي، فضلا عن وعيه الوطني. أي الوعى بأن التصدى لإسرائيل، إنما يمثل «قضية وجود»، وليس فقط «قضية حدود». فكيف الجمع بين محاربة إسرائيل بصفتها قضية وجود وقضية هوية، ثم التواجد معا في حركة يتبناها يهود في مصر بوصفها تخدمهم هم أيضا في وجودهم وهويتهم؟! وكان ذلك سر انفجار «حدتو» بمجرد اندلاع حرب فلسطين الأولى، بغض النظر عن المنعرجات التى اتخذتها الأزمة، وتفصيل ما وقع من صراعات بين الشيوعيين أنفسهم.



لم يعترف عبد الناصر أبدا بالحركة الشيوعية المصرية كحركة منظمة تحظى بوجود مستقل، تنظيميا وسياسيا. ولما بلغت الأزمة بينه وبين الشيوعيين المصريين ذروة في أعقاب قيام حركة قومية في العراق تحالفت مع الحزب الشيوعي العراقي في أعقاب ثورة تموز عام ١٩٥٨، قبض عبد الناصر على الشيوعيين المصريين بالجملة، وعوملوا في السجون والمعتقلات معاملة بالغة القسوة، واتهموا بـ «العمالة». وكان المقصود العمالة للسوفييت. ولم يطرح على أى نحو الالتباس الذى شاب الحركة الشيوعية المصرية نتيجة وجود عناصر يهودية في قيادتها.

والحقيقة أنه لم تكن توجد دواع قط لاتهام الحركة الشيوعية المصرية بالعمالة. لم تكن الحركة الشيوعية المصرية ممولة أبدا طوال سنوات وجودها من الاتحاد السوفيتي، أو من أى مصدر خارجي غيره. أستطيع أن أشهد بذلك، استنادا إلى ظروف خاصة أحاطتنى علما بجوانب التمويل. وأقول: لم يكن ذلك موقفا مبدئيا، ولكن حدث بسبب عجز الحركة الشيوعية المصرية عن تحقيق وحدتها، ورفض الحركة الشيوعية العالمية تأييد فريق على حساب فريق آخر.

وكما انقسم المتسيّسون من الطائفة اليهودية في مصر إلى صهاينة وشيوعيين، انقسمت البرجوازية الوطنية المصرية إلى تيارات متباينة ومتضاربة: إلى قوى برزت في المجتمع المدني، وقوى برزت في صفوف القوات المسلحة؛ بل وأضيف: إلى قوى شديدة التباين في المجتمع المدني (تيار وطني ليبرالي مثّله الوفد أساسا؛ تيار ديني إسلامي مثله الإخوان المسلمون أساسا؛ ثم حركة استرشدت بالمذهب الماركسي وأنشأت الحركة الشيوعية المصرية، إلخ). ولا شك في أن التيارات التى عمّت الساحات المدنية كانت لها امتدادات وتأثيرات في صفوف القوات المسلحة. وإذا ركزنا على الحركة الشيوعية بالذات، فكانت هناك حركة صهيونية وحركة شيوعية داخل الطائفة اليهودية في مصر؛ وكانت هناك حركة وطنية وحركة شيوعية على نطاق أوسع داخل إطار المجتمع المصرى ككل.

وفي هذه الظروف، أعلن في مايو ١٩٤٨ تأسيس دولة إسرائيل، واندلعت حرب فلسطين الأولى. كيف أثّر هذا الحدث المفاجئ في أوضاع مصر الداخلية، في ضوء ما سبق سرده؟ لقد اعتُقل العديد من اليهود الصهاينة. وكان من شأن تأسيس إسرائيل هجرتهم بالجملة إلى خارج مصر، ليستقروا في إسرائيل، أو في أقطار أخرى. أما الذين اعتنقوا منهم الشيوعية، وكان منهم من تبنوا صراحة مواقف معادية للصهيونية، فربما آمنوا بأن ما جرى لم يكن يعنيهم ولا يمس هويتهم وموقعهم الفكرى والسلوكى في شيء. ذلك أن الشيوعى أممي، ولا يرى نفسه من حيث المبدأ متأثرا بوضعه الدينى، أو القومي، أو العرقى، أو الجنسي، أو العنصرى (كان شحاتة هارون الذى توفى قبل شهور نموذجا لهذا اليهودى). وإن كان لا يملك إغفال البيئة المحيطة وتأثيراتها على كيانه إغفالا تاما. غير أن السلطات لم تكن تميز بين اليهود الشيوعيين واليهود الصهاينة. بل اعتقلت شيوعيين من غير اليهود، هم مصريون اجتذبتهم الحركة الشيوعية مع انتعاش الحركة الوطنية في أعقاب الحرب العالمية الثانية (عام ١٩٤٦ بالذات)، وأيضا بفضل انتصارات الاتحاد السوفيتى الحاسمة في الحرب، وهو الدولة العظمى، الجديدة في الساحة الدولية وقتذاك، المعادية للإمبريالية العالمية (وبالتالى للمحتل البريطانى)، والتى لم يعد من الممكن عزلها عن الحركة السياسية في مصر.

ولكن إذا صح أن الشيوعيين اليهود في مصر لم يتأثروا بنشأة إسرائيل (وهذا افتراض قد يحتاج إلى تدقيق)، فإن المصريين الذين جندهم هؤلاء اليهود للحركة الشيوعية لابد أن يكونوا قد تأثروا. إذ تساءلوا: هل من سبب يبرر اعتقالنا غير أن منظماتنا الشيوعية قد ضمّت كوادر يهودا نهضوا فيها بأدوار بارزة؟ صحيح أن الصورة وقتذاك لم تكن تخلو من لبس. فالاتحاد السوفيتى قد اعترف بإسرائيل بمجرد تأسيسها، تماما كما فعلت الولايات المتحدة، وإن كان لأسباب مختلفة. وربما راهن السوفييت ـ بمنظور أممي ـ على أن فرص إسرائيل في أن تصبح بؤرة للقوى التقدمية في المنطقة فاقت فرص أى من الدول العربية، لأن هذه الدول كانت في أغلبها وقتذاك ما زالت أسيرة التخلف والإقطاع والاستعمار. ولم يكن العالم قد شهد بعد تجارب قادها ضباط جيش وتحولت إلى حركات «ماركسية لينينية».

على أى الأحوال، طرحت معضلة لم يعد من الممكن إغفالها، حول مدى «أهلية أن يقود يهودٌ الحركة الشيوعية المصرية». خاصة إذا صح أن هؤلاء اليهود قد جذبتهم إلى الشيوعية قضية تعلقت بهويتهم كيهود قبل أن يكون مبعث انجذابهم هو صراع الطبقة العاملة المصرية والانتماء إلى هذا الصراع انتماء عضويا. ولاشك في أن تأسيس إسرائيل قد زاد من تعقيد المشكلة. ذلك أن إسرائيل قد أسست، على حد قول أنصارها، من أجل حل المشكلة اليهودية. فكيف الارتياح إلى استقامة هؤلاء اليهود وهم مطالبون بخوض النضال ضد دولة تعرِّف نفسها بأنها ملاذ اليهود الأخير؟

لم تطرح المشكلة على هذا النحو وقتذاك. لم يكن مدركا أن هناك «مسألة يهودية» داخل الحركة الشيوعية المصرية ذات أثر بالغ في تقرير ملامح هذه الحركة. لقد أرجعت حركة الجيش احتكاكها مع الشيوعيين، وعدم مسايرتهم للحركة الوطنية (حسب تصور الضباط الأحرار لها) إلى مسألة «عمالة» تجاه السوفييت، ولم ترجع التوتر بين الجانبين إلى «مشكلة يهودية». مشكلة لم يكن مصدرها مشكلة «عمالة» قط. ولم تكن أيضا «مشكلة صهيونية». بل مشكلة هوية عائمة، تائهة. مشكلة انتساب إلى عقيدة ـ هي الشيوعية ـ دون توافر المقومات التى تجعل هذا الانتساب سلسا، «طبيعيا»، خاصة مع اختفاء ظروف عام ١٩٤٢ (ظروف وجود رومل على أبواب الإسكندرية) التى بررت أصلا التوجه إلى الشيوعية.

لم يكن مصدر قوة الحركة الشيوعية هو اندماجها العضوى مع نضال الطبقة العاملة. وعلى نطاق أوسع، مع النضال الوطني لمختلف الفئات الشعبية. أى مع الحركة الجماهيرية في الشارع، المتجاوزة قدرة السلطات على استئناسها واستئصالها. وإنما تمثّل الوجود الشيوعى في المجتمع في صورة «أفكار» جمعتها أدبيات الماركسية، كتابات ماركس وإنجلز ولينين وستالين، وقد أسهمت الحركة في الترويج لهذه الأفكار حتى أصبحت بالتدريج مألوفة وشائعة في الفكر السياسى الجارى التعاطى معه في الشارع السياسى المصرى.

والحقيقة أيضا أن القيادات اليهودية قد تعاملت مع الماركسية وكأنما هي «حزمة أفكار وأدبيات»، مسجلة في كتب، استوردتها من خارج المجتمع لتطعيم المجتمع بها، وليست «حالة حركية» منبثقة من الصراعات التى تفرزها حياة المجتمع بشكل طبيعي، فيستعان بالماركسية، بصفتها «النظرية الثورية»، لإكساب حركة المجتمع ملامح وغايات محددة. وهذا قد ترتب عليه أن حركة الضباط الأحرار، الأكثر تغلغلا في واقع المجتمع المصرى، وذات العلاقات الوثيقة بالمواقع الأكثر فعالية في تقرير أمور السياسة، فضلا عن القوة المستمدة من صفة الجيش ككيان منظم، قد أثبتت أنها أكثر كفاءة وأهلية للنهوض بالخطوة الحاسمة في أية عملية ثورية، هي الاستيلاء على السلطة، والاستعانة بالدولة لإنجاز عمليات تغيير.



لقد تميز الانفجار الذى أصاب «حدتو» عام ١٩٤٨ بإفقاد الحركة هيكلها التنظيمي، وباختفاء الفواصل التنظيمية التى يقتضى الأمان احترامها في أية حركة سرية، وبتحولها إلى تكتلات تدير حلقات نقاش عامة، يلتقى الكل فيها مع الكل، رغم أن الدولة كانت قد فرضت الأحكام العرفية، وكان الكادر الشيوعى ملاحَقًا من قبل أجهزة الدولة، والمعتقلات مفتوحة، وتستقبل الشيوعيين بالجملة.

لم يكن لـ «حدتو» خلال أزمتها عام اندلاع حرب فلسطين الأولى نشاط خارجى ملموس، بل كان الجهد كله منصبًا على داخل الحركة، وعلى مناقشات مدرسية دارت حول «الخطوط السياسية» التى كانت موضع صراع التكتلات المختلفة. مناقشات دارت حول مدى تطابق هذه «الخطوط» ـ أو تعارضها ـ مع التعاليم المعترف بها المسجلة في أدبيات الماركسية، أو في ممارسات الأحزاب الشيوعية المعتمدة. وليس هنا مجال تناول ما



جرى خلال تلك الأزمة تفصيلا. وربما لم تجر مناقشة صريحة وقتذاك حول مدى ملاءمة أن تقود عناصر يهودية الحركة، غير أن منظمة واحدة على الأقل هي «الحزب الشيوعي المصري» (وقد اشتهرت باسم «حزب الراية») قد نادت منذ تأسيسها عام ١٩٤٩ باستبعاد اليهود تماما من صفوفها. والحقيقة أن كونها قد استباحت لنفسها أن تُقْدِم على مثل هذه الخطوة التي عرّضتها للاتهام بتبنّي موقف عنصري، إنما هو تعبير عن مدى جدية المشكلة، واحتلالها موقعا مركزيا في الصراع الذي دار وقتذاك، رغم تحاشي التصدي لها على المكشوف.

إن حرب فلسطين الأولى قد هزت النظام الملكي في مصر هزة عنيفة. وأصبحت تعج الساحة السياسية المصرية، كما سبق وأشرنا، بقوى سياسية مختلفة، تعمل داخل إطار المجتمع المدني وفي القوات المسلحة على حد سواء. لقد شهد عام ١٩٥٠ - ١٩٥١ عودة الوفد إلى الحكم، وتصاعد الحركة الوطنية حتى بلغت عام ١٩٥١ حدّ إلغاء معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا، واندلاع معركة رجال الشرطة المصريين مع جيش الاحتلال البريطاني في الإسماعيلية يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢، وقد أشعلت هذه المعركة مظاهرات عارمة، أفضت إلى حريق القاهرة، فإقالة حكومة الوفد وإعلان الأحكام العرفية. لقد كانت الظروف ناضجة لتجاوز النظام إلى نظام غيره، حتى في نظر بعض عواصم الغرب، التي باتت تساورها شكوك أن الإحجام عن التفكير في نظام بديل قد يترك المجال فسيحًا لتحول يستثمره الشيوعيون لغير صالح العالم الغربي.

غير أن الحركة الشيوعية لم تكن جاهزة لامتطاء المد الوطني البالغ حد الغليان. كانت الحركة ما زالت تعاني من الانقسامات المتخلفة عن أزمة ١٩٤٨ - ١٩٤٩، فاستولى «الضباط الأحرار» على السلطة.



من أبرز سمات حركة الضباط الأحرار أنها حركة كانت معادية للاستعمار، وأيضا للشيوعية، عدو الاستعمار الأبرز. صحيح أن هؤلاء الضباط قد أقاموا نظاما راح يبتعد تدريجيا، خلال منعرجات شتى، من الاستعمار الغربي، ولكن هذا لم يكن يعني الاقتراب من الشيوعية. بل ربما بدا الخطر الشيوعي خطرًا زاد تفاقمًا كلما زادت «ثورة يوليو» ابتعادًا من الاستعمار وبدت بوضوح خارج المعسكر الغربي، وفاقدة ثقة العالم الغربي فيها. وهكذا بدت وكأنما هي بين خطرين شأنهما أن يتفاقما معا: خطر مؤامرات الاستعمار، ومحاولاته للإطاحة بها، كما باتت في الوقت ذاته تشعر بأن المعسكر الشيوعي العالمي متربص بها أيضًا، ويراها محكومًا عليها بالاقتراب منه، ومعرضة بالتالي لما قد يبذله من جهود لاحتوائها، وفي حالة تعذر ذلك - السعي إلى الإطاحة بها هو الآخر! ومن هنا، ظهور الشيوعيين المحليين، وكأنما يمثلون خطرا كامنا، نتيجة أن «حركة الثورة» قد تجد نفسها - شاءت أم أبت - أسيرة للشيوعية من الخارج والداخل معا. ومن هنا، الحاجة لابتكار وسيلة تبطل مفعول الحركة الشيوعية المحلية، وبالذات مع صعوبة الحد من مفعول الحركة الشيوعية العالمية، ذات الوجود (والإشعاع) المستقل عما يجري في ساحات مصر الداخلية.

وقد تداعى من هذا المنطق الكثير. أولا، صعوبة توفير شرط الديموقراطية. فإن النظام بين نارين: المؤامرات التي يحيكها الاستعمار، والصراع المتزايد مع الشيوعيين كلما زاد النظام قربا منهم، وكلما تأكدت صفاته «الاشتراكية».

كان لا بد إذن من اشتراكية تفتقر إلى الديمقراطية، وليست اشتراكية تعززها الديمقراطية. وقد ترتب على افتقار «الثورة» إلى الديموقراطية أن حل مصطلح «الحرية الاجتماعية» محل «الحرية السياسية» وأصبحت عملية الإحلال هذه غطاء لطبقة جديدة منتفعة من غياب الديموقراطية، ما عرف في البلدان الاشتراكية بالـ«نومينكلاتورا».

من هنا، استبدت بثورة يوليو، ومنذ عهد مبكر، فكرة «التنظيم السياسي الواحد». والجدير بالملاحظة أننا عندما نقصر التنظيم على تنظيم واحد، فإننا لا نقيم تنظيمًا حقيقيًا، وإنما نقيم من التنظيم ما يكفي للحيلولة دون بروز تنظيم آخر. إن التنظيم «الرسمي» يصبح مصيدة. يصبح تنظيمًا صوريًا، والقدر الضروري للحيلولة دون قيام تنظيم سياسي حقيقي.

وهكذا ظل النظام علويًا، بغير مسعى لتنظيم الجماهير، وإقامة حركة ذات جذور عضوية داخلها.

لقد حظرت قيادة الثورة كل أنواع التنظيم، طبعا باستثناء التنظيم الذي خلقته هي («جبهة التحرير»، فـ«الاتحاد القومي»، فـ«الاتحاد الاشتراكي»). وقد استجابت الأحزاب المحافظة لمطلب الحلّ دون مقاومة. كانت عملية خروجها من الساحة ميسرة. أما الأحزاب الجماهيرية، فلقد قاومت إلى حد أو آخر. صحيح أن الإخوان المسلمين قاوموا. صحيح أن الوفد قاوم. غير أن الشيوعيين هم الذين ذهبوا في مقاومتهم إلى الحد الأبعد. لقد حافظوا على تنظيماتهم، بغض النظر عن مدى جماهيريتها، من منطلق أن هذا قضية مبدأ. وكان مطلب «الثورة» الرسمي، ابتداء من نهاية الخمسينيات أن يحل الشيوعيون الحزب الشيوعي، وأن ينضم أعضاؤه كأفراد «للاتحاد القومي». غير أن الشيوعيين رفضوا. فأعيد اعتقالهم بالجملة، ابتداء من أول يناير ١٩٥٩، وظلوا معتقلين لأجل غير مسمى، بغض النظر عن الأحكام التي صدرت في حقهم، حتى سلمت الأطراف المعنية بضرورة معالجة هذه المشكلة على نحو آخر.

وبمناسبة هذه التركيبة للنظام الحزبي، أثيرت إشكالية أخرى. إشكالية «الجبهة». كان النظام الحزبي الناصري يقوم على المركزية. على قاعدة الشمولية. لم يكن يقبل بفكرة الجبهة. بينما كان الشيوعيون يطالبون بالجبهة. والجبهة تعني تحالفًا يجمع عددًا من التنظيمات المتميزة، المستقلة، حول برنامج مشترك، وتحرك مشترك. إن صيغة الجبهة كانت تبدو لعبد الناصر وكأنما تعني تقليص سلطته. وكلما زاد النظام توجها إلى اليسار، برزت حاجة متزايدة لدى قائد المسيرة إلى تأكيد المركزية، لا الديموقراطية. وهذا قد ترجم إلى شعار آخر: إن المطروح هو بلوغ «وحدة شاملة» تحت قيادة قطب واحد، لا «وحدة في صورة جبهة»، تضم أكثر من قيادة، وتطرح كضرورة تعايش هذه القيادات في نظام ينطوي على قدر أو آخر من الديموقراطية.

ثم ما طرح بشأن فكرة «الجبهة» في الداخل، عُمِّم لبلورة إشكالية ثالثة تمثلت في هل تكون الوحدة «شاملة» أم «فيدرالية» بين القوى «التقدمية» المختلفة العاملة على الصعيد الإقليمي. وقد تحمّل الشيوعيون المصريون آثار مواجهة حادة نشبت بين عبد الناصر والحزب الشيوعي السوري في هذا الصدد، عقب الوحدة بين مصر وسوريا في فبراير عام ١٩٥٨، لقد نشب خلاف بين عبد الناصر من جانب، والشيوعيين العرب، ومنهم الشيوعيون المصريون، من الجانب الآخر. لقد نادى عبد الناصر بالوحدة «الكلية»، «الشاملة»، بينما نادى الشيوعيون بالوحدة «الفيدرالية». والواقع أننا كنا بصدد صورة أخرى - إقليمية - للإشكالية التي طرحت على صعيد الوضع الداخلي المصري، المتمثلة في شعار عبد الناصر عن «الوحدة الشاملة» (المفترضة حل التنظيمات الأخرى، بما فيها التنظيم الشيوعي) من جانب، وفكرة «الجبهة» (مع عدم حل التنظيمات الأخرى) كما طرحها الشيوعيون من الجانب الآخر. لقد تمسك عبد الناصر بالنظام المركزي، الشمولي، بينما تمسك الشيوعيون، في الحالتين، بفكرة «المركزية الديمقراطية»، المنصوص عليها في أدبيات اللينينية بصفتها الأساس الإجرائي، التنظيمي، الذي ينبغي أن يحكم العمل السياسي، والقائم على فكرة تعدد التيارات الفكرية في داخل تنظيم جبهوي شامل. قد يقال إن التعددية التي نادى بها الشيوعيون في ظل الأنظمة الجبهوية ظلت محدودة وقاصرة. ولكن كان خلاف الشيوعيين المصريين مع عبد الناصر حول وجود تعددية أصلا.

لماذا ظلت الحركة الشيوعية في مصر في جل مراحل تاريخها منقسمة إلى عدة منظمات (خلافًا للحال في معظم الدول)، ولم تتحد منظماتها، في صورة «حزب شيوعي مصري» مندمج الكيان، سوى مرة واحدة، ولمدة ٩ أشهر فقط، عام ١٩٥٨، ثم انقسمت من جديد؟

أما فيما كان يتعلق بجانب «المضمون»، فكانت فكرة التنظيم المركزي (اللا - ديمقراطي) هي فكرة افترضت عدم التبعية لأي قطب خارجي - تماما كما كان ينبغي مقاومة التبعية لأي قطب بديل داخلي، قائم أو محتمل. ومن هنا جاءت إشكالية رابعة هي فكرة «عدم الانحياز»، أي رفض الانتماء إلى معسكر الاستعمار من جانب، وإلى معسكر الشيوعية من الجانب الآخر. واتسعت العملية لتسفر عن إشكالية خامسة، هي أن عدم الانحياز للاستعمار والشيوعية إنما قد ترتب عليه امتداد المعارضة على الصعيد القومي لأحزاب ذات أيديولوجية مماثلة لأيديولوجية عبد الناصر، مثل حزبي «البعث» و«القوميين العرب».

والحقيقة أن فكرة عدم الانحياز إنما كانت تنطوي على أوجه التباس كثيرة. لقد أشار خروتشوف إلى وجه منها. فلقد اعتبر ممارسة عبد الناصر لسياسة عدم الانحياز على أنها خطوة إيجابية، تقدمية، ذلك أن عبد الناصر انتقل من موقع التبعية للاستعمار إلى موقع التحرر من الاستعمار، وإن ظل ملتبسا فيما تعلق بعلاقته بالشيوعية، إذ اقترب من الاتحاد السوفيتي على الصعيد الدولي، ولكنه ظل يناهض الشيوعيين في الداخل وعلى الصعيد العربي. أما عن حكم خروتشوف بشأن تيتو، فقد اعتبر تبني هذا الأخير لعدم الانحياز خطوة سلبية، ارتدادية، ذلك أن تيتو قد انتقل من موقع الانحياز للمعسكر الشيوعي إلى موقع عدم الانحياز بين المعسكرين. ومعنى ذلك الابتعاد عن الشيوعية بدلا من الاقتراب منها.

إن خروتشوف، خلافا لستالين، عامل من هو ليس شيوعيًا على أنه ليس بالضرورة في معسكر الإمبريالية العالمية. كان ستالين ينطلق من أن من ليس مع الشيوعية، فإنه بالضرورة في التحليل الأخير مع الإمبريالية. أما خروتشوف، فقد انطلق من أن من ليس مع الإمبريالية، فإنه من الممكن أن يصبح مع الشيوعية، بمعنى أن الشيوعية وحركات التحرر الوطني في العالم الثالث كفيلة بأن تتقارب وأن تتلاشى الفروق بينهما في ظل موازين القوى الدولية الجديدة التي سادت وقتذاك بين المعسكرين العالميين.

أما الشيوعيون المصريون، فقد كان موقفهم من عدم الانحياز وثيق الارتباط بمواقفهم من عبد الناصر التي اتجهت للتباين إلى ثلاث مدارس متميزة، برزت بالذات في المراحل التي أبعدوا فيها عن النشاط الجماهيري - مراحل حبسهم في السجون والمعتقلات، وهي المراحل التي انفصل فيها التنظير عن ممارسة السياسة في الشارع، واختبار ما يفرزه الفكر من تحليلات وتوجهات. فكانت هناك المدرسة القائلة بأن نظام عبد الناصر كان تعبيرا عن «رأسمالية الدولة الاحتكارية» أي أن عبد الناصر لم يكن غير منحاز، وإنما كان ينتمي إلى أقصى اليمين (بينما كانت هذه المدرسة تنتمي هي إلى أقصى اليسار). وكانت هناك مدرسة قائلة بأن نظام عبد الناصر إنما تقوده «مجموعة اشتراكية على رأس السلطة». وقد شكلت هذه المدرسة، على نقيض المدرسة السابقة، أقصى يمين الحركة. وكانت هناك مدرسة عارضت التطرف، يمينا ويسارا، وقالت إن عبد الناصر، بانتهاجه سياسة عدم الانحياز، عبر عن اتجاه غالب في البرجوازية الوطنية المصرية، بما تنطوي عليه مواقفها من أوجه تضارب والتباس.

غير أن تجارب معينة، وربما بالذات تجربة كاسترو في كوبا، قد شجعت القيادة

السوفيتية، وبالذات خروتشوف، على ابتداع نظرية جديدة، ذهبت إلى أبعد من مجرد اعتبار بعض القيادات الوطنية فى العالم الثالث أصحاب موقف سياسى غير منحاز. لقد أثبت كاسترو أن قائدا وطنيا كفيل بالتحول إلى قائد اشتراكى، بل إلى قائد ماركسى لينينى. وخرج المنظر السوفيتى «أوليانوفسكى»، المقرب إلى خروتشوف، بنظرية «الطريق غير الرأسمالى إلى الاشتراكية» التى استخلصت دروس تجربة كوبا وغيرها من التجارب فى أفريقيا وآسيا، وحددت الشروط التى يتعين توافرها لتحقيق هذا التحول.

وقد رؤى فى عبد الناصر النموذج الأمثل فى هذا الصدد. فربما كان قاسيا مع الشيوعيين المحليين. ولكنه كان أيضا بالغ القسوة والجرأة مع الإمبريالية العالمية. فكانت هناك تجربة تأميم القناة، ونجاحه فى التغلب على كل الصعاب التى وقفت فى وجه إتمام التأميم فعلا. وكان هناك بناء السد العالى، استنادا إلى تعاون مع الاتحاد السوفيتى. وربما كان الدرس الأهم الذى رأى خروتشوف ضرورة استخلاصه من التجربة المصرية هو ضرورة العمل من أجل إسقاط أى مبرر لاستمرار وجود نفور بين عبد الناصر والشيوعيين المصريين، ولتشكك عبد الناصر فى نواياهم حيال السلطة، وفى ولائهم لمن، وضرورة أن يذهبوا إلى حد حل الحزب الشيوعى المستقل، لو كان الحل كفيلا بضمان كسبهم ثقة عبد الناصر وتبوئهم وظائف مهمة فى الدولة والمجتمع.

ولا أعلم تفاصيل «الصفقة» التى عقدت بين الأطراف المعنية فى هذا الصدد. ما أعلمه أن جميع الشيوعيين قد أفرج عنهم من السجون والمعتقلات، ودونما نظر إلى الأحكام التى صدرت فى حقهم، قبيل وصول خروتشوف بالباخرة إلى الإسكندرية لافتتاح السد العالى فى أغسطس ١٩٦٤، وأعلم أن الخلافات فى الرأى التى أفضت إلى انقسام الشيوعيين فى السجن إلى منظمتين رئيسيتين لم تكن سببا فى خلاف بين المنظمتين بشأن ضرورة حل الحزب، وقد أقدمتا على هذه الخطوة فى وقت واحد تقريبًا. لقد تمت هذه الخطوة بعد خروج الشيوعيين جميعًا من السجن، مما أسقط أية شبهة بأن الحل قد تم نتيجة ضغط. ثم أعلن أن أغلب القيادات الشيوعية قد ضُمت إلى «التنظيم الطليعى»، وهو التنظيم السرى الذى أنشأه عبد الناصر فى قلب الاتحاد الاشتراكى. وهذا كله ينمّ عن أن حل الحزب قد أنجز نتيجة اتفاق جرى بين قيادة الجانبين السوفيتى والمصرى على أعلى مستوى.



والجدير بالملاحظة أن موقف النظام الناصرى من الشيوعيين المصريين ظل عدائيا مادام للشيوعيين تنظيمهم الشيوعى المستقل. كان هناك من قال لى بدهشة بالغة ذات يوم: «كيف أيدتموه بعد أن عوملتم هذه المعاملة المهينة فى السجون؟ أليست لديكم كرامة؟» قلت وقتذاك: «من منطلق التسليم بضرورة الاعتراف بالقيادة التى تثبت أنها الأكثر قدرة على مواكبة مقتضيات التاريخ»! والحقيقة أن سنوات كثيرة مضت قبل أن أدرك أنه كان من حقى أن تحترم آدميتى وإنسانيتى، حتى لو كنت مخطئًا فى رؤيتى للتاريخ.

وأذكر ذات مرة أيضا أننى سألت على صبرى بعد خروجه هو من السجن، وقبل وفاته بفترة وجيزة: «لماذا عاملتمونا بهذه القسوة فى السجون؟ كنا نؤيدكم». وكان رده: «ليس صحيحًا أنكم كنتم تؤيدوننا. ذلك أنه عندما اعتقلنا السادات فى مايو ١٩٧١، عين اثنين منكم ليصبحا وزيرين. لقد قبلتم أن تكونوا وزراء فى وقت اتهمنا نحن فيه بالخيانة. معنى ذلك أن العداء كان متبادلاً، ولم يكن من جانب واحد»! طبعا جعلتنى هذه الملاحظة التى تفوه بها على صبرى أفكر كثيرًا. فرغم ما بذل من مساع للتقارب، ظل الانطلاق من مواقع متعارضة عقبة فى وجه التصالح. وحال دون تجاوزه حدًا معيّنًا.

ومع ذلك، أقول: إن هذا هو الذى يدعونى إلى الجزم بأن حل الحزب كان يقتضى اتفاقًا كان خروتشوف شخصيًا طرفًا فيه. كان حل الحزب منطقًا يتمشى مع فكرة توسيع دائرة الشيوعية، كى تضم حركات التحرر الوطنى. كان خروتشوف يؤمن بأن موازين القوى الدولية بصدد أن تتحول من هيمنة الاستعمار عالميًا إلى أن تكتشف الشيوعية طريقها إلى هيمنتها هى ولو بالتدريج. ولذلك، فلا ينبغى تخويف القوى الوطنية التى تحمل فى طياتها إمكانية التحول إلى الماركسية اللينينية، ولو فى الأمد الطويل. هكذا حدث مع كوبا. حدث مع كاسترو الذى تحول من قائد وطنى إلى ماركسى - لينينى. وكان الأمل معقودًا على أن يحدث شىء مماثل مع عبد الناصر كذلك.

صحيح أن عبد الناصر كان مناهضًا قويًا للشيوعية فى الداخل. ولكن عبد الناصر كان قائدًا لا يقل عن ذلك جرأة فيما تعلق بالمواجهة مع الاستعمار والإمبريالية. كان تأميم القناة، والتعرض لهذا التحدى، والانتصار حيثما فشل غيره من قبل، إنما دعا خروتشوف إلى أن يرى فى عبد الناصر مرشحًا بارزًا لهذا التحول، بغض النظر عن عدائه للشيوعية.

وبالفعل تحسنت العلاقات بين النظام الناصرى والماركسيين المصريين بشكل ملموس بعد حل الحزب. وأصبحت مجلة «الطليعة» لسان حال هذه المصالحة. وأصبح الشيوعيون يستعان بهم فى الإعلام، وفى الاتصالات الدولية، وفى الصحافة والإذاعة، وفى مواقع كثيرة لا يملكون فيها القرار. لقد تمسك عبد الناصر دائمًا بفكرة مركزية القرار، وقد تمثلت هذه الفكرة فى عبارته: «الماركسية عنصر إثراء وتصحيح»». «تصحيح» بمعنى أنه ينطوى على عنصر «تنبيه» لأخطاء يتعين تجنبها، و«إثراء» بمعنى أنه يثرى الحوار «القومى» بإكسابه بعدًا «أمميًا». والحقيقة أن عبارة عبد الناصر كانت تحمل أيضًا - ضمنيًا - معنى أن الماركسية لا ينبغى أن تكون، فى أى الأحوال، «عنصر قيادة». أى ينبغى أن تكون «أفكارًا» لتصحيح المسار وترشيده فقط، وألا تتجسد هذه الأفكار فى صورة «تنظيم مستقل» يوجه الصراع الطبقى، ويحوله إلى قوة فعالة تزاحم قيادة الدولة فى تقرير مصير المجتمع.

ومع ذلك، ينبغى لنا أن نقول إن قاعدة «الثورة» الحقيقية ظلت المؤسسة العسكرية التى بقيت هى المهيمنة. غير أن مؤسسة الضباط، مع تعاظم شان مقامها فى المجتمع، نالها الضمور كجيش محترف. وحدث ما حدث فى حرب ١٩٦٧. وأصبح عبد الناصر بعد ذلك مطالبًا بإزالة آثار العدوان، قبل الانشغال بأن يكون نموذجًا لنوعية جديدة من القيادة التقدمية فى البلدان النامية. وظهر شيوعيون جدد، انتموا إلى جيل آخر من اليساريين الشباب. وبدا الجيل السابق وكأنما قد سلم لعبد الناصر زمام القيادة، وتخلى عن رسالته التاريخية. وأصبحنا بصدد معطيات جديدة، مختلفة. ولم تعد هناك قضية مواجهة بين الشيوعية والثورة، وإنما أصبحنا بصدد ثورة لم تعد ثورة، وشيوعية لم تعد شيوعية.

أما بعد..

فقد اتهم الشيوعيون من جيل الأربعينيات والخمسينيات بالرضوخ لعبد الناصر قبيل هزيمة ١٩٦٧. وبدا هذا الجيل وكأنما كان له دور أكثر بروزًا فى طمس شخصية الشيوعية المصرية من دوره فى إعلاء شأن هذه الشخصية وتقرير ملامح باقية لها. لقد وظفته قياداته اليهودية فى مرحلة أولى، ثم وظفته حركة الجيش فى مرحلة تالية. وهكذا فاته القطار، رغم تفانى الكثير من كوادره فى تضحيات، بلغت حد الاستشهاد فى أكثر من مناسبة.

أقول: ربما قام جيل آخر، فى نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، بمحاولة إعادة رفع الراية. فإن حالة ما بعد هزيمة ٦٧ كانت حالة «ثورية» واجبة الاستثمار، لا النظر إليها على أنها حالة شاذة واجبة الاحتواء فى أسرع وقت ممكن.. وقد تعددت الأسباب لمناهضة سياسات السادات، لا فى معركة «عبور القناة» عام ١٩٧٣، وقد التفت حوله الأمة بحذافيرها وقتذاك، وإنما عندما ذهب بالعبور - فى نوفمبر ١٩٧٧ - إلى حد الهبوط فى مطار بن جوريون! فلقد قامت، فى مواجهة زيارة القدس، معارضة من منطلق وطنى، وأخرى من منطلق قومى، وأخرى من منطلق دينى.. وأخرى من منطلق شيوعى. وقد التقت وقتذاك رموز لهذه المنطلقات فى لقاءات «جبهوية» شتى، وأيضًا فى صورة حزب هو «التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى» المعارض. لقد واصل التجمع التقليد الذى أرسته مجلة «الطليعة» فى عهد عبد الناصر، وهو السعى إلى تجميع القوى التقدمية تحت راية الماركسية لا راية الشيوعية، استثمارًا للقدرات «التصحيحية» و«الإثرائية» للفكر الماركسى، بعيدًا عن تنظيم يكون مقصورًا على الشيوعيين وحدهم. غير أن المكوّن الشيوعى فى هذا التجمع الأوسع حرص على إبراز نقاط الالتقاء مع القوى الأخرى المناهضة لسياسات السادات، وبالتالى لم يسهم كثيرًا فى إبراز ما هو متميز للشيوعيين فى جبهة قوى المعارضة، وبالذات البعد الأممى كأحد مرتكزات أى فكر شيوعى.

غير أن مرجعية الشيوعية قد أصابتها ضربة قاصمة بانهيار الاتحاد السوفيتى. كانت «بيريسترويكا» جورباتشوف قد كشفت عن ثغرات كثيرة فى البناء الشيوعى العالمى، وعن الحاجة إلى مواكبة متطلبات العصر من خلال مراجعة شاملة لوضع بلغ - مع زوال الدولة السوفيتية - حد محو النظام العالمى الثنائى القطبية من الوجود. وكان من أثر هذا التحول الأساسى أن فقدت الماركسية موقعها المركزى كفكر خليق بالتأثير فى المدارس الفكرية الأخرى، كفكر لا مناص من التسليم بمرجعيته.

ومع ذلك، فإن للتجربة الشيوعية فى مصر (التى تعرضنا لها) أثرًا باقيًا إلى اليوم. أثرًا قد لا يكون مدرَكًا تمام الإدراك حتى فى وعى الذين ما زال يستبدّ بهم هذا التأثير. فإن البعض ممن كرسوا حياتهم للتجربة قد يتجه حنينهم - وأكاد أقول ولاؤهم - إلى المرحلة الأولى فى تاريخ الحركة الشيوعية، المرحلة التى كان للقيادات اليهودية فيها دور بارز، ليكون لهم تفهم لمتطلبات عملية السلام مع إسرائيل قد لا يدركها على نحو مماثل من يظل حنينه للمرحلة الثانية، مرحلة تأثر الحركة الشيوعية المصرية بالفكر القومى العربى. لقد أظهرت الخلافات التى أبرزها ما عرف بعملية «كوبنهاجن» أن للماركسيين المصريين مرجعيتين على طرفى نقيض: مرجعية أكثر تأثرًا بالفكر الذى ساد فيما وصفناه بمرحلة القيادات «اليهودية» فى تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، وأنصار هذا الاتجاه يحبذون حوارات مفتوحة مع اليسار الإسرائيلى، ومرجعية ربما عكست تجربة الذين أحسوا بأن وجود قيادات يهودية على رأس المنظمات الشيوعية فى مرحلة تأسيسها قد أجهض التجربة برمتها، الأمر الذى يستدعى حيطة وحذرًا إزاء اليسار الإسرائيلى عمومًا، حتى لا تصبح عملية السلام مع إسرائيل سببًا مستجدًا للوقوع فى «فخ الشيوعية اليهودية».

هذه المشكلة التى لم تختف رغم اختفاء المنظمات التى ولّدت هذا الخلاف منذ أكثر من ثلث قرن إنما تؤذن بأن الخلاف ستكون له امتدادات ومضاعفات فى المستقبل، ذلك أنها مشكلة ستلازم محاولات التوصل إلى تسوية فى الشرق الأوسط، حتى بعد رحيل جيل الشيوعيين المصريين الذين خاضوا التجربة. ■

استبدت بثورة يوليو، ومنذ عهد مبكر، فكرة «التنظيم السياسى الواحد». والجدير بالملاحظة أننا عندما نقصر التنظيم على تنظيم واحد، فإننا لا نقيم تنظيمًا حقيقيًا، وإنما نقيم من التنظيم ما يكفى للحيلولة دون بروز تنظيم آخر

الرحالة العرب

كلمة أوروبا لم يعرفها العرب المسيحيون
أو المسلمون قديما لكن كان هناك فصول بشأن الروم
وهو الاسم الذى ذكره القرآن الكريم إشارة إلى البيزنطيين وغيرهم من الأوروبيين
وقد ظهر مفهوم أوروبا عند العرب منذ الغزو الصليبى
حيث أصبح هناك صراع ومعاملات وتجارة متبادلة

«سافر تعرف الناس»
مجدوب (١٥٠٣-١٥٦٥) [رباعيات مجدوب، تحقيق ج سيل ميلى (باريس ١٩٦٦) ص٤١]

«قال تعالى لموسى عليه السلام، اتخذ نعلين من حديد وعصا من حديد ثم سح فى الأرض حتى تنكسر العصا وتخترق النعلان»
محمد بن السراج (١٦٣٠) أنس السارى والسارب، تحقيق محمد الفاسى (فاس ١٩٦٨) ص٧

دأب المؤرخون الغربيون ونقاد الأدب على النظر إلى تاريخ الرحلات والاستكشافات الحديثة باعتباره مقصورًا على المسيحيين الأوروبيين ومظهرًا من مظاهر حداثتهم وتفوقهم وتقدمهم. فكان الرحالة الإنجليز فى الإمبراطورية العثمانية والإيطاليون فى فلسطين والألمان فى مصر والبرتغاليون فى شبه الجزيرة العربية والفرنسيون فى المغرب يمثلون فى نظر هؤلاء النقاد بشائر القوى الفكرية والاقتصادية التى مهدت الطريق لعصر النهضة ولصعود القوة الأوروبية الغربية وسيادتها.

فى تلك الأثناء، كان هناك إغفال تام لرحلات العرب المسلمين إلى الحد الذى يذكرنا بملاحظة أبداها أحد الهولنديين للمبعوث المغربى أحمد بن قاسم فى عام ١٦١١: «تعجبنا منك تحفظ الألسن وتقرأ الكتب، وسرت فى المدن وأقطار الدنيا ومع هذا تكون مسلمًا!» بالنسبة لهذا المتحدث الذى ينتمى لعصر النهضة ويجهل تراث العرب المسلمين فى الجغرافيا وعلم الخرائط يبدو الرحالة المسلم خروجًا على المألوف.

ومازالت مثل هذه الآراء سائدة فى الدراسات الحديثة. فعلى سبيل المثال فى «رؤية العالم لأوروبا ورؤية أوروبا للعالم»، وهذا هو العنوان الفرعى لكتاب أنطونى باجدن (مواجهة الآخر ٢٠٠٠)، لا يوجد مدخل واحد يخص «رؤية» أى من حضارات الإسلام، سواء فى حوض البحر المتوسط أو وسط آسيا أو شبه القارة الهندية، وكأن الإسلام الذى تفاعلت معه أوروبا فى صورته العربية والعثمانية منذ الحملات الصليبية لم يوجد على الإطلاق. قبل ذلك زعم برنارد لويس فى كتابه الإسلام والغرب (١٩٩٣) أن العرب أبدوا نفس الإهمال (إزاء أوروبا) كما كان الحال فى العصور الوسطى. وفى كتابه «اكتشاف المسلمين لأوروبا» (١٩٨٢) اتهم لويس المسلمين بانعدام «فضولهم» تجاه الأوروبيين. وهو ينكر أفضال المسلمين فى عصر النهضة إنكارًا تامًا حتى أنه يرى انفتاح الإمبراطورية العثمانية على المؤسسات الغربية فى القرن التاسع عشر باعتباره اكتشافًا لا يقل عن اكتشاف كولومبس لأمريكا.



لكن العثمانيين كان لهم تاريخ فى الرحلات وعلم الخرائط، وكثير من المؤلفين العرب وجدوا أنفسهم أثناء دراستهم لتاريخهم يقرأون عن العديد من الشعوب الأوروبية التى احتك بها الفاتحون العثمانيون. فقد كتب محمد بن أبى السرور (البكرى الوارثى، المولود عام ١٦٧٦) عن تاريخ الروم والبيزنطيين حتى ظهور الإسلام، وأدرك على نحو صائب أنه بعد مجىء الإسلام أصبح التاريخ يُصنع فى العالم الإسلامى وليس العالم المسيحى. أما بقية رسالته فقد ركزت على الحكام العثمانيين وفتوحاتهم. وخلال دراسته للعرب الأقدمين ثم للإمبراطورية العثمانية درس الإمبراطوريات المسيحية والأوروبية التى سبقتهم. فى نفس الوقت قام التونسى، حسين خوجة (المتوفى عام ١٧٣٢) بترجمة المصادر التركية والفارسية إلى العربية كما امتدح فى تصدير كتابه كتاب بشاير أهل الإيمان فى فتوحات العثمان الذى انتهى من كتابته حوالى عام ١٧٢٦ السلاطين العثمانيين وغزواتهم فى أوروبا ومواجهاتهم مع الشعوب الأوروبية وجيوشها وثقافاتها وسعى خوجة إلى جمع المعلومات عن العالم الذى استقر فيه العثمانيون والشعوب التى واجهوها أو هزموها.

من الواضح أن أوروبا لم تكن «اكتشافًا» مفاجئًا للعرب. فالمعلومات التى قدمها المؤلفون من العرب وغيرهم عن بقاع العالم المسيحى وشعوبه كانت متوافرة وقابلة للانتشار اعتمادًا على الترجمة والبحث والرحلات. ومما لاشك فيه أن كثيرًا من هذه المعلومات عرف طريقه إلى العالم الناطق بالعربية فى شمال أفريقيا وبلاد الشام من خلال عالم الرحلات. فقد قام الرحالة والتجار والمبعوثون والسفراء ورجال الدين بزيارات متكررة للندن وروما وقادس ومالطا ومدريد وموسكو. ففى تسعينيات القرن السادس عشر كتب أبو فارس القشتالى، كاتب مولاى المنصور، إلى والى الجزائر يشكره على مساعدة المبعوثين الكثيرين الذين كانوا يسافرون إلى البندقية «خلال موسم الشتاء عندما تجعل أمواج البحر الطرق خطرة». وتبرز السيرة الذاتية لأحمد بن غانم مدى أسفار المؤلف والمعلومات التى جمعها عن التكنولوجيا الأسبانية و(الأوروبية):

(بعد طردنا من غرناطة) سكنا بمدينة إشبيلية، أصبحت مولعًا بالسفر فى البحر المحيط فسافرت فيه مرارًا، ثم سافرت فى السفن الكبار المسماة بالقيلونية، بالأعجمية، التى تاتى بالفضة من الهند الغربية البعيدة؛ فكانت تمشى عمارةً كما هى من عاداتهم، وفيها جيش ورجال عارفون بآلات الحرب البارودية؛ وكانوا يجتمعون مع أكابر القوم للكلام فى تلك الصناعة وتارة يأتون بالكتب المؤلفة فى ذلك الفن وهى كثيرة، لأن العارفين بالعلم المباشرين للعمل وغيرهما لما رأوا أن ملوكهم يعظمون أهل ذلك الفن ومن يؤلف فيه اعتنوا به.

وكنت أجالسهم وأحفظ ما يتفقون عليه وأشتغل بيدى فى المدافع، وجميعهم لا يظنون أننى أندلسى؛ وفى الزمن الذى أمر فيه سلطان النصارى بإخراج جميع الأندلس (كذا) من بلاده، كنت مسجونًا من أجل ما وقع لى مع بعض النصارى على أمور راجعة إلى دعوى النفس بالشجاعة، وكان لى من أكابرهم من يعتنى بى ويصاحبنى، حتى خلصنى الله من السجن؛ فأردت الخروج من تلك البلاد إلى بلاد المسلمين مع جملة الأندلس (كذا) ومنعونى من ذلك، فعملت بينة بأننى من الأندلس لأخرج معهم، ولم ينفعنى شىء من ذلك؛ ثم أنفقت دراهم فى الرشاوى وخرجت من بينهم وجئت إلى مدينة تونس - حرسها الله - ...... والأمير يوسف داى أمرنى بالقعود فى حصن حلق الوادى، ونحن من أهل الجيش فى المراتب؛ وفيها كملت معرفة آلات المدافع بالاشتغال بيدى فيها وبالقراءة فى كتب الفن؛ ولما رأيت الطائفة المسماة بالمدافعين المرتبين لا معرفة لهم بالعمل وأنهم لا يعمرون ولا يرمون بما يقتضيه العمل، عزمت على تصنيف هذا الكتاب لأن كل مدفع له قيمة مال (وتلقى) تعبًا فى إيجاده، ثم يوكل على تسخيره والرمى به من يكسره ويفنيه.

وكانت النتيجة كتاب العز والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع، الذى كتبه بالإسبانية وقام بترجمته أحمد بن قاسم بعد ذلك إلى العربية.



وخلال عامى ١٦١١-١٦١٢ سافر أحمد بن قاسم إلى فرنسا وهولندا ووقع فى غرام امرأة فرنسية وجلس إلى موائد الأمراء والعلماء، ونادم النبلاء، وشارك فى المناظرات والمناقشات، وأجرى مفاوضات حساسة بشأن إمكانية إقامة تحالف هولندى مغربى ضد أسبانيا. وقد روى رحلته هذه فى كتاب (مفقود الآن) وظل يردد قصته لعقود تلت. وخلال زيارة له لمصر شرع فى كتابة ملخص لكتابه المطول وأتمه فى تونس. وأصبحت روايته عن رحلته ذائعة حتى أن كاتبًا من أقاصى السودان طلب منه نسخة. وفى ١٦٥٤-١٦٥٥ رافق رحالة آخر، وهو قس أرثوذوكسى من حلب، بطريركه فى رحلة إلى بلاد الفرنجة، وهى فى هذه الحالة روسيا وكتب عن الكنائس، والعادات الغريبة، وعن السياسة وعن شتى الأجانب الذين قابلهم هناك، وفيهم من أخبره عن قبائل لها وجوه كالكلاب تأكل لحوم البشر. وفى نفس الوقت تقريبًا وصل «عربيان» كانا قد تحولا إلى البروتستانتية إلى باريس، وسكنا فى «منزل بروتستانتى». وبعد ذلك بثمانى سنوات، وصل قس كاثوليكى سريانى من العراق، هو إلياس حنا الموصلى، إلى مدينة البندقية على متن سفينة إنجليزية من الإسكندرونة وراح يتجول على مدار السنوات السبع التالية فى «بلاد النصارى» من إيطاليا إلى إسبانيا، ومن البرتغال إلى صقلية. وفى عام ١٦٧٥ ركب سفينة إسبانية من قادس إلى أمريكا الجنوبية وكتب أول كتاب عن العالم الجديد باللغة العربية هو كتاب سياحة الخورى إلياس بن القسيس حنا الموصلى، تحقيق أنطون رباط اليسوعى (بيروت، ١٩٠٦) وخلال عامى ١٦٨١-١٦٨٢م استقر شخص يدعى بطرس الحلبى (بيير ديبى) فى فرنسا وخدم كمترجم للمبعوثين والزائرين الوافدين من شمال أفريقيا، كما كان حال حلبى آخر خدم كمترجم فى إسبانيا خلال زيادة السفير المغربى، الغسانى، عام ١٦٩٠م. قام الغسانى، ترافقه حاشية تتراوح بين خمسة عشر وعشرين رجلاً، بزيارة مدريد ووصف قصر الأسكوريال، والصيد الملكى، التزلج على الأنهار، والمستشفيات، وقوانين الميراث، والصوم الكبير، واحتفالات أحد السعف وعيد الفصح، كما سجل الأحداث المعاصرة، مثل وفاة البابا وعلق على الأدوار الاجتماعية والدينية للنساء. وكانت زيارة أسبانيا بمثابة نافذة على بقية الأحوال الأوروبية.

قبل ذلك بعام واحد، فى ١٦٨٦، قام التونسى حسين خوجة بزيارة «أرض الإفرنج» (ربما كانت إيطاليا) حيث قابل كثيرًا من الأطباء وتعلم على أيديهم بعض العلاجات التى حملها معه إلى وطنه تونس. وبعد عودته كتب إلى الأطباء الأوروبيين وغيرهم ممن عرف يطلب منهم تقريرًا تاريخيًا عن هذا الدواء. وفى كتيبة الأسرار الكامنة ذكر خوجة مرارًا كيف قابل الأطباء فى أرض الإفرنج وفى «مدينتنا تونس» وكيف استفاد منهم كثيرًا.

أجزاء من مقدمة كتاب:
In the Lands of Christians: Arab Travelers to Europe and America (1611-1700)
فى بلاد المسيحيين: الرحالة العرب إلى أوروبا وأمريكا
(Introd and Trans. Nabil Mater)
يصدر قريبًا عن دار روتلدج

فـى أرض الفـرنجـة

نبيـل مطـر

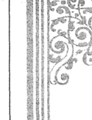
بعد بضع سنوات ذهب السفير المغربى عبد الله بن عائشة إلى فرنسا وأقام صداقات وطيدة مع رجال من البلاط الفرنسى وشركات التجارة، ووقع هناك فى الحب. وعند عودته للمغرب روى لعائلته وأصدقائه عن فرنسا وقدم وصفًا مفصلاً للغاية عن رحلته لواليه مولاى إسماعيل ولرجال الحاشية. وقام مغاربة آخرون أيضًا بزيارة أوروبا وتحدثوا عنها، ففى عام ١٧٢٩ كتب القبطان الإنجليزى جون بريثويت عن «الحاج لوكاس» الذى سافر إلى إنجلترا مرتين واصفًا إياه بأنه «كان رحالة عظيمًا»؛ وأنه «كان يتحدث الأسبانية بشكل متقن للغاية، ويتمتع بكياسة كبيرة فى تعامله مع الأجانب». ويعلق بريثويت مرارًا على ألفة المغاربة بالعالم المسيحى: «ونجد أهل (تطوان) يتمتعون بالكياسة واللياقة فى كل مكان من جراء تجارتهم وكثرة تعاملهم مع المسيحيين»؛ «فكثير من المغاربة الذين جاءوا إلى إنجلترا بصحبة سفيرهم السابق كانوا يترددون على منزلنا» وفى عام ١٧٤٧ سافر محمود مقديش إلى المشرق الأوروبى ودخل إحدى الكنائس حيث رأى رسمًا يصور معركة بين السفن الإسبانية وسفن من موطنه صفاقص».



وعلى الرغم من أن مفهوم «أوروبا» ذاته لم يوجد بين العرب المسيحيين أو المسلمين، إلا أنه كان هناك فضول بشأن الروم (وهذا هو الاسم الذى ذكره القرآن فى الإشارة إلى البيزنطيين وغيرهم من الأوروبيين)، والإفرنج (الفرنسيين) والعجم (الإسبان)، وهذا يرجع إلى أنه منذ الغزو الصليبى أصبح هناك صراع ومعاملات وتجارة متبادلة معهم. فركب تجار المغرب والأندلس والشام البحر على متن سفن من جنوة والبندقية وسافروا عبر البحر المتوسط يروجون تجارتهم؛ بل بلغ بعضهم إنجلترا فى عمليات وساطة من أجل دفع فدية الأسرى المسيحيين والمسلمين: ففى التماس كتبه أحد الآباء نيابة عن ابنه الأسير فى مدينة بلايموث عام ١٦٨٨ «من فضل الله أن كان هناك تاجر جزائرى فى بلدة بلايموث المذكورة آنفًا وعد بأن يسعى فى شأن فديته» وفى حين قام كثير من المغاربة بزيارة الأراضى الأوروبية بغرض التجارة، كان لآخرين أهداف عسكرية: ففى عام ١٥٧٣ عندما كان الجزائريون يستعدون لمهاجمة تونس، أبحروا إلى مالطا واستكشفوا الساحل وقاموا بقطع الأشجار من أجل عمليات الحصار. فى نفس الوقت كان الموريسكيون فى إسبانيا يستعلمون عن المدن الأوروبية وطرق المسافرين وذلك بغية الهروب عن طريق فرنسا







كتاب الزاوية

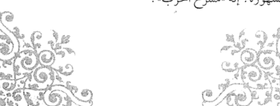
حرب النهر
السودان

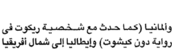
إن الربع الشمالى الشرقى للقارة الأفريقية يجف ويروى بالنيل، وبين مصادر منابع هذا النيل العظيم وفروعه تقع المديريات ذات الأراضى الواسعة الخصبة التى تعرف بالسودان المصرى، موقعها فى أواسط البلاد تمامًا، يحدها من كل جانب حوالى ٥٠٠ ميل من البحر تتوسطها الجبال، والمستنقعات، والصحراء. إن النهر العظيم المصدر الوحيد للنمو وقناتهم الوحيدة للتقدم. بالنيل وحده يمكن لتجارتهم أن تصل إلى الأسواق الخارجية، وهو الممر الوحيد للحضارة الأوروبية لاختراق المناطق النائية الداخلية المظلمة. إن السودان يرتبط بمصر عن طريق النيل كالغواص الذى يرتبط بالسطح بأنبوبة الأكسجين، بدونها ليس هنالك سوى الاختناق، لا حياة بدون النيل «لا نيل. لا حياة».

إن السودان الحقيقى المعروف لدى رجل الدولة أو المستكشف يقع فى أقصى نقطة جنوبًا وهو رطب ملىء بالأحراش، لكن هناك سودانًا آخر وهو الذى يعتبره البعض السودان الحقيقى الذى يغطى حدوده نهر النيل من الحدود المصرية شمالاً حتى أم درمان جنوبًا، هذا هو «سودان الجندى» بلا ثروة، ولكنه غنى بالتاريخ.

إن أسماء قراه المتناثرة على امتداد البلاد معروفة ومعلومة لرجال وأناس كثيرين مهتمين بأصول الحضارات فى بلاد بعيدة، وإن المساحات الخالية قد تم رسمها بأقلام جيدة وقديرة.

لقد ذاقت صحاريها الواسعة دماء الرجال الشجعان. أما حجارتها الصلبة السوداء الحادة فتقف شاهدًا على مآس مشهورة. إنه «مسرح الحرب».





وألمانيا (كما حدث مع شخصية ريكوت فى رواية دون كيشوت) وإيطاليا إلى شمال أفريقيا وتركيا.

وبالنسبة لبعض العرب المسيحيين فى بلاد الشام كانت اللغة والتعليم من الأسباب التى دفعتهم للسفر إلى الدول الأوروبية فمنذ عام ١٥٨٤ اعتاد حوالى خمسة عشر صبيًا مسيحيًا أن يذهبوا كل عام إلى روما للدراسة فى المعهد المارونى، ثم يعودون إلى بلادهم بمعرفة واسعة عن تاريخ أوروبا وفنونها وعن اللاهوت والمذهب الكاثوليكى. كما سافر مسيحيون آخرون فى رحلات حج لزيارة المراكز التى تتمتع بسلطة كنسية فذهب الكاثوليك إلى روما والأرثوذكس إلى موسكو. وفى عام ١٦٠٧ ذهب أحد المسيحيين المارونيين ويدعى ميخائيل قرى إلى دوق توسكانيا الأعظم الذى عينه كمبعوث للتفاوض مع الزعماء المناهضين للعثمانيين فى لبنان. وفى عام ١٦١١ أرسل فخر الدين الثانى، الزعيم الدرزى اللبنانى الذى تحول إلى المسيحية، البطريرك المارونى جرجس مارون إلى بلاط توسكانيا؛ وفى عام ١٦٢٣ قام البطريرك بزيارة إسبانيا. وفى عام ١٦١٣ قام فخر الدين بزيارة ليفرن ثم فلورنسا وكانت تصحبه زوجته وسبعون مرافقًا. كما قام بزيارة الفاتيكان وقابل البابا بول الخامس. وفى عام ١٦١٥ رحل إلى صقلية حيث أقام حتى عام ١٦١٨ ثم عاد إلى لبنان. وفى عام ١٦٣٠ كتب إلى دوق توسكانيا طالبًا معماريًا وطبيبًا ونجارًا ونحاتًا وخبازًا (لتعليم صناعة البسكويت)، وستة مزارعين بصحبة أسرهم وذلك لتعليم تقنيات الزراعة المستخدمة فى توسكانيا. واستقر هؤلاء الأوروبيون فى لبنان حتى عام ١٦٣٣ وتركوا أثرًا دائمًا على معمار البيوت اللبنانية.

وبعد طرد الموريسكيين من الأندلس فى عام ١٦٠٩، ظل الكثير منهم على اتصال ببنى جلدتهم من التجار الذين استقروا فى مالطا وباليرمو ومرسيليا وليفرن وغيرها من المدن الأوروبية التى كانوا يترددون عليها. وكان أحد الأسباب الرئيسية لهذا الاتصال هو تأسيس مراكز مالية لتحويل الأموال ـ سواء بغرض تسديد الديون للبنوك الأوروبية، أو لدفع أثمان المراكب والسفن الصغيرة التى كان يصنعها بناء والسفن الفرنسيون والهولنديون والإيطاليون أو لإنهاء إجراءات دفع الفدية للأسرى. وكان التبغ إحدى السلع المهمة التى دفعت المسلمين إلى السفر لأوروبا أو الثغور الواقعة تحت الحماية الأوروبية فى شمال أفريقيا. وكانت تجارة التبغ واسعة الانتشار حتى إن فقهاء المسلمين حرموها لأنها تعلم المسلمين العادات الأوروبية المرذولة، وتستنزف الموارد القومية من العملة الصعبة الشحيحة. يصف أبو سالم إبراهيم الكلالى باستفاضة رحلات التجار المسلمين ومعاملاتهم مع التجار الأوروبيين وكثرة سعيهم بحثًا عن التبغ والكثير مما علموه عن النصارى.. وعن إخوانهم فى الدين أيضًا:



وأما ما يفعله سفلة التجار من سفرهم إلى أرض الحرب والدخول تحت حكمهم.. وهى أعمال للسفر لبلادهم والدخول تحت قهرهم وحكمهم، بالنقود الجيدة: الذهب الخالص، والفضة الخالصة، وأنواع السلاح وما يؤول إليه ويدفع ذلك فى أعشاب الأرض يسمونه بالنار والدخان.. ومن أغرب ما حدثنى به بعض الثقات من أصحابنا التجار، بعد أن سألته عن الذهب الجيد الذى كان يتبايع به المسلمون، وأين ذهب، وهل هو باق عند الناس فى ذخائرهم، وأين صار؟ فقال لى: إن التاجر لا يختزن الدينار ولا الدرهم لعدم انتفاعه بفضل ذلك، وإنما يختزن ما يكون له فيه ربح فقلت له أين ذهب المغرب كله، قال لى: عند النصارى دمرهم الله فى سلعة الدخان المشموم، فاستغربت ذلك من قوله، فقال لى: أحدثك بالواقع لى، وذلك أنى سافرت إلى مدينة سبتة، أعادها الله دار إسلام، فأقمت بها قريبًا من عشرين يومًا أنتظر سلعة الهند، لعلى أجد ما أشترى، فلم أجد شيئًا، فبينما نحن فى انتظار ما يظهر من أغراضى، فإذا بسفن قدمت من عدوة النصارى، ففرحت، فلما أرست لم نجد فيها عدا الدخان، فما كان من صبيحة الغد، حتى كانت كلها موزونة على ذمة مشتر، فيها خمس عشرة مائة قنطار، لم يدفع فى ثمنها إلا الذهب الجيد، وبقيت بعد ذلك من خمسة عشر يومًا مقيمًا أنتظر ما نشترى فقضيت بعض أغراضى ولم أستكملها بذلة ومهانة، ورجعت لثغر تطوان فوجدت دخانها كله قد نفد، وصار إلى من سخط الله عليه، فنفدت نقود المسلمين كلها فى دخان لا أصل له ولا حقيقة.

لا عجب من ثم أن أمر مولاى أحمد «بحرق هذا العشب الخبيث الذى بحوزة النصارى فى فاس الجديدة». مثلما حدث فى إنجلترا عندما حرم الملك جيمز الأول التبغ باعتباره عشبًا مستوردًا غريبًا يتعاطاه «العبيد الهنود المصابون بالجدرى» (مكافحة التبغ، ١٦٠٤). وفى عام ١٦٠٧ حرم الفقيه المغربى الثائر أبو محالى «الشجرة التى جاءت من أرض الكفرة» مثلما فعل الفقيه على بن أحمد عام ١٦٧١ الذى حرم التبغ لأنه سلعة مستوردة من «أرض الكفار» وكثيرًا ما التقى الأوروبيون وأهل شمال أفريقيا فى سياق التبغ. ومن هنا جاءت شخصيتا «المغربيين اللذين يتعاطيان التبغ» فى بداية مسرحية توماس ذكر سطوة الشهوة (حوالى عام ١٥٩٩ـ١٦٠٠).

ونتيجة لرحلاتهم إلى أوروبا أصبح «المغاربة» و«العرب» و«الأتراك» (وهو الاسم الذى كان يطلق عامة على المسلمين) شخوصًا بارزة فى الأدب الأوروبى وفى المخيلة الفنية (فى مجال التصوير)، واحتشد بهم الشعر والنثر فى عصر النهضة: فنجد الأمير المغربى

كان التبغ إحدى السلع المهمة التى دفعت المسلمين إلى السفر لأوروبا أو الثغور الواقعة تحت الحماية الأوروبية فى شمال أفريقيا. وكانت تجارة التبغ واسعة الانتشار حتى إن فقهاء المسلمين حرموها لأنها تعلم المسلمين العادات الأوروبية المرذولة، وتستنزف الموارد القومية من العملة الصعبة الشحيحة

فى مسرحية شكسبير تاجر البندقية؛ والمغاربة (الذين اعتنقوا المسيحية على أيدى التجار الإنجليز) فى بلاط الملك جيمس الأول فى مسرحية ميدلتون انتصار الحقيقة؛ و«الأتراك» فى الأدب الإسبانى؛ والمغاربة الذين تعج بهم مسرحيات وروايات سرفانتيس ودى فيجا. فى عام ١٦٨٢ كتب أحد الشعراء الإنجليز المجهولين يصف المغربى:

الذى ظل حبيسًا أمدًا طويلاً
فى القارة المظلمة أفريقيا الظماى
يداه الغريرتان قلما لمستا المجداف
مرتعشًا دائمًا وهو يزحف على الشطآن
تضرم شهرة الأرض البريطانية فيه النيران
وتانف روحه المتوثبة الرمال الكسلى
فينطلق ماخرًا عباب الأطلنطى،
مناضلاً بشجاعة صوب القطب الشمالى
ليصل إلى أرض الثلج والمطر العجيبة.

وهنا نجد أنه بالرغم من مزاعم الشاعر الإنجليزى المتباهية إلا أنه يقر بأن المغاربة كانوا مغرمين بالأسفار والتعلم.

فمن المشرق والمغرب قرأ العرب المسلمون والمسيحيون عن العالم من حولهم وترجموا وكتبوا من خبرتهم المباشرة عنه. وكان الفضول والرغبة فى المعرفة وراء أسفارهم. ففى روايته عن رحلته إلى مكة فى الفترة ١٦٣٠-١٦٣٣ ينصح ابن مليح من ينوى الترحال والسياحة فى «أرض الله». أن ينظر ويعتبر فى اختلاف الأرض وبقعها، سهلها وجبالها ووعرها، تفجر الأنهار منها، جريانها، آثار الأمم الماضية وما جرى لهم وكيف صاروا خبرًا وأثرًا، بعد أن كانوا رؤية ونظرًا، وكذلك ينظر باعتبار إلى اختلاف الخلق والألوان واللغات المختلفة والمآكل والمشارب والملابس والعوائد والعجائب.



ومع أن الحجيج كانوا يقصدون وجهة دينية إلا أنه كان ينبغى عليهم أن ينفتحوا على الأفكار والظواهر والروائح والأذواق والألوان الجديدة، وكذلك كل ما هو مبتدع ومختلف. وعليهم أن يشبعوا فضولهم خلال الرحلة التى يتوق لها الكثيرون. ويمثل شهاب الدين المقرى نموذجًا كاشفًا لشهوة العرب المحدثين الأوائل فى الترحال. ففى عام ١٦٠٠ رحل إلى فاس ثم عاد إلى تلمسان، ثم عاد إلى فاس، وبعد ذلك توجه إلى مصر عام ١٦١٨ ثم إلى الحجاز ثم عاد إلى القاهرة عام ١٦٢٣، ثم سافر إلى القدس، وعاد إلى القاهرة، ثم إلى الحجاز ثم القاهرة والقدس مرة أخرى وأخيرًا سافر إلى دمشق حيث مات عام ١٦٣١. وعلى عكس نظرائه الأوروبيين الذين كان عليهم توخى الحذر عند السفر إلى الأقطار المجاورة ذات الملل المسيحية المختلفة، كان لدى الرحالة العربى (أو التركى) من شمال أفريقيا أو بلاد الشام إمبراطورية شاسعة يحكمها أمير المؤمنين فى إسطنبول؛ فبينما كان الأوروبيون فى كثير من الأحيان مقيدين بحدودهم القومية وطوائفهم الدينية ويخشون عبور الحدود البروتستانتية أو الكاثوليكية، كان العرب (والأتراك، كما فى حالة إيليا شليبى الشهيرة) يستكشفون إمبراطورية باكملها.

فى يناير عام ١٦٨٢ قام السفير المغربى، محمد تميم، يصحبه سبعة أعضاء من حاشيته بزيارة فرنسا واكتشاف إبداعاتها الاجتماعية والفنية والفكرية. وحضر السفير أوبرا «أتيس» لـ دى لولى حيث أبدى «دهشة عظيمة»، ربما إزاء المشاهد المسرحية المذهلة التى اشتملت على «جبل مكرس للإلهة سيبيل»، ومعبد وقصر وحدائق. كما حضر حفل باليه فى الأكاديمية الملكية للموسيقى. وبعد ذلك بأسبوع ذهب إلى كاتدرائية نوتر دام واستمع إلى عزف على الأرغن ثم زار المرصد الفلكى ومنزل أحد أساتذة علم الفلك حيث أعجب بنماذج للكرة الأرضية وخرائط لمدارات الكواكب وتلسكوبات وبناديل (جمع بندول). وقد علق أحد الفرنسيين المرافقين له قائلاً: «إن هذا السفير لديه فضول شديد إزاء كل ما يتعلق بالعلوم والفنون». وكانت هذه الزيارة ناجحة للغاية حتى إنه عند مغادرة السفير يوم ٢٥ فبراير تلقى هو وحاشيته هدايا تذكارية رائعة من ملك فرنسا.

وقد لوحظ عنصر الفضول هذا مرة أخرى مع عبد الله بن عائشة، والوفد التونسى الذى زار فرنسا عام ١٧٤٣. فقد قال المبعوث الأعظم، على أغا، فى حضرة مساعده محمد خوجة وأعضاء الوفد السبعة الآخرين (الذى ضم إمامًا وطباخًا وثلاثة حراس وخادمين) «إنه لمن دواعى سرورنا أن نزور مملكة طالما تقنا لرؤيتها». ومن ثم حرص المضيفون الفرنسيون على إشباع «فضول» الضيوف، فأخذوهم إلى الأوبرا وشرحوا لهم الفرق بين نظام كوبرنيكوس ونظام بطليموس، ودعوهم لاحتفالات أشبعت «فضولهم» كما قال المرافقون الفرنسيون.



لقد كان الرحالة العرب والمبعوثون والسفراء والتجار ورجال الدين شديدى الحرص على طرح الأسئلة عن بلاد النصارى وعلى تسجيل الإجابات - ومن ثم على تحويل انطباعاتهم إلى وثائق. فجاءت كتاباتهم جميعًا متميزة بالدقة والفطنة، وأثمرت معلومات مفصلة للغاية تستند إلى الخبرة العملية حول الكيفية التى كان ينظر بها غير الأوروبيين للأوروبيين فى بدايات العصر الحديث. فلم تترك لنا حضارة من الحضارات غير المسيحية - لا الحضارة الهندية الأمريكية ولا الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى ولا الآسيوية - وصفًا موسعًا للأوروبيين ولبلاد النصارى، سواء فى القارة الأوروبية أو أمريكا، مثلما خلفه العرب. ■

ترجمة: هانى حلمى حنفى

كتاب الزاوية

حرب النهر المهدى

قبل عام ١٨٨١ لم تكن هنالك أية حركات تعصب فى السودان. بسبب البؤس هجر الناس عبادتهم ووصلوا حالة من اليأس كانوا مستعدين لأية مغامرة يمكن أن تخلصهم من عبودية الغاصبين، كانوا فقط فى انتظار القائد الملهم الذى يستطيع جمع الشمل والكلمة ورفع الروح المنكسرة. وفى صيف ١٨٨١ ظهر القائد.

ولد الرجل الذى كان السبب المباشر لحرب النهر على ضفاف النيل، فى مكان لا يبعد كثيرًا عن دنقلة. كان والده رجل دين متواضعًا، ومع ذلك فقد جاهد ليوفر لابنه قدرًا من التعليم فى الممارسات الدينية ومبادئ القرآن وفن الكتابة.

برز محمد أحمد منذ الصغر فى علوم الدين وطاعة الله وخدمته، وبدون عناء وجد شيخًا يتتلمذ على يديه حيث يندر وجود أشخاص أذكياء ومملوئين حماسًا فى قطر كالسودان! وبمجرد انتهاء فترة دراسته أصبح تلميذًا على يد الشيخ محمد شريف.

بعد حادثة شهيرة، بينه وبين شيخه ظل الناس فى السودان يتداولونها إذ كان نادرًا أن يشق فتى عصا الطاعة على شيخه، فسر الناس هذا الأمر بأن محمد أحمد كان يدافع عن الإيمان والعقيدة، وأنه أخيرًا جاء من يطهر الدين ويرفع كلمته ويصلح حال الناس. بدأت مشاعر الناس تتجه نحوه لعله يكون المنقذ الذى يفك أسر رقاب القبائل من استعباد الأتراك. ذاعت شهرة محمد أحمد، وبدا فى كل بقاع البلاد التفكير بأنه فى يوم من الأيام سوف يظهر نبى ثان عظيم «المهدى المنتظر» الذى سوف يقود الناس إلى الإيمان والقرب من الله.



مئوية كارل بوبر .. قرن توهج

نشهد الآن مرور مائة عام على ميلاد فيلسوف العلم الأكبر كارل بوبر Karl R. Popper (٢٨ يوليو ١٩٠٢ - ١٧ سبتمبر ١٩٩٤)، امتدت حياته حتى استوعبت القرن العشرين إلا قليلاً وظل حتى آخر لحظة فيها فاعلاً منتجاً متألقاً، وامتدت آفاق عقليته المتوثبة وقدراته المنطقية الرصينة حتى استوعبت مضامين ودلالات التقدم العلمى المتوهج والمتسارع فى ذلك القرن. فجاءت فلسفة كارل بوبر خير انعكاس لهذا التوهج، فى قدرتها على تعيين وتنضيد إيجابيات التفكير العلمى وإمكانياته التقدمية وطرحها كفعالية مطلورة فى صلب الحضارة الإنسانية، بل وفى صلب الحياة على سطح الأرض.

والأجمل أن يعلمنا بوبر كيف نتمثل تلك الإيجابيات المستقاة من التفكير العلمى ونستفيد منها فى التصورات السياسية والاجتماعية: فتأتى عاصفة بأصول الصهيونية، فى حين أنه ولد لأبوين يهوديين اعتنقا المسيحية البروتستانتية قبل إنجاب أى من أبنائهما فقط ليخرجا من وضع الأقلية ويندمجا فى أغلبية المجتمع النمساوى فى فيينا.

المنهج آية العالم

وانتهى القرن العشرون لنستطيع - بثقة - الحكم بأن كارل بوبر أهم فلاسفة العلم فيه، وأعمقهم تأثيراً فى اتجاهات فلسفة العلم فى النصف الثانى منه ومساراتها الراهنة فى مطالع القرن الحادى والعشرين. ودائماً يظل المحور المركزى فى هذه المساهمة البوبرية أنها أقوى تجسيد لإيجابيات العلم وأصول التفكير العلمى والروح العلمية.

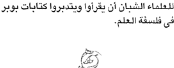
وكما أشار أستاذ الجيل الدكتور زكى نجيب محمود، إذا كانت منجزات العلم بمثابة فرائد القلائد التى تزين صدر الحضارة الحديثة، فإن المنهج العلمى هو المنجم الذى نستخرج منه الفرائد تلو الفرائد. وفى هذا تتفق الأطراف المعنية على أن كارل بوبر فيلسوف المنهج العلمى الأول وبغير منازع على هذه الأولوية: وبتعبير بليغ حقاً يقول عالم الفيزياء الرياضية فى جامعة كمبردج جون بولكين هورن Polkinghorn: "إن كارل بوبر هو المفرد العلم الذى يشار إليه بالبنان حين طرح السؤال عن المنهج العلمى». هذا بخلاف علماء حصلوا على جائزة نوبل، أمثال جاك مونو وبيتر مدور وسير جون إكسلز، أكدوا على أهمية الاسترشاد بفلسفة بوبر للمنهج العلمى، وكانت نصيحتهم للعلماء الشبان أن يقرأوا ويتدبروا كتابات بوبر فى فلسفة العلم.

على أن المنهج العلمى - كما يعلمنا الطرح البوبرى - ليس محض تقنية خاصة بذوى الاحتراف، أو أصوليات حرفة جليلة تمتهنها فئة من ذوى العقول المتميزة الجيدة الإعداد هى فئة العلماء، بل إن المنهج العلمى أسلوب فعال فى التعامل مع الواقع والوقائع، آلية مثمرة يمتلكها الإنسان فى كل موقف لينتقل من المشكلات إلى حلولها فى متواليات تصاعدية لا تتوقف ولا تنتهى أبداً.

ينظر بوبر إلى العلم والمعرفة نظرة واحدة، ليس العلم إلا مرحلة متقدمة من المعرفة، بل من علاقة الكائن الحى بالبيئة، حتى أننا لو كشفنا القصة كلها مرة واحدة منذ الأميبا حتى آينشتين لوجدناها تعرض النمط نفسه: حل المشكلات عن طريق آلية المحاولة والخطأ التى تفسر ما يفعله العالم فى قلب المعمل، مثلما تفسر أى سلوك إيجابى مثمر على وجه الأرض.

أنماط السلوك أياً كانت، سلوك العالم فى معمله أو سلوك الكائن الحى فى صراعه مع البيئة من أجل البقاء، أو ما بين هذا وذاك، أى سلوك هادف ليس إلا محاولة لحل مشكلة معينة. والمعرفة بدورها ليست إلا نشاطاً لحل مشاكل معرفية.

وما يفعله العالم هو أن يبدأ من مشكلة معينة (لتكن م١) لتأتى محاولة حلها (ح ح) أى كائن حى يحاول حل مشاكله، والعالم بدوره يطرح فرضاً لحل المشكلة، لابد من اختبار محاولة الحل، هنا دور النقد سر التقدم الذى يتجلى أكثر ما يتجلى فى العلم، فى دأب العلماء على اختبار الفروض اختباراً عسيراً ومحاولة تكذيبها بعزم أكيد على اكتشاف الأخطاء وتصويبها. فى كل حال لابد من استبعاد الخطأ (أأ) وإلا لن تستمر الحياة. بعد حذف الخطأ يبرز موقف جديد، وأى موقف جديد يحتوى على مشاكل، لينتهى إلى مشكلة جديدة (م٢). هكذا نجد الصورة المنهجية لأية محاولة، لأى سلوك إيجابى هادف:



هذه الصياغة من أخصب أفكار بوبر، توضح كيف أن المعرفة تسير فى حلقات متتالية، لكنها ليست دائرية، فهى لا تنتهى من حيث بدأت، بل تنتهى بموقف جديد ومشاكل جديدة. هذه الجدة هى التى تكفل التقدم المستمر. الخطأ داخل فى صميم كل محاولة ويستحيل تجنبه، الخطأ هو ذاته طريق التقدم المستمر بواسطة تصويبه واستبعاده والاقتراب أكثر من الصدق. معنى هذا أن الصياغة قادرة على تجسيد منطق التقدم، ومنطق الكشف العلمى.

فلسفة العلم.. فلسفة التقدم:

بشكل عام أجاد كارل بوبر تمثل وتمثيل روح العلم بوصفه أنضر وجوه الحضارة وأثمن إيجابيات العقل والأقدر على تجسيد الهم الإنسانى والفعالية الإنسانية.. العلم بوصفه أكثر حيوية وإنسانية من أى منشط آخر. قضاياه قابلة دوماً للتكذيب والتطوير والتعديل، الميتافيزيقا أفقه الرحيب الذى يلهم بالفروض الخصيبة. يلعب الخيال الخلاق والعبقرية المبدعة للفروض العلمية دوراً أساسياً فى خلق قصة العلم المثيرة التى علمت الإنسان المعنى الحقيقى للتقدم. والتقدم العلمى - كما سنرى - لا تفسره إلا الثورة، بمعنى التغير الجذرى لبدء دورة معرفية جديدة.

أول أعمال بوبر وأخطرها «منطق البحث العلمى» صدر بالألمانية فى فيينا العام ١٩٣٣، ثم صدرت له ترجمة إنجليزية العام ١٩٥٩ بعنوان « منطق الكشف العلمى» ليظل من أبرز الكلاسيكيات الرائدة الموجهة لمسارات فلسفة العلوم. وتوالت أعمال بوبر؛ حتى صدر آخرها وأسلسها وأمتعها «خرافة الإطار: دفاع عن العلم والعقلانية» قبيل وفاته فى العقد الأخير من القرن العشرين. بذاك العطاء المتواتر المتدفق مثّل كارل بوبر علامة فارقة ونقطة تحول فى مسار فلسفة العلم، فانتقلت من منطق تبرير المعرفة العلمية وتعيين مسوغات وثوقها ومصداقيتها إلى منطق التقدم العلمى.



ذلك أن فلسفة العلم حين نشأت فى أواسط القرن التاسع عشر كانت امتداداً لسؤال فلسفة المعرفة (الإبستمولوجيا) العريق حول ماذا يمكن أن يعرف الإنسان.. ما شروط المعرفة وما وسائلها.. وما طبيعتها وما حدودها...؟ وقد استقام نسق العلم الحديث عملاقاً، ليتصدر بامتياز واقتدار مسيرة المعرفة الإنسانية، ويمثل حالة فريدة لنجاح المشروع المعرفى للإنسان. فأصبح سؤال الإبستمولوجيا المتمثل فى فلسفة العلم هو سؤال حول عوامل هذا النجاح وحيثياته ومبرراته. من هنا نشأت فلسفة العلم وهى معنية بتبرير المعرفة العلمية كمحصلة جاهزة ومعطاة، أى تبرير نسق العلم كمنجز راهن، يمكن أن يستوعب تقدماً أبعد. استند هذا التبرير أساساً إلى إحكام العلاقة بين الوقائع التجريبية وبين النظرية العلمية أو القانون، فى صورة المنهج العلمى - صلب فلسفة العلم. هكذا تمثل المنهج العلمى تبريراً لنجاح المعرفة العلمية. وذلك فى المرحلة الأسبق من فلسفة العلم التى تعرف بالمرحلة الوضعية.

حتى جاء كارل بوبر حاملاً لواء المرحلة «البعد - وضعية»؛ لينتقل بفلسفة العلم من منطق التبرير إلى منطق التقدم، إلى منطق الكشف العلمى والمعالجة المنهجية له على أساس من قابليته المستمرة للاختبار التجريبى والتكذيب، قابليته لتعيين الخطأ كى يحل محله كشف أفضل وأكفأ وأقرب إلى الصدق؛

فيه التفكير العلمي

يُمنى طريف الخولي

حتى أن الكشف يكون علمياً بقدر ما يكون قابلاً للاختبار الحقيقي الهادف إلى التكذيب، أي بقدر ما يفتح طريقاً لتقدم أعلى.

هكذا يوضح بوبر أن معيار العلم أو الخاصة المنطقية المميزة لقضاياه هي القابلية للاختبار التجريبي الحقيقي الذي يمكن أن يفضي إلى التكذيب؛ فيقف على اللحظة الدراماتيكية الكبرى في حركية العلم التقدمية، لحظة التكذيب والتفنيد، تكذيب النظرية المقبولة المعمول بها، واكتشاف الجديد الأقدر منها والأجدر. ليس منطق الكشف العلمي منطق لبنة جديدة تضاف إلى صرح العلم، بقدر ما هو منطق فتح جديد للتقدم العلمي. إنه فلسفة التقدم المستمر.



ومن منطلق التقدم الذي صاغته فلسفة بوبر كإمكانية مفطورة في صلب طبيعة العلم والمعرفة ثم الحضارة والحياة على السواء، ترسمت الفلسفة البوبرية كاتجاه قوي مترامي الأطراف متسق الأبعاد، شديد الولاء لمنطلقاته العلمية، يوسم بالعقلانية النقدية، ويعد من أهم تيارات الفلسفة المعاصرة وأكثرها إبداعاً وخصوصية. أدلى بدلوه في ميادين حضارية شتى ومجالات فلسفية عديدة ترك فيها بصماته؛ فكانت المساهمة البوبرية قوية في تشكيل معالم الفكر الغربي في النصف الثاني من القرن العشرين.

ولا غرو أن تكتسب فلسفة العلم مع فيلسوفها كارل بوبر مثل هذا الثراء والخصوبة، فكما أشرنا امتدت حياة هذا الفيلسوف (١٩٠٢ ـ ١٩٩٤) حتى شملت القرن العشرين إلا قليلاً. فكانت انعكاساً له، لدفقة التقدم المهيبة التي أحدثها، انعكاساً لحقبة فريدة من التوهج العلمي.

قرن ثوري:

يظل المعلم المميز للقرن العشرين المنصرم ـ بكل ما يسجل له ويسجل عليه ـ أنه قرن توهج فيه العلم والتفكير العلمي وتطبيقات العلم وفعالياته وعمق تأثيراته الإيجابية والسلبية على بنية الفكر وبنية الواقع على السواء. ويحق لهذا القرن أن يتيه على القرون أجمعين بأن تفجرت فيه الطاقة التقدمية للعلوم، حتى فاقت كل نسبها البسيطة والمركبة المعهودة من قبل. وبمجرد أن انتصف القرن، قيل إن أكثر من ثلاثة أرباع علم الفيزياء ـ وهو العلم الطبيعي الأم ذو الموقع الإستراتيجي في نسق العلم ـ قد أنتجه هذا القرن العشرون، وفي نصفه الثاني تضاعف هذا النتاج ولا يزال، ولحقت بالفيزياء العلوم الحيوية والإنسانية، ونشأت علوم أخرى، واستجدت تخصصات فرعية وعلاقات بينية ومنطلقات تنظيرية ومناهج للبحث...... وبطبيعة الحال ارتد كل هذا في الفلسفة فغدت فلسفة العلم أبرز فروع الفلسفة والمعبر عن روح القرن العشرين وطبيعة المد العقلي فيه.

ولم يكن الأمر مجرد إنجازات وإضافات علمية مهيبة ومتراكمة، بل تميز القرن العشرون ببداية حاسمة جعلته بمثابة وحدة فريدة ونقطة تحول في مسار العلم والتفكير العلمي. ذلك أنه منذ عامه الأول، وبالتحديد في السابع عشر من شهر ديسمبر العام ١٩٠٠، طرح ماكس بلانك فرض الكوانتم العبقري، ولحقت به نظرية النسبية لأينشتين بعد خمس سنوات إنهما الأساس البحت للفيزياء الحديثة والإطار العام للعلم في القرن العشرين، منطلق ثورته العلمية الكبرى، ثورة الكوانتم والنسبية. وهما بهذا يمثلان أعظم وأجرأ انقلاب ثوري أنجزه العقل الإنساني.





كانت نظرية نيوتن من قبل هي النظرية الفيزيائية البحتة والإطار العام للعلم. وهي تصور الكون كآلة ميكانيكية مغلقة خاضعة للسببية والحتمية الشاملة؛ تتسلسل الأحداث في اتجاه واحد محتوم من مطلق الماضي إلى مطلق المستقبل، ويمكن التنبؤ بها جميعاً، إذ تكفي ملاحظتها وتعميمها لنصل إلى قوانين العلم المصاغة باللغة الرياضية، وبحكم الحتمية الشاملة تغدو قوانين العلم يقينية ضرورية مطلقة الصدق، لا احتمال فيها ولا جواز ولا إمكان ولا مصادفة. في إطار هذا التصور الأليف المريح تواترت نجاحات العلم الكلاسيكي المبهرة، حتى استقر في الروع أن نيوتن اكتشف سر الخلق وحقيقة هذا الكون في أنه صيغ على هيئة آلة ميكانيكية مغلقة.

حتى كان اقتحام عالم الذرة وما دون الذرة، فأطاحت ثورة النسبية والكوانتم بهذا اليقين وهذا التصور الأليف المريح لطبيعة العلم وطبيعة العالم. كشفت قصوراً في تصور الكلاسيكيين العيني لمفاهيم الكتلة والطاقة والسرعة والأبعاد الثلاثية الثابتة والجامعة المانعة، وفي مطلب الدقة المتناهية في تحديد موضع وسرعة كل جسيم والتنبؤ بتفاصيل حركته. وانهدم التصور الميكانيكي للكون العاجز عن اقتحام عالم الذرة. وبات واضحاً أن فرض نيوتن العبقري محاولة ناجحة في مجالها، تم استيعابها في إطار أشمل، أما الزعم بأنه اكتشف حقيقة الوجود وسر الخلق فغير ذي معنى، أقل ما يوصف به هذا الزعم أنه لاعقلاني.

الحقيقة المطلقة لن يعلمها إلا خالق الكون، وليس على الإنسان إلا أن يحاول، وليس العلم إلا محاولات لحل مشاكل نظرية وتطبيقية، محاولات ناجحة، تفتح الطريق لمحاولات أخرى أنجح. كل إجابة يطرحها العلم يطرح معها تساؤلات أبعد، فيؤدي كل تقدم إلى تقدم أبعد. ومهما علونا في مدارج التقدم لن تغلق المعامل أبوابها ولن ينتهي البحث العلمي أبداً؛ بل يزداد حمية ونشاطاً في سعيه المتواصل. في متوالية لتقدم لا يتوقف أبداً حتى قيام الساعة. وقد رأينا كيف أجادت فلسفة بوبر تمثل وتمثيل هذه الطاقة التقدمية.

هكذا نجد ثورة الكوانتم والنسبية قد هدمت ثوابت وأقامت العقل العلمي على أسس ومفاهيم مختلفة، سرعان ما بوركت بالتطورات والنجاحات المتلاحقة، حتى كانت العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين أزهى حقب العقل العلمي طراً.

وربما يشهد القرن الحادي والعشرون الآن ثورات أخرى تتصدر المشهد وتبرر الزعم بأن عصر سيادة الفيزياء انتهى. فقد انبثق عصر البيولوجيا بخطاه التقدمية المتسارعة وقفزاته التي تزلزل ثوابت في العلم وفي الحياة على السواء. ويبدو ماثلاً عملاق العصر وعصور أخرى تالية، أي الكومبيوتر وثورة المعلوماتية.... وسواء أكنا في عصر المعلوماتية أم ثورة الاتصالات أم عصر الفضاء أم الهندسة الوراثية... إلخ.. فإن هذه المنجزات وسواها من نواتج ثورة الفيزياء الكبرى، ثورة النسبية والكوانتم. لولا تملك ناصية الإلكترون بفضل الكوانتم لما تطورت فيزياء الموصلات التي حولت ماكينة تورينج النظرية البحتة إلى هذا العملاق الماثل أي الكومبيوتر. ولولاه لما استطاع العقل البشري أن يتعامل مع عشرات الآلاف من المورثات ويشيد عصر الهندسة الوراثية... وفي كل حال لا يزال العلم محتفظاً بدماء الثورة والقوة التقدمية المتقدة، وهذا التوهج الساطع الخاطف للأبصار، الذي تبلور في مقولة الثورة.



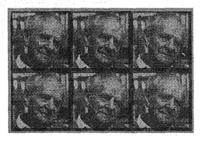
هكذا قدر للقرن العشرين أن يبدأ بثورة الفيزياء الكبرى، ثورة الكوانتم والنسبية، وينتهي بثورة، بل ثورات الكومبيوتر والمعلومات والاتصالات والهندسة الوراثية...الخ. والثورة تعني نمطاً من التغير المفاجئ السريع، مغايراً لمجرد النمو أو حتى التطور.

وعلينا الآن أن نلاحظ تفاوتاً بين دلالة المصطلح الأوروبي Revolution وبين المقابل العربي: ثورة. إذ تعود ثورة إلى (ثار الغبار: سطع، وأثاره: غيّره، وتثويراً: هيجه، وثوراناً: هاج). ومنه قيل للفتنة ثارت وأثارها العدو، وثار الغضب احتد. وثار إلى الشر نهض وثور الشر تثويراً. فنجد (الثورة) في النهاية مردودة إلى (ثار) بمعنى يفيد هاج وماج. فيأتي الرفض والتغيير الجذري بفعل قوى انفعالية. وليس هذا مقصوداً تماماً. أما في الإنجليزية فنجد : Revolutionary ثوري، جذري متطرف وأيضاً دوّار، لأنه مأخوذ من Revolution التي تعني ثورة، وتعني أيضاً بل أصلاً إتمام دورة كاملة. ويمكن أن نلاحظ أواصر القربى اللغوية بين Revolution (ثورة) وبين Evolution (نماء أو تطور). أصل كلمة revolution من المقطع القبلي re الذي يفيد الإعادة والتكرار و volution التي تعني في أصولها دورة. من هنا كان مفهوم الثورة revolution في أصله مفهوماً فلكياً، أول من اشتقه وصاغه علماء الفلك في القرن السابع عشر بعد صياغة قوانين الفلك الجديد، ليعني بدء الجرم السماوي لدورة جديدة، لزمان جديد وعهد جديد، وسرعان ما تم سحبه من المجال الفلكي إلى المجال الأرضي ليغدو لافتة يرفعها كل راغب في تغيير جذري من شأنه أن يبدأ زماناً



تميز القرن العشرون ببداية حاسمة جعلته بمثابة وحدة فريدة ونقطة تحول في مسار العلم والتفكير العلمي. ذلك أنه منذ عامه الأول، وبالتحديد في السابع عشر من شهر ديسمبر العام ١٩٠٠، طرح ماكس بلانك فرض الكوانتم العبقري، ولحقت به نظرية النسبية لأينشتين بعد خمس سنوات





جديداً. على أن المصطلح الإنجليزي في أصوله اللغوية لا يجعل الرفض هياجاً مفاجئاً، بل هو تقدم مكثف شديد الفعالية، انتقال جذري لمرحلة أعلى آن أوانها لانتهاء المرحلة السابقة أو استنفاد مقتضياتها.

ولنعد بمفهوم الثورة إلى موطنه الأصيل. إلى العلم. وقد أدركنا أن المفهوم يعني عهداً جديداً أو على الأقل دورة جديدة. وكارل بوبر بالذات يرفض تماماً النظر إلى التقدم العلمي كمحض تراكم كمي، وكأن النسق العلمي مخزن بضائع تتكاثر أو مكتبة تتزايد محتوياتها. ينفرد بوبر بنظرة ثورية متطرفة ترى أن كل تقدم علمي مهما كان محدود النطاق إنما يمثل ثورة / دورة جديدة في مجاله.

هذا الفيلسوف الثوري المتطرف قد عاش في إطار القرن العشرين؛ فكان فيلسوف علم جيد الاستيعاب لدلالة ومضامين ثورات هذا القرن التي بدأت - كما أشرنا - بثورة علمية كبرى طبقت الخافقين وعدت أجرأ ثورة أنجزها الإنسان، وأجرأ انقلابة عقلية في تاريخه وهي ثورة النسبية والكوانتم، وانتهى بثورات توالدت عنها ومازالت تتلاهث وراءها أنفاسنا، بل إن ثورة الكومبيوتر عدت الانقلابة الثالثة الكبرى في تاريخ البشرية طراً، بعد ثورة الزراعة وثورة الصناعة.

هكذا يتبدى أمامنا أن العلم - وخصوصاً بفضل تطوراته اللافتة في القرن العشرين - هو الذي يعلم البشرية المعنى الحقيقي للتقدم، والمعنى الحقيقي للثورة. وتلك هي خلاصة الفلسفة البوبرية؛ ومن ثم رأيناها فلسفة النقد، الاختبار ومحاولة التكذيب والتصويب والتعديل، وبالتالي الاقتراب الأكثر من الصدق، فلسفة التقدم والحركية الدافقة والثورة... هذا من حيث هي فلسفة للعلم، فلسفة للمعرفة.. إبستمولوجيا.

وليست المعرفة بناءً سرمدياً أو ميتافيزيقياً متعالياً سابحاً في الفضاء، بل هي عصب الجهاز الإدراكي والتصوري للإنسان. ومن هنا سهل أن تنتقل هذه الحركية النقدية التقدمية الدافقة إلى الرؤى السياسية والاجتماعية مع كارل بوبر، وهو يحدثنا عن أخصب تصوراته الفلسفية.. عن المجتمع المفتوح وخصومه.

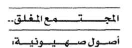
«المجتمع المفتوح وخصومه» في جزءين - ١٩٤٥. وعلى الرغم من أن بوبر أساساً فيلسوف علم، فإنه - نظراً لسعة مجال السياسة وشيوع جمهورها - قد حاز شهرته من هذا الكتاب الذي طبق الخافقين وتُرجم إلى أكثر من عشرين لغة، ولقي اهتماماً واسع النطاق في مجالات ومستويات مختلفة.



اقترن اسم بوبر بالمجتمع المفتوح وصار عنواناً لفلسفته السياسية والاجتماعية، حيث التمثيل العيني لتطبيق منهج العلم العقلاني النقدي على مشكلات السياسة والاجتماع.. حيث ممارسة العقلانية النقدية في الفلسفة السياسية كي تكفل للمجتمع طريقاً للتقدم مثلما تكفل للعلم تقدماً مطرداً.

تنعكس إيجابيات المنهج العلمي هاهنا في صورة مجتمع مفتوح للرأي والرأي الآخر، ليفوز الحل الأقدر والرأي الأرجح، ويكون الانتقال من المشكلات إلى حلولها في إطار ديموقراطي. تعلمنا الصياغة (م١ ح ح أأ م٢) أن خطأ ما كامن في كل محاولة، مما يعني أن أحداً لا يمكنه الزعم بامتلاك الحقيقة؛ ليصب المجتمع داخل إطارها ويقود الآخرين كالقطيع.. لابد من إفساح كل مجال للرأي والرأي الآخر، ليتغلب الرأي الأقدر على حل المشكلة. وهذا يستلزم الديموقراطية والتعددية والمناقشات النقدية والعقلانية والتسامح.. باختصار المجتمع المفتوح، وينقض كل دعاوى الديكتاتورية والانفراد بالرأي والتعصب والتطرف ويستحيل معه صب المجتمع داخل الإطار الشمولي والنسق الموحد، لأن هذا مجافٍ لمنطق العلم ومنطق الواقع ومنطق التاريخ، سواء أكان هذا النسق الشمولي الموحد هو الماركسية أو سواها.

لقد قضى بوبر إبان مراهقته ثلاثة أشهر ماركسياً، ثم انقلب بحماس للاشتراكية الديموقراطية وليبرالية النصف الثاني من القرن العشرين المعدلة. وأخرج «المجتمع المفتوح وخصومه» في عز أوان ازدهار الماركسية جاعلاً نقدها وتقويضها من مراميه الأساسية. استبصر ذلك المآل للأنظمة الشمولية المغلقة في شرق أوروبا، وبمجرد انهيار الاتحاد السوفيتي صدرت العام ١٩٩٢ ترجمة «المجتمع المفتوح وخصومه» إلى الروسية في خمسين ألف نسخة، نفدت فور صدورها.



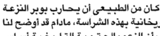
المجتمع المغلق.. أصول صهيونية:

تعقب بوبر جذور الاتجاه الشمولي إلى ما قبل ماركس وأستاذه هيجل، حتى أرسطو وأفلاطون، بل وما قبل أفلاطون، محيطاً بخصوم المجتمع المفتوح وأعدائه. إنهم دعاة المجتمع المغلق الممثلين للقوى المناهضة للعقلانية والحرية والمساواة. انتهى بوبر إلى أن هذه القوى المناهضة للتقدم هم رواسب موقف لم يشف تماماً من صدمة ميلاد الحضارة المدنية والخروج من النظام القبلي المغلق في وجه النقد والتكذيب والتعديل.

وعبر مسار الحضارة الطويل وصولاً إلى المراحل المعاصرة كان حاملو الرواسب القبلية، دعاة المجتمع المغلق، يرتكزون على ما يسميه بوبر بالنزعة التاريخانية historicism أي الزعم بمسار محتوم للتاريخ، يمكن التنبؤ به، وبالتالي قولبة المجتمع والدولة والسياسة في إطاره، فيكون المجتمع المغلق.

أعقب بوبر «المجتمع المفتوح» بكتابه «عقم النزعة التاريخانية: دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية - ١٩٥٧» حيث ينقض بوبر كل حجج الاتجاه الفلسفي المعتقد في مسار محتوم للتاريخ، ويرى وظيفة العلوم الاجتماعية في التنبؤ بهذا المسار. إنه اتجاه عريق موغل في القدم، أصوله في الأساطير القديمة، وعرفه الإغريق فقال به هيزيود وهيرقليطس وأفلاطون... ثم أوغسطين وابن خلدون وفيكو وبوسويه وكوندرسيه وأوجست كونت... وغيرهم، تحدثوا عن أنماط أو إيقاعات أو مراحل تاريخية لابد حتماً أن تحدث. وكانت أقوى وأمضى صور التاريخانية مع ماركس الذي حاول أن يجعل التاريخ علماً، فقدم الحتمية التاريخية - حتمية مجيء المجتمع الشيوعي اللاطبقي - في صورة علمية جدلية تضاهي حتمية نيوتن الميكانيكية. فقد كان عصر ماركس - القرن التاسع عشر - العصر الذهبي للحتمية العلمية.

وكما أوضحنا آنفاً، أتت ثورة الفيزياء الكبرى في القرن العشرين ثورة على حتمية نيوتن الميكانيكية، ثورة لاحتمية، وبوبر المتمثل لهذه الثورة حتى النخاع هو بطبيعة الحال لاحتمي، يدافع عن اللاحتمية في كل موضع، حتى أخرج العام ١٩٨٢ كتابه العميق «الكون المفتوح: حجة من أجل اللاحتمية». هذا في مجال العلوم الطبيعية، فما بالنا بالتاريخ؟! حمل بوبر على عاتقه طوال سنوات عطائه المديدة تفنيد أي زعم بالحتمية التاريخية. ولم يتساهل في هذا أبداً. وفي كتابه «عقم النزعة التاريخانية» يفند كل حجج الزعم بمسار محتوم للتاريخ، سواء أكانت مستقاة من النزعة الطبيعية والتوجه العلمي أم معارضة لهذا.



كان من الطبيعي أن يحارب بوبر النزعة التاريخانية بهذه الشراسة، مادام قد أوضح لنا كيف أن الزعم بالحتمية التاريخية أساس مكين للمجتمع المغلق. ولئن كانت الماركسية أمضى صورها، فإن بوبر - ذا الأصول اليهودية - يحرص على إيضاح أن أولى صورها هي الزعم بحتمية إياب اليهود إلى أرض الميعاد، هي الصهيونية، إذن تحمل الصهيونية بجدارة مغبة إلقاء الأسس الغائرة للمجتمع المغلق. ليس فحسب، بل يجاهر بوبر بأن وضع اليهود في معظم دول أوروبا - طبعاً باستبعاد المد النازي - كان الوضع العادي للأقليات، ولم تكن ثمة مشكلة يهودية حقيقية. ثم يعلن بوبر صراحة في سيرته الذاتية إن:

«كل الدعاوى العرقية والعنصرية شر مستطير، والصهيونية لا تُستثنى من هذا».

ولو أن بوبر قد امتد به العمر ليرى مذبحة جنين وما تلاها وتلوها حتى لحظة كتابة هذه السطور؛ لكان سيوافقنا على أن الصهيونية ليست شراً مستطيراً فحسب، بل هي أشر الشرور.

المجتمع المفتوح.. أصول ديمقراطية:

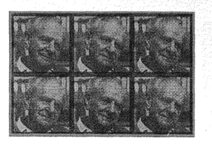
ينتمي بوبر - كما أشرنا في الافتتاحية - إلى أصول يهودية؛ لذلك اضطر إثر الغزو النازي للنمسا في العام ١٩٣٦ أن يفر منها إلى نيوزيلندا حيث قضى سني الحرب وقام بتدريس الفلسفة في جامعتها، ثم انتقل إلى إنجلترا حيث استقر نهائياً وحاز لقب سير ورتبة شرف من الملكة، مثلما حصل على خمس عشرة دكتوراه فخرية من جامعات أمريكا وبريطانيا والنمسا وكندا، والميدالية الذهبية للخدمة المتميزة للعلم.. والعديد من الجوائز والمناصب الأكاديمية والعلمية والفخرية.

إبان إقامته بنيوزيلندا قام بتأليف كتابه

ليس العلم إلا مرحلة متقدمة من المعرفة، بل من علاقة الكائن الحي بالبيئة، حتى أننا لو كشفنا القصة كلها مرة واحدة منذ الأميبا حتى آينشتين لوجدناها تعرض النمط نفسه: حل المشكلات عن طريق آلية المحاولة والخطأ التي تفسر ما يفعله العالم في قلب المعمل

يهوديان صادقان مع النفس:

على الرغم من غزارة كتابات بوبر في مسائل السياسة والاجتماع، وكثرة استشهاده بالوقائع والأمثلة الحية والحالات الدالة بحكم منزعه العلمي، فإنه لا يتطرق في كتاباته لدولة إسرائيل ذاتها أبداً لا سلباً ولا إيجاباً، ولا آمن



بها لحظة واحدة، ولا تبدو له الصهيونية حلاً لأية مشكلة، بل مجرد دعوة عنصرية، أى شرًا مستطيرًا - بتعبيره الحرفى - مادامت العنصرية من أقصر الطرق للمجتمع المغلق الرافض للآخر، فضلاً عن الرأى الآخر.

يذكرنا بوبر بمعاصره ومواطنه اليهودى آرثر كوستلر (١٩٠٥ - ١٩٨٣) الذى جاهر بأن كتاب «عقم النزعة التاريخانية» لبوبر هو العمل الوحيد فى مناهج العلوم الاجتماعية الذى سوف يخلد إلى ما بعد القرن العشرين.

ولد بوبر فى فيينا عاصمة النمسا، وولد كوستلر فى بودابست عاصمة المجر، وذلك فى عصر الإمبراطورية النمساوية / المجرية، وشهدا معاً أفولها وتفككها وهما فى صدر الشباب. كلاهما درس فى جامعة فيينا، ولكن لم يواصل كوستلر دراسته ليحصل على شهادة تخصصية، بينما واصل بوبر دراساته حتى حصل على درجة الدكتوراه من جامعة فيينا فى الفلسفة. كلاهما هاجر فى أواسط العمر إلى إنجلترا حيث استقر حتى وافته المنية.



كوستلر يهودى، لكنه بعكس بوبر استهوته الصهيونية وهو فى أوج صباه، كان لا يزال فى التاسعة عشرة من عمره حين عمل سكرتيراً لإمام الصهيونية المتطرف جابوتنسكى أستاذ مناحم بيجين الذى علمه أصول الإرهاب. ومن فرط إيمان كوستلر بالصهيونية سافر إلى فلسطين العام ١٩٢٦ ليشهد ويشارك عن كثب فى تأسيس المشروع الصهيونى الأثيم.أقام كوستلر فى مستوطنة يهودية بوادى الأردن، وشهد ما شهده عن كثب لمدة عام واحد؛ كان كافياً ليكفر بالصهيونية كفراً بائناً وفر منها قافلاً إلى أوروبا.الخبرة التى مر بها فى فلسطين انعكست فى روايته «لصوص الليل» التى أثارت حنق اليهود لصراحتها وفجاجة القسوة التى تعرضها.

انقلب كوستلر بحماس إلى الشيوعية التى بدت طريق اليوتوبيا (المدينة الفاضلة) الموعودة. وفى العام ١٩٣٦ انخرط عضواً نشطاً فى الحزب الشيوعى، ومرة أخرى كفر بالشيوعية كفراً بائناً فى العام ١٩٣٨، بعد أن زار الاتحاد السوفيتى ولمس قهر الفردية وصخب الدعاية الجوفاء. وشارك زملاءه الآبقين من الشيوعية الماركسية فى تأليف كتاب «المعبود الذى هوى». وأيضاً انعكست خبرة كوستلر بزيف الشيوعية فى رواياته «المصارعون» و«ظلام فى الظهيرة» و«وصول ورحيل».

على أن أهم ما ينبغى أن يستوقفنا حقاً هو الكتاب الذى أخرجه كوستلر العام ١٩٧٦ بعنوان «القبيلة الثالثة عشرة» حيث يثبت أن يهود شرق أوروبا لا ينحدرون عن أصول سامية، بل هم نسل جماعات تركية كانت تعيش فى غرب آسيا ثم اعتنقت اليهودية فقط إبان العصور الوسطى. وبالطبع ثارت ثائرة اليهود عليه، فهل لهذا مات منتحراً هو وزوجته (الثالثة) فى مارس العام ١٩٨٣؟!(أحب بوبر زميلته فى الجامعة وزوجته الوحيدة وظل حتى آخر لحظة فى حياته ينوه بفضلها وفضل حبهما العظيم)

بوبر بلا شك رافض للصهيونية، بيد أنه لم يهاجمها صراحةً وجهاراً نهاراً على هذا النحو. هل اعتباراً لأخواله وأعمامه؟ أم بالأحرى لأنه فيلسوف، فوقف على الأعماق والأصول التاريخانية للصهيونية، وأبلى بلاء حسناً فى زعزعتها وتقويض حججها.

ويظل هذا الرفض الهادئ العميق للصهيونية من أجمل إشراقات فلسفة كارل بوبر، لكن لا نتوقع منه استئناف المسير ومناصرة قضيتنا؛ فهو لا ينتصر إلا لكل ما هو غربى خالص. إن بوبر ربيب المشروع الغربى وأسيره.. هو نموذج مثالى للعبقرية التى تنحصر فى قمقم الحضارة الغربية بألقه الوهاج. يندهش المرء لبصره النافذ كم هو حسير عما يتجاوز حدود العالم الغربى. ودون اعتبار للمراحل الأسبق من تاريخ العلم والحضارة، خصوصاً مرحلة الحضارات الشرقية القديمة الممهدة الملقية للأصول والمرحلة العربية من تاريخ العلم المفضية منطقياً وتاريخياً وجغرافياً إلى مرحلة العلم الحديث.. دون اعتبار لكل هذا، نجد الحضارة عند بوبر بدأت مع اليونان!! وعبر فجوة باهتة هى العصور الوسطى حطت رحالها فى غرب أوروبا حيث معجزة العلم الحديث ومعجزة النموذج الليبرالى الديمقراطى حتمى الانتصار على الشيوعية لأنها مجتمع مغلق. كل ما عدا هذا فراغات سوداء لا يعرفها بوبر أو لا يعترف بها، إلا كشواهد على التخلف والجمود والدكتاتورية والافتقار إلى النزعة النقدية. وإذ امتدت الحضارة الغربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، يجاهر بوبر بأنه أسعد الفلاسفة إذ عايش هذه الحضارة الرائعة التى أحرزت مجداً لم يحلم به الإنسان من قبل وهى تقضى على الفقر المدقع وتقاوم الأمراض والموت وتكفل الحرية ورفاهة الفرد وأمنه وكرامته.

هكذا نجد بوبر شوفونى الإعجاب بالحضارة الغربية. وقد كانت فلسفة التنوير فى القرن الثامن عشر تؤكد على طريق واحد ووحيد لتقدم الإنسانية هو طريق العقل والعلم وفصل الدين عن الدنيا، الطريق نفسه الذى قطعه الإنسان الغربى (أصبح اسمه الآن العولمة)، لتغدو مهمة الحضارة الغربية فرضه على الشعوب الأخرى المتخلفة لكى تلحق بمسيرة التقدم. وبهذا ألقت فلسفة التنوير الأساس الأيديولوجى العميق للاستعمار؛ جاعلة الحضارة الأوروبية نوراً وناراً. هى نور التقدم والمدنية والعقلانية والديمقراطية ومنجزات العلم والتكنولوجيا وسائر حصائل الحداثة، ونار المستعمر المحتل المسيطر المستغل المستنزف للموارد الذى أسفر فى النهاية عن أسفل السافلين بتأسيس دولة إسرائيل ودعمها بغير حدود..

وبوبر من ناحيته يدافع عن الجانب الإيجابى.. عن الأنوار، عن العلم والعقلانية والمعرفة الموضوعية وقيم التقدم فى مواجهة تيارات ما بعد الحداثة التى تتجاوز فلسفة التنوير أو تنقضها، ويحلو لبوبر دائما التأكيد على أنه آخر التنويريين العظام. وبوضع إسرائيل بين قوسين لا مفر من الاعتراف بأن بوبر وبشكل ما أيضاً آخر الاستعماريين العظام، وإذ يرى الحضارة الغربية بما حققته من حرية وفردانية وتقليص للفقر والجهل والمرض أعلى مد بلغه الإنسان، فإن الحضارات الأخرى فى ناظريه بمثابة أطفال نفكر ألف مرة قبل إعطائهم أى قدر من الحرية والاستقلال!

الهندسة الاجتماعية الجزئية: طريق ثالث

ونعود مجدداً إلى مكمن النار وهيكل النور فى الفلسفة البوبرية، انعكاس إيجابيات التفكير العلمى على الرؤى السياسية والاجتماعية؛ لتستوقفنا أخيراً فكرة مثمرة للغاية.

الحقيقة المطلقة لن يعلمها إلا خالق الكون، وليس على الإنسان إلا أن يحاول، وليس العلم إلا محاولات لحل مشاكل نظرية وتطبيقية، محاولات ناجحة، تفتح الطريق لمحاولات أخرى أنجح. كل إجابة يطرحها العلم يطرح معها تساؤلات أبعد، فيؤدى كل تقدم إلى تقدم أبعد

ذلك أن بوبر فى إطار نقده للماركسية وللمجتمع المغلق إجمالاً، كانت أهم الجوانب التى حاربها بشراسة فيما تنطوى عليه الماركسية من نزعة يوتوبية كلية. النزعة الكلية تتناقض مع النزعة العلمية تناقضاً حاداً، وهى بصفة عامة مرتبطة بالتاريخانية. افترضت الماركسية أنها بضربة واحدة - هى الثورة الدموية - سوف تقلب التطور التاريخى إلى المرحلة اليوتوبية والجنة الموعودة للكادحين. وهذا فى جوهره مواصلة لمسيرة الفكر اليوتوبى الذى يطرح تخطيطاً كلياً للمدينة الفاضلة أو جلب السماء إلى الأرض، صارفاً الأبصار عن الطابع المرحلى لكل بناء معقد، وعن مشاكله التى يتولد عن حلولها مشاكل أخرى غير متوقعة (م٢) كما يعلمنا منهج العلم وأصول التفكير العلمى.



وإذا كان التفكير الرومانتيكى هو نقيض التفكير العلمى؛ فإن هذا المنزع الكلى نحو عالم أفضل إنما هو نوع من الرومانتيكية الصريحة، بحث عن المدينة المثالية ككل متكامل فى الماضى أو فى المستقبل.

ربما كان البحث عنها فى الماضى أكثر حضوراً فى واقعنا نحن. فى كلتا الحالتين يرى بوبر: «عودوا على الماضى المجيد» أو «سيروا نحو مجتمع العدالة الاجتماعية».. نداءات إلى العواطف أكثر منها إلى العقل، طابعها الكلى يستلزم إحكام قبضة الاتجاه الواحد والرأى الموحد على المجتمع بأسره، وغلق الأبواب أمام الرأى الآخر وإخماده، وبالتالى لا مندوحة عن أساليب القهر والقسر والعنف. ومع أخلص نواياهم بصنع جنة السماء على الأرض، لا يفلحون إلا فى جلب حدود الجحيم؛ لأنه الواقع المضطرم الحى الذى يأبى الانصياع بسائر جزئياته المتكثرة والصب فى إطار هندسة كلية شمولية أياً كانت، ليأتينا بكل ما نريد جملةً وتفصيلاً.

ولكن هل يعنى هذا أنه لا سبيل إلى البحث عن عالم أفضل؟

كلا بالطبع، بل يمكن القول إن البحث عن عالم أفضل هو حادى مجمل الجهد الواعى العاقل للإنسان (لبوبر كتاب عنوانه «بحثاً عن عالم أفضل»)، وينبغى أن يظل هكذا، وأن نعمل دائماً على تغيير الأوضاع من أجل درء المثالب وحل المشكلات التى تواجه المجتمع والاقتراب دوماً من الأهداف المنشودة والمثل العليا. ولكن لا يكون هذا بالأسلوب الكلى الشمولى، والتخطيط المركزى الذى يحكم قبضته على المجتمع المغلق، بل عن طريق ما أسماه بوبر بالهندسة الاجتماعية الجزئية المتسقة مع ليبراليته. فماذا عن هذا؟

الهندسة الاجتماعية على إطلاقها تعنى إنشاء النظم والمؤسسات الاجتماعية أو تكييفها وتعديلها وفقاً لخطة مرسومة قبلاً، أو بالمصطلح الأنيق نقول تبعاً لمخطوطات زرقاء blue printsعلى أن الخطة أو المخطوطة يمكن أن تكون شمولية تنحو إلى قلب المجتمع بأسره من وضع إلى وضع، بصورة حدية متطرفة.. بضربة واحدة، أو حتى



حرب النهر
نهاية غوردون

يصف تشرشل اللحظات الأخيرة في حياة الجنرال البريطاني شارلي غوردون الذي أرسلته الحكومتان المصرية والبريطانية لإجلاء ما تبقى من قوات في السودان وإنهاء الحكم المصري هناك بشكل سلمي.

عند المساء عزفت الموسيقى كالمعتاد ورويدًا عم الظلام.. وخلد سكان المدينة الجوعى إلى النوم. شعر القائد الذي لا يقهر بأن الأزمة على الأبواب، ولكنه عاجز عن تفاديها، وكان راضيًا عن نفسه لأنه عمل ما عليه، ربما خلد للنوم أيضًا. في هدوء الليل تسلل العدو الوحشي إلى داخل المدينة. كان هنالك شك في أن الجنود المتعبين. الجوعى المنهكين من الحرب قد أعدوا الحراسة اللازمة، انتهز العدو انحسار جزء من النيل الأبيض الذي ترك فراغًا بين النيل والحائط، ومع سماع دوي هائل نتيجة لانفجار البارود والصياح دخل آلاف الدراويش الخرطوم من خلال الأجزاء غير المؤمَّنة.

ذهب جزء من القوة إلى القصر، وظهر غوردون لملاقاتهم. امتلأ الجو بالرعب ولمعان الرماح، بادرهم بالسؤال: أين قائدكم المهدي؟ لقد ظن أن بإمكانه إنقاذ بعض السكان، كان يعرف مدى نفوذه بين الأهالي المحليين.

لم يتمكن من عمل شيء مع جنون الفرحة بالانتصار والاندفاع الديني، هجموا عليه ولم يحاول حتى استعمال مسدسه، وانهالوا عليه طعنًا في أجزاء مختلفة من جسمه، وقع على درجات السلم، هنالك أجهزوا عليه فقطعوا الرأس وحملوها للمهدي، وأعملوا في باقي الجثة حتى لم يتبق منه شيء إلا أكوام لحم وخرق ممزقة مليئة بالدم.





بثورة دموية. وهذه هي الهندسة الاجتماعية الكلية التي رفضها بوبر بشدة كما سبق.

في مقابل هذا، يمكن أن تكون الهندسة الاجتماعية جزئية: مخطوطات زرقاء أبسط وأضيق حدوداً، مخطوطة تنصب مثلاً على مكافحة البطالة أو مرض متوطن، أو تطوير نظام تعليمي...إلخ. ولما كانت كل محاولة في واقع الإنسان لابد أن يشوبها خطأ ما كما يعلمنا التفكير العلمي، فإن مخطوطات الهندسة الجزئية المحدودة تجعل الخطأ بدوره محدوداً، درؤه أيسر، والخسران الناجم عنه أقل مخاطرةً من المغامرة بتخطيط كلي.

إن الهندسة الاجتماعية الجزئية تتلمس الطريق خطوة خطوة، وتبحث عن أكثر المشكلات إلحاحاً، يتبارى الرأي والرأي الآخر للوصول إلى أفضل الحلول، فتحل الديمقراطية محل القمع والديكتاتورية، نقارن النتائج المتوقعة بالنتائج المتحققة فعلاً، نترقب على الدوام ظهور النتائج غير المرغوب فيها، والتي لا مفر منها في كل إصلاح بل وفي كل محاولة إنسانية. هكذا يحل التناول العقلاني المرحلي محل التحمس المشبوب والعنف والقسر. ونرفض كل دعوى بحتمية التاريخ - ماضيه ومستقبله - ليُترك المجال مفتوحاً للتعديلات والتصويبات وفق أية مستجدات في الواقع.



تلك هي الهندسة الاجتماعية القريبة حقاً من روح المنهج العلمي بل أيضاً من روح التقانة (التكنولوجيا)، حتى يمكن القول إنها الأسس العلمية للسياسة، فهي تتوقف على السياسة الواقعية الضرورية لتشييد أو تعديل أو تبديل المؤسسات الاجتماعية وفقاً لأهدافنا. سوف تخبرنا بأي الخطوات هي التي يجب اتخاذها فعلاً إذا رغبنا مثلاً في تفادي الكساد لمؤسسة ما، أو عدالة توزيع الربح الناتج عن مؤسسة أخرى.

المهندس الاجتماعي هنا يتصور شيئاً ما يشبه التقانة الاجتماعية من قبيل تصميم النظم والمؤسسات الاجتماعية الجديدة، وتشغيل وإعادة تركيب ما هو موجود فعلاً. النظم الاجتماعية هنا تستعمل بمعنى واسع، فتشمل الهيئات الاجتماعية العامة والخاصة، أي عمل تجاري كبير أو صغير، شركات التأمين والمصارف، الشرطة، مؤسسات الخدمات التعليمية والصحية، الهيئات الدينية والقضائية والإعلامية...إلخ. كلها نتناولها الهندسة الاجتماعية الجزئية بوصفها وسائل علينا أن نجعلها تحقق أهدافاً معينة، ونحكم على كلٍ منها على حدة تبعاً لملاءمتها وقدرتها على تحقيق الهدف منها.

طرح بوبر تصوره للهندسة الاجتماعية الجزئية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، في محتدم الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية، فبدت كأسلوب ترقيع جزئي متواضع، عزف عنه المتحمسون من كلا الجانبين، التواقون للإصلاح والكمال ككل لا يقبل تجزئة. والآن اتضح أن طريقهم أكثر التواءً وأبعد منالاً، إن لم نقل مستحيل المنال.

لقد شهدت بدايات القرن العشرين انتهاء الرأسمالية المطلقة، رأسمالية «دعه يعمل.. دعه يمر.. إن العالم يسير من تلقاء نفسه» بلا أي تخطيط أو تدخل من الدولة. إنها الرأسمالية. التي كانت سائدة في عصر الثورة الصناعية وحاربتها الاشتراكيات الصاعدة آنذاك، وتنبأ ماركس بأفولها، وهذه هي نبوءته الوحيدة التي تحققت وإن لم تحل محلها الشيوعية كما زعم. على أية حال كان اختفاء تلك الرأسمالية المتطرفة أو تكييفها أو تعديلها تقدماً إيجابياً بلا شك. وبوبر نفسه يعلن ارتياحه لانتهاء مثل هذه الرأسمالية.



ومثلما شهدت بدايات القرن العشرين انتهاءها، شهد العقد الأخير منه نهاية الاشتراكيات المتطرفة وانهيار الأنظمة الشمولية المغلقة باسم الاشتراكية في شرق أوروبا. لقد ثبت فشل التطرف من كلا الاتجاهين. وتتقدم الهندسة الاجتماعية الجزئية حين تقننها وصياغتها وتوجيهها وفق أهداف ومثل عليا، وتبدو حلاً في متناول كل الأطراف، يصعب أن يستأثر بها أحد الطرفين. إنها فكرة عالجها فيلسوف ليبرالي اقترن اسمه بتطوير ليبرالية النصف الثاني من القرن العشرين في اتجاه خطوط الاشتراكية الديمقراطية التي ما فتئ بوبر يثني عليها، وقبل وفاته بعامين قال إنه دائماً اشتراكي، بمعنى إحساس العاقلين بالمسئولية تجاه الآخرين الأقل منهم حظاً ونصيباً في الحياة، بيد أن البشر للأسف لا تحركهم مثل هذه الدوافع النبيلة.

لهذا نجد الهندسة الاجتماعية الجزئية التي عالجها فيلسوف ليبرالي قد أتت في جوهرها أقرب إلى الاشتراكية الديمقراطية، بل والاشتراكية الفابية التي عرفت كيف تزرع القيم الاشتراكية في صلب الحضارة الإنجليزية - معقل الرأسمالية، حيث ينازع حزب العمال حزب المحافظين ويتغلب عليه كثيراً ويمسك بزمام الحكم.

ونختتم رحلتنا في بعض زوايا الفلسفة البوبرية بأن زعماء كلا الحزبين يقرون بأنهم متأثرون ببوبر أشهر وأهم فلاسفة إنجلترا المعاصرين، وبفلسفته السياسية والاجتماعية التي يرونها أول تطوير حقيقي وتغيير لمسار الليبرالية منذ وفاة جون ستيوارت مل، أيضاً في انجلترا العام ١٨٧٣م.

إنهم الآن يتحدثون كثيراً عن الطريق الثالث، بعد ما رأيناه من أفول التطرف الرأسمالي والتطرف الاشتراكي على السواء. وظهر مصطلح الطريق الثالث وكاد يفرض نفسه حتى ظهور مصطلح العولمة كغول ينذر بابتلاع كل ما عداه، وذي صخب عال يطغى على كل ما سواه. ودون أن ندور في متاهات العولمة المفضية إلى لا شيء، نكتفي بإيجابيات التفكير العلمي وقد تمثلت في الهندسة الاجتماعية الجزئية، كآلية فعالة في صلب الطريق الثالث، الذي يبدو طريقاً مريحاً لكلا الجانبين. ■

الإبداع الفني فعل ثوري

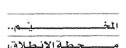
الوجه الآخر للمقاومة

عــزالدين نجــيب

المقاومة الثورية فعل إبداعي، كما أن الإبداع الفني فعل ثوري!

إن الثوار العزل من أسلحة الجيوش النظامية لا يستطيعون مواصلة نضالهم ضد أعتى آلات الدمار، المزودة بشراسة لا تتمتع بها الجيوش، إلا بإيمان عظيم بالمستقبل، وحلم نبيل بالحق وانتصاره على البغي، وهو ما يغذي فيهم روح الإبداع الثوري.. إن عدوهم يدمر الحياة والجمال مدفوعًا بالخوف برغم تفوق القوة، لأنه لا يملك غيرها، وهم قادرون على إعادة بنائهما كل يوم، لأنهم يملكون الحلم، كما يملكون الحب والعزيمة لتحقيقه، قبل الحجر والمقلاع والبندقية!

كذلك فإن الإبداع خلق جديد لصور الجمال في مواجهة أشكال القبح، إنه الذي يعيد التوازن المفقود للحياة، ويقيم بالحلم نظامًا سويًا للنفس البشرية، يمنحها السلام واليقين في الغد وفي انتصار الحق، ويواكب بالخيال وتجليات البصيرة فعل الثورة.. كي يحرر طاقات الجماهير عندما ترى نفسها في الفن، لذا فلم يكتب الخلود قط لفن مجَّد أفعال المعتدين والطغاة، فيما تحفل المتاحف والميادين والصروح المعمارية والحدائق والمطبوعات في كل الدنيا بأعمال فنية انتصرت للإنسان ومجَّدت نضاله من أجل العدل والسلام والحرية.



المخيم.. محطة الانطلاق

ولم يكن معرض الفنان محمد حجي الأخير إلا تأكيدًا لهذا المعنى.. فعبر مائة لوحة، اتخذت جميعًا عنوان: شعب تحت الحصار، صاغ لنا حياة الشعب الفلسطيني البطل، ليس فقط وهو يخوض حربه المقدسة لتحرير أرضه من براثن الغاصب الإسرائيلي، بل كذلك وهو يمارس حياته العادية، ويضمد جراحه، ويزرع في نفوس أطفاله - مع عقيدة الحق وقدرية المقاومة وطلب الاستشهاد - حب العلم والبناء والتعمير، فيحيل المخيَّم / السجن - فوق كونه محطة انطلاق لحركة التحرر - إلى ساحة تتردد فيها أنغامه عبر الناي الذي يعزف عليه الصبي رغم نزيف جرحه، ولم تغب عن مسرح اللوحات الصور الشعرية الرفيعة ومحورها الوجه الآخر للمقاومة: مثل أم في لهفة اللقاء بولدها الفدائي الغائب، أو أخت صبية تتلقى رسالة تخبر باستشهاد أخيها، أو انبهار طفل غض وهو يتعلم - مع أولى الكلمات - كيف يستخدم البندقية، أو صبر صبي لا يجد من يشترى منه التفاح ليقتات هو وأسرته من ثمنه، وقد يكون أخوه في اللحظة ذاتها ممسكًا بحجر يتحدى به الدبابة.

وإذ تصطف الخيام المخروطية البيضاء على أرض المخيَّم كمعسكر الاعتقال، تنكفئ أم داخل إحدى هذه الخيام على وعاء الغسيل لتنظف قميص ابنها المشبع بالدم، وفي خيمة أخرى تنهمك أم ثانية في إعداد الخبز لأسرتها أو للفدائيين، وتنتشر الأرغفة على الأرض في مشهد يفوح بعبق الحياة، وفي خيمة ثالثة ينكفئ تلميذ بالمرحلة الابتدائية على الأرض فوق كراريس واجبه المدرسي، ينهي الواجب قبل أن تفاجئه قذيفة تحول دون استكماله، ووسط أنقاض منزل دمرته آلة العدوان يسارع الصبي - الذي صار رجلاً مسئولاً قبل أن يعرف لعب الطفولة - إلى إنقاذ شقيقه الصغير من الموت وجرحه ينزف.

شعب تحت الحصار

معرض الفنان محمد حجي

٤ يوليو - ٤ أغسطس - الإسكندرية قاعة متحف الفنون الجميلة

١٥ مايو إلى ١٥ يونية ٢٠٠٢

قاعة الأفق - الجيزة - مصر

مائة لوحة صغيرة نفذت، احتلت نصفها تقريبًا نماذج متعددة لأطفال - فرادى وجماعات - وهم يمارسون شتى الأدوار والنشاطات الإنسانية، بين المقاومة بالحجر والمقلاع وسط ألسنة اللهب وسحب الدخان وبين الجلوس لمشاهدة التليفزيون على أرض الخيمة المفروشة ببساط مخطط بخطوط ملونة متعاكسة، وبينهما مواقف عديدة.. مثل ذلك الطفل الذي يلصق أذنه بجهاز الراديو أمام جدار عتيق كتبت فوقه شعارات المقاومة، أو زميلتيه اللتين تملآن صفائح الماء من حنفية المخيَّم وتنقلانها إلى الخيمة كي تستمر حياة أسرتهما، أو الآخر الذي يسقي الزرع، أو غيره الذي يتسلق سورًا من الأحجار ليرفع العلم، أو هؤلاء الذين يعيدون بناء المنزل المهدَّم، أو الآخرين الذين انهمكوا في تنظيف المدفع وتجهيزه للمعركة، أو أولئك الذين يشاركون في تشييع جنازة شهيد، أو يزورون مقبرة شهيد آخر أمست ضريحًا، أو هذا الطفل الذي يحتضن شقيقه الصغير بين حبه والخوف عليه.

قرابة خمسين لوحة حفلت بشتى أوجه الفعل الناضج للطفل الفلسطيني، ولنتخيل كيف يكون هذا الطفل بعد أن يصبح شابًا ورجلاً.. وهل بوسع قوة في الأرض أن تنتزع منه آنذاك جمرة الثورة والحرية، وقد ترسخت بداخله - مع قيم الثورة - قيمة التضحية بالروح كي تتحقق للوطن الحياة؟

كما احتلت شخصية الأم أو الأخت الكبرى عشرين لوحة أخرى، وهما ليستا من الشخصيات الباكية الملتاعة على ابنها أو أخيها أو المولولة على بيتها المدمر، بل هما أقرب إلى تلك الشخصية التي رسمها الأديب الروسي مكسيم جوركي في روايته الشهيرة «الأم» لكن بملامح فلسطينية وسلوك عربي، تكبح آلامها لتشد أزر أبنائها لاستمرار المقاومة، ونراها جالسة تطرز الثوب أو تخيط الكساء أو تخبز العيش أو البسكويت للصغار، وكأنها تنسج بالخيال أملهم في الغد، ونراها تحتضن الابن أو الأخ بيد، وتحمل باليد الأخرى بندقية.. فمن يدافع عن بيتها في غيبته غير هذه البندقية؟ ونراها تحتضن العائد من المعركة بعد غياب، أو وهي تضمد جرحه، فتمنحه مع زاد الحب والحنان زادًا إضافيًا للصمود.



وإذا مضينا في هذا الإحصاء حول موضوعات اللوحات، فسوف نجدها موزعة بنسب تتراوح بين ٦٪ و١٠٪ من لوحات بطلها الأب في علاقته بأبنائه وهو يعلمهم كيف يستخدمون البندقية أو حتى كيف يضعون اللثام على أفواههم، إلى لوحات لأطفال عائدين من المدرسة أو جالسين يستذكرون دروسهم، وبين لوحات للمظاهرات والمواجهات مع العدو، إلى وجوه مقنَّعة بقناع الثوار، إلى مشاهد الحياة اليومية في المخيَّم أو الوقوف على أطلاله المنهارة.. فيما نجد ٢٠٪ على الأقل من اللوحات أبطالها هم أبطال المقاومة كبارًا وصغارًا في مختلف أوضاع المواجهة مع العدو.

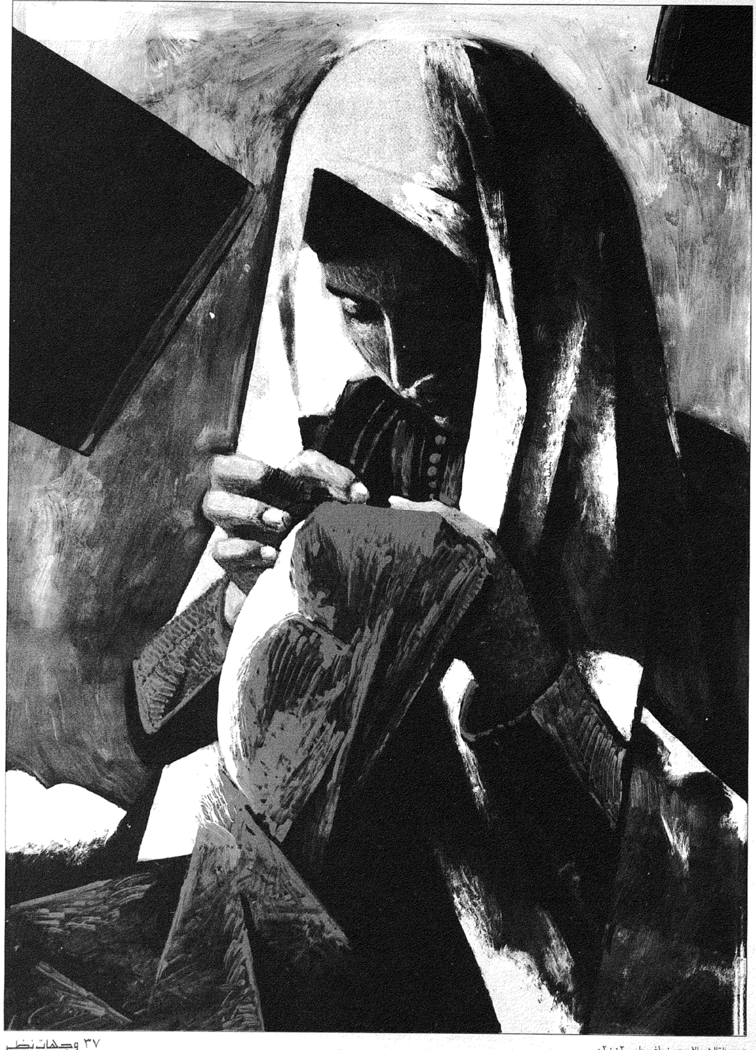
شاعر الجماعة الشعبية

هي إذن معزوفة ملحمية ممتدة الحلقات عن الحياة والحب والمقاومة والموت، تعطي لمسيرة الحياة طاقة على الاستمرار.. إن الفنان يقوم بدور شاعر الجماعة الشعبية الذي يقوي روحها المعنوية في مواقف الخطوب الجسام، وهو يبدأ من سرد الحقيقة - أو الوقائع الجارية - لينتهي إلى روح الشاعر الخالص، مرورًا بالتعليق الحكيم على الأحداث وإضفاء البطولة على الشخصيات التي تقوم بصنعها.

وإن شئنا مقارنة هذه التجربة بوسائط الفنون العصرية، فلعلها أقرب إلى الفيلم التسجيلي / الدرامي، الذي يجمع بين التوثيق الفني للحدث، وبين النمو الدرامي المصاغ بعين الكاميرا ومن خلفها العين المبدعة للمخرج، التي تجعل من تتابع المشاهد وتراكمها شيئًا يتجاوز الموضوع والحدث نحو التعبير عن جوهر كُلّي للحياة أو الوجود، وفي اختياره للأحداث والمشاهد يتجنب فنان السينما المبدع كل ما هو مكرور ومألوف بالنسبة للجمهور من خلال أجهزة البث الإعلامي بوسائطها المختلفة، لأن إبراز البطولة له ألف زاوية للنظر، وليس منها بالضرورة مشاهد الالتحام بالعدو أو تصوير عملية استشهادية، فلعل مشهد أم تحتضن ابنها الفدائي العائد من عملية وجرحه ينزف، أبلغ بكثير من مشهد ذلك الفدائي وهو يقوم بعملية ضد العدو.

من هنا كان لجوء الفنان محمد حجي إلى الأسلوب الواقعي الذي يضاهي أحيانًا اللقطة الفوتوغرافية، وقد كان بوسعه التعبير بأسلوب حديث، مثل التعبيرية أو السريالية أو الوحشية أو حتى التجريدية والتكعيبية، وله في كل منها تجارب فنية متميزة، شاهدناها عبر رسومه المواكبة لمؤلفات نجيب محفوظ ومصطفى محمود وغيرهما، كما أن له كتبًا خاصة به وحده، تضم لوحاته كأعمال فنية في حد ذاتها، حتى وإن ارتبطت بقضية سياسية أو بيئية مثل: شمال / يمين، رسام يقرأ القرآن، ذكريات ريفية، رباعيات عامية، ورسوم من ليبيا.. لكنه آثر اتخاذ هذا الأسلوب الواقعي المباشر لسببين: الأول أنه معنيّ بتوثيق ملامح الحياة اليومية لشعب تحت الحصار: كيف يعيش؟.. كيف يُغذي أطفاله بتلك العقيدة النضالية التي صنعت معجزة الانتفاضة ومعجزة الاستشهاد؟.. كيف يجمع بين طعم الحياة وطعم الموت دون شعور بالإحباط؟.. كيف يعزف الألحان وينشد الشعر والجرح ينزف؟.. كيف وكيف وكيف بغير نهاية.

والسبب الثاني هو أن قضية توصيل هذه الرسالة إلى جمهور آخر، يختلف تمامًا عن جمهور المثقفين ومرتادي المعارض.. إلى تلك الكتلة العريضة الساكتة المسكوت عنها من أبناء الشعب التي لا يخاطبها الفنانون والمثقفون.. وذلك هو مفتاح شخصية محمد حجي منذ عرفته عام ١٩٦٠.. طالبًا زميلاً بكلية الفنون الجميلة.. فلاحًا مصريًا حتى النخاع.. ملتحمًا بقريته سندوب قرب المنصورة، أثناء وبعد دراسته



وخلال رحلة حياته الممتدة مع العمل والفن، محرضًا سياسيًا منقوعًا في الأحداث، رافضًا في الوقت ذاته أساليب السياسيين ومنابرهم الحزبية، لذا لم يلتحق بأي تنظيم سياسي، ولم ينغمس في أي حملة تقودها تلك الأحزاب.. بل كان له حزبه الخاص الذي يبدأ وينتهي عنده وحده، يتواصل مع جماهيره عبر قناة وحيدة وهي الفن، معطيًا ظهره لمجتمع الفنانين والمثقفين، بل ومقللاً من شأن قناة التواصل الإجبارية بين الفنانين والجمهور وهي قاعة العرض، لأنها في نظره اختراع أوروبي وأداة لخدمة البرجوازية ولتكريس العزلة بين الفن والناس، وبسببها انعزل الفن عن المجتمع وتحول إلى طلاسم ورطانة أجنبية لا تعني عامة الناس في أي شيء. لذلك اختار حجي - منذ اللحظة الأولى لاتخاذه الفن مهنة - العمل كرسام صحفي، وحتى قبل أن يتاح له العمل بمجلة «روزاليوسف»، مارس هذا العمل في مدينة المنصورة من خلال مجلة إقليمية محدودة، كانت مختبره الأول للإبداع والتعبير والتواصل مع عامة الناس وجموع البسطاء، لذلك أيضًا اتخذ أسلوبه سمتًا تعبيريًا يتسم بالصرامة والقوة ليصل إلى وجدان القارئ من أقصر طريق، في الوقت الذي لم تكن رسومه قط نسخًا فوتوغرافيًا للواقع أو تجميلاً لصورته، بل صياغة جديدة مختلفة له، مليئة بشحنة العاطفة وقوة الإيحاء، عبر الاختزال للتفاصيل والتلقائية الخشنة والبنائية الهندسية التي تتشرب بمسحة من التكعيب والتجريد، وقد يبدو في بعض الأحيان متأثرًا بمدرسة الواقعية الاشتراكية في دول أوروبا الشرقية فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، خاصة في الرسوم الجرافيكية باللون الأسود لأمهات الكتب الأوروبية التي ترجمت إلى العربية بغزارة في سنوات الستينيات، لكنه سرعان ما بنى أسلوبه الذاتي مستقلاً عن ذلك الاتجاه، وإن بقي لديه بعض من رواسبه.



وجدير بالذكر أن خيار حجي في الفن لم يكن الخيار الوحيد بين أبناء جيله، الذين خرجوا إلى معترك الحياة العملية في أوائل الستينيات، بل شاركه في ذلك كوكبة من الموهوبين تصادف أن تزاملوا في الدراسة بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة وتخرجوا تباعًا في دفعتين أو ثلاث، وشقوا طريقهم بنفس قناعة حجي وفي نفس اتجاهه الصحفي، رغم أنهم جميعًا يملكون قدرات إبداعية متميزة في فن التصوير ولوحة الحائط، منهم نبيل تاج ومصطفى رمزي ومحيي اللباد وجودة خليفة، وقد أسس كل منهم لنفسه قنواته الاتصالية عبر الصحف ووسائط الطباعة، وترك بصمته الفنية الخاصة كل في مجاله.





كانت تلك إذن رؤية جيل، في ظروف مد ثقافي وسياسي معين، حققتها على أرض الواقع مواهب خاصة تملك الاستعداد الفني والنفسي لهذا المسار.

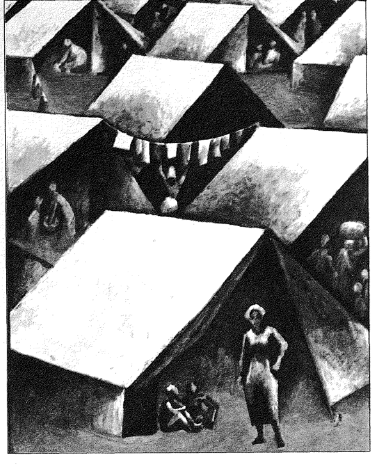
خيار القاعة النخبوية!

من هنا فإن خيار حجي بالنسبة لأسلوب لوحات هذا المعرض «خيار استراتيجي» إذا جاز التعبير، وقد نشر عددا غير قليل من لوحات المعرض عبر الصحافة، وربما كان - لهذا السبب - غير متحمس لإقامة معرض لها بإحدى القاعات التي يعتبرها نخبوية بلغة المثقفين، لكنه عاد فقبل، ربما لأنه أحس أنه في حاجة أيضًا إلى رأى هؤلاء المثقفين، وربما لأنه في حاجة إلى التغطية الإعلامية عبر قنوات التليفزيون والصحافة وغيرها للمعرض، مما ساعد على وصول رسالته إلى قاعدة أكبر من الجمهور. وفي كل الأحوال فهو لن يقدم تنازلاً ولم يغير جلده. وظلت قناعته كما هي بالنسبة لنوع الجمهور العام الذى يتطلع إلى التأثير في وعيه، وقد باتت قضية فلسطين جزءًا مهمًا من هذا الوعى في الفترة الأخيرة.. غير أن المفارقة هي أن ذلك الجمهور لم يحضر افتتاح معرضه بالرغم من أنه قد سلطت عليه أضواء الإعلام، وربما لم يحضر إلا القليل منه على امتداد فترة إقامته التى بلغت شهرًا كاملاً، والسبب معروف: وهو أن المكان الذى أقيم فيه - قاعة الأفق - كان مصممًا «كدشمة» عسكرية ملحقة بمنزل الرئيس الراحل أنور السادات، وبالرغم من أنها ألحقت بمتحف محمد محمود خليل وأعيد تجهيزها كقاعة فاخرة للمعارض، فمازالت الغربة قائمة بينها وبين الشعب، بل زادتها الإجراءات الأمنية المبالغ فيها - دون أى مبرر - رسوخًا.. ولكم أشفقت على الفنان حجى من أثر ذلك في نفسه، هو الذى ظل طوال مشواره الفني يهرب حتى من قاعات العرض المفتوحة نهارًا وليلاً بغير قيود، فإذا به يقدم معرضه الأول في مكان يشبه الموقع العسكرى ويدخله الزائر مارًا بمعبر تفتيش إلكترونى ويغلق أبوابه في السادسة مساء!



ولا أستطيع أن أقيس مدى وصول رسالة المعرض إلى الناس وقد أقيم على فترتين (بالقاهرة ثم الإسكندرية) إلا من خلال الترحاب الذى قوبل به في الصحافة ومن خلال الندوة التى أقيمت في نهايته بمتحف محمد محمود خليل وشارك فيها الكاتب محمد عودة والممثل الفنان سامح الصريطى والشاعر الفلسطيني هارون هاشم رشيد والكاتبان الصحفيان أمين إسكندر وأسامة عفيفى وقدمها الناقد الفنى محمد حمزة. وكما كان متوقعًا فقد غلبت





لغة الخطاب السياسي على لغة التحليل الفني، باستثناء كلمات لأسامة عفيفي وحلمي شعراوي وأحمد عبيد الذين أشاروا إلى بعض الجوانب الفنية في أعمال محمد حجي وربطوا بينها وبين منطلقات الحركة الوطنية وتجاربه الإبداعية السابقة بين الصحافة والكتب التي أصدرها، وأشار بعضهم إلى سمة الملحمية والجلال والاستلهام من التراث الشعبي والمزج بين الواقعية والرمزية، وصولاً إلى أن يصبح الرسم كالمنشور الفني الذي يصل مباشرة إلى القلب.

بين التـــوثيق والرمـــز

ولعل من المفيد أن ندخل إلى مدى أعمق نحو التعرف على الخصائص الأسلوبية التي تقيم أركان اللوحة عند الفنان حجي بعد مرور الحدث أو المناسبة التي أوجدت اللوحة، وذلك هو المعيار الحقيقي لتقييم أي عمل فني.

بالرغم من أن محمد حجي قد اختار الأسلوب الواقعي المباشر بهدف التوثيق الفني، فقد حرص على شيئين: الأول هو أن يضع الشكل الجمالي في صلب اهتمامه كقيمة تمثل غاية في حد ذاتها، والثاني هو التحليق بالموضوع والشكل معًا في فضاء الرمز، الذي يمنح شمولاً إنسانيًا يتجاوز الآني والسياسي المحدود. وسواء في هذا أو ذاك فإن مساحة اللوحة بكل أجزائها تحظى بنفس الحيوية البنائية، لا فرق بين بطل اللوحة الأمامي وخلفيتها البعيدة - وبعبارة أخرى فإن العناصر الخطية واللونية والملمسية تمتد لتشمل كل سنتيمتر في اللوحة، لتبدو كتلة نابضة بوهج الضوء وتفجر اللون وثراء الملمس وحيوية الخط، بل تبدو أحيانًا بعض العناصر التكميلية للأشخاص (من أحجار وأوان وخيام وجدران حجرية قديمة وقطع من القماش، أو من بسط مفروشة على الأرض وقطع من الملابس.. إلخ) تبدو وكأنها مجرد ذرائع فنية استغل الفنان وجودها لتحقيق تلك الحيوية، من خلال منظومة من التعشيقات والتوافقات والتقابلات والتبادلات اللونية والخطية والملمسية، مما يجعلنا نرى اللوحة عملاً «فوق واقعي»، لأنه يتخطى حدود «المشابهة» إلى «الموازاة» للواقع.

ومن ناحية أخرى فإن «الموضوع» يمثل في كثير من اللوحات محطة الإقلاع إلى الهدف وليس محطة الوصول إليه، أي أن الفنان يبحث عما وراء الموضوع والحدث الجزئي، عن معنى كلي مجرد، يستخلص منه الدلالة والمثال «المضمون» أشمل، يمكن أن يرتقي في بعض اللوحات إلى مستوى الرمز، لكن هذا قد ينطبق على نسبة في حدود ١٠٪ من مجموع اللوحات، على حين نجد نسبة ٢٥٪ أخرى تقف على مشارف الرمز، فيما يثقلها «الموضـوع» ويرسيها عند مستوى الوثيقة، لتبقى النسبة الباقية من اللوحات كشهادات درامية حية نابضة بطزاجة التجربة الإنسانية وفعل المقاومة بأوجهها المختلفة.

فكيف يتجلى ذلك في الشق الأول، الخاص بالأسلوب والبناء الفني؟

* لننظر - مثلاً - إلى لوحة الأم التي تغسل قميص ابنها الملطخ بالدماء: لو كان الهدف هو إبراز درامية الموضوع وحدها لاقتصر التكوين على الأم وعلى فعل الغسيل، لكننا نرى الأم أصغر حجمًا من برميل الماء الأحمر على يمين اللوحة، وقد بدت فيه تجعدات بنفسجية متموجة وفوقه دلو الماء، كما أن وميض الإضاءة على الأم ووعاء الغسيل أقل من وميض الإضاءة على خيام المخيم وحواف الخيمة التي تجلس بداخلها والساحة الرملية الممتدة أعلى رأسها.. إن تلك العناصر تحولت إلى حركة إيقاعية ديناميكية تحدث حالة درامية شاملة تتجاوز الموضوع المباشر.

* وفي لوحة الصبي الذي ينقذ أخاه الصغير من بين حطام المنزل المهدم، نرى المساحة التي يشغلها الحطام حول الشخصين بتفاصيلها المعقدة وانعكاس الضوء فوقها بأسلوب أقرب إلى التكعيبة، إضافة إلى المساحة البيضاء للسقف المنهار خلف الطفلين، تمثلان محور الرؤية البصرية المبهرة للنظر والتي لا يخفت وهجها بخفوت وهج الموضوع.

* وفي لوحة الأطفال الخمسة المتراصين في حالة استغراق شديد، وهم يشاهدون التليفزيون نجد مساحة أجسامهم الصغيرة تحتل شريطًا معتمًا في الجزء الأعلى من اللوحة، فيما نجد الجزء الأسفل بأكمله مخصصا للكليم المفروش على الأرض بوحدات من النسيج الشعبي على شكل شرائط مائلة في قطاعات أفقية كل منها مخطط بخطوط مائلة في اتجاهات متعاكسة مع بقية القطاعات، ولو بحثنا عن ضرورة وظيفية لموضوع اللوحة في هذا البساط المخطط لما وجدنا، لكنه يمثل عنصر الحيوية «الجرافيكية» للشكل الفني التي تضفي عليها تميزًا.

أما عن الشق الرمزي، فيمكننا أن نشير إلى عدة نماذج..

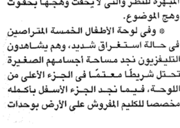
* هناك لوحة الطفلة العائدة من المدرسة متجهة نحو المخيم، نجد أن حيويتها تنبع من تلك المقابلة بين المستطيل الرأسي للطفلة التي نراها من ظهرها في مقدمة اللوحة بأسلوب انطباعي غامض، وبين المستطيل الأفقي في الجزء الأعلى المكون من مجموعة خيام على هيئة مكعبات بأسقف مائلة، وقد بدت سطوحها كشرائح ضوئية مشعة تتقابل بحدة مع كثافة الظلال السوداء على جوانبها، فيما اكتست اللوحة بكم هائل من اللمسات التأثيرية الرمادية والخضراء، هنا يتسامى المشهد نحو آفاق رمزية وأبعاد مطلقة لو ابتعدنا قليلاً عن الموضوع المباشر.

* وهناك لوحة الفتاة التي تقوم بتطريز قطعة قماش حمراء، وقد نفذت بأسلوب تكعيبي هندسي متميز، ومثل آخر للوحة المظاهرة التي تضم زحامًا هائلاً من البشر بوجوه سمراء ترفرف فوقها الأعلام فتبدو كأجنحة سوداء خرافية، فيما تبدو خلفها بقعة ضوئية مستديرة.. إنها ترتقي فعلاً إلى مرتبة الشعر الملحمي والجو السريالي معًا.

* وهناك أيضًا لوحة الأم وأطفالها ومعهم حيواناتهم وهم ينزلون درجات السلم المنهار: إن الضوء هنا يلعب دورًا مدهشًا في خلق حالة الانهيار والمتاهة عبر مسطحات تكعيبية جريئة.

* كما نلاحظ بدهشة إرهاصات الرمزية / السريالية من خلال لوحاته التي يبدو الفدائيون فيها بوجوه مغطاة بالأقنعة، منها ما يتخذ شكل دب أو قط، ومنها ما يحاكي الأقنعة الأفريقية، وقد تشكل الفم على هيئة علم فلسطين.

* وهناك أخيرًا وليس آخرًا لوحة جنازة الشهيد، وقد تلاصقت فوق حافة النعش أيدي وأصابع المشيعين بإيقاع متوازٍ فبدت كأصابع آلة البيانو، فيما يتوهج وجه الشهيد الذي نراه من منظور عكسي - من مؤخرة الرأس - بوشاحه الأرقش وشراشيبه المشعة في الضوء كهالة من النور وسط العتمة.



وقد يكون الفنان محقًا في نزوعه إلى الواقعية التسجيلية بالنسبة للجانب الأكبر من لوحات المعرض، وفي تصوره لأهمية ذلك لوصول الرسالة إلى قطاعات جماهيرية أوسع من المعتاد، غير أنني أرى أن أعماله التي اهتم فيها بالبناء الجمالي المتجاوز لذلك الأسلوب، جامعًا فيها بين الواقعية والحداثة، وأعماله الأخرى المحلقة في سماء الرمز، قد تكون أكثر نفاذًا إلى وجدان الجمهور، خاصة مع اعتياده على مشاهد الانتفاضة وأحداث المقاومة عبر الصور المألوفة من خلال التليفزيون والصحافة بصفة يومية، ما جعل منها أنماطًا مكررة تضعف من انبهاره بشبيهاتها عبر لوحات الفنان.

.. ومع ذلك فلتكن تلك شرارة البدء نحو رؤية جديدة، انطلاقًا من منصة إقلاع جمالية ورمزية فجرتها المقاومة الفلسطينية الباسلة.■


ISO 9001
QUALITY ASSURED FIRM
SGS
ماك
سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
قطع موكيت
دواسات حمام
سجاد أطفال
مشايات
مطبوع
شرقى
ماك على الإنترنت
www.maccarpet.com

مراكز البيع:

بواقي التصدير والرواكد

مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى ـ نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٢
مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠
الزيتون: ١٣ ش عين شمس ـ ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧
عين شمس : ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول ت: ٢٩٦٦٥٦٤
الشرابية: ٤٠ شارع الألايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦
المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين ت: ٠١٠/٥٢٠٠١٩٠
الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠
شبرا: ٦٤ ش روض الفرج ـ دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠
ناهيا: ١٠٧ش ناهيا بولاق الدكرور ٠١٠/١٧١٠٣٨٩
الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة ٠١٠/١٤٥٥١٠٦
العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢
إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٢١٠٧٧٢٦
الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت: ٧٧٥٧١٦٨
مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧
المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١٦٥
حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان ـ محطة الجراح ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧
القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٥
بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ٢٢٢٩٧٠٨
صفط اللبن: سنتر الصاوى ـ شارع التحرير ٧٢٠٧٦٩٢
مكرم عبيد: ٣٥ شارع أبو داود الظاهرى ـ مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١
فيصل التعاون: ٣٥٧ شارع الملك فيصل ـ محطة التعاون ـ الهرم ٠١٠/١٧١٠٤٩٠
الصحفيين: ٣ ش النيل الأبيض متفرع من شارع أحمد عرابي ت: ٣٠٣٩٤١٢
السيدة زينب: ٣٨ شارع مراسينا ٠١٠/٦١٨٦٩٤٥
حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧
الأوبرا : ١٠ ميدان الأوبرا محلات إسماعيل علي ت: ٣٩١٤٩٩٩
المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى
دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس
العباسية: ١٥ ش العباسية ـ ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠

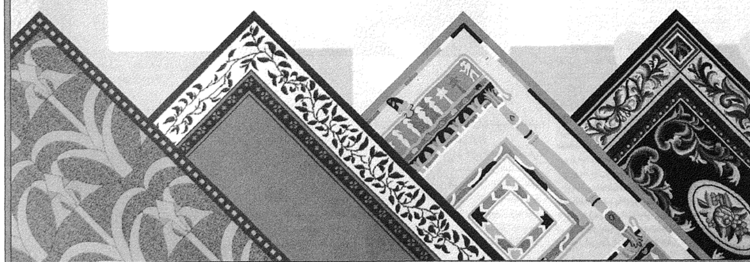
أرقام تليفونات معارض مدن القناه والوجه البحري

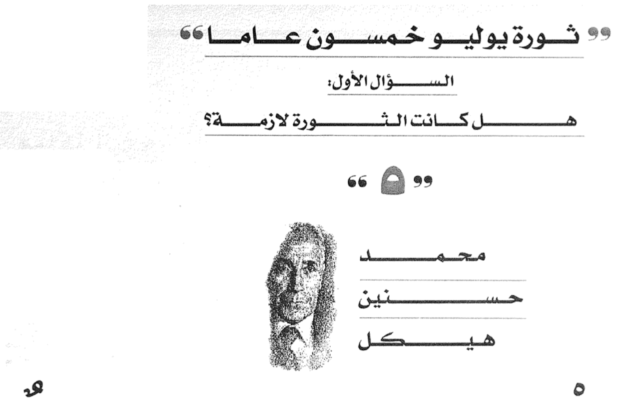
العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤
العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨
العاشر من رمضان: دوار العاشر ـ طريق الإسماعيلية
دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى ٠١٠/١٧١٠٣١٢
بلقاس: ش طريق الحرية ـ خلف المحكمة ٠١٠/٦٦٩٨٥٧٧
محرم بك: الإسكندرية ٦ شر آبيدوس من شارع مسجد الحضرى ت: ٠٣-٣٩١٨٤٧٠
دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦
ميت غمر: ٥٢ ش الحرية متفرع من ش بور سعيد ٠١٠/١٧١٠٤٧٠

القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤ ٠١٠/١٧١٠٤٧٩
شبين القناطر: ٩ ش الدلتا ٠١٣٧٢٢٠٣٣
بنها: ش الكوبرى ت: ٢٥٣٩٧٠
السويس: ٣٦٦شارع الجيش ٠١٠/١٧١٠٤٥١
المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش ٠١٠/١٧١٠٤٦٨
طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤
المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤
كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥
الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية ـ فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧
رمادا: برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٥٧٩٧٤٨
العصافرة : ش عثمان إبن عفان بجوار المعهد الديني ٠١٠١٠٠٤٧٣٩
الزنانيرى الإسكندرية ١٠٢ ش الزنانيرى – سيدى جابر ت: ٥٤٦٠٩٩٩
العامرية : ش مجمع سيدي مسعود الإستهلاكي عمارة خميس الهواري ٠١٢/٢٧٥٨٥٠٠
الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٢٢٢٣٢٩
منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة ـ طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣
دسوق: ش الجيش ـ أمام عمر أفندى ٥٦٥١٥٣
الإسماعيلية: شارع شحتة – السكة الحديد سابقا ٣٥٥٧٦٥
شبين الكوم: ٣ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى
بورسعيد : ميدان المسلة – برج المسلة ت: ٠١٠٥١٣٤١١٤
دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٢٢٨٠١٣
كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧
أبو حماد : ٣٠ ش التحرير برج العزازى ت: ٣٤٠٩٥٤٤
السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧
كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة ٠١٠/١٩٢٢٤٢٨
فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم ـ خلف المحكمة ت: ٠١٠١٩٧٧٥٣٣
كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين ٠١٠/١٣٤٨٣٥٧
العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ٢٦٥٦٥٦

عناوين وأرقام تليفونات المعارض عن الوجه القبلي

سوهاج: ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠
بنى سويف الجديدة: ٣ شارع احمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨
بنى سويف: ٥ ، ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦
قنا: ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٣٦٤٨
قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا ٠١٠/١٦٦٦٨٩٥
الأقصر: ش مدرسة الصنايع ـ السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى ٠١٠/٧٦١٨١٩
أسيوط: ١٢ ش المدينة المنورة الزهراء ٣٠٦٠٣١
المنيا: ١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٢٥٣٦١٦
الفيوم: ش ٢٦ يوليو عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٢٢٢





ثورة يوليو خمسون عاما

السؤال الأول:

هل كانت الثورة لأزمة؟

«٥»

محمد حسنين هيكل

عصر



«١» جيش مجروح وشعب موجوع

من الظواهر العصية على الفهم وغير القابلة للتصديق أن الجيش العائد من فلسطين مع بداية سنة ١٩٤٩ ـ كان بذاته علامة الاستفهام الكبرى التى ظهرت لأول مرة على الأفق السياسى. وكان بذاته العنصر المجهول الذى يحتمل أن يكون الأشد تأثيرا على معادلة السلطة فى مصر ابتداءً من تلك اللحظة، ومع ذلك فإن علامة الاستفهام الكبرى لم تعثر على إجابة لها. كما أن العنصر المجهول الذى تخوف منه الجميع، وصل إلى حيث فعل فعله بعد ثلاث سنوات (يوليو ١٩٥٢) ـ دون عائق جدّى يعترض ـ أو يمنع!

ولم يكن ما هو حاصل فى قلب الجيش العائد من فلسطين سرا خافيا على أحد، بل لعل التخوف منه بالتحديد كان الداعى الذى وصل بقلق السفارة البريطانية فى مصر إلى الإلحاح بشدة لافتة على عودة حزب الوفد إلى السلطة، تحقيقا لنوع من الاستقرار الشرعى تتطلبه الظروف المستجدة، وكل ما فيها يدعو إلى التوجس ومن ثم التحوّط المسبق. وهنا فإن التقارير البريطانية عن تلك الفترة تحفل كلها بطلب عودة الوفد إلى الحكم، وبعدها يمكن أن يتسع المجال للتفاوض فى أمر معاهدة سنة ١٩٣٦ التى أصبحت قابلة للتعديل فى جانبها السياسى منذ سنة ١٩٤٦ ـ أى بعد أربعة عشر عاما على توقيعها (ولم يكن جانب التحالف العسكرى فيها قابلا للتغيير لأن سريان مفعوله كان مطلقا بغير أجل).

ولم يكن الملك «فاروق» غافلا عن خطر الجيش العائد من فلسطين واحتمالات اتصاله بالغضب المتراكم فى مصر والشحنة الحرجة التى يمكن أن تتفاعل بهذا الاتصال بين جيش مجروح وشعب موجوع، حتى إذا لم يكن الاتصال مباشرا واقتصر على مجرد التواجد فى نفس المناخ!



ضباط مصريون فى حرب ٤٨

وفى الواقع (وكما يظهر فى تقارير الحرس الملكى ضمن محفوظات قصر عابدين) ـ فإن الملك كانت لديه وسائل علم بما يجرى داخل الجيش من ثلاثة مصادر يمكن الوثوق فيها:

● المصدر الأول هو «المخابرات العسكرية» للجيش المصرى، وكانت تابعة للفريق «محمد حيدر» (باشا) مباشرة، وكان «حيدر» يرسل التقارير وافية إلى القصر، وكان الملك كما يبدو من بعض العلامات والإشارات على هوامش التقارير يهتم بالجزء الأمنى فيها.

● والمصدر الثانى هو القلم المخصوص فى وزارة الداخلية وهو المسئول عن متابعة النشاط السياسى فى الداخل، وكان يكتب تقريرا يوميا للقصر تحت توقيع ومسئولية رئيسه اللواء «محمد إمام إبراهيم»، ولم يكن القلم المخصوص يكتب عن أمن الجيش عموما، فذلك ليس اختصاصه، ولكن اهتمامه بالتحديد تركز على نقط التلاقى بين عناصر عسكرية وعناصر مدنية (بالذات الإخوان المسلمين والشيوعيين)، وكانت تقارير القلم السياسى ـ للإنصاف ـ تدل على جهد كبير، يظهر فيها ما يدل على أن القلم المخصوص نبّه إلى خطر مؤكد من عودة جيش جريح فى فلسطين إلى مناخ سياسى «مضطرب» فى القاهرة، (نتيجة لكل ما وقع سنة ١٩٤٨ ابتداءً من إضراب البوليس، إلى حرب فلسطين، إلى حل الإخوان المسلمين ـ إلى اغتيال رئيس الوزراء «محمود فهمى النقراشى» ـ إلى اغتيال مرشد الإخوان المسلمين الشيخ «حسن البنا» بأمر مباشر من رئيس الوزراء وبواسطة هيئة مكتبه بما فيه حرس الوزارات).

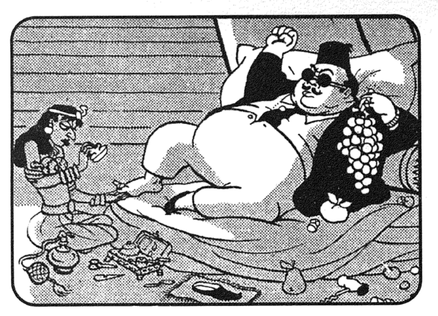
● وكان المصدر الثالث هو تنظيم «الحرس الحديدى» التابع للدكتور «يوسف رشاد» المقرب من الملك (والطبيب الخاص له) وهو تنظيم أقسم أفراده يمين الطاعة للملك والإخلاص غير محدود لذاته، إلى جانب تعهد بالانتقام من أعدائه السياسيين وتصفيتهم، ثم حماية شخصه بالأجساد والأرواح إذا اقتضت سلامته أو مصلحته، وكان على الدكتور «يوسف رشاد» أن يحوّل هذا كله إلى توجيهات وخطط.

وكان ضباط الحرس الحديدى بطبيعة الأمور وسط الجيش، بل وكان بعضهم فى فلسطين سواء بدافع الحماسة الوطنية أو بدافع جس نبض القوات المسلحة ومتابعة أحوالها، بما فى ذلك «المزاج» السائد وسط سلك الضباط (وضباط الصف الذين ركز عليهم الشيوعيون فى حين ركز الإخوان على الضباط).

....

....

[وقد اطلعت على تقرير من ورقتين بملاحظات كتبها اليوزباشى «مصطفى كمال صدقى» (من ضباط الحرس الحديدى المقربين فى ذلك الوقت) ـ تعهدت له السيدة «ناهد رشاد» قرينة الدكتور «يوسف رشاد» بأنها



عن صنداى إكسبريس. ٢ سبتمبر ١٩٥١

يتهـــاوى

سوف تُسلمهما للملك بنفسها وفى يده، وأكدت هى لى فيما بعد (أكتوبر ١٩٥٢) - أنها انتهزت فرصة وجود الملك بمفرده مرة وسلمته مظروفا فيه ما كتبه «مصطفى» بخط يده، واستحلفته أن يقرأه بعناية - ووعدها!).



ومعنى ذلك أن الأطراف المشاركة فى معادلة السلطة المصرية (السفارة البريطانية - والقصر الملكى - والوفد) كانت - مع بداية سنة ١٩٤٩ - ترى «النُذُر» على الأفق وتدرك أن مجال الخطر المستجد بالظروف هو حالة «السخط» فى القوات المسلحة العائدة من فلسطين، وأن التهديد يحل حين يتلاقى السخط العائد من فلسطين مع الغضب المتراكم فى القاهرة.

ومع أن السفارة البريطانية كانت هى التى بدأت الاتصالات التمهيدية الأولى لتحقيق الائتلاف الكفيل بمواجهة المخاطر بين القصر (وهو رمز شرعية الدولة)، وبين الوفد (وهو ممثل أغلبية الشعب)، إلا أن الواقع الفعلى اقتضى تغييرا وتبديلا لتسهيل الحركة وتجنب الحساسيات. ومقتضى التغيير والتبديل أن يدخل القصر فيها مباشرة مع الوفد وتغيب السفارة البريطانية - مؤقتا. وكان ممثل القصر الذى تقدم لأداء الدور هو «كريم ثابت» (باشا) المستشار الصحفى للملك، معتمدا فى فتح الأبواب على علاقته بالمليونير «أحمد عبود» (باشا) - الذى كان يقوم وقتها بدور «الراعى الموجه» للاتصالات والترتيبات المؤدية إلى عودة الوفد. ومع أن «فؤاد سراج الدين» (باشا) كانت له آراء شديدة القسوة فى «كريم ثابت» أصلا وفصلا، شخصية ومسلكا - إلا أن «واقعية» «فؤاد سراج الدين» تغلبت على أحكامه، وكذلك وجد نفسه يشارك فى اتصالات وترتيبات انتقلت من «تشابمان أندروز» (الوزير المفوض للسفارة البريطانية) إلى «كريم ثابت» (المستشار الصحفى للملك فاروق) - وقصدها عودة الوفد إلى السلطة، ومطلبها إنشاء سد منيع أمام احتمالات مجهولة ناشئة من عودة جيش مجروح فى فلسطين إلى أحوال وطن موجوع بِعلل تراكمت على طول عشر سنوات - ثم خلّفت هموما تناقضت مع آمال وتطلعات زحمت أجواء العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية!



وكان الملك «فاروق» وهو يتفاوض (عن طريق كريم ثابت) على صفقة يعود بها الوفد للمشاركة فى الحكم، يدرك أنه مقبل على التغيير (الانقلاب) الدستورى الرابع فى خمسة عشر عاما قضاها على العرش! (أى بمعدل تغيير («انقلاب») دستورى كل أربع سنوات تقريبا).

لكن ذلك التغيير (الانقلاب) الذى شرع يمهد ويرتب له الآن كان أصعبها على مشاعره «المؤسسة» على عداء الوفد، وكان عزاؤه أمام نفسه - وأمام الآخرين - أنه هو الذى يجىء بالوفد هذه المرة إلى الحكم وليس دبابات الجيش البريطانى.

● كان التغيير (الانقلاب) الدستورى الأول الذى قام به «فاروق» هو الإقالة الأولى فى عهده لوزارة «مصطفى النحاس» (باشا) أواخر سنة ١٩٣٧، ولم يكن قد مضى على توليه العرش غير شهور قليلة، وقد راح الملك «فاروق» بعد إقالة «النحاس» (باشا) - وهو وقتها صبى لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره - يمارس سلطته عن طريق وزارات قصر ليس لها سند غيره ولا مصدر للشرعية خارج إرادته الملكية. وحدث أنه فى تلك الأوقات انتهز الفرصة ليعلن بنفسه وبصوته لأول مرة على موجات الإذاعة المصرية منهاجه فى الحكم ومذهبه، موجها الخطاب إلى: «شعبى العزيز» - قائلا:

«إننى مع إعجابى العظيم بوالدى طيب الله ثراه وتغمده برحمته، قد أكون خالفته فى بعض طباعه، لكنى قد احتفظت بأبرز هذه الطباع، فأنا مثله لا يستطيع أن يؤثر على أحد إذا تبينت صواب أمر، واعتمدت بعد تقليب وجوه الرأى أنه فى صالح شعبى أفرادا وجماعات. وأن ثقتى فى نفسى وتوكلى على الله هو الذى يلهمنى تصريف الأمور ويوجهنى الوجهة التى أختارها».

وفى تاريخه عن مقدمات الثورة المصرية، يرصد الأستاذ «عبد الرحمن الرافعى» هذا البيان ويعلق عليه بقوله «كان ذلك هو الإعلان عن انحراف «فاروق» نحو الدكتاتورية والغرور والطغيان»، فتلك لم تكن كلمات صبى فى التاسعة عشرة من عمره - وإنما كلمات وضعها على لسانه رجال من حاشيته الملكية راحوا يعلمونه احتقار الدستور واعتبار نفسه حاكما بأمره فوق شعب مصر!».

والواقع أنه تطبيقا لهذا البيان جاء الملك بوزارات يرأسها من اختارهم من رجاله: «على ماهر» - ثم «حسن صبرى» - ثم «حسين سرى».

وكانت تلك مرحلة حكم فيها القصر منفردا.

● كان التغيير (الانقلاب الدستورى) الثانى هو ٤ فبراير ١٩٤٢ حين تحركت الدبابات البريطانية من ثكنات قصر النيل، متوجهة لحصار قصر عابدين تفرض «مصطفى النحاس» (باشا) زعيم الوفد رئيسا لوزارة تجىء إلى الحكم رغم أنف الملك.

ثم كان أنه من ٤ فبراير ١٩٤٢ وحتى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ - حَكَمَ الوفد معتمدا على السفارة البريطانية وحدها، ومع أنه صاحب الأغلبية فى البرلمان، فقد كان درس التجربة الدستورية فى مصر ظاهرا للعيان، ومؤداه أن الأغلبية البرلمانية ليست كافية وحدها لإبقاء حزب فى الحكم ولا لإخراجه.

وكذلك لم يتردد الملك - حين رفعت السفارة البريطانية يدها عن حماية وزارة «النحاس» (باشا) - فى إقالة هذه الوزارة وملاحقة رئيسها وأعضائها بالتهم - والكثير من هذه التهم صحيح. ولم يتراجع الملك عن تقديم «النحاس» (باشا) إلى المحاكمة إلا أمام إنذار مباشر من رئيس الوزراء البريطانى «ونستون تشرشل» نفسه، الذى قال له صراحة «إن الخدمات التى قدمها «النحاس» (باشا) للجهد الحربى البريطانى



من ٤ فبراير ١٩٤٢ وحتى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ - حكَمَ الوفد معتمدا على السفارة البريطانية وحدها، ومع أنه صاحب الأغلبية فى البرلمان، فقد كان درس التجربة الدستورية فى مصر ظاهرا للعيان، ومؤداه أن الأغلبية البرلمانية ليست كافية وحدها لإبقاء حزب فى الحكم ولا لإخراجه

سنوات الحرب الصعبة، تجعل حمايته واجبا أخلاقيا على الحكومة البريطانية».

● وكان التغيير (الانقلاب الدستورى) الثالث الذى قام به الملك «فاروق» هو إقالة وزارة «النحاس» (باشا) يوم ٨ أكتوبر ١٩٤٤، وفى هذه التجربة فإنه لم يحكم بوزارات قصر، وإنما حكم برؤساء وزارات من أحزاب الأقلية، أظهرهم ثلاثة من السعديين: «أحمد ماهر» (باشا) حتى اغتيل - ثم «محمود فهمى النقراشى» (باشا) حتى اغتيل هو الآخر - ثم «إبراهيم عبد الهادى» (باشا) حتى طُرد من الوزارة طردًا (مع فترة انقطاع فى رئاسة «النقراشى» (باشا) للوزارة جاء فيها «إسماعيل صدقى» (باشا) لم تطل عن سنة واحدة) - لكن السنوات الخمس من ١٩٤٤ وحتى سنة ١٩٤٩ كانت رعاية ملكية لوزارات أقلية من السعديين - والأحرار الدستوريين - وحزب الكتلة (مكرم عبيد) - والحزب الوطنى أحيانا.

وكانت عهود تلك الوزارات هى التى أوصلت الملك مباشرة إلى حافة الخطر، وعند هذه الحافة تخلى وابتعد - خاف وحاول أن يهرب.

● وفى مخاوف الملك على عرشه بعد توقف معارك حرب فلسطين، والاحتمالات الناشئة من عودة جيش مجروح إلى شعب موجوع، فإن الملك وجد أنه جرب كل توليفة ممكنة فى الحكم، ولم تبق أمامه غير وصفة واحدة.

جرب أن يحكم وحده ولم تكن النهاية سعيدة مساء يوم ٤ فبراير ١٩٤٢، وجرب أن يتخلى عن السلطة للوفد عامين ونصف العام، وكانت التجربة ذات مرارة لا تطاق من أول يوم فيها (٨ أكتوبر ١٩٤٤)، ثم جرب أن يعطى الحكم لوزارات أقلية (أواخر سنة ١٩٤٨) ثم نظر تحت قدميه وراى الهاوية رأى العين.

ثم توصل إلى أن خياره الوحيد الباقى هو التعاون مع «الشيطان الوفدى»، وهنا كانت اتصالات ومفاوضات مستشاره الصحفى «كريم ثابت» مع سكرتير عام الوفد «فؤاد سراج الدين»، تحت إشراف «أحمد عبود» (باشا) ومعاونة «حسين سرى».

وفى المحصلة العملية تلك الأيام أن القصر كان مُرهقا خائفا ويريد أن يبتعد ويهرب.

وفى نفس الوقت فإن حزب الوفد كان مُرهقا هو الآخر - لكنه على عكس الملك يريد أن يقترب ويشتهى العودة للحكم بعد غياب خمس سنوات وجدها قاسية على زعامته وعلى قياداته وعلى أنصاره!

" ٢ "

الحســـــابات الملكيـــــة لا تتحــــــقق!

كانت الاتصالات والترتيبات بين المستشار الصحفى للملك «كريم ثابت» (باشا) وبين السكرتير العام للوفد «فؤاد سراج الدين» (باشا) فى حضور «أحمد عبود» (باشا) ومشاركة صديقه «حسين سرى» (باشا) - تجرى على أرضية غير ممهدة بسبب تجارب تعيسة سبقت بين القصر والوفد، وكذلك فإن كلا من الطرفين راح يكتشف مشهدا بعد مشهد أن الطرف الآخر لديه «مستجدات» و«طوارئ» لم تكن معروفة لديه من قبل.

كان القصر قد رتب موقف مفاوضه الرئيسى «كريم ثابت» (باشا) درجة بعد درجة:

- نقطة البداية أن الملك «فاروق» لم يعد لديه مانع من مشاركة الوفد فى السلطة لمواجهة «مخاطر تهدد الجميع».

- وعلى هذا الأساس فإن الوفد مدعو للمشاركة فى وزارة ائتلافية ترأسها شخصية محايدة تحظى برضى «النحاس» (باشا)، ولتحقيق هذا الغرض فإن القصر على استعداد لطرح أسماء عدد من الساسة المستقلين تربطهم علاقة طيبة بالوفد أولهم «حسين سرى» (باشا).

- أن الملك لا يمانع فى إجراء انتخابات برلمانية، لكنه فى حالة حصول الوفد على أغلبية، يفضل أن يرى على رئاسة الوزراء شخصية وفدية غير «النحاس» (باشا)، والداعى أن علاقاته القديمة بالملك بعد ٤ فبراير تركت «ما لا تستطيع الأيام أن تمحوه»، فإذا عاد الآن إلى رئاسة الوزارة بعد انتخابات - لا يمانع الملك أن يحصل الوفد فيها على أغلبية» - ثم وقعت أزمة بسيطة - فإن هذه الأزمة ربما استدعت مخزون المشاعر القديمة وهى بذلك تفتح الجراح التى التأمت، وفى ترويج القصر لهذا المنطق فقد جرى استدعاء سوابق لمجالس نيابية كانت للوفد فيها أغلبية برلمانية دون أن يكون رئيس الوفد بالضرورة رئيسا للوزراء، والمثال الأشهر على ذلك أن «سعد زغلول» (باشا) نفسه اكتفى برئاسة مجلس النواب فى برلمان له فيه أغلبية كاسحة.

- وفى رغبة القصر لتسهيل الأمور أكثر وأكثر فإن «كريم ثابت» كان مخولا باقتراح أن القصر سوف يرحب - فى حالة حصول الوفد على أغلبية برلمانية - أن تكون الوزارة برئاسة «فؤاد سراج الدين» نفسه، وهو موضع الثقة من «النحاس» (باشا) وهو زعيم الحزب بلا منازع، وكذلك من السيدة قرينته (وهى الجهة الأقوى تأثيرا على الزعيم تلك الأيام).

على الناحية المقابلة عرض «فؤاد سراج الدين» موقف الوفد (وموقفه الشخصى) من عروض القصر بالترتيب التالى:

- نقطة البداية أن الوفد يتمنى أن يفتح الملك معه صفحة جديدة لا علاقة لها بكل ما سبق، وسوف يجد الملك من الوفد «إخلاصا حقيقيا» لا يستطيع أى حزب سياسى فى مصر أن يقدمه لـ «مولانا»؛ لأن الآخرين جميعا يحبون مصلحتهم أكثر مما يحبون «جلالته».

فإخلاصهم له نابع من اعتمادهم عليه كى يكلفهم بالحكم، وهم فى ذلك الوضع يحملونه باخطائهم وأوزارهم لأنهم بلا سند أمام الناس غير «جلالة الملك».

- إن اقتراح تشكيل وزارة ائتلافية يدخل فيها الوفد، موضوع لا يستطيع «رفعة الباشا» قبوله، ليس فقط لأنه مخالف لكل تقاليد الوفد طول تاريخه، ولكن فوق ذلك لأن «النحاس» (باشا) يعرف أن أى وزارة ائتلافية هى محاولة للتوفيق، مؤدية لا محالة إلى الخلاف لأن طبيعة الحياة السياسية فى مصر لم تتوصل إلى توافق مقبول من الجميع على أهداف محددة يقوم عليها ائتلاف وزارى، ومعنى ذلك أن الوزارة الائتلافية سوف تكون باستمرار فى حالة احتكام إلى القصر، وذلك يقحم القصر فى الخلافات الوزارية، وقد يؤدى - كذلك - إلى استعادة أجواء قديمة شابت علاقات الوفد بالقصر، وذلك احتمال من المستحسن تجنبه، خصوصا أن «رفعة الباشا» جاهز لأن يثبت هذه المرة إخلاصه العميق للقصر، وهو يريد أن يتوج حياته السياسية «برابطة مقدسة» بين حزب الأغلبية وبين العرش - لم يسبق لها مثيل فى التاريخ السياسى المصرى.

- أن الوفد على استعداد للمشاركة فى وزارة ائتلافية إذا كانت مدتها محدودة وهدفها محددا، بإجراء انتخابات برلمانية حرة (يثق الوفد أنه سوف يحصل على الأغلبية فيها)، ولذلك فإن الحزب على استعداد للاشتراك فى وزارة برأسها «حسين سرى» (باشا)، تكون مهمتها إجراء هذه الانتخابات فى ظرف ستة شهور، ثم تترك مكانها لوزارة أغلبية حزبية، والوفد يريد فى هذا الصدد ومرة أخرى أن يكرر أن «مولانا» لن يندم مطلقا على فرصة أخرى وأخيرة يثبت فيها أنه الأكثر إخلاصا للذات الملكية والأقدر على خدمته.

- وفى حالة فوز الوفد بالأغلبية فإن رئاسة الوزارة يصعب جدا أن تذهب إلى رجل آخر غير «مصطفى» (باشا) - فإن أى رجل غيره لا يستطيع أن يحصل على ولاء جميع الوفديين، ولا على المصداقية أمام جماهير الحزب، ولا حتى على ثقة «زينب هانم» كما ألمح «سرى» (باشا) أثناء كلامه.

وهنا كان سؤال «كريم ثابت» المباشر لفؤاد سراج الدين:

«هل تريد أن تقول لى أن «زينب هانم» لا تستطيع أن تقنع زوجها برئاستك أنت للوزارة؟».

ورد «فؤاد سراج الدين» - ودون مهلة يصوغ بها رده فى ألفاظ تُغطى أو تُزَوِّق:

«هى نفسها أول من يرفض أن يتولى الوزارة أحد غير «مصطفى» (باشا).

ويلح عليه «كريم ثابت»: «ولا حتى أنت؟».

ويرد «فؤاد سراج الدين» بنفس السرعة: «خصوصا أنا».

....

....

[فيما بعد (ديسمبر ١٩٥٣) روى لى «حسين سرى» (باشا) ونحن فى بيته - وكان ملاصقا لمسكنى فى شارع شجرة الدر فى الزمالك، وكنا عائدين معا فى نفس الاتجاه من حفل استقبال فى قصر الطاهرة بمناسبة زيارة

فاروق — النحاس — زينب الوكيل — فؤاد سراج الدين

قام بها الملك «حسين» للقاهرة، وهى أول زياراته لمصر بعد ثورة يوليو ـ ما مؤداه «أنه ذلك اليوم فى بيت «أحمد عبود» فوجئ عندما سمع من «فؤاد سراج الدين» أن قرينة رئيس الوفد تعارض رئاسته للوزارة «خصوصا» على حد ما قال».

وروى «سرى» (باشا) تلك الليلة فى حديث دار بيننا حتى الثالثة صباحا «أنه بعد خروج «فؤاد» من بيت «عبود» (فى لقاء أوائل يناير ١٩٤٩) وفى حضور «كريم ثابت» جلس الثلاثة وانضم إليهم بعد نصف ساعة «تشابمان أندروز» الوزير البريطانى المفوض ـ وراحوا يتذاكرون ما سمعوه من «فؤاد سراج الدين» وانقسموا فيه إلى رأيين:

● رَأْى يرى أن «فؤاد سراج الدين» فيما قال يكشف عن حرص لا يريد أن يغامر بشىء، فهو بالتأكيد يتشوق إلى رئاسة الوزارة، لكنه يفضل أن يخلف «النحاس» (باشا) بطريقة طبيعية، بمعنى أن تجرى انتخابات برلمانية بالفعل تحت إشراف وزارة محايدة، ثم تجىء أغلبية برلمانية وفدية ـ وهذا أرجح الاحتمالات ـ ثم يرأس «النحاس» (باشا) الوزارة، وبالطبع يكون «فؤاد سراج الدين» أبرز أعضائها، وبعد شهور ـ خصوصا أن صحة «النحاس» (باشا) لا تساعده على الاستمرار ولا على التركيز ـ يكون «النحاس» (باشا) نفسه هو الذى يفتح الطريق لسراج الدين.

وكان ذلك رأى «تشابمان أندروز» وقد أفاض فى تفصيله ضمن تقريره إلى لندن قائلا: «إن «فؤاد سراج الدين» فى الأوضاع الحالية هو المرشح لرئاسة الوزارة ـ رغم أنه سياسى محلى وليس رجل دولة، وهو أقرب إلى عقلية «عمدة» (كتبها بالإنجليزية Omda) يعرف فنون التعامل بالمجاملة مع الناس أكثر مما يعرف عن مسئوليات المستوى الأعلى فى سلطة الدولة».

ويضيف «تشابمان أندروز» فى تقريره «إنه يظن أن إحجام «فؤاد سراج الدين» عن رئاسة الوزارة الآن ـ متعللا بأن رئيس الوفد وقرينته لا يقبلان بذلك ـ إنما هو تأمين مبكر لطموحه إلى رئاسة الوزارة، فهو يخشى أن قبوله بالرئاسة الآن قد يبدو صفقة على حساب زعيمه يتكشف أمرها فيما بعد وتظهره على هيئة لا يريد أن يظهر بها!».

● لكنه طبقا لرواية «حسين سرى» (باشا) تلك الليلة فى بيته ـ سنة ١٩٥٣ ـ فإن «كريم ثابت» كان له رأى آخر، فقد أحس بقرون استشعار مُدَرَّبة أن شيئا ما طرأ على الصداقة بين قرينة «النحاس» (باشا) وبين «فؤاد سراج الدين»، وقد راح «كريم» يستعرض استنتاجاته على أساس ما قاله «فؤاد سراج الدين»، والطريقة التى قاله بها.

وكانت الاستنتاجات التى عرضها «كريم»:

ـ أن «فؤاد» فى السنوات الأخيرة زاد نفوذه وأصبحت له دائرته المستقلة (Constituency) وهذا طبيعى.

ـ أن الصداقة بين الاثنين ـ السكرتير العام للوفد وقرينة زعيم الوفد ـ وقد بدأت فى قصور شمال الدلتا ومزارعها زمن الغارات الإيطالية والألمانية على القاهرة سنة ١٩٤١ ـ طالت حتى الآن ـ ١٩٤٩ ـ قرابة عشر سنوات، ولذلك فقد جرى عليها ما يجرى على العلاقات بين البشر من عوارض الحياة وطبائعها.

ـ والراجح أن ما يخشاه «فؤاد» هو أن «زينب هانم» قد تظن أنه برئاسة الوزارة سوف «يكبر» على الكل، وحينئذ يصبح «سيد نفسه» يتصرف كما يشاء.



وحين بلغت الاتصالات والترتيبات لعودة الوفد إلى السلطة نتائجها المتوقعة، فإن الملك «فاروق» مع من استشار من رجال القصر وبينهم «حسن يوسف» (باشا) ـ الذى قام باستقصاء لآراء عدد من الساسة الحزبيين والمستقلين ـ توصلوا إلى نتيجة مؤداها «أنه من الأوفق تكليف «حسين سرى» (باشا) بتشكيل وزارة ائتلافية يدخل فيها الوفد (بشخص فؤاد سراج الدين)، ثم تقوم هذه الوزارة بإجراء انتخابات، لكن «التوجيه السامى» يصدر لرئيس الوزراء بأن «يضبط الأمور» بحيث لا تتحقق للوفد (مهما كان) أغلبية برلمانية كاسحة (كما يحدث فى العادة)، وإنما ينبغى الحرص على أن تتواجد جميع الأحزاب السياسية (بالذات السعديين والأحرار الدستوريين) فى نتائج الانتخابات بطريقة تكفى لحفظ توازن بينها يمكن العمل على أساسه ـ بمعنى أنه لا مانع من أن يفوز الوفد بالنصيب الأوفر من المقاعد، ولكن دون الحصول على أغلبية تعطيه الحق فى تشكيل الوزارة وحده ـ وفدية بالكامل».

وكان خطاب الملك بتكليف «حسين سرى» (باشا) برئاسة الوزارة (٢٥ يونيو ١٩٤٩) معبرا عن مطالب الملك منه ومن وزارته ـ واضحا فيما يرمى إليه.

عزيزى «حسين سرى» (باشا):

«إن من أعز أمانينا ورغباتنا دائما إلى إسعاد شعبنا ورفاهيته، أن تقوم حكومة قومية تعمل ـ والبلاد مقبلة على انتخابات جديدة ـ على توحيد الصفوف وجمع الكلمة، وتضافر القوى، وتركيز الجهود فى هذه الظروف الدقيقة التى تواجهها بلادنا العزيزة فى الداخل والخارج».

وكان تقدير «حسن يوسف» (باشا) ـ وهو مسجل بصوته ـ لمطلب الملك أن الوفد مسموح له أن يحصل وحده حتى نسبة ٤٠٪ من المقاعد، والسعديون على ما بين ٢٠٪ ـ ٢٥٪، ويكون للأحرار الدستوريين ما يُقارب ١٥٪. والباقى يمكن أن تتقاسمه الأحزاب السياسية الأخرى ومعها المستقلون. وبذلك (وفق حسابات النسب المضبوطة!) فإن الوفد ـ مع أنه سوف يكون صاحب أكثر المقاعد ـ قد يجد نفسه مضطرا لتشكيل وزارة ائتلافية، وفى هذه الحالة فإن «النحاس» (باشا) قد لا يكون حريصا على رئاسته شخصيا لها، ومن ثم يتركها لفؤاد سراج الدين.



وفى رواية «حسن يوسف» (باشا) وهى مسجلة بصوته، وفى رواية «حسين سرى» (باشا) وقد سجلتها بخطى على أوراق مكتبى ـ يظهر الاتفاق على نقطة مهمة مؤداها أن السفارة البريطانية رأت مبكرا أن حسابات القصر الملكى فى الانتخابات ـ غير دقيقة، وأن فكرة تحديد نسبة الأحزاب المختلفة فى مقاعد مجلس النواب وصفة مؤكدة لحالة من التوتر، تثير من المخاطر أكثر مما تواجه، وكانت النصيحة الدائمة الصادرة عن السفارة البريطانية «أنه من الأنسب والأسلم إزاء احتمالات المستقبل أن تجىء وزارة وفدية بالكامل تحشد أغلبيتها المؤكدة فى مواجهة المخاطر المحتملة».

ومع أن تعليمات الملك إلى رئيس وزرائه «حسين سرى» (باشا) كانت قاطعة ـ فإن النتيجة جاءت أغلبية وفدية كاسحة، وكانت تلك مفاجأة للقصر دعت الملك إلى غضب شديد ضد رئيس وزرائه «حسين سرى»، وغضب أشد ضد وزير الداخلية «محمد هاشم» (باشا) وهو صهر رئيس الوزراء، الذى لم يقبل الملك إشرافه على الانتخابات إلا عندما أبلغه «سرى» (باشا) أنه اختاره بالذات لهذه المهمة حتى يضمن تنفيذ تعليماته بخصوص النسب بين الأحزاب (وتعليماته هى تعليمات الملك). وقد دافع «سرى» (باشا) عن نفسه وعن صهره وعما جرى قائلا للملك «إن الخلل فى الخطة كلها نشأ من حقيقة أن ضباط البوليس ـ وهم المشرفون بالاختصاص على العملية الانتخابية ـ كانوا على عداء مع أحزاب الأقلية التى أنكرت عليهم حقوقهم، ودعتهم إلى القيام بالإضراب (ما بين أواخر سنة ١٩٤٧ وبداية سنة ١٩٤٨)، ثم اضطرتهم إلى فضّه بوسائل ملتوية ـ وهم لم ينسوا لهذه الأحزاب (السعديين والدستوريين الذين كانوا فى الحكم وقتها) ما فعلوه وقد ردوا لهم الجميل».

ومع أن الملك لم يقنع بهذا التبرير فإن «سرى» (باشا) أصر عليه. ومع ذلك فقد كان ظاهرا للعيان أن هناك تفسيرات أخرى:

ـ أولا: أن «سرى» (باشا) (كذلك سمعت منه وسجلت) لم يشأ أن يأخذ على تاريخه تدخلا بالتزوير فى الانتخابات، خصوصا أن مثل هذا التدخل سوف يكون سافرا، لأن الملك جعلها «معضلة رياضية»!

ـ ثانيا: أن أصدقاءه جميعا (وأولهم أحمد عبود باشا) نصحوه، بل أقنعوه بأن حكاية التوازن بين الأحزاب قفزة إلى حالة من عدم الاستقرار تضر بمصالح البلاد.

ـ ثالثا: أن ذلك أيضا كان رأى السفارة البريطانية، وأن «تشابمان أندروز» أقنعه (إذا كان فى حاجة إلى إقناع) بأن مناورات الملك فى المجهول إزاء المخاطر المقبلة، وأولها جيش مجروح عائد إلى شعب موجوع ـ قد تساعد على تفاقم مناخ يتيح الفرص لمؤامرات عناصر شريرة أولها «الإخوان المسلمين» والشيوعيون»، كلٌ منهما بأساليبه ولأغراضه.

وقد ظلت تقارير السفارة البريطانية من القاهرة ـ حتى بعد إجراء انتخابات برلمانية مفتوحة، وحتى بعد أغلبية تحققت لحزب الوفد فيها ـ تشعل الأضواء الحمراء تلفت وتشد. وركزت تقارير السفارة تلك الفترة (فى أكثر من ثلاثمائة صفحة من الأرقام والتحليلات) ـ على تفسير ملخصه أن جماهير الشعب المصرى فى الواقع لم تشارك فى الانتخابات البرلمانية ثم توصلت إلى إثبات حقيقتين:

● الأولى: أن نسبة التصويت فى المدن (حيث الرأى العام المؤثر فى رأيها) ـ لم تزد على نسبة ١٥٪ ـ وهذه نسبة متدنية.

● الثانية: أن نسبة التصويت فى الريف (وهو الكتلة الضخمة المكشوفة أمام سطوة الإدارة) وصلت إلى ٧٠٪ (على أن تقارير السفارة البريطانية توصلت إلى أنه حتى لو كانت الأرقام صحيحة ـ فهذه النسبة العالية تشهد للبوليس والعُمد ومشايخ البلد بالنشاط وخفة الحركة، أكثر مما تعبر عن رأى أو تأييد شعبى لأى حزب).

ويضيف أحد تقارير السفارة البريطانية «أن وزارة الوفد القادمة عليها أن تتحرك بسرعة لمواجهة أوضاع خطرة تشبه «منجما من الكبريت» ينتظر شرارة طائرة فى الجو لينفجر».

ومن الملاحظات التى تسترعى النظر، أن أول تعليق ورد للسفارة من لندن على تقريرها ـ كان طلبا عاجلا من وزير الخارجية البريطانية يسأل «أريد أن أعرف حجم الأصوات التى حصل عليها مرشحو الإخوان المسلمين فى الانتخابات؟!».

كان رأى «أندروز» ـ الوزير البريطانى المفوض ـ أن «فؤاد سراج الدين» فى الأوضاع الحالية هو المرشح لرئاسة الوزارة ـ رغم أنه سياسى محلى وليس رجل دولة، وهو أقرب إلى عقلية «عمدة» (كتبها بالإنجليزية Omda) يعرف فنون التعامل بالمجاملة مع الناس أكثر مما يعرف عن مسئوليات المستوى الأعلى فى سلطة الدولة»

«٣» دموع ملك في حالة قلق!



فاروق — حسين سري — عبود باشا

لم تتحقق مطالب الملك «فاروق» في نتيجة الانتخابات، وكان غضبه على «حسين سري» (باشا) شديدا لأنه لم يستطع أن يضبط النتيجة وفق الحسابات الملكية. على أن الملك كان في حاجة إلى عازل بينه وبين رئيس الوفد، وهكذا فإنه طلب إلى «حسين سري» (باشا) أن يظل قريبا منه يساعد على ضبط العلاقات مع الوفد مادام قد فشل في تحجيم أغلبيته في البرلمان الجديد. وروى «سري» (باشا) أنه عندما قدم استقالته للملك بعد إعلان نتيجة الانتخابات، قال له الملك «أنت سوف تبقى هنا لتتعامل مع المشاكل التي تسببت فيها»، ثم أبلغه أنه سوف يعينه رئيسا للديوان الملكي، وكلفه بتسيير الأمور مع حكومة الوفد الجديدة: لأن «حسن» (يقصد وكيل الديوان «حسن يوسف» (باشا)) لا يقدر على الوفديين، في حين أنهم قادرون على «أكله»، ولذلك فإني أريدك هنا، وأضاف الملك «هنا في السراي»!

وقال «سري» (باشا) إنه يلتمس من «مولانا» أن يعطيه مهلة ٢٤ ساعة للتفكير لأنه الآن وبعد ستة أشهر مضنية في رئاسة الوزارة جاءت خاتمتها هذه «الانتخابات المزعجة» - يجد نفسه في حالة إرهاق شديدة!

وقال الملك لسري (باشا) (طبقا لروايته): «لا تقل هذا الكلام. المسئولية عليك وأنت لا تستطيع أن تتركني وتجري!». وهنا قَدَّر «سري» (باشا) أن الفرصة متاحة «ليتعلم الملك درسا عن حقائق الأمور في بلاده وفي بيته»!



ويوم ١٤ فبراير ١٩٥٠، وكانت نتائج الانتخابات تعلن تباعا، كتب السير «رونالد كامبل» (السفير البريطاني في القاهرة) تقريرا بالغ الأهمية يستحق القراءة المتأنية، لأنه جاء أشبه ما يكون بوصف للأحوال في مصر عند ذلك المنعطف الهام في التاريخ المصري الحديث.

كان التقرير (٨٠٣٤٧/ ٣٧١ ملفات الخارجية البريطانية) على شكل خطاب موجه إلى السير «وليام سترانج» الوكيل الدائم لوزارة الخارجية، وقد تواصل على امتداد ست صفحات كاملة بدأها السير «رونالد كامبل» بقوله:

«ذهبت لمقابلة «سري» (باشا) بعد إعلان نتائج الانتخابات في المرحلة الأولى. بدأ «سري» (باشا) بلفت نظري إلى أنه يتحدث معي بصراحة كصديق شخصي وموضع ثقة. قال لي «إن «فاروق» جاء إلى بيته أمس يلح عليه بضرورة أن يتولى رئاسة الديوان الملكي». قال «سري»: «إنه قبل ولكنه اشترط أن يسمع منه الملك تقييمه للأوضاع دون تزويق». قال لي: «إنه جلس مع الملك طيلة أربع ساعات وأنه تكلم معه بطريقة لا يمكن لغيره أن يُجازف بها، وساعده عليها أنه عرف الملك منذ كان صبيا، وكذلك كان صهرا له، باعتباره زوج خالة الملكة فريدة التي طلقها الملك قبل أقل من عام. قال لي «سري»: «إنه على يقين من أن الملك سوف يكرهه بسبب ما صارحه به، وأنه سوف يقصيه بعيدا عن دائرته الأقرب، ولكن ذلك ليس مهما في مثل هذه الظروف». قال لي «سري»: «إنه سوف يتصرف بمقتضى فهمه لمسئوليات منصبه، وأنه سوف يَبتُّ في كل المسائل بنفسه، ولن يعرض على الملك إلا ما يراه ضروريا، ويحتاج دستوريا إلى موافقته. قال لي أيضا: «إن الملك سوف يحاول بالتأكيد أن يتجاوزه ويتدخل في شتى الأمور، وذلك بنصيحة أفراد من الحاشية المحيطة به». قال «سري»: «إن هذه الحاشية سوف تبذل جهدها في عزله عن الملك، وسوف يجيء يوم يسدون فيه الطرق عليه، بحيث لا يعود أمامه غير أن يكتب إلى الملك بما لديه مع علمه مسبقا أن ما قد يكتبه لن يصل إلى المرسل له في معظم الأحيان، وأكثر من ذلك فهو يتوقع أيضا أن لا يتمكن بسهولة من محادثة الملك تليفونيا، ولكنه عازم على أن يشق طريقه حتى لو اضطر إلى طلب لقاء الملك أو محاولة الاتصال به تليفونيا مرتين وثلاثا وأربعا وخمسا وستا، لأنه مصمم على القيام بأعمال مهمته كما يتصورها مادام هو باقيا في هذا المنصب». قال لي «سري»: «إنه عدد أمام الملك قائمة بأخطاء «جلالته» بما في ذلك التصرفات المسيئة التي أقدم عليها في السنوات الأخيرة، وحدثه عن حياته الخاصة ولياليه في ملاهي القاهرة، مبينا أن ذلك ينتقص من كرامة الملك، وهيبته أمام شعبه». وأضاف يقول لفاروق: «إن الملكية مؤسسة مهمة ولازمة للبلاد وتصرفاته على هذا النحو المسيء إلى شعبه، قد تعرض العرش للخطر، وموقفه في البلد هو في الحقيقة مثل بالون منفوخ لا ينتظر غير لمسة من سن دبوس، ثم إذا هو فارغ حتى من الهواء».

قال لي «سري»: «إن الملك حاول أن يناقش معه قائمة ما نسبه إليه «سري» (باشا)، وسمح «سري» (باشا) لنفسه أن يقول لفاروق «إنه لا يحتاج إلى دفاع عن نفسه، وإنما يحتاج بالدرجة الأولى إلى تصحيح تصرفاته دون أن ينخدع بحاشية السوء التي تحيط به - فكل أفرادها وبدون استثناء لا يساوون شيئا (Worthless). وقال لي «سري» أنه فوجئ بتأثر الملك ولمح دموعه، ورأى أن يقوم من مجلسه ويتجه إلى نافذة يطل منها على حديقة بيته، وبحيث يترك للملك فرصة استعادة سيطرته على مشاعره. قال لي «سري»: «إنه بعد أن هدأ الملك، قال له إنه يقبل المنصب لأنه يريد أن يخدمه بأمانة». ورد الملك بأن رئيس ديوانه الجديد سوف يكتشف بنفسه أنه (الملك) سوف يحاول جديا أن يكون على مستوى مسئولياته».

قال لي «سري»: «إن قبوله للمنصب لم يكن مجرد استجابة لطلب «فاروق»، ولكنه استجابة لإحساسه بالواجب العام، وأن هذا القبول ينطوي على تضحيات جسيمة يقبلها برضى، فهو رجل لم يعد يطمع في منصب لأنه تولى رئاسة الوزارة أربع مرات حتى الآن، كذلك لا يطمع في شرف يُضاف إلى ما عنده، لأنه يحمل أرفع الأوسمة والألقاب».

قال لي «سري»: «إنه بما قاله للملك أراد أن يصدمه لعله يفيق، وأنه يعلم مقدما أن مهمته صعبة، وأن الملك لن يستوعب درس الحقائق، وأنه في الغالب لن يصحح من سلوكه الشخصي ولا من قراراته غير المسئولة ولا من تدخله في شئون الدولة، لكنه أي «حسين سري» سوف يحاول بأقصى ما يستطيع».

قال لي «سري»: «إنه واثق أن الملك ذكي، ويمكن أن يكون معقولا وهو يستطيع أن يناقش موضوعا من المواضيع بجدية لمدة ثلاثة أرباع الساعة وفي بعض المرات لمدة ساعة، لكنه فجأة يتصرف كما لو أن موجة كهربائية اخترقت رأسه، فإذا مسلكه ينقلب وإذا هو يكابر ويعاند».

فيما يتعلق بالوفد قال لي «سري» عندما سألته - «إنه لا يشعر لسوء الحظ أنهم جاهزون للمسئولية التي جاءت إليهم، فالنحاس (باشا) في «عالمه الخاص»، وأعضاء الوفد كلهم متلهفون بسرعة لاستعادة النفوذ والامتيازات التي يظنون أنها ضاعت عليهم جراء خمس سنوات خارج السلطة، وكلهم الآن في عجلة من أمرهم. أضاف «سري»: «إنه تحدث إلى أصدقائه الوفديين مشيرا إلى ضرورة أن يتصرفوا بروية وإلا أساءوا إلى أنفسهم». قاطعت «سري» وقلت له: «إنني آمل أن يستطيع الوفد دراسة الموقف الدولي بدقة، وأن تتفهم زعامته مقتضى الضرورات الاستراتيجية لهذا الموقف الدولي، ثم لا يطلبون منا على وجه العجلة أن نفتح باب التفاوض معهم في شأن تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦».

قال لي «سري»: «إنه مستوعب لما قلت وطلب إليَّ أن أساعده بما أقدمه من نصائح شخصية لمن أراهم من أقطاب الوزارة الجديدة».

قلت له: «إنني قمت بذلك فعلا وعلى أساس شخصي بحت، وأضفت أنني نصحت هؤلاء الأصدقاء فعلا أن ينتهزوا الفرصة، وأن يحسنوا التعامل مع الملك، وأن يتعاونوا معه في ما يخص مصلحة البلد». قال لي «سري» (باشا): «إن ما فعلته شيء مفيد للغاية».

قال لي «سري» (باشا) «أن الملك سوف يدعو «النحاس» ويكلفه بالوزارة، ومع أن الملك لم يكن يريد أن يرى نفسه في يوم من الأيام مرغما على مقابلة «النحاس» وتكليفه برئاسة الوزارة، إلا أنه الآن يدرك أن ذلك أمر لا مفر منه، مع العلم أنه تلقى تأكيدات بأن «النحاس» سوف يكون هذه المرة حسن السير والسلوك على نحو يفوق كل التوقعات».

....

....

[ينتقل سير «رونالد كامبل» في تقريره فيشير إلى لقاء له بعد ذلك مع الملك «فاروق»، كان الغرض منه تقديم زائر بريطاني مهم هو اللورد «ماك جوين»، ثم كان أن «فاروق» استبقى السفير بعد انصراف اللورد «ماك جوين» «لأنه - كما قال - يريد أن يتحدث معه عن بعض التطورات الأخيرة». وبدأ الملك فقال: «إنه مندهش من تركيبة مجلس النواب الجديد، فغالبية أعضائه كم مجهول لا يعرفهم أحد

وزير الدولة البريطاني ينصح سفيره بالقاهرة بأن ينسق خطاه مع «عبود» (المليونير أحمد عبود باشا)، رغم علمه بأنه: «نصاب (Crook)، ولكن ميزة الرجل أنه لا يخفى حقيقته سرا، ثم إنه رجل بارع جدا فيما يقوم به، ومع أن مصالحه هي التي تحركه، إلا أنه يبقى أنفع لنا وسط هذه الفوضى في القاهرة»

حتى بين جماهير حزب الوفد، رغم أنهم نجحوا فى الانتخابات على قوائمه». أشار الملك إلى «عـبـود» (باشـا) بوصف: «إنه المهندس الحقيقى وراء نتائج الانتخابات وأسماه «الرجل الخفى وراء الستار»، وقال إنه كان دافع كل الأموال التى صرفها الوفد على الانتخابات، وذكر الملك رقما ضخما فى تقديره لما صرفه «عبود» فى الانتخابات الأخيرة»، وأضاف بمرارة: «لكنه مهما كان المبلغ كبيرا - كذلك قال الملك - فإنه لا يزيد بالنسبة لثروة «عبود» عن سردينة اسْتُخْدِمَت لاصطياد حوت». وعلى هذا الأساس فإن المَلك يتوقع أن يكون لعبود نفوذ هائل على الوزارة الوفدية المقبلة، وإلى حد يسمح له بتسخيرها حتى أقصى مدى لتحقيق مصالحه».]

....

....

[انتقل سير «رونالد كامبل» بعد ذلك فى تقريره إلى لقاء بينه وبين «إسماعيل صدقى» (باشا) وقال:

«قابلت «إسماعيل صدقى» (باشا) السياسى المصرى المخضرم على عشاء فى بيت أصدقاء مشتركين مصريين، وكان متشائما واعتقاده أن المستقبل مظلم وأن الوفد لن يعرف كيف يتصرف فى أوضاع تختلف عما تعود عليه فى ظروف سابقة، فالنحاس (باشا) ليست لديه إحاطة بالشئون الدولية، والراجح أن الأشد تأثيرا عليه سوف يكونون الأعلى صوتا بين وزرائه، فى حين أن العناصر العاقلة فى الحزب سوف تكتم آراءها أو تناى بنفسها عما يجرى». قال «صدقى» «إنه لا يثق فى أى تعهدات يعطيها «فاروق» بالتزام حدوده الدستورية، فقد أدمن على تدخل القصر فى كل الشئون حتى فى تنقلات الموظفين». ختم «صدقى» (باشا) تقديره للموقف بأنه لا يستطيع تصور صيغة يمكن أن تستقيم بها الأمور]

....

....

[وأخيرا ينتقل السير «رونالد كامبل» فى تقريره إلى لقاء بينه وبين «كريم ثابت» جرى قبل ليلتين ويكتب: «سألت «كريم» عن مزاج الملك الحقيقى عندما تلقى نتائج الانتخابات، وأكد لى أن الملك استقبل النتيجة بروح رياضية، وبنفس هذه الروح فإنه كلف «النحاس» بتشكيل الوزارة، وكلف «سرى» برئاسة الديوان، ذكرت له بعض ما سمعته من الملك عن نتائج الانتخابات، ورجائى عدم نسيان أن الملك أحيانا يعبر عن مشاعره بطريقة عفوية، خصوصا مع الأصدقاء، ثم ذكر لى أنه من الضرورى علىَّ أن أقدر موقف «جلالته» إزاء زعيم الوفد، لأن «جلالته» لا يستطيع نسيان إهانة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢، لكن الملك فى الحقيقة على استعداد لأن ينسى ويفتح صفحة جديدة مع الوفد - على أن ذلك حتى من الناحية الإنسانية يتطلب وقتا!».]



وتُظهر ملفات وزارة الخارجية البريطانية (٥١٨٧ بتاريخ ٢١ يناير ١٩٥٠) - أن ذلك التقرير المستفيض من السفير البريطاني وصل إلى وزير الدولة البريطاني وقتها «هكتور ماكنيل» الذى علق عليه بخط يده يوم ٢٥ يناير بما نصه:

«إننى أشعر بالقلق وأنا أقرأ التقارير الأخيرة من سفيرنا فى القاهرة، خشية أن يبدو موقفنا وكأن لدينا شيئا من التعاطف مع الملك، إن عودة «النحاس» إلى الحكم تؤكد إلى جانب علامات أخرى شعورا لدى الناخبين معاديا للقصر، ومع اعتقادى بأن نسبة المشاركة فى التصويت ضئيلة جدا، فإن ما يمكن استخلاصه منها هو أن الطبقات ذات الوزن فى مصر لم تعد على استعداد لهضم تصرفات «فاروق» وهذه ظاهرة مهمة.

إننى أقترح ألا نقترب أكثر من اللازم من «النحاس» رغم كل ما قدمه لنا من خدمات، وأن نحتفظ لأنفسنا بمسافة عما يجرى. فضلا عن أننى أظن أن «النحاس» لن يستطيع بسهولة أن يتخلص من الشعارات الوطنية التى أطلقها رؤساء الوزارات الذين سبقوه فى السنوات الأخيرة، ومن المهم أن يفهم ذلك الملك الصغير «فاروق» دلالة نتائج التصويت الأخير، وإذا فهم فسوف يكون عليه أن يتواضع، وفى كل الأحوال فليست لدينا دموع نذرفها إشفاقا عليه».

ثم يضيف وزير الدولة «هكتور ماكنيل» إلى ما سبق فقرة شديدة الغرابة:

«إن السفير يحسن صنعا لو نسق خطاه مع «عبود» (المليونير أحمد عبود باشا)، نحن نعلم أن «عبود» نصاب (Crook)، ولكن ميزة الرجل أنه لا يخفى حقيقته سرا، ثم إنه رجل بارع جدا فيما يقوم به، ومع أن مصالحه هى التى تحركه، إلا أنه يبقى أنفع لنا وسط هذه الفوضى فى القاهرة. وفى كل الأحوال فإن علينا أن نبقى بعيدين لبعض الوقت، ونترك الأمور لتفاعلاتها فى مصر، ونقوم نحن بطى أشرعتنا Trim Our Sails.

إمضاء: هـ. ماكنيل!

«٤»

مشـــــهد «الـــــــذروة» فى مأســاة السيــاســة المصــريــة

بعد إجراء الانتخابات البرلمانية التى أشرفت عليها وزارة «حسين سرى» (باشا) فى أول يناير ١٩٥٠، وبعد ظهور نتائجها مؤكدة نجاح حزب الوفد فيما يشبه الاكتساح الكامل للدوائر - كانت الأحوال النفسية للملك «فاروق» تتقلب بسرعة على مسار متعرج:

فهو الغضب أولا على «حسين سرى» الذى عجز عن ضبط النتيجة - ثم هو القبول بما حدث لأنه أصبح أمرا واقعا يصعب تجاوزه - وبالطبع فقد كان الأفضل ألا يعود «النحاس» (باشا) إلى رئاسة الوزارة حتى ولو كان زعيما للأغلبية - لكنه فى نفس الوقت فإن المرشح البديل (فى تقدير حاشية الملك) وهو «فؤاد سراج الدين» ليس قادرا أو ليس جاهزا الآن لأسباب أقوى من طموحه - ثم إنه ليس هناك داخل الوفد بديل آخر جاهز للدور، خصوصا أنه ليس بمقدور أحد فى الوفد أن يقبل رئاسة الوزارة دون موافقة «النحاس» (باشا) - يزيد على ذلك أنه مما لا يقبل شكا أن «النحاس» (باشا) مصمم على حقه، وأن المؤثرين عليه وأولهم قرينته «زينب هانم الوكيل» أكثر منه تصميما - وإذن فليس أمام «فاروق» غير أن يستدعى «النحاس» (باشا) إلى قصر عابدين، ويكلفه مهما كان طعم المرارة فى حلقه - بتشكيل الوزارة الجديدة.

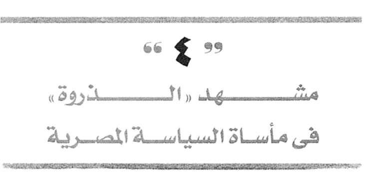
وكان أكثر ما يثير توقعات الملك «فاروق» أن كل الإشارات والتلميحات الواصلة إلى القصر - تؤكد أنه فى هذه المرة سوف يلتقى (بمصطفى باشا) لم يتعرف عليه من قبل، لأنه فى التجربة الراهنة رجل جديد تماما، مستعد للخدمة بغير تحفظات، مفتوح القلب، متخفف من كل أثقال الماضى ورواسبه.

وبعدها لم يعد الأمر مجرد إشارات وتلميحات، لأن قرينة رئيس الوفد انتهزت مناسبة اجتماعية التقت فيها مع «سعدية هانم» قرينة «حسن يوسف» (باشا)، وإذ هى تطلب منها توصيل رسالة إلى قرينها (وكيل الديوان) مؤداها أن جلالة الملك لن يندم إذا أتاح «لرفعة الباشا» فرصة جديدة يثبت فيها ولاءه للعرش وإخلاصه «لمولانا»، وأن صفحة بيضاء لابد أن تُفتح بين جلالة «الملك» و«مصطفى» (باشا) دون أن تترك مجالا «للدساسين» الذين عاشوا وحققوا مآربهم «باللعب» على الحبال بين القصر والوفد.

وفوجئت «سعدية هانم» بما سمعته من قرينة «زعيم الوفد»، لأنها على طول حياتها مع زوجها، لم تسمح لنفسها بالخروج عن دور الزوجة، وقد كانت تتمنى أن تجد «زينب هانم» أحدا غيرها لإبلاغ رسالتها، لكنه لم يكن فى وسعها «من باب الأدب والاحترام» لزينب هانم بُدٌ من أن تسمع الرسالة إلى الآخر.

وعندما نقل «حسن يوسف» (باشا) إلى الملك «فاروق» ما سمعته زوجته من «زينب هانم»، أبدى «فاروق» تشككه، وكان تعليقه: «ح يقول كلام النهارده ويرجع فيه بكره!».

على أن لحظة الحقيقة جاءت أخيرا عندما التقى الملك مع «النحاس» - وجاءت هذه اللحظة متفوقة على كل التوقعات والاحتمالات، متجاوزة كل الحدود سياسية وتاريخية فى العلاقات بين القصر والوفد.



فـاروق النحـاس

عندما دخل «النحاس» (باشا) (وفق شهادة «حسن يوسف» (باشا) و«حسين سرى» (باشا) و«على رشيد» (باشا) الأمين الأول) إلى مكتب الملك ليتلقى التكليف، هَمَّ «فاروق» واقفا مبادرا بعبارة «مبروك يا باشا ثقة الناس فيك، وإن شاء الله تحقق لهم «هذه المرة» - ! - ما ينتظروه». ورد «النحاس» (باشا) إنه قبل أن يتكلم فى أى شىء - فإن لديه عند «مولانا» طلب هو مصمم عليه ولن يحيد عنه».

(وقال الملك «فاروق» بعد المقابلة لحسن يوسف (باشا) أنه توجس عندما سمع مقدمة «النحاس» وقال فى سره «ابتدينا»)!

وعلى أى حال فقد رد على «النحاس» بقوله: «خيرا يا باشا - تفضل». وقال «النحاس»: «إنه يريد أن يأذن له الملك بتقبيل يده الكريمة تأكيدا وتعزيزا لولائه للعرش وللملك فاروق».



فاروق — النحاس

وفوجئ الملك وكان رده بسرعة «العفو يارفعة الباشا» ـ لكن «النحاس» (باشا) أصر ومد يده وأمسك يد الملك الذى حاول أن يسحبها ولم يستطع بسبب حرصه على ألا يشتد فى المقاومة مع رئيس وزرائه «الشيخ»!

واستغرقت المقابلة ثلاثة أرباع الساعة عرض فيها «النحاس» (باشا) أفكاره عن تشكيل وزارته وعملها.

(لكن الملك «فاروق» قال بعد المقابلة «إنه لم يستوعب أى شيء مما قاله النحاس»، لأن فكره كان مشغولا بالمشهد الافتتاحي للقاء. وذكر «فاروق» ما معناه «إن فكره شرد لبعض اللحظات، وتمنى لو أن «روح» الوالد الملك «فؤاد» كانت موجودة فى المكتب لترى كيف نجح الابن فيما عجز عنه الأب طول سنوات جلوسه على العرش ـ فى «تأديب» زعيم الوفد «المشاكس» و«العنيد»)!



ولأيام بعد هذا المشهد الذى لا يُصدق كانت الدوائر السياسية والحزبية والدبلوماسية فى مصر مأخوذة بالصورة، كما تناقلتها الروايات والحكايات فى قصور العاصمة ومنتدياتها السياسية.

(وكان المشهد لسوء الحظ حقيقيا وليس ادعاءً من صحف دار أخبار اليوم لتشويه سمعة الوفد ورئيسه كما قيل فيما بعد)!

والسؤال الذى حير الجميع وقتها ـ بمن فيهم كثيرون فى القصر الملكى نفسه هو «لماذا تَصرَّف رئيس الوفد على هذا النحو؟!» ـ والحاصل أنه حتى هذه اللحظة لا يوجد تفسير كاف يتسع لحجم المعنى الرمزى «الهائل» لما وقع فى مكتب الملك «فاروق» ذلك اليوم.

وربما أن التفكير على مهلٍ يستطيع أن يكشف عن أسباب ظاهرة تماما، ويومئ إلى أسباب أخرى غير ظاهرة تماما، لكن المشهد ـ فى حد ذاته وفى وقته ـ كان يغطى على كل الأسباب: مرئية أو محسوسة أو حتى خفية تطال بالظنون، مهما كان ما تعتمد عليه هذه الظنون من استنتاجات.

....

....

[وفى هذه الواقعة فقد سمعت وسجلت روايات كل من: «حسين سرى» (باشا) ـ و«نجيب الهلالى» (باشا) ـ و«حسن يوسف» (باشا) ـ و«كريم ثابت» (باشا) ـ و«مكرم عبيد» (باشا) الذى استبعدت شهادته عند كتابة هذا الحديث، فقد وجدتها ـ رغم إعجابى بكثير من مزايا «مكرم» (باشا) ـ متحيزة بقسوة ومعبأة بشحنة من الكراهية العميقة والعنيفة لقرينة «النحاس» (باشا) ولفؤاد سراج الدين (باشا)، لدرجة أن «مكرم» (باشا) روى عن تفاصيل مشهد وصل إليه خَبَرُهُ ـ وقع بين «مصطفى» (باشا) وبين «زوزو» (كما كان يسمى زينب هانم) ـ وهو مشهد بدا لى وقت سماعه ومازال كذلك حتى الآن ـ مستحيلا على التصديق!]

....

....

على أنه باستقراء الوقائع ومضاهاة الروايات يمكن تصور خلفية عامة لذلك المشهد الذى وقع فى مكتب الملك «فاروق» يوم جاءه «النحاس» (باشا) يتلقى منه تكليف تشكيل الوزارة ـ ثم إذا بالنحاس (باشا) (بكل ما يمثله) يبدأ المقابلة بطلب يتمسك به وهو تقبيل يد الملك (بكل ما يرمز إليه).



والصورة التى يمكن اعتمادها لخلفية هذا المشهد ـ (وهو ليس مجرد مشهد ضعف إنسانى عابر، بل هو نقطة فصل فى السياسة المصرية، تجمعت فيها دواعى سقوط عصر بأكمله ما بين ثورة سنة ١٩١٩ وحتى ثورة سنة ١٩٥٢) ـ ترسم ملامح ظاهرة ومعقولة لما جرى:

● كان الوفد كحزب سياسى يملك الأغلبية الساحقة بين جماهير الشعب المصرى ـ يعتمد دائما على قيادة عُليا قوية، دورها أن تحرك وتلهم.

وفى بداية صعود الوفد، فقد كان على رأس الحزب رجلان: «سعد زغلول» (باشا) و«فتح الله بركات» (باشا): سعد يقود وبركات ينظم.

● وبعد رحيل «سعد» ظهرت فى الوفد قيادة أخرى: «مصطفى النحاس» (باشا) و«مكرم عبيد» (باشا): «النحاس» هو «الزعيم الجليل»، و«مكرم» هو «المجاهد الكبير» ـ مرة ثانية الأول يقود والثانى ينظم.

● وبعد خروج «مكرم عبيد» (باشا) وكان ذلك آخر وأخطر انشقاق فى الوفد ـ وقع على قيادة الوفد تغيير، فالأستاذ «صبرى أبو علم» الذى خلف «مكرم عبيد» على السكرتارية العامة للوفد كان محاميا من قلب الريف، وكان قديرا فى مهنته ـ لكن مشكلته كانت «شدة محليته» و«محدودية تجربته»، (فى حين أن «مكرم عبيد» جاء من جامعة أوكسفورد إلى قلب الشارع المصرى، ثم إنه حاز ثقافة عريضة أخذته من حفظ القرآن كاملا إلى استيعاب أفكار الجمعية «الفابية» بعمق، إلى جانب أنه كان خطيبا «ساحرا» لا يقرأ من خطب مكتوبة، مقبولة فى صياغتها وإلقائها ـ وإنما كلمات تتدفق لهبا وتتدحرج جمرا).

● يزيد على ذلك أنه فى فترة وزارة ٤ فبراير وما تلاها حتى إقالة وزارة الوفد (٨ أكتوبر ١٩٤٩) ـ كان الوفد فى السلطة، والإنجليز وراءه، والأحكام العُرفية مُعْلَنَة، وظلام الحرب يحجب كل شيء ـ وبالتالى لم يكن الحزب فى حاجة إلى عمل سياسى جماهيرى، أى أنه ـ فى الواقع ـ لم يكن فى حاجة إلى قوة تحرك أو إلهام يستثير!

● لكن الأمور اختلفت بعد الإقالة (١٩٤٤) وهى لم تختلف فى الداخل وحده، وإنما فى «الإقليم المحيط بمصر» ـ وكذلك فى العالم الخارجى بعد خمس سنوات من نهاية الحرب العالمية ـ وهنا تبدت أزمة الوفد: فالنحاس (باشا) من ناحية كان مُرهقا بعبء سنوات طويلة من الكفاح إلى جانب أثقال المرض التى نزلت عليه ـ ومن ناحية أخرى فإن القوة الحقيقية تلك الفترة فى الحزب كانت قيادة ثنائية مؤجلة ـ لأنها كانت شراكة بين قرينة رئيس الوفد «زينب هانم الوكيل»، وبين السكرتير العام الصاعد فى الوفد «فؤاد سراج الدين» (باشا).

وإلى حد ما فإن فؤاد سراج الدين كان على نمط «صبرى أبو علم» (باشا) هو الآخر أسير «محليته» و«محدودية تجربته»، (والفارق بين الرجلين أن «فؤاد سراج الدين» واثق من نفسه بحكم الطبقة التى جاء منها، ثم إنه أكثر نشاطا بحكم شبابه، وفوق ذلك فهو رجل يسهل على الذين يعرفونه أن يحبوه لمزاياه الشخصية، وفيه ذكاء فطرى لماح، وشهامة تجهد نفسها لإرضاء الجميع، وابتسامة حلوة غير متكلفة، حاضرة طول الوقت).

ومن الناحية الواقعية فإن هذه القيادة الثنائية فى قلب الحزب ـ لم تكن تستطيع أن تخرج إلى الناس كفريق عمل متكامل فيه من يقود وفيه من ينظم. والتقدير المنطقى لهذه القيادة الجديدة وقتها أنها كانت قوة تستطيع أن تؤدى دورها فى الصالونات، وفى الاجتماعات المغلقة، وتقدر على الاتصال والمناورة وتذليل العقبات وإجراء الاتصالات وعقد الصفقات ـ لكن تلك ليست روح الوفد، ولا هى حركته المؤثرة بين الجماهير المصرية.

● وعندما دب النشاط وسرى الدم فى العروق بمد جسور الاتصال تمهيدا لعودة الوفد إلى السلطة فى يناير سنة ١٩٥٠ ـ كان أول ما تَكَشَّفَ أن القوة الحقيقية داخل الوفد ممثلة فى التحالف بين قرينة رئيس الوفد والسكرتير العام للحزب ـ ليست كما كان العهد بها وكما كان متصورا!

كان التحالف بين الاثنين مازال قائما ـ لكنه لم يعد على تماسكه السابق، بمعنى أن ضرورات الواقع ظلت تضمه وتحافظ عليه، ولكن الطبائع الإنسانية على طول السنين واختلاف المقادير ومؤثرات المناخ ـ مضت تثير شكوكا بين الاثنين فيها المبرر وفيها المتوهم.

والمحصلة أنه حين تمت صفقة عودة الوفد إلى السلطة، وجرت الانتخابات، وفاز الوفد ـ كانت قرينة «النحاس» (باشا) فيما تقول به كل الشهادات الموثوق بها ـ «ترفض بشكل قاطع أن يجور أحد مهما كان على حق «رفعة الباشا» ومقامه».

كان إصرارها كما بدا لكل العارفين والمتابعين بمجرى الحوادث والمشاعر أيامها:

ـ أن أى كلام حول رئيس آخر غير «مصطفى» (باشا) مستحيل.

ـ أن «رفعة الباشا» لا يجب أن يترك اتصالاته وعلاقاته مع الملك لأى شخص آخر مهما كانت ثقته فيه.

ـ أن سنوات البُعْد عن السلطة (من ١٩٤٤ ـ ١٩٥٠) أضرت «بكل الناس»، ولابد أن يكون تفاهم «الباشا» هذه المرة مع «الملك» نهائيا وبدون رجعة، لأن الظروف وضعت سلطة تكليف رؤساء الوزارات وحل البرلمانات فى يد «فاروق» وحده، فلا إنجليز الآن فى القاهرة يفرضون بالدبابات، ولا «شارع سياسى» يتصدى لمعارضة إرادة الملك وهى معززة بسلطة أجهزة الدولة، وأما «بعد ذلك فإنه كفانا كلاما يضر ولا ينفع!».

● وكانت «زينب هانم» قد سمعت بالتفصيل عن رغبة ملكية فى أن يحل وفدى آخر ـ «فؤاد سراج الدين» ـ بالذات محل «رفعة الباشا»، وقد علمت أن «فؤاد» رفض العرض فور سماعه، لكن شكوكها لم تهدأ وخشيتها أنه فى «ظرف محتمل» ـ فإن «فؤاد» قد يقبل غدًا ما اعتذر عنه اليوم، خصوصا وهو راغب فيه «داخل قلبه».

وبالتأكيد فإنه مما يمكن تصوره أن هواجس «زينب هانم» كانت «عميقة وقوية» إلى حد يسمح لكلامها أن يؤثر على زوجها صراحة أو إيحاءً، والشاهد أن المنطق الذى تَبَنَّتْهُ «زينب» يمكن تَبَيُّنُهُ من خلال حوار على مائدة بيتها، حضره «نجيب الهلالى» (باشا) بعد مشهد التكليف وأثناء مشاورات تأليف الوزارة وتوزيع اختصاصها، فقد قالت قرينة رئيس الوفد للجميع ما مؤداه: «إن الباشا كان عليه أن يذهب مع الملك إلى أقصى حد «يطمئنه» و«يريح باله»، الرجل (تقصد الملك) يشعر بجرح فى كرامته بسبب إهانة ٤ فبراير ١٩٤٢، ولذلك فلابد من «حركة» غير عادية حتى يشعر الملك بصفاء نية «الباشا» ويطمئن ويستريح، الكلام وحده لم يكن كافيا وإنما لابد من «فعْل»!

وأكدت قرينة «النحاس» (باشا) تحليلها بقولها ما معناه «إن قوة الوفد الحقيقية حين يكون فى الحكم وليس حين يكون معزولا فى «البيت» بلا حول ولا طول، وهو فى الحكم يستطيع أن يخدم الناس، وهو فى بيته لا يستطيع أن يخدم حتى نفسه». ■

عندما دب النشاط وسرى الدم فى العروق بمد جسور الاتصال تمهيدا لعودة الوفد إلى السلطة فى يناير سنة ١٩٥٠ ـ كان أول ما تكشَّف أن القوة الحقيقية داخل الوفد ممثلة فى التحالف بين قرينة رئيس الوفد والسكرتير العام للحزب ـ ليست كما كان العهد بها وكما كان متصورا!



"٥"

حـــــروب أهـلـيـــــــــة داخـــــــل الوفـــــــد

■■ لم تكن «زينب هانم الوكيل» وحدها المتشككة، وإنما كان هناك آخرون غيرها ساورتهم شكوك فى أن «فؤاد سراج الدين» (باشا) - وقد كان هو ممثل الوفد المتحدث باسمه فى صفقة عودة الحزب إلى الحكم سواء مع السفارة البريطانية ممثلة بالوزير المفوض «تشابمان أندروز» أو مع القصر الملكى (ممثلا بالمستشار الصحفى للملك «كريم ثابت» (باشا) وبرعاية «أحمد عبود» باشا فى الحالتين) - سوف يكون هو المُمسك بكل المفاتيح يتصرف فى الأبواب كما يشاء، بمعنى أنه يقدر أن يتأخر مرة عن رئاسة الوزارة (رغم تحريض ملكى) ويقدم «النحاس» (باشا) على نفسه، أو يتقدم مرة ثانية (بدافع طموحه الإنسانى) ويُرضى ضميره ويشترى سكوت آخرين بأن يرفع «النحاس» (باشا) إلى أعلى تاركا له لقب زعيم الأمة مدى الحياة ببيعة شعبية وربما رئاسة مجلس الشيوخ باعتباره نبع الحكمة (وكان ذلك تقدير «حافظ عفيفى» (باشا) رئيس الديوان الملكى فيما بعد).

ومعنى ذلك أن الشكوك كانت تساور الجميع فى بيت زعيم الوفد - وفى الحزب الذى يقوده.

وفى المحصلة النهائية فقد كانت «زينب هانم» فى البيت تشك بغريزة سيدة بلغت سن النضج وقاربت الأربعين من عمرها - ثم إنه فى الحزب كانت شكوك لدى القُدامى من رجال الوفد توسوس لهم أن «فؤاد سراج الدين» يسعى للسيطرة على الحزب ويتطلع أكيدا إلى رئاسة الوزارة.

وعلى أى حال فقد كانت عملية تشكيل الوزارة واختيار أعضائها هى المناسبة التى عبرت فيها كافة الشكوك عن نفسها، والظاهر أن «مصطفى النحاس» (باشا) نفسه كان لحظتها فى «نوبة يقظة» عادت فيها إليه ملكات السياسى «الواعى» الذى كانه ذات يوم، وقد لاحظ كثيرون - حتى فى القصر الملكى - أن «النحاس» (باشا) يمسك الزمام فى عملية تشكيل الوزارة، ويُصغى إلى كثيرين ويبحث وجهات نظر متعددة، ويبذل جهدا كى يقرر ويختار، وبعض الاختيارات محصلة لحسابات معقدة لا يبوح بها لأحد.

- وقد اختار «فؤاد سراج الدين» (باشا) لوزارة الداخلية - وهو منطقى.

- لكنه اختار معه «محمد صلاح الدين» (باشا) لوزارة الخارجية - وهو يعلم بما بين الاثنين من تنافر فى الشخصية وفى الرؤى.

- وفى شأن وزارة الحربية - وهى وزارة يعرف «النحاس» (باشا) أنها تهم القصر - فإن رئيس الوفد لم يأت معه لهذه الوزارة هذه المرة بوزير عسكرى كما كان يفعل عادة باختيار اللواء «حمدى سيف النصر»، وإنما اختار مهندسا مدنيا هو «مصطفى نصرت»، والإيحاء أن ذلك المهندس المدنى يستطيع التعاون دون تعقيدات (عسكرى ضد عسكرى) مع الفريق «محمد حيدر» (باشا) رجل القصر القوى الذى تعهد رئيس الوفد مقدما للملك، أنه سوف يقدم مرسوم تعيينه قائدا عاما للقوات المسلحة.

- وكانت المفاجأة الأهم فى التشكيل الوزارى أن «النحاس» (باشا) اختلى طويلا بأحمد نجيب الهلالى (باشا)، وظن بعضهم أن «رفعة الباشا» يعرض عليه مقعدا وزاريا، لكن هؤلاء اكتشفوا أن «نجيب الهلالى» اعتذر عن أى منصب، قائلا للنحاس (باشا) «إن دخوله الوزارة الآن قد يسبب مشكلة لأن الملك حتى هذه اللحظة لم يغفر له (للهلالى) - أنه الذى قاد حملة الرد على الكتاب الأسود (عريضة مكرم عبيد) فى مجلس النواب (١٩٤٣)، وأنه فى معرض رده هاجم رئيس الديوان الملكى «أحمد حسنين» واتهمه باستغلال نفوذه. وكانت اللهجة التى استعملها «الهلالى» فى ذلك الوقت تتجاوز «حسنين» (باشا) إلى «فوق».

وفى الظروف المستجدة كان رأى «نجيب الهلالى» أن الأسلم بقاؤه بعيدا عن المناصب الوزارية ورضى «النحاس» (باشا)، على أن «الهلالى» فى نفس اللحظة استطاع إقناع «النحاس» (باشا) بأن الوقت قد حان لتغيير الأسماء التقليدية المتكررة فى تشكيل وزارات الوفد بحيث يحس الناس، وترى أجيال جديدة أن الوفد قابل للتطور. وفى تلك الخلوة الطويلة فإن «الهلالى» (باشا) قدم لزعيم الوفد قائمة برجال وصفهم «بأنهم وجوه شابة - متعلمة - مجربة - تملك لو واتتها الفرصة أن تحصل على احترام الناس، بما يعيد للوفد صورته الأولى كـ: «مصنع قيادات».

وكانت القائمة تشمل أسماء لافتة للنظر، معظمهم أساتذة جامعات، ومع أن بعضهم كان دون «مــاضٍ» وفــدى يدعم ويؤيد - فــإن «النحاس» (باشا) وافق أن يعطيهم الفرصة.

وكان أبرز هؤلاء: الدكتور «حامد زكى» (وزيرا للدولة فى رئاسة الوزارة بجانب «رفعة الباشا») - والدكتور «زكى عبد المتعال» (وزيرا للمالية بناءً على خدمة طويلة فى البنك الأهلى) - والدكتور «أحمد حسين» (وزيرا للشئون الاجتماعية وكان من قبل وكيلا لهذه الوزارة).



زينب الوكيل - فؤاد سراج الدين - محمد صلاح الدين - أحمد نجيب الهلالى

طـه حسـين - كريم ثابت - عبود باشا

كانت الجائزة الكبرى التى عرضها «نجيب الهلالى» على «النحاس» (باشا) فى آخر الخلوة ترشيح الدكتور «طه حسين» وزيرا للمعارف، وقد تردد «النحاس» (باشا) لوهلة، مبديا تحسبه من أن «طه يمكن أن يشطح» - لكن زعيم الوفد لم يلبث أن غير موقفه على أساس أن «طه حسين» سوف يعطى للوزارة «رونقا» يعجب «المتعلمين فى البلد»

وكانت الجائزة الكبرى التى عرضها «نجيب الهلالى» على «النحاس» (باشا) فى آخر الخلوة ترشيح الدكتور «طه حسين» وزيرا للمعارف، وقد تردد «النحاس» (باشا) لوهلة، مبديا تحسبه من أن «طه يمكن أن يشطح» - لكن زعيم الوفد لم يلبث أن غير موقفه على أساس أن «طه حسين» سوف يعطى للوزارة «رونقا» يعجب «المتعلمين فى البلد».

وكان تعليق «فؤاد سراج الدين» عندما عرف بما وقع فى خلوة «النحاس» (باشا) مع «الهلالى» (باشا) قوله: «أصبح فى الوفد الآن حزب من الدكاترة» - وشاع وصف «حزب الدكاترة» بعد ذلك فى القاموس الوفدى. ومع أن «فؤاد سراج الدين» أحس بذكائه أنها محاولة لتطويقه - أو على الأقل لتحجيم دوره - فى الوزارة بما يشبه انقلابا دبره «الهلالى» فإنه لم يُبْدِ تبرما، واثقا - ربما - من قدرته على كسر الطوق، ومُراهنا على أن «الدكاترة» لا يعرفون ما فيه الكفاية عن ممارسة الحكم فى مصر، وكل ما لديهم مجرد «أحلام» و«نظريات» سوف تنتهى عاجزة أمام الواقع!

ويستحق الملاحظة هنا أن «فؤاد سراج الدين» (باشا) بدأ ينتهج سياسة خاصة به لمواجهة محاولات تطويقه، فعندما وجد أن الحزب ينقسم إلى مجموعات وكتل تتصادم مع بعضها أو تلغى إحداها تأثير الأخرى - رأى أن يلتفت إلى خارج الحزب باحثا لنفسه عن «قاعدة قوة» يستطيع الاستناد عليها أو على الأقل استغلال دورها أو نفوذها. وكان اختياره منطقيا ومتسقا مع طبيعته الشخصية ومع طبيعة الأحوال فى نفس الوقت - وهكذا التفت «فؤاد سراج الدين» (باشا) إلى البوليس، وخطته أن يكسب الشعور العام فى صفوف ضباطه أولا - ثم يعزز مركزه بحركة ترقيات وتعيينات واسعة تؤكد نفاذه عميقا داخل مؤسسة الأمن، وكان المنطق وراء هذه السياسة واضحا:

- فهو نفسه وزير الداخلية المكلف بالبوليس وعن مؤسسته المسئولة عن الأمن.

- وهو يعرف أن البوليس على علاقة سيئة من أيام الإضراب مع أحزاب الأقلية إلى درجة أن ضباطه اتهموا بالانحياز للوفد وإنجاحه اكتساحا فى انتخابات سنة ١٩٥٠ (رغم تعليمات القصر)، وإذن فهناك «ثأر قائم - ونائم». ومثل هذا النوع من العلاقات والمناورات مجال يحفظه ويتقنه أى «عمدة» مجرب فى الريف.

- يُضاف إلى ذلك أنه إزاء إحساس عام بوجود أزمة فى «الأمن» بعد كل ما جرى فى السنوات الخمس ما بين انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥) ومجىء وزارة الوفد الأخيرة (١٩٥٠) - فإن المجال مفتوح لوزير الداخلية لكى يحصل دون معارضة تُذْكَر على كل الاعتمادات اللازمة لـ «تحسين أحوال البوليس»، وهنا يتجلى نفوذه.

- وكذلك أنشأ «فؤاد سراج الدين» إدارة خاصة فى مكتبه من «نظاميين ومدنيين» مهمتهم القيام بحملة علاقات عامة بين مكتب الوزير وبين مؤسسة البوليس.

وقد لمحت ثلاث من السفارات الأجنبية فى القاهرة محاولة

«سراج الدين» بناء نوع من الولاء الشخصى له فى البوليس، وهى سفارات بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا - وسجلتها فى تقاريرها إلى عواصم بلادها، مشيرة إليها كظاهرة، بل إن سفير فرنسا كتب «إن وزير الداخلية وهو يعرف أن الملك هو القائد الأعلى للجيش - يريد أن يجعل نفسه «القوميسير» الأكبر للبوليس!».

ويقول السفير البريطانى السير «رالف ستيفنسون» فى تقرير علق به على نفس الظاهرة «إنه ليس واضحا لماذا يبنى «فؤاد سراج الدين» لنفسه هذه الشعبية الشخصية وسط البوليس، فهذا نفوذ يصعب تصور أن صاحبه يستطيع استعماله لحسابه الخاص إزاء أى تحد حزبى أو سياسى يواجهه، والغالب أنه منطق «ادخار» (تحويش) أدوات السلطة، بصرف النظر عما يمكن أن تستعمل فيه هذه الأدوات، وربما أنه تعبير عن «قلق» ذاتى لا يفصح عن نفسه!».



وخلال الأسابيع والشهور التالية لتشكيل الوزارة الوفدية الجديدة، فإن نفس تقارير السفارات البريطانية والأمريكية والفرنسية راحت تحفل بملاحظات ترسم صورة بدت متناقضة كلها مع الدافع الرئيسى الذى استوجب التقارب بين القصر والوفد - وهو بالتحديد مواجهة حالة نذير يوشك أن يتحقق نتيجة سوء الأحوال فى البلاد بعد سنوات طويلة من التخبط والفوضى، مع اتفاق بين الجميع على أن مصدر الخطر - هو التقاء جيش مجروح عائد من فلسطين، بشعب موجوع تكاثرت عليه الهموم الاقتصادية والاجتماعية - إلى جانب حالة توتر أمنى، خصوصا بعد سنوات دوت خلالها انفجارات القنابل فى الشوارع، ولعلع رصاص أودى بحياة رجال بارزين وساسة لهم شأن، واغتيال زعماء وراءهم جماهير. والشاهد أنه تبدى لكل المراقبين - وأولهم سفارات القوى الكبرى - أن الذين تمنوا أن يروا تعاونا بين القوتين الأكبر فى الداخل: القصر والوفد - لإيقاف حالة من التردى العامة أصابت الشأن المصرى وأضرت به - ما لبثوا أن اكتشفوا أن المحصلة النهائية لكل ما تمنوه وسعوا له أصبح اتفاقا بين الوفد والقصر يقسم السلطة بينهما، وفى الجوهر فإنه لم يكن اقتساما للسلطة وإنما كان توافقا على ألا يتعرض أحد الطرفين للآخر، وبدا لكل المراقبين على الأرض أن كلا من الطرفين انشغل بأحواله وتلهى بها!

وفى واحد من آخر التقارير التى كتبها السير «رونالد كامبل» قبل أن يترك السفارة البريطانية فى القاهرة إلى وزير الخارجية (أرنست بيفن - الزعيم العمالى المرموق)، قال السير «رونالد كامبل» (رقم ٥٠/٣٣/١٠١١):

ملاحظاتى على الموقف:

١ - قابلت «حسين سرى» (باشا) رئيس الديوان الملكى المُعَيَّن أمس ٢٥ فبراير، وكان حديثه متشائما عن قدرة الحكومة الوفدية الجديدة على إنجاز شىء.

٢ - صحة «النحاس» (باشا) ساءت جدا، وإرهاقه أصبح باديا للعيان بعد ومضة نشاط ظهرت منه أثناء مشاورات تشكيل الوزارة.

٣ - فى الوزارة الجديدة ثلاث كتل متصارعة على النفوذ. الأولى: مجموعة تلتف حول «فؤاد سراج الدين» وأظهر من فيها «إبراهيم فرج» (وزير الشئون البلدية والقروية). والثانية: مجموعة محسوبة على «نجيب الهلالى» (باشا) وفيها الدكتور «طه حسين» والدكتور «زكى عبد المتعال» والدكتور «حامد زكى» والدكتور «أحمد حسين». والثالثة: مجموعة من الوفديين القُدامى يعتبرون أنفسهم على صلة برئيس الوفد له وحده ولاؤهم - ويُلاحظ أن وزير الخارجية «محمد صلاح الدين» يقف «مجموعة» وحده ويفضل أن يمارس الشئون الخارجية بمفرده بتفويض من «النحاس» (باشا) مباشرة.

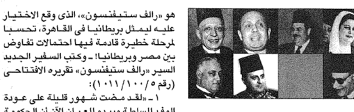
٤ - يبدو واضحا أن «فؤاد سراج الدين» مازال الرجل الأقوى فى الحزب، وهو يتصرف باعتباره خليفة «النحاس» (باشا)، لكنه فى هذه الأيام يمشى متواريا بطىء الخطى حتى ينفى الأقاويل التى تتهمه بأنه متعجل لإقصاء «النحاس» (باشا) عن رئاسة الوزارة لكى يجلس مكانه.

٥ - والملحوظ أن «فؤاد سراج الدين» (باشا) يصرف جهدا كبيرا فى تنمية علاقاته مع القصر الملكى عن طريق «كريم ثابت» الذى يأمل فى مساعدته بسخاء أكثر حين يصل لرئاسة الوزارة.

٦ - هناك شعور بأن مجموعة الوزراء المحسوبين على «نجيب الهلالى» (باشا) ينتظرون فشل التركيبة الحالية للوزارة، ويلعبون مع «نجيب الهلالى» لعبة صبر وانتظار حتى يكون هو خلف «النحاس» (باشا) المفضل حين تجىء اللحظة المناسبة. ومع أن مجموعة «الهلالى» متماسكة - إلا أن خلافا بدأ يظهر بين الدكتور «زكى عبد المتعال» وزير المالية والدكتور «طه حسين» وزير المعارف الذى يُلِحّ فى طلب اعتمادات أكثر لمشروعات تعليمية أثيرة عليه.

٧ - ومن المحسوس به أن الملك «فاروق» غير راض عن مجموعة «الهلالى» لأن خطابهم مازال موجها إلى عناصر الوفد التقليدية المعادية للقصر فى صفوف الوفد، وقد لفت النظر أن الدكتور «حامد زكى» رفض عامدا أن يُقَبِّل يد الملك كما فعل غيره. وقد علمت أن الملك قال للدكتور «طه حسين» مباشرة «قيل لى أنك شيوعى يا باشا»، وارتبك الدكتور «طه حسين» من المفاجأة.

٨ - الصراعات بين المجموعات المختلفة فى الوزارة ظهرت على السطح، فقد تناقضت



تصريحات الوزراء مع بعضها وخرجت جريدة يملكها شقيق لفؤاد سراج الدين تهاجم الدكتور «حامد زكى». وذهب الدكتور «محمد صلاح الدين» إلى «النحاس» (باشا) يطلب تدخله لتحديد اختصاصات كل وزير، لأنه يخشى أن بعض الوزراء تستهويهم القضية الوطنية فيصدرون بشأنها تصريحات لا ضرورة لها، بينما هو - بوصفه وزيرا للخارجية - يستعد لفتح باب المفاوضات معنا (مع الإنجليز).

٩ - وقد تأكد لى فعلا أن هناك تضاربا فى التصريحات بين الدكتور «حامد زكى» و«محمد صلاح الدين» و«فؤاد سراج الدين»، وخشيتى أن الوزارة الجديدة قد تعجز عن توفير الخبز للناس ثم يعوضون ذلك بتوفير الشعارات الحماسية.

١٠ - سألت «عبود» (باشا) عن الأوضاع، وأكد لى أن «فؤاد سراج الدين» مازال «الرجل الكبير» فى الوفد، وهو على وجه التأكيد خليفة «النحاس» على رئاسة الوزارة، وأبدى «عبود» تخوفه من تيار بين قُدامى الوفديين والجُدد - يحذر من التكالب على إرضاء القصر وكسب رضا الملك بأى ثمن!

وأبدى لى «عبود» أنه مع أن «النحاس» (باشا) يركب «حصان الدكاترة» إلا أن هؤلاء الدكاترة لن يحصلوا على الاعتمادات اللازمة لتحقيق مشروعاتهم وسوف ينكشف أمرهم أمام الجميع.

وعبر لى «عبود» (باشا) كذلك عن نقد صريح لفؤاد سراج الدين بسبب عدم قدرته على التعامل مع «مجموعة الدكاترة»، رغم أن فى استطاعته «مداراتهم حتى ينكشف أمرهم وتضيع هيبتهم، وعلى أى حال فهو يأمل أن يستطيع «فؤاد» بسرعة أن يتدارك ما فاته».



ومضت أسابيع وذهب سفير بريطانى هو السير «رونالد كامبل» وجاء سفير بريطانى آخر هو «رالف ستيفنسون»، الذى وقع الاختيار عليه ليمثل بريطانيا فى القاهرة، تحسبا لمرحلة خطيرة قادمة فيها احتمالات تفاوض بين مصر وبريطانيا! - وكتب السفير الجديد السير «رالف ستيفنسون» تقريره الافتتاحى (رقم ٥/١٠٠/١٠١١):

١ - «لقد مضت شهور قليلة على عودة الوفد للسلطة ويبدو للعيان الآن أن الحكومة الجديدة خيبت مبكرا توقعات الرأى العام إزاءها، بمن فيهم أنصار الوفد وأصدقاؤه. ومن الواضح أنها فشلت فى استيعاب دروس الماضى ولم تستطع الارتفاع إلى مستوى التوقعات المنتظرة منها.

وما يدعو أى مراقب إلى مثل ذلك الاستنتاج أن الحكومة الجديدة لم تستطع بعد أسابيع من تشكيلها أن تخلق فريق عمل ينسجم مع بعضه، يتحرك متعاونا لتحقيق برنامج مُتفق عليه.

٢ - ويجمع أكثر المهتمين بالشأن المصرى استقلالا وموضوعية، أنه قد تأكد الآن أن هدف الوفد الوحيد من الصفقة مع القصر كان الوصول إلى السلطة، والاحتفاظ بها، ولابد أن أقول أننى لا أجد تفسيرا آخر يقنعنى بما رأيته من هذا الخضوع الذى لالزوم له من جانب «النحاس» (باشا) أمام الملك «فاروق». ومع أن «النحاس» (باشا) يرصع قصائد مديحه فى الملك بإشارات إلى الدستور - الذى كان الوفد دائما يستند عليه فى مقاومة تجاوزات العرش - فإن الإيحاء العام للمديح الزائد ثقيل على الأعصاب، ولو أن أحد المقربين من «النحاس» (باشا) ذكر لأحد أعضاء سفارتنا أن «النحاس» لم يتغير، لكنه يريد إذا وقع الصدام بينه وبين الملك أن يكون ذلك على أرضية يختارها هو ولا تُفرض عليه.

٣ - أن التجمع الأكثر تأثيرا فى السياسة المصرية الداخلية الآن هو ذلك التحالف الثلاثى الذى يجمع «فؤاد سراج الدين» (باشا) وزير الداخلية مع «كريم ثابت» (باشا) الرجل الأقوى فى حاشية الملك الآن، مع «أحمد عبود» (باشا) وهذا هو الثلاثى الذى رتب عودة الوفد إلى السلطة، وهو الذى مازال يمسك بدفة توجيه الشأن المصرى.

٤ - ومن الواضح أن «فؤاد سراج الدين» (باشا) يحاول أن يقوى علاقاته بالقصر، والانطباع العام أنه يأمل فى رئاسة الوزارة، لكنه لا يبدو أنه سوف ينجح فى مسعاه، فهو لا يملك مؤهلات رجل دولة، وما لديه هو أساليب عمدة قرية (كتبها السير رالف ستيفنسون - كذلك - من الإنجليزية والعربية بحروف لاتينية Village Omda)، ثم إن ممارسته للسياسة فى العاصمة أقرب ما تكون إلى ممارسات السماسرة المحليين فى السياسة الأمريكية تعتمد على الإغراء أو على التهديد.

وقد أكد لى «جلاد» (باشا) (صاحب جريدة الجورنال ديجبت ومن المقربين من القصر) وشقيقه هو «فيليب جلاد» (باشا) مدير الإدارة الأفرنجية فى قصر عابدين) - «أن الملك مستريح إلى «النحاس» (باشا)، وأن رئيس الوفد لن يترك رئاسة الوزارة لغيره مادام بقى لديه نفس يتردد».

وحسب ما توقعت وزارة الخارجية البريطانية - وهو منطقى - فإن موضوع البدء فى مفاوضات مصرية - بريطانية كان يطرح نفسه بالضرورة على جدول أعمال الوزارة الجديدة، وكان ذلك ما استعدت له الخارجية



السفير البريطانى «رالف ستيفنسون» فى تقرير إلى الخارجية البريطانية: «مضت شهور قليلة على عودة الوفد للسلطة ويبدو للعيان الآن أن الحكومة الجديدة خيبت مبكرا توقعات الرأى العام إزاءها، بمن فيهم أنصار الوفد وأصدقاؤه. ومن الواضح أنها فشلت فى استيعاب دروس الماضى ولم تستطع الارتفاع إلى مستوى التوقعات المنتظرة منها»

البريطانية عندما اختارت لسفارتها في مصر رجلا بوزن السير «رالف ستيفنسون».

وفي تقريره التالي من القاهرة كتب «رالف ستيفنسون»:

«في أول لقاء لي مع «النحاس» (باشا) أثرت معه موضوع العلاقات بين بلدينا، وقد أشار على بأن أتحدث في الموضوع بصفة مبدئية مع وزير الخارجية «محمد صلاح الدين»، وبالفعل بدأت سلسلة اجتماعات مع «صلاح الدين» لم يظهر لي فيها شيء جديد».

وفي تقرير آخر قال السير «ستيفنسون»:

«إن «عبود» (باشا) أسر إلي بأن «فؤاد سراج الدين» يرغب في زيارة للعاصمة البريطانية يقدم بها نفسه إلى لندن حتى يتعرفوا عليه ويفهموه».

وعلى نحو ما فإن الاقتراح بسفر «فؤاد سراج الدين» تسرب إلى الدكتور «محمد صلاح الدين» وزير الخارجية، وكان أن ذهب الدكتور «محمد صلاح الدين» لمقابلة «النحاس» (باشا) في غرفة نومه يشكو إليه «أن سفر وزير الداخلية في هذه الأوقات إلى لندن قد يؤدي إلى «تشابك في الخطوط» لا لزوم له»، وكان أن اتصل «النحاس» (باشا) في حضور الدكتور «محمد صلاح الدين» بالسكرتير العام للوفد ووزير الداخلية «فؤاد سراج الدين» يؤنبه على مشروع زيارة لندن، ويكرر أكثر من مرة «دا موش كلام يا فؤاد»، وحاول «فؤاد سراج الدين» أن يشرح للنحاس (باشا) أن اقتراح الزيارة جاء لسبب طبي وعائلي، ولكن «النحاس» (باشا) قطع الحديث قائلا «موش وقته» (وكانت تلك رواية الدكتور «محمد صلاح الدين» بنفسه لنجيب الهلالي (باشا)).

ومع أن هذه كانت حكاية غريبة، فقد لحقها ما هو أغرب منها، ذلك أن «زينب هانم الوكيل» وبسبب حقيقة وجود «مصطفى» (باشا) معظم الوقت في البيت ملازما لغرفة نومه (وهو ما كان يعطيها فرصة كاملة لمتابعة ما يجري في الوزارة) ـ سمعت بما وقع من إشكال بين وزيري الداخلية والخارجية، وكان تعليقها: «إن موضوع العلاقات مع الإنجليز هو المشكلة التي يمكن أن «يلعب فيها من يريد اللعب»، وأضافت «ما صدقنا أن رسينا على بر مع الملك والآن يريدون «تبويظ» العلاقة مع الإنجليز». (رواية زينب هانم الوكيل لناهد هانم سري قرينة حسين سري باشا).



وتلا ذلك أنه بعد أسبوعين ظهرت في الوثائق البريطانية إشارة من الخارجية في لندن إلى سفارتها في القاهرة تسألها: «من هو توفيق مفرج؟».

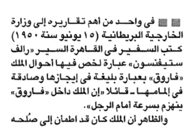
ثم تمضي الإشارة فتقول «إن ذلك الرجل ظهر في لندن يطلب مقابلة مع وزير الخارجية أو مع مسئول كبير في الوزارة لا يقل عن مستوى الوكيل الدائم، وهو يقدم نفسه باعتباره مبعوثا من «النحاس» (باشا)، وأنه جاء لمهمة سرية دقيقة».

وراحت السفارة البريطانية تتحرى، واتضح أن «توفيق مفرج» رجل أعمال من أصل لبناني، تربطه علاقات عمل وثيقة مع السيد «أحمد الوكيل» شقيق قرينة «النحاس» (باشا)، كما أن زوجته (السيدة لمياء مفرج) صديقة مقربة من «زينب هانم»، ويظهر أن قرينة رئيس الوفد رأت «إنه إذا كان من الضروري لأحد أن يتكلم أو يسمع من لندن فالأفضل أن يكون ذلك من بيت «النحاس» (باشا) مباشرة».

وكتبت السفارة البريطانية في القاهرة إلى لندن تنصح بعدم استقبال «توفيق مفرج» في وزارة الخارجية من ناحية المبدأ، وكتب السير «رالف ستيفنسون» يقول «إنه لا يصح لحكومة صاحب الجلالة أن تدخل طرفا في هذا النوع من المناورات!» ■

«٦»

كل شيء مباح في القاهرة



■■ في واحد من أهم تقاريره إلى وزارة الخارجية البريطانية (١٥ يونيو سنة ١٩٥٠) كتب السفير في القاهرة السير «رالف ستيفنسون» عبارة لخص فيها أحوال الملك «فاروق» بعبارة بليغة في إيجازها وصادقة في إلمامها ـ قائلا «إن الملك داخل «فاروق» ينهزم بسرعة أمام الرجل».

والظاهر أن الملك كان قد اطمأن إلى صُلحه مع الوفد، وإلى أنه ـ حسب تعبيره ـ (لكريم ثابت) «كسر عين النحاس» حين أعطاه يده يقبلها، ونسي ـ أو تناسى ـ السبب الرئيسي الذي حدا به إلى فتح طريق عودة الوفد للسلطة، معتبرا أنه ألقى بالمسئولية على غيره ـ وإذن فإن من حقه أن يتفرغ بالكامل لما يحب ويهوى!

رالف ستيفنسون — نازلي — فتحية — رياض غالي — فايزة

● وكانت أولى قائمة شواغل الملك «أن مصاريفه تزيد» ـ بينما كثيرون من أغنياء الحرب الجدد الذين عملوا في المقاولات والتوريدات للمجهود العسكري، وتجارة السوق السوداء والتهريب ـ راكموا ثروات خرافية. وقد عرف بأمر بعض هؤلاء عندما تقدموا للقصر يسألون إذا كان في استطاعتهم أن يحصلوا على ألقاب البكوية والباشوية، حتى يجمعوا «الشرف» إلى جانب الثراء (يغطي ويستر!) ـ وكان هؤلاء الأغنياء الجُدد على استعداد لأن يدفعوا الثمن وفق أي توجيه ملكي.

● وتوافق ذلك مع جهد حثيث للخاصة الملكية نشط إلى ضم مساحات هائلة من أراضي الأوقاف الأهلية إلى الأوقاف الملكية، وفي صيف سنة ١٩٥٠، وطبقا لتقارير السفارة البريطانية ـ مدت «الخاصة الملكية» يدها إلى ثلاثة وستين ألف فدان موزعة بين الدلتا والصعيد.

● ثم جرت إضافة أخرى إلى أعمال الملك حين ظهر إلى جواره «مستشار مالي» هو «إلياس أندراوس» الذي ما لبث أن منح رتبة الباشوية، واختصاصه الحقيقي توفير أكبر قدر من السيولة النقدية للملك حتى بالمضاربة في بورصة القطن لحساب «الخاصة الملكية».

ومن المفارقات أنه في نفس الوقت الذي راح فيه «أندراوس» (باشا) يُضارب في بورصة القطن لحساب الخاصة الملكية ـ كان هناك سمسار آخر في بورصة القطن هو «روبير خوري» يُضارب لحساب «فؤاد سراج الدين» (باشا) (بوصفه مالكا كبيرا لأراض تنتج قطنا)، وكذلك كان «خوري» يُضارب لحساب الأستاذ «محمود أبو الفتح» وهو صاحب جريدة المصري، (وكان كبار تجار القطن أندرياس سرباكيس ـ ومحمد أحمد فرغلي (باشا) ـ وعلي أمين يحيى (باشا) يساعدون هنا مرة وهناك مرة أخرى!).

● ثم دخل الملك بنفسه إلى أعمال من نوع لا يخطر على البال، فقد كان من الأصل هاويا للاقتناء، وكانت لديه مجموعة نادرة من طوابع البريد، وأشار عليه بعض الإيطاليين في القصر (وبينهم أنطونيو بوللي (بك) مدير الشئون الخاصة) بأن هواة المقتنيات النادرة في العالم أكثر الناس استعدادا «للدفع». وهنا تعرض الملك لما لم يكن ينبغي أن يتعرض له، وفيه أن تاجر طوابع بريد نادرة (يهودي من تشيكوسلوفاكيا هاجر إلى لندن «جوزيف سمبيفسكي») ورفع على (الملك فاروق) قضية باسمه ولقبه الملكي، وأبلغ البوليس في لندن أن «فاروق» سرق منه طابعا نادرا قيمته خمسة آلاف جنيه إسترليني، وادعى أنه أرسل الطابع إلى الملك داخل رسالة خاصة، لكن سكرتير الملك أبلغه أنه عندما فتح «جلالته» المظروف بنفسه اهتماما بالطابع وتشوقا إلى إلقاء نظرة عليه، اكتشف أن المظروف كان خاليا. ومع أن التحقيق أثبت سوء نية المرسل في تقدير ثمن الطابع عندما استشير بعض الخبراء بواسطة السفارة المصرية في لندن ـ إلا أن الملك كان قد وضع سمعته في ساحة المحاكم الجنائية.

● وكان الأشد سوءًا أن الملك تصور أنه يقدر ـ بنفسه! ـ على زيادة ثروته بالقمار، وقد وجد كثيرين أمامه يخسرون عمدا ليحتفظوا بصحبته، ومع ذلك فإن البعض آثر الانسحاب عن مائدة الملك (في نادي السيارات المصري وغيره من أندية اللعب في

تلك الأيام) بعد أن تجاوزت خسائرهم ما كانوا مستعدين لدفعه مقابل صحبة الملك.



كان الشاغل الثاني لفاروق هو أحوال أمه الملكة «نازلي» التي ذهبت إلى الولايات المتحدة ولم تعد. وكان أكثر ما ضايق الملك، هو نوع الحياة الذي اختارته الملكة الأم لنفسها. فقد اختارت أن تسكن في لوس أنجلوس وعلى مقربة من هوليوود (عاصمة السينما)، وتعرفت على كثيرين من نجومها، وأصبحوا زوارا لبيتها يحضرون حفلاتها إذا وجهت لأحد منهم أو منهن دعوة، لأن الكل يريد أن يكون في «أجواء صاحبة الجلالة».

....

....

[واختارت الملكة لإقامتها في البداية بيتا في شارع قريب من هوليوود اسمه «تاور رود»، وقد زرتها في هذا البيت، ولابد أن أقول أنني حين عبرت الحديقة مارا بحافة حمام السباحة مع «رياض غالي» (الذي كان في الأصل سكرتيرا لها منتدبا لخدمتها من قنصلية مصر في سان فرانسسكو) ـ كان رجاؤه وقد وصلنا إلى باب البيت ـ أن أنتظر في الصالون قليلا لأن «جلالتها تؤدى صلاة الظهر حاضرا!.]

....

....

كان الملك يعرف أن والدته صادقت رجل بترول أمريكي اسمه «ريتشارد باولي»، وأن «باولي» أقنعها أن تبيع مجوهراتها وتستثمر أموالها في حقل بترول كبير في منطقة «جيتسبرج»، وبالفعل باعت الملكة مجوهرات بما قيمته «ثلاثة ملايين دولار» (وبقيمة النقود وقتها فإن ذلك كان مبلغا مهولا) ـ ثم إن «باولي» دفع للملكة مبالغ مما قال لها أنه أرباح «الحقل»، ثم «نفد الحقل» قبل الأوان، وكذلك زادت طلبات «نازلي» من مصر وراحت تتهم «الخاصة الملكية» بأنها تسرق إيراد أرضها وتستولي على دخلها من غير الأرض، ولا تبعث لها بشيء مما يتوافر لها من إيرادها، ثم راحت تتهم ابنها مباشرة بأنه يحاول «أكل حقها»، وهددته برفع قضايا مطالبة بمستحقاتها.

وزاد الطين بلة أن اثنتين من بناتها كانتا معها في أمريكا ـ وهما الأميرتان «فائقة» و«فتحية» ـ وقعت كل منهما في غرام لم يكن «فاروق» راضيا عنه: الأميرة «فائقة» مع دبلوماسي مصري هو «فؤاد صادق» وقد تقدم بالفعل يطلب يدها من الملكة «نازلي»، والأميرة «فتحية» مع موظف السلك القنصلي «رياض غالي» الذي اعتنق الإسلام وتقدم لخطبتها هو الآخر من الملكة «نازلي».

وكان الملك «فاروق» قد تلقى تقارير من بعض أصدقائه في الولايات المتحدة أن «رياض غالي» كان على علاقة مع الملكة «نازلي» نفسها، وأن تلك العلاقة هي التي مهدت له الاختلاط بـ«فتحية»!

وفقد الملك أعصابه وتقدم إلى مجلس البلاط يطلب الحجر على أمه ويدعو شقيقاته إلى المثول أمام المجلس، وأطاعت الأميرة «فائقة» وجاءت إلى مصر مع «فؤاد صادق» تضع نفسها ـ ومعها زوجها ـ تحت أمر الملك ومجلس البلاط.

....

....

[وقائع ووثائق قضية الحَجْرْ في جزء مستقل من هذا الحديث.]

«٧»

حكاية زواج ملكي!



ناهد رشاد — ناريمان

كان الشاغل الثالث للملك هو تحقيق أمنية عمره بأن يكون له من صلبه ولي للعهد، وكان ضمن أسباب طلاقه من زوجته الأولى ـ فريدة ـ أنها إلى جانب كل ما أخذه عليها، أنجبت له بنات ولم تلد له ولدا ذكرا يرث العرش بعده (وكان يقول «أنه كلما رأى ولي عهده الرسمي الأمير «محمد علي» وهو في السبعين من عمره: يُصاب بالغم»).

وكانت للملك «فاروق» مواصفات «معينة» للزوجة الثانية حددها (طبقا لرواية السيدة ناهد رشاد):

ـ فهو يريد «بنتا خام» «يربيها» بـ«معرفته».

ـ وهو لا يريدها «نكدية» تتدخل في حياته الخاصة حين لا يعجبها شيء!

ـ وهو يريدها من أسرة «ولاَّدة» للذكور حتى لا تتكرر «حكاية البنات».

ـ وهو يريدها جميلة فقط ـ وليست شديدة الجمال، ومن أسرة معقولة وليست بالضرورة من أسرة أرستقراطية، وهادئة الطبع تعرف كيف «تسمع الكلام»، و«ست بيت» تعرف كيف «تحاسب على المصاريف» ولا تطلب كل يوم «مائة فستان» كما تفعل بعض أميرات أسرته!

وكانت مواصفات الملك شائعة في أوساط حاشيته، وعندما تصور جواهرجي الملك ـ «أحمد نجيب» (باشا) أنه عثر على فتاة تتوافر فيها هذه المواصفات ـ اتصل بمكتب الخدمة الخاصة للملك للإبلاغ بأنه «وجد طلب مولانا».

وكانت المشكلة أن الفتاة التي اكتشفها «أحمد نجيب» مخطوبة، وقد ذهبت إلى محله (في شارع ثروت وسط القاهرة) ـ تختار «شبكة زواجها» مع شاب من خيرة شباب مصر، كان يعمل وقتها في مجلس الدولة، والمدهش أن الملك طلب من الجواهرجي الملكي أن يعمل على استدراج الفتاة وأمها إلى دُكانه مرة أخرى، بحجة أنه يريد أن يعرض عليها «غدا» شيئا أفضل يلقى الإعجاب أكثر من خاتم وقع اختيارها عليه. وعندما جاءت الفتاة وأمها وخطيبها(!) كان الملك واقفا من وراء ستارة يريد أن «يُعاين بنفسه»، وقد وافقه ما رأى، وكان تعليقه لأحمد نجيب (وفق رواية السيدة «ناهد رشاد»): «إن البنت تنفع».

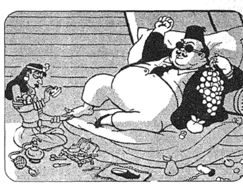
وكانت المسألة المعلقة هي كيف يكون إبلاغ أسرة «ناريمان صادق» أن الملك اختار ابنتهم زوجة له، وكيف يتم فسخ خطبتها من خطيبها الأصلي مع الشرط عليه بأن «لا يتكلم» ـ وتقرر ترك هذه المهام لأحمد نجيب، وتفرغ الملك «لتصليح أحوال البنت» حتى تكون لائقة ـ ثم للبحث في «كيفية إعلان النبأ للناس؟»!

وبالنسبة لبند «التصليح»، فقد جرى تكليف «عبد العزيز بدر» (باشا) ـ وكان من قبل واحدا من أمناء القصر ثم أصبح سفيرا لمصر في روما ـ أن يستضيف «البنت» عنده، وأن تشرف زوجته على «توضيب» ناريمان من كل النواحي: اللبس والمشي وطريقة الأكل وقواعد البروتوكول، وإذا أمكن شيئا من اللغة الفرنسية أو الإنجليزية أو حتى الإيطالية «كخيار ثالث» إذا كان ذلك أسهل لها بحكم أنها سوف تبقى في روما مدة لا تقل عن ستة شهور!

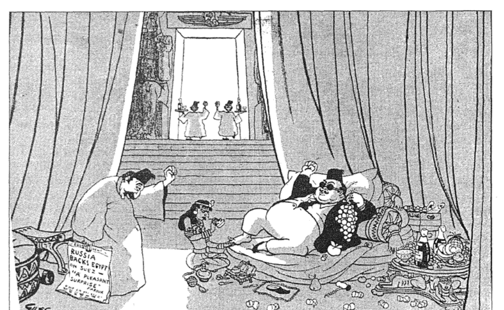
وأما بالنسبة لبند الإعلان عن الخطوبة، فقد عهد الملك إلى «النحاس» (باشا) بأن «يشتغل» في هذه المسألة، كما اشتغل سابقا بمسألة الملكة «نازلي» (وكان زعيم الوفد قد اتصل بالملكة الأم قبل وأثناء قضية الحجر أكثر من عشر مرات ولم ينجح في اتصالاته)، والآن كان «فاروق» ينتظر من «النحاس» (باشا) أن ينجح هذه المرة، وأن يتولى هو «إذاعة النبأ السعيد» على الشعب المصري.

وأقام «مصطفى النحاس» (باشا) رئيس الوزراء حفلا باذخا في قصر الزعفران، ألقى فيه خطابا عن الزواج الملكي السعيد استغرق سبعا وخمسين دقيقة، تزاحمت فيها العواطف تجاه «الملك الإنسان» و«قدراته السامية» و«حكمته العالية»، وفي الفقرة الثانية من الخطاب جاءت البُشرى تشكر الله أن السعادة في الطريق إلى هذا الملك الحريص على رفاهية شعبه، والآن فإن واجب الشعب كله توفير أسباب السعادة «للسُدة العالية» و«المقام الكريم».

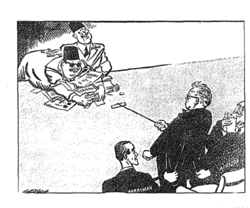
وفي هذا التوقيت بالضبط يكتب السفير البريطاني في



نفس الكاريكاتير فى نفس الصحيفة بعد تدخل رقابة الجيش البريطانى وحذف جزء من الرسم



فى الرسم الكبير: الشعب المصرى يحمل صحيفة تنشر خبر تأييد روسيا لمصر يقول الشعب للملك.. كبادرة تقدير لحلفائنا العظام، «هل يتفضل مولاى بتفقد أحوال العمال فى المصانع بدلا من الكباريهات؟!»
عن «صنداى اكسبريس» ٢ سبتمبر عام ١٩٥١



الملك فاروق على مائدة القمار وخلفه النحاس باشا
عن «الديلى هيرالد» ١١ أكتوبر ١٩٥١

الملك فاروق فى الصحافة البريطانية
١٩٥١

THERE WON'T BE A FUSS? ASKS MAX ('FAROUK') BACON



Max BACON pictured in the "Farouk" costume he wore at the Royal Variety Show to join the court- liveried Crazy Gang in a warming-up ske- teh- was wonder- ing last night whether there would be a fuss about his fun.

"If I went to a fa- ney- dress party nobody would say anythin, would they/" he asked.

"I shan't be sued for it, shall I? There won't be a row, will there?"

But already Max's Farouk joke is going round Europe. Pictured on the right, in a Paris night spot, is a woman complet. with a Bacon- Farouk moustache.

المثل الهزلى «ماكس بيكون» يقدم «نمرة» فى أحد الملاهى الليلية يقلد فيها الملك فاروق.. وفى الصورة الأخرى فى أحد كباريهات باريس، سيدة تضع شوارب الملك بعد اشتهار «نمرة» ماكس بيكون.
عن «الديلى اكسبريس» ٣٠ أكتوبر عام ١٩٥١.



القاهرة السير «رالف ستيفنسون» - خطابا خاصا إلى «هربرت موريسون» وزير الخارجية العمالي الذى جاء إلى الوزارة خلفا «لأرنست بيفن» الذى اعتلت صحته - وفيه يقول «رالف ستيفنسون»:

«إننى فى غاية الدهشة من مسلك «النحاس» (باشا) إزاء الملك، فهو مسلك يختلف تماما عن كل المعهود من «زعيم الوفد» عندما كان فى السلطة مرات من قبل. والحقيقة أن سلوكه يمكن وصفه «بالمهانة»، وأكثر من ذلك فهو سلوك يتناقض تماما مع الحقائق. فالملك لا يملك أى خيار لرئاسة الوزارة غير «النحاس» (باشا) الذى هو صاحب الأغلبية فى البرلمان وكذلك فى الشارع - لكن هذا الرجل الذى يُفترض أن يكون قويا بما لديه، يضع نفسه موضع الخضوع ويقبل الإهانة. ولا أعرف كيف يستطيع رجل مثل «النحاس» أن يشعر بالرضا عن نفسه وهو يسمح لفاروق أن يقول له وجها لوجه وفى مناسبة أحاط به فيها جمع من وزرائه «يا باشا: هل تعرف أن أغلبية وزرائك لصوص The Majority of your cabinet Ministers are Thieves كما ورد بالحرف فى خطاب السفير البريطانى لوزير خارجيته).

ويُلاحظ القائم بالأعمال الأمريكى فى نفس الفترة «أن رئيس الوزراء قد تحول إلى منظم لاحتفالات الزواج الملكى، وأنه يقوم بدور «مقدم الحفلة»، مع أن مناسبة الاحتفال فيها ما يستوجب التوقى والحذر، لأن مشروع الزواج كان «مشوبا» من اللحظة الأولى».

والواقع أن رجال القصر وفى مقدمتهم «حسن يوسف» (باشا) كانوا فى دهشة من المدى الذى ذهب إليه «النحاس» (باشا) فى إظهار سعادته بالزواج الملكى، على أن «حسين سرى» (باشا) - حسب قوله - لم يندهش لأنه يعرف حجم الضغوط الهائلة الواقعة على رئيس الوزراء حتى «يماشى ويجارى»!



وعندما بدأ الاستعداد لعقد القران، أوضح القصر لكل من يهمه الأمر أن الملك لا يريد أن يتلقى هدايا رمزية - وإنما هدايا حقيقية، ولا يريد من أحد أن يعبر عن تهنئته بالورود - لأن حدائق القصور مليئة بها على الآخر. ووصل ذلك الإخطار حتى إلى سفارات الدول الأجنبية، مع أن التقاليد جرت على أن هدايا الزواج للملوك تقتصر على أول مرة، فإذا تكرر الزواج أو تعددت زيجات رئيس دولة مسلم، فإن هدايا الدول الأجنبية لا تتكرر، لأن المقصود بها يكون قد عَبَّر عن نفسه فى المرة الأولى وذلك كاف. لكن السفارات الأجنبية هذه المرة لم يكن أمامها خيار وإلا بدا امتناع بلادها عن تقديم الهدايا لملك مصر - نوعا من «الإهمال المتعمد أو الإهانة المقصودة» - وكان ذلك هو التعبير الذى استعملته السفارة البريطانية فى مصر عندما بلغها أن الملكة «إليزابيث» ملكة بريطانيا (وهى إليزابيث الأم التى توفيت أخيرا عن ١٠١ عام) - أبدت اعتراضا على اقتراح وزارة الخارجية البريطانية بأن تقدم وزوجها الملك «جورج السادس» هدية لفاروق، وكان رأى «إليزابيث» أن «رجلا مُطلَّقا» يتزوج مرة أخرى لا يصح أن يتلقى «تهنئة»، ولا «هدية»!

على أن سفارات الدول فى إدراكها للأهمية التاريخية لمصر بصرف النظر عن أحوال أى نظام يحكمها فى لحظة معينة من الزمن - بادرت إلى تقديم الهدايا:

- فالاتحاد السوفيتى سارع بتقديم بالطو من الفراء النفيس للملكة الجديدة.
- والحكومة الهندية تقدمت بغطاء للفراش مطرز بالذهب ومرصع باللؤلؤ.
- وإيطاليا قدمت لوحة نسيج من صنع فينيسيا يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر.
- والولايات المتحدة قدمت طاقما من الزجاج النادر مماثل لما قدمته فى طهران عندما تزوج شاه إيران من «ثريا» (قبلها بشهور).
- وفرنسا قدمت طاقما للطعام من الفضية المحفوفة بالذهب.
- وأثيوبيا قدمت باسم الإمبراطور هيلاسلاسى شخصيا إناءً كبيرا مرصعا بالجواهر.
- وسويسرا قدمت ساعة من نوع بالغ الدقة يُظهر الوقت فى أى مكان فى العالم بلمسة على زر.
- وتركيا قدمت سجادة نادرة من صنع القرن السادس عشر.

وهكذا وهكذا...

ولم تكن السفارات الأجنبية وحدها هى التى بادرت بالهدايا، وإنما تسابقت وزارات الدولة المصرية ومؤسساتها وهيئاتها حتى الجيش والبوليس - إلى تقديم هداياها، وكذلك الجاليات الأجنبية وحتى الجمعيات الخيرية رغم الطابع الخاص لمواردها - كان عليها جميعا أن تقدم الهدايا للملك، حقيقية وليست رمزية.

ويكتب السفير البريطانى السير «رالف ستيفنسون» إلى وزير الخارجية «هربرت موريسون» يقول له: «إن القاهرة لا حديث لها إلا عن وسائل الضغط القاسية (Brutal) التى جرى اتباعها حتى تكون الهدايا التى تُقدم للملك كثيرة وغالية!



كان مزاد الهدايا فضيحة داخل مصر - لكن شهر العسل عندما حل موعده كان فضيحة أمام العالم، فقد طال شهر العسل عشرة أسابيع (وقع وسطها شهر رمضان)، وطوال هذه الأسابيع فإن الفرح المتحرك الذى أقامه الملك «فاروق» فى أوربا تحول حسب تقرير



السفارة البريطانية فى العاصمة السويسرية إلى «سيرك متنقل».

كان «فاروق» قد تعود على رحلات صيف أوربية صاخبة من قبل، لكن مناسبة شهر العسل الجديد فاقت فى صخبها ما يمكن تصوره. وطبقا لوصف السفير البريطانى فى روما، فإن موكب الملك بدأ نزوله وعروسه ومرافقيهما من اليخت الملكى يوم ١٠ يوليو ١٩٥١ فى ميناء «تاورمينا» فى «صقلية»، ثم أبحر الكل إلى «كابرى» ثم «نابولى» وتقدم الموكب بعرض الريفيرا الإيطالية والفرنسية - زاحفا فى قافلة طويلة تتقدمها «دستة وأكثر من سيارات الكاديلاك الكبيرة»، تسبقها سيارة حراسة تليها سيارة الملك وعروسه، ووراءها رجال ونساء من الحاشية، وعدد من «الجميلات الإيطاليات» (Glamour Girls)، ثم وراء ذلك جمع من أفراد الخدمة الشخصية للملك والملكة الجديدة رجالا ونساءً، وأُضيف إلى هذا الجمع (حسب تقرير السفارة البريطانية فى القاهرة) عدد من أصدقاء الملك على موائد القُمار دعاهم إلى اللحاق به، وكان الموكب حيث يصل يجد فى انتظاره مجموعة من رجال أشداء من الحرس الملكى فى الغالب يرتدون ملابس مدنية، ويتعاملون مع الجمهور المندهش بما يرى، بشدة وقسوة لا يعرفها جمهور أوربى، وقد شاهد السفير البريطانى فى إيطاليا موكب الملك يمر بسرعة خطرة على الطريق الساحلى ما بين «رابالو» و«بورتوفينو» فى الريفيرا الإيطالية متوجها نحو منطقة البحيرات!

....

(والملاحظ أنه فى نفس الفترة تواجد «النحاس» (باشا) وقرينته فى أوربا لمدة شهر للاستشفاء ما بين «فيشى» و«ايفيان» فى فرنسا - وكان «فؤاد سراج الدين» (باشا) قد صَحِبَ الاثنين عندما وصلا إلى أوربا يطمئن عليهما، وبقى معهما أسبوعا ثم عاد إلى مصر، ليرجع إليهما مرة أخرى فيقضى أسبوعا فى رفقتهما ثم يعود معهما. وفى تلك الفترة كان هناك وفد جاهز للخدمة وتلبية الطلبات تتقدمه الأستاذ «محمود أبو الفتح» صاحب جريدة المصرى الذى بادر بإرسال ثلاث سيارات لتكون تحت الطلب، أولاها سيارة من طراز «رولزرويس» خُصصت «لرفعة الباشا» (طبقا لرسالة بعث بها أحد رجال الحاشية الملكية «المكتب الخاص» وهو «إدمون جهلان» (بك) - وكانت هذه الرسالة ضمن محفوظات الديوان الملكى، ويظهر أن الملك أرسله أو أن «جهلان» (بك) تطوع لإلقاء نظرة على ما يجرى فى محيط رئيس الوزراء!).

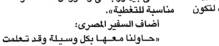
ومرة ثانية كتب السفير البريطانى فى روما إلى وزارة الخارجية فى لندن (٥١/٤/١٠٣٢٣) - يقول «إن الملك «فاروق» تجنب زيارة روما بسبب خوفه من زحامها وجوها الحار والرطب فى الصيف»، لكن السفير البريطانى فى روما وكان قد رأى موكب الملك فى «رابالو» - تحدث فيما رأى مع السفير المصرى فى العاصمة الإيطالية «عبد العزيز بدر» (باشا)، وقد روى فى تقريره «أنه شعر بأن السفير المصرى (رغم أنه كان من أمناء القصر ورغم أن زوجته كانت مؤتمنة على «تاهيل» (تصليح) «ناريمان») - بدا محرجا، وكانت عيناه تعكسان نظرة بائسة وهو يسمع أحاديث المجتمع الإيطالى بمن فيه الدبلوماسيون عن مغامرات ملك بلاده دون تحرج من جانب أحد، لأن الصحف كانت مليئة بالصور والأخبار عن «السيرك الملكى المتنقل»، الذى قدرت الصحافة العالمية (وضمنها جريدة التيمس) مصاريفه كل يوم بمائة ألف جنيه إسترلينى (وهو مبلغ يساوى المليون جنيه استرلينى بسعر العملة هذه الأيام).

ويروى السفير البريطانى فى برقيته من روما (٦١ - ١٩٤١) - أن «عبد العزيز بدر» (باشا) السفير المصرى وزميله المُعْتَمَدُ لدى الدولة الإيطالية أخذه على جنب فى إحدى الحفلات وقال له: «إن زوجتى ليست عمة «ناريمان» كما كان يُشاع عندما جاءت إلينا هنا وأقامت معنا فى العام الماضى. والحقيقة أن ذلك كان غطاء «وجوده مناسبا» باعتبار أن زوجته من عائلة «صادق»، و«ناريمان» والدها اسمه صادق - لكنهما ليسا من نفس العائلة. وأصل المسألة أننى خدمت أمينا فى القصر وكنت موضع ثقة، ثم وجدوا أن تشابه الاسم العائلى بين زوجتى وعروس الملك - فرصة مناسبة للتغطية».

أضاف السفير المصرى:

«حاولنا معها بكل وسيلة وقد تعلمت أشياء، ولم تتعلم أشياء، وكانت مشكلتها الكبرى هى اللغات، وقد بقيت هنا ستة شهور ولم تلتقط كلمة من اللغة الإيطالية»!

وتسببت الأخبار المنشورة فى الصحف عن تصرفات الملك وضمنها سهراته حتى الفجر فى نوادى القمار - فى أزمات ومشاكل بلا حدود، فقد حاولت السفارات المصرية حيث ذهب الملك أن تدافع عن سمعته، وأن تكتب الاحتجاج تلو الاحتجاج، وبدت بعض الحكومات الأوربية محرجة، وعلى سبيل المثال فإن وزير الخارجية فى لندن «هربرت موريسون» تدخل لدى اللورد «بيفربروك» (أحد بارونات الصحافة الكبار وصاحب دار الإكسبرس)، لكى تخفف جرائده حملتها - وخصوصا رسومها الكاريكاتورية - على ملك مصر، ورفض «بيفربروك» قبول أى



فى خطاب السفير البريطانى لوزير خارجيته: «لا أعلم ولا أعرف كيف يستطيع رجل مثل «النحاس» أن يشعر بالرضا عن نفسه وهو يسمح لفاروق أن يقول له وجها لوجه وفى مناسبة أحاط به فيها جمع من وزرائه «يا باشا: هل تعرف أن أغلبية وزرائك لصوص؟!»

تدخل، ووجهة نظره «أنه مادام ملك مصر يتصرف «بدون حياء» - فإن الصحافة من حقها أن تتابعه دون عائق». وفي اليوم التالى أرسل اللورد «بيفربروك» إلى مكتب وزير الخارجية (طبقا لرسالة من مكتبه إلى السفارة فى القاهرة) مجموعة صور التُقطت للملك وهو يرتدى ملابس البحر ويستمع إلَى عازف جيتار يقف بينه وبين «ناريمان»، وكان ذلك على الغداء فى مطعم «كانسونى دل مارى» (أغنية البحر) الذى تملكه المغنية «جراسى فيلدز» فى كابرى، وكانت الصور مثيرة من وجهة نظر صحفية، وكانت مع الصور بطاقة كتب عليها اللورد «بيفربروك» بخطه «كيف يمكن أن أحرم «الإكسبرس» من نشر مثل هذه الصور؟!».

والمدهش أن الغداء فى مطعم «جراسى فيلدز» فى كابرى تسبب فى مشكلة للصحف المصرية، فقد نشرته «الأهرام» بحُسن نية فى الطبعة الأولى، وتذكر أحدهم «أننا فى رمضان» ولا يُعْقَل أن يجلس الملك على مائدة غداء علنى فى الشهر الفضيل حتى ولو كان على سفر. وتم الاتصال فجرا بوزير الداخلية «فؤاد سراج الدين» (باشا) الذى أصدر أمره بمصادرة الجريدة - وكانت تلك الحادثة موضع تقرير من السفارة البريطانية فى القاهرة إلى وزارة الخارجية فى لندن!

وربما كان الأسوأ من ذلك أن وزير خارجية إيطاليا دعا إلى اجتماع لبعض رؤساء الصحف الإيطاليين يرجوهم أن يقللوا ما ينشرونه من أخبار عن ملك مصر، رعاية للعلاقات بين البلدين. وكان بين ما قاله لهم «أن الصحافة الإيطالية لا يصح أن تعطى كل هذه المساحة لنشر الفضائح». ورد عليه رئيس تحرير الميساجيرو قائلا: «إذا كنت تصفها بالفضائح فلماذا تريدنا أن نكتم أخبارها عن قرائنا؟» - ورد عليه وزير خارجية إيطاليا «إن هذه كلها ليست أخبارا بل أمور عادية، طاغية شرقى يتصرف كطاغية شرقى، أى غرابة فى ذلك يمكن أن تمثل خبرا؟!».



وهكذا فإنه عند منتصف سنة ١٩٥١ كانت أهم المؤسسات المصرية السياسية والدستورية فى أزمة: القصر وهو المؤسسة الممثلة لسلطة السيادة، وحزب الوفد وهو المؤسسة الممثلة لأغلبية الشعب، وفى الواقع فإن القصر الملكى كان يتهاوى ويفقد مقامه وهيبته، وأن حزب الوفد كان يتصدع ويبدد احترامه لتاريخه وللدستور.

وفى ثلاثية السلطة الحاكمة فى مصر وهى: الإنجليز والقصر والوفد - فإن سلطة واحدة كانت لا تزال متماسكة تحاول المحافظة على موقعها (الإمبراطورى).

وكان على الأفق السياسى المرئى طارئ جديد تحسب له الجميع مبكرا وتنادوا للتعامل مع احتمالاته عندما يقع اللقاء بين جيش مجروح وشعب موجوع - لكن (المصريين فقط وليس الإنجليز) نسوا الأسباب والدواعى وهو ما يحدث للقوى السياسية عادة وحتى للأفراد حين تأخذهم مغريات الحياة ونزواتها وتُنسيهم حقائق الحياة ومسئولياتها!

وقـــــائـع ووثــــــائـــق
أحـــــوال ملكيـــــة!



نازلى — فايزة — فتحية — رياض غالى

كانت دعوى الحجر التى تقدم بها الملك «فاروق» ضد والدته أمام مجلس البلاط - قضية مثيرة، وقد خرجت للعلن وأفلتت من الكتمان، عندما فقد الملك كل أمل فى عودة والدته من الولايات المتحدة، رغم دعوته لها ودعوته أيضا لشقيقتيه «فائقة» و«فتحية». وقد رفضت «فتحية» الدعوة - كما فعلت الملكة «نازلى» - وصممت على الزواج من «رياض غالى»، لكن «فائقة» أعلنت أنها سوف تعود فور انتهاء شهر العسل فى جزر هاواى. وفى ذلك الوقت أوائل مايو ١٩٥٠ - سافرت والأستاذ «محمد يوسف» كبير مصورى أخبار اليوم - إلى روما. والتقدير أن نتحرى من هناك موعد عودة الأميرة «فائقة» وزوجها ونقابلهما فى روما ثم نعود معهما إلى القاهرة، وقد توافر لنا أكبر قدر من التفاصيل وأول لقطات من الصور وكذلك كان. وكانت الأميرة شديدة القلق مما ينتظرها فى القاهرة ولعلها قبلت - و«فؤاد صادق» معها - أن يتحدثا إلىَّ، لأن كليهما كان فى شوق إلى استطلاع الأجواء فى القاهرة. والذى حدث وقتها أننا قضينا ثلاثة أيام فى روما لا نكاد نفترق، وعدسة «محمد يوسف» تواصل ومضاتها، وقد تعهدت للأميرة وقبلت وعدى ألا أنشر شيئا سمعته منها أو صورة ظهرت فيها إلا بإذنها عندما ننتقل جميعا من آخر محطة أوربية وهى روما - متوجهين إلى القاهرة - وتحت السلطة المطلقة للملك «فاروق».

(وقد ساعدتنى الأميرة «فائقة» على فتح خط اتصال تليفونى مع والدتها (فى لوس أنجلوس)، وأجريت مع الملكة الأم عددا من الأحاديث التليفونية بوجهة نظرها، وتسببت هذه الأحاديث فى مصادرة «آخر ساعة»، وعلى أى حال فقد كانت تلك بداية تعرفى على الملكة «نازلى» صوتا فى البداية، ثم حقيقة فيما بعد).

وطوال رحلة طائرة T.W.A الأمريكية من روما إلى القاهرة، كانت الأميرة «فائقة» تزداد توترا كلما اقتربنا من مصر، وعندما ظهر الشاطئ المصرى كانت «فائقة» تبكى بحرقة وفى صمت، وحاولت أن أطمئنها، فأهديتها آية الكرسى محفورة على قطعة صغيرة من الذهب - كانت فى جيبى دائما.

وكان الأستاذ «محمد يوسف» قلقا - وكنت معه - على مجموعة الأفلام الأحد عشر التى التقطتها عدسته لفائقة و«فؤاد صادق» على خلفية مشاهد روما ومواقعها، وقد خطر له أن أفضل حماية للأفلام أن تحملها الأميرة فى حقيبة يدها، وتقديره أننا فى المطار سوف نتعرض للتفتيش، أما هى فسوف تُعامل كأميرة، وحسابه أنها وقد عادت إلى القاهرة استجابة لأمر من مجلس البلاط، فإن الملك سوف يسامحها، وحينئذ. وبعد أن تطمئن تستطيع أن تعيد لنا الأفلام، وكان تقدير «محمد يوسف» سليما. وفاتحت الأميرة «فائقة» فى اقتراحه وقَبِلَتْ. وحدث ما سبق وتصوره «محمد يوسف»، فقد كان «حسن يوسف» (باشا) وكيل الديوان الملكى فى انتظار الأميرة فى مطار القاهرة، وانصرف بها وحدها، تاركا «فؤاد صادق» لأحد أفراد أسرته. وأما الأستاذ «محمد يوسف» وأنا - فإن رئيس القلم المخصوص «الأميرالاى» «محمد إمام إبراهيم» (بك) أخذنا إلى غرفة جرى فيها تفتيشنا ومصادرة ما معنا من أفلام وأوراق (ولم يكن فيها ما نحرص عليه).

ولم تمض ثلاثة أيام حتى كانت الأميرة «فائقة» تتصل بى معتذرة وبرقة «إن المسألة والحمد لله سُوِّيَتْ»، ورضى جلالة الملك عن زواجنا ووافق على عقد زواجها، العقد الذى أجراه شيخ مسجد سان فرانسسكو». ثم أضافت «أنه كان عليها أن تعرض الأفلام على الديوان الذى قام بتحميضها، وأنها استطاعت «إقناعهم» فى القصر بنشر خَمسْ صور تنتهى بها المسألة كلها وتُطوى الصفحة».

ثم تقابلنا بعد ذلك وجاءت مع زوجها يحملان آية كرسى (ملكية) ترد هديتى السابقة، وقد حفرت عليها عبارة «للشكر والعرفان بالفضل»، والحرفان الأولان من اسم الأميرة، وكانت تلك بداية صداقة سعيدة دامت سنوات طويلة، حتى بعد الثورة وسقوط أسرة «محمد على»، وإلى أن توفيت الأميرة فى أوائل السبعينيات من القرن الأخير متأثرة بسرطان الثدى الذى اغتال حياتها وسعادتها!

لكن وقائع الحجر على الملكة «نازلى» لم تكن لها هذه النهاية السعيدة، وإنما كانت تجربة شديدة المرارة، ولعل وثائقها الرسمية أفضل ما يكشف ملابساتها.

رسالة فاروق إلى مجلس البلاط



نص الرسالة التى عرضها الديوان الملكى على مجلس البلاط يوم ١٢ مايو ١٩٥٠:

«جمع ديوان حضرة صاحب الجلالة الملك جميع المستندات التى تقوم مقام أدلة الإثبات فى القضايا العادلة، وهى عبارة عن التحريات الخاصة التى قامت بها السفارة المصرية فى الولايات المتحدة، فيما يتعلق بشخصية «رياض غالى» (أفندى)، والكيفية التى تعرف بها على جلالة الملكة «نازلى» وسمو الأميرتين منذ سنة ١٩٤٦، والطرق التى كان يستغل بها أموالهن، مع بيان الوسيلة التى كان يفرض بها نفسه عليهن، والتقارير التى تلقاها ديوان جلالة الملك من مختلف الجهات عن هذه المسألة، وفيها بيان شامل للمساعى التى قامت بها الحكومة المصرية والسفارة المصرية فى الولايات المتحدة.

وقد تفضل جلالة الملك مبالغة من جلالته فى العناية بهذه المسألة، فأعد مذكرة مستفيضة تتألف من صفحتين من الحجم الكبير وقعها باسمه الكريم، جاء فى مستهلها:

«رأى المغفور له جلالة والدنا الملك «فؤاد الأول» وضع نظام للأسرة المالكة، فأصدر بذلك القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٢، وقد راعى بثاقب فكره فى وضع هذا النظام أن الأسرة المالكة ركن من أركان الدولة لما بينها وبين الجالس على العرش من أواصر القرابة، وهى من جهة أخرى أكبر الأسر وأكرمها، والمثال الذى يُحتذى به فى ضبط النفس وكمال السلوك، واعتبر بحُسن تقديره أن مسائل الأحوال الشخصية مسائل عائلية محضة، وأن كرامة الأسرة ومركزها فى البلاد يقضيان بأن لا تتعرض مثل هذه المسائل الشخصية لأحاديث الناس، ولذلك فقد أراد والدنا إنشاء مجلس للبلاط وأن يصبح هذا المجلس فوق ما له من اختصاص قضائى، هيئة استشارية فى الأمور المهمة التى تهم الأسرة المالكة عندما يطلب إليها الرأى فيها».

وانتقلت مذكرة المقام السامى إلى أن ظروفا قد طرأت على جانب كبير من الأهمية والخطورة وتقتضى العرض على المجلس، إذ إن جلالة والدتنا الملكة قد سافرت إلى الخارج فى صيف سنة ١٩٤٦ للعلاج، وقد استصحبت معها شقيقتينا الأميرتين «فائقة» و«فتحية»، وأنهن يقمن الآن فى أمريكا، ونظرا إلى طول مدة إقامتهن بعيدا عن مصر وعنا، وإلى صغر سن شقيقتينا الأميرتين، وما عليه جلالة الملكة من حالة مرضية ونفسية قد وقعن تحت تأثير بعض المتصلين بهن، وقد دعوتهن مرارا بعد إتمام العلاج للعودة إلى مصر، فلم تقبلن، حتى كان من نتيجة ذلك زواج الأميرة «فائقة» في أمريكا قبل الحصول على موافقتنا، وكان من نتيجة ذلك أيضا أن اعتزمت جلالة الملكة الوالدة أن تُزَوِّج شقيقتنا الأميرة «فتحية» التى لم تبلغ سن الرشد بعد ولا تزال تحت الوصاية إلى الآن - بمن يُدعى «رياض غالى» المسيحي الذى دَلَّتْ التحريات على سوء سيرته.

ولما عَلِمْنا بما اعتزمته جلالة الملكة الوالدة، بَذلنا جميع المساعى الممكنة لمنع هذا الزواج قبل وقوعه، وهى مساع عديدة كانت لدى جلالة الملكة الوالدة ولدى الأميرة «فتحية» نفسها، وقد قدمت لهما فيها النصيحة تلو النصيحة بوجوب المحافظة على كرامة الأسرة المالكة.

وقد ساهمت الحكومة كما ساهم سفيرنا في أمريكا بنصيب موفور في هذه المساعى، ولكنها كلها مع الأسف الشديد، لم تؤد إلى النتيجة المرجوة. وقد أبلغ سفيرنا فى أمريكا ديواننا تفصيلات مسعاه التى لم تزد جلالة الملكة إلا إصرارا على تنفيذ ما اعتزمته، وقد كانت تصرح في كل مرة، وعند أى مسعى، بأنه لا يهمها ولا يضيرها أن يكون من يصاهرها من عائلة مالكة أو ممن يُقال أنهم من عائلات عريقة، وكانت تُزيد على ذلك فتذكر بأنها لا تبالى بما ينشب عن هذا الزواج من نتائج وعواقب مهما يكن نوعها.

وقد أوضح جلالة الملك أن جلالته قد أرسل إلى جلالة الملكة الوالدة برقية مُطوَّلة مستفيضة يوضح فيها ما يساور جلالته من الألم المرير، ويناشدها أن تكف عن هذا الزواج، ويدعوها أن تقدر ما قد ينشأ عن إصرارها على ما اعتزمته من العواقب الوخيمة السيئة، ولكنها أصرت على موقفها، وردت على جلالته ببرقية قالت فيها «إن عاطفة الأمومة لديها مقدمة على كل اعتبار»، حتى وقعت المأساة مع الأسف البالغ، فتم الزواج مدنيا في يوم ١٠ من شهر مايو الحاضر.

وقد اشتملت هذه المذكرة السامية الكريمة على بيان تفصيلى بالمبالغ التى أُرسلت إلى جلالة الملكة «نازلى» والأميرَتين في الفترة الواقعة من صيف سنة ١٩٤٦ حتى الآن، وهى تبلغ في مجموعها نحو أربعمائة وثلاثة وثمانين ألف جنيه ٤٨٣٠٠٠ جنيه.

وقد تبين من المعلومات الرسمية التى وصلت إلى ديوان جلالة الملك من مختلف المصادر أن «رياض غالى» (أفندى) قد استولى على نحو أربعين ألف جنيه ٤٠٠٠٠ جنيه من هذه المبالغ.

وقد ختم جلالته هذه المذكرة الكريمة بقوله «لهذا كله أود أن نقف على ما يشير به المجلس من إجراءات نحو هذا الزواج، وما يَصِح أن يُتَّبَع نحو جلالة الملكة».



نص طلب الحجر على الملكة نازلى



نص المذكرة التى قدمها رئيس الديوان الملكى «حسن يوسف» (باشا) بالنيابة إلى مجلس البلاط بتاريخ ٢٧ مايو ١٩٥١ بطلب الحجر على الملكة «نازلى» و«فتحية»، والإشارة بالعفو عن الأميرة «فائقة»:

وصل إلى ديوان جلالة الملك أن زواجا مدنيا عُقد فى أمريكا بين حضرة صاحبة السمو الملكى الأميرة «فتحية» و«رياض غالى» المصرى الجنسية المسيحى الديانة، وبما أن هذا الزواج باطل شرعا، إذ إن الشريعة الإسلامية لا تُجيز لمسلمة أن تتزوج من غير مسلم، فضلا عن عدم توافر شرط الكفاءة بينهما على افتراض أنه اعتنق الدين الإسلامى كما يزعُم. لذلك يطلب ديوان جلالة الملك الحكم ببطلان هذا الزواج.

وقد تقدم «محمد نجيب سالم» (باشا) ناظر خاصة جلالة الملك وجلالة الملكة «نازلى» بطلب النظر فى الطلب المرفوع بتوقيع الحجر على جلالتها، وتعيين قيم عليها، وبعزلها من الوصاية على كريمتها «فتحية هانم»، وإقامة وصى آخر بدلا منها، وقد أعلنت بالتوقيع منها بالاستلام.

وقد وقع رفع مذكرة مجلس البلاط من سعادة «محمد نجيب سالم» (باشا) فى هذا الصدد ما يأتى:

بناء على الأمر السامى الكريم، يتشرف ناظر خاصة جلالة الملك بأن يطلب إلى المجلس الموقر:

أولا: توقيع الحجر على حضرة صاحبة الجلالة الملكة «نازلى» وتعيين قيم على جلالتها.

ثانيا: عزل جلالتها من الوصاية على كريمتها «فتحية هانم».

وذلك للأسباب الموضحة بالطلب المؤرخ ١٢ مايو سنة ١٩٥٠، والمستندات المرفقة به.

وبناءً عليه يتقدم حضرة صاحب السعادة «محمد حسن يوسف» (باشا) إلى المجلس بوصف كونه «كاتم سر مجلس بلاط الملك» بطلب النظر فى الموضوعين الآتيين:

١ ـ إجازة صدور التصادق على زواج حضرة صاحبة السمو الملكى الأميرة «فائقة» من صاحب العزة «فؤاد صادق» (بك) أمام فضيلة وكيل الجامع الأزهر نيابة عن مجلس البلاط، والإذن بتسجيله فى سجلات المجلس (وكان ذلك الزواج قد تم فعلا وقضى العروسان شهر العسل فى جزر هاواى).

٢ ـ تعديل قرار المجلس الصادر فى ٢٠ مارس سنة ١٩٤٥ الخاص بإنابة شيخ الجامع الأزهر عن المجلس فى سماع إشهادات الزواج الخاصة بأمراء وأميرات ونبلاء ونبيلات الأسرة المالكة بإضافة نص يبين العضو الشرعى الذى يحل محل شيخ الجامع الأزهر عند غيابه، وذلك حسبما يراه المجلس فى هذا الشأن.

وهنا وأتشرف بأن أرفع إلى المجلس الموقر أن حضرة صاحبة السمو الملكى الأميرة «فائقة» شقيقة حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم قد استجابت لرغبة المجلس التى أبداها فى ١٦ مايو سنة ١٩٥٠، بشأن عودة سموها من أمريكا، فعادت فعلا إلى القاهرة فى ٢١ مايو سنة ١٩٥٠.

وقد تفضل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم، فأذنَ بالتصادق على عقد زواج سموها من صاحب العزة «فؤاد صادق» (بك) الصادر بينهما فى أبريل سنة ١٩٥٠ وفقا لأحكام الشريعة الغراء لدى إمام مسجد ساكرامنتو بكاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية. كما تعطف حفظه الله بقبول الوكالة عن سموها فى إقرار التصادق والإقرار بقبض المهر. وبناء على هذا الإذن السامى الكريم صدر هذا التصادق فى ٤ يونيو سنة ١٩٥٠ بقصر القبة العامر لدى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ «عبد الرحمن حسن» وكيل الجامع الأزهر نيابة عن مجلس البلاط، على اعتبار أن فضيلته يحل محل الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وفقا للمادة الأولى من القانون رقم ٤ لسنة ١٩٤٨، وعلى أن شيخ الجامع هو النائب عن مجلس البلاط فى سماع إشهادات الزواج الخاصة بأمراء وأميرات ونبلاء ونبيلات الأسرة المالكة بناء على قرار المجلس الصادر فى ٢٠ مارس سنة ١٩٤٥.

وبمناسبة ما أثير حول هذه الإنابة فى سماع الإشهاد الخاص بالتصادق سالف الذكر، أرجو من المجلس الموقر التفضل بما يأتى:

أولا: إجازة صدور التصادق المذكور أمام وكيل الجامع الأزهر نيابة عن مجلس البلاط، والإذن باتخاذ اللازم نحو تسجيله فى سجلات المجلس، وذلك منعا لكل شبهة فى صدور الإشهاد أمام جهة غير مختصة.

ثانيا: تعديل القرار الصادر فى ٢٠ مارس سنة ١٩٤٥ بإنابة شيخ الجامع الأزهر عن المجلس فى سماع إشهادات الزواج الخاصة بالأمراء والأميرات والنبلاء والنبيلات، وإضافة نص الإنابة الذى يحل عن شيخ الجامع الأزهر عند غيابه حسبما يراه المجلس الموقر فى هذا الشأن.

كاتم سر مجلس بلاط الملك
محمد حسن يوسف
يوليو ١٩٥٠

نص القرار بتوقيع الحجر على الملكة نازلى والتفريق بين فتحية وزوجها

اتخذ مجلس البلاط قرارات نصها كما يلى:

١ ـ من حيث إن زواج المسلمة من غير مسلم باطل بطلانا أصليا ولا يترتب عليه أى أثر من آثار الزوجية طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية.

ومن حيث أنه إذا أسلم شخص فعلا وتزوج بمسلمة عريقة فى الإسلام فإن هذا العقد إذا حصل بغير رضاء الولى أو العاصب لا يصح.

لذلك قرر المجلس التفريق فورا بين حضرة صاحبة السمو الملكى الأميرة «فتحية» وبين «رياض غالى» (أفندى) بالحيلولة بينهما ووضعها تحت يد حضرة صاحب الجلالة الملك للمحافظة عليها إلى أن يفصل فى الدعوى.

وعلى السلطات المختصة اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتنفيذ ذلك.

٢ ـ قرر المجلس منع حضرة صاحبة الجلالة الملكة «نازلى» من التصرف فى أموالها وتعيين حضرة صاحب السعادة «نجيب سالم» (باشا) ناظر خاصة جلالة الملك مديرا مؤقتا على جميع أموالها إلى أن يفصل فى طلب الحجر.

٣ ـ قرر المجلس وقف حضرة صاحبة الجلالة الملكة «نازلى» عن أعمال الوصاية على حضرة صاحبة السمو الملكى الأميرة «فتحية» وتعيين سعادة «نجيب سالم» (باشا) ناظر خاصة جلالة الملك وصيا مؤقتا لإدارة أموالها إلى أن يفصل فى طلب عزل جلالة الملكة «نازلى» عن الوصاية.

وقائع مؤتمر صحفى لنازلى و«فتحية» و«رياض غالى»



تحدثت الملكة «نازلى» والأميرة «فتحية» أمام الصحفيين للتعليق على القرارات الصادرة من مجلس البلاط فى مصر إزاءهما، وقالت وكالة أنباء اليونايتد بوست إن الأميرة «فتحية» سُئلت عن رأيها فى معارضة جلالة الملك «فاروق» لزواجها من «رياض غالى»، فقالت: «إن غايتى الوحيدة أن أجعل زوجى سعيدا، وأن أنجب له عددا كبيرا من الأطفال».

وسُئلت الأميرة تحديدا عن وقع قرارات مجلس البلاط فى نفسها، قالت: «حسنا... هذا ما كنت أريده من زمن».

وكانت تبدو على وجوه الملكة الوالدة و«فتحية» و«رياض غالى» دلائل الاستهتار وعدم المبالاة بقرارات مجلس البلاط، وعندما سُئلت جلالة الملكة «نازلى» عن رأيها فى هذه القرارات، أجابت بقولها: «لقد كنت أتوقع هذا الأمر، لذلك فهو لا يهمنى فى شىء».

وسُئل «رياض غالى» فى الموضوع فقال: «إن هذه القرارات لا تهمنى، ولا تهم زوجتى فى شىء، ولكن اهتمامنا الآن منصب على ما يمس جلالة الملكة «نازلى» من هذه القرارات»، (كانت الملكة «نازلى» قد اعتبرت أن «فاروق» قد انتهز الفرصة ليستولى على ثروتها من الأرض والعقارات والأثاث والتحف والأموال السائلة).

ومضى «رياض غالى»: «وعلى أى حال فإن لدينا من المال ما يكفينا بعض الوقت، أما فيما يتعلق بالزواج الدينى، فإننا

وقـــائع مـــؤتمر صـــحفي

نعد العُدة الآن لإتمامه في خلال بضعة أيام».

هذا وقد أُشيع اليوم أن مكتب الهجرة الأمريكي في سان فرانسسكو طلب من «رياض غالى» أن يغادر الولايات المتحدة في مدة أقصاها ٢٥ مايو الحالي، دون أن يُعيِّن له الجهة التي يقصد إليها.

وكانت السفارة المصرية في واشنطون قد سحبت من «رياض غالى» جواز سفره الدبلوماسي منذ عامين عندما رفض الأوامر الصادرة إليه من وزارة الخارجية بالعودة إلى مصر، لذلك أصبحت إقامته في الولايات المتحدة في العامين الأخيرين غير قانونية.

ولما سُئلَ «رياض غالى» عما يعتزمه الآن بعد أن تلقَى إنذار مكتب الهجرة بضرورة مغادرة البلاد في مدة لا تتجاوز ٢٥ مايو الحالي، قال إنه يفكر مع زوجته «فتحية» في السفر إلى جزر هاواى حيث لا تزال تقيم الأميرة «فائقة» مع زوجها «فؤاد صادق».

أما فيما يتعلق بقرار مجلس البلاط الخاص بالتفريق فورا بين «فتحية» و«رياض غالى» بوصف أن زواج المسلمة من غير المسلم باطل بطلانا أصليا ولا يترتب عليه أي أثر من آثار الزوجية طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية، فإن السلطات الأمريكية ترى أنه لا يمكن اتخاذ خطوة عملية في سبيل تنفيذه.

وفي رأى هذه السلطات أن كل ما تستطيع أن تفعله الحكومة الأمريكية أن تطلب إلى جلالة الملكة الوالدة و«فتحية» مغادرة البلاد - إذا طُلب إليها أن تفعل ذلك - ولكنها لا تستطيع تسليمهما رغم إرادتهما إلى السلطات المصرية أو حتى تعيين البلد الذي تسافران إليه عند مغادرتهما الولايات المتحدة.

... للقصـــــة بقيـــــة

أحمد فؤاد — زوجته فضيلة — محمد رضا بهلوى



فيصل بن عبدالعزيز

كانت نتيجة هذه التصرفات جميعا مأساوية لفاروق، حتى وإن لم يعش ليراها.

والذى حدث فيما بعد أن الملكة الأم «نازلى» ارتدت عن الإسلام، واعتنقت المسيحية على المذهب الكاثوليكي، وكذلك فعلت ابنتها «فتحية» وأيضا «فائزة» التى انضمت إلى الاثنتين بعد خروجها من مصر سنة ١٩٥٥ بعد الثورة، وكانت «فائزة» قد نجحت في تهريب مجوهراتها عن طريق الحقيبة الدبلوماسية للملحق العسكرى التركي الكولونيل «محمد نور الدين» - لكن الضابط الذى قام بتهريب مجوهرات الأميرة لم يسلمها لها في باريس كما كان مُتفقا عليه، ووجدت الأميرة «فائزة» نفسها مُفلسة في العاصمة الفرنسية، وأكملت رحلَتها إلى كاليفورنيا تشارك والدتها حياتها - وكذلك تدخل معها في عقيدتها الدينية الجديدة (المسيحية الكاثوليكية) - وعانت الأميرة «فائزة» كثيرا في حياتها قبل أن تمرض وتلزم الفراش سنوات.

لكن مصير الأميرة «فتحية» كان أكثر مأساوية لأنها قُتِلَت بخمس رصاصات أطلقها عليها زوجها «رياض غالى» الذى تركت كل شيء من أجله، ذلك أن الغرام فَتَرْ، ثم طرأت بين الزوجين خلافات وصلت إلى حد أن «رياض غالى» كما ورد في تحقيقات بوليس لوس أنجلوس «كان يضرب زوجته دائما ثم يضرب الملكة «نازلى» ويضرب الأميرة «فائزة» إذا حاولتا التدخل لمنعه من الاعتداء على زوجته». ومن المُحزن أن الملكة «نازلى» كانت لا تزال على قيد الحياة حين قام «رياض غالى» بقتل «فتحية»، وقد سارت في جنازة ابنتها تتوكأ على عصا.



ويظهر أن هناك لعنة تطارد الملك «فاروق» في أسرته من بداية صباه وحتى هذه اللحظة، ذلك أن ابنه «أحمد فؤاد» (ولى العهد الذى نودى به «ملكا تحت الوصاية» بعد تنازُل «فاروق» عن العرش بقرار من مجلس الثورة يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢، ثم جرى خلعه بإلغاء النظام سنة ١٩٥٣) - وسافر «أحمد فؤاد» رضيعا مع «فاروق» و«ناريمان»، لكن «ناريمان» (وكانت في حقيقة الأمر ضحية لظروفها) لم تستطع مجاراة «فاروق» في حياة المنفى، لأنها كانت أكثر صخبا من حياة المُلْك، وهكذا عادت وحدها إلى مصر، ثم واجه ابنها ظروفا صعبة. وعندما أصبح شابا فقد تزوج من فتاة يهودية فرنسية، وأنجب منها ابنا أسماه «محمد على» - ثم سمح له الرئيس «أنور السادات» بالعودة إلى مصر بناء على وساطة من شاه إيران «محمد رضا بهلوى»، ومن ملك السعودية «فيصل بن عبد العزيز»، وكان كلاهما يتوهم أن النظام الملكي يمكن أن يعود إلى مصر في ظرف من الظروف بعد رحيل «جمال عبد الناصر». وهنا فإن «أحمد فؤاد» اختار لزوجته اليهودية اسم «فضيلة» (بداية بحرف الفاء المتوارث عن الملك فؤاد) - ثم اختلفت الوقائع عن النوايا، ذلك أن «فضيلة» التى تصورت أن عودة زوجها لعرش مصر يمكن أن تكون محتملة، لكنها لم تلبث أن فقدت الأمل، ثم تطورت علاقتها بزوجها إلى قضايا أمام المحاكم، ووصل الأمر إلى حد أنها رفعت عليه دعوى حجر أمام محكمة سويسرية في «لوزان» تتهمه بخلل في قواه العقلية، وبالفعل فإن «أحمد فؤاد» أودع في مصحة للأمراض النفسية في سويسرا، لم يخرج منها إلا قبل شهور قليلة، ولعل حالته مما ينطبق عليه المثل السائد المشهور: «إن الآباء يأكلون الحُصْرُم - والأبناء يضرسون!».

والواقع أن الملك «فاروق» لم يترك لورثته ثروة كبيرة حين مات، لأن حسابات سرية عديدة ضاعت أرقامها بوفاته، فقد شاء أن يحتفظ بها سرا لا يعرف به غيره، وفي حين أن ثروته حين خرج من مصر قُدِّرت بثلثمائة مليون جنيه، فإن ما تركه فعلا لم يزد على ثمانية عشر مليونا (ذهب أكثر من نصفها أتعابا للمحامين والخبراء الذين كلفهم الورثة بتعقب مواقع الثروة)، والباقى ضاع في حسابات البنوك!



حرب النهر
إمبراطورية الدراويش

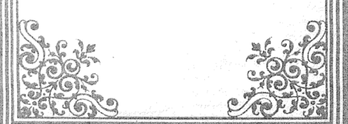
كانت فضيلة إمبراطورية الدراويش هى الشجاعة، وهى صفة تنال الإعجاب وإن لم تكن نادرة، جاءت الثورة بالحرب، عاشت بالحرب وانتهت بالحرب.

ما إن بدأ يوم الاستيلاء على الخرطوم، حتى انتهى فجأة بعد ١٣ عامًا فى معركة أم درمان. تمامًا كبركان فرعى ثار بعد انفجار كبير، استمر يهدر أثناء الاضطرابات ثم خمد نتيجة لصدمة عنيفة.

بعد أن غادر الجيش البريطانى الخرطوم، أصبح المهدى هو حاكم السودان المطلق، كل طلباته مجابة، واختار مدينة أم درمان على الضفة الغربية للنيل، وبنى لنفسه مسكنًا وجامعًا ومخازن لأموال الدولة وأسلحتها فى منتصف شهر يونيو، ولم تمض خمسة أشهر على تلك الانتصارات حتى مرض المهدى ولزم الفراش، ولم يعد قادرًا على الظهور فى الجامع. وظل الخليفة عبدالله بجواره.

أعلن المهدى فى آخر نَفَس له خلافة عبدالله له، لكن عبدالله أراد أن يثبت أمر الخلافة بطريقة البيعة. جمع الناس فى الميدان الفسيح خارج الجامع، وألقى خطبة بليغة ومؤثرة فسارع الجميع لإعلان البيعة له.

انتصر الخليفة فى كل معاركه فى كل الجبهات تقريبًا على كل أعدائه. وشهدت الفترة من عام ١٨٨٥ حتى عام ١٨٩٨م أقوى فترة للسودان، هى نتاج قوة حكمه المتمكن رغم ظروف صعبة للغاية. ظل الخليفة يواجه الأخطار متخطيًا الصعاب، وجاهزًا لمواجهة كل تحد.



صفقة عادلة للعالم .. حاربوا الإرهاب ولكن

جـــــوزيف ســـتيجليتز

عالم المال والاقتصاد الدولى عالم مثير للدهشة. فما قد يبدو مبادئ أساسية - بل وواضحة - غالبًا ما تبدو لنا فى الوقت ذاته متناقضة. فربما يظن ظان أن المال يتدفق من البلاد الغنية إلى البلاد الفقيرة؛ ولكن ما يحدث العام تلو الآخر هو عكس ذلك تمامًا. وربما خطر على قلب شخص من الأشخاص أن البلاد الغنية - لكونها أقدر من غيرها بكثير على تحمل مخاطر تذبذب أسعار الفائدة وأسعار الصرف - قد تتحمل إلى حد كبير تلك المخاطر حين تقرض المال للدول الفقيرة. ولكن ما يحدث هو أن الفقراء يتركون لتحمل تلك الأعباء. وبطبيعة الحال لم يكن هناك من يتوقع أن يكون اقتصاد السوق العالمى عادلاً؛ إلا أنهم قالوا لنا إنه سيكون فعالاً على أقل تقدير. غير أن هذه الاتجاهات وغيرها تشير إلى أن هذا الاقتصاد لا هو بالعادل ولا الفعال.

وكتب جورج سوروس كتابًا رائعًا قويًا بعنوان: (On Globalization) عن العولمة [يمضى فيه إلى ما هو أبعد من مجرد وصف الفشل والترتيبات الدولية الحالية. ذلك أنه يقترح إصلاحات عملية ملموسة. ولأن سوروس حقق ثروته من أسواق رأس المال العالمية، فلا بد أنه يعلم عنها شيئًا. ولكن ما يجعل هذا الكتاب مؤثرًا بهذا القدر هو أن سوروس يربط هذا العلم بالإنسانية الموجودة فى كل شىء يعالجه.

وما يجعل بعض اقتراحاته على قدر كبير من الإقناع - وخاصة تلك المتعلقة بالمساعدات الأجنبية - هو أنه كان ولا يزال يعمل بناءً عليها. كما أنه كان ناجحًا كمستثمر اجتماعى بنفس القدر الذى حققه من نجاح كخبير فى الشئون المالية. فقد وضع ماله حيثما يكون فمه، كما يقولون، وكان لشبكته التى تضم مؤسسات المجتمع المفتوح تأثير ضخم، وخاصة فى أوروبا الشرقية - تأييدًا للمنشقين فى البداية ثم فى إقامة المؤسسات ما بعد الشيوعية مثل جامعة أوروبا الوسطى فى بودابست. وكان برنامجه فى مجمله أكثر نجاحًا بكثير من تلك البرامج الخاصة بمعظم الحكومات، بما فى ذلك الحكومة الأمريكية، وأكثر تأثيرًا منها بكثير.

ووضع سوروس فى عمله المبكر مفهوم المجتمع المفتوح الذى يلخصه كما يلى:

يقوم المجتمع المفتوح على الاعتراف بأننا نعمل على أساس من التفاهم المنقوص. فالكمال بعيد عن منالنا؛ ولا بد أن نرضى بالمجتمع المنقوص الذى ينفتح للتحسين. وقبول النقص المقترن بالبحث الدائم عن التحسين والاستعداد للخضوع للفحص النقدى هما المبدآن المرشدان لأى مجتمع مفتوح.

ما هو وجه الاختلاف بين الغطرسة والثقة الطاغية فى النفس التى تميز الكثير جدًا من مناقشات السياسة الاقتصادية، وخاصة على مستوى صندوق النقد الدولى وهو إحدى المؤسسات القوية التى يخصص لها فصل كامل. وحين يقارب سوروس كل قضية من القضايا، فإنه يقاربها بحرص وبحيدة وبهدوء. وهذا ما يضع هذا العمل من نواح كثيرة بعيدًا عن الكثير غيره مما كُتب عن العولمة. وهو حين يصف أشكال الظلم والجور الخاصة بالترتيبات الاقتصادية الدولية لا ينساق مع عاطفته. ذلك أن القصص تتحدث عن نفسها. وهو يترك القارئ - من خلال الإيجاز إلى حد كبير فى القول - وقد اقتنع بأن هناك ما ينبغى عمله ويمكن تحقيقه.

وسعيًا وراء توضيح ما فى العولمة من عيب، وخاصة فى المؤسسات الاقتصادية الدولية، يبحث سوروس فى هذا الكتاب الجديد عن الاقتراحات العملية والإصلاحات التى يمكن تبنيها بطريقة معقولة. وهو يعترف بكل تأكيد بأن هناك قوى سوف تعمل ضد التغييرات، وأن هناك مصالح خاصة فى الولايات المتحدة تستفيد من الترتيبات القائمة. ولكن إيمانه قوى بالمجتمع المدنى الكونى، وهو أحد أقوى مؤيديه. وقد تمكن المجتمع المدنى الكونى فى بعض الأحيان من التغلب على تلك القوى الراسخة. ففى عام ٢٠٠٠ دعت حركة اليوبيل، وهى ائتلاف دولى يضم النشطاء الاقتصاديين، إلى تخفيف ديون أكثر من عشرين من الدول الأكثر فقرًا فى العالم، ونجحت فى نيل ما أرادت.

ومن قبل وضع صندوق النقد الدولى عراقيل ضخمة فى سبيل تخفيف ديون الدول الفقيرة، بحيث لم يتمكن سوى عدد قليل منها من بلوغ المعايير التى وضعها. وكل من شاهد التغير فى المواقف، داخل المؤسسات ولدى الجمهور العام على مدى السنوات الخمس الماضية، لابد أن يعترف بقوة المجتمع المدنى الكونى. فمن الشائع الآن أن اتفاقيات التجارة الدولية التى كانت الولايات المتحدة تتباهى بها قبل بضع سنوات وحسب، تنطوى على ظلم كبير لدول العالم الثالث. وحيثما أذهب إلى اجتماعات لرجال الأعمال - سواء فى ندوات دافوس النخبوية أو الدوائر المالية فى نيويورك أو عالم وادى السيليكون للتكنولوجيا الفائقة - فإن الذين أراهم جميعًا يعترفون بظلم السياسات الحكومية الأمريكية ونفاقها. إلا أنهم أكثر انتقادًا لإساءة استغلال مصالح الآخرين الخاصة، سواء شملت الصلب أم المنسوجات أم الزراعة؛ وحين يتصل الأمر بمصالحهم هم فإنهم غالبًا ما يزعمون أن المعالجة الخاصة إما واجبة أو ضرورية.

«سوروس» ضمن فريق من الخبراء يتزايد أعضاؤه يعترف بقدرة العولمة على زيادة الثروة، فى الوقت الذى يعترف فيه كذلك بآثارها العكسية. والاتهام الذى يسوقه بسيط: فقد أضرت العولمة أناسًا كثيرين، وخاصة الفقراء فى العالم النامى. وشوهت العولمة تخصيص الموارد للمصالح الخاصة على حساب المصالح العامة

وسوروس ضمن فريق من الخبراء يتزايد أعضاؤه يعترف بقدرة العولمة على زيادة الثروة، فى الوقت الذى يعترف فيه كذلك بآثارها العكسية. والاتهام الذى يسوقه بسيط: فقد أضرت العولمة أناسًا كثيرين، وخاصة الفقراء فى العالم النامى. وشوهت العولمة تخصيص الموارد للمصالح الخاصة على حساب المصالح العامة. كما أن الأسواق المالية الكونية عرضة للأزمات. ولم يختلف إنسان نظر نظرة محايدة إلى عملية العولمة على مدى السنوات الأخيرة مع أى من عناصر هذا الاتهام.

وكانت أشكال الظلم المرتبطة بالعولمة واضحة من زمن بعيد لمن اهتموا بالعدالة الاجتماعية الكونية. ومنذ الأزمة المالية الكونية فى ١٩٩٧-١٩٩٨ - على أقل تقدير - وعدم استقرار العولمة يمثل مصدرًا لكثير من القلق. إلا أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر أضافت بعدًا جديدًا لجدل العولمة. وليست السلع والخدمات وحدها هى التى تتحرك بسهولة عبر الحدود. فحسابات بنوك الأوفشور السرية تُستخدم من أجل العديد من التحويلات غير المشروعة وتستحق قدرًا خاصًا من التمحيص. وهى مسئولة عن جزء من عدم الشفافية الذى ربما خدم غرض المصالح المالية المهمة خدمة كبيرة. كما أنها تُستخدم لغسل الأموال الخاصة بتجارة المخدرات، وتوفر كذلك آلية للمسئولين الفاسدين ينقلون بها الأموال خارج بلادهم، إلى جانب أنها تمكن الأغنياء من التهرب من دفع الضرائب، وتساعد فى الوقت ذاته على توفير التمويل للإرهاب، كما علمنا مؤخرًا.

وقبل الحادى عشر من سبتمبر، اعترضت وزارة الخزانة الأمريكية على جهود منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية OECD للحد من السرية التى تحمى تلك الحسابات - ومن الواضح أنها تحمى بذلك مصالح وول ستريت حماية كبيرة، بغض النظر عن التكاليف المفروضة على الآخرين فى النظام الكونى. بل إن وزارة الخزانة الأمريكية اضطرت بعد الحادى عشر من سبتمبر لتغيير موقفها. وبينما تتسم العلاقة بين الفقر والإرهاب بالتعقيد، ينكر البعض أن الفقر - وخاصة ارتفاع معدل البطالة بين الشبان - يوفر أرضًا خصبة ينمو عليها الإرهاب. وبذلك يصبح ضمان كون العولمة أكثر عونًا للفقراء ليس مجرد ضرورة أخلاقية، بل كذلك أمرًا ينبغى النظر إليه على أنه مسألة تتعلق بالمصلحة الذاتية.

وقد كُتب كتاب سوروس ببساطة تجعله تعريفًا ممتازًا بالمنظمات الاقتصادية الدولية، بما فى ذلك صندوق النقد الدولى ومنظمة التجارة العالمية والبنك الدولى. وفى الوقت الذى لا تتضح فيه صورة تلك المؤسسات وضوحًا تامًا فى أذهان العامة، فإنها مؤسسات مميزة ذات مهام وثقافات وسلطات حاكمة مختلفة. وهى جميعًا تقوم بدور مهم فى كشف دراما العولمة، وبذلك تتحمل الكثير من اللوم على فشلها. وهى كما يقول سوروس «تُدار لمصلحة الدول الغنية صاحبة السيطرة، الأمر الذى ينطوى فى كثير من الأحيان على إلحاق الضرر بالدول الفقيرة.....»

ويتضح من فشل صندوق النقد الدولى كمؤسسة أنه أسوأ المؤسسات. وكما يشير سوروس، فإنه «منذ أزمة ١٩٩٧-١٩٩٩... ليس لدى الإمبراطور ملابس تستره: فقد فشلت برامج صندوق النقد الدولى فى التأثير على الأسواق». وهو يرى، شأنه شأن معظم الاقتصاديين، أن السياسات التى كان صندوق النقد الدولى يدعو لها من قبل هذه الأزمة ساعدت على إحداثها، بالمضى أبعد مما يجب فى الإصرار على تحرير أسواق رأس المال، أى بتشجيع البلاد على قبول القروض طويلة المدى وقصيرة المدى دون أن تكون هناك ضوابط فعالة على آثارها المدمرة المحتملة (كان يسحب الدائن الأجنبى رأس المال فجأة). ويشير سوروس بكلامه المختصر المعهود إلى أن «صندوق النقد الدولى كان يقترح إدراج فتح أسواق رأس المال ضمن أهدافه الأساسية فى الوقت الذى اندلعت فيه الأزمة الآسيوية. ولم يُسمع الكثير عن ذلك الاقتراح منذ ذلك الوقت».

ودعا البعض إلى إلغاء المؤسسات الاقتصادية الدولية وهم يرون ما منيت به من فشل. إلا أن سوروس - بروح المجتمع المفتوح

George Soros on Globalization

جورج سوروس يتحدث عن العولمة

by: George Soros

Public Affairs, 2002, 160pp. $20.00

العملية ـ يعترف بأنه فى عالم العولمة الجديد، تزداد حاجة البلاد إلى العمل بشكل جماعى من خلال المؤسسات الدولية. وتستلزم العولمة قدرًا أكبر من الاعتماد المتبادل، ويتطلب الاعتماد المتبادل أن يكون هناك تعاون. وقدَّم سوروس حجة مقنعة بخصوص الحاجة إلى وجود قدر أكبر من الإنفاق على المصالح العامة الكونية، بما فى ذلك الصحة والتنمية الاقتصادية. وفى الوقت الذى نحن فيه بحاجة ماسة إلى المؤسسات الاقتصادية كصندوق النقد الدولى والبنك الدولى، نجد أن الثقة فى تلك المؤسسات فى أدنى معدلاتها. والحل ليس هو إلغاؤها، بل إصلاحها. ويخصص سوروس جزءًا كبيرًا من كتابه لاقتراح إصلاحات محددة من بينها مصدر جديد للتمويل ومقاربة جديدة للمساعدات الخارجية. وكلا الاقتراحين يبدو لى على درجة كبيرة من الأهمية.

اقتراح حقوق السحب الخاصة

أول إصلاح يقترحه سوروس معقد بعض الشيء. فالدول تحتفظ باحتياطى، هو فى المقام الأول الأموال الموجودة فى البنك لمواجهة أيام الشدة. وهى عادة ما تحتفظ بهذا الاحتياطى فى خزانة، فى صورة سائلة ـ سندات الخزانة الأمريكية. والاحتفاظ بالاحتياطى مسألة مكلفة بالنسبة للدولة النامية؛ وهى اليوم تكسب أقل من ٢ بالمائة عن سندات الخزانة الخاصة بها، بينما هناك عائد أعلى من ذلك بكثير على الاستثمار داخل بلادها. والفرق بين عائد سندات الخزانة الأمريكية وعائد الاستثمارات الأخرى هو الثمن الذى لا بد أن تدفعه للاحتفاظ باحتياطى كاف لحماية أنفسها من التذبذب الشديد فى الأسواق العالمية. فقد ترتفع أسعار الفائدة بين عشية وضحاها، لأسباب لا علاقة لها بما يجرى فى بلدهم؛ إذ ربما ترتفع أسعار الواردات، كالبترول، ارتفاعًا حادًا، بينما قد تنخفض أسعار ما تبيعه الدولة هبوطًا شديدًا. أو قد تجد الدولة أن سوق سلعها تهبط هبوطًا سريعًا حين يحل كساد كونى. وقد ترتفع أسعار الصرف أو تهبط بنسبة ٥٠ بالمائة أو يزيد، لأسباب لا سبيل إلى تفسيرها، حتى بالنسبة لمن يسمون بالخبراء. ومن بين التكاليف التى كان يتعين عليها دفعها هو ادخار المزيد من المال بالاحتياطى منخفض الفائدة.

وكانت الولايات المتحدة ولا تزال أحد أقوى مؤيدى العولمة وسياسات مثل تحرير أسواق رأس المال، التى تجعل البلاد عرضة بصورة كبيرة للمخاطر التى ذكرتها. فى الوقت الذى استفادت فيه الولايات المتحدة من الطلب المتزايد على احتياطيات الدولار، بينما دفعت الدول النامية ثمنًا باهظًا للحصول عليها.

بل إن هناك ميلاً انكماشيًا كامنًا فى تلك الترتيبات الدولية، حيث إنه فى كل عام لا تنفق مليارات الدولارات من الدخل، بل تحفظ وحسب فى الاحتياطيات السائلة. كما يكمن عدم الاستقرار فى النظام. ويحذر صندوق النقد الدولى (وغيره) الدول النامية باستمرار من العجز التجارى. ولكن لا بد أن يساوى مبلغ العجز التجارى مبلغ الفائض؛ ولذلك فإنه فى حالة إصرار بضع دول كبيرة، كاليابان والصين، على أن يكون لديها فائض، فلا بد أن يكون لدى سائر دول العالم عجز. وإذا قللت بعض الدول عجزها (كما فعلت كوريا بعد أزمة ١٩٩٧)، فلا بد أن يظهر العجز فى مكان آخر من النظام. وحين تجد دولة من الدول نفسها تعانى من عجز كبير، فإنها قد تواجه أزمة. وإذا باع المستثمرون عمل هذه الدولة، فإن بنكها المركزى قد يضطر إلى رفع سعر الفائدة كى يمنع العملة من السقوط سقوطًا حادًا. وقد تبطئ أسعار الفائدة المرتفعة نمو البلد وتحدث انكماشًا.

والشيء الوحيد الذى يجعل النظام مستمرًا فى عمله على أى الأحوال هو أن الولايات المتحدة، وهى أغنى دولة فى العالم، أصبحت «عجز الملاذ الأخير». وهذه هى المفارقة المطلقة: فالنظام المالى يسمح للولايات المتحدة بالعيش عامًا بعد آخر فيما هو أكثر مما لديها من وسائل، حيث تشترى من الخارج سلعًا أكثر بكثير مما تبيع، حتى حين تقدم وزارة الخزانة الأمريكية النصح للآخرين، عامًا بعد آخر، بشأن أسباب ضرورة عدم القيام بذلك. وتتعدى القيمة الإجمالية للفوائد التى تحصل عليها الولايات المتحدة من النظام المالى الحالى إجمالى المساعدات الخارجية التى تقدمها واشنطن بمبالغ ضخمة. فيا له من عالم غريب حقيقة أمره أن الدول الفقيرة هى التى تدعم أغنى دولة، التى يتصادف فى الوقت ذاته أنها بين أكثر الدول تقتيرًا من حيث تقديم المساعدات فى العالم. فكما يوضح سوروس، تمثل «قيمة المساعدات الخارجية ٠,١ بالمائة من إجمالى الناتج المحلى فى الولايات المتحدة الأمريكية، مقارنة بحوالى ٣ بالمائة فى زمن مشروع مارشال».



هناك ترتيب بديل ـ وهو ترتيب موجود بالفعل وجودًا جزئيًا. فبإمكان المجتمع الدولى إصدار نوع خاص من الاحتياطى النقدى يسمى «حقوق السحب الخاصة» SDRs، وإن كان من الممكن إعطاء اسم آخر لهذه الأموال، مثل أوراق النقد الكونية أو TERRAs. فالدول تضع العملات فى أقبيتها وحسب. وما يجعل لهذه الأموال قيمة هو مبادلة الدول الأخرى عملاتها بحقوق السحب الخاصة هذه: وهى بطبيعة الحال لن تسحب من احتياطياتها إلا فى أوقات الشدة. فالأمر أشبه بالجمعية التعاونية، إذ يكون لكل عضو فى الجمعية الحق فى أن يسحب من الدول الأخرى مبلغًا مساويًا لتلك الاحتياطيات.

وإصدار قدر معقول من حقوق السحب الخاصة قد لا يؤدى إلى حدوث تضخم: إلا أنه قد يوفر اعتمادات لدعم المصالح العامة كالرعاية الصحية والتعليم ويساعد فى تمويل التنمية. وتمشيًا مع تأكيد سوروس على

حاربوا الفقر والجهل أيضا

الإصلاحات العملية المعتدلة، يقترح الاستفادة من حقوق السحب الخاصة التى صرح بإصدارها صندوق النقد الدولى بالفعل - وهو ينتظر فقط إقرار الولايات المتحدة لها. وهو يقترح كذلك موافقة الدول المتقدمة على المساهمة فى تخصيص حقوق السحب الخاصة لتوفير المصالح العامة الكونية، بما فى ذلك التنمية.

وحظى هذا الاقتراح المهم الذى يتسم بالبساطة والعملية بتعاطف الكثير من الحكومات والمؤسسات المالية فى أنحاء العالم. كما روَّج له سوروس ترويجًا نشطًا، وساهمت أنا فى مناقشات تتعلق به مع العديد من الحكومات. وانتقادى الوحيد هو أنه لا يحقق الكثير - ربما لأنى مثالى أكثر من اللازم. فمجرد تحقيق الأهداف المتواضعة التى اتفق عليها المجتمع الدولى بالفعل - مثل خفض معدل الفقر والأمية بمقدار النصف بحلول عام ٢٠١٥ - سوف يتطلب زيادة قدرها ٥٠ مليار دولار سنويًا عما ينفق حاليًا. وقد يوفر اقتراح سوروس ٢٧ مليار دولار لمرة واحدة. ولكن ما ذكرته من ظلم وعدم استقرار سوف يستمر، ولن يعالج مخصص لمرة واحدة هذه المشاكل الأكثر أهمية.

وأعتقد أن هناك سبلاً عملية يمكن بها إقناع الولايات المتحدة، أو غيرها ممن قد يترددون لولا ذلك فى المساهمة، بأن تنحو هذا المنحى. فعلى سبيل المثال، إذا وافق من يشاركون فى المشروع على أن يحتفظوا فقط باحتياطيات من عملاء المشاركين الآخرين، فسوف يضغط ذلك على الولايات المتحدة - ومعها الدول الأخرى التى تستخدم عملاتها كاحتياطيات - كى تنضم.

إصلاح المساعدات الخارجية

كُتب (أو بالأحرى ورد على الألسنة) فى الفترة الأخيرة الكثير من الكلام الفارغ فيما يتعلق بفاعلية المساعدات الخارجية. وأشار وزير الخزانة الأمريكية إلى أنه ليس ضد تقديم المساعدات؛ فما يريده ليس سوى التأكد من أن الأموال تنفق بطريقة صحيحة، وهو يشير إلى أنه لا بد أن يرى ما يدل على إنفاق المساعدات بطريقة صحيحة. وإذا كان الحال كذلك، فهو لم يبحث عن هذا الدليل. فقد رأيت، من خلال خبرتى فى البنك الدولى وغيره، مشروعات رى تسمح للمزارعين الفقراء بمضاعفة دخولهم مرتين أو ثلاث مرات عن طريق زراعة محصولين وثلاثة محاصيل فى السنة، بينما كانوا قبل ذلك لا يزرعون سوى محصول واحد. وقد شهدت مشروعات تعليم ريفى لتعليم أطفال العمال المهاجرين القراءة والكتابة، مما يتيح خروج الأطفال من دائرة الفقر المفرغة. كما رأيت برامج صحية تزيد متوسط العمر وتقضى على أمراض مثل عمى النهر. وإذا لم ينفق كل دولار إنفاقًا جيدًا، فإن هذا يصدق على كل برنامج فى القطاع العام أو القطاع الخاص.



ويقترح جورج سوروس مجموعة من الإصلاحات الخاصة بزيادة فاعلية المساعدات الأجنبية. وهو يقارب المشكلة من منظور استثمارى، وبما يبدو لى أنه فهم ثاقب.

كى تنجح «سوق» المساعدات الخارجية، من المهم أن ندرك أنها لا بد أن تقل كفاءة عن السوق العادية.... وليس هناك معيار للنجاح أشبه بحساب المكسب والخسارة فى التجارة. وهناك بعض الأهداف التى يمكن قياسها بالمؤشرات الكمية كمعدل الوفيات أو معرفة القراءة والكتابة، إلا أنه قد يكون فى قصر الأهداف على تلك التى لها مؤشرات كمية تقييد وتشويه.

وتجمع مقترحاته بين استخدام صناديق الائتمان التى يديرها بشكل جزئى برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة، وإشراك أفضل الخبرات المتاحة، والاعتماد على المنظمات غير الحكومية. وهو مصيب فى إشارته إلى أن الكثير من المساعدات الخارجية فى الوقت الراهن تعوق حركتها شرط مرورها عبر الحكومات التى لا تتفق أجنداتها ومصالحها فى كل الأحوال مع مساعدة فقراء العالم. (كما لا تتفق معها أجندات ومصالح بعض المؤسسات الاقتصادية الدولية التى تشكلها الحكومات.) وأظهرت مؤسسات المجتمع المفتوح الخاصة بسوروس أن هناك أملاً فى مشروعات المساعدات الفعالة فى الدول ذات الحكومات الديمقراطية.

النظام المالى الكونى

ليس مستغربًا أن تتعلق أكثر نظرات سوروس نفاذًا بالنظام المالى. وهو يبدأ بنقد لكل من الترتيبات المالية الكونية الحالية والنصائح السياسية التى يقدمها صندوق النقد الدولى ووزارة الخزانة الأمريكية. والواقع أن سوروس يشير إلى أن المشكلة تكمن فى أيديولوجيا السوق الأصولية الخاصة بها، أى الإيمان بالأسواق الحرة التى لا يقيدها قيد، وهو الإيمان الذى لا تعضده نظرية حديثة ولا تسانده تجربة تاريخية. وكان من السهل وسط أزمة شرق آسيا أن يلقى باللوم فيما يتعلق بالمشاكل على الفشل الداخلى فى دول كتايلاند وإندونيسيا - حيث انعدام الشفافية ورأسمالية المحاسيب. وقد أُسكتت تلك الآراء إلى حد كبير فى أعقاب ما شهدته السنوات الأخيرة من فشل وفضائح، بما فى ذلك الانهيار المفاجئ لشركة إنرون، وإنقاذ إدارة رأس المال طويلة المدى الذى جرى تنسيقه بشكل عام وتمويله بشكل خاص، وكشف الاستغلال الإجرامى لحسابات بنوك الأوفشور. كما أنها تشير إلى أن ماليزيا، التى أقرت قروضًا على رأس المال، عادت بسرعة إلى النمو بقدر أقل من ميراث الدَّيْن؛ وكانت فترة انكماشها أقصر وأكثر ضحالة من تلك الدول التى اتبعت نصائح صندوق النقد الدولى.



ويوضح سوروس أن الحال بالنسبة لتحركات رأس المال أقل وضوحًا بكثير من حال التجارة الحرة. بل إنه مضى إلى ما هو أبعد من ذلك بقوله إن هناك أدلة على أن تحرير أسواق رأس المال يؤدى إلى زيادة المخاطر، ولكنه لا يؤدى إلى زيادة النمو الاقتصادى. ويوضح سوروس شيئًا يعرفه معظم مراقبى فقاعة سوق الأوراق المالية الأخيرة معرفة حدسية، فى حين ينكره أصوليو السوق: «لو تُركت الأسواق المالية لأجهزتها فإنه من المحتمل أن تشتط وتنهار فى نهاية الأمر». ووثق روبرت شيلر فى كتابه Irrational Exuber ance الحيوية غير المنطقية) ميل الأسواق هذا إلى التذبذب الزائد. ويقول سوروس إن تاريخ الرأسمالية هذا «تخلله الأزمات». وهذه المشكلة ليست جديدة، كما يقول. والشىء الاستثنائى فيما يتعلق بشرق آسيا - كما كتبت أنا من قبل - ليس أنه تعرض لأزمة فى النهاية، بل إنه أمضى فترة طويلة دون أى هبوط اقتصادى خطير. كما يشير سوروس إلى أن الدول النامية على «هامش» النظام هى التى تعانى أكثر من غيرها. وهو يقول إن مشكلة الإصلاح تكمن فى هذا. وهؤلاء الذين يؤمنون بأصولية السوق «يترددون فى قبول إمكان الانتقاص من قيمة النظام بشكل كبير حين يعمل بشكل جيد من أجل من يتولون المسئولية».

وانتقادات سوروس لكثير من إصلاحات صندوق النقد الدولى المقترحة مدمِّرة. فهو مقنع حيث يقول إن المشكلة الأساسية فيما يتعلق بسياسة صندوق النقد الدولى لم تكن، كما أكد البعض، مجرد مشكلة «مخاطرة أخلاقية» - فحقيقة الأمر أن عمليات الإنقاذ التى قام بها صندوق النقد الدولى أغرت المقرضين على التحلى بالقدر الكافى من الدأب والمثابرة عند تقديم القروض. ولم يكن مستغربًا كذلك أن استراتيجية صندوق النقد الدولى سيئة التخطيط الخاصة بإجبار القطاع الخاص على المشاركة فى عمليات الإنقاذ منيت بالفشل فى أغلب الأحوال؛ وهى مهجورة منذ ذلك الوقت. ومن المؤكد أن صندوق النقد الدولى لم يجرب الاستراتيجية إلا على الدول الضعيفة مثل رومانيا والإكوادور، وليس على روسيا.

وبما أن الثقة فى صندوق النقد الدولى تراجعت بسبب هذا الفشل، فقد جرَّب ما بدت أنها استراتيجية سياسية جريئة - فقد قال نائب مديره العام الأول إنه ينبغى تحسين سلطته بجعله مقرض الملاذ الأخير، أى فى حالة عجز الدول عن الوفاء بالتزاماتها، أو حين توشك على ذلك. وكما يشير سوروس ببساطة وقوة، فإن «صندوق النقد الدولى لا يمكنه القيام بدور مقرض الملاذ الأخير، إذ ليست له السيطرة على الأنظمة المصرفية المحلية. وقد يعنى العمل بمقتضى ذلك توقيع شيك على بياض». وهناك مغالطات أخرى فى الزعم بأنه ينبغى على صندوق النقد الدولى أن يكون مقرض الملاذ الأخير، إلا أن حجة سوروس الأساسية غير كافية؛ فلماذا نهاجم النقطة حين تكون الملاحظة المدمرة البسيطة كافية لإثارة الشك فى الاقتراح؟



وفى بعض الحالات لا يحتاج سوروس إلى تقديم أية حجة، حيث تروى الأحداث نفسها كل شىء. وبعد أزمة شرق آسيا، كانت ما تسمى حكمة صندوق النقد الدولى ووزارة الخزانة الأمريكية هى «نظرية الركنين» - فالدول ينبغى أن تكون لديها أسعار صرف ثابتة كل الثبات أو مرنة كل المرونة. وساهم ذلك الاعتقاد الخاطئ إلى حد ما فى الانهيار الأرجنتينى، عن طريق تقديم الدعم لهؤلاء الذين كانوا يريدون الحفاظ على نظام سعر الصرف الذى كان محكومًا عليه بالفشل. فقد فشلت محاولة الأرجنتين فى الحفاظ على سعر صرف يرتبط ارتباطًا شديدًا بالدولار، مما أدى إلى هروب رأس المال من ذلك البلد. إلا أن من هم أقل اقترانًا بأيديولوجيا السوق الأصولية كانوا يعترفون باستمرار بأن فكرة الركنين هذه تتسم بالسخف، ولا تقوم على نظرية ولا على أدلة - وهذا هو السبب فى أن «جماعة الشخصيات البارزة» Eminent Persons Group الخاصة بزعماء العالم الاقتصاديين، التى تدعمها مؤسسة فورد، رفضت موقف صندوق النقد الدولى (ووافقت إلى جانب ذلك على الكثير من الآراء الأخرى التى عرضها سوروس).

ويقول أصوليو السوق، الذين يعتقدون أن الأسواق غير المحررة سوف تؤدى دائمًا وفى كل مكان - من تلقاء نفسها وبدون التدخل الحكومى - إلى نتائج مؤثرة ومرغوبة اجتماعيًا، إن ما وقع من أخطاء بالنسبة للأسواق كان «حكوميًا إلى حد كبير» فى صورة عمليات الإنقاذ. ولو تركت الأسواق لنفسها، لعملت بطريقة لا بأس بها. وهنا يبدو لى سوروس مقنعًا حين يقول: «لا حاجة إلى تغيير النظام، إلا إنه لا يكفى القضاء على الخطر الأخلاقى». كما يقول إنه لا بد من عمل شىء «لموازنة العيوب المتأصلة» فى الأمم التى على الهامش «وخلق ملعب أكثر استواء».

تتعدى القيمة الإجمالية للفوائد التى تحصل عليها الولايات المتحدة من النظام المالى الحالى إجمالى المساعدات الخارجية التى تقدمها واشنطن بمبالغ ضخمة. فيا له من عالم غريب حقيقة أمره أن الدول الفقيرة هى التى تدعم أغنى دولة، التى يتصادف فى الوقت ذاته أنها بين أكثر الدول تقتيرًا من حيث تقديم المساعدات فى العالم



إنى أتفق بشدة مع روح اقتراحين من الاقتراحات - وهما أنه ينبغى على الدول الصناعية الأكثر تقدمًا أن تستوعب قدرًا أكبر من المخاطر (بما فى ذلك ما هو من خلال المؤسسات المالية الدولية) ولا بد من عمل ترتيبات أفضل للتعامل مع الإفلاس الدولى، بما فى ذلك «اتفاقيات التجميد»، أى تأجيل سداد الديون. وقد ناديت أنا وآخرون منذ زمن بعيد بذلك. ويشير سوروس إلى أن النتائج فى شرق آسيا كانت ستصبح أفضل بكثير لو أنه استفيد استفادة أكبر من تلك الآليات بدلاً من عمليات الإنقاذ الكبيرة التى أتيحت من خلالها مبالغ ضخمة لتسديد الديون والحفاظ على سعر الصرف المغالى فى تقديره. ورغم ما أبدته الأرجنتين مرة أخرى من فشل لاستراتيجية عمليات الإنقاذ الكبيرة، كان صندوق النقد الدولى يبحث فى مكان آخر عن حلول. وتستحق مبادرته الأخيرة المتعلقة باتفاقيات التجميد والإفلاس اهتمامًا جادًا. ولكن ما يؤسف له أنه يبدو أن وزارة الخزانة الأمريكية دمجت ما بدا أنه بحث حقيقى فى إصلاح له أهميته.

والواقع أن سوروس يشير إلى التباطؤ الواضح فى تدفقات الأموال إلى الأسواق الناشئة بعد أزمة ١٩٩٨ حين يقول: «إذا ما أخذنا فى الحسبان كلاً من الإقراض المقيم واستثمار المحافظ وتدفقات الائتمان الخاص لوجدنا أن هناك بالفعل تدفقًا صافيًا إلى الخارج من الأسواق الناشئة منذ عام ١٩٩٧، من ٨١,٧ مليار دولار إيجابى عام ١٩٩٦ إلى ١٠٦ مليارات دولار سلبى عام ٢٠٠٠، وهو ما عوضته التدفقات الأكبر قليلاً من الاستثمار الأجنبى المباشر والتمويل الرسمى». وهذا موقف غريب، وهو محير إلى حد كبير بالنسبة لأى إنسان يعتقد أن مشكلة التنمية الأساسية هى نقص التمويل. ومن بين المقصود من مقترحات سوروس تسهيل استئناف تدفق الائتمان.

إلا أننى أظن أن الحجة القائلة بأن التدفقات المالية (مقابل الاستثمار المباشر الأجنبى) كان لها أثر إيجابى قوى على النمو - مع أخذ كل الأمور فى الاعتبار - تبدو أقل وضوحًا. فالاستثمار المباشر الأجنبى - على الأقل فى بعض القطاعات وحين يفهم فهمًا صحيحًا - يخلق فرص العمل، ويوجد سبل الوصول إلى الأسواق، ويأتى معه بالتكنولوجيا الجديدة. إن «الاستثمار» الأجنبى فى القروض قصيرة المدى فيه مخاطرة بالنسبة للدولة النامية، إذ قد يغير الأجانب آراءهم بين عشية وضحاها. وربما توفر الأسواق النظام، ولكنها مع حبها للنظام الصارم تتسم بعدم الاستقرار والتذبذب: فهى تغض الطرف عن الخطايا الكبيرة فى بعض الأحيان، وتدفع الدول فى أحيان أخرى إلى الوقوع فى خطايا الآخرين. ومن المؤكد، كما أشرت من قبل، أن الأدلة التى حصلنا عليها من الدول التى أخضعت نفسها لـ «نظام» تدفقات رأس المال قصيرة المدى ليست مشجعة.

التجارة الدولية ومنظمة التجارة العالمية

كان الغرض من اجتماع منظمة التجارة العالمية فى سياتل عام ٢٠٠٠ هو بدء دورة جديدة من المفاوضات التجارية التى تزيل أكثر وأكثر الحواجز التى تقف أمام التجارة فى أنحاء العالم. إلا أن المظاهرات هناك عبرت عن الاستياء من فهم منظمة التجارة العالمية للعولمة؛ وأقل ما يمكن أن يقال عنها إنها لفتت نظر الجماهير إلى بعض القضايا الأكثر إلحاحًا. ولا يزال ظلم النظام الراهن، الذى ازداد حدة فى الدورة السابقة من مفاوضات التجارة العالمية، بحاجة إلى أن يرفع. فعلى سبيل المثال، فإنه بينما يمكن لسلع الدول الغنية أن تتدفق بلا قيد إلى الدول الفقيرة، قد تجد الدول الفقيرة أنه من الصعوبة بمكان أن تبنى اقتصاداتها، بسبب التنافس القوى من الواردات. وفى الوقت ذاته نجد أن الدول الغنية، التى تمتدح رسميًا التجارة الحرة، كثيرًا ما تستعمل التعرفة الجمركية والدعم للحد من الواردات من الدول الفقيرة، مما يحرم تلك الدول من التجارة التى هى بحاجة إليها كى تخفف من وطأة الفقر وتسعى لتحقيق نموها الاقتصادى.

ويكاد يكون هناك اتفاق عالمى على ضرورة معالجة ذلك الظلم: وكانت دورة المفاوضات التى بدئت فى الدوحة بقطر فى نوفمبر عام ٢٠٠١ (بعيدًا عن المتظاهرين الذين تجمعوا فى سياتل وجنوة) تسمى «دورة التنمية». وتبين الحاجة إلى ممارسة الكثير من الضغط والإقناع على الدول المتقدمة، كى توافق ولو على مناقشة بعض هذه القضايا الأساسية، مدى صعوبة حلها.

ولا يقدم سوروس معالجة شاملة للجدل الدائر حول التجارة الحرة، ولكن ما يقوله ينبغى أن يقرأه كل من له اهتمام بالعولمة. فهو على سبيل المثال ينتقد «مقاييس الاستثمار المتصلة بالتجارة»، التى قيل إنها واحدة من «منجزات» دورة أورجواى للمفاوضات التى استكملت عام ١٩٩٤، انتقادًا حادًا. فقد قُصد بهذه المقاييس منع ممارسة الدول النامية للتمييز ضد الشركات المتعدية للقومية؛ حيث كان يطلب فى بعض الحالات من الشركات شراء قدر معين من سلعها الرأسمالية من السوق المحلية. وكان المقصود بمقاييس الاستثمار المتصل بالتجارة تحريرها من تلك الالتزامات. ويقول سوروس إن تلك المقاييس المقصود بها توفير ملعب مستو بين المشروعات الأجنبية والمحلية. وهذا فى ظاهره هدف له قيمته. ولكن الحقيقة هى أنه فى عالم يتمتع فيه رأس المال بحرية الحركة يكون الملعب مائلاً ميلاً شديدًا لمصلحة المستثمرين الدوليين والشركات المتعدية للقومية. والإجراءات الجديدة تؤسس التحيز وتكرسه.

ويتفق سوروس مع الخبراء الدوليين مثل جاجديش باجواتى فى الشك فى تدخل منظمة التجارة العالمية فى حماية حقوق الملكية الفكرية. وهو يقول:

لا بد من حماية براءات الاختراع وحقوق الملكية، ولكن هذه الحماية لا تشكل قيدًا على التجارة. فما هو مقدار الحماية التى يمكن تبريرها؟ تختلف طريقة الحساب بالنسبة للدول المتقدمة تكنولوجيًا التى تستفيد من الابتكارات عن تلك الخاصة بالدول الأقل تقدمًا التى عليها أن تدفع ثمنها. وكانت حقوق الملكية الفكرية تحتل مكانًا متقدمًا على جدول الأعمال الأمريكى، وكان لدى الدول الأقل تقدمًا سبب كى تشعر بالاستياء من الشكل الذى اتخذته حقوق الملكية الفكرية المتصلة بالتجارة.

وحين كنت عضوًا بمجلس المستشارين الاقتصاديين فى حكومة كلينتون، كنا (ومعنا مكتب سياسة العلوم والتكنولوجيا) نخشى أن يكون وزير التجارة الأمريكى، الذى يتفاوض على تلك الاتفاقيات «باسم» الولايات المتحدة، يضغط من أجل ترتيبات خاصة بحقوق الملكية الفكرية قد تكون لها آثار ضارة. وكانت الولايات المتحدة تعكس مصالح شركات الأدوية أكثر مما تعكسه، على سبيل المثال، آراء الباحثين أو من يخشون أن تصل القوانين الحاكمة للملكية الفكرية بالنمو إلى أقصى حد له. وأولى وزير التجارة الأمريكى اهتمامًا ضئيلاً بمخاوفنا - ناهيك عن مخاوف العالم النامى. وكما يقول سوروس، فإن «منظمة التجارة العالمية فتحت صندوق باندورا (صندوق الشرور) حين شاركت فى حقوق الملكية الفكرية. وإذا كانت حقوق الملكية الفكرية موضوعًا يتناسب مع منظمة التجارة العالمية، فلِمَ لا تتناسب معها حقوق العمال وحقوق الإنسان؟»

وفيما يتعلق بالتمويل ومساعدات التنمية، يعترف سوروس مرارًا بأهمية المؤسسات الدولية، وهو يقول: «منظمة التجارة العالمية مؤسسة ذات قيمة كبيرة. ولو لم تكن موجودة لكان إيجادها واجبًا». ولكنه لا يجد غضاضة فى انتقادها أو الترويج للإصلاحات. وبينما يشعر كثيرون هنا أنه لم يصل إلى المدى الذى كان ينبغى عليه الوصول إليه، فقد جمَّع أجندة «حد أدنى» يمكن أن يلتف حولها هؤلاء الذين يريدون رؤية فلاح النظام الكونى - والعمل من أجل الفقراء.

القيم الكونية

صحيح أن كتاب سوروس عن الاقتصاد. ولكنه، شأنه شأننا جميعًا، أثرت فيه أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وأدت تلك الأحداث إلى نسق أعرض من التأملات - فى كل من السياسة والطبيعة البشرية. وهو يشير إلى أننا «لا يمكن أن نحمى» أنفسنا من الأخطار الجديدة «عن طريق زيادة التفوق العسكرى على الدول الأخرى».

ولا تتطلب الزعامة الكونية أن نكون معارضين لشىء ما وحسب، بل إنها تستلزم أن نكون مؤيدين لشىء ما. إن لدينا تحالفًا ضد الإرهاب. ولا بد أن يكون لدينا كذلك تحالف من أجل المزيد من العدل الكونى وبيئة كونية أفضل. لقد جعلتنا العولمة على قدر أكبر من الاعتماد المتبادل، وهذا الاعتماد المتبادل يوجب القيام بعمل جماعى كونى. ولا بد أن تكون للولايات المتحدة الريادة فى توفير المصالح العامة الكونية - بما فى ذلك القانون والنظام. وينبغى عليها أن تعمل من أجل تحقيق الإصلاحات فى النظام الاقتصادى العالمى، فى منأى عن «إجماع واشنطن» - «نموذج» أصولية السوق الذى يتحرك بدافع أيديولوجى. ولكن سوروس يوضح كذلك أنه لكى تكون الزعامة للولايات المتحدة لا بد من حدوث بعض التغييرات الضخمة:

لا بد لنا من التخلى عن السعى الأرعن من أجل تحقيق المصالح الذاتية الضيقة والاهتمام بعض الشىء بمستقبل البشرية.... إننا بحاجة إلى إعادة التأكيد على الأخلاق وسط همومنا اللاأخلاقية. وقد يكون من السذاجة توقع تغير فى الطبيعة البشرية، إلا أن البشر قادرون على تجاوز السعى لتحقيق المصلحة الذاتية الضيقة. والواقع أنه لا يمكنهم العيش بدون شىء من الإحساس بالأخلاق. إنها أصولية السوق التى تعتبر أن بالإمكان خدمة المصلحة الاجتماعية كأحسن ما تكون الخدمة بالسماح للناس بالسعى لتحقيق مصلحتهم الذاتية دون التفكير فى المصلحة الاجتماعية التى هى شذوذ عن الطبيعة البشرية - فالمصلحتان متطابقتان.

وفى نفس الاتجاه ينهى سوروس كلامه بالتأكيد على الفكرة التى تتكرر فى مواضع مختلفة من كتابه - وهى أن التعاطف هو الآخر مسألة واقعية براجماتية:

لا يمكن للحرب ضد الإرهاب أن تنجح ما لم نضع تصورًا لعالم أفضل. فلا بد أن تقود الولايات المتحدة المعركة ضد الفقر والجهل والقهر بنفس الأهمية والتصميم والالتزام بالموارد كالحرب على الإرهاب. ■

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
May 23, 2002
ترجمة: أحمد محمود

لم يكن مستغربًا أن استراتيجية صندوق النقد الدولى سيئة التخطيط الخاصة بإجبار القطاع الخاص على المشاركة فى عمليات الإنقاذ منيت بالفشل فى أغلب الأحوال؛ وهى مهجورة منذ ذلك الوقت. ومن المؤكد أن صندوق النقد الدولى لم يجرب الاستراتيجية إلا على الدول الضعيفة مثل رومانيا والإكوادور، وليس على روسيا



فـــــــاروق عبــدالقـــــادر

يستكمل الكاتب قراءته، للمشهد الأدبى الجديد فى مصر، والتى بدأها فى العدد الماضى من مجلة «الكتب.. وجهات نظر» ويلقى الضوء، عرضا ونقدًا وتحليلاً واستشرافا، على مجموعة من الأعمال الروائية التى صدرت فى الفترة الأخيرة.

المحــــرر





سانت تيريزا

رواية

بهاء عبد المجيد

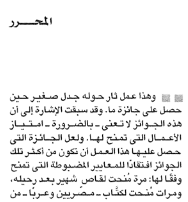
دار شرقيات للنشر والتوزيع



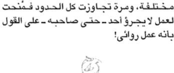
فى الرواية المصرية الجديدة

نماذج مختارة

«٢»



وهذا عمل ثار حوله جدل صغير حين حصل على جائزة ما. وقد سبقت الإشارة إلى أن هذه الجوائز لا تعنى ـ بالضرورة ـ امتياز الأعمال التى تمنح لها. ولعل الجائزة التى حصل عليها هذا العمل أن تكون من أكثر تلك الجوائز افتقادًا للمعايير المضبوطة التى تمنح وفقًا لها: مرة مُنحت لقاص شهير بعد رحيله، ومرات مُنحت لكتَّاب ـ مصريين وعربًا ـ من أجيال مختلفة، وعن أعمال صدرت فى أعوام مختلفة، ومرة تجاوزت كل الحدود فمُنحت لعمل لا يجرؤ أحد ـ حتى صاحبه ـ على القول بانه عمل روائى!



مرة ثانية: لا عليك من هذا كله. العمل هو «أوراق النرجس» رواية سمية رمضان الأولى (بعد مجموعتين من القصص القصيرة). إن شئت وصفًا موجزًا لتلك الرواية أمكنك القول أنها رواية «نخبوية ELITIST»، وربما رأيت هذه الكلمة الواحدة تسرى على موضوع الرواية وصياغتها ولغتها جميعًا. العمل كله يأتينا من وعى الراوية ـ وهو وعى معطوب، لو صح التعبير ـ ينتقل بحرية ـ دون روابط منطقية معظم الأحيان ـ بين خبرات ماضيها ووقائع حاضرها. سوف نعرف أنها تنتمى لعائلة من أصول طبقية عليا، تتلقى تعليمها فى مدرسة أجنبية، تتصارع فى وعيها، وذاكرة طفولتها، الأساطير ذات الأصول الإغريقية والأوروبية، وحكايات مربيتها «آمنة» ذات الطابع الفولكلورى، لتصبح السيادة ـ وهى شابة تدرس الأدب الإنجليزى فى «دبلن» أربع سنوات ـ لمفردات الثقافة الأوروبية بوجه عام، الإنجليزية بوجه خاص، الأيرلندية بوجه أخص (قد يكون مفيدًا هنا القول إن الكاتبة نفسها دارسة ومدرِّسة للأدب الإنجليزى).

لنقترب من ملامح الراوية أكثر، فهى الرواية كلها أو تكاد، لأننا لا نرى الشخصيات الأخرى ـ وهى قليلة، بالضرورة. فى رواية تتجاوز المائة بعدة صفحات ـ إلا من خلال وعى الراوية، وموقفها النفسى تجاهها يعطيها ألوانها، وهى ـ منذ البداية ـ منقسمة، منفصمة، تحس باغتراب راسخ عمن حولها وعما حولها، تعيش فى ذاتها عسيرة الألفة، ولا تنى تتساءل: «لماذا لا ينضبط لديها ما يبدو منضبطًا لديهم؟»، والمسألة أعمق من أن تكون انفصامًا بين ثقافتين، وإن كان هذا الانفصام واردًا. تقول الراوية معقبة على حكاية من الفولكلور حكتها لها «آمنة»: «ومع هذا كانت الحكاية تنتهى نهاية سعيدة كل مرة، لم يكن بها غيلان مثل الحكايات الإغريقية، ولم يكن بها أناس يضعون الأطفال فى الفرن كما فى حكاية «هانز جريتيل» ولم تكن الأخطار تحيق بالصغار الطيبين من قبل كبار أشرار كما فى «بلانش ينج»... إلخ»، لعل هذا الانفصام هو ما ستحمله الراوية معها إلى «دبلن» وما ستعمِّق منه الهوة الشاسعة بين تصورها لوطنها وتصور المحيطين بها لهذا الوطن (لاحظ أن اسمها «كيمى»)، حتى تدور رأسها: «أين من كل هذا مصر؟ وعدتُ أراجع عنوان المحاضرة، كان كما قرأت من قبل، كان عن تاريخ مصر الحديث: آه يا كيمى، قصة لم تُجمع، لم تُسرد، ولم تُغَن إلا مشرذمة، استلبوكِ فصاروا منك، هل صرتِ أنتِ منهم؟ فى كيانها وداخل دماغها حربٌ أهلية بين كل الأمصار، وهى كل الأمصار»، ولعل هذا ما سيودى بها ـ فى النهاية ـ إلى «مستشفى سانت باتريك للأمراض النفسية والعصبية»، حيث تقضى زمنًا تُعالج بالصدمات الكهربية و«الليثيوم»، قبل أن تعود إلى الوطن بعد أن غابت عنه عشر سنوات.

وطبيعى عند مثل هذه الشخصية أن يعبِّر سردها للأحداث واستبطانها للمشاعر عن هذا كله. بل إن بعض صفحات هذا السرد (الصفحات من ٢٦ إلى ٣٠ على سبيل المثال) لا تمكن قراءتها إلا باعتبارها «هلاوس» ـ بمعنى الكلمة فى التحليل النفسى والطب العقلى، ولا يمكن تفسير تماهيها بمربيتها البعيدة «آمنة» فى جانب من جوانب تجربتها وهى أنها أمية لا تقرأ ولا تكتب، حال أهلها دون تعلمها، إلا فى ضوء ما تنتهى إليه هذه الهلاوس: «ما الذى كان يؤذيهم منى ليعزلونى هكذا؟ لماذا يتسامرون فى يسر ويتضاحكون ويتفهمون بعضهم البعض، وأنا لا؟ لماذا أشعر بكل هذه الغربة وسط أهلى، وأهلى الناس جميعًا. قتلتُهم كلهم فى ثلاثة أيام؟ كتبتُهم ثم مزقتُهم عندما استولت أنفاسهم على هواء الغرفة وابتلعته ولم يعد لى متنفس فى المكان..». (لدى الراوية لون من «الهذاء» المرضى يتفق تمامًا وأحد القوانين الأساسية فى اللاشعور، وهو قانون أن الرغبة تساوى الفعل، ولأن الكتابة همٌّ من همومها، اتخذ هذا الهذاء شكل أنها حين «تكتب» الآخرين فهى «تقتلهم»)، وليس هذا المنهج فى الفهم والتفسير بعيدًا عن الراوية، هذا بعض حوار بينها وبين صاحبها: «ضحكنا كثيرًا وقلت له إننى لا أحب تهاويم كارل يونج. فقال إنه هو، شخصيًا، فرويدى حتى النخاع».

منذ طفولتها المبكرة كان بين يديها كتاب «الأساطير الإغريقية الرومانية»، وحين تجاوزت طفولتها أحاطتها رموز ذات الثقافة وشخوصها وأعمالها، وإذا كانت تلك الأساطير قد تصارعت، زمنًا، مع فولكلور «آمنة» فقد انتهى هذا الصراع إلى انتصار كاسح لتلك الثقافة التى تتردد فيها أسماء أوسكار وايلد وجيمس جويس وييتس وديلان توماس وصامويل بيكيت (ألَسنا فى أيرلندا؟)، جنبًا لجنب جوجان وسلفادور دالى وهنرى مور.. إلخ، بل إن عنوان العمل ذاته عن لوحة لسلفادور دالى. بالمقابل: يخلو العمل تمامًا من أية إشارة إلى «ثقافة» الوطن الذى جاءت منه «كيمى». وتحمل اسمه القديم وتنتمى إليه (هى إشارة خجول إلى واحدة من رباعيات صلاح جاهين!). هذا الصدع لا يقف عند الجانب الفكرى وحده، بل يتعداه إلى الجانب العاطفى والسلوكى، أعنى علاقتها بأستاذها الذى تقدمه لنا، أو تعرِّفنا به: «أستاذ منطق وعلم نفس، يدرِّس فرويد ولاكان فى «ترنيتى كولدج»، ولو أصروا: من الشمال، ولو علقوا وقد عرفوا من اسمك: بروتستانتى؟ قلت: وماذا يهم؟..». هذه ملامحه الخارجية، لو صح الوصف، أما ملامحه الداخلية فهى، أيضًا، لا تخفيها: «فى حجرتها، على السرير الصغير كانت تتملى الجسد الأبيض الفارع. من قبل لم تكن تحب البياض، كان يوحى لها بالترهل، ولم يطرأ لها قط أن تعرف رجلاً لم تمسسه موسى الختان المطهِّرة، لكنه تركها مرادفًا للجمال الحانى، الاكتمال الوثير، متعته تمتد وتتباطأ تتعبد فى جسد صاحبها، فتنفرج لها مستسلمة لاختراقه لأنه يتسربل فى حنو المتهدِّج، فيعلِّمها الصلاة..!».

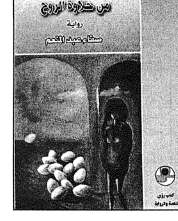


بلغت «كيمى» إذن، تمام الانسلاخ، وفى لحظة استبصار حاد، مألوفة عند أمثالها، ويعرفها المشتغلون، تقول بصراحة جارحة: «أنا أعرف أن العيب فىَّ أنا، وعلىَّ أنا يقع عبء التنصل من هويتى، أو التصرف وكأنى أنا، أنا فقط، لا أهل لى، ولا وطن، لا ذاكرة لى، ولا حنين إلى مكان كان عالمى..» وقد لقيت جزاءها الحق: مستشفى «سانت باتريك» فى دبلن، وحين عادت إلى الوطن لم تصبح أفضل حالاً: لقد تشرَّب جسدها وروحها السحر الأسود حتى الثمالة، سيكون عليها فى وطنها أن تختار الصورة التى تحب أن تكون عليها، ولكن: ليس لمن كان مثلها أن يختار: تُنهى الراوية روايتها وهى ماتزال فى قمة أزمتها: تنوس بين الصحو والغياب، «السرنيات» أو «عرائس الماء» يحطن بها، وجيمس جويس يحاورها، أما فى الصحو فإن أمها تتحدث إليها: «هيَّا.. دعكِ من البحلقة فى السقف وقومى معى»، وهى ماتزال تكتب وتمحو، ثم تكتب من جديد.











هذه بطلة سمية رمضان، بوعيها المعطوب والدائرة المغلقة من حولها وهى تتخبط فى إسارها، ولا سبيل إلى النجاة ما بقيت منخلعة، متخلية عن جذورها، منسلخة عن هويتها، التى هى حقيقتها بالذات.

وسوف تظل تكتب ثم تمحو، مادامت الكتابة عندها خاضعة لذلك القانون اللاشعورى الذى يساوى الرغبة بالفعل، لكننا نعرف أن الكتابة هى أيضًا، وسيلة للتحرر، وأن لها وظيفة «سيكو ترابية» خالدة، وتاريخ الأدب والفن يعرف شعراء وكتابًا وفنانين تحرروا من عصاباتهم حين «أخرجوها»: شعرًا وقصصًا وروايات ومسرحيات ولوحات، وسوف نظل نأمل أن تتحرر «كيمى» من عصابها، وقد أخرجته على الورق.



من رواية «النخبة» إلى رواية «العامة» لو صح التعبير: لماذا كتبت صفاء عبدالمنعم روايتها «من حلاوة الروح» (هى الأولى بعد ثلاث مجموعات من القصص القصيرة كانت قصصها على النسق المألوف: الوصف والسرد بالعربية والحوار بالعامية) كلها بالعامية المصرية؟

قبل أن ننظر فيما قدمته صفاء، يحسن أن نلقى نظرة عجلى إلى الأعمال التى سبقت كتابتها بالعامية. هنا سوف تثب إلى الذهن فورًا تلك التجربة المتفردة «قنطرة الذى كفر» للدكتور محمد مصطفى مشرفة (شقيق العالم الكبير) وقد كُتبت فى أربعينيات القرن الماضى ونُشرت ـ للمرة الأولى ـ فى ١٩٦٦، وأحاطت بها هالة اكتشاف هذا العمل الذى ظل طويلاً بين أوراق صاحبه: أستاذ الأدب المقيم فى انجلترا، وظل موضوع حديث بين قلة كانت تعرف العمل وصاحبه (فيما بعد قدمت مجلة «أدب ونقد» طبعة ثانية «للقنطرة» مع مقدمات لشكرى عياد ويوسف إدريس ومحمد عودة وسواهم، ١٩٩١). ويقول لنا لويس عوض أنه كتب عمله «مذكرات طالب بعثة» فى الأربعينيات كذلك، وأن الرقابة اعترضت على نشره آنذاك (١٩٤٤)، ثم «ضاع» منه مخطوط العمل حتى عاد إليه ـ فى حكاية ذات طابع بوليسى ـ فنشره فى ١٩٦٥، وقال فى تقديمه إنه كتبه على غرار ما فعل بيرم التونسى فى «السيد ومراته فى باريس»: «لم يفكر أحد أن تجربة التعبير العامى يمكن أن تمتد إلى نسيج النثر الفنى بأشمل معانيه، فتمتد إلى لغة السرد والوصف والتحليل، لم يفكر فى ذلك أحد إلا بيرم التونسى الذى كتب فى الثلاثينيات «السيد ومراته فى باريس»، وهو وصف فكاهى ساخر لغربته فى المنفى، كتبه بيرم التونسى بالعامية من الألف إلى الياء، وقد التهمت هذا الكتاب التهامًا، ولم يلبث أن فتح أمامى آفاقًا فى تجارب اللغة، كان «مذكرات طالب بعثة» ثمرتها المباشرة..» هذا ما يقوله لويس، ولنا عودة إليه. وفى نهاية الخمسينيات وأوائل الستينيات عمد أحد كتّاب القصة القصيرة ـ بدر نشأت ـ إلى كتابة عدد من قصصه بالعامية، ولم يقدر لهذه التجربة أن تستمر أو تتواصل.

تلك هى محاولات كتابة أعمال (روائية)، بالعامية المصرية فى أدبنا الحديث، وأضع الكلمة بين قوسين لأننى أرى هذا الوصف لا ينطبق إلا على ما كتبه مشرفة. إن «السيد ومراته فى باريس» ليست رواية على الإطلاق. هى عمل حوارى يدور بين «السيد» و«مراته» حول ما يريان حولهما فى باريس، وليس دقيقًا ما يقول به لويس من أنه «وصف ساخر لغربته فى المنفى» ـ ولعله كتب هذا «سماعًا» ـ أو من الذاكرة، فهدف بيرم مما كتبه واضح تمامًا. إنه المقارنة بين ما يراه فى باريس وما تركه وراءه فى مصر، مقارنة تنطلق من شئون الحياة اليومية الصغيرة لتتناول كل شىء: من الشوارع إلى اللوكاندات والمطاعم والمقاهى والكنائس والمراقص، إلى نظم العمل والتأمين على العاملين ورعايتهم، إلى نظم البيع والشراء وعمل النساء وحرياتهن، وهو لا يتعمد إخفاء هدفه ذى الطابع التعليمى الواضح، يقول «السيد» لمراته، على سبيل المثال: «الناس كلهم هنا بيشتغلوا، سوا كانوا مَرَه أو راجل لازم يشتغلوا، أهل فرنسا ما يعيبوش على الكفر ولا عالفسق، لكن أكبر عيب عندهم هو الكسل..».

ولعل بيرم كان فى هذا العمل ناقدًا للواقع المصرى بأكثر مما كان مشيدًا بالواقع الفرنسى، والشكل الذى يتخذه العمل هو الحوار الذى يقوم فيه «السيد» بالشرح والمقارنة، ولسنا بحاجة للقول أن هذا العمل ليس بدعًا بين أعمال بيرم: أستاذ العامية المصرية وواحد من أعرف الناس بأسرارها.

عمل لويس عوض شىء مختلف. ولاشك ـ عندى ـ فى أن توجهه نحو الكتابة بالعامية كانت وراءه دوافع أخرى: كان وراءه نفوره الراسخ من كل ما هو عربى: لغة وأدبًا وتاريخًا وحضارة، وليس هذا تَقوُّلاً، فهو صاحب الدعوة ـ سيئة السمعة ـ إلى «كسر رقبة البلاغة العربية»، وصاحب الصيحة الملتاثة: «مات الشعر العربى.. مات.. مات عام ١٩٣٢.. مات بموت أحمد شوقى.. مات ميتة الأبد.. مات..» (انظر كم تتكرر كلمة الموت فى جملة واحدة!).

والأخطر ما يقوله عن نفسه من أن «إحساسه باللغة ضعيف بالفطرة..»، وأنه «لم يقرأ حرفًا واحدًا بالعربية بين سن العشرين وسن الثانية والثلاثين.. فإحساسه باللغة أجنبى جدًا على كل حال..».

أما أن إحساسه باللغة ضعيف وأجنبى فهذا صحيح لاشك فيه، وقد ظل ـ رغم آلاف الصفحات التى سوَّدها ـ يستخدم لغة كابية جهمة منطفئة، ذات بلاغة رثة، لا تخلو من رطانة، تُطبق على أنفاس قارئها بثقلها وسقمها، لغة مصمتة جافة، لكنها ليست مقتصدة مدقَّقة (مثل لغة يحيى حقى، مثلاً)، بل ثرثارة متزيدة، لا تخلو من فكاهة غليظة ورغبة فى التنفج ورسم صورة كاذبة للذات.

تلك الأوصاف العامة تسرى على «مذكرات طالب بعثة»: عمل ركيك ثرثار، لا ينتمى إلى الإبداع الأدبى، على أى نحو من الأنحاء، واحدة من الأكاذيب السائرة فى تاريخنا الأدبى الحديث. يَصدُّ نفس القارئ عنه ـ مصريًا كان أو عربيًا ـ ما جاء فى صفحاته الأولى وهو يصف مشاعره نحو الشاطئ الأوروبى: «وقعدت أتامل فى أمواج الشاطئ المجهول.. (...) كانه وطنى الحقيقى اللى ما شفتوش من يوم ما خطفونى الغجر وأنا لسه رضيع وجابونى مصر..»!



عمل مشرفة «قنطرة..» متفرد من وجوه عدة: أول الوجوه وأبقاها أنها رواية ثورة ١٩١٩ بامتياز. إن هذه الثورة لا تُقدم إلينا من حيث هى «أحداث» أو «وقائع» لكنها هى الدماء التى تسرى فى عروق العمل كله، هى محرك الأحداث، وهى دوافع التحول فى الشخصيات وأولها «قنطرة» نفسه: من شيخ انتهازى وضيع وفاسد، لا يجد رادعًا دون استغلال «فاطمة الدلالة» وابتزازها.. ودون نظم قصيدة فى أحد الباشوات الفاسدين رغم زعمه أنه «وفدى»، بل دون أن «يقود» الفتاة الفقيرة الجميلة، صاحبة قصة الحب الحزينة، يقودها إلى مخدع هذا الباشا نفسه مقابل خمسة جنيهات. هذا الشيخ الفاسد ـ بعد أن قضى سنتين فى بعثة لفرنسا ـ يصبح، بعد عودته، عضوًا فى «الجهاز السرى» للوفد، مشاركًا فى واحدة من عملياته، ثم يلتقى بزعيم الثورة وقائدها: «عبدالسلام فرح جدًا، وقابل الزعيم، ولاحظ ان وشه حساس وجميل وباس إيده.. (..) ولاحظ الذكاء اللى ظاهر فى عنيه والعزيمة اللى ظاهرة من شفايفه، وقوة الإرادة الواضحة من أسلوبه فى الكلام، وأدرك بسهولة ليه سعد زغلول كان زعيم ثورة ١٩١٩..». وهذا شأن بقية الشخصيات. الوجه الثانى يتمثل فى الإنجازات الفنية التى حققها العمل، وأهمها استخدامه الذكى لتيار الوعى، وجرأته على تناول المواقف ذوات الطابع الجنسى، وقدرته على الغوص فى تحليل شخصياته. يكتب الدكتور شكرى عياد: «إن اعتماد الرواية على تيار الوعى لا يؤدى إلى استسلام الكاتب لهذا الأسلوب، فهو لايزال يرصد المنظر والحادثة والشخصية.. (..) والكاتب يداول بين الواقع الخارجى والواقع الداخلى فى نسيج محكم تتبين عليه ـ شيئًا فشيئًا ـ رسم المأساة وهو يتكون حتى يكتمل النسيج فتكتمل المأساة بالنهاية الفاجعة التى تدور لها رؤوسنا..» الوجه الثالث هو الارتباط الحميم بين العمل وكاتبه، ومَن يعرف حياة الدكتور مشرفة ـ بين مصر وانجلترا ـ وما ابتلى به من آلام جسدية وروحية يعرف أن «قنطرة..» ليست مجرد عمل ينتجه كاتب يقف بعيدًا عنه، لكنها هى ذوب الروح.

من أسف أن الأستاذ الراحل لم يفرغ لإكمال عمله. فبقىَ الجزء الأول منه (حتى ص٩٣ من الطبعة الأولى، ص ١٦٤ من الطبعة الثانية، والذى ينتهى بعزم «سيدة» على الانتحار: «وبعدين قامت وهى حاسة إن ده الوداع الأخير لأمها وللدنيا كلها».. (..)) نصًا روائيًا مكتملاً، فى حين أن الجزء الثانى لا يعدو «مذكرات روائية» تلخص الأحداث والمصائر، وتنتظر الصياغة التفصيلية من جديد (يرى شكرى عياد أن هذه المذكرات لو كتبت على نسق الجزء الأول لبلغت صفحات الرواية الأربعمائة أو الخمسمائة).



وإننى أعتقد أن هذا العمل كان مفتوحًا أمام صفاء عبدالمنعم وهى تكتب «من حلاوة الروح»: «رَبْع شيخ العطارين» الذى يجمع شخصيات «القنطرة»، منه تنطلق معظم الأحداث وإليه تعود، يقابله هنا بيت عشوائى فى حى عشوائى على أطراف القاهرة (لعله بين «المطرية» و«عين شمس») والجامع بين المكانين أن كل حجرة منه تستقل بساكنيها أو ساكنيها، وثمة شكل من أشكال العلاقات الجماعية قائمة بين أفراده. الجامع الثانى أنهم جميعًا، فقراء، بل إن الفقر الذى يحيط شخصيات «حلاوة الروح» يبلغ حدًا يفوق أى تصور باذخ للفقر: الصراع من أجل قروش، وليس نادرًا ألا تجد أسرة عشاء أبنائها فتتطوع أسرة فقيرة أخرى بإطعامهم، الرجال يعملون فى مهن هامشية: فران، صياد، عامل فى المجارى، إسكافى، ضائع لا يعرف لنفسه حرفة أو مهنة، «للبريزة» و«الريال» أهمية قصوى، فما بالك بالجنيه

الكامل؟ أما إذا رضى الرب عن أبنائه الفقراء فسوف يجتمعون للسهر والسمر، الرجال يدخنون الجوزة، مغموسة أو غير مغموسة، والنساء منصرفات لأعمالهن، منتشيات بالسهر فى حضن الجماعة، مستسلمات لمتعة البوح. فى ليلة طاب السهر والسمر ـ هى محض حيلة فنية ـ حكت كل منهن ماضى أيامها قبل أن تلقى بها فى هذا المكان، منهن من جاءت من الصعيد، ومنهن من جاءت من قرى الدلتا، لكن وراءهن جميعًا الفقر والحاجة والقهر وقلة الحيلة وموت الأحباب والارتحال من مكان لمكان، فى نضال متصل لتوفير الستر واللقمة، والأبناء يأتون فى «أرخص ليالى»، ويشبون مثل الأعشاب البرية ذوات الأشواك.

ولن يجدينا أن نتابع أيًا من شخصيات «حلاوة الروح»، فليست بينها شخصية رئيسة تقف فى مركز ما يحدث، بل كل الشخوص تشغل مساحات متقاربة (وأعتقد أن هذا ما كانت لتصبح عليه «القنطرة» لو أنها اكتملت، ففى الجزء الثانى منها بذور شخصيات عديدة لم تأخذ حقها من التفصيل)، ومادامت الراوية قاعدة فى البيت لا تكاد تبرحه، فطبيعى أن نرى النساء ونستمع إليهن أكثر مما نرى الرجال الذين يطاردون الرزق فى الخارج، حتى «وحيد» ـ وهو الوحيد حقًا بلا زوج ولا أبناء ـ الذى أضاعه عشقه للسينما ولفريد شوقى، والذى يربط أحيانًا بين ما يحدث، وفى مونولوجه الدائم يضىء أحيانًا بعض الشخوص والأحداث، لا يشغل فى العمل أكثر من مساحة سواه، ونظرًا لتعطله الدائم فهو الذى نراه أكثر من بقية الرجال، أما الباقون فلا نكاد نرى أحدهم إلا وهو يعود ليلتهم عشاءه ثم ينام استعدادًا ليوم شاق آخر، أو يأتى ثملاً آخر الليل فيشيع الصخب والفوضى، والعنف ـ اللفظى والجسدى ـ عملة متداولة بين الأزواج والزوجات لا تكاد تستثير اهتمام أحد.



مرة ثانية، يرتمى ظل «قنطرة..» على العمل، فكما كانت ثورة ١٩١٩ هى الإطار الذى يشمل الشخوص والأحداث، نجد المقابل فى «حلاوة الروح»: إن أحداثها تبدأ حول منتصف الستينيات، وتتوقف طويلاً عند ١٩٦٧، فقد تدخلت فى صميم حياة أهل البيت، حين جاءت أفواج «المهجَّرين» لتقيم إلى جوارهم تنازعهم العمل واللقمة، وتنتهى بموت عبدالناصر، وتفلح الكاتبة فى إقامة الروابط بين ما هو خاص وما هو عام: هذه «أم عكاشة»: حارب ابنها فى ٦٧ ولم يعد، وهى ماتزال تبحث عنه وتبقى على انتظاره، وهى أكثر الجميع نواحًا حين يموت عبدالناصر فتوحِّد بينه وبين ابنها. إن موت عبدالناصر يشملهم جميعًا ويوحِّد بينهم: الرجال حزانى، والأولاد مشغولون بصنع أعلام صغيرة سوداء، أما النساء فيتوالى «عديدهن»: هذه «حسنة» الجميلة: «اسم الله عليك يا ابو اسم غالى.. الدنيا اسودَّت وضلمت بعدك.. يا عامود بيتى والعامود هدوه.. يا هلترى فى بيت مين نصبوه؟.. آه يا غالى يابو ضحكة حلوة.. يابو هلَّة وطلَّة. يابو الكلام رايق، يا طول بعرض ياخويا..»، وهذه «أم عكاشة»: «نادى المنادى وطوَّح النبوت / روِّح بلادك يا غريب لتموت. نادى المنادى وطوَّح الحربة / روح بلادك ياغريب أولَى»... الخ.

لا، لست أنوى طرح قضية الفصحى والعامية فى التعبير الأدبى (الروائى) فقد بتنا نحفظ حجج الطرفين المتقابلين. أكتفى بملاحظتين: فى ١٩٨٥ صدرت رواية من أهم الروايات العربية المعاصرة هى «الرجع البعيد» للروائى العراقى فؤاد التكرلى، وكان الحوار فيها، ومونولوجات الشخصيات كلها بالعامية (البغدادية) التى تكاد تستغلق على غير أهلها، وحين نقلتُ هذه الملاحظة إلى نجيب محفوظ ـ الذى أنطق الفتوات والمومسات والسكارى واللصوص بالعربية الفصحى ـ قال: «لكن العمل الفنى كله كذب جميل، فلم لا يمتد الكذب إلى اللغة؟»، ثم حدث أن صاحب «الرجع البعيد» عاد إليها فى طبعة تالية وأبدل بعاميته عربية مبسطة، واعترف بان الشخصيات فقدت قدرًا كبيرًا من استدارتها واكتمالها، صحيح أن العامية المصرية أيسر فهمًا فى أرجاء العالم العربى، نتيجة وسائط لا علاقة لها بالإبداع الأدبى، لكنها تبقى محدودة عند المتلقى. هذه واحدة. الثانية أن هذه الأعمال القليلة تبقى خارج المجرى الرئيسى للإبداع العربى، وها أنت ترى أننا لم نستطع الوقوف عند نماذج كثيرة تتحقق لها شروط العمل الإبداعى. ولكن: ما الضرر فى أن تستمتع برافد من روافد النهر، إن كان جميلاً ومفيدًا؟

إذا لم تكن من أهل «الحذلقة» أو «الفيهقة» أو «السنوبزم» ـ والعياذ بالله ـ فسوف تستمتع بصفحات كثيرة فى هذا العمل.

ويخيَّل إلىَّ أن «قانون الوراثة» لم يخلِّف آثارًا مهمة فى رواية ياسر عبداللطيف (الأولى): إنْ هى إلا فساد الأسنان وانحسار النظر وبعض الملامح الفيزيقية والنفسية المنحدرة إلى الراوى من «الجيتو النوبى» كما يسميه. إن هذه الرواية القصيرة ـ لا تعدو الثمانين صفحة ـ تحوى «شجرة عائلة» تكاد ترتسم خطوطها بالحبر الأزرق، كما يقولون، لكن الراوى ـ الحفيد وهو يرسم هذه الشجرة يمارس حقه فى الإثبات والنفى: يثبت الجد وأحد الأعمام وقريبًا بعيدًا ثم ينفى الآخرين. وأولهم الأب نفسه. إن هذه ظاهرة مترددة فى الرواية المصرية المعاصرة، وأكتفى بمثالين واضحين: فى رواية نجيب محفوظ «يوم قتل الزعيم، ١٩٨٥» نتعرف إلى الجد «محتشمى» وحفيده «علوان» وتلعب العلاقة بينهما دورًا مهمًا فى العمل، على حين يختفى الأب اختفاءً كاملاً، هكذا الأمر أيضًا فى رواية بهاء طاهر «نقطة النور، ٢٠٠١»، فبقدر ما عرفنا الجد أو «حضرة الباشكاتب»، والحفيد «سالم» بقدر ما غاب الأب غيابًا شبه كامل كذلك. ولعل الهدف هو أن الاختلاف القائم بين الجد والحفيد إنما يكون أكثر عمقًا ووضوحًا مما يكون عليه بين أى منهما والأب.

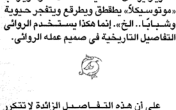


لكن الأمر عند ياسر عبداللطيف يكتسب بُعدًا آخر: إنه يكتب عن الأب تحت عنوان جانبى ـ لا يتكرر مثل هذا العنوان فى العمل كله ـ «جيل الستينيات». يكتب: «الابن الأوسط للجد وُلد فى أعقاب الطفرة التى انتقل على أثرها إلى مصاف الموظفين.. مباشرة قبل اندلاع الحرب الكبيرة الثانية، (..) وتخرج فى كلية الهندسة.. ١٩٦١، وتم تكليفه بالعمل فى المصانع الحربية، مهندسًا من جنود حلم التصنيع الثقيل للعهد الناصرى الطوباوى، واضعى أسس غدٍ لن تشرق شمسه إلا على سواد مطبق، وبعدَ انحسار موجة الهزيمة الطاغية ٦٧، ووفاة الأخ المعلِّم ترك خدمة الحكومة ليجرِّب حظه فى الأعمال الحرة.. ومن إخفاق لآخر هاجر فى منتصف السبعينيات إلى السعودية مع من هاجروا، ليعود مع انتصاف عقد الثمانينيات..» هذا «التقرير» هو كل ما نعرفه عن الأب الذى لا نراه سوى مرة واحدة عائدًا من عمله، فى المطار. لكن هذا «التقرير» يشى بأكثر من شىء واحد: أهى كراهية ـ ذات طابع «أوديبى» ـ للأب؟ أهو نفور من مسلكه فى الحياة؟ أغلب الظن أن الأمر هنا لا يتعلق بالأب ذاته قدر ما يتعلق «بجيل الستينيات» من ناحية، و«العهد الناصرى الطوباوى» من الناحية الأخرى، وقد صفَّى الروائى حسابه معهما عن طريق النفى والإلغاء!

إن الكتابة أيضًا، وسيلة للتحرر، ولها وظيفة «سيكو ثرابية» خالدة، وتاريخ الأدب والفن يعرف شعراء وكتَّابًا وفنانين تحرروا من عُصاباتهم حين «أخرجوها»: شعرًا وقصصًا وروايات ومسرحيات ولوحات



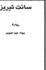
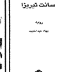
وفى مثل هذه الروايات القصيرة تصبح التفاصيل الزائدة عبئًا، مثل هذه التفاصيل قليلة فى «قانون الوراثة»، يتركز معظمها حول «العم فتحى» الذى يحظى من الراوى باهتمام واضح، فهو يصف ملامحه، ويتابع حياته منذ جاء مع الجد إلى القاهرة قبل الحرب العالمية الأولى.... «وفى منتصف الثلاثينيات كان قد رسى المسار بفتحى عاملاً بأحد فنادق سليمان باشا، وهناك عشقته فتاة من بنات الجالية الإيطالية كانت تعمل معه بنفس الفندق، وانخرطا فى قصة غرام ملتهبة أثارت حنق بنى جلدة الفتاة من شباب الطليان الذين تفوشوا بالمهجر (هذا فعل جديد يدخله الكاتب إلى العربية: تفوشوا: أى أصبحوا فاشيين أو فاشيست!) وقرروا قتل ذلك الأسود الذى دنس الشرف الرومانى، وفى فورة من غضب يمينى عام كان يشكل الجزء الأكبر من السياق وتحت مظلة الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة التى لم تكن معاهدة ٣٦ قد ألغتها بعد، أخذوا يجوبون القاهرة على ظهور دراجاتهم البخارية مرتدين قمصانهم السود بحثًا عن فتحى.. الخ»، ولم يكتف فتحى بالهرب من مطارديه فى حوارى القاهرة بل واصل هروبه حتى وصل رودس! وسوف يتابع الكاتب قصة رودس وسقوطها فى أيدى «الرايخ الثالث» وحركة المقاومة فيها التى انتهت إلى إخراجهم! أقل القليل من هذا كان يكفى. فلا ضرورة لكل هذه التفاصيل، ولا رابط عضويًا يربطها بالعمل. وقد سبق أن رأينا أولئك «المتفوشين» من قبل، عند فتحى غانم وروايته «بنت من شبرا، ١٩٨٥»، لكنهم كانوا جزءًا عضويًا من صميم الرواية، «ماريا ساندرو»، بطلة الرواية إيطالية، وأبوها ـ حلاق الأسرة المالكة ـ حالم بالدوتشى واستعادة المجد الرومانى.. «ولقد دفع الثمن غاليًا ومقدمًا من أجل مجد روما ومجد الدوتشى، فدفع ولده «ماريو» للسفر إلى روما والانضمام إلى القمصان السود، ثم سافر ماريو إلى الحبشة جنديًا فى جيش الدوتشى، وهناك لقى مصرعه.. (..) وشوارع شبرا عرفت ماريو يرتدى قميصه الأسود ويركب «موتوسيكلاً» يطقطق ويطرقع ويتفجر حيوية وشبابًا.. الخ». إنما هكذا يستخدم الروائى التفاصيل التاريخية فى صميم عمله الروائى.



على أن هذه التفاصيل الزائدة لا تتكرر كثيرًا فى «قانون الوراثة»، فالعمل ـ على وجه العموم ـ ذو بناء محكم وصياغة موجزة فى «مقدماته» وهى ضربات سريعة تحدد الإطار الزمانى والمكانى والعائلى الذى سيدور داخله ما يلى، ثم فصوله الأربعة: الأول عن الإطار العائلى أو «شجرة العائلة» التى أشرنا إليها، ويلحق به الفصل الرابع والأخير كأنه حاشية له أو هامش على متنه. الفصلان الثانى والثالث يتابعان الراوى طالبًا فى الجامعة أثناء أحداث ٩٠ / ٩١ (التى تقابل أحداث ٧١ / ٧٢ عند جيل سابق. على اختلاف فى زوايا النظر)، ثم معرفة الراوى للمخدرات وولعه بها، والتخليقية منها بوجه خاص، وتحايله ـ ورفاقه ـ للحصول عليها، ويثبت عدة صفحات





















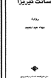


























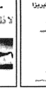
















عن تأثيرها عليه وما تؤدي إليه من هلاوس (من الممتع حقًا أن تقارن هلاوس الراوي هنا بهلاوس «أنيس زكي» بطل «الثرثرة، ١٩٦٦» لنجيب محفوظ: هل الاختلاف راجع لطبيعة المخدر أم لطبيعة المتعاطي؟ يكفي القول أن هلاوس أنيس كانت تطوف حول هموم الوطن في ذلك الحين، وتضرب في عمقه التاريخي، أما هلاوس صاحبنا فلا تكاد تتجاوز حدود جسده!).

«قانون الوراثة» ـ هي العمل الأول لصاحبها ـ رواية «حديثة» بمعنى من المعاني: من حيث إيجازها وبنائها والتفاتها نحو الأماكن واستنطاق ماضيها وما يصحبها من طاقة وجدانية (في وسط المدينة وفي حي عابدين ثم في المعادي)، وما يتخللها من رؤية نافذة للمفارقات (راجع مشهد «فتاة المترو» ذات النصف الأعلى المحافظ والنصف الأسفل المتحرر، ومشهد «صفية» صديقة الجد وما تحكيه عن «كازانوفا البلاقسة»، ابن بائع الجاز الذي ضاجع معظم نساء الحارة) وفي خلفية العمل كله حكاية النوبيين (الجيتو النوبي كما يسميه) من خلال أجيال ثلاثة: الجد والحفيد وبينهما «ربيب العائلة».

يقول الراوي: «أنا لا أحاول التخلص من رومانسيتي لكنني أحاول تقليصها قدر الإمكان..»، وقد نجح في محاولته إلى حد كبير، تجنَّب الرومانسية، و«السنتمنتالية» أو طرطشة العواطف، والميلودرامية في الأحداث والمشاعر، وقدم عملاً صلبًا ومتماسكًا.

إلى مكانٍ كان نائيًا ـ ولعله الآن لم يعد كذلك ـ يصحَبنا محمد العشري في روايته (الثالثة) «تفاحة الصحراء»: إلى منطقة «العلمين» وما حولها من صحرائنا الغربية، وإذا قلنا «العلمين» تداعت إلى الذهن ـ على الفور ـ معركتها الشهيرة التي حوّلت ميزان الصراع في أكثر مراحل الحرب الثانية حرجًا. وليست «تفاحة الصحراء» بعيدة عن هذه الفترة من التاريخ الحديث. والحقيقة أنني وجدت في هذه الرواية القصيرة (لا تبلغ المائة صفحة) أكثر من وجه من وجوه التميز: أول هذه الوجوه أنها تتحرك على مستويين، لو صح التعبير، هما حاضر هذه المنطقة وماضيها. الحاضر هو هذا المشروع الذي تقوم به إحدى شركات النفط، ذات رأس المال المشترك والإدارة المشتركة، لاستكشاف إمكان استخراجه، والماضي هو أحداث الحرب العالمية في هذه المنطقة وما حولها.

وثمة أكثر من رابط بين المستويين: «الشيخ عبد الرحمن» الذي كان شابًا صغيرًا أثناء الحرب، يعمل ابنه بين العمال في البعثة الجيولوجية. إلى جانب هذا الرابط الإنساني ثمة الآثار التي خلفتها الحرب: المقبرة الشهيرة التي تضم رفات جنود الحلفاء، وحارسها الإيطالي «كيوديني» الذي يعاونه عبد الرحمن، والنصب الذي أمر «روميل» بإقامته تخليدًا لذكرى أحد طياريه الأكفاء، وأهم من هذه وذاك: حقول الألغام الرهيبة، تفاحات الصحراء القاتلة. فهنا «أكبر حقل ألغام في العالم، حقل «البويرات».. على بعد مائتين وخمسين كيلو مترًا شرقي طرابلس، والذي زرع فيه (مونتجمري) مائة وخمسين ألف لغم.. متأهبًا للانفجار بشكل دائم، مانعًا الأرجل من الاقتراب منه، مزلزلاً الأرض تحت حوافر الحيوانات الضالة، ناثرًا لحومها على الرمال..». كيف تعمل البعثات الجيولوجية في هذه المنطقة إذن؟ «ما يقرب من سبعين كيلو مترًا مربعًا هي كل المنطقة التي تم مسحها من مساحة تقدر بآلاف الكيلو مترات مزروعة بالألغام، لأعمال البحث والتنقيب عن البترول تقوم به شركات أجنبية بمشاركة شركات وطنية، في جو قلق وحذر من خطورة المكان، مع رسم مسار للعاملين لا يحيدون عنه تجنبًا لأية مفاجآتٍ تحدث..»، لكن المفاجأة قد حدثت: حاد الجيولوجي «تامر» وبصحبته الزميل الأجنبي «جون» عن المسار فانفجر لغم أطاح بأصابع يدي جون. لم يكونا في العمل لكنهما كانا في رحلة صيد، وكان جون مثيرًا للريبة لكنه أجنبي.. «أوقف «تامر» عن العمل لحين استكمال التحقيقات مع الجهات الأمنية المختلفة، وسافر جون إلى بلده بعد أن حصل على مليوني دولار كتعويض مبدئي.. بعد أن صعَّدت سفارته الأمر إلى مستوى عال..».

حسب الراوي، فقد لقي تامر جزاء عدوانه الدائم على الغزلان، حيوانات الصحراء الجميلة، يطاردها دون هوادة ويطلق عليها الرصاص دون رحمة. خذ المشهد الأخير من هذه المطاردة غير المتكافئة: «الغزالة التي أصابتها الطلقة في رأسها كانت تلد، وضعت واحدة، والثانية أول شيء رآته في الدنيا وجه القاتلين ليلتقطاها بأيديهما ويداعباها. وضع تامر الأم في صندوق العربة وحمل جون الصغيرتين على ذراعيه فرحًا..»، بعدها بقليل انفجر اللغم. يقودنا هذا إلى وجه التميز الثاني: إن الروائي يضم ـ في نظرة واحدة وكل واحد مترابط ـ الطبيعة بما فيها من صحراء وقَيظ وزوابع ومطر (نادر) ونباتات ذي طبيعة خاصة قادرة على مقاومة الجفاف القاسي، وحيوانات ضارية أو تم ترويضها: الجمال والأغنام والأرانب والثعالب إلى جانب الضباع (وهو يروي الأسطورة المتواترة هناك حول اسم «الضبعة») والحيات والعقارب. أضف لذلك كله فبحكم طبيعة عمل أبطال الرواية، فإن الصخور أيضًا تجد مكانها..«الجيولوجي في الصحراء حين تقع عينه على قطعة صخرية ويلتقطها فلا بد أنها غير عادية، أو أن بها خطوطًا ما يود أن يدرسها ويفصلها على مهل، يرجعها إلى أسباب وجودها في المكان الذي وجدها فيه..». ثم إن الروائي يضفي حياة ذات أفكار ومشاعر على عالم الحيوان (في مشاهد صيد الغزلان، وابتهاج الجمال لأن هؤلاء البشر لا يشغلون الأرض والسماء كما فعل سابقوهم، وحزن الكباش والخراف على الكبش الذي مزَّق جسده انفجار طوربيد كان مطمورًا). إنما على هذا النحو تشغل هذه الرواية القصيرة مكانًا بين روايات الصحراء في أدبنا العربي المعاصر (خاصة عند أستاذيها الكبيرين: عبد الرحمن منيف وإبراهيم الكوني).

الوجه الثالث هو رغبة الروائي في إقفال الأقواس ووضع النقاط في نهايات السطور، وتتضح هذه الرغبة ـ أكثر ما تتضح ـ في قصة حب الشاب عبد الرحمن للملازم، الإنجليزية الجميلة «دونا ماكسويل» التي تعمل في الصليب الأحمر..«كانت تكلمه بعربية مكسرة، فيلقي إليها ببعض الكلمات مشيرًا إلى معانيها بحركات من يديه، يتشرب وجهها الأبيض، وعيناها الزرقاوان تشدانه إلى ساحل البحر، تسلمه للهدير المتلاطم وتتركه في الأعماق، فيغمره قلبه المتدفق ويغرقه..»، لكن مثل هذه العاطفة لم يكن مسموحًا لها أن توجد، هناك وآنذاك، وبين هذين.. «حين رأى القائد ذلك التجاذب بين «الملازم دونا» والشاب عبد الرحمن، ناداها في خيمة مكتبه وسد عليها الباب.. خرجت بعد ساعة، وجهها شديد الاحمرار وتخفي ارتباكًا، تسوي ملابسها وتدبس شعرها الطويل. خرجت «دونا ماكسويل» أخرى غير التي يعرفها عبد الرحمن(..) بعد يومين رتب القائد أمر زواجها من الطبيب «شاو صن». أدار القمر وجهه المعتم، وتاهت المعالم تحت قدميه وتخبط في الظلام..». سوف يغلق الروائي هذا القوس بعد أكثر من أربعين سنة، وفي الصفحة الأخيرة من الرواية: تأتي سيدة جميلة في حوالي الأربعين إلى المقبرة، تسأل «كيوديني» عن قبري أمها وأبيها، وتلقي باسميهما دون أن تدري ما يحدثه هذان الاسمان في العجوزين: الملازم دونا ماكسويل والطبيب شاو صن. هكذا يضع الروائي النقطة في نهاية السطر. إفراط في الصنعة؟ ليكن: لا فن بلا صنعة.

هذا الطبيب نفسه «شاو صن» يتقاطع مع حكاية أخرى تبدو نتوءًا في الرواية أو شيئًا ملصقًا بها، ولعل ما يحول دون أن تصبح كذلك هو التقاؤها بالعمل من حيث أفقه الإنساني العام، أعني حكاية البحارة الليبيين الذين أسرتهم غواصة إنجليزية وهم على ظهر سفينة شحن إيطالية، وفي ميناء الإسكندرية كان شاو صن هناك لاستقبال زوجته، واكتشف قائد الميناء أن البحارة مرضى بالتيفوس، وأكد له الطبيب ذلك فأمر بإعدامهم، وتولى الطبيب حقنهم بحقن الموت، وافتدى «خالد» نفسه بكيس نقوده فنجا من مصير الآخرين. وبعد عشرات السنين ها هو «خالد الليبي» يقود سيارته اللوري على الطريق بين أفريقيا وآسيا، وفي واحدة من رحلاته يعطيه حارس المقبرة متعلقات رفاقه، وينغلق قوس آخر!

قلت إن هذه «الحكاية الداخلية» تلتقي مع أفق الرواية الإنساني الرحب، هذا الأفق هو، ببساطة: إدانة الحرب من ناحية، وجدل الحياة والموت، وحضورهما معًا في كل زمان ومكان.

لعل طريقة السرد هي أول ما يلفت النظر في «لصوص متقاعدون» رواية حمدي أبو جليل الأولى (بعد مجموعتين من القصص القصيرة): إنه يحاول أن يقول أقل الأمور جدية بأكثر الوسائل جدية. أشبه بخطيب يتخذ سمت الجدية الكاملة ثم لا يقول إلا هذرًا ولغوًا. هي ليست كتابة «ساخرة» ـ لو كان لهذا الوصف معنى محدد، قدر ما هي كتابة تحمل بداخلها تناقضها الخاص بين المضمون الهازل من ناحية، ووسائل التعبير الرصينة من الناحية الأخرى.

لم لا نأخذ مثالاً؟ هذا «سيف» يعرض على الراوي أن «يقود» له «زنوبة» زوجة أخيه، كل ما عليه أن يترك باب شقته مفتوحًا في الليل، وسيتولى هو ترتيب كل شيء.. «من المؤكد أن الأمور على ما يرام وأن سيف سيقوم بدوره على أكمل وجه.. أغلقتُ الباب جيدًا واندفعتُ إليها فتمنعت كما هو متوقع، وانزلقت مني إلى السرير فقفزت وراءها، وبعد فاصل قصير من فقدان التوازن والتخبط نجحتُ في إحكام السيطرة عليها، زنقتُها ولكن في الوضع الخلفي. غير أن ذلك لم يمهلني فأنا لا تفرق عندي مسألة الأوضاع، وربما هذا هو الوضع الأمثل بالنسبة لها.. وبمجرد أن أخذتُ نفسًا عميقًا تملكني الشك في أنها «سيف»، وأن تلك التي تنتفض أمامي مؤخرته.. كانت المسألة محرجة، وللحظة فقدت القدرة على التمييز وتذكرتُ بنوع من الإجلال ضرير يوسف إدريس في «بيت من

لعل طريقة السرد هي أول ما يلفت النظر في «لصوص متقاعدون» رواية حمدي أبو جليل الأولى إنه يحاول أن يقول أقل الأمور جدية بأكثر الوسائل جدية. أشبه بخطيب يتخذ سمت الجدية الكاملة ثم لا يقول إلا هذرًا ولغوًا

لحم»..» ذلك مثال نموذجي لطريقة السرد في «لصوص متقاعدون». ولعل ما كان جديرًا بالراوي أن يتذكره، مادام مصممًا على عالم يوسف إدريس - ليس ضرير «بيت من لحم» بين الأرملة وبناتها، بل بطل قصة أخرى في ذات المجموعة، قصة «هي»، وهذه السطور التي تنتهي إليها: «وجاءت اللحظة واسترخت فوق الفراش تناديني، ولبيتُ النداء، وأشارت فاطفئت الأنوار، وأشارت فانطفأ القمر، وتحسست جسدها وأنا ذائب معها في قبلة..(..) اكتشفتُ أن الأنثى التي أنا غائص فيها كانت مؤخرة رجل فاجر الشذوذ!».



لا عجب ولا غرابة، فمعظم الأبطال في العمل لا تكاد تشغلهم سوى همومهم ذات الطابع الجنسي - سويًا كان أو شاذًا، من جانب، وتدخين «البانجو» من الجانب الآخر، وثمة شخصيات لو لم يحصرهم الكاتب في هذا النمط من الكتابة لاستدارت واكتملت لها أسباب الحياة (أشير، بوجه خاص، إلى الشاعر المغمور والمستشار المرتشي). بعبارة ثانية: إن الكاتب حاصر شخصياته بتلك الطريقة في السرد، المولعة بالطرائف والغرائب، الساعية إلى الإدهاش. ثم حاصرهم كذلك بوعيه الخاص، لقد حاول أن يجعل من أحد أبطاله - وهو تاجر مخدرات صغير - كاتبًا، لكن عدم الاتساق كان واضحًا بين مسلكه وما يفكر فيه، كان «جمال» يكتب أحيانًا، وهذا بعض ما كتبه: «أخطأ القاتل صديق الشيخ «زوسيما» في «الإخوة كرامازوف» حين حمل على المصلحة الشخصية أخطاء العالم، يبدو أن طبيعة العصر الذي عاش فيه دستويفسكي أعمت هذا الرجل عن أن يرى الحياة كما ينبغي لحكيم مثله، فأفعال الواحد تصدر عن ذاته، عن فرديته، عن مصلحته الشخصية الضيقة جدًا.. إلخ». إنه ليس «جمال» الذي يعرف دستويفسكي لكنه الراوي نفسه، ها هو يقول عن رؤيته «أم جمال» لأول مرة: «لمحة خاطفة اكتشفت منها حقيقة أن الخيال يمكن أن يتطابق مع الواقع، كانت تشبه - بشكل ما - تلك المرابية التي قتلها «راسكولنيكوف» في «الجريمة والعقاب»..» بل إن وعي الراوي نفسه لا يخلو من اختلاط يجعله «شخصية ورقية» أكثر منه شخصية ممتلئة بالحياة والحضور. إنه يقول لنا - مرة - إنه كان عامل بناء، وأنه «نال شهرة لا بأس بها على مقاهي مقاولي أنفار اليومية.. واحد من الشداد الذين يمكن الاعتماد عليهم تمامًا في مهمة نقل شكاير الرمل والأسمنت.. إلى أعلى الأدوار على أكتافهم..»، ويبدو أنه نسي هذا الوصف وهو يحكي تاريخه الجنسي مع العادة السرية «في الثانوية.. وبالتحديد في السنة الأولى بدأ العصر الذهبي واكتشفت مناظر التليفزيون.. إلخ»، كما أننا لا نعرف ماذا يعمل بالضبط زمن الرواية. مرة ثالثة وهو يحاول تصوير شخصية «القبطي» يقول عنه: «قليل الكلام، الأدق أنه لا يتكلم مطلقًا، ربما لو توفرت له مهارة الكلام لَوصف حالته بشكل أعمق من تلك السيدة الإنجليزية التي التقاها عالم النفس روبرت برتون في كتابه الشهير «تشريح المنخوليا»: إذا خرجت من البيت فإنني لا أستطيع التنفس.. إلخ». ها أنت ترى: وعي الراوي يختلط بوعي شخصياته، وهما معًا يختلطان بوعي المؤلف، فكيف يمكن الحديث عن بناء روائي؟

من الناحية الأخرى، فإن هذه الطريقة في السرد، والخلخلة في البناء، أديا لأن يثبت الكاتب احداثًا أو وقائع أو صورًا أو تعابير تبدو له «طريفة» دون نظر إلى علاقتها بالعمل ككل. وإذا نحن تقبلنا كل تلك الحكايات عن القبيلة التي تتحول من البداوة إلى الفلاحة، وعن الجد وزوجاته، خاصة جدة القبيلة «نقاوة» باعتبارها جوانب من التاريخ الشخصي للراوي، فإن صفحات أخرى تهن علاقتها بالعمل كله، مثل تلك عن «الزوجين المسنين» (ص١١٧)، إنها يمكن أن تنعزل تمامًا كقصة قصيرة متماسكة، لا علاقة لها بالعمل الذي يحاوله الروائي (قل هذا أيضًا عن ماضي «عادل» القبطي، أو بالأحرى ماضي أبيه في قريته الصعيدية البعيدة)، والحقيقة أنه لم يكن يقوى على انتزاع حدث أو شخصية أو موقف يبدو له «طريفًا» يحقق أهدافه في هذه الصياغة الخاصة.

حي عشوائي (منشية ناصر) وشخصيات ورقية، ونص لا يخلو من طرافة. هؤلاء هم «اللصوص المتقاعدون»!



لعل الظهور الأول لحي «شبرا» في الرواية المصرية جاء مع نجيب محفوظ و«بداية ونهاية، ١٩٤٩». فمن «حارة نصر الله» على مبعدة دقائق قليلة من «المدرسة التوفيقية» - واحدة من أقدم المدارس الثانوية في مصر - خرج حسن وحسين وحسنين ونفيسة، ليخوض كلٌ صراعه مع الحياة منتصف ثلاثينيات القرن الماضي، ولتختلف مصائرهم في هذا الصراع، وإن كانت المأساة تظللهم جميعًا، من عاش منهم ومن قُتل أو انتحر. بعدها اختار فتحي غانم جانبًا من هذا الحي لتدور فيه أغلب أحداث روايته التي سبقت الإشارة لها «بنت من شبرا، ١٩٨٥»، اختار فتحي «أول شبرا»، وكان هذا الجزء من الحي - على مرمى حجر من قلب المدينة - يضم حشدًا كبيرًا من فقراء الجاليات الأجنبية في مصر: الإيطالية واليونانية بوجه خاص، وعلى الجانب المقابل من الشارع منطقة مازالت تحمل الاسم الدال على ساكنيها: «قصور الشوام»، وتغيرت - بطبيعة تطورات الواقع المصري بشكل عام - التكوينات الديموجرافية في هذا الحي الذي كان معظمه حقولاً تنتج - أكثر ما تنتج - الخضروات التي تحمل إلى السوق الكبير الذي يتوسطه. ولعل ما يميزه اليوم أن ساكنيه يكادون ينتمون لكل شرائح وطبقات المجتمع. أضف لهذا كله أنه أول أحياء القاهرة للقادمين - بحثًا عن العمل ومن ثم الاستقرار - من محافظات الدلتا القريبة، خاصة محافظتي القليوبية والمنوفية. وفي الرواية المصرية الحديثة كتب المثابر الدءوب نعيم صبري «شبرا» قبل أن يهجرها إلى «الحي السابع»، وكتب بهاء عبد المجيد «سانت تريزا»، وحديثنا عن هذه الأخيرة.

يقوم بناء العمل على شخصيات أربع، وتقوم صياغته على المقاطع الصغيرة المتتالية ذات العناوين التي تحدد طبيعتها والشخصية التي تعنيها، وإطاره الزمني من منتصف الستينيات لأوائل الثمانينيات على وجه التقريب، وإطاره المرجعي الأحداث السياسية الكبرى: ٦٧ و٧٣ والصلح المصري - الإسرائيلي حتى اغتيال السادات في ٨١. فتاتان من سن واحدة، الأولى مسلمة والثانية قبطية، لكنهما تختلفان معًا إلى كنيسة الحي «سانت تريزا»، وإليها تلجأ القبطية «بدور» في النهاية كي تتحرر من خطاياها.. «هنا كانت بدايتها، وهنا ستأتي عندما تموت، هنا تعمدت وغُطست في الماء المقدس، هنا تزوجت، وهنا كانت تستريح، لماذا أغضبت الرب والعذراء وسانت تريزا وكل القديسين.. كيف الخلاص يا ست تريزا؟ وجدت طريقك إليه وأنت في الرابعة والعشرين، فتخففت من عبء الحياة وترهبنت وخدمته إلى أن فاضت روحك الطاهرة، لقد كنتِ مثلي الأعلى يومًا، فأين أنا منك؟ خذي بيدي يا طاهرة..».

ولكن: كيف أغضبت بدور «الرب والعذراء وسانت تريزا وكل القديسين»؟ إنه «لوكا»: يهودي من أصول يونانية، جاء مصر مع أمه وهو في الثانية عشرة، وهو - زمن الكتابة - قد جاوز الخمسين، صاحب «الأتيليه» الذي يعمل فيه «جرجس» زوج بدور. هكذا قام مثلث تقليدي. لا بأس. لوكا بحاجة لبدور، وهي بحاجة إليه، فهو سبيلها إلى تجاوز حياتها المحدودة والصعود إلى حياة أرقى وأرحب. «همست لنفسها بزهو: أنا جميلة، فلم لا أستغل جمالي هذا؟ أريد أن أعيش حياة أفضل..». ومن الواضح أن زوجها لم يكن يعارض هذا الطموح، ولا كان يعارض تحققه وقد فتح لها لوكا «بوتيكًا» في الإسكندرية حيث أصبحت تقضي جانبًا من أيامها هناك، بل «انغمسا في الحب والعمل والكسب، يراوده الشك أحيانًا عندما يذكر اسم لوكا، باستثناء ذلك كانا يحلمان بالثراء وشراء المنزل الذي يعيشان فيه وتأسيس بوتيك للملابس..»، أكثر من ذلك حين لَمّحت له بدور عن عدم ارتياحها لطريقة لوكا في معاملتها «لم يفهم جرجس، وقال لها إن هذه طريقته في معاملة النساء والتي لا تعني شيئًا، وهو، على أي حال، رجل كبير في السن ولا خطر منه..»، وفي شجارهما الأخير قالت له بوضوح موجع: «لوكا إدانا كل شيء، تقدر تقوللي المحل والبيت اللي باسمك دول منين؟ والبوتيك اللي عندي دلوقتي منين؟..».



أطلتُ عمدًا في تقصي هذه العلاقة الثلاثية كي أفسر رؤيتي لما تطورت إليه، أو بالأحرى، ما تطور إليه حال جرجس، الذي انهار وأدمن الشراب والضياع وغاص في هذيانه عن «اليهودي» الذي دمر حياته، واضطر الروائي لأن يلتمس له تبريرًا.. «ورغم أن جرجس لم يكن متفقًا للحد الذي يجعله يصدر أحكامًا على الجنس اليهودي، إلا أنه كان لديه كره فطري لليهود، فهم الذين حرضوا على قتل المسيح، وهم أعداء مصر، وهم الذين اغتصبوا أرض فلسطين ودنسوا الأرض المقدسة، هم الذين قتلوا في الحرب بسببهم أعز أصدقائه وأقاربه وأحبابه.. لهذا فقد زاد حنقه على لوكا وأوغل في طلب الثأر منه..». لكننا لم نكن نعرف أن له موقفًا من اليهود من قبل وهو قد عمل مع «لوكا» - وكان معجبًا به مقلدًا له - قبل أن يعرف بدور، ولم نعرف أبدًا أن له «أصدقاء وأقارب وأحباب» قتلوا في الحرب. من هنا تأتي النهاية التي يضعها الروائي لهذه العلاقة، ولروايته كلها، الاشتباك الدامي بين لوكا وجرجس، وقد سعى الأخير إلى الأول ليقتله: «جرى إليه، وقبل أن يفيق لوكا من أثر الوقعة وجد جرجس مندفعًا ناحيته مشهرًا مقصه في يده، حاول أن يتفاداه، ولكن الدماء تدفقت من بين أصابعه غزيرة ساخنة، رأى جرجس الدماء فجن جنونه وصرخ ضاحكًا: قتلتُه... إلخ». أقول إن هذه النهاية الميلودرامية الزاعقة قد تكون حلاً لإنهاء الرواية، لكنه حل يأتي من خارجها تمامًا!

خارج هذا المثلث، وقريبًا منه، تقف «سوسن»: صديقة بدور وجارتها منذ الطفولة، ولن يتسع المقام لمتابعة تطورها «وتطور وعيها أثناء دراستها الجامعية وبعد عملها مدرسة للغة الفرنسية. يكفي تعليق واحد حول «سليم» الذي ارتبطت به في الجامعة، كان ماركسيًا شديد الثقة والرسوخ، ثم تحول ليصبح أحد قيادات الجماعة الإسلامية، ونجح في الهروب من سجن طرة. إن هذه الشخصية

«سانت تريزا» تفيض بالنوايا أكثر مما تحقق من الإنجاز، خاصة والكاتب يثبت أنه ظل منشغلاً بكتابتها - في أقل من مائة صفحة - ثماني سنوات (١٩٩٣-٢٠٠١) بين القاهرة ودبلن وباريس!

«كولاج» غير متقن من شذرات متباينة لا تخلق شخصية متكاملة، بل تتنافر عناصرها، هذا إضافة إلى أننا لا نعرف أن «تحالفًا» قام في أي وقت بين «الماركسيين» وأعضاء الجماعات الإسلامية في الجامعة نهاية السبعينيات. متى حدث هذا وكيف؟.. لا ندري.

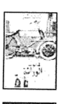
«سانت تريزا» تفيض بالنوايا أكثر مما تحقق من الإنجاز، خاصة والكاتب يثبت أنه ظل منشغلاً بكتابتها - في أقل من مائة صفحة - ثماني سنوات (١٩٩٣ - ٢٠٠١) بين القاهرة ودبلن وباريس!



هل تعرف المثل العربي القائل «كل الصيد في جوف الفرا»؟، لعل هذا ما تحاوله منال القاضي في روايتها القصيرة «لا ظل ولا صدى» (بعد مجموعتين من القصص). في أقل من مائة صفحة تنسج الروائية عالمًا شديد التعقيد والتشابك. الأدق أن نقول إنه عالم ينقسم إلى عوالم متداخلة، ثلاثة ركبوا الأوتوبيس المتجه إلى القلعة، «عصفوران بينهما شيخ»: مريم ومحمد وبينهما عبد الحميد. زمن الرواية هو الزمن الذي تستغرقه الرحلة، لكن كلاً من الأشخاص الثلاثة يستدعي عالمه، وهو عالم على جانب كبير من الخصوصية والتفرد. ومن ثم فإن الشكل الذي تستخدمه الكاتبة (المؤلف الخالق لكل شيء والعليم بكل شيء) والبناء الذي يقوم عليه (المقاطع القصيرة المتتالية التي تحمل أرقامًا، والتي تنتقل - بيسر وسلاسة معظم الأحيان - بين هذه العوالم المستدعاة) يبدوان ملائمين تمامًا. إنه أشبه بسيناريو عمل سينمائي: بعد اللقطة العامة الأولى (الأوتوبيس المتجه إلى القلعة) يبدأ «المونتاج» عمله: يقطع من هنا ليوصل من هناك، مضيفًا خطوطًا جديدة إلى كل من هذه العوالم، مستدعيًا شخوصًا وأحداثًا أخرى، ولاحتشاد هذه العوالم بالأحداث والشخصيات تلجأ الكاتبة إلى الاختزال والإيجاز، معتمدة - اعتمادًا قد يكون مبالغًا في تقديره - على الخبرة المتراكمة لدى القارئ وقدرته على أن يفكك الخيوط، ويرد كلاً إلى صاحبه.



ولن يتسع المجال لرصد كل التفاصيل في كلٍّ من العوالم الثلاثة، يكفي أن نشير فقط إلى «رؤوس الموضوعات» التي يقوم عليها كلٌّ من هذه العوالم: إن عالم عبد الحميد يستدعي قيام ثورة يوليو وهو طالب بالثانوي، ووقع هذا الحدث الكبير على زملائه في المدرسة واستجاباتهم المختلفة له، وبينهم ابن واحد من «البهوات» الذين بدأ عالمهم في التقوض، وبينهم طالب عُرف منذ البداية أن له صلات وثيقة بالثوار، وأنهم «طوع أمره»، فمارس الاستبداد والابتزاز لزملائه ومدرسيه استنادًا إلى شيوع هذا القول، وفيما بعد اعتقل «مصطفى» مع الشيوعيين، وقيل إنه قد أطلق سراحه لأنه كان يعمل مع السلطة ضد رفاقه، وهو - زمن الكتابة - كاتب يقرأ له عبد الحميد أحيانًا، وأحيانًا يراه بين من يسوقون اللغو والهذر في برامج التليفزيون (شخصية قد















ترجع بأصولها إلى النموذج الكلاسيكي: رءوف علوان). وفي عالم عبد الحميد كذلك أخوه «علي» المثقف الذي كان يعقد «صالونات الخميس» في بيته، وفي أحدها عرف «شذا» الشاعرة التي تعاطفت مع مصطفى، ولم تأبه بعبد الحميد.

محمد - صبي في الثانية عشرة - له عالم آخر: أهم ما في عالمه زميله وصديقه الفلسطيني «مريد»، الذي يتفرج معه على اللوحات التي رسمها جد «مريد»: الرسام الفلسطيني المعروف، وله - بطبيعة كونه فلسطينيًا وفنانًا - مأساته الخاصة، ذرة مفردة من مأساة شاملة، وبين زملائه كذلك «تايسون»: الصبي المصري الذي يحمل الجنسية الأمريكية (وهذه شخصية غير مسبوقة)، وتفسير ذلك أن أمه، مضيفة الطيران، وأباه، طبيب التخدير، قررا أن يكون ميلاده في «تكساس» حيث يعيش عمٌّ لأمه «فيصبح مواطنًا أمريكيًا». وينقذانه من وصمة العالم الثالث والتأرجح بين دولة نامية ومتخلفة..»، وهو يباهي بجنسيته وبتيه على زملائه الذين يدخلون معه في معركة مفتوحة. إن الصراع بين «مريد» الفلسطيني و«تايسون» الأمريكي، ومواقف محمد وزملائه المصريين من هذا الصراع ليس «تعبيرًا رمزيًا» عن حقائق تحدث اليوم على أرض الواقع، قدر ما هو «مكافئ» أو «معادل» لما يحدث. (ولكي تبرز الكاتبة الدلالة السياسية للموقف كله، لا بأس بأن تجعل صبي الثانية عشرة يفكر على النحو التالي: لكن «مريد» شغله أكثر لأنه فلسطيني، ومثله مثل أطفال الحجارة الذين يعتدون بحجارتهم على أمن إسرائيل، كما قالت مذيعة «السي. إن. إن» وقرأ في «الواشنطن بوست»!).

أما عالم الصغيرة «مريم» فحدث عنه ولا حرج!، يكفي أن تكون فيه حكايات «سنية» عن زوجها النوبي، وحكاية المرأة النوبية العجوز «عائشة مياسة» التي جاءت من النوبة بعد أن أغرقت ابنتها «سبيلة» لأنها حبلت من الشيطان، وعالم مريم - بوجه خاص - يتأرجح بين الواقع وما وراءه، خاصة وهي دائمة الانشغال بالتفكير في حكايات «سنية» التي تغص بالعفاريت والشياطين من ناحية، وما تقوله «ميس راجية»، المدرِّسة، عن الاستنساخ.. «لم تفهم مريم من كلام «الميس» سوى أنه يمكن استخراج منها أكثر من مريم، وبدت المسألة مدهشة ومريحة» من الناحية الأخرى.

هي، إذن، عوالم ثلاثة مستدعاة، كل منها غني بشخوصه وأحداثه، لكن العلاقات والروابط التي تسعى الروائية إلى إقامتها بين هذه العوالم الثلاثة لا تأتي - في معظمها - معقولة أو مقنعة، ولعل أكثرها وضوحًا محاولة الربط بين عالمي عبد الحميد ومحمد من خلال اللوحات المرسومة لوجوه ومشاهد فلسطينية، فهي تبدو واضحة الافتعال.

«لا ظل ولا صدى» عمل يعتمد على الإيجاز والحذف، ويتكئ على خبرة القارئ ومهارته في التقاط الخيوط والتمييز بينهما، وبقدر نجاحه يتحدد مدى تفهمه وتذوقه للعمل كله.

رأيتُ أشياء وفاتتني أشياء، من قراءة هذه «النماذج المختارة» - وقد حرصتُ، قدر الجهد، على عرضها وتقديمها - هل يمكننا الجواب عن بعض الأسئلة التي طرحناها أول هذا الحديث؟

بأقصى قدر ممكن من تدقيق الكلمات، ومن خلال هذه النماذج الخمسة عشر، إضافة للأعمال التي لم نعرض لها لأنها دون مستوى المناقشة الجادة (لا حاجة، بطبيعة الحال، لتحديد الأعمال والأسماء). يمكننا أن نثبت بعض الملاحظات:

الأولى: تفرض نفسها على الفور، وهي المتعلقة «بحجم» هذه الأعمال، أو عدد صفحات كلٍّ منها. هنا نجد عملين فقط هما اللذان تتجاوز صفحات كلٍّ منهما المائتي صفحة (عمارة يعقوبيان ٣٤٨ص، ثم نوة الكرم ٢٩٤ص) وواحدًا يقارب المائتين (من حلاوة الروح ١٧٥ص). أما معظمها فيقع بين المائة والمائة والخمسين، ومنها ما لا يبلغ المائة (تصريح بالغياب ٧٥ص، قانون الوراثة ٨٧ص، لا ظل ولا صدى ٩٢ص، تفاحة الصحراء وسانت تريزا، كلٌّ في ٩٧ صفحة).

إن هذه ليست ملاحظة شكلية. وأنني لست من المؤمنين بتلك القواعد التي يضعها «معلمو الأدب» للتفرقة بين القصة والرواية، سواء من حيث عدد الكلمات (كأن يقولوا إن القصة لا يجب أن تتجاوز الثلاثة آلاف كلمة) أو من حيث الزمن اللازم لقراءتها (كأن يقولوا إن القصة يجب أن تُقرأ في جلسة واحدة) أو ضرورة أن تلتزم القصة ما كانت تلتزمه المسرحية الكلاسيكية من حيث وحدة المكان والزمان والحدث، أو ضرورة أن تكون في القصة شخصية واحدة رئيسة، وتقوم بقية الشخصيات بالعمل على توضيح معالمها، أو ضرورة ألا يتجاوز زمن القصة حياة فرد واحد.. إلخ.

آية إخفاق تلك القواعد أن القائلين بها لم يجدوها جامعة ولا مانعة، ومن ثم أسرفوا في التقسيم والتصنيف: ثمة «أقصوصة» و«قصة قصيرة» و«قصة قصيرة طويلة» - «نوفيلا» أو «نوفيليتا» حسب اللغة التي تفضلها - و«رواية». من الناحية الأخرى فقد أطاح المبدعون الكبار بكل تلك «التقعيدات»، وفي ظني أن أيًا منهم لو قعد يكتب «قصته» أو «روايته» ملتزمًا أيًا منها، ما كتب شيئًا على الإطلاق!

عندي: يتداخل شكلا القصة والرواية ويتواشجان. وكثيرًا ما نرى - في أفضل النماذج - أن في أحد الشكلين بعض خصائص الآخر. المعوَّل، إذن، هو نسيج العمل نفسه وطريقة صاحبه في تناوله. هل يكتب «على اتساع الصفحة»، كما يقولون، أم يتعمد الإيجاز والاقتصاد؟ هل يستعين بالتفاصيل الكثيرة - في الوصف والسرد والتحليل والحوار - لرسم لوحته الكبيرة أم يتعمد الانتقاء الدقيق والنسج الرقيق كما في «المنمنمة»؟ أقرب وصف أتصوره للاختلاف بين كاتب القصة والرواية أن الأول لا يملك في جعبته سوى طلقات محدودة، ومن ثم فعليه أن يحسن استخدامها وتصويبها والإفادة منها، أما الثاني فيملك «ترسانة» كاملة تحوي مختلف الأسلحة التي يمكن له أن يستخدم هذا أو ذاك منها، أو استخدامها جميعًا في وقت واحد.



على أنني أميل لأن أفسر ظاهرة وقوع أغلب هذه النماذج في هذا القدر المحدود من الصفحات بما يمكن أن ندعوه «تراكم الخبرة» عند القارئ والكاتب معًا. بعبارة ثانية: لا شك في اتساع قاعدة قراء



كتاب الزاوية



حرب النهر
سقوط أم درمان

يتحدث تشرشل عن أجواء ما بعد سقوط أم درمان عاصمة الدراويش والنهاية السريعة لحكمهم فى السودان .

لم يدرك الخليفة عبدالله التعايشى بعد أن غادر أرض المعركة ، أن جنوده لم يطيعوا أوامره واستمروا فى تقهقرهم ولم يصل المدينة إلا بضع مئات للدفاع عنها . ذكر خادمه الأثيوبى أنه تلقى صدمة الهزيمة وهو متماسك ، تناول بعض الطعام ثم رجع إلى القبة ، تضرع فى هذا الضريح المقدس لروح محمد أحمد أن تعينه على تحمل هذه المحنة ، كانت آخر صلاة تقام حول قبر المهدى . سمع الخليفة أن السردار يدخل المدينة وأن الفرق البريطانية وصلت ميدان الاحتفالات فى الغرب . امتطى ظهر حماره واصطحب زوجته الأولى ، وبعض خاصته واتجه ناحية الجنوب . كانت الجمَال السريعة تنتظره على بُعد ثمانية أميال من أم درمان سرعان ما انطلقت به إلى حيث بقايا جيشه فى انتظاره . عندما وصل لم تكن معه أية حراسة ولم يكن يحمل أى سلاح . كان النازحون لديهم كل الحق فى أن يكونوا ثائرين ، لأن قائدهم قد جرهم إلى الخراب والدمار ، قطع رقبة هذا الرجل الوحيد الذى كان سببًا فى كل معاناتهم ما أسهله على أى واحد منهم ويمكن أن يتم ببراءة ولكن لم يهاجمه أحد .

هرع الأمراء الناجون إلى جواره ، سقط أغلبهم على السهل المميت ، عثمان أزرق البطل الصنديد ود بشاره ، يعقوب وكثيرون لم تعتم أسماؤهم الغريبة هذه الصفحات ولكنهم جميعًا كانوا رجالاً عظماء رقدوا وأنظارهم نحو النجوم .





فى الرواية المصرية الجديدة

الرواية العربية، ولا شك كذلك فى ازدهارها الذى يتمثل فى وفرتها وتنوعها، ولعل ما حققته فى هذه العقود الثلاثة الأخيرة يفوق - من حيث إنجازاته الفكرية والفنية - كل ما تحقق لها منذ بدايتها أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. لم يعد الروائى - وهو يتوجه لقارئه - بحاجة إلى الإسهاب والتفصيل قدر حاجته إلى توصيل ما يريد فى أقل عدد من الكلمات (المنتقاة). من الناحية الأخرى فلا شك فى أن انتعاش التعبير بالصورة - فى وسائطها المتعددة - قد ترك أثره فى التعبير الأدبى الذى أفاد من مختلف تقنيات اللغة السينمائية وكتابة السيناريو من حيث استخدام اللقطات البعيدة والقريبة، وتقطيع المشاهد والانتقال من واحدها للآخر حسب منطق داخلى يحدده إيقاع العمل كله. وقد سبق أن بدا لنا أحد هذه النماذج كسيناريو مكتمل، لا ينقصه إلا أن يكتب على عمودين، وأن تحدد فيه أوقات التصوير!



الثانية: أن أصحاب هذه النماذج - فى أغلبهم - مهمومون بالواقع المعيش. وإذا جاز لنا القول بأن الهدف النهائى لأى عمل إبداعى هو الإسهام فى العمل على تغيير هذا الواقع عن طريق كشف الجوانب المعتمة والمظلمة فيه، والإيحاء بوجود سبيل نحو عالم أكثر أمنًا وعدلاً وجمالاً (حتى حين يبدو أحدهم منصرفًا عن هذا الواقع فإن هذه رسالة فحواها أن واقعكم هذا غير جدير بالاهتمام، وهذا اهتمام لا شك فيه!)، فإن أصحابنا هؤلاء تختلف سبلُهم فى التعامل مع هذا الواقع: الوطنى والاجتماعى والسياسى. وتتسع رقعة هذا الواقع حتى تكاد تشمل الجسد المصرى كله: صحاريه الشرقية (ميرال الطحاوى) والغربية (محمد العشرى) وقرى الصعيد ونجوعه (خالد إسماعيل، أسماء هاشم)، وطبيعى أن تشغل أحياء القاهرة مكانها الذى يكافئ مكانة العاصمة فى هذا الواقع، وتكاد تشمل وسط المدينة وجنوبها (علاء الأسوانى، ياسر عبد اللطيف) وشمالها (بهاء عبد المجيد) مع اهتمام خاص بأحيائها «العشوائية» (صفاء عبد المنعم، حمدى أبو جليل). عمل واحد فقط هو الذى يتجاوز هذا الواقع، مرتحلاً فى التاريخ نحو واقع آخر (نوة الكرم). تكمل هذه الملاحظة أن «الحس التاريخى» أو «الحس بالتاريخ» موجود فى أعمال عديدة (أوراق النرجس، قانون الوراثة، تفاحة الصحراء، لا ظل ولا صدى). هذا من ناحية، من الأخرى فإن ذلك الرجوع إلى التاريخ (البعيد أو القريب) يحمل مشابهات واضحة بالواقع المعيش.

الثالثة: إن نصف هذه النماذج تقريبًا (سبعة من خمسة عشر) لكاتبات. وإننى أعتقد أن هذه الحقيقة - فى ذاتها - هى واقعة ثقافية واجتماعية جديرة بالاهتمام والتقدير (بعيدًا، بطبيعة الحال، عن الغمزات واللمزات والكلمات المسمومة!)، فنحن جميعًا نعرف أننا نعيش واقعًا مازالت ترتفع فيه أصوات - جاهلة أو ماجورة أو هما معًا - تُجرِّم الإبداع وتؤثِّمه، فضلاً عن أن الطابع العام للمجتمع ما يزال «ذكريًا» و«بطريركيًا» فى كثير من جوانبه، يكاد أن يحول بين المبدعة الشابة وتكوين ثقافتها الجادة، واكتساب الخبرات الحقيقية بالحياة والناس والأفكار، وهما جناحا الإبداع الذى لا يمكن أن يحلِّق بدونهما، ومن ثم فإن اقتراب الشابة المصرية من العمل الإبداعى الجاد، والمثابرة على تحمل أعبائه هو أمر جدير بالحفاوة.

ثم إننى لم أجد عند كاتباتنا هاته ما يمكن أن ندعوه «حروب الجنس» التى أعلنتها كاتبات قبلهن، وهى حروب تُشن ضد الرجل بما هو كذلك، أى بطبيعته البيولوجية وحدها، لأنه - بالتعريف - قاهر ومصدر للقهر، ظالم ومصدر للظلم، متسلط ومصدر للتسلط، وإذا بدت النساء مقهورات فى بعض هذه الأعمال، فيجب أن نضع فى الاعتبار أمرين: الأول: أن هذا القهر مكوَّن من مكونات «ثقافة البدو» فى الصحراء أو الصعيد (عند ميرال وأسماء وأيضًا عند حمدى أبو جليل) وهى ثقافة منحسرة أمام خطو الضياء والتقدم، رغم كل محاولات بعث الحياة فيها. الأمر الثانى: أن النساء مقهورات بقدر ما أن الرجال مقهورون كذلك. إن واقعًا ثقيلاً من الفقر والحاجة وافتقاد الأمن فى الحاضر والأمل فى المستقبل يقهر الجميع، وتطيش السهام، فتتوجه سهام المقهورين إلى المقهورين بدل أن تتوحد جميعًا ضد مصادر القهر.

لو كان هناك ما يميز كتابتهن عن كتابة مجايليهم من الرجال فربما أمكن القول إن لديهن اهتمامًا بالطقوس والممارسات داخل البيوت (indoors) بأكثر مما لدى الرجال، وهذا طبيعى بحكم الواقع الاجتماعى ذاته، وهن - من ثم - أكثر حفظًا وترديدًا للمأثور من شعر ونثر، لكنهن تتقدمن ليخضن صراع الحياة، مثل الرجال، ومثلهم أيضًا يلقين ما فيها من شر وخير، انكسار وانتصار.

وغنى عن القول أننى لم أجد عندهن ما يدعوه البعض «كتابة الجسد» أو «الكتابة بالجسد»، ومازلت لا أفهم معنى لهذا القول!

الملاحظة الرابعة والأخيرة: إننى أنفر من استخدام «أفعل التفضيل» دون ضرورة، ثم إننى من المؤمنين بأن الزمن هو خير غربال، والقدرة على الاستمرار خير مصفاة. المستقبل وحده هو الذى سيفرز لنا من الذى سيواصل التقدم، ومن الذى سيبقى يراوح فى مكانه، يقول ما سبق له (أو للآخرين) قوله، ومن الذى ستسوخ قدماه فى رمال واقع فاسد معاد للإبداع، ومن سيدخل بهو المرايا الخادع، ويبقى محدقًا فى صورة ذات طابع نرجسى خُلَّب، وإن قام تعثر فى ظله..

نعم. رأيت أشياء وفاتتنى أشياء.(*) ■

(*) الأعمال الواردة فى هذا القسم هى، على الترتيب:

* سمية رمضان: «أوراق النرجس»، شرقيات، ٢٠٠١
* صفاء عبد المنعم: «من حلاوة الروح»، كتاب «رؤى» للقصة والرواية، ٢٠٠١
* ياسر عبد اللطيف: «قانون الوراثة»، ميريت، ٢٠٠٢
* محمد العشرى: «تفاحة الصحراء»، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١
* حمدى أبو جليل: «لصوص متقاعدون»، ميريت، ٢٠٠٢
* بهاء عبد المجيد: «سانت تريزا»، شرقيات، ٢٠٠١
* منال القاضى: لا ظل ولا صدى، مكتبة مدبولى، ٢٠٠٢



ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

رضوان الكاشف
«مع السلامة يا أخى»

في عالم «المضحكون الجدد» الذين سيطروا أو كادوا على المرحلة الراهنة من حياة السينما المصرية. هناك سينما جادة تتناول بعمق وجراة وبتكنيك فنى راق أحوال مصر المحروسة فى نهايات القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة.. وقد كان الراحل رضوان الكاشف فى مقدمة المخرجين الجادين المعبرين عن تلك الرؤية.

وبعد أن قرأت موضوعى «المضحكون الجدد فى مصر» و«السينما وهموم الشباب» أرجو أن تتاح لى الفرصة بالكتابة عن رضوان الكاشف.

«رضوان الكاشف».. فنان السينما المبدع الشاب الذى باغتنا رحيله فى ٢٠٠٢/٦/٥ هو ابن عصره، بكل المعانى.

رضوان الكاشف.. ابن عصره ثقافيًا وإبداعيًا، وطنيًا وسياسيًا، ابن عصر انغمس فيه وفى تضاريسه «حتى النخاع»، ليعبر عنه، وليعبره مع وطنه. ابن عصره بسمات ذلك العصر ومعالمه وأحزانه وأحواله وتحولاته العنيفة وفوضاه فى كل مكان!

ورضوان.. ابن أشرف المحاولات لتجسيد وتعبير الفنون والأفكار عن كل ذلك وعن (موقف) منه، وابن أعمق الاجتهادات وأوضحها نضجًا وحداثة، باستهداف أن تكون السينما فى مصر جزءًا أصيلاً وجميلاً من ثقافة مصر الوطنية، وأن تكون بدورها «بنت العصر» وأن تكون مع غيرها عونًا على الاجتياز الشاق، والمخاض العنيف، نحو الحلم.. والأفق الجديد، ونحو عصر جديد ومختلف منشود.

* الفتى أحمد على:

رضوان.. ابن العصر والأوان الذى لم يتم مشروعه المباغت بالرحيل، مع أنه أكثر من كان يقاوم الرحيل، مثل أروع وأنصع أبطاله «أحمد» - فى تحفته السينمائية «عرق البلح» - الفتى الذى أصر على أن يبقى ولو وحده، ولو غادر كل رجال القوم، أجمعين، واستجابوا لنداء المجهول! إنه لذلك هو الرجولة الحقة.

وهو أيضًا مثل الفتى أحمد.. الذى رغم كل مقاومته للرحيل، الطويلة والمستبسلة، باغته الرحيل ذات حين، دون توقع منه. ودون توقع أو استعداد منا!

لقد فقدنا بحق - ودون أدنى مبالغة - «أملاً كبيرًا» من آمال السينما المصرية والعربية، «فنان السينما» بكل معنى الكلمة / المصطلح.

ثلاثة أفلام طويلة فقط (ليه يا بنفسج ١٩٩٢ - عرق البلح ١٩٩٧ - الساحر ٢٠٠٢)، وأربعة قصيرة (الجنوبية ١٩٨٤ - الورشة ١٩٨٥ - حياة بائع متجول ١٩٨٦ - نساء من الزمن الصعب ١٩٩٩). وكان هذا شأن كثيرين فى جيله، حاصرتهم ظروف متوحشة، وكان إبداعهم يطلع إلى النور متأخرًا، ويستمرون فى بلورة مشروعهم وفى المجاهدة أو المكابدة على الرغم من عراقيل متكاثرة، ولكنهم يواصلون، خاصة النماذج الصلبة الواثقة مثل «رضوان» تمضى فى طريقها عاقدة العزم مثابرة، صابرة، بل «تحاصر حصارها» على حد تعبير محمود درويش الرائع ذائع الصيت!


المضحكون الجدد فى مصر

طارق الشناوى

لم يبتعد رضوان الكاشف قط، فى حياته ومن ثم فى أفلامه ومشاريعه ما تم منها وما حلم وكان يعد (ومن بينها فيلم عن جيله وعصره بعنوان «نحن» أو بعنوان «عنا»)! لم يبتعد عن الانسان العادى، عن البسطاء (الناس الحقيقيين) الذين جرفهم إلى «هامش» تعس، عصر الترف والعنف، ووجه إليهم أقسى ضرباته، ولكن مثلما لم يتخل الكاشف فى حياته يومًا عن ابتسامته الهادئة الواثقة، رغم كل الصخب من حوله والتشويش المطرد، لم يتخل على الإطلاق عن (رؤية واكتشاف) الابتسامة الصافية والحقيقية رغم كل شيء فى حياة هؤلاء البسطاء. وقدمها دائمًا فى أفلامه وسط تراكم ودواعى العناء وعلى الرغم من «كل هذه المرارة»..! وقد أطلق على ذلك تعبير (نظرية) فى آخر أفلامه - أو رسائله الذاخرة - «الساحر» وأسماها (نظرية البهجة) وكان تعبيره هذا هو عنوانه الأصلى للفيلم ثم أبقى عليه كعنوان إضافى!

ونفس ذلك المزيج - ولا نقول الثنائية - هى ما التقطه، وأسره، فى احدى أغنيات الشجن المزدوج بالابتهاج المصرية: «ليه يا بنفسج.. بتبهج.. وانت زهر حزين؟!»، حتى أنه وضع التعبير عنوانًا على رأس فيلمه الأول. وينتمى فيلم «ليه يا بنفسج» إلى سينما انسانية غنية وآسرة. جماله البالغ والخاص ينبع من بساطته وأصالة الانتماء ومن تلك «الانسانية» الصادقة والدافقة.

آمن رضوان (بنظرية البهجة) على الرغم من كل الأشياء وحصار الأحزان المحكم، وآمن بنظرية التقدم، وأن الغد لابد أفضل وأبهى.. للإنسان العادى ومن البدايات المبكرة، منخرطًا فى الحركة الطلابية والوطنية. منذ حشد «الكعكة الحجرية» ومشهدها ذائع الصيت الذى تصدر السبعينيات، احتشدت فيه مصر من أجل حرب تحرير الوطن فى ميدان التحرير وسط القاهرة، والذى خلده شعريًا أمل دنقل، وكان يشرع فى أن يخلده سينمائيًا رضوان الكاشف.

وقد أتى كلاهما من صعيد مصر، وكلاهما جنوبى وابن بار للجنوب ومصر لغاية النفس الأخيرة وكلاهما صعد فى عز وعنفوان التدفق بالعطاء والألق الجميل، بشجنه / حسنه البهيج..!

«رضوان»، من جيل ولد تمامًا مع الثورة، بل إنه ولد فى عام قيامها وبعد أسبوعين فقط (٦ أغسطس ١٩٥٢).

تراجيديا هذا الجيل كامنة فى لحظة تفتح وعيه وإدراكه على السقوط الكبير، فى السبعينيات، أى تسليم المقدرات والإرادة وكل شيء، كان الجيل السابق «جيل٦٨» مصدومًا بالهزيمة الكبيرة فى يونيه١٩٦٧ وفقدان الأرض، لكن مصر بالقيادة الوطنية التقدمية لجمال عبد الناصر لم تفقد إرادة المقاومة، والإصرار على التحرير بل والشروع على الفور رغم المخاطر فى حرب استنزاف على الطريق إلى حرب التحرير. والآن تسلم مصر الرسمية السبعينية إرادتها مختارة وتلحق الوطن - بالتسوية المنفردة والانفتاح البائس - بركاب منظومة الرجعية العالمية بقيادة الولايات المتحدة.

هذه الترديات، أو بتعبير جمال حمدان الحاد النفاذ «حركة التاريخ إلى أسفل»، وحدت جيل مقاومة الردة، بمختلف الفصائل والتوجهات والمواقف، وإينما وقف، يمينًا كان، أو يسارًا «كرضوان».

وغلب على طلائع الجيل التوجه يسارًا، وبلغت المد الواضح والعنفوان بحركتها وسط الجماهير فى هبة١٨، ١٩ يناير عام ١٩٧٧. كما أن تلك الترديات وحدت مختلف أجيال مصر التى حضرت السبعينيات العاصفة، جيل مقاومة الردة، وجيل مقاومة الهزيمة السابق عليه، وجيل مقاومة الاحتلال البريطانى وتفجير الثورة السابق عليهما.

أى جيل الفتيان، وجيل الإخوة الكبار، وجيل الآباء..! معًا فى مواجهة النكوص الشامل، و«هزيمة من نوع جديد».

وبدا للكافة أن الأمر على هذا المنوال - رغم التضحيات - قد طال بل وتعقد وازداد استحكامًا.

وحينما تبلغ - مع انتصاف سنة ٢٠٠٢ - ثورة يوليو سن الخمسين تمامًا ومعها رضوان الكاشف. فى تلك اللحظة المشحونة بالمعنى: يغمض رضوان الكاشف عينيه، ويختفى بلا تمهيد، كشخصيات الأساطير، يمضى بلا توقع ووداع، ليظل فى بالنا طول الوقت كائنًا لابد سيعود!

يركب حصانه، حصان الموت، كما كان يركب أبطاله فيرحلون إلى الأبد، فى فيلمه المرموق «عرق البلح».

لكن جواد الموت فى «عرق البلح»، كان أيضًا جواد حياة جديدة، ذاهب إليها الراكب، راضيًا مرضيًا بعينين باسمتين. وكان يودع أبطال



وشخصيات رضوان راكب الجواد، بالتلويح والصوت المحب بلا بكاء، المردد بجلال وشجن آسر بلا نحيب: «مع السلامة يا أخي.. مع السلامة يا حبيبي».

وأذكر أني قلت لرضوان الكاشف عند مشاهدة ذلك الفيلم: لم أشاهد في فيلم من الأفلام، مثلما شاهدت في فيلمك «عرق البلح».. الموت! بهذا الرقي والإحساس، بهذا الخيال الخصيب الخاص، والتأمل الفلسفي البعيد البديع، بالعقل والحدس، والوجدان والروح!

وكعادته، مع ابتسامته الهادئة، ونظرته التي تذهب إلى بعيد، وصفاء رؤياه، أخذ يهب متعمقًا، ويطوف بحديث رقيق في الفن والخيال، والموت والحياة، والجمال والجلال!

ظل «رضوان» دائمًا ذلك المزيج المتفرد من الابتسام الهادئ والاعتمال والانشغال بكل الحيوي والخوض في كل القضايا الجادة بجدية تليق بها إلى أبعد حد.

ومضى «رضوان»، وفيلمه الثالث فيلم الوداع «الساحر» - والمعروض لم يزل وقت الرحيل في عدد من الدور - هو فيلم العام، أو نصفه الأول على الأقل، الفيلم الأجمل والاتقن والأبلغ.

كان فيلمه حديث السينما والأفلام المتصدر خلال شهور. والآن أصبح الحديث عن صاحب الفيلم هو الحديث الأول والحزين في كل مكان، ونحسب أن الحديث عن عمله وعمره - على قصره - سيصبح باستمرار تحليلاً متعمقًا وقراءات متجددة لعمله ودوره. والذي لن يُحسب أبدًا بعدد الأفلام، أو عدد السنين، وإنما بعمق التأثير، ومعنى الدور، وقيمة الإسهام.

محمد بدر الدين
عضو مجلس إدارة
جمعية نقاد السينما المصريين



تأثير الحضارة المصرية

في عدد يونية وتحت عنوان «تأثير الثقافة العربية في الحضارة الغربية الحديثة» تحدث د. شوقي ضيف في إسهاب عن الفضل التاريخي للحضارة الإسلامية على الحضارة الأوروبية الحديثة والذي أثمر في عصر النهضة. حقًا لقد أبدع العرب حضارة زاهرة استصفت أفضل ما أنجزته الحضارات السابقة وتمثلته وأضافت إليه أروع ما جادت به عقول وسواعد أبنائها وصهرته في مزيج حضاري متناغم وثري كان فضله على الحضارة الأوروبية عظيمًا حيث أعاد العرب بعث التراث الكلاسيكي الإغريقي وحفظوه من الضياع وأضافوا إليه شرحًا وتعليقًا وقاموا على رعايته خير قيام وحينما أشرقت هذه الحضارة على الغرب الأوروبي كانت عاملاً رئيسيًا في انتشاله وانتقاله من ظلمات العصور الوسطى بكل أثقالها وجهالاتها إلى عصور النهضة.

ولكننا إذا تتبعنا أصل هذا التراث الإغريقي الذي أكد العرب بإحيائه فضلهم على أوروبا لوجدنا أن معظمه يعود إلى أصول مصرية حيث كانت مصر القديمة هي المنبع الذي نهل منه الإغريق معارفهم وشيدوا معجزتهم الإغريقية على أساسه فأصول الفلسفة اليونانية العظيمة تضرب بجذورها في أعماق الحضارة المصرية التي امتد تأثيرها في الحضارة الإغريقية إلى جميع المجالات تقريبًا في الفن والفلسفة والتشريع والعمارة.

ويعترف برونو بهذا الفضل ويقول: لقد امتلكنا نحن الإغريق مصر مملكة الأدب والنبل العظيمة وأصل كل تراثنا وشرائعنا. هنا يبدو تسلسل الفضل الحضاري منطقيًا حيث تدين أوروبا للعرب الذين استفادوا من الإغريق وهؤلاء يدينون بحضارتهم لمصر القديمة أصل الحضارات الإنسانية بما فيها الحضارة الإسلامية وتسري في كثير من مكوناتها والشاهد أن الانقطاع الثقافي والحضاري بين مصر القديمة ومصر الإسلامية لم يكن كاملاً بل هناك استمرارية خلاقة في مجالات كثيرة فعلى سبيل المثال تأثرت العمارة الإسلامية بالعمارة المصرية القديمة بشدة فالمئذنة الإسلامية هي الترجمة الفعلية للمسلة المصرية؟ ويبدو مسجد السلطان حسن أهم روائع قاهرة العصور الوسطى بمدخله الشاهق الذي يبعث الرهبة والجلال في النفوس وكأنه جزء من العمارة المصرية القديمة.

ولعل هذه الاستمرارية توضح لنا السبب في تفرد مصر بإنجاب كوكبة أسطورية من كبار القراء تصدح بألحان سماوية بديعة وتشدو بأذان وابتهالات لا مثيل لروعتها في العالم أجمع، إن مصر الإسلامية حين تجد حرمة الاستعانة بالموسيقى في صلواتها كما كان الأمر في الصلوات القديمة والقبطية تلجأ إلى إبراز الموسيقى الباطنية الكامنة في القرآن في استمرارية نادرة لألحان التراتيل المصرية والقبطية.

إن مصر كما يقول مالروهي التي اخترعت الأبدية وهي أول حضارة عرفت الثواب والعقاب والتوحيد جوهر الأديان، أهذه أدلة انقطاع أم شواهد استمرارية وحيوية رائعة؟

لقد سطرت مصر بحروف مضيئة أول فصول الحضارة الإنسانية وكان فضلها عليها واضحًا وضوح الشمس في رائعة النهار وإذا كان العرب قد أعادوا إحياء التراث الكلاسيكي ذي الأصول المصرية فإن من واجبنا نحن إحياء التراث المصري وتدريس اللغة المصرية القديمة وهو ما لا يتنافى مع روح مصر الإسلامية ولسانها العربي، فالحضارة المصرية القديمة ليست كما يدعي البعض وعلى رأسهم الأستاذ أحمد حسن الزيات الذي ذهب في سخرية إلى وصفها بأنها دفين دفنت روحه مع الآلهة وصحائف موت ذهب سرها مع الكهنة.

ليست الحضارة المصرية كذلك بل هي راسخة وفوارة بالحياة ونافذة في فلسفة اليونان وتشريعات الرومان ومزامير داود.

كيف تموت حضارة نشأ الضمير الإنساني في وجدانها وأشرقت شمسه أول ما أشرقت على أرضها؟ ليس هناك داعيًا لافتعال التناقض بين مراحل تاريخنا وتراثنا سيظل الأزهر والهرم والمتحف الإسلامي والمتحف المصري رموزًا عزيزة عن حياة مصر تصنع تاريخها وتشيد مجدها وتؤكد عبقريتها، وهل من المصادفة أن مصر هي بلد الأهرامات في العالم الخارجي وبلد الأزهر في العالم الإسلامي؟ أين التناقض في ذلك؟

إن تدريس اللغة والتراث المصري القديم ليس انسلاخًا عن عروبة مصر وروحها الإسلامية التي لا تنفك عنها مادامت فيها حياة ستظل مصر تنطق بلسان مضر، وروحها هي روح عمرو وقيثارها الذي توقع عليه ألحان النيل هو قيثار امرؤ القيس.

ليس الأمر تفاخرًا بأمجاد الماضي فأمجادنا صنعها أجدادنا والفضل لهم وحدهم وليس استثمارًا لتاريخ مصر وحضارتها في بورصات السياحة، بل أهم وأخطر.

إن قراءة التاريخ هي المدخل الأساسي لأي نهضة حضارية حقيقية ومن العبث أن نقرأ قراءة انتقائية بل لابد من قراءة كاملة واعية وقادرة على استخلاص الأصيل عن الدخيل وهو سلاح قوي قادر على مواجهة أي محاولة لتزوير التاريخ وتزييف الوعي.

مصطفى عبدالعزيز ريحان
دمياط

نحن وهم!

في العدد الأخير من المجلة لفت نظري مقال الأستاذ سلامة أحمد سلامة الذي أثار لدي أوجاعًا كانت مختزلة في عقلي حتى جاء لقاء الأستاذ هيكل على قناة دريم وتحدث عن ضرورة تحديث النخبة في مصر بكافة أنواعها سياسية، ثقافية، صحافية، دبلوماسية.. وكان الرئيس مبارك قد تحدث في هذا الموضوع منذ أكثر من خمس سنوات ولازلنا مكانك سر وبينما يتحدث الأستاذ سلامة عن جيل الستينيات الذي تولى السلطة في أوروبا والولايات المتحدة لم يذكر أن هناك الآن رؤساء أكبر صحف العالم «ديلي تليجراف تايمز» ومستشارين لأكبر شركات العالم، ملحقين دبلوماسيين لبلادهم ولم يتعدوا الخامسة والثلاثين. وفي مصر فإننا جيل التسعينيات وأواخر القرن العشرين نعتبر المصدر الرئيسي لمعلوماتنا هو الشبكة العالمية للمعلومات «الإنترنت» والدردشة على الـ Email. بل فينا شباب قاموا بإنشاء شركات ومواقع ثقافية مصرية بهيئة عالمية وتصميم راق جدًا بينما هذه الأولويجاركية الثقافية مازالت تتحدث عن ماركس ونظريته التي يستطيع الشاب منا تفسيرها لك ولماذا لم ولن تنجح أبدًا ومازالوا يتكلمون عن الاختلاف حول تنظيم الحياة الإسلامية فنرى الوجوديين والماركسيين هم القادة للتيار الإسلامي وهل الإسلام قادر على المعاصرة أم لا وتناسوا صراع السياسات وليس صراع الحضارات التي فسرها الغالبية من مفهوم ثقافي وتناسوا أن صمويل هنتنجتون مستشار للأمن القومي وأحد المشاركين في صناعة السياسة ليس في الولايات المتحدة، وإنما للعالم كله، ومازالوا يتكلمون عن الحق الشرعي لنا في القدس وحفريات وآثار وحكايات ولم يفكروا في المواجهة مع عناصر صهيونية مسيحية تمتلك ما يزيد على ١٥٠٠ محطة تليفزيونية في الولايات المتحدة بل ووصلت الحالة بهم إلى نصائحهم لنا بأن نشاهد هذه القنوات دون إدراك علاقتها بالصهيونية. إلى جانب أكثر من ٢٠٠ كلية لاهوتية تمويلها بواسطة الجماعات الصهيونية ونشراتها وإصداراتها التي تصل إلى أكثر من ٤٠٠ مليون أمريكي من مجمل ٤٨٠ مليونا..

يحدث كل هذا ولازال هؤلاء المثقفون محتارين بين قصيدة النثر، هل سعاد حسني ماتت أم انتحرت، هل نفك الأسر عن عرفات أو عن القدس.

أحمد أبو زيد
المنيا

عــــــروض موجــــزة

كتب عربيــة

نظرات في التاريخ العام لليمن

عبدالرحمن طيب بعكر الحضرمي

صنعاء: مركز عبادي للدراسات والنشر، وعالم الكتب اليمنية للنشر، ٢٠٠٢، ٢٦٠ صفحة



يلقي الكاتب أضواء على تاريخ اليمن مستفيدًا مما ذكر في الكتب المقدسة ودراسات المستشرقين والدراسات التي سبقت عن تاريخ اليمن قديمًا وحديثًا.

يحدثنا المؤلف عن عاد وثمود، والأولى كانت الحضارة الأولى في جزيرة العرب بعد الطوفان. وكان أصحابها من الضخامة بحيث نعتهم القرآن بـ«إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد»، وقد اغتروا بقوتهم حتى جاءتهم ريح عاصفة فأصبحوا من البائدين عقابًا لهم على غرورهم وتجبرهم، أما ثمود فيذهب أكثر المؤرخين إلى أنهم أقاموا بين الشام والحجاز في المنطقة التي باتت تعرف بمدائن صالح، وتشير كتابات عدة إلى أنهم أدركوا المسيحية.

ويفرد المؤلف فصلاً عن الأنبياء الذين ينتمون إلى اليمن السعيد ومنهم هود وإبراهيم وشعيب عليهم جميعًا السلام، ويتابع نشوء حضارات عتيدة أخرى من «معين» التي أسهم أصحابها بنصيب وافر في حضارة عصرهم، ثم مملكة سبأ وحمير، وقد ورد ذكر الأولى في القرآن الكريم بل إن سورة كاملة منه تحمل اسمها، سورة «سبأ»، وهي تشير إلى أسباب تضعضع قوتهم وانحطاطهم وترده إلى تعاظم ذنوبهم وتكاثر ظلمهم وإعراضهم عن نعم الله وكفرهم، ما أدى إلى أن سلط الله عليهم الأحباش فأحالوا عزهم ذلاً وخصبهم جدبًا ثم كان الأخدود وجاء الفرس وعم الشتات.

ولا يغفل المؤلف طبعًا سيرة «بلقيس» الملكة الشهيرة التي اقترن اسمها بقصتها مع النبي سليمان كما وردت في القرآن الكريم، وقد دخلت مع قومها في دين سليمان وأسلمت لله رب العالمين بعد ما رأت وقومها معجزاته.

ويواصل المؤلف سرد التاريخ اليمني وينقل عن ابن هشام في السيرة خبر العبد الصالح فيميون وتلميذه عبدالله الثامر اللذين دعيا إلى المسيحية واستجاب لهما قطاع كبير من أهل اليمن إلى أن وصلنا إلى الرسالة المحمدية التي كسبت أنصارًا عديدين من أهل اليمن عضدوها وساهموا في تثبيت دعائم دولة الرسول والخلفاء الراشدين من بعده، ويتعرض لعشرات الحركات التي نسبت إلى الإسلام وتعاليمه وإن كان بعضها يخفي أهدافًا ومطامح دنيوية، ويحدثنا عن مدى استجابة الشعب اليمني لهذه الحركات ومنها الإسماعيلية والقرامطة والزيدية وغيرها، حتى يصل إلى «الهادويون» كما يسميهم ومنهم الهادي يحيى بن الحسين العلوي والإمام عبدالله بن حمزة والإمام يحيى بن حمزة والإمام أحمد بن يحيى المرتضى والإمام شرف الدين ثم الإمام يحيى حميد الدين وسلالته التي سعت إلى توحيد اليمن حتى وصلنا إلى مرحلة الجمهورية ويعود الرؤساء العشرة وصولاً إلى الرئيس اليمني الحالي علي عبدالله صالح الذي يسميه المؤلف «الرئيس التاريخي لليمن».

□ □ □

تكوين النهضة العربية

محمد كامل الخطيب

دمشق: وزارة الإعلام السورية ٢٠٠١، ٢٢٠ صفحة



يلخص هذا الكتاب مشروعًا كاملاً استمر لسنوات، مداره النهضة العربية منذ بدايات القرن التاسع عشر وحتى اليوم، ونشر في ثلاثة عشر مجلدًا تحت عنوان «قضايا وحوارات النهضة العربية».

سعى المؤلف إلى تتبع مشكلات وقضايا عصر النهضة ومؤسساته، بتفكيك هذه المشكلات والقضايا وإعادة تركيبها من جديد لاكتشاف ما إذا كانت النهضة قد جرت فعلاً أم لا. وتحرى أسباب الفشل والانتكاس إلى أن وصلت الأمور إلى ما آل إليه الحال.

بدأت النهضة العربية عبر إدراك أمرين كان الوعي بهما وراء كثير من القضايا التي أثارها المصلحون ورواد النهضة آنذاك وهما التخلف عن الغرب الذي كان قد خطا خطوات واسعة في الانتقال من العصر الزراعي إلى الصناعي، من المجتمع الريفي إلى المجتمع المدني، بما اشتمل عليه ذلك من بُنى وهياكل ثقافية وقانونية وسياسية واقتصادية.. إلخ. في مجتمعاتنا العربية لم يجر الأمر على النحو ذاته، لم تتحول المدن إلى مراكز صناعية تبث إشعاعًا ثقافيًا وحضاريًا وتسهم في تكوين النخبة من الطبقة الوسطى، مثل مثيلتها التي قادت التحولات الاجتماعية في أوروبا، بقيت مخزنًا لخيرات الريف، وساهمت في إفقاره وابتزازه إلى أقصى مدى، وهو ما أدى إلى نزوح أبنائه إلى المدن بحثًا عن فرص أفضل للعيش، فزاد الريف فقرًا وتشوهت المدن وعانت من أحزمة فقر حاصرتها بالجريمة والعنف حوّلتها إلى عشوائيات كبرى، بما تعنيه العشوائيات من سلوك انحرافي وشذوذ وفساد، ووفق هذا التحليل الذي يقدمه المؤلف، فإن المنطقة العربية كلها، بريفها ومدنها، تنتمي إلى ما قبل العصر الحديث، ناهيك عن محاولات الزج بها في عصر ما بعد الحداثة. عصر الكمبيوتر والإنترنت وتجارة الخدمات.

هذه البداية المرتبكة انعكست على طبيعة الأفكار التي طرحها روّاد عصر النهضة إثر احتكاكهم المباشر بالحداثة في بلادها، كما جرى مع الطهطاوي مثلاً، الذي لم يكن ليجرؤ على التفكير بالانفصال عن الدولة العثمانية ـ دولة الخلافة الإسلامية ـ وأقصى ما رآه هو حاجة الأمة الإسلامية إلى بعض العلوم «الاستعمالية» ـ كما سماها ـ دون المساس بالأساس العقائدي للمجتمعات المسلمة، أي نبذ الأفكار اكتفاءً بالإجراءات.

بعد الطهطاوي وزملائه. خطا آخرون خطوات في الاتجاه ذاته، وكان لبعضهم الجرأة كي يطرحوا فكرة الانفصال عن الدولة العثمانية ونبذ مفهوم الخلافة، ودفع الشيخ علي عبدالرازق ثمن اجتهاده ـ الذي حمل أبعادًا سياسية لا مجال لذكرها هنا ـ بإقصائه عن هيئة كبار العلماء عقب صدور كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، الذي تجاوز به طروحات سابقيه من المعممين أمثال الأفغاني ومحمد عبده، وبامتداد الوطن العربي تبارى مفكرون ومصلحون منذ بدايات الخمسينيات في استكناه آفاق الأزمة التي تراوح سبل حلها بين العودة إلى الأصول «سلفية»، والارتماء في حضن الغرب ومحاكاته «تحديث»، أو التوفيق بين الدعوتين كي لا نفقد ذاتنا في مواجهة الآخر، وصدرت اجتهادات عديدة يشير المؤلف إلى بعضها منها «أزمة الفكر العربي» لإسحق موسى الحسيني، و«أزمة التمدن العربي» لمحمد وهبي، و«أزمة المجتمع العربي المعاصر» لمدثر عبدالرحيم الطيب، و«أزمة الضمير العربي» لغالي شكري و«أزمة الحرية في عالمنا» لخالد محمد خالد.. وغيرها.

وكان الرد الذي تبنته معظم الأنظمة العربية منذ الخمسينيات لتجاوز الأزمة راديكاليًا يجنح إلى العنف الثوري بادعاء التسريع بالتحولات الاجتماعية، وقد جرى ذلك في معظم الأحيان على حساب الحريات المدنية والسياسية للمواطنين.

عبر هذه الخلفية، التي تبدو قاسية ومتشائمة، لكنها علمية وموثقة، يتتبع المؤلف تكوين المجتمع الجديد، من حيث تطور المدنية ونشوء النقابات والحركات العمالية ومؤسسات المجتمع المدني والمجالس النيابية والوزارات والقوانين والدساتير والأحزاب السياسية، وكذلك الدور الذي لعبته المؤسسات الثقافية التي تم استحداثها وإسهامات المطابع ودور النشر والصحف والمجلات في توسيع دائرة الاهتمام بالقضايا محل الجدل. ثم يعرض لأهم الأفكار التي طرحتها مرحلة النهضة مثل القومية والاشتراكية والعلمانية وقضايا المرأة وحريات الإنسان، ويقدم بانوراما للأوضاع الثقافية وبزوغ أنواع جديدة من الفنون والمحاولات التجديدية في الشعر والفن التشكيلي والرواية والنقد، لينتهي من هذا كله إلى أن النهضة العربية هي عملية تغيير مؤسساتي ثقافي تاريخي شامل، وليست مجرد أفكار فردية ونزعات يسهل الرجوع عنها، ليعيدنا من جديد إلى طرح السؤال المؤلم: هل ثمة نهضة عربية فعلاً؟

□ □ □

الحكمة الضائعة

عبد الستار إبراهيم

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٢، ٢٢٧ صفحة



ربما لأن الإبداع يتطلب قدرات شخصية وذهنية خارقة، ظهرت نظريات واتجاهات فكرية تفسر سلوك المبدعين بالشذوذ والاضطراب، لكن هذا الكتاب يسعى إلى إثبات العكس وتأكيد أن الإبداع لا يعيش بمعزل عن الصحة النفسية وتكامل الشخصية.

يبدأ الكتاب بشرح عديد من المفاهيم النظرية عن الاضطراب النفسي، ويقدم نماذج لعباقرة عانوا اضطرابات نفسية بينهم العقاد وتشرشل ولينكولن وروزفلت وصلاح عبد الصبور ومي زيادة وعبد الرحمن شكري وبيكاسو ورمبرانت وفان جوخ وموتسارت وبيتهوفن وعشرات غيرهم من الفنانين والأدباء والسياسيين.

وقد سعى كثير من المبدعين منذ القرن السادس عشر والسابع عشر إلى إثبات أن العبقرية تمثل شكلاً من أشكال المرض النفسي والجنون، هذا ما فعله لامارتين وبيرتون ولبروزو، وزاد هذا الاتجاه رسوخًا مع نظريات فرويد في التحليل النفسي التي سار على نهجها عشرات المحللين النفسيين بعده، وقد نظر فرويد إلى المبدع كإنسان تسيطر عليه الكآبة وتمزقه الإحباطات وعدم الاتساق مع العالم من حوله، ويعجز عن إشباع

عروض موجزة

حاجاته الرئيسية، ما يدفعه إلى الاتجاه نحو الإبداع كي يعوض به ما يفقده في الواقع.

وشجع على شيوع هذه الأفكار سلوك بعض المبدعين الشاذ والمضطرب من ناحية، والخلط في فهم طبيعة المرض النفسي من ناحية ثانية. وإقامة علاقات سببية بينه وبين الإبداع دون سند علمي حقيقي.

ومع التطور في مجال الدراسات النفسية ظهر خطأ هذه التصورات، إذ زادت أهمية التفكير العلمي في علم النفس الحديث، وتقلصت إلى حد كبير الأحكام التي تتسم بالعمومية دونما توفر براهين حقيقية، وطوَّر العلماء كثيرًا من التقنيات والمناهج التجريبية التي بحثت في السلوك الإنساني ونقبت عن الدوافع الشخصية للإبداع وما الذي يعيقها أو ييسر ظهورها.

وقد تتبع المؤلف في كتابه تيارين رئيسيين من تيارات دراسة العلاقة بين الإبداع والشخصية، استند الأول منهما إلى التطور في حركة القياس النفسي في علم النفس، وبفضل هذا التيار أصبح من الممكن وضع مقاييس للإبداع في شتى مجالاته، تبين ما يتسم به المبدعون من خصائص شخصية مرضية أو صحية.

أما التيار الثاني فقد استند إلى دراسة السير الشخصية للمبدعين، وهو اتجاه تقليدي، إلا أن المناهج التي استحدثت في مجال الدراسات النفسية جعلته أكثر انضباطًا ودقة، وانتهى المؤلف إلى عدة استنتاجات أهمها: أنه لا صحة للفرضية التي ترى أن المبدع يعاني مرضًا عقليًا أو نفسيًا، وما يتسم به بعض المبدعين من غرابة في التصرفات والسلوك وشكواهم من القلق والاكتئاب، فإن هذه الاضطرابات لا تصل إلى درجة التشويش الذهني والاضطراب العقلي الذي يتسم به عادة المرضى النفسيون والعقليون.

ويشير المؤلف إلى أن المبدعين يتميزون بخصائص إيجابية لا نجدها عند الأشخاص العاديين، منها أنهم مستقلون في أفكارهم وآرائهم، وأن استجابتهم للأفكار الجديدة أكثر من غيرهم.

كما يشير إلى نتيجة بالغة الأهمية أثبتتها دراسة سير المبدعين الذين وصفهم البعض بالاضطراب والتوتر، وهي أن عمليات الإبداع والخلق الفني والإنتاج المميز تتم وهم في أحسن حالاتهم، وفي الفترات التي خلت فيها حياتهم من الاضطراب، وقل إنتاجهم وعطاؤهم في الفترات التي عانوا فيها اضطرابًا ما، من النتائج المهمة التي انتهى إليها المؤلف أيضًا، أن نسب الاضطراب النفسي والعقلي تزيد بين الغنائيين والممثلين أكثر منه بين العلماء والساسة، كما أن المبدعين الذين يعانون اضطرابات نفسية كانوا في معظمهم مدمني خمور أو عقاقير أو أنهم ورثوا هذه الأمراض عن آبائهم، بما يعني أن اضطراباتهم النفسية يمكن ردها إلى أمور لا صلة لها بالإبداع.

□ □ □

العرب.. إلى أين؟

مجموعة مؤلفين

بيروت: مركز دراسات الوحدة الوطنية، ٢٠٠٢، ٥٢٨ صفحة



يلقي هذا الكتاب أضواءً كاشفة على جوانب محددة في الواقع العربي الراهن من منظور استشراف الاحتمالات المرتبطة بتطور وخاصة في المستقبل المنظور.

ويحتوي الكتاب على اثني عشر فصلاً مقسمة على أربعة أقسام رئيسية، يتناول القسم الأول منها مجموعة من القضايا القومية العامة حول نهضة الأمة ومتغيرات النفط والثقافة وتقانة المعلومات. ويتتبع القسم الثاني الانتفاضة الفلسطينية التي تفجرت في ٢٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠ ولاتزال في عنفوانها. ويعرض القسم الثالث لنسق التحول الديمقراطي الجاري في الوطن العربي، سواء في أقطار عربية بعينها، أو من منظور فئات اجتماعية معينة، أو في ظل انعكاسات مسيرة التسوية السياسية للصراع العربي ـ الإسرائيلي. أما القسم الرابع فيركز على متابعة حالات محددة، وبخاصة حالة الجزائر وحالة الصومال، فيسلط الضوء في الحالة الأولى على دور الجيش والدولة وتفاعلات المجتمع المدني في الجزائر، ويبحث في حالة الصومال تشكل ولادة جديدة للدولة فيها.

وقد شارك في فصوله كل من: أسامة الخولي وأسامة عبد الرحمن وأيمن إبراهيم الدسوقي وباقر سلمان النجار وثناء فؤاد عبد الله وحسنين توفيق إبراهيم وسعد غالب ياسين وعبد الله عبد الدائم وعبد الإله بلقزيز وفواز جرجس ومحمد الميلي ومعن بشور ومفيد الزيدي وميثاء سالم الشامسي ونايف علي عبيد ونجوى أمين الفوال وهادي حسن ووليد خدوري وويل كروفورد.

ويتحدث المفكر القومي اللبناني معن بشور عن عروبة جديدة يتلازم بروزها مع مقاومة النظام العالمي الجديد، وتحرص على الاستفادة من التجارب والخبرات السابقة للحركة القومية العربية، بينما يتناول الاقتصادي العراقي هادي حسن ما يسميه «دولة الرفاه العربية» مستبعدًا أن تنتقل هذه الأخيرة من حالة القمع إلى الرعاية في ظل فرض النخب الحاكمة لنمط شكلي للديمقراطية يلتفون حوله متى يشاءون مع شيوع الحرمان والفقر بعيدًا عن المساواة والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان.

ويؤكد المفكر السوري عبد الله عبد الدائم أن الثقافة العربية الإسلامية لم تنجح منذ أكثر من قرن في صنع حداثتها لأسباب أهمها عدم الإدراك الواضح للفرق بين التحديث والتغريب كما أن ازدهار هذه الثقافة الذي يمتد إلى بداية ظهور الإسلام يحدث نوعًا من الانتماء يصبح التجديد في إطاره أصعب منالاً.

أما أمين عام المنتدى المغربي العربي عبد الإله بلقزيز فيرى في هذا المجال أن المطلوب استثمار قوة الدفع التي أطلقتها الانتفاضة وعدم تبديد مكتسباتها التوحيدية التصحيحية من هنا أهمية إعادة بناء منظمة التحرير الفلسطينية وهما مهمتان مرتبطتان.

وينتقد وليد خدوري المتخصص في قضايا النفط المشاعر التي تدغدغ الكثيرين من الذين يتحدثون عن النفط العربي وكأنه حقيقة ثابتة مشيرًا إلى أن وجود النفط بكميات وفيرة في الدول العربية لا يعني أن هناك نفطًا عربيًا ترسم في ضوئه الخطط الاقتصادية والمصالح الإقليمية المشتركة.

□ □ □

الصراع العربي الإسرائيلي

عبدالمنعم واصل

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٢، ٤١٠ صفحات



شارك اللواء عبدالمنعم واصل في حرب يونيو ١٩٦٧ بوصفه قائدًا لأحد الألوية المدرعة. وخاضت وحدته واحدة من المعارك القليلة الناجحة ضد الجيش الإسرائيلي.

وفي نوفمبر ١٩٧٠ تولى قيادة الجيش الثالث الميداني، وشارك به في حرب أكتوبر ١٩٧٣، وانتهت خدمته في عام ١٩٧٤ مساعدًا لوزير الدفاع ورئيسًا لهيئة تفتيش القوات المسلحة، لينتقل بعد ذلك عددًا من الوظائف المدنية: محافظًا لسوهاج ثم محافظًا للشرقية.

الكتاب يضم مذكراته وذكرياته عن حقبة زمنية تتجاوز نصف القرن، شارك خلالها في حروب ومواقع عدة، بدءًا من الحرب العالمية الثانية ثم حرب فلسطين سنة ١٩٤٨، فالعدوان الثلاثي ١٩٥٦، ثم حرب يونيو ١٩٦٧، وحرب الاستنزاف وأخيرًا حرب أكتوبر المجيدة ١٩٧٣.. وهو يبدأ بدراسة عن نشأة الصراع العربي الإسرائيلي، ومسرح الحروب العربية الإسرائيلية، ويشير إلى أن إنشاء دولة إسرائيل وزرعها في المنطقة وضع العرب أمام خيارين: إما القبول بتفوقها الاقتصادي والعسكري والسياسي، أو إغراق المنطقة في سلسلة من الحروب والصراعات التي من شأنها أن تفتت وحدتها، وهما الخياران اللذان يتأرجح بينهما الصراع حتى اليوم.

ويشير الفريق واصل إلى أن حرب ١٩٤٨ أوضحت مدى قصور رؤية القيادة السياسية والعسكرية العربية على وضع التصور الصحيح للحرب ووضع الخطط والبدائل لمواجهة التغيرات المحتملة.

كما يشير ـ بعد تحليل عسكري وسياسي ـ إلى ما أبرزته حرب ١٩٥٦ من تأثير القرار السياسي على القرار العسكري.. حيث كان تأخير عبور اللواء الثاني مشاه إلى شرق القناة سببًا في تعرضه لغارات الطيران الفرنسي المعاون للقوات الإسرائيلية».

ويعرض المؤلف تفصيلاً لسير أحداث حرب يونيو ١٩٦٧، ويتساءل في النهاية عما كان يمكن أن تكون عليه نتيجة حرب يونيو ١٩٦٧ لو لم يُصدر المشير عبدالحكيم عامر قرار الانسحاب، وتمسكت التشكيلات والوحدات بمواقعها وأدى القادة واجبهم في المعركة.. «هل كانت النتيجة ستكون هي ما سجله التاريخ على الجيش المصري أم كانت ستكون مثل ما سجله التاريخ للواء ١٤ مدرع مستقل»، وهو اللواء الذي حقق بقيادة الفريق واصل واحدًا من الانتصارات القليلة في هذه الحرب.

ثم نصل إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣ والتي يفرد لها الفريق واصل بابًا مستقلاً شارحًا مقدماتها والاستعداد لها والتحالفات الدولية قبلها وأثناءها وحالة الجيوش على الجانبين، ثم سير أحداثها وصولاً إلى الضربة المضادة الإسرائيلية وبدء التحول في مسار الحرب وحدوث ما اصطلح على تسميته بثغرة «الدفرسوار». والتي نجحت فيها القوات الإسرائيلية في نصب كمين للواء ٢٥ مدرع المستقل، ويرى صاحب المذكرات أنه لو سمح للواء ٢ مدرع بالمشاركة لتدمير قوات العدو ـ وهو العليم بتضاريس هذه المنطقة والتي اشتبك فيها مع قوات العدو في معركة كبده فيها خسائر فادحة ـ لكانت النتيجة مختلفة تمامًا.

وما أن صدرت قرارات وقف إطلاق النار وبدأت عملية فض الاشتباك بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية، حتى بدأ الطرفان ينشران قواتهما لكسب مزيد من الأراضي قبل وصول القوات الدولية، غير أن إسرائيل كانت تستهدف الاستيلاء على مدينة السويس لأسباب

عروض موجزة

عديدة يذكرها صاحب المذكرات، لكن الجيش الثالث الميداني وشعب السويس البطل كان لهما رأى آخر، فلم يمكناه أبدًا من تحقيق هدفه. ويشير صاحب المذكرات إلى خلافات في وجهات النظر بين القيادات العليا في الجيش حول كيفية الدفاع عن مدينة السويس. غير أن الأمر انتهى بدحر العدو وانسحابه من المدينة وبدأت الجهود الدبلوماسية لفصل القوات وما تلاها، لينتهي الأمر بجلاء القوات الإسرائيلية الكامل عن سيناء وتحرير كامل التراب المصري في ٢٥ أبريل ١٩٨٢.

□ □ □

طه حسين.. الكتابات الأولى
عبدالرشيد صادق المحمودي
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ٢٦٣ صفحة



يضم الكتاب مجموعة من المقالات التي نشرها طه حسين في الفترة التي سبقت حصوله على الدكتوراة في عام ١٩١٤، بالإضافة إلى مقالة من حلقتين عن الخنساء.

ويشير المؤلف إلى أن هذه الفترة كانت حافلة بالأحداث والتطورات الكبرى. فقد التقى بأحمد لطفي السيد في عام ١٩٠٧ وأصبح من يومها أحد تلامذته المقربين، وبدأ من عام ١٩٠٨ ينشر مقالاته في صحيفة الجريدة التي كان يرأس تحريرها. ثم تعرّف على الشيخ عبدالعزيز جاويش الذي احتفى بمقالاته في صحف الحزب الوطني، وفي هذه السن التحق طه حسين بالجامعة الأهلية إلى جانب استمراره في دراسته الأزهرية.

ومن الشائع ـ كما يقول المؤلف ـ أن طه حسين نشر بدءًا من عام ١٩٠٩ سلسلة من المقالات هاجم فيها كتاب «النظرات» للمنفلوطي وأعرب فيما بعد عند ندمه لكتابتها، وقد اعتاد طه حسين في بداية حياته أن يهاجم المرموقين من أدباء وكتّاب عصره طلبًا للشهرة من أمثال حافظ إبراهيم ومصطفى صادق الرافعي ورشيد رضا وعبدالرحمن شكري والمنفلوطي بطبيعة الحال، لكن بعض كتاباته في هذه الفترة كانت محكمة البناء إيجابية وسجالية أيضًا، لكن صاحبها لم يجمعها في كتاب لأنه اعتبرها أقل من حيث المستوى وإحكام البناء مما اعتاده بعد حصوله على الدكتوراة عن أبي العلاء.

ويلاحظ المؤلف أن كتابات طه حسين في هذه الفترة فعلاً كانت مفككة ناقصة يغلب عليها الطابع التجريبي، وهي السمة التي أكسبتها أهميتها من وجهة نظر المؤلف، كونها تكشف عن صاحبها وهو في طور التكوين.

يضم الباب الأول مقالات طه حسين عن الأزهر والجامعة والتي يمكن اعتبارها تمهيدًا لمقالاته الرئيسية التي تناولت تاريخ النقد والأدب. والمعروف أن طه حسين انتقد نظام التعليم الأزهري في مراحل مختلفة من حياته، والمقالتان اللتان اختارهما المؤلف كتبهما طه حسين سنة ١٩١٢ أي بعد أن انقطع تمامًا عن الدراسة الأزهرية،وهما إلى جانب أنهما تحملان رأيه في هذه المؤسسة العريقة. تحملان بعضًا من نضج أفكاره وخصوصية أسلوبه الذي ميّزه فيما بعد، فضلاً عن رأيه الحاسم في أداء الأزهر، الذي اعتبره مقصرًا في أداء رسالته من ناحيتين: الفكر الذي يختلط فيه العقل بالخرافة، واللغة المعقدة التي تصرف النظر عن الفكر والمحتوى.

ويرى المؤلف أن الطريقة التي استخدمها طه حسين في التعبير عن أفكاره هي ذاتها التي تبلورت فيما بعد في سيرته الشهيرة «الأيام» أما حديث طه حسين عن الجامعة والنهضة في مقالتيه اللتين نشرهما في العام ١٩١٣، فيتفق مع المثل العليا التي حددها مؤسسوها، والتي تستند أساسًا إلى حرية الفكر والتعبير قبل تحصيل العلوم.

وتشير كتابات طه حسين المبكرة تلك إلى وقوعه تحت تأثير أحمد لطفي السيد من ناحية والشيخ عبدالعزيز جاويش من ناحية ثانية على ما بينهما من خلاف، فالأول صاحب نزعة إصلاحية تدريجية فتح آفاقًا رحبة من المعارف والعلوم لطه حسين ما كان له أن يدركها وحده، والثاني صاحب نزعة ثورية خطابية مناهضة للاحتلال ولا ترى إصلاحًا إلا بعد دحره وإجلائه عن البلاد.

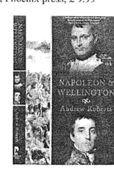
وتشير المقالات أيضًا إلى وقوع طه حسين لفترة من الوقت تحت تأثير أفكار الإمام محمد عبده، خاصة ما يتصل منها بإصلاح الأزهر وتطوير الدراسة فيه، لكنه في فترة تالية انصرف عن تلك الأفكار، واتجه نحو القول بضرورة الفصل بين الدين والعقل.

وإلى جانب هؤلاء فقد تأثر طه حسين خصوصًا في منهجه التاريخي لدراسة الأدب بأساتذته من المستشرقين خصوصًا «نالنيو» وهو ما يؤكده المؤلف في دراسته.

ما ينبه إليه الكتاب بين السطور أحيانًا وبصراحة في أغلب الأحيان، هو أن هذه الكتابات المبكرة كانت النواة التي تشكلت منها كتابات وأفكار طه حسين في مراحل حياته التالية،وأنه استطاع أن يكتشف ذاته في وقت مبكر، وأن يظل وفيًا لأفكاره الأساسية رغم تحولاته.

كتب أجنبية

Napoleon And Wellington
(نابليون وويلنجتون)
Andrew Roberts
London, Phoenix press, £ 9.99



ما أن انتهت معركة ووترلو الشهيرة في بدايات القرن التاسع عشر بين انجلترا وفرنسا حتى بدأ عراك المؤرخين حول من هو أفضل قائدي المعركة. دوق ويلنجتون الإنجليزي الذي فاز بالمعركة أم نابليون امبراطور فرنسا الذي خسر وكانت نهايته.

وبالنسبة لكل المؤرخين ذوي الثقافة الفرنسية أو المتعاطفين معها فإن نابليون يبقى الأفضل والأذكى رغم خسارته في المعركة.. وهناك عبارة شهيرة للكاتب الفرنسي الشهير فيكتور هوجو تقول: «إن ويلنجتون هو مهندس أو فني حرب، أما نابليون فهو مايكل أنجلو الحرب». وبالطبع فإن هذا الرأي لا يتفق ورأى المعلقين والمؤرخين البريطانيين، وعلى سبيل المثال يصف المؤرخون الإنجليز ويلنجتون بأنه: أمين، مخلص، موثوق به، بينما نابليون مخادع غير مخلص وغير أخلاقي.

وفي حقل الألغام هذا يضع المؤرخ الإنجليزي الشاب اندرو روبرتس، الذي ألّف عديدًا من الكتب عن رجال دولة بريطانيين كبار مثل تشرشل ولورد سالزبوري وغيرهما، نفسه في هذا الحقل ليدلي هو الآخر بدلوه وهو يركز في الكتاب على العلاقة بين نابليون وويلنجتون رغم أنهما لم يلتقيا على الإطلاق وجهًا لوجه. وتلك بالفعل معضلة كبيرة لأي مؤرخ، فكيف يمكن بناء كتاب على فرضية ضعيفة، لكن روبرتس تغلب على تلك المشكلة بتناول المراسلات بينهما.. وانطباعات كل منهما عن الآخر ويصل روبرتس إلى استنتاجات أي أنه عكس ما يقول المؤرخون من تباين كبير فيما بينهما فويلنجتون قاس متحجر القلب مثل نابليون تمامًا، ويضرب المؤرخ أمثلة كثيرة منها أن ضابطين انتحرا بسبب سوء معاملة دوق ويلنجتون لهما.

ويبقى بعد كل ذلك أن دوق ويلنجتون يكاد يكون شخصية تاريخية لا يذكرها سوى البريطانيين الذين يعتبرونه من أبطالهم القوميين إن لم يكن البطل الأكبر، أما نابليون فقد امتدت شهرته ومازال هناك في أماكن كثيرة من العالم من يعتبرونه عبقرية نادرة لم يجد التاريخ كثيرًا بمثلها ليس فقط على الصعيد العسكري ولكن على صعيد سن القوانين والتفتح الفكري والرؤية الثورية التي حاول حكام آخرون وقادة بعد ذلك تقليدها.

□ □ □

The Jews of Britain 1656 to 2000
(يهود بريطانيا من ١٦٥٦ حتى عام ٢٠٠٠)
Todd M. Endelman
University of California Press,
347PP, £ 37.95, 2002

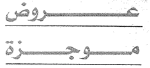
رغم أن عددهم لا يزيد على ٢٠٠ ألف شخص حاليًا إلا أن اليهود في بريطانيا يمارسون دورًا متميزًا للغاية فيها، فهناك العديد من المسئولين والوزراء يهود أو من أصول يهودية، كما أن هناك مؤسسات كثيرة لليهود في بريطانيا، والتأييد البريطاني لإسرائيل وسياساتها في الشرق الأوسط واضح للعيان.

لقد عاش اليهود في انجلترا في العصور الوسطى لكن صدر قرار بطردهم عام ١٢٩٠. وبالطبع يمكن تصور مدى العداء لليهود الذي كان منتشرًا في أوروبا كلها في الوقت الذي عاش فيه اليهود حياة آمنة مطمئنة في العالم الإسلامي آنذاك، وقد أعيد إدخال اليهود إلى بريطانيا مرة أخرى في القرن السابع عشر. ومرت العلاقة بينهم وبين المجتمع البريطاني بمراحل عديدة وطويلة.

ومع مرور الوقت اكتسب اليهود نفوذًا كبيرًا خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وامتلك عديدون منهم مشروعات وشركات وأصبح التأثير اليهودي خاصة في مجال البنوك واضحًا بشكل كبير.

ومؤلف الكتاب اجتماعي ولذلك فهو يركز على مدى التنوع الاجتماعي ومشاركة اليهود في أنشطة المجتمع اليهودي بحيث لم يعودوا أقلية منعزلة تعيش على حافة المجتمع، ولذلك كان هناك العلماء وأساتذة الجامعات وقيادات الأحزاب والوزراء والمثقفون والفنانون من اليهود في بريطانيا.

إن سر نجاح اليهود في بريطانيا ـ حسب بعض المفكرين ـ هو أنهم وضعوا يهوديتهم تحت جلدهم وعاشوا أو حاولوا العيش كما لو كانوا بريطانيين تماماً علاوة على أن المجتمع البريطاني مفتوح



عروض موجزة

وقادر على استيعاب الأقليات دون أن يجبرها على أن تذوب فيه كما هو الأمر في مجتمعات أخرى.

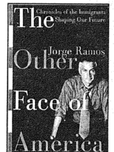
□ □ □

The other Face of America chronicles of the Immigrants shaping our Future

(الوجه الآخر لأمريكا)

Jorge Ramos

Rayo, 252PP, $ 24.95, 2002



مؤلف هذا الكتاب صحفي مكسيكي عاش أكثر من عشرين عامًا في الولايات المتحدة وفاز بجائزة «ايمي» للصحافة، وهو يعتبر نفسه صوت من لا صوت لهم. وهم في هذه الحالة المهاجرون من أمريكا اللاتينية إلى الولايات المتحدة. ويتحدث راموس في كتابه عن التمييز الذي يعانيه هؤلاء المهاجرون خاصة غير الشرعيين منهم، ويبدو الكتاب في عين قارئه كما لو كان العالم ينقسم إلى «بيض» وهم الأمريكيون ثم أصحاب البشرة البنية أي هؤلاء المهاجرين من أمريكا اللاتينية إلى الولايات المتحدة ويصف المؤلف المهاجرين غير الشرعيين بأنهم أناس شجعان يعانون من تمييز دائم من جانب السلطات الأمريكية التي قررت أن تعطي ظهرها لهم. ويقدم راموس أمثلة كثيرة للمعاملة العنصرية التي يواجهها أصحاب البشرة البنية في أمريكا.

ويمتلئ الكتاب، المؤلف من ٤٧ فصلاً قصيرًا، بعشرات القصص والرسائل والشكاوى التي تعبر عن حال المهاجرين غير الشرعيين ومن بين ذلك رسالة بعثت بها فتاة مكسيكية إلى الرئيس السابق بيل كلينتون عندما كان في السلطة تقول له فيها أن أسرتها على وشك أن يتم ترحيلها من الأراضي الأمريكية لأن التشريعات الأمريكية معادية للمهاجرين غير الشرعيين.

ورغم صدور الكتاب خلال العام الحالي إلا أن مادته، وهي عبارة عن مقالات وتقارير كتبها المؤلف، تعود إلى عام ٢٠٠٠ أي أنها كانت قبل أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، الأمر الذي يشير إلى أن المؤلف لو أعاد النظر فيها مرة أخرى لوجد أنه يتعين عليه تعديلها فقد أصبحت قوانين وإجراءات الهجرة إلى الولايات المتحدة أشد صعوبة عما كان عليه الأمر من قبل.

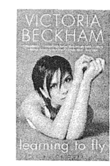
□ □ □

Learning To Fly

(تعلم الطيران)

Victoria Beckham

Penguin, 2002, 528PP, £ 6.99



تحظى كتب نجوم المجتمع والفنانين ونجوم الكرة والرياضة في جميع أنحاء العالم بمبيعات واسعة النطاق ويحتل كثير منها مراكز متقدمة ضمن قائمة أعلى المبيعات في المكتبات الشهيرة.

وتعد فيكتوريا بيكام واحدة من نجمات الفن والمجتمع في بريطانيا فهي علاوة على كونها عضوة بارزة في فرقة «سبايسي جيرلز» الفنية الشهيرة فإنها زوجة لنجم كرة القدم الشهير ديفيد بيكام لاعب نادي مانشستر يونايتد، وكابتن المنتخب الإنجليزي لكرة القدم، ولذلك استقبلت الجماهير باهتمام كبير كتابها وهو بعنوان «تعلم الطيران» حيث تتناول سيرة حياتها، لكنها تتحدث عن أمور صغيرة خاصة ليس من المرجح أن تكون مقام اهتمام واسع لكن بالنظر إلى حجم المبيعات كما سبق القول فإنه يبدو أن الجماهير تتطلع إلى معرفة هذه الأمور الصغيرة عن نجمها المفضل أو نجمتها المفضلة. فهي تتحدث عن ظهور حب الشباب في وجهها وعن وزنها ومحاولتها الحفاظ على قوام نحيف. وكذلك عدم شعورها بالأمان. وتتحدث فيكتوريا عن كل هذه الحكايات إن صح هذا التعبير بشكل بسيط ودون إبراز للأنا.

ورغم الحديث عن أشياء خاصة بالنسبة لها فإنها فشلت في أن تتطرق إلى موضوعات مهمة وربما تكون جذابة فهي لم تشرح مثلاً أسرار نجاح فرقتها التي تعد من أشهر الفرق الفنية في العالم وليس في بريطانيا فقط وكيف تغلبت تلك الفرقة على الخلافات التي مرت بها ولم تتحدث أيضًا عن تسلط الرغبة في الشهرة عليها رغم التهديدات الكثيرة بالقتل لها. والعلاقة بينها وبين وسائل الإعلام ودور الإعلام في الترويج لها.

ولكن هل القارئ العادي الذي يقبل على حفلات فرقة سبايسي جيرلز وعلى شرائط الفيديو الخاصة بها سوف تستهويه مثل هذه القضايا الشائكة.

إن هذا القارئ سيستمتع بأحاديث فيكتوريا الخاصة عن حياتها وعلاقاتها ومصفف الشعر الخاص بها ورحلاتها وتسريحة شعر زوجها ديفيد بيكام التي

أثارت الاهتمام في كأس العالم الأخيرة بكوريا واليابان، أما هذه التساؤلات والقضايا الجادة فستظل على الأرجح مسألة تهم المثقفين ونقاد الكتب فقط.

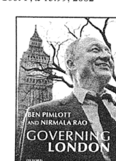
□ □ □

Governing London

(حكم لندن)

Bin pimlott and Nirmiala Rao

OxFord, 208PP, £ 15.99, 2002



يتناول هذا الكتاب التجربة الفريدة التي مرت بها لندن عاصمة المملكة المتحدة خلال السنوات القليلة الماضية والتي بلغت ذروتها بانتخاب عمدة لندن ومجلس تشريعي لها في يونيو من عام ٢٠٠٠، وذلك بعد مئات السنين من عدم وجود حاكم منتخب للمدينة التي شهدت التطور الديمقراطي في بريطانيا التي تعد أقدم دولة ديمقراطية في العالم حاليًا.

ويعد مؤلفا الكتاب بن بليموت ونيرمالاراو، وكلاهما أستاذ في جامعة لندن، رواية قصة مشروع القانون الذي تقدم به حكومة العمال البريطانية لتغيير نظام إدارة لندن وانتخاب عمدة لهما من خلال الاقتراع المباشر. وردود أفعال الأحزاب السياسية البريطانية على هذا المشروع إلى أن وافق البرلمان عليه، ويتحدث المؤلفان أيضاً عن نظم إدارة المدن ديمقراطياً في عديد من المدن في العالم. إن لندن كانت أحدث مدينة ينتخب سكانها عمدة لهم فقد سبقتها مدن عديدة أشهرها نيويورك وباريس. وقد ظل بعض السياسيين البريطانيين يجادلون بأن لندن لها وضع خاص وأن عدم وجود عمدة منتخب لها لا يعني أن الخدمات غير متوافرة أو أن آراء السكان ليست مأخوذة في الاعتبار إلا أن هذه الآراء أصبحت حاليًا في ذمة التاريخ.

ولأن أول عمدة منتخب للمدينة لم يكن شخصًا مغمورًا فقد ركز الكتاب على كين ليفنجستون الزعيم العمالي البارز والذي اختلف مع حزبه «العمال» وقدم استقالته من الحزب لأن القيادة اختارت شخصًا آخر للتقدم إلى انتخابات لندن مع علمها بأن ليفنجستون هو الذي سينجح. لقد كانت هناك خلافات شديدة بين توني بلير رئيس الوزراء العمالي وليفنجستون اليساري الذي وجه انتقادات شديدة لحكومة بلير فأراد بلير أن يبعده عن حكم لندن لكي لا يسبب له صداعًا دائمًا إلا أن هذا بالضبط ما حدث.

ويقول المؤلفان أن ليفنجستون لديه سلطات كثيرة وموارد طيبة لكي يقوم بتنفيذ طموحات سكان المدينة ويحل مشاكلها وأن عليه أن يستخدم هذه السلطات والموارد بدلاً من أن يظل يشكو من أن حكومة بلير تحاول التضييق عليه وإفشال مهمته.

□ □ □

The Shade of Swards

(ظل السيوف)

M.k.Akbar

Rautledge, 2002, PP 272, £ 16.99

عقب أحداث ١١ سبتمبر مباشرة، أصبحت كلمة الجهاد العربية عالمية وتحدث عنها الساسة والمثقفون والصحفيون فاساء البعض عمدًا إليها مثل سلفيو بريلسكوني رئيس وزراء ايطاليا الذي اعتبرها (كلمة الجهاد) مثالاً للتخلف الذي يعيشه العالم الإسلامي حسب ادعائه، وبالنسبة لآخرين فقد كانت الكلمة بمثابة تحدٍّ لغوي كبير فماذا تعني كلمة الجهاد حقًا؟ وخلال أيام ظهرت معان كثيرة على الإنترنت للكلمة فهي تعني جهد أو مجاهدة النفس أو المثابرة ومعاني كثيرة أخرى جذابة حتى للغرب لكن المشكلة أن هناك من اختزل الكلمة في «الحرب المقدسة»، وهذا الكتاب «ظل السيوف» ألفه صحفي هندي مسلم هو ام.كي. أكبر وهو يقوم في الكتاب برحلة عبر التاريخ الإسلامي وبالطبع ينتقي ما يحلو له ويتحدث كثيرًا عن الإسلام في الهند ويلقي بحكم جازم إذ يقول أن المسلمين الوحيدين الذين يتمتعون بالديمقراطية حاليًا هم الذين يعيشون في الهند، دون أن يثبت صحة هذا الحكم، فهناك مسلمون في مناطق أخرى يتمتعون بديمقراطية أيضًا.. ثم يمر المؤلف مرور الكرام على حوادث كثيرة في تاريخ الإسلام مثل حركات التمرد والخوارج وغيرها.

وبالطبع يفرد المؤلف مساحات كبيرة لتجربة تعايش المسلمين مع الهندوس في الهند وهو يريد أن يقدم صورة جيدة للإسلام لكن ذلك لم يرض بعض النقاد الغربيين الذين اتهموا المؤلف بأنه لم يتحدث كثيراً عن الخلافات والصراعات التي مر بها تاريخ الإسلام منذ ما يزيد على ١٤٠٠ عام.

□ □ □

"آثــــــار"

الآثار الإسلامية فى القاهرة

كارولين ويليارمز

القاهرة: الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٢

خمسة عشر فصلاً تقدم تاريخ الآثار الإسلامية بدءًا من العصر العباسي ثم الفاطمي فالأيوبي فالمملوكي فالعثماني ثم عصر محمد علي، وتقدم المؤلفة شروحًا لطبيعة العمارة الإسلامية في كل عصر، والسمات التي تميزها وترتيبها جغرافيًا حيث تبدأ بجزيرة الروضة في المنيل ثم آثار مصر القديمة وهكذا.

■■■

The View from Nebo: How Archeology is Rewriting the Bible and Reshaping the Middle East

(المشهد من النبق: كيف يعيد علم الآثار كتابة الكتاب المقدس ويعيد تشكيل الشرق الأوسط)

Amy Dock Marcus

Little Brown & Co., 2001, 295PP., $ 14.95

يرى البعض أن الأحداث المذكورة في الكتاب المقدس يجب فهمها بشكل رمزي، بينما يرى آخرون أنها سجل دقيق لتاريخ الشرق الأوسط قبل آلاف السنين. في هذا الكتاب تقوم المؤلفة وهي صحفية في جريدة وول ستريت جورنال الأمريكية اليمينية ومراسلتها بتل أبيب بتغطية المعارك الجديدة التي نشبت بين علماء الآثار حول الأدلة الأثرية على صدق روايات الكتاب المقدس.

من بين ما أكدته الكشوف الأثرية الجديدة في المنطقة وتناقشه المؤلفة أن بناة الأهرام هم المصريون وليس العبيد الإسرائيليين، وأن مملكة سليمان وداود لم تكن أبدًا مملكة موحدة، كما أن النفي البابلي وقع على أقلية فقط بينما استمرت الأغلبية تعيش في أرض يهوذا كما كانت. وترى المؤلفة أن كثيرًا من معارك اليوم نجد جذورها في الكتاب المقدس وأننا إذا بحثنا قد نجد الحل أيضًا هناك.

"اجتمــــاع"

أقباط مصر

بربارة واترسون

ترجمة: إبراهيم سلامة إبراهيم

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٢

تجمع المؤلفة جميع عناصر العصر القبطي، الاجتماعية والفنية والأثرية والسياسية والفكرية منذ عهد العصر الإغريقي وحتى اليوم، وكيف تأثرت حياة الأقباط بتوالي الحضارات التي مرت على مصر.

■■■

قانون إجراءات التقاضي في مسائل الأحوال الشخصية

محمد فتحي نجيب، محمود غنيم

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

الكتاب هو نتاج تعديل الكتاب الرابع من قانون المرافعات الخاص بالأحوال الشخصية، والذي يعالج كثيرًا من الخلل في العلاقة الزوجية الناتج عن استبداد الطرف الأقوى (الرجل) بما يتيحه له القانون، ومسائل الأحوال الشخصية صارت مهمة للكافة خصوصًا بعد إقرار قانون الخلع وبدء العمل به.

■■■

قرية الزرابي

عواطف عبدالرحمن

القاهرة: مركز الفسطاط للدراسات والاستشارات، ٢٠٠٢

دراسة عن واحدة من القرى القابعة في عمق صعيد مصر، وهي ذاتها قرية المؤلفة وهي أستاذة في كلية الإعلام، وهي تعنى بالذات بأوضاع المرأة في هذه القرية وكيفية تعاملها مع وسائل الإعلام وكيف تتعامل وسائل الإعلام خصوصًا التليفزيون معها، لنكتشف ببساطة أن التليفزيون لا يعلم شيئًا عن الريف وأن البرامج الموجهة التي يقدمها والدراما التي يبثها منبتة الصلة بالواقع.

■■■

Below the Breadline

(تحت خط الخبز)

Fran Abrams

Profile Books, 2002,184PP., £ 6.99

اتفقت دار النشر مع المؤلفة فران أبرامز التي تعمل صحفية في جريدة الجارديان البريطانية على قضاء شهر كعاملة في مصنع مخللات بيوركشير، تحصل من خلاله على أجر أقل من الحد الأدنى للأجور في بريطانيا، ثم نقلتها إلى سكوتلاند لقضاء شهر آخر كعاملة نظافة مساعدة. وفي هذا الكتاب خلاصة تجربة فران أبرامز التي تصف شكل الحياة في ظل أدنى أجر في بريطانيا، أين يمكن أن تسكن؟ وما الذي يمكن شراؤه من طعام؟ وما الذي يمكن عمله في المساء؟ وخبرة العمل نفسها ونوعية زملاء العمل والرؤساء في مثل هذه الوظائف.

"اقتصاد"

الغاز الطبيعي المصري.. الواقع والطموح

أحمد مختار

القاهرة: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٢

بدأت سلسلة اكتشافات الغاز الطبيعي في مصر منذ عام ١٩٩٠، حيث تم العثور على احتياطي خام وضع مصر في المرتبة السابعة عشرة بين الدول المصدرة للغاز والتي يبلغ عددها ١٠٢ دولة، المؤلف يبين الأهمية الاستراتيجية للغاز الطبيعي، والفائدة المادية التي سيجلبها على مصر واقتصادها.

■■■

Bamboozled at the Revolution: How Big Media Lost Billions in the Battle for the Internet

(كيف خسرت شركات الإعلام الضخمة المليارات في معركتها من أجل الإنترنت)

John Motovalli

Viking 2002, 336PP., $ 26.95

يتركز الجانب الأكبر من الكتاب على تجربة شركة «تايم وارنر» في التواجد على شبكة الإنترنت والأخطاء التي ارتكبتها في علاقتها مع شركة «أمريكا أون لاين» التي اندمجت معها عام ٢٠٠٠.

"تاريــخ"

الأهرام.. ديوان الحياة المعاصرة

يونان لبيب رزق

القاهرة: مركز تاريخ الأهرام، ٢٠٠٢

بدأ المؤلف هذه السلسلة منذ سنوات، حيث يقدم دراسة تحليلية لما نشرته جريدة الأهرام العريقة في السنوات الأولى من القرن، من أخبار ومقالات وتحليلات وإعلانات، وحتى ما اشتملت عليه أبواب الاجتماعيات والوفيات وغيرها. بما يمكن أن يعطي صورة عامة عن مصر في تلك الفترة، وهذا الكتاب هو الجزء الأول من القسم الرابع من السلسلة، وقد تناولت الأقسام السابقة أحوال مصر منذ عام ١٨٧٦ وحتى ١٩٠٠.

■■■

الفتح الإسلامي للقسطنطينية

نيقولو باربارو

ترجمة: حاتم عبد الرحمن الطحاوي

القاهرة: دار عين للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

يمثل فتح المسلمين للقسطنطينية مفارقة تاريخية، إذ في الوقت الذي فقد فيه المسلمون قاعدة مهمة لهم في الأندلس (أقصى غرب أوروبا)، إذ بهم يفتحون قاعدة في شرق أوروبا، وعنى بها المؤلف مدينة القسطنطينية التي فتحها المسلمون في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، والتي صارت عاصمة الإسلام لعدة قرون.

■■■

قصة الحضارة الفرعونية

أحمد عثمان

القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠٢

يروي الكاتب في صفحات قصة الحضارة المصرية القديمة منذ فجر التاريخ وحتى عصر بناء الأهرامات، ويشير إلى الدعائم الأساسية التي قامت عليها هذه الحضارة. والركائز الروحية والمادية التي مكنتها من احتلال موقع الصدارة وسط الحضارات المعاصرة لها.

■■■

مدرسة الفنون والصنائع الإسلامية بطرابلس في مائة عام

تحرير: عماد حيدر

طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ٢٠٠٢

يعرض الكتاب لتاريخ ودور واحدة من أعرق المدارس في ليبيا، والتي كانت قلعة من قلاع المقاومة ضد الاستعمار الإيطالي، وعلى جدرانها عُذِّب المناضلون وسالت دماؤهم الزكية.

■■■

Alamein

(العـــلمين)

Jon Latimer

J Murray, 2002, 411PP., $ 25.00

قال ونستون تشرشل عن معركة العلمين التي دارت في صحراء مصر عام ١٩٤٢ أن قبلها لم تعرف بريطانيا طعم النصر وبعدها لم تعرف الهزيمة. وبمناسبة الذكرى الستين لهذه المعركة الفاصلة في تاريخ الحرب العالمية الثانية ظهرت عدة كتب ودراسات تتناول أبعاد المعركة، من بينها هذا الكتاب الذي يكشف مؤلفه من خلال مصادر ألمانية أن الجنرال روميل كان يخطط لتوسيع أهداف حملته لتشمل القاهرة وقناة السويس متجاوزًا بذلك الأوامر الصادرة إليه. يتناول الكتاب الصعوبات التي واجهت ثعلب الصحراء وفصول المعركة، كما يتعرض لخبرات الرجال الذين شاركوا في القتال من بريطانيين وأستراليين وهنود وفرنسيين وإيطاليين..إلخ.

"دوريــــات"

سطور

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٢

يقدم العدد الأخير من مجلة سطور التي كانت مهددة بالتوقف قبل أسابيع قليلة، ملفًا خاصًا عن عالم الفوضى، ودراسات عن الديكتاتورية وأصولها في الفكر السياسي. وكيف أمكن لبعض المفكرين تأويل نصوص دينية مقدسة لتزيين مفاهيم الاستبداد، كما تقدم المجلة ترجمة عن «الفوكوياما الجديدة» للدكتور أحمد مستجير.

■■■

مجلة الدراسات الفلسطينية

مجموعة من المحررين

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٢

موضوعات عديدة عن الوضع الفلسطيني الراهن وتأثيره على مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي، يتضمن مقالات لنبيل عمرو وعزمي الشعيبي ومحمد حمزة غنايم وطارق البشري وخالد عايد، ومقابلة مع حنان عشراوي.

"رواية وقصص"

حوش آدم

محمد إمبابي

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢

رواية عن الحياة اليومية في مجتمع المدينة، وقد اختار المؤلف حوش آدم بوصفه واحدًا من الحارات الشعبية الشهيرة، حيث يعيش المهمشون الكادحون بكل إحباطاتهم وتطلعاتهم الصغيرة، وقد عمد المؤلف إلى إبراز التناقضات بين عالم هؤلاء ودنيا الأحياء الراقية في المدينة.

■■■

فك وتركيب
محمد الجمل
القاهرة: دار الوفاء، ٢٠٠٢

يرسم المؤلف بانوراما كاملة لما جرى للناس منذ أواسط السبعينيات أي مع الانفتاح الاقتصادي والتحولات الانقلابية التي أصابت المجتمع المصري وقيمه وتقاليده.

■■■

وتلك قضية أخرى
هدية حسين
عمان: بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

متوالية قصصية للقاصة العراقية هدية حسين، لا تلتزم بهيكلية واحدة تضم مجموعتها، وإنما تختلف الموضوعات وتتنوع الأفكار وتتمتع المؤلفة بحرية بالغة في القص والحكي، والتيمة المفكرة التي تلعب عليها المؤلفة هي تيمة الغياب والانفصال، معتمدة التداعيات والتداخلات الزمنية واللغة الموحية والجمل القصيرة التي أسهمت في تحريك النص وإكسابه حيوية أكبر.

"سياسة"

الأمة العربية والألفية الثالثة
محمد أبوالقاسم
مراكش: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٢

تدخل الأمة العربية الألفية الثالثة وهي في حال تبعث على الأسى فنحن في حالة من التخلف في شتى مناحي الحياة، كيف يمكن تجاوز هذا الوضع المهين والاستفادة من السواعد والعقول العربية وكذلك من الثروات الطبيعية الموجودة فيه، خصوصًا أن لدينا ما يمكنّ من تفعيل هذه الثروات البشرية والطبيعية.

■■■

النظام العربي وآفاق المستقبل
عمان: مؤسسة عبدالحميد شومان ودار الشروق للنشر، ٢٠٠٢

محاضرات ألقاها باحثون عن النظام العربي بين الحاضر والمستقبل ضمن برامج المحاضرات الأسبوعية لمنتدى شومان، ويضم بحوثًا تتناول شئونًا محلية سياسية واقتصادية في عدد من الأقطار العربية، ومن أبرز المشاركين في بحوث الكتاب: محمود عبدالفضيل وأحمد يوسف أحمد وباسل البستاني ومجدي حماد وإبراهيم العيسوي ورجب أبودبوس وإبراهيم سلطي وطاهر كنعان وآخرون.

■■■

انتفاضة الأقصى وقرن من الصراع
عمان: مؤسسة عبدالحميد شومان ودار الشروق للنشر، ٢٠٠٢

يضم الكتاب محاضرات ألقاها عدد كبير من الباحثين في منتدى شومان الثقافي ودراسات تحيط بجوانب الصراع العربي الإسرائيلي خلال القرن العشرين، والكتاب قدم له الدكتور حسن نافعة ويضم خمسة محاور أساسية، وشارك فيه عبدالوهاب المسيري ومحمد علوان وسلمان أبوستة وهيثم الكيلاني وغسان الخطيب وزياد أبوعمرو وآخرون.

■■■

حال الأمة العربية.. المؤتمر القومي العربي
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢

الأوراق الكاملة للمؤتمر العربي في دورته الحادية عشرة، وهي في مجملها تقدم رؤية سياسية ثقافية اجتماعية اقتصادية وعسكرية للأوضاع العربية خلال عام ٢٠٠٠، ولا يغيب طبعًا الصراع العربي الإسرائيلي عن هذا التحليل.

■■■

حقوق الانسان
أحمد منيسي
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٢

صدر الكتاب ضمن سلسلة موسوعة الشباب السياسية والغرض منها تقريب المفاهيم السياسية المستحدثة للشباب، والكتاب يتناول معلومات تفصيلية ومبسطة حول مفهوم حقوق الانسان والتنظيم الدولي لحقوق الانسان، ويلقي أضواء على واقع حقوق الانسان في الوطن العربي.

■■■

مصر والعروبة
أحمد صلاح الملا
القاهرة: دار مصر العربية، ٢٠٠٢

بحث في هوية مصر المتنازعة بين الفرعونية والعربية والإسلامية والشرق أوسطية، وقد برزت الهوية العربية وتعالت أسهمها في المرحلة الناصرية لأسباب تاريخية وسياسية عديدة، ويبدو أن قضية مصر عادت إلى سطح الأحداث من جديد مع تغيير الظرف التاريخي، المؤلف يتناول هوية مصر العربية والموقف منها منذ بزوغها حتى اليوم واحتمالات تطورها واتساع دائرة مناهضيها أو انكماشها في المستقبل.

■■■

من داخل إسرائيل
تحرير/ عماد جاد
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

تحليل لبنية المجتمع الإسرائيلي وما يحمله من متناقضات، والآليات التي تحكمه وحدود دور المؤسسة العسكرية والعلاقة بينها وبين المؤسسة السياسية منذ نشأة إسرائيل قبل أكثر من نصف قرن وحتى اليوم.

■■■

Peacemonger
(تاجر السلام)
Marrack Goulding
J.Murray, 2002, 378PP.,£ 25

مارك جولدنج دبلوماسي بريطاني بارز، رأس عمليات الأمم المتحدة لحفظ السلام منذ عام ١٩٨٦ وحتى عام ١٩٩٣، أي الفترة التي شهدت أكبر توسع في عمليات حفظ السلام التي تعد أهم أنشطة الأمم المتحدة وأكثرها إثارة للجدل والمشكلات.

يصف جولدنج النجاحات التي تمثلت في انسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان، ووقف إطلاق النار بين العراق وإيران وتحرير الكويت وتسويات السلام في ناميبيا وأنجولا وكامبوديا وموزمبيق. ولكن مع بداية عام ١٩٩٣ توالت الإخفاقات من أنجولا إلى البوسنة والصومال. ويصف مارك الفرق في العمل في ظل رئاسة كل من خافير بيريز دي كويار وبطرس بطرس غالي، كما يروي يومياته التي دونها عن غرائب وتفاصيل عمل المنظمة من الداخل. فهو يرى أن الإدارة الكفء مستحيلة في الأمم المتحدة لأن معظم الدول الأعضاء ترسل أولادها وبناتها هناك باعتبارهم يشغلون وظائف شرفية، وتقف الحساسيات الدبلوماسية عائقًا أمام التقييم الحقيقي لأداء معظم العاملين.

■■■

Perpetual War for Perpetual Peace: How We Got to Be So Hated
(حرب دائمة من أجل سلام دائم: كيف أصبحنا مكروهين لهذه الدرجة)
Gore Vidal
Thunder's Mouth/Notion, 2002, 144PP., $10.00

جمع الروائي الأمريكي الشهير جور فيدال مجموعة من مقالاته حول ١١ سبتمبر في هذا الكتاب الصغير. وتعتبر آراء فيدال مختلفة عن التيار العام في الولايات المتحدة، فهو ينتقد جميع السياسات الأمريكية التي تلت كارثة ١١ سبتمبر. حيث يرى أن هجوم الحكومة على الحريات المدنية الأمريكية أشد ضراوة من هجوم أسامة بن لادن على مركز التجارة العالمي، وأن الحرب على أفغانستان كانت خاطئة، كما يسخر من مفردات بوش وما يترتب عليها من مشكلات جسيمة مثل «الحملة الصليبية»، و«الإرهاب»، و«محور الشر».

"سير ومذكرات"

سندريلا تتكلم
منير مطاوع
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

قراءة في مذكرات الفنانة الراحلة سعاد حسني ومراحل حياتها مع الفن وقبله، ثم صراعها في السنوات الأخيرة مع المرض والشائعات التي رافقت موتها المفزع الذي مازال البعض يصر على أنه انتحار.

■■■

You Cannot Be Serious
(لا يمكن أن تكون جادًا)
John Mc Enroe With James Kaplan
Putnam, 2002, 336PP., $ 25.95

اشتهر لاعب التنس الأمريكي جون ماكنرو بمهاراته الفائقة ومشاغباته العديدة في كل البطولات. فهو لا يستطيع التحكم في غضبه ولا يستطيع أن يتقبل الهزيمة. في هذا الكتاب يشرح جون ماكنرو لجمهوره أسباب هذه المشاعر الشخصية النابعة من تركيبة عقله ونفسيته منذ الطفولة. ويتحدث عن مشواره في البطولات وعمله الجديد كمعلق رياضي بل يعلن أيضًا عن عزمه الدخول في معترك السياسة!

"شعر"

المنظر
تميم البرغوثي
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

قصائد بالعامية المصرية ترسم مشاهد من واقع الحياة، وقد اختار الشاعر نماذج من الشعر العمودي ذي التفعيلة الواحدة والبحر الواحد، وعني أكثر ما يكون بالموسيقى الداخلية لتحقيق الانسجام لديوانه.

■■■

اللهب المقدس
مفدى زكريا
القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠٢

مفدى زكريا هو شاعر الثورة الجزائرية بامتياز، وقد ألهمت قصائده المناضلين سبل التحرر كما أشعلتهم حماسة دفاعًا عن وطنهم حتى نال استقلاله، وهذا الديوان يضم بعضًا من أهم قصائده في الثورة والتحرر.

■■■

مؤلفات حامد طاهر
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

يضم المجلد الأول بدايات حامد طاهر الذي كان عميدًا لكلية دار العلوم مع الشعر، وقصائده في مختلف الأغراض، وبينها ما يسميه قصائد فلسفية وقصائد عصرية وقصائد في حب مصر، وتتناول المقدمة مسيرة المؤلف العلمية والأدبية.

"علوم"

البحث العلمي مناهجه وتقنياته
محمد ريان عمر
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

دراسة عن الأسلوب الأمثل للبحث العلمي ومناهجه، وأهمية الدلائل والبراهين والجداول الإحصائية في البحث، ويقدم المؤلف مبحثًا خاصًا عن أهمية الكمبيوتر وشبكات المعلومات في تسهيل البحث العلمي وتدقيق نتائجه.

■■■

العصر الرقمي وثورة المعلومات
محمد صلاح سالم
القاهرة: دار عين، ٢٠٠٢

تنطوي ثورة المعلومات على خير كثير للبشرية، لكنها تنطوي أيضًا على سلبيات

عديدة خصوصًا بالنسبة للمجتمعات الأقل تقدمًا، هذا ما يناقشه المؤلف إجمالاً في كتابه.

■■■

لقطات من المستقبل.. بحث في حدود الممكن
آرثر سي كلارك
ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

ثمة أحلام مستقبلية وتصورات تبدو للبعض خيالية موقعها الطبيعي أفلام الخيال العلمي.

لكن كثيرًا من هذه الخيالات تحولت بالفعل وفي غضون سنوات قلائل إلى واقع يشاهده الناس ويسعدون بنتائجه، وبعض ما يعرض المؤلف له هنا يرتبط بتلك الأحلام المستقبلية ذات البعد الخيالي

منها مثلاً سكن الكواكب المحيطة بالمجموعة الشمسية والتخلص من الجاذبية الأرضية واكتشاف معادن جديدة ومصادر بديلة للطاقة قد تغير شكل العالم وتقلب موازين القوى الدولية.

■■■

استنساخ الإنسان- الحقائق والأوهام
مارتاس نسبوم وكاس سانشتين
ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي
القاهرة: دار الصيف، ٢٠٠٢

أكثر من عشرين مقالاً لعلماء ومفكرين وفنانين ورجال دين في عملية استنساخ الإنسان، وما إذا كانت ممكنة أم أنها ضرب من الوهم خصوصًا على بعض التأثيرات البيئية والحياتية المهمة التي تجعل الإنسان أسيرًا لها ولا تجعله مجرد جينات يتناقلها جيل بعد جيل بكل صفاتها الوراثية في الشكل والمضمون والمزاج.

■■■

Hydrogen: The Essential Element
(هيدروجين: العنصر الأساسي)
John. S. Rigden
Harvard University Press, 2002,
280PP., $28

تعد ذرة الهيدروجين أبسط ذرة في الطبيعة، ونتيجة لذلك كان الهيدروجين محط أنظار علماء الطبيعة خلال القرن الماضي كله. يقوم المؤلف جون ريجدين الذي يعمل مديرًا للمشروعات الخاصة في المعهد الأمريكي للفيزياء برواية تاريخ الفيزياء في النصف الأول من القرن العشرين من خلال معرفة ذرة الهيدروجين، ثم يبين كيف ساهمت تلك المعرفة في تطور مختلف أنواع التكنولوجيا في النصف الثاني من القرن نفسه.

ففي بداية بحث العلماء عن التكوين الأساسي للمادة تم اكتشاف مكونات الذرة من خلال نموذج ذرة الهيدروجين بسبب كونها الأبسط على الإطلاق، وبالتالي تتابعت المعرفة بميكانيكا الكم والنسبية الخاصة.

"فلسفة"

ابن رشد فيلسوف عربي بروح غربية
عاطف العراقي
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

مازال قاضي قرطبة أبوالوليد ابن رشد يثير جدلاً في الأروقة الأكاديمية. المؤلف من أكثر المتحمسين لفلسفة ابن رشد، وقد كتب عنه أكثر من دراسة ونظّم أكثر من ندوة في مصر وخارجها تبحث في تأثير ابن رشد على من لحقوه، وكتاباته في الطب والفلسفة والعلوم وغيرها، فضلاً عن معاركه الفكرية وأهم القضايا التي ناقشها.

"لغة"

اللاتينية العربية
علي فهمي خشيم
القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٢

يقدم المؤلف أدلة علمية على تقارب اللغتين اللاتينية والعربية، ويعرض لتاريخ هذا التقارب من خلال مقابلة النماذج والتشابه بين المفردات في كليهما.

■■■

إشكالية الترجمة بين العربية والعبرية
أبوظبي: مركز زايد للتنسيق والمتابعة، ٢٠٠٢

تحتل الترجمة من العربية للعبرية والعكس مكانًا مهمًا خصوصًا مع استمرار الصراع العربي الإسرائيلي وتأرجحه بين دعوات المواجهة العسكرية وادعاءات السلام التي ثبت زيفها وتهافتها أمام الإصرار الإسرائيلي على اغتصاب فلسطين. لكن ثمة إشكالات تواجه عملية الترجمة من وإلى العبرية، وهذا ما يناقشه الكتاب.

■■■

التخلف الآخر
محمود الزوادي
تونس: الأطلسية للنشر، ٢٠٠٢

تدور فصول الكتاب حول ما يسميه المؤلف بالتخلف الآخر، وهي ظاهرة لغوية وثقافية ونفسية تنتشر في مجتمعات العالم الثالث المعاصرة ترتبط أكثر بالتخلف اللغوي الثقافي النفسي، وبحسب المؤلف فإن التخلف في هذين المعلمين أي تخلف اللغة العربية وتهميشها يؤدي إلى اغتراب الفرد في مجتمعه ويضاف إلى التخلفات الأخرى في الاقتصاد والصناعة والتكنولوجيا.

"للأطفال"

حكايات شعبية
مجدي الجابري
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢

٢٧ حكاية شعبية للأطفال يقدمها الشاعر الراحل، هي في معظمها ذات طبيعة تعليمية وترفيهية ولا تخلو من زجر وتوجيه، والمؤلف صاحب دواوين شعرية صدر آخرها في عام ١٩٩٩ قبل وفاته بقليل.

■■■

Cow
(بقرة)
Malachy Doyle
Angelo Rinaldi (Illustrator)
Simon & Schuster/ Mc Elderry, 2002,
40PP., $17.00

كتاب مصور مخصص للأطفال من سن الخامسة إلى التاسعة، ويدور حول يوم في حياة بقرة.

فالمؤلف يتتبع الروتين اليومي للبقرة منذ الفجر وحتى الغروب، مرورًا بوجباتها وتغيرات الطقس حولها في الريف، وعملية حلبها، وعلاقتها بأسرة الفلاح الذي يربيها.

"منوعات"

دليل القارئ إلى الثقافة الجادة
آرثر والدهورن، أولجاويير، آرثر زيجر
ترجمة: أحمد عمر شاهين
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

القارئ هو الطرف الذي يمنح النص حيويته إذا لا وجود للنص ولا للمؤلف دون قارئ يكتشف أفكار النص ودلالاته.

من هنا تأتي أهمية القراءة، لكن القراءة ليست كلها جيدة وصحيحة، وهو ما ينبه إليه المؤلفون الذين يقدمون أيضًا دراسة في كيفية انشاء بنية ثقافية تعنى بالقراءة، فضلاً عن أمهات الكتب في الثقافات المختلفة.

■■■

عاشقات بيروت الستينيات
عصام محفوظ
بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٢

يضم الكتاب قسمين هما في مجملهما حوارات قصصية يمتزج فيها الواقعي بالمتخيل.

وهي تستعيد نبض الحياة العاطفية في بيروت الستينيات، حيث امتزجت التطلعات إلى القيم الجديدة بالحنين إلى القديم.

وهي جدلية مازالت لم تحسم تعيشها العواصم الثقافية العربية وبينها بيروت حتى اليوم.

"موسوعة"

موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية
رشاد الشامي
القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ٢٠٠٢

موسوعة متخصصة في المصطلحات الدينية اليهودية هدفها تقديم إطار معرفي كامل للقارئ العربي حول كل ما يتصل بالديانة اليهودية: الشريعة والرموز الدينية والعقيدة وغيرها.

"نقد أدبي"

اتجاهات النقد الروائي المعاصر
مصطفى عبد الغني
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

دراسة نقدية تحليلية لفن الرواية والاتجاهات الحديثة فيه وأهم الروايات التي كتبت في إطارها مثل الاتجاه التأثيري والتاريخي والنفسي والجمالي والواقعي الاجتماعي وغيرها، وازدهار هذا الجنس الأدبي في مسيرة السرد العربي.

■■■

انتاج الدلالة الأدبية
صلاح فضل
القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٢

يجاهد المؤلف في كل ما يكتب في أن يقرّب معنى الحداثة في الأدب والاتجاهات الجديدة في النقد الأدبي. ويقدم نماذج تطبيقية تقرّب إلى قارئ النص العربي معنى ما يقول، وفي هذا الكتاب يواصل المؤلف مسيرته عن انتاج الدلالة الأدبية عبر الكتابة والقراءة أيضًا.

■■■

الإبداع.. قضاياه وتطبيقاته
عبد الستار إبراهيم
القاهرة: مكتبة الأنجلو، ٢٠٠٢

للإبداع شروط ذاتية خاصة فضلاً عن سياق عام يشجعه وينمي مثيراته، وهذا بعض ما يناقشه المؤلف في كتابه كاشفًا عن كيفية اكتشاف المبدع لذاته، وكيفية استمتاع الناس بالإبداع والتعامل معه.

■■■

الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام
عدنان النحوي
الرياض: النحوي للنشر، ٢٠٠٢

دراسة نقدية في الأسلوب النحوي العربي، ومقارنة بينه وبين العلمانية وتيارات الحداثة والبنيوية والتفكيكية، ويعرض لمسيرة الفكر والأدب عند المسلمين وكذلك لقانون الفطرة ونظرية «بزوغ» الفكرة وعلاقتها بعلم اللسانيات.

■■■

Literature, Partition and the Nation Sate: Culture and Conflict in Ireland, Israel and Palestine
(الأدب والفصل والدولة القومية: الثقافة والصراع في ايرلندا وإسرائيل وفلسطين)
Joe Cleary
Cambridge Up, 2002, $23

هذا الكتاب يقدم دراسة في الميراث الثقافي والاجتماعي لتقسيم الدولة في كل من ايرلندا وفلسطين. فمن خلال التركيز على المرحلة التي بدأت منذ الستينيات، مع تصاعد احتجاجات الوطنيين الايرلنديين والفلسطينيين ضد مشروعات الفصل، يقوم المؤلف بتحليل تأثير ذلك على تكون الأدبيات القومية وعلى أعمال كتّاب ومثقفين أيرلنديين وإسرائيليين وفلسطينيين.

ثلاثة اختيارات تمنحك أعلى عائد على مدخراتك

٣ ٢ ١

١١,٢٥ ٪

١ وثيقة ادخار البنك العربى ذات العائد المدفوع مقدماً

تحصل على عائد شهري مقدماً يصل إلى ١١،٢٥ ٪* مما يضاعف من العائد الحقيقى لمدخراتك . تصدر الوثيقة بألف جنيه ومضاعفتها ويمكن الاقتراض بضمانها.

٢ وثيقة ادخار البنك العربى الذهبية

أعلى عائد على مدخراتك يصل إلى ١١،٢٥ ٪*، مع الحصول على جنيهات ذهبية . تصدر الوثيقة بألفى جنيه ومضاعفتها مع إمكانية الاقتراض بضمانها.

٣ وثيقة البنك العربى ذات العائد متعدد العملات

أستفد بالفرق بين سعرى الفائدة على العملات الأجنبية والجنيه المصرى، واحصل على عائد يصل إلى ١١،٢٥ ٪* مع إمكانية صرفه بالعملات الأجنبية.
يمكن اصدار بطاقة ڤيزا والاقتراض بضمان الوثيقة.

Checkmate Adv.

أياً كان اختيارك ... فالبنك العربى يقدم لك أعلى عائد على مدخراتك، فقط أختار الوثيقة التى تناسبك.

* (العائد يساوى سعر الخصم المحدد من البنك المركزى +١/٤٪)



لمزيد من المعلومات برجاء الاتصال برقم
٣٣١ ٩٩ ٢٢
٧ أيام فى الاسبوع من التاسعة صباحاً وحتى التاسعة مساءاً



مجلة شهرية . العدد الرابع والأربعون . السنة الرابعة . سبتمبر ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات
Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 44 - September 2002

فى انتظار ثورة!

ثورة يوليو: خمسون عاما

محمد حسنين هيكل

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد الرابع والأربعون
سبتمبر ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم



"تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة"

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إبراهيم العجلونى .. كاتب أردنى.
- أحمد عثمان .. باحث فى التاريخ المصرى القديم، مقيم فى لندن.
- أسعد حليم .. كاتب ومترجم.
- برنارد لويس .. أستاذ دراسات الشرق الأدنى الفخرى بجامعة برنستون.
- ريتشارد هورتون .. رئيس تحرير مجلة «لانسيت» العلمية.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- كريستوفر دى بيليج .. صحفى، ومراسل مجلة الـ«إيكونومست» فى إيران.
- ليلى حافظ .. صحفية.
- ماجدة بركة .. دبلوماسية مصرية.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- ناصر كامل .. ناقد أدبى.
- ناعوم تشومسكى .. أستاذ اللغويات وفلسفة اللغة بمعهد ماستشوستس للتكنولوجيا (MIT).
- نبيل على .. خبير الأبحاث اللغوية العربية والإلكترونية.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى ـ سعد الدين شحاتة ـ أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عددًا) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهمًا ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالاً ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــــــة..

يهـــــــــــــوديـــان..

«لا يمكن اعتبار الولايات المتحدة ضحية بريئة فى هجمات سبتمبر إلا إذا كنا نجهل لائحة أفعالها وأفعال حلفائها» التعليق - نصًا - للبروفيسور الأمريكى نعوم تشومسكى (٧٣ عاما). والنص ورد فى كتابه المثير للجدل «٩/١١» والذى صدر قبل حوالى العام، وبعد شهر واحد من الهجمات على واشنطن ونيويورك. وجمعت فيه، على شكل أسئلة وأجوبة، مقابلات أجرتها الصحافة مع عالم اللغويات الشهير.

التعتيم الإعلامى الأمريكى الذى لاقاه الكتاب باعتباره «يطرح أفكارا غير ملائمة»، لم يمنع أن تصل مبيعاته إلى حوالى ١٢٥ ألف نسخة، وهو ما يثبت انه وجد دائرة من القراء أوسع من الأوساط الجامعية والطلابية التى تتابع أعمال تشومسكى عادة.

جوهر طروحات تشومسكى فى الكتاب تقوم على ان هجمات ١١ سبتمبر تنطوى بالتأكيد على «فظاعات مروعة»، لكن يجدر بالأمريكيين أن يدركوا انها ليست سوى رد فعل على فظاعات لا تقل عنها حجما ترتكبها السياسة الخارجية الأمريكية منذ سنوات. مشيرًا - ربما قبلنا جميعًا - إلى «أن الولايات المتحدة قضت عبر القرون على سكانها المحليين (ملايين الأشخاص) واجتاحت نصف المكسيك وتدخلت بعنف فى المنطقة واحتلت هاواى والفيلبين، وقامت على الأخص فى السنوات الخمسين الماضية باللجوء إلى القوة فى جميع أنحاء العالم تقريبا». لاتنس المرتين الوحيدتين فى التاريخ لاستخدام القنبلة الذرية.. ويلاحظ المفكر الأمريكى فى نهاية المطاف أن «هذه هى المرة الأولى التى توجه فيها البنادق فى الاتجاه الآخر».

وتأتى أهمية كتابات مفكر مثل نعوم تشومسكى، اللغوى، والسياسى، وعالم الاجتماع الأمريكى المنشق على «الإجماع العام» فى دوائر صنع القرار والتيار الرئيسى السياسى فى الولايات المتحدة، فى اهتمامه بعلاقة الإعلام بتصنيع إجماع عام يخدم التوجه السياسى للبيت الأبيض. وهو يكرس تحليلاته وأبحاثه فى قراءة ما لا يراد لعامة الناس الوصول إليه، وهو يقول إن ما لا يتحدث عنه السياسيون الأمريكيون « المسكوت عنه» هو أهم بكثير مما يتحدثون عنه فى العلن. وتشومسكى هو الذى نحت المصطلح الذائع الصيت والمُعبر «تصنيع الإجماع» وذلك فى كتاب شهير بنفس العنوان عالج فيه دور الإعلام الغربى فى قولبة عقل رجل الشارع فى الغرب، بمهارة ودهاء ومن دون أن يظهر ذلك معاكساً لشعارات حرية التعبير وتعددية الأصوات.



وتشومسكى الذى يعد من أهم الشخصيات الثقافية على مستوى العالم، واحد من أكثر العلماء تأثيرًا فى علم اللغويات الحديث. وتستخدم نظريات تشومسكى اللغوية بكثرة فى علوم الاتصالات وعلوم الحاسب الآلى. كما أنه من الناحية الأخرى يهودى تصنفه منظمة «بناى بريث» اليهودية ذات الميول الصهيونية - بأنه أشد مواطنى الولايات المتحدة الأمريكية عداءً لإسرائيل. وتصفه كتابات إسرائيلية بأنه يهودى يكره ذاته.

ولد نعوم إفرام تشومسكى عام ١٩٢٨، وحصل على درجته العلمية فى اللغويات عام ١٩٥١ من جامعة بنسلفانيا. بعدئذ فى بداية الخمسينيات سافر إلى إسرائيل ليعيش لفترة فى أحد الكيبوتزات حيث اعتقد فى الطبيعة الاشتراكية والإنسانية لحركة الكيبوتز. بيد أن الغشاوة سرعان ماانقشعت عن عينيه كما يقول ليترك إسرائيل ويعود إلى الولايات المتحدة؛ حيث عمل عام ١٩٥٥ فى جامعة هارفارد، ثم انتقل ليعمل فى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا M .I.T. وما زال يعمل به حتى الآن.

فى عام ١٩٥٧ نشر مؤلفه المهم Syntactic Structures الذى أحدث ثورة فى علم اللغويات الحديث، واعتبر التجاوز الأساسى للبنيوية فى مجال اللغويات. وشكل الإطار لنظريته اللغوية المعروفة باسم النحو التوليدى أو التحويلى أو الكونى، والتى يبدو أنها تشابه - بغير قصد - فى بعض سماتها أفكارًا للغويين إسلاميين مثل: ابن جنى والعسكرى والجرجانى حيث يرى أن الإدراك اللغوى والقدرة اللغوية هى صفات إنسانية أساسية تكمن فى النوع البشرى وليست مكتسبة. وأن لغة الفرد العادية هى عملية إبداعية، وأن كل كلام هو تجديد فى ذاته، فاللغة ملكة إنسانية وهى ملكة تؤنس الإنسان أيضًا.

وتشومسكى الذى كان عضوًا نشطًا فى حركة «قاوم» Resist الراديكالية التى لعبت دورًا مهمًا فى معارضة التدخل الأمريكى فى فيتنام. له عدة كتب تنتقد السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط.

ويصفها بأنها ضالة ومضللة، وخادمة وتكيل بمكيالين، وقد تؤدى بالعالم إلى الدمار الكونى: لأن الشرق الأوسط من المناطق شديدة الالتهاب فى العالم.

وأهمية ما يكتبه تشومسكى تنبع من ثراء تجربته واتساع اطلاعه على موضوعات متشعبة تبدأ من اللغة وتمر فى الثقافة والإعلام وتتوقف ملياً عند السياسة والاقتصاد ولا تنتهى بالعلاقات بين الشمال والجنوب. وهو فى تفكيكه لأساليب صناعة الرأى العام يستشهد بتجربة ذاتية مر بها خلال حرب الخليج (١٩٩٠). فيقول إن الرأى العام الرسمى والشعبى فى الولايات المتحدة تم تعبئته بشكل مثير ليقف خلف سياسة جورج بوش فى إعلان الحرب، وإن السماح للأصوات المعارضة للحرب بإعلان رأيها عبر شبكات الإعلام الوطنى المسموعة بلغ حده الأدنى. ويتذكر كيف أن «الراديو الوطنى العام» أحد أهم الإذاعات الأمريكية المسموعة فى كل الولايات، قرر أن يتيح لتشومسكى المجال كى يعبر عن رأيه المعارض للحرب. وأن المدة التى منحت له كانت دقيقتين ونصف فقط لشرح وجهة نظره شرط أن يكون قد كتب النص مسبقاً وأن يقرأه مكتوباً ولا يرتجله وأن ذلك سوف يسجل ثم يذاع لاحقاً، أى أنه لن يكون مباشراً على الهواء. ويقول تشومسكى أنه لما قرأ النص ليسجل ثم ليذاع تجاوز المدة المقررة له حيث بلغت مدة التسجيل دقيقتين وستة وثلاثين ثانية، ولذلك طلبوا منه أن يعيد التسجيل ثانية بشكل أسرع حتى لا يتجاوز المسموح.



بعد عام من كتابه «٩/١١» الذى قال عنه يومها أنه «بمثابة جرس إنذار»، كيف ينظر تشومسكى لما جرى ويجرى؟

«وجهات نظر» تنشر له مقالا نشرته قبل أيام فقط النسخة الإلكترونية لمجلة Z net وترجمه الأكاديمى السعودى د. حمزة بن قبلان المزينى، والذى هو - أيضًا - أستاذ فى اللغويات، وأحد أكثر المتابعين لما يكتبه المفكر الأمريكى.



على الطرف الآخر من اتساع الزاوية المعروف، يقف «يهودى آخر» تجاوز السادسة والثمانين من العمر. هو برنارد لويس، الذى أصبح بعد الحادى عشر من سبتمبر الوجه الأشهر - بعد بن لادن طبعا - على شاشات التليفزيون الأمريكى فى أوقات الذروة. متوليًا - فى فرصة نادرة - مهمة رسم ملامح الإسلام وأولئك المسلمين «الذين هم دمويون بالسليقة.. أو بالدين».

فالرجل أكاديمى معروف، ومؤرخ يرتدى عباءة الجد والرصانة والتواريخ والمراجع. و يكتب بتكليف فى العديد من المجلات الأمريكية الكبرى. وله فى رأى العديد من المتابعين الجادين طريقته الساحرة فى «ذر السم على قالب الحلوى». وهو ذو قدرة هائلة على قلب الحقائق وتحويلها إلى حقائق أخرى. ويفعل ذلك بأناقة وبلا أى انفعال.

نجح الرجل على مدى عام كامل فى تجسيد الإسلام لمن لايعرفونه فى صورة أسامة بن لادن، الذى هو «مطلوب حيا أو ميتا» حسب ملصقات الـ FBI، وشعار جورج بوش، وقمصان التى شيرت.

و برنارد لويس الأب الشرعى لفكرة «صراع الحضارات» التى أثارها صامويل هانتنغتون عام ١٩٩٣، أصدر قبل أشهر كتابًا أصبح من بين الأكثر مبيعًا. أسماه هو «أين الخطأ».. واعتبره البروفسور إدوارد سعيد « كارثة ثقافية وأخلاقية» يرتكبها أكاديمى مدع «يجتر ويكرر أنصاف الحقائق الاستشراقية، أو أقل من نصف الحقائق». ويكتب سعيد قبل شهرين فى مجلة Harper's «أن لويس لا يتوقف عن اجترار جهله ولا عن تغذيته». وأن «المرء لا يسمح حتى لطالب فى السنوات الأولى بأن يكتب بمثل هذه الخفة» الخالية من الإسناد والتوثيق والمراجع.

أما والحال هكذا، فربما كان من الأفضل أن نقرأ للويس إذا كتب عن «الطعام وتاريخه» وتبقى من الرحمة أحيانًا أن يكتب البعضُ عن الطعام بعيدا من السياسة.. والدين..

وجهات نظر

ثورة يوليو: خمسون عامًا



فى ذكرى مرور نصف قرن على قيامها، اختار الأستاذ هيكل هذه المجلة «وجهات نظر» ليكتب سلسلة مقالاته عن الثورة. والتى بدأها قبل خمسة أعداد طارحًا ومحاولاً الإجابة عن أسئلة منها:

* هل كانت الثورة فى مصر سنة ١٩٥٢ حتمية، أو ضرورية؟
* من هو جمال عبد الناصر - الرجل فيه قبل الرئيس أو الزعيم أو الأسطورة؟
* ما الذى صنعته ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وما الذى عجزت عنه. وما الذى بقى منها - أوضاع - بعد نصف قرن، وعلى مداخل قرن جديد؟

وكان أن طلب منا الأستاذ لأسباب يقدرها، ترتبط - كما قال لنا - «باهتمامات مفترضة للقارئ فى هذه اللحظات الساخنة» ألا تأخذ مقالاته عن «الخلفيات والجذور.. والأجواء التى مهدت» المكان الطبيعى «لمقال هيكل» الذى اعتاده قارئ هذه المجلة.

أما وقد وصلت الحكاية إلى «باب الحدث» تطرقه. لتفتح لنا نافذة على اللحظة الأهم فى تاريخ مصر فى القرن العشرين، فقد كان طبيعيًا فى هذا المناخ الحافل بمحاولات «للتذكر.. وربما للتدبر»، أن تطلب من هيكل أن يعود مقاله إلى مكانه.. وقد كان.

السؤال الأول:

هل كانت الثورة لازمة؟



محمد حسنين هيكل

"٦"

فى انتظار ثورة!

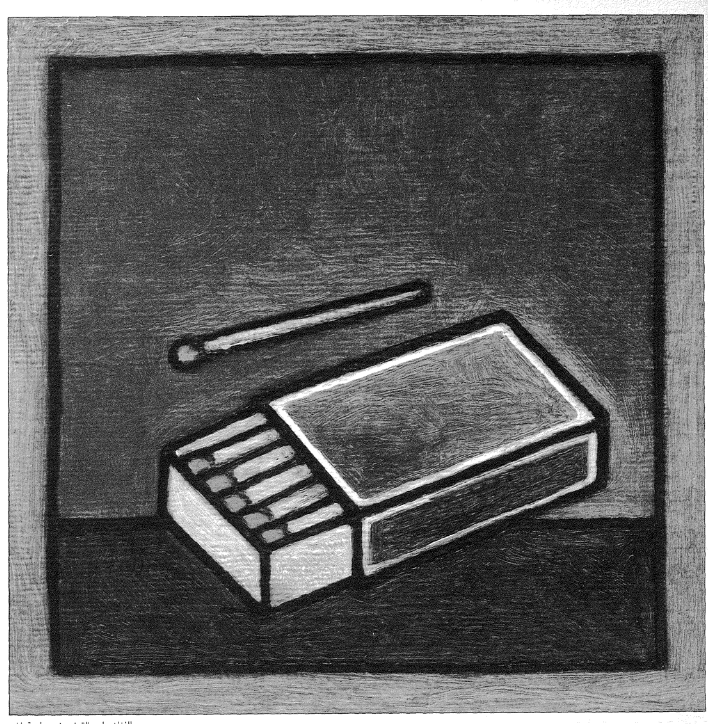
■■ عندما انقضت مواسم الإجازات أواخر صيف سنة ١٩٥١، وبدأ المسافرون إلى أوروبا يرجعون إلى القاهرة بعد غياب أسابيع قضاها بعضهم هناك: (الملك «فاروق» وعروسه «ناريمان» على شواطئ «كابرى» والريفييرا الإيطالية والفرنسية ومنطقة البحيرات ما بين سويسرا وإيطاليا لمدة عشرة أسابيع مثيرة وصاخبة وغالية التكاليف وبمتوسط (١٠٠ ألف جنيه إسترلينى كل يوم فى تقدير السفارة البريطانية فى روما) ـ و«مصطفى النحاس» (باشا) وقرينته «زينب هانم الوكيل»، وفى رفقتهما «فؤاد سراج الدين» (باشا) معظم الوقت، إلى جانب حاشية قريبة مستعدة للخدمة فور الإشارة، يتقدمها الأستاذ «محمود أبو الفتح» (صاحب جريدة المصرى) ـ كانت الأحوال فى مصر مختلفة كثيرا عما كانت عليه عندما ركب المسافرون إلى أوروبا بواخرهم قاصدين عبر البحر الأبيض إلى الشمال!

ولم تكن غيبة الصيف فى حد ذاتها كافية لصنع ذلك الاختلاف المحسوس ـ وإنما الراجح أن تلك الأسابيع كانت فترة تحول «كيفى» لتراكم «كمى» سبقها، وتطورات أُضيفت إليها حتى وقعت لحظة الخلق كما يحدث للجنين فى رحم أمه!

والحاصل أن الأحوال كانت من قبل إجازات الصيف شديدة الوطأة:

● فالطرف المصرى الأول فى معادلة السلطة (وهو القصر) كان فى حالة ضياع أخذته إلى سلسلة من الفضائح تصدعت معها «شرعية العرش»، حتى أن «حسين سرى» (باشا) الذى جاء به الملك إلى رئاسة الديوان ـ ليكون عازلا أو «مانعة صواعق» بينه وبين الوفد ـ لم يلبث شهورا فى منصبه حتى وجد نفسه يتلقى أمرا ملكيا بإنهاء مهمته، باعتبار أن الملك لم يعد فى حاجة إلى عازل ولا إلى «مانعة صواعق»، لأن العلاقة بين الطرفين أصبحت «سمنا على عسل». وكان التفسير الذى قدمه «كريم ثابت» (باشا) بتكليف من «فاروق» لحسين سرى (باشا) بما معناه «إن الملك وقد اعتزم أن يتزوج من الآنسة «ناريمان صادق»، يشعر أن وضع «حسين سرى» فى القصر ـ بوصفه زوج خالة الملكة السابقة «فريدة» ـ قد يصبح محرجا، وهو من باب الحرص على مشاعره، يعفيه من الإحراج ومن منصبه، حفاظا على أعصابه وكرامته!

وكذلك انطلق «فاروق» فى حياته الخاصة متحررا من كل قيد، إلى درجة أنه وهو فى ذروة سعادته الزوجية للمرة الثانية مع «ناريمان» ـ تورط فى مشكلة تحرش جنسى مع «فردريكا» ملكة اليونان (زوجة الملك بول) ـ وكانت «فردريكا» امرأة جميلة وشديدة الجاذبية، ويظهر أن الملك «فاروق» نسى نفسه لحظة كانت فيها ملكة اليونان تزور مصر، وحاول معها بطريقة فجة، إذ إنه عندما قبَّل خدها كما هى العادة، حاول أن يصل بالقُبْلة إلى شفتيها فأزاحته، وإذا هو يحاول احتضانها، فكان أنها اضطرت للتعامل معه بحزم. وتطورت الفضيحة لأن الملكة «فردريكا» ـ التى سارعت بمغادرة مصر تحدثت إلى بعض الدبلوماسيين الأمريكيين فى القاهرة، وتسرب الخبر وسُئلت فيه الملكة نفسها فى حديث مع «ويليام آتوود» وهو من كبار محررى مجلة «لايف» الأمريكية وإذا هى تؤكده ـ ثم كان أن الحكومة اليونانية رجت الملكة «فردريكا» أن تصدر بيانا يقلل حجم الإساءة إلى ملك مصر، ولم يكن الطلب حرصا على الملك، وإنما ـ طبقا لبرقية السفارة البريطانية فى أثينا (١٣



للفنان حلمى التونى - زيت على قماش

ديسمبر ١٩٥٠ رقم ١٠٤٥/٥/٥٠) - بسبب مصالح الرعايا اليونانيين فى مصر، الذين توجه وفد منهم إلى سفارة بلادهم فى القاهرة يلحون على تدارك الأزمة بأى شكل، كما أن واحدا من أبرز رجال هذه الجالية وهو المليونير «جورج كوتسيكا» طار على عجل إلى العاصمة اليونانية يشرح للمسئولين هناك خطر غضب ملك مصر على الرعايا اليونانيين فى مملكته.

● ثم إن الطرف الثانى فى معادلة السلطة (وهو حزب الوفد) - كان مشغولا - إلى جانب استرضاء الملك واستباقه إلى تلبية طلباته - بحروبه الأهلية، خصوصا بين مجموعة «فؤاد سراج الدين» (باشا) ومجموعة «نجيب الهلالى» (باشا)، وفى حين أن مجموعة «سراج الدين» استقطبت كبار المُلاك الذين كانوا دائما فى خلفية الحزب وليس فى واجهته - فإن مجموعة «الهلالى» قدمت إلى الواجهة ما أطلق عليه «فؤاد سراج الدين» نفسه وصف حزب الدكاترة: «حامد زكى» - «زكى عبد المتعال» - «أحمد حسين» - «طه حسين».

وأواخر سنة ١٩٥٠ وقع حزب الدكاترة، فقد حاول «زكى عبد المتعال» أن يتصدى لعمليات المضاربة فى بورصة القطن، ثم اضطر إلى وقف المعركة فى منتصف الطريق، فقد تصور فى البداية أن كبار المُضاربين هم أنسباء زعيم الوفد وأصهاره أو وكلاء سكرتير الوفد وأصدقاؤه، وبالتالى فإن التصدى لهم مُباح، لكنه لم يلبث أن اكتشف أن «إلياس أندراوس» (باسم الخاصة الملكية) هو أكبر المضاربين، ومعنى ذلك أن المضى فى الطريق إلى منتهاه مستحيل، وبدأ «زكى عبد المتعال» يتراجع - وكذلك فإن حزب الدكاترة أُصيب بأول صدمة.

وكانت الصدمة الثانية أن الدكتور «حامد زكى» وكان مفروضا أن يكون الأقرب إلى رئيس الوزراء (كوزير دولة للرئاسة) وجد أن «النحاس» (باشا) ليس جاهزا لسماعه، وإنما هو غائب فى عالم خاص به وصفه السير «رالف ستيفنسون» يوم ١٥ يونية ١٩٥١ فى خطاب إلى «هربرت موريسون» وزير الخارجية البريطانية قائلا:

«إن النحاس (باشا) لا يقوم بأى عمل على الإطلاق، ويبدو من كل ما أسمعه أنه يقضى معظم يومه فى الحمام، فقد أُصيب بمرض النظافة، ويُضَيِّع ساعات فى العناية ببدنه، والواقع أن برنامجه كما بلغنى من أقرب الناس إليه أنه منذ استيقاظه وحتى الساعة الحادية عشرة والنصف موجود فى غرفة النوم أو فى الحمام، وقُرب الثانية عشرة ظهرا يخرج ليجرى مقابلة أو مقابلتين أو يقرأ بنفسه - أو يسمع ورقة أو ورقتين تُتلى عليه، ثم يعود إلى جناحه يختفى فيه من الساعة الثانية بعد الظهر حتى الساعة السابعة مساءً، حين يظهر فى صالون بيته ويتناول عشاءه ثم يأوى إلى فراشه فى الساعة التاسعة».

ويضيف السير «رالف ستيفنسون» بعد ذلك: «لقد جاءنى أحد أصدقاء أسرته وهو «توفيق مفرج» (رجل أعمال ثرى من أصل لبنانى)، وخلال حديثه معى وجدته حريصا أن يفضى إلىَّ بأن «النحاس» (باشا) أبلغه بأنه لم يعد يهمه أن تخرج القوات البريطانية من مصر. ويضيف «مفرج» «إن ذلك هو أيضا رأى «زينب هانم» »!

ثم يتزيد ذلك «الصديق المُقَرَّب من الأسرة» فيقول للسفير البريطانى «إن قرينة «النحاس» (باشا) لم يعد لها شاغل غير زيادة ثروتها، وهى فى ذلك تعتمد على نفوذها الطاغى مع زوجها».

وكذلك وجد الدكتور «حامد

زكى» أنه لا يملك وسيلة إلى مجلس «النحاس» (باشا) أو إلى أذنه ـ وضاع واحد آخر من حزب الدكاترة.

والواقع أن نجمـا من حـزب الدكـاترة لم يلحقه غيره ـ وجد طريقه إلى إنجاز مهم فى التعليم، معتمدا على قوة شخصيته وعلى شهرته الأدبية والأكاديمية، وكان ذلك هو الدكتور «طه حسين».



ولم يكن حزب الدكاترة وحده هو الذى تعثر على الطريق، وإنما فقد «فؤاد سراج الدين» نفسه، الكثير. ذلك أن صراعه مع حزب الدكاترة ـ ولو أنه انتهى بفوزه ـ استنزف جزءًا من وقته، ثم إن جزءًا آخر من هذا الوقت ضاع استثمارا غير مأمون فى توثيق علاقة وزير الداخلية مع القصر ـ ولعل ذلك الاستثمار الذى وضعه «فؤاد سراج الدين» (باشا) على القصر جاءه بمردود عكسى، لأن «فؤاد سراج الدين» (باشا) كان هو الذى تصدى للدفاع عن تصرفات القصر ضد منتقديه، وبينهم فى ذلك الوقت بعض أحزاب المعارضة التى تقدمت إليه بعريضة عن سوء الأحوال فى مصر، وجدها القصر متجاوزة للحدود، خصوصا عندما نوقشت طلبات الاعتمادات الخاصة بالقصر (وضمنها تكاليف تجديد اليخت الملكى «المحروسة»).

وفى هذا الصدد تورط «فؤاد سراج الدين» حين أخذ على نفسه أن يقود الحملة الملكية المُضادة على المعارضة، وبهذه الحملة فإن مكانة المجلس التشريعى الأكبر مقاما فى مصر (وهو مجلس الشيوخ) ـ نزلت إلى الحضيض!

[وطبقا لتقرير كتبه السفير البريطانى السير «رالف ستيفنسون» (رقم ١٠١٦/٤٦) فإن تلك المهزلة بدأت سنة ١٩٤١، حين قامت وزارة «حسين سرى» (باشا)، فى غيبة حزب الوفد ـ أيام الغارات الألمانية والإيطالية على مصر والتجاء قيادة الحزب إلى قصور ومزارع شمال الدلتا ـ بتعيين ٢٩ عضوا فى مجلس الشيوخ، وكان ذلك التعيين قد جرى بمقتضى الدستور الذى يجعل نسبة الخُمُسين من أعضاء المجلس معينين بمرسوم ملكى ـ مقابل ثلاثة أخماس بالاقتراع العام ـ ومع ملاحظة أن الأعضاء المُعينين على أساس نسبة الخُمسين تتجدد عضويتهم كل خمس سنوات، وأن هذه النسبة فى المجلس تمثل ٥٩ مقعدا ـ فمعنى ذلك أنه كل خمس سنوات يكون التجديد أو التغيير شاملا لـ ٢٩ مقعدا فى المجلس.

ويستطرد تقرير السفير البريطانى:

● عندما جاءت وزارة «النحاس» (باشا) سنة ١٩٤٢ نتيجة لإنذار بريطانى، فإن الوزارة الوفدية اعتبرت أن التعيينات التى صدرت فى عهد «سرى» (باشا) وفى غيبة الوفد ودون تمثيله ـ ليست دستورية، ولذلك ألغت المرسوم القديم واستصدرت مرسوما بتعيين ٢٩ عضوا فى مجلس الشيوخ راعت أن يكون بينهم ثلاثة عشر وفديا!

● ثم حدث أن وزارة «النحاس» (باشا) أُقيلت فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ وجاءت بدلا منها وزارة «أحمد ماهر» (باشا) وسارعت هذه الوزارة فى ١٦ يناير ١٩٤٥ وأسقطت عضوية الأعضاء الذين اختارتهم وزارة «النحاس» (باشا) سنة ١٩٤٢، واستصدرت مرسوما بتعيين ٢٩ عضوا بدلهم!

وفى ظل هذا التركيب جرى انتخاب الدكتور «محمد حسين هيكل» (باشا) رئيس الأحرار الدستوريين رئيسا لمجلس الشيوخ.

● وعندما عادت إلى الحكم وزارة وفدية برئاسة «النحاس» (باشا) بعد الانتخابات التى أجرتها وزارة «حسين سرى» (باشا) سنة ١٩٥٠، فإن الوزارة الوفدية لم تبادر إلى إسقاط عضوية أعضاء مجلس الشيوخ التسعة والعشرين الذين اختارتهم وزارة «أحمد ماهر» (باشا)، وإنما انتظرت حتى تحصل على موافقة ملكية، خصوصا أنها شعرت بعدم ارتياح الملك لنتائج الانتخابات النيابية التى جاءت بحكومة وفدية ما لبثت أن أكدت له ولاءها. وعندما اطمأن لها، وغضب على خصومها الذين أصبحوا من مُعارضيه هو أيضا ـ فإن الفرصة أصبحت متاحة لمواصلة الطرد والتعيين.

وجاءت اللحظة المناسبة عندما طرح الأستاذ «مصطفى مرعى» استجوابه الشهير أمام مجلس الشيوخ عن تجديد اليخت الملكى «المحروسة» فى إيطاليا بتلك التكاليف الباهظة، وأحس «فؤاد سراج الدين» أن المعارضة دخلت إلى الفخ المنصوب لها، خصوصا عندما طلب إلى رئيس المجلس الدكتور «هيكل» أن يوقف «مصطفى مرعى» عند حده، ولا يسمح له بالخوض فى أمور تتصل بالقصر وتهمه. وعندما لاحظ «فؤاد سراج الدين» (باشا) أن «هيكل» (باشا) لا يستجيب له ـ وَجَّهَ إليه تلك الصيحة التى اشتهرت فى التاريخ السياسى المصرى والتى قال فيها: «إننى أستطيع أن أرى الكرسى (كرسى رئاسة مجلس الشيوخ) يهتز من تحتك».

● وكذلك كان ففى ظرف أيام استصدرت الوزارة مرسوما ملكيا بإسقاط عضوية ٢٩ شيخا عينتهم وزارة «أحمد ماهر» (باشا) سنة ١٩٤٥، بحجة أن تعيينهم (للمرة الثالثة) لم يكن دستوريا ـ وبالطبع فإنها استصدرت مرسوما بتعيين ٢٩ عضوا بدلا منهم.

وكان بين الذين سقطت عنهم العضوية الأستاذ «مصطفى مرعى» (صاحب الاستجواب الشهير) ـ و«أحمد لطفى السيد» (باشا) (المعلم الأول فى مصر الحديثة وأبو الجامعة المصرية) ـ و«إبراهيم عبد الهادى» (رئيس حزب السعديين) ـ و«حسين فهمى» (وزير المالية فى وزارة «حسين سرى») ـ و«فؤاد نجيب إسكندر» (باشا) (وزير الصحة) فى وزارة «إبراهيم عبد الهادى».



عندما استسلم الوفد
دون قيد ولا شرط للملك
«فاروق» كى يظل فى السلطة،
وحين استسلم الملك «فاروق»
دون قيد ولا شرط لأهوائه مطمئنا إلى
أن حزب الأغلبية مربوط بطاعته. كانت
النتيجة انكشافا سياسيا، لأن المؤسستين
المصريتين فى ثلاثية السلطة انكفأت
كل منهما وتراجعت، وهو ما صنع
فراغا موحشا فى قلب الحياة
السياسية المصرية



ولأن رئيس المجلس لم يكن ضمن الأعضاء التسعة والعشرين الذين تسقط عضويتهم بالجملة بسبب سقوط مرسوم تعيينهم، فإن الوزارة استصدرت مرسوما بتعيين «زكى العرابى» (باشا) رئيسا للمجلس بدلا من «هيكل» (باشا).

وكان بين الشيوخ الذين شملهم مرسوم التعيين الجديد فى عضوية مجلس الشيوخ: «إلياس أندراوس» (باشا) (المستشار المالى للملك «فاروق») ـ و«أحمد عبود» (باشا) (المليونير المصرى الذى تولى هندسة عودة الوفد إلى السلطة) ـ و«محمد أحمد فرغلى» (باشا) (سمسار القطن المشهور الذى تردد اسمه أخيرا فى عمليات المضاربة على القطن) ـ و«محمود أبو الفتح» (صاحب جريدة المصرى الذى أصبح من كبار رجال الأعمال تاركا جريدته لشقيقه الأستاذ «حسين أبو الفتح» ـ الذى تركها بدوره لأخ أصغر منه، حتى يتفرغ هو لإدارة نشاطاته المالية).

ويروى السفير البريطانى السير «رالف ستيفنسون» فى تقريره «إنه على يقين من أن ذلك الانقلاب الجديد فى مجلس الشيوخ جرى بالتفاهم بين «فؤاد سراج الدين» (باشا) ممثل الوفد وبين «كريم ثابت» (باشا) ممثل القصر».



كانت تلك ـ وغيرها ـ لمحات من مجمل الأحوال قبل إجازات صيف سنة ١٩٥١ ـ وكان لابد لكل من يتابع الشأن المصرى أن يدرك أن هذا الذى يجرى فى مصر له كما هى الحياة دائما: ظواهر وبواطن. وإذا كانت تلك هى الظواهر ـ إذن فلابد أن البواطن تعيش حالة «تَخَمُّر» مؤدية بالضرورة إلى تحولات بعيدة الأثر.

ثم زاد على تفاعلات عملية «التَّخَمُّر» أن الحالة المصرية دخلت إلى فراغ أو تفريغ مزعج، لأن هذا الذى يجرى فى مصر ذلك الوقت ـ أواخر سنة ١٩٥٠ ومنتصف سنة ١٩٥١ ـ كان له معنى واحد، مجمله أن الطرفين الرئيسيين فى معادلة السلطة داخل مصر منذ ثورة ١٩١٩ وحتى تلك اللحظة ـ وهما القصر رمز الشرعية والوفد ممثل الأغلبية ـ كلاهما ضَيَّع دوره المحورى فى توجيه الشأن المصرى.

والواقع أنه عندما استسلم الوفد دون قيد ولا شرط للملك «فاروق» كى يظل فى السلطة، وحين استسلم الملك «فاروق» دون قيد ولا شرط لأهوائه مطمئنا إلى أن حزب الأغلبية مربوط بطاعته ـ كانت النتيجة انكشافا سياسيا، لأن المؤسستين المصريتين فى ثلاثية السلطة انكفأت كل منهما وتراجعت، وهو ما صنع فراغا موحشا فى قلب الحياة السياسية المصرية.

وبما أن قوانين الطبيعة تعتبر «الفراغ» فى الحياة حالة مستحيلة، فقد حدث فى السياسة المصرية ما يحدث فى طبائع الأشياء، ومؤداه أنه حين يطرأ الفراغ على منطقة، فإن المحيط الأقرب إليها يندفع نحوها بكل حمولاته وعوالقه لكى يملأ ويغطى. أى أن المحيط يتسرب وينفذ، وأن الأطراف تزحف نحو القلب، وأن الهوامش بكل ما فيها تحل محل المتن الذى فك تماسكه وضاع معناه، وذلك بالضبط ما جرى على الساحة المصرية ذلك الصيف ـ سنة ١٩٥١.

وكان المحيط والأطراف والهوامش حول

قلب السياسة المصرية - حيث كان القصر والوفد من قبل - مناخا مشحونا بعناصر متناقضة: فيها بقايا من جماعة الإخوان المسلمين الغاضبة مما حل بها في السنوات الأخيرة - وفيها فرق من الشيوعيين ضمت أخلاطا من المصريين والأجانب يظهر بينهم تأثير يهودي ملحوظ - وفيها بقايا من شراذم انبهرت بالفاشية والنازية قبل الحرب وهي الآن مفتوحة على تأثيرات أخرى من كل ناحية تبحث لنفسها عن دور. إلى جانب جماعات بدت رافضة لكل شيء، وهذه الجماعات تظهر في كل موقع حتى في حزب السلطة نفسه، الذي برز من داخله جناح معارض أطلق على نفسه وصف «الطليعة الوفدية»، وتزعمه الدكتور «عزيز فهمي» (الابن الأكبر لأحد أقطاب الوفد ورؤساء مجالسه النيابية باستمرار وهو «عبد السلام فهمي جمعة» (باشا) - والحقيقة أن الطلائع الرافضة لكل شيء لم تقتصر على حزب السلطة وحده، وإنما تكاثر وجودها في كل محفل سياسي، ولمع فيها نجوم من أمثال «مصطفى مرعي» (بك) (وهو في الأصل رجل قضاء) تمرد على النظام وخرج منه، ومن أمثال «محمد خطاب» (بك) (وهو في الأصل سكرتير عام مجلس النواب) وقد خرج بدعوة إصلاحية لها صوت مسموع. ومن مفكرين ومثقفين من أمثال الأستاذين «سلامة موسى» و«مريت غالي» والأول منهما ساخط يرى بضرورة الثورة، والثاني منضبط يدعو إلى تطور لم يعد يحتمل الانتظار.

وهكذا كان الصيف في مصر يزداد سخونة، بينما إجازات أوروبا سواء للهو أو الاستشفاء تعيش عوالمها وتغرق فيها! ■

١ / رجل يعمل وحده من بعيد!

■■ طرأ على تلك الأجواء الساخنة والمضطربة عنصر آخر فرض نفسه على كافة القوى الموجودة من الأصل على الساحة أو المستدعاة إليها بالفراغ - ذلك أن وزير الخارجية الدكتور «محمد صلاح الدين» الذي كان يمارس دوره منفردا وبتفويض أصلي من «مصطفى النحاس» (باشا) - وضع كل الأطراف أمام طريق مسدود - لا مفر من كسره إذا كان لابد من اجتيازه!

كان الدكتور «محمد صلاح الدين» رجلا متحمسا بوطنيته وصلبا في اعتقاده بمقتضيات مسئوليته، وقد كان عليه أن يفتح ملفات التفاوض مع الإنجليز لتعديل معاهدة سنة ١٩٣٦، وفي الواقع فإن هذه الملفات كانت مفتوحة بالفعل منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥) - فقد كان «محمود فهمي النقراشي» (باشا) سبق وتفاوض وفشل - ولحقه «إسماعيل صدقي» (باشا) ووصل إلى مشروع اتفاق وسقط المشروع أمام معارضة شعبية قوية - ثم عاد «النقراشي» (باشا) إلى الوزارة مرة ثانية وحَمَّل القضية المصرية إلى مجلس الأمن، وانتهى المجلس إلى دعوة الطرفين لاستئناف التفاوض مرة أخرى (١٩٤٧) - ثم جاءت حرب فلسطين ١٩٤٨ فحولت الانتباه وشغلت، لكن هذه الحرب نفسها طرحت بشدة موضوع العلاقات مع بريطانيا والأولوية المطلقة لقضية استقلال مصر، وضرورة خلاصها من الاحتلال البريطاني لمصر، الذي استمر أكثر من سبعين عاما، وتركز الآن كله في منطقة قناة السويس.

....

....

[وفي لقاء بين الدكتور «محمد صلاح الدين» وبيني في تونس سنة ١٩٨٢، قال لي الدكتور «محمد صلاح الدين» بنفسه: «إنه كان يشعر أن عمله في وزارة الوفد الأخيرة، نوع من مهمة إنقاذ وطني».

فقد رأى و«حزن» لما حل بالنحاس (باشا) (دون أن يدخل في تفاصيل). ورأى و«تألم» لهذه الحروب الأهلية التي احتدمت في قلب الحزب. ورأى و«استبد به الخوف» على ما يمكن أن يصل إليه الشأن المصري في الأوضاع السائدة.

وكان حلمه إذا نجح في مهمته واستطاع إخراج القضية الوطنية من المأزق الذي وصلت إليه - أنه يستطيع تحقيق هدفين:

- أولهما: إعطاء «النحاس» (باشا) وحزب الوفد، حلقة للنجاة في «بحر عاصف».

- والهدف الثاني: استعادة روح الشعب وثقته في نفسه.

وقد فتح باب التفاوض مع الإنجليز بكل موضوعية وجدية. لكنه ما لبث أن اكتشف أن الإنجليز لم يتركوا له فرصة، بل تراجعوا حتى مشروع «صدقي - بيفن» الذي سبق رفضه - شعبيا - سنة ١٩٤٦].

....

....

كان الدكتور «محمد صلاح الدين» يركز جهده على «قضية الجلاء»، وكان تقديره أن «وعد الجلاء» وهو حلم الوطنية المصرية الدائم كفيل إذا تحقق بصنع المعجزة. ومع أن قضية السودان راحت تذكره بنفسها، فقد كان تقديره «إنه لا يُعْقَل في أجواء عالمية وبعد ميثاق الأمم المتحدة أن يكون هناك حل لمستقبل السودان غير طرح خيار الحق في تقرير المصير». فإذا كان ذلك فليس هناك شك أن أغلبية سودانية سوف تختار الاستقلال. وكان «صلاح الدين» فوق ذلك يعرف أن «النحاس» (باشا) بتجربة مفاوضاته الطويلة مع الإنجليز خصوصا سنة ١٩٣٠، ثم سنة ١٩٣٦ - أصبح ميالا إلى منطق أن مسألة السودان لا يصح أن تعطل كل شيء، بل إن تفويض «النحاس» (باشا) له عندما اختاره وزيرا للخارجية (١٩٥٠) كان بأهمية التركيز على قضية الجلاء، وأما السودان فكان الرأي أنه مشكلة عويصة، «لأن الإنجليز سبقونا ورتبوا كل شيء لصالحهم هناك». وفي حقيقة الأمر فإن الطلب المصري بعد الحرب العالمية الثانية في شأن السودان اقتصر على نقطة واحدة - هي أن يظل السودان تحت «التاج المصري» (على طريقة الكومنولث البريطاني). وفي هذه المسألة كانت خطة الدكتور «محمد صلاح الدين» أن يحاول الوصول إلى أقصى مدى متاح، ولكن المطلب الذي لابد أن يتحقق كاملا هو «الجلاء الكامل».

على أن استقراء الواقع المصري والإقليمي والدولي وقتها يكشف أن محاولة الدكتور «محمد صلاح الدين» كانت في نطاق المستحيل لأسباب عديدة:

● أولها: أن الإنجليز - أو أي طرف دولي آخر - لا يستطيع أن يتنازل عن امتياز استراتيجي لديه إلا إذا كان واثقا أنه:

- إما غير قادر على مقاومة المطالبين بإزاحته عن موقع امتيازه، وبالتالي فمن الأفضل له أن يتفق.

- وإما أنه سوف يحصل في المقابل على تعويض مناسب يحفظ له جوهر الامتياز الاستراتيجي، حتى وإن قبل التغيير في شكله.

ولم يكن كلا الاعتبارين واردا في مفاوضات الدكتور «محمد صلاح الدين»، وكان يجريها - أساسا - مع السفير البريطاني في القاهرة السير «رالف ستيفنسون» (وذلك في حد ذاته يكفي لقياس درجة الاهتمام البريطاني بهذه المفاوضات).

● وثانيها: أن الإنجليز - وذلك درس التعامل معهم دائما - لا يتفاوضون بجد إلا مع جبهات وطنية تمثل كافة القوى في البلدان التي يتفاوضون معها. وتلك تجربتهم بالذات في مصر. فهم لم يتفاوضوا ويصلوا إلى توقيع معاهدة (١٩٣٦) إلا مع جبهة وطنية مصرية يقودها حزب الأغلبية، وكان رئيس هذا الحزب «مصطفى النحاس» (باشا) هو الذي وَقَّع المعاهدة مع وزير الخارجية البريطانية «أنتوني إيدن»!

وفي ظروف سنة ١٩٥١ فإن احتمال قيام جبهة وطنية لم يكن واردا، فضلا عن أن حزب الأغلبية نفسه كان مغلوبا بظروفه، ثم إن مجمل الأحوال في مصر كان يتردى بسرعة تنبئ بأن أي اتفاق يمكن التوصل إليه - محكوم عليه مقدما بسبب تيارات متعارضة راحت تتدافع في الواقع السياسي المصري، وفيها جميعا ما يدعو الحكومة البريطانية إلى التمهل والانتظار وعدم المجازفة مبكرا بحرق أوراق لم يجيء بعد أوان المساومة الجدية حولها.

● وثالثها: أن الحكومة البريطانية كانت تواجه في الشرق الأوسط تحديات عنيفة أبرزها على وجه التحديد في إيران، حيث ظهر زعيم وطني قوي الشكيمة هو الدكتور «محمد مصدق» الذي تمكن بالفعل من محاصرة امتيازات النفط البريطانية في إيران، ثم استولى على منشآتها الكبرى في «عبدان»، ومعنى ذلك أن بريطانيا كانت داخلة عند منطقة الخليج في تحديات لا تستطيع معها أن تقبل بتنازلات عند منطقة السويس.

وكانت مشكلة الدكتور «محمد صلاح الدين» هي ظنه أنه يستطيع استعمال ما يجري عند مواقع النفط في إيران لتشديد الضغط على الحكومة البريطانية عند قواعد القوة العسكرية في السويس - ببساطة لأن الإمبراطوريات لا تتعامل في العادة بهذا المنطق، خصوصا في أحوال ضعفها، لأن الضعف في حد ذاته أكبر محرض على العنف - يداري أو يعوض!

● ورابعها: أن الإمبراطورية البريطانية كانت في ذلك الوقت تواجه ضغوطا أمريكية - إمبراطورية تطلب وراثتها في حياتها. وحدث فعلا أن الدكتور «محمد صلاح الدين» تصور أنه يستطيع الاستعانة بالأحلام الأمريكية الإمبراطورية، وذلك بتشجيع الولايات المتحدة أن تلعب دورا في

د. محمد صلاح الدين

كان الدكتور «محمد صلاح الدين» يركز جهده على «قضية الجلاء»، وكان تقديره أن «وعد الجلاء» وهو حلم الوطنية المصرية الدائم كفيل إذا تحقق بصنع المعجزة. وإنه لا يُعْقَل في أجواء عالمية وبعد ميثاق الأمم المتحدة أن يكون هناك حل لمستقبل السودان غير طرح خيار الحق في تقرير المصير

المفاوضات مع مصر، كما بدأت تلعب دورا في المفاوضات مع إيران (حتى مع الدكتور «محمد مصدق» نفسه). ووقع فعلا أثناء مفاوضات الدكتور «محمد صلاح الدين» مع السير «رالف ستيفنسون» أن السفير البريطاني أشار إلى أن منطقة قناة السويس لا يمكن تركها فراغا أمنيا، وأنه إذا كان على القوات البريطانية أن تجلو، فإن نظاما للدفاع المشترك لابد أن يحل محلها. وكذلك فوجئ الدكتور «محمد صلاح الدين» بأن الولايات المتحدة - التي كان يطلب مساعيها الحميدة في إقناع بريطانيا بالجلاء عن مصر - هي التي جاءت تعرض عليه معاهدة للدفاع المشترك على أساس حلف إقليمي يضم باكستان وتركيا (وفي مرحلة لاحقة - إسرائيل). وكان السيد «نوري السعيد» رئيس وزراء العراق (في كل أزمة) قد وصل إلى مصر يحاول إقناع «النحاس» (باشا) بالفكرة، ويحاول أيضا مع الملك «فاروق».

لكن الدكتور «محمد صلاح الدين» الذي رأى الحكومة البريطانية تأخذ منه «الكارت الأمريكي» على حد وصفه، لم يتردد في رفض مشروع الدفاع المشترك.

(وكان ذلك أول دخول أمريكي ظاهر وعلني على حلبة السياسة المصرية).

ومن المفارقات أن الملك «فاروق» بعد عودته من إجازة ذلك الصيف الساخن سنة ١٩٥١ - سأل السفير الأمريكي الجديد في القاهرة «جيفرسون كافري» كما سأل كثيرين غيره - قبله وبعده:

«ما رأيك في الدكتور «مصدق» الموجود عندي My Mossadaq، ولم يفهم «كافري»، وأوضح له الملك «فاروق»: «إنه يتحدث عن الدكتور «محمد صلاح الدين» (يعتبره مصدق المصري)!

وكذلك كانت خطوط وظلال الصورة التي وجدها العائدون بعد موسم الصيف: كم من المشاكل - يتحول إلى كيف من الأزمات!

وفي واحد من أوائل تقاريره من القاهرة كتب السفير الأمريكي الجديد «جيفرسون كافري» وهو رجل جاءت به الخارجية الأمريكية من منصب سفيرها في «باريس» إلى منصب سفيرها في القاهرة، تحسبا واستعدادا لشرق أوسط تزداد أهميته وترتفع درجة حرارته، قائلا لوزير الخارجية الأمريكية العتيد «دين أتشيسون»:

«ليست في القاهرة ثورة، وإنما هناك حالة ثورية A State of Revolution». ■

٣ / البحث عن فرص وسط الفراغ!

■ ■ في تلك الأوقات كتب القلم المخصوص (البوليس السياسي) تقريرا «سريا للغاية»، رسم فيه ما يمكن اعتباره خريطة لمصادر التهديد على الأمن الداخلي في مصر، ومن الملحوظ أن نسخة من هذا التقرير ظهرت في أوراق «حسن يوسف» (باشا) وكيل الديوان، وذلك شيء يمكن فهمه، لكن الذي يصعب فهمه هو أن السفارة البريطانية حصلت على نسخة منه، وصنفته هي الأخرى بوصف «سري جدا» - وسجلته في الوثائق البريطانية (تحت رقم ١٦٧ / ١٠١٩) وهو يبدأ بعرض:

إن مشكلة الأمن الداخلي يمكن بحثها تحت خمسة عناوين رئيسية:

١ - الشيوعيون - ٢ - المعارضة - ٣ - الإخوان المسلمين - ٤ - العناصر الإرهابية والمتطرفون - ٥ - أهمية استمرار الأحكام العرفية.

ثم يستطرد التقرير يقول «سوف نحاول هنا أن نناقش كل عنوان من هذه العناوين على حدة وبطريقة مفصلة:

● أولا الشيوعيون: أثبتت الأحكام العُرفية رغم طبيعتها المؤقتة أنها عنصر نافع وضروري في مواجهة الشيوعيين، لأنهم يملكون قدرا كبيرا من المرونة يمكنهم من تجديد تنظيماتهم وتوسيع دائرة نشاطهم باستمرار.

وينقسم الشيوعيون في مصر إلى ثلاث طوائف، ويمارسون عملهم في ثلاثة مجالات:

(أ) هناك نشاط شيوعي بين المصريين.

(ب) وهناك نشاط شيوعي بين الأجانب.

(جـ) وهناك نشاط شيوعي مُوَجَّه من خارج مصر.

(أ) وبالنسبة للنشاط الشيوعي بين المصريين - فإنه لم يتوقف رغم الأحكام العُرفية، ورغم الاعتقالات التي طالت أعدادا كبيرة من الشيوعيين، ذلك أنهم وهم في السجن لا يضيعون وقتهم، وإنما ينهمك قادتهم في تنظيم الخلايا خصوصا بين الطلاب، ويبذلون جهدا تعليميا كبيرا لجعل أتباعهم أكثر التزاما بالعقائد الشيوعية، بحيث يتحولون إلى عناصر قيادية عندما يخرجون من السجن، ومعنى هذا أنهم في السجن يعمقون نشاطهم ويكثفونه وهم خارج السجن يوسعونه وينشرونه. ومن متابعتنا للنشاط الشيوعي نلاحظ أن وجودهم خارج السجن هو العنصر الأهم في جعل كتل من الناس تحس بوجودهم عن طريق تأسيس الجمعيات، وطبع المنشورات، والتحريض والدعوة، ولا نبالغ إذا قُلنا أن التحريات تؤكد أن عدد الشيوعيين الآن تضاعف، ففي حين كان عددهم قبل سنتين يُعد بالمئات، فإن عددهم الآن بالألوف. وحتى وقت قريب كان النشاط الشيوعي في مصر تحريضيا، ولكن تحرياتنا في الشهور الأخيرة تبين أنهم انتقلوا من التحريض إلى التخطيط، وأنهم الآن يقومون بوضع برامج للعمل تستطيع أن تمارس أعمال الكوماندوز وحرب العصابات.

والواقع أن هذا التحول الذي ينزع إلى العمل المباشر بعد عشر سنوات اقتصر النشاط فيها على التنظير، يشير إلى استعداد الشيوعيين - بتوجيه من الخارج للقيام بعمليات تحريض لجماهير واسعة، خصوصا بين الطلبة والعُمال.

ولاحظنا أن المنشورات الشيوعية التي صدرت أخيرا، تحتوي على هجوم ضد الوفد بعد هُدْنة معه سببها أن بعض القيادات الشيوعية تصورت أن الجناح اليساري فيه (الطليعة الوفدية) في مقدوره أن يشد الوفد إلى اليسار، لكن منشورات الشيوعيين الآن لا تؤيد الوفد، وفي اجتماعاتهم فإنهم يقرون أن العناصر اليمينية في الحزب أصبحت لها الغلبة.

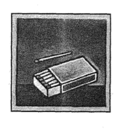
(ب) النشاط الشيوعي بين الأجانب: هذا العنصر في العمل الشيوعي هو أخطر العناصر في الوقت الحالي، فمن المعروف أن هناك جاليات أجنبية كثيرة تقيم في مصر، وأبناء هذه الجاليات من الشباب اعتنقوا الشيوعية وأنشأوا بغرض الدعوة إليها نوادي ومؤسسات قوية، وأنشط العناصر بينهم وأكثرها خطرا هم الجاليات الأرمنية والفرنسية واليونانية.

هناك أيضا جاليات سُلافية من أوروبا الشرقية، ولكن هؤلاء يحصرون معظم نشاطهم في العمل لحساب قنصليات أوروبا الشرقية المُوالية للاتحاد السوفيتي، وفي بعض المرات فإنهم يعملون لحساب الاتحاد السوفيتي نفسه وعن طريق قنصلياته مباشرة. وقد رصدنا عن طريق رقابة البريد رسائل تحمل تفصيلات دقيقة عن خطط التغلغل الشيوعي في أوساط الجامعات المصرية والصحافة والجماعات الثقافية والعلمية، واحتوت بعض الرسائل على قوائم طويلة بأسماء من يمكن الاتصال بهم في مصر، بحيث ترسل إليهم المنشورات والمطبوعات وكُتب الدعاية - مباشرة، وقد تمكنا من اختراق عدد من الشبكات جعلتنا على علم بتحركات واتجاهات هذا النوع من النشاط، بحيث نستطيع متابعته وتعقُّبه.

(جـ) الجزء السابق من التقرير يغطي البند جـ، وهو البند الخاص بالنشاط الشيوعي المُوَجَّه من الخارج.

٢ - أحزاب المعارضة: أحزاب المعارضة الرسمية (السعديين والأحرار الدستوريين والكتلة) لا قيمة لها، فهي عاجزة عن تنظيم صفوفها وغير قادرة على برنامج موحد ينظم عملها، وبعض الأحزاب الثانوية وضمنها الحزب الوطني تحاول البحث عن تحالفات مع الإخوان المسلمين وغيرهم بقصد «التهييج في التركيز على إثارة المطالب الوطنية».

ويصل تقرير القلم المخصوص (البوليس السياسي) إلى مصدر التهديد الثالث فيقول:



فوجئ الدكتور «محمد صلاح الدين» بأن الولايات المتحدة - التي كان يطلب مساعيها الحميدة في إقناع بريطانيا بالجلاء عن مصر - هي التي جاءت تعرض عليه معاهدة للدفاع المشترك على أساس حلف إقليمي يضم باكستان وتركيا (وفي مرحلة لاحقة - إسرائيل)

٣- الإخوان المسلمين:

إن الإخوان المسلمين استأنفوا نشاطهم فور وقف العمل بقانون الأحكام العُرفية - فترة إجراء الانتخابات الأخيرة، متصورين أنهم يستطيعون الحصول فى زحمة الحوادث على عدد من مقاعد مجلس النواب، وعندما فشلوا فى تحقيق هذا الغرض أدركوا أن المهمة الرئيسية بالنسبة لهم هى إعادة تنظيم أنفسهم من الأساس بعد الضربات القوية التى تلقوها على يد الوزارات السابقة. لكن الإخوان لديهم فى هذه اللحظة مشكلتان رئيسيتان:

(أ) المشكلة الأولى: هى اختيار مرشد عام يحل محل الشيخ «حسن البنا» وكان المرشحون لهذا المنصب تصارعوا فيما بينهم وأولهم «صالح عشماوى»، والثانى «أحمد حسن الباقورى»، والثالث «مصطفى مؤمن»، والأخير وراءه تأييد كبير من العناصر المتشددة فى الإخوان، رغم أن قسما كبيرا من تنظيم الطلبة فى الإخوان يؤيد ترشيح «عبد العزيز كامل» وهو مدرس فى معهد شبين الكوم.

(ولم يكن الأمن فى هذا السياق على علم كامل بما يجرى داخل الجماعة، ذلك أن الفرَق المختلفة داخل الجماعات كانت قد تراضت فيما بينها - دفعا للفتنة واتقاءً للشر - على اختيار مرشح «محايد» يستطيع أن يجنب الأقوياء فى الجماعة مهاوى الشقاق ويعطيها فى نفس اللحظة واجهة محترمة تيسر لها استعادة مشروعية نشاطها بعد كل ما تورطت فيه فِرَقها الجامحة وتعرضت له من ضربات شديدة، وهنا كان التراضى على اختيار المستشار «حسن الهضيبى» ليكون المرشد العام الثانى للإخوان، وعلى ضرورة كتمان اسمه حتى تتكشف الأحوال من ناحية، وتتوفر له بيعة فروع الإخوان وتنظيماتهم فى مصر وخارجها - من ناحية أخرى).

ويستطرد تقرير القلم المخصوص (البوليس السياسى):

(ب) والمشكلة الثانية أمام تنظيم الإخوان هى قلة مواردهم المالية بعد مصادرة ما كان لديهم من عقارات وموجودات وأرصدة، عندما صدر قرار حل الجماعة. والمسئولون عن عملية تمويل جماعة الإخوان المسلمين الآن هم «منير الدله» و«الباقورى» وتأمل الجماعة أن تجد موارد للتمويل علنية وسرية تمكنها من إعادة إحياء التنظيم الخاص المسلح التابع لها، وهنا فإنه من المهم جدا تشديد الرقابة على الإخوان حتى لا تفاجأ السلطات بعودة الجماعة إلى العنف المسلح فى أى وقت من الأوقات.

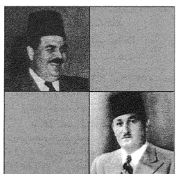
٤- العناصر الإرهابية والمتطرفة:

هناك الآن فى مجال التحريض السياسى عدد كبير من الشباب التابعين للحزب الوطنى ومن المتطوعين العائدين من فلسطين، يتصورون أن مشاكل البلاد لا يمكن حلها إلا بالخلاص من الساسة القُدامى ولو بالاغتيال، ومعظمهم يعتقد أن الوسائل الدستورية للتعبير ميئوس منها (وهنا أورد التقرير قائمة بأسماء شباب يظن القلم المخصوص أنهم جاهزون للعمل الإرهابى).



بعد هذا التقرير التوصيفى يجىء تقرير ثانٍ عملى يتحدث عن تحالف بين قوى عديدة معارضة يطلق على نفسه وصف اللجنة العُليا للكفاح الشعبى، ويمهد ذلك التقرير الجديد - (ومثل التقرير السابق فقد ظهرت نسخة منه فى الديوان الملكى ونسخة أخرى فى الملفات البريطانية) - فى مقدمته بملاحظة مهمة تقول «كما هى العادة فإن الذين يريدون أن ينشطوا سياسيا على الساحة مرة واحدة يحاولون الابتعاد قدر ما يمكن عن العاصمة، وتفكيرهم أن قبضة الحكومة فى العاصمة قوية، وبالتالى فإن العمل أسهل عليهم من خارج العاصمة». وذلك ما فعلته اللجنة العليا للكفاح الشعبى. فقد عقدت بسرعة مؤتمرا عاما فى الإسكندرية تبنت فيه هدف الكفاح المسلح ضد الإنجليز بعد أن تبين فشل المفاوضات المصرية - البريطانية التى يقوم عليها وزير الخارجية الدكتور «محمد صلاح الدين».

فؤاد سراج الدين



عبدالعزيز البدراوى

ويستفيض التقرير فى تعداد العناصر المشتركة فى اللجنة العليا للكفاح الشعبى، فيقول إنها «خليط واسع ومتنافر من أحزاب المعارضة، ومن الشيوعيين، ومن الإخوان المسلمين، ومن تنظيمات «مصر الفتاة»، ومن الجمعيات الخاصة مثل لجنة الدفاع عن الحريات الشعبية، واللجنة العُليا للدعوة للمطالب الوطنية، وجمعية أنصار السلام، وحزب العمال المصرى، وتنظيمات أخرى تردد اسمها حديثا مثل «كتائب التحرير». ويُلاحظ التقرير أن الحزب الوطنى جرى تمثيله فى اللجنة العليا للكفاح الشعبى بوجوه جديدة، فقد تقدم إلى واجهته جيل من رجال لهم شهرة ومصداقية مثل «مصطفى مرعى» (بك) والأستاذ «فتحى رضوان». وانضم إليهم «عبد السلام الشاذلى» (باشا) (وهو محافظ سابق لمدينة القاهرة تولى وزارة الشئون الاجتماعية مرة ثم تكرر ظهوره فى استجوابات مجلس الشيوخ)، وكلهم ممن جمعتهم كراهية العصر الراهن كله (القصر والوفد).

وكان أهم ما فى هذا التقرير العملى إشارة جاءت فى نهايته أن «هناك معلومات لم تتأكد حتى الآن، وتشير إلى أن مؤتمرات هذه التجمعات ظهر فيها عدد من الضباط والجنود العائدين من فلسطين».■

٣ / مشاعل النار فوق الحقول الخضراء

■■ كانت الظاهرة الأخطر فى الحالة الثورية (كما أسماها السفير الأمريكى «جيفرسون كافرى») - هو ما راح يجرى على نطاق واسع فى الريف المصرى، وأثار أكبر قدر من القلق لدى العائدين من إجازات الصيف فى أوربا (سنة ١٩٥١). ذلك أنه سواء بالنسبة للقصر أو بالنسبة للوفد، كانت ملكية الأرض الزراعية هى الأساس المضمون للثروة، لأن الريف المصرى دائما هو العملاق النائم، والذى يتبدى مستسلما لمقاديره - فإذا تململ أو تحرك وقع المحظور.

ومن المفارقات أن ملكية الأرض الزراعية كأساس للتركيب الطبقى فى مصر الحديثة لم تُدرس بالقدر الكافى فى وطنها، وأن أكمل وأوفى دراسة لها جاءت من الجامعة العبرية التى تنبهت مبكرا إلى أن أى معرفة جادة بأوضاع مصر لابد أن تبدأ بدراسة التركيب الطبقى فيها، وإذا كان ذلك فمعناه دراسة توزيع ملكية الأرض، لأنها الأساس الذى قامت عليه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية من أواخر القرن التاسع عشر. وكان الذى أشرف على هذه الدراسة فى الجامعة العبرية واحدا من أكثر أساتذتها دأبا وجدا وهو الدكتور «جبرائيل باير».

وعلى وجه التقريب وباختصار فإن مساحة الأرض الزراعية فى مصر (قبل ثورة ١٩٥٢ وقبل السد العالى) - كانت فى حدود خمسة ملايين فدان، تتوزع ملكيتها على النحو التالى:

- مليون فدان للخاصة الملكية والأوقاف الملكية الخاضعة لإشرافها.
- مليون فدان للأسرة المالكة والأوقاف الخيرية الخاضعة لإشراف تفاتيشها الكبيرة.
- مليون فدان للأجانب (شركات وأفراد)، (وقد بدأ هؤلاء يبيعون أجزاءً كبيرة من أملاكهم فى أعقاب انتهاء الحرب العالمية - ومع ظهور بوادر لحركة وطنية واجتماعية تأثرت بالمناخ العالمى السائد (بعد تلك الحرب)، وقد وجد هؤلاء المُلاك من الأجانب (شركات وأفراد) مشترين من أغنياء الصدفة (أثرياء الحرب) - يقبلون على الشراء استكمالا للمكانة الاجتماعية.
- مليون فدان للأسر المصرية الكبيرة التى تملكت مساحات شاسعة من الأرض الزراعية (فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، خصوصا بالشراء من أملاك الدائرة السنية عند تصفية ديون الخديو «إسماعيل»).
- مليون فدان لكل الفلاحين (حوالى ١٥ مليونا من تعداد سكان يصل إلى ٢١ مليونا) - يعملون بأنفسهم وبأولادهم وزوجاتهم على رقع متفرقة من الأرض الزراعية، يحتفظون بملكيتها بما يشبه معجزة تتكرر كل موسم!

وكان هذا التوزيع لملكية الأرض الزراعية تركيبا طبقيا مقسوما بالتساوى ما بين سيطرة الاستبداد أو سيطرة الفقر!



وفى صيف ١٩٥١ وفى مُناخ حالة ثورية حسب تعبير السفير الأمريكى «جيفرسون كافرى» - كان ظاهرا للعيان أن هناك بوادر تمرد فى الريف المصرى!

فقد تطاير الشرر لافتا للنظر فى بلدة «كفور نجم» (فى محافظة الشرقية) حيث يوجد تفتيش مساحته ٧٥٠٠ فدان مملوك للأمير «محمد على» (ولى العهد حتى لحظتها).

واشتكى مدير التفتيش للبوليس أن الفلاحين دأبوا على تأخير سداد إيجار الأرض، وهنا قام البوليس بحملة اعتقالات واسعة (أثبتت تحقيقات النيابة فيما بعد أنهم قاموا بحلق رؤوس الفلاحين وأرغموهم على أن يأكلوا شعرهم المحلوق، ثم ألبسوا عددا منهم أزياء نساء، واستعملوا عصيهم «خوازيق» أجلسوا عليها من ظهرت عليهم أمارات التحريض على التمرد).

وفى مزارع «البدراوى» (باشا) فى بلدة «بهوت» اندلعت اضطرابات سببها أن وكلاء الباشا أخذوا من الفلاحين مصاغ زوجاتهم رهنا لسداد الإيجار، ثم إن دائرة الباشا طلبت سداد الإيجار بتوريد حبوب حددت الدائرة سعرها، واندلعت اضطرابات ظهرت على صفحات الأهرام أواخر يونية تحت عنوان «معركة فى عزبة «البدراوى» (باشا) - تبادل النار بين الأهالى والبوليس - إضرام النار بأجران القمح - قتلى وجرحى فى «بهوت»!».

وقام السيد «عبد العزيز البدراوى» (وهو شقيق «زكية هانم» قرينة «فؤاد سراج الدين» (باشا) بعملية

فى انتظار ثورة!

هجوم مُضاد على الفلاحين، وعُذره أنهم حرقوا بعض سيارات الأسرة احتجاجا على تصرفات وكلائها، وكان أن «عبد العزيز البدراوى» أمر بإطلاق النار على الفلاحين، وقاد حملة التاديب ضدهم بنفسه، ونقلت عنه مجلة المصور قوله:

«ليس هناك فى الدنيا مخلوق ألعن من الفلاح، إنه لا يُقدِّر العطف، وإذا أظهرنا الرحمة عليه أصابه الطمع وتحين الفرصة كى ينهبنا، وتلك طبيعة العبيد. لقد بنيت للفلاحين مسجدين وأقمت مستشفى أوقفت عليها ثلاثمائة فدان، ومع ذلك استطاع بعض الأشرار الذين اندَسُّوا وسطهم أن يجروهم، فإذا بهم ينقادون خلفهم دون تَبصُّر».

وكان المشهد المفاجئ الذى وقع ردا على حملة التاديب أن مئات الفلاحين زحفوا فى الليل على قصر «البدراوى» (باشا) رافعين المشاعل، وهناك كسروا أبواب القصر وأحرقوا الستائر، وطبقا لبلاغ من وكيل الدائرة إلى البوليس، فإن «الفلاحين نهبوا الصالونات والفضيات والأثاث»!



وبداية خريف ١٩٥١ (سبتمبر وأكتوبر) كانت حوادث التمرد فى الريف ظاهرة يومية، وراح كبار المُلاك - وسايرتهم الحكومة - يلقون اللوم على الشيوعيين، ونشرت بعض الصحف عشرات من البرقيات، يحتج أصحابها من رجال الأسر الكبيرة فى الريف على نشاط «الإرهابيين الشيوعيين»، الذين يحرضون على الفتنة والعصيان وعلى إتلاف الزراعات والمنشآت.

وكان «فؤاد سراج الدين» (باشا) وزير الداخلية - الذى عاد قبل أيام من أوروبا - متأثرا بأجواء أسرته (وكذلك بتقارير وزارته) - قد ترسخ لديه الاعتقاد بأن الشيوعية هى مصدر التهديد الرئيسى للأمن الداخلى.

لكن القصر الملكى بدأ يمارس لعبة أخرى - فقد فوجئ الرأى العام بافتتاحية فى جريدة أخبار اليوم (وهى المتصلة بالقصر وقتها عن طريق «كريم ثابت») عنوانها: «حركة الفلاحين ليست شيوعية».

ثم تستهل افتتاحية أخبار اليوم مقالها بما نصه:

«يُخطئ من يتصور أن حركة الفلاحين فى عزبة «البدراوى» (باشا) حركة شيوعية. ولو اعتقدنا هذا فإننا نعطى الشيوعية شرفا لا تستحقه، ولا يجوز أن نعطى الشيوعية كل هذا الشرف».

وتصل افتتاحية أخبار اليوم إلى حيث تقول:

«استقل يا وزير الداخلية، لأن الشعب كله ينتظر ما سوف تفعله، فالمعركة التى حدثت فى «بهوت» هى معركة بين الفلاحين وبين كبار المُلاك. والفلاحين لا حيلة لهم ولا سلطان، وكبار المُلاك فى نفس الوقت هم أشقاء حرم «فؤاد سراج الدين» (باشا) الذى يهيمن على البوليس».

وتنتهى افتتاحية أخبار اليوم بقولها «اضرب المثل أيها الوزير، واترك منصبك حتى يتحقق العدل»!

وكانت هذه الافتتاحية تحمل معنى يتخطى عباراتها ويتخطى موضوعها أيضا، فقد كانت إشارة واضحة إلى أن حلف القصر والوفد لم يعد قادرا على أن يتحمل أثقال حقائق مستجدة، دفعت كلا الطرفين إلى تبرئة نفسه وإلقاء المسئولية على الطرف الآخر. وكان ذلك منطقيا لأن العادة فى أى «علاقة انتهازية» أن الشركاء يتخلون عن بعضهم إذا بلغوا حافة الخطر، وتوهم كل طرف منهم أنه يستطيع النجاة بنفسه تاركا شريكه للذئاب الجائعة تنشغل به عن مواصلة المطاردة.

٤ / ضرائب على غير أرباح!

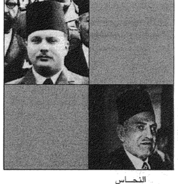
عندما عاد الملك «فاروق» من شهر العسل (وهو فى الحقيقة عشرة أسابيع - أى شهرين ونصف الشهر) - كانت الصورة التى عُرضت عليه «داعية إلى انشغال باله» (طبق وصف «عبد الفتاح عمرو» (باشا) - الذى استُدْعى إلى القاهرة للتشاور فى شأن تعثر المفاوضات بين الدكتور «محمد صلاح الدين»، وزير الخارجية وبين السير «رالف ستيفنسون» السفير البريطانى فى القاهرة ووراءه وزارة الخارجية فى لندن).

والتقى «عبد الفتاح عمرو» (باشا) مع «حسن يوسف» (باشا) فى شقته المطلة على النيل بشارع الجبلاية فى الزمالك، وسهرا - بالأرق - ليلة طويلة يبحثان هَمّا مشتركا بينهما هو «أحوال الملك»، واستقر رأى الاثنين على ضرورة مصارحته بأن «الأوضاع قاربت مرحلة الخطر». وبما أنه طلب «عبد الفتاح عمرو» (باشا) بوصفه السفير فى لندن لكى يسمع منه تفاصيل الأزمة التى صارت إليها المفاوضات المصرية - البريطانية، إذن فإن الفرصة تطرح نفسها، وتكاد تحدد شخصية من يتحمل مسئوليتها. وكان «حسن يوسف» (باشا) يدرك (دون أسى) أن الملك «تَعَوَّد» أن يسمع منه حتى لم يعد السماع مؤثرًا». ثم إن الملك بحكم العادة ظل ينظر إليه كـ «موظف كبير فى القصر» ولا يتفهم دوافعه إلى هذه الخدمة، وأولها أنه «يتحمل ما يتحمله عن إيمان بأهمية «الملكية» كمؤسسة، وكونها نظاما أصلح من غيره فى حكم مصر وضمان استقرارها وتقدمها».

وحسب تعبير «حسن يوسف» (باشا) (فى شهادة مسجلة بصوته) - فقد كانت ميزة «عمرو» أنه زائر يجيء إلى مصر بين فترة وأخرى - مرة فى السنة لا أكثر - وليس فردا من أفراد الحاشية مقيم فى القصر باستمرار. ثم إن «عمرو» بحكم غيابه عن مصر معظم الوقت لم يكن معرضا لدسائس الناحية الأخرى من الحاشية (يقصد «كريم ثابت» و«يوسف رشاد» وغيرهما من هؤلاء الذين يحومون حول الوجه الآخر للقمر - وذلك تعبير «عبد الفتاح عمرو») - زيادة على ذلك فإن «عمرو» بحكم كونه سفير الملك فى لندن والرجل الذى خلصه من «كيلرن» (السفير البريطانى الذى أهانه وأذله مساء ٤ فبراير والذى يُعتبر قناته الموثوق بها لدى الدولة الكبرى المهيمنة على الشأن المصرى) - يملك لدى فاروق (على المستوى الإنسانى وعلى المستوى الرسمى) حظوة تسمح له أن يتحدث بغير تحرج، خصوصا وهو «دبلوماسى بالفطرة» يعرف كيف يقول كل ما لديه بـ«كياسة».

ويروى «عمرو» (باشا) وكلامه مسجل بصوته، إن موعده مع الملك تحدد ظهر يوم فى سبتمبر (١٩٥١) (لم يتذكر تاريخه بالضبط) وانه جلس معه «أكثر من ساعتين» وفتح قلبه. ولم يذكر «عمرو» (باشا) أمام جهاز التسجيل تفاصيل ما قاله للملك، لكنه يتذكر أنه تكلم عن «كل شيء» و«بالقدر وبالأسلوب» اللائق ولو أنه انفعل فى لحظة من اللحظات و«تهدج صوته»، واستأذن جلالة الملك فى فنجان قهوة و«كوب ماء».

ثم خرج «عبد الفتاح عمرو» من مكتب الملك متوجها إلى مكتب وكيل الديوان «حسن يوسف»، ثم قصد الاثنان للغداء معا فى بيت «حسن يوسف»، وطال جلوسهما معا فى غرفة الطعام «أكثر من ثلاث ساعات»، وقد راحا يتذكران تفاصيل التفاصيل من حديث «عمرو عبد الفتاح» إلى «فاروق»، ويتساءلان «أى أثر يمكن أن يتحقق نتيجة له؟».


فاروق
النحاس



كانت تصرفات الملك فى تلك الفترة العصيبة توحى بأنه - إذا كان «فاروق» قد استمع إلى ما صارحه به «عبد الفتاح عمرو» (باشا) وربما غيره، (وكانت هناك شواهد تدل على أن الملك عندما عاد من أوروبا وفوجئ بحجم ما وصل إلى الناس من تصرفاته هناك، وراح يبحث ويتحرى الأسباب) - فإن «فاروق» استنتج - ما قابل استعداده ووافق هواه.

● كان الاستنتاج الأول الذى توصل إليه هو أن «الوزارة» قصدت فضيحته أمام الناس بحيث يعرفون جميعا بما كان يفعله فى أوروبا - وقد وجه الملك أصبع الاتهام إلى الدكتور «محمد صلاح الدين» وزير الخارجية شخصيا، وحجته (وليس معروفا من أوحى إليه بها) - أن الدكتور «محمد صلاح الدين» أمر عددا من سفارات مصر وبينها سفارات روما - وبرن - وباريس أن تحتج على الطريقة التى تناولت بها صحف بلدانها أخبار التصرفات الملكية أثناء مهرجان شهر العسل (ومع أن الملك «فاروق» نفسه وفى اتصال تليفونى من «لوجانو»، طلب من «حسن يوسف» (باشا) أن يحتج على السفارة السويسرية فى القاهرة، لأن الصحافة السويسرية تلاحقه حيث ذهب وبإصرار على التربص والتشهير) - إلا أنه عندما احتجت السفارات المصرية ثم عاد الملك إلى مصر، توصل إلى تفسير غريب لموقف الدكتور «محمد صلاح الدين» - مؤداه: «أن صلاح الدين لم يقصد بالاحتجاج أن يدافع عن الملك، وإنما أراد إثارة أزمات مع الدول التى نشرت صحفها أخبارا عنه، ويكون ذلك دافع الناس حتى يسألوا عما وراء الاحتجاجات، ثم تجيئهم الإجابات بالتفاصيل ويعيدون رواياتها فى مجالسهم ويبالغون فيها». وعلى هذا الأساس فإن الاحتجاجات التى أشار بها «صلاح الدين» لم تصدر عن «غضب وطنى»، وإنما صدرت عن «غرض خفى» - هو توسيع نشر «الحكايات» - حتى «يعرف من لم يكن يعرف»!

● والاستنتاج الثانى الذى توصل إليه الملك «فاروق» فى تلك الظروف أن جزءًا من حملة الكراهية ضده، هى بتوجيه من الوزارة لتحويل الأنظار عن الفساد الجارى فيها وعن الصفقات المشبوهة والصراعات المكشوفة.

ومن الغريب أن «كريم ثابت» اقتنع الملك «فاروق» بإمكانية القيام بحملة مضادة تكشف مواقع الفساد «الحقيقى» فى البلد وتخفف الضغط عن «القصر». وهكذا دعى إلى

القاهرة خبير علاقات عامة هو المستر «بلوردون هلسبى» وكان من قبل يعمل فى مصر مديرا لتحرير جريدة «الإجيبشيان جازيت»، وبالفعل جاء «هلسبى» إلى القاهرة وعاد إلى لندن ليكتب فى جريدة «ذى ستار» رسالة مستفيضة من القاهرة قال فيها: «إن الذين يتابعون أخبار الملك «فاروق» فى الصحافة البريطانية قد لا يصدقون إلى أى مدى يعمل ملك مصر فى خدمة بلاده، وكيف يعيش حياته جادا وملتزما ومضطرا للعمل مع حكومة فاسدة يرأسها رجل متهالك فى الخامسة والسبعين من عمره، عاجز عن إدارة شئونها، وخاضع لتوجيه زوجته الشابة التى هى القوة الحقيقية فى الحكومة الوفدية من وراء الستار» (وظهرت وسط رسالة «هلسبى» صورة لزينب هانم الوكيل ـ قرينة «النحاس» (باشا) ـ كُتِبَتْ تحتها جملة «المرأة الذكية التى تدير كل شىء فى مصر من وراء الستار»!

● والاستنتاج الثالث أن القصر من حقه وواجبه أن يكشف «الوفد» و«النحاس»، وهكذا راح الملك يهاجم الوزارة دون تحرز ويلقى عليها مسئوليات ما حل بالبلد من «تردٍ وتفسخ»:

ـ فالوزارة «مهلهلة» بالانقسامات بين أعضائها الذين لم يعودوا حتى معسكرات، وإنما أصبحوا أفرادا، كل واحد منهم له عالمه وله مطالبه وله معاركه.

● و«فؤاد سراج الدين» يلعب لعبة تحتاج إلى المساءلة، لأن هذه الخطة التى رسمها ـ وراح تنفيذها ـ لتحويل مؤسسة البوليس إلى «عزبة» خاصة له «توحى بأنه يدبر شيئا أو يستعد لشىء» ـ والظاهر حتى من كلام صديقه «كريم ثابت» «إنه فقد الأمل فى رئاسة الوزارة بـ «الذوق»، والآن يريد أن يصل إليها بـ «العافية».

● و«محمد صلاح الدين» يدفع المفاوضات مع الإنجليز إلى أزمة قبل الأوان، وهو متأثر بالدكتور «مصدق» فى إيران ولا يعرف أن «مصدق» أخذ «إيران فى داهية» (رواية «كريم ثابت» (باشا) فى مكتبى فى الأهرام سنة ١٩٥٨، وكان قد جاء يزورنى ويعرض على مذكراته عن أيام خدمته فى القصر).

● ووسط هذه الفوضى كلها فإن «النحاس» مقيم فى بيته أسير أمراضه ووساوسه الصحية إلى درجة أنه لم يعد يقابل أحدا غير قرينته، ولا يتحرك حتى فى البيت إلا ووراءه تابع خاص يحمل زجاجة كحول مطهر يغسل بها يديه إذا لامست يد أى إنسان آخر، حتى من العاملين فى البيت.

....

....

[والحقيقة أنه فى تلك الأيام وعندما كان «النحاس» (باشا) يضطر إلى الخروج من بيته لمناسبة لا يستطيع أن يتخلف عنها، فقد كان يتبعه باستمرار سكرتير (وأحيانا ضابط من حراسته الخاصة) ـ يحمل زجاجة كولونيا لكى يغسل بها الباشا يديه، وقد رأيت ذلك المشهد بنفسى فى احتفال أقيم فى النادى السعدى فى إحدى المناسبات الوطنية أواخر سنة ١٩٥٠ (وفى الغالب احتفال عيد الجهاد ـ ١٣ نوفمبر ١٩٥٠) ويومها اضطر «النحاس» (باشا) إلى مصافحة كثيرين، لكنه كل مرة كان يلتفت خلفه ويطلب «كولونيا»، وفى البداية لم أفهم سر الطلب ثم عرفته من «محمود سليمان غنام» (باشا)].

....

....

وهكذا استنتج الملك «فاروق» أن رئيس الوزراء الذى «عفا» عنه وقَبِلَ بفتح صفحة جديدة معه وترك له كل شىء واثقا فيه ـ لم يعد صالحا لخدمته وأنه فقد قيمته، وأكثر من ذلك أصبح عبئا عليه.



وفى هذه الأجواء المضطربة فإن ما عُرِف بوصف قضية الأسلحة الفاسدة راح يملأ أجواء مصر، ويضع الملك نفسه فى قفص الاتهام، ذلك لأن الروايات تناثرت فى كل المحافل ـ وفى الصحف ـ تتحدث عن عمليات لشراء السلاح جرت على عجل بعد قرار الملك بدخول حرب فلسطين سنة ١٩٤٨، على غير رغبة رئيس الوزراء «محمود فهمى النقراشى» (باشا)، وعلى غير استعداد عسكرى يطمئن إليه فى معركة خارج حدود مصر (بمنطق ذلك الوقت).

وتمضى الروايات لتقول «إنه فى شعور الملك بدوره فى قرار الحرب، فإنه اعتبر نفسه مسئولا عن توفير السلاح للجيش بكل وسيلة، وهكذا انشغل عدد من أفراد حاشيته أو من أصدقائهم بعمليات لشراء الأسلحة والذخائر، ومعظمه مما كان باقيا فى مخازن أوروبا (إيطاليا بالذات) من أيام الحرب العالمية الثانية. وكان الحلفاء قد كدسوا هناك جبالا من العتاد استعدادا لغزو إيطاليا من الجنوب إلى الشمال، لكن الملك «فيكتور عمانوئيل» اختصر لهم المهمة فاعتقل الزعيم الفاشستى «موسولينى» وأعلن استسلام إيطاليا.

وكان معروفا وذائعا على أوسع نطاق فى العالم أن مواقع كثيرة فى إيطاليا لا تزال مزدحمة بمخازن السلاح والذخيرة، وأن هناك سوقا مفتوحة لمن يطلب ويعرض الثمن المناسب.

والمشكلة أن البعثات التى ذهبت لشراء السلاح لم تدرك أن هذا السلاح الباقى من أيام الحرب العالمية، ظل أعواما (أربعة أو خمسة) مكشوفا فى العراء، ومن ثم أصابته بالضرورة عوامل الجو وأثرت على صلاحيته.

وفى الغالب فإن بعض البعثات أدركت أنها تشترى سلاحا فقد بعض صلاحيته، لكنها اشترته كبضاعة عليها طلب، والمحتاج على استعداد لقبولها بحالتها الراهنة وتحمل مسئوليتها ـ كيفما جاءت.

وأخيرا فإن بعض البعثات ومعها عدد من التجار والسماسرة قدموا فواتير لمشترياتهم مُبالغا فيها، وكان على أولئك المحتاجين أن يدفعوا!

وهنا فإن ما سُمى «بصفقة الأسلحة الفاسدة» أصبح أزمة ضمن الأزمات التى أدت إلى سقوط هيبة النظام الملكى، لأن الاتهامات فى خاتمة المطاف كانت واصلة إلى القصر، وإلى الملك شخصيا.



> **إن ما سُــمى «بصفقة الأسلحة الفاسدة» أصبح أزمة ضمن الأزمات التى أدت إلى سقوط هيبة النظام الملكى، لأن الاتهامات فى خاتمة المطاف كانت واصلة إلى القصر وإلى الملك شخصيا**

....

....

[والراجح أن الملك الذى كان يعتقد ببراءته، رد بغضب وربما بحماقة على الاتهامات التى التصقت به وبسمعته.

وفيما بعد، وعقب قيام الثورة كان موضوع الأسلحة الفاسدة واحدا من ذرائعها، جرت تحقيقات فى قضية الأسلحة الفاسدة ـ وظهرت فى التحقيق مسألتان:

ـ الأولى: أنه كانت هناك بالفعل أسلحة فاسدة، لكن نسبة هذه الأسلحة الفاسدة كانت فى الحدود التى يمكن تصورها، وعلى ضوء الظروف التى تمت فيها مشترياتها ـ مع وجود مبالغات فى الأسعار استفاد منها بعضهم.

ـ ثم إن الضجة التى أُثيرت حول هذه القضية كانت وراءها جماعات متنافسة من الموردين، وحين نجح بعضهم فى إبرام صفقاته، ولم ينجح بعضهم «الآخر» ـ فإن المعركة بين الطرفين أعطت للقضية حجما يفوق واقعها.

ـ ولعل أكثر ما ضايق الملك «فاروق» (فى حديث له مع «نجيب الهلالى» (باشا) سنة ١٩٥١ ـ وكان قد قابله سرا كما قابل ساسة غيره، بينهم «حافظ عفيفى» (باشا) ـ يستطلع رأيهم فى تردى أحوال «البلد») ـ «إن الناس صدقوا أننى تاجرت فى السلاح، وأننى أتحمل مسئولية دم كثير «ساح» فى فلسطين»!]

....

....

[والشاهد أنه يمكن تشبيه قضية «الأسلحة الفاسدة» ودورها فى تعرية النظام الملكى فى مصر، بالدور الذى قامت به قضية عقد الملكة «مارى أنطوانيت» فى سقوط أسرة «البوربون» فى فرنسا على عهد «لويس السادس عشر». فقد استطاعت مغامرة فرنسية هى الكونتيسة «جين فالوا» أن تُقنع الكاردينال «دى روهان» بأن يسترضى الملكة «مارى أنطوانيت» وكانت تُظهر نفورا منه ـ بأن يشترى عقدا نادرا من اللؤلؤ، صنعه الفنان «بوهمر» وهو أشهر مصمم للجواهر وقتها، وثمنه مليون وستمائة ألف فرنك، ويهديه عن طريقها («جين فالوا») إلى «مارى أنطوانيت» ملكة فرنسا، ورتبت «فالوا» إشارات وملابسات معينة جعلت الكاردينال على يقين بأن هديته سوف تُسَلَّم للملكة، فى حين أن «مارى أنطوانيت» لم تكن تعرف شيئا عن الموضوع كله.

وحدث أن العملية انكشفت، وبراءة الملكة ظهرت، وبرغم ذلك فإن قضية عقد اللؤلؤ ظلت تطارد «مارى أنطوانيت» حتى وهى تصعد سلالم المقصلة التى قطعت رقبتها فى ميدان الثورة (الكونكورد الآن) ـ قلب باريس.

والواقع أنه فى الأجواء الحافلة بالاتهامات عن مغامرات وفضائح ـ مالية وغرامية ـ تورطت فيها «مارى أنطوانيت» فعلا، وفى أجواء مخازٍ حقيقية سقط فيها بلاط البوربون ـ فإن كافة التهم أصبحت قابلة للتصديق، لأن اللحظة النفسية مناسبة، ولأن الروايات جاءت متسقة مع الانطباعات الشائعة عن أصحابها من ناحية، ومن ناحية أخرى جاءت متوافقة مع السياق العام للحوادث فى زمن وقوعها.

كذلك حدث فى قضية عقد اللؤلؤ بالنسبة لمارى أنطوانيت.

وكذلك حدث فى قضية «صفقة الأسلحة» بالنسبة لفاروق].

....

....

وعلى أى حال فإن الملك خرج بعد القضية باقتناع لم يتزحزح عنه وهو أن الحكومة لم تُحسن الدفاع عنه (ولعلها لم تحاول) ـ ثم إنه هو نفسه وبمركزه الملكى لم يكن قادرا على الدفاع عن نفسه مباشرة (ولم يكن مُصدَّقا فيه حتى لو حاول).

والنتيجة أن تحالف القصر والوفد تفككت عُراه ـ وأن عهد الصلح بين الاثنين سقطت ضروراته، وأن قُبلة طبعها «النحاس» (باشا) على يد الملك «فاروق» عربونا لولاء بغير حدود تحولت إلى ضريبة على أرباح لم يعد لها فى النهاية وجود! ■

٥ / فرسان الساحة الفارغة!

إذا كان التوافق - إلى درجة التواطؤ بين القصر والوفد قد ترك فراغا كبيرا في قلب السياسة المصرية مما سمح لعناصر الهامش في المجال السياسي المصري بأن تندفع إلى قلبه - فإن الاختلاف والانشقاق بين الاثنين زاد من مساحة هذا الفراغ، وجعل أجواءه معتمة وداكنة تظهر عليها التحركات وكأنها من أفعال الظلال - أشكالا ومساحات غير واضحة وغير محددة!

وكان «على ماهر» (باشا) أول من اعتبر أن الساحة السياسية الراهنة تناديه - وتقدم إليها تلك اللحظة لينشئ جماعة أسماها «جبهة مصر». وكان «على ماهر» (باشا) صاحب دور ملتبس في السياسة المصرية، فقد ناصر قيادة «سعد زغلول» لثورة سنة ١٩١٩، وهو موظف كبير في وزارة الحقانية، ثم راح ينشق - ويبتعد ماشيا في حقل الشوك الواسع بين الوفد والقصر، خارجا من الولاء لسعد وواصلا إلى العداء معه ومع «النحاس» (باشا) خليفته، حتى ظهر مُقَرَّبا من الملك «فؤاد» وشِبْه قَيِّم على ابنه «فاروق» الذى جلس على العرش و«على ماهر» بجانبه، رئيسا للديوان الملكى (١٩٣٧).

لكن «على ماهر» لم يكن لديه شيء نافع يعطيه للصبى الذى جلس على عرش مصر، بل كان ما لديه لذلك الصبى - الذى اعتبرته أغلبية الشعب المصرى وعدا وبُشرى - وسوسة تزين الدكتاتورية وتحرض على الدستور كلما سنحت فرصته.

وقد رتب «على ماهر» (باشا) (وهو رئيس الديوان) انقلاب «فاروق» - الأول - على الأغلبية الوفدية، وكذلك أُقيلت وزارة «النحاس» (باشا)، وخلفتها وزارة برئاسة «محمد محمود» (باشا) رئيس الأحرار الدستوريين لم تستطع أن تحكم، لأن «على ماهر» (باشا) كان يريد رئاسة الوزارة لنفسه. وبالفعل فإنه كان في ذلك الموقع - عندما جاءت الحرب العالمية الثانية - ثم خرج منها بإنذار بريطانى ١٩٤٠ - لم يلبث أن لحقه إنذار بريطانى آخر ١٩٤٢ جاء بوزارة وفدية يرأسها «النحاس» (باشا)، وكان بين إجراءاتها اعتقال «على ماهر» (باشا) في مزرعة له في مديرية البحيرة لم يعد منها إلا بعد أن أصبح شقيقه «أحمد ماهر» (باشا) رئيسا للوزارة في انقلاب دستورى آخر (أكتوبر سنة ١٩٤٤).

ولم يكن لعلى ماهر (باشا) حزب سياسى، ولا كانت له شعبية جماهيرية - وكذلك كان مكانه دائما منطقة الظلال وكان ذلك أكثر اتساقا مع شخصيته وفيها - لمسة من الغموض (لعلها من أيام الخدمة في القصر) - ولمسة من العبوس (لعلها من أثر النفى في مزرعته أو النفى من السلطة) - ولمسة من المرارة (لعلها من بقايا طموحه إلى إيقاع الملكة «نازلى» أرملة الملك فؤاد في غرامه، لكنها أعرضت عنه وأعطت ما عندها لأحمد حسنين (باشا) الذى خلف «على ماهر» على رئاسة الديوان الملكى).

والمهم أن «على ماهر» بقى شخصية ملتبسة - غامضة أو على الأقل غير واضحة وغير محددة.

وبرغم ذلك فقد كانت هناك مجموعة من الرجال والنساء أخذهم ذلك المزيج «المُعَقَّد» في شخصية «على ماهر»، وكان فيهم من اعتبره «رجل الأقدار» الذى يستطيع مواجهة الصعاب وإنقاذ المواقف في أصعب الأوقات.

....

....

[وكان بين المُعجبين بعلى ماهر (باشا) رجل وسيدة كنت ولا أزال من المُعجبين بنواحى قوة في شخصية كل منهما:

● الرجل هو الدكتور «محمود عزمى» - كان لزمن طويل مؤيدا لـ«على ماهر» (باشا) (فى رئاسته الأولى للوزارة سنة ١٩٣٩)، وكان هو الذى اقترح عليه إنشاء وزارات جديدة (مثل وزارة الشئون الاجتماعية) توسع بعض الشيء مهام الحكم في مصر - لكنه على سنة ١٩٥١ حين بدأ «على ماهر» يقدم نفسه باعتباره «المُنقذ من الضياع» - كان الدكتور «عزمى» قد شُفى من الإعجاب به!

● وأما السيدة فهى «روزاليوسف» (الفنانة القديرة التى أصبحت مالكة لمجلة واسعة النفوذ تحمل اسمها) - فقد كانت هى التى دعتنى معها تقدمنى إلى «على ماهر» (باشا) - في بيته (ذلك الوقت) في شارع «مظهر» في الزمالك. وحاولت السيدة «روزاليوسف» أن تهيئنى (صحفيا شابا متحمسا) للقاء «رجل الأقدار»، وكان قولها ونحن على عتبة باب بيته، إنك الآن سوف تقابل «نمر» السياسة المصرية، وعندما خرجنا بعد ساعتين من «عرين النمر»، سألتنى السيدة «روزاليوسف»: كيف رأيت «على ماهر» (باشا)؟ وأحست بذكائها أننى لم أقتنع بما رأيت!].

....

....

وفى أجواء الفراغ الموحش الذى اعترى السياسة المصرية بالوفاق - ثم بالشقاق - بين القصر والوفد، دخل «على ماهر» (باشا) يقدم نفسه باعتباره رجل المواقف الصعبة القادر على ملء الفراغ وعلى انتزاع المستقبل المرتجى من وحشة الحاضر الراهن!

وكانت مشكلة «على ماهر» الحقيقية «أنه ليس في مقدور رجل أن يتحدث عن المستقبل في عزلة عن ماضيه، ولا أن يحلم بإنقاذ وطن ليست له فيه قاعدة، لأن خطط العمل الوطنى تحتاج إلى ما هو أكثر من البرامج المكتوبة بواسطة نخب عجزت طول تجربتها عن التواصل مع أوسع الجماهير، وأخيرا فإن الإرادة السياسية لا توفرها قدرة رجل على المناورة، وإنما توفرها قدرته على مد رباط الثقة بينه وبين الناس.

ويستحق التأمل أن أول جهد «لعلى ماهر» (باشا) - في أداء دور المنقذ المُخلص - كان موجها إلى السفارة البريطانية. وفى صيف سنة ١٩٥١ يظهر ضمن الوثائق البريطانية تقرير برقم (١٢/ ١٠١٠) كتبه السفير البريطانى في القاهرة يقول: «أنه منذ فترة و«على ماهر» (باشا) يحاول أن يجد وسيلة

على ماهر

حسن الهضيبى

لم يكن لعلى ماهر (باشا) حزب سياسى، ولا كانت له شعبية جماهيرية. وكذلك كان مكانه دائما منطقة الظلال وكان ذلك أكثر اتساقا مع شخصيته وفيها لمسة من الغموض ولمسة من العبوس ولمسة من المرارة



للاتصال بالسفارة أو بأحد من كبار المسئولين فيها، ومع أنى شخصيا أستغرب محاولة «على ماهر» (باشا) الآن أن يقوم بدور سياسى، فقد وجدنا من الأفضل أن نستكشف ما يريد ولا نصده. لقد كنت أتصور بعد كل ما جرى له وبعد اغتيال شقيقه «أحمد ماهر»، وخلفه «النقراشى» - أن الرجل لم يبق له غير أن يلجأ إلى دير يقضى فيه بقية حياته معتزلا - إلا أن الرجل الآن يجمع حوله بعض المستقلين، ويظن بمقدوره أن يستقطب من حوله قوى وتيارات يراها فاعلة على الساحة دون توجيه واضح أو قيادة مُعْتَرَف بها. وقد لاحظنا أنه في الشهور الأخيرة يحاول جس نبض عدد من التيارات لعلها تناصره - كلها أو بعضها - في تصوراته عن «إنقاذ ما يمكن إنقاذه»، ونحن نعرف أنه اتصل بالإخوان المسلمين وبالشبان المسلمين (التى يرأسها واحد من أصدقائه هو «صالح حرب» (باشا)) - وبساسة ينتمون إلى أحزاب ضعيفة، ووصل به الأمر إلى حد أنه اتصل بمجموعة «إخوان الحرية» وهى جماعة يشك في أمرها كثير من الوطنيين، ويظنون أننا (السفارة الإنجليزية) نحركها، ومما لاحظناه أن «الباشا» يوحى عن طريق بعض المتصلين به لعدد من السفارات الأجنبية في القاهرة، بأننا (السفارة البريطانية) راضون عن برنامجه، ويتصور أن ذلك يعطى مصداقية لدعوته!

وعندما وجدنا أن الاتصال به لا ضرر منه، لم نشأ أن يكون الاتصال عن طريق مسئول سياسى، وانتهزنا فرصة أن المستشار القانونى في السفارة «جون هاملتون» تلقى دعوة من بعض أصدقاء «على ماهر» (باشا) لحضور غداء معه، ورأينا أن يقبلها بشرط أن يوضح موقفه، على أساس أنه يحضر الغداء بصفة اجتماعية وليس بقصد سياسى».



يستطرد التقرير البريطانى (١٢/ ١٠١٠) بعد ذلك إلى القول بأن «جون هاملتون» حضر مأدبة غداء في بيت «عبد الملك حمزة» (بك) وهو من أقرب المقربين إلى «على ماهر» (باشا)، وهناك سمع عن خطة لعودة «على ماهر» (باشا) إلى رئاسة الديوان الملكى بداية تمهد له (كما حدث من قبل) طريق رئاسة الوزارة «حيث تنتظره مسئولية إنقاذ الموقف». والفكرة التى يدعو لها أصدقاؤه أن هناك فراغا فظيعا في الحكم لأن رئيس الوزارة الحالية «النحاس» (باشا) أصبح رجلا مُتْعَبا، أصابه «الخَرَف» Gaga (هكذا بالنص) بسبب تقدم السن، والأليق به أن يعتزل ويقضى بقية عمره يتمتع بالثروة التى جمعتها زوجته. وإذا اعتزل «النحاس» (باشا) فإن حزب الوفد يصبح مثله مثل كل الأحزاب بغير سند جماهيرى ولا قيادة تجمع الناس».

تلك مقدمات مشروع أصدقاء «على ماهر» (باشا).

يستطرد التقرير إلى مشهد بعد الغداء جرى فيه اقتياد «جون هاملتون» إلى جلسة منفردة على الشرفة Veranda لمدة ساعتين في خلوة منفردة مع «على ماهر» (باشا)، هيأها لهما مضيفهما «عبد الملك حمزة» (بك) - ويكتب «جون هاملتون» «إن «على ماهر» أراد أن يثبت لى صدق نيته معنا زمن الحرب، وأن يؤكد ولاءه وإخلاصه لنا بما يعنى في النهاية أننا ظلمناه بشكوكنا فيه وتجنينا عليه، ودخل «الباشا» إلى هذا الموضوع ببراعة يستحق التهنئة عليها، فقد بدأ كلامه بقوله: «إنه عائد من إجازة في تركيا واكتشف هناك من كل ما سمعه أن دور تركيا معنا في بداية الحرب كان مماثلا لدور وزارته بالضبط، فقد اتخذت «تركيا» في الظاهر موقفا محايدا لتغطى به إيمانها بقضية الحلفاء على اعتبار أن موقفها ذلك يخدم الحلفاء بأكثر من المشاركة معهم في القتال - وقال «الباشا» «إن ذلك الموقف كان عين العقل، وأنه ساعد الحكومة البريطانية وخدم مجهودها الحربى». ويكتب «هاملتون» «ومن هنا استطرد «الباشا» إلى أن وزارته سنة ١٩٣٩ فعلت الشيء نفسه، فقد وضعت كل إمكانيات مصر تحت تصرفنا في تنفيذ أمين لمعاهدة سنة ١٩٣٦، وأكثر من ذلك قامت هذه

الوزارة بأمر منه شخصيا بتجريد الرعايا الطليان والألمان من سلاحهم وحبسهم فى معسكرات اعتقال حتى لا يتحولوا إلى طابور خامس يؤثر على المجهود الحربى، وأكثر من ذلك فإنه وضع تحت تصرفنا كل المعلومات الخاصة لدى حكومته ـ وكان لديها الكثير عن نوايا إيطاليا، وكان العسكريون البريطانيون يقدرون له (لعلى ماهر) صنيعه، حتى أن الماريشال «ويفل» قائد القوات البريطانية فى الشرق الأوسط بعث له بخطاب شكر سوف نجد نسخة منه فى سجلات السفارة».

ويكتب «هاملتون» «واصل الباشا كلامه منتقلا من الماضى إلى الحاضر قائلا: «إنه لا يعرف سببا لعدم الوصول إلى اتفاق على تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ حتى الآن، وأنه كعضو فى لجنة الشئون الخارجية فى مجلس الشيوخ، تصدى لوزير الخارجية «محمد صلاح الدين» قائلا له: «إن سياستك تأخذ مصر إلى الضياع!».

أضاف «على ماهر» (باشا) قائلا: «إن قضية السودان لا يصح أن تعرقل المستقبل وأن المطلوب هو «صلة رمزية» بين مصر والسودان، وأن مصالح مصر فى السودان متماثلة تماما مع مصالح بريطانيا وذلك يسهل كل شىء». أضاف «الباشا» «أنه ضد تورط مصر فى مشاكل العالم العربى، وأن التعقيدات كلها تجىء من أن الأمين العام للجامعة العربية «عبد الرحمن عزام» (باشا) يتخطى حدود وظيفته وهو «كما رأينا» فى «حوادث المغرب العربى» لا يمارس الدبلوماسية بقدر ما يمارس التحريض»!

وأخيرا وصل «جون هاملتون» المستشار القانونى للسفارة البريطانية فى القاهرة إلى وصف لعلى ماهر (باشا) ـ بدا وكأنه قراءة فى الغيب، فقد كتب بالحرف «باختصار لقد جعلنى «على ماهر» أشعر بأنه «تاليران» مصرى (كان «هاملتون» يشير إلى السياسى الفرنسى الأشهر الذى عاش أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ـ والذى كان وزير خارجية لويس السادس عشر قبل الثورة الفرنسية ـ ثم أصبح وزيرا لخارجية «نابليون بونابرت» ـ ثم انتهى وزيرا لعصر ثالث عندما عاد البوربون مرة أخرى إلى قصر التويلرى على عهد لويس الثامن عشر، واستحق «تاليران» بالتالى وصف «رجل لكل العصور»)!

وفى مساحات الظل جاءت إلى الفراغ أيضا قوى توهم أصحابها أنهم شكل المستقبل، وكان فى المقدمة من هذه القوى حفنة الأحزاب والتنظيمات الشيوعية (على اليسار) ـ ثم كتلة جماعة الإخوان المسلمين (على اليمين).

وعلى نحو ما فإن الشيوعيين تبدوا أمام نظام الحكم تلك الفترة (بالتحديد القصر والوفد) ـ باعتبارهم مصدر الخطر الحقيقى على النظام، ومصدر الشك ساعتها أن الشيوعيين وراءهم قوة عظمى تساند وتدعم، وأما الإخوان فقد تبدوا عنصرا مقدورا عليه لأنه ليست وراءهم قوة عظمى تماثل الاتحاد السوفيتى. ومع أن الإخوان كانوا هم الذين قاموا بكل الاغتيالات التى شهدتها مصر خلال عشر سنوات سبقت، وكانوا هم الذين فجروا القنابل وأطلقوا الرصاص ـ فإن خطر الشيوعيين بدا أكبر فى تلك الساعة، وساعد على ذلك اعتقاد بأن الأزمة الاقتصادية والاجتماعية (إلى جانب فساد وَصَفَتْهُ السفارة البريطانية وغيرها بأنه «أسوأ مستوى من الفساد يعرفه العالم») ـ كله يصب فى خانة الشيوعية، وكذلك راح النظام يعتقد أن فرصة الشيوعية فى استقطاب الجماهير أقرب وأوفر. وربما أن طبائع الأشياء ذاتها كانت تهيئ للطبقة الحاكمة فى مصر ومن موقعها المتميز أن الشيوعية هى العدو، حتى أن بعضهم راح يسوق الأدلة مما جرى فى أوربا الشرقية بقوة الجيش الأحمر فى إيران واليونان وحتى كوريا بالمقاومة المسلحة إلى درجة الحرب الأهلية.

وفى ذلك كان الإخوان هم المستفيدون قبل غيرهم من القوى المتحركة فى ساحة الظلال.

وفى الحقيقة فإن الإخوان المسلمين أحسنوا استغلال الظروف، خصوصا بعد أن فشلت محاولتهم الأولى (منتصف سنة ١٩٥٠) فى دخول الانتخابات، واقتناص عدد من المقاعد مستفيدين بوقف العمل بقانون الأحكام العُرفية فترة إجراء الانتخابات النيابية، وعندما تخلى الحظ عنهم جاء إدراكهم أنهم أمام مهمة إعادة تأسيس وليس أمام مهمة «اقتناص» مقعدين أو ثلاثة فى مجلس النواب، ولعل ذلك كان الإسهام الكبير للرجل الذى وقع عليه اختيارهم، وأبقوا اسمه سرا عن عيون النظام وأجهزة أمنه ـ حتى تتم البيعة له ـ وهو المستشار «حسن الهضيبى».

وكان «الهضيبى» كرجل قانون عاش معظم سنوات خدمته على كرسى القضاء مرشدا عاما ثانيا للإخوان مختلفا عن مرشدهم الأول المؤسس «حسن البنا».

وفى حين أن «حسن البنا» كان خطيبا يثير الحماسة فى جمهوره بشعبيته وجاذبيته، فإن «الهضيبى» كان متحدثا يثير الملل لدى سامعيه بحججه وأسانيده، لكن ترسانة «الهضيبى» وليس ترسانة «البنا» ـ كانت بالضبط ما يلزم للإخوان المسلمين فى تلك الظروف.

وكانت خطة «الهضيبى» ـ ومن أحاطوا به فى مكتب الإرشاد ـ خطوة بعد خطوة تدل على تصور مدروس:

١ ـ رفع قضية أمام مجلس الدولة فترة وقف العمل بقانون الأحكام العُرفية بسبب إجراء الانتخابات النيابية ـ تطلب إعادة نشاط الجماعة، والحجة «أن قرار الحاكم العسكرى الذى أصدره «محمود فهمى النقراشى» (باشا) رئيس الوزراء سنة ١٩٤٨، استند على قانون الأحكام العُرفية عندما قرر «حل نشاط الجماعة ومصادرة ممتلكاتها وأموالها»، لكن هذا القرار لم يتعرض لإلغاء التصريح بإنشائها، وبالتالى فهذا التصريح قائم، ولا تحتاج الجمعية إلى تصريح جديد حتى تستعيد نشاطها فى ظروف متغيرة ـ وبالفعل فإن مجلس الدولة أخذ بوجهة نظر محامى الإخوان.

٢ ـ ثم راح المستشار «الهضيبى» يبعث برسائل طمأنينة إلى كل من يعنيهم الأمر، وكان اهتمامه بادئ الأمر بالوزارة، وذلك حتى لا تعترض على حكم مجلس الدولة فى المدة القانونية المسموح فيها بالاعتراض. وهنا كان «فؤاد سراج الدين» (باشا) فى انتظاره، فهو وزير الداخلية الذى يملك حق الاعتراض فى المهلة القانونية على حكم مجلس الدولة، وفى الواقع فإن «فؤاد سراج الدين» كان على استعداد لعقد صفقة:

فهو مثله مثل غيره كثيرين يتصور أن «الدين أقدر على مقاومة الشيوعية التى تمثل فى نظره ونظر طبقته من كبار ملاك الأراضى ـ محرك الخطر الزاحف ودافعه، بشاهد ما يجرى الآن فى الريف المصرى.

يضاف إلى ذلك أن الإخوان المسلمين لديهم القدرة على تكوين تنظيمات فى الشارع السياسى، تستطيع أن تعترض النشاط الشيوعى فى البلد وتحاصره، وإذا استطاع ـ وهو وزير الداخلية ـ أن يتوصل إلى صفقة مع الإخوان فإنه يكون قد صاد: عصافير بحجر واحد.

ـ يضمن قوة تقاوم الشيوعية والشيوعيين.

ـ ينقل المعركة فى الشارع من كونها مع الوفد أو ضده ـ إلى معركة بين الشيوعيين والإخوان، فى حين تقف وزارة الداخلية تتفرج على الاثنين ـ وكلاهما يستنزف قوته.

ـ وإذا استطاع أن يأخذ الإخوان إلى جانبه، فمعنى ذلك أنه ضمن فى الشارع ـ سواء أمام القصر أو أمام فرق أخرى متنافسة فى الوفد ـ صديقا مؤثرا ـ فاعلا ومقاتلا.

....

....

[وطبقا لشهادة الأستاذ «عبد الفتاح حسن» (باشا) الذى كان وزيرا للدولة فى وزارة الوفد وقوى الصلة بفؤاد سراج، وقد سمعتها منه بعد أن توثقت علاقاتنا خلال ثلاثة شهور قضيناها معا وبرفقة آخرين من الأصدقاء ـ وضمنهم «فؤاد سراج الدين» (باشا) ـ فى سجن «مُلحق مزرعة طُرة» ضمن اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ ـ فهو نفسه («عبد الفتاح حسن») تخوف من «المفاتحات» التى جرت بين «فؤاد» (باشا) وبين الإخوان المسلمين، وقد سأله فيها مباشرة قائلا: «ألا ترى يا «باشا» أن الإخوان المسلمين وحش تصعب مصادقته؟ ـ ثم ألا ترى أن ظهور الإخوان قريبا من الوفد يمكن أن يسبب إزعاجا لجماهيره الواسعة بين الأقباط؟ ـ وكان رد «فؤاد سراج الدين» (باشا) وقد اقتنع به «عبد الفتاح حسن» (باشا) «وقتها» ـ (كذلك أضاف الرجل بأمانة واستقامة ـ ناسبا اقتناعه إلى زمن معين) ـ قوله:

«أولا: بالنسبة للوحش، فإن الوحش الذى يعوى معك أفضل من الوحش الذى يعوى عليك.

وثانيا: (أضاف «فؤاد» (باشا)) لقد كان الإخوان وحشا خطرا عندما كان البوليس لا يعرف شيئا عن تنظيماتهم السرية، أما الآن وبعد ما جرى ـ فإن كل شىء أصبح مكشوفا، فضلا عن أن الإخوان تعلموا الدرس.

وثالثا: فإن الوفد بعلاقة بينه وبين الإخوان المسلمين يستطيع أن «يحتويهم» ويحصر انتشارهم، وذلك أفضل لجماهيره من الأقباط].

....

....

٣ ـ لكن المستشار «حسن الهضيبى» بعد أن حصل على حكم مجلس الدولة، وضمن عن طريق «المفاتحات» مع «فؤاد سراج الدين» (باشا) أن وزارة الداخلية لن تعترض على عودة الإخوان المسلمين إلى نشاطهم فى ظل شرعية جديدة ـ ما لبث أن قام بالحركة التالية فى استراتيجيته،



وصف «جون هاملتون» ـ المستشار القانونى للسفارة البريطانية بالقاهرة ـ «على ماهر» بأنه «تاليران» مصرى مشيرا إلى السياسى الفرنسى الأشهر ـ والذى كان وزير خارجية لويس السادس عشر قبل الثورة الفرنسية ـ ثم أصبح وزيرا لخارجية «نابليون بونابرت» ـ ثم انتهى وزيرا لعصر ثالث عندما عاد البوربون مرة أخرى إلى قصر التويلرى على عهد لويس الثامن عشر



وهى الالتفاف والتوجه نحو القصر. وكان القصر يتابع ما يجرى بين الإخوان ووزير الداخلية بتحفز، وفى اللحظة المناسبة قرر أن يقفز وتقابل القصر والإخوان، وظُهر ذات يوم كان المستشار «الهضيبى» يتشرف بمقابلة ملكية خرج على أثرها ليصرح للصحفيين بأنها «كانت مقابلة كريمة من ملك كريم».

٤- وكانت للمستشار «حسن الهضيبى» خطوة رابعة نصح بها تنظيمات الإخوان، يدعوها إلى العمل فى العلن، وأما العمل فى السر فليس وقته الآن، وحتى عندما وقع استفتاؤه فى موضوع اشتراك عناصر من الإخوان المسلمين فى المقاومة الوطنية الجارية ضد قوات الاحتلال البريطانى فى منطقة القناة - كانت فتواه «إن الإخوان عليهم أن يقيموا توازنا بين قوة يصرفونها فى مقاومة الإنجليز (مع غيرهم من فصائل المقاومة) - وبين قوة لابد لهم أن يحتفظوا بها حتى لا ينقض عليهم غيرهم ممن يساعدونهم اليوم، لأن قيمة الإخوان فى كل الأوقات تظل مرهونة بقدرتهم.

(وفيما بعد كان هناك من رأوا أن تلك فى الواقع كانت إيماءة المرشد الجديد اعترافا بالنظام الخاص الذى أنشاه المرشد الأول - حسن البنا - والذى كان الذراع المسلح فى الخفاء للجماعة، ومعنى ذلك أن متطوعى الإخوان كانوا منذورين للمقاومة الوطنية، وأما الجهاز السرى فقد كان مُحتجزا للعمل الداخلى - على أن أنصار المستشار «الهضيبى» ينكرون ذلك، ودليلهم أن هذا النظام الخاص داخل الإخوان قام بعملية عصيان علنى ضد «الهضيبى»، وصل فيها إلى حد احتجازه رهينة حتى تُجاب مطالب قدموها له). ■

٦ / التسابق إلى الهاوية!

■■ عندما وقع ذلك الفراغ فى الوسط والقلب من مجال السياسة المصرية، وراحت كل القوى المتناثرة حول الهامش تندفع إلى الداخل لأن قوانين الطبيعة لا تسمح بالفراغ - أصبحت الساحة الوطنية خليطا مخيفا من الفوضى.

فالقوى الأصلية التى تراجعت عن «القلب» فى حالة الوئام وفى حالة الخصام، لم تستطع أن تجد لنفسها وسيلة تسترد بها مواقعها الضائعة.

● من ناحية - فإن القصر لم يكن قادرا على استعادة زمام المبادرة كمقدمة لنوع من العودة - لأن الوقت كان متأخرا، فأسرة «محمد على» كانت من عصر «توفيق» (وضرب الثورة العرابية) - وحتى عهد «فؤاد» (ومعاداة الدستور والحركة الوطنية) - ضيعت شرعيتها.

وكان أمل الأسرة فى ميلاد جديد يعطيها عُمرا مُضافا (فى أوقات تتساقط فيها العروش الأوروبية ذاتها أمام عواصف الثورة، كما حدث فى الصين وروسيا واليونان والبرتغال) - أو أمام عواصف الصراع الإمبراطورى (كما حدث فى النمسا وألمانيا وبلغاريا، وكاد يحدث فى بلجيكا وهولندا والدانمارك لولا معجزة لحظة أخيرة) - معلقا بذلك الصبى الذى جاء إلى عرش مصر حسن الطلعة، حلو البسمة، بادى اليقظة يوحى بوعد وبشرى، ومع أن أسرة «محمد على» كانت كارهة بعمق لفرع الملك «فؤاد» وكل ما يمثله، فإنها أقبلت على «فاروق» تحاول أن تتعلق بأذياله إلى مستقبل تظن أنه عمرا جديدا قد كُتبَ لها.

لكن ما حدَث هو أن الملك «فاروق» خَيَّبْ الآمال، وأكثر من ذلك فتح كل الثغرات التى تستطيع تهديد نظام ملكى.

● ومن ناحية أخرى فإن الوفد لم يكن - هو أيضا - قادرا على استعادة زمام المبادرة تمهيدا لنوع ما من العودة، والسبب الواضح أن الوفد - فى سبيل الوصول إلى السلطة - سَلَّم ما كان لديه من أسلحة سواء للإنجليز (فى صفقة ٤ فبراير ١٩٤٢ بالدبابات تحاصر عابدين) - أو للقصر (فى صفقة يونية سنة ١٩٥٠ وختم التسليم بتلك القُبْلة التى طبعها «النحاس» (باشا) عهد ولاء على يد الملك «فاروق»).

وربما أن الرجل الوحيد القادر على إنقاذ الوفد كان زعيمه «مصطفى النحاس» (باشا)، لكن الرجل - للإنصاف - أعطى كل ما عنده، ثم إن المحارب القديم الذى كانه ذات يوم فقد - ربما بالسن والمرض - كل رغبة فى المقاومة وجاء استسلامه كاملا.

ولم يكن هناك من يحل محل «النحاس» (باشا) لأن انقسام الحزب إلى فرق متنافسة على السلطة، متسابقة إلى المغانم (باستثناء قلة محدودة) - أدى إلى حالة ضياع مثير للشجن والخزى، وذلك ما يشعر به أى قارئ للملفات وضمنها الوثائق البريطانية، وبالذات تقريرا كتبه السير «رالف ستيفنسون» إلى وزير خارجيته - وفى ذلك التقرير (١٠٤/ ١٠١٨) يقول السفير البريطانى فى القاهرة بالحرف:

«من المدهش أنه لم يعد هناك مصدر قوة للوفد إلا فساده المطلق - وتلك ظاهرة من أغرب الظواهر السياسية ولكنها الحقيقة، لأن ذلك الفساد فى الحزب أصبح العنصر الوحيد الذى يجمع كل المستفيدين بمواقعهم فيه ويقرر موقف كل واحد منهم، ويدعوهم جميعا - مهما كان ما بينهم - إلى المحافظة على البقاء فى الحكم - بصرف النظر عن الثمن!».

ويستطرد السير «رالف ستيفنسون» فيقول بالحرف:

«إن فساد حزب الوفد وصل إلى مستوى غير مسبوق فى أى حزب مصرى، فقد تخلى الحزب عن دوره كممثل لتحالف شعبى عريض يعتمد أساسا على الطبقة المتوسطة، وبدلا من ذلك أصبح حزبا من الأغنياء جدا وللأغنياء جدا.

A very rich Party and a Party for "very rich men".

والحزب نفسه يعتمد فى تمويل نشاطه على «عبود» (باشا) - لكن كل من فى الحزب يمد يده فى كل ناحية ليحصل على أكثر ما يستطيع أن يطوله ويزيد من غِناه»!

كان مغزى ذلك على الناحيَتين أن القوتين الرئيسيتين فى النظام السياسى المصرى (القصر والوفد) - لم تبق لدى أيهما وسيلة - وربما إرادة حقيقية - فى العودة إلى القلب، لأن مثل هذه العودة تقتضى معركة هائلة مع النفس أولا، ثم مع الطرف الآخر ثانيا - لاستعادة الكفاءة والصلابة والعزم التى تُفسح لأى طرف سياسى مكانه على الساحة العامة!

ولم تكن القوى الهامشية التى اندفعت - بقوانين الطبيعة إلى ملء الفراغ - مستعدة لا بقوة الفكر ولا بقوة الفعل لكى تصنع بديلا:

- كانت القوة الأولى - فى تقدير الأمن المصرى أيامها وفى تقدير أطراف النظام (القصر والوزارة) - هم الشيوعيون. لكن الشيوعيين كانوا معوقين بأوضاعهم.

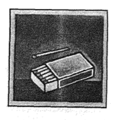
● كانوا أولا - مثقلين بالحملة العالمية التى شنتها الحرب الباردة على الشيوعية كعقيدة - وكدولة عُظمى تدعى بتجسيد هذه العقيدة.

● وكانوا ثانيا - بدون طبقة عاملة كافية فى مصر بسبب ضعف التصنيع ومحدوديته، خصوصا بعد تعثر بنك مصر وأزمته واضطراره إلى طلب تدخل حكومى ينقذه بسرعة من عثرته، سواء كان سببها ضغط الظروف العالمية أو كان نقص الكفاءة فى إدارة البنك. (وقد جرى ذلك فى عهد وزارة «حسين سرى» (باشا) الأولى، وكان الثمن الذى طلبته الوزارة لإنقاذ البنك إقصاء «طلعت حرب» (باشا) رغم أن «طلعت حرب» هو مُنشئ البنك وبانيه).

وبالزيادة على ذلك فإن الوِرَش الضخمة التى أقامتها قوات الحلفاء فى مصر - لصيانة معداتها زمن الحرب Ordnnance (واشتهرت وسط عمالها باسم «الأرنوس») - فكت عنابرها الكبرى وحملت معداتها إلى مواقع أخرى مع تقدم الحرب، وكان يمكن أن تقوم هذه الورش بدور أساسى فى عملية تصنيع جدى تقوم عليه طبقة عاملة واسعة (وذلك ما حدث فى الهند).

- وكذلك كان الشيوعيون فى حالة انكشاف فكرى ومعنوى لأن الحركة الشيوعية لم تستطع أن تستوعب قوة فاعلين رئيسيين: الدين - والوطنية.

- وأخيرا كان الشيوعيون معوقين بحقيقة أن الأحزاب الشيوعية الرئيسية الثلاثة فى مصر تلك الأيام قامت عليها قيادات من اليهود تمرد



كتب السير «رالف ستيفنسون» السفير البريطانى بالقاهرة إلى وزير خارجيته: «إن فساد حزب الوفد وصل إلى مستوى غير مسبوق فى أى حزب مصرى، فقد تخلى الحزب عن دوره كممثل لتحالف شعبى عريض يعتمد أساسا على الطبقة المتوسطة، وبدلا من ذلك أصبح حزبا من الأغنياء جدا وللأغنياء جدا



عليها صف ثان من الشيوعيين المصريين، والنتيجة أن التنظيمات تفسخت، كما أن خلاياها تبعثرت، ثم إن الاجتهادات الفكرية توزعت حتى أصبحت الحركة الشيوعية فى مصر «جنرالات» بغير «جيوش» ـ وقوادا بغير قوات.

وكان حال الإخوان على النقيض تماما من حال الشيوعيين.



كان الإخوان على النقيض من الشيوعيين ـ جيوشا بغير جنرالات وقوات بغير قواد! ـ والأسباب كانت ظاهرة:

ـ أولا أن العقائد الدينية لها سلطان هائل يدعو المؤمنين إلى خدمة ما يؤمنون به، لكن التاريخ الإسلامى ظلم عقائده بكثرة الرواة والشراح والمفسرين وطلاب الملك وفقهاء العصبية.

ـ وثانيا لأن العقائد المقدسة تلهم، لكن الإلهام يحتاج إلى مشروعات وخطط، وإذا غابت المشروعات والخطط وكلها من صنع الفكر الإنسانى ـ فإن غيابها يمكن أن يخلق الأحوال التى حذر منها المرشد العام للإخوان الثانى المستشار «حسن الهضيبى»، حين أطلق شعاره المشهور: «دعاة لا قضاة».

ـ وثالثا فإنه حتى إذا لم يتحول الإخوان إلى «قضاة» وبقوا فى إطار كونهم «دعاة»، فإن الأمر بالمعروف أمر ـ وكل أمر ينتظر جوابا، ومعنى ذلك أن الدعوة ليست مجرد تنبيه وإنما هى بعد التنبيه، انتظار لجواب.

ـ ورابعا فإن اعتماد الدين وحده منهاجا للعمل الوطنى، يقسم الوطن نفسه رأسيا على أساس طائفى، وإذا أصبحت الدولة «إسلامية» فإن أمنها يتوقف عن أن يكون ـ وطنيا.

ـ وخامسا فإن تعطل الوطنية يأخذ أى بلد خارج حدوده السياسية وخارج إطاره القومى، وهناك تصبح قضايا أمنه وحتى تنميته ومستقبله ـ مشاعا على آفاق غير محددة وغير معلومة!

وربما أن هذه الأسباب مجتمعة على الناحيتين هى المقادير التى جعلت الشيوعيين والإخوان مثلهم (مهما زاد نفوذهم) ـ على تناقض ما بين اليسار واليمين ـ قوى هامشية لا تقدر على ملء الفراغ السياسى فى قلب وطن أو فضاء أمة.

ومهما يكن فإنه من وراء الشيوعيين والإخوان المسلمين اندفعت إلى الفراغ الموحش الذى صنعه اتفاق وانشقاق القصر والوفد ـ قوى أخرى من أطراف الهامش، فيها خليط متوتر من بقايا أحزاب وتنظيمات سابقة مثل مصر الفتاة (التى غيرت اسمها إلى الحزب الاشتراكى) ـ ومثل جرائد ومجلات (مثل الملايين والجماهير وغيرها) ظهرت فجأة بظن أن المناخ ملائم لها من تنظيمات، وقد راحت جميعها ترفع لافتات وقف تحتها رجال محبطون، يرفعون شعارات مدوية وأفكارا مرتبكة، لكنها جميعا تحمل أسماء موحية بأكثر من الحقيقة!



كانت كل القوى التى خرجت من «القلب» (مثل القصر والوفد)، وتلك التى اندفعت من هوامش الساحة إلى وسطها (مثل الشيوعيين والإخوان)، وتلك التى جاءت من أطراف الحافة (مثل الحزب الاشتراكى والجرائد الملتهبة بالحماسة التى ظهرت فجأة) ـ قد تلاقت جميعها على اختلاف ما بينها، وعلى تناقض وسائلها، وعلى اختلاف أغراضها قريبا وبعيدا ـ من حول القضية الوطنية التى طرحت نفسها بشدة وبحدة، خصوصا بعد أن تعثرت مفاوضات الدكتور «محمد صلاح الدين» فى الوصول إلى حل لمسألة تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ وبما يحقق لمصر مطلبها «السحرى» وهو مطلب «الجلاء». وكان تعثر المفاوضات قد استدعى بالضرورة كل التجارب السابقة لتحقيق المطلب الوطنى الأسمى، وهى التجارب التى بدأت ـ عمليا ـ منذ سكتت مدافع الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥، ثم وجبت ـ سياسيا وقانونيا ـ بعد أن حل أجل إعادة النظر فى معاهدة سنة ١٩٣٦. وقد قامت على هذه التجارب ـ بلا نتيجة ـ خمس وزارات فى خمس سنوات. والآن سنة ١٩٥١، فإن حكومة تمثل الأغلبية يرأسها «مصطفى النحاس» ويتفاوض باسمها الدكتور «محمد صلاح الدين» ـ وصلت إلى نفس الطريق المسدود، بينما الأجواء الإقليمية (خصوصا فى إيران) ساخنة، والأجواء الدولية (باشتداد الحرب الباردة) حرجة، ثم إن الأوضاع الداخلية فى حالة فوران!

وكادت حالة الفوران تتحول إلى شبه غليان عندما شاع فى المحافل السياسية المصرية مع نهاية موسم الصيف أن الدكتور «محمد صلاح الدين» الذى قابل «النحاس» (باشا) بعد أسبوعين من عودته إلى الوطن بعد مواسم إجازات الصيف ـ عرض عليه مأزق المفاوضات. وطرح «تصورا» لحسم الموقف وإرغام الطرف البريطانى على أن يكشف أوراقه ويتحمل مسئوليته.

كان الدكتور «محمد صلاح الدين» شبه واثق من أن الطرف البريطانى يتابع تفاعلات الأوضاع الداخلية فى مصر، ويحلم بأنها قد تعفيه من الضغوط التى يمارسها عليه وزير الخارجية ـ وبالطبع فإن السفارة البريطانية كانت على علم بحلول الشقاق محل الوفاق فى العلاقة بين القصر ووزارة الوفد، وكانت أمنية هذا الطرف البريطانى أن تفرض الأزمة الداخلية نفسها على الساحة قبل أن تتوقف المفاوضات بالكامل، لأن الحكومة البريطانية لم تكن على استعداد ـ مهما كانت دعاوى المتفاوضين وحججهم وضغوطهم ـ للجلاء عن مصر إلا إذا احتفظت بقاعدة قناة السويس تحت سيطرتها الكاملة، إما داخل وضع إمبراطورى وإما فى إطار دفاع مشترك يلتحق بحلف الأطلسى، وهو ما بدا أن الدكتور «محمد صلاح الدين» يرفضه واثقا من تأييد «النحاس» (باشا) له نهاية المطاف.

وكانت آخر مماطلات السفارة البريطانية فى تأخير الرد على آخر مقترحات مصرية، أن الحكومة البريطانية القادمة ـ المحافظين ـ تحتاج إلى وقت يدرس فيه وزير خارجيتها «أنتونى إيدن» ملفات التفاوض ويقرر بشأنها ما يراه. وكان الإيحاء أن «إيدن» يعرف القضية المصرية كما لا يعرفها غيره، ثم إن رئيس الوزراء «ونستون تشرشل» من المُقدِّرين لدور «مصطفى النحاس» (باشا) فى خدمة الحلفاء أيام الحرب العالمية الأخيرة، لكن الدكتور «محمد صلاح الدين» كانت لديه اعتبارات أخرى مؤداها أن «تشرشل» بعودته إلى إدارة شئون الإمبراطورية سوف يكون أكثر تشددا من أى رئيس وزراء عمالى سبقه (كليمنت آتلى).

النحاس باشا — فـاروق — نجيب الهلالى — رالف ستيفنسون

كانت فكـرة وقـف العمل بمعاهدة سنة ١٩٣٦ أو حتى إلغائها اقتراحا جرى طرحـه عنـدما بـان تـأزم المفاوضات، وعندما سمع «النحاس» (باشا) بالفكرة أول مرة تصدى لهـا بنفسـه وبغضـب، ورآها «نوعا من الدس والتشويش» على حكومة الوفد



وفى لقائه مع «النحاس» (باشا) يوم ١٠ سبتمبر ١٩٥١ ـ طرح الدكتور «محمد صلاح الدين» تصوره ومؤداه:

«إن الوقت قد حان لإعطاء الطرف البريطانى مهلة محددة تتقدم فيها باقتراحات تتفق مع الأمانى المصرية التى أجمع عليها الشعب كله ـ وإذا لم يحدث ذلك، فإن البديل أمام الجانب المصرى يكون بإيقاف العمل بمعاهدة سنة ١٩٣٦، أو إلغاؤها»، وهنا يكون على الجانب البريطانى كأمر واقع أن يتوقف عن المماطلة ـ أو يدفع الثمن!

ورد «النحاس» (باشا) على تصور وزير خارجيته بـ: «إن الملك «فاروق» لن يوقع على مرسوم تقدمه الوزارة بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، لأنه عاد إلى عناده ـ وعناد أبيه القديم ـ وسوف يجدها فرصة لإقالة الوزارة كى يرضى الإنجليز. ويتعلل أمام الناس بأن وزارة الوفد فشلت لمدة سنة كاملة فى الوصول إلى اتفاق يحقق مطلب الأمة».

ورد الدكتور «محمد صلاح الدين» بهدوء: «إن الملك لن يجرؤ على إقالة الوزارة إذا وضعت أمامه مرسوما بوقف العمل بمعاهدة سنة ١٩٣٦ أو إلغائها، وإلا فهو فى هذه الحالة يتحمل على نفسه مسئولية إقالة وزارة وطنية وضعت الحكومة البريطانية أمام إنذار نهائى».

أضاف الدكتور «محمد صلاح الدين»: «إنه أكثر من ذلك يعتقد أن الملك لن يكون أمامه خيار غير التوقيع إذا تقدمت الوزارة بالمرسوم».

وكانت فكرة وقف العمل بمعاهدة سنة ١٩٣٦ أو حتى إلغائها اقتراحا جرى طرحه عندما بان تأزم المفاوضات، ثم زاد الإلحاح على الفكرة فى أجواء الفوران إلى حد الغليان ربيع وصيف سنة ١٩٥١ ـ وحدث عندما سمع «النحاس» (باشا) بالفكرة أول مرة أنه تصدى لها بنفسه وبغضب، ورآها «نوعا من الدس والتشويش على حكومة الوفد. ووصل إلى حد القول بأن «الإلحاح على الفكرة رغبة فى التخريب»!

لكنه الآن (١٠ سبتمبر ١٩٥١) استمع إلى وزير خارجيته يعرض عليه تصوراته وتوقعاته، وقد استوقفه فيها اعتبار لفت نظره إلى «أن الملك لن يجرؤ على إقالة الوزارة إذا عرضت عليه مثل هذا المرسوم بوقف أو إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ـ وأنه إذا تردد فى التوقيع عليه انكشف وضعف، وإذا وضع توقيعه على المرسوم، فقد أصبح إلى النهاية مرتهنا بسياسات وتصرفات حكومة الوفد».

وكان وصف الدكتور «محمد صلاح الدين» نفسه «أنه أحس وكأن «النحاس» (باشا) يستعيد نفسه وهو يستعيد ما يسمعه من تصورات وتوقعات وزير خارجيته، ويردده بصوت مسموع ويبدو عليه وكأنه «يمضغها ويبلعها» ويكتشف فيها كل ثانية ميزة إضافية».

وروى الدكتور «محمد صلاح الدين» «أنه حين غادر بيت «النحاس» (باشا) فى الساعة الثانية والربع بعد ظهر ١٠ سبتمبر ١٩٥١، كان شعوره أن زعيم الوفد عاد إليه ذلك «الناب الأزرق» الذى يعرفه ويعرف صلابته عندما كان يعمل مديرا لمكتبه سنة ١٩٣٦».



وفى النصف الثانى من شهر سبتمبر ١٩٥١، تظهر فى الوثائق البريطانية برقيتان بتوقيع السير «رالف ستيفنسون»:

● البرقية الأولى يقول فيها السفير البريطانى فى القاهرة، موجها الكلام إلى وزير الخارجية بما نصه: «قابلت «النحاس» (باشا) فى بيته يوم ٢١ سبتمبر ـ ويبدو لى الآن وكأن ما سمعناه حتى من مصادر موثوقة حول إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ليس وشيكا. لقد سلمت للنحاس (باشا) رسالتكم إليه (حول رجاء انتظار الانتخابات البريطانية قبل توقع أى مقترحات جديدة من

لندن)، وقد أدهشني بوده الزائد تجاهي، ولعله قصد أن يبعث إليّ برسالة تطمين».

وفي تقريره بعد ذلك أبدى السير «رالف ستيفنسون» استغرابه لأن الود الظاهر للنحاس (باشا) يتعارض مع معلومات تصل إلى السفارة، «بأن الحكومة المصرية لم تعد معنية بأي مقترحات جديدة تتلقاها، «حتى ليبدو كأنهم على استعداد لإعلان رفضهم مقدما بصرف النظر عما يمكن أن نتقدم به إليهم من مقترحات». ثم يضيف «رالف ستيفنسون» «لعله من المفيد أن نسارع إلى إخطارهم بأن لدينا ما نعرضه قبل أن تزداد عليهم الضغوط لإلغاء المعاهدة».

● وفي البرقية التالية - بعد ثلاثة أيام - تتغير الصورة ويكتب السير «رالف ستيفنسون» إلى وزير الخارجية قائلا:

«قابلت الملك «فاروق» اليوم ٢٤ سبتمبر، ووجدته يقول لي: «إن وسائله في التأثير على قرارات الحكومة محدودة، وأنه على علم بأنهم الآن يعدون مراسيم إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، وإذا قدموها إليه فلن يكون أمامه خيار غير التوقيع عليها».

أضاف الملك «فاروق»: «إنه يعرف ذلك التكتيك التقليدي الذي تتبعه حكومات الوفد، فهي عندما تشعر أن موقفها إزاء القصر يسوء - تبحث عن ذريعة شعبية تخرج بها، وبحيث تُنسب الإقالة إلى مواقف وطنية «اتخذتها الوزارة على غير رضا العرش أو موافقته».

أضاف الملك «إن «النحاس» يعرف أن هذه معركته الأخيرة، واعتقاده أن زعيم الوفد على استعداد لمجازفة أخيرة وإلى درجة الانتحار - وهو لن يمنعه - بل وليس في مقدوره أن يمنعه. وإذا حاول فإنه - أي الملك - سوف يضعف نفسه أمام شعبه ويظهر هو متهاونا، بينما «النحاس» هو المتشدد».

والواقع أن الملك «فاروق» كان قد درس موقفه وتأكد من أنه لم يعد أمامه خيار غير أن يترك «النحاس» (باشا) يفعل ما يريد، ثم يتحمل عواقب ما يفعل، وكان الملك - بناء على اقتراح من «حسن يوسف» (باشا) - قد استقبل «نجيب الهلالي» (باشا) سرا وطرح عليه سؤالا: «هل يستطيع «نجيب» (باشا) - وهو الآن «مُحبَط» ينأى بنفسه عن وزارة الوفد - أن يبذل جهدا إضافيا لينقذ الحزب من نفسه و«النحاس» (باشا) من «بيته»؟!

وأبدى «نجيب الهلالي» (باشا) رأيه بأن «الوقت تأخر لسوء الحظ».

وكان لدى الملك اقتراح آخر (لم يفصح عن المصدر الذي قدمه إليه) ومؤداه: «إذا كان «نجيب» (باشا) لا يستطيع مباشرة عملية إنقاذ الوفد و«النحاس»، فهل يستطيع إذا كُلِّف بتشكيل الوزارة في لحظة أزمة بين القصر والوزارة أن يضمن تأييد كتلة مؤثرة من نواب الوفد تقف معه حرصا على الوفد وحتى على «النحاس» وإشفاقا من مخاطر انتخابات نيابية جديدة إذا حدثت إقالة الوزارة وتلتها دعوة لانتخابات عامة تجري في ظروف غير ملائمة للوفد وأعضائه؟».

وكان رأي «نجيب الهلالي» أن ذلك لم يأتِ وقته بعد (لسوء الحظ أيضا)»!



ويوم ٧ أكتوبر قدم «النحاس» (باشا) إلى الملك «فاروق» مرسوما بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، ووضع الملك عليه توقيعه، (وأعلنه «النحاس» (باشا) يوم ٨ أكتوبر في جلسة خاصة عقدها مجلس النواب).

ثم اختار القصر أن ينأى بنفسه بعيدا ويقف ليرقُب مواجهة قادمة بلا شك بين الوفد والإنجليز.

لكن الأمر كان أخطر لأنه لم تكن هناك مواجهة كما توقع البعض، لأن الوزارة أقبلت على «قرار وطني» أغرتها به اعتبارات حزبية وشخصية في ظروف هوة واسعة بين القصر والوفد تحولت إلى زحام من الفوضى التهبت فيه نيران الحماسة الوطنية.

على أن العُقْدة في الموقف ما لبثت أن ظهرت، فقد كانت وزارة الوفد تتصور أن الخطوة التالية في الأزمة هي الآن في يد الحكومة البريطانية - لأنها (الحكومة المصرية) اتخذت من جانبها إجراءاتها وقالت كلمتها، وعلى لندن الآن أن ترد.

لكنه في المقابل تبين أن لندن لا تستطيع أن ترد بمقترحات جديدة لتعديل معاهدة لم تعد قائمة.

وبهذه العُقْدة أصبح الموقف مفتوحا لكل الاحتمالات بما فيها أن تتحول العُقْدة إلى استعصاء لا تظهر فيه بارقة ضوء! ■

٧ / في انتظار الثورة!

■ كان السفير الفرنسي في القاهرة تلك الأوقات العصيبة من التاريخ المصري هو «كوف دي مورفيل»، وأهمية «كوف دي مورفيل» أنه كان الدبلوماسي الأقرب - بكفاءاته ومزاياه - إلى الجنرال «شارل ديجول» رئيس فرنسا الأسطوري ورمز مقاومتها بعد أن استسلمت حكومة فرنسا الرسمية أمام الألمان (يونية ١٩٤٠) - وكانت ثقة «ديجول» في «دي مورفيل» هي التي دعته فيما بعد إلى اختياره وزيرا لخارجية فرنسا أوائل الستينيات، ثم رئيسا للوزراء منتصف الستينيات. ولم يكن «كوف دي مورفيل» سياسيا شعبيا، وإنما كان واحدا من هؤلاء الناس الذين تتجلى مزاياهم في إدارة المواقف الصعبة، وتتحمل أعصابهم تداعياتها، وتقدر ملكاتهم الفكرية على النفاذ من سطح الحوادث إلى عمقها، بحثا عن تصور رشيد، وفعل واثق من تقديراته ومتوازن.

وفي ملفات قصر الإليزيه في باريس تقرير بالغ الأهمية كتبه «كوف دي مورفيل» بوصفه سفير فرنسا في مصر (مع ملاحظة أن اهتمام فرنسا بمصر تلك الفترة كان متعدد الجوانب: ثقافي (موروث من القرن التاسع عشر) - واستراتيجي (بحكم العلاقة بين شمال البحر الأبيض وجنوبه) - واقتصادي (بواقع وضع فرنسا الخاص في شركة قناة السويس) - وسياسي (بطبيعة تنافس بريطاني - فرنسي في الشرق الأوسط ظل فاعلا بعد الوفاق (فاشودة سنة ١٩٠٤) - وبعد تقاسم تركة الخلافة العثمانية بين الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية (اتفاق سايكس بيكو سنة ١٩١٧).

وفي ذلك التقرير بالغ الأهمية الذي كتبه «كوف دي مورفيل» (بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٥١ - والذي يحمل ختم «إدارة مكتب رئيس الجمهورية» بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٩٥١) - وإشارة تفيد بأنه «عُرض على رئيس الدولة» - يقول «كوف دي مورفيل»:

«إن السرعة التي تلاحقت بها الحوادث تظهر لأي مراقب أنها حركة تدافع فعل ورد فعل، استدعته أسباب غير موضوعية في النظر - وفي التعامل - مع الأزمة السياسية بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة (البريطانية).

ومن الواضح أن أيا من طرفي الأزمة التي استحكمت بسرعة ليس لديه «سيناريو» يوجه خطواته المُقبِلة، كما أنه ليس هناك منطق عقلاني يبدو حاكما على التصرفات.

وقد تسلسلت الوقائع - في الفعل ورد الفعل بين الطرفين المصري والبريطاني - على النحو التالي:

- يوم ٨ أكتوبر ١٩٥١ - أعلن رئيس الوزراء «مصطفى النحاس» إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، وفتح إعلانه بعبارة حماسية فيها «إنه هو الذي وَقَّع المعاهدة في صالح مصر، وهو نفسه الذي يلغيها الآن لنفس السبب وهو صالح مصر».

- يوم ٩ أكتوبر ١٩٥١ - أصدر وزير خارجية المملكة المتحدة (البريطانية) بيانا مقتضبا أعلن فيه أن حكومته لا تعترف لا بحق مصر في إلغاء المعاهدة ولا بقانونية الإجراء الذي أقدمت عليه بإلغائها.

أحمد حسنين

حافظ عفيفي

- ويوم ١١ أكتوبر ١٩٥١ - وجهت حكومة المملكة المتحدة (البريطانية) تحذيرا للحكومة المصرية تحملها فيه المسئولية كاملة عن حياة الرعايا الأجانب وعن ممتلكاتهم، لأن إلغاء المعاهدة من جانب واحد والأجواء التي صاحبت الإلغاء، أطلقت العنان لمشاعر مُعادية للأجانب، مما أدى بالفعل إلى وقوع حوادث.

- يوم ١٤ أكتوبر ١٩٥١ - تلقينا في هذه السفارة (السفارة الفرنسية في القاهرة) - تقريرا من مكتب المدير المقيم لشركة قناة السويس يفيد أن عددا من موظفي الشركة تعرضوا لاستفزازات واعتداءات استوجبت قرارا منه يطالب كل العاملين في الشركة بالتزام الحذر، وأن يبتعدوا قدر الاستطاعة عن «الأحياء العربية» وعن أماكن الزحام في «بورسعيد» و«الإسماعيلية» و«السويس» - تجنبا لأي احتكاك وحفاظا على سلامتهم، مع العلم بأن هناك اعتداءات وقعت على منشآت فرنسية، بينها مكتب الغرفة التجارية الفرنسية في الإسماعيلية.

- يوم ٢٠ أكتوبر كتب القُنصل الفرنسي العام في الإسماعيلية إلى السفارة يقول: «إن جماعات وفرقا كثيرة من المهيجين المحليين أو القادمين من القاهرة أخذت القانون في يدها وراحت تحرض على عنف لا تظهر له «بؤرة» تؤثر في «الأفعال» وتوجهها. ويظهر أنه في غيبة سياسة حكومية تخطط وتضبط بعد إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ - فإن كل جماعة من «المُهيجين» انطلقت «تفعل» ما تراه مطلوبا أو متلائما مع أوضاعها ووسائلها، وذلك خلق حالة تهديد ليس له مركز يمكن التوجه إليه بخطاب أو بطلب إجراء!

- إن الحكومة البريطانية كانت لديها خطتان لمواجهة أحوال طوارئ في مصر، وكما تعرفون أن الحكومة البريطانية في إطار التنسيق المشترك معنا ومع الولايات المتحدة - أعلمتنا باستعداداتها:

● فهناك الخطة المختصرة «القاعدة الثابتة» (Firm Base) وهي تقضي باحتلال كل محافظات القناة، وإعلان حكم عسكري فيها يتحول عند اللزوم إلى حكومة عسكرية - تنفصل بها المنطقة بالكامل عن العمق المصري.

● كما أن هناك الخطة الأوسع المسماة

«روديو» (ترويض الحصان الجامح) وهى تشمل إلى جانب احتلال محافظات القناة - تقدم القوات البريطانية لاحتلال دلتا النيل كلها ودخول القاهرة وذلك فى حالتين:

- حالة ما إذا ظهر تهديد على حياة ومصالح الأجانب والأقليات فى العاصمة المصرية.
- وحالة ما إذا كان توسيع العملية ضروريا لتدعيم الموقف فى محافظات القناة.

يستطرد تقرير «كوف دى مورفيل» يقول:

«إننا فى إطار لجنة تنسيق سياسات الشرق الأوسط (التى يلتقى فيها سفراء فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة) - توصلنا إلى مجموعة من التوصيات اتفقنا أن نعرضها على حكوماتنا:

أولا- إنه من الخطر فى الوقت الراهن طرح عملية «روديو» (احتلال الدلتا بما فيها القاهرة) للاعتبار - فتلك عملية كبرى لا تقتضيها حتى الآن حدود الظرف الراهن، ومن الممكن أن تعتبر هذه الخطة - التى تعرف بها الحكومة المصرية سيفا مسلطا على رقبتها - بما يعنى أن تلك الحكومة على وعى مُسْبَق بأن سياساتها سوف تؤدى إلى احتلال كل الأرض المصرية - وذلك عامل ردع له قيمته يفرض على الحكومة المصرية أن تبذل جهدها لتكبح جماح القوى التى أطلقتها من عقالها وشجعتها بغير مسئولية على الانفلات - مع العلم بأن هذه مهمة بالغة الصعوبة لأنها تنطوى على تناقض جوهرى بين ما ذهبت إليه الحكومة المصرية بإلغاء المعاهدة فى جو من التحريض الشديد - وبين ما تفرضه مسئوليتها إزاء المخاطر المحتملة من التمادى فى سياساتها إلى النهاية، ومع ذلك فإنه من الأسلم انتظار التطورات والرد عليها فى حينه.

وكانت العوامل التى دعتنا إلى اتخاذ هذه التوصية بالذات:

١- أن تنفيذ الخطة «روديو» قد يضع الملك «فاروق والحكومة المصرية أو ما تبقى منها - فى مأزق لا مخرج منه، بحيث يضطر كلاهما نهائيا إلى عدم التعاون مع السياسات الغربية كلها وليست البريطانية فقط.

٢- أن هناك احتمالات تتزايد الآن بأن الجيش المصرى العائد من فلسطين يمكن أن يتدخل لمقاومة القوات البريطانية فى زحفها نحو الدلتا وفى اتجاه القاهرة، وذلك يجعل الخطة «روديو» أكثر صعوبة مما كان متوقعا عندما جرى تصميمها وتخصيص القوات اللازمة لتنفيذها.

٣- إن غزو الدلتا والقاهرة يمكن أن يحول المشكلة المصرية إلى أزمة إقليمية وعالمية تخرج عن حدودها بالتفاعل مع الأوضاع القائمة فى فلسطين وإيران والشرق الأقصى.

ثانيا- وقد توصلنا إلى أنه من الألزم قصر الإجراءات العسكرية البريطانية الآن على منطقة قناة السويس كأولوية أولى، لأن القاعدة البريطانية هناك يمكن أن تكون هدفا لمحاولات تخريب ولنوع من حرب العصابات يستطيع تطوير نفسه بالتجربة، أو بمجىء عناصر خارجية تتسلل إلى المنطقة تحت شعارات مقاومة الاستعمار.

ثالثا- لقد وقع اتفاق فى الرأى بيننا على أن التصرفات السياسية المصرية فى هذه اللحظة غير منطقية، وفى الواقع فإنها أقرب إلى أن توصف بـ «الاندفاع إلى الانتحار» - على طريقة الدكتور «محمد مصدق» فى إيران.

وعليه وحتى تتضح الصورة أكثر فإننا نرى الآتى:

- العمل على تخفيف حدة الأزمة الحالية وتبريد درجة حرارتها قدر الإمكان.
- تأجيل أى قرار بشأن العملية العسكرية «روديو» وتركها تهديدا معلقا.
- البدء على الفور بترحيل رعايا بلادنا من كبار السن ثم بعد ذلك غيرهم، بحيث لا تكون هناك دواع ملحة لبقائهم فى مصر.



كان تقرير «كوف دى مورفيل» وصفا للحالة من موقع سفير أجنبى لدولة كبرى فى القاهرة - ومع أنه كان دقيقا، إلا أن الأحوال على الأرض فى منطقة قناة السويس كانت أسوأ - ذلك أنه مع غياب خطة لمواجهة ما بعد إلغاء المعاهدة، فإن التنظيمات والجماعات المبعثرة والمختلفة والتى التقت كلها حول القضية الوطنية، هرعت جميعا إلى الساحة تجرب حظوظها، وكانت المشكلة أن الأعلى صوتا بينها - والأقل فعلا - هى التى ظهرت على الساحة المضطربة (وذلك منطق أحوال الفوضى).

كانت خطة كل تنظيم أن يعلن ما يشاء من النداءات، وأن يطرح ما يوافقه من الشعارات، وأن يذيع الأخبار عما أحرزه من انتصارات دون روية أو تدقيق أو حساب، عارفا أنه فى مثل ذلك الزحام يستطيع كل طرف أن يقول ويسرد ويحكى دون ضابط أو رابط أو رقيب، لأن أحدا ليس فى وسعه أن يتابع ويرصد وينسب فعلا حقيقيا لأصحاب حقيقيين قاموا به!

ومع أنه كانت هناك عمليات مقاومة لها قيمة، إلا أن نطاقها ظل محصورا بسبب قوة السيطرة العسكرية البريطانية، التى تسندها إمكانيات ووسائل قاعدة قناة السويس، وهى - وقتها - أضخم القواعد العسكرية فى العالم.

وعلى سبيل المثال، فإنه حين أعلن عمال الشحن فى موانئ القناة إضرابهم عن تفريغ شحنات الإمداد والتموين الواردة إلى القاعدة - حل محلهم بسرعة جنود من الجيش البريطانى (معظمهم من قوات المستعمرات).

وحين بدأت الحكومة تهدد بقطع خطوط المواصلات من الداخل المصرى إلى منطقة قناة السويس (خصوصا من المواد التموينية) - ألمحت الحكومة البريطانية إلى أنها سوف توقف تدفق البترول من معامل التكرير التابعة لشركة «شل» فى السويس إلى القاهرة وغيرها من مدن مصر (وكان لابد من إعادة التقدير).

وحين أعلنت الحكومة أنها سوف توقف وصول المياه العذبة (من نهر النيل) إلى المعسكرات - فإن الحكومة البريطانية أعلنت أنها سوف تعرقل وصول أية إمدادات - بما فيها الطعام والشراب - عن الجيش المصرى

عبود باشا

محمد حيدر باشا

إن حجم المقاومة فى منطقة قناة السويس ظهر على صفحات جرائد الأحزاب والتنظيمات والتجمعات أكبر مما فعل على أرض الواقع، كذلك فإن البيانات التى تسابقت إليها كافة الأطراف، غطت على قيمة أعمال حقيقية قامت بها جماعات من الشباب، وصل إنكارها لذاتها إلى درجة عدم إعلانها عن نفسها ولا عما تقوم به

المرابط وراءها - شمال سيناء - على الحدود فى مواجهة إسرائيل.

وباختصار فإن حجم المقاومة فى منطقة قناة السويس ظهر على صفحات جرائد الأحزاب والتنظيمات والتجمعات أكبر مما فعل على أرض الواقع، كذلك فإن البيانات التى تسابقت إليها كافة الأطراف، غطت على قيمة أعمال حقيقية قامت بها جماعات من الشباب، وصل إنكارها لذاتها إلى درجة عدم إعلانها عن نفسها ولا عما تقوم به.

....

[وأتذكر شخصيا أننى كنت خارج مصر عندما أُلغيت معاهدة سنة ١٩٣٦ (يوم ٨ أكتوبر ١٩٥١)، وتلقيت حيث كُنت خطابا من الصديق الغالى الأستاذ «كامل الشناوى» قال لى فيه:

«ما الذى يدعوك إلى أن تكون الآن خارج مصر تغطى معارك الآخرين، بينما وطنك هنا فى معركة تستحق منك أن تبادر إلى ميدانها؟».

واستجبت لدعوته وعُدتُ سريعا إلى القاهرة، وفى اليوم التالى قصدت إلى منطقة قناة السويس، واتصلت بعدد من التنظيمات العاملة فى مقاومة الاحتلال، ثم ذهبت مع واحدة منها لدورية ليل عُدت منها قُرب الفجر ولم أر شيئا سوى دائرة من الطباشير الأبيض قُرب حاجز الأسلاك الشائكة حول معسكر بريطانى فى منطقة «فايد»، وداخل الدائرة عبارة - بالطباشير أيضا - وبالخط الكبير تقول: «كتائب التحرير مرت من هنا».

وبعد أيام عُدت إلى القاهرة لأكتب افتتاحية لمجلة «آخر ساعة» (وكنت مسئولا عن تحريرها) - أُبدى تخوفى من المبالغات التى تحيط بعمليات المقاومة فى منطقة القناة، وختمت ما كتبت قائلا: «إننى لم أفهم حتى الآن لماذا اكتفت «كتائب التحرير التى مرت من هنا» بأن تسجل بالطباشير الأبيض «مرورها»، ولماذا لم تسجل ذلك مثلا بإلقاء قنبلة تترك علامة أكثر مدعاة للاحترام وألزم لمصداقية كتائب التحرير التى مرت من هنا!»].

....

....

والذى حدث أن الحكومة البريطانية - رغم ضيقها ببعض عمليات المقاومة - لم تجد داعيا إلى احتلال مدن القناة بالكامل، وإخضاعها لحكم أو حكومة عسكرية تجد نفسها مسئولة عن إدارة المنطقة بما فى ذلك من توفير الخدمات والسلع لسكانها، وبدلا من ذلك راحت تقوم بإجراءات مطاردة وتمشيط لبعض القرى والمدن التى تعرف أن جماعات المقاومة تتخذها قواعد لعملياتها: على الأرض - أو على الورق!

....

....

[وأتذكر أننى فى ذلك الوقت حضرت فى مدينة «بلبيس» مؤتمرا صحفيا دعا إليه الأستاذ «أحمد حسين» زعيم الحزب الاشتراكى (مصر الفتاة سابقا)، وكان ملخص ما قاله «أحمد حسين»: «إن جماعته وغيرها من جماعات المقاومة أصبحت ترى نفسها مكشوفة بغير غطاء أمام قوات الاحتلال البريطانى، وأن الحكومة المصرية التى ألغت المعاهدة لم توفر لهذه الجماعات أى غطاء سياسى ولم توفر لها دعما بالسلاح والذخائر والمؤن، وذلك تقصير يجعل القاهرة نفسها أولى بالتحرير من مدن القناة، لأن أساس المشكلة هناك».

ولاحظ الأستاذ «أحمد حسين» وجودى ضمن عدد من المراسلين المصريين والأجانب الذين جاءوا ليسمعوه، وقصد نحوى بعد انتهاء المؤتمر يحدثنى عن «افتتاحية آخر ساعة» التى أبديت فيها رأيًا عن «كتائب التحرير التى مرت من هنا»، وتصورت أنه سوف يكون مُعاتبا، لكن ما حدث أنه دعانى إلى العشاء معه فى بيت أحد أنصاره فى «بلبيس»، وجلست أسمعه حتى الواحدة والنصف صباحا. ولم تكن جماعة «أحمد حسين» وحدها هى التى تركت منطقة القناة عائدة إلى القاهرة.

في انتظار ثورة!

وإنما تصرفت مثلها جماعات أخرى، وكذلك استدار الزحف غير المنظم عائدا إلى القاهرة!

وكانت الصورة فوضى شاملة!

....

....

[وأتذكر أيضا أنه في تلك الأوقات خطر على فكري أنني أخطأت تقدير موضع الاحتكاك بين مصر وبريطانيا بعد إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ (وفيها اتفاق الحكم الثنائي للسودان بين مصر وبريطانيا) - وراودني أنه كان يجب أن أذهب إلى «الخرطوم» وليس إلى الإسماعيلية إذا كنت أبحث عن ذروة الأزمة. وكان السبب الذي دعاني إلى التفكير في الخرطوم: توقع أن يقوم الإنجليز في العاصمة السودانية بترحيل كتيبة الجيش المصري المقيمة هناك، والتي كان يقودها اللواء «البشاري» - كما فعلوا بعد إنذار اغتيال السردار السير «لي ستاك» (سنة ١٩٢٥)، وحين كان إنذارهم إلى «سعد زغلول» هو ضرورة خروج آخر جندي من الجيش المصري بالكامل من السودان.

وعدت من الإسماعيلية طائرا إلى الخرطوم أتمنى أن لا تسبقني الحوادث وتتحرك قبل أن أتواجد هناك لأراقب.

ومرة ثانية لم يحدث ما توقعت أو ما انتظرت، فالكتيبة المصرية موجودة في ثكناتها لم يصلها شيء من أي طرف (بما في ذلك رئاسة الأركان في القاهرة)، وقائدها اللواء «البشاري» يواصل عمله في مكتبه كعادته كل يوم. وأسوأ من ذلك أنه كانت هناك اتصالات تجري بين السلطات البريطانية وبين القوى والأحزاب السودانية لترتيب مستقبل السودان بعيدا عن التاج المصري.

وذهبت أقابل السياسي السوداني الكبير الأستاذ «محمد أحمد محجوب» وإذا هو يبادرني بقوله:

«من أين جئتم بحكاية وحدة السودان تحت التاج المصري، ومن قال إننا نريد تاجا، وتاجا مصريا بالذات؟».

ثم أضاف:

«يا أخي نحن بلدان مختلفان، ثم استشهد ببيت من الشعر (وكان هو شاعرا مجيدا) - يقول:

ولو أننا على حجر ذبحنا
جرى الدميان بالخبر اليقين!

أي أن الدماء المصرية والدماء السودانية لا تختلط حتى على المذبح!».

ورتب لي السيد «محمد أحمد محجوب» مقابلة مع الإمام الكبير السيد «عبد الرحمن المهدي» (باشا) - وكان سؤالي الأول له:

«إذا تتفاوضون مع الإنجليز وليس مع مصر في شأن مستقبل السودان؟».

ورد على الإمام الداهية بقوله:

«لماذا تريدنا أن نتحدث في شأن مستقبلنا مع المصريين وليس مع البريطانيين؟».

ثم استطرد بهدوء قائلا:

«يا ولدي إن السيد الإنجليزي جاءنا إلى هنا (يقصد إعادة فتح السودان بجيش مصري يقوده الجنرال البريطاني «كيتشنر») - راكبا عربة مصرية تجرها جياد مصرية وتدفعها من خلف أيد مصرية ويحف بها من الناحيتين حرس مصري، فمع من تريد للسودان أن يتحدث عن مستقبله؟ مع العربة - أو مع الحرس من الخلف والجانبين - أو مع الجياد التي تُجر؟».

قالها السيد «عبد الرحمن المهدي» (باشا) وسكت وعلى شفتيه ظل ابتسامة أحَدّ من نصل سيف.

(ونشَرْتُ ذلك الحديث في جريدتي: أخبار اليوم وآخر ساعة).

وعُدت من الخرطوم كما عُدت من الإسماعيلية أسائل نفسي:

«أين يظهر مفعول الأزمة - ومتى؟!».]

....

....



كانت القاهرة تغلي كأنها إناء كبير على نار موقدة!

وكان الملك «فاروق» قد سارع بتعيين «حافظ عفيفي» (باشا) رئيسا لديوانه، لأنه أحس مرة أخرى بحاجته المُلحة إلى عازل بينه وبين الوزارة.

وينقل «عبود» (باشا) إلى السفير البريطاني في القاهرة (طبقا لتقرير من السير «رالف ستيفنسون» إلى حكومته) إنه سمع من «فؤاد سراج الدين» (باشا) «أن هناك تفكيرا في تهدئة الأمور بنقل الدكتور «محمد صلاح الدين» من وزارة الخارجية إلى منصب وزاري آخر، وفي الغالب فإنه هو نفسه («فؤاد سراج الدين») سوف يتولى وزارة الخارجية، ثم يضيف «عبود» (باشا) فيما نقله إلى السفير البريطاني على لسان «فؤاد سراج الدين»: «إن صلاح الدين قاد الوزارة والبلد كلها إلى مازق مستحيل، ولم يعد أمامه حل إلا أن يترك وزارة الخارجية أو يستقيل من الحكومة».

ولعل أغرب ما تضمنته تقارير السفارة البريطانية تلك الساعات، ما كتبه السير «سيسيل كامبل» عميد الجالية البريطانية في مصر، وكان وقتها حلقة الاتصال بين القصر والحكومة وبين السفارة، مع توتر العلاقات الرسمية بين الطرفين - المصري والبريطاني - وانقطاع الاتصالات بعد إلغاء المعاهدة - وفي هذا التقرير قال السير «سيسيل كامبل»:

«إن «محمد شعراوي» (باشا) (مليونير مصري وإقطاعي كبير وابن وحيد لعلي (باشا) شعراوي زميل «سعد زغلول» و«عبد العزيز فهمي» - في مقابلة المعتمد البريطاني في مصر السير «وينجت» (باشا) يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٩ (وهو اليوم الذي اعتبر عيدا للجهاد الوطني) - اتصل به (بالسير «سيسيل كامبل») يبلغه رسالة هامة مؤداها:

«أنه إذا كان في نية الحكومة البريطانية أن تحتل الدلتا وتدخل القاهرة، فإن عليها أن تُخطر الفريق «محمد حيدر» (باشا) القائد العام للقوات المسلحة مسبقا بنواياها على الأقل بيومين، حتى يضمن «حيدر» (باشا) إبعاد قوات الجيش المصري عن بعض المواقع التي يُحتمل أن يقع فيها صدام - لأن مشاعر الجيش العائد من فلسطين مستفزة، وقد تقع حركة خاطئة ولو بسوء الفهم تؤدي إلى اشتراكه في المقاومة المسلحة ضد الجيش البريطاني، وذلك موضع احتكاك خطر لابد من تفاديه!».

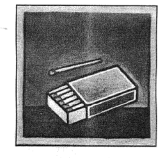
ولعل احتمال مثل هذا الصدام مع جيش مجروح عائد من فلسطين ووسط شعب موجوع بما أحاط به من أزمات - قوّى عزم الحكومة البريطانية على تأجيل خطة «روديو».

وهنا راحت الحكومة البريطانية - وبالطبع غيرها من الحكومات - تراقب مواكب العائدين من منطقة القناة فرقة بعد فرقة، وجماعة بعد جماعة، عائدين بالمرارة والإحباط إلى عاصمة زادت عليها حمولات الأزمة!

ويلتقي السير «رالف ستيفنسون» السفير البريطاني في القاهرة بحافظ عفيفي (باشا) رئيس الديوان الملكي الجديد (٥٢٥٨/١١/١١/١٠١١) ويتوجه إليه مباشرة بسؤال: «هل ترانا على حافة ثورة في ظرف شهور؟».

ويرد رئيس الديوان الملكي:

«أخشى أن الثورة الآن ليست مسألة شهور وإنما مسألة أسابيع!».







إرهاب الرد على الإرهاب

نعوم تشومسكي

من المؤكد أن الحادى عشر من سبتمبر سوف سيسجل على أنه يوم فارق فى تاريخ الإرهاب. فقد أدينت الفظائع التى حدثت فى ذلك اليوم فى أنحاء العالم كله بوصفها جرائم خطيرة ضد الإنسانية، مع إجماع يكاد يكون كاملاً على أنه يجب على الدول كافة أن تعمل «على تخليص العالم من مرتكبى الأعمال الشريرة»، وأن «كارثة الإرهاب الشيطانية» ـ خاصة ذلك الإرهاب العالمى الذى ترعاه الدولة ـ وباء نشره «الأعداء الجبناء للحضارة نفسها» فى محاولة منهم «للعودة إلى البربرية»، وهو أمر لا يمكن القبول به. أما فيما وراء التأييد القوى لتصريحات القادة السياسيين للولايات المتحدة، فإن التحليلات التى اقتُرحت لتفسير ذلك الحدث تختلف: فيما يخص السؤال المحدد عن الرد المناسب على الجرائم الإرهابية، وفيما يخص المشكلة الأوسع التى تتعلق بتحديد طبيعة هذه الجرائم. وفيما يخص المسألة الثانية تحدِّد التعريفات الأمريكية الرسمية «الإرهاب» بأنه «الاستعمال المخطَّط له للعنف أو التهديد باستعمال العنف من أجل تحقيق أهداف سياسية أو دينية أو أيديولوجية من حيث طبيعتها. وذلك باستخدام التهديد أوالابتزاز أو بَذر الخوف». ويترك هذا التعريف عددا من المسائل معلَّقة، ومنها، مدى قانونية الأعمال التى يقصد منها تحقيق «تقرير المصير، والحرية، والاستقلال، التى يضمنها ميثاق الأمم المتحدة، وهى الأعمال التى يلجأ إليها أولئك الذين حرموا من ذلك الحق.. «خاصة أولئك الذين يرزحون تحت أنظمة ذات طبيعة استعمارية أو عنصرية أو تحت احتلال أجنبى».

وقد أيدت الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٨٧ فى واحدة من أقوى إداناتها لجريمة الإرهاب مثل هذه الأعمال، وكانت نتيجة التصويت فى تلك الجلسة ١٥٣ صوتا ضد صوتين. وفسَّرت الولايات المتحدة وإسرائيل تصويتهما ضد ذلك القرار احتجاجا بالنص الدقيق لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الذى أوردناه هنا. فقد فُهِم هذا النص على أنه يسوغ المقاومة ضد نظام جنوب أفريقيا السابق، الذى كان حليفا للولايات المتحدة، وكان مسئولاً عن قتْل أكثر من مليون ونصف المليون وتدمير ما قيمته ٦٠ بليون دولار فى الدول المجاورة فيما بين ١٩٨٠ و١٩٨٨ فقط، هذا إذا غضضنا النظر عن ممارسات ذلك النظام فى الداخل. وكان يقود تلك المقاومة نيلسون مانديلا رئيس المؤتمر الوطنى الأفريقى، وهو «واحد من أكثر الجماعات الإرهابية فظاعة» كما ورد فى تقرير أصدره البنتاجون فى سنة ١٩٨٨، فى مقابل حزب رينامو الموالى لحكومة جنوب أفريقيا العنصرية الذى وصفه التقريرُ نفسه بأنه «ليس إلا جماعة من المتمردين المحليين» فيما يلاحِظ أن هذه الجماعة ربما كانت مسئولة عن مَقتل مائة ألف مدنى فى موزمبيق فى السنتين السابقتين. وقد فُهم النص نفسُه على أنه يسوغ مقاومة الاحتلال العسكرى الإسرائيلى، الذى كان فى سنته العشرين، وكان مستمرًا فى الاستيلاء على الأراضى فى المناطق «الفلسطينية» المحتلة، وفى ممارساته الفظيعة مدعوما بمساعدات الولايات المتحدة الحاسمة وبتأييدها الدبلوماسى، وتمثَّل الدعم الدبلوماسى الأمريكى بمعارضته الإجماعَ الدولى المستمر لسنين طويلة على وجوب إيجاد حل سلمى.

وعلى الرغم من مثل هذه الاختلافات الأساسية، فالتعريف الرسمى الأمريكى «للإرهاب» يبدو لى كافيًا من أجل الأغراض التى سأتحدث عنها، مع أن هذه الاختلافات تلقى ضوءًا على طبيعة الإرهاب، كما يُنظر إليه من وجهات النظر المختلفة.



يصف أحد الأكاديميين المشهورين الثمانينيات بأنها عقد «إرهاب الدولة»، وعقد «قيام الدولة المتواصل بـ«الإرهاب، أو رعايتها له، خاصة ليبيا وإيران». أما ما تقوم به الولايات المتحدة فلا يزيد عن كونه ردا على الإرهاب، عن طريق تبنيها «موقفا نشيطا تجاه الإرهاب»!



دعونى أعد إلى مسالة الرد الملائم. فالبعض يحتج بأن شر الإرهاب «مطلَق» وأنه يستحق «سياسة تماثله فى الإطلاق» للرد عليه، ويبدو هذا كأنه يعنى هجوما عسكريا وحشيا تبعا للمبدأ الذى وضعه بوش، الذى يورَد مشفوعًا بما يُشبه الموافقة فى الكتاب الذى يضم الأبحاث الأكاديمية التى تناقش «عصر الإرهاب».. «فإذا وفَّرت ملاذًا للإرهابيين، فأنت إرهابى! وإذا قدمت مساعدة للإرهابيين أو حرَّضتهم، فأنت إرهابى ـ وسوف تعامَل كواحد منهم» ـ ويعكس هذا الكتاب الذى صدر العام الماضى رأيًا سائدًا فى الغرب يأخذ ردَّ الولايات المتحدة وبريطانيا على أنه ملائم وأنه «صِيغَ بعناية»، لكن مدى ذلك الإجماع محدود فيما يبدو، إذا فحصنا الدليل المتوفر، وهو ما سأعود إليه.



وعلى وجه أكثر عمومية، فربما يكون من الصعب أن نجد أحدا يقبل بالمبدأ الذى يقضى بأن الهجوم الجوى الكاسح هو رد ملائم على الجرائم الإرهابية ـ سواء أكانت الجرائمَ التى حدثت فى الحادى عشر من سبتمبر، أو حتى ما يكون أسوأ منها، وهى التى ليس من الصعب أن نجدها، مع الأسف. ويصح هذا إن نحن تبنينا مبدأ التعميم «الكلِّية»: أى إن كان ما حدث صحيحًا (أو خطأ) بالنسبة للآخرين فهو صحيح (أو خطأ) بالنسبة لنا. أما أولئك الذين لا يرقون إلى الحد الأدنى للمستوى الأخلاقى الذى يقضى بتطبيق المعايير التى يطبقونها على الآخرين على أنفسهم هم ـ بل تطبيق المعايير الأكثر صرامة على أنفسهم، حقيقةً ـ فلا يمكن، أبدا، أخذهم بجد حين

يتكلمون عن ملاءمة الرد؛ أو الصح والخطأ، أو الخير والشر.



لننظر الآن فى بعض الحجج القانونية التى قُدمت لتسويغ الهجوم الجوى الذى نفذته الولايات المتحدة وبريطانيا على أفغانستان؛ وأنا هنا لست مهتمًا بقوة هذه الحجج، لكنى مهتم فقط بمقتضياتها، إن كان للمبادئ النموذجية للمعاملة بصورة تعميمية أن يُعمل بها. فيحتج كريستوفر جرينوود بأن للولايات المتحدة الحق فى «الدفاع عن النفس» ضد «أولئك الذين تسببوا فى موت مواطنيها أو هددوهم بالموت أو الخراب»، مستشهدًا بقرار محكمة العدل الدولية الذى اتخذته فى حالة نيكاراجوا. لكن الفقرة التى أوردها إنما تنطبق بشكل أوضح على حرب الولايات المتحدة ضد نيكاراجوا بدلاً من انطباقها على طالبان أو القاعدة، لهذا فإذا ما لجأ إليها لتسويغ هجوم الولايات المتحدة الجوى الكاسح وهجومها البرى فى أفغانستان، فقد كان يحق لنيكاراجوا، إذن، القيام بعمليات هجوم أكثر عنفًا ضد الولايات المتحدة. كما يؤيد أستاذ محترم للقانون الدولى، وهو توماس فرانك، حرب الولايات المتحدة وبريطانيا «فى أفغانستان» انطلاقا من أن «أية دولة مسئولة عن نتائج السماح باستخدام أراضيها لإيذاء دولة أخرى»؛ وهذا قول جيد، ومن المؤكد أنه ينطبق على الولايات المتحدة فى حالة نيكاراجوا، وكوبا، وعدد كبير آخر من الأمثلة، ويشمل ذلك بعض الحالات التى بلغت حدا كبيرا من العنف.

ولسنا بحاجة إلى القول هنا، أنه لا يمكن للعنف فى أىٍّ من هذه الحالات مما يَدخل تحت مسمى «الدفاع عن النفس» ضد الأعمال المستمرة من «الموت والتدمير» أن يكون مقبولا بأية حال، لاحظ أنها «أعمال من العنف» لا تهديدًا به.

ويصح الشىء نفسه فى بعض الاقتراحات الأكثر عمقا للرد الملائم على الفظائع الإرهابية. فيقترح المؤرخ العسكرى مايكل هاوارد «عمليةً بوليسية تحت مظلة الأمم المتحدة. ضد المؤامرة الإجرامية التى يجب أن يُتعقب أعضاؤها ثم يُحضَرون أمام محكمة دولية، ويحكم عليهم بأحكام عادلة». وهذا اقتراح معقول إلى درجة كبيرة، لكن فكرة أنه ينبغى أن يُطبَّق هذا الاقتراح بصورة تعميمية أمر مما لا يمكن التفكير فيه. فيحتج مدير مركز سياسات حقوق الإنسان فى جامعة هارفارد أن «الرد المناسب الوحيد على أعمال الإرهاب يتمثل فى عمل بوليسى أمين ومحاكمة قانونية فى المحاكم القانونية، ويقرن هذا العمل باستعمالٍ مصمِّمٍ، ومركِّزٍ، لا هوادة فيه للقوة العسكرية ضد أولئك الذين لا يمكن القبض عليهم أو لا يمكن أن يقدموا للعدالة». وهذا يبدو أمرا معقولا كذلك، إذا ما أضفنا الشروط التى اقترحها هاوارد الخاصة بالإشراف الدولى، وإذا لم يُلجأ إلى القوة العسكرية إلا بعد استنفاد الوسائل القانونية. لكن هذا الاقتراح لا ينطبق على ما حدث فى الحادى عشر من سبتمبر (ذلك أن الولايات المتحدة رفضت أن تقدم أى دليل واعترضت على كل الاقتراحات الخاصة بنقل المتهمين).

وإذا ما عدنا إلى مسالة «الرد المسئول»، فمن المحتمل أنه لن تجلب الدعوة لتطبيقه فى المقام الملائم لتطبيقه بكل وضوح إلا الغضب والازدراء. وقد صاغ بعض المهتمين مبادئ أكثر عمومية من أجل تسويغ حرب الولايات المتحدة فى أفغانستان. فقد اقترح باحثان من جامعة أكسفورد مبدأ «التناسب»: وهو «أن مستوى الرد سيحدِّده مستوى الاضطراب الذى أدخله الاعتداء على القيم الرئيسة فى المجتمع الذى تعرض للهجوم»؛ ويعنى هذا فيما يخص الولايات المتحدة قيم «حرية المواطن الأمريكى فى السعى للارتقاء بمستوى حياته فى مجتمع مفتوح عبر اقتصاد السوق»، وهى القيمة التى هاجمها بشراسة فى يوم الحادى عشر من سبتمبر «المعتدون.. الذين ينتمون إلى مستوى أخلاقى تقليدى يختلف بشكل حاسم عن المستوى الأخلاقى المعهود فى الغرب». ولما كانت «أفغانستان تمثل دولة تحالفت مع المعتدى»، ولأنها رفضت طلب الولايات المتحدة تسليم المتهمين، فيمكن للولايات المتحدة وحلفائها، تأسيسًا على مبدأ التناسب مع مستوى الاضطراب الذى تعرضت له قيم الولايات المتحدة أن تكون محقة ومعذورة أخلاقيًا إذا ما لجأت إلى استعمال القوة ضد حكومة طالبان.



وتأسيسا على افتراض مبدأ التعميم، فإنه يتبع من هذا أنه يمكن للسودان أن تلجأ إلى مستوى بعيد من استعمال القوة ضد حكومة الولايات المتحدة، نتيجة الهجوم الجوى الذى نفذته إدارة الرئيس كلينتون على مصنع الشفاء الكيميائى فى السودان سنة ١٩٩٨م، ونتج عنه «عشرات الآلاف» من حالات الموت بحسب تقديرات السفير الألمانى والمصادر الأخرى الموثوق بها، وهم الذين توافقت نتائجهم مع التقديرات التى قام بها بعض المراقبين المطلعين بعد الحادث مباشرة. لذلك يقضى مبدأ التناسب أن يكون للسودان الحق كله فى أن تنفذ إرهابا كاسحا لكى تثار لنفسها، وهى نتيجة ستكتسب قدرا من القوة إن نحن عمدنا إلى تبنى وجهة النظر القائلة بأن لهذا العمل الذى قامت به «الإمبراطورية» عواقب وخيمة على «الاقتصاد والمجتمع» السودانيين، وهو ما يجعل هذا العمل الفظيع أكثر سوءًا من جرائم الحادى عشر من سبتمبر، وهى الجرائم التى بلغت حدا عاليا من السوء، لكن لم يكن لها مثل هذه العواقب.

واقتصر كثير من التعليقات التى تناولت الهجوم الجوى على السودان على مسألة احتمال أن يكون المصنع ينتج أسلحة كيميائية؛ وسواء أكان هذا الاعتقاد صحيحا أم خاطئا، فإنه لا صلة له بـ«المستوى الذى أدخل به هذا الاعتداء الاضطراب على القيم الرئيسة فى المجتمع الذى هوجم»، مثل قيمة البقاء. وأشارت بعض التعليقات إلى أن حالات القتل «التى تسبب فيها هذا الهجوم» لم تكن مقصودة، كما كانت الحال فى بعض الفظائع التى شُجبت عن حق. وربما لا يمكن فى هذه الحالات أن نشك فى أن هذه النتائج الإنسانية المحتملة لم تكن غائبة عن المخططين الأمريكيين. لذلك فلا يمكن لهذا الهجوم أن يُنفذ إلا تبعا لمقتضيات الافتراض الهيجلى القائل بأن الأفريقيين ليسوا إلا «مجرد أشياء»، ليس لحياتهم «قيمة»، وهو موقف يتماشى مع الممارسة بطرق لم يَغفل عنها الضحايا، وهم الذين ربما استخلصوا النتائج كما يرونها عن «التقليدية الأخلاقية للغرب». وقد وجد أحد المشاركين فى الكتاب الذى أصدرته جامعة ييل (تشارلز هيل) أن الحادى عشر من سبتمبر افتتح «الحرب الثانية على الإرهاب». أما الحرب الأولى فقد أعلنتها إدارة الرئيس ريجان حين تسلمت السلطة قبل عشرين سنة، ويعلن هيل بنغمة انتصارية، ثم «إننا انتصرنا»، مع أن الوحش الإرهابى لم يُذبح، بل جُرح فقط.

يلاحــظ كاتــب من أوروجــواى أن الولايات المتحدة تزعم أنها تعارض الإرهاب، مع أنهــا تؤيده فى الواقــع فى العالم بأجمعــه، ويشمل ذلك « أندونيسيــا وكمبوديا وايران وجنوب أفريقيــا.. وكذلك فى بلدان أمريكا اللاتينية التى نفذ الدكتاتوريون العسكريون فيها موجة من الارهاب بتأييد من الولايات المتحدة

وكان «الطور الأول من الإرهاب» قضية رئيسة من قضايا الشئون الدولية خلال عقد، فى أمريكا الوسطى خاصة، لكن أيضا فى الشرق الأوسط، حيث اختار محررو الكتاب الإرهاب على أنه القضية الأهم فى سنة ١٩٨٥ وكان فى مقدمة الأخبار المهمة فى سنوات أخرى. ونستطيع أن نتعلم أشياء كثيرة عن الحرب الحالية على الإرهاب عن طريق تفحص الطور الأول، والكيفية التى يصور بها الآن. فيصف أحد الأكاديميين المشهورين الثمانينيات بأنها عقد «إرهاب الدولة»، وعقد «قيام الدولة المتواصل بـ«الإرهاب، أو رعايتها له، خاصة ليبيا وإيران». أما ما تقوم به الولايات المتحدة فلا يزيد عن كونه ردًا على الإرهاب، عن طريق تبنيها «موقفًا نشيطًا تجاه الإرهاب»! وأوصى آخرون باللجوء إلى استعمال بعض الطرق التى «انتصرنا بها»، وهى العمليات التى أدانت محكمة العدل الدولية ومجلس الأمن (ولم يُذكر هنا استخدام الولايات المتحدة لحق النقض) بسببها الولايات المتحدة «وهى استخدام ما قامت به الولايات المتحدة فى نيكاراجوا نموذجًا لتأييد (الولايات المتحدة) لمعارضى حركة طالبان (خاصة قوات التحالف الشمالى)». وقد وجد أحد مؤرخى قضية الإرهاب المشهورين جذورا عميقة لإرهاب أسامة بن لادن: فى فيتنام الجنوبية، حيث «مثَّلت فعالية إرهاب الفيتكونج ضد جالوت الأمريكى المسلح بالتقنية الحديثة الأمل بألا تكون عقر دار الغرب بمناى عن الخطر أيضًا».

وتصور هذه التحليلات بمحافظتها على التقاليد المرعية الولايات المتحدة على أنها ضحية بريئة، وهى تدافع عن نفسها ضد الإرهاب الذى ينفذه الآخرون ضدها: أما الفيتناميون (فى فيتنام الجنوبية)، والنيكاراجويون (فى نيكاراجوا)، والليبيون والإيرانيون (فلم يُذكر شىء عن الألم الذى قاسى منه هؤلاء على أيدى الولايات المتحدة)، وهو ما يصح فى حالات القوى المناوئة لأمريكا فى العالم كله.

ولا ينظر الناس كلهم إلى هذا الأمر من هذا المنظور. والمكان الأوضح الذى ينبغى لنا أن ننظر إليه هو أمريكا اللاتينية، وهى التى مرت بتجربة غير عادية مع الإرهاب الدولى. فقد أدان الناس هناك هجمات الحادى عشر من سبتمبر بأقسى ما يمكن من التعبير، لكن تلك الإدانة صُحبت فى الأعم بالتذكير بالتجربة الخاصة التى مروا بها. فقد لاحظتْ مجلة الأبحاث فى جامعة الجزويت فى ماناجوا أنه يمكن وصف فظائع الحادى عشر من سبتمبر بأنها تشبه «أرماجدون»، لكن النيكاراجويين مروا بتجربة من «الأرماجدون» خاصة بهم بطريقة موجعة بطيئة« نتيجة للغزو الأمريكى» وهى التى كان لها فيما بعد عواقب وخيمة مؤلمة، كما عانى آخرون أسوأ من ذلك نتيجة للوباء الواسع من إرهاب الدولة الذى اكتسح القارة منذ أوائل الستينيات، وأكثر أسبابه تعود إلى واشنطن. وشارك صحافى من بنما فى الإدانة الشاملة لجرائم الحادى عشر من سبتمبر، لكنه أورد ما يذكُره عن قتل ما يزيد عن آلاف الفقراء (وهى جرائم غربية، لذلك فلا يُكتب عنها شىء) حين أمر بوش الأب بالهجوم الجوى على باريو توريللو فى ديسمبر ١٩٨٩ خلال عملية الهدف العادل Just cause، التى نُفذت من أجل اختطاف السفاح المتمرد الذى حُكم عليه بالسجن مدى الحياة فى فلوريدا بسبب الجرائم التى ارتكبها فى الغالب خلال فترة حكمه حين كان يتلقى رواتبه من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

ويلاحظ إيدواردو جاليانو وهو كاتب من أوروجواى أن الولايات المتحدة تزعم أنها تعارض الإرهاب، مع أنها تؤيده فى الواقع فى العالم بأجمعه، ويشمل ذلك « أندونيسيا وكمبوديا وإيران وجنوب أفريقيا.. وكذلك فى بلدان أمريكا اللاتينية التى مرت بحرب قذرة تحت خطة كوندور»، التى خطط لها الدكتاتوريون العسكريون فى أمريكا الجنوبية الذين نفذوا موجة من الإرهاب بتأييد من الولايات المتحدة.



وتصح الملحوظات نفسها على المنطقة الثانية التى تركزت عليها «الحرب على الإرهاب» فى الطور الأول، وهى: غربى آسيا. وتمثلت أكبر الفظائع فى الغزو الإسرائيلى للبنان سنة ١٩٨٢م، التى نتج عنها قتل عشرين ألفا وتعرض أكثر البلد للتدمير، ويشمل ذلك العاصمة بيروت. ومثل الغزوتين الدمويتين المدمرتين اللتين قام بهما رابين وبيريس فى سنة ١٩٩٣ و١٩٩٦، لم يكن لغزو ١٩٨٢ ذريعة من الدفاع عن النفس. ولم يزد تعبير رئيس الأركان رفائيل إيتان فى وصفه لهذا الغزو عن كونه تعبيرا عن السياسة المتفق عليها حين أعلن أن القصد من ذلك الغزو كان «تدمير منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها مرشحا للدخول فى مفاوضات معنا بخصوص أرض إسرائيل، وهذا مثال نموذجى للإرهاب كما يعرَّف رسميا. وكان الهدف «تنصيب نظام صديق وتدمير منظمة التحرير الفلسطينية التى يقودها عرفات»، كما يكتب المراسل المختص بالشرق الأوسط جيمس بينيت: «وذلك، كما تقول النظرية، لمساعدة الفلسطينيين على قبول الحكم الإسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة». وربما كان هذا التقرير أول اكتشاف فى الصحافة القومية الأمريكية للحقائق التى ينشر عنها بكثافة فى إسرائيل فى وقت حدوثها، وهى الحقائق التى كانت لا توجد فى الولايات المتحدة إلا فيما يكتبه المعارضون. وقد نُفذت تلك العمليات بمساعدة عسكرية وتأييد دبلوماسى أمريكى مهمين خلال إدارتى ريجان وكلينتون، لهذا فهى لا تصنَّف بأنها من أعمال الإرهاب الدولى. كما كان للولايات المتحدة ضلع فى الأعمال الأخرى من أعمال الإرهاب فى المنطقة خلال الثمانينيات، ومنها: السيارة الموقوتة التى انفجرت فى بيروت وأدت إلى مقتل ثمانين شخصا وجرحت مائتين وخمسين، والهجوم الذى أمر به شمعون بيريز لتونس ونتج عنه قتل خمسة وسبعين شخصا، وهو العمل الذى قدمت الولايات المتحدة بعض المساعدات لتنفيذه وامتدحه وزير الخارجية الأمريكى آنذاك جورج شولتز، وهو الذى أدانه مجلس الأمن بالإجماع بوصفه «عملا من أعمال العدوان المسلح» (وامتنعت الولايات المتحدة عن التصويت)؛ والعمليات التى نفذها بيريز وأطلق عليها اسم «القبضة الحديدية» التى وجهت ضد «القرويين الإرهابيين» فى لبنان، وهى التى وصلت إلى أعماق جديدة من «المجازر المخطط لها والقتل العشوائى»، كما عبر عن ذلك أحد الصحفيين الغربيين المطلعين اطلاعا مباشرا على شؤون المنطقة، وهو قول أيدته بتوسع التغطية الإعلامية المباشرة. ومرة أخرى، فهذا إرهاب دولى، إن لم يكن أفظعَ جريمة من جرائم الحرب العدوانية.



وينظر إلى سنة ١٩٨٥، فى التقارير الصحفية والدراسات العلمية، على أنها تمثل قمة حوادث الإرهاب الشرق أوسطى، ولم يكن ذلك بسبب هذه الأحداث: بل بسبب عمليتين من عمليات الفظاعات الإرهابية قُتل فى كل واحدة منهما شخص واحد فقط، وكان المقتول فى الحالتين كلتيهما أمريكيا، لكن الضحايا لا ينسون بمثل هذه السهولة.

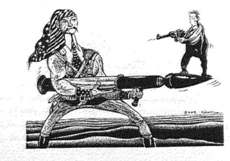
ويكتسب هذا التاريخ الأخير أهمية خاصة لكون الأشخاص القياديين فى «الحرب على الإرهاب» التى أعيد إعلانها قاموا بدور مهم فى الحرب الأولى. فيقود الجانب الدبلوماسى الحالى جون نيجروبونتى، مندوب أمريكا فى الأمم المتحدة الذى كان سفير ريجان إلى هندوراس، وكانت القاعدة التى تدار منها الفظائع الإرهابية وهى العمليات التى كانت حكومته تدان بسببها فى محكمة العدل الدولية كما كانت قاعدة إرهاب الدولة الذى تؤيده أمريكا فى البلدان الأخرى من بلدان أمريكا الوسطى، وهى النشاطات التى «جعلت فترة ريجان أسوأ عقد مرَّ على أمريكا الوسطى منذ الغزو الأسبانى»، وأكثر تلك الفظائع كانت تدار بإشراف مباشر من نيجروبونتى. ويقود الجانب العسكرى للطور الجديد دونالد رامسفيلد، وزير الدفاع الذى كان مندوب ريجان الخاص للشرق الأوسط خلال السنين التى شهدت أسوأ الفظائع الإرهابية هناك، وهى الأعمال التى بدأتها أو أيدتها حكومتُه.

ولا يقل دلالة عن ذلك حقيقة أن مثل تلك الفظائع لم يتراجع مستواها فى السنوات التالية. على الأخص استمرار إسهام واشنطن فى «تشجيع الإرهاب» فى حالة الصراع العربى الإسرائيلى. وهذا المصطلح من صياغة الرئيس بوش الابن، وقُصد به أن يُطبق، اتباعا للتقاليد المرعية، على الإرهاب الذى يقوم به الآخرون. وإذا تجاوزنا التقاليد المرعية فإننا نجد، مرة أخرى، بعض الأمثلة اللافتة للنظر بشكل كبير. فمن الوسائل البسيطة لتشجيع الإرهاب الاشتراكُ فيه، بتصدير الطائرات المروحية لكى تستعمل فى مهاجمة المساكن المدنية وتنفيذ الاغتيالات، مثلا، كما تفعل الولايات المتحدة باطراد مع وعيها التام بما سوف يحدث من عواقب. ومثال آخر أن تمنع إرسال المراقبين الدوليين للحد من العنف. وقد أصرت الولايات المتحدة على انتهاج هذا المسار، حيث استخدمت حق النقض ضد قرار مجلس الأمن الدولى فى الرابع عشر من ديسمبر ٢٠٠١ القاضى بإرسال المراقبين. وفى وصفها لانخفاض منزلة عرفات إلى درجة لا تعلو إلا قليلا الدرجةَ التى يحتلها ابن لادن وصدام حسين، تورد الصحافة تقارير مفادها أن الرئيس بوش «غضِب جداً بسبب زيادة تصلب الموقف الفلسطينى.. فى مسألة المراقبين الدوليين إلى المناطق الفلسطينية بموجب قرار مجلس الأمن الدولى»؛ أى، بسبب مشاركة عرفات العالم فى الدعوة إلى إيجاد بعض الوسائل للحد من الإرهاب.

وقبل عشرة أيام من التصويت على إرسال المراقبين، قاطعت الولايات المتحدة - وهو ما يعنى تثبيطَه - مؤتمرا عالميا عقد فى جنيف اتُّخذ قرارا يعيد فيه تأكيد انطباق مواثيق معاهدة جنيف الرابعة على المناطق المحتلة، مما يعنى أن أغلب الأعمال التى تنفذها الولايات المتحدة وإسرائيل جرائم حرب - وحين تكون تلك الأعمال «مخالفات خطيرة»، كما يمكن وصف أكثرها، جرائم حرب خطيرة. وتشمل هذه تمويل الولايات المتحدة للمستوطنات الإسرائيلية وممارسات «أعمال القتل المقصود، والتعذيب، وعمليات الطرد غير القانونية، والحرمان المقصود من حقوق المحاكمة العادلة المعهودة، والتدمير الواسع للممتلكات ومصادرتها».. وهى العمليات التى تنفذ بصورة غير قانونية وعن قصد.



وتمثِّل هذه الاتفاقية، التى وضعت لتأسيس قاعدة لتجريم الجرائم النازية فى أوروبا المحتلة بصورة رسمية، مبدأ جوهريا من مبادئ القانون الإنسانى الدولى. ويعاد التاكيد باستمرار على انطباقها على المناطق التى تحتلها إسرائيل، ومن تلك الحالات تاكيد جورج



من الوسائل البسيطة لتشجيع الإرهاب الاشتراك فيه، بتصدير الطائرات المروحية لكى تستعمل فى مهاجمة المساكن المدنية وتنفيذ الاغتيالات، مثلا، كما تفعل الولايات المتحدة باطراد مع وعيها التام بما سوف يحدث من عواقب

بوش الأب لها حين كان مندوب أمريكا للأمم المتحدة (فى سبتمبر ١٩٧١)، والقرار ٤٦٥ (لعام ١٩٨٠)، الذى أُقر بالإجماع، وهو القرار الذى أدان الممارسات الإسرائيلية التى تؤيدها الولايات المتحدة ووصفها بأنها «مخالفات صريحة» للاتفاقية؛ والقرار رقم ١٣٢٢ (أكتوبر ٢٠٠٠)، الذى صوّت فى صالحه ١٤ عضوًا مقابل لا شىء، حيث امتنعت الولايات المتحدة عن التصويت، وهو القرار الذى طلب من إسرائيل «الالتزام التزامًا دقيقًا بواجباتها بموجب اتفاقية جنيف الرابعة»، وهى التى كانت تخالفها فى ذلك الحين بصراحة. وكانت الولايات المتحدة والقوى الأوروبية، بوصفها من الموقعين الأساسيين على الاتفاقية، ملزمَةً بموجب الاتفاقية حرفيا باعتقال المسؤولين عن تلك الجرائم وتقديمهم للمحاكمة بسببها، ويشمل ذلك قادة هذه الدول إذا كانوا مشاركين فى تلك الجرائم. ويعنى استمرار رفض هؤلاء القيام بذلك الواجب أنهم يشجعون الإرهاب بصورة مباشرة وشكل مهم.

وربما يأخذنا البحث فى الصراع بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل من جانب والعرب من جانب آخر بعيدا عما نقصد بحثه هنا. لذا دعنا نتوجه إلى نقطة أبعد فى شمال المنطقة، أى إلى منطقة يمارَس فيها «إرهاب الدولة» على مستوى هائل؛ وأنا أستعير هذا المصطلح من وزير الدولة التركى لحقوق الإنسان، فى إشارته إلى الفظائع الهائلة التى وقعت فى سنة ١٩٩٤؛ ومن إسماعيل بيسكيتشى المتخصص فى علم الاجتماع، الذى أعيد إلى السجن بعد نشر كتابه «إرهاب الدولة فى الشرق الأوسط»، بعد أن قضى خمس عشرة سنة فى السجن عقابا على تسجيله لأعمال القمع التركى للأكراد. وقد أتيحت لى الفرصة لأرى بنفسى عواقب ذلك القمع حين كنت فى زيارة لمدينة ديار بكر العاصمة غير الرسمية للأكراد بعد أشهر من أحداث الحادى عشر من سبتمبر. وكما هى الحال فى أنحاء العالم الأخرى فقد أُدينت جرائم الحادى عشر من سبتمبر إدانة صارمة، لكنها كانت مصحوبة بالتذكير بالهجوم الوحشى الذى تعرض له السكان على أيدى أولئك الذين نذروا أنفسهم للقيام بمهمة «تخليص العالم من الأشرار»، وعلى أيدى عملائهم المحليين. وقد قدَّر وزير الدولة التركى وآخرون أنه بنهاية سنة ١٩٩٤ طُرد أكثر من مليونى كردى من الريف الذى دُمر، وأكثر من ذلك العدد فى فترة لاحقة، وغالبا ما يُصحب هذا الطرد بتعذيب بربرى وإرهاب وُصف بتفصيلات مؤلمة فى التقارير الدولية لحقوق الإنسان، لكنه أُخفى عن أعين أولئك الذين يدفعون فواتير التكلفة «أى دافعى الضرائب الأمريكيين». وأدى ذلك إلى قتل عشرات الآلاف. أما من بقى منهم ـ وهم يتحلون بشجاعة لا يمكن وصفها ـ فيما يشبه الزنزانة حيث أُغلقت محطات الإذاعة وتعرَّض المذيعون للسجن لإذاعتهم الأغانى الكردية، واعتقل الطلاب وعذبوا بسبب تقديمهم طلبات لدراسة بعض المواد الثانوية بلغتهم الأم، كما يمكن أن يتعرض الأطفال لعقوبات قاسية إن اكتشفهم رجال الأمن المنتشرون فى كل مكان وهم يرتدون ملابسهم الكردية الوطنية، كما حُكم على المحامى البارز الذى يرأس منظمة حقوق الإنسان بعد قليل من وجودى هناك لاستعماله الأبجدية الكردية بدلا من الأبجدية التركية التى تكاد تتشابه معها فى احتفال رأس السنة الميلادية؛ وغير ذلك وغير ذلك. وتقع هذه التصرفات تحت تصنيف الإرهاب الدولى الذى ترعاه الدولة. وتقدم الولايات المتحدة لتركيا نسبة ٨٠٪ من أسلحتها، ووصلت إلى أعلى مستوى فى سنة ١٩٩٧، حين تجاوزت نسبة تقديم الأسلحة مستوى ما قدمته الولايات المتحدة لتركيا طوال سنى الحرب الباردة مجتمعة قبل بداية فترة «مقاومة الإرهاب» التى بدأت فى سنة ١٩٨٤ وأصبحت تركيا فى مقدمة المتلقين للأسلحة الأمريكية فى العالم كله، وهو وضع حافظت عليه حتى سنة ١٩٩٩ حين تقدمت عليها كولومبيا، وهى الممارس الأول لإرهاب الدولة فى نصف الكرة الأرضية الغربى.

كما «يُشجَّع» إرهاب الدولة بالسكوت والتضليل. ويتخذ هذا الإنجاز الباهر (من السكوت والتضليل) شكلاً أوضح حين يأتى على خلفية من الثناء العارم على النفس يُمتدح فيه دخول السياسة الأمريكية «طورا مشهودا» يتميز بـ«إشعاع روحى»، تحت توجيه قادة نذروا أنفسهم لأول مرة فى التاريخ «للمبادئ والقيم» بدلا من المصالح الضيقة. ويتمثل البرهان على هذه الطهارة الجديدة فى عدم قبولهم بالجرائم التى تُرتكب قريبا من حدود حلف الناتو ـ لكن بعض الجرائم، بل حتى أسوأ الجرائم، لا يمكن القبول بها وحسب بل تتطلب المشاركة الفاعلة فيها، حين تقع فى داخل حدود الناتو فقط، وهى الجرائم التى لم تكن رد فعل لهجوم الناتو الجوى، ويقع ذلك كله من غير أن يدعو لأى تعليق.



ولم يمر إرهاب الدولة التركى الذى تدعمه الولايات المتحدة من غير أن يلاحظ. فقد أشار التقرير السنوى لوزارة الخارجية عن «جهود واشنطن فى مكافحة الإرهاب» بالتحديد إلى تركيا نظرا «لتجربتها الموجبة» فى مكافحته، بالإضافة إلى الجزائر وأسبانيا، وهما الزميلتان الملائمتان لتركيا فى هذا الشأن. وقد أشارت صحيفة نيويورك تايمز إلى هذا التقرير فى خبر احتل الصفحة الأولى من غير أن يتناوله بالتعليق مراسلوها المتخصصون فى الشؤون الدولية. ويذكر السفير روبرت بيرسون فى مقال له نشرته إحدى المجلات المشهورة باهتمامها بالشؤون الخارجية أن الولايات المتحدة «ربما لا يكون لها صديق أو حليف أفضل من تركيا» فى جهودها «لاجتثاث الإرهاب» فى العالم، ويعود الفضل فى ذلك «لكفاءة قواتها العسكرية» التى برهنت عليها فى «حربها ضد الإرهاب» فى منطقة كردستان. لذا «فليس من الغريب» أن تشارك تركيا بإخلاص فى «الحرب على الإرهاب» التى أعلنها الرئيس جورج بوش، معلنة عن شكرها للولايات المتحدة لكونها الدولة الوحيدة التى أبدت استعدادها لتقديم التأييد المطلوب للفظائع التى حدثت أثناء ولاية الرئيس كلينتون ـ وهى الفظائع التى لا تزال مستمرة، وإن كانت على مستوى أقل الآن لأننا «انتصرنا». ومكافأة لها على هذه الإنجازات تقوم الولايات المتحدة الآن بتمويل تركيا من أجل إرسال قوات برية للاشتراك فى «الحرب على الإرهاب» فى كابل، لكن ليس فى غيرها. ويشهد هذا بأن الإرهاب الدولى المتوحش الذى تدعمه الدولة لم يُغضَ الطرف عنه فحسب، بل يمتدح. وهذا أمر «غير مستغرب» أيضا. فقد رحبت إدارة الرئيس كلينتون فى سنة ١٩٩٥ بالرئيس الأندونيسى الجنرال سوهارتو، وهو واحد من أسوأ القتلة والمعذِّبين فى أواخر القرن العشرين، بأنه من «النوع الذى يروق لنا من الرجال». ولما استولى على الحكم قبل ثلاثين سنة نُشرت تقارير كثيرة عن «المجازر الكاسحة الرهيبة»، التى راح ضحيتها مئات الآلاف من الناس، وكان معظمهم من الفلاحين الذين لا يملكون أراضى خاصة بهم. وقد نُشرت هذه التقارير بصورة دقيقة وهُلِّل لها بفرح تجاوز الحدود. ولما انهزمت نيكاراجوا أخيرا بسبب الإرهاب الأمريكى وصوّت مواطنوها بالطريقة الصحيحة «وتشومسكى هنا يسخر ـ المترجم»، «عمّ الولايات المتحدة فرحٌ عظيم» لهذا «الانتصار للطريقة العادلة التى تدير بها الولايات المتحدة الأمور»، كما زعمت العناوين الصحفية حينذاك. ومن السهل مضاعفة هذه الأمثلة. فليس فى ما يجرى الآن أى جديد فى سجل الإرهاب الدولى والرد الذى يستدعيه عند منفذيه.

ودعونا الآن نعد إلى مسألة الرد المناسب على أعمال الإرهاب، خاصة بعد الحادى عشر من سبتمبر.

يُدعى بصورة عامة أن رد فعل الولايات المتحدة وبريطانيا اتُخذ بتأييد دولى واسع. وربما كان هذا صحيحا إن اقتصرنا على رأى النخب فقط. إلا أن قياس الرأى العالمى الذى قامت به شركة جالوب لقياس الرأى لم يجد إلا تأييدا ضئيلا للجوء إلى الوسائل العسكرية بدلا من الوسائل الدبلوماسية. فقد تراوحت نسبة تأييد الوسائل العسكرية فى أوروبا قريبا بين ٨٪ فى اليونان و ٢٩٪ فى فرنسا. أما فى أمريكا اللاتينية فكانت النسبة أدنى من ذلك: فمن ٢٪ فى المكسيك إلى ١٦٪ فى بنما. وكانت نسبة التأييد للهجوم ضد الأهداف المدنية منخفضة حتى إنها لا تكاد تُذكر. بل إنه حتى فى الدولتين اللتين قيس فيهما رأى الناس عن هذا الأمر وتتميزان بتأييد قوى لاستعمال القوة العسكرية، وهما الهند وإسرائيل (حيث كانت أسباب هذا التأييد محكومة بضيق الأفق «الناشئ عن العداء بين كل منهما والمسلمين»، فقد عارضت الأغلبية فى البلدين مثل هذا الهجوم. لذلك فقد كان هناك فى الواقع معارضة كثيفة للسياسات الفعلية المتخذة، وهى التى حولت التجمعات المدنية الكبرى «فى أفغانستان» إلى «مدن أشباح» منذ اللحظة الأولى، كما تقول التقارير الصحفية.

وقد حُذف من قياس الرأى، ومن أكثر التعليقات أيضا، الأثرُ المتوقع للسياسة الأمريكية على الأفغان، حيث كان الملايين منهم على حافة المجاعة قبل الحادى عشر من سبتمبر. فمن الأسئلة التى لم تُثر، هل يدخل فى نطاق الرد المناسب الطلبُ من باكستان منعَ «قوافل الشاحنات التى تحمل كثيرا من الأغذية والمعدات الأخرى للمواطنين الأفغانيين المدنيين»، والتسبب فى انسحاب عمال الإغاثة والنقص الحاد فى الإمدادات الغذائية التى تركت «ملايين من الأفغانيين... عرضة لمخاطر المجاعة»، وهو ما استدعى احتجاجات صارمة من منظمات الإغاثة وصدور تحذيرات من احتمال وقوع أزمة إنسانية حادة، وهى النتائج التى أعيد التأكيد عليها بعد نهاية الحرب. ومن الطبيعى أن الافتراضات التى تقبع وراء التخطيط هى التى يجب أن ننظر إليها فى تقييمنا للأعمال التى نُفذت؛ وهذا ما يجب أن يكون واضحا. أما النتائج الفعلية، وهى أمر مختلف، فمن غير المتوقع أن تُعرف، وإن بصورة تقريبية؛ فالمعهود أن يجرى البحث فى جرائم الآخرين بتقصٍ، لكن هذا لا ينطبق على الجرائم التى نرتكبها نحن. وربما نجد بعض المؤشرات فى التقارير التى تصدر أحيانا عن عدد المحتاجين للإعانات الغذائية: إذ وصل عددهم إلى خمسة ملايين قبل الحادى عشر من سبتمبر، وإلى سبعة ملايين ونصف فى نهاية سبتمبر بسبب التهديد بالحرب الجوية، وإلى تسعة ملايين بعد ستة أشهر من ذلك، وليس ذلك بسبب نقص الطعام، الذى كان متوفرا خلال الفترة كلها، بل بسبب المشكلات التى كانت تعترض التوزيع فى الحين الذى تحولت أفغانستان فيه إلى أقاليم يتوزعها أمراء الحرب.



وليس هناك دراسات موثوقة لقياس رأى الأفغانيين، لكن المعلومات «الخاصة بآرائهم» ليست مجهولة تماما. فقد أشار الرئيس بوش منذ البداية إلى أن الولايات المتحدة ستضرب الأفغانيين بالطائرات حتى يسلموا الأشخاص الذين تتهمهم بالإرهاب. وبعد ثلاثة أسابيع تغيرت أهداف



حضارة العرب
جوستاف لوبون

يعد كتاب «حضارة العرب» من أمهات الكتب التى صدرت فى العصر الحديث فى أوروبا لإنصاف الحضارة العربية الإسلامية وإظهار ما للعرب من فضل فى تمدين أوروبا. وقد ألّف الكتاب العلاّمة الفرنسى الكبير جوستاف لوبون فى عام ١٨٨٤. وقد راع لوبون، الذى قام برحلات عديدة فى العالم الإسلامى، الجحود الذى ساد فى أوروبا فى القرن التاسع عشر للحضارة الإسلامية والعربية. فرأى أن يبعث عصر العرب الذهبى من مرقده وأن يُظهره فى صورته الحقيقية قدر ما يستطيع.

وقد سلك لوبون فى تأليف كتابه طريقًا لم يسبقه إليه أحد فجاء جامعًا لعناصر هذه الحضارة وتأثيرها فى العالم شاملاً لعجائبها مفصّلاً لعواملها، باحثًا فى قيام دولة العرب وفى أسباب عظمتهم وانحطاطهم ومبتعدًا عن أوهام الأوروبيين التقليدية فى العرب والإسلام.

واستعان لوبون بطريقة التحليل العلمى على الخصوص فأوضح فى هذا الكتاب الصلة بين الحاضر والماضى. ووصف العرب وبيئاتهم ودرس أخلاقهم وعاداتهم وطبائعهم ونظمهم ومعتقداتهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم وصناعاتهم وتأثيرهم فى المشرق والمغرب وأسباب عظمتهم وانحطاطهم.

وقد ترجم الكتاب الكاتب الراحل الكبير الأستاذ عادل زعيتر الذى ينتمى لأسرة شامية كان لها باع كبير فى الأدب والثقافة والسياسة، وقد بلغ أسلوبه من القوة والبلاغة والابتكار ما يسمو به إلى مصاف بلغاء اللغة العربية.

وأعادت مكتبة الأسرة الصادرة عن الهيئة العامة للكتاب نشر الكتاب عام ٢٠٠٠.




قدَّر وزير الدولة التركى وآخرون أنه بنهاية سنة ١٩٩٤ طرد أكثر من مليونى كردى من الريف الذى دُمر، وأكثر من ذلك العدد فى فترة لاحقة، وغالبا ما يُصحب هذا الطرد بتعذيب بربرى وإرهاب وُصف بتفصيلات مؤلمة فى التقارير الدولية لحقوق الإنسان

الحرب ليكون القصد منها إزاحة النظام: فسوف يستمر الهجوم الجوى، كما أعلن الأدميرال سير مايكل بويس «حتى يتحقق المواطنون الأفغان أنفسهم» أن هذا «الهجوم الجوى سوف يستمر إلى أن يُغيروا قيادهم». لاحظ أن مسألة هل كانت إزاحة نظام طالبان البائس تسوّغ الحرب الجوية لم تُذكر، ذلك أن هذا الأمر لم يصبح هدفا للحرب إلا بعد بدء الحرب الجوية. فيمكننا، لذلك، أن نتساءل عن رأى الأفغانيين الذين يمكن للملاحظين الغربيين الوصول إليهم عن هذه الاختيارات ـ وهى اختيارات تقع، فى الحالتين كلتيهما، فى إطار التعريف الرسمى للإرهاب الدولى.

وفى الوقت الذى تحولت فيه أهداف الحرب إلى تغيير النظام فى أواخر أكتوبر، كان ألفٌ من القادة الأفغانيين مجتمعين فى بيشاور، وكان بعضهم من اللاجئين وبعضهم جاء من داخل أفغانستان، وكانوا كلهم متفقين على إزاحة نظام طالبان. وكان ذلك الاجتماع «مثالا نادرا للتعبير عن الوحدة بين قادة القبائل، وعلماء الشريعة، والسياسيين المتنافرين، والقادة السابقين للمقاتلين»، كما تقول التقارير الصحفية. فقد «دعوا بالإجماع الولايات المتحدة إلى وقف الغارات الجوية»، وتوجهوا بالرجاء لوسائل الإعلام العالمية أن تدعو إلى وضع نهاية «للغارات الجوية على المدنيين الأبرياء»، و«طالبوا بوضع نهاية للغارات الأمريكية على أفغانستان». ودعوا إلى اللجوء إلى وسائل أخرى لإزاحة نظام طالبان المكروه، وهو هدف ظنوا أنه يمكن إنجازه من غير قتل أو تدمير.

وقد نقلت رسالة مماثلة من القائد المعارض عبد الحق، الذى ينظر إليه باحترام كبير فى واشنطن. فقبل أن يدخل أفغانستان، وربما كان ذلك من غير معونة من الولايات المتحدة، حيث قُبض عليه وقُتل، أدان الغارات الجوية وانتقد الولايات المتحدة لرفضها تأييد الجهود التى يقوم بها هو والآخرون «من أجل القيام بثورة من داخل طالبان». وقال إن الغارات الجوية كانت تمثل «عقبة أمام هذه الجهود». وقد أخبر عن بعض الاتصالات بينه وبين قادة طالبان من الصف الثانى وكبار قبائل المجاهدين السابقين، حيث ناقش معهم الكيفية التى يمكن اتخاذها لتنفيذ هذه الجهود، داعين الولايات المتحدة لتعينهم عن طريق المساعدات المالية وأنواع التأييد الأخرى بدلا من معارضة هذه الجهود عن طريق الغارات الجوية. لكن الولايات المتحدة، كما قال، «كانت تحاول استعراض عضلاتها، وتحقيق نصر وإخافة الناس جميعا فى العالم. فهم لم يكن يعنيهم ما يقاسيه الأفغان من آلام أو عدد الناس الذين يمكن أن نفقدهم». وتُبين معاناة النساء الأفغانيات بعضا من المآسى التى كُشف عنها فى وقت تال بعد الحادى عشر من سبتمبر. فقد كان هناك بعض الإشادة، بعد الحرب، ببعض النساء اللاتى تحلَّين بقدر عظيم من الشجاعة وهو ما يمكن أن يستحق الإبراز بوصفه كفاحا للدفاع عن حقوق النساء خلال خمس وعشرين سنة (يمثل هؤلاء النسوة منظمة راوا RAWA، «المنظمة الثورية لنساء أفغانستان») وقد أصدرت هذه المنظمة بيانا (فى الحادى عشر من أكتوبر) يمكن أن يكون خبرا يحتل الصفحات الأولى فى أى مكان ينظر فيه إلى حقوق النساء الأفغانيات بأنها حقيقية، لا أمرا من أمور النفعية. فقد أدان هذا البيان اللجوء إلى «وحش الحرب والتدمير الكاسحين» فى الوقت الذى «تشن فيه الولايات المتحدة عدوانا كاسحا على بلادنا»، وهو الذى سينشأ عنه قدر عظيم من الأذى للأفغانيين الآمنين». وبدلا من ذلك، دَعَون إلى «القضاء على وباء طالبان والقاعدة» عن طريق «انتفاضة شعبية عامة» يقوم بها الشعب الأفغانى نفسه، وهذا وحده الذى «يمكن أن يمنع تكرار الكارثة التى ابتلى بها وطننا ويمنع العودة إلى مثلها...».

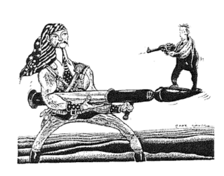
لكن ذلك كله لم يلفت نظر أحد. وربما كان هذا الأمر غامضًا على أولئك الذين يمتلكون السلاح مما جعلهم يشعرون بأن لهم الحق فى تجاهل آراء الأفغانيات اللاتى ظللن يكافحن من أجل الحرية وحقوق النساء لسنوات طويلة، وأن يصرفوا النظر بازدراء واضح عن رغبتهن فى الثورة على نظام طالبان الهش والمكروه من الداخل ومن غير حصول جرائم الحرب التى ستقع لا محالة. وباختصار، لا تمثل مراجعة الرأى الدولى، ويشمل ذلك ما هو معروف من رأى الأفغانيين، إلا تأييدًا ضئيلاً للإجماع المزعوم بين المثقفين فى الغرب عن عدالة قضيتهم.



ومن المؤكد أن أحد ردود فعل النخبة «فى الغرب» صحيح: ويتمثل هذا فى أن من الضرورى البحث عن الأسباب التى كانت وراء جرائم الحادى عشر من سبتمبر. وهذا القدر مما لا يمكن أن يكون موضع شك، وفى الأقل، بين أولئك الذين يودون أن يحدوا من احتمال وقوع جرائم إرهابية جديدة.

وهناك سؤال أدق يتعلق بدوافع الذين قاموا بهذا العدوان. وفيما يخص هذا الشأن، هناك قدر ضئيل من عدم الإجماع. فيتفق المحللون الجادون على أنه بعد إنشاء الولايات المتحدة قواعد عسكرية دائمة فى المملكة العربية السعودية «أصبح ذهن ابن لادن مشغولا بالحاجة إلى طرد القوات الأمريكية من أراضى الجزيرة العربية المقدسة» وتخليص العالم الإسلامى من «الكذابين والمنافقين» الذين لا يقبلون بشكل الإسلام المتطرف الذى يقول به.

كما كان هناك اتفاق عريض، ومسوَّغ، على أنه «إن لم تعالَج الظروف السياسية والاقتصادية التى كانت وراء نشوء تنظيم القاعدة والجماعات المرتبطة بها، فسوف تستمر الولايات المتحدة وحلفاؤها فى أوروبا



الغربية وغيرها بأن يكونوا هدفا للإرهابيين المسلمين. ومن المؤكد أن هذه الظروف معقدة، لكن بعض العوامل معروف منذ أمد طويل. ففى سنة ١٩٥٨، وهى سنة فارقة فى تاريخ فترة ما بعد الحرب الثانية، وجّه الرئيس آيزنهاور موظفى إدارته بأن المشكلة فى العالم العربى «تتمثل فى وجود حملة كراهية ضدنا، وهى حملة لا توجهها الحكومات بل تؤججها الشعوب»، التى تؤيد جمال عبد الناصر، وكانت تؤيد الاستقلال الوطنى العلمانى. وكان مجلس الأمن القومى قد أوضح أسباب «حملة الكراهية» قبل ذلك بأشهر: «فتبدو الولايات المتحدة فى أعين الأكثرية العربية كأنها تعارض تحقيق أهداف القومية العربية. إذ يعتقد هؤلاء أن الولايات المتحدة تسعى لحماية مصالحها النفطية فى الشرق الأدنى عن طريق تأييد - إبقاء الحال على ما هو عليه - ومعارضة التقدم السياسى والاقتصادى.. .» زيادة على ذلك، فإن هذا الفهم دقيق: «ذلك أن مصالحنا الاقتصادية والثقافية فى المنطقة موجَّهة بصورة طبيعية إلى تحقيق علاقات أوثق مع تلك العناصر فى العالم العربى التى تقع مصالحها الرئيسة ضمن العلاقات السارية مع الغرب وإبقاء الحال على ما هو عليه فى بلدانهم».



وظل هذا الفهم مستمرا. فبعد الحادى عشر من سبتمبر مباشرة، بدأت صحيفة وول ستريت جورنال - وهو ما تبعتها فيه صحف أخرى - بتقصى آراء «المسلمين الأغنياء»، أى أصحاب البنوك، والمهنيين، ومديرى الشركات متعددة الجنسيات، وما إلى ذلك. ووجدت أنهم يؤيدون بقوة سياسات الولايات المتحدة بصورة عامة، لكنهم يشعرون بمرارة من دور الولايات المتحدة فى المنطقة: كتأييدها للأنظمة الفاسدة والقمعية التى تحول دون وجود الديموقراطية والتنمية، وبعض السياسات المحددة، خصوصا فيما يتعلق بفلسطين والعراق. ومع أن آراء سكان الأحياء الفقيرة والقرى لم تستقص إلا أن من المحتمل أن تكون مواقفهم مشابهة، لكنها أكثر قسوة، ذلك أن أكثرية المواطنين، على عكس «الأغنياء المسلمين»، لم توافق أبدا على أن ثروات المنطقة ينبغى أن تتسرب إلى الغرب وعملائه المحليين، بل يجب أن توجه إلى خدمة الاحتياجات الداخلية. ويجد «المسلمون الأغنياء»، بشكل فج، أن لخطابة ابن لادن الغاضبة صدى واسعا، وفى الطبقة التى ينتمون إليها أيضا، ذلك على الرغم من أنهم يكرهونه ويخافونه، وإن لم يكن لذلك من سبب إلا لكونهم من بين أهدافه الرئيسة. ولا شك أن مما يؤدى إلى قليل من الاطمئنان أن نجد الإجابة عن التساؤل الكئيب الذى صدر عن الرئيس جورج بوش، «لماذا يكرهوننا؟»، فى استيائهم من حريتنا وحبنا للديموقراطية، أو فى فشل ثقافتهم الذى يعود إلى قرون عديدة، أو فى عدم قدرتهم على المشاركة فى شكل «العولمة» الذى يمكن لهم أن يشاركوا فيه بسعادة. وربما كانت هذه الإجابة مصدرا لبعض العزاء، لكنها ليست حكيمة.

ومع أن فظائع الحادى عشر من سبتمبر مفزعة إلا أنها لا يمكن أن تكون غير متوقعة. فقد خططت بعض المنظمات التى لها علاقة بابن لادن بعض الأعمال الإرهابية الخطيرة خلال التسعينيات، وفى سنة ١٩٩٣ اقتربت بشكل خطير من تفجير مركز التجارة العالمى، وهو ما جاء نتيجة لتخطيط أكثر طموحا. وقد فُهم ما كانوا يفكرون فيه بشكل دقيق، وعلى وجه أكثر احتمالا فإن هذا هو ما فهمتْه الهيئات الاستخبارية الأمريكية التى ساعدت على تجنيدهم وتدريبهم وتسليحهم منذ الثمانينيات واستمرت بالعمل معهم إلى أن هاجموا الولايات المتحدة. وقد أوضح البحث الذى قامت به الحكومة الهولندية عن مذبحة سربرنيتسا أنه فى الوقت الذى كان فيه الراديكاليون المسلمون يحاولون نسف مركز التجارة العالمى كانت الشبكات التى كونتها وكالة الاستخبارات الأمريكية تنقلهم من أفغانستان إلى البوسنة، بالإضافة إلى المقاتلين الذين ينتمون إلى منظمة حزب الله الذى تدعمه إيران، وكانت تنقل مقادير هائلة من الأسلحة، عبر كرواتيا، التى استولت على جزء كبير منها. وكانوا قد جيء بهم من أجل الوقوف إلى جانب الولايات المتحدة فى حروب البلقان، فى الوقت الذى كانت فيه إسرائيل (بالإضافة إلى أوكرانيا واليونان) تسلّح الصرب (وربما كان ذلك باستعمال الأسلحة الأمريكية التى تمدها بها الولايات المتحدة)، وهو ما يفسر سبب «أنه يظهر على القنابل التى لم تنفجر التى تقع على سراييفو بعضُ العلامات المكتوبة بالعبرية»، كما لاحظ ريتشارد ألدريتش المتخصص البريطانى فى العلوم السياسية، فى مراجعته لتقرير الحكومة الهولندية. وعلى مستوى أكثر عمومية يُمكن أن تكون فظائع الحادى عشر من سبتمبر مذكِّرا فائقا بما يفهمه الناس منذ أمد طويل، وهو: أن الأغنياء والأقوياء، بسبب التقنية المعاصرة، لم يعودوا يتمتعون بما يكاد يكون احتكارا للعنف الذى ساد خلال التاريخ. فمع أن الإرهاب مَخوفٌ فى كل مكان، وهو خوف مسوّغ، ولا مشاحة أنه «عودة إلى البربرية»، فليس مستغربا أن يختلف فهم الناس لطبيعته اختلافا بيِّنا فى ضوء الاختلاف الكبير بين التجارب، وهى الحقائق التى سوف يَتعامى عنها، على الرغم من خطورتها، أولئك الذين عوّدهم التاريخ على أن يكونوا آمنين فى الحين الذى يرتكبون فيه الجرائم الخطيرة جدًا. ■

ترجمة: حمزة المزينى

عن مجلة: Z.Net

www.z mag.org



كتاب الزاوية

العلم عند العرب

كان حب العرب للعلم عظيمًا، ولم يترك الخلفاء فى بغداد طريقًا لاجتذاب أشهر العلماء ورجال الفن فى العالم إلا سلكوها، ومن ذلك أن شَهَر أحد أولئك الخلفاء الحرب على قيصر الروم ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين فى التدريس ببغداد.

وكان العلماء ورجال الفن والأدباء من جميع الملل والنِّحَل، من يونان وفرس وأقباط وكلدان، يتقاطرون إلى بغداد ويجعلون منها مركزًا للثقافة فى الدنيا.

وقال أبوالفرج الملطى عن المأمون إنه «كان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكراتهم، علمًا منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده.. فلهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر، وأوحشت الدنيا لفقدهم».

وكان أولئك يحيطون بخلفاء بغداد، وكان يمكن لهؤلاء الخلفاء أن يعدوا قصورهم أول قصور العالم وأنضرها.

وكان انتظام مالية الخلفاء سببًا فى القيام بأعمال عظيمة تعود على الناس بالخير، كتعبيد الطرق وإنشاء الفنادق والمساجد والمشافى والمدارس فى جميع نواحى الدولة، ولاسيما بغداد والبصرة والموصل، إلخ.

واتسع نطاق الزراعة والصناعة، وأنشئت مصانع للنسائج الحريرية فى الموصل وحلب ودمشق، وصار العرب يستغلون المالح ومناجم الكبريت والرخام والحديد والرصاص، إلخ.



طعامنا تاريخ وجغرافيا

برنارد لويس

الدراسة المنهجية للغذاء حديثة نسبيًا، إلا أن المؤرخين حققوا تقدمًا مذهلاً في هذا المجال. فهذا الضرب من التاريخ، شأنه شأن غيره، يحتاج إلى ما يعينه من أدلة، ومن حسن الحظ أن هذه الأدلة وفيرة في الشرق الأوسط

[١]

تحدد أرض المعاد بحدودها ثم بمواردها الغذائي الوفير والأساسي، فهي «أرض تفيض لبنًا وعسلاً». وتتناول الصلاة الربانية «أبانا الذي في السموات» الحقائق الخالدة، كما تتناول طلبًا عمليًا، وهو «خبزنا كفافنا أعطنا اليوم». وكان قدماء اليونانيين الوثنيين يتخذون التدابير الخاصة بتوفير غذائهم، متخيلين حياة آلهة جبل الأولمب، حيث الأمبروزيا والرحيق طعام الآلهة وشرابها.

الدراسة المنهجية للغذاء حديثة نسبيًا، إلا أن المؤرخين حققوا تقدمًا مذهلاً في هذا المجال. فهذا الضرب من التاريخ، شأنه شأن غيره، يحتاج إلى ما يعينه من أدلة، ومن حسن الحظ أن هذه الأدلة وفيرة في الشرق الأوسط، موطن أقدم الحضارات التي يعرفها التاريخ. ويتكون المصدر الرئيسي للمعلومات التاريخية من المفردات والأسماء الفعلية التي نستخدمها لتسمية ما نأكله ونشربه من غذاء. وفي هذا الأمر، كما في كل شيء آخر، تعد اللغة مصدرًا أساسيًا للمعلومات يكشف غوامض الكثير من الأمور، وإن كان لا بد من شيء من الحذر في التعامل معه في بعض الأحيان. وقد تكفي بضعة أمثلة لبيان قيمة الأدلة اللفظية ومزالقها. وأحد هذه الأمثلة هو أن فاكهة معروفة، تسمى بالإنجليزية orange أخذت اسمها من الفرنسية orange عن الأسبانية naranja العربية «نارنج» عن الفارسية «ناران»، وهي بالطبع تتصل بالكلمة العبرية «إترُج» المأخوذة من الفارسية «تُرُنج». إنه مصطلح مثير ذو أصل شرق أوسطي يمكن تتبعه في أشكال عديدة يشير إلى الحمضيات.

ولكننا نجد بعد ذلك شيئًا محيرًا. فمعظم لغات أوروبا تستخدم كلمة فارسية الأصل لتسمية هذه الفاكهة، بينما تسمى في لغات الشرق الأوسط - التركية والفارسية والعربية - «برتقال». فلماذا تتخذ الفاكهة التي نسميها نحن باسم شرق أوسطي اسم إحدى دول غرب أوروبا في الشرق الأوسط (المقصود هنا البرتغال)؟ لحسن الحظ أنه ليس من الصعب الإجابة عن هذا السؤال. فالمعروف أن «النارنج» هو البرتقال الصغير المر الذي يستخدم في عمل المربى وإكساب الطعم، وكذلك لأغراض عطرية وطبية. وكان البرتقال الحلو يأتي من الصين ولم يكن معروفًا في الشرق الأوسط إلى أن جلبه التجار البرتغاليون الذين كانوا قد حصلوا عليه من الشرق الأقصى وداروا به حول رأس الرجاء الصالح، ثم أعادوا تصديره من غرب أوروبا إلى الشرق الأوسط. أما الألمان فحصلوا عليه مباشرة حين أسموه Apfelsin، أي تفاح الصين.

وبالنسبة للخوخ فإن التسمية الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة الفرنسية pêche عن الإيطالية pesca إشارة إلى «الفاكهة الفارسية». ووجد المصطلح اليوناني هو الآخر طريقه إلى العبرية في صورة «أفارسك». وهذا مسار لفظي إرشادي يمكن تتبعه دون صعوبة كبيرة.



في بعض الأحيان تضللنا الأسماء. ففي خريف ١٩٤٩ كنت في تركيا أعمل في محفوظات الدولة التركية. حدث ذلك في الوقت الذي كانت تتكون فيه علاقة جديدة بين الولايات المتحدة وتركيا، وهي العلاقة التي أسفرت بعد بضعة أعوام عن ضم تركيا إلى حلف الناتو. ففي عيد الشكر لعام ١٩٤٩ ظن الرئيس ترومان، بناء على نصيحة مستشاريه الخاصين بالطبع، أنها ستكون لفتة ودية وتبعث على السرور أن يقدم ديكًا روميًا للرئيس التركي. وقد لاحظت الدهشة التي عمت استنبول. في الوقت الراهن قد يفهمون الأمر على الفور. أما في ذلك الوقت فكان الناس في تركيا لا يعرفون الكثير عن الولايات المتحدة، وكان هناك قدر كبير من الارتباك. كانوا يقدرون ما كان واضحًا أن المقصود به أن يكون لفتة ودية، ولكنهم كانوا في شدة الحيرة حين وصل طائر ميت كبير إلى تشانكايا، مقر الرئاسة التركي، وسلمه رسول دبلوماسي خاص.

كان سبب الغموض هو أن الطائر الذي يسمى بالإنجليزية turkey يسمونه بالتركية «هندي». كان طائرًا أمريكيًا لم يعرفه أحد في نصف الكرة الشرقي قبل اكتشاف الأمريكتين. ورغبة من الأوروبيين في إعطائه اسمًا يجمع بين الغرابة والاختلاف، تصرفوا تصرفًا معقولاً في مثل هذا الظرف باختيارهم ما يظنون أنه الأكثر غرابة. وبذلك أسماه البعض «turkey» وأسماه آخرون الطائر الهندي dinde (d'Inde) بالفرنسية، ونظائرها في اللغات الأخرى. وفي النهاية وصل الطائر إلى الشرق الأوسط، حيث يسمونه بالعربية «ديك حبشي» أو «ديك رومي». وواقع الأمر أن الديك لا هو بالحبشي ولا الرومي، كما أنه ليس تركيًا ولا هنديًا. وكل هذه الأسماء لا تعني سوى أنه شيء غريب غير مألوف جاء من مكان بعيد غير معروف.

يحدث الشيء نفسه بالنسبة للذرة، هذا الحب المتميز في أمريكته. فهي كذلك لم تكن معروفة في نصف الكرة الشرقي قبل الكشوف الجغرافية. وكان المستوطنون الإنجليز الأوائل يسمونها: (Indian corn القمح الهندي) فالمعروف أن كلمة corn في اللغة الإنجليزية كانت تعني القمح، ولا يزال هذا هو معناها في إنجلترا. ولكنه كان في أمريكا «القمح الهندي». وفي النهاية لم تكن هناك حاجة لتكرار كلمة «هندي» باستمرار، ولذلك حلت كلمة maize محل corn والذرة في أوروبا لها أسماء كثيرة. فهي في اللغة الإيطالية «gran turco الحب الإيطالي»، وفي تركيا يسمونها «مصر»، وكل هذه الأسماء تخدم الغرض ذاته، وهو الإشارة إلى أن هذا شيء أجنبي وغريب.



وهناك طرق أخرى يكون فيها علم اشتقاق الأسماء إما مضللاً أو مرشدًا. ففي العبرية تعني كلمة «لحم» الخبز، بينما تعني كلمة «لَحْم» العربيّة ما يؤكل من جسم الحيوان. ومن الواضح أن مصدر الكلمتين واحد، وهما يدلان على طعام مهم، ولكنه ليس نفس الطعام. وبالمثل فإن «سَمْن» تعني في اللغة العربية مسلي الزبد، والكلمة القريبة منها في اللغة العبرية، وهي «شمن»، تعني الزيت. ويكفي التفكير للحظة لبيانَ الفرق. فقد كانت هاتان الكلمتان تعنيان عند العرب الرعاة اللحم والزبد، بينما تعنيان لدى العبرانيين المزارعين الخبز والزيت.

المجموعة الثانية للمصادر هي الأعمال الأدبية بالمعنى الواسع للكلمة. فالبعض منها يتناول الطعام والشراب صراحة. ويندهش المرء من كثرة هذه المصادر التي تعود إلى الماضي البعيد. فلدينا على سبيل المثال كتب الطهي ذات الوصفات في النقوش المسمارية الآشورية القديمة، وهناك أدب الطهي الموسع إلى حد ما المكتوب بالعربية الفصحى، وكذلك في الكتابات المتأخرة. والتوابل والبهارات موضوع مهم. فكثيرًا ما يتضح أن السلع نفسها توابل وعطور وعقاقير، وقد أوجدت في حالاتها الثلاث أدبًا علميًا ضخمًا يشمل كتابًا من تأليف موسى بن ميمون.

ويحظى أدب الرحلات باهتمام خاص. فالحج أحد أركان الإسلام، ومطلوب من كل مسلم الحج إلى الأراضي المقدسة في مكة والمدينة مرة واحدة على الأقل في العمر. وكان ذلك يأتي بالحجاج في كل عام، حيث كانوا يسافرون مسافات طويلة من كل بلاد الإسلام، فيما يعد بكل تأكيد أهم نموذج للتنقل الفردي الطوعي في العصور ما قبل الحديثة. وسجل الكثير من الحجاج رحلاتهم، بما في ذلك وصف الأماكن التي زاروها، والناس الذين التقوا بهم، والأطعمة التي صادفوها واستهلكوها أثناء سفرهم.

والمساهمة المهمة التي قدمها مؤرخو العصور الوسطى هي قوائم المكوس والعوائد التي يعرضونها في بعض الأحيان. وكثير من تلك المكوس كانت تجبى عينيًا، ويمكن أن يوفر ذكر الأماكن والكميات والأسعار أكبر قدر ممكن من المعلومات.

وبالإمكان كذلك معرفة الكثير من الأدب بمعناه الأدق؛ أي القصص والشعر وحتى الحواديت. والنموذج المميز رواه كاتب فارسي من القرن الرابع عشر وفيه يتناول الباذنجان. ويعرف في اللغة الفارسية باسم «بادنجان»، وقد اشتقت منها كلمة aubergine وغيرها من أسماء الباذنجان الأوروبية:

ذات يوم شعر السلطان محمود بالجوع (تولى الحكم ٩٩٨-١٠١٠) فأحضروا له صحن باذنجان. أعجب الباذنجان السلطان كثيرًا وقال «الباذنجان طعام ممتاز». وهنا استرسل أحد أفراد الحاشية في مدح الباذنجان. وحين سئم السلطان من هذا الصنف قال «الباذنجان شيء مؤذ». وهنا أخذ الرجل يتحدث بحماس عن أضرار الباذنجان. فقال السلطان: «عجبًا لأمرك، ألم تمتدح الباذنجان لتوك؟» فقال الرجل: «بلى، ولكني من حاشيتك ولست من حاشية الباذنجان».

ويجدر ذكر شاعر فارسي اسمه أبو إسحاق، عادة ما كان يُكتب بوسحاق، وهو معروف ببوسحاق الطعامي لأنه خصص جل إنتاجه الأدبي لكتابة قصائد عن الطعام. ومن الواضح أنه كان مغرمًا بهذا الموضوع. وقد ذاع صيته في القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر في شيراز. وكتابه الرئيسي

وسياسة!

عنوانه «كنز الاشتهاء». كما كتب ملحمة بعنوان «ملحمة الأرز المزعفر وفطيرة اللحم»، وقصة نثرية بعنوان «مغامرات الأرز والفطير»، بل إنه وضع قاموسًا لمصطلحات الطبخ بعنوان «علم الطعام» هو فى أغلبه تعريفات هزلية بعض الشىء لمصطلحات الطعام.



الفئة الأخرى التى لها أهمية خاصة فى هذا المجال، وإن كانت أقل فى أهميتها من غيرها، هى الكتابات الدينية والشرعية التى تتناول - بشكل موسع إلى حد كبير فى كثير من الأحيان - ما يجوز أكله وشربه وما لا يجوز، وتضع القواعد والمحظورات المتعلقة بالطعام والشراب. وهذه الكتابات فى المقام الأول يهودية وإسلامية. ذلك أن المسيحيين قد يأكلون ويشربون أى شىء.

وتبدأ هذه الأدبيات بالنصوص الدينية القديمة وتستمر حتى العصر الحديث. وهناك الكثير من النصوص الشرعية والإدارية التى تتناول مشروعية أو عدم مشروعية الأطعمة وتسعيرها وتوزيعها وغيرها من الأمور المتعلقة بها.

والمشكلة المتواترة هى مشكلة الخمر، حيث يُحَرَّم على المسلمين ولا يُحَرَّم على غير المسلمين. وكانت الصعوبات تنشأ حتمًا حين يكون لمجموعتين من الناس، هم اليهود والمسيحيون، الحق فى صنع الخمر وبيعها وشربها، بينما لا يجوز ذلك للأغلبية المسلمة. وهناك العديد من المراسيم واللوائح التى تتناول هذه المسائل، وخاصة كيفية منع اليهود والمسيحيين من بيع الخمر للمسلمين، بل ومشكلة الضيوف المسلمين فى الأعراس اليهودية والمسيحية التى تقدم فيها الخمر.

وتضم الفئة الثالثة من الأدلة وثائق ليست بالأعمال الأدبية، بل هى نصوص توثيقية حقيقية. وهنا كذلك تقدم المحفوظات العثمانية، المركزية والإقليمية، ملايين الوثائق. وهى تغطى كل عملية الطعام من الإنتاج الذى يتضح فى قوائم الضرائب العينية المفصلة، إلى الإعداد والاستهلاك الذى توضحه حسابات المطابخ الخاصة بالقصر والجيش وسلسلة من التكايا التى تقدم وجبات مجانية لذوى الحاجة.

ولدينا كذلك بعض الوثائق الأقدم من ذلك بكثير. ففى وقت ما بين عامى ٨٨٤ و ٨٥٩ قبل الميلاد، كان الملك الآشورى آشور نصربال الثانى يظن أن الأمر يستحق أن يتضمن نقشًا رئيسيًا بالقرب من مدخل عرشه وصفًا لوليمة أقامها. والغرض المعتاد من كل هذه النقوش الملكية هو أن يقول: انظروا كم أنا عظيم، وانظروا كم أنا قوى، وانظروا ماذا حققت. والنمط المعتاد لذلك هو: لقد فتحت الكثير من الأراضى، واستعبدت الكثير من الشعوب.

ولكن آشور نصربال الثانى كان رجلاً أكثر لطفًا وعطفًا، وهو يصف بالتفصيل وليمة دامت عشرة أيام، قُدِّم فيها الطعام والشراب لـ ٦٩٥٧٤ من المدعوين رجالاً ونساءً - وهو أمر لافت للانتباه. وقد صُنِّف الطعام الذى قُدِّم وأُحصى عددًا فى هذا النقش بشىء من التفصيل الشديد: فهناك الكثير من رؤوس الماشية والأبقار والغنم والحملان والغزلان والبط والإوز والحمام وغيرها من الطيور والأسماك والبيض والخبز والخضروات والفواكه والمكسرات والتوابل والبهارات. وكذلك ١٠ آلاف برميل من الجعة و ١٠ آلاف قربة نبيذ. وهناك إشارات عديدة فى الكتاب المقدس إلى الولائم الملكية، كالوليمة التى قدمها فرعون (التكوين: ٢٠:٤٠) وسليمان (الملوك الأول ٣:١٥) وأخشويروش (أستير ١: ٣-٥ و٢: ١٨ و٨: ١٧ و٩: ١٧-٢٢) إلا أن وليمة آشور نصربال قد تكون أقدم الولائم التى وصفت بالتفصيل.



وفئة الأدلة الأخرى هى علم الآثار، وخاصة ما يسمى الآن «الكيمياء الأثرية». ومنذ أربعة وأربعين عامًا أجرت بعثة من جامعة بنسلفانيا حفائر فى بعض المناطق الأثرية فى جورديون. وهى موقع فريجى قديم فى وسط تركيا، حيث عثروا على بقايا وليمة جنزية خاصة بأحد الملوك، ربما كان الملك ميداس المعروف نفسه. وكان الملك قد توفى، واتباعًا لعادة ذلك العصر والمكان كان هناك عشاء وداع عظيم له. وسواء أكان الأمر يرجع إلى السُكْر أو الإهمال أو الامتثال للعادة، فهم لم يغسلوا أوانى الطعام. ودُفن الملك مع كل ما تبقى من الوليمة: الصحون القذرة والأكواب التى لم تُغسل وبقايا الطعام.

قيل لنا حين ذهب الأثريون وفتحوا الآثار إن أنوفهم زُكمت من الرائحة العفنة الصادرة عن اللحم الزنخ. ولم يسعهم أن يفعلوا شيئا حيال ذلك الأمر فى حياته، إلا أنه استحدثت منذ ذلك الوقت أساليب جديدة من أجل التحليل الكيميائى للبقايا العضوية. ويوفر هذا التحليل فى الوقت الراهن بيانات مثيرة إلى حد كبير بشأن ما كانوا يأكلونه وما كانوا يشربونه منذ ٢٧٠٠ سنة فى تركيا.

[٢]

ماذا كانت مكونات المطبخ القديم؟ نبدأ بالطبع باللبن والعسل. فاللبن طعام مهم جدًا يمكن تناوله حلوًا أو مخثرًا أو مصفى أو بالعديد من الطرق الأخرى. ويمكن تقسيم الحضارات التى وجدت على هذا الكوكب إلى ثلاث مناطق: منطقة اللبن الحلو، ومنطقة اللبن الرائب، ومنطقة اللا لبن. أما منطقة اللبن الحلو فهى أوروبا والأمريكتان، ومنطقة اللبن الرائب هى الدول الإسلامية والهند، ومنطقة اللا لبن هى الصين واليابان، حيث لا يشربون اللبن أو يستخدمونه فى مطبخهم التقليدى - فلا لبن ولا جبن ولا زبد.

وكان العسل مهمًا كذلك. فلم يكن السكر معروفًا حتى وقت قريب نسبيًا، وكان العسل قبل ذلك هو المُحلِّى الأساسى. كما كان يستخدم فى صنع المشروبات الكحولية. وهناك شواهد على وجود الحبوب منذ زمن بعيد: وهى القمح والشعير والذرة الصيفى. ويبدو أن الأرز جاء من الهند. وهناك بعض الأدلة على أنه زُرع مباشرة قبل دخول الإسلام العراق وإيران، وربما لم يكن قبل ذلك بوقت طويل. ولم يكن العالم اليونانى الرومانى يعرفه.

ولدينا وصف مثير من مصدر عربى قديم خاص بأول مرة يرون فيها الأرز، وكان ذلك وقت الفتح العربى فى القرن السابع. فقد فر بعض الكشافة

الفرس الذين فاجأتهم قوة مسلحة عربية في المستنقعات تاركين وراءهم سلتين إحداهما بها تمر وكانت الأخرى تحتوي على ما علموا فيما بعد أنه أرز غير مضروب. أمر القائد العربي رجاله قائلاً: كلوا التمر واتركوا هذا الشيء الآخر، ذلك أنه قد يكون سمًا أعده لكم العدو؟ وبذلك أكلوا التمر وابتعدوا عن السلة الأخرى. ولكن بينما كانوا يأكلون أفلتت فرس من مربطها وأخذت تأكل الأرز. أوشك العرب على ذبح الفرس ليأكلوها قبل أن يتسمم لحمها، ولكن صاحبها طلب منهم الانتظار وقال إنه سيتصرف معها في الوقت المناسب.

وفي صباح اليوم التالي، حين وجدوا أن الفرس لا تزال في حالة ممتازة، أوقدوا نارًا تحت الأرز وأزالوا القشر بالحرق. «وقال قائدهم: سموا بالله قبل أن تأكلوا. وأكلوا منه ووجدوا أنه أطيب طعام».

وهناك شواهد على وجود الخبز منذ زمن بعيد جدًا، بل إنه كان يحظى بنوع خاص من الاحترام. وهذا نص للغزالي الفقيه المسلم الكبير المتوفى عام ١١١١ فهو يقول في مقال عن آداب المائدة: يجب أن تأكل من طرف الرغيف، إلا إذا كان هناك القليل من الخبز. ويجب على المرء أن يقضم الخبز ولا يقطعه بسكين، (لم تكن هناك سكاكين وقتها.. المحرر) لأن في هذا عدم احترام للخبز. فقد ورد عن النبي أنه قال اقطعه بأسنانك. ولا يجب وضع طاسة أو أي وعاء فوق الخبز، بل يوضع فوقه الطعام فقط. كرموا الخبز الذي أنزله الله سبحانه وتعالى نعمة من السماء. لا تمسح يدك بالخبز. إذا سقطت لقمة خبز من شخص، لابد أن يلتقطها ويزيل ما عليها من تراب ولا يتركها للشيطان. ولا يزال هناك نوع من احترام الخبز في أنحاء كثيرة من تلك المنطقة حتى يومنا هذا.



كان اللحم في معظم فترات الزمن القديم شيئًا نادرًا وثمينًا، وليس بالشيء الخاص بالأشخاص العاديين. إلا أن لدينا إشارات إلى العديد من الطيور والبهائم التي كانت تستهلك، وإلى تلك المحرم أكلها. بل إن بعض المؤرخين يقولون إن تحريم لحم الخنزير وضع حدًا للتوسع الإسلامي. فقد خرج الدين الإسلامي من الجزيرة العربية في القرن السابع وانتشر شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا بسرعة كبيرة، ثم توقف في أسبانيا والبلقان والصين، وهي ثلاث مناطق تعتمد اعتمادًا كبيرًا على تربية الخنازير. (المحرر: لا تشير المراجع التاريخية التي كتبها معاصرون للفتوحات الإسلامية إلى أية صلة بين الخنازير وتلك الفتوحات).

وترتبط نظرية أخرى حدود التوسع الإسلامي بالزيتون وزراعته وإنتاج زيت الزيتون، الذي هو في الواقع طعام أساسي في مطبخ منطقة الشرق الأوسط قاطبة. بل إن الفكرة تبدو مستبعدة أكثر من نظرية لحم الخنزير، حيث انتشر الإسلام رغم ذلك بتوسع كبير في أماكن لا يُزرع فيها الزيتون ولا يعرفه فيها أحد.

ونجد الكثير من الإشارات إلى الفواكه والخضروات، ومنها التين والتمر والعنب والخوخ. ويعد الباذنجان طعامًا عظيمًا. ويبدو أن التفاح كان من الأهمية بحيث كان اصطلاحًا اشتقاقيًا للفاكهة والخضروات، حتى أن الشيء غير المألوف يسمى بنوع من التفاح. ويصف حاج إيطالي أول مرة يرى فيها الموز في مصر عام ١٣٨٤ ويسميه «تفاح الجنة». وحين ظهرت البطاطس لأول مرة، وهي بدعة أمريكية، أسماها الفرنسيون pomme de terre تفاح أرضي. وحين كانت إسرائيل الحديثة بحاجة إلى اسمين للبرتقال والبطاطس اللذين لا وجود لهما في عبرية التوراة والحاخامات، أصبحا نوعين من التفاح: «التفاح الذهبي» و«التفاح الأرضي». وحين أدخلت الطماطم إيطاليا أسموها pomodoro «التفاح الذهبي»، وهو الاسم الذي انتقل في النهاية إلى اللغة العربية على هيئة «بنادورة» و«بندورة».

ولا بد أن نقول شيئًا عن الأصناف الجانبية والتوابل ومكسبات الطعم والرائحة ـ وهي أشياء ليست جزءًا من الصنف الرئيسي، ولكنها تستخدم بطرق عديدة لإكسابه نكهة معينة. وهناك الأشياء الواضحة، كالبصل والكرات والثوم، وهناك ما يشهد على وجودها جميعًا في الزمن القديم. والسكر صنف إضافي لافت للانتباه جاء من الهند عبر إيران، وكان إما غير معروف بالمرة أو معروفًا على نطاق ضيق في العالم اليوناني الروماني القديم. ونجد إشارات متفرقة إلى ما قد يكون السكر، ولكن من المؤكد أنهم لم يكونوا يستخدمونه استخدامًا عاديًا لأغراض الطهي، وحين أدخل للمرة الأولى كان يُستخدم لأغراض دوائية. وبعد الفتوحات الإسلامية انتشر السكر انتشارًا سريعًا جدًا ـ في البداية من بلاد فارس إلى مصر ثم إلى شمال أفريقيا ومنها إلى أسبانيا، ومن أسبانيا إلى جزر المحيط الأطلنطي ثم إلى العالم الجديد. ومن العالم الجديد عاد إلى الشرق الأوسط. واستطاعت الدول الأوروبية زراعة السكر في مزارعها بتكلفة أقل وبكفاءة أكبر من موطنه الأصلي. وحدث الشيء نفسه مع البن بعد ذلك بقليل.

وكانت البهارات شديدة الأهمية بالطبع. وأورد المسعودي الكاتب العربي الكبير الذي عاش في العصور الوسطى قائمة تضم خمسة وعشرين بهارًا مختلفًا. والغريب أنها لم تتضمن الفلفل الأسود، وهو أكثرها استعمالاً، ويقول لنا مؤلف آخر إن منه سبعمائة نوع. والبهارات مهمة كذلك من ناحية أخرى، وذلك من خلال التجارة مع كل من أوروبا وجنوب شرقي آسيا.

جاء ذكر اللبن كشراب أساسي. والشيء الآخر الأكثر ذكرًا في الزمن القديم هو المشروبات الكحولية بأنواعها المختلفة، مثل تخمير النبيذ وصنع البيرة. أما التقطير لصنع المشروبات الروحية فقد ظهر في وقت لاحق. ولدينا الكثير من الأدلة الأدبية والأثرية، بل واللغوية، على تاريخ الخمر.

ورغم التحريم الصريح للمشروبات الكحولية، فقد كانت تشرب بكثرة، وهناك أدب بكامله من شعر الخمر في اللغات العربية والفارسية والتركية وغيرها من اللغات الإسلامية. (المحرر: من الثابت عند دارس اللغة العربية أن ذكر الخمر في شعر ما بعد الإسلام كان على سبيل المجاز الذي تعنى به دائمًا البلاغة العربية).

ولكن أين كانوا يذهبون للحصول على الشراب؟ كانت هناك بالطبع حانات في البلدان الإسلامية، إلا أنه لم يكن هناك تجار خمور. وكان مسموحًا للمسيحيين بصنع الخمر، وكانت الأديرة المسيحية، في ذلك الوقت وفي وقتنا هذا، وهناك كما في أي مكان آخر، كثيرًا ما تتخصص في إنتاج النبيذ الفاخر. ولذلك يكاد الدير يظهر في الشعر القديم وشعر العصور الوسطى، في العربية والفارسية، كأنه حانة.

وظهرت المشروبات الساخنة متأخرة جدًا. فربما كانت عصائر الفواكه أو منقوعها تسخن، وإن كان هذا أمرًا مشكوكًا فيه. ولكن المشروبات الساخنة، وهي الشاي والقهوة والكاكاو، لم تكن معروفة بالمرة في حوض البحر المتوسط والمناطق المجاورة له في الزمن القديم وفي العصور الوسطى. ونجد إشارات متفرقة في كتب الرحلات العربية إلى نقع أوراق الشاي في الصين. ولكنها تصف ذلك بشيء من الحيرة والنفور، ولا يبدو أنهم حاولوا استيراده. وهناك بعض الأدلة على أنه حين غزا المغول إيران في القرن الثالث عشر جاءوا معهم بشرب الشاي، ولكنها لم تتقبله. ولم يحدث إلا بعد ذلك بوقت طويل أن أعاد الأوروبيون إدخال الشاي في الشرق الأوسط. وفي بعض الأحيان كان يأتي عن طريق البر من شمال الصين، وفي أحيان أخرى عن طريق البحر من جنوب الصين. والكلمة الصينية الشمالية التي تعني الشاي هي «تشاي»، أما الكلمة الصينية الجنوبية فيها «تيي»، وهما نطقان مختلفان لنفس الكلمة التي تكتب بنفس العلامة الصينية.



أما البن فهو موثق بشكل أفضل. وموطن البن الأصلي هو الحبشة، وربما أخذ اسمه من منطقة كافا حيث ينمو البن البري. ولا يسع المرء إلا أن يتعجب من إبداع من اكتشفوا طريقة صنع القهوة من البن. ومعظم الأطعمة والمشروبات بسيطة إلى حد ما. ولكن بالنسبة



المساهمة المهمة التي قدمها مؤرخو العصور الوسطى هي قوائم المكوس والعوائد التي يعرضونها في بعض الأحيان. وكثير من تلك المكوس كانت تجبى عينيًا، ويمكن أن يوفر ذكر الأماكن والكميات والأسعار أكبر قدر ممكن من المعلومات



للقهوة كان على الناس أن يمروا بعملية طويلة ومعقدة كي يحصلوا على مشروب القهوة من البن الذى ينمو بريًا فى كافا. ولكن من حسن الحظ أن هذا حدث من أجلنا جميعًا.

وكان البن يستورد من الحبشة إلى اليمن، ومن اليمن يصدر فى القرن السادس عشر عبر الجزيرة العربية إلى مصر وسوريا، ثم إلى تركيا، ومن تركيا إلى أوروبا. وكان الشاى يصل إلى الشرق الأوسط من أوروبا، وأخيرًا من الصين. وكانت القهوة فى البداية موضع تعجب واستغراب من الأوروبيين، بل إن بعضهم كان يتحدث عنها بشىء من القرف.

ويعلق على ذلك كتاب إنجليزى شهير، وهو «تشريح الاكتئاب» لمؤلفه روبرت بيرتون الذى كتبه عام ١٦٢١ بقوله:

لدى الأتراك مشروب يسمى كوفا (فهم لا يشربون الخمر) وقد أخذ اسمه هذا من حب فى سواد السناج وفى مرارة ... يرتشفون مغليه، ويشربونه بالدرجة التى يتحملونها من السخونة. وهم يضيعون وقتًا كبيرًا فى دور الكوفا تلك التى تشبه إلى حد ما دور البيرة أو الحانات التى لدينا، وهناك يجلسون يثرثرون ويشربون تضييعًا للوقت، ولكى يمرحوا معًا، لأنهم يجدون بالتجربة أن هذا النوع من الشراب يساعد حين يستخدم على الهضم ويزيد الهمة والنشاط.

وكما هو الحال بالنسبة للسكر، أخذ الأوروبيون البن إلى مستعمراتهم فى جزر الهند الغربية وجنوب شرق آسيا. وبحلول القرن الثامن عشر كان البن والسكر من بين واردات الشرق الأوسط من أوروبا.

وهناك عشبان آخران «يُشربان» فى اللغة العربية، مع أنهما ليسا كذلك فى الإنجليزية، وهما الحشيش والتبغ. والحشيش بطبيعة الحال متوطن فى الشرق الأوسط ويعود وجوده إلى زمن طويل، أما التبغ فأحد الواردات الأمريكية. فقد جاء به التجار الإنجليز فى بداية القرن السابع عشر، ومن المفترض أنهم أتوا به من المستعمرات الأمريكية، حيث شاع شيوعًا سريعًا جدًا. وكان هناك جدل طويل حول البن والتبغ بشأن إذا ما كان الشرع يحرمهما أم يبيحهما. ذلك أن التدخين لم يكن محرمًا وحسب، بل كان يعامل كذلك على أنه مضيعة للمال. ولا يزال الوهابيون وتلاميذهم يحرمونه.

[٢]

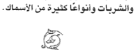
نعرف من التاريخ القديم مكانين لصنع الطعام. أحدهما هو الفرن، ويسمى التنور وهى كلمة تعود إلى العصر الأشورى البابلى. وكان يستخدم لخبيز الخبز وكذلك لصنع الفطائر. أما الثانى فهو المستوقد حيث توقد النار بطريقة أو بأخرى من أجل السلق أو التدميس أو الشواء، وفى بعض الأحيان التحمير، وإن بدا هذا نادرًا نسبيًا، وهو ما يعود بلا شك إلى تكلفة الزيت العالية. ولدينا قدر لا بأس به من المعلومات عن أدوات المطبخ، بل وعن كمية أدوات المطبخ التى يحتفظ بها.

كانت الأطعمة بطبيعة الحال صنفًا مهمًا من أصناف التجارة. ومن الواضح أن جزءًا كبيرًا مما كان الناس يأكلونه قابل للتلف وحجمه كبير وليس غالى الثمن، ولذلك كان غير مناسب لتجارة المسافات البعيدة ولا يحظى باهتمام التجارة. ومع ذلك كان هناك الكثير منه يحظى باهتمام التجار. وكانت البهارات على قدر كبير من الأهمية، وكذلك كان السكر وزيت الزيتون والمشروبات الكحولية. ونجد كذلك أن المكسرات والفواكه المجففة وعسل النحل والشاى والبن والبقول (كالفول والعدس) ضمن قوائم السلع.



ويبدو أن الرحالة الغربيين فى عمومهم يتفقون على أن عددًا قليلاً جدًا من الناس، من غير العظماء والأثرياء، كانوا يطهون الطعام فى بيوتهم. فقد كان الناس يشترون أطعمة مطهوة من الأسواق، ومن المطابخ، ومن مجموعة شديدة التشعب من الطهاة المحترفين. وتضم قائمة خاصة بمدينة استنبول أعدت بناء على أمر من السلطان مراد الرابع عام ١٦٣٨ وأوردها أوليا شلبى، وهو كاتب تركى من ذلك العصر، «النقابات والحرف» التى فى المدينة. ومن بين المهتمين بالطعام، تضم المجموعة الأولى الزراع، وهم من يزرعون الطعام. أما المجموعة الثانية، التى يأتى على رأسها شيخ الخبازين، فتشمل الخبازين والملاحين وخبازى القراقيش وطهاة الحلوى ويليهم الطحانون وتجار الدقيق وصناع الأكياس وصناع النشا وصناع البقسماط. ويأتى بعد ذلك من يسميهم «التجار المصريين». وهناك مستوردو الأرز والبن والسكر. يأتى بعد ذلك موردو الأرز والعدس وموردو السكر والحلوى، وموردو الشربات والبن. وهو يقول إنهم ثلاثمائة رجل ودكان، جميعهم من اليونانيين وكلهم أغنياء.

وتتكون المجموعة الثانية من القصابين. وهم الدباحون وجزارو اللحم البقرى والجزارون اليهود وجزارو الضان، وهناك عدد آخر ممن يهتمون برعاية الحيوانات وذبحها وبيعها. ثم يأتى اللبانون وينقسمون إلى موردى اللبن الجاموسى ولبن الغنم، وتجار الأجبان، وتجار القشدة، وتجار الزبد، وباعة الزبادى. ويلى هؤلاء الطهاة ومن يعدون الطعام للبيع فى الأماكن العامة. وهو يعدد أنواعًا مختلفة من الطعام الذى يبيعونه: فهناك اللحوم المجففة واللحوم المملحة، وكذلك الكبدة والكرشة والفواكه والخضروات المخللة والثوم والبصل. وهناك مجموعات عديدة تطبخ للفقراء ونقابة منفصلة للسفرجية. و كل مطبخ به سفرجى واحد على الأقل، حيث ينطق بالبسملة بعد أن يضع الصحن أمام الضيف ويأكل لقمتين ثم يطلب من الضيف أن يأكل. ويفترض أن هذا لبيان أن الطعام غير مسمم. وهناك كذلك الشواءون وطهاة اليخنى ومن يعدون البلاو (الأرز بالخضروات والتوابل وقطع اللحم وقد يغطى بالبيض) ومن يعدون الباذنجان وورق العنب والبصل والخردل والشربات وأنواعًا كثيرة من الأسماك.



يبدو أن الشرق الأوسط لم يكن به مطاعم. وفى بداية القرن التاسع عشر زار شيخ مصرى من الأزهر اسمه رفاعة رافع الطهطاوى باريس وكتب كتابًا رائعًا عن تجاربه وملاحظاته فى الغرب الغامض. ومن بين غرائب باريس التى لاحظها مكان يسمونه مطعمًا. وهو يتهجى كلمة restaurant بالحروف العربية ويشرح معناها.



تقدم المحفوظات العثمانية، المركزية والإقليمية، ملايين الوثائق. وهى تغطى كل عملية الطعام من الإنتاج الذى يتضح فى قوائم الضرائب العينية المفصلة، إلى الإعداد والاستهلاك الذى توضحه حسابات المطابخ الخاصة بالقصر والجيش وسلسلة من التكايا التى تقدم وجبات مجانية لذوى الحاجة



ونحن نعتبر وجود الطاولات والكراسى أمرًا مسلمًا به فى الأماكن التى نأكل فيها: فنحن نجلس على الكراسى ويقدم لنا الطعام على الطاولات. ولكن هذا ليس قانون الطبيعة بحال من الأحوال. ويبدو أن الطاولات والكراسى كانت موجودة فى الشرق الأوسط القديم، ولكنها اختفت فى العصور الوسطى والعصور الحديثة. ففى مجتمع الأخشاب فيه نادرة وثمينة، والصوف والجلود رخيصة ووفيرة، كانت هناك ترتيبات مختلفة بالنسبة للجلوس وتقديم الطعام.

ولكن بماذا كانوا يأكلون الطعام؟ هنا كذلك قد نقسم العالم إلى ثلاث مناطق - منطقة أدوات المائدة فى الغرب، ومنطقة عودى الأكل فى الشرق، وبينهما منطقة الأصابع. ويبدو أن عودى الأكل اختراع قديم جدًا فى الشرق الأقصى. أما أدوات المائدة فأحدث من ذلك بكثير فى الغرب. كان السكين بطبيعة الحال ضروريًا، ولكنه لم يكن أداة أساسية من أدوات الأكل. كانت الشوكة هى الأداة الأساسية، ويبدو أنها اختراع بيزنطى أدخل بريطانيا فى أوائل القرن السابع عشر. وقد وجدها الرحالة البريطانيون فى إيطاليا وانبهروا بها أيما انبهار. وكلمة «fork شوكة» الإنجليزية مأخوذة من الكلمة الإيطالية fourchetta. ولوحظ أن الإيطاليين مبالغون فى تأنقهم ولا يحبون تلويث أصابعهم أو فوطهم. ونجد عدة إشارات إلى هذه الأداة الجديدة، أى الشوكة، فى مسرحيات بن جونسون (المتوفى عام ١٦٣٧). وهى لم تظهر فى مسرحيات شكسبير.

ولدينا عدد من الأوصاف للولائم الشرقية قدمها رحالة غربيون، وولائم غربية قدمها رحالة شرقيون. وقد لاحظوا أشياء مختلفة: فقد لفتت أنظارهم أشياء مختلفة. ومن بين ما لفت نظر الرحالة الشرقيين فى الغرب هو أن الرجال والنساء يتناولون الطعام معًا. كان ذلك يحدث فى الزمن القديم، ولكنه لم يكن معتادًا فى العصور الإسلامية، وقد أدهش الزوار الشرق أوسطيين لأوروبا، بل وربما صدمهم. ومن بين هؤلاء الزوار وحيد أفندى السفير العثمانى فى باريس الذى كتب فيما بين ١٨٠٦ و١٨٠٧ يقول: «فى الموائد الأوروبية يكون عدد كبير من النساء حاضرًا. وتجلس النساء على المائدة، بينما يجلس الرجال خلفهن يراقبونهن كالحيوانات الجائعة بينما النساء يأكلن. وإذا أشفقت النساء عليهم أعطينهم شيئًا يأكلونه، وإن لم تأخذهن بهم شفقة ظل الرجال على جوعهم».

لا أعرف أى الموائد حضر، ولكن دعونى أقول وحسب إن ما رواه عن المائدة الغربية ليس أكثر عجبًا مما رواه بعض الرحالة الغربيين عن الحياة فى الشرق الأوسط. إلا أن هذه التعليقات تأخذنا إلى منطقة مختلفة، من التاريخ الغذائى وتاريخ الطهى إلى التاريخ الاجتماعى والثقافى. باختصار، من الأكل إلى تناول الطعام. وتلك قصة أخرى. ■

ترجمة: أحمد محمود

The New York Review, May 23, 2002

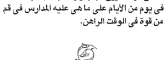
من يحكم إيران؟

كريستوفر دى بيليج

أصبحت كلمة «قم» تعنى مؤسسة رجال الدين التى تشمل البلاد بأسرها، ويتضح تأثير قم أكثر ما يتضح فى مركز السلطة فى طهران، والمرشد الأعلى فى إيران

[١]

تتسم مدينة قم الدينية الشيعية الواقعة على بعد خمسة وسبعين كيلومترًا جنوبى طهران بالكآبة وتقوم فى منطقة شبه صحراوية، ويجرى خلالها نهر جف ماؤه. كما أن بها بعض البساتين، وإن لم تكن مشهورة بأى نوع من الخضر أو الفاكهة. فمعظم الخضروات التى تجدها هنا جاءت من مسافات بعيدة. وينتج أهل المدينة نوعًا من الكراميل يثير الغثيان يطعمونه فى بعض الأحيان بالفستق المجروش ويسمونه «سوهان». ولتحاشى آثار الحرارة التى تبعث على النوم، يعمل طلاب المدارس الدينية فى مكتبات تحت الأرض. وفى حالة الباحثين العزاب تتولى الأرامل والنسوة الفقيرات تلبية حاجاتهم الفسيولوجية. ويربط البعض بين قم وأوكسفورد أو كامبردج، ذلك أن طلاب المدارس يرتدون عباءات سوداء ويقيمون فى غرف صغيرة داخل كليات من القرميد يتزاورون فيها. وينتهى التشابه عند هذا الحد. فعلى مر التاريخ الإنجليزى لم تكن الجامعات فى يوم من الأيام على ما هى عليه المدارس فى قم من قوة فى الوقت الراهن.



برزت قم كمدينة حديثة للمدارس بعد استيلاء بريطانيا على ما يعرف الآن بالعراق من العثمانيين فى نهاية الحرب العالمية الأولى. فحين أثار رجال الدين فى النجف - وهى مدينة مقدسة لدى الشيعة - الثورة ضد البريطانيين طردوهم منها؛ وانتهى المطاف ببعض رجال الدين هؤلاء فى قم التى كان أحد آيات الله البارزين يحييها كمركز للتعليم الدينى. وكان تطور قم لا يزال غير مؤكد: فاعتبارًا من عام ١٩٢٥ كان الشاه رضا بهلوى ينظر إلى الإسلام بصورة عامة ورجال الدين المسلمين بصورة خاصة على أنهم عوائق فى سبيل تحديث إيران. وقد فرض الخدمة العسكرية على رجال الدين وحظر على كل رجال الدين فيما عدا كبار العلماء ارتداء العباءة التقليدية والعمامة. وقد أتى إلى قم لتأديب أحد كبار آيات الله الذى كان قد انتقد طريقة الملكة غير المحتشمة فى ارتداء الملابس.

ازداد استياء رجال الدين من حكم الشاه فى عهد ابن رضا، محمد رضا. إلا أن رجال الدين فى قم كانوا منقسمين بشأن ما إذا كان الإسلام يفرض عليهم معارضة الطاغية معارضة فعالة أم يطالبهم بالتركيز على مهمتهم الأساسية، وهى دراسة الشريعة الإسلامية ونقلها إلى المؤمنين. وفى الستينيات خضع النشطاء لنفوذ آية الله روح الله الخمينى، وفى عام ١٩٧٩، وبعد فرار الشاه وعودة الخمينى من المنفى لإقامة الدولة الوحيدة التى يحكمها فى عالمنا الحديث، كانت طهران عاصمتها بينما قم كانت قلبها.

ومنذ ذلك الوقت وقم تزداد انتعاشًا. وقد ازداد عدد سكانها من رجال الدين من حوالى ٢٥ ألفًا إلى ما يزيد على ٤٥ ألفًا، وتضاعف عدد سكانها من غير رجال الدين ثلاث مرات ليصبح حوالى ٧٠٠ ألف نسمة. ومن الصعوبة بمكان حساب المبالغ الضخمة التى تتدفق فى صورة صدقات وزكاوات إلى آيات الله العشرة الكبار فى قم - وهم يسمون «المراجع»، لأن زملاءهم رجال الدين أعلنوا أنهم مؤهلون لأن يكونوا نماذج يمكن للعامة ومن هم دونهم من رجال الدين أن يسلكوا مسلكهم ويتبعوا أحكامهم. (كل مؤمن حر فى أن يختار «المرجع» الذى يعجب به أكثر من غيره، سواء أكان داخل إيران أم خارجها.) وأدت تلك التبرعات، إلى جانب العون الذى تقدمه الدولة للمؤسسات ذات الحظوة، إلى زيادة عدد المدارس فى قم إلى ما يربو على الخمسين مدرسة، وعدد معاهد الأبحاث والمكتبات إلى حوالى ٢٥٠. وتنتج هذه المؤسسات مئات الكتب والدوريات كل عام، وهى تستخدم الإنترنت لنشر نتائج أبحاثها الخاصة بموضوعات مثل الشريعة الإسلامية والتاريخ والفلسفة والاقتصاد السياسى. ويشترى المجلس البلدى المبانى التى تقف فى وجه طريق كبير، من المقرر أن يربط بين ضريح شقيقة أحد أئمة الشيعة الإثنى عشر ومسجد حديث كبير على بعد خمسة كيلومترات، ويهدمها.



وبعد الثورة، رصف طريق سريع بين قم وطهران، مما سهل على الساسة وكبار الموظفين الذهاب والعودة؛ وإذا كان لديك سائق أرعن، فإنك تقطع الرحلة التى تبدأ من جنوب طهران فى حوالى ساعة. وفى ربيع العام الحالى قام وزير خارجية سوريا برحلة ليلية غير معلنة إلى قم: حيث كان يريد دعمًا من رجال الدين لطلبه الخاص بخفض إيران لمستوى علاقاتها بحزب الله، وهو الطلب الذى يحظى بتشجيع الولايات المتحدة ولبنان. (وقد تلقى ردًا غامضًا.) ويقال إن وزارة الاستخبارات استشارت رجال الدين فى قم بشأن الحكمة من السعى لإقامة علاقات أفضل مع الولايات المتحدة. (وهنا كذلك كان الرد غامضًا: ذلك أن بوش الذى وضع إيران ضمن «محور الشر» أفزع الكثير من رجال الدين، إلا أن بعضهم حذر من إعطاء انطباع بأن إيران تنحنى تحت الضغط.) وفى حال إقصاء الولايات المتحدة لصدام حسين عن السلطة، سيكون للآلاف من رجال الدين العراقيين الموجودين حاليًا فى المنفى فى قم تأثير قوى على مستقبل بلدهم.

أصبحت كلمة «قم» تعنى مؤسسة رجال الدين التى تشمل البلاد بأسرها، حيث إن المدن الأخرى التى بها مدارس تخضع لها؛ ويتضح تأثير قم أكثر ما يتضح فى مركز السلطة فى طهران. والمرشد الأعلى فى إيران، ورئيسها، ورئيس البرلمان، وكبير القضاة جميعهم من رجال الدين. وكذلك رئيس ونصف أعضاء مجلس الحفظة الذى يضم اثنى عشر رجلاً، وهم مجموعة المراقبة القوية التى يعين المرشد الأعلى أعضاءها من رجال الدين؛ والواقع أنها تقوم مقام مجلس الشيوخ ويمكنها إبطال التشريعات. وهناك أقلية مهمة تضم ثمانية وثلاثين عضوًا بمجلس تحديد المصالح الذى يعينه المرشد العام لحل المنازعات التى تنشأ بين البرلمان ومجلس الحفظة، وهى من رجال الدين. ويضم مجلس الخبراء الذى يختار المرشد الأعلى ويقيُمه ويمكنه، من الناحية النظرية، فصله، ستة وثمانين من رجال الدين الذين يُنتخبون بالاقتراع العام - ولكن بعد تمحيص مجلس الحفظة للمرشحين أولاً. ومع أن معظم الحكام الإقليميين ليسوا من رجال الدين، فلا بد من حصول حاكم كل إقليم على موافقة ممثل المرشد الأعلى - وهو دائمًا من رجال الدين - على معظم القرارات المهمة التى يتخذها. وينطبق الشىء نفسه على رؤساء الجامعات.

ونجد فى المستويات الأدنى أن هيمنة رجال الدين أقل تأسيسًا، وإن كانت واضحة. والآلاف من طلاب المدارس، الذين يغادرون قم بعد استكمال سنوات الدراسة الست التى عادة ما تؤهلهم لارتداء عباءة رجال الدين والعمامة، تكون لهم الأولوية فى سباق الوظائف فى الجهاز الإدارى. وغالبًا ما يُمنح أطفالهم أماكن فى أفضل المدارس. وإذا اتهموا بخرق القانون، فإن من يحاكمهم رجال دين آخرون، وعادة ما تكون جلسات المحاكمة مغلقة. وفى بعض مجالات الحكم والنظام الإدارى، مثل القضاء، تحابى شبكة من الخريجين القدامى أشخاصًا من مدارس بعينها عند التعيين فى الوظائف. وتضم المناصب العليا فى وزارة الاستخبارات والقضاء الكثير من خريجى مدرسة حقانى فى قم.

ومع أن الثورة جعلت مهنة رجال الدين أشد نفوذًا وأكثر مزايا، فليس كل رجال الدين سعداء بهذا. وبدلاً من إنهاء الجدل الذى يدور منذ زمن بعيد حول مشاركة رجال الدين فى السياسة، زادته ثورة الخمينى شدة وكثافة. ففى بداية عهد الثورة كان معظم «المراجع» الستة الذين كانوا يقيمون فى إيران والعراق إما معارضين لمبدأ حكم رجال الدين أو يلتزمون الصمت بشأن هذا الموضوع. وكانت مقاومة قم لمحاولة أن تفرض عليها قراءة موحدة للإسلام السياسى تتصل اتصالاً قويًا بتراث المدرسة التعددى. فطلاب المدارس أحرار فى انضمامهم إلى حلقات الدرس الخاصة بالأستاذ الذى يعجبون به أكثر من غيره. وهذا الأستاذ يدرس إلى حد كبير ما يريده، شريطة ألا ينشر آراء تثير الخلاف خارج المدرسة.



خلال العقد الماضى كانت هيبة رجال الدين ومكانتهم آخذة فى التدنى لدى معظم الإيرانيين. ويوضح ذلك إلى حد كبير انخفاض تمثيل رجال الدين فى البرلمان. ففى أول برلمان بعد الثورة كان رجال الدين يمثلون ٥١ بالمائة من إجمالى عدد النواب. أما الآن فهم ١٢ بالمائة فقط. وفى بداية الثمانينيات كان رجال الدين يعاملون باحترام شديد بصورة عامة. والآن يتعرض رجال الدين فى بعض الأحيان للإهانة من تلاميذ المدارس وسائقى التاكسى، وعادة ما يرتدون ملابس عادية حين يغامرون بالخروج من قم. والبعض منهم مستعد للتخلى عن المزايا الرسمية التى يعتقدون أنها سبب استياء العامة منهم. وتحدثت فى قم مع رجال دين قالوا إن هناك تعاطفًا متزايدًا مع عبد الكريم سوروش، وهو عالم دين غير معمم وفيلسوف ينادى بأن يقطع الدين كل صلة له بالسلطة الدنيوية إن هو أراد الاحتفاظ بسلطانه. ويقول رجال الدين هؤلاء إنه بدلاً من أن تؤدى المشاركة فى الحكم إلى تحسين مكانة رجال الدين فقد حطت مشاركتهم من قدر هذه المكانة.

ويبدو أن جزءًا صغيرًا ولكنه مهم من حديث بوش عن «محور الشر» كان يستهدف رجال الدين هؤلاء. وفى طهران ظن الناس أنه لم يكن من اللائق أن يضع الرئيس الأمريكى إيران فى حزمة واحدة مع عراق صدام حسين: فهم يتذكرون الوقت الذى ساندت فيه أمريكا صدام أثناء الحرب الإيرانية العراقية فى الثمانينيات. وأبدى البعض دهشته غير مصدق لما قاله بوش عن رعاية إيران الإرهاب ومحاولتها إنتاج أسلحة الدمار الشامل. إلا أن ردود الأفعال فى قم كانت أكثر اهتمامًا بملاحظة الرئيس الأمريكى الخاصة بأن «قلة غير منتخبة تقضى على أمل الشعب الإيرانى فى الحرية». ومع أن بوش كان يشير بصورة عامة إلى ديمقراطية إيران التى لا تعمل بالشكل الصحيح، فإن تعليقاته أعادت إلى أذهان الكثيرين نفوذ آية الله الخمينى الدائم وخاصة الطائفية السياسية التى استغلها الخمينى لتثبيت حكم رجال الدين، وهى «ولاية الفقيه».

فى أواخر الستينيات كان الخمينى يقدم تفسيرًا جديدًا للمذهب الشيعى، مدافعًا عن الصيغة الأساسية لشكل حكومة رجال الدين التى أقامها فى نهاية الأمر. فقد استغل الخمينى المنطق الاستنتاجى والتأويل المتحيز لأقوال الرسول والأئمة الاثنى عشر ليقول إنه لا ينبغى السماح لحكومة رجال الدين أن تنحرف عن سواء السبيل لمجرد غياب الأئمة الذين يقيمونها. وقال إنه عوضًا عن ذلك ينبغى أن يتولى كبار رجال الدين من الشيعة وكبار علماء الشريعة السلطة القضائية والتنفيذية، انتظارًا لعودة الإمام الثانى عشر.

ويمكن فهم «ولاية الفقيه» التى اقترحها الخمينى على أنها توسيع لمجال «الولاية» التى يقترحها الإسلام فى حالة الأيتام القُصَّر، حيث يصبح المجتمع الإسلامى بكامله فى موضع اليتيم ويقوم الفقيه الحاكم مقام ولى الأمر. وعند

عودة الخمينى من المنفى عقب فرار الشاه عام ١٩٧٩ قال إنه يستشهد «بالولاية التى منحنى إياها المشرع الكريم الرسول» فى تعيين حكومة مؤقتة. وأعلن أن معارضة هذه الحكومة «كُفْر».

ويعتقد كثيرون أن الخمينى ربما كان يزدرى الديمقراطية الانتخابية؛ ولكنه اضطر للتوصل إلى حل وسط مع الإسلاميين من غير رجال الدين الذين تأثروا بالأفكار الديمقراطية الحديثة. وطبقًا لما ذكره دانيل برومبرج، صاحب الدراسة المدققة والمتأنية لتراث الخمينى، فإن دستور ١٩٧٩ الذى حوَّل إيران من ملكية إلى «جمهورية إسلامية» كان «خليطًا أيديولوجيًا متنافرًا ... ربما لم يكن له مثيل فى تاريخ النظام الدستورى». وكان ينص على الانتخاب المباشر للرئيس والبرلمان، ويفصل بين السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية. إلا أنه جعل كل المسئولين خاضعين لمساءلة المرشد الأعلى المُعَيَّن والبرلمان ومجلس الحفظة. وقد أفسد هذا الدستور ما يصفه برومبرج بأنه «تقسيم فوضوى للسلطات» بين مؤسسات الحكومة وهيئاتها المختلفة، فى حين التزم الصمت بشأن كيفية تعايش تلك المؤسسات المتنافسة. وطبقًا لبعض مواد الدستور، فإن السيادة لله؛ فى حين يشير مبدأ إجراء الانتخابات إلى اعتراف بسيادة الشعب كذلك.

كان الخمينى يسيطر على الحكومة الإيرانية التى تضم عناصر مختلفة حتى وفاته فى عام ١٩٨٩، فقد كان وحده من يملك الخبرة الدينية والحاسة السياسية ويتمتع بالشعبية، بل إنه هو نفسه من وضع معايير القيادة الإسلامية.

وبما أنه كان يبدى فى بعض الأحيان ازدراءه للانتخابات التى تجرى على النمط الغربى، فقد كان يزعم أن لديه تفويضًا شعبيًا، وهو ما بيَّنته تلك الأعداد الضخمة ممن خرجوا لتحيته وزيارته بعد عودته من المنفى. ويذكر هذا كاتب سيرته الممتاز باقر معين بالمبايعة. واستغلت بطانة الخمينى دعوته وأضفت عليه قدسية زائفة أدت بالتالى إلى منح تصريحاته سلطة ملزمة، الأمر الذى سمح له بالتدخل فى الحياة العامة حيثما شاء. وتمكن الخمينى ببطء من النيل من سمعة أحد كبار آيات الله المنشقين، وهو كاظم شريعتمدارى؛ مع أن مكانة شريعتمدارى الدينية مساوية لمكانته. وأجبرت كلمة من الخمينى مجلس الحفظة على عدم الاعتراض على أى قانون يحظى برضاه. وأدى «مرسوم» صادر عنه إلى إعدام آلاف المسجونين السياسيين، دون اتخاذ الإجراءات الواجبة.

وكان من الواضح أن هالة السلطة التى تحيط بولاية الفقيه سوف تختفى برحيله. وكان إنشاء مجلس تحديد المصالح فى عام ١٩٨٨ قد أراح من تولى بعده منصب المرشد الأعلى من عبء تسوية المنازعات بين البرلمان ومجلس الحفظة. «على سبيل المثال، أنهى مجلس تحديد المصالح فى ٢٦ مايو عملية طويلة من الوساطة بين البرلمان ومجلس الحفظة بشأن مشروع قانون الاستثمار الأجنبى، الذى صار قانونًا الآن». وقبل بضعة أسابيع من وفاة الخمينى، ألغت جلسة خاصة بناء على أوامر منه ما ينص عليه الدستور من ضرورة أن يكون المرشد الأعلى من أعلى درجات رجال الدين، أى أن يكون مَرْجِعًا. ومنذ ذلك الوقت يحق للمئات من رجال الدين الأدنى مكانة تولى منصب المرشد الأعلى، شريطة أن يتمتعوا بما يلزم لذلك من تقوى وشجاعة و«مهارات إدارية جيدة». وأسقط شرطا الاعتراف والموافقة الشعبيان - أو ما كان يعرف بالمبايعة - باعتباره أحد المعايير. وبعد أن كانت ولاية الفقيه قاصرة على رجل دين يحظى بالتبجيل والتوقير تعتقد الملايين أنه واسطة بينهم وبين الله، يمكن الآن منحها لرجل دين ذى مكانة متوسطة يتمتع بقدر أقل كثيرًا من التأييد.



كان المقصود بالتغييرات تمهيد السبيل لتعيين على خامنه إى، الرئيس، خليفة للخمينى. وكان الخمينى قد فصل قبل شهرين تقريبًا من وفاته آية الله على منتظرى رجل الدين الشهير الذى يحظى بقدر كبير من الاحترام، وكان قد عينه من قبل خليفة له. ومن الواضح أن الخمينى شعر أن منتظرى كان على قدر كبير من الاستقلال فى تفكيره والتعددية فى نظرته. واستاء كثيرون فى قم من تعيين على خامنه إى. ومع أنه كان معروفًا أنه سياسى متمرس وأنه شارك الخمينى فى كثير من آرائه، فقد كان رجل دين من الطبقة المتوسطة العليا وحسب ومُنح على عجل لقب آية الله. وأزعجت الكثيرين من الإيرانيين فكرة أن الرجل الذى انتخبوه فى يوم من الأيام لمنصب الرئاسة الدنيوى، وهم يعلمون أن بإمكانهم تنحيته، قد أصبح ولى الله الذى لا يمكن لأحد أن يتحداه.

وربما كانت وفاة الخمينى وقتًا مناسبًا للحد من سلطات المرشد الأعلى والمطالبة بأن يأتى بالانتخاب. إلا أن التعديل الدستورى الذى أجراه الخمينى فى آخر لحظة كان يشير إلى الاتجاه المعاكس: فقد زاد الدستور المعدل من سلطات المرشد الأعلى الرسمية ووصف سلطته بأنها «مطلقة»، بصراحة لم تكن موجودة فى الأصل. بل إن الخمينى ألح فى أحد تصريحاته الأخيرة إلى أن بإمكان المرشد الأعلى اتخاذ أى قرار يرى أنه «فى مصلحة الإسلام والبلاد». ورأى البعض أن هذا منحه سلطة إصدار أوامر إلهية.

[٢]

يبعد منزل آية الله منتظرى فى قم بضع مئات من الياردات عن مزار المدينة، ولكنه لم يزره منذ سنوات. وغير مسموح له بأن يرى من الناس سوى أفراد أسرته، ولا يمكنه مغادرة المنزل إلا فى حالة الضرورة القصوى. ويتحدث إليه حلفاؤه عبر التليفون؛ كما يمكنهم دق جرس الباب والتحدث إليه عبر الإنتركوم. ومن خلال هذه الاتصالات يواكب منتظرى المناقشات الدينية الجارية وكذلك الفتاوى التى أصدرها غيره من كبار رجال الدين والموقف السياسى فى طهران. وهو يصدر فتاواه الخاصة بأمور الدين ويرد على الأسئلة الفقهية التى يطرحها أتباعه، سواء من خلال الإنترنت أو عن طريق أشرطة الكاسيت التى يوزعها أبناؤه. وفى العام الماضى أرسل مذكرات مطولة عن طريق الإنترنت. وعلى الفور استنكرتها المؤسسة المحافظة وألقى القبض على حوالى اثنى عشر من مؤيديه لمساعدته فى إعدادها.

ومنتظرى رجل متورد الوجه يتحدث بلهجة مسقط رأسه نجف آباد. وهو من التواضع بحيث إنك إذا دخلت فى حديث عارض معه قد تحسبه واعظًا جوالاً. والواقع أن منتظرى مرجع يعترف الكل بذكائه، حتى من يختلفون معه؛ وكان وهو طالب صغير فى الحسينية معروف بقدرته على تسميع المحاضرات التى سمعها قبل أسابيع كلمة كلمة. وهو طليق اللسان ويحيا حياة بسيطة ويساوى بين الإسلام والعدالة الاجتماعية. وليس من شيمته التآمر السياسى المعروف عن غيره من رجال الدين. وكان يسعده قبل وضع القيود على حياته الاجتماعية مشاركته الطعام فلاحًا جاء من نجف آباد ليشكو موظفًا فاسدًا



حضارة العرب فى مصر

استقت حضارة العرب فى مصر من الينبوع الذى استقت منه حضارتهم فى سورية وبغداد، وقامت حضارتهم فى مصر بعناصر اقتبسوها من البيزنطيين على الخصوص، ودلت مبانى العرب الأولى فى مصر على ذلك المصدر، ولم يلبث العرب أن تحرروا من المؤثرات الأجنبية كما تدل عليه مبانيهم التى أقيمت بعد مبانى الزمن الأول.

ويتصف عصر الفاطميين، الذى بلغت حضارة العرب فيه بمصر ذروة الرقى، بنضج الفنون وما تؤدى إليه الفنون من الصناعات، وبارت القاهرة بغداد فى الفنون، لا العلوم، فمدارس القاهرة لم تبلغ من الشهرة ما بلغته جامعات بغداد.

وزاد دخل خلفاء مصر على دخل خلفاء بغداد فى نهاية الأمر، وذلك بفضل خصب أراضى مصر وصلاتها التجارية، وكان خلفاء مصر يقفون معظم ذلك الدخل على أمور الترف وبناء القصور، ولم تكن نفقات الإنشاء فى ذلك العهد باهظة فى وادى النيل مادامت أجرة البَنَّاء اليومية فى أوائل القرن الحاضر ثمانين سنتيمًا وأجرة الحَفَّار خمسة عشر سنتيمًا وثمن متر حجر البناء المكعب، ومنه أجرة قلعه ونقله، فرنكًا واحدًا وعشرين سنتيمًا.

وضربت الصناعة والصِّياغة والحياكة والنجارة والزخرفة بسهم كبير فى الكمال فى زمن الفاطميين (٩٧٢ - ١١٧١م) كما روى المؤرخ العربى المقريزى الذى جاء البحث فى آثار زمانه مصدقًا لروايته.





فى طهـران ظـن النـاس أنه لم يكـن من اللائـق أن يضـع الرئيـس الأمريكى إيـران فى حزمة واحـدة مع عراق صـدام حسـين؛ فهم يتذكـرون الوقت الذى سـاندت فيـه أمريكا صـدام أثناء الحـرب الإيرانيـة العراقيـة

مرتشيًا. وما إن ينصرف الفلاح حتى يرسل منتظرى رسالة غاضبة إلى رئيس ذلك الموظف.

هذه هى على الأقل الصورة التى يرسمها مؤيدوه. والمقصود بها مواجهة الادعاءات المشينة التى يسوقها بعض أقرانه، وخاصة «كتاب الألم» الذى كتبه أحمد الخمينى ابن آية الله الخمينى - الذى توفى - بعد فصل والده منتظرى. وحسبما قاله أحمد فإن عناد منتظرى وسذاجته هما نقطة ضعفه. ففى ذروة الحرب العراقية الإيرانية نادى بمصالحة الأعداء فى الداخل، وقيل إن ذلك يفيد الجماعات المعادية للثورة مثل مجاهدى خلق، الذين يسميهم أتباع آية الله الخمينى «المنافقين». وكتب أحمد الخمينى: «ليس ما أقصده بهذه الرسالة - حاشا لله - الإشارة إلى قبولك أفكار المنافقين والليبراليين وأيديولوجيتهم». فى حين كان ذلك بالطبع هو ما يريد أحمد قوله.

يعتبر منتظرى ديمقراطيًا طبقًا لمعايير إيران الثورية. ولكن ليس هذا ما كان عليه الحال دائمًا. فقد قال فى الأيام التالية للثورة إن الإسلام الشيعى ينبغى أن يكون دين الدولة، رغم وجود أقلية سنية كبيرة فى إيران. وكان لمنتظرى دور كبير فى جعل مبدأ ولاية الفقيه جزءًا من الدستور - الذى طالب بأن يكون «بعيدًا عن كل مبدأ غربى»، وهو لم يدافع عن آية الله شريعتمدارى حين أهانه الخمينى لانتقاده مؤسسة ولاية الفقيه. وكان مؤيدوه قبل فصله يُرهبون الناس بشعار «معارضة منتظرى معارضة لله». وقد أزعج أحدهم، وهو مهدى هاشمى، المسئولين بتأكيد صلته بحزب الله اللبنانى والمجاهدين الأفغان. وفى عام ١٩٨٦ أفشى هاشمى أمر الجهود السرية التى يقوم بها أكبر هاشمى رافسنجانى - الذى كان يدير المجهود الحربى الإيرانى ضد العراق - لشراء أسلحة من عدو إيران اللدود الولايات المتحدة بوساطة من عدو ثان هو إسرائيل. وانتقم رافسنجانى وأُعدم هاشمى.



رغم ذلك كله نجد مسحة من التعددية والتعاطف تسرى فى حياة منتظرى العملية. فقد أرسل رسائل خاصة إلى الخمينى عام ١٩٨٨ يحتج فيها على إعدام آلاف المعارضين المسجونين من مجاهدى خلق بلا محاكمة. ويبدو أن انتقاده لإطالة رافسنجانى أمد الحرب كان باعثه غضبًا حقيقيًا من الخسائر المخيفة فى الأرواح. وقد سعى وهو خليفة للخمينى إلى اختراق السور الذى أقامته بطانة الخمينى الأنانية حوله. وطبقًا لما قاله غلام حسين نادى زميله رجل الدين وحليفه القديم «كان الآخرون يذهبون إلى الخمينى ويداهنونه». أما منتظرى فكان «يقول الحق وينقل شكاوى الناس».

ربما كان من الممكن التغاضى عن الشكوى التى تنقل فى السر، إلا أن منتظرى اتجه إلى العلن عقب انتهاء الحرب مع العراق، حيث كان ينتقد «سوء إدارة» النظام الحاكم و«إنكار حقوق الشعب». وقال إن هناك «مسافة كبيرة بين ما وعدنا به وما أنجزناه». وقد قَبِل فصله بلطف، وربما بارتياح، ولكن الفصل كان صدمة للشعب الذى كان يربط بينه وبين المُثل الثورية. وخلال أوائل التسعينيات ومنتصفها، نفذ رافسنجانى - الذى خلف خامنه إى كرئيس - إصلاحات اقتصادية يبدو كان المقصود بها هو إفادة من كانوا مُنَعَّمين بالفعل. وفى الوقت ذاته كان المحيطون بخامنه إى يشددون أكثر وأكثر على سلطة المرشد الأعلى «المطلقة».

وفى عام ١٩٩٧ انتخبت أغلبية كبيرة محمد خاتمى، رجل الدين الذى يدعو إلى المزيد من الديمقراطية، رئيسًا. وأشيع أن المرشد العام، الذى قيل إنه كان يدعم فى السر منافس خاتمى المحافظ فى الانتخابات، كان يفرض تأثيره على تشكيل الحكومة الجديدة. وفى الوقت نفسه كان بعض رجال الدين يقترحون إعلان خامنه إى مرجعًا. واستنادًا من منتظرى إلى سلطته كواضع لدستور ١٩٧٩، أكد فى خطاب أثار حالة من الإثارة والاهتمام، أن مهمة المرشد الأعلى ليست «التدخل فى كل شىء» وإنما «الإشراف على البلاد». كما هاجم «الأسلوب الملكى» فى إيران، وقال بصراحة إن خامنه إى غير مؤهل لأن يكون مرجعًا، وغير مؤهل لأن يكون مرشدًا أعلى كذلك.

أكد ذلك الخطاب مكانة منتظرى كداعية دينى رفيع المستوى إلى الديمقراطية داخل الجمهورية الإسلامية، فى الوقت الذى حطمه فيه سياسيًا؛ فقد أُغلقت مدرسته الخاصة فى قم، وفُتِّش مكتبه، ووضع تحت الإقامة الجبرية. ومع استثناء واحد، كان زملاء منتظرى من المراجع على قدر كبير من الجبن بحيث لم يدافعوا عنه. وقضت العزلة التى فرضت عليه على أمل تعاونه مع خاتمى؛ فلم يكن بمقدور الرئيس المنتخب إعلان تأييده للرجل الذى هاجمه المرشد الأعلى وأبعده عن الحياة العامة.

تأثرت بذلك قضية الإصلاح. فقد جعل ما حاق بمنتظرى من أذى لجوء الإصلاحيين فى طهران إليه طلبًا للعون فى كفاحهم ضد مجلس الحفظة أمراً مستحيلاً، حيث اعتاد المجلس على إذلالهم بحرمان مؤيدى خاتمى من حق تولى المناصب والاعتراض على كل تشريع يزيد من الديمقراطية أو يحمى الحقوق. وكان منتظرى سيقيم تحالفًا مفيدًا فى المواجهات المستمرة بين مؤيدى خاتمى والقضاة الذين زجوا بعشرات الإصلاحيين فى السجون، وكان منهم رؤساء تحرير الصحف والكُتَّاب ورجال الاقتصاد والعُمَد وغيرهم؛ والواقع أن كل كبار القضاة رجال دين معادون للإصلاح، وجميعهم دون مستوى منتظرى من الناحية الدينية. وإذا كان منتظرى حرًا فى مجادلة خامنه إى عام ٢٠٠٠، فقد كان من المحتمل أن يثنيه عن إصداره أمرًا بإغلاق أكثر من اثنتى عشرة مطبوعة ذات اتجاه إصلاحى، وعن منع مناقشة البرلمان لخطط جعل الصحافة أكثر حرية.

وفى أبريل من العام الحالى، أبلغنى على رضا أمينى، وهو رجل دين محافظ من قم، أن بعض الإصلاحيين الذين ينادون اليوم بإجراء استفتاء على تحديد سلطات المرشد الأعلى كانوا



في عهد الخميني مقتنعين بسلطة المرشد الأعلى المطلقة. وذكرني تعليق أميني بالسؤال المُلِح الذي يراودني وأنا أراقب بعض الإصلاحيين في إيران، وهو هل ما يحركهم هو الرغبة في الحد من سلطات المرشد الأعلى، أم أنهم معنيون في المقام الأول بالحد من سلطة علي خامنه إي؟

[٣]

بعد عدة أسابيع من خطاب بوش، عمَّ إيران خوف غير منطقي من هجوم أمريكي وشيك. وتحدث الناس عن شيء آخر أقل أهمية. فقد تجدد الجدل بشأن مزايا إعادة العلاقات مع الولايات المتحدة. (وقد انتهى هذا الآن. وسط مزاعم الإصلاحيين بأن أعضاء ذوي نفوذ في النظام الحالي بدءوا اتصالات سرية مع مسئولين أمريكيين، دون علم الحكومة). وفي مواجهة التهديد الخارجي، توصل الإصلاحيون والمحافظون إلى تفاهم مؤقت. فقد قل عدد الصحف التي تُغلق، وأُطلق سراح الإصلاحيين، ومنهم كل حلفاء منتظري المسجونين ماعدا أحدهم، وقيل إن رئيس محكمة رجال الدين وعد منتظري بحصوله على حريته إن هو توقف عن إصدار بياناته المثيرة للجدل.

وانتهى الخوف المباشر. ولا يزال منتظري قيد الإقامة الجبرية. (ربما أغضب المحافظين ببيان نشرته إحدى الصحف في ٢٢ أبريل أحل فيه نفسه ضمنيًا من إصرار خامنه إي على القضاء على إسرائيل وأقر التعايش بين دولة فلسطينية وأخرى إسرائيلية). وهاهي الصحف ذات الاتجاه الإصلاحي تُغلق من جديد. ورغم وجود مادة في الدستور تضمن الحصانة البرلمانية، صدر حكم بالسجن ستة أشهر ضد عضو بارز في البرلمان يطالب بمزيد من حرية الصحافة وغيرها من الإصلاحات، وقد رفض التقدم بطلب لاستئناف الحكم.

ولا يزال ظل بوش قائمًا. وسوف يؤدي القلق من نواياه، إلى جانب حسابات الساسة الخاصة بالمكسب الذي يمكن أن ينتج عن إثارته أو تهدئته، إلى تعقد الانتخابات البرلمانية في العام المقبل - وهي الانتخابات التي قد يفسدها مجلس الحفظة بسهولة بحرمانه العشرات من أعضاء البرلمان الحاليين من حق الترشيح. وسوف يؤدي القلق بشأن السياسة الأمريكية إلى تعقيد البحث الذي بدأ بالفعل عن مرشح إصلاحي مناسب ليحل محل خاتمي، الذي لا بد أن يترك منصبه بعد انتهاء فترة رئاسته الثانية بعد ثلاثة أعوام. وربما عجَّل بالجدل القومي الكامن بشأن سلطة علماء الدين غير المنتخبين الذين يتحدون إرادة الناخبين التي عبروا عنها.

وحين كنت في قم في ربيع العام الحالي، أشار صديق هناك إلى أنه يصعب العثور على رجل دين محافظ لم يغير آراءه بشأن مشروعية ولاية الفقيه. وهم جميعًا يشعرون الآن بصورة أو بأخرى بضرورة تغيير المنصب بحيث يعبر عن مجتمع يسعى إلى نوع من الحكومة أقل أبوية. وطبقًا لما قاله صادق حقيقت، وهو رجل دين ذو اتجاه إصلاحي، فإنه «حين تكسب الأفكار الديمقراطية أرضًا، يصبح من المستحيل» على السلطات الدينية مقاومة جهود تعديل مبدأ ولاية الفقيه. إذ «لابد أن يتطور». بل إن المحافظين مثل علي رضا أميني يتفقون على أنه يمكن أن يتغير.

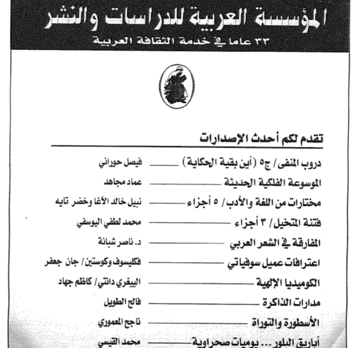


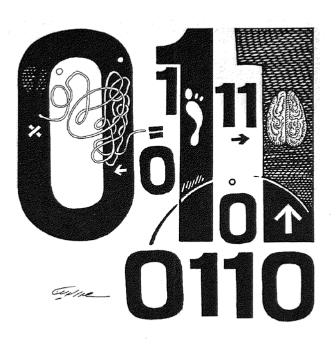
منذ أربع سنوات نشر صديق لحقيقت اسمه محسن كاديوار كتابًا في إيران بعنوان: «حكومة الولاية» أتاح رؤى جديدة في الجدل الدائر حول السلطة القائمة على أساس ديني. ودرس كاديوار الأقوال العشرة التي تنسب للرسول والأئمة ويشيع عرضها كدليل موثق على ضرورة حكم رجال الدين. وطبقًا لما ذكره كاديوار، وهو باحث يحظى بالاحترام، فإن ثمانية من تلك الأقوال قد لا تكون صحيحة. بل إنه يرى أن القولين اللذين يعتبرهما «باتين» لا يمكن أن يكونا مبررًا لتولي رجال الدين السلطة السياسية. ذلك أنهما يمنحان الفقهاء مسئولية «الدعوة إلى العمل بأحكام الإسلام ونشرها وتعليمها.. وليست هناك أدلة باتة على الولاية المطلقة للفقيه المعين».

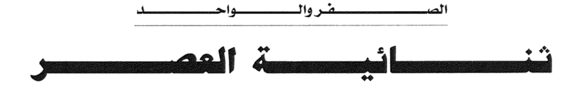
ويدل نشر كتاب كاديوار على أن هناك شيئًا من الانفتاح في المجتمع الإيراني. وبينما يتفق الكثير من الإيرانيين على وجوب تغيير الولاية، فهي لا تتغير. ويقول علي رضا أميني إنه «لكي تتغير، لا بد من الإجماع، وهو ما ليس موجودًا». وتكمن المشكلة فيما يتعلق بتضارب الأفكار المتضاربة في أناس يكرهون بعضهم بعضًا؛ ذلك أن كراهيتهم الشخصية تحول دون ظهور حلول وسط قابلة للتطبيق. وتعد الحرب الأخيرة في أفغانستان مثالاً للصراع السياسي الداخلي الحالي. فقد احتُفي بسقوط طالبان علانية في كل أنحاء إيران. وتعاونت حكومة خاتمي مع التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة بتزويده بالمعلومات الاستخبارية، وكذلك بتقديم قدر كبير من المساعدات للتحالف الشمالي؛ وهي تسعى الآن سعيًا حثيثًا للمساعدة في إعادة إعمار أفغانستان. إلا أن مساعيها قضت عليها قلة من المحافظين المتشددين الذين يبدو أنهم كانوا يساعدون القاعدة وحاولوا القضاء على حكومة حامد قرضاي في كابل.

يصعب في هذا الجو المسموم تخيل استطاعة الإصلاحيين إقناع المحافظين بالتخلي طوعًا عن السلطة. كما أن الانفجار الشعبي يظل احتمالاً بعيدًا؛ فمعظم الناس لا يريدون ثورة أخرى، وتدين الشرطة والحرس الثوري بالولاء والطاعة. وما لم يتخذ الإصلاحيون حلفاء لهم في المؤسسة المحافظة، أو يعثروا على طرق جديدة لجعل الجماهير تضغط عليها، فسيكون محكومًا على إيران أن تخضع لشكل صارم من أشكال الحكم الإسلامي. ■

ترجمة: أحمد محمود
بترتيب خاص مع:
Newyork Review of Books







الصفر والواحد

ثنائية العصر

نبيل علي

لقد عصفت أعاصير عصر المعلومات بكثير من الأسس التى قامت عليها صروحنا الفلسفية، وهياكلنا المعرفية، ووسائل إنتاجنا ونظمنا الاجتماعية: سياسية كانت أم اقتصادية، إعلامية كانت أم تعليمية، أمنية كانت أم أخلاقية. إنه - أى عصر المعلومات - ذو شغف عظيم بالتحطيم والإحلال وإعادة البناء، ولا غرابة فى ذلك، فمجتمع المعلومات لا يقوم على «طور الإنتاج» كما هى الحال فى النموذج الصناعى، بل هو قائم - كما يقول مارك بوستر - على «طور إعادة الإنتاج»، فكل أصول المعلوماتية وسلعها وخدماتها قابلة للنسخ وإعادة الاستخدام. إن عالمنا فى ظل المتغير المعلوماتى يرتج تحت فعل النقلات النوعية الحادة التى تأتيه من كل صوب وعلى غير لون، وما نشهده حاليا هو مجرد بدايات، فأجندة تكنولوجيا المعلومات مع تلك للهندسة الوراثية، زاخرة بكل ما هو مثير ومرعب فى آن، إلى الحد الذى كادت أن تصبح معه رؤى الخيال العلمى هى نفسها أجندة البحث العلمى.

لقد أعملت تكنولوجيا المعلومات معول الهدم فى كل اتجاه، وراحت تحطم - بلا هوادة - الحواجز الفاصلة بين العديد من المجالات التى كانت تبدو، حتى عهد قريب، متباعدة بل متباينة أحيانا، فها نحن نرى انهيار كثير من الحواجز بين فروع علوم الطبيعيات المختلفة، وبينها وبين علوم الإنسانيات، وبين العلوم والفنون، وبين التكنولوجى والأخلاقى، وبين البيئى والاجتماعى، وبين السياسى والإعلامى، وبين الإعلامى والأمنى، وسؤال البداية هنا: من أين أتت لتكنولوجيا المعلومات قدرة التحطيم الهائلة هذه، والإجابة - كما يراها الكاتب - تكمن فى قيام هذه التكنولوجيا الساحقة بتحطيم العديد من الثنائيات التى تعمق رسوخها فى الفكر الإنسانى، وعلى رأسها أربع ثنائيات حاكمة هى:

* ثنائية المادى واللامادى.
* ثنائية الواقعى والخيالى.
* ثنائية الجماعى والفردى.
* ثنائية الحيوى والفيزيائى.



وليتمهل القراء فى إصدار حكمهم على ما نزعمه هنا، على وعد بتقديم ما يسانده بالعديد من الأدلة والشواهد فى الفقرات القادمة، فما نود أن نؤكده فى هذه المقدمة أن أولوية هذه الثنائيات الأربع ترجع إلى صلتها الوثيقة بثنائيات ذات صلة مباشرة بجوهر الوجود الإنسانى، ونقصد بها: ثنائية المكان والزمان، ثنائية الجسد والعقل، ثنائية الفكر والوجود، ثنائية الفرد والمجتمع. إضافة إلى ذلك، فإن تحطيم هذه الثنائيات الحاكمة يؤدى بدوره، من خلال سلسلة التفاعلات وردود الأفعال، إلى انهيار العدد من الثنائيات الأخرى، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

* ثنائية التعليم والتعلم.
* ثنائية النظرى والتطبيقى.
* ثنائية القريب والبعيد.
* ثنائية الإنتاج والاستهلاك.
* ثنائية البشرى والآلى.
* ثنائية الذاتى والموضوعى.
* ثنائية الوعى واللاوعى.
* ثنائية الحرفى والمجازى.
* ثنائية الشكل والمضمون.
* ثنائية المحسوس والمجرد.

وتأتى ما بعد الحداثة، ذات الصلة الوثيقة بالمعلوماتية فى نظر الكثيرين، لتلقى فى غياهب الشك كل الأسس التى قامت عليها الحداثة، حيث يلح الفكر ما بعد الحداثى على ضرورة إعادة البناء من الصفر، ليطيح - فيما أطاح به - بثنائية الخير والشر، وثنائية الجميل والقبيح، وثنائية العقلانى واللاعقلانى، وغيرها الكثير، حتى جاز للبعض أن يصف عصرنا هذا الذى نعيشه بعصر «نهاية الأضداد».

خلاصة ما قبل: إن الأرض تميد تحت أقدامنا بعد أن تمت الإطاحة بمعظم الركائز الأساسية التى قامت عليها حضارتنا الإنسانية. وعلى ما يبدو فقد كتب على عقل الإنسان رفقة دائمة مع «اللايقين» وقلقه الأزلى، ومن أين يأتيه اليقين وقد طمست ملامح خرائطنا المعرفية التى يعاد تشكيلها مع بداية كل يوم جديد، ولنترك تناول هذه القضايا الشائكة لغيرنا لنركز على هدفنا الرئيسى من وراء الدراسة الحالية ألا وهو طرح تصورنا أن مصدر هذه القدرة الهائلة لتكنولوجيا المعلومات على تحطيم الثنائيات هو «ثنائية الصفر والواحد» التى قامت عليها هذه التكنولوجيا الماحقة الساحقة، إنها - أى ثنائية الصفر والواحد - هى تلك الثنائية الكامنة فى كل ما هو ميكروى، سواء فى ميكرو العناصر الفيزيائية متمثلة فى ثنائية الفعل ورد الفعل، وثنائية الشحنة السالبة والشحنة الموجبة، أو فى الميكروبيولوجى متمثلة فى أبجدية الكود الوراثى الرباعية، والتى هى - فى جوهرها - زوج من ثنائيات الحروف البيولوجية، وكما تكمن ثنائية الصفر والواحد فى الميكروالمادى، تكمن كذلك فى ميكرو العناصر المجردة: فى ميكرو الرياضيات متمثلة فى ثنائية القيم السالبة والقيم الموجبة، وثنائية طرفى المعادلات والمتكافئات، وفى ميكرو المنطق متمثلة فى ثنائية المقدمات والنتائج، وثنائية الصواب والخطأ أساس الحكم فى المنطق الأرسطى. بقول آخر، إن ثنائية الصفر والواحد هى «أبجدية الأبجديات»، أو «أبجدية القاع» التى يصاغ منها كل ما يعلوها من كائنات: محسوسة كانت أو مجردة. لذا فقد غدت هذه الثنائية القاعدية من أهم الأساسيات المعرفية التى تستلزم الإلمام بها من قبل الجميع على اختلاف تخصصاتهم وتوجهاتهم.

سنتناول فى هذه الدراسة ثلاث نقاط أساسية:

* أولا: نشأة الصفر والواحد.
* ثانيا: نشأة الثنائيات.
* ثالثا: ثنائية الصفر والواحد وتحطيم الثنائيات.

أولا: نشأة الصفر والواحد

يعد اكتشاف رقم «الصفر» واحدا من أهم اكتشافات الحضارة الإنسانية بلا منازع، ويرجع الفضل فى اكتشافه إلى الهنود القدامى وديانتهم الهندوسية التى احتفت بالأعداد أيما

احتفاء. لقد وهب «الصفر» نظام الأعداد العشرى نقطة بداية مثيرة بعد أن كان قبل اكتشافه يبدأ من رقم «واحد»، وهكذا انطلق النظام من عقاله، يولد العشرات والمئات والآلاف والملايين فى سلسلة لامتناهية يمكن أن تعبر عن قيمة الأشياء مهما كبرت أو صغرت، ولولا «الصفر» لما تطورت علوم الحساب والجبر والرياضيات عموما، ولا تطورت - بالتالى - باقى العلوم التى اتخذت من الرياضيات وسيلتها الأساسية لإثبات صحة النظريات وسلامة الفروض واكتشاف القوانين وصياغة القواعد وتقييم النتائج.

ومهما قيل عن أهمية «الصفر» فيما مضى، فلن نوفيه حقه إلا بالنظر إلى أهميته القصوى بالنسبة إلى تكنولوجيا المعلومات، فكما هو معروف، ترتكز هذه التكنولوجيا - أساسا - على نظام الأعداد الثنائى binary system الذى لا يستخدم إلا رقمين فقط هما الصفر والواحد دون غيرهما من الأرقام، وذلك خلافا للنظام العشرى الذى اعتدناه، والذى يتعامل مع الأرقام من صفر إلى ٩ من خلال النظام الثنائى، يتم تمثيل جميع الأعداد بدلالة الصفر والواحد، حيث يمكن بسهولة تحويل الأرقام العشرية إلى نظيرها الثنائى وتوضح القائمة أدناه عينة من نظائر هذا التحويل للأرقام العشرية من صفر إلى ٩.

باستخدام هذه الوحدات الرقمية الأساسية يمكن تحويل أى عدد عشرى مهما كانت قيمته باستبدال الرقم العشرى بنظيره الثنائى، فعدد ٣٢٧٥ المكون من أربعة أرقام عشرية - على سبيل المثال - يناظره فى النظام الثنائى 0011 0010 1111 0101.

مثلما مثل كل الأفكار العظيمة، تبدو فكرة النظام الثنائى بسيطة، إلا أنها تمثل الفكرة المحورية التى قام عليها الكمبيوتر بل تكنولوجيا المعلومات بصفة عامة. إن النظام الثنائى هو بمثابة همزة الوصل بين الرموز المجردة ومقابلها المادى. فنظرا إلى ثنائيته التى لا تسمح إلا بالانتقال ما بين قيمتى الصفر والواحد، لذا يمكن تمثيله بأى عنصر مادى ثنائى الحالة: كالعناصر المعدنية التى يمكن أن تنتقل ما بين حالتى المغنطة وعدم المغنطة، وعناصر المفاتيح الكهربية التى يمكن انتقالها

إن الأرض تميد تحت أقدامنا بعد أن تمت الإطاحة بمعظم الركائز الأساسية التى قامت عليها حضارتنا الإنسانية. وعلى ما يبدو فقد كتب على عقل الإنسان رفقة دائمة مع «اللايقين» وقلقه الأزلى، ومن أين يأتيه اليقين وقد طمست ملامح خرائطنا المعرفية التى يعاد تشكيلها مع بداية كل يوم جديد



ما بين حالتى القفل والفتح، وعناصر «الترانزيستور»، أو «أشباه الموصلات»، التى يمكن تحويلها من حالة التوصيل الكهربى إلى حالة الفصل الكهربى. هذا من حيث تحويل أرقام النظام الثنائى إلى مقابل مادى، أما من حيث علاقته بالمنطق، فقد اهتدى إليها جورج بوول، عالم الرياضيات الإنجليزى، باكتشافه «الحساب المنطقى» ليقيم همزة الوصل بين نظام الأعداد الثنائى ومنطق أرسطو القائم على ثنائية الصواب والخطأ، وهكذا اكتملت للكمبيوتر الأسس النظرية للتعامل مع العمليات الحسابية والمنطقية، وكل مسألة يتم تحليلها رياضيا أو منطقيا تمهيدا لبرمجتها بواسطة الكمبيوتر تستحيل فى نهاية المطاف إلى قائمة ممتدة من سلاسل الصفر والواحد ولا شىء سواهما. إن الصفر والواحد هما عنصرا الرمز الذريان اللذان تصاغ بهما كل الأفكار والحلول، وتبنى منهما جميع الأرقام والنصوص والأشكال والأصوات، سواء تلك المغذاة بالكمبيوتر، أو المستخرجة بواسطته.

وربما يتبادر إلى ذهن البعض هنا، ما دمنا نتحدث عن عناصر الرمز الذرية، سؤال مؤداه: هل يمكن تحطيم العنصر الذرى الرمزى كما تم تحطيم نظيره الذرى المادى؟! ولنترك من يهوى مثل هذه الأسئلة مع تلك الكلمات التى تركها سقراط لرفاقه قبل أن يرتشف جرعة السم القاتلة. يقول حكيمنا: «لست مقتنعا بعد ذلك أننى أفهم لماذا يتولد الواحد، أو أى شىء آخر، ولماذا يزول، ولماذا يكون إطلاقا»..!!

ومن سقراط إلى فيثاغورث، الذى مجد الأرقام - كما يقول جون ماكليش فى كتابه «العدد» - حتى ارتقى بها إلى مراتب سامية، فكل المخلوقات فى نظره هى كائنات روحانية قوامها الأعداد، وما الروح إلا عدد متحرك ذاتيا ينتقل من جسد إلى آخر. لقد اهتدت حكمة فيثاغورث إلى أن كل الأشياء يمكن تمثيلها فى هيئة أرقام، وتخرج علينا تكنولوجيا المعلومات كل يوم بشاهد جديد يؤكد صحة نبوءة فيلسوفنا الإغريقى، والتالى عينة صغيرة من «حاملات صفة الرقمية» التى أضافتها هذه التكنولوجيا إلى قاموس حياتنا المعاصرة:

* الفضاء الرقمى.
* النقود الرقمية.
* الحرب الرقمية.
* الكلام الرقمى.
* الأرشيف الرقمى.
* الفجوة الرقمية.
* الموسيقى الرقمية.
* الهواتف الرقمية.
* التصوير الرقمى.
* الساعة الرقمية.
* العوالم الرقمية.
* الأقمار الصناعية الرقمية.

وتمتد قائمة الرقمية لتطول أمورا كنا نظن فى الماضى أنها بمنأى عن التدخل التكنولوجى من قبيل: الحنين الرقمى والخلود الرقمى والأجساد الرقمية وهلم جرا.

إن الطابع الرقمى للكمبيوتر وراء كل ما حققه من إنجازات. ولإيضاح ذلك علينا أن ننظر إلى الكمبيوتر بصفته آلة إنجاز عامة يمكن استخدامها فى جميع المجالات، ولكى تكتسب آلة الكمبيوتر صفة العمومية هذه لا بد أن تتعامل بصورة موحدة مع أنساق الرموز المختلفة، من أرقام ونصوص وأصوات وأشكال ثابتة وصور متحركة، وذلك بتحويل هذه الأنساق الرمزية إلى مقابل رقمى مصوغ بالنظام الثنائى سالف الذكر، ويتم ذلك عن طريق ما يعرف بـ «تكنولوجيا الرقمنة» digitization التى تتم بوسائل مختلفة تبعا لطبيعة النسق الرمزى المطلوب رقمنته. وتقوم «الرقمنة» على مفهوم بسيط مفاده: أنه بالإمكان تحويل جميع أنواع المعلومات إلى مقابل رقمى. ودعنا هنا نبدأ بالقول إن هناك أشياء هى بحكم طبيعتها أرقام، مثل عدد صفحات الكتاب، أو عدد السكان، أو معدل مرور السيارات، وهناك خصائص يمكن أن نعبر عنها بقيم رقمية باستخدام طرق القياس المختلفة كالمسافة والزمن والطول والوزن والحجم وما شابه. وما إن نتجاوز هذه الحالات البسيطة حتى يصبح الأمر أكثر صعوبة، فكيف نحيل النصوص والكلام المنطوق والموسيقى والأشكال والقوانين والقواعد إلى أرقام؟! ونستسمح القراء هنا فى قليل من التفاصيل الفنية التى نراها لازمة لما يتلوها من حديث حول أهمية ثنائية الصفر والواحد.

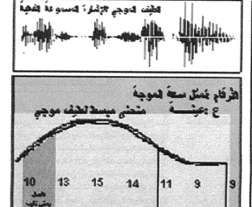
بالنسبة إلى النصوص، والتى قوامها حروف الألفباء، فيعبر عنها بأكواد رقمية تناظر هذه الحروف رقما بحرف (شكل ١)، وفيما يخص الأشكال والصور يتم مسحها إلكترونيا لتتحول إلى مجموعة هائلة من النقاط المتراصة والمتلاحقة. يمكن

شكل ١: أساليب رقمنة النصوص والأشكال والأصوات

الحرف	الكود الثنائي	الحرف	الكود الثنائي
أ	11000111	ح	11001101
ب	11001000	خ	11001110
ت	11001010	د	11001111
ث	11001011	ذ	11010000
ج	11001100	ر	11010001

رقمنة النصوص باستخدام أكواد ثنائية الحروف

رقمنة الصور عن طريق النقاط وتمثيل ووصفها بأكواد رقمية وألوانها ودرجات هذه الألوان



رقمنة الإشارة المسموعة عن طريق أخذ عينات على فترات زمنية متساوية - الرسم أدناه لغرض إيضاح الفكرة حيث يصعب إيضاحها على الإشارة المسموعة الفعلية

تمثيل كل نقطة من هذه النقاط رقميا، سواء بالنسبة إلى موضعها أو لونها أو درجة هذا اللون. فبالنسبة إلى الموضع، يعبر عنه بدلالة الإحداثيين: السيني والصادي، كما في الهندسة التحليلية، وبالتالي تمثيله رقميا بقيمتي هذين الإحداثيين. أما بالنسبة إلى اللون، فهناك أكواد رقمية تغطي «بالتة» جميع الألوان، وطيف ظلالها، ودرجة بريقها أو لمعانها. أما فيما يخص المسموع من الأصوات كالكلام والموسيقى، فيتم رقمنة الطيف الموجي الحامل للإشارة المسموعة عن طريق أخذ عينات من هذا الطيف على فترات زمنية قصيرة: بما يعرف باسلوب sampling بحيث تمثل هذه العينات نمط التغير الذي يحدث في شكل الموجة الحاملة لهذه الأصوات صعودا وهبوطا. تمثل هذه العينات رقميا بالقيمة الكمية لسعة الموجة مقرونة بزمن انتقائها، وهكذا.



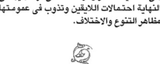
لقد أمكن من خلال الرقمنة سحق جميع أنساق الرموز: أرقاما ونصوصا وأشكالا وأصواتا، إلى ذرات الصفر والواحد، لتسقط الحواجز التي كانت تفصل بينها في الماضي، وهو الأمر الذي أدى بدوره إلى إمكانية المزج بين هذه الأنساق والتحويل فيما بينها. فيمكن أن نحول الألحان إلى مقابل تشكيلي، والمكتوب إلى مقابل منطوق، وحركات الرقص إلى لحن موسيقي، ولنا حاليا أن نختار ما بين الرقص على عزف الموسيقي أو العزف على حركات الرقص. لقد شبه البعض ما فعلته «الرقمنة» في مزج أنساق الرموز بما فعلته الحرارة في صهر عناصر الفلزات في هيئة سبائك معدنية مختلفة. وبفضلها - أي الرقمنة - خرجت إلى الوجود تكنولوجيا الوسائط المتعددة multi-media التي يمكن أن تتعامل بيسر مع تلك «السبائك الرقمية»، التي انصهرت بداخلها عناصر الرموز المختلفة، وقد استحالت فيضا متدفقا من سلاسل «الصفر والواحد»، أقصى درجات التجريد الرياضي المنطقي.

وهكذا، ومن خلال الرقمنة، أحالت تكنولوجيا المعلومات عالمنا: ظواهره وفكره وإبداعه ونظمه وعلاقاته وأدواته ومنتجاته، إلى عالم يطفو فوق محيطات هائلة من سلاسل «الصفر والواحد»، ثنائية العصر بلا منازع.

ثانيا: نشأة الثنائية

في مسعاه الدؤوب لإخضاع الواقع لتصوراته، عادة ما يلجأ العقل إلى اختزال هذا الواقع كي يدين لأدواته المعرفية، ويتسق مع ما رسخ فيه من معتقدات وتوجهات. ولتكن البداية من فلاسفة الإغريق الطبيعيين ما قبل سقراط: هؤلاء الذين اختزلوا الواقع بأسره إلى عنصر أحادي، كالماء أو الهواء، ترد إليه الموجودات كافة. ويأتي فيثاغورث ليضع بذرة الثنائية في الفكر الإنساني: فالكون وتكامله هو وليد اتحاد المتضادات كالخير والشر، والذكر والأنثى، والسكون والحركة، وما شابه. بجانب ذلك، فقد أسهم فيثاغورث، مؤسس علم الحساب، في نشأة ثنائية «الحساب والهندسة» التي تركها لنا مشاركة مع إقليدس الذي صاغ النظريات الهندسية بصورة منهجية متدرجة، وهي الثنائية التي صمدت قرونا عديدة حتى أطاح بها ديكارت باكتشافه «الهندسة التحليلية» ليقيم بذلك قنطرة الوصل بين الحساب والهندسة. فكل ما هو حسابي يمكن تمثيله هندسيا بالرسم البياني، وكل ما هو هندسي يمكن تحويله إلى نظير حسابي من الأعداد والمعادلات الرقمية. لقد خلصنا ديكارت على صعيد الرياضيات من هذه الثنائية الحاكمة، إلا أنه على الصعيد الفلسفي قد خرج إلينا بثنائية قاطعة حاسمة، ففي سعي الشك الديكارتي إلى الوصول إلى اليقين، كان لا بد أن ينطلق من نقطة يقين أساسية، فكانت ثنائية «الفكر والوجود» المتمثلة في الكوجيتو الشهير «أنا أفكر إذن أنا موجود». لقد حرر ديكارت الفكر الأوروبي من أسر فلاسفة الإغريق لينطلق تيار الحداثة متخذا من الثنائيات منهجا أساسيا لاختزال ظواهر الواقع المعقدة، فكانت ثنائيات الجسد والعقل، والمادة الروح، والمخ والعقل، والعضوي واللاعضوي، والذاتية والموضوعية، والوعي واللاوعي، والأنا والآخر، والشكل والمضمون، والعرض والطلب، والمثالية والإمبريقية، وعلوم الطبيعيات وعلوم الإنسانيات، وما شابه، ولا شك أن هذه الثنائيات قد حجبت رؤية المناطق الرمادية ما بين أطراف هذه الثنائيات، وتشابهت على الكثيرين وكأنها غاية الفكر ذاته، لا مجرد وسيلة من ضمن وسائله في تناول إشكالياته.

لا يفوق احتفاء فيثاغورث بالأعداد إلا احتفاء ديكارت بالرياضيات، وإيمانه العميق أنه بالإمكان حل جميع مشكلات الواقع من خلال علم شامل يقوم على الرياضيات، إنها «الطوبائية الرياضية»، إن جاز القول، التي امتدت حتى شملت علم الأخلاق ذاته كما أسس له سبينوزا الذي سعى لإخضاع سلوك البشر ونوازعهم إلى القواعد العامة للطبيعة، ووصل التطرف الرياضي إلى مداه عند عالم الرياضيات الفرنسي دي لابلاس، الذي ذهب إلى الزعم بإمكان التنبؤ بالمستقبل لو أمكننا صياغة جميع ظواهر الواقع بصورة رياضية، وتوفرت لنا الأداة القادرة على تخزين البيانات التي تمثل هذا الواقع. وكان لا بد أن يؤدي هذا القطع الرياضي الصارم، واليقين العقلاني الراسخ الذي قام عليه، إلى ظهور العديد من الحتميات، نذكر منها على سبيل المثال: الحتمية التاريخية، والحتمية اللغوية، والحتمية البيولوجية، والحتمية الفيزيائية كما تتبدى في نظريات نيوتن التي أحالت الكون بأسره إلى آلة تعمل كالساعة المنضبطة. ويأتي الفكر ما بعد الحداثي ليعلن الثورة على كل ما هو حتمي يقيني، متخذا من اللايقين والاختلاف والتنوع مدخلا أساسيا للنظر إلى الأمور، ليرفض بذلك أسس العقلانية والتجانس والتوحد التي قام عليها فكر الحداثة، ويرفض - بناء على ذلك - كل الثنائيات والسرديات الكبرى التي أنشأها هذا الفكر من نظريات ونظم وبنى معرفية وأطر فلسفية، ومن أهم الركائز التي يستند إليها فكر ما بعد الحداثة هي المعلوماتية، فهي بلا شك من أمضى الأسلحة في مواجهة ظواهر التعقد التي تحيطنا من كل صوب، إنها وسيلة استئناس «اللايقين» واحتواء «التنوع» وإضفاء السلاسة على «الاختلاف»، ومرة أخرى فالفضل يرجع في ذلك إلى «ثنائية الصفر والواحد» التي ترتد إليها في النهاية احتمالات اللايقين وتذوب في عموميتها مظاهر التنوع والاختلاف.



ولنختتم حديثنا عن نشأة الثنائيات بسؤال يطرح نفسه هنا وهو: هل لنا أن ننتظر بعد الأحادية والثنائية موجة من الثلاثية؟، خاصة وأن كثيرا من القضايا يتم النظر إليها حاليا من منظور ثلاثي، من أمثلة ذلك:

* الإعلام: المرسل - المستقبل - الرسالة الإعلامية.
* التربية: المدرس - الطالب - المنهج.
* البيئة: الإنسان - التكنولوجيا - المجتمع.
* الإبداع: المبدع - العمل الفني - المتلقي.
* اللغة: النحو - المعجم - الاستخدام الفعلي للغة.
* الكمبيوتر: البيانات - المعلومات - المعرفة.

لا أحد يدري، ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن هناك توجها لتطوير تكنولوجيا معلومات ذات أساس ثلاثي، وذلك من خلال استخدام عناصر بيولوجية، وهي كما نعرف ثلاثية الأبعاد بحكم طبيعتها وليست مسطحة ثنائية الأبعاد كما هي الحال في شرائح السيليكون، ولاشك أن ذلك - لو تم - ستكون له انعكاساته الخطيرة على كل ما مضى، وكل ما هو راهن أو قادم.

ثالثا: ثنائيات الصفر والواحد وتحطيم الثنائيات

الآن، وقد أمهلنا القراء لنمهد إلى ما نهدف إليه من وراء مقالنا، وهو كيف أدت تكنولوجيا المعلومات، ومعولها الثنائي، إلى تحطيم كثير من الثنائيات، نركز حديثنا فيما يلي على الثنائيات الأربع الحاكمة التي أوردناها في المقدمة. نستهل تناولنا لكل منها بتعريف مختصر لطرفي الثنائية، يتلوه شرح موجز لما نقصده بتحطيم تكنولوجيا المعلومات لها، لنستعرض في ضوء ذلك بعض الآثار المترتبة عليه.

(أ) تحطيم ثنائية المادي واللامادي

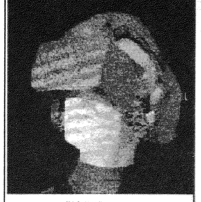
ما نقصده بالمادي هنا هو كل ما هو محسوس، سواء كان عضويا أم غير عضوي، أما اللامادي فيشمل كل ما هو مجرد غير محسوس من أفكار ومفاهيم ونظريات وعلاقات، وما شابه. من هذا المنظور، تمثل آلة الكمبيوتر نقلة نوعية مثيرة وحاسمة في مجال الابتكار التكنولوجي، يمكن لنا إدراكها من خلال تعريفنا لمفهوم «الآلة» أصلا. فالآلة - ببساطة - هي وسيلة مادية لتجسيد فكرة معينة من أجل تنفيذ وظيفة معينة. من خلال التصميم، يتم تحويل هذه الفكرة إلى آليات من التروس والروافع والدوافع والدوائر الكهربية والإلكترونية وما شابه. وهكذا، تتجسد الفكرة بصورة نهائية لا تقبل التغيير، ولا تنفصم عن الشق المادي المنفذ لها. ولا سبيل أمام مستخدم الآلة، الموسومة بفكر مصممها، إلا أن يلتزم بما قرره هذا المصمم بشأن أطوار أدائها وأسلوب استخدامها، ويأتي الكمبيوتر - ولأول مرة - ليعلن «فك الاشتباك» بين فكرة تصميم الآلة والعناصر المادية التي تجسد هذه الفكرة، وذلك من خلال ثنائية الشق المادي المتمثل في العتاد hardware، والشق اللامادي المتمثل في البرمجيات software: الفكر الذي يهب الحياة لهذه العناصر المادية الجامدة الخامدة. وعليه، فالكمبيوتر هو «آلة إنجاز خام» يتم توجيهها من خلال البرامج لتنفيذ وظائف محددة. بقول آخر، تتحد الآلة وتتعدد وظائفها مع تعدد برامجها، فنفس الكمبيوتر المستخدم في مركبات الفضاء هو نفسه - من حيث الأساس - المستخدم في أدوات المطبخ، والمستخدم في الحسابات العلمية هو المستخدم في ألعاب الفيديو، والمستخدم في تطبيقات نظم الإدارة هو نفسه المستخدم في الهندسة الوراثية، وهلم جرا.

إن كان الكمبيوتر قد فصل - كما أوضحنا - بين العتاد والبرمجيات، إلا أنه - في ذات الوقت - قد استحدث وسائل عملية للتحويل بين المادي واللامادي والدمج بينهما، حيث تقوم البرمجيات حاليا بكثير من الوظائف التي كانت تنفذ فيما مضى من خلال عناصر مادية من تروس وروافع ودوافع ومقاومات وملفات ومكثفات وخلافه. على



يعد اكتشاف رقم «الصفر» واحدا من أهم اكتشافات الحضارة الإنسانية بلا منازع، ويرجع الفضل في اكتشافه إلى الهنود القدامى ودياناتهم الهندوسية التي احتفت بالأعداد أيما احتفاء. لقد وهب «الصفر» نظام الأعداد العشري نقطة بداية مثيرة بعد أن كان قبل اكتشافه يبدأ من رقم «واحد»



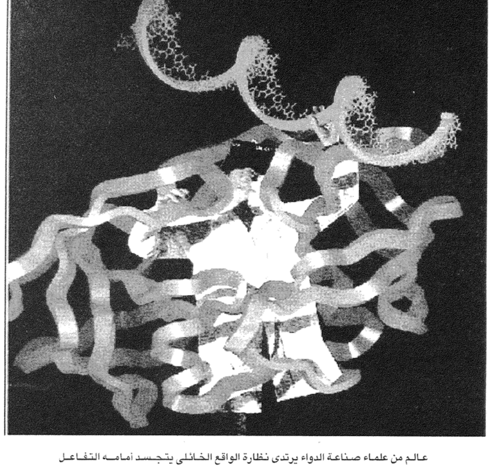


نظارة الواقع الخائلى



حلة البيانات الحساسة

مثالين لأدوات التعامل مع نظم الواقع الخائلى



عالم من علماء صناعة الدواء يرتدى نظارة الواقع الخائلى يتجسد أمامه التفاعل الدينامى بين جزيئات الدواء مع جزيئات البروتينات التى يفرزها فيروس المرض

شكل ٢ : استخدام الواقع الخائلى لتجسيد المجردات

الجانب الآخر، يمكن تحويل البرمجيات نفسها إلى مقابل مادى، وذلك من خلال ما يعرف بأسلوب «معدنة البرمجيات» metalization، حيث يتم صهر البرامج ـ أو حرقها وفقا للمصطلح الفنى ـ فى صلب بلورات شرائح السليكون الالكترونية لتتحول بذلك تعليمات البرمجة، ذات الطابع الرمزى، إلى مقابل مادى من الدوائر الإلكترونية الدقيقة.

كان لتحطيم ثنائية المادى واللامادى انعكاساته الواضحة فى العديد من المجالات، نكتفى منها هنا بالمجالات التالية: المجال الهندسى ـ المجال الاقتصادى ـ المجال الإبداعى، وفيما يلى نبذة مختصرة عن كل منها.

* المجال الهندسى: اقتحمت الهندسة عالم اللاماديات مستحدثة فروعا هندسية جديدة تتعامل مع غير المحسوس مثل: هندسة المعرفة وهندسة اللغة وهندسة النظم، والهندسة الاجتماعية والتكنولوجيا النفسية وخلافه، ولنا أن نتوقع مزيدا من فروع هندسة اللاماديات، فقد تعقدت معظم ظواهر حياتنا بصورة يجب اللجوء فيها إلى الهندسة بصفتها فن التحكم فى النظم المعقدة.

* المجال السياسى: أصبحت القوة السياسية الاستراتيجية مزيجا من القوى الصلبة hard powers المتمثلة فى الأسلحة التقليدية، والقوى الرمزية اللينة soft powers، وخير مثال هنا هو الولايات المتحدة التى أجادت استغلال هذا المزيج اقتصاديا وسياسيا وعسكريا. لقد أيقن الجميع أن المعرفة والمعلومات والإعلام قد أصبحت من أمضى الأسلحة التى يجيد الأقوياء استخدامها، فنراهم يمارسون «الضغط» من خلال القوى التقليدية، ويلجأون إلى «الجذب» من خلال القوى الرمزية، وبهذا يمتزج فرض الحصار وزرع الألغام مع فرض المواقف وزرع الأفكار، ونشر القوات العسكرية مع نشر القنوات الإعلامية، ليصبح لهوائيات هذه القنوات ووابل رسائله الإعلامية قوة تضاهى قوة منصات الصواريخ ووابل قذائفها الصاروخية.

* المجال الاقتصادى: أدى تحطيم ثنائية المادى واللامادى إلى تقويض كثير من الأسس التى قامت عليها النظريات الاقتصادية سواء من حيث وسائل إنتاج السلع والخدمات، أو من حيث طبيعة العلاقة بين الإنتاج والاستهلاك، فكما هو معروف، تختلف أصول المعلومات وسلعها وخدماتها اختلافا جوهريا عن تلك للصناعات التقليدية، ومصدر هذا الاختلاف أن موارد المعلومات ـ على النقيض من الموارد المادية ـ تزداد لا تنقص مع الزيادة فى استهلاكها، ولكن أهم الآثار المترتبة على تحطيم ثنائية المادى واللامادى على الصعيد الاقتصادى هى ـ بلا شك ـ تلك المتعلقة بنظرية القيمة التى تمثل ركيزة أساسية للنظم الاقتصادية على اختلاف توجهاتها. لقد أضافت تكنولوجيا المعلومات نوعا جديدا من القيمة هو القيمة الرمزية، وأصبح رأس المال الذهنى intellectual capital مناظرا لرأس المال المادى، وأصبحت الملكية الفكرية من أهم الأصول الاقتصادية، تشهد على ذلك مفاوضات اتفاقيات الجات، وما نجم عنها من أوجه النزاع فى هذا الشأن.

* المجال الإبداعى: تشير دلائل عدة أن فن عصر المعلومات سيسوده الطابع الذهنى فيما يعرف بالفن المفهومى conceptual art، حيث يمزج هذا الفن بين الأفكار المجردة، وعناصر الفن التقليدية الأخرى من رسوم ونحوت وموسيقى وأداء حى وخلافه. بالإضافة إلى مزج الإبداعى المجرد بالإبداعى المادى، يجوز لنا هنا أن نشير إلى ما يجرى حاليا فى علم الجمال فيما يخص وضع أسس موضوعية، وأحيانا كمية، لتقييم الأعمال الفنية. إن منظرى الفنون يسعون إلى تجسيد المفاهيم المجردة مثل «شعرية» الشعر، و«روائية» الرواية، وموسيقية اللحن، وتماسك النص وخلافه، وسيلتهم الأساسية فى ذلك هو ما تتيحه تكنولوجيا المعلومات من وسائل عملية لإبراز هذه المفاهيم فى صورة محسوسة، فى هيئة معايير كمية ومؤشرات إحصائية وأنماط مختلفة من شبكات العلاقات.

(ب) تحطيم ثنائية الواقعى والخيالى:

يمثل الواقع الخائلى Virtual Reality ذروة ما وصلت إليه تكنولوجيا المحاكاة الرقمية digital simulation، والتفاعل بين الإنسان والآلة، إنه ـ أى الواقع الخائلى ـ ثمرة ما يمكن أن نطلق عليه «هندسة الخيال imagineering" التى تجمع فى كل واحد متسق بين العلم والفن والتكنولوجيا، من أجل إقامة عوالم وهمية من صنع الرموز. ويلزم فى بداية تناولنا لتكنولوجيا الواقع الخائلى التأكيد على أن ما سنتلو من حديث بشأنه ليس بالمرة من قبيل الخيال العلمى، بل كل ما سنورده هنا قد استقيناه مما يجرى حاليا فى معامل البحوث ومراكز التطوير.



لتوضيح مدى انتشار مفهوم الواقع الخائلى نورد أدناه عينة من قائمة الكائنات الخائلية التى يضاف إليها كل يوم كائن خائلى جديد:

* جراحة خائلية.
* سياحة خائلية.
* معمل خائلى.
* معبد خائلى.
* سوق خائلية.
* جماعات خائلية.
* مدينة خائلية.
* مكتبة خائلية.
* مدرسة خائلية.
* جنس خائلى!!

وبغض النظر عن تعدد أشكال نظم الواقع الخائلى، وطرائق التعامل معه، تظل الفكرة المحورية لتكنولوجيا الخائلية هى مفهوم الشعور بالانغماس فى تلك العوالم الصناعية المشيدة من الأرقام والرموز، وتعليق إدراكنا بعدم واقعيتها. يتولد

الشعور بالانغماس بفعل ثلاثة عوامل متضافرة هي: خداع الحواس، وتوليد الأشكال المجسمة ثلاثية الأبعاد، ورد فعل النظام ديناميا مع حركة الرأس، أو حركة العين أحيانا، أو حركة الجسد أو الأطراف أو الأصابع. لقد أسقطت تكنولوجيا الواقع الخائلي الحاجز الفاصل بين الواقعي والخيالي، بين الكائن الفعلي والخائل الرمزي الذي يتمثل لنا في صورة أقرب ما تكون إلى عالم الواقع، ومن خلاله - أي الواقع الخائلي - ننفذ إلى ما وراء شاشة الكمبيوتر، ولم نعد بذلك في حاجة إلى التعامل معه من خلال الأدوات التقليدية مثل لوحات المفاتيح والفارة والأقلام الضوئية وغير ذلك، فما أن نرتدي نظارة الواقع الخائلي، أو نرتدي حلة البيانات الحساسة data suite (انظر شكل ٢) حتى ينفتح أمامنا فضاء رمزي من عوالم الوهم نجوب أرجاءها ونتسكع في مسالكها ونسكن مواقعها، ونتفاعل مع كائناتها الخائلية، نتحسسها ونمسك بها ونقبض عليها ونحاورها ونلاعبها ونراوغها. لقد حررتنا تكنولوجيا الواقع الخائلي من قيود الجسد وقيود النفس وقوانين الطبيعة وقوانين المجتمع. والحال هكذا، فلا عائق أمام من يبحر في هذا الفضاء الرمزي أن يصعد إلى مجرات النجوم أو يغوص إلى أعماق الأرض والمحيطات، وأن يتجول داخل المفاعل النووي دون ما خوف من شدة حرارته وإشعاعاته الفتاكة، بل يمكنه أيضا أن يقلص جسده ليسري مع الدماء في رحلتها عبر الدورة الدموية، أو ينفذ من جدار الخلايا الحية ليعايش ما يجري بداخلها من عمليات بيولوجية، وكما يمكّن الواقع الخائلي الإنسان من الإبحار في المكان، يمكنه - أيضا - من الإبحار إلى أزمنة الماضي الغابرة، واقتحام أزمنة المستقبل القادمة، أو الخلط بينها فيما يعرف بالخلط الزمني time scrambling.

بسقوط الحاجز بين الواقعي والخيالي تتهاوى ثنائيات عديدة عاشت آمادا طويلة، نكتفي منها هنا بـ:

* ثنائية الحرفي والمجازي.
* ثنائية المحسوس والمجرد.
* ثنائية الوعي واللاوعي.
* ثنائية القريب والبعيد.

ونورد فيما يلي نبذة مختصرة عن كل من هذه الثنائيات.

ثنائية الحرفي والمجازي: لقد سيطرت ثنائية الحرفي والمجازي على أسلوب تعاملنا مع المعنى اللغوي، والذي مازال حتى الآن - وربما سيظل - مفهوما مراوغا يصعب الإمساك به، وهو ما انعكس بالتالي على أسلوب فهمنا للنصوص، وكان لهذه الثنائية ما لها من أمور جسام في تفسير النصوص الدينية. لقد أقمنا حوائط الأسمنت بين لغة البسطاء ولغة الشعراء، وجعلنا استخدام الاستعارة وقفا على المبدعين، وتأتي لنا البحوث اللغوية والمعجمية الحديثة لتثبت مدى الخطل في هذا التعسف الشديد الذي ينطوي عليه التفريق بين الحرفي والمجازي، حيث تنظر إليهما هذه البحوث حاليا بصفتهما طرفين لمسار متصل continuumتتوسع على مداه معاني الألفاظ متخلصة من أسر الحرفية المحضة، منطلقة بقوة الاستعارة في فضاء الدلالة الرحيب (كمثال بسيط لمسار التوسع المجازي المتدرج انطلاقا من المعنى الحرفي نتتبع هنا معاني فعل يخرج: يخرج من منزله - يخرج الوليد من الرحم - يخرج اللفظ من الفم - يخرج عن مساره - يخرج من عزلته - يخرج من ورطته - يخرج عن طوره - يخرج علينا بفكرة). إن الفضاء الرمزي الذي تقيمه تكنولوجيا الواقع الخائلي هو بمثابة معمل يمارس فيه المجاز تجاربه الاستعارية، إنه بستان فسيح يمرح فيه المجاز يزهو بأخيلته وقد تجسدت بصورة ملموسة محسوسة، ليصبح الحب نارا، والجدال حربا، والزمن قطارا، والوقت سيفا إن لم تقطعه قطعك.




ثنائية المحسوس والمجرد: إن الإنسان يفضل - أو لنقل تسهل عليه - الرؤية والتجسيد والتعامل مع المحسوس. لقد فرض علينا تعقد العالم أن نجرد ظواهره في هيئة أرقام ورموز وعلاقات، ولكننا نظل في حاجة إلى أن نتمثل مضمون هذه الأرقام الجافة، نراها أمامنا تنمو وتنزوي وتتراكم وتتلاشى، ونريد أن ندرك مغزى الرموز، نراها حية مقرونة بمعناها ودلالتها داخل سياقاتها الفعلية، وأن نقتفي أثر العلاقات في نشأتها وصيرورتها، وهي تعلو وتهبط كالأمواج، وتتفرع كأخاديد المياه. وهكذا تتجسد تلك المجردات أمام ناظرينا في حيوية دافقة، كاشفة لنا عن أسرارها ومغزاها وعلاقاتها. وقد استخدم بالفعل هذا الأسلوب الخائلي الرمزي لتجسيد تقلبات بيانات البورصة ومعاملاتها العديدة السريعة بكل ما تنطوي عليه من كم هائل من المتغيرات والعلاقات الدينامية، وكادت تكنولوجيا الواقع الخائلي أن تصبح وسيلة لا غنى عنها في صناعة أدوية العلاج بالجينات، حيث يتم من خلالها تجسيد المعلومات البيولوجية لتصور لنا ديناميا، وعلى مستوى الجزئيات الدقيقة، مشاهد المعركة التي تتم بين العقار الجيني، وما يفرزه فيروس المرض من بروتينات وإنزيمات (شكل ٢).

لقد أبدع العقل البشري وهو يحول الواقعي المحسوس إلى المجرد النظري، وحان الوقت لهذا العقل أن يمارس الإبداع المعكوس، ونقصد به تحويل المجرد إلى المحسوس، أي أن تتحول الأرقام والرموز إلى شواهد قائمة، والعلاقات إلى جسور عابرة، والبنى المعرفية إلى بنى حقيقية نتجول في سراديبها، ونصعد ونهبط على سلميات تراتبياتها. لقد حولت مطبعة جوتنبرج الأفكار إلى نقوش غائرة في مادة الورق، وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتسلب من الورق المطبوع ماديته بعد أن حولته إلى وثائق إلكترونية. وتساؤلنا هنا: هل يمكن لتكنولوجيا الواقع الخائلي أن ترجع بنا من اللامادي إلى المادي مرة أخرى؟ وهل يمكن أن يكون ما نسمعه عن تكنولوجيا «الطباعة ثلاثية الأبعاد»، التي تحول الصور والأشكال إلى مقابلها المجسم، هي بداية رحلة العودة إلى عالم الماديات والمحسوسات؟ إن هذا الترحال المستمر بين المحسوس والمجرد يمثل حركة ذهنية دائبة، غدوا ورواحا، مما يحفظ للعقول حيويتها، ويحميها ضد داء التصلب والجمود، وربما تضيق معه تلك الفجوة، ما بين النظري والتطبيقي، وبين ما يطرأ على عالم الواقع من ظواهر، وإدراكنا العقلي لماهية هذه الظواهر ومغزاها.

ثنائية القريب والبعيد: لم نعد نفرق بين القريب والبعيد، وبين من يجاورنا ومن يحاورنا على بعد آلاف الأميال، ولقد مكنتنا تكنولوجيا المعلومات من نقل حضورنا ذاته عبر المسافات من خلال عقد المؤتمرات عن بعد، والتي يجري دمجها حاليا مع تكنولوجيا الأشكال المجسمة ثلاثية الأبعاد holography لتوليد ما يعرف بـ«الرؤوس المجسمة الناطقة»، لكي تنوب عن أصحابها في لقائهم الخائلي للحوار عن بعد، هذا هو ما يجري تطويره بالفعل، لكن تكنولوجيا المعلومات تضمر غير ذلك الكثير للإطاحة بثنائية القريب والبعيد، ودعنا نشير هنا إلى مفهوم المدن الخائلية virtual cities الذي يتردد على أسماعنا هذه الأيام، فعن قريب، وعن طريق تكنولوجيا الواقع الخائلي سيتلاقى الأصدقاء في هذه المدن، صنيعة الأرقام والرموز، دون أن يغادروا أماكنهم، فعلى سبيل المثال: يمكن أن يتواعد شخصان، أحدهما في طوكيو والآخر في سان فرانسيسكو، على اللقاء في مدينة باريس الخائلية، يزورون متاحفها ويتسكعون في طرقاتها، ويشاهدون أهلها في خضم حياتهم اليومية. هذا يكفي عن تحطيم ثنائية القريب والبعيد على الصعيد المكاني، لننتقل بحديثنا إلى ما يحدث على الصعيد الزماني، ومحاولات تكنولوجيا الواقع الخائلي لتحطيم ثنائية «الحديث والقديم». حيث يمكن من خلال المحاكاة الرقمية استحضار الماضي بعصوره القريبة والسحيقة لنعيد في فضاء الرموز بناء بغداد الرشيد، وإقامة المواكب الجنائزية في معابد الأقصر، ونسترجع مراحل التطور البيولوجي عبر الأزمنة الجيولوجية المختلفة، بل هناك من يتحدثون عن «الخلود الرقمي»، بمعنى أن يظل الأموات بعد فناء أجسادهم أحياء بيننا، نأنس بوجودهم، ونستهدي بحكمتهم، ونشركهم فيما يستجد في حياتنا من مواقف وفي أذهاننا من أفكار، وحتى لا يبدو حديثنا الراهن ضربا من «الهرطقة الرقمية» فمن حق القراء علينا هنا بعض من الإيضاح. إن كل إنسان يترك وراءه بقاياه الرمزية من صور وتسجيلات صوتية ومرئية ونتاج فكري وإبداعي. يمثل ذلك قاعدة معارف متكاملة يمكن استغلالها لكي نبعث صاحبها «رقميا» من جديد، نحاوره ونسأله رأيه فيما مضى، وفيما يستجد من قضايا، ليجيبنا - إن عنّ له ذلك - من واقع خبراته المخزنة في قاعدة معارفه وبرأسه المجسم الناطق المستخلص من تفاصيل صوره المسجلة على شرائط الفيديو، وبصوته المولد صناعيا من مقاطع صوته المسجلة. إنه الخلط الزمني والتواصل في أقصى صوره مع الماثل والغائب، ومع الخلف والسلف.

ثنائية الوعي واللاوعي: مازال عالم اللاوعي بمنأى عن المعرفة الدقيقة أو شبه الدقيقة، وليس بأيدينا سوى حفنة قليلة من الوسائل التقريبية لاستظهار اللاوعي من أجل التعرف على بواطنه وبواعثه ومؤثراته وتأثيراته. ومرة أخرى، تعمق تكنولوجيا الواقع الخائلي معرفتنا باللاوعي نتيجة ممارستنا الحياة في عوالم الرمز بلا خوف وبلا خجل، وربما تصبح حياتنا في المستقبل ترحال دائم بين دنيا الواقع الفعلي، وبين عوالم الرمز الخائلية، نمارس فيها أحلامنا، ونتنفس من خلالها عما نكبته في دخائل نفوسنا. لتطفو خبايا اللاوعي على السطح وقد تحرر - كما أسلفنا - من قيود الجسد وقوانين الطبيعة وضغوط المجتمع.

خلاصة: لقد وفرت لنا عوالم الواقع الخائلي معملا هائلا نجري فيه ما يستعصي علينا ممارسته في عالمنا الفعلي إما بسبب خطورته أو استحالة تنفيذه أو لعدم تواجده أصلا في دنيا الواقع، وهكذا يمكننا اكتساب خبرات قيادة أضخم الطائرات في محاكي الطيران flight simulator، وأن نتقن إجراء أدق العمليات الجراحية على الأجساد الرقمية، وأن نتصور ما يمكن أن نصادفه ونحن نهبط على سطح كواكب المجموعة الشمسية. إن الواقع الخائلي بتحطيمه مجموعة الثنائيات السالفة الذكر سيعمل على تضييق المسافة بين الواقع والوعي به، بين ظواهر الواقع وقدرتنا على تفسيرها، لتزداد سرعة اكتسابنا لخبرات التعامل مع هذا الواقع، وهكذا تضيق المسافة تدريجيا بين الفكر والوجود، تلك الثنائية الحاكمة التي أقام عليها ديكارت صرحه الفلسفي.

اقتحمت الهندسة عالم اللاماديات
مستحدثة فروعا هندسية جديدة تتعامل
مع غير المحسوس مثل: هندسة المعرفة وهندسة
اللغة وهندسة النظم، والهندسة الاجتماعية
والتكنولوجيا النفسية وخلافه،
ولنا أن نتوقع مزيدا من فروع
هندسة اللاماديات

(ج) تحطيم ثنائية الجماعي والفردي:

يقصد بالجماعي هنا كل ما هو مجتمعي وجماهيري وجملي (كما في إنتاج الجملة) وكل ما يتعامل مع كتل من العناصر المتعددة، أما الفردي فهو الشخصي الذاتي وكل ما يتعامل مع العناصر المنفردة.

لقد عجزت تكنولوجيا الماضي عن التعامل مع الجماعي نظرا إلى تعدد عناصره وكثافة التفاعل بين هذه العناصر، ناهيك عن الديناميات الهادرة وليدة هذا التفاعل وذاك التعدد. وبنفس القدر - وربما يزيد - عجزت هذه التكنولوجيا عن التعامل مع الفردي بما ينطوي عليه من أمور ظلت إلى وقت قريب بمعزل عن التدخل التكنولوجي، من قبيل اللاوعي والذاتية والخيال والقدرة الإبداعية، وغيرها كثير من مظاهر السلوك الفردي. وكيف إذن لمجهولين أن يلتقيا؟ فكان لا بد أن يؤدي ذلك إلى إقامة حواجز فاصلة بين الجماعي والفردي، وهي الثنائية التي ترددت انعكاساتها ومظاهرها في أرجاء المجتمع الإنساني: مؤسساته ونظمه وعلاقاته ووسائل إنتاجه وإبداعه. شتان الفرق بين تكنولوجيات الماضي وتكنولوجيا المعلومات فيما يخص ما تتسم به الأخيرة من قدرات فريدة على التعامل سواء مع الجماعي أو الفردي، فعلى المستوى الجماعي توفر تكنولوجيا المعلومات وسائل عديدة لاحتواء التعدد والتفاعل الدينامي للكيان الجماعي، وهي الوسائل التي تشمل - على سبيل المثال لا الحصر - شبكات الاتصال ونظم المعلومات والإحصائيات وقواعد البيانات ونظم المحاكاة. أما على المستوى الفردي، فقد تجاسرت تكنولوجيا المعلومات - كما سنوضح في الفقرة التالية الخاصة بثنائية الحيوي والفيزيائي - على اقتحام المناطق الحميمة في الإنسان الفرد: مخه وحواسه وجسده ووجدانه. نتيجة لهذه القدرات الفريدة توشك تكنولوجيا المعلومات أن تودي بثنائية الجماعي والفردي ساعية إلى المزج بينهما في أشكال مستحدثة لم تشهدها البشرية من قبل. ولتوضيح ما نقصده هنا سنتناول فيما يلي بإيجاز مظاهر هذا المزج الجماعي - الفردي على جوانب عدة من منظومة المجتمع الإنساني وهي: الجانب المعرفي - الجانب الإبداعي - الجانب الإنتاجي - الجانب التعليمي - الجانب الأخلاقي - الجانب الإعلامي - الجانب السياسي.

الجانب المعرفي: لا جدال في أن معرفة الجماعة هي حصيلة معرفة أفرادها، ولم يكن لهذه المقولة أن تتحقق بصورة عملية محسوسة قبل ظهور تكنولوجيا المعلومات، فمعرفة عصر المعلومات سيتم إنتاجها من خلال التفاعل الشبكي بين أفراد موزعين جغرافيا. إن بمقدورنا حاليا تناول مفاهيم عديدة متعلقة بالمعرفة الجماعية من قبيل الذاكرة الجماعية والملكية الفكرية الجماعية، وأخيرا الذكاء الجماعي collective intelligence، ذلك الذكاء الموزع الذي يتم حصده من مصادر المعرفة المختلفة المنتشرة عبر شبكة الإنترنت، وكما عرفه بيير ليفي(*)، إنه الذكاء وليد تبادل الآراء، وتقدير مواقف الآخرين، وتنمية قدرات الفرد من خلال المواكبة والمشاركة والتفاعل. المشكلة هنا أن الذكاء الجماعي يواجهنا بظاهرة معقدة للغاية دون أن يتوفر لدينا حد أدنى من معرفة كيفية التعامل معه علميا وإعلاميا وتربويا واقتصاديا، لقد ركزنا في الماضي على ذكاء الفرد وذاكرته، ويا ليتنا نجحنا في ذلك، فقد استعصى علينا إلى الآن تحديد مفهوم الذكاء وعجزنا عن توصيفه وتحليله.

الجانب الإبداعي: ارتبط الإبداع في الذهن بالفردية والذاتية، وخير ما يعبر عن تلك المقولة الشائعة: «العلم هو نحن أما الفن فهو أنا». إن عصر المعلومات يكاد يجعل من الفن، هو الآخر، عملا يمتزج فيه الجماعي بالفردي. لقد أوشكت قابلية العمل الفني للامتزاج مع غيره من الأعمال الفنية أن تصبح شرطا أساسيا لفنون عصر المعلومات على اختلاف أنواعها ومدارسها: أدبا وتشكيلا وموسيقى وسينما ومسرحا وأداء حركيا، فبدون قابلية الامتزاج هذه، يصبح العمل الفني معرضا للاندثار والانزواء في طي النسيان. خلافا لما كان عليه العهد في الماضي، فإن فنان عصر المعلومات سينتج ما يمكن أن نطلق عليه «شظايا إبداعية» قابلة للاندماج مع شظايا إبداعية أخرى، فلم تعد مسؤولية الفنان أن يقدم عمله في صورته النهائية في هيئة كتاب أو فيلم أو مقطوعة موسيقية، فهذه المسؤولية باتت تقع حاليا على عاتق من سيقوم بصهر هذه الشظايا الإبداعية في توليفات لانهائية من خلال تكنولوجيا الوسائط المتعددة.

الجانب الإنتاجي: قام إنتاج عصر الصناعة على مفهوم إنتاج الجملة القياسي، في المقابل تتيح تكنولوجيا المعلومات أنماطا مختلفة من الإنتاج تمزج بين إنتاج الجملة والإنتاج الفردي لتصنيع سلع أو خدمات بمواصفات خاصة وفقا لطلب الزبون customized، وتوفر هذه المرونة في الإنتاج القدرة على التجاوب السريع والمتنوع لمطالب الأسواق والعملاء.

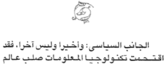
الجانب التعليمي: حولت تكنولوجيا الصناعة مدارسنا إلى مصانع لإنتاج البشر بالجملة، وكم هو باهظ هذا الثمن الذي دفعته البشرية نتيجة لهذا النمط من تعليم الأعداد الغفيرة، الذي يبدد كثيرا من مواهب المتفوقين ويعجز عن أن يقدم يد العون للمتخلفين، ولا شك أن هذا التعليم الجماعي مسئول عن شيوع «المتوسطية» mediocrity، والنمو المتزايد لجحافل الأغلبية الصامتة. من أجل التخلص من تركة الماضي، تسعى تربية عصر المعلومات إلى المزج بين التعليم الجماعي في فصول المدارس، وبين التعلم الفردي في المنازل من خلال الوسائل العديدة للتعلم ذاتيا التي تتيحها تكنولوجيا المعلومات عموما، والإنترنت بصفة خاصة. من جانب آخر، فقد تميعت الحواجز التي كانت تفصل بين المعلم وتلاميذه، فالمعلم يعلم طلبته ويتعلم منهم في ذات الوقت، والطالب يتعلم، ويشارك في ذات الوقت في عملية التعليم من خلال ما يعرف بالتعليم التكافلي collaborative education.



الجانب الأخلاقي: استحدثت تكنولوجيا المعلومات فروعا أخلاقية ذات طابع مغاير تماما لما سبقها. والأمل معقود على تكنولوجيا المعلومات كي تمهد الطريق إلى خلق عالمي، يقوم على المبادئ العامة التي اصطلحت عليها الإنسانية والشرائع والثقافات والحضارات، من قبيل العدل والمساواة والأمانة ورفع المعاناة وأحب لأخيك ما تحب لنفسك. لن ينحصر الأمر، فيما يخص أخلاقيات عصر المعلومات، في نوعية القيم، بل كذلك - وهو الأهم بالنسبة لنا هنا - في أسلوب فرض هذه القيم وإشاعتها على المستوى العام أو الجماعي. فلم يعد مجديا ما كان ساريا في عصر تكنولوجيا الصناعة الذي صاغ الأخلاق في صورة قوانين وتشريعات. لقد ولى عصر «حراس البوابات الأخلاقية»، فأخلاق عصر المعلومات، كما تشير دلائل عديدة، سوف تقوم على المزج بين الإلزام الجماعي والالتزام الفردي. والتحول من الرقابة البوليسية إلى الرقابة الذاتية، والجمع بين سلطة القانون ووازع الضمير، أو بقول موجز، وضع المرجع النفسي الفردي جنبا إلى جنب مع المرجع الاجتماعي الجماعي.



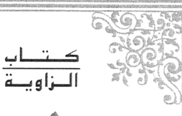
الجانب الإعلامي: عنصر آخر من عناصر الإنتاج الجماعي وليد عصر الصناعة هو الإعلام الجماهيري الذي يبث رسائله إلى الكتل البشرية من المستمعين والمشاهدين. يمثل إعلام الإنترنت نقلة نوعية في هذا الخصوص، حيث يجمع بين الإعلام الجماهيري والفردي، فلأول مرة يمكن أن تبث الرسالة الإعلامية إلى شخص معين، أو جماعة معينة، أو إتاحتها لجمهور المتعاملين مع الشبكة. هذا على مستوى الإرسال الإعلامي، أما على مستوى الاستقبال، فقد أضفت عليه تكنولوجيا المعلومات هو الآخر طابعا فرديا، وذلك بعد أن خلصت «المتلقي» للرسالة الإعلامية - ولأول مرة أيضا - من قبضة مرسلها، وذلك عن طريق ما يعرف بأسلوب «فيديو تحت الطلب» video-on-demand، والذي يمكن المتلقي الفرد من انتقاء رسالة الإعلامية وطريقة عرضها والأوقات التي تناسبه لاستقبالها.



الجانب السياسي: وأخيرا وليس آخرا، فقد اقتحمت تكنولوجيا المعلومات صلب عالم السياسة التي باتت في أمس الحاجة إلى هزة عنيفة تجدد أسسها المعرفية ووسائلها العملية، خاصة فيما يتعلق بالمفهوم السياسي الأساسي ألا وهو مفهوم الديموقراطية. لقد ثبت عجز الممارسات الديموقراطية القائمة على نظام التمثيل النيابي، ويطالب الكثيرون بردها - أي الديموقراطية - إلى نشأتها الأولى، ديموقراطية أسواق أثينا القديمة التي يشارك فيها الجميع، والتي غربت شمسها مع تضخم المجتمعات وامتدادها جغرافيا، ولا يختلف اثنان على أن الديموقراطية ذات صلة وثيقة بأساليب التواصل المتوافرة بين الأفراد بعضهم البعض، وبين الأفراد والمؤسسات. لذا فهناك من يؤكد أن تكنولوجيا المعلومات بما توفره من وسائل اتصالات عديدة ومستحدثة ستؤدي إلى ظهور نمط جديد من الديموقراطية هو الديموقراطية الإلكترونية (أو «الميكروديموقراطية» كما يحلو للبعض أن يسميها). ولعلنا مازلنا نذكر «روس بيرو» المرشح المستقل في انتخابات بوش - كلينتون، وكيف جعل من الديموقراطية المباشرة ركيزة حملته الانتخابية، وشرع في تنفيذ الفكرة بالفعل فيما يعرف بالمجالس المحلية الإلكترونية، حيث تتفاعل أصوات أفراد الجماعة خلال شبكات الاتصالات من أجل الوصول إلى صوت جماعي collective voice يشارك فيه الجميع. التساؤل المطروح هنا: هل يمكن أن يحدث ذلك النقلة النوعية المطلوبة في الأداء الديموقراطي، أم أنه سيخلق نوعا من فوضى تضارب الآراء والمصالح واختلاف المدارك والخبرات؟!

أيقن الجميع أن المعرفة والمعلومات والإعلام قد أصبحت من أمضى الأسلحة التي يجيد الأقوياء استخدامها، فنراهم يمارسون «الضغط» من خلال القوى التقليدية، ويلجأون إلى «الجذب» من خلال القوى الرمزية، وبهذا يمتزج فرض الحصار وزرع الألغام مع فرض المواقف وزرع الأفكار





كتاب الزاوية



أسباب عظمة العرب

إن الزمن الذى ظهر فيه العرب من العوامل التمهيدية فى قوتهم، وإن لعامل الزمن التمهيدى أهمية كبيرة فى حياة الأفراد والأمم، وإن هناك صفات لا تَبرُز إلا فى وقت معين، فلو ظهر نابليون فى زمن لويس الرابع عشر ما استطاع أن يصير سيد أوروبا، ولو ظهر مُحمَّد أيام سلطان الرومان ما قَدَرَ العرب على الخروج من جزيرتهم لاريب، ولظلَّ التاريخ جاهلاً لهم.

وُلِدَ مُحمَّد فى أحسن الأوقات، وقد رأينا أن العالم المُسِنَّ كان متصدعًا فيه من كل جانب، ولم يتوجب على أتباع مُحمَّد إلا أن يَهُزُّوه ليتساقط.

بيد أن القضاء على دولة لا يكفى لإقامة حضارة، ويدل عجز البرابرة الذين وَرِثوا حضارة الرومان فى الغرب، كما ورثها العرب فى الشرق، على ما فى إقامة الحضارات من المصاعب، وإذا كان ذلك العامل التمهيدى مساعدًا على إنشاء دولة جديدة وحضارة جديدة فلابد من عوامل أساسية أخرى لإقامتهما مما نُعيِّنُه الآن.

وتأثير العرق من أهم تلك العوامل التى نذكرها:

رأينا أن من أهم خصائص العرق أن يتصف أفراده، على الخصوص، بمشاعر وقابليات متماثلة وأن يوجهوا جهودهم نحو غرض واحد، وهذه المشاعر المتماثلة التى تكونت بتعاقب الوراثة، أى التى تتألف الأخلاق القومية من مجموعها، هى تراث ماضٍ ساعد أجدادنا على تكوينه فنساعد على تكوينه أيضًا من أجل ذُرياتنا، وهذه المشاعر، وإن كانت تختلف بين شعب وشعب لا تختلف إلا قليلاً فى الشعب الواحد.





(د) تحطيم ثنائية الحيوى والفيزيائى:

الحيوى هو العضوى الذى يشمل كل الكائنات الحية، وكل مكوناتها من أعضاء ونظم وخلايا. إنه الكائن ذو القدرة على الحركة الذاتية والتكيف التلقائى مع البيئة، الدينامى دائم التطور نموا أو ضمورا. أما الفيزيائى، أو غير العضوى، فيشمل كل الموجودات المادية غير الحية، التى لا تقدر على الحركة إلا بفعل مؤثر يأتيها من خارجها. لقد قامت منظومة العلوم الطبيعية على مبدأ الفصل بين البيولوجيا (علم الأحياء) والفيزياء (علم الطبيعة)، ولكن الحاجز بين هذين الفرعين الأساسيين للمعرفة الإنسانية على وشك الانهيار حاليا، فهناك من ينظر إلى «الفيزياء» بصفتها حالة خاصة من «البيولوجيا»: حالة «الصفر البيولوجى» أو «بيولوجيا اللاحياة» lifeless biology كما أطلق عليها البعض.

إن المعلوماتية الحيوية تزلزل الأرض التى قامت عليها ثنائية الحيوى والفيزيائى، وخير شاهد على ذلك ما يحدث على جبهتى تكنولوجيا تصنيع الكمبيوتر وتكنولوجيا المخ والأعصاب. فعلى جبهة تصنيع الكمبيوتر يجرى حاليا تطوير شرائح إلكترونية تمزج بين العناصر الحيوية والعناصر الفيزيائية السيلكونية فيما يعرف بتكنولوجيا «البيوسيلكون»، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن تكنولوجيا المعلومات فى طريقها من خلال المعلوماتية الجزيئية molecular informatics إلى تحقيق مستويات من التصغير المتناهى تفوق الخيال، وهو ما سيمكن من صنع كائنات معلوماتية اصطناعية بالغة الصغر ذات قدرة هائلة على حفظ المعلومات ومعالجتها مما يمكن أن نطلق عليه «النانو - روبوت» أو «الفيروس الاصطناعى الحميد» الذى يمكن أن نبعث به داخل أجسادنا ليحط على خلايانا يحاورها بلغة الجينات، اللغة المشتركة التى تتحدث بها خلايا جميع الكائنات الحية. إنها الثورة العارمة التى نشهدها حاليا على ساحة العلاج بالجينات - الذى أشرنا إليه سلفا - حيث تتضافر التكنولوجيا البيولوجية والمعلوماتية فى إصلاح ما يطرأ على الأجساد من خلل ونقص، وهناك - كما تعرف - بحوث تجرى حاليا لإطالة الأعمار من خلال تجديد الخلايا بأساليب تكنولوجية تقوم أساسا على اكتشاف العناصر الجينية التى تتحكم فى الميقات البيولوجى (ساعة أعمارنا).

لقد أصبحت أجسادنا مكشوفة للتدخل التكنولوجى، من استخدام الأطراف والمفاصل الصناعية، ومنظمات دقات القلب والقلوب الاصطناعية، إلى تصنيع الأعضاء البشرية من خلال تكنولوجيا الهندسة الوراثية، وهناك من تمادى إلى حد التكهن بإمكان إعادة تشكيل الجسد الإنسانى وفقا لما نريده له من خلال عملية إحلال شاملة، وليتمعن معنا القراء فى مغزى ما يتردد على ألسنة هؤلاء من أن الجسد الإنسانى إلى زوال body is obsolete.

أما على جبهة تكنولوجيا المخ والأعصاب فالموضوع بلا شك أكثر إثارة وجسارة وجسامة. لقد استغل أهل تكنولوجيا الأعصاب حقيقة أن كلاً من المخ والكمبيوتر يعمل على أساس الإشارات الكهربية وكونهما يشتركان فى كثير من أمور معالجة الأنساق الرمزية، فالمخ - فى نظر هؤلاء - ما هو فى نهاية الأمر إلا آلة فائقة لمعالجة الرموز من خلال تبادل الرسائل البيولوجية - الكهربية. إن هناك هجمة شرسة على المخ البشرى جعلته عرضة للتدخل التكنولوجى المباشر من خلال توجهين رئيسيين:

التوجه الأول: إقامة وسائل لتوصيل المخ البشرى مباشرة مع الكمبيوتر بحيث يمكن قراءة ما بذاكرته من معلومات ومعارف ومفاهيم، ليصبح المخ البشرى أشبه ما يكون بقرص مدمج CD-ROM يتم استرجاع البيانات منه.

التوجه الثانى: وينطلق من اعتقاد البعض أن المخ البشرى لم يعد قادرا على مواجهة تعقد الظواهر من حوله، وهو الأمر الذى يتطلب - فى رأيهم - ضرورة اللجوء إلى مؤازرات اصطناعية تضيفها عليه تكنولوجيا المعلومات، وذلك بزرع عناصر تكنو - أعصابية neuro-technological implant، وذلك بهدف الوصول إلى ذكاء فائق يمكِّن الإنسان من حل مشكلاته التى تزداد صعوبة يوما بعد يوم، ودعنا نستمع هنا إلى ما يقوله فرنسوا ليوتارد، فيلسوف ما بعد الحداثة، فى هذا الشأن: «إن الهدف من كل البحوث المعاصرة إما تحرير المخ البشرى من القيود البيولوجية التى تتعرض لها كل الكائنات الحية، وإما تصنيع نظام بديل لا يعتمد أداؤه أصلا على هذه القيود»، وهو الأمر الذى وضعه مركز بحوث «ماكس بلانك» بألمانيا موضع التنفيذ حيث يسعى حاليا إلى تعزيز المخ الد شرى بذاكرة اصطناعية، وذلك بزرع شريحة الكترونية داخل المخ البشرى، ذاكرة لا تخبو، ولا تنمحى، تحمل المعارف والمفاهيم دون ما جهد فى تحصيلها، ولا يدرى أحد هل يمكن إحداث نوع من التآلف التعاضدى symbiosis بين المخ البشرى الواهن المتميع ذى المرونة الهائلة، والقدرة الفائقة على التكيف والتداعى؛ وعلى استحداث الجديد وإعادة صياغة القديم، وبين العناصر التكنولوجية الصلدة الصامدة ضد عوامل الزمن ذات القوة الهائلة على معالجة المعلومات وتخزينها بمعدلات تفوق بكثير قدرات المخ البشرى.

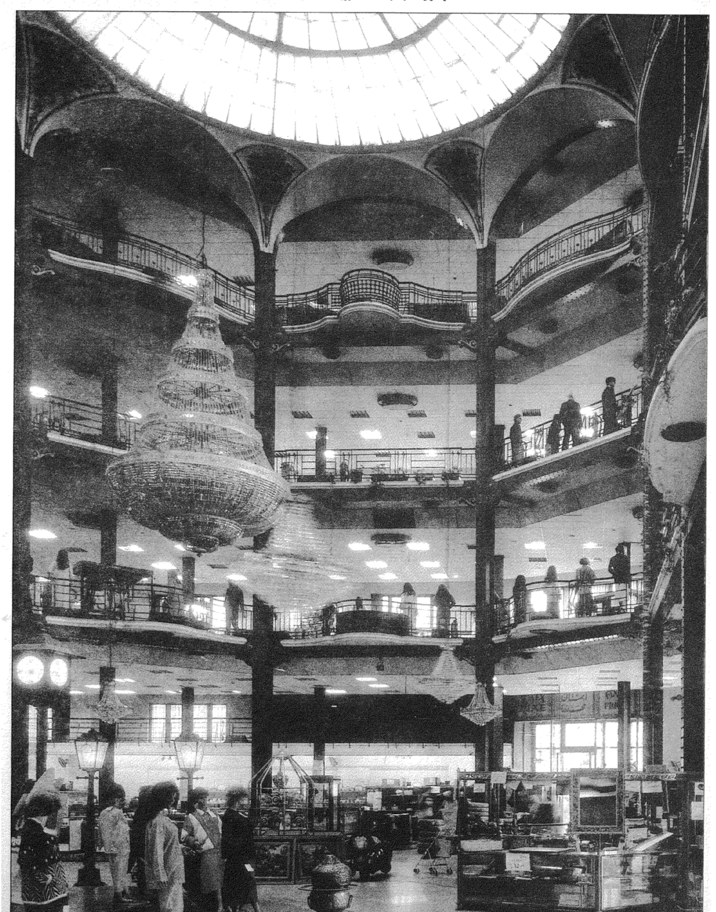
إن تحطيم ثنائية الحيوى والفيزيائى تتجلى فى أقصى صورها فى المواجهة الحاسمة بين البشرية والآلية، ويبقى السؤال هنا: هل تأهلت البشرية لهذا اللقاء؟. فى رأى الكثيرين - ونحن معهم - أنها لم تتأهل بعد، فكيف لهذا «الحوار البشرى - الآلى» أن يحدث فى ظل «الصراع البشرى - البشرى» الذى يشتد أواره فى عالمنا؟! وها هى ثنائية الصفر والواحد على المستوى الميكروى تكاد تفرز ثنائية أخرى على المستوى الماكروى الاجتماعى، ونقصد بها ثنائية الغنى والفقر «بالمعنى المعلوماتى»، متمثلة فيما يعرف حاليا بـ «الفجوة الرقمية» التى تزداد اتساعا يوما بعد يوم، لتفرق بشدة بين من يملك المعلومة ومن يفتقدها. ■

هامش

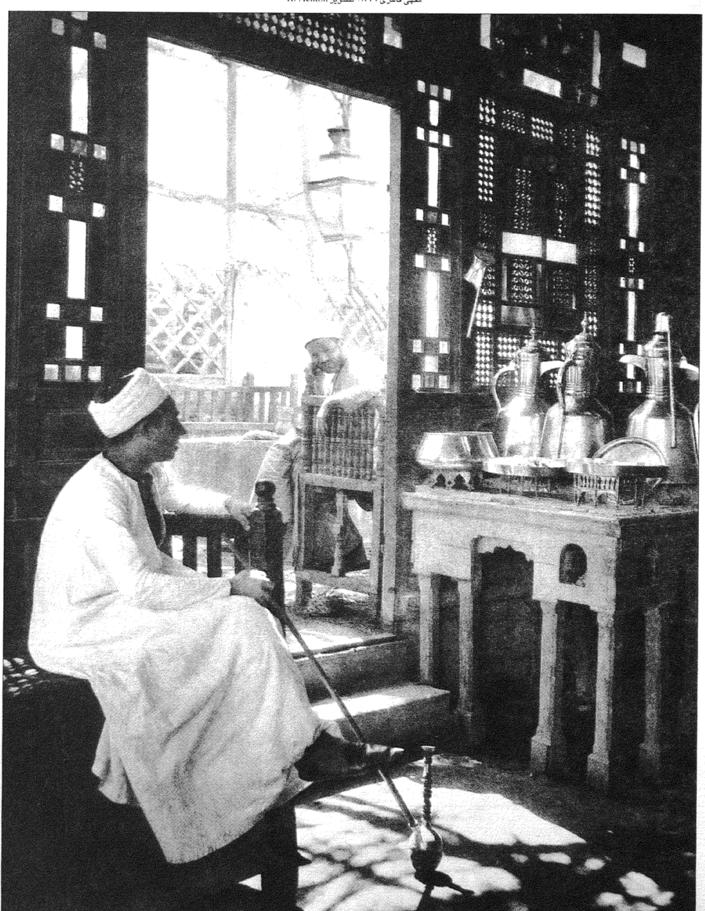
(*) فى كتابه «بعنوان collective intelligence» الذى ترجمه عن الفرنسية روبرت بونونو.

القاهرة مدينة لا تشيخ .. تداخل القديم

صيدناوى الخازندار ١٩١٣ تصوير Georges Parca



مقهى قاهرى ١٨٩٦ تصوير R. Achton



القاهرة.. مدينة لا تشيخ

ليلى حافظ

> ظلت القاهرة منذ نشأتها تعتبر كما وصفها ابن خلدون عندما وصل إليها في عام ١٣٨٣: «عاصمة العالم، حديقة الكون، مكان التقاء الدول، ذات مكانة عالية في الإسلام»

■ بالمقارنة بكل ما يحيط بها تعتبر القاهرة «مدينة حديثة»، شابة لا يتجاوز عمرها ١٠٣٢ عاما. عاشت تاريخا طويلا أثار دائما اهتمام العالم بما يزخر به من أحداث وتحولات، «كشف قدرتها على مقاومة الضغوط الهائلة التي تفرضها عليها البيئة التي تحيط بها». هكذا وصفها جان لوكلان السكرتير الدائم لأكاديمية النقش وفن الخط الفرنسية في تقديمه لكتاب: «القاهرة: الفن والحضارات العظيمة» الذي صدر مؤخرا في فرنسا، حول «القاهرة» العاصمة المصرية التي «عرفت دائما كيف تتأقلم مع أكبر مشاكلها وهي التلوث البيئي والتزايد المفرط في سكانها». ويقول جان لوكلان: «إن الإعجاب الحقيقي الذي تثيره العاصمة المصرية يعود أساسا إلى أن مدينة الألف مئذنة تكشف بكل وضوح عن الانتصار المستمر للعمل الشاق والعبقرية الإنسانية».

ظلت القاهرة منذ نشأتها تعتبر كما وصفها ابن خلدون عندما وصل إليها في عام ١٣٨٣: «عاصمة العالم، حديقة الكون، مكان التقاء الدول، ذات مكانة عالية في الإسلام». ومع توالي الحقب والحكام عليها حتى قبل أن تكتسب اسم «القاهرة» نسبة إلى النجم «القاهر»، ورغم تباين مكانتها السياسية من حقبة إلى أخرى، ومن فترة حكم إلى أخرى، إلا أنها ظلت هي العاصمة الثقافية والفنية والدينية للعالم العربي، وظلت تحمل بين جنباتها كل العوامل التي تجعل منها مدينة لا تشيخ.



التداخل الزمني والديني:

من بين أهم العوامل التي جعلت من «القاهرة» ومن قبلها منف وبابليون وكل العواصم الأخرى التي بنيت في نفس المكان، مدينة لا تشيخ هو هذا التداخل الهائل بين القديم والحديث، وهذا الامتزاج العجيب بين الأديان المختلفة والتي أعطت القاهرة القدرة على التعايش وعلى الاستمرار.

فيسرد كتاب «القاهرة: الفن والحضارات العظيمة» تاريخ المدينة وتطورها العمراني والمعماري والفني الذي تميزت به عن سائر المدن بأنه لم ينمُ في خط مستقيم بل تطور واتسع بشكل متقطع، مترددا أحيانًا، ومتنافس أحيانا أخرى. بل وفي أحيان كثيرة في تداخل وامتزاج مدهش بين القديم والحديث. فتمتد هيليوبوليس الجديدة التي أسسها البارون البلجيكي عام ١٩٠١ مع هيليوبوليس القديمة التي عرفت باسم

Le Caire
القاهرة
Andre Raymond, Ghislaine Alleaume, Jean- Pierre Corteggiani, Sylvie Denoix, Jeqn- Claude Garcin, Mercedes Volait
Citadelles & Mazenod, 2000, 492PP

«أون»، والتي يتوقع عالم الآثار جان بيير كورتيجاني أن تكون قد بنيت على مساحة شاسعة من الأرض. فقد قام العلماء القادمون مع حملة نابليون في بداية القرن التاسع عشر بتحديد ارتفاع أسوار هيليوبوليس إلى أكثر من ١٢ مترا طولا. بينما تشهد آثارها على مجدها، خاصة كل تلك المسلات التي انتزعت منها لتشيد في الإسكندرية أو في روما أو في العديد من العواصم الغربية الأخرى.

ومن ناحية أخرى تشهد مدينة منف، العاصمة الثانية لمصر في العصر الفرعوني على آثار هائلة مثل المقابر التي عرفت باسم «مدينة الموتى»، وتمثال رمسيس الثاني الضخم كما يشهد عليها تمثال لأبي الهول نحت من المرمر الأبيض في الجزء الأول من الأسرة الثامنة عشرة. فليس عجيبا إذن أن يقول عنها أحد علماء التاريخ العرب في عام ١٢٠٠ أن آثارها «تحوى الكثير من العجائب التي تحتار فيها العقول، ولا يستطيع حتى أكثر الرجال بلاغة أن يصفها».

امتد العمران والمعمار من منف التي كانت تقع بين البدرشين وميت رهينة جنوبي القاهرة الحالية، إلى قلب المدينة الحالية، مصر القديمة، والتي شهدت في عهد رمسيس الثاني نشأة بابليون التي استمرت إلى العهد الروماني ثم شهدت ظهور الكنائس المسيحية والآثار القبطية الغنية. كما شهدت بناء المعابد اليهودية وأشهرها معبد «بن عزرا». ووسط تلك المشاهد القبطية واليهودية فتح عمرو بن العاص مصر لتمتزج العاصمة العربية والإسلامية مع القاهرة القبطية. فيقول كورتيجاني إن الفتح العربي جاء ليستقر في منطقة بالقرب من تلك المدينة القديمة، لذا أصبحت هذه المدينة هي حلقة الوصل التي ربطت بين عصرين عظيمين في تاريخ مصر.

وتقول سيلفي دونوا في الفصل الذي يحمل عنوان «القرون العربية الأولى» أنه حتى وإن تعرضت بعض الكنائس إلى التلف أو التدمير، بعد الفتح الإسلامي والعربي لمصر، إلا أن المسيحيين بصفة عامة كان بإمكانهم ممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية، وفي الفترة ما بين عامي ٧٩٩ و٨١٩ تم ترميم كل الكنائس في القاهرة.



الامتزاج الأجنبي والمصري:

منذ الفتح العربي لمصر، وتشييد الفسطاط التي بناها عمرو بن العاص، كعاصمة عربية لمصر، شهدت المنطقة توالي العصور المختلفة العربية ثم الأجنبية، فانتقلت من حكم الفاطميين ثم الأيوبيين وبعدهم المماليك ثم جاء العثمانيون إلى أن انطلقت القاهرة إلى العصر الحديث في القرنين التاسع عشر والعشرين الذي أطلق عليه «عصر التحول». ولقد عكست العصور المختلفة على القاهرة تأثيرها السياسي على أسلوب الحياة الثقافية والفنية والمعمارية، كما طبعت القاهرة عليها مذاقًا مصريًا خاصًا ترك بصمته على فنونها وثقافاتها.

فكان أول ما تأثر بهذا الامتزاج بين الأسلوب العربي والأجنبي مع المذاق المصري، هو فن العمارة والمعمار. فتقول سيلفيا دونوا إن المنازل الخاصة في مصر قبل الفتح الإسلامي كانت ترتفع عدة طبقات. وعندما جاء العرب تبنوا نفس الأسلوب، ويقال إن عمرو بن العاص بعث إلى الخليفة عمر ابن الخطاب يسأله إن كان من الممكن أن ترتفع مباني المسلمين عدة طبقات، فأجابه بالإيجاب بشرط ألا يستطيع من يسكن الطبقات الأعلى أن يسترق النظر إلى جاره الذي يسكن الطبقات الأسفل. وبعد ذلك انتقل حكم الدولة إلى العباسيين الذين بنوا أحياء لكل فرقة من فرق الجيش، ثم جاءت الدولة الطولونية لتبنى «القطائع» نسبة إلى التخطيط المتقطع للأحياء، حيث تعيش كل طبقة اجتماعية معا في حي واحد، وطبع الطولونيون بصمتهم على القاهرة فبنوا مسجد ابن طولون أروع المساجد الإسلامية ومستشفى وشيدوا «مقياس النيل» جنوبي جزيرة الروضة.

وفي القرن العاشر ميلاديًا ازدهر الفاطميون في المغرب، ثم انطلقوا إلى حكم مصر حيث نقلوا معهم أسلوبًا معينًا من الحياة، فانتقل معهم كل التوهج والمجد والبذخ الذي عرفوا به.

يقول جان كلود جارسان إن الفاطميين جاءوا إلى مصر بفكرة معينة عن شكل عاصمتهم، ووضعوا أسس تلك العاصمة كأمراء وليسوا كائمة. لذلك أصبحت القصور، وليس المساجد، هي الأقطاب الأساسية التي بنيت عليها «القاهرة» الفاطمية. وتتويجا لتلك الفكرة، عاشت مصر قرونا من التوهج والمجد في العصر الفاطمي.

فعندما حددوا شكل العاصمة الجديدة «القاهرة» حسب طقوسهم الفلكية، وقرروا المساحة التي ستقام عليها، بنى جوهر الصقلي قصرين ومسجدا، واكتسبت القصور الفاطمية وهجا وبذخا يليق بسكانها الأمراء. وبالنسبة للحاشية والجنود والطبقات الاجتماعية المختلفة أسس جوهر الصقلي ما عرف باسم «الحارة». فتكونت «حارة الأمراء» حيث كان يعيش النبلاء و«حارة قائد القوات» التي سكنت فيها حاشية الصقلي، ثم تكونت حارات مختلفة لكل فئة عرقية فعرفت «حارة الأتراك» و«حارة الأكراد» و«حارة الروم» ثم حارات أخرى للقبائل المختلفة مثل «حارة قتامة» و«حارة زويل» والأخيرة أعطت اسمها لأحد أبواب القاهرة الجنوبية.



مشروع الفاطميين كان دينيا:

تصف سيلفي دونوا أنه برغم كل شيء يبقى تحت أنظارنا البنايات الكبيرة التي تضم السور وبواباته الضخمة، والمساجد، خاصة بل أولاً، مسجد



الأزهر. فرغم حياة البذخ والرفاهية التي كان يعيشها الأمراء في ذلك العصر، إلا أن مشروع الفاطميين كان أولاً مشروعًا دينيًا. فدأبوا طوال فترة حكمهم على دراسة الحكمة في نصوص الفكر الشيعي، واستمروا في نشر دعوتهم في مصر وفي بلدان الشرق الأخرى، فكان منهم من شيد العديد من أماكن العبادة، ووضع أسس العمارة الجنائزية.

كان أهم ما شيده الفاطميون في مصر من مساجد، مسجد الأزهر الشريف نسبة إلى فاطمة الزهراء. ولقد بدأ العمل فيه مع مجيء جوهر الصقلي إلى مصر عام ٩٦٩، وانتهى العمل فيه في عام ٩٧٢م مع مجيء أول الخلفاء الفاطميين المعز لدين الله. وفي عام ٩٨٢ أصبح المسجد مكان علم أيضًا يضم ٣٥ معلمًا، ثم ضم إليه فندق ليؤوي المعلمين والتلاميذ. واستمر الأزهر يقوم بدوره الديني والتعليمي، ليصبح منارة للعلوم الإسلامية حيث تعلم معظم علماء الإسلام من المغرب وحتى أندونيسيا.

استمر بناء المساجد في تلك الفترة، التي شهدت مسجد الحكيم الذي توسع على مدى السنوات، ليصبح مسجدا ضخما، ثم بني مسجد «الأقمر» عام ١١٢٥ والذي كان أول مبنى تفتح بوابته على مستوى الشارع.



الصفة العسكرية للقاهرة:

في هذه الفترة تغيرت جنسية حكام مصر، ومعهم تغير مفهوم الحكم وبالتالي تغير أيضا الطابع المعماري والفني الذي ساد. ويقص جان كلود جارسان كيف أنه يمكن أن نطلق على تلك الفترة التي استمرت مائتي عام «عصر الوسط» لمدينة القاهرة، وهي تلك الفترة التي تلت «العصر الكلاسيكي» حيث كان يحكم البلاد الإسلامية خليفة من بغداد أو قرطبة أو القاهرة. ولكن في العصر الوسط لم يعد يحكم مصر،عرب، بل أجناس مختلفة اتخذوا لأنفسهم منصب «السلطان» وحرصوا على خدمة الإسلام من أجل أن يعطوا أنفسهم شرعية، فكان أن مارسوا المذهب السني الذي كان يمارس في أغلب الدول الإسلامية الأخرى مما أضاف إلى الطابع العمراني والمعماري المصري في القاهرة صفة جديدة تتشابه مع كل المدن السنية الأخرى.

بالإضافة إلى الطابع السني الديني، كانت من أهم الصفات التي لازمت الحكام الجدد للقاهرة الصفة العسكرية. فلقد حكم مصر في تلك الفترة عسكريون مدربون تدريبًا عاليًا، يستخدمون الجياد. فكان لابد لهم من مساحة جغرافية لكي يتدربوا فيها ويتطوروا، كما كان لابد لهم من قلاع يحتمون فيها في حالة وجود خطر يهددهم (الحملات الصليبية والهجمات المغولية). لذا انعكست تلك الصفات على «المجتمع المدني» الذي كانوا يحكمونه، وتأثر بها التطور العمراني الذي صاحب تلك الفترة والذي استمر ولم يمح تمامًا مع الانتقال إلى العصور التالية كما حدث مع الطابع العربي السابق.

كان أهم هؤلاء الحكام الجدد للقاهرة صلاح الدين الأيوبي، الحاكم الوحيد لمصر عام ١١٧٤، الذي جاء من أصول كردية عسكرية. والملك الظاهر القائد بيبرس (١٢٦٠) الذي تحول إلى أسطورة حقيقية.

كانت أهم مشاهد الحكم العسكري الجديد بناء القلعة على هضبة المقطم والتي انتهى العمل فيها عام ١٢٠٨، ومنذ ذلك التاريخ انتقل مركز الحكم إلى القلعة. لم تكن القلعة هي المشهد الوحيد للحكام الجدد، ولكن انتقل طابعهم ليشمل كل الامتداد العمراني للبلاد. وأكبر أمثلة له مقبرة الإمام الشافعي، التي تمثل المعمار الديني السني والذي اختلف كلية عن الطابع الشيعي الذي ساد في عصر الفاطميين. كما انتشر في العصر الجديد أيضًا بناء «المدرسة» والتي اعتبرت مركزا لدراسة القانون والمذاهب السنية الإسلامية الأربعة المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي، لتعليم الصفوة من أبناء البلاد، فشهد العصر الأيوبي بناء ٢٥ مدرسة أغلبها في الفسطاط، وهو ما بدا منطقيًا حيث كان يهيمن جامع عمرو بن العاص على مركز النشاط القانوني.

وهكذا عرفت القاهرة في تلك الفترة العمارة القاهرية واكتسبت طابعًا خاصًا بها. ثم ابتداء من عام ١٢٥٠ انتهى حكم الأسر الكبيرة الكردية وتولى المماليك، العبيد الذين تحرروا والتحموا مع السلطة السياسية والعسكرية، حكم مصر مما عكس القوة الإقليمية التي كانوا يتمتعون بها فور انتهاء فترة الحملات الصليبية. وكانت فترة حكم الملك الناصر (توفي عام ١٣٤٠) هي التي وصلت فيها تلك القوة إلى الذروة. ففي تلك الفترة توسعت المدينة إلى الشمال، وإلى الغرب وإلى الجنوب. وكان للشارع الرئيسي في المدينة، المعروف باسم القصبة، دور مهم في ازدهار «خان القوافل» الذي كان يستقبل التجار والمسافرين، وتركز فيه نشاط تجاري كبير ومكثف مع أوروبا والشرق.



انحسار سياسي وتألق فني:

ليس صحيحا أن القاهرة شهدت انهيارا بطيئا منذ أن وقعت تحت الحكم العثماني في عام ١٥١٧، والذي استمر ثلاثة قرون. الصحيح أنها شهدت تراجعا في أهميتها السياسية، فقد تحولت إلى عاصمة إقليمية مع انتقال المركز السياسي والثقافي إلى أسطنبول. كما أنها أصبحت تحصل على مخصصات مالية أقل والتي كان يذهب معظمها إلى التطور الثقافي في البلاد. وأخيرًا كان حكامها في ذلك الوقت لا يتعدون مستوى الباشا يتلقون تعليماتهم من الباب العالي، يتحدثون التركية ويهتمون بالثقافة التركية ويبقون في القاهرة بصفة مؤقتة.

ورغم كل ذلك، ظلت القاهرة، عاصمة مصر، تعتبر أكبر دولة في العالم العربي مع كثافة سكانية بلغت في هذا الوقت أربعة ملايين نسمة، وظلت العاصمة الثقافية والفكرية والدينية بلا منازع. وذلك إلى حد كبير بسبب قوافل الحجاج التي كانت تقف في القاهرة في طريقها إلى مكة، والدور الرائد الذي لعبه الأزهر كجامع وجامعة. وفي نفس الوقت لم يكن للحكام العثمانيين الذين حكموا مصر أي رغبة في التأثير على ثقافتها أو فرض لغتهم التركية، بل بالعكس فقد كانوا يحترمون كثيرا اللغة العربية، لغة القرآن. وفي عام ١٧٤٨ جاء أحمد باشا إلى القاهرة فقال معبرًا عن إعجابه بها: «القاهرة تعتبر عندنا منبع العلوم والمعرفة».

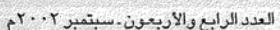
أيضًا في هذا العصر كانت القاهرة تقع وسط المساحة الشاسعة التي كانت تحتلها الامبراطورية العثمانية، فاعتبرت مركزًا تجاريًا أساسيًا للتجارة القادمة من الشرق. وهكذا استمرت القاهرة في التطور والاتساع، والنمو. وذكرت موسوعة «في وصف مصر» أن في عام ١٧٩٨ كانت القاهرة تضم ٢٥٠ ألف نسمة، على مساحة ٦٦٠ هكتارًا: لتظل واحدة من أكبر المدن في حوض البحر المتوسط.

مثل كل العصور التي سبقت الحكم العثماني، انعكس هذا العصر في الفنون المعمارية. ورغم أن العمارة العثمانية لم تركز على الاتساع الذي ميز العمارة المملوكية، إلا أنه يمكن القول أنها اقترضت من المملوكية تقاليدها بالإضافة إلى تأثير الفنون المتوسطية. ويقول أندريه ريمون في سرده لتلك الفترة التي استمرت من عام ١٥١٧ إلى ١٧٩٨، أي نحو ثلاثة قرون، أنه في ذلك الوقت تشكلت الصورة العمرانية التي تستخدم اليوم كمرجع للتراث المعماري الذي تهدده الحداثة التي زحفت على القاهرة فيما بعد.

ففي هذا العصر انتشر بناء المساجد التي كانت تقوم بدور تعليمي كبير، مثل مسجد الحسين، كما شهدت القاهرة بناء المدارس «الكتاتيب»، وعرفت «المجالس» التي كان يشارك فيها العلماء والمثقفون. وفي القرن السادس عشر عرفت القاهرة «القهوة»، هذا المكان الجديد الذي انتشر على مستوى الطبقات المتوسطة والشعبية والذي كان من شأنه إحداث تغييرات جذرية في العلاقات والعادات الاجتماعية. فمع ظهورها عرف القاهريون الأماكن العامة للقاء وتناول الطعام. ومع الوقت تحولت تلك الأماكن إلى مراكز لانتشار الثقافة والنصوص الأدبية مثل ألف ليلة وليلة وتبادل الأفكار والآراء، وأيضا للسمر والاستماع إلى الموسيقى والرواة. ومن هنا أيضًا بدأت نواة المسرح مع مسرح خيال المآتا (الأراجوز). لذا مع القهوة بدأت منذ القرن السادس عشر تتشكل الثقافة الشعبية لدى المواطنين القاهريين.



تمثال نهضة مصر للمثال مختار





محلات عمر أفندى ش عبدالعزيز ١٩٠٨ تصوير Raon Brandon

محلات تيرنج ـ العتبة الخضراء ١٩١٣ تصوير Oscar Horowitz

الحـــــــداثـة في القـاهرة التـقليـدية:

شهدت القاهرة فى القرنين التاسع عشر والعشرين انتقالاً إلى «الحداثة» فى خطوات تدريجية، وإن كانت شهدت بعض التراجع فى عصر محمد على بسبب جهوده وطموحاته التى كانت تتطلع إلى إدخال مصر إلى عالم حوض البحر الأبيض المتوسط، لذا انتقل الثقل الأساسى السياسى والاجتماعى والثقافى إلى الإسكندرية. ولذا تأخر «تحديث» القاهرة إلى أن بدأ حكم الخديوى إسماعيل، الذى نقل المدرسة الباريسية فى العمارة والتى أسسها أوسمان، الذى بنى الأحياء الجديدة لتوائم باريس فى نظامها الخاص بشبكة الطرقات والعمارة.

فى القرنين التاسع عشر والعشرين، تسرد كل من جيسلان آلوم ومرسيدس فوليه تطور القاهرة السياسى والاجتماعى والثقافى، وأيضًا تطورها العمرانى والمعمارى الذى ساد المدينة منذ عام ١٨٩٠ والذى ترجم عن طريق تطوير العديد من اللغات المعمارية المتنوعة، والتى يشهد عليها حى مصر الجديدة (هيليوبوليس)، وإن لم يكن المثل الوحيد. فقد كانت هناك نبرة تدعو إلى العودة إلى العمارة العربية مع التحديث، فشهدت القاهرة تشييد مبان حكومية على هذا الطراز الجديد مثل محطة مصر للسكة الحديد، ومتحف الفن الإسلامى (١٨٩٨ ـ ١٩٠٣). ثم انتقل الطراز الجديد إلى المساكن الخاصة، فلم تعد هيليوبوليس الحى الوحيد الذى يمثله بل انتقل إلى حى شبرا والحلمية الجديدة أو العباسية كما أطلق عليها. كما انتقل إلى حى المنيل حيث تم بناء قصر المنيل بمبادرة من الأمير محمد على. فإن كان التطور العمرانى يمثل الاستمرارية، فإن التطور الثقافى ظل يؤكد الريادة التى كانت للقاهرة كعاصمة عربية ثقافية.

استمرت عملية التحديث أيضا بل وتأكدت مع الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢. فى تلك الفترة أسرعت الخطوات فى التحديث وزاد عدد سكان العاصمة إلى مليون نسمة فى عام ١٩٣٠ وبنفس الإيقاع السريع فى زيادة السكان، كان التوسع فى بناء الجسور وشبكة المواصلات والخدمات، لكى يتحقق لها التوازن بين عدد السكان والبنية الأساسية العمرانية للمدينة.

ولكن مع عام ١٩٤٠، شهدت القاهرة تزايدًا مفرطًا فى عدد سكانها، لم يعد من الممكن أن يلاحقها تطور ونمو عمرانى على نفس الإيقاع. هذا التطور المذهل جعل القاهرة تمتد وتتسع نحو الصحراء، حيث شيدت المدن الجديدة. ومع هذا النمو الجديد، شهدت المدن عمارة جديدة وديكورًا عمرانيًا جديدًا يمزج العودة إلى الجذور مع التأثير الغربى الأكيد. أما الريادة التى طالما تمتعت بها القاهرة فى الناحية الثقافية والأدبية والفنية والسينما والتليفزيون، فقد عادت إلى جذورها العربية.

البصـمة النـاصرية والقـاهرة الحـديثـة:

لقد عادت القاهرة لتكون «معملا» للأفكار والأبحاث، ولتؤكد نفسها كعاصمة عربية متوسطية وأفريقية، ولاتزال تجمع جهودها لكى تنطلق مرة أخرى لتغزو آفاقًا أرحب وأكبر. فعرفت القاهرة فى الخمسينيات ومع ثورة يولية انتقالاً أكيدًا نحو الحداثة فكان شق كورنيش النيل من القناطر إلى حلوان، وبناء أربعة كبارى مهمة على النهر، منها كوبرى الجامعة الذى بُنى عام ١٩٥٨ وفى عام ١٩٥٤ بدأ بناء حى جديد على هضبة المقطم. وتطوير منطقة وسط البلد فشق ميدان التحرير الذى كان فى السابق ثكنات الجنود البريطانيين، وبنى مبنى جامعة الدول العربية ومبنى المجمع الذى نسب خطأ إلى العصر الناصرى وقيل إنه نموذج للعمارة الستالينية القوية، ولكن فى حقيقة الأمر المجمع هو أحد آخر مبانى الملكية إذ بدأ بناؤه فى عام ١٩٥٠ وانتهى العمل فيه فى عام ١٩٥٢.



استمرت القاهرة فى التوسع والتطور فغزت الصحراء وبنيت هناك العديد من المدن الجديدة. وتقول مرسيدس فوليه إن عصر الرئيس حسنى مبارك يظل هو عصر ترميم البنية التحتية للقاهرة الكبرى. فشهدت السنوات الأخيرة تطور الطرق والمواصلات والاتصالات، فامتدت شبكة مترو الأنفاق، وشبكات الكبارى التى وإن لم تكن فى نظر فوليه تتمتع بفن كبير إلا أنها ذات فائدة جمة فى المساعدة على تحقيق سيولة فى المواصلات.

يقول لوكلان: إن القاهرة التى ورثت ماضيًا مهيبًا، فى حالة تجدد دائم، ورغم أنها عاصمة كبرى تلتهم كل طاقة البشر، وتعانى من تلوث مناخى سريع ومن محاولة لتحييدها من خلال امتداد عمرانى بلا حدود، إلا أنها تشهد منذ سنوات قليلة تنمية اقتصادية تثير الدهشة، مما يسمح لها بالاستمرار فى توسعها اليومى لتتجاوز حتى الطريق الدائرى الذى شُيِّد ليطوقها بطوق ضخم يصل من أسفل هضبة الأهرامات فى الجيزة حتى مطار القاهرة فى هيليوبوليس، مرورًا بشوارع المرج وحتى جنوب القاهرة القديمة. والمدن الجديدة التى تمتد فى الصحراء والتى ظلت إلى وقت قريب مناطق يصعب الوصول إليها، فتحولت اليوم لما يشبه الطوق الذى يحيط بالآثار العظيمة كالأهرامات التى تقبع من بعيد. فى الوقت نفسه تقف كل من الأهرامات وأبى الهول وسقارة ومنف القديمة على بعد كيلومترات قليلة من مصانع حلوان، من ناحية، ومن ناحية أخرى أمام المحور الكبير التى يربط القاهرة بالطريق الصحراوى.

وتقول مرسيدس فوليه إنه مما لا شك فيه أنه مع منع هدم المنازل والفيلات القديمة، تشهد العاصمة ذات الألف عام اليوم نوعا من التحالف بين القديم والحديث، كما وجدت فكرة معينة لربط التاريخ مع الفن المعمارى الحالى. فهل القاهرة، أم الدنيا، ستنجح فى أن تعيد تجديد وجهها؟

يقول أندريه ريمون: القاهرة مدينة لا تشيخ. وإن كانت قد شهدت العصور المختلفة تمر عليها فيما يقرب من ٢٧ قرنًا، إلا أنها تظل «المدينة الشابة» التى تحمل كل المقومات التى تدفعها لأن تتطور دوما وتمتد ليكون لها مستقبل باهر كما كان لها تاريخ عظيم. ■



إبراهيم العجلونى

عبدالرحمن بدوى .. المعلم

■■ كان يمكن لهذا المقال أن يصدر فى صيغة أوليّة، بُعيد صدور كتاب الدكتور مراد وهبة: «مُلاَّك الحقيقة المطلقة» قبل ثلاث سنوات على وجه التقريب، حيث كان قد اتسع مجال النظر فى مسافة الخُلف بين ما ذهب إليه صاحبه من رفع راية النضال ضدّ الروح الدوجماطيقية، وبينٍ ما انتهى إليه من أحكام اعتنافية فى حق كُلٍّ من «العقاد» و«بدوى»، ومن تقديمهما على نحو يخالف حقيقتهما.

لقد بدا أستاذنا الفاضل كما لو أنه لم يصبِّر نفسه، لسبب أو لآخر، مع إنتاج هذين العَلَمين، الغزير كمّاً الفائق نوعًا، فآثر أن يُطلق جملة من الاتهامات، ينهى بها بطريقة احتفالية، حديثه المقتضب عنهما، وكفى الله المؤمنين القتال.

وعلى ما استجد من أسباب الحديث عن الفيلسوف المصرى: الباحث المعلم والمؤرخ المترجم عبدالرحمن بدوى، خاصة بعد انتقاله إلى رحمة الله فى الخامس والعشرين من يوليو ٢٠٠٢، فإن ما نراه ذا صلة وثيقة بمرادنا أن نتوقف مَليّاً أمام رؤية الدكتور مراد وهبة لعبدالرحمن بدوى، كما اشتمل عليها باب «شخصيات فلسفية» من الكتاب الذى ذكرت آنفًا، وأن نتدبر فيه مسألتين مهمتين، إحداهما تتعلق بما نعتقده صورة كاريكاتيرية للفيلسوف الراحل، وثانيتهما تتعلق بمحاولة إثبات الأستاذية (أقصد أستاذية المؤلف) عليه.

يستهل الدكتور مراد وهبة رؤيته بقوله: «فى عام ١٩٤٥ كنت طالبًا فى قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ـ القاهرة الآن ـ وكان عبدالرحمن بدوى يحاضرنا فى الفلسفة المسيحية والمنطق. وفى ٣٠ أبريل ١٩٤٥ انتحر هتلر. وفى اليوم التالى دلف عبدالرحمن بدوى إلى مكان المحاضرة، فلمحنا ربطة عنق سوداء (كذا) وعندما سألناه عن السبب قال: لأنى حزين على وفاة هتلر».

وعلى الرغم مما كتبه الدكتور مراد وهبة، بعد هذا الاستهلال، عن سيرة بدوى الحزبية، وعما يراه من ضرورة أن تبحث الدول المنكوبة عن زعماء كهتلر، وأن يُقبِل المصريون على مصر الفتاة التى لن يكون خلاص مصر من محنتها، وبلوغها مجدها إلا على يديها»، ثم على الرغم من استشهاده، ذى الطابع السيكولوجى الذى يوحى بالتفهم، بقول بدوى إنه «ليس من شك فى أن هذا الوطن ـ أى مصر ـ فى أشد الحاجة إلى الثورة الروحية على ما أَلِفَ من قيم كى يضع مكانها نظرة أخرى»، ومن إشارته إلى أن كتبه التى توالت تحت عنوان «خلاصة الفكر الأوروبى» إنما جاءت فى سياق سعيه فى «انتشال أبناء هذا الجيل من ظلمة الهوّة إلى نور الفكر الحر، فيفكرون فيما فكر فيه العقل الأوروبى، ويتأملون فى المشاكل التى أثارها، والحلول التى قدم، بشرط ألا يتوهموا أن ثمة حلولاً جاهزة ليس عليهم إلا أن يقلدوها ويحتذوها». أقول: على الرغم من ذلك كله: فقد استقر الكاريكاتير / المفارقة فى الأذهان، وصار لزامًا النظر ـ موضوعيًا ـ فى أصل إعجاب بدوى بهتلر، وفى الدواعى التى دعته إلى اعتباره أنموذجًا للزعامة الوطنية التى تعوز الشعوب المستعمَرة أو المنكوبة.

لقد كان هتلر ـ الذى كان العقاد وهو خصم بدوى اللدود قد وضعه فى الميزان، وجعله مثالاً لالتواء الطبيعة الإنسانية ـ هو العدو الأكبر للدول الاستعمارية التى مزقت العالم العربى شر مُمزَّق، ورزحت على صدر مصر، وحالت دون نهوضها الذاتى (انظر: رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا لمحمود محمد شاكر). فهو، لذلك، عدو أعدائها التاريخيين، وعدو مستعمريها وناهبى ثرواتها ومصادرى نهضتها.

ثم إنه كان مثالاً للزعيم الوطنى الذى نجح فى تقدم بلاده تقدمًا معجبًا، وفى دفعها إلى أن تكون قوة عظمى فى سنوات معدودات.

ثم إن ألمانيا لم تكن صاحبة ماضٍ استعمارى نستذكره ونحن نكظم الغيظ، ولم تعكر جيوشها صفو حواضرنا العربية الإسلامية، كما كان حال الفرنسيين والطليان والبريطانيين، ولم تفزع آمنًا فيها، أو تقتل عالمًا أو رجل فقه. بل إنها تدرب فيلقًا عربيّاً يشرف عليه مفتى فلسطين الذى كان يأمل أن يحرِّر بلاده من مغتصبيها.

فهل نملك، فى ضوء هذه المعطيات كلها أن نَغُضّ طرفًا عن الدوافع النفسية التى تحمل عبدالرحمن بدوى (وهو المتحرِّق شوقًا إلى دفع الاستعمار عن بلاده، وإلى أن يراها قوية معافاة ذات شوكة، ناهيك به دارسًا متميزًا للأدب الألمانى والفلسفة الألمانية) على أن يحزن على سقوط الأنموذج الهتلرى، أو أن يعلن حزنه صريحًا دون تكتم ولا مواربة؟



إنّ النظرة المنصفة لا تُسقط هذه الحقائق من اعتبارها، ولا تحاكم بدوى وهى تغمض أو تغض طرفًا عن الشروط الموضوعية التى اتخذ فيها موقفه الواضح من هتلر. بل إن هذه الحقائق والشروط لترجح بكفة بدوى رجحانًا، لا مرية فيه، حين نقارنه ـ مثلاً ـ بالفيلسوف الألمانى «هيجل» الذى كان معجبًا أيما إعجاب بنابليون بونابرت الذى غزا بلاده وأذلها، والذى اقتحم جنوده منزل الفيلسوف المثالى واضطروه إلى أن يرجوهم أن يعاملوا «العالم الألمانى البسيط» معاملة طيبة (انظر: حياة هيجل لبدوى، ص٦٠).

لقد بلغ من انبهار هيجل بقاهر موطنه أن كتب إلى أحد أصدقائه يقول: «لقد رأيت الإمبراطور ـ روح العالم هذه ـ يخرج من المدينة للاستكشاف. وإنه لإحساس رائع حقًا أن يرى المرء هذا الشخص المركَّز هنا فى نقطة وهو جالس على فرس، يمتد على العالم ويسيطر عليه».

إننا هنا أمام فارق كبير لابد أن تراه الأعين المبصرة. وإن لبدوى لَدرجة على هيجل فى كل مقياس، وهو، لا ريب، أشرف دواعى ومنطلقات من صاحبه الألمانى، الذى لم ير من يمثل روح العالم أو الروح المطلق ـ وهى مقولة مركزية فى فلسفته ـ غير ذلك المغامر العسكرى الذى نعلم من علمه، ومن جرائمه فى شرقنا العربى، خاصة فى مصر وفلسطين، ما يضعه فى رأس قائمة مجرمى الحروب.

لقد كانت إرادة التفوق
هذه هى التجلى الأعظم لإرادة الحياة
عند بدوى. وهى المسئولة عن رغبته العميقة
فى أن يتناءى عن غمار المجموعات
والحشود، وأن ينتحى جانبًا



وإذ نتجاوز المسألة الأولى فى رؤية د. مراد وهبة لعبدالرحمن بدوى، أو الصورة الكاريكاتيرية التى تظلمه وتتنكب حقيقته، إلى ما يحاول من تقويم مصطلح «الآنية» الذى يأتى عند بدوى مقابلاً للفظ Dasein الألمانى، فإننا نجد الدكتور مراد وهبة يقترح ما يسميه «تعريب اللفظ الألمانى بدلاً من ترجمته» والتعريب عنده هو أن نستعمل اللفظ الألمانى كما هو فنقول «دازين». ثم نراه يذهب فى تفسير هذا الدازين مذهب من يدور فى محيط المعنى الذى كان بدوى نفسه قد بيّنه له، لا يعدوه قيد أنملة، مؤكدًا تلمذته ـ ربما بقصدية تحسب له ـ لبدوى، ومعولاً عليه حتى فى اعتراضه على مصطلحه.

لقد فرّق بدوى «بين نوعين من الوجود: النوع الأول هو ما يمكن أن نسميه باسم «الآنية» ترجمة للكلمة الألمانية Dasein وهى كلمة من العسير أن نجد لها مقابلاً دقيقًا فى أية لغة أخرى من اللغات المعروفة لدينا، ومعناها وجود الأشياء حاضرة بالفعل. والنوع الثانى هو ما يمكن تسميته باسم «الوجود الماهوى» Existenz، لأنه يقصد به «ماهية الوجود» (الموسوعة ٣٠٤)، ثم بيَّن أن «النوع الأول من الوجود هو الوجود الواقعى، والثانى هوالوجود الإمكانى أو الماهوى، والصلة بين الوجودين على أنحاء ثلاثة: فمن حيث إن الآنية تشير مقدمًا إلى إمكانيات لم تتحقق بعد تسمى الصلة «إضمارًا وتصميمًا»، ومن حيث إن الوجود الماهوىّ انتقل إلى حالة تحقق فصار الآنية ـ وإن كان جزء ضئيل من الإمكانيات هو فقط الذى تحقق ـ تسمى الصلة حينئذ «واقعية»، ومن حيث إن الآنية هى وجود بين أشياء أو وجود فى العالم تسمى الصلة سقوطًا. وهذه هى الخصائص الرئيسية للآنية. (الموسوعة ٣٠٤)



وعلى افتراض أن ثمة مشكلة فى ترجمة المصطلح، فإن باستطاعتنا حلها ـ فى ضوء الشرح السابق الذى قدمه بدوى نفسه ـ باعتبار الـ(Dasein) «حضورًا» متضمنًا إضمارًا للممكنات وتصميمًا على إثبات الذات، وخاضعًا لشروط أو صلات فعليّة واقعية، ومنخرطًا فى «زمنية» أو «عالمية» (نسبة إلى العالم). أما الموجود الماهوى Existenz فهو التحقق الأمثل لهذا الحضور، أو هو اكتماله.

وإذا بدا هذا الذى نخوض فيه هنا إيغالاً فى الفلسفة الخالصة فهو ذو دلالة على أستاذية بدوى المبكرة، وعلى صعوبة أن يؤتى من هذا الجانب من تكوينه: على حين يمكن لمن يريد ـ وهم كُثرٌ ولهم أسبابهم ـ أن يجد سبيلاً إلى الجانب الحزبى الممتلئ حماسة منه، أو إلى ما يكون من غضبه أو أساهُ لما حل به من ظلم، أو إلى ما يكون من أثر غربة (اختيارية قسرية فى آن)، اجتالته عن وطنه الحبيب مصر وطوّحت به فى أقطار الأرض تطويحًا.

هذه كلها جوانب من شخصية بدوى، أو تجليّات لها يمكن أن يتناولها الدارسون، وأن يخوضوا فى شأنها على أى نحو يشاءون. ولكن إتيانها على معنى العدل والإنصاف لن يكون إلا إذا أمسكنا بمفاتيح فهم هذه الشخصية، أو كنا ظاهرين على المكونات الرئيسية لها. ولعلّ هذا أن يُفضى بنا إلى الملمح الأول فى الكينونة البدوية، أو إلى الملمح الأكثر بروزًا فيها؛ وهو «إرادة التفوق» الغالبة على أفعالها من لدن حصل بدوى على المرتبة الأولى فى خريجى الابتدائية عام ١٩٢٩م، مرورًا بسنواته الجامعية الأربع التى كان «الأول فيها على جميع طلاب الآداب فى جميع الأقسام»، ثم بحصوله على الليسانس «الممتازة» من قسم الفلسفة عام ١٩٣٨م، وتتلمذ على «أساتذة ممتازين» مثل الكسندر كواريه، وأندريه لالاند، والشيخ مصطفى عبدالرازق (الذى كان مثلاً للإنسان الكامل)، ثم بوضعه رسالتين «متميزتين» أولاهما حول «مشكلة الموت فى الفلسفة الوجودية» (١٩٤١)، وثانيتهما (التى يرى أنها أشبه بثورة كوبرنيكية فى الفلسفة) حول «الزمان الوجودى» (١٩٤٤). ثم بما كان بعد من انتدابه أستاذًا زائرًا فى معهد الدراسات الإسلامية فى كلية الآداب (السوربون) بجامعة باريس (١٩٦٧) ومن طبعه محاضراته فى هذا المعهد ضمن مجموعة «دراسات فى العصور الوسطى» التى يشرف عليها «اتيين جلسون» الذى هو «أعظم باحث معاصر فى تاريخ الفلسفة فى العصر الوسيط» (الموسوعة ٢٩٦)، ثم أخيرًا ـ وبعد عمر حافل بالتأليف والترجمة والتصنيف، وبعد أكثر من مائة

١ـ ملاك الحقيقة المطلقة
القاهرة ـ دار قباء
٢ ـ موسوعة الفلسفة
عبدالرحمن بدوى
عمَّان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٦، ١٢٥٦صفحة.





عبدالرحمن بدوى

وخمسة وعشرين كتابًا ـ موسوعته الفلسفية التى أصدرتها المؤسسة العربية للدراسات والنشر فى بيروت، ثم سيرة حياته، التى أصدرتها المؤسسة نفسها، وأثارت جدلاً متطاولاً فى الصحافة العربية.

لقد كانت إرادة التفوق هذه هى التجلى الأعظم لإرادة الحياة عند بدوى. وهى المسئولة عن رغبته العميقة فى أن يتناءى عن غمار المجموعات والحشود، وأن ينتحى جانبًا ـ وقد استيقن تميزه ـ فيعكف على ابتناء عمارته الفلسفية كثيرة الأروقة والشرفات. وليس غريبًا فى ضوء إملاءات إرادة التفوق هذه أن ينتدب بدوى نفسه، ولما يزل فى الرابعة والعشرين، إلى إقامة مذهب فلسفى عام، ولا أن يرى نفسه، بعد، فى منزلة من يملك تقييم ميشيل فوكو فى «الكلمات والأشياء»، وأن يراه «مضطرب التاليف، ضعيف المادة، واهى الاحتجاج» غير مستحقٍ للشهرة التى واتته. ولا أن ينتقد «كلود ليفى شتراوس» ويضع شهرته فى سياقها من سيطرة اليهود على وسائل الإعلام الفرنسية، ولا أن يرى فى سارتر «مجرد أديب، وباحث نفسانى، ظاهراتى المنهج».

إن هذا كله من ثمار إرادة التفوق عند بدوى، وثمار موسوعيته التى تذهل متابعيه، وهو برهان قدرته على تقييم المشهد الفلسفى الأوروبى، وعلى قراءته كما يقرأ المرء كفه، ويرى إلى خطوطها ومنعرجاتها.

ولقد كان من شأن بدوى ـ وأحسب أن ذلك من حقه أيضًا ـ أن يتباهى بما أوتيه من معرفة إحدى عشرة لغة. فإذا كان كل لسان بإنسان كما تقول الحكمة العربية؛ فإن لنا أن نتصور أى غنى معرفى كان يعضد إرادة التفوق عنده. ثم أن نتصور كبرياءه العلمى الذى كان يدفعه إلى السخرية بالأحكام الجماهيرية فى حق الزعامات السياسية، أو بأحكام المثقفين فى حق بعض الأعلام الذين لا يرجحون فى موازينه.

لقد وقف بدوى على قمة هرمه المعرفى فرأى الناس من هنالك صغارًا، على حين كان حريًا به أن يسامتهم، أو أن يواجههم كفاحًا، حتى يرى حقائقهم على نحو مقارب، فلا يظلم منهم أحدًا، أو يظلم نفسه بأن يشتط فى التقييم فيبخسهم أشياءهم ويكون ذلك سببًا لأن يَيبَس الثرى بينه وبينهم.

أما الملمح الثانى فى شخصية عبدالرحمن بدوى، فهو ـ قطعًا ودون تردد ـ وطنيته المصرية التى لا يتنازع فيها منصفان، وليس دخوله حزب مصر الفتاة (١٩٣٨ ـ ١٩٤٠) أو كونه عضوًا فى اللجنة العليا للحزب الوطنى الجديد (١٩٤٤ ـ ١٩٥٢)، أو اختياره عضوًا (ولاشك أن لجمال عبدالناصر الذى كان قرأ كتاب نيتشه لبدوى وأُعجب به دورًا فى هذا الاختيار) فى لجنة الدستور التى كُلفت بوضع دستور جديد لمصر، أو غضبه لما كان يراه من «أن القائمين على الثورة لم يأخذوا به، لما فيه من تقرير وضمانات للحرية والحكم الديمقراطى السليم».. ليس ذلك كله إلا أدلة متظاهرة، يستدل بها المنصفون على هذه الوطنية المصرية التى أعتقد أن تصدير كتاب «نيتشه» (١٩٣٩) كان هو بيانها الأول الذى جاء فيه أنه «ما من شك فى أن هذا الوطن فى أشد الحاجة إلى الثورة الروحية على ما أَلِفَ من قيم، وما اصطلح عليه حتى الآن من أوضاع؛ فى أشد الحاجة إلى أن يطرح هذه النظرة القديمة فى الوجود وفى الحياة، كى يضع مكانها نظرة أخرى، كلها خصب، وكلها قوة، وكلها حياة، وفيها تعبير واضح عن كل ما يخالج ضميره من مطامح نحو السمو ونحو العلاء، وشعور حى نابض بالنزوع إلى تطور روحى هائل، تصاعد فيه قواه، مندفعة متوترة، حادة متوثبة، خالقة تبدع فى كل طور من أطوار هذا التصاعد صورًا للوجود خصبة سامية وقيمًا للحياة جليلة عالية: فى الإيمان بها إيمان بإمكان خلق جيل من أبنائه عظيم. وفى تحقيقها تحقيق لنوع من الحضارة زاهر ممتاز».

إننا هنا أمام روح وطنية تتوثب، وأمام صوفية فى التعبير تكاد تخرج وما كان يجيش به فؤاد الزعيم الوطنى المصرى الأشهر «مصطفى كامل» من مشكاة واحدة. وما أحسب أن جنوح بدوى إلى الهجرة، وإلى التطواف فى أرض الله الواسعة، وهو على هذه الدرجة من حب بلاده، إلا ترجمة لقول أبى العلاء المعرى:

إذا اشتاقت الخيلُ المناهل أعرَضت
عن الماء فاشتاقت إليها المناهلُ

فلقد أراد بدوى المناهل على حَدِّه، وعَند شَرطه، فلما لم يوافقه ذلك على نحو ما يريد؛ قام فى نفسه معنى بيت آخر لأبى العلاء، يعكس مدى ضيقه ومبلغ غضبه، هو قوله:

إذا هبّت النكباءُ بينى وبينكم
فأهونُ شىء ما تقولُ العواذلُ

وقد قال «العواذل» قولاً كثيرًا، خاصةً فى إثر صدور كتاب بدوى «سيرة حياتى» الذى تبدت ذاتيته (المُعرِضَةُ عن المناهل) ، خلاله، حادة، متوترة، لا يعجبها العجب، لا فى سياسة، ولا فلسفة، ولا أدب.

ذانك ملمحان فى شخصية بدوى: إرادة التفوق لديه، ووطنيته المصرية. أما ثالث ملامحها فهو قوة انتمائه الحضارى، وما كان يملؤه من اعتزاز بالتراث العربى الإسلامى. ولقد أشار الأستاذ أحمد عباس صالح فى مقالة له فى صحيفة «الأهالى» المصرية (٣١ يوليو ٢٠٠٢م) إلى «أن أغلب جيل عبدالرحمن بدوى كانوا يعتقدون باقتراب بزوغ نجم الشرق العربى مرة أخرى».

وقد يجوز لنا، عند هذه النقطة من السياق، أن نقول إن نيتشه إذا كان استثار الصوفية الوطنية عند بدوى، فإن شبنجلر صاحب «تدهور الحضارة الغربية» قد عزز لديه إيمانه بانبعاث أمته مرة أخرى. ولعل ما كان من حديث شبنجلر عن المُطلق العربى فى كتابه هذا، وما يُنذر به من انهيار قيم الغرب وأنظمته أن يكون وراء ما استكن فى نفس بدوى وجيله من إمكان قيام الحضارة العربية الإسلامية من مرقدها، وأن يكون لها حضورها المشهود الذى يوائم جمالها وجلالها.

وإنه ليستوقفنا هنا ما يقوله الأستاذ أحمد عباس صالح، فى مقالته التى أشرنا إليها. من أن «بدوى لم يكن مترجم شبنجلر الوحيد، إذ سبقه إلى ذلك مبعوث مصرى آخر، للدراسة فى ألمانيا فيما بين الحربين اسمه «على حسن الهاكع» حرص على أن يذكر فى مقدمته للترجمة أنه شاهد شبنجلر نفسه فى المقهى الذى كان يرتاده، وأنه التفت إليه ذات مرة وقال له: «أنتم يا أبناء الشرق ستُنشئون الحضارة الجديدة».

وإذ تُذكرنا هذه الواقعة بكتاب المفكر والسياسى الألمانى مراد هوفمان: «الإسلام كبديل»، فإنهما (الواقعة والكتاب) يذكراننا بمواقف النخب الألمانية، منذ القرن السابع عشر، من الإسلام وتاريخه، ويقومان شاهدين على مقدار ما تمتّعت به من النزاهة والموضوعية، اللذين غيبهما الاستشراق الاستعمارى طويلاً.

على أن جِماع شخصية بدوى، وما تلتقى عنده هذه الملامح جميعًا، هو مثاليته، وصدقه مع نفسه ومع الآخرين، وصراحته المطلقة، وقوله الحق الذى يراه: حتى ولو اضطره إلى أن يبلو المُرّ من ثمره، أو اضطره إلى عَنَت أليم.

لم يكن بدوى متملقًا للطغاة، كما لم يكن متملقًا للجماهير. وليس أبعد فى الظلم والإجحاف من نسبة مثل هذه الشخصية ـ فى استواء تكوينها وصلابة روحها ـ إلى شىء من فهاهة المتملقين، كأن يفسر بعضهم كونه كان مستشارًا ثقافيًا ومديرًا لبعثة تعليمية فى برن عاصمة سويسرا (١٩٥٦) بأنه كان «رجل النظام»، أو كأن يفسر بعضهم موقفه فى مؤتمر المستشرقين (١٩٥٩)، حين فَنَّدَ أقاويل مستعرب سوفيتى اتخذ من حديث الردّة عند مسيلمة الكذاب ذريعة لمهاجمة الرسول، بأنه إنما كان يأتمر باليسار واليساريين، إلى غير ذلك من خُزعبلات.

إن من شأن النظرة السياسية الضيقة أن تهتضم، فى التقييم، مفكرًا كبيرًا مثل عبدالرحمن بدوى، وأن تحول دون أن يكون مبسوط الأثر فى الأجيال.

وإن من شأن الأيديولوجيا أن تضرب صَفحًا عن تاريخ من عظيم المنجزات، سعيًا وراء مقتضى الكراهية والجحود، بعكس ما تبتعثنا إليه الآية الكريمة: «ولا يجرمنّكم شَنَآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى».

ولعل من تمام العدل والموضوعية أن نعترف، وقد اخترم الموت فيلسوفنا الكبير، أننا نفقد برحيله «المعلم الثالث» فى تاريخ الفلسفة، وأننا لن ننتظر، بعد اليوم، كتابًا آخر جديدًا له، كما كان ينتظر ذلك، معنا، أعمدة المستشرقين أمثال «كورباتى» و«بيلا» و«أرنالديز» الذين كان يسرّهم أن يذكروه فى محاضراتهم باسم «البروفيسور بدوى» وكانوا يحسبون له ألف حساب، فيما يُبدِئون ويُعيدون من أنظار فى تراث الإسلام العظيم.

لقد أسلمت روح بدوى القلقة نفسها إلى بارئها، وهى مطمئنة إلى أن آخر ما أنجزته هو دفاعها عن القرآن ودفاعها عن الرسول، وإنّ فى ذلك لعبرة لأولى الألباب وتذكرة للمبصرين. ■

لقد كان من شأن بدوى ـ
وأحسب أن ذلك من حقه أيضا ـ
أن يتباهى بما أوتيه من معرفة
إحدى عشرة لغة. فإذا كان كل لسان بإنسان
كما تقول الحكمة العربية؛
فإن لنا أن نتصور أى غنى معرفى
كان يعضد إرادة التفوق عنده


دار الشروق
تقدم أحدث اصداراتها للأطفال
أكثر من 500 كلمة مصورة
كلماتي الأولى
MY FIRST WORDS
عربي - إنجليزي
حليب
تطلب من
دار الشروق : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق : ١ ميدان طلعت حرب تليفون : ٣٩١٢٤٨٠
ومكتبة الشروق : مبنى فرست أمام حديقة الحيوان ٣٥ ش الجيزة محل رقم ١٩ تليفون : ٥٧٣٥٠٣٥
ومن المكتبات الكبرى
كما يمكنكم شرائها إلكترونياً www.e-kotob.com

"آلموت"

قلعـــة الحشـــاشين

التـــاريخ والخـــيـــال فى فـــخ الأســطورة

ناصـــــر كـــــامل

يســـتخدم بارتـــول معرفتـــه بالتـــاريخ الدينى والســياسى الإســـلامى ويوظفهــــا فنيـــا مســـتخدما وقائـع وأحـــداثا تاريخيـة يمزجهـا بخيـال الروائى وذهن المحلل النفسى وتســاؤلات الفيلســوف، معتمدا على آليـات تفســير وإعـــادة بنـــاء ذلك التاريــخ روائيا وفق مفاهيـم حديثـــة

قليلة هى الأعمال الأدبية التى تلقى استقبالاً فاترًا وتعيش مهملة، حتى تأتى أحداث معاصرة واهتمامات ملحة لترفعها من سراديب النسيان لواجهات الصحف والمكتبات وتضعها وسط دوائر الضوء والاهتمام من غير أن يكون لقيمتها الفنية فقط الدور الحاسم فى غيابها الطويل أو ظهورها المفاجئ.

رواية «آلموت» التى كتبها الكاتب والروائى السلوفينى فلاديمير بارتول عام ١٩٣٨ واحدة من تلك الأعمال الأدبية. فلقد بعثتها دار فيبوس الفرنسية للنشر بعد ستين عاما على نشرها الأول. ومنحها الترحيب اللافت الذى أظهرته الصفحة الأدبية لجريدة الليموند للترجمة الفرنسية حياة جديدة. أما الترجمة العربية ٢٠٠١ فجاءت بمثابة عودة للرواية من رحلة اغتراب طويلة إلى الديار والأهل، فهى رواية تاريخية تتناول جوانب من التاريخ السياسى والدين الإسلامى فى إيران فى نهاية القرن الحادى عشر، وتدور أحداثها فى قلعة آلموت(*) Alamot التى تحيطها هالة من الحكايات والأساطير حيث يختلط التاريخ بالخيال. والشخصية الرئيسية فى الرواية هى «الحسن الصباح» أحد أبرز الشخصيات غموضا و«أسطورية» فى التاريخ الإسلامى فى تلك الفترة. وهو مؤسس وقائد تلك الطائفة التى أطلق عليها بعض الكتاب والمؤرخين لقب «الحشاشين» اعتمادًا على أن أتباعها كانوا يتعاطون الحشيش بانتظام كوسيلة للسيطرة على انفعالاتهم الجسدية والنفسية كما أطلق عليهم البعض لقب «الفدائيين» لأن جهازهم العسكرى كان يعتمد على مجموعات من الشباب المستعدين للتضحية بالنفس فى سبيل عقيدتهم، وابتدعوا أساليب فريدة فى العنف والاغتيال لمواجهة خصومهم السياسيين والعقائديين.

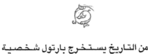
الاهتمام الغربى المفاجئ بالرواية فى السنوات الأخيرة يمكن النظر إليه من زاوية الاهتمام المتزايد بدراسة جوانب من التاريخ

آلموت «رواية»
فلاديمير بارتول
ترجمة: هالة صلاح الدين لولو
بيروت - ٢٠٠١
«صدرت للمرة الأولى عام ١٩٣٨»

(*) آلموت «alamot» لفظة فارسية أطلقت على القلعة التى عاش فيها حسن الصباح زعيم الحشاشين وأتباعه وتقع شمال شرق إيران جنوب بحر قزوين.

الإسلامى والعربى بعد الظهور الصادم لجماعات العنف السياسى المنتسب للإسلام وتصاعد المواجهة العنيفة بينها وبين بعض الأنظمة والمجتمعات العربية والإسلامية. ووصول أصداء هذه المواجهة إلى دول الغرب. ولاشك أن أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وتداعياتها الدراماتيكية ستكسب الرواية أبعادا جديدة بالرغم من هذا التحذير الذى يقدمه الناشر العربى للقراء: «يخطئ من يبحث فى هذا العمل عن حقيقة»، ويخطئ من يقرأه كبحث أو كدراسة تاريخية أو عقائدية. فهذا العمل هو أولا «رواية» أى أنه يحكى، كأى رواية أخرى، قصة شخصيات وأمكنة وأزمان من حبر وورق تنحصر حقيقتها ضمن إطار النص المكتوب. وهو ثانيا «رواية تاريخية» أى أن الروائى يتكئ على التاريخ لصناعة الحكاية. وهذا لا يعنى مطلقا أنه يعيد سرد التاريخ كواقع وإنما ينشئ واقعا سرديا جديدا هو الرواية التى تقرأ. ولكن من الأفضل أن تذهب «آلموت» بعيدا عن تحذيرات ناشرها إلى تلك المناطق الوعرة حيث تتقاطع دروب التاريخ بكل وقائعه وخرافاته وتأثيراته فى الحاضر والمستقبل، ودروب الخيال وجموحه، ودروب الحاضر وأسئلته. هناك ستكون الرواية جديرة بحق بقراءات وتحليلات تبقيها طازجة وفاعلة بعيدا عن أسباب حياتها «الغربية». وهناك ستظهر العوالم المتداخلة التى ترسمها الرواية كأجزاء من عمل أدبى خاص يمزج التاريخ الواقعى والفلسفة والدين والسياسة بالخيال الأدبى الخصب.

معرفة الكاتب السلوفينى فلاديمير بارتول (١٩٠٣-١٩٦٧) بتاريخ تلك الفترة التى تدور فيها أحداث الرواية مدهشة. وهو يستخدم معارفه الفلسفية وولعه بأساليب واتجاهات مدارس علم النفس التى كانت فى أوج أحلامها المبالغ فيها فى الثلاثينيات، حيث أعطت للأدباء والفنانين انطباعا بقدرتها على تفسير مختلف الظواهر الإنسانية انطلاقا من نظرة محددة لدوافع ورغبات الإنسان وتحديدا تلك العلاقة المبهمة بين العقل والعاطفة والجسد.



من التاريخ يستخرج بارتول شخصية «الحسن الصباح» أحد أبرز الشخصيات فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية وإحدى الفرق الإسلامية الكبرى التى تفرعت عن الشيعة فى منتصف القرن الثانى الهجرى وانتسبت إلى إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق ودعت إلى إمامته. وتميزت دعوتهم بدرجة عالية جدا من السرية التامة فى التحرك والتركيز على نشاطات الدعاة فى عملية التغيير والصراع الفكرى والسياسى، وتربية الكوادر التى تتحمل مسئولية التصدى للسلطة ومقاومتها وتنفيذ أوامر الإمام. كان الحسن الصباح أحد دعاة الإسماعيلية فى إيران ولكنه اضطر للفرار إلى مصر لينضم للدولة الفاطمية ويخدمها. وجاء بروزه وصعوده فى سلم الدعوة الإسماعيلية عندما بدأ الخليفة الفاطمى المستنصر بالله قبل وفاته «سنة ٤٨٧ هجرية» بأخذ البيعة لابنه الأكبر نزار، غير أن الوزير بدر الجمالى أخذ يماطل حتى توفى الخليفة قبل أن تتم البيعة لنزار. وبادر إلى تولية أحمد الابن الأصغر للخليفة والملقب بالمستعلى بالله. مما أدى لصراع عنيف بين الفرقتين النزارية التى تسمى الآن الأغاخانية، والمستعلية التى تعرف اليوم باسم البهرة. وكان الحسن الصباح من أبرز المؤيدين لنزار، بل كان راعيه الأول. ونجح الجمالى فى تثبيت أحمد، ولجأ نزار إلى الإسكندرية حيث بايعه أهلها ولكن الجمالى طارده وقتله. وهو ما دفع الصباح للفرار إلى إيران والاستيلاء بالحيلة على قلعة «آلموت» ليصبح الرجل الأول والموجه الفعلى للدعوة النزارية والعقل المدبر لجميع الحوادث فى تاريخ النزارية الذين تميزت دعوتهم باتخاذ القلاع الحصينة للاستتار وتربية العناصر وتدريبها تدريبا عقائديا وعسكريا خاصا. ولقد لعبت بعض هذه القلاع دورًا مهمًا فى التاريخ الإسلامى. فقلعة «آلموت» التى تقع فى قمة جبال دماوند (٥٦٠٠ متر) شمال شرقى إيران جنوب بحر قزوين الذى كان العرب يسمونه بحر الخزر، ظلت منيعة فى مواجهة الغزو المغولى بقيادة تيمورلنك فترة طويلة قبل أن تسقط بأيديهم سنة ١٢٢٠، ويدمروها ويحرقوا المكتبات التى كانت تحتوى على أهم المخطوطات التى تشرح أصول الدعوة الإسماعيلية النزارية، والمؤلفات التى وضعها الحسن الصباح وكانت المرجع الرئيسى للدعوة. كما واجهت قلعتهم «السلمية» قرب حماة فى سوريا الحملة الصليبية الأولى والتى تعرف بالحملة الشعبية والتى كان يقودها بطرس الناسك سنة ١٠٩٥ فى تلك القلاع كون الصباح وأتباعه تنظيما فدائيا يعتمد على الولاء المطلق والإعداد الصارم والدقة فى التنفيذ، ويتميز أتباعه بشجاعة نادرة واستعداد تام للتضحية بالنفس فى سبيل الدعوة.

يعرف بارتول هذا التاريخ جيدًا، كما يعرف جيدا تاريخ الصراع السياسى فى الإسلام. خاصة الأحزاب السياسية المناهضة للدولة، بدءا من الخوارج أول حزب سياسى منظم فى تاريخ الصراع السياسى الدموى الذى نشب مع استعار النزاع بين الإمام على ومعاوية. والذين شبههم الشيخ أبو زهرة باليعقوبيين فى الثورة الفرنسية حيث سيطرت على خطابهم ألفاظ كالحرية والإخاء والمساواة. واستولوا على عقول الناس بكلام مشحون بعبارات الإيمان والعدالة والحاكمية لله والبراءة من الظلم والظالمين. ومرورا بالقرامطة وزهدهم المثالى والروح الإيمانية العالية التى ميزتهم، وعنفهم وصلابتهم التى تتجاوز حدود

طاقة البشر. وصولا لمختلف الفرق الشيعية التى كان صراعها مع دولة بنى أمية والدولة العباسية محنة متصلة شاقة إلى أقصى حدود المشقة. كل هذه الحركات السياسية العقائدية تلخص دعواها فى عنوان كبير «كل ما كنا فيه باطل، والدين ما نحن فيه الآن» وكانت تتملكهم فى أوقات الظهور والقوة تلك الحالة التى تملكت الخوارج فى تحرقهم إلى الحرب تحرق الظمآن إلى الماء،فإذا مناديهم يصيح فيهم: هل من رائح إلى الجنة. فيتصايحون جميعًا: الرواح إلى الجنة.



يستخدم بارتول معرفته بالتاريخ الدينى والسياسى الإسلامى ويوظفها فنيا مستخدما وقائع وأحداثًا تاريخية يمزجها بخيال الروائى وذهن المحلل النفسى وتساؤلات الفيلسوف،معتمدا على آليات تفسير وإعادة بناء ذلك التاريخ روائيا وفق مفاهيم حديثة. فهو يستخدم مفهوم «النداء الداخلى»الذى استخدمه ماكس فيبر ليفسر الكيفية التى سيطر بها الحسن الصباح على أتباعه ووجههم لتنفيذ مخططاته وأهدافه.فالنداء الداخلى يستحوذ على الفرد حيث يصبح توجهه لتحقيق مهام وأهداف معينة عنصرا مكونا ليس فقط لمهنته الخاصة بل لذاته نفسها ولخلق شخصيته. النداء الداخلى ضبط للنفس متمثلا فى السيطرة على الدوافع الطبيعية وفى الارتباط بحوافز معينة والعمل على تحقيقها. وهو ما يستلزم وجود علاقة داخلية دائمة مع قيم ومعان «عليا» ونهائية للحياة تتشكل فى أهداف تتجاوز الذات.

اللقطة الأولى لعالم «آلموت» تدخلنا مباشرة إلى عالم سرى واستثنائى، كل شىء فيه مفارق للحياة الواقعية :قسمان منفصلان لا يعرف أحدهما بوجود الآخر. الأول حدائق سحرية تقيم فيها عذارى يتدربن على فنون الرقص والغناء وطقوس الجنس وأسراره، كما يتعلمن قواعد الشعر وأصول العقيدة الإسماعيلية.وهو ما أربك الفتاة المراهقة «حليمة» الوافدة الجديدة على القلعة التى «حارت فى فهم صداقة تربط فهدا بغزالة فى هذه الدنيا، فى حين أن الله، كما يقول النبى، قد خص أهل الجنة بتلك المعجزة» وعندما تزداد عليها الحيرة تسأل مدربتها وراعيتها «مريم»: كيف يحق لسيدنا أن يبيح الخمر،فى حين أن النبى محمد قد حرمها ؟ وتجيبها:له الحق فى ذلك، لقد قلت لك إنه العظيم الذى يلى الله. إنه نبى جديد.ثم تحسم «مريم»أسئلة الفتاة المندهشة من سيل الغرائب «عموما فإننا نعيش هنا جميعا، بشرا وحيوانات، فى وفاق فى هذه الجنائن :فنحن وقد عزلنا عن بقية العالم،سعداء فى العيش معا،هذا كل ما فى الأمر».على الجانب الآخر من عش النسر «الترجمة الحرفية للكلمة الفارسية آلموت» شباب متطوع لخدمة العقيدة الإسماعيلية يتدربون على فنون الحرب وفق أساليب غاية فى الانضباط والشدة، مع الالتزام بطاعة عمياء وتعاليم صارمة بإلغاء العقل والعاطفة ورغبات الجسد. المتطوع الجديد «عونى»حفيد أحد كبار الدعاة يتلقى من زملائه النصائح الأولى: « أنصحك ألا تطرح أسئلة كثيرة.. سيدنا هو قائدنا الوحيد وليس علينا طاعة أحد غيره. .ما يطلبه سيدنا بشكل أساسى هو الطاعة والاندفاع المقدس.لا تحسب أبدا أن الطاعة أمر سهل. فى البداية ستظهر لديك روح التمرد،فالجسد يرفض الانصياع لأوامر الإرادة، وعقلك سيهمس لك بألف اعتراض على الإيعازات التى تصدر إليك. لتعلم أن هذه المقاومة برمتها ما هى إلا حيلة حاكتها الشياطين لتحيدك عن جادة الصواب. اقهر دون رحمة كل عصيان فى داخلك وستصبح سيفا بيد سيدنا». ويتلقى من الداعية «عبد المالك»درسه الحاسم «إن أهواء الجسد الوضيعة تشل إرادتنا كما تشل غايتنا الرفيعة. وقهر تلك الأهواء، وتحرير الروح من رقبتها هو هدف تدريباتنا»،ويتعلم «عونى» الدرس سريعا ويقرر أن يقهر ضعفه ليخدم قضية سامية.



ابتداء من اليوم، عليك ألا تفكر فى العودة إلى البيت، فأنت وقد قطعت آخر حبالك مع العالم الخارجى لتتجه أفكارك من الآن فصاعدا نحو قضية«آلموت» وحدها.. أقنع نفسه بيسر حينئذ أن العالم من حوله هو تماما كما يصوره الدعاة له.لكن وفى المساء وما أن يستلقى للنوم.. حتى يعى جيدا أنه يعيش عالمًا غريبًا تكتنفه الأسرار وكان القلق يعتصره حينئذ.

لا أحد فى «آلموت» يعرف الغاية من هذه الجنان،الصبايا، الفدائيين، من وجود القلعة نفسها إلا الحسن الصباح الذى أعلن لأتباعه: «إن قوة كل مؤسسة ترتكز أساسا على عمى أتباعها.. كلما كان مستوى وعى جماعة ما منخفضًا، كلما كان الحماس الذى يحركهم أشد وأعنف» ويظل الصباح محتجبا عن أتباعه الذين يحكى لهم الدعاة تاريخه فى الدعوة ومكانته العظيمة «حتى أخذت صورة الزّعيم العظيم ترتسم تدريجيا أمام المريدين، الذين لم تعد تساورهم إلا رغبة واحدة:أن تتسنى لهم يوما رؤيته بأم أعينهم، وأن يتميزوا أمامه بعمل باهر أو تضحية عظيمة. فاستحقاق تقديره يعود فى نظرهم إلى السمو فوق واقع البشر»، الأحداث فى القلعة تسير وفق خطة دقيقة تحيطها هالة من السرية المطلقة والغموض المقلق، تبدو خيالية ومستحيلة لكنها تمضى بإيقاع متسارع. وضع الصباح تنظيما تراتبيا هرميا محكما يقف على قمته، ممسكا بكل الخيوط. متحكما فى كل الذين تحيط بهم أسوار القلعة «كل إسماعيلى يعرف موقعه، وكل يعرف بالضبط على من سيلقى أوامره ومن تتوجب عليه طاعته».المدربون والمعلمون والدعاة يجهزون الشباب نفسيا وجسديا وعقائديا. يقولون لهم أن العقيدة تتضمن أسرارًا سيكشف عنها تدريجيا. وأنهم الفرقة المختارة:

«أنتم الذين ستكرسون فدائيين، أنتم الفرقة المختارة التى تحمل هدفا ساميا هو التضحية والشهادة فى سبيل القضية المقدسة. لذا عليكم أن تكونوا مختلفين عن سائر الناس.ولهذا سن سيدنا لأجلكم هذا التحريم :لا ينبغى أن تتزوجوا ولا أن تمارسوا أى شكل من الفجور.. كل الذين سيثابرون على القيام بما أمروا به، ستكون الخيرات الخالدة من نصيبهم.. أنهار صافية كالبلّور، وستراتاحون فى مقصورات من زجاج، مستلقين على أرائك. أما الحور العين فسيقدمن لكم الطعام والخمر الصافى وهن رهن إشارتكم».

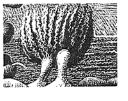
وحين يحكى الصباح بعض تفاصيل حياته لعدد قليل من الدعاة تظهر صورة الفيلسوف الحالم الذى شعر بصدمة عنيفة فى بداية انضمامه وهو شاب للدعوة الإسماعيلية السرية. فلقد رأى أتباعها وهم يتصرفون فى الخفاء تصرف السفسطائيين والملحدين والزنادقة. وتعاظمت صدمته عندما أخبره الداعية السراج: «إن العقيدة ناقصة بالضرورة، وأن ليس بوسع أحد معرفة الحقيقة. وبالتالى فنحن لا نؤمن بشىء ولا نستطيع أن نفعل شيئًا»، لكن ظمأه للمعرفة وطموحه للوصول إلى الحقيقة لم يهدأ فاندفع فى بحث دائب ودرس جوانب المعرفة والعلوم كافة :الرياضيات، الفلك، الفلسفة، الكيمياء،علم الطبيعة،التاريخ الطبيعى . . .وكان لعلاقة الصداقة التى تكونت بينه وبين زميليه الشاعر عمر الخيام والوزير نظام الملك دور هام فى تأجج رغباته العارمة للبحث عن إجابات عن أسئلته المستحيلة، وأساليب لتحقيق أهدافه فى الدعوة. فلقد صارح زميليه بحقيقة إيمانه بالدعوة الإسماعيلية السرية، ونذروا أن يكرسوا حياتهم للقضية والدعوة، وتعاهدوا أثناء دراستهم فى نيسابور بأن يساعد من يصل منهم لمكانة فى الدولة زميليه إلا أن الوزير خان العهد بعدما شعر بالغيرة من المكانة المتزايدة التى بدأ الصباح يحققها فى بلاط السلطان السلجوقى ملكشاه، فدس له من أفسد عمله وجعله أضحوكة، مما جعله يفر إلى مصر لينضم لبلاط الخليفة الفاطمى،عاقدا العزم على الانتقام من صديقه الوزير الذى أصبح عدوه الأول.

أما الخيام فقد اكتفى بدراسة الفلك وكتابة شعر بعضه متشائم متشكك فى الدين وحقيقة الوجود الإنسانى، وبعضه فاحش يعلى من قيمة اللذة والاستمتاع بمباهج الحياة والانصراف التام عن أمور العقيدة والسياسة. لكنه حافظ على صداقته بالصباح، مخلصا النصح له. فحين يخبره الصباح أنه مصمم على المضى فى طريق الدعوة معلنًا: «إن واجبى فى هذا العالم أن أشرع فى نشر بذور الحقيقة، وفتح أعين الناس، وتحرير البشرية من أوهامها وإنقاذها من المحتالين الذين رموا بها فى الظلمات. كانت الحركة الإسماعيلية بالنسبة لى راية الكفاح ضد الكذب والضلال، أحسست أنى الذى أحمل المشعل الذى يضئ للإنسانية تخبطها الأعمى». هنا يصارحه الخيام: «إن لم تملك المفتاح الذى يفتح لهم جنة وجودهم فالأفضل التخلى عن أية فكرة فى أن تصبح نبيهم. ما من امرئ اليوم يسعى مسرورا إلى الموت على أمل وعد بدخول الجنة لاحقا».

وكان كلام صديقه عمر الخيام حاسما فى اهتدائه لطريق جديد وتصورات مغايرة عبر عنها بكلمات واضحة وحاسمة: «إن الوصول إلى معرفة كلية قطعية أمر مستحيل، فحواسنا كاذبة.لكن الناس يتهمون من يقول ذلك بالهرطقة. ومن يريد أن يكون نبيا لحشود الناس عليه أن يتصرف نحوها تصرف الأبوين نحو أطفالهما.عليه أن يقدم لها الأساطير والترهات».وبدأ فى رسم خطته،وصياغة أسطورته الخاصة والسعى لتحويلها لحقيقة، وخلق جنة فى «آلموت»: عذارى يتدربن على أن يكن حور عين حتى أصبح من الصعب عليهن تصديق أنهن فتيات عاديات. وشباب يتشوقون للموت تشوقًا لا يهابون معه شيئا. وقام الدعاة، الذين انتقاهم جيدا وجمعهم فى القلعة وأعدهم لتنفيذ حلمه، بإقناع الفدائيين أن سيدهم «الصباح»يمتلك مفاتيح الجنة وبإمكانه أن يدخل إليها من يشاء. وزيارة واحدة للجنان التى أعدت جيدا فى الخفاء، والسيطرة النفسية الشديدة التى خضع لها الفدائيون عندما رأوا «سيدهم» بالإضافة للتأثير السحرى لتذوقهم ولأول مرة للحشيش الذى لم يكن معروفا لهم والذى نقلهم فى لحظات إلى «الجنة».كل هذا جعل الشبان الثلاثة الذين خضعوا للتجربة الأولى لمشروع الصباح الأسطورى، يؤمنون أنهم زاروا الفردوس فعلا. فقد شاهد الشبان جنانًا أعد فيها كل شىء ليحاكى صور الجنة التى تدربت مخيلتهم على تصورها، وما لقنهم الدعاة من أوصاف للجنة:كل أشكال الترف والجمال الفنى المفارق للواقع الذى يعيشون فيه، والفواكه التى لا يعرفونها، والخمر التى كانت محرمة عليهم. وعذارى تقيات يعرفن أصول العقيدة، وفنون الأدب والشعر وأسرار الهوى والجنس.وتمت الخطة بنجاح ولم يساور أيا من الشباب الثلاثة أدنى شك فى أن «سيدهم»أرسلهم فعلا إلى الجنة. وكما أكد الصباح للدعاة الذين أطلعهم على خطته «فالإنسان معيار كل الأشياء. فما يدركه موجود وما لا يدركه لا وجود له».. أولئك الثلاثة الذين هم فى الأسفل سيعرفون الجنة ويمتعون أرواحهم وأجسادهم وحواسهم بها.وبالتالى فالجنة بالنسبة لهم موجودة.



رجع الفدائيون الثلاثة :عونى ويوسف وسليمان من زيارة الجنة وهم متشوقون للعودة إليها،جاهزون لتنفيذ أوامر قائدهم حتى ينالوا رضاءه ويعودوا للجنة مرة أخرى.أرسل الصباح أشجعهم وأذكاهم وأكثرهم إيمانا بالعقيدة، وأكثرهم تمتعا فى «الفردوس» فى مهمة لاغتيال صديقه السابق وعدوه الأول الوزير نظام الملك. ويبقى الشابان الآخران لمهمة قادمة متأكدا من أنهما فى شوق عارم لتنفيذها واثقا من أنهما وكلما طالت مدة انتظارهما كلما زاد شوقهما. وينجح عونى فى طعن الوزير نظام الملك بخنجر مسموم وهو غير مبال بما سيناله من عذاب. فقد تناول قطعة الحشيش التى أعطاها له الصباح، فأصبح غائبا نفسيا وجسديا يتمنى فقط أن يقتله حرس الوزير بسرعة لكى يذهب إلى الجنة التى رأى نعيمها من قبل. لكن الوزير يدرك وهو يحتضر أن وراء هذا القاتل المتهور سرًا كبيرًا فيمنع الحرس من الفتك به ويستجوبه بنفسه. وتصعقه الإجابات خاصة عندما يخبره عونى أنه زار الجنة وأن «سيده» الصباح وعده بالعودة إليها إن هو قتل عدوه الوزير:«نحن فدائيون،وهذا يعنى أننا نضحى بأنفسنا لكننا نتمتع بميزة خاصة بنا وهى رؤية الثواب الذى ينتظرنا. إن الموت لا يخيفنا».عندها لم يبذل الوزير الذى يلفظ أنفاسه الأخيرة جهدا كبيرا فى إقناع قاتله بزيف الوهم وكذب الخرافة التى أجاد الصباح إقناع أتباعه بها. وأطلق الوزير سراح قاتله الذى يغادر المعسكر وهو مقتنع أن الصباح خدعه. عازما على قتله فى الوقت الذى يعرف فيه الصباح بمقتل عدوه فيتصور أن عونى قد قتل ويزف لأتباعه فى القلعة خبر نجاح الخطوة الأولى فى خطته بمقتل الوزير، واستشهاد عونى ودخوله الجنة. وعندما يظهر «الشهيد» على أسوار القلعة يرتبك الجميع وأولهم الصباح الذى يدرك سريعا نوايا العائد فيسارع إلى استقباله متخذا كل الحذر. وبعدما تهدأ ثائرة عونى، ويتمكن الحراس من تجريده من الخنجر الذى كان ينوى قتل الصباح به، تبدأ لحظة المكاشفة بين عونى الذى يرمى «سيده» بالكذب وبين الصباح الذى يكشف للفتى المخدوع أسرار الدعوة كما عرفها، ساردا له رحلته الطويلة فى البحث دون جدوى عن الحقيقة ويصارحه بحقيقة «الجنة المصطنعة» «إن جنة كل إنسان ليست إلا سراب رغبة خاصة.. الخير يتساوى مع الشر. . . ليست الأشياء بحد ذاتها هى التى تجعلنا سعداء أو تعساء. .إنما الفكرة التى نكونها عنها، وضروب اليقين الزائفة التى نعتقد بها». ويعلن له أنه باكتشافه لحقيقة «الفردوس الزائف» أصبح جاهزا للبحث عن يقينه الخاص وحقيقته المطلقة، جاهزا للسير فى طريق وعر وشاق ملىء بالأسئلة المحيرة. ويقتنع عونى بكلام الصباح ويغادر القلعة ليبدأ رحلته الخاصة وهو متحرر من الأوهام بحثا عن «الحقيقة».



حين يحكى الصباح بعض تفاصيل حياته لعدد قليل من الدعاة تظهر صورة الفيلسوف الحالم الذى شعر بصدمة عنيفة فى بداية انضمامه وهو شاب للدعوة الإسماعيلية السرية. وتعاظمت صدمته عندما أخبره الداعية السراج «إن العقيدة ناقصة بالضرورة، وأن ليس بوسع أحد معرفة الحقيقة»

أثار اغتيال الوزير غضب السلطان السلجوقى ملكشاه وتأكد أن قلعة «آلموت»وسيدها أصبحا خطرا لا يجب التأخر فى مواجهته بحسم، فأرسل حملة عسكرية للقضاء على مصدر الخطر. وكان الصباح ينتظر ذلك وهو مستعد بسلاحه السرى. فبمجرد أن رأى رسل السلطان الذين جاءوا يطلبون منه التسليم حتى أمر الفدائيين اللذين كانا قد زارا «الجنة» أن يرمى أحدهما نفسه من أسوار القلعة الشاهقة، وأن يقتل الآخر نفسه بخنجره. وأسرع الفدائيان بتنفيذ أوامر سيدهما وهما متلهفان للعودة إلى «الجنة». وكانت الصدمة هائلة فالعيون شاهدت ما يجزم بأن الشابين اللذين وهبا نفسيهما للموت على مرأى من الناس كانا قد زارا الجنة.. وهكذا أصبحت أسطورة «آلموت» حقيقة وواقعًا يؤمن به أتباع الصباح وأعداؤه. ثم جاء اغتيال السلطان ملكشاه على يد أحد فدائيي الصباح إعلانا بوصول الحلم لذروته الكبرى. ويعلن الصباح استقلاله التام حتى عن الخليفة الفاطمى وتأسيس الدولة الإسماعيلية فى «آلموت»،ثم يترك لكبار الدعاة أمر إدارة شئون الدعوة، معتزلا فى غرفته فقد تحقق له ما حلم به. «لقد أنشأنا ودربنا مؤمنين لم تعرف لهم نظيرًا أية قوة أخرى. حماسهم أسطورى. وعزمهم لا يتخطاه أحد. . وإخلاصهم لا يضاهى. .إن قوة مؤسستنا لا تكمن فى عدد أتباعها وإنما فى نوعيتهم».أما القرار الأخير الذى يصدق عليه الصباح قبل اعتزاله فكان حكم الإعدام على ابنه الوحيد الذى قتل فى نوبة غضب واحدًا من كبار الدعاة، وحين يرجوه بعض الدعاة أن يخفف الحكم بحق ابنه يقول لهم حكمته الأخيرة: «إن البناء الذى

يرتفع لابد أن يكتمل. وإن أقام قلبك عراقيل في وجهه، فلتخرسه لأن كل ما هو عظيم ينبغي أن يتجاوز نطاق البشر».

إن هناك بضع روايات أخرى عن «آلموت» منها رواية أمين معلوف «سمرقند» وهي صادرة بالفرنسية في نهاية ثمانينات القرن العشرين. وتدور أحداثها في رحاب هذا الصراع بين الثلاثي: «عمر الخيام الذي رصد العالم. ونظام الملك الذي حكمه، وحسن الصباح الذي أرهبه». هذا الثلاثي (العالم الفيلسوف - الثائر المسلح - الحاكم الإداري) هو الذي يوجه مسار الأحداث التاريخية الكبرى بانتصاراتها وانكساراتها وإليهم تنتسب، أما الذين يعانون في كل الأحوال فمجهولون لا يظهرون إلا في الأعمال الأدبية التي تعيد رسم المشهد بعد أن تنقضي الوقائع وتهدأ الأحداث. ورغم أن معلوف يختلف عن بارتول في ارتكازه على الدقة التاريخية فيكتب: «ويقال أنهم طلبوا العلم معا في نيسابور. وهذا ما لا يمكن أن يكون صحيحا. فنظام الملك أكبر من «عمر» ثلاثين عاما، و«حسن» درس في الري وربما طلب بعض العلم في مسقط رأسه «قم». لكن الحقيقة «الفنية» التي صاغها بارتول أقوى وأجمل روائيا من «دقة» معلوف. فعندما يكون الصراع بين أقران من جيل واحد بينهم عوامل التنافس و«الغيرة» الإنسانية، يكون التوتر والحافز الدرامي الفني أقوى. ولا ننسى أن بارتول كتب روايته قبل معلوف بنصف قرن على الأقل مما يجعله سباقا في إعادة اكتشاف ذلك العالم وانعكاساته على الواقع، أو قل في إمداداته في الواقع. معلوف يبدو مهموما بالواقع الإيراني الحديث بعد اشتعال الثورة الإيرانية في نهاية السبعينيات وتداعياتها الإقليمية والدولية».



المزج بين التاريخ والخيال في الرواية كان ناجحا وخاصة أن تاريخ «آلموت» والحسن الصباح والدعوة الإسماعيلية كان دائما غامضا، وصار من الصعب على الباحث والمؤرخ معرفة حقيقة مذهبهم ونشاطاتهم ودولهم عبر التاريخ. ومن قبل قال طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى: «والواقع أن الخصومة بين الشيعة وأهل الجماعة قد اتخذت ألوانا من الجدل والإذاعة ونشر الدعوة بعد أن استقام الأمر لبني العباس، كثر فيها المكر والكيد والاختراع. بحيث يجب على المؤرخ أن يحتاط أشد الاحتياط حين يصور هذه الفتن في عهدها الأول». لكننا يجب أن لا نهرب من مقاربة التاريخ في موضوع كهذا لأن تأثيره يمتد إلى الحاضر، فالحركات السياسية الإسلامية المعاصرة التي تعتمد العنف في دعواها تستلهم من تاريخ الحركات السياسية الإسلامية المعارضة على مختلف توجهاتها بعض آليات العمل الدعوي وأساليب «الجهاد». كما أن بعض كتاب الغرب يتهمون التاريخ الإسلامي والمسلمين بأنهم مجبولون على العنف والاغتيال والاستشهاد «الانتحار» متناسين أن مختلف المجتمعات الإنسانية مرت بمثل هذه المحن والحركات السياسية «الدموية» العنيفة ويكفي مثالا ذكر اليابانيين في الحرب العالمية الثانية، بل إن حالات الانتحار تعبيرا عن الاعتراض على أمر ما شيء مألوف حتى الآن في اليابان. فدائيو «آلموت» إذا تعبير عن لحظة فريدة في التاريخ الإسلامي. لحظة تتجدد طاقتها «الملهمة» لكل من يبحث عن رصيد خيالي لمواجهة واقع معاد يتجبر على «المؤمنين المستضعفين» الذين تحول إمكانياتهم المتواضعة دون الانتصار في تلك المواجهة غير المتكافئة. فلا يجدون إلا ذلك الخيال الجامح والمبادرات الفردية المفعمة بإيمان استثنائي واستعداد للتضحية لا حدود له والأهم ذلك الرصيد «الروحي» للفئات الصغيرة التي حققت نجاحات مذهلة على إمبراطوريات كبرى. أما الحركات السياسية الإسلامية المعاصرة فلا تعدو أن تكون استجابة لاحتقان وصراع اجتماعي وسياسي لا يجد المتورطون فيه «الدولة والمعارضة» وسائل حله سلميا فيلجأون للعنف ولترسانات من الدعاوى والأسانيد الدينية.



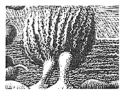
كان هدف الحسن الصباح السياسي كما يبرزه بارتول في الرواية أن «يخلص عرش إيران المجيد من الطغاة الغرباء الأتراك السلاجقة». وما الدعوة الدينية إلا وسيلة فاعلة لذلك. مما يعيدنا مرة أخرى لطه حسين «فلم تكن الفتنة الكبرى إلا صراعا بين الطبيعة الإسلامية العربية، وطبائع الأمم المغلوبة التي ظهر عليها المسلمون». مقاومة السلاجقة، هؤلاء الأتراك الذين سيطروا على آسيا الغربية بين الهند والبحر المتوسط مدة طويلة وفرضوا سيطرتهم حتى على عاصمة الخلافة العباسية، كانت هي الدافع الخفي «السياسي» للدعوة الدينية التي قادها الصباح وأنشأ من أجلها تنظيمه السري المسلح. ونلاحظ أن آليات الخداع والسيطرة على الأتباع وخلق الأوهام والأساطير ليست حكرا على الحركات الدينية العقائدية الإسلامية أو غيرها. فهي أساليب مرتبطة بكل الأفكار «الكلية» والحركات السياسية الشمولية التي غالبا ما تعتمد في نجاحها على إثارة مخيلة أتباعها بأحلام كبيرة وخداعهم وإيهامهم بأهميتها وبمقدرتها على تحقيق تلك «الأوهام» السامية. هؤلاء الأتباع هم أول من يدفع ثمن تلك الأحلام «الجنونية»، بعضهم يذهب للموت فرحين متأكدين من دخولهم «الجنة»، وأكثرهم يكتشفون زيف الأوهام لكن متأخرا.

بارتول المطلع جيدا على الديانات والفلسفات الفارسية قبل الإسلام، وعلى المذاهب الفلسفية اليونانية، والأصول الفلسفية للمذاهب الشيعية المختلفة، يستقي منها جميعا مقولات وتصورات محددة يمزجها بمخاوف وأسئلة الواقع الأوروبي في منتصف ثلاثينات القرن العشرين بحيث تبدو الأجواء الفكرية في «آلموت» خلفية بالغة القوة والدلالة للواقع الذي كان يعانيه. الديانتان الفارسيتان المانوية والزرادشتية حاضرتان بقوة في الرواية. فهناك وحدة تجمع بين طرفي الصراع الأزلي المحتدم، الشر والخير، بحيث لا يمكن تصور وجود أحدهما بمعزل عن الآخر. نجد ذلك في كلمات الحسن الصباح وفي بحثه المجنون عن الحقيقة واختراعه لأسطورة الجنة وحلمه المستحيل: «أحلم بإمبراطورية يحكم كل إقليم فيها وكل مدينة رجل عادل يخاف الله ويهتم بشكاوى أضعف الرعية. أحلم بدولة يشرب فيها الذئب والحمل معا بكل دعة ماء الساقية عينها». كما نجده داخل هذه الجنة في تلك العلاقة الفريدة التي تجمع الفهد «أهريمان»، وهو اسم ورمز التلوث والدنس والشر والظلام في «الافستا» كتاب زرادشت «المقدس»، مع الغزالة وهي التعبير عن «أهورامزدا» رمز الحق والحياة الطاهرة النقية. هذه الوحدة بين النقيضين هي إحدى أفكار الصباح الرئيسية فمادام الميدان، الشر والخير موجودين بالقوة وبالفعل في الطبيعة وفي الحياة فيمكن للإنسان أن يصنع ما يشاء فهو بمفرده صانع القيم وحاكمها. والفلسفات اليونانية، خاصة الفلاسفة الطبيعيين ما قبل سقراط (أمبيدوكليس، هيراقليطس، ديموقريطس) حاضرة في آراء وكلمات الحسن الصباح وأتباعه من الدعاة. أما الأصول الفلسفية للمذاهب الشيعية وجوهرها القائم على ضرورة وجود الإمام أو نائبه وطاعة التابعين له انتظارا للإمام الغائب «المحجوب». فهي الطاقة «الروحية» الكبرى التي تساعد الصباح في تحريك الأحداث والشخصيات. الصباح يقدم نفسه لأتباعه باعتباره «الرائد» الذي يمهد الأرض لتكون على أهبة الاستعداد لاستقبال إمام الزمان الذي سيملأ الأرض عدلا ويجزي المؤمنين الصادقين.



ويبدو بارتول متأثرا في صياغته لشخصية الصباح بالأجزاء الأربعة التي كتبها نيتشه في «هكذا تحدث زرادشت» (١٨٨٣ - ١٨٨٥) فهو يفهم أن نيتشه يأخذ شخص زرادشت كتورية، أو كقلب للمعنى، كمجاز مرسل. والمقصود تصوير الإنسان الأسمى «السوبرمان» وصياغة فلسفة لإرادة القوة، إرادة الاقتدار، والرغبة في السيطرة على المصير البشري والتحكم في مساره، وصنع إنسان حر بالوسائل الأشد عنفا، الأكثر إكراها. ألا نجد صدى هذه الكلمات التي يقولها نيتشه على لسان زرادشت في كلمات الحسن الصباح: «ألا تعرف إلى من يحتاج العالم، إلى الإنسان الذي يأمر بأشياء عظيمة.. آه يا زرادشت، قدم نفسك كظل من يجب أن يأتي، عندئذ سوف تأمر، وتتقدم كسيد».

مع كل هذا لم يكن بارتول مستشرقا بهرته هذه الأجواء الغريبة فأراد كتابة رواية من روايات الفنتازيا والخيال ليقدم للقارئ الغربي هذا العالم الغرائبي، لكنه مهموم بمقاربة الواقع الغربي في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين عندما تصاعدت في الأجواء الأوروبية هذه الدعوات الطوباوية لإقامة الجنة على الأرض، وكثرت التوجهات السياسية الشمولية بمختلف تعبيراتها من شيوعية واشتراكية وفاشية. وما «آلموت» إلا فضاء مثالي لتصوراته وأفكاره عن المدى الذي يمكن أن تذهب إليه المحاولات الخيالية لهندسة الوجود الإنساني والتحكم القسري في مصائر البشر والمجتمعات بالاستناد إلى العنف والقوة وزرع الخوف في الأتباع قبل الأعداء. صحيح أن «آلموت» حققت نجاحا باهرا وظلت صامدة وقوية لعدة عقود لكنها استحالت إلى أسطورة وأمثولة، وتعلم الإسماعيليون كيف يتحولون من أشد الفرق تمسكا بمعتقدهم وعنفا في الدفاع عن مذهبهم ووجودهم إلى طائفة يضرب بها المثل في التسامح والرقة. بالضبط كما استحالت التجارب الطوباوية الغربية التي كان يخشاها بارتول إلى ذكرى وعبرة.



القرار الأخير الذي يصدق عليه الصباح قبل اعتزاله كان حكم الإعدام على ابنه الوحيد الذي قتل في نوبة غضب واحدا من كبار الدعاة، وحين يرجوه بعض الدعاة أن يخفف الحكم بحق ابنه يقول لهم حكمته الأخيرة «إن البناء الذي يرتفع لابد أن يكتمل. وإن أقام قلبك عراقيل في وجهه، فلتخرسه لأن كل ما هو عظيم ينبغي أن يتجاوز نطاق البشر»



الأمريكيون خططوا لاستخدامه

ريتشارد هورتون

لم يكن لأى مرض آخر - أو بالأحرى أية قوة أخرى من القوى الطبيعية - دور أكبر من دور الحمى الصفراء فى تشكيل تطور الحياة الأمريكية. وربما رؤى بعد قرن أو نحو ذلك أن لمرض نقص المناعة (الإيدز) أثرًا مساويًا. إلا أن الحمى الصفراء هى التى وضعت القواعد الحديثة للارتباط - العاطفى والسياسى والعلمى والطبى - فى المواجهات بين المرض والبشرية. وبما أن أسباب المرض قد قضى عليها وبات الناس فى مأمن من المرض، فإن التهديد الذى كانت تمثله الحمى الصفراء للمجتمع قد جرى تناسيه إلى حد كبير بشكل يبعث على السعادة. والانتصار الواضح على البعوضة التى انتشرت انتشاراً مؤقتاً، جزء من التاريخ الإنسانى شديد الثراء للعالم الجديد. وذلك هو كبت الذاكرة وتشويش الحاضر.

ولذلك يضطر القارئ المدقق إلى الاعتماد على المصادر الأولية كى يكتشف ذلك الإحساس المرعب الذى أحدثته الحمى الصفراء فى أمريكا القرن التاسع عشر ذات النمط الحضرى الأول. ومن أمثلة ذلك اليزابيث درينكر، وهى من سكان فيلادلفيا وتنتمى لطائفة الأصحاب Quakers ومن مواليد ١٧٣٤. وظلت اليزابيث تسجل مذكراتها حتى قبل وفاتها فى الرابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٠٤ بستة أيام. ويمثل تاريخها للحياة المحلية استبصاراً رهيباً فى دراما الحمى الصفراء فى أهم مدن أمريكا فى ذلك الوقت.

وقد أصابت الحمى الصفراء فيلادلفيا لأول مرة سنة ١٦٩٩. وفى سبتمبر ١٧٦٢ أشارت درينكر إلى عودتها بقولها: «وقت يخيم عليه المرض فى فيلادلفيا. الكثير من الأشخاص قضى عليهم شىء أشبه بالحمى الصفراء». وخلال الأوبئة المتكررة فى تسعينيات القرن الثامن عشر، أطلقت على جزء من مذكراتها اسم «كتاب الفناء». وفى سنة ١٧٩٣، على سبيل المثال، وصفت «عدداً غير عادى من الجنازات»، وهروب العائلات بينما «تجتاح الحمى المدينة»، ويُحرق القار فى الشوارع لدرء المرض. وفى تلك المرة التى تفشى فيها المرض، مات خمسة آلاف شخص كانوا يمثلون ١٠ بالمائة من سكان فيلادلفيا. وتروى درينكر قصصاً عن المأساة المحزنة:

... روى ج هيسر قصة محزنة عن روبرت روس بروكر الذى مات ليلة الحمى الصفراء، ولم يكن معه من أحد سوى زوجته التى كانت تعانى من آلام الوضع بينما هو يحتضر، حيث فتحت الزوجة النافذة ونادت على من يساعدها، ولكن أحداً لم يجب نداءها، وفى الصباح دخل شخص البيت كى يرى ما آل إليه حالهما، فوجد الرجل وزوجته قد ماتا، بينما كان الطفل الذى ولد حديثاً حياً....

وقد فاق عدد الموتى كل التوقعات. وفى سبتمبر ١٧٩٣، قالت درينكر:

... يقال أن كثيرين يدفنون بعد حلول الليل وينقلون بالعربات إلى مقابرهم....كما سمعنا اليوم أن الموتى يوضعون فى توابيتهم بالحالة التى ماتوا عليها دون تغيير ملابسهم أو تجميلهم، ويدفنون بعد ساعة أو ساعتين من مرضهم.... وكانت التوابيت مجهزة بالأكوام.

لقد محيت آثار هذه الأوبئة من الجزء الخارجى العام للمدينة. وعندما كنت هناك منذ فترة قريبة كان التذكار الوحيد المرئى - الذى بيّنه لى رجل مسن جالس تحت جرس الذكرى المئوية الثانية - عبارة عن منخفض على شكل حدوة الحصان فى الأرض المجاورة لكاربنترز هول. كان مجروراً قديماً. وكان ذلك من أجل وباء زعم جون آدامز - أثناء المطالبة العامة الشرسة لجورج واشنطن بإعلان الحرب دعماً للثورة الفرنسية - أن «لا شىء سوى الحمى الصفراء... كان يمكن أن ينقذ الولايات المتحدة من ثورة شاملة للحكومة».

[١]

يسبب الحمى الصفراء فيروس تنقله إلى الكائنات البشرية بعوضة رقيقة المنظر، وإن لم تتضح العلاقة بين البعوض والحمى حتى سنة ١٩٠٠. وعندما تدخل البعوضة الحاملة للحمى الصفراء إحدى المستوطنات البشرية، فغالباً ما يتفشى المرض بسرعة - وبصورة مميتة. وقد قتل وباء انتشر فى أثيوبيا فيما بين ١٩٦٠ و١٩٦٢ حوالى ٣٠ ألف شخص. والمرض فى حد ذاته على قدر كبير من الفظاعة. وهو يبدأ بداية مفاجئة بالحمى والصداع وألم فى العضلات. وتكون الضحية فى حالة شديدة من الإعياء مع وجود نزف ونوبات عنيفة من القىء. وخلال بضعة أيام يقل معدل النبض، ويهبط ضغط الدم، ويصاب المريض بالفشل الكلوى. كما ينز الدم من سطح كل نسيج. وعندما تكون الإصابة حادة، يموت نصف المصابين بالمرض.



وأوضحت مارجريت همفريز مؤرخة العلوم المحترمة كيف أن المجازر البشرية التى أحدثتها الحمى الصفراء تكاد تكون هى وحدها التى عجلت بإنشاء المؤسسات الصحية العامة المهمة فى الولايات المتحدة ومنها هيئة الصحة العامة الأمريكية، التى تقول همفريز إنها أنشئت فى المقام الأول استجابة لآثار الحمى الصفراء على التجارة الأمريكية. فكل وباء فى القرن التاسع عشر - وكانت نيو أورليانز تتحمل عبء المرض - «كان يوقف القطارات ويغلق الموانئ، ويحول دون وصول القطن إلى المحالج، ويشل حركة السلع الأساسية من نقاط التوزيع فى المدن إلى الريف». وأنشئت المجالس الصحية لمواجهة خطر الحمى الصفراء. وبذلك كانت للحمى الصفراء أهميتها فى انتشار المشاركة الفيدرالية فى الصحة العامة فى أواخر القرن التاسع عشر، وهو ما يعود غالباً إلى كونها مشكلة قومية فى المقام الأول، بعكس أى مرض آخر كان يصيب البلاد بصورة ثابتة.

وفى تحليلها القوى الذى يتسم بالأصالة، حاولت اليزابيث همفريز وضع معايير كلية لابد من انطباقها على أى خطر صحى جديد كى يحظى باهتمام سياسى جاد. وتظل نتائجها صالحة فى وقتنا هذا. فهى تقول إنه لابد من اتفاق العلماء على النظرية المحيطة بالمرض؛ ولابد من توافر إجراءات التدخل المحتملة؛ ولابد أن يكون لهذه الإجراءات أقل قدر ممكن من التأثير على حقوق المواطنين؛ ولابد أن يكون هناك عدد كبير من السكان معرض للإصابة بالمرض؛ ولابد أن يكون الجمهور متفهماً للإجراءات التى اتخذت ومتقبلاً لها. ونشأت حركة صحة عامة استجابة للحمى الصفراء. وفى النهاية أجاز القانون الفيدرالى فى سنة ١٩٠٢ هيئة الصحة العامة ومستشفيات البحرية - وكانت مستشفيات البحرية مسئولة

ضد السوفييت... البعوض

عن صحة البحارة. وقد قضى على المرض فى أمريكا الشمالية بحلول عام ١٩٠٥.



وكانت الحمى الصفراء كذلك وراء مناقشة عامة غير عادية بشأن ابستمولوجيا المرض. وكان لهذا الأمر أهميته بسبب الرأى الطبى السائد الذى يقول إن وباء الحمى الصفراء فى سنة ١٧٩٣ كان مستورداً من جزر الهند الغربية. ولو صح ذلك، لأصبحت إجراءات الحجر الصحى الموسعة فى الموانئ والمدن الكبرى الوسيلة الوحيدة لأية حماية فى المستقبل. ومثل هذه التدخلات كانت ستلحق ضرراً بالغاً بالشبكة التجارية الممتدة مع هشاشتها. ولم يكن بالإمكان ترك النزاع للتأملات العقيمة فى صالونات الطب الأكاديمى. وبدلاً من ذلك قام نواه وبستر، المحامى والصحفى وواضع القواميس وأول مؤرخ للأمراض الوبائية، بإخراج المناقشة من أيدى الأطباء وجعلها قضية عامة. وقد جمَّع معلومات من الجمعيات الطبية والفلسفية ليضع نظرية جديدة تشرح الحمى الصفراء باعتبارها تعتمد اعتماداً «تاماً على تكوين الجو الذى نعيش فيه»، وقد تعتمد فى الغالب على «الأحماض السامة التى تخرج من كل أنواع القاذورات فى الطقس الحار».

وبما أن وبستر كان رجلاً علمانياً ذا مهارات غير عادية فى المرافعة، فقد تحدى أطباء عصره - وخاصة الدكتور ويليام كارى من فيلادلفيا، وهو رجل وصفه الدكتور بنجامين راش بأنه «حجة مدينتنا فى موضوع الحمى الصفراء». وضمَّن وبستر أفكاره المضادة فى خمس وعشرين رسالة نشرها فى New York Commercial Advertiser سنة ١٧٩٧. وهى من أقدم وأهم نماذج صحافة التحقيقات التى تثير النقاش حول موضوع له أهميته الكبيرة المدنية والصحية العامة.

ويتعلق فرع غريب لهذا التاريخ بالحماس الأمريكى للحمى الصفراء باعتبارها سلاحاً بيولوجيا. ففى الوثائق الحكومية المحظورة فى الوقت الراهن، يمكن أن نلمح برنامج الحرب البيولوجية الأمريكية فيما بين ١٩٤٥ و١٩٦٠. فقد كانت الحمى الصفراء إلى جانب البعوضة الحضرية الحاملة للمرض أملاً عسكرياً كبيراً. وبدأ العمل فى استراتيجيات البعوض الهجومية سنة ١٩٥٣ فى كامب ديتريك. وكانت مزايا هجوم البعوض جلية - فالفيروس يحقن فى الجسم البشرى مباشرة؛ ومادامت البعوضة حية، فإن المنطقة التى تطلق فيها تكون خطرة؛ وليس هناك علاج معروف للحمى الصفراء؛ ويمكن إصابة سكان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية إصابة كبيرة؛ وسيكون من الصعب تنظيم برنامج التطعيم بالسرعة الواجبة. وفى سنة ١٩٥٦ بدأت التجارب الميدانية باستخدام بعوض غير مصاب فى جورجيا وفلوريدا. فقد كانت تلك الحشرات حاملات جيدة: ذلك أن البعوض ينتشر فوق عدة أميال مربعة. وكان بإمكان فورت ديتريك إنتاج ما يصل إلى نصف مليون بعوضة كل شهر.

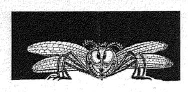
واستكمل الدكتور ليويس جبهارت العالم بجامعة يوتاه جزءاً من هذا العمل. فقد حدد جبهارت مع زملائه من أماكن أخرى شروط الهجوم الناجح للحمى الصفراء الحضرية. ودرس فريقه مزايا وعيوب أنواع عديدة من البعوض، وتعقيدات الظروف المناخية الأوراسية (وخاصة حول موسكو وستالينجراد وفلاديفوستوك)، والقدرات الدفاعية لهذه المناطق، كما قيَّموا خطط هجوم البعوض. وأعقب تحليلاتهم مشروع «الكرَّاز» Bellwether والعمليتان «الطنين الكبير» Big Buzz و«السيف السحرى» Magic Sword. وكان المشروع الأول الذى نُفِّذ فى عامى ١٩٥٩ و١٩٦٠ يركز على دراسة احتمال لسع إناث البعوض الجائعة على مسافات مختلفة، وسرعات متفاوتة للريح، ودرجات حرارة متباينة، ونسب رطوبة مختلفة، إلى جانب التجارب فى العديد من المواقع الحضرية المشابهة. أما المشروع الثانى فقد بدأ فى تقدير جدوى الإنتاج الضخم للبعوض واستخدامه. وانتقل السيف الذهبى بالكرَّاز خطوة للأمام بتحديد تفاصيل درجات الهجوم الدقيقة بكل ألف بعوضة تطلق. وفى النهاية أوقف الرئيس نيكسون الأبحاث الأمريكية التى تجرى على الحرب البيولوجية الهجومية سنة ١٩٦٩.

وفى كتاب Mosquito يلخص أندرو سبيلمان، الباحث البارز بجامعة هارفارد فى الأمراض التى ينقلها البعوض وأستاذ الصحة العامة بالمناطق الحارة، تاريخ اكتشاف الحمى الصفراء والتفاعل المعقد للتنافس العلمى الكوبى الأمريكى الذى ربط العدوى ببعوضة Aedes. وبعد عشرين سنة من الأبحاث والنقاش فيما بين العلماء فى هافانا وواشنطن، كان على والتر ريد أن يعلن فى سنة ١٩٠٠ أن مصدر الحمى الصفراء الحقيقى هو التحول. (عُزل الفيروس فى نهاية الأمر سنة ١٩٢٧). ويشير سبيلمان بأسى إلى أنه بعد قرن من ذلك فإنه «بعد أن يصاب شخص بالمرض فإن ما يمكن أن يفعله الأطباء فى وقتنا هذا قليل». وكما أثبت الوباء الإثيوبى، فقد كان هناك تناقص فى الاهتمام بالحمى الصفراء خلال القرن العشرين. وفى سنة ١٩٨٣ فقط جمعت منظمة الصحة العالمية خبراء الحمى الصفراء فى العاصمة السنغالية دكار للتوصل إلى اتفاق بشأن كيفية التعامل مع هذا الخطر الكونى الناشئ.

ومنذ عام ١٩٨٣ والحمى الصفراء تتجاهل جهود هؤلاء العلماء. فالفيروس مستوطن فى تسع من دول أمريكا الجنوبية، بما فى ذلك جزء كبير من البرازيل وفنزويلا وكولومبيا وبيرو وبوليفيا. ولا يزال الخطر قائماً. فأوبئة الحمى الصفراء تتفشى بصورة أكبر وأعداد البعوض فى ازدياد. وقد تفشت الحمى الصفراء فى كينيا لأول مرة سنة ١٩٩٢. وأسوأ تفش للمرض خلال العشرين سنة الماضية بالبرازيل كان سنة ١٩٩٣. وظهرت الحمى الصفراء من جديد فى السنغال سنة ١٩٩٥. وأول مثال للحمى الصفراء الحضرية فى الأمريكتين على مدى نصف قرن وصف سنة ١٩٩٩. ومرة أخرى جمعت منظمة الصحة العالمية خبراءها سنة ١٩٩٨ لبحث أسباب ظهور المرض من جديد.

وتنقسم الأسباب إلى شقين. الشق الأول هو أن العلاقة بين المستوطنات البشرية والغابات التى تخرج منها الحمى الصفراء تتغير تغيراً سريعاً. ففى وادى كيريو، حيث بدأ الوباء الكينى، شُق طريق مؤخراً بين الأشجار. وقد زادت فرص نقل البعوض إلى خارج الوادى، أو مجيء البشر إلى المنطقة المعرضة للخطر، زيادة كبيرة. ومع زيادة معدلات المواليد فى كثير من هذه المناطق، أزيلت الغابات لإقامة مساكن للبشر، وهو ما أوجد نقاط اتصال جديدة بين البشر المعرضين للإصابة والبعوض الحامل للمرض.

الشق الثانى هو أنه رغم وجود طُعْم فعال ضد الحمى الصفراء، فإن تغطية السكان المعرضين للخطر ليس كبيراً. ولتحقيق وقاية ناجحة من المرض،



البعـــــوض

لابد أن تتعدى معدلات التطعيم نسبة الـ ٨٠٪. ويعود تفشى المرض فى البرازيل والسنغال بصورة كبيرة إلى عدم كفاية التطعيم. وهناك كذلك جزء عملى من الصعوبة. فطعم الحمى الصفراء يحتوى على فيروس حى جرى إضعافه، مما يجعل فترة صلاحيته قصيرة. وهو سرعان ما يفسد حين نقله من التبريد السليم. ولكن هناك إلى جانب ذلك قضية الإرادة السياسية. فغالباً ما يكون تخطيط حملات التطعيم سيئاً، وعادة ما لا يشكل جزءاً من الاستراتيجية الإقليمية أو القومية الثابتة ضد الحمى الصفراء. وقد يكون الدافع وراء نشر طُعْم الحمى الصفراء محل تساؤل أكثر، فى ظل التقارير الأخيرة التى تتحدث عن ردود الأفعال العكسية الخطيرة (والنادرة) المرتبطة بالطُعْم الوحيد المتوفر حالياً. فقد أخفقت الحكومات الأفريقية والأمريكية الجنوبية فى تقدير الآثار المدمرة لهذا المرض على نمو بلادها الاقتصادى والاجتماعى. وفى الوقت ذاته، وفى سنة ٢٠٠١، لا زالت منظمة الصحة العالمية تبلغ عن تفش جديد للمرض فى غينيا والبرازيل وساحل العاج. ويظل على أماكن أخرى أن تعى دروس الحمى الصفراء فى جنوب الولايات المتحدة.

[٢]

ابحث فى بيتك عن جثث البعوض العادى Culex pipiens وانظر إليها تحت المجهر أو عدسة مكبرة قوية. والصورة التى ستراها هى صورة ذات جمال مخيف. فالرأس كُرِّية سوداء مدمجة تخرج منها شعيرات سميكة طويلة، وقرنا استشعار متشعبان، وفكان أشبه بكلابتين. وتربط الرقبة - التى كالعصا - الرأس بالجذع المحدب الذى ثبتت فيه الأجنحة بقوة. وهذه الأجنحة مرقشة عليها بقع صبغية، فتبدو فى شفافية الزجاج المعشق أحادى اللون. والسيقان الست طويلة وتغطيها شعيرات وهى مفصلية. أما ظهر البعوضة فمقوس كأنه فى حالة استعداد للقفز؛ والواقع أن الجسم بكامله مُشكَّل لغرض الهجوم.

ويبدى سبيلمان إعجابه الواضح بالبعوضة، بغض النظر عما يتحمله البشر. فقد فتنته قوتها: «فليس هناك حيوان على وجه الأرض مس حياة مثل هذا العدد الكبير من البشر». وهو يعتبر موقفنا من البعوضة أمراً لا يقل عن كونه «علاقة» ما. فالواقع أنه «قد يكون من الصعب أن نحب البعوضة، ولكن من يعرفها حق المعرفة يُكنُّ لها تقديراً عميقاً». وتعبر الصفات التى ينعت بها سبيلمان البعوضة عن ذلك بقوة؛ فهى متعددة الأشكال، وزاهية الألوان، وجميلة، ورائعة، وتتمتع بالصحة والقوة، وماهرة، ومثابرة، ورشيقة، وساحرة، ومحيرة. وفى النهاية يلقى بالحذر البيولوجى فى الهواء؛ فهذه الحشرة «تفكر بجلدها». وليس سبيلمان ساذجاً فى إعجابه هذا. فهو يعترف على الفور بأن البعوضة «تخدم نفسها» بوحشية. إنها تعيش لتاكل وتتكاثر. ولا شىء غير ذلك.

والبعوضة تدريب ارتقائى فى الهندسة البيولوجية الدقيقة. ولابد لبعوضة Culex pipiens أن ترفرف بأجنحتها حوالى خمسمائة مرة فى الثانية الواحدة كى تطير بسرعة متواضعة مقدارها ثلاثة أميال فى الساعة. ومع ذلك فإن حياتها شديدة الارتباط بالغرائز. فذكر بعوض نيوزيلندا يظل يحوم حول البعوض البالغ الذى فى طور العذراء، انتظاراً لخروج العذراوات التى ينقض عليها وفى ذهنه الحشرى أمر واحد - وهو ما يصل سبيلمان إلى أنه «الاغتصاب فى المقام الأول». وفى بعض الأحيان يكون ذكر بعوضة Culex شديد الارتباط بأنثاه حتى أن انسحابه لا يتحقق إلا بانتزاع العضو الذكرى نزعاً. ويسخر سبيلمان من الخرافات الشائعة. فبينما قد تحب أنثى البعوض التغذى على الدم البشرى، فإن مصدر الغذاء الأكثر احتمالاً هو رحيق نباتى سكرى. فالدم ضرورى فقط للمساعدة على دفع إنتاج البيض. (الخرافة الوحيدة الحقيقية هى أن الإناث وحدها التى تلسع).

ويمكن أن نضيف إلى هذه المعلومات أن هناك ما يزيد كثيراً على الألفى نوع من البعوض (يعيش ثلاثة وسبعون منها فى فلوريدا)؛ ويمكن لبعوض البرك المالحة الهجرة لمسافة تبلغ المائة ميل؛ ويمكن للبعوضة أن تشم العائل على مسافة ثلاثين ميلاً؛ وهناك لعبة أطفال تسمى Know Mosquitos.



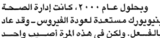
ولكن فكرة كتاب سبيلمان الأساسية تتعدى بكثير التاريخ الطبيعى لحياة البعوض وغرامياته. فهو يروى قصة الطريقة التى حاولت بها الكائنات البشرية السيطرة على الأمراض التى يسببها البعوض والقضاء عليها، وكيف فشلت هذه الحملات فى أغلب الأحيان. وهو لا تسعده هزيمة البشر. بل إنه يرغب فى لفت الانتباه إلى القدرة غير العادية على التكيف التى تتمتع بها هذه الحشرات. فهى تعيش فى حالة من الحرب الشاملة مع الميكروبات المفترسة والديدان والنمل والخنافس واليعسوب (صقر البعوض) والخفافيش والسحالى. إلا أن البشر أصبحوا عدوها الرئيسى. وما نفعله عادة يعطى حياة جديدة للبعوض وما يصاحبه من أمراض.

وأفضل أمثلة سبيلمان هو Aedes albopictus، وهى بعوضة النمر الآسيوية التى تنقل حمى الدنج وغيرها من أنواع التهابات المخ. وقد اكتشفت بعوضة النمر الآسيوى فى الولايات المتحدة سنة ١٩٨٣ ومن الأرجح أنها انتقلت إلى موطنها الجديد - ممفيس بولاية تينيسى - من الخارج. وبحلول عام ١٩٨٥ كانت بعوضة Aedes albopictus قد استقرت فى تكساس.

وكان مصدر هذا النوع غير العادى من البعوض ملايين الإطارات التى تستوردها الولايات المتحدة من آسيا. وخلق خلل فى التوازن البيولوجى الظروف لبعوضة جديدة كى تأتى لنا بأمراض جديدة. ويقول سبيلمان إن البعوضة لها «قدرة كبيرة على التكيف والتخصص»، وإننا معشر البشر القوة الرئيسية التى تقف وراء هذا التكيف الخطر فى بعض الأحيان. ولا تزال تُكتشف أنواع جديدة من البعوض فى الولايات المتحدة كل بضع سنوات.

وفيروس غرب النيل مثال جيد لكيفية عدم وجود مصدر لعدوى جديدة يحملها البعوض - أو هكذا يبدو - كى تهدد سكانا حضريين لم يكن ذلك الأمر فى حسبانهم. وقفز الفيروس إلى اهتمام أبناء نيويورك فى أغسطس من عام ١٩٩٩. وبحلول سبتمبر كانت هناك اثنتان وستون حالة إصابة وسبع وفيات. وما يميز المرض هو التهاب فى المخ أو التهاب سحائى، أو الاثنان معاً. وكان المسنون على وجه الخصوص معرضين للإصابة. وتركزت العدوى فى شمالى كوينز وساوث برونكس، وإن أصاب الذعر المدينة كلها. ووعد العمدة رودولف جوليانى بـ«القضاء المبرم على البعوض». وأخذ موظفو الصحة العامة آلاف العينات وعزلوا أربعة وعشرين نوعاً من البعوض. إلا أن سبيلمان يعتقد أنه كان أحرى بالعلماء أن يؤدوا عملهم بصورة أفضل؛ إذ «كان عليهم أن يخضعوا العينات التى أرسلت لمزيد من الفحص الدقيق». والواقع أن هؤلاء الخبراء كانوا يظنون أنهم يتعاملون مع فيروس مختلف تماماً. وهو ما لم يكونوا محقين فيه.

والطيور هى العائل الرئيسى لفيروس غربى النيل. ويصاب البشر مصادفة بالمرض عندما تتدفق العدوى من مجتمعات الطيور شديدة الإصابة. وفى حديقة حيوان برونكس - على سبيل المثال - أصاب المرض أحد طيور الفلامنجو الشيلى، وصقراً أصلع، كما أصاب المرض مجموعة متنوعة من غراب البحر والنورس ومالك الحزين والبط البرى. وكانت الرسالة الموجهة للجمهور عند انتشار المرض سنة ١٩٩٩ هى تحاشى اللسع. وبينما أسرع أبناء هوليوود بإنزال أكمامهم المشمرة وتغطية كواحلهم، كان رد فعل المدينة تجاه ذلك هو بدء رش مبيدات الحشرات على الأرض وفى الهواء، للحد من كثافة أعداد البعوض البالغ. وتقبل كل من الجمهور والساسة على السواء ذلك الخيار الكيميائى بطيب خاطر. وكانت المعايير التى ذكرها همفريز لتوجيه رد مقبول لهجمات البعوض المفاجئة تحظى جميعها بالرضا. ومع نهاية العام أظهر مسح لسكان كوينز أن واحداً من بين كل خمسة ثبت تعرضهم لفيروس غربى النيل أصابتهم حمى غير عادية فى الشهور السابقة، وهى نسبة مرتفعة جداً. وكما يشير تقرير صدر مؤخراً، فإن هذه المرة التى تفشى فيها فيروس غربى النيل هى الأولى التى تكتشف فى نصف الكرة الغربى. وكان المرض قد اكتشف أصلاً فى منطقة غرب النيل فى أوغندا سنة ١٩٣٧. وأشار التحليل الجينى لسلالة نيويورك إلى أنه قد يكون مصدرها الشرق الأوسط، إذ ربما جاءت عن طريق طائر مهاجر أو مستورد.

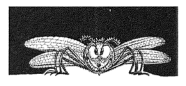


وبحلول عام ٢٠٠٠، كانت إدارة الصحة بنيويورك مستعدة لعودة الفيروس - وقد عاد بالفعل. ولكن فى هذه المرة أصيب واحد وعشرون فقط من أبناء نيويورك بالمرض، وإن مات اثنان. وقد انتقلت بؤرة الوباء إلى جزيرة ستيتن، وامتد انتشار المرض إلى نيو جيرزى (ست حالات) وكونيتيكت (حالة واحدة). وربما يعكس صغر عدد الإصابات الجهود الناجحة للقضاء على البعوض. وقد بدأ الجدول الزمنى لرش المبيدات مبكراً لتقليل عدد البعوض البالغ. ولتخفيف حدة قلق الجماهير بشأن الجو الملىء بالمبيدات الحشرية السامة، كانت تذاع تحذيرات مبكرة من الرش عبر شبكات الإذاعة المحلية. وبغض النظر عن سبب ضعف تفشى المرض - الذى ربما كان تغيراً طبيعياً فى معدلات العدوى - فإن أحداً لا يسعه المجازفة. فقد خصصت ولاية نيويورك ٢٠ مليون دولار لأبحاث فيروس غرب النيل وبرامج القضاء عليه، وأضافت مراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها ٤ ملايين دولار أخرى إلى هذا المبلغ. كما شكلت مجموعة بحث جديدة بالقرب من ألبانى.

وبما أن الطيور هى العائل الطبيعى لفيروس غرب النيل، فإن نفوق طائر يعد نذير شؤم - فهو مؤشر على أن الفيروس قد ينتشر من جديد. فعندما يعثر على أحد الطيور وتثبت التحاليل أنه مصاب بفيروس غرب النيل، فإن المنطقة المحيطة بالموقع الذى عثر عليه فيه تصبح مركزاً لاستراتيجيات القضاء على البعوض المكثفة. وفى سنة ٢٠٠٠ اكتشفت طيور نافقة فى أواخر شهر يونيو، وتلا ذلك اكتشاف بعوض حامل للفيروس فى شهر يوليو.

وفى ٨ مارس من العام الماضى، استمعت إلى محاضرة ألقاها روجر ناسى عالم

كل وباء فى القرن التاسع عشر، «كان يوقف القطارات ويغلق الموانئ، ويحول دون وصول القطن إلى المحالج، ويشل حركة السلع الأساسية من نقاط التوزيع فى المدن إلى الريف»



الحشرات بمراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها. وكان يتحدث في المؤتمر السنوي الذي تعقده الجمعية الأمريكية للقضاء على البعوض بواشنطن. وأمام تعجب الحاضرين الشديد وغضبهم الواضح، أعلن عن العثور على أول غرابين نافقين ثبتت إصابتهما بفيروس غرب النيل قبل أيام في نيو جيرزي - أحدهما في مقاطعة بيرجن في ٣٠ أبريل، والآخر في مقاطعة ميدلسيكس في ٢ مايو. وبذلك كان موسم فيروس غرب النيل قد بدأ مبكراً عن موعده. ومنذ ذلك الوقت، أبلغ عن غراب نافق في مقاطعة ويستشستر بولاية نيويورك. وتتوقع بنسلفانيا تفشي فيروس غرب النيل عبر حدود ولايتها كذلك، وهي تنفق ١١ مليون دولار على خطط الكشف عن فيروس غرب النيل والقضاء عليه. وتتضمن صحف الساحل الشرقي مقالات حول كيفية التصدي للفيروس. ولا يعرف أحد حتى الآن ما سيكون عليه حال تفشي المرض هذا العام. ولكن ينبغي اعتبار أن فيروس غرب النيل موجود داخل كل شخص على الساحل الشرقي يصاب بحمى صيفية لا يمكن تفسيرها، وخاصة إذا كان يصاحبها صداع.

[٣]

هل حان الوقت لأن نضع إكليل النصر على رأس البعوض؟ ربما لم يحن الوقت بعد، ولكن مستقبل البشر أبعد ما يمكن عن كونه مشجعاً. ولنأخذ الملاريا على سبيل المثال. فقد ألقى رونالد روس باللوم في نقل الملاريا على بعوضة Anopheles سنة ١٨٩٧، وحصل على جائزة نوبل سنة ١٩٠٢على ما بذله من جهد. وبحلول ثلاثينيات القرن العشرين كان خبراء الملاريا البارزون يركزون على البعوضة باعتبارها هدفاً لمكافحة المرض. وحسبما يقوله سبيلمان، فإنهم «باتوا يرون البعوضة على أنها عدو رهيب ولكن تسهل مقاومته وينبغي إخضاعه لحرب شاملة».

إلا أن سياسات الصحة العامة التي لا تبدي أي قدر من التسامح مع البعوض - حيث كانت الأداة الرئيسية هي مبيد الـ «دي دي تي» الحشري - منيت بالفشل. وتعلم سبيلمان من تجربة العمل مع هيئة وادي تينيسي في الخمسينيات أن «التطور الاقتصادي، وخاصة التحسينات في المجتمعات الريفية، كانت أهم شيء بالنسبة لدائرة الثروة والصحية الإيجابية». وكانت البعوضة هدفاً في منتهى البساطة:

الواقع أن البعوضة حشرة وخطر يقتضيان من الناس تجهيز دفاع دائم ومتقدم، بل واستراتيجي. ويجب أن تقاس الرغبة في سحق العدو بالمعرفة التي يمكنها - في حالة سلاح مثل الدي دي تي - أن تمضي إلى ما هو أكثر من ذلك بكثير.

وقد شهدت تسعينيات القرن العشرين عودة التفاؤل إلى برامج مكافحة الملاريا. ففي مواجهة معدل وفيات سنوي بلغ مليون شخص، إلى جانب ثلاثمائة مليون حالة إصابة حادة جديدة في كل عام، بدأت مديرة عام منظمة الصحة العالمية جرو هارلم برونتلاند «حملة دحر الملاريا» سنة ١٩٩٨ ونجد أن هدفها أكثر تواضعاً من الهدف الأسبق الذي يبتغي القضاء عليها قضاء مبرماً - فهي تهدف إلى تقليل عبء الملاريا إلى النصف بحلول عام ٢٠١٠ وسيكون ذلك أمراً في غاية الصعوبة. فتسعون بالمائة من الوفيات تقع في أفريقيا، ولذلك يعد التزام الدول الأفريقية شرطًا أساسيًا من شروط النجاح. وقد وقعت أربع وأربعون حكومة أفريقية على إعلان أبوجا لسنة ٢٠٠٠ وهو يدعو إلى بذل جهود جديدة لتعزيز الأنظمة الصحية، وبالتالي مساعدة مبادرات مكافحة الملاريا، مثل العلاج بالعقاقير، وتوفير الشبكات (الناموسيات) المشبعة بمبيدات الحشرات، وغيرها من الإجراءات الوقائية.

وقد جُعل يوم ٢٥ أبريل ٢٠٠١ «اليوم الأفريقي للملاريا» لتجديد وعود العام السابق. والدلائل مشجعة بالنسبة لهذا الجهد الكوني المتجدد. ولكن الغرور أقرب مما نتصور. وحذر سبيلمان منذ حوالي عشر سنوات من أن «الحلول الكونية» التي تتسم بالعظمة «غالباً ما تكون هي الأكثر خطورة».

هناك متغير يخرج حتى عن سيطرة منظمة الصحة العالمية - وهو التغير المناخي. ورغم عدم ثبات الرئيس بوش بشأن هذا الموضوع، فإن أنهار الجليد تتقلص، كما تذوب الأجزاء التي تحت الأرض التي ظلت على تجمدها منذ عهود سحيقة في منطقة القطب الشمالي، في الوقت الذي تخف فيه طبقة الثلج في القارة القطبية الجنوبية، ويميل سطح الأرض إلى الدفء، وترتفع درجة حرارة المحيطات. ومن الواضح أن المناخ يؤثر على الملاريا، إلى جانب العديد من الأمراض الأخرى التي ينقلها البعوض. فدرجات الحرارة المرتفعة تدعم دورة حياة الملاريا. كما أن كمية الأمطار وكثافتها وتوقيتها يؤثر على أماكن التوالد. وتشكل الرطوبة سلوك البعوض. كما أن الريح القوية تمنع البعوض من اللسع. وليس مستغرباً أن يتوقع بعض العلماء تفاقم خطر الأمراض «التي ينقلها ناقل» كالملاريا مع تسارع ارتفاع درجة حرارة الأرض. ولكن هل ترتكز هذه المزاعم على شيء؟

يصف عالم الحشرات الأمريكي المحترم بول راينر التنبؤات التي من هذا القبيل بأن «ليس لها ما يبررها». وقد انتهت مراجعة على المستوى الفيدرالي للتغير المناخي والصحة إلى أن «مستويات الشك تحول دون أي بيان حاسم بشأن اتجاه التغير المحتمل حدوثه في المستقبل... ويتمتع معظم سكان الولايات المتحدة بحماية من النتائج الصحية العكسية المرتبطة بالطقس». إلا أن عالمي الحيوان ديفيد روجرز وسارة راندولف يريان، من خلال دراسة أجرياها مؤخراً عن كيفية تأثر الملاريا بارتفاع درجة حرارة الأرض، أن هناك تغيراً، وإن كان صغيراً، في التوزيع المحتمل للملاريا. وربما تكون الملاريا بحلول عام ٢٠٥٠ قد انتشرت شمالاً إلى جنوبي الولايات المتحدة، وجنوباً إلى البرازيل، وغرباً إلى الصين، التي تعبرها إلى وسط آسيا. وربما شجع انتقال الملاريا كذلك تذبذب النينو الجنوبي، وهو تغير موسمي في درجة حرارة المحيط الهادئ يحدث كل عامين إلى سبعة أعوام. وقد أصدرت الحكومة البريطانية تحذيراً هذا العام من أن الملاريا قد تعود إلى الأراضي الإنجليزية بحلول عام ٢٠٢٠. ومن المتوقع كذلك تعرض حمى الدنج - وهي من بين الأمراض التي ينقلها البعوض - حياة ٤,١ مليار شخص للخطر بحلول عام ٢٠٥٥. في حين يبلغ عدد المعرضين للإصابة بالمرض في الوقت الراهن ٥,١ مليار شخص.

ما هي إذن الإجراءات الجديدة التي قد تتخذ لمنع تعدي البعوض على صحة البشر؟ لا شك في أن هناك الكثير من التأكيد على الجينوم. ففي مارس ٢٠٠١ اجتمعت مجموعة علماء من أنحاء العالم في باريس للاتفاق على مبادئ تتابع جينوم بعوضة Anopheles gambiae، وهو أهم ناقل للملاريا في جنوب الصحراء الكبرى بأفريقيا. وهناك أمل في أن يوفر تتابع الحمض النووي لهذه البعوضة - الذي يبلغ طوله طول كروموسوم بشري كبير تقريباً - إمكانيات جديدة لتحييد طفيل الملاريا المقاوم بشدة للعقاقير والمبيدات الحشرية. ومن المتوقع أن تصدر مسودة للجينوم في نهاية العام الحالي. كما يجري التخطيط لإجراء مشروع بحثي مشابه من أجل جينوم بعوضة Aedes aegypti.

منذ عام ١٩٨٣ والحمى الصفراء تتجاهل جهود هؤلاء العلماء. فالفيروس مستوطن في تسع من دول أمريكا الجنوبية، بما في ذلك جزء كبير من البرازيل وفنزويلا وكولومبيا وبيرو وبوليفيا. ولا يزال الخطر قائماً. فأوبئة الحمى الصفراء تتفشى بصورة أكبر وأعداد البعوض في ازدياد

وسبيلمان ليس مبهوراً بصورة خاصة بهذه المبادرات. فهو كعالم حشرات، له خبرته الطويلة وتعلم مهنته في البرك الملحية وعلى الجزر الغريبة وليس في المعامل، يقول:

لمدة عشرين سنة تقريباً، كان لمن وضعوا أجندة التمويل العلمي وجهة نظر متفائلة بشأن العقبات الضخمة التي تقف في وجه المقاربة الجينية للبعوض الحامل للمرض. فقد شعروا أن قوة العلم الحديث لا حد لها. إلا أن ممارسة البيولوجيا الجزيئية مثيرة إلى حد كبير، وتنطوي على تجارب عبقرية تعتمد على التكنولوجيا، حتى لتكاد تبدو في بعض الأحيان ضرباً من السحر. إلا أن العمل المعملي يميل إلى تبسيط الأمور.

وبذلك فإنه في الوقت الذي يؤيد فيه سبيلمان البرامج الواقعية مثل «ادحروا الملاريا»، فإنه يرغب في التخطيط لـ «علاج دائم» فيما بعد ٢٠١٠. وسوف تكمن الحلول في القضاء على الفقر وتشجيع التطور الذكي - في مجالات التعليم والرعاية الصحية الأولية والإسكان والطرق. وفي النهاية نصل إلى «العلاقة» التي تربطنا بالبعوض. ومفتاح هذه العلاقة «هو ضرورة معرفتها معرفة جيدة». والبحث له أهميته، إلا أنه لا بد أن يستهدف «إحداث تغيرات أساسية في العلاقة بين البشر والبعوض». وجاء على لسان سبيلمان في بحث كتبه سنة ١٩٩٤: «ينبغي على الجهود التي تستهدف القضاء على العدوى التي يحملها ناقل للمرض أو احتواءها أن تختار اتجاهات البحث على أساس صلاحيتها للصحة لا على أساس الفرصة التكنولوجية». وهو يقول في كتابه الجديد إن الإجراءات البسيطة تحقق نتائج طيبة، مثل التعرف بسرعة على أي تفش جديد للعدوى التي ينقلها البعوض وتشخيصها. ولا بد أن تشكل الأساس بالنسبة لأية استراتيجية صحة عامة ناجحة.



وربما اتفق رونالد روس مع ما يقوله سبيلمان. فمنذ مائة سنة كتب روس:

بطبيعة الحال هناك رغبة شديدة لعمل أكثر ما يمكن من الأبحاث النظرية عن نظرية البعوض، ولكن يجب ألا ننسى أنه بينما نضع في اعتبارنا التفاصيل الأكاديمية تضيع دائماً حياة كثيرين لها قيمتها، وأن بحوزتنا ما يكفي من الحقائق لوضع أساس للإجراء العملي....والواجب...وهو واجب حكومات المناطق الموبوءة بالملاريا.

ومع إعلان الأمم المتحدة الأخير الخاص بتخصيص ما بين ٧ إلى ١٠ مليارات دولار أمريكي من ميزانية الصحة الكونية لمكافحة مرض نقص المناعة - الإيدز وغيره من الأمراض التي تنتقل بالعدوى، ومنها الملاريا، فإن هذا الدرس يعد تذكرة جاءت في وقتها بالتحدي العاجل الذي ينتظرنا. ■

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
ترجمة: أحمد محمود

لا إمارة لأحد.. شعار

أسعد حليم

إن عبارة «حركة مناهضة العولمة» هي من صياغة الميديا الأمريكية ولم يرتح لها الناشطون في هذا المجال في أي وقت. وإذا كانت هذه الحركة مناهضة لأي شيء، فهي تناهض الدعوة الإصلاحية الجديدة التي يمكن وصفها بأنها دعوة لمبادئ السوق. أو بالأصح استالينية السوق. التي ترى أنه ليس هناك غير اتجاه واحد للتطور التاريخي للبشر



هناك تسميات تطلق على جماعات معينة فتلتصق بها وتصبح علما عليها دون أن تكون هي الاسم الذي اختارته أو ارتضته لنفسها. وقد يعجبها الاسم أحيانا!

أكثر هذه الأسماء وأشهرها في صحافتنا الأسماء التي تطلق على فرق لاعبي الكرة: الدراويش، والشواكيش، والشياطين الحمر! وهناك أسماء أقل شهرة مثل نواب القروض، ومحاكمة الشواذ، وعبدة الشيطان! ولا أعتقد أن أحدا من المتهمين في تلك القضايا يقبل أن يصف نفسه بأنه «شاذ» أو أنه «يعبد الشيطان»!

من نوع هذه التسميات التي تطلق على حزب سياسي أو مجموعة تشتغل بالنشاط العام. فهل يمكن أن يقبل أحد أن يوصف بأن مذهبه هو الفوضى وأنه من أنصار «الفوضوية»؟ وجهت لنفسي هذا السؤال وأنا أقرأ مقالا في مجلة اليسار الجديد بعنوان The new anarchists أي إذا أخذنا بالترجمات الرائجة فهي تعني «الفوضويون الجدد». ولكني سألت نفسي: لعل في الأمر خطأ في الترجمة؟ رجعت إلى القواميس، إلى النفيس، والمختار، وغيرهما فوجدت الترجمة المقتضبة «الفوضوية» ولكن في «المورد» وجدت تفسيرا أوفى وهو: «نظرية سياسية تقول بأن جميع أشكال السلطة الحكومية غير مرغوب فيها ولا ضرورة لها البتة، وتنادي بإقامة مجتمع مرتكز على التعاون الطوعي بين الأفراد والجماعات». وانتقلت منه إلى «موسوعة علم الإنسان» (د. محمد الجوهري) «تتسم الفوضوية كفلسفة سياسية برفضها للدولة التي تعتبرها شرا في جوهرها. ويرى الجناح اليميني من الفوضويين أن يحل المشروع الحر محل الدولة ليؤدي وظائفها في إطار الملكية الخاصة والحرية الفردية. أما الجناح اليساري فيحبذ الكيانات الجماعية بديلا عن الدولة». ثم انتقلت إلى «معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية» (د. أحمد زكي بدوي) فكان الشرح أكثر تفصيلاً وهو «مذهب ينادي بإلغاء الرقابة السياسية داخل المجتمع مقررا أن الدولة أكبر أعداء الفرد، وأن في إلغائها قضاء على الآفات والشرور، ويرى أن العلم والعقل هما المعول عليهما في إرشاد الناس. ويرى بعض الفوضويين أن الانتقال إلى المجتمع الفوضوي يجب أن يتم بطريقة تدريجية وسلمية، في حين أن بعضا آخر منهم يرى أن الانتقال إلى هذا المجتمع يجب أن يتم طفرة واحدة عن طريق الثورة. والثورات الطلابية التي انفجرت في أواخر الستينيات كانت أحدث تعبير عن الفوضوية التي انتشرت في مختلف العواصم الأوروبية معبرة عن اليسار الذي يستنكر في كفاحه البرجوازية المضمحلة كما يستنكر أيضًا الماركسية المتجمدة مطالبا بتصفية الدولة وتنظيماتها. والفوضوية قد تكون فردية فلا يكون من شأنها الإخلال بنظام الملكية الخاصة، على حين أن الفوضوية الشيوعية تستبدل بالملكية الخاصة نظاما لملكية الجماعة دون تدخل من الدولة السياسية».

ويقول الباحث السياسي عبد الكريم أحمد «إن تعبير الفوضوية من أكثر التعبيرات المذهبية التي أسيء فهمها وأسيء استخدامها، بحيث إننا قل أن نجد حتى بين المتصلين بهذه الموضوعات من يعطينا صورة واضحة عنه، ولعل السبب الأول في ذلك راجع إلى أن الفوضوية ليست في الواقع مذهبا محدد المعالم مثل الماركسية، بل هي مجموعة من الاتجاهات أساسها مبدأ الحرية باعتباره الهدف الإنساني الأسمى.

وهي ليست مبدأ حديثًا بأي حال، فقد عرضه في عهد الإغريق زينو، منشئ المدرسة الرواقية، معارضا به شيوعية أفلاطون والتي تحتل فيها الدولة المركز الرئيسي. كما تناولها بعد ذلك عدد من المفكرين الأوروبيين في فترات متقطعة. أما في العصر الحديث فلعل برودون كان أول من استعمل اللفظ بمعناه المتطور، وحاول أن يجعل من الفوضوية حركة جماهيرية واعية.

ثم جاء ميشيل باكونين، وهو نبيل روسي الأصل، فاعتنق الفوضوية وأخذت على يديه صورتها الجماعية التي تقوم على إلغاء الملكية الخاصة وتحولت إلى مذهب شامل يقوم على ثلاثة أسس:

* إلغاء السيطرة المركزية من أي نوع من الأنظمة التي تقوم على هذه السيطرة مثل الدولة والملكية الخاصة والكنيسة.
* التعاون التلقائي الحر بين الناس كأساس للنشاط الاجتماعي.
* تنظيم المجتمعات البشرية الصغيرة على أساس فيدرالي.

وقد هاجم باكونين بقسوة شرور الملكية الخاصة ومساوئ المنافسة بين الناس، واعتبر الدولة الأداة الكبرى لتضليل الشعوب، خلقها فريق من الناس للسيطرة بواسطتها على الآخرين.

وكان هجوم باكونين على الدولة والسلطة المركزية في جميع صورها هو نقطة الخلاف الرئيسية بينه وبين كارل ماركس، وإذا كان باكونين يرى أن الدولة ليست ضرورية في أي مرحلة من مراحل التكوين الاجتماعي، فهي نظام يقوم على الإكراه في حين أن الإنسان بطبيعته اجتماعي ولا داعي لأنظمة ترغمه على التعاون مع غيره من الناس، فهم لو تركوا أحرارا سيتعاونون من تلقاء أنفسهم على ما فيه خيرهم فرادى ومجتمعين بدون تنظيم يُفرض عليهم من أعلى، بل إن جميع الإصلاحات التي تأتي من أعلى لا قيمة لها ولا غرض منها سوى التمكين لسيطرة الفئة الحاكمة التي بيدها مقاليد الدولة، في حين يرى كارل ماركس أن تكون الدولة - التي دار في إطارها الصراع بينهما - منظمة جهادية صلبة تخضع لسيطرة وتوجيه مركزيين وتقود الصراع على الصعيد العالمي، ويرى أن فكرة التلقائية في العمل والمجتمعات المحلية الصغيرة فكرة خيالية لا مكان لها في العالم الحديث بأوضاعه الراهنة، وبخاصة أن الاتجاه العام للتاريخ يؤدي إلى زيادة المركزية، حيث إن تقدم أساليب الإنتاج يعمل على زيادة تجمع الناس في المراكز الصناعية الكبرى وتشابك العلاقات الاجتماعية بصورة تجعل المجتمع القائم على الكميونات الحرة والتي لا تخضع لأي توجيه مركزي حلما أقرب إلى الأوهام منه إلى الواقع في المراحل الأولى للتحول الاشتراكي على الأقل. (راجع مجلة الكاتب، عدد أكتوبر ١٩٦٥).

ولكن من أين جاءت التسمية؟ وهل هو مجرد تعبير اختاره المترجمون؟ يرد على ذلك «قاموس السياسة» الصادر في مجموعة بنجوين باللغة الإنجليزية، يقول إن العبارة مأخوذة من كلمة يونانية هي anarchia بمعنى «لا سلطان لأحد» أو بالتعبيرات الرائجة اليوم «لا إمارة لأحد!». ويضيف قاموس بنجوين حقيقة لم أكن أعرفها وهي أن ليو تولستوي، الأديب الروسي الكبير كان من أتباع الفرع المتدين لهذا المذهب وأنه قال إن وجود الدولة لا يتفق مع المسيحية، وأن الحب هو الذي يجب أن يسود، وأن على الناس أن يرفضوا أداء الخدمة العسكرية، أو أن يدفعوا الضرائب. ويمضي القاموس فيقول إن مبادئ تولستوي في عدم العنف وعدم التعاون هي التي أخذ بها في الهند المهاتما غاندي. وأنه قد عقدت مؤتمرات دولية لهذا المذهب في ١٨٧٧ وفي ١٩٠٧ ولكنه لم ينجح في أي وقت في إنشاء هيئة مستقرة.



وبمناسبة غاندي، فإن الاتجاهات الحديثة لمبدأ «لا إمارة لأحد» تنادي بالعصيان المدني وعدم العنف، ولكنها لا تأخذ بالسياسة الغاندية، باعتبار أنها نابعة من ظروف الهند الخاصة وليس من الضروري أن تتبع في الدول الأخرى. ومن المعروف أن الغاندية كانت محل انتقاد حتى في داخل الهند نفسها، وعلى الأخص من جانب الأديب الكبير رابندرانات طاغور الذي رأى في شعار العودة إلى المغزل القديم، لصنع النسيج والملابس من أجل التحرر من إنتاج مصانع الغرب الحديثة، عودة إلى أسلوب عتيق في الإنتاج لا ضرورة له بدلا من التقدم إلى الأمام، كما رأى هؤلاء المنتقدون في تمسك غاندي بتربية عنزة والاعتماد على لبنها كغذاء فكرة لا تنشأ إلا في مجتمع زراعي وفي ظروف خاصة ويصعب تنفيذها في المدن. غير أن الموجة الجديدة تعترف بأن أصولها ليست غربية وأنها تستمد كثيرا من منابعها مما يسمى الآن «دول الجنوب».

سعى الناشطون لاسترعاء الانتباه إلى أن الرؤية النيوليبرالية للعولمة تكاد تنحصر في حركة رؤوس الأموال والسلع، وتعمل في الواقع على زيادة الحواجز في سبيل تدفق الأفراد والمعلومات والأفكار. وقد ازداد عدد حراس الحدود الأمريكيين إلى ثلاثة أمثالهم منذ توقيع اتفاقية التجارة الحرة في أمريكا الشمالية



عن المقال المنشور في مجلة «نيوليفت ريفيو» لدافيد جريبر بعنوان:

A Movement of Movements:
The New Anarchists

كان السؤال المهم بعد ذلك: هل وجدت جماعة تدعو إلى هذا المذهب فى مصر؟ فى حدود علمى، لم توجد جماعات كهذه. وربما كانت التسمية فى ذاتها عنصرا منفرا. ولعل أقرب تنظيم اتجه نحوها، جماعة أنشأها الصديق والزميل الصحفى الراحل فتحى الرملى (والد المؤلف المسرحى لينين الرملى). وكان ذلك فى أوائل الأربعينيات، وجعل اسمها «نحن أنفسنا». بمعنى أننا لا نتجه إلى الحكومة مطالبين بهذا الإصلاح أو ذاك، وباتخاذ هذه الخطوة أو تلك بل أن تقتصر دعوتنا على ما نستطيع أن نعمله بأيدينا، بأنفسنا. فمثلا، فى مجال الرعاية الصحية لن تستطيع المجموعة طبعا أن تنشئ مستشفى خاصا بها، ولكنها تستطيع أن تنشئ فى المستشفى القائم مجموعة (تضم تخصصات مختلفة تعمل على ضمان أن تكون الخدمة سليمة، وأن تكون النظافة سائدة، وألا يفقد الفقراء والمستضعفون حقوقهم. وفى مجال التعليم، لن تنشئ الجمعية مدارس خاصة بها، ولكنها تنشئ مجموعة تكشف إهمال المدرسين أو قسوة النظار أو إساءة استخدام السلطة. تكشف وتفضح وتقاوم. ولكن بنفسها وليس بالرجوع إلى وزارة التربية والتعليم أو مجلس الشعب!.



وعلى ضوء هذا الفهم يصبح للمقالة المنشورة فى «اليسار الجديد» والتى نحن بصددها الآن بعض المعنى.

يقول كاتبها دافيد جريبر: يصعب أن نتصور أنه كان ثمة فى وقت من الأوقات مثل الفجوة القائمة الآن بين المفكرين والناشطين، بين من يقدمون النظريات عن الثورة ومن يمارسونها. ويبدو أن الكتاب الذين قضوا سنوات طويلة ينشرون مقالات تبدو كأنها إعلان مبادئ لحركات اجتماعية لا وجود لها فى الواقع يبدو أنهم يشعرون باحتقار شديد لتلك التحركات التى بدأت تظهر فى كل مكان. وهو موقف مؤسف بوجه خاص تجاه حركة مناهضة العولمة، وهى الحركة التى تمكنت خلال سنتين اثنتين من إحداث تغيير تام فى القدرات التاريخية للملايين من الناس فى كل أنحاء العالم. وقد يكون موقف المثقفين هذا راجعا إلى مجرد الجهل. أو تنشأ من الاعتماد على ما يمكن استخلاصه من مصادر معادية عداء صريحا مثل النيويورك تايمز. بل إن معظم ما ينشر فى المنافذ التقدمية يبدو بعيدا عن جوهر الموضوع ـ أو أنه على الأقل لا ينصب على ما يعتقد المشاركون فى الحركة أنه جدير حقا بالاهتمام.

وإنى بوصفى باحثا انثروبولوجيا ومشاركا بصورة إيجابية ـ ولاسيما فى الجانب العملى للحركة ـ لعلى أستطيع توضيح بعض النقاط التى يساء فهمها. ولكن هذا التوضيح قد لا يلقى ترحيبا من بعض الدوائر وأعتقد أن التردد فى قبول هذه الأفكار يرجع إلى أن بعض من كانوا يعتقدون أنهم من دعاة التغيير الجذرى لا يزيدون فى الواقع عن أن يكونوا دعاة للإصلاح. ينصب اهتمامهم على توسيع الحريات الفردية وتحقيق العدالة الاجتماعية، ولكن بوسائل لا تمثل تحديًا حقيقيًا للمؤسسات السائدة مثل رأس المال أو الدولة. بل إن كثيرين ممن يرغبون فى حدوث تغيير جذرى قد لا يرتاحون لقبول حقيقة أن معظم الطاقة الإبداعية من أجل التغيير السياسى الجذرى يأتى الآن من جانب حركة «لا إمارة لأحد» ـ وتلك حقيقة كانت تنكر فى الماضى ـ وأن أخذ هذه الحركة مأخذ الجد سوف يعنى بالضرورى احترامها والانضمام إليها.

وإنى أكتب بوصفى من دعاة «لا إمارة لأحد». ولكنى أعتقد أن إحصاء عدد المنتمين إلى الحركة والذين يطلقون هذا الوصف على أنفسهم صادقين، أمر قليل الأهمية. ففكرة «العمل المباشر» نفسها، ورفض السياسات التى تدعو الحكومات إلى تغيير مسلكها، وتؤيد التدخل المادى لمناهضة سلطة الدولة بطريقة تطرح بذاتها بديلا ـ كل ذلك ينبع مباشرة من التراث التحررى. و «لا إمارة لأحد» هى قلب الحركة، هى روحها، وهى مصدرها الجديد والذى يبعث الأمل فيها. ولذا سأحاول فى الفقرات التالية أن أوضح ما يبدو لى أنه الأخطاء الثلاثة الرئيسية فى فهم الحركة وهى: ما يقال عن مناهضتنا لشىء يسمى «العولمة»، وما يقال من أننا نمارس العنف، وما يقال من أننا نفتقر إلى أيديولوجية متماسكة. وبعد ذلك سأبين كيف يستطيع المفكرون من دعاة التغيير أن يعيدوا تشكيل ممارساتهم النظرية على ضوء هذا كله.

الفوضيين الجُدد!

هل نؤيد حركة العولمة؟

إن عبارة «حركة مناهضة العولمة» هى من صياغة الميديا الأمريكية ولم يرتح لها الناشطون فى هذا المجال فى أى وقت. وإذا كانت هذه الحركة مناهضة لأى شىء، فهى تناهض الدعوة الإصلاحية الجديدة التى يمكن وصفها بأنها دعوة لمبادئ السوق ـ أو بالأصح استالينية السوق ـ التى ترى أنه ليس هناك غير اتجاه واحد للتطور التاريخى للبشر. وهذه الصورة تحملها نخبة من رجال الاقتصاد وخدم الشركات، الذين يطالبون أن تسلم لهم كل السلطة التى كانت ترجع فى وقت من الأوقات إلى مؤسسات لديها قدر من الخضوع للمساءلة الديمقراطية، أما من الآن فصاعدا فإنها ستمارس سلطتها من خلال تنظيمات غير منتخبة مثل صندوق النقد الدولى ومنظمة التجارة العالمية ومنطقة التجارة الحرة فى أمريكا الشمالية. وفى الأرجنتين أو استونيا أو تايوان يمكن للبعض أن يقولوا مباشرة «نحن حركة تناهض الدعوات الإصلاحية الجديدة» ولكن فى الولايات المتحدة تثير اللغة دائما مشكلات. فالميديا التجارية هنا ربما تكون أكثر أشكال الميديا جمودا وتعصبا فوق هذا الكوكب. ولذا فإن بعض الألفاظ لا يمكن أن تستخدم. ولا تثار القضايا المتعلقة بها إلا بعبارات غامضة مثل «التجارة الحرة» أو «السوق الحرة». ويواجه الناشطون الأمريكيون وضعا محيرا: فإذا رأى أحدهم استخدام عبارة «الفوضوية» سرعان ما تنطلق أصوات التحذير والإنذار. وبذلت محاولات كثيرة للعثور على تعبيرات بديلة، فيقال إننا «حركة للعدالة العالمية» حركة أو ضد عولمة رأس المال. ولكن ليس بينها تعبير مناسب ولذا أصبح من المألوف فى الاجتماعات أن نسمع المتكلمين يستخدمون «حركة العولمة» و«حركة مناهضة العولمة» كما لو كانا مترادفين.

ومع ذلك فإن تعبير «حركة العولمة» صالح للاستعمال فى هذا المجال. فإذا اعتبرنا أن العولمة تعنى إلغاء الحدود والانتقال الحر للأشخاص والممتلكات والأفكار، يكون من الواضح أن هذه الحركة



ليست فقط من نتاج العولمة بل إن معظم الجماعات المشاركة فيها - وأكثرها تطرفا على الأخص - تؤيد بقوة العولمة عموما بأكثر مما يؤيدها صندوق النقد الدولى أو منظمة التجارة العالمية. وقد كانت الشبكة العالمية المسماة «العمل الشعبى العالمى» مثلا هى التى أصدرت أول النداءات لتنظيم أيام للعمل على نطاق العالم، وكان من بينها الدعوة الأصلية للاحتجاج على اجتماعات منظمة التجارة العالمية فى سياتل فى ١٩٩٩. وهناك حركة مماثلة نشأت من «اللقاء الدولى من أجل الإنسانية» الذى عقد فى أوحال الغابات فى الموسم المطير فى شياباس فى أغسطس ١٩٩٦ والذى دعى إليه - كما يقول الجاويش ماركوس - «كل الساخطين فى أنحاء العالم». وقد جاء أناس من أكثر من ٥٠ بلدا يتدفقون على قرية رياليداد التى يسيطر عليها أنصار زاباتا وأرسيت فيها الرؤية المتعلقة بشبكة عالمية للمقاومة فى الإعلان الثانى لرياليداد: «إننا نعلن أننا سننشئ شبكة جماعية لكفاحنا ومقاومتنا، شبكة دولية للكفاح ضد الليبرالية الجديدة، شبكة دولية للمقاومة من أجل الإنسانية».

وقد وقعت حادثة تحتل مركزا رئيسيا فى تجدد حركة «لا إمارة لأحد» فى السنوات الأخيرة تسمى حادثة «شياباس». فأين موقع شياباس هذه على الخريطة؟ إنها ولاية فى جنوب المكسيك، وهى أفقر الولايات، ونسبة كبيرة من سكانها هم من أبناء الأمريكيين الأصليين (الذين يسمونهم فى الشمال الهنود الحمر) ويبلغ تعداد سكانها ثلاثة ملايين حوالى نصفهم من فئة المايا. وفى المجموع يوجد من سكان المكسيك البالغ عددهم ٩٢ مليونا ما يقرب من ١٠،٦ مليون من الأهالى الأصليين.

و«شياباس» منطقة زراعية. وفى سنة ١٩٩٥ قدر أن ٩٥ فى المائة من سكانها يعيشون على أقل من الحد الأدنى للدخل اللازم للبقاء على قيد الحياة (وكان محددا فى ذلك الوقت بمبلغ ١٥٠ دولارا فى الشهر) ويقال فى تفسير سوء أحوالها أن شياباس لبعدها عن العاصمة مكسيكو سيتى كانت الولاية التى طبق فيها الإصلاح الزراعى أضعف تطبيق. وعندما انتهى الإصلاح فى سنة ١٩٩٢ كان نصف الأراضى فى شياباس لا يزال فى يد كبار الملاك.

وفى ظل هذا الواقع ظهر على المسرح «جيش زاباتيستا» للتحرر الوطنى، GZLN بقيادة الجاويش ماركوس فى الأول من يناير ١٩٩٤ وقد تم اختيار هذا اليوم لأهميته الرمزية لأنه كان بداية دخول اتفاقية منظمة التجارة الحرة بين المكسيك والولايات المتحدة وكندا اتفاقية (NAFTA) وقام الساخطون التابعون لهذا الجيش بالسيطرة على سبع بلديات فى منطقة شياباس، ومن بينها مدينة سان كريستوبال دى لاس كازاس، مطالبين بـ «الحرية والديمقراطية والعدالة لكل المكسيكيين». وبعد أسبوعين من القتال بين هذا الجيش والجيش الوطنى الذى قتل منه وفقا للتقديرات ١٥٩ من العسكريين، بينما تقدر جماعات حقوق الإنسان عدد القتلى بما يتجاوز ٤٠٠، ثم إعلان وقف إطلاق النار. وفى ٢١ فبراير ١٩٩٤ بدأت المفاوضات بين الجيش الشعبى والحكومة الفيدرالية للمرة الأولى، وتوسط بينهما قس سان كريتوبال. وفى ١٦ فبراير ١٩٩٦ تم توقيع ما سمى اتفاقات سان أندرس بشأن حقوق الأهالى الأصليين، ولكن السلطات الرسمية لم تلبث أن نقضت الاتفاق على أساس أنه يتعارض مع السياسة الوطنية. وترتبت على نقض الاتفاق خسائر فادحة، كان منها قتل ٤٥ من مؤيدى الجيش الشعبى فى قرية أكتيال فى يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧.



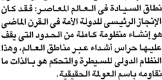
وفى مارس ١٩٩٩ اشترك ٢،٥ مليون مكسيكى فى مشاورة نظمها الجيش الشعبى بشأن النص فى الدستور على حماية السكان الأصليين. ولا يهدف الجيش الشعبى إلى الاستيلاء على السلطة وإنما تتركز استراتيجيته على الحصول على التأييد من المجتمع المدنى المحلى والدولى من أجل نشر الديمقراطية فى المجتمع المكسيكى.

وعلى امتداد أربع سنوات باتت النساء من السكان الأصليين اللاتى شردتهن «حرب منخفضة الكثافة» هن المهندسات اللاتى قمن بإحداث تغيير جوهرى آخر. فبعد مذبحة النساء والأطفال فى أكتيال فى ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧ قررت النساء النهوض لمقاومة وجود الجيش الحكومى. ونظرا لأنهن قد اضطررن بالفعل إلى هجر مساكنهن، عقدن العزم على عدم الدخول فى اشتباكات عنيفة مرة أخرى. وقمن بدفع الجنود بأيديهن العارية إلى خارج حدود القرية. وبهذه الطريقة تمكنت النساء من التغلب على الجنود المحترفين. وقد اعتمدت قوتهن المعنوية فى يناير ١٩٩٨ على ضعفهن البدنى، وعلى ضآلة عددهن، ولكن أيضا على مناهضتهن للحرب. فهن «من الشعب الفقير الذى يرفض أن يتلقى المساعدة من البلد الذى سمح بحدوث مذبحة أكتيال». واكتسبت حركتهن الشهرة لأنهن مثلن تحركا وطنيا بدون أبطال وطنيين. وبتلك الأيدى العارية التى دفعت جنود الجيش إلى الوراء تحقق حلمهن فى الحرية (راجع رسالة اليونسكو ٢٠٠٠).

فى سنة ١٩٩٦ نظم المؤيدون الأوروبيون لقاء ثانيًا فى أسبانيا، تقدمت فيه فكرة إنشاء الشبكة خطوة أخرى، وتم تنظيم اللقاء فى اجتماع عقد فى جنيف فى فبراير ١٩٩٨ ومنذ البداية شمل إلى جانب أنصار «لا إمارة لأحد» والنقابيين المطالبين بالتغيير فى أسبانيا وبريطانيا، ورابطة المزارعين الاشتراكيين الغانديين فى الهند، وجمعيات من الصيادين فى إندونيسيا وسرى لانكا، واتحاد المعلمين فى الأرجنتين، وجماعات للسكان الأصليين مثل فئات الماورى من نيوزيلندا والكونا من اكوادور، و«حركة العمال المعدمين البرازيليين»، وشبكة تضم المجتمعات المحلية التى شكلها العبيد الهاربون فى أمريكا الجنوبية والوسطى، والكثير غيرها. ولمدة طويلة لم تكن أمريكا الشمالية ممثلة إلا باتحاد عمال البريد المدنيين والذى كان يقوم بدور مركز الاتصال الرئيسى للحركة إلى أن حلت محله شبكة الإنترنت ومجموعة من أنصار «لا إمارة لأحد» تتخذ قاعدتها فى مونتريال وتدعى (CLAC).

وإذا كانت أصول الحركة دولية، فكذلك جاءت مطالبها. فبرنامج حركة Wa Basta! (كفى) فى إيطاليا دعت إلى توفير «دخل أساسى» مضمون عالميا، وجنسية عالمية، وضمان حرية الانتقال للأشخاص عبر الحدود، وحرية الحصول على أشكال التكنولوجيا الجديدة - وهذا يعنى فى التطبيق العملى فرض قيود جديدة على حقوق براءات الاختراع (وهى فى ذاتها شكل خبيث من أشكال الحمائية). وقد نظمت شبكة اللاحدود - وشعارها «ليس هناك مساند يعتبر غير شرعى» - معسكرات استمرت أسبوعا من أجل المقاومة على الحدود البولندية الألمانية والأوكرانية، وفى صقلية، وفى منطقة كاريسا فى أسبانيا. وقد ارتدى الناشطون ملابس حرس الحدود، وأنشأوا جسورا من الزوارق عبر نهر الأودر يقطعون الطريق على مطار فرانكفورت بواسطة أوركسترا كلاسيكية كاملة للاحتجاج على طرد المهاجرين (وقد مات بعض المطرودين مختنقين على طائرات لوفتهانزا و ك. ل. م.) والمقرر فى صيف هذا العام أن يقام معسكر فى ستراسبورج، مقر نظام شنجن للمعلومات، وهى قاعدة بيانات للبحث والسيطرة تتبعها عشرات آلاف الوحدات الطرفية عبر أوروبا، وتهدف إلى تتبع تحركات المهاجرين والناشطين وغيرهم.

وبصورة مطردة سعى الناشطون لاسترعاء الانتباه إلى أن الرؤية النيوليبرالية للعولمة تكاد تنحصر فى حركة رؤوس الأموال والسلع، وتعمل فى الواقع على زيادة الحواجز فى سبيل تدفق الأفراد والمعلومات والأفكار - وقد ازداد عدد حراس الحدود الأمريكيين إلى ثلاثة أمثالهم منذ توقيع اتفاقية التجارة الحرة فى أمريكا الشمالية. وذلك إذا تحققت حرية انتقال الأفراد فإن المشروع النيوليبرالى بأسره سوف ينهار. وهذا أمر ينبغى أن يؤخذ فى الحسبان عندما يتحدث الناس عن تضاؤل نطاق السيادة فى العالم المعاصر: فقد كان الإنجاز الرئيسى للدولة الأمة فى القرن الماضى هو إنشاء منظومة كاملة من الحدود التى يقف عليها حراس أشداء عبر مناطق العالم، وهذا النظام الدولى للسيطرة والتحكم هو بالذات ما نقاومه باسم العولمة الحقيقية.



وقد لعبت هذه الارتباطات - والاتصالات الأوسع بين السياسات النيوليبرالية وآليات الإكراه الحكومى (الشرطة والسجون والعسكريون) دورا يزداد بروزا فى دراساتنا، لأننا نحن أنفسنا واجهنا مستويات متصاعدة من القمع الحكومى. وقد أصبحت الحدود مسألة جوهرية فى أوروبا أثناء عقد اجتماعات صندوق النقد الدولى، ففى براغ، وبعد ذلك عند انعقاد اجتماعات الاتحاد الأوروبى فى نيس. وعند اجتماع منطقة التجارة الحرة فى مدينة كيبك فى الصيف الماضى تحولت الخطوط غير المرئية التى كانت تعامل فى الماضى كما لو كانت غير موجودة بين عشية وضحاها إلى تحصينات ضد تحرك من قد يصبحون مواطنين عالميين يطالبون بالحق فى تقديم التماسات لحكامهم. و ذلك «الجدار» الممتد ثلاثة كيلومترات والذى أنشئ فى قلب مدينة كيبك لحماية رؤساء الدول الذين يقيمون الولائم وراءه وحمايتهم من الاتصال بالرعاع، أصبح هو الرمز الصادق لما تعنيه النيوليبرالية حقا بالنسبة للبشر.

غير أن هناك اختلافا كبيرا بين هذه الحركة وبين «الدوليات» السابقة. فتلك انتهى بها الأمر عادة إلى تصدير نماذج التنظيم الغربية إلى بقية العالم. أما فى هذه «الدولية» فإذا كان هناك تدفق فإنه يتم فى الاتجاه المعاكس. إذ إن الكثير من تقنيات الحركة، إن لم يكن كلها، بما فى ذلك العصيان المدنى بغير العنف ذاته قد ظهر فى البداية فى «الجنوب» العالمى. وقد يتبين فى المدى الطويل أن هذا هو أهم شىء بالنسبة لحركتنا.

ما يزعج السلطات على اختلافها، أيا كانت، ليس هو «العنف» الذى تمارسه الحركة المناهضة للعولمة بل افتقارها إليه، فالحكومات ببساطة لا تعرف كيف تتعامل مع حركة تعلن أنها ثورية لكنها ترفض الوقوع فى الأنماط المعتادة للمقاومة المسلحة



مليونيرات ومهرجون

فى الميديا التجارية تستخدم كلمة «العنف» مرارا وتكرارا، كلما حدث تحرك كبير: «احتجاجات عنيفة»، «صدامات عنيفة»، «الشرطة تداهم مقر المحتجين الذين يستخدمون العنف» بل و «أعمال الشغب العنيفة» (هل هناك نوع آخر منها؟). والمعتاد أن تستخدم هذه التعبيرات عندما يكون الوصف الواضح البسيط لما حدث (أشخاص يلقون بقنابل تحمل دهانات ملونة، أو تحطيم فاترينات خالية ليست وراءها بضائع، أو إمساك الأيدى لإغلاق الشوارع، (بينما يقوم رجال الشرطة بضرب المحتجين بالهراوات)



مما يعطى الانطباع بأن الطرف الوحيد الذى يمارس العنف حقا هو الشرطة. وقد تكون الميديا الأمريكية هى أكثر من يلجأ إلى هذا الأسلوب ـ وذلك بالرغم من أنه بعد مرور سنتين من الجهاد بأسلوب العمل المباشر المتزايد كان من المتعذر تقديم مثال واحد لشخص أصابه الناشط الأمريكى بأذى بدنى. ولعلى أقول إن ما يزعج السلطات على اختلافها، أيا كانت، ليس هو «العنف» الذى تمارسه الحركة المناهضة للعولمة بل افتقارها إليه، فالحكومات ببساطة لا تعرف كيف تتعامل مع حركة تعلن أنها ثورية لكنها ترفض الوقوع فى الأنماط المعتادة للمقاومة المسلحة.

إن الجهد المبذول لتدمير النموذج القائم يراعى عادة ما يحيط به من مخاطر. وبينما كان يبدو فى وقت من الأوقات أن البديل الوحيد للمسيرات التى تحمل اللافتات هو إما العصيان المدنى الغاندى البعيد عن العنف أو العصيان الصريح. ولكن جماعات مثل «شبكة العمل المباشر» أو «منظفو الشوارع» أو «الكتلة السوداء» أو «توتى بيانكى» (ذوو الملابس البيضاء) قد سعوا جميعا ـ كل منهم بطريقته ـ إلى اكتشاف طريق جديد تماما بين بين. وهذه المجموعات تحاول أن تبتدع ما يسميه كثيرون «رؤى جديدة» للعصيان المدنى، تجمع بين عناصر من مسرح الشوارع، والمهرجانات، وما يمكن أن يسمى الحرب بلا عنف ـ بلا عنف بالمعنى الذى أخذت به مثلا حركة «الكتلة السوداء» من حيث إنها ترفض إحداث أى إيذاء بدنى مباشر لأى إنسان. وجماعة «ياباستا!» مثلا مشهورة بالأوفرولات البيضاء التى يلبسها أعضاؤها رجالا ونساء من مواد مختلفة تتراوح بين سترات من الإسفنج أو من إطارات السيارات الداخلية أو معدات السباحة أو الخوذات المضادة للمواد الكيماوية. وبينما يشق هذا الجيش الهزلى طريقه فى وسط استحكامات الشرطة يقوم كل أفراده بحماية بعضهم بعضا ومنع إيذائهم أو القبض عليهم، ويبدو أن هذه الأردية الغريبة تحول الكائنات البشرية إلى شخصيات كرتونية ـ مهوشة الصورة، وغير معتادة، وبعيدة عن العقل، ولكن من الصعب القضاء عليها. ويزيد الموقف تأثيرا عندما تقوم هذه الشخصيات بملابسها الغريبة بمهاجمة الشرطة بالبالونات الملونة أومسدسات الماء أو كما فعلت كتلة فلاى براغ وغيرها عندما ترتدى ملابس الجنيات ويداعبونهم بالمنشات المصنوعة من الريش.




وفى اجتماعات الأحزاب الأمريكية كان أصحاب الملايين المؤيدين لبوش (أو جور) والمرتدين أفخر البذلات والكرافتات والنساء المرتديات الفساتين يحاولون أن يدسوا فى جيوب رجال الشرطة رزما من النقود، ويقدمون لهم الشكر على تخويف المعارضين. ولم يصب أحد ممن قاموا بهذه التمثيلية بأبسط إصابة ـ ربما لأن رجال الشركة تلقوا علاجا يقضى بعدم إيذاء شخص يرتدى ملابس فاخرة. أما «كتلة المهرجين لرافضى السلطة الثوريين» الذين يركبون دراجات عالية ويرتدون باروكات شعر متعددة الألوان وقلنسوات تصدر عنها أصوات، فقد أربكوا الشرطة بأن كان كل منهم يهاجم الآخر (أو يهاجم المليونيرات). وكانت هتافاتهم: «الديمقراطية؟ ها ها ها!». أو «جماعات البيتزا المتحدة لا يمكن أن تهزم» أو «هاى هو، هاى هو ـ ها ها، هى هى!» أو هتافات مثل «استدعوا التعزيزات! استدعوا التعزيزات» أو الهتاف المحبب للجميع «اهتفوا بثلاث كلمات! اهتفوا بثلاث كلمات!».

وفى مدينة كيبك تم صنع مقلاع ضخم على غرار مقاليع القرون الوسطى، وكان يقذف بكرات لينة فى اتجاه المجتمعين لمناقشة قضايا منطقة التجارة الحرة. وقد تمت دراسة تقنيات الحروب العتيقة واستخلصت منها الأشكال التى لا تتسم بالعنف ولكنها أدوات مناسبة للمواجهة: استخدمت قاذفات الأحجار والنبال (الأولى من جزر البرنس ادوارد والثانية من مونتريال)، ومازال البحث مستمرا فى سواتر الحماية على الطراز الرومانى. وأصبح وضع الحواجز فى الشوارع فنا قائما بذاته: فإذا أنت صنعت شبكة هائلة من مزق النسيج عند تقاطع طريقين يصبح العبور منها متعذرا، ويسقط فيها راكبو الموتوسيكلات من الشرطة كما يتساقط الذباب. وتستطيع «عروسة الحرية» وقد فردت ذراعيها على آخرهما أن تسد طريقا سريعا يحتوى على أربع حارات، بينما تستطيع رقصات الثعبان أن تشكل عائقا متحركا. وقد قام الساخطون فى لندن فى عيد أول مايو الماضى بأعمال شبيهة بما يتم فى لعبة المونيبولى ـ وبنوا خنادق فى شارع ميسير. ونصبوا «أوكازيون القرن» فى شارع أوكسفورد، وقاموا بـ«تنسيق الحدائق الإجبارى» والذى لم يمكن إيقافه إلا بالتدخل الشديد من جانب الشرطة، كما حالت دونه الأمطار الغزيرة. ولكن حتى أشد المتحمسين ـ مثل المخربين الزائفين من «جبهة تحرير الأرض» ـ يحرصون على تجنب القيام بعمل يمكن أن يضر بالكائنات البشرية (أو حتى الحيوانات). وهذا التنويع فى الأشكال هو الذى يرهق قوات الأمن والنظام ويجعلها متشوقة لإعادة الأمور إلى طريقها المعتاد (العنف البسيط): حتى تصل، كما حدث فى جنوه، إلى حد تشجيع البلطجية الفاشيين على إحداث الشغب كمبرر لاستخدام القوة المفرطة مع كل الأطراف الأخرى.

ويمكن أن نتتبع نشأة هذه الأشكال إلى ما كانت تفعله جماعات «اللهيب» أو «هنود المتروبوليتان» فى الستينيات، أو معارك مغتصبى الأراضى فى ألمانيا أو إيطاليا فى السبعينيات والثمانينيات. أو حتى مقاومة الفلاحين لتوسيع مطار طوكيو. ولكن يبدو لى هنا أيضا أن البدايات الحاسمة كانت لدى جماعات «الزاباتستا» وغيرها من الحركات فى «الجنوب» العالمى. لأن «جيش الزاباتستا للتحرر الوطنى» يمثل محاولة من جانب الأهالى الذين حرموا دائما من حقهم فى المقاومة المدنية البعيدة عن العنف، وخاصة لكشف خداع الليبرالية الجديدة وتظاهرها بنشر الديمقراطية وإعطاء السلطة لـ«المجتمع المدنى». إنه ـ كما يقول قادة الحركة ـ جيش يتوق لئلا يغدو جيشا بعد الآن (فقد أصبح من الأسرار المكشوفة أن هذه الجماعات لم تكن تحمل بنادق خلال السنوات الخمس الأخيرة على الأقل). وقد فسر ماركوس تحولهم عن أساليب حرب العصابات المعتادة بقوله:

«لقد كنا نتصور أن الأهالى إما أنهم لن يلتفتوا إلينا أو أنهم سينضمون إلى جانبنا ليقاتلوا. ولكن الأهالى لم يفعلوا هذا ولا ذاك. فقد تبين أن كل هؤلاء الناس، الذين يعدون بالآلاف، ومئات الآلاف، وربما بالملايين، لا يريدون أن يهبوا إلى جانبنا ولكنهم... لا يريدون أن نتعرض للقضاء علينا. إنهم يريدون لنا أن نتحاور. وأدى ذلك إلى تغيير خطتنا بالكامل، وأفضى إلى تحديد معالم الزاباتزمو، والنيوزابتزمو».

وكان جيش الزاباتستا ينظم «عمليات غزو» للقواعد العسكرية المكسيكية يجتاح فيها المئات من الساخطين، بدون سلاح، مرددين الصيحات ومحاولين إشعار الجنود المقيمين بالخزى والعار. وبالمثل، فإن التحركات الجماعية من جانب «حركة العمال المعدمين» تكتسب تأييدا أدبيا هائلا فى البرازيل بإعادة احتلال الأراضى غير المستغلة بدون استخدام أى قدر من العنف. ومن الواضح فى كلتا الحالتين أنه لو أن نفس الأشخاص حاولوا أن يفعلوا نفس الشىء قبل ٢٠ عاما، لأطلق عليهم الرصاص ببساطة.

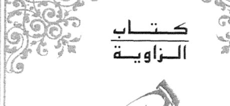
هـــذه المجموعات تحاول أن تبتـدع ما يســـميه كثيـــرون «رؤى جــــديـــدة» للعصيان المدنى، تجمع بين عناصـر من مســرح الشـوارع، والمهـرجـانات، ومـا يمكن أن يسـمى الحـرب بلا عنف ـ بلا عنف بالمعنى الذى أخـذت به مثلا حركة «الكتلة السوداء» من حيث إنها ترفض إحداث أى إيذاء بدنى مباشر لأى إنسان



الفوضوية والسلام

أيا كانت البدايات التى تختارها للحركة فإن هذه الأساليب الجديدة تتفق تماما مع الأفكار العامة للقائمين بها، فهى لا تهدف إلى الاستيلاء على سلطة الدولة وإنما تهدف إلى فضح آليات الحكم وتعرية شرعيتها وتفكيك بنيتها واكتساب مساحات تتسع باستمرار من الاستقلال عنها. ولكن الأمر الجوهرى هو أن هذا كله لا يمكن أن يتحقق إلا فى ظل جو عام من السلام. بل ويبدو لى أن هذه هى الأغراض النهائية للنضال فى اللحظة الراهنة: وهى الأهداف التى ربما تحدد الاتجاه العام للقرن الحادى والعشرين. وينبغى أن نتذكر أنه فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، عندما كانت الأحزاب الماركسية تتحول بسرعة إلى أحزاب إصلاحية للاشتراكية الديمقراطية، كانت دعوة «لا إمارة لأحد» هى مركز اليسار الثورى. ولم يتغير الوضع حقا إلا بعد نشوب الحرب العالمية الأولى وقيام الثورة الروسية. ويقال لنا عادة، إن نجاح البلاشفة هو الذى أدى إلى انهيار حركة «لا إمارة لأحد» ـ باستثناء المثال الرائع فى أسبانيا ـ ودفع بالشيوعية إلى المقدمة. ولكن يبدو لى أن المرء يمكن أن ينظر إلى الآن بطريقة أخرى. فى أواخر القرن التاسع عشر كان معظم الناس يعتقدون بصدق أن الحرب بين الدول الصناعية باتت أمرا غير متوقع. فالمغامرات الاستعمارية كانت مستمرة، ولكن نشوب حرب بين فرنسا وإنجلترا، على التراب الفرنسى أو البريطانى كان يبدو أمرا غير معقول كما هو اليوم. وبحلول عام ١٩٠٠ كان حتى استخدام جوازات السفر يعتبر إجراء همجيا فات أوانه. وعلى النقيض من ذلك كان «القرن العشرون القصير» أشد القرون عنفا فى التاريخ البشرى، حيث انشغل كله تقريبا إما بخوض الحرب أو بالإعداد لها. ولم يكن من المستغرب أن تبدو دعوة «لا إمارة لأحد» دعوة غير واقعية مادام المقياس الأخير للكفاءة السياسية هو القدرة على الاحتفاظ بآلات هائلة للقتل باستخدام الأدوات الميكانيكية. وذلك أمر لا تستطيع دعوة «لا إمارة لأحد»، بحكم تعريفها، أن تتفوق فيه. كما أنه ليس من المستغرب أن الأحزاب الماركسية ـ التى كانت على كفاءة مفرطة فى هذا المجال بدت أحزابا عملية وواقعية للغاية بالمقارنة بها. وعندما انتهت لحظة «الحرب الباردة» وعادت الحرب بين الدول الصناعية تبدو مرة أخرى أمرا مستبعدا، عادت دعوة «لا إمارة لأحد» إلى الظهور واحتلال نفس الموقع الذى كانت تحتله فى أواخر القرن التاسع عشر، باعتبارها حركة دولية فى قلب اليسار الثورى.

فإذا كان ذلك صحيحا، تغدو الأهداف النهائية للتعبئة الحالية لـ«معاداة الإرهاب» أكثر وضوحا. ففى الأمد القصير تبدو الأمور داعية للفزع الشديد. فالحكومات التى كانت تبذل قصارى جهدها بحثا عن وسيلة تقنع بها الجمهور بأننا إرهابيون حتى قبل ١١ سبتمبر تشعر الآن بأنها حصلت على «كارت بلانش». ولاشك فى أن أناسا طيبين كثيرين يوشكون أن يتعرضوا لعمليات قمع رهيبة. ولكن فى المدى الطويل تعتبر العودة إلى مستويات العنف الذى شهده القرن العشرون أمرا مستحيلا. ومن الواضح أن هجمات ١١ سبتمبر كانت ضربة حظ (فقد كانت أول



كتاب الزاوية

حضارة العرب فى إسبانية

كانت إسبانية النصرانية ذات رخاء قليل وثقافة لا تلائم غير الأجلاف فى زمن ملوك القوط، ولم يكد العرب يتمون فتح إسبانية حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها، فاستطاعوا فى أقل من قرن أن يُحيوا ميت الأرضين ويعمروا خرب المدن ويقيموا أفخم المبانى ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى، ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب ويترجمون كتب اليونان واللاتين وينشئون الجامعات التى ظلت وحدها ملجأً للثقافة فى أوروبا زمنًا طويلاً.

وأخذت حضارة العرب تنهض منذ ارتقاء عبدالرحمن إلى العرش على الخصوص، أى منذ انفصال إسبانية عن المشرق بإعلان خلافة قرطبة فى سنة ٧٥٦م، فغدت قرطبة، بالحقيقة، أرقى مدن العالم القديم مدة ثلاثة قرون.

ولم يكد عبدالرحمن يقبض على زمام الحكم فى إسبانية حتى أخذ يسعى فى حمل العرب على عد إسبانية وطنًا حقيقيًا لهم، فأنشأ جامع قرطبة الشهير الذى هو من عجائب الدنيا لتحويل أنظار العرب عن مكة، وصار يُنفق دخل بيت المال فى إصلاح البلاد وعمرانها بدلاً من إنفاقه فى الغزوات البعيدة، ثم سار خلفاؤه على سُنته فى ذلك.

وامتازت حضارة العرب فى إسبانية فى ذلك الدور بميل العرب الشديد إلى الفنون والآداب والعلوم على الخصوص، وأنشأ العرب فى كل ناحية مدارس ومكتبات ومختبرات، وترجموا كتب اليونان، ودرسوا العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والكيماوية والطبية بنجاح.



خطة إرهابية طموحة فى التاريخ يكتب لها النجاح). وانتشار الأسلحة النووية يضمن أن مناطق تزداد اتساعا من الكرة الأرضية ستصبح لكل الأغراض العملية خارج نطاق الحروب التقليدية. وإذا كانت الحرب هى عماد الدولة، فإن احتمالات التنظيم على قاعدة «لا إمارة لأحد» سوف تتحسن.

ممارسة الديمقراطية المباشرة

من الانتقادات التى توجهها الصحف التقدمية دائما لحركة العولمة أنها، رغم بريقها التكتيكى، تفتقر إلى فكرة محورية أو أيديولوجية متماسكة (ويبدو أن هذا هو المكافئ اليسارى للميديا التجارية أننا مجموعة من الصبيان المفتونين الذين يرددون مجموعة من المطالب غير المترابطة مثل حرية الانتقال، وإلغاء الديون، وحماية الغابات). وهناك اتجاه آخر للهجوم، على أساس أن الحركة مصابة بمعارضة أساسية لكل شكل من أشكال التكوين والتنظيم. ومن المحزن أنه بعد مرور سنتين على أحداث سياتل ينبغى لى أن أقول ما سأقوله الآن: إن هذه الحركة، ولاسيما فى أمريكا الشمالية، إنما تهدف إلى إعادة اكتشاف الديمقراطية. وهى لا تعارض التنظيم. وإنما تسعى لإيجاد أشكال جديدة منه. وهى لا تفتقر إلى أيديولوجية. فهذه الأشكال الجديدة من التنظيم هى أيديولوجيتها. إنها تسعى إلى خلق وتثبيت شبكات أفقية بدلا من الهياكل التى تعتمد على السلطة من أعلى إلى أدنى مثل الدول أو الأحزاب أو الشركات. نسعى لإيجاد شبكات تعتمد على مبادئ اللامركزية، والديمقراطية القائمة على توافق الآراء. وهى ستطمح فى نهاية الأمر إلى أكثر من ذلك بكثير، لأنها تسعى إلى إعادة تشكيل الحياة اليومية بكاملها. ولكنها بخلاف أشكال كثيرة أخرى من دعوات التغيير عمدت إلى تنظيم صفوفها فى المجال السياسى ـ أساسا لأنه مجال تجاهلته تقريبا القوى الأخرى (التى وجهت مدفعيتها الثقيلة بكاملها إلى الاقتصاد).

وخلال العقد الماضى، بذل الناشطون فى أمريكا الشمالية جهودا إبداعية هائلة من أجل إعادة تشكيل العمليات الداخلية للمجموعات ذاتها، وإيجاد نماذج قابلة للحياة لما يمكن أن تكون عليه الديمقراطية المباشرة الناجحة. وقد استفدنا فى هذا السبيل، كما ذكرت من قبل، بنماذج من خارج التراث الغربى، وهى نماذج تعتمد فى كل الحالات تقريبا على عملية لتوافق الآراء وليست تصويتا بالأغلبية. وكانت النتيجة العثور على هيكل غنى ومتصاعد من الأدوات التنظيمية ـ مجالس الحوار، والتقارب، وأدوات التيسير، والخروج معا، ومراقبة الأحداث، وما إلى ذلك ـ فكلها ترمى إلى خلق أشكال من العمليات الديمقراطية التى تسمح للمبادرات بأن تصعد من أدنى فتحقق القدر الأقصى من التضامن الفعال، بدون إخماد الأصوات المعارضة، أو خلق مواقع قيادية، أو إلزام أى شخص بعمل أى شىء لم يقبل أن يعمله بحرية.



والفكرة الأساسية فى عملية توافق الآراء أنه بدلا من التصويت فإنك تحاول أن تصل إلى اقتراحات يقبلها الجميع ـ أو على الأقل ليست موضع معارضة شديدة من أحد: فأنت تبدأ أولا بشرح الاقتراح، ثم تسأل عما إذا كانت هناك مخاوف أو مشاغل وتحاول أن تعالجها. والمعتاد عند هذه النقطة أن يقدم أعضاء المجموعة اقتراحات بـ«تعديلات ودية» ويضيفون إلى الاقتراح الأصلى، أو يقومون بتعديله، لضمان معالجة الشواغل. ثم فى النهاية، عندما تطلب توافق الآراء، تسأل عما إذا كان أحد يرغب فى «منع» الاقتراح أو أن «يقف جانبا». ويكون الوقوف جانبا بأن يقول «إنى لن أكون مستعدا للمشاركة فى هذا العمل، ولكنى لا أمنع أحدا من القيام به». أما المنع فيكون بأن يقول «أعتقد أن هذا يتعارض مع المبادئ الأساسية أو الأغراض الأساسية للانضمام إلى الجماعة». ويكون ذلك بمثابة فيتو: ويستطيع أى شخص واحد أن يوقف الاقتراح تماما بالاعتراض عليه ـ وإن كانت هناك وسائل للتأكد مما إذا كان الاعتراض يستند إلى المبادئ حقًا.

وهناك أشكال مختلفة من المجموعات. فمجالس المتكلمين Spokescouncils مثلا هى اجتماعات كبيرة تنسق بين «جماعات التقارب» الأصغر حجما. وهى تعقد عادة قبل وأثناء الأعمال المباشرة الكبيرة مثل سياتل أو كيبك. وتقوم كل جماعة تقارب (التى تضم ما بين ٤ و ٢٠ عضوًا) باختيار «متحدث» له القدرة على الكلام نيابة عنها فى المجموعة الأوسع. وليس لغير المتحدثين أن يشاركوا فى العملية الفعلية للسعى إلى توافق الآراء فى المجلس، ولكن قبل اتخاذ القرارات الكبرى فإنهم يرجعون إلى مجموعات التقارب مرة أخرى،



ليس بيننا من يعرف
إلى أى مدى ستأخذنا هذه المبادئ،
ولا كيف سيبدو المجتمع المركب المعتمد
عليها. وتتلخص هذه المبادئ
فى مناهضة التسلط





فتصل كل مجموعة إلى توافق في الآراء بشأن الموقف الذي تريد المتكلم باسمها أن يتخذه. وعمليات التجزئة break - outs من ناحية أخرى تجرى عندما ينقسم اجتماع كبير مؤقتًا إلى مجموعات صغيرة ينصب اهتمامها على اتخاذ القرارات أو تقديم اقتراحات، ويمكن عندئذ أن تطرح للموافقة عليها أمام المجموعة بكاملها عند اجتماعها. وتستخدم أدوات التيسير facil-itation tools لتسوية المشكلات أو لدفع الأمور عندما يبدو أنها تتعثر. وعند ذلك يمكنك أن تدعو لعقد جلسة لتقديم الأفكار brain-storming والتي لا يسمح للأفراد فيها إلا بتقديم أفكار ولكن دون انتقاد الأفراد الآخرين، أو يجرون اقتراعا غير ملزم حيث يرفع الأشخاص أيديهم لمجرد معرفة الاتجاهات بشأن أحد الاقتراحات وليس بغرض اتخاذ قرار. أما ما يسمى «حوض السمك» fishbowl فيستخدم عند وجود خلاف عميق في الرأى عند ذلك تقوم المجموعة باختيار اثنين يمثلان كل جانب - أحدهما رجل والآخر امرأة - وتطلب منهم أن يجلسوا في الوسط، والجميع يحيطون بهم ساكتين، ويرون ما إذا كان الأربعة يستطيعون الوصول إلى رأى موحد أو حل وسط، وعند ذلك يستطيعون تقديمه كاقتراح للمجموعة بكاملها.

إرهاصات سياسية

وهذا عمل مازال جاريا، وخلق ثقافة الديمقراطية بين الناس ذوى الخبرة المحدودة في هذه الأمور يكون بالضرورة مؤلما وشاقا، وحافلا بكل أنواع العثرات والبدايات الخاطئة. ولكن - كما يمكن أن يشهد أى ضابط شرطة واجهنا في الشوارع - فإن الديمقراطية المباشرة من هذا النوع يمكن أن تحقق نتائج مدهشة. ويصعب أن تجد شخصا شارك في عمل كهذا مشاركة كاملة ولم يطرأ تحول عميق على إمكانياته البشرية نتيجة لذلك. فإن النطق بعبارة « إقامة عالم مختلف أمر ممكن» شيء يختلف تماما عن ممارسة التغيير، ولو بصورة مؤقتة. ولعل أفضل طريقة للتفكير في هذه التنظيمات - «شبكة العمل المباشر» مثلا - هي النظر إليها على أنها النقيض المقابل للجماعات الماركسية الحلقية، أو حتى الجماعات الفوضوية الحلقية. وبينما ينصب اهتمام «حزب» المركزية الديمقراطية على الوصول إلى تحليل نظرى كامل وسليم، ويطلب الاتفاق الأيديولوجي، ويميل إلى فرض رؤية مستقبل تتساوى فيه الخطوط مع استخدام أشكال تسلطية للتنظيم في الحاضر، تعلن منظماتنا صراحة أنها تبغى التنوع. ويتركز الحوار دائما على مسالك محددة للعمل: فمن المفروغ منه أنه ليس هناك من سيغير اقتناع الآخرين بالكامل. ويكون الشعار هو «إذا كنت مستعدا لأن تتصرف على أنك من أنصار (لا إمارة لأحد) الآن، فإن رؤيتك في المدى الطويل هي أمر يخصك وحدك». وما يبدو منطقيا هو: ليس بيننا من يعرف إلى أى مدى ستأخذنا هذه المبادئ، ولا كيف سيبدو المجتمع المركب المعتمد عليها. وتتلخص أيديولوجيتها في مبادئ مناهضة التسلط، وهي التي تعزز أعمالهم.



وفي النهاية أود أن أطرح بعض الأسئلة التي تثيرها شبكات العمل المباشر، وتأثيراتها الأوسع على الممارسة السياسية. فمثلا: لماذا، حتى عندما لا يكون هناك مؤيدون آخرون للسياسة الثورية في مجتمع رأسمالي، تكون المجموعة الوحيدة التي يرجح أن تتعاطف مع مشروعها تآلف من الفنانين والموسيقيين والكتاب وغيرهم من المشاركين في شكل ما من أشكال الإنتاج البعيد عن الاغتراب؟ لابد أن هناك ارتباطا بين تجربة تخيل الأشياء أولا ثم تحويلها إلى واقع، فرديا أو جماعيا، وبين القدرة على رؤية بدائل اجتماعية - ولاسيما إمكانية أن يكون المجتمع نفسه قائما على أشكال من الإبداع أقل اغترابا؟ بل وقد يرى المرء أن التحالفات الثورية تميل دائما للاعتماد على نوع من التحالف بين أقل فئات المجتمع اغترابا وأكثرها تعرضا للقمع. ومن ثم يمكن للمرء أن يقول إن الثورات الفعلية كانت تحدث عندما تتلاقى هاتان الفئتان بأوسع معاني التلاقي.

ومن شأن هذا أن يفسر لماذا كان دائما الفلاحون وأصحاب الحرف هم الذين يطيحون فعليا بالأنظمة الرأسمالية وليست تلك الفئات التي خضعت لأجيال من العمل الأجير. كما أن ذلك يفسر الأهمية الاستثنائية لنضال الشعوب الأصلية ضمن الحركة الجديدة: فهؤلاء الناس هم الأقل اغترابا وهم في نفس الوقت أشد الفئات تعرضا للاضطهاد فوق سطح الأرض. والآن، وقد جعلت تكنولوجيا الاتصال في الوسع إدماجهم في مخالفات ثورية على الصعيد العالمي، وكذلك في حركات المقاومة والتمرد المحلية، فقد أصبح من المحتم أن يلعبوا دورًا ملهمًا للآخرين. ■



التحالفات الثورية تميل للاعتماد على نوع من التحالف بين أقل فئات المجتمع اغترابا وأكثرها تعرضا للقمع. ومن ثم يمكن القول إن الثورات تحدث عندما تتلاقى هاتان الفئتان





تأثير الدين فى المسلمين

القرآن دستور مكتوب، ويوجد فرق بين التعاليم المكتوبة والعمل بها فى الغالب، وإذا ما أراد الإنسان أن يعلم أهمية هذه التعاليم وَجَب عليه أن يدرس درجة تأثيرها فى الحياة، وحدود هذا التأثير هو الذى تُهِمُّ معرفته إذن، وهذا لا نستطيعه إلا بالدخول فيما لم نأته حتى الآن من التفصيل.

تأثير دين محمد فى النفوس أعظم من تأثير أى دين آخر، ولاتزال العروق المختلفة التى اتخذت القرآن مرشدًا لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرنًا، أجَل، قد تجد بين المسلمين عددًا قليلاً من الزنادقة والأخلياء، ولكن لن ترى من يجرؤ منهم على انتهاك حُرمة الإسلام فى عدم الامتثال لتعاليمه الأساسية كالصلاة فى المساجد وصوم رمضان الذى يراعى جميع المسلمين أحكامه بدقة مع ما فى هذه الأحكام من صرامة لا تجد مثلها فى صوم الأربعين الذى يقوم به بعض النصارى، كما شاهدت ذلك فى جميع الأقطار الإسلامية التى زُرتها فى آسيا وأفريقية، ومن ذلك أن أتيح لى أن أركب سفينة نيلية كان فيها أفراد عصابة عربية مُقَرَّنين فى الأصفاد ومتهمين بأنواع الجرائم، فقضيت العجب حين رأيتهم، وهم الذين خرقوا حُرمة جميع القوانين الاجتماعية مستخفين بأقسى العقوبات، لم يجرءُوا على انتهاك تعاليم النبى، حين شاهدتهم يرفعون تلك الأصفاد عنهم وقت الصلاة ليسجدوا لله القهار ويعبدوه.

وعلى من يرغب فى فهم حقيقة أم الشرق، التى لم يدرك الأوروبيون أمرها إلا قليلاً، أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها، وللدين ذى التأثير الضئيل فينا نفوذ عظيم فيهم.



نظرة جديدة إلى ظاهرة بن لادن!

مــــاجـــــدة بركــــة

[١]

حرص إيريك هوبسبوم «Eric Hobsbawm»، المؤرخ البريطاني الكبير، على التفرقة في كل كتاباته بين «الثوار Revolutionaries» من ناحية، وبين «المتمردين Rebels» من ناحية أخرى. وفي كتابه المهم «المتمردون البدائيون «Primitive Rebels» الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٦٥، وصدرت منه عدة طبعات حديثة، يلقي «هوبسبوم» الضوء على جانب مهم من تاريخ طويل لعمليات التمرد الاجتماعي والسياسي عبر التاريخ، قام بها من أسماهم المتمردون البدائيون».

وفي هذا الصدد، يركز «هوبسبوم» على تلك «الحركات التمردية» التي اشتد ساعدها في البلدان الأوروبية، منذ نهاية القرن الثامن عشر، وامتدت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، تلك الحركات التي تمت معالجتها في الكتابات التاريخية التقليدية على أنها مجرد «هوامش Footnotes» لحركة التاريخ الرئيسية. ويرى «هوبسبوم» أن هذا نهج خاطئ ومتسرع، إذ أننا مطالبون بالدراسة المتعمقة لفهم طبيعة تلك الحركات التمردية، وأفقها السياسي والاجتماعي، وكذا إطارها التاريخي. ويرى «هوبسبوم» أنه قد آن الأوان لفهم طبيعة تلك الحركات الاحتجاجية، التي تعد «خارجة على القانون»، على تنوع أشكالها وأساليبها البدائية في التمرد، وذلك لدلالتها التاريخية من ناحية وآفاقها المسدودة التي تحكم نهاياتها من ناحية أخرى.



ويفرِّق «هوبسبوم» بين نوعين من حركات التمرد التي تستخدم «العنف المسلح»، وهما نوعان على طرفي نقيض: الأول مجرد «عصابات مسلحة» تحاول أن تأخذ بالثأر من الأغنياء ورموز السلطة المحليين، في محاولة لرد الظلم والانتقام من ممارستهم القهرية، وغالبًا ما تكون في حالات فردية ولأسباب خاصة. والثاني حركات ذات أفق اجتماعي أكثر تطورًا، وليست مجرد أعمال ثأرية ضد أفراد معينين، ويعتبر ممثلها النموذج «روبن هود»، الذي كان يعبر في الأساس عن حركة تمرد الفلاحين في مواجهة ظلم «السادة الإقطاعيين»، والمرابين، وغيرهم من مراكز النفوذ والسلطة الاقتصادية والاجتماعية وقمعهم لجموع الفلاحين والعاملين لديهم وتحت سلطتهم. وكما فعل «روبن هود»، وغيره من قادة «حركات التمرد» البدائية، فإنهم يعتصمون بالجبال والغابات، لكي يكونوا بعيدين عن أعين الدولة وأجهزتها البوليسية وأدواتها القمعية. وفي أحوال كثيرة، يمكن اعتبار «تنظيمات المافيا» تعبيرًا مهمًا عن تلك الحركات ذات الطابع التمردي والاحتجاجي، ولكن بشكل أكثر تنظيمًا وشبكات أكثر تعقيدًا، على صعيد عالمي، وليس محليًا فقط.

وفي بعض المواقع من الكتاب، يرى «هوبسبوم» أن العناصر التي تشكل «حركات التمرد» تنتمي إلى ما يسميه عالم «ما قبل السياسة» بمعناها الحديث والنظامي، وهو عالم تسود فيه «لغة الانتقام والثأر» الجماعية من الأغنياء والمتسلطين والمتجبرين، دون أن تكون هناك رؤية واضحة للبناء أو لإقامة نظام بديل. وفي أحوال كثيرة، تكون الدعوة السائدة في خطاب «حركات التمرد البدائية» هي الحنين إلى «العالم القديم» حيث كان هناك مزيد من العدل والإنصاف.

ومن ناحية أخرى، فإن تلك الحركات عادة ما تتمتع بتأييد وتعاطف شعبيين من العناصر المسحوقة والمقهورة والساخطة على جميع أشكال الاستغلال الاقتصادي، والقهر الاجتماعي والمعنوي.

وهنا يرى «هوبسبوم» أنه يجب التفرقة بين «الظلم الاجتماعي والاقتصادي»، من ناحية، وبين «القهر السياسي والثقافي والمعنوي» من ناحية أخرى، وفي ضوء تلك التفرقة، نجد أن تلك الحركات الاحتجاجية لا تتمتع بدعم وتأييد العناصر الخاضعة للاستغلال والظلم الاجتماعي والاقتصادي فحسب، بل غالبًا ما تجد تأييدًا ودعمًا من الأوساط التقليدية (الريفية والتجارية) التي تحاول مقاومة «الغزو الخارجي» لأنماط حياتها ولنظام قيمها التقليدي. ولهذا نجد لديها في كثير من الأحيان تعبيرات وصياغات «ذات طابع ديني» تختلط دومًا بالخطاب التحريضي الذي تتبناه تلك الحركات ومن يناصرها.

وفي ظل كل هذه الاعتبارات، نجد أن قادة تلك الحركات «الخارجين عن القانون» ـ في أعين الدولة والسلطة ـ هم أبطال شعبيون (وأحيانًا أسطوريون) في أعين عامة الفقراء والمظلومين. ويبرز هنا مرة أخرى «روبن هود» كحالة نموذج.

[٢]

وعلى المستوى التحليلي والتاريخي، يرى «هوبسبوم» أن تلك الحركات البدائية هي في حالة تفاعل مستمر للوصول إلى درجة أعلى من النضج. إذ إن تلك الحركات البدائية للاحتجاج والتمرد أمامها طريقان: إما التحلل والهزيمة والاندحار، وبالتالي انفراط عقدها، أو تحولها التدريجي إلى حركة ثورية ذات أساليب تنظيمية أكثر رقيًا، ولها أفق سياسي واستراتيجي أكثر تقدمًا وفاعلية. وبالرغم من إمكانية تجاوز الأساليب البدائية في المقاومة والتمرد، تظل تلك الحركات تتذبذب بين المواقف الإصلاحية التي تدعو للإصلاح والتغيير الجزئي، وبين المواقف الثورية والأكثر راديكالية التي تسعى لتغيير وزعزعة مجمل النظام السياسي والاجتماعي المحيط بها، وبإيجاز، فهناك من تلك الحركات ما يتضح ويتطور لكي يصبح حركة تمرد ثورية، ذات أفق اجتماعي وسياسي متطور (مثل حركة «إميليانو زاباتا» في المكسيك) وهناك من يقضي نحبه في الجبال والغابات والمرتفعات.

ويلاحظ «هوبسبوم» أن الجماعات والحركات «الفوضوية» الحديثة تحتفي بنشاط وتاريخ «حركات التمرد البدائية»، لأنها حركات يجمعها مع تراث «حركات الفوضويين» قاسم مشترك، من حيث السعي لتحطيم أركان النظام القائم ومقومات السلطة، دون امتلاك برنامج بديل للبناء والتغيير.

ويرسم «هوبسبوم» في كتابه صورة حية لبعض قادة حركات التمرد البدائية، مستندًا إلى المادة التاريخية المتاحة منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن العشرين، لاسيما في الجنوب الإيطالي. ويشير إلى الحماية الشعبية التي كان يتمتع بها هؤلاء القادة مما يجعل السلطات الرسمية عاجزة عن القبض عليهم أو تصفيتهم. وبالإضافة إلى ذلك، كان الجمهور المحيط بتلك الحركات يضفي أوصافًا وقدرات خارقة على بعض قادتها. إذ كان يسود الاعتقاد في صفوف أنصار هؤلاء القادة Angiollillo (١٧٦٠ ـ ١٧٨٤) أنه يمتلك «خاتمًا سحريًا» يساعد على صد طلقات الرصاص الموجهة إليه، وإبعادها عن جسده! كما سادت أساطير أخرى مماثلة بخصوص شخصيات قيادية بارزة في تاريخ العصابات المتمردة في الريف والجبال أصبحت تاريخيًا جزءًا من الفولكلور الشعبي الذي تغني به بسطاء الناس.

ولعل أبرز الأمثلة المحلية في هذا المجال أسطورة «أدهم الشرقاوي» في الريف المصري. إذ في الوقت الذي كانت السلطات الرسمية تعتبره مع أنصاره بمثابة «مجرمين» و«رجال خارجين عن القانون»، كان هؤلاء في أعين الجماهير المحلية «أبطالا شعبيين» تنسج حولهم الأساطير والأهازيج الشعبية.

ويشير «هوبسبوم» إلى أن تاريخ أي قائد لعصابة متمردة أو حركة من حركات «التمرد البدائية» عادة ما يبدأ بحادثة مهمة تدفعه إلى التمرد و«الخروج على القانون»: مثل اضطهاد وقع عليه من رجال الشرطة أو أحد رجال السلطة، أو صدر حكم قاسٍ وظالم بحقه. إذ إن الشعور القوي بالظلم (وعدم العدالة) يدفع مثل هذا الشخص للتمرد والخروج على القانون، وتحدي أجهزة السلطة، واللجوء للعنف. وتشير المادة التاريخية، التي جمعها «هوبسبوم»، إلى أن معظم هؤلاء الرجال «المتمردين» يبدأون نشاطهم في سن مبكرة، أقل من ٢٥ سنة.



[٣]

يضيف «هوبسبوم» أن قدرة تلك الجماعات على الاستمرار والبقاء تتوقف بشكل أساسي على استغلال الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي تسمح بالحماية الشعبية لهم، ومدى التأييد والدعم المادي والأدبي الخفي والضمني الذي قد يحصلون عليه من أطراف متصارعة في إطار السلطة القائمة، أو من جانب أطراف دولية لها مصالح في زعزعة الاستقرار وإضعاف السلطة في أماكن تلك الاضطرابات. وفي هذا الصدد يضرب «هوبسبوم» المثل بدعم «البوربون» و«البريطانيين» للعصابات المحلية في الجنوب الإيطالي، في بدايات القرن الثامن عشر.

وفي أحوال كثيرة، يقوم بعض الأثرياء والوجهاء في تلك النواحي بدفع إتاوات مالية أو عينية لقادة تلك العصابات والمجموعات المسلحة التي عادة ما تلجأ للعنف وتقوم بأعمال سلب ونهب منظمة، وذلك لإتقاء شرهم. إذ إن أنصار تلك العصابات المتمردة، يعتمدون على قدرة هذا الزعيم على تعبئة وتوفير الموارد المالية اللازمة للاستمرار في حياتهم في المناطق الريفية والجبلية المنعزلة البعيدة عن أية حياة اقتصادية نظامية.

لماذا نجحت حركة «فيت كونج»
(جبهة التحرير الوطنية)
في جنوب فيتنام في الانتصار الحاسم
في مواجهة الآلة العسكرية الأمريكية العاتية، التي استخدمت
كل ما لديها من أسلحة فتاكة من قنابل وطائرات
وآليات على الأرض، في مقابل فشل حركات أخرى
قامت بتحدي الجبروت الأمريكي؟!





ومما يساعد على التمتع بالحماية والدعم الشعبيين لفترات محدودة، هو ما تقوم به تلك الجماعات من سرقة ونهب أموال «الأغنياء» وتوزيع جانب من تلك الغنائم على الفقراء، وفقًا للنهج النموذج الذى سار عليه «روبن هود». ومن ناحية أخرى، فإن عناصر تلك العصابات والجماعات لا تقوم عادة بعمليات القتل لمجرد الرغبة فى القتل، بل يكون لجوؤهم لعمليات القتل «دفاعًا عن النفس»، أو«الثأر والانتقام». ونحن نجد نماذج واضحة لتلك الممارسات فى صعيد مصر. لأن «قواعد اللعبة» تقتضى عدم المساس برزق وممتلكات «الفقراء» و«المسحوقين»، وتمنع تحول «المتمرد البدائى» إلى مجرد «قاتل أو مجرم محترف». إذ إن الإخلال بتلك القواعد ينجم عنه تقويض كل مقومات «المكانة» التى يتمتع بها قادة تلك الحركات، الأمر الذى يؤدى إلى فقدان تعاطف وتأييد الأوساط الشعبية التى تدعمه وتحميه وتخفيه عن أعين السلطات التى تطارده.

وفى ضوء الدراسة التى قام بها الأستاذ «هوبسبوم»، فإن المدى الزمنى لنشاط وازدهار تلك المجموعات المتمردة هو مدى قصير فى ميزان التاريخ، عادة ما يمتد من عامين إلى خمسة أعوام.

وفى أحوال كثيرة، يكون قادة تلك الحركات ضحايا الخيانة والوشاية، حيث يتم تصفيتهم وقتلهم. وقد قدم الكُتاب المهتمون بسيرة أحد قادة العصابات «التشيك» (Nikola Shuhaj) الذى كان يقوم بعمليات سلب ونهب واسعة فى نهاية القرن الثامن عشر، المانفستو الذى كان يمثل لسان حال هذا الزعيم «الخارج عن القانون»، على النحو التالى:

«نحن ننشط للثأر من عدم العدالة والظلم، ولنؤذى السادة الإقطاعيين، ولنأخذ منهم الثروات التى سرقوها من عامة الناس. وسوف نحطم بالنار والسيف كل ما لا يعود على الناس بالخير. وعمليات الانتقام هذه يجب أن تؤخذ على أنها تحذير مستقبلى للعصور القادمة».

وتعتبر تلك الصياغة من أفضل ما كتب للتعبير عن «لسان حال» قادة العصابات وحركات التمرد البدائية عبر التاريخ.



[٤]

وفى تقديرى، أن «أسامة بن لادن» وأنصاره من تنظيم القاعدة، هم نوع من هؤلاء «المتمردين البدائيين»، الذين عرفناهم عبر التاريخ، ولكن فى ثياب حديثة ومعاصرة؛ إذ تعكس أساليب وممارسات «بن لادن»، وعناصر تنظيم القاعدة، كل سمات «حركات التمرد البدائية»، على النحو الذى شخصه وأفاض فى شرحه «إيريك هوبسبوم»، رغم اختلاف الاستراتيجية والتكتيك، واستغلال الأساليب والتقنيات الحديثة فى الحركة والعمل.

ولقد بدأ «أسامة بن لادن» نشاطه التمردى عام ١٩٨٢ وهو فى الخامسة والعشرين من عمره، عندما قرر اجتياز الحدود والدخول إلى أفغانستان والمشاركة فى الجهاد ضد السوفييت. وتمتع «بن لادن» وصحبه آنذاك بدعم الحكومة السعودية والولايات المتحدة الأمريكية، وغيرهما لما كان لهم من مصلحة واضحة فى دعم النشاط الجهادى فى أفغانستان لدحر السوفييت، ومحاربة الشيوعية، فى إطار «الحرب الباردة» المستعرة آنذاك. تمامًا مثلما تمتعت بعض حركات التمرد فى الجنوب الإيطالى فى نهاية القرن الثامن عشر بدعم «البوربون» والبريطانيين لخدمة مصالحهم الخاصة.

ومنذ منتصف التسعينيات، تزعم «بن لادن» الدعوة لمعارضة الوجود الأمريكى فى الخليج، وتحدث فى بيان أصدره فى نوفمبر ١٩٩٦ عن «تدنيس الأمريكان الكفار لأرض البعثة النبوية المشرفة وللجزيرة العربية بقواتهم العسكرية». ويعتبر هذا البيان نقطة تحول فى علاقته مع «حلفاء الأمس»: الحكومة السعودية والولايات المتحدة الأمريكية (راجع: أيمن الصياد، «بن لادن: الحقيقة والأسطورة»، مجلة وجهات نظر، أكتوبر ٢٠٠١، ص١٥).

وتدريجيًا، تحول «أسامة بن لادن» إلى نوع من «الأسطورة» لدى أنصاره ومريديه: «رجل لا يقهر» عند البعض، و«مُخلِّص المظلومين» لدى البعض الآخر. وساهمت الآلة الإعلامية الأمريكية بدورها فى جعل «أسامة بن لادن»: ذلك الرجل المعتصم بكهوف وجبال أفغانستان البعيدة بأفكاره البسيطة رمزًا للجهاد والتحدى للطغيان والجبروت الأمريكى (أيمن الصياد، ص١٨).

ومن ناحية أخرى، ساهم الثراء الواسع «لبن لادن» فى تمويل نشاط أنصاره وأتباعه، من حيث الإعاشة والإمداد بالسلاح وتأمين الدعم اللوجستى اللازم لنشاط تنظيم القاعدة عبر بقاع العالم المختلفة، مما أغناهم عن أعمال السلب والنهب لتمويل نشاطهم.

ويحلو للبعض من آن لآخر، عقد مقارنة بين «بن لادن»، من ناحية، و«شى جيفارا» القائد الشهير «لحرب العصابات» فى أمريكا اللاتينية، من ناحية أخرى. باعتبار أن كليهما «ثائر» على طريقته، ورمز للمقاومة ضد الأمريكان. فكلاهما يؤمن بالعنف المسلح كطريقة لتحقيق النصر، ويتبنى أسلوب «حرب العصابات» فى الجبال والغابات، حيث يسهل الكر والفر ومراوغة العدو.



ولكن بمزيد من التأمل والتحليل، نلاحظ أن هناك فروقًا جوهرية بين النموذجين، من حيث مفردات «الخطاب التحريضى»، وطبيعة «الأيديولوجية الحاكمة»، ناهيك عن الأساليب التنظيمية والكفاحية والأفق السياسى العام.

نعم قد يجمع بين الرجلين نوع من «الفروسية» و«المثالية المفرطة»، والاستخفاف بقوة الخصم وإمكانياته القمعية، ولكن «المشروع المستقبلى» لدى كل منهم مختلف تمامًا. فمشروع «شى جيفارا»، كان له مضمون سياسى اقتصادى اجتماعى، يسعى لإقامة الدولة الاشتراكية وإحلال «العدل الاجتماعى» محل الظلم والقهر الاقتصادى، ولا يقف عند «عتبة التحرر» من قهر وجبروت الأجنبى والاستلاب الثقافى للمجتمع، دون التعرض للأوضاع الاقتصادية والنضال من أجل إقامة نظام جديد، كما هو الحال عند «بن لادن».

ولذا فإن «شى جيفارا»، الذى كان يحمل خبرة «الثورة الكوبية» لم يكن «متمردًا بدائيًا»، على النحو السابق شرحه، وإنما كان «ثائرًا» لم يحسن تقدير قوة الخصم، وخسر المعركة نتيجة سوء التقدير وعدم حسن التدبير فى ساحة قتال فى «بوليفيا» التى كان لا يعرفها جيدًا، ولكن رغم كل هذه الفروق الجوهرية، يشترك الرجلان فى كونهما رمز التحدى والمقاومة، كما تجمع بينهما النهاية المأساوية، بدءًا من المطاردة المحمومة وانتهاء بهزيمة «المشروع الخاص» بكل منهما.



يقودنا هذا إلى سؤال مهم آخر هو: لماذا نجحت حركة «فيت كونج» (جبهة التحرير الوطنية) فى جنوب فيتنام فى الانتصار الحاسم فى مواجهة الآلة العسكرية الأمريكية العاتية، التى استخدمت كل ما لديها من أسلحة فتاكة من قنابل وطائرات وآليات على الأرض، فى مقابل فشل حركات أخرى قامت بتحدى الجبروت الأمريكى؟!

ومفتاح الإجابة على هذا السؤال، ودون الدخول فى تفاصيل وتعقيدات كثيرة حول هذا الموضوع، وبغض النظر عن الظروف والتوازنات الدولية المواتية آنذاك، هو أن تلك الحركات مثل «حركة التحرير الوطنى» فى فيتنام وغيرها من حركات التحرير المشابهة قادها ثوار حقيقيون: يجيدون الحساب السياسى، وأساليب التعبئة الشعبية الواسعة، بالإضافة إلى براعة الاستراتيجية والتكتيك والتوقيت المناسب فى استخدام أساليب العنف المسلح. هذا بالإضافة إلى طول النفس المطلوب لتحقيق النصر المؤزر.

وليس هناك من شك فى أن رجالا وقادة مثل «هوشى منه» الذى قاد كفاح الشعب الفيتنامى والجنرال «فان دَنْج» (Van Tien Dung)، الذى قاد النصر النهائى فى معركة تحرير وتوحيد جنوب فيتنام، ونجحت قواته فى دخول مدينة «سايجون» فى ٣ أبريل ١٩٧٥، بعد خسائر قدرها ٥٨ ألف جندى وضابط، تكبدتها القوات الأمريكية خلال تلك الحرب الطويلة، هم جزء من حركة ثورية عميقة الجذور فى صفوف الشعب ذات مضمون سياسى اقتصادى اجتماعى، ومسلحة بالعلم والإيمان بقضيتهم العادلة والاستعداد للنضال المستمر حتى تتحقق أمانيهم.

والطريف فى الأمر أن الجنرال «دَنْج» بدأ حياته فلاحًا بسيطًا، وانضم إلى صفوف الثوار قبل أن يكمل تعليمه. وقد كتب مؤرخ أمريكى بارز هو (Eugene Grayson) فى مقال مهم نشر حديثًا يصف «الجنرال دَنْج» على أنه واحد من كبار العسكريين فى العالم فى مجال «حرب المناورات»، وأن «عبقريته العسكرية» تضاهى «روميل» و«ويلنجتون». ولعل الكثيرين حول العالم لم يسمعوا كثيرًا عن الجنرال الفيتنامى «دَنْج»، لأن القيادة الجماعية للثورة التحريرية الفيتنامية كانت أقوى من قصص البطولات الفردية، والعبقريات العسكرية الفذة.

هؤلاء كانوا ثوارًا بالمعنى العلمى للكلمة. وذاك هو الفارق بين «الثوار الحقيقيين» و«المتمردين البدائيين» فى العصر الحديث، على النحو الذى كان يقصده المؤرخ الكبير «إريك هوبسبوم». ■

«نحن ننشط للثأر من عدم العدالة والظلم، ولنؤذى السادة الإقطاعيين، ولنأخذ منهم الثروات التى سرقوها من عامة الناس. وسوف نحطم بالنار والسيف كل ما لا يعود على الناس بالخير

[مانفيستو أشهر العصابات التشيكية فى القرن ١٨]

بحثا عن الحلم المفقود

بيتـــــر بـــــروك يعتـــــزل

أحمـــــــد عثمــــــان

بيتر بروك ظاهرة فنية فريدة، كانت لديه الجرأة أن يغير - ليس فقط طبيعة العرض الدرامي - بل شكل المسرح الحديث كذلك، عن طريق إلغاء الحاجز الوهمي الذى يفصل بين الممثلين والجمهور. وعندما وصل إلى قمة النجاح وصارت الجماهير تنتظر أى جديد يقدمه، فاجأ بروك العالم باعتزاله الإخراج الدرامي في المسارح العامة، وبدأ مشروعا طويل الأمد من البحث عن أصول المسرح وطبيعة العلاقة بين الممثل والجمهور. كالراهب الذى يبتغى الوصول إلى قاع الحس الإنساني وإدراك غير المحسوس، وكالعالم الذى لا يمل من إجراء التجارب لتحقيق سحر جديد.

عندما وصلت إلى لندن سنة ١٩٦٥ كانت بريطانيا تشهد فترة من الإبداع الفني في مجالات الموسيقى والمسرح، لم تشهدها منذ وليام شكسبير والعصر الإليزابيثي. فعندما وصل حزب العمال إلى الحكم في أعقاب الحرب العالمية الثانية، أنشأ نظاما عاما للتعليم سمح لأبناء الطبقات العاملة - للمرة الأولى - بتلقي التعليم مجانا حتى في الجامعة. وأدى تعليم أبناء الفقراء، إلى ظهور طبقة جديدة من المثقفين والفنانين الشعبيين، أثرت الحياة الثقافية عن طريق تقديم نماذج فنية جديدة والتعبير عن رؤية حضارية مختلفة عما كان سائدا في عصر الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. في هذه الفترة بعد ثورة البيتلز (الخنافس)، ظهر العديد من الفرق الغنائية الشعبية كما ظهر عدد كبير من كتاب المسرح الذين خرجوا من الطبقة العاملة في أعقاب جون أوسبورن، ومسرحيته الشهيرة «انظر إلى الوراء في غضب» «Look Back in Anger».



حرصت على مشاهدة الأعمال التى أخرجها بيتر بروك منذ وصولي إلى لندن، وحتى مغادرته هو لها بعد ذلك بأربعة أعوام، وهو يعيش حاليًا في باريس، كنت ألقاه بعد العرض أناقشه في محتواه. وكان البحث عن الدراما المصرية القديمة من أهم الأسباب التى جعلتنى أغادر القاهرة إلى لندن منذ ٣٨ عاما مضت، فقد بدأت حياتي الأدبية في الستينيات بالكتابة للمسرح وكتبت خمس مسرحيات، وإن لم يعرض منها سوى واحدة هي «بيت الفنانين»، التى قدمها المسرح الحديث عام ١٩٦٤. وعندما وصلت إلى العاصمة البريطانية تمكنت عن طريق المجلس البريطاني من الانضمام إلى تدريب للممثلين والكتاب المسرحيين، كان يتم في استديو مسرح الرويال كورت الذى قدم غالبية الكتاب الجدد. وخلال عملي في الاستديو كتبت مسرحية من فصل واحد باسم «ثقب في السماء» Hollow in the Sky، قدمها اثنان من زملائي الممثلين لمدة أسبوعين في المسرح الصغير The Little Theatre Club، مما أتاح لي فرصة لقاء عدد كبير من كتاب المسرح البريطانيين وبعض المخرجين، من بينهم بيتر بروك.

ولد بيتر بروك في لندن منذ ٧٧ عاما (سنة ١٩٢٥) من أبوين روسيين هاجرا إلى فرنسا أولا، ثم استقر بهما المقام في العاصمة البريطانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى. ورغم أنه يهودي الأبوين، فقد تبع النظام التعليمي العام حيث كانت المسيحية هي الديانة الوحيدة التى تدرس في تلك الفترة. لم يكن بيتر في صباه مهتما بالقضايا الدينية أو العنصرية، إلا أنه كان مشغولا بالتساؤلات ذات الطبيعة الروحية وبمحاولة الوصول إلى إجابات على القضايا الفلسفية الجوهرية. وبينما كان أبوه عالما فيزيائيا تمكن من اختراع نظام خاص للتليفون، يمكن الجنود من الاتصال في جبهة القتال أثناء الحرب العالمية الأولى، نالت أمه درجة الدكتوراه في العلوم الكيميائية، وتوصلت إلى تركيب مضاد لمفعول الغازات السامة.

كانت هواية بيتر بروك منذ صباه تتعلق بالسينما، وأراد دراسة التصوير الفوتوغرافي حتى يتمكن من العمل كمخرج سينمائي، لكن أباه أرسله إلى أكسفورد حيث درس اللغات الفرنسية والروسية والألمانية. وفي الجامعة كان اهتمام بيتر بجمعية الفيلم التى أنشأها، يستأثر بكل وقته مما جعله في خلاف مستمر مع أساتذته، وقد نفذ بعض الأعمال السينمائية في هذه المرحلة. وعندما بدأ إخراج الأعمال المسرحية، لم يكن بروك يعرف شيئا عن فن التمثيل أو الكتابة المسرحية، كما لم تكن لديه رؤية ذهنية لهدف يريد تحقيقه على خشبة المسرح. كل ما شغل باله في تلك الفترة هو استخدام حركة الممثلين داخل إطار محدد من الديكور والإضاءة، وحسب إيقاع موسيقي يختاره هو، لتقديم تناسق فني أكثر

ظهور المخرج المسرحي

لم تظهر وظيفة المخرج المسرحي إلا في العصر الحديث منذ القرن التاسع عشر، وهي تشبه إلى حد كبير، الدور الذى يلعبه قائد الأوركسترا الموسيقية في الأعمال السيمفونية، في متابعة العرض الدرامي والتوفيق بين الممثلين في أدائهم. وفي القديم كان واحد من الممثلين القدامى، يقوم بتوجيه زملائه في العمل المسرحي بينما يشترك هو معهم في الأداء. إلا أن تطور التكنولوجيا خاصة بعد ظهور الإضاءة الكهربائية في المسرح، إلى جانب استخدام المناظر التى يمكن التحكم فيها ميكانيكيا والخدع المسرحية، صار الأمر يتطلب وجود شخص متفرغ لأعمال الإخراج المسرحي. ولم يظهر المخرج كقوة مسيطرة على العمل الدرامي، إلا في آخر القرن التاسع عشر بعد حوالي مائتي عام من عصر شكسبير. وكان الألمان هم أول من عينوا مخرجا متفرغا للإشراف على عمل الفرقة المسرحية، ثم تبعهم الإنجليز. وفي القرن العشرين صارت مهمة المخرج متعددة الجوانب، فإلى جانب مسئوليته عن أسلوب التمثيل - وليس أداء الممثلين أنفسهم - فهو الذى يتولى تفسير النص المسرحي، ويشرح للممثلين طبيعة دور كل منهم، وهو الذى يختار شكل الديكور والأزياء ونوع الإضاءة، إلى جانب الموسيقى والتأثيرات الصوتية في بعض الأعمال.

الأعمال الكاملة لبيتر بروك: دار الهلال
ترجمة: فاروق عبد القادر

أدرك بروك ضرورة كسر الحاجز الوهمى القائم بين جمهور المتفرجين وجماعة الممثلين، عن طريق إقامة العرض المسرحى فى نفس المكان الذى يجلس فيه المشاهدون. وليس فى مكان منفصل

إثارة من أحداث الحياة اليومية للمتفرجين. لم يكن يهمه النص الأدبى كما لم يحاول تعليم الممثلين طريقة أداء أدوارهم، واكتفى بيتر بروك فى أعماله الأولى باستخدام الأشكال والحركة والانفعال، لرسم صور متحركة داخل إطار خشبة المسرح، تماما كما لو كان يقدم عملا مصورا على شاشة السينما. ولما كانت بداية بروك فى الإخراج المسرحى فى أوبرا كوفنت جاردن - مع الراقصين والمغنين والموسيقيين - ظل الدافع وراء اختيارات بروك فى المسرح الدرامى بعد ذلك، جماليا تلقائيا ينبع من شعور داخلى، يعتمد على اللاوعى ولا يتم عن طريق التصميم والتحديد الإرادى. وبعكس أسلوب المخرج الألمانى الشهير برتولد بريخت، الذى يحدد كل حركة أو إيماءة يقوم بها الممثل، اعتمد بروك على تلقائية الممثلين فى التعبير عن الشخصيات الدرامية، واكتفى هو بتنظيم الإطار العام للحركة فوق خشبة المسرح.

الدراما فى مصر القديمة

توطدت علاقتى ببروك عندما قدم مسرحية أوديب اليونانية، مستخدما الطقوس الدرامية القديمة التى أخذها اليونان عن المصريين. ولما كان يحاول تخطى مظاهر المسرح الإليزابيثى والرجوع إلى الجذور الأولى للدراما، حاولت إقناعه بدراسة المسرح المصرى القديم وإعادة تقديم دراما أوزوريس. والمشكلة أن مؤرخى المسرح، يستبعدون الدراما المصرية باعتبارها تمثل طقوسا لعبادة الآلهة، وليس عرضا لشخصيات إنسانية. الاعتقاد الشائع يقول بأن المسرح الدرامى من نتاج الثقافة الغربية منذ مولده، ظهر للمرة الأولى فى احتفالات ديونيسوس إله الخمر والخصوبة فى بلاد اليونان، ومنها انتشر إلى باقى أرجاء العالم. وبالرغم من أن كتاب اليونان الكلاسيكيين الذين زاروا مصر فى العصور القديمة، أوردوا فى كتاباتهم تفاصيل ما شاهدوه بأنفسهم من العروض المسرحية فيها - مثل الرحالة هيرودوت - فإن أساتذة الدراسات الكلاسيكية يصرون على أن هذه العروض لم تكن تمثل مسرحا دراميا، وإنما طقوسا للعبادة الدينية.

ولو نظرنا فى غالبية المراجع الخاصة بتاريخ المسرح العالمى أو فى أى موسوعة أكاديمية، لا نجد أى ذكر عن المسرح المصرى القديم، و إن كنا نجد دراسات وافية عن بعض المسارح الشرقية الأخرى، مثل المسرح اليابانى والمسرح الهندى. والسبب فى هذا يرجع إلى أنه - بينما احتفظ اليابانيون والهنود بتقاليدهم الدرامية القديمة حية فى عروضهم المسرحية حتى عصرنا الحاضر - فإن الدراما المصرية اختفت تماما عن الوجود، ولم يعد أحد حتى يذكر عنها شيئا. ولهذا فعندما بدأ المسرح المصرى المعاصر منذ حوالى ١٥٠ عاما، حاول المخرجون والكتاب محاكاة المسرح الأوروبى الحديث فى إنتاجهم، وخاصة المسرح الفرنسى والمسرح الإنجليزى.

الدراما والعبادة

كانت الدراما المسرحية التى ظهرت فى بلاد اليونان، من أهم المظاهر الحضارية التى عرفتها البشرية والتى تعيش بيننا حتى الآن. فقد أصبح المسرح اليونانى هو النموذج الأساسى الذى تطورت عنه الدراما عند الرومان أولا، ومنها انتقلت إلى الحضارات الغربية بشكل عام. وصلت الدراما الأثينية إلى قمتها خلال القرن الخامس ق.م. وأول ما ظهر المسرح بشكل متكامل فى أثينا كان خلال المسابقات الدرامية فى القرن الخامس ق.م. وبالرغم مما أظهرته معاول الأثريين - سواء فى بلدان المنطقة العربية أو فى بلاد اليونان - من بقايا أثرية، تؤكد وجود عروض مسرحية فى مصر القديمة سابقة بمئات السنين على ظهور الدراما الأثينية، إلا أن رجال الآداب الكلاسيكية لا يزالون يرفضون الاعتراف بوجود مسرح مصرى قديم. فهم يقولون بأن هذه العروض المسرحية التى كانت تقدم فى إدفو - بين أسوان والأقصر فى الصعيد - أو فى أبيدوس التى تقع على بعد ٥٠ كيلومترا جنوب سوهاج، أو فى بوزيريس بوسط الدلتا، كانت كلها تمثل طقوسا للعبادة، وليس أعمالا درامية. ورفض الباحثون الغربيون اعتبار المسرح الدرامى تطورا طبيعيا عن الطقوس التى أخذها اليونان عن حضارة الشرقيين. وكانت حجتهم الأساسية فى ذلك أن ما ظهر من عروض فى بلاد الشرق - قبل اليونان - كانت له طبيعة دينية، ولهذا فهم لا يعتبرونه من بين الفنون. فالفن عندهم يجب أن يكون دنيويا لا علاقة له بالدين.

يقول شيلدون شينى فى كتابه عن «المسرح: ثلاثة آلاف عام»، الصادر فى لندن ونيويورك عام ١٩٠٣:

«كان أوزوريس - المعبود المصرى الرئيسى، الملك الأسطورى المقدس - هو الشخصية الرئيسية لمسرحية دينية بها عناصر تشبه بوضوح تلك (المسرحيات الدينية) التى لا تزال تعرض فى القرن العشرين. وفى وثيقة يقدر أنها ترجع إلى ٢٠٠٠ ق.م. لدينا ملخص وصفى للاحتفال والدراما كما كانت تنفذ فى ذلك الوقت. وكان الهدف (من تقديم تلك الدراما) هو بالضبط نفس الهدف (من تقديم) المسرحيات الدينية الشهيرة عن أوبر - أميرجو وتيرولين (وهى مسرحيات دينية لازالت تقدم فى أوروبا حتى اليوم)... فى أنها جميعها خدمت أو تخدم فى إبقاء (قصة) معاناة وانتصار معبود (معين) حية بجلاء فى ذاكرة المؤمنين». (ص ٢٤)

أى أن المتفرجين والممثلين جميعا لم يكونوا يشاركون فى العرض المسرحى بسبب ترفيهى أو تثقيفى أو احتفالى، وإنما كانت أدوارهم جزءًا من طقوس العبادة، يؤدونها كنوع من أنواع الحج أو الصلاة. ويضرب شيلدون مثلا بالطقوس التى تتم سنويا فى مدينة النجف بالعراق، عندما يأتى إليها الآلاف من الحجاج الشيعيين للاشتراك فى طقوس تمثل مقتل الإمام الحسين، كمظهر من مظاهر العبادة وليس لسبب درامى. أما الخلفية التاريخية لظهور المسرحية المصرية فهى تشير إلى أن مولدها كان فى معبد أوزوريس، وأن أحداثها كانت تقوم حول مقتله وعودته إلى الحياة. والذى لا شك فيه أن عبادة أوزوريس كانت أهم العبادات التى عرفها المصريون القدماء، إذ أنها تتعلق بفكرة وجود عنصر روحى غير مرئى، إلى جانب العنصر الجسدى فى طبيعة الوجود الإنسانى. وهذه الفكرة كانت خاصة من خواص الاعتقادات المصرية القديمة، لم يعرفها أى من الشعوب قبلهم. ومن خلال قصة أوزوريس ظهر التعبير الدينى واللاهوتى لاعتقاد المصريين فى وجود عالم روحى أبدى، كما كانت هذه القصة كذلك هى الجوهر الرئيسى لتعبيراتهم الفنية والأدبية.

وينهى شيلدون تقريره الصغير عن المسرح المصرى القديم بقوله:

«ليست المسرحيات الواقعية التى قام الكهنة بتمثيلها والتى عرضت فى مهرجانات التتويج بمسرحيات درامية حقيقية، رغم أن الكتابة الهيروغليفية التى (توجد) على حوائط المعبد توحى (بوجود) بعض الحوار والتمثيل. وقد ذكر هيرودوت فى ٤٤٩ ق.م. مسرحيتين دينيتين (كانتا) موجودتين (فى عصره)، ولاحظ تأثيرهما على العبادات اليونانية (ذات الطبيعة) السرية»، مثل عبادة أورفيوس. وعلى هذا فبالرغم من العثور على نصوص مسرحية مصرية قديمة، وبالرغم من اعتراف الباحثين الآن بوجود عروض مسرحية فى مصر سابقة على ظهور الدراما اليونانية، إلا أنهم فى غالبيتهم يصممون على أن هذه الدراما كانت تمثل مسرحية دينية وليست مثل دراما اليونان. أى أنها كانت تقدم بقصد العبادة، وليس كشكل من أشكال النشاط الفنى والاجتماعى لمصر الفرعونية.

الحاجز الوهمى

تغير الوضع عندما أدرك بروك ضرورة كسر الحاجز الوهمى القائم بين جمهور المتفرجين وجماعة الممثلين، عن طريق إقامة العرض المسرحى فى نفس المكان الذى يجلس فيه المشاهدون، وليس فى مكان منفصل. اعتقد بروك أن على المسرح أن يحرر نفسه من القناعات الطبيعية أو الكلاسيكية، حيث يرى المسرح بمثابة خيال قادر على تقديم الحلم واللاوعى. يتكون بناء المسرح فى العصر الحديث من جزءين مختلفين، الخشبة والكواليس حيث يقوم الممثلون بأداء أدوارهم وقاعة المشاهدين فى الصالة والأدوار العليا. وبينما يقدم الممثلون عرضهم، يتلقى الجمهور ما يشاهده ويسمعه دون لقاء أو مشاركة بين الجانبين. أراد بروك كسر هذا الحاجز الوهمى، بأن يجمع كلا من الممثلين والجمهور فى مكان واحد، بل ويشجع مشاركة المشاهدين فى أداء العمل الدرامى. منذ أن أدرك بيتر بروك أن تركيبة المبنى الذى يقدم فيه الأعمال الدرامية، تقف عقبة فى سبيل التفاعل الذى يريد الوصول إليه بين الممثل والمشاهد، قرر المخرج - بعد وصوله إلى قمة النجاح عالميا - العودة إلى المعمل وإجراء التجارب، للتعرف على ما يمكن عمله لكسر الحاجز الوهمى بين الطرفين.

الاعتداء الثلاثى

دعانى بيتر بروك سنة ١٩٦٩ إلى الاشتراك بصفة متفرج فى آخر عمل قدمه بالمسرح المستدير The Round House، واقترح تقديم مسرحية سياسية عن الاعتداء الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ بحيث يشترك ثلاثة كتاب للدراما فى العمل، بريطانى وإسرائيلى ومصرى. وكانت الفكرة أن يقوم كل كاتب باختيار الشخصيات والمواقف التى تعبر عن وجهة نظره، فيقدم بحيث يصبح الصراع بين شخصيات الدراما صراعا بين الكتاب كذلك. وطلب منى بروك أن أشترك أنا بصفتى ممثلا للرأى المصرى فى الصراع. بالطبع كانت هذه فرصة العمر بالنسبة لشاب مصرى فى بداية الثلاثينيات، أن يشترك فى عمل درامى مع عملاق المسرح فى العالم كله. وكانت هذه فرصة لتقديم وجهة نظر مصرية - فى مواجهة وجهتى النظر البريطانية والإسرائيلية - بخصوص الاعتداء الثلاثى على مصر. كانت أول تجربة قام بها بروك لتقديم مسرح سياسى، هى US التى لها دلالتان: «الولايات المتحدة» و«نحن». تناقش المسرحية التى اشترك فى كتابة نصها عدة كتاب دراميين، قضية الحرب التى كانت دائرة فى فيتنام والمجازر البشرية التى تجرى يوميا على أرضها. وبعكس الكاتب والمخرج الألمانى الشهير برتولد بريخت، لم يحاول بروك تقديم رؤية سياسية محددة فى مسرحيته، واكتفى بتقديم عناصر الصراع المختلفة تاركا للجمهور الوصول إلى النتائج التى يراها. ■

عروض موجزة

كتب عربية

تاريخ الرسم الصحفى فى مصر

ناصر عراق

القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٢، ٢٤٨ صفحة



جاء نابليون إلى مصر فى ١٧٩٨ بجيش كبير قوامه ٣٦ ألف جندى وأيضًا بمطبعة و١٧٠ من العلماء فى مختلف التخصصات.

كان هدفه، أن يطبع منشورات تحمل أوامره إلى جنوده فى جميع أنحاء مصر فى اللحظة ذاتها، بالإضافة إلى طباعة بعض الكتب التى ألفها علماء الحملة، بينها كتاب لمدير المطبعة الذى عيَّنه نابليون «جان جوزيف مارسيل» عنوانه «وصايا لقمان الحكيم» فى ١٢٠ صفحة.

هذا الكتاب يتابع تاريخ الرسم الصحفى منذ هذه اللحظة، أى منذ عرفت مصر المطبعة.

ويلاحظ المؤلف أن منشورات الحملة لم تتضمن أية رسوم باستثناء الشعار الذى وضع فى رأس صفحة المنشور والذى يرمز إلى الثورة الفرنسية، وفى عهد مينو - ثالث قواد الحملة - الذى أعلن إسلامه وسمَّى نفسه عبدالله، وضع على رأس المنشور لوحة كتب عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» يحيط بها الهرم الأكبر ونخلة وبعض ما يرمز إلى الآثار المصرية القديمة، وكان هذا هو أول رسم يحمل خصوصية مصرية.

رحلت الحملة، وأخذ الغزاة معهم المطبعة، وبقيت مصر بلا مطبعة عشرين عامًا تقريبًا، حين أوفد محمد على «نيقولا مسابكى البيروتى» إلى إيطاليا فى العام ١٨١٥ مع ثلاثة من الصبية لتعلم فن سبك الحروف، وهو التقليد الذى حرص عليه «الباشا الكبير» فى كل بعثة علمية أرسلها.

بعد ٤ سنوات عاد «مسابكى» أفندى من بعثته وشرع فى تأسيس أول مطبعة فى مصر وهى مطبعة بولاق أو مطبعة صاحب السعادة التى افتتحت فى عام ١٨٢٠. وصدرت عنها كتب لتعليم فنون القتال، كما صدرت عنها فى عام ١٨٢٨ جريدة «الوقائع المصرية». وقد احتوت صفحتها الأولى رسمًا «لأصيص ورد» يرجح المؤلف أن يكون مبدعه فرنسيا.

بعد ذلك تطور شعار الوقائع دون عناية حقيقية بالرسوم، ومع التغيرات التى شهدتها مصر فى عهد الخديوى إسماعيل انتعشت الصحف الأهلية، وظهرت «نزهة الأفكار» فى عام ١٨٦٩ لصاحبيها إبراهيم المويلحى وعثمان جلال، لكن الخديوى سرعان ما أغلقها لجرأتها، لكن سيل الصحف لم يتوقف فظهرت: الوطن، مصر، التجارة، الأخبار، الكوكب الشرقى والأهرام.. لكنها جميعًا لم تولِ اهتمامًا كبيرًا للرسوم، وكانت الإعلانات هى صاحبة الفضل فى شيوع الرسوم فى الصحافة المصرية.

وكان إنشاء مدرسة الفنون فى عام ١٩٠٨ بداية حقيقية لتخريج دفعات من الفنانين الدارسين الذين استوعبت طاقاتهم المتفجرة صحف تلك الفترة، وحيث أصدر سليمان فوزى «الكشكول» زيَّنها بإبداعات أربعة من الرواد هم محمود مختار ومحمد حسن وراغب عياد وأحمد صبرى.

أما اللطائف المصورة عام ١٩١٥ لصاحبها إسكندر مكاريوس، فكانت تنشر رسومًا تحاكى الواقع وأخرى كاريكاتورية، لكنها اعتمدت على رسوم تظهر فى الصحف الأوروبية، يتم تحويل كلماتها الأفرنجية إلى شروح بالعربية.

ويشير المؤلف إلى اكتشاف مهم هو الفنان الموهوب إيهاب خلوصى الذى رسم فى عدد كبير من صحف ومجلات تلك الفترة، وكانت رسومه فى اللطائف المصورة معبرة عن قضايا سياسية واجتماعية بخطوط واثقة وتعبيرات جادة.

ويُعد عام ١٩٢٥ فارقًا فى تاريخ الصحافة المصرية عمومًا، وفى الرسم الصحفى على وجه الخصوص، ففى هذا العام صدر العدد الأول من «روزاليوسف»، وكان غلافها الأول صورة لفتاة جميلة، ووعدت المجلة قراءها بأنها ستوالى نشر روائع فن التصوير فى مختلف العصور.

ومع روزاليوسف لمعت أسماء «صاروخان» الذى كان يرسم صورة الغلاف الكاريكاتيرية منذ ٣ مارس سنة ١٩٢٨، وكان هذا الفنان الأرمنى هو أول فنان يبتكر شخصية نمطية كاريكاتيرية تعبِّر عن المزاج العام للشعب المصرى وهى شخصية «المصرى افندى»، وقد ظهرت على غلاف روزاليوسف فى مارس سنة ١٩٣٢.

ودفع نجاح الصحافة الفكاهية خصوصًا «اللطائف المصورة» و«روزاليوسف» و«دار الهلال» إلى أن تصدر مجلة فكاهية هى مجلة «الفكاهة» سنة ١٩٢٦ وبرزت فيها أسماء لفنانين اختفوا من الساحة الصحافية بعد ذلك من أمثال فتحى وغزالة ورمزى.

وكانت البعكوكة هى أوسع المجلات الفكاهية انتشارًا، واعتمدت كثيرًا على الرسوم التعبيرية والكاريكاتيرية، وبعد الحرب العالمية الثانية ظهر العدد الأول من مجلة «السندباد» وكان رسامها الأول الفنان حسين بيكار الذى استفادت من موهبته مجلة «آخر ساعة» وبعدها جريدة «الأخبار»، إذ كانت رسومه مصاحبة للقصائد والتحقيقات.

وجاءت صباح الخير (١٢ يناير سنة ١٩٥٦) قنبلة فى هذا المجال، فكانت هى المجلة الوحيدة التى منحت الرسوم التوضيحية والكاريكاتير أكبر نصيب ممكن فى تاريخ الصحافة المصرية، وعلى صفحاتها طالع القراء رسوم زهدى وصلاح جاهين وبهجت عثمان وصلاح الليثى وحجازى ورءوف وجمال كامل وهبة عنايت وعبدالعال وجمعة وكوكبة رائعة من فنانى الكاريكاتير الموهوبين.

ويخصص المؤلف فصلاً (سريعًا) لكاريكاتير صحافة المعارضة، وتحت عنوان أعلام خالدة يكتب بعض ممن «يحب» من فنانى الكاريكاتير والرسَّامين المصريين.

□ □ □

ذاكرة للشعر

جابر عصفور

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢، ٤٩٠ صفحة



تتأرجح الذاكرة النقدية بين نقيضين: الذاتية الخالصة التى تستجيب للانفعالات الشخصية العاطفية وتحيل العمل النقدى إلى انطباعات مطلقة، والموضوعية الآلية التى تقترن بنزعة تجريبية بحتة، تزعم حيادًا مطلقًا وتجردًا خالصًا، ما يجعلها تبدو وكأنها تعمل وفق قوانين منطقية صارمة.

والمؤلف يرى أن هذين النقيضين انقضى عهدهما، وأصبح المسيطر على التيارات النقدية فى صيغتها المعاصرة هو نزعة الموضوعية النسبية، تلك التى لا تتجاهل العوامل الذاتية ولا تنفيها، وتضع فى الوقت نفسه «المقاربات الموضوعية موضع المساءلة بما يحررها من أسر القيود الأيديولوجية التى لا تكف عن تزييف الوعى فى كل ما يراه حقائق أو ظواهر موضوعية».

هذه واحدة من المقدمات النقدية المهمة التى يقدمها لنا المؤلف. المقدمة الثانية تتعلق بما بات يُعرف فى النقد المعاصر بظاهرة «التناص»، والتى تم تعريفها بشكل مبسط بأنها اقتباس من نص ما أو نسج على نوله، لكن المؤلف يعرفه لنا بوصفه «فسيفساء من الاقتباسات والإيماءات والشفرات والإشارات التى تضعه فى موضعه الذى يحدد هويته الخلافية حتى فى أحوال متشابهة مع غيره. وداخل الشبكة الهائلة التى لا حدود لها من النصوص الإبداعية وغير الإبداعية».

هكذا يمكن فهم النصوص التى تحاكى أخرى من الجنس الأدبى ذاته أو من غيره، وبعضها «يتناص» مع إبداعات فى لغات أخرى، وبعضها «يتناص» مع نصوص مقدسة سماوية وغير سماوية.

وقد تعرض المؤلف للتناص فى مناسبة دراسته عن شعر الإحياء، إذ يشير إلى مسافة كبيرة بين التناص والإحياء، إذ يعتمد الأول على التذكر ويبدأ من الذاكرة لكنه يتجاوزها، أما الإحياء فهو ذاكرة استرجاعية تعلق اللاحق على السابق وتحتذيه بهدف إصلاحه وتنقيحه والإضافة إليه بما هو من جنسه.

ومن الإحياء إلى «تجليات الوجدان» فى المدرسة الرومانسية العربية التى ولدت مع «أبولو» والتى وجدت تعبيراتها فى أشعار إبراهيم ناجى ومحمود حسن إسماعيل وأبوالقاسم الشابى ويوسف بشير التيجانى، والتى مهدت لظهورها مدرسة الديوان برموزها: العقاد والمازنى وشكرى.. والتى هزت ثوابت الإحياء.

ويقدم المؤلف بعد ذلك دراسات أكثر عمقًا لبعض رموز الرومانسية مثل محمود حسن اسماعيل وأبوالقاسم الشابى، وفى كليهما - خصوصًا الشابى - يتجلى ما عرَّفه بـ«الموضوعية النسبية»، إذ لا تغيب عن قراءته للشابى متابعته لحياته والأطوار التى عبرها ومعاناته مع المرض والحب وكثير مما لا نعرفه.

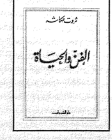
ثم يواصل المؤلف قراءاته المتعمقة لرموز هذا التيار الشعرى المهم ومنهم أحمد عبدالمعطى حجازى وعبدالوهاب البياتى وصلاح عبدالصبور، وأخيرًا حبة العنقود الفتية الساحرة الشاعر أمل دنقل الذى يخصص له المؤلف ما يقرب من ثلث الكتاب، فضلاً عن أن الكتاب كله مُهدى إليه فى ذكراه التاسعة عشرة، وفى دراسته المتعمقة عن أمل دنقل يحضر الذاتى والموضوعى وتطل الذكريات ويتشابك السياسى بالشعرى بالإنسانى فى تضافر حميم هو ثمرة للعلاقة التى جمعت بين الصديقين سنوات طوالا.

□ □ □

الفن والحياة

ثروت عكاشة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ٦٦ صفحة



نذر المؤلف - وهو صاحب أهم الإنجازات فى تاريخ الثقافة المصرية منذ

عروض موجزة

شغل منصب وزير الثقافة في حكومة الثورة - حياته للفن والثقافة. ومطالعة مؤلفاته وترجماته ودراساته تكشف عن هذا الميل، فهو يرى الفن «ضرورة من ضرورات الحياة. شأنه شأن الخبز سواء بسواء، بل قد يكون أوجب للحياة من الخبز نفسه».

هذا الكتاب على صغر حجمه، يلخص رؤية صاحبه في علاقة الفن بالحياة. فالحضارة فيما يرى، ليست فيما انتهت إليه من وسائل تكنولوجية والكترونية، فهذه الوسائل هدفها أن تتيح للإنسان أن يُبدع في يسر، وتلمس الحضارة لا يجده الإنسان إلا فيما خلف من الآثار الفنية.

ويرى المؤلف الرباط وثيقًا بين الفن والأخلاق، وكلاهما نشأ من الإحساس بالإجادة، «فلا جمال إلا عن إجادة ولا إجادة إلا وغايتها إلى جمال».

ويشير إلى ما تنبهت إليه الكنيسة قديمًا من أثر الفن في النفوس، فأمسكت بزمامه في يدها، وفرضت على الفنانين رقابة صارمة مخافة أن يصدر عنهم ما يشكك الناس في العقيدة أو ينحرف بهم عن طريق الدين القويم، خصوصًا بعدما تعرضت له الكنيسة الكاثوليكية من تداعٍ إثر دعوات الإصلاح الديني التي تزعمها مارتن لوثر كنج.

وانعكس ذلك على النتاج الفني في عصر «الباروك» الذي هجر ما شدَّد عليه أسلوب عصر النهضة الذي نادى بتحكيم العقل في تحديد أثر العمل الفني، والجنوح أكثر إلى الإبهار بهدف تضليل العقل وإغراقه في بحار الوهم والغيبيات.

وما خشيته الكنيسة من انطلاق الفن بلا ضابط، هو ما خشيه نفر من المسلمين فحالوا دون انطلاق الفن انطلاقته الحرة، ما جعل الفن الإسلامي قرونًا عدة مقصورًا على الزخرفة، وهو ما أنتج أروع ما يؤثر من فن الأرابيسك الذي غدا فنًا إسلاميًا أصيلاً.

الفنون كما رآها أرسطو بحق بقيت وسيلة للتطهر، والفنان سواء كان معبرًا عن روح الجماعة أو عن ذاته وآلامه وأحلامه، هو ابن زمنه وتقلباته التي تظهر في إبداعه، وبهذا المعنى فإن فن عصر من العصور هو تعبير عن المظاهر الاجتماعية والاقتصادية التي سادت ذلك العصر، وكثيرًا ما تتلاقى الفنون ليكمل أحدهما الآخر، وربما تكون السينما في صورتها المثلى هي التعبير الأمثل عن وحدة الفنون.

أما دراسة العمل الفني كما يراه المؤلف فينبغي أن تنبني على نظرتين: نظرة إلى العمل الفني نفسه على أساس أنه وحدة قائمة بذاتها، ونظرة أخرى إليه باعتباره جزءًا من التاريخ العام. وهو ما يجعل الفنان أو المثقف رائدًا من رواد التغيير في مجتمعه، بما يربطه بالسياسة شاء أم أبى، والفنان كما يراه المؤلف فيلسوف سياسي، وهو ما ينتبه إليه من يطالع لوحة «الجرنيكا» لبيكاسو، أو من يستمع إلى نشيد «الله أكبر» لمحمود الشريف. وهما مثالان دالان تمامًا يوردهما المؤلف.

أما الالتزام في الفن، فلا يعني التقيد داخل حدود بعينها، إنما يعني الإيمان بعقيدة متحررة تنطلق بصاحبها نحو آفاق فسيحة، والغاية في نهاية الأمر ليس توفير مستوى رفيع من المتع الفنية تتمتع بها طبقة بعينها، وإنما «تحقيق أكبر قدر من التكافؤ العقلاني والوجداني بين جميع طبقات الأمة (...) ولن يتحقق هذا التكافؤ إلا بإشاعة قسط متقارب من المعارف وإشاعة قدر مشترك من تذوق الفنون بين فئات المجتمع.

ويتعرض المؤلف في الختام للعلاقة بين الفنون والتراث من ناحية، وبينها وبين التطورات المعاصرة من ناحية ثانية، وينتهي إلى الصيغة التوفيقية التي لا تنفي التراث لصلحة الحضارة المعاصرة أو العكس، مرددًا قول أنتيجونا أميرة طيبة في مأساة أوديب ملكًا لسوفوكليس: «لم أخرج إلى هذا الوجود لأشاركه حقدًا وضغينة بل لأشاركه ودًا ومحبة».

□ □ □

الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان

عبدالوهاب المسيري

دمشق: بيروت، دار الفكر ٢٠٠٢، ٢٤٠ صفحة



تشكل الفلسفة المادية البنية التحتية لعديد من الفلسفات الحديثة، من بينها: الماركسية والبرجماتية والداروينية، والمؤلف يبدأ دراساته بدراسة تمهيدية عن طبيعة الفلسفة المادية التي يرى أنها تتسم ببعض الصفات، منها الإيمان بوحدة الطبيعة، والإيمان بقوانين العلة والمعلول، وبأن هذه الطبيعة تتحرك بشكل تلقائي وأن لا غاية من هذا العالم المادي، ولا وجود لغيبيات تتجاوز النظام الطبيعي.

وفي الفلسفة المادية، فإن المادة تسبق العقل والأخلاق معًا، فوجود العقل ليس ضروريًا لاستمرار حركة المادة في العالم، كما أن منطق الحاجة الطبيعية هو الذي يتحكم في الأخلاق، وعبر عديد من الاستشهادات يؤكد المؤلف أن النموذج المادي فشل تمامًا في تفسير ظاهرة الإنسان. ويميز بين العقل المادي والعقل النقدي والعقل الأداتي، ويوجه انتقادات عدة لكل منهم، فالعقل المادي عاجز عن التعامل مع الواقع بالتجاوز المطلوب وصولاً إلى الكليات، وهو غير قادر على إصدار الأحكام والتمييز بين ما هو أخلاقي وغير أخلاقي، بين الجميل والقبيح، وهو عقل معاد للتاريخ لأنه يدور في إطار الطبيعة / المادة، وهي بنية إنسانية تجاوزها التاريخ، وهو يجرد الإنسان من خصوصيته وفرادته ولا يراه سوى كم محض ويختزله في صيغ كمية رياضية بسيطة، وهو لا يدرك القداسة ولا يعرف الحرمات والمحرمات، وهو عنصري يسقط مفهوم الإنسانية المشتركة، هو عقل تفكيكي عدمي عاجز عن إنتاج النظريات الشاملة والتوصل للحقيقة الكلية، وهو في الإجمال عقل إمبريالي لا يلتزم بأية مقاييس أخلاقية وينكر الإنسانية تمامًا، أما العقل الأداتي (الإجرائي) فينظر إلى الواقع من منظور التماثل ولا يهتم بالخصوصية، وهو يفتت الواقع إلى أجزاء غير مترابطة دون أن تكون لديه القدرة على إعادة تركيبه، وهو ينظر إلى الإنسان باعتباره جزءًا يشبه الأجزاء الطبيعية الأخرى، وهو ينظر إلى الطبيعة والإنسان معًا بوصفهما مادة استعمالية يمكن توظيفها لخدمة أي هدف، وهو عقل ذاتي يرى الهدف النهائي من الوجود هو الحفاظ على بقاء الذات وهيمنتها وتفوقها.

وبهذه السمات يسقط العقل الأداتي تمامًا في اللازمنية واللاتاريخية، لعجزه عن إدراك العمليات الاجتماعية والسياسية والتاريخية في سياقها الشامل، وبسبب تلك السمات فإن العقل الأداتي قادر على شيء واحد فقط هو قبول الأمر الواقع والتكيف معه، بما يعني كبح أية نزعات إبداعية تتجاوز المألوف، أي أنه عقل ينفي الحرية تمامًا.

وفي مقابل العقل الأداتي هناك العقل النقدي، وهو ما لا يقنع بإدراك الجزئيات المباشرة، بل يدرك الحقائق الكلية والغاية من الوجود الإنساني ويتعرف على إمكانات الإنسان ودوافعه، وهو بهذا المعنى عقل متجاوز لا يذعن لما هو قائم ويتقبله على علاته وإنما يمكنه القيام بجهد نقدي تجاه الأفكار والممارسات والعلاقات السائدة، أي إحداث توازن بين الذات والموضوع، وبهذا المعنى فإن العقل النقدي يحقق حرية الإنسان ويكتشف قدراته، ويمكّنه من تجاوز ما هو قائم.

ويرى المؤلف أن الترجمة الواضحة في التاريخ للمادية تجسدها تمامًا الداروينية الاجتماعية والعلمانية الإمبريالية الشاملة، ويفرد لهما فصلين يلخص فيهما الأطروحات الأساسية لكل منهما وتأثيراتهما على عصرنا الحديث، ويميز في العلمانية الإمبريالية بين ثلاث لحظات يراها أقل عمومية وأصدق تعبيرًا عن العلمانية الشاملة، وهي اللحظة التايلاندية التي يظهر فيها الإنسان الجسماني (البغاء وتجارة الجسد)، واللحظة السنغافورية التي يظهر فيها الإنسان الاقتصادي، واللحظة النازية والصهيونية التي يظهر فيها الإنسان الطبيعي المادي، أي الإنسان كمادة محضة.

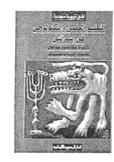
ويحلل المؤلف في الفصلين الأخيرين مظاهر عديدة للعنصرية الغربية في عصر ما بعد الحداثة، وللعلاقة بين المادة والإبادة بهدف تفكيك الإنسان، وتحول هذه الإمكانية الإبادية إلى حقيقة تاريخية.

□ □ □

التعليم العلمي والتكنولوجي في إسرائيل

صفا محمود عبدالعال

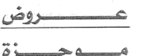
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢، ٤٦٠ صفحة



يحدد الكتاب المخاطر والتحديات الإسرائيلية، وعبر ستة فصول تقدم المؤلفة التركيب البنيوي للعلم والتكنولوجيا في إسرائيل قبل وبعد قيام الدولة، والقدرات المؤسسية لبرامج البحث والتطوير الإسرائيلية الحكومية وغير الحكومية، ومجالات البحوث الاستراتيجية العلمية والتكنولوجية، وفلسفة ومسارات التعليم التكنولوجي وتنوعها، وجامعات التعليم العلمي البحثي، وجامعات التعليم التكنولوجي والنووي.

ويطرح الكتاب العديد من الأسئلة، إضافة إلى أنه يصدم القارئ العربي بكم غير عادي من الحقائق عن واقع الدولة العبرية.. ماذا فعل العلماء الذين تدفقوا مهاجرين إلى إسرائيل من دول الشمال شرقًا وغربًا وبخاصة العلماء الذين حملوا إليها خبرات المجتمعات التي أتوا منها، كيف تم تطوير علوم الفضاء والهندسة الوراثية والمعلومات والاتصال داخل إسرائيل، كيف دعمت إسرائيل علاقاتها مع دول العالم المتقدم مما أدى إلى تسريع وتقدم بنيتها العلمية والتكنولوجية، كيف أتيح لإسرائيل ما لم يتح لأية دولة أخرى في عالمنا المعاصر من التسريب والسطو والتجسس العلمي والتكنولوجي، بماذا يفيد العلماء اليهود المنتشرون في العالم الكيان الصهيوني، هل يعرف العرب السياسات والملامح والتفاصيل عن المنظومة المؤسسية لقاعدة العلم والتكنولوجيا في إسرائيل.

لماذا أصبحت إسرائيل قوة إنتاج علمي ودولة مصدرة للإنجازات العلمية التقنية. فإسرائيل زادت صادراتها من المنتجات الإلكترونية من حوالي مليار دولار عام ١٩٨٦ إلى حوالي ٦ مليارات دولار عام ١٩٩٩.



هل يعرف العرب أن نصيب الفرد العربي في سن التعليم من الناتج القومي الإجمالي حوالي (٣٤٠) دولارًا ويصل في الدول الخليجية (١٣٠٠) دولار مقابل حوالي (٢٥٠٠) دولار في إسرائيل(!) وأن نسبة العلماء والتقنيين في إسرائيل بلغت (٧٦) لكل عشرة آلاف شخص عام ٢٠٠٠(!) وأن حجم الإنفاق العسكري الإسرائيلي عام ١٩٩٧ يبلغ حوالي ١٠٪ من إجمالي ناتجها القومي الذي يبلغ في العام نفسه (٨٧,٦) مليار دولار، وبلغ نصيب الفرد من هذا الناتج القومي الإجمالي (١٥٨١٠) دولارات، وأن صناعة الماس في إسرائيل تجاوزت (٤) مليارات دولار سنة ١٩٩٥ حيث أنتجت ٨٠٪ من الإنتاج العالمي من الحجر المصقول.

الكتاب يؤكد أن إسرائيل تسعى نحو إعداد برمجيات تعليمية وتسويقها في المنطقة العربية، بهدف تذويب العالم العربي وتفكيكه بحيث لا تقوم للقومية العربية قائمة. وتتساءل المؤلفة في الختام: هل نترك لإسرائيل احتكار العلم والتكنولوجيا الذي يمكن اعتباره من إنجازات حرب الكواكب، بما يترتب على هذا الاحتكار من سيطرة اقتصادية وعسكرية إلى الأبد.

□ □ □

أساتذتي لنجيب محفوظ

إعداد وتقديم: إبراهيم عبدالعزيز
القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٢، ٢٤٨ صفحة



كانت كلمات نجيب محفوظ الأولى عقب فوزه بجائزة نوبل في الآداب عام ١٩٨٨ اعترافًا بفضل سابقيه ومعاصريه عليه، وبتواضعه الجم أهدى الجائزة إلى طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وسلامة موسى وحسين فوزي، وحين سُئل عمن يرشحه للفوز بهذه الجائزة اختار يحيى حقي.

المؤلف يطوف بنا عبر حوارات متصلة مع نجيب محفوظ على أساتذته الذين أسهموا في تكوينه الأدبي والعقلي ويبدأ بصاحب القنديل فيقول عنه: «إن يحيى حقي يمثل كتابًا خاصًا للسلوكيات الحافلة، بل القيم والمعاني الإنسانية النبيلة، فضلاً عن أنه كان معلمًا لكل المبدعين وأبًا لكل الأدباء».

وقد اقترب محفوظ من حقي كثيرًا حين عمل مديرًا لمكتبه ٤ سنوات (من ١٩٥٥-١٩٥٩) حين كان يحيى حقي مديرًا لمصلحة الفنون، وتواصلت بينهما حوارات فكرية وأدبية كان لها أكبر الأثر في تعميق نزعة الالتزام وعشق الأسلوب لدى نجيب محفوظ، أما توفيق الحكيم، فبنزعته الفنية ورهافته التي سعت إلى الاستفادة من كل التيارات والمذاهب الفنية الغربية، كان معلمًا ورائدًا - وصديقًا حميمًا فيما بعد - لنجيب محفوظ، وحين سُئل محفوظ بعد وفاة الحكيم عما تبقى منه أجاب: السؤال على هذا النحو ليس صحيحًا، السؤال هو: ماذا لم يتبق من أدب توفيق الحكيم، لأن مؤلفاته كلها مرشحة للبقاء، والفراغ الذي تركه.

وبرغم الإعجاب الشديد الذي يبديه نجيب محفوظ بالعقاد - حتى إنه يقول العقاد هو الحرية - فإن علاقتهما ظلت على الورق لا أكثر، فلم يسع محفوظ أبدًا إلى لقائه ولا العقاد فعل، لكن نجيب محفوظ يقول عنه: لقد أحببت في العقاد فكره وموقفه وموسوعيته وكبرياءه، وكرهت فيه استسلامه للغضب.

وبحسب تعبير نجيب محفوظ، فقد رفع طه حسين روحه المعنوية حين كتب نقدًا عن رواية «زقاق المدق» ثم «بين القصرين» بعد ذلك بسنوات من الاهتمام النقدي الذي أبداه أنور المعداوي وسيد قطب بروايات نجيب محفوظ، واستمرت العلاقات بينهما كأحسن ما يكون، يقول عنه محفوظ: لقد كان رجلاً عظيمًا مضيئًا في شخصيته وفي إبداعاته ككاتب متعدد المواهب، وقال طه حسين عن نجيب محفوظ في واحدة من مقالاته النقدية: «لست أعرف أصدق منه تصويرًا لحياة الشعب المصري (...) يكتب بلغة فصيحة ترتقي بقصصه إلى منازل الشعر الرفيع، دون أن يشق على قارئ أو سامع في شيء مما يكتب أو يقول».

وإلى جانب المناصب التي تولاها الشيخ مصطفى عبدالرازق شيخًا للأزهر ووزيرًا للأوقاف وأستاذًا للفلسفة، كان مصطفى عبدالرازق أديبًا ومتذوقًا للفن والطرب، وقد قرب ذلك كثيرًا بينه وبين نجيب محفوظ.

أما السندباد «حسين فوزي» فقد قارب بينه وبين نجيب محفوظ عشق الأخير للموسيقى الكلاسيكية العالمية والموسيقى الشرقية، وكان برنامج حسين فوزي الذي استمر يقدمه لسنوات في إذاعة البرنامج الثقافي أحد البرامج التي يحرص عليها محفوظ في الإذاعة المصرية، فضلاً عن اهتمامات السندباد الأدبية الرفيعة، ويسمي نجيب محفوظ أستاذه سلامة موسى «رائد الفكر الاجتماعي» ويقول عنه: استحق سلامة موسى بأفكاره التي سبقت عصره أن يضع لحياته عنوانًا هو «رجل المستقبل».

هؤلاء «بعض» أساتذة نجيب محفوظ الذين يضمهم الكتاب بين دفتيه، وإن كان محفوظ يؤكد دومًا أنه مدين للشعب المصري بكل طبقاته وفئاته، الذين من بينهم نبعت أفكار رواياته وتجسدت شخوصها.

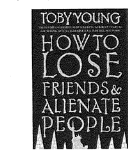
□ □ □

كتب أجنبية

How to Lose Friends and Alienate People

(كيف تخسر الأصدقاء وتنفر الناس منك)

Toby Young
Abacus, 352PP, £ 6.99, 2002



في عام ١٩٩٥ اختار الصحفي البريطاني توبي يونج مؤلف هذا الكتاب أن يترك وظيفته المهمة في بريطانيا وهي رئاسة تحرير مجلة «مودرن ريفيو» من أجل العمل في مجلة «فانتي فير» الأمريكية البراقة التي تهتم بالموضة والمشاهير ونجوم المجتمع. وتوقع يونج أن يخوض في عالم جديد يحقق فيه ذاته. وكان يطمح في أن يترك بصمته في هذا العالم البراق والجذاب. إلا أن هذا الكتاب يصور الإحباطات وسلسلة الفشل التي عاناها وذلك في إطار لم يخل من السخرية اللاذعة من نفسه وممن حوله.

لقد فوجئ المؤلف أن زملاءه الصحفيين في مجلة «فانتي فير» يفتقدون لمحة السخرية ويأخذون عملهم بشكل جاد للغاية. ويتساءل: ألا يدرك هؤلاء الصحفيون أنهم يعملون في مجال يمكن وصفه بأنه شبكة من النميمة. إن المؤلف يحكي كيف لم يستطع التأقلم مع هذا الجو الجديد وزادت الأمور سوءًا عندما بدأ مستقبله نفسه في المجلة يتعرض للخطر، فبعد أن كان يحصل على مرتب سنوي عال قدره ٨٠ ألف دولار، انخفض هذا المرتب بشكل حاد ثم تحول المؤلف إلى العمل كصحفي بالقطعة.

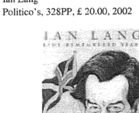
إن الخلاصة التي يخرج بها قارئ الكتاب هي أن الإنجاز الذي حققه المؤلف في عمله الجديد هو الفشل، لكنه يواجه ذلك بهدوء بل بسخرية.. مشيرًا إلى أن بعضًا من أسباب هذا الفشل يكمن في شخصيته هو. وعلى سبيل المثال فإنه كان حادًا بل ربما عدوانيًا مع محاوريه وهو يقول أنه نجح في إهانة محاوريه بعد دقيقة واحدة من بدء الحوارات، كما أنه لم يأخذ أبدًا مجلة «فانتي فير» مأخذ الجد. وبالطبع لا يخلو الكتاب من الحديث عن عالم نيويورك الصحفي والنجاحات والإخفاقات التي حققها صحفيون بريطانيون قدموا إلى العالم الجديد للعمل هناك.

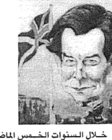
□ □ □

Blue Remembered Years.. A Political Memoir

(مذكرات سياسية)

Ian Lang
Politico's, 328PP, £ 20.00, 2002





خلال السنوات الخمس الماضية أصدر معظم أعضاء الحكومة البريطانية المحافظة السابقة مذكراتهم.

فبعد هزيمة حزب المحافظين التاريخية في أول مايو عام ١٩٩٧، خرج للعلن، من خلال تلك المذكرات كل ما كانت الصحف ووسائل الإعلام البريطانية تحاول أن تكشف عنه من خلافات وانقسامات بين كبار زعماء الحزب في سنواته الأخيرة في الحكم. ولأن المذكرات السياسية، علاوة على أنها مربحة ماليًا، تعد شهادة هذا السياسي أو ذاك للتاريخ فإن الكل تقريبًا يحرص على أن يقدمها للقارئ وللباحث وللتاريخ. وفي المجتمعات الديمقراطية المفتوحة يشعر السياسي بأنه من الواجب عليه أن يقول كلمته.

وأحدث المذكرات التي صدرت على الساحة البريطانية هي للسياسي البريطاني المحافظ إيان لانج وزير شئون اسكتلندا ووزير الصناعة والتجارة الأسبق في عهد حكومة جون ميجور.

وكان يتمتع بثقة ميجور، ولذلك فلا عجب أن ميجور كتب مقدمة للكتاب يقول فيها: في زمن أقل ابتذالاً كان إيان لانج سيصبح رئيسًا للوزراء.

وأهم ما في الكتاب حديث المؤلف عن السنوات الأخيرة في حكم المحافظين وتحديدًا منذ الإطاحة بمارجريت تاتشر رئيسة الوزراء السابقة على أيدي بقية زعماء الحزب وتحالف لانج مع ميجور ثم ارتقاء لانج في المناصب.. لكن من الأمور التي ستبقى في تاريخ لانج والتي يعتبرها بعض السياسيين خاصة من اليساريين سبة في جبينه هي دفاعه المستميت عن أخطاء حكومته في مسألة بيعها أسلحة للعراق رغم أن الأمم المتحدة فرضت حظرًا على ذلك.

يومها قرر تقرير سكوت الذي ناقش القضية أن هناك انتهاكًا حدث لكن لانج رد بأن الحكومة المحافظة لم تفعل شيئًا خطأ وأنه لا داعي لاستقالة أحد.

وقد كان ذلك من بين أسباب الإطاحة بالحكومة في الانتخابات بعد أقل من عامين.

□ □ □

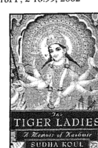
عـروض موجـزة

The Tiger Ladies
AMemoir of Kashmir

(السيدات النمرات: مذكرات كشمير)

Sudha Koul

Review,218PP, £ 10.99, 2002



يعرف العالم عن كشمير أمرين: الأول أنها كانت جنة الله على الأرض، فقد منحها الله طبيعة شديدة الروعة والجمال تغنَّى بها الشعراء والرحالة الأجانب والإنسان العادى، والأمر الثانى أنها ومنذ سنوات طويلة مسرح لصراع عنيف ومسلح بين الجماعات التى تطالب بالانفصال والانضمام إلى باكستان وبين القوات المسلحة الهندية وسقط نتيجة لهذا الصراع آلاف الأشخاص ولا يبدو فى الأفق أن هذا الصراع بسبيله إلى الحل.

ومؤلفة هذا الكتاب من الهندوس الذين يشكلون الغالبية فى الهند ككل لكنهم أقلية فى كشمير ذات الأغلبية المسلمة، ولذلك فإن الآراء الواردة فى الكتاب لابد أن تكون بشكل أو بآخر منحازة لوجهة النظر الهندية خاصة أن الحديث يدور عن فترة الصراع.

ولدت المؤلفة عام ١٩٤٧ أى فى السنة التى حصلت فيها الهند وباكستان على استقلالهما وكانت تنتمى لأسرة من الطبقة العليا الهندوسية، وتلقت تعليمها الأولى على أيدى راهبات أيرلنديات وعاشت شبابها بشكل مختلف عن شباب العالم، فبينما كان الشباب فى باريس يتظاهرون ويناهضون نظام الحكم فى أواخر الستينيات كانت المؤلفة تقوم بثورة صغيرة ألا وهى رفض الزوج الذى اختارته لها أسرتها. وبدلاً من الزواج اختارت أن تتوجه إلى دلهى لإكمال دراستها وتزوجت من كشميرى تبعته بعد ذلك إلى أمريكا ليكوِّنا هناك أسرة صغيرة بعيدًا عن صراع كشمير، وتصر المؤلفة على أن الهندوس والمسلمين كانوا يعيشون فى وئام خلال طفولتها وكانت الخلافات الدينية مسألة ثانوية. ثم تتساءل: لماذا حدث ما حدث؟ ولا يخالج المؤلفة شك فى أن كشمير تحولت إلى كابوس لأن مسلمين من خارجها أرادوا تسميم عقول المسلمين داخلها سواء كان هؤلاء من أفغانستان أو باكستان.

ولا تحاول المؤلفة أن تتوسع قليلاً فى تلك القضية فكل هدفها كما تقول هو الإمساك باللحظة التى كانت فيها كشمير تعيش فى وئام بين مسلميها وهندوسها. إن الكتاب أشبه ما يكون بنداء لعودة كشمير الجميلة، ولأن المؤلفة تنتهج أسلوبًا أدبيًا فإنها لا يهمها كيف يتم ذلك.. هل بتقرير مصير الإقليم أم ماذا؟ المهم أن تعود كشمير جميلة كما كانت.

□ □ □

SLANDER
Liberal lies About the American Right

تشويه

(أكاذيب ليبرالية حول اليمين الأمريكى)

Ann Coulter

Cromn Publishers, 256PP, $ 25.95, 2002



مؤلفة هذا الكتاب وتدعى آن كولتر محامية وقد اتبعت طريق المحاماة فى كتابها فحشدت مئات الوثائق والبيانات دفاعًا عن اليمين الأمريكى وهجومًا على اليساريين الذين يسمون ليبراليين فى الولايات المتحدة.

وتقول أنه بينما كان من المفروض إجراء مناقشة واقعية للأفكار والقضايا التى يطرحها اليمين، فإن الأمر تحول إلى حملة تشويه وقذف فى حقه من جانب الليبراليين، وكما لو كانت تكرر مقولة لماذا يكرهوننا؟ تشن المؤلفة هجمات شديدة على اليسار الأمريكى الذى لا هم له سوى انتقاد وتشويه آراء اليمين وتضليل الأمريكيين بل إنها تقول إن «الإرهابيين» الإسلاميين لا يكرهون أمريكا كما يكرهها الليبراليون «إن هؤلاء الإرهابيين ليست لديهم الطاقة التى لدى الليبراليين فى الهجوم على كل ما هو أمريكى».

ولا تنسى المؤلفة أن تخلع القفاز وتشن هجومًا على الأصوات الليبرالية وتعتبر صحيفة «نيويورك تايمز» هدفها المفضل وتنتقد ما تعتبره دعايات سخيفة من جانب الليبراليين مثل ريجان كان وحشيًا وأن كوبا لديها نظام صحى ممتاز وأن آل جور فاز فى الانتخابات الرئاسية الماضية رغم أن جورج بوش الابن أصبح رئيسًا، وأيضاً إن بيل كلينتون هو ألفيس بريسلى الزمن الحالى.

إن هذا الكتاب يأتى فى وقت يسيطر فيه اليمين على الإدارة الأمريكية، فالصقور فى تلك الإدارة سواء نائب الرئيس ديك تشينى أو وزير الدفاع دونالد رامسفيلد أو نائبه وولفوتيز لا يخفون أنهم من اليمين. والعالم كله يشهد حاليًا تنفيذ سياسات هذا اليمين الأمريكى الذى يتصرف كما لو كانت أمريكا تعيش وحدها فى العالم. وتبدو المؤلفة كما لو كانت قد تولت المعركة داخليًا فقد شنت هجومًا كاسحًا على الليبراليين الأمريكيين واتهمتهم بكل الخطايا.

□ □ □

The Nineties: When Surface was Depth

(التسعينيات: عندما كان السطح هو العمق)

Michal Bracemell

London Flamingo, £ 12.99, 2002



ماذا سيتذكر العالم عن عقد التسعينيات من القرن العشرين. خاصة ظواهره الفنية والاجتماعية والقيمية، لقد احتل عقد الستينيات مكانة خاصة فى النصف الثانى من القرن العشرين بحيث أصبح أيقونة العقود الأخرى، فقد كان عقد الانطلاق والأحلام الكبرى والرومانسية والتمرد والبيتلز وغيرها من الظواهر بعكس عقد السبعينيات الذى لم يحتل مكانة ذات قيمة فى تاريخ القرن الماضى.

ويقول مؤلف الكتاب إن التسعينيات تبدو له كعقد لا يرغب فى الكتابة عنه، فهو عقد ظهرت فيه فرق موسيقية وفنية وصيحات اجتماعية كثيرة، لكن معظم الحركات والشخصيات التى كان لها تأثير فى ذلك العقد تكونت وخلقت عالمها فى العقود السابقة.

ويتساءل المؤلف وهو بريطانى يتحدث فى غالبية الكتاب عن بلاده، هل يمكن لإنسان متقف أن يقول إن عقدى هو التسعينيات، أى هل هناك ما يمكن أن نتذكره بعاطفة حميمة، وباستثناء مصرع الأميرة ديانا فى حادث مأساوى مع دودى الفايد وحالة الحزن التى اجتاحت العالم على الأميرة، كانت التسعينيات قرن حروب ونزاعات ومشاكل لا حصر لها. لكنها أيضًا شهدت تغييرات اجتماعية خطيرة فى الغرب وفى بريطانيا تحديدًا، فقد زاد أفراد الأسرة ذات العائل الواحد، غالبًا الأم، بشكل كبير. وأصبحت العلاقة خارج مؤسسة الأسرة معترفًا بها. واعترف عديدون بينهم وزراء فى دول مثل بريطانيا بأنهم شاذون، وجرت معاملتهم على أنهم أقلية كالأقليات الأخرى، أيضًا تقدمت التكنولوجيا بشكل هائل ودخل الإنترنت معظم البيوت خاصة العالم المتقدم وأصبحت صناعة التكنولوجيا أهم الصناعات. باختصار كانت التسعينيات عقد التغييرات الكبرى اجتماعيًا وتكنولوجيًا، لكن على مستوى الثقافة والفن لم يكن هناك الكثير ليبقى.

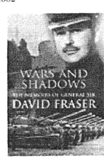
□ □ □

War and Shadows

(حرب وظلال)

General Sir David Fraser

London: Allen Lane, 3368PP, £ 18.99, 2002



مؤلف هذا الكتاب جنرال بريطانى وصل إلى منصب نائب رئيس الأركان فى القوات البريطانية فى بداية السبعينيات، وبعد تقاعده أصبح مؤرخًا عسكريًا وكاتبًا للسير الخاصة بالقادة العسكريين. ورغم أنه لم يكن قائدًا عسكريًا شهيرًا إلا أنه كان معروفًا بانضباطه وتميزه. وقد خدم فى مواقع عديدة منها قبرص وأندونيسيا، وكان قد شارك فى الحرب العالمية الثانية تحت قيادة المارشال مونتجمرى القائد البريطانى الأشهر فى القرن العشرين.

وفى هذا الكتاب يستعيد ديفيد فريزر ذكرياته عن حياته. فقد ولد لأسرة غنية وتعلم فى ايتون وصحب والده الذى كان ملحقًا عسكريًا فى أماكن عديدة فى أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية.

ويتحدث المؤلف كثيرًا عن الفترة التى تحالفت فيها بريطانيا وأمريكا مع الاتحاد السوفيتى عام ١٩٤٢ للوقوف فى وجه النازى، ويشير إلى أنه كان يعتقد أن هذا التحالف ستكون له نتائج كارثية نظرًا لشخصية ستالين التى لم تتمتع باحترام من جانبه.

ويركز الكتاب بشكل أساسى على الحرب العالمية الثانية وخبرات المؤلف فيها والإحباط الذى تعرض له البريطانيون من جراء الضربات الألمانيةالموجعة ثم النصر الكبير فى نورماندى، ويتحدث عن زملائه فى تلك الحرب وسلوك القادة.

وعندما يحاول أن يستخلص الدرس مما حدث فى تلك الحرب يقول: «لم نكن أفضل الناس حينئذ لكننا حاولنا أن نقف ونواجه الخطر وقد كان لنا النصر فى النهاية».

□ □ □

قـــــراءات جــــــديدة

"اجتمـــاع"

المجتمع المدنى وسياسات الأفكار فى العالم العربى

تحرير: يسرى مصطفى
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

يتسم الموقف الثقافى العربى بكثير من عدم اليقين حيال قضيتى الديمقراطية والتنمية الشاملة، وهما القضيتان الرئيسيتان اللتان تركز عليهما المؤسسات الأهلية فى مجال المجتمع المدنى.

■■■

سوسيولوجيا القبيلة فى المغرب العربى

محمد نجيب أبو طالب
بيروت: مركز دراسات الوحدة الوطنية، ١٨٦ صفحة، ٢٠٠٢

يسعى هذا الكتاب لتتبع مفهوم القبيلة واستعمالاته، ولرصد أهم الآليات التى تحكمت على مدى التاريخ الحديث والمعاصر فى البناء الاجتماعى القبلى فى المغرب العربى، وللكشف عن أهم التمفصلات التى حكمت علاقة الدولة بالمجتمع فى خضم التحولات الاجتماعية فى منطقة تميزت بعمق وثراء القراءة الخلدونية للتاريخ الاجتماعى.

يحتوى الكتاب على خمسة فصول: الفصل الأول: يعالج مسألة المنهج وعلاقته بالسوسيولوجيا والأيديولوجيا والإشكاليات النظرية والتطبيقية فى مقاربة موضوع القبيلة. الفصل الثانى: مخصص لنقد النظريات الكولونيالية، والانقسامية والماركسية. أما الفصل الثالث: فإنه يعالج موضوع القبيلة والقبلية بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع. ويركز الفصل الرابع: على خصائص القبيلة المغاربية بين الثابت والمتغير. الفصل الخامس: نموذج تطبيقى (الحالة التونسية)، يلى ذلك خاتمة البحث.

■■■

Young Woman of Color on Today's Femenism

(شابات ملونات يكتبن عن النسوية فى عالم اليوم)

Daisy Hernandez, Bushra Rehman (editors)
Daisy Femenist Pub, 2002, 320PP, $16.95

تعرضت الحركة النسوية التى قامت فى منتصف الثمانينيات لهجوم من جانب النساء الملونات باعتبارها حركة نخبوية، بيضاء، لاتبالى بهموم النساء فى الثقافات الأخرى حول العالم.

فى هذا الكتاب، مجموعة من كتابات الجيل الجديد من النسويات اللاتى ينتمين إلى ثقافات متنوعة، وهن يكتبن فى إطار النسوية الجديدة عن الهموم الجديدة للمرأة فى المجتمعات المختلفة، ويركزن على خبراتهن الشخصية.

■■■

Heat Wave: A Social Autopsy of Disaster in Chicago

(موجة حر: تشريح اجتماعى لكارثة فى شيكاغو)

Eric Klinenberg
University of Chicago Press, 2002, 365PP., $27.50

استيقظ سكان مدينة شيكاغو الأمريكية يوم ١٣ يوليو من عام ١٩٩٥ على نهار شديد القيظ وصلت فيه الحرارة إلى ٥٢ درجة مئوية. وعندما انكسرت الموجة بعد أسبوع، كان أكثر من سبعمائة شخص قد لقوا مصرعهم نتيجة للحر وانقطاع الكهرباء. وحتى الآن كان من الصعب إيجاد سبب لهذا القدر من الخسائر فى الأرواح الذى يفوق مثيله فى جميع الكوارث الطبيعية الأخرى التى ألمت بالولايات المتحدة.

فى هذا الكتاب يقوم المؤلف بعمل «تشريح اجتماعى» للكارثة، فاحصًا العوامل الاجتماعية والسياسية والمؤسسية التى جعلت هذه الكارثة أسوأ مما كان ينبغى، ومن خلال المقابلات الشخصية والبحث الميدانى والأرشيفى توصل كلينبرج إلى أن كثيرا من السكان ماتوا بمفردهم فى منازلهم، وبعض الأحياء كانت نسبة الوفيات بينها أعلى من غيرها. والسبب فى ذلك من وجهة نظره أن الكارثة كشفت عن التفسخ الاجتماعى والعزلة التى يعانيها المئات من الذين ماتوا من الحر دون أن يشعر بهم جار أو صديق أو قريب.

"اقتصـــاد"

الخدمات المصرفية

علاء الدين زعزى
دمشق: دار الكلم الطيب، ٢٠٠٢

عن أهمية المصارف فى الاقتصاد المحلى والخدمات التى تقدمها للمستثمرين ورجال الأعمال، ويقدم المؤلف رؤية لجيل جديد من المصارف هى المصارف الإسلامية وأهميتها فى الوقت الراهن ودورها المركزى فى الاقتصاد الإسلامى.

■■■

التكامل الصناعى السورى - اللبنانى الإمكانيات والفرص

نهاد خليل دمشقية
بيروت: مركز دراسات الوحدة الوطنية، ٤٤٨ صفحة، ٢٠٠٢

يركز الكتاب، على إمكانيات التكامل الصناعى بين سوريا ولبنان، من خلال تحليل واقع الأداء الاقتصادى، والنشاط الصناعى فى كل من سوريا ولبنان، وأبرز مؤشرات وأوجه التكامل والتنافر للنشاط الصناعى فى كل من البلدين.

ويتناول هذا الكتاب، مسألة وضع الاستثمارات فى المكان الأكثر جدوى، وعلى خلق نسيج داخل النشاط الصناعى للبلدين. ويبرز مزايا التكامل الاقتصادى فى علاقة البلدان العربية والعالم الخارجى بخاصة، كما أنه يؤكد أن التكامل الاقتصادى، يشكل القاعدة الصحيحة لعمليات التنمية فى البلدان العربية.

■■■

The Rise of the Creative Class: And How It's Transforming Work, Leisure, Community and Everyday Life

(صعود طبقة المبدعين: كيف تغير من العمل والجماعة والحياة اليومية)

Richard Florida
Basic Books, 2002, 416PP, $27.50

الكتاب يتناول «طبقة المبدعين» التى أصبحت تمثل أكثر من ٣٠٪ من قوة العمل فى الولايات المتحدة وتضم ٣٨ مليون عضو ما بين علماء ومهندسين ومعماريين ومعلمين وكتّاب وفنانين وإعلاميين. هؤلاء وظيفتهم الاقتصادية هى توليد الأفكار والتكنولوجيا والمضامين الجديدة.

ويرى المؤلف أن أفراد هذه الطبقة مسئولون عن التغيرات الاجتماعية والقيمية التى حدثت فى العقود الأخيرة. من وجهة نظره أن هذه الطبقة التى تستمد قيمها من دورها مثلها مثل الطبقة الأرستقراطية التى استمدت قيمها من السيطرة على الأراضى الزراعية، وطبقة البرجوازية التى استمدت قيمها من دورها فى تجارة البضائع.

وفى النهاية يتمنى المؤلف - وهو أستاذ فى التنمية الاقتصادية - أن يأتى الوقت وينضج أفراد هذه الطبقة ليتحولوا من الفردية والتمركز حول الذات إلى المسئولية والتماسك الاجتماعى والاهتمام بالمصلحة العامة.

"تاريــــخ"

القدس (١٩٤٨)

تحرير: سليم وتمارى
بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية ودار بديل بالقدس، ٢٠٠٢

ما هو مصير الضواحى والقرى العربية المحيطة بمدينة القدس التى احتلتها إسرائيل فى سنة ١٩٤٨ مثل الطالبية والبقعة والقطمون وعين كارم ولفتا.

يتتبع المؤلف من الناحية العمرانية والتاريخية حالة هذه الضواحى ونمو مدينة القدس خارج أسوارها القديمة خصوصًا فى المرحلة العثمانية، كما تتبع الأملاك العربية فى القدس الغربية، والمشكلات التى تعترض توثيقها، ويتضمن الكتاب جداول وصورا وخرائط لمدينة القدس قبل الاحتلال.

■■■

خطيئة إسرائيل الأصلية

دومينيك فيدال
ترجمة: جبور الدويهى
بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٢

يرصد هذا الكتاب محصلة الأبحاث التى انكب عليها المؤرخون الجدد فى إسرائيل أمثال بينى موريس وآفى شلايم وإيلن بابى، ويدحض الروايات التى قام عليها تاريخ إسرائيل، ثم يعيد تركيب ما يرى أنه الرواية الحقيقية لنشوء هذه الدولة. وفى سياق هذا البحث ينكشف، بالتدريج، التضليل الذى تمكنت إسرائيل من تعميمه فى الكتابات التى تناولت المسألة الفلسطينية.

يظهر الكتاب الخلاف بين المؤرخين القدامى والمؤرخين الجدد ومدى التزوير فى الوقائع والأحداث الذى مارسه المؤرخون الإسرائيليون القدامى.

■■■

صفحات من المجد فى مآثر علماء نجد

الشيخ محمد بن سعود الحمد
الرياض: المركز العربى للأبحاث والدراسات، ٢٠٠٢

عن المسيرة العلمية والتاريخية لمنطقة نجد وأهميتها فى شبه الجزيرة العربية ودور علمائها فى الفكر العربى والإسلامى المعاصر - حيث يتناول المؤلف إنجازات وآثار عديد من شيوخ نجد منهم محمد بن عبدالوهاب وسعد بن حمد بن عتيق وغيرهما.

■■■

قصة تطور العقل البشرى

محمد عبدالحميد أبوزيد
القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٢

عن بواكير حضارة الإنسان وما تلاها من فرعونية وإغريقية وإسلامية وأخيرًا النهضة الأوروبية والثورة العلمية الكبرى فى حياتنا المعاصرة وآثارها على العقل البشرى.

■■■

Modern Mind: An Intellectual History of the 20th Century

(العقل الحديث: التاريخ الفكرى للقرن العشرين)

Peter Watson
Harper Perennial, 2002, 864PP., $19.95

كتاب موسوعى لصحفى بريطانى يسجل فيه التاريخ الفكرى للقرن العشرين، فيتناول معظم التيارات الفكرية وأشهر العلماء والفنانين والاقتصاديين والفلاسفة وعلماء الاجتماع الذين أثروا فيه. ويتمثل استنتاجه النهائى فى أن القرن العشرين سادته ثلاث قوى فكرية أساسية هى: العلم، واقتصاديات السوق الحر، والإعلام الجماهيرى. كما يلاحظ المؤلف أنه منذ الستينيات لم يظهر جيل جديد للمثقف الشامل الذى يستطيع أن يؤثر فى المجال العام.

"تـــراث"

إلياذة هوميروس

ترجمة: ممدوح عدوان
أبوظبى: المجمع الثقافى، ٢٠٠٢

حتى الآن مازالت الإلياذة مصدر إلهام وعملاً ملحميًا قابلاً للقراءة فى كل وقت، الشاعر السورى يقدم ترجمة للملحمة التى تضم عشرات النماذج البطولية والمواقف الدرامية.

■■■

رحلة الوزير فى افتكاك الأسير

محمد الغسانى الأندلسى
ترجمة: حاتم عبد الرحمن الطحاوى
أبوظبى: دار السويدى للنشر، ٢٠٠٢

قـــــــراءات جـــــــديـدة

دراسـة تاريخيـة تحليليـة قـدم لهـا الشـاعر السـورى نورى الجـراح عن الحيـاة فى بلاد الأندلس (أسـبـانيـا) فى الفتـرة مـا بين نهـاية القـرن السـادس عـشـر والقـرن السابع عشر، وأوجهها فى العلوم والفنون والسياسة وغيرها.

■■■

عيون الأنباء فى طبقات الأطباء

تحقيق ودراسة / عامر النجار

القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٢

هذا كتاب من تراث الطب العربى يقدم فيـه المؤلف تاريخ مهنة الطب والعلاج فى الحـضـارة الإسـلامـيـة، والتـجـارب التى أجراها البحّاثة العرب مستخدمين ما أتيح لهم من أدوات الطبيعة وما حققوه فيها من نتـائج، فضلاً عن أهم الأطباء الإسلاميين الذين كـان لهم فضل السبق فى اكـتشـاف الكثير من العقاقير وطرق العلاج.

"تعـــليم"

التعليم العلمى والتكنولوجى فى إسرائيل

صفا محمود عبدالعال

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

تفـتح الدراسـة واحـدًا من المشـاهد الغريبـة من العدو الإسرائيلى، دراسة فى مـؤسسـات العلم والتكنولوجيـا وحـجم الإنفاق على البحوث والدراسات ومعـاهد البـحث العلمى والتطوير، وتكشف عن نتائج مذهلة مقارنة بحجم الإنفاق على الأبحـاث العلمـيـة فى الوطن العـربى بما يعكس حجم التفاوت بين العرب وإسرائيل ويؤكد على واحـد من الأبعـاد الغـائبـة فى ميدان الصراع.

■■■

مستقبل الجامعة فى مصر

مصطفى عبدالغنى

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٢

لعـبت الجـامـعـة دومًا دورًا مـؤثرًا فى مسيرة النهضة، لكن دورها تراجع الآن مع زيادة أعداد المقبولين وتراجع مستويات الخريجين وضعف الموارد المخصصة للإنفـاق على البـحث العلمى فى إطار الجامعة، كيف يمكن انتشال الجامعة من هذه الحـالـة ووضـعـهـا على الطريق الصحيح؟

"دوريـــات"

الألسن للترجمة

عدد من الباحثين

القاهرة: كلية الألسن، ٢٠٠٢

ترجمة لعديد من الموضوعات والكتب الحديثة وأبواب ثابتة مثل المصطلح، كشاف المترجمين، قراءات، متابعات. ويحتفل العدد بالمترجم الراحل طه محمود طه الذى ترجم عوليس لجيمس جويسى فضلاً عن إبداعات كبيرة أخرى.

■■■

الدراسات الفلسطينية

رئيس التحرير: أحمد صالح الخالدى

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٢

يتناول هذا العـدد الوضع الراهن فى فلسطين المحتلة، ودور الانتفاضة فى دفع الصمود الشعبى لمواجهة مخططات الاحتلال، كما يتضمن العدد دراسات ومتابعات للانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الإنسان وتدمير مؤسسات السلطة الفلسطينية.

■■■

الثقافة النفسية المتخصصة

مجموعة من الباحثين

بيروت: مركز الدراسات النفسية، ٢٠٠٢

خـصـصـت المجلة ملفـًا لموضـوع الاضطرابات النفسية التى يعانيها الأطفال الفلسطينيون بسبب الاعتداءات الإسرائيلية المستمرة والحصار الذى تفرضه على الأراضى الفلسطينية، بين دراسات الملف: خصوصية صدمة الانتفاضة (محمد النابلسى)، سيكولوجية طفل الانتفاضة (فيصل الرزاز)، كما يتضمن الملف تقرير لجنة خبراء المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة حول الموضوع ذاته.

"رحـــلات"

بانوراما الحياة السياحية

ماكنتوش وتشارلز جيولدزوجى

ترجمة: عطية محمد شحاتة

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

عن تـاريخ الرحـلات السـياحـيـة وفلسفتها لدى كل شعب من شعوب العالم، والعوامل التى تساهم فى التنشيط السياحى وتأثير السياسة الدولية والاضطرابات الإقليمية على السياحة العالمية.

■■■

من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق.. جولات فى أمـريكا وأوروبا والشـرق الأقـصـى وأستراليا

عباس الطرابيلى

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

سياحة فى أدب الرحلات، وهو نوع أدبى كـاد أن ينذر برغم انفـتـاح العـالم وتحوله إلى قرية كونية كبيرة، والمؤلف يستعرض عبر رحلاته كنوز هذه البلدان السياحية والثقافية، لتضاف إلى ما قدم من قبل عبر كتابين فى أدب الرحلات، كان أحدهما عن الأطعمة وعادات الغذاء فى عديد من دول العالم.

■■■

The Art of Travel

(فن الارتحال)

Alain de Botton

Hamish Hamilton, 2002, 272PP., $14.99

تعد الرغبة فى التواجد بمكان آخر إحدى سمات الطبيعة البشرية الثابتة منذ الأزل، وفى هذا الكتاب يحاول الناقد والكاتب الآن دو بوتون تفسير هذه الظاهرة من خلال استعراض تجارب السفر فى حياة كبار الكتاب والفنانين من أمثال فان جوخ، ورسكين، ووليام ووردز ورث، وفلوبير. يقول دو بوتون أن رغبة الإنسان فى السفر تنبع من الرغبة فى التغيير، ومع هذا فإن هذه الرغبة غالبًا ما تخذل، ولا يتم إشباعها، وهو يضرب المثل بفلوبير الذى كان يعيش فى نورماندى ويحلم بالسفر إلى مصر، ولكنه ما أن وصل إلى الأهرامات حتى أصابه الحنين إلى طقس بلاده المطير.

■■■

Stranger on a Train

(غريب فى القطار)

Jenny Diski

Picador, 2002, 288PP., $24

جابت المؤلفة أنحاء الولايات المتحدة بالقطار، ودوّنت فى هذا الكتاب تفاصيل رحلتها، وبخاصة مختلف أنواع الشخصيات التى تعرفت عليها فى القطارات التى استقلتها من مدينة لأخرى.

"روايات وقصص"

أشياء غريبة تحدث

منى الشافعى

الكويت: دار قرطاس، ٢٠٠٢

مجموعة قصصية ترتكن على المثير والغرائبى، وتحتل فيها الأسطورة موقعًا فريدًا وتربط بينها فى تشابك وانسجام.

■■■

الدهشة

فيصل السعد

بيروت: عمان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

الشخصية الرئيسية فى الرواية طبيب غريب الأطوار، وهكذا يلتبس شخوصه مس من الغرابة والطرافة والتداخل بين الحقيقى والأسطورى فى تناغم مدهش.

■■■

الضغينة والهوى

فواز حداد

دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٢

رواية عن القادمين من الغرب: مبشرين ودبلوماسيين وعملاء مخابرات ومغامرين ومنقبين عن الآثار وجواسيس، ممثلى شركات نفط ومراسلين صحفيين، ما الدور الذى لعبه هؤلاء فى منطقتنا، وما الصورة التى عكسوها عنا؟

"ســياســة"

الأقصى فى مواجهة أفيال أبرهة

حلمى محمد القاعود

القاهرة: مركز الإعلام العربى، ٢٠٠٢

متابعة للانتفاضة فى مسيرتها الظافرة بإذن الله، ومناقشة ما يجرى على الساحة الفلسطينية من خلال تحليل يعالج الوقائع ويرصد مجرياتها، ويطرح تصورًا إسلاميًا فى مواجهة وحشية الآلة العسكرية الإسرائيلية ويمجد الشهادة والاستشهاديين.

■■■

القضية ليست القضية

محمد الفطايرى

القاهرة: دار الطباعة الحديثة، ٢٠٠٢

دراسة فى جذور المشكلة الفلسطينية قبل التقسيم فى عام ١٩٤٧، وتحليل وثائق لمرجعيات القضية بما يثبت الحق العربى وتفنيد لما تنطوى عليه اتفاقات ومعاهدات السلام الأخيرة.

■■■

المقامرة الكبرى

عبدالرحيم على

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والمعلومات، ٢٠٠٢

منذ أعلنت الجماعة الإسلامية مبادرتها لوقف العنف قبل خمس سنوات، والمراقبون يحللون هذا الموقف ويتساءلون عن جدية المبادرة وإمكانية حدوث تغيير حقيقى فى موقف الجماعة، وما إذا كان هذا التحول يدخل فى باب القضية، أم أنه تحول فى الفكر وأسلوب العمل معًا، خصوصًا أن المبادرة لقيت دفعًا إعلاميًا رسميًا فى أعقاب أحداث سبتمبر، المؤلف يحلل مواقف الجماعة ويقدم رؤية «متشككة» فى جدوى مبادرتها السلمية.

■■■

إرهاق الوجود الإسرائيلى

حسين الشافعى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

يقدم المؤلف الذى شغل منصب نائب رئيس الجمهورية فى مصر وكان أحد الضباط الأحرار فى يوليو ١٩٥٢، تخطيطًا استراتيجيًا لاستدراج الإسرائيليين إلى معركة ممتدة وشاملة: سياسية واقتصادية وثقافية وعلمية لا يستبعد منها أيضًا الخيار القتالى والعمليات الفدائية.

■■■

إشكالية الوحدة

عونى فرسخ

القاهرة: دار المستقبل العربى، ٢٠٠٢

يتعرض المؤلف بالتحليل والنقد لأول مشروع وحدوى عربى والذى جمع بين مصر وسوريا وفشل بعد ثلاث سنوات فقط (١٩٦١)، والأسباب التى أدت إلى انهيار هذه التجربة، وسبل تحقيق وحدة على أسس أكثر صلابة ومصداقية.

■■■

تركيا ميدان الصراع بين الشرق والغرب

محمد طه الجاسر

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

لا يؤرخ الكتاب للدولة العثمانية أو التركية، وإنما يتناول بالبحث الصراعات التى جرت منذ منتصف الحكم العثمانى وحتى اليوم، والتى جرى بعضها بين الغرب والدولة العثمانية، وصورة هذا الصراع فى الوقت الحالى.

■■■

قــــــراءات جــــــديدة

حقوق الإنسان فى الفكر العربى
سلمى الجيوشي وآخرون
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢

آراء لنحو ثمانية وثلاثين مفكرًا عربيًا حول حقوق الإنسان العربى فى الوقت الراهن، وهو البُعد الغائب فى الحياة العربية، فحقوق الإنسان العربى مهضومة ربما إلى حد التلاشى، وهو ما تجاهد منظمات شتى من أجله.

■■■

عبدالناصر والثورة الأفريقية
محمد فائق
القاهرة: دار المستقبل العربى، ٢٠٠٢

لم تكن ثورة يوليو ١٩٥٢ بعيدة عن حركات التحرر الأفريقية، بل إنها مدت لها يد العون وتفاعلت معها حتى تمكنت حركات التحرر من تحقيق أهدافها فى الحرية والاستقلال، المؤلف يركز على هذا الدور وطبيعة المساعدات التى قدمتها الثورة لحركات التحرر الأفريقية.

■■■

مصر والدائرة المتوسطية
سمعان بطرس فرج الله
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

تتعدد دوائر الانتماء التى تتحرك فيها مصر بين عربية وإسلامية وأفريقية، وقد برزت مؤخرًا الدائرة المتوسطية التى تجمع مصر بدول حوض البحر الأبيض المتوسط، وهذا الكتاب يدرس واقع مصر ومستقبلها فى إطار هذه الدائرة حتى عام ٢٠٢٠، وكيف يمكن الاستفادة من الشراكة مع أوروبا فى هذا الإطار.

■■■

The Israeli - Palestinian Conflict Crisis in the Middle East
(الصراع الفلسطينى الإسرائيلى: أزمة فى الشرق الأوسط)
Journalists of Reuters
Reuters Prentice Hall, 2002, 240PP., $ 29.00

كتب فريق من مراسلى وكالة رويترز للأنباء فى الشرق الأوسط تحليلاً للصراع العربى الإسرائيلى فى الخمسين عامًا الماضية، فى محاولة لتحرى الحياد والموضوعية والتوازن فى تقديم مراحل الصراع، مع التركيز على الانتفاضة الحالية. يعتمد الكتاب على تقارير مراسلى رويترز والصور الفوتوغرافية التى التقطها مصورو الوكالة من خلف خط النار.

■■■

Forbidden Truth: U.S.- Taliban Secret Oil Diplomacy and the Failed Hunt for Bin Laden
(الحقيقة الممنوعة: دبلوماسية البترول السرية بين الولايات المتحدة وطالبان وعملية الاصطياد الفاشلة لبن لادن)
Jean-Charles Brisard, Guillome Dasquie, Lucy Rounds (translator)
Avalon Pub. Group, 2002, 249PP., $ 12.95

تُرجمَ هذا الكتاب عن الفرنسية مؤخرًا بعد أن أصبح من أكثر الكتب مبيعًا فى أوروبا لما يتضمنه من أدلة عن المباحثات السرية بين إدارة بوش وطالبان من فبراير ٢٠٠١ وحتى أغسطس ٢٠٠١. هذه المباحثات التى تتبعها وجمعها أحد أكبر الصحفيين الفرنسيين المتخصصين فى شئون المخابرات، دارت حول جهود بوش فى تأمين خط أنابيب بترول يجرى من كازاخستان عبر أفغانستان إلى المحيط الهندى. يتضمن الكتاب تصريحًا مثيرًا لرئيس مكافحة الإرهاب السابق فى الـ«إف.بى.آى» جون أونيل والذى توفى فى ١١ سبتمبر فى انفجار مركز التجارة العالمى.

سير ومذكرات

Meybela: My Bengali Girlhood: A Memoir of Growing Up Female in a Muslim World
(طفولتى البنجالية: مذكرات عن نشأتى كأنثى فى عالم إسلامى)
Taslima Nasrin
Steerforth, 2002, 328PP., $ 26.00

تعيش الكاتبة البنجالية تسليمة نصرين فى المنفى منذ عام ١٩٩٤ عندما صدرت ضدها فتوى بسبب انتقاداتها الموجهة للإسلام. وبعد رواية «العار» التى اشتهرت بها فى الخارج، تقوم تسليمة فى هذه المذكرات برواية تفاصيل حياتها منذ أن تأسست دولة بنجلاديش فى حرب عام ١٩٧١ وهى مازالت طفلة. عاشت تسليمة فى الريف مع أسرتها حيث عانت من القيود التى منعتها حتى من الذهاب إلى المتجر لشراء الحلوى أو اللعب خارج المنزل، بينما عانت أمها من زوج يخونها على الملأ، فلجأت لأحد رجال الدين من محترفى الشعوذة. يتضح من مذكرات تسليمة أن السبب الأدق فى معاناتها ومعاناة النساء فى بنجلاديش هو الجهل وليس الإسلام.

■■■

Haruki Murakami and the Music of Worlds
(هاروكى موراكامى وموسيقى الكلمات)
Jay Rubin
Havill Pr., 2002, 285PP., $ 25.00

قام البروفيسور جاى روبن بدراسة كتابات الروائى اليابانى هاروكى موراكامى الحاصل على جائزة نوبل فى الآداب منذ عام ١٩٩٣، وقد عقد معه مقابلات شخصية عديدة خاصة أثناء إعداده لترجمات روايات موراكامى إلى اللغة الإنجليزية.

فى هذا الكتاب يكشف روبن عن الجوانب الشخصية فى حياة موراكامى والتى أحيانًا تظهر فى أجزاء من رواياته، كذلك يتناول نشأته فى اليابان والأعمال الغربية التى قام بها قبل أن يتجه إلى الأدب.

شعر

حالة حصار
محمود درويش
بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٢

ديوان أخير للشاعر الفلسطينى الكبير، يجسد حالة الحصار التى يعانيها الفلسطينيون تحت ربقة احتلال غاشم وسط حالة من الضعف العربى المهين، فى الديوان رائحة النضال الفلسطينى وجسارة شعبها المناضل.

■■■

قصائدى فى رحاب القدس
فاروق جويدة
القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٢

قصائد عن الحلم العربى والوحدة وإمكاناتها والآثار الكارثية للاحتلال الصهيونى لبيت المقدس. الشاعر أيضًا يمجّد الانتفاضة الفلسطينية والنضال الأسطورى للشعب تحت الاحتلال، من قصائده: رسالة إلى بوش من طفلة مسلمة، الخيول لا تعرف النباح، رسالة إلى شارون، وإن هان الوطن يهون العمر.

■■■

كأننى السراب
حكمت النوايسة
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

مجموعة جديدة من القصائد التى تعالج أغراضا متنوعة، يستفتحها الشاعر بقصيدة عن الانتفاضة يرثى فيها الواقع العربى المتخاذل، كما تغوص بعض القصائد فى ذاكرة الشاعر، فضلاً عن قصائد أخرى مهداة للفنان التشكيلى محمد العامرى.

علوم

Calculated Risks: How to Know when Number Decieve You?
(مخاطر محسوبة: كيف تعرف أن الأرقام تخدعك؟)
Gerd Gigerenzer
Simon & Schuster, 2002, 310PP., $ 25.00

يحذر مؤلف الكتاب العالم الألمانى جيجرنزر من مخاطر «الأمية الإحصائية» التى يعانى منها معظم الناس فى حياتهم اليومية، وهى المتمثلة فى عدم القدرة على فهم الاحتمالات ونسب المخاطرة.

فالتقدير السليم للاحتمالات ونسبة المخاطرة قد تتوقف عليه أشياء مثل تجنب حادث سيارة أو الموقف إزاء أحد الاختبارات الطبية، وهو ما يحتاج إلى فهم أساسيات الإحصاء. والمواطن يعيش فى خضم هائل من النسب المئوية والاحتمالات فى مختلف مناحى الحياة، أما الأمر الخطير فهو أن كثيرا من الأطباء والمحامين والمهنيين يصدرون قرارات خاطئة نتيجة للأمية الإحصائية، فعلى سبيل المثال يقول المؤلف إن أحد الأطباء أقنع تسعين سيدة غير مصابة بالسرطان باستئصال أثدائهن، حيث إن هناك درجة عالية من احتمال إصابتهن بسرطان الثدى. ولو كان هذا الطبيب يعرف معنى الاحتمالات لأدرك أن أربعا وثمانين سيدة من التسعين لسن معرضات للإصابة بسرطان الثدى على الإطلاق.

■■■

A Matter of Degrees: What Temperature Reveals About the Past and Future of our Species, Planet, and Universe
(مسألة درجات: ما تكشفه لنا درجات الحرارة عن ماضى ومستقبل الكائنات الحية والكواكب والكون)
Gino Segre
Viking Press, 2002, 320PP., $ 24.95

يعتبر أستاذ الفيزياء جينو سيجرى أن مقياس الحرارة هو أهم المقاييس الأساسية الثلاثة التى تشمل أيضًا الزمن والمسافة. ومن خلال التركيز على عنصر الحرارة، يقدم سيجرى فى هذا الكتاب مسحًا لتاريخ العلم والطبيعة والحياة على الأرض.

فكر

العرب من الحداثة إلى العولمة
صالح السنوسى
القاهرة: دار المستقبل العربى، ٢٠٠٢

مازالت الحداثة إشكالية تواجه المجتمعات العربية، والتى لم ترحب بها باعتبار أن كثيرًا من مظاهرها أتى من الغرب، والآن يقف العرب فى مواجهة العولمة بكل ما فيها، وكالعادة منقسمون بين مؤيد ومعارض.. فماذا بوسعهم أن يفعلوا حيالها؟

■■■

على ضفاف الثقافة
عمرو عبدالسميع
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

رؤية للواقع المصرى والعربى سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا من خلال مجموعة من الحوارات المهمة أجراها المؤلف بين بريطانيا وأمريكا حيث عمل مراسلاً لجريدة الأهرام فى كل منهما، ومن الشخصيات التى حاورها: السيدة سوزان مبارك، د. أحمد زويل، د. جابر عصفور، د. رشدى سعيد، د. مصطفى الفقى والشاعر الراحل نزار قبانى.

■■■

كتابات فى العقل المصرى
طارق حجى
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

يقدم المؤلف خلاصة تجاربه الفكرية وآراءه فى معوقات التنمية بوصفه خبيرًا اقتصاديًا وإداريًا، وينتهى إلى أن مشكلات التنمية الأساسية تكمن فى طريقة التفكير وغياب الفكر العلمى عن أسلوب حياتنا.

■■■

لماذا أخفقت النهضة العربية

محمد وقيدي ـ أحمد النيفر
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

يتجادل المؤلفان حول هذا العنوان الكبير الذي يأتي ضمن مشروع حوارات القرن الجديد، فهل كان إخفاق النهضة سببه فشل التطبيق أم عقم السياسات أم عدم القدرة على مواجهة إشكالات النهضة الحقيقية في السياسة والاقتصاد وسبل الحياة.

■■■

مصر بين الأمل والألم

أحمد عزالعرب
القاهرة: مكتبة مدبولي الصغير، ٢٠٠٢

يحكي المؤلف عن معاناة جيل ناضل وكافح وقدم تجربته على طبق من فضة للأجيال التالية، ثم كفاح الأجيال التي تلته وصولاً إلى حالة السلبية واللاانتماء التي تعيشها قطاعات واسعة في الجيل الحالي، وكيف يمكن لهذا الجيل أن يستفيد من تجارب الأجيال السابقة.

■■■

موسوعة أعلام الفكر العربي

عدد من الباحثين
القاهرة: مكتبة مصر، ٢٠٠٢

استمرارًا لسلسلة بدأتها الدار ذاتها عن الأعلام المعاصرين في الفكر المصري والعربي، وفي هذا الكتاب نطالع إنجازات وسيرة عدد من الشخصيات البارزة منها الشيخ محمد أبوزهرة والشاعر صالح جودت وآخرين.

" فكر ديني "

التحرير الإسلامي للمرأة

محمد عمارة
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

حصدت المرأة حقوقًا في الإسلام لم تنلها قبله، وحتى الديانات السابقة لم تكرّم المرأة كما كرّمها الإسلام، وهو ما يؤكد كذب ادعاءات المستشرقين، فما حصلت عليه المرأة في ظل الإسلام حقق لها استقلالها الاقتصادي والمعنوي، وهكذا تحررت كما يقول المؤلف معددًا مظاهر هذا التحرير .

" فنــــون "

الحضارة الفنية التشكيلية في مصر القديمة

محمد النبوي الشال
نهال الشال
القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٢

إطلالة من نوع خاص على الحضارة الفرعونية، يتناول فيها المؤلفان الأسر والملوك التي حكمت مصر وكيف تطور الفن التشكيلي في عهدها، وكيف كانت حدود الارتباط بين الفنون التشكيلية وازدهار الدولة أو انحدارها، ويقدم المؤلف جوانب من فنون المصريين القدماء في التصوير والنحت وغيرها.

■■■

الخدع والمؤثرات الخاصة في الفيلم المصري

سعيد الشيمي
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢

المؤلف مصور سينمائي يدّرس التصوير بالمعهد العالي للسينما، وهو يعرض في كتابه للدور الذي تلعبه المؤثرات المختلفة في صناعة الفيلم، من مؤثرات صوتية وإضاءة واختيار أماكن التصوير والديكور والمكياج.. إلخ.. وتلاحمها مع السيناريو ورؤية المخرج.

■■■

تاريخ الرسم الصحفي في مصر

ناصر عراق
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

دراسة في فن الكاريكاتير والرسم الصحفي في مصر منذ بدايته، وأهم الموضوعات التي ناقشها ودوره في الصراع السياسي والاجتماعي، وأبرز فناني الكاريكاتير المصريين من أمثال رخا وعبدالسميع وزهدي وصاروخان وصلاح جاهين ومصطفى حسين وآخرين.

■■■

Art and Revolution in Latin America 1910 - 1990

(الفن والثورة في أمريكا اللاتينية ١٩١٠-١٩٩٠).

David Craven
Yale University Press, 2002, 240PP., $55.00

المؤلف يبحث الأثر الذي خلفته ثلاث ثورات في أمريكا اللاتينية على الفنون المرئية والسياسات الثقافية. الثورات الثلاث هي تلك التي حدثت في المكسيك (١٩١٠-١٩٤٠)، وفي كوبا (١٩٥٩-١٩٨٩)، وفي نيكاراجوا (١٩٧٩-١٩٩٠). يناقش المؤلف ـ وهو أستاذ تاريخ الفن بجامعة نيو مكسيكو ـ منطق المشروع الفني لكل حركة من هذه الحركات، مبينًا كيف ترددت أصداء الثورة في الفن والثقافة إلى ماوراء الحدود القومية.

■■■

Flash Frames: A New Pop Culture

(عروض فلاش: ثقافة شعبية جديدة)

Lauri Dolphin, Stuart Shapiro
Watson-Guplil, 2002, 128PP, £ 17.95

ولَّدت ثورة الإنترنت شكلاً جديدًا من الفن الإلكتروني يعتمد على تقنية برامج «فلاش» في عرض الرسوم والأشكال المتحركة وصناعة أفلام قصيرة. والآن أصبح مخرجو الأفلام السينمائية الحديثة يستعينون بفناني «فلاش» لصنع بعض المشاهد السينمائية وكذلك الفيديو كليب الموسيقية كبديل عن الوسائل التقليدية الأكثر تكلفة وأقل سرعة.

يقدم هذا الكتاب إبداعات أكثر من أربعين فنانًا من رواد «فلاش» في العالم.

" مســرح "

ليلة السهروردي الأخيرة

فريد أبوسعدة
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

مسرحية جديدة للشاعر المصري يقول عنها أستاذ الفلسفة حسن حنفي في تقديمه أنها تضع نفسها في نوع أدبي جديد يجمع بين التصوف والفلسفة، بين الذوق والعقل، بين المشاهدة والنظر، تضم المسرحية التي تعرض لمأساة الفقيه المتصوف شهاب الدين أبوالفتوح السهروردي أربعة عشر مشهدًا.

" نقــــد "

الأدب الساخر

القاهرة: فرع ثقافة الجيزة، ٢٠٠٢

شهادات في أبحاث مؤتمر الجيزة الأدبي الثاني، ويتضمن دراسات عن البُعد الاجتماعي في كاريكاتير صلاح جاهين للفنان جمعة فرحات، والسخرية في حديث عيسى بن هشام للدكتور سيد البحراوي والمسرح الساخر عند الفراعنة للفنان الناقد صبحي شفيق وغيرها من الموضوعات.

■■■

الصوت والصدى

حسين جمعة
عمان: دار الينابيع، ٢٠٠٢

دراسات نقدية وتحليلية لفن الرواية عمومًا ولفن الرواية الأردنية على وجه الخصوص في أكثر من ٢٢ مقالاً نقديًا تؤرخ لتطور الرواية في الأردن والمراحل التي عبرتها.

■■■

الغيم والمطر.. الرواية الفلسطينية من النكبة إلى الانتفاضة

مصطفى عبدالغني
القاهرة: دار الجهاد، ٢٠٠٢

دراسة تحليلية للرواية الفلسطينية منذ زمن النكبة، وانعكاسات الأحداث التي مرت بالقضية الفلسطينية على أعمال المبدعين حتى اليوم، وبين من يدرسهم المؤلف: جبرا إبراهيم جبرا وغسان كنفاني وسحر خليفة وهشام شرابي وآخرون.

■■■

المرأة واللغة.. الحقيقة والوهم

مصطفى عبدالواحد
القاهرة: دار إحياء الكتاب العربي، ٢٠٠٢

يفند المؤلف بعض الدعاوى التي تشير إلى أن الرجل حرَّم على المرأة أن تعبِّر بلسان أنثوي في الشعر والرواية وغيرها من دروب الإبداع، ويؤكد على أن إبداعات المرأة تنوعت وحققت تميزًا واضحًا في السنوات الأخيرة، ويقدم شواهد على ذلك من إبداعات المرأة العربية المعاصرة.

■■■

النقد ومستقبل الثقافة العربية

فريال حسن خليفة
القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٢

إطلالة على الإسهامات النقدية والفكرية لعديد من المصلحين ورواد الفكر العربي من أمثال رفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني، والمشروعات النهضوية الثقافية للأجيال التالية من أمثال زكي نجيب محمود وطه حسين وإسماعيل أدهم وغيرهم. وتلقى المؤلفة أضواء على الثقافة المصرية المعاصرة وآفاقها المستقبلية.

■■■

تحولات الشعرية العربية

صلاح فضل
بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٢

دراسة تتناول مسار الحركة الشعرية منذ الإحياء والبعث على يد أحمد شوقي والبارودي ثم شعراء المدرسة الكلاسيكية فالرومانسية والمهجر وشعراء الحداثة. يدرس المؤلف طبيعة هذه التحولات وأهم الرموز التي عبّرت عنها.

■■■

حداثة شكسبير

د. إسماعيل سراج الدين
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

عن مسرحيتين من أهم مسرحيات شكسبير هما عطيل وتاجر البندقية، وخلالهما يطرح المؤلف مشروعًا نقديًا مميزًا ينير جوانب مظلمة في أدب شكسبير ومسرحه.

■■■

دراسات شرقية

على أكبر ضيائي
إيران: أمين للنشر، ٢٠٠٢

إطلالة واسعة على الثقافة الإيرانية ونماذج من المخطوطات العربية والفارسية. وأشعار في الفلسفة والتصوف لشعراء عرب وفرس، خصوصًا أن الثقافتين العربية والفارسية تجمعهما وشائج عميقة، كما أن كثيرًا من المبدعين الفرس أبدعوا بالعربية.

■■■

رياح الانشطار.. قضايا ومعارك أدبية ونقدية

صبري قنديل
الإسكندرية: دار الوفاء، ٢٠٠٢

يرسم المؤلف بانوراما لمشروع ثقافي يلبي الاحتياجات الفكرية والإبداعية والاجتماعية كذلك ويساهم في تقدمها، كما يحلل سلوك المثقفين المعاصرين وما يجب أن يكونوا عليه. فضلاً عن تحليل لأهم المعارك الثقافية التي شهدتها مصر في السنوات الأخيرة.

■■■

Cervantes In Algiers: A Captives Tale

(سرفانتس في الجزائر: رواية أسير)

Maria Antonia Garces
Vanderbilt UP. 2002, 312P.

في طريقه إلى العودة لأسبانيا بعد مشاركته في معركة ليبانتو ضد الأتراك، أسر الجندي ميجيل دي سرفانتس على يد مجموعة من قراصنة البربر واقتيد إلى الجزائر.

يتناول هذا الكتاب التأثير الذي خلفته خمس سنوات في الأسر على أعمال سرفانتس اللاحقة. كما يتناول العلاقة بين الإسلام والمسيحية من خلال استعراض المحيط الاجتماعي والسياسي في جزائر القرن السادس عشر.



ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها.
مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

التعليم والهرم الاجتماعى فى مصر

عدد يوليو ٢٠٠٢ من «الكتب وجهات نظر».. عقد ثمين به مقالات درر!!

فقد ضم مقالات تكشف عن جذور الأسباب التى حتمت قيام الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢م. ومن الممكن (لضمها) فى خيط قوى دقيق يجمعها، ليكون واسطة العقد مقال الأستاذ ذوقان قرقوط «يوليو.. لماذا؟» وعلى جانبيه مقالا الأستاذ رضوان السيد عن «الطهطاوى» والأستاذ هيكل عن «الملك تحت الحصار».

لقد كان الهرم الاجتماعى فى مصر حتى نهاية القرن الثامن عشر يتكون من قاعدة عريضة يشكلها أبناء الشعب المصرى من الفلاحين فى الوجهين البحرى والقبلى، وكانت الكتاتيب هى الوسيلة الوحيدة لتعليم الشعب، وقد اقتصرت الدراسة فى بعض الكتاتيب التى يديرها الفقهاء العميان على تحفيظ القرآن فقط نظير أجر زهيد من نقود أو غلال. وفى الكتاتيب التى يديرها الفقهاء الآخرون كان دور الكُتَّاب يتعدى تحفيظ القرآن إلى تعليم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب. وكانت بعض الأسر المقتدرة ـ وهم ندرة ـ تنذر أحد أبنائها للعمل فى الأزهر الشريف، ويكون له ـ تقديسًا لخدمة العلم ـ نفس الحصة من إيراد الزراعة تتساوى مع بقية إخوانه العاملين بخدمة الأرض.

وكانت تعلو قاعدة الفلاحين طبقة من تجار الحاصلات الزراعية ومن الموظفين لدى الحاكم من الصيارفة وجباة المكوس والضرائب، وكانوا خليطًا من المصريين والشوام والمغاربة والأجانب من غير العرب. وتعلو تلك الطبقة أخرى من الجند والعسكر من غير المصريين، وعلى القمة يجلس الحاكم ليمارس (تسليط) الجند على الجباة، فيتسلط الجباة على من تحتهم من التجار والفلاحين. لذلك كان الصبر أكثر الحكَم التى وردت دلالاتها فى الأمثلة الشَعبية المصرية، وكانت الاستكانة نوعًا من المقاومة بالمكر، يظهر به المرء غير ما يبطن حتى قيل عنه (مكر فلاحى). وفى أحيان نادرة حين تتهيأ القيادة والقدوة كانت تقوم هبَّات شعبية ضد الظلم يقودها صعاليك من العربان أو شيوخ من الفلاحين الذين أقاموا دولاً مستقلة!! فى شرق أو غرب الدلتا وفى الصعيد.

ولعل أهم هذه الهبَّات التى قادها السيد عمر مكرم فى أوائل القرن الثامن عشر ضد ظلم الحكام من المماليك، ورغم نجاحه إلا أنه زهد العمل فى السياسة (باعتبارها لعبة خداع قذرة) وجاء بمحمد على واليًا على مصر عام ١٨٠٥م، والذى نجح فى خداع عمر مكرم وغيره من الزعماء من أبناء الأسر والقبائل من الفلاحين والعربان بأنه إن أجلسوه على قمة الهرم سيحكمهم بالعدل!

ولكن ظهرت حقيقة نواياه فى حلمه بإنشاء امبراطورية خاصة به فى مصر مثلما كان يأمل نابليون بونابرت.. بعدما دبر مذبحة القلعة للمماليك المناوئين له ونفى الزعماء الوطنيين حتى ينفرد بالسلطة.

وهكذا أصبح الشعب المصرى كما كتب بصدق الأستاذ ذوقان قرقوط (يوليو لماذا؟.. و.ن. ٢٠٠٢/٧/): «لابد أن نتذكر.. كان (جنس الفلاح) هذا الذى تزدريه الست التركية، هو البلاد، عندما وفد إليها محمد على.. فانتزع منه أرضه.. وعبثت (بطولات) محمد على ومظاهر نهضته بعقولنا فحجبت عنا، كيف تحول أصحاب البلاد (الفلاحون المعدمون؟) إلى أن أصبحت نسبتهم فى أواخر أسرة محمد على أكثر من ٩٨ ٪ من عدد السكان».

وفى سبيل تحقيق محمد على لحلمه الشخصى.. لا أكثر!! أحدث أخطر وأهم تغير فى الهرم الاجتماعى المصرى عندما أرسل نخبة من أبناء الفلاحين المصريين فى بعثات إلى أوروبا للنهل من موارد العلم الحديث غير الدينى. وبعد عودتهم أصبحوا ـ بتعليمهم العصرى ـ بعيدين عن جذورهم الأولى فى قراهم، وسكنوا المدن فى القاهرة والإسكندرية وغيرهما من المحافظات والمديريات التى أقام بها محمد على مصانعه ومشروعاته، وصاهر بعض منهم الحكام من الأتراك، وكونوا ـ دون قصد أو ترتيب ـ قاعدة لطبقة وسطى بين الطبقة الدنيا للفلاحين والطبقة العليا من الحكام. وكان من أوائل مؤسسيها رفاعة الطهطاوى وزملاؤه طلبة البعثة الأولى من المتخصصين فى الطب والصيدلة والهندسة والفلك والعلوم.

وكان مذهب الطهطاوى كما كتب الأستاذ رضوان السيد فى مقاله «الإصلاح والثورة» (و.ن. ٢٠٠٢/٧/) «لاشك أن الشيخ رفاعة كان يملك رؤية للتقدم الذى تقوده الدولة، لكن النجاح متوقف على وعى المواطنين بجدواه، وإسهامهم فيه. وقد كان نموذجه العالمى لهذا المشروع النظام الفرنسى، ونموذجه الإسلامى دولة محمد على بمصر. وبالوسع القول هنا دونما تجنٍّ على الطهطاوى أو ابتسار أو إسقاط أنه كان يفرق بين التقدم والحداثة إذا صح التعبير».

حتى جاء محمد عبده بفكره المتفاعل مع أفكار الأفغانى وقدما نظرة دينية إصلاحية بأمل إعادة تحقيق الدولة الإسلامية الموحدة. ثم كانت فكرة الضابط الفلاح المصرى أحمد عرابى وزملائه من دعاة التغيير بالقوة العسكرية للمرة الأولى، والتى عبَّر عنها من فوق صهوة جواده بصدق فى مواجهة الخديوى توفيق حفيد محمد على: لسنا عبيد إحساناتكم، لقد خلقنا الله أحرارًا، ولم يخلقنا تراثًا أو عقارًا.. والله الذى لا إله إلا هو.. لن نورث بعد اليوم!! ويبدو أن ذلك كان فوق طاقة قلوب المصريين المرتجفين الذين اعتادوا الاستكانة فأصبحت ثورة عرابى من أجل الفلاحين مجرد هوجة انطفأت باستدعاء حاكم مصر حفيد محمد على للقوات الإنجليزية لحمايته واحتلال البلاد! حتى يستمر فى حكم الفلاحين المتمردين!

ثم جاء مصطفى كامل وزملاؤه من أعضاء الحزب الوطنى دعاة الاستقلال وقال: «لو لم أكن مصريًا لوددت أن أكون مصريًا». ثم سعد زغلول وزملاؤه من أعضاء حزب الوفد الذين قادوا ثورة ١٩١٩م بشعار: «الاستقلال التام أو الموت الزؤام!» وبمقولة: «الحق فوق القوة، والقوة فوق الحكومة».

ومن بعده جاء مصطفى النحاس وانقسم الوفد حزب الأغلبية إلى أحزاب على أسس من التنافس السياسى الاحترافى من أجل الوصول إلى كراسى الحكم، ثم قيام أحزاب أخرى على أسس من المبادئ الدينية، أو الحرية الدستورية، أو الموالاة للحاكم، أو للمحتل، أو لمبادئ واردة من نظم خارجية تتراوح بين الفاشية والاشتراكية والشيوعية!! والمدهش أنهم رفعوا جميعًا علم الوطنية المصرية!؟ وينحنون جميعًا.. يقبلون يد الملك، ويركبون جنازير دبابات الإنجليز!!

ويلخص الأستاذ هيكل الحال فى «ملك تحت الحصار» (و.ن. ٢٠٠٢/٧/) فى البرقية الصادرة من اللورد كيلرن إلى الخارجية البريطانية: المصريون كالعادة يظنون أنهم شطار Smart يحلمون بأن يجعلوا من الطرفين (نحن والأمريكان) خيول سباق، وهو جنون مطبق، وخشيتى أن بعض الناس يشجعون هذه الأوهام».

فى عام ١٩٥٢ قامت للمرة الثانية من داخل الجيش حركة ضد الحاكم من أبناء تلك الطبقة التى وضع بذرتها الطهطاوى وزملاؤه فى طلب الإصلاح العصرى، ووضع نموذجها الأول أحمد عرابى وزملاؤه فى التغيير بتولى السلطة وإمساك لزمام الأمور كاملة.. وجاءت الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بقيادة اللواء محمد نجيب وبتنظيم جمال عبدالناصر وزملائه من ضباط الجيش، وهم أبناء وحفدة أجيال متعاقبة، ومنهم من كان مدركًا لما يفعل ومنهم من كان مغامرًا أو مندفعًا لما يقرب من حافة الجنون، وأغلب الظن أن نفوسهم جميعًا كانت تتواتر بذلك الشوق الجميل للقيم النبيلة فى الاستقلال بمصر بعيدًا عن تسلط حاكم لاينتمى للشعب الذى يقدسه، وبعيدًا عن سلطة أجنبى يفرض الاستغلال على ثروات البلاد بقوة الاحتلال العسكرى.

وهكذا وصل المصريون بالتعليم ـ بعد الصبر والمكر ـ إلى قمة الهرم الاجتماعى واختلطت حتى اندمجت صفوف الطبقة الدنيا للمحكومين المقهورين مع ما فوقها من طبقات كانت تضم الكثير من غير المصريين الذين فضل غالبيتهم أن يتركوا البلاد بما خف حمله وغلا ثمنه، وقلوبهم مملوءة حسرة على ما ضاع.

وقد بدأ التعليم المنهجى الحديث فى مصر فى عهد محمد على حكوميًا بالكامل يوفر لمنسوبيه التعليم والملبس والمأكل، وكان على مستوى راق بما يوفره له حاكم الدولة من اعتمادات مالية وإمكانيات مادية لإنشاء المدارس وتجهيزها بما يخدم أغراضه منها فى تخريج الكوادر المؤهلة للعمل فى تشغيل المشروعات والمصانع والمنشآت والمرافق التى تحقق بناء جيش قوى قادر على تنفيذ أهداف أحلامه الامبراطورية.

ثم تحول التعليم فى ظل الاستعمار الإنجليزى وتحطيم الجيش المصرى إلى معامل لتصنيع موظفين وكتبة (روتينيين) يجيدون لغة المستعمر ويمكن من خلالهم إحكام سيطرته على البلاد واستغلال خيراتها، ونقلها إلى الخارج كمواد خام لتشغيل مصانعه فى بلاده (القطن)، أو بنزح عوائدها من (الذهب).

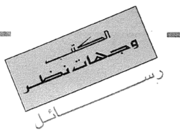
وتحت ضغط المشاعر الوطنية المتأججة فى نفوس المثقفين المصريين ـ من أبناء الفلاحين الذين قاموا بثورة ١٩١٩م ـ تم إصدار دستور ١٩٢٣ لمصر. وسيطرت النظرة الوطنية على فكر عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين وجعلته يخطط لمستقبل مصر كدولة مستقلة، وكتب «مستقبل الثقافة فى مصر» ليضع بذلك أول نظرة منهجية تحلل أوضاع مصر والمصريين وترسم صورة للمستقبل المنشود لهم جميعًا بين المنظومة المحلية والإقليمية والعالمية السائدة فى ذلك الوقت. ويلخص رؤيته بأسلوبه الرشيق عام ١٩٣٧م.. فى قوله:

«فإذا كنا نريد هذا الاستقلال العقلى والنفسى الذى لا يكون إلا بالاستقلال العلمى والأدبى والفنى فنحن نريد وسائله بالطبع، ووسائله أن نتعلم كما يتعلم الأوروبى، لنشعر كما يشعر الأوروبى، ولنحكم كما يحكم الأوروبى ثم لنعمل كما يعمل الأوروبى ونعرف الحياة كما يعرفها.

ونحن نريد آخر الأمر أن نكون أحرارًا فى بلادنا، أحرارًا بالقياس إلى الأجنبى بحيث لا يستطيع أن يظلمنا أو يبغى علينا، وأحرارًا بالقياس إلى أنفسنا بحيث لا يستطيع بعضنا أن يظلم البعض أو يبغى على البعض.

نريد الحرية الداخلية وقوامها النظام الديموقراطى، ونريد الحرية الخارجية وقوامها الاستقلال الصحيح والقوة التى تحوط هذا الاستقلال.. فإذا كنا نريد هذا صادقين فنحن نريد وسائله من غير شك.

(المرجع: المجموعة الكاملة لمؤلفات



الدكتور طه حسين ـ المجلد التاسع ـ علم التربية ـ مستقبل الثقافة. دار الكتاب اللبناني ـ بيروت).

ولقى حلم طه حسين الدعم والتوسع فى التنفيذ من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ومن ثم التوسع فى قبول الشباب للالتحاق بالجامعات فى شتى التخصصات. وتم تشغيل واستخدام الخريجين من الجامعات فى القاهرة والإسكندرية، ثم فى الجامعات الإقليمية نتيجة لزيادة الطلب على الأيدى العاملة، وساعد فى ذلك مركزية السيطرة على المال والأعمال بعد قيام الثورة.

ولكن.. مع الزيادة الكبيرة جداً فى أعداد سكان مصر ومحدودية الأعمال والوظائف حدث تضخم إدارى سرطانى فى شتى المواقع الإدارية والإنتاجية تزامن مع تعرض البلاد لاستنزاف مخطط لتحطيم نموذج الثورة المصرية فى التنمية المستقلة! فى إطار الاستراتيجية العالمية الجديدة التى سادت العالم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، والحرب الباردة بين النموذج الرأسمالى فى التنمية القائمة على الحرية الاقتصادية! والنموذج الاشتراكى أو الشيوعى فى التنمية القائمة على التخطيط المركزى والأمل فى تحقيق التقدم من خلال المثالية فى التجرد من الذات والعمل من أجل المجموع! وكان النظام الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى يدعم النظام الثورى المصرى الذى جذب فى يده إليه بعض الدول العربية والأفريقية والآسيوية المستقلة حديثًا عن السيطرة العسكرية الاستعمارية.

ولقد ساعد على تنفيذ مخطط هدم النموذج المصرى بسهولة نسبية.. أسلوب إدارى فى غاية السوء ناتج عن عدم خبرة القائمين بالثورة، ومن تبعهم للأسف. كما استغل ذلك المخطط ردود أفعال القائمين على الشئون المصرية فى توجيه معظم ثرواتها إلى صفقات تسليح لمواجهة التحدى الاستعمارى الصهيونى الذى تم زرعه فى فلسطين على حدودها الشرقية الشمالية طبقًا لمخطط بعيد المدى. واستفاد ذلك المخطط بالتوسع فى مشروعات البنية الأساسية الزراعية والصناعية التى قامت بها الثورة على نواة من التاميمات لكى تستوعب طاقات الخريجين من الشباب الجدد للعمل والإنتاج بما يحقق حلم الاكتفاء الذاتى فى حلم مدينة فاضلة كانت تحتاج إلى مؤمنين بها لكى تقوم، ولكنها وجدت غير متعففين يحرسون مخازن الخيرات فنهبوها.

وهنا ننظر فيما كتب الأستاذ جلال أمين فى مقاله: «ماذا فعلت ثورة يوليو فى الاقتصاد المصرى» (و.ن./٧/٢٠٠٢) يقول: «أما عن نمو الدخل، فبقدر ما كانت النتيجة مبهرة فى النصف الأول (٥٢ ـ ١٩٦٥) من تلك الفترة، كانت سيئة للغاية فى النصف الثانى (٦٥ ـ ١٩٧٥)، فلنضرب الصفح عن الثلاث أو الأربع سنوات الأولى من عمر الثورة (٥٢ ـ ١٩٥٦) فقد كان تركيز الحكومة فى تلك السنوات على أمور السياسة لا الاقتصاد، ومن ثم كانت تلك السنوات الثلاث أو الأربع امتدادًا لما كان يحدث فى الاقتصاد فى السنوات السابقة على الثورة. وإنما بدأ معدل النمو يرتفع بشدة ابتداء من منتصف الخمسينيات وظل مرتفعًا إلى نهاية الخطة الخمسية الأولى فى منتصف الستينيات. فزاد متوسط الدخل (الحقيقى) فى تلك السنوات العشر بمعدل ٣ ـ ٤٪ سنويًا فى المتوسط، ومن ثم يمكن القول بأن متوسط الدخل الحقيقى زاد فيما بين ٥٥ و١٩٦٥ بنحو ٥٠٪ وهو معدل طيب جدًا بمعايير ذلك الوقت على الأقل. ولكن ابتداء من منتصف الستينيات دخل متوسط الدخل فى مرحلة ركود، ولم يحقق ارتفاعًا يذكر حتى منتصف السبعينيات، ومن ثم يمكن القول بأنه خلال الفترة كلها التى تقرب من ربع القرن (٥٢ ـ ١٩٧٥) حقق متوسط الدخل الحقيقى زيادة متواضعة تتراوح ما بين ٥٠٪ و٦٠٪». ويتضح هنا أثر الضربة المحكمة لمصر عام ١٩٦٧ التى تضافرت فيها الأخطاء الشخصية للانفراد بالرأى والحكم مع جهود عربية مناوئة لنموذج تغيير نظام الحكم الوراثى؟ وإسرائيلية صهيونية وأمريكية إمبريالية، لكى يتم تفشيل ذلك النموذج الناجح للثورة المستقلة، وتفشيل ذلك النموذج للاقتصاد المستقل.

وبعد تغير توجه عجلة الحكم من الدوران فى اتجاه اليسار إلى اليمين بتغير الزعيم وتوجهاته لأنظمة الحكم!!.. تم تفكيك نظام الدولة فى الاقتصاد. أو كما يستكمل القول الأستاذ جلال أمين (و.ن./٧/٢٠٠٢): «ثم حدث الانقلاب الكبير فى منتصف السبعينيات. لم يحدث كله فى يوم وليلة، بل كنا نستيقظ كل يوم لنرى تراجعًا جديدًا عما فعلته الحكومة فى الخمسينيات والستينيات. الإصلاح الزراعى لم يكتف بوقف تقدمه بل ألغيت الحماية التى كانت تسبغها الحكومة على مستأجرى الأرض إزاء مالكيها، والأسعار جرى تحريرها، واحدًا تلو الآخر، من تدخل الحكومة، وأنواع الدعم المختلفة لشتى السلع والخدمات جرى تخفيضها بشدة أو إلغاؤها، والمشروعات التى كان قد جرى تاميمها خضعت، الواحد منها تلو الآخر، للخصخصة، والاستيراد أطلقت حريته، وسعر الصرف أصبح يخضع أكثر من أى وقت مضى لقوى العرض والطلب، ومعدلات الضريبة على الدخل والثروة خفضت بشدة، كما صدر قانون بعد الآخر لإعطاء المزيد من المزايا للاستثمارات الأجنبية الخاصة». وأصبح شعار ذلك العصر «الانفتاح الاقتصادى» حيث كان يتم بيع وحدات الإنتاج الصناعى والزراعى وتوجيه العائد إلى أقساط لسداد الديون الناتجة عن استيراد مشكوك فى جدواه.

وفى أعقاب ضربة عسكرية محكمة غير مسبوقة (١٩٧٣) قامت بها القوات المسلحة المصرية لقوات الاحتلال الإسرائيلى، وبعد معركة سياسية اقتصادية أكبر من المعركة العسكرية، حدثت زيادة كبيرة جدًا فى العوائد النقدية للدول العربية الخليجية. ومن المدهش والمثير للعجب أنها تبدو كما لو كانت مخططة من قبل الحرب؟ فلقد كانت تلك الأنهار المتدفقة من الدولارات ناتجة عن زيادة تسعير البترول بالدولار الأمريكى الورقى حيث أصبح الدولار الأمريكى لا يقوم بالذهب منذ إلغاء قاعدة الذهب بقرار منفرد من الرئيس الأمريكى نيكسون فى ١٥ أغسطس ١٩٧٠، وبذلك القرار أصبح الدولار الورقى غير قابل للتحويل إلى ما يعادله من ذهب، بل أصبح سلعة أمريكية!! ولا تتحدد قيمته مثلما تتحدد قيمة السلع بالعرض والطلب بل بالإرادة الأمريكية منفردة ـ فى ظل هيمنة سياسية وعسكرية أمريكية على العالم العربى بالكامل!

وهنا نذكر قول الأستاذ الدكتور/ جمال حمدان.. فى كتابه «استراتيجية الاستعمار والتحرير» ١٩٨٣م ص٣٣٧ عن نظرة بعض الدول إلى الولايات المتحدة: «توهمت فيها أملاً حقيقيًا للتحرير والتعمير، فإذا الحقيقة تتكشف عن قوة جديدة تأتى من وراء البحار لتصدر تجربتها الخاصة والأصيلة فى الاستغلال بدل الاحتلال، والسيطرة والنفوذ بدل الامتلاك والوجود، أو بالتعبير الدقيق لتمارس الإمبريالية بدل الكولونيالية أى الاستعمار، وهذا هو الاستعمار الجديد فى مقابل الاستعمار القديم».

ومن العوامل الإضافية فى تحطيم النموذج المصرى، أن تنفيذ الثورات التنموية فى دول الخليج البترولية! الخاوية من القوى البشرية، قد اقتضى هجرة خيرة العاملين المهنيين من مصانع وهيئات وشركات مصر بما أدى إلى ضعفها وهزالها، وبالتالى لضخامة خسائرها، ومن ثم لإيجاد المبرر المشروع حسابيًا للتخلص منها بأبخس الأسعار. ثم زاد الهم المصرى فقدان عشرات من مليارات الدولارات (الورقية) هى معظم مدخرات عائد عمل هؤلاء الأبناء الذين هاجروا مؤقتًا إلى الخليج، فى شرك وهم شركات الاستثمار الإسلامى.

ومع ذلك الانهيار العظيم حدث انهيار مواز فى منظومة القيم الأساسية، ولم يصبح الفلاحون هم القاعدة العريضة للهرم الاجتماعى المصرى بل الفقراء.

وأصبح التعليم الذى كان ميسرًا لأبناء عامة الناس لخدمة أهداف الدولة عسيرًا. وذلك بسبب انهيار العملية التعليمية ـ بنفس الأسلوب الذى انهارت به العملية الإنتاجية فى مصانع القطاع العام ـ لسفر صفوة الأساتذة للعمل فى المدارس الجديدة التى تم إنشاؤها فى دول الخليج فى إعارات! أو عقود شخصية لتخريج أجيال جديدة من المتعلمين هناك. ثم قيام معظم هؤلاء الصفوة ـ بعد عودتهم نتيجة (خلجنة) الوظائف بأبناء البلاد ـ باستثمار مدخراتهم فى أساليب الاستثمار التعليمى، سواء فى الدروس الخصوصية أو شركات استثمارية تقدم الخدمات التعليمية وتقوم بافتتاح المدارس أو المعاهد الخاصة. وهكذا تحول حلم التعلم بين أبناء الطبقات الوسطى الفقيرة ـ وهى الطبقة التى كانت تقود البلاد وتقوم بدور أساسى فى تحقيق نهضتها من خلال العمل الشريف ـ إلى كابوس ثقيل.

وقد دفع ذلك التغير فى النمط الاقتصادى وفى النمط القيمى.. معظم الآباء فى تلك الطبقة ـ فى تلك الفترة من منتصف السبعينيات ـ إلى البحث عن الوسائل المشروعة لزيادة دخولهم لمواجهة أعباء تعليم أبنائهم بما يضمن زيادة تحصيلهم لتحقيق أعلى مجموع ونسب مئوية لدخول الجامعة فى بعض الكليات التى وصفت بأنها كليات القمة، وهى الكليات التى يضمن خريجوها الحصول على عمل عند التخرج! (ومنها الكليات العسكرية والشرطة).

ولكن مهما كانت فرص الأعمال الإضافية المشروعة فهى محدودة.. وانفتح الباب لأعمال إضافية طفيلية فى شوارع المدن بين السيارات، أو لأعمال أخرى غير مشروعة نتيجة لتغلب أخلاقيات الفقر فى مجتمعات الندرة التى ترفع شأن أساليب قطاع الطرق.

وهكذا تدرج الهرم الاجتماعى المصرى بطبقات جديدة من الأثرياء وأنصاف الأثرياء وأرباع الأثرياء، ومن تابعيهم المتشبهين بهم الذين جمعوا ثرواتهم من أعمال خدمية لدى الغير. وكان من الطبيعى أن تضم هذه الطبقات الجديدة مستثمرين من المتعلمين الحاصلين على أرقى الدرجات العلمية المتخصصة، إلى جانب غير المتعلمين من المهنيين أو الوسطاء العاملين فى تجارات تدر مالا وفيرًا بغض النظر عن المشروعية. وأصبح كم المال هو المحدد للموقع بعدًا أو قربًا من قمم الأهرام وكان أبا الهول يراقب ولا يشارك.. رغم أنه الرابط الوحيد فيما بين أفرادها.

الأمل ـ بعد خمسين عامًا من التدريب المركز على التجارب القيادية ـ أظن هذا الشعب الذى انصهرت معادنه المختلفة فى بوتقة المعاناة بنيران المعارك والهزائم والانتصارات وتبلورت منها درره فى تجانس جميل بنسائم النصر والنجاحات ـ يستحق مواطنوه ذوو الوعى العميق، وفى عصر ثقافة العولمة التى تخطت كل حدود الرقابة بالأقمار الصناعية والتليفزيونات المفتوحة على العالم ترى وتتابع وتقارن، أن يمارس أسلوب الفعل من تحت، وذلك من خلال اختيار القيادات بعقود محددة المدة.. تحت رقابة المنافسة الشريفة التى تحكمها القيم والمبادئ الواردة فى القانون والدستور.. بدلاً عن اللامبالاة.. وانتظار التغير بالصبر أحيانًا أو بالمكر فى أحيان أخرى.. كما كانوا يفعلون مع الملوك ومن قبلهم المماليك والولاة.. لعل وعسى.

د. حمزة إبراهيم عامر
أستاذ الجيولوجيا التطبيقية

نون

ثقافة الخوف وعقدة الاضطهاد

■ تجرى أحداث القصة في العاصمة الأمريكية واشنطن عام ٢٠٥٤، أي بعد ما يزيد على ٥٢ عامًا من أحداث سبتمبر ٢٠٠١ التي قلبت مزاج أمريكا وتفكيرها رأسًا على عقب. أحداثها خليط من الخيال العلمي وحالة الهستيريا الواقعية التي اجتاحت أمريكا بقوة في أعقاب واحدة من أشد الجرائم غموضًا وتعقيدًا في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية.. وحين أخرجه المخرج الأمريكي الشهير ستيفن سبيلبرج للسينما في فيلم يحمل نفس عنوان القصة «تقرير الأقلية» لم تكن الهجمات التي وقعت في نيويورك وواشنطن قد حدثت، ولم يكن هناك لدى الأمريكيين ذلك الشعور الطاغي بالاضطهاد والخوف من الآخر وعدم الثقة بالنفس الذي يخيِّم على الحياة الأمريكية هذه الأيام. ولكن الفيلم يضع أمريكا مع ذلك في الحالة التي تطمح أن تكون عليها، أو تظن أنها قادرة على أن تكون عليها: مجتمعًا خاليًا من الجريمة.. يملك من الوسائل العلمية والتقنيات الحديثة ما يُمكِّن القائمين على الأمن فيها من اكتشاف الجريمة قبل وقوعها، ومنعها قبل ارتكابها أي والجريمة مازالت فكرة طارئة أو خطة غير مكتملة لم تختمر بعد في ذهن صاحبها.

إنه المجتمع المثالي الذي تعتقد أمريكا أن بقية شعوب العالم تحسدها عليه، وتكرهها من أجله، وتحقد عليها بسببه، وربما من أجل ذلك تعرضت لهذه المؤامرة الكونية الغامضة التي مازالت تحاول حل ألغازها.

وعلى الرغم من أن الفيلم أُنتج قبل أحداث سبتمبر، إلا أنه جاء يلبي حاجة نفسية وثقافة عامة أخذت تبسط تأثيرها على كل شيء في أمريكا.. فالذين يرتكبون الشر ويقعون في خطيئة الجرم أناس جبلوا على الشر، وفي جيناتهم ما يحملهم على ارتكابه.. وهكذا يمكن التنبؤ بما يحمله المستقبل. لأن المستقبل قد تم تحديده سلفًا، ولا خيار للإنسان فيما يصنعه من أفعال وما يرتكبه من ذنوب وأخطاء وجرائم.



وفيما يشبه الخيال العلمي تجرى أحداث الفيلم.. بطلها الممثل المعروف توم كروز الذي يلعب دور عميل مهم في إدارة سرية أنشئت لاكتشاف الجرائم قبل وقوعها. وهو يحصل على الإشارة الأولى عن الجريمة من كمبيوتر بشرى.. عبارة عن أشخاص يملكون خاصية استشراف المستقبل. جرى تنويمهم والاحتفاظ بهم في خزان يحتوي على محلول كيماوي، وقد أطلقوا على المعمل الذي يضم ثلاثة من هذه الكمبيوترات البشرية اسم «المعبد». وينصبُّ اهتمام هذه الإدارة على تعقب جرائم القتل تحديدًا والعمل على منعها باعتبار أن جرائم القتل هي أخطر ما يدمر نسيج المجتمع. تنتقل الرؤية المستقبلية من مخ أي واحد من أفراد هذا الفريق - الكمبيوتر البشري - إلى شاشة كمبيوتر فعلي يستطيع ترجمة الرسالة وفك شفرتها لمعرفة مكان وشخصية وزمان الجريمة وكيفية وقوعها.. فيبادر توم كروز مع فريق عالي الكفاءة والتدريب من رجال الشرطة إلى مكان الحادث لإجهاض الجريمة.

وطبقًا لهذا البرنامج - تقول أحداث الرواية أو الفيلم - لم تقع في واشنطن أية جريمة قتل طوال ست سنوات. ولكن عقدة القصة تبدأ حينما يكتشف توم كروز العميل السري الأول في هذه الإدارة أن التقارير التي تفرزها هذه الكائنات الكمبيوترية، ليست صحيحة مائة في المائة، مالم تجمع عليها الوحدات الثلاث، ويتصادف أن تفرز واحدة منها تقريرًا يضع دائرة اشتباه حول اسم توم كروز نفسه كمرشح لارتكاب جريمة قتل في المستقبل القريب. هل هي مؤامرة من المباحث الفيدرالية «إف.بي.آي» لإفشال هذا البرنامج الناجح والاستيلاء عليه بعد تخريبه من الداخل؟ أم أن «تقرير الأقلية» أي الذي يصدر عن واحد من الثلاثة يمكن أن يصدق في الواقع؟

وهكذا يصبح رجل الأمن نفسه مجرمًا مشتبهًا فيه، على وشك أن تُقطع رقبته ويطاح به قبل ارتكاب الجريمة. ولكن ممن؟ ينتهي الفيلم نهاية غريبة، حيث يتضح أن قوات من العسكريين الأمريكيين هم الذين دبروا للاستيلاء على هذه الإدارة السرية الجديدة، بعد أن انتهوا من خوض حروبهم ومعاركهم حول العالم، وأصبحوا مهيئين لبسط سيطرتهم على كل شيء حتى على قوات الشرطة في أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية.



من أيسر الأمور أن ينظر المرء إلى مثل هذا الفيلم باعتباره فيلمًا من أفلام «الاكشن»، كما يطلق عليه أهل الحرفة، يختلط فيه الخيال العلمي بأعمال العنف والسرعة والمطاردات البوليسية في إطار من الإثارة المحببة، ولكنه في حقيقة الأمر يعيد إنتاج الأفكار التي طرحها «أوروبل» إبان الحرب الباردة ضد الأنظمة الشمولية التي اتهمها بأنها تحاكم المواطن على أفكاره، لذلك تضع الدولة تشريعات شمولية للمحاكمة على أية «جرائم فكرية» أو «أفكار إجرامية» يمكن اكتشافها بواسطة «شرطة للأفكار» قادرة على استشفاف ما يدور بخواطر الناس وعقولهم.

وليست المحاكمة بالنوايا في عصرنا الحاضر أمرًا مستغربًا.. فمازالت في بلاد عربية كثيرة تشريعات تفتش في ضمائر الناس وعقولهم وتحاسبهم على خاطرة عابرة أو فكرة شريرة هادرة نجمت عن دفقات من المشاعر المشبوبة أو الإحباطات القاصمة.

ومع ذلك فلم تكن مصادفة بعيدة عن الواقع، حين ألقت السلطات الأمريكية القبض في شهر مايو - في الأسابيع الأولى من عرض الفيلم - على شاب أمريكي قيل إنه من أصل عربي اسمه عبدالله المهاجر. وأعلن أشكروفت المدعي العام الأمريكي أن هذا الشاب كان ينوي صنع وزرع وتفجير «قنبلة نووية قذرة». وهنأت السلطات الأمريكية نفسها على هذه الضربة الإجهاضية الناجحة التي منعت الجريمة قبل وقوعها. ولكن أحدًا لم يسأل نفسه: أين هي المواد النووية الانشطارية القذرة التي يُفترض أنها كانت في حوزته؟ وأين هي الأوراق والمخططات التي تضمنت تصميمات القنبلة وتركيبها؟ لم تعثر السلطات على أي من هذه الأدلة، ولكنها كانت على يقين من أن الرجل خطَّط ودبَّر «في خياله» إمكانية القيام بهذه الجريمة. وعندما اكتُشف بعد ذلك أن «عبدالله المهاجر» ليس إلا «جوزيه باديلا»، وأنه من أصل لاتيني وله سجل حافل منذ صغره كعضو في عصابات الشوارع في نيويورك، اختفت القضية في أضابير المباحث الفيدرالية ولم يعد أحد يسمع عنها شيئًا.

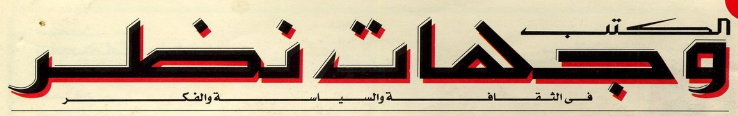


استباق الجريمة قبل وقوعها هو النظرية السائدة الآن على مستوى العالم.. وهي النظرية التي تحبذها الأجهزة البوليسية في دول العالم الثالث وتطبقها بتجاوزات كثيرة في ظل الموجة الكاسحة من الحرب ضد الإرهاب. ولكن أنصار الديمقراطية يرون في اللجوء إليها وإساءة استغلالها، اعتداءً على الحريات والحقوق المدنية التي ضمنتها معظم دساتير العالم، وعلى رأسها الدستور الأمريكي، وحين تجنح الدولة إلى استخدام الأساليب البوليسية في التفتيش على نيَّات الناس بحجة مكافحة المؤامرات والجرائم، من خلال تطويع الأفكار، وتأويل الكتابات، واستنطاق الأدلة التي تدين صاحبها، فإنها في واقع الأمر تضع الأساس لقيام الدولة البوليسية وتشرع لحكم الطغيان الذي تختفي معه قيم العدالة والحرية.

هناك بغير شك فرق بين تتبع أنشطة إجرامية تحمل دلائل مادية ملموسة، وتسبقها استعدادات وتصرفات مريبة، كما يحدث في الجرائم العادية «جنائية كانت أو مدنية» وبين استنطاق الأفكار والحفر وراء مدلولاتها بحثًا عن مخطط إجرامي ضد النظام والقانون، أو ضد مؤسسات الدولة.. هنا يصبح الأمر أشبه بقراءة في مستقبل غير منظور، أو قراءة في الفنجان التماسًا لقدر مغيب لا يملك الإنسان الوصول إليه، مهما امتلك من تقنيات البحث والمعرفة المسبقة بقوانين السلوك الإنساني. ولم يحدث حتى الآن أن نجحت أدق الأساليب التكنولوجية في قراءة الأفكار المضمرة والنوايا المبيَّتة. ومازالت أجهزة كشف الكذب أسلوبًا غير معتمد في الأخذ به كدليل جنائي أمام العدالة.

غير أن «تقرير الأقلية» يضيف بُعدًا آخر.. فهو يضع المجتمع الإنساني المعاصر بكل معطياته التي يتنبأ الكاتب بتحقيقها في غضون نصف قرن، أمام معضلة حقيقية. وهي أن الإنسان حاكمًا كان أو محكومًا، رجل أمن أو قاتلاً محترفًا أو متآمرًا ماجورًا، يحمل في طيات نفسه نوازع الشر والجريمة. ولن تكون هناك معايير قاطعة الدلالة تفرق بين «مواطن مثالي» و«مواطن خارج على القانون».. «حاميها هو حراميها». كما يقول المثل الدارج. وهو ما ينبئ بانهيار شديد للقيم الأخلاقية والمبادئ الإنسانية التي يفترض فيها أن تحول دون اضمحلال الحضارة وانحلالها!

سلامة أحمد سلامة



الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الخامس والأربعون . السنة الرابعة . اكتوبر ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 45 - October 2002

ثورة يوليو : خمسون عاما / محمد حسنين هيكل

الثورة تدق الباب!





الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد الخامس والأربعون
أكتوبر ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

كتّاب العدد:

- أحمد زويل.. أستاذ الكيمياء والطبيعة بمعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا.
- آلان بوتيير.. كاتب.
- أيمن الصياد.. صحفي.
- توني يوت.. مدير معهد رومارك بجامعة نيويورك.
- جيف ماديرك.. أستاذ مساعد في العلوم الاجتماعية وكاتب في جريدة النيويورك تايمز.
- جيمس ميك.. كاتب متخصص في العلوم بصحيفة الجارديان البريطانية.
- حازم الببلاوي.. أستاذ الاقتصاد بجامعة الإسكندرية.
- حلمي محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفي.
- صلاح فضل.. ناقد أدبي.
- فاروق وهبة.. فنان تشكيلي.
- مايكل بايرز.. أستاذ بجامعة ديوك الأمريكية.
- محمد حسنين هيكل.. صحفي.
- محمد العسيري.. صحفي.
- محمود عبد الفضيل.. أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة.
- محمود المراغي.. صحفي.
- مصطفى العبادي.. أستاذ المصريات بجامعة الإسكندرية.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجي ـ سعد الدين شحاتة ـ محمد حاكم ـ أحمد اللباد





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عددًا) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري ـ اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٤٨٥٤٦ ـ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهمًا ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالاً ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــة..

كـتب «أمـريكانى»

عن الحدث، الذى كان لا حدثَ بعده، قذفت المطابع الأمريكية إلى المكتبات وأيدى القراء بـ ٧٠٩ كتب (عناوين). وليس فى الرقم (الدقيق) أية مبالغة. فالإحصاء لـ amazon.com السوق الإلكترونية لبيع الكتب، والتى صارت معتمدة ورسمية.

بين مئات الأغلفة اللامعة البراقة، تستوقفك بلا شك عناوين مثل «أين كنت يوم ١١ سبتمبر»، وهو كتاب تتفرغ مؤلفته «جانيت رينولدز» لإشباع فضول أى قارئ شغوف بالمكان الذى كان فيه رجل الأعمال دونالد ترمب أو دوقة يورك السابقة سارة فيرجسون حين وقعت الأحداث. كما قد يلفت انتباهك الغلاف الجذاب لكتاب «وجوه الأمل» لمؤلفته كريستين بيزيرا وهو - لا تستغرب - لايعدو أن يكون تجميعا لصور الأطفال الذين ولدوا يوم ١١ سبتمبر بواقع طفل من كل ولاية!! أما إذا كنت قد سئمت الموضوع «المحاصر» وتشبعت بكل ما له علاقة بالتاريخ «المشؤوم» وأدرت وجهك عن الرف - أو الأرفف - المخصصة لكتب ٩/١١، فستجد فى مواجهتك مباشرة الإعلان الترويجى يسألك مستنكرًا «ألا ترغب فى أن تشارك هذه اللحظات مع أولادك وأحفادك؟»

لا مهرب إذن. فمن ناحية هناك المصرون على «إعادة إحياء الغضب فى نفوس الأمريكيين». ومن ناحية أخرى، هناك «الفرصة» بالتعريف الرأسمالى، والتى لا يليق بمتنافسى السوق أن يضيعوها دون إضافة دولارات أخرى إلى «درج الكاشير». إذ فى أمريكا، حتى بعد الحادى عشر من سبتمبر، لا تستغرب أن يصبح كل شىء «أمريكيًا»، حتى المأساة القومية يتم تعليبها سريعًا ليسهل تسويقها كما يسوق معجون الأسنان.



«وجهات نظر» خصصت فى هذا العدد بابًا خاصًا لإلقاء نظرة على ما يقرؤه الأمريكيون عن ١١ سبتمبر.

كتب كثيرة أسهبت فى تفصيل أو الاكتفاء باجترار وسرد ما حدث بصورة عامة فى ذلك اليوم، وجميعها كانه، بالاشتراك مع الشبكات التليفزيونية، قد قرر استئصال فقدان الذاكرة العام ليرسخ هذا الحدث فى مقدمة رأس وذاكرة أى إنسان. حتى الأطفال، كانت لهم كتبهم التى تخاطبهم بالصورة والكلمة وحتى «بالكارتون». فإلى جانب كتب قليلة أتاح لها مرورُ الزمن الحصول على معلومات جديدة ومنظور جديد، يُمَكّن من طرح أسئلة جادة مثل كيف ولماذا حدثت الهجمات أو كيف تغيرت أمريكا كأمة، أو كأفراد؟، ثم ماذا يجب على أمريكا أن تفعله الآن؟، هناك مئات العناوين التى أصرَّت على أن تقف عند رواية ما حدث، مراهنةً على أن صور أحداث ١١ سبتمبر غير قابلة للزحف بعيداً عن بؤرة الذاكرة، على القائمة الطويلة جدًا للعناوين المتشابهة: « مركز التجارة ١٩٧٤ - ٢٠٠١» و«الروح الأمريكية» و«أمة فى مواجهة التحدى»، و«فلنقف معاً» و«النظر من الطابق الأرضى» و«وجوه الطابق الأرضى».. إلخ. ومع ذلك تقول الإحصائيات المنشورة أن من بين تلك الكتب ماحقق ناشروه أرباحًا كبيرة بعد أن احتلت قوائم « الكتب الأكثر مبيعاً» لأسابيع عديدة. من بين هذه كتاب «بيت النار» الذى يركز على محطة إطفاء فقدت ١٢ من أصل ١٣ من العاملين فيها. وكتاب «قلب جندى .. قصة حب وبطولة مع ١١ سبتمبر» لمؤلفه جيمس ستيوارت، ويحكى قصة ريك ريسكورلا المحارب القديم فى فيتنام ورئيس جهاز الأمن فى مورجان ستانلى والذى أدت تصرفاته إلى إنقاذ موظفى الشركة المنتشرين فى برجى مركز التجارة. كواحد من الضحايا القليلين لأحداث ١١ سبتمبر الذى وضع حياته بوعى تام فى بؤرة الخطر، فى وقت لم يكن مطالباً فيه بذلك، وذلك بعودته للمبنى فى لحظة بالغة الخطر.



بين كل هذا الزحام، وإلى جانب الكتب القليلة لمفكرين وأكاديميين كبار، تبرز كتبٌ أعدها صحفيون محترفون (ذوو خبرة) مثل كتاب «من حيث لا نحتسب Out Of The Blue » لريتشارد بيرنستين (٢٠ سنة فى الصحافة الإخبارية). والذى كتب مقدمته هاول رينز مدير تحرير صحيفة «نيويورك تايمز». يبدأ الكتاب بنظرة تأملية فى اللحظات المروعة التالية للهجمات على نيويورك يوم ١١ سبتمبر، ومن هناك يأخذنا «المخبر المحترف» إلى منزل متواضع فى مدينة بيشاور بباكستان، وتحديداً إلى العام ١٩٧٩، يوم أن بدأ رجل دين بسيط الهندام، هادئ الصوت، هو عبد الله عزام، بشخصيته الكاريزمية، فى تأهيل متطوعين صغار السن لتشكيل جيش جديد لمحاربة الملحدين السوفييت. وإلى هناك، ذهب رجال كثيرون، ممن لعبوا دوراً فى هجمات ١١ سبتمبر، بمن فيهم أسامة بن لادن. ويشرح بيرنستين بأسلوب قصصى مبنى على أرضية الأحداث، كيف تغيرت عبر عقد من الزمان الحسابات والقوى والموازين، ومن ثم «اتجاه فوهات المدافع».

على رأس قائمة الكتب «المختلفة» يأتى أيضا كتاب ناعوم تشومسكى الأشهر بغلافه الذى لا يحمل عدا اسم المفكر الأمريكى، غير كلمة (٩/١١) ببنط صغير جدا على خلفية سوداء. والكتاب هو محاورات ارتجالية تلت فى مجملها انهيار البرجين وإصابة البنتاجون بأيام قلائل، وينقسم إلى سبعة أقسام تشتق عناوينها من موضوعات الحوار المهمة ونقاطها الأساسية. ويشرح «أستاذ اللسانيات» التحوير اللغوى الذى اعتمدته إدارات أمريكية متعاقبة من أجل تحريف أهداف سياسية واقتصادية مقصودة من وراء قراراتها بالتدخل العسكرى الخارجى، إذ استخدم الساسة الأمريكيون، عناوين بلاغية لمغامراتهم العسكرية فى عدة مناطق من العالم، ومنها «التدخل الإنسانى» كما سمى قصف صربيا ليتحاشوا الاستعمال المباشر لكلمة حرب رغم أن العمليات الأمريكية كانت أسوأ من ذلك بكثير. والرأى لتشومسكى، الذى يلاحظ أيضا أن استخدام الكلمة (صليبية) crusade لم يكن موفقاً لأنها كانت ستشمل العالم الإسلامى كله بوصفه عدوا، لهذا تم التحول سريعا إلى (حرب على الإرهاب) لضبابيتها وغياب حدودها خاصة دون وجود تعريف رسمى للإرهاب.

قريبًا من كتاب تشومسكى، أو بالأحرى من التخصص يأتى كتاب «حرب الكلمات War Of Words" لساندرا سيلبرستين أستاذة اللغة الإنجليزية والذى تقرأ فيه تحولات ومركبات التعابير والمفردات والجمل التى يستخدمها السياسيون. وتستقصى استخدامات الشاهدين وشهود العيان للمفردات ومدلولاتها بعد ١١ سبتمبر.



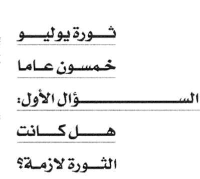
ليس بعيدا عن تلك الكتب، كان هناك كتاب بتجليد فخم من الجلد بعنوان «أمة واحدة، أمريكا تتذكر ١١ سبتمبر ٢٠٠١». ومنه يمكنك أن تجد «طبعة محدودة Limited Edition" منقوشة بالذهب عيار ٢٢ ومشغولة بحرفية يدوية عالية كى تبقى، كما ذكرت مجلة «لايف» فى حملتها الترويجية للكتاب، «ذكرى وعبرة للأجيال المقبلة». ثم هناك الأعلام وعلاّقات المفاتيح والأسطوانات المدمجة وأكواب القهوة والدبابيس التى تعلق على السترات، والتى تحيى كلها المناسبة، ومَثَّل عائدها - كما يبدو - أرباحا طائلة مقابل استثمار زهيد.

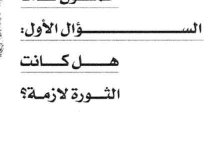
هل هناك من صلة - ولو شكلية - بين الاحتفالية السبتمبرية تلك، وبين ماحصل قبلها بأسبوعين فى الذكرى الـ٢٥ لوفاة ملك الروك أند رول» الفيس بريسلى. حين تحولت المناسبة إلى سوق تجارية لبيع أسطواناته وتسجيلاته الغنائية القديمة وتذكاراته وصوره فى سراويله البراقة؟!

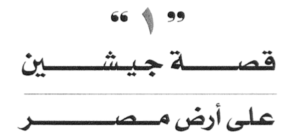
وحدها تعلم وكالاتُ التسويق والترويج التى كان مقرها المفضل فى ذلك البرج الذى انهار على شاطئ مانهاتن، ويبدو أنه ترك قيّمه الأمريكية وراءه؛ مبنى «التجارة» العالمى.

وجهات نظر







■ عندما بدأت تلك السنة الحاسمة في التاريخ المصري الحديث: ١٩٥٢ - كان واقع الحال، وراء كل المظاهر والأشكال، يكشف أنه لم تبق في مصر غير جهتين عندهما فصل الخطاب - أو على الأقل حق الكلمة الأخيرة، والسبب أن القوة حلَّ دورها في مواجهة مستعصية، ومعادلة تعقدت عناصرها، حتى لم يعد بد من كسرها: إما لفتح طريق يسمح بالمرور، وإما لفك العُقد التي تشابكت ثم إعادة ترتيبها من جديد وفق قواعد مختلفة، وكانت الجهتان هما:

■ أولا - الجيش البريطاني في منطقة قناة السويس باعتبار أن سلاحه هو الملجأ الأخير للسياسة البريطانية التي وصلت إلى آخر الطريق بتصميمها على مواصلة الاحتلال العسكري لمصر رغم قيام وزارة الوفد بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ (يوم ٨ أكتوبر ١٩٥١).

وفي ذلك الموقف فقد كان الجيش البريطاني في منطقة قناة السويس تشكيلا حربيا مقاتلا يدافع عن مواقع إمبراطورية توشك الشمس أن تغرب عنها، لكن الإمبراطوريات في العادة أشد عنفا أوقات الغروب لأنها حينئذ أكثر ضعفا.

■ ثانيا - الجيش المصري العائد من فلسطين بجرحه إلى شعب موجوع بِعِلَلٍ اقتصادية واجتماعية وسياسية. وبصرف النظر عن الأحوال الصحية، فقد كان ذلك الجيش «المجروح» هو الأداة الوحيدة الباقية في يد السلطة القائمة على الأمر في القاهرة وهي سلطة العرش باعتبارها رمز السيادة، وفي يدها سلطة القرار، بصرف النظر عما تفعله أو لا تفعله أي وزارة تقوم على السلطة التنفيذية في مصر.

لكن ظروف كل من الجيشين كانت أشد ما تكون اختلافا، فجيش الإمبراطورية التي لحقها الغروب كانت له أحواله - وفي ذات الوقت فإن الجيش المجروح (لشعب موجوع) - كانت له أحوال مختلفة!

كان الجيش البريطاني في قاعدة قناة السويس لحظتها يتكون من أربع فرق - إحداها فرقة مدرعة، وقيادته معقودة للجنرال السير «جورج أرسكين»، وتكليف هذا الجيش أن يحافظ على كفاءة القاعدة البريطانية في منطقة قناة السويس لتؤدي دورها في الشرق الأوسط، مرتكزة على تلك المنطقة الحيوية بين البحرين الأبيض والأحمر.

وكان تأمين القاعدة هو المشكلة التي واجهت الجنرال «أرسكين» عندما قامت وزارة الوفد بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، وتبدت بعدها احتمالات مقاومة مصرية يصعب تقدير حجمها لكنها مهما كانت، مصدر تهديد للقاعدة يستدعي التأهب.

وكانت تقديرات «أرسكين» لمهمته تطرح خطتين:

- خطة حد أقصى: هي الخطة «روديو» وهي خطة واسعة المدى يقع تنفيذها في حالة اندلاع نوع من الحرب الشعبية ضد القاعدة يستند إلى العمق المصري، وهنا فإن الخطة «روديو» تتسع إلى حد احتلال الدلتا - وفيها القاهرة بما يضمن السيطرة الكاملة على منطقة قناة السويس وعلى العمق وراءها عند العاصمة.

- وخطة حد أدنى: وهي خطة «القاعدة الصلبة» وهي خطة محدودة يقصد بها مواجهة حالة اضطرابات تقتصر على منطقة القناة، وهدف الخطة عزل هذه المنطقة عن الدلتا والقاهرة، ووضعها تحت حكم عسكري بريطاني مباشر. وفي الواقع فإن تلك كانت الخطة الأكثر واقعية والأقل ضررا من الناحية الإقليمية والدولية، خصوصا إذا كان مستوى المقاومة التي تهدد القاعدة مما يمكن حصره محليا والسيطرة عليه.

ولعدة أيام بعد إعلان إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، كان القرار البريطاني يتأرجح بين الخطتين: خطة الحد الأقصى (روديو) وخطة الحد الأدنى (القاعدة الصلبة) - ومع منتصف شهر نوفمبر (١٩٥١) - توصل صانع القرار البريطاني إلى أن خطة «روديو» أكبر مما تستدعيه الضرورة، وكذلك فإن الجنرال «أرسكين» اعتمد خطة «القاعدة الصلبة» دون أن يحدد تاريخا لتنفيذها، وإنما تركها معلقة على إخطار لاحق ترتبط مدته بدرجة حرارة الأحداث.

وطبقا لوثائق وزارة الدفاع البريطانية (ملف ٩٦٨٦٤) فإن مقدمة الخطة كانت بالنص التالي:

(سري للغاية)
إعلان من الليوتنانت جنرال السير «جورج أرسكين»
القائد العام لقوات صاحب الجلالة البريطانية في مصر

بما أن معاهدة التحالف الموقعة في السادس والعشرين من أغسطس ١٩٣٦ بين حكومة صاحب الجلالة البريطانية وحكومة ملك مصر - والتي تم التصديق عليها في الثاني والعشرين من شهر ديسمبر ١٩٣٦ - تخول لحكومة صاحب الجلالة البريطانية حق الاحتفاظ بقاعدة عسكرية لقواته في منطقة قناة السويس بمقتضى شروط وضمانات متفق عليها في نصوص المعاهدة المذكورة مع حصانات وامتيازات تتمتع بها قوات صاحب الجلالة البريطانية...

وبما أن هذه المعاهدة - وبنصوصها تظل ملزمة لأطرافها حتى يتم تعديلها بموافقة الطرفين المتعاقدين...

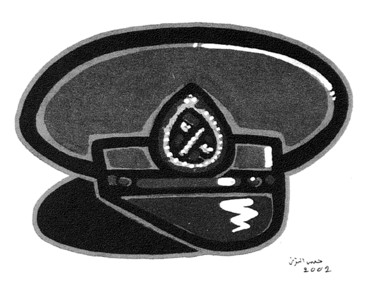
وبما أن الحكومة الملكية المصرية، بالمخالفة لالتزاماتها بنص المعاهدة قامت بإلغائها دون حق ودون اتفاق ودون إخطار مُسبق لحكومة صاحب الجلالة البريطانية...

وبما أن حكومة صاحب الجلالة الإمبراطورية رفضت أن تعترف بأي حق للطرف المصري في النكوص عن التزاماته التي وقَّع عليها...

وبما أن هناك عمليات عنف جرت ضد أشخاص ومؤسسات وقوات مشمولة بحماية حكومة صاحب الجلالة البريطانية...

وبما أن حكومة صاحب الجلالة المصرية عجزت عن توفير الحماية الضرورية المطلوبة ضد هذه العمليات بمقتضى التزاماتها الدولية...

تدق الباب!



وبما أن هناك تهديدات مُعلنة ضد إمدادات القاعدة البريطانية في منطقتى قناة السويس وخطوط المواصلات إليها...

بناء على ذلك كله، فإننى أنا الجنرال «جورج أرسكين» الفارس الحاصل على وسام الإمبراطورية البريطانية ـ والوسام الرفيع «باث» ورفيق الشرف في مجموعة الخدمة الممتازة، وبمقتضى السلطة المخولة لى كقائد عام لقوات صاحب الجلالة البريطانية في مصر ـ أعلن ما يلى:

«أننى المسئول عن حماية قوات صاحب الجلالة البريطانية في منطقة قناة السويس وإلى جوارها ـ كما أننى مسئول في هذه الحدود عن منع أى تعرض لعمل القاعدة وسلامتها، وسلامة جنودها والعاملين فيها، وكفاءة وسلاسة الخدمات اللازمة لها حتى تؤدى عملها دون تهديد أو تدخل أو تعرض من أى درجة.

وفى سبيل تحقيق ذلك فإنى أقرر الإجراءات التالية:

١ ـ كل من يقترف عملا أو يشرع في عمل أو يحرض على عمل من شأنه التأثير على عمل القاعدة وجوارها وسلامة العائلات أو الأفراد المشمولين بحمايتي ـ يُعَرِّض نفسه للاعتقال والمحاكمة والعقاب بمقتضى إجراءات ملحقة بهذا الإعلان.

٢ ـ سوف تُشَكَّل محاكم عسكرية بريطانية تتولى مسئولية تنفيذ ما يقتضيه هذا الإعلان والإجراءات المُلحقة به، وسوف تكون لهذه المحاكم العسكرية سلطة الاعتقال والاحتجاز والاستجواب والتفتيش والمصادرة.

٣ ـ لا يمتد العمل بهذا الإعلان وإجراءاته على المنطقة الواقعة غرب الخط الواصل من بورسعيد إلى الصالحية إلى العباسية إلى طريق القاهرة ـ السويس.

إمضاء

جورج أرسكين

ليوتنانت جنرال

....

....

على أن سير الأمور لم يستدع كذلك تنفيذ خطة «الحد الأدنى» لأن جماعات المقاومة الشعبية ضد الاحتلال البريطانى في منطقة قناة السويس وجدت نفسها أمام معركة غير متكافئة، وقدر الجنرال «أرسكين» أنه في حاجة إلى جهد بوليسى أكثر من حاجته لجهد عسكرى. وهنا فإن الوثائق البريطانية تكشف أنه استدعى خبير أمن بريطانيا يُدعى «مايكل أورورك» وهو مفتش الأمن البريطانى في خدمة وزارة المستعمرات في كينيا، وكلفه بأن يضع لقيادته تقريرا بما يمكن عمله لضبط الأمن في منطقة قناة السويس. وبالفعل جاء «أوروك» وقضى في منطقة قناة السويس أسبوعا كاملا ثم كتب للجنرال «أرسكين» تقريرا اقترح فيه إنشاء قوة بوليس خاص رشح لقيادتها الضابط «كراكنيل» المكلف بالأمن في «إريتريا».

وكان يزكيه في مهمته المصرية أنه تعلم اللغة العربية في «إريتريا». (ومن المفارقات أن الحاكم العام البريطانى لإريتريا أبدى أنه لا يستطيع في الوقت الراهن أن يستغنى عن خدمات «كراكنيل»، وهكذا بدأ البحث عن بديل له ـ من وزارة المستعمرات).



ومع انقضاء شهر نوفمبر ١٩٥١ بدا موقف الحكومة المصرية حرجا في وطنها وفى الإقليم وفى العالم. فإلغاء المعاهدة أوقف المفاوضات ولم يقدم حلا. ثم إن عمليات المقاومة سببت إزعاجا. لكن تفاوت القوة وإمكانية عزل منطقة قناة السويس عن مصر أدى إلى حالة من الاضطراب. وقد وجدت الحكومة المصرية لزاما عليها أن تتصرف ـ خصوصا عندما قامت القوات البريطانية «بأعمال تامين» في جوار منطقة القاعدة استوجبت إخلاء قرى مصرية وهدم مبانٍ واحتلال مواقع متقدمة (في منطقة كفر عبده)، وهو أمر أدى إلى اشتباك بين أهل القرية وبين القوات البريطانية، مما دعا إلى إرسال قوات من بلوك النظام (نوع من قوات الأمن المركزى المعروفة الآن) ـ لتعزيز الأمن، لكن هذه القوات لم تستطع أن تقف ساكتة إزاء ما يجرى أمامها، و[illegible]ع أن عددا من أفرادها وجدوا أنفسهم بدون أوامر ينضمون إلى سكان «كفر عبده» ضد محاولات إبعادهم عن قريتهم وإخراجهم من بيوتهم!

وهنا طلب الجنرال «أرسكين» إلى السفارة البريطانية في القاهرة أن تتصل بوزارة الداخلية في مصر لتسحب قوات بلوك النظام من منطقة القناة كلها، والحجة أن هذه القوات ـ خلافا لقوات البوليس النظامية ـ ليست منضبطة، باعتبار أن هذه القوات (غير المدربة جيدا والمعتبرة من الفرز الثانى والثالث من المطلوبين للخدمة العسكرية) ـ أُرسلت على عجل إلى المنطقة في أجواء متوترة وظروف لا خبرة لهذه القوات بالعمل فيها.

ورفض وزير الداخلية «فؤاد سراج الدين» (باشا) هذا الطلب، وكان معه الحق أن يرفض ـ إلى جانب أنه لم يكن قادرا في ذلك الجو الملتهب على سحب قوات قامت بحماية مواطنين مدنيين تعرضوا لعدوان لا شك فيه!

وبدأت الأمور تتدافع، وقامت الحكومة المصرية بمجموعة إجراءات رأتها لازمة ـ ليس فقط لمواجهة الطوارئ في منطقة قناة السويس ـ ولكن أيضا لإعطاء معنى لقرارها بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، وهكذا أصدرت مجموعة من القرارات:

■ تشجيع عمال القاعدة البريطانية على ترك الخدمة فيها حتى تتعطل مرافقها الحيوية (وأهمها خدمات الموانئ).

كان الجيش البريطانى
فى منطقة قناة السويس
تشكيلا حربيا مقاتلا يدافع
عن مواقع إمبراطورية توشك الشمس أن تغرب عنها،
لكن الإمبراطوريات فى العادة
أشد عنفا أوقات الغروب
لأنها حينئذ أكثر ضعفا

■ الاستيلاء على أرض نادى الجزيرة في الزمالك (وكان حتى تلك اللحظة ملكية بريطانية).

■ استدعاء السفير المصرى في لندن إلى القاهرة احتجاجا على التصرفات البريطانية (في كفر عبده).

■ إصدار قانون يحظر التعاون مع القاعدة البريطانية، وبمقتضى ذلك القانون جرى القبض على متعهد قبرصى اسمه «بابا استراتيس» في الإسماعيلية كان يورد مؤنا للقوات البريطانية، وأكثر من ذلك نجح الأمن المصرى في ترحيله خارج منطقة قناة السويس إلى القاهرة، واحتجت السلطات البريطانية على ذلك واعتبرته عملا من «أعمال القرصنة».

وأدت هذه الإجراءات ـ وغيرها ـ إلى أجواء صدام ينتظر احتكاكا ـ وشرارة ـ ثم لهبا.

ووقع حادث إطلاق نار في التل الكبير على إحدى سيارات السفارة البريطانية وكانت قادمة من العاصمة قاصدة إلى القيادة البريطانية في منطقة فايد، وأحد ركابها ملحق في السفارة، ومرة أخرى احتجت السفارة البريطانية لدى وزارة الخارجية ـ تنسب ما وقع إلى التحريض المستمر في صحافة القاهرة.

وتلا ذلك أن السلطات البريطانية غرب التل الكبير احتجزت ضابط بوليس مصريا برتبة لواء كما احتجزت معه ١٢٠ جنديا من جنود «بلوك النظام»، واتهمت الجميع بأنهم رأوا حادث الاعتداء على سيارة السفارة البريطانية ولم يحركوا ساكنا.

وحين احتجت وزارة الداخلية على ما جرى غرب التل الكبير عادت السلطات البريطانية مرة أخرى إلى الإلحاح على ضرورة سحب قوات «بلوك النظام» لأنها ـ قياسا إلى قوات البوليس النظامى ـ أقل انضباطا وأكثر ميلا إلى الانسياق وراء التحريض. ■

"٣"

واقـع الحــــال

داخل الجـيـش المصــرى

■■ كان قرار البوليس في يد وزير الداخلية ـ بتفويض من رئيس الوزراء ـ لكن قرار الجيش في يد الملك، وذلك يطمئنه ويخيفه في ذات الوقت، وكان يدرك بعض الأسباب بالعقل ويستشعر بعضها الآخر بالغريزة ـ دون تحليل أو تأصيل!

كان داعى طمأنينة الملك ـ بالعقل ـ معرفته أن ضباط الجيش يقسمون يمين الولاء له ـ وليس لحزب أو زعيم أو رئيس وزارة. وكان شعار الجيش منذ تحولت مصر من خديوية إلى سلطنة إلى مملكة في بداية عصر والده «فؤاد الأول» هو: الله ـ الوطن ـ الملك. ثم حدث ـ (أكتوبر ١٩٤٤) وبعد إقالة وزارة الوفد (التى جاء بها إنذار بريطانى جرى التمهيد له بحصار قصر عابدين بالدبابات) ـ أن القائد العام للقوات المسلحة أمر بتغيير الترتيب في شعار الجيش بحيث أصبح: الله ـ الملك ـ الوطن.

وكان ذلك ـ بالعقل ـ يدعو للطمانينة اعتمادا على ظاهر الأحوال، لكن المخاوف كانت ملازمة للطمانينة (بالعقل أيضا) من عدة اعتبارات:

■ الأول ـ أن رجال الملك الموثوق بهم (الدكتور يوسف رشاد طبيبه الخاص) استطاعوا وسط الجيش إنشاء جماعة سرية تنفذ رغباته إلى حد قتل أعدائه السياسيين ـ وإذا كان «يوسف رشاد» قد استطاع النفاذ داخل الجيش وإنشاء تنظيم سرى في قلبه، فما الذى يضمن أن لا يكون هناك آخرون ينظمون ـ وينظمون سرا ـ والقصر هو البادئ بالشر وبالتالى فهو الأظلم!

■ والاعتبار الثانى ـ أن الجيش جزء من الشعب، وشعور الجزء يصعب أن يختلف عن شعور الكل، وإذا كان الشعور العام في البلد ناقدا للملك وساخطا، وفى بعض الأحيان إلى درجة العداء ـ إذن فإن بعض ذلك لابد أن يكون موجودا في الجيش ولو بالتسرب أو بالعدوى.

■ والاعتبار الثالث ـ أن هناك تيارات سياسية في البلد تدرك الأهمية العملية للجيش في الأوضاع الداخلية (باعتباره قوة الإجبار النهائية لسلطة الدولة)، وقد حاولت هذه التيارات أن تجد منافذ تتسلل منها إلى أفراده: سواء الضباط أو ضباط الصف ـ ومن يعرف مدى النفاذ الذى بلغته هذه التيارات ـ وكيف؟!

وراء ذلك كانت هناك أسباب أخرى للتخوف لم يدركها الملك «فاروق» تأصيلا أو تحليلا، لكنها في الغالب لم تكن طلسما على بعض رجال القصر، والحقيقة أن نظرة فاحصة ودارسة على أحوال الجيش وقتها كانت كفيلة بأن تكشف عن كثير من أحوال هذا الجيش الذى كان قراره في يد الملك، وكان عرشه مسنودا عليه في نهاية المطاف.

....

....

[والشاهد أن جيوش الدول لا تنشأ بقرارات أو قوانين، وإنما تنشأ وتنمو وتعيش في خدمة وصحبة أحلام ومشروعات، تبدأ من طموح أمير إلى خيال إمبراطور، ومن وحى عقيدة إلى بشرى مصلحة، ثم إن هذه الجيوش تمر بتجارب تاريخية طويلة تتبلور وتتركز خلالها رؤاها لمهامها في خضم صراعات مجتمعاتها، ثم تتحول الرؤى إلى ضرورات وقواعد أمن للأوطان التى تسكنها هذه المجتمعات والأقاليم التى تتصل بها وتتحرك في مجالها، ثم تتعمق تلك الضرورات والقواعد من خلال تجارب التاريخ الطويلة حتى تتجلى في نظريات للأمن القومى تستخلص من معاناة الحروب والمعارك والأعلام المخضبة بالدم تقاليد تترسخ بالخبرة والمعرفة وتتجدد مؤسسيا ـ زمنا بعد زمن ـ وجيلا إثر جيل، ثم يكون على كل زمن أن يساهم بفكره وعلمه، ويكون على كل جيل أن يعرض همته وقدرته، وأن يقدم جنوده وأبطاله، لأن فكرة الحرب لا تقوم إلا مع فكرة الوطن والشعب والتاريخ، وهى تحتاج دائما إلى المعنى والرمز (البطولة) وإلا تنازلت فكرة الحرب إلى عملية قتل مُنَظَّم وهى مختلفة عن مهمة الجيوش!

وعلى سبيل المثال فإن تجربة الجيش البريطانى على الناحية الأخرى تكفى لشرح فكرة الجيوش، فهى تجربة تبدأ من وقت بروز أمراء الإقطاع إلى زمن ظهور سيطرة الملوك ـ حتى كان ذلك الاقتتال بين العرش والكنيسة، واستعان كل منهما بجيش ثم استحال الحسم ووقع التراضى، فأصبح الملوك يحملون في أيديهم صُلبانا، وأصبح الكرادلة يضعون على رؤوسهم تيجانا، حتى قامت الدولة الإنجليزية الحديثة فاستوعبت التيجان والصُلبان والجيوش، ثم إن الدولة الإنجليزية وجدت نفسها تنافس غيرها من الدول في القارة الأوروبية على تجارة البحار، حتى جاء السباق الإمبراطورى يسوقها إلى الشرق مع غيرها من الإمبراطوريات الأوروبية، وأخيرا أعادها نفس السباق إلى القارة الأوروبية، لأن الإمبراطوريات (مثل الأفاعى!) تُقتل من رؤوسها وليس من ذيولها، وكذلك خاضت إنجلترا والإمبراطورية البريطانية كلها حربا عالمية في أوربا ـ مرة أولى ومرة ثانية. وعبر هذه التجربة الهائلة وطوالها راكم الجيش البريطانى خبرات وتقاليد، وكتب بالعرق والدم ـ وبالدموع أحيانا ـ تواريخ وأساطير، وعرض أمام العالم ـ بالحق أو بادعائه ـ أبطالا من مستوى «مارلبورو» و«ولنجتون» ـ وحتى «آلان بروك» و«مونتجمرى».



وفى الزمن المصرى الحديث فإن الجيش المصرى لم تكن عنده نظرية أمن استراتيجية ترسم وتحدد أهدافا ضرورية ومطلوبة في صراع المصائر. ولا كانت وراءه تجربة تاريخية ترسخ تقاليد دوره. ولا كان في خياله إلهام بطل تدرس حروبه ومعاركه (فضلا عن نظرياته وخططه).

والحقيقة أن تركيبة الجيش المصرى الحديث ذاتها كانت وحدها كافية لتبيان واقع الحال.

فقد كان ضباط الجيش المصرى حتى منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين ـ خليطا من أبناء أسر تركية وشركسية مما تخلف بعد انقضاء عهود المماليك، ثم طرأ تغيير في منتصف الثلاثينيات أغرت به نُذُر حرب عالمية ثانية وتمثل في السماح بقيام جيش مصرى صغير بسلاح بريطانى محدود يمكن تكليفه بخدمات للإمبراطورية البريطانية في حالة حرب محتملة مع ألمانيا وإيطاليا جنوب البحر الأبيض.

وقد تحقق هذا التغيير ـ وهو شديد الأهمية ـ في أجواء توقيع معاهدة الصداقة بين مصر وبريطانيا سنة ١٩٣٦، وعندها وفى عهد وزارة الوفد التى وَقَّعَت تلك المعاهدة تفتحت أبواب الكلية الحربية المصرية لقبول طلبة من أبناء الطبقة المتوسطة يتخرجون ضباطا في جيش راح يتحسس طريقه ضمن مشروع إقامة دولة مصرية حديثة تبحث عن مكان لنفسها وسط منطقة انكشفت فجأة أمام حقائق عصرها.

....

....

[يلحق بذلك أنه لا مفر من الاعتراف بأن التاريخ المصرى الحديث لم يمنح فكرة البطل العسكرى فرصة للاختبار وسط النار.

■ كان هناك مشروع نجم طاف بالأفق البعيد هو الفريق «عزيز على المصرى» (باشا) الذى أعجب به في ذلك الوقت عدد من ضباط الجيش الشبان، لكنهم حين اقتربوا منه

اكتشفوا أن النجم الذى تصوروه ـ تقادم في الزمن وغاب بريقه في «ثقب أسود» كما يحدث للنجوم في أواخر حياتها.

■ وكان هناك مشروع نجم ظهر سريعا في فلسطين وهو القائمقام «أحمد عبد العزيز» قائد قوات الفدائيين العاملة على الخط الشرقى للجبهة (خط العوجة ـ غزة ـ بئر سبع ـ الخليل ـ بيت لحم) ـ (وكان من حظى أننى قدمت «أحمد عبد العزيز» لجمهور واسع بهرته صورته حين رآها لأول مرة على الصفحة الأولى لأخبار اليوم) ـ لكن «أحمد عبد العزيز» لسوء الحظ واجه قدره برصاصة طائشة من موقع مصرى لم يكن لديه إخطار مُسبق بأن قائد قوات الفدائيين سوف يمر بسيارة جيب قاصدا من مقر قيادته في بيت لحم إلى مقر القيادة العليا للقوات المصرية في المجدل (شمال غزة)، حتى يسوى مع اللواء «أحمد المواوى» مشاكل تتعلق بالتنسيق بين قوات الفدائيين (على الطريق الشرقى) ومجموعة الجيش الرئيسية (على الطريق الساحلى) ـ وهكذا فإن النجم الذى لمع بسرعة ـ ما لبث أن اختفى فجأة.

■ وكان مشروع النجم الثالث هو اللواء «فؤاد صادق» القائد العام لقوات الجبهة (بعد عزل اللواء المواوى) ـ (وكنتُ شخصيا ممن أعجبوا زمنها باللواء صادق ورتبت له أن يكتب بانتظام في أخبار اليوم، كما رتبت نشر مذكراته عن الحرب في آخر ساعة، لكن اللواء «فؤاد صادق» كانت له خطط مختلفة، فقد كان مُناه أن يصبح قائدا عاما للقوات المسلحة بدل الفريق «محمد حيدر» (باشا). وعندما تصور اللواء «صادق» أنه لمح إشارة بوعد ـ فقد اعتذر عن عرض أخبار اليوم لكتابة مذكراته (وأعاد إلى الجريدة مبلغ ألف جنيه تسلمها: «مقدم حقوق») ـ ثم وقع أن إشارة القصر الملكى اختفت دون أن يتحقق وعدها).

وربما أن «عبد المنعم رياض» كان مشروع بطل عسكرى قيد الظهور، وكانت هناك شواهد تدل على أن «عبد المنعم رياض» قادر على فهم قضية الحرب، وذلك تجلى من خلال إسهامه المتميز في وضع أسس فكرة خطة «جرانيت» (١) التى تحولت فيما بعد إلى الخطة «بدر» ـ التى نفذتها القوات المصرية في أكتوبر ١٩٧٣ ـ لكن «عبد المنعم رياض» لسوء الحظ استُشهِد ولم يكن هناك عند جسور العبور!]

....

....

[في الحقيقة فإن تجربة الجيش كانت دونها عوائق حقيقية، فالجيش لم يكن بعد في خدمة حلم أو مشروع يقدر على الإلهام، وتجربة ترسخ تقاليد تستوجب الاحترام، ولم تكن لديه نظرية أمن وطنى تحدد وتُوجه، لأن الوطن كان مازال يبحث عن استقلاله من قوى أجنبية تعاقبت على حكمه قرونا ممتدة منذ سقطت آخر أسر الفراعنة أمام غزوة الفرس بقيادة قمبيز. وهكذا فإنه لأكثر من عشرين قرنا ظل الأمن المصرى مربوطا باعتبارات في الأمن ـ أكبر وأوسع ترسمها إمبراطورية قديمة أوروبية: إغريقية، رومانية، أو خلافة عربية: أموية، عباسية، أو سلطنة: مملوكية، عثمانية، أو إمبراطورية مستجدة: فرنسية، بريطانية، وهكذا.

وداخل هذا المجرى التاريخى المضطرب فإن منطق الأمن القومى المصرى غاب، ومع غيابه لم تتخلق بالتجربة التاريخية نظرية له، وفى غياب النظرية لم يقع اختبار الصواب والخطأ، وفي العزلة عن اختبار الصواب والخطأ احتجب معنى النصر، كما احتجب درس الهزيمة، ثم إن نموذج البطل الوطنى لم يعد مجاله التاريخ، وإنما أصبح مخبؤه الأسطورة!]

على أنه بصرف النظر عن كافة الاعتبارات ـ وفيها التاريخ والتجربة ـ فإن منطق الضرورة ومقتضى السياسة كان الآن (بداية سنة ١٩٥٢) يواجه الملك بحقائق لا يستطيع أن يدير بصره عنها:

■ الحقيقة الأولى ـ أنه هذه اللحظة (من أواخر سنة ١٩٥١ وأوائل سنة ١٩٥٢) ليس أمامه غير أن يترك حكومته تفعل ما بدا لها، بما في ذلك إلغاء المعاهدة بين مصر وبريطانيا (١٩٣٦) ـ ومع أنه كان واثقا أن هذا الإلغاء تم لاعتبارات حزبية، وأنه وقع دون استعداد لعواقبه ـ فإنه من جانبه لم يكن يملك غير التصديق على ما قدمته الوزارة إليه، رغم اعتقاده في أعماقه ـ «بأن الوزارة تنتحر وهو لسوء الحظ لا يستطيع أن يمنعها ـ والمهم بالنسبة له أن لا تؤثر محاولة الانتحار عليه وعلى عرشه».

■ والحقيقة الثانية ـ أنه من نتيجة إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ وتداعياته أن الجيش البريطانى استفرد بمنطقة قناة السويس (ثلاث محافظات) ـ ومضى يحاول إخضاعها لإرادته بأقصى درجة من القمع، وأقل قدر من الخسائر.

■ والحقيقة الثالثة ـ أن الملك بذل قُصارى جهده حتى لا تتورط قوات الجيش المصرى سواء تلك المرابطة على الحدود شمال سيناء، أو تلك التابعة لقيادة المنطقة الشرقية في الإسماعيلية ـ فيما يقع داخل منطقة القناة. وقد تحقق له ما أراد بشبه معجزة ولولاها لانفلت الزمام ووقع المحظور، وضمن احتمالاته أن تجد القوات المصرية سواء على الحدود في سيناء أو عند مواقع المنطقة الشرقية في الإسماعيلية ـ نفسها محصورة بين قوات بريطانية تحاول نزع سلاحها من جانب ـ ومن الجانب الآخر قوات إسرائيلية تنتهز الفرصة لتصفية وجودها في قطاع غزة وفي رفح والعريش!

■ والحقيقة الرابعة ـ أنه ومع انتقال الأزمة من منطقة قناة السويس إلى القاهرة، فإن الملك:

ـ ... بواقع أن الحكومة مطالبة بخطوة في الرد على ما جرى في الإسماعيلية...

ـ ... وبحقيقة أن قوات المقاومة الوطنية التى كانت تواجه الإنجليز في منطقة القناة استدارت راجعة إلى القاهرة...

ـ ... وباحتمال أن هذه الأجواء المشحونة في العاصمة أصبحت أشبه ببرميل بارود ينتظر عود كبريت...

لم يعد وراءه (وأمامه) أكثر من أى وقت مضى إلا سند الجيش.

■ والحقيقة الخامسة ـ وهى استخلاص منطقى لكل ما سبق ـ أنه والأمر كذلك فإن الملك مسئول ـ ومباشرة ـ عن ضمان تأمين جيشه بنفسه أو بواسطة رجاله الموثوقين ـ بحيث تتأكد له السيطرة على الجيش نظاما ـ وكذلك تنظيما.

وكان ذلك الاعتبار بالتحديد هو ما دعا القصر إلى التدخل بشدة في انتخابات مجلس إدارة نادى ضباط القوات المسلحة في ديسمبر سنة ١٩٥١.



ربمـا أن «عبد المنعـم رياض»
كان مشروع بطل عسكرى قيد الظهور.
وكانت هناك شواهد تدل على أنه قادر على فهـم
قضية الحرب، وذلك تجلى من خلال إسهامه المتميز فى
وضع أسس فكرة خطة «جرانيت» (١) التى تحولت
فيما بعد إلى الخطة «بدر» ـ التى نفذتها
القوات المصرية فى أكتوبر ١٩٧٣





ولم يكن القصر الملكى وحده هو الذى اهتم تلك الساعة الحرجة بانتخابات مجلس إدارة نادى ضباط الجيش، وإنما اتسعت دائرة الاهتمام فوصلت إلى كل حزب سياسى، بل وإلى كل سفارة أجنبية.

وكانت وراء ذلك دواع مجملها أن هذه الانتخابات سوف تكون بمثابة مرآة تنعكس عليها ـ ولو بطريق غير مباشر ـ أحوال القوات المسلحة المصرية ومشاعرها التى تبدو عصية على الرصد والمتابعة والاستقراء من خارجها. والحاصل أن الجيش بدا لكافة المراقبين في الداخل والخارج ـ منطقة معرضة لتفاعلات ضرورية بالطبيعة ـ لكن الصورة ظلت غيوما على الأفق:

ـ فهناك تداعيات الظروف التى نشأ فيها الجيش وتطور في السنوات القريبة.

ـ وهناك تأثيرات المحيط الاستراتيجى والسياسى الذى جاء بعد الحرب العالمية الثانية ووصلت حقائقه إلى الجيش ولو أصداء من بعيد (وفيه حادث ٤ فبراير ١٩٤٤).

ـ وهناك العلاقة الملتبسة بين ولاء الجيش بهيئته الكاملة للملك ـ وبين قيام تنظيم داخل الجيش مرتبط به مباشرة ومكلف بتصفية أعدائه (إلى درجة القتل كما حدث لأمين عثمان ـ أو محاولة القتل كما حدث مع «النحاس» (باشا)).

ـ وهناك الانكشاف الفكرى لشباب جيش ينشأ مستجدا في وطن يحاول نيل استقلاله بعد الحرب العالمية الثانية، وهو في محاولته مفتوح لقوى وتيارات فكرية بعضها في قوة العاصفة التى انطلقت من كل قيد (وبعضها واصل ليؤثر داخل الجيش لأن الجيش ليس بوتقة مفرغة من الهواء). وكان واضحا أن بعض المؤثرات وصلت: الإخوان المسلمين، والتنظيمات الشيوعية (بالذات تنظيم «حدتو»)، بل ومن ناحية أخرى حركة «مصر الفتاة».

وأكثر من ذلك فإن بعض الأسر ومنها عائلات «عبد الغفار» و«سراج الدين» وغيرها ـ تذكرت فجأة أن لها أبناءً يخدمون في الجيش ـ ضباطا وصل بعضهم إلى أعلى الرتب، وهكذا بدأ «الباشوات» يستدعون شبابا من أقاربهم انتظموا في سلك الضباط ليسمعوا منهم ـ وأكثر من ذلك نشط في مجال الاتصالات والحصول على المعلومات بعض ضباط الجيش من أصهار الأسرة المالكة نفسها. وفي تلك الفترة ظهر في نوادى الطبقة الراقية (كما كانوا يسمونها وفيها نادى السيارات ونادى الفروسية ونادى الجزيرة) ـ عدد من الضباط لم يكن لهم سابق تردد عليها، لكنهم في ظروف طارئة وجدوا طلبا عليهم تمتعوا بمباهجه دون أن يسألوا عن حساباته!

ـ وكانت هناك تجربة دخول حرب فلسطين وما تبعها وواكبها ولحقها من أحداث جسام ساقت إليها الفوضى أكثر مما دعت الحكمة، وفى غمار تلك الفوضى جرى تكليف الجيش بمهام الأمن الداخلى أثناء إضراب البوليس أوائل سنة ١٩٤٨ ـ ثم صدر الأمر إليه بخوض حرب بلا مقدمات وبغير استعدادات (في مايو ١٩٤٨)، ثم فوجئ بصراع مسلح داخل عاصمة الوطن التى تملك قرار الحرب وصلاحية توجيهها، فقد وقع اغتيال رئيس الوزراء داخل مبنى وزارة الداخلية ـ ووقع اغتيال مرشد الإخوان المسلمين في أكبر شوارع العاصمة ـ وهنا فإن قيادات التشكيلات في الميدان وصلتها التعليمات باعتقال جنود وضباط في وحداتها، بعدما أظهرت التحقيقات في قضايا الاغتيالات أن لهم صلة بتنظيمات إرهابية (ووصل عدد الذين طلب ترحيلهم ما بين شهر سبتمبر إلى شهر ديسمبر ١٩٤٨ من ميادين القتال إلى العاصمة تحت القبض والحراسة ٢١٠٠ عنصرا من المجندين و٢٨ من سلك الضباط).

ـ وأسوأ من ذلك فإن الجيش المصرى الذى خاض تجربة فلسطين وجد نفسه بعد وقف إطلاق النار موزعا على ستة جيوب: جيب محاصر في الفالوجة ـ وجيب وحده في قطاع غزة ـ وجيب محيط بالقيادة العامة في العريش ـ وجيب تابع للقيادة الشرقية في الإسماعيلية ـ وجيب مُوزَّع حول القيادة المركزية في القاهرة ـ وذلك

غير الوحدات العاملة في إطار الحرس الملكي، وفوق الجميع قيادة عامة بهيئاتها وطواقمها يشرف عليها ضباط أطلق عليهم اللواء «فؤاد صادق» (باشا) القائد العام لقوات الجبهة في رفح - وصف «حربجية الورق» (يقصد ضباط المكاتب)!



وكان مؤدى ذلك ومعناه أن القوة الرئيسية التي يعتمد عليها النظام - العرش والجالس عليه - معرضة ومكشوفة أمام خطر يصعب تقدير درجته ومداه - لكنه الآن وهذه اللحظة (ديسمبر ١٩٥١) فإن انتخابات مندوبي أسلحة الجيش المختلفة إلى مجلس إدارة نادي ضباط الجيش - سوف تكون أول قياس عملي لما هو خفي داخل الجيش وتحت السطح، وفي نفس الوقت فإن وجود مجلس إدارة منتخب لنادي ضباط الجيش ربما يخلق لأول مرة نوعا من القيادة المعنوية موازيا للقيادة الرسمية.

وهكذا فإن السفير البريطاني في القاهرة السير «رالف ستيفنسون» يكتب يوم ٦ ديسمبر سنة ١٩٥١ إلى وزارة الخارجية البريطانية (٥٢٩/ ١ /١٠١١) قائلا:

«إن الأهمية المعلقة على وقائع الاجتماع الذي يُعقد يوم الاثنين ٣١ ديسمبر ١٩٥١ لاختيار مجلس إدارة نادي ضباط الجيش هي مما لا يخفى على أحد والحقيقة أن انعكاساتها بالغة الأهمية (Very Considerable بنص تعبيره)».

ثم يبين أن السفارة البريطانية - في اهتمامها بانتخابات نادي الضباط - لا تريد - نظرا لأهمية الموضوع - أن تعتمد على مصدر واحد، وهنا فإن تقارير السير «رالف ستيفنسون» تشير إلى نشاط ثلاثة مصادر في آن واحد راح يعتمد عليها - وفي الغالب دون قصد شرير سواء من جانبه أو من جانب من سعى لمعرفة ما عندهم:

- كان لديه بالطبع مصدره الرسمي وهو البريجادير «توماس جولبرن» الذي تظهر تقاريره أنه كان على علاقة ود مع كثيرين من كبار الضباط، بينهم اللواء «فؤاد صادق» واللواء «أحمد شوقي عبد الرحمن» (مدير إدارة الملحقين العسكريين الأجانب) واللواء «محمود صبحي» مدير الكلية الحربية (وأحد المرشحين لمجلس إدارة النادي).

- وكان لديه ابن أخ لـ «أحمد عبد الغفار» (باشا) قطب الأحرار الدستوريين المعروف (وهو القائمقام «محب عبد الغفار» وكان متزوجا من السيدة «فاطمة أبو العزيز» وهي وصيفة شرف في القصر الملكي - وكلاهما كان من نجوم المجتمع المصري في تلك الأوقات). وكان «أحمد عبد الغفار» (باشا) يسمع من ابن شقيقه ويتحدث مع السفير البريطاني وغيره في الإطار العام لعلاقات اجتماعية مقبولة ومشروعة.

- وكان لديه أيضا - طبقا لتقاريره - معلومات يحصل عليها من الدكتور «إبراهيم قدري» وكيل وزارة الزراعة (ومدير حديقة الحيوانات في نفس الوقت) - وكان شقيقا للعميد «جلال قدري» الذي رأس جلسة الجمعية العامة لنادي ضباط الجيش مساء يوم ٣١ ديسمبر ١٩٥١).

وعلى سبيل المثال يكتب السير «رالف ستيفنسون» بناء على معلومات من الدكتور «إبراهيم قدري» (وذلك تقريره) ما نصه:

«لقد حضر الاجتماع ٤٥٠ ضابطا - وذلك عدد لا يستهان به إذا أخذنا في الحسبان أن معظم ضباط الجيش كانوا في مواقع خدمتهم بالضرورة».

ثم يقول السفير البريطاني:

«واللافت إلى آخر حد أن المرشحين الذين كان معروفا أن القصر يريدهم، سقطوا جميعا. فقد رفضت الجمعية العامة اختيار الفريق «محمد حيدر» (باشا) القائد العام للجيش «رئيسا فخريا» للنادي كما كانت رغبة القصر. كذلك سقط أبرز مرشحي الملك وهم «عثمان المهدي» (باشا) (رئيس أركان الحرب وقائد الحرس الملكي قبل ذلك) الذي رشح نفسه لرئاسة النادي، وأهم من ذلك سقط الأميرالاي «حسين سري عامر» قائد سلاح الحدود وهو المعتبر رجل الملك الأهم في الجيش، بل إن الجمعية العامة وهي تختار مندوبي أسلحة الجيش إلى مجلس إدارة النادي أبدت اتجاها معاديا لحسين سري عامر وصل إلى حد تعليق وضع سلاح الحدود بادعاء أن اختصاصه أقرب إلى البوليس منه إلى الجيش»!

والأشد من ذلك إحراجا أن اللواء «محمد نجيب» جرى انتخابه رغم أن الملك أقصاه عن قيادة سلاح الحدود وعين بدلا منه الأميرالاي «حسين سري عامر» بعد أن رَقَّاهُ إلى رتبة لواء.

"٣"

العاصـــمة تلهـــو في حقـــل ألـغـــام!

كانت نتائج انتخابات مجلس إدارة نادي ضباط القوات المسلحة - صدمة عنيفة للقصر الملكي ومن فيه. وكان «حسين يوسف» (باشا) القائم بأعمال رئيس الديوان على اعتقاد لم يتزحزح عنه (طبقا لشهادته المسجلة بصوته) - مؤداه أنه «إذا فقد الملك «فاروق» تأييد الجيش فقد سقطت الملكية» - لكن مشكلة «حسين يوسف» (باشا) أن شئون الجيش بعيدة عنه، لأن الفريق «محمد حيدر» (باشا) يتكفل بالجانب الرسمي منها، كما أن الدكتور «يوسف رشاد» يتولى خطوط الاتصال الخفية بين القصر وبين عدد من ضباط القوات المسلحة، وفي تلك الفترة لحق بهما آخرون غيره، فقد ظهر دور متزايد للواء «محمد حلمي حسين» قائد الجراجات الملكية (وهو في الأصل سائق سيارة الملك)، وكذلك للواء «حسين سري عامر» القائد الجديد لسلاح الحدود.

وكانت مشاعر الملك في تلك الأوقات خليطا يتذبذب: ما بين ثقة متزايدة بالنفس بغير مبرر - إلى شعور بالإحباط لدرجة اليأس بغير داع - وقد تملكه شعور بأنه يقف وحده في مواجهة أزمة ضاقت سُبُلُ حلها وليس هناك من يساعده أو يشير عليه بما يرضيه، وكان توجهه عنيدا نحو ضرورة تغيير الوزارة كخطوة أولى. ومع أن التغيير بدا له مخاطرة، فإن بقاء الأوضاع على حالها بدا له أخطر «مائة مرة»!

وفي الأسبوع الأول من شهر ديسمبر ١٩٥١ استقبل الملك (دون إعلان) - «نجيب الهلالي» (باشا) وعرض عليه رئاسة الوزارة مرة ثانية، وطبقا لنجيب الهلالي (باشا) نفسه فقد كان «منطق الملك حين قابله مرتبا بأكثر من العادة لكنه كان في النهاية سطحيا كما هي العادة!».

قال له الملك «إن الوقت قد حان لتغيير الوزارة - لكنه حتى هذه اللحظة لا يريد أن يجعل من التغيير «انقلابا في البلد»، بل يكفيه أن يكون انقلابا في الوفد»، بمعنى أنه يطلب من «الهلالي» (باشا) تشكيل وزارة تجذب إليها كتلا كبيرة من نواب الوفد وأقطابه الغاضبين من «فؤاد سراج الدين» (باشا) وبينهم في تقدير القصر اثنان من الكبار هما: «عبد السلام فهمي جمعة» (باشا) (رئيس مجلس النواب الوفدي الدائم) و«محمود زكي العرابي» (باشا) (رئيس مجلس الشيوخ الوفدي الحالي) ومعلوماته أن وراءهم كثيرين غيرهم، يعرف الملك من مصادره أنهم لا ينتظرون غير إشارة، ثم إذا هم جاهزون لإنقاذ حزب الوفد وتاريخه ووزارته استجابةً لنداء من رجل في حجم «نجيب الهلالي» (باشا)!

وأحس «نجيب الهلالي» (باشا) (وفق ما روى) أن تلك توصية «حسين يوسف» (باشا) لأن ما طرحه الملك كان «سيناريو سمعه «الهلالي» من قبل واعترض عليه ولايزال يعترض لنفس الأسباب وأهمها أن مثل ذلك «السيناريو» يحتاج إلى وقت ويحتاج إلى ظروف يمكن فيها ضبط رد فعل «النحاس» (باشا) وحصره، لأنه إذا أحس «النحاس» بأن هناك مؤامرة عليه، فهو قادر على أن «يقلب الدنيا» - بما لا يتوقعه أحد»!

وفي نفس الأسبوع استدعى الملك لمقابلته «حافظ عفيفي» (باشا) (وهو السياسي المخضرم ورئيس مجلس إدارة بنك مصر وقتها) - وفوجئ «حافظ عفيفي» بأن الملك يسأله «كيف يستطيع أن يخدم العرش في الظروف الراهنة ويخدم البلد»؟ وأحس «فاروق» أن «حافظ عفيفي» ليس لديه جواب واضح. وأبدى ضيقه قائلا: «إنه لا يُعقل أن ساسة البلد الكبار يتهربون من المسئولية خائفين ويتركونه وحده». وروى «حافظ عفيفي» لنجيب الهلالي (باشا) أنه أحس خلال مناقشة طالت نصف ساعة أن الملك في حالة ضيق، وأنه حاول شد أزره بما معناه «أنه لا يوجد وطني مصري لا يصدع بأمر يراه «جلالة الملك» لازما في هذه الظروف». وأبدى الملك أن الضرورة أصبحت تفرض تغيير الوزارة، ورد «حافظ عفيفي» بأنه مع «جلالة الملك» في ضرورة تغيير الوزارة، لكنه يرى أن هذا التغيير لا يتم إلا بتمهيد سياسي يتولى «تحضير الأرض له». وأبدى الملك «أنه يوافق»، لكنه على «حافظ» (باشا) أن يتفضل ويمهد. وفوجئ «حافظ عفيفي» (باشا) بأن الملك يعرض عليه رئاسة الديوان الملكي حتى يكون بجواره ويقوم بالتمهيد، ولم ينتظر الملك وإنما استطرد «إذا كنت تتصور أن ذلك يُضايق «حسن يوسف» فأنا أطمئنك إلى أن «حسن» نفسه أول من يرحب بمجيئك إلى الديوان، لأنه أول من يشعر أن الموقف «صعب» عليه». أضاف الملك «إن حسن يوسف كان هو الذي اقترح عليه تعيين «عبد الفتاح عمرو» مستشارا سياسيا له بعد أن قررت الوزارة

سحبه من سفارة لندن احتجاجا على التصرفات البريطانية في منطقة قناة السويس، ومعنى ذلك أن «حسن يوسف» يشعر بحاجة القصر إلى «طاقم سياسى كامل» يتحمل المسئولية. وأثناء المناقشة وبطريقة عرضية، وفى شأن ما يجرى في منطقة قناة السويس، واحتمالات ما يمكن أن يجرى - سياسيا - خارج تلك المنطقة، وَجَّهَ «حافظ عفيفى» سؤالا عن:

«إذا كان لدى «مولانا» تقدير موثوق به للأحوال في البوليس؟» - ورد الملك وبسرعة قائلا «إنه لا يعرف».

وواصل «حافظ عفيفى» أسئلته، وكان سؤاله التالى «عن الموقف في الجيش» - ورد الملك بسرعة أيضا قائلا له: «لا تحمل هَمْ هذه المسألة، فهى «شغلى»، وأنا أتولاه بنفسى».

وفى نهاية اللقاء لم يكن أمام «حافظ عفيفى» (باشا) مفر من القبول، وكان آخر سؤال وجهه إليه الملك هو «عليك يا باشا» أن تفكر في من أستطيع أن أكلفه بتشكيل الوزارة في هذه الأجواء؟ ورد «حافظ عفيفى» (باشا) بأنه سوف يفكر، لكنه يريد توجيها يؤشر إلى حدود الاختيار ومواصفاته في رأى الملك، وقال «فاروق» «إنه عرض الوزارة على «الهلالى» - لكن «الهلالى خائف أكثر منك»!

ويوم ٢٥ ديسمبر - قبل انتخابات نادى ضباط الجيش بأقل من أسبوع، صدر المرسوم الملكى بتعيين «حافظ عفيفى» (باشا) رئيسا للديوان الملكى.

وكان القرار مفاجأة لرئيس الوزراء «النحاس» (باشا) - وكان القرار أكثر من مفاجأة بالنسبة لوزير الداخلية «سراج الدين» الذى أدرك بحسه أن تلك مقدمات انقلاب وزارى تضيع به فرصة رئاسته للوزارة - ربما إلى الأبد.

ويوم ١٢ يناير ١٩٥٢ كتب السير «سيسيل كامبل» (عميد الجالية البريطانية في مصر، وكان مازال قائما على الاتصالات السياسية بعدما توترت العلاقات وتعطلت الجسور بين الوزارة والسفارة البريطانية) - تقريرا عن مقابلة أجراها مع رئيس الديوان الملكى الجديد (وهو من الأصل صديق حميم له)، وقد سجل السفير البريطانى تقرير عميد الجالية البريطانية تحت تصنيف «سرى جدا» (رقم ج ٥٢/٥/١٠١١)، وبعث به إلى وزارة الخارجية البريطانية - قائلا: «بدأت فسألت حافظ (باشا) عن صحته، وأجاب بأن صحته على ما يرام». وأضاف «ولكنى يا صديقى في ورطة تصل بى إلى حد اليأس»، وهنا تدخلت زوجته (السيدة فردوس هانم (ابنة «أمين باشا سامى») صاحب «تقويم النيل» وهو واحد من أهم المراجع عن أحوال مصر واقتصادياتها وسياساتها) - قائلة لسيسيل كامبل «هو في موقف صعب ولكن لا تصدقه إذا قال لك أنه تعيس، لأن السياسة غرامه، وأنا لم أره في أحوال طيبة كما أراه الآن عندما عاد إلى العمل السياسى قبل أيام - زادت على ذلك قولها «حافظ روحه في السياسة».

ويستطرد السير «سيسيل كامبل» في تقريره: «دخل «حافظ عفيفى» في تحليل للموقف فقال إنه عندما قَبِلَ رئاسة الديوان كان يعرف أنه مُقْبِل على مهمة صعبة تقتضى منه تضحيات جسيمة، لكنه عندما درس الموقف وجد أن المسائل أكثر صعوبة مما تصور، وأكثر حساسية، فحكومة الوفد لم تكن مستعدة بخطة لما بعد تعطل المفاوضات، وهى على استعداد لأن تشجع أجواء العنف في البلد إلى درجة تسميم الأجواء والوصول بالموقف إلى درجة يستحيل بعدها على أى حكومة غيرها أن تحل محلها!».

(علق السفير البريطانى على هذه الفقرة في برقية إلى لندن بقوله «إن حكومة الوفد تتصرف باعتقاد أن تأزيم الموقف معنا هو بوليصة التامين على حياتها في السلطة!).

ويستطرد السير «سيسيل كامبل» في تقريره فيقول: «إن حافظ عفيفى ذكر له أن حكومة الوفد مصممة على تصعيد حدَة الأزمة معنا، وذلك وصل بهم إلى حد أنكم لو عرضتم عليهم تحويل بريطانيا ذاتها إلى محمية مصرية فإنهم سوف يجدون عذرا للرفض». وطبقا لسيسيل كامبل فقد استطرد «حافظ» (باشا) يقول «المشكلة في الوفد أنه لم يعد فيه الآن مسئول تستطيع أن تبحث معه مشكلة وتجد عنده مشروع حل أو منطق رد: فالنحاس (باشا) أصبح حالة مستعصية على أى حديث نافع، و«فؤاد سراج الدين» رجل لا يوثق به لأنه «كذاب بشع» A Frightful Liar، و«محمد صلاح الدين» هو الرجل الوحيد (في المجموعة) الذى يستحق الاحترام لأنه أمين ومخلص، ومن سوء الحظ أن عدم استطاعته التوصل إلى شيء في التفاوض معكم (مع الإنجليز) أحرجه وأصابه بالقنوط!».

يستطرد السير «سيسيل كامبل» في تقريره فيقول «إننى سألت «حافظ» (باشا) مباشرة «ما هى الصعوبة في تغيير الوزارة الحالية؟» - ورد قائلا «المشكلة أن إقالة الوزارة لابد أن يتبعها حل مجلس النواب والدعوة إلى انتخابات عامة في ظرف ثلاثة شهور، ولابد للملك أن يتحَوَّط لذلك بإعلان الأحكام العُرفية، وهذه تحتاج في فرضها إلى سلطة الدولة، والعُقدة الصعبة أن الملك لا يستطيع أن يراهن على أجهزة هذه السلطة، فلا البوليس يمكن الاعتماد عليه ولا الجيش يمكن الاعتماد عليه».

واستطرد السير «سيسيل كامبل» «في تقدير «حافظ» (باشا) أنه في حالة مواجهة فإن ٧٠٪ من قوة البوليس يصعب ضمان أدائهم لواجبهم، والـ ٣٠٪ الباقين يمكن ضمانهم، وذلك ليس كافيا لقبول المخاطرة.

وفيما يتعلق بالجيش فإن القصر لسوء الحظ كافأ بالرُتَبْ والنياشين والترقيات الاستثنائية ضباطا لا يستحقون، وبالتالى فإن القصر ضَيَّع بعض هيبته أمام ضباط الجيش».

ويزداد إلحاح السير «سيسيل كامبل» على رئيس الديوان الملكى في سؤاله عن تصوره للمخاطر، ويقول «حافظ عفيفى» وينقل عنه السير «سيسيل كامبل» «الذى أخشى منه هو ثورة شاملة تطيح بنا جميعا، وما أركز عليه الآن هو محاولة تدعيم الموقف في الجيش، وهو ما أراه حتى الآن ممكنا، رغم أننى أرى دواعى للشر كثيرة.

وبالنسبة للبوليس فإننى أدرس الآن أحواله لأنى أريد أن أتأكد ما إذا كان موقفه ميئوسا منه أو أنه مازال هناك أمل. يبقى أن الموقف في الجامعات سيىء جدا سواء بين جموع الطلبة أو صفوف هيئات التدريس!».

ويصل السير «سيسيل كامبل» إلى توجيه سؤال محدد لحافظ عفيفى (باشا) - عن من هو رئيس الوزراء المُحْتَمل في حالة تغيير وزارى إذا اقتضت الظروف. ويرد «حافظ عفيفى» «أنه يعرف أن الملك عرض على «الهلالى» (باشا) رئاسة الوزارة وأنه اعتذر. وقد قابل «نجيب الهلالى» بعد ذلك وأحس أنه «غير واثق في البوليس» وهو يستطيع أن يفهمه. ومع ذلك فهو يظن أن «نجيب الهلالى» سوف يكون مرشحا جاهزا إذا لم يكن عليه تحمل الصدمة الأولى التالية لإقالة وزارة الوفد. بمعنى أنه لابد قبله من رئيس وزراء يستطيع مواجهة ظرف الإقالة واستيعابه، وبعدها تكون الأرضية جاهزة لوزارة يرأسها «الهلالى» - وترتب لعملية إصلاح داخلى آن أوانه.

ويستطرد رئيس الديوان في حديثه مع عميد الجالية البريطانية في مصر ليقول: «إنه شعر أثناء مقابلته للملك أنه كاد في لحظة من اللحظات يعرض عليه رئاسة الوزارة، ولم يكن يريد أن يضع الملك أمام اعتذار آخر - بعد اعتذار سبق من «نجيب الهلالى»، وإلا استقر في يقين الملك أن الكل يهرب وأن الجميع خائفون!».

والحقيقة أنه يفكر في سياسى يكون لديه الاستعداد لصدمة ما بعد إقالة وزارة الوفد، وهو بالطبع لا يثق فى «حسين سرى» (باشا) ولا يراه صالحا لهذه المهمة، فالرجل باع نفسه بالكامل لأحمد عبود (باشا)، وهو «الشرير الأكبر» في مصر الآن، لأنه رجل يريد أن «يشترى» مصالحه ويبيع «كل شيء»!».

واصل «حافظ عفيفى» (باشا) كلامه مؤكدا أن الثلاثى الأكثر خطرا على الملك وعلى البلد الآن هُمْ: «أحمد عبود» (باشا) - «إلياس أندراوس» (باشا) - و«كريم ثابت» (باشا)، وكان تواطؤ الثلاثة هو ما دفع الملك إلى تصرفات غير مأمونة العواقب في الظروف الحالية.

وأضاف «أنه يتمنى لو استطاع إقناع الملك بأن يصم أذنيه عن سماع «إلياس أندراوس» و«كريم ثابت»، وأما «عبود» فمن الممكن الحد من ضرره إذا لم يجد رئيس الوزارة الذى يستطيع أن «يوظفه»!».

وفى ختام المقابلة أشار رئيس الديوان الملكى لعميد الجالية البريطانية بأنه يفكر في اتجاهين:

(اتجاه الجيش وهو ينوى أن يقترح على الملك أهمية التخلص من القائد العام الفريق «محمد حيدر» (باشا)، ومع أن الرجل (حيدر باشا) ليس فاسدا إلا أنه فقد مصداقيته في الجيش - وكذلك ينوى اقتراح إنهاء خدمة «عمر فتحى» (باشا) قائد الحرس الملكى، وخدمة «عثمان المهدى» (باشا) رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى.

وهو يفكر في ذات الوقت أن يقترح اسم اللواء «فؤاد صادق» (باشا) (قائد قوات الجبهة) لكى يحل محل «حيدر» (باشا) قائدا عاما للجيش المصرى.

■ ثم اتجاه رئاسة الوزارة، وهو في ذلك الصدد يرى (مع ما في الرأى من مجازفة) - أن «على ماهر» (باشا) هو الرجل القادر على مواجهة صدمة ما بعد

كان «حسن يوسف» (باشا) القائم بأعمال رئيس الديوان على اعتقاد لم يتزحزح عنه (طبقا لشهادته المسجلة بصوته). مؤداه أنه «إذا فقد الملك «فاروق» تأييد الجيش فقد سقطت الملكية»

إقالة «النحاس»، والداعى أن «على ماهر» (باشا) في هذا الشأن «مجرب وله سوابق»!



وفي اليوم التالى كان السير «سيسيل كامبل» على موعد مع «أحمد عبد الغفار» (باشا) قطب الأحرار الدستوريين، وقد نقل عنه في تقرير كتبه وسلمه للسير «رالف ستيفنسون» الذى صنفه «سرى للغاية» (رقم ج ٥٢/٨/ ١٠١١) - وبعث به إلى وزارة الخارجية في لندن:

أبلغنى «أحمد عبد الغفار» (باشا) بما يلى:

- أن «حافظ عفيفى» (باشا) طلب منه أن يحصل على كل معلومات يستطيع الحصول عليها عن الأحوال في الجيش من ابن أخيه (القائمقام محب عبد الغفار)، وأن يجعله مصدرا ثابتا للمعلومات ويقنعه بأنها خدمة وطنية، ويضمن كتمانه بقسم على القرآن يلزمه بحفظ السر!

- علم «أحمد عبد الغفار» أن «حافظ عفيفى» (باشا) يتوجس شرا من البوليس، وكذلك رتب له موعدا مع «إبراهيم عبد الهادى» (باشا) زعيم السعديين الذى أكد له أن لديه صلات في البوليس يستطيع أن يعتمد عليها، وأنه إذا أخطره رئيس الديوان قبل أيام من التغيير الوزارى أن اللحظة حانت، فهو كفيل بضمان طاعة البوليس وولائه.

- أن «حافظ عفيفى» عندما قابل الملك، واقترح عليه الاستغناء عن خدمات «حيدر - وعثمان المهدى - وعمر فتحى» لأنهم يسيئون إليه - رد عليه الملك بحدة قائلا «هؤلاء أناس مخلصون لى» - وأجابه «حافظ عفيفى» «بانه يظن أن جلالة الملك يحتاج الآن أكثر إلى رجال لديهم ثقة الجيش واحترامه، وأن رجلا مثل اللواء «فؤاد صادق» يستطيع خدمته أفضل منهم».

- أن «أحمد عبد الغفار» (باشا) ألح على «حافظ عفيفى» بأن لا يتردد في تولى رئاسة الوزارة إذا عُرضت عليه، لكن «عفيفى» بدا مترددا، و(يظهر أنه مازال قلقا من ولاء البوليس) - وذكر له صراحة «إن المشكلة الأكبر هى إقناع الملك «فاروق» بضبط تصرفاته، فهذه هى النقطة المحورية، ولهذا فهو يظن أن بقاءه في رئاسة الديوان الملكى أكثر فائدة في التأثير على تصرفات الملك، وأما رئاسة الوزارة وتَحَمُّل صدمة ما بعد إقالة وزارة الوفد فإن رجلا مثل «على ماهر» أكثر استعدادا لها وقدرة عليها.

ويكتب السير «سيسيل كامبل» ملحقا يضيفه إلى تقريره فيذكر «إن تقدير «حافظ عفيفى» أن الحكومة البريطانية تستطيع أن تساهم في حل الأزمة إذا هى طرحت مشروع حل للمسألة المصرية أكثر كرما، على أن يظل هذا الحل سريا وموجودا في خزينة السفارة ليقدم كجرعة تقوية لوزارة ما بعد الإقالة، حتى لا يضيع عليها وقت كبير في التردد والانتظار!».



على أن وثائق الخارجية البريطانية تظهر حتى ذلك الوقت أن حكومة الوفد واصلت حركتها وكأنها في واد آخر:

- وينقل السفير البريطانى السير «رالف ستيفنسون» عن «إلياس أندراوس» (باشا) أن «فؤاد سراج الدين» (باشا) يتصور أن فرصته لرئاسة الوزارة تتحسن لأنه «الوحيد الذى يقدر على ضمان ولاء البوليس!».

- وينقل عن رئيس الديوان أن الملك «فاروق» تصرف مع «النحاس» (باشا) بصلف شديد شجعه عليه أن رئيس الوفد لم يتصرف «بالحساسية الواجبة في مثل هذه الظروف»، فقد انتهز فرصة مناسبة رسمية واقترب من الملك «فاروق» يسأله إذا كان يسمح له أن يتقدم إلى جلالة الملك بقائمة إنعامات بألقاب على بعض وزرائه وأعوانه في المناسبة السعيدة لميلاد ولى للعهد. وفقد الملك أعصابه أمام الحاضرين ووجه حديثا غاضبا إلى رئيس وزرائه قائلا له: «هل هذا وقته يا باشا؟ - في هذه الظروف التى تعيش فيها البلد - تريد «رفعتك» بكوات وباشوات ونياشين توضع على صدور وزرائك وأنصارك - وكلهم لا يساوون».

وانعقد لسان «النحاس» (باشا).

- وفي هذا الصدد يضيف السير «رالف ستيفنسون» نقلا عن السير «سيسيل كامبل» أن «حافظ عفيفى» (باشا) رئيس الديوان قال له «إن الملك يعامل «النحاس» و«فؤاد سراج الدين» معاملة الكلاب As if they were very little dogs كما كتب بالنص! (البرقية رقم ج ٥٢/١١/ ١٠١١)».

- وضمن ما يكتبه السير «رالف ستيفنسون» بتاريخ ٢٤ يناير ١٩٥٢:

أن «إلياس أندراوس» أبلغنى أن «كريم ثابت» أوقف علاقاته منذ عشرة أيام بفؤاد سراج الدين، وأن وراء ذلك الفتور سببين:

الأول - أن «فؤاد سراج الدين» لم يرفع مخصصات «كريم ثابت» من المصاريف السرية لوزارة الداخلية، رغم أنه اتفق معه على ذلك.

والثانى - أنه (كريم ثابت) «موعود» - ! - بأن يُعَيَّن وزيرا لشئون القصر في وزارة جديدة يمكن أن تحل محل وزارة الوفد عندما تقع إقالتها. ■

"٤"

القاهــرة تحتــرق والقصــور تحــلم!

■■ لم تكن الأحوال في منطقة قناة السويس هادئة طوال تلك الأسابيع، تنتظر اختبارات القوة في مناطق الظل، أو ألعاب السياسة في قصور الحكم - بل لعل بعض ما كان يجرى في القاهرة كان يحدث آثاره ويسحب ذيوله على المناخ المتوتر في منطقة قناة السويس.

والذى حدث طوال الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر يناير ١٩٥٢ - أن مبررات الاحتكاك بين قوات «بلوك النظام» (وأحيانا قوات البوليس النظامى) - وبين القوات البريطانية تحت قيادة الجنرال «جورج أرسكين» زادت معدلاتها لأسباب مختلفة، منها أنه عندما انسحبت عناصر المقاومة الوطنية مرتدة إلى العاصمة أو منسحبة إلى أطراف محافظة الشرقية على حواف منطقة القناة - أصبح الاتصال أو الاحتكاك بين قوات حفظ النظام المصرية وقوات الأمن البريطانية وجها لوجه ومباشرة، ومع إصرار الجيش البريطانى على إغلاق محافظات القناة إغلاقا محبوكا، ومع رغبة وزارة الداخلية في إبقاء خطوط مواصلات جنودها مع قواعدهم مفتوحة - فإن الاشتباكات تكررت، وفى معظم المرات بدون تخطيط، أى بحركة الفعل ورد الفعل.

وصباح يوم ٢٤ يناير ١٩٥٢ توجه ضابط يمثل القيادة العامة للقوات البريطانية في منطقة قناة السويس إلى محافظ الإسماعيلية يحمل إنذارا بضرورة سحب كافة قوات بلوك النظام الموجودة في المنطقة، لأن عدم انضباطها وقلة خبرتها يجعل أفرادها عُرضة للانفلات في أى لحظة، وجاء الرد من وزارة الداخلية في القاهرة بالرفض!

ومساء نفس اليوم حصل الجنرال «جورج أرسكين» على تفويض من لندن (الإشارة ٦١٠/٨٩ - والبرقية رقم ١٢٥٠ من ملفات وزارة الدفاع) - يخوله اتخاذ الإجراءات التى يراها ضرورية لتأمين قواته بما فيها نزع سلاح قوات بلوك النظام. ولم يرد في التفويض إشارة إلى «قوات البوليس» العادية.

وهنا وجه الجنرال «أرسكين» إلى محافظ الإسماعيلية إنذارا مدته ١٢ ساعة يخرج أثناءها جنود بلوك النظام من المنطقة بدون سلاحهم وإلا فإن قواته سوف تتولى إخراجهم بالقوة، وتنزع الأسلحة الموجودة في يد كل عناصر البوليس وتجردها، ثم تتحفظ على سلاح جنود بلوك النظام وتعيد سلاح جنود البوليس العاديين لكى يتمكنوا من أداء وظيفتهم في حفظ الأمن العام.

وأكثر من ذلك فقد وجد الجنرال «أرسكين» ملحقا بالتفويض يقول له «إنك مخول بوضع جنود بلوك النظام تحت الاعتقال عندك، لأن عودتهم إلى القاهرة بعد نزع سلاحهم يمكن أن يكون عامل تحريض لزملائهم في القاهرة.

وفى الساعة السادسة والربع من صباح يوم ٢٥ يناير بدأ الجنرال «أرسكين» عملية ضد محافظة الإسماعيلية (وبجوارها قسم مبنى البوليس وكذلك مبنى الحجر الصحى)، وقد استحكم في هذه المجموعة من المبانى ما بين ثمانمائة وتسعمائة من عناصر بلوك النظام وجنود وضباط البوليس العادى.

وكان الأمر لدى القوات - من مكتب وزير الداخلية - «بالمقاومة» إلى آخر رجل وإلى آخر طلقة. وفى الساعة العاشرة والنصف، وعندما بلغ عدد الضحايا من الجنود المصريين نحو عشرين شهيدا - اتصل محافظ الإسماعيلية بوزير الداخلية («فؤاد سراج الدين» (باشا)) يعرض عليه «أن المعركة ميئوس منها». وجاء رد الوزير «أن أوامره لم تتغير ومازالت هى المقاومة إلى آخر رجل وآخر طلقة». وفى الساعة الثانية عشرة والربع وكان عدد الضحايا قد وصل إلى ٥٤ شهيدا (مقابل ٣ قتلى من البريطانيين) - أخذ قائد القوة على عاتقه

مسئولية وقف القتال، وطلبت مكبرات الصوت الموجهة من قوة الحصار البريطانية في اتجاه مبنى المحافظة حيث تستحكم قوات بلوك النظام - ومعها قوات البوليس العادية المحاصرة - أن يخرج الضباط المُحاصَرون والجنود فُرادى.

وبالفعل خرج ٧٩٠ جنديا وضابطا، معظمهم من عناصر بلوك النظام وقُرابة المائة من جنود البوليس العادى.

ولم تكن تلك معركة متكافئة، وإنما كانت درجة من البطولة بلا أمل، وهى وقفة تستحق الاحترام وتستحق التكريم - لكن السؤال الذى لم يكن في مقدور أحد أن يطرحه وقتها «ما إذا كان الأمر بمواصلة المقاومة حتى آخر طلقة وآخر رجل قرارا سليما - أو أنه جاء ضمن سياق سياسى أفلتت من يده السيطرة على الحوادث - أم أن وزير الداخلية كانت لديه اعتبارات أخرى؟!



وراح الجنرال «أرسكين» يتابع معركة القوات البريطانية ضد قوة بوليس مصرى أقل عددا - وسلاحا - وعُدة - وتدريبا. وعند الساعة الثانية عشرة ظهرا وأثناء الاجتماع الدورى لهيئة قيادته. كان السؤال المطروح هو «ما إذا كان لازما الآن وضع خطة «القاعدة الثابتة» (أى إعلان الحكم العسكرى في منطقة قناة السويس) للتنفيذ - وقرر الجنرال أن الأمور حتى هذه اللحظة لا تقتضى هذا الإجراء، بل إن قرارات ذلك اليوم شملت إعادة خمسين من الجنود النظاميين الذين وقع احتجازهم مع سلاحهم إلى سلطة محافظ الإسماعيلية كى يقوموا بمهام الأمن الطبيعى، مع استمرار المراقبة والمتابعة، وإخطار القائد البريطاني العام دقيقة بدقيقة بما يستجد.

وكان هناك عنصر واحد استدعى يقظة الجنرال «أرسكين» وحذره، وذلك هو الموقف الذى يمكن أن تتخذه قيادة قوات المنطقة الشرقية للجيش المصرى. وكيف يكون تصرفها - ضباطها وجنودها - إزاء ما يجرى وسط مدينة الإسماعيلية - لضباط وجنود بلوك النظام؟!».

كان الجنرال «أرسكين» قد أُخطر بفحوى مقابلة أجراها البريجادير «توماس جولبرن» (المُلحق العسكرى البريطانى في القاهرة) يوم ٢٣ يناير ١٩٥٢ مع القائد العام للجيش المصرى الفريق «محمد حيدر» (باشا) - وكان أهم ما في المقابلة أن القائد العام المصرى لم يشر بكلمة واحدة إلى ما يجرى في منطقة قناة السويس، واعتبرت هذه علامة طيبة، وقد رأى الجنرال «أرسكين» من باب الاحتياط أن يطلب مجىء البريجادير «جولبرن» إلى الإسماعيلية بنفسه ليكون حلقة اتصال مع قيادة قوات المنطقة الشرقية، خصوصا وهو على معرفة وثيقة بقائدها اللواء «أحمد شوقى عبد الرحمن» (الذى كان مديرا لإدارة الملحقين العسكريين الأجانب في القيادة العامة قبل أن يُعين قائدا لقوات المنطقة الشرقية).

وبالفعل فقد وصل البريجادير «جولبرن» إلى الإسماعيلية، وتوجه فور وصوله إلى قيادة المنطقة الشرقية لقوات الجيش المصرى، واجتمع باللواء «أحمد شوقى عبد الرحمن»، وكان واضحا له (كما كتب في تقريره) «أن هذه القيادة ليست لديها أوامر متعلقة بما يجرى في الإسماعيلية»، باعتبار أن مثل تلك المهام من شئون الأمن ووزارة الداخلية وليست من اختصاص القوات المسلحة أو قيادتها العامة.

على أن ما أمكن حصاره في الإسماعيلية - استحال حصره في القاهرة!



كان يوم ٢٦ يناير يوما غريبا في حياة القاهرة - على كثرة ما شهدته العاصمة المصرية طول تاريخها.

■ من ناحية كانت أحداث الإسماعيلية طول الأسبوعين الماضيين تستثير أصداء لها في القاهرة على شكل مظاهرات ومنشورات زادت وفاضت حين استدارت عناصر المقاومة الوطنية عائدة من منطقة قناة السويس إلى العاصمة، وظنها أن المشكلة «هناك وليست هنا»!

ومع أن بعض المظاهرات خرجت حاشدة وغاضبة (خصوصا مظاهرات يوم ١٤ يناير) - فإن السيطرة عليها ظلت ممكنة، كما أن تعليمات وزارة الداخلية في شأنها استمرت بضرورة الحرص على مسيراتها سليمة وعدم التدخل فيها إلا بقصد «التأمين» وليس «الاعتراض».

على أنه بعد وقوع «مأساة» الإسماعيلية يوم ٢٥ يناير، فقد كان منتظرا أن تكون المظاهرات أوسع نطاقا وأكثر عنفا، وتأكد ذلك فعلا منذ ساعات الفجر حين عُرف أن ثكنات «بلوك النظام» في طرة وفى العباسية لم تهدأ طول الليل، لأن ما جرى في الإسماعيلية من تركيز البريطانيين على أفرادها، أثار هياج الثكنات عندما عرفت تفاصيله وفيها أسماء الشهداء من أفراد جنود «بلوك النظام»!

وحين بدأ أول ضوء من صباح يوم ٢٦ يناير، كانت تجمعات من قوات «بلوك النظام» تتجه أفواجا مستنفرة ومستفزة إلى جامعة القاهرة في الجيزة، وكانت تلك حركة عفوية، باعتبار أن شباب الجامعة في تلك الظروف كانوا فى مقدمة الصفوف وبؤرة الحيوية الأكثر فورانا. يُضاف إلى ذلك أن الجامعة كانت الساحة التى تركز عليها جهد كل الأحزاب والجماعات وفصائل المقاومة والجهاد، كما اتجه إليها التحريض على الثورة وضد الفساد!

وهنا فقد كان منطقيا توقع أن يكون وصول عناصر بلوك النظام الهائجين إلى الجامعة الفوارة بالحيوية والحمية الوطنية - لحظة يتطاير فيها الشرر، وحتى إذا لم يكن هناك تحريض إضافى أو استثارة!

■ ومن ناحية ثانية فإن الملك «فاروق» كان قد حدد هذا اليوم بالذات (٢٦ يناير ١٩٥٢) وهو اليوم الذى يبلغ فيه ولى عهده يومه الأربعين - لكى يقيم احتفالا ضخما في قصر عابدين، يدعو إليه أكبر عدد ممكن من قيادات الجيش وضباطه، وهدفه المُعْلَن «إرادته الملكية بإهداء ولى عهده إلى القوات المسلحة»، تأكيدا للرابطة المقدسة بين «العرش» وبين «الجيش».

لكن الهدف المُعْلَن كان وراءه قصد إضافى، هو أن يكون احتشاد الجيش أمام شُرْفة قصر عابدين وخروج الملك يحمل ولى عهده (ليهديه للجيش) - بمثابة مظاهرة ترد على ما جرى في انتخابات مجلس إدارة نادى ضباط القوات المسلحة.

وكان الترتيب أن أكثر من ألفى ضابط من القوات المسلحة سوف يحيطون بالملك في سرادق هائل نُصب في الساحة الداخلية لقصر عابدين، وسوف يجلسون معه على الغداء، وأن بعضهم سوف يدعون تباعا إلى مائدته ويسمعون منه ويأكلون ويشربون صحبةً معه!



وحتى الساعة العاشرة والنصف كانت الأحوال في العاصمة مضطربة - لكنها مازالت في إطار المتوقع والمحتمل في مثل تلك الظروف، مع ظهور تصرفات غريبة في جو أزمة تطول كل أطراف السلطة وتضغط عليهم - وتولدت هواجس جاءت بها أسباب من سوء الفهم كان يمكن تداركها لو أن هذه الأطراف كان بينها اتصال - وانزلق البعض بسوء التقدير إلى أنواع من الغفلة لا يمكن أن يكون لها تفسير مقبول أو معقول!

■ وعلى سبيل المثال فإن وزارة الداخلية (طبقا لتحقيقات المباحث العامة) تلقت في الساعة التاسعة والنصف معلومات بأن هناك تجمعا حاشدا من الإخوان المسلمين توجه إلى قصر عابدين إظهارا للضيق من تصرفات «الوزارة»، «لأنها فضحت عجزها عن إدارة مصائر البلاد والعباد». وفي الإشارة (طبقا للتحقيقات أيضاً) «أن مكتب الإرشاد يريد أن تتوافق مسيرة الإخوان إلى القصر مع دعوة الملك لضباط الجيش، وذلك بقصد إحداث أكبر قدر من التأثير».

وكان وزير الداخلية «فؤاد سراج الدين» شديد الارتياب من مظاهرة الإخوان واتجاهها نحو القصر الملكى وقت تجمع الجيش في ساحته (وشكه أن ذلك تدبير مرسوم)!

■ وفى مثال آخر (وطبقا لشهادة «حسن يوسف» باشا) فإن الملك أُبلغ في الساعة العاشرة والنصف، وبينما هو يستعد لاستقبال قادة القوات المسلحة (بما في ذلك أنه أطل عدة مرات من وراء إحدى النوافذ على حالة الاستقبال الكبرى على الميدان، يرقب وصول مواكب الضباط إلى ساحة القصر) - بأن هناك مظاهرات واسعة النطاق تجتاح شوارع القاهرة، وأن أكبر هذه المظاهرات توجهت إلى رئاسة مجلس الوزراء، وأطل عليها «عبد الفتاح حسن» (باشا) من إحدى الشرفات، وألقى خطابا حماسيا ألهب المشاعر، ثم تلقى الملك معلومات بأن هناك عددا من ضباط البوليس يشاركون في المظاهرات، ثم أكد له الدكتور «يوسف رشاد» بناء على رؤية شهود عيان «أن بعض المظاهرات كانت بالفعل تحت قيادة ضباط من البوليس بملابسهم الرسمية وسلاحهم».

(وكان ذلك صحيحا لكن الضباط والجنود المشاركين في المظاهرات كانوا من قوات بلوك النظام).

واستمع الملك «فاروق» مندهشا إلى ما نقله إليه الدكتور «يوسف رشاد»، وتوجه مندفعا إلى مكتب رئيس الديوان «حافظ عفيفى» (باشا) الذى كان يتحدث مع «حسن يوسف» (باشا) - وطلب من الدكتور «يوسف رشاد» أن يكرر أمام الرجلين ما سبق وأبلغه به. وكان الملك مازال واقفا والآخرون وقوفا مثله يسمعون، وكان هو أول من تدخل موجها السؤال لحافظ عفيفى (باشا):

«هُمه عاوزين إيه؟»، ثم استطرد: «سراج الدين» (يقصد فؤاد سراج الدين) عنده لعبة بيلعبها - وهى مكشوفة»!!

ولم يكن لدى أحد - ممن سمعوا ملاحظته الملكية - جواب!

■ وفى الساعة الحادية عشرة والربع اتصل مدير الأمن العام بوزير الداخلية الذى كان يتابع التطورات من مكتبه (وصل إليه في الساعة العاشرة إلا الربع) ليبلغه أن ميدان الأوبرا يشهد مظاهرة كبيرة تتدفق على الميدان قادمة من اتجاهين: شارع فؤاد (٢٦ يوليو الآن)، وشارع إبراهيم باشا (القادم من ميدان محطة السكة الحديد)، وفى بلاغ مدير الأمن العام لوزير الداخلية «أنه لوحظ ظهور بدايات عنف ضد كازينو بديعة (سينما الأوبرا الآن)».

وكانت تعليمات وزير الداخلية بعد أن استمع إلى التفاصيل من اللواء «محمود طلعت» (مسئول القلم السياسى) - واضحة:

- متابعة التجمهر وحصره دون اشتباك.
- عدم الاحتكاك على الإطلاق مع مواكب المظاهرات التى تتدفق في وسط البلد.
- منع مظاهرات ميدان الأوبرا من دخول شارع الكيخيا (طريق قصر عابدين) وذلك بإقامة ستار عازل - وليس بالقوة إلا إذا صدر الأمر منه مباشرة.

■ ثم ارتأى «فؤاد سراج الدين» (باشا) أن يخطر «مصطفى النحاس» (باشا) أن المظاهرات في القاهرة كبيرة، وأن هناك عناصر تحاول استغلالها -



تلقى الملك معلومات بأن هناك عددا من ضباط البوليس يشاركون في المظاهرات، ثم أكد له الدكتور «يوسف رشاد» بناء على رؤية شهود عيان «أن بعض المظاهرات كانت بالفعل تحت قيادة ضباط من البوليس بملابسهم الرسمية وسلاحهم»



لكن الموقف تحت السيطرة. ومن الغريب أن وزير الداخلية لم يستطع إبلاغ معلوماته بنفسه إلى رئيس الوزراء، لأن «رفعة الباشا» كان مع مدام «جورجينا» وهي سيدة أرمنية متخصصة في قص أظافر اليدين والقدمين (مانيكور وبديكور) - وكانت تقصد مرة كل عشرة أيام إلى بيت «النحاس» (باشا) تعتني بأظافره، خصوصا أظافر قدميه، وكان أصبعه الأكبر معرضا دائما للغرز في الجلد مما يستوجب عناية خاصة يستحقها رجل في سنه وفي ظروفه الصحية، مبالغ في حرصه طول الوقت. وعلى أي حال فظواهر التصرفات تدل على أن «النحاس» (باشا) لم يشعر بالخطر مما بلغه عن الأحوال في القاهرة.



وفيما بين الساعة الثانية عشرة ظهرا والساعة الثانية بعد الظهر، كان الموقف في العاصمة يتردى بسرعة لا يبدو أن أحدا تنبه لها أو لاحقها بقرار صائب، حازم أو مسئول.

وفي الحادية عشرة والنصف (طبقا لكل التحقيقات والشهادات) بدأ هجوم عنيف بالحجارة على كازينو أوبرا - تلته بسرعة عملية اقتحام لشرفة المبنى ومدخله - ثم ظهرت من الداخل ألسنة لهب - وفي دقائق كانت عدوى العنف تنتشر حول ميدان الأوبرا ومداخله: شارع فؤاد - شارع عدلي - شارع ثروت - شارع قصر النيل، وبدا أن قلب العاصمة كله في خطر.

....

....

[وحدث أنني كنت في الساعة الحادية عشرة صباحا داخل مبنى أخبار اليوم - وتوجهت إلى اجتماع في مكتب الأستاذ «علي أمين» شارك فيه توأمه الأستاذ «مصطفى أمين»، وبينما نحن نناقش احتمالات ما يجرى وكيف تكون تغطيتنا له إخباريا (واليوم يوم سبت - وعدد آخر ساعة المُقبل بعد أربعة أيام - وعدد أخبار اليوم بعد ستة أيام (ولم تكن جريدة الأخبار اليومية قد صدرت بعد، والحقيقة أن مشروع إصدارها وُلد ذلك اليوم) - دق جرس التليفون ورفع «علي أمين» السماعة، ثم قال لي همسا: «هذا أحمد حسين (زعيم مصر الفتاة) يطلب أن يتحدث إليك»، وجاءني صوت الأستاذ «أحمد حسين» بنبرته العالية - والمجلجلة معظم الأحيان - يقول: «ماذا تفعل في مكتبك حتى الآن، انزل إلى الشارع لترى بقية المناقشة التي لم تقنعك في بلبيس (كان يقصد ما كتبته ناقدا عن كتائب التحرير التي لم أعثر لها على أثر أراه وأتحقق منه غير دائرة بالطباشير الأبيض في وسطها عبارة كتائب التحرير مرت من هنا)».

ولم يترك لي الأستاذ «أحمد حسين» فرصة رد، وإنما استطرد يقول «قرأنا لك تغطي عواصم الدنيا شرقا وغربا - فانزل الآن إلى عاصمة مصر و«شوف» بنفسك!

وأعدت سماعة التليفون إلى مكانها ورُحت أروي للآخرين ما سمعته من الأستاذ «أحمد حسين» - لكن جرس التليفون دق مرة ثانية - ومرة ثانية رد الأستاذ «علي أمين»، ومد سماعة التليفون في اتجاهي يقول لي «هذا إدجار جلاد (باشا) يطلبك».

(كان «إدجار جلاد» (باشا) صاحب جريدة الجورنال ديجبت من أبرز رجال القصر الملكي في تلك الأيام، وكانت معرفتي به أنه كان منظم جائزة «فاروق» الأول للصحفيين الشبان (تحت سن الثلاثين سنة)، وكنت قد حصلت على هذه الجائزة ثلاث مرات متوالية (مرة عن تحقيقات وباء الكوليرا في مصر - ومرة عن تغطية الحرب الأهلية في البلقان - ومرة ثالثة عن تغطية أحداث الشرق الأوسط وفيها حرب فلسطين، والانقلابات التي شهدتها سوريا ما بين ١٩٤٩ إلى سنة ١٩٥١) - وكان «جلاد» (باشا) في الأيام الأخيرة قد اتصل بي يطلب مني بلطف أن لا أتقدم للجائزة مرة رابعة لتحقيقات قمت بها في إيران وظهرت سنة ١٩٥١ في كتاب بعنوان «إيران فوق بركان»، وكان رأيه أن أترك الفرصة لغيري (وكان ذلك رأيي أيضا).

وهكذا فإن اتصال «جلاد» (باشا) لم يكن بلا مقدمات، لكن ذلك الصحفي الكبير وثيق الصلة بالقصر كان لديه الآن ما يريد أن يسألني فيه، وقد بادرني مستفسرا: «هل لديك علم بما يجري في شوارع البلد؟»، وقلت له: «إننا الآن نتابع ويظهر أن هناك بدايات عنف»، وكان تعليقه: «يظهر أن المسألة خطيرة.. خطيرة جدا».

ولم أكن في حاجة إلى تنبيه جديد، وكذلك نزلت ماشيا على قدمي من مبنى أخبار اليوم إلى شارع «فؤاد» ومعي الزميل الصديق الأستاذ «محمد يوسف» المصور الأشهر في ذلك الوقت.

وكانت المشاهد التي تنتظرنا مما لا يخطر على بال أو على خيال.

كان حريق القاهرة في أوله - لكنه راح يندفع مجنونا نحو ذروته!].



وفيما بين الساعة الواحدة والساعة الثانية بعد ظهر يوم ٢٦ يناير - كان القرار الأمني في مصر معطلا، لأن «فؤاد سراج الدين» (باشا) وزير الداخلية انشغل بمسألة خاصة لم يرض بتأجيلها لأسباب رآها - وأمر بإشعال النور الأحمر على باب مكتبه من ناحية السكرتارية تحذيرا، وكذلك توقف تحويل أية اتصالات تليفونية تطلبه، واختلى الوزير (طبقا لوثيقة مسجلة في الشهر العقاري برقم ٢٣٤٥) بخمسة رجال تجمعوا في مكتبه تلك اللحظات العصيبة وهم طبقا للوثيقة:

- الأستاذ «أحمد يوسف شلبي» (مأمور توثيق الشهر العقاري بالقاهرة).
- الأستاذ «تيودور حداد» (ابن المرحوم نقولا حداد) - محام ومقيم في رقم ٣ ميدان توفيق.
- الأستاذ «محمد عبد الرحيم سماحة» (بك) (ابن المرحوم عبد الرحيم سماحة) - محام مقيم في فارسكور.
- الخواجة «جورج عريضة» مالك العقار رقم ٢٣ شارع عبد الخالق ثروت.
- والخامس هو نفسه صاحب المكتب والذي أشير إليه في وثيقة الشهر العقاري بوصف «حضرة صاحب المعالي محمد فؤاد سراج الدين (باشا) وزير الداخلية.

كانت وثيقة الشهر العقاري مكونة من أربع صفحات مكتوبة بالآلة الكاتبة هي عقد بيع العمارة رقم ٢٣ شارع عبد الخالق ثروت والتي يملكها «جورج عريضة» إلى «فؤاد سراج الدين» (باشا) بمبلغ إجمالي قدره ثمانون ألف جنيه مصري.

وكان الأستاذ «تيودور حداد» هو محامي الخواجة «جورج عريضة» بائع العمارة، وشاهد العقد من جانبه - وكان الأستاذ «محمد (بك) عبد الرحيم سماحة» هو الوكيل عن «فؤاد سراج الدين» (باشا) مشتري العمارة الجديدة وشاهد العقد من جانبه.

والمدهش أن بداية العقد كانت على النحو التالي:

إنه في يوم السبت الموافق ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ - ألف وتسعمائة واثنين وخمسين - الساعة ١:٣٠ مساءً.

بمكتب التوثيق بالقاهرة وقد انتقلنا إلى وزارة الداخلية.

فإننا نحن «يوسف أحمد شلبي» موثق العقود لدى المكتب المذكور

وفي حضور كل من:

(قائمة الأسماء)

وتمضي الوثيقة إلى تلخيص اتفاق بيع «العقار المذكور» بعد الإقرار بالمعاينة وقبول المشتري للعقار بملحقاته ومشتملاته «بحالته الراهنة» - إلى بيان حدوده وجيرته من النواحي الأربعة - تتوالى بنود العقد ستا، حتى تجيء نهاية العقد لتقول:

تحرر هذا العقد في اليوم والشهر والسنة المبينة أعلاه بعد تلاوتنا له بمعرفتنا بصوت عال مفهوم، وقد صادق ووقع عليه الحاضران والشاهدان، ونحن موثق العقود بهذا المكتب، وقد صرح معالي المشتري لحضرة «محمد بك عبد الرحيم سماحة» في استلام الصورة التنفيذية.

إمضاء: فؤاد سراج الدين - إمضاء: جورج عريضة.

إمضاء: تيودور حداد - إمضاء: محمد عبد الرحيم سماحة.

يحتوي هذا العقد على سبع ملحقات.

الموثق

إمضاء

يوسف أحمد شلبي

....

....

[ولم تكن صفقة شراء عمارة الخواجة عريضة هي الصفقة الوحيدة التي أتيحت فرصتها «لُقْطَة» في تلك الظروف، وإنما الحقيقة أنه طول الفترة التي دوى فيها رصاص الاغتيالات في مصر ابتداءً من سنة ١٩٤٤، وبدأت وتوقفت معارك حرب فلسطين، واندلعت الاضطرابات ضد قوات الاحتلال في منطقة قناة السويس - كان أغنياء الأجانب في مصر قافلة هاربة تريد التخلص بأسرع ما يمكن من أملاكها الثابتة، وبالذات عقارات قلب القاهرة والإسكندرية، وكان البيع أفضل ما يكون لأصحاب النفوذ القادرين على تأمين طرق الهرب ومسالكه!.]

....

....

والآن وعندما انطفأت اللمبة الحمراء على باب مكتب وزير الداخلية في الساعة الثانية وأربع دقائق - كان الوقت قد تأخر كثيرا، كما أن فرصة غالية ضاعت بلا ثمن وبلا تعويض!



وفي الساعة الثانية والنصف كان وزير الداخلية قد تبين حجم الكارثة التي حلت بعاصمة البلاد حريقا ودمارا - ودمًا (أكثر من أربعين قتيلا بينهم ثمانية من البريطانيين في نادي «الترف» Turf Club وحده) - ومالاً (قدر يومها بمائة مليون جنيه (بقيمة النقود وقتها) وقد زاد هذا التقدير كثيرا عندما بدأ رفع الأنقاض وجرد المحتويات التي أفلتت من اللهب).

ولحظتها اتصل «فؤاد سراج الدين» (باشا) برئيس الوزراء «مصطفى النحاس» (باشا) يبلغه بنفسه خطورة ما آلت إليه الأحوال، ويعرض عليه «أنه لسوء الحظ يجد البوليس

ما بين رغبته فى استشارة دولية وعدم استعداده لإجرائها مع السفير البريطانى، فإن الملك «فاروق» طلب استدعاء السفير الأمريكى «جيفرسون كافرى» إلى القصر الملكى، وحاول «عبد الفتاح عمرو» (باشا) أن يرجو الملك فى مقابلة السفير البريطانى أيضا، لكن الملك «فاروق» رفض وأصر على الرفض

غير قادر على ضبط الأمن واستعادة السيطرة، ولذلك فإنه اتصل بوزير الحربية طالبا تدخل الجيش، وأبلغ وكان يعرف ذلك مسبقا ـ أن تدخل الجيش لا يمكن أن يتم إلا بواسطة القائد العام للجيش الذى يلزمه أمر من الملك بوصفه القائد الأعلى للجيش».

وبعد حديثه مع «النحاس» (باشا) ظل «فؤاد سراج الدين» (باشا) يحاول الاتصال بقصر عابدين طالبا «حافظ عفيفى» رئيس الديوان مرة، و«حسن يوسف» وكيل الديوان مرة، والفريق «محمد حيدر» مرة ثالثة ـ لكنه لا ينجح في الوصول إلى أحد منهم. والرد الذى يتلقاه أنهم جميعا «في حضرة صاحب الجلالة الملك يشاركون لقاءاته مع ضباط الجيش» ـ

ولم يجد «فؤاد سراج الدين» مفرا من أن يترك مكتبه ويتوجه بنفسه إلى قصر عابدين، وتمكن أخيرا (حوالى الثالثة والربع) من الوصول إلى مكتب التشريفات، طالبا تدخل الجيش ـ ملحا ـ راجيا ـ وفي إحدى اللحظات متوسلا.

ولم يكن هناك تفسير للتأخير في الرد عليه ـ وفي الاستجابة إلى طلبه ـ غير شكوك وهواجس ساورت الملك وعددا من رجاله والدواعى ملتبسة بالشك وسوء الظن:

■ وربما أنه لم تكن لديهم صورة كاملة للموقف في العاصمة.

■ وربما أن الملك كان مازال يظن أن وزير الداخلية «عنده لعبة يلعبها».

■ وربما أنه (فاروق) كان راغبا في إحراج وزير الداخلية والوزارة إلى أقصى مدى، وبما يسمح له بحرية التصرف.

■ وربما ـ وهو احتمال وارد ـ أنه لم تكن تحت تصرف قيادة المنطقة المركزية للجيش قوات كافية ـ جاهزة.

■ وربما ـ وهو افتراض لا يمكن استبعاده بالكامل ـ أن القيادة العسكرية لم تكن واثقة من رد فعل الجيش إذا نزل إلى شوارع العاصمة وفيها بقايا المظاهرات وشراذم السلب والنهب ـ وقد لاح الغروب ولعلعت ألسنة النار وظهر وهجها مع نزول الظلام!

وفي الساعة التاسعة مساءً صدر مرسوم ملكى بإعلان حالة الطوارئ ـ وكانت طلائع وحدات الجيش (سرايا من الكتيبة السادسة المشاة) قد وصلت فعلا إلى حديقة الأزبكية ـ ثم أذاع رئيس الوزراء «مصطفى النحاس» (باشا) بيانا بصوته أعلن فيه «أن القاهرة تعرضت لجريمة نكراء».

على أن «النحاس» (باشا) كان قبل إلقاء بيانه ـ وبعد البيان شبه واثق أن خطاب إقالته بدأت كتابته، والأسباب واضحة، والمسئولية ـ مهما قيل وقال ـ لا يمكن التهرب منها، والثمن فادح وسوف يدفعه الجميع، وهو نفسه أولهم!

(وكان شعور «النحاس» (باشا) تلك اللحظة بالخلاف مع آخرين من زعماء الوفد. قدروا أن الملك لا يستطيع أن يستغنى عن الوزارة الآن ـ على الأقل لتتحمل تبعات ما جرى ـ وكانوا مخطئين وكان زعيم الوفد العجوز يعرف أكثر). ■

«٥»

واشنطن تقترب

ولندن تبتعد!

■■ مساء ذلك اليوم الذى احترقت فيه القاهرة وقع تطور سياسى بالغ الأهمية لم يخطط له أحد، ولم يرتب له طرف ـ لكن حقائق الأشياء فرضته على سياق الحوادث ودخلت به إلى المجرى الرئيسى للتطورات، ففى مساء ذلك اليوم قرر الملك «فاروق» ـ وبمشورة من «حافظ عفيفى» (باشا) رئيس الديوان، و«حسن يوسف» (باشا) وكيل الديوان، و«عبد الفتاح عمرو» (باشا) (وهو لحظتها مستشار الملك المكلف بالسياسة الدولية) ـ أن واقع الحال يُحَتِّم عليه إقالة حكومة الوفد، وحتى إذا لم تكن هذه الإقالة رغبة ملكية تلح عليه منذ شهور، فإنها الآن ضرورة سياسية وعقاب عادل.

وكان الملك في أعماقه يحس أنه لا يستطيع التصرف حتى في الشأن الداخلى ـ على الأقل منذ ٤ فبراير سنة ١٩٤٤ وحتى الآن ٢٦ يناير ١٩٥٢ ـ إلا بموافقة الحكومة البريطانية أو الاستئناس برأيها أو استمزاج رغباتها. وهو هذه اللحظة الحرجة يريد إقالة الوزارة ـ لكنه فى الوقت نفسه لا يريد أن يقابل السفير البريطانى السير «رالف ستيفنسون». وما بين رغبته في استشارة دولية وعدم استعداده لإجرائها مع السفير البريطانى، فإن الملك «فاروق» طلب استدعاء السفير الأمريكى «جيفرسون كافرى» إلى القصر الملكى، وحاول «عبد الفتاح عمرو» (باشا) أن يرجو الملك في مقابلة السفير البريطانى أيضا، لكن الملك «فاروق» رفض وأصر على الرفض، لأنه «قرفان من الإنجليز»، فهم «مسئولون عن جزء من المصيبة التى وقعت، لأنهم الذين أصروا دائما على ضرورة وجود «النحاس» في الحكم، وهم الذين تعنتوا في المفاوضات مع «النقراشى» و«صدقى» ـ وحين جاء لهم بحبيبهم «النحاس» ـ لم يعطوه هو الآخر شيئا».

وتدخل «حافظ عفيفى» (باشا) ـ طبقا لرواية «حسن يوسف» (باشا) و«عبد الفتاح عمرو» (باشا) ـ يعرض أنه لا بأس من أن «يرى» جلالة الملك مقابلة السفير الأمريكى أولا ـ لكن ذلك لا يمنعه أن يقابل السفير البريطانى ثانيا ـ ومع أنه (عن نفسه) يتفهم مشاعر «جلالته»، فإن هناك حقائق سياسية يصعب لسوء الحظ تجاهلها، وفيها أن هناك اتفاقا على تقسيم الاختصاصات والنفوذ بين الأمريكان والإنجليز. وفي هذا الصدد فإن الأمريكان أول من يسلم بأن البلدان العربية عموما ـ خصوصا «مصر» و«العراق» ـ في اختصاص ومنطقة نفوذ الشريك البريطانى.

وصمم الملك على رأيه، وبالفعل فإنه استقبل «جيفرسون كافرى» في قصر عابدين في الساعة العاشرة والنصف مساء يوم ٢٦ يناير وأبلغه:

ـ أنه قرر إقالة وزارة «النحاس» (باشا) (وأن ذلك سوف يحدث غدا «٢٧ يناير»).

ـ أنه اختار «على ماهر» (باشا) لرئاسة الوزارة الجديدة لأنه المرشح الوحيد الجاهز والقادر والمستعد لمواجهة ما بعد إقالة «النحاس» (باشا).

ـ وهو يعرف أن «أصدقاءكم» الإنجليز لهم رأى في «على ماهر»، لكن ذلك لا «يؤرقه» الآن بسبب خطورة الظروف، وهو على أي حال يعرف أن اختيار «على ماهر» لن يكون مفاجئا للإنجليز (لأن هناك اتصالات بينه وبينهم)، لكنه يتوقع من الحكومة الأمريكية أن تساعده الآن على «إفهامهم في لندن» أن الظروف لا تسمح لأحد أن ينتقى الآن على مزاجه، وأنه هو شخصيا في ظروف مختلفة لم يكن ليختار «على ماهر»، لكنه حتى مرشحيه المفضلين لرئاسة الوزارة (حافظ عفيفى ـ ونجيب الهلالى) ـ متحمسون الآن لعلى ماهر رئيسا لوزارة «طوارئ».

ـ أنه يطلب بصفة عاجلة تدخل الحكومة الأمريكية مع لندن «لإقناعهم بعدم اتخاذ أية إجراءات مستفزة» في منطقة القناة، فقد أخطر من «الإسماعيلية» بأن الجنرال «أرسكين» أعطى إنذارا مدته ٤٨ ساعة لتنفيذ خطة بريطانية يقوم الجيش البريطانى بمقتضاها باحتلال الدلتا والقاهرة (يقصد الخطة روديو).

ـ أنه (الملك «فاروق») راض بالكامل عن أداء قوات الجيش التى نزلت إلى القاهرة، فهذه القوات تمكنت في ظرف ثلاث ساعات من السيطرة على قلب العاصمة، وقد قابل الناس نزولها بالتهليل والهتاف «بحياة الملك»!

ـ وذلك النجاح الذى تحقق ـ هو بين دواعى الملك إلى طلبه من «الأصدقاء الأمريكان» أن يضعوا الفرامل Put the Breaks على أى حماقة بريطانية تغريهم بتدخل عسكرى في الدلتا والقاهرة. فذلك لو حدث سوف يحول الجيش إلى عدو دون لزوم ـ على أن الملك يُعِدُّ إذا أحس في أى لحظة بحاجته إلى سند عسكرى فهو «يُقسم بشرفه أنه سوف يطلبه بنفسه دون تردد أو حساسية».

أضاف الملك في النهاية أنه الليلة ـ قبل الحريق وبعده ـ قابل في القصر قرابة ألف ضابط، وتحدث شخصيا إلى عدد كبير منهم، وهو واثق من ولاء الجيش له، وواثق من قدرة الجيش على حماية الأمن، وبالذات أمن الرعايا الأجانب وهم الحجة التى تتذرع بها الحكومة البريطانية كلما احتاجت إلى تدخل سافر في مصر».

وخرج «جيفرسون كافرى» من قصر عابدين إلى سفارته يكتب تقريره إلى واشنطن، ثم يتصل بالسفير البريطانى يطلب منه أن يمر عليه (الساعة الواحدة صباحا) ـ وحين وصل السير «رالف ستيفنسون» عبر الشارع إلى السفارة الأمريكية (وكانت في ذلك الوقت مكتبا للسفير فقط وليست مسكنا أيضا كما هو الحال الآن) ـ كان «جيفرسون كافرى» مازال جالسا مع وزيره المفوض «ماكلينتوك» يسترجع بعض النقاط التى يريد لفت النظر إليها في مقابلته مع ملك مصر.

وطبقا لخطاب كتبه «جيفرسون كافرى» إلى مساعد

وكيل الخارجية الأمريكية (ماكجى)، فقد لاحظ «أن تلك كانت أول مرة يتلقى فيها الإنجليز معلوماتهم عما يجرى في مصر عن طريقنا أى مادة مستعملة Second Hand بنص تعبيره.

وكانت هذه نقطة تحول بارزة زاد عليها أن «جيفرسون كافرى» اتصل بحافظ عفيفى (باشا) ـ يرجوه إقناع «صاحب الجلالة» بمقابلة السفير البريطاني، لأن ذلك يسهل الكثير من الأمور فيما طلبه منه «جلالة الملك» ـ وأن تلك أيضا رغبة واشنطن، ثم إن الحكومة البريطانية في الظرف الراهن سوف تعاند إذا أحست أن تجاهلها مقصود، بينما هى بحقائق الأمور الآن على استعداد لأن تقبل دور Second Fiddle) أى الوتر الثانى في آلة الكمان، بدلا من الوتر الرئيسى)!

ومعنى ذلك أن الطرف المصرى (الملك فاروق في هذه الحالة) ـ تصرف تلقائيا ودعا الولايات المتحدة إلى الدور الرئيسى في أزمة شرق أوسطية، وأن واشنطن على مستوى وزارة الخارجية استجابت طبيعيا، وأن الحكومة البريطانية ـ مهما كان ضيقها ـ نزلت على حكم الضرورات.

وبصرف النظر عن كل الاعتبارات فإن تغييرا شديد الأهمية طرأ تلك الليلة (٢٦ يناير ١٩٥٢) ـ على موازين القوى في الشرق الأوسط كلها.



والحاصل أن السير «رالف ستيفنسون» لم يكن في وضع يسمح له باعتراض الدخول الأمريكى (العلنى والرسمى) في الشأن المصرى، كما أنه في المقابل لم يكن راضيا عن ترك المجال لهذا الدخول الأمريكى يوسع وجوده وحدوده، وكان يأمل وقد لفت نظر لندن إلى ذلك (ببرقية عالية السرية رقم ١٧٩) ـ إلى أهمية أن يكون الدور الأمريكى مجرد جسر أو سد فجوة عارضة لا ينبغى للحكومة البريطانية أن تتركها تتسع. وفى تلك البرقية قال السير «رالف ستيفنسون»: «أن عبد الفتاح عمرو (باشا) نفسه يبدى القلق من أن بعض الزعماء المصريين يدور في خلدهم «أن الولايات المتحدة لا تؤيد سياساتنا بالكامل وأنها قادرة على ممارسة نفوذ يؤثر على قراراتنا»، وهم يظنون أنهم رأوا في إيران مثالا يمكن الاستفادة منه. وقد أكدت على «عمرو» (باشا) ضرورة أن أقابل الملك «فاروق» بسرعة حتى نستطيع استعادة الزمام بسرعة، وتبديد أية أوهام بشأن إمكانية الالتفاف حولنا باستعمال نفوذ حلفائنا».

وعلى أساس إلحاح تعددت مصادره في الديوان الملكى (حافظ عفيفى ـ وحسن يوسف ـ وعبد الفتاح عمرو) ـ بل ومن السفارة الأمريكية نفسها، تم تحديد لقاء للسير «رالف ستيفنسون» مع الملك «فاروق» في الساعة الواحدة بعد ظهر يوم ٣٠ يناير ١٩٥٢ (متأخرا ثلاثة أيام عن السفير الأمريكى).

وكتب السفير البريطاني إلى وزارة الخارجية في لندن (٢٠٣ سرى للغاية) يقول:

«استقبلنى الملك «فاروق» بعد ظهر اليوم، وقد بدا لى أن أحواله تحسنت وأعصابه هدأت عما كانت عليه وفق الصورة التى نقلها إلى زميلى الأمريكى الذى قابله يوم ٢٦ يناير. قال لى الملك أنه ومصر كلها كانوا في حالة رعب وأسى نتيجة لما جرى في القاهرة ٢٦ يناير، وهو يعتبر تلك ضربة موجعة أصابت بلاده. وأكد الملك أن الشيوعيين كانوا القوة الموجهة لما حدث، وأن الحزب الاشتراكى «أحمد حسين» كانوا مجرد أداة تنفيذية لهم في الشوارع، وأن ما دعا الشيوعيين إلى الاقتصار على التوجيه، أنهم لم يكونوا حاضرين في الشوارع عدديا.

وأبدى الملك سعادته لأن الجيش تصرف بكفاءة وبولاء.

انتقل الملك ليقول لى: «أنه عرف باننا كنا نرتب لدخول قوات الجيش البريطاني إلى القاهرة». وقلت له: «إننى شديد العرفان لأن سيطرة الجيش المصرى على الموقف بسرعة تكفلت بإعفائنا من التقدم إليه (إلى الملك) نطلب إذنا ـ ثقيلا علينا كما هو ثقيل عليه ـ لكى يسمح بزحف قواتنا إلى القاهرة». ورد الملك «بأن أداء الجيش المصرى لم يستدع حاجة عنده إلى طلب النجدة منا»، وأضاف: «إننى أتعهد لكم بكل جدية أننى سوف أخطركم إذا أحسست بعدم قدرتى على السيطرة على الموقف ـ وفي هذه الحالة فإننى سوف أقوم بإخطاركم بنفسى». أضاف الملك: «لعلمك فإنه إذا جاء مثل هذا الظرف فلن أطلب منكم عملا محددا، وإنما سوف أخطركم بأن الموقف خرج من يدى، تاركا لكم أن تتصرفوا على النحو الذى ترونه» ـ زاد الملك فقال: «لو أن الاضطرابات التى وقعت يوم ٢٦ تكررت مرة ثانية يوم ٢٧ يناير، فقد كنت واثقا أنه لم يتبق أمامى غير إبلاغكم أن الأمور خرجت من يدى».



كان السير «رالف ستيفنسون» (السفير البريطاني في مصر) مقتنعا أن وزارة «على ماهر» «وزارة استيعاب صدمة» ـ! ـ وليس أكثر، وأن المسئولية الآن مركزة في القصر ومرهونة بقراره، وهكذا حرص على مد قنوات اتصاله مع القصر، وبعد عشرة أيام من لقائه مع الملك «فاروق» عاد يُلح في طلب لقاء آخر.

وصباح يوم ١٣ فبراير ١٩٥٢ ـ كان السفير البريطاني على موعد آخر مع ملك مصر. وكتب «ستيفنسون» تقريرا عن المقابلة ـ رفع درجة سريته بنص في رأس التقرير يقول: «هذه البرقية لها سرية مخصوصة، ولا ينبغى لأحد الاطلاع عليها إلا لمن يصرح له وزير الخارجية، ولا تُنقل البرقية خارج ذلك النطاق»، وأمر مكتبه أن يكون إرسالها بالشفرة الخاصة المستعملة في إرسال البرقيات الموجهة إلى مكتب الوزير مباشرة أو رئاسة مجلس الوزراء. (ومن الملاحظ أنه أشار إلى أهمية إرسال نسخة منها إلى «واشنطن» وإلى القائد العام للقوات البريطانية في البحر الأبيض).

«استقبلنى الملك «فاروق» بعد ظهر اليوم بناء على طلبى وعلى التوجيهات التى وردت منكم تطلب منى:

١ ـ أن أسأله صراحة إذا كان مازال متأكدا من سيطرته الكاملة على الموقف.

٢ ـ أن أقنعه بإنشاء مكتب اتصال عسكرى (في البر والجو) للتنسيق بين الجيش البريطاني (في قاعدة قناة السويس) وقيادة الجيش المصرى (وزارة الحربية في القاهرة).

وقد بدأت فأبلغت الملك أن تأكيداته لنا مباشرة وعن طريق السفير الأمريكى بأنه قادر على مواجهة الموقف (حريق القاهرة وتداعياته) ـ هى وحدها التى أقنعتنا بتأخير تقدم قواتنا إلى الدلتا والقاهرة، على أن هناك ضرورة للاحتياط من الآن لاحتمال أن تتعطل الاتصالات في أى وقت، ثم يَجِدَّ طارئ ويتصرف كل طرف في أوضاع خطيرة بدون تشاور مُسبق. أضفت أن هناك ظروفا قد تستدعى تدخلنا عسكريا بالتنسيق معه، وذلك يحتاج إلى الاتفاق على ترتيبات معينة، منها أن تكون الطرق مؤمنة، وأن يتم تشوين بعض المعدات الضرورية على مواقع محددة، وذلك

وكان الملك وكل رجال قصره. مدنيين وعسكريين. على اعتقاد بأن أداة السيطرة الوحيدة الباقية لهم هى الجيش. وكذلك فإن الجيش المصرى كان فى تلك اللحظة الحرجة من حياة مصر. بقوة الأشياء والأحكام. وبضغط الحوادث والتداعيات. وبكافة احتمالات المستقبل وضروراته: ميزان الموقف ومكياله!



حتى نضمن سرعة تقدم قواتنا وسرعة وصولها إلى أهدافها وقت الحاجة إليها. والنقطة المهمة أن مثل هذه الإجراءات ينبغى أن لا تثير شكوك القوات المصرية، وهذه أهمية إنشاء مكتب اتصال بين الجيشين. أضفت أن الشكوك تؤدى أحيانا إلى تعقيدات يمكن تجنبها، ومن ذلك أن القوات المصرية في العريش أطلقت النار في اتجاه طائرة استكشاف بريطانية كان هدفها في الواقع أن تتأكد من أن الإسرائيليين لن يستغلوا الظروف الطارئة، لكن القوات المصرية ـ بسبب تعطل الاتصالات ـ شكت في الأمر.

ـ قال لى الملك «فاروق» أنه يتفهم بالكامل موقفنا ويرغب مثلنا في إقامة نظام للاتصال والتنسيق، واقترح على اجتماعا بين الملحق العسكرى في سفارتى وبين رئيس أركان حرب الجيش المصرى، وقال لى أنه سوف يصدر التعليمات اللازمة، على أنه تَحَفَّظَ مستدركا «أنه فيما يتعلق بالتنسيق بين القوات الجوية فقد يكون الأمر صعبا». ولم يشرح لى الملك سبب الصعوبة، ولاحظ أننى لم ألح عليه، وعقب قائلا: «إن ذلك يمكن ترتيبه فيما بعد»!

ـ عاد الملك إلى أحداث يوم ٢٦ و٢٧ يناير الأخيرة، وقال لى أنه في ذلك اليوم أرسل أحد ضباطه الموثوق بهم إلى مواقع الجيش المصرى على طريق السويس، وكانت مهمته أن يراقب تنفيذ تعليماته (الملك) بأمانة، وكانت تعليماته إلى القوات:

١ ـ أن تقاوم تدخل قواتنا إذا وقع ذلك دون إذن منه، وهو يعرف أن أى مقاومة تقوم بها قواته يائسة، لكن اعتبارات الكرامة لها أهميتها في هذه الظروف.

٢ ـ أن تسهل عملية تدخلنا إذا وصلها عن طريق رسوله أننا حصلنا على إذن منه، لأن الموقف في القاهرة أفلت من سيطرته.

قال لى الملك أنه فكر ذلك اليوم في استدعاء بعض قوات الجيش المصرى المُرابِطة على حدود فلسطين، لكنه غير رأيه حين وجد أن القوات المتاحة له في القاهرة قادرة على السيطرة، وهو مرتاح لأن الظروف لم تُلجئه إلى هذا الخيار.

قلت للملك «فاروق» «إننى سبق أن أرسلت الملحق العسكرى في سفارتى للقاء القائد العام للجيش المصرى لإخطاره أنكم إذا أردتم استدعاء أى وحدات من القوات المصرية في فلسطين إلى القاهرة، فإننا سوف نساعد على ذلك ونسهل عودة القوات إلى مصر لأداء واجبها، كما نسهل رجوعها مرة أخرى إلى غزة لإعادة احتلال مواقعها!

وهذا الاستعداد من جانبنا لايزال قائما، وقد شكرنى الملك «فاروق» وعاد فأكد أن هذه المسائل بالضبط هى ما تستوجب إنشاء مكتب اتصال عسكرى بين الجيشين».

ركز الملك كثيرا على ولاء الجيش له، وقال إنه يشعر بالرضى لأن الوفديين رغم كل محاولاتهم لم ينجحوا في إفساد علاقته بضباط الجيش أو بجنوده. ولم ينجح الوفديون إلا في استمالة أحد عشر ضابطا وسوف يصدر أمرا ملكيا بتسريحهم غدا أو بعد غد، وقد عرف أن أحدهم قام بدور فاعل في المظاهرات التى أشعلت الحريق فى القاهرة، وأنه تأكد له أن عناصر من البوليس شاركت في تدبيرها»!

كان الملحق العسكرى البريطاني البريجادير «توماس جولبرن» على اتصال مستمر مع الدكتور «يوسف رشاد» الذى بدا في تلك الأوقات وكأنه ممثل الملك الحقيقى في اتصاله «بالعمق» داخل الجيش المصرى، وكان «يوسف رشاد» هو الذى نقل تعليمات الملك إلى رئيس أركان الحرب بشأن التنسيق الضرورى بين الجيش المصرى والجيش البريطاني طبقا لما وافق عليه الملك أثناء لقائه مع السفير البريطاني ووعد بتحقيقه. ومن الواضح ـ طبقا للوثائق ـ أن العلاقات بين مكتب الملحق العسكرى البريطاني وبين الدكتور «يوسف رشاد» كانت متصلة، ويلفت النظر تلك الأيام تقرير من مكتب البريجادير «جولبرن» مرسل إلى لندن عن طريق الحقيبة الدبلوماسية للسفارة (برقم ٩٦٨٧٣ / ٣٧١) وفى التقرير ما نصه:

طلب الدكتور «يوسف رشاد» مقابلتى، وتوجهت للقائه في قصر عابدين، ثم اجتمعنا في مكتب الياور الخاص للملك، وأخطرنى «يوسف رشاد» بالمعلومات التالية:

١ ـ هناك أدلة متزايدة على تورط عدد من ضباط البوليس في اضطرابات ٢٦ يناير.

٢ ـ سوف يتم اعتقال عدد منهم وسوف يُطال الاعتقال شخصيات مهمة (التلميح واضح إلى «فؤاد سراج الدين» (باشا)).

٣ ـ هناك حاجة إلى عقوبات رادعة للمسئولين تكون عبرة لغيرهم.

٤ ـ قام بعض ضباط البوليس بمحاولات لتجنيد ضباط شبان في الجيش وقصدهم تلويث ولاء بعضهم للملك ولمصر.

٥ ـ هناك إلحاح من ضباط الجيش الشبان على تعيين اللواء «فؤاد صادق» (باشا) قائدا للجيش بدلا من «حيدر» (باشا)، وسوف يتم ذلك فور إقناع الملك بهذا التغيير.

٦ ـ أن الملك «فاروق» ألمح أمامه إلى رغبته في لقائى مباشرة، وأشار علىَّ بأن أتقدم بطلب رسمى، وأبديت استحسانا للفكرة، ووعد بعرض طلبى على «حسنى» (باشا) سكرتير الملك الخاص، وقد صعدت مع «يوسف رشاد» إلى طابق أعلى في القصر حيث مكتب سكرتيره الخاص.

٧ ـ صحبنى «يوسف رشاد» بعد ذلك بسيارته إلى وزارة الداخلية لألتقى مع وزيرها الجديد «أحمد مرتضى المراغى» (بك). ورحب بى «المراغى» (بك) بود، وشرح لى تفاصيل ما جرى في حوادث الاضطراب، وركز هو أيضا على أهمية تطهير البوليس (من رجال فؤاد سراج الدين)، وكذلك ركز على أهمية متابعة أى محاولة هدامة تتسلل إلى الجيش، خصوصا بين شباب الضباط.

٨ ـ عندما تكلم «المراغى» (بك) عن رأيه في ضباط البوليس، لفت نظرى قوله لى: «إننى في هذه اللحظة لا أستطيع أن أطمئن حتى إلى العناصر التى تقوم على حراسة وزارتى نفسها ـ وزارة الداخلية!

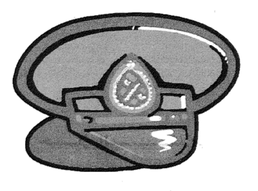
٩ ـ طلب منى أن أحتاط لاحتمال عمل إرهابى يوجه ضدى شخصيا ـ ! ـ ونصحنى بالحذر!



وكان الملك وكل رجال قصره ـ مدنيين وعسكريين ـ على اعتقاد بأن أداة السيطرة الوحيدة الباقية لهم هى الجيش.

وكذلك فإن الجيش المصرى كان في تلك اللحظة الحرجة من حياة مصر ـ بقوة الأشياء والأحكام ـ وبضغط الحوادث والتداعيات ـ وبكافة احتمالات المستقبل وضروراته: ميزان الموقف ومكياله!

والسؤال الكبير المُعَلَّق هو: كيف يستطيع الملك ضمان ولاء وطاعة هذا الجيش في يده ـ وفى يده وحده؟!

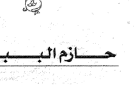






الاقتصاد

رهان على المستقبل
والمستقبل محفوف بالمخاطر!



حازم الببلاوى

يكثر الحديث هذه الأيام عن قروض متعسرة لدى البنوك، وتضييق فى الائتمان المتاح للأفراد والمشروعات، وتعثر فى السداد، ونقص فى السيولة. وكلها أمور تشير إلى اضطراب فى أسواق الائتمان، فالبنوك تجد صعوبة فى استيفاء حقوقها لدى الأفراد والمشروعات، وهؤلاء بدورهم يجدون صعوبة من البنوك فى تجديد تسهيلاتهم وتشددًا فى منح تسهيلات جديدة. وهكذا يدور الجميع فى حلقة مفرغة.. فما هو أصل الحكاية؟

ليس من السهل رد هذه الأمور إلى سبب واحد. فلابد أنه تكاتفت عوامل متعددة ساعدت على خلق هذا الوضع المتأزم، وقد ترتب على هذه الأوضاع أن تقلصت الأعمال، واتجه المتعاملون فى الأسواق إلى تفضيل المعاملات نقدًا، وبدأ الائتمان فى التراجع، فلا البنوك تقبل ـ بسهولة ـ منح تسهيلات جديدة للمتعاملين، ولا التجار يقبلون ـ عادة ـ البيع مع تسهيلات فى السداد. وهكذا بدا أن التعامل النقدى In Cash يكاد يصبح الأصل، ويتراجع دور الائتمان أو الدفع الآجل إلى حدود ضيقة. وفى هذا خطر كبير على النمو الاقتصادى. فالائتمان، قد أصبح ـ إلى حد بعيد ـ أساس الاقتصاد المعاصر، ولا يمكن أن يستمر الازدهار الاقتصادى مالم يستعد الائتمان دوره وأهميته فى النشاط الاقتصادى. هذه إحدى بدهيات الاقتصاد. ولكن لا بأس من ترديد هذه البدهيات. فقد أثبتت التجربة، أن أكبر المشاكل وأخطرها تأتى عندما نتجاهل البدهيات والمبادئ الأولية. ولذلك لا نرى ضررًا كبيرًا من إعادة التذكير بهذه البدهيات، بل قد يكون هناك بعض النفع من وراء ذلك.

الاقتصاد تعامل مع المستقبل:

نقطة البدء فى فهم النشاط الاقتصادى هى أن ندرك أن هذا النشاط هو بطبيعته، نشاطٌ ممتد فى الزمن، وأن العائد من وراء أى جهد لا يأتى معاصرًا لبذل هذا الجهد، وإنما يتحقق فى فترة زمنية لاحقة. ومن هنا فإن جوهر النشاط الاقتصادى هو المقامرة على المستقبل، والرهان عليه. الأمر الذى يتطلب الثقة فى هذا المستقبل، والثقة فى المتعاملين. فالحديث عن المستقبل، هو حديث عن المخاطر وعدم اليقين. فالمستقبل مشوب دائمًا بكل أنواع الاحتمالات. ولذلك فإن التعامل مع المستقبل يتطلب توافر درجة معينة من الثقة فى النجاح والرهان عليها. وما لم تتوفر هذه الثقة توقفت الأعمال أو تضاءلت إلى حد بعيد.

فانظر إلى الزراعة مثلاً. فهى ليست عملاً لحظيًا يتم وينتهى فى لحظة، بل لابد من بذل الجهد أولاً ثم ظهور النتيجة فى وقت لاحق، بعد مرور وقت قد يطول أو يقصر بحسب طبيعة المحصول. فالزارع يبذر البذور بعد أن يمهد الأرض ويحرثها، وعليه أن يواليها بالرى والرعاية وربما تغذيتها بالأسمدة والمخصبات، وفى النهاية يظهر المحصول والعائد. وقبول الزارع بذل الجهد والمال فى أول الأمر، إنما هو رهان على المستقبل، وإدراكه أن هذا الجهد والمال سوف يكافأ فى النهاية بظهور المحصول وتعويضه عما بذله من جهد ومال، وهذا الرهان إنما هو نتيجة لثقة فى الأرض لتجارب سابقة ناجحة. وثقته فى العمالة وقدرتها لخبرته الطويلة فى هذا النشاط استمدها من خلال أجيال متعاقبة. وهكذا فإنه بدون هذه الثقة ما قامت زراعة. وقل نفس الشىء عن الصناعة. فصاحب المشروع يوفر رأس المال، لشراء الأرض وإقامة المبانى والمنشآت وتركيب الآلات والأجهزة، ثم تقتضى بداية الإنتاج الإنفاق على أجور العمالة والموظفين، وشراء المواد الأولية والمصاريف العمومية، وفى النهاية فقط، تظهر النتيجة عندما يظهر إنتاج المصنع ويتم بيعه فى السوق وتحصيل حصيلة البيع.. وهنا أيضًا، لا يمكن أن يتحقق إنتاج صناعى، مالم تكن هناك ثقة فى المستقبل، وثقة فى المشروع، وفى سلامته الفنية، وفى توافر الأسواق للمنتج النهائى. فالثقة فى المستقبل هى أساس الصناعة كما كانت أساس الزراعة. ومادام النشاط الاقتصادى نشاطًا ممتدًا فى الزمن، تتعلق النتائج فيه بالمستقبل، فإنه لا أمل فى نشاط اقتصادى مزدهر مالم تتوافر ثقة المتعاملين فى هذا المستقبل، والثقة فى الأوضاع بشكل عام؛ والثقة فى الآخرين وقدرتهم على الوفاء بالتزاماتهم، والثقة فى الاستقرار القانونى وقدرته على حماية حقوقهم، والثقة فى الاستقرار النقدى وعدم تدهور قيمة النقد، والثقة فى النظام السياسى وعدم تعرضه للقلاقل والهزات، وهكذا.



ولكن الأمر لا يقف عند حد امتداد النشاط الاقتصادى زمنيًا، بل إن تجربة معظم المجتمعات البشرية أظهرت انقسام الأفراد إلى مجموعتين، مجموعة قادرة على أن توفر جزءًا من دخلها فى شكل فائض، أو مدخرات، فى حين أن مجموعة أخرى ـ أقل عددًا ـ من الأفراد الذين لديهم أفكار لمشروعات ولكن ينقصهم المال، وهؤلاء يطلق عليهم اسم الوحدات العاجزة Deficit Units، بالمقابل بالمجموعة الأولى وهى جموع المدخرين أى الوحدات الفائضة Surplus Units. وليس من الضرورى أن تكون هذه المدخرات كبيرة، بل قد تكون صغيرة بالنسبة لكل فرد على حدة، ولكنها تمثل حجمًا كبيرًا إذا أخذنا مجموع هؤلاء من صغار المدخرين. وفى المقابل فإن مجموع الوحدات العاجزة تمثل جمهور المستثمرين من أصحاب المشروعات والأفكار التى يحتاج تنفيذها إلى أموال ومدخرات تجاوز طاقة وإمكانية هؤلاء المستثمرين. ومن هنا فإن مصلحة الاقتصاد هى أن تنتقل هذه المدخرات من الوحدات الفائضة إلى الوحدات العاجزة. بحيث تتنازل الوحدات الفائضة ـ المدخرون ـ عن أموالها لكى تستخدمها الوحدات العاجزة ـ المستثمرون ـ مقابل ضمانات يقدمها هؤلاء المستثمرون برد هذه الأموال مع العائد فى وقت معين، أو بالسماح لهم بالمشاركة فى ملكية المشروعات وأرباحها. وهذا أمر لا يمكن أن يتحقق ما لم تتوافر ثقة المدخرين فى أن حقوقهم لن تتعرض للضياع أو التبديد. وهنا أيضًا نجد أن قدرة الاقتصاد على تحقيق المدخرات، وعلى حسن استخدام هذه المدخرات فى استثمارات ناجحة، تتوقف على مدى توافر الثقة فى أن هذه الحقوق غير مهدرة. أما كيف يتم ذلك؟ وهناك مجموعة كاملة من الهياكل المالية المتكاملة التى تساعد على تحقيق هذه الحماية وتوفير الثقة للمتعاملين. هناك

سلامة الأوضاع المالية للبنوك وحماية حقوق المودعين لا تتوقف فقط على حسن اختيار عملاء الائتمان، فهناك قواعد أخرى لضمان عدم تعرض البنك لمخاطر قد تعرض بالتالى حقوق العملاء للخطر ومن ذلك مثلاً وضع نسبة معينة لحجم ائتمان البنوك بالنسبة لرأس ماله

مؤسسات مالية متخصصة من بنوك وشركات تامين وصناديق وبورصات وشركات تقييم ومؤسسات للمحاسبة والمراجعة. وهناك أدوات مالية متنوعة من أسهم وسندات وخيارات ومشتقات مالية مختلفة. وهناك أخيرًا نظام قانونى وثقافى لتحديد خصائص ومواصفات ووظائف هذه المؤسسات وتلك الأدوات، وحماية كافية لأصحاب الحقوق وضمانات للتنفيذ.

والحديث عن التعامل مع المستقبل وأهمية الثقة، هو حديث عن المخاطر. فعند التعامل مع المستقبل ليس هناك يقين، ولا بد من تقبل بعض المخاطر. ودون ذلك لن يقوم أى نشاط اقتصادى. والمطلوب هو فقط حسن تقدير هذه المخاطر والتحوط لها قدر الإمكان بأخذ بعض الضمانات الإضافية.

الائتمان عصب النشاط الاقتصادى المعاصر:

رأينا أن النشاط الاقتصادى فى جوهره هو تعامل مع المستقبل. وسواء تعلق الأمر بالنشاط الإنتاجى - من زراعة أو صناعة - أو تعلق بتكوين المدخرات وتوفيرها للاستخدام فى الاستثمار. وقد عرفت المجتمعات منذ القدم النشاط الإنتاجى، وتعاملت معه بدرجة معقولة من الكفاءة رغم أنه يتضمن أيضاً مقامرة على المستقبل. ومع ذلك فإن التعامل مع المستقبل قبل ظهور المجتمع الصناعى كان يبدو أقل خطورة. فالمزارع له خبرة طويلة مع الزراعة، وهى خبرة متوارثة مع الأجيال.. وبالتالى فليس صعبًا عليه أن يقبل المقامرة بالقيام بأعمال الزراعة وانتظار النتيجة بعد فترة - ليست طويلة - وظهور المحصول. وقل مثل ذلك، إلى حد بعيد، مع الإنتاج الحرفى، فهو عادة متوارثة من جيل لآخر، ولذلك فإن المخاطرة فيه محدودة، لذا فإن معظم المجتمعات قد أقبلت على القيام بالنشاط الزراعى والحرفى منذ فترات طويلة نسبيًا. وليس الأمر كذلك تمامًا مع الإنتاج الصناعى. فهذا الإنتاج يختلف عن مرحلة الإنتاج الحرفى، فى أن هذا الإنتاج لا يتم بناء على طلب مسبق من زبون معروف مسبقًا، كما هو حال الحرفى الذى ينتج لزبون محدد، وإنما يظهر الإنتاج الصناعى للسوق بشكل عام. ومن هنا مخاطر السوق. لذلك فقد كان الإنتاج الصناعى دائمًا أكثر مخاطرة، لأنه إنتاج مبنى على توقعات للطلب فى السوق وليس بناء على طلب سابق متفق عليه. وإذا كانت الصناعة تتضمن مخاطر أكبر بالنظر إلى توجهها إلى السوق وليس لزبون محدد، فإنها تنطوى على جانب آخر من المخاطر يرتبط بتمويلها. فالصناعة، وعلى عكس الإنتاج الحرفى، تحتاج عادة إلى رؤوس أموال كبيرة تجاوز قدرات الفرد الواحد، ومن هنا حاجته إلى استمالة الآخرين لكى يقدموا له الأموال حتى يتمكن من القيام بهذا الإنتاج الصناعى. أما الحرفى، فهو لا يحتاج، عادة إلى رؤوس أموال كبيرة. فهو كنجار أو حداد أو ترزى، قد يحتاج إلى قليل من الأدوات، وبالتالى فهو فى غير حاجة إلى تمويل الآخرين. وليس الأمر كذلك مع الصناعة. فلا يتصور قيام صناعة دون مشاركة وتعاون العديد من الأفراد على توفير التمويل لهذه الصناعة. ومعنى ذلك أن هناك حاجة إلى ثقة هؤلاء فى المشروع وفى قدرته على حماية أموالهم، بردها فى المستقبل مع العوائد، أو بتقديم أرباح مجزية خلال حياة المشروع. وهكذا نجد أن الصناعة قد ارتبطت - منذ البداية - بدرجة أكبر من المخاطر - مخاطر السوق، ومخاطر التمويل - وبالتالى بالحاجة بدرجة أكبر إلى الثقة. وبالإضافة إلى هذه المخاطر، فإن تسويق المنتجات الصناعية أصبح يعتمد بدرجة أكبر على منح تسهيلات فى السداد، مع السماح بالبيع بالتقسيط، أو الدفع المؤجل. وكل هذا يزيد من درجة المخاطر التى تحيط بالصناعة، وهى ترتبط بشكل أو بآخر بمنح آجال للدفع، سواء فى تمويل الإنتاج، أو فى تسويقه. لذلك فقد قبل بأن نمو الصناعة وتطورها رهن بنمو إمكانيات التمويل، أو ما اصطلح عليه بوجود نظام كفء للائتمان. فماذا يقصد بذلك؟

الائتمان Credit يقصد به مبادلة آجل بعاجل، وأهم مظاهره القرض. فالقرض هو منح الغير مبلغًا من المال الآن، مقابل استرداده فى وقت لاحق، وبذلك فهو يتضمن - كما فى التعريف - مبادلة آجل بعاجل. ولكن البيع بالتقسيط يتضمن - هو الآخر - قدرًا من الائتمان، حيث يتسلم المشترى البضاعة الآن، ويسدد ثمنها على أقساط فى المستقبل. وبذلك يتفق مع التعريف السابق للائتمان. وقد وفق علم الاقتصاد فى اختيار تعبير «ائتمان» فى اللغة العربية لهذه الظاهرة. ذلك أن هذا التبادل لا يمكن أن يتم إلا إذا تحقق قدر من الثقة والأمانة بين المتعاملين. فالعادة أن التبادل يتم بين شيئين فى نفس الوقت، وبالتالى يتم التسليم والتسلم لموضوع التبادل دون فارق زمنى، وتنتهى العملية فورًا، ويذهب كل من الأطراف فى حال سبيله. أما فى حالة الائتمان، فإن أحد الطرفين يتسلم مالاً - نقودًا أو سلعة - مقابل تعهد برد المقابل فى المستقبل. مما يعنى أن هذه العلاقة لا يمكن أن تتم مالم تتوافر الثقة فى أن هذا الطرف سوف يسوى التزامه ويفى بتعهده فى المستقبل، وهذه الثقة لا تقتصر على أمانة هذا الطرف، بل تتضمن الثقة أيضًا فى أن الظروف الاقتصادية سوف تكون مواتية لكى يتمكن من أداء التزاماته. فقد يكون الرجل أمينًا ومخلصًا، ولكن الأوضاع الاقتصادية أو السياسية مضطربة بما يجعل وفاءه بهذه الالتزامات غير ممكن أو غير محتمل. ومن هنا تتضمن الثقة عناصر مختلفة، بعضها متعلق بالطرف الآخر، والبعض الآخر متعلق بأوضاع الاقتصاد فى مجموعه وفى النظام القانونى والقضائى وكل ما يتعلق باحترام التعهدات فى المستقبل.

والائتمان بهذا الشكل، هو ائتمان للاقتصاد على المستقبل، ونجد مظاهره فى كل مناحى الحياة. فالمدخر - وهو عادة غير قادر على استثمار مدخراته بنفسه - يقوم بوضع هذه المدخرات لدى البنك، أو لدى صندوق التوفير أو لدى إحدى شركات الاستثمار. وفى كل هذا فإن هذا المدخر يأتمن هذه المؤسسات على حماية مدخراته والقدرة على استردادها مع الفوائد. إذا تعلق الأمر بالبنوك أو صناديق التوفير، أو بالقدرة على الحصول على أرباح مناسبة، إذا تعلق الأمر بشركات أو مؤسسات للاستثمار. أما إذا انعدمت الثقة - لتجارب فاشلة فى الماضى، أو لشائعات، أو غير ذلك. فإن هذا المدخر سوف يحجم عن وضع مدخراته فى هذه المؤسسات ويحبسها عن التداول فى شكل من أشكال الاكتناز. وبذلك يحرم الاقتصاد القومى من المصدر الأساسى للتمويل.

وإذا كان المدخر يأتمن البنوك والمؤسسات المالية عندما يضع مدخراته بها، فإن هذه المؤسسات، وخاصة البنوك، تقوم بتوظيف هذه الأموال بإقراضها - عادة - للمشروعات الصناعية، ومن ثم بتوفير ائتمان لها للقيام بنشاطها الإنتاجى. ودون ذلك تفشل هذه المشروعات الصناعية فى توفير التمويل اللازم، نظرًا لأن احتياجات الصناعة، تفوق - كما سبق أن ذكرنا - قدرات أى مستثمر فرد، وبالتالى فإنه يكون عادة فى حاجة إلى الالتجاء إلى أموال الآخرين، ويتم ذلك عادة عن طريق المؤسسات المالية، وفى مقدمتها البنوك. وهكذا نجد أن البنوك هى مؤسسات مالية وسيطة، وظيفتها التوسط بين جمهور المدخرين الذين يضعون أموالهم لديها من ناحية، وبين جمهور المستثمرين الذين يقترضون هذه الأموال لتشغيل إنتاجهم الصناعى من ناحية أخرى. وتكسب البنوك من الفرق فى أسعار الفائدة التى تقترض بها من المدخرين، وأسعار الفائدة التى تُقرض بها المستثمرين. فالبنوك بهذا الشكل هى الجهاز الذى يقوم بنقل الأموال من المدخرين إلى المستثمرين، مع توفير أكبر حماية لأموال المدخرين من ناحية وأفضل شروط للمستثمرين من ناحية أخرى. وعندما تقوم البنوك بهذا الدور، فإنها تحرك النشاط الاقتصادى. ويقال عادة أن عملية التمويل هى أشبه بالدورة الدموية حيث تنتقل الأموال من خلالها، كما ينتقل الدم من خلال الشرايين لمختلف أجزاء الجسم فتدب فيه الحياة. وكذا البنوك، فإنها تقوم بنقل الأموال بين مختلف قطاعات الاقتصاد، بما يساعد على بعث الحياة فى النشاط الاقتصادى. ورغم أن البنوك ليست هى كل المؤسسات المالية، فإنها بلا شك من أكثرها أهمية وخطورة. وهى أكثر المؤسسات تعاملاً فى الائتمان، ولذلك فإن التعرض لطبيعة ائتمان البنوك وما يرد عليه من مخاطر يعتبر محورًا جوهريًا فى الاستقرار الاقتصادى.

البنوك والائتمان:

البنوك هى مؤسسات مالية وسيطة، تجمع مدخرات الأفراد، وتضعها تحت تصرف المستثمرين، وبذلك تظهر كمؤسسات تتعامل أساسًا فى الائتمان. فالأفراد يودعون أموالهم لدى البنوك، أى أنهم يمنحون البنوك ائتمانًا. والبنوك تمنح العملاء قروضًا وتسهيلات أى أنها تمنحهم ائتمانًا. وهكذا يتمركز دور البنك فى التعامل مع الائتمان، وعندما يقوم الفرد بإيداع نقوده لدى البنك، فإنه - كما قلنا - يمنح هذا البنك ائتمانًا، حيث يقدم له عاجلاً - نقود الوديعة - مقابل آجل، هو الوعد باسترداد مبلغ الوديعة مع الفوائد فى وقت لاحق. والأصل أن الفرد وهو يتعامل مع البنك، عليه أن يتأكد من استحقاق البنك لهذا الائتمان، بمعنى التأكد من أن البنك قادر من الناحية المالية والإدارية والمهنية على حماية أموال المودع. ومع ذلك فإن القوانين فى معظم الدول، تعفى المودع من القيام بهذا البحث عن الجدارة الائتمانية للبنك، وتقوم الدولة - ممثلة فى السلطات النقدية - بضمان توافر هذه الجدارة المالية للبنك. ويتم ذلك عن طريق ما تشترطه القوانين من شروط ومقومات فى البنك للموافقة على قيامه بنشاطه. وتتضمن هذه الشروط - عادة - تحديد حد أدنى من رأس المال لضمان حقوق المودعين، والتأكد من وجود نظم داخلية سليمة لدى البنك من الناحية المحاسبية ومن ضمانات اتخاذ القرار وإجراءات المراجعة، وتقديم تقارير دورية للبنك المركزى، فضلاً عن خضوع البنك للرقابة المباشرة من إدارة الرقابة على البنوك فى البنك المركزى أو فى شكل إدارة مستقلة للإشراف والرقابة على أعمال البنوك، والتأكد من التزامها المستمر بالقواعد والشروط التى تضعها السلطات النقدية. وهكذا توفر القوانين عادة على المودع الفرد عبء القيام بدراسات مستقلة للتأكد من السلامة المالية للبنوك بما تضعه الدولة من قواعد للرقابة على البنوك، ولكن ذلك لا يمنع من قيام حالات تعثر أو حتى إفلاس بعض البنوك. ولعلنا نذكر ما حدث منذ عدة سنوات لبنك الاعتماد الدولى وفروعه عندما عانى من مشاكل مالية فى مختلف البلدان ومنها مصر. وقامت مصر - حينذاك - بتوفير ضمانات لحقوق المودعين فى هذا البنك عن طريق قيام بنك مصر بشراء الفرع المصرى وإدماجه فى حسابات بنك مصر. ومع ذلك ترى دولٌ أخرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية أن تترك الأمر لقوى السوق، ومنها الإفلاس، لكى تعمل كما هو الحال بالنسبة للشركات بصفة عامة. وتأخذ بعض الدول بتوفير تامين على حقوق المودعين لدى شركات التأمين - عادة التأمين فى حدود سقف معين - وهناك آراء متعددة فى مزايا ونقائص هذه النظم للتأمين. فمن المزايا، توفير حماية لحقوق المودعين، خاصة الصغار منهم، والذين لا يتمكنون من تقدير الجدارة الائتمانية للبنوك. ولكن هناك بالمقابل عيوب لمثل هذه النظم وخاصة عند المبالغة فى توفير مثل هذا التأمين. ومن هذه العيوب، أن هذا النظام مكلف ويتحمل المودع نفسه تكلفة

لا أمل فى نشاط اقتصادى مزدهر مالم تتوافر ثقة المتعاملين فى هذا المستقبل، والثقة فى الأوضاع بشكل عام؛ والثقة فى الآخرين وقدرتهم على الوفاء بالتزاماتهم، والثقة فى الاستقرار القانونى وقدرته على حماية حقوقهم





كتاب الطبقات الكبير
ابن سـعـد

يعد كتاب «الطبقات الكبير» من أوسع الكتب فى تاريخ الأنساب العربية والرجال والتراجم، وقد اعتمد عليه المؤرخون، ولم يسبقه فى هذا المجال سوى كتاب الطبقات للواقدى أستاذ المؤلف ابن سعد.

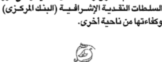
قسَّم ابن سعد كتابه إلى قسمين: قسم للرجال وقسم للنساء ثم جعل صحابة رسول الله ﷺ الذين يمثلون الجيل الأول من الرجال فى خمس طبقات. وبنى تقسيمه هذا على السابقة فى الإسلام والفضل، وفى داخل كل طبقة راعى عنصر النسب والشرف. فبدأ بالطبقة الأولى، وهم أهل بدر، برسول الله ﷺ ثم الأقرب فالأقرب إلى الرسول فى النسب. وسار على هذا المنهج فى الطبقة الثانية من الصحابة وهم الذين لم يشهدوا بدرًا واتبع نفس المنهج فى الطبقة الثالثة وهم الذين شهدوا الخندق وما بعدها، وجعل الطبقة الرابعة فيمن أسلم فى فتح مكة وما بعد ذلك، أما الخامسة فهى فيمن ولدوا قبيل وفاة الرسول ﷺ ولم يغز منهم أحد معه، وبعد أن أنهى ابن سعد حديثه عن الصحابة وطبقاتهم تناول طبقات التابعين، ثم تلى ذلك بذكر طبقات النساء وهى تمثل الجزء الأخير من الكتاب.

والمؤلف هو محمد بن سعد بن منيع الكاتب الزهرى واشتهر بابن سعد. ولد فى البصرة سنة ١٦٨هـ ثم توجه إلى بغداد ولازم شيخه الواقدى ثم رحل إلى الكوفة ومكة والمدينة. وصفه عبدالله النديم بأنه كان عالمًا بأخبار الصحابة والتابعة. وقد حقق الكتاب الدكتور على عمر. واعتمدنا هنا على طبعة خاصة من مكتبة الخانجى لمكتبة الأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب صدرت عام ٢٠٠٢.



إجراءات الموافقة على الائتمان وتنفيذه ومتابعته قد أصبحت فنا عالميًا معترفًا به، وهناك إجراءات متفق عليها فى معظم الدول، ولذلك فيجب على كل نظام مصرفى أن يتبع هذه الإجراءات بشكل معقول. وينبغى لكل بنك أن تكون هذه القواعد والإجراءات واضحة ومعلنة ومطبقة

التأمين. فأقساط التأمين لابد أن تحسب ضمن أعباء البنك، وبالتالى فإن البنك يعيد تحميلها على العميل فى شكل إنقاص العائد على وديعته لدى البنك. فالتأمين على ودائع الأفراد ليس منحة حرة بلا تكاليف، بل إن لها تكاليف يتحملها المودع نفسه. والعيب الثانى هو ما يطلق عليه بالإنجليزية Moral Hazard، والمقصود بذلك هو أن توافر هذه الضمانة قد يغرى بالتساهل فى الرقابة على أعمال البنوك، وبالتالى يؤدى إلى ترك بنوك دون القيام بالدراسات الائتمانية الكافية للاستمرار فى النشاط نظرًا لأن أموال المودعين مؤمنة على أى الأحوال. أما غياب مثل هذه الضمانة فإنه يلقى بعبء كبير على إدارات البنك وأجهزة الرقابة والإشراف بالتاكد من سلامة الأوضاع المالية للبنوك، وبالتالى حماية أموال المودعين. وإزاء هذه الآراء المتعارضة، فيبدو أن الرأى المرجح هو ضرورة الاعتماد بشكل أساسى على قواعد الرقابة والإشراف على أعمال البنوك، مع إمكان الاتجاه فى حدود ضيقة إلى التأمين على ودائع الأفراد بسقف غير مرتفع لحماية صغار المدخرين. وبذلك توضع المسئولية الأولى فى ضمان سلامة قروض البنوك على سلامة نظام السوق وكفاءته من ناحية وعلى دور السلطات النقدية الإشرافية (البنك المركزى) وكفاءتها من ناحية أخرى.



والآن، ماذا عن ائتمان البنوك للأفراد والمشروعات؟ الواقع أن هذا هو جوهر عمل النظام المصرفى كله، وهو يمثل مسئولية مشتركة بين إدارة البنك من ناحية وبين أجهزة الرقابة والإشراف من ناحية أخرى. فعمل البنك - بعد أن تجتذب أموال العملاء فى شكل ودائع - هو أن يقوم بتوظيفها بالإقراض وتقديم التسهيلات المختلفة للعملاء بعد دراسة أوضاعهم الائتمانية، أى بعد تقدير أوضاعهم المالية ومستقبلهم ومدى قدرتهم على الوفاء بالتزاماتهم فى المستقبل. ويتمحور الفن المصرفى حول وضع الأسس والقواعد لإجراء هذه الدراسات الائتمانية، بدءًا بالحصول على معلومات كافية عن العميل ومعاملاته السابقة، وأوضاعه مع البنوك والعملاء وسمعته فى السوق (الاستعلام)، ومرورًا بإجراء الدراسة الائتمانية لطلب القرض أو التسهيل، مما يقتضى دراسة الأوضاع المالية للمؤسسة وتاريخها ونشاطها وتحليل ميزانياتها، ودراسة أحوال السوق التى يعمل فيها، والتنبؤات حول تطور المستقبل، والأوضاع القانونية للمؤسسة وعلاقاتها المالية والتجارية وما يمكن أن يقدم من ضمانات، إلى ما هو مستقر فى أساليب التحليل المالى، وإذا كان استقصاء المعلومات وإجراء الدراسات والتحاليل أمرًا ضروريًا، فلا يقل أهمية اتباع مجموعة من الإجراءات فى اتخاذ القرار تضمن سلامته، من حيث ضرورة عرض القرار وفقًا لسلسلة محددة ومعروفة سلفًا من المراحل بما يسمح بالرقابة الداخلية ومناقشة الآراء الأخرى، وأحيانًا الاستعانة بالخبراء والمختصين من الخارج فى المسائل الفنية. وبعد استكمال إجراءات القرار بمنح الائتمان واتباع القواعد المرعية، فيجب أن يتم التنفيذ من خلال أجهزة أخرى تحقق، عند التنفيذ، نوعًا من الرقابة على صحة بيانات الموافقة الائتمانية. ومع هذا كله لابد أن تقوم متابعة مستمرة لحالة العميل ووضع المؤشرات الكافية لمنع وقوع المخاطر، وتحاشى تفاقمها إذا حدثت.

وينبغى الإشارة فى هذا الصدد، إلى أن إجراءات الموافقة على الائتمان وتنفيذه ومتابعته قد أصبحت فنًا عالميًا معترفًا به، وهناك إجراءات متفق عليها فى معظم الدول، ولذلك فيجب على كل نظام مصرفى أن يتبع هذه الإجراءات بشكل معقول. وينبغى لكل بنك أن تكون هذه القواعد والإجراءات واضحة ومعلنة ومطبقة وتقوم أجهزة الإشراف فى السلطة النقدية (البنك المركزى) بالتاكد من وجود هذه الأنظمة داخل البنوك، ومن مراعاتها. كما تقوم هذه السلطات الإشرافية بوضع القواعد والشروط التى تراها مناسبة من وقت لآخر لضمان سلامة القرارات الائتمانية. وتقوم أجهزة المراجعة والتدقيق (مراجع الحسابات) بدور أساسى فى هذا الصدد. وقد أثبتت التجربة الأخيرة فى الولايات المتحدة الأمريكية، وخاصة مع شركة إنرون Enron والمحاسبين اندرسون - كيف أن ضعف المراجعة والتدقيق قد يؤدى إلى كوارث مالية. كذلك فإن قواعد الشفافية المالية، والنشر الدورى للبيانات المالية يعتبر أساسيًا فى هذا الخصوص. وقد دأبت بعض المنظمات الدولية وخاصة بنك التسويات الدولى (BIS) Bank of International Settlement على إصدار - من وقت لآخر - قواعد للرقابة على المصارف وعلى حسن إدارة هذه المصارف. وهى قواعد أثبتت فاعليتها فى معظم الدول.

على أن سلامة الأوضاع المالية للبنوك وحماية حقوق المودعين لا تتوقف فقط على حسن اختيار عملاء الائتمان، فهناك قواعد أخرى لضمان عدم تعرض البنك لمخاطر قد تعرض بالتالى حقوق العملاء للخطر ومن ذلك مثلاً وضع نسبة معينة لحجم ائتمان البنوك بالنسبة لرأس ماله (مبدأ كفاية رأس المال) Capital Adequacy، ومنها عدم التركيز على عدد محدود من كبار العملاء، أو على قطاع بعينه ومنها مراعاة التوازى بين التزامات البنك وأصوله من حيث آجال السداد، ومن حيث أنواع العملات.. وكل هذا - وغيره - هو من الأمور المستقرة فى أعمال البنوك، وينبغى الحرص على اتباعها بدقة، وهى مسئولية البنك كما هى مسئولية أجهزة الرقابة والإشراف على البنوك (البنك المركزى).

وإذا كانت هناك حاجة وضرورة لاتخاذ واتباع الإجراءات والأساليب المستقرة فى العرف المصرفى لحماية ائتمان البنك من التعرض لمخاطر يمكن تجنبها، فإنه من الواجب، فى نفس الوقت، وضع ضمانات للعاملين فى البنوك فى إدارات الائتمان والتنفيذ، بالا تلاحقهم مطالبات أو مسئولية لا ترجع إلى خطئهم المهنى. فيجب أن يكون مفهومًا، منذ البداية، أن المخاطر هى جوهر



النشاط الاقتصادى. فمادام هذا النشاط متعلقًا بالمستقبل، فإنه لا يمكن القطع بتحقق النتائج المرجوة، هناك دائمًا مخاطر، وهناك دائمًا احتمالات للنجاح كما أن هناك احتمالات للفشل. والمطلوب ليس هو استبعاد الفشل كلية، وإنما فقط تقليل احتمالاته والتحوط له بأخذ ضمانات مناسبة. وفى جميع الأحوال فإن التعامل مع المستقبل يتضمن أمورًا يتدخل فيها الحظ أو سوء الحظ، كما يتطلب إبداء الرأى والحكم على الأشياء. وقد يصدق هذا الحكم كما أنه قد يخطئ. والخطأ الائتمانى لا يرجع إلى عدم تحقق النتيجة - عند فشل العميل فى السداد - إذا كان هذا الفشل راجعًا لأسباب خارجية مثل ظروف طارئة أو غير متوقعة، كما حدث من آثار سلبية على السياحة بعد حوادث الأقصر فى ١٩٩٧ أو بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١. فهنا فشل فى تحقيق النتائج بسبب ظروف خارجة أو سوء حظ لا يمكن توقعه. كذلك قد يختلف التقدير بين شخص وآخر حول أهمية أحد العوامل، وتظهر التجربة سوء هذا التقدير. فهنا أيضًا ليس من الضرورى أن يكون هناك خطأ ائتمانى، إذا توافرت النية السليمة، وتم اتباع الإجراءات بدقة وتوافرت المعلومات الكافية، ولم ترتكب أية أعمال لحجب الحقيقة أو تغيير القرار فى اتجاه أو آخر. الخطأ الإنسانى فى التقدير - مادامت الإجراءات السليمة قد اتخذت - هو أمر طبيعى وأحيانًا أمر لازم. والتشدد فى هذا الجانب قد تكون تكلفته أعلى بكثير على المجتمع من إباحته، فالتشدد فى تحميل أخطاء التقدير يؤدى إلى التشدد فى منح الائتمان، وبالتالى تقليل الخسائر المحتملة من الفشل، وفى نفس الوقت ضياع آلاف الفرص الكبيرة والتى تعود على الاقتصاد بفوائد يصعب تعويضها. لذلك فإن اتباع إجراءات مشددة وصارمة فى اتخاذ قرارات الائتمان، لا يعنى معاقبة حالات الفشل، إذا كانت قد اتخذت بحسن نية وفى حدود الممارسة المصرفية السليمة.

كذلك فإن العبرة عند المحاسبة عن قرارات الائتمان، هى بالنظر إلى الأوضاع التى تم فيها اتخاذ هذا القرار، وليس النظر فى ضوء ما ظهر من تطورات لاحقة. وبعبارة أخرى فبقدر ما يلزم من وضع الضوابط الصارمة والإجراءات الفاصلة لاتخاذ قرارات الائتمان، بقدر ما يجب إعطاء مسئولى الائتمان قدرًا معقولاً من الحماية لهم فى اتخاذ قراراتهم ضمن الضوابط المرعية وعدم تعريضهم للمساءلة أو تعريض سمعتهم للضرر مما يلجم قراراتهم. فليس أخطر على الاقتصاد من منح الائتمان غير المسئول، سوى منع الائتمان وتضييقه وحرمان الاقتصاد من فرص النمو والازدهار. مسئولية اتخاذ قرارات الائتمان مسئولية كبيرة، ويجب أن يراعى فى اتخاذها العديد من الضوابط، وأن تخضع للمراقبة والإشراف والمراجعة الدائمة، ولكن يجب فى نفس الوقت توفير الاحترام والاستقرار والاطمئنان لمتخذى هذه القرارات. كذلك فإن اختيار مسئولى الائتمان يجب أن يخضع لضوابط دقيقة، وأن تتم مراجعة أوضاعهم بشكل مستمر، ولكن برقة وبغير غلظة.




القول بأن ائتمان البنوك يتوقف على مدى كفاءة الإدارة فى البنوك من ناحية، وكفاءة أجهزة الرقابة والإشراف من السلطات النقدية من ناحية أخرى، يتضمن الكثير من أسباب نجاح الائتمان المصرفى، ولكنه لا يشمل كل شىء. هناك أمور متعلقة بالأوضاع العامة تؤثر فى الائتمان رغم أنها تخرج عن مسئولية البنوك والسلطات النقدية. هناك الأوضاع الاقتصادية العامة. فلاشك أن رواج الاقتصاد وانتعاشه بشكل عام يساعد على تقليل مشاكل الائتمان وحالات التعثر وعدم السداد. وعلى العكس فإن شيوع الكساد والركود الاقتصادى يؤدى بالضرورة إلى تعدد حالات التعثر والإفلاس. كذلك فإن طبيعة النظام القانونى، ومدى ما يتوافر للدائن من حقوق أو للمدين من حماية، يؤدى فى مدى القدرة على استيفاء الحقوق وسرعة التنفيذ. ويقوم النظام القضائى بدور أساسى فى هذا الصدد من حيث مدى الحماية التى يسبغها على المتعاملين والسرعة التى يتم الفصل بها والفاعلية لتنفيذ ما يصدر من أحكام. وكلما زادت فاعلية القانون والقضاء فى حماية حقوق الدائن، كلما زادت قدرة البنوك على التوسع فى الائتمان، وبالتالى استطاع المدينون الإفادة من خدمات البنوك. فهناك رأى شائع يرى أن مزيدًا من حماية الدائن لتحصيل حقوقه بسرعة وكفاءة يتم على حساب المدين. وهى نظرة - عادة - قصيرة، ولا تأخذ فى الاعتبار أن مصلحة المدين الأساسية هى أن تكون أبواب البنوك مفتوحة أمامه، وأن يتوسع النظام المصرفى فى منح القروض والتسهيلات. وهو أمر لا يمكن أن يتحقق مالم تكن حقوق البنك - كدائن - متمتعة بحماية كافية، وتؤدى هذه الحماية لحقوق الدائن - فى النهاية - إلى خدمة مصالح المدينين، بإتاحة الفرصة أمام البنوك للتوسع فى منح الائتمان.

كذلك فإن التشدد فى محاسبة مسئولى الائتمان - على تقديراتهم - وليس عن أخطائهم المهنية، يؤدى إلى مزيد من التضييق فى الائتمان، وفى النهاية معاقبة العملاء والبنوك على السواء. معاقبة العملاء لأن البنوك سوف تحجم عن منح الائتمان إلا فى حالات الضمان شبه الكامل، ومعاقبة البنوك، لأن ذلك يحرمها من فرص للنشاط وبالتالى من فرص للكسب. وخسارة البنوك هى خسارة للمودعين كما هى خسارة للاقتصاد القومى. حماية الائتمان تتحقق بمزيد من وضع الضمانات والضوابط عند اتخاذ القرارات، ومزيد من الرقابة والإشراف والمتابعة، ومزيد من التدقيق فى اختيار قيادات البنوك، ومزيد من الشفافية، ومزيد من وضوح القوانين وسرعة القضاء. وبعبارة أخرى بتمكين البنوك من أداء وظائفها، مع وضوح كامل فى الضوابط المصرفية، ودقة فى الرقابة والمتابعة، واحترام للمسئولين بها، وأخيرًا تأتى العقوبات فى النهاية، وهى وحدها لا تقيم نظامًا ناجحًا.. والله أعلم. ■

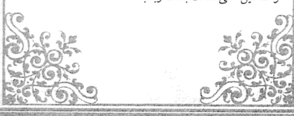


حمزة بن عبد المطلب
(الطبقة الأولى)

أسد الله وأسد رسوله وعمّه، رضى الله عنه، ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصىّ، وأمّه هالة بنت أهيب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مُرّة، وكان يكنى أبا عمارة. وكان له من الولد يعلى وكان يكنى به حمزة أبا يعلى، وعامر درَج، وأمهما بنت الملة بن مالك بن عبادة بن حجر بن فائد بن الحارث بن زيد بن عبيد بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف من الأنصار، من الأوس، وعُمارة بن حمزة، وقد كان يكنى به أيضًا، وأمه خولة بنت قيس بن فهد الأنصارية من بنى ثعلبة بن مالك بن النجار، وأمامة بنت حمزة وأمها سلمى بنت عميس الخثعمية.

قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال أخبرنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن موهب، قال سمعت محمد بن كعب القرظى، قال: نال أبو جهل وعدى بن الحمراء وابن الأصداء من النبى ﷺ، يومًا وشتموه وآذوه، فبلغ ذلك حمزة بن عبد المطلب، فدخل المسجد مغضبًا فضرب رأس أبى جهل بالقوس ضربة أوضحت فى رأسه، وأسلم حمزة فعز به رسول الله ﷺ والمسلمون وذلك بعد دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم فى السنة السادسة من النبوة.

وقُتل، رحمه الله، يوم أحد على رأس اثنين وثلاثين شهرًا من الهجرة وهو يومئذ ابن تسع وخمسين سنة، كان أسَن من رسول الله ﷺ بأربع سنين، وكان رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير، قَتَله وحشىّ بن حرب وشق بطنه، وأخذ كبده فجاء بها إلى هند بنت عُتْبَة بن ربيعة، فمضغتها، ثم لفظتها، ثم جاءت فمثلت بحمزة، وجعلت من ذلك مسكتين ومعضدين وخدمتين حتى قدمت بذلك وبكبده مكة.



خرج ولم يعُد

■■ بينما كانت التحقيقات فى الفضائح المالية بالولايات المتحدة جارية وبما استدعى إصدار تعديل تشريعى يشدد عقوبة التلاعب فى البيانات المالية للشركات ويصل بها إلى السجن.. كانت هناك فضائح مالية أخرى فى مصر يجرى التحقيق فيها والإعلان عنها.. وكانت الفضائح المصرية أقل حجمًا من الفضائح الأمريكية، لكنها لم تكن أقل خطرًا، فكلتا الحالتين تمس سلامة الاقتصاد.. بل سلامة النظام الاقتصادى القائم على الحرية.

وقد بدا المشهد فى مصر غريبًا، فهذا صيف ساخن شهد سقوط وزيرين سابقين ودخولهما السجن مع عدد آخر من رجال المال والسياسة.. وهذا حكم قضائى هو الأول من نوعه حيث تشير فيه محكمة أمن الدولة العليا «أنها تأسف لأن النصوص التشريعية لم تمكنها من أن تحيل المتهمين إلى المفتى لأنهم حقًا يجب أن يحالوا إليه جزاء أفعالهم والتى كانت بمثابة اغتيال لأموال هذا الوطن».

ولم تكن هذه القضية التى صدر الحكم فيها يوم ٣١ يوليو الماضى والتى اشتهرت باسم «قضية نواب القروض» غير واحدة من قضايا وحالات كثيرة لأموال مصرفية «خرجت ولم تعد» خرجت من البنوك، ثم خرج بعضها من مصر، وخرج بعض أصحابها أيضًا.. وكان الخروج - أو المسيرة كلها - فى اتجاه واحد: «خروج بلا عودة»!

وقد تجمَّع كل ذلك تحت عنوان شهير هو (المتعثرون) أو (المتعسرون)، وكلاهما تعبير لغوى صحيح عن الأزمة التى واجهت البنوك المصرية عدة سنوات، ثم تصاعدت إلى بؤرة الاهتمام فى صيف (٢٠٠٢) عندما باتت قاسمًا مشتركًا فى أعمال البنك المركزى، وأجهزة الرقابة، والإنتربول.. بل إنها كانت محل تعليق من رئيس الدولة فى حوار عام.. كما كانت محل نقاش فى مجلس الوزراء ومحل اهتمام من أعضائه بمن فيهم وزيرا الدفاع والداخلية.

حينذاك امتلأت الصحف المصرية (بمانشيتات) تتحدث عن نداء العودة الصادر من رئيس الوزراء للهاربين، كما تتحدث عن إمكانية التسوية للهاربين وغير الهاربين وشملت خطة العمل المعلن عنها التفاوض لتوفيق أوضاع كبار العملاء من الحاصلين على (٢٥٠) مليون جنيه فاكثر وعددهم - طبقًا للمصادر الرسمية - خمسون عميلاً، مع إبلاغ (الإنتربول) و(١٨٧) منفذًا وميناءً دوليًا للقبض على سبعة من عملاء البنوك المصرية الهاربين خارج البلاد، والذين وصلت مديونية أحدهم (وهو حاتم الهوارى) إلى (٤) مليارات جنيه أى ما يعادل تكاليف السد العالى عشر مرات إذا تجاهلنا فروق أسعار العملة، كما يعادل ما يزيد على (١) بالمائة من الناتج المحلى لمصر عام (٢٠٠٢).

وحينذاك أعلنت المصادر الرسمية أن حجم المشكلة أى القروض المتعثرة هو (١٢) مليار جنيه من بين (٣٥٥) مليارًا كحجم إجمالى للقروض حتى نهاية أبريل ٢٠٠٢، وبما يعادل (٣,٤) بالمائة من القروض المستحقة للبنوك لكن ذلك الرقم لم يكن متفقًا عليه.

حجم المشكلة كان موضع خلاف، لكنه لم يكن محل التساؤل الوحيد، بل كانت هناك سلسلة من الأسئلة ذات الأهمية البالغة.

تساءل البعض، ومعهم الحق: هل نحن أمام عملية جديدة من عمليات (نهب مصر) والتى تحدثنا عنها فى القرن التاسع عشر وربما فى فترات لاحقة أيضًا.. وإلا ماذا يعنى الاستيلاء على أموال بالمليارات دون أمل كبير فى العودة؟.. وماذا يعنى أن يكون النهب (وهو المصطلح الذى استخدمته محكمة نواب القروض) لأموال هى فى طبيعتها مدخرات شعبية اتجهت للبنوك اطمئنانًا.. فظهر من ينزحها دون رادع؟.. وما هو موقع ذلك من الاقتصاد والسياسة فى مصر؟.. وهل نحن أمام مشكلة ذات طابع اقتصادى بدأت مع الركود وعجز البعض عن السداد اضطرارًا وعجزًا، أم أننا أمام مشكلة فنية تتعلق بخبرة البنوك، أم هى مشكلة فساد وتواطؤ؟.. وهل نحن بصدد مشكلة أحادية الجانب «من الاقتصاد تبدأ.. وعند الاقتصاد تنتهى»، أم هى مشكلة مركبة تدخلت فيها عوامل السياسة تشجيعًا للقطاع الخاص.. أو تشجيعًا لزواج بين المال والسياسة عند اتخاذ القرارات، سواء كانت قرارات سيادية يصدرها مجلس الشعب أو قرارات مصرفية يتخذها رجال البنوك بإيحاء، أو ضغط، أو رشوة؟

والأسئلة ممتدة إن تحدثنا عن الاقتصاد السياسى للأزمة وموقعها من تطور حدث منذ الانفتاح الاقتصادى، أو إن تحدثنا عن ظاهرة التركز فى الثروة وانقسام المجتمع المصرى وبروز ظاهرة (انتشار الفقر وتركز الثروة) فالذين يأخذون المليارات ويبنون مشروعاتهم بأموال الآخرين هم أنفسهم بناة الطبقة الجديدة، أو النتوء الاجتماعى الذى يزداد ظهورًا فى مصر والذى أصاب بعضه فبنى وشيد وأخفق بعضه فأساء اختيار المشروعات وتوظيف ما حصل عليه من مال، أو أساء اختيار الطريق فاعتمد منهج (اهرب.. واجر).

الأسئلة كثيرة، ونحن نناقش أمرًا هو فى طبيعته بمثابة الدورة الدموية للاقتصاد، لكنه فى شذوذه: تجلط يمنع انسياب الدم فى الجسد، فتموت أجزاء منه، وتتعرض أجزاء للخطر.

[١]

البداية: مصر أخرى

حتى نفهم ما يجرى لابد أن نعود قليلاً للوراء، فالقصة لم تبدأ فى النصف الثانى من التسعينيات، لكنها بدأت من منتصف السبعينيات، وكان فارق التوقيت بين السبعينيات والتسعينيات كفيلاً بأن تتضخم المشاكل وأن تظهر الثمار الفاسدة.

فى السبعينيات، ومع بداية الانفتاح، كنا نتحدث عن انحراف اسمه «شارع الشواربى» أو تهريب السلع إلى الداخل مع تهريب القيمة بالعملة الأجنبية إلى الخارج، وكنا نتحدث عن استيراد الأغذية الفاسدة.

وفى الثمانينيات تحدثنا عن تجار العملة والمضاربة على الجنيه وتخفيضه نتيجة للسوق السوداء، ثم تحدثنا عن توظيف الأموال وجمع المليارات، ونزحها إلى خارج البلاد أيضًا!

ولكن فى التسعينيات وحتى الآن بات حديث الفساد ممتدًا لخروج الأموال.. بالمليارات، ونزح أموال البنوك بالجملة.

نما الفساد إذن ولم يقل، وبينما كان بعضه مجرَّمًا فى السبعينيات حيث حظر القانون حينذاك استيراد مواد معينة، كما حظر تصدير رؤوس الأموال، سقط فى التسعينيات عنصر التجريم، فالتجارة - فى معظمها - حرة، وتحويل رؤوس الأموال للخارج مشروع، ومن الانفتاح إلى التحرير الاقتصادى مضت الرحلة: سياسة واقتصادًا وأعمالاً وهرمًا تشريعيًا جديدًا.

فى البدء، كان القرار السياسى: مصرًا أخرى غير التى عرفناها فى الستينيات.. وكان عام ١٩٧٤ هو عام التحولات الكبرى، ففى ذلك العام وبعد فض الاشتباك ومحادثات الكيلو

وصلت مديونية أحد المتعثرين (وهو حاتم الهوارى) إلى (٤) مليارات جنيه أى ما يعادل تكاليف السد العالى عشر مرات إذا تجاهلنا فروق أسعار العملة، كما يعادل ما يزيد على (١) بالمائة من الناتج المحلى لمصر عام (٢٠٠٢)

---

١ - ملف القضية رقم ٣٩٠ لعام ١٩٩٧ جنايات الأزبكية والمقيدة برقم ١/١٩٩٧ كلى شمال القاهرة.

٢ - خطة التنمية - وزارة التخطيط، ٢٠٠٢.

(١٠١) حسم الرئيس السادات خياراته بعد أن تراجع قيد القضية الوطنية وخطت مصر خطوات نحو استعادة الأرض المحتلة.

في ذلك الوقت كان القرار العسكرى الانتقال من الغرب إلى الشرق على ضفاف القناة وهو ما حدث فى أكتوبر (١٩٧٣) أما القرار السياسى فكان متعدد الوجوه واحد هذه الوجوه: الانتقال - وعلى عكس القرار العسكرى - من الشرق إلى الغرب، بكل ما يعنيه ذلك من تحول فى السياسات.

كان الرئيس السادات، وكما أشارت دراسات سابقة مولعًا بالنموذج الرأسمالى، ربما لأسباب تتعلق بوجهة نظر فى الطريق الأصوب لنمو المجتمع وهو ما كتمه السادات طويلاً إبان حكم عبدالناصر فذهب يؤيد الاشتراكية، ثم راح فى السبعينيات يمهد الطريق لاقتصاد حر قد يكون هو قناعته.

وربما يكون التحول أيضًا مرتبطًا بصفقة أمريكية - مصرية.. تساند فيها واشنطن مصر فى استعادة الأرض وتقدم مصر التحول السياسى والأيديولوجى ثمنًا لذلك.

أيضًا، قد تكون بعض أسباب التحول هو ذلك الاقتراب بين الرئيس وأصهار ينتمون للطريق الرأسمالى ولقطاع الأعمال مثل عثمان أحمد عثمان وسيد مرعى وأحمد عبدالغفار.

وقد ننفى سوء النية والقصد كسبب للتحول، ذلك أن السادات لم يكن مثل سوهارتو الذى نزح المليارات من أندونيسيا، أو ماركوس الذى نزح أموال الفلبين، رغم أن شقيقه قد تم اتهامه فى قضية فساد فيما بعد.



على أى حال، وأيًا كان سبب التحولات فقد جرى ما جرى: من الشرق إلى الغرب، ومن الاقتصاد الموجه إلى الاقتصاد الحر وفى ظل ما أسماه الرئيس حينذاك (أخلاق القرية) والتى كانت تعنى التسليم بالسلطة الأبوية للحاكم.

فى ظل هذا التحول الاستراتيجى، والذى سار بطريقة (الخطوة - خطوة) جرى بناء هرم سياسى وتشريعى جديد، لم يدرك أحد قمته حينذاك، ولكن وحجرًا فوق حجر جرى تشييد الهرم وبات هو النظام بعد نحو ربع قرن.

بدأ بناء الهرم الجديد بقانون استثمار المال العربى والأجنبى عام ١٩٧٤ والذى أطلقوا عليه اسم (قانون الانفتاح)، ومن بعده جاءت قرارات إلغاء المؤسسات العامة، وإلغاء احتكار القطاع العام لتجارة الاستيراد ولقطاع المال بشقيه: البنوك وشركات التأمين.

وكان ذلك يعنى تحويل القطاع العام من قطاع قائد للاقتصاد إلى مجرد مال مستثمر، ومن قطاع يحتكر بعض الأنشطة إلى قطاع متنافس، ثم قطاع متراجع خاضع لسيف الخصخصة، وشمل ذلك فيما شمل قطاع البنوك الذى أصبح يضم نحو ستين مصرفًا، أغلبها ينتمى للقطاع الخاص والذى حاز ما يقرب من نصف الودائع والنشاط.

التحول إذن حدث على جبهتين: جبهة (القطاع العام والخاص) مع تشجيع الأخير ليكون هو الأساس فى العملية الاقتصادية، وجبهة البنوك (مصرية وأجنبية)، وبما يعنى تحرير قطاع المال إلى جوار تحرير قطاع الإنتاج.

ومن انفتاح السبعينيات إلى خطة الإصلاح الاقتصادى فى التسعينيات والتى تمت باتفاق مع صندوق النقد تم وضع سياسة التحرير: تحرير التجارة استيرادًا وتصديرًا، تحرير الأسعار، تحرير التملك، تحرير سعر العمل، وتحرير العملة والتعامل مع العالم الخارجى وربما يكون تعديل قانون النقد الأجنبى وإلغاء الرقابة على النقد علامة رئيسية على هذا الطريق فمن خلال هذا التعديل ذهبت مصر إلى أبعد ما ذهبت إليه دول عريقة فى الرأسمالية مثل بريطانيا، فسمحت بخروج رأس المال أو التحويلات الرأسمالية دون قيد، وهو ما أعطى رخصة للبنوك ولبعض رجال الأعمال لكى يأخذوا (الطريق الشرعى للهروب) إن جاز التعبير!!

تطور النظام الاقتصادى بما سمح بموقع متميز للقطاع الخاص جرى تأييده سياسيا على مدى الحقب الثلاث الأخيرة وجرت مساندته اقتصاديًا وجاءت الأرقام لتشير إلى أن القطاع الخاص قد أسهم بمقدار (٧٣) بالمائة من الناتج المحلى عام (٢٠٠٠ - ٢٠٠١) كما أسهم بثلثى حجم الاستثمار المحلى ولكن عندما اتجه للاستثمار فإنه لم يمول أكثر من (٤٧) بالمائة من مدخراته الخاصة، واعتمد على الاقتراض مصرفيًا أو من خلال السندات أو غير ذلك بنسبة (٥٣) بالمائة طبقًا لأرقام ١٩٩٦.



قامت مشروعات كبيرة إذن اعتمادًا على المدخرات العامة وقروض البنوك ولم تقم على أساس ما يمتلكه القطاع الخاص من مدخرات، ولم يكن ذلك من باب تشجيع الدولة للاستثمار الخاص فقط، ولم يكن فى حالات كثيرة نتيجة نفوذ سياسى، لكنه كان نتيجة لرباط عضوى حيث أسهم القطاع الخاص فى (٢٤) بنكًا جديدًا، وعشرين فرعًا لبنوك استثمار وأعمال أجنبية، كما أسهم فى بعض البنوك المتخصصة وكان ذلك امتدادًا لما جرى فى السبعينيات التى شهدت خمسة أنواع من التطورات:

* تطور النظام الاقتصادى والبناء الاقتصادى والعلاقات الاقتصادية الخارجية على النحو الذى أشرت إليه.
* تطور موقع القطاع الخاص.
* انتشار الرأسمالية العائلية.
* اختلاط السياسة بدوائر الأعمال.
* صاحب ذلك تطور فى أشكال الفساد وآلياته.

وكانت مجموعة (عثمان أحمد عثمان) هى الأكثر تعبيرًا عن كل ذلك، فقد انتقلت المجموعة (وليست الشركة) من قطاع المقاولات والتشييد إلى قطاعات متعددة أخرى بينها قطاع المصارف حيث دفع المهندس عثمان أحمد عثمان - رحمه الله - لإنشاء سلسلة البنوك الوطنية وبنك المهندس وبنك قناة السويس وكلها ظهرت أسماؤها فى قضية نواب القروض.

كذلك فقد قام المهندس عثمان أحمد عثمان بإنشاء شركات خاصة ملحقة بالمقاولين العرب، وتحتل بعض مواقع ومكاتب الشركة الأم وتنقل ثمرات (المقاولون العرب) لجيوب غير حكومية.

وبنفوذ خاص جرى احتلال المناصب والمواقع المختلفة، ثم حدث الصدام المكتوم بين المجموعة وجهاز الرقابة الإدارية الذى تم إنشاؤه فى الستينيات وجرى تجميده (أو إلغاؤه) بقرار من الرئيس السادات عام ١٩٨٠، واستمر التجميد لمدة عامين حين أعاد الرئيس مبارك الجهاز للحياة، وإن كان السؤال ظل معلقاً: أين ذهبت أوراق الرقابة الإدارية؟

العميل الأول

فى هذا السياق تجىء الأزمة التى نتحدث عنها، والتى تبرز الرقابة الإدارية أيضًا كأحد أطرافها حيث لعبت دورًا رئيسيًا فى الكشف عن الفساد فى عدد من البنوك وإحالة الأمر إلى القضاء.

وبطبيعة الحال فإن الرقابة الإدارية، ومثلها مباحث الأموال العامة ونيابة الأموال، مجرد أجهزة تتابع، وتطارد، وتفتح الباب للمحاسبة، ولكن وقبلها يجىء دور الأجهزة الاقتصادية بل وبعض الأجهزة السياسية أيضًا.. ويجىء السؤال: ما هو الحجم الحقيقى للمشكلة التى نحن بصددها؟.. وهل نبدأ بالحديث عن الاقتصاد غير الرسمى أو الاقتصاد الخفى الذى قدره البعض بـ(٣٢,٧) مليار جنيه فى منتصف التسعينيات، أم نبدأ من رقم أكثر تواضعًا أذاعته السلطات وهى تتحدث عن حجم الأموال المتعثرة فى البنوك؟

ولاشك أن الأرقام تتداخل فالكثير مما نتحدث عنه كمشكلة تواجه البنوك أو كأموال هاربة يدخل فيما يسمى الاقتصاد الأسود، لكن الفصل رغم ذلك ضرورى حتى لا نذهب بعيدًا عن دائرة المصارف.

وبالرجوع لمصادر عدة فإن الآراء والأرقام تتفق على الأهمية المتزايدة للقطاع الخاص وأنه أصبح العميل الأول للمصارف، وطبقًا لبيانات المركز المصرى للدراسات الاقتصادية فقد زاد نصيب الائتمان الخاص من ثلث الناتج المحلى لمصر عام (٩١ - ٩٢) إلى (٥٥) بالمائة من هذا الناتج عام (٩٦ - ٩٧)، ومازال للائتمان الخاص هذه الأهمية النسبية العالية سواء بالنسبة للدخل القومى (الناتج) أو بالنسبة لجملة الاقتراض وهو ما يمثله رقم يقول أن القروض والمساهمات الرأسمالية للبنوك لحساب القطاع الخاص قد بلغت (١٦٢,٥) مليار جنيه فى يونيو عام (٢٠٠٠) وبما يعادل (٣٦٥) بالمائة مما كان متاحًا فى نفس التاريخ للحكومة والقطاع العام.



وقد استمرت هذه الأهمية النسبية العالية، فأشارت بيانات البنك المركزى المصرى إلى أن جملة الائتمان المحلى (قروض وخلافه) قد بلغت (٣٥٩) مليار جنيه فى آخر مايو ٢٠٠٢ بينها (١٦٥) مليار جنيه للقطاع الخاص فى مقابل (١٦٩) مليارا للحكومة، و(٣١,٥) مليار لقطاع الأعمال العام.

ولم يكن هذا النمو الكبير فى موقع القطاع الخاص من الائتمان المصرفى معبرًا عن نمو مماثل فى تمويل البنوك وتزويدها بالودائع حيث أشارت إحصاءات البنك المركزى أن القطاع العائلى كان الممول الرئيسى للبنوك بودائع بلغ حجمها (٢١٥,٥) مليار جنيه فى مايو ٢٠٠٢، وهو ما يعادل أربعة أضعاف ودائع القطاع الخاص تقريبًا، والذى لم تتجاوز ودائعه (٤٩,٤) مليار جنيه.

مجموع أفراد الشعب إذن يودعون أموالهم، وقطاع الأعمال الخاص هو الذى يستثمرها، ومن هنا كانت خطورة ظاهرة الديون المتعثرة، أو المشكوك فيها، أو الهاربة، وبينما أشارت البيانات المذاعة أن المشكوك فى تحصيله - أو المتعثر - هو (١٢) مليار جنيه فقط، أشارت مصادر أخرى أن الرقم (ربما بإضافة الفوائد غير المحصلة) هو ثلاثون مليار جنيه.

وأشار تقرير للسفارة الأمريكية فى القاهرة حول مناخ الاستثمار فى مصر (يوليو ٢٠٠٢) أنه بالرغم من تحسن الموقف عن عام مضى فإن القروض المتعثرة تتراوح بين (١٥) و(٢٠) بالمائة من حجم الائتمان المصرفى.

وأيًا كانت الأرقام والتى قد تختلف لأسباب متعددة من بينها طريقة الحساب وما إذا كان الحديث عن القروض أو القروض والتسهيلات وخطابات الضمان، وهى أشكال مصرفية متعددة.. وما إذا كان الحديث يتناول القروض أم القروض والفوائد والتى يعادل حجمها حجم الإقراض فى الوقت الراهن.

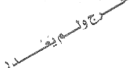
الأرقام تختلف لكنها وفى كل الأحوال تستوقف النظر وتستحق ما جرى من اهتمام.



محمــــود المــــراغى

..حكاية المليارات الهاربة!

ركـــود أم فـــســـــاد؟!



حول أسباب الظاهرة، وإجابة لسؤال: لماذا لا تعود بعض الأموال إلى بنوكها، يأتي أكثر من تفسير:

** فهناك حالة الركود التي أصابت الأسواق في مصر خلال السنوات الثلاث الأخيرة والتي كانت تعني: زيادة المخزون وتراجع النشاط والأرباح وربما العجز عن سداد الالتزامات المالية سواء كانت للبنوك أو الضرائب أو الجهات الحكومية.. بل وتجاه العاملين أيضًا.

** وهناك وفي الدائرة الاقتصادية ذلك التغير في أسعار الصرف والذي هبط بسعر الجنيه بنحو الثلث في عام واحد مما ضاعف تكلفة المواد المستوردة وتكلفة الإنتاج كما ضاعف مستحقات البنوك التي أعطت ائتمانًا بعملة أجنبية فلما تغيرت أسعار العملة لعملاء يعملون في السوق المحلية أصبح الجميع في موقف عجز عن السداد.

** تضاف لذلك مسارات خاطئة للاستثمار ودراسات غير متأنية للسوق فقد اتجه الكثير من الاستثمار والذي تموله البنوك لسوق العقارات الذي سرعان ما واجه ركودًا في المباني فوق المتوسطة والفاخرة وفي القرى السياحية والمدن الجديدة (تقدر وزارة التخطيط عدد الشقق المغلقة سواء التي تم تشطيبها أو توقفت وهي تحت التشطيب بـ٣ ملايين شقة).



ومعنى الخيارات الخاطئة للاستثمار تجميد الأموال، بل وتآكلها بفعل الأعباء المتزايدة للتمويل والتي بلغت نحو (١٥:١٤) بالمائة كفوائد ومصروفات إدارية تتقاضاها البنوك، وهو ما اعتبره كثير من الاقتصاديين أحد أسباب الركود وانكماش الاستثمار والعجز عن سداد القروض للبنوك، وهو الموقف الذي استمر رغم تخفيض نسبي في أسعار الفائدة.

** تضاف لذلك ظاهرة تركز الإقراض ففي نهاية مارس عام ٢٠٠٠، كان هناك ثمانية عملاء (سوبر) قد حصلوا على (١٢,٤) مليار جنيه بمتوسط (١٥٥١) مليون جنيه لكل عميل، وبما يمثل حينذاك ستين بالمائة من حقوق المساهمين في جميع البنوك المصرية.

كان هناك أيضًا، وفي نفس التاريخ: (٢٨) عميلاً حصلوا على نحو (٢٦,٧) مليار جنيه وبما يعادل (١٣٥) بالمائة من حقوق المساهمين، وكان هناك (٣٤٣) عميلاً حصلوا على (٤٢) بالمائة من جملة التسهيلات الممنوحة للقطاع الخاص.

وبينما تُبرز الأرقام السابقة ظاهرة التركز في الإقراض فإنه يبرز أمران آخران في نفس الوقت:

الأول.. هو الطبيعة الخاصة للبنوك التي ثار الجدل حول خصخصتها، وألحت الدول المانحة في ذلك من خلال صندوق النقد الدولي أو المعونة الأمريكية أو اجتماع شرم الشيخ الذي انعقد لبحث حالة الاقتصاد المصري واحتياجاته بعد ١١ سبتمبر، والمقصود هنا بالطبيعة الخاصة أن البنوك تختلف عن منشآت صناعية أو تجارية أو زراعية تعمل برؤوس أموال أصحابها، فالبنوك هنا وعاء لمدخرات المصريين - أو مدخرات أي شعب - أكثر مما هي تعبير عن مساهمات مالية لأصحاب البنوك ومساهميها.

الأمر الثاني.. وفي سياق الاقتصاد السياسي لمصر (١٩٧٥ - ٢٠٠٢) فإن القروض الضخمة كانت آلية رئيسية لخلق طبقة رجال أعمال، بل طبقة من الأثرياء ثراء غير مسبوق حيث ظهر رقم المليار لأول مرة، وحيث تشير البيانات التي تسربت إلى الصحف أن مدينًا واحدًا (رامي لكح) قد اقترض من (١٦ بنكًا) وأن مديونيته قد بلغت ٢ مليار جنيه، بينما ١,١ مليار جنيه لبنك واحد، كذلك فقد حصل عمرو النشرتي على مئات الملايين كقروض أو بضائع تم تحويلها من البنوك واستولى عليها عندما اشترى محلات (سينسبري وقبلها إيدج) وصدر ضده ٦١ حكمًا قضائيًا مجموع أحكامها ١٨٠ سنة سجنًا.

ويصف الاقتصاديون ما حدث وبدأ تداركه أنه نوع من السفه من جانب البنوك وتصف دراسة لبنك مصر أن أسباب التعثر في سداد الديون متعددة وتشمل: نقص خبرة المصارف وغياب الإدارة المالية السليمة وعدم حساب المخاطر بشكل دقيق واستخدام القروض - وبلا رقابة - في غير الغرض المخصصة له، والتوسع غير المحسوب الناتج عن تنافس البنوك وميلها في إحدى الفترات للبحث عن عملاء ومجالات لتشغيل ما لديها من أموال مع غياب الدراسات الكافية للسوق إضافة لسبب مهم هو: سوء نية بعض العملاء.

هكذا جاءت دراسة بنك مصر بينما أشارت دراسة تقرير الاتجاهات الاستراتيجية السابق الإشارة إليه إلى الدرجة العالية من المخاطرة التي صاحبت هذه الظاهرة سواء بتركيز الإقراض - على النحو السالف - في عدد محدود من العملاء، أو تركزه في مجالات خطرة (كالتشييد في بعض السنوات)، أو بسبب حصول القطاع الخاص على ٥٣ بالمائة من قروضه بلا ضمان عيني، وقد أسفر ذلك عن تداعيات تشير إليها الدراسة فقد تآكل فائض السيولة عند البنوك، وهو الفائض الذي يمول النشاط الاقتصادي ويحركه، وفي نفس الوقت زادت شكوى رجال الأعمال من تقاعس البنوك عن إقراضهم مما زاد من مشكلة نقص السيولة، وقد اضطر كل ذلك بعض البنوك للاقتراض بسعر فائدة يزيد على سعر الإقراض للعملاء كما اضطرها للجوء للبنك المركزي مع محاولة خلق أوعية ادخارية جديدة تجذب أموالاً أكثر.

الأخطر، وهو ما يفتح باب الحديث عن الفساد مخالفة البنوك لقرارات البنك المركزي والتي تقضي بألا يزيد تمويل العميل الواحد عما يعادل ٣٠ بالمائة من القاعدة الرأسمالية للبنك، وهو حد تصوره القانون ٢٥ بالمائة فقط، ثم زاده البنك المركزي وتجاوزت عنه بعض البنوك بالنسبة لبعض العملاء).

و.. بينما كان كبار العملاء ينهلون من البنوك، فقد اتجهوا أيضًا للاستدانة من الأسواق، وعرفت مصر السندات التي تصدرها شركات خاصة بعد أن كانت السندات حكومية ومضمونة، وكان غريبًا وفي هذا المناخ أن يصدر قرار من وزير الاقتصاد يسمح لشركات القطاع الخاص بقرار من هيئة سوق المال بطرح سندات تتجاوز قيمتها صافي أصول الشركة، حتى وإن لم تتمتع بالتصنيف الائتماني (وهو القرار الذي استفادت منه مجموعة شركات لكح التي أصدرت سندات بموافقة هيئة سوق المال وبضمان أحد البنوك الذي تورط في الالتزام أمام مشتري السندات بعد أن تعثرت مجموعة لكح).

* هل هو الفساد إذن؟

* هل هي الفوضى في السوق المصرفية أو قلة الخبرة؟

* هل هو زواج المال والسياسة؟

* هل هو استيلاء رجال الأعمال على البنوك وعضوية مجالس إداراتها؟

قضية نواب القروض تصلح حالة للدراسة، وإن كان مجموع ما تم إهداره بواسطة ٣٢ متهمًا يقل عن المليار.. أي أنه يقل عن مديونية عميل واحد من العملاء «السوبر»!.. كذلك فإن القضية لم تكن الأخيرة، ففي الوقت الذي أذيع فيه الحكم، أو بعده بأسابيع تم رفع الحصانة البرلمانية عن رئيس بنك آخر يشغل في الوقت نفسه موقع الرقيب على السياسة الاقتصادية للحكومة بحكم موقعه كرئيس للجنة الاقتصادية في مجلس الشعب، ثم بدأ التحقيق معه في نفس التهم: تسهيل الاستيلاء على أموال عامة مصرفية!

[٤]

حكمت المحكمــــة!

في اليوم الأخير من يوليو ٢٠٠٢ وفي العاشرة صباحًا وفي قاعة محكمة أمن الدولة العليا بوسط القاهرة دخل إلى قفص الاتهام ١٩ متهمًا وسط حراسة مشددة، وغاب عن مسرح الحدث ١٣ متهمًا آخرون، أحدهم بسبب الوفاة، وأحدهم لوجوده بالمستشفى، أما الآخرون فقد تغيبوا بسبب الهرب وبما رفع عدد الهاربين في قضية نواب القروض من أربعة عند المحاكمة الأولى إلى ١١ عند المحاكمة الثانية لنفس الأشخاص.

غابت عن الحضور المتهمة الأولى المتواجدة في باريس والتي تعذر إحضارها (علية العيوطي نائب رئيس بنك النيل) وغاب والدها رئيس البنك (عيسى العيوطي) - الموجود حينذاك بالمستشفى - كما غابت منى العيوطي شقيقة الأولى وابنة الثاني، وغاب معهم محمود عزام (زوج الأولى). الأسرة إذن - باستثناء المصرفي العجوز الذي طالما عارض تصرفات ابنته - استطاعت الفرار قبل أن يصدر الحكم النهائي، ولكن في القفص كان يقف وزير سابق هو توفيق عبده إسماعيل الذي كان في بداية تداول القضية مسئولاً عن ميزانية مصر كرئيس للجنة الخطة والموازنة بمجلس الشعب، وهو الرجل الذي أدلى بحديث صحفي من وراء القضبان جرى نشره عام ٩٩، وأكد فيه أنه لا يود الهرب لأنها ليست شيمته، ولأنه بريء مما ينسبون، وحين سأله الصحفي حينذاك عن أخطائه التي يعترف بها ذكر ثلاثة أخطاء هي: أنه لم يخطر البنك المركزي بما كان ينبغي إخطاره به وأن بعض مستندات البنك قد ضاعت أثناء عملية نقل أحد المقرات وأنه قد وافق على منح بعض أعضاء مجلس إدارة البنك (وهو بنك الدقهلية) قروضًا رغم أن القانون يمنع ذلك.



اعترف الوزير وضابط المدرعات والمصرفي وعضو مجلس الشعب السابق بثلاث تهم، لكن النيابة كانت قد أسندت له تهمًا بالجملة وأقرت محكمة أمن الدولة في حكمها الأول عام ٢٠٠٠ أن توفيق إسماعيل مدان في ٢٥ تصرفًا، هكذا دخل إلى القفص في المرة الثانية ليستمع للحكم النهائي: أشغال شاقة لمدة خمسة عشر عامًا رغم بلوغه سن السبعين، وإجرائه لجراحات سرطان عدة مرات، ورغم وثوقه من البراءة!

كان معه في القفص أيضًا: اثنان من أعضاء مجلس الشعب (والثالث هارب)، وبذلك يكون النواب (بمن فيهم توفيق عبده إسماعيل) أربعة مما جعل الصحافة تتداول القضية تحت عنوان (قضية نواب القروض) والتي شهدت طورًا جديدًا لها حين وقع رئيس مجلس الشعب على قرار رفع الحصانة عن النواب أثناء وجوده في مصيف مارينا فدخلت القضية بذلك مسارًا جديدًا خلط السياسة بالمال وتمثيل الأمة بالفساد.

وفي يوم ٣١ يوليو ٢٠٠٢ وحين جرى إغلاق الملف كانت قد مضت سبعة أعوام على تداول القضية منذ أن رفعت الرقابة الإدارية مذكرتها للنيابة ولرئيس الوزراء وللبنك المركزي، وكانت سبع دوائر قضائية قد تداولت الدعوى على مدى خمس سنوات في محاولة لحل ألغازها وتشابكاتها، وكان حكمان قد صدرا في القضية، الأول في يونيو عام ٢٠٠٠ والثاني - وبإجراءات نقض وإعادة نظر في الدعوى - كان في ذلك اليوم المشهود: ٣١ يوليو٢٠٠٢، حين أدين ٣١ متهمًا وقضت المحكمة بأحكام سجن يصل مجموعها إلى ٣٨٢ عامًا كما قضت بغرامة مقدارها ٨٨٧,٣ مليون جنيه، مع رد مبلغ مماثل لبنوك أربعة هي: بنك النيل، بنك الدقهلية التجاري، بنك المهندس، بنك قناة السويس.

قبل هذا التاريخ وبعده كان قد أثير لغط وثار جدال حول حقيقة التهم المنسوبة لنفر من علية القوم، فأثار البعض - ومنهم توفيق عبده إسماعيل في حواره الصحفي - أن مسألة الضمانات اللازمة للإقراض والتي ضمنتها

النيابة اتهاماتها ليست ملزمة، فقرار الائتمان قرار تقديرى للبنك ولا يهم وجود ضمان عينى، لكن المهم الثقة فى رغبة العميل وقدرته على السداد وجديته. وأثير لغط حول إجراء رفع الحصانة (وإن كان ذلك إجراء شكليًا) كما أثير السؤال: كيف يؤدى المتهمون ما عليهم من قروض وتسهيلات ائتمانية ثم تتم إدانتهم رغم ذلك؟.. وهل صحيح أنهم أعادوا الأموال إلى مكانها.

ولأن الحكم هو (عنوان الحقيقة) كما يقولون فليس أمامنا إلا أن نتوقف أمام الحكمين الصادرين بحق المتهمين، فماذا نجد عندما نقرأ الأوراق والتى بلغ عددها فى الحكم الأول وحده ٣٦٠ صفحة ممهورة بتوقيع رئيس الدائرة؟

أوجزت المحكمة فى الحكمين التهم المنسوبة، وردت - فى الحكم الأخير - على ما يثار وأبرزه حقيقة سداد المتهمين لمديونياتهم والذى نفته المحكمة استنادًا لفحص البنك المركزى ناسخة أقوال رؤساء البنوك الذين شهدوا لصالح المتهمين واتهمتهم المحكمة بالكذب!



وقد بدأت الدعوى - كالمعتاد - بعريضة من النيابة تشرح فيها ما انتهت إليه تحقيقاتها والتى استمرت نحو عامين ووضعت العريضة فى الصدر أسماء أربعة يتولون مناصب مرموقة فى بنك النيل، وهم بالترتيب: نائبة رئيس مجلس الإدارة، ورئيس المجلس، ومساعده، ومدير فرع القاهرة، ذلك أنهم - وكما تقول العريضة «قد أضروا عمدًا بأموال ومصالح بنك النيل الخاضع لإشراف البنك المركزى المصرى بأن أصدروا تعهدات بنكية قيمتها ١٣١,٧٣٩ مليون جنيه ومنحوا تسهيلات ائتمانية قيمتها ٢١٤,٥٧٦ مليون لعدد من الشركات (أوردت أسماؤها) إضافة لمحمود عزام (زوج نائبة رئيس مجلس الإدارة) بصفته الشخصية، ومنى عيسى العيوطى (شقيقة نائبة رئيس المجلس)، وخالد محمد حامد محمود (عضو مجلس الشعب ونجل وزير سابق).. و.. ذلك:

* دون إعداد دراسات كافية.
* أو وضع حدود ائتمانية يتم التعامل من خلالها.
* أو وضع برامج للسداد.
* ودون إجراء قيود محاسبية لإثبات التعهدات المنوه عنها بسجلات البنك أو دون استيفاء الضمانات اللازمة.
* ودون العرض على مجلس الإدارة.
* ودون التوقيع على مستندات مديونية البعض!
* وإجراء تسويات دون تفويض من مجلس الإدارة.

كانت هذه هى التهم الموجهة للأربعة الرئيسيين تم تتابعت الاتهامات التى حققتها الدوائر القضائية المختلفة، وانتهت قضاء بالحكم الأخير: ٣١ يوليو عام٢٠٠٢، هكذا كانت البداية والتى يبدو منها أمران:

الأول: أن جملة من التصرفات قد تمت دون اعتبار لقانون أو نظام أو حرمة لمال عام أو قواعد مصرفية، وأن بعض هذه التصرفات قد صدرت من أشخاص تربطهم صلة القربى إضافة لصلة العمل.

الأمر الثانى: وبقراءة أكثر للأوراق فإن جبهتين تبرزان على الفور: جبهة البنوك وجبهة المستفيدين، ونختار هنا كلمة «جبهة» لأن أسماء الشركات وأصحابها تتكرر عند كل بنك وكان هناك اتفاقًا لتوزيع الأموال، ولكن من منافذ مصرفية مختلفة، وهى منافذ لها صفة العمومية بحكم أنها تتعامل فى أموال وودائع الآخرين أكثر مما تتعامل فى أموال مملوكة للمساهمين فى هذه البنوك.. أيضًا بحكم أن بعض المساهمات فى رأس المال كانت من هيئة الأوقاف (بنك فيصل) وشركة قطاع عام هى مصر للتأمين (بنك قناة السويس) ونقابة المهندسين (بنك المهندس).

لم يكن المتهمون إذن - والذين تمت إدانتهم بعد ذلك - يتعاملون فى أموال خاصة بحكم ملكيتهم أو بحكم مشاركتهم فى الإدارة وإنما كانوا يتعاملون فى أموال مملوكة للشعب المصرى (ودائع ومدخرات).

وربما نضيف ما أبرزته الأوراق حول حقيقة الكيانات الاقتصادية التى تم الاقتراض أو الحصول على تسهيلات منها، فالبعض منها - وكما قالت المحكمة - مجرد شركات وهمية جرى إنشاؤها بغرض الاقتراض، كما أن بعضًا منها تم إنشاؤه بشهادات مزيفة من بنك الدقهلية، وهى شهادات تشير - على غير الحقيقة - بأنه قد تم إيداع رأس المال!

وفى التفاصيل وكما أشار الحكم الأول، فقد كانت هناك قروض وتسهيلات بلا ضمانات حقيقية، وكانت هناك شركات برأس مال غير موجود، وكانت هناك - وعلى سبيل المثال - شركة تأسست فى نهاية ١٩٩٢ كشركة توصية برأس مال قدره ٩٠ ألف جنيه، لكنها استطاعت أن تقترض من بنك الدقهلية ٤,٦ مليون جنيه حتى سبتمبر ٩٥، كما سمح لها البنك بتسهيلات قدرها ٣ ملايين دولار.. أى أنه لا تناسب بين رأس المال المملوك للشركة وما منحه لها هذا البنك أو ذاك!

أيضًا وفى التفاصيل أن علية العيوطى (نائب رئيس مجلس إدارة بنك النيل) تزوجت محمود عبد الفتاح عزام فى مايو٩٢ وكان هناك (حظر تعامل) معه من بنك فيصل لكنها - ورغم ذلك - أصدرت تعهدات بنكية من البنك الذى ترأسه لشركات كان يمتلك نصفها ويديرها، وكانت قيمة التعهدات تقترب من الثمانين مليون جنيه، وبما يتجاوز القاعدة المصرفية التى تقضى ألا يأخذ عميل واحد أكثر من ٣٠ بالمائة من القاعدة الرأسمالية للبنك!

وهكذا تكثر التفاصيل التى تصفها المحكمة بأنها تشير لعلاقات (عنكبوتية) يصعب الوصول فيها للحقيقة، وهى وقائع تمت فى تاريخ سابق على ٣٠ سبتمبر ١٩٩٥، حين تحركت الرقابة الإدارية، وحين كانت هناك تعليمات من البنك المركزى باتباع قواعد (بازل) الدولية التى تربط بين الامتلاء المالى للبنك وحجم ما يخصصه من قروض، وهى القواعد التى ألزم بها البنك المركزى المصرى المصارف المصرية اعتبارًا من يناير ١٩٩١.

(راجعت المحكمة اجتماع محافظى البنوك المركزية فى العالم والذى تم فى مدينة بازل، كما راجعت ما انتهت له الاجتماعات من تنبيه لمواجهة المخاطر الائتمانية وتقرير لجنة بازل الذى اعتبر مصر ضمن مجموعة الدول ذات المخاطر المصرفية العالية).

تمت الجرائم إذن فى ظل تحذير من البنك المركزى، وقواعد تتسم ببعض الصرامة، وهو ماحدا بالدائرة القضائية الأخيرة التى أعادت النظر فى القضية بناء على حكم من محكمة النقض، حدا بها لأن تقول:

* **«إن القضية ليست قضية نواب لأن هؤلاء الأشخاص من بين المتهمين الذين دخلوا مجلس الشعب فى غفلة من الزمن لفظهم المجلس على الفور بعد أن تيقن من أنهم ليسوا نوابًا للشعب وإنما هم سارقون لأمواله».**
* **«كما أنها ليست قضية قروض لأن ما ارتكبه المتهمون لا يمكن أن يوصف بانه اقتراض بل هو نهب من أموال البنوك».**
* **«والمحكمة إذ تاسف لأن النصوص التشريعية لم تمكنها من أن تحيل المتهمين إلى المفتى، لأنهم حقًا يجب أن يحالوا إليه جزاء أفعالهم والتى كانت بمثابة اغتيال لأموال هذا الوطن.. المحكمة إذ تاسف لذلك فإنها تطالب بتعديل الحد الأقصى لعقوبة هذه الجرائم لتصل إلى الإعدام»!**



وفى الأسباب قالت المحكمة أنها قد تأكدت أن المتهمين قد ارتكبوا جنايات تسهيل الاستيلاء على أموال البنوك وعلى تسهيلات بنكية بدون وجه حق وإضافة قيمة هذه التسهيلات لشركاتهم.

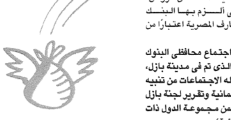
وإضافت المحكمة أن المتهمين قد أضروا أيضًا بأموال بنكى فيصل وقناة السويس (إلى جوار النيل، والدقهلية، والمهندس)، وأن ادعاءهم السداد كان مجرد حيلة لتعطيل محاكمتهم.

(و.. كذبت المحكمة شهادة رؤساء البنوك حول سداد القروض، وقالت إنها أقوال مصطنعة لإنقاذ المتهمين).



لم يكن هذا النمو الكبير فى موقع القطاع الخاص من الائتمان المصرفى معبرًا عن نمو مماثل فى تمويل البنوك وتزويدها بالودائع حيث أشارت إحصاءات البنك المركزى أن القطاع العائلى كان الممول الرئيسى للبنوك بودائع بلغ حجمها (٢١٥,٥) مليار جنيه فى مايو ٢٠٠٢، وهو ما يعادل أربعة أضعاف ودائع القطاع الخاص تقريبًا





وتقول المحكمة إن المتهمين لم يتعثروا فى السداد ولكنهم تفننوا فى سرقة الأموال!

وما لم تتوقف عنده المحكمة وكشفت عنه القضية إضافة لقضايا أخرى: دور المرأة الذى تصاعد فى العديد من قصص الفساد طوال الخمسة عشر عامًا الماضية.

لم يكن حكم قضية نواب القروض مفاجئًا، ولم تكن الأموال التى تم الاستيلاء عليها بواسطة الجناة هى الأكثر فيما يسمى (الديون المشكوك فيها) بل إن رجل أعمال واحدًا من الحجم السوبر ينسخ كل ذلك ويقدم لنا أرقامًا مضاعفة وإن لم تقدم حيثيات مفضوحة كتلك التى شاهدنا خلال تحقيق ومحاكمات استمرت سبع سنوات.

الفارق: هو ما تم - أو لن يتم - تحقيقه.

والهاجس: لماذا يحاكم البعض وتجرى المصالحة - وفقًا لمبادرة حكومية - مع البعض.

وربما ترتعش يد العدالة وهى بين نارين: نار القانون والعدل الإلهى.. ونار المصلحة فى استرداد ما يمكن استرداده من أموال هاربة.

ومع ذلك تظل قضية نواب القروض ذات دلالات تفسر كل ما يجرى وتصل بنا إلى ما بدأنا به من قصة الاقتصاد السياسى للأزمة منذ السبعينيات وحتى الآن.

والدلالات واضحة وتقول:

أولاً: إن البنوك غير المنشآت الاقتصادية وأموالها ليست ملك أصحابها فى معظم الأحوال ومن ثم فإن إدارتها والرقابة عليها وتحديد مصيرها لابد أن يكون مختلفًا.

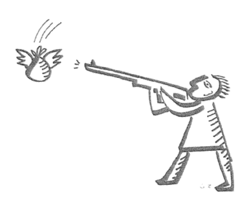
ونفس النقطة تقودنا للتعرف على حقيقة أن القطاع الخاص المصرفى كان أكثر فسادًا، أو أنه لم يكن الأفضل مقارنة بمصارف القطاع العام التى أعطت فى قضايا أخرى، ولكن بنفوذ سياسى أو حماسى لانفتاح واستثمار زائفين.

والسؤال بعد ذلك: هل تمضى مصر فيما التزمت به أمام الدائنين والمانحين الدوليين من (خصخصة) أحد البنوك التجارية الكبرى الأربعة أم توقف هذه المحاولات بعد أن انكشف الغطاء عن خطورة القطاع الخاص فى مجال المال والائتمان.

ثانيًا.. وكما يتضح من قضية نواب القروض وغيرها من ديون متعثرة فإن قضية نفوذ رجال الأعمال باتت مطروحة، كما أن قضية اختلاط السلطة بالمال باتت خطرًا يهدد الجميع.



فى الشارع المصرى، ساءت سمعة الكلمة (رجل أعمال) حتى طالبت بعض منظمات التجارة بألا تستخدم الكلمة، واستجابت وزارة الداخلية فمنعت مصلحة الهجرة



والجوازات ومصلحة السجل المدنى من استخدام كلمة (رجل أعمال) وطلبت النص فى جوازات السفر والبطاقات المدنية على نوع العمل صراحة (تاجر - صاحب مصنع - مقاول.. إلخ).

وفى الشارع المصرى، كان معلومًا أن خلطًا قد حدث بين دوائر الأعمال ودوائر السياسة، وهو خلط بدأ فى السبعينيات كما أشرت قبل ذلك، ثم تصاعد فى إحدى الحكومات التى كان يدعو رئيسها رجال الأعمال لحضور بعض الاجتماعات الرسمية لمجلس الوزراء، وامتد ذلك لسفر رجال الأعمال فى وفود رسمية، ثم أصبحت عضوية المشتغلين بالأعمال فى مجلسى الشعب والشورى والحزب الحاكم والمجالس المحلية رخصة من أجل كسب أكثر.

الخطير أن تنظر بعض الجهات الحكومية لرجال الأعمال نظرة خاصة تمنحهم من خلالها امتيازات وموافقات نظير تبرعهم لإنشاء طريق أو إصلاح مدرسة أو تاجير بلاج، وقد تصرف الكثير من المحافظين على هذا النحو بحثًا عن تمويل لبعض مشروعاتهم، ومن منطلق الحاجة المالية الحكومية.

والخطير أن تصبح نسبة كبيرة من جهاز التشريع (مجلس الشعب) من رجال الأعمال وأن يتم إسناد اللجان ذات الطابع الاقتصادى لهم، فيكون رئيس لجنة الخطة والموازنة السابق متهمًا فى قضية نواب القروض وهو الذى أنيط به التصديق على ميزانية الحكومة ومحاسبتها، ويكون رئيس اللجنة الاقتصادية فى الدورة التالية رئيسًا لبنك ومتهمًا فى قضية وتحت التحقيق، ويكون ثالث رؤساء اللجان أحد كبار المدينين للبنوك.

وفى خلفية المسرح يجرى الحديث عن الملايين التى ينفقها رجال الأعمال للحصول على موقع سياسى.. مباشرة بعضوية مجلس الشعب أو بصفة غير مباشرة حين يمولون انتخابات الآخرين.

إنه الفساد السياسى الذى دعا قاضى «نواب القروض» لأن يقول إن المتهمين قد ظنوا أنهم «فوق القانون» وأن «مستندات مزورة وضمانات وهمية بمبالغ ضخمة قد صدرت مستغلين تمتع بعضهم من أعضاء مجلس الشعب السابقين بحصانتهم البرلمانية».

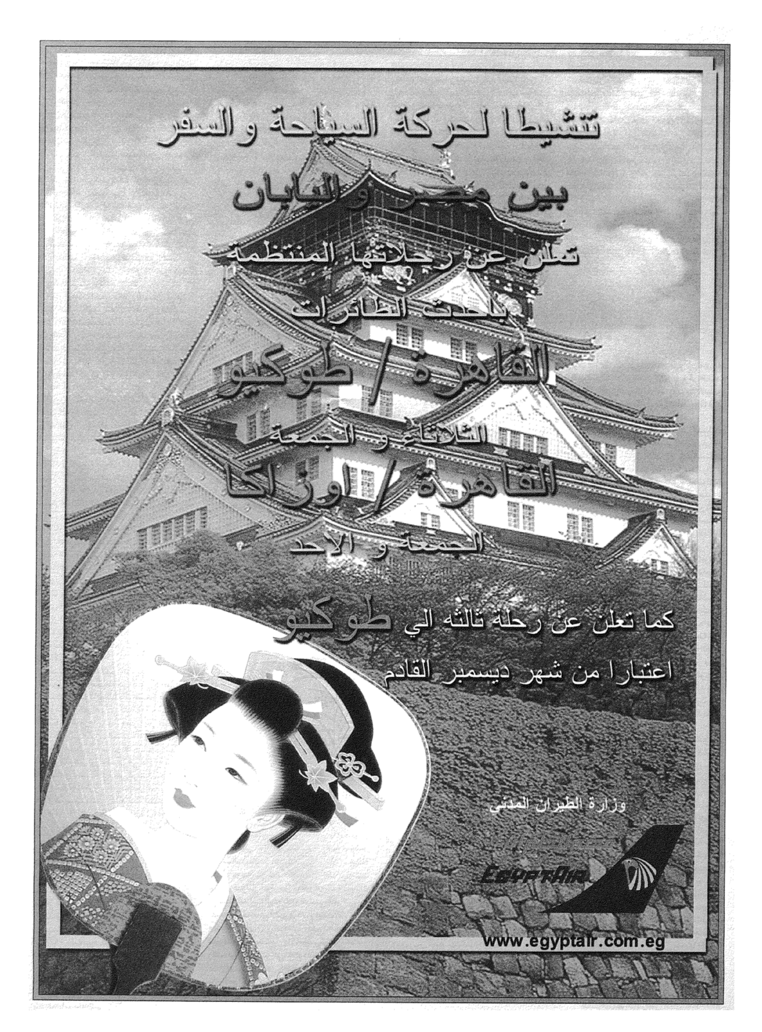
ثالثًا: تبرز القضية سيطرة الرأسمالية العائلية فى مصر وهى سمة غالبة بصرف النظر عن الفساد وقضايا البنوك، لكنها سمة تمنع انفتاح الاقتصاد المصرى كما تحجب فرصة أن تكون البورصة أو أن تكون الشركات المساهمة على سبيل المثال وعاء لجذب المستثمرين.

(العائلية) منتشرة فى مصر، لكنها - وفى قضية نواب القروض - كانت معول فساد.. فرأس القضية ذو تشابكات عائلية واضحة ومدانة، والشركة التى أشرنا إليها والتى بدأت بـ ٩٠ ألف جنيه واستدانت الملايين هى شركة عائلية بين المتهم العشرين (إحسان مصطفى دياب) وزوجته والأخوين (عجلان) لهما باع فيما ثبت من اتهامات، وقد قام أحدهما بتعيين نفسه عضوًا بمجلس إدارة بنك الدقهلية، وعندما هوجم على هذا التعيين باعتبار أنه مخالف لنص المادة ٣٩ مكرر من القانون رقم ١٦٣ لعام ٥٧ أتى بوالدته التى تدعى أمينة على الفار وحلت بدلاً منه فى عضوية مجلس إدارة البنك.

رابعًا: ولو أن العدالة لم تكن بطيئة ولو أن التحقيق لم يستغرق سبع سنوات هل كان الفساد المصرفى قد استشرى؟ ولو أن كفاءة القرار المصرفى عالية، هل كان التسيب يستمر؟ أم أن رجال السياسة كانوا أقوى من رجال البنوك، حتى أن بعض القروض كانت تتم بالتليفون أو عشية هروب أحدهم للخارج كما تشير بعض التحقيقات أيضًا، هل لعب ازدواج الجنسية دورًا فى فرار بعض كبار المدينين إلى الخارج، فكان لهم الوطن الآخر مستقرًا آمنًا؟

لقد أخذ من أخذ، وبالمليارات، ولمشروعات غير مرشدة وبضمانات قال عنها أعضاء مجلس الشعب عند نظر قضية الأراضى بالمجلس أنها وهمية.. حدث كل ذلك وظل الفاسدون فى القمة، أو على مقاهى (الشانزليزيه)، وبجوار اللاعبين بالمليارات بدت أزمة الصغار مرتين.. مرة بأنهم عاجزون عن التعامل مع البنوك لأن شيكًا بألف جنيه يحصل عليه البنك عن طريق الحبس ومن خلال ضمانات مضاعفة.. ومرة لأنهم يرون الفساد فى الأدوار العليا بأرقام فلكية وهم عاجزون عن أن يفعلوا شيئًا، فلا مال لديهم ولا صوت فى مجلس الشعب!

ويبقى السؤال: ما علاقة كل ذلك بمناخ وحجم التنمية والاستثمار فى مصر؟.. ومن أين يبدأ الإصلاح من دائرة السياسة أم من دائرة الاقتصاد؟.. من قرار وقانون وتقرير يصدره مجلس الشعب.. أم من جهاز فنى يحرس أموال البنوك، أموال الناس؟ ■


تنشيطا لحركة السياحة و السفر
بين مصر و اليابان
تعلن عن رحلاتها المنتظمة
بأحدث الطائرات
القاهرة / طوكيو
الثلاثاء و الجمعة
القاهرة / اوزاكا
الجمعة و الأحد
كما تعلن عن رحلة ثالثه الي طوكيو
اعتبارا من شهر ديسمبر القادم
وزارة الطيران المدني
EGYPTAIR
www.egyptair.com.eg

الطريق إلى غزو العراق وانتهاك القانون الدولي

مايكل بايرز

شعر الرئيس الأمريكي بقدرته على المطالبة بحق موسع لاتخاذ إجراء إجهاضي، لأن الدول الأخرى لا تملك في الوقت الراهن القدرة على الانتقام. وما لا يدركه بوش هو أن تلك الإجراءات سوف تشجع الدول الأخرى على امتلاك نفس الأسلحة التي يدعي هو أنه يبغضها

في يونيو الماضي، وفي مستهل كلمة ألقاها في كلية ويست بوينت العسكرية، قال جورج دابليو بوش: «لابد أن ننقل المعركة إلى العدو، ونربك خططه، ونواجه أسوأ الأخطار قبل ظهورها»، معلنًا بذلك سياسة جديدة موسعة للعمل العسكري الإجهاضي. وحيا الخريجون الإعلان بتصفيق حماسي، فكانوا بذلك لا يعلنون عن وطنيتهم وحسب، بل كذلك عن نقص ما في الوعي التاريخي.

ففي عام ١٨٣٧ كان البريطانيون يسحقون تمردًا في كندا العليا. وفشلت الولايات المتحدة، التي لم تكن على استعداد لمعاداة قوة عظمى بدعمها المباشر للمتمردين، في منع تشكيل قوات الميليشيا الخاصة. واستخدم المتطوعون باخرة اسمها «كارولين» لنقل السلاح والرجال إلى جزيرة على الجانب الكندي من نهر نياجرا. ورد البريطانيون بشن غارة ليلية. وبعد استيلائهم على الباخرة أثناء رسوها في فورت شلوسر بنيويورك، أضرموا فيها النار ودفعوا بها من فوق شلالات نياجرا.

أثار الحدث استياء في واشنطن. فبعد أن أحرق البريطانيون البيت الأبيض والكابيتول عام ١٨١٤، هاهم يتدخلون ثانية في الأراضي الأمريكية. وبلغ التمثيل الدبلوماسي مداه في تبادل الرسائل بين اللورد أشبرتون وزير المفاوضات الخاص ودانييل ويبستر وزير الخارجية الأمريكي. واتفق الاثنان على أن مثل تلك الغارات يمكن تبريرها فقط إذا كانت هناك «ضرورة عاجلة وشديدة للدفاع عن النفس، بحيث لا تترك خيارًا لأية وسيلة أخرى، ولا تتيح لحظة للتروي» وما لم يقع أي شيء «غير منطقي أو زائد عن الحد».

وحتى وقت قضية «كارولين» كان الدفاع عن النفس تبريرًا سياسيًا لما كان أعمالاً حربية عادية من المنظور القانوني. وكان القانون الدولي الوضعي في القرن التاسع عشر يرفض تمييز القانون الطبيعي بين الحرب العادلة والحرب غير العادلة. ولم يكن العدوان العسكري يخضع لأي من النظم وكان الغزو يعطي الحق في السيطرة على الأرض، وهو ما أوضحه استيلاء بريطانيا على جزر الفوكلاند عام ١٩٣٣، ولم تمنع قضية «كارولين» العدوان، ولكنها أوجدت تمييزًا قانونيًا بين الحرب والدفاع عن النفس. فبما أن العمل الذي يجري التصدي له لم يكن في حد ذاته عملاً من أعمال الحرب، فلا بد من حفظ السلام، وهي مسألة على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للدول الضعيفة نسبيًا، كما كانت الولايات المتحدة في ذلك العهد.

أصبحت معايير «كارولين» الخاصة بالضرورة والتناسب مقبولة على نطاق واسع باعتبارها قانونًا دوليًا متواضعًا عليه؛ وهو مجموعة من القواعد غير المكتوبة صيغت بناء على سلوك الدول وآرائها. ولكن الأمر احتاج إلى قرن آخر وإلى الحرب العالمية الأولى كي يقتنع الساسة بضرورة فرض قيود على العدوان العسكري. وكان أول مسعى في عام ١٩١٩ حين أُقر ميثاق عصبة الأمم في فرساي. وطبقًا لما ينص عليه الميثاق يمكن لمجلس عصبة الأمم إصدار توصيات للدول المعرضة لخطر الدخول في حرب. إلا أنه في حال عدم توصل المجلس إلى اتفاق يكون للأطراف المتنازعة حرية اتخاذ الإجراء الذي تعتبره «ضروريًا للحفاظ على الحق والعدل». وكانت العصبة تفتقر كذلك إلى القدرة على فرض القرارات، بينما اختفى أي أمل في تنسيقها لفرض الإجراء الذي يتخذه أعضاؤها حين رفض مجلس الشيوخ الأمريكي الميثاق عام ١٩٢٠.

حظرت معاهدة كيلوج - برياند (الأول وزير خارجية أمريكا والثاني وزير خارجية فرنسا) في ١٩٢٨ «اللجوء للحرب كحل للخلافات الدولية». واستثنت المعاهدة التي أقرتها في النهاية ٦٢ دولة الدفاع عن النفس، إلا أنها لم تضع تعريفًا له؛ وكانت نتيجة ذلك أن المعايير المتواضع عليها التي أوجدتها قضية «كارولين» ظلت الأسس القانونية الوحيدة لاستخدام القوة في الشئون الدولية. ولأن المعاهدة كانت قوية من حيث المبدأ، بينما تفتقر إلى آلية تنفيذ، فقد كان أثرها العملي ضئيلاً. وتحايلت بعض الدول عليها عن طريق تجنب إعلان الحرب بشكل رسمي.

وفي عام ١٩٤٥ طالب ميثاق الأمم المتحدة كل الدول بـ«الامتناع ... عن التهديد باستعمال القوة». وبذلك وسَّع الحظر المفروض على الحرب ليشمل الصراعات غير المعلنة. والمهم هو أن الميثاق نص على آلية للتنفيذ. ومُنح مجلس الأمن - الذي يضم ١١ عضوًا (١٥ الآن) - سلطة تحديد «وجود أي تهديد للسلم، أو انتهاك للسلم، أو عمل عدواني»، وفرض العقوبات، و«تنفيذ ذلك بواسطة القوات الجوية أو البحرية أو الجوية حسبما تقتضي الضرورة». وكانت تلك لحظة مهمة في الشئون الدولية؛ فقد تحول العالم الفوضوي الخاص بالاعتماد على النفس والتحالفات المؤقتة إلى نظام ناشئ للمراقبة.

ولم يكن واضعو الميثاق سُذَّج. فاعترافًا منهم بأن الأمم المتحدة قد تتعرض للخطر إذا تعرضت الدول القوية لتهديد من عمل جماعي، منحوا الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن حق النقض (الفيتو) على إجراءاتها لبريطانيا والصين وفرنسا والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. ولعلمهم بأن المجلس قد لا يرد فورًا على أي عمل من أعمال العدوان، فقد ضمَّ الميثاق استثناء للدفاع عن النفس. إلا أنه أُدخلت ثلاثة قيود جديدة بالإضافة إلى الضرورة والتناسب، وهي أن أية دولة يمكنها ممارسة الدفاع عن النفس فقط إذا تعرضت لـ«هجوم مسلح»، وأنه لابد من إبلاغ مجلس الأمن في الحال بأعمال الدفاع عن النفس، وأن حق الرد ينتهي بمجرد اتخاذ مجلس الأمن لإجراء ما.

ويبطل شرط «الهجوم المسلح» الحق في اتخاذ أي إجراء استباقي. واعترافًا بهذا، تمتنع معظم الدول منذ عام ١٩٤٥ عن المطالبة بحقها في الدفاع الإجهاضي عن النفس. وبررت إسرائيل الضربات التي بدأتها في حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ على أساس أن إغلاق مصر لمضايق تيران كان عملاً مسبقًا للعدوان. وبررت الولايات المتحدة الحصار الذي فرضته على كوبا عام ١٩٦٢ بأنه حفظ للسلام الإقليمي، كما بررت إسقاطها لطائرة الإيرباص الإيرانية عام ١٩٨٨ بأنه رد على هجوم متواصل. ولم يكن الرأي الدولي بشأن هذا الأمر في يوم من الأيام أوضح مما كان عليه حين دمرت إسرائيل المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١، حيث زعمت أنه دفاع إجهاضي عن النفس. ووقتها قالت رئيسة الوزراء مارجريت تاتشر: «لا يمكن تبرير الهجوم المسلح في مثل هذه الظروف. إنه يمثل خرقًا خطيرًا للقانون الدولي». ووافق مجلس الأمن بالإجماع على قرار يدين الإجراء الإسرائيلي باعتباره غير مشروع؛ وتلك إدانة قوية في الواقع، وخاصة أن الولايات المتحدة شاركت فيه.

وفي سياق الحرب الباردة، كان فهم الدفاع الإجهاضي عن النفس سهلاً. ذلك أنه حتى أكثر الزعماء تشددًا كانوا يعارضون الموافقة على الحق في اتخاذ إجراء إجهاضي، بينما الدولتان المتنازعتان الرئيسيتان في العالم لديهما غواصات مزودة بصواريخ نووية لتحاشي أي هجوم مباغت. وفي الوقت الراهن، يبدو الموقف كما يُرى من المكتب البيضاوي مختلفًا تمام الاختلاف. فقد أصبحت روسيا حليفًا، وليس هناك عدو محتمل آخر لديه صواريخ نووية تحملها الغواصات، كما أنه بُدئ بالفعل في بناء نظام صواريخ دفاعي لصد الهجمات المحدودة. ولا يشعر الرئيس الحالي أن احتمال وقوع معركة فاصلة كبرى يردعه.

وغالبًا ما تحدد الاعتبارات الداخلية سياسة الولايات المتحدة الخارجية. ولذلك ليس مفاجئًا أن يلجأ الرئيس إلى اتخاذ إجراء إجهاضي في الخارج كوسيلة لتحسين أجندته السياسية في الداخل. والأولوية القصوى في الداخل هي السيطرة على عملية التصديق الخاصة بالقضاة الفدراليين الذين يقومون بدور شديد القوة في السياسة الأمريكية؛ وهو ما يدل عليه شَغْل بوش للبيت الأبيض. وسوف يتيح الأداء الجيد للجمهوريين في انتخابات التجديد النصفي التي تجري في شهر نوفمبر للرئيس فرصة تغيير النظام القضائي الأمريكي بكامله نحو اليمين بصورة كبيرة ودائمة إلى حد ما. وقد أدت ثماني سنوات من انقطاع السبل بين البيت الأبيض ومجلس الشيوخ إلى وجود ثغرات عديدة في المحاكم الفدرالية ومحاكم الاستئناف، بينما لا يحتمل أن يستمر وجود العديد من القضاة المحافظين المسنين أطول من ذلك. كما أن الرسوم المفروضة على الصلب والأخشاب، والدعم الزراعي الضخم، والدعم القوي لأريئيل شارون موجهة جميعها إلى الحفاظ على تأييد حلفاء بوش في ولايات فلوريدا وأوهايو والغرب الأوسط المذبذبة، مع عدم الاهتمام كثيرًا بالعواقب الدولية. ولكن حتى في هذه الحالة لا تعد التوقعات طيبة. فالاقتصاد آخذ في الضعف منذ انتخاب بوش ولا يعرف أحد على وجه الدقة مقدار انتشار الفساد في إنرون وورلد كوم وزيروكس الذي ساعده أرثر أندرسن ودعمه. بل إن هناك شكوكًا في أنه كان من الممكن منع الهجمات التي وقعت في الحادي عشر من سبتمبر. يضاف إلى ذلك أنه حتى في الظروف العادية كانت الانتخابات التكميلية في الغالب ضد الحزب الذي يسيطر على البيت الأبيض، وقد تبدو التوقعات الجمهورية مشكوكًا فيها بعض الشيء.

ولكن النزعة الوطنية قد تكون هي الملجأ؛ فقد يثير الإجراء العسكري الكبير قدرًا كبيرًا من التأييد عند صناديق الاقتراع، وخاصة في البداية. ولسوء الحظ أن القاعدة تبعثرت في قرى أفغانستان وباكستان، مما حدا بالولايات المتحدة إلى القيام بسلسلة من العمليات الصغيرة التي تتسم بالفوضى التي لم تظهر بشكل جيد على شاشات التلفزيون. والحاجة إلى المزيد من الأهداف الكبيرة هي التي أدت إلى التركيز الجديد والمبالغ فيه بعض الشيء على الأسلحة البيولوجية والكيماوية والنووية. ويقدَّم استخدام صدام حسين للغاز السام ضد القرويين الأكراد عام ١٩٨٨ كدليل على أنه قد يستخدم هذه الأسلحة ضد الولايات المتحدة اليوم، حتى وإن كان في ذلك هلاكه هو. وتعتبر رغبة إيران في امتلاك رادع موثوق به داخل منطقة نووية تهديدًا لدولة تبعد عنها ستة آلاف ميل. كما اختير نظام الرعاية الصحية الكوبي (الذي قد يعتبر مثيرًا للشك لأنه يُدار بشكل علني) مصدرًا محتملاً للأسلحة البيولوجية. وأي من تلك التهديدات ليس تهديدًا وشيكًا، ولكن كما يوضح الرئيس فإننا «إذا انتظرنا على التهديدات حتى تتحقق بصورتها الكاملة، فسوف ننتظر طويلاً جدًا».

والأمر الأكثر إثارة للانتباه بشأن السياسة الجديدة هو أنها تصور أسلحة الدمار الشامل على أنها مشكلة جديدة، واتخاذ إجراء من جانب واحد على أنه الطريقة الوحيدة للتعامل معها. والواقع هو أن أول معاهدة بشأن الغاز السام تعود إلى عام ١٨٩٩. وطوال العشرات من السنين قادت الأمم المتحدة المساعي للحد من صنع ونشر مثل تلك الأسلحة. والآن، وفي ظل النفاق المثير للدهشة، رفضت حكومة بوش التصديق على بروتوكولات التنفيذ الخاصة بمعاهدات الأسلحة الكيماوية والبيولوجية. كما ضغطت على ١٣٩ دولة لفصل خوسيه بستاني المدير العام لمنظمة منع الأسلحة الكيماوية، الذي يحظى بقدر كبير من الاحترام والتقدير، في منتصف فترة توليه للمنصب. وكذلك سرَّعت الجهود الخاصة بصنع الأسلحة النووية المستخدمة في ميدان القتال التي يمكنها اختراق التحصينات الموجودة تحت الأرض وتدمير الكيماويات والأسلحة البيولوجية الخطيرة.

وكانت الحكومة البريطانية مؤيدة في بداية

الأمر للموقف الاستراتيجى الجديد. وفى شهر مارس ذكر جيف هون وزير الدفاع أن الحكومة «تحتفظ بحق» استخدام الأسلحة النووية إذا هددت الأسلحة البيولوجية أو الكيماوية بريطانيا أو القوات البريطانية». وكان هون يؤكد بذلك الحق الموجود بالفعل لاتخاذ إجراء إجهاضى، بناء على حجة قدمها محامو وزارة الخارجية تفيد بأن القانون الدولى الوضعى الخاص بقضية «كارولين» أدخل بكامله ضمن ميثاق الأمم المتحدة باعتباره «حقًا أصيلاً».

وهناك العديد من المشاكل فيما يتعلق بالحجة. وأبرز شىء هو أن القانون الدولى يقتضى تفسير شروط المعاهدة طبقًا لمعناها العادى. والنص المهم بشأن الدفاع عن النفس فى المادة ٥١ هو «لا يمس شىء فى الميثاق الحالى الحق الأصيل الخاص بالدفاع عن النفس الفردى أو الجماعى إذا وقع هجوم مسلح ضد عضو من أعضاء الأمم المتحدة، إلى أن يتخذ مجلس الأمن الإجراءات اللازمة للحفاظ على السلم والأمن الدوليين». وبذلك تقيد مصطلح «الأصيل» عبارة «إذا وقع هجوم مسلح» تقييدًا واضحًا، ويُنظر إلى الحق فى الدفاع عن النفس على أنه مجرد استثناء محدود داخل نظام يعطى الأولوية لما يقوم به مجلس الأمن.

وعند وقوع أى حدث، كان القلق الشديد يخيم على وايتهول (مكاتب الحكومة البريطانية) حيث يكون المدى الكامل للمطلب الأمريكى قد بات واضحًا. ولا تسعى استراتيجية بوش بشكل من الأشكال إلى اتباع معايير قضية «كارولين»؛ فليس هناك اقتراح بانتظار «ضرورة الدفاع عن النفس» التى تتسم بأنها «عاجلة وشديدة للدفاع عن النفس، بحيث لا تترك خيارًا لأية وسيلة أخرى ولا تتيح لحظة للتروى». وعلى عكس جيف هون، فإن الرئيس لا «يحتفظ بحق» الرد على التهديدات الوشيكة؛ ذلك أنه يسعى إلى توسيع حق الدفاع عن النفس ليشمل اتخاذ إجراءات ضد الأخطار المستقبلية المحتملة.

ورغم تركيز مستشارى بوش على الانتخابات التكميلية واستعدادهم الزائد لانتهاك القانون الدولى إذا اقتضى الأمر، فإنهم من الذكاء بحيث يدركون أن أى تغيير فى القانون قد يوفر لهم منافع بعيدة المدى، كأن يسهل عليهم تأمين الدعم للإجراءات العسكرية فى المستقبل. كما أنهم على علم تام بأن قواعد القانون الدولى الوضعى وتفاسير الميثاق يمكن تعديلها عن طريق تغيير سلوك الدول، وأنه من الممكن فى بعض الأحيان إثارة السلوك المطلوب عمدًا. وفى أعقاب الحادى عشر من سبتمبر نجحت الولايات المتحدة فى سعيها لتوسيع حق الدفاع عن النفس ليشمل اتخاذ إجراءات ضد الدول الراعية للإرهاب، حين يكون هؤلاء الإرهابيون قد هاجموا بالفعل الدولة التى ترد. وقد فعلت ذلك بادعائها أولاً أنها صاحبة الحق، ثم بالسعى للحصول على التأييد الصريح أو الضمنى من الدول الأخرى. كما مورس الضغط الدبلوماسى المكثف، حيث شمل ذلك تهديد «من ليس معنا فهو ضدنا». وكان عدد قليل لديه من الشجاعة أو التمسك بالمبادئ ما جعله لا يوافق. وبعد ذلك كان الإجراء العسكرى فى أفغانستان كافيًا لضمان المطالبة بالحق.



عالم فوضوى!

واليوم يتكرر تهديد «من ليس معنا فهو ضدنا». فهناك هجوم ضد العراق يخطط له، وهو مثالى فى توقيته قبيل الانتخابات التكميلية. والسؤال الوحيد هو: هل ستؤيد دول أخرى الولايات المتحدة فى مبادرتها الأخيرة؟ إن على تونى بلير أن يضع فى اعتباره العواقب السلبية قبل أن يتخذ أى قرار. فقد يخلق حق الدفاع الإجهاضى عن النفس بصورته الواسعة حالة من القلق والاضطراب. إذ من الذى يقرر أن تهديدًا محتملاً ما يبرر اتخاذ إجراء إجهاضى؟ وكيف يمكن الوقاية من التدخلات الانتهازية التى تبرر بأنها دفاع إجهاضى عن النفس؟ وهل نرغب فى منح نفس الحق الموسع للهند وباكستان، كما تقضى طبيعة القانون الدولى الوضعى التبادلية؟ وهل من المحتمل أن يدفع توسيع هذا الحق أهدافًا بعينها إلى الضرب أولاً، وإلى استخدام أسلحتها البيولوجية والكيماوية والنووية بدلاً من فقدانها؟

يقدم ميثاق الأمم المتحدة إجابة واضحة عن تلك الأسئلة، وهى أنه فى حال عدم وجود هجوم، يمكن لمجلس الأمن وحده أن يتخذ إجراء ما. وإذا قُدمت للمجلس الأدلة الدامغة على أن هناك هجومًا بيولوجيًا أو كيماويًا أو نوويًا وشيكًا، فما من شك فى أنه سوف يتخذ إجراء ما، ذلك أن آثار أسلحة الدمار الشامل لا يمكن قصرها على مكان محدود. وفى السنوات القليلة الماضية أجاز المجلس مرارًا اتخاذ إجراء عسكرى حتى فى المواقف التى لم يكن فيها تهديد ضد أعضائه؛ فى العراق والصومال والبوسنة والهرسك وهاييتى وغيرها. وفى شهر سبتمبر الماضى لم يحتج الأمر إلا إلى يوم واحد لتأكيد الدول الخمس عشرة الأعضاء حق الولايات المتحدة فى الدفاع عن النفس.

إن من ليس لديهم سبب للخوف من القوة العسكرية هم وحدهم الذين يمكنهم التفكير فى عالم بلا حماية مركبة من ميثاق الأمم المتحدة والقانون الوضعى الخاص بحالة «كارولين». ويشعر الرئيس الأمريكى بقدرته على المطالبة بحق موسع لاتخاذ إجراء إجهاضى، لأن الدول الأخرى لا تملك فى الوقت الراهن القدرة على الانتقام. وما لا يدركه بوش هو أن تلك الإجراءات سوف تشجع الدول الأخرى على امتلاك نفس الأسلحة التى يدعى هو أنه يبغضها.

وحظيت معارضة الولايات المتحدة لمحكمة الجنايات الدولية باهتمام كبير، ولكن النتائج المحتملة لتلك المعارضة تتضاءل بجوار الضرر الذى يمكن أن تحدثه للشئون الدولية، عن طريق الحق الواسع فى اتخاذ إجراء إجهاضى. قد تنحرف بنا بعيدًا! عن نظام الأمم المتحدة وتسير بنا فى اتجاه عالم فوضوى تسوده القوة الغاشمة والتحالفات المتغيرة والمحاولات اليائسة التى تقوم بها الدول المعرضة للهجوم للحصول على قدرة الردع. وسيرًا وراء مصالحه الضيقة، قد يعود جورج دابليو بوش بنا إلى الأيام المظلمة قبل سقوط «كارولين» من فوق شلالات نياجرا. ولو كان يتحدث فى ويست بوينت عام ١٨٣٨ لامتنع الطلاب عن التصفيق له.

بترتيب خاص مع:
London Review of Books, 25 July 2002
ترجمة: أحمد محمود

أمريكا أعدى أعداء أمريكا!

توني يوت

النزعة «الثقافية» المعادية لأمريكا يشترك فيها الأوروبيون وسكان أمريكا اللاتينية والآسيويون العلمانيون والمتدينون على السواء. ولا يتعلق الأمر بكراهية الغرب، أو الحرية، أو التنوير، أو أية فكرة مجردة أخرى تمثلها الولايات المتحدة. بل يتعلق بأمريكا

[١]

يتمثل الوضع الحالي لأمريكا، باعتبارها «القوة العظمى» المهيمنة التي لا منافس لها ولا سبيل لأن يتحداها أحد، وهو موضوع كتاب جوزيف ناي، في مؤسستها العسكرية. وقبل الحادي عشر من سبتمبر، وقبل اقتراح الرئيس بوش زيادة قدرها ١٤ بالمائة (٤٨ مليار دولار) في نفقات الدفاع للعام الحالي، كانت الولايات المتحدة بالفعل تحالفًا قائمًا بذاته. فهي لديها قواعد وسفن وطائرات وجنود في أنحاء المعمورة. وتنفق واشنطن على قواتها المسلحة أكثر مما أنفقته أية أمة في التاريخ؛ وعما قريب سوف تتعدى ميزانية الدفاع الأمريكية نفقات الدفاع السنوية للدول التسع التي تليها مجتمعة. صحيح أن الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي لديها فيما بينها جنود أكثر من الولايات المتحدة، وبلغت ميزانية دفاعها مجتمعة حوالي ٧٠ بالمائة من ميزانية واشنطن حسب أرقام عام ٢٠٠٢، إلا أن النتائج التي حققتها في التكنولوجيا والمعدات ليست قابلة للمقارنة وحسب. فالولايات المتحدة يمكنها التدخل أو شن الحرب في كل مكان تقريبًا من العالم. بل إنه ليس هناك من يدانيها في ذلك.

ولكن «أمريكا» التي يضعها العالم كله في رأسه لا يمكن تعريفها بإجمالي وزن الرؤوس النووية وأجهزة التوجيه، أو القنابل الذكية، أو حتى عدد الجنود، لأنها أكثر تعقيدًا وانتشارًا من ذلك. فهي في بعض الأماكن ذكرى تتلاشى للتحرر. وهي في أماكن أخرى وعد بالحرية والفرص والوفرة؛ أي أنها مجاز سياسي وخيال خاص. وفي غيرها من أماكن، أو في الأماكن ذاتها في أوقات أخرى، تعتبر أمريكا مثيلاً للقهر المحلي. باختصار، أمريكا موجودة في كل مكان. وينتج الأمريكيون - وهم ٥ بالمائة من سكان العالم - ٣٠ بالمائة من إجمالي الناتج العالمي، ويستهلكون حوالي ٣٠ بالمائة من إنتاج البترول العالمي، وهم مسئولون عن حصة تساوي حصة العالم كله من غازات الصوبة الزجاجية. وإذا كان عالمنا مقسمًا تقسيمات كثيرة - الأغنياء والفقراء، والشمال والجنوب، والغربيون واللاغربيون - فإن التقسيم الذي يزداد أهمية هو فصل أمريكا عن كل ما هو سواها.



وبذلك يجب ألا نندهش من النزعة المعادية لأمريكا التي تشغل بال المعلقين. فالولايات المتحدة تتعرض، بسبب وضعها الفريد، لنظرة انتقادية من العالم في كل شيء تفعله أو لا تفعله. وبعض العداء الذي تثيره الولايات المتحدة هو إحدى وظائف وجودها؛ فقبل ارتقاء الولايات المتحدة الهيمنة الكونية بكثير، كان الزوار الأجانب ينتقدون اعتزازها الوقح بنفسها، وثقة الأمريكيين النرجسية في تفوق القيم والممارسات الأمريكية، وعدم اهتمامهم الذي لا جذور له بالتاريخ والتراث - وهو عدم اهتمام بتاريخهم وتراثهم وتاريخ وتراث غيرهم من الشعوب. وطالت قائمة

The Paradox of American Power: Why the World's only Superpower Can't Go it Alone

(مفارقة القوة الأمريكية: لماذا لا يمكن للقوة العظمى الوحيدة في العالم أن تتصرف وحدها)

by: Joseps S. Nye Jr
Oxford University Press, 222PP., $26.00

الاتهامات منذ صعود الولايات المتحدة على المسرح العالمي، ولكنها لم تتغير كثيرًا. وهذه النزعة «الثقافية» المعادية لأمريكا يشترك فيها الأوروبيون وسكان أمريكا اللاتينية والآسيويون والعلمانيون والمتدينون على السواء. ولا يتعلق الأمر بكراهية الغرب، أو الحرية، أو التنوير، أو أية فكرة مجردة أخرى تمثلها الولايات المتحدة. بل تتعلق بأمريكا.

وشعورًا من أمريكا بالاستياء مما هي عليه، نجدها تثير العداء كذلك بما تفعله. وبذلك تغيرت الأمور في الفترة الأخيرة إلى الأسوأ. فكثيرًا ما تكون الولايات المتحدة مواطنًا دوليًا عاصيًا للقوانين. ذلك أنها تتردد في الانضمام للمبادرات أو الاتفاقيات الدولية، سواء بخصوص ارتفاع درجات حرارة الأرض، أو الحرب البيولوجية، أو العدالة الجنائية، أو حقوق المرأة؛ فالولايات المتحدة إحدى دولتين فقط (الثانية هي الصومال) لم تصدقا حتى الآن على اتفاقية حقوق الطفل لعام ١٩٨٩، كما سحبت الحكومة الأمريكية الحالية توقيعها على معاهدة روما الخاصة بإنشاء المحكمة الجنائية الدولية، وأعلنت أنها لم تعد ملتزمة باتفاقية فيينا الخاصة بقانون المعاهدات التي تحدد التزامات الدول كي تظل في المعاهدات التي لم تصدق عليها بعد. وأقل ما يوصف به موقف الولايات المتحدة من الأمم المتحدة ومنظماتها هو أنه بارد. وفي وقت سابق من العام الحالي طالب السفير الأمريكي لحقوق الإنسان بالفض المبكر للمحاكم التي شكلت لأغراض بعينها في رواندا ويوغوسلافيا السابقة - رغم أن هذه المحاكم جزء لا يتجزأ من أية حرب جادة ضد الإرهاب العالمي، وأنفقت الولايات المتحدة نفسها ملايين الدولارات لرشوة بلجراد كي تقدم سلوبودان ميلوسيفتش لمحكمة لاهاي.



ويرى الكثيرون من الأجانب أن هذه المقاربة المتضاربة للمنظمات والاتفاقيات الدولية، التي ساعدت واشنطن في إقامتها، تتناقض مع ادعاء أمريكا المشاركة في المصالح الدولية وبحثها عن شركاء متعددين لأهدافها. وينطبق الشيء نفسه على ممارسات أمريكا التجارية. فالولايات المتحدة تدعو إلى العولمة وتعد نموذجًا يحتذى لها؛ حيث رأسمالية السوق الحرة لا تقيدها الحدود أو المصالح الخاصة أو الممارسات التقييدية أو النزعة الحمائية أو تدخل الدولة. ولكن ما يحدث في الداخل هو تطبيق واشنطن للتعرفة الجمركية، والدعم الزراعي، ودعم الحكومة الفعلي (وخاصة لصناعات الدفاع) من أجل تحقيق مكاسب سياسية في الداخل. ويفعل الاتحاد الأوروبي الشيء نفسه بالطبع؛ فالسياسة الزراعية المشتركة الشهيرة تستهلك ٤٥ بالمائة من ميزانية بروكسل، وهي بما تفرضه من حصار على منتجات المزارعين الأفارقة تحدث نفس القدر من الضرر الذي يحدثه أي قانون زراعي أمريكي. إلا أن ثمن صورة أمريكا أكبر بكثير؛ فالولايات المتحدة ترتبط ارتباطًا حميمًا بنفس المعايير الدولية التي تنتهكها.

ويرى النقاد الأجانب أن هذه التناقضات في سلوك أمريكا توحي بالنفاق؛ وربما كانت تلك هي أكثر التهم التي توجه للولايات المتحدة شيوعًا. وهي جميعًا أكثر إزعاجًا لأنه لا يمكن الاستغناء عن أمريكا، سواء أكانت منافقة أم لا. فبدون المشاركة الأمريكية لن تعدو معظم الاتفاقيات الدولية كونها حروفًا ميتة لا روح فيها. ويبدو أن القيادة الأمريكية مطلوبة حتى في الحالات التي يكون فيها البريطانيون والأوروبيون لديهم الوسائل لحل المشكلة بدون مساعدة من أحد، كما كان الحال في البوسنة فيما بين ١٩٩٢ و١٩٩٥. وليست الولايات المتحدة مناسبة بالمرة للقيام بدور شرطي العالم - فمجال اهتمام واشنطن قصير جدًا، حتى في المناطق ذات الاضطرابات المزمنة مثل كشمير أو البلقان أو الشرق الأوسط أو كوريا - ولكن يبدو أنه ليس أمامها خيار آخر. وفي الوقت نفسه يشعر الجميع، وخاصة الأوروبيين، باستياء من الولايات المتحدة حين لا تتولى القيادة، وكذلك حين تتسم قيادتها بجرأة أكثر من اللازم.

ورد الفعل الذي يمكن التنبؤ به نبرة جديدة في السياسة الأمريكية، وهو التبرم المتغطرس من أي رأي خارجي مهما كان نوعه. فقد وضعت الحرب الباردة أوزارها، وانتشرت مبادئ حكومة بوش ومؤيديها الأحادية، وانقشع غبار المعركة، كما أننا نعرف من نكون، ونعرف ما نريد. والسياسة الخارجية تتعلق بالمصالح القومية. والمصالح القومية تخدمها ممارسة القوة. وترتبط القوة بالأسلحة والاستعداد لاستخدامها. ونحن لدينا القوة والاستعداد. وطبقًا لما قاله الكاتب الصحفي تشارلز كراوتهامر في يونيو ٢٠٠١ فإن «النزعة الأحادية تسعى لتقوية النفوذ الأمريكي ونشره بجرأة باسم الغايات الكونية شديدة الوضوح».

في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر مباشرة خفت حدة الخطاب الأحادي الخاص بحكومة بوش، لتسهيل البحث عن حلفاء في الحرب المقبلة ضد الإرهاب. ورد المعلقون في الخارج بجدية وقد أربكتهم المذبحة؛ فقد قالت صحيفة «لوموند» «نحن جميعًا أمريكان الآن»، في الوقت الذي وضع فيه حلف الناتو المادة ٥ من ميثاقه موضع التنفيذ لأول مرة، ملزمًا أعضاءه بالتضامن مع الولايات المتحدة التي تتعرض للهجوم. إلا أن شهر العسل كان قصيرًا. فقد أيد معظم حلفاء أمريكا الحرب ضد أفغانستان، بغض النظر عما لديهم من شكوك. ولكن الصدع انشق من جديد في يناير ٢٠٠٢، حين أشار الرئيس بوش في خطاب حالة الاتحاد إلى «محور الشر» (كوريا الشمالية وإيران والعراق).

كان الأمر الذي أثار الاستياء في ذلك الخطاب هو الشكل أكثر منه المضمون. فمعظم حلفاء أمريكا يشكون في حكمة استعداء الدول الغربية لإيران، ويشك البعض منهم في طريقة واشنطن الخاصة بالتعامل مع صدام. غير أن تلك ليست خلافات جديدة. ومع ذلك فإنه بعد أربعة أشهر فقط من إعلان الحكومة حرصها على إقامة التحالفات والتعاون الوثيق مع أصدقائها في الكفاح ضد العدو المشترك، لم يشر كلام بوش عن كفاح أمريكا الكوني ضد قوى الظلام إلى حلفاء أمريكا. وأثار ذلك قدرًا كبيرًا من الاستفزاز.




كان الرد الأمريكي هو التظاهر بالدهشة - فقد تساءل كولين باول في ١٧ فبراير قائلاً: «ما هو ذلك العمل الأحادي الذي قمنا به بحيث يصدمهم جميعًا على هذا النحو؟» ولكن الأوروبيين لم يسيئوا قراءة العلامات الصادرة عن واشنطن. ومع ذلك فقد ذكر باول أن هناك إجماعًا واقعيًا (قد يصفه البعض بأنه ينم عن الاستهزاء) في الحكومة على أنه بما أن حلفاء أمريكا لا علاقة لهم بحساباتها العسكرية وليس لهم خيار سياسي سوى الاتباع، فلن يتحقق شيء من استشارتهم مقدمًا أو أخذ حساسياتهم في الاعتبار. وقد لخص تشارلز كراوتهامر هذه المحصلة النهائية بشكلها الأكثر صراحة تلخيصًا جيدًا حين قال:

يشعر أبناء عمومتنا الأوروبيون المحنكون بذهول. ويأتي في المقدمة الفرنسيون الذين يستنكرون النزعة «التبسيطية» الأمريكية. حيث يرون في تسمية الشر باسمه انتهاكًا لقواعد الأخلاق. فهم يفضلون مجاملته. وقد مارسوا ذلك مرات كثيرة، أشهرها مجاملتهم لألمانيا النازية عام ١٩٤٠. إننا في حرب للدفاع عن النفس. وهي كذلك حرب من أجل الحضارة الغربية. وإذا رفض الأوروبيون رؤية أنفسهم جزءًا من هذا الصراع، فلا بأس. وإذا رغبوا في الاستسلام، فلا بأس كذلك. فسوف ندعهم يمسكون بذيول معاطفنا. ولكننا لن ندعهم يقيدون أيدينا.

من سمات المزاج القبيح في بعض أنحاء واشنطن في الوقت الراهن ألا يمتنع كراوتهامر وحسب عن ذكر أن فرنسا فقدت ١٠٠ ألف رجل في ستة أسابيع في حربها ضد الألمان. بل إنه لم يذكر أن الولايات المتحدة احتفظت بعلاقات دبلوماسية كاملة مع النازيين الأشرار لمدة ثمانية عشر شهرًا أخرى، إلى أن أعلن هتلر الحرب ضد أمريكا في ديسمبر ١٩٤١.



الولايات المتحدة إحدى دولتين فقط «الثانية هي الصومال» لم تصدقا حتى الآن على اتفاقية حقوق الطفل لعام ١٩٨٩. كما سحبت الحكومة الأمريكية الحالية توقيعها على معاهدة روما الخاصة بإنشاء المحكمة الجنائية الدولية

إن هذه اللامبالاة المتعالية تجاه الرأي الخارجي هي ما يؤذي الأسماع في الخارج وما خيب آمال حلفاء أمريكا بعد التوقعات الكبيرة في سبتمبر ٢٠٠١. وهي إضافة إلى بيان بوش الاستراتيجي الذي أعلنه مؤخرًا عن «الدفاع عن النفس الإجهاضي الذي يتقرر بصورة أحادية» والتوقع المفزع الخاص بالأسلحة النووية الجديدة التي تخترق الأرض ويحتمل استخدامها في العراق - وهو خروج غير مسبوق عن تردد أمريكا التاريخي في الموافقة على أسلحة الضربة الأولى من هذا النوع - ترسم من جديد صورة القيادة الأمريكية التي تصم آذانها عن النقد أو النصيحة. إنها قيادة تبدو في كثير من الأحيان متحدية وعدوانية، وكما تقول صحيفة «إل بايس» تغذى «الفزع العام» بالأفكار المسيطرة عليها والتحذيرات التي تخدم مصالحها من المعركة الحاسمة الوشيكة.

وجوزيف ناي هو عميد كلية كنيدي بجامعة هارفارد وكان مسئولاً كبيرًا في الدفاع والاستخبارات في عهد الرئيس كلينتون. وقد كتب مقالته التي تصل في طولها إلى حجم الكتاب عن السياسة الخارجية الأمريكية قبل الحادي عشر من سبتمبر ثم عدلها على عجل من أجل النشر، ولكنها ما كانت لتصبح مناسبة في أي وقت أكثر مما هي عليه الآن. وليس ناي مثاليًا ويلسونيًا ينعي تردد أمريكا في الانضمام إلى المجتمع الدولي بحثًا عن عالم أفضل؛ وكان قد أصدر عام ١٩٩٠ كتاب Bound to Lead [لا بد أن تقود] الذي تنبأ فيه بحق بالهيمنة الأمريكية المقبلة. وهو لا يجد أي حرج في واقع السيادة الأمريكية.

ورغم ذلك كتب ناي نقدًا قويًا للنزعة الأحادية في السياسة الخارجية الأمريكية؛ أي النزعة الشائعة الخاصة بـ«اقطع الشوط وحدك» مع إعطاء أقل قدر من الاهتمام لرغبات الآخرين. وهو كذلك يبدي تشككًا ضمنيًا في «الواقعية»، أي مقاربة العلاقات الدولية التي تقلل من شأن إعطاء

أولوية للاهتمام بالحقوق أو القوانين المتعدية للقومية أو الأهداف الأخلاقية وتقصر الدبلوماسية على دعم المصالح الأمريكية بكل وسيلة مناسبة. إلا أن هذا ليس كتابًا عن نظرية العلاقات الخارجية. واعتراض ناي على النزعة الأحادية، أو الواقعية بالمعنى المستخدم هنا، ليس لأنهما غير مأمونين من الناحية المفاهيمية؛ فرأيه هو أنهما لا يصلحان وحسب.

ويرى ناي أن العلاقات الدولية في الوقت الراهن تشبه مباراة للشطرنج ثلاثي الأبعاد شديدة التعقيد. فعلى أحد المستويات هناك نفوذ عسكري صلب، وهو مجال تسيطر عليه الولايات المتحدة بلا منازع. وعلى المستوى الثاني هناك نفوذ وتأثير اقتصاديان؛ وفي هذا المجال يمثل الاتحاد الأوروبي بالفعل تحديًا للولايات المتحدة في التجارة وتنظيم الاحتكارات ووضع المعايير الصناعية، ويتفوق على أمريكا في الاتصالات والسياسة البيئية وأشياء كثيرة أخرى. يضاف إلى ذلك وجود لاعبين آخرين.

وعلى المستوى الثالث يضع ناي الأنشطة غير الحكومية المتنوعة والمنتشرة التي تشكل عالمنا؛ أي تدفق العملات والهجرة والشركات متعدية القومية والمنظمات غير الحكومية والهيئات الدولية والتبادل الثقافي ووسائل الإعلام الإلكترونية والإنترنت والإرهاب. ويتصل الفاعلون غير الحكوميين ويعملون عبر هذا المجال الذي لا يخضع بالفعل للتدخل الحكومي؛ ونفوذ أية دولة، عدا الولايات المتحدة، يمكن إحباطه وتحييده بأيسر ما يمكن.

ويقول ناي إن مشكلة المسئولين عن تشكيل السياسة الأمريكية وتوصيفها في الوقت الراهن هي أنهم يلعبون في المستوى الأول وحسب، حيث تنحصر رؤيتهم في القوة الضاربة العسكرية الأمريكية. كما يقول إن «هؤلاء الذين يوصون بسياسة خارجية أمريكية تتسم بالهيمنة وتقوم على التوصيفات التقليدية الخاصة بالنفوذ الأمريكي، يعتمدون اعتمادًا كبيرًا على تحليل غير واف». ويرى ناي أن الأمريكيين قبل الحادي عشر من سبتمبر كانوا يصمون آذانهم عمدًا عما يدور في العالم المحيط بهم. بل إنهم كانوا سعداء بتجاهلهم من حذروهم عام ١٩٩٩ من كارثة مقبلة، مثل جاري هارت ووارين رودمان، حين قالوا إن «الأمريكيين قد يلقون حتفهم على التراب الأمريكي، وربما بأعداد كبيرة». وقد يكون الحادي عشر من سبتمبر دعوة واضحة إلى منظور جديد، ولكن يبدو أن القيادة الأمريكية الحالية لا تصغي السمع.

إذا أرادت الولايات المتحدة الانتصار في الحرب ضد الإرهاب، وإذا أرادت النجاح في تأكيد قيادتها للعالم، فستكون بحاجة إلى مساعدة الآخرين وتفهمهم، وخاصة في تعاملها مع الدول العربية والإسلامية الفقيرة وغيرها ممن يستاءون من تخلفهم. وهذا أمر واضح كل الوضوح. كما تتطلب إجراءات حفظ النظام الدولي وتنظيم تحركات العملات والسلع والأشخاص عبر القارات والإشراف على تلك التحركات تعاونًا دوليًا. وتحتاج «الدول الفاشلة» التي ينتعش الإرهاب وسط ركامها إلى إعادة بناء؛ وتخطئ الولايات المتحدة في عدم اهتمامها بتولي هذه المهمة ولم تعد تجيد القيام بها، وهو ما يتناقض تناقضًا شديدًا مع أدائها بعد ١٩٤٥. إن أمريكا



العلاقات الدولية حاليا تشبه مباراة للشطرنج ثلاثي الأبعاد. فعلى أحد المستويات هناك نفوذ عسكري صلب، وتسيطر عليه واشنطن. ثم هناك ثانيا نفوذ اقتصادي؛ يمثل فيه الاتحاد الأوروبي تحديًا لأمريكا، أما المستوى الثالث فهو الأنشطة غير الحكومية المتنوعة

تتولى القصف بالقنابل، أما أعمال إعادة الإعمار المعقدة والخطيرة فتتركها لغيرها.

وفي الوقت الراهن يساهم الاتحاد الأوروبي (بما في ذلك الأعضاء المرشحون للانضمام إليه) بقوات لحفظ السلام في أنحاء العالم تزيد عشر مرات عما تساهم به الولايات المتحدة، وتحمل الأوروبيون في كوسوفو والبوسنة وألبانيا وسيراليون وغيرها خسائر عسكرية أكثر مما تحملته الولايات المتحدة. كما أن خمسة وخمسين بالمائة من مساعدات التنمية في العالم وثلثي منح المساعدات كافة المقدمة للدول الفقيرة والمعرضة للأخطار في أنحاء العالم يأتي من الاتحاد الأوروبي. وتمثل المساعدات الخارجية الأمريكية، باعتبارها شريحة من إجمالي الناتج القومي، ثلث المتوسط الأوروبي. وإذا جمِّعت الإنفاق الأوروبي على الدفاع والمساعدات الخارجية وجمع المعلومات الاستخبارية وحفظ النظام والأمن - وكلها أمور لا بد منها لأية حرب مستدامة ضد الجريمة الدولية - فإنها تساوي بسهولة ميزانية الدفاع الأمريكية الحالية. ورغم التباهي المبالغ فيه بأن هناك ما يظن أنه تحليل للسياسة الخارجية في واشنطن المعاصرة، فإن الولايات المتحدة تعتمد اعتمادًا تامًا على الأصدقاء والحلفاء في تحقيق أهدافها.

وإذا أرادت أمريكا الحصول على الدعم الخارجي والاحتفاظ به، فسوف يتعين عليها أن تتعلم ممارسة ما يسميه ناي «النفوذ اللين». فالكلام الكبير عن الإمبراطورية الأمريكية وهم في اعتقاد ناي؛ إذ يُضاف وهم تاريخي مضلل آخر إلى «فيتنام» و«ميونيخ» في كتالوج الأشباه التي يساء استخدامها. والآن يسمع المرء في واشنطن تباهيًا عالي الصوت بالأحادية القطبية والهيمنة، ولكن ناي يقول إن الواقع هو أن نجاح التفوق الأمريكي لن يعتمد وحسب على القوة العسكرية أو الاقتصادية، بل كذلك على النفوذ اللين الخاص بثقافتنا وقيمنا وعلى السياسات التي تجعل الآخرين يشعرون بأنهم استشيروا وأن مصالحهم أخذت في الاعتبار. وقد يبهر التحدث عن الإمبراطورية أبصارنا ويجعلنا نظن خطأ أن بإمكاننا المضي بمفردنا.

والنفوذ اللين، طبقًا لاستخدام ناي، يشبه إلى حد كبير الفكر السليم. وكان ينبغي أن يبدو كذلك لكل حكومة من الحكومات الأمريكية بعد الحرب، من هاري ترومان إلى جورج بوش الأب. فإنك إذا أردت أن يرغب الآخرون فيما ترغب أنت فيه، وجب عليك أن تجعلهم يشعرون أنهم داخل اللعبة. ويتعلق النفوذ اللين، على سبيل المثال، بالمصداقية والسمعة الطيبة. وحسبما يقوله ناي فإن الاتحاد السوفيتي خسر في غزوه للمجر وتشيكوسلوفاكيا عامي ١٩٥٦ و١٩٦٨، ويمكن زيادة نفوذ أمريكا اللين بانفتاح مجتمعها وطاقته؛ بينما يقضي عليه السلوك الخشن بلا داع، كتأكيد بوش صراحة على «موت» اتفاقية كيوتو. وتمارس الدول الاسكندنافية وكندا نفوذًا يزيد كثيرًا عن وزنها في الشئون الدولية، بسبب ما تبديه في أنحاء العالم من اهتمام بالمساعدات وحفظ السلام. وهو ما يعد كذلك نفوذًا لينًا.

ويعبر النزاع العالمي الأخير بشأن المحكمة الجنائية الدولية تعبيرًا جيدًا عن ثمن العناد الأمريكي. فحكومة بوش تعارض المحكمة بزعم احتمال تعرض الأمريكيين الذين يؤدون مهام في الخارج لمقاضاة تتسم بالسخف. وبناء عليه، وتوقعًا لبدء عمل المحكمة في ١ يوليو ٢٠٠٢، هددت الولايات المتحدة في أواخر يونيو بالانسحاب من مهام حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة والاعتراض على تلك العمليات في المستقبل، ما لم يضمن الأمريكيون إعفاء شاملاً من مجال اختصاص المحكمة. وفيما قد يكون اندهاشًا من جانب الولايات المتحدة لرفض سائر أعضاء مجلس الأمن الانصياع للوى الذراع هذا، وافقت واشنطن بعد مناقشات مطولة ومضنية على حل وسط يحفظ لها ماء وجهها؛ وهو أن تتمتع قوات حفظ السلام من الدول التي لم توقع على المحكمة الجنائية الدولية بعام من الحصانة من المقاضاة قابلة للتجديد في الأول من كل شهر يوليو.



لم يكن تصرف الولايات المتحدة في هذا الشأن لائقًا بحال من الأحوال. فهناك ٧٠٠ أمريكي فقط يخدمون حاليًا في الخارج ضمن مهام حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة (من بين ٤٥ ألف فرد)، وتتضمن محكمة الجنايات الدولية بالفعل بنودًا، أقحمت صراحة لتهدئة واشنطن، تعفي مهام الأمم المتحدة بالفعل من المقاضاة. وكان الموقف الأمريكي المبدئي في شهر يونيو من العام الحالي اتُّخذ بكل بوضوح بهدف القضاء على المحكمة الجنائية الدولية وأنشطة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة - وكلاهما أمران يزدريهما ويمقتهما ديك تشيني ودونالد رامسفيلد وكوندوليزا رايس. وموقف واشنطن محير إلى حد كبير لأنه يتنافى مع إصرار أمريكا على الملاحقة والمقاضاة الدوليتين للإرهابيين وغيرهم من المجرمين السياسيين، ولأنه يوفر غطاء أمريكيًا للدول والساسة الذين لديهم سبب حقيقي للخوف من المحكمة الجديدة. وقد صوّت كل حلفائنا في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ضد الولايات المتحدة وهذه المسألة، بينما تشارك واشنطن معارضتها المحكمة الجنائية كل من إيران والعراق باكستان وإندونيسيا وإسرائيل ومصر.

ومع ذلك فإنه من الممكن تحقيق أهداف يُسعى إليها على نطاق واسع بمجرد توقف الولايات المتحدة عن معارضتها؛ إذ ترفض واشنطن التوقيع على البروتوكول الدولي لإشراك الأطفال في الصراع المسلح، ولن يصدق الكونجرس على المعاهدة الدولية للتفرقة ضد المرأة؛ يرجع السبب في الحالة الأولى إلى رغبة البنتاجون في الاحتفاظ بحق تجنيد حفنة من أبناء السابعة عشرة، وفي الثانية إلى اللوبي المعارض للإجهاض. وكما كان الحال بالنسبة للفصل العنصري في الخمسينيات، تجلب تلك السياسات العار للولايات المتحدة، وهو ما يعد عقبة في سبيل المصلحة الأمريكية، مهما كان تعريفك لها. بل إن مجرد مظهر التعامل بجدية مع العالم سوف يزيد التأثير الأمريكي زيادة لا حد لها؛ فابتداء بالمفكرين الأوروبيين وانتهاء بالأصوليين الإسلاميين، تجد النزعة المعادية لأمريكا زادًا وفيرًا في زعم أن الولايات المتحدة تشعر بلامبالاة شديدة تجاه آراء الآخرين وحاجاتهم.

وهناك قدر هائل من الاختلاف بين تشجيع الآخرين على رغبة ما يرغبونه وبين إغرائهم كي يرغبوا فيما هو لديك. ولا يدرك كثير من المعلقين الأمريكيين هذا الفرق، ويفترضون بضيق أفق أن العالم مقسم إلى من يرغبون فيما هو لدى أمريكا ومن يكرهون أمريكا بسبب ما لديها. ويحرص جوزيف ناي على تجنب هذه الأنانية. بل إنه يسلم بأن الولايات المتحدة وحلفاءها الغربيين متفقون

إلى حد كبير وتجمعهم قيم وأهداف مشتركة؛ فكل مـا يلزم لرأب الصـدع الذى انشق بين أوروبا والولايات المتـحدة هو ممارسة ذكـية وحساسة للنفوذ الدبلوماسى الأمريكى. وهو ما لست متأكدًا منه.

[٢]

تعـد الفـجوة الأطلسـية من الناحـية السطحـية أحد منتـجات الحـرب البـاردة الفرعية. ولم يعد الغرض من حلف الأطلنطى واضحًا فى الوقت الراهن وينقسم الرأى (فى أوروبا وأمريكا) بشأن الطريقة التى ينبغى بها على الأوروبيين تنظيم دفـاعهم بشكل جماعى فى غياب الخطر السوفيتى. فالاتحاد الأوروبى، الذى يتمتع بحرية الاتساع شرقًا، غـارق فى مناقشات داخلية بشأن طريقة تحقيق ذلك ونتائجه على سيطرته.

ومن أجل اليورو، فرض الاتحـاد الأوروبى قيود إنفاق صارمة على أعضائه؛ إذ سيحال من ولدوا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية إلى التقاعد، مما يفرض مطالب كبيرة على صناديق المعاشات التقاعدية الوطنية. ولا بد أن نضيف إلى ذلك خطاب معـاداة المهاجرين الملتـهب الآتى من أقصى اليـمين. لكل هذه الأسباب، ولاعتـماد الأوروبيين فى السابق على المظلة النووية الأمريكية، فإنهم يترددون الآن فى توجـيه الموارد العـامة إلى الإنفـاق العسكرى، كـما أنهم لا يقدرون فى الغـالب مـوقف أمريكا ـ خـوف الحـادى عشـر من الإرهاب ـ التقدير التـام؛ ذلك أن البريطانيين والأسبان يعيشون مع الإرهاب المحلى القاتل منذ ما يزيد على الثلاثين سنة.

ولكن هناك مـا يحدث صدعًا داخل الغرب أكـثـر من المهـاترات بشـأن الدفـاع. فطوال خمسين سنة أخفت الحرب الباردة والتحالف الأطلسى الخلافـات العـمـيـقة بين نوعـين مناقـضين تناقضًـا حـادًا من المجتـمـعـات. فـالأوروبيـون «ينفـقـون أقل مما يجب» على الدفاع، ليس فقط لأن الأمريكيين يضمنون السماح لهم بدخول حديقة السلام المؤبد، ولكن لأنهم اختاروا فى الربع الثالث من هذا القرن تـخصيص الكثـير من المال للخدمات العامة باهظة التكاليف (وشديدة الشعبية). والنتيجة أنه فى كثير من الجوانب المهمة يقل تشابه أوروبا والولايات المتـحدة فى الواقع عما كان عليه قبل خمسين سنة.



قـد يكون هذا هو السـبب فى أن النـمـوذج الأمريكى ليس أكثر جاذبية للناس فى أماكن أخـرى، كـمـا أن انتـصـاره ليس مـؤكـدًا. فالأوروبيـون والأمريكيون يحيون نوعين مختلفين من الحياة. فأكثر من واحد من بين كل خمسة أمريكيين فى عداد الفقراء، بينما تدور النسبة فى غرب القارة الأوروبية حول ٨ بالمائة. كما أن عدد الأطفال الذين يموتون فى عامهم الأول فى الولايات المتحدة يزيد بنسبة ٦٠ بالمائة عن مثـيله فى فرنسا أو ألمانيا، فى حين يزداد التفاوت بين الفقراء والأغنياء فى الولايات المتحدة عن أى مكان فى قارة أوروبا (أو عما كان عليه الحال فى الولايات المتحدة قبل عشـرين سنة)؛ ولكن بينمـا يؤيد أقل من أمريكى واحد من ثلاثة إعادة توزيع الثـروة بصـورة كـبـيـرة، يؤيدها ٦٣ بـالمائة من البريطانيين، يزيد الرقم على ذلك فى القارة الأوروبية.

الأوروبيون والأمريكيون يعيشون فى مجتمعين شديدى الاختلاف، فكل منهما يرى العالم بطريقة مختلفة ويقيّم العمليات والنتائج الدولية المتناقضة تقييمًا حادًا

بل إنه قبل إنشاء دول الرفاهة الأوروبية الحـديثـة، كـان لدى مـعظم الأوروبيـين المستخدمين تأمينات اجتماعية إجبارية (منذ عـام ١٨٨٣ فى حـالة ألمانيـا). ويسلم كل الأوروبيين الغربيين فى الوقت الراهن بوجود شبكة الضمانات والحماية والدعم المتداخلة التى يعـارضون باستـمرار تخفيضـها أو إلغاءها فى مراكز الاقتراع. كما أن عدم الأمان الاجتماعى والمهنى الذى يألفه عشرات الملايين من الأمريكيين غيـر مـقـبـول من الناحـيـة السياسية منذ زمن بعيد فى الاتحاد الأوروبى. وإذا كـانت الفـاشـيـة والشـيـوعـيـة رد الفـعل الأوروبى ضد الموجة الكبيرة الأخيرة من عولمة حـريـة العـمـل (كـمـا قـال ناى وآخـرون)، فـ«رأسمالية الرفاهية» هى الضمان الأوروبى ضد عودتها. و لن يتخذ سائر الغرب السبيل الأمريكى بدافع من الحكمة، إن لم يكن لأسباب أخرى.

ولكن مـاذا عن الزعم القـائل بأنه سـيكون أمـام الأوروبيـين خيـار مـحدود، مثلهم مثل غيرهم من أهل الأرض؟ يقال الكثير عن انتصار الممارسة الاقـتـصـادية الأمريكية المقبل على حساب المتـغير الأوروبى ثقيل الحركة وغير المنتج الذى يفـتـقـر إلى المرونة. ولكن رغم تعـويق كل العـراقـيل المفـتـرضـة الخـاصـة بماضيـهـا كـدول، كـانت اقـتـصادات بلجـيكا وفرنسا وهولندا فى العـام الماضى بالفعل أكثر إنتـاجـيـة فى كل سـاعـة عـمل من اقـتـصـاد الولايات المتـحدة، بينمـا كـانت الاقـتـصـادات الأيرلندية والنمساوية والدنماركية والألمانية وراءه مباشرة.

وفيـمـا بين ١٩٩١ و١٩٩٨ كـان مـتـوسط الزيادة الإنتـاجـيـة فى أوروبا أسرع منه فى الولايات المتحدة. ومع ذلك فقد فاقت الولايات المتحدة أوروبا فى الأرقام الإجمالية. ويرجع ذلك إلى أن عـدد العـاملين الأمريكيين أكـبـر؛ فـالدولة تحـصل على قـدر أقل من أجـورهم (وتقدم أقل فى المقابل)؛ كما أنهم يعملون عدد سـاعـات أكـثـر ـ بزيادة ٢٨ بالمائة عن الألمان و٤٣ بالمائة عن الفرنسيين ـ ويحـصلون على عطلات أقصر من الجميع.

وهنـاك شك فـيـمـا إذا كـانت أوروبا (أو غيرها) سـتبدو أكـثر شبهًا بأمريكا إذا تبنوا هناك النموذج الاقتصادى الأمريكى. فالاقتصاد الأمريكى الحديث لا يمكن استنساخه فى مكان آخـر. وليـست «الحـرب ضـد الإرهاب» المسالة الوحـيدة التى تعـتمد فيها الولايات المتحدة على الأجـانب. ذلك أن «المعجزة» الاقتصادية الأمريكية فى العـقد الماضى كان يغذيها ١,٢ مليار دولار يوميًا من تدفق رأس المال الأجنبى اللازم لـتـغطيـة العـجـز التـجـارى الـخـارجى للبلاد، الذى يبلـغ حـاليًـا ٤٥٠ مليـار دولار فى السنة. فهذه التدفقات الاستثمارية الضخمة هى التى حافظت على ارتفاع أسعار الأسهم، وجعلت مـعدلات التضـخم والفائدة منخفضة، وأنعشت الاستهلاك المحلى.

وإذا عـانت إحدى دول أوروبا أو آسـيـا أو أمريكا اللاتينية من عجز تجارى مماثل لكانت قد خضـعت منذ زمن بعـيد لسيطرة صندوق النقد الدولى. وتنفرد الولايات المتحدة بالتنعم بهذا الاعتماد الضار على المستثمرين الأجانب لأن الدولار هو عملة الاحتياطى فى العالم منذ الحـرب العـالمية الثـانية. ويكثـر الجدل حـول طول المدة التى يمكن خـلالهـا للاقـتـصـاد الأمريكى أن يعمل بهذه الطريقة قبل أن ينهار انهيـارًا مؤلمًا نتيجـة لفقدان الثقة الخارجية، وكذلك حـول مـا يتـصل به من ادعـاء بأن تلك الأنهار من النقد الأجنبى، وليسـت الإنتـاجيـة غير المسبوقة الخاصة بقطاعات التكنولوجيا الفـائقة الجديدة، هى التى حـققت رفـاهيـة التسعينيات. والشىء الـواضح أنه رغم كل ما للنموذج الأمريكى من سحر فهو فريد ولا يمكن تصديره.

وبدلاً من أن تجـعل العـولمة جـاذبيـتـهـا عالمية، قضت على التحمس الخارجى للنموذج الأمريكى؛ ذلك أنه لم يصاحب انخفاض الملكية العـامة للسلع والخدمات فى أوروبا على مدى العـشرين سنة الماضيـة أى خفض لالتزامات الدولة الاجتماعـية. فيـما عدا بريطانيا التى اضطرت حكوماتها للتراجع. بطريقة مقنعة، فى مـواجـهـة المعـارضـة الشـعـبـيـة. ولأن الأوروبيين والأمريكيين يعيشون فى مجتمعين شـديدى الاخـتـلاف. فكل منهـما يرى العـالم بطريقة مـختلفة ويقيّم العمليات والنتـائج الدولية المتناقضة تقييمًا حادًا.

وكما اعتـاد القـادة الأمريكيـون المحدثون الاعتقاد بأنه يفضل فى الحياة العـامة المحلية ترك المواطنين لحـالهم، مع تدخل محـدود من الحكومـة، فـإنهم يسقطون هذه الرؤية على الشئون الدولية كذلك. فـالعالم، كما يرونه من واشنطن، سلسلة من التـحديات أو الأخطار المنفصلة يختـلف بعضـهـا عن بعضـهـا التى تُقـاس طبـقًـا لآثارها على أمـريكا. وبما أن الولايات المتـحدة قوة كـونيـة، فإن كل شىء تقريبًا يحدث فى العـالم يهمها؛ ولكن طبيعة أمريكا هى مـعـالجـة كل مشكلة وحلها على حدة.

لكل هذه الأسـباب، ولأن جزءاً كـبـيـرًا من السـياسة الأمريكية تحـركه اعتبارات منعزلة عن بعضـها لن تتـغير عمـا قريب، تصـعب مشـاركة ناى اسـتنتاجـاته المتـفـائلة بشـأن مسـتـقـبل «النفـوذ اللين» الخـاص بأمـريكا. فالولايات المتحدة بالمعنى الحرفى للكلمة هى أسـوأ أعـداء نفـسـهـا؛ فـإرضـاء للدوائر الانتـخـابيـة، يتـجاهل رؤساء أمـريكا الرأى الخارجى فى أغلب الأحيان، كما يلقى الخطاب المزخرف واتخاذ المواقف الأحادية قبولاً حسنًا فى الداخل، بل وقد يخيف الأعداء فى الخـارج كذلك (وإن كـان هذا غير مؤكد). ولكن الشىء المؤكد هو أنه يرعب ويستعدى مجموعة ثالثة تضم الكثير من أصدقاء أمريكا والمعجبين بها فى الخارج.

إن الخطر الحـقـيـقى الذى تتـعـرض له أمريكا ولم تدركه حكومة بوش بعد، هو أنه فى مواجهة إهمال أمريكا ولا مبالاتها سوف تتلاشى هذه الخرافة وسوف «تصبح شرائح كبيرة من المجتمعات الرئيسية ضد الولايات المتحدة والقيم الكونية الخاصة بالتـجارة الحـرة والمجـتمـع الحـر». وسـوف يعـنى هذا نهاية «الغـرب» كما فهمناه طوال نصف قرن. فقد كان مجـتمع المصالح والصداقة المتبادلة فى شمـال الأطلنطى غيـر مسـبـوق ولا يقدر بثمن؛ وقد يكون ضياعه كارثة للجميع.

وما يوفر للولايات المتحدة تأثيرها الدولى الرهيب ليس هو قدرتها التى لا مثيل لها على الحـرب، بل هو ثقـة الآخـرين فى نواياها الحسنة. وهذا هو السـبب فى أن مـعـارضـة واشنطن للمـحكمـة الجنائيـة الدوليـة لهـا أضرارها الكثيـرة. فهى توحى بأن الولايات المتحدة لا تثق فى معاملة سائر دول العالم الأمـريكيـين مـعـاملة نزيهـة. ولكن إذا كـانت أمريكا تبدى عدم ثقة فى الآخرين، فقد يحين الوقت الذى يردون فيه الكيل لها. ■

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
August 15, 2002
ترجمة: أحمد محمود



«الولايات المتحدة لم تكتف باستخدام المفتشين فى مهمات تجسسية، بل مارست ضغوطا كى يقدم هؤلاء على ممارسات يرفضها الجانب العراقى من أجل خلق وضع يبرر التدخل العسكرى المباشر».

رالف ايكيوس

مسؤول عمليات التفتيش فى العراق

(فاينانشيال تايمز ٣٠/٧/٢٠٠٢)

«كل ما يحدث فى العراق الآن ويعتبره الأمريكيون سببًا للحرب، كان يحدث قبل عام ١٩٩٠ عندما كان صدام حسين أحد أصدقاء النظام الأمريكى الخلصاء».

روبرت فيسك

(الإندبندنت سبتمبر ٢٠٠٢)

«أوسلو انتهت..

نحن الآن نستكمل حرب الاستقلال».

أريل شارون

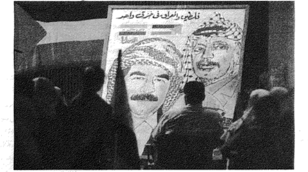
(رئيس الوزراء الإسرائيلى)

هل تؤيد فرنسا اتخاذ قرار يتيح توجيه إنذار إلى إسرائيل من أجل احترام قرارات مجلس الأمن كما هى مستعدة أن تفعل تجاه العراق؟

سؤال إلى الناطق الرسمى للخارجية الفرنسية

(مؤتمر صحفى. باريس ١٣/٩/٢٠٠٢)

لا صدام هو عرفات.. ولا العراق هى فلسطين ولكن فى مناخ الاحباط واليأس وفى مواجهة الأمريكان يرفع الشارع العربى لافته واحدة. غزة ١٨/٩/٢٠٠٢



■ تحت صورة الشيخ جابر الأحمد الصباح، وقف الجنرال تومى فرانكس قائد القيادة المركزية الأمريكية ليؤكد خلال مؤتمر صحافى عقده فى الكويت قبل أيام أن قواته «مستعدة لتنفيذ كل ما يطلب منها من مهمات»، فى إشارة إلى قرار ـ يبدو مؤكدا ـ قد يتخذه الرئيس بوش بضرب العراق. وموضحاً أن حجم التدريبات التى تجريها القوات الأمريكية فى الخليج هو «الأكبر على مدى ١١ سنة»، أشار الجنرال الأمريكى إلى أنه سمع من المسؤولين الخليجيين الذين التقاهم ثناء بالغاً على خطاب بوش.

على الناحية الأخرى من الكرة الأرضية، وبعد ساعات استوجبتها فروق التوقيت، كان الناطق باسم البيت الأبيض آرى فلايشر يقف مهندما بربطة عنق أنيقة، أمام الصحفيين الملولين فى البيت الأبيض، ليعلن أن الجنرال فرانكس سلم بوش خطط الحرب قبل أيام. وأن الرئيس طلب من وزير الدفاع دونالد رامسفيلد أن يطلب خيارات (مبدعة) من قادة الجيش الميدانيين.

خارج القاعة المزدحمة بأكواب القهوة وعلب العلكة الفارغة، كانت شاشات التليفزيون بالبيوت الأمريكية مشغولة ـ ساعة الذروة ـ بمتابعة أخبار قضية الأم التى فضحها شريط فيديو وهى تضرب ابنتها (أربعة أعوام) داخل سيارة العائلة.

بين ضجيج التصريحات والتهديدات، ومصطلحات الدبلوماسية الباردة المتلونة فى الاجتماع السنوى للأمم المتحدة، كان المشهد فى رام الله مختلفا ـ ومتوقعا ـ الدبابات تقصف مقر زعيم الفلسطينيين (الذين وعدهم بوش فى خطابه «العراقى» بدولة) وانفجار ضخم يتلوه تصاعد سحابات الغبار والدخان. ومكبرات الصوت تنذر من بالداخل بتفجير ماتبقى من المبنى على من فيه. ويختلط أزيز الدبابات المحاصرة برنين هواتف الرؤساء والزعماء بهتافات الفلسطينيين المحاصرين فى مخيماتهم ومدنهم.. وتاتى التطمينات، لتجد الصحف العربية ماتنشره: «الإسرائيليون أكدوا أنهم لن يقتلوا عرفات»!! ولكن، تنقل وكالات الأنباء الصورة: «يتقدم جندى إسرائيلى فى هدوء وينزع العلم الفلسطينى من سطح المبنى ويزرع مكانه علم إسرائيل». وينسى الجميع ـ ربما ـ أن أوسلو التى تم توقيع اتفاقها فى حديقة البيت الأبيض كانت «مشروع دولة»، وكان مبنى المقاطعة (المجمع الرئاسى للسلطة الفلسطينية فى رام الله / مقر عرفات)، رمز هذه الدولة / المشروع.

لاخلاف تقريبا حول أن الإسرائيليين سينتهزون فرصة الدخان الكثيف الذى سينطلق من شاطئ الفرات ليتموا ما بداه شارون وصرح به علنا «لاوجود لأوسلو». بل إن كتاب الأعمدة الإسرائيليين يطالبون الجيش بالانتهاء «مما بيده الآن» إذ يعتقد الدكتور يوسى أولمرت فى «يديعوت أحرونوت» ١٧/٩/٢٠٠٢: أن «الساعة الأمريكية تدق ببطء مقارنة بالساعة الإسرائيلية».. ويطالب الكاتب الإسرائيلى بانتهاز الفرصة التى قد لاتعوض «فمركزية كونية كهذه تبدو وضعا غير طبيعى..إذ إن القوة الأمريكية هى شىء خارق»، مذكرا بأن الميل اليهودى إلى العزلة «قادنا على مر الأجيال إلى أخطاء مأساوية فى التعامل مع دول عظمى. لكننا نتواجد اليوم فى الجانب الصحيح للمتراس، إذ إننا حلفاء أعظم دولة فى العالم.. علينا الحفاظ على هذا الكنز بكل ثمن تقريبا..لكن يخطئ أولئك الذين يظنون بأن التحالف مع أمريكا يمنحنا حبلاً طويلاً دونما نهاية ومتسعا غير محدود من الوقت». انتهى كلام أولمرت.

الخلاف إذن داخل إسرائيل ـ إذا كان ثمة من خلاف ـ ينحصر فى الإجابة عن السؤال الآتى: هل نطلق طلقتنا «الأخيرة» الآن، أم ننتظر طلقة واشنطن «الأولى» على بغداد.



تتعدد الخطط السرية.. وتتعدد التسريبات «المقصودة». وفى انتظار الخيارات «المبدعة»، يقف جورج دبليو بوش تحت الشعار التاريخى للأمم المتحدة (لاحظ) تحت الشعار التاريخى للأمم المتحدة مهددا المنظمة الدولية بأنه ربما اضطر للتصرف منفردا، ومعددا: «استخدم الأسلحة الكيميائية ضد شعبه.. اجتاح أراضى جيرانه.. صادر الحريات المدنية و«قتل الألوف من مواطنيه». بعض من لائحة الاتهام الطويلة بحق السيد صدام والنظام العراقى.

هكذا قال الرئيس الأمريكى. فماذا تقول روزنامة التاريخ؟

* فى سبتمبر ١٩٨٠، هاجم نظام بغداد إيران، وبعد ما واجه صعوبات فى الحرب ـ حسب ماذكرت الصحف الأمريكية ذاتها ـ استخدم الأسلحة الكيميائية قبل أن يقتل بالغاز فى حلبجة فى مارس ١٩٨٥، خمسة آلاف من الأكراد العراقيين. فماذا فعلت واشنطن؟ هل أطلقت وقتها حملة لإيقاف هذا «الطاغية الدموى»؟ على العكس، تحكى أوراق تلك المرحلة كيف قام يومها نحو ستين ضابطًا أمريكيًا بتزويد القيادة العسكرية العراقية سرًا بـ«المعلومات المفصلة حول انتشار القوات الإيرانية» وكيف كانوا يناقشون معهم الخطط القتالية. وكيف لم يعترض هؤلاء المستشارون على استخدام الغاز «المحظور بموجب اتفاقية جنيف»، والقصة هنا منشورة بتفاصيلها فى نيويورك تايمز قبل أسابيع.

* فى ١٩٨٣ وبالتحديد فى ٢٠ ديسمبر التقى دونالد رامسفيلد (وزير الدفاع الحالى وأكثر صقور الإدارة الأمريكية مطالبة برأس صدام حسين) الرئيس العراقى، فى إطار «مهمة خاصة» كلفه بها وقتها الرئيس رونالد ريجان. والموضوع ذكَّرت به قبل أيام فقط شبكة CNN بعد أن عثر صحافيوها مصادفة فى أرشيفهم على صور المقابلة.

* فى عام ١٩٨٤ تحكى أوراق العلاقة الأمريكية العراقية كيف استأنفت إدارة ريجان علاقاتها الدبلوماسية مع بغداد بعد انقطاعها منذ حرب ١٩٦٧، ثم سرعان ما شطبت اسم العراق من قائمة الدول المساندة للإرهاب باعتباره «السور الواقى فى وجه الثورة الإسلامية».

* فى يناير ١٩٨٩، وقَّع بوش الأب، بعد أن تولى الرئاسة، تعميمًا ينص على: «أن من شأن العلاقات الطبيعية بين الولايات المتحدة

... رام الله

أيمن الصيّاد

والعراق أن تخدم مصالحنا على المدى البعيد وتدفع في اتجاه الاستقرار في الشرق الأوسط والخليج...».

* خلال تلك الفترة صدّرت الشركات الأمريكية إلى العراق وبموافقة وزارة الخارجية مواد يمكن استخدامها في إنتاج الأسلحة الجرثومية. ولمن يريد أن يتأكد أن يراجع تقارير مجلس الشيوخ الأمريكي عام ١٩٩٤ على الموقع الخاص بـ Znet Commentary.

وفي حين تستهدف الحملة الأمريكية رسميًا أسلحة الدمار الشامل التي تمتلكها بغداد. فإن خطاب الرئيس بوش الذي نُظِّر لتلك الحملة جاء فضفاضًا ومزدحمًا بالشروط التي قد يستحيل التأكد من تنفيذها، بالضبط مثل حال خطابه الخاص «برؤيته» للحل في الشرق الأوسط وللتذكير، فإن القرار ٦٨٧ الصادر عن مجلس الأمن الدولي في ٣ أبريل ١٩٩١ طلب نزع أسلحة الدمار الشامل العراقية، ويوضح البند الرابع عشر منه أن هذه الإجراءات «تندرج في مسار يهدف إلى خلق منطقة منزوعة من أسلحة الدمار الشامل والصواريخ الحاملة لها في الشرق الأوسط». وللتذكير أيضًا فإن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في المنطقة التي لا تخضع أنشطتها النووية للتفتيش، رغم الثابت من كونها «الوحيدة أيضا» التي تمتلك السلاح النووي وليس فقط إمكانات تطويره.



وأيًا ما كان الرأي في جدوى ما أنجزه مفتشو الأمم المتحدة بين ١٩٩١ و١٩٩٨، بغية التأكد من إزالة أسلحة الدمار الشامل العراقية، فإن الثابت ـ أولا ـ أنهم ذهبوا إلى هناك لمهمة محددة، وفقا لقرار الأمم المتحدة. والثابت ـ ثانيا ـ حسب أوراق المنظمة الدولية الرسمية أن المفتشين على مدى تلك السنوات قاموا بجهد ضخم تجاه تدمير البرنامج النووي وكامل ترسانة الصواريخ تقريبا إضافة إلى قسم كبير من الأسلحة الكيميائية. وكانت عملية نزع الأسلحة والانتهاء من الحصار قد وصلت تقريبًا إلى خواتيمها. إلا أن كل شيء انهار فجأة. وهنا تختلف بالطبع التحليلات والتأويلات. إلا أنه إلى جانب الحديث الكثير جدًا عن المراوغة العراقية، هناك حقائق الحصار والتجويع التي لم يجادل فيها أحد، وهناك من يعتقد أن واشنطن كان لها في واقع الأمر أهداف أخرى.

في ٣٠ يوليو الماضي نشرت الفايناننشيال تايمز اللندنية على لسان رالف ايكيوس، مسؤول عمليات التفتيش التي قامت بها الأمم المتحدة في العراق بين ١٩٩١ و١٩٩٧، أن الولايات المتحدة لم تكتف باستخدام المفتشين في مهمات تجسسية، بل مارست ضغوطا «كي يقدم هؤلاء على ممارسات يرفضها الجانب العراقي من أجل خلق وضع يمكن أن يبرر التدخل العسكري المباشر» ويبدو أن هذا ما حدث في يناير ١٩٩٨ عندما قررت واشنطن قصف العراق من دون موافقة الأمم المتحدة، يومها رحل المفتشون ليبقى برنامج التسلح العراقي من دون أي رقابة.

هل تسعى الولايات المتحدة حقًا لعودة المفتشين؟ السؤال لم يتجاوزه فقط خطاب بوش الشهير، بل تبدو الإجابة عنه قديمة، لمن يقرأ.. ويراجع يوميات السنوات العشر. وحتى إن اختلفت لغة القراءة، وهذا مفهوم في يوميات السياسة والدبلوماسية والحرب، فلا خلاف اليوم بعد أن أصبحت الصراحة ـ أو «البجاحة» إن شئت ـ بدلاً من المواراة والتعابير الدبلوماسية، لغة السياسة الأمريكية.

لم تعد الولايات المتحدة تسعى إلى عودة المفتشين، وهذا بات مفهومًا. كما لم تعد تهدف فقط إلى إزالة أسلحة الدمار الشامل، وذاك صار معلومًا.

ماذا يريد الأمريكيون إذن؟

بوهم التمني، وإدمان اجترار ذكريات صداقات مشكوك في صدقيتها، تختلفُ الإجابات ـ نسبيًا ـ في شرقنا الذي هو في التحليل النهائي ميدانُ المعركة.. والتحولات.

رغم الاختلاف ـ لا التباين ـ يعتقد الجميع، أو يخشون على الأقل ـ أن تكون بغداد نقطة انطلاق لإحداث «جراحة جيو سياسية» في المنطقة كلها.

ولكل جراحة أعراض جانبية بالضرورة.

أيًا ماكان الاختلاف في الرأي، فإن الثابت أنه بعكس إسرائيل التي يقول غالبية جيرانها أنها تشكل تهديدا لهم، لا يوجد جار واحد للعراق يدعي أنه ـ بحالته الحاضرة ـ يهدده أو يهدد أمنه. والثابت ـ ثانيا ـ أن إسرائيل لا تخفى رغبتها أن يضرب العراق ـ فالحرب تطلق يدها لتطبيق خطوات وخطط موجودة في أدراجها، كما توفر لها فرصة تنفيذ خطوات ذات مغزى سياسي مباشر.

والثابت ـ ثالثا ـ أن الكلام الأمريكي/الإسرائيلي عن استهداف إصلاح القيادة الفلسطينية.. ثم إقامة نظام «ديمقراطي» في العراق. سيعقبه كلام آخر كثير.

والثابت ـ رابعا ـ أنه تتحكم حاليا عناصر مشكوك في حيادها بقضايا الأمن القومي والسياسة الخارجية الأمريكية في مناخ تظلله سحابات غامضة من تصورات الأصولية الأمريكية المسيحية واليمين الإسرائيلي للعالم، هذا التصور الذي لا يقسم العالم إلى قوى خير وشر فحسب، بل يفرد لإسرائيل مكانة توراتية بين قوى الخير.

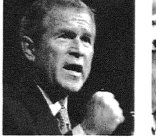
وأيًا ماكان الأمر فإن الأمريكيين يراهنون ـ أو لعلهم يثقون ـ في أن الكلام عن «ردود فعل شعبية لايمكن التحكم بها» مبالغٌ فيه. ويذكر المراقبون بالتخوفات ـ التي ظلت نظرية ـ من آثار ضربة أمريكية لأفغانستان «المسلمة» في شهر رمضان الماضي. الأمر الذي كشفت التجربة عن أنه لم يسفر في محيط مليار مسلم عن أكثر من تظاهرات غاضبة لم يكن صعبا على الأنظمة «ذات الخبرة» قمعها، أو احتواؤها في أحسن الأحوال. وفي حين نشرت «النيوزويك» بلغة الأرقام رسما بيانيا يبين كيف استمر الخط البياني لعدد المظاهرات في الهبوط المتسارع إلى جانب صورة لسهرات رمضانية لقوم أرهقهم اليأس، وأدمنوا التناسي، وأسكنوا حديث «البنيان المرصوص» في لوحة مذهبة على جدار من رخام بارد. ■

البيت الأبيض ١٣/٩/١٩٩٣

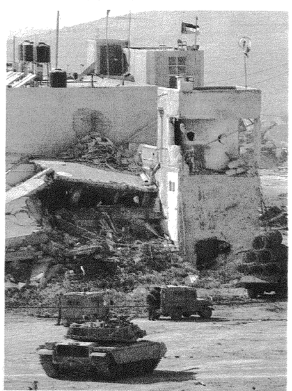
رام الله ـ ٢١/٩/٢٠٠٢

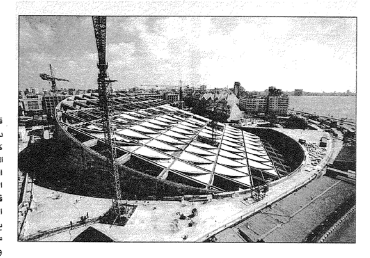


الأمم المتحدة ـ ١٢/٩/٢٠٠٢



ما تبقى من مقر عرفات رام الله ـ ٢٤/٩/٢٠٠٢







مكتبة الإسكندرية

أخيراً

الافتتاح الكبير!

خواطر وتساؤلات

مصطفى العبادى

يعرف كثيرون أن موعد افتتاح مكتبة الإسكندرية سبق أن تحدد وتأجل عدة مرات فى ظروف مختلفة. أولا، فى مراحل التنفيذ المبكرة عند وضع حجر الأساس (يونية ١٩٨٨) وبعده فى اجتماع أسوان الشهير (فبراير ١٩٩٠) حين أمكن جمع تبرعات عربية بلغت نحوا من خمسة وستين مليون دولار، كان مُقدرا أن يبدأ التنفيذ فورا ليكون الافتتاح فى ١٩٩٥، ولكن فوجىء العالم بأزمة وحرب الخليج فى أغسطس ١٩٩٠ و١٩٩١ كما هو معروف. وكان لأحداثها أثر الصدمة على العالم العربى بأسره، فأصابته بما يشبه حالة الشلل العصبى. ولم يفق العالم العربى من أثر الصدمة إلا فى ١٩٩٤، وقررت مصر أن تتقدم على تنفيذ المشروع العالمى الخاص «بإحياء مكتبة الإسكندرية» فى ١٩٩٥، وكان مُقدرا أن يستغرق البناء نحو خمس سنوات، ويكون الافتتاح فى سنة ٢٠٠٠. ولكن البناء استغرق أكثر مما كان مُقدرا له حتى أكتوبر ٢٠٠١ حين تحدد أن يكون الافتتاح فى ٢٣ أبريل ٢٠٠٢، ولكن أحداث الإرهاب العدوانى الإسرائيلى ضد الفلسطينيين بلغت حداً من التطرف فى العنف جعل الافتتاح مستحيلا فى ذلك التاريخ بسبب ظروف الانفعال الشعبى الغاضب. وأخيرا تحدد ١٦ أكتوبر ٢٠٠٢ يوماً مرتقبًا لهذا الافتتاح الموعود.



ليس الغرض من هذا التقديم تذكير القارئ بما حدث، فجميعها أحداث حاضرة فى الأذهان ومحفورة فى الذاكرة؛ ولكن أردت من ذلك ملاحظة تكرار اصطدام موعد افتتاح المكتبة بأحداث سياسية عالمية الأبعاد، رغم أنه قد يبدو أن افتتاح أى مكتبة فى بلد ما حَدَثٌ ثقافى محلّى بالدرجة الأولى، مهما يكن عِظَمُ هذه المكتبة، وقد حدث فعلا افتتاح مكتبتين عظيمتين خلال السنوات العشر الماضية، هما المكتبة الأهلية الجديدة فى باريس، والمكتبة البريطانية فى لندن. ولكن يبدو أن مكتبة الإسكندرية ليست أى مكتبة! ونظرا لاتصالى الوثيق بهذا المشروع منذ بدايته ـ على مدى ثلاثين عاما ـ دراسة وبحثًا وتخطيطًا ولقاءات داخل مصر وخارجها، أدرك مدى الاهتمام العالمى بهذا الموضوع؛ ويكفى أن أقول إن الرأى المثقف العالمى شغل بتراث مدينة الإسكندرية القديم وبمكتبتها القديمة انشغالا واضحا فى الفترة الأخيرة، فنجد أن عدة مؤتمرات وندوات علمية انعقدت خلال العام الحالى تتعلق بتراث الإسكندرية القديم أو تتصل بمكتبتها. وعلى سبيل المثال: عقد مؤتمر فى نيودلهى فى مارس كان من بين موضوعاته «علاقات الهند بمصر ودور الإسكندرية ثقافيا واقتصاديا»؛ وفى مارس أيضًا عقد بمدينة تيرينا فى البرتغال، مؤتمر عن «ثقافة البحر المتوسط» جاء فيه ذكر ثقافة الإسكندرية العالمية. وفى مدينة الكاب بجنوب أفريقيا فى أبريل عقدت ندوة تحت عنوان «الإسكندرية فى مدينة الكاب»؛ وفى مدينة لوفان فى بلجيكا فى مايو، عقد مؤتمر حول «قدسية النصوص» ودور مكتبة الإسكندرية القديمة؛ وبجامعة كولومبيا فى مدينة نيويورك فى أكتوبر عقد مؤتمر تحت عنوان «الإسكندرية بين مصر واليونان»؛ وفى يناير ٢٠٠٣ ينعقد مؤتمر فى جامعة جوتبورج بالسويد حول «الإسكندرية ملتقى الحضارات». وفى الأعوام القليلة الماضية، انعقدت مؤتمرات مماثلة فى دلفى باليونان، وتورينو بإيطاليا، ولندن بانجلترا، إلى جانب معارض للآثار فى باريس حول «مجد الإسكندرية» و«صور المومياوات» فى المتحف البريطانى فى لندن، و«كليوباترا والإسكندرية» فى كندا والولايات المتحدة واليابان.

وقد نتساءل: لماذا كل هذا الاهتمام والاحتفال العالمى أو الإنسانى، سواء بأخبار مكتبة الإسكندرية القديمة أو بفكرة إحيائها التى تبلورت فى ذلك الصرح عبقرىّ التصميم القائم على شاطئ الإسكندرية المُطلّ على صفحة البحر المتوسط؟



ولنتناول أولا موضوع مكتبة الإسكندرية القديمة وأسباب تفردها وتميزها على سواها من مكتبات العالم القديم بأسره. فمن المعروف أن الحضارات جميعا اقترنت فى مدارج رقيها وتقدمها باشتمالها على مكتبات، فهى عنصر أساسى من عناصر مكوناتها ومقوماتها باعتبارها مستودع المعرفة فى المجتمع ومجمع تراثه وعقائده وأعرافه وأخبار أحداثه وسجل إنجازاته. هكذا كان الحال فى كثير من الدول الكبرى القديمة، فى مصر وبابل وآشور وسوريا واليونان وفارس والهند والصين وغيرها. ولقد أمكن العثور حديثا على كثير من بقايا مكتبات تلك الحضارات التى ازدهرت قبل أن تزدهر الإسكندرية.

وإذا نظرنا إلى مصر على سبيل المثال، نجد فيها تقليدًا شاع وهو اقتران المعرفة والبحث العلمى عامة بحياة المعبد وبين الكهنة. وكانت المكتبة جزءا أساسيا من مقومات المعابد الكبيرة. وقد احتفظ لنا المؤرخ القديم ديودور الصقلى بوصف لمعبد الرمسيوم بالأقصر وأنه اشتمل على «مكتبة مقدسة»، يلاصقها بهو يضم تماثيل آلهة المصريين. ومن طريف ما حدث مع بداية الكشف الأثرى العلمى قُرب نهاية القرن التاسع عشر، أن كان عالم الآثار المشهور فلندرز بيترى، يقوم بالتنقيب فى موقع معبد الرمسيوم من القرن الثانى عشر ـ ق.م. مسترشدا بما سجله ديودور الصقلى، فعثر فى موقع «المكتبة المقدسة» على مجموعة من البرديات من بينها أقدم كتابات درامية معروفة لنا من قصة إيزيس وأوزيريس وترجع إلى الدولة الوسطى (أى حوالى ٢٠٠٠ ـ ١٨٠٠ ق.م.) ومعنى ذلك أن تلك النصوص كان قد مضى عليها نحو من ثمانية قرون سابقة على بناء الرمسيوم. وهو ما يقوم دليلا على أن مكتبات المعابد فى مصر القديمة كانت تقتنى وتحتفظ بكنوزها من أعمال التراث الوطنى على مدى أزمان طوال. وتأكيدا لهذا التقليد المصرى القديم، يسجل كاتب من زمن الإسكندر الأكبر إعجابه بتفوق الكهنة المصريين فى مجال دراسات الفلك، وهو هيكاتيوس الأبديرى الذى يقول: «إنهم ـ إلى يومنا هذا ـ يحتفظون بسجلات كل من النجوم والأفلاك على مدى طويل جدا من السنين يصعب تصديقه... ونتيجة لملاحظاتهم الفلكية المتصلة، أصبح باستطاعتهم التعرف مسبقا على وقوع الزلازل، والفيضانات، وتحديد بزوغ الكواكب».

هكذا كانت العلوم والمكتبات فى مصر الفرعونية؛ ويمكن أن نذكر أمثلة مشابهة فى بلاد أخرى من العالم القديم، فى العراق واليونان وفارس والهند، مع درجات فى الاختلاف وتباين مجالات الاهتمام. ثم جاء الإسكندر المقدونى فى النصف الثانى من القرن الرابع ق.م. و تمكن من قيادة مجموع المدن اليونانية فى حملة كبرى ضد الإمبراطورية الفارسية. وكانت اليونان فى ذلك الوقت فى أعقاب نهضة حضارية عملاقة فى مجالات متعددة، فى الأدب والفلسفة والتاريخ والفنون. وكان الإسكندر على درجة متميزة من الإحاطة والمعرفة بمعالم تلك النهضة فى اليونان، فاصطحب معه فى حملته العالمية مجموعة كبيرة من العلماء فى شتى العلوم، أفاد من خبرتهم فى كل مرحلة من مراحل حملته فى قارات العالم الثلاث المعروفة فى عصره، أوروبا وآسيا وأفريقيا. كما كلف الإسكندر العديد من رفاقه العلماء والخبراء بدراسة وتسجيل المعلومات المتعلقة بكل بيئة جديدة من بيئات العالم القديم التى وصل إليها، وبذلك تضاعفت المعرفة الجغرافية بالأرض المعمورة ولأول مرة، أمكن عمل خريطة للعالم المعروف. ولعل أهم نتائج حملات الإسكندر وما حرص على تسجيله من كشوف وبيانات ومعلومات قام بها العلماء المرافقون له، هو ظهور إدراك جديد للمعرفة العالمية، ومدى اتساعها وتعدد مظاهرها.



وكان من بين قادة الإسكندر المقربين، بطلميوس بن لاجوس رفيق صباه الذى صاحبه فى كل مراحل الحملة، وكان لا يقل عن الإسكندر تعطشا للعلم والمعرفة، فاستطاع أن يستوعب التجربة المعرفية الجديدة فى شتى مراحل الحملة العالمية. وحين فوجئ العالم بوفاة الإسكندر المبكرة عام ٣٢٣ ق.م. وهو فى سن الثالثة والثلاثين، اختلف القادة على اقتسام تلك الملكة المترامية الأطراف وحرص بطلميوس على أن يأخذ مصر لنفسه ولأسرته من بعده، وقرر منذ البداية أن يجعل الإسكندرية عاصمة لمصر؛ كما شرع فى أن يجعلها تتفوق وتتميز على شتى المدن فى العالم بأسره. وبفضل مينائها الجديد ومنارتها الشامخة، التى شرع فى تأسيسها فى أثناء حياته ثم أكملها ابنه من بعده، أصبحت الإسكندرية أهم مركز للتجارة فى العالم القديم. ثم أراد أن يجعل منها كذلك، أهم مركز علمى فى العالم القديم، متفوقة فى ذلك على أثينا ذاتها. من أجل تحقيق هذه الغاية سلك السبيل الصحيح، وهو توفير أسباب البحث العلمى على اختلافها، وتجميع العلماء فى شتى العلوم، وتشجيعهم على التفرغ لهذه

الأبحاث. أما عن أسباب البحث العلمي ووسائله، فقد بدأها بإنشاء أكبر مكتبة عرفها العالم القديم. وقد اختلفت تلك المكتبة عما سبقها اختلافا نوعيا؛ فقد حرص على أن يجعلها لأول مرة مكتبة عالمية، فأمر «بأن تضم كتابات جميع الشعوب بقدر ما هي جديرة بالاهتمام والدراسة الجادة». وهو تصور جديد، نسمع عنه لأول مرة في مكتبة الإسكندرية القديمة. وكان بطلميوس مدركا للتكلفة التي تتطلبها تلك المكتبة، فسخر للقائمين عليها ما يلزمهم من المال. وتدريجيا استطاعت إدارة المكتبة أن تجمع مجموع إبداعات العقل اليوناني السابقة في الشعر والنثر، في الأدب والفكر والفلسفة، وكذلك تجمع قدرًا ضخمًا من سجلات وكتابات المصريين القدماء في شتى مجالات المعرفة التي نبغ فيها المصريون في العصر الفرعوني، إضافة إلى أعمال البابليين والآشوريين والفينيقيين والفرس والعبرانيين والهنود. وهكذا تجمع في مكتبة الإسكندرية القديمة تراث الإنسانية العقلي وذلك لأول مرة في تاريخ المعرفة الإنسانية. ومن أجل استكمال أسباب البحث العلمي، أضاف الملوك البطالمة مرصدا لدراسة الفلك الذي كان يحتل مكانة متميزة. وكذلك مراكز لأبحاث الطب وحدائق للنبات و الحيوان لأغراض الدراسة والبحث.

وفي الوقت نفسه سعى الملك البطلمي وخلفاؤه إلى اجتذاب العلماء من شتى أرجاء البحر المتوسط، وأنشأ لهم مركزا للبحث العلمي، وهو الذي أطلق عليه اسم الموسيون، ومعناه لغويا «معبد ربات الفنون والعلوم» اللائي كُنّ يسمين عند اليونان «موسيه» للواحدة، و«موساي» للجمع: وعددهن تسع ربات حسب التصور الديني القديم. وكلمة موسيون هي أصل كلمة موسيوم في اللغات الأوروبية بمعنى متحف. ولكن الموسيون القديم لم يضم آثارا، ولكنه ضم أفضل عقول الأرض في ذلك الوقت. وخير وسيلة لتمجيد الربات وعبادتهن هي أن يبدع العالم أو الفنان عملا جديدا، يعتبر إضافة فنية أو علمية في مجال تخصصه، في الشعر بأنواعه (الملحمة - التراجيديا - الكوميديا)، أو في النثر بأنواعه (التاريخ - الفلسفة - الرياضيات ونحوها...). ومن المعروف أن كلمة موسيقى مشتقة أيضا من لفظة «موسيه» مباشرة.

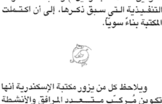
هكذا نشأت في الإسكندرية بيئة علمية متميزة لخدمة العمل العلمي الجاد. فكانت هناك كافة الإمكانيات العلمية المعروفة آنذاك تحت تصرف خيرة العلماء الذين أحسن اختيارهم. وكان اختيار العلماء وتعيينهم أعضاء يتم بناء على قرار من الملك، وكان التزامهم الأول هو البحث العلمي، وليس التدريس. ويتمتع العلماء الأعضاء بحق الإقامة والمعيشة المجانية في الموسيون، وتناول الوجبات الجماعية، فضلا عن المكافآت والرواتب السخية. ومن الطريف أن نلاحظ أن هذا النموذج السكندري القديم قد أدركت قيمته وجدواه الدول الغربية الحديثة منذ عصر النهضة الأوروبية؛ فهناك في جامعة أكسفورد كلية عريقة تسمى All Souls، يتفرغ العلماء فيها من الشباب والشيوخ على السواء للبحث العلمي، وكذلك في جامعة برنستون الأمريكية «معهد للدراسات العليا» يتفرغ فيه العلماء للبحث العلمي المجرد، ومن أشهر أعضائه في القرن العشرين، أينشتاين الذي كان عضوا به مدى الحياة. كما توجد في هذه الجامعة أيضا عضويات موقوتة لفترات محدودة، يتسابق للفوز بها كثير من الباحثين، و جدير بالذكر أن الدكتور عزيز سوريال عطية مؤرخ العصور الوسطى المعروف - والأستاذ السابق بجامعة الإسكندرية - كان بين من فازوا بهذه العضوية المحدودة من المصريين.

وسرعان ما نبغ في الإسكندرية القديمة، العديد من العلماء الأفذاذ الذين قفزوا بالعلم قفزات عملاقة وأحدثوا ما يمكن أن نطلق عليه ثورة علمية في مجالات متعددة ويكفي أن نذكر هنا أسماء علماء من أمثال إقليدس الذي يُلقب بأبي الرياضيات. ومَنْ مِن دارسي الهندسة لا يعرف إقليدس! ولكن قَل من يعرف أنه ولد وعاش بمدينة الإسكندرية حوالي ٣٠٠ ق.م. ومن أنبغ علماء الفلك، أريستارخس من جزيرة ساموس في القرن الثالث ق.م، وهو أول من نادى بنظرية مركزية الشمس للكون وهو ما رفضه سائر علماء الفلك قديما واعتقدوا أن الأرض هي المركز وأن الشمس تدور حول الأرض. وظل الاعتقاد الخاطئ سائدا إلى القرن السادس عشر حين نادى كوبيرنيكوس بصواب نظرية أريستارخس وأن الشمس هي المركز. وفي الطب نبغ هيروفيلوس بالإسكندرية في القرن الثالث ق.م، ويعتبر مؤسس علم التشريح. ومن إنجازاته في هذا المجال أنه قام بتشريح الجهاز العصبي في الإنسان، وأثبت أن العقل هو مركز التفكير وليس القلب كما كان يظن غيره ومنهم أرسطو نفسه. كما نبغ في الأدب أدباء أعلام مثل الشاعر كاليماخس، الذي أسس مدرسة جديدة في الشعر، سار على نهجها شعراء آخرون في البحر المتوسط. واشتهر كاليماخس بوفرة معلوماته في علوم كثيرة، فكلفه الملك بطلميوس الثاني بعمل موسوعة علمية بمحتويات مكتبة الإسكندرية، ويعتبر لذلك مؤسس علم المكتبات. ولم يصلنا شيء يذكر من أجزاء هذا العمل العظيم سوى إشارات تصفه في كتابات المتأخرين. ولكن يبدو أن كتاب «الفهرست» لابن النديم عن المكتبة العربية في القرن الرابع الهجري كان على نسق موسوعة كاليماخس، وأن استخدام اسم الفهرست كان مقابلا للتسمية اليونانية القديمة وهي «بيناكس» بمعنى جداول. ويمكننا أن نضيف في هذا المجال شاعر الإسكندرية ثيوكريتوس الذي يعتبر مؤسس الشعر الرومانسي وصاحب مدرسة أدبية في هذا المجال.



هذه نماذج قليلة جدا ممن نبغوا في الإسكندرية القديمة في عصر مكتبتها العالمية الشهيرة، ويمكننا أن نضيف إليهم عشرات من كبار العلماء والأدباء والمفكرين. ولكن أردنا فقط في هذا المقال أن نذكر القارئ بالتجربة المتميزة التي سبقت إليها الإسكندرية وكيف أن تلك التجربة الرائدة نجحت نجاحا مُذهلا وأبدعت حركة علمية وفكرية فذة وأن تلك التجربة السكندرية، حذا حذوها وترسم خطاها عدد من الدول المتحضرة بعد ذلك، فأفادوا وأبدعوا وواصلوا مسيرة العلم والفكر والفن، ونهضوا بها نهضة عبقرية ما فتئت تفاجئنا كل يوم بما يفوق الخيال من كشف واختراع.

نحن في مصر نشاهد ذلك يحدث كل يوم، وترتد إلينا أبصارنا مع إحساس مختلط من الحسرة والألم لما نشعر به من العجز عن مجرد إمكانية ملاحقة حركة العلم في العالم حولنا. فقد أصبحنا في موضع التبعية، وغيرنا في موقع القيادة في كل شيء تقريبا. هذا هو الموقف الذي حاولنا التصدي له حين أقدمنا في جامعة الإسكندرية على طرح فكرة إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة. فقد أدركنا أن للوضع القائم من التخلف العلمي أسبابا كثيرة معقدة. منها ما هو سياسي واقتصادي واجتماعي. وكان لابد، إذا أردنا أن نخرج من وضع التبعية العلمية، أن نبدأ عند نقطة محورية. نظرنا إلى تجربتنا الرائدة القديمة التي أخذ بها العالم المتحضر من بعدنا، فرأينا أن افتقار مصر إلى مكتبة عالمية قادرة على تلبية متطلبات البحث العلمي الحديث بمستوياته المعاصرة يمثل مكمن الداء، أو نقطة جوهرية منه على الأقل. ويكفي أن ننظر إلى أكثر الدول تحضرا، نجدها تمتلك أعظم المكتبات وأغناها على المستوى العالمي مثل مكتبات الكونجرس والبريطانية والأهلية الفرنسية.. ونحوها كثير. هناك بطبيعة الحال مظاهر وأسباب أخرى عديدة، ولكن المكتبة مظهر واحد مشترك. لذلك قررنا عام ١٩٨٥ أن نطرح على الدولة أن تتقدم لليونسكو بفكرة إحياء مكتبة الإسكندرية. وكانت المفاجأة السارة أن تقبلت منظمة اليونسكو الفكرة بجدّية واهتمام: وحضر إلى الإسكندرية مدير عام المنظمة في ذلك الوقت أحمدو مختار مبو، وأبدى حماسا صادقا، وقال في حديثه المتدفق إنه يؤيد فكرة إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة على أساس أننا نحاول إحياء وتجديد تجربة علمية وثقافية رائدة في تاريخنا القديم أثبتت نجاحها. ومما يدل على عمق استيعابه وشدّة إيمانه بخطورة هذا المشروع قوله أيضا إنه يعتقد أنه إذا أمكن تحقيق هذا المشروع بمستوى الفكرة التي أوحت به، فقد يؤدي إلى تغيير الخريطة الثقافية في المنطقة بأسرها. ثم جاء القرار الحاسم من المجلس التنفيذي لليونسكو في يونية ١٩٨٦ بالموافقة بما يشبه الإجماع (من مجموع ٥١ عضوا، وافق ٤٩ صوتا ضد صوتين، أحدهما إسرائيل!) وتتابعت الخطوات التنفيذية التي سبق ذكرها، إلى أن اكتملت المكتبة بناءً سويًا.



ويلاحظ كل من يزور مكتبة الإسكندرية أنها تكوين مُركَّب متعدد المرافق والأنشطة الثقافية؛ فهناك القبة السماوية ذات التصميم الهندسي المتميز وهي قسم أصلي من التصور المعماري النرويجي الفائز بالجائزة الأولى. وهو يُذكرنا مباشرة بمرصد الإسكندرية القديم وإنجازات علمائها في الفلك. وهناك أيضا معرض لنوادر المخطوطات العربية التي تعتبر من ذخائر المكتبة، وبعض المطبوعات الأولى التي منها ما يرجع إلى القرن السادس عشر، أي مع بدايات اختراع الطباعة الحديثة. ولم يمكن الحصول على نسخة أصلية من الكتاب المقدس الذي صدر عن مطبعة جوتنبرج في ماينتز بألمانيا في القرن الخامس عشر، فحرصت إدارة المكتبة على شراء مصورة حديثة لتلك الطبعة الأولى القيّمة، على سبيل الرمز إلى أول إنجاز كبير لاختراع آلة الطباعة الحديثة التي أحدثت ثورة كبرى في الثقافة الإنسانية. ومن بين قاعات العرض ما يضم مجموعة خطيّة جميلة من كتابات الراحل محمد إبراهيم مؤسس مدرسة تحسين الخطوط في المنشية بالإسكندرية، وأول من كتب القرآن الكريم على صفحة واحدة. وكذلك قاعة كبيرة

يسجل كاتب من زمن الإسكندر الأكبر إعجابه بتفوق الكهنة المصريين في مجال دراسات الفلك، وهو هيكاتيوس الأبديري الذي يقول: «إنهم - إلى يومنا هذا - يحتفظون بسجلات كل من النجوم والأفلاك على مدى طويل جدا من السنين يصعب تصديقه...، ونتيجة لملاحظاتهم الفلكية المتصلة، أصبح باستطاعتهم التعرف مسبقا على وقوع الزلازل، والفيضانات، وتحديد بزوغ الكواكب»





سعد بن معاذ
(الطبقة الأولى من الأنصار)

ابن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل، ويكنى أبا عمرو، وأمه كبشة بنت رافع بن معاوية بن عبيد بن الأبجر، وهو خدرة بن عوف بن الحارث ابن الخزرج وهى من المبايعات. وكان لسعد بن معاذ من الولد عمرو وعبد الله وأمهما هند بنت سماك بن عتيك بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل، وهى من المبايعات، خلف عليها سعد بعد أخيه أوس بن معاذ.

أخبرنا محمد بن عمر قال: أخبرنا إبراهيم بن إسماعيل بن أبى حبيبة عن واقد بن عمرو بن سعد بن معاذ قال: كان إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير على يد مصعب بن عمير العبدرى، وكان مصعب قدم المدينة قبل السبعين أصحاب العقبة الآخرة يدعو الناس إلى الإسلام ويقرئهم القرآن بأمر رسول الله ﷺ، فلما أسلم سعد بن معاذ لم يبق فى بنى عبد الأشهل أحد إلا أسلم يومئذ فكانت دار بنى عبد الأشهل أول دار من الأنصار أسلموا جميعًا.

قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثنى عبد الله بن جعفر عن سعد بن إبراهيم وعن ابن أبى عون قالا: آخى رسول الله ﷺ بين سعد بن معاذ وسعد بن أبى وقاص. قال وأما محمد بن إسحاق فقال: آخى رسول الله ﷺ بين سعد بن معاذ وأبى عبيدة بن الجراح فالله أعلم أى ذلك كان.

قال: أخبرنا الفضل بن دُكين قال: أخبرنا إسماعيل بن مسلم العبدى قال: أخبرنا أبو المتوكل أن نبى الله ﷺ ذكر الحُمَّى فقال: من كانت به فهى حظه من النار. فسألها سعد بن معاذ ربه فلزمته فلم تفارقه حتى فارق الدنيا.



مخصصة لمجموعة المهندس الدكتور محمد عوض من الخرائط والمصورات التاريخية لمدينة الإسكندرية ابتداء من القرن الخامس عشر. وتعتبر بحق مجموعة فريدة فى العالم.

ولعل من أقيم ما تشتمل عليه مكتبة الإسكندرية الآن، قاعة كبرى لمتحف الآثار الذى تقدم به المجلس الأعلى للآثار. وقد تطورت فكرة هذا المتحف من الاتفاق منذ عمل المشروع الهندسى على أن يُعرض عند المدخل ما يعثر عليه من آثار فى موقع البناء. ولما تم اكتشاف أرضيات الفسيفساء الجميلة (واحدة تمثل كلبا اكتسب شهرة عالمية لدقة صناعته وجمال ألوانه. ويقال إنه عندما عرضت هذه القطعة فى معرض «كليوباترا والإسكندرية» فى شيكاغو، استأثر فسيفساء الكلب بانتباه الجمهور. والفسيفساء الثانية بقى نصفها فقط، والجزء الموجود مصور به أجزاء من مصارعين ملتحمين أحدهما بقى جسمه الأبيض والآخر بقى رأسه الأسود، ولا يخفى ما يمثله هذان المصارعان من رمز). هذا إلى جانب أعمال فنية أخرى أمكن الحفاظ عليها. ولذلك تم الاتفاق بين الدكتور جاب الله على جاب الله، الأمين العام السابق للآثار والدكتور محسن زهران مدير مشروع المكتبة آنذاك، على أن تخصص قاعة كبرى للآثار تمثل تراث الإسكندرية ومصر. وقد أمكن تجميع مجموعة رائعة من الآثار المصرية القديمة من مخازن عدد من المتاحف والمواقع الأثرية فى أنحاء مصر. كما شملت أحدث الاكتشافات الأثرية فى قاع البحر أمام ساحل الإسكندرية وأبى قير، من أجملها على الإطلاق تمثال الإلهة إيزيس كُشف عنه عام ٢٠٠٠ أمام ساحل أبى قير، وهو تمثال من البازلت الأسود، أبدع فيه الفنان المصرى فى تصوير الجسم البض الذى يكاد ينبض حيوية وأنوثة وجمالا. وما من شك أن وجود متحف الآثار منح المكتبة بُعدا ثقافيا ومعرفيا، ويضفى عليها عراقة وقيمة تتكامل مع مجموعة المخطوطات العربية الأصلية والمطبوعات الأولى.

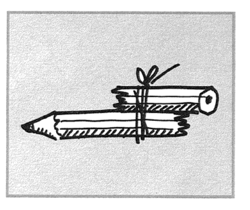


وأخيرا، ونظرا لأن جامعة الإسكندرية كانت قد تنازلت عن مبنى مركز المؤتمرات الكبير ليكون جزءا من منظومة مؤسسات المكتبة وفى خدمة أغراضها وأنشطتها، نشأت ضمن تنظيمات المكتبة إدارة للنشاط الثقافى والفنى. وقد أبدت إدارة المكتبة برئاسة الدكتور إسماعيل سراج الدين، اهتماما بالغا بهذا النشاط الثقافى المتنوع، فتعاقبت الندوات والمحاضرات، وأقيمت حفلات موسيقية متنوعة ومعارض للفنون التشكيلية، ومعارض جيولوجية وعلمية (تُصوِّر نشأة الكائن الحى)، ومعرض تراثى لأعمال ومقتنيات الفنان الراحل شادى عبد السلام.

يتبين من هذا العرض السابق أن مكتبة الإسكندرية الجديدة تكوين مركب متعدد الأنشطة فى عدة اتجاهات، قلما اجتمعت فى مكتبة أخرى. ورغم هذه الثروة فى العروض والأنشطة والمناسبات ذات الطابع الثقافى الرفيع، يظل هناك سؤال محورى يشغل الرأى العام الجاد، وهو يتعلق بالهدف الأساسى من فكرة إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة، الذى اقتنع به وتبناه اليونسكو، وتحمست له الإنسانية جمعاء. لقد جاء فى المشروع الأصلى الذى تقدمت به مصر وأقره اليونسكو أن يُنشأ فى الإسكندرية مركز للبحث العلمى بأعلى مستوياته العالمية المعاصرة، لعله بذلك يجدد ذكرى ما قام به مركز البحث العلمى (الموسيون) فى الإسكندرية القديمة. ولعل هذا هو التحدى الحقيقى أمام إدارة المكتبة، وهو أن تتوفر جميع إمكانيات البحث العلمى الرفيع بالمستويات العالمية. إن النشاط الثقافى الراقى أمر مرغوب فيه ويلزم توفيره لجمهورنا المتعطش للثقافة، ولكن إقامة القدرة على خلق بيئة علمية قادرة على تحريك الحركة العقلية والعلمية من المستوى المتدنى الذى هبطنا إليه، لهى عملية بالغة المشقة. وهى تتجاوز بكثير القدرة على تحقيق البناء وتوفير مرافق النشاط الثقافى، إنها بحاجة إلى تضافر عقول أعدت إعدادا علميا رفيعا تستشرف آفاق المعرفة وتدرك مكامن وحركة العلوم المعاصرة، وتعرف سبل ممارستها وامتلاك ناصيتها. وهذا قد لا يتحقق إلا بإمكانيات مالية كبرى وقدرات بشرية مدركة واعية وقادرة على البذل والعطاء العقلى المتصل. ومثل ذلك لا يؤتى ثماره إلا بالعمل الهادئ المتصل البعيد عن بريق الأضواء. وهو أمر يصعب علينا ممارسته حسب ما نشاهده حادثا كل يوم.

كثيرا ما نردد عبارة شائعة، وهى أن العلم والمعرفة قوة. ولكننا لا ندرك إدراكا واضحا أن العلم والمعرفة قوة فى يد من يصنع العلم ويحرك المعرفة فى العالم، وليس فى يد من يتلقى ذلك العلم أو يردد عبارات تلك المعرفة. ونحن فى الوقت الراهن تغلب علينا حالة ذلك المتلقى للعلم الذى يصنعه غَيرُنا أو من يردد أنماط المعرفة المستوردة. فهل تستطيع تجربة مكتبة الإسكندرية الجديدة أن تكون رأس الحرْبة التى تشق طريقا نحو مستقبل أكثر تفاؤلا، وتنقلنا من وضع التبعية الذى نعانيه، لنتحول إلى وضع المشاركة والمساهمة الإيجابية فى حركة العلم والمعرفة العالمية؟ إن كثيرين منا يتطلعون إلى ما بعد الافتتاح بنجاح وأمان إن شاء الله. لعل إدارة المكتبة - بدعم كامل من الدولة والمجتمع - تتمكن من التفرغ لمواجهة التحدى القاسى الذى عليها أن تواجهه، وأن تحقق الآمال المعقودة على مكتبة الإسكندرية، لتقوم فى عالم اليوم بدور مماثل للدور الذى قامت به الإسكندرية القديمة فى عالم الأمس. وربما تتحقق نبوءة أحمدو مختار مْبو، بأن هذا المشروع إذا أمكن تحقيقه بمستوى الفكرة التى أوْحت به، فقد تُحدث تغييرا فى الخريطة الثقافية فى المنطقة بأسرها. ■

العلم .. للفقراء أيضًا



أحمد زويل



استخدام برامج المساعدات من أجل مساعدة أنظمة حاكمة بعينها خطأ كبير، حيث أظهر التاريخ أنه من مصلحة العالم المتقدم أن يساعد سكان الدول النامية كافة



يتمتع خمس سكان العالم فقط بمنافع الحياة في «العالم المتقدم»، ولا تزال الفجوة بين الأغنياء والفقراء تزداد اتساعًا، الأمر الذي يُعَرِّض الاستقرار للخطر. وطبقًا لبيانات البنك الدولي، فإن من بين ٦ مليارات شخص موجودين على الأرض يعيش ٤,٨ مليار في الدول النامية، منهم ٣ مليارات بدخل يومي يقل عن دولارين، و ١,٢ مليار بأقل من دولار واحد يوميًا، وهو ما يحدد مستوى الفقر المطلق. كما أن ١,٥ مليار شخص لا تصلهم المياه النظيفة.

ورغم طموح العولمة في المقام الأول إلى مساعدة الدول في الازدهار والتقدم، فقد فُصِّلت بحيث تناسب تلك الشريحة من سكان العالم القادرة على استغلال الموارد الطبيعية والأسواق. وقد بلغ نصيب الفرد من إجمالي الناتج القومي - وهو إجمالي ناتج السلع والخدمات الاقتصادية التي تنتج داخل بلد ما قياسًا بالقيمة النقدية - ٣٥ ألف دولار في بعض الدول الغربية مقابل حوالي ألف دولار في كثير من الدول النامية، وما يقل عن ذلك كثيرًا في الدول المتخلفة. فعلى سبيل المثال، وطبقًا لإحصائيات الأمم المتحدة، فإن نصيب الفرد في أنجولا ٥٢٨ دولارًا، والصين ٧٧٧ دولارًا، وكوريا الشمالية ٤٣٠ دولارًا، وكوريا الجنوبية ٦٩٥٦ دولارًا، والولايات المتحدة ٣١٠٥٩ دولارًا، واليمن ٣٥٤ دولارًا. وسوف يؤدي هذا الموقف إلى تفاقم عدم الاستقرار العالمي ما لم يمنعه أحد.

حواجز التقدم

تواجه الدول النامية أربعة حواجز تحول دون بلوغها وضع العالم المتقدم. فمعدلات الأمية المرتفعة في دول كثيرة تعكس فشل الأنظمة التعليمية وترتبط بزيادة مفزعة في معدلات البطالة. الأمر الثاني هو أن الاستفادة المحدودة من الموارد البشرية - وهو ما يعود بصورة كبيرة إلى الهيمنة التراتبية والأسبقية القوية، ومركزية السلطة - تقمع الفكر الجماعي وتكبت القدرات الإنسانية. والثالث هو أن تداخل قوانين الدولة مع المعتقدات الدينية يحدث الاضطراب والفوضى، من خلال إساءة استخدام رسالة الدين الأساسية بشأن مكونات الحياة الأخلاقية والإنسانية. أما الرابع فهو وجود رؤية مفككة للعلم والتكنولوجيا.

وليس عدم وجود قاعدة صلبة من العلوم والتكنولوجيا ناتجًا في كل الأحوال عن قلة رأس المال أو الموارد البشرية. بل إنه ينبع في بعض الأحيان من عدم تقدير الدور المهم الذي يقوم به العلم والتكنولوجيا في التنمية، ومن طرق البحث المفككة الخاصة بإنشاء مثل هذه القاعدة، وعدم وجود سياسة متكاملة تتناول الحاجات القومية والموارد البشرية والرأسمالية. وتعتبر بعض الدول التقدم العلمي ترفًا، في ظل وجود مشاكل أخرى أكثر إلحاحًا. وتعتقد دول أخرى أن الأساس يمكن بناؤه عن طريق التكنولوجيا الآتية من الدول المتقدمة. وهذه المعتقدات تترجم إلى تقدم ضعيف، أو معتدل على أكثر تقدير، يقوم على جهود الأفراد وليس ما تقوم به فرق العمل المؤسسية.

وتشير هذه القضايا إلى ثلاثة مكونات أساسية من مكونات التقدم. المكون الأول هو بناء الموارد البشرية عن طريق محو الأمية، وضمان مشاركة المرأة الإيجابية في المجتمع، وإصلاح التعليم. والمكون الثاني هو إعادة النظر في الدساتير الوطنية بما يسمح بحرية الفكر والحد من البيروقراطية وإيجاد نظام للقيم وخلق نظام قانوني موثوق به وقابل للتطبيق. أما المكون الثالث فهو بناء قاعدة علمية.

وأسس القاعدة العلمية استثمار في التعليم الخاص بالموهوبين، وإقامة مراكز للتفوق، وإتاحة الفرصة لتطبيق المعرفة في الأسواق الصناعية والتجارية في البلاد ثم العالم كله في النهاية. ولابد أن يسير هذا جنبًا إلى جنب مع خطة للتعليم العام بمدارس الدولة وجامعاتها. وبمثل هذه الرؤية سوف تظهر الثقافة العلمية التي تعزز قدرة البلاد على متابعة المشاكل المعقدة ومناقشتها بطريقة عقلانية وجماعية. ويصبح التفكير العلمي ضروريًا لنسيج المجتمع.

ويشعر كثيرون بأن الثقافة العلمية قاصرة على الدول المتقدمة وحدها. بل إن البعض يؤمن بنظرية المؤامرة، وهي أن الدول المتقدمة لن تساعد الدول النامية كي تسيطر هي على تدفق المعرفة. وأنا لا أقر هذه النظريات. فالأمثلة الحديثة التي ضربتها الصين والهند وغيرها بنجاحها في السوق العالمية ناتجة عن أنظمتها التعليمية المطورة والمهارات التكنولوجية في قطاعات بعينها. والمطلوب لتحقيق النجاح في إيجاد ثقافة علمية هو قبول المسئولية في التعاون بين الدول النامية والدول المتقدمة.



والدول النامية بحاجة إلى مراكز للتفوق، ليس فقط للأبحاث والتنمية، بل كذلك لتدريب الخبراء في التكنولوجيات المتقدمة، وبذلك نحد من نزيف العقول الذي يعاني منه الكثير من تلك الدول. ومن المهم ألا تكون تلك المراكز مجرد ممارسات للعلاقات العامة؛ إذ ينبغي أن تكون قاصرة على بضع مناطق كي تحوز الثقة والاعتراف.

ولتحقيق هذه الغاية، لا بد أن تُدَعِّم الموارد الوطنية البحث والتنمية بطريقة انتقائية، باتباع المعايير الراسخة القائمة على القيمة والتميز. ولإرشاد السياسة الوطنية، ينبغي على الحكومة في أعلى مستوياتها إنشاء مجلس إشراف خاص بالعلم والتكنولوجيا يتكون من الخبراء الوطنيين والدوليين. وبدون الالتزام الجاد بهذه المبادئ، سيظل التقدم محدودًا.

أساس النجاح

حققت بعض الدول النامية تقدمًا يحظى بالإعجاب في تلك المجالات، ويعكس ذلك ما حدث من تقدم في الهند وكوريا الجنوبية وتايوان. وفي مصر تشارك جامعة العلوم والتكنولوجيا في تجربة تنفذ على مساحة ٣٠٠ فدان مقدمة من الحكومة على أطراف القاهرة. وتنتظر الجامعة إقرار قانون جديد يجعلها منظمة غير حكومية لا تستهدف الربح.

ولكن مسئولية الدول المتقدمة كذلك هي التركيز على برامج المساعدات. وعادة ما توزع حزمة المساعدات بين الكثير من المشروعات، ويؤدي عدم وجود متابعة إلى تناثر الموارد وفي بعض الحالات الفساد. ولذلك لا تؤدي المساعدات إلى تحقيق نجاح كبير. ويمكن بلوغ مركز الاهتمام الحقيقي عن طريق إنشاء ما أسميها «المساعدات التي توجهها الشراكة»، حيث يوجه جزء كبير من المساعدات إلى معايير الاستفادة من التفوق الموضوعة في الدول المتقدمة.

ولا بد أن يكون هناك كذلك تقليل إلى أدنى حد للسياسة في المساعدات. فاستخدام برامج المساعدات من أجل مساعدة أنظمة حاكمة بعينها خطأ كبير، حيث أظهر التاريخ أنه من مصلحة العالم المتقدم إلى حد كبير أن يساعد سكان الدول النامية كافة. وينبغي أن يكون برنامج المساعدات مثاليًا في مهمته ومعينًا للاستثمار في التنمية المستقبلية. ويمكن للدول المتقدمة إما أن تمنح المال كنوع من الإحسان، أو أن تصبح شريكة، حيث توفر الخبرة وخطة المتابعة.

وتعترف بعض الدول المتقدمة بأهمية الشراكة، وخاصة مع جاراتها. وتشمل أمثلة ذلك الولايات المتحدة والمكسيك، وغرب أوروبا وشرق أوروبا. ويمكن تحقيق النجاح الحقيقي بشرط أن يكون هناك التزام مخلص بالشراكة. وهذا في مصلحة كل من الدول المتقدمة والدول النامية إلى أكبر حد من أجل التعايش السلمي في عالم من الإنسانية المتحضرة. ■

ترجمة: أحمد محمود



تفصيل من لوحة للفنان روبنز

الرومانتيكية

فاروق وهبة

كانت الرومانتيكية كحالة من حالات التفاعل النفسى المفعم بالتجليات الغائرة فى الأعماق والصادرة عن دمج حسى شديد الخصوصية تجاه رمز فى الحياة يتعلق به الإنسان ويبذل فيه من تفاعل ذاته، ما من شأنه تعديل الكيمياء الداخلية التى تتحكم فى إفرازات غدده بما يرديه رهينة تجاه هذا الرمز سواء كان عاطفة أو إسقاطًا فنيًا أو إبداعيًا، وكانت هذه الحالة تعد سببًا جوهريًا فى إبداع الفنان لآماد بعيدة من الزمن، وهى التى تتحكم فى مدى صدقه وصدق فنه بل أيضًا فى استمراره.

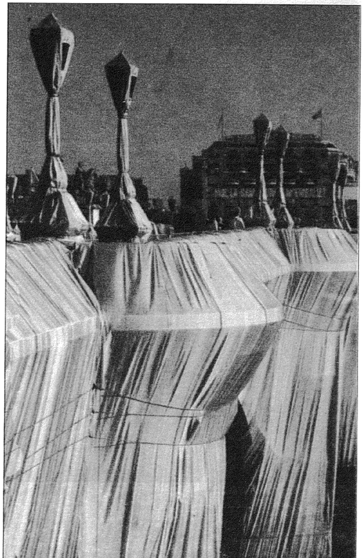
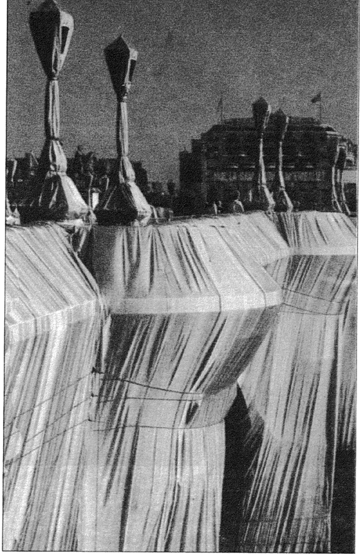
وتطورت الرومانتيكية بتطور العصر، حتى أن العلم أدلى بدلوه وفرض على الفنون أشكالاً أخرى من التجليات ومن نزوع الفكر، وأفرزت الفلسفة وعلم الجمال نظريات لم تكن تطرأ على بال وانتهى القرن العشرون بذهاب الفن إلى أبعاد مفرطة فى التبدل والتحول حتى أصبح العمل الفنى مخاطرات تنتهى بانتهاء العرض وذهب الفنان إلى استخدام من الخامات والمخلفات الآدمية المقززة ما يدعو إلى الغثيان بغرض فرض الصدمة على المتلقى، حتى إننا لا نستطيع المكوث للحظات بعروض بومبيدوسنتر بباريس من شدة الروائح الكريهة لبعض العروض الفنية المتوافدة.

وأفرزت هذه الرومانتيكية مدارس فنية فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كالوحشية والميتافيزيقية والدادية والسيريالية.

وظلت هذه المدارس والاتجاهات تتحكم فى منافذ الفكر الفنى حتى الأربعينيات وحتى ذهاب سلفادور دالى ذاته فى نهاية الستينيات وقد أظهرت هذه الاتجاهات مدى اغتراب الفنان وعزلته عن المجتمع ورفضه والثورة عليه بغرض إعادة بنائه بالشكل المثالى الذى يحسه الفنان ويشفى تطلعاته نحو رؤية أفضل للواقع المثالى.

وما كانت المثالية فى حد ذاتها قادرة على إحلال الفكر الأفضل والمدينة الفاضلة بل كان الإصرار عليها إصرارًا رومانتيكيًا، ذهب بالفنان إلى عزلة قصية عن العالم أدت ببعض منهم إلى قتل الذات أوالانتحار، وكنا نرقب نموذجًا كالفنان الأديب «جان كوكتو» يلقى بنفسه من نافذة قطار مسرع يستقله لمجرد إعجابه الشديد بمنظر فى الطبيعة ظهر فجأة أمامه بغرض التملى به والعيش فيه والتمتع بجزئياته.

إننا نعد الآن أمام فكر يشابه فكر العوالم الفضائية الخارجة عن حدود الأرض، حتى أن اللغة الفكرية قد تغيرت تغير إنزيمات العقل البشرى وأيونات الأجهزة الإلكترونية.

نموذج من فن البروجيكت للفنان خريستو

من أعمال أرمان مجموعة فيولين

فى زمن صناعة الفنان

وقد ألقت العولمة بظلالها على العالم الذى مازال مليئًا بالقبليات والعصبيات التى تندرج تحتها الشخصية القومية، والخصوصية فى مقابل الإلحاح الجارف على إذابة الإنسان ليلتصق فى كل واحد يمكن تحريكه بالتحكم عن بُعد، ويصبح هذا الكل مصدراً قويًا للاستهلاك السلعى الذى يخلف نفايات خليقة بأن تجعل هذا العالم بؤرة فائقة للتلوث والموت البطىء.



وقد رفض النموذج الحالى للفنان اليوم الشكل الرومانتيكى المعهود لفنان القرن التاسع عشر ذلك النموذج التلفزيونى المحمل بفكرة إهماله لمظهره مكتفيًا بما يعتمل بداخله من تحليق فى التجليات إمعانًا فى أن المظهر لا يتكافأ مع الجوهر حتى أضحى جسدًا لمظهر مهلهل يثير كثيرًا من السخرية ويعد نموذجًا تلفزيونيًا للكوميديا.

أما فنان اليوم الذى يتمتع برؤية حديثة فى الرومانتيكية التكنوفوقية التى تصدر من إشعاعات المونيتور والبرمجة، حتى أصبحت تجربة العروض الفنية وعروض الصالونات والمتاحف ضربًا من الهزل، بل صب هذا الفنان جام خياله فى أروقة البرمجة والحفظ والداتا وعالم القدرة الفائقة من الخيال الافتراضى، إذن فهذه الرومانتيكية المشذبة والمصاحبة لظروف هذا العالم الحديث الجارف، كان لها وقع الصفع على وجوه المحافظين والمتململين الذين يعنون توقف عجلة الزمن بل جرت هذه الثورة الفكرية التكنولوجية كل التاريخ لقلب صفحته إلى عالم جديد، فلا غرو فى أن تتفوق تلك المتغيرات المتلاحقة فى السنوات العشر الأخيرة من القرن الماضى على كل أحداث المسار التاريخى فى المائة عام الماضية عليه.

ونستطيع أن نطرح سؤالاً جوهريًا هنا، أى فن يمكن أن يُمَارس فى هذا المضمار الفائق السرعة والمتلاحق الخطو والمنفلت المقدرات، إن فنان اليوم ذلك المتأنق حليق الرأس والذى يأخذه المكوث أمام المونيتور قرابة أربع عشرة ساعة متواصلة صادف ضربًا آخر من العزلة عن المجتمع بل أصبح هناك ما يدعى بأمراض الكومبيوتر، فالجالس عليه أصبح له شكل خاص من انحناءة الظهر، واختلفت لغته عن لغة المجتمع وذابت خيالاته واتحدت مع شكل الشبكة الإلكترونية والترموستات الكهربية، وأصبح مجتمعه أعضاء أندية الكومبيوتر ولغته لغة الرسائل والشفرات، حتى رغباته وعواطفه قد يبحث عنها فى «الويب سايت» بل قد أثيرت فى هذا المضمار تساؤلات

نموذج من فن «البروجكت» الرسم على الجزر

الرومانتيكية
فى زمن صناعة الفنان

طريقة عما يكون مكان الفن، أهو فى الدماغ أم فى إخمص القدم وأخذوا لا يتحدثون عن القلب إلا لمامًا.

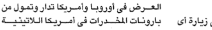
فأى فن يمكن أن يُمَارس من نوع هذا الإنسان المبرمج بل إن الخيال العلمى وهوأحد نماذج إبداع فنان اليوم يستقى أعماله من واقع آخر لا يشبه واقعنا من قريب أو بعيد، وهذا يختلف عن السيريالية التى أخذت نفس واقعنا وحطمته وأعادت بناءه من جزئياته السابقة لتطرح مقترحًا جديدًا لعالمنا القديم، بل إننا نقف مشدوهين أمام الأعمال الفنية المعروضة فى بينالى فينسيا ٢٠٠١ التى حطمت حتى تعاليم الدادية ورائدها وفيلسوفها «مارسيل دوشامب» التى كانت تعد فلسفة طرد أفكار القرن التاسع عشر وانعكاسا لفلسفة العلم وكراهية الحروب، إن أعمال فينسيا ٢٠٠١ هى تتويج للغة الكومبيوتر، وعلامات الغد الموحش والمغرق فى الهوس والتبدل والشطط.



وهنا يأتى الإيذان ببطلان أضرحة الفن والتى تدعى المتاحف فكل الأعمال المعاصرة فى المعارض الدولية هى أعمال مركبة أو حركية أو أعمال الكومبيوتر وتنتهى هذه الأعمال بانتهاء العرض، أى أنه لا توجد فرصة لإضافة مثل هذه الأعمال لتكون نموذجًا يوضع بالمتحف للتعريف به فى المستقبل، بل أصبح المتحف فكرة معرضة للبطلان بعد أن سحبت الحكومات الدعم المادى له وتعرض لظروف الخصخصة التى بحثت عن الوسائل التى توفر عائدًا من هذه المتاحف فقامت بأعمال الاستنساخ وطبع اللوحات على الـ«تى شيرت» وعلى أغطية الرأس والأكتاف، ومجالاً للوفود السياحية كسلع ثقافية.

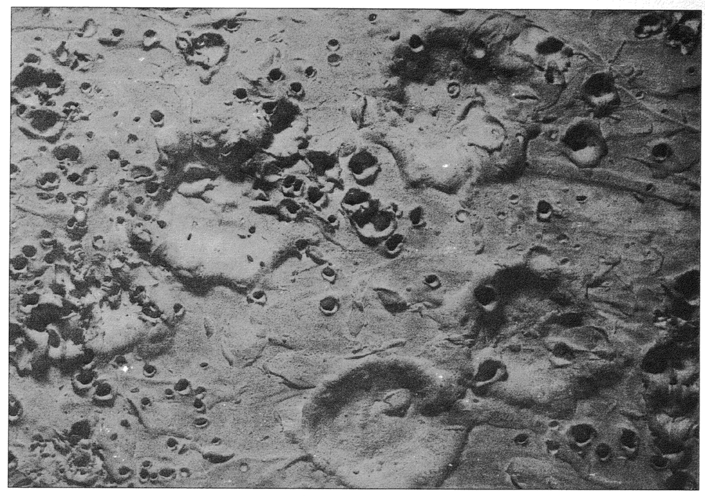
وبالرغم من هذا فالراغب فى زيارة أى متحف فى العالم عليه ببساطة أن يفتح الكومبيوتر ولا يكلف نفسه عناء السفر ويبحث فى الإنترنت.

بل لقد ذهبت الثقافة الجديدة التى يتحكم فيها التوازن الاقتصادى فى العالم إلى بُعد غير متوقع، حيث أصبحت الثقافة سلعة جيدة لموضوع غسيل الأموال، فاضحت دور العرض فى أوروبا وأمريكا تدار وتمول من باورنات المخدرات فى أمريكا اللاتينية



لوحة من خامة اللدائن للفنان فاروق وهبة





نموذج من تصوير أرض القمر للفنان أيف كلين

وأصبح هناك جاليرى مارلبورو، وجاليرى فيليب مورس.

وظهرت أشكال من الفنون لم تكن فى أى عصر تمر من مصفاة القيمة الفنية ولا أن يكتب لها الظهور بأى شكل من الأشكال. ولكن هذه هى لغة العصر ومنافذه التى تلقى ظلالها على كل شيء حتى على الثقافة بل نذهب أكثر من ذلك إلى اعتبار نسبية القيمة وتغيرها بعد أن كانت ثابتة ومحل القياس ولا تخضع إلى بطلان، وذلك مرده إلى سرعة المتغيرات المعاصرة وسرعة وسائل الاتصال وتعقيدها وتقدمها، فلك أن تتخيل معى، ما يمكن أن تصل إليه الهندسة الحيوية فى تكثيف الكائنات وتحويلها وإخضاعها إلى تحكم الجينات والنبضات الكهربائية، فقريبًا سوف تتحول أنت إلى نبضة كهربائية يمكن إرسالها من هنا عن طريق جهاز إرسال لتصل إلى المكان الآخر الذى ترغب فيه ولا يكلفك هذا عناء السفر المعتاد، فهل يمكن أن تجيبنى أى أحلام أو تجليات، يمكن أن تنتابك وأنت فى الطريق، إن هذا الأمر يحتاج إلى عمق لا نستطيع تخيله الآن ولكنه قادم قريبًا لا محالة.

وإن كنت قد انتابتك رومانتيكية من نوع ما فى الماضى وأتت بك إلى نوع من الإبداع يمكن أن يحمل بصمتك، فأنت مدعو الآن لأن تدخل كبسولة التحول وتخضع لتحليل كل خلاياك وخلايا مخك وأحاسيسك وتفاعلاتك كعينات للبرمجة يمكن بعدها إعداد برنامج كامل للإبداع تظهر فيه بالدرجة الأولى حقيقة مهمة هى الاستغناء عنك، فيتحول الفن والإبداع إلى صناعة برمجية تنتج سلعًا تناسب عالمًا جديدًا آتيا، وليبق أثر الإنسان فى الأثير لعله يأتى ثانيًا بعد آلاف السنين ليذكرنا بآلام فرتر، والرومانسية الموجعة، ولذة الإنسانية والتجلى والحلم.

وهنا نستطيع أن نتوقف أمام لفظة الجمال التى لم يعد لها دور بارز فى النظريات الجمالية، والتى من شأنها أن توجه كدور رئيسى ما يعتمل فى فكر الحركات والاتجاهات الفنية المعاصرة، فقد حلت محل اللفظ فى معناه العام الشامل عبارة «القيمة الاستاتيقية» ومن الضرورى توضيح اللفظ على أوضح نحو ممكن، حيث يحتوى المعنى فيه على شقين، الجمال والقبح فى آن واحد، فيرى الفنان المعاصر أن بعض الموضوعات القبيحة ذات قيمة استاتيقية، وأن بعض الأشياء ليست جميلة بالمعنى المألوف ولكنها طريفة وتجذب الانتباه، فليس كل ما هو جميل فنيًا، وليس كل ما هو قبيح فاقدًا للقيمة الاستاتيقية.

ومن الخطأ رصد فكرة تقييم القبح من الناحية الاستاتيقية فى العصر الحالى فقط، ولكن علينا أن نمعن فيما قاله أرسطو سلفًا، إن القبح أساس للكوميديا، وقد كان المصور هيرونيموس بوش ١٤٥٠/١٥١٦ يصور العنصر الشيطانى وجو المقابر والموت فى أعماله التى كانت نقدية بصورة واضحة، نقد فيها الفكر الدينى والسلوك الدنيوى.

وإن كانت الرومانتيكية قد ظلت شرط الإبداع وشرط الفن لآماد بعيدة، فقد كانت شرط استقبال هذا الفن كذريعة تثير المتلقى وتقوده ناحية العمل الفنى انقيادًا يثير فيه غرائز الإعجاب بالتجلى والإلمام به والاتحاد معه والتمايل به عجبًا.

وتحكمت هذه الحالة الوجدانية فى تحديد شكل الفن الصادر من جرائها، ذلك الفن الذى أظهر الجعبة الداخلية للفنان ومدى تأثره بالطبيعة والتفاعل معها، وكانت آلام التجليات، وتجليات الوجد الفنى شديدة الخصوصية، وصارخة فى ردود فعلها حتى أنها فى بعض الأحيان أضحت شبيهة بحالات العصاب المؤقت.

وظلت الرومانتيكية ولعصور ليست قليلة شرط الإبداع ومنطلقه وإن تطور الفكر منذ «آلام فرتر» وحتى الميتافيزيقيات المعروفة، إلى الفلسفة الوجودية وفكر سارتر وكولن ولسن وألبير كامى وسيريالية دالى وشطحات جان كوكتو ومسرح العبث وألعاب صمويل بيكيت، كانت كلها تجليات فنان مثقف قد عبر الطريق الوعر بينه وبين ذاته وغمره بوجد الوصل الثاقب، حتى ذهب إلى عالم خاص يمتلكه هو ولا يمتلكه الآخرون وأصبح رسولاً يريد أن يوقظ البشرية وليس أدل على هذا إلا تلك المأثورة التى تلاها «أبولونير» حين قال: «نحن الطالبين فى كل مكان غمار الأفق، لسنا بأعداء لكم، نريد أن نمنحكم كل الرحاب الغريبة، حين يزدهر السر الخفى، ويبيح نفسه لمن أراد اجتناءه هناك أوقدت نار جديدة، وتراءت ألوان لم تبصرها عين، وأومأت خيالات شفافة تريد أن تتجسد، فرحمة بالهائمين أبدًا على مشارف اللانهائية والمستقبل».

وقبل أن تصبح الرومانتيكية مذهبًا فكريًا، فقد كانت منذ البداية هى طبيعة التفاعل الإنسانى حيث يتلازم ومبدأ الفناء فى العاطفة، مبدأ الفناء فى الهدف فيعم الإخلاص والصدق مجمل السلوك، ويصبح سبيلاً إلى الحق فيه. ولعل محاولات تعميق الفكر الرومانتيكى فى أدب كل من: «كولن ولسن» و«كامى» و«جان بول سارتر» كانت محاولات ميتافيزيقية رافضة للواقع وشديدة الخصوصية، وحافزًا كبيرًا لنقل الشباب إلى الثورة على المجتمع وإلى موسيقى «البيتلز» وفنون «الدادية» وفنون صدمة المتلقى، والتمهيد لفنون واتجاهات أظهرت إفلاسها السريع أمام المتغيرات التكنولوجية سريعة الوقع والمتلاحقة التغيير والتى فعلت فعل السحر الجارف فى العقل البشرى.■

مراكز البيع:

بواقى التصدير والرواكد

مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى . نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٢
مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠
الزيتون: ١٣ ش عين شمس . ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧
عين شمس : ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول
ت: ٢٩٦٦٥٦٤
الشرابية: ٤٠ شارع الآلايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦
المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين ت: ٠١٠/٥٢٠٠١٩٠
الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠
شبرا: ٦٤ ش روض الفرج . دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠
ناهيا: ١٠٧ش ناهيا بولاق الدكرور ٠١٠/١٧١٠٣٨٩
الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة ٠١٠/١٤٥٥١٠٦
العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢
إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٢١٠٧٧٢٦
الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت:٧٧٥٧١٦٨
مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧
المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١٦٥
حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان . محطة الجراج ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧
القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٥
بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ٢٢٢٩٧٠٨
صفط اللبن: سنتر الصاوى . شارع التحرير ٧٢٠٧٦٩٢
مكرم عبيد: ٣٥ شارع أبو داود الظاهرى . مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١
فيصل التعاون: ٣٥٧ شارع الملك فيصل . محطة التعاون . الهرم٠١٠/١٧١٠٤٩٠
الصحفيين : ٣ ش النيل الأبيض متفرع من شارع أحمد عرابي ت: ٣٠٣٩٤١٢
السيدة زينب: ٣٨ شارع مراسينا ٠١٠/٦١٨٦٩٤٥
حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧
الأوبرا : ١٠ ميدان الأوبرا محلات إسماعيل علي ت: ٣٩١٤٩٩٩
المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى
دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس
العباسية: ١٥ ش العباسية . ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠

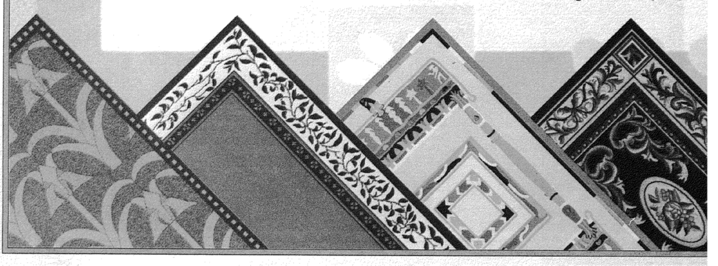
أرقام تليفونات معارض مدن القناه والوجه البحري

العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤
العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨
العاشر من رمضان: دوار العاشر . طريق الإسماعيلية
دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى ٠١٠/١٧١٠٣١٢
بلقاس: ش طريق الحرية . خلف المحكمة ٠١٠/٦٦٩٨٥٧٧
محرم بك: الإسكندرية ٦ شر أبيدوس من شارع مسجد الحضرى ت: ٠٣-٣٩١٨٤٧٠
دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦
ميت غمر: ٥٢ ش الحرية متفرع من ش بور سعيد ٠١٠/١٧١٠٤٧٠

القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤ ٠١٠/١٧١٠٤٧٩
شبين القناطر: ٩ ش الدلتا ٠١٣٧٢٢٠٣٣
بنها: ش الكوبرى ت: ٢٥٣٩٧٠
السويس: ٣٦٦شارع الجيش ٠١٠/١٧١٠٤٥١
المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش ٠١٠/١٧١٠٤٦٨
طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤
المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤
كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥
الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية . فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧
رمادا: برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٥٧٩٧٤٨
العصافرة : ش عثمان إبن عفان بجوار المعهد الديني ٠١٠١٠٠٤٧٣٩
الزنانيرى الإسكندرية ١٠٢ ش الزنانيرى - سيدى جابر ت: ٥٤٦٠٩٩٩
العامرية : ش مجمع سيدي مسعود الإستهلاكي عمارة خميس الهواري ٠١٢/٢٧٥٨٥٠٠
الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩
منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة . طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣
دسوق: ش الجيش . أمام عمر أفندى ٥٦٥١٥٣
الإسماعيلية: شارع شحتة - السكة الحديد سابقا ٣٥٥٧٦٥
شبين الكوم: ٢ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى
بورسعيد : ميدان المسلة - برج المسلة ت: ٠١٠٥١٣٤١١٤
دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٣٢٨٠١٣
كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧
أبو حماد: ٣٠ ش التحرير برج العزازى ت: ٣٤٠٩٥٤٤
السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧
كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة ٠١٠/١٩٢٢٤٢٨
فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم . خلف المحكمة ت: ٠١٠١٩٧٧٥٣٣
كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين ٠١٠/١٣٤٨٣٥٧
العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ٣٦٥٦٥٦

عناوين وأرقام تليفونات المعارض عن الوجه القبلي

سوهاج: ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠
بنى سويف الجديدة: ٣ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨
بنى سويف: ٥ ، ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦
قنا: ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٣٦٤٨
قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا ٠١٠/١٦٦٦٨٩٥
الأقصر: ش مدرسة الصنايع . السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى ٠١٠/٧٦١٨١٩
أسيوط: ١٢ ش المدينة المنورة الزهراء ٣٠٦٠٣١
المنيا: ١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٣٥٣٦١٦
الفيوم: ش ٢٦ يوليو عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٢٢٢



البطـــاقات البـــريدية القـديمـــة





تـــاريـخ وســـيـاســـة وبشـــــر!

ألان بـــوتـــــييـر

■■ واقع الأمر أن بطاقات البريد السياحية لا تُظهر شيئًا عن حقيقة البلد؛ دعاية معقمة لصناعة السياحة، لقطات لمشهد مجهز، أكثر جاذبية، حيث لا يصنع تاريخًا.

وبالطبع لا تخلو البطاقات البريدية لمصر فيما حول القرن العشرين من هذه القاعدة، ولكن، لأنها صور فوتوغرافية قديمة، فإنها تمنح سحر رحلة عبر الزمن. وإذا لم نفقد أبدًا مشهد نقطة الانطلاق، فإن الرحلة تصبح درسًا غير مخطط فى التاريخ.

لا تبحث عن بطاقة بريدية حديثة للمقارنة، فكل البطاقات الجديدة تصرخ بمأساة مصر الحديثة: الانفجار السكانى. فى عام ١٩٠٠ كان تعداد القاهرة حوالى خمسمائة أو ستمائة ألف نسمة، وقد تضاعف العدد الآن ثلاثين مرة. السطح كله مبنى، مسكون - لا شىء ينمو إلا الأسمنت...

كل البطاقات البريدية من القاهرة والإسكندرية تعلن نفس المأساة. ولكنها تثير أيضًا دروسًا أخرى، إذا توقفنا قليلاً عند التفصيلات. تلك البحيرة المائية أسفل الأهرام تثبت أن الصورة التقطت قبل أن تقوم سدود أسوان وأسيوط التى بنيت عام ١٩٠٢ بتلجيم نهر النيل حتى شمال القاهرة.

حتى تم رصف الطريق فى عام ١٨٦٨. كانت الرحلة إلى الأهرامات تتم فى قارب بدائى حين كان الطريق غير الممهد يغمر بالمياه. كان المرشدون السياحيون ينصحون بضوء القمر. فى هذا الوقت عرفت مصر تقويمًا طبيعيًا، عُرف منذ فجر التاريخ: الفيضان السنوى للنيل. كان الانتصار عليه هو علامة دخول مصر إلى العصر الحديث أكثر من أى إصلاح سياسى أو اجتماعى.

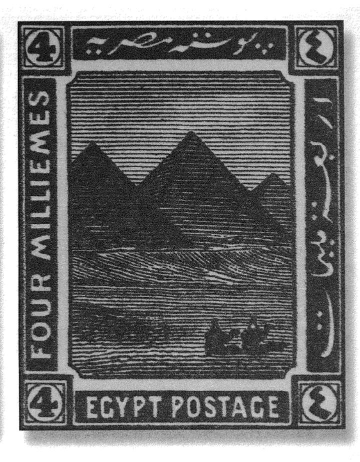
تظهر تفاصيل أخرى أحداثًا أقصر مدى. انظر مثلاً إلى لوحات الدعاية التى تزين مقاهى الإسكندرية: «اشرب شاى الصليب الأزرق»، «شاى ليبتون»، «وبيرة» وهى مشروب كحولى. انظر إلى حوانيت القاهرة وبورسعيد: اللغة، الأبجدية، والعادات الغربية تغمر الشوارع كما لو أن المصرى ليس فى بيته. لم يكن هذا مجرد مظهر، وليس بجديد فى عام ١٩٠٠ كانت مصر فارسية، يونانية، رومانية، بيزنطية، عربية وأخيرًا عثمانية. وقد كان لها أن تصبح بريطانية، وقد أصبحت فى الحقيقة، حتى لو لم يكن ذلك بصورة قانونية - فى عام ١٨٨٢ - تحدد بطاقة البريد التى تحمل صورة كوبرى قصر النيل، مقار القوات البريطانية المحتلة فى القاهرة، والتى كانت عنصرًا أساسيًا لجيش احتلال قوامه خمسة عشر ألف رجل.

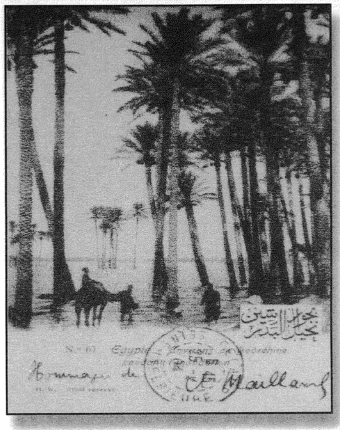
بدأت القصة فى عام ١٨٦٠ مع حفر قناة السويس. استهلك العمل الذى بدأ فى عام ١٨٥٩ أموالاً طائلة، ودفعت مصر، صاحبة الأربعة والأربعين بالمائة من حصص شركة قناة السويس إلى الديون. وفى الوقت نفسه دفعت سياسات التحديث التى تبناها الخديو إسماعيل (ميكنة هستيرية لجمع القطن، مدنية متصاعدة بشدة، تعليم عام، إنشاء شبكة هائلة من قنوات الرى، خطوط السكك الحديدية، والكبارى والحملات العسكرية الكارثية فى القرم، السودان والمكسيك) بميزانية الدولة إلى الهاوية. الوجه الآخر للكثير من بطاقات البريد يحمل رسالة تاريخية: للتحديث والتطوير، كان على مصر أن تقترض من قوى عظمى بأسعار فائدة مدمرة، عادة.

فى عام ١٨٧٤، ولكى يفى الخديو إسماعيل ببعض من الطلبات الملحة، باع لبريطانيا نصيب مصر من القناة بأربعة ملايين جنيه. صفقة مربحة بالنسبة للمشترى، وصفقة خاسرة بالنسبة لمصر، لم تحمها من الإفلاس بعد عامين. فرض الدائنون على مصر لجنة عالمية للتحكم فى دخل مصر المالى وتخصيصه لسداد ديونهم. خسرت مصر الاستقلال المالى. فى عام ١٨٧٨، أُجبر إسماعيل على قبول مجلس وزراء بوزير مالية بريطانى ووزير فرنسى للأشغال العامة. بالنسبة لكثير من المصريين، كان هذا أكثر من المحتمل. قامت انتفاضة فى الجيش بقيادة عرابى، وهو ضابط وطنى، وقادت إسماعيل إلى طرد وزرائه الأجانب، ضغطت بريطانيا وفرنسا على السلطان عبدالحميد ليتدخل، فمصر فى النهاية هى مقاطعة للإمبراطورية العثمانية. أعلم إسماعيل عن طريق تلغراف من القسطنطينية أن عليه أن يتنحى ويترك العرش لابنه توفيق.

أصبح الزعيم عرابى هو رجل الساعة. ابن الفلاح ومنشىء حزب وطنى، كانت له شعبية بين الناس الذين لم يمكنهم تحمل التدخل المتزايد من القوى الأجنبية أكثر من ذلك. بالضغط من قبَل الصفوة المثقفة، الضباط الصغار والصحفيين،

Post Cards From Egypt Circa 1900
(البطاقات البريدية فى مصر فى ١٩٠٠)
Alain Blottiere
Zeitowna, Cairo, 2001





أجبر توفيق على تكوين حكومة وطنية وتعيين عرابى وزيرًا للحربية.

كان عرابى يتزعم الفلاحين، الذين وعدهم بالتغاضى عن ديونهم. لم يملك الفلاحون المصريون أرضهم من قبل - كانت ملكًا للعائلة المالكة وعدد قليل من أصحاب المقام الرفيع - وعاشوا لقرون كأكثر فئة مثقلة بالضرائب، فى أوقات الفيضان الشديد أو الأوبئة (وقد أطاح وباء بقرى بالماشية ما بين عامى ١٨٦٣ و١٨٦٥)، كان مصدرهم الوحيد للدخل هو الاستدانة. فى كل عام، كان عشرات الآلاف يهربون من قراهم فرارًا من السجن لعجزهم عن السداد. أتخم الريف بالمهاجرين - حيث أدى النمو الجنونى للقطن إلى الندرة، وطرد الفلاحون الذين هوجموا بعنف من قبل الثروة الصناعية بالإضافة إلى ديونهم من أرض لم تكن ملكًا لهم.

تألقت شعبية عرابى بسبب وطنية الشباب من الصفوة المدنية وبؤس الفلاحين، أى معظم الشعب المصرى، وبالطبع، لم يتحمل الدائنون وملاك القناة وجوده فى الحكومة، ملهبًا حماسة الحشود البشرية واعدًا إياهم بأكثر الإصلاحات جراة. فى مايو عام ١٨٨٢، أرسلت أسراب سفن بحرية إنجليزية وفرنسية بأقصى سرعة إلى الإسكندرية. وفى يونيو من نفس العام، أدى التمرد على الأجانب المقيمين بالمدينة إلى حمَّام دم. رابط الجيش المصرى، تحت قيادة عرابى فى مكان قريب. فى العاشر والحادى عشر من يوليو، قصفت السفن البريطانية الإسكندرية. محصورة بين النيران الإنجليزية وغضب المتمردين، تحولت أحياء الإسكندرية الأوروبية إلى حطام ورماد.

وللتغلب على أى شغب آخر قد ياتى، واستعادة سلطة الخديو وحماية مصالحها، أنزلت بريطانيا العظمى قواتها إلى البر، وحيث لم تجد أية عوائق، محتلة البلد كلها. قُبِض على عرابى وحوكم ونفى إلى سيلان. جُرِّد الجيش المصرى من أسلحته وأصبح القنصل البريطانى هو الحاكم الفعلى لمصر. وهكذا سقطت مصر تحت السلطة المباشرة لبريطانيا لمدة أربعين عامًا.

التمدن فى بعض مناحى الحياة لم يعوض مهانة مصر. اتقدت حماسة الحس الوطنى. انتشرت العدوانية تجاه البريطانيين، عدوانية شارك فيها الخديو عباس الثانى الذى خلف والده توفيق فى عام ١٨٩٢ حين كان عمره ثمانية عشر عامًا. ولكن المحتلين كانوا قد دفعوا برئيس وزراء متعاطف معهم، ولم تكن لعباس أى قوى حقيقية. فى المدن، كان المثقفون العثمانيون يقرءون جريدة اللواء، التى أنشأها المحامى فرنسى التعليم مصطفى كامل. كان لها توزيع ضخم بالنسبة لذلك الوقت (٢٠٠٠٠ نسخة)، بما فيها الطبعة الفرنسية. فى عام ١٨٩٤ أسس مصطفى كامل حزبًا وطنيًا علمانيًا هدفه استقلال مصر بالطرق القانونية. كان الشيخ محمد عبده عميدًا للدائرة المثقفة الدينية، وقد كان رائدًا للإسلام، متحررًا من عقيدة العصور الوسطى ومنفتحًا على التطور العلمى. عاد إلى مصر عام ١٨٨٨ بعد قضاء ستة أعوام فى المنفى، وأصبح المفتى فى عام ١٨٩٩ وحارب الشيوخ المخضرمين فى الأزهر. وكان للمنار، الجريدة التى عبرت عن حركته، تاثير واضح فى مصر والعالم العربى كله. نشر كتاب المرأة الجديدة، وهو كتاب يدعو لتحرير المرأة فى عام ١٩٠٠ بيد واحد من تلاميذه، قاسم أمين المحامى، وسط اضطراب سياسى شديد. معاكسًا لسيطرة الثقافة الأجنبية وإعلاء للشخصية الوطنية بدون خوف، انتعش الأدب المصرى مجسدًا فى شعراء مثل أحمد شوقى وحافظ إبراهيم.

من كل هذا المد الثقافى والسياسى الذى أطلق عليه النهضة، ومن هذه القوى المتناحرة فى العلن، ماذا رأى مشترو الكروت البريدية؟ لا شىء بلاشك. زار السائحون مصر، ولكنهم بقوا بعيدين جداً عن مشكلاتها الأساسية. ولماذا يطرقونها؟ لا يجب أن تفسد رحلة استمتاع بتساؤلات اجتماعية. وأيضًا، لابد أن النسيج الوطنى المصرى قد مسه منظر الأجانب المنبهرين بعجائب مصر.

تعود السياحة الحديثة فى مصر إلى عام ١٨٧٠، حين عينت الحكومة المصرية (ج.م.كوك)؛ ابن توماس كوك المؤسس وكيلاً رسميًا فى وادى النيل. وبسرعة، أصبحت الرحلة النيلية ضرورة فى السياحة مانحة صبغة راقية على المشاركين فيها - بطبيعتها الساحرة - الثقافية والرياضية. كان السيَّاح تقريبًا لا ينفصلون عن مرشديهم الذين يفيدونهم فى زيارة الآثار والتعامل مع «أهل البلد الأصليين». كان هؤلاء حسنى المظهر ومتنبهين، ولكنهم بالطبيعة طامعون وجاحدون، فأبقوا بعيدين - كما يحذِّر المرشد.

فى عام ١٩٠٠، انتعشت السياحة فى مصر، بسبب ترميم وتطوير المناطق الأثرية الرئيسية، وتطوير الفنادق والبنية الأساسية. بعد افتتاح فندق ميناهاوس بجانب الأهرام، وشبرد فى وسط المدينة، افتتحت العديد من الفنادق الفخمة فى الصعيد، مثل ونتر بالاس فى الأقصر، وكاتاراكت فى أسوان. تحت عيون الزوَّار الشرهة، نمت مصر على كروت بريدية، برأس مال من الجمال، الكنوز، والغموض. فى «معبد فيلة» الذى نشر فى عام ١٩٠٨ وأهدى إلى مصطفى كامل، يكتب بيير لوتى» حزينًا:

«الآن، أمام أصغر قرية مكافحة - وسط القوارب الجميلة والبدائية، والتى ماتزال قليلة العدد، ترفع أشرعتها إلى السماء الزرقاء كمزامير طويلة - تفسد طوافة سوداء كبيرة، تقود قوارب السائحين كل شىء بوجودها، وعنوانها المنقوش عليها: توماس كوك وولده. وفوق كل شىء يسمع المرء القطار وهو يدوى حين يحتضن النهر جاحدًا لتتنزه على متنه حشود الأوروبيين المحتلين من الدلتا وحتى السودان».

فى قبضة السدود المتصاعدة، النمو الديموجرافى، الاحتلال البريطانى وتوماس كوك، محيت «مصر» معينة، مصر التى كان «السلام غير المسمى» فيها - كما يدعوه بيير لوتى - يفتن القليل من الرحالة الحقيقيين. ربما لم تكن مصر تلك سوى نتاج خيال غربى. ولكن مصر الجديدة التى ولدت أمام عدسات آلات التصوير، هى بالتأكيد نتاج طمع غربى. ■

ترجمة: جان فهمى


دار الشروق
تقدم أحدث اصداراتها للأطفال
أكثر من 500 كلمة مصورة
كلماتى الأولى
MY FIRST WORDS
عربى - إنجليزى
حليب
تطلب من
دار الشروق : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق : ١ ميدان طلعت حرب تليفون : ٣٩١٢٤٨٠
ومكتبة الشروق : مبنى فرست أمام حديقة الحيوان ٣٥ ش الجيزة محل رقم ١٩ تليفون : ٥٧٣٥٠٣٥
ومن المكتبات الكبرى
كما يمكنكم شرائها إلكترونياً www.e-kotob.com

ثلاثية الثأر والهجرة

في يوم خميس من أحد أيام شهر مارس عام ٦٦ كان حفل زفاف أمي «علية على شاكر».. إلى والدي «محمود عبدالرحمن على» المقيم بناحية أولاد حمزة.. مركز المنشاه - محافظة سوهاج - وكان المعازيم الذين سيتولون نقلها من منزل والدها حتى منزل

1- الثأر.. بركان الدماء
عبد الحليم حفني
مطبعة «النهضة الوطنية» (بني مزار) ١٩٦١، ٨٨ صفحة

2- مذكرات أصولي مصري
خالد البري
بيروت: دار النهار، ٢٠٠١

والدي من عائلات عربية مختلفة تنتمي لقريتي ومن بينها إحدى العائلات التي «عليها دم» لعائلة تستقر منازلها في الطريق الرسمي المفترض أن تمر عليه قافلة الفرح.. ولذلك وتجنيبا للمجاملين خطر أن تنطلق عليهم رصاصات آل نصار.. قرر جدي لوالدتي أن يمر الموكب من طريق فرعي ضيق عرضه متر ونصف المتر.. ولهذا ظلت والدتي عمرها كله، كلما جاءت سيرة زفاف - تنعي «حظها السيئ» لأنها مشت على قدميها مع المعازيم ٦ كيلومترات ولم تركب لا الهودج ولا السيارات التي كانت فاكهة حديثة وقتها!

وبعد فرح أمي بعشر سنوات.. في شتاء ٧٦ وبعد ظهر يوم جمعة وكنا نحن «أطفال الصف الرابع بمدرسة مؤسسة العسيرات الابتدائية» قد خرجنا للتو من مسجد «الأوقاف» مسجد القرية الوحيد، بعد الصلاة جبرا خلف مدرس الفصل «سراج الدين محمد بكري» الذي كان يشترط صلاتنا حتى يسمح لنا بمشاهدة مباراة الأهلي والزمالك في تليفزيون القرية الوحيد الذي يملكه والده الحاج محمد بكري!! وفيما كنا نتسابق لحجز أماكننا في المقهى أمطرتنا رصاصات عائلة «هلالي» من كل جانب انتقاما من خصوم لها كانوا قد قتلوا ثلاثة أفراد منهم منذ سنوات بعيدة، وظللنا داخل المقهى محتجزين ست ساعات كاملة حتى جاء أولياء أمورنا وسحبونا للمنازل وهم يسبون الكرة والتليفزيون، أما نحن فكنا نرتعش.

وبعد ١٠ سنوات أخرى وأنا أدرس وحيدا في مدينة سوهاج (تبعد الجامعة عن قريتي مسافة ساعة ونصف الساعة وكنا نقيم في حجرات مؤجرة بجوار الجامعة ونعود لأهالينا كل يوم خميس) وصلتني رسالة من أحد أفراد عائلتي تأمرني بعدم العودة إلى قريتي هذا الأسبوع والاحتراس والحذر لأن قريبا لي قد اتهم في مقتل أحد أفراد عائلة مجاورة لنا (تتشارك معنا في زراعة بعض القراريط) وأنه الوحيد صاحب المصلحة في قتله لثأر قديم تدين العائلة الأخرى لنا به!!

بعدها بثلاثة أعوام، وكنت قد انتقلت للقاهرة نهائيا، سافرت لسوهاج لأحصل على أوراقي الخاصة لتقديمها كمسوغات تعيين بمجلة الإذاعة والتليفزيون، ولما كنت أحد خريجي كلية التربية وكنا مكلفين وقتها بالعمل في التربية والتعليم، فقد فوجئت بأنني أصبحت أحد أعضاء هيئة التدريس بمدرسة بيت علام الإعدادية وقادتني إلى الإدارة التعليمية بجرجا سيارة بيجو تعمل بالأجرة لأجد نفسي - وبسبب طيبة ناظر المدرسة وهو من أهل القرية - قد استلمت وظيفتي وراتبي عن أربعة أشهر كاملة.. فقد ظن الرجل الطيب أنني أمر بظروف ما تستدعي عدم استلامي العمل طيلة هذه الفترة (كانت فترة إجازة المدارس) وأنني لابد أن أذهب لاستلامه مع بداية الشتاء.

كنت أعرف بيت علام جيدا.. فقد كنا نذهب لنلعب الكرة في الجبل الملاصق لها.. ونعقد ندوات الشعر مع اثنين من أبنائها وكلاهما أستاذ بالجامعة الآن، وأحدهما حصل هذا العام على جائزة الدولة التشجيعية في النقد عن كتابه «الكلمة والسيف في مسرح صلاح عبد الصبور» وهو الشاعر د. عبدالناصر هلال. كنت أعرفها جيدا وأحفظ أشكال ناسها.. وطعم أكلات نسائها وأحفظ أرقام سيارات الميكروباص التي يعمل أبناؤها بها في نقل الركاب من القاهرة إلى هناك والعكس.. لكنني لم أكن أعرف أنني سأصحو ظهر يوم ١٠ أغسطس الماضي على خبر تذيعه قناة الجزيرة يقول «سقط اثنان وعشرون قتيلا من عائلة الحنيشات على يد خصومهم من عائلة عبدالحليم في حادث مروع في بيت علام إحدى قرى محافظة سوهاج بسبب الثأر!».



وكان أول رد فعل لي هو اتصالي بالشاعر د. عبدالناصر هلال ليفاجئني بأنه دخل القرية ومعه زوجته - القاهرية - وطفلاه في زيارة لأهله هناك قبل الحادث بساعة وأنه لا يستطيع في هذه اللحظة التي أحادثه فيها أن يخرج من منزله، مضيفا أنه «شيء بشع لم تعرف له القرية ولا بلادنا كلها مثيلا»!

وكان أن تزاحمت كل صور الذين عرفتهم وماتوا في حوادث ثار.. كل اللحظات التي عشتها مذعورا خائفا وأنا أعود لمنزلي وسط «كروم النخل» ليلا خشية أن يطلع لي «عفريت» أحدهم بينما أتمتم كما علمتني أمي «بسورة يس».

تزاحمت كل لحظات الدهشة التي اعترتني وأنا أشاهد أحد أعمامي الذي اتهم في مقتل أحدهم ثأرا لأحد أفراد عائلته وهو يقوم الليل ويمارس الصلوات الخمس بينما ترقد بندقيته الآلية تحت مخدته.

تزاحمت كل الكتب الأولى التي قرأتها عن «حق الدم» و«أولياء الدم» و«أنساب العرب»

والبطالة في الصعيد



و«صورة الدم في أشعار أمل دنقل» و«الثأر بركان الدماء» لابن قريتي د. عبدالحليم حفني الذي لم أقابله مطلقا.. وإن عرفته من مدرسة إعدادية في قريتي سموها باسمه لإنجازه الرائع في كتابه السابق ذكره بالإضافة لكتاب آخر عن عادات الثأر وطقوسه هو كتاب «العَديد - فن المراثي الشعبية» والكتابان صدرا في عام ١٩٦١.

والأهم أنني تذكرت أن الحادث الأخير ليس ثأرا من الأساس.. وأنه شيء غريب تماما عن قوانين بلادنا العرفية من أول قوانين الزواج والمصاهرة.. مرورا بقوانين العائلة وانتهاء بقانون الثأر.. الذي تشهد كل الدلائل بأن مجزرة بيت علام هي بداية انهياره بالتوازي مع انهيار قوانين أخرى تحكم ذلك العالم الغامض الذي يتعامل معه أهل القاهرة وصحفها ومثقفوها على أنه الصعيد المريب! والصعيد أبعد مايكون عن ذلك!

الدم بيوت:
قانون الثأر وطقوسه

أول ما تعلمناه في بيوتنا هناك أنه لاصوت يعلو فوق صوت الكبير.. كبير المنزل.. كبير الأسرة.. كبير البيت.. كبير العائلة!!

وحتى تبقى هذه العائلة مصانة مهابة تحفظ لنا وجودنا وعزتنا وحركتنا بين الناس! يجب أن نضحي بأي غال في مقابل الحفاظ عليها وعلى اسمها ووحدتها.. ومن يخترق قوانينها تقم العائلة بأكملها حدودها عليه..

فالصغير لايستطيع أن يخترق نصوص كلام الكبير.. في شئون العمل والسفر والزراعة والزواج ذكورا وإناثا.. وابن العم ملزم بالدفاع عن ابن عمه أمام كل من هو أبعد حتى ولو داخل إطار العائلة نفسها.. (أنا وأخويا على ابن عمي.. وأنا وابن عمي على الغريب)، فقانون العائلة في الصعيد هو الأقدم والأقوى ونظمه تبدأ من تقسيمات العائلة ذاتها.. حيث إن كل أسرة «عدد من الأفراد» تنتمي إلى «بيت».. وكل مجموعة من «البيوت» تنتمي إلى «عائلة» وكل مجموعة من العائلات تنتمي إلى «بدنة» واحدة.. فيقال مثلا.. محمد من بيت أحمد من عائلة همام من بدنة الهوارة!! وهكذا!!!

وهو ما يعني أن الأسرة هي أصغر وحدة قرابية وأن «البدنة» نسبة إلى «البدن والجسد» هو أكبرها!! وهذا ما يؤكده د.أحمد أبو زيد في دراسته الأنثروبولوجية الصادرة عام ١٩٦٢ عن بني سميع إحدى قرى أسيوط، ولايدخل في هذا النظام أبناء الإناث لأنهم ينتمون إلى آبائهم من بيوت أو عائلات أو أبدان أخرى.. وحيث إن قانون العائلة يقضي في معظم قرى الصعيد بعدم مصاهرة الأبدان الأخرى أو بتعبير أدق عدم تزويج بنات العائلة إلا لأبناء عمومتهن - المثل الشعبي يقول.. «ابن عمها ياخدها من على ضهر الهجين» تصبح البدنة حاوية لأبناء العمومة والأخوال عادة.. لكن هذا التسلسل تصبح له أهميته القصوى عند حدوث الثأر.. لأن أبناء «العصب» - العمومة - هم المطالبون بأخذ الثأر بينما يساعد الأخوال فقط بالسلاح أو الأموال!

وتعود هذه التكوينات إلى القرون الهجرية الثلاثة الأولى عندما استقرت قبائل عربية عدة في صعيد مصر.. وعندما حدث ذلك سبقتهم قوانينهم العربية القادمة من شبه الجزيرة العربية وطقوسهم وعاداتهم كذلك ومن بينها الثأر.

ويذكر د. عبدالله رشيد البري في كتاب «القبائل العربية في مصر» الصادر عن الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٩٢ أن «عمر بن الخطاب أمر بترحيل ثلث قضاعة من بلاد الشام إلى الصعيد على أثر نزاع نشب هناك بين قبائل عربية، ونزلت هذه القبيلة واسمها «بلي» بلاد الصعيد بين «جسر سوهاج إلى قاوله».

ويقال في كتب التاريخ إنها أحد الأعمال الأخميمية».. ونقول عنها حاليا سوهاج.

وحينما اختار عمرو بن العاص تقسيم جنود جيشه.. وتخطيط منازل القبائل في الفسطاط اختار الأساس القبلي معيارا.. حتى أن من قل عددهم ولم يكونوا قبيلة كاملة في جيشه رفضوا الانضواء تحت راية أي من القبائل الأخرى التي تقترب منهم في الجوار أو المصاهرة وفضلوا تكوين كتيبة بمفردهم سميت بأصحاب الراية.



وحفظ اجدادنا هذا القانون القبلي مثلما احتفظوا بشجرات أنسابهم.. ومثلما تفرقت السيوف في الجزيرة العربية أيام عثمان بن عفان.. تفرقت دماء قبائلهم العربية في الصعيد.. وإلى جانب هذا الإرث عربي الأصل ساهمت طبيعة جغرافية الصعيد كما يرى د.جمال حمدان في شخصية مصر في أن تخلق من العمل التضامني الجماعي ضرورة من ناحية وفي أن ينجو الصعيد من قبضة الاحتلال الأجنبي في أزمنة كثيرة من ناحية أخرى.

وأخذ الصعيدي في نظرته الحضارية من ضيق قاعدته جغرافيا وعزلته مايمكن تسميته بالعصبية.. عصبية العائلة.. وأسهمت السلطات الحاكمة على مر العصور في تقوية هذه العصبية، إذ إنها حمت سلطة العائلة وقوانينها باختيارها لمرشحيها في البرلمان على أساس عائلي حتى إنها ولراحة الجميع حينما اخترعت نظام العمال والفلاحين قررت في أي من الدوائر التي تحتوي على عائلات متصادمة أن تختار مرشحا من العمال من عائلة ومرشحا للفئات من العائلة المنافسة! وهو ما حدث في انتخابات برلمانية متتالية كان آخرها في عام ٢٠٠٠، وبمراجعة مرشحي محافظة قنا في هذه الانتخابات ستجد أن الحزب الحاكم قسم الدوائر على مرشحيه من بين عائلات الأشراف والعرب والهوارة!!

وحدد لي د. أحمد عبدالعال الدردير أمين الحزب الحاكم في سوهاج أول الاعتبارات في اختيار مرشحيه - في حوار أجريته معه نشرته جريدة «صوت الأمة» في أبريل عام ٢٠٠١ - بأنها سطوة عائلة المرشح ونفوذها الانتخابي!!

وكما ترى د. سامية طنطاوي في رسالتها الميدانية عن «التهميش الاجتماعي بين آليات السيطرة الأيديولوجية - أشكال الممارسة السياسية».. والتي أجرتها في أسيوط لنيل درجة الماجستير من جامعة القاهرة، يحدث ذلك الأمر من جانب الحكومة حتى تضمن الأغلبية البرلمانية. ولذلك فهي تستخدم مؤسساتها السياسية الحديثة وقانونها الوضعي من أجل تدعيم بنية سيطرة تقليدية، ومن ثم لم تسع إلى إضعاف أو تفكيك التحالفات القبلية القائمة بل دعمتها ووظفتها من أجل ضمان سيطرتها. وهذا مارغبت فيه العائلات نفسها حيث إن مساندة الحكومة لها تعني الحفاظ على أسماء هذه العائلات ونفوذها!!

وإذا كان هذا النفوذ يستلزم محالفة السلطة فهو أيضا يستلزم الحفاظ على المال.. وتكديس الأسلحة.. والحفاظ على المال عادة مايتم هناك بحيازة أكبر قدر ممكن من الأراضي، أما تكديس السلاح فيتم من أجل الحفاظ على هذه العائلة واسمها إذا ما تهددها خطر ما يهدد وجودها.

وأول مايهدد وجود وسمعة أي عائلة في الصعيد هو اسم امرأة من العائلة، ولهذا يرتبط الثأر بالدفاع عن العرض.. والأرض وفي هذا يختلط ماهو أسطوري بما هو ديني.. فالصعايدة يؤمنون بأن من مات دون عرضه أو ماله فهو شهيد.. وبأن «لكم في القصاص حياة»!

وإذا كانت الثروة والأرض والمنصب الانتخابي تحمي وحدة العائلة ضد عائلات أخرى في قرية ما بالصعيد، فإنها تحمي العائلات نفسها ضد السلطة أيضا فمن له ظهر لايضرب على بطنه!!

ويبدأ الثأر غالبا بحادث قتل دفاعا عن الأرض أو العرض وإن بدا لغير العالمين ببواطن الأمور هناك لسبب آخر، كأن يتنازع شخصان من عائلتين متنافستين على موعد ري الأرض أو نتيجة لخناقة أطفال يلعبون الكرة من الجانبين!! بينما تكون هذه النتيجة في معظم الأحوال نهاية لبدايات أخرى متتالية من مشاحنات ارتبطت بالعاملين الأهم المشار إليهما!



وبعدما يقع حادث القتل الأول.. تبدأ المتتالية الهندسية المعروفة جيدا في بلادنا بين الدائن والمدين.. فالعين بالعين والسن بالسن والرجل برجل وكبير العائلة لايؤخذ في ثأره رجل أقل منه شأنا.. وإذا ما قتل أحد كبراء العائلات يتم حسابه بعدد أكبر من أفراد العائلة المعتدية.. وكان من المعروف أنه إذا ما جاء ضيف لزيارة عائلة لها خصومة ثأرية فإن القتال يتوقف احتراما لهذا الضيف حتى يمضي (حق الضيف في الصعيد ثلاثة أيام لايسأل فيها لماذا جاء.. يأكل ويشرب وينام) وإذا ما حدث وقتل هذا الضيف على سبيل الخطأ على يد العائلة المنافسة للعائلة التي يزورها يكون حسابه برجلين ويجب على العائلة التي قتلته أن تدفع ديته أو فلتنتظر القصاص في رجلين منها.

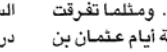
ومن قوانين الثأر أيضا أن السارق إذا ماقتل لا ثأر له.. فعمل أحد أفراد عائلة ما بالسرقة عار عليها ينبغي أن تخجل منه ولايحق لها المطالبة بثاره.

ويوجد في بعض حوادث الثأر ما يسمى «الكرو» وهو أن تكترى إحدى العائلات الضعيفة رجلا بالمال لياخذ لها ثارها.. وهذا النوع نادر حدوثه رغم أن رجلا شهيرا هو مصطفى أبو هاشم خط الصعيد الأول بدأ طريقه إلى عالم الإجرام بأن كانت العائلات الضعيفة تكتريه ليخلص لها ثارها، ثم ذاع صيته وتداخلت حدود السرقة مع البلطجة في حكايته لاستهجانه من عائلات الصعيد لأنه يعني ضمنيا ضعفها ومعايرتها فيما بعد بهذا الضعف عن حماية نفسها.

ومن قوانين الثأر الصارمة أن النساء خارج حسبة القتل وكذلك الأطفال!!

ومثلما للعائلة قانونها الخاص.. فلها أيضا عاداتها وطقوسها في المأكل والملبس وتعليم البنات.. مهورهن وزواجهن.. ومثلما للعائلة قانون وطقوس، للثأر أيضا قانون.. ذكرنا بعض مواثيقه.. وطقوسه. تبدأ قبل وقوعه وتستمر إلى مابعد تحققه.

فالمقتول لاتقيم أسرته عزاء



إذا كانت الثروة والأرض والمنصب الانتخابي تحمي وحدة العائلة ضد عائلات أخرى في قرية ما بالصعيد، فإنها تحمي العائلات نفسها ضد السلطة أيضا فمن له ظهر لايضرب على بطنه



له.. ويتم دفنه فيما يشبه الصمت.. وبمجرد أن يتم الدفن تبدأ مجموعة من الإجراءات، فلايمشى أفراد القبيلة إلا جماعات.. ويترك الشباب لحاهم.. وإذا اضطرت عائلة ما عليها ثأر إلى تزويج إحدى بناتها، فإن ذلك يتم بدون حفل زفاف.. وتحترم البيوت المجاورة من العائلات الأخرى ظروف أسرة القتيل فى الأعياد والمناسبات.. فلاتطبخ النساء ولايتم فتل الكعك أو الناعم أو الغريبة! ولاتلبس النساء سوى الأسود!

ويخلع بعض رجال القبيلة وخاصة ولى الدم منهم «عمامته البيضاء» ويبدلها بشال أسود لأنه لم يعد معدودا من بين الرجال حتى يأخذ ثاره، وقد يطول الثأر أربعين سنة فالمثل الصعيدى يقول: «أخد تاره بعد أربعين سنة قالوا له انت استعجلت»!!

وتستمر هذه الطقوس حتى ينتهى بأن يقتل الطرف المدين رجلا من العائلة الدائنة وساعتها يتم نصب سرادقات العزاء وتفتح الدواوير (جمع دوار) لمدة سبعة أيام لاستقبال المعزين. وهناك نهاية أخرى لهذا الدم بأن يقبل القاتل أن يحمل كفنه إلى عائلة القتيل التى تكون قد قبلت بحمل الكفن، وهذا ماتعرفه هناك باسم «القودة» أى أن القاتل قد اقتيد لأهل القتيل ليفعلوا به ماشاءوا.. وطقوس القودة فى معظم قرى الصعيد متشابهة، فهى تبدأ بأن يمشى القاتل مسافة تتراوح مابين ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ متر فى شارع رئيسى بالقرية فى طريقه إلى دوار أهل القتيل ويمشى بجواره رجل دين - عادة مايكون هو البادىء بطرح مسألة الصلح - وعضوان من البرلمان وخلفه مأمور المركز أو مدير أمن المحافظة.. ويستمر المشى فى شوارع القرية والقاتل حليق الرأس مادا كفنه (قطعة من القماش الأبيض) فوق يديه الممدودتين للأمام.. وخلفه يسير أهل عائلته، وعلى الجانبين المعازيم من عائلات أخرى والمتفرجون من أهل القرية حتى يصل إلى «ولى الدم» وهو غالبا شقيق القتيل أو والده أو عمه، وهناك تقف العائلة المدينة بكافة رجالها ويتقدم القاتل إلى كبيرهم مقدما كفنه له، وأحيانا مايكون مع الكفن خروف يتم ذبحه بجوار رأس القاتل بعد أن ينام ممددا بجوار الخروف ثم يتسلم ولى الدم الكفن ويكبر ثلاث مرات وخلفه جميع المحتشدين، ويردف «عفوت عنك» ثم يقوم بتسليم القاتل حذاء وعمامة جديدين وخرطوشة سجائر لتوزيعها على الحاضرين، وتبدأ بعد ذلك مراسم مايسمى بالتوجيب فيقام العشاء أو الغداء حسب وقت تنفيذ القودة - فى دوار عائلة محايدة.

هذه العملية نادرا ماتحدث حيث إن السبب الرئيسى فى حدوث الثأر هو التحريض عليه بالمعايرة.. وهو مايحدث أيضا للطرفين اللذين وافقا على «القودة». لكن لماذا ينشأ الثأر أصلا إذا كان الدين صاحب جذور وسطوة فى النفوس الصعيدية؟!

والإجابة لدى د.عبدالحليم حفنى فى كتابه «بركان الدماء» حيث يؤكد أن «الدافع إلى الثأر ليس إجراما ولاحبا فى الجريمة، وإنما هو محض انتقام فى نظر المقدمين عليه والمقدم على الجريمة يجد نفسه من أشد الناس خوفا واضطرابا مهما بلغ من الجراة وهو أكثر المقدرين لعواقب جريمته من سجن أو خراب بيت.. ولولا أن دافعا أقوى من غريزة الخوف وأقوى من غريزة الحرص على النفس والمال دفعه إلى القتل ما استطاع أن يقدم عليه».. ولأننا نتفق مع ماذهب إليه الدكتور عبدالحليم حفنى من أنه شىء أقوى من كل ذلك.. فإننا نؤكد معه أنه القصاص.. وهو رؤية دينية أيضا!

فالتشريع الإسلامى لاينظر إلى الثأر على أنه جريمة باعتبار أن الثأر هو قتل القاتل لأن حكم الإسلام أنه إذا تنازع شخصان وقتل أحدهما الآخر متعمدا قتله، كان لأولياء القتيل حق قتل القاتل وهو «القصاص» ثم «تقف الجريمة عند ذلك وأى حادث يترتب عليها بعد ذلك هو جريمة»!!

لكن ماذا يفعل القانون الوضعى فى نظر الصعايدة؟

هم يؤمنون بأن يوم الحكومة بسنة وأن سكك أبو زيد كلها مسالك وأن العافية فوق القانون!! ولذلك فهم يأخذون حقوقهم بأيديهم.. فطول إجراءات التقاضى وعدم وجود شهود عادة فى جرائم الثأر وإمكانية اختراق أوراق القضايا عن طريق محامين تخصصوا فى اللعب بثغرات القانون فى وقائع الضبط يضيع حق المطالبين بالثأر أو على الأقل يطيل أمد تحقيق قصاصهم. ولذلك فهم كثيرا مايستبعدون «الحكومات» عن هذا الأمر ويعتبرونه شأنهم الخاص ولذلك كثيرا مايتم الانتقام قبل أن تصل الشرطة للجانى!

انهيار قوانين الصعيد

قد يبدو غريبا للوهلة الأولى أن نقول إن الثأر متغير وغير ثابت.. فى الوقت الذى ظلت فيه بداوة وأمية بعض قرى الصعيد ثقافيا كما هى دون أن يطرا عليها تغيير حقيقى!!

وقد يبدو غريبا أكثر أن نقول إن عائلات الصعيد كانت تستخدم قانون الثأر كنوع من الحماية التى تحفظ لها وحدتها وتماسكها فى الوقت الذى تشهد فيه الوقائع على تفكك هذه الوحدة من ناحية أخرى.. وبالتالى يصبح استمرار قوانين الثأر أمرا غيرمنطقى ولكن وبقليل من التأنى والرصد الدقيق تزول هذه الدهشة القائمة على تضاد قانونين - قد يبدو أنهما لايجتمعان - فماحدث فعلا هو أن انهيار قوانين الصعيد واستمرار بعض قوانين الثأر فرض نوعا ثالثا من القوانين يمكن أن نسميه بقانون الفوضى!

ولقد رصدت دراسات مبكرة القانون الجديد دون أن تتبعها فيما بعد دراسات أخرى.. فى دراسة د. أحمد أبوزيد أستاذ الاجتماع والأنثروبولوجيا بجامعة الإسكندرية يذكر عرضا بعد بقائه لمدة شهرين فى إحدى قرى مركز أبو تيج بأسيوط أنه قد طرأ على قانون الثأر بعض تغيرات أساسية نتيجة لبعض الأحداث الطارئة وتتمثل على الخصوص فى التحرر من التقاليد القديمة المتعلقة بوجه خاص بعدم التعرض للنساء أو الأطفال.. ويذكر د. أبو زيد إحدى الحوادث الدالة على ذلك عندما قتلت عائلة «التكارتة» أحد أطفال عائلة «الحدايبة»، وانتقم هؤلاء بعد ذلك بقتل أحد أطفالهم. ورغم أنه أشار فى دراسته إلى استنكار أهل القرية لذلك الحدث إلا أن ذلك يعنى فى الوقت ذاته بداية اختراق بعض القوانين الصارمة للثأر، وهو ماتكرر بعد ذلك على نطاق أوسع بلغ ذروته فى حادث بيت علام الأخير. فقد قتل الجناة طفلا كان يجلس على حجر جده فى إحدى سيارتين كانتا تقلان أفراد عائلة الحنيشات من قرية بيت علام إلى محكمة سوهاج لمتابعة تفاصيل إحدى جلسات محاكمة قريبين لهما كانا قد اتهما فى مقتل كبير عائلة عبدالحليم - المعتدية فى الحادث الأخير - خلال أحد أيام شهر أبريل الماضى!!

مقتل هذا الطفل واسمه «بسام عبدالحليم» لم يكن الدلالة الوحيدة على عشوائية الحادث وعلى انهيار قوانين آمنا بها هناك أجيالا متعاقبة، ولكن ذلك الانتقام البشع من الجثث ومحو معالمها.. ثم هروب الجناة واختباءهم فى الجبال دون أن يتقدم أحدهم لسبعة أيام متتالية يتحمل عبء القضية - ويشيلها نيابة عن عائلته - وهو ما وصفه البعض بالخسة.. حيث إن قانون الثأر كان يقضى بإعلان القاتل عن «العملية» وتسليم نفسه للشرطة واعترافه فى غالب الأحيان ليعطى مايمكن تسميته بإشهار تخليص الثأر ثم وهذا هو الأهم ماذكره اللواء على عبدالرحمن مدير أمن محافظة سوهاج بأن صلحا كان قد انعقد بين العائلتين فى مايو الماضى بعد حادث مقتل كبير عائلة عبدالحليم.. ونقض العهد أو الصلح، كل ذلك أمر غير وارد فى قوانين الثأر المعروفة!!

إذن نحن أمام مجموعة من الدلائل تؤكد أن هذا الحادث وإن كان قد أخذ من الثأر شكله حتى يتم قبوله اجتماعيا إلا أنه فى حقيقة أمره أحد حوادث العنف الذى يجتاح الصعيد حاليا ويسفر عن وجه قبيح يهدد بانهيار آخر خطوط القيم عند «الصعايدة» وقبل أن نصل لهذه النتيجة يجب أن نقرأ مقدماتها..

لم تعد هناك بوابات

كانت قبائل الصعيد الكبيرة (هوارة - عرب - أشراف) ترفض إلى وقت قريب تزويج بناتها خارج نطاق العائلة ورغم أن دراسات علمية كثيرة أشارت إلى أن زواج الأقارب يعد العامل الأول فى إصابة الأجنة بتشوهات وعيوب خلقية متعددة من أشهرها «انغلاق القناة العصبية - ضمور المخ - متلازمة داون» وهى أمراض خطيرة تؤدى إلى إعاقات ذهنية معقدة.. ورغم أن هذه الدراسات قد خرجت إلى النور مبكرا كما تذكر أ.د. سامية التمتامى رئيس قسم الوراثة بالمركز القومى للبحوث فى كتابها «الوراثة : الحاضر والمستقبل» إلا أن الصعايدة لم يكونوا يأبهون بها فى مقابل حفاظهم على أنسابهم من ناحية وحفاظهم على أراضيهم من ناحية أخرى حتى لاتذهب لغرباء إذا ما زوجوا بناتهم خارج نطاق العائلة إلا أن هذا جرى تفكيكه منذ بداية الثمانينيات فى أماكن متفرقة من الصعيد، وخاصة بعد أن ساهمت أموال الخليج العربى فى رفع مستوى المعيشة لدى عائلات فقيرة عمل أفرادها بالخليج وعادوا لشراء الأراضى من العائلات الكبيرة.. وسعى الطرفان إلى بعضهما.. العائلات الكبيرة التى فقدت عزها وسطوتها ومجدها القديم بعد تطبيق قوانين الإصلاح الزراعى وتحديد الملكية عليها.. قبلت تزويج بناتها لعائلات أقل شأنا لكنها امتلكت الأرض والمال بعد هجرات الصعايدة المتعاقبة إلى ليبيا - العراق - الكويت.. والعائلات الفقيرة لجأت لهذه المصاهرات لتؤكد صعودها بامتلاك الأرض والمال وتعليم الأبناء ومصاهرة العائلات الشهيرة!!



وتسجل د. سامية طنطاوى فى دراستها عن التهميش الاجتماعى شهادة لأحد الرافضين لهذا التغير من مواطنى إحدى قرى أسيوط عام ٩٠ حيث يقول: «كمان الفلاحين الغجر المقاطيع سافروا أيام السادات لما فتح مجال السفر.. اللى راجع بأربعين وبخمسين ألف



المقتول لاتقيم أسرته عزاء له.. ويتم دفنه فيما يشبه الصمت.. ولايمشى أفراد القبيلة إلا جماعات.. ويترك الشباب لحاهم.. وإذا اضطرت عائلة ما عليها ثأر إلى تزويج إحدى بناتها، فإن ذلك يتم بدون حفل زفاف



واشتروا أطيان.. كانت الأطيان رخيصة وبنوا عمارات ومحلات لكن دول خدامين.. يروحوا تانى يشيلوا أسمنت وطوب ويرجعوا بلادهم.. لكن ماكبروش، هم عارفين مايقدروش يناسبوا أسياد البلد»!

هذه الشهادة رغم أنها تدلل على رفض الكثيرين لهذه المصاهرة إلا أنها فى الوقت نفسه تشير إلى حدوث ذلك الأمر!

وهذا ما«فتّت» وحدة العائلة التى قبلت هذا الزواج..فقد حدث عندما سافرتُ فى عام ٩٤ لرصد ردود أفعال بعض قبائل الهوارة لما يطرحه مسلسل «ذئاب الجبل» وهو مانشر فى حينها بمجلة الإذاعة والتليفزيون.. قال لى كبير عائلة «البهنساوى» فى قرية «أولاد يحيى» التى ترقد تحت الجبل الشرقى لمدينة دار السلام :«أنا وهبت ٨ قراريط أرض حرة لمن يقتل مخرج المسلسل».. لأنه «يسمح إزاى بأن تتزوج بنت الهوارة من واحد غريب».. ولما سألت الشيخ الكبير:«ألم يحدث هذا الأمر فى بلدكم وعائلتكم». رد منفعلا: «ماهى دى المصيبة.. إحنا عندنا واحد متعلم جوز بنته لواحد من عيلة واطية.. واحنا اتبرينا منه وقاطعناه.. لكن الفلاحين لما شافوا التمثيلية فى التليفزيون افتكروا مصيبتنا وعايرونا»! وهذا مايعنى أنه حدث هذا التمرد على سلطة العائلة ووحدتها وأن التعليم أسهم هو الآخر فى تغيير نظرة العائلات لقانون «الأصل فى مقابل محدثى النعمة»!! ومن ناحية أخرى تم تفتيت ماكان يسمى «بالبوابات»، لأن هناك علاقة وثيقة بين «السكن» و«السكان» فى الصعيد.. فقد تعودت قبائل الصعيد أن يسكن أفرادها مجتمعين فى منازل متجاورة.. يجمع كل مجموعة منها بوابة كبيرة تطل غالبا على مكان فسيح يسمى «الرهبة»، ولا يسكن أبناء الرجل الواحد بعيدا عن منزل أبيهم حتى بعد زواجهم.. وكانت العادة أنه فى حالة زواج فرد جديد فى أسرة ما، أن تبنى له العائلة حجرة جديدة فى المنزل نفسه نسميها «رواق العريس» إلا أن تفتيت الذمم المالية لأسر الصعيد بعد هجرات الخليج من ناحية وضيق البيوت على ساكنيها من ناحية أخرى وشيوع النظرة الاستهلاكية لدى بنات الصعيد بعد أن جلب العائدون من بلاد النفط «الفيديوهات.. الدشات والثلاجات الكبيرة» مما جعل العروس تطلب بيتا مستقلا.. وهو مايعنى خروج الأبناء بزوجاتهم بعيدا عن سيطرة الكبير وسيدة الدار الكبيرة ماديا ونفسيا، وكل هذا أسهم فى عدم توحد قرار العائلة الواحدة فى شخص كبيرها وأدى إلى عشوائية فى اتخاذ القرار.. هذه العشوائية تجدها واضحة أيضا فى طراز بناء المساكن هناك الآن.. فبعد أن كانت بيوت الصعيد نماذج صحية متسعة عالية الأسقف مبنية بالطوب اللبن ومدهونة «بالحيب» ـ أحد أنواع الجير المخلوط بالطمى ـ صارت العمارات المسلحة المبنية بالطوب الأحمر والأسمنت المسلح شاهدا على اختلاط تركيبة القرى الصعيدية معماريا وعلى «خلطة القيم الطارئة والقديمة معا» داخل هذه المنازل!!

وكبير العائلة حقيقة تاريخية.. هى وظيفة بالأساس كان يسميها العرب «العريف» وقد جعل عمرو بن العاص على كل قبيلة «عريفا» له مكان خاص به، يدير من خلاله شئون قبيلته وله المكانة التى تؤهله لأن يفض المنازعات فى حالات القصاص عند القتل داخل القبيلة أو خارجها وهو الذى يقدر «الدية» التى يتم دفعها وهو فى

التحريض.. صناعة نسائية
شهادات



كان يظن الذين يذهبون إلى الصعيد حتى نهاية السبعينيات أن تلك المرأة التى لا تخرج من بيت زوجها إلى بيت أبيها إلا مرَّة واحدة كل عام، وإذا ما خرجت فإن البُردة ـ رداء ثقيل من الصوف يدثر الجسد بأكمله حتى لا يبين منه شىء ـ تطمرها وتنفى عنها وجودها.. وأنها مجرد تابع للرجل فى مجتمع ذكورى.. لكن الوقائع والأحداث وشهادات الذين سجلوها بالفن أو فى دراسات أكاديمية عن «وضع» المرأة فى الصعيد.. أثبتت أن المرأة فى الجنوب المصرى هى العنصر الفاعل فى حركة الحياة هناك.. حتى إن بعضهم وصف ذلك المجتمع بأنه يقبل سرًا حكم المرأة لتصرفاته وأفعاله لأنه حتى هذه اللحظة مجتمع أمومى..

وفى الثأر تقف المرأة على طرفى السكين فهى التى يتم رفع السلاح من أجل الحفاظ على عرضها وسيرتها.. وهى أيضًا العنصر الرئيسى فى التحريض على الأخذ بثأر عائلتها.. ويحفظ نساء الصعيد سيرة «حرب البسوس» كدستور ينفذونه على اختلاف فئاتهم فقراء وأغنياء.. ويتخذ هذا التحريض عدة أشكال، منها ما هو مباشر وعلنى، حيث تُصر الأم على تذكير أبناء عائلتها بدم رجلهم المهدر، كلما سنحت فرصة أو بطريق غير مباشر عن طريق ارتدائها الملابس السوداء والعقود الزرقاء المعروفة باسم «عُقد الحزون» والتعديد من حين لآخر. وهو فن نسائى يعتمد بطبيعته على تعديد محاسن الميت عمومًا والحث على أخذ دم الرجل المقتول.. وقد يتخذ تحريضها شكلاً أكثر صعوبة على نفوس أبنائها بأن تُشم ما بين ليلة وأخرى رائحة دم القتيل التى تظل عالقة بثيابه التى تحتفظ بها الزوجة حتى يتم أخذ ثأره.. ورغم أن أشياء كثيرة تغيّرت فى الصعيد من أول ارتداء «البُردة» واستبدالها بأحدث صيحات الأزياء لدى فتياته اللاتى يدرسن بالجامعات المختلفة، إلا أن دور المرأة فى التحريض على الثأر يظل هو الأقوى حتى الآن..

وفيما يلى شهادات منشورة حول دورها فى ذلك من رجال ونساء بعضهم عاش هناك وبعضهم درس الظاهرة وأعاد كتابتها فنيًا.

قد يتصور البعض أن الرجال فى الصعيد يلعبون دورًا فى تعليم أولادهم لغة الثأر.. لكن الحقيقة غير ذلك، فالابن عادة لا يكون فى حاجة لأن يتعلم من أبيه تعاليم الثأر.. فالأجواء التى ينمو فيها هذا الابن تتردد فيها بصفة دائمة أصداء الثأر.. فالمناخ فى هذه المنطقة ملبد بكلمة «الثأر» والأب عمومًا لا وقت لديه لأن يجلس مع الصغار ليغذيهم بمفهوم الثأر.. وبالتالى تصبح هذه المهمة ملقاة على عاتق الأم.

الشاعر عبد الرحمن الأبنودى

الأم الصعيدية إذا كانت بلا زوج أو ابن «تقتل بيدها ابنتها التى حملت سفاحًا، لتغسل عارها.. ولا تقبل فى ذلك نقاشًا.. فشرف الأسرة أهم لديها من عاطفة الأمومة.

أما إذا كان القتيل ابنها أو زوجها أو أخاها.. فإن الحياة تتوقف بها.. وتظل صورة القتيل فى وجدانها.. وفى خاطرها.. بعكس الرجل الذى يأخذ الأمر بعقله أكثر من عاطفته.

إن المرأة الصعيدية تظل تعانى الألم والحزن والكآبة سنوات طويلة وتضفى على بيتها جوًا غريبًا مشبعًا بالكراهية والغضب والرغبة فى الانتقام. ولا تتنفس الصعداء إلا إذا تحقق لها ما تريد، عندئذ تتلقى العزاء، وتستأنف حياتها لا يهمها أن يلقى بابنها فى السجن أو أن يعيش معرضًا للثأر منه، وإنما الذى يهمها أنها نفذت العرف، وطبقت التقاليد، فآن لها أن ترفع رأسها فخورة مزهوة بين الناس.

عالم الاجتماع
د. أحمد المجدوب

حين تفقد المرأة رجلها.. الذى تعتبره دنياها.. تشعر بأنها قد وصلت إلى نهاية العالم بلا ملجأ.. ولا حام «فتستعر النار بداخلها.. ولا يتبقى أمامها إلا أن تدفع بالرجال الباقين فى عائلتها إلى أتون النار والهلاك وتستخدم المرأة فى سبيل هدفها هذا كل الوسائل الممكنة لتثير نخوة الرجال.. فمرة تذرف دمعتين على الخد.. ومرة آهة ممدودة من القلب.. وسرعان ما تصل إلى هدفها.

كاتب الدراما محمد جلال عبد القوى

إن الرجل فى الصعيد من الممكن إقناعه بأن القانون ينبغى أن يأخذ مجراه وحده.. ولكن المرأة لا يمكن إقناعها بذلك، فهى تأخذ الأمر بصورة مختلفة تمامًا.. تتعامل مع الثأر بقلبها ووجدانها، وتجعل من البيت «مندبة» حقيقية حتى يتم المراد.

ناريمان الدرملى
عضو مجلس الشعب



الثأر والهجرة والبطالة
في الصعيد



الوقت ذاته الذي لم يكن يتم الأخذ بالثأر دون إذنه.. هذا الكبير كان يستمد سطوته ونفوذه من معرفته بأحكام الدين ومن ماله الكثير وأراضيه المنتشرة وبيوته التي يمنحها للفقراء ليسكنوها أحيانا ومن تعامله مع «الكُبارات» في الدولة أيضا.



ولم يمنح التعليم الجامعي المنتشر في الصعيد (هناك جامعات أسيوط، وجنوب الوادي والأزهر) الثقافة لبنات وشباب الصعيد.. تلك الثقافة التي تخرج بمجتمعاتهم عن عزلتها وتحفظ في الوقت نفسه تلك البيوت من عدوى القيم الطارئة. والأهم أنها منحت هؤلاء الشباب «ندية وهمية» لذلك الكبير الذي فقد سطوته ودوره، وظهر في محاضر الشرطة في أقسام الصعيد من يتهم ابنه بالتعدي عليه أو من تتهم والدها أو شقيقها الأكبر بنهب حقوقها بعد أن كان مجرد وصول الأنثى إلى قسم الشرطة عيبا وعارا في حد ذاته.

ومثلما انهارت قيمة الكبير انهارت قيمة سيدة الدار التي تعرف عدد ملحه وعيشه وتسك على أمواله وأسراره في «خزنتها» أو «سحارتها»، بينما المفتاح معها وحدها «معقوصا» في شعرها.. هذه السيدة الكبيرة هي التي كانت تحكم الصعيد فعليا، لكنها اختفت الآن ولم تحل المرأة العاملة أو الحزبية (في كل أمانات الأحزاب هناك أمانات للمرأة) بديلا لها!

هذه الظواهر ناقشها د. سمير نعيم في كتابه «أهل مصر» الصادر في عام ٩٣ وانتهى إلى أن الهجرة إلى بلدان النفط ساعدت على ترسيخ التطلعات الاستهلاكية لدى المهاجرين أنفسهم ولدى الذين لم يهاجروا وارتبط ذلك بخلل جسيم في أنساق القيم الجماعية والغيرية وقيم الاستسهال والارتزاق والكسب دون جهد والثراء السريع..

ثم كان أن عاد هؤلاء الذين هاجروا للخليج بعد أن جفت آبار البترول.. وضاقت الزراعات على ناسها.. وانتشر الفراغ والبطالة دون أن تنتبه الحكومة المركزية في القاهرة إلى هذه الأعداد المهولة والتي تحددها بنسب تقريبية أرقام الحاصلين على تعويضات من حرب الخليج من أبناء محافظات الصعيد بما هو أكثر من مليوني فرد!! هذا الإهمال وعدم الانتباه هو ماوصفه د. جلال أمين في كتابه «وصف مصر في نهاية القرن العشرين» بأنه.. «حقيقة لايمكن إنكارها!! إلى جانب حقيقة أخرى لايمكن إنكارها أيضًا وهي أن جماعات العنف التي ظهرت بشدة في صعيد مصر منتصف الثمانينيات وهي المعروفة «بالجماعات الأصولية المتشددة» كانت قد استغلت هذه العلاقات المتشابكة في تركيبة أبناء الصعيد واقتصادياتهم ونفسياتهم - كما يذكر - خالد البرى في كتابه «الدنيا أحلى من الجنة - مذكرات أصولي مصري - الصادر عن دار النهار بيروت عام ٢٠٠١ - فقد وفرت هذه الجماعات الحماية لمن لاحماية لهم من أبناء العائلات الضعيفة. يقول خالد البرى: «وحتى صيف ١٩٨٧ لم أكن أعتبر نفسي عضوا في الجماعة الإسلامية وكنت أرى أنهم أصدقاء أحبهم وأتعاطف معهم وهم يبدون اهتماما شديدا بي ويسألون عني إذا غبت عنهم، بينما يشعرني بالراحة أدبهم الجم وأحس بالحماية حين أكون بينهم».. هذه الجماعات التي وفرت الحماية هي نفسها التي استغلت العنف العشوائي لدى أبناء الصعيد ووجهته تجاه الدولة ومؤسساتها!! ولما انتبهت الدولة وأنهت وجود هذه الجماعات في مدن الصعيد وقراه لم توجد البديل الذي يستوعب هذا العنف.. ذلك العنف الذي تعددت أشكاله ومظاهره في المجتمع المصري بأسره، حتى أن مؤتمرا انعقد في الفترة من ٢٠ إلى ٢٤ أبريل الماضي بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة حول الأبعاد الاجتماعية والجنائية للعنف في المجتمع المصري ناقش في ٣٠ ورقة بحثية ودراسة ميدانية تطور هذا العنف وأساليبه وآلياته.. ذلك العنف رصدته أيضا الأجهزة الأمنية في صورة أسلحة آلية كثيرة تم ضبطها في سوهاج وقنا وأسيوط في العامين الأخيرين و«التشوه» في صورة انتشار زراعات مخدرات غريبة على العالم الصعيدي مثل البانجو حتى أن قرية كاملة في أسيوط - نجع سالم - حسبما جاء في تقرير وزارة الداخلية عن عام ٢٠٠١ يعمل معظم أفرادها في زراعة وتجارة البانجو!!



إذن نخلص إلى أن الثار كقانون عرفي موجود منذ آلاف السنين في صعيد مصر وأنه كان - في وقت ما - أحد العوامل المهمة لحفظ كيان الصعيد وعائلاته لأن من يفكر في القتل كان يعرف أنه هو نفسه سوف يقتل ولو بعد حين!! إلا أن تلك العوامل الطارئة على ذلك المجتمع المغلق صاحب القوانين الخاصة جدا والمعقدة جدا ساهمت في أن يتحول هذا القانون الثاري إلى مسخ!!

هو عنف جديد يتخذ من الثار ستارا ليقبله المجتمع الصعيدي كما نراه.. وهو صعيد مختلف تلاشت ملامحه الحقيقية وبهتت عليه تراكمات سياسات خاطئة لاتعرف حقيقة هذه الأرض التي كلما زادت في الارتفاع والصعود زاد أبناؤها حدة وعنفا.. وكلما ضاقت عليهم معايشهم عبروا عن ضيقهم بأساليب كنا نعرف قوانين السيطرة عليها في الزمن القديم، لكننا الآن لانعرف هذه المواجع.. ولانعرف بأي قانون نكبح جماحها ولنا في حادثة «بيت علام أسوة» قد تكون إذا ما انتبهنا إليها جيدا «حسنة». ■

«نجيب محفوظ» سورية

من الثورة العربية إلى الانفصال

ذكريات عبدالسلام العجيلي

حلمي محمد القاعود



[١]

يسمونه في دمشق «نجيب محفوظ» سورية. فهو حقًا أبرز أدبائها، وأكثرهم نضجًا، وأقلهم ضجيجًا، وأغزرهم إنتاجًا؛ خاصة في الرواية الطويلة والقصة القصيرة، بالإضافة إلى مقالاته ومقاماته، وأشعاره ومحاضراته..

إنه الأديب «عبد السلام العجيلي» من مواليد الرقة في الشمال الشرقي لسورية على نهر الفرات، عام ١٩١٨م، وهو طبيب يمارس مهنة الطب في عيادته الخاصة ببلدته هذه منذ تخرجه حتى الآن، باستثناء فترتي النيابة والوزارة، حيث انتخب نائبًا في المجلس النيابي السوري أواخر الأربعينيات، وظل به نحو سنتين، عاد بعدهما لممارسة الطب في بلدته. فقد ألغى انقلاب «حسني الزعيم» (١٩٤٩) الحياة النيابية، وبذلك لم يعد نائبًا.. ثم تولى الوزارة في سورية أوائل الستينيات لمدة شهور، ترك بعدها الوزارة، والسياسة جميعًا، ولم يعد لهما مرة أخرى، وإن كان قد عاد إلى عيادته في الريف السوري يتعامل مع المرضى البسطاء من أهل المنطقة، ويكتب في أوقات فراغه عنها وعن مشاهداته داخل سورية وخارجها، ويتابع - ولايزال - أحدث ما يدور حول قضايا الطب في العالم بلغته الفرنسية الفائقة، قراءة وكتابة ومحادثة، بالإضافة إلى مطالعة الكتب الأدبية والثقافية والفكرية بوجه عام، في لغتنا العربية، وغيرها من اللغات التي يجيدها.

لقد توثقت علاقتي بالرجل في أواخر الستينيات عبر البريد، وطالعت معظم إنتاجه الأدبي (بلغ الآن واحدًا وأربعين كتابًا، عدا الفصول التي نشرتها الصحف والدوريات ولم ينشرها في كتب)، وكتبت عن معظم رواياته وقصصه ومحاضراته ومقالاته، وكنت بسبيل نشر كتاب عنه، ولكن الناشر ضيعه.. وقد التقينا في العاصمة السعودية (الرياض) عام ١٩٩٤ أو ١٩٩٥، وقضينا وقتًا ليس بالقصير في حضور الدكتور «عبد العزيز الخويطر»، وزير المعارف السعودي السابق، ورأيت فيه نموذجًا للرجل البسيط المتواضع الزاهد الذي يدفعك إلى احترامه وتقديره. إنه نموذج فريد حقًا لكاتب آثر أن يعيش بين أهله البسطاء في بيئة أقرب إلى البداوة، ولا تغريه أضواء العاصمة أو وجاهة السياسة بالنزوح عنها، والهرولة إلى الشهرة والدعاية، وفي الوقت ذاته يعيش حتى النخاع في قضايا أهله المحليين وشعبه السوري وقومه العرب، وينفعل بقضاياهم وأحداثهم، ويتفاعل معها، ويسعى إلى الاستفادة من علاقاته بالأصدقاء الأجانب والمستشرقين لخدمة هذه الأحداث وتلك القضايا.

إنه ينقل حياته المعاشة إلى الورق أدبًا حقيقيًا مؤثرًا، بلا افتعال ولا تكلف، وكان يصف كتابته الأدبية بأنها نوع من التسلية، ولكن «ميشيل عفلق» قال له ذات يوم: إن ما تتسلى به هو الذي سيبقى، أما ما نفعله نحن (يقصد العمل السياسي) فسيذهب. ويبدو أن «ميشيل عفلق» كان صادقًا في مقولته، فأدب العجيلي يمثل نموذجًا رفيعًا للفن الأدبي في أدبنا المعاصر، خاصة في الرواية، حيث يملك موهبة فذة في السرد بطريقة بسيطة، ولكنها مدهشة في تشويق القارئ وجذبه إلى متابعته والوصول معه إلى النهايات التي تمثل تخوم عالم سحري جميل، يضم هموم الأمة وآمالها في سياق من الجمال الفني، الذي يصنعه أسلوب رصين سلس، استوعب التراث، وتفاعل مع الواقع، واستفاد من الأنماط الغربية في التعبير والتصوير.

قدم العجيلي حتى الآن ست روايات طويلة هي: باسمة بين الدموع، قلوب على الأسلاك، أزاهير تشرين المدماة، المغمورون، أرض السياد، أجملهن. وهناك رواية كتبها بالاشتراك مع «أنور قصيباتي» وعنوانها: ألوان الحب الثلاثة.

وفي القصة القصيرة، قدم ثلاث عشرة مجموعة، هي: بنت الساحرة، ساعة الملازم، قناديل إشبيلية، الحب والنفس، الخائن، رصيف العذراء السوداء، الخيل والنساء، فارس مدينة القنطرة، حكاية مجانين، الحب الحزين، فصول أبي البهاء، موت الحبيبة، مجهولة على الطريق.

وللعجيلي ديوان شعر واحد بعنوان «الليالي والنجوم»، عدا قصائده التي لم تجمع، وله مجموعات أخرى من الكتب بعضها يضم محاضراته أو رحلاته أو مقالاته أو حكاياته الطبية أو غيرها.

ولكنه في العامين الأخيرين، وبإلحاح من ناشره، كتب ذكرياته السياسية، فأصدر الجزء الثاني من هذه الذكريات قبل الجزء الأول، ونوه عن ذلك على غلاف الكتاب، وفي الصفحات الداخلية، والسبب في ذلك أن الجزء الثاني تناول ذكرياته في الوزارة، وهي أقرب إلى الذاكرة من ذكريات النيابة أو المجلس النيابي، وقد صدر الجزء الثاني «ذكريات أيام السياسة» عن دار رياض الريس، لندن، عام ٢٠٠٠ (ديسمبر تحديدًا)، وصدر الجزء الأول بالعنوان ذاته وعن الدار نفسها، مايو ٢٠٠٢.

وهو يحاول في ثنايا الذكريات أن يعفي نفسه من مسئولية التأريخ للأحداث، ويؤكد على أنه يسجل ذكريات لا مذكرات، وهو يعلل ذلك بأن بعض القراء قد يأخذ عليه أنه يضع نفسه موضع القطب الرئيسي للأحداث التي أوردها في الكتاب، لكن طبيعة تسجيل الذكريات الشخصية، تجعل الراوي القطب والمركز فيما يرويه، وقد يأخذ عليه بعض القراء أنه يكرر بعض الأحداث في أكثر من فصل وينتج التكرار، لأنه سجل هذه الذكريات في أوقات متباعدة قد تمتد إلى شهور أو سنين، لهذا وغيره لا يضع العجيلي نفسه موضع المؤرخ.. وهو على كل حال، لا يتبرأ من أثر السياسة، أو من دوافعها، في إنشاء هذا الكتاب، ولا يقصد إلى إخفاء نشاطه السياسي أو التنصل منه، فقد بسط آراءه في قضاياها بسطًا صريحًا واضحًا. وإذا كان الرجل يخرج من دائرة التاريخ السياسي للمرحلة التي اشتغل فيها بالسياسة، فإن المادة الغزيرة التي قدمها على امتداد كتابه أو امتداد جزءيه هي مادة أساسية للتاريخ السياسي، ويجد فيها المؤرخ وثائق ومواقف ووقائع وأحداثًا تضيء جوانب عديدة في فترة من أهم فترات تاريخنا الحديث، أعني بها القرن العشرين.

[٢]

يُعرَّف الإنسان في بعض التعريفات بأنه حيوان سياسي. والسياسة في هذا التعريف معناها اهتمام المخلوق بالمجتمع الذي يعيش فيه، بملاحظة ما يجري في هذا المجتمع والتحري عن عوامل التغير فيه، وربما التفكير والعمل بما يسهم في هذا التغير سلبًا وإيجابًا. وتخضع سياسة الإنسان وتظاهراتها إلى عوامل عدة بين وراثية ومكتسبة تفرضها البيئة والتربية والأحداث التي تمر بالإنسان ويمر هو بها.



وعلى هذا يرى كاتب الذكريات أنه واحد من هذه الحيوانات السياسية مادام إنسانًا له قلب وأعصاب وفكر- ويكشف لنا الطريقة أو الكيفية التي بدأ بها سياسته وزمانها، والقراءة التي أولع بها منذ أول الصبا هي المكون الأول حيث اجتمع لديه عدد كبير من الكتب أكثرها في التاريخ القومي والإسلامي، بالإضافة إلى الصحف الوطنية وخاصة جريدة «القبس» التي كان يملكها ويحررها «نجيب الريس». ثم كانت معايشة الكاتب للأحداث التي تدور في سورية تحت سطوة الاحتلال الفرنسي، وخاصة الانتخابات النيابية التي جرت عام١٩٢٨، وكان جد الكاتب لأمه مرشحًا فيها ممثلاً للوطنيين أو الكتلة الوطنية التي فازت بمقاعد الأغلبية.

في المدرسة الثانوية تبلور اهتمام العجيلي بالسياسة، فكان من زعماء الطلاب والمظاهرات والإضرابات بتجهيزية حلب، ويروي لنا كيف اشتعلت المظاهرات

ذكريات أيام السياسة
عبد السلام العجيلي
بيروت: رياض الريس للكتب والنشر «جزءان»، ٢٠٠٠-٢٠٠٢.

والإضرابات عندما قدمت فرنسا لواء الإسكندرونة لتركيا. وحين أصدر وزير المعارف آنئذ قرارًا بإيقاف التدريس في مدرسة حلب التجهيزية وإغلاقها لمدة أسبوعين قابلين للتمديد، بما يترتب على ذلك من إلغاء امتحانات نهاية العام وضياع سنة كاملة على الطلاب، وتدبر العجيلي الأمر، وقرر أن يقابل وزير المعارف بوصفه رئيس لجنة الطلاب. ليعيد الدراسة لجميع الطلاب ويعاقبه هو، فتطلع إليه الوزير بإمعان، ثم قال له: حسنًا، أنت طلبت هذا بلسانك. سآمر بفتح الثانوية، أما أنت فعد نفسك مفصولاً من الدراسة فصلاً نهائيًا، ولن تقبلك مدرسة أخرى في هذه البلاد. ستجد قرار طردك عند مدير مدرستك.

أحدثت الصدمة فعلها في الطالب الشاب الثائر الذي تحمل المسئولية عن زملائه، وحين انتهى إلى مدير المدرسة تلقاه بوجه عابس وقال بلهجة بين التأنيب والإشفاق: أمرنا معالي الوزير باستئناف التدريس في مختلف الصفوف. أما أنت فقد سمح لك أن تعود إلى صفك، وهو ينصحك بأن تحسن قيادة زملائك في الظروف الحرجة!

هذا الموقف وتأثيراته ينبئ عن تفكير سياسي، ينظر إلى مصلحة المجموع قبل المصلحة الذاتية، ويحكمه القيام بالواجب مهما كانت العواقب.

في كلية الطب بدمشق، وكانت تسمى «المعهد الطبي العربي» انخرط كاتب الذكريات في لجان الطلاب ونشاطاتهم، ويشير إلى مشاركته في مناسبتين الأولى عندما اعتقلت السلطات الفرنسية الرئيسين بشارة الخوري ورياض الصلح ورفاقهما عام ١٩٤٣ فقامت المظاهرات الصاخبة احتجاجًا على الاعتقال، ثم ابتهاجًا عند الإفراج عنهم. والمناسبة الأخرى كانت في السنة الأخيرة من الدراسة عام ١٩٤٥، عندما اعتدت فرنسا على حامية برلمان دمشق وهدمت واجهته مما أدى إلى قيام الثورة في كل أنحاء سورية، وبكل فئات شعبها، وهي الثورة التي انتهت بجلاء فرنسا عن أرض الوطن.

بيد أن الحدث المهم في فترة الدراسة بالمعهد الطبي العربي (كلية الطب) بدمشق، هي دخول العجيلي إلى مجلس النواب السوري، ليكون نائبًا عن منطقة الرقة التي يعيش فيها مع أهله وعشيرته، وهذا الحدث يكشف عن طبيعة الحياة السياسية في البلاد العربية عامة وسورية خاصة، ويوضح كيف يتعامل الناس مع النواب والانتخابات، وكيف تتم هذه العملية وفق معادلات منظورة وأخرى خفية، وكيف تعبر في النهاية عن مفاهيم ورؤى تؤثر في السياق العام لحركة الشعب والأمة جميعًا.

لقد صار العجيلي أمينًا للمجلس النيابي يجلس بجوار رئيسه «فارس الخوري» الذي كان في ذلك الوقت رئيسًا لمجلس الأمن الدولي بالأمم المتحدة في إحدى دورات انعقاده، وقد أتاح منصب أمين المجلس النيابي للعجيلي أن يتعرف على زملائه واحدًا واحدًا، وكان زميله في أمانة المجلس الشاعر الكبير «بدوي الجبل» مما فتح لهما صداقة وثيقة استمرت حتى وفاة الأخير. وقد تابع العجيلي من خلال موقعه جلسات المجلس وما يدور فيه من مساجلات ومناورات - بحس الأديب الشاعر - فرأى مشاهد كان يعجب من بعضها ويضحك من بعضها الآخر، وكان يصدمه بعضها فيتألم ويحزن، ويروي من ذلك بعض ما جرى في جلسات الدورة الاستثنائية من جدال حول بعض الأمور القانونية انتهى بتماسك بالأيدي بين بعض النواب بل من اعتداء بالضرب باليد من أحدهم على زميله، ويأسى الرجل على ما يحدث أحيانًا من بعض الناس يفترض أنهم صفوة المجتمع ويراه نشازًا في سلوك المؤسسات السياسية حين يكون لكل فعل سيئ رد فعل أسوأ.

مفارقات المجلس النيابي كثيرة ويروي العجيلي بعضها، ولها في كل الأحوال دلالات لا تخفى على من يتابع العلاقة بين النواب والحكومة أو بين بعضهم والرئاسة، وهي في مجموعها تكشف عن بعض ملامح الصراع بين «البراجماتية» والمثالية في العمل السياسي العربي بصفة عامة، أو في البلدان العربية التي عرفت المجالس النيابية.

لقد اضطر العجيلي ذات يوم إلى أن يضع استقالته أمام الرئيس شكري القوتلي حين علم أنه غاضب منه بسبب الانتخابات في حلب، فقد قال له لدى مقابلته في قصر الرئاسة:

«يا فخامة الرئيس. جئت إليك وأنا مملوء الصدر حزنًا. قال: ماذا حدث؟ قلت: بلغني أنك غاضب من سلوكي ومن آرائي في قضية طعون نواب حلب. أنا على علم بمنزلة بعض المرشحين في نفسك. ولكن القضية المطروحة قضية يحكم فيها الضمير والوجدان والنصوص القانونية. إني أضع بين يديك استقالتي من النيابة، ولك أن تتصرف بها كما تشاء. وأقول مخلصًا إني أتنازل عن النيابة بكل رضا لقاء ألا تكون غاضبًا عليّ. كل ما أرجوه هو ألا تكلفني بتصرف لا يرضي ضميري أو يخالف ما أعتقد أنه الصواب».

يواصل العجيلي روايته:

«جاءني رد شكري القوتلي بهدوء، مباشرة ودون محاورة أو مداورة. قال لي: اسمع يا دكتور. ما نقل لك على لساني لا صحة له بتاتًا وأنا لا أكلفك بشيء لا يرضى به ضميرك. أنت شاب في أول عمرك فاحرص دومًا على أن تتصرف بما يرضى به الضمير. اعمل ما تراه هو الصواب. وليكن في علمك أن ذلك لن يغير أبدًا من محبتي لك وتقديري لك. أنا لست غاضبًا منك لشيء أو عاتبًا عليك بشيء. اذهب بارك الله فيك». «بارك الله» هي الكلمة التي كان ينهي بها الحديث دومًا، وقد ثبّت مجلس النواب بأكثرية أعضائه بعد ذلك نيابة رزق الله أنطاكي ويوسف إليان، ولم أر من شكري القوتلي. لا لهذا الأمر ولا لسواه، أي تغير في عطفه عليّ أو رعايته لي».

ولا ريب أن هذه القصة، بعيدًا عن علاقتها بصاحب الذكريات، تكشف عن بعض ملامح الرئيس السوري الراحل «شكري القوتلي» الشخصية، وتفسر لنا بطريقة ما طبيعته الإنسانية والخلقية التي جعلته يتنازل عن رئاسة سورية عام١٩٥٨ من أجل الوحدة مع مصر، ويكتفي بلقب المواطن الأول، وفي الذكريات حوادث أخرى بين الكاتب والرئيس القوتلي تكشف عن معدنه ووطنيته وإخلاصه للقضية العربية عمومًا، والفلسطينية خصوصًا، وإن كانت الأحداث قد جاءت بما لا يشتهي ونشتهي!

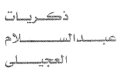


ويحدثنا العجيلي عن علاقته برئيس المجلس فارس الخوري عقب عودته من الأمم المتحدة، وتقريبه له، وخاصة عند غياب واحد من أميني السرّ كي يجلس بجواره على المنصة، وكيف كان يستعين به ليتعرف على المتحدثين، ولا سيما أولئك الذين يسهبون في الكلام ولا يكون لكلامهم زبدة مفيدة. ويذكر أنه أحيانًا عندما تكثر الخطب الطويلة في مواضيع متشابهة كان يضع نظارتيه السوداوين على عينيه ويقول للعجيلي: إذا حدث شيء مهم نبهني! ثم يستسلم إلى إغفاءه خفيفة لا يدل عليها جمود جذعه على مقعده وراء المنصة العالية، وفي أحيان أخرى - يقول العجيلي - كنا نترك الخطباء لكلامهم الكثير ونتحاور في همس حول بعض القضايا الفكرية واللغوية.

يذكر الكاتب أنه كان بسبيل نظم قصيدة ساخرة بعنوان «جنة النفط» يتحدث عن مواقف بعض الحكام العرب حيال القضية الفلسطينية، وهي قصيدة لم تنشر في حينها، ولكنها سارت على

من اليمين: عبدالسلام العجيلي، عبدالحميد السراج، محمد عطوره





الألسن وادّعاها كثيرون لأن اسمه لم يوضع عليها، وكان منها هذا البيت:

وما والدى فى مسجد القدس موسّد
وليس لأجدادى بغزة اقبر

فسأله - أى سأل فارس الخورى - هل يجمع قبر على أقبر؟ هز هامته الضخمة، وقال فورًا: كيف لا؟ ألا تحفظ بيت أبى العلاء حين يقول:

أرواحنا معنا وليس لنا بها
علم، فكيف إذا حوتها الأقبر؟

فأثبت الكلمة فى مكانها مع أن لسان العرب ومعاجم أخرى لم تذكرها جمعًا لقبر. ففارس الخورى حجة والمعرى حجة. والعرب جمعوا نهرًا على أنهر، وعصرًا على أعصر، وسهمًا على أسهم، ونجمًا على أنجم.

وفى ذكريات العجيلى تأصيل سهل وقريب لما عرف بمشروع «سورية الكبرى» حيث كان هذا المشروع حلمًا أو اسمًا لحلم سكن مخيلة الأمير، ثم الملك فيما بعد، عبد الله بن الحسين الهاشمى منذ عهد إليه بتولى حكم شريط من الأرض السورية اقتطع منها عام ١٩٢٠، بين الأردن والصحراء الشامية باسم إمارة شرقى الأردن. كان هذا الحلم يخبو ويتوهج بين الحين والحين فى مخيلة صاحبه، ويأمل فيه، إذا تحقق أن يبنى لنفسه مملكة مثل مملكة أخيه فيصل فى العراق، لا أن تقتصر سيطرته على هذا الشريط الهزيل الفقير المصطنع اصطناعًا. فى الفترة التى كانت سورية فيها تحت الانتداب الفرنسى تناضل المحتل فى مظاهرات وإضرابات وثورات متلاحقة كان هذا الحلم يبرز على لسان الأمير عبد الله فى تصريحات متباعدة ووعود جوفاء بطرد ذلك المحتل بجيش أردنى ما هو فى الحقيقة غير صنيعة إنجليزية، وحين استطاعت سورية فى نهاية المطاف أن تفوز باستقلالها التام، وبرزت فى الوقت نفسه المشكلة الفلسطينية بكل أخطارها ازداد توهج الحلم فى تفكير الأمير. كان قد حول إمارته إلى مملكة فأصبح يطالب بأن تتخلى سورية عن نظامها الجمهورى المستقل وتنضم إلى مملكته التى كانت تحت ستار معاهدة استقلال هشة، مجرد تابع للإمبراطورية البريطانية بعد انتصارها فى الحرب العالمية الثانية.

فى عام ١٩٤٥ جوبهت مطالبة الملك عبد الله برد عنيف من جانب السوريين حكومة وشعبًا، ولكن الملك لم ييأس وجدد مطالبته بعد إجراء انتخابات مجلس النواب السورى عام١٩٤٧ فاطلق بهذه المناسبة تصريحًا قال فيه: «إنى أعقد آمالاً كبيرة على البرلمان السورى الجديد الذى يضم نخبة من رجالات سورية المخلصين، ولا سيما الشباب المثقف منهم..» كما تضمن هذا التصريح تهديدًا ضمنيًا إن لم يقم مجلس النواب السورى بواجبه حيث سيجد نفسه - أى الملك - مرغمًا على اتخاذ الخطوات الفعالة لتحقيق مشروع سورية الكبرى بوساطة الجيش الأردنى - جيش الخلاص.

ولأن كاتب الذكريات كان من النواب الشباب فى سورية الذين يعنيهم هذا التصريح، فقد رد عليه بمقال كان افتتاحية جريدة «القبس» فى عددها الصادر ٧ سبتمبر ١٩٤٧ بعنوان: «من نائب سورى شاب إلى الملك عبد الله» تضمن فى البداية تصريح الملك كاملاً ثم أخذ يسرد تاريخ الهاشميين والثورة العربية الكبرى ومنزلة زعمائهم خاصة الحسين وفيصل، ثم تمنى أن تكون للملك عبد الله منزلة تماثل منزلة أبيه وأخيه أو تتفوق عليهما، فهى منزلة لا تنال باللقب والإمارة، ولكن بالإباء والأنفة وجهاد العدو والمحتل.

ويبين العجيلى خطورة مشروع «سورية الكبرى» على الجامعة العربية، ويكشف عن مباركة الملك عبدالله لضياع الإسكندرونة وعدّها أرضًا تركية وكأنه لم يسمع أن والده جعل أطنة حدًا شماليًا لسورية، ثم أشار إلى المذكرات التى ظهرت فى ديوان الملك لإحياء الحزازات وتأريث الأحقاد وتناولت سادات العرب بالنقد والتجريح، ثم يلمح إلى ما قام به الملك من منح الموظفين الفرنسيين فى تونس والجزائر أوسمة تقدير وهم الذين جوعوا الشعب العربى المجاهد فى إفريقية وساعدوا على إبادته، وينتهى إلى أن الشباب فى مجلس النواب السورى الذى عقد عليهم جلالة الملك الآمال يشرفهم أن يردوا على دعوته الباطلة بملء أفواههم: لا. وسيكون هذا أول واجب يؤدونه لهذا الوطن الذى ربوا على حبه وعاهدوا الله على خدمته. ثم يذكر الملك بما فعله جيش الخلاص الأردنى طوال ربع قرن، فهو لم يطرد الفرنسيين من سورية أو الصهاينة من فلسطين، ولكنه طعن الجيش العراقى من الوراء، ويعيد على مسامع الملك أبيات المتنبى التى قالها لذلك الخارجى الأول مختتمًا مقاله:

ولست باول ذى همة
دعته إلى ما ليس بالنائل
يشمر للج عن ساقه
ويغمره الموج فى الساحل

يشير العجيلى إلى أن رأيه فى الملك عبد الله لم يكن وليد الحلم بسورية الكبرى، ولكنه ولد قبل ذلك بزمان من خلال أمور متفرقة لاحظها فى سلوكه وأقواله. منها: تصرفاته عند غزو عبد العزيز بن سعود، سلطان نجد فى ذلك الزمن، لمملكة أبيه الشريف حسين بن على فى الحجاز، ومنها ما رواه عنه لورنس فى كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» وما تناهى إليه من قراءات متفرقة عن علاقاته الودية بكثير من اليهود، رءوس الحركة الصهيونية، ممن كانوا يعملون بكل السبل ليحولوا الوطن القومى الذى نص عليه وعد بلفور إلى دولة قائمة حقيقية راسخة البنيان.

شغلت قضية فلسطين كاتب الذكريات: إنساناً وأديبًا وسياسيًا، فقد تطوع بنفسه فيما سُمى وقتها جيش الإنقاذ.. ليحارب مع المجاهدين ضد العصابات اليهودية المستعمرة، وكان قلمه مشغولاً بالقضية منذ أمسك به حتى الآن، وفى فترات عمله السياسى بمجلس النواب أو الوزارة أو اللقاءات السياسية والفكرية كان ينافح عن فلسطين وحق شعبها فى الوجود والكرامة.



وفى عام ١٩٩٤، أصدر كتابًا بعنوان «فلسطينيات عبدالسلام العجيلى» وظهر فى دمشق، ويضم الكتاب بعض ما كتبه عن فلسطين التى تعد قضية العرب الأولى فى القرن الأخير من تاريخهم المعاصر.

بعد حصول العجيلى على شهادةالبكالوريا (الثانوية) عام ١٩٣٧، علم أن المحامى «شفيق سليمان» هو أحد الذين يتولون إرسال المجاهدين إلى فلسطين، فذهب لمقابلته فى شارع رامى بدمشق، وحين أخبر الرجل برغبته فى السفر إلى الجهاد دون أن يعلم أحد من أهله أو معارفه، تطلع الرجل إليه ورأى صغر سنه، قال له: ارجع يابنى إلى بلدك وتابع تعلمك.. الثورة أكثر حاجة إلى بواريد وخرطوش (بنادق ورصاص) منها إلى الرجال!

وبعد هذه الواقعة بعشر سنوات (١٩٤٧)، وكان العجيلى نائبًا فى المجلس النيابى، وكان قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة قد صدر بتقسيم فلسطين، ثارت الشعوب العربية فى مختلف البلدان على القرار ورفضته الحكومات العربية التى قررت أن تقاوم تنفيذ هذا القرار بكل وسيلة. وقامت الجامعة العربية بتشكيل جيش الإنقاذ ليدخل الأرض الفلسطينية قبل أن يصبح قرار التقسيم نافذًا وليحول دون قيام الدولة العبرية المخطط لقيامها. تألف جيش الإنقاذ مبدئيًا من فوجين من المجاهدين المتطوعين، وتولى قيادته الثائر العربى القديم فوزى القاوقجى. كان الفوج الأول يتكون من مجاهدين من مختلف البلاد العربية بقيادة القاوقجى مباشرة. أما الفوج الآخر فقد كان يتكون من مجاهدين سوريين وتولى قيادته الرئيس (الرائد) أديب الشيشكلى، أحد ضباط الجيش السورى. والتحق العجيلى بالفوج الثانى (فوج اليرموك) ليدخل مع رفاقه المتطوعين الأرض الفلسطينية، فى بداية الأسبوع الأول من شهر يناير من عام ١٩٤٨. ويحكى العجيلى عن وقائع الفترة التى قضاها فى فلسطين وتردده بين جيش الإنقاذ ودمشق، ويتناول بالحديث كثيرًا من الشخصيات التى شاركت فى الحرب بوصفهم مجاهدين متطوعين من سورية أو من العالم العربى ويتوقف عند السياسى المصرى «أحمد حسين» مؤسس مصر الفتاة، ويذكر بعض التفاصيل الخاصة بوجوده فى جيش الإنقاذ.

بيد أن أهم ما يشير إليه العجيلى فى هذه المرحلة ما جرى على الساحة العربية تجاه القضية الفلسطينية، وما حدث على الساحة السورية السياسية، وكان المجلس النيابى السورى ميدانًا لها.

التقى كاتب الذكريات بعبدالرحمن عزام باشا فى مجلس الأمير محجم بن مهيد، شيخ عشيرة الفدعان ونائب عشائر دير الزور البدوية بالبرلمان. وعبدالرحمن عزام باشا، كما هو معروف ينتمى إلى عشيرة بدوية فى مصر، ولعل هذا ما دفعه إلى زيارة الأمير محجم فى داره حين قدم إلى دمشق فى سياق التهيئة لدخول الجيوش العربية مجتمعة فلسطين ابتداءً من منتصف مايو، بغية الحيلولة دون تنفيذ قرار التقسيم وقيام الدولة العبرية. كان واضحًا أنه لابد من تدخل الجيوش الرسمية فى المعركة بعد أن أخفقت قوى المجاهدين المتطوعين، سواء جيش الإنقاذ الذى ترعاه الجامعة العربية أو جيش الجهاد المقدس الذى يترأسه الحاج أمين الحسينى ويقوده عبدالقادر الحسينى، بعد

يبين العجيلى خطورة مشروع «سورية الكبرى» على الجامعة العربية، ويكشف عن مباركة الملك عبدالله لضياع الإسكندرونة وعدّها أرضًا تركية وكأنه لم يسمع أن والده جعل أطنة حداً شمالياً لسورية

أن أخفقت هذه القوى في تنفيذ تلك الحيلولة.

وكان لابد من التحدث في مجلس الأمير عن المعركة أو المعارك المقبلة التي ستنشب بين القوى العربية وبين القوات اليهودية بعد أن تنسحب انجلترا من فلسطين. كما كان لابد أن يكون أول المتحدثين في هذا الموضوع وأهمهم أمين الجامعة العربية التي تشرف على التخطيط لهذه المعارك وتتولى توجيهها وإدارتها.

قال عبدالرحمن عزام باشا في حديثه في ذلك المجلس: إن الحرب بيننا وبين اليهود في فلسطين لابد واقعة. وقال إن اليهود سيحشدون لهذه الحرب نحوًا من اثنين وستين ألف محارب»، وأضاف: «إن كثيرًا من محاربيهم متدربون على القتال لاشتراكهم في معارك الحرب العالمية الأخيرة، في صفوف جيوش الحلفاء، ضد الجيوش الألمانية في مختلف الجبهات».

اثنان وستون ألف محارب في جيش الهاجاناه اليهودي ليسوا عدداً هينًا. إلا أن ذلك لم يكن مخيفًا مع ما كان يُقرأ ويُسمع عن قوى الجيوش الخمسة، جيوش سورية ولبنان ومصر والأردن والعراق، إضافة إلى المفارز السعودية التي ستنضم إلى هذه الجيوش على الرغم من معارضة الملك عبدالعزيز لخطة الجامعة العربية في خوض هذه الحرب، وهي معارضة كان الناس يستنكرونها في حينه، وتبين لهم بعدئذ صحتها وصوابها.

يقول كاتب الذكريات: «أنا وأمثالي كنا من الناحية النظرية في قلب القضية، مفروضًا بنا أن نكون على علم بكل خوافيها. غير أننا تبينا بعد أن نشبت الحرب فعلاً وتتالت خسائرنا أن الحقائق كانت تستر عنا بحجة المحافظة على الأسرار الحربية، وأن ثقتنا بأنفسنا كانت في غير محلها. لقد كانت تقديرات أمين الجامعة عن عدد المحاربين اليهود صحيحة، وكان المفروض أن نلاقيهم بعدد مماثل أو متفوق من المحاربين العرب. غير أننا عرفنا، متأخرين وبكل حزن وأسى، أن جيوشنا الخمسة لم تدخل المعارك في أول أيامها إلا بمحاربين لا يتجاوز مجموعهم عشرين ألف جندي»!

في كتابه (الحرب العربية الإسرائيلية) يورد الكاتب «إدجار أوبالانس» عددًا لمحاربي الهاجاناة قريباً من العدد الذي سمعته بأذني من عبدالرحمن عزام باشا. إنه يقدرهم بحوالي ستين ألف جندي. أما عن الجنود العرب فإنه لا يفصل في عدد المشتركين منهم في الحرب في أولها. أما آفي شلايم في كتابه (سياسات التقسيم) فيوافق على عدد المحاربين اليهود الستين ألفًا، ويعد عشرين ألفًا وخمسمائة جندي عربي. من هذا العدد الأخير عشرة آلاف جندي من مصر، وثلاثة آلاف من كل من سورية والعراق، وأربعة آلاف وخمسمائة جندي من الفيلق العربي الذي هو جيش الأردن...».

يذكر الدكتور العجيلي أنه تلقى قبل عام مضى من أحد أصدقائه صورة ضوئية لبضعة سطور أرسلها عبدالقادر الحسيني إلى عبدالرحمن عزام، أمين الجامعة العربية التي يتبعها جيش الإنقاذ قبل يوم واحد من استشهاد ذلك المجاهد البطل وهو على رأس قواته في معركة القسطل. في تلك السطور يقول عبدالقادر الحسيني:

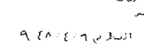
القسطل في ٦/٤/١٩٤٨

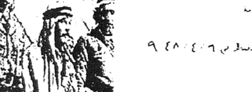
السيد الأمين العام لجامعة الدول العربية

القاهرة

إني أحملكم المسئولية بعد أن تركتم جنودي في أوج انتصاراتهم بدون عون أو سلاح.

(عبدالقادر الحسيني)





منظمة الجهاد المقدس
القيادة العامة
القدس

القسطل في ٦-٤-٩٤٨

مذكرة
السيد الأمين العام لجامعة الدول العربية
القاهرة

اني احملكم المسؤولية بعد ان تركتم جنودي في اوج انتصاراتهم بدون عون او سلاح.

عبدالقادر الحسيني

مذكرة عبدالقادر الحسيني التي وجهها قبل استشهاده إلى عبدالرحمن عزام

من جانب آخر فإن الموقف داخل سورية كان يتسم بالغضب والثورة ضد الحكومة التي لم تقم بواجبها كما ينبغي في منظور الرأي الشعبي العام. وفي نهاية عام ١٩٤٨ كانت حرب العرب على أرض فلسطين قد أشرفت على نهايتها السيئة بالنسبة للعرب، وكان بلاء تلك النهاية ينصب بصورة خاصة على الجيش المصري الذي كان يجاهد للاحتفاظ بمواقعه جنوبي بئر السبع من الأرض الفلسطينية، فتضطره الحملات اليهودية المكثفة إلى تراجع مؤلم عنها. بلغت محنة الجيش المصري ذروتها من ٢٤ حتى ٢٨ ديسمبر، أمام أعين أبناء الشعوب العربية الذين كانوا يتطلعون إلى جيوش دولهم فيرونها ملتزمة مواقعها، لا تتحرك فتمد إلى الجيش المصري يد المساعدة أو المساندة. كان العرب في مختلف أقطارهم في شبه ذهول مما يجري لأمتهم تحت قيادة حكام يكتمون عنهم حقائق الأمور، إن لم يكونوا على جهل فاضح بتلك الحقائق.. وفي جلسة عقدها مجلس النواب السوري في ٢٨ ديسمبر تعاقب على المنبر عدد من النواب منتقدين بقسوة سياسة حكومتهم في معالجة القضية الفلسطينية من كل نواحيها، وتقاعس جيشها والجيوش العربية الأخرى عن مؤازرة جيش مصر في محنته الخطيرة، وتقدم كاتب الذكريات مع آخرين من النواب باقتراح مكتوب يلح على الحكومة السورية بالعمل سريعاً بما هو واجب لنصرة الجيش المصري في معركته الحاسمة.

وفي عام ١٩٦٢، دخل العجيلي الوزارة السورية التي شكلها بشير العظمة، عقب مرحلة الوحدة مع مصر، وكانت فترة عاصفة في سورية، وقد تولى العجيلي وزارات الثقافة والخارجية والإعلام. وفي كل وزارة من هذه كانت مواقف وأحداث، وكانت نتائج وثمار، وفي كل الأحوال فإن الرجل لم يعاود هذه التجربة مرة أخرى، وعاد إلى بلدته «الرقة» ليستأنف عمله طبيبًا يداوي المرضى، وكاتبًا يعالج النفوس.

ولأن دخول العجيلي وزارة «بشير العظمة» ارتبط بقضية الوحدة والانفصال، فقد كانت للرجل آراؤه التي أعلنها قبل تنفيذ الوحدة، خوفًا عليها من الانتكاس والإخفاق. وقد كتب في جريدة «الكفاح» اللبنانية عدد ٢٣/١/١٩٥٨ مقالاً بعنوان «اتحاد سورية ومصر» وصف فيه الاتحاد بأنه خطوة نحو حلم العرب ومثلهم الأعلى، ولكنه رصد التباين بين موقف السوريين والمصريين واختلاف النظم الاقتصادية والحقوقية والإدارية، ومستوى المعيشة والحالة الاقتصادية. ورأى أنه لابد من تذليل العقبات وتهيئة الجو المناسب، والأساس المتين الذي لا يعتمد على الحلول المرتجلة ولا تفت فيه خلافات عميقة لم تتم تسويتها.. وما حذر منه الرجل حدث، وكانت كارثة الانفصال بسلبياتها التي جرت كثيرًا من المتاعب للطرفين.

لم يعمر العجيلي في الوزارة كثيرًا، وإنما هي بضعة شهور قضاها بين الوزارات الثلاث: الثقافة، والخارجية، والإعلام. كان منهجه فيها أن يعمل وفق الصالح العام ساعيًا إلى الإنجاز بقدر ما يستطيع، محاولاً بقدر الإمكان أن يقترب من المرءوسين والمعاونين بوصفهم زملاء له في العمل، مستخفًا في كل الأحوال بالرسميات ونافرًا منها. وفي أول توليه الوزارة طلب من الأمين العام في الوزارة ألا يتوافد عليه العاملون لتحيته كما هي العادة مع الوزراء الجدد، لأنه سيمر عليهم بنفسه في مكاتبهم، ويتعرف عليهم فردًا فردًا مما ترك أثرًا حسنًا في نفوس الموظفين على استغرابهم إياه. وهذا الاستخفاف بالرسميات هو الذي دفعه ذات يوم أن يقف مع الناس أمام الوزارة بعد أن خرج من مكتبه ليشاهد استعراض فرقة أدلب أو أريحا الفولكلورية، وهو ما أثار استغراب الموظفين أيضًا لأنهم لم يتعودوا ذلك من وزير من قبل.

ويلفت النظر أن كاتب الذكريات لم يغفل الإشارة إلى أن العسكر كانوا غالبًا حاضرين من وراء الستار في عمل الحكومة، وإن لم يسمح لهم هو أن يمارسوا هذه اللعبة معه. وقد أشار إلى قصة فحواها أنه تلقى من شقيقه عبد العظيم، وكان في ذلك الوقت طالبًا جامعيًا يدرس الهندسة في مدينة كولومبس بولاية أوهايو الأمريكية، رسالة يقول له فيها إن جريدة «نيويورك تايمز» كتبت عنه قائلة إن سورية يحكمها طبيب شاب متميز، يعاونه أو يدعمه ضباط مستنيرون يحبونه ويرهبونه في آن واحد!

ضحك لهذا الوصف وكتب لأخيه: إن ما ذكرته الجريدة لا ينطبق عليه في شيء، فلا هو حاكم لسورية بل مجرد عنصر عادي من عناصر الحكم، و«لست مدعومًا بضباط أو معتمدًا على الضباط»، وإن كانت البلد لا تفتقد المستنيرين، ثم إنه لا يرهب أحدًا، ولا يحب أن يكون بين الذين يرهبون الآخرين.

ويشير إلى أن علاقته بالجيش، مؤسسة وضباطًا، كانت دومًا علاقة محبة وتقدير منذ كان عضوًا بالمجلس النيابي عام ١٩٤٧. وهذه العلاقة الحسنة، كانت من عوامل بروز اسمه والالتفات إليه حين كثرت الأزمات السياسية في سورية عقب الانفصال، وعندما كثر تدخل العسكريين في توجيه سياسة الدولة، وأصبح



أبو ذر الغفارى (الطبقة الثانية)

ابن جنادة بن كعيب بن صُعير بن الوَقعة بن حرام بن سفيان ابن عبيد بن حرام بن غفار بن مُليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خُزيمة بن مدركة بن إلياس بن مُضر .

قال : أخبرنا محمد بن الفضيل عن مطرف عن أبى الجهم عن خالد بن وهبان وكان ابن خالة أبى ذر، عن أبى ذر قال : قال النبى ﷺ : يا أبا ذر كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يستأثرون بالفيء؟ قال قلتُ : إذًا والذى بعثك بالحق أضرب بسيفى حتى ألحق به . فقال : أفلا أدُلك على ما هو خير من ذلك؟ اصبر حتى تلقانى .

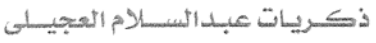
قال : أخبرنا هُشيم قال : أخبرنا حُصين عن زيد بن وهب قال : مررتُ بالربذة فإذا أنا بأبى ذر ، قال فقلت ما أنزلك منزلك هذا؟ قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله﴾ «سورة التوبة : ٣٤»، وقال معاوية : نزلت فى أهل الكتاب، قال فقلت : نزلت فينا وفيهم . قال فكان بينى وبينه فى ذلك كلام، فكتب يشكونى إلى عثمان، قال فكتب إلىّ عثمان أن أقدم المدينة، فقدمت المدينة وكثر الناس علىّ كأنهم لم يرونى قبل ذلك . قال فذكر ذلك لعثمان فقال لى : إن شئت تنحيت فكنت قريبًا . فذاك أنزلنى هذا المنزل ولو أمر علىّ حبشى لسمعت ولأطعت .

قال : أخبرنا يزيد بن هارون قال : أخبرنا أبو أمية بن يعلى عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذى لهجة أصدق من أبى ذر، من سره أن ينظر إلى تواضع عيسى ابن مريم فلينظر إلى أبى ذر .









ذكريات عبد السلام العجيلى

لهم الرأى المرجح فى الشخصيات المرشحة للحكم؛ كانوا يدعونه من مكان إقامته البعيد فى الرقة، وبصورة عاجلة للاشتراك فى اجتماعات تعقد فى أغلب الأحيان فى نيابة الأركان العامة أو فى نادى الضباط بدمشق ليعطى مع الحاضرين رأيًا أو يشارك فى صياغة قانون أو تعديله يتعلق بسير الحياة السياسية. كما كان اسمه يقترح أو يقحم، «بعلمه أو من دون معرفته»، فى مشروعات تشكيلات وزارية قل أن تدخل فى حيز التنفيذ.

ولعل هذه العلاقة الحسنة مع الجيش هى التى جعلته يرفض تصرفات بعض الضباط التى تتعلق بعمله فى الوزارة أو الضغوط التى كان يمارسها بعضهم لتحقيق مصالح خاصة. ويشير كاتب الذكريات صراحة أن رئيس الجمهورية لم يكن هو صاحب القول الفصل فى كل ما يجرى فى مختلف مجالات سياسة الدولة، ويشرح ذلك بأن الوزراء فى الحكومة كانوا صنفين: الأول يضم الوزراء السياسيين أصحاب الفكر والممارسة السياسية، والآخر يضم الوزراء التكنوقراط الذين يعملون من خلال خبرتهم العلمية والإدارية وهؤلاء بعيدون عن القرارات التى تتجاوز حدود عملهم الفنى. أما الأولون فلم يكونوا أصحاب الكلمة العليا فى سياسة الدولة، لأن هناك هيئة أخرى غير مرئية، ولكن قراراتها فعالة ونافذة. هذه الهيئة كانت تسمى مجلس الأمن القومى الذى يتشكل بالإضافة إلى رئيس الجمهورية ووزراء الداخلية والخارجية والدفاع والمالية، من قائدى قوى الأمن وعدد كبير من ضباط الجيش بينهم رئيس الأركان ورؤساء الشعب المختلفة فيه. ومباحثات هذا المجلس سرية وكذلك قراراته وتوصياته ويقسم أعضاؤه على الالتزام بهذه السرية فى أول عهدهم بالانضمام إليه.



لم يكن العجيلى متمسكًا بالوزارة، بل كان يتحين الفرص للتخلى عنها، إلا أنه كان حريصًا مادام يحمل عبء المنصب على ألا يتنازل عن اقتناعاته، ولا عن العمل بما تمليه هذه الاقتناعات فى ممارسة مسئوليات المنصب، وحين وجد أنه وزملاءه الذين يشاركونه الرأى لا يستطيعون الحيلولة دون ما يقرره رئيس الجمهورية ويقبل به رئيس الوزراء، لم يشأ أن يكون شريكًا فى قرارهما. لذا تقدم إلى رئيس الوزراء بكتابة استقالته الشخصية قبل أن تقدم الحكومة استقالتها.

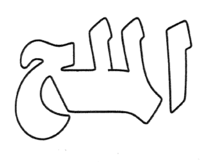
ويروى العجيلى بعض المواقف التى تعرض لها عقب انقلاب ٨ مارس ١٩٦٣ الذى انتهى به ما يسمى عهد الانفصال، وإن لم ينقض الانفصال ذاته، ومنها فرض الإقامة الجبرية عليه فى بيته حتى إشعار آخر، وهى إقامة لم تستمر أكثر من يومين حيث جاءه من يعيد الأمر إلى طبيعته، وليمارس العجيلى عمله طبيبًا فى عيادته. كما يشير العجيلى إلى أن تقارير كانت ترفع إلى دوائر الدولة المركزية فى القاهرة، تتحدث عنه بغير الروح الطيبة التى لمسها من بعضهم، متوخية إلحاق الأذى بسمعته السياسية والشخصية، فقد جاء فى مذكرات «صلاح نصر» رجل المخابرات الأول فى زمن الرئيس جمال عبد الناصر أن المؤامرات كانت تحاك ضد الوحدة فى منطقة الفرات والجزيرة وأن الذين كانوا يحيكونها هم: عبد السلام العجيلى وآخرون.

لم يكن صلاح نصر يعرفه بالطبع، ولا هو كان يعرفه، ولكنها تقارير رفعت إليه، ممن كانوا حوله، تضمنت وشايات كاذبة تبغى الأذى له وللبلاد معًا.



وبعد عامين أو أكثر من ترك الوزارة، تلقى العجيلى رسالة رسمية من مدير عام هيئة الإذاعة والتليفزيون يطلب منه رد «راديو» ترانزستور سيلفر موديل ٢٩٠ كان قد تسلمه فى أثناء توليه وزارة الإعلام. ويبتسم الرجل.. لهذا الطلب، لأنه كان لا يستخدم ما يخص الوزارة، حتى السيارات الرسمية ما كان يستخدمها إلا عند الضرورة مفضلاً استخدام سيارته الخاصة. وكان يشترى من جيبه حاجات مكتبه فى الوزارة حتى بعض أصناف الأوراق والأقلام. ترى ما الذى يفعله بهذا الراديو الهزيل فى خلال عامين مرا وهو ملقى فى أحد أدراج مكاتبهم؟ وانتهى الأمر بأن مدير مكتبه أيام الوزارة وبعدها قال للمسئولين: إن الراديو فى درج مكتبى، تعالوا خذوه!

وإذا كانت السياسة قد استغرقت بعض سنوات العجيلى فى المجال العملى، فإنها استغرقت عمره المديد - إن شاء الله - من خلال مقالاته وكتبه ومحاضراته وأفكاره التى بثها فى قصصه ورواياته، سعيًا واجتهادًا لتتجاوز الأمة ما تعيشه من محن وأزمات وآلام، إلى ما تطمح إليه من تقدم وتفوق ورخاء، وفى ذكرياته السياسية جوانب كثيرة لتجربة تستحق أن يستفاد بها ومنها من جانب كل محب لوطنه وأمته. ■



سـر الحيـاة
ووقـود التفكـير





منذ فترة طويلة جداً كان يعتقد أن الملح مادة عجيبة يمكن أن تحول دون الموت جوعًا بحفظها للطعام. وعلى مستوى الأسرة، كان الملح عنصرًا مهمًا من عناصر الطقوس والأساطير والضيافة



في عـــام ١٨٧٠ أمـــرت السلطات الإمبريالية في لندن مصممًا للشعارات بتصميم علم وشعار لجزء من الامبراطورية البريطانية اسمه تيركس أند كايكوس Turks and Caicos ولم يكن المصمم قد سمع من قبل عن ذلك المكان، فأرسلوا له رسمًا لأحد الفنانين المحليين يظهر فيه مشهد تقليدي: رجال يستعملون أدوات تستخدم منذ القدم، وخلفهم تلال بيضاء كبيرة. وكان الاهتمام في ذلك الوقت باستكشاف المنطقة القطبية في أوجه، فأعطى المصمم التلال البيضاء مكانًا بارزًا في الشعار الذي انتهى منه، حيث كان هناك منظر عام لبيوت من الثلج لها أبواب.. وقد ظل شعار جزر تيركس أند كايكوس حتى عام ١٩٦٨ وكان أهل الجزر الواقعة في البحر الكاريبي من الخجل أو الأدب بحيث لم يخبروا سادتهم الامبراطوريين أن الصقيع والجليد غير معروفين لهم، وأن التلال البيضاء كانت أكوامًا من المنتج الوحيد الذي يحقق أرباحًا في تيركس أند كايكوس، وهو الملح.

وفي الوقت الذي حصلت فيه تيركس أند كايكوس على علمها المجنون، كان معظم الفيكتوريين في الوطن الأم يفكرون في الملح - إن كان بينهم من يفكر - على أنه شيء رخيص ويسهل الحصول عليه، كما نظن نحن الآن، وكان اهتمامهم قليلاً بالمكان الذي يأتي منه. ولم يكن الأمر دائمًا كذلك. فعندما وصل الرومان إلى بريطانيا، قالوا إن السكان المحليين يعانون من شح شديد في الملح حتى أنهم كانوا يصبون ماء البحر على الفحم ويكشطون البلورات التي تتبقى على الخشب المتفحم. والآن تنتج الولايات المتحدة وحدها أربعين مليون طن من الملح سنويًا، حيث يُستخدم ٨ بالمائة فقط من هذه الكمية في الطعام وينثر أكثر من النصف على الطرقات في الشتاء.



ومنذ فترة طويلة جدًا كان يعتقد أن الملح مادة عجيبة يمكن أن تحول دون الموت جوعًا بحفظها للطعام. وعلى مستوى الأسرة، كان الملح عنصرًا مهمًا من عناصر الطقوس والأساطير والضيافة. ومع ذلك فقد كان منذ آلاف السنين، باعتباره السلعة الوحيدة التي تتصف بأنها ثمينة وضرورية، تعويذة لكل ما هو أسوأ في السلوك البشري - الاستعباد والجشع والحرب واستغلال الأقوياء للضعفاء وتضييعنا الأرض لما ورثناه من الطبيعة.

ولم يكن جهل الموظف الإمبراطوري بما كان يجري على أرض مستعمرة الملح التابعة للإمبراطورية بريئًا كل البراءة. فلا تزال تيركس أند كايكوس مستعمرة بريطانية، إلا أن إحدى الجزر، وهي سولت كاي Salt Cay، هي صحراء ما بعد الملح تغطيها السحالي، وتعد تذكارًا لثلاثمائة سنة من الاستغلال الذي لا يعرف الرحمة ولم ينته إلا منذ عقود قليلة. فقد قُطّعت أشجار الجزيرة من أجل أشغال الملح، كما جُفّفت الأرض. ووصف مارك كورلانسكي Mark Kurlansky الذي ذهب إلى هناك مقابلة كبار السن الذين شاركوا في أشغال الملح، وهم سكان الجزيرة السود الذين يذكرون أنهم كانوا يحصلون على أجر قدره شلن وستة بنسات في اليوم مقابل عمل شاق ينقلون فيه أكياس الملح. وبما أنه لم يكن هناك وجود لعمل بديل. فقد كانوا بالتأكيد عبيدًا كذلك.

ومن الصعب القول من هم الذين عاملهم الحكام والرأسماليون أسوأ معاملة على مر السنين: أهم من كانوا ينتجون الملح، أم من كانوا مضطرين لشرائه؟ بل إنه في الوقت الذي كانت تتلقى فيه تيركس أند كايكوس علمها، كان البريطانيون في جزء آخر من الغابة الإمبراطورية، في الهند، يكملون شبكة اللوائح والنظم التي قصد بها إعطاء الملح الذي يصنعه البريطانيون ميزة تنافسية على الملح المنتج محليًا، مستخدمين في ذلك كل السبل الشريرة.



وقبل أربعة آلاف سنة من وصول البريطانيين، كانت الهند تحصل على ما يكفيها من ملح من مستنقعات الملح في جوجارات على الساحل الغربي وملاحات أوريسا في الشرق. وللقضاء على هذه المنافسة التي يلاقيها ملحها الأغلى ثمنًا، الذي كان يُنتج في (تشيشاير) Cheshire كانت عائلة من عائلات تشيشاير المنتجة للملح أحد مؤسسي صناعة (اتيركس أن كايكوس)، سعت بريطانيا في البداية إلى شراء كل الملح الذي يخرج من أوريسا، كما أصدرت مرسومًا يحظر بيعه في البنغال: ثم قامت في عام ١٩٠٣ بضم أوريسا بالقوة. وفي ذلك الوقت أممت إنتاج الملح - الذي كان من قبل حرفة الفلاحين - وحظرت البيع الخاص له، ومنعت نقله، واستخلصت لنفسها مخزون الملح الخاص. وبحلول عام ١٨١٤ كان محرمًا على أي إنسان غير الحكومة البريطانية استخراج الملح في أوريسا. ومن أجل منع تهريب الملح، زُرع سور من الأشواك طوله ٢٥٠٠ ميل بارتفاع ١٤ قدمًا وعرض ١٢ قدمًا، وكان يمتد من أوريسا إلى جبال الهمالايا ويُعرف بخط الجمرك. وفي عام ١٨٣٦ وتحت ضغط من صُنّاع الملح، رفعت الحكومة قيمة الضريبة المفروضة على ملح أوريسا مما جعله غير منافس للملح المستورد (أي البريطاني). وقللت السلطات إنتاج ملح أوريسا، ثم أمرت في عام ١٨٦٣ بوقفه تمامًا. وأعقبت ذلك المجاعة ونقص الملح في البنغال. وبعد أن لاحظ البريطانيون ما تسببت فيه سياساتهم من موت وفقر، فتحوا مصنعًا لإنتاج الملح المحلي الرخيص، ولكنه حقق نجاحًا كبيرًا، ففرض لوبي تشيشاير إغلاقه. ويقول كورلانسكي: «ما إن أُغلق المصنع حتى مات العمال جوعًا، بينما كان الملح الذي هو محصولهم النقدي التقليدي ملقى تحت أقدامهم في صورة رقائق متلألئة في انتظار أن يلتقطوه ويبيعوه. بل كان مجرد كشط الملح من على سطح الملاحات يعد مخالفة تستحق العقاب الشديد». وكان أحد شواطئ جوجارات قد شهد في عام ١٩٣٠ تحدي غاندي العلني للحكومة البريطانية بالتقاطه قطعة من الملح المترسب بطريقة طبيعية.

Salt : A World History
(الملح.. تاريخ عالم)
Mark Kurlansky
Walker & Co, 2002, 352P.

مخالفًا بذلك قوانين الملح وبادئًا الرحلة إلى استقلال الهند، داعيًا إلى تقليد دام طويلاً من ثورات الملح المناوئة للبريطانيين في أوريسا.

وعاشت تشيشاير هي الأخرى الجانب المظلم من الملح. فقد قطّع المستثمرون، ممن لا يكادون يخضعون لأية لوائح ويغلون مياه البحر للحصول على الملح، أشجار الغابات وألحقوا أضرارًا بالغة بالحقول بما يلقونه فيها من نفايات كيماوية، كما غطوا الريف بمداخن قصيرة ملأت الهواء بالدخان الكثيف الداكن. وعلى مدى ثلاثة قرون، أدى شفط الماء المالح الطبيعي من مستودعات الملح الصخري الجوفية إلى تجوف الأرض بطريقة غير متوقعة؛ ففي عام ١٨٨٠، تعرض أربعمائة مبنى في نورثويتش Northwich للدمار أو الضرر. وتمشيًا مع روح العصر - أو فهمنا لها - كان من الممكن تمييز شكل واعظ يرتدي الملابس السوداء من بين الدخان، حين كان يقف على شفا حفرة كان يقوم مكانها بيت من البيوت، ويلقي في الناس موعظة عن اللعنة الأبدية.

لم تقتصر القسوة في السعي وراء الملح على العالم القديم. ففي السنوات الأولى من حياة الولايات المتحدة كان حكام البلاد الجدد، الذين كانوا بحاجة شديدة إلى ملح محلي، يرهبون هنود الأونونداجا Onondaga في ولاية نيويورك المتحدثين بلغة إيروكوا Iroquois كي يسلموا أرضهم الغنية بالماء المالح مقابل الحصول على ١٥٠ بوشل من الملح سنويًا. ولم يكن الأمر هو أن هذه كمية قليلة جدًا من الملح وحسب: بل إن الأونونداجا لم يكونوا بحاجة إليه. ومع أنهم لا يستطيعون استعادة أراضيهم، فهم لا يزالون يتلقون الملح؛ وهم يستخدمونه لصنع الكرنب المخلل لمستعمريهم. وبما أن الهنود باتوا خارج الصورة، فقد واصل الأمريكيون المحدثون صنع الملح، وتحقيق الثروات، ونهب البيئة. ففي البداية قطّعوا الغابات المحيطة وأحرقوها لغلي الماء المالح؛ وبعد ذلك استوردوا الفحم إلى أن صار أغلى مما يجب؛ ثم استخدموا التبخير الشمسي، إلى أن بات سعر ملحهم أعلى من أسعار السوق وماتت صناعتهم، وتُركت بحيرة أونونداجا على قدر من التلوث بكربونات الكالسيوم والزئبق بحيث تحتاج إلى ٦٠٠ مليون دولار تقريبًا لتنظيفها، كما ذكر بيير لازالو Pierre Laszalo.

ومن بين كل أشكال الظلم المرتبطة بحاجة البشرية إلى الملح وطمعها في المال، وكثير غير ذلك مما يناقش في هذين الكتابين القيمين، تبرز ضريبة الملح الفرنسية la gabelle ـ ولم تكن قد أُلغيت تمامًا حتى عام ١٩٤٦. ولكي ينتزع التاج الفرنسي الضريبة من أهل البلاد، أصدر مرسومًا يقضي بأنه على كل شخص تعدى الثامنة في شمال فرنسا أن يشتري سبعة كيلوجرامات من الملح سنويًا. وكان ذلك أكثر مما يمكن لأي شخص أن يستخدمه، ما لم يكن استخدامه لحفظ الطعام، وهو ما لم يكن مسموحًا لهم القيام به ـ مما اضطرهم لشراء المزيد من الملح. وإلى جانب ازدياد ثقل الضريبة على الأجيال المتعاقبة، فقد أصبحت ظالمة إلى حد كبير. وأدى تعديل جان بابتيست كولبير Jean-Baptiste Colbert لضريبة الملح عام ١٦٨٠ إلى تقسيم البلاد إلى ست مناطق، حيث كانت كل منطقة تدفع ضريبة تختلف عن الأخرى. ففي الضفة الشمالية لنهر اللوار Loire، كان ممكنًا في مرحلة من المراحل شراء مينوت من الملح (٤٩ كيلو) بسعر ٣١ سو (٢٠/١ من الفرنك)؛ بينما كانت نفس الكمية تُباع على الضفة الجنوبية بـ٥٩١ سو. وليس مستغربًا أن التهريب كان منتشرًا. وكان ضباط الجمارك يضطرون لاستحضار الجنود الذين كان الناس يكرهونهم ويحاربونهم بنفس المرارة التي يحاربون بها جيش الاحتلال. وفي السنوات السابقة على الثورة، كان يُحكم في كل عام على أكثر من ثلاثة آلاف فرنسي من الرجال والنساء والأطفال بالسجن أو الإعدام، لانتهاكهم قوانين الملح. وعقد لازالو مقارنة بين ضريبة الملح الفرنسية والضرائب التي تفرض حاليًا في أوروبا على البنزين، إلا أن المخاطر كانت أكبر في القرن الثامن عشر. ففي ٢٥ يوليو ١٧٨٥ أمر قاضي ضريبة الملح شخصًا يدعى ج. فورنييه Fournié بدفع غرامة قدرها ٢٠٠ جنيه بسبب مخالفات تتعلق بالملح. ولأنه لم يستطع تدبير المبلغ، فقد حُكم عليه بتعرية نصفه الأعلى، والطواف به في أنحاء البلدة، وجلده علنًا، ووسمه بالحديد المحمي، كما أمروه بأن يقضي بقية حياته على سفينة للمذنبين.

وكان ماتياس ياكوب شلايدن Matthias Hakob Schleiden، وهو أحد علماء النبات الألمان في القرن التاسع عشر، يعتقد أن فرض ضرائب الملح علامة أكيدة من علامات الاستبداد. وكانت تلك قضية تزعج المفكرين وتدهشهم على الأقل منذ عام ٣٠٠ ق.م، حين اقترح وزير صيني على حاكم دولة قي تحصيل عائدات احتكار الملح. وقد قال إن بعض مناطق المملكة تعاني من نقص في الملح بصورة تصيب الناس بالمرض. وهؤلاء يمكن فرض قدر أكبر من الضرائب عليهم.

ووجدت الفكرة قبولاً وصارت في نهاية الأمر سياسة امبراطورية الصين الناشئة. وكان المال الذي يُجمع من احتكار الملح، إلى جانب المال الذي يحصل من احتكار الحديد المماثل له، يُدفع لبناء سور الصين العظيم. وبعد عدة أجيال، ومنذ حوالي ٢١٠٠ سنة، عقد الامبراطور جاو دي مؤتمرًا للخبراء لمناقشة الحكمة من الاحتكارات التي يمقتها الناس وحفظت نسخة من المداولات بعنوان «رسالة في الملح والحديد». وكان الجدل يدور حول مسألة حدود ما يمكن للحكام عمله لشعبهم باسم المصلحة الوطنية. وقال الفريق القانوني إن الأرباح التي تأتي من الضرائب المفروضة على الملح والحديد ضرورية لصمود الدولة في مواجهة الأعداء الخارجيين. وأجاب الفريق الكونفوشيوسي بأن الحكم الحكيم الحميد والسلوك الأخلاقي هما أفضل شيء، ولا ضامن غيرهما للدفاع. وينقل كورلانسكي ما قاله مينج تسي، مؤلف أحد النصوص الكونفوشيوسية الرئيسية، عن فوائد الدولة:



لماذا تستخدم جلالتك كلمة فائدة؟ إن كل ما يهمني هو الخير والحق. وإن قلت جلالتك كيف أفيد دولتي؟ سيقول موظفوك كيف أفيد عائلتي؟ وسيقول الضباط وعامة الناس كيف أفيد نفسي؟ وما إن يتنافس الرؤساء والمرؤوسون على الفائدة حتى تصبح الدولة في خطر.



لم أقرأ بعد كتاب كورلانسكي الرائع (Cod: A Biogragpy of the Fish that Changed the World) «قصة حياة السمكة التي غيرت العالم»، أو كتابه (Basque History of the World) «التاريخ الباسكي للعالم»، ولكن بعد أن قرأت (Salt: A world of History) «الملح: عالم تاريخي» أشعر وكأني قرأتهما. فكتاب «الملح» فيه عن الحيتان والباسك ما يزيد قليلاً عما يجب أن يعرفه المتحمسون الخالصون لما يسميه كورلانسكي «العائلة الوحيدة من الصخور التي يأكلها البشر». ويعمل كورلانسكي بذخيرة متجددة من الحقائق. فبعض الحقائق الخاصة بكل إنتاج سابق تعاود الظهور فيما يتلوه. فالحيتان من الأسماك المهمة. وكان الباسك يصطادونها. ولكي يخزنوها لمدة طويلة، كانوا بحاجة إلى كميات ضخمة من الملح.

إن كلا المؤلفين يقدمان برميل مخللات ثري من الحقائق والحكايات عن الملح. فكورلانسكي يشير في تقديمه للكتاب إلى مكتبة نيويورك العامة وما يزيد على ألف كتاب عن الملح في أقبيتها. ويبدو أن لازلو وقع على المصادر ذاتها، ومن ثم فإن ما يدعو للاستغراب أن الكتابين يشتركان في كثير من الأشكال التوضيحية.



لولا الملح العادي ـ كلوريد الصوديوم ـ لمتنا. فالكلوريد مهم، ولكن الصوديوم ضروري للطريقة التي تعمل بها الحياة ميكروثانية بميكروثانية وخلية بخلية. فنحن حين نفكر، نفكر بأيونات الصوديوم وتتحرك أيونات البوتاسيوم جيئة وذهابًا لتوليد الشحنات الكهربائية اللازمة للومضات العصبية. ومن ثم كان اشتهاء الجسد للملح. وهناك نوع من الفراشات يجمع الملح الذي يحتاجه للتزاوج عن طريق قضاء حوالي ثلاث ساعات في كل مرة وهو يشرب من برك المياه، حيث يخزن كميات ضئيلة من الصوديوم ويصدر عنه انبجاس طوله ٥٠ سنتيمترًا من البول كل بضع ثوان. وكان أسلافنا ممن عاشوا على الصيد والجمع يحصلون على ما يحتاجونه من ملح من اللحوم والأسماك، إن توفرت في غذائهم. وما إن استقر الإنسان واستأنس الحيوانات



وأخذ يزرع المحاصيل حتى أدرك أن عليه توفير الملح بصورته الخالصة من أجل بهائمه ومن أجله هو، وأن عليه حفظ الطعام ليقيم به أوده فى وقت المجاعة (الذى كان يشمل الشتاء المعتاد). ومن هنا جاءت المخللات والسجق والسمك المملح واللحم المقدد والجبن والصلصات ـ ومن ثم فى واقع الأمر الكثير من الأشياء الرائعة فى الطعام.

وكما يشير كورلانسكى، فإن فى هذا بعض المفارقات. ذلك أن هذه الأطعمة، التى كانت فى يوم من الأيام ضرورية لمنع خطر الموت جوعًا الذى كان الجميع معرَّضين له، موجودة الآن فى عصر التبريد وأطايب الطعام. وفى يوم من الأيام كانت هناك وفرة كبيرة فى الأسماك وكان الملح غالى الثمن، واليوم الملح وفير والسمك هو النادر. لقد تلاشى المعنى الفطرى لدور الملح باعتباره واهب الحياة. وفى وقت من الأوقات كان يُنظر إلى الملح نظرة صوفية ميتافيزيقية. فقد كانت للملح نفس صفة النار؛ وهى تغيير الأشياء. غير أنه بينما كانت النار تفنى ما هو دائم، كان الملح يديم ما هو فان. والملح كرمز للدوام ـ إذ لا يحفظ وحسب، بل يمكن إذابته وبلورته فى الماء وخارجه بلا نهاية ـ كان قدماء المصريين والإغريق والرومان والعبرانيون ينذرونه لآلهتهم. ولا يزال الملح جزءًا من الشعائر اليهودية. وفى ويلز Wales كان من المعتاد حين يموت شخص أن يوضع الخبز والملح على النعش ويُستدعى أكلة الخطايا المحترفين لأكل الملح. وفى السويد كانوا يعطون الفتيات اللائى فى سن الزواج طعام الأحلام شديد الملوحة ـ وهو ثريد الأحلام أو فطيرة الأحلام ـ ثم ينمن دون أن يشربن، حيث كان من المتوقع أن من يعطونهم الماء فى أحلامهن سيكونون أزواج المستقبل.



وفى بعض الأحيان كانت هناك صلة مباشرة أكثر بين الملح وعالم الأرواح. وكان من الممكن تمليح البشر بعد موتهم. وفى عام ١٦٧٠ صدرت الأوامر فى فرنسا بتمليح من ينتحرون ووضعهم للعرض كتحذير للأحياء. وكانت مومياوات مصر القديمة فى المقام الأول أشخاصًا مملحين، وإن حُفظوا فى النطرون، وهو نوع مختلف من أملاح الصوديوم. وفى القرن التاسع عشر، حيث بدأ علماء الآثار التنقيب عن مقابر المصريين وشحن محتوياتها للخارج، كانت تُدفع على المومياوات ضرائب كضرائب السمك المملح قبل أن تسمح السلطات بدخولها القاهرة. وعرف قدماء المصريين ملحهم. فحيث كانت المجاعة تتهددهم على ضفاف النيل الضيقة، كانوا يستعدون لاستئناس وذبح وتمليح كل شىء تقريبًا، فيما عدا الخنزير المحرَّم دينيًا. بل إنهم حاولوا استئناس الضبع، وفشلوا فى ذلك، ولكنهم نجحوا فى استئناس وتمليح الأوز والسمان والحمام والبط والبجع. كما أن المصريين ملحوا بطارخ سمك البورى المجففة التى صارت إحدى الصيحات فى مطاعم لندن فى الفترة الأخيرة. واكتشفوا كيفية استخدام الملح لجعل الزيتون مستساغًا، وكانوا يرشون على طعامهم خليطًا من الماء المالح والخل. وقد خلفوا ما يشبه أول شعار إعلانى فى العالم مكتوبًا على ورق البردى: «ما من طعام أفضل من الخضروات المملحة».



ولا بد أن يحتوى جسم الشخص البالغ العادى على ما يكفى من الملح لملء ملأحتين أو ثلاث ملأحات مائدة. وقد جادت قريحة البشر بملايين أخرى من الطرق غير مجرد رش البلورات البيضاء على النشا. ويرى الكثيرون الملح على أنه متبل. ويرى كورلانسكى أنواعًا مختلفة من الطعام على أنها أدوات معقدة لنقل الملح إلى الجسم. فالبريطانيون يرشون الملح على البطاطس. وكان قدماء المصريين يستخدمون خليط الماء المالح والخل. ويستخدم الصينيون صلصة الصويا المالحة. ويستخدم الفيتناميون صلصة السمك المالحة، وكذلك كان يفعل الرومان ـ وكان الفارق فى طعمها ضئيلاً بين كونه لاذعًا وعفنًا. وقد عزمت على صنع واحدة من الوصفات التى ينثرها كورلانسكى فى أنحاء كتابه ثم أقول رأيى. إلا أنها جميعًا هزمتنى. كنت مستعدًا تقريبًا لأن أخلط سمك الحوت المملح بالتفاح وجوزة الطيب والقرفة والزنجبيل والزبيب والفلفل والكراوية والقُشْمُش والزبيب وماء الورد وقشر الليمون المفروم والسكر والتمر والنبيذ الأبيض والزبد، ثم أخبز الخليط فى التارت، إلا أننى توقفت عند الخطوة الأخيرة من توجيهات روبرت ماى Robert May من القرن السابع عشر التى تشير إلى تجميل الفطائر. ووصفة الكراسبوكس craspoix التى تعود للقرن الثالث عشر غاية فى البساطة، ولكنها تحتاج إلى لحم الحوت المملح. وتبدأ إحدى الوصفات الرومانية كما يلى: «يُنتف ريش البجعة». ووصفة الأويجورو huiguorou نموذج مميز للطريقة التى يطهون بها فى سيتشوان بمكونات مالحة عديدة بدلاً من الملح، إلا أن دولاب المطبخ كان خاليًا من الدوبان (معجون الفاصوليا الجافة المالح الحار) والجاكاى (الخضروات المملحة) والدوسى (معجون الفاصوليا الصفراء المملح). وهذه الفكرة الأخيرة ليست بغريبة عن الطهى الأوروبى الحديث. فالوصفة الأصلية فى كتاب الطهى River Café Cookbook الخاصة بالمكرونة القلم بالطماطم وصلصة الأنشوجة لا تحتوى على الملح وحده لتتبيل الماء، بل هناك كذلك الأنشوجة المملحة وجبن البارميزان. وهناك القمح المملح، والسمك المملح، والحليب المملح: فنحن نشبع اشتهاءنا الفطرى للصخر القابل للأكل. ويحفظ الصخر القابل للأكل المواد الغذائية التى يحميها منذ آلاف السنين. ويسعدنى أن ما أحصل عليه من ملح وأنشوجة وجبن البارميزان يأتى بدون ضريبة الملح. كما يسعدنى أن أقول إن الصخر فى المكرونة القلم طيب جداً بالفعل. ■

بترتيب خاص مع:
London Review of Books
ترجمة: أحمد محمود

كتاب الزاوية

فاطمة

بنت رسول الله ﷺ ، وأمّها خديجة بنت خُوَيلد بن أسد بن عَبْدالعُزَّى بن قُصَى ، ولدتها وقريش تبنى البيت وذلك قبل النبوّة بخمس سنين .

أخبرنا مسلم بن إبراهيم ، حدّثنا المُنذر بن ثعلبة عن علبَاء ابن أحمَر اليَشكُرِى أنّ أبابكر خَطَبَ فاطمة إلى النبى ﷺ ، فقال : يا أبابكر انتظر بها القضاء ، فذكر ذلك أبوبكر لعمر ، فقال له عمر : ردّك يا أبابكر . ثمّ إنّ أبابكر قال لعمر : اخطب فاطمة إلى النبى ﷺ ، فخطبها فقال له مثل ما قال لأبى بكر : انتظر بها القضاء . فجاء عمر إلى أبى بكر فأخبره ، فقال له : ردّك يا عمر . ثمّ إنّ أهل علىّ قالوا لعلىّ : اخطب فاطمة إلى رسول الله ﷺ ، فقال : بعد أبى بكر وعمر؟ فذكروا له قرابته من النبى ﷺ ، فخطبها فزوّجه النبى ، فباع علىّ بعيرًا له وبعض متاعه فبلغ أربعمائة وثمانين . فقال له النبى ﷺ ، اجعل ثُلثين فى الطيب وثلثًا فى المتاع .

أخبرنا يزيد بن هارون قال : أخبرنا جرير بن حازم ، أخبرنا أيّوب عن عِكرمة أنّ عليًا خطَبَ فاطمة فقال له النبى ﷺ : ما تصدقها؟ قال : ما عندى ما أصدقها . قال : فأين درعك التى كنت منحتك؟ قال : عندى . قال : أصدقها إيّاها . قال : فأصدَقَها وتزوّجها . قال عِكرمَة : كان ثمنها أربعة دراهم .

أخبرنا محمد بن إسماعيل بن أبى فُديك عن محمد بن موسى عن عون بن محمد بن على بن أبى طالب عن أمه أم جعفر عن جدتها أسماء بنت عميس قال : جهزت جدتك فاطمة إلى جدك على وما كان حشو فراشهما ووسائدهما إلا الليف ، ولقد أولم على فاطمة فما كانت وليمة فى ذلك الزمان أفضل من وليمته ، رهن درعه عند يهودى بشطر شعير .



جيف مادريك

نفوذ

الثراء

الفاحش

هل تخضع أمريكا لحكم الأغنياء

الأمل الكبير الذى يراود بعض الأمريكيين ذوى الاتجاهات الإصلاحية هو أنه ستكون هناك حركة ارتجاعية سياسية، إن عاجلاً أو آجلاً، ضد التفاوت المتزايد فى أمريكا. ومن بين هؤلاء كيفن فيلبس المستشار الجمهورى الإصلاحى الذى يعد الهدف الأساسى من كتابه (Wealth and Democracy الثروة والديمقراطية) هو بيان أن نمو الثروة الخاصة فى التسعينيات كان مشابهًا لزيادة حجم الثروة الخاصة فى الحقب السابقة، وخاصة فى العصر الذهبى فى أواخر القرن التاسع عشر وعشرينيات القرن العشرين.

ويقول فيلبس إن الثروات الضخمة فى كل تلك الفترات كان لها أثرها على تقويض القيم الديمقراطية وخلق أوقات اقتصادية عصيبة لكثير من الأمريكيين، وربما معظمهم. وفى الماضى كانت الأمة تبدو دومًا متارجحة بين سيطرة المصالح الخاصة والمصالح العامة، ومن الممكن أن تبدو كذلك من جديد. فقد أعقبت عصر فاندربلت وروكفلر وكارنيجى ومورجان الذهبى تنظيمات جديدة للأعمال والتجارة، وضرائب الدخل المتصاعدة، وإنشاء بنك الاحتياط الفدرالى فى عهدى الرئيسين تيودور روزفلت وودرو ويلسون. أما عشرينيات عائلات فورد وميلون وديبون وجوزيف كنيدى وغيرهم فقد أعقبها الاتفاق الجديد فى عهد فرانكلين روزفلت، الذى أقر المزيد من القيود الخطيرة على الأعمال، وأنشأ الضمان الاجتماعى وتأمين البطالة، ووضع حدًا أدنى للأجور، وزاد ضريبة الدخل. وكان جوزيف كنيدى نفسه أول رئيس للجنة الأوراق المالية والبورصة. ويقول فيلبس إن «بداية القرن الحادى والعشرين ينبغى أن تشهد صراعًا آخر لأن تعاظم الشركات فى الثمانينيات والتسعينيات تعدى التعاظم الذى شهده العصر الذهبى».



ولكن لماذا لم يحدث هذا الصراع حتى الآن؟ بل إننا على العكس من ذلك نجد أن العمال الأمريكيين تقبلوا فى الفترة ما بين ١٩٧٩ و١٩٩٥ التباين المتزايد فى الثروة والدخل وسرعة تزايد أرباح الشركات بهدوء وسكينة، بل وبما بدا أنه جَلَد للذات. ومن المؤكد أن الناخبين فى تلك الفترة من النمو الاقتصادى البطىء كانوا محبطين، ولكن ذلك كان فى مصلحة خافضى الضرائب الجمهوريين، مثل رونالد ريجان، أو ديمقراطيى الوسط، مثل بيل كلينتون، وقد وُجِّه ناحية إعادة تقييد الحكومة وليس الأعمال. وبدا أن معظم الأمريكيين شعروا بالرضا لحل النقابات، مثل نقابة المراقبين الجويين، ولإصلاح الرفاهية، مع أن هذا لم يوفر للحكومة الفدرالية أكثر من واحد بالمائة من إجمالى الناتج القومى فى السنة، ولتخفيض الضرائب، بالنسبة للأغنياء فى الغالب. ولم تكن

Wealth and Democracy: A Political History of the American Rich

(الثروة والديمقراطية: تاريخ سياسى للغنى الأمريكى)

by: Kevin Phillips

Broadway Books, 473PP., $29.95

هناك أية محاولة جادة لتنظيم الأعمال. وحتى الشعبيين المحافظين، مثل باتريك بوكانان أو روى بيرو، لم تكن لهم شعبية كبيرة. وبدا أن توسع الائتمان الضريبى للدخل المكتسب، الذى ساعد ما لا يحصى من العمال ذوى الدخل المنخفض، يتسلل دون أن يلاحظه أحد تقريبًا.

وازال الانتعاش الاقتصادى فى أواخر التسعينيات بشكل كامل تقريبًا أية مخاوف كامنة بشأن نفوذ الأغنياء، بينما كانت الأجور ترتفع بعد عقدين من الكساد بالنسبة لكل مستويات الدخل. كما هبط معدل البطالة إلى ٤ بالمائة وأصبحت سوق الأوراق المالية التى ارتفعت أسعارها ارتفاعًا كبيرًا - وإن ظلت لا تفيد إلا نسبة مئوية صغيرة من السكان - الرياضة القومية. وأسفرت المشاكل المالية الدولية فى عامى ١٩٩٧ و١٩٩٨، وانفجار فقاعة سوق الأوراق المالية عام ٢٠٠٠، وحتى فضيحة إنرون الأخيرة، عن مقترحات متواضعة للإصلاح الاقتصادى ولم تقض قضاء تامًا على الدعم السياسى لمزيد من تخفيض الضرائب بالنسبة للأغنياء. والحملة الأخيرة من أجل إصدار تشريع للإصلاح المالى هى الاستثناء الوحيد، غير أن هناك عددًا قليلاً متحمس بشأن مدى فاعليتها.



فيما يتعلق بمن يشعرون بأن حدوث تغير فى اتجاه سياسة أكثر مساواة قد بات مستحيلاً فى الوقت الراهن، يشير فيلبس إلى أن الحركة الارتجاعية فى بداية القرن العشرين احتاجت إلى عشرات السنين كى تكتمل؛ فقد سيطرت على البلاد المواقف الموالية للأعمال طوال ثلاثة عقود بعد الحرب الأهلية. وكان المحرك للإصلاحات العريضة التى تمت فى الفترة التقدمية والاتفاق الجديد هو الأزمة الحادة. وكانت البلاد قد عانت فى عام ١٨٩٣ من أسوأ انكماش اقتصادى فى تاريخ الولايات المتحدة،

مما أدى إلى الغضب الشعبى الذى أعد المسرح للتقدميين بعد عشر سنين تقريبًا. وكان الاتفاق الجديد بطبيعة الحال ردًا على الانهيار الاقتصادى عام ١٩٢٩ وعلى الكساد الكبير فى الثلاثينيات. وإذا كانت البلاد ترغب فى أن تسفر هذه المعاناة الحادة عن إصلاحات فعالة، فإن هذا لن يعجب المنتقدين. فالأسعار قد ترتفع، وقد لا تتم الإصلاحات الفعلية. وبدلاً من الأزمة المفاجئة، ربما تكافح البلاد طوال عشرين سنة أخرى من النمو الاقتصادى شديد البطء الذى قد تكون عواقبه قاسية، ولكنها من التدرج بحيث لا تحدث تغيرًا سياسيًا خطيرًا.

إن التفاوت المتزايد فى الدخول والثروة فى أمريكا منذ السبعينيات أمر مذهل، مع أن من هم على وعى كبير به قلة قليلة. فأكثر من ٤٠ بالمائة من إجمالى الدخل فى أمريكا الآن يذهب إلى أعلى ١٠ بالمائة من أصحاب الدخول، وهو تقريبًا نفس المستوى الذى كان فى العشرينيات ويزيد كثيرًا عن نسبة الثلاثين بالمائة أو نحو ذلك فى أوائل الأربعينيات وأواخر السبعينيات. وكان متوسط دخل أعلى ٥ بالمائة من الأسر صاحبة الدخول يزيد تسع عشرة مرة عن دخل أقل ٢٠ بالمائة فى ١٩٩٩؛ وفى عام ١٩٧٩ كان يزيد قليلاً عن إحدى عشرة مرة. ويملك ١ بالمائة من الأسر الآن أكثر من ٤٠ بالمائة من كل الأصول، بما فى ذلك البيوت والاستثمارات المالية (بعد خصم الديون)، وهو ما يزيد على أى عام منذ ١٩٢٩.

ويرجع السبب فى هذا الانحراف، إلى حد ما، إلى الثروات الضخمة التى تحققت حين ارتفعت أسعار الأسهم ارتفاعًا كبيرًا فى التسعينيات. فقد زاد ثراء أغنى أربعمائة أمريكى ضمنتهم قائمة مجلة «فوربس» أكثر من عشر مرات فى المتوسط عام ٢٠٠٠، عن أغنى أربعمائة أمريكى ضمنتهم قائمة المجلة نفسها عام ١٩٩٠، بينما تضاعف الاقتصاد مرتين فقط. وربما كان صافى قيمة ثروة ثلاث عشرة آلاف أسرة أمريكية يزيد على ٦٥ مليون دولار عام

أكثر من ٤٠ بالمائة من إجمالى الدخل فى أمريكا الآن يذهب إلى أعلى ١٠ بالمائة من أصحاب الدخول، وهو تقريبًا نفس المستوى الذى كان فى العشرينيات ويزيد كثيرًا عن نسبة الثلاثين بالمائة أو نحو ذلك فى أوائل الأربعينيات وأواخر السبعينيات

٢٠٠٠ بينما كان صافى ثروة ربع مليون أسرة يزيد على ١٠ ملايين دولار.

وحتى بدون ضم الأرباح الرأسمالية من الأسهم وغيرها من الاستثمارات، تفاوتت الدخول تفاوتًا كبيرًا. وقياسًا فقط لما يسميه مكتب التعداد «الدخل النقدى»، الذى يستبعد الأرباح الرأسمالية ولكنه يُضَمِّن الأجور والمرتبات والمدفوعات الحكومية والإيجارات وأرباح الأسهم والفوائد، فقد زادت دخول الأسر زيادة كبيرة لا مثيل لها. إذ ارتفع متوسط دخل أعلى ٢٠ بالمائة من الأسر إلى ثلاثة عشر ضعف دخل أدنى ٢٠ بالمائة من الأسر فى أواخر التسعينيات؛ وكان فى أواخر السبعينيات عشرة أضعاف ونصفا فقط.

إذا كان الكثير من قياسات الدخل ومن تفاوت الثروة قد أعاد أمريكا إلى مستويات العشرينيات، فإن الثروات الشخصية الخرافية فى الثمانينيات والتسعينيات تنافس الآن ثروات العصر الذهبى الخرافية، بل تزيد عليها فى بعض الجوانب. ولم يكن هذا هو الحال قبل الثمانينيات، كما يبين فيلبس. ففى عام ١٩٥٧ كان العديد من الأسر، ومنها أسر ديبون وروكفلر وميلون وج. بول جيت وكبار أباطرة البترول، مليونيرات بحق، ولكن ثرواتها لم تكن تقارن بمراكز روكفلر وكارنيجى المهيمنة فى بداية القرن. ولم يكن أكثر الأمريكيين ثراءً عام ١٩٦٨ - وكانت بينهم وقتها أسر هانت أويل وهوارد هيوز وإدوين لاند صاحب بولارويد - أغنى بشكل ملحوظ. وكان الجزء الأكبر من أرباح تلك الفترة التالية للحرب العالمية الثانية يذهب إلى الطبقة الوسطى النامية. وفى عام ١٩٨٢ كانت هناك ثروة كبيرة محصورة حصرًا نسبيًا. ويقول فيلبس: «إلى جانب عمالقة العصر الذهبى، كان مليارديرات ١٩٨٢ الأفراد - خمسة منهم أبناء رجل البترول هـ. ل. هانت من تكساس - يمثلون انحدارًا شديدًا فى كل من الثروة الحقيقية والوضع السياسى والاقتصادى».



تغير ذلك بحلول أواخر الثمانينيات. فقد ساعد تناقص حدة التضخم وتخفيف القيود وزيادة الأرباح على ارتفاع أسعار سوق الأوراق المالية. وفى الوقت ذاته أجرى الرئيس ريجان خفضًا كبيرًا فى الضرائب التى يدفعها الأمريكيون من أصحاب الدخول المرتفعة. ويقول فيلبس إن «الثروة تضخمت بالقدر الذى جعل أكبر الثروات الفردية والعائلية فى عام ١٩٩٢ ضعفى أو ثلاثة أضعاف ما كانت عليه عام ١٩٨٢ وكانت الفجوة بين الأغنياء ومن سواهم تتسع بصورة لم يرها أحد منذ العشرينيات والثلاثينيات».

وبحلول عام ١٩٩٩ كان حجم الثروة الشخصية مذهلاً. فبينما كانت ثروة أغنى أربعمائة أمريكى عام ١٩٨٢ فى المتوسط هى ٢٣٠ مليون دولار طبقًا لما ذكرته «فوربس»، فقد كان متوسط ثروتهم فى عام ١٩٩٩ أكثر من عشرة أضعاف هذا المبلغ، أو ٢,٦ مليار دولار. وكان الكثير من المليارديرات وافدين جددًا مثل وال مارت، وبيل جيتس صاحب «مايكروسوفت»، وعائلة فيشر صاحبة «جاب»، والمستثمر وارين بافيت، وتيد تيرنر. وساهمت كذلك عائلات روكفلر وديبون وميلون وفيبس وهيرست فى الانتعاش الذى شهده

الثروة الخاصة، وإن لم تعد هي صاحبة السيطرة، في الوقت الذي زادت فيه قيمة ثرواتها عشر مرات عما كانت عليه في الثلاثينيات.

بل إنه حتى بعد انفجار فقاعة سوق الأوراق المالية، ظل الكثير من الثروات الشخصية على ضخامته. في الوقت الذي هبط فيه صافي قيمة ثروات الأمريكيين من الطبقة الوسطى هبوطًا طفيفًا منذ الثمانينيات. ورغم الادعاءات الخاصة بديمقراطية المساهمين، لم يساعد ارتفاع أسعار سوق الأوراق المالية سوى الأغنياء. ومع ارتفاع أسعار المنازل في تلك الفترة، فقد اقترض الأمريكيون مبالغ ضخمة بضمان أصولهم الأساسية؛ وهي المكان الذي يعيشون فيه. وقلل الدين صافي ثروتهم وإن حسَّن طريقة معيشتهم في الوقت الراهن.

ولكن من ينتقدون تركز الثروة الخاصة في أمريكا مضطرون للدخول في جدل شديد مع حجة قوية مضادة. فرغم زيادة الثروات الخاصة، التي لا مثيل لها في أي مكان آخر من العالم بعد الحرب العالمية الثانية، وما صاحب ذلك من سوء استغلال للنفوذ في كثير من الأحيان، لا بد من اعتبار التاريخ الاقتصادي الأمريكي نجاحًا كبيرًا بالنسبة لمعظم المواطنين. فقد ارتفع مستوى المعيشة ارتفاعًا جامحًا، وإن لم يكن مستمرًا، بالنسبة لمعظم مواطني البلاد. وظل الواقع يفوق التوقعات. وبقي الكثير من الأمريكيين، وخاصة السود، على فقرهم أو فقدوا وظائفهم؛ ولكن معظم الناس بصورة عامة كانت أعمارهم أطول، وكانوا يحتاجون إلى جهد أقل في العمل، وكانوا يمتلكون بيوتهم، وصار بإمكانهم شراء ما لا يحصى من المنتجات الجديدة والمثيرة. وعادة ما كانت ظروف أبنائهم أفضل من ظروفهم.

فهل كان التدخل الحكومي جزءًا مهمًا في النجاح الاقتصادي الأمريكي؟ في رأيي أنه ما من شك في كونه كذلك. ولكن طبقًا لقدر كبير من التفكير الاقتصادي الخاص بالتيار العام، فإن الحكومة والديمقراطية نفسها يعتبران إجمالاً تكاليف لا أرباح؛ فهما «عدم الكفاءة» التي تتدخل في أساليب عمل السوق. وحسبما يراه هذا التفكير، فإن مهمة الحكومة الأساسية هي إقامة حكم القانون، بما في ذلك قدسية التعاقدات. ولا ينبغي أن يقضي الاحتكار على التنافس؛ ولكن حتى في هذه النقطة يتردد خبراء اقتصاديون كثيرون في تشجيع التدخل الحكومي.

ومن جانبه، ليس لدى فيلبس أية شكوك. فهو لا يتردد في التأكيد على مقدار مساهمة الحكومة في النمو الاقتصادي في أمريكا بما في ذلك الاستثمارات في الطرق والقنوات والتعليم العام والسكك الحديدية والكهرباء والاتصالات والإنترنت. وكذلك الإنفاق على الدفاع استعدادًا للحرب وأثناءها. وهو يهمل بعض المساهمات الحكومية المهمة، كالصحة مثلاً، والمحاولات الأمريكية الأولى لضمان الملكية الرخيصة للجميع. وما كان بإمكان رأس المال الخاص تحقيق ذلك وحده، خاصة حين يتعلق الأمر باستثمارات المصلحة العامة، كالتعليم والرعاية الصحية والنقل، أكثر من تعلقه بالمكافأة الخاصة. ويشير فيلبس، كما أشار كثيرون قبله، إلى أن حرية العمل كانت على الدوام تسمية مغلوطة. فكثيرًا ما كان الأغنياء يعملون بشكل وثيق مع الحكومة، بما يمكنهم من الفوز بعقود الدفاع أو الحصول على الدعم للسكك الحديدية الخاصة بهم على سبيل المثال. ويضع فيلبس التكنولوجيا في موضعها، مذكرًا إيانا بأن الاستثمار والأفضلية الحكوميين ربما كانا أكثر أهمية كمصدر من مصادر النمو الاقتصادي؛ ومن المؤكد أنهما مصدر من مصادر الثروات الشخصية.





ويتتبع فيلبس كذلك معاناة بعض الجماعات الاقتصادية أثناء فترات الانتعاش الاقتصادي التي أفرزت ثروة البلاد الكبيرة. فقد أضير المزارعون بشكل خاص في أواخر العقد الأول من القرن التاسع عشر، وكثيرًا ما كان عمال المصانع يعاملون معاملة فظة. فقد قُمع تنظيم العمال قمعًا عنيفًا. وكانت المحاكم ومجلس الشيوخ الأمريكي، الذي كان ينتخبه في ذلك الوقت أعضاء المجالس التشريعية في الولايات، على قدر كبير من المحافظة والموالاة لمؤسسات الأعمال في تلك السنوات التالية للحرب الأهلية.

وبالمثل خُفضت معدلات ضرائب الدخل مرارًا بالنسبة للأغنياء في عشرينيات القرن العشرين. ويذكرنا فيلبس أنه حتى مع انتعاش الاقتصاد في تلك السنوات فقد الكثيرون وظائفهم نتيجة للتحول التكنولوجي، في الوقت الذي لم يكن فيه وجود لتأمين البطالة. وغذى نمو الثروة الخرافية المضاربة المالية التي أسفرت عن الانهيار المفاجئ المؤلم لسوق الأوراق المالية عام ١٩٢٩.

ومع هذا كله نمت الإنتاجية، التي هي المقياس الأساسي لحيوية الاقتصاد، نموًا سريعًا في العصر الذهبي والعشرينيات. وتعد الإنتاجية، أو ناتج السلع والخدمات في ساعة العمل الواحدة، مصدر ارتفاع مستوى المعيشة. ولم تتحسن أحوال بعض العمال، وإن تحسنت أحوال كثيرين منهم. (كانت زيادة دخول العمال غير المهرة أبطأ من زيادة دخول معظم العمال الآخرين، وذلك بسبب منافسة المهاجرين). وكان ٦٠ بالمائة من الأسر تمتلك سيارة سنة ١٩٢٩ مقابل ٢٠ بالمائة فقط في ١٩٢٠ ولم تتدخل زيادة الثروة في القمة - في ظاهرها على الأقل - في النمو الاقتصادي.

إلا أنه خلال الثمانينيات والنصف الأول من التسعينيات ازدادت الإنتاجية بمعدلات شديدة البطء، في الوقت الذي هبط فيه متوسط الأجور الفعلية. ودخول الأسر العادية في الوقت الراهن أعلى قليلاً فقط، بعد التضخم، مما كانت عليه في الثمانينيات، ولكن حتى هذا التحسن اقتضى من كلا الزوجين العمل ساعات أكثر من تلك التي كانا يعملانها في الماضي. ولا تزال مستويات دخول الأسر بلا أي ارتفاع يساوي ارتفاع نفقات التعليم الجامعي والرعاية الصحية والأدوية والإسكان. وتبين قياسات الدخل المعقدة أن الدخل انخفض بالفعل بالنسبة للكثيرين على مدى فترة طولها ٢٠ عامًا، وفي بعض الجماعات العمرية انخفض بالنسبة لمعظم الذكور. وينسى فيلبس نقطة مهمة بإصراره على بيان التشابهات بين التسعينيات وفترتي خلق الثروة السابقتين عليها. فقد كانت التجربة الاقتصادية في الثمانينيات وجزء كبير من التسعينيات مزعجة إلى حد كبير، لأن ثروات ضخمة تكونت حتى في الوقت الذي كان فيه أداء الاقتصاد متدنيًا بشدة. وعوَّض انتعاش التسعينيات تعويضًا جزئيًا عن الانخفاضات التي طرأت على الدخول الفعلية في العقود السابقة.

ومع هذا كله لم تكن هناك حركة سياسية ارتجاعية تقدمية جادة. وكان الخطاب العام في التسعينيات في كل جزء منه مناوئًا للعمل مثلما كان في العصر الذهبي. ويرى فيلبس أن العولمة في الوقت الراهن تساوي الداروينية الاجتماعية في أواخر العقد الأول من القرن التاسع عشر. ويمكنه كذلك إضافة أيديولوجيا السوق. وهو يقول إن «الديمقراطية والأسواق لا يمكن أن يكونا شيئًا واحدًا». والغريب أنه لا بد من تذكيرنا بهذا.

[٢]

إن غضب فيلبس من التفاوت أخلاقي أكثر منه اقتصاديًا، وهو يعبر عن ذلك الغضب بحجج قوية ومؤثرة تعبر عن وجهة نظر لا بد من عرضها. فهو يعتقد أن التفاوت الحاد سيئ في حد ذاته، وهو موقف يسهل تجاهله في عصر يسيطر عليه المال. فهل يستحق مديرو الشركات أن يحصلوا على ٤١٩ ضعفًا لأجر عمال الإنتاج في الساعة؟ وكانوا في عام ١٩٨٨ يحصلون على ٩٣ ضعفًا فقط، وهو لايزال مرتفعًا ارتفاعًا غير معقول. وزادت مكافأة كبار المديرين التنفيذيين أسرع خمس مرات من زيادة الأرباح في الفترة من ١٩٩٠ و١٩٩٨ فهل يُدفع للعمال ما يستحقونه بالفعل؟

ولكني أظن أن هم فيلبس الأخلاقي والسياسي الرئيسي هو أن نقيضي الثروة يمكن أن يدمرا الديمقراطية. وقد وجد أن هذا هو ما كان عليه الحال في أواخر العقد الأول من القرن التاسع عشر، حين كانت الأعمال والمصالح تسيطر على المحاكم والكونجرس، ثم في عشرينيات القرن العشرين. وهو يشير إلى أنه في وقتنا هذا تأتي ثلاثة أرباع إجمالي المساهمات السياسية في حملة انتخابات الرئاسة وانتخابات الكونجرس من عائلات يزيد دخلها على ٢٠٠ ألف دولار في العام. ومع انخفاض مشاركة الناخبين في التصويت، يورد فيلبس دراسة تبين أن العمال أصحاب الدخول المنخفضة هم أقل من يشاركون في التصويت.

في مثل هذا البيئة ليس مستغربًا أن يكون إقرار تخفيضات الضرائب لمصلحة أناس ذوي دخول عالية وأن يسعى مجلس النواب إلى تخفيض الضرائب على الأراضي الزراعية حتى بعد أكبر زيادة في الثروة في التاريخ. ومنذ ذلك الوقت ومجلس الشيوخ لم يوافق على مشروع القانون. ولا تزال الدعوات المطالبة بخصخصة الضمان الاجتماعي تؤخذ مأخذ الجد. ويمكن للشركات إقرار خطط المعاشات التقاعدية التي يساهم فيها العاملون ويشجِّع من يريدون الادخار من أجل التقاعد كي يساهموا في خطط مثل (ks ٤٠١) (ولكن هناك دليلاً متزايدًا على أنه في ظل نظام المعاش التقاعدي الخاص السابق حين كانت الشركات تضمن فقط مبلغًا يدفع سنويًا) كان حال عمال الدخول المتوسطة والمنخفضة أفضل بكثير. ولكن هناك تفكيرًا جادًا في فرض ضرائب على البنزين لتقليل التلوث والاعتماد على البترول الأجنبي.

وفي الوقت ذاته يتطلب التعليم المزيد من الاستثمارات العامة. ولأنه يمول تمويلاً محليًا في أمريكا، فإن جودته شديدة التباين. وهناك أربعون مليون أمريكي ليس لديهم تأمين صحي، بينما أسعار الأدوية ترتفع بسرعة رهيبة تتعدى قدرة الكثير من الأمريكيين - وخاصة كبار السن - على دفع ثمنها. وتزيد نسبة الأطفال الفقراء في أمريكا عما في أية دولة متقدمة أخرى. ولا تتناسب رعاية الأطفال بصفة عامة مع دولة يعمل فيها معظم الآباء والأمهات. فهل تعكس تلك الترتيبات بالفعل رغبات معظم الأمريكيين؟

وتقوم الصحافة والتلفزيون كذلك بدور في تضييق فجوة الخطاب العام، وإن لم يعطها فيلبس الاهتمام الكافي في كتابه. وتزداد سيطرة عدد صغير من الشركات الكبرى على هذين المجالين. وعادة ما يرأس تلك الشركات بعض أغنى الرجال والنساء في أمريكا، وبينهم الآن ستيف كيس رئيس «إيه أو إل - تايم وارنر»، وروبرت مردوخ رئيس «نيوز كورب» وشقيقاته اللاتي يملكن إمبراطورية «كوكس ميديا». والأمر الأكثر غموضًا بالنسبة لوسائل الإعلام، بغض النظر عمن يملكها، أنها تعاني من نفس الضغط الخاص بخفض النفقات لتلبية أهداف الأرباح الأعلى في السباق التنافسي بالغ الشدة الذي تشجعه بورصة وول ستريت. وفي صحافة الأعمال كان التحمس للاقتصاد الجديد ولرئيس بنك الاحتياط الفدرالي آلان جرينسبان والاهتمام الضئيل بالمحاسبة المضللة وصراعات المصالح بين المحللين الماليين يعكس الشعور المتزايد بأن وسائل الإعلام تساهم في الوقت الراهن في الاندفاع نحو الثروة، وبأنها لا تمعن النظر فيما تقوم به من مراقبة. وقد بدت مترددة إلى حد كبير في نقلها الأخبار الاقتصادية السيئة، إلى أن وقعت أزمتا ١٩٩٧ و١٩٩٨ وانهارت السوق في عام ٢٠٠٠ وأجبرتها فضيحة «إنرون» على نقل تلك الأخبار.

ويخرج الغضب المسحة الشعبية التي لدى فيلبس. فهو يركز تركيزًا خاصًا على ازدياد النفوذ السياسي للمسئولين غير المنتخبين. وهو يبين باعتباره جمهوريًا أنه بعد سنوات من التعيينات الجمهورية أصبح القضاء شديد المحافظة. وهو يمقت بشدة بنك الاحتياط الفدرالي برئاسة جرينسبان - حصن السلطة غير المنتخبة دومًا - الذي تفيد سياساته المستثمرين ومن لهم نفوذ مالي. ويرى فيلبس أن نفوذ المؤسسات غير المنتخبة يصل إلى حد ضياع السيادة القومية. وهو يهتم، كما هو متوقع، بفقدان السيادة لمصلحة الشركات الدولية التي تقل تكلفة العمالة إلى أدنى حد ممكن عن طريق الاستثمار في الخارج، وتقلل الضرائب ببحثها عن مأوى لها في بلاد أجنبية لا تخضع لقوانين الضرائب.



ولكن السؤال الذي تطرحه في النهاية هو: هل هذا كله يضر النمو الاقتصادي؟ هذا السؤال لا بد له من إجابة. فقد كان لإنعاش الأسواق في أمريكا فوائد كثيرة. وأدت أرباح الشركات المتزايدة إلى استثمار أفضل لرأس المال. ويرى بعض المراقبين أن الرضا السياسي في أمريكا دليل على أن الأسواق تخدم معظم الأمريكيين، حتى وإن منحت عددًا قليلاً نسبيًا أرباحًا خرافية. ويقول بعض المدافعين عن الثروات الجديدة إنها كانت مجرد فاتحة الانتعاش الاقتصادي في أواخر التسعينيات، حيث زادت الأجور زيادة سخية بالنسبة لكل فئات الدخل. وكان المستثمرون يحصلون على جزائهم العادل مقابل مدهم الاقتصاد الأمريكي بحيوية جديدة.

إلا أن هناك ادعاءً قويًا بأن التفاوت يضر النمو الاقتصادي وزيادة الإنتاجية، خاصة بعد أن بات أكثر تطرفًا، ومن المؤكد أنه نادرًا ما تكون له أية فائدة. وإحدى المقولات المؤيدة للثروة الخاصة، على سبيل المثال، هي أن الأغنياء يدخرون أموالهم، مما يوفر رأس مال تستثمره البلاد. ولكن المدخرات الشخصية بصفة عامة تناقصت تناقصًا شديدًا في أمريكا حين زادت الثروات الخاصة في الثمانينيات والتسعينيات. وكانت نتيجة ذلك أن اضطرت أمريكا لاقتراض مبالغ قياسية من الخارج، وهي الآن أكبر بلد مدين في كل الأزمنة.

وبالمثل لم يسفر التخفيض الحاد في معدلات ضريبة الدخل الشخصي في عهد الرئيس ريجان عن نمو أسرع للإنتاجية، كما توقع مؤيدوه. فقد احتاج الأمر إلى اثنتي عشرة سنة كي ترتفع الإنتاجية، وحدثت حركتها شديدة الميل إلى أعلى بعد زيادة الرئيس كلينتون معدلات ضرائب الدخل العليا في عام ١٩٩٣.

ويقدم فيلبس سببًا رئيسيًا واحدًا على الأقل لوجود آثار اقتصادية مدمرة للثروات الكبيرة. فهي تغذي المضاربة المالية التي كانت تؤدي في السنوات العشر الماضية إلى انهيارات مفاجئة في الاقتصاد وإلى كساد في أحيان كثيرة. وأصبح ارتفاع أسعار سوق الأوراق المالية نفسه مصدرًا رئيسيًا من مصادر النمو الاقتصادي في التسعينيات. حيث أنفق المستثمرون أرباحهم أو اقترضوا بضمانها لشراء سلع أو خدمات. كما ساعد ذلك على رفع قيمة الدولار الأمريكي، مما أدى إلى انخفاض أسعار الواردات واجتذاب رأس المال إلى بلد متعطش للمدخرات. ولكن الاقتصاد الأمريكي مضطر حاليًا للتعامل مع مستويات مرتفعة من الدين، ومع دولار معرض للخطر، ومع أسعار سوق الأوراق المالية الآخذة في الانخفاض، إلى جانب مئات المليارات من الدولارات من الاستثمار الضائع أو الذي خُصِّص تخصيصًا خاطئًا في انهيار أسهم التكنولوجيا الفائقة.

وهناك مشكلة أخرى متعلقة بالتفاوت كثيرًا ما يُتغاضى عنها، وقد تكون أهم مشكلة. فنمو الطلب المحلي هو في حد ذاته محرك رئيسي للنمو الاقتصادي وزيادة الإنتاجية. وكانت زيادة الطلب في أواخر التسعينيات عبر فئات الدخل المختلفة المصدر الرئيسي للانتعاش. وتستثمر الشركات أموالها لأنه يمكنها بيع منتجاتها وتحقيق اقتصادات جديدة ذات حجم كبير حين تنمو أسواق الدخل المتوسط. في حين يدمر التفاوت الأسواق المحلية بتقليله القدرة الشرائية. بل إن السوق المحلية القوية أهم من التجارة الدولية. وتنبع ميزة أمريكا الاقتصادية، التي بقيت على مدى ما يربو على مائتي عام من التميز، من سوقها على اتساع القارة التي لا مثيل لها حتى الآن في أي مكان من العالم.



لا بد أن نعي جيدًا أن الديمقراطية في أمريكا شجعت على الملكية الواسعة للأراضي، والتعلم العام المجاني والإلزامي، والضمانات القانونية للتنافس، وبرامج الصحة العمومية بدءًا من الإجراءات الصحية البلدية حتى التطعيمات المجانية، وشبكة الطرق السريعة التي تربط الولايات ببعضها، والضمان الاجتماعي وتأمين البطالة، والنظام الجامعي العام، ودعم الكليات الخاصة. وقد ساهم كل ذلك في وجود الأسواق المحلية القوية والنمو الاقتصادي والثقة في العدالة الاقتصادية.

ولكن تجاهل هذا الميراث في ازدياد. ولم تكن مكافأة عمال أمريكا من الارتفاع بحيث تدعم الاستهلاك دون الاقتراض، كما أنها لم تكن

إذا كان الكثير من قياسات الدخل ومن تفاوت الثروة قد أعاد أمريكا إلى مستويات العشرينيات، فإن الثروات الشخصية الخرافية في الثمانينيات والتسعينيات تنافس الآن ثروات العصر الذهبي الخرافية، بل تزيد عليها في بعض الجوانب. ولم يكن هذا هو الحال قبل الثمانينيات

كافية لمساعدة العمال على استثمار أموالهم استثمارًا ملائمًا فى تعليمهم أو مستقبلهم المالى. وتحتاج السوق المحلية القوية استثمارًا عامًا فى التعليم المتكافئ، والرعاية الصحية الوافية للجميع، والنقل والاتصالات رفيعة المستوى، والمؤسسات الجديدة كرعاية الطفولة المبكرة. وفى الماضى نجحت أمريكا فى تلبية حاجات اقتصادها المتغير. واليوم، وفى عصر خلق الثروات الذى يشعر فيلبس بالأسى عليه، كثيرًا ما تكون تلبيتها عبيًا.

ويعتقد فيلبس أن الناخبين الأمريكيين قد يتحولون إلى «متشددين». وهو لا يتوقع نشوب حرب طبقية. بل إنه يرى أن التفاوت يمكن أن يخلق نخبة: أى طبقة أرستقراطية من ذلك النوع الذى يخلّف ثروة للورثة ويكون له نفوذ سياسى زائد على الحد. وهو يقول إن الأمريكيين اعتادوا معارضة تلك النخب، وليس الثروة الخاصة ذاتها. وهو يتخيل على سبيل المثال أن الأمريكيين سوف يطالبون بفرض ضرائب على الثروة وبتعريفة حمائية. كما يشعر بحب تجاه جمهوريين مثل لنكولن وتيودور روزفلت، بل وريتشارد نيكسون، كانوا متعاطفين مع العمال مقارنة بخلفائهم الديمقراطيين، ولم يتقبلوا فكرة حكم الأثرياء النخبوى.



ولكن رغم ما لدى فيلبس من ميل لقراءة التاريخ الأمريكى قراءة متفائلة، فهو مهتم كذلك بعد إمكان التغلب على زيادة نفوذ وول ستريت فى أمريكا. كما يخصص فصلاً طويلاً لاتجاهات مشابهة فى بريطانيا القرن التاسع عشر وهولندا القرن الثامن عشر قبل انهيار تلك الاقتصادات، ولكنه لا يمضى كثيرًا فى تقديم الأشباه. والواقع أنها قد لا تكون صحيحة تمامًا. ففى رأيى أنه أمكن التغلب على تلك البلاد لأن دولاً ذات أسواق محلية أكبر حلت محلها. فقد حلت بريطانيا محل هولندا، وحلت الولايات المتحدة محل بريطانيا. إلا أن القيم المالية التى فُهمت فهمًا محدودًا أبعدت تلك البلاد عن حاجات أسواقها المحلية، وعن الاستثمارات العامة كذلك.

ويتسم كتاب «الثروة والديمقراطية» فى كثير من الأحيان بالتكرار والتطويل، ويتناول فيلبس بعض القضايا التى سبق له تناولها. ولكن غضبه الأخلاقى أكثر كثافة الآن. فهو يحذر من اتجاه أمريكا السريع نحو حكم الأثرياء، ومن أن روح الديمقراطية آخذة فى التناقص. ويتسم الجدل الاقتصادى الأمريكى بالتشويه بالقدر الذى يجعل قلة فقط من الخبراء الاقتصاديين على استعداد لأن تقول إن إضعاف القيم الديمقراطية يمكن أن تكون له آثار مدمرة على النمو الاقتصادى والدخل، ولكن الدراسة الموضوعية لدور الديمقراطية فى الاقتصاد الأمريكى قد تبين أن هذا هو الحال. وبينما يعالج فيلبس قضايا كثيرة فى كتابه، فإن جوهر هذا البحث هو أن الديمقراطية فى خطر. وقد أصبح بتحليله لذلك الخطر واحدًا من أكثر مفكرينا السياسيين الاقتصاديين قيمة. ■

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
ترجمة: أحمد محمود



الرأسمالية الأمريكية فى أزمة!

محمود عبد الفضيل

■ مسلسل فضائح الشركات الأمريكية الكبرى الذى تفجر خلال الشهور الأخيرة أفصح عن العديد من مساوئ وإخفاقات النظام الرأسمالى الأمريكى، الذى كان ينظر إليه البعض باعتباره «النموذج» الذى يجب أن يحتذى فى البلدان التى تأخذ بنظام «اقتصاد السوق». وبدأت تعليقات المحللين تتحدث «القلب المتعفن للرأسمالية الأمريكية» (The rotten core of American capitalism).

فبعد عشر سنوات متصلة من الازدهار الاقتصادى خلال التسعينيات، نتيجة صعود قطاع التكنولوجيا والاتصالات كقطاع قائد للإنتاجية والربحية، أو ما سمى «الاقتصاد الجديد»، بدأ انكسار موجة الصعود للاقتصاد الحقيقى (العينى) المنتج عند نهاية التسعينيات. ورغم ذلك استمرت موجة المضاربات المحمومة فى القطاع المالى (البورصات، شركات الخدمات المالية والسمسرة، بنوك الاستثمار). وبدأ الانفصام التدريجى بين الأداء المتدنى لشركات «الاقتصاد الجديد»، وبين حصد الأرباح والمكاسب الرأسمالية فى البورصات، من خلال تضخم وتصاعد أسعار أسهم تلك الشركات الكبرى. وقد ساعد على ذلك تواطؤ وفساد شركات المحاسبة والمراجعة التى قامت بتزوير القوائم المالية (ميزانيات الشركات، وقوائم الربح والخسارة)، وذلك حتى تستمر عملية تغذية ما سمى «اقتصاد الفقاعة» على الصعيد المالى، وتأجيل أجل انفجار البالونة المنتفخة بالهواء الفاسد. كما ساعدت وسائل الإعلام المسموعة والمرئية على نشر الأوهام حول استمرار الرواج المالى فى أسواق المال والبورصات فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وتدريجيًا تكشفت حلقات ما كان يجرى من وراء الستار من عملية طبخ للحسابات والقوائم المالية، وترويج متعمد للأكاذيب لتضليل المستثمرين والأجانب وصغار المدخرين المحليين وأرباب المعاشات. وكأننا بصدد استرجاع أحد مشاهد مسلسل رواج «شركات توظيف الأموال» فى مصر خلال الثمانينيات التى تدافع الناس لإيداع أموالهم لديها.

ولقد شمل مسلسل الفضائح المالية كبريات الشركات الأمريكية، وشركات عالمية عملاقة مثل:

١- شركة إنرون للإتجار فى منتجات الطاقة.

٢- شركة «وورلد كوم» العملاقة فى مجال الاتصالات.

٣- شركة «زيروكس» لآلات ومعدات تصوير المستندات.

وغيرها من كبريات الشركات الأمريكية فى كافة المجالات. حيث تم الكشف عن عمليات التدليس المالى الواسع فى قوائمها المالية، ولا سيما «تضخيم حجم الأرباح»، من ناحية، والإقلال من «حجم مديونياتها للغير»، من ناحية أخرى. وكانت الأرقام بعشرات البلايين من الدولارات. ويوضح الجدول (١) عدد الشركات التى أعلنت إفلاسها خلال ٢٠٠٢، وبلغ حجم أصولها ٢٣٠,٧ بليون دولار.

ولكن الصورة اتضحت بشكل أكبر عندما تم الكشف عن تواطؤ واحدة من كبريات شركات المحاسبة والمراجعة فى العالم (آرثر أندرسون) فى عمليات التدليس هذه، وهى الجهة المفترض أنها تدقق الحسابات وتشهد بسلامة المركز المالى للشركة التى تراقب حساباتها وتفصح عن أى مخالفات أو أى تدليس مالى فى قائمة الأرباح والخسائر، باعتبارها جهة مراجعة خارجية تحصل على أتعاب مهنية هائلة مقابل القيام بتلك المهمة الدقيقة والمسئولة أمام جمهرة المساهمين والمستثمرين وموظفى الشركة وصناديق التقاعد.



وتكتمل «حلقات الفساد» بالدور المهم الذى لعبته شركة عملاقة للخدمات والاستشارات المالية فى العالم المعروفة باسم «ميرل لينش» التى اعترفت علانية بقيام أحد أقسام «خدمة المستثمرين» بتضليل عملائها من المستثمرين، وأوصتهم بشراء أسهم معروف أن قيمتها السوقية المستقبلية سوف تتدهور. بل تم التنكيل ببعض الموظفين والمحللين الماليين الذين جرؤوا على تخفيض التصنيف الائتمانى لشركة كبرى مثل «إنرون»، قبل افتضاح أمرها فى العلن. وهكذا لم تلعب الشركة العملاقة ذات الشهرة الواسعة فى عالم المال دور «الوسيط النزيه» بين سوق المال

وعملائها من المستثمرين الساعين للمشورة والنصح السديد.



ولكن ترى ما هو ذلك الخيط الرفيع الذي يربط بين تلك الحلقات من الممارسات والفضائح المالية في الولايات المتحدة الأمريكية. ولعل التفسير الوحيد لكل تلك الممارسات من الأطراف الثلاثة: (أ) المسئولين التنفيذيين للشركات الكبرى، (ب) مراقبي الحسابات، (ج) الوسطاء الماليين، هو تغذية استمرارية «لاقتصاد الفقاعة» في ظل المضاربات المحمومة على أسهم الشركات الأمريكية الكبرى العملاقة. الأمر الذي كان يجب استمراره لصالح حفنة من المديرين والمضاربين والوسطاء الماليين الفاسدين. إذ إن الإفصاح عن حقيقة المراكز المالية لتلك الشركات سوف يؤدي بالضرورة إلى تدهور قيمة أسهمها في البورصات، وبالتالي تتوقف لعبة المضاربة، والإثراء من خلال جني الأرباح. ولذا يصبح «التدليس المالي» ضرورة منطقية لاستمرار «لعبة الكازينو» في بورصات الأوراق المالية، حتى يتم التربح بواسطة كبار المديرين حملة الأسهم والمضاربين والسماسرة، تحت الحماية الضمنية لبعض كبار المسئولين في الإدارة الأمريكية.

وقد أرجع الاقتصادي الأمريكي المعروف «جوزيف ستيجلز» – الحائز مؤخراً على جائزة نوبل في علم الاقتصاد – السبب الكامن وراء اتساع رقعة ممارسات الفساد والتدليس المالي في الاقتصاد الأمريكي إلى عاملين رئيسيين:

(أ) تمتع رؤساء الشركات الأمريكية الكبرى بما يسمى (Stock options)، أي التمتع بالحصول على حوافز في شكل مجموعة من أسهم الشركات التي يعملون بها، وبالتالي تكون مصلحتهم في الحفاظ على مستوى أسعار مرتفع لتلك الأسهم، ليتم تصفيتها في وقت الذروة، وجني الأرباح.

(ب) قيام شركات «المحاسبة والمراجعة» – في ظل النظام الأمريكي – بأعمال الاستشارات جنباً إلى جنب مع أعمال المراجعة مما يؤدي إلى طبخ الحسابات والقوائم المالية، وفقاً لأهواء الإدارة، حتى لا تفقد تلك المكاتب الأتعاب الاستشارية الضخمة التي تفوق بكثير «أتعاب المراجعة».

ويمكن تصور تداخل حلقات الفساد بين مؤسسات الرأسمالية الأمريكية على النحو الموضح في الشكل (١):



ويكفينا للتدليل على تداخل المصالح للحفاظ على أسعار مرتفعة «غير حقيقية» لأسهم الشركات الكبيرة أنه بعد اكتشاف فضيحة شركة «وورلد كوم» ثاني أكبر شركة أمريكية للاتصالات الدولية، هبطت أسهم تلك الشركة إلى مستوى عشرين سنتًا فقط (خمس دولار)، بعد أن كان يجري تداوله بسعر يصل إلى ١٦ دولارًا أمريكيًا خلال الـ ٥٢ أسبوعاً التي سبقت ذلك. وكانت القيمة السوقية للشركة قد سجلت خلال ذروة ارتفاع أسهم شركات التكنولوجيا والاتصالات في الأسواق العالمية



ما قيمته نحو ١٨٠ بليون دولار، وإذا بتلك القيمة تهبط إلى نحو ٢,٥ بليون دولار فقط في أعقاب اكتشاف فضيحة التدليس المالي. وهكذا فقد المستثمرون الأجانب وصغار المدخرين وأرباب المعاشات الجانب الأكبر من قيمة أصولهم المالية بين عشية وضحاها.

وقد تضمنت عمليات «التدليس المالي» العديد من الألاعيب المحاسبية التي تضمنت تحويلات بين الحسابات الداخلية للشركة، مما أدى إلى إظهار أرباح كبيرة «صورية» حققتها الشركة، بدلاً من تسجيل خسائر صافية عن عام ٢٠٠١، وعن «الربع الأول» من عام ٢٠٠٢، وذلك هو مجرد نموذج صارخ لما حدث في العديد من كبريات الشركات الأمريكية، بهدف الحفاظ على قيمة سوقية «مصطنعة» في عمليات التداول في بورصات الأوراق المالية، لكي يتم الإثراء للبعض على حساب جمهرة حملة الأسهم والمستثمرين في صناديق التقاعد.

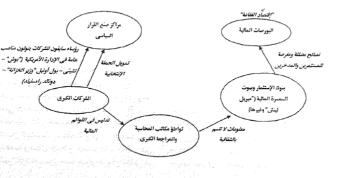
وفي تقدير أولي لمجموعة التخطيط الاستثماري في مؤسسة «مورجان ستانلي»، أن مجموع الخسائر المالية التي ترتبت على كشف فضائح خمس شركات أمريكية كبرى

جدول (١): الشركات الأمريكية الكبرى التي أعلنت إفلاسها خلال عام ٢٠٠٢

الشــركــات	حجم الأصول (بليون دولار)
١ ـ وورلد كوم	١٠٣,٨
٢ ـ إنرون	٦٣,٤
٣ ـ جلوبال كروسن	٢٤,١
٤ ـ أديلفيا	٢٢,٤
٥ ـ كمارت	١٧,٠
المجموع	٢٣٠,٧

المصدر: الفايننشال تايمز، ٢٢ يوليو ٢٠٠٢

شكل (١): تداخل حلقات الفساد بين مؤسسات الرأسمالية الأمريكية



هي: «إنرون»، شركة الإنتاج الصناعي «تايكو»، شركة الاتصالات «كليه وست»، وشركة «كمبيوتر أسوسيتس»، وشركة «ورلد كوم» للاتصالات، قد بلغ ٤٦٠ بليون دولار (أي نحو نصف تريليون دولار).

وتلك الظاهرة التي تحدثنا عنها لم تقتصر على أسواق المال الأمريكية فحسب، بل امتد مسلسل الفضائح مؤخراً إلى «بورصة باريس» بعد تفجر فضيحة شركة «فيفندي يونيفرسال» للإنتاج الإعلامي، التي تعتبر ثاني أكبر مجموعة إعلامية عملاقة في العالم. حيث تم الكشف أيضاً عن تزوير وتدليس في الحسابات والقوائم المالية بهدف تخفيض حجم الديون، وتضخيم حجم الأرباح، وتحسين مركز السيولة الخاص بالشركة. وقد نتج عن انكشاف المستور، أن هبطت قيمة سهم مجموعة «فيفندي» بمقدار ٤٠ في المائة بين ليلة وضحاها.

وقد طالت الشبهات الرئيس الأمريكي نفسه، إذ إنه في عام ١٩٩٠ أرسل بوش إلى «لجنة السندات والبورصة» إشعاراً – طبقاً لنص القانون – يعلمها فيه بنيته بيع ٢١٢١٤٠ سهماً يملكها في شركة «هاركين» بسعر أربعة دولارات للسهم الواحد. وقد انهارت قيمة أسهم تلك الشركات بعدها بنحو شهر. حيث وصل سعر سهم شركة «هاركين» إلى دولار واحد، نتيجة إعلانها عن خسائر قدرها ٢٣ مليون دولار. وثارت الشبهات عندئذ حول مدى علم الرئيس الأمريكي بمعلومات داخلية استفاد منها للتخلص من الأسهم التي يملكها قبل انهيارها في البورصة. وقد تم التحايل على هذا الموضوع بأشكال شتى. كما لاحقت الاتهامات نائب الرئيس «ديك تشيني» وقت أن كان رئيساً لمجلس إدارة شركة «هاليبرتون» خلال الفترة ١٩٩٥–٢٠٠٠، والتي تعتبر الشركة الأولى عالمياً في مجال الأبحاث البترولية. وهناك اتهامات بأنه حقق لنفسه أرباحاً تقدر بنحو ١٢,٥ مليون دولار بمقتضى عمليات تفتقر إلى الشفافية.



ولعل الكثيرين يتساءلون: ما هي انعكاسات التطورات الأخيرة في الاقتصاد الأمريكي على الاقتصاد العربي؟

تشير بعض التقديرات المبدئية إلى أن خسائر المستثمرين الخليجيين، نتيجة انهيار أسهم العديد من شركات الاتصالات والتكنولوجيا، في الولايات المتحدة، وغيرها من الأسهم المصنفة «أسهم ممتازة» فيما سبق، قد انتقلت من خانة ملايين الدولارات إلى خانة البلايين! وتأتي الخسائر الكبيرة التي لحقت بالمستثمرين الخليجيين في أعقاب التدهور الحاد الذي سجلته الأسهم الأمريكية، إذ انخفض مؤشر ناسداك لأسهم التكنولوجيا إلى أدنى مستوى له منذ خمسة أعوام. بينما تراجع مؤشر «داو جونز» الذي يشمل معظم الأسهم المتداولة إلى أدنى مستوى له منذ عامين.

ولعل من أهم تداعيات تلك الأحداث هو انهيار تلك الثقة الزائدة، بل العمياء أحياناً، في متانة المراكز المالية للشركات الأمريكية **الكبرى والعملاقة، التي كانت تعتبر بمثابة** «الملاذ الآمن» للمستثمرين العرب (الأفراد والمؤسسات). كذلك سقطت مصداقية

النصائح المالية التى تقدمها شركات الوساطة المالية وبنوك الاستثمار لعملائها الكرام. إذ اكتشف العديد منهم أنهم كانوا ضحايا «اقتصاد الكازينو» فى البلدان الرأسمالية المتقدمة.

ومن ناحية أخرى، فمن المعروف أن الإيرادات الحكومية فى البلدان الخليجية تعتمد بدرجة رئيسية على «عائدات البترول» المقوّمة بالدولار الأمريكى. ونظراً لأن «القوة الشرائية» لتلك العائدات تتوقف على سعر صرف الدولار الأمريكى، فإن أى هبوط فى سعر صرف الدولار يعنى فى واقع الأمر هبوطاً مماثلاً فى «القوة الشرائية» لإيرادات البترول عند تقويمها أو عند تحويلها إلى أى عملات أجنبية أخرى.

وهكذا، فإن المستثمرين الخليجيين قد تعرضوا لخسائر ضخمة خلال عام ٢٠٠٢، مصدرها ثلاثة عوامل:

(أ) تضاؤل قيمة ما يمتلكونه من أسهم وأصول مالية فى البورصات الأمريكية (ولا سيما الاستثمارات فى أسهم التكنولوجيا «ناسداك»).

(ب) تدنى أسعار الفائدة العالمية على الودائع المربوطة بالدولار الأمريكى.

(ج) تدهور سعر صرف الدولار الأمريكى، المقوّم به معظم الأصول المالية والاستثمارات الخليجية فى الخارج والداخل. إذ إنه منذ بداية العام الحالى، انخفض «سعر صرف» الدولار الأمريكى بنحو ١٢٪ أمام «اليورو»، كما انخفض بنحو ٦٪ أمام الجنيه الإسترلينى، وبالنسبة ذاتها تقريبًا أمام الين اليابانى.

وتلك بلا شك آفة الاستثمار المفرط فى أصول وأدوات مالية، تتعرض لتقلبات عنيفة فى أسواق المال العالمية. إذ إنه عند وقوع الكارثة، وانفجار «الفقاعة»، لا تنفع نصائح شركات الوساطة المالية والسماسرة المحترفين. وجدير بالذكر أن تلك الخسائر لا تقتصر على المستثمرين الأفراد، بل تشمل الصناديق التابعة للحكومات والاستثمارات المالية الخارجية للمصارف وبيوت الاستثمار العربية. الأمر الذى يتطلب إعادة النظر فى إستراتيجية وأساليب استثمار «الفوائض المالية» العربية، فى ظل الظروف الدولية الجديدة.



يتساءل الكثيرون: هل الأزمة الراهنة للرأسمالية الأمريكية: أزمة طارئة أم أزمة بنيوية هيكلية؟ وأين يكمن «الخلل» و«العطب» فى النظام الرأسمالى الأمريكى الراهن؟

ولقد كان من الطبيعى أن يعقد الرئيس الأمريكى جورج بوش العديد من الاجتماعات لاحتواء هذا الموقف الخطير حيث تعهد باتخاذ كل ما يلزم من إجراءات لمعاقبة مديرى الشركات الذين يثبت تلاعبهم فى البيانات المالية للشركات، كما تعهد بالسعى لمضاعفة عقوبة السجن لمسئولى الشركات الذين يثبت تورطهم فى مثل هذه الجرائم من ١٠ سنوات إلى عشرين عاماً.

ولكن الأزمة الحقيقية للنظام الرأسمالى الأمريكى لا يمكن حلها من خلال مجموعة من الإجراءات العقابية. لأن هناك حاجة ملحة لإجراء إصلاح مؤسسى ومنظومى متعدد الجوانب. وتتمثل أهم عناصر ذلك الإصلاح فيما يلى:

(أ) إعادة النظر فى النظم الرقابية والضوابط (Regulation) التى تحكم الممارسات الرأسمالية، بعد أن استفادت الشركات والوسطاء الماليون مما سمى (Deregulation)، أى رفع القيود والضوابط التى تحكم الممارسات الرأسمالية.

(ب) عدم التصرف فى الأسهم التى يحصل عليها المديرون كمنحة (Stock options)، أثناء تولى مناصب قيادية وتنفيذية فى الشركات.

(ج) إعادة النظر فى مدى كفاءة المعايير المحاسبية القائمة، ولا سيما عند حدوث الاندماجات بين الشركات، أو الاستحواذ على أسهم شركات أخرى.

(د) إصلاح نظام لجنة التداول والبورصة (SEC) فى الولايات المتحدة الأمريكية.




وأخيراً، وليس آخراً، لابد من وضع حد لتداخل النفوذ السياسى مع مصالح رجال الأعمال، مما يؤثر على نزاهة نظام الحكم، وخاصة فى مجال التبرعات السخية التى تقدمها الشركات أثناء الحملات الانتخابية الرئاسية. كذلك عملية تبادل مواقع مستمرة بين المراكز القيادية فى هيكل السلطة فى البيت الأبيض والوزارات المهمة (الخزانة، التجارة، الدفاع)، ومقاعد مجالس إدارة الشركات الكبرى، مما يؤدى إلى تداخل المصالح بين رجال الإدارة الأمريكية ورجال «وول ستريت» (حى المال والأعمال فى نيويورك) والمؤسسة العسكرية «البنتاجون».

وقد أوردت «مجلة الإيكونومست» البريطانية (عدد ١٣ يوليو ٢٠٠٢) قائمة مختصرة لرجال الإدارة الأمريكية الحالية الذين كانوا يرتبطون بقطاع الأعمال والشركات الأمريكية الكبرى:

١- «ديك تشينى» - نائب الرئيس - عمل كنائب لرئيس شركة «هاليبرتون» لخدمات البترول.

٢- «بول أونيل» - وزير الخزانة - عمل كرئيس لشركة Alcoa، الشركة العملاقة لصناعة الألومنيوم.

٣- «دونالد رامسفيلد» - وزير الدفاع - كان على رأس شركة General Instruments.

٤- «دون إيفانز» - وزير التجارة - أدار شركة Tom Brown للبترول والغاز.

٥- «توماس وايت» - سكرتير القوات المسلحة - كان على رأس قطاع تسويق الطاقة لشركة «إنرون».

ومن ناحية أخرى، أفصحت تلك الأزمة عن خطورة حالة «الانفصام المتزايد»، بين أداء «الاقتصاد العينى»، من ناحية، وازدهار «الاقتصاد المالى»، ونشاط البورصات من خلال المضاربات، من ناحية أخرى. وقد سبق وتحدث الاقتصادى البريطانى الكبير «كينز» فى مؤلفه المهم «النظرية العامة» (١٩٣٦) عن ما أسماه «اقتصاد الكازينو» الذى يزدهر أحياناً بين جنبات الاقتصاد الرأسمالى، ولا سيما فى مجال بورصات الأوراق المالية، من خلال المضاربات.

ولو قدر «لكينز» أن يعيش بيننا هذه الأيام لشهد مثالاً حياً على نشاط «اقتصاد الكازينو» فى الولايات المتحدة الأمريكية، وما صاحب ذلك من فساد وعمليات تدليس مالى واسعة. ■



خالد بن الوليد
(الطبقة الثالثة)

ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. ويكنى أبا سليمان. وأمه عصماء، وهى لبابة الصغرى بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهزم بن رويبة بن عبد الله بن هلال بن عامر ابن صعصعة بن قيس عيلان.

قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثنى يحيى بن المغيرة ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، قال: سمعت أبى يُحدِّث قال: قال خالد بن الوليد: لما أراد الله بى ما أراد من الخير قذف فى قلبى حب الإسلام، وحضرنى رشدى، وقلت قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد، فليس موطن أشهده إلا انصرفت وأنا أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء، وأن محمداً سيظهر. ودافعته قريش بالراح يوم الحديبية فقلت: أين المذهب؟ وقلت: أخرج إلى هرقل. ثم قلت: أخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية، فأقيم مع عجم تابعاً لهم مع عيب ذلك علىَّ! فكتب إلى أخى: لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك!

فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج، وزادنى رغبة فى الإسلام وسرتنى مقالة رسول الله ﷺ وأرى فى المنام كأنى فى بلاد ضيقة جدبة، فخرجت إلى بلد أخضر واسع. فقلت: إن هذه لرؤيا. فذكرتها بعد لأبى بكر الصديق فقال: هو مخرجك الذى هداك الله فيه للإسلام، والضيق الذى كنت فيه: الشرك. فأجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ، حتى قدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، أول يوم من صفر سنة ثمان. فلما طلعت على رسول الله ﷺ سلمت عليه بالنبوة، فرد علىّ السلام بوجه طلق فأسلمت وشهدت شهادة الحق.



مفهـــوم الأجيـــال

فـــى تـــاريـــخ الأدب

صــلاح فــضــل

تحتاج فكرة الأجيال لبحث معرفى يؤصلها فى الثقافة العربية، لأنها كثيرة التداول والالتباس، خاصة فى الاستخدام الأدبى المعاصر؛ إذ يوشك المبدعون - وبعض النقاد - أن يطلقوها على أبناء العقد الواحد من الزمان، فيقال جيل الستينيات وجيل السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات، وهذا ترخص شديد فى مفهوم الجيل، لا يتسق مع نظرية الجيل فى تاريخ الأدب كما هى معروفة فى الفكر العالمى. ومع أن الكلمة قديمة فى اللغة العربية، إلا أن دلالتها مخالفة للمصطلح الجديد، فهى تعنى عند ابن منظور فى لسان العرب «الجيل كل صنف من الناس؛ الترك جيل، والصين جيل، والعرب جيل، والروم جيل والجمع أجيال». وقد جاء المعجم الحديث ليضيف البعد الزمنى والبشرى لفكرة الجيل، كما اكتسبتها اللغة العربية بالترجمة، فيقول المعجم الوسيط: «الجيل الأمة، والجنس من الناس، فالترك جيل، والروم جيل، والقرن من الزمن. وثلث القرن يتعايش فيه الناس».

فانتقال كلمة الجيل من الدلالة على أجناس البشر لتشير إلى المجموعات المتعاصرة فى فترة زمنية محددة يعد نقلة اصطلاحية ترتبط بفلسفة التاريخ وتصوراته الحديثة، خاصة فى علاقتها بتاريخ الحركات والتيارات الأدبية المختلفة. فالرؤية الفلسفية للتاريخ تعمد إلى تنظيم حركته عبر فكرة الأجيال؛ إذ يلاحظ أن مفهوم الجيل يربط الحركة الشخصية للأفراد بالظروف الموضوعية للعصر، كما تتمثل فى البيئة وعلاقات الحياة الواقعية والمواقف الاجتماعية والسياسية والثقافية المحددة.



على أن هناك فرقًا واضحًا بين التصور الحيوى أو البيولوجى للجيل، الذى كان يطلق عليه الفيلسوف الألمانى «ديلثى»: اعتباطية الطبيعة الخلاقة مع قوانين الوراثة، وبين التصور الاجتماعى التاريخى للحصاد الفكرى والثقافى للعصر، بما يمثل الخلفية الفاعلة فى وعى الجيل وضميره. فالعلاقة بين توالى الثوانى والدقائق فى الساعة والزمن النفسى الداخلى توازى بالنسبة للفترات التاريخية الكبرى العلاقة بين العقود والقرون من ناحية والحياة الإنسانية فى متوسطات الأعمار البشرية من ناحية أخرى.

إضافة إلى أن هذه الرؤية الزمنية للصيرورة الإنسانية تتعلق بتصور الجيل الذى يقدمه «ديلثى» هكذا:

«الجيل يمثل مسافة زمنية، وهو أيضًا فكرة للقياس من الداخل، تنتظم فى طيات فكرة أشمل هى الحياة الإنسانية. هذه المسافة الزمنية تستغرق الفترة الواقعة بين الميلاد وبلوغ العمر المتوسط الذى تنبت فيه حلقة جديدة فى شجرة الحياة، وهى تبلغ فى المعتاد ثلاثين عامًا». كما يعتبر الجيل - من ناحية أخرى - تسمية لتعاصر الأفراد وتعايشهم فى مرحلة معينة من أعمارهم، بعد أن يكونوا قد نشأوا سويًا فى مرحلة الطفولة والشباب المشتركين، بما يجعلهم يتعاصرون فى جزء على الأقل من مراحل نضجهم، وبما يؤدى إلى أن يكونوا قد خضعوا تقريبًا لتأثيرات متشابهة، وعوامل تغير متزامنة، الأمر الذى يجعلهم يمثلون «حلقة ضيقة من الأفراد تشكل كلاً متجانسًا». ومعنى هذا أن العوامل الأساسية التى تصوغ طبيعة الجيل تعتمد على الرؤية الحيوية لطبيعة الإنسان

التى تخضع لنظام خاص من الاختيار الوراثى والثقافى معًا. فالناس - باعتبارهم أفرادًا - لا يتمتعون بحرية غير محدودة فى تنمية قدراتهم الوراثية، بقدر ما يخضعون للشروط التى يفرضها عليهم العصر والمناخ الثقافى. كما أن الفرد بتوظيفه لهذه الحرية الخلاقة يسهم فى تشكيل معالم جيله نفسه. وبهذا فإن فكرة المعاصرة تمثل مكونًا أساسيًا لمفهوم الجيل الذى يولد وينمو ويعيش بطريقة مشتركة، تخضع لتأثيرات فعالة لا تلبث أن تفوق العوامل الوراثية، بما يجعل أبناء الجيل يمثلون كيانًا متجانسًا بالرغم من الفوارق الفردية اللافتة.

شروط الجيل:

جاء المفكر الألمانى «بيترسون» ليضع هيكل الأجيال الأدبية وشروطها المعرفية والفكرية انطلاقًا من رؤية «ديلثى» السابقة، وقد اعتمد إلى حد كبير على فكرة «روح العصر» التى راجت فى النصف الأول من القرن العشرين، حيث يرى أن «أيديولوجيا الوضعية التقدمية لا تعنى أكثر من أن تكون الأجيال بمثابة درجات السلّم المتجانسة الصاعدة، أما النزعة التاريخية النسبية فهى تعدّ الأجيال بمثابة موجات تمثل ذروتها ونهايتها المنتظمة مقياسًا للزمن يتوقف على كثافة القوة التى تدفعها».

على أن هناك ظروفًا وشروطًا تبعد بعض الأفراد المتعاصرين عن الاندماج فى الجيل المعاصر لهم، مثل المنطقة التى يولدون بها أو الوسط الذى يعيشون فيه، مما يجعل نظرية الأجيال تتوافق مع التصور المألوف عن «النماذج البشرية» فهناك نماذج قائدة تتزعم جيلها، وهناك نماذج تابعة ليس لها تأثير يذكر فى الجيل الذى تنتمى زمنيًا إليه؛ لأنها لم تتشرب روحه بالقوة ذاتها مثل الأولى.

أما العوامل الفاعلة فى تشكيل الجيل الأدبى فهى عند «بيترسون» ثمانية:

١ - الوراثة، وهو يحلل من خلال هذا العامل إمكانية انتقال المواهب الأدبية والفنية والرياضية عبر الأجيال، منتهيًا إلى نتيجة مؤداها أن هذا الانتقال ليس مألوفًا «بل من الضرورى أن يكون تغيير الاتجاه مناهضًا لفكرة الوراثة».

٢ - تاريخ الميلاد، ويرى أنه من أسرار الطبيعة - مثل لعبة الحظ والزمن - أن تتوافق الظروف ليولد العبقرى الذى يحتاجه العصر، ويعتبر أن كل فرد يسهم مع بقية أعضاء الجيل فى تشكيل القوى التطورية التى تعمل فى كل لحظات التاريخ.

٣ - العناصر التربوية: فأنماط التربية السائدة فى كل فترة تمثل أحد الأسباب الرئيسية فى تحولات الأجيال، وهى بدورها تؤثر بشكل حاسم فى نوع الأنماط التربوية الجديدة.

٤ - التواصل الشخصى: إذ لابد أن يقوم نوع من الارتباط بين أبناء الجيل، بما يحقق وحدة المصير لأفراده، ويمثل نقطة تجمع الجيل فى شكل جماعات تحقق درجة من التعايش المشترك. ويمكن أن تكون الجامعات والمعاهد التعليمية أوالجمعيات من أبرز نقاط التجمع، لأنها مقر الروح الشبابى الذى تنبثق فى حضنه التيارات الجديدة للأجيال المتميزة، وكذلك المجلات التى تطبعها هذه الأجيال تعد منبئًا جيدًا لهذا التواصل الوثيق.

٥ - تجارب الجيل: تكتسب دلالة خاصة مشكّلة للجيل الأدبى تلك المعايشات والاكتشافات الكبرى التى تكوّن خبرات الأجيال المشتركة فى مراحل تطورهم الحساسة، مثل الثورات الحاسمة والتطورات الحضارية البارزة، كما كانت الثورة الفرنسية وظهور السكك الحديدية والسفن البخارية بالنسبة للرومانسيين الذين رأوا فيها موت الشعر.

٦ - الدليل أو الأب الروحى: ويمكن أن نفهم هذا التصور بأشكال مختلفة، فقد يمثل الشخصية العملية التى تضع نفسها، أو يضعها غيرها على رأس معاصريها لتقدمها فى السن أو المقام؛ بحيث تجذب الآخرين وتشير للشباب إلى الطريق الواجب سلوكه، وربما كانت من بلد آخر أو عصر مختلف.

٧ - لغة الجيل: يرى المفكر الألمانى أن كل تغيير فى الأجيال الأدبية يتضمن تغييرًا فى المصطلحات، وهذا التغيير فى لغة التعبير يحدث فى الفنون غير اللغوية بشكل أوضح مثل الموسيقى والفنون التشكيلية.

٨ - تصفية الجيل القديم: ويلاحظ أن مشكلة عجز الجيل القديم عن فهم الجيل الجديد لا تعود إلى مشاكل فردية، بل إلى طبيعة الأجيال ذاتها، لكنه من ناحية أخرى لا يرى أن تغير الأجيال يقتضى بالضرورة صراعًا وتناقضًا، بل إنه كثيرًا ما يتم تجاوز هذا التناقض بشكل يجعل حركة الحياة تمضى بسلاسة وتوافق.



مفهوم الجيل يربط الحركة الشخصية للأفراد بالظروف الموضوعية للعصر، كما تتمثل فى البيئة وعلاقات الحياة الواقعية والمواقف الاجتماعية والسياسية والثقافية المحددة



وقد خضعت هذه الشروط لمناقشات فكرية وفلسفية عميقة، أبرزها ما قدمه الفيلسوف الأسبانى الكبير «أورتيجا اى جازيت» الذى نمّى فكرة الأجيال فى سياق تحليله لمراحل التحولات الحضارية بإضاءة الشروط المعرفية والثقافية اللازمة لتشكيل الجيل بشكل ديناميكى قائلاً: «عندما يجد الفكر نفسه مضطرًا إلى اتخاذ مواقف عدائية تجاه الماضى القريب فإن جماعة المثقفين تنشق إلى طائفتين: إحداهما وهى الأغلبية الكبرى تصرّ على التمركز داخل الأيديولوجيا السائدة، والأخرى - وهى الأقلية - وعادة ما تتألف من أصحاب النزعات الطليعية ذات القلوب الجريئة والأرواح المتمردة والمتشوقة للمناطق غير المأهولة بعد. فإذا ما كان تحول الحساسية يحدث لفرد واحد فإن هذا لا ينجم عنه أى أثر تاريخى، لكن عندما يحدث هذا لكوكبة من الأفراد فإنهم سرعان ما يشكلون جسدًا اجتماعيًا جديدًا متماسكًا، لا يلبث أن يصنع أتباعه من بين الآخرين. فالجيل بالنسبة لأورتيجا لا يتكون من أفراد عظماء معزولين، وإنما من جسد اجتماعى يضم الكتلة التابعة له.



ومع أن أبناء الجيل يرثون بعض الخصائص من الأجيال السابقة عليهم فإنهم لابد أن يتميزوا عنهم بعناصر الاختلاف والثورة على الماضى. وليس من الضرورى - كما يرى الفيلسوف الألمانى - «أن يمثلوا كلا متجانسًا»؛ إذ كثيرًا ما نجد عوامل التناقض بينهم على أشدها دون أن ينقص هذا من واقع انتمائهم وتمثيلهم لجيل واحد.

وهنا يميز الفيلسوف الإسبانى بين مفهومين يمكن أن نترجمهما بالمعاصرة والتعاصر: الأول يتمثل فى أن يتعايش الناس فى الفترة الزمنية ذاتها، على أساس فكرة «هايدجر» فى أن الحياة زمن، زمن محدد يستهلك وينتهى. فالمعاصرون هم جميع الرجال والنساء والأطفال والشيوخ الذين يعيشون فى زمن واحد، لكن التعاصر يقتصر على من لهم ذات العمر ونفس الأفكار. لكن: ماذا يعنى أن يكون لهم ذات العمر؟ هل يشترط أن يكونوا قد ولدوا فى نفس اليوم والشهر والسنة؟ بالطبع لا. بل أن تكون لهم ذات الطريقة فى الحياة بالنسبة لمسيرة حياة الإنسان، طريقة الحياة الممتدة على مدار العمر. فالعمر - كما يقول - ليس تاريخًا، ولكنه منطقة من التواريخ، أو على حسب عبارته التصويرية الجميلة، سلة من التواريخ، والذين لهم نفس العمر حيويًا وتاريخيًا ليسوا فقط من ولدوا فى العام ذاته، بل من ولدوا داخل منطقة من التواريخ المتقاربة. أما مدة كل جيل فإن «أورتيجا» يسلم بفترة الأعوام الثلاثين مبدئيًا، وهى التى تسمح للإنسان بأن يقدم إضافته المهمة للواقع التاريخى، لكنه يقسم الحياة البشرية إلى ثلاث مراحل:-

- الأولى: مرحلة الطفولة والشباب الممتد إلى الثلاثين، وفيها يتم تعليمه واستعداده لمواجهة العالم.
- والثانية: فترة النضج التى يبتكر فيها حلولاً جديدة للمشكلات التى يواجهها ويشكل علاقات جديدة، وهى تدوم من الثلاثين إلى الستين.
- أما الثالثة: فهى الفترة الأخيرة من العمر الممتد من الستين حتى الموت وهى التى لا تتيح له التدخل الحاسم فى صناعة التاريخ.

انطلاقًا من هذا التصور الكلى للمراحل الإنسانية يرى «أورتيجا» أن الأجيال البشرية لا تتعاقب على التوالى، وإنما يطوى بعضها بعضًا. فالمراحل الدقيقة للإنسان فى الواقع خمس، كل منها خمسة عشر عامًا، وهى الطفولة والشباب والرجولة والسيطرة والشيخوخة، وفى كل لحظة تاريخية تتعايش عدة أجيال متعاصرة مدة كل منها ١٥ سنة، وكل جيل يتشكل من المتعاصرين: أى ممن ولدوا فى مسافة خمسة عشر عامًا، بالإضافة إلى أن كل جيل يتشكل فى هذه المدة ويمارس وظيفته فى مدة مشابهة؛ أى يستغرق ثلاثين عامًا فى نهاية الأمر.

لكن: كيف يمكن لنا تحديد الجيل الأدبى؟ وكيف نحسب بدايته وسلّة التواريخ التى يشملها؟



يقترح «أورتيجا» الإجراء التالى: لابد أولاً أن نبحث داخل الفترة التاريخية التى نريد تحديد أجيالها عن لحظة واضحة يتجلى فيها «التطور الدائب والمستمر لبعض مبادئ الحياة التى برزت للمرة الأولى فى هذا التاريخ» فى هذه اللحظة يعيش جيل يستشعر للمرة الأولى بعض المبادئ الفكرية الجديدة ويعيشها بكل قوته، ويمكن أن نطلق على هذا الجيل تسمية «الجيل الحاسم». فإذا ما عرفنا موقع هذه اللحظة التاريخية الفاصلة بحثنا عن الشخصية التى تمثل الخواص الجوهرية لهذه الفترة، تلك الشخصية تصبح العلامة التى يمكن أن يسمى بها هذا الجيل. وحينئذ نقوم بتحديد التاريخ الذى بلغت فيه هذه الشخصية ثلاثين عامًا من عمرها، وهى المرحلة التى يبدأ فيها رجولته الناضجة لتصبح تاريخ الجيل الذى ينتمى إليه. ويكفى حينئذ أن نضيف أو ننقص عددًا من السنين، يبلغ خمسة عشر عامًا لكى نحصل على سلسلة الأجيال التالية.

أما بالنسبة لأبناء «الجيل الحاسم» الذى أشرنا إليه فهو يتكون من كل من بلغوا ثلاثين عامًا، بسبعة أعوام أكثر أو أقل من تاريخ ميلاد الشخصية الرئيسية أو تاريخ إعلان الجيل.

ونخلص من ذلك إلى أن فكرة الجيل تعتبر مفهومًا إجرائيًا يسعف الباحثين فى تنظيم معلوماتهم التاريخية فى مجال الأدب والتقاط التيارات والموجات الرئيسية فيه. وتحليل العوامل التى تصنع قوة الدفع فى تخليق العلامات البارزة فيه، وقد أضاف «أورتيجا اى جازيت» للأفكار السابقة فكرة أخرى مهمة تتعلق بالبؤرة الوجدانية التى تنجح غالبًا فى بلورة الأجيال الأدبية حول «شعور الفقد والفاجعة» إثر الكوارث القومية، أو «إحساس التوثب والطموح» إزاء المشروعات الجماعية الكبرى فى عصور المد القومى، وكلاهما يستقطب الاهتمام ويساعد على تمركز التيارات الفكرية والثقافية.

خطاطة الأجيال العربية:

على ضوء هذه المفاهيم النظرية فإن بوسعنا أن نقترح توزيع موجات الأدب العربى فى القرن العشرين إلى أجيال رئيسية:-



عُقبة بن نافع
(الطبقة الرابعة)

ابن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن ظرب بن الحارث ابن فهر، وأمه من لخم، وأبوه نافع بن عبد قيس الذي كان مع هبار بن الأسود بن المطلب يوم نخس بزينب بنت رسول الله ﷺ.

لما وَلّى معاوية بن أبي سفيان وجه عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهرى إلى إفريقية غازيًا في عشرة آلاف من المسلمين، فافتتحها واختط قيروانها.

وقدم عقبة بن نافع على معاوية فقال: الله! إني فتحت البلاد ودانت لي، وبنيت المنازل، وبنيت مسجد الجماعة، وسكنت الرجال، ثم أرسلت عبد الأنصار فأساء عزلي! فاعتذر إليه معاوية وقال: قد عرفت مكان مسلمة من الإمام المظلوم رحمه الله، وتقديمه إياه على من سواه، ثم قيامه بعد ذلك بدمه، وبذل مهجة نفسه محتسبًا صابرًا مع من أطاعه من قومه ومواليه، وقد رددتك على عملك واليًا.

فلما انتهى عقبة بن نافع إلى تهودة القريبة من القيروان في عهد يزيد بن معاوية عرض له كسيلة بن لمزم الأوروبي في جمع كثير من البربر والروم، وكان قد بلغه افتراق الناس عن عقبة بن نافع وقلة من معه، وجمع لذلك جمعًا، فالتقوا، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقتل عقبة بن نافع شهيدًا رحمه الله، وقتل من كان معه، وقتل أبو المهاجر، وهو موثق في الحديد، واشتعلت إفريقية حربًا. ثم سار كسيلة ومن معه حتى نزلوا قونية الموضع الذي كان عقبة بن نافع اختط - فأقام بها ومن معه، وقهر من قرب منه بآب قايش وما يليه، وجعل يبعث أصحابه في كل وجه، إلى أن توفي يزيد بن معاوية، وكانت خلافته ثلاث سنين وثلاثة أشهر.



أولا: جيل طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣) الذى بلغ ثلاثين عامًا إبان الثورة المصرية عام ١٩١٩، ويضم فى تقديرنا كلا من الشخصيات المشاركة له فى مشروع النهضة الفكرية والجامعية والثقافية والإبداعية مثل أحمد أمين (١٨٨٦-١٩٤٨)، وعبد الرحمن شكرى (١٨٨٦-١٩٥٨)، وسلامة موسى (١٨٨٧-١٩٥٨)، ومحمد حسين هيكل (١٨٨٨-١٩٥٦)، وعباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤)، وإبراهيم عبد القادر المازنى (١٨٨٩-١٩٥٨)، وعبد الرحمن الرافعى (١٨٨٩-١٩٦٦)، وزكى مبارك ١٨٩٣-١٩٥٣)، وأحمد حسن الزيات (١٨٩٥-١٩٦٨)، وتوفيق الحكيم (١٨٩٨-١٩٨٧).

وإذا طبقنا عليهم شروط الجيل وجدناها مضبوطة من الوجهة الزمنية، لكنها غير دقيقة بالنسبة للمعاهد العلمية التى تخرجوا فيها، وإن كانت الدائرة التى ينتهون إليها جميعًا هى «روح العصامية» وما كان يطلق عليه كارلايل «أفضل الجامعات وهى المكتبة». على أن وحدة العمل النهضوى كانت تجعلهم ينخرطون فى مشروعات مشتركة مثل «لجنة التأليف والترجمة والنشر» ومثل بعض المجلات التى تبنوها وتيارات التجديد التى قادوها فى الفكر والثقافة والتعليم والتنوير. والمواقف الإنسانية والحضارية. ولعل مشروع الإصلاح والتجديد بكل جوانبه أن يمثل الرسالة الأساسية لهذا الجيل الذى صنع لغة عربية حديثة وعقلاً عربيًا متطورًا وإبداعًا عربيًا مرموقًا فى أجناس جديدة مثل المقال والنقد والقص والترجمة الأدبية والتأويل التاريخى للعصور الماضية كى تصبح طاقة خلاقة فى توجيه المستقبل.



ثانيًا: جيل نجيب محفوظ، وهو الجيل الذى بلغ أوج نضجه خلال الحرب العالمية الثانية، وحمل على عاتقه مهمة تأسيس جنس الرواية العربية فى الدرجة الأولى، ويمكن أن يكون تاريخ الثورة المصرية ١٩١٩ والتى تصادف ميلاد واحد فقط من أبنائه هو إحسان عبد القدوس هو العام الذى يمثل نشاته وتدور حوله نشاة بقية الأفراد، حيث يمضون على النسق التالى فى ميلادهم ورحيل من رحل منهم، على أحمد باكثير (١٩١٠-١٩٦٩)، ونجيب محفوظ (١٩١١-.....)، ومحمد عبد الحليم عبد الله (١٩١٣-١٩٧٠)، ويوسف جوهر (١٩١٣-٢٠٠١)، وعبد الحميد جودة السحار (١٩١٤-١٩٧٤)، ويوسف السباعى (١٩١٧-١٩٧٨)، وإحسان عبد القدوس (١٩١٩-١٩٩٠)، وعبد الرحمن الشرقاوى (١٩٢٠-١٩٨٧)، وفتحى غانم (١٩٢٣-١٩٩٨)، ويوسف الشارونى (١٩٢٤-.....)، وصوفى عبد الله (١٩٢٥-٢٠٠١)، وإدوار الخراط (١٩٢٦-.....)، ويوسف إدريس (١٩٢٧-١٩٩١)، وجاذبية صدقى وثروت أباظة اللذان ولدا فى العام ذاته. ورحلت الأولى عام ٢٠٠١ والثانى عام ٢٠٠٢.

وربما تكون السلة الزمنية التى تتركز فيها تواريخ ميلادهم أوسع قليلاً من المتعارف عليه، لكن تضافر مشروعهم الإبداع المشترك - على اختلاف توجهاتهم وأساليبهم - يجعل منهم كوكبة المبدعين الذين أثروا اللغة العربية بتجاربهم التقنية ووضعوها فى مصاف اللغات العالمية الحية، وإذا كنا نتخذ اسم نجيب محفوظ علامة عليهم، وهو ليس من أوسطهم، بل من أكبرهم فى العمر، فإن ذلك لأنه أصبح راية على إنجاز هذا الجيل على مستوى الوطن العربى وخارجه، ولأنه يمثل نموذجًا لمنظومة من القيم الليبرالية السياسية والاجتماعية التى تعد تطويرًا نوعيًا لمسعى الجيل السابق الذى اشتغل معظمه بالسياسة إلى جانب الأدب، أما جيل نجيب فقد كان مبدعًا فى الدرجة الأولى وفى جنس خاص هو الرواية.

ثالثًا: جيل الشعر الحر، وهو الجيل الذى ولد فى العشرينيات، وقام بأكبر ثورة تجديدية فى الشعر العربى المعاصر على وجه الخصوص، وشهد فى شبابه نكبة ضياع فلسطين، وعاصر موجات الثورة العربية، ابتداء بمصر وسوريا والعراق واليمن، ثم خاض ثورة التحرر والاستقلال والمد القومى، وأسهم فى صناعة خطابه، ثم امتد ببعض أفراده العمر حتى شهد فترات الانتكاس والهزيمة وخيبة الأمل القومى، ولعل أهم ممثليه - وهم جميعًا شعراء - أن تكون الأسماء التالية:-

نزار القبانى (١٩٢٣-١٩٩٨)، وبدر شاكر السياب (١٩٢٦-١٩٦٤)، وبلند الحيدرى (١٩٢٦-١٩٩٦)، ونازك الملائكة (١٩٢٦-.....)، وعبد الوهاب البياتى (١٩٢٦-١٩٩٩)، وفدوى طوقان (١٩٢٩-.....)، وصلاح عبد الصبور (١٩٣٠-١٩٨١)، وأدونيس (١٩٣٠-.....)، وأحمد عبد المعطى حجازى (١٩٣٥-.....).

وتتوفر فى المجموعة العراقية منه شروط الجيل بأدق مواصفاتها؛ إذ تخرجوا جميعًا فى دار المعلمين وشهدوا نفس التطورات الفكرية والثقافية مما جعلهم رأس الحربة فى المدرسة الجديدة وحاملى لوائها، بينما ينتمى الباقون إلى الشام بمفهومه الواسع ومصر، على أن هناك تجانسًا واضحًا بين أفراد هذا الجيل على اختلاف أساليبهم التعبيرية، فهم الذى يشكلون اليوم ما نطلق عليه «العصر الذهبى الثانى للشعر العربى» بعد العصر العباسى، وكان لديهم ما أطلق عليه صلاح عبد الصبور «شهوة إصلاح العالم» كما تميزوا برؤية كونية تحديثية وضعت الفكر الشعرى العربى للمرة الأولى فى تاريخه الحديث على مستوى العالمية، وقد تميزوا بتعاطفهم مع الجيل السابق عليهم، خاصة من الرومانسيين أمثال على محمود طه وغيره، وإن كانوا يبدءون تاريخًا جديدًا للشعرية العربية.

رابعًا: جيل الستينيات، ويمكن أن يضم عددًا ضخمًا من المبدعين فى مجالات الرواية والقصة والشعر والفكر النقدى معًا، ومعظمه ولد فى نهاية الثلاثينيات، وتفتح وعيه على الحياة إبان ثورة ١٩٥٢ وما أحدثته من تغييرات هيكلية فى بنية المجتمع المصرى



العربي، وما أطلقته من مارد الحلم القومي بمشروع الوحدة العربية، ثم وصل ذروة إحساسه الفاجع في لحظتين فاصلتين في التاريخ العربي الحديث، إحداهما تفكك الجمهورية العربية المتحدة في الانفصال السوري عن مصر، والثاني - وهو يمثل «التاريخ البؤرة» في وعي الجيل المأساوي - وهو هزيمة ١٩٦٧.



ويمكن أن تتسع أيضًا سلة ميلاد هذا الجيل منذ أوائل الثلاثينيات حتى منتصف الأربعينيات على النحو الذي أسلفنا الحديث عنه في التقديم النظري، ويضم من الروائيين محمد أبو المعاطي أبو النجا وعبد الحكيم قاسم وإبراهيم أصلان وبهاء طاهر وخيري شلبي ومحمد جبريل ومحمد مستجاب ومجيد طوبيا وأحمد الشيخ حتى يصل إلى جمال الغيطاني ويوسف القعيد وغيرهم من كبار مبدعي اليوم ممن شارفوا أو ناهزوا الستين من العمر، وكذلك يمكن أن يضم من الشعراء أمل دنقل ومحمد إبراهيم أبو سنة وفاروق شوشة وفاروق جويدة وعفيفي مطر، ومن النقاد رجاء النقاش وجابر عصفور وفاروق عبد القادر وصبري حافظ وعبد المنعم تليمة وكاتب هذه السطور.

وسنلاحظ أن هذا الجيل الرابع هو الوحيد الذي أطلق على نفسه تسمية الجيل، واختار لها العقد السادس عن عمد، مما أثار شهية الشباب الذين جاءوا بعدهم ليطلقوا تسميات مشابهة في السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات، لكن مشروعه الإبداعي والفكري لم يكد يصل لذروة عطائه حتى بدايات القرن الحادي والعشرين.

ملاحظات نقدية

- يتعين علينا في البداية أن نعترف بأن هذه الخطاطة أولية ومنقوصة، تحتاج لكثير من الصقل والتعديل، فإن كان من حقها أن تركز على البيئة المصرية في الجيلين الرائدين فإنها تصبح جزئية جدًا إن تجاهلت الإبداع العربي في المراكز الجديدة في النصف الثاني من القرن العشرين، وعلى سبيل المثال فإن جيل الستينيات من النقاد في مصر مهما كان دوره الطليعي فإنه لا يستطيع تجاهل كوكبة ممتازة من النقاد العرب في المغرب وتونس والشام والعراق والخليج العربي أعطوا للنقد المعاصر مذاقه المميز.

وكما رأينا في الإبداع الشعري للجيل الثالث اتساع منظوره ليشمل حركة الشعر العربي وإن لم يستوعب كل تفاصيلها في الشام والمغرب فإن الإبداع الروائي العربي في النصف الثاني من القرن العشرين كان يحتاج إلى خطاطة جديدة تكمل نواقصه وتسد فجواته.

- تراوح منظور التوزيع الجيلي المقترح بين الاعتماد على التيار الفكري في مجمله كما لوحظ لدى الجيل الأول والرابع أو التركيز على جنس أدبي بعينه كما حدث للجيلين الأوسطين، وأدى هذا إلى شيء من التداخل في الترتيب الزمني، بحيث لم يعد الفاصل بين كل جيلين ثلاثين عامًا كما يقضي بذلك النظام المقترح، وذلك بهدف ملاحظة المجموعات التي تصنع تيارًا إبداعيًا تنتظمه إلى حد ما بعض المؤشرات الأيديولوجية والإبداعية. لكن لو تذكرنا أننا نتحرك بطريقة مرنة تحاول الإمساك بمركز الثقل في الواقع التاريخي للإبداع العربي في موجاته المتلاحقة حينًا والمتجاورة نسبيًا حينًا آخر أمكننا أن نعدل المقياس النظري حتى يتسع لاستيعاب هذه النتائج التجريبية.

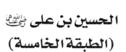
- أجد من الأمانة أن أعترف بأن سبب اهتمامي بهذه المشكلة الآن طريف جدًا؛ لأنه لا يرتبط بالأدب العربي من قريب أو بعيد، فقد دعاني المركز الثقافي الإسباني في عمان كي ألقي محاضرة في الجامعة الأردنية بمناسبة الاحتفال بالعيد المئوي لجيل ١٨٩٨ من الأدباء الإسبان، فأخذت أتأمل مفاهيم الجيل، وأفيد مما كتبه النقاد هناك، خاصة من كتاب «برنال مونيوث» عن جيل ٩٨ الإسباني وإحالته الذكية، وحينئذ انبثق لدي - عن طريق المقارنة والتوازي - هذا الإدراك لأهمية تنظيم تاريخنا القريب، إفادة من جميع المقولات الفلسفية والنقدية، مع اختبارها وتعديلها عند الضرورة، وبدا لي - وهذا موطن الطرافة - أن تيار البنيوية الذي شاركت في صناعته قد أهمل هذا البعد التاريخي الخصب، وأن لنا الآن أن نستكمله بجهد علمي منظم.



- أما الملاحظة الأخيرة في هذا الصدد فهي الاعتراف بالنقص الشديد في الثقافة العربية المعاصرة في مجال البحوث البيوجرافية والببليوجرافية، فليس لدينا حتى الآن معجم منظم لأعلام العصر الحديث في أي مجال من الفكر أو الأدب أو الإبداع أو العلم، ولكي نحصل على تاريخ ميلاد أحد الأعلام أو وفاته لابد أن نبذل جهدًا خارقًا دون أن نكون متأكدين في نهاية الأمر من صحة النتائج بشكل حاسم، ولعل مشروع معجم البابطين الشعري عندما يكتمل أن يسد فراغًا في هذا الصدد، وإن كانت بقية الفروع المعرفية والإبداعية ستظل في حاجة لمن يتبنى من المؤسسات أو الهيئات فكرة إصدار معاجم منظمة عنها. وأعتقد أن أفضل تحية نزجيها للقرن الحادي والعشرين في مطلعه أن نكمل المشاريع التي لم تتم في هذا الصدد؛ حتى نستطيع أن ننظم منهجيًا وعينا به، ونتجاوز معرفيًا وقوفنا عنده. ولعل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التي تبنت مشروع موسوعة الأعلام أن تكون الهيئة القومية القادرة على إنجاز هذا المشروع المعرفي الضروري للثقافة العربية. ■



كتاب الزاوية



الحسين بن علي رضي الله عنه (الطبقة الخامسة)

ابن علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ ويُكنى أبا عبدالله، وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وأمها خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعُزّى ابن قصَيّ.

ولد الحسين: عليًا الأكبر، قُتل مع أبيه، وأمه آمنة بنت أبي مرة بن عُروة.

وعليًا الأصغر، له العقب من ولد الحسين، وأمه أم ولد، وأخوه لأمه عبدالله بن زبيد مولى الحسين بن علي، وهم ينزلون بينبع، وجعفرًا لا بقية له، أمه السلافة امرأة من بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاعة.

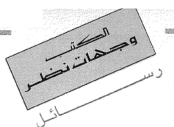
وفاطمة، وأمها أم إسحاق بنت طلحة. وعبدالله، قُتل مع أبيه. وسكينة، وأمها الرباب بنت امرئ القيس بن عدي بن أوس.

قال: أخبرنا مالك بن إسماعيل، عن شريك، عن سماك، عن قابوس، عن أم الفضل، قالت: لما ولد الحسين بن علي قلت: يا رسول الله أعطنيه أو ادفعه إليّ، فلأكفله وأرضعه بلبن قثم، ففعل، فأتيته به، فوضعه على صدره، فبال عليه فأصاب إزاره، فقلت أعطني إزارك أغسله فقال: إنما يصب على بول الغلام ويغسل بول الجارية.

قال: أخبرنا عبد الله بن نمير، عن ابن أبي ليلى، عن عيسى ابن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ إذ أتاه الحسن أو الحسين يحبو، فوضعه رسول الله ﷺ على صدره، فبينما هو يحدثنا إذ بال على صدره فقمنا لنأخذه، فقال رسول الله ﷺ ابني ابني، ثم دعا بماء فصبه على مباله.







ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

الشيوعيون المصريون وثورة يوليو وجهة نظر أخرى

قرأت بإمعان ما كتبه الصديق العزيز محمد سيد أحمد فى عدد أغسطس من «وجهات نظر». ومع احترامى الشديد للأستاذ محمد سيد أحمد ولكتاباته ولدوره، فإننى أختلف معه فيما كتبه حول الشيوعيين المصريين وثورة يوليو. وحرصت على أن أكتب ردى هذا لأنه يمثل وجهة نظر أخرى انطلاقا أيضا من معايشتى للأحداث التى عاشها الأستاذ محمد. وقد عاصرت هذه الأحداث قبل قيام الثورة وبعدها.

وقد أثار مقال الأستاذ محمد سيد أحمد نقاطا عديدة أختلف فيها ونقاطا أخرى أتفق عليها. وسأبدأ أولا بنقاط الخلاف والتساؤلات التى طرحها.

النقطة الأولى التى أختلف فيها قوله «كان عبد الناصر ضد الشيوعية. وكان الشيوعيون ضده». لا أتفق على أن عبد الناصر كان ضد الشيوعية إلا إذا استندنا فى ذلك إلى الكتاب الذى نشره عام ١٩٥٣ بعنوان (حقيقة الشيوعية) بالإضافة إلى الصدام الذى حدث بين سلطة يوليو والشيوعيين بعد إجراءات تمت بدءا من ١٩٥٣ بقرار إلغاء الأحزاب ومحاكمة خميس والبقرى واعتقال الشيوعيين فى الفترة من ٥٣-٥٥. وفى هذه الفترة وقف الشيوعيون بمختلف اتجاهاتهم ضد سلطة يوليو.

ولكن هذا لا يجعلنا ننسى أن قسما مهمًا من الشيوعيين وبالذات الذى كان يسمى «بالحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» (حدتو) كان أول حركة سياسية أيدت الثورة وأصدرت منشورا بهذا المعنى فور قيامها. وأن عبد الناصر كان على صلة بقيادة (حدتو) قبل الثورة وأخطرها بموعد قيام الثورة (مذكرات أحمد حمروش فى الأهالى) وكانت مطبوعات الضباط الأحرار تطبع سرا على رونيو تابع لحدتو. وكان لحدتو تنظيم داخل الجيش، بعض أعضائه كانوا يتعاونون مع الضباط الأحرار، بل إن اثنين من هؤلاء الضباط كانوا أعضاء فى التنظيم القيادى للضباط الأحرار هما خالد محيى الدين ويوسف صديق وكان لهما دور بارز فى القيام بحركة الجيش.

وكنت وقت قيام الثورة فى المجر أعمل فى اتحاد الشباب الديمقراطى العالمى ممثلا لشباب حدتو. وعندما قامت الحركة وعزل الملك اتصل بى مندوب مجلة الشباب المجرى وطلب منى تعليقا على الأحداث. فكتبت مقالا اعتبرت فيه حركة الجيش (كما كانت تسمى وقتها) امتدادا للحركة الوطنية المصرية ضد الاستعمار البريطانى وضد السراى. وقد كتبت هذا استنادا إلى المطبوعات التى كانت تصلنى من زملائى فى مصر بما فيها منشورات الضباط الأحرار والبيانات والمقالات التى كانت تنشر فى الصحافة الديمقراطية التى عادت للصدور مثل الملايين والميدان وغيرهما والتى كانت تساند الثورة مساندة كاملة.

ولم يحدث ذلك التأييد لأن جمال عبد الناصر كان عضوا فى حدتو وكان يسمى «موريس» كما يقول الأستاذ. فعبد الناصر لم يكن شيوعيا ولم يكن عضوا فى حدتو ولكنه كان على صلة بالشيوعيين فى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى وكان يتعاون معهم. وكان موقف حدتو متميزا عن كل الأحزاب الشيوعية فى الخارج التى كانت تعتبر ما حدث انقلابا أمريكيا. وكنت ألتقى فى اتحاد الشباب الديمقراطى بممثلى الأحزاب الشيوعية الأخرى وكانوا يختلفون معى وتوتر الجو بيننا. ولم يكن يتفق معنا غير الحزب الشيوعى السودانى وبعض الكتاب فى الحزب الشيوعى البريطانى لفترة معينة.

وحدث تغيير فى هذا الموقف المعارض من حدتو بعد مؤتمر باندونج ثم صفقة الأسلحة «التشيكية». وقد بدأت الأحزاب الشيوعية تغير موقفها من المعارضة إلى التأييد وظهرت بعض الكتابات السوفيتية فى مجلة «نيوتيمز» وغيرها، أخذت تتصاعد بعد ذلك خصوصا بعد باندونج وصفقة الأسلحة ورفض حلف بغداد وغيره من المشاريع الاستعمارية. ويفسر ذلك أن الحركة الشيوعية فى مصر نشأت من خلال الحركة الوطنية، وأن الكثيرين الذين التحقوا بالتنظيمات الشيوعية من الطلبة وغيرهم من المثقفين والعمال ارتبطوا بها أساسا انطلاقا من الموقف ضد الاستعمار.

ويتضح ذلك من توجهات عدد من الكتابات، ومنها الكتاب الذى صدر من شهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى بعنوان «أهدافنا الوطنية» الذى حددا فيه أن أهداف الشيوعيين هى التحرر من الاستعمار عسكريا وسياسيا واقتصاديا وأن الاشتراكية هى الهدف البعيد. ويدل على هذا التوجه أن التنظيم الشيوعى الأكبر والذى نشأ فى ١٩٤٧ نتيجة وحدة عدة تنظيمات كان اسمه «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى». ولم يتسمّ بالشيوعية، ومن أكبر المعارك التى خاضها هذا التنظيم سواء عشية نشأته أو بعدها هو النضال الوطنى مع الطلبة والعمال وتكوين «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» التى قادت التحركات الوطنية فى مصر عام ١٩٤٦ وبعدها. وقد كانت الصحف والمجلات العلنية التى نشرت أهداف الشيوعيين الوطنية والديمقراطية جرائد ومجلات مثل: «الجماهير» و«أم درمان» و«الطليعة» وغيرها.

هذا بالنسبة للشيوعيين أو الجزء الأكبر منهم سواء قبل الثورة أو بعدها. وكانت هناك فترة تصادم مع سلطة يوليو فى الفترة من ٥٣-٥٥ ثم تغير الوضع انطلاقا من مبادرات عبد الناصر المتتالية بعد صفقة الأسلحة والوقوف ضد الأحلاف والرد على رفض البنك الدولى تمويل السد العالى بضغط من أمريكا بتأميم قناة السويس والاعتراف بالصين الشعبية ونمو العلاقات الاقتصادية معها ومساندة الاتحاد السوفيتى لمصر وتوثيق العلاقات مع الاتحاد السوفيتى والصين الشعبية والبلاد الاشتراكية ثم إجراءات ٦١ التى جرت فى وقت حدث فيه صدام فى ١٩٥٩ مع الشيوعيين المصريين والعرب والاعتقالات التى استمرت حتى ١٩٦٤ والإفراج عن الشيوعيين من السجن رغم الأحكام وهو ما يؤكد أن الصدام والاعتقال لم يكن موقفا ضد الشيوعية ولا موقفًا ضد الأهداف الوطنية والاجتماعية التى زادت التقارب بين عبد الناصر والشيوعيين. رغم أن هذا التقارب لم يؤد إلى أن يصبح عبد الناصر شيوعيا، خلافا لكثير من الادعاءات بذلك فى الصحافة الغربية. ولم تؤد فى البداية أن يحل الشيوعيون أحزابهم، الذى كان يقدم إليهم كشرط للتعاون. واتخذ الشيوعيون بعد الإفراج عنهم قرارا بحل تنظيماتهم والعمل فى تنظيم واحد تحت قيادة عبد الناصر. بعد أن دعا عبد الناصر إلى وحدة كل القوى الاشتراكية. وبدأ يضم الكثير من الشيوعيين فى التنظيم الطليعى الذى كان يسعى ليصبح حزبا اشتراكيا.

كل هذا يؤكد أن عبد الناصر لم يكن يعادى الشيوعية بل كان يعتبر الماركسية أحد الروافد التى تنطلق منها التجربة الاشتراكية فى مصر. وكان يتعاون تعاونا كبيرا مع البلاد الاشتراكية فى المجال العسكرى والاقتصادى ويرسل المبعوثين للدراسة هناك. وأنشأ المعهد الاشتراكى الذى استعان فيه ببعض الشيوعيين المصريين مثل د. إبراهيم سعد الدين والدكتور محمد الخفيف وغيرهما. وصدرت مجلة الطليعة التى كان يصدرها الشيوعيون وغيرهم من القوى اليسارية من خلال الأهرام. عبد الناصر كان يرفض قيام تنظيم شيوعى أو غير شيوعى، فهو فى تلك الفترة كان يرفض قيام الأحزاب ويكتفى بقيام تنظيم واحد تحت قيادته كان يسمى فى البداية منظمة التحرير ثم الاتحاد القومى ثم الاتحاد الاشتراكى. وتغيير هذه المسميات كان يعبر عن التحول الذى يجرى فى فكر عبد الناصر.

وكما أن الشيوعيين وصلوا إلى التوجه الاشتراكى من خلال ارتباطهم بالحركة الوطنية ونضالهم ضد الاستعمار. فقد توصل عبد الناصر أيضا إلى التوجه الاشتراكى من خلال نضاله ضد الاستعمار ونضاله من أجل التحرر السياسى والاقتصادى والاجتماعى. فقبل تأميمات ١٩٦١، حاول عبد الناصر أن تقوم الرأسمالية المصرية بالتنمية وصدرت فى فترة الثورة الأولى أفضل التشريعات التى تقدم التسهيلات للرأسمالية المصرية فلم تتجه إلى التنمية بل قصرت استثماراتها على المبانى والمكاسب السريعة، فاضطر إلى أن تتدخل الدولة لتقوم بالتنمية. ولم يبدأ عبد الناصر بمعاداة أمريكا بل أرسل على صبرى إلى أمريكا لشراء الأسلحة وحاول أن يقوم البنك الدولى بتمويل السد العالى. ففشل فى هذا كله إذ كانت أمريكا تربط ذلك بربط مصر بالتحالفات مثل حلف بغداد ومشروع ايزنهاور وغيرهما من التحالفات التى تمس استقلالنا الوطنى.

كان توجه عبد الناصر الاجتماعى انطلاقا من توجهه الوطنى. وفى هذا كان يتفق مع الشيوعيين رغم أنه لم يكن شيوعيا. ولكنه لم يتباعد عن الشيوعيين بل تقارب وتعاون معهم واستعان بهم فى الصحافة والإعلام وفى الاتحاد الاشتراكى. وتعاون بشكل وثيق مع الدول الاشتراكية (الشيوعية) واختلف معها أحيانا. وكانت علاقاته وثيقة بتيتو ويوغوسلافيا الذى كون معه ومع غيره من البلاد حركة عدم الانحياز. فتيتو لم ينضم إلى حلف وارسو رغم أنه لم يتخل عن الشيوعيه واختلف مع الاتحاد السوفيتى. كما اختلف الاتحاد السوفيتى بعد ذلك مع الصين بل وحدثت مناوشات على الحدود وحدثت صدامات بين الصين وفيتنام، ومع ذلك لم يقل أحد أن أيا من هذه الدول معاد للشيوعية. وقد حاول الاستعمار الأمريكى أن يستفيد من هذه التناقضات والخلافات وحاول توسيعها. إن حركة عدم الانحياز التى كانت حسب تسميتها ترفض الانحياز إلى أمريكا أو إلى الاتحاد السوفيتى كانت فى جوهر الأمر معادية للاستعمار ومتعاونة مع الاتحاد السوفيتى والبلاد الاشتراكية.

ولهذا فإن ما يذكره الأستاذ محمد سيد أحمد بأن عبد الناصر كان ضد الشيوعية وكان الشيوعيون ضده إنما هى نظرة جامدة إلى الأمور ولم ينظر إليها فى حركتها وتطورها.

والنقطة الثانية والمهمة التى أختلف فيها مع الأستاذ محمد سيد أحمد والتى كررها كثيرا فى كتاباته فى مناسبات عدة هى قضية دور اليهود فى الحركة الشيوعية المصرية فى نشأة التنظيمات الشيوعية فى الأربعينيات.

أبدأ بالقول بأن المنطلق الأساسى للفكر الصهيونى هو أن حل المشكلة اليهودية هو فى تكوين جيتو خاص لليهود أو دولة خاصة «يهودية» تبعد اليهود عن الاضطهاد الذى واجهوه فى عهد النازية وغيرها. ودعوة جميع يهود



العالم إلى الهجرة إلى هذه الدولة وقد اختاروا فلسطين لكي تكون أرضا لها. وهم بهذا المعنى يعتبرون كل يهودى فى العالم إسرائيليًا، عليه أن يهاجر إلى إسرائيل أو يساعدها باعتبارها أرضه ووطنه. وبهذا يصبح اليهود فى كل بلد أصحاب ولاء مزدوج وجنسيتين.

والفكر الماركسى يرفض الصهيونية ويعتبرها فكرا عنصريا ويدعو اليهود إلى أن يعيشوا فى أوطانهم ويندمجوا مع شعوبهم. فلا يجب تقسيم الشعب على أساس الدين أو الجنس، وتدعو جميع أبناء الشعب إلى النضال من أجل التقدم ورخاء البشرية.

ولهذا فإن الدعوة التى تعتبر أن الصراع العربى الإسرائيلى هو صراع بين العرب واليهود تتعارض مع الفكر الماركسى الذى يعارض ذلك ويدعو لوحدة كل عناصر الأمة. وقد تأكد ذلك المفهوم فى ثورة ١٩١٩ حيث دعت إلى الوحدة بين الهلال والصليب ووجد يهود بين صفوف الحركة الوطنية.

وقد أشار محمد سيد أحمد بحق إلى أن الشيوعيين اليهود فى الحركة الشيوعية المصرية وقفوا ضد الصهيونية وقدم مثلا شحاتة هارون الذى وقف ضد العدوان الإسرائيلى واعتبر نفسه مواطنًا مصريا مثل باقى المواطنين، رغم أنه لم يتخل عن ديانته اليهودية. ورغم اعتقاله أكثر من مرة عند اعتقال اليهود رفض أن يترك مصر ويهاجر لأنه تمسك بمصريته.

لهذا فإن الدعوة لمحاربة اليهود أو التمييز ضدهم يقوى الدعوة الصهيونية ويصب فى نهاية الأمر فى نفس المنطلق الذى تنطلق منه هذه الدعوة.

ولا أعتقد أن محمد سيد أحمد يختلف معى فى ذلك.

ولكنه مع ذلك يثير قضية أن معظم مؤسسى المنظمات الشيوعية فى مصر كانوا شخصيات يهودية. وقال أن هذه ظاهرة بحاجة إلى تفسير.

ويقول «إن بروز حركة شيوعية يقرر مصائرها يهود. الكثير منهم غير مصريين (بل متمصرون وحتى أجانب) لم يكن بوسعها بالبداهة، امتطاء المد الوطنى الصاعد بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها، واستثماره الاستثمار الأمثل».

الواقع يثبت غير ذلك فالذى حدث بعد الحرب العالمية وتصاعد الحركة الوطنية أن الدور الأبرز فى هذه الحركة كان للشيوعيين المصريين سواء أكانوا طلبة أو عمالا الذين كون ممثلوهم «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» المنتخبة انتخابا ديمقراطيا من تجمعات الطلبة وتجمعات العمال والتى حصل فيها الشيوعيون وحلفاؤهم على الغالبية والنفوذ بينما سقط ممثلو القوى الأخرى اليمينية. ومازالت أحداث عام ١٩٤٦ وما بعدها تؤكد الدور البارز للشيوعيين الذين كانت لهم بصماتهم وتأثيرهم على توجهات الحركة الوطنية المصرية حتى قيام ثورة يوليو التى تأثرت أيضا بتوجهات الشيوعيين والتى برزت فى برنامج الضباط الأحرار.

ويؤكد هذا القول أيضا ما ذكره محمد سيد أحمد وما حدث فى الواقع من أنه عندما اختلف عبد الناصر مع الشيوعيين فى أواخر الخمسينيات لم يتهم الشيوعيين بوجود قيادات يهودية عند نشأتهم أو بالصهيونية كما كانت تفعل الدعاية الرجعية قبل الثورة. وإنما اتهمهم بالعمالة للسوفييت. والحقيقة أن الاتهام بالصهيونية قبل الثورة أو بالعمالة للسوفييت كما ذكر محمد سيد أحمد ليس له أى علاقة بالحقيقة.

ولكن لماذا وجد الأجانب واليهود فى الحركة الشيوعية بكثرة وفى قيادتها فى الثلاثينيات والأربعينيات. إن دراسة تاريخ مصر فى هذه الفترة تشهد أن الامتيازات الأجنبية كانت سائدة فى مصر. وكان الأجانب يحاكمون أمام محاكم خاصة وكان لهم سجن خاص هو سجن الأجانب. وكانت القاهرة والإسكندرية تعجان بالأجانب من إيطاليين ويونانيين ويهود أجانب أو بلا جنسية أو مصريين وكانت ثقافتهم أجنبية تسهل لهم إقامة علاقات مع الخارج.

وهذا الطابع الأجنبى الغالب بدأ يتقلص شيئا فشيئا فى الأنشطة المختلفة فى ارتباط مع تطور الحركة الوطنية المصرية. فغالبية الأجانب كانوا من اليونانيين والأرمن والإيطاليين وكانوا يتعاطفون مع الحركة الوطنية فى مصر. وكذلك الوضع بالنسبة لجزء من اليهود وبالذات اليهود الشيوعيون.

ولم تكن التنظيمات الشيوعية المصرية تهدف إلى استمرار الطابع الغالب عليها لليهود والأجانب فى القيادة، فكان من أول أهداف «الحركة المصرية للتحرر الوطنى» «التمصير». وقد تحقق ذلك فى ارتباط بتطور الحركة الوطنية المصرية بحيث إنه عندما حدثت الأزمة فى العلاقة بين عبد الناصر والشيوعيين لم يبق أحد من اليهود فى قيادة الحركة الشيوعية.

ننتقل الآن إلى عام ٤٨ وقرار التقسيم والحرب بين العرب وإسرائيل. عندما أعلنت الأحكام العرفية جرى اعتقال للشيوعيين سواء منهم المصريون أو اليهود. ولم يكن ذلك الاعتقال هو الذى أدى إلى تصاعد الدعوة «لتمصير» الحركة كما يذكر محمد سيد أحمد. بل إن هذه الدعوة كانت من الأهداف الأولى للحركة الشيوعية وبالذات «الحركة المصرية للتحرر الوطنى» منذ أوائل نشأتها. وكان هذا الاتجاه واضحًا إذ إن الغالبية فى القيادة كانت للمصريين. أما المنظمة الأخرى التى اتحدت معها الحركة المصرية للتحرر الوطنى وهى منظمة شرارة (اسكرا) فهى التى كانت غالبية قيادتها من الأجانب وعندما اتحدت مع «الحركة المصرية للتحرر الوطنى» وتكونت «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» لم يدخل القيادة إلا ثلاثة من اليهود ووجد قسم للأجانب كبير، قسم إلى فروع للأرمن واليونانيين والإيطاليين وغيرهم وهو ما كان يعكس الوضع فى ذلك الوقت.

أما بالنسبة للموقف من قرار التقسيم الذى صدر عام ١٩٤٧. فقد أيدته حدتو ولم يكن ذلك لأنها كانت تعتبره أفضل الحلول، بل لأنه كان الحل الممكن. وكان البديل هو الحرب التى قامت لأهداف بعيدة عن مصالح الشعب الفلسطينى أو الشعوب العربية. وإذا رجعنا إلى كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل «جيوش وعروش» فإنه يكشف لنا أن الملك عبد الله كان يهدف إلى منع قيام دولة فلسطينية. واتفق على ذلك مع الوكالة اليهودية والحكومة البريطانية. بل إن الجيوش العربية كان يقودها الجنرال جلوب القائد الإنجليزى. وقامت الحرب بتسهيلات كبيرة من الإنجليز الذين كانت قواتهم مرابطة فى العديد من البلاد العربية ويسيطرون على سياسة تلك الدول. وفى الوقت الذى كان فيه النضال الوطنى ضد الاستعمار البريطانى يتصاعد فى مصر بالذات. وكان إعلان الأحكام العرفية والاعتقالات التى شملت الشيوعيين تهدف أساسا إلى ضرب هذا النضال.

وكان الشيوعيون المصريون يعارضون هجرة اليهود إلى فلسطين ويدعون إلى توحيد كفاح العرب واليهود ضد الاستعمار. ويقاومون المحاولات التى كان يقوم بها الإخوان المسلمون وغيرهم من القوى اليمينية لتحويلها إلى حرب ضد اليهود.

وفى مؤتمر باندونج طالب عبد الناصر مع غيره فى المؤتمر بتطبيق قرار الأمم المتحدة الصادر عام ١٩٤٧ وبذل محاولات عديدة لتأجيل النزاع مع إسرائيل ليتفرغ للتنمية الداخلية.

ويورد محمد حسنين هيكل فى كتابه «العروش والجيوش» الوقائع التى تكشف حقيقة حرب فلسطين وأنه ليس لها علاقة بتحرير فلسطين بل العكس هو الصحيح.

مثل هذه الحرب رفضها الشيوعيون وحذروا منها ودعوا إلى توجيه السلاح إلى المحتلين. وقد تبين الشعب وقواه الوطنية بما فيه ضباطه الأحرار صدق رؤية الشيوعيين ووطنية موقفهم .

يقول الأستاذ محمد سيد أحمد أن هذا الموقف من الشيوعيين هو الذى أدى إلى الانقسامات فى حدتو. وأقول إن هذا يخالف الواقع.

إذن لماذا حدثت انقسامات فى الحركة الشيوعية فى مصر أكثر من غيرها من البلاد العربية وغير العربية؟ السبب أن الأحزاب الأخرى كانت تخضع لمركز دولى حتى بعد إلغاء الكومنترن كان للحزب الشيوعى السوفيتى فعليا سلطة ولو أدبية على الأحزاب الأخرى (العربية بالذات) وأحزاب العالم الثالث، فكان لهذه الأحزاب مرجع يلجأون إليه، ولم يكن الوضع كذلك بالنسبة لمصر لأسباب ذكرها محمد سيد أحمد.

هناك قضايا كثيرة أخرى أثارها محمد سيد أحمد وتحتاج لسطور كثيرة للرد عليها مما لا يسمح لى به المجال هنا.

محمد يوسف الجندى



وساطة.. إنسانية

فى نهاية مقاله المستطرد عن ثورة يوليو بعنوان «عصر يتهاوى» بمجلتكم الغراء «وجهات نظر» العدد «٤٣» أغسطس ٢٠٠٢م.. أورد الأستاذ/ محمد حسنين هيكل ما نصه أن الرئيس أنور السادات قد سمح لأحمد فؤاد (ولى العهد الذى نودى به ملكًا تحت الوصاية بعد تنازل فاروق عن العرش) بالعودة إلى مصر بناء على وساطة من شاه إيران محمد رضا بهلوى، ومن ملك السعودية فيصل بن عبدالعزيز. وكان كلاهما يتوهم أن النظام الملكى يمكن أن يعود إلى مصر فى ظرف من الظروف بعد رحيل الرئيس السابق جمال عبدالناصر.

وإذا كانت الوساطة الكريمة من الملك فيصل بن عبدالعزيز لدى شقيقه الرئيس المصرى فى ذلك الوقت ـ السادات ـ بدافع إنسانى قد وجدت صدرًا طيبًا وكريمًا بالسماح لمصرى (أيًا كان تصنيفه وموقعه) بالعودة لبلده مصر الكبيرة ذات التاريخ والحضارة والعراقة، فإنه من غير الملائم أو المناسب النظر إلى هذه اللفتة الإنسانية من الملك فيصل فى ذلك الوقت واستجابة الرئيس المصرى لها على أنها «توهم» بعودة النظام الملكى إلى مصر.. والأوفق فهم هذه اللفتة الإنسانية فى ضوء ما يلى:

١ ـ إن منهج وثوابت الفكر السياسى السعودى تقوم منذ حكم موحد البلاد الملك عبدالعزيز آل سعود وحتى الآن على أسس راسخة من عدم التدخل فى شئون الدول الأخرى مما أكسب المملكة احترام المجتمع الدولى لها ومكانتها وثقة شعوب العالم فى حكم قادتها.

٢ ـ إن المنهج الصحيح لديننا الإسلامى يطالبنا ألا نفتش فى قلوب الناس لتفسير الوقائع والأحداث، والواقعة التى نحن بصددها لا تخرج عن شفاعة حسنة أفاضت بها إنسانية الملك فيصل ـ يرحمه الله ـ لدى شقيقه الرئيس السادات بتحقيق أمنية مصرى «كانت له حيثية» بالعودة إلى بلده مصر.. واستجاب الرئيس لتحقيق تلك الأمنية.

٣ـ إن الشقيقة مصر عندما فتحت أبوابها لمن لجأوا إليها من حكام سابقين لم يكن ذلك بدافع تغيير الحكم فى دول هؤلاء الذين لجأوا إليها ومنهم ملك ليبيا السابق إدريس السنوسى ووصولاً إلى شاه إيران محمد رضا بهلوى.

السفارة السعودية

قـــــراءات جـــــديدة

"اجتماع"

قنبلة اسمها الزواج العرفي

خالد توحيد

القاهرة: مؤسسة الطويجي، ٢٠٠٢

الأرقام الرسمية عن ظاهرة الزواج العرفي في مصر أقل كثيرًا من الأرقام الحقيقية، بما يعني أن هذه الظاهرة كارثة حقيقية أو قنبلة بحسب تعبير المؤلف الذي يفندها ويحلل أسبابها وينبه إلى مخاطر تجاهلها أو عدم منحها الاهتمام الذي تستحقه.

"أدب"

تحت أكثر من سماء

أمجد ناصر

أبو ظبي. المجمع الثقافي، ٢٠٠٢

طاف الشاعر أمجد ناصر في أرجاء المعمورة وسجل مشاهداته وانطباعاته بلغة شاعرة وتسجيلية في آن معًا، مشاهد من بيروت وصنعاء ودمشق والرباط وكندا وعشرات المدن والدول الأخرى.

قصة الأدب في العالم

أحمد أمين. زكي نجيب محمود

القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠٢

إطلالة يقوم بها عالمان كبيران من رواد نهضة مصر الحديثة وأجنحتها التنويرية، حيث يقدمان رؤيتهما لقصة الأدب في العالم وتطوره وعلاقة هذا التطور بما جرى في أوطاننا.

"أطفال"

كتاب الهلال للأولاد والبنات

مجموعة من المحررين

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢

يخصص هذا العدد لموضوع الخيال العلمي، وهو موضوع شيق للصغار والكبار، ويحاول المحررون تبسيط المفهوم عبر قصتين، الأولى: «اشتباك إلكتروني» لفرج مكسيم، والثانية: الهروب الإلكتروني لياسمين عبد الفتاح، كما يقدم عددًا من أشهر أبطال أفلام الخيال العلمي وشخصياتها.

"إعلام"

تاريخ الإعلام في الجزيرة العربية

عبد الرحمن الشبيلي

الرياض: المؤلف، ٢٠٠٢

تعد الصحافة السعودية حديثة العهد نسبيًا وبدأت بأم القرى، إلا أنها تطورت بسرعة كبيرة على مستوى الأداء والمضمون والتقنيات، والقارئ السعودي يحظى بتنوع حقيقي بين جرائد يومية تختلف في معالجاتها وموضوعاتها، منها الرياض وعكاظ والمدينة والبلاد والندوة والوطن، والمؤلف يؤصل لتاريخ الإعلام في جزيرة العرب والتطورات التي لحقته وطبعت مسيرته.

■■■

Into the Buzzsaw: Leading Journalists Expose the Myth of a Free Press

(منشار الرقابة: كبار الصحفيين يكشفون خرافة الصحافة الحرة في الولايات المتحدة)

Gore Vidal, Kristina Borjesson (editors)

Prometheus Books, 2002, 275PP, $26.00

يكشف هذا الكتاب عن نظام الرقابة الشديد الذي يصطدم به الصحفي في الولايات المتحدة عندما يتناول موضوعًا حساسًا تريد المؤسسات الكبرى سواء الحكومية أو التجارية أن يظل مستترًا.

اشترك في الكتاب ١٨ مخبرًا صحفيًا وتليفزيونيًا يروى كل منهم قصته مع مؤسسته الصحفية التي حجبت موضوعه، والمؤسسة الكبرى التي كانت وراء منع النشر. تشمل المؤسسات التي جاء ذكرها في هذه المقالات كلا من الـ«أسوشيتيد بريس»، والـ«سي.بي.اس نيوز» والـ«إف.بي.آي» وجريدة الـ«نيويورك تايمز» وغيرها. أما القضايا التي تم حجبها فتشمل كارثة الرحلة ٨٠٠ طائرة الـ«تي.دبليو.آي» وكذلك قضية أصوات ناخبي ولاية فلوريدا في الانتخابات الرئاسية الأخيرة، إلى جانب قضايا أخرى تمس جهاز الـ«سي.آي.إيه» والـ«إف.بي.آي»، وغيرها.

"اقتصاد"

السكان وقوة العمل في مصر

الباحث الرئيسي: ماجد عثمان

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

تثير قضايا السكان جدلاً واسع النطاق في مصر، فالبعض يعتبر النمو السكاني عائقًا أمام التنمية فيما يراه آخرون معززًا لفرصها، هذا الكتاب يلقي الضوء على السكان من حيث التركيبة والفئات العمرية والتعليم ونسبة الأمية ومستويات الدخول والبطالة وغيرها من المؤشرات ذات الصلة، ويستشرف واقع السكان وقوة العمل في مصر حتى عام ٢٠٢٠، طارحًا بدائل للتعاطي مع هذه القضية المهمة.

■■■

المجتمع المدني وسياسات الإفقار في العالم العربي

تحرير: يسرى مصطفى

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

يسهم الكتاب في إبراز الموقف الثقافي العربي من واحدة من القضايا المهمة الراهنة، وهي دور المجتمع المدني في تحقيق الديمقراطية والتنمية الشاملة، وحتى الآن فإن شكوكًا عديدة تحيط بدور منظمات المجتمع المدني العربية وأغلبها عاجز لأسباب سياسية ومجتمعية مختلفة، فهل ثمة دور للمجتمع المدني لمواجهة سياسات الإفقار في العالم العربي في المستقبل، أي من خلال عشرين سنة من الآن.

■■■

النفط والأموال العربية في الخارج

عبد الخالق فاروق

القاهرة: دار المحروسة، ٢٠٠٢

نبه كثير من الاقتصاديين إلى خطورة تسرب أموال وعوائد النفط إلى الخارج بأكثر من صورة، فالشركات العاملة في مجال التنقيب عن النفط في البلدان العربية، تستعيد ما تنفقه ربما حتى قبل أن تسوق نصيبها من النفط العربي، المؤلف يعرض لتاريخ هجرة الأموال العربية إلى الخارج خصوصًا في أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣، كما يعرض المؤلف لقضايا ذات صلة، مثل تناقضات دول الأوبك فيما يتصل بحصص الإنتاج والتأثيرات الدولية في هذا الإطار.

■■■

Wages of Crime: Black Markets, Illegal Finance, and the Underworld Economy

(عوائد الجريمة: الأسواق السوداء، والتمويل غير القانوني، والاقتصاد والرى)

R.T. Naylor

Cornell University Press, 2002, 320PP., £ 29.95

المؤلف عالم اقتصاد كندي، يتناول النواحي المالية المتعلقة بالجماعات السياسية غير الرسمية، والمعاملات غير القانونية في الأسلحة، وسرية البنوك وغسيل الأموال، والعالم التحتي لتجارة الذهب.

وهو يلفت النظر إلى أن الاستخدام الواسع للأموال «الخيرية» في مساندة الحركات السياسية المختلفة ليس مقصورًا على العرب، حيث لا يمثلون سوى قلة في هذا المجال. كذلك يحذر المؤلف من أن المحاولات الأخيرة في سد التدفقات المالية كوسيلة من وسائل محاربة الإرهاب سوف يكون لها آثار مدمرة على الأنشطة التجارية القانونية، خاصة في القطاعات غير الرسمية منها.

■■■

Happiness and Hardship: Opportunity and Insecurity in new Market Economies

(السعادة والشقاء: الفرص وعدم الأمان في نظم اقتصاد السوق الجديدة)

Carol Graham and Stefano Pettinato

Brookings Inst. Pr, 2002, 174PP., $42.95

من خلال دراسات ماسحة لسبع عشرة دولة في قارة أمريكا اللاتينية بالإضافة إلى روسيا، ثم مقارنتها بنتائج أبحاث مماثلة في الولايات المتحدة وأوروبا، قام المؤلفان بتقديم إطار مفهومي جديد لعلاقة الاقتصاد بالإحساس الذاتي بالسعادة.

من ضمن ما توصلت إليه الدراسة، أن الإحساس بالسعادة يرتبط بالدخل الأعلى داخل الدولة الواحدة وليس عبر الدول، أي أن إحساس الفرد بوضعه النسبي في المجتمع الذي يعيش فيه أهم لديه من الحجم المطلق لدخله. كذلك بينت الدراسة أن الطبقات الوسطى والوسطى المتدنية هم الأكثر شقاءً، في حين أن الطبقات الأفقر على الإطلاق أكثر رضاءً منهم.

"تاريخ"

مصر في القرن العشرين

إعداد: رءوف عباس. محمد صابر عرب

القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٢

مجلد في جزءين يتناول الأول منه تاريخ مصر منذ الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ وإعلان الحماية على مصر، وتدخل الإنجليز لعزل الخديو عباس حلمي، وتنصيب السلطان حسين كامل، وما أعقب الحرب من سياسات قوضت إمكانات مصر ووضعتها تحت السيادة الكاملة لسلطة الاحتلال، وما تلا ذلك من قيام ثورة ١٩١٩ والنضال البطولي للشعب المصري من أجل الاستقلال والدستور، ويعني المجلد الثاني بثورة يوليو ومعاركها وما بقي منها لليوم.

■■■

Ornament of the World: How Muslims, Jews, and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain

(مفخرة العالم: كيف أقام المسلمون واليهود والمسيحيون ثقافة التسامح في أسبانيا العصور الوسطى)

Maria Rosa Menocal

Foreward by Howard Bloom

Little, Brown & Co, 2002, 315PP., $26.95

تروى أستاذة الإنسانيات في جامعة يايل، التاريخ المشرق لحضارة الأندلس، حيث شارك كل من المسلمين واليهود والمسيحيين في ازدهار الآداب والعلوم والفنون وسط مناخ ساده التسامح الديني والانفتاح الثقافي. وهي تقدم منجزات هذه الحضارة الفريدة التي قدمت الكثير إلى أوروبا والعالم أجمع.

■■■

Heaven on Earth: The Rise and Fall of Socialism

(فردوس على الأرض: صعود وسقوط الاشتراكية)

Joshua Muravchik

Encounter Books, 2002, 400PP., $27.95

«تعد الاشتراكية أكثر محاولات الإنسان طموحًا في إحلال الدين بمذهب يدعي العلمية والعقلانية». هكذا يكتب المؤلف المنتمي للتيار الأمريكي المحافظ، وهو يتناول تاريخ الحركة الاشتراكية منذ أن ولدت في الثورة الفرنسية وطوال مائتي عام حتى سقوطها في التسعينيات من القرن العشرين. وقد اختار المؤلف أن يؤرخ للاشتراكية من خلال أهم قادتها من المفكرين والسياسيين الذين طوروا النظرية الاشتراكية، فبدأ بالفرنسي بابوف، مرورًا بروبرت أوين، وفريدريك إنجلز، وبينيتو موسوليني، وجوليوس نيريري، ثم أخيرًا

جورباتشوف وزياويج وتونى بلير الذين اعتبرهم المؤلف «حانوتية» الاشتراكية الذين حملوها إلى مثواها الأخير.

تراث

التراث الكويتى فى لوحات
أيوب حسن الأيوب
الكويت: مركز البحوث والدراسات الكويتية، ٢٠٠٢

مجلد أنيق يجمع عشرات اللوحات عن البيئة فى الكويت ومناظرها الطبيعية وأهم الحرف والصناعات، إنه سجل شامل للتراث الكويتى فى مناحٍ شتى.

تعليم

The Launching Years: Strategies for Parenting from Senior to College life
(سنوات الانطلاق: استراتيجيات الرعاية الأسرية من مرحلة الثانوية إلى المرحلة الجامعية)
Laura Kastner, Jennifer Wuatt
Three Rivers Press, 2002, 272PP, $13.00

الكتاب موجه للأبوين من أجل التعامل الأمثل مع أبنائهم فى المرحلة الانتقالية من التعليم الثانوى إلى بداية مرحلة التعليم الجامعى. تنصح المؤلفتان الآباء، وإحداهما أستاذ الطب النفسى والعلوم السلوكية بجامعة واشنطون، أن يعتبروا قرار اختيار الكلية قرارًا يمس هوية أولادهم وليس هويتهم هم. كما تقترحان وسائل التعامل مع ازدياد استقلال الأبناء فى هذه المرحلة، وكيفية الموازنة بين الحرية والمساندة التى تقدمها الأسرة لأبنائها.

■■■

Children as Pawns: The Politics of Educationd Reform
(الأطفال كامانة: سياسات الإصلاح التعليمى)
Timothy A. Hacsi
Harvard University Press, 2002, 288PP., $ 39.45

يتساءل المؤلف عن كيفية تحسين المدارس، ثم يقترح أن تكون جهود الإصلاح متجذرة فى الدراسات والأبحاث الواقعية الجادة. ولكنه يعود ويحذر من الضغوط السياسية التى يمارسها أصحاب المصالح السياسية فى التلاعب بنتائج هذه الدراسات والتأثير على الرأى العام فى مدى صلاحية أو كفاءة أحد برامج الإصلاح.

يركز الكتاب على أربع قضايا تعليمية أساسية، أولاً مدى جودة فكرة التعليم ثنائى اللغة، وما إذا كان حجم الفصل له أهمية، ثم مشكلة الصعود الاجتماعى، وأخيراً ما إذا كانت الأموال الأكثر تصنع مدارس أفضل.

روايات وقصص

ليالى الزعبلاوى
إيهاب سلام
القاهرة: دار الأيام، ٢٠٠٢

من خلف قضبان سجن أبو زعبل يطل علينا الزعبلاوى بطل هذه الرواية والراوى الرئيسى لأحداثها، ومن خلال السرد نتعرف على شخصيات عديدة محاصرة خلف القضبان لأسباب مختلفة ووراء كل منها حكاية تبعث على الشجن والتأسى. إنه عالم كامل لا نعرف عنه الكثير.

■■■

Nanny Diaries
(مذكرات مربية)
Emma Mclaughlin and Nicola Kraus
ST. Martins Press, 2002, 352PP., $ 24.95

تتصدر هذه الرواية قوائم الكتب الأكثر مبيعًا فى الولايات المتحدة منذ أن صدرت فى فبراير من العام الحالى، ونظرًا للنجاح والشعبية التى حققتها اشترت شركة «ميراماكس» حقوق إنتاجها فى فيلم سينمائى.

اشتركت مؤلفتان فى كتابة رواية «مذكرات مربية» حيث تمتلك كل منهما خبرة واقعية فى مهنة المربية لأسباب تتعلق بنفقات الدراسة الجامعية فى نيويورك وما إلى ذلك. وقد تميزت الرواية بالدخول فى العالم الواقعى للأسر الثرية التى تسكن ضاحية مانهاتن الشهيرة فى مدينة نيويورك، من خلال النساء اللاتى يعرفن أسرار الحياة فى هذه البيوت.

سياسة

الافتراء على ثورة يوليو
عبد الله إمام
القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠٢

مازالت ثورة يوليو١٩٥٢، بعد مرور أكثر من نصف قرن على قيامها حدثًا إشكاليًا يستدعى الجدل والخلاف، وكثير من أحداثها لم يتم حسمه برغم الكتابات الكثيرة التى تناولت الثورة ورجالها وتداعياتها، المؤلف الذى شغل لفترة رئيس تحرير جريدة الحزب العربى الناصرى يدحض ما يرى أنه افتراءات على ثورة يوليو، ومنها انحرافات المخابرات ومسئولية عبد الناصر عن نكسة يونيو، وقضية مقتل المشير عامر أو انتحاره.

■■■

القومية العربية- الأمة والدولة فى الوطن العربى
يوسف الشويرى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢

يسلط هذا الكتاب الضوء على جهد سياسى وكفاحى سعى منذ القرن التاسع عشر لإعادة هيكلة الوطن العربى أو توحيده بوسائل عدة وفقًا لطرائق مختلفة، وهذا الجهد يطرح المسألة القومية العربية باعتبارها حركة طمحت إلى معالجة حالة جديدة أصبح فيها الوطن العربى كله هدف اختراق استعمارى أوروبى، وتتناول الدراسة القومية العربية عبر ثلاث مراحل مستقلة: المرحلة الثقافية والمرحلة السياسية والمرحلة الاجتماعية.

■■■

المخابرات الأمريكية وأحداث ١١ سبتمبر
محمود محمد خلف
القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٢

يضم جهاز المخابرات الأمريكى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ووكالة مخابرات الدفاع ووكالة الأمن القومى وفروعا أخرى عديدة تخرج عن هذه الثلاثية الأساسية، ومع ذلك جرى ما جرى فى سبتمبر، وهو ما وضع المخابرات الأمريكية فى موقف بالغ الحرج، ما هى علاقة المخابرات الأمريكية بما جرى فى ١١ سبتمبر، وهل كانت على علم وتقاعست عن أداء دورها، أم أن ثمة فسادًا فى أروقتها يحول دون تحقيقها لأهدافها.

■■■

تأميم شركة قناة السويس
(دراسة فى عملية اتخاذ القرار)
محمد السيد سليم
القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٢

يلقى الكتاب من خلال الدراسة المقارنة للوثائق أضواء جديدة على الأسئلة المتعلقة بكيف ومتى عرف عبد الناصر بسحب عرض تمويل مشروع السد العالى، ومن الذى كتب مشروع قانون التأميم، وما هى البدائل التى عرضت على عبد الناصر قبل اتخاذه لقرار التأميم، وهل كان على عبد الناصر أن ينتظر حتى يتسلم شركة قناة السويس مع انتهاء عقد امتيازها سنة ١٩٦٨؟

■■■

جرائم الحرب فى فلسطين والبوسنة والهرسك
حسام على الشيخة
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٢

إن وقائع الجرائم الدولية التى يمارسها جيش الاحتلال الإسرائيلى إزاء الشعب الفلسطينى تطرح قضايا عديدة، ودفوعا قانونية مهمة، ومن هنا تبدو أهمية تأصيل الثقافة السياسية والمعرفة الأكاديمية بدراسة جرائم الحرب فى إطار قواعد المسئولية الدولية وتطبيقها كما جرى فى البوسنة والهرسك ورواندا وفلسطين، ومن هنا تأتى أهمية هذا الكتاب.

■■■

حكم العسكر فى مصر المحروسة
عطية الصيرفى
القاهرة: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٢

يتابع المؤلف - وهو عامل ويسارى قديم - حكم العسكر فى مصر منذ الفراعنة وحتى اليوم، ويحلل طبائع حكم العسكر وما يمكن أن يجلبه من مآزق وأزمات وتأثيره على الحياة الاجتماعية والمعيشية للناس.

■■■

ناصريون وبعثيون
عبد العال الباقورى
القاهرة: دار الهدى، ٢٠٠٢

فى سبيل البحث عن أرضية مستقرة لنقاش عربى - عربى حول أحداث الأمس القريب يأتى هذا الكتاب الذى يضع العلاقة الملتبسة بين عبد الناصر والبعث فوق طاولة البحث والاستقصاء فى محاولة لاستخلاص منطلقاتها وبواعث تطورها التى ربما تسهم فى خلق واقع عربى مغاير.

■■■

أوراق مناضل إيطالى فى مصر
مارسيل شيريزى
القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٢

يضم الكتاب ذكريات إيطالى يهودى ولد وعاش فى مصر، واشتغل فى صفوف اليسار المصرى وتنظيماته. وقد كان همه برغم جنسيته الإيطالية أن يكسب نضال الأجانب واليهود الذين تواجدوا فى مصر بكثرة قبل الثورة إلى جانب نضال الشعب المصرى ضد الاستعمار البريطانى والصهيونية.

المؤلف الذى يقترب الآن من عامه التسعين طرد من مصر عام ١٩٥٣، ومازال يعيش فى إيطاليا عضوًا بالحزب الشيوعى الإيطالى ويعمل على تعبئة الإيطاليين لمساندة نضال الشعب الفلسطينى ضد العدوان الإسرائيلى.

■■■

The Hunt for the Engineer: The Fascinating True Story of How Israeli Agents Tracked and Killed the Hamas Master Bomber
(اصطياد المهندس: القصة الحقيقية لعملية رصد وقتل أكبر مدبر للتفجيرات فى حماس على يد العملاء الإسرائيليين)
Samuel. M. Katz
The Lyons Press, 2002, 320PP, $14.95

يروى هذا الكتاب تفاصيل القصة المحيطة بعملية اغتيال يحيى عياش المعروف بـ«المهندس» والذى أصبح أكثر رجل مطلوب فى تاريخ الدولة الإسرائيلية. فمع تكرار نجاح العمليات التفجيرية التى دبرها منذ عام ١٩٩٤، أصدر رئيس الوزراء آنذاك إسحاق رابين أوامره بتعبئة كل الموارد لوقف هذا السيل من التفجيرات، فكانت النتيجة حسب ما يقول مؤلف الكتاب واحدة من أكبر عمليات المخابرات فى التاريخ، حيث امتدت تحرياتها ونشاطها فى أنحاء العالم، واشترك فيها كل من جهاز المخابرات البريطانى (MI-5) والقوات الملكية الأردنية الخاصة، والـ(FBI) الأمريكية، وقسم شرطة مدينة نيويورك. وبالطبع عهد لجهاز الشين بيت الإسرائيلى السرى مسئولية الإمساك بعياش الذى يصفه المؤلف بالعبقرية.

عمل المؤلف مستشارًا لمناحم بيجين، كما كان عضوًا فى أول برلمان إسرائيلى، وهو من نشطاء الحركة اليهودية القومية وله عمود صحفى فى كل من صحيفة معاريف وصحيفة جيروزالم بوست الإسرائيليتين.

■■■

Security in the Persian Gulf: Origins, Obstacles, and the Search for Consensus
(الأمن فى الخليج الفارسى: الجذور والعقبات والبحث عن الاتفاق الجماعى)
Lawrence G. Potter, Gary Sick (editors)
Palgrave, 2002, 284PP.,$ 22.95

قــــــراءات جــــــديدة

دراسة جماعية شارك فيها أساتذة وباحثون معظمهم من منطقة الخليج الفارسي (العربي) من أجل تناول قضية الأمن من منظور دول وشعوب الخليج المختلفة. تضم الدراسة وجهات نظر إيرانية في كل من مجلس التعاون الخليجي والدور الإيراني، كما تضم وجهات النظر الإيرانية والعربية في قضية السيادة على جزر طنب وأبو موسى. وفي قسم آخر فصل يحلل مواقف الأجيال الجديدة في كل من إيران والسعودية، وثان يتتبع تاريخ المنطقة بالنسبة لمركزها في العلاقات الدولية منذ الإمبراطورية البرتغالية وحتى اليوم.

■■■

Civil and Uncivil Violence in Lebanon: A History of the Internationalization of Communal Conflict

(العنف الأهلي وغير الأهلي في لبنان: تاريخ تدويل صراع طائفي)

Samir Khalaf

Columbia University Press, 2002, 368PP.,$ 32.50

في هذا الكتاب، يقوم الدكتور سمير خلف، أستاذ علم الاجتماع بالجامعة الأمريكية في بيروت، بتحليل تاريخ الصراعات الأهلية في لبنان من خلال اكتشاف علاقة التفاعل بين العوامل الداخلية والضغوط الخارجية، وذلك بدلاً من التركيز على إحداهما دون الأخرى. وفي النهاية يقدم استراتيجيات يقترحها لإعادة خلق ثقافة سياسية ومدنية جديدة في لبنان قادرة على احتواء التحولات الداخلية والتطورات الدولية.

سير ومذكرات

عبد الرحمن بدوي نجم في سماء الفلسفة

تحرير: أحمد عبد الحليم

القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠٢

يشارك في هذا الكتاب نخبة من مثقفي ومفكري مصر تخليدًا واحتفاءً بالراحل الذي كان واحدًا من كبار الفلاسفة المصريين وأساتذة الفلسفة الذين أسهموا بكتاباتهم في إثراء الفكر الفلسفي العربي والإسلامي، والذي وصفه طه حسين بأنه أول فيلسوف عربي.

■■■

عبد القادر القط وذكريات عمر

عبد البديع عبد الله

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

يمثل الدكتور عبد القادر القط بإسهاماته النقدية المميزة علامة مهمة في مسيرة النقد العربي، ومتابعة ما كتبه تكشف عن عطائه الكبير من ناحية، كما تكشف من ناحية ثانية عن الحركة الإبداعية في تضاعيفها والتي عبر عنها طوال حياته. المؤلف وقد كان رفيقًا للدكتور القط يعرض لمختلف مواقفه من القضايا الفكرية والأدبية وآرائه النقدية في الشعر الحر، وإسهاماته في حركة الترجمة وفي الشعر ليس بوصفه ناقدًا وإنما كشاعر.

■■■

من سجلات الشرف (الجزء الثالث)

إبراهيم خليل إبراهيم

القاهرة: دار أمواج، ٢٠٠٢

في هذا الجزء يتناول المؤلف سيرة ومسيرة عدد آخر من الأبطال العسكريين الذين قدموا أرواحهم فداء للوطن، بينهم الشهيد عبد المنعم رياض وإبراهيم الرفاعي ومحمد عبد المعطي ومحمد المصري وغيرهم.

■■■

يوسف السباعي الأيام والليالي

علاء الدين وحيد

المنصورة: دار سنابل، ٢٠٠٢

يضم الكتاب حصاد جلسات مطولة جمعت المؤلف بالأديب المصري الراحل الذي شغل مناصب صحفية ورسمية عدة، فضلاً عن كونه واحدًا من الروائيين الذين احتفت السينما بأعمالهم فقدمت أغلبها.

المؤلف يلقي أضواء على سيرة يوسف السباعي من واقع علاقة حميمة جمعتهما، وخصوصًا أن السباعي لم يترك سيرة كاملة لحياته.

■■■

Soros: The Life and Times of a Messianic Billionaire

(سوروس: زمن وحياة المليارديرالمخلص)

Michael T. Kaufman

Knopf Alfred, 2002, 352PP, $ 27.50

سيرة حياة جورج سوروس المعتمدة من جانبه والتي كتبها بالتعاون معه صحفي جريدة النيويورك تايمز مايكل كلوفمان. يعد سوروس من أساطين رجال المال في العالم مثله مثل روكفلر أو كارنيجي، ويعتبره البعض رجل دولة بلا دولة.

ولد جورج سوروس لأسرة يهودية في المجر، واضطر لإخفاء هويته اليهودية لإنقاذ حياته في الحرب العالمية الثانية. وعندما رحل إلى إنجلترا ومنها إلى وول ستريت في الولايات المتحدة أصبح أعظم مدير مالي في العالم. وفي أوائل الخمسينيات من عمره، وبعد أن كون ثروة مالية طائلة، تحول سوروس إلى المشروعات الخيرية من خلال مؤسسات «المجتمع المفتوح» التي أنشأها متأثرًا بأفكار الفيلسوف كارل بوبر وقد عجلت هذه المؤسسات التي تتركز في أوروبا الشرقية بالفعل في إسقاط الشيوعية والتحول في طريق المؤسسات الديمقراطية.

■■■

Ultimate Biography: Inside the Lives of the World's 250 Most Influential People

(حياة أكثر ٢٥٠ شخصية مؤثرة في العالم)

Editors of Dorling Kindersley (editor)

DK Publishing.Inc, 2002, 256PP.,$29.95

تناول البرنامج التليفزيوني التسجيلي «بيوغرافي» الذي تنتجه محطة أى أند إى سيرة حياة أكثر من ٩٠٠ شخصية على مدار خمسة عشر عامًا.

وفي هذا الكتاب تجميع لسير ٢٥٠ من هذه الشخصيات التي قدمها البرنامج، رأى المحررون أنهم الأكثر تأثيرًا في العالم. تضم الشخصيات رؤساء دول، ونجوم الغناء الشعبي، وقيادات دينية، ورجال أعمال.. إلخ.

سينما

الشخصية العربية في السينما العالمية. الجزء الثاني

أحمد رأفت بهجت

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢

قليلة إلى حد الندرة تلك الأعمال التي ظهرت فيها شخصية العربي المسلم إيجابية في السينما العالمية، وبشكل عام فإن شخصية العربي بدت متخلفة وفظة وإرهابية، وهو تصور يبدو أنه سيسود خصوصًا في أعقاب أحداث سبتمبر ٢٠٠١، المؤلف يتناول بالنقد والتحليل شخصية العربي في عديد من الأفلام العالمية.

علوم

عالم جديد شجاع (عصر الجينوم وإعصاره)

رئيس التحرير: أحمد شوقي

القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٢

تقدم هذه الكراسة العلمية ثقافة الجينوم وعصره في إطار ثقافي واسع، فهي لا تتوقف طويلاً أمام التقنيات الصعبة والتفاصيل العلمية الدقيقة شديدة التخصص، وإنما تقدم الدلالات الثقافية والآفاق المستقبلية المتوقعة، وتطرح كيفية التعامل بمسئولية أخلاقية ووعي كامل مع هذه التطورات المتسارعة.

فكر

النهضة اليابانية المعاصرة

مسعود ضاهر

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢

يحاول المؤلف أن يجيب عن السؤال، لماذا نجح اليابانيون وفشل العرب؟ وفي إجابته يطرق المؤلف عدة مستويات نظرية وسياسية واقتصادية وثقافية، أي أنه يقدم إطلالة شاملة على النهضة اليابانية محاولاً تفسير أسرار نجاحها الفائق، عبر سبعة فصول وخاتمة تتناول الموروث الإيجابي لحركة التحديث اليابانية، واليابان في ظل الوصاية الأمريكية المباشرة وعناصر الاستمرارية والتغيير في تجربة التحديث اليابانية. والدروس المستفادة من التجربة اليابانية وغيرها من الموضوعات.

■■■

طقوس التخلف

عبد الرحمن فتحي

القاهرة: دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢

يتناول الكتاب بعض الموضوعات الأساسية في حياة الإنسان، وبعض الأفكار والنظريات التي تبدو وكأنها بديهيات، في محاولة للكشف عن زيفها واضطرابها وعجزها عن دعم الإنسان في مسيرته، كما يحاول أن يتلمس الطرق المستقيمة للبحث عن الأصول والبدائل التي يمكنها مساندة الإنسان، بإعادة النظر في كثير من النظريات والأيديولوجيات التي تسعى إلى تكريس القيم المادية، متجاهلة القيم الإنسانية ومتحدية القوانين الطبيعية، مما أوقع الإنسان في مأزق وجعل الأخطار المتنوعة تحيط به من كل جانب.

■■■

كتابات الزمن الآخر

سمير غريب

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢

مجموعة من المقالات التي نشرها المؤلف في الفترة من عام ١٩٨٨ وحتى اليوم، وتعكس موقفه من عديد من القضايا الفكرية والسياسية، والمؤلف كان لسنوات مديرًا لصندوق التنمية الثقافية ورئيسًا لمجلس إدارة دار الكتب والوثائق القومية ووكيلاً لوزارة الثقافة، وهو قبل ذلك وبعده صحافي معني بالشأن الثقافي وبالنقد التشكيلي على وجه الخصوص.

■■■

نهاية الإنسان

فرانسيس فوكوياما

ترجمة: أحمد مستجير

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٢

بعد نهاية التاريخ، وهي مقولة فوكوياما التي أقامت الدنيا ولم تقعدها، هاهو يخرج علينا بمقولة أخرى عن نهاية الإنسان بسبب البيوتكنولوجي، القضايا التي يثيرها فوكوياما مهمة وتستحق المناقشة، لكنها أيضًا تثير التساؤل عن ماهية هذا الإنسان الذي يخشى عليه فوكوياما وهل لهذا الإنسان صلة بملايين البشر الذين يعيشون تحت خط الفقر ودون حد أدنى من الرعاية الصحية في مجاهل أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية؟

فكر ديني

الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق

محمد نور الدين المنجد

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

بحث موضوعي يدحض فيه المؤلف مقولات كثير من الباحثين الذين يزعمون أن اللفظ القرآني الواحد يحمل أكثر من دلالة، ويعدون ذلك من دواعي الإعجاز، أما المؤلف فيقرر أن كل لفظ مستقل ومتفرد بذاته حتى لو أوهمنا الظاهر بغير ذلك، ولا بد من فارق مهما كان ضئيلاً يمنح اللفظ تميزه عن أشباهه، وهو ما يعده المؤلف -

عبر عديد من النماذج التى يقدمها - من دلائل الإعجاز.

■■■

التفسير الوجيز ومعجم معانى القرآن العزيز
وهبة الزميلى
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

تفسير يقتصر على بيان الآية إجمالاً، وعلى سبب نزولها الصحيح إن وجد، متجنبًا الإسرائيليات وملتزمًا أدق كتب التفسير قديمًا وحديثًا، وما أحاط بها من مأثورات ومعقولات، ومدى انسجامها مع أصول البيان فى اللغة العربية ومقاصد الشريعة، وقد ألحق بالكتاب قواعد علم التجويد بتفصيلاتها.

■■■

المدخل فى تاريخ الأديان
سعيد المراد
القاهرة: دار عين، ٢٠٠٢

يعرف البشر ديانات سماوية ثلاث هى الإسلام والمسيحية واليهودية، وبداخل كل منها مذاهب وتيارات شتى، فضلاً عن معتقدات أخرى غير سماوية يدين بها ملايين البشر مثل الكونفوشيوسية والبوذية، المؤلف يعرض لتاريخ هذه الأديان ومواطن نشوئها وشيوعها.

■■■

انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء
نبيل لوقا بباوى
القاهرة: دار البباوى للنشر، ٢٠٠٢

عقب أحداث الحادى عشر من سبتمبر، تصاعدت الحملة على الإسلام والمسلمين، وعادت من جديد نغمة انتشار الإسلام بحد السيف، المؤلف وهو قبطى مصرى أرثوذكسى يرد على هذه الاتهامات ويؤكد أن الإسلام انتشر بالحسنى وبالنموذج الذى قدمه المسلمون فى البلاد التى فتحوها، مستعينًا بعشرات المراجع فى الفقه والتاريخ الإسلامى وعشرات الكتب التى كتبها مسيحيون، وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف يعد رسالة للدكتوراة فى الشريعة الإسلامية بإشراف وزير الأوقاف المصرى.

■■■

Wahhabism: A Critical Essay
(الوهابية: مقالة نقدية)
Hamid Algar
Islamic Publications International, 2002, 96PP., $ 12.95

يتناول حامد الجر، الباحث فى الفقه الإسلامى والتاريخ الحديث للشرق الأوسط، التاريخ السياسى للحركة الوهابية ومبادئها الإسلامية.

يصف المؤلف محمد بن عبد الوهاب مؤسس الحركة بأنه من ذوى «الوزن الخفيف» من الناحية الفكرية، كما يرى أن المبادئ المغالية للوهابية تضعها خارج دائرة الأصولية السنية أو الأرثوذكسية السنية فى المفهوم الغربى. أما الناحية التاريخية، فيصف المؤلف الصعود السياسى للوهابيين فى السعودية بأنه كان عنيفًا ودمويًا، وهو يلقى اللوم على الولايات المتحدة والمملكة المتحدة فى دعمها ومساندتها للوهابية لسنوات عديدة.

"فنـــون"

عودة سعاد حسنى
إيناس عامر
القاهرة: سلسلة ومضة، ٢٠٠٢

بانوراما كاملة عن حياة سعاد حسنى فى السينما والحياة، تقدمها المؤلفة عبر عدة بورتريهات رسمتها لشخصيات مختلفة عاشت فى حياة سندريلا الشاشة الراحلة، وكان لها تأثير فى فنها واختياراتها لأدوارها وحياتها إجمالاً، وعبر بورتريهات أخرى لسعاد حسنى ذاتها ترسم لنا المؤلفة صورة لسعاد حسنى الأخرى.

■■■

Labour and Architecture: Collected Essays on Architecture and Design
(العمل والعمارة: مقالات عن العمارة والتصميم)
Kenneth Frampton
Phaidon Press, 2002, 352PP, £ 40.95

مجموعة من المقالات المهمة لناقد معمارى مخضرم كتبها على مدار خمسة وثلاثين عامًا. المقالات تركز على عمارة القرن العشرين، متناولة الحركات والأفكار التى سادت فيه، وأشهر الأعمال المعمارية وأصحابها من المصممين المعماريين. تنقسم المقالات إلى ثلاث مجموعات رئيسية هى النظرية والتاريخ والفن.

■■■

The New Paradigm in Architecture: The Language of Postmodernism
(المنظور الجديد فى العمارة: لغة ما بعد الحداثة)
Charles Jencks
Yale University Press, 2002, 288PP, $35.00

ظهر هذا الكتاب لأول مرة فى منتصف السبعينيات مع بداية حركة معمارية جديدة، فأصبح أول كتاب يبحث قضية ما بعد الحداثة. وقد تمت ترجمته إلى إحدى عشرة لغة، وأعيدت طباعته ست مرات. فى هذه المرة قام المؤلف بإعادة كتابته من جديد، وأضاف إليه فصلين جديدين ليواكب أحدث ما تطور إليه فن العمارة خاصة مع زيادة الاعتماد على الكمبيوتر فى التصميمات الحديثة.

"قصص"

الليلة الأخيرة
شريفة الشملان
بيروت: دار الكنوز، ٢٠٠٢

مجموعة قصصية جديدة لكاتبة سعودية نشرت أعمالها فى عديد من الدوريات والصحف السعودية والعربية، وتكتب بانتظام فى جريدة الرياض السعودية.

والمجموعة هى الرابعة بعد: منتهى الهدوء ١٩٨٩، ومقاطع من حياة ١٩٩٣، وغدًا يأتى ١٩٩٧.

من عناوين المجموعة: كبار الزوار، حيوانات وإنسان، الثقب، الرحيل، أين الطريق، أين أنا، أحياء دقيقة.

"مـــدن"

زبدة الحلب من تاريخ حلب (الجزء الأول)
كمال الدين عمر بن أحمد بن أبى جرادة
تحقيق: سهيل زكار
دمشق: دار الكتاب العربى

مدينة حلب من أعرق مدن بلاد الشام، وقد شغلت أعظم الأدوار فى تاريخ هذه البلاد فى الإسلام، ومنذ القرن الرابع للهجرة، غدت حلب مركزًا لإمارة امتدت حدودها جنوبًا حتى بلدة الرستق على نهر العاصى، ويعد هذا الكتاب واحدًا من المراجع المهمة فى تاريخ حلب، ومحقق الكتاب يعمل فى تاريخ المدينة منذ ثلاثين سنة، كما أن اختصاصه الأساسى هو التاريخ الإسلامى.

"مســرح"

المسرح المصرى (مجلدان)
تقديم: أسامة أبو طالب
القاهرة: المركز القومى للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، ٢٠٠٢

يعرض المجلد الأول لأهم النصوص المسرحية فى الموسم المسرحى ١٩١٩-١٩٢٠، ويعرض الثانى للموسم المسرحى ١٩٩٩-٢٠٠٠، ويكشفان عن مسيرة المسرح عبر ثمانين عامًا وأهم القضايا والإشكالات التى عالجتها النصوص المسرحية فى الموسمين.

■■■

زوبة المصرية
محمد أبو العلا السلامونى
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

زوبة فتاة مصرية هامت حبًا بنابليون بونابرت، المؤلف ينسج من هذه العلاقة الباهتة خيوط مسرحيته التى تتشابك وتتلاقى فى دوائر عدة، منها علاقة الحب بالحرب والسياسة، ودوائر القطيعة والتلاقى بين الشرق والغرب، حدوده ومخاطره.

"منوعـــات"

طيور الكويت
عبد الله الحداد - فوزية السديراوى
الكويت: مركز البحوث والدراسات الكويتية، ٢٠٠٢

دراسة مستفيضة عن أهم وأشهر فصائل الطيور التى تعيش فى الكويت، ومنها مستقر فى بيئتها ومنها عابر، إلا أن المؤلف ضمنها جميعًا كتابه.

■■■

مكافحة التدخين بين النظرية والتطبيق
حسن البنا محمد عبد المعز
الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ٢٠٠٢

يوثق الكتاب تجربة علمية متميزة فى المدينة المنورة التى اعتبرتها منظمة الصحة العالمية خالية من التدخين، وبيَّن المؤلف أن مسئولية مكافحة التدخين تقع على عاتق الجميع كل بحسب موقعه وبحسب دوره فى الأسرة والمجتمع، كما يجيب عن أسئلة المدخنين واستفساراتهم، ويلقى الضوء على برامج المجتمعات النشيطة والراغبة فى تحقيق نجاح فى هذا المجال.

"نقـــد"

النقد ومستقبل الثقافة العربية
فريال حسن خليفة
القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٢

يهتم الكتاب بمستقبل الثقافة العربية متجاوزًا الماضى والحاضر عبر رؤية نقدية، باعتبار أن النقد هو الأداة التى تكشف تناقضات الوعى فى الماضى والحاضر.

وينقد الكتاب إشكاليات النهضة والحداثة عند الطهطاوى ومخاطر الموقف النظرى عند الأفغانى وثنائية زكى نجيب محمود فى تذبذب الموقف الفلسفى، كما يتلاقى مع طه حسين وإسماعيل أدهم فى الموقف النقدى.

■■■

فن كتابة القصة
فؤاد قنديل
القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠٢

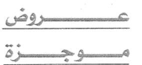
دراسة فى هذا الفن الجميل وقواعد كتابته ورسم شخصياته، مع الاعتراف بالفضاءات المفتوحة التى تمنح المبدع حرية الحركة من حيث البناء اللغوى والدرامى دون الالتزام بالقواعد الصارمة من حيث الحبكة والعقدة ولحظة التنوير.. إلخ، لكنها تبقى قواعد إرشادية للراغبين فى اقتحام هذا المجال من حقول الإبداع.

■■■

مصطلح نقد الشعر عند الإحيائيين
محمد مهدى الشريف
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢

يحتل علم المصطلح أهمية كبيرة، ومن شأن معرفة أى مصطلح من العلوم توحيد بساط البحث الذى يلتقى عليه العلماء، وتقضى بالتالى على الاضطراب الذى يمكن أن ينشأ عن سوء فهم المصطلح أو فهمه بأكثر من طريقة لدى النقاد.

المؤلف يتناول مصطلح نقد الشعر عند الإحيائيين، استنادًا إلى الخبرات التى وفرها الاهتمام بهذا المجال المعرفى الذى بدأ قبل نصف قرن تقريبًا.



كتب عربية

تاكسي الكلام

صافي ناز كاظم

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢، ٢٤٦ صفحة



يضم هذا الكتاب في أقسام ستة، مقالات نشرتها الكاتبة في مناسبات ودوريات مختلفة خلال السنوات الأخيرة، وهو بجانب ما يضمه من أفكار ومواقف تتميز بالجدة والطرافة في آن معًا، يقدم إلينا وجوهًا ذات صلة بمسيرة المؤلفة الإبداعية التي بدأت منذ نصف قرن تقريبًا، حين كانت بعد في مرحلة الدراسة الثانوية، ويأتي كتابها هذا بعد اثنى عشر كتابًا كان أولها رومانتيكيات ١٩٧٠.

تكتب مثلاً عن عشقها للقطط واقتنائها الدائم لواحدة منها أو أكثر، بعضها أحبها إلى درجة الانتحار حين اعتقلت في ١٩٧٣ و١٩٨١، ووجدت فيها أنسًا ورفقة قد لا نجدها بين البشر، وعلاجًا ناجعًا من أمراض الغضب والاكتئاب وعدم الثقة بالنفس.

تكتب عن علاقتها بابنتها الأديبة الصحافية «نوارة» وعن أبيها الشاعر أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام عيسى أو الكيان الفني «إمام - نجم» كما تسميه، وتطالب بطرح تسجيلاتهما للجمهور، باعتبار أن هذه هي الوسيلة الوحيدة للتعريف «بهذا الصرح الفني الكبير»، بدلاً من الأصوات النشاز «الملوثة للنغم واللحن والكلمة والمعنى والقضية وتداعيات المراحل والأزمنة» التي تغني هذا التراث وتسيء إليه بحسب قول المؤلفة. وتكتب عن نجيب سرور الشاعر والمخرج والمؤلف والممثل والساخر «صاحب السخرية النائحة والباكية»، وتقول أنه مات بخنجر هزيمة ١٩٦٧ «بكل أبعادها ومضاعفاتها وإشعاعات نفاياتها المسمومة»، تكتب أيضًا عن نصير شمة وموسيقاه وقدراته الفذة على مداعبة عوده بتمكن وخيال بالغين.

وتنتقد مسلسل «أم كلثوم» خصوصًا الإساءة إلى شخصيات لحساب إعلاء شخصيات أخرى دون سند من واقع، وهكذا أسيء إلى أحمد شوقي وإلى مصطفى أمين وإلى منيرة المهدية وزكريا أحمد وآخرين، فضلاً عما ارتاته من خطايا في الملابس والديكور والسيناريو إجمالاً، وتعلن على الملأ متحدية الذوق العام كله أنها لا تحب عبدالحليم حافظ.

ومن المقالات البديعة في الكتاب مقالتان عن الأديبة الآنسة مي زيادة، وتكشف عن كثير من انعطافات حياتها وعلاقاتها التي أثرت إيجابيًا على مسيرتها الإبداعية شاعرة وقاصة وباحثة، فضلاً عن تدينها وغيرتها الوطنية التي جعلتها مهتمة بما يجري في وطنها العربي ورغبتها الجامحة في انتشاله من الانحطاط والتردي، تكتب أيضًا عن محمد محمود شعبان (بابا شارو) وعن عائشة صالح ونزار قباني ومنير كنعان وآخرين، و«تشاحن» منابر ثقافية وسياسية وشخصيات عامة، أما أجمل ما كتبت - برأيي - فمقال عن سيد مكاوي في بداية حياتها الصحفية (١٩٥٧)، رفضت مجلة الجيل نشره بحجة أنه «سيريالي» وهو في الحقيقة قطعة من الأدب الراقي.

□ □ □

صراع النفط العالمي ومستقبل نفط الخليج العربي

عيد بن مسعود الجهني

الرياض: مركز الخليج العربي للطاقة والدراسات الاستراتيجية، ٢٠٠٢، ٤٩٢ صفحة



ليس خافيًا أن النفط كسلعة صاحبة قوة ونفوذ وتأثير وتأثر كان أهم العوامل التي لعبت دورًا خطيرًا في صياغة السياسة العالمية خلال القرن العشرين، مما أكد بشكل لا نزاع فيه الارتباط الوثيق للنفط بالسياسة منذ أوائل قرن النفط المنصرم ومرورًا بالحربين العالميتين المدمرتين، حيث العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ وما تلاه من عدوان إسرائيلي صارخ على العرب عام ١٩٦٧ واستمرارًا بحرب رمضان المبارك/أكتوبر الشهيرة عام ١٩٧٣ عندما أصبح الصراع حول النفط معركة حقيقية حتى الألفية الثالثة.. حيث أصبح النفط يشكل ٧٥٪ من الصادرات العربية ويعتبر العمود الفقري لمعظم اقتصاداتها، وخلال هذا القرن برزت أزمة الطاقة بقوة على حافة جميع الصراعات الدولية في مناطق عديدة من العالم أدت إلى اهتزاز وقلقلة القواعد المستقرة في العالم بطريقة عميقة تحولت بقوة وسرعة في الشرق الأوسط لتصبح كل المعركة.

وقد استطاعت دول الخليج العربي بقيادة المملكة العربية السعودية عام ١٩٧٣ أن تستخدم النفط كسلاح في الصراع بين العرب وإسرائيل، لتبلغ أهمية البترول ذروتها وأن تضع العالم الغربي في مفترق الطرق وتجبرهم أن يعيدوا حساباتهم التي أسفرت عن نتائج مهمة.

وبقدر شجاعة وعبقرية استخدام هذا السلاح بقدر ما استنفر العالم الصناعي الذي تتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية كرد فعل قوي أمام الإقحام الهائل لسلاح البترول الذي فاجأ مجتمعات الغرب والعالم بأسره.

وواجهت الدول الصناعية الكبرى التي أفاقت من غفوة طويلة، الأزمة بمنهج من الأمن والتعاون فيما بينها وأجبرتهم على ضرورة وحتمية التصدي للخطر النفطي الجسيم الذي واجههم لأول مرة في التاريخ محدثًا لها هزة رهيبة.

وشهدت حلبة الصراع العالمي معارك جديدة من نوع جديد، كان النفط هو القاسم المشترك فيها، وهو صراع استخدم لأول مرة أسلحة جديدة وأساليب مختلفة عن جميع الحروب السابقة - وقد ظهرت على ساحة الصراع قوتان، الأولى هي منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) التي حاولت أن تفرض إرادتها على سوق البترول الدولي لكن طموحاتها صدت، فهناك لاعبون آخرون يوجهون مع الأوبك دفة سوق النفط الدولية، ومن هنا وقفت في مواجهتها وكالة الطاقة الدولية (IEA) التي تساندها الدول الصناعية الكبرى المستهلكة للنفط التي تمتلك في جعبتها أدوات عديدة مؤثرة من التخطيط والتنسيق، يقف إلى جانبها شركات النفط العملاقة التي تحمل جنسية الدول الصناعية المستهلك الرئيسي للنفط.

وقد تنوعت أساليب وأسلحة كل طرف - فقد وجدت منظمة الأوبك أن التحكم في حجم الإنتاج وتحديد السعر هو الوسيلة والسلاح الناجع لضمان عدم هبوط السعر إلى مستوى متدن - بينما كانت وكالة الطاقة الدولية (IEA) ترد على ذلك بأساليب الترشيد في استهلاك النفط وفرض الضرائب الداخلية على استخدامه - إلى جانب نشاطها في البحث والتنقيب وإيجاد مصادر بديلة على نحو يضمن لها استمرار إمدادها بالنفط الرخيص.

لقد وضح بلا مواربة التأثير الكبير لمعطيات أسعار النفط على الأصعدة السياسية والاقتصادية ودخلت القاموس السياسي تعبيرات جديدة وموضوعات جديدة فلا تخلو الكتابات المتخصصة عن النفط من الكلام عن حرب الأسعار والتي كانت تتحكم فيها أطراف كثيرة ومن ضمنها الدول من كبار المنتجين وكبار المستهلكين إلى جانب شركات النفط الكبرى، والدول المنتجة خارج الأوبك، وقد أدى الصراع على الأسعار والإنتاج إلى حافة الهاوية على نحو أثر على الاستقرار في بقاع عديدة من العالم وأدى إلى العصيان المدني في بعض الدول الأوروبية.

وتعد الهزة النفطية الأولى في أكتوبر ١٩٧٣ القنبلة التي تفجرت لأول مرة لتعميق صراع النفط العالمي، وجاءت عوامل الاضطراب في إنتاج النفط الإيراني بسبب الثورة الإيرانية ثم الحرب العراقية - الإيرانية لتلعب دورًا بارزًا في التعجيل بحدوث هزة نفطية ثانية، فارتفعت الأسعار ارتفاعًا صارخًا خاصة في سوق التسليم الفوري (Spot Market) وواصلت أسعار العقود النفطية ارتفاعها لفترة ناهزت العشرة أشهر.. الأمر الذي جعل السعودية تنهج أسلوبًا مرنًا لجلب الاستقرار لسوق النفط الدولية التي اضطربت بشدة آنذاك فزادت إنتاجها النفطي للحيلولة دون حدوث هزة نفطية ثالثة.

□ □ □

السياحة ومستقبل مصر

محيا زيتون

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ٤٩٠ صفحة



مثل كثير من الدول النامية، تجد مصر في السياحة مخرجًا مناسبًا للحصول على العملة الصعبة، يعوض إخفاقها الناجم عن المنافسة الشديدة في مجالات التصدير والتي لا تكون غالبًا في صالحها.

وقد حققت مصر بالفعل في خلال العقدين الأخيرين تطورًا ملحوظًا في مجال السياحة، وبادرت بتطوير مناطق سياحية جديدة على سواحل البحر الأحمر وجنوب سيناء، وقدمت الأراضي للمستثمرين في هذه المناطق بأسعار رمزية.

والمؤلفة تقسم كتابها الذي يأتي في إطار مشروع مصر ٢٠٢٠ والذي يتبناه منتدى العالم الثالث إلى جزءين، تدرس في الأول منه - في سبعة فصول - الوضع الراهن لقطاع السياحة من حيث الإيرادات والأهمية والأبعاد العالمية والأثر على البيئة والأبعاد الاجتماعية والثقافية للسياحة.

وتخصص الجزء الثاني - خمسة فصول - لسيناريوهات المستقبل وهي برأيها أربعة سيناريوهات هي: السيناريو المرجعي، وسيناريو الرأسمالية الجديدة، وسيناريو الدولة الإسلامية وسيناريو الاشتراكية الجديدة.

وتلاحظ الباحثة أن السياحة برغم أنها كانت مهمة خلال عقد الستينيات وحتى قبيل نكسة ١٩٦٧، إلا أنها لم تأخذ

عروض موجزة

موقعها بوصفها قطاعًا رئيسيًا فى الاقتصاد الوطنى إلا فى أعقاب سياسة الانفتاح الاقتصادى، وشهدت نموًا مطردًا فى العقدين الأخيرين تحديدًا، ودلالة ذلك حصول قطاع السياحة على نصيب كبير من جملة الاستثمارات الوطنية وصل إلى أكثر من الضعف فيما بين عامى ١٩٨٧ و١٩٩٩ وعلى حساب قطاعى الصناعة والبترول، وبرغم أن معظم الاستثمارات السياحية تعد استثمارات محلية (٨٣٪)، فإن السياحة من القطاعات ذات القدرة العالية على جذب الاستثمار الأجنبى والعربى.

وتشير الدراسة إلى تضاعف عدد السائحين لمصر بنحو سبعة أضعاف فى الفترة من ١٩٧٥ وحتى ٢٠٠٠، وزاد نصيب مصر من السياحة العالمية مع الأخذ فى الاعتبار أحداث العنف والإرهاب التى أثرت على هذا القطاع فى سنوات سابقة، وتشير أيضًا إلى زيادة أعداد السائحين الغربيين الذين يأتى معظمهم أو كلهم تقريبًا فى شكل رحلات جماعية، وتوسعت من ناحية ثانية إمكانات «العرض» السياحى. فزادت الطاقة الفندقية بمعدل ١٠,٧٪ سنويًا خلال ربع القرن الأخير وظهرت الفنادق العائمة والقرى السياحية، وبلغ نمو الطاقة الفندقية للأولى ١٦,٤٪ سنويًا، والثانية نحو ٣٠٪ سنويًا، وزاد نصيب منطقة البحر الأحمر وجنوب سيناء من الطاقة الفندقية لتستوعب فى عام ٢٠٠٠ نحو ٥٢٪ من إجمالى الطاقة الفندقية.

وتؤكد الدراسة على أهمية التدقيق فى قياس الإيرادات السياحية وتحديد ما تسميه «تسربات النقد الأجنبى خارج القنوات الرسمية»، وتشير إلى المغالاة فى تقدير الإيرادات السياحية الرسمية على نحو يجعلها أعلى من الإيرادات الفعلية للجهاز المصرفى. وترجح وجود قنوات غير مشروعة لتسرب الإيرادات السياحية خارج الاقتصاد الوطنى، لكنها بشكل عام تشير إلى زيادة الإيرادات السياحية الرسمية بمعدل ٧,٦٪ سنويًا فى الفترة من ١٩٨٢ وحتى ١٩٩٩، وتحتل السياحة المرتبة الثالثة بعد الصادرات وتحويلات المصريين من الخارج فى موارد مصر من النقد الأجنبى، أما مساهمتها فى الدخل الوطنى فتبلغ ٢,٣٪، ومساهمتها فى قوة العمل تبلغ ١,٧٪ ومن ثم تستنتج الباحثة أن السياحة لا يمكن التعويل عليها فى تحقيق نمو اقتصادى مرتفع، أو فى توفير فرص عمل على نطاق واسع يحل مشكلات البطالة، وتشير الدراسة إلى مسألة بالغة الأهمية تتعلق بالسياحة العكسية ودورها فى تقويم أداء قطاع السياحة، وتشير إلى أن ما تم تحقيقه من إيرادات نتيجة للسياحة الوافدة، يخرج مثله وأكثر فى شكل مدفوعات لسياحة المصريين فى الخارج، وتشير - بالأرقام - إلى نقطة أكثر خطورة وهى أن نحو ثلاثة أرباع الإيرادات السياحية المقدرة رسميًا تتسرب خارج الاقتصاد الوطنى.

ومن النتائج المهمة التى كشفتها الدراسة، وجود «هدر بيئى» خطير فى بعض المناطق الساحلية بالبحر الأحمر، وهى مناطق ذات طبيعة هشة ونمو سياحى سريع.

وتتضمن المقارنة بين السيناريوهات البديلة نتائج بالغة الأهمية والطرافة فى آن معًا، حيث تتفاوت أهمية الأشكال المختلفة للسياحة (ثقافية - ترفيهية - شاطئية) من سيناريو لآخر. كما تتفاوت مكانة السياحة ومعدلات الاستثمار وبالتالى معدلات الإشغال فى الفنادق فى كل منها، وسيبلغ عدد السائحين فى عام ٢٠٢٠ وفقًا للسيناريو المرجعى ٢١ مليونًا يرتفع فى سيناريو الرأسمالية الجديدة إلى ٢٣ مليونًا، لكنه ينخفض إلى ١٤ مليونًا فى سيناريو الاشتراكية الجديدة، ويبلغ أدنى مستوى له فى سيناريو الدولة الإسلامية حيث يبلغ عدد السيَّاح ٥ ملايين سائح.

□ □ □

حسين بيكار الفنان الشامل

صبحى الشارونى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ١٦٠ صفحة



سياحة بصرية رائعة يمضيها قارئ هذا الكتاب، متتبعًا تاريخ الفنان الرائد حسين بيكار الذى عمل بتدريس فن التصوير فى المدارس وفى كلية الفنون التى تخرَّج فيها عام ١٩٣٣، قبل أن يغادرها مستقيلاً من عمله كرئيس لقسم التصوير بها كى يعمل بصحافة أخبار اليوم.

ولد حسين أمين بيكار فى ٢ يناير عام ١٩١٣ بحى الأنفوشى بالإسكندرية، وذاعت موهبته فى الموسيقى وهو فى الثامنة من عمره، وبدأت الأسر تطلبه لتعليم بناتها الموسيقى، وكانت دروس العزف من مظاهر تأهل الشابات للزواج فى عشرينيات القرن الماضى فى الأوساط الأرستقراطية، لكنه اختار طريقًا آخر، أهَّلته له موهبته الساطعة فى مجال الرسم.

ينتمى بيكار إلى الجيل الثانى من الفنانين المصريين، وقد التحق بكلية الفنون الجميلة عام ١٩٢٨، وكانت وقتها تسمى مدرسة الفنون العليا وكان عمره آنذاك ١٥ عامًا، ودرس فى البدايات على أيدى الأساتذة الأجانب حتى عام ١٩٣٠، ثم على يد يوسف كامل وأحمد صبرى بعد عودتهما من رحلاتهما الدراسية فى روما وباريس.

والذى يطالع لوحات الفنان بيكار لابد أن يتبادر إلى ذهنه سؤال منطقى: لماذا لم يظهر تأثير البحر فى أعمال بيكار وهو ابن الإسكندرية كما هى حالة محمود سعيد أو سيف وأدهم وانلى، فيما بدا تأثير النوبة والصعيد والرسم الفرعونى أكثر؟!

بيكار نفسه لا يجد إجابة سوى أن تأثير الفن الفرعونى ومشاهداته فى أعماق الصعيد التى قضى فيها زمنًا مدرسًا للفنون كانت أعمق من أى شيء آخر، ويمكننا أن نضيف إلى هذا أيضًا تأثير المغرب على لوحاته خصوصًا مدينة تطوان التى عاش فيها عدة سنوات، وفى هذه السنوات انتقل بيكار من الواقعية التى كانت مسيطرة على لوحاته تقريبًا إلى شيء من الفانتازيا.. «وما لبثت هذه الفانتازيات أن نضجت وأعطتنى خبرة فى أن أتصور شيئًا وأترجمه على الورق، أن أتخيل شيئًا وأرسمه دون الاستعانة بموديل».

وإلى جانب فن البورتريه والرسوم الطبيعية التى برع فيها بيكار بأسلوبه المميز «فرعونى الطابع» وألوانه المدهشة، وكذلك رسومه الصحافية التى قرَّبت فنه للناس وعرَّفته للجماهير، كان بيكار من أوائل من رسموا للأطفال، كما أنه من أوائل من عبَّروا بالقلم والريشة فى الصحافة المصرية، سواء عبر رحلاته حول العالم، أو أشعاره التى كانت تنشر مصحوبة برسوماته التعبيرية.

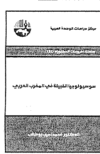
وسجلت ريشة بيكار عملية إنقاذ معبد أبى سمبل، ولوحاته فى فيلم «العجيبة الثامنة» الذى يحكى قصة معبد رمسيس الثانى فى أبى سمبل، وحصل بيكار على عشرات الجوائز محليًا وعربيًا وعالميًا، كانت آخرها جائزة مبارك عام ٢٠٠٠، وهى أكبر جوائز الدولة فى مصر.

□ □ □

سوسيولوجيا القبيلة فى المغرب العربى

محمد نجيب بوطالب

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢، ١٨٦ صفحة



أصل الكتاب رسالة دكتوراة حصل الباحث بموجبها على الدرجة العلمية فى الاجتماع من الجامعة التونسية عام ١٩٩٩، لذلك يخصص جزءًا لا يستهان به فى تأصيل منهج بحثه ومناقشة الفروض النظرية الخاصة بالموضوع وإشكالات التركيب الاجتماعى القبلى ونقد النظريات التى تناولته، ثم يقدم تحليلاً لحضور القبيلة كبنية اجتماعية فى التاريخ الاجتماعى والسياسى لأقطار المغرب العربى، ويرصد الآليات التى تحكمت فى هذا البناء وحكمت علاقة الدولة بالمجتمع.

وحين يدرس المؤلف خصائص القبيلة المغاربية ساعيًا إلى اكتشاف الثابت والمتغير بين هذه الخصائص. وأولى هذه الخصائص هى المساواة الناجمة عن التقسيم البسيط للعمل والقاعدة الاجتماعية القائمة على التضامن، لكن المؤلف ينبهنا إلى عدم الاستسلام لهذا المفهوم المبسط للمساواة فى القبيلة، ويشير إلى تفاوت فى توزيع الثروة والسلطة، تخفيه العلاقات القائمة على روابط الدم، وتأتى الخصائص القومية، ويشير المؤلف إلى أن الروابط الروحية لا تشكل فى حياة الجماعة غير جزء من نشاطها الموسمى، أما الإسلام كرابطة دينية فهو أوسع من الفضاء القبلى، إنها الرابطة التى جمعت مختلف القبائل فى فضاء حضارى أشمل منعها من التفرق وحافظ عليها من التهميش، أما الخاصية الثالثة فهى الحرية، وهو الشعار الذى رفعته القبيلة فى مواجهة كل أشكال التدخل فى فضاءاتها، وما أفرز قيادات وطنية واجتماعية كان لها دور بارز فى التاريخ السياسى، والخاصية الرابعة هى جاذبية الأصل الذى يدعى - حقيقة أو وهمًا - انتسابه إلى شجرة النسب الراجعة إلى الخلفاء الراشدين والرسول الكريم، بما يضفى مشروعية تاريخية على الجماعة القبلية، لكن المؤلف يشير إلى أن التاريخ الاجتماعى الحديث والمعاصر يؤكد أن الفاعلين الاجتماعيين فى تاريخ المغرب العربى انحدروا أساسًا من سلالات قبائل الجنوب التونسى.

ثم هناك تداول السلطة وراثيًا فى القبيلة وهى فكرة ضخَّمها باحثو الحقبة الاستعمارية منذ الاستشراق التقليدى فى القرن الثامن عشر، لكن الباحث يؤكد أن ظاهرة احتكار بعض العائلات لسلطة الشيخ أو القائد ليست سوى ظاهرة حديثة فضلاً عن كونها غير دائمة، فضلاً عن أن الوثائق القبلية - كما يشير الباحث - تدل على أن السلطة المحلية كانت تخضع دومًا للمشاورة والانتخاب لدى غالبية القبائل. وأخيرًا فقد مثلت القبيلة عبر التاريخ الملجأ الحصين للفرد، ومثل التضامن القبلى وسيلة الدفاع الأساسية ضد كل أشكال القهر الخارجى.

ويقدم المؤلف نموذجًا تطبيقيًا على الحالة التونسية منذ القرن التاسع عشر، ويشير إلى أهم الفروع فى «اتحاد ورغمة»، وهو اتحاد قبلى ذو أصول بربرية والصراع بين «ورغمة» وجيرانها، ثم إلى وضع القبيلة فى إطار المجتمعات المدنية المعاصرة من حيث اندماجها فى الدولة الوطنية وتضاؤل سلطة المشايخ وتوطين القبيلة والخطاب الرسمى فى مواجهتها.

□ □ □

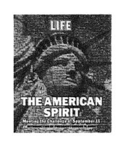
١١ سبتمبر في عيون أمريكية

The American Spirit: Meeting the Challenge of September 11

(الروح المعنوية الأمريكية: مواجهة تحدى ١١ سبتمبر)

George W. Bush (Introduction)

Time, Inc, Home Entertainment, 2002, 224 PP., 17.47



بعد حادث ١١ سبتمبر، بدأ عهد جديد في الولايات المتحدة الأمريكية. لقد تغيرت العدسات التي يبصرون من خلالها على دولتهم وأمنها في عالمنا الحاضر. أصدر محررو مجلة لايف (Life) كتابًا تعرض فيه تفاصيل الحادث وتوابعه من خلال صور وأبيات شعر وقصص مؤثرة. نرى في هذا الكتاب كيف تبذل أمريكا قصارى جهدها لمواجهة تحدى العهد الجديد. هذا الكتاب الجزء المكمل للكتاب «أمة واحدة» أو «one Nation» حيث يعيد الزيارة إلى أولئك الذين نجوا بحياتهم من الحادث.

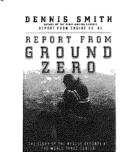
□ □ □

Report Fron Ground Zero: The Story of the Rescue Efforts at the World Trade center

(تقرير من المنطقة صفر: قصة محاولات الانقاذ في مركز التجارة العالمي)

Dennis Smith

Viking Press, 2002, 366 PP., $17.47



هذا الكتاب يبين تقريرًا فريدًا من نوعه من خلال عدسات أحد رجال الإطفاء الذين أسرعوا إلى مركز التجارة العالمي بعد الحادث مباشرة لبدء جهود الإنقاذ، يعرض الكاتب دينيس سميث مذكراته الخاصة التي كتبها بعد مرور ثلاثة أشهر على الحادث. يحكى فيها عما رآه يومًا بعد يوم أثناء محاولة البحث عن الأحياء تحت الأنقاض، كما يعرض من خلاله نبذات عن مقابلاته شهود الحادث والعائلات التي فقدت أحبابها تحت الأنقاض.

□ □ □

What we Saw: The Events of September 11, 2001- In Words, Pictures and Video

(ما رأيناه: أحداث ١١ سبتمبر - ٢٠٠١ من خلال كلمات، صور، وفيديو)

Dan Rather

Simon & Scnusler, 2002, 143 PP., 20.97



يقدم مراسلو ومصورو وصحفيو شبكة أنباء سي.بي.اس (CBS) الأمريكية تفاصيل ما رأوها أثناء تغطيتهم لحادث ١١ سبتمبر - ليس فقط عند مركز التجارة العالمي إنما كانوا مبعوثين لتغطية الحادث في ولاية بنسلفانيا حيث سقطت طائرة يونايتد أيرلاينز (United Airlines) رقم ١٧٥، كما تمت التغطية في ولاية نيوجيرسي للتعرف على صدى الأحداث هناك.

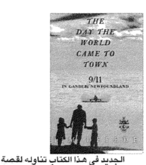
□ □ □

The Day the world came to town: 9/11 in Gander, Newfoundland

(اليوم الذي أتى فيه العالم إلى منطقتنا: ١١/٩ في جاندر ونيوفاوندلاند)

Jim Defede

Regan Books, 2002, 256 PP., $ 16.77



الجديد في هذا الكتاب تناوله لقصة اضطرار هبوط ثمان وثلاثين طائرة مدنية متجهة إلى أمريكا في منطقة جاندر بنيوفاوندلاند في كندا. لم يستطع ركاب الطائرات - كانوا أكثر من ٦ آلاف - سوى قضاء أربعة أيام في مكان الهبوط بدون معرفة ما سيفعلونه أثناء انتظارهم في مكان لا يعرفونه، لكن خلال هذه الأيام تمتعوا بمساعدة أهل جاندر الذين فتحوا لهم أبواب منازلهم، وقاموا بالإرشاد السياحي «المؤقت» للزائرين، وأكرموهم أفضل إكرام. هذا الكتاب يتناول بالتفصيل هذه القصص والمواقف الفريدة النادرة.

□ □ □

Messages to Ground Zero: Children Respond to September 11, 2001.

(كلمات للمنطقة صفر: الأطفال يستجيبون إلى ١١ سبتمبر)

Shelley Harwayne, New York City Board of Education

Heinemann, 2002, 176PP, $ 14.95



هذا الكتاب يحتوى على مجموعة من الرسائل موجهة إلى ضحايا ١١ سبتمبر وعائلاتهم إلى جانب أبيات شعر وأعمال فنية من صنع أيديهم، استجابة لذلك الحادث المروع. كل تلك الرسائل والأعمال الفنية قد بعثت إلى أطفال آخرين لانعكاس مساندتهم الصادقة البريئة لزملائهم. هذه المطبوعة تعتبر أرشيفًا عميقًا يبين من خلاله الأفكار والمشاعر الداخلية لدى هؤلاء.

□ □ □

Twin Towers: The Life of New York City's World Trade Center

(البرجان: حياة مركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك)

Angus Kress Gillespe

New American Library Trade, 2002, 304 PP., $ 10.50



الكتاب يغطى تاريخ مركز التجارة العالمية بنشاتها في البداية كفكرة على الورق ثم تطورها إلى بدء تخطيطه المعماري حتى بنائه بالفعل، من هنا نرى الاختلاف في الظروف تجاه هذا المركز من بدايتها حتى نهايتها يوم ١١ سبتمبر، ٢٠٠١.

□ □ □

After September 11: New York and the World

(بعد ١١ سبتمبر: نيويورك والعالم)

The Staff of Reuters

Reuters Prentice Hall, 2002, 224PP., $ 20.30



لا شك أنه قد صدرت العديد من المطبوعات والكتب التي تتناول أحداث ١١ سبتمبر وتوابعها النفسية والاجتماعية إلى جانب تأثيرها في لحظتها. في هذا الكتاب مراسلون من أشهر وكالات الأنباء في العالم مثل رويترز البريطانية، يسعون لفهم الأسباب التي أدت إلى تلك الأحداث ويتساءلون ما إذا كانت أمريكا بالفعل قد تغيرت تغييرات جذرية بعد هذا اليوم، كما يحلل مراسلو رويترز التغيرات التي حدثت في العلاقات الدولية وبالأخص من ناحية الشرق الأوسط استجابة للحادى عشر من سبتمبر.

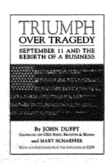
□ □ □

Triumph Over Tragedy: September 11 and the Rebirth of a Business

(الانتصار على المأساة: ١١ سبتمبر وميلاد جديد لشركة)

John Duffy, Mary S.Schaeffer

John Wiley & Sons, 2002, 240 PP., $17.47



يحكى الكتاب عن معجزة شركة مقرها في نيويورك استطاعت إحياء نفسها بعدما فقدت ثلث العاملين على كل المستويات في الحال إلى جانب تدمير مقر الشركة وتعرف بشركة «كيف، برويث، وودز» Keefe, Bruyehe & Woods.

هذا الكتاب يعطى لنا مثالاً حيًا عن

١١ سبتمبر
فى عيون أمريكية

مؤسسة استطاعت أن تتغلب على كل العوائق التى تؤدى إلى إهلاكها، وأن تثبت أن الحياة بعد الممات شيء غير مستحيل بالإرادة والعزيمة والإيمان والتخطيط الإدارى السليم.

□ □ □

Never Forget: An Oral History of September 11

(لن ننسى: تقرير شفهى عن ١١ سبتمبر)

Mitchel Fink, Lois Mathias

Regan Books, 2002, 320 PP., $ 17.47



فى هذا الكتاب، يقدم الكاتب ميتشل فنك تقارير شخصية عن الشهود، سواء كانوا موظفين فى مركز التجارة العالمى أو شهود فى البنتاجون الأمريكى، أو من الفرق المنقذة للضحايا، أو شهود من «رجل الشارع» الذى عاش هذا الحدث المأساوى، من خلال مقابلات الكاتب مع هؤلاء نرى إلى أى مدى كانت تجاربهم الشخصية مشحونة بالحزن والاكتئاب والانزعاج النفسى.

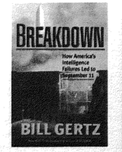
□ □ □

Breakdown: How America's In telligence Failvres Led to September 11

(الانهيار: كيف كان القصور فى المخابرات الأمريكية سببًا فى ١١ سبتمبر)

Bill Gertz

Regnery Publishing, 2002, 256 PP., $19.57



فى هذا الكتاب يعرض جيرتز أوجه القصور التى أتاحت للإرهابيين فرصة الهجوم كما يناقش إلى أى مدى ـ بالمعلومات التى كانت لدى المخابرات والجيش الأمريكى فى ذلك الوقت ـ كان من الممكن منع حادث ١١ سبتمبر. يتكلم الكاتب أيضًا عن سوء إدارة الرئيس الأمريكى السابق، بيل كلينتون، للوكالات العسكرية والمخابرات التى ساعدت الإرهابيين على الهجوم، وفى آخر جزء يبين لنا الاحتياطات الأمنية التى تتخذ حاليًا للحماية الزائدة، كما يقترح إجراءات أخرى تستطيع أن تتخذها الإدارة الأمريكية لحماية نفسها بدرجة أشد.

□ □ □

World Trade Center

(مركز التجارة العالمى)

Peter Skinner

Metro Books, 2002, 160PP, $ 14.98.



بالرغم من عظمة بناء مركز التجارة العالمى، وتصميمه المعمارى المميز، وشهرته بالمكان الذى يتمركز فيه. التجارة وإدارات الأعمال المختلفة وحركات مالية، شهد البرجان هلاكهما فى يوم لن ينساه أحد خاصة شهود الحدث والعائلات التى فقدت أعزاءها بسبب الحادث. هذا الكتاب يعرض صورًا مشحونة بالانزعاج النفسى ومحركة للشعور والتى تنزل فى كتاب من هذا النوع لأول مرة.

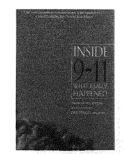
□ □ □

Inside 9 / 11: What Really Happened

(داخل ١١/٩: ماذا حدث بالفعل)

Der Spiegel Magazine

St. Martins Press, 2002, 320PP. $ 17.47.



المحررون فى مجلة «دير سبيجل» وضعوا تقريرًا متكاملاً عن حادثة ١١ سبتمبر. الكتاب ينقسم إلى ثلاثة أجزاء.. الجزء الأول يتناول تسلسل أحداث هذا اليوم إلى جانب خلفية عن الإرهابيين خاصة عن السنين التى قضوها بمدينة «هامبورج» فى ألمانيا. كما يحتوى أحد الملاحق فى آخر الكتاب على مقتطفات من وصية محمد عطا، وجزء من الحديث المنقول من شريط أسامة بن لادن وجدول للتوقيت الذى تم فيه اختطاف كل طائرة.

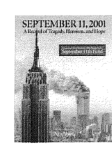
□ □ □

September 11: A Record of Tragedy, Heroism and Hope

(١١ سبتمبر: سجل عن مأساة، بطولة، وأمل)

New York Magazine Staff

Harry N. Abrams, 2001, 128 PP, $ 49.99



كتب هذا الكتاب أحد صحفيى مجلة «تايم» (TIME) الأمريكية ويجيب فيه عن الأسئلة المطروحة مثل من هم المختطفون؟ وما هو الإسلام؟ ولماذا هاجم الإرهابيون أمريكا؟ ولماذا ذهبت أمريكا إلى أفغانستان؟

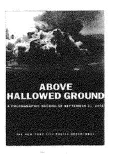
□ □ □

Above Hallowed Ground: A Photographic Rocord of September 11, 2001

(فوق أرض مقدسة: سجلات صور عن ١١ سبتمبر ٢٠٠١)

Photographers of the New York City Police Department, Newyork, David Fitepatrick

Viking Press, 2002, $ 20.97.



الكتاب يجسم لنا مدى خطورة وهلع هذا الحدث من خلال صورة التقطت بعد أول طائرة ببضع لحظات بعد اصطدامها بأول برج. كل صورة فى هذا الكتاب لم تعرض بعد، إلى جانب أنهم التقطوا من خلال عدسات من كانوا بالمكان فى لحظة اصطدام أول طائرتين وأثناء محاولات الإنقاذ التى تلت ذلك. كثير من رجال الشرطة الذين لا يحترفون التصوير انتهزوا اللحظة وصوروا لقطات نادرة عن قرب.

□ □ □

One Nation: America Remembers September 11, 2001

(أمة واحدة: أمريكا تتذكر ١١ سبتمبر ٢٠٠١)

Life Magazine Staff, Rudolf Guiliani (Introduction)

Little Brown & Comp, 2002, 192 PP., $ 20.30

أصدر المحررون بمجلة لايف (Life) الأمريكية هذا الكتاب ذكرى للضحايا، وتمجيد للناجين.. الكتاب يتضمن أيضًا قصص الناجين، ومقابلات مع عائلات الضحايا.

□ □ □

Divided We Stand: A Biography of New York City's World Trade Center

(منقسمون: سيرة مركز التجارة العالمى بمدينة نيويورك)

Eric Darton

Basic Books, 2001, 256PP, $ 10.50

يتحدث الكاتب فى هذا العدد عن بناء المركز من الناحية المعمارية، السياسية والتجارية. كما يتابع تاريخ المركز من كونه مركزًا لشركات شحن حتى تطوره إلى مركز التجارة العالمى، ويتابع أيضًا تاريخ تطوره التكنولوجى والمالى، هذا الكتاب يعطى لنا صورة أوضح عن عظمة البرجين اللذين فقدا فى ١١ سبتمبر.

□ □ □

"نون"

أمريكا تعيد إخراج أحداث سبتمبر

■ جاء شهر سبتمبر وحلت معه التداعيات المثيرة لأحداث الهجمات المفاجئة على نيويورك وواشنطن قبل عام.. وكأنه كان من الضرورى أن يستعيد العالم كل التفاصيل الدقيقة التى وقعت فى اليوم المشئوم.. كل العالم: سواء تلك الدول التى يهمها إرضاء الولايات المتحدة الأمريكية وكسب ودها، أو تلك التى وضعتها أمريكا على قائمة الدول المنبوذة أو المتهمة بالضلوع فى تدبير الهجوم وتنفيذه.

وبترتيب أوركسترالى غير مسبوق أملته طبيعة التوازنات الدولية أكثر مما تمليه حقائق الأشياء، تنافست أبواق الإعلام الغربية -فى أوروبا على وجه التحديد- فى تقديم البرامج التسجيلية والتحقيقات التليفزيونية وعشرات الآلاف من الوثائق المصدرة، فإذا الوقائع التى رجت أمريكا من ذهولها يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١، يعاد عرضها دقيقة بدقيقة، ولحظة بلحظة -فى مراحل الإعداد الأولى قبل أن تقع وهى فى حكم النوايا، وبعد أن وقعت وقد انقلبت أوضاع العالم رأسًا على عقب.



ولكن على العكس مما توقعته واشنطن أو رسمته وخططت له، فقد أخذت الشكوك تتزايد لدى دوائر واسعة فى الرأى العام الأوروبى حول مدى صدق الصورة التى قدمتها أمريكا لأحداث سبتمبر. وقد أبدى كثير من المعلقين المحترمين ارتيابه الشديد فى أجواء السرية والغموض التى فرضتها الإدارة الأمريكية، سواء فيما يتعلق بوقائع الهجوم الذى تعرضت له نيويورك وواشنطن، أو بالعمليات العسكرية التى قامت بها القوات الأمريكية فى أفغانستان، وأخيرًا ما يتعلق أيضًا بالسياسة الأمريكية إزاء توجيه ضربة عسكرية ضد العراق. وكتب وليام بفاف وهو من أكثر المعلقين الأمريكيين احترامًا فى الصحافة الأمريكية، إن الرقابة العسكرية التى فرضها البنتاجون حول الحرب فى أفغانستان، حجبت عن الشعب الأمريكى معظم الحقائق، فلم تصل إليه تفاصيلها إلا من خلال بعض المراسلين الأوروبيين أو من خلال تقارير نشرتها صحف ومحطات تليفزيون عربية. وذلك على العكس مما ألفه الرأى العام الأمريكى الذى تابع أحداث الحرب العالمية الثانية، وحرب فيتنام، وحرب كوريا وعاش وقائعها كما حدثت بدون تشويه، بينما لا يعرف الأمريكيون شيئًا عما جرى للقاعدة وطالبان وعن المعارك التى وقعت فى أفغانستان، إلا من خلال تصريحات دونالد رامسفيلد وزير الدفاع. وهى رقابة لا يخفى الصحفى الأمريكى الكبير دهشته من أن الميديا الأمريكية قبلت بها واستسلمت لها بدون أدنى مقاومة حتى الآن.

ويبدو مفهومًا أن تساير الحكومات الأوروبية الحليفة إدارة الرئيس بوش فى سياساتها المعلنة، تجنبًا للوقوع فى تناقض أو خلاف ظاهر. ولكن الدلائل كلها تشير إلى أن الشرخ هذه المرة بات يتناول جوهر القضايا والمبادئ المشتركة التى جمعت بين الطرفين عقودًا طويلة منذ الحرب العالمية الثانية. وهذا ما دعا عالم السياسة الأمريكى فرانسيس فوكوياما إلى التحذير فى محاضرة ألقاها فى ميلبورن من أن الغرب مهدد بوقوع تصدع فى البناء الذى حكم النظام العالمى سنوات طويلة. وأن هذا التصدع ليس ظاهرة عابرة، ولكنه تعبير عن اختلاف النظرة إلى شرعية الديمقراطية فى الإطار الأوسع للحضارة الغربية.



ينعكس ذلك بجلاء شديد فى المقارنة بين سيل الكتب التى ظهرت فى أوروبا حول أحداث سبتمبر ومقدماتها وتداعياتها، وتلك التى ظهرت فى أمريكا حول نفس الموضوع.. الأغلبية الغالبة من الكتب التى ظهرت باللغات الفرنسية والألمانية والإنجليزية والإسبانية على امتداد العام المنصرم أثارت من الشكوك والتساؤلات أكثر مما قدمت من إجابات: وطعنت فى معظم الأدلة والوقائع التى استندت إليها الأجهزة الأمريكية.

ومن أحدث الكتب التى ظهرت فى الذكرى الأولى لأحداث سبتمبر، ولقيت رواجًا واسعًا بين الناطقين بالألمانية كتاب «المؤامرات، ونظريات المؤامرة، وأسرار ١١ سبتمبر» لمؤلفه شتوك بروكر. وفيه يقدم المؤلف بمقدمة لا تخلو من مغزى يقول فيها: فى يوم ٧ ديسمبر ١٩٤١ الذى وقع فيه هجوم مفاجئ كالصاعقة على بيرل هاربر، ذهلت أمريكا لهذا الهجوم اليابانى الغادر. واليوم يؤكد المؤرخون أن الرئيس روزفلت علم بأمر الهجوم قبل وقوعه، بل إنه استفز اليابانيين للقيام به.. فقد كان روزفلت حريصًا على دخول الحرب العالمية الثانية، بينما كان أكثر من ٨٠٪ من الشعب الأمريكى -قبل بيرل هاربر- يعارض دخول الحرب.

ونفس الشيء حدث فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حين وقع هجوم غامض مفاجئ بالطائرات على مبنى مركز التجارة العالمى فى نيويورك ومبنى البنتاجون فى واشنطن، الأمر الذى أثار غضب أمريكا والعالم. وفور الحادث مباشرة أعلن أن أسامة بن لادن وجماعة «القاعدة» هى المسئولة عن الهجوم، وأعلن جورج دبليو بوش حربًا عالمية ضد الإرهاب الدولى.. وهى حرب لم تكن تجد مساندة قبل ذلك.. والآن تتجمع الأدلة على أن الحكومة الأمريكية كانت على علم مسبق باستخدام الطائرات كقذائف موجهة فى هجوم ضد أمريكا.

ويبدو لافتًا للنظر أن الفرنسيين والألمان هم أكثر الذين شككوا فى الروايات الأمريكية، وتحروا عن حقائقها وحفروا تحتها بحثًا عن أسسها وقواعدها. ومن هنا لم يكن غريبًا أن ينعكس ذلك فى موقف المعارضة أو التحفظ الشديد الذى تقوده الدولتان الأوروبيتان ضد مغامرة الحرب التى يزمع بوش شنها ضد العراق.



ويكشف المؤلف الألمانى لهذا السبب عن حقائق تحرص المصادر الأمريكية على تجاهلها أو إبقائها طى الكتمان.. فجَدّ الرئيس الحالى جورج دبليو بوش هو بريسكوت بوش الذى كان من أكبر المؤيدين والممولين للزعيم النازى هتلر. والأب جورج بوش الذى كان يرأس وكالة المخابرات المركزية هو الذى سلح صدام حسين فى حربه ضد إيران، ثم قاد الحملة ضده وهو رئيس للولايات المتحدة الأمريكية فى حرب الخليج بعد غزو الكويت. وتمكن جورج بوش الابن من تأسيس أول شركة بترولية له، بفضل المكاسب الضخمة التى حققها من إدارة أموال أسرة بن لادن التى عملت فى مجال المقاولات فى أمريكا، ثم هو يحارب الآن أحد أبناء هذه الأسرة.

وليس سرًا أن أسامة بن لادن هو من صنع المخابرات الأمريكية التى مولته ودربته كأداة للإرهاب ضد الاتحاد السوفيتى. وفى يناير ٢٠٠١ أصدرت حكومة الرئيس بوش أوامرها إلى المخابرات المركزية والـ إف. بى. آى (التحقيقات الفيدرالية) بوقف التحقيقات فى أنشطة قبيلة بن لادن. وفى يوليو ٢٠٠١ نشرت صحيفة «لوفيجارو» الفرنسية أن مبعوثًا من المخابرات الأمريكية زار أسامة بن لادن وهو يعالج فى المستشفى الأمريكى فى دبى.

ويضيف الكاتب عددًا من الحقائق والتساؤلات ذات المغزى:

* لماذا لم تفصح أمريكا حتى الآن عن بيانات الحركة الجوية ومضمون الاتصالات اللاسلكية التى جرت قبل وأثناء الحادث؟ ولماذا لم تظهر أسماء المتهمين الـ ١٩ فى قوائم الركاب؟ ولماذا اتضح أن خمسة من المتهمين مازالوا على قيد الحياة؟ ولماذا لم تنشر أى صور أو تسجيلات فيديو لموقع الهجوم الذى حدث ضد البنتاجون؟ ولماذا تناثر حطام الطائرة التى سقطت فى بنسلفانيا عدة أميال؟ وهل كان ذلك نتيجة إصابتها بقذيفة مضادة؟ وما هى علاقات العمل التى ربطت بين أسرة بوش من ناحية وشركة هاليبرتون التى يرأسها نائب الرئيس ديك تشينى لمشروعات مد خطوط الأنابيب فى أفغانستان من ناحية أخرى بأسامة بن لادن؟ ولماذا استمرت المحادثات السرية مع نظام طالبان حول بناء خط الأنابيب حتى يوليو ٢٠٠١؟

وينتهى المؤلف إلى أنه بعد أكبر حملة مطاردة واعتقالات وتحقيقات فى التاريخ قامت بها السلطات الأمريكية، لم تزل الأدلة التى حصلت عليها الأجهزة ضد بن لادن والقاعدة بعد عام من الحادث، كما كانت هى هى بعد ساعات قليلة من وقوعه.. أى لا شيء على وجه التحديد واليقين!!

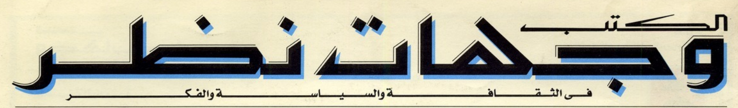


ما الذى تبدو عليه صورة العالم اليوم بعد مرور أكثر من عام على الهجوم الغامض على واشنطن ونيويورك؟

من المؤكد أن العالم لم يزدد علمًا بما حدث بل ازداد جهلاً واسترابة سواء فى الظروف والتداعيات، أو فى المقاصد والنوايا التى أحاطت ونجمت عن الحادث. ومازالت وسائل الإعلام الأمريكية تخلق مناخًا من التوتر والخوف والغضب يستغلها الرئيس بوش وإدارته فى تجهيز الشعب الأمريكى لشن حرب ضد العراق.. تتضاعف حدتها مثل إعصار جارف يغطى فشل إدارة بوش فى مواجهة القضايا الحقيقية التى تهم العالم والتى تتحمل أمريكا باعتبارها الدولة العظمى الوحيدة مسئولية حلها: فلا هى نجحت فى تحقيق أهدافها من الحرب ضد الإرهاب، وإقرار الأوضاع فى أفغانستان، وصراع باكستان والهند حول كشمير، واستئصال شأفة القاعدة والعثور على بن لادن ومحاكمته.. ولا هى حققت خطوة واحدة فى حل صراع الشرق الأوسط، ولا هى نجحت فى إقناع العالم بتصور موحد لمحاربة مظاهر الفقر والتعاسة والبؤس التى تسوده.

شيء واحد بذلت إدارة الرئيس بوش أقصى جهودها فى تحقيقه هو: زيادة عدد الأعداء والخصوم، وتعميق الهوة بين أمريكا وحلفائها الأوروبيين وغير الأوروبيين، وتغذية مشاعر الكراهية، وتبرير الحرب والعدوان بين الشعوب واستخدام القوة العسكرية لتحقيق أهداف سياسية، وإملاء أوضاع إقليمية وعالمية جديدة.. فهل تنجح؟

سلامة أحمد سلامة



Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 46 - November 2002 مجلة شهرية . العدد السادس والأربعون . السنة الرابعة . نوفمبر ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات

ثورة يوليو : خمسون عاما

محمد حسنين هيكل

الساعة تدق منتصف الليل !



مكتبة الإسكندرية لم تكن يونانية.. وعمرو بن العاص لم يحرقها!

أحمد عثمان / نسيم مجلى

شتيمة العرب أو المسلمين .. تضمن التهليل لك فى الغرب

جلال أمين

الكتب فى عالم بلا قراء!

يوستين جوردار

«نون» : الصعود إلى الغابة السوداء

سلامة أحمد سلامة

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد السادس والأربعون
نوفمبر ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفني
حلمي التوني
مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- **إبراهيم عبدالجليل**.. رئيس جهاز تخطيط الطاقة والرئيس السابق لجهاز شئون البيئة.
- **أحمد عثمان**.. باحث في التاريخ المصري القديم.
- **أنطوني كوردسمان**.. أستاذ كرسي «أرلي ديرك» في الاستراتيجية.
- **أيمن الصياد**.. صحفي.
- **جلال أمين**.. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية في القاهرة.
- **ريتشارد راسل**.. محلل سياسي وعسكري، وأستاذ في جامعة الدفاع الوطني.
- **سلامة أحمد سلامة**.. صحفي.
- **عفاف عبد المعطي**.. باحثة في الأدب المقارن بجامعة القاهرة.
- **فتح الله الشيخ**.. أستاذ علم الطبيعة بجامعة جنوب الوادي.
- **محمد حسنين هيكل**.. صحفي.
- **محمد عبد الرحمن يونس**.. محاضر في جامعة الدراسات الأجنبية ببكين.
- **ناصر الرباط**.. أستاذ العمارة الإسلامية بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T).
- **نبيل حنفي محمود**.. أستاذ بكلية الهندسة - جامعة المنوفية.
- **نسيم مجلي**.. ناقد أدبي.
- **يوستين جوردر**.. روائي نرويجي.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجي - سعد الدين شحاتة - محمد حاكم - أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولاراً أمريكياً - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكياً - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص.ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهماً - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالاً - عمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهماً - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــــة..

يوستين جوردر
القصة والقاص

بينما هو ينظر من النافذة منتظرًا وصول أخيه المولود الجديد، متأملاً السماء والنجوم والكواكب، رأى جو شهابًا ساطعًا يسقط من السماء، فنظر فى الحديقة ليرى صبيًا صغيرًا يتدلى من شجرة التفاح.. كان ذلك هو ميكا.

سقط «ميكا» من مركبة فضاء، وتعلق على شجرة تفاح فى حديقة «جو».

من الصعب أن نعرف من منهما كان أكثر اندهاشًا بهذا اللقاء من الآخر.

ولكنهما، بعد أن تعارفا، اكتشفا مدى التشابه بينهما، وراح كل منهما يحكى للآخر عن الحياة على كوكبه: كيف بدأت؟ وكيف تطورت؟

وعندما اختفى «ميكا»، بالغموض نفسه الذى ظهر به، وجد «جو» بدلاً منه أخًا مولودًا جديدًا.. مندهشًا من كل شىء على الأرض، مثل اندهاش ميكا تمامًا.

إنها قصة مثيرة للتخيل والتأمل، تحث على مناقشة الآراء الجديدة والأفكار غير التقليدية.. وتثير الاهتمام بالقضايا والنظريات العلمية، وتفتح لهم آفاقًا على العالم من حولنا، وعلى مجالات أساسية للمعرفة العصرية، وتدعو إلى محاولة كشف الجديد منها، ومعرفة المزيد عنها.

ليس من الضرورى أن يوافق القارئ على كل ما جاء بها من معلومات وآراء، وإنما المهم أنها تثير العقل، وتبعث على التفكير، وتساعد على تصور وجهات النظر المختلفة، وتوجه إلى بحث الاحتمالات الكثيرة للقضايا والنظريات المطروحة..

والقصة تقدم بإلحاح دعوة للتفكير والتأمل وتحليل الأمور والمناقشة والحوار لنعرف أنه لا يوجد شىء غير عادى فى هذا الكون لأن كل ما فى هذا الكون هو جزء من سر الوجود، يلخص ميكا القادم من الفضاء نتيجة تأمله ومناقشاته فى عبارة واحدة واضحة: «أعتقد أن من لا يؤمن بخالق لهذا الكون.. يفتقد حاسة من الحواس.. حاسة فى غاية الأهمية».



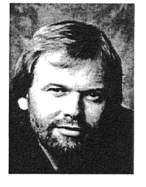
القصة (ترجمتها إلى العربية «دار الشروق»)، والمفترض أنها موجهة للأطفال، تحمل عنوان: «مرحبا.. هل من أحد هناك».

والقاص هو «يوستين جوردر» الكاتب النرويجى الشهير صاحب الرواية الأشهر «عالم صوفى» (ترجمت إلى خمس وأربعين لغة، وتحولت إلى فيلم سينمائى.. ويهتم بها ٨٨٧٠ موقعا على الإنترنت).

وجوردر، معلم الفلسفة السابق وهو أحد أشهر المؤلفين الإسكندنافيين المعاصرين، ولعله أكثرهم ثراء أيضاً فروايته «عالم صوفى» والتى اعتبرت من أكثر الروايات العالمية رواجاً، وزعت عشرين مليون نسخة ودارت صناعة كاملة حولها، سينمائيا وغنائيا، وحتى فى عالم الألعاب، والأسطوانات المدمجة، أصبح هناك عالم كامل للآنسة صوفى.

ويغزل جوردر عادة خيوط رواياته الخيالية بمعان فلسفية عميقة. فتحت اسم «عالم صوفى» مثلا تقرأ «رواية عن تاريخ الفلسفة». و تبدو الرواية أحيانا أقرب لدراسة مبدئية عن الفكر الفلسفى الغربى أكثر من كونها مجرد رواية. إلى حد أنها أصبحت مرجعاً شائعاً لدراسات الفلسفة الجامعية. الأمر الذى لا ينطبق عادة على الروايات الخيالية كما نعرفها. وبالرغم من هذه المواصفات غير المعتادة فى كتابة روايات جوردر، أو ربما بفضلها لاقت كتبه شيوعاً مذهلاً فى وطنه النرويج، وفى العديد من البلاد حول العالم..

الشهرة الكبيرة التى لاقاها كتاب عالم صوفى توضح بجلاء أن الرغبة فى فهم كل التساؤلات الجوهرية للكون ليست حكراً على مثقفى الأبراج العاجية وحدهم. ففى الرواية تلج بنا صوفى، الفتاة الصغيرة، دون أن نحس. فى حوار عن الفلسفة مع محادث خفى. فى الوقت نفسه الذى يجب عليها فيه أن تحل لغزا خاصًا بفتاة أخرى «هيلد» بمساعدة كل ما تتعلمه. حيث يتضح لها فى النهاية أن «الحقيقة» أكثر تعقيداً بكثير مما كانت تتخيل.



وطريقة جوردر فى الكتابة أيضاً قليلة الشيوع فهو يكتب قصصه عادة من وجهة نظر مراهق: صوفى أماندزن فى الرابعة عشرة، هانز توماس (بطل رواية لغز الماس) فى الثانية عشرة. كما أن العديد من رواياته موجهة بشكل ما للأطفال (مثل قلعة الضفدع The Frog Castle، و مرحباً.. هل من أحد هناك؟ (Hello? Is Anybody There?).

ولد يوستين جوردر فى أوسلو، النرويج فى عام ١٩٥٢، وكان لعمل والديه دور فى اهتمامه بالكتابة والتدريس، فكان أبوه ناظر مدرسة، وأمه معلمة ومؤلفة كتب أطفال.

تخرج جوردر فى جامعة أوسلو حيث درس اللغات وعلم اللاهوت وبعد زواجه فى عام ١٩٧٤ بدأ فى الكتابة مساهماً فى العديد من مراجع الفلسفة وعلم اللاهوت. ثم انتقلت عائلته إلى برجن فى عام ١٩٨١ حيث بدأ العمل فى تدريس منهج الفلسفة الخاص بالتعليم الثانوى وهى الوظيفة التى بقى فيها لعدة سنوات.

نشرت أول مؤلفاته الروائية عام ١٩٨٦ وكانت تحمل اسما غير مألوف The Diagnosis and Other Stories وتبعها كتابين للأطفال (The Children from Sukhavati 1987 وقلعة الضفدع ١٩٨٨) قبل نشر «لغز الماس» The Solitaire Mystery عام ١٩٩٠، وهى الرواية التى فازت بجائزة نقاد الأدب النرويجيين وجائزة وزارة الثقافة والعلوم الأدبية.

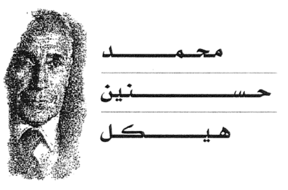
ثم جاءت عالم صوفى Sophie's World فى عام ١٩٩١ لتحقق نجاحاً منقطع النظير. فلثلاث سنوات متتالية بقيت هى الرواية الأكثر مبيعاً فى النرويج، وتكرر النجاح تقريباً فى كل بلد ظهرت فيه. (حتى الآن نشرت الرواية فى ٤٥ لغة مختلفة، وكانت الكتاب الروائى الأكثر مبيعاً فى العالم فى ١٩٩٥، وهو نجاح مذهل بالنسبة لكتاب هو فى الفلسفة وإن كان فى شكل رواية.)

مكن نجاح عالم صوفى جوردر من أن يتفرغ للكتابة كما مكنته من التبرع لأوجه الخير. فى عام ١٩٩٧ أسس جوردر وزوجته سيرى دانفج مؤسسة صوفى «لخلق عالم أفضل». وتمنح المؤسسة جائزة سنوية هى «جائزة صوفى» وقيمتها مائة ألف دولار إلى شخص أو مؤسسة تقوم بدور ريادى، أو تقوم بشكل مبدع بالتفكير فى بدائل للتنمية الحالية، أو تقوم بوضع هذه البدائل موضع التنفيذ.

جوردر الذى ينشر كتاباً جديداً كل عام أو عامين ويعيش مع زوجته وابنيهما فى أوسلو، دعى منذ أسابيع لإلقاء محاضرة فى مدينة بازل السويسرية بمناسبة مرور خمسين سنة على تأسيس المجلس الدولى لكتب الناشئة. و«وجهات نظر» تنشر فى هذا العدد الأفكار المثيرة للاهتمام التى عرضها جوردر فى محاضرته، والتى اختار لها عنوانا: «الكتب فى عالم بلا قراء»!!

وجهات نظر

السؤال الأول: هل كانت الثورة لازمة؟



محمد حسنين هيكل

الساعة تدق منتصف الليل؟



١ "رجل الساعة مستعد!"

من الملاحظات اللافتة للنظر أن «على ماهر» (باشا) كُلف بتشكيل الوزارة مرتين في ظرف ستة شهور من سنة ١٩٥٢، وفي كل مرة منهما تم الاستغناء عنه بعد أسابيع ـ رغم اختلاف الظروف في الحالتين.

ومن المفارقات أن الأسباب التى استدعت مجيئه ـ والأسباب التى أوجبت ذهابه، كانت متشابهة في الحالتين، مع أن واحدة من المرتين (٢٧ يناير ١٩٥٢) ـ كانت أواخر زمن الملك «فاروق»، في حين كانت المرة الثانية يوم سقوط ملكه (٢٣ يوليو من نفس السنة).

■ فى المرة الأولى كان الملك «فاروق» هو الذى كلف «على ماهر» (باشا) برئاسة الوزارة عقب حريق القاهرة وإقالة حكومة الوفد وإعلان حالة الطوارئ. وكان التكليف بناءً على تقدير الملك نفسه، ومعه معظم أقطاب ديوانه (حافظ عفيفى ـ حسن يوسف ـ عبد الفتاح عمرو) ـ وحسابهم أن «على ماهر» يملك مؤهلات التعامل مع الطوارئ والمفاجآت، وملء الثغرات والفجوات، واستيعاب الهزات والصدمات!

■ وفى المرة الثانية (٢٣ يوليو ١٩٥٢) فإن «على ماهر» لم يكن اختيارا مقصودا لذاته من ضباط يوليو، بل كان اسما طرحَ عليهم وقبلوا به، ورجح اختيارهم له شعورا (أكثر منه تفكيرا) ـ أنه كان في الوعى الباطن طلبا لنفس المؤهلات التى كانت في تقدير الملك وأقطاب ديوانه، ومؤداها أن «على ماهر» يملك كفاءة التعامل مع الطوارئ والمفاجآت، وملء الثغرات والفجوات، واستيعاب الهزات والصدمات.

وفى الحقيقة فإن تكرار المجيء بعلى ماهر (باشا) مرتين في ظرفين مختلفين متناقضين ـ دليل قاطع على أن حركة التاريخ عملية معقدة، فيها دور البشر وفيها حكم الحقائق، وفيها من الملاءمات ـ وحتى المصادفات ـ ما هو نافع للسياق وأحكامه!



كان الملك «فاروق» ـ وكذلك رجال ديوانه ـ يعرفون بالتجربة والخبرة أن «على ماهر» رجل «مهام مؤقتة» وليس رجل «أوضاع لها مقدرة البقاء».

وهو يجيء مرات ـ إذا استدعى ـ لمواجهة حالات فراغ تنشأ على غير انتظار، ونتيجة لظهور أحوال طوارئ (مثل أجواء الحرب العالمية الثانية ومثل حريق القاهرة). والعادة أنه في مثل تلك الأحوال يحجم آخرون ويتردد كثيرون ويتخوف العقلاء من مناطق المجهول في ساحات الفراغ ـ إلا رجلا واحدا بينهم يتصور دواما أنه مهيأ لدور المنقذ المخلص، الجاهز بتشكيلة وزارية في جيبه، محيطا نفسه برهط من الحواريين يتصورونه رجل الساعة ـ أى ساعة!

لكن المازق في حالة رجال مثل «على ماهر» بالذات ـ أنهم لا يقدرون على الاستمرار في الدور طويلا، لأن أحوال الطوارئ لها أجل.

وهنا تتبدى إشكاليات وملابسات:

ـ فمهمة الإنقاذ ـ بالطبيعة موقوتة ـ لكن «على ماهر» شأنه شأن كل منقذ، يتصور مهمته مستمرة (ليست مهمة غرفة إنعاش وإنما مهمة رعاية كاملة!).

ـ والمنقذ (أو رجل مثل «على ماهر» بالذات) ليس لديه حضور دائم يزكيه، وإنما لديه أزمة تستدعيه على عجل ـ وهو إذن مهيأ لأن يتخطى آخرين أو يعقد معهم اتفاقات قصيرة الأجل ـ مُعَرَّضة للنقض عند أول منحنى على الطريق!

ـ والمنقذ (رجل الطوارئ) بالضرورة على خلاف مع طبيب العائلة المُقيم (سواء كان حزب الوفد الممثل للأغلبية الصحيحة لجماهير الشعب ـ أو مع رئيس الديوان وهو حلقة الاتصال مع القصر) ـ لأن رجل الإسعاف يهتم بالحالة كما يراها وبسرعة ـ دون مراجعة للتقارير القديمة ـ لأنها ليست متوافرة أمامه في موقف الطوارئ ـ وليس لديه ترف انتظار وصولها إليه!

ـ ثم إن «المنقذ» في النهاية ومهما كانت كفاءاته ـ هو في العادة ـ نوع من «الفنى»، أو «البيروقراطى» ـ نشيط ومتحفز إذا لجأ إليه أحد ـ لكن هاجسه المستمر رغبته في تمديد مهمته، ولذلك فهو على استعداد للالتفاف حول الحقائق بظن قدرته على البقاء بذاته وصفاته سواء كانت أسباب استدعائه قائمة أو أنها انتهت لسبب أو آخر، وذلك مطلب عسير، والطريق إليه في العادة شائك!

ـ وفى حالة «على ماهر» بالذات ـ فإن «المنقذ» كان بعيدا عن التيارات الشعبية واجوائها ومطالبها، وبالتالى فهو يبدو للناس غريبا عنهم، وعن مشاعرهم.



كانت دواعى القصر في تكليف «على ماهر» (باشا) برئاسة الوزارة، غداة حريق القاهرة (٢٦ يناير ١٩٥٢) ـ إلى جانب ملاقاة الطوارئ والمفاجآت، وملء الثغرات والفجوات، واستيعاب الصدمات والهزات ـ مجموعة أهداف أخرى عملية ومحددة نشأت بعد الحريق:

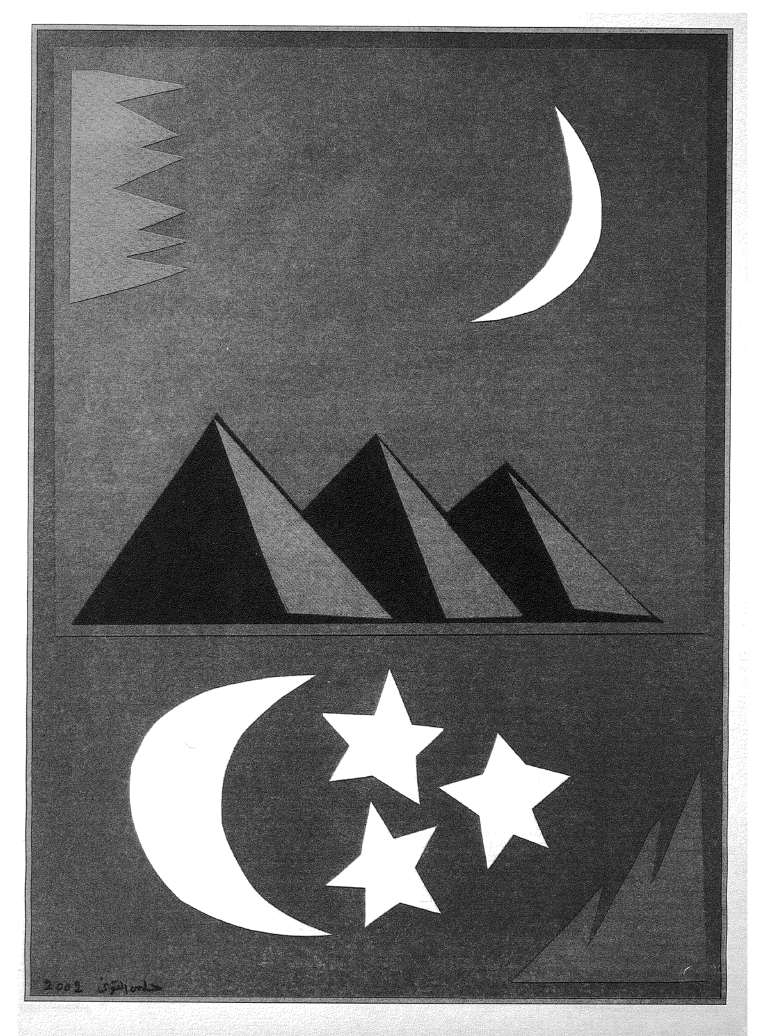
١ ـ تهدئة الوضع الداخلى وضبط الأمن.

٢ ـ والتحقيق في أسباب العنف المدمر الذى دهم الجميع ـ وعقاب المسئولين عنه.

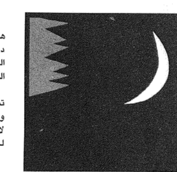
٣ ـ وتثبيت الداخل المصرى بتعزيز سيطرة الدولة، بما يظهر أن هناك أملا تحت الأنقاض والرماد.

٤ ـ وإقناع العالم الخارجى ـ بمجرد التماسك الداخلى ـ أن الاقتصاد المصرى مازال استثمارا معقولا، ويمكن أن يظل مجزيا.

٥ ـ وطمأنة القوى الكبرى وأولها ـ بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ـ إلى أن الوضع في مصر أمكن ضبطه دون تدخل بريطانى عسكرى إمبراطورى ـ أو بقرار تتوافق عليه الدول المهتمة بالدفاع عن الشرق الأوسط (كما بدأ يُقال أيامها ـ إشارة إلى سياسة الولايات المتحدة الأمريكية!).



الساعة تدق منتصف الليل!



كان أشد ما يثير قلق رئيس الوزراء البريطاني «تشرشل» ووزير خارجيته «إيدن»، هو ما وقع ليلة حريق القاهرة، من ظروف أدخلت الولايات المتحدة الأمريكية إلى قلب الشأن المصرى، وكان واضحا للاثنين أن الولايات المتحدة دخلت بسهولة، لكنها لن تخرج إلا بصعوبة، هذا إذا خرجت على الإطلاق

وحقيقة الأمر وراء كل الظواهر - أن بلوغ هذه الأهداف جزئيا أو كليا، كان معلقا إلى درجة كبيرة على إمكانية الاحتفاظ بتماسك الجيش المصرى واستمرار طاعته للأوامر الصادرة من قائده الأعلى في قصر عابدين.

وكانت تلك حقيقة تجلت بوضوح منذ تمكنت قوات الجيش من تأمين العاصمة واستردادها من براثن الفوضى. على أنه كان لابد من فترة اختبار تؤكد أن ما «تجلى» في لحظة أزمة قادر على أن «يستمر» بعدها!



وخلال فترة الاختبار تكشف حجم من المتغيرات لم يقع فرزه بالتوصيف والتحليل.

■ أولى المتغيرات - أن كافة القوى السياسية المعترف بها شرعيا أو رسميا فقدت ما كان لها من فاعلية، والدليل أن الملك أقال حكومة الوفد وسط إجماع شبه عام، على أن تلك الوزارة فشلت في أدائها، وانهمك وزراؤها في حروبهم الأهلية، وتسابقوا - فيما عدا قلة بينهم - إلى مستوى من فساد الذمم غير مسبوق، ثم إنها في المجال الوطنى خلطت بين اعتبارات البقاء في الحكم واعتبارات الإخلاص للمبدأ، وذلك أوصلها في النهاية إلى «مأساة الإسماعيلية» و«كارثة حريق العاصمة»، ثم إن بقايا تلك الحكومة أصيبت بهلع تجلى في سابقة ليس لها مثيل، وهى أن مجلس النواب الوفدى منح ثقته لوزارة «على ماهر» (باشا)، ووافق لها على استمرار العمل بقانون الطوارئ لمدة ثلاثة شهور قابلة للتجديد، وجرى ذلك بعد طرد وزارة تمثل الأغلبية، وزاد أن «النحاس» (باشا) اتصل بعد الإقالة برئيس الوزراء المُعَيَّن يهنئه ويؤيده، وكذلك فعل «فؤاد سراج الدين» (باشا).

وكان حال أحزاب الأقلية (وهى حزب السعديين - والأحرار الدستوريين - والحزب الوطنى - والكتلة) أشد ترديا إلى درجة أن أحدا لم يخطر على باله أن تلك الأحزاب «صالحة» لأداء دور رئيسى أو مساعد!

■ ترافق ذلك مع حقيقة أن كل القوى السياسية غير المُعترف لها بالشرعية مثل الشيوعيين والإخوان المسلمين ومصر الفتاة أو الحزب الاشتراكى وغيرها - لم تمثل وقتها منفردة أو مجتمعة بديلا أو شبه بديل يمكن تجربته، فهذه القوى لم تكن لديها رؤى أو برامج تصلح أساسا لسياسات، وما كان لديها لا يزيد على شعارات عامة محرضة على الغضب، عاجزة بعده - أى أنها كافية لسيناريو الفوضى وليست مؤهلة لسيناريو الإنقاذ.

وفى تلك اللحظة وأثناء اختبار الحقائق، فإن هذه القوى كانت مهمومة بتبرئة نفسها من مسئولية حرائق النار الممتدة من الإسماعيلية إلى القاهرة، كلها تجاهد للهرب من المساءلة، سواء كانت سياسية أو جنائية، ومن الغريب أن كل طرف راح يزيح الشكوك ناحية الآخرين.

■ والحقيقة الثالثة - وذلك ما توصلت إليه الدول الأجنبية - أنه إذا كانت القوى السياسية المُعترف بشرعيتها في حالة إفلاس، (وصل إلى حد حريق أتى على كل شيء من المخازن إلى الدفاتر!!) - وأنه إذا كانت القوى السياسية غير المعترف بشرعيتها غير قادرة إلا على التحريض ثم الهرب من نتائجه - إذن فإن سيناريو الفوضى هو أرجح الاحتمالات ما لم ينجح الملك في ضمان جيشه - إخلاصًا وكفاءة!



ومن المفارقات أنه في فترة الانتظار - أياما معدودة أو أسابيع - لاختبار درجة «الثبات»، والاستقرار في الشأن المصرى، راحت الحكومة البريطانية تفكر في كافة الاحتمالات:

■ بدأت تطلب من كافة السلطات المصرية (القصر - والوزارة الجديدة - والسلطات المحلية في محافظات قناة السويس) - سرعة العمل على تخفيض درجة الحرارة. وكتب القنصل البريطانى في بورسعيد تقريرا إلى السفير البريطانى في القاهرة، أحاله إلى وزارة الخارجية في لندن (١٢٥/ ٨٦٠٤٥) جاء فيه:

«قمت بزيارة محافظ بورسعيد، الذي أكد لى أن يده الآن طليقة في التعاون معنا ومع قيادة القوات البريطانية في شئون الأمن، لكنه أشار لى تلميحا إلى أنه في انتظار أوامر مكتوبة من القاهرة، لأن الحكومة لاتزال في موقف صعب، فهى تريد التهدئة، لكنها لا تريد أن تظهر بمظهر المتعاون معنا علنا دون تحفظات!».

■ وكتب الجنرال «روبرتسون» القائد العام البريطانى في الشرق الأوسط إلى نائب رئيس أركان حرب الإمبراطورية تقريرا في أعقاب زيارة استطلاع قام بها إلى قيادة القوات البريطانية في مصر (ومقرها فايد وسط منطقة قناة السويس) - يقول: «إننى أوصى بعدم التفكير في الخطة «روديو»، لأنها إذا وُضعَتْ للتنفيذ سوف تُواجَه بمقاومة أشد عنفًا مما رتبنا عليه تقديراتنا لأن الجيش المصرى سوف يشترك مع «الغوغاء» في مقاومتنا. ثم إن أحوال الفوضى التى سنواجهها سوف تحتاج إلى قوات أكبر مما خصصنا لحفظ الأمن، وإذا نجحنا في تحقيق الهدف فسوف نكتشف أن أهم ما نجحنا فيه، أننا كسرنا القوة الوحيدة التى يمكن لها أن تحفظ الأمن الداخلى في مصر (أى الجيش المصرى) - ونحن لا نريد يقينا أن نتحمل عبء هذه المسئولية!».

■ وتجاوز رئيس الجالية البريطانية في بورسعيد الحدود ليكتب إلى القنصل العام البريطانى في المدينة خطابا، يجرى تحويله إلى السفير في القاهرة، الذى يقوم بدوره بتحويله إلى وزارة الخارجية في لندن (٦٨٦٨)، والاقتراح هو «وضع منطقة قناة السويس تحت إدارة دولية مستقلة لاعتبارات عَرَضَها (رئيس الجالية البريطانية في بورسعيد) بينها أن المنطقة ليست مهمة لمصر، وإنما أهميتها بريطانية (عسكرية) ودولية (قناة السويس)، وأن العناصر الأبرز والأنشط في مدنها الرئيسية من الأجانب: فرنسيين - إيطاليين - يونانيين. ثم إن السكان الوطنيين يعتمدون في حياتهم ومعيشتهم على «القاعدة وعلى الثكنات وعلى المصالح التجارية الأجنبية». ويختم (رئيس الجالية البريطانية في بورسعيد) بعد أربع صفحات مستفيضة في شرح اقتراحه - بالإشارة إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية يمكن أن تتحمس لفكرة تدويل المنطقة، لأن ذلك ينهى مقدرة مصر على الاستمرار في الصراع العربى مع إسرائيل».



كانت لندن مشغولة بالشأن المصرى سابقه ولاحقه:

■ بالنسبة للسابق فإن رئيس الوزراء البريطانى المحافظ الذى عاد إلى الحكم (أواخر ١٩٥١) - وهو الزعيم الأسطورى «ونستون تشرشل» - كان لايزال مصمما حسب قوله في مذكراته على أن الأمة البريطانية لم تحارب «هتلر» لكى تُضَيِّع ممتلكاتها، وأنه لا يقبل على تاريخه أن يكون رئيس الوزراء الذى يقوم على عملية تصفية الإمبراطورية. وفى نظر «تشرشل» فإن سياسة سلفه «كليمنت آتلى» (من حزب العمال) أدت سنة ١٩٤٨ إلى استقلال الهند وإلى تقسيمها، ومع أنه أمكن استبقاء شبه القارة الهندية (الهند وباكستان) في إطار الكومنولث - إلا أن ضياع مصر وفيها قاعدة قناة السويس سوف يحكم بضياع الهند، حتى وإن بقيت في الكومنولث.

■ وكان رئيس الوزراء «تشرشل»، ونائبه على رئاسة الوزارة هذه المرة السير «أنتونى إيدن» - يعتبر نفسه خبيرا بالشأن المصرى، فهو الذى فاوض ووقع معاهدة سنة ١٩٣٦ مع «النحاس» (باشا)، ولن يقبل إلغاءها من طرف واحد وهو متفق مع «تشرشل» تماما أن مصر هى حلقة الوصل في النظام الإمبراطورى من البحر الأبيض - إلى البحر الأحمر - إلى المحيط الهندى. وعلاوة على ذلك فإن «إيدن» يظن أنه يعرف كل رؤساء وزارات مصر وقد تعامل معهم ابتداءً من «مصطفى النحاس» (باشا) - زعيم الأغلبية الذى أُقيل - إلى «على ماهر» (باشا) الذى عاد لرئاسة الوزارة في مهمة مؤقتة.

■ وكان أشد ما يثير قلق «تشرشل» و«إيدن» معا، هو ما وقع ليلة حريق القاهرة، من ظروف أدخلت الولايات المتحدة الأمريكية إلى قلب الشأن المصرى، وكان واضحا للاثنين أن الولايات المتحدة دخلت بسهولة، لكنها لن تخرج إلا بصعوبة، هذا إذا خرجت على الإطلاق. ومع أن «تشرشل» لا يريد للولايات المتحدة أن تخرج تماما من مصر لأن ذلك يعنى خروجها من الشرق الأوسط كله - إلا أنه على استعداد لقبولها داعمة «لاستقرار المنطقة»، خصوصا إزاء تعقيدات الصراع العربى الإسرائيلى - بشرط ألا يكون من شأن ذلك إعطاء الولايات المتحدة تفويضا مفتوحا في الشأن المصرى!

■ وهنا كان تقدير «ونستون تشرشل» أن مصر وبريطانيا - هذه اللحظة وهذه اللحظة فقط - في حاجة إلى صلة وجسر بينهما، وقد قبل اقتراحين تقدم بهما وزير خارجيته ونائبه «أنتونى إيدن»:

- طلب عودة السفير المصرى «عبد الفتاح عمرو» (باشا) إلى موقعه في لندن ليكون حلقة اتصال مباشرة مع قصر عابدين.
- ودعوة أطراف عربية صديقة لبريطانيا

إلى لعب دور الوسيط، وأول المؤهلين في ذلك الوقت - الملكة الهاشمية في العراق، ورجلها «نورى السعيد» (باشا)، وهو واصل للقصر الملكي في مصر عن طريق سفيره «نجيب الراوى»، ثم إنه (نورى السعيد) صديق قديم لعلى ماهر (باشا)، وهكذا فإنه في الوقت الذى وصل فيه «عبد الفتاح عمرو» إلى لندن، كان «نورى السعيد» (باشا) رئيس وزراء العراق يصل إلى القاهرة، وكان «إيدن» بتوجيه من «تشرشل» يأمل أن يغنى اقتراب الهاشميين عن دخول الأمريكيين.

وفى نفس الوقت تشكلت فى وزارة الخارجية لجنة طوارئ خاصة «اللجنة المصرية المعاونة»، ضمت في عضويتها ممثلين عن: رئاسة الوزارة - ورئاسة أركان الإمبراطورية - والمخابرات العسكرية - والسياسية، ودُعِى للمشاركة فيها عضو أمريكي تَقَرَّر أن يكون مسئول شئون الشرق الأوسط في السفارة الأمريكية في لندن، وهو المستشار «لوى هندرسون» (الذى أصبح فيما بعد سفيرا أمريكيا في أكثر من عاصمة عربية). ■

٢ «... ثم اختفى تحت الرماد!»

■ ومنذ الأيام الأولى من شهر فبراير ١٩٥٢ - كان «على ماهر» (باشا) الذى جلس بالكاد على مقعده - مهموما قبل أى شيء آخر بإمكانيات استمرار وزارته، وكان يفهم - من تجاربه الماضية، ومن الإشارات التى لمحها من حوله - أن هناك من يريدونه رجل مطافئ، أو رجل إسعاف (أى لمدة مؤقتة)، ولم يكن ذلك ما يريده بالقطع.

كان «على ماهر» يعتبر نفسه طبيبا سياسيا (كما نقل عنه واحد من المقربين إليه هو الأستاذ «إبراهيم عبد الوهاب» سكرتير عام مجلس الشيوخ الذى اختاره وزيرا للدولة فيما بعد) - وأن مهمته ليست مجرد «إنقاذ الموقف» وإنما مهمة «بعث مقدس» تتعدى الأيام والرجال (كذلك قال لى «على ماهر» باشا بنفسه عندما دعانى للغداء معه في بيته يوم الجمعة الأول من فبراير ١٩٥٢، ليسمع منى ما رأيته يوم حريق القاهرة وربما في غيره من الأيام. فقد وجدت في يده عندما دخلت عليه في بيته - الذى انتقل إليه في الجيزة - نسخة من كتاب ظهر لى قبل شهور بعنوان «إيران فوق بركان» - على أننى كنت أريد أن أسمع من رئيس الوزراء أكثر مما أتكلم، وفى حسابى أننا يوم جمعة وغدا السبت موعد صدور أخبار اليوم، وفيها باب إخبارى عنوانه «أخبار الغد» - هو أصعب أبواب الجريدة على الإطلاق، وكنت المسئول عنه وقتها).

● كان «على ماهر» يدرك أن المهمة الأخطر في إنقاذ الموقف لا تدخل في اختصاصه عمليا، لأن تلك المهمة في عهدة الجيش، والجيش أمره في القصر الملكى وليس في رئاسة الوزراء، ومع ذلك ظل الرجل حريصا على أن لا تكون وزارته مهمة مؤقتة، وإنما «مهمة أوسع وأكبر».

ولم يلبث حتى اكتشف أن ما حسبه في اختصاصه - هو أيضا - عزيز المنال.

● وعلى سبيل المثال فإنه بالنسبة للمهام المتعلقة بالأوضاع الاقتصادية وطمأنة رأس المال المصرى والأجنبى، فقد أدرك «على ماهر» (باشا) أن النجاح يحتاج إلى معجزة ليس في مقدوره أن يمسك بها لأن دخان الحريق ما زال يملأ الأجواء.

● وبالنسبة للتحقيق فيما جرى، فقد ظهر له ولغيره أن النيابة العامة تقوم بدورها في تطبيق القانون، لكن المهمة شبه مستحيلة. فالتهمة من اللحظة الأولى وعلى لسان الملك «فاروق» نفسه موجهة إلى الأستاذ «أحمد حسين»، وفى الغالب فإن الأستاذ «أحمد حسين» كان مسئولا - ربما - عما جرى في ميدان الأوبرا ظهر يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢، لكنه من الصعب اعتباره قادرا ومسئولا عما جرى في العاصمة بكاملها. والغالب أن المسئولية الحقيقية كانت صنيعة مناخ سياسى بكامله، وليست مسئولية رجل واحد أو تنظيم بعينه، وذلك ما توصل إليه تقرير خاص أشرفت عليه السفارة البريطانية، وتم إعداده تحت إشراف هيئة مستشارين خاصة من ستة قناصل بريطانيين، تولى سكرتاريتها المستر «كين بويد» الذى عمل قُرابة خمسة عشر عاما مستشارا خاصا للأمن في وزارة الداخلية المصرية!

وقد انتهى تقرير هذه الهيئة (٨٦/ ١٠١٨ ج. أ) الذى وقعه السفير السير «رالف ستيفنسون» موجها إلى وزير الخارجية «أنتونى إيدن» - إلى تسعة أسباب محددة لحريق القاهرة - كلها سياسية وليس بينها سبب جنائى واحد!

● وهكذا فإن «على ماهر» (باشا) لم يلبث أن أدرك أن مهمة التحقيق التى يعتمد عليها لإطالة عمر وزارته ليست في طوعه، ثم توصل بعد أسبوع أو عشرة أيام إلى أنه إذا استطاع أن يبدأ مفاوضات مع الإنجليز لمعالجة أصل القضية وهو تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ بما يكفل تحقيق «الأمانى الوطنية» - فإن الزمن يصبح حليفا له وليس عدوا، لأن المفاوضات مع الإنجليز سوف تأخذ وقتها، ثم إنها سوف تشد الاهتمام إليها، وإذا بدت جدية الأطراف حول مائدتها - فإن فسحة الوقت المطلوبة سوف تتسع يقينا ولا تضيق، وكان «على ماهر» (باشا) يعول على أربعة عناصر حسبها لصالحه:

١ - أن الإنجليز في حالة قلق مما جرى، وإذا كانوا لا يريدون توسيع عملياتهم العسكرية في مصر، فإن مواقفهم بالضرورة قد تكون أكثر لينا.

٢ - أن الولايات المتحدة أصبحت طرفا في الشأن المصرى، وهو نفسه تحدث مع السفير الأمريكى «جيفرسون كافرى» (وكان ذلك أول لقاء له مع سفير أجنبى معتمد في القاهرة)، وقد تصور أنه أقنعه بأهمية أن تتقدم الحكومة البريطانية بـ «عربون حُسن نية» للوزارة الجديدة، حتى ولو كان العربون بالإشارة والتلميح.

٣ - ثم إن ساسة العالم العربى - خصوصا في العراق وسوريا - هالهم ما جرى في مصر، وقد أقبلوا يبذلون وساطتهم، خشية أن اهتزاز الأوضاع في أكبر بلد عربى يؤثر سلبا على كل البلدان العربية، والشاهد أن السيد «نورى السعيد» (باشا) بنفسه موجود الآن في القاهرة، يعرض وساطته ونفوذه لدى الإنجليز والأمريكيين.

٤ - أن الأحزاب المصرية - وأولها الوفد الذى يشك دائما في «على ماهر» - مصاب الآن بحالة فزع مما جرى، ولذلك فإن قيادته على استعداد لفترة سماح طويلة تتركها له - خصوصا إذا دخل في مفاوضات جدية تتوافر لها الآن فرص نجاح لم تكن هناك قبل شهور!



على أن الواقع كان أكبر من الأمانى، فقد كتب السير «رالف ستيفنسون» السفير البريطانى تقريرا موجها إلى وزير الخارجية البريطانية «أنتونى إيدن» بتاريخ ٣ فبراير ١٩٥٢، تحدث فيه عن اجتماع عقده بحضور من وصفهم بأنهم «خبراء» - دون أن يحدد الأسماء - قائلا:

عقدت اجتماعا حضرته شخصيات أمنية سابقة لديها خبرة واسعة. وكان هناك قدر كبير من التشاؤم في كل ما سمعته، وملخصه النهائى أن وزارة «على ماهر» لن تظل في الحكم طويلا، وإنما هى مسألة أسابيع أو شهور تُعد على أصابع يد واحدة والأسباب كما يلى:

١ - هذه وزارة شُكِّلت على عجل لمواجهة طارئ فاجأ الجميع، وبالتالى فإن الطاقم الوزارى غير متجانس، كما أن الوزارة ليست لها سياسة جرى الاتفاق عليها من قبل، بل إن بعض الوزراء لا يعرفون زملاءهم ولم يسبق لهم الالتقاء بهم، وعليه فهذه وزارة «حانوتية» وليست وزارة «أطباء مولدين»!

٢ - أن معظم الوزراء من اختيار القصر ولم يكن أمام «على ماهر» غير قبولهم، ومع أن بعضهم قد يكونوا أصحاب الخبرة، لكنهم ليسوا بالتأكيد رجال دولة.

٣ - أن «على ماهر» رجل كفء ولكنه غير متزن (Aly Maher is able but Unstable)، وسوف يحاول تركيز كل السلطات في يده.

٤ - أن «على ماهر» ليس شخصية كبيرة بالقدر الذى يعطيه يدا مطلقة في الإصلاح، لأنه لا يقف على قاعدة سياسية صلبة، ولا يملك شعبية تضمن له تأييدا واسعا في الرأى العام، وبالتالى فإن سنده الضرورى هو القصر، والقصر يموج الآن بالدسائس.

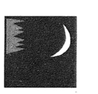
٥ - أن «على ماهر» سوف يحاول أن يفتح باب المفاوضات المصرية - البريطانية، متصورا أننا إذا أعطيناه بسرعة تصريح مرور (فيزا) - فقد يستطيع البقاء ويجهز للتفاوض معنا بواسطة جبهة وطنية يوافق هو على مشاركة الوفد فيها، ولكن الملك لن يوافق، وهنا سوف تنشأ الأزمة.

٦ - أنه في حالة سقوط وزارة «على ماهر» - فإن رئيس الوزراء الأقرب من غيره إلى المنصب هو «نجيب الهلالى» - لكن المشكلة هى ما الذى يقدر عليه «الهلالى»؟!

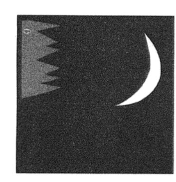
وبأثر رجعى فإن هذا التقرير يبدو حامل نبوءة، وليس ناقل تقدير أو تحليل، لأن البنود التى وردت فيه جميعها تحققت، كأنها جدول أعمال مُقرر!



كانت اللجنة الخاصة التى شكلتها وزارة الخارجية في لندن لمتابعة تطورات الأزمة في مصر تواصل عملها في لندن، وكانت حريصة على أن تكون السفارة البريطانية في القاهرة معها في رؤية الصورة كما تظهر لها.



كان «على ماهر» يدرك أن المهمة الأخطر فى إنقاذ الموقف لا تدخل فى اختصاصه عمليا، لأن تلك المهمة فى عهدة الجيش، والجيش أمره فى القصر الملكى وليس فى رئاسة الوزراء، ومع ذلك ظل الرجل حريصا على أن لا تكون وزارته مهمة مؤقتة، وإنما «مهمة أوسع وأكبر»



الجيش المصرى لا يمكن الوثوق فيه، فالجنرالات الكبار من ضباطه فقدوا هيبتهم: بعضهم فقدها فى معارك الحرب فى فلسطين، وبعضهم فقدها فى صفقات السلاح. وأما الضباط الشبان فلم يعد يحركهم إلا شعور من الكراهية لبريطانيا التى يعتبرونها مسئولة عن كل ما لحق ببلادهم. ثم إنهم يبدون ضيقا شديدا من تصرفات الملك الذى هو قائدهم الأعلى

ويوم ١٥ فبراير ١٩٥٢ كتب السفير «روجر آلين» (مدير مكتب وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط) ـ رسالة وجهها إلى السفير البريطاني في القاهرة السير «رالف ستيفنسون» قائلا له:

١ ـ نحن نتلقى هنا معلومات تثير القلق، فقد كان عندى اليوم السير «سيسيل كامبل» (عميد الجالية البريطانية في مصر الذى دُعى إلى لندن على عجل لاستطلاع رأيه) ـ وقد قال لى: «إنه لم ير مصر في حياته كما يراها الآن»، وهو شخصيا مذعور Frightened مما يرى، وظنه أن الحكم في مصر يتصرف تحت تأثير الخوف والضعف.

٢ ـ وردا على سؤال منى قال السير «سيسيل»: «إن الجيش المصرى لا يمكن الوثوق فيه، فالجنرالات الكبار من ضباطه فقدوا هيبتهم: بعضهم فقدها في معارك الحرب في فلسطين، وبعضهم فقدها في صفقات السلاح ـ وأما الضباط الشبان فلم يعد يحركهم إلا شعور من الكراهية لبريطانيا التى يعتبرونها مسئولة عن كل ما لحق ببلادهم. ثم إنهم يبدون ضيقا شديدا من تصرفات الملك الذى هو قائدهم الأعلى، وقد أطاعوا أمره في حفظ النظام بعد حريق القاهرة، لكنهم فعلوا ذلك من باب الولاء لبلدهم وليس لملكهم. وهناك في مصر الآن أزمة ثقة والناس يلتفتون إلى كل ناحية يبحثون عن قيادة!».

٣ ـ وفى صدد الحديث عن الجيش قال السير «سيسيل»: «إن الأمل في ضبط أمور الجيش مرهون باللواء «فؤاد صادق» الذى قاد المراحل الأخيرة من حرب فلسطين بكفاءة، وعاد إلى القاهرة ساخطا يتحدث عن أسباب القصور والفساد. واللواء «فؤاد صادق» رجل موثوق وصديق قديم لبريطانيا وناقد لاذع لمسلك الملك، ولذلك فإن فرصته في منصب القائد العام محدودة، لأن الملك «فاروق» لا يحبه».

٤ ـ أفضى إلىَّ السير «سيسيل» بأنه التقى أمس بالسفير المصرى في لندن «عبد الفتاح عمرو»، وفوجئ به يقول: «إنه يُقدِّر عمر الوزارة الحالية بثلاثة أسابيع، ويُقدِّر عمر النظام الملكى في مصر بخمسة أسابيع!». والحقيقة إننى في دهشة من هذه الصورة المتشائمة، وقد سألت السير «سيسيل»: «ما الذى نستطيع من جانبنا أن نفعله لإنقاذ الموقف؟». وكان رده: «إنه بدون تنازلات نقدمها لعلى ماهر فإن وزارته لا تستطيع أن تعيش طويلا».

وكما هو ظاهر في الوثائق الأمريكية، فإنه بإلحاح مشترك من «نورى السعيد» (باشا) رئيس وزراء العراق، ومن «جيفرسون كافرى» سفير الولايات المتحدة في القاهرة ـ إلى جانب دواعٍ أخرى بالتأكيد ـ فإن الحكومة البريطانية بعثت إلى سفيرها في القاهرة تعليمات مقتضاها «أن في وسعه الإشارة إلى رئيس الوزراء «على ماهر» باستعداده لعقد جلسات استطلاعية تمهد لمفاوضات بين مصر وبريطانيا بغرض تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦».

وقام السير «رالف ستيفنسون» بما طُلِبَ منه وعاد إلى وزارة الخارجية يقول: «إننى لم أعط الضوء الأخضر لعلى ماهر، ولكنى أعطيته الضوء البرتقالى إشارة إلى أنه يستطيع أن يستعد»!

وبدأ «على ماهر» يستعد لجلسات استطلاعية، ونُقِلَ عنه انه يريد أن يتفاوض بواسطة لجنة تمثل جبهة وطنية تشارك فيها كل الأحزاب والقوى، ضمانا لإجماع وطنى يساند أى اتفاق.

وكان تقدير «حافظ عفيفى» (باشا) (رئيس الديوان الملكى) أن هدف «على ماهر» الحقيقى هو «إطالة عمر وزارته»، وتحجيم معارضة الأحزاب والقوى السياسية لها (بينما هى تتفاوض)، وكان أكثر ما أقلق رئيس الديوان الملكى ما رآه من تحسن متزايد في العلاقات بين «على ماهر» وبين حزب الوفد، وقد فسره «حافظ عفيفى» (باشا) بدون عناء باعتباره «رغبة من «على ماهر» في تقليل اعتماده على القصر الملكى وحده، وحتى لا تظل وزارته مرهونة بتعليمات يُمليها المزاج المتارجح في قصر عابدين!».

ويظهر أن السفير البريطاني بدأ بتلقى أخبارا متضاربة، وأراد أن يستوثق مما يصل إليه، وهكذا دعا «إلياس أندراوس» (باشا) مستشار الملك للشئون المالية إلى مقابلته، وكتب بعد المقابلة تقريرا إلى وزارة الخارجية (٢٩١ ـ ٤٧/ ١٠١٨) قال فيه:

«دعوت «أندراوس» (باشا) إلى مقابلتى مساء أمس، ومع أنى أعرف أنه رجل متآمر وكذاب إلى درجة هائلة A Monumental Liar، فقد أردت أن أبعث إلى الملك «فاروق» برسالة واضحة، لأنى أعرف أن «إلياس أندراوس» أقرب إليه الآن من أى رجل آخر في الحاشية.

وقلت لأندراوس: «إننى لا أرى فائدة في أى مفاوضات تجريها مجموعة تمثل جبهة وطنية إذا كان الوفد سوف يشترك فيها برجل مثل «صلاح الدين» (يقصد الدكتور «محمد صلاح الدين (باشا) الذى كان وزيرا للخارجية في وزارة الوفد السابقة)، ذلك لأن «صلاح الدين» خطر، وسوف تكون مجموعة التفاوض كلها واقعة تحت تأثيره، ومعنى ذلك أن نعود إلى ما كنا فيه». قلت له أيضا: «إن التحقيقات التى تُجرى حول المسئولية عن حريق القاهرة، لا معنى لها إذا لم يتحمل «سراج الدين» (يقصد «فؤاد سراج الدين» (باشا) وزير الداخلية في وزارة الوفد السابقة) ـ مسئوليته الكاملة عن حوادث ٢٦ يناير». وقلت: «إن الوفد يمكن تمثيله في لجنة التفاوض برجل معتدل مثل «زكى العرابى» (باشا)».

ويوم الجمعة ٢٩ فبراير فوجئ السير «رالف ستيفنسون» بأن «حافظ عفيفى» (باشا) رئيس الديوان يتصل به من مزرعته «لؤلؤة الصحراء» على طريق المنصورية، ليقول له: «إنه بناء على أمر من الملك «فاروق» سوف يقطع عطلة نهاية الأسبوع التى يقضيها هناك ويعود إلى القاهرة ويريد أن يقابله اليوم، وفى دار السفارة البريطانية، لأن مكتبه في القصر غير جاهز للعمل يوم الجمعة!».



على ماهر

واتفق الاثنان (وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر) على أن يكون لقاؤهما في مكتب السفير البريطاني بعد الساعة السادسة مساءً، وتم اللقاء فعلا.

وفى الساعة الثامنة واثنتين وأربعين دقيقة، كان تقرير السفير البريطاني عن المقابلة قد دخل إلى آلة الشفرة (٤٥٢) ـ توقيتا وترقيما، ونصه كما يلى:

«أرسل إلىَّ الملك «فاروق» رئيس ديوانه هذا المساء يطلب منى إلغاء موعد مُتَّفق عليه بينى وبين رئيس الوزراء «على ماهر» تحدد له الساعة العاشرة من صباح الغد (أول مارس ١٩٥٢)». قال لى رئيس الديوان: «إن جلالة الملك قرر إقالة وزارة «على ماهر» لأنه يعرقل أعمال وزارات العدل والداخلية والمالية، وأنه عاجز عن التقدم في التحقيق وتحديد المسئولية عن أحداث ٢٦ يناير، وأهم من ذلك فإن «على ماهر» يقصد حماية نفسه بالإعلان الواسع عن استئناف المفاوضات، ولذلك فإن الملك يطلب منى أن أقوم بطلب تأجيل الموعد إلى يوم الاثنين بدلا من يوم السبت، وبذلك تفشل مناورة «على ماهر»، ويتمكن الملك من إقالته قبل أن يضع كل الأطراف أمام أمر واقع بلقاء معى يمهد لعملية التفاوض».

وقلت لرئيس الديوان الملكى: «إننى سوف أقوم بإخطار «على ماهر» صباح الغد بتأجيل الموعد ٤٨ ساعة بعذر وعكة برد طارئة». قلت أيضا: «إننى كنت في العادة أتردد في دخول مثل هذه الألعاب لولا ما أراه من تهاون «على ماهر» مع حزب الوفد. وعلى أى حال فقد كان لدى القليل مما أستطيع تقديمه له!».

وهكذا كان ـ وعرف «على ماهر» (باشا) بتأجيل موعد السفير البريطاني معه ـ بسبب نوبة برد طرأت عليه ـ من جريدة أخبار اليوم (عدد السبت ١ مارس) ـ ورغم أن وزير الداخلية «مرتضى المراغى» ـ أبرز رجال الملك في وزارة «على ماهر» (باشا) كان هو الذى أملى الخبر على الجريدة متأخرا مساء الجمعة ـ فإن رئيس الوزراء لم يعرف إلا عندما قرأ جرائد الصباح على مائدة الإفطار في بيته (الساعة السابعة والنصف).

وطلب إلى سكرتيره أن يسأل السفارة البريطانية عن صحة الخبر، وعاد إليه سكرتيره بعد ربع ساعة يقول: «إنه نجح في الاتصال بمكتب السفير، وقالوا له إنهم كانوا على وشك أن يتصلوا بمكتب رئيس الوزراء ـ لكنكم سبقتم!».

وأحس «على ماهر» أن هناك ما يريب في المسألة بالنظر إلى ظاهر ملابساتها، ورأى أن يتصل بحسن يوسف (باشا) الذى أبلغه على التليفون «إن مولانا ينتظر خطاب استقالة الوزارة».

ورد «على ماهر» (طبقا لرواية «حسن يوسف» (باشا)) يقول: «طيب.. طيب»! وأغلق سماعة التليفون!

وكان خطاب قبول الاستقالة يجرى تجهيزه في الديوان بالتوازى مع خطاب آخر بتكليف «نجيب الهلالى» (باشا) بتشكيل وزارة جديدة.

وهكذا لم يزد عمر وزارة «على ماهر» (رغم كل ما حاول) عن خمسة أسابيع، استوعب فيها صدمة الحريق، ثم اختفى تحت رماده! ■

٣ حقول الألغام: وفدية وملكية!

كان «أحمد نجيب الهلالى» (باشا) الذى عهد إليه الملك بتشكيل الوزارة التى تتولى الحكم بعد إقالة وزارة «على ماهر» (باشا) (التى تلت بدورها إقالة وزارة «مصطفى النحاس (باشا) ـ سياسيا من أذكى رجال ذلك الجيل الذى ظهر على مسرح السياسة المصرية في عصر ما بين الثورتين الكبيرتين في القرن العشرين (١٩١٩ و ١٩٥٢). وكان فكره مرتبا بمنطق القانون الذى درسه واشتغل به محاميا لا يقف كثيرا في ساحات المحاكم، وإنما يجلس طويلا وراء مكتبه يصوغ المذكرات القانونية بصبر دءوب لا يعرف الكلل.

وقد عرف «نجيب الهلالى» أن مهمة تشكيل الوزارة آلت يوم الجمعة ٢٩ فبراير، عندما اتصل به «حافظ عفيفى» رئيس الديوان الملكى يبلغه أن المسئولية التى أفلت منها مرتين من قبل، في طريقها الآن إلى بابه، وأنه لا يستطيع هذه المرة أن يتعلل بعذر كما فعل من قبل، لأن الظروف الآن معقولة، كما أن الضرورات ملحة، و«جلالة الملك يعتمد عليك ولا تستطيع في هذه اللحظة أن «تخذله»!».

وكان «نجيب الهلالى» رجلا حاضر البديهة، سريعا في التقاط التناقضات الكامنة في المواقف، وكذلك فإنه حين اتصل به «حافظ عفيفى» (باشا) في بيته في المعادى ـ وكان قد جلس بالكاد إلى مائدة الغداء، لكنه قام عنها إلى مكتبه يتلقى مكالمة رئيس الديوان، وتغيب هناك أكثر من نصف ساعة، ثم عاد ليقول ضاحكا: «حاولت أن أقول لهم أن كتفى أضعف من أن يتحمل ما يطلبونه، لكنه يظهر أنه لم يعد هناك مفر من أن ظهرا واهيا عليه الآن أن يحمل جبلا ثقيلا!».

وكان «نجيب الهلالى» يشير إلى حجمه، فهو قصير القامة لا يزيد ارتفاعه على مائة وستين سنتيمترا، ونحيل في نفس الوقت لا يزيد وزنه على ستين كيلو جراما، كما أن نظره ضعيف يحتاج إلى نظارات سميكة، وعندما عاد من حديثه مع رئيس الديوان الملكى، واتخذ مكانه من جديد على رأس المائدة في غرفة الطعام في بيته، كان أول ما قاله «والآن وأنتم جميعا من الشباب قولوا لى من أين نبدأ».

....

....

[وكان الجالسون حول المائدة أربعة غير صاحب البيت نفسه هم: ابنه الأستاذ «نبيل الهلالى» الذى ورث عنه مهنة القانون، وإن لم يرث توجهاته السياسية، ففى حين كان «نجيب الهلالى» يقف على يمين الوسط، فإن ابنه «نبيل» كان (ولايزال وفيا لمواقفه) ملتزما بيسار اليسار ـ وكان الثانى هو الدكتور «محمود محفوظ» زوج ابنة «الهلالى» (باشا) ـ وهو طبيب مرموق أصبح فيما بعد وزيرا للصحة وعضوا نشيطا في مجلس الشورى ومهتما بالشأن العام حتى هذه اللحظة ـ وكان الثالث هو الأستاذ «فريد زعلوك» زعيم الشباب الوفدى في كلية الحقوق، وزعيم الطلبة الوفديين في معارك الأحزاب داخل الجامعة، لكنه الآن أصبح رجلا ناضجا يعمل بالمحاماة ـ وحاول أن يكون مقربا من «نجيب الهلالى» (باشا) مهنيا وسياسيا ـ وكان من حظى أن أكون الضيف الرابع على الغداء.

....

....

[وأجد ضروريا أن أشير إلى أن طبيعة اختياراتى المهنية كمراسل سياسى متجول لعدد من السنين في الشرق الأوسط، لفتت نظر بعض من ساسة تلك الأيام إلى ما أكتب.

وكان «نجيب الهلالى» (باشا) قد تفضل ودعانى مبكرا إلى الغداء معه عقب تغطية قُمت بها لأحداث البلقان، وضمنها الحرب الأهلية في اليونان سنة ١٩٤٧، وكانت الأسباب مهياة بسبب صداقة سبقت بين الدكتور «محمود محفوظ» (زوج ابنته) وبينى، وكذلك أصبحت صديقا للأسرة.

وكان «نجيب الهلالى» يدعو عددا من المقربين إليه مساء كل جمعة على العشاء في مطعم «سان جيمس» (وهو من أفضل مطاعم القاهرة وقتها) ـ لكنه بعد حريق القاهرة ـ جرى على ذلك المطعم ما جرى على غيره في وسط العاصمة، وهكذا فإن دعوة العشاء تقدم موعدها لتصبح على الغداء، كما تغير مكانها لتصبح في بيته على الشارع الرئيسى لضاحية المعادى].

....

....

وحين وجه «نجيب الهلالى» (باشا) سؤاله: «والآن وأنتم جميعا من الشباب قولوا لى من أين نبدأ؟» ـ لم يتوقف بعد سؤاله، وإنما استطرد قائلا «إذا سمعت من أحدكم عبارة تهنئة فسوف أستنتج من ذلك أنه لا يفهم شيئا!».

وطالت الأحاديث وتشعبت، ثم توقفت مرتين: واحدة عندما جاء «حافظ عفيفى» (باشا) رئيس الديوان الملكى ليختلى برئيس الوزراء المُكَلَّف وحدهما في غرفة المكتب. ومرة أخرى بعدها حوالى الساعة التاسعة والنصف مساءً عندما وصل «حسن يوسف» (باشا) ومعه مسودة خطاب التكليف الملكى حتى يتمكن «دولة الباشا» من إعداد مشروع رده عليه، ويتم الاتفاق على الخطابين ويجرى تجهيزهما في الديوان قبل الموعد المحدد للقاء «نجيب الهلالى» (باشا) مع الملك في قصر القبة في الساعة الثانية عشرة ظهر الغد (السبت أول مارس ١٩٥٢).

وقبل منتصف الليل كانت هناك قائمة شبه كاملة بالمرشحين للمناصب الوزارية، وبينهم رجال كان واضحا أنهم من اختيار الملك «فاروق» شخصيا (مثل «مرتضى المراغى» لوزارة الداخلية). كما أن بعضهم من اختيار «الهلالى» (باشا) بنفسه (مثل «عبد الخالق حسونة لوزارة الخارجية) ـ ثم إن بعضهم الآخر كان بإملاء الظروف ذاتها (مثل الدكتور «زكى عبد المتعال» لوزارات المالية والاقتصاد ـ وكان ذلك منصبه في وزارة الوفد سنة ١٩٥٠، ثم خرج من الوزارة بسبب التحقيقات في مضاربات بورصة القطن).

وفى الساعة العاشرة من صباح اليوم «الموعود» (السبت أول مارس) ـ وصل «نجيب الهلالى» من بيته ومعه ابنه «نبيل» في سيارة يقودها زوج ابنته الدكتور «محمود محفوظ» ـ إلى مكتبه في شارع قصر النيل، عند اتصاله بميدان سوارس (مصطفى كامل الآن) ـ وكان في انتظاره «فريد زعلوك» (وقد رشحه «الهلالى» وزيرا للدولة معه يتولى العلاقات العامة لمكتبه) ـ وكنت هناك أنا الآخر لأن الدكتور «محمود محفوظ» اتصل بى مبكرا ناقلا طلبا من «الهلالى» (باشا) أن أنتظره في مكتبه قبل الساعة العاشرة.

وعندما وصل «نجيب الهلالى» (باشا) كان الرجال الأربعة الذين حضروا غداءه بالأمس حوله في مكتبه اليوم، وكانت الساعات العشرين التى انقضت ما بين غداء الأمس وقهوة اليوم قد غيرت كثيرا من الاهتمامات والأجواء والمشاعر.

....

....

[قبل أن يتخذ «نجيب الهلالى» مقعده في مكتبه، وحتى وابنه «نبيل الهلالى» يساعده على خلع معطفه الثقيل، بحيث يظهر الرجل في حجمه الطبيعى متناقضا بشدة مع المسئولية التى توشك أن تنزل عليه ـ وجه حديثه إلىّ سائلا:

«محمد.. (كان ينادينا جميعا بأسمائنا الأولى) ـ أنت تعرف الجيش وما يجرى فيه من تجربتك في فلسطين وبعدها، والمقعد الوزارى الوحيد الذى أصابنى بالأرق ليلة أمس ـ هو مقعد وزير الحربية والبحرية، ولست أريد أن يفرض على أحد مرشحا قد لا يكون الأصلح، وفى نفس الوقت فأنا أريد «ضابطا» «نظيفا» من داخل الجيش، يطمئن إليه الجميع ويثقون فيه، لكنى لا أعرف أحدا، فهل لديك اقتراح؟!».

وكان السؤال قد خطر ببالى قبل أن أسمعه من رئيس الوزراء المُكَلَّف، وكذلك وبعد لحظة انتظرته فيها حتى جلس في مقعده، وأشعل من جديد سيجاره الذى انطفأ منه في السيارة ـ قلت:

«لو أن «دولتك» سألتنى في هذا الموضوع في السنة الماضية لاقترحت عليك اللواء «فؤاد صادق» ـ أما وقد سألتنى هذا السؤال الآن فاقتراحى هو اللواء «محمد نجيب»».

وسألنى «الهلالى» (باشا) بمنطق رجل القانون:

«قُلْ حيثياتك في الحالتين؟!».

وأجبته «بالنسبة للواء «صادق» فإن الرجل كان أكثر ضباط الجيش شعبية في السنة الماضية، بسبب جرأته في نقد الأحوال العامة من واقع تجربته كقائد للقوات المصرية في فلسطين (من أكتوبر سنة ١٩٤٨ إلى آخر يناير ١٩٤٩).

وقد أُعجبت به (شخصيا) في تلك الفترة، إلى درجة أننى أقنعت إدارة أخبار اليوم بأن توافق لى كمدير لتحرير أخبار اليوم، على شراء مذكراته للنشر، وقد وافق على العرض، وحملت إليه بالفعل مظروفا به ألف جنيه مقدم اتفاق.

ثم حدث بعد أسابيع قليلة أن اتصل بى اللواء «صادق» يدعونى للقائه في بيته معتذرا عن تنفيذ الاتفاق، راغبا في إعادة مقدم العقد لأن هناك تغييرا في الظروف.

ثم عرفت فيما بعد ـ دون دخول في التفاصيل ـ أن الرجل ظن في لحظات الأزمة (يناير ١٩٥٢) ـ أنه مرشح جدى لمنصب القائد العام للقوات المسلحة (بدلا من «حيدر» (باشا))، ومن ثم أراد إعفاء نفسه من أية قيود مسبقة، ومنها عقد كتابة مذكراته». وأضفت «وظني أن الرجل يشعر بنوع من المرارة لأن ما توقعه لم يتحقق، وفى الغالب فقد ظهر ـ في اللحظة الأخيرة ـ اعتراض عليه، لكنه ما بين استعداد الرجل للقبول وتحول الآخرين عن اختياره ـ تأثر وضع الرجل بغير ذنب يتحمله».

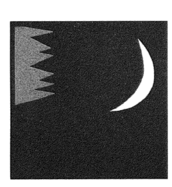
وراح «نجيب الهلالى» ينفث دخان سيجاره ثم يسأل:

وحيثيات نجيب؟!

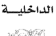
وقلت: كان سؤالك عن ضابط نظيف، يطمئن إليه الجميع، وأمامنا الآن ـ بعد انتخابات نادى الضباط ـ رجل اختاره الضباط بأنفسهم، ومعنى

عرف «نجيب الهلالى» أن مهمة تشكيل الوزارة آلت إليه يوم الجمعة ٢٩ فبراير، عندما اتصل به «حافظ عفيفى» رئيس الديوان الملكى يبلغه أن المسئولية التى أفلت منها مرتين من قبل، في طريقها الآن إلى بابه، وأنه لا يستطيع هذه المرة أن يتعلل بعذر كما فعل من قبل، لأن الظروف الآن معقولة، كما أن الضرورات ملحة، و«جلالة الملك يعتمد عليك ولا تستطيع في هذه اللحظة أن «تخذله»!».

الساعة تدق منتصف الليل!



وجد «نجيب الهلالي» (باشا) نفسه تحت ضغوط شعبية تطالبه بأن لا يغفل قضية «الأماني الوطنية» (بشعار التطهير قبل التحرير)، وهكذا فإنه عاد يلح على أهمية الوصول إلى تسوية سريعة لمشكلة العلاقات المصرية - البريطانية، وظنه - مثل غيره من سابقيه - أنه يستطيع استغلال أي نجاح يحققه في تدعيم سياسته الداخلية



ذلك حُسن رأيهم فيه واطمئنانهم إليه، وذلك يزكيه بأكثر من أي اعتبار آخر.

وفكر «نجيب الهلالي» لحظة ثم قال: «المشكلة أنهم لم يكونوا مستريحين لكل ما جرى في انتخابات نادي الضباط، واعتبروه تحديا للقصر».

وقلت أنني أعرف «محمد نجيب» من سنوات، ولا أظن أنه يفكر في تحدى القصر، وفي كل الأحوال فالسؤال الجوهري هو: ما إذا كان القصر راغبا في تهدئة الحال في الجيش، أو راغبا في استمرار التحدى!».

وقال «الهلالي» (باشا) بسماحة: «أظن أن الحق معك!».

وبعد نصف ساعة غادر «نجيب الهلالي» (باشا) مكتبه قاصدا قصر القبة في سيارة يقودها صهره الدكتور «محمود محفوظ» (أيضا) - وبقيتنا تنتظره حتى يعود - وعاد في الساعة الثالثة إلا ربعا، وأول ما قاله - وهو يخلع معطفه مرة أخرى:

«محمد - مع الأسف لم ينجح مرشحك لمنصب وزير الحربية».

واستطرد:

«عرضت اسمه على «جلالة الملك» وسألني: هل تعرف «نجيب»؟، وقلت: «إنني لا أعرفه». وسألني «هل تضمنه؟». وقلت «كيف أضمنه إذا لم أكن أعرفه، لكن وسيلتنا إلى ضمان الناس أن نختبرهم عمليا وليس بكشف الهيئة فقط». ورد الملك «هل ترانا «يا باشا» في وقت إجراء اختبارات لمنصب شديد الحساسية الآن مثل منصب وزير الحربية؟». وهنا تدخل «حافظ» (باشا) واقترح أفضلية الانتظار قبل ملء المنصب، وعلى هذا الأساس فسوف يكون «مرتضى المراغي» وزيرا للداخلية - ووزيرا مؤقتا في نفس الوقت للحربية والبحرية، حتى تتجلى لنا الظروف وحينها نعود إلى الموضوع»].

....

....

وبدا واضحا من اللحظة الأولى أن «نجيب الهلالي» (باشا) كان على حق في اعتذاره عن رئاسة الوزارة قبل ذلك مرتين، وأن العرض الثالث عليه كان ظلما له - بمقدار ما أن قبوله به كان ظلما لنفسه فقد كان «الهلالي» بالطبع وبالتجربة رجل فكر ولم يكن رجل فعل. ورجال الفكر في العادة أنواع: فهناك رجل الفكر حامل الرؤية - وهناك رجل الفكر صاحب المشروع - وهناك رجل الفكر واضع الخطط - وهناك رجل الفكر المشغول بالتفاصيل - وكان «نجيب الهلالي» (باشا) رجل فكر من النوع الأخير، ولعل تجربته في المحاماة متخصصا في كتابة المذكرات القانونية رسخت استعداده للتفاصيل (كان وقت تكليفه برئاسة الوزارة مشتغلا بكتابة مذكرة في قضية لشركة «شل» للبترول، وكانت المذكرة في مائة وثمانين صفحة - حجم كتاب). وليلة تكليفه بتشكيل الوزارة فإنه أغلق على نفسه باب مكتبه ست ساعات، لكي يكتب بنفسه بيان الحكومة.

كان الرجل يدرك أنه يحتاج إلى مناخ عام يقبله ويؤيده ويسمح له بأن يتقدم إلى الممكن من مهام وزارته، وهكذا فإنه طرح شعار «التطهير قبل التحرير»، ومنطقه أن التحرير عن طريق التفاوض لا ينجح إلا مع سلطة تثق في نفسها وهي تستمدها من ثقة الناس في صدق قيامها على القانون، ثم إن التطهير بمعنى استئصال الفساد مبدأ يقدر على جذب أفضل العناصر داخل حزب الوفد، خصوصا من أعضاء مجلس النواب (وكان «الهلالي» (باشا) بناء على تشاور مع «عبد السلام فهمي جمعة» (باشا) يظن أن بمقدوره «شد» ما بين مائة إلى مائة وعشرين نائبا من حزب الوفد) - يضاف إلى ذلك أنه إذا كان من الضروري إجراء حساب عن أسباب حريق القاهرة يبحث في مسئولية «فؤاد سراج الدين» - إذن فإن منطق التطهير هو وحده القادر على إجراء الحساب سواء بالتقصير أو بما هو أشد منه. (وفي الواقع فإن «نجيب الهلالي» (باشا) كان يكره «فؤاد سراج الدين» (باشا) ويُحَمِّلُهُ مباشرة مسئولية ما جرى للوفد ولرئيسه ولوزارته - وفي ذلك فإن «الهلالي» (باشا) كان قاسيا في حكمه بأكثر مما تحتمله طبائع الناس وظروفهم وحدودهم).

وتبين خطوط تفكير «الهلالي» (باشا) في رده على التكليف الملكي، حين يقول:

«إن وزارته سوف تبذل قصارى الجهد في تحقيق «الأماني الوطنية»، لكنه لابد من إدراك أن النجاح في هذه الأماني الوطنية يقتضي تطهير الحياة السياسية في مصر من الفساد، وإقرار الأمن والاطمئنان، وردع الإهمال أن يقوض الحياة العامة للبلاد، ومحاسبة المسئولين عن الانحراف بالفساد أو بالتستر عليه. وإذا لم يقع مثل هذا الحساب فإن الآثار سوف تكون فادحة على فكرة العمل العام، لأن بعض الساسة احترفوا السياسة وسيلة من وسائل الثراء تمارس بغير حياء، إلى درجة أصبحت فيها مقاعد مجلس النواب مواقع تُباع بالمزاد العلني كما تُباع العقارات، وتفشى الفساد والمحسوبية والاستغلال إلى حد الاستهتار بالقوانين وابتذالها».

وهكذا انفتحت الملفات وظهرت الخبايا والدفائن، وعندها اكتشفت وزارة «نجيب الهلالي» أنها دخلت إلى حقل الألغام، ولم يكن قد مضى على تشكيلها أكثر من ستة أسابيع.



ويوم ٢٦ إبريل ١٩٥٢، كتب السفير البريطاني السير «رالف ستيفنسون» تقريرا مفصلا إلى لندن (رقم ١٠٩/ ١٠١١/ ٥٢/٧٧) موجها خطابه إلى «أنتوني إيدن» وزير الخارجية - وقائلا:

سيدى

لي الشرف أن أضع تحت تصرفكم تلخيصا للأوضاع الداخلية في مصر وتطوراتها منذ تأليف وزارة «نجيب الهلالي» (باشا)، وبدء عملها يوم ٢ مارس:



نجيب الهلالي

١ - أن «علي ماهر» (باشا) أُقيل من الحكم، وجاء «الهلالي» بدلا منه، لأن الملك «فاروق» يريد رجلا لديه الجسارة على مواجهة الوفد. وكانت البيانات الأولى الصادرة عن رئيس الوزراء الجديد - وكذلك كان اختياره لوزرائه - يوحي للوهلة الأولى بأنه إعلان حرب على الوفد. وقد بدأ «الهلالي» (باشا) بتأجيل انعقاد مجلس النواب، وبنشر تقرير من النائب العام عن نتائج تحقيقاته في حوادث ٢٦ يناير (حريق القاهرة)، وفيها ما يضع جزءا من المسئولية على «فؤاد سراج الدين» (باشا)، كذلك قام وزير المالية والاقتصاد (الدكتور «زكي عبد المتعال») بإذاعة تفاصيل عدد من فضائح الفساد المالي تمس قرينة «النحاس» (باشا) - وفوق ذلك فإن الحكومة قامت بإلغاء مئات من التعيينات والترقيات الاستثنائية التي منحتها حكومة الوفد لأنصارها ورجالها الذين جاءت بهم إلى السلطة ودفعتهم إلى أكبر الوظائف باعتبارهم «موضع ثقة».

٢ - ويوم ١٥ مارس أعلن «الهلالي» (باشا) عن إجراءات للتحقيق في تصرفات وزراء الوفد وأنصاره، وحاول الوفد تخويف الوزارة بالدعوة إلى إضرابات في الجامعة، لكن «الهلالي» (باشا) قابل ذلك بحزم، وقام يوم ١٧ مارس بتحديد إقامة «فؤاد سراج الدين» (باشا) في عزبة يملكها في بلبيس، كما قام بتحديد إقامة «عبد الفتاح حسن» (باشا) في قريته وسط الدلتا، وهكذا نجح «الهلالي» في حصر تأثير أقوى رجلين في «عصابة» التحريض الوفدية. وظلت الأحوال العامة هادئة بعد تلك الإجراءات، بما أظهر أن الحكومة تملك العزم والصرامة الكافية، لوضع حزب الوفد في حدوده وكشفه، وبدا أن عددا كبيرا من الوفديين يرتبون للخروج من الحزب، راغبين في ترك سفينته الغارقة. (وبالفعل فإن أكثر من خمسين نائبا وفديا بينهم «عبد السلام فهمي جمعة» (باشا) رئيس المجلس، أعلنوا ثقتهم بالهلالي (باشا) وتوجه «جمعة» (باشا) بنفسه إلى مكتب رئيس الوزراء وقضى معه أكثر من ساعتين صرح بعدها بأنه يعرف صلابة «الهلالي» (باشا) ويثق في حُسن سياسته.

٣ - وفي هذه المرحلة فإن «نجيب الهلالي» وجد نفسه تحت ضغوط شعبية تطالبه بأن لا يغفل قضية «الأماني الوطنية» (بشعار التطهير قبل التحرير)، وهكذا فإنه عاد يلح على أهمية الوصول إلى تسوية سريعة لمشكلة العلاقات المصرية - البريطانية، وظنه - مثل غيره من سابقيه - أنه يستطيع استغلال أي نجاح يحققه معنا في تدعيم سياسته الداخلية. وعندما بدأ اتصالاته مع سفير حكومة صاحب الجلالة (أي مع السير «رالف ستيفنسون») - فإنه تبين لأول مرة فيما يظهر أن المسائل أصعب بكثير مما قدر (رغم أنه دعا الدكتور «محمد صلاح الدين» قبل مقابلته مع السفير «رالف ستيفنسون» واستمع إليه صباح يوم كامل)، وهنا فإن «الهلالي» رأى أن يتمهل في تنفيذ برنامجه الداخلي، وإلا اتهم بأنه اختار الطريق السهل بضرب الخصوم الداخليين - والبعد عن الطريق الصعب

بمواجهة الأعداء الخارجيين. وعندما ظهر تردده ـ قرر المستعدون للخروج من الوفد أن الانتظار أسلم، كما أن عددا من قيادات الحزب بدءوا يستعيدون الثقة بأنفسهم وبزملائهم ـ على الأقل بمنطق التضامن حتى «لا يؤكلوا واحدا بعد الآخر».

٤ ـ وقد اضطر «الهلالى» بعد ذلك إلى مد العمل بالأحكام العُرفية بمقتضى مرسوم ملكى قبل انتهاء الأجل يوم ٢٦ مارس، لأنه لم يكن يستطيع أن يذهب إلى مجلس النواب ويطلب مد العمل بالقانون فترة أخرى، وهنا فإن «الهلالى» لم يغضب الوفديين فقط، وإنما أغضب غيرهم من الجماعات الممثلة في البرلمان وأهمهم المستقلين.

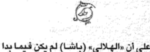
٥ ـ ولمواجهة النقد الموجه ضده فإن «الهلالى» (باشا) أعلن استعداده لإجراء انتخابات جديدة وعندها فإنه أدخل نفسه إلى فخ ـ لأنه لا يستطيع أن يمنع الوفديين من دخولها، ولا يستطيع أن يمنعهم من الفوز بجزء كبير من المقاعد البرلمانية فيها، وهم مسلحون بأموال وفيرة، وبتنظيمات لا تزال فاعلة، وبأنصار في الإدارة مازالوا في مواقعهم، وسوف ينشط هؤلاء جميعا إذا أحسوا أن هناك فرصة أمام الوفد. ومما قوى من أعصاب الوفديين أن الإخوان المسلمين أعلنوا أنهم لن يدخلوا الانتخابات، وهنا أعلن الوفد أنه سوف ينزل بمرشحين له في كل الدوائر الانتخابية.

وبان الفخ الذى دخل إليه «الهلالى» بقدميه حين بدأت بعض الصحف (الموالية للقصر) تتساءل عن ما إذا كان «الهلالى» (باشا) قد جاء إلى الحكم لكى ينتحر سياسيا ويفتح الطريق لعودة الوفد.

٦ ـ إن مركز «الهلالى» (باشا) راح يضعف، خصوصا وأنه (مثل «على ماهر» قبله) لا يملك قاعدة قوة مستقلة، ولا شعبية كاسحة، وحتى أحزاب الأقلية لم تعد معه، لأنها اعتبرت وزارته مقدمة لعودتها هى إلى السلطة ـ مادام القصر لا يقبل بعودة الوفد.

وعلينا أن نتذكر أن رؤساء الوزارات في مصر هم بالمعنى الحقيقى (وليس الرمزى) خدما للملك (كما ثبت بطرد «النحاس» (باشا) مرة أخرى يوم ٢٧ يناير الأخير) ـ والقاعدة الراسخة هنا هى القاعدة المعمول بها قبل الثورة الفرنسية والتى تقول «Le Roi peut trouver des Ministres» (أى أن الملك بمقدوره دائما أن يجد وزراءً حين يشاء).

٧ ـ وكذلك فإنه مرة أخرى يبدو أن «الهلالى» سوف يعود إلينا طالبا فرصة تدعم موقفه، فإذا لم يجد مثل هذه الفرصة فإن عليه أن يقبل هزيمته أمام حقائق أكبر!».



على أن «الهلالى» (باشا) لم يكن فيما بدا من تصرفاته مستعدا لقبول الهزيمة، وهكذا فإنه راح من بداية شهر أبريل يكثف الحملة على الفساد، واعتقاده أنه يستطيع بواسطتها أن يحقق اختراقا كبيرا، بعد أن أقنعه الدكتور «زكى عبد المتعال» بأن «الحوت الكبير في محيط السياسة» المصرية وهو «أحمد عبود» (باشا) دخل في الشبكة وأنه على وشك اصطياده فعلا، وبما يكفل محاكمته ووضعه وراء قضبان السجن.

وفى ظاهر الحوادث ما يوحى بأن «الهلالى» (باشا) ـ ركز جهدا كبيرا في اصطياد «أحمد عبود» (باشا) في تلك الفترة الحرجة من الحياة القصيرة لوزارته. وكان تقديره أنه إذا وقع «أحمد عبود» ـ فسوف يقع وراءه بالضرورة «فؤاد سراج الدين»، وأهم من ذلك فإن الدعم المالى الهائل للوفد سوف تجف ينابيعه عند المصدر، وإذا توقف تدفق المال فإن الوفد سوف يصل إلى الانتخابات العامة ـ المُقَدَّر لها شهر أكتوبر القادم ١٩٥٢ ـ وهو مشلول بالإفلاس!

وفى اندفاع «نجيب الهلالى» (باشا) إلى الإمساك بعبود (باشا) متلبسا بتسخير الدولة في خدمة مصالحه، فإن بعض وزرائه (وأولهم الدكتور «زكى عبد المتعال») نسوا أنفسهم واجتازوا الخطوط الحمراء وهم لا يعرفون!

والسبب أن مطاردة «أحمد عبود» (باشا) ـ قادت تلقائيا إلى صديقه ورجله الدائم «حسين سرى» (باشا) ـ ثم إن «أحمد عبود» و«حسين سرى» معا قادا إلى ثنائى آخر أكثر أهمية، وهو ثنائى «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس»، ومعنى الوصول إلى الاثنين، أن وزارة «الهلالى» دخلت إلى حقل ألغام. ومع أن «الهلالى» (باشا) تلقى أكثر من تحذير، أحدها من رئيس الديوان الملكى «حافظ عفيفى» (باشا) ـ فإن الوقت كان متأخرا. وطبقا لنجيب الهلالى (باشا) نفسه فإنه «لم يكن في مقدورى ولا مقدور غيرى أن يقف وسط حقل ألغام ويفرز ويقول هذه ألغام وفدية يمكن تفجيرها، وهذه ألغام ملكية لا يمكن المساس بها». ■

٤ «ألعاب الوقت الضائع!»

■ ■ ظن «نجيب الهلالى» (باشا) حتى وقت أوائل شهر مايو أن بإمكانه إنقاذ الملك «فاروق» من حاشية السوء التى تحيط به، وتدفع مستقبله ومستقبل العرش إلى المنحدر الخطر، وانتهز فرصة عيد جلوس الملك «فاروق» (مايو ١٩٥٢)، وأقام حفل استقبال في «قصر الزعفران» خلع فيه على الملك لقب «منقذ البلاد وراعى مستقبلها».

....

....

[وأحس «نجيب الهلالى» (باشا) أن ما سمعناه منه في قصر الزعفران لم يستثر حماستنا، وكذلك قال لنا صباح اليوم التالى ونحن نتناول طعام الإفطار معه (الدكتور «محمود محفوظ» والأستاذ «نبيل الهلالى») ـ وحتى قبل أن نسأله «إن بعض المسائل تقتضى حكمة الشيوخ قبل حماسة الشباب، وهو في تعامله مع الملك يشعر أن «فاروق» مجنى عليه وليس جانيا، وحتى إذا لاحت شواهد تقول بالعكس، فإن تغليب حُسن الظن كفيل بإحداث يقظة ضمير تدفع إليها على الأقل ـ رغبته في المحافظة على العرش!»].

....

....

والحاصل أن «نجيب الهلالى» (باشا) لم يكن داريا بما يجرى وراء ظهره، وما شارك فيه بعض وزرائه، فقد راح القصر في تلك الأيام يسمع كلاما كثيرا عن عجز رئيس الوزراء وتردده، وكرر الملك أكثر من مرة أمام «حسن يوسف» (باشا) ـ وربما آخرين غيره ـ «أن الوزارة موش نافعة»، على أنه كان حائرا فيما يمكن عمله، فهو يريد هذا الصيف إجازة طويلة في أوربا وقد بدأ يعد لها، خصوصا «وأن هذه السنة كلها كانت مقرفة» ـ على حد وصفه!

وتصور الملك على الأرجح أنه ليس في مقدوره تغيير الوزارة قبل سفره، لأن تغيير الوزارة يقتضى منه أن يتابعها شهرين أو ثلاثة قبل أن يطمئن ويترك في يدها «شئون البلد». وإذا انتظر هذه المدة، فمعنى ذلك أنه سوف يكون مضطرا لقضاء الصيف في مصر (فهو الآن شهر مايو وإذا جرى الانتظار شهرين أو ثلاثة ـ والنتيجة مجهولة ـ فمعنى ذلك أن الصيف كله ضاع) ـ وإذا قرر الملك أن يؤجل الحسم إلى ما بعد عودته في سبتمبر (كما فعل في السنة السابقة)، فمعنى ذلك أنه سيعود ليجد أن الانتخابات البرلمانية الموعودة في شهر أكتوبر بدأت فعلا وسوف تدهمه نتائجها.

ولم يكن الملك متأكدا من الطريقة التى سوف تتصرف بها وزارة «الهلالى» (باشا) في ملفات التحقيقات المتشعبة، والتى اقتربت أكثر من اللازم من رجاله الموثوقين وبالذات: «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس». ثم أضيف إلى تلك الهموم أن محاولة جرت لاغتيال «حسين سرى عامر» (قائد سلاح الحدود ورجل القصر في الجيش ومرشحه الذى تضافر شباب الضباط على إسقاطه في انتخابات مجلس إدارة نادى الضباط) ـ ومع أن محاولة اغتيال «حسين سرى عامر» فشلت بسبب يقظة حرسه الذى رد على نيران المهاجمين بسرعة، فإن مجرد محاولة الاغتيال (على خلفية ما جرى في انتخابات نادى ضباط الجيش) أثار توجسه.

ولعدة أيام راح الملك «فاروق» يفكر في اقتراح بديل تقدم به إليه الدكتور «يوسف رشاد»، مؤداه الاستغناء عن وزارة «الهلالى» وتشكيل حكومة أمن يدخل فيها بعض العسكريين ويرأسها وزير الداخلية «أحمد مرتضى المراغى»، وهو رجل ورث الولاء للقصر عن والده (الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر القوى) ـ ثم إن «مرتضى المراغى» رجل حازم بدليل قبضته الحديدية التى استطاعت وقف نار الفتنة بين «العرب الهوارة» وبين «الفلاحين الصعايدة» في محافظات مصر الجنوبية بعد أن نشبت معارك قتل وثأر بين الفريقين طالت سنوات.

ورأى «يوسف رشاد» وآخرين (انضم إليهم «كريم ثابت» (باشا)) ـ أن وزارة أمن تحزم وتضبط ـ تحقق للملك عدة أهداف:

١ ـ تضع على الرف مؤقتا وبطبيعة الحال مسألة العلاقات بين مصر وبريطانيا.

٢ ـ تعفى الملك من كل الأحزاب ومن كل الساسة التقليديين لأن الجميع فقدوا أى كفاءة لديهم وأى اعتبار كان لهم.

٣ ـ تضبط الأمور ولو على الأقل لفترة انتقال تعطى الملك فرصة للتفكير فيما هو أبعد من موعد الانتخابات البرلمانية القادمة!

٤ ـ ومعنى ذلك أن الصيف القادم في ظل حكومة عسكرية مسيطرة ـ تتيح للملك إجازته في أوربا مطمئنا ـ واثقا ـ وسعيدا.

٥ ـ إن ذلك عندما يحدث سوف يقنع كل الناس في الداخل وفى الخارج على السواء أن الملك «فاروق» سيد الموقف في مصر والقادر على أى ظرف وكل حال!



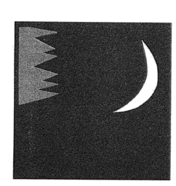
والمدهش أن وزير الداخلية «أحمد مرتضى المراغى» أخذ يمهد نفسه في ذلك الوقت بادئا بـ: «كيرميت روزفلت» مسئول مكتب المخابرات المركزية في الشرق الأوسط، وكان دائم التردد على القاهرة تلك الأيام، وقد استطاع أحد أصدقاء الطرفين (الصحفى الشهير الأستاذ مصطفى أمين) أن يرتب ثلاث مقابلات بينهما في الفترة ما بين ١٥ فبراير وحتى منتصف أبريل، وكان «المراغى» عضوا في وزارة «على ماهر» ثم في وزارة «نجيب الهلالى».

وأحست السفارة الأمريكية (وهى الممثل الرسمى للحكومة الأمريكية في مصر) أنها لا يصح أن تبقى بعيدة عن مراكز القوة (وتترك الساحة لوكالة المخابرات المركزية)، وكذلك اتصل السفير الأمريكى «جيفرسون كافرى» بوزير الداخلية بنفسه يسمع منه مباشرة بدلا من أن يقرأ عنه بالوساطة نقلا عن «كيرميت روزفلت»، وحدث اللقاء وكتب «كافرى» تفاصيله في تقرير إلى واشنطن جاء فيه:

لقد أبلغنى الوزير (مرتضى المراغى) أنه إذا لم يتوصل «نجيب الهلالى» (باشا) إلى حل يُرضيه مع الطرف البريطانى، فسوف يكون عليه أن يستقيل. وفى هذه الحالة فإن «المراغى» سوف يتسلم زمام الأمور بنفسه «Will take over himself» وسوف يشكل حكومة إدارية قوية، ويعلن إلغاء الانتخابات العامة المقررة في أكتوبر، ثم يعطى للطرف البريطانى فترة سماح مدتها ما بين شهرين أو ثلاثة شهور (مهلة صيف كافية) ـ للتقدم باقتراحات مقبولة تغطى الفجوة بين البلدين، وإذا لم تستجب الحكومة البريطانية فسوف يكون عليها أن تواجه ثورة يقوم بها الشعب المصرى».

وكان تعليق السفير الأمريكى في ختام رسالته إلى واشنطن: «إن ذلك الاقتراح الذى يجىء بالمراغى (باشا) ديكتاتورا على رئاسة الوزراء واحدا من

الساعة تدق منتصف الليل!



لم يكن الملك متأكدا من الطريقة التي سوف تتصرف بها وزارة «الهلالي» (باشا) في ملفات التحقيقات المتشعبة، والتي اقتربت أكثر من اللازم من رجاله الموثوقين وبالذات: «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس».. ثم أضيف إلى تلك الهموم أن محاولة جرت لاغتيال «حسين سري عامر» (قائد سلاح الحدود ورجل القصر في الجيش ومرشحه الذي تضافر شباب الضباط على إسقاطه في انتخابات مجلس إدارة نادي الضباط)

اقتراحات «الفرصة الأخيرة» الطائرة في الهواء لمواجهة الأزمة في مصر!».

وسمع السفير البريطاني في القاهرة بالمقابلات التي كانت تجري بين أطراف أمريكية (مخابرات ودبلوماسيين) وبين «مرتضى المراغي»، وأحس أن واجبه يفرض عليه (بدوره) أن يسعى ويقابل وزير الداخلية، وأمكن ترتيب المقابلة فعلا، وكتب السير «رالف ستيفنسون» إلى وزير الخارجية البريطاني «أنتوني ايدن» تقريرا (٨٧١/ ١٥٥/ ١٠١٨) يقول فيه:

«قال لي «المراغي» إنه لا يتوقع أن «نجيب الهلالي» (باشا) سوف يظل في رئاسة الوزارة طويلا، وعلى وجه اليقين فإن عمر وزارته لن يتعدى شهر أكتوبر القادم، وعندما تذهب وزارته فسوف تحل محلها «وزارة كفاءات» تحظى بتأييد بعض الشخصيات السياسية. ومن المستحسن أن تقوم هذه الوزارة بعملية باهرة Spectacular مثل توزيع بعض أراضي الدولة على نحو ما حدث في إيران أخيرا، كذلك يجب أن تتوافق هذه العملية مع إصلاح إداري محسوس».

قال لي «المراغي»:

«إنه كوزير للحربية والبحرية يعتبر نفسه مسئولا عن الروح المعنوية للقوات المسلحة، وهو يشعر أن هذه القوات في حالة إحباط لأنها تعاني نقصا شديدا في المعدات والأسلحة، وذلك يجعل الضباط يتكلمون، ويتجه كلامهم بالضرورة إلى أحوال السياسة.

وقلت للمراغي: «إنني سوف أفضي له بسر يعلمه الملك «فاروق» ويعلمه رئيس الديوان «حافظ عفيفي»، وهنا أطلعته - على وعد منه بالكتمان - بذلك العرض الذي أقره (رئيس هيئة أركان الحرب الإمبراطورية) اللورد «ألكسندر» (البرقية رقم ٦ - ٨ - الفقرة ٦)، والذي أبدينا فيه الاستعداد لتقديم بعض الأسلحة إلى الجيش المصري».

قلت للمراغي: «إن رئيس الوزراء «نجيب الهلالي» لا يعرف بالعرض».

تحمس «المراغي» وقال لي: «إن تقديم بعض السلاح - حتى ولو كان في حجم رمزي - إلى الجيش المصري يمكن أن يكون له الآن مفعول السحر».

أضاف السفير البريطاني في برقيته ملاحظة اعتراضية قال فيها:

«من المهم أن نلاحظ أن هذه اللهفة في الحصول على أي سلاح معناها أن المحاولات المصرية التي قام بها المصريون لشراء أسلحة أوربا قد باءت بالفشل، رغم الآمال التي علقوها عليها، والجهود التي بذلوها في هذا السبيل».

[ثم عاد «السير رالف ستيفنسون» إلى سياق تقريره:

قال لي «المراغي»: «إنه واثق من إمكانية إعادة الاستقرار إلى مصر»، وأضاف أنه «فوجئ بحجم الأموال المصرية التي خرجت من السوق المصرية بعد أحداث ٢٦ يناير، ورأيه أن الحزم هو الأسلوب الوحيد الذي تعود به الثقة، وهنا انتهزت الفرصة وسألته عن التعويضات المستحقة للرعايا البريطانيين نتيجة خسائرهم في ٢٦ يناير». وقال لي الوزير: «إنني أستطيع الاطمئنان إلى دفع هذه التعويضات، وسألته عن التحقيق في حريق القاهرة ونتائجه». وكان رده «أن أحمد حسين سوف يُعدَم شنقا»، وأنه هدد كبار معاونيه في وزارة الداخلية بأنهم إذا لم يقدموا له الأدلة المطلوبة لإدانة «أحمد حسين» فسوف يضعهم في القفص معه، وساعتها ظهرت الأدلة - كذلك قال لي!».

وفي برقية لاحقة أضاف السفير «أنه يبدو الآن أن شهور الصيف سوف تكون مليئة بالمناورات السياسية، وأن شيئا لن يتم حسمه قبل شهر أكتوبر».

وتظهر البرقية (١٥٦/ ١٠١٨) في ملفات الخارجية البريطانية وعليها تأشيرة بخط يد «روجر آلن» (وكيل الوزارة المختص بشئون الشرق الأوسط) يقول فيها: «يظهر أن شهور الحر الشديد في مصر تغري كل الناس على التزام الظل أو الهرب إلى جو البحر».

ومعنى ذلك أن لندن أصبحت على اعتقاد بأن الملك سوف يستبقي ولو على مضض وزارة «نجيب الهلالي»، وفي الغالب أنه بهذا الاعتقاد صرحت وزارة الخارجية البريطانية لسفيرها في القاهرة أن يقوم بإجازته السنوية في اسكتلندا ابتداءً من أول شهر يوليو.

وكان ذلك أيضا ما أغرى الملحق العسكري البريطاني البريجادير «جولبرن» - بعد التشاور مع الجانب السياسي في سفارة القاهرة - أن يرد بالنفي على تساؤل طرحته القيادة العسكرية البريطانية في «فايد».

فقد حدث أن الجنرال «أرسكين» والذي كان على علم بما يجري في القاهرة من مناورات سياسية بعث يسأل:

«هل يقتضي الضعف الظاهر في الوضع السياسي المصري وضع خطة «روديو» (قيام الجيش البريطاني باحتلال دلتا النيل والقاهرة) - وهل هناك احتمالات لتجدد الاضطرابات في العاصمة المصرية على نحو يماثل ما جرى في ٢٦ يناير ١٩٥٢؟».

وكان رد البريجادير «جولبرن» - وبموافقة من السفير السير «رالف ستيفنسون» قوله:

«ليس هناك من وجهة نظرنا ما يقتضي أي درجة من درجات رفع الاستعداد هنا في القاهرة، ونحن نرى أن رفع درجة الاستعداد قد يؤدي إلى رد فعل عكسي لأنه يثير شك السلطات المصرية التي يبذل ممثلوها وموظفوها في المحافظات كل جهدهم لضبط الأمن في المنطقة بالتعاون معنا. وإذا بدا أننا نستعد لعمل عسكري، فإن ذلك قد يؤدي إلى ترددهم في أداء أعمالهم. ومما نراه هنا فإن تكرار ما وقع في القاهرة يوم ٢٦ يناير الأخير ليس احتمالا مرجحا في الظروف الراهنة، ومن المستحسن أن نترك المسئولين عن الجيش المصري في القصر وفي الوزارة يرسخون علاقاتهم مع الجيش ويستأصلون عناصر الشغب فيه دون تدخل منا في هذه العملية.

والأرجح أن الموعد المحتمل الذي يصح لنا فيه مراجعة إجراءاتنا هي ما بعد فصل الصيف الذي يسترخي فيه كل شيء في القاهرة!».



كان الأمير «محمد علي» (أكبر أمراء أسرة «محمد علي» سنا - وولي العهد إلى أسابيع قليلة، قبل أن ينقل الملك «فاروق» ولاية العهد منه إلى طفله الوليد «أحمد فؤاد») - على وشك أن يقوم بإجازة الصيف، وكانت لندن محطته الأولى، ورأى السير «رالف ستيفنسون» من باب الأدب أن يودعه بزيارة شخصية، ويسمع منه بالمناسبة آخر ما لديه عن الأوضاع المصرية.

وبالفعل قام السير «رالف ستيفنسون» بزيارة إلى قصر المنيل، وقضى مع الأمير أكثر من ساعة، ثم كتب مذكرة بعنوان «تسجيل حديث» (٥٢٤/ ٣٥/ ١٠١١):

«ذهبت لزيارة الأمير «محمد علي» قبل سفره إلى لندن، وقد وجدته في حالة زئير Roaring، وكان لاذعا في تقييمه للأحوال في مصر. وذكر لي صراحة «أنه قابل «نجيب الهلالي» ونصحه أن يتمهل في المفاوضات معنا ولا يكثف ضغوطه في طلب جلاء القوات البريطانية من مصر»، والأولى من ذلك أن يركز على قضية زيادة الفساد في البلاد مع تدني الجهاز الإداري للدولة.

وقال لي الأمير «إنه يعرف على وجه اليقين أن الجيش ممزق بانقسامات شديدة داخله، وأن هناك خطر ثورة من جراء أعمال التحريض التي قام بها الوفد في الشهور الستة الأخيرة».

أضاف الأمير «إنه نصح رئيس الوزراء باستعادة قدر معقول من التماسك في البلد قبل أن يلح على جلاء القوات البريطانية من مصر».

حاولت أن أستوضح الأمير عن رد فعل رئيس الوزراء على ما قاله له، ولكنه قفز على سؤالي، وواصل حديثه بـ: «إنه سوف يخبرني شريطة أن أقسم له على الكتمان، فقد أفضى إليه وزير الداخلية «مرتضى المراغي» بأنه أبلغ الملك «فاروق» بكل وضوح أن الثورة سوف تندلع في مصر في ظرف شهور إذا حصل جلاء القوات البريطانية عن الأراضي المصرية».

وحاولت مرة أخرى أن أسأل الأمير عن رأي وزير الداخلية في رد فعل الملك «فاروق» إزاء ما سمعه منه، وما إذا كان سوف يعدل من سياساته على هذا الأساس؟

ورد الأمير «بأن «مرتضى المراغي» كان مهتما بأن يصل تحذيره إلى الملك».

يختم سير «رالف ستيفنسون» مذكرته



مرتضى المراغي

«تسجيل حديث» بقوله: «بقية كلام الأمير تركزت كلها حول كراهيته التقليدية للملك «فاروق»، وأطرف تعليق سمعته منه - قوله:

«إن «فاروق» نزع مني لقب ولي العهد، وأنا سعيد أنه لن يحصل على لقب «ملك السودان» (بفكرة وضع السودان تحت التاج المصرى) - لقد حُرم من اللقب الذى كان يحلم به - كما حُرمت من اللقب الذى كان عندى!».

وهكذا فإن الملك «فاروق» كانت لديه مطالب متعارضة:

يرى أن وزارة «نجيب الهلالى» «غرقت في الورق» (على حد قوله) - ويفكر جديا في تغييرها، لكنه لا يعرف كيف يغير؟ - ولا بمن؟ - ولا متى؟ - وقبل الصيف أو بعده، وخصوصا أن أمامه مشروع إجازة في أوربا يحلم بها. والمدهش أن حلم الملك بإجازة في أوربا قاده دون أن يتنبه إلى منزلق وقع به في حفرة لم يستطع أن يخرج منها، حتى غادر مصر إلى أوربا ملكا مخلوعا عن عرشه، وليس ملكا في إجازة صيف!

«أغرب من الخيال!»

كانت قصة طرد وزارة «نجيب الهلالى» (باشا) أغرب من الخيال، ولذلك فقد يكون من الأنسب نقل تفاصيلها الكاملة من الوثائق البريطانية. (ومع أن الوثائق الأمريكية والفرنسية تعرضت للقصة وروت الكثير عن وقائعها، فإن الوثائق البريطانية تبدو أكمل وأدق لسبب واضح، وهو أن مكتب وزير الخارجية البريطانية ألح في طلب كل المعلومات التى يمكن جمعها حول الموضوع).

والملف البريطاني بشأن قصة إقالة «الهلالى» متضخم، تتكدس داخله مجموعة أوراق أولها برقية عاجلة (أولوية - سرى) من المكتب الخاص لوزير الخارجية «أنتونى إيدن» إلى السفير البريطاني في القاهرة:

«بالإشارة لبرقيتكم رقم ٩٨٨، يطلب المكتب الخاص لوزير الخارجية ملفا كاملا بكل الوقائع السياسية والمالية التى أدت إلى استقالة وزارة «الهلالى»».



ويواصل مكتب وزير الخارجية طلبه فيقول:

«نحن نتصور أنه في مرحلة من المراحل لابد من نشر شيء عن الوقائع، لأن ما نسمعه عنها لا يصح أن يظل مكتوما. نرجوكم أن تحددوا في تقريركم ما الذى ترونه غير قابل للنشر الآن، وأيضا مقترحاتكم بشأن حماية المصادر».

وكذلك أعدت السفارة البريطانية في مصر بجهد جماعى شارك فيه عدد من الدبلوماسيين والعاملين فيها ملفا خاصا يبدأ بتقرير يلخص الوقائع ويربطها ببعضها، ويمضى التقرير (١٤٥٣/ ١٤١):

«لابد من التحفظ بأنه سوف يمر وقت قبل أن نتمكن من جمع كل المواد الكافية لإعداد الملف الذى طلبتموه بشأن ملابسات سقوط وزارة «الهلالى»».

وفيما نعرفه الآن فإن نهاية وزارة «الهلالى» وقعت نتيجة لمؤامرة بين «مجموعة في القصر» وبين المليونير «أحمد محمد عبود» (باشا).

وملخص الوقائع أمامنا الآن على النحو التالى:

١ - أن حكومة «الهلالى» راحت تطالب «عبود» (باشا) بضرائب متأخرة مقدارها خمسة ملايين جنيه، ناشئة عن أرباح ورسوم إنتاج مستحقة على شركة السكر التى يملكها. وكان واضحا أن وزير المالية والاقتصاد في وزارة «الهلالى» وهو الدكتور «زكى عبد المتعال» مصمم على أن تتقاضى الحكومة مستحقاتها من «عبود» بالكامل، وإلا حجزت على الشركة حتى تستوفى حقوقها. وبالطبع فإن «عبود» أحس بالخطر، وراح يشكو أن الوزارة تريد أن تستولى على شركته وتُصادر مصانعه، وذلك يسبب له مشاكل مالية كبرى لا تتأثر بها مصالحه في شركة السكر وحدها، وإنما في غيرها كذلك. والدليل أن أسهم شركة السماد التى يملكها فقدت أخيرا جزءا كبيرا من قيمتها، وهذا معناه في نظر «عبود» أنه واقع في مرمى نيران متقاطعة، من حكومة تطارده، في ظروف اقتصادية صعبة بالنسبة للجميع.

وفى الوقت نفسه فإن الضغط على «عبود» بهذه الشدة، جعل أصدقاءه من وزراء الوفد (وغيرهم) يشعرون بالقلق من أن التحقيق مع «عبود» يكشف دفاتره وأوراقه، مما يفضح وقائع تمسهم، ويؤدى إلى توجيه اتهامات محددة لهم.

٢ - أن «أحمد عبود» (باشا) وبتأثير قلقه من ضغوط الوزارة عليه، رأى أن يُفاتِح القصر باستعداده لدفع مليون فرنك سويسرى (ما يساوى وقتها مليون جنيه) - إذا خرج «نجيب الهلالى» من الوزارة، وأفضى «عبود» (باشا) بهذا العرض لصديقه «إلياس أندراوس» (باشا) بعد أن بلغه أن الملك «فاروق» طلب من «إلياس أندراوس» (مستشاره للشئون المالية) أن يوفر له مبلغ مليون فرنك سويسرى لتغطية مصاريف إجازته المُقبِلة في أوربا (حتى لا يسحب من أرصدة الخاصة الملكية).

وقد تناقضت المعلومات التى بلغتنا في هذا الشأن بين تأكيد بأن «عبود» هو الذى بدأ وعرض المبلغ - وتأكيد مقابل بأن «أندراوس» هو الذى طلبه من «عبود» «في مقابل شطب ضرائبه»!

وقد بلغنا كذلك من مصدر موثوق أن عملية جس النبض بشأن الصفقة بدأت عندما التقى «عبود» (باشا) مع كل من «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس» في أوربا بداية هذا الشهر (يونية ١٩٥٢).

وذلك يفسر لنا ما نقله إلينا أحد المصادر على لسان «عبود» «عن ثقته أن وزارة «الهلالى» في طريقها إلى «الخروج»، لتحل محلها وزارة لا تطالبه بمتأخرات ضرائب، وإنما على العكس تقدم دعما لشركاته التى تعانى من آثار حريق القاهرة».

٣ - أنكم تعلمون أن مبلغ المليون فرنك سويسرى الموجه إلى حساب خاص في «جنيف» تم رصد تحويله بواسطة غرفة المقاصة في نيويورك، وقامت الحكومة الأمريكية بالإخطار عنه بناء على تأكيد إضافى حصل عليه الوزير الأمريكى المفوض في سويسرا، وكذلك تم رصد تحويلات مفتوحة بمبلغ ٢٥٠ ألف جنيه إلى حسابات باسم «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس» و«أنطون بوللى».

ويظهر أن خبر تلك التحويلات المفتوحة من حساب «عبود» إلى حسابات «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس» و«أنطون بوللى» - وصل إلى «نجيب الهلالى» عن طريق الدكتور «زكى عبد المتعال» الذى عرف به من «شخصية بنكية».

وكان الدكتور «زكى عبد المتعال» قد شكا أكثر من مرة ولرئيس الوزراء، أن «أنطون بوللى» (بك) يطلب تحويل مبالغ كبيرة بالدولار إلى سويسرا، وأن تحويلها يتم إلى حساب خاص فى «لوزان»».



فاروق



عبود



الهلالى

٤ - وطلب «الهلالى» مقابلة الملك «فاروق» وأخذ معه مذكرة بما لديه عن تحويلات «عبود» باسم «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس» و«أنطون بوللى»، وعرض عليه الموضوع (ووقتها لم يكن «نجيب الهلالى» يعرف أن الملك شخصيا على علم بالصفقة ومشارك فيها - !! - وحتى عندما نبهه الدكتور «زكى عبد المتعال» إلى هذا الاحتمال فإن «الهلالى» استبعده غير مصدق).

وقد طلب «الهلالى» من الملك - ترتيبا على ما عرضه عليه - أن يتم الاستغناء عن خدمات الثلاثة: «كريم ثابت» - «إلياس أندراوس» - «أنطون بوللى»!

ورفض الملك طلب رئيس وزرائه، بحجة أن هذه الاتهامات مجرد شائعات، وأن المعلومات الخاصة بهم مُلفقة، وأن هؤلاء الثلاثة الذين يطالب بإخراجهم أخلص الناس في خدمته، ولا يستطيع أن يستغنى عنهم!

وكان على «الهلالى» أن يقرر لنفسه ما يريد، وكان قراره أن يستقيل، وقد علمنا أنه أبلغ الملك بعزمه على «أنه في شعوره بأن ثقة جلالة الملك اهتزت - لم يعد يجد أمامه تصرفا لائقا غير أن يضع استقالته تحت تصرف «جلالته»!



كان «نجيب الهلالى» (باشا) بعد مقابلته للملك رجلا في محنة حقيقية.

■ من ناحية - كذلك قال بنفسه وسمعت منه مع الدكتور «محمود محفوظ» - «فإنه كان سعيدا أن يرفع عن كتفيه هذا الحمل الثقيل، وهو لم يكن يريده من البداية، لكنه اضطر على عكس «فكره» أن يقبل متصورا أنه يؤدى مهمة وطنية.

■ ومن ناحية أخرى «فإنه محزون ومغموم لا يتصور أن المسائل (دون تفاصيل) - وصلت إلى هذه الدرجة».

وطبقا لشهادة «حسن يوسف» (باشا) وكيل الديوان فإن «نجيب الهلالى» (باشا) خرج من مكتب الملك يسأل عن «حافظ عفيفى» (باشا) رئيس الديوان، ولم يجده هناك، وتوجه إلى مكتب وكيل الديوان يخطره «بأنه رفع استقالته إلى جلالة الملك، وأنه عائد إلى بيته يعد خطاب استقالته، ويبعث به إلى الديوان». وكان «حسن يوسف» يتابع الأزمة لكنه لم يتصور نهاية لها بهذه السرعة، وقد سأل «نجيب الهلالى» عن السبب الذى دعاه إلى تأزيم الأمور إلى هذه الدرجة وتقديم استقالته! وكان في استطاعته وهو رجل «قدير وحكيم»، وفى موقف «أخلاقى قوى» أن ينبه الملك إلى أن بعض رجال حاشيته يسيئون إليه، ورد «نجيب الهلالى» قائلا: «من الأفضل أن أقدم استقالة قبل أن يصلنى خطاب إقالة!».

ومع أن «حسن يوسف» نفسه كان من ذات الرأى فيما يتعلق بضرر الحاشية المحيطة بالملك عليه وعلى العرش، فإن «نجيب الهلالى» كان في حالة صدمة شديدة.

....

....

[وبعد ثلاثة أيام لقيته (والدكتور «محمود محفوظ» والأستاذ «فريد زعلوك») في بيته في الإسكندرية

الساعة تدق منتصف الليل!



رأى «أحمد عبود» (باشا) وبتأثير قلقه من ضغوط الوزارة عليه، أن يُفاتح القصر باستعداده لدفع مليون فرنك سويسرى (ما يساوى وقتها مليون جنيه). إذا خرج «نجيب الهلالى» من الوزارة، وأفضى بهذا العرض لصديقه «إلياس أندراوس» (باشا) بعد أن بلغه «أن الملك «فاروق» طلب من «إلياس أندراوس» (مستشاره للشئون المالية) أن يوفر له مبلغ مليون فرنك سويسرى لتغطية مصاريف إجازته المقبلة فى أوربا

(حى العصافرة) - وكنا نجلس في شرفة البيت، والشرفة بارزة على رأس منحنى يظهر قصر المنتزه قريبا منه، وقال «نجيب الهلالى» ونحن (باندفاع الشباب) نستثيره: «لو كنت واثقا أن تأثير السوء عليه من الحاشية لصارحته، ولو كنت متأكدا أن السوء من داخله لكان لى موقف آخر» (وسكت «الهلالى» (باشا)، ولم يحاول أحدنا أن يلح عليه أكثر].

....

....

وظل «حسن يوسف» في مكتبه، وراح يحاول أن يتصل بالملك تليفونيا، لكنه لم يستطع، وظل يكرر المحاولة على أمل أن يتمكن من «عرض وجهة نظر أخرى» قبل أن تصله الاستقالة المكتوبة من «نجيب الهلالى» (باشا) - وفى نفس الوقت فإن «حافظ عفيفى» (رئيس الديوان) الذى عرف بما جرى من «حسن يوسف»، جرب بدوره أن يتصل بالملك. وبعد أربع ساعات جاء «محمد حسن» (المكلف بالخدمة الشخصية لفاروق) يقول له: «إن مولانا سوف يطلب «معاليكم» بعد ربع ساعة». وفوجئ «حافظ عفيفى» (وفق ما رواه لنجيب الهلالى) فور أن رفع سماعة التليفون - بصوت «فاروق» يقول له «لا داعى لأن تتكلم في موضوع «الهلالى»، هو «وقع في الغلط» وأنا قبلت استقالته»، والموضوع الأهم الآن من يجيء بعده؟، واستطرد الملك يقول «خوجات المدارس والمحامين لا ينفعون في الظروف الحالية، ونحن في حاجة إلى «رجل جدع»، وأنا أفكر في «حسين سرى»..» ولم يستطع «حافظ عفيفى» أن يلزم الصمت، فقال للملك ما مؤداه «أنه يرجو ويتوسل أن يفكر «جلالة الملك» في أى مرشح آخر إلا «سرى» بالذات، لأن «سرى» - وكل الناس يعرفون - هو رجل «عبود» (باشا)، وإذا جاء في هذه الظروف وفى هذه الأجواء المليئة بالإشاعات والافتراءات، وبعد التحقيقات التى قام بها «زكى عبدالمتعال» في موضوع الضرائب المستحقة عليه، فإن ألسنة السوء لن تسكت».

ورد الملك قائلا: «ونحن مالنا» - ورد «حافظ عفيفى» بما معناه «استسماح مولانا بأن الرأى العام - وحتى السفارات الأجنبية كلها في البلد سوف تذهب في تفسير اختيار «سرى» (باشا) في هذه الظروف، إلى ما نحن في غنى عنه».

وانتزع «حافظ عفيفى» وعداً من الملك بأنه سوف يفكر، وعليه هو الآخر (حافظ عفيفى) أن يفكر، وإذا كان يعترض على «سرى» - فعليه أن يتقدم بمرشح بديل. واتصل «حافظ عفيفى» بحسن يوسف (وكيل الديوان) - قائلا له: (وفق شهادته) «يظهر أنه لا فائدة في مسألة «نجيب الهلالى» ولم يبق غير أن تتصل به للحصول على نص خطاب استقالته، وأن «يعدوا» في الديوان ردا مناسبا لإرساله إلى المكتب الخاص بطلب الموافقة. وطرح «حافظ عفيفى» أن المسألة العاجلة الآن هى مرشح بديل لرئاسة الوزارة جاهز لعرض اسمه على جلالة الملك لأنه قد يتصل للسؤال في أى وقت. (وطبقا لشهادته) فإن «حسن يوسف» (باشا) لا يتذكر أيهما (هو أو «حافظ عفيفى») هو الذى خطر له أولا اسم «بهى الدين بركات» (باشا).

كانت سمعة «بهى الدين بركات» (باشا) طيبة، كما أنه ظل محافظا على حيدته وسط تيارات متضاربة، وكانت قرابته بسعد زغلول - باعتبار أن زعيم الوفد الأكبر خاله، وأن «فتح الله بركات» (باشا) والده - وذلك يحيطه بنوع من الاحترام زاد منه أن الرجل كان قليل الكلام إلى درجة ملفتة (ولم يعرف كثيرون أن قلة كلامه كانت راجعة إلى ضعف سمعه لدرجة الصمم، وكان ذلك يجعله طويل الصبر على السماع لأنه لا يريد أن يرد على ما لم يسمع، كما أن كبرياءه لا تسمح له بأن ينبه جُلساءه إلى مشكلته).

وكان حزب الوفد هو المكان الطبيعى لرجل مثل «بهى الدين بركات»، لكن الرجل راكم في نفسه عداءً شديدا لحزب الوفد، لعل مبعثه أن والده وهو أقوى المرشحين لخلافة «سعد زغلول» بعد وفاته - سقط أمام «مصطفى النحاس» (باشا) بعد أن آثر الكبار في الحزب اختيار مرشح ظنوه ضعيفا يستطيع من يسبق منهم أن يسيطر عليه، وكانت الذريعة العلنية لكبار الوفديين «أن اختيار «بركات» رغم أنه الأصلح - قد يحول خلافة «سعد» إلى إرث عائلى».

وكذلك فشل «فتح الله بركات» (باشا) في الحصول على زعامة الوفد، كما فقد ابنه اهتمامه بالحزب، وظل ناقدا طول الوقت لزعمائه، معترضا باستمرار (في توتر مكتوم) على سياساتهم.

وكان هناك سبب آخر في اعتزال «بهى الدين بركات»، فهو رجل ثرى، ومالك أراض شاسعة، وقد تنبه قبل غيره من كبار المُلاك، فترك زراعة القطن واتجه إلى زراعة الفاكهة - وذلك جعله مستغنيا قادرا على التباعد عن السلطة!

وكان «حافظ عفيفى» (باشا) هو الذى بادر واتصل بالمكتب الخاص (محمد حسن) يطلب أن يوصله «بجلالة الملك» - وفى هذه المرة تحقق الاتصال على الفور.

وطبقا لرواية «حافظ عفيفى» لـ «نجيب الهلالى» «فإنه لم يظهر أن الملك فوجئ باسم «بهى الدين بركات»، فهو اسم تكرر طرحه في أكثر من أزمة وزارية كمرشح لوزارة مستقلة أو وزارة انتقالية»، وقد استمع الملك في هدوء إلى مبررات «الديوان» في عرض اسم «بهى الدين بركات»، وفى نهاية حديث تليفونى استغرق حوالى عشر دقائق، قال الملك «إنه سوف يفكر»، وفى ظرف نصف ساعة كان الملك بنفسه هو الذى طلب «حسن يوسف» (باشا) وسأله: «هل تظن أن «بهى الدين بركات» ينفع؟ وهل تعتقد أنه مستعد؟». وبالنسبة للسؤال الأول كان رد «حسن يوسف» «إن بركات ينفع بالتأكيد، وأما إذا كان مستعدا فذلك يصعب التحقق منه إلا إذا فوتح الرجل بناء على «توجيه من مولانا» ».



حافظ عفيفى

ورد الملك بما مؤداه «طيب اتصلوا به واسألوه». ثم أضاف «ولكن الظروف لا تحتمل إضاعة وقت، وإذا كان يستطيع أن يكون جاهزا ظهر غد بوزارة نوافق عليها، فأنا مستعد أن أقول له «تفضل لنرى شطارتك»!».

ومع أن ما سمعه «حسن يوسف» (باشا) كان أمرا ملكيا غريبا بمفاتحة رجل بتكليف وزارة في لحظة أزمة، فإن «حسن يوسف» لم يتوقف كثيرا ليتأمل، وإنما كان شعوره «ما صدقنا أن يوافق الملك على ترشيح «بهى الدين بركات» ».

وهكذا توجه وكيل الديوان في الساعة السابعة مساءً إلى بيت «بهى الدين بركات» (باشا) على طرف كوبرى عباس في الجيزة، يعرض عليه رئاسة الوزارة. وفيما يذكره «حسن يوسف» (باشا) أن «بهى الدين بركات» لم يمانع كثيرا وذلك أدهشه (لكن «حافظ عفيفى» (باشا) كان له تفسير مؤداه «أن «بهى الدين بركات» كان رغم تباعده يشعر أنه يستحق دورا في السياسة المصرية لم يتح له»، وقد انتظر هذا الدور طويلا ووصل إلى سن الرابعة والستين، دون أن يصله استدعاء، ومع تقدم السن فإن «بهى الدين» (باشا) زاد شعوره بضياع الفرصة، وتبدت تصرفاته، مثل «عانس سياسى متلهف»).

وكان المهم أن «بهى الدين بركات» (باشا) قَبِلَ التكليف، والأهم أنه تفهم دواعى العجلة في سرعة التشكيل، وكانت الأسماء المقبولة تكاد تطرح نفسها، وبالفعل فإنه قبل الساعة الحادية عشرة والنصف - وبعد أن تدخلت زوجته «هدية هانم» تطلب منه أن يستريح لأن أمامه في الغد يوما طويلا - كان رئيس الوزراء المكلف قد اتصل فعلا بعدد من المرشحين يستطلع استعدادهم «قبل أن يعرض قائمته على القصر».

وأوى «بهى الدين بركات» (باشا) إلى فراشه.

واستيقظ في الساعة السادسة والنصف، وإذا جرائد الصباح تطالعه بخبر وصلها بعد منتصف الليل بأن «حسين سرى» (باشا) كُلفَ بتشكيل وزارة جديدة، وأن أعضاء هذه الوزارة سوف يقسمون اليمين الدستورية أمام الملك بعد ظهر هذا اليوم!

(ومما يستحق الملاحظة أن «مايكل كرسويل» الوزير المفوض في السفارة البريطانية ذهب بعدها بأيام ليقابل «بهى الدين بركات» (باشا) - ثم نقل عنه في تقرير إلى لندن (٢٤/ ٧٠/ ١٠١١) قوله: «إن أحدا لم يعد يجادل في أن الملك «فاروق» هو أصل المتاعب في مصر، وأن مصر لن ينصلح حالها طالما الملك مستمر في سلوكه المعروف - مُحاطا بهذه الحاشية التى تحيط به طول الوقت وأولهم «كريم ثابت»، وهو لا يرى وسيلة للخلاص»، ثم يتواصل الحديث بين القائم بالأعمال البريطاني وبين «بهى الدين بركات» (باشا)، وينقل «كرسويل» في تقريره عن «بركات» (باشا) قوله: «إنه مع الأسف الشديد على استعداد لأن يوافق مع كثيرين يرون أن بقاء الجيش البريطاني في قاعدة قناة السويس يشكل الضمانة النهائية Ultimate Guarantee للاستقرار في مصر، وهو أكثرها مدعاة للأمان!»).

"٦" «فاروق لم يكن عبيطا»!

■ كان «كريم ثابت» هو الذى أبلغ جريدة الأخبار بأن جلالة الملك وجه التكليف برئاسة الوزارة الجديدة إلى «حسين سرى» (باشا) - وقد حرص على أن يكون ذلك فى آخر فرصة تستطيع فيها صحف الصباح أن تلحق بالخبر. وكان «كريم ثابت» أيضا هو الذى اتصل برئيس الديوان وبوكيل الديوان بعد منتصف الليل يخطرهما بالقرار الملكى «الأخير» فى شأن «التغيير»!

وكانت الأجواء فى القصر ذلك الصباح ثقيلة وكئيبة (ولم يشأ «حسن يوسف» (باشا) فى شهادته أن يدخل فى تفاصيل ما جرى فى القصر ذلك الصباح، وسواء كان ذلك عن شعور منه بالحرج لموقفه وموقف رئيس الديوان يومها، أو لأنه لم تكن فى علمه تفاصيل كافية) - ومع ذلك فإن ما ظهر من شكل الحوادث كانت فيه الكفاية:

١ - فقد ظهر أن الملك - هكذا قال - اقتنع فى الليل بأن «بهى الدين بركات» ليس «رجل الموقف»، وأن «حسين سرى» هو الأقدر على ضبط الأمور، خصوصا إزاء الوفد ومحاولاته للتهييج.

٢ - أن «حسين سرى» تعهد لكريم ثابت بأنه لن يسمح للوفديين بأن يستغلوا الأزمة بأى شكل من الأشكال، ولن يسمح بأن تتحول وزارته (كما يظن بعضهم فى القصر وخارجه أيضا) - إلى كوبرى يعود عليه الوفد إلى الحكم «بصفقة من نوع ما».

٣ - أن «حسين سرى» سوف يمسك الأمن فى البلد بيد من حديد، وأنه فى الوقت المناسب سوف يعلن تأجيل موعد الانتخابات (المقررة فى أكتوبر القادم) إلى أجل بعيد - ليس قبل يناير ١٩٥٣.

وأن ذلك يوفر لكل الأطراف صيفا هادئا تستريح فيه الأعصاب وتتبلور المواقف ويصفو التفكير.

وفيما يتبين من ثنايا الوقائع أنه فى لحظة من اللحظات وصل الشعور بالإحراج لدى رئيس الديوان الملكى ووكيل الديوان - حدا دعاهما إلى وضع استقالتهما تحت تصرف الملك الذى بدا من تغيير قراره فى شأن رئاسة الوزارة «أنه فقد ثقته فيهما» - ولكن الملك رفض استقالة رئيس الديوان ووكيله، وأصر على رفضه، وعندما تصور أنه مدين لهما بإيضاح عن سبب تغيير رأيه كان ملخص ما قاله لهما:

«إن مرشحه الأصلى لرئاسة الوزارة كان «حسين سرى» لأنه يقدر على إسكات الجميع، لكنه قَبِلَ اقتراح وزارة يرأسها «بهى الدين بركات» لأنه خشى - بعد كل ما انتشر فى البلد من إشاعات - أن يتصور أحد أن مجىء «حسين سرى» يؤكد «الإشاعة» عن دور «أحمد عبود» فى إسقاط وزارة «الهلالى». وبعد أن عرف الناس أن التكليف وجه أولا إلى «بهى الدين بركات»، واتضح أن الموقف أكبر منه، فإن عودة التكليف إلى «حسين سرى» تبدو خيارا ثانيا «اضطر إليه القصر» بعد أن عجز مرشح «الاختيار الأول» - وكذلك يتحقق نفى الإشاعة من أولها لآخرها».



وطبقا لرواية «حسن يوسف» فإنه سمع بهذا التفسير من الملك، كما سمعه رئيس الديوان، ولم يقتنع أيهما فى أعماقه بأن ذلك المنطق يستقيم، «ولكنه كان الغطاء الذى أراد به الملك أن يستر قراره».

وقد تجاوز الرجلان خلل المنطق «الملكى» عندما فوجئا بما هو أسوأ، ذلك أن الملك طلب من «حسين سرى» (باشا) تعيين كلا من:

- «كريم ثابت» وزيرا للدولة!

- و«إلياس أندراوس» وزيرا للمالية والاقتصاد!

- و«حسين سرى عامر» وزيرا للحربية والبحرية!

(كان تعليق «حسن يوسف» (فى شهادته) «أن ذلك لو تم لاستوجب ما هو أكثر من الاستقالة». وحين سألته عن هذا الذى هو أكثر من الاستقالة، قال الرجل وصوته فى تسجيل اللقاء جلى: «الهاراكيرى» على الطريقة اليابانية، وأضاف «ولو أن الإسلام يحرم الانتحار»).

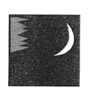
وأبدى رئيس الديوان ووكيل الديوان اعتراضهما، ولكنهما وجها الاعتراض إلى «حسين سرى»، رغم أن «حسين سرى» نفسه أكد «لحافظ عفيفى» و«حسن يوسف» أن الترشيحات من «جلالة الملك»، وأنه هو نفسه لا يوافق عليها، لأنه بالنسبة «لكريم ثابت» و«إلياس أندراوس» - فإن ترشيحهما سوف يفتح الباب للقيل والقال بغير داع.

وأما بالنسبة «لحسين سرى عامر» فهو شديد القلق مما يجرى فى أوساط الجيش ومما يبلغه خبره من ابن شقيق له هو القائمقام «إسماعيل سرى» من سلاح الفرسان.

وفى رأى «سرى» (باشا) أن كل المصائب يمكن تداركها، ولكن الجيش هو الكارثة التى لا حيلة له فيها، ثم إن وضع «حسين سرى عامر» بالذات هو بؤرة الاستفزاز فى القوات المسلحة، وهذا الضابط منذ سقوطه فى انتخابات رئاسة نادى الضباط (فى ديسمبر ١٩٥١) - وحتى محاولة اغتياله الفاشلة (فى مايو ١٩٥٢) - أصبح اسمه فى حد ذاته - بالحق أو بالباطل! - هو الشال الأحمر الذى يلوح به مصارع الثيران أمام الثور الهائج!



فاروق



فى رأى «سرى» (باشا) أن كل المصائب يمكن تداركها، ولكن الجيش هو الكارثة التى لا حيلة له فيها، ثم إن وضع «حسين سرى عامر» بالذات هو بؤرة الاستفزاز فمنذ سقوطه فى انتخابات رئاسة نادى الضباط (فى ديسمبر ١٩٥١) - وحتى محاولة اغتياله الفاشلة (فى مايو ١٩٥٢) - أصبح اسمه فى حد ذاته هو الشال الأحمر الذى يلوح به مصارع الثيران أمام الثور الهائج!



والذى حدث بعد ذلك أن الملك أصر على تعيين «كريم ثابت» وزيرا للدولة، وأجل فى الوقت الحالى طلبه بتعيين «إلياس أندراوس» وزيرا للمالية والاقتصاد (حتى لا يكثر القيل والقال).

وأما بالنسبة لمنصب وزير الحربية والبحرية، فإن «حسين سرى» (باشا) بدأ مع الملك فاقترح اسم اللواء «محمد نجيب»، وفوجئ برفض قاطع من الملك، وفى المقابل فإن «حسين سرى» توصل إلى إقناع الملك بأن يتمهل عليه ولا يصر هذه اللحظة على تعيين «حسين سرى عامر» وزيرا للحربية والبحرية. ورغم أن «سرى» (باشا) حاول إقناع الملك بأن صهره «محمد هاشم» (باشا) التقى باللواء «نجيب»، ووجد أن الرجل إلى جانب سمعته الطيبة بين ضباط الجيش - يكن إخلاصا لاشك فيه للعرش وللملك، إلا أن «فاروق» ظل على رأيه كما حدث عندما عرض عليه «الهلالى» (باشا) اسم اللواء «نجيب» قبل ثلاثة شهور.

وفى وسط الزحام رأى «مرتضى المراغى» وقد كانت فى عهدته الداخلية والحربية - أنه لا يجد لنفسه مكانا مناسبا فى الوزارة الجديدة.

■ من ناحية لأن رئيس الوزراء لم يكن مستعدا لأن يعرض عليه وزارة الداخلية - يريد فيها صهره وموضع ثقته «محمد هاشم» (باشا).

■ ومن ناحية أخرى لأن الملك يريد «حسين سرى عامر» وزيرا للحربية، وقد قَبِلَ بحل وسط مؤقت يقضى بأن تكون تلك الوزارة فى عهدة رئيس الوزراء حتى يتم التوصل إلى قرار.

....

....

[ومن المهم أن أضيف هنا أننى سمعت بعض التفاصيل من «حسين سرى» (باشا) نفسه، وكان ذلك أثناء لقائنا فى بيته فى شارع «شجرة الدر» (وهو الآن مقر لسفارة تونس)، وهو لقاء جرى بعد عودتى معه (ونحن جيران فى شارع شجرة الدر بالزمالك) من حفل استقبال أقيم بمناسبة أول زيارة قام بها الملك حسين (ملك الأردن السابق) إلى مصر لأول مرة بعد ثورة يوليو.

وقتها (ديسمبر ١٩٥٣) كانت الحوادث قريبة، وكانت المشاهد حية فى ذاكرة من عاشوها، وقال «حسين سرى» (وسجلت كلامه بعدها) «أنه فوجئ برد فعل الملك عندما اقترح عليه اسم اللواء «محمد نجيب» وزيرا للحربية والبحرية فى وزارته. وبرغم أنه لم يقابله بنفسه إلا أنه اعتمد على حكم صهره (زوج ابنته) «محمد هاشم» عليه، وأن «هاشم» قابله بنفسه أكثر من ساعتين»!

كان رد فعل الملك الذى استغربه «سرى» (باشا) هو قوله «آسف أن أقول لك «يا باشا» أنكم لا تعرفون شيئا عما يجرى فى البلد. رئيس الوزراء الذى سبقك (يقصد «نجيب الهلالى») جاءنى أيضا ومعه اسم «محمد نجيب» مرشحا لوزارة الحربية، ولم يكن يعرفه مثلك».

واستطرد الملك (رواية «سرى» (باشا))

«أنا أعرف ما يجرى فى البلد، بعضكم يظن أننى لا أتابع، وهذا

الساعة تدق منتصف الليل!



القائم بالأعمال البريطانى فى القاهرة «كرسويل» يبلغ رئيس الديوان «حافظ عفيفى» (باشا) بأن حكومته تشعر بالصدمة إزاء المعلومات التى بلغتها عن أسباب تغيير وزارة «الهلالى» (باشا)، وأن السفير الأمريكى (ممثلا لحكومته) يشعر بنفس الشعور. وأنه يرى أن مصلحة مصر لا تتفق مع هذا المستوى من التصرفات التى تؤدى إلى استئصال كل العناصر النزيهة في الحياة السياسية المصرية

غير صحيح - أريدك أن تعرف أننى «عارف وفاهم».

خذ علما بأن كل ما نراه يحدث في نادى الضباط ليس إلا عملية خداع - هذا استعراض جانبى.

وقد استوقفت «سرى» (باشا) أسأله أن يدقق في أن الملك وصف ما يجرى في نادى الضباط بانه «استعراض جانبى»، ورد «سرى» (باشا) على طريقته التى تظهر الغضب إذا لم يعجبه شيء فتخرج ألفاظه وكأنها نبرة تهديد - قائلا:

«إننى أذكر تماما، بل أقول لك أنه في تلك اللحظة عبر عن رأيه بالإنجليزية مستعملا وصف "Side Show".

استطرد «حسين سرى»:

«إن «فاروق» بدا لى واثقا من أنه يعرف أكثر مما صرح به، وهو لم يخف عليَّ وإن كان لم يحدد، فقد قال: «هناك من يريد إقناعنا جميعا بأن نركز الاهتمام على نادى الضباط، وقلة أدب مجلس إدارته، وعلى «محمد نجيب»، وأين يذهب؟ ومن أين يجيء؟ وماذا يقول؟، وهذه عملية خداع. هناك جماعة (ضحك «سرى» (باشا) مقاطعا نفسه وهو يستعيد تلك التفاصيل من ذاكرته تلك الليلة من ديسمبر ١٩٥٣)، واستدرك قائلا «فاروق لم يستعمل وصف جماعة، إنما أخفف الوصف وأنا أحكى لك القصة - «فاروق» استخدم وصف «عصابة»! وكان قوله «هناك عصابة» تحاول إقناعنا أن نركز جهدنا على نادى الضباط و«نجيب» - لكى تستغفلنا في لحظة وتنفذ مؤامراتها».

وأكمل الملك كلامه:

«ولكن عليكم أن تطمئنوا جميعا لأننى الآن أعرف وسوف أتصرف».

قال الملك بعدها «إنه لن يقبل بترشيح «نجيب» «:

- أولا لأنه لا يثق فيه.

- وثانيا لأنه يريد أن يترك «العصابة» التى تحرك استعراض نادى الضباط (الجانبى) - تتصور أننا لا نزال نهتم ونجرى وراء ما يقولونه ويفعلونه في النادى.

واستدرك الملك يقول لسرى (باشا) (طبقا لروايته): «على فكرة يا باشا لقد أجلت السفر إلى أوربا، حتى نعرف من الذى يحرك الفوضى في الخفاء، ثم نضرب ضربتنا».

علق «سرى» (باشا) أثناء حديثنا في ديسمبر ١٩٥٣، وهو مازال يحكى ما حدث قبلها بسنة ونصف السنة قائلا:

«الصحف كلها الآن (سنة ١٩٥٣) تحاول أن تصف «فاروق» بأنه كان رجلا «أبله» - هذا غير صحيح. «فاروق» لم يكن «عبيطا» - «فاروق» كان ذكيا جدا، لكن المشكلة أن ذكاءه انصرف إلى «الشر»!.]

....

....

ومع أوائل يوليو ١٩٥٢، كانت الأمور تبدو هادئة على السطح في القاهرة، فالوزارة الجديدة تشكلت، وبدأت عملها بعد أن توصل رئيسها «حسين سرى» (باشا) مع الملك «فاروق» إلى تأجيل اصطدام محقق بلغمين خطيرين:

- لغم تعيين «إلياس أندراوس» وزيرا للمالية.

- ولغم تعيين «حسين سرى عامر» وزيرا للحربية.

إلى جانب أن رئيس الوزراء الجديد التقى بالوزير المفوض البريطاني «مايكل كرسويل»، لأن السفير السير «رالف ستيفنسون» الذى توقع صيفا حارا ورطبا - وليس أكثر - قرر البدء في إجازته التى استأذن فيها وسافر فعلا إلى اسكتلندا، وأكد له:

«إن الأحكام العُرفية باقية، وأن الانتخابات البرلمانية مؤجلة إلى أجل غير مسمى وليس إلى أكتوبر القادم كما كان مفهوما».

وبالإضافة إلى ذلك فإن «حسين سرى» (باشا) أطلق سراح «فؤاد سراج الدين» بعد أن عرف أن «النحاس» (باشا) وقرينته سوف يسافران إلى «اكس ليبان» (في فرنسا للاستشفاء) - وأن «فؤاد سراج الدين» إذا خرج من المعتقل سوف يذهب معهما (وكان ذلك تأكيد «أحمد عبود» (باشا) لرئيس الوزراء)!

وبالتالى فإنه يمكن انتظار صيف هادئ.

....

....

لكن عاصفة هبت فجأة في لندن، ذلك أن جريدة «التيمس» البريطانية وغيرها من صحف لندن (وبينها الديلى إكسبريس) نشرت تفاصيل عن صفقة إسقاط وزارة «الهلالى» بوساطة «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس» - مقابل مليون جنيه من «أحمد عبود» (باشا).

ويظهر أن رئيس الوزراء البريطاني «ونستون تشرشل» لم يكن يعرف بتفاصيل ما جرى في مصر، حتى قرأ عنه في الصحف، وهكذا أملى رسالة من المقر الرسمى لرئيس الوزراء البريطاني إلى «أنتونى إيدن» وزير الخارجية يسأله «إذا كان ما قرأ صحيحا؟ - وإذا كان صحيحا فهل فقدت بريطانيا كل نفوذ «أخلاقى» لها في مصر؟!» (مذكرة «تشرشل» محفوظة ضمن مجموعة أوراقه الخاصة التى باعتها أسرته إلى الحكومة البريطانية بمبلغ ثمانية ملايين جنيه استرلينى، وهى مودعة الآن في قصر «هامبتون كورث»).

وبهذه التوصية من رئيس الوزراء البريطاني، بعث «إيدن» إلى القائم بالأعمال البريطاني في القاهرة يطلب إليه «أن يعمل كل ما في وسعه لعرقلة قيام حكومة بهذا الأسلوب في القاهرة، حتى إذا اضطر إلى الاتصال بكافة المرشحين لخلافة «نجيب الهلالى» والإلحاح عليهم بأن لا يقبلوا أى تكليف من الملك، وأنه عليه أن ينسق تصرفه في هذا الشأن مع السفير الأمريكى «جيفرسون كافرى»!

ورد «كرسويل» بسرعة يقول: «لقد أطلعت زميلى سفير الولايات المتحدة هنا على رسالتكم، ورأيه أن تدخلنا في هذا الأمر في هذه الساعة المتأخرة، سوف يبدو اقتحاما للشأن المصرى في مسألة لا تتصل بمصالحنا الحيوية.

ومن ناحية أخرى فإنه حين تدبرنا هذا الأمر معا، كان الوقت قد فات لأن «حسين سرى» قَبِلَ بالفعل تشكيل وزارة جديدة.

ثم يعود «كرسويل» ويكتب لوزير الخارجية البريطانية تقريرا وافيا (١٧٨/ ١٠١٨/ ٩٩٣) يقول فيه:

قابلت رئيس الديوان «حافظ عفيفى» (باشا) وكان عائدا إلى مكتبه لتوه من مراسم أداء الوزارة الجديدة لليمين الدستورية أمام الملك، وأبلغته أن حكومة جلالة الملك تشعر بالصدمة إزاء المعلومات التى بلغتها خلال الأيام القليلة الماضية عن أسباب تغيير وزارة «الهلالى» (باشا)، وأن السفير الأمريكى (ممثلا لحكومته) يشعر بنفس الشعور. ونحن نرى أن مصلحة مصر لا تتفق مع هذا المستوى من التصرفات التى تؤدى إلى استئصال كل العناصر النزيهة في الحياة السياسية المصرية.

وكنا نريد إبداء رأينا في هذا الأمر بطريقة أوضح، لكن الوقت كان متأخرا لعمل شيء، وأننا نخشى أن مثل تلك الأوضاع تؤثر على نفوذ - وحتى مصداقية - رئيس الديوان نفسه، خصوصا بعد تعيين «كريم ثابت» وزير دولة لشئون القصر، وهو إلغاء عملى لدور رئيس الديوان. وقال لى «حافظ عفيفى» (باشا):

«إنه مقدر لهذه الرسالة التى أبلغتها لى، وأنه لا يريد أن يتصرف بطريقة فجة وتحت تاثير مشاعر الصدمة، لكنه فيما بينه وبين نفسه قرر أن يقدم استقالة نهائية خلال عدة أيام. وفى كل الأحوال فهو غير راغب في البقاء لحظة في منصبه، مادام يجد أنه غير قادر على عمل شيء. وقال «حافظ عفيفى»: «إنه لم يُستَشَر فيما حدث وأنه لم يعلم به إلا بعد نشره».

وقال لى أن نصيحته بعد أن قرر الملك تغيير وزارة «الهلالى» كانت بتوجيه التكليف إلى رجل مثل «بهى الدين بركات»، وأنه قام بالفعل بإبلاغ «بركات» بعد أن حصل على

فاروق

كريم ثابت

حسين سرى

إشارة الموافقة من الملك، لكنه فوجئ بأن الملك غَيَّر رأيه.

ورجاني «حافظ عفيفى» أن أحاول مع زميلى الأمريكى إبقاء رأينا في التغيير الوزارى مكتوما، وإلا فإن الملك سوف يستغله لصالحه، ويقوم بتسريب الخبر (عن طريق «كريم ثابت» إلى الصحف الموالية للقصر)، ويكون في ذلك إحراجا لكل الأطراف.

قال لى «حافظ عفيفى» أنه بعد تردد، قَبِلَ أن يظل في مكانه لأيام يغطى بها موقف الملك، وهو موقف لا يستطيع هو نفسه أن يفهمه، فقبل عشرة أيام فقط سمع الملك يقول عن «عبود» (باشا) إنه أفّاق، وأن مكانه الصحيح قفص الاتهام أمام محكمة، ولكن الصورة تغيرت فجاة، ويظهر أن «عبود» (باشا) ينتظر غنائم جديدة، بالإضافة إلى إسقاط ضرائبه القديمة، وفيما سمع فإن «عبود (باشا) يريد أن يحصل على عقد مشروع كهربة خزان أسوان بحوالى ٧٠ مليون جنيه، وهذه صفقة لا يستطيع «عبود» أن يتركها لغيره!».



كان الملك «فاروق» يريد أن يرتب بعض الأمور، وقد أراد أن يضبط حالة نادى ضباط الجيش، وذلك بإدخال «حسين سرى عامر» قائد سلاح الحدود إلى عضوية مجلس إدارته، والذريعة ظاهرة وهى أن مجلس إدارة النادى لا يحق له أن يعوق تمثيل سلاح الحدود في مجلس إدارة النادى «بـ: سخافة»، أن هذا السلاح أقرب إلى البوليس منه إلى القوات المسلحة، ويترتب على ذلك ضرورة أن يكون للسلاح ممثل في مجلس الإدارة، وحتى يحين موعد تحديد انتخابات المجلس في دورة قادمة، فإن قائد سلاح الحدود اللواء «حسين سرى عامر» يستطيع تمثيل سلاحه في مجلس إدارة النادى. وتمهيدا لبحث الطلب الملكي عقد مجلس إدارة نادى ضباط الجيش اجتماعا يوم ١٥ يولية، ولم تجىء النتيجة موافقة لطلب الملك.



ويوم ٢٠ يوليو ١٩٥٢ يكتب القائم بالأعمال البريطاني إلى لندن بأن الاجتماع الأخير لمجلس إدارة نادى ضباط الجيش شهد مظاهر احتجاج وصخب ضد الطلب الملكى الخاص بضم اللواء «حسين سرى عامر» إلى أعضاء المجلس. وأثناء الاجتماع والصخب ترددت عبارات اعتبرت ماسة بالملك ذاته، وغضب القصر الملكي، وصدر قرار بحل مجلس إدارة النادى وإجراء انتخابات في موعد يحدد لاحقا - ! - وحاول رئيس الوزراء «حسين سرى» (باشا) تهدئة الموقف وذلك اختصاصه كقائم بأعمال وزارة الحربية والبحرية، لكن «سرى» (باشا) فوجئ بطلب ملكى آخر يعتبره الملك «فاروق» ضروريا «ليس فقط لكرامة القصر ولكن لهيبته أولا»، وذلك الطلب هو تعيين اللواء «حسين سرى عامر» وزيرا للحربية والبحرية فورا. وعاد «سرى» (باشا) (وفق روايته) يطلب من «كريم ثابت» (وهو الآن وزير الدولة في وزارته) - إبلاغ الملك أن طلبه الجديد - بعدما جرى في طلب ملكى سبقه - يمكن أن يؤدى إلى تعقيدات نحن في غِنى عنها قبل إجازات الصيف. وقد أسر إليه «كريم ثابت» بأن «الملك من رأيه أن دخول «حسين سرى عامر» في الوزارة هزيمة ساحقة لعناصر الشغب في نادى الضباط، وخصوصا أن اللواء «حسين سرى عامر» من موقعه الجديد سوف يستطيع أن يكشف عناصر التآمر الحقيقية التى تحرك من الخفاء، كذلك سوف يتمكن من كشف وضرب هذه العناصر وتصفيتها «حتى إذا كان الملك في الإجازة!». لكن رئيس الوزراء لم يقتنع وقد ظل مترددا، بينما الملك يزداد ضيقا، خصوصا أنه عاد مرة أخرى يقترح «أنه من الأفضل ولتلافى كل المشاكل أن يوافق الملك على اقتراحه السابق بتعيين اللواء «محمد نجيب» وزيرا للحربية، ويكون هو الذى يتكفل بتحقيق «الرغبة الملكية» في ضبط أمور الجيش - وينقل «كريم ثابت» هذا الاقتراح إلى الملك الذى يرفض بشدة، لأن تعيين «نجيب» وزيرا للحربية الآن معناه أن القصر يتراجع أمام حفنة من الضباط المشاغبين تحركهم «عصابة خفية» لابد من «كشفها بسرعة» و«ضربها بعنف». ورأى الملك «أن ظهور القصر وكأنه يتراجع ويقبل بحلول وسط»، سوف يجعل أى واحد «يطمع فينا»!».

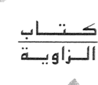
ويكتب القائم بالأعمال البريطاني يوم ٢٠ يولية برقية أخرى يقول فيها: «إننا نسمع نقلا عن القصر الملكى أنهم هناك يستعدون لتوجيه ضربة قاصمة إلى الضباط الذين يثيرون القلاقل.

وفى اليوم التالى ٢١ يولية يكتب «كرسويل» (رقم ١٠٤٦) برقية إنذار إلى وزارة الخارجية في لندن يقول فيها:

«لدينا معلومات مؤكدة بأن هناك مشاكل كبيرة داخل الجيش، وعلمنا أن الموقف قد يتدهور سريعا، ولذلك فإننا نوصى بإصدار تحذير وقائى إلى القوات البريطانية في منطقة قناة السويس برفع درجة استعدادها، مع إحاطة القائد العام للقوات البريطانية في مصر بخطورة الموقف. إننا سمعنا أنباء متضاربة عن تحركات عسكرية لقوات كبيرة نحو الإسكندرية، ونسمع أن عددا من ضباط الجيش رفضوا إطاعة أوامر صدرت إليهم، ويبدو لنا أن الأحوال مهياة لعِصيان عسكرى، وذلك يغير قواعد اللعبة».

وفى نفس اليوم (٢١ يولية) يكتب السفير الأمريكى «جيفرسون كافرى» إلى واشنطن، وفى تقريره لهجة مختلفة تماما عن لهجة «كرسويل» - فهو يقول: «يبدو أن التوترات التى كانت مستحكمة داخل الجيش المصرى خفت حدَّتُها قليلا، وقد تلقينا أنباء عن صدور أمر ملكِى إلى اللواء «محمد نجيب» رئيس مجلس إدارة نادى ضباط الجيش بأن يبتعد عن القاهرة فورا وأن يتوجه إلى جنوب الصعيد».

ولم يكن تقرير السفير الأمريكى دقيقا - وكان تقرير الوزير البريطاني المفوض أكثر دقة، وأقرب إلى حقائق موقف يتغير مع كل دقيقة! ■





عمر بن عبد العزيز

سنتان وخمسة أشهر كانت عمر خلافة عمر بن عبد العزيز فى ذروة الحكم الأموى، لكن هذه المدة القصيرة للغاية فى تاريخ الإسلام كانت كفيلة بأن تظل ذكراها ماثلة أمام المسلمين حكامًا ومحكومين. الكل يتطلع إليها باعتبارها واحدة من أنصع الصفحات فى التاريخ الإسلامى، وهناك من يضيفها إلى فترة الخلافة الراشدة ويعتبر عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين.

ولد عمر فى عام كربلاء لأم تدعى ليلى بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب وأب هو عبد العزيز بن عبد الملك بن مروان بن الحكم. وقد اختلف فى مكان مولده فقيل أنه المدينة وقيل بل مصر (حلوان) وعاش عمر فى كنف والده حيث القصور والحياة الرغدة إلا أن بذرة ذرية عمر بن الخطاب كانت تعمل عملها. وعندما تولى والده إمارة مصر اختار عمر أن يذهب إلى المدينة ليتزود بعلم نافع ينير له بصيرته ويعينه على فهم كنه الحياة.

ثم تزوج عمر بن عبد العزيز من فاطمة ابنة عمه الخليفة عبد الملك بن مروان وأصبح بعد ذلك واليًا على المدينة فسار فيها سيرة الصالحين العادلين، ثم أصبح واليًا على الحجاز كله لكن الحجاج بن يوسف الثقفى كاد له عند الوليد بن عبد الملك فعزله، فعاد إلى دمشق مقر الخلافة إلى أن اختاره سليمان بن عبد الملك، فى لحظة تاريخية مضيئة، ليخلفه من بعده فى إمارة المسلمين.

وقد وضع الكاتب الراحل عبد الحميد جودة السحار بأسلوب سلس وعميق سيرة حياة عمر فى كتاب صدر عن مكتبة مصر. وهو واحد من مؤلفاته الإسلامية العديدة.



الحرب ومعضلة العراق

كما يراها العسكريون الأمريكيون

ريتشارد راسل

منذ تأكد عزم الإدارة الأمريكية على توجيه ضربة عسكرية ضد العراق، لم تتوقف وسائل الإعلام الأمريكية والأوروبية عن الكشف عن الخطط والسيناريوهات التى ينتظر أن تنتهجها القوات العسكرية الأمريكية لتحقيق أهدافها المعلنة لغزو العراق.. وهى التخلص من أسلحة الدمار الشامل التى تدعى أن النظام العراقى مازال يحتفظ بها ويخفيها عن الأعين بأكثر الأساليب دهاء. وفى الوقت نفسه القضاء على النظام العراقى الراهن.. ويعكس هذا المقال الذى نشرته مجلة (Us Army War College) Parameters وجهة نظر المؤسسة العسكرية الأمريكية فى كيفية تحقيق الغزو العسكرى للعراق لأهدافه وكيفية التغلب على مقاومة القوات العراقية بما فى ذلك قوات الحرس الجمهورى.. مع تقدير الاحتمالات المختلفة لمواقف الحلفاء الأوروبيين، ومواقف الدول العربية.. التى قد تحتاج أمريكا إلى دعمها ولكنها مازالت تنأى بنفسها عن المشاركة فى العمل العسكرى ضد العراق. وتنشر «وجهات نظر» هذا المقال فى محاولة منها لقراءة ما يجرى فى تفكير العسكريين الأمريكيين واستشفاف نواياهم، لكن نتعرف على مواقع الخطر القادم واحتمالاته.

المحـــرر

■■ تصور حكومة بوش الحملة العسكرية الأمريكية التى يجرى الإعداد لها على أنها «حملة ضد الإرهاب». وهذا التوصيف قد يفيد من الناحية الخطابية، غير أنه ليس ذا شكل محدد ويحدث قدراً كبيرًا من الارتباك. وعلى أى الأحوال فالإرهاب أسلوب أو تكتيك حربى وليس كيانًا. و«الحرب ضد الإرهاب» شبيهة بـ «الحرب ضد الحرب» التى تقترب اقترابًا خطيرًا من ليبرالية وودرو ويلسون المجاهدة وما قاله عن «الحرب لإنهاء كل الحروب». و«الحرب ضد الإرهاب» تعهد مفتوح يجعل الشركاء الدوليين المحتملين يتراجعون عن التعاون فى المجالات التى يشاركون فيها الولايات المتحدة مصالحها بدافع من الخوف من احتمال اختلاف الخطوات الأمريكية التالية اختلافًا كبيرًا مع مصالحهم.

كان من الأحكم بالنسبة لحكومة بوش أن تسمى الحملة العسكرية الأمريكية باسمها، أى أنها حرب لتدمير شبكة القاعدة والأنظمة والكيانات التى تدعمها، ومنع الآخرين من تقديم أى دعم للشبكة المسئولة عن قتل الآلاف من المدنيين الأبرياء داخل وطننا. إذا كانت تلك المباشرة ستوفر الوضوح الاستراتيجى اللازم لربط الغايات بالوسائل فى فن الحكم، وتعزز أهداف الحرب.

وفى أعقاب ما بدت أنها حملة عسكرية أمريكية ناجحة للقضاء على نظام طالبان فى أفغانستان وتقطيع أوصال شبكة القاعدة الإرهابية، يتجه الاهتمام الآن صوب العراق، وهو مصدر محتمل آخر للمفاجأة الاستراتيجية والخطر الشديد الذى يهدد المصالح القومية الأمريكية. وتطالب أصوات كثيرة فى النقاش المتجدد باستمرار استخدام العقوبات الدولية ومفتشى الأسلحة التابعين للأمم المتحدة لاحتواء العراق ومنع الواردات التى قد تستخدم لإعادة بناء جيش صدام حسين وتحديثه. ومع ذلك فهناك رأى سياسى متنام فى العالم العربى وخارجه يقول بأن العقوبات لم تضر سوى المدنيين العراقيين.

وتطالب بعض الأصوات الولايات المتحدة بمضاعفة دعم حركة المعارضة العراقية ودراسة الخيارات العسكرية الجريئة لمساعدة قوات المعارضة فى عمليات للإطاحة بنظام صدام. ويطالب عدد أقل من المراقبين بغزو عسكرى أمريكى شامل لتخليص المنطقة من صدام وتعزيز توازن القوى فى الخليج.



ويبدو أن الخيار الأخير يحظى بقبول من كبار الفاعلين السياسيين، إلا أن حكومة بوش ستخطو خطوة خاطئة أخرى إن هى شنت حربًا ضد العراق باعتبارها استمرارًا لـ«الحرب ضد الإرهاب» ,حيث إن هذا الوصف لن يزيد سوى القلق لدى الشركاء الإقليميين الذين سيكونون على استعداد أكبر للتعاون مع الحملة الأمريكية للقضاء على نظام صدام إن كانوا أقل خوفًا من أن يكون تقديم الدعم دعوة فعلية إلى أعمال أمريكية أكثر طموحًا فى الشرق الأوسط. بل إنه لم يظهر دليل قوى بشكل علنى يربط العراق بالقاعدة فى الإعداد لأحداث الحادى عشر من سبتمبر. وسيكون عدم وجود صلة مباشرة بين القاعدة والعراق هو «نقطة الضعف» التى سوف يغرس فيها معارضو التحركات الأمريكية العدوانية ضد العراق - أى الفرنسيين والروس والصينيين ومعظم دول الشرق الأوسط - سكاكينهم ويقضون على الدعم السياسى والاقتصادى والعسكرى الدولى للحملة.

سيكون من الأجدى شن حرب ضد العراق -

منفصلة عن الحرب ضد القاعدة - بروح موضوعية بحتة. فصدام لم يمتثل لقرارات الأمم المتحدة طوال عقد من الزمان، وخاصة بحمايته القوية لبرامج العراق الخاصة بإنتاج أسلحة الدمار الشامل. وأية حرب لتخليص العراق من صدام وما لديه من أسلحة الدمار الشامل باعتبارها سياسة معلنة ستدوم في محكمة الرأي العام أكثر من شن حرب ضد العراق باعتبارها استمرارًا للحرب ضد القاعدة. وستكون الحرب ضد العراق استمرارًا لعمل لم تنهه حرب الخليج. وبينما ينظر الأمريكيون إلى حرب الخليج على أنها أمر انتهى، حيث انتصرنا بتحرير الكويت، ينظر صدام في المقابل إلى حرب الخليج على أنها هزيمة تكتيكية أو معركة خاسرة. فهو يرى أنه انتصر استراتيجيًا في حرب الخليج بنجاحه في البقاء في السلطة بعد بوش الأب، وتحمله العقوبات الدولية، وحمايته ما لديه من برامج أسلحة الدمار الشامل، وبقائه على قيد الحياة ليحارب مرة أخرى.

قد تساعد الحرب التي تقضي على قوة صدام وما لديه من أسلحة الدمار الشامل في وقف اتجاهات انتشار أسلحة الدمار الشامل الإقليمي. فالعراق بلا صدام حسين وأسلحة الدمار الشامل سيشكل قدرًا أقل من الخطر على إيران وسيقلل من سعي طهران للحصول على أسلحة الدمار الشامل. ذلك أن إيران تسعى بطبيعة الحال للحصول على أسلحة الدمار الشامل لأن قيامها بذلك أيسر نسبيًا من تحديث القوات التقليدية إلا أن أية حملة عسكرية أمريكية قوية ضد العراق ربما تؤدي إلى تغيير حسابات إيران الاستراتيجية. ذلك أن طهران وقتها قد تعيد حساب الأمر باعتبار أن بناء قدرات أسلحة الدمار الشامل القوية تزيد احتمال الصراع مع الولايات المتحدة وليس ردع القوة الأمريكية في المنطقة.

فشل العقوبات وضعف المعارضة

الواقع المؤلم هو أن العقوبات الدولية وأعمال التفتيش المزعجة فشلت في القضاء على النظام العراقي أو إجبار صدام على التخلي عما لديه من برامج أسلحة الدمار الشامل. بل إنه ربما أدت العقوبات إلى تعزيز نظام صدام بدلاً من إضعافه. ويجري تجنب العقوبات من خلال كل جيران العراق، بمن فيهم شركاء أمريكا في الأردن وتركيا، وكذلك عن طريق أعداء صدام في إيران وسوريا. لقد خلقت العقوبات سوقًا سوداء ضخمة يسيطر عليها صدام وعائلته. ويستخدم صدام أرباح السوق السوداء لشراء ولاء مخابراته وأمنه والنخبة من قوات الجيش كي تحمي نظامه.

كان منع صدام لفريق التفتيش التابع للأمم المتحدة في عام ١٩٩٨ بمثابة النهاية للجهود الدولية لسبر أعماق برامج أسلحة الدمار الشامل العراقية. وربما كان انتهاء الرصد الفعال قد بلغ نقطة تضاؤل العائدات قبل ذلك بوقت طويل. ففي السنوات الأولى من أعمال التفتيش التي قامت بها الأمم المتحدة كان المفتشون يضبطون العراقيين على حين غرة ويفضحون من حين لآخر عدم اتساق العراقيين في البيانات والوثائق والمواد التي كانت تكشف الخداع العراقي. وأعطت تلك الأحداث لمحات للعالم الخارجي عن مجال برامج أسلحة الدمار الشامل العراقية وتقدمها. ولكن بمرور الوقت أصبحت أجهزة الاستخبارات العراقية أكثر كفاءة في احتواء ضيوف التفتيش التابعين للأمم المتحدة احتواء اليراعات في الزجاجة.

حكومة بوش ستخطو خطوة خاطئة أخرى إن هي شنت حربًا ضد العراق باعتبارها استمرارًا لـ«الحرب ضد الإرهاب»، حيث إن هذا الوصف لن يزيد سوى القلق لدى الشركاء الإقليميين



وبينما لم يتمكن العراقيون من عمل الكثير لإخفاء البنية التحتية الرئيسية المتصلة بالأسلحة، فقد شتتوا وأخفوا بسهولة الوثائق والأفراد - أحجار البناء المهمة لإعادة بناء برامج الدمار الشامل - في أنحاء البلاد بحيث تتضاءل فرصة الكشف أمام مفتشي الأسلحة. ويروي ديفيد كاي، باعتباره مفتشًا كبيرًا سابقًا ضمن فريق التفتيش عن الأسلحة التابع للأمم المتحدة، أن ميزانية برنامج أسلحة الدمار الشامل العراقي هي ٢٠ مليار دولار ويعمل به ٤٠ ألف شخص. وهو يقدر أن العراق يحتفظ بالخبرة التكنولوجية اللازمة لإعادة بناء قدرات إنتاج الأسلحة وتشتيت برامج الأسلحة على نطاق واسع في أنحاء البنية التحتية الصناعية والعلمية العراقية. وهو ما يمكن أن ينجو حتى من «أعتى العقوبات».



ورغم العيوب الواضحة في الرؤية المتأخرة للتاريخ، فقد كانت العقوبات الدولية وأعمال التفتيش على الأسلحة تستحق المحاولة. فعقب حرب الخليج مباشرة بدت هاتان الأداتان السياسيتان سبيلين حكيمين ومناسبين للسير فيهما. وكان ينظر إلى عقوبات الأمم المتحدة على أنها وسيلة سوف تؤدي في نهاية الأمر إلى الإطاحة بصدام تحت ضغط التدهور الاقتصادي، بينما يسمح تدخل فرق التفتيش التابعة للأمم المتحدة بالتقدير الدقيق لبرامج أسلحة صدام ومنع بنائها من جديد. كانت تلك هي النظرية، إلا أن أيًا من الغايتين لم يتحقق من الناحية العملية. وبعد أكثر من عشر سنوات من التجريب، حان الوقت لأن نستنتج أن أعمال التفتيش على الأسلحة النووية قد تعدت فائدتها كأدوات للتعامل مع صدام حسين.

واستفادة من الرؤية المتأخرة مرة أخرى، يسهل انتقاد قرار جورج بوش الأب في عام ١٩٩١ بعدم التقدم إلى بغداد بعد تحرير الكويت. فمع أن قرار إنهاء العمليات البرية بعد مائة ساعة من القتال كان سابقًا لأوانه وسمح لكثير من قوات الحرس الجمهوري العراقية - التي كان من الصواب أن تكون على رأس الأولويات بالنسبة للهجوم في الحملة البرية - بالهروب من مسرح العمليات الكويتي، فقد تحقق الهدف السياسي والعسكري الخاص بتحرير الكويت. وكان جورج بوش يعلم أثناء قيادته المتقنة للتحالف المتنوع أن شركاءه العرب يعارضون بشدة احتلال القوات الأمريكية للعراق. ولو أمر الرئيس بوش قواته بالاتجاه شمالاً إلى بغداد لترك الدعم الذي يلقاه من نظرائه العرب على جانب الطريق شمالي البصرة. وإذا كان بوش الأب قد أولى القادة العرب اهتمامًا أكثر مما يجب في ذلك الحين، فإن المستشارين قد ينصحون بوش الابن بألا يستمع إليهم كثيرًا الآن عند وضع خيارات السياسة العراقية.

جعل الاعتراف بفشل العقوبات الدولية وأعمال التفتيش على الأسلحة التابعة للأمم المتحدة على مر السنين الولايات المتحدة تسعى لتحقيق فكرة تعزيز المعارضة العراقية للقضاء على نظام صدام. ويمضي دعم المعارضة العراقية، التي تعمل تحت مظلة المؤتمر الوطني العراقي، بشكل متقطع. فقد كانت السياسة مباراة كرة قدم سياسية بين الكونجرس، حيث يحظى المؤتمر الوطني العراقي بقدر أكبر من الدعم - قد لا يكون هينًا بسبب حشد التأييد الفعال - والسلطة التنفيذية. حيث تؤمن الحكمة التقليدية الراسخة بأن المؤتمر الوطني العراقي أضعف على الأرض من أن يتحدى قوات صدام تحديًا خطيرًا. ويبدو أن المؤتمر الوطني العراقي خبير في إنفاق أموال دافعي الضرائب الأمريكيين على مكاتبه وعملياته خارج العراق، إلا أن هناك دليلاً ضعيفًا على أن له البنية التحتية الضخمة داخل العراق اللازمة للدخول في معركة مع نظام صدام.

وحتى مع وجود فائدة لزيادة دعم المؤتمر الوطني العراقي، بما في ذلك التدريب العسكري والمعدات الأمريكية، فإن من الصعب تخيل أن يتعدى المؤتمر الوطني العراقي كونه واجهة. قد يجد المؤتمر الوطني العراقي ملاذًا آمنًا له لفترة ممتدة في الدول المجاورة للعراق، كالأردن والكويت وتركيا، كي ينشئ تنظيمًا عسكريًا ضخمًا من الصفر. وقد يتعدى الوقت اللازم لبلوغ تلك القوات حد النضج - وهو ما قد يصل إلى سنوات - الموعد الذي يحدده القرار السياسي اللازم لاستضافتها في الدول المجاورة. ومن غير المحتمل أن تظل أية مهمة في حجم تلك المطلوبة لبناء قدرات عسكرية معارضة قوية طي الكتمان هذه المدة الطويلة، كما كان الحال بالنسبة للدعم الأمريكي شبه السري للمجاهدين أثناء احتلال السوفييت لأفغانستان. كما أنه من غير المحتمل أن تتمتع المعارضة العراقية بالروح القتالية والوحشية التي نماها الأفغان في بوتقة الحرب القبلية طوال سنوات. وكما يشير كينيث بولاك، فإنه «في عام ١٩٩١ ومرة أخرى في عام ١٩٩٦، هزم الحرس الجمهوري العراقي بسهولة أقوى القوات العراقية المعارضة، وهما الميليشيتان الكرديتان». بل إن قواعد المعارضة العراقية ستكون على مسافة بعيدة من قلب أمن صدام في بغداد، وستضطر قواتها إلى الدخول أثناء تقدمها في قتال مع قوات الأمن العراقية الأكثر تسليحًا. كما أن سنوات من هجمات الكر والفر غير الحاسمة التي تقوم بها المعارضة العراقية سوف تحدث احتجاجات من العالم العربي، والأوروبيين، وحتى داخل الولايات المتحدة مطالبة بوقف العمليات وتداعياتها السلبية على المدنيين العراقيين المحصورين بين النيران المتبادلة.

الحرب للقضاء على نظام صدام

إن أراد الرئيس بوش حل المعضلة العراقية فسيكون عليه تأكيد قيادته من موقع القوة كي يكوّن إجماعًا بين الجمهور الأمريكي والكونجرس على أن الإطاحة بصدام ستحدث فقط على يد حملة عسكرية أمريكية ضخمة. وطبقًا لتقديرات مايكل أيزنشتات لخطط دعم المتمردين العراقيين، فإنه «عن طريق تقويض أطراف النظام وليس توجيه ضربات ساحقة إلى مراكزه العصبية، يتحاشى أسلوب الملاذات الآمنة نمط التدمير والعمل العسكري الأمريكي الحاسم الذي قد يكون هو المطلوب للإطاحة بصدام، دون حدوث عواقب وخيمة للأبرياء من العراقيين وشعوب المنطقة».



ودرس حرب الخليج الذي يعيه الكثيرون من المراقبين هو أن صدام مُنع من استخدام الأسلحة الكيماوية والبيولوجية خوفًا من الرد الأمريكي الضخم، بما في ذلك احتمال استخدام الأسلحة النووية. وفي جنيف في يناير عام ١٩٩١ قبل بداية الحرب، حاول وزير الخارجية جيمس بيكر تسليم نظيره العراقي طارق عزيز رسالة مغلقة من الرئيس بوش إلى صدام، إلا أن وزير الخارجية العراقي رفض قبولها واضطر بيكر لتسليم أجزاء منها شفويًا. وكان بوش قد كتب في رسالته أن «الولايات المتحدة لن تغفر استخدام الأسلحة الكيماوية أو البيولوجية... وربما طالب الشعب الأمريكي بتوجيه أقوى رد ممكن. وسوف تدفع أنت وشعبك ثمنًا فادحًا إن أنت أمرت بأعمال غير معقولة من هذا النوع». والقول البديل، ولكنه يستحق الاهتمام، هو أن صدام احتفظ بما لديه من أسلحة الدمار الشامل كي يستخدمها كورقة أخيرة لإبعاد الخطر الأمريكي عن سيطرته على السلطة. ولو كان بوش الأب قد أمر القوات الأمريكية بالاستيلاء على بغداد، فمن المحتمل أن آثار الأسلحة الكيماوية والبيولوجية كانت ستتناثر على الطريق المتجه شمالاً من الكويت.

وفي أية حملة عسكرية في المستقبل للقضاء على نظام صدام، من المحتمل أن يكون خطر استخدام العراق للأسلحة الكيماوية والبيولوجية أكبر مما كان عليه أثناء حرب الخليج، لأن صدام سوف يدرك أن الولايات المتحدة تلعب للفوز بكل شيء أو لا شيء. وكان صدام سريعًا أثناء حرب الخليج حين أطلق الصواريخ الباليستية على إسرائيل في محاولة لجر القوات الإسرائيلية إلى الصراع والقضاء على الدعم العربي للمجهود الحربي الأمريكي. وإذا كان القضاء على صدام سيكون على أيدي حملة أمريكية أخرى، فإنه سيستهدف إسرائيل من جديد، وهذه المرة بغرض القضاء على الإسرائيليين معه ليجعل بذلك من نفسه شهيدًا في العالم العربي. والخطر الذي تمثله الأسلحة الكيماوية والبيولوجية العراقية يجعل من الضروري أن تكون العمليات العسكرية الأمريكية ضخمة وسريعة وغاضبة ومتعددة الأبعاد، بحيث تحرم القوات العراقية من

استعادة توازنها وتنظيم هجمات مضادة للدفاع عن النظام أو توجيه ضربات انتقامية ضد إسرائيل وغيرها من شركاء الولايات المتحدة الإقليميين.

ويبعث ما لدى صدام من قدرات أسلحة الدمار الشامل على الاهتمام، غير أن قدراته العسكرية التقليدية أضعف الآن مما كانت عليه إبان حرب الخليج، بينما ازدادت القوات الأمريكية قدرة. وقد مزقت القوات الجوية والبرية الأمريكية القوات العراقية بسرعة أثناء حرب الخليج وخفضتها من حيث الحجم إلى النصف تقريبًا. وعلى امتداد العشر سنوات الماضية كان العراقيون يستخدمون قطعًا من طائراتهم ودباباتهم وحاملات الجنود المصفحة وشبكة الدفاع الجوى المعطلة لتسيير السليم منها. إلا أن العقوبات الدولية نجحت في منع صدام من شراء كميات ضخمة من الأسلحة الحديثة - من روسيا أو أوروبا التي كان يشترى منها أنظمته القوية قبل حرب الخليج - اللازمة لتجديد قواته التقليدية. ومن ناحية أخرى، ازدادت القدرات العسكرية الأمريكية زيادة كبيرة، مع اعتمادها على عتاد التوجيه الدقيق وقاذفات ب٢ بعيدة المدى أكثر مما كان عليه الحال في حرب الخليج. والذكي من يراهن على تقييم البروفيسور إليوت كوين الذي يقول إن القوات التقليدية العراقية ستنهار بسرعة في مواجهة أية حملة عسكرية أمريكية قوية.

وفي السنوات التي انقضت منذ حرب الخليج، لعبت الولايات المتحدة مع القوات العراقية لعبة العين بالعين في الإشراف على مناطق حظر الطيران في جنوب العراق وشماله. ففي حوادث لا حصر لها كانت رادارات الدفاع الجوى الأرضية العراقية بها أجهزة لملاحقة الهدف للكشف عن الطائرات في مناطق حظر الطيران، وكانت بالتالي مستهدفة من طائرات التحالف. ولكن حتى عند الرد على أي عمل عراقي فظيع - مثل مؤامرة اغتيال الرئيس السابق بوش حين كان في زيارة للكويت - كان الرد الأمريكي محدودًا؛ فقد زادت حملة ثعلب الصحراء التي أعقبت ذلك واستمرت أربعة أيام في عهد حكومة كلينتون قليلاً عن شكة الدبوس.

لا بد أن تكون أية حملة عسكرية كبيرة للإطاحة بصدام انتقالاً ضخمًا من الخيارات العسكرية المحدودة التي استخدمت ضد العراق منذ حرب الخليج. إن الآلة العسكرية العراقية كبيرة، حيث يبلغ عدد القوات البرية حوالي ٣٧٥ ألف رجل. وينبغي أن تركز الحملة العسكرية الأمريكية القصف الجوى الضخم على مركز جاذبية النظام العراقي الواقع في قيادته، وأجهزة الاستخبارات، وهيئة الأمن الخاص، والحرس الجمهوري الخاص، والحرس الجمهوري، وفدائيي صدام، وهي هيئة أمنية شبه عسكرية. ويتكون الحرس الجمهوري العراقي من ثلاث فرق مدرعة وفرقة ميكانيكية وفرقتي مشاة، ويتكون الحرس الجمهوري الخاص من أربعة ألوية. ويتراوح عدد فدائيي صدام شبه العسكريين بين ١٨ و ٢٠ ألف رجل، وهذه القوات هي جهاز النظام الحاكم العصبي ومن الأرجح أن تكون مسئولة عن التعامل مع أسلحة الدمار الشامل العراقية. وينبغي أن يكون هدف الحملة العسكرية الأمريكية هو تدمير أعمدة أمن نظام صدام هذه.

وتشكل قوات الجيش النظامية الجزء الأكبر من القوات البرية العراقية، إلا أن صدام ينظر إليها على أنها علف للمدافع، بسبب ضعف تدريبها وتسليحها وإدارتها. ولا يدخل الجيش النظامي في دائرة القوة الداخلية الخاصة بصدام، بل هو ذلك العدد الضخم اللازم للهجمات الأرضية الدموية والفظة التي يشنها الخصم، سواء أكان أمريكيًا أم إيرانيًا. وبعد الضربة الأولى فحسب يأمر صدام قوات الحرس الجمهوري النخبوية بدخول المعركة؛ وكان ذلك

معضلة العراق

أية حملة عسكرية أمريكية قوية ضد العراق ربما تؤدى إلى تغيير حسابات إيران الاستراتيجية. ذلك أن طهران وقتها قد تعيد حساب الأمر باعتبار أن بناء قدرات أسلحة الدمار الشامل القوية تزيد احتمال الصراع مع الولايات المتحدة وليس ردع القوة الأمريكية في المنطقة

دأب صدام إبان حربه التي دامت ثماني سنوات مع إيران، وكذلك خطته لمقاتلة القوات الأمريكية أثناء حرب الخليج.



ولا ينبغي أن تستهدف الحملة العسكرية الأمريكية قوات الجيش النظامي العراقي بشكل مكثف، بل تركز تركيزًا شديدًا على قوات الأمن سابقة الذكر التي يعتمد عليها نظام صدام. ويتكون الجيش النظامي العراقي من ثلاث فرق مدرعة وثلاث ميكانيكية و١١ فرقة مشاة، إلا أن معظم هذه الوحدات ليست مكتملة القوة. ويمكن عدم قتل جزء كبير من الجيش العراقي أثناء الحملة العسكرية الأمريكية، فيما عدا تلك الوحدات التي تختار القتال بدلاً من الاستسلام للقوات البرية الأمريكية الغازية. ولا بد أن تغرق أدوات الدعاية الأمريكية، كالإذاعة والمنشورات التي تسقطها الطائرات، مواقع الجيش العراقي ومناطق الانتشار قبل القتال وأثناءه، لإبلاغ الجنود العراقيين بأن الولايات المتحدة تعتزم الإطاحة بصدام، وأنهم إذا استسلموا سوف يعاملون معاملة طيبة، كما عومل الجنود العراقيون في حرب الخليج، أما إذا قاوموا فسوف يقتلون. وسيكون الجيش العراقي مفيدًا في الحفاظ على الأمن الداخلي والحفاظ على عراق ما بعد صدام كبلد واحد. وسيكون هذا الهدف السياسي مهمًا إذا كانت الولايات المتحدة ستحصل على قواعد ودعم عسكري مهم من تركيا في الحرب ضد صدام. فسوف يحتاج الأتراك إلى ضمان أن الحرب لن تؤدى إلى تقسيم العراق بحيث تقوم دولة كردية على حدود تركيا، وكذلك دولتان يسيطر عليهما السنة والشيعة في وسط العراق وجنوبه.

سيكون من الواجب أن تصبح الحملة العسكرية الأمريكية مبتكرة، كما طالب إليوت كوين، وليست شبيهة بحملة حرب الخليج التي كانت ثقيلة الحركة وذات بعد واحد. وقد تسعى الحملة الجوية إلى تدمير القوات الجوية العراقية والدفاعات الجوية الأرضية والمنشآت والأفراد والمعدات المرتبطة بقيادة النظام الحاكم والحرس الجمهوري والحرس الجمهوري الخاص وهيئة الأمن الخاص وقوات فدائيي صدام. ومن الممكن شن الحملة الجوية بالتزامن والتنسيق مع غزو القوات البرية متعدد الشُعَب والعمليات المنقولة جوًا في أنحاء العراق للتغلب بسرعة على دفاعات صدام والاستيلاء على الأرض وتقليل خيارات صدام الخاصة باللجوء إلى أسلحة الدمار الشامل. وربما تضم الحملة البرية، من الناحية التخيلية، هذه العناصر:

* يمكن أن تتقدم شعبة من القوات البرية جنوبًا من تركيا لتتجه إلى مسقط رأس صدام ومعقل عائلته في تكريت. وسيكون الاستيلاء على تكريت بالنسبة للشعب العراقي بمثابة انتهاء سيطرة صدام على السلطة، حتى وإن نجح في تحاشي الهجمات الجوية والبرية الأمريكية في المراحل الأولى من الحملة.
* يمكن أن تتجه الشعبة الثانية إلى بغداد من الغرب قادمة من المملكة العربية السعودية أو الأردن، بينما يجرى تمشيط الصحراء الغربية العراقية بحثًا عن راجمات الصواريخ الباليستية المتحركة التي يمكن أن يستخدمها صدام ضد إسرائيل. والصحراء الغربية العراقية شاسعة وقد لا تتمكن القوات الأمريكية من احتلالها بالكامل، إلا أنه يمكنها على أقل تقدير السيطرة على خطوط الاتصال الرئيسية هناك لتعقيد عمليات الصواريخ الباليستية العراقية.
* تنطلق شعبة ثالثة من الكويت مسرعة إلى الشمال للاستيلاء على البصرة قبل التحرك إلى بغداد. وقد تشكل هذه الشعبة الجزء الأكبر من قوة الغزو الأمريكية، لأن الكويت ستكون أنسب منطقة للتوجيه، وسيكون جنوب العراق أنسب منطقة لمناورة القوات المدرعة الثقيلة اللازمة للاتجاه إلى بغداد. وستطهر هذه الشعبة كذلك طريقها من راجمات الصواريخ الباليستية العراقية الموجهة إلى قواعد الدعم الأمريكية والشركاء في الخليج. وقد تُستخدم الكويت كذلك كقاعدة لحشد القوات المتجهة إلى الصحراء الغربية العراقية، في حال رفض الأردن والمملكة العربية السعودية السماح للقوات الأمريكية باستخدام أراضيهما.
* قد يبعد الهجوم البرى الأمريكي متعدد الشعب من الشمال والغرب والجنوب وحدات الحرس الجمهوري والحرس الجمهوري الخاص والفدائيين التي نجت من الهجمات الجوية الأولى عن بغداد، مما يجعلها فريسة أسهل للقوات البرية الأمريكية من بقائها متحصنة في المناطق كثيفة السكان.
* ستزيد الهجمات المحمولة جوًا ضد أهداف النظام ذات القيمة العالية وكذلك القواعد الجوية داخل بغداد وحولها من شعب غزو القوات البرية. وستقام نقاط حصينة في القواعد الجوية التي استولى عليها لنقل قوات الاحتلال والمعدات.



سيحاول الغزو البرى ثلاثي الشعب والعمليات المحمولة جوًا سد طرق الهروب المحتملة التي يسلكها مسئولو النظام العراقي الفارون. وستكون الدبلوماسية الأمريكية القوية مطلوبة لتقديم مذكرة إلى طهران ودمشق بأن إيواء المسئولين العراقيين الفارين في إيران وسوريا لن يغتفر.

ستكون الاستخبارات العسكرية العراقية في وضع غاية في الصعوبة وهي تحاول تكوين صورة كاملة عن القوات البرية والمحمولة جوًا التي تتحرك بسرعة في حملة ضخمة للإطاحة بصدام. وطوال فترة دامت شهورًا كان لدى العراقيين أثناء حرب الخليج القليل من المعلومات الاستخباراتية، أو لا شيء منها بالمرة، بشأن وضع وموقف قوات التحالف التي كانت تستعد لتحرير الكويت، وقد فعلوا القليل منذ ذلك الوقت لتحسين قدراتهم الاستخباراتية. ومع وجود صورة استخباراتية غير دقيقة وغير مكتملة في مواجهة هجوم أمريكي، سوف تنشر القوات نشرًا غير مكثف في محاولة للدفاع عن كل الجبهات، إلا أنها سوف تُحشد بأعداد أقل وبعد فوات الأوان، بحيث لن يمكنها إضعاف الهجمات الأمريكية المتعددة في أنحاء العراق. ومع الهجمات الموجهة إلى أعمدة القوة الأمنية الخاصة بصدام، قد تواجه القوات الأمريكية معارضة قليلة من الشعب العراقي؛ فربما يختبئ العراقيون وينتظرون إلى أن يهدأ غبار المعركة.



قد لا يجلس صدام مكتوف اليدين انتظارًا للهجوم الأمريكي، حتى وإن لم تكن لديه الصورة الكاملة عن حجم التعزيزات الأمريكية داخل العراق وحوله. والقوات الأمريكية اللازمة للحملة قد تكون فرقة أو فرقتين أمريكيتين يتراوح عدد الجنود فيها بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ألف. وهذه القوات لن يمكنها تحاشي الاهتمام الإعلامي الذي سيحرم الولايات المتحدة من إمكانية المفاجأة الاستراتيجية. وقد يجرب صدام عددًا من الإجراءات لإعاقة حشد القوات الأمريكية، مثل توجيه أسلحته الباليستية، التي قد تكون ذات رؤوس حربية كيماوية وبيولوجية، ضد مناطق حشد القوات الأمريكية المحتملة في الكويت وتركيا. وقد يوجه كذلك ضربة استباقية بالصواريخ الباليستية ضد إسرائيل لجر الجيش الإسرائيلي إلى الحرب حتى قبل أن تكون القوات البرية الأمريكية قد دخلت الأراضي العراقية. ويمكن أن يصور صدام نفسه على أنه صلاح الدين الجديد الذي يخوض الحرب باسم العالم العربي ضد الكفار. إلا أن تلك الهجمات قد تكشف صواريخ صدام وما لديه من قدرات أسلحة الدمار الشامل السرية وتدعم الحجة الأمريكية في الغرب بالنسبة للحرب ضد العراق.

سيكون أحد أفضل خيارات صدام لمواجهة الهجوم الأمريكي هو البحث عن مأوى لقواته في المناطق الحضرية. فبإمكانه نقل قوات الحرس الجمهوري والحرس الجمهوري الخاص من حامياتهم ونشرهم في المناطق الحضرية. ذلك أن قوات الحرس الجمهوري والحرس الجمهوري الخاص ستكون معرضة لخطر الهجوم الجوى الأمريكي حين تنتشر في الصحراء والمناطق قليلة السكان، حيث يمكن تمييز الحرارة المنبعثة من الدبابات وحاملات الجنود المصفحة عن الصحراء الأبرد منها في الليل بأجهزة الأشعة تحت الحمراء. أما نشر قوات النظام العراقي في المناطق المكتظة بالسكان فسوف يوفر لها غطاء ويعقّد مهمة المخططين الأمريكيين الذين يسعون لتقليل الأضرار المصاحبة التي تلحق بالمدنيين العراقيين. وكما يشير بايمان، فإن «أمريكا تهتم، بصورة قد تكون فريدة في التاريخ العسكري، بمعاناة شعب النظام المعادي اهتمامًا يزيد على اهتمام النظام ذاته. وقد أظهر صدام مرارًا أنه سوف يسمح بموت آلاف من مواطنيه حين يناسبه ذلك». وستضطر القوات البرية الأمريكية إلى فرض حصار على المدن العراقية المحتلة، ما لم تختر القوات العراقية الاستسلام. وقد يبدو ما

شهدته المواقف المشابهة الأخيرة فى أفغانستان بين القوات الأمريكية ومقاتلى طالبان والقاعدة من موت وعنف ضئيلاً مقارنة بالموت والعنف فى حرب المدن العراقية. فسوف يشن صدام الحرب من مناطق حضرية كى يعطل تقدم القوات البرية الأمريكية، ويلحق بها الخسائر، ويثير جنون الرأى العربى بالتغطية الإعلامية الحية لمقتل المدنيين العراقيين نتيجة للهجمات الأمريكية.

حث الشركاء القلقين

لا بد أن تستعد الولايات المتحدة لدخول الحرب بقليل من الشركاء فى هذه الحملة الضخمة التى تستهدف تغيير النظام الحاكم فى العراق. فالقادة العرب ينأون بأنفسهم بالفعل عن الولايات المتحدة فيما يخص السياسة العراقية. ذلك أنهم قلقون بشأن استقرار أنظمتهم ويشغلهم أن الحملة الأمريكية ضد العراق قد تكون الشرارة التى تشعل أعواد الخشب الجافة التى تشكل الإحباط العربى، فيما يخص العنف الفلسطينى الإسرائيلى. ولن ترغب دول الخليج، وكذلك مصر والأردن، فى تعريض أنفسها لخطر أكبر بتقديمها الدعم العلنى للحملة ضد صدام. ربما تقدم الدعم فى السر ومن وراء الكواليس، إذا كانت مقتنعة بأن الولايات المتحدة ملتزمة كل الالتزام بتغيير النظام فى العراق وبأنها لن تدخر جهدًا لإنجاز المهمة. وفى الجولة التى قام بها مؤخرًا نائب الرئيس ديك تشينى - الذى يحظى بسمعة جيدة لدى الزعماء العرب بسبب دوره الرئيسى فى حرب الخليج - فى الشرق الأوسط، يبدو أنه بدأ العملية الاستراتيجية والدبلوماسية غير المؤكدة للسعى إلى حث دول المنطقة الرئيسية على دعم الحملة الأمريكية.

وسوف تضطر الولايات المتحدة إلى الاعتماد على دعم كبير من الكويت وتركيا، وكذلك إلى اللجوء إلى الأردن والمملكة العربية السعودية للحصول على مساعدات إضافية. والكويت، بخلاف الكثير من الدول العربية التى تفصلها فواصل جغرافية أكبر عن العراق، تدرك إدراكًا عميقًا اعتمادها على الولايات المتحدة فى ضمان بقائها، وستكون أكثر استعدادًا لدعم واشنطن. أما تركيا، التى يتضح أنها واحدة من أكثر الدول الأعضاء فى الناتو التى يمكن للولايات المتحدة الاعتماد عليها، فسوف تصر على الضمانات الأمريكية بعدم قيام دولة كردية منفصلة، ثمنًا لدعم أنقرة. إلا أنه من المحتمل أن يكون الحصول على المساعدة السعودية والأردنية موضع جدل وشك. فقد زادت القاعدة وأسامة بن لادن من الحساسية السعودية بشأن الاستقلال الداخلى والانتقادات الدولية بخصوص المجتمع السعودى، والاعتماد على الولايات المتحدة فيما يتعلق بأمنها. وكان العاهل الأردنى الملك عبد الله من أبرز مؤيدى الحملة الأمريكية ضد القاعدة وطالبان، إلا أنه قد يواجه خطرًا سياسيًا جمًا لو أبدى تاييدًا بارزًا للحرب ضد العراق. فالأردن يعتمد اعتمادًا كبيرًا على العراق فى موارده الاقتصادية وسوف يتعرض لاحتجاجات فلسطينية داخلية. ومع ذلك فمن المحتمل أن تكون لدى الملك عبد الله الرغبة فى تحاشى الخطأ الذى وقع فيه والده إبان حرب الخليج بدعمه الخاسر للعراق.



سوف تشن الولايات المتحدة الحملة بدون مساعدة من حلفائها فى حلف الناتو. فقد أعلن الفرنسيون والألمان صراحة أنهم لن يدعموا مثل هذه الحملة. ووصف وزير خارجية فرنسا فدرين إشارة الرئيس بوش إلى «محور الشر» بأنها « مفرطة فى تبسيطها»، فى حين صرخ وزير الخارجية الألمانى قائلاً «لن نُعامل كدول

يبدو أن المؤتمر الوطنى العراقى خبير فى إنفاق أموال دافعى الضرائب الأمريكيين على مكاتبه وعملياته خارج العراق، إلا أن هناك دليلاً ضعيفًا على أن له البنية التحتية الضخمة داخل العراق اللازمة للدخول فى معركة مع نظام صدام

تابعة»، واشتكى مفوض العلاقات الخارجية بالاتحاد الأوروبى من أن الولايات المتحدة تدخل فى «تصعيد من جانب واحد». وهذه الآراء الأوروبية غريبة، إذ كان كل من الألمان والفرنسيين فى التسعينيات لديهم رغبة شديدة فى جر الولايات المتحدة إلى صراعات البوسنة وكوسوفو حين لم تكن قواتهم العسكرية كفؤًا للمشاركة فى المهام. وبينما كانت صراعات البلقان تمثل أزمات إنسانية ضخمة، فإن الزعيم الصربى ميلوسيفتش لم تكن لديه قط القدرة على تهديد المصالح الأوروبية أو الأمريكية تهديدًا مباشرًا بالقدر الذى يهددها به صدام إن هو تُرك يفعل ما يحلو له. وينبغى على الأمريكيين شن هجوم سياسى ضد عدم رد حلفائنا الأوروبيين جميل الدعم العسكرى الأمريكى السابق فى البلقان، ولو بقدر بسيط من الدعم السياسى لشن حملة ضد العراق.

وفى أعقاب الحادى عشر من سبتمبر، صدرت عن الناتو إشارة سياسية رائعة، حيث وضع المادة الخامسة من معاهدة شمال الأطلنطى موضع التنفيذ - لأول مرة فى تاريخه بقدر هائل من الضجيج - لإظهار تضامنه مع الولايات المتحدة. وتبيِّن ضآلة القوة العسكرية الأوروبية التى أعيرت للحملة فى أفغانستان أن التحالف أجوف إلى حد كبير. والاستثناء الواضح بطبيعة الحال هو البريطانيون بزعامة رئيس الوزراء تونى بلير. فقد كان بلير موقعًا حصينًا يعتمد عليه، وإن كان بمفرده، لدعم الولايات المتحدة سياسيًا وعسكريًا فى حملة أفغانستان، وسوف تكون لمساعدته أهميتها بالنسبة للحملة ضد صدام. وفى المقابل، لن تحتاج الولايات المتحدة إلى أية مساعدة عسكرية فرنسية أو ألمانية بخلاف حقوق المرور المحتملة للقوات، وهو ما لا يزيد عما كان عليه الحال إبان حرب الخليج، حين كانت المساهمات الفرنسية هامشية فى أحسن الظروف ولم يكن للمساهمات الألمانية وجود.

ويقول مراقبون كثيرون، فى الولايات المتحدة وأوروبا، إن عملاً أمريكيًا «من جانب واحد» ضد العراق دون موافقة حلفائنا الأوروبيين قد يجبر هؤلاء الحلفاء على الابتعاد عن الناتو ورعاية ترتيباتهم الأمنية المنفصلة فى أوروبا لموازنة «النفوذ الزائد عن الحد» للولايات المتحدة». ومن المنظور الأمريكى، قد نرحب فى الوقت ذاته بذلك التطور، إذا كان سيدفع الأوروبيين إلى معالجة ذلك التدهور المطرد الذى طال أمده فى قدراتهم العسكرية. وتخسر الولايات فى وضعها الراهن شركاء فى أوروبا وتكسب تابعين، وهو ما سوف يقضى على المدى الطويل على القوة الأمريكية اللازمة للتصدى للتهديدات المحتملة الأكثر خطورة والأكثر مباشرة للأمن الدولى، وخاصة فى الشرق الأوسط وآسيا، حيث يفتقر الأوروبيون إلى القدرة على فرض النفوذ. وربما يكون الوقت قد حان كى يحمل الأوروبيون مسئوليتهم الخاصة بأعمال النظام ومهام حفظ السلام فى البلقان لتوفير الموارد الأمريكية للتحديات الأمنية فى أماكن أخرى.

شجاعة رجل دولة

وخطوات نحو المجهول

سوف يتطلب توجيه حملة عسكرية شاملة للإطاحة بصدام شجاعة سياسية هائلة من الرئيس بوش. وسيجلس جزء كبير من الدول الشرق أوسطية والأوروبية والآسيوية على الخط، ويخاطر القليل منهم بتقديم المساعدة العسكرية. بل إن البعض سوف يتمنى عجز الحملة الأمريكية عن التقدم ووصولها إلى نتيجة غير حاسمة. وسوف يبحثون عن إثبات لتوقعاتهم السياسية ويستطيبون معاناة الولايات المتحدة من الهزيمة السياسية والعسكرية الكبيرة، تلك الهزيمة التى سوف «تذل الولايات المتحدة». وفى حال انخفاض مستوى الأداء السياسى والعسكرى والاقتصادى فى أنحاء الشرق الأوسط وحتى بين من كانوا يومًا حلفاءنا الأوروبيين الأقوياء، سوف يفرح البعض فى سره لفشل الولايات المتحدة فى حملتها العسكرية ضد العراق.

إلا أن ما يسميه البعض «النزعة أحادية الجانب» ينبغى تسميته التسمية الصحيحة وهى «القيادة». فلا بد أن تقوم الولايات المتحدة، بقوة التاريخ والظروف والنفوذ، بدور «الموازِن» فى الخليج. فصدام ليس راضيًا بالوضع القائم ويسعى للحصول على القدرات العسكرية من أسلحة الدمار الشامل لإشاعة الفوضى للإضرار بالولايات المتحدة وشركائها فى المنطقة. ولا بد للولايات المتحدة أن تأخذ بزمام المبادرة وتتحرك ضد صدام قبل أن يمتلك وسائل التحرك ضد مصالحنا. والسبيل إلى ذلك حافل بالعناصر المجهولة، مثل عدد الخسائر من الجنود الأمريكيين والخسائر من المدنيين العراقيين، ومدى الاحتلال العسكرى وزمنه، وإدارة عراق ما بعد صدام. وسوف يكون على الولايات المتحدة أن تتغلب على تحديات غير متوقعة قد تنشأ عن احتلال العراق، كما فعلت عند احتلال ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية. كما ستكون تكاليف الاحتلال ومخاطره كبيرة، إلا أن ما يفوقها هو مخاطر الوضع القائم الذى يضمن بالفعل حصول صدام على الأسلحة النووية، وهى وسائل مهمة لإحياء العراق ليصبح دولة قوية قادرة على فرض إرادتها على جيرانها وإقامة إمبراطورية فى منطقة الخليج.



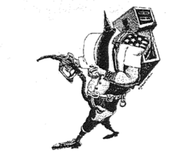
وفى حال إطاحة الحملة الأمريكية بصدام بسرعة معقولة، سوف يتكالب على الولايات المتحدة - لبعض الوقت على الأقل - طالبو الخير الذين سيأتون من خارج الخط قائلين «نحن معكم قلبًا وقالبًا»، دون أن تبدو عليهم أية لمحة خزى. وبعد سقوط صدام، وتشكيل الحكومة العراقية المؤقتة، ورفع عقوبات الأمم المتحدة، سوف يتوافد الساسة ورجال الأعمال الأوروبيون - وخاصة الفرنسيين والألمان والروس - أسرابًا على بغداد لإعادة بناء علاقاتهم المربحة التى قطعتها حرب الخليج. وسيفتح العرب كذلك أذرعهم للترحيب بالعراقيين إلى الحظيرة العربية. وستولى دول الخليج اهتمامها بالعراق الجديد لموازنة الإيرانيين فى الشرق والإسرائيليين فى الغرب.

وستأتى الحرب بالكثير من المساوئ والكثير من النتائج غير المتوقعة وغير المقصودة، كما هى طبيعة الحروب كافة. إلا أن ما يمكن أن نتوقعه هو أن غضب العرب من الولايات المتحدة، لما يدركون أنه ظلم فى الصراع الإسرائيلى الفلسطينى، لن تخف حدته كثيرًا. ومن المحتمل أن يكون هذا هو الحال حتى مع مضاعفة الجهود الأمريكية لرعاية وقف إطلاق نار إسرائيلى فلسطينى وتسوية يجرى التفاوض عليها كجزء من حزمة لحث الشركاء العرب المترددين على دعم الحرب ضد العراق. وسوف يتفاقم ضيق العرب من الولايات المتحدة وإسرائيل فى حال رد إسرائيل عسكريًا على العراق أثناء الحرب. بل إنه من المحتمل أن يتلاشى تقدير العرب لتوجيه ضربة قاتلة لصدام بنفس سرعة تلاشى التقدير الذى أبدته المنطقة للولايات المتحدة لتحريرها الكويت. وسوف يتناقص ذلك التقدير أكثر وأكثر بإطالة أمد الاحتلال العسكرى الأمريكى للعراق. وربما يشعر السعوديون على وجه الخصوص بالقلق من أن يعطى احتلال العراق الأمريكيين ثقلاً أكبر مما يجب فى سوق البترول العالمية ويهدد نفوذ الرياض وسلطانها.

وربما تفصل الشجاعة السياسية ميراث الرئيس بوش عن ميراث سلفه. فضربات صواريخ كروز التى وجهها الرئيس كلينتون للقاعدة فى السودان وأفغانستان عام ١٩٩٨ ردًا على تفجيرات سفارتى أمريكا فى كينيا وتنزانيا كان رد فعل لرئيس يُنظر إليه على المسرح الدولى على أنه ضعيف وليس له وزن سياسى يتناسب مع قوة دولته. فقد قضت على قوة كلينتون فضيحة داخلية من صنع يده - كما حدث لقوة نيكسون أثناء ووترجيت - ولم يكن بإمكانه ممارسة سلطته كقائد عام ممارسة كاملة. ولا يبدو أن هذا هو حال الرئيس بوش. فتصريحه بأنه «إما أن تكونوا معنا أو ضدنا» قد لا يرقى إلى الكياسة التى تتوقعها النخبة المفكرة فى الولايات المتحدة والخارج، إلا أن الرسالة المقصودة منه مفهومة فهمًا جيدًا فى الشوارع وفى تقلبات السياسة. وكما قدر مكيافيلى، فإن الأمة تكون أكثر أمانًا حين يخشاها الآخرون أكثر مما يحبونها. وقد عانت الولايات المتحدة من ضربة كبيرة حيث قُتل حوالى ٣ آلاف من مواطنيها المدنيين على أرضها ولا بد أن تكون مستعدة للقيام بما تختاره لضمان عدم معاناتنا من تلك الخسائر مرة أخرى على أيدى أى عدو خارجى. ■

Us Army War College
Parameters, Autumn 2002

ترجمة: أحمد محمود



التقييم الأمريكي لقدرات العراق العسكرية



أنطوني كوردسمان

نادرًا ما تقرر العوامل «غير الملموسة» - كالأرقام الخاصة بالقوى العاملة والمعدات أو جوانب القدرة على البقاء التي يمكن قياسها أو غيرها من مقاييس الفاعلية - المعارك والحروب. ويبين المثال التاريخي تلو الآخر أن المحصلة العالمية الحقيقية للحرب كانت تقررها «الأشياء غير الملموسة»، حيث يختلف العديد من الخبراء اختلافًا حادًا بشأن القدرة النسبية لكل جانب.

وفي الوقت الراهن يرى بعض الخبراء أنه من السهل جدًا تأكيد أن الوحدات القتالية العراقية الرئيسية سوف تحارب بولاء وعزم بسبب ما تتمتع به من ميزات والاعتماد على النظام الحاكم وما لديها من نزعة الوطنية. بينما يرى آخرون أنه يمكن بنفس القدر من السهولة التأكيد على أن القوات العراقية سوف تنهار أو تتخلى عن ولائها بسرعة، لأن النظام الحاكم مستبد وليس محبوبًا.

ومن الناحية العملية أظهر الأداء العراقي في الحروب السابقة أنه لا يمكن التنبؤ بجوانب كثيرة من سلوكه العسكري إلى أن تبدأ الحرب، وأن هذه الشكوك تتفاعل مع الشكوك التي تؤثر على أية تنبؤات بخصوص الأداء العسكري لخصوم العراق.

و«الأشياء الملموسة» والشكوك التالية فيما يتعلق بالقدرة القتالية العراقية تؤثر على أي تقييم ديناميكي للعراق:

* شعبية النظام وعدم شعبيته الواقعية بين عناصر القوات المسلحة المختلفة وفي مناطق العمليات العسكرية. وقد يتباين الولاء داخل عناصر القوة المختلفة كالحرس الجمهوري والحرس الجمهوري الخاص والجيش النظامي الذي يتكون بالتطوع النظامي والجيش النظامي الذي يتكون إلى حد كبير بالتجنيد الإجباري النظامي.

* الأثر الواقعي للقهر والطغيان مقابل الحوافز والنزعة الوطنية والدعاية في تحديد الدعم الشعبي للنظام أو المعارضة الفعالة. أثر قضايا مثل التقسيمات العرقية، وعقوبات الأمم المتحدة، وبرنامج النفط مقابل الغذاء، ورد الفعل المعادي الناتج عن الانتفاضة الثانية.

* استعداد الفصائل الكردية المختلفة للمشاركة في الصراع أو اجتيازه بسلام، وولاء العناصر الشيعية مقابل الانتفاضات والمقاومة.

* قدرة رشاوى النظام وحوافزه على شراء الولاء.

* الأثر الذي أحدثه العنصر القتالي الخاص بما يزيد على عشر سنوات من عدم الوصول إلى سوق السلاح العالمية المفتوحة، إلى جانب التمويل المتاح المحدود لصيانة القوات وتحديثها، وتقييد القدرة بعد الأخرى على تهريب قطع الغيار والأسلحة والعتاد الحربي.

* القدرة المشكوك فيها للرصيد الحالي من العتاد الحربي وقطع الغيار على الصمود.

* نوعية التدريب وتجربة القيادة التي تخوضها الوحدة وعنصر القوة.

* الاعتماد على نظام لوجيستي صارم يؤكد على تكنيكات «التدفق قُدمًا» للتعويض عن عدم الاستجابة لحاجات القادة والموقف التكتيكي، من خلال تحريك الإمدادات للأمام بكميات كبيرة بغض النظر عن الحاجة الحالية.

* إحراز تقدم في الحد من عدم المرونة السابقة والمركزية المبالغ فيها في نظام الأوامر وعدم سماحه باستقلالية التحرك.

* القدرة الواقعية لتنفيذ حرب المدن والعمليات العسكرية في المناطق التي تكثر فيها المباني؛ وكذلك القدرة على الاحتماء في المناطق المأهولة واستخدام الدروع البشرية دون حدوث انتفاضات أو تحرك شعبي. أثر التقسيمات العرقية والولاءات القبلية وغيرها في أماكن بعينها.

* مستوى التحسن في العمليات الجوية وفي القدرة على إدارة القتال من الجو للجو ومن الجو للأرض باستخدام القوات المتناثرة القادرة على القيام بعمليات مستقلة.

* كفاءة تكنيكات الانتشار والدروع البشرية، إلى جانب الأهداف الوهمية والخداع، في الحد من كفاءة الاستخبارات والاستكشافات الأمريكية وتحديد الأهداف وقدرات الضربة الجوية.

* القدرة على الاستفادة بفاعلية من الموانع المائية والحواجز الأرضية؛ والقدرة على ربط الهندسة القتالية بالتكتيكات العسكرية الواقعية في مواجهة القوة الجوية الأمريكية وقدرة طائرات الهليكوبتر على الحركة.

* القدرة على نشر وتركيز أصول الدفاع الجوي بفاعلية من أجل الأغراض التكتيكية، في مواجهة نظام SA-2 وSA-3 وSA-6 الثابت ثباتًا كبيرًا.

* القدرة قصيرة ومتوسطة المدى الخاصة باستطاعة دفاعات الصواريخ أرض جو الثقيلة الحفاظ على سلامتها في زمن الحرب.

* الوضع الحالي للحرب المشتركة وخبرة الأسلحة المشتركة، وتحسين هذه الخبرة، إن كان هناك أي تحسين.

* القدرة المتماسكة على المناورة والقدرة على استخدام طائرات الهليكوبتر للتغلب على الموانع المائية وتقديم التعزيزات.

* حدثت منذ عام ١٩٩١ تحسينات في تكتيكات المدفعية وأساليب الحصول على قدرات تهديفية بعيدة المدى وإدارة النيران وتغيير مسارها.

* التخطيط والقدرة الواقعية لتنفيذ الحرب غير المتماثلة والحرب الخفية واستخدام الوكلاء الإرهابيين.

* فاعلية قوات الأمن والقوات شبه العسكرية في مواجهة أية معارضة شعبية خطيرة.

* حجم وفاعلية قوات المعارضة العراقية، إن كانت موجودة.

* حجم وفاعلية الممتلكات الحالية من الأسلحة والصواريخ الكيماوية والبيولوجية والإشعاعية والنووية وغيرها من أنظمة التوجيه. وامتلاك الأسلحة البيولوجية أو النووية المحتمل مسألة مهلكة يمكن أن تلحق دمارًا ضخمًا وتحدث تغييرًا كبيرًا في مستوى الردع أو القدرة على خوض الحرب.

* وجود الإطلاق المخطط سلفًا عند الإنذار، والإطلاق عند التعرض لهجوم، والقدرة على توجيه ضربة انتقامية لتوجيه القوات الكيماوية والبيولوجية والإشعاعية والنووية، ونشر القدرات الخفية وقدرات الوكلاء الإرهابيين.

من السهل تخمين - أو تأكيد - حكم ما بشأن القدرة العراقية في أي من المجالات السابقة. إلا أنه صحيح بالتأكيد أن معرفة القليل بشأن السلوك العسكري العراقي منذ عام ١٩٩١ يوحي بأن العراق سوف يحقق فجأة درجات ضخمة من المفاجأة والتجديد في العمليات العسكرية، إلا أن ذلك نادرًا ما يستبعد، والمسألة الأساسية في خوض الحرب هي في كثير من الأحيان مسألة تتعلق بالكفاءة الهامشية أو النسبية.



ويدعو الكثيرون الذين يعارضون أو يشكون في ضرب العراق إلى تقديم ما يدل على وجود خطر محدق. وما لم نحقق الإنجاز الكبير الكافي في المعلومات الاستخبارية البشرية، لن يكون أمامنا من سبيل لتحديد حجم قدرة الأسلحة البيولوجية العراقية على الدمار، أو التعامل مع الاستخدام المحتمل للفيروسات المعدية مثل الحصبة. فالعراق لم يكن أمامه من سبيل لإجراء تجارب ضخمة على تلك الأسلحة. ولن يعرف القدرة التدميرية لما يستخدمه إلى أن يستخدمه بالفعل. وسوف ينطبق الشيء ذاته على مستوى التحسين في العوامل الكيماوية، حيث يقلل بحث المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية إلى حد كبير من حجم الشكوك التي تنطوي عليها معرفة إذا ما كان العراق قد استولى على مواد أو أسلحة قابلة للانشطار (ولا يمكنك تكذيب النفي) وتتبع أية قدرة على الوصول إلى الأسلحة البيولوجية.

إن الدعوة إلى توجيه ضربة استباقية ضرر «قريب» إلى حد كبير. فقد مضى أكثر من عقدين على جهد العراق في مجال أسلحة الدمار الشامل، وثماني سنوات على اكتشاف لجنة التفتيش على الأسلحة التابعة للأمم المتحدة لاستمرار النمو العراقي، وواردات التكنولوجيا التي لم تتوقف، والاحتمالات المتزايدة لتحقيق العراق تقدم كبير بمرور الوقت. وليس هناك إنذار نهائي سحري.

والواقع أننا سوف نكتشف مدى خطورة العراق الفعلية بمجرد استخدامه لأسلحته، ومرة أخرى سوف يستخدم أنظمة توجيه لم يجربها في الواقع إلا على نطاق ضيق (وهو ما فعله حين أطلق أول صواريخه من طراز سكود، التي زاد من مداها على إيران واستخدم لأول مرة قنابل غاز الأعصاب وبخاخات غاز الخردل.

ونحن لا نعلم شيئًا عما أحرزه العراق من تقدم في مجال تصميم الرؤوس الحربية والقنابل منذ عام ١٩٩٢، ويمكن أن تؤثر طرق التسليح على القدرة التدميرية الفعلية للعوامل البيولوجية عن طريق ترتيبات عديدة للحجم، ولكنه سيكون على العراق إلى حد كبير أن يخمن ما دام يمكنه إجراء تجارب كبيرة. ونحن لا نعلم إن كانت لديهم عوامل بيولوجية للتخزين الجاف، وسلالات جديدة، وقنابل ورؤوس حربية كيماوية ثنائية أفضل وغير ذلك أم لا. ولكننا نعلم أن الشهور والسنين تمنحهم الفرصة كي يخلقوا المزيد من الأسلحة المميتة.

إن معضلتنا الكبيرة في هذا المجال هي أن أحدًا لا يعلم متى يصبح العراق بحق تهديدًا مميتًا ضخمًا. ليس هناك تاريخ يمكن التكهن به، وليس هناك ميعاد لـ«الخطر المحدق»، وليس هناك خط واضح على الرمل.

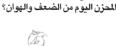
كلمة للمؤلف في تقديم «تقرير القدرات العسكرية العراقية ٢٠٠٢» أمام معهد الدراسات الدولية والاستراتيجية - واشنطن.

ترجمة: أحمد محمود

الألفاظ الأعجمية فى القرآن

نبيل حنفى

حينما يتأمل المرء ما آل إليه أمر المسلمين فى السنوات الأخيرة.. يأخذ الأسى منه بمجامع القلب، فقد وقعت الأمة الإسلامية خلال تلك السنوات بين فكىّ تحالف الأعداء الخارجيين والهجمة الداخلية الشرسة لبعض جماعات التطرف التى تتمسح بالدين، فلما وقعت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م فى نيويورك، وأصبح الإسلام وتابعوه الهدف الجديد للغرب بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، توالت الأحداث تسابق الأيام والشهور، فبعد عربدة إسرائيل فيما تبقى من فلسطين واجتياح أفغانستان، يطلع على المسلمين اليوم فجر غزو العراق ممثلاً فى الحشود العسكرية التى تتجمع فى الخليج والتصريحات النارية والتهديدات تتردد ما بين واشنطن ولندن، وبينما تتجمع النذر فى الأفق تنذر بأوخم العواقب، فإن الأمة الإسلامية تبدو ساكنة لا حراك لها إزاء ما يخطط لحدوثه من أمور، وكأن هذه الأمة لم ترفع أعلامها يومًا على معظم المعمور من العالم القديم، لقد وصل الإسلام إلى أقصى بقاع الأرض فى ظل مناخ فكرى اتسم بالتحرر ونبذ التعصب، وحين امتلكت الأمة وقتها أسباب القوة مدعومة بفيض من علوم الدين والدنيا، فإنها دفعت برايات الإسلام إلى الآفاق، فكيف وصلت الأمة إلى حالها المحزن اليوم من الضعف والهوان؟



تزامنت بداية محنة الأمة الإسلامية ـ ومن ثم توقف المدّ الإسلامى ـ مع محنة الإمام أحمد بن حنبل فيما بين عامى ٢١٨هـ و٢٣٧هـ، وهى المحنة التى امتدت عبر خلافة ثلاثة من الخلفاء العباسيين: المأمون والمعتصم ثم الواثق، دارت محنة الإمام أحمد حول مسألة «خلق القرآن» التى كان أول من قال بها هو الجعد بن درهم فى دولة بنى أمية، ليجئ أحمد بن أبى دؤاد ـ شيخ المعتزلة ـ لينفخ فى نار تلك المسألة من جديد فى خلافة المأمون، وليصاب الإمام أحمد بن حنبل ونفر من العلماء بالعذاب والأذى من جراء شررها المتطاير، فلما انتهت المحنة فى خلافة المتوكل.. فإنها كانت قد أثمرت ثمرتها التى تمثلت فى غلق باب الاجتهاد فى أمور الدين والدنيا، لتتحول النصوص الدينية إلى «نصوص مقدسة» مع مقولة السلف «لا اجتهاد مع نص» وليغلق أيضًا باب البحث العلمى فى جميع العلوم الدنيوية باعتبارها شعوذة وبدعة، فتنسدل ستائر الظلام على عقل الأمة.. وتتباعد فترات الزمان الفاصلة بين ومضات الفكر النادرة التى تجود بها قرائح القلة من مفكرى الأمة بين حين وآخر، حتى أصبح ظهور كتاب يحمل اجتهادًا فكريًا فى شئون الدين أو الدنيا نادرًا ندرة الفرح فى زماننا.

المؤلف والفكرة:

مؤلف كتابنا هذا هو محمود رءوف أبوسعدة، ولد بالإسكندرية وتخرّج فى جامعتها بدرجة الليسانس فى الفلسفة، بدأ حياته العملية فى إحدى شركات التامين بالإسكندرية، وتركها فى عام ١٩٧٨م ليعمل مترجمًا بالمقر الأوروبى للأمم المتحدة فى جنيف وحتى نهاية عام ١٩٨٨م حيث تقاعد آنذاك، ولقد خطرت للمؤلف فكرة محور الكتاب كبارقة إلهام بعد استقراره فى جنيف بحوالى العام، حدث ذلك عندما تأمل المؤلف يقول الله عزّ وجلّ فى مُفتتح سورة «مريم»: ﴿كهيعص. ذِكْرُ رحمة ربك عَبْدَهُ زكريا﴾ (مريم ـ ١، ٢)، فاستوقفته المشاكلة بين كلمة «ذكر» العربية والاسم الأعجمى العبرانى لنبى الله «زكريا»، ساءل المؤلف نفسه عن سبب المشاكلة.. أيُراد بها الجناس اللفظىّ أم الجرس الفخم أم أنها مصادفة بحتة؟ وحين طرح المؤلف المصادفة جانبًا منزهًا كلام الله عن ذلك، فإن الإلهام قاده ليبحث عن أصل كلمة «زكريا» فى اللغة العبرية ليجد أنها تعنى «ذاكر الله»، وكأن المولى عزّ وجلّ يقول: ذكر الله ذاكر الله أو ذكر الله فذكره، ثم ازدادت الفكرة لمعانًا فى ذهن المؤلف حتى أيقن أن هذه الآية الكريمة تحمل فى ثناياها سرًا يبحث عمن يجليه، فكان أن سأل المؤلف نفسه للمرة الثانية: أيفسّر القرآن أعلامه الأجنبية بذكر معناها على التجاور فى ثنايا الآية؟ لقد قضى المؤلف نحو عشر سنوات فى جنيف وقبل أن يبدأ فى كتابة بحثه فى مايو ١٩٨٩م.. يبحث فى المكتبات عن مراجع بحثه بين معاجم اليهود وكتبهم وبين أبحاث المستشرقين، وذلك إضافة إلى دراسة القرآن فى كتب التفسير متسلحًا بعلوم اللغة العربية والحديث والتاريخ والعلوم الطبيعية والاجتماعية، ثم لكى يحقق المؤلف روايات أهل الكتاب فى مصادرها الأصلية ـ أى فى التوراة والإنجيل ـ فإنه ألمّ إلمام الباحث باللغات العبرية (عبرية التوراة لا العبرية المعاصرة) واليونانية الكنسيّة والآراميّة إضافة إلى المصرية الهيروغليفية، وحين اكتملت للمؤلف أدواته.. فإنه أتم بحثه فى تفسير العلم الأعجمى فى القرآن بالقرآن نفسه فى أقل من عامين، ولقد أدار المؤلف بحثه على محورين: أولهما تأصيل معنى العلم الأعجمىّ فى لغته الأصلية، وثانيهما استخلاص اللفظ القرآنى أو العبارة القرآنية المفسِّرين لمعنى الاسم الأعجمى العلم.

نتائج وأمثلة:

أعمل المؤلف ما أوحى إليه به إلهام الفكرة الأولى من منهج فى واحد وستين اسمًا علمًا ـ أعجميًا أو مشتبهًا فى عجمته وردت كلها فى سياق الآيات القرآنية، فوجد أن القرآن يفسّر الأعلام الأعجمية فى سياق الآيات القرآنية من خلال ست أدوات للتفسير هى الترادف والتقابل والتعريب والترجمة والمشاكلة والسياق العام، فعلى سبيل المثال.. فسّر القرآن الاسم «داود» التى تجئ فى العبرية «دى ـ أود» بمعنى «ذو الأيد» فى العربية بالمرادف المطابق اللصيق فى قول المولى عزّ وجلّ فى الآية السابعة عشرة من سورة «ص»: ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾، كذلك فسّر القرآن الاسم العبرانى «هارون» والذى يعنى فى العبرية «عَلىٌّ أو متعال» بالمجانسة على معنى القوة والشدة فى قول الله تعالى على لسان نبّى الله موسى: ﴿واجعل لى وزيرًا من أهلى. هارون أخى. اشدُد به أزرى﴾ (طه: ٢٩ ـ ٣١)، ويقول المؤلف بأن القرآن فسّر الاسم «هارون» مرة أخرى بالتقابل على معنى القوة والشدة بكلمة «استضعفونى» فى قول هارون يعتذر لأخيه نبىّ الله موسى فى فتنة العجل: ﴿قال ابن أمَّ إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تُشمت بى الأعداء﴾ (الأعراف: ١٥٠)، ومن ذلك أيضًا أن القرآن فسّر الاسم «ميكائيل» بالتعريب إلى «ميكال» المشتقة على «مفْعال» من «وَكَلَ» بمعنى الوكيل أو الموكل المفوَّض، والاسم «ميكائيل» فى العبرية هو اسم وحيد الجذر على زنة «مفعال» ـ والمستخدمة فى العبرية أيضًا ـ من الجذر العبرىّ «يَكُلْ» المكافئ لـ«وَكَلَ» العربى معناه: أى أوكلت إليه الأمر فهو مُوكّل ووكيل، فيكون معنى «ميكال» فى العبرية: الوكيل الموكّل المفوّض وهو نفس المعنى فى اشتقاقها العربى! أيضًا يجىء القرآن بالاسم «يحيى» على الترجمة لمعنى الحصور فى قول الله تعالى: ﴿إن الله يبشّرك بيحيى مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا﴾ (آل عمران: ٣٩)، والحصور فى اللغة العربية هو الذى يكف نفسه عن شهوة النساء، والاسم «يحيى» العربى الذى ليس فيه شبهة عجمة يعنى الحيىّ حياءً.. يأتى به القرآن بديلاً للاسم العبرىّ ـ الآرامىّ «يوحنا» لنبى الله فى التوراة، وقد ردّ المؤلف الاسم «يوحنا» إلى جذره العبرىّ ـ الآرامىّ فأصبح «يُو + حَنّى» والذى يعنى فى العبرية «الله أحصر» بمعنى «الذى أحصره الله» وهو الحصور الذى فى القرآن!

تتوالى عبر صفحات الكتاب النتائج التى تؤكد فى وضوح لا لبس فيه صحة منهج المؤلف فى تفسير العلم الأعجمى فى القرآن بالقرآن، ومن أعجب ما توصل إليه المؤلف فى بحثه تفسير معنى اسم نبى الله «يونس» على أنه تعريب لكلمة «يونا» العبرية فى العهد القديم، يقول المؤلف إن القرآن عرّب الاسم العبرى «يونا» على المعنى الآخر لهذا الاسم فى التوراة وهو «الظالمة»، فالاسم العبرانىّ «يونا» يعنى فى العبرية «الحمامة» فى العربية وقد اشتق من الجذر العبرى «ينا»، أما اسم الفاعل المؤنث من الجذر «ينا» فإنه «يونا» وهو يعنى الظالمة فى اللغة العبرية، لذلك جانس القرآن المعجز بين اسم «يونس» وبين الظلم فى الآية رقم (٨٧) من سورة (الأنبياء): ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبًا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾، يقول المؤلف لقارئه بعد أن انتهى من تفسير الاسم يونس: «كفاك بهذا إعجازًا فى فقه العبرية دونه كل إعجاز، وسبحان الذى علّم بالقلم.. علم الإنسان ما لم يعلم» (الجزء الثانى ـ ص١٩٦).

يمضى المؤلف مطبقًا أدوات التفسير الست التى توصل إليها فى بحثه على الأعلام الأعجمية التى وردت فى القرآن، فما خرج عن القاعدة التى أرستها تلك الأدوات سوى اسم واحد من واحد وستين اسمًا هو «المجوس» التى لم تفسّر على منهاج هذا البحث، وقد أوضح المؤلف أن السبب فى ذلك هو أن اسم «المجوس» ليس من مُعرّبات القرآن وإنما هو من مُعرّبات العرب يريدون به اسم أهل الملة من عبدة النار جميعًا: كهنوت وغير كهنوت، إن انطباق نتائج البحث مع منهجه كان انطباقًا تامًا، وهو ما أغرى المؤلف على أن يتناول أسماء أعلام أخرى لم ترد بالقرآن محاولاً تطبيق منهج بحثه عليها، ومن هذه الأسماء: «حواء» و«يوكابد» و«مريام» وغيرها، ولقد أنجز ذلك ـ بفضل من الله ونعمة ـ إتمامًا لهذا الوجه الجديد من إعجاز القرآن.

أوجه القصور

إن هذا البحث الجديد فى «إعجاز القرآن» يعتمد منهجًا لم يسبق المؤلف إليه أحد على الإطلاق ممن عالج هذا الفرع فى علوم القرآن من علماء وباحثين، وإن أكثر ما يجذب انتباه قارئ هذا الكتاب الذى جاء فى جزءين شغلا سبعمائة وسبعًا وثلاثين صفحة من القطع المتوسط.. هو كثرة القضايا التى يتصدى لها المؤلف والفيض الزاخر من المعلومات التى تترى بين جنبات البحث، والمؤلف يطرح أفكاره فى هذا الخضم بأسلوب يرى الدكتور / محمود الطناحى (رحمه الله) فى تقديمه للكتاب أنه: «ينتمى لذلك النمط العالى من البيان المشرق الوضىء. الذى هو السمة الغالبة على أسلوب علمائنا الأوائل»، وفيما بين التوفيق فى استنباط النتائج والاجتهاد فى كثير من القضايا التى عرض لها البحث، فإن ثمة هنات لابد أن تلحق بالعمل لتحيد به قليلاً أو كثيرًا عن الشكل الأمثل الذى تتغيّاه نفس الكاتب أو القارئ، ولقد تصدى كل من الدكتور / محمود الطناحى فى المقدمة التى صُدّر بها الكتاب والدكتور / محمد رجب البيومى فى مقال بمجلة «المصور» بتاريخ ١١ / ٢ / ١٩٩٤م لمعظم ما جاء فى الكتاب من أوجه القصور أو مداخل النقد، ولكن تبقى هناك نقطتان يمكن أن تضافا إلى ما تفضل بالإشارة إليه من نقد كل من الدكتور الطناحى والدكتور البيومى، وهو ما سوف نعرض له الآن.

من إعجاز القرآن
رءوف أبو سعدة
القاهرة: دار الهلال ـ جزءان ـ ١٩٩٣: ١٩٩٤م



أحمد اللباد

تدور النقطة الأولى حول اهتمام المؤلف البالغ بالرد على كثير من دعاوى المستشرقين ضد القرآن والإسلام.. مما يقطع من سياق البحث، لذلك اهتم المؤلف كثيرًا بعرض الكثير من روايات العهد القديم وأكاذيب أحبار اليهود حول بعض أعلام البحث، من ذلك ما ذكره المؤلف عند تفسيره للأعلام: الزبور (جزء٢ - ص١٥٢) وسليمان (جزء ٢ - ص١٥٩) وهى أعلام عربية لا تحمل شبهة لعجمة، لكنه تعرض فى ثنايا تفسيره لهذين العلمين لما أورده كتبة العهد القديم مرادفًا لهما، ثم أوضح ما تكبده أولئك الكتبة من جهد لإثبات دعاواهم المضلة عن نحت هذه الأعلام من جذور عبرية قد لا يكون لها وجود بالمرة أو محاولتهم ضبط الاسم - العمل على ما كان ينطق به فى عصر تدوين التوراة وتبعًا لرسمه اليونانى فى أصول الأناجيل، كل ذلك لم يكن كافيًا.. فمضى المؤلف بعد ذلك يفنّد دعاوى كتبة العهد القديم - فى سفر صموئيل الثانى - على نبى الله داود، ثم يختتم المؤلف ذلك بقوله: «وقد قصصت عليك فاطلت، كى تعلم إلى أى مدى بلغُ الكتبة فى أعراض أنبياء الله ورسله» (جزء ٢ - ص ١٦٤)، ولكنه لا يكتفى بذلك.. وإنما يتبعه بعرض ما أورده القرآن.. مفسّرًا وشارحًا ومقارنًا ما جاء به القرآن وما دلّس به كتبة التوراة، يستغرق هذا الاستطراد الصفحات من ١٦٢ إلى ١٦٦ من الجزء الثانى، وذلك بالرغم من أن «سليمان» عربية قح لا تحتاج من القرآن أن يفسرها للعرب على منهج الكتاب كما ذكر المؤلف فى الصفحة السابقة (الصفحة رقم ١٦١ من الجزء الثانى)!

والنقطة الثانية هى نتاج للأولى.. إذ إن الحماس فى الدفاع عن القرآن والإسلام قاد المؤلف إلى موارد الإطالة، وهو ما نتج عنه التفرع فى مسارات كثيرة لم تخدم البحث وإنما أجهدت القارئ وأضعفت - فى بعض المواضع - من تركيزه على فكرة البحث، ومن ذلك أن المؤلف عندما فسّر العلم «فرعون» بأنه الصرح على الترادف الصريح تبعًا لمنهاج بحثه ومستعينًا بما أورده القرآن فى الآيات: (٣٨ - القصص) و(٣٦ - غافر)، فإن ذلك تم له فى ثلاث صفحات لا أكثر هى الصفحات من ٣٣ إلى ٣٥ من الجزء الثانى، ولكن ما دأب المؤلف عليه من إطالة وتشعيب لقضايا بحثه.. قاده لأن يفرد الصفحات فيما بين الصفحة رقم ٣٥ إلى الصفحة رقم ٤٩ من الجزء الثانى للخوض فى قضية خلافية تضاربت حولها الآراء، كانت القضية التى تفرع إليها المؤلف عند تفسيره للعلم «فرعون» تدور حول «من هو بالضبط من فراعنة مصر الذى لقب (فرعون موسى)».

كلمة أخيرة

هذا بحث فى واحد من أعقد فروع تفسير القرآن، يبتكر مؤلفه منهجًا جديدًا لم يفطن إليه باحث قبله وهو تفسير العلم الأعجمى في القرآن، ولعل وجود هذا الكتاب بما حواه من فكر ومنهج بحثى فى السنوات الأخيرة التى يعانى فيها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها.. يدفع عن الإسلام ما يوجه إليه من اتهامات وما يلصق به من تخرصات، فها هو مسلم معاصر يعمل أدوات البحث العلمى فى بعض آيات القرآن الكريم، ليبحر بعقله فى بحر كتاب الله الزاخر وليغوص فى أعماقه التى تغص بالكنوز والعجائب، ليخرج إلينا بلآلئ الإعجاز التى تملأ القلوب وتنير العقول بصحيح الإيمان. ■

مكتبة التاريخ.. والأسئلة التاريخية

هكذا التاريخ.. بحكم طبيعته، وبحكم إنسانية رواته وكاتبيه، يبقى صندوقًا للألغاز وعلامات الاستفهام.

وهكذا مكتبة الإسكندرية، العلامة الثقافية التاريخية الفريدة،

تأتى إعادةُ افتتاحها بإعادة لكل الأسئلة القديمة / الجديدة؛

من حرقها؟ وهل هو عمرو بن العاص؟ بل هل احترقت أصلاً؟ وهل هى يونانية كما ساد الاعتقاد؟.. وهل.. وهل.

هنا مقالان عن مكتبة التاريخ والأسئلة التاريخية.



مكتبة الإسكندرية لم تكن يونانية!

أحمد عثمان

ثار جدال بين الباحثين عن تاريخ المكتبة القديمة وموقعها، وبينما أجمع الأساتذة المصريون على أن مكتبة الإسكندرية أقامها بطليموس الأول، وأنها كانت جزءا من الموسيون (المتحف)، تؤكد الأدلة التاريخية المعاصرة للأحداث أنها أقيمت فى عهد بطليموس الثانى، وأنها كانت جزءا من معبد السيرابيوم. وليس هذا مجرد خلاف أكاديمى ليست له أهمية تاريخية، بل له دلالات هامة فى التعرف على أصل الحضارة الغربية الحديثة. فلو صح أن مكتبة الإسكندرية كانت جزءا من المتحف، فإن هذا يعنى أنها كانت تمثل الحضارة الهيلينية اليونانية، بينما لو ثبت قيامها فى السيرابيوم فهذا يعنى أنها كانت تمثل حضارة مصر القديمة والحضارة الشرقية بشكل عام. وفى اعتقادى أن سبب الخطأ فى تحديد موقع مكتبة الإسكندرية القديمة يرجع إلى قبول الباحثين المصريين لتفسيرات أساتذة الكلاسيكيات الغربيين، دون تمحيص أو مناقشة. وإذا علمنا أن فكرة وجود حضارة هيلينية يونانية مركزها الإسكندرية، هى مجرد نظرية ظهرت حديثا فى القرن التاسع عشر لتفسير التاريخ - وليست حقيقة تاريخية - لأدركنا أن من يزعم بأن الإسكندرية كانت مدينة يونانية، يعتمد على تفسير أيديولوجى، وليس على حقيقة ثابتة تاريخيا. ومع هذا فإن غالبية الأكاديميين فى بلادنا تبنت تفسير رجال التنوير الأوروبى، دون مناقشة.

هل كانت المكتبة الكبرى بالإسكندرية مركزا للثقافة الهيلينية اليونانية، أم لثقافة المصريين القدماء؟ هل كانت مكتبة الإسكندرية القديمة - التى أحرقها الرومان عام ٣٩١ قبل الميلاد - مركزا للحضارة الشرقية، أم أنها تمثل تراث اليونان وبداية الحضارة الغربية على أرضنا؟ كانت الإجابة عن هذا السؤال حتى القرن التاسع عشر، تؤكد الطبيعة الشرقية لمكتبة الإسكندرية التى جمعت تراث الأمة العربية فى مصر وبابل وسورية وبلاد الفرس، تبلورت فى بوتقة ثقافية واحدة. إلا أنه منذ عصر التنوير الأوروبى وبداية استعمار الرجل الأبيض للعالم الثالث فى القرن التاسع عشر، تغيرت الإجابة عن هذا السؤال - بحيث صارت الإسكندرية ومكتبتها تراثا يونانيا غربيا، زرع فى أرض مصر بعد أن ماتت حضارة المصريين ولم يعد لها وجود. ولم تتغير الإجابة بناء على اكتشاف حقائق لم تكن معروفة من قبل، بل بناء على عقيدة عنصرية ظهرت فى أوروبا تقول بتفوق الرجل الأبيض، وعدم قدرة الشرقيين على إنتاج الفكر الفلسفى أو البحث العلمى. وحتى يمكننا التوصل إلى حقيقة الأمر، علينا أولا أن نجيب عن هذه الأسئلة:

هل كان الإسكندر الأكبر يونانيا؟

من الذى أنشأ مكتبة الإسكندرية - بطليموس الأول أم بطليموس الثانى؟

من هو الباحث الذى كلفه الملك بإنشاء المكتبة، ديمتريوس اليونانى أم مانيتون المصرى؟

أين أقيمت مكتبة الإسكندرية، فى الموسيون بالحّى الملكى أم فى معبد السيرابيوم بالحى المصرى؟

عندما جاء الإسكندر الأكبر المقدونى إلى مصر عام ٣٣١ قبل الميلاد، قرر بناء مدينة الإسكندرية على أرض شبه مستطيلة بين البحر المتوسط شمالا وبحيرة مريوط جنوبا، لتكون عاصمة مصر الجديدة. وسرعان ما أصبحت الإسكندرية أهم مركز للبحث والدراسة فى العالم القديم، بفضل سياسة الملوك البطالمة الذين خلفوا الإسكندر فى حكم مصر. فقد أنشأ بطليموس الأول ٢٨٠ قبل الميلاد الموسيون (المتحف) فى الجزء الجنوبى الغربى من قصره ليكون مسكنا للوافدين الأجانب من الشعراء والباحثين الأجانب، كما أنشأ معبد السيرابيوم بالحى المصرى. وعندما تولى بطليموس الثانى الحكم بعد أبيه، أقام المكتبة داخل معبد السيرابيوم الواقع بالقرب من المدافن غربى القصر الملكى. وعهد الملك بمهمة إعداد المكتبة إلى الكاهن المصرى مانيتون الذى قام - اعتمادا على المصادر التى وجدها فى مكتبات معابد عين شمس ومنف - بعمل نسخة من الكتب المصرية مترجمة إلى اليونانية لوضعها فى معبد السيرابيوم بالإسكندرية. قدم مانيتون ثلاثة مراجع رئيسية للمكتبة: الأول يتضمن ملخصا للتاريخ المصرى القديم حتى بداية حكم البطالمة، والثانى يتضمن الكتابات المقدسة والشروحات الفلسفية والفقهية لها، أما المرجع الثالث فيختص بقوانين العلوم الفيزيائية الطبيعية. كما تم جمع كتب التوراة بالإسكندرية وترجمتها إلى اليونانية لتوضع فى مكتبتها، وتضمنت المكتبة معارف الحضارات القديمة فى مصر وبابل وسورية وفارس، إلى جانب أشعار اليونان وفلسفتها. وحوت المكتبة كتب اللغة والبلاغة والفقه والقانون والجغرافيا والتاريخ والفلسفة والمنطق والرياضة والفلك والهندسة والطب والكيمياء والفيزياء، فكانت هذه هى المرة الأولى فى تاريخ البشرية التى فيها تجمعت مصادر تراث الحضارات القديمة كلها فى مكان واحد مدونة بلغة أبجدية واحدة، مما يتيح للدارسين الاطلاع عليها.

إلا أن رجال التنوير وأساتذة الدراسات الكلاسيكية فى العصر الحديث، أنكروا هذه الحقائق التاريخية وفرضوا تفسيرهم الخاص لطبيعة المكتبة. يقول الباحث الألمانى هانز وليش فى صفحة ٩٨ من كتابه عن «مكتبة الإسكندرية وأصل السيرة الذاتية» الصادر عام ١٩٩١:

«إذا ما تساءلنا لماذا جمع بطليموس الأول وخلفاؤه هذا العدد الكبير من الباحثين والشعراء فى بلاطهم ... فعلينا أن نأخذ فى الاعتبار أن (استخدام) تفوق الثقافة اليونانية، لتبرير الحكم المقدونى الرومانى على مصر، لا يمكن إظهاره بشكل أفضل من ازدهار الفنون والعلوم فى الإسكندرية. فهذا الازدهار يثبت كذلك أن الثقافة اليونانية (التى انتهت فى اليونان) كانت لا تزال حية وفى حالة جيدة (بالإسكندرية)، بينما ماتت الحضارة المصرية القديمة - التى طالما أعجب بها العديد من المتعلمين اليونان - منذ زمن طويل. ولم يعد اليونان يهتمون كثيرا بالمصريين فى عصرهم».

كما يعتبر أساتذة الدراسات الكلاسيكية، وعلى رأسهم الدكتور مصطفى العبادى - وهو أستاذ متفرغ بقسم الآثار والدراسات اليونانية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية - والدكتور أحمد عتمان - أستاذ الدراسات اليونانية بجامعة القاهرة - أن القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد عندما حكمت مصر أسرة الملوك البطالمة وآخرهم كليوباترا، تمثل عصرًا يونانيًا كما يذهب إلى أن ديميتريوس فاليرون هو الذى أنشأ مكتبة الإسكندرية، أقامها على أساس من المراجع اليونانية عندما أحضر مكتبة الفيلسوف أرسطو من أثينا، وهو الذى تولى مشروع ترجمة كتب التوراة من العبرية إلى اليونانية، لتكون جزءا من المكتبة. يقول الدكتور عادل أبو زهرة، وهو أستاذ العلوم السلوكية بجامعة الإسكندرية: «لم تجد الثقافة اليونانية ملجأ لها خيرا من مصر ... وبين فتح الإسكندر لمصر فى القرن الرابع قبل الميلاد والفتح العربى الإسلامى فى أواسط القرن السابع ازدهرت فى مصر ثقافة إنسانية جديدة ... هى الثقافة الهيلينية التى



ظلت حية في المدارس والأديرة إلى نهايات العصور الوسطى، وكانت مصدرا من أهم مصادر الفكر الإسلامي. هل نتبرأ من هذه الثقافة، ونسقط من حسابنا هذا التاريخ؟».

الإسكندر ليس يونانيا

لم تكن هناك دولة لليونان عند بناء مدينة الإسكندرية ومكتبتها منذ ثلاثة وعشرين قرنا، بل كانت الأقوام اليونانية موزعة في مدن شبه الجزيرة اليونانية وجزر بحر إيجة وساحل الأناضول، وكلها كانت خاضعة لسيطرة المقدونيين ثم من بعدهم لسيطرة الرومان. كما لم يكن الإسكندر الأكبر يونانيا بل كان مقدونيا، تمكن أبوه فيليب الثاني من توحيد بلاده ثم أخضع بلاد اليونان لسلطته. ولا كان اليونان شركاء الإسكندر في حروبه وإمبراطوريته فجميع قادته كانوا من المقدونيين، وإنما عمل اليونان مرتزقة في جيش الإسكندر ـ كما عملوا في جيوش أعدائه من الفرس ـ إلى جانب مرتزقة آخرين من الفرس واليهود والشوام. ولم يكن الملوك البطالمة حكاما أجانب يحكمون مصر لصالح بلادهم، بل كانوا حكاما مصريين من أصل مقدوني، تماما كما كانت أسرة محمد علي في مصر من أصل ألباني، وكما هو حال أسرة وندسور في بريطانيا التي تنتمي إلى أصل ألماني.

لم يذكر الشاعر هومر في رواياته اسم القبائل المقدونية من بين الأقوام اليونانية، كما أن الجغرافي سترابو لم يتحدث عنهم عندما ذكر أسماء الأراضي اليونانية. تقع مقدونيا شمال شرقي بلاد اليونان وراء جبل الأوليمب، هاجرت إليها القبائل المقدونية التي جاءت من الغرب خلال القرن الثامن قبل الميلاد. وفي العصور الحديثة توزعت أراضي مقدونيا القديمة بين الصرب وكرواتيا ومقدونيا وجنوب بلغاريا، كما حصلت اليونان على الجزء الجنوبي الغربي. وبعد عدة قرون من الحياة القبلية، تمكن فيليب الثاني من توحيد الأقوام المقدونية تحت سلطته عند منتصف القرن الرابع قبل الميلاد وتكوين جيش منظم لها. ولما كانت القوات الفارسية تتجمع عند مضيق الدردنيل استعدادا لغزو أوروبا، لجأ فيليب إلى غزو ممالك اليونان استعدادا لمواجهة الفرس، وتمكن من هزيمة تحالف أثينا وطيبة في معركة حاسمة عند خيرونيا سنة ٣٣٨ ق.م.

كان الإسكندر المقدوني في العشرين من عمره عندما مات أبوه فيليب وخلفه هو على عرش مقدونيا. وبعد حروب قضى فيها على تمرد الممالك اليونانية قام الإسكندر ـ ومعه جيش مكون من ٣٥ ألف مقاتل ـ بعبور مضيق الدردنيل عام ٣٣٤ قبل الميلاد، لمواجهة الخطر الفارسي. وفي أول معركة له مع الفرس عند نهر جرانيكوس شرقي طروادة، انتصر الإسكندر وهرب دارا (داريوس) ملك الفرس من أرض المعركة، مما جعل مدن آسيا الصغرى تفتح أبوابها أمام الإسكندر دون قتال. وعاد الجيشان إلى اللقاء عند مدينة إيسوس شمالي الأراضي السورية، وهناك اندحرت القوات الفارسية للمرة الثانية وهرب دارا إلى أرض الرافدين تاركا وراءه أمه وزوجته وأولاده، أسرى في يد الإسكندر. وبدلا من مطاردة الملك الفارسي، سار الإسكندر بجيشه جنوبا على الشاطئ السوري حتى وصل بلاد الفينيقيين، وهناك تلقى رسالة من دارا يعرض فيها شروط الصلح. ورد الإسكندر طالبا من الملك الفارسي الحضور شخصيا لمقابلته ومناقشة شروط السلام معه، ولما رفض دارا هذا الطلب استمر الإسكندر في طريقه جنوبا على الساحل الفينيقي، ولم تقف في طريقه سوى مدينة صور التي اضطر إلى حصارها سبعة أشهر قبل سقوطها.

ولم يدخل الإسكندر مصر غازيا بل إنه لم يخض معركة واحدة على أرضها، حيث استقبله أهلها بالترحاب حتى يخلصهم من سوء المعاملة التي تلقوها على يد الفرس. وفي منف العاصمة قام الكهنة بتتويج الإسكندر ملكا على مصر ووضعوا على رأسه تاج الأرضين، وفي احتفال كبير قام الملك الجديد بتقديم القرابين إلى «عجل أبيس» في معبد السيرابيوم بسقارة، وكان المصريون يعتبرون هذا الحيوان رمزا لبتاح معبود منف. ثم سافر الإسكندر بالمركب في مياه النيل وسار شمالا في الفرع الغربي للدلتا، وعندما وصل إلى بحيرة مريوط نزل على البر في المنطقة المحصورة بين البحيرة جنوبا والبحر الأبيض شمالا، في مواجهة جزيرة فاروس. وهنا فكر الملك الشاب في بناء مدينة في هذا الموقع شرقي القرية المصرية القديمة راقودة، تحمل اسمه وتكون عاصمته الجديدة. جاء اختيار الإسكندر لموقع الإسكندرية عند جزيرة فاروس، لتكون امتدادا شرقيا لقرية راقودة المصرية القديمة، وأثبت تحليل الأخشاب الموجودة في الميناء مؤخرا بكاربون ١٤، أن راقودة سبقت الإسكندرية بثلاثة قرون على الأقل. وبعد أن وضع خطة بناء الإسكندرية قرر الإسكندر زيارة معبد آمون في سيوة، وسار وأصحابه مسافة ٥٠٠ كيلومتر وسط الرمال، في رحلة شاقة استغرقت ثلاثة أسابيع للوصول إلى الواحة.

ذو القرنين

كان معبد آمون في سيوة ـ الذي بناه أحد ملوك الأسرة ٢٦ قبل قرنين من عصر الإسكندر ـ له شهرة عالمية في النبوءة، بلغت جميع أنحاء العالم القديم. وكان اليونان يسمون آمون المصري باسم «زيوس»، بينما أطلق عليه الرومان اسم «جوبيتر». وكان الكبش هو رمز لآمون في معبد سيوة. وصل الإسكندر إلى معبد سيوة في فبراير ٣٣١ قبل الميلاد، وهناك أخذه الكاهن الأكبر وأدخله إلى قدس الأقداس ـ وهو حجرة مظلمة لا يدخلها إلا الكاهن الأكبر والملك ـ ولم يسمح لأحد من مساعديه بالدخول معه. وعندما خرج الإسكندر من المعبد بدا عليه الارتياح، ورفض الإفصاح عما حدث بالداخل، وكان كل ما قاله لأصدقائه «سمعت ما يحبه قلبي». وقبل أن يغادر سيوة قام الكهنة بإعلان الإسكندر ابنا لآمون، ووضعوا على رأسه غطاء رأس آمون الذي يمثل رأس كبش له قرنان. وأصبحت صورة الإسكندر على العملات المضروبة بعد هذا التاريخ تحمل قرنين على رأسه، تشبها بآمون، ولهذا فقد عرف الإسكندر على أنه «ذو القرنين»، وهناك اعتقاد بأنه هو الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة الكهف: «ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا».

غادر الإسكندر منف بعد بضعة أسابيع من إصداره الأوامر بالبدء في بناء مدينة الإسكندرية في ٧ أبريل ٣٣١ ق.م.، ولم تزد مدة بقائه في مصر على سبعة أشهر. وسار في طريقه إلى شمال سورية حيث عبر الفرات لملاحقة جيوش دارا إمبراطور الفرس، والتقى به في معركة حاسمة عند مدينة «جوجاميلا» شرقي دجلة، انهزم فيها الجيش الفارسي وصار الطريق مفتوحا أمام الإسكندر لغزو بلاد الفرس نفسها. سار الإسكندر بجيشه جنوبا إلى بلاد بابل فاستقبلته بالترحاب أينما حل. ثم اتجه شرقا حيث أخضع كامل الأرض الفارسية، قبل دخوله بلاد الهند ومد حدود ملكه ما بين أفغانستان وبلاد اليونان. وكان الإسكندر يستعد لغزو الجزيرة العربية عن طريق جزيرة البحرين في الخليج، وتقول إحدى الروايات اليونانية إن أهل الجزيرة في تلك الحقبة، كان لديهم معبودان أساسيان هما «أورانوس» و«ديونيسوس» ـ أو أوزوريس ـ إلى جانب عبادة الأجداد. وبنى الإسكندر ميناء على نهر الفرات عند مدينة بابل، جمع به أسطولا تم بناؤه من خشب الأرز، جاء به من بلاد الفينيقيين الذين اختار منهم بحارته كذلك. وأرسل وحدة استطلاعية نزلت بجزيرة الفيلكة



مكتبة الإسكندرية لم تكن يونانية

الكويتية وكذلك على «البحرين». وكانت البحرين، والتي يسميها اليونان «تيلوس»، أرضًا خصبة ومركزا هاما لتجارة مواد العطارة القادمة من الجزيرة العربية. إلا أن الجيش الإغريقي لم يتحرك من موقعه في بابل بسبب المرض الذي أصاب الإسكندر فجأة. فقد أصيب الملك الشاب بجراح بالغة وهو يحارب في بلاد الهند، هي التي جعلته يلجأ إلى مدينة بابل.

الحضارة الهيلينية

كانت الفكرة السائدة حتى القرن الثامن عشر تقول إن الحضارة اليونانية اعتمدت في أصلها على الحضارات الشرقية القديمة، إلى أن ظهرت مدرسة جديدة في عصر التنوير الأوروبي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ذهبت إلى وجود حضارة للأجناس الهند - أوروبية، مستقلة في نشأتها عن حضارة الشرق الأوسط، وهي التي أنتجت الحضارة الهيلينية. واعتمد المفكرون للوصول إلى هذا التفسير على الدراسات اللغوية التي دلت على وجود شعبة من الكتابات الهند - أوروبية القديمة، كانت مستقلة في ظهورها عن الكتابات السامية. واستخدم المفكرون الأوروبيون - خصوصا الألمان منهم - هذا التفسير لدعم رأيهم القائل إن الجنس الشمالي الآري الذي يعتبرونه أكثر تطورا من الناحية البيولوجية، هو الذي أنشأ الحضارة الهيلينية، وأنكروا دور الشرق في هذه الحضارة. ولما كانت الدول الأوروبية بعد عصر الثورة الصناعية تستعد لغزو واستعمار مناطق الحضارات القديمة في الشرق، فقد لاقت هذه الآراء نجاحا كبيرا بين الباحثين الكلاسيكيين، الذين استخدموها لتبرير سيطرتهم على العالم القديم.

خضعت بلاد اليونان لحكم المقدونيين أولا ثم الرومان، وترجع فكرة ظهور حضارة هيلينية خارج اليونان - بعد انتهاء الحضارة الهلنستية في بلاد اليونان - إلى مفكر ألماني اسمه يوهان جوستاف درويسن (١٨٠٨ - ١٨٨٤). كان درويسن هو أول من اعتبر الإسكندر يونانيا، وقال إن الحضارة اليونانية - وإن انتهت في بلاد اليونان بموت أرسطو عند نهاية القرن الرابع قبل الميلاد - استمرت في الإسكندرية. وتبع أساتذة التنوير في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا تفسير درويسن، كما لو كان كتابا منزلا لا يمكن الشك فيه. بل إن التنويريين ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فقالوا بوجود حضارة للأجناس الهند - أوروبية، مستقلة في نشأتها عن حضارة الشرق الأوسط، وهي التي أنتجت الحضارة الهيلينية. إلا أن الحضارة التي اعتبرها التنويريون هيلينية لم تخرج من أية بقعة في بلاد اليونان، وإنما جاءت من مدينة الإسكندرية. لذلك قرر رجال التاريخ الكلاسيكي - دون استناد إلى أي دليل من التاريخ - اعتبار الإسكندرية القديمة مدينة يونانية وليست مصرية. وظلت هذه الفكرة سائدة إلى أن تمكن علماء المصريات من ترجمة النصوص الهيروغليفية القديمة، كما عثر رجال الآثار على عشرات الآلاف من الكتابات البردية، بالديموطيقية واليونانية والقبطية. وكانت المفاجأة عندما تبين أن غالبية العلوم الرياضية والعلمية التي قيل إنها هيلينية، موجودة لدى المصريين قبل مئات السنين من بناء مدينة الإسكندرية. وعلى سبيل المثال فإن نظرية فيثاغورس التي تنسب إلى الإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد، تبين أن المصريين استخدموا هذه النظرية في تصميم غرفة الملك بالهرم الأكبر قبل ذلك بحوالي ٢٤ قرنا من الزمان. ثم جاءت مفاجأة أخرى قبل نهاية القرن العشرين، عندما أخرج الغطاسون الآثار المصرية الفرعونية - بدلا من الآثار اليونانية - من قاع الميناء الشرقي الذي كانت تطل عليه القصور البطلمية، وتبين وجود مدينة راقودة المصرية القديمة في موقع الإسكندرية، قبل ثلاثة قرون على الأقل من مجيء الإسكندر إليها.

كانت الصدفة وحدها هي التي ساعدت على ظهور حي بأكمله اختفى من مدينة الإسكندرية القديمة، وكان غارقا عند قاع البحر لأكثر من ستة عشر قرنا من الزمان. إذ أدى زلزال عنيف - في القرن الثالث الميلادي - إلى انخفاض منطقة القصور الملكية الواقعة شرقي المدينة القديمة، بما تحتويه من قصور ومقابر لملوك أسرة البطالمة الذين حكموا مصر لثلاثة قرون قبل العصر الميلادي. ومنذ ثلاثين عاما مضت بينما كان الغطاس المصري كمال أبو السادات يسبح عند الميناء الشرقي للإسكندرية، وقعت عيناه على شيء لم يكن من السهل عليه تصديقه، إذ وجد في قاع الميناء على عمق ستة أمتار من السطح، مدينة كاملة من القصور والأعمدة والتماثيل المصرية، غارقة أمام قلعة قايتباي التي بناها المماليك بالإسكندرية، في منطقة تبلغ مساحتها حوالي اثنين وعشرين ألف متر مربع. وبالرغم من قيام الغطاس المصري بإبلاغ سلطات الآثار بالإسكندرية عما عثر عليه من حجارة تحت سطح الماء، إلا أن أحدا لم يتصور أن المنطقة التي غمرتها المياه تمثل ثلث مساحة الإسكندرية القديمة وتحتوي على جميع القصور الملكية للبطالمة. كما تبين للأثريين وجود مدينة راخوتس المصرية القديمة في موقع الإسكندرية، قبل ثلاثة قرون على الأقل من مجيء الإسكندر إليها.

وجاء العثور على بقايا فرعونية في موقع القصر البطلمي وموقع الفنار الغارق عند قاع البحر، بمثابة الضربة القاضية لأصحاب الرأي الذي يزعم بأن الإسكندرية البطلمية كانت مدينة يونانية. ويؤكد الأثري الفرنسي جان ايف أمبرير الذي ساهم في عمليات البحث في المنطقة الواقعة أمام قلعة قايتباي، أن الإسكندرية القديمة أصبحت الآن تبدو له مصرية أكثر مما كان يعتقد سابقا، كما قال الدكتور زولت كيس الأستاذ بالأكاديمية البولندية للعلوم في تصريح لجريدة التايمز البريطانية في ٢٩ أكتوبر الماضي: «في استطاعتنا القول استنادا إلى هذه الاكتشافات إن إسكندرية البطالمة والرومان كانت أقل هيلينية وأكثر مصرية مما كنا نعتقد».

تم بناء مكتبة الإسكندرية الجديدة في موقعها الحالي بمنطقة السلسلة بالشاطبي، بسبب اعتقاد الباحثين المصريين أن المكتبة القديمة كانت تقع داخل المتحف (الموسيون)، الذي بناه الملوك البطالمة في هذا المكان، بينما لم يكن المتحف سوى بيت للطلبة الأجانب في الحي الملكي المطل على البحر بالقرب من قصر البطالمة. وكل ما نعرفه بشكل مؤكد هو أن المكتبة التي حرقها الرومان في ٣٩١ للميلاد، لم تكن بمنطقة الشاطبي وإنما كانت موجودة داخل معبد السيرابيوم بحي راقودة المصري، عند عامود السواري بالقرب من كوم الشقافة الحالي. وبينما أجمعت المصادر القديمة على أن المكتبة التي تم حرقها كانت داخل معبد السيرابيوم بالحي المصري، تمكن الأثريون في العصر الحديث من العثور على بقاياها أسفل عمود السواري. فقد عثر البريطاني ألان رو أثناء الحرب العالمية الثانية، على عدة نسخ من حجر الأساس الذي وضعه بطليموس الثالث عند قيامه بتوسعة السيرابيوم، مدونا بالهيروغليفية واليونانية. كما يؤكد الأثري الفرنسي جان - إيف إمبيرور في كتابه عن «الإسكندرية» الصادر عن المتحف البريطاني عام ١٩٩٨، أن المكتبة التي أحرقها المسيحيون كانت في هذا الموقع.

ولدينا شاهد معاصر للمكتبة والمتحف، هو الباحث الجغرافي استرابو الذي زار الإسكندرية عام ٢٥ قبل الميلاد، ووصف مبنى المتحف بإسهاب دون أن يذكر شيئا عن وجود المكتبة بهذا المبنى. وهذا غريب حقا حيث إن استرابو قام بعمل أبحاثه الجغرافية بمكتبة الإسكندرية، وهو يعرف موقعها جيدا. وأكد استرابو أن الموسيون كان مكانا تقيم به مجموعة من الشعراء الذين قدموا من مقدونيا والجزر اليونانية، ينامون ويأكلون ويشربون بداخله على حساب القصر الملكي، حتى يتفرغوا للدراسة. وليس هناك دليل آخر ولا ذكر واحد في المصادر الكلاسيكية المعاصرة للمكتبة، يشير إلى أن المكتبة كانت جزءا من الموسيون، إنما ظهر هذا الرأي للمرة الأولى في القرن التاسع عشر، لسبب بسيط هو أن المتحف يقع في الحي الملكي، بينما كانت المكتبة منذ البداية موجودة في داخل معبد السيرابيوم الموجود بالحي المصري. وصل استرابو إلى الإسكندرية بعد خمسة أعوام من موت كليوباترا ودخول أغسطس إلى العاصمة المصرية. وفي الفقرة ٨ من كتابه الثامن، وصف استرابو المتحف في معرض حديثه عن الحي الملكي، قائلا:

«والموسيون (المتحف) هو أيضا جزء من القصور الملكية، له طريق عام ورواق به مقاعد، ومنزل كبير به القاعة العامة لتناول الطعام للدارسين الذين يتشاركون في الموسيون. وهذه المجموعة من الرجال ليس فقط تشترك في الملكية (شيوعا) بل لديهم كذلك كاهن مسئول عن الموسيون، كان الملوك يعينونه من قبل والآن يعينه قيصر». لا ذكر هنا لكتب ولا لمكتبة أو أمين مكتبة، وإنما لعدد من الرجال يعيشون في الموسيون، للتفرغ للدراسة. ومنذ بداية التاريخ، كانت المكتبة المصرية تشكل جزءا من المعبد وهذا هو نفس ما حدث في الإسكندرية. ولدينا عدة مصادر معاصرة تتحدث عن وجود المكتبة داخل معبد السيرابيوم، مثل كتابات أمانيوس مارسيلينوس الذي زارها بنفسه. كما أن جميع المصادر القديمة تتحدث عن المكتبة - التي حرقها الأسقف ثيوفيلسوس عام ٣٩١ - مؤكدة أنها كانت داخل السيرابيوم. وكل ما نعرفه عن الموسيون بشكل مؤكد، أنه كان مكانا تقيم به مجموعة من الشعراء الذين قدموا من المدن اليونانية، ينامون ويأكلون

هل كان الإسكندر الأكبر يونانيا؟
من الذي أنشأ مكتبة الإسكندرية - بطليموس الأول أم بطليموس الثاني؟
من هو الباحث الذي كلفه الملك بإنشاء المكتبة، ديمتريوس اليوناني أم مانيتون المصري؟



مكتبة الإسكندرية لم تكن يونانية

ويشربون بداخله على حساب القصر الملكى، حتى يتفرغوا للدراسة.

ديميتريوس

بعد أن غيروا موقع المكتبة ليجعلوها فى المتحف الكائن بالحى الملكى، كان عليهم أن يغيروا تاريخ بناء المكتبة كذلك حتى تصبح تفسيراتهم مقبولة. فمن المعروف أن الكاهن المصرى مانيتون كان هو المسئول عن تنفيذ مشروع المكتبة داخل معبد السيرابيوم، فى عهد بطليموس الثانى خلال القرن الثالث قبل الميلاد. لهذا لجأ التنويريون إلى القول بأن بطليموس الأول «لا بد أنه هو الذى أنشأ المكتبة» وليس بطليموس الثانى. والسبب الذى جعلهم يخالفون نصوصًا تاريخية صريحة بخصوص مؤسس المكتبة، هو رغبتهم فى نسبتها إلى ديميتريوس اليونانى وليس مانيتون المصرى. فقد هرب ديميتريوس حاكم أثينا وجاء إلى مصر أيام بطليموس الأول، ومات عند بداية حكم بطليموس الثانى. ورغم عدم وجود مصدر كلاسيكى واحد ينسب المكتبة إلى ديميتريوس، فقد أصر التنويريون على أن ديميتريوس «لا بد أنه هو الذى أقنع الملك ببناء المكتبة، وأحضر لها مكتبة أرسطو من أثينا». وهكذا - ليس فقط بدون دليل - بل بالتعارض مع جميع الأدلة التى لدينا، أثبت التنويريون أن مكتبة الإسكندرية كانت يونانية أقامها ديميتريوس اليونانى الذى أحضر مراجعها من أثينا، رغم أن الكشوفات الأثرية الحديثة بينت بوضوح، أن مكتبة أرسطو لم تصل إلى مصر على الإطلاق حيث تبين وصولها إلى مكتبة برجامون بآسيا الصغرى.

وصل ديمتريوس إلى الإسكندرية حوالى عام ٢٩٧ قبل الميلاد، فضمه بطليموس الأول إلى جماعة مستشاريه، التى تضمنت كذلك الكاهن المصرى مانيتون. ورغم أن ديو جينز لارتيوس الذى كتب قصة حياة ديميتريوس تحدث عن دوره كمستشار سياسى للملك، إلا أنه لم يذكر شيئا عن علاقته بالكتب أو المكتبة. وبمجرد أن خلف بطليموس الثانى والده على العرش عام ٢٨٣ قبل الميلاد، قام بطرد ديميتريوس من الإسكندرية إلى الصعيد، حيث قيل إنه دبر حادثا لقتله. ويرجع سبب كراهية بطليموس الثانى لديميتريوس، إلى أن هذا الأخير نصح والده بعدم تعيينه خليفة له. والمصدر الوحيد الذى يربط بين ديميتريوس والمكتبة، هو خطاب أجمع الباحثون على أنه مزور منحول. فقد تم العثور على خطاب لشخص يهودى - لا يعرف أحد أين عاش ولا أين وجد خطابه - عرف باسم أرستيس، وحددوا له عصرا لا يقل عن مائة عام بعد بناء المكتبة. ويتحدث خطاب أريستيس - كما ورد فى كتابات المؤرخ اليهودى جوزيفوس الذى مات فى روما عند نهاية القرن الأول للميلاد - عن الطريقة التى تمت بها ترجمة الكتب التوراتية إلى اليونانية فى الإسكندرية، فيقول إن ديمتريوس حصل على أموال كثيرة من بطليموس الثانى، لشراء الكتب. ورغم أنهم يجمعون على أن الخطاب منحول ومتأخر فى تاريخه، ورغم أن هذا الخطاب نفسه يحدد عصر المكتبة بعصر بطليموس الثانى، إلا أن الأوروبيين الحديثين اعتبروا هذا هو دليلهم الوحيد لإثبات أن ديميتريوس هو منشئ المكتبة.

وخلاصة ما جاء بخطاب أرستيس الذى انتحل صفة واحد من رجال البلاط البطلمى هى: «أمر بطليموس فلاديلفيوس (الثانى)، بناء على نصيحة من رجلى البلاط الملكى «ديميتريوس فاليرون» و« أرستيس»، بترجمة كتب اليهود المقدسة لوضعها فى مكتبة الإسكندرية. فكتب الملك إلى العازر الكاهن الأكبر للقدس، طالبا منه أن يرسل إليه مترجمين خبراء، وبعث مع خطابه بهدية ثمينة للمعبد اليهودى. فبعث العازر باثنين وسبعين من كبار السن إلى بطليموس الثانى، من المتبحرين فى العلوم التوراتية واللغة اليونانية. ووضعهم الملك فى جزيرة فاروس بالإسكندرية، فقاموا بترجمة كتب التوراة من العبرية إلى اليونانية فى ٧٢ يوما». ورغم إجماع الباحثين على أن خطاب أرستيس هذا مزور، إلا أن أصحاب نظرية الأصل اليونانى لمكتبة الإسكندرية وجدوه فرصتهم الوحيدة لدعم وجهة نظرهم، حيث إنه المصدر الوحيد الذى يتحدث عن ديميتريوس باعتباره مسئولا عن المكتبة. بل إنهم اعتمدوا على هذا الخطاب المزور، لإنكار الحقائق الثابتة التى أجمعت عليها المصادر المعاصرة للمكتبة ذاتها. ذلك أن جميع المصادر القديمة - بما فى ذلك خطاب أرستيس نفسه - تؤكد أن بطليموس فلاديلفيوس (الثانى) هو الذى أنشأ مكتبة الإسكندرية وجرى ترجمة التوراة فى عهده.

عندما تولى بطليموس الثانى الحكم بعد أبيه، أنشأ المكتبة داخل معبد السيرابيوم الواقع بالحى المصرى بالقرب من المدافن غربى القصر الملكى. وعهد الملك بمهمة إعداد المكتبة إلى الكاهن المصرى مانيتون الذى قام بعمل نسخة من الكتابات الموجودة فى معابد عين شمس ومنف، مترجمة إلى اليونانية لوضعها فى معبد السيرابيوم بالإسكندرية. كما تم جمع كتب التوراة وترجمتها إلى اليونانية لتوضع فى مكتبتها، وهى الترجمة السبعينية التى أصبحت النص التوراتى الوحيد لمدة عشرة قرون بعد حرق معبد القدس، إلى أن تم العثور على نسخة من النص العبرى المازورى. كان الملك يهدف إلى تجميع الكتابات الهامة لكل الحضارات القديمة، فأرسل بطليموس الثانى خطابا إلى كل حكام العالم يطلب منهم إرسال أعمال مؤلفيهم ليتم نسجها فى مكتبة الإسكندرية، حيث كانت المكتبة تحتفظ بالأصل وتعيد الصورة. وبحسب الروايات القديمة وصل عدد المخطوطات فى النهاية إلى نصف مليون مخطوط، وتم عمل فهرس لمحتويات المكتبة فى ١٢٠ مخطوطا. كما ترجمت كل المخطوطات إلى اللغة اليونانية، والتى كانت - مثلها مثل اللغة الإنجليزية الآن - قد أصبحت بمثابة لغة الدراسة والتفاهم بين الشعوب المختلفة. وكانت المخطوطات - وهى لفائف من أوراق البردى - توضع على أرفف ملتصقة بالحائط. هذا إلى جانب أعمال عظماء مفكرى العالم سواء كانت شعرا أو نثرا، وكتب اللغة والبلاغة والفقه والقانون والجغرافيا والتاريخ والفلسفة والمنطق والرياضة والهندسة والطب والكيمياء والفيزياء. فكانت هذه هى المرة الأولى فى تاريخ البشرية التى فيها تجمعت مصادر تراث الحضارات القديمة كلها فى مكان واحد، يسمح للدارسين بالاطلاع عليها.

أحدث ظهور مكتبة الإسكندرية ثورة علمية فى تاريخ البشرية، وحدثت طفرة نوعية فى معرفة الإنسان بسبب هذه المكتبة. فبينما كان نظام التعليم فى السابق متوقفا على عدد قليل من الناس، القادرين على قضاء سنين طويلة فى التعرف على ألغاز المعارف المكتوبة بعلامات مختلفة والمختفية داخل رموز لا يعرفها إلا المؤهلون، جاءت الأبجدية اليونانية لتسهل للإنسان العادى تعلم القراءة والكتابة. وبينما كانت الحضارات القديمة تحتفظ بأسرارها فى معابدها ومكتباتها، جمعت الإسكندرية معارف كل هذه الحضارات فى مكان واحد. وهكذا صار فى وسع الطالب الاطلاع على معارف المصريين والبابليين والفرس واليونان، فى مكان واحد وبلغة واحدة. وجاء الدارسون إلى الإسكندرية من جميع أنحاء العالم، من الهند وفارس وبابل وسورية وفينيقيا وبلاد الأنباط وليبيا واليونان وآسيا الصغرى، فتعاون العقل البشرى فى تكوين رؤية حضارة جديدة. وبدلا من الاكتفاء بتلقى المعلومات عن الأساتذة، أصبح فى وسع الدارسين اللجوء إلى مراجع مختلفة فى كل مجالات العلم، مما نتج عنه بداية عملية البحث. فالتلقين يتضمن تلقى الطالب للمعلومات التى يعطيها له المعلم، أما البحث فيتطلب رجوع الباحث إلى النظريات المختلفة فى الموضوع الذى يبحث فيه، ويصبح عليه هو التوصل إلى استنتاجه الخاص فى الموضوع. فكان هذا هو بداية لظهور نظام التعليم الجامعى فى العالم كله. فكان الباحثون يلتفون حول الأساتذة - تماما كما حدث بعد ذلك فى جامعة الأزهر عند نشأتها - يناقشونهم فى موضوع الدراسة، ثم ينفضون عنهم للبحث، كل منهم يحاول إثبات نظريته عن طريق تجميع المعلومات من المخطوطات الموجودة بالمكتبة، والاستدلال بها لإثبات قضيته. وهكذا أصبحت مكتبة الإسكندرية بمعبد السيرابيوم أول جامعة فى العالم، ومن مكتبة الإسكندرية تخرج غالبية علماء العالم الذى عاصرها طوال سبعة قرون، ما بين القرن الثالث السابق للميلاد ونهاية القرن الميلادى الرابع.

وهكذا أصبحت مكتبة الإسكندرية بمعبد السيرابيوم هى أول جامعة فى العالم، فالفارق بين التعليم المدرسى والدراسة الجامعية هو أن المعلم فى المدرسة يقوم بتلقين المعلومات للتلاميذ، الذين يصبح عليهم فهمها وحفظها. أما فى الدراسة الجامعية فإن الأستاذ يثير القضية ويستعرض جوانبها، ثم يترك للطلاب أنفسهم مهمة البحث فى المراجع لإثباتها أو نفيها، كل حسب إدراكه الشخصى. وقد يختلف التلاميذ مع بعضهم البعض فى استنتاجاتهم كما قد يختلفون مع أستاذهم، وهذا هو ما حدث لأول مرة فى مكتبة الإسكندرية. وهكذا لم تكن هذه المؤسسة بمثابة مكتبة تضم حلقات للدراسة، وإنما هى عبارة عن جامعة تضم مكتبة. ومما لا شك فيه أنه من مكتبة الإسكندرية تخرج غالبية علماء العالم الذى عاصرها طوال سبعة قرون، ما بين القرن الثالث السابق للميلاد ونهاية القرن الميلادى الرابع. ■

لم تكن هناك دولة لليونان
عند بناء مدينة الإسكندرية ومكتبتها
منذ ثلاثة وعشرين قرنا، بل كانت الأقوام اليونانية
موزعة فى مدن شبه الجزيرة اليونانية
وجزر بحر إيجة وساحل الأناضول

عمرو بن العاص لم يحرقها:

مكتبة الإسكندرية ومدارسها العلمية

نسيم مجلي

يقول «جيستوس شيفرز» إن تاريخ العلم يقتفي أحيانًا مسار الإمبراطوريات ففتوحات الإسكندر الأكبر نقلت مركز العالم الإغريقي من أثينا إلى الإسكندرية. فقد فتح الإسكندر مصر عام ٣٣٢ ق.م وبنى الإسكندرية في نفس العام وبعد وفاته انقسمت الإمبراطورية بين قواده وكانت مصر من نصيب القائد المقدوني «بطليموس» الذي أقام دولة البطالمة التي استمرت زهاء ثلاثة قرون من الزمان ثم سقطت وانتهت بموت كليوباترة في ٣٠ق.م.

ازدهرت الإسكندرية في عهد البطالمة وأصبحت مركز العلم والفكر في العالم كله. وكان ذلك أمرًا طبيعيًا لما تنفرد به هذه المدينة من مزايا عديدة، إذ كانت ميناء بحريًا ومركزًا تجاريًا عالميًا يسيطر على طرق المواصلات ويمكنه الوصول إلى ثروة الشرق وثقافته، وظلت هذه المدينة موضع رعاية عظيمة من حكام البطالمة وخصوصًا القادرين والمثقفين منهم.

لقد أحاط بطليموس الأول نفسه بجمهرة من الفلاسفة ورجال الأدب استقدمهم من كل أنحاء اليونان، وأتاح لهم كل ألوان التشجيع الممكنة فأنشأ المتحف كأكاديمية لتدريس الفنون والعلوم (واعتبره مقراً لربات الفن والشعر) وقد ضم المتحف مكتبة زاخرة هي أروع مكتبات العالم القديم.. وأخذ الباحثون يتوافدون على الإسكندرية من كل الأقطار والأجناس، من بابليين ورومان ويهود ... كانوا يأتون جماعات وأفرادا ليدرسوا على أساتذة المتحف ويطلعوا على ما في المكتبة من آثار فكرية وعلمية، ويمعنوا النظر فيها.

وهكذا أشرقت شمس الإسكندرية كمدرسة فريدة للفلسفة والعلوم. ظهرت إلى جانب هذه المدرسة مدارس أخرى منافسة مثل مدرسة بيرجامون ومدرسة رودس لكن الخصومة كانت على أشدها بين مدرسة الإسكندرية ومدرسة بيرجامون. وفي سبيل محاصرة تأثير هذه المدرسة، أصدر البطالمة قراراً يحظر تصدير ورق البردي إلى أهل بيرجامون، لحرمانهم من مادة الورق اللازمة للكتابة. وقد دفعهم هذا الحظر إلى استخدام جلود الحيوانات التي استخدمها قبلهم كثير من شعوب آسيا في أغراض الكتابة أيضاً.

وقد نجح هؤلاء البرجاميون في تطوير نوع خاص من رقائق الجلد سمي جلد بيرجامون التي اشتقت منها كلمة (Parchment رقائق الجلد أو ورق البرشام). لكن لم تنجح أي منافسة في التأثير على مكتبة الإسكندرية، إذ عقد لها لواء السيادة، وظل تأثيرها مسيطراً على سماء الفكر الإغريقي قروناً عديدة.

وفي الإسكندرية برز كثير من فلاسفة الإغريق الذين استوحوا حكمة حكمائها فنبغوا في شتى ضروب العلم كالهندسة والجبر وحساب المثلثات والفلك والتنجيم، وأيضاً في الجغرافيا والمساحة والميكانيكا والكيمياء. وكان علماء الإسكندرية أساساً من المتخصصين، لم يجولوا في كل ميدان كما فعل أسلافهم، إلا أن التخصص عندهم لم يكن بمعناه الضيق لهذه الكلمة، لكنهم كانوا أبعد ما يكون عن الاجتهاد في كل علم كما فعل أرسطو.

كان بطليموس الأول أو بطليموس سوتر (أي المنقذ) قائدا بعيد النظر اختط لنفسه سياسة طموحة ترمي إلى بناء دولة قوية ونظام مستقر، وكان من رأيه أن الابتعاد النسبي عن شئون الحياة العامة، وهو السمة المميزة لمدارس الرواقيين والأبيقوريين التي تعارض السمات الديمقراطية العادية في مدرستي أفلاطون وأرسطو قد تساهم مستقبلا في خلق رأي عام ملائم لنظامه بين الإغريق في الإسكندرية. لذلك عرض ضيافة قصره على كبار فلاسفة الإغريق،ومن أبرز هؤلاء وأعظمهم هو ديمتريوس الفاليري،وكان أحد الفلاسفة المشائين (الأرسطيين) الذي لعب دورا بارزا في الحياة العامة في أثينا، إذ كان الحاكم الأوتوقراطي للمدينة في أثناء حكم الكسندر المقدوني، وفي أثناء هذا الوقت ساهم في تأسيس مدرسة أرسطو أو«الليكيوم» تحت إشراف ثيوفراستوس خليفة أرسطو.

وفي سنة ٧٠٣عندما استولى ديمتريوس آخر على أثينا ـ أي ديمتريوس البسيجر،ابن انتيجونوس الأعور، الذي استعاد النظام الديمقراطي،هرب ديمتريوس الفاليري إلى الإسكندرية، حيث أصبح أمين سر بطليموس سوتر وموضع ثقته. وأصبح مسئولا عن تأسيس المتحف والمكتبة وكان تأثيره حاسما في تحديد شكل ووظيفة هذه المؤسسات التي أصبحت قلب الحياة الفكرية للإسكندرية.

كان المتحف مؤسسة حكومية، اختير مكانه في أراضي القصر الملكي. واعتمد على إعانة القصر، ومن ثم صار خاضعا لإرادة القصر وعلى غرار أكاديمية أفلاطون، وهبوه لربات الفن (MUSES) ومن هنا جاء اسم (MUSEUM)، وبهذا تأكدت العلاقة مع العلوم والفنون الإغريقية الكلاسيكية. وتبعا لهذا ونتيجة لصلته بالقصر الملكي، كان لابد أن يكون رئيس المتحف التعليمي كاهنًا أو ربما كان الكاهن الأكبر في معبد سيرابيس ويعينه الملك لكن وظيفته كانت وظيفة اسمية تقريبا.كان علماء المتحف يأتون إلى هناك بدعوة ملكية، وكانوا يقيمون ويتلقون الإعانات من الخزينة الملكية. ويعيشون حياة منعزلة إلى حد ما، على غرار النمط الذي كان يتبعه العلماء الإغريق في العالم الهلينستي، ففي أزمنة الاضطرابات بعد فتوحات الإسكندر،كانوا «أرواحا رقيقة حساسة أحست بالحاجة إلى الهروب من إذلال الحياة العامة فلاذوا بالخلوات، حيث لا يمكن لصخب العالم الخارجي وضوضائه أن تنفذ إليهم فعزلوا أنفسهم عما حولهم، ليس فقط من أجل العلم بل أيضًا لكي يعيشوا عيشة هادئة».



يعتقد مطر MATTER في كتابه Le Ecole d`Alexandrie بأن عدد الباحثين في المتحف لم يزد في أي وقت من الأوقات عن ثلاثين باحثا. رغم أنه كان هناك تبادل بين المتحف والمؤسسات المشابهة في المدن الهللينستية الأخرى. وكان كبار العلماء الزائرين أيضا يلقون الترحيب للإقامة كضيوف في المتحف.

ويبدو أن المتحف لم يكن به تلاميذ مقيمون، لكن علماءه كان لهم تلاميذ ومريدون، يقومون بتعليمهم. ربما خارج المتحف. على كل حال فإن المكتبة اتسعت في وقت قصير وأصبحت أكثر شهرة من المتحف. لقد أنفق ملوك البطالمة الثلاثة الأول مبالغ طائلة واستخدموا كثيراً من الموظفين لشراء المخطوطات الكلاسيكية حيثما يجدونها في كل أنحاء العالم الهلينستي، ويقال أن ديمتريوس الفاليري قد جمع في عهد بطليموس سوتر ٢٠٠,٠٠٠ من لفائف المخطوطات منها ٥٠,٠٠٠ مخطوطة أصلية والبقية صور منسوخة، وذلك قبل أن يفقد رضا الملك وينفى بسبب نصيحته غير المستحبة بترشيح كراونوس keraunos ابنه من زوجته الأولى، كوريث للعرش، بدلا من فيلادلفوس ابن زوجته برينيس BERENICE.

و يقال أن فيلادلفوس وزينودوتس كبير أمناء المكتبة، وهو باحث مشهور في تراث هومر قد اشتريا مكتبة أرسطو. وفي نهاية حكمه حسب ما يذكر الشاعر كليماخوس الذي ربما خلف زينودوتس كأمين للمكتبة ووضع لها الفهارس، فإنها كانت تحتوي على ٩٠,٠٠٠ لفة لمخطوطات أصلية و٤٠,٠٠٠ لفة من الصور المنسوخة، بالإضافة إلى ٤٢٠,٨٠٠ في ملحق أو مكتبة صغيرة أطلق عليها لقب «الابنة» Daughter تم انشاؤها في معبد السيرابيوم، كما يقال إن بطليموس الثالث يورجيتس وأمين المكتبة ايراتوسطين العظيم، ليونارد دافنشي عصره، حصلا على مخطوطات ايسخيلوس وسوفوكليس، ويوربيديس، وقد أنشا بطليموس الرابع فيلاباتور فرعا للمكتبة كرس خصيصا لدراسة تراث هومر وتحريره.

في عالم الأدب الهلينستي، كانوا ينظرون إلى هومر باعتباره أعظم شعراء الملاحم، اعظم الحكماء، وراوي القصص الذي لا مثيل له، فهو مرآة الثقافة الكلاسيكية، وآلهته وأبطاله الذين برغم أن أحدا من المتعلمين لم يعد يعتقد فيهم أو يعبدهم، إلا أنهم لايزالون يشكلون جزءا من سداة النظام الإغريقي ولحمته. كانت إحدى المنجزات الرئيسية التي حققتها مكتبة الإسكندرية في المائة سنة الأولى، هي جمع أعمال هومر وتحقيقها، وتحريرها وتصحيحها وحفظها للأجيال القادمة. لقد جعل زينودوتس هذه المهمة هي شغل حياته وقد زيدت أعماله واكتملت على يد خلفائه، مثل أريستوفانيس البيزنطي، وأريسطارخوس الصامي.وقد قامت مكتبة الإسكندرية بالنسبة للأدب الكلاسيكي عموما بمهمة الجمع والتحقيق والحفظ.



فقد تخصص بعض العلماء في أشكال الدراما ـ الإسكندر الأيتولي AETOLIA في التراجيديا والهجاء. وتخصص الشاعر ليكفرون في الكوميديا.وقام بتحرير وتصحيح نصوص شعراء الدراما الكلاسيكية التي تم الحصول عليها ووضعها في المكتبة. هؤلاء الباحثون أدوا للأدب الكلاسيكي ذات الخدمة التي أداها الرومان فيما بعد بالنسبة لشعراء الإسكندرية. لقد أنقذوهم من النسيان وسلموا أعمالهم لمن أتى بعدهم من الباحثين وحيث إن الأدب الإغريقي هو أكثر من الأدب السكندري فإنهم قد قاموا بهذه المهمة على أحسن وجه وأكمله.

ربما كان أعظم علماء الإسكندرية

The Library of Alexandria
(مكتبة الإسكندرية)
Edited by Roy Macleod
AUC Press, 2002, 196PP.

History of Eastern Christianity
(تاريخ المسيحية الشرقية)
Aziz Suryal Attia
London, 1968

جميعا،وأكثرهم شمولا هو ايراتوسطين القوريني،الذى سيطر على العالمين: عالم المتحف وعالم المكتبة.كان تلميذا للابيقوريين في أثينا.ولد في قورينة حوالى ٢٧٥ ق.م وعاش حياة طويلة، ومات في الإسكندرية حوالى ١٩٤ ق.م. جاء إلى الإسكندرية وهو شاب في أواخر حكم فيلادلفوس، وعمل كبيرا لأمناء المكتبة في عهد بطليموس يورجيتيس وظل كذلك حتى وفاته. كان ينافس أرسطو في سعة معرفته، كتب الشعر كما كتب أعمالا في النقد التاريخي، وفي علم الكرونولوجيا CHRONOLOGY وفي الفلسفة والرياضيات وكتب بحثا في الجغرافيا، أوجز فيه المعلومات الجغرافية في عصره. واستنتج فيه أن العالم مستدير الشكل فإذا سافر إنسان من أسبانيا في اتجاه الغرب، فإنه سوف يصل في النهاية إلى الهند، لأن كل بحار العالم مرتبطة بعضها مع بعض تطوق اليابسة بطوق كالحزام، ونتيجة لذلك فإنه يمكن لأى إنسان أن يطوف حول قارة أفريقيا.اخترع طريقة يمكن بها اكتشاف الأعداد الأولية تسمى الغربال The Sieve وجهازا ميكانيكيا لاستنساخ المخطوطات، ثم اخترع آلة تسمى الميزولاب MESOLABE للتأكيد على النسب الطفيفة MAEN PROPORTIONAL بين خطين وللوصول إلى جذور الكميات هندسيًا.

كان إقليدس عالم الرياضيات أول الأسماء التي نالت شهرة عظيمة ولا يعرف عنه سوى أنه ظهر في عام ٣ ق.م. واشتغل بالتعليم في المتحف، وكتابه (مبادئ الهندسة) يلخص اكتشافات فيثاغورث وغيره من الرياضيين، كما يتضمن بعض الإضافات الهامة التي أسهم بها إقليدس في هذا المجال. فقد رتب إقليدس نظريات الهندسة في نظام منطقي مقبول واخترع عدداً من البراهين الضرورية، إلا أن كتاباته بدت غامضة غريبة بالنسبة لغير المتخصصين في زمنه.



وقيل ان بطليموس الأول سأل إقليدس يوماً عن طريقة أسهل لتعليم الهندسة فأجابه إقليدس (في علم الهندسة لا توجد اختصارات للملوك. فليس هناك طريق ملكى للتعليم يامولاى) كان كتاب المبادئ من أوسع الكتب انتشاراً في الثقافة الغربية. فقد وضعت الأجزاء الستة الأولى من هذا الكتاب قاعدة لعلم الهندسة الذى يدرس في مدارسنا ويعرف باسم الهندسة الإقليدية. لكن أكثر أجزاء الكتاب مثاراً للخلاف في العصر الحديث هي الفرض الذى افترضه إقليدس والخاص «بالخطوط المتوازية»، والعبارة تعني أنه يمكن من نقطة خارج خط مرسوم مد خط واحد موازٍ للخط الموجود. وهذه العبارة لا تعد حقيقة مسلمًا بها الآن بل مجرد افتراض. وفي القرن التاسع عشر أوضح لوباشيفسكي وبولاي أنه يمكن إنشاء نظم رياضية أكثر منطقية وأشد نفعا من الرياضة الإقليدية.

لم يمض وقت طويل حتى ظهر بالإسكندرية أريسطارخوس الصامى «٢٨٠ - ٢٦٤ ق.م» أخذ يعلم في المتحف بعد إقليدس. كان فيثاغورث فيلاوس يعتقد بأن الأرض والكواكب والشمس تدور جميعا حول محور من نار يحيط به الغموض. أما أريسطارخوس فكان يعتقد أن الكواكب تدور في دوائر ومدارات متعددة حول الشمس التي هي النار المحورية. وقد أكسبه هذا الاكتشاف لقب كوبرنيكوس العصر القديم. بيد أن أفكاره لم تجد قبولا عند الناس في عصره على اعتبار أنها تخريفات عقل مجنون.

درس أريسطارخوس الأحجام النسبية للشمس والأرض والقمر وحاول تقدير المسافات فيما بينها إلا أن تقديراته جاءت خاطئة تماما إذ حسب أن الشمس تبعد عن الأرض بمسافة تزيد على بعدها للقمر بثماني عشرة مرة بدلا من ٣٨٨ مرة وهو البعد الصحيح. أما تقديره لحجم القمر فكان صحيحا لأنه قال إن القمر أصغر من الأرض وأما الشمس فهي أكبر بكثير.

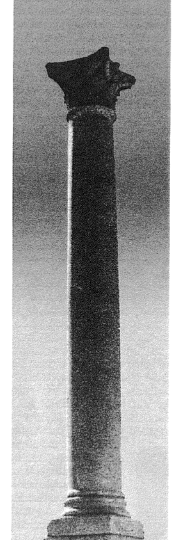
كان أرشميدس أعظم أبناء هذه المدرسة شأنا (٢٦٧ - ٢١٢ق.م) قضى أرشميدس معظم أيام حياته بمدينة سيراكوزة موطنه الأصلي بجزيرة صقلية، كان ابنا لأحد علماء الفلك وقريبا للملك هيرو الثاني ملك صقلية، لكنه تعلم في الإسكندرية وحين عاد إلى وطنه كرس حياته كلها لدراسة الرياضيات والطبيعة.

كان أرشميدس عالمًا فذا في الرياضيات، أسهم بالكثير في تطوير علم الرياضة البحتة، إذ وصف ما سمى منذ ذلك الحين «بحلزون أرشميدس» ووضع تقديرًا صحيحًا لنسبة محيط الدائرة إلى قطرها. لذلك أثبت أنه إذا وضعنا كرة في داخل أسطوانة يتساوى ارتفاعها وقطرها مع قطر الكرة فإن حجم الأسطوانة وسطحها يساويان حجم وسطح الكرة مرة ونصفًا. لقد اعتبر أرشميدس هذه النظرية أهم إسهاماته لعلم الرياضة وأوصى أن تحفر على شاهد قبره في شكل هندسي ملائم.

ثم توصل أرشميدس إلى طرق بارعة جداً للتعبير عن الأرقام. وكان هذا من أشد الأمور صعوبة في عصره وفي كتابه (دليل الرمال) Sand Reckoned يوضح أرشميدس أن هناك أرقاماً لا نهائية يربو عددها على عدد حبات الرمل الموجودة، ليس فقط في سيراكوزة أو صقلية، بل الموجودة في جبل من الرمال في مثل حجم (هذا الكون).

كذلك كانت إسهامات أرشميدس في مجال العلوم الطبيعية شيئاً بارزاً. ولا غرابة في هذا فهو مؤسس علم الميكانيكا النظرية، وهو الذى صاغ قانون الروافع الذى يعد غاية في البساطة وغاية في الأهمية. يقول أرشميدس (أعطني مكانا لأقف فيه في الفضاء وسوف أحرك لكم الأرض) كذلك وضع المبادئ الأساسية لعلم الهيدروستاتيكا، أحد فروع علم الطبيعة الخاص بدراسة ضغط وتوازن السوائل.





لم يكن أرشميدس عالما مرموقا في صياغة المبادئ النظرية فقط، بل كان رجلا واقعيا يهتم بالتجربة العملية أيضا. فحين وضع قانون الروافع وأثبت بطريقة رياضية أنه يمكن تحريك ثقل كبير باستخدام قوة بسيطة، وطلب إليه الملك أن يثبت ذلك بالتجربة العملية.. صمم أرشميدس جهازا آليا معقدا يمثل رافعة. ثم أمسك طرفه بيد واحدة، وراح يحرك به سفينة كبيرة بحذاء الشاطئ.

وأحيانًا كانت الحقائق العلمية تتكشف له من خلال محاولاته الجادة لحل مشاكل الحياة العملية. ففي ذات يوم سأله الملك إن كان بوسعه أن يعرف هل صنع تاجه من الذهب الخالص أم أن الصائغ قد أضاف إليه معادن أخرى أقل قيمة. انشغل أرشميدس بحل هذه المعضلة حتى اهتدى لقانون الطفو والسائل المزاح الذى يعرف باسمه حتى الآن.

كان أرشميدس يتميز بعقلية مبدعة تعد من أخصب العقول في العصر القديم وكان ينظر إلى مخترعاته كما يقول بلوتارك على أنها «تنويعات مهندس يلهو باللعب». بدأ أرشميدس يهتم بالاختراع حين طلب إليه الملك ان يحول اهتمامه من الأفكار المجردة إلى واقع الحياة الملموس وأن يبسط براهينه بحيث تصبح سهلة الفهم حتى يساعد عامة الناس على الانتفاع بها في أغراض الحياة العملية.

اخترع أرشميدس الطنبور الذى يستخدمه الفلاح المصرى حتى الآن لكى ينزح به الماء من قاع سفينة كبيرة بنيت لحساب الملك.. كما أنه قدم عددا من المخترعات الحربية ذات التأثير الفعال، والتي نجحت في صد جيوش الأعداء لمدة عامين. فقد حاصر الجيش الروماني بقيادة مارشليوس مدينة سراكوزة ٢١٤ ق.م. فاخترع أرشميدس (المقلاع) - المنجنيق الذى أوقف جنود المشاة. كذلك اخترع نوعا من «الأوناش ذات المنقار الخطافي» التي تقوم بقلب سفن الأعداء وإغراقها في البحر وقيل إنه صنع مرآة حارقة كانت تشعل النار في سفن الغزاة كلما اقتربت من الشاطئ. وأدى هذا إلى صمود المدينة لمدة سنتين قبل أن تسقط في أيديهم عام ٢١٢ ق.م وتشهد المذابح الرهيبة التي راح أرشميدس ضحيتها.

فقد واصل العمل بالمسائل الرياضية متجاهلا الأوضاع المضطربة من حوله، وفي أثناء انشغاله برسم أحد الأشكال الرياضية على الرمل، قتله جندى رومانى مخمور، وأثار ذلك الحادث حزن القائد مارشيلوس الذى كانت تعليماته تقضي بإعفاء هذا الحكيم العجوز من العقاب. وشيع أرشميدس إلى قبره في موكب كريم وتحققت وصيته فحفروا على قبره كرة بداخل أسطوانة.

لم تنجب مدرسة الإسكندرية قط عالما آخر في منزلة أرشميدس لكنها خرجت عددا كبيرا من أواسط العلماء والباحثين ممن قدموا إسهامات لا تنكر في ميدان العلوم. من بين هؤلاء ايراتوسطين (القرن الثالث ق.م) الذى أجرى تجربة بسيطة دقيقة لقياس حجم الأرض إذ قارن بين طول ظل الشمس بالإسكندرية وطول ظلها عند أول الشلالات في وقت واحد. ونظرا لأنه افترض أن الأرض كروية فقد مكنه ذلك من التوصل إلى تقدير معقول لمحيطها. (حوالى ٢٨,٧٤٠ ميلا) في حين ان الرقم

الصحيح هو ٢٤,٨٧٤ ميلا فقط ثم رسم خريطة للعالم واعتقد أنه يمكن للإنسان أن يسافر من أسبانيا إلى الهند لو سار في طريق مواز للشاطئ.

أما هيبارخوس النيقي. (في القرن الثاني ق.م) فكان واحدا من أعظم علماء الفلك في العصر القديم، كذلك كان رياضيًا بارزًا وضع أساس علم حساب المثلثات. كان يعمل في رودس ببحر إيجة حيث بنى مرصدا وأجرى أبحاثا شاقة ورائعة مستخدما أفضل ما أنتج العصر من أدوات. وقيل إنه أول من حدد موقعا على سطح الأرض مستخدما لفظ خطوط العرض وخطوط الطول، وكان أول من لاحظ أن فصل الاعتدال الربيعي والخريف يأتي مبكرا عن موعده عامًا بعد عام. وهي ظاهرة تعرف باسم تسابق فصول الاعتدال Procession of Equinoxes ثم وضع كتيبًا جديدًا للنجوم يضم ما يقرب من ١٠٨٠ نجمًا موزعة على أبراج مثل برج الجبار والدب العظيم وصنف هذه النجوم إلى مجموعات حسب درجة لمعان كل منها وهو نظام لا يزال متبعا حتى الآن مع بعض التعديل.

بعد هيبارخوس بعدد من القرون جاء كلوديوس بطليموس (القرن الثاني الميلادى) فلكي الإسكندرية ليرث ما تركه هيبارخوس من كتالوجات، و نظريات، ويستعين بها في عمل كتاب سماه «التكوين العظيم».

كان بطليموس يعلم تلاميذه بأن الأرض كرة مثبتة في مركز السماء بطريقة تحفظ توازنها وحولها تدور الشمس والقمر والنجوم في دوائر أو دورات من خلفها يمتد محيط بلورى شفاف تتعلق به النجوم النائية، وخلف هذا المحيط يكمن «المحرك الأول» Primum Mobile وفي ضوء نظرية الدوائر التي يدور بعضها داخل بعض، شرح بطليموس عدم الانتظام الظاهرى في حركة الكواكب التي تبدو وكأنها تتوقف في السماء ثم تعود في اتجاه الخلف. وطبقا لنظرية الدوائر يفترض بطليموس أن كل كوكب يتحرك في داخل دائرة صغيرة يرتكز محورها على محيط دائرة أكبر محورها هو الأرض.

لقد ترجم كتاب «التكوين العظيم»، إلى اللغة العربية ومنها إلى اللاتينية بنفس العنوان العربى AL. Majest أى الأعظم، وظلت نظريات بطليموس مسيطرة على تفكير الناس في العصور الوسطى حتى جاء كوبر نيكوس في القرن السادس عشر.



كان بطليموس أيضا جغرافيا بارعا وكتابه «دليل الجغرافيا» يعد عملا نموذجيا في هذا الصدد لعدة قرون. لقد اختفت الخرائط المصاحبة لهذا الكتاب إلا أنه يمكن إعادة رسمها لأن بطليموس حدد خطوط العرض وخطوط الطول بالنسبة للمناطق التي قام بدراستها. ويعتبر كتابه «دليل الجغرافيا» عملا عظيم الفائدة عند المؤرخين لأنه يتحدث بالتفصيل عن أماكن لم يعد لها وجود أو أصبحت تعرف الآن بأسماء مختلفة. ومن الناحية العلمية، فإن هذا الكتاب يمثل جهدا كبيرا يستحق التقدير، على الأخص بالنسبة لضآلة المعلومات الجغرافية التي كان يمكن الوصول إليها في ذلك الزمن الغابر الذى كتب فيه.

أما هيرو السكندرى «لا يعرف تاريخ ميلاده أو موته» فقد كان نظيرًا أصغر لأرشميدس العظيم. إذ كان مثله حاذقا في الرياضيات والميكانيكا، لكنه يعرف اليوم جيدا بمخترعاته العديدة، فقد اخترع الديوتيرا وهى آلة لقياس الزوايا واخترع «الايوليبيل» وهى أشهر اختراعاته وهى تعتبر الجد الأكبر للآلة البخارية. وقد سماها على اسم ايولس (إله الريح) لكنها لم توضع قط موضع الاختبار العلمي وبقيت كإحدى لعب الأطفال. ويلاحظ أن مخترعات هيرو يتجه معظمها لاستخدام ضغط الهواء أو البخار.

مدرسة الطب بالإسكندرية:

العمل الرئيسى الذى قامت به مدرسة الطب بالإسكندرية هو تطوير علم التشريح. وفي هذا المجال فإن دينها للمصريين كبير جداً. كذلك فإنها مدينة أيضاً للرعاية «الملكية» التي أتاحت للأطباء تشريح أجسام المجرمين وقدمت لهم المجرمين أحياء، من أجل تشريح الأجساد الحية. وكان أساتذة مدرسة الطب بالإسكندرية في سنواتها الأولى هما هيروفيلس الخلقيدونى Herophilus of Chalcedix وايريستوراطوس الإيولى Eristratos of Iulis ربما كان الأخير هو مؤسس المدرسة. لقد جمع هيروفيلوس حكم أبى قراط وجمع وصفاً دقيقًا لأعضاء البصر وأعضاء الحس، والمخ والجهاز العصبى، لم يكن أحد يعلم بوجودها من قبل واكتشف وظائف الكبد وكتب بحوثاً حول عمليات التشخيص diagnosis والتنبؤ بالتطورات المحتملة للمرض Prognosis وفرق بين المخ Cerebrum والمخيخ Cerebellum واكتشف أن الشرايين تحمل الدم لا الهواء كما كان الاعتقاد السائد. واكتشف أيضًا وظيفة القلب في ضخ الدم خلال الشرايين. هكذا اكتشف الحقيقة حول الدورة الدموية التي أعاد اكتشافها هارفيّ بعد حوالى ألفين من السنين.

بعض أجزاء الجسم مثل الاثنى عشر، التوركيولاس هيروفيللى TorculasHerophilli لازالت تسمى باسمه أو طبقاً للتسمية التي أطلقها عليها. لقد قام ايريستوارطوس Eristratos بإجراء دراسة خاصة للمخ والأعصاب والمعدة ونظام التغذية وسمى «رائد علم التحليل النفسى» وفي هذا الجانب استطاع أن يتحقق من وجود بعض أمراض الجهاز العصبى وأسبابها المحتملة.

إن معرفة هذين الرجلين بالتشريح هى التي جعلت اكتشافاتهم شيئاً ممكناً. وقد شيد بعض خلفائهم على ما حصلوه من علم هؤلاء الرجال وعلى موجز علم النباتات الذى جمعه ثيوفراستوس Theophrastus في كتابه «تاريخ النبات» History of Plants وقد كان ثيوفراستوس في ذلك الوقت رئيساً لمدرسة أرسطو في أثينة. وقد اكتشف بعض الخواص العلاجية للحشائش والعقاقير. وكانت صناعة العقاقير ومواد التجميل والعطور والمراهم تعتمد على استيراد البهارات والأعشاب والزيوت الأساسية من الشرق وصارت كلها صناعة إسكندرانية هامة. وأصبحت السلع المصنعة تصدر من الإسكندرية إلى جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط من أجل أغراض الرفاهية والترف، وأيضاً لأغراض صحية ودينية.

ربما قدر للدراسات الطبية بالإسكندرية أن تستفيد من مجموعة الحيوانات التي جمعها فيلادلفوس في حدائق قصره وألحقها بالمتحف، و هذه المجموعة تضم أسوداً، ونموراً وفهوداً، و قططاً كما تضم جاموساً من الهند وأفريقيا وحمير الوحش الآتية من مؤاب Moab بالاضافة إلى تنين أو ثعبان ضخم Pythonطوله ٤٥ قدماً، وزرافة وخرتيت، ودب قطبى، ثم ببغاء، وطاووس. لقد تم جمع الكثير من الحيوانات عن طريق رحلات صيد الفيلة من شرق أفريقيا التي نظمها فيلادلفوس. وكان يتم إرسال الفيلة إلى منتزهات خاصة لتدريبها على الحرب، أما الحيوانات الأخرى فكانت تذهب إلى حدائق الحيوان. لقد وضع أرسطو أسس دراسة علم الحيوان في كتابه «تاريخ الحيوان» لكن يبدو أن فيلادلفوس، الذى لم يكن لديه تذوق للعلم ولا للفلسفة إلا بالقدر الذى يخدم أغراضه السياسية أو الترفيهية. فإنه كان هاوياً للشعر والدراما وكان في ذوقه الجمالى عاشقاً للفخامة الباروكية، ينظر إلى حيواناته كتحفة نادرة لتسلية عشيقاته أو للتودد إلى زوّاره.

لقد انقسم خلفاء هيروفيلوس وايريستوراطوس إلى مدارس متنافسة تحت أعلام هذين الرائدين العظيمين واشتبكوا في مجادلات أكاديمية طويلة بين الدوجماتية والتجريبية توارثها السكندريون والأطباء جيلاً بعد جيل. فاعتبر أتباع هيروفيلوس أنفسهم دوجماتيين ونظر أتباع ايراستوراطوس إلى أنفسهم كتجريبيين. وهذه المعركة لا علاقة لها بأى خلافات كانت بين وجهات نظر العالمين العظيمين اللذين حملوا أسماءهما عبثاً. لقد رمزت هذه المعركة إلى طريقتين تكمل إحداهما الأخرى في منهج العلوم الطبية كذلك أشاعت هذه المعركة بين العامة، الطريقة الكلاسيكية التي تقوم على التعليل والاستنباط التي كان يمارسها أبوقراط، والطريقة التقدمية المعتمدة على التجربة والملاحظة التي كان ينصح بها أرسطو، و التي مارسها كل من هيروفيلوس وأريستوراطوس. وبعد حوالى مائتى عام من النزاع العبثى. تم التصالح في هذه المعركة عن طريق ثيموسون من لوديكيا Laodicea الذى ابتدع طريقة انتقائية تحت اسم المنهجية Methodism في وقت صارت فيه الانتقائية صورة عصرية في دوائر المثقفين.

استمرت مدرسة الإسكندرية الطبية في الازدهار مع بعض التقلبات حتى العصر المسيحى في القرن الثانى الميلادى إذ أخرجت المدرسة واحداً من أعظم الأسماء في عالم الطب هو جالين . Galenالذى كتب خمسة عشر كتاباً في التشريح تشكل أهم ما تبقى من الطب القديم، خصوصاً في تشريح الأوردة والشرايين، والأعصاب وكان كتابه المسمى «فن الطب» هو الدليل العلاجى لعصره.

بعد جالينوس، أخذت ممارسة الطب تتراجع في حوض البحر المتوسط وتعود إلى أصولها السحرية البدائية وأسرارها القديمة عند أورفيوس Orpheus واسكليبيوس Asclepuis و إلى ما هو أقدم وأشد تدميراً في مصر والهند وكالدونيا.

ولابد أن الحياة والتعليم في المتحف قد تعرضا للتوقف فترات متقطعة بسبب الاضطرابات الأهلية المتكررة والتى كانت تحدث في الإسكندرية بدءاً من أوائل القرن الثانى ق.م. وعلى ما يبدو فإن انقساماً خطيراً قد وقع فور انتهاء الحرب الأهلية بين بطليموس السابع سايكون وبين زوجته الأولى المطلقة كليوباترا الثانية. وفي هذه الحرب لقيت كليوباترا المساندة والدعم من سكان الإسكندرية الإغريق في حين كان المصريون واليهود يساندون بطليموس سايكون Psychon ويبدو أن هناك درجة من المبالغة في التقديرات التي وصلتنا من الإغريق عن عدد المفقودين في تلك المذبحة وعن الدمار الذى لحق بالمتحف.

من الواضح أن العلماء والفنانين وحتى الأطباء بالمتحف قد أصابهم الرعب والفزع بصدمة شديدة، فتركوا الإسكندرية، وأصبحت بلاد اليونان والجزر المحيطة بها مكتظة باللاجئين من علماء النحو والفلاسفة، وعلماء الهندسة والموسيقيين والرسامين والأطباء وآخرين من رجال العلم الذين أرغموا بحكم الضرورة أن يقوموا بتدريس ما حصلوه من معرفة وسرعان ما أصابتهم الشهرة.

وعلى الرغم من التخريب والتشتت، فقد أعيد المتحف سريعاً، لكن في وقت غير معروف، أو ربما على مدى فترة من الزمن، ثم نقل الموقع المادى للمتحف إلى معبد السيرابيوم، حيث توجد هناك مكتبة صغيرة (أى الابنة الصغرى للمكتبة الكبرى) التي كانت قد أنشئت في عهد بطليموس فيلادلفوس. ويبدو أن مبنى المكتبة الأصلية قد هدم بفعل الحرائق في زمن

يوليوس قيصر، و ظل المتحف في منوقعه الأصلي في زمن استرابو Straboالذي سجل في كتابه «الجغرافيا» الذي وضعه حوالي ٢٥ ق.م وذكر فيه مبنى المتحف وليس المكتبة التي يحتمل أن تكون قد دمرت خلال الحرب الأهلية في القرن الثالث الميلادي..

من بداية حكم الرومان لم يعد المتحف مرادفاً للحياة العقلية للإسكندرية. لا يرجع ذلك إلى منافسة المؤسسات التي أقامها الرومان مثل السباستيوم Sebasteum والكلوديوم Claudium التي كان تأثيرها مثل تأثير المجلس البريطاني في عاصمة إحدى المستعمرات في أواخر عصر الامبراطورية البريطانية وذلك لأن التيار الأساسي للثقافة قد انحرف عن طريق العلوم التي عرف بها المتحف، والتي أصبح مشهوراً بسببها انحرف إلى طريق الفلسفة الانتقائية الزائفة، وصارت تغذيها تيارات صوفية يهودية وسحرية كلدانية، فأخذت مساراً متعرجاً بعيدا عن الواقع.



ظلت مدرسة الإسكندرية تمارس تأثيرها الفكري على نحو ما، ولكنها ظلت طوال الأربعة قرون الأخيرة تسير في طريق الانهيار المستمر. فبعد عصر بطليموس تعرضت إسهاماتها العملية للإهمال الشديد واستمر هذا الحال نتيجة لعدة عوامل هامة منها سقوط دولة البطالمة ووقوع الإسكندرية في يد أوكتافيوس قيصر في ٣٠ق.م وتحولها إلى ولاية رومانية ثم انتشار المسيحية وما صاحبه من صراع ومذابح بين المسيحيين والرومان. لقد شهدت الإسكندرية أعنف المذابح في عصر الشهداء «القرن الثالث الميلادي» وحين تحولت الإمبراطورية الرومانية الشرقية رسميا إلى المسيحية وكتبت السيادة لهذا الدين الجديد لم يهتم المسيحيون بالعلوم الطبيعة وانشغلوا بفكرة الخلاص الروحي التي قامت عليها مدارس فلسفية ودينية مختلفة.

كذلك كانت الفلسفة الرواقية والأبيقورية على ما بينهما من اختلاف في النظر إلى الحياة متحدتين في احتقارهما للعلم. وفي القرن الثالث ظهرت الأفلاطونية الجديدة التي أسسها أمونيوس بورتر في الإسكندرية حيث دعت الناس إلى التحرر من قيود العالم المادي والتركيز على التأمل المستمر، وانتشرت هذه الفلسفة في ربوع الإمبراطورية الرومانية الغربية في قرونها الأخيرة. وكانت نتائجها مدمرة للعلم، لأنه حين يعطي الناس ظهورهم للواقع ويغفلون ملاحظة الظواهر الطبيعية يسقط العلم في عصر شرير.

حريق المكتبة مسئولية من؟

تناول الدكتور عزيز سوريال هذه المسالة بالدراسة والبحث في كتابه «المسيحية الشرقية» وتوصل إلى رأى يمكن إجماله على النحو التالي:

يتضمن غزو العرب للإسكندرية واقعة حزينة تتعلق بحرق مكتبتها العظيمة بواسطة عمروبن العاص .الذي قيل إنه كان ينفذ أوامر الخليفة عمر. مع ذلك، فإن هذه القصة الرومانسية تنتمي إلى عالم الأساطير. فقد ظهرت لأول مرة في كتابات الرحالة الفارسي (عبداللطيف البغدادي، المتوفى عام (١٢٣١م) والمطران اليعقوبي بارهيبراوس Bar Hebraeus (المتوفى ١٢٨٦م) أي بعد الغزو بستة قرون. إذ يزعمان أنه بناء على تشاور الخليفة عمر قائد جيش المؤمنين في مكة، فإنه أرسل إلى قائده عمرو بقراره المعروف الذي يؤكد فيه بأنه إذا كانت محتويات المكتبة تتفق مع ما جاء في القرآن فهي أشياء لا ضرورة لها، ومن ثم فهي تافهة، وإذا كانت تختلف مع القرآن، فلابد من التخلص منها على اعتبار أنها خطر يهدد روح الإسلام. وفي كلتا الحالتين، يجب إحراق هذه الكتب.

وبعد أن تسلم عمرو هذه الرسالة. بدأت عملية التخلص من هذه المحتويات الضخمة باستخدامها كوقود للحمامات الشعبية بالإسكندرية وانتهت في ستة شهور وهي مدة لا تصدق. ولم يشر أحد من المؤرخين المعاصرين إلى هذه القصة. فضلاً عن ذلك، فمن المشكوك فيه أن تكون لمكتبة بطايموس آثار باقية حتى مجيء العرب. والمعروف أن جزءاً كبيراً منها قد دمر في حروب يوليوس قيصر سنة ٤٨ ق.م. وحدث في القرن الرابع الميلادي، أن المسيحيين المنتصرين قد قاموا بعمليات منظمة لإحراق المباني عمداً لإزالة كل أثر للمؤسسات الوثنية، التي لابد أنها قد أصابت المتحف أو ما بقي منه. إن طبيعة لفائف البردي والمخطوطات المتراكمة في المكتبة لابد أن تتحلل نتيجة استعمالها على مدى قرون عديدة قبل الفتح العربي. بعبارة أخرى، فإن قصة إشعال حمامات الإسكندرية بتراث مكتبة الإسكندرية قصة يجب رفضها باعتبارها بدعة غير تاريخية ولا أساس لها.

أما الروايات القديمة فقد تناولها د. روبرت بازنز أستاذ الدراسات الكلاسيكية بالجامعة القومية الأسترالية في كتاب «مكتبة الإسكندرية» الصادر عام ٢٠٠٢ من الجامعة الأمريكية بالقاهرة حيث يصف لنا ما تقوله المصادر القديمة عن المكتبة وكتبها والباحثين فيها وأيضا عن الدمار النهائي الذي حل بهذه المكتبة وغيرها من المكتبات العامة بالإسكندرية. وهو يبدأ هذه المسألة بالقول:

إن أهم الأسئلة الخلافية حول مصير المكتبة دارت حول مقدار الدمار الذي حدث في أثناء حرب الإسكندرية التي دارت بين يوليوس قيصر من ناحية وبين كليوباترا وأخيها بطليموس الثالث عشر من ناحية أخرى في سبيل السيطرة على مدينة الإسكندرية بين ٤٨/٤٧ ق.م.

وفي محاولة للإجابة عن هذه الأسئلة يقوم روبرت بارنز بعرض روايات المصادر القديمة ببعض التفصيل ويعلق عليها، بادئا برأي الفيلسوف الرواقي سينيكا الذي عاش في القرن الأول الميلادي الذي يندد بجميع المكتبات الكبرى جملة فيقول «ما هي الفكرة من وراء المكتبات والكتب التي لا حصر لها، والتي لا يستطيع صاحبها أن يقرأ عناوينها بطول حياته كلها؟ إن العدد الكامل لهذه الكتب يمثل عبئا على صاحبها ولا يفيد في تعليم الشخص الذي يريد أن يتعلم، والأفضل من هذا أن تعطي ثقتك لقلة من المؤلفين على أن تتجول في كتب كثيرة».

«أربعون ألف كتاب حرقت بمكتبة الإسكندرية. دع شخصاً آخر يمتدح هذا الثراء الملكي الشديد الروعة غير المؤرخ ليفي livy الذي يقول إنه أبرز الإنجازات التي تدل على الذوق الراقي وعلى حرص الملوك ورعايتهم».

ويرى بارنز أن هذه المعلومات استقاها سينيكا من تاريخ روما الذي وضعه ليفي وأن الجزء الوثيق الصلة بهذا الموضوع غير موجود، ثم يضيف أن الأرقام التي أوردها سينيكا لابد من تعديلها إلى أربعمائة ألف كتاب حتى يتناسب مع الرقم الذي أورده أوروسيوس،و كما سنرى فيما بعد أن الرقم في حد ذاته غير دقيق.



أما رواية بلوتارك للقصة فهي على النحو التالي: لقد حوصر قيصر بالأسطول المصري، فاضطر لمواجهة الخطر إلى إشعال النار في الأسطول، التي امتدت من أحواض السفن، فدمرت المكتبة أيضا. قد تبدو هذه الرواية مقنعة، لكنها لا تزال مجرد زعم من مزاعم بلوتارك حول ما تم تدميره على وجه الدقة. أما ديوكاسيوس مؤرخ أوائل القرن الثالث الميلادي فإنه يقول:«بعد هذه المعارك الكثيرة التي دارت بينهما (بين قوات قيصر وبين قوات كليوباترا وأخيها) ليلا ونهاراً، وأشعلت النيران في مواقع كثيرة، وأحرقت أحواض السفن ومخازن الحبوب، وكذلك الكتب التي كانت، كما يقول، كثيرة وممتازة». ونحن نلاحظ أن ديوكاسيوس لم يقل كم عدد الكتب التي أحرقت، أو ما مقدار الجزء الذي كانت تمثله هذه الكتب في المكتبة.

وجدير بنا أن نتذكر رواية جالينوس التي ذكر فيها أن أهل الإسكندرية لم يعتادوا على وضع الكتب الجديدة التي يحصلون عليها مباشرة في المكتبة، بل كانت توضع في المخازن أولاً، وقد يعني ديوكاسيوس أن الكتب التي تصادف وجودها في المخازن فقط هي التي أحرقت في عامي ٤٨/٤٧ ق.م.

وقد صرح إميانوس مارشيلينوس marcellinus وهو من مؤرخي القرن الرابع الميلادي بأنه «بالإضافة إلى ذلك، فقد كانت هناك معابد ذات سقوف مرتفعة، من بينها يبرز معبد السيرابيوم بصورة واضحة. لقد زين بقاعات ذات أعمدة، ومجموعة من التماثيل، تكاد تنطق بالحياة، بجانب عدد كبير من الأعمال الفنية الأخرى، وباستثناء مبنى الكابيتول الذي تفخر به مدينة روما المبجلة، فإنه لا يوجد أروع من السيرابيوم في العالم كله. ففي ذلك المعبد، كانت توجد المكتبات بأعداد لا تحصى، وأن شهادات الماضي الجديرة بالثقة تسجل بأن سبعمائة ألف كتاب جمعتها عيون البطالمة الساهرة التي لا تنام، قد دمرت في حرب الإسكندرية عندما وقعت المدينة تحت سيطرة الديكتاتور قيصر».

يعلق بارنز على هذه الروا ية فيقول إن إميانوس يخلط هنا بوضوح بين مكتبة السيرابيوم وبين المكتبة الرئيسية في حي اليروكيوم مما يجعلنا نشك في قصته كلها. لعله يفترض أن المكتبة كلها حرقت بالفعل (فتقديره يتفق مع الأرقام التي أوردها أولوس جيلبوس Aulus gellius).

وأخيراً فإن أوروسيوس، وهو كاتب جوليات مسيحي في القرن الخامس الميلادي يقدم الرواية التالية: في أثناء المعركة، صدر الأمر بإشعال النار في الأسطول الملكي الذي كان قد انسحب إلى الشاطئ، فامتدت النيران إلى جزء من المدينة، فأحرقت أربعمائة ألف كتاب، تصادف أنها كانت مخزونة في مبنى مجاور، وهي سجل عظيم يشهد لحماسة أجدادنا الذين جمعوا الكثير جداً من روائع الأعمال التي أنتجتها عبقرية الإنسان.

وفي رأى بارنز أن هذه الرواية الأخيرة لا تستحق التصديق، لأن الرقم المحدد لعدد الكتب التي أحرقت غير مؤكد، إذ تقرأ في إحدى المخطوطات أن العدد«أربعون ألفًا» متفقة في ذلك مع سينيكا. والشيء الذي يستحق الاهتمام في رواية أوروسبيوس هو إذا كان في الإمكان العثور على أي شيء يؤكد الشك في أن الذي تم حرقه هو مخزن كتب فقط.

لقد ازداد الأمر صعوبة ـــ بشأن الحكم على هذه الروايات وذلك نتيجة لعدم معرفتنا بشكل مؤكد لموقع المتحف أو المكتبة. فإذا كانت المكتبة قد تعرضت للتدمير، فلابد أن ينتقل اثر ذلك إلى منطقة القصر كلها. لكن قيصر يقرر بنفسه أنه كان يشغل أحد القصور في وقت الحريق، ويقول أحد الكتاب الذي تابع هذه القصة، وربما كان هيرتيوس Hirtius رفيق قيصر أن قيصر كان يمكنه أن يتوسع في احتلاله للمدينة، ويؤكد بوضوح أن الإسكندرية كانت في مامن من الحريق لأن مباني الإسكندرية لم تكن تستخدم ألواح الخشب أو العروق.

أكثر من ذلك، لو أن المكتبة قد دمرت لتوقعنا أن يقوم أحد من أعداء قيصر، وليكن شيشرون مثلا بذكر هذه الحقيقة. وبعد ذلك فإن استرابو، يعطينا بوضوح رواية شاهد عيان للمتحف ولم يذكر أي تدمير ولو كان هناك شيء من الدمار فلابد أنه حدث قبل زيارته للإسكندرية بعشرين عاما. وينتهي الكاتب إلى القول:

من الواضح أننا لا نستطيع أن نستحلص نتيجة محددة من كل

هذه المعلومات المتضاربة جزئيا. ففى جزء منها يتضح لنا أن الذى احترق هو مخزن كتب، أو جزء صغير نسبيا من مجموعة كتب المكتبة، ثم تطورت القصة على مدى السنين إلى قول مأثور بأن المكتبة كلها قد احترقت. وفى المقابل لدينا قول آخر مأثور ومثير للشك أيضاً، أن أنطونيوس قد أهدى مكتبة ببرجاموم إلى كليوباترا تعويضا لها عن هذه الخسارة. ومصدرنا الرئيسى هنا هو بلوتارك الذى يسجل أن «كالفيسيوس» الذى كان مرافقا لقيصر، أذاع هذه التهم ضد أنطونيو فقال إنه «قدم لها مكتبات بيرجاموم التى كانت تحوى مائتى ألف كتاب...»، ثم يواصل بلوتارك روايته فيقول: «وقد جرى الظن بأن كالفيسيوس قد لفق هذه التهم الباطلة». ولا يشير بلوتارك مطلقاً إلى أن الكتب قد أرسلت بالفعل إلى الإسكندرية، ويبدو أنه يشك فى القصة كلها، ومن الممكن أن نفعل نحن فعله.



وعن فترة الاحتلال الرومانى لمصر يقول روبرت بارنز:

قليلة هى المعلومات التى قيلت لنا عن المكتبة (وما تبقى فيها) فى فترة الاستعمار الرومانى. وقد سجل استرابو أنه فى زمنه (أى عصر يوليوس قيصر) عين القيصر الكاهن المسئول عن المتحف، كما كان يفعل البطالمة فيما مضى. وهذا قد يشير إلى بعض الرعاية الامبراطورية للمكتبة. فى حين يسجل سوتونيوس كاتب سيرة الامبراطور فى أوائل القرن الثانى الميلادى، أن دوميتيان قد أهمل فى بداية عهده الدراسات المكتبية، رغم أنه كان قد رتب الأمر لاستعادة المكتبات التى دمرتها النيران (فى رواق أوكتافيوس بروما) بنفقات عالية، وبحث فى كل مكان عن نسخ الكتب وأرسل الباحثين إلى الإسكندرية لنسخ الكتب وتصحيحها.

يستنتج بارنز أن هذا التقرير إن لم يكن تدعيماً امبراطوريا لمكتبة الإسكندرية فإنه على الأقل يعنى حسن السمعة التى كانت للمكتبة بسبب احتفاظها بنسخ صحيحة من الأدب الإغريقى.

ربما حدث الدمار النهائى للمكتبة فى عام ٢٧٢م. إذ يسجل اميانوس مارشيليوس: «لكن الإسكندرية امتدت واتسعت ليس امتداداً تدريجيا مثل باقى المدن الأخرى، وإنما امتدت فى بدايتها إلى أبعاد عظيمة، ثم أنهكتها الصراعات الداخلية على مدى زمن طويل. وفى النهاية، عندما تولى أورليان الامبراطورية، تصاعدت المشاحنات الأهلية إلى صراع مدمر. لقد هدمت أسوار المدينة وفقدت الجزء الأكبر من حى البروكيوم، والذى ظل لزمن طويل، مقراً لأبرز وأهم شخصيات المدينة».

أما السيرابيوم فقد تم تدميره فى عام ٣٩١م ومع أن مصادرنا (أساساً الحوليات المسيحية فى تلك الفترة) لا تذكر هذا بشكل مباشر، كما أنها لا تذكر شيئا عن تدمير المكتبة الكبرى. ففى سنة ٣٩١م حاول البطريرك المسيحى تيوفيلوس تحويل أحد معابد المدينة إلى كنيسة، وبعد مقاومة من جانب الوثنيين، أدت إلى نشوب معارك فى شوارع الإسكندرية وأحدثت كثيراً من الدمار، حصل تيوفيلوس على موافقة الامبراطور ثيودوسيوس الأول على غلق جميع المعابد الوثنية، بما فيها معبد السيرابيوم، واضطر العلماء والفلاسفة الوثنيون إلى مغادرة المدينة.

المؤرخ أوروسيوس الذى كتب سنة ٤١٦ ومن الواضح أن ذلك تم بعد زيارته للإسكندرية فإنه يواصل الفقرة التى استشهدنا بها أنفا فيقول «على الرغم من أنه لازالت هناك صناديق للكتب book cases وأرفف فارغة حتى اليوم فى المعابد، وهى التى رأيناها وقد تعرضت لعمليات سلب ونهب بطريقة تذكرنا أن تفريغها من الكتب قد تم بواسطة أناس من عصرنا (وهو بالتأكيد صحيح) مع ذلك فالأجدر بنا أن نصدق أن هناك كتبًا أخرى قد جمعت (غير التى أحرقت) بغرض التنافس مع القدماء فى الاهتمام بالبحوث والمؤلفات وألا نصدق أن هناك مكتبة أخرى غير المكتبة الكبرى التى كانت تحوى الأربعمائة ألف كتاب قد نجت من مصير المكتبة الأخيرة».

لقد اعتبر هذا إشارة إلى مكتبة السيرابيوم التى دمرت سنة ٣٩١م ومع ذلك، فإن هذه الفقرة ينبغى رؤيتها فى سياق اعتقاد أورسيوس (الذى يمكن ألا يكون صحيحا) بأن مكتبة الإسكندرية الرئيسية وبها أربعمائة ألف كتاب قد دمرت فى عام ٤٨/٤٧ق.م. إنه برغم أن جهوداً بذلت فى وقت متأخر جداً لبناء مكتبات للمعابد بالإسكندرية، لكن يبدو أنه يعتقد أنه لم تكن هناك مكتبة أخرى معاصرة للمكتبة الرئيسية قد أفلتت من مصيرها. إنه لا يعرف شيئا عن تاريخ مكتبة السيرابيوم المبكر. على كل حال، فإنه يوضح أنه لم تكن هناك مكتبة كبيرة باقية فى الإسكندرية على أيامه.

وفيما يتعلق بمسئولية العرب عن حرق المكتبة فإن الكاتب ينفيها ويؤكد أن جميع المكتبات العامة بالإسكندرية قد تم تدميرها بنهاية القرن الرابع الميلادى ولا يوجد فى الأدب المسيحى المكتوب بعد هذا التاريخ أى ذكر لأى مكتبة. وبخصوص ماقيل من أن الخليفة عمر قد أمر بحرق الكتب فإنه يقول: «ومن المثير للشك أيضا أن الخليفة عمر قد أبدى نفس الملاحظة حول الكتب التى وجدها العرب أثناء غزوهم لبلاد فارس». لكنه يختم كلامه بالقول أن هذه القصة دليل على استمرار الأساطير حول مكتبة الإسكندرية بعد اختفائها بزمن طويل. ■



عمر بن عبد العزيز

أخذوا فى جهاز سليمان بن عبد الملك فلم يفرغوا منه حتى وقت المغرب، فصلى عمر بالناس صلاة المغرب ـ ثم صلى على سليمان ودفن.

ولما خرج عمر من القبر أقبل ركب الخليفة، فرأى خيلاً وبراذين وبغالاً مطهمة لكل دابة سائس، فقال: ما هذا؟

ـ مواكب الخلافة يركبها الخليفة أول ما يلى.

ـ دابتى أوفق.

والتفت إلى غلامه وقال: يا مزاحم، ضم هذه إلى بيت مال المسلمين.

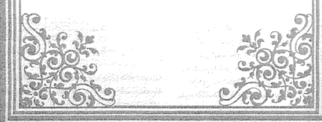
وفغر من حوله أفواههم دهشة. إنه أرسل الدواب لتباع ويضم ثمنها إلى بيت المال وما فعل ذلك خليفة من قبل، إنه طراز جديد من الخلفاء فيه زهد لم يعرفه خليفة قبله.

وانقلب عمر بن عبد العزيز إلى أهله وهو مغتم مهموم، فقال له مزاحم:

ـ مالك هكذا مغتمًا مهمومًا وليس هذا بوقت هذا؟

ـ ويحك ومالى لا أغتم وليس أحد من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يطالبنى بحقه أن أؤديه إليه، كتب إلىّ فى ذلك أو لم يكتب، طلبه منى أو لم يطلب.

وأقبلت عليه زوجته فاطمة بنت عبد الملك الجميلة الشريفة بنت الخليفة وزوجة الخليفة وراحت تهنئه، فلم يقابلها بالفرح والعناق بل خيرها أن تقوم معه على أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها. فبكت وبكى جواريها لبكائها فسمعت ضجة فى داره، ثم اختارت مكانها معه على كل حال.





الكتب في عالم بلا قرّاء؟

يوستين جوردر

بمناسبة مرور خمسين سنة على تأسيس المجلس الدولي لكتب الناشئة، انعقد مؤتمره الثامن والعشرون، في مدينة بازل السويسرية.

وقدمت في هذا المؤتمر أيضاً شهادات التقدير التي منحها المجلس لثمانية وثلاثين كاتباً ورساماً ومترجماً من جميع دول العالم، وضمت هذه القائمة من مصر إيهاب شاكر على رسمه لكتاب «حكاية الأراجوز» وأماني العشماوي عن مجموعتها القصصية «الوصفة العجيبة وأخواتها» وكلاهما من نشر دار الشروق بالقاهرة.

ألقيت في المؤتمر عدة محاضرات كان من أجملها وأكثرها تأثيراً في الحاضرين محاضرة ألقاها الكاتب النرويجي «يوستين جوردر» بعنوان «الكتب في عالم بلا قراء»، وقد كان مرشحاً لجائزة هانز أندرسن في هذا العام. وتُرجم له إلى العربية كتابه المشهور «عالم صوفي». وقصته الرائدة «مرحباً.. هل من أحد هناك؟».

«وجهات نظر» تنشر هنا الأفكار التي عرضها يوستين جوردر في محاضرته.

المحرر

لا تحتاج الحضارات كلها للكتاب بالمقدار نفسه، فهناك حضارات عاشت وازدهرت دون حاجة إلى الكتب. ووجود تقليد الرواية الشفهية كان من أهم أسباب استغنائها عنه. لكن تقوض تقليد الحكاية الشفهية وانهياره في عصرنا الحديث، لم يحل محله ما يكفي من الكتب، وأقصد بالذات الحكايات المكتوبة.. وهذا يعني أن أطفالاً كثيرين يُتركون ليكبروا من غير حكايات. مع أن الحكايات بالذات، سواء منها المكتوبة لتُقرأ أو المروية شفاهة، أمر ضروري لا يمكن الاستغناء عنه لنمو الصغار.

منذ أقدم العصور، وحتى يومنا هذا، يتشارك الكبار والصغار في تلك الثروة الإنسانية الهائلة من الأساطير والحكايات الخرافية والخيالية. ففي السابق، كان الظلام يغشى البيوت منذ غروب الشمس.. ولكن فجأة، بين ليلة وضحاها، هبطت علينا الكهرباء، ثم الهوائيات الفضائية.. لذلك سوف يمر وقت طويل قبل أن تحل الحكايات المكتوبة محل الحكايات المروية الراحلة.. وخاصة أن هناك عوامل اقتصادية تتحكم في إنتاج الكتب، بعد أن كان التراث المروي حراً مجانياً.. متاحاً للجميع.



في بلادي، كما هو الحال في باقي الدول الأوروبية، كان الأمر مختلفاً عن باقي بلدان الثقافات المروية. ففي النرويج مثلاً، اتخذت الحكايات المكتوبة مكانتها منذ زمن بعيد. قبل ظهور التلفزيون والإنترنت.. بل قبل ظهور الكهرباء والهاتف. فقد بدأ تسجيل الحكايات الشعبية المروية شفاهة وكتابتها قبل منتصف القرن التاسع عشر.. وفي الوقت نفسه راحت الروايات المكتوبة والقصص الأدبية المؤلفة تُعوِّض النقص التدريجي في الحكايات المروية.. وظهرت أوائل الكتب الموجهة «للأطفال» في حوالي عام ١٩٠٠ الميلادي.

وهنا نلاحظ أن التراث القصصي المروي شفهياً، من أساطير وحكايات شعبية وخرافية وخيالية، لم يكن مقسماً إلى حكايات للكبار وأخرى للصغار، فقد كانت العائلة كلها تجتمع وتستمع إلى القصة نفسها، وإن كانت هناك بعض الاستثناءات، فالقصص الجنسية المثيرة كانت معروفة في ذلك الحين أيضاً، فربما كانوا يؤخرون روايتها حتى ينام الصغار.

قد لا يكون الكتاب ضرورياً في بعض المجتمعات البشرية، لكن الحكاية ضرورية قطعاً لكل المجتمعات. خاصة في هذا العصر الحديث الذي خلا من تقليد الحكايات المروية، كما حُرِمَ في الوقت نفسه من الحوارات العائلية الطويلة الممتدة، الثرية بالحكايات البطولية والملاحم الإنسانية، التي كانت تساهم في تكوين شخصية الصغير. وعلى ذلك، لم يكن تقليد الحكايات المروية فقط هو الذي تحلل في عصرنا الحديث، وإنما تآكل أيضاً جزء كبير من أساس هذا المجتمع.. وأقصد به الحياة العائلية نفسها.

النصوص المكتوبة ليست لها قيمة حقيقية في حد ذاتها، فهناك كثير جداً من الكتب المنشورة عديمة القيمة. وإنما ما نحتاجه فعلاً هو الحكاية الجيدة، التي تُثري نفوسنا وتساعدنا على النمو.. فالحكاية تؤثر فينا، وتجسد معنى وجودنا، وتعطينا القوة التي تمكننا من توجيه حياتنا.

الحكايات الهندوأوروبية تعتبر مثالاً لذلك الكنز من الحكايات التي عاشت مزدهرة وفي أتم عافية ما يزيد على ألفي سنة. ولم يبدأ تسجيل ذلك الكم الهائل من حكايات شمال ألمانيا إلا مع بداية القرن الثالث عشر الميلادي.. وهكذا نرى أن الشعوب ظلت تحمل تراثها من الحكايات المروية وتحافظ عليه.. ثم تابعت حفظه بتسجيله كتابة قبل أن تضمحل الرواية الشفوية وتموت تماماً.

يمكننا أن نقسم تاريخ الحكاية إلى أربع مراحل ظاهرة:

١- ثقافة ماقبل التراث الأدبي المؤلف، سواء جزئياً أو كلياً، وهو العصر الذهبي للحكايات المروية شفاهة.

٢- ثقافة ماقبل التراث الأدبي الحديث، وفيه سجلت الآثار المروية شفهياً، بكل ثرائها ووفرتها. كما ظهرت إلى جانبها روايات جديدة، وأُلفت كثير من الحكايات الخيالية، ونشرت، فكانت أول ما أطلق عليه «قصص الأطفال».

٣- الثقافات القومية الحديثة ودخل معها كثير من الآداب الأجنبية والثقافات المترجمة. وتكثف نشر كتب الأطفال والناشئة، وقامت مؤسسات متخصصة بدورها في الاهتمام بالكتب ونشرها. وكذلك تأسس المجلس الدولي لكتب الناشئة في أوائل خمسينيات القرن العشرين.

٤- ثقافة مابعد الحداثة، وهي ثقافة عالمية قائمة على الإنترنت، ويميل «مواطنوها» نحو الحصول على التسلية الميسرة. وقد امتد تراثها وانتشر حتى أصبحت سلعة عالمية.

والآن.. ماذا يحدث للحكاية عندما يواجه الأدب المكتوب منافسة وسائل الإعلام الحديثة مثل التلفزيون والفيديو والإنترنت.. وغيرها؟.

لا توجد إجابة شافية لهذا السؤال، ليس الآن على أية حال. وأي إجابة ستكون سابقة لأوانها. فهذه التقنية المعلوماتية الحديثة مازالت في مرحلة الطفولة. ولازلنا لا ندري بالضبط كيف ستغير وسائل الإعلام هذه من أساليب حياتنا وتفكيرنا، ولا كيف ستؤثر على حضارتنا عموماً. إننا نشهد نقطة تحول في تاريخ الإنسانية، وفي الحضارة التي ساهمت نظريات كوبرنيكس في تأسيسها.

لكني على ثقة من أمر واحد مهم.. هو أن الحكاية ستظل حية مادمنا نحن نعيش ونتنفس.. مادمنا نتكلم، ونتبادل الحديث.. ستظل هناك حكايات.

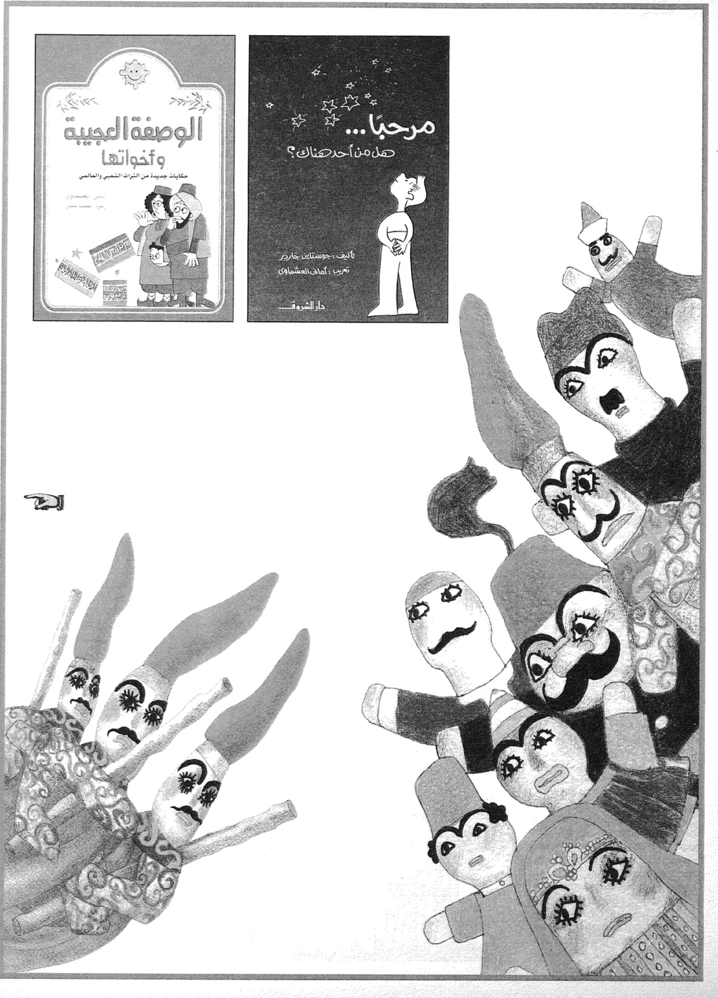
الضمير الإنساني يحمل في ذاته بناءً ملحمياً قصصياً دقيقاً.. هكذا خُلقنا، وهكذا كان الحال منذ تكونت أول أسطورة وأول قصة خرافية في التاريخ. كان العقل الإنساني مصمم ليتلقى الحكايات أكثر مما يتلقى الحقائق والمعلومات البحتة.

مثلاً.. لو عُرض علينا الآن شريط سينمائي يتضمن معلومات مهمة عن مدينة «بازل»، سيثير اهتمامنا بلا شك، وسوف نتابعه بكل حماس. لكننا سوف ننساه بعد ذلك. ولكن، إذا سمعتُ حكاية مثيرة عن «بازل»، ففي الغالب سوف أتذكرها طول حياتي. وهذا الفرق يلفت نظرنا إلى ارتفاع مقام الحكاية وسيادتها على غيرها من الأدب غير الروائي والموسوعات المعلوماتية وألعاب الكمبيوتر. فالحكايات تعيش فينا ومعنا.. وتستحوذ علينا.

الحكايات تخاطب الإنسانية كلها بلغة واحدة مشتركة، متخطية كل التقسيمات السياسية والاختلافات الثقافية والتاريخية. فالأطفال يتعلمون في البداية كلمات قليلة متناثرة بلغتهم الأم.. ثم في لمح البصر تظهر الحكاية في حياتهم، بتكوينها العالمي.. إننا لا نتعلم كيف نتنفس، ولا نحتاج أن نذكر قلبنا كي يدق.. وكذلك لا نتعلم كيف نستمع إلى الحكاية الجيدة، ولا أن نتعرف عليها.. ولا أن نحكيها طبعاً. فالحكاية شكل فريد من الإدراك الخاص بالبشر.

في تاريخ العالم كله، لا تكاد توجد حضارة إلا وقد أنتجت وكونت حولها مجموعة من الأساطير والحكايات الخرافية والخيالية. وكذلك الحال مع الناس، فكل إنسان فرد له قصة حياته الخاصة. لأن حياتنا ليست مرسومة في خط سير محدد أو دائرة محكمة، وإنما حياتنا امتدادات مختلطة بالأحاسيس والرغبات الإنسانية.

إذا أردت معرفة شخص ما... فاطلب منه أن


مرحبًا...
هل من أحد هناك؟
تأليف: جوستاين جاردر
تعريب: أماني العشماوي
دار الشروق
الوصفة العجيبة
وأخواتها
حكايات جديدة من التراث الشعبي والعالمي

يحكي لك قصة حياته. فلكل منا قصة حياة مختلفة، وكلنا نتمنى أن يشاركنا الآخرون في معرفتها. وهناك دائماً وأبداً شيء جديد نتعلمه من قصص حياة الآخرين، وروايتها تطهير للروح وتنفيس للعقل والقلب.



بعض الحكايات يكون عمرها قصيرًا، وهذا هو النوع الذي نسمعه في حياتنا ليل نهار. أما الحكايات المتميزة حقاً فتعيش وتبقى على مر العصور. وهذا هو النوع الذي نريد أن نحفظه مدوناً في الكتب، سواء كانت بتصاوير أم بغير تصاوير، لأننا لم نعد نثق في حفظها وانتقالها بالرواية الشفوية كما كان الحال من قبل.

الحكاية الجيدة يفهمها كل من يسمعها، ويمكن حكاياتها مرات ومرات، لأنها تولد من جديد مع كل مرة نحكيها أو نقرأها، سواء بصوت مرتفع أو همساً لأنفسنا.. ذلك لأن الرواية تتشكل في كل مرة تبعاً لراويها ومستمعها والظرف الذي تُروى فيها. وهناك تواصل عاطفي بين راوي الحكاية ومستمعها.. فالأمر ليس مجرد حكاية مثيرة تسمعها «شارلوت» من أمها أو جدها. فالإطار الذي تُروى فيه الحكاية يعطيها طابعاً خاصاً وإحساساً مميزاً، ويؤكد شعور الصغيرة بالانتماء ويجسد هويتها الشخصية. وهذا ماكان يحدث لنا في زمن الحكايات المروية شفاهة.. إننا نولد مزودين بملكة اللغة، وكذلك مزودين بالقدرة على القصص. فنحن نتعلم الكلام أولاً.. ومن ثمة نحكي الحكايات.

الحكايات الجيدة مثل الفيروسات، فهي معدية، وتنتشر بسهولة، ومن المستحيل مقاومتها بالتطعيمات أو الفيتامينات. ولا تستطيع التمثيليات التلفزيونية «الواقعية» أو ألعاب الكمبيوتر أن تطغى عليها أو تزيحها عن مكانها أبداً. فالحكاية الأصيلة تُكوِّن مضادات أجسام تحصنها من هذه التهديدات. ولاحظوا أننا نستعمل تعبير «حكاية أسرة» أو «أسرتنا هذه الحكاية». وكثيرا مايقول المستمع إلى الحكاية المروية، من شدة الضحك أو من شدة الحزن: «كفى.. لا يمكنني تحمل المزيد».

بعد أن يزول تماماً تقليد الحكايات المروية شفاهة، سيصبح الكتاب هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الحكايات الجيدة. وأقصد بالكتاب: النص المكتوب، أو بمعنى أدق: الأدب. وعندما نتحدث عن الأدب، نعني ذلك الأساس الوطيد للحضارة الإنسانية الذي هو عمود من أعمدتها.. أليس من الغريب أن خلط وتركيب أقل من ثلاثين حرفاً، ينتج عنه معان لامحدودة، نضحك منها ونبكي، نرتجف من الخوف أو الإثارة، نفتتن بها أو نبتهج منها؟؟.. أليس أمراً خارقاً أن هذه الحروف تمكننا من الاستغراق في ملحمة بطولية مر عليها أكثر من ألف سنة؟؟.. أليس أمراً رائعاً أن هذه الأبجدية تمكننا من إشراك الأجيال التي تأتي بعدنا في حكاياتنا؟؟.

وهناك مانسميه التفاعل.. فالكلمات تبدو كأنها تعبيرات لطيفة مخففة لأشياء بغيضة.. كما أن رواية الحكايات لبعضنا بعضاً ينتج عنها تفاعل فيما بيننا، لا نراه في تعاملنا مع الكمبيوتر. وهناك انفعال معين يجري في عقولنا عندما نقرأ شيئاً يعجبنا. انفعال مختلف تماما عما يحدث لنا عندما ندخل شبكة الإنترنت.. إننا نحتاج انتباهاً كبيراً ونستهلك طاقة عظيمة من أدمغتنا عندما نقرأ قصة أو رواية، أكثر مما نستهلك من طاقة عندما نشاهد فيلماً على الفيديو أو نلعب على الكمبيوتر.. فمثلا يمكنني بسهولة متابعة قصة فيلم مرئي وفي الوقت نفسه أسرح بأفكاري قليلا في مواضيع أخرى. لكني لا أستطيع ذلك أبداً إذا كنتُ أقرأ كتاباً.. فالكتاب يحتكر اهتمام القارئ، إما يعطيه اهتمامه كله، أو يتركه تماماً.

عندما نمسك كتاباً لنقرأه، فإننا نخلق لأنفسنا عالماً من التصورات والانطباعات والأفكار والمعاني. فالكتاب يعيش داخلنا، نحن نعيد تكوينه أثناء قراءتنا له. هناك طبعا كاتب ألفه، لكننا نبعث فيه الحياة عندما نقرأه.. فقراءتنا للكتاب لا تشبه أبداً أن نضع شريط الفيديو أو قرص السي دي في الجهاز، ثم نستسلم له ليقرأ لنا النص.. فالقراءة فعل إيجابي خلاق ومحقق للذات أكثر كثيراً من مشاهدة فيلم.

حتى في اليابان، بلاد النظم الإليكترونية الرقمية المتطورة، مازال الناس هناك يقرءون الكتب.. مع أنهم يحتاجون في تلك البلاد إلى تعلم عشرات الآلاف من أشكال الأحرف والمقاطع ليتمكنوا من القراءة. وهذا التناقض الياباني العجيب يساعدنا على تصور مدى تفوق النص المكتوب على الإعلام المرئي.



والآن.. مامدى تأثر الحكايات بوسائل الإعلام والترفيه الحديثة؟.. لقد قلتُ من قبل إننا لا نتعلم كيف نتنفس، لكن الهواء قد يتلوث حتى إننا نجد صعوبة في التنفس. وقلتُ إننا لا نذكر قلوبنا كي يدق، لكن أسلوب حياتنا المعاصرة قد يصيب القلب بالأمراض التي تضعفه أو تؤذيه، حتى يتوقف ذات يوم عن الدق.

لقد أشرتُ من قبل إلى أننا فقدنا القوة الدافعة المميِّزة التي كان تقليد الحكايات المروية يحفظها لنا. فالحكايات المنقولة شفاهة كان لها سحرها الذاتي وخصائصها العالمية التي تتيح لها أن تنتقل من فم إلى فم، وتعيش مئات، بل آلاف السنين. الكتاب، أي النص المطبوع، يستطيع طبعاً البقاء هذا العدد من السنين، لكنه بعكس الحكاية المروية شفاهة لا يملك القدرة على التأقلم ولا الاستجابة الدائمة للأحوال الاجتماعية القائمة. لذلك فهو أقل مرونة من الخرافات والحكايات الشعبية. لقد أتاحت لنا الحكايات فرصة التعرف على تجارب الإنسانية السابقة. لكن الأمر تغير في العقود القليلة الماضية، ففي عالم مابعد الحداثة هذا لم يعد عمر الذاكرة الاجتماعية للناس يتجاوز عدة ساعات أو عدة أيام على الأكثر.. مثلا: زواج النجم الفلاني أو طلاقه، أو أنه يتبع حمية، أو يتناول عقاقير مهدئة، أو مقاومة للسميات، أو أنه قتل نفسه.. أو أن لاعب الكرة الفلاني قد اشتراه النادي العلاني بمليون دولار، أو يورو، أو أن الاختبارات قد كشفت أن بطل التزلج هذا يتعاطى المخدرات.. أو أن عارضة الأزياء تلك تريد أن تتزوج، أو أنها قررت أن تترهبن باقي حياتها.

هذه الأنواع من القصص الأقاويل تزايدت وأحاطت بنا أكثر من أي وقت مضى. لكنها لا تعيش وقتاً كافياً يسمح للصحف الصفراء أن تطبعها وتنشرها. إذن، لماذا ننتظر صحف الغد؟.. فلنجلس أمام شاشة الكمبيوتر أو جهاز ألعاب الفيديو. لأن الجلوس أمام الكمبيوتر وألعاب الفيديو يرفه عنا ويمتعنا بشحنات إلكترونية قصيرة، لا يزيد عمرها عن ثوان معدودة.



لا شك أن شاشات التلفزيون تسرق منا أعمارنا وتنهب حياتنا. أو إذا أردنا الدقة فهي تُعطي وتأخذ، كما قال أحد مدمني الشراب: «في الأيام الخالية، كنتُ أقضي على الزجاجة، أما الآن، فهي التي تقضي عليّ».. هذا القول ينطبق بلا شك على التلفزيون والكمبيوتر والهاتف المحمول. ففي النرويج مثلا، ٨٠٪ من الناشئة، مابين الثالثة عشرة والخامسة عشرة من أعمارهم، يمتلكون هواتف محمولة. وهذا أمر يجعل الآباء أكثر استرخاءً لأنهم يستطيعون العثور على أبنائهم في أي وقت.. الآن أصبحت الأسرة تُدار بجهاز تحكم عن بُعد (الريموت كنترول)!!. والهاتف المحمول هو هذا الجهاز.

كتب «مايكل إند» رواية عن «مومو وسارقي الزمن».. لقد كانت رواية تنبؤية حقاً.. لأننا أصبحنا الآن محاطين بسارقي الوعي؛ الذين أقاموا صناعة تهريج عملاقة متنافرة الألوان، أكبر مشروع صناعي عرفه العالم حتى الآن. وسارقو الوعي هؤلاء يزدادون ثراءً وقوة كلما جردونا من خبرات الحياة الحقيقية وتجاربها، وهم يقومون بذلك علانية وبلا حياء، دون أن يتصدى لهم أحد ليوقفهم أو يمنعهم من التمادي.

مؤسسو حضارة «الضغط على الأزرار» هؤلاء أفسدوا فطرة الأطفال المتطلعة إلى المعرفة المحتاجة إلى اللعب. لقد سلبوهم القدرة على التخيل والدافع إلى النشاط والإبداع، وعمالقة الاتصالات ووسائل الترفيه هؤلاء، يحاولون سرقة الحكايات أيضاً. لكنهم لن ينجحوا أبداً. فالحكاية أقوى من كل قدراتهم وأمتن. لقد رأيت كثيرين من مدمني الالكترونيات يُفطمون بسهولة ويتخلصون من إدمانهم إذا قدمنا لهم حكاية أصيلة.. إذن قدموا لهم ترياقاً من ذلك الرباط الالكتروني المفسد للعافية.. أعطهم «هاري بوتر». لقد علم «هاري



من كتاب الوصفة العجيبة وأخواتها

بوتر» ملايين الأميين ثقافياً أن يقرءوا.. وأول قصة يقرؤها الإنسان لن تكون الأخيرة، فهو لا يكتفي بقراءة كتاب واحد أبداً، وإنما يتوق عادة إلى المزيد.

من الملاحظ الآن، في الدول التي يطلق عليها متقدمة «مستنيرة»، أن قطاعاً كبيراً من الناشئة والشباب يعيشون معظم أوقاتهم، أو ربما كلها، بعيدين عن الكتب، وأقصد بالذات الحكايات الأصيلة الجيدة. ومن الملاحظ أيضاً تزايد الأوقات التي يقضونها في مشاهدة التلفزيون أو الترفيه عن أنفسهم بألعاب الكمبيوتر، بينما تتناقص الأوقات التي يقضونها مع آبائهم أو أجدادهم.. أي أن حاجتهم إلى الكتب في ازدياد. إنني لا أومن أبداً بنظرية التدهور العام للمستوى الروحي للإنسانية. فلو أنني وضعت نصف استثماراتي في الكتب والنصف الآخر في ألعاب الكمبيوتر، لَقَلِقْتُ، في المدى البعيد، على نصيبي في ألعاب الكمبيوتر أكثر من نصيبي في الكتب، وأعني بالذات الحكايات المكتوبة.

إننا الآن أشد احتياجاً للكتب مما كنا قبل خمسين سنة أومائة سنة. ففي ذلك الزمن كنا لانزال ننهل من رصيد الحكايات المروية شفاهة، وبلغاتنا الوطنية.

حليب الأم لا يصبح «موضة قديمة» أبداً وكذلك الحكايات الجيدة. أما مؤسسات التليفزيون وألعاب الكمبيوتر والفيديو، فهي تستنزف حيويتنا وتصيبنا بأمراض اجتماعية لا مثيل لها.. فقد أصبحت ضجيجاً ثقافياً، وتلوثاً فكرياً.. وكان الحضارة الإنسانية قد أصابها سعال مزمن.. أو على الأقل «دور أنفلونزا».

ولكن.. حشائش النجيلة، كما نعرف جميعاً، شديدة القوة والمثابرة، لها قدرة عالية على التشبث بالحياة والنمو في الظروف كافة. حتى إنها تنمو بين شقوق الأسفلت.. إذن، على أسوأ الظروف، سوف ينشأ تقليد جديد للرواية الشفهية، وينمو ويزدهر في تلك «الغابة الأسمنتية».. وبالرغم من كل ما نراه من عولمة ثقافية، فإننا نلمح مظاهر إحياء للثقافات المحلية. فنرى معاهد تعليم الكتابة الأدبية، وورش عمل الكُتّاب، ومقاهي الشعر تتخذ مكانها جنباً إلى جنب مع محلات الفيديو..

فالتاريخ لم يكتمل بعد، حتى لو تصورنا ذلك أحياناً.




عندما أتحدث عن رؤيتي لمستقبل الكتاب، فأنا لا أعتنق وجهة نظر حتمية في مسائل التنمية، بل على العكس من ذلك. وإنما لأني أعتقد أن الكتاب يستحق أن نكافح من أجله. وأرجو أن تسمحوا لي بتوجيه تلك النصيحة: «أهم مايفعله الآباء لأبنائهم بعد أن يطعموهم ويكسوهم.. هو أن يقرءوا لهم».. ففي كثير من المجتمعات الغربية بالذات، يزداد احتياج الناس إلى تبادل الخبرات، خاصة وقد اتسعت الفجوة بين الأجيال.. وتبادل الخبرات هذا له تأثير أساسي على شخصية الإنسان، مثل الهوية والشعور بالانتماء. فالآن أصبح الأبناء والآباء والأجداد يعيشون في عوالم منفصلة، ومع الأيام سوف يزداد تباعدهم. فالأبناء يشاهدون التلفزيون في جهاز مستقل، بينما يجلس الأبوان في غرفة أخرى يحدقان في شاشة أخرى، في حين يكون الأجداد في أماكن متفرقة من البلاد، لا يدرى إلا الله ماذا يفعلون بالتحديد، ربما كانوا هم أيضا يشاهدون التلفزيون أو يمارسون ألعاب الكمبيوتر.

لو أن لي أمنية تتحقق، لتمنيتُ أن تصبح القراءة عادة متأصلة في نفوس الأطفال، وممارسة مفروغاً منها، مثل غسل أسنانهم، فالعناية بصحة الأسنان أمر مهم جداً. لكن الآباء مسئولون أيضاً عن العناية بصحة أبنائهم الإدراكية «التجاريبية». فهناك تقصير كبير في هذا المجال في بلدان كثيرة ومن ضمنها بلادي. لا أقصد في الكتب بالذات، فليس هناك نقص في الكتب، لكننا مترفون، عندنا كتب كثيرة وحكايات جميلة وعظيمة، لكننا لا نكلف أنفسنا باقتطاع جزء من وقتنا لقراءتها.

أتمنى لو أنني أغير قليلاً في عنوان هذا الحوار، فأجعله: كتب الأطفال في عالم بلا آباء؟.

دعوني أقدم لكم هذا المشهد المتخيل في إحدى العائلات: تُحضر البنت الصغيرة كتاباً لأمها وتطلب منها أن تقرأ لها. كانت الأم مشغولة في ذلك الوقت، فهزت رأسها قائلة: «ليس الآن ياشارلوت». أو تقول: «في وقت آخر ياحبيبتي». لكن البنت تقول بإلحاح: «من فضلك اقرئي لي» أو تقول: «اقرئي لي الآن».. فتتنهد الأم قائلة: «لا وقت للقراءة الآن».. فتقول البنت بغضب: «هناك وقت كاف.. عندي».. هل تعتقدون، مثلي، أن هذه البنت الصغيرة هي التي وضعت علامة استفهام في عنوان هذا الحديث؟!.

وبمناسبة الحديث عن الوقت: وقفتُ ذات يوم أتحدث مع أحد الآباء على باب روضة للأطفال، وبينما نحن ندردش، نظر الأب في ساعته فجأة وتنهد قائلاً: «يالهؤلاء الصغار، إنهم يستهلكون الوقت. وقد شفي نفسي أنني جاوبته بقليل من السخرية: «نعم.. فالحياة نفسها تستهلك الوقت».. لقد سمعت كثيراً من الأزواج، رجالاً ونساءً، يشكون أن الحياة الزوجية تستهلك الوقت بدرجة مبالغ فيها.. وهذا صحيح.. وصحيح أيضاً أن الحب يستهلك الوقت. فليس هناك حب فوري. وحبك لإنسان آخر قد يستهلك وقتك، في بعض مراحل الحياة، حتى يسيطر على حياتك كلها.. لكنه يثريها في الوقت نفسه.. وهذا ينطبق على الكتاب.. فإثراء الحياة بقراءة الكتب يستهلك الوقت.. وكذلك إثراء حياة أطفالنا يستهلك أوقاتنا، ويتعارض كثيراً مع رغباتنا الشخصية.

لا شيء في حياتنا المقبلة يعوضنا حرماننا من قراءة قصص مثل حكايات «إخوان جريم» أو «هانز أندرسن» أو «أ.أ. ميلان» أو «سانت إكزوبري» أو «روالد دال» أو «أسترد لندجرن».. وغيرهم.. لأننا سنكون قد حُرمنا من طفولتنا، ثم يبقى في داخلنا طفل لا ينمو، علينا أن نتعامل معه ونتحمله باقي عمرنا. أما من كانت طفولتهم ثرية متنامية فيكونون أطفالاً معافين ثم يصبحون كباراً أقوياء. فكما تقول الحكمة:

هذا الطفل هو أبو ذلك الرجل أو أم تلك المرأة».

في عالم مابعد الحداثة هذا، يزداد احتياج الأطفال إلى مصدر للدفء والحميمية. وهو مايعجز كثير من الآباء عن توفيره لأبنائهم، بسبب تعجلهم أو انشغالهم بأمور الحياة. وأعتقد أن الكتب هي أنسب بديل أبوي في هذا الحالة، وأفضل كثيراً من شاشة الكمبيوتر وجهاز التلفزيون. ومما لا يخفى على أحد ماللقراءة من فوائد أخرى، صحية ونفسية. فكثير من الخبرات التي يمكن إدراكها والاستفادة منها بالقراءة، توفر حماية من مشاكل عديدة.. وتقدم علاجاً ناجعاً لبعض أمراض العصر مثل الضجر!.. وفقدان الهوية والشعور بالعجز والعدمية.

قراءة الكتب تساهم في بناء عقول الناشئة، فهي توسع مداركهم وآفاقهم وتنمي شخصياتهم.

عندما نقرأ كتاباً، فكأنما نؤثث بيتنا من الداخل. والحكايات بالذات تعتبر عنصراً أساسياً في هذا التأثيث.. ففي عصر ماقبل الآداب المكتوبة كانت الحكايات الخرافية والخيالية هي أداة نقل الثقافة والهوية، وكانت الحكايات الشعبية بالذات هي الموسوعات الثقافية في تلك العصور. والكتب التي نقرؤها في طفولتنا تشبه تلك الموسوعات. وهذا ينطبق أيضاً على الحكايات التي نسمعها ونحن جالسون في حجور آبائنا وأمهاتنا. وقد أخذت الكتب تحل، تدريجياً، محل حكايات ماقبل النوم. ولكن، كما تقلصت الحكايات فقد زادت الكتب التي نختار منها.

وعلى ذكر الهوية والانتماء، فقد كانت هويّة الشخص ترتبط بقريته. وكانت الإجابة على سؤال: «من أنت؟».. يتصل فيها محل المعيشة مع النسب بصلة لا تنفك. فأنت تعيش في المكان نفسه مع أبويك، إلى جانب أربعة من أجداد، وعدد من الإخوة والأخوات، ومجموعة من الأعمام والأخوال والعمات والخالات، ثم هناك أبناء العمومة وأبناء الخئولة.. ثم أبناؤهم من بعدهم. أما الآن فقد أصبحنا نشير إلى العالم كله باعتباره قرية واحدة. ونريد أن نثبت انتماءنا إلى هذه القرية الجديدة.. أي أننا نحتاج إلى عناصر مشتركة تحقق لنا قدراً من الاتفاق. وفي اعتقادي أن مثل هذه العناصر يمكن العثور عليها في الآداب.. وأقصد بالذات الحكايات الشعبية العالمية مثل «سندريلا» و«الجميلة النائمة» أو الحكايات المؤلفة مثل «ملابس الامبراطور» و«الدب ويني المتأفف» و«الأمير الصغير» و«شارلي ومصنع الشوكولاتة» و«حكاية بلا

من كتاب الوصفة العجيبة وأخواتها



نهاية».. أو حتى رواية «هاري بوتر» التي انتشرت كالوباء.

قل لي ماذا تقرأ، أقل لك من أنت.

قال الفيلسوف الهولندي من عصر النهضة: «الخيل تولد، أما الإنسان فيتكون».

وقال الحكيم الصيني كونفشيوس: «العلم بلا فكر جهد ضائع، أما الفكر بلا علم فخطر شديد».

إننا معشر البشر نوجد في الحياة ينقصنا الكثير، وعلينا أن نكمل هذا النقص بجهودنا الذاتية، والمشكلة أننا لن نعرف أن هناك ماينقصنا أصلاً إذا بقينا على جهلنا. وإنما سنستمر في مرحلة البدائية الوجدانية، التي قد تؤدي بنا مع الوقت لأن نكون خطراً على ما حولنا ومن حولنا. حالة البدائية الوجدانية تلك، تجعلنا فريسة سهلة لأن يستحوذ علينا ذلك المجتمع الجديد الذي نسميه: مجتمع «الغابات الأسمنتية».

إننا لم نكد نغادر مرحلة الغابات الخضراء حتى رحنا نحرقها لنتخلص من مخاطرها، لكن الغابات الأسمنتية هي الأخرى مليئة بوحوشها الضارية وحيّاتها المتحفزة الماكرة. و«موجلي» العصر الحديث، الذي لم تتول الحيوانات تربيته، إنما ربته الآلات والماكينات، موجلي هذا يحتاج إلى حماية من مخاطر تلك الغابات الأسمنتية. كما أن هناك مخاطر الغابات الافتراضية الأخرى، التي ربما كان أشهرها الإنترنت. وهناك أطفال يعيشون في هذه الغابات الجديدة، انتُزعَت من داخلهم شعلة الحياة، مجردين من هويتهم، محرومين من الإيمان بمستقبلهم، فاقدين الشجاعة والقدرة على مواجهة ذلك المستقبل.. إنهم يستصرخوننا.. يطالبوننا بغذاء لأرواحهم.

«صرخة الأدغال» تلك.. هي أكبر دليل على المستقبل الزاهر للكتاب.



ما هي الأسباب التي دفعتني للكتابة؟

منذ كنت صغيراً جداً، وحتى يومنا هذا، أشعر شعوراً قوياً أنني أعيش في قصة خيالية.. نعم، أعيش في عالم غامض مبهم.. كنتُ أرى أن وجودي حياً في هذا العالم أمر في منتهى الغرابة.. بل إنني كنت أتعجب من مجرد وجود هذا العالم من حولي. وكثيراً ماكنت أسأل الكبار: «أليس من العجيب أننا أحياء؟».. أو «أليس من الغريب وجود هذا العالم؟». وكان الكبار يجيبونني: «ليس غريباً على الإطلاق.. لماذا تراه غريباً؟».. فأتشبث بوجهة نظري متسائلاً: «إذن.. أنتم ترون أن وجود هذا العالم أمر عادي؟».. فيرد الكبار: «بالتأكيد هو أمر عادي». وقد يقولون بإشفاق: «لا تكثر من التفكير في هذه الأمور».. لكن أحداً منهم لم يخطر بباله أن يستفسر عن أسباب تعجبي. وقد كنت متأكداً أنني محق في خواطري تلك.. فقررت ألا أكون من الكبار أبداً.. حتى لا أفقد شعوري بالدهشة من العالم من حولي. كما أنني اكتشفت أمراً آخر.. اكتشفت أنني سوف أعيش على هذه الأرض مدة قصيرة جداً، وأنني هنا في زيارة لمرة واحدة فقط، وأنني لن أعود إلى هذا العالم مرة أخرى.

هذا مادفعني للكتابة.. للكبار أولاً، ثم بعد ذلك للصغار أيضاً. فقد أردت أن أثار لنفسي بعد أن أصبحت أكثر قدرة على التعبير عن ذاتي. أردت أن أدفع الناس لأن يتوقفوا أحياناً ويتأملوا الحياة من حولهم، يتأملوا تلك المغامرة الخارقة التي يمرون عليها سريعاً ولا يلحظونها. ليتأملوا ذلك اللغز الغامض الذي يحيط بنا.. لابد أن نعود أطفالاً مندهشين مرة أخرى لنشعر بذلك كله.. لابد أن نخلع عنا رداءنا الدنيوي ونعود صغاراً.

لقد وُلِدنا في حكاية خيالية، لكننا اعتدنا، مع الوقت، على مافيها من عجائب، حتى لم يعد هناك مايبهرنا.

ولكن هناك شيئا مبهرًا ساحرًا يظهر ويتكون داخل ذلك المهد الجديد الذي اشتريناه من محل الأثاث «إيكيا». العالم كله يتشكل في ذلك المهد منذ أن وصل المولود الجديد إلى عالم الحكاية الخيالية هذا الذي نعيش فيه. ذلك العالم الذي أقصينا أنفسنا عنه عندما وصمناه بأنه «الواقع».

«أمي.. لماذا تلمع النجوم؟».. «كيف يطير الطير؟».. «لماذا للفيل أنف طويل؟»..

«الحقيقة.. أنني لا أعرف.. والآن نامي ياشارلوت وإلا غضبت ماما».

من المفارقات المؤسفة أن الطفل يفقد ذلك الإحساس النابض بأنه حي في الوقت نفسه الذي يتعلم فيه الكلام. لذلك يحتاج إلى أجهزة دفاع أساسية بديلة.. لذلك يحتاج إلى الكتب.. لذلك يحتاج الكبار أيضاً إلى كتب الصغار.. إنها تساعدنا أن نحفظ تجارب طفولتنا الماضية، وأن نتذكرها، ولولا الكتب لكنا فقدناها.

هناك مثل لاتيني يقول: «إذا غيرت الاسم، أصبحت القصة عنك».



ما هو ذلك الشيء الغامض الذي يشوق

الأطفال ويدفعهم للاستماع إلى حكايات الجن والعفاريت في الحكايات الخيالية؟.. ربما لأنهم يشعرون شعوراً كامناً بأنهم هم أنفسهم عفاريت في حكاية خيالية.

كيف نتقبل القصص الخرافية التي يفكر فيها الحيوانات ويتحدثون مثلنا؟.. ربما لأننا نشعر بصلة مبهمة تصلنا بالبوم والغربان، وبالفهود والنمور.

حكاياتنا الخرافية ليست مصاغة من كلمات فقط، وإنما هي منسوجة من غبار النجوم، من الذرات والجزيئات، من البروتين والأمينوأسيد.. إنها منا، وعنا.

لماذا نشعر بالبهجة والإثارة عندما نقرأ الحكايات الخيالية أمثال «يوميات نارنيا» أو «حكاية بلا نهاية»؟.. إننا لا نصدق مانقراه بالتأكيد. ولكن.. ربما وجدنا فيه صدى بعيدًا لشيء نسيناه بداخلنا؟.

«لقاءات من النوع الثالث» كان ذلك عنوان أحد أفلام المخرج «سبيلبرج» الخيالية عن الفضاء. والمقصود بهذا العنوان أن من يرى الكائنات الفضائية رؤية عابرة، يكون ذلك لقاء من النوع الأول. فلو أنه رأى هذه الكائنات في سفينة فضاء مثلا، وأنعم النظر فيهم، فذلك لقاء من النوع الثاني. أما لو أنه أُخذ وأُدخل سفينة الفضاء وقابل هؤلاء الغرباء، فذلك لقاء من النوع الثالث.. ولكن، ماأهمية ذلك كله؟؟.

أنا شخصياً جربتُ لقاء من النوع الرابع.. عندما كنت صغيراً في العاشرة من عمري: كنتُ أنا نفسي الكائن الغريب.. كنتُ أحد تلك المخلوقات الغامضة الآتية من الفضاء الخارجي، من كوكب صغير لونه أزرق مشوب بخضرة.. أحس ذلك بداخلي.. استيقظت بعد نوم عميق.. فوجدت الغريب في فراشي.. فقمتُ أنا وإياه.. وسكنته فكنتُ أنا الذي يُخاف، ويَخاف.. وقفت أمام المرآة في الحمام، أمسح النوم عن عينيَّ، وأسأل نفسي: «من أنت؟»...

لم يحدث أن التقيت بكائن قادم من المريخ، ليس بعد، ولكني التقيتُ بنفسي.. أظن أنني لابد أن أقرأ عن سكان المريخ قبل أن ألقاهم.

لابد أن أعبر النهر لأجلب الماء.. فالقصة في الحقيقة عني أنا.

من قال إن الحكايات الخيالية قصص ملفقة مصطنعة؟.. من قال إن الخرافات قصص لا يمكن تصديقها؟.. مادام هذا العالم موجودًا فعلاً، فقد انمحى الفاصل بين الممكن واللاممكن.

قد يقول البعض: «ماحاجتنا إلى الخرافات والحكايات الخيالية؟.. فعندنا الواقع، فلنكتب عنه.. مع الواقع لا نحتاج لحكايات وهمية».. ولكن، كلا.. إننا نحتاجها فعلا.. لأننا كائنات أسيرة العادة.. ربما كنا قادرين على رؤية الكون واستكشافه.. لكننا لسنا قادرين دائما على رؤية أنفسنا.

الخرافات والحكايات الخيالية هي مرآة الإنسانية. لكنها ليست مرآة واحدة ننظر فيها فنرى أنفسنا.. إننا عندما ندخل عالم الخيال نكون كمن دخل بيت المرايا المليء بأنواع عديدة من المرايا المحدبة والمقعرة. فإحدى المرايا تريني نفسي رفيعاً كالعصا، والأخرى تُظهر صورتي بدينًا مسحوقًا، والثالثة أراني فيها منقسماً، فلا أعود شخصاً واحداً، وإنما اثنين أو ثلاثة.. أو ربما عشرة.. وفي كل الحالات، إنما هي صورتي، أنا، في المرآة.

والمرآة لا تكذب كما يقولون.

بيت المرايا هذا هو الأدب الخيالي، إنه يساعدنا على إزالة الغبار عن واقعنا.. لنشعر بالعالم الحقيقي من جديد، كما كنا نشعر به ونحن أطفال.. قبل أن نصبح «دنيويين». قبل أن نفك غموض عالم الخيال هذا الذي نعيش فيه بأن نطلق عليه اسم «الواقع». وهذا أمل لنا كلنا.. ففي داخل كل منا طفل رائع مندهش متسائل.. في داخل كل منا كتلة صغيرة من الذهب، مهما تصورنا أننا عاديون.. ففي يوم من الأيام كنا قادمين جُدُداً إلى هذه الحياة.. ولن نبقى هنا إلى الأبد.. وإنما نحن هنا في زيارة قصيرة فقط.

أدب الصغار يساعدنا على العثور على مكاننا الحق في الحياة.. ويتيح لنا الفرصة لأن نخطو خطوة إلى الوراء.. فنكتشف عالماً كاملاً أمامنا.. هانحن نشهد عالماً جديداً يتكون.. هاهو ينهض قائماً أمام أعيننا.. في وضح النهار.. عالمٌ لم يسبق له مثيل، يقوم من العدم..

ومع ذلك، فهناك من يقول إنه يعاني من الضجر!!

كان سقراط يتجول في أسواق أثينا سائلاً الناس الذين يلقاهم أسئلة عجيبة.

كان يقول: «أثينا مثل حصان بليد. وأنا مثل ذبابة الخيل. أحاول أن أوقظه.. وأن أبقيه حياً».

وكثير من كتب الأطفال تطن مثل ذبابة الخيل، وتدور في أرض الأدب الرحبة، آملة أن تلدغنا فتوقظنا من سباتنا الرتيب.. وتبقي فينا جذوة الدهشة. ■

ترجمة: أماني العشماوي



عمر بن عبد العزيز

دخل عمر بن عبد العزيز الجامع الأموى بدمشق وراح يدير عينيه فى المكان وهو يحس ضيقًا، فما فيه من زخارف وتهاويل وفسيفساء وذهب يشغل العابد عن عبادته. أين هذا الترف المصنوع من تلك البساطة الآسرة التى يتسم بها مسجد الرسول. إنه أيام كان يؤم مسجد الرسول فى المدينة قبل أن يأمر عبد الملك بن مروان بعمارته، كان يسعد بالأنوار الربانية التى تغشى المسجد، أما هنا فى المسجد الأموى الكبير فهو لا يشعر إلا بالاختناق. لكأنما قبته وجدرانه توشك أن تنقض عليه وتكتم أنفاسه.

وراح عمر بن عبد العزيز يردد: «إسراف.. إسراف».

أين بساطة الإسلام؟ لماذا كل هذا الإسراف؟ أنفق الوليد أربعمائة صندوق من الذهب فى كل صندوق أربعة آلاف دينار؛ فلو أنفق ذلك على المحتاجين لما كان فقير واحد فى مملكته.

ولما علم أهل دمشق بموقف عمر اختاروا خالد بن عبد الله القسرى ليكلمه وقال له:

- يا أمير المؤمنين بلغنا عنك أنك تريد أن تجرد المسجد مما فيه. فقال: نعم.

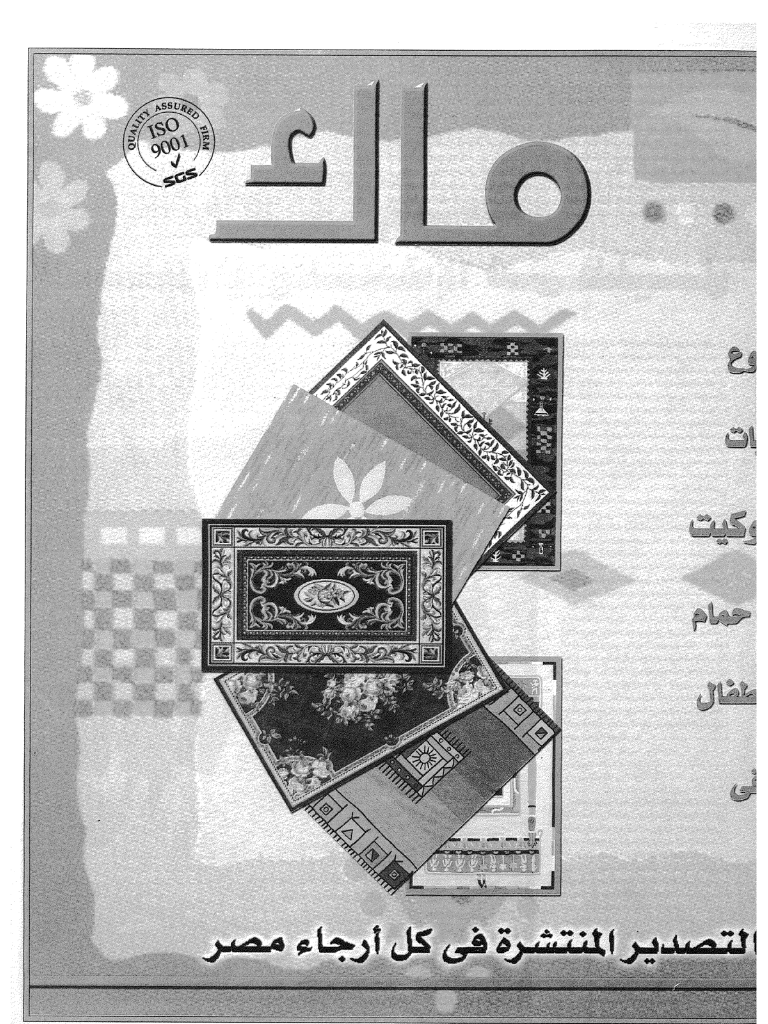
- ليس ذلك لك يا أمير المؤمنين.

وسأل عمر: لم؟ فرد خالد: لأن غالب ما فيه من الرخام إنما حمله المسلمون من أموالهم من سائر الأقاليم وليس هو لبيت المال.

فأطرق الخليفة مفكرًا. إنه لا يحب أن يحمل إلى بيت المال إلا مالاً طيبًا كما أن المسجد بهر الرومان فقال عمر دعوه.






QUALITY ASSURED FIRM
ISO 9001
SGS
ماك
...وع
...ات
...وكيت
... حمام
...طفال
...فى
...التصدير المنتشرة فى كل أرجاء مصر

الصـــين الجـــديدة .. فـــى ظـــل

محمد عبدالرحمن يونس

في ظل سياسة الإصلاح والانفتاح، التي انتهجتها الحكومة الصينية، شهد المجتمع الصيني تحولا كبيرا في المفاهيم والقيم والأخلاق. ففي الصين ومع هذه السياسة «صار كل شيء موجودا، أمّا في هونج كونج فصار كل شيء مباحًا، على حدّ تعبير الصينيين المعاصرين، وإذا كان كلّ شيء موجوداً في الصين، فإن كلّ شيء مسموح به، ما عدا انتقاد الحكومة الصينية والتظاهر ضدّها.

وتحاول هذه المقالة أن ترصد أهمّ مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية، وقد قصدت من إعدادها إعطاء القارئ العربي لمحة عن الصين المعاصرة في ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح التي قادها زعيم الحزب الشيوعي السابق دنج شياو بنج، والتي أطاحت بأنصار الزعيم ماو تسي تونج، وبالمقربين منه، من زعماء السلطة السياسية، والتي أسست لمفاهيم وقيم رأسمالية جديدة لم تكن سائدة في مجتمع الصين وعلاقاته في حقبة الزعيم ماو تسي تونج.

في البداية أحبّ أن أشير إلى أنه إذا كان من المعروف أنّ ثمة أمراضا مزمنة تتحكم في علاقات مجتمعات بلدان العالم الثالث كالرشاوى والفساد والسرقات والمحسوبيات والعلاقات الشخصيّة والبيروقراطيّة الإدارية والعمولات، فإنّ الصين المعاصرة بدأت تغصّ بهذه الأمراض التي أخذت تنخر جسد المجتمع الصيني وروحه، وتفتته وتقسمه طبقياً، بحيث يزداد الفقراء فيه فقرا والأثرياء ثراء، وذلك في ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح، إذ يعتقد كثير من الصينيين المعاصرين أنّ في هذه السياسة خلاصا اقتصادياً واجتماعيا وإنسانياً من مشاكلهم وأمراضهم السياسية و الاجتماعية، وأنّها ستحقق لهم أحلامهم في الثراء والرفاهية، التي لم تتحقق في حقبة الرئيس ماو تسي تونج.

وأحبّ أن أشير إلى أنه نظراً لما عانته الصين من الاستعمار الأجنبي الطويل، وما رافق هذا الاستعمار من ظلم للشعب الصيني، وقهره، واستغلال خيراته، قد تشبّعت نفوس الصينيين بحساسية شديدة ضدّ أي أجنبي يقيم على الأراضي الصينية، ويعمل في مؤسسات الصين. فبعد أن استولى ماو تسي تونج على مقاليد السلطة في الصين، قامت السلطات الصينية بمصادرة أملاك الإقطاعيين وتوزيعها على أفراد الشعب، وأمّمت المصانع العائدة لطبقة الرأسماليين، وطردت جميع الأجانب المقيمين على الأراضي الصينية - باستثناءات جدّ محدودة، تشمل مجموعة من الأشخاص المساندين للثورة الصينية والفاعلين فيها. ولم يستطع الصينيون المعاصرون بعد أفول نجم ماو تسي تونج وسياسته الاشتراكية، وسيادة سياسة الانفتاح، وعلاقات السوق، ورأس المال، أن يخفّفوا من هذه الحساسية التي سرعان ما تظهر على وجوههم وفي مواقفهم، وفي انفعالاتهم، وممارستهم اليومية، كلّما لاحت الفرصة لها، فالصينيون المعاصرون كتومون، وحذرون جداً من الأجنبي، سواء أكان أوروبيا أو أمريكيا أو عربياً، أم غير ذلك، ويحاولون دائماً أن يخفوا عنه ما يجري في الصين المعاصرة، على المستوى السياسي والاجتماعي والإنساني والثقافي. ونجد أنّ هذه الحساسية تنفجر في أحيان كثيرة لتصبح عنصرية ضدّ الأجنبي وبغضاً له. وإذا كان المثقفون الصينيون المعاصرون الكثيرون الذين زاروا العالم العربي، وعاشوا في مدنه، وتفاعلوا مع سكانه وعاداتهم وتقاليدهم، يكنون احتراماً لهذا العالم، ويصفون أهله بالكرم والوفاء ومساعدة الغرباء بإنسانية عالية، فإنّ قسماً كبيراً منهم لم يستطيعوا أن يتخلّصوا من حساسيتهم ضدّ الأجنبي، وظلّوا يتعاملون مع العربي زائر الصين بحذر وريبة وشكّ.

إنّ الصيني، على الرغم من اتساع الصين، وشساعة أراضيها (٩,٦ مليون كيلو متر مربع، أي أنّها من حيث المساحة في المركز الثالث في العالم بعد روسيا وكندا)، وعدد سكانها المذهل (بلغ عدد سكان الصين حتى نهاية عام ١٩٩٨م، ١٢٨٤,١ مليون نسمة، عدا سكان مقاطعة هونج كونج ومقاطعة تايوان، ومنطقة ماكاو) يحذر الأجنبي، ويضعه دائماً في دائرة الشكّ والحذر، وعدم الثقة بنواياه الخبيثة أو الطيبة، ويحاول دائماً أن يخفي عنه ما جرى ويجري في الصين.



بدأت بوادر الطفرة الرأسمالية تتجذّر واضحة في الصين ابتداء من عام ١٩٩٣م، ودخلت في أهم معاقل الشيوعية الصينية في بكين، وهو ميدان (تيان آن مين)، وقاعة الشعب الكبرى الموجودة في هذا الميدان، فقد افتتح بار (كاراوكي) الضخم بجوار بوابة مدينة الصين القديمة، وكان يُقدم في هذا البار أغاني (البوب) متزامنة مع صور الفيديو، وكانت تعقد في هذا البار علاقات الجنس المحرمة، وقد حظيت هذه البوابة التي يرجع تاريخ تشييدها إلى عهد الإمبراطور الصيني (يونج) في القرن الخامس عشر - الذي ينتمي إلى أسرة مينج الإمبراطورية التي حكمت الصين ما بين عام ١٣٦٨ حتى عام ١٦٤٤م - برعاية كبيرة من الحكومة الصينية لأنها من أهم المعالم الأثريّة القومية في الصين. وقد علل مدير البوابة (هو بي يون) - في ذلك

الوقت ـ سبب افتتاح هذا البار قائلا: (لا نستطيع التفكير في حماية آثار الصين من دون الأموال الكثيرة).

وجرياً وراء سياسة الكسب السريع وجمع المال من أيّ مصدر كان، شرعت الحكومة الصينية في فتح الأماكن المحرّمة للسياح الأجانب، فقد فتحت بوابات المدينة المحرمة في ميدان تيان آن مين في عام ١٩٨٨م، وأقامت فيها مقاهي وحوانيت مليئة بالهدايا. أمّا قاعة الشعب الكبرى الموجودة في هذا الميدان، والتي تعد مقرّ الحكومة الصينية الرئيس، والتي كانت قلعة محرّمة أيام ماو تسي تونج، فقد افتتحت أمام عامة الناس في عام ١٩٧٩م.

تعمد إلى إجراء غير إنساني وغير حضاري، نابع من العقلية المتزمتة المنغلقة والضيقة والحذرة التي يفكّر من خلالها القائمون على سياسة التعليم العالي في الصين، وهو: أن كليات هذه الجامعات عندما تعقد اجتماعاتها الدورية لأعضاء هيئة التدريس، فإنها لا تدعو أيّ عضو هيئة تدريس أجنبي فيها، مهما كانت درجته العلمية إلى حضور هذه الاجتماعات. ويعلل القائمون على هذه الكليات عدم دعوة أعضاء هيئة التدريس الأجانب بأسباب غريبة منها: إنّ لنا في الصين عقلية خاصة بنا، ولنا ظروف وخصوصيات وطريقة عمل وتفكير مغايرة لظروفكم وطبيعة تفكيركم، ولذا لا

سنوات قليلة لن تكون الصين شيوعية حتى اسما، فقد تظلّ بلدا قوميا وعسكريا وكارها للأجانب).

بعد موت ماو تسي تونج (١٩٧٦م)، كرّس دنج شياو بنج الرجل القوي في الدولة جميع جهوده للتخلص من المتطرفين ـ أنصار ماو ـ وعلى رأسهم: زوجته جانج شنج، وياو وين يوان عضو اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعي، ووانج هنج ون نائبه في رئاسة الدولة، وشانج تشو شياو زعيم الراديكاليين في اللجنة المركزيّة

ويقدّمهما إلى المحاكمة بتهم عديدة منها: أنهما من أنصار عصابة الأربعة، وأنّهما لا يزالان يؤمنان بأهداف هذه العصابة، بالإضافة إلى تورطهما في عدّة مجازر دمويّة ارتكبت في ضواحي بكين.

ويخلو الجوّ لدنج شياو بنج، وتبدأ بوادر سياسة الإصلاح والانفتاح تظهر في الساحة الصينية. فتبدأ الفرق الموسيقية الأوروبية بالتوافد إلى الصين للغناء والرقص فيها، فقد كانت الصين أرضاً بكرًا بالنسبة لهذه الفرق التوّاقة لنشر فنّها، ويمكن أن تدرّ عليها أموالا كثيرة، وذلك نظراً لتشوّف الصينيين العارم نحو ما يجري في العالم المعاصر، وتحديدا أمريكا وأوروبا. ففي عام ١٩٧٩م زارت فرقة الباليه

سياسة الإصلاح والانفتاح

وقد سنت الحكومة الصينية سياسة تمييز مالية ضدّ الأجانب المقيمين على أراضيها أيّاً كانت جنسياتهم.

ومن مظاهر هذه السياسة أن المقيم الأجنبي يدفع في العيادات الطبيّة الخاصّة والعامة الخاضعة لقانون الضمان الصحيّ أكثر مما يدفعه الصيني، فعلى سبيل المثال يدفع الصيني الخاضع لصندوق الضمان الصحيّ يواناً واحداً رسم بطاقة الدخول إلى مشفى الجامعة أجرة الكشف الطبيّ، بينما يدفع الأجنبي الخاضع لهذا الصندوق نفسه خمسة يوانات وأحيانا عشرة يوانات.

ومن مظاهر سياسة التمييز التي سنتها الحكومة ضدّ الأجانب أنّها حرّمت على الأجانب المبيت في الفنادق الرخيصة التي ينام فيها الصينيون، وفرضت عليهم النوم ـ إذا ما اضطّروا ـ في الفنادق عالية الأجر وذوات النجوم العديدة، والتي تبلغ أجور المبيت فيها (٨٨) دولارا فما فوق في الليلة الواحدة. وقد سألت صديقاً صينيا عن سبب ذلك، فقال: إنّ الخدمات التي تقدّم لزبائن الفنادق الراقيّة عديدة ومتميّزة، وهي تعكس الوجه الحضاري والمتطوّر للصين. ويطمح القائمون على هذه الفنادق ـ لقاء تقديمهم هذه الخدمات المتميزة ـ إلى كسب المزيد من الأموال التي يدخلها الأجانب إلى الصين عند زيارتهم لها، وهؤلاء الأجانب كثيرون جداً. أمّا الفنادق الرخيصة ـ التي هي مقصورة على الصينيين ـ فإنها تعكس الوجه السلبي للصين، وقاع المجتمع الصيني، إنّها تعرّي هذا المجتمع من قشرته الخارجيّة، وتكشف عن المهمّشين والمستلبين فيه، وهي في آن تعكس أمراض هذا المجتمع، حيث تمتلئ هذه الفنادق ببائعات الهوى، وبالمدمنين على المخدرات، وبالمقامرين، بالإضافة إلى أن أجور هذه الفنادق رخيصة جدا، إذ لا تتجاوز أجرة الواحد منها (١٢٥) يواناً في الليلة الواحدة.

ومن مظاهر سياسة التمييز المالي ضدّ الأجانب في ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح هي تلك التي تتّخذها الجامعات الصينية ضدّ الأساتذة الأجانب العاملين فيها، إذ إنّ بعض هذه الجامعات تقدّم مكافآت مالية للأساتذة الصينيين، علاوة على رواتبهم، كلّ فصل دراسي وأحيانا كل شهرين، ومنها جامعة الدراسات الأجنبية في بكين، في حين أنها تمنع هذه المكافآت عن الأساتذة الأجانب الذين يعملون مع زملائهم الصينيين، مع العلم أن الأساتذة الأجانب يحملون شهادات علمية أعلى من شهادات الصينيين، ويدرّسون حصصا أكثر من تلك التي يدرّسها الصينيون. ولا تكتفي الجامعات الصينية بهذا التمييز فحسب بل

ندعوكم إلى حضور هذه الاجتماعات التي يحضرها زملاؤكم الصينيون حتى لا تتدخلوا في ما لا يعنيكم، وبالتالي تسببوا لنا حرجا. وهذا إجراء غير موجود في جامعات العالم الأخرى العربية والأجنبية، ولعلّ الجامعات الصينية هي الوحيدة في العالم التي تتّخذ مثل هذا الإجراء.



يضاف إلى ذلك إجراء آخر يبدو غريبا جداً، ولا يوجد في أيّ بلد من بلدان العالم إلا في الصين وحدها، وهو: ما يتعلق بالنشر في الدوريات العلمية التابعة لكليات الجامعات الصينية، فالقائمون على إصدار هذه الدوريات الأكاديمية لا يدعون أي أستاذ أجنبي للمشاركة في الكتابة في هذه الدوريات، بل يحرمونه من المشاركة إن أبدى رغبة، والسبب بسيط جدا كما أكّد لي أحد زملائي العرب العاملين في جامعات بكين. فهذه الدوريات تقدم مكافآت مالية لأصحاب الأبحاث الأكاديمية المنشورة فيها، والصينيون يريدون أن يأكلوا الكعكة وحدهم، ولا يريدون للأجنبي أن يشاطرهم فيها، مع العلم أنّ هذه الإجراءات لم تكن موجودة في حقبة ماو تسي تونج، كما يؤكّد الذين عايشوا هذه الحقبة، ولا يزالون يعايشون ما يجري في الصين المعاصرة، بل هي وليدة سياسة الإصلاح والانفتاح الجديدة التي بدأت بعد ماو تسي تونج. ويقول كريستوفر هيتشنس: (من المحتمل أنّه بعد

للحزب الشيوعي الصيني، ويطلق الصينيون المعاصرون على هؤلاء (عصابة الأربعة). ولم يكن ماو تسي تونج في حكمه راضيا عن دنج شياو بنج، فاقصاه عن منصبه كنائب رئيس للحكومة أول مرّة في عام ١٩٦٦م، بتهمة الرجعية والبيروقراطية، ومحاولة الالتفاف على الأيديولوجيا العامة للدولة وللحزب الشيوعي الصيني الذي يتزعمه ماو. ثمّ أقصاه للمرة الثانية عن المنصب نفسه وقبل وفاته في عام ١٩٧٦، لإسهامه في صراعات سياسية كان هدفها الاستيلاء على السلطة. وما إن يموت ماو تسي تونج حتى يعود دنج شياو بنج إلى منصبه ثُمّ في ما بعد، في عام ١٩٧٧م، يصبح أقوى رجل في السلطة، ويطرح برنامجًا اقتصادياً يطمح من خلاله إلى تحديث الدولة صناعيا وتكنولوجيا وتجاريا، فيفتح أبوابها على العالم الخارجي بصناعاته واستثماراته وتجارته واقتصاده الحرّ، ويعمل على إصلاح هيكلية الدولة السياسية والأيديولوجية، ويتخلّص من خصومه السياسيين ومن الأطر والقيادات التي تبنّت أفكار ماو تسي تونج، واحدا بعد الآخر، ويطرح مفاهيمه وشعاراته الخاصة التي تفتح عيون الصينيين صوب الثراء والمال والرأسمالية واقتصاد السوق الحرّة، ويعزّز علاقات الصين مع أمريكا، بعد أن كانت مقطوعة بشكل كامل أيام ماو تسي تونج، وتفتتح أمريكا سفارتها لأول مرّة في بكين، ويُعين ليو نارد وود كوك سفيرا فيها. وفي عام ١٩٧٩م يستطيع دنج شياو بنج بذكاء أن يتخلص من رجلين قويين في الدولة، وهما: شن وانز، و دانج وانتيان، القائدان السابقان للحرس الأحمر الصيني،

الراقصة البريطانية مدينة بكين، بدعوة رسمية من الحكومة الصينيّة، وظلّت هذه الفرقة ترقص لعشرة أيام متواصلة على مسرح بكين الكبير.

لقد زرع دنج شياو بنج في نفوس الصينيين رغبة عارمة في التطلع إلى حضارة أمريكا والغرب الأوروبي، وقد رأى أنّ خلاص الصين من أيديولوجية ماو تسي تونج الضيقة والمتزمتة، لا يمكن أن يكون إلا بالانفتاح على الغرب وأمريكا، وبكل ما يأتي منهما، فأصبح الصينيون تواقين لزيارتهما، تدفعهم رغبة عارمة في معرفة ما يدور فيهما. وتشير جملة المفاهيم والمقولات التي طرحها دنج، بشكل أو بآخر إلى السير باتجاه الرأسمالية واقتصاد السوق، هذه المقولات التي لا يزال الصينيون المعاصرون يرددونها حتى الآن. ومنها: «لا يهمّ من أين تتسلق قمّة جبال إيفريست. من الشمال أم من الجنوب طالما أنك ستصل القمّة في النهاية». و: «ما أروع أن تكون ثريا وغنيا». و: «يجب التشدد في الداخل والتساهل مع الخارج». وعُرف عنه أنه كان يردد مقولة صينية قديمة: «المجد لمن يصبح غنيًا». ومن أقواله المعروفة في الصين: «لا يهمّنا إن كان القط أبيض أم أسود بل يهمّنا في المحصلة الأخيرة أن يصطاد الفئران أنّى كانت».

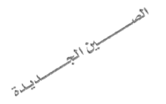
إنّ كثيراً من الصينيين المعاصرين يعتقدون أنّ هذا القول الأخير صائب تماماً. وهذا القول يشير بشكل واضح إلى أنّه لا يهمّ إذا كانت الصين اشتراكية أم رأسماليّة، طالما أنّها تسير في طريق الإصلاح والانفتاح والتقنيات الحديثة صناعيا وزراعيا، وطالما أنّها تسير في طريق يهدف أولا وأخيرا إلى الثراء الكبير، وشدّ الاستثمارات الأجنبية وتكديس الأموال في بنوك الصين، ودفع عجلة الاقتصاد الصيني باتجاه اقتصاد السوق.

وتاكيدا لانفتاح سياسة دنج شياو بنج صوب أمريكا والغرب الأوروبي، وإعجابه بهما فقد قام بأول زيارة له إلى أمريكا في ٢٩ شباط / فبراير ١٩٧٩م، وقد أرسى من خلال هذه الزيارة أسس التعاون الأمريكي الصيني، إذ اقترنت هذه الزيارة «بالتطبيع الرسمي الكامل للعلاقات الأمريكية ـ الصينية. وكانت جولته هذه بمنزلة ملتقى جامع بين البلدين. وكان من دواعي سرور وسائل الإعلام الصينيّة والأمريكية على السواء، أن عاش دنج، بحماس تجربته الأمريكية، [إذ] ارتدى قبعة رعاة البقر في تكساس. وشارك في مباراة الروديو لرعاة البقر هناك. وتناول طعامهم على طريق الباربكيو، واعتاد أينما ذهب، أن يشجّع ويحثّ



لم يكن ماو تسي تونج في حكمه راضيا عن دنج شياو بنج، فأقصاه عن منصبه كنائب رئيس للحكومة في عام ١٩٦٦، بتهمة الرجعية والبيروقراطية. ثمّ أقصاه للمرة الثانية عن المنصب نفسه وقبل وفاته في عام ١٩٧٦، لإسهامه في صراعات سياسية





وسائل الإعلام الصينية المرافقة له، أن ترسل إلى الوطن صورا توضّح مدى التقدّم التكنولوجي الأمريكي، وضخامة المباني، وارتفاع مستوى معيشة العمال الأمريكيين».

وقد حققت هذه الزيارة فيما بعد لأمريكا مكاسب كبيرة، إذ فتحت أبواب الصين أمام المستثمرين والشركات الأمريكية الكثيرة، وفتحت شهية رجال الأعمال الأمريكيين إلى الأسواق الصينية ذات القدرات الاستهلاكيّة العاليّة. وفي عام ١٩٨٠م أصدر دنج شياو بنج «قانون الاستثمارات المشتركة وأنشأ اللجنة الجديدة للاستثمارات الأجنبية». ومع أنّ العلاقات التجارية مع العالم الخارجي كانت قائمة منذ زيارة ريتشارد نيكسون في العام ١٩٧٢م، فإنّ هذين التغيرين في السياسة كانا بداية ازدهار الصين المعاصر. كان معناهما أنه بوسع الشركات الأجنبية أن تنشئ شركات لا بمشاركة الصين، وأنه يمكن بسهولة نقل الرساميل والتكنولوجيا، وأمكن بالتالي، وهو الأهم عقد القروض الأجنبية الحكومية والخاصة. والخطير كذلك أنّ الشئون التجارية خرجت من سيطرة السلطة المركزيّة، ورجال الأعمال الأجانب أصبحوا قادرين على التفاوض مباشرة مع المصانع، متجاوزين بذلك البيروقراطية والرشوة بعد أن كانت تمرّ هذه المفاوضات عبر الوزارات في بكين سابقاً.

وكان من نتائج هذه الزيارة أن وافقت الحكومة الصينية لبنك «أوف أميركا» بفتح فرع له في مدينة بكين العاصمة، ويعدّ هذا الفرع أول مصرف أمريكي يُنشأ في الصين منذ طرد المصالح الأجنبية من الصين في عام ١٩٤٩م.

وفتحت الزيارة شهية الصينيين للثراء والامتلاك، وبخاصة امتلاك الأدوات الكهربائية الحديثة، وظهرت نزعة كبيرة لدى جيل الشباب المعاصر إلى تقليد الأمريكيين في المآكل والمشرب والملبس، ورافق ذلك موجة من الاحتجاجات ضدّ الحكومة الصينية، مطالبة برفع مستوى المعيشة، وخفض أسعار المواد الغذائية، وانتشرت ظاهرة السوق السوداء في بكين وبقية المدن الصينية، وعبّر كثير من الناس عن رغبتهم العارمة في التخلص من مظاهر ضغط الأيديولوجية الحزبية، ومن أفكار ماو تسي تونج التي اعتبروها متشددة ومتطرّفة، وتحررت النساء من كثير من القيود، التي فُرضت عليهنّ أيام ماو، كاللباس المحتشم والابتعاد عن استخدام الماكياج والإفراط في الزينة، وعدم مخالطة الرجال الأجانب. وأقبلت بعض النسوة على خطوة جريئة وجديدة ما كان لها أن تكون في عهد ماو، فقد شوهدت الفتيات الصينيات الجميلات «في المرابع الليلية في شانغهاي وهنّ يراقصن الأجانب وقد أزعج ذلك المسئولين، وقامت الشرطة باقتحام بعض هذه الأماكن وطرد الفتيات، وكذلك تعرّض العديد من المراهقين للتأديب من قبل رجال الأمن بسبب إقدامهم على الرقص ليلاً في الشوارع».

وبرزت على الساحة الفنيّة المطربة الشابة الجميلة دانج لي جون التي اجترأت وغنّت أغاني مغايرة لأيديولوجية الغناء الصيني المصبوغ بشعارات الثورة والعمال والفلاحين والنضال، خارقة بذلك نسق الغناء السائد أيام ماو تسي تونج، مع العلم أنّ نظام ماو كان يحارب محاربة شديدة تلك الأغاني التي لا تمجّد الثورة والثوار والعمال والفلاحين، وتمجّده في أحيان أخرى، وكان دائما يحارب الموسيقى الغربية لأنها تسهم في إفساد الشباب طليعة الثورة، وقد حدّ من انتشار هذه الأغاني، حتى كان يقال إنّ من كان (يصغي إلى الموسيقى الغربيّة يبعث إلى مزرعة الخنازير في منغوليا)، عقوبة وتأديباً له.

وفيما بعد دخلت الموسيقى الغربيّة، وموجات الرقص بجميع أنواعه وأشكاله إلى الصين. وفي هذه الأيام يوجد في مدن الصين الكبيرة والصغيرة مراقص وملاه وقاعات فخمة للهو والسكر والعربدة، لا تضاهيها مراقص لندن وواشنطن وباريس، وغيرها من العواصم العالميّة. وتراقص النساء الصينيات من تشاء وعلى مرأى رجال البوليس ومسامعهم، وتسكر، وتتعاطى الحشيش والمخدرات، وتمارس الجنس تجارة، وتتاجر بكل شيء طمعاً في الثراء السريع. ولا تتركّز دور اللهو والمراقص في أحياء المدن الكبرى فحسب، بل إنها تزحف إلى الجامعات والمعاهد العلميّة، ففي الجامعات توجد مراقص للطلبة تغصّ بالراقصين والراقصات من الطلبة وغير الطلبة، وبخاصّة في مساء يومي الجمعة والسبت، لأنّ العطلة الرسميّة في دوائر الدولة الصينية تكون في يومي السبت والأحد.

إنّ من يتجوّل في هذه الأيام في شوارع بكين، فإنه لن يشاهد أولئك النسوة اللاتي كنّ يرتدين الملابس الخشنة والقاتمة الداكنة كملابس الرجال أيام ماو، واللواتي تُنبئ ملامحهنّ بالعزم والجديّة والصلابة، بل سيشاهد نساء في منتهى الأناقة والزينة والتبرج، والملابس القصيرة جداً، والشورتات الساخنة الفاضحة، وقد تخضبنّ بالطيب وأحدث عطور العالم، وهنّ يتعمدن المشي بدلال وغنج، حتى تظهر مفاتنهنّ الأنثويّة المثيرة.

أعود إلى دنج شياو بينج لأقول: إنّ العلاقات الأمريكية الصينية شهدت في عهده تطورا ملحوظا على المستوى التجاري والاقتصادي والسياسي، فالصينيون متعطشون لإقامة علاقات مع أمريكا، ومندفعون اندفاعاً لا مثيل له، في تطبيع جميع أشكال العلاقات معها، فأمريكا في نظرهم السوبرمان، والقوة العظمى التي لا تقهر؛ وهم يطمحون إلى الاستفادة من علومها وتقاناتها الصناعيّة والعسكرية. وقد وعت أمريكا حاجة الصين الماسة إلى مثل هذه العلاقات، فاستثمرت هذه الحاجة، وفرضت شروطها على الصين، طالبة منها أن تسمح لها بإنشاء القواعد العسكرية على أراضيها، فقد «أقام الأمريكيون في كسينجيانج [شينجيانج] قاعدتين للاستخبارات تحلان محل القواعد التي كانت موجودة في إيران قبل نظام حكم الخميني. ومن الناحية النظرية تدار هاتان القاعدتان بالاشتراك مع الجيش الصيني، إلاّ أنهما تخضعان في واقع الأمر إلى وكالة المخابرات المركزيّة الأمريكيّة التي تراقب قواعد الصواريخ السوفيتية في وسط آسيا».

وأسهمت أمريكا إسهاما واضحا في تعزيز الترسانة الحربية الصينية وتطويرها، فقد وقّعت بكين مع واشنطن عام ١٩٨٤م، وقبيل زيارة الرئيس ريجن إلى بكين اتفاقا نوويا «يكفل تيسيرات هائلة لتنمية الصناعة الصينية وربّما يساعد أيضا على تصنيع رؤوس نووية، فالصين لديها مجموعة متواضعة من الصواريخ دونج فانج (رياح الشرق) تضمّ صواريخ عابرة للقارات وقادرة على ضرب أي مدينة سوفيتية، فضلاً عن مقذوفات متوسطة المدى. كما يوجد في الصين خمسة وأربعون منجما لليورانيوم، وخمسة مصانع لمعالجة اليورانيوم والبلوتونيوم. وثمة أمر له أهميّة بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية هو قدرة الصين على صناعة المنتجات الإشعاعية والتي تقدر بـ (١,٢) طن سنويا وهو ما يكفي لتموين قرابة خمسة وسبعين رأسا نووية سنوياً، ويزيد عن احتياجاتها».

ولم يكن التعاون الصيني الأمريكي في مجال التسليح تعاونا نظيفاً يخدم السلام العالمي، بل كان تعاوناً وظيفياً يهدف بالدرجة الأولى إلى زيادة هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على الدول الأخرى. ويسهم أيضا في كبح جموح الأعداء التقليديين للصين وأمريكا معاً، وهم الروس واليابانيون. فالصين مستعدة لأن تقدّم لأمريكا كلّ شيء نكاية بالعدو التقليدي الأيديولوجي للصين، وهو الاتحاد السوفيتي(سابقا). وكانت أمريكا مستعدة أن تقدّم المزيد للصينيين، وتدغدغ أحلامهم في الثراء والوصول إلى مصافّ الدول المتقدمة تكنولوجيا، حتى لا يحدث أي تقارب بين الصين والاتحاد السوفيتي من جهة، وبين الصين واليابان من جهة أخرى، فقد كانت مهمة الوجود الأمريكي في الصين - وبالدرجة الأولى - تهدف إلى «حماية المصالح الاقتصادية الأمريكية، وفي هذا الشأن، يسهم التحالف مع الصين إسهاما ضمنيّا في وقف التوسع الياباني في جنوب شرقي آسيا وفي منطقة المحيط الهادي».

ومع تكريس سياسة الإصلاح والانفتاح وتجذّرها في بنية الدولة الصينية، صارت أمريكا قبلة الصينيين، وأصبح الحلم الأكبر بالنسبة للصيني زيارة أمريكا، أو الهجرة إليها، أو الدراسة في جامعاتها لأنها تمثّل في نظره صورة عن الجنة الأرضيّة، ففيها التقدم العلمي والمعرفي، وفيها الحريات الفردية، وفيها الثراء والمال، وفيها التحرر من قيود العائلة وضغط المجتمع، والتزمت السياسي والأيديولوجيا السياسية الضيقة. إنها بصراحة - كما يؤكد الصينيون - منبر للحريات الفكرية والسياسية، ويستطيع الفرد فيها أن يفعل ما يشاء، وإن كان نشيطا يستطيع أن يجني الأموال الكثيرة، وأكدوا أن ما تنتجه أمريكا من ثقافة، وأدب وفن وسينما هو النموذج الأمثل والأكثر رقيا إلاّ أنّ كثيرا من المثقفين يؤكدون أنّ الغزو الثقافي الأمريكي النشيط للصين سيشكّل خطراً كبيراً على أخلاق الصينيين، وأنّ أفلام الجنس الأمريكيّة الموجودة على أقراص (DVD -CD)، ستسهم - في المستقبل - في إفساد جيل الشباب، وابتعاده عن الأخلاق البوذيّة أو الكونفوشيوسية الفاضلة، وستسهم في تفتيت الأسرة الصينيّة التي شُكّلت تأسيساً على الوفاء الزوجي، وعدم الخيانة الزوجيّة، واعتبارها عملاً محرّماً ومنافياً للأخلاق الفاضلة التي دعا إليها بوذا وكونفوشيوس.



وتشير الإحصائيات إلى عدد الطلاب الصينيين الذين درسوا في أمريكا وتخرّجوا في جامعتها، ففي السنوات السابقة على عام ١٩٥٤م، حصل الطلاب الصينيون على (١٣٧٩٧) شهادة جامعية أمريكيّة، وعلى (٢٠٩٧) شهادة عليا بدرجة دكتوراه، «وبحلول عام ١٩٦٤ كان ثلاثة أرباع أعضاء مجلس إدارة وأعضاء اللجنة الدائمة للأكاديمية الصينية للعلوم قد تلقوا تدريبا غربيا». وفي عام ١٩٨٥م، جاء إلى أمريكا(٨٠٠) طالب فقط، مما أزعج هذا العدد القليل، الطلاب الصينيين الذين لم تتح لهم الفرصة للقدوم إلى أمريكا، إذ «وجّه

تشير جملة المفاهيم والمقولات التى طرحها دنج، بشكل أو بآخر إلى السير باتجاه الرأسمالية واقتصاد السوق، هذه المقولات التى لا يزال الصينيون المعاصرون يرددونها حتى الآن. ومنها: « لا يهمّ من أين تتسلق قمّة جبال إيفريست. من الشمال أم من الجنوب ما دمت ستصل القمّة فى النهاية »

أكثر من ألف طالب منهم كتاباً مفتوحاً للحكومة الصينيّة يعربون فيه عن قلقهم تجاه التخفيض، ويعارضون الإجراءات الجديدة التى تحدد عدد السنوات التى يقضيها الطلاب الموفدون رسميا فى الولايات المتحدة بسنتين لشهادة الماجستير وخمس سنوات للدكتوراه». وفى عام ١٩٨٨م، أوفدت لجنة التعليم الصينية (٦٠٠) طالب إلى أمريكا، بينما قامت الجامعات والأكاديميات الصينية بإرسال أربعة آلاف إلى جامعات أمريكا وقد حضر طلاب جاءوا بقصد الدراسة على نفقتهم الخاصة، وعددهم من (٢٠٠٠) إلى (٣٠٠٠) طالب وطالبة. ومعظم هؤلاء الطلاب يميلون إلى الاهتمام بالإنسانيات والعلوم الاجتماعية والقانون والتاريخ وعلم الأجناس والأدب الإنجليزى والدراسات الأمريكيّة، وهندسة الراديو والفيزياء النووية، وتاريخ العلوم، وتتراوح أعمارهم بين الثلاثينيات والأربعينيات حتى الحادية والستين. وقد بلغ عدد الطلاب الصينيين الذين تخرّجوا فى جامعات أمريكا حتى عام ١٩٨٩م، مائة وعشرين ألف خريج تقريباً، بينما كان عشرون ألف طالب مسجلين فى هذه الجامعات.

وتصرّ النخبة السياسية الحاكمة فى الصين على إرسال أولادها لأجل الدراسة فى أمريكا، إذ يكونون هؤلاء فى مقدمة الموفدين، لأنّ هؤلاء السياسيين يعون تماماً أنه لا مستقبل علميًا ولا سياسيًا لأولادهم المدللين إن بقوا فى الصين. ويقول دوجلاس موراى، رئيس معهد الصين فى أمريكا: «يبدو أنّ لكلّ زعيم صينى ابناً أو ابنة فى الولايات المتحدة».

وبطبيعة الحال لن يرضى أبناء النخبة السياسية الحاكمة فى الصين، والمتواجدون فى أمريكا أن يعيشوا فى مستوى المعيشة التى يعيشها أبناء الشعب العاديّون، وذلك نظراً لثراء آبائهم الفاحش، ومراكزهم الطبقيّة سياسياً واجتماعياً فى مجتمع صينى، يقوم أساساً فى تركيبته على التباين الطبقى الحادّ فى ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح، إذ يعيش فيه نخبة سياسية واقتصاديّة وتجاريّة، تمتلك كلّ شىء، وتغرق فى الثراء الفاحش، بينما يوجد فيه تسعمائة مليون«من الفلاحين الذين يحتالون على العيش وسط أوضاع أشبه بتلك التى كانت سائدة فى العصور الوسطى. فهل يمكن للأغنياء أن يضمنوا حياتهم ومصائرهم وسط هؤلاء الفقراء؟».

ولم تشهد الصين فى ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح تطوّراً مذهلاً فى علاقاتها مع أمريكا فحسب، بل أقامت علاقات سياسية واقتصاديّة وتجارية وعسكريّة متميّزة مع إسرائيل، وقد حاولت الصين أن تبقى هذه العلاقات سريّة، وأن تنفى ذلك دائما فى المحافل العربيّة والدوليّة، خوفاً من إثارة حفيظة أصدقائها العرب، لكنّ الخبراء والمحللين السياسيين يعرفون تماماً أبعاد العلاقات الصينيّة الإسرائيليّة وخفاياها، و«يبدو أن ثمّة تجارة مستترة وشبه سريّة قد نشأت بين إسرائيل والصين فى قطاع الأسلحة، وهو ما تنفيه بكين بقوة. وقدّم الإسرائيليون إلى الصينيين معلومات تتصل بالدبابات والمدفعيّة. وقد ترددت فى عام ١٩٨٤م أقوال عن مبيعات من الأسلحة الإسرائيليّة تقدّر قيمتها بما يتراوح بين مليار وثلاثة مليارات من الدولارات، وذكرت صحف القدس أنّ قرابة مائتى مستشار إسرائيلى أسهموا فى تيسير عملية إدماج المعدّات المصنوعة فى بلادهم ضمن عتاد القوات المسلّحة الصينيّة، وقد برّرت إسرائيل سياستها فى هذا الشأن بالإلماح إلى الأمن الشامل للولايات المتحدة الأمريكية والعالم الغربى».

إنّ من يتجوّل فى أسواق بكين التجارية الرئيسة، سيشاهد البضائع الإسرائيليّة فى هذه الأسواق، وقد شاهدت بأمّ عينى شابات صينيات يرتدين سراويل وقمصان جينز إسرائيليّة، مكتوب عليها باللغة الإنجليزية: (YATA ISRAEL)، و: (MADE IN ISRAEL) وعندما سألت إحدى الشابات: لماذا ترتدين ثياب جينز إسرائيلية، والصين من أكثر دول العالم إنتاجا لهذه الألبسة؟ أكّدت الشابة أنّ الجينز الإسرائيلى متميّز فى جودته، وهو أفضل من الصينى بكثير، وأكثر أناقة منه، ويضفى على المرأة جمالا خاصا مقارنة بالصينى. مع ملاحظة أنّ الوجود الإسرائيلى فى الصين، كان معدوماً فى عهد ماو تسى تونج، حيث كانت الصين تخلو تماماً من الإسرائيليين واليهود من الجنسيات الأخرى، ومن أىّ مظهر من مظاهر الدعاية الإسرائيليّة، لأنّ الرئيس ماو تسى تونج كان يرفض رفضاً قاطعاً الوجود الإسرائيلى فى الصين. وقد قال لى صديق صينى ـ من أنصار سياسة الإصلاح والانفتاح ـ بشكل هادئ ومؤدّب ـ مسوّغا قيام العلاقات الإسرائيلية الصينية: إننا فى الصين بحاجة ماسة إلى الخبرات الإسرائيلية المتطوّرة فى مجال التسليح والتكنولوجيا، ولذا فإننا نقيم علاقات وطيدة مع إسرائيل حتى نستفيد من هذه الخبرات، وذلك انطلاقا من مصالحنا وأهدافنا فى تطوير بلدنا وعصرنته.

إذا كانت الصين قد حققت قفزات واسعة، وتحت ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح، فى مجال الصناعات الخفيفة والثقيلة والتجارة الخارجيّة، والاستثمار، والتعليم والتكنولوجيا بشكل عام، فإنها أصبحت غارقة فى مشاكل عديدة تؤرّق الصينيين، وتحدّ من طموحهم لأن يصبحوا فى عداد الدول الحضاريّة المتقدّمة إنسانياً وعلمياً ومعرفياً، وهذه المشاكل كثيرة جداً، ولعلّ من أهمّها: مشكلة التلوّث، فالصينيون، بشكل عام، يستخدمون الفحم الحجرى للتدفئة، فى شتاءاتهم القاسية جداً، وهذا يعنى أنّ الدخان الملوّث بثانى أكسيد الكربون الناتج عن اشتعال الفحم الحجرى، سوف ينافس الغيوم فى سماء العاصمة الصينية بكين، ومعروف عن الصين أنّها تستخدم الفحم فى إنتاج الطاقة بمعدل ٧٢ بالمائة. ويعدّ الفحم الحجرى مصدراً أساسياً لتلوّث الهواء فى العالم، ففى العالم يوجد عشرون مدينة كبيرة ملوّثة بفعل الفحم الحجرى، ومنها(١٦) ست عشرة مدينة موجودة فى الصين. وقد أسهم هذا التلوّث فى زيادة عدد المصابين بالأمراض الصدريّة، إذ بلغ هذا العدد فى الصين ضعف عدد المصابين فى جميع دول العالم الثالث.

ويشير أحد تقارير البنك الدولى إلى أنّ التلوّث يكبّد الصين خسارة سنويّة تُقدّر بـ(٥٤) مليار دولار، فالصين هى البلد الأكثر تلويثاً للبيئة فى العالم، إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية الأكثر استخداماً للطاقة. وقد اعتاد السياسيون فى بكين أن يديروا الأذن الصمّاء لنداءات علماء البيئة وتوصياتهم، إلاّ أنهم فى الآونة الأخيرة بدأوا يبحثون عن مصادر بديلة للطاقة، على الرغم من أنّ هذا البحث مكلف اقتصادياً. فالإنتاج الصينى من الفحم الحجرى هو ربع الإنتاج العالمى، والصين تحتوى على (٢٥) ألف منجم للفحم يعمل فيها (٤٠٠) ألف عامل بشروط وقائيّة متخلّفة. هذا وقد عمدت الحكومة الصينيّة، وأملاً فى الإسهام فى نظافة البيئة، إلى إقفال(١٣) ألف منجم غير شرعى. الأمر الذى دفع بضعة آلاف من العمال إلى رصيف البطالة، وهذا يعنى أنّ اهتمام المسئولين الصينيين بنظافة البيئة سيسبب لهم متاعب أخرى على الصعيد الإنسانى والاجتماعى والاقتصادى. فقد قررت حكومة بكين أن تستدين(٣٤٩) مليون دولار من البنك الدولى، لأجل الانتقال من استخدام الفحم الحجرى إلى استخدام الغاز الطبيعى فى التدفئة الجماعيّة وإنتاج الكهرباء.

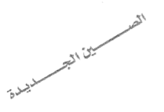
ومن مشكلات الصين الكبرى مشكلة (تايوان)، فهى الجرح الأكبر فى حياة الصينيين بعامة، شعباً وحكومة، وقد اعتقد الصينيون أن انفتاحهم على أمريكا، وتطبيع العلاقات بأشكالها كافة مع الأمريكيين من شأنه أن يوقف الدعم الأمريكى لتايوان، وأن يوقف تأييد أمريكا لحكام تايوان، وتمرّدهم على وطنهم الأم (الصين)، غير أنّ حسابات الصينيين لم تكن صحيحة، فمهما كانت علاقاتهم متينة مع أمريكا، فإنّها لن تقف معهم ضدّ تايوان. ولقد أحسّ الصينيون فيما بعد بخيبة الأمل من نظرائهم الأمريكيين بشأن قضية تايوان. فها هو أحد الشبان، من أعضاء الحركة الديموقراطية التى قادت مظاهرات (تيان آن مين) ضدّ الحكومة الصينيّة، يعبّر عن رأى جيله من الشبان، فى موقف أمريكا من قضية تايوان قائلاً: «منذ سنوات عديدة كنّا نظن ـ عن سذاجة منا ـ أنّ الولايات المتحدة كانت تريد مساعدة الصين بدلاً من تخريبها، ولكننا اليوم مقتنعون جميعاً بأنّ حكومة الولايات المتحدة تريد تدمير الصين».

إنّ واشنطن تسعى دائماً فى أن تظلّ تايوان منفصلة عن الصين، وتعمل جاهدة على أن تعزّز فى نفوس التايوانيين الرغبة فى الانفصال، حتى تظلّ تايوان ورقة رابحة وضاغطة بيد أمريكا، وتستثمرها متى تشاء ضدّ بكين. وعندما زار الرئيس الحالى (جيانج تسه مين) الولايات المتحدة خريف ١٩٩٧م، بحث مع الأمريكيين مشكلة تايوان، وأوضح لهم «أنّ تايوان تظلّ القضية الأهم والأكثر حساسية فى العلاقات الصينية ـ الأمريكية. وحثّ الولايات المتحدة أن تتعامل بحذر مع مسالة تايوان. إلاّ أن أمريكا لا يمكن أن تتعامل بحذر مع مسألة تايوان، لأنها تشجّع علناً قادة تايوان لكى يظلّوا متمردين على نظام بكين، وتمدّهم بالأسلحة الحديثة، وتعزّز أسطولها البحرى المنتشر على سواحل تايوان، وهى مستعدة لأن تخوض حربا ضروسا ضدّ الصين، إذا ما فكّرت فى أن تسترجع تايوان عنوة، فـ«الولايات المتحدة سوف تردّ عسكرياً، إذا ما استخدمت الصين القوة لضمّ تايوان».

وعلى الرغم من محاولات الحكومة المركزيّة فى بكين التقارب مع النظام اللدود فى تايوان، فإنّ محاولاتها لم تفلح، لأنّ الرئيس التايوانى (تشين شو وى بيان) معروف بعداوته الشديدة لنظام بكين، وبسعيه لإعلان طلاق نهائى بين بلاده والبرّ الصينى، فالصين تسعى جادة فى إقامة علاقات تجاريّة واقتصاديّة واسعة النطاق مع تايوان، لكنّ تايوان ترفض ذلك، وتفضل عليه تقارباً بطيئاً.

ومن مشاكل الصين المعاصرة، والتى تعمل حكومة بكين جادة





على القضاء عليها، مشكلة الجريمة، فقد كثرت الجرائم المتعددة في ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح بشكل واضح، مقارنة بما كانت عليه في عهد ماوتسي تونج، فهناك جرائم خطف النساء والأطفال وبيعهم، وجرائم الاغتصاب والسلب والقتل وتهريب المخدرات، وجرائم العنف، والجرائم المتعلّقة بالأسلحة، وجرائم العصابات، وجرائم نشر المطبوعات غير المشروعة، ولعلّ أفظع هذه الجرائم تلك الجرائم الجنائية الخطيرة التي ارتكبها تشانج تشي تشيانج، و(٣٥) مجرما في هونج كونج والمناطق الداخلية الصينية حيث ألحقوا أضراراً جسيمة بأمن المجتمع وسلامة المواطنين الصينيين وممتلكاتهم. ولقد لعبت عصابات (ترياد) المنظمة تنظيما دقيقا في هونج كونج، والقوية بأسلحتها وعددها وميزانيتها الماليّة دوراً كبيراً في نشر الجريمة في هونج كونج، والمدن الأخرى. وتأتي مشكلة الجريمة في ماكاو التي عادت إلى الصين في ٢٠ ديسمبر عام ١٩٩٩م، والتي كانت تحتلها البرتغال، لتقضّ مضجع الصينيين في هذه المدينة، فماكاو «التي تعتبر (جنّة) الملاهي بمختلف أنواعها هي أيضاً أكبر مساحة مفتوحة لكلّ أنواع التهريب وتبييض الأموال، ولذلك فإنّ «حروب العصابات» فيها لا تنتهي والضحايا يتساقطون سنويا».

ومن المشاكل التي تعاني منها الصين المعاصرة في ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح، والتي أسهمت في تشويه سمعتها خارجياً أمام الرأي العام العالمي، وداخلياً أمام قومياتها المتعددة التي تبلغ (٥٦) ستاً وخمسين قوميّة وضع العالم لها في اللوائح السوداء المعادية لحقوق الإنسان.

ولعلّ أهم الأحداث في مسيرة الصين المعاصرة، بعد انتهاجها سياسة الإصلاح والانفتاح، التي أسهمت في تشويه سمعتها عالمياً، ووضعها على اللوائح السوداء المعادية لحقوق الإنسان هي مذبحة (تيان آن مين)، في عام ١٩٨٩م.



ومن المشكلات الجديدة التي ظهرت في الصين، في ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح، مشكلة الدعارة السريّة والعلنيّة التي غصّت بها المدن الصينيّة، وبخاصّة الكبرى منها. وعلى الرغم من محاولات الدولة الجادة للتخلص من هذه المشكلة، بأساليب القمع المتعدّدة، إلاّ أنّها لا تزال قائمة ونشيطة في البيوت السريّة والملاهي والمراقص وقاعات الحلاقة، وصالونات الشاي، والميادين العامة الكبيرة، والأحياء الشعبيّة التي تغصّ بالفقراء والمهمشين. وقد كان لهذه المشكلة أثر سلبي على صحّة المجتمع الصيني المعاصر، إذ سببت مزيداً من الأمراض الجنسيّة، وبخاصّة مرض الإيدز. وعندما سألت صديقا صينياً عن عدد المصابين بهذا المرض في الصين قال: إنّه لا يعرف عددهم بالضبط، إلاّ أنه سمع أن الأطباء يقولون إنّ عددهم حوالي (٧٠٠,٠٠٠)، سبعمائة ألف مصاب ومصابة، ويتركّز معظمهم في المدن الجنوبيّة الصينيّة.

وهناك ظاهرة حسّاسة وخطيرة بدأت تظهر في الصين أخيراً، بفعل سياسة الإصلاح والانفتاح، وهي ظاهرة الشخص الثالث، أي عشيق الزوجة، أو عشيقة الزوج، فمعظم الزيجات في الصين تأتي بعد محبّة عميقة موشّاة بكثير من الرومانسيّات وأحلام الحبّ الكبيرة، والإخلاص والوفاء الزوجي، والوعود المقدّسة بالوفاء وعدم الخيانة الزوجية، إلاّ أنّ حمّى اللهاث وراء المال والامتلاك والتجديد والبذخ والثراء واقتناص فرص الملذّات، تسهم في تخريب هذه الزيجات، لأنّ الزوج أو الزوجة، وبعد مضي سنوات ليست طويلة من الزواج يصيبهما الفتور والملل والرتابة وخمود الاندفاع العاطفي تجاه الشريك، بالإضافة إلى ضغط الحياة الزوجيّة الاقتصادي والإنساني، فيلجأ كلّ منهما إلى اتخاذ عشيق سريّ، وأحياناً يكون علنياً، وبمعرفة كلّ منهما.



وهناك مشكلة داخليّة أخرى يتجاهلها السياسيون الصينيون، أو يحاولون تغييبها بفعل قوة السلاح، وهي:

إحساس الأقليات من القوميات الأخرى بالظلم والمهانة، وأنها لا تُعامل على قدم المساواة مع قومية (هان) الكبرى التي تشكّل الأغلبيّة العظمى من سكان الصين، والتي تحصل على أكبر الامتيازات السياسية والاقتصاديّة والماليّة والوظيفيّة، والتي تُعامل بدلال وتقدير من قبل المسئولين الصينيين مقارنة بالقوميات الأخرى. وقد عبّر لي بوضوح غير واحد من أبناء هذه الأقليّات أنّ لا مستقبل وظيفيًا لهم في بكين، وأنهم من الصعب أن يحصلوا على وظائف في بقية المدن الأخرى، لأنّ حظوظهم نادرة مقارنة بحظوظ أبناء الصين من قومية هان، وأنّ إحساسهم بالغربة حادّ ومؤرّق في بكين، لأنّ البكينيين لا يقبلونهم أصدقاء، ويعاملونهم بحذر شديد، وريبة كبيرة، وأكّدوا لي أنّهم مقيمون في بكين منذ خمس سنوات، ولم يدعهم شخص واحد من سكانها إلى منزله.

وجاء جيانج تسه مين إلى السلطة بعد وفاة دنج شياو بنج في عام ١٩٩٥م، لينهج طريقته، وليقلّده في سياسته الإصلاحيّة والانفتاحيّة، وفي تعامله مع الرموز السياسية، فقد أطاح دنج شياو بنج برموز التيار الماوي الأقوياء في الحزب الشيوعي الصيني، وأهمّهم عصابة الأربعة، وهوا كو فينج رئيس الوزراء، ليخلو له الجوّ، وليكون صاحب الكلمة الأولى والأخيرة، أمّا جيانج تسه مين فقد أتقن الدرس جيدا من سلفه دنج، ونحا الأسلوب نفسه، إذ قوّى نفوذه في مؤسسات الدولة، وضمن الجيش إلى جانبه، بالإضافة إلى كوادر الحزب الشيوعي الحاكم ودوائره ولجانه، وبخاصّة اللجنة المركزيّة، وقام بعملية التفاف على أصحاب النفوذ القدامى المقربين من دنج شياو بنج، وأبرزهم (زهو جوان وو)، الذي يعدّ من أهم أقطاب السياسة والاقتصاد الكبار في الصين، وعزله من منصبه كرئيس لأكبر شركة صينية لتصنيع الفولاذ الداخل في الإنتاج الحربي، واعتقل ابنه صاحب الاستثمارات الكبيرة في هونج كونج، وفي الصين كلها، بتهمة «جرائم اقتصاديّة»، وقد كان هذا الاعتقال بمثابة رسالة تحذير إلى جميع المقرّبين من الزعيم الراحل دنج شياو بنج، وبخاصّة إلى أبنائه وبناته الذين يتقلّدون مناصب مهمّة في شركة الفولاذ المسمّاة (شوغانج)، والذين يبدون اهتماماً بعالم المال والتجارة أكثر من اهتمامهم بعالم السياسة، وعمد إلى ترقية (١٩) تسعة عشر من العسكريين المقرّبين منه، والموالين له إلى رتبة جنرال، وهو أكبر عدد من الترقيّات يقوم به رئيس صيني دفعة واحدة، بحكم منصبه كرئيس للبلاد، وقائداً أعلى للقوّات المسلّحة، وطلب من هؤلاء الضباط تنفيذ تعليمات الحزب الشيوعي الصيني واللجنة المركزيّة العسكريّة، وهما المؤسستان اللتان يتربّع على قمتيهما، أي تحديداً رفع لواء الطاعة والتقيد التام بأوامره ونواهيه، وروّج لنفسه إصراره على متابعة القيام بحملة كبيرة على الفساد المالي والإداري، والتي كانت قد أطاحت بالعديد من حكام الأقاليم ورجال المصارف الكبار في المقاطعات، وذلك أملاً في امتصاص نقمة الرأي العام المتصاعدة بشأن الفساد المستشري في دوائر الدولة والحزب، وحتّى لا يكون أمام نوّاب الشعب حجة إثارة البلبلة والانتقادات بشأن تراخيه.

جاء جيانج تسه مين إلى السلطة مصمماً على دفع عجلة الصين سريعاً نحو الإصلاح والانفتاح على الغرب، والنمو الرأسمالي والخصخصة، والتخلي عن معظم مبادئ النظام الاشتراكي ومفاهيمه وقيمه. ويقول الصينيون المعاصرون: إنّ البيروقراطية والفساد والاستبداد الإداري، والرشوة والمحسوبيات والعلاقات الشخصيّة، هي ظواهر لا تزال قائمة في بنية النظام السياسي وهيكليته السياسية والاقتصاديّة، الذي يتزعمه جيانج تسه مين.

كان الزعيم ماو تسي تونج بشهادة أعدائه وأصدقائه مقاتلاً شجاعاً، وشاعراً موهوباً، ومفكرًا استراتيجياً، وقارئاً متميّزًا، وبخاصّة في التاريخ القديم والحديث، وقائداً عسكرياً قلّ نظيره، وعنيداً وصبوراً، وأيديولوجياً يعي منهج السياسة الذي يصلح لبلاده، ومحبّاً لفقراء شعبه وفلاحيه وبسطائه، وقد ضرب أعظم الدروس في الوطنيّة والإخلاص لشعبه. وإذا كان مستبداً ودكتاتورياً في بعض مواقفه وآرائه، فإنّ ذلك لا ينفي عنه فضائله الإنسانيّة الكثيرة. إنّ كثيراً من حكام العالم المعاصرين لأشدّ منه استبداداً ودكتاتورية، وأذى للشعوب المسالمة والناميّة، وسطواً على خيراتها الاقتصادية، ومواردها الكثيرة. أمّا هو - أي ماو تسي تونج - فقد كان نصيراً كبيراً لحركات التحرر في كثير من دول العالم.



على أنه يجب أن نقول - من باب الإنصاف - إنّ الصين في عهد (جيانج تسه مين) تطوّرت تطوّراً كبيرا في مجال الصناعة والعمران والاقتصاد، فالنهضة العمرانيّة في الصين تضاهي النهضة في كثير من عواصم العالم الأوروبي، حيث توجد في الصين البنايات الشاهقة، والشوارع الواسعة، والميادين والساحات، والحدائق العامة المخطّطة تخطيطياً جميلاً ومدهشاً. وعلى الرغم من الأزمات الاقتصادية التي تهزّ كثيراً من عواصم العالم، فإنّ الاقتصاد الصيني يحقّق نمواً ونجاحاً كبيراً، وقد تزامن نموّه مع تجارة خارجيّة نشيطة أسهمت في إنعاش اقتصاد (٢٠٠) مليون صيني من سكان السواحل الصينيّة، وقد قفزت منتجات الصين من الحبوب والقطن واللحوم وزيوت الطعام والفحم والفولاذ والإسمنت والأقمشة وأجهزة التلفزيون، في عهد (جيانج تسه مين)، إلى المركز الأول في العالم.

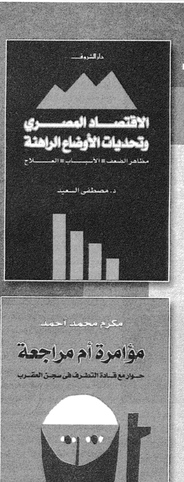
وفي ظلّ الاقتصاد الصيني المزدهر تضاعف معدّل نصيب الفرد من مجمل الناتج الوطني في عام ٢٠٠٠م أربع مرّات عمّا كان عليه في عام ١٩٨٠م، وتحسّنت أحوال الفقراء، وتمّ الإسراع في بناء نظام المؤسسات الحديثة.

كما أولت الحكومة الصينيّة اهتماماً كبيراً بالتعليم، بمختلف مراحله، وبخاصة مرحلة التعليم الجامعي، فقد وصل عدد الجامعات في الصين حتى ١٩٩٨م إلى (١٠٢٢) جامعة، يدرس فيها (٣,٤١) مليون طالب وطالبة، أمّا الجامعات الخاصّة بالكبار فقد بلغت (٩٦٢) جامعة، ويدرس فيها (٢,٨٢) مليون طالب وطالبة.

وتولي هذه الجامعات أهميّة كبرى للدراسات العليا فيها، ففي عام ١٩٩٨م، حصل (٣٨٠٥١) طالباً وطالبة على درجة الماجستير فيها، وحصل (٨٩٥٧) طالباً وطالبة على درجة الدكتوراه، وقد أسهم هؤلاء الخريجون إسهاماً كبيراً في تقدّم الصين وتطوّرها، فقد ذهبت أعداد كبيرة من الأكفاء الخريجين إلى مواقع العمل، وقد شهدت المؤسسات التي تديرها الجامعة، بالاعتماد على التكنولوجيا العاليّة، تقدّماً كبيراً، إذ قامت بتصدير منتجاتها المتطوّرة تكنولوجياً إلى الأسواق العالميّة. إلاّ أنّ التعليم العالي في الصين لا يزال في حاجة ماسّة إلى مزيد من الإصلاحات في النظم التربويّة، والبرامج الجامعيّة، والنظم الماليّة والأقساط الجامعيّة، والإدارة البيروقراطيّة السيئة، حتى يكون قادراً على مواكبة الثورة المعرفيّة والعلميّة الكبرى التي تشهدها جامعات العالم المتحضّر. وقد دعا (لي لان تشينج) نائب رئيس مجلس الدولة الصيني إلى مزيد من الإصلاحات في التعليم الجامعي قائلاً: «إنّ إصلاح نظام التعليم العالي الإداري قد خطا خطوة هامّة للغاية، إلاّ أنّه لا يعني أنّ مهمة الإصلاح قد انتهت، بل إنّه بداية للإصلاح بشكل ما، كما أنّ مهمات الإصلاح والتنمية المستقبليّة ستكون أكثر مشقّة». ■

الهوامش

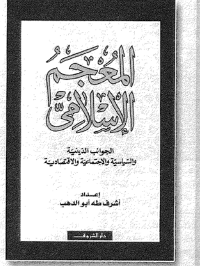
(*) أمضى كاتب المقال عدة سنوات أستاذًا للغة العربية وآدابها في جامعات الصين. ويأتي المقال تعبيرًا عن مشاهداته وانطباعاته.



دار الشروق
الاقتصاد المصري وتحديات الأوضاع الراهنة
مظاهر الضعف ■ الأسباب ■ العلاج
د. مصطفى السعيد



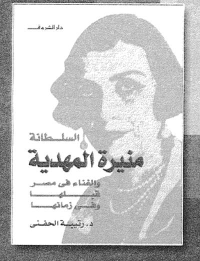
العرب فى مواجهة العدوان
طارق البشرى
دار الشروق



المعجم الإسلامى
الجوانب الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية
إعداد
أشرف طه أبو الدهب
دار الشروق



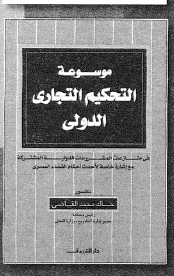
ابن القرية والكتّاب
ملامح سيرة ومسيرة
الدكتور يوسف القرضاوى
دار الشروق



دار الشروق
السلطانة منيرة المهدية
والغناء فى مصر قبلها وفى زمانها
د. رتيبة الحفنى



دار الشروق
تهمة وفاء
عزيزة عبد الله



موسوعة التحكيم التجارى الدولى
فى منازعات المشروعات الدولية المشتركة
مع إشارة خاصة لأحدث أحكام القضاء المصرى
دكتور
خالد محمد القاضى
دار الشروق



من ريو إلى جوهانسبرج

هل هناك جديد؟

إبراهيم عبد الجليل

أنهت قمة التنمية المستدامة فى جوهانسبرج أعمالها بعد عشرة أيام من الاجتماعات والمناقشات والمداولات التى شارك فيها أكثر من عشرين ألفًا من ممثلى الحكومات ومنظمات المجتمع المدنى فى العالم، كما حضرها مائة وأربعة من رؤساء الدول والحكومات، من بينهم تونى بلير رئيس الوزراء البريطانى، وجاك شيراك رئيس وزراء فرنسا والمستشار الألمانى جيرهارد شرودر.

والواقع أن جوهانسبرج كانت المحطة الرئيسية الثالثة التى توقف عندها قطار المجتمع الدولى منذ انطلق عام ١٩٧٢ من العاصمة السويدية ستوكهولم فى رحلة مليئة بالصعوبات والتحديات فى محاولة للبحث عن إجابة سؤال مهم هو كيف يمكن تحقيق الرفاهية لنحو ستة بلايين من البشر يسكنون كوكب الأرض دون أن يتم الاعتداء على موارد هذا الكوكب لكى تبقى عفية وقادرة على الوفاء باحتياجات نحو ستة بلايين أخرى سيسكنون نفس الكوكب خلال القرن الحالى.

فى ستوكهولم عام ١٩٧٢، كانت بداية الرحلة وكان المكسب الرئيسى حينئذ هو جذب أنظار العالم شرقه وغربه، شماله وجنوبه إلى الآثار البيئية الضارة التى يمكن أن تتسبب فيها الأنشطة البشرية والاقتصادية، وكيف أن تلك الآثار لا تعرف الحدود الجغرافية أو السياسية بين دول العالم، فكلنا نعيش فى كوكب واحد، ولا بديل لنا عن التعاون من أجل الحفاظ على هذا الكوكب وحمايته. وغادر القطار محطة ستوكهولم يحمل معه إعلانًا سياسيًا يؤكد الالتزام بتلك المفاهيم التى كانت مستجدة على الفكر الإنسانى فى ذلك الوقت، ونشطت الأمم المتحدة، وأنشأت برنامج الأمم المتحدة للبيئة الذى لعب دورًا أساسيًا فيما بعد فى قيادة قطار البيئة والتنمية لأكثر من ثلاثين عامًا.

وتحدد يوم الخامس من يونيو من كل عام يومًا عالميًا للبيئة، وذلك لرفع مستوى الوعى العام بهذه القضايا - أى قضايا البيئة والتنمية - على مستوى العالم وليكون فرصة تتكرر مرة كل عام لإلقاء الضوء على جهود المجتمع الإنسانى ومحاولاته المستمرة للحفاظ على كوكب الأرض.



ويمضى القطار فى رحلته يجاهد فى التغلب على كثير من الصعاب التى تعترض طريقه إلى أن يصل إلى محطته الثانية وكانت فى ريو ديجانيرو فى الساحل الشرقى لأمريكا الجنوبية حيث يعيش نحو عشرة ملايين من البشر يواجهون كل صنوف المعاناة من أجل تحقيق حلمهم وحلم كل إنسان فى حياة هانئة وعيشة رضية. كان ذلك فى الثالث من يونيو عام ١٩٩٢ حيث عقد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية والذى عُرف بقمة الأرض الأولى.

وعلى مدار اثنى عشر يومًا دارت مناقشات حامية حول كيف يمكن تحقيق العدالة بين الأجيال بحيث يحقق كل جيل طموحاته وأحلامه دون أن نضحى بقدرة الأجيال التالية على تحقيق ذلك، وكيف يمكن الحفاظ على الموارد الطبيعية المختزنة فى كوكب الأرض من أجل تحقيق هذا الهدف، وكيف يمكن التخطيط لمشروعات التنمية بحيث لا تؤثر سلبًا على النظم البيئية.. كيف.. وكيف.. وغير ذلك الكثير من الأسئلة التى تم بلورة الإجابة عنها فى إعلان للمبادئ أصبح من علامات الطريق سمى «بإعلان ريو للبيئة والتنمية».

ومن المؤكد أن هذا الإعلان الذى رسخ مفهوم «التنمية المستدامة» كان نقطة تحول كبيرة فى الفكر الإنسانى، إذ أصبحت المبادئ التى اتفق عليها حينئذ هى المفردات الجديدة التى فرضت نفسها على قاموس التنمية فى العالم، كما أصبحت تلك المبادئ أسسًا يعتمد عليها المجتمع الدولى فى صياغة أى مبادرات جديدة لتحقيق أهداف التنمية المستدامة. وفى ريو أيضًا أقر المجتمعون دليل عمل عن كيفية تحقيق هذه المبادئ فى شتى المجالات أطلق عليه «أجندة القرن الحادى والعشرين» جاهدت دول كثيرة فى العالم لكى تطبق ما جاء بها بصرف النظر عن النجاح والإخفاق فى تحقيق ذلك.

وتمر عشر سنوات أخرى من رحلة قطار البشرية إلى أن اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارًا فى ديسمبر عام ٢٠٠٠ يدعو إلى عقد القمة الثانية للأرض فى أقصى الطرف الجنوبى للقارة الأفريقية بمدينة جوهانسبرج. وكان الهدف من عقد هذا المؤتمر هو محاولة الإجابة على مجموعة أخرى من الأسئلة أهمها: ماذا تحقق من إنجازات على طريق التنمية المستدامة منذ ريو وحتى الآن؟ وما هى الخبرات والتحديات والنجاحات والإخفاقات التى مر بها الجنس البشرى خلال نفس الفترة؟ ثم ما هى القضايا ذات الأولوية التى يجب التركيز عليها خلال الفترة القادمة فى ظل ما شهده العالم من متغيرات جذرية منذ عام ١٩٧٢ وحتى الآن. وتنفيذًا لقرار الجمعية العمومية بدأت منظمات الأمم المتحدة جهودًا مكثفة للتحضير للقمة المنتظرة بالتعاون مع الحكومات ومؤسسات المجتمع المدنى والمنظمات غير الحكومية وكل شركاء التنمية فى العالم.

وبرزت خلال العملية التحضيرية اتجاهات متباينة هددت بفشل القمة قبل أن تُعقد، إذ بدأ الصراع التقليدى بين دول الشمال الغنى ودول الجنوب الفقير يطفو على السطح، تغذيه مخاوف ناشئة عن ممارسات الدول الغنية فى إطار ما يسمى بالعولمة التى لم تتضح معالمها بعد، وإن أثبتت الشواهد أنها على الأقل لم تجد حلاً للبلايين من بنى البشر الذين يعانون من الفقر المدقع، وغيرهم ممن يتهددهم شبح المجاعة وسوء التغذية.

كما وضح أيضًا من خلال الاجتماعات التحضيرية للقمة أنه لا يمكن الفصل - بأى حال من الأحوال - بين قضايا البيئة وقضايا التنمية فى العالم، وهو أحد المبادئ التى وردت بالفعل فى «إعلان ريو». لذا فإن القمة المنتظرة لا يجب أن تكون قمة للبيئة، ولكنها قمة للتنمية المستدامة التى تركز على محاور ثلاثة: النمو الاقتصادى، النمو الاجتماعى، وحماية البيئة.

ونشطت المنظمات الدولية وغير الحكومية فى إصدار التقارير التى تؤكد تدهور النظم البيئية منذ عام ١٩٩٢ وحتى الآن، كما تؤكد بالأرقام المفجعة اتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء فى العالم، ولكى تثبت للعالم فشل الدول المتقدمة فى تحقيق ما التزمت به خلال قمة الأرض الأولى خاصة الجانب المتعلق بتقديم المساعدات المالية والفنية للدول النامية.

وبرزت مشكلة الفقر لكى تحتل رأس قائمة المشكلات التى يعانى منها بنو البشر فى العالم. فتقارير البنك الدولى تؤكد أن هناك نحو ١٫٢ بليون نسمة يعيشون بأقل من دولار واحد يوميًا، وهناك هدف التزم به المجتمعون فى قمة الألفية التى عقدت فى عام ٢٠٠٠ بخفض هذا العدد إلى النصف مع حلول عام ٢٠١٥، ولقد بات واضحًا أن مشكلة الفقر ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالفقر المائى، والفقر فى الطاقة، وفى الغذاء، وفى الحصول على خدمات الصحة العامة، وأن كل تلك القضايا ترتبط أيضًا بإدارة الموارد الطبيعية والحفاظ على التنوع البيولوجى هبة الخالق لسكان هذا الكوكب.

وهكذا تبلورت القضايا ذات الأولوية التى تقرر أن تركز عليها مناقشات القمة الثانية، وهى قضايا المياه، الطاقة، الصحة العامة،

لا يمكن أن نغفل دور الولايات المتحدة الأمريكية
التى أكـدت كل الشـواهد منـذ عـام ١٩٩٢ وحـتى الآن
أنها تضع اعتبارات حماية البيئة فى مرتبة تالية لمصالحها الاقتصادية والسياسية

الزراعة، وحماية التنوع البيولوجى. كما تأكد أن هذه المجالات ترتبط بمجموعة كبيرة أخرى من القضايا مثل: التجارة، التمويل، الاستثمار، ديون الدول النامية، نقل التكنولوجيا والمعلومات والتعليم والبحث العلمى، أنماط الإنتاج والاستهلاك وغير ذلك من قضايا التنمية.

ولكن قبل أن نستعرض حصاد القمة الثانية، فإننا نحتاج لإلقاء الضوء على ما حدث فى العالم من مستجدات منذ ريو عام ١٩٩٢ وحتى الآن لكى نتعرف على طبيعة المسرح الذى دارت فيه مفاوضات القمة الثانية، إذ لا يمكن بأى حال أن نفصل بين المسرح وخلفياته وكبار اللاعبين فيه وهؤلاء الجلوس فى مقاعد المتفرجين، ثم فى النهاية يمكننا أن نحكم على حصاد ذلك كله ومدى فاعليته. فعلى الجانب السياسى لا يمكن أن نغفل دور الولايات المتحدة الأمريكية التى أكدت كل الشواهد منذ عام ١٩٩٢ وحتى الآن أنها تضع اعتبارات حماية البيئة فى مرتبة تالية لمصالحها الاقتصادية والسياسية. فالرئيس الأمريكى بوش الأب رفض عام ١٩٩٢ التوقيع على اتفاقية حماية التنوع البيولوجى، وبعد عشر سنوات يأتى الرئيس بوش الابن لكى يرفض التوقيع على اتفاقية كيوتو الخاصة بحماية كوكب الأرض من أخطار التغيرات المناخية، وعلى الجانب السياسى فإنه من الواضح الدورالمهيمن للولايات المتحدة الأمريكية على مقدرات العالم بعد سقوط حائط برلين، وانهيار الاتحاد السوفيتى وانتهاء عصر الحرب الباردة. وعلى الرغم من ذلك كله، رفض الرئيس الأمريكى كل المحاولات التى تمت لإقناعه بحضور القمة الثانية للأرض فى جوهانسبرج، وكأنه مُصرٌ أن ينفى عن نفسه شبهة قيادة العالم نحو تحقيق أهداف التنمية المستدامة.

وعلى الجانب الآخر من الأطلنطى نجد تطورًا آخر لا يقل أهمية، وهو قيام الاتحاد الأوروبى كتجمع اقتصادى كبير يضم خمس عشرة دولة من الدول الصناعية الكبرى فى القارة الأوروبية ويسعى هو الآخر لضمان مصالحه فى مواجهة القطب الواحد المهيمن. ورغم أن الموقف الأوروبى كان دائمًا أقرب إلى التعقل فى مواجهة قضايا البيئة، إلا أن حرب المصالح التجارية خاصة فى مواجهة العملاقين الكبيرين القابع أحدهما فى أقصى الشرق من الكرة الأرضية وهو اليابان والآخر القابع فى أقصى الغرب بالولايات المتحدة الأمريكية، تلك المصالح كثيرًا ما تلقى بعضًا من الظلال على الموقف الأوروبى من بعض قضايا البيئة فى العالم.

وعند الحديث عن المصالح التجارية لا يمكن أن نغفل الدور المتنامى لمنظمة التجارة العالمية التى أنشئت عام ١٩٩٤ لكى تضع نظامًا عالميًا جديدًا يدعو إلى حرية انتقال السلع والخدمات بين دول العالم فى إطار من الشفافية والعدالة وتكافؤ الفرص. إلا أن الشواهد قد أكدت حتى الآن أن ذلك لم يحدث، بل على العكس فإن هذه القواعد أصبحت توضع بمعرفة الأغنياء لكى ينصاع إليها الفقراء، فزاد الأغنياء غنى وزاد الفقراء فقرًا.

ولقد ارتبطت منظمة التجارة العالمية منذ نشأتها وحتى الآن فى ذهن الملايين من شعوب العالم بمفهوم «العولمة» الذى أضحى يمثل شكلاً جديدًا من أشكال الهيمنة على مقدرات شعوب العالم النامى. وارتبط ذلك أيضًا بالدور المتنامى للشركات، عابرة الحدود ومحاولة ضمان مصالحها التجارية على حساب اعتبارات البيئة والتنمية. لقد كان هذا الموضوع بالذات إحدى نقاط الخلاف أثناء مداولات القمة الثانية مما سنتعرض له لاحقًا.

وأخيرًا، فلقد شهد العقد الماضى ثورة حقيقية فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات رسخت مفهوم «العولمة» بشكل لم يسبق له مثيل فى التاريخ الإنسانى، ولعبت دورًا محوريًا ولازالت فى نقل الأفكار وحوار الثقافات، وقربت بين الشعوب، وحوّلت العالم إلى قرية كونية إلكترونية زاد فيها الوعى العام بكل القضايا التى تؤثر فى حياة الإنسان اليومية وتتأثر بها، ولعل أكبر دليل على ذلك أن هذه القمة التى عقدت مؤخرًا فى جوهانسبرج وحضرها نحو ٢٠ ألف شخص، كان يشارك فيها بالفعل ملايين أخرى من البشر الذين ساهموا بأفكارهم وآرائهم وعبّروا عن مشكلاتهم وأحلامهم دون أن ينتقلوا إلى جوهانسبرج، إذ لم يكونوا فى حاجة إلى ذلك بعد التطور الرهيب فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات.

ولكى نستكمل ملامح الخلفية التى تمت فى إطارها القمة الثانية فقد يكون من المفيد أيضًا أن نلقى الضوء فى عجالة على أهم ما تم إنجازه وما لم يتم من مقررات ريو وحتى الآن.

فعلى الجانب المضىء فإن التقارير تؤكد نجاح المجتمع الدولى فى الوفاء بالتزامه لحماية طبقة الأوزون، وأن ذلك سيؤدى إلى استعادة تلك الطبقة لعافيتها لكى تلعب دورها الحيوى فى حماية الحياة على سطح هذا الكوكب.

أما الإنجاز الثانى فهو تعاظم دور مؤسسات المجتمع المدنى فى عملية التنمية، وترسيخ مفهوم الشراكة بين تلك المؤسسات وبين الحكومات، وأكبر دليل على ذلك أن عدد المشاركين من تلك المؤسسات تساوى تقريبًا مع ممثلى الحكومات فى قمة جوهانسبرج الأخيرة. يلى ذلك أيضًا تعاظم الإحساس بالمسئولية الاجتماعية لدى الشركة الكبرى ومبادرتها فى كثير من الأحيان باتخاذ إجراءات طوعية لتحقيق أهداف التنمية المستدامة فى المجتمعات التى تعمل بها.

أما الإنجاز الرابع منذ قمة ريو وحتى الآن فيتمثل فى التطورات العلمية المذهلة التى تمت فى السنوات الأخيرة والتى ساهمت بشكل كبير فى تحسين معرفتنا بالنظام البيئى وما يدور فيه من تفاعلات، ثم نشر تلك المعرفة بشكل واسع من خلال الثورة الهائلة فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. وأخيرًا فإن المجتمع الدولى قد بادر منذ قمة الأرض الأولى بإقرار مجموعة أخرى من الاتفاقيات التى تؤكد التزامه بتحقيق أهداف التنمية المستدامة مثل بروتوكول كيوتو للحد من ظاهرة تغير المناخ، وبروتوكول كرتاخينا للأمان الحيوى وتنظيم الاتجار فى المواد المهندسة وراثيًا، وبروتوكول ستكهولم الخاص بمنع إنتاج واستخدام مجموعة من الكيماويات الخطرة التى تمثل تهديدًا للصحة العامة والبيئة.

هذا عن النجاحات التى تحققت منذ ريو، فماذا عن الإخفاقات؟

كان أهم تلك الإخفاقات فشل الدول الصناعية الغنية فى الوفاء بما التزمت به من تخصيص نحو ٠,٧٪ من جملة الناتج القومى لتقديم مساعدات مالية للدول الفقيرة ولم تتجاوز تلك النسبة ٠,٥٪ منها على أفضل تقدير، وقد أدى ذلك إلى عدم تمكن الدول النامية من مواجهة الحاجات المتزايدة لشعوبها التى تنمو بمعدلات عالية، وكانت النتيجة ازدياد أعداد الفقراء فى العالم منذ ريو وحتى الآن.

أما الإخفاق الثانى فهو فشل الدول الغنية فى التخلص من أنماط الإنتاج والاستهلاك غير المستدام لديها، ويتجلى ذلك واضحًا فى الفجوة الواسعة بين نصيب الفرد من الموارد فى الدول الغنية مقارنة بالدول الفقيرة. فعلى سبيل المثال يبلغ نصيب المواطن الأمريكى من الطاقة الكهربائية سنويًا نحو ١٤ ألف كيلووات/ساعة، فى حين يبلغ نصيبه فى الهند نحو ٣٠٠كيلووات/ساعة وفى مصر ١٣٠٠ كيلووات/ساعة. كذلك فإن بعض مصادر الطاقة الأحفورية لازالت تلقى عناية وتشجيعًا من عديد من الدول الصناعية الكبرى مقارنة بأشكال الطاقة النظيفة.



وتأتى قضية السلام والأمن كأحد المحاور الأساسية اللازمة لتحقيق التنمية المستدامة، إلا أنه وللأسف الشديد ورغم انتهاء الحرب الباردة، فإن العالم لازال يعانى من الحروب والنزاعات الإقليمية والأهلية بدءًا من حرب التطهير العرقى فى يوغوسلافيا السابقة، مرورًا بالحروب الأهلية التى تمزق أوصال العديد من الدول الأفريقية، وانتهاء بحرب الخليج ثم بزلزال الحادى عشر من سبتمبر الذى لازالت تداعياته تتوالى فى العديد من بقاع العالم. وفى هذا السياق لا يمكن أن ننسى الممارسات العنصرية والفظائع التى ترتكبها إسرائيل فى حق الشعب الفلسطينى بدعم وتأييد من الحكومة الأمريكية، بينما يقف العالم متخاذلاً غير قادر على وقف تلك الجرائم. ومن الملاحظ أن جانبًا كبيرًا من المسيرات والمظاهرات التى شهدتها جوهانسبرج أثناء انعقاد القمة الأخيرة كان من جانب المؤيدين لحقوق الشعب الفلسطينى فى مواجهة الغطرسة الإسرائيلية.

ويتساءل المرء عن كيفية تحقيق مستقبل أفضل للأجيال القادمة بينما يتعرض الملايين من البشر لأخطار الحروب والصراعات والحصار فى فلسطين، العراق، أفغانستان، والشيشان وغيرهم. ولقد خيمت التهديدات الأمريكية بضرب العراق على أجواء القمة حيث سعى طارق عزيز نائب الرئيس العراقى إلى حشد الأصوات الرافضة لتلك التهديدات.





بدأ الصراع التقليدى بين دول الشمال
الغنى ودول الجنوب الفقير يطفو على السطح،
تغذيه مخاوف ناشئة عن ممارسات الدول الغنية
فى إطار ما يسمى بالعولمة التى لم تتضح معالمها بعد،
وإن أثبتت الشواهد أنها على الأقل لم تجد حلاً
للبلايين من بنى البشر الذين يعانون
من الفقر المدقع، وغيرهم ممن يتهددهم
شبح المجاعة وسوء التغذية





عمر بن عبد العزيز

دخلت فاطمة بنت عبد الملك على زوجها وهو جالس فى مصلاه واضعًا خده على يده ودموعه تسيل على خده فقالت : مالك؟

- ويحك يا فاطمة، وقد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت فتفكرت فى الفقير الجائع والمريض الضائع والعارى المجهود واليتيم المكسور والأرملة الوحيدة والمظلوم المقهور والغريب والأسير والشيخ الكبير وذى العيال الكثير والمال القليل وأشباههم فى أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربى عز وجل سيسألنى عنهم يوم القيامة. وأن خصمى دونهم محمد ﷺ، فخشيت أن لا تثبت لى حجة عند خصومته فرحمت نفسى فبكيت.

وأرادت فاطمة أن تسرى عنه، إنه يعجبه جارية من جواريها وقد سألها إياها إما بيعا أو هبة، فكانت تأبى عليه ذلك. إنه الآن فى حاجة إلى من تنسيه أعباء الخلافة، فألبستها وطيبتها وأهدتها إليه ووهبتها له. ودخلت الجارية عليه يسبقها عبيرها ودنت منه فى دلال، فأعرض عنها فراحت تداعبه فصدف عنها فقالت له :

- يا سيدى فأين ما كان يظهر لى من محبتك إياى؟

- والله إن محبتك لباقية، ولكن لا حاجة لى فى النساء، فقد جاءنى أمر شغلنى عنك وعن غيرك.

ثم سألها عن أهلها ومن أين جلبوها، ثم قال :

- إنا لله وإنا إليه راجعون، كدنا والله نفتضح ونهلك.

ثم أمر بردها إلى بلادها.



أهم تلك الإخفاقات فشل الدول الصناعية الغنية فى الوفاء بما التزمت به من تخصيص نحو ٠,٧٪ من جملة الناتج القومى لتقديم مساعدات مالية للدول الفقيرة ولم تتجاوز تلك النسبة ٠,٥٪ منها على أفضل تقدير





وأخيرًا وليس آخرًا يبرز انتشار مرض الإيدز فى العالم خاصة فى أفريقيا كشاهد على مدى إخفاق المجتمع الدولى فى التصدى للمشكلات التى تتسبب فى إزهاق أرواح الملايين من بنى البشر، إذ تشير التقارير أن ٦٨ مليون شخص سيموتون بسبب مرض الإيدز بحلول عام ٢٠٢٠، معظمهم من الدول الأفريقية.

هكذا كانت الصورة، بينما كان يستعد الآلاف من المشاركين فى القمة للذهاب إلى جوهانسبرج يشاركهم الملايين الذين يتابعون ما يجرى من خلال وسائل الإعلام وأساليب الاتصالات الحديثة.

ومن خلال مجموعة من الاجتماعات التحضيرية فقد تم الاتفاق على إعداد إعلان سياسى يصدر عن القادة المشاركين فى القمة يؤكد الالتزام بمبادئ التنمية المستدامة وضرورة سد الفجوة بين الأغنياء والفقراء تحقيقًا لأهداف الألفية الجديدة التى أقرها زعماء العالم مسبقًا. كما يحدد هذا الإعلان التحديات التى تواجه المجتمع الدولى لتحقيق تلك الأهداف والتى تتلخص فى الفقر والتدهور البيئى والتباين الواضح فى الظروف الاجتماعية والاقتصادية بين الدول، كما يؤكد على ضرورة تحقيق السلام والأمن والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان.



أما الوثيقة الثانية التى تم التفاوض بشأنها فكانت خطة للعمل ذات أهداف محددة وإطار زمنى واضح لتنفيذ تلك الأهداف. ولقد شهدت الاجتماعات التحضيرية خلافات حادة بين المفاوضين لتحديد تلك الأهداف، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية - للأسف الشديد - تعارض الالتزام بأى أهداف محددة أو أطر زمنية خاصة فى قضايا الطاقة والمياه وفقدان التنوع البيولوجى والحد من الفقر، كما حاول المفاوضون من الدول المتقدمة إعادة فتح بعض الملفات الساخنة من قضايا التنمية مثل قضية المساعدات للدول النامية، قضايا التجارة والبيئة وحقوق الإنسان والديمقراطية ومكافحة الفساد والمواد المعدلة وراثيًا وقضية الدعم للحاصلات الزراعية فى الدول الغنية على حساب الصادرات الزراعية للدول النامية وكذا القضايا المتعلقة بحقوق الملكية الفكرية والعولمة ومحاربة الإرهاب. وفى واقع الأمر كاد المؤتمر أن يغرق فى تلك القضايا ويحيد عن تحقيق أهدافه فى المجالات الأساسية السابق الإشارة إليها لولا يقظة الدول النامية، تساندهم المنظمات غير الحكومية وحكمة رئيس المؤتمر ورئيس جنوب أفريقيا الذى بذل جهدًا خارقًا تسانده منظمات الأمم المتحدة لكى تحقق القمة الأهداف التى انعقدت من أجلها.

ولإثبات مدى الالتزام بتلك الوثائق - الإعلان السياسى وخطة العمل - فلقد فتح الباب للحكومات والمنظمات ومؤسسات المجتمع المدنى للتقدم بمبادرات طوعية يتم تنفيذها على أرض الواقع حتى تتحول تلك الوثائق بلغة الصياغة إلى مشروعات وبرامج يستفيد منها الملايين من البشر الذين يتطلعون إلى كوب مياه نظيف ومصدر مستقر للطاقة ومأوى وغذاء وغيره من أبسط حقوق الإنسان فى مطلع القرن الحادى والعشرين. ولقد بلغ عدد تلك المبادرات نحو ٢٢٠ مبادرة حتى انتهاء القمة.

وعلى مدى عشرة أيام ليلاً ونهارًا دارت مناقشات صاخبة أوضحت حاجة الملايين من البشر لمستقبل أفضل لهم ولأبنائهم ولأحفادهم، كما أوضحت الحاجة إلى نظام عالمى تسود فيه روح التعاون والفهم المشترك واحترام الآخر وتنتهى منه النزعات الأنانية وحب السيطرة وروح الهيمنة واستخدام القوة بكل أشكالها.

وشهد المؤتمر لحظات كادت تهدد بفشله نتيجة لإصرار البعض أن مواقفهم المتعنتة تجاه بعض القضايا. وكانت أهم قضايا الخلاف كما سبق أن أشرت رفض الولايات المتحدة الأمريكية الالتزام بأى أهداف محددة أو جداول زمنية، كما أصرت دول الاتحاد الأوروبى وأمريكا على موقفها من قضية دعم الصادرات الزراعية التى قدرت بنحو مليار دولار يوميًا والتى تقف عقبة فى سبيل وصول الصادرات الزراعية للدول النامية لأسواق العالم، ثم قضية حجم المساعدات المالية للدول النامية ومحاولة الدول الغنية التحلل من سابق التزاماتها فى ريو عام ١٩٩٢. وأخيرًا وليس آخرًا إصرار الولايات المتحدة الأمريكية حتى الآن على الانسحاب من بروتوكول كيوتو مما أدى إلى الإخفاق فى دخوله حيز التنفيذ.



ولقد تعرضت الحكومة الأمريكية إلى هجوم شديد من الجميع أثناء انعقاد القمة سواء فى قاعات المفاوضات أو خارجها من جانب المنظمات غير الحكومية حتى وصل الأمر إلى أن إحدى الدول الصغيرة فى البحر





انفض سامر التنمية المستدامة فى جوهانسبرج بعد أن ساهم المشاركون فيه بتلويث البيئة من خلال استخدامهم لنحو خمسة ملايين صفحة من الأوراق، وانبعاث نحو ٣٠٠ ألف طن من غاز ثانى أكسيد الكربون للغلاف الجوى



الكاريبى قد هددت باللجوء إلى محكمة العدل الدولية لإرغام الولايات المتحدة وأستراليا على التصديق على البروتوكول حماية لها من الأخطار الناجمة عن التغيرات المناخية.

ولقد أصرت الولايات المتحدة على موقفها الرافض إلى تحديد أهداف زمنية محددة لترويج استخدام الطاقة المتجددة، تساندها فى ذلك شركات البترول الأمريكية العملاقة ومجموعة من دول الأوبك المصدرة للبترول، فكان ذلك إحدى الفرص الضائعة لكى تنطلق تكنولوجيات الطاقة المتجددة لتوفر الاحتياجات الأساسية من الطاقة لنحو ٤٠٪ من سكان العالم لا يحصلون عليها فى الوقت الراهن كما أصر الوفد الأمريكى ـ تسانده فى ذلك دول الاتحاد الأوروبى ـ على عدم فتح ملف قضايا الديون التى تعوق جهود التنمية فى الدول النامية، وجاءت الإشارة واضحة فى الكلمة التى وجهها تونى بلير للقمة والتى أشارت إلى ضرورة مكافحة الفساد ودعم الديمقراطية وحقوق الإنسان فى الدول النامية قبل الحديث عن إسقاط الديون أو زيادة المساعدات.



ولقد نشطت المنظمات غير الحكومية المدافعة عن البيئة والمناهضة للعولمة فى الضغط على المشاركين فى القمة لاتخاذ خطوات فعالة لحماية كوكب الأرض ومحاربة الفقر. وكانت قضية تغير المناخ على رأس تلك القضايا، خاصة بعد موجة الفيضانات العاتية التى اجتاحت وسط أوروبا وآسيا والتى تزامنت مع انعقاد القمة. كما نشطت تلك المنظمات فى التأكيد على عدم هيمنة منظمة التجارة العالمية على قضايا التنمية وأن تسبق اعتبارات حماية البيئة الاعتبارات التجارية، وضرورة إعطاء أولوية لقضية الصحة العامة وحصول الفقراء على حاجاتهم اللازمة لمقاومة أمراض الإيدز والملاريا والسل وغيرها، بصرف النظر عن قواعد منظمة التجارة العالمية وحقوق الملكية الفكرية.

ثم كانت قضية المسئولية الاجتماعية للشركات عابرة الحدود والتى تعاظم دورها فى إطار اتفاقيات تحرير التجارة، والحاجة إلى كبح جماح تلك الشركات ومراقبة ممارساتها الضارة بالبيئة والتنمية، خاصة فى الدول النامية التى تفتقر إلى القدرات اللازمة لتحقيق ذلك، إلا أن القمة قد أوكلت هذه المهمة رغم اعترافها بأهميتها إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة.

وأخيرًا فإن النظرة الموضوعية للإعلان السياسى الصادر عن القمة وخطة العمل المصاحبة له تكشف أن القمة قد حققت جانبًا كبيرًا من الأهداف التى انعقدت من أجلها، فهناك التزام بخفض أعداد البشر الذين لا يحصلون على حاجاتهم من مياه الشرب وخدمات الصرف الصحى إلى النصف. وهناك التزام بتوفير مصادر للطاقة لنحو ٢ بليون شخص فى العالم لا يحصلون عليها فى الوقت الراهن، وهناك التزام بالتخلص من الكيماويات السامة بحلول عام ٢٠٢٠، وهناك التزام بالحفاظ على التنوع البيولوجى ومصايد الأسماك وإنشاء شبكة من مناطق المحميات البحرية. كما أن هناك التزامًا بدعم مرفق البيئة العالمى بنحو ٢,٩ مليار دولار حتى عام ٢٠٠٦ مع تكليفه بتمويل مشروعات مكافحة التصحر فى الدول النامية، وهناك التزام بدعم مكافحة مرضى الإيدز والملاريا وغيرهما من الأمراض الناشئة عن تلوث المياه. وأخيرًا فإن هناك التزامًا بإمداد الدول النامية بالتكنولوجيا والبدائل اللازمة لحماية طبقة الأوزون.

وفى الجانب المقابل، فلقد فشلت القمة فى إقناع الوفد الأمريكى المكون من نحو ثلاثمائة شخص بالموافقة على التصديق على بروتوكول كيوتو أو الالتزام بتشجيع الطاقة المتجددة ونشر استخدامها فى العالم من خلال جدول زمنى محدد. كما أصدرت توصيات عامة فى قضايا دعم الصادرات الزراعية وفتح الأسواق لصادرات الدول النامية وإجراءات الاستعداد والتصدى للكوارث الطبيعية التى زادت حدتها خلال الفترة الماضية.



وانفض سامر التنمية المستدامة فى جوهانسبرج بعد أن ساهم المشاركون فيه بتلويث البيئة من خلال استخدامهم لنحو خمسة ملايين صفحة من الأوراق، وانبعاث نحو ٣٠٠ ألف طن من غاز ثانى أكسيد الكربون للغلاف الجوى.

ويبقى عدد من الأسئلة لازال يبحث عن إجابة! هل سينجح العالم فى تحويل تلك الوثائق بليغة الصياغة إلى أفعال؟، وهل ستنجح الأمم المتحدة فى كبح جماح نزعة الهيمنة من جانب القطب الأوحد؟، وهل سيقف المجتمع الدولى فى جانب الحق والعدل فى مواجهة المصالح التجارية؟.. الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها ستكشف عنها مجريات الأمور خلال الأشهر القادمة.■

كتاب الزاوية

عمر بن عبد العزيز

سار عمر ليرد المظالم وهو خاشع متواضع لله، لم يعد يتبختر فى مشيته كما كان يفعل، فقد أقلع عن مشيته العمرية التى اشتهر بها، بل كان يفكر فيما يحمل من مسئوليات جسام تكاد تنقض ظهره. وتذكر ذلك اليوم الذى ولى فيه الخلافة إذ جاءه صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة على عادته مع الخلفاء فقال له:

ـ إنما أنا رجل من المسلمين.

ورأى نفسه وهو يسير وهم معه حتى دخل المسجد، وراح يذكر خطبته التى خطبها:

ـ أيها الناس إنى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه ولم أطلبه ولا طلبته، ولا مشورة من المسلمين، وأنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم ولأمركم ما تريدون.

وجاء من أصداء الماضى صياح المسلمين صيحة واحدة:

ـ لقد اخترناك لأنفسنا وأمرنا ورضينا كلنا بك.

وراح يذكر ما قاله بعد ما هدأت الأصوات:

إن هذه الأمة لم تختلف فى ربها ولا فى كتابها ولا فى نبيها وإنما اختلفوا فى الدينار والدرهم. وإنى والله لا أعطى واحدًا باطلاً ولا أمنع أحدًا حقًا.

أيها الناس: من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعونى ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم.



نبوية موسى .. شاعرة

عفـــاف عبد المعطـى

في عام ١٨٨٦ ولدت ثلاث من رائدات الفكر النسوي في المشرق العربي، هن ملك حفني ناصف (فبراير) - مي زيادة (ديسمبر) - نبوية موسى (ديسمبر أيضا). وكانت الأخيرة من المجاهدات اللائي شققن طريقهن عنوة لأجل تحقيق رسالة مُحدَّدة لخدمة المرأة تتمثل في إعلاء مكانة المرأة التعليمية وتحقيق أكبر وأرفع الدرجات لها.



ولدت نبوية موسى محمد بدوية في ١٧ ديسمبر ١٨٨٦ بكفر الحُكما بندر الزقازيق. وصدر ديوانها في مايو من عام ١٩٣٨ و قد كُتِبَت قصائده حسب تواريخها بين أعوام ١٩٠٤ - عندما كانت الشاعرة في مدرسة السنية - و ١٩٢٥ وكانت أكثر القصائد في عام ١٩١٩ ولهذا مبرره حيث كان المجتمع المصري يمر بعنفوان ثورة ١٩١٩ التي احتاجت إلى تعضيد. وقد أتاحت الثورة للمرأة فرصة الخروج إلى المجتمع والمشاركة في فعالياته، لذلك اضطلعت نبوية موسى بقول الشعر إلى جانب دورها التعليمي الرائد المعروف، وقد رأينا على الديوان عبارة «الجزء الأول» وبناء عليها ظننا أن للديوان جزءاً ثانياً، ثم شرعنا نبحث عنه في المصادر المختلفة خاصة دار الكتب فلم نجد تحت اسمها الديوان نفسه، كذلك رأيناها لم تتطرق خلال سيرتها الذاتية إلى الحديث عن ملكتها الشعرية صراحة ولا عن وجود ديوان شعري لها؛ إنما ظهر الشعر عنها على هيئة مقطوعات متفرقة قالتها الشاعرة في مناسبات متباينة.

و قبل الحديث عن علاقة نبوية موسى بالشعر ينبغي أن نلقي الضوء على الشعر المصري في الفترة بين ١٩٠٤ و ١٩٢٥ آن إصدارها للديوان، ففي عام ١٩٠٤ رحل البارودي، لكنه كان قد لعب دورا كبيرا في إحياء الشعر العربي.. من منظور التواصل مع الإبداع الشعري في أزهى عصوره، خاصة العصر العباسي، واحتذاء تقاليده وانتهاج معجمه وموسيقاه وأبنيته العريقة. كانت فكرة الإحياء الشعري متواكبة مع حركة المجتمع الصاعد نحو مستقبل جديد، يبحث فيه أبناؤه عن مكانهم تحت الشمس، ويواجهون المستعمر الغربي وواقع مجتمعهم الحائر بين ولائه للدولة العثمانية المنهارة وبين المستعمر الذي يضغط بقوة للسيطرة على مُقدَّراته. كان الإحياء جسرا تعبره الذاكرة إلى مساحة من التاريخ والثقافة تمثل الأرض الصلبة والشعور بالانتماء لمراحل من السطوع والعزة.

هكذا تسلم شوقي وجيله راية الإحياء وبرز حافظ إبراهيم وإسماعيل صبري وخليل مطران وعلي الجارم ومحمد عبد المطلب وأحمد نسيم والكاشف وغيرهم.



وفي منتصف العقد الثاني من القرن العشرين بدأت تلوح في الأفق إبداعات جيل جديد من الشباب رأى في تيار الإحياء الشعري، واحتذاء النموذج التراثي جمودا لا يتوافق وتطلعاته. وقد تميز هذا الجيل الصاعد باطلاعه على الثقافة الغربية ممثلة في الشعر والنقد الإنجليزيين. وكان في طليعتهم عبد الرحمن شكري ثم العقاد والمازني، الذين ما لبثوا أن التقوا على رؤيتهم الجديدة قبل أن ينفصل عنهما شكري ويصدر العقاد والمازني كتاب الديوان، الذي نالا فيه من تيار الإحياء وخاصة شوقي، بل إن عنفهم واندفاعهم نال شكري نفسه، بعد أن كان في طليعة الداعين إلى التجديد الشعري من منظورهم الفني ذاته.

هكذا نجد أن العشرينيات من القرن العشرين قد شهدت أوج الإبداع الشعري لتيار الإحياء وصعود جيل جديد من الشعراء عرف بجماعة أو مدرسة الديوان، وقد كان التيار الأخير هو الممهد الحقيقي لبزوغ الحس الرومانسي في الإبداع الشعري، خاصة أن شعراءه تأثروا بشكل مباشر بشعراء الرومانسية الإنجليز.

وفي نهاية العشرينيات وأوائل الثلاثينيات كان الحس الرومانسي قد بدأ يسود النتاج الشعري وتدريجيا طغى تماما على الساحة الشعرية في أواخر الثلاثينيات وبداية الأربعينيات. ولمعت أسماء أحمد زكي أبو شادي - مؤسس مجلة أبولو التي حمل التيار الرومانسي الجديد اسمها - بعد ميلاد جماعة أبولو التي رأسها لفترة وجيزة أحمد شوقي وكان نائباه خليل مطران الذي عُرف بخطواته الرائدة الراسخة في التجديد، وأحمد محرم المعروف بأصوليته التقليدية التي دفعته إلى نظم «الإلياذة الإسلامية»، وقد أباح وجودهما نوعا من التضافر النوعي بين الجديد والتقليدي، ثم جاءت مجلة أبولو المشهورة التي كانت منبرا لأصوات شعرية جديدة منها إبراهيم ناجي وعلي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل من مصر، وأبي القاسم الشابي من تونس ويوسف بشير التيجاني من السودان، وكان بداية صدور مجلة أبولو إيذانا بوجود الشاعر المُحدث بالقياس إلى غياب الشاعر المحافظ عن المشهد الشعري العربي.

في هذا المناخ الشعري المصري ظهر ديوان نبوية موسى[1] الذي يضم الباب الأول منه قصائد وطنية تبلغ خمس عشرة قصيدة. والباب الثاني «قصائد قيلت في الحوادث الهامة في الحركة الوطنية» وعددها ثماني عشرة قصيدة، والباب الثالث «في الشكوى من الزمان» يضم ثماني قصائد والباب الرابع «في المراثي» يضم سبع قصائد، ثم الباب الخامس عنوانه «في التهاني والمديح» يضم اثنتين وثلاثين قصيدة قصيرة، ثم الباب السادس وهو عبارة عن قصائد قيلت والشاعرة تلميذة بمدرسة السنية وهو عبارة عن ثماني قصائد قصار قيلت في مناسبات متباينة وظروف مرت بها الشاعرة في هذه السن الصغيرة إبان دخول المرأة مجال التعليم.

وقد وجدنا أخطاءً في تبويب الديوان مثل وجود «الباب الثالث» تحت عنوان «في الشكوى من الزمان» ص ٤٣ من الديوان ثم تكرار جملة «الباب الثالث» مرة أخرى على أنه «في باب المراثي» ص ٥٤ والصحيح أنه «الباب الرابع». ويأتي بعده «الباب الخامس» - بصورة طبيعية - تحت عنوان «في التهاني والمديح» ص ٦٣. ثم يأتي خطأ آخر هو تبويب «الباب السابع» تحت عنوان «قصائد قيلت والشاعرة تلميذة بالمدرسة السنية» بعد «الباب الخامس» فمن الصحيح أن يبوب بـ«الباب السادس»، بل يأتي بعده «الباب السادس» تحت عنوان «في الألعاب» وفيه ثلاث مقطوعات قصيرة. كما جاءت ص ٢٩ قبل ص ٢٨، وقد أرجعنا ذلك إلى بدائية الطباعة وعدم المراجعة الكافية آنذاك.

ولما لم نجد حديثا لها في سيرتها الذاتية عن شعرها قمنا نتتبع اهتمامها بالأدب فوجدنا أنها ذكرت تعلقها بالأدب العربي عامة من خلال عين أخيها الرائية، العارفة للثقافة العامة بحكم أنه سبقها في مراحل التعليم، فتقرر كيف تذوقت الأدب العربي قبل أن تعرف القراءة «كنت في سن السادسة لما كان شقيقي في سن السادسة عشرة، وكان طالبا في المدارس الثانوية وقد ألف مجالستي فكان يقرأ لي في كتب الأدب القديم كالأغاني وغيرها، وكنت لصغر سني أصغي إليه باهتمام حتى تعودت فهمها، وكان إذا حاول حفظ قصيدة كلفته المدرسة حفظها حفظتها معه ولا يخفى أن موهبة الحفظ قوية عند صغار الأطفال فهم لا يجدون فيها صعوبة. ولهذا كنت كثيرا ما أحفظ القصيدة بمجرد استماعي له وهو يقرؤها قبل أن يحفظها هو، وكان يسرّه ذلك فيُسمِّعها لي ويطلب مني أن أُسمِّعها له وهكذا تمّت بيننا الصداقة والألفة واستطعت أنا أن أتذوق الأدب العربي قبل أن أعرف الألف من الباء».

أما عن الاهتداء الأول للشعر، فقد جاءها من خلال قراءة أشعار عمر بن أبي ربيعة وأبي نواس ومجنون ليلى وغيرهم وكلهم كانوا يتغزلون ويتشببون بالنساء، وأخيرا في سنها الباكرة قرأت ديوان «حلية الطراز» للرائدة عائشة التيمورية[2] وكان يضم الكثير من الغزل، تقول: «واعتقدت لسذاجتي إذ ذاك أن الغزل سهل وأن الإنسان يستطيع أن يقول في الغزل ما لا يستطيع أن يقوله في أي موضوع آخر، إذن يجب أن أقول الشعر في الغزل ومادمت لا أشعر بالحب فكيف أتغزل وأتشبب؟ وأخيرا اهتديت إلى حل وهو أن أكتب قصصا لأقول فيها الشعر الغزلي على لسان غيري وكتبت أول قصة في كراسة صغيرة وكانت فيها الأبيات الآتية:

أحالت على العهد الذي كنت أعهده
وموعدنا بالأمس خانت مقاصده
حبيبة قلبي لا تميلي لعاذلٍ
فإن عذولي قد دهتني مكايده
وزوري فتى في هواك متيما
عليلا ليشكو ما يلاقي لعائده

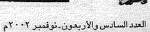
ولا أدري لم نصبت متيما وعليلا وأنا في ذلك الوقت لا أعرف شيئا من أصول النحو؟ كما يرى القارئ الكريم من ذلك البيت الأخير أني لم أكن أعرف حروف الجر ولهذا رفعت عائدا تبعا لقافية الأبيات مع أنه مجرور».

وقد جاءت صورة كتابة نبوية موسى للشعر بوساطة استخدامه وسيلة في بعض المواقف تكشف عن طبيعة شخصيتها من ناحية وكذلك عن طبيعة المناسبة التي فرضت فيها هذا الشعر من ناحية أخرى، وإن كانت الأغراض الشعرية التي كتبت فيها نبوية موسى قد تناولت في الرثاء والمديح أعلام العصر بما ينبئ عن انتباهها لما يدور حولها من أحداث من جانب وقولها الشعر تعضيدا لبعض المواقف من أولئك الأعلام من جانب آخر.

نذكر أولاً موقفها مع جارها الشاب الأزهري وهو من باكورة كتاباتها الأولى بمدرسة السنية - التي التحقت بها في السنة الثالثة الابتدائية سنة ١٩٠١ ونجحت في الشهادة الابتدائية فيها في يونية سنة ١٩٠٣ - ثم قول الشعر في مدرسة السنية بما يكشف عن طبيعة وجودها في المرحلة التعليمية الأولى، وحكاياتها مع رفيقتها ملك حفني ناصف، ثم الأغراض المتعددة التي تناولها شعرها بما يبرز موهبتها الشعرية.

الانتقام من الشاب الأزهري:

تذكر نبوية موسى أنها في إحدى إجازات الصيف ذهبت إلى بلدتها وحدث أن «أخذت معي مصحفًا، وجعلت أحفظ بعض سوره وكنت أختار سور القَصَص كسورتي يوسف ومريم وكنت أفهمها فهمًا جيداً، ولكن أحد جيراننا وكان طالبًا في الأزهر قال لي إنه من الكفر أن أقرأ القرآن وحدي.. فقلت: لِمَ يكون كفرًا وأنا لا ألحن فيه؟ وقرأت أمامه بعض



الآيات فوافق على أنى أقرؤها صحيحة، ولكنه قال يجب أن أحذر كل الحذر من أن أحاول فهم معناها وإلا عُدَّ ذلك كفرًا لأنه هو نفسه لا يحاول فهم سورة إلا إذا تلقى تفسيرها على أستاذه فى الأزهر؛ فقلت: ولكنى افهمها جيداً حسب ما أعتقد. قال إن ما تعتقدينه شىء والحقيقة شىء آخر. فأردت أن أعرف المعنى الذى تعلمه هو فى الأزهر وأقسمت له إن أفادنى أمدحه بقصيدة، وإن لم يفعل فلابد من ذمه بقصيدة أخرى، وسألته عن معنى الآية: «يا أبانا مُنع منّا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل و إنّا له لحافظون». وقد كنت أفهم معنى تلك الآية على حقيقتها، فقال لى إن أخاهم اسمه نكتل. وهنا سخرت منه وقلت له: إن الكفر هو ما تعلمت أنت عن أستاذك. وكتبت له قصيدة الذم كما أوعدته وكان اسمه «محمدا أبا نصرة»، ولست أذكر شيئا من تلك القصيدة إلا البيتين الآتيين:

أمحمد سموك خابت ظنونهم
لو أنصفوك لكنت تدعى باقل
لُقّبت بالنصرة وفعلك ضدها
فلتعلم الأقوام أنك متخاذل

قول الشعر في مدرسة السنية:

إن الناظر إلى سيرة نبوية موسى وكذلك شعرها يلمس مدى التمرد الذى كان يستولى على شخصيتها، ومن هنا لم تخف نبوية موسى عدم رغبتها فى أى شىء بدءًا من الزواج حيث ظلت آنسة حتى وفاتها وانتهاءً بسائر ما لا ترغبه.

تروى حكاية قولها للشعر فى مناسبة فى مدرسة السنية إبان كرهها لدروس قواعد الصرف فتقول: «كنت غريبة عن المدرسة السنية بعيدة عن كل نظمها، وكنت أنتقد ما يلقى علينا وأحتقره إذا كان لا فائدة منه، لهذا لم تعجبنى قواعد الصرف فكنت أسخر منها ولا أرى أية فائدة فى أن أعرف أن (سار) أصلها (سير) وأن (كان) أصلها (كون) وغير ذلك من العلل الصرفية، لأنى كنت أرى أنى أعرف أن أفهم وأقرأ، و أن أكتب ما يفهم قبل أن أتعلم تلك القواعد التى لا معنى لها، وأعطانا المعلم يومًا امتحانًا فى الصرف، وبدلاً من أن أجيب عليه كتبت له فى الكراسة الأبيات التالية:

دهتنى صروفُ الصَّرف لا درّ درُّهُ
ولا خيرَ فى فعلٍ إذا رُمتَ صرفه
كما أنه يخشى الزمانَ وصرفه
أرى الفعل موهوبا لدىّ وصرفَهُ
فإن تكسروا للفعل عينا فإننى
كسرت ذراع الفعلِ عمدا وأنفَهُ
وإن كان معتلا فلست طبيبةً
دعوه دعوه علّه يلقى حتفَهُ

وبالطبع فقد منحنى ذلك الأستاذ فى ذلك الامتحان صفرا بأكمله دون أن يبخل علىّ بشىء منه. وأمرنا الأستاذ يوما أن نحفظ حروف المعانى المكتوبة فى كتاب النحو بترتيبها عن ظهر قلب، فلم يعجبنى أن أتعب نفسى فى هذا السخف الذى لا معنى له، وعندما طلب منّى المعلم فى اليوم التالى أن أسمّع ما حفظت قلت له إنى نظمتها شعرا قال هاتى، فقلت الأبيات الآتية:

أشكو إليك حروفاً فى تعلمها
حلّت بقلبى من تكرارها العللُ
(إذن وإذ ما) فما كررتها أبدا
إلا بدت أدمعى كالسيل تنهملُ
ولا ذكرت (بلى والكاف ثم جلل)
إلا وخاب لدى تذكارها الأملُ
(جيرى وحتى وحاشا) بت أقرؤها
حتى ثنى همّتى عن حفظها المللُ
علّى بذلك لا ألقى العقاب ولا
عن ساحة الكرم المأمول أنتقلُ

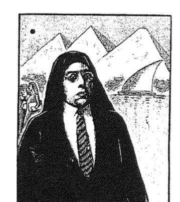
فقال المعلم: ومكافأة لك على هذا الاجتهاد ساعطيك صفرا، فقد مللت أن أكتب فى كل شىء عشرة وهذه فرصة أغير فيها العشرة إلى صفر، تشجيعا لك على قول الشعر، وهكذا لا آخذ فى اللغة العربية درجة إلا الدرجة النهائية أو صفر».

حاولت نبوية موسى أن تعبر عن تمردها على حصص النحو والصرف فقرضت عليها شعرا على غرار ألفية ابن مالك، وإظهاراً لصورة المدرس الصلب الذى يتعامل بشدة مع فتيات حديثات العهد بالتعليم منحها ـ انتقاما منها ـ صفرا فى مادة اللغة العربية التى سوف تكون هى رائدة فى تعليمها بعد ذلك.

قصة الشعر مع ملك حفنى ناصف[3]:

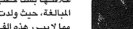
ولدت «ملك حفنى ناصف» فى السنة نفسها التى ولدت فيها نبوية موسى (١٨٨٦) فى شهر فبراير بينما ولدت نبوية موسى فى شهر ديسمبر، ودرست كل منهما بمدرسة السنية لكن الأولى كانت أسبق من الثانية فى المرحلة التعليمية، تقول نبوية ما يفيد قولهما للشعر معا وتباريهما فيه:

دخلت المدرسة السنية فى السنة الثالثة الابتدائية وكان ذلك فى سنة ١٩٠١ وكانت المرحومة «ملك حفنى ناصف» فى السنة الثانية من معلمات السنية أى كان بينى وبينها فرق دراسة ثلاث سنوات، وكانت المرحومة مشهورة بجودة الإنشاء فى اللغة العربية وهى موهبة ورثتها عن المرحوم والدها «حفنى بك ناصف» فلما دخلت أنا اتجهت أفكار المعلمين إلى الموازنة بينى وبينها، وأخيرا قرَّ رأيهم على أن يعطى معلم السنة الثالثة الابتدائية نفس موضوع الإنشاء الذى يعطيه معلم السنة الثانية من قسم المعلمات. وتم هذا وعرض الموضوعان على مدرسى اللغة العربية فى القسمين الابتدائى والثانوى فمال أغلبهم إلى تفضيل موضوعى، وقالت الأقلية إن الموضوعين متساويان فى الجودة وأغضب ذلك المرحومة ملك وكانت طيبة القلب وقد نمت بينى وبينها صداقة



> الناظر إلى سيرة نبوية موسى وكذلك شعرها يلمس مدى التمرد الذى كان يستولى على شخصيتها، ومن هنا لم تخف نبوية موسى عدم رغبتها فى أى شىء بدءاً من الزواج حيث ظلت آنسة حتى وفاتها وانتهاءً بسائر ما لا ترغبه

فكانت تميل إلى مجالستى، فجاءتنى بعد هذه الموازنة تشكو إلىّ سوء تقدير المعلمين فى وقع موازنة كهذه بين تلميذة فى السنة الثالثة الابتدائية وطالبة فى السنة الثانية من قسم المعلمات، وقالت إنها تظن أن اهتمامهم بى لأنى فى السنة الثالثة الابتدائية يجعلهم يقدرون إنشائى فوق ما يستحق وأنها تريد أن تعرض الأمر على والدها، وطلبت منّى أن أكتب قصيدة فى مدح الخديو وأن تكتب هى الأخرى وتعرض القصيدتين على والدها. ففعلتُ وفعلتْ ثم جاءتنى بعد ذلك وعلى وجهها علامة عدم الرضا وقالت لقد انضم والدى إلى رأيهم ويظهر أنك محظوظة فقلت لها مازحة ولكنى عرضت القصيدتين على أخى ففضل قصيدتك وبهذا أصبحنا خالصتين واحدة بواحدة. وفى السنة الرابعة قالت هى قصيدة مدح فى الخديو وقلت أنا أخرى، ولكن لم تعرض قصيدتها علىّ بل فوجئت بها على صفحات المؤيد، أعجبنى بيت فيها أيما إعجاب وكنت خارجية وكانت المرحومة داخلية فلما رأيتها فى الصباح قرأت لها البيت فقالت لمن هذا؟ قلت: عجبا ألا تعرفين؟ قالت: لا. قلت إنه من قصيدتك المنشورة اليوم فى المؤيد. قالت لعل والدى وضعه ومن هذا علمت أن المرحوم «حفنى بك ناصف» كان يساعدها فيما تكتب أثناء دراستها.



ربما كانت الحوادث المروية بخصوص علاقتها بملك حفنى ناصف يعتورها بعض المبالغة، حيث ولدت كل منهما فى سنة واحدة مما لا يبرر هذه الفروق فى سنوات التعليم، وبينما تروى نبوية موسى بنزعتها التفاخرية إجادتها للشعر، فهذا لا يتسق مع كونها لم تذكر فى مذكراتها نهائياً رأيها فى الشعر، ومستواها فيه ـ وحبها لأغراضه ـ وممارستها له ـ لم تذكر كونه جزءا أساسياً من حياتها، فكيف تتفوق على ملك حفنى ناصف التى عرفت بشاعريتها. وليس هذا فحسب، بل تسند إجادتها للشعر الحَسن إلى والدها حفنى ناصف. وهو ما يتعارض مع أبيات القصيدة المشهورة التى وجهها أحمد شوقى إلى باحثة البادية «ملك حفنى ناصف» ومنها:

صداح يا ملك
الكناريا أمير البلبل
صبرا لما تشقى به
أو ما بدا لك فافعل[4]

اعترافها فى الشعر بعدم اشتغالها بالسياسة:

أثناء فترة دراسة نبوية موسى بمدرسة السنية كانت المدرسة فرعاً من وزارة المعارف التى كانت مثل كل المؤسسات خاضعة لرئاسة الإنجليز بحكم الاستعمار، وقد كانت علاقة نبوية بناظرة المدرسة الإنجليزية علاقة تقوم على التحدى ـ وهو ما تعترف به نبوية نفسها فى مذكراتها ـ نظرا لما لمسته فيها الناظرة من غرور وصَلَفْ وتعالٍ فى المعاملة المتبادلة بينهما، وأغلب الظن أنهاَ كانت تشعر تجاه الناظرة بهذا الشعور لأن الناظرة كانت إنجليزية فكُره الناظرة نبع من كره المصريين للاحتلال الإنجليزى «كنت أكن للناظرة ما كانت تكنه لى وفى يوم دخلت علينا فى المذاكرة فحركت حقدى وما كادت تخرج حتى ابتدأت أكتب فى كناشة الأعمال الأبيات الآتية:

حلوا فراح الحزم وارتحل الحجا
وانهد جاه العلم والآراءِ
حملوا على جيش الفضيلة فانثنوا
متسربلين بحلّة حمراء
هذا دمُ الإنصافَ فوق ثَيابهم
يبدى فظائعهم لعين الرائى

نيران حقد أضمرتُها قلوبهم
فتسربلوا من لونها برداءِ
مادام أهل النار تحجب روضنا
عنا فأين معالمُ السراء
إن يدّعوا الإنصافَ أو يَنسب لهم
فوفاء عرقوب وبخل الطائى

كتبت ذلك فى كناشة الأعمال بالقلم الرصاص وما كنت كما قدمت أهتم بالسياسة ولا أود خروج الإنجليز من مصر، ولكن هو الغيظ من الناظرة جعلنى أصب جام غضبى على أبناء جنسها وشاء التجسس أن تسرق هذه الكناشة بحيلة لا أعرفها إلى الآن، وأن تُعطَى للناظرة وأن تُرشد إلى مكان الأبيات وجن جنونها ووجدت دليلا على اشتغالى بالسياسة التى علم الله أنى ما اشتغلت بها فأرسلت الكناشة إلى وزارة المعارف تطلب عقابى».

ويغلب على سيرة نبوية موسى وكذلك ديوانها ـ منذ قصائدها الأولى وهى تلميذة بمدرسة السنية ـ الحض بقدر كبير على العلم والرسالة التربوية الإصلاحية، وإن كانت هناك أغراض شعرية مهمة تناولها شعر نبوية موسى، وهو ما تعترف به فى مقدمتها للديوان قائلة:

«ولست كغيرى ممن يقولون الشعر أو النظم وهم متفرغون له، بل أنا معلّمة شغلنى حب التعليم عما سواه من الفنون الجميلة وما قلت شعرا إلا لحاجة أطلبها لذلك التعليم أو لشىء آسف على ضياعه، وكنت أروم منه الخير لتعليم البنات الذى شغفنى حبه، فقلما تخلو قصيدة من قصائدى من الإشارة إليه، فإذا مدحت شخصا فمن أجل التعليم أمدحه وإذا شكوت الدهر فمن أجله أشكو».

والناظر إلى مفتتح ديوان نبوية موسى يجدها وقد فضّلت الكلام المنثور على المنظوم وكأنها تؤيد منذ هذه المرحلة الباكرة ظهور ما يعرف الآن بقصيدة النثر «أعتقد أن وزن المنظوم إن لم يكن من البحور المُطربة فى نغماتها كان المنثور أفضل منه، ولا شك أن المنثور فى سهولته وطلاقته أفضل من منظوم يأتى من بحر لا تطرب النفس نغماته الموسيقية الشيقة، ولا تخف عليها قافيته التى يظهر فيها من التكلف اللفظى ما ينفر منه الذوق السليم».

ثم تقرر صراحة الهدف الحقيقى من وراء شعرها وخلاصة تجربتها الشعرية: «وتكاد قصائدى تكون مجمل تاريخ لأول أدوار تعليم البنات فى مصر وقد ضمنتها جزءا عظيما مما كان فى الحركة الوطنية التى قد تكون الظاهرة الثانية فى أشعارى إذا اعتبرنا أن الظاهرة الأولى هى تعليم البنات».

ومنها ما تقول:

تعليم النساء
بالعلم ترتفعُ البلادُ وتظفرُ
ويسود بعد خموله المتأخّرُ
فإذا ولاة الأمر راموا نفعها
عمدوا إلى دور العلوم فعمَّروا
وتعهّدوا التعليم فيها بالذى
يرجى لهم منه النجاحُ وأكثروا
ولخير ما تعلو به أوطاننا
علمٌ تواليه الفتاةُ فيثمرُ
علم تعزُّ به الفتاةُ وترتقى
وتسود حين تكون أمّا تُبصرُ

المعنى فى الأبيات أن الأمم تعلو وترتقى وتفخر بالنساء وتنحط حين تهملهن. وعندما نتأمل ديوان نبوية موسى نجد أنها قد وظّفت شعرها إلى رسالتها التعليمية وتدعيم ثورة ١٩١٩ وإعلاء شأن المرأة، وكان يدفعها إلى كتابة قصائد ومقطوعات الديوان دعم مشروعها الرئيسى وهو الحضّ على تعليم المرأة والارتقاء بعقلها وتعميق ثقافتها، إضافة إلى المشاركة فى الأحداث الاجتماعية والمواقف الوطنية، ورثاء أعلام العصر، ومنها ما رثت به كلا من الإمام محمد عبده، والزعيم مصطفى كامل، تقول فى رثاء محمد عبده:

لقد مالَ ركنُ الدينِ وانهدم الفضلُ
وأقوت ديار العلمِ وارتحل العدلُ
وغالَت يدُ المقدارِ نفس محمد
فكان نصيبَ الكونِ من بعده الثكلُ
فهلا قضىَ العافونَ حزناً لفقده
ومادت رواسى الأرض وانطبقَ السهلُ
وهلا فديناهُ بخيرِ هُداتنا
فليس له فى علمه منهُم مَثَلُ

ترثى الشاعرة الإمام محمد عبده بما يؤكد جهاده فى سبيل العلم كاشفة عن الفجيعة التى لحقت بطلاب العلم نتيجة لفقد فصاحته وفكره وعلمه واجتهاده، وهى تقدم صورة الفجيعة ليست مقصورة على البشر فحسب، بل من عمق هذه الفجيعة اهتزت لها الجبال وانطبقت سهول الأرض على من فيها.

وفى رثاء مصطفى كامل تقول:

أكامل هل تدرى بما نتوجَّعُ
وتعلم من كاس الأسىَ كيف نجرَعُ
بلى لو علمتُ اليوم وقع مُصابنا
لقُمْتَ تردُّ الظلمَ عنّا وتدفعُ
كعادتك الأولى تخوضُ غمَارها
وتحمى بلادَ النيلِ قهراً وتَرفعُ
تضحى بنفسٍ أن تمسَّ حقُوقنا
وتدفعُ كيدَ الغَاصبينَ وتردعُ
تردُّ إلى مصرَ العزيزة حقَّها
وتُرشدُها فى أمْرِها كيف تصنعُ

يأخذ رثاء الشاعرة للزعيم مصطفى كامل صورة استرجاع للدور الوطنى الذى قام به، وخاصة أن قضية الدفاع عن حرية مصر ضد الاحتلال البريطانى كانت لا تزال قائمة على الرغم من وفاة مصطفى كامل.

لذلك تحاول الشاعرة أن تستنهض همّته كى يواصل مسيرته ضد الاحتلال، وكأنه لم يمت بعد، أو كأن الموت لم يخفت صوته القوى ونبرته المُحفزة للشعب كى يقاوم المُحتل الإنجليزى.

إلى جانب الرثاء هناك أغراض أخرى

ويغلب على سيرة نبوية موسى وكذلك ديوانها ـ منذ قصائدها الأولى وهى تلميذة بمدرسة السنية ـ الحض بقدر كبير على العلم والرسالة التربوية الإصلاحية، وإن كانت هناك أغراض شعرية مهمة تناولها شعر نبوية موسى

ضمّها الديوان كالمديح والتهانى وتغذية الشعور الوطنى. تقول فى وصف مصر:

يا مصر يا فخرَ المدائنِ والقُرىَ
كم لجَّ دهرُك فى العنادِ وأكثر
يا أم آمون غدوتِ بحاجة
لذكائه المخبُوء فى جوفِ الثرىَ
لو كان حيّاً ما تجاسرَ لوردَهُم
أن يستبدَّ بما أبانَ وأظهرا
كلا ولا وطِئتك يومًا خيلَهم
واستعذبوا من ماء نيلك كوثرا
فرعون لو نظروا سيوفك شرعا
لارتاعَ طاغِيهُم وولى مُدبرا

فى أبيات القصيدة تفتخر الشاعرة بمصر، وتُكنيها بأم آمون نتيجة لتاريخها المديد المستنير منذ عصر الفراعنة والمقصود به الملك أحمس قاهر الهكسوس، الذى تتمنى الشاعرة وجوده كى يُجلى الإنجليز عن مصر، ولو كان موجودا لما استطاع لوردهم (لورد مضاف إليها ضمير الغائب عائدا على الإنجليز ـ واللورد هو اللورد اللنبى) أن يعيش فى الأراضى المصرية استبدادًا. فإذا كان فرعون موجودا عندما غزا الإنجليز مصر، لما تجاسروا على تجرع ماء النيل. والشاعرة إلى جانب اعتزازها بمصر يظهر فى أسلوبها الشعرى تمنيها وجود قائد عظيم يستطيع التصدى للاحتلال الإنجليزى كما عُهِد على قواد مصر الذين استطاعوا عبر التاريخ قهر الغُزاة.

بأغراضه الشعرية المتباينة: يمثل ديوان نبوية موسى جزءاً مهما من ذاكرتنا الأدبية لمرحلة النهضة الثقافية ـ خاصة فيما يتعلق بمسيرة المرأة المصرية ـ إلى جانب ما يُشكّله من إبراز قدرٍ مهم من جوانب شخصية نبوية موسى التى تفاعلت مع مجتمعها المصرى وانفعلت به وقامت بحسها الوطنى وإيمانها بدورها الفاعل تؤدى لهذا الوطن الدور المنوط بها: لذلك صارت إحدى العلامات البارزة الدالة على ريادة المرأة المصرية فى عصر النهضة.

الهوامش:

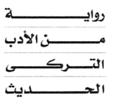
(١) ديوان نبوية موسى. مطبعة العباسية. ١٩٣٨.

(٢) عائشة التيمورية (١٨٤٠-١٩٠٢) كانت تقرض الشعر بالفارسية والتركية والعربية، وكتبت قصة «نتائج الأحوال» بلغة المقامة، ومرآة المتأمل فى الأمور سبقت فيهما قاسم أمين إلى النقد الاجتماعى والدعوة إلى الإصلاح، كتبت الشعر والحكايات بعد مضى سنوات قليلة فقط من إلغاء قانون الرق فى مصر، حيث كانت هى نفسها ابنة لجارية شركسية لكن من أسرة مثقفة أخرجت العلامة الموسوعى «أحمد تيمور» والرائد المسرحى «محمد تيمور» لكن عائشة كانت صاحبة سبق وفضل عليهم، حيث كانت تكبر شقيقها أحمد تيمور، فهى التى حببت إلى نفسه حب القراءة والثقافة. أما محمود تيمور فقد دخل عالم الشعر عن طريق أشعارها التى كانت كما يقول «باكورة ما قرأت وما حفظت». ولما أرادت أمها أن تجعل منها حيوانا أليفا تعلمه هوايات ربات القصور قالت «كنت أفر منها فرار الصيد من الشباك».

(٣) هى ملك هانم كريمة اللغوى المحقق حفنى بك ناصف الذى شغل المناصب العالية فى وزارة المعارف والقضاء. ولدت سنة ١٨٨٦ وتلقت مبادئ العلوم فى مدارس أولية ثم دخلت المدرسة السنية فى أكتوبر سنة ١٨٩٣ وحصلت منها على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠ وهى أول سنة تقدمت فيها الفتيات المصريات لأداء الامتحان للحصول على تلك الشهادة. انتقلت إلى القسم العالى فى المدرسة المذكورة وحصلت على الشهادة العالية (دبلوم) سنة ١٩٠٣ واشتغلت بعد ذلك بالتعليم فى مدارس البنات الأميرية وقد اقترن بها صاحب السعادة عبد الستار بك الباسل وجيه قبيلة الرماح بالفيوم. وكانت وقتذاك بادية صحراوية لذلك سميت هى باحثة البادية. وتوفيت فى سن صغيرة بالحمى الإسبانيولية فى القاهرة ليلة الخميس ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٨.

(٤) للمزيد انظر: باحثة البادية وعائشة التيمورية للآنسة مى. كتاب الهلال. العدد ٥٨٢. يونيو ١٩٩٩. ص ١٧٤.





ناصر الرباط

الإعلام كله اليوم، مكتوب ومرئى ومسموع وأثيرى، ملىء بالتحليلات والدراسات والآراء عن التقارب والتضاد فى الماضى والحاضر ما بين الغرب والشرق، ما بين النظام العلمانى الغربى والنظام الدينى الإسلامى، ما بين الثقافة الغربية العملية والعلمية والثقافة الشرقية الروحية والشاعرية، وما بين التحرر والانطلاق والفردانية من جهة والتزمت والانغلاق والانصياع لإرادة فوق - فردية من جهة أخرى. كل هذه التضادات تضادات حدية، بعضها صحيح تاريخياً وبعضها مركب ومصنوع أو متخيل ومهول أمره لغايات سياسية غالبًا. ولكنها كلها تحدد علاقة الطرفين - أى الغرب والعالم الإسلامى - ببعضهما البعض وتضفى عليها نكهة مرة يزيدها مرارة كونها تطبق كل يوم على أرض الواقع فى التحالفات الدولية والعمليات العسكرية أو «التخريبية الإرهابية» والتفجيرات والاغتيالات والغارات الجوية والاعتقالات التى تنبع من قبول هذه التضادات الحدية كحقيقة تاريخية ومبدئية وكواقع معاش وحتمى، ولعلها كذلك.



ولكن التاريخ، وعاء التجارب الإنسانية الواسع والدائم، لا يحب التضادات الحدية الثابتة بين الشعوب والأقوام والثقافات والحضارات، فهو يقوضها على أوهامها كلما شمخت راسخة متباهية، ويفت من اكتمال هيئتها كلما استمرأت ثباتها وديمومتها لكى يفتق حدودها ويجعل التشابه والتكامل والاندياح المتبادل بين الثقافات المختلفة، متحابة كانت أو متباغضة، معيار حركته وعلامة تدفقه وعنوان واقعه. فالثقافات تتعارف وتتقاطع وتتبادل التأثير باستمرار. ولعل هذه هى حقيقة التاريخ الأولية والدائمة التى تطغى عليها أى حقيقة أخرى. ولا يوجد أصلاً تضاد كامل بين الحضارات أو الثقافات فى التاريخ، اللهم إلا تلك التى لم تتعارف وتتقاطع بسبب من بعد المسافة واستحالة المواصلات، وبالتالى لا يمكنها أن تكون متضادة تعريفًا وواقعًا. أما تلك الحضارات التى تعارفت وتعايشت وتحاربت وتصالحت وتقاطعت وتبادلت المعرفة والسلع والناس والأفكار - والحضارتان الإسلامية والغربية على رأسها - فهى بحكم تقاطعها فى الزمان والمكان والعقائد لم تتمكن من المحافظة على وهم تضادها إلا فى اللحظات العويصة عندما كانت هويتها وكينونتها مهددتين بالذوبان والاختفاء، وحتى فى تلك اللحظات القصيرة لم يكن التضاد الحدى أكثر من وهم سطحى استعمله المؤججون العقائديون من ساسة ومنظِّرين وعسكريين فى كلا الطرفين للمحافظة على امتيازاتهم بسبب من كونهم قد ابتدأوا يصدقون رسالة النقاء العرقى والحضارى التى لفقوها أساسًا لأنها أسهل على التصديق أو لأنهم اقتفوا خطى مفكرين سياسيين أكثر منهم فاشية وانغلاقًا وعدوا شعوبهم بالنصر والسؤدد والسيطرة، وفى غالب الأحوال لم يجلبوا لها سوى الدمار والخراب وسوء السمعة.

ولكنى اليوم لست بصدد تحليل تاريخى للعلاقة بين الشرق والغرب وإن كنت أود أن أتخذ من هذه العلاقة الطويلة ودائمة التغير والمتعثرة عمومًا مدخلاً لتقديم الرواية الرائعة للقاص التركى الأشهر أورهان باموك، «اسمى القرمزى» (My Name is Red) التى ظهرت طبعتها الأمريكية الأولى قبل أقل من شهر من هجمات الحادى عشر من أيلول على واشنطن ونيويورك، تلك الهجمات التى يبدو أنها عمقت من التضاد المستشرى ما بين الشرق المسلم والعربى بوجه خاص، والغرب التكنولوجى والعلمانى سياسياً وحقوقياً، وإن كان لايزال ثقافياً مسيحياً - يهودياً. لا أعلم بسبب من إقامتى فى الولايات المتحدة فيما لو كانت هذه الرواية قد ترجمت للعربية وإن كنت أرجو ذلك لأجل قراء العربية ولأجل تدفق الحوار الثقافى فى العالم الإسلامى وخارجه، هذا الحوار الذى تراجع الدور العربى فى قيادته وإذكائه تراجعًا كبيرًا فى العقدين الأخيرين، بحيث أصبحت الثقافة العربية هامشية فعلاً ليس فقط على الصعيد العالمى، وهذا هاجس كبير ولكنه مفهوم تاريخياً، ولكن أيضًا على الصعيد الإسلامى والآسيوى - الأفريقى والعالمثالثى، أى الدوائر الثقافية الثلاث التى تنتمى لها الثقافة العربية والتى يمكنها نظرياً أن تكون فى مركز العقد منها.



أورهان باموك اليوم هو الروائى الأكثر شهرة فى تركيا وواحد من أكثر الروائيين شهرة فى أوروبا، التى يشعر هو نفسه بالانتماء الحضارى لها كما غالبية مواطنيه العلمانيين أكثر من انتمائه لتراث بلاده المسلم والإمبراطورى العثمانى وإن كان يشعر بالفخر تجاه إنجازات هذه الامبراطورية. وقد ترجمت كتبه الستة كلها إلى العديد من اللغات الأوروبية وهو ما يؤمن له الشهرة العالمية التى أصبحت فى عصرنا المعولم دليل التفوق الأوحد. وهو فى النصف الثانى من العقد الرابع من عمره ومن مواليد استنبول، المدينة التى تختزل فى موقعها وناسها وتاريخها كل العقد المتشابكة فى العلاقة ما بين الشرق والغرب على مر أكثر من ألفى سنة منذ أن كانت بيزنطة الإغريقية إلى أن أصبحت القسطنطينية البيزنطية المسيحية فاستنبول العثمانية المسلمة وفى المائة سنة الأخيرة مدينة عالمية، علمانية، تنام على البوسفور فوق حدود حضارية وسياسية فقدت أهميتها الاستراتيجية، وتنسج من ذكرياتها الامبراطورية العظيمة أحلامًا تهدهد فيها نفسها وتبعد عن مخيلتها هواجس المعاصرة، والهوية والانتماء والإسلام السياسى والعنجهية الأوروبية التى ترفض أن تنسى لها دورها كعاصمة العثمانيين الذين هددوا قلب أوروبا لأكثر من ثلاثة قرون وتضمها لاتحادها العلمانى القوى. وباموك ملتصق بمدينته، لا يطيق الابتعاد عنها لفترة طويلة كما صرح فى أكثر من محاضرة، وهو يقيم فى واحد من أكثر أحيائها تشبعًا بالماضى العالمى الذى طبع المدينة بطابعها المتميز، حى «جاشنكير» الذى يهرول نازلاً من «بيرا» الحى الأوروبى التقليدى خارج حدود العاصمة الامبراطورية، إلى البوسفور، عصب الحياة التجارية والفاصل التقليدى بين أوروبا وآسيا. ولعل تعلق باموك بمدينته هو أكثر العناصر تأثيرًا فى كتابته الروائية، فالمدينة هى خلفية سرده كله، وشوارعها وأزقتها وأحياؤها وممراتها المائية تشكل الأبطال الثابتين فى كل رواياته التاريخية والمعاصرة. ولعل خلفيته التعليمية كمعمار، وإن كان لم يعمل قط بالعمارة، قد جعلت من تعامله السردى مع المدينة أكثر وضوحًا ومادية بل وربما واقعية.

وقد قورن باموك بالعديد من أعلام الرواية المعاصرين، فهو صنو مارسيل بروست فى حفره الدائم فى غياهب الذاكرة وآلامها. وهو تلميذ الروائيين الخياليين الواقعيين من أمريكا الجنوبية من بورخيس إلى جابرييل جارسيا ماركيز فى تحليقه من الواقع إلى الخيال بدون أى تردد أو تعجب أو توقف برهة لتغيير الإطار أو تهيئة القارئ. وهو معادل الروائى الإيطالى إيتالو كالفينو فى سبره لدروس التاريخ من خلال مرآة الحاضر، أو للروائى اللغوى الإيطالى الآخر، أمبيرتو أيكو، فى تماهيه مع واقع تاريخى بحيث ينسى القارئ نفسه فى سرده ويبدأ بالاستغراب عندما يرفع نظره عن الورقة وينظر حوله ليرى الضوء الكهربائى وغيره من علامات الحياة الحديثة التى تحيط به. ولكن أورهان باموك أيضًا نسيج وحده ونسيج موهبته الروائية المتميزة ونسيج مدينته ودولته وثقافتها المتارجحة بين شرقها الماضى وغربها الحاضر، والمفروض فرضًا بقوة المؤسسة العسكرية الأتاتوركية والمستقبل المأمول فى أحضان الديمقراطيات الأوروبية المتحدة. وهو كقاص وروائى يعكس هذا الهاجس الحضارى فى كل ما يكتبه بطريقة فيها الكثير من الحنكة السردية والهم الإنسانى والحس النقدى المتوهج. ولكن رائعته الأخيرة «اسمى القرمزى» فاقت كل ما سبقها مما كتبه فى عمقها وغوصها المحفور فى التاريخ وفى حدسها المتواتر بالعلاقة الحدية بين الثقافتين الشرقية والغربية وفى تصويرها لتفاعل الناس والأحداث مع المتغيرات حولهم بما

قورن باموك بالعديد من أعلام الرواية المعاصرين، فهو صنو مارسيل بروست فى حفره الدائم فى غياهب الذاكرة وآلامها. وهو تلميذ الروائيين الخياليين الواقعيين من أمريكا الجنوبية من بورخيس إلى جابرييل جارسيا ماركيز فى تحليقه من الواقع إلى الخيال بدون أى تردد



My name is Red

«اسمى القرمزى»

Orhan Pamuk
Erdag M . goknon (Translator)
Knopf, 2001, 384 pp.



يمتص التضاد الحضارى إلى داخل حيواتهم نفسها وينقل السؤال ـ الهاجس ـ عن الهوية والتراث والعولمة من بُعده الثقافي إلى بُعده الوجودى والكيانى، أى يجعله سؤالاً إنسانيًا.

والرواية تبدو لأول وهلة كرواية بوليسية مشوقة ذات حبكة متمرسة وإن كانت أحداثها تحصل فى نهاية القرن السادس عشر فى استنبول طبعًا حاضرة السلطنة العثمانية بعد أن همدت همتها فى متابعة مشروعها التوسعى فى أوروبا وبدأت بالتعرف على حدود قوتها خاصة مقابل قوة أوروبا المناهضة التى هزمتها طلائعها فى معركة «لبيانتو» البحرية عام ١٥٧١. فالرواية باختصار هى قصة سلسلة من الجرائم تقع فى محترف الفن التابع للقصر السلطانى، قصر طوبقابى، ويبدو أنها متعلقة بتطور حصل فى المحترف عندما حاول فنان عجوز وسياسى داهية، يدعوه باموك ببساطة «إينيشتى» أى زوج الخالة، إدخال طرائق التصوير الغربية الحديثة على التقليد التصويرى الإسلامى الذى ورثه العثمانيون عن سابقيهم فى إيران وأناضوليا ووسط آسيا بعد أن شاهد بأم عينه اللوحات الواقعية التى كان فنانو البندقية ينجزونها خلال عصر النهضة المتأخر خلال زيارة دبلوماسية قام بها للجمهورية السامية. وهو قد جند لهذا الغرض أربعة فنانين ملحقين بالمحترف السلطانى لمساعدته فى مشروعه سرًا، وهم كلهم أصحاب أسماء ملغزة، «الفراشة»، و«زيتون»، و«اللقلق»، والخطاط»، و«أنيق أفندى». هذا المشروع الفنى والثقافى الثورى هو عقدة الرواية الفكرية والحضارية الرئيسية.

للرواية، كما للقصص التقليدية بطلان رئيسيان، رجل وامرأة، وتعبر قصة حبهما عبر أحداث الكتاب عبورًا هادئًا وتصبغه بالنهاية بصبغة رومانتيكية متأججة من دون كبير دراما. هذان البطلان هما «الأسود» ابن أخت «إينيشتى» وشكورة ابنته. وهما قطبا السرد، فالأحداث تدور حول افتراقهما والتقائهما وقبول الأسود بمساعدة إينيشتيه فى حل لغز الجرائم والمحافظة على المشروع الثورى الفنى الذى كرس إينيشتى نفسه له مقابل سماحه للأسود بالتزوج من محبوبته وابنة خالته. ولكن شكورة متزوجة ولها ابنان وزوجها المحارب الصنديد اختفى فى حملة عسكرية، وهى بالتالى فى وضع قانونى صعب، لاتعرف نفسها فيما لو كانت على عصمة رجل أم لا، بالإضافة لوضعها العائلى المعقد حيث إن شقيق زوجها الصغير



والعربيد مغرم بها حتى الجنون. فوق ذلك كله، شكورة امرأة واعية ومثقفة وصاحبة رأى وتدبير. وهى مطلعة بشكل ما على مشروع أبيها الثقافى ومهتمة بإنجاحه أيضًا، وهى بالتالى جزء من الحبكة، ولكن الفنانين الآخرين الذين اختارهم إينيشتى، والذين تهددهم سلسلة الجرائم الغامضة التى ابتدأت بمقتل خطاطهم «أنيق» أفندى، ليسوا بنفس درجة حماس الأسود أو شكورة لمشروع إينيشتى، بل إن بعضهم معاد له لأسباب أيديولوجية. وهناك أيضًا السلطانَ مراد الثالث راعى المشروع (حكم ١٥٧٤-١٥٩٥)، الذى لا يريد له أن يُعرف قبل الأوان، بل ربما ألا يُعرف إطلاقًا، لكى يتجنب ردود فعل القوى المحافظة المتمثلة برئيس المحترف، «عثمان» المتعلق بأساليب القدماء، ومجموعة تابعة لواعظ متصوف من شرق الأناضول - موئل الحركات المحافظة فى التاريخ العثمانى والحاضر التركى - تهدد بمعاقبة كل من يتبع المستورد الأوروبى ويترك التقليد الإسلامى فى الرسم وغيره. هذه القوى تتصارع فيما بينها، كل ضمن مجاله، لتخلق مستويات الحبكة المختلفة فى الرواية، ولكى تسمح لباموك بعرض آرائه فى الاختلاف والتضاد والتقارب بين الحضارتين الغربية الأوروبية والشرقية الإسلامية، وهو ما يفعله عمومًا بحنكة ودراية.

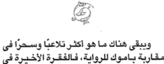


ولكن باموك بالتأكيد ليس روائيًا تقليديًا. وإطار روايته بالتأكيد ليس إطارًا تقليديًا بل هو مبدع ومجدد إلى أقصى حد. بداية هناك الأصوات المتعددة لرواة الرواية والذين قسمت القصة على أساس تبادلهم مهمة السرد إلى تسعة وخمسين فصلاً. هؤلاء الرواة ليسوا فقط الأبطال الواقعيين الذين أدرجنا أسماءهم، مع الأسود وشكورة كشخصيات مركزية، ولكن مخيلة باموك الجامحة تدخل إلى مهمة السرد رواة ما اعتدنا سماع أصواتهم فى القصص. فهناك فى فاتحة الكتاب فصل يقشعر له القارئ، حيث إن الراوى هى جثة «أنيق» أفندى بعد مقتله التى تتنطع بقصة قتله كما أحس بها المجنى عليه لا كما رآها، والتى تبدو مهمومة لكيف سيراها الناس مهشمة الجمجمة ومجرحة الأطراف. وهناك بعد ذلك القاتل الذى لن نعرفه حتى نهاية الرواية، ومن هو أكثر منه بشاعة أو إثارة للخوف بالشكل المجرد، إذ أن كلاً من «الموت» و«الشيطان» يعتليان خشبة السرد ويقدمان فصلاً خاصًا بكل منهما. وبعد ذلك هناك أيضًا كلب وحصان وقطعة نقد، لكل منهم فصله، بالإضافة إلى اللون القرمزى أو الأحمر التى استقت الرواية اسمها منه «اسمى القرمزى»، بما أن كل فصل عنوانه: «أنا الشيطان»، «أنا قطعة نقد» وهلم جرا. ولكن هذه الشخصيات الخيالية أساسًا أو غير الناطقة على أقل تقدير لا تظهر فى الرواية من منطلق واقعها، مهما كان هذا الواقع بعيدًا عن الصياغة التشخيصية، وإنما تظهر من خلال كونها تمثيلاً لهويتها فى لوحة أو فى منمنمة ما يستعملها بعض أشخاص الرواية. أى أن هؤلاء الأبطال الإضافيين ليسوا شخصيات قائمة فى فراغ الرواية الواقعى، وإنما تمثيل فنى لواقعهم مبنى على مصطلحات الفن التصويرى الذى كان يتجاذبه تياران خلال زمن الرواية على ما بناه باموك: التيار التجديدى الواقعى المتأثر بالابتكارات التصويرية الأوروبية والتيار التقليدى المحافظ الذى يعتمد على طرق وأساليب طورت عبر قرون طويلة واكتسبت بذلك شبه قداسة يكثفها باموك بأن يسمى المنظور التقليدى للتصوير الإسلامى، منظور الله، أى أن الفن يسعى لتمثيل العالم كما يراه الله لا كما يراه عبد الله، وهو ما سعت إليه المدارس التصويرية الأوروبية كافة منذ عصر النهضة. ويزيد باموك فى مقارنته الترميزية لأساليب الرؤية والتصوير بين الحضارتين بأن يقترح أن الهدف الأعلى والمرجو للمصورين المسلمين فى المحترف العثمانى وفى التاريخ المتخيل هو أن يصابوا بالعمى لكى يتجنبوا التسميم البصرى الذى تخلفه رؤيتهم للعالم وللأشياء بدلاً من تخيلها كما وعتها بصيرتهم من رسوم الأولين، أى من التقليد، أو من الوحى الربانى، على حين أن الرؤية والتمعن ومقاربة الواقع المنظور هى الأهداف الأساسية للتصوير الغربى الناهض.



هنا بيت القصيد فى مشرع باموك نفسه، فهذا القاص العلمانى سياسيًا والمبدع والمفكر عميق التفكير قرر استعمال هذه الثنائية المتضادة لمقاربة هاجسه الأصلى: كيف يمكن للثقافة التركية المعاصرة أن تنفض العطالة التاريخية الموروثة عن نفسها وتلتحق بالغرب المتقدم من دون أن تفقد أصالتها العظيمة المتمثلة بالإنجازات المتميزة للسلطنة العثمانية ومن دون أن تقطع التواصل مع ماضيها قطعًا باترًا؟ هذا السؤال الذى لازال يشغل بال المنظرين والمجددين النهضويين فى العديد من بلاد العالم الثالث يكتسب حدة خاصة فى تركيا بعد مرور ثمانين عامًا على مشروع كمال أتاتورك التحديثى الذى حاول تدمير كل ما هو عثمانى أو إسلامى، من اللغة إلى المعتقد فالكتابة والمظهر واللباس، وحاول حرق المراحل والقفز على الحواجز وإجبار الأتراك رغمًا عن أنفسهم بالتمثيل بالحضارة الأوروبية، وفشل مع ذلك فى الخروج من قمقم التقاليد وفى الدخول فى آفاق الحداثة الرحيبة كما اشتهى وتمنى لأنه فشل فى فهم الدرس الأول للتاريخ: الناس أبناء تجربتهم ونضالهم وصيرورتهم هم، لا نضال ونظرة وتجربة وصيرورة غيرهم. ثم أتى جيل باموك ليلملم الأشلاء وليعيد صياغة المشروع صياغة جديدة وحساسة ومتماشية مع واقعها وتاريخها، وإن كانت المعوقات الاقتصادية والعسكرتارية والجيوسياسية مازالت تضع العصى فى عجلة هذا المشروع. ويبدو أن باموك قد اعتمد هذه المراجعة كخلفية نقدية لعمله الروائى. وبرأيى أنه نجح فى إدماجها بالرواية من جهة وفى معالجتها نظريًا ونقديًا عبر معالجته المتعمقة والمتفلسفة أحيانًا لمسألة التمثيل التصويرى فى الشرق والغرب التى ينثرها فى مقاطع طويلة خلال الرواية تقدم نظرة شخصية ومتفردة لتاريخ الفن التصويرى الإسلامى، وإن كان أحيانًا يشط فى التنظير وينسى أنه فى خضم رواية تتسارع أحداثها مما يتطلب منه تركيز اهتمامه على السرد.

لم يقدم الفن الإسلامى للثقافة العالمية تعبيرًا أكثر دقة ولطفًا وطرافة مما يسمى تجاوزًا المنمنمات. تلك اللوحات التصويرية الصغيرة والمسطحة شكلاً وتشكيلاً والمليئة بالألوان الفاقعة التى لا تتقاطع أو تختلط على سطح اللوحة أبدًا، والتى تمثل عمومًا مواضيع محددة اقتبس معظمها من ملاحم الشعر الفارسى الوسيط، وإن كان بعضها يمثل وقائع تاريخية حقيقية. هذا الفن الذى اندفع فوارًا فى القرون بين الرابع عشر والسابع عشر ليخلق تراثًا تعبيريًا متفردًا وفذًا يدين بوجوده أصلاً لنمو فئة ذواقة مرفهة رعت مبدعيه واقتنت إبداعهم فى ظل الإمبراطوريات الكبيرة التى شهدها العالم الإسلامى فى فترة ما قبل الحداثة كالمغول والعثمانيين والصفويين. ولكن هذا الفن كان مختلفًا بشكل جذرى عن معاصره الأوروبى فيما يتعلق بطرق التمثيل ودوافعه ونتائجه. فهو لا يروم تمثيل الواقع ولا يسعى لمحاكاة الطبيعة بل ولا يهمه دقة الشبه بين التمثيل والأصل، على عكس الفن التصويرى الأوروبى الذى كان فى تلك الفترة يطور المنظور والظل ودقائق الشبه لكى يصل بالتمثيل إلى أبعد مدى واقعى وطبيعى ممكن. هذا الاختلاف هو عصب النقاشات العديدة فى الرواية وموئل تساؤلات باموك عن إمكانية الموافقة بين الأصالة والحداثة بشقيهما الإسلامى والغربى اللذين يبدو أنهما قد تجمدا اليوم كرمزين على التضاد المطلق الذى لا يمكنه التلاقى. ولعل هذا الفشل الثقافى المحتمل هو السبب الرئيسى وراء نجاح باموك فى سرده: فحرقته وسخريته وتوجسه كلها مشاعر قوية تضفى على الرواية بعدها الإنسانى والعالمى.



ويبقى هناك ما هو أكثر تلاعبًا وسحرًا فى مقاربة باموك للرواية، فالفقرة الأخيرة فى الكتاب تختزل فى أسطرها الثمانية كل معانى القص، وبشكل خاص القص التاريخى. فالأم شكورة تخبرنا أنها أعطت لابنها أورهان، الذى يتميز بمنطقيته فى كل الأمور، كل الوثائق التى فى حوزتها عن قصتها وقصة الأسود على أمل أن يتمكن من صياغتها وتقديمها، مع أنها مقتنعة بأن هذه القصة عصية على التقديم. أى أن شكورة هنا تمنحنا الدليل على أن القصة ذات أساس حقيقى مدعم بالوثائق اللازمة، ككل كتابة تاريخية حقة. ولكنها لا تقف هنا، بل إنها تكمل لكى تضيف البعد الثانى والأهم للقص، الذى يبعده عن الحقيقة ببرودتها وحديتها ويقربه من الخيال بتحرره وسعيه وراء الجمال، أى البعد المتخيل أو البعد الموضوع الذى لا يمت للحقيقة بصلة والذى لا يتطلب إثباتًا أكثر من تأثيره على عواطف ومدارك القارئ. فشكورة التى جمعت فى شخصيتها فى الكتاب بين الجموح العاطفى والأعصاب الهادئة والنظرة الثاقبة تحذرنا نحن القراء من أن نؤخذ بسرد أورهان الذى يقدم لنا نسخًا متخيلة عن حقيقة الأسود وشكورة وشوكت، لأن أورهان على قول أمه فى سبيل الوصول إلى قصة مقنعة ومشهية لن يتوانى عن استعمال أى كذبة ممكنة. ولا أظن أن هناك سبكًا أجمل من هذه الفقرة لماهية القص، أو أن هناك تلاعبًا أكثر حذقًا من تلاعب الكاتب هنا بين دوره هو، أى أورهان باموك، كقاص، ودور أورهان، الشخصية القصصية فى تقديم القصة كلها لنا وجعلنا نستسلم لعالمها بافتتان. ■

هذه القوى تتصارع فيما بينها، كل ضمن مجاله، لتخلق مستويات الحبكة المختلفة فى الرواية، ولكى تسمح لباموك بعرض آرائه فى الاختلاف والتضاد والتقارب بين الحضارتين الغربية الأوروبية والشرقية الإسلامية، وهو ما يفعله عمومًا بحنكة ودراية





دماغ الإنسان
جغرافيا جديدة

فتح الله الشيخ

يكتشف المتتبع لأخبار العلم والتقدم العلمى أن العلماء يضيفون جديدا كل يوم، يؤكدون فيه مقولات وأفكارا ونظريات لهم سابقة أو ينفونها أو يشككون فيها، وقد يضيفون إليها أو يحذفون منها. ويحدث كل ذلك بصورة ديناميكية مكثفة تجعلنا نلهث وراء الأحداث، فلا تسعفنا ذاكرتنا المحدودة ولا إمكاناتنا الذهنية القاصرة فى اللحاق بها. (رحم الله زمانا كان فيه «العالم» يحيط بكل شىء ويتعرض للفتوى فى جميع المسائل). فإذا أخذنا بعض فروع العلم كالبيولوجيا مثلا لوجدنا بها عشرات، بل مئات التخصصات، وكذلك الطب والفيزياء والكيمياء... وهكذا. وقد طلع علينا العلماء فى الأشهر الأخيرة باكتشافات عديدة تتعلق بالمخ البشرى والدور الذى تلعبه المناطق المختلفة داخله فى العمليات الحيوية التى نقوم بها، سواء إراديًا أو لا إراديًا. فقد اتضح أن للكوليسترول فائدة عظيمة فى اتصال وتواصل الخلايا العصبية فى المخ، الأمر الذى يؤثر مباشرة فى عمليات التعلم والذاكرة. كذلك تمكن الباحثون ـ باستخدام الطرق المختلفة لرسم المخ ـ من رصد ودراسة عدة ظواهر مثل روح الفكاهة، والميل للجمال فى الوجوه المحيطة بنا، والفرق بين الذكور والإناث فى استخدام نصفى المخ الأيمن والأيسر، وضبط النفس والتحكم فى العواطف والأحاسيس، والعلاقة بين الموسيقى واللغة والجنس والمراكز المسئولة عن ذلك فى المخ، وربط درجة الذكاء بحجم المادة الرمادية فى المخ، وظاهرة النوم وحاجتنا إليه، وتغريد الطيور والآمال المعقودة على إعادة تكوين الخلايا العصبية، والعلاقة بين الألم والسرور داخل مخ الإنسان، وأخيرا الدور الذى قد يلعبه تدمير أجزاء من المخ فى تحول الإنسان الطبيعى إلى مجرم قاتل.

«جغرافية» جديدة:

تستولى فكرة تحديد موقع لكل شىء داخل الدماغ على جهود الباحثين المتخصصين سواء كانوا من علماء الأعصاب أو علماء النفس أو السلوكيين. وفى هذا الصدد يظهر الجديد كل يوم بفضل التطور الهائل فى تقنيات الكشف والقياس. واكتشاف المواقع المختلفة داخل المخ يفيد كثيرا فى علاج الحالات المرضية المتعلقة بحدوث خلل فى وظائفه، وعلى وجه الخصوص بعد الإصابة بالسكتة الدماغية وتعرض مناطق مختلفة من المخ للدمار الجزئى أو الشامل.

ولنبدأ بالفكاهة والدعابة والتى يبدو أن الجزء الأيمن من الفص الأمامى (الجبهى) من المخ هو المسئول عنها عند الإنسان، وهو الجزء الذى يعلو العين اليمنى مباشرة. وقد اتضح ذلك من الفحص بالرنين المغناطيسى (MRI) للمخ أثناء إلقاء النكات أو متابعة الرسوم المتحركة المضحكة وبمقارنة نشاط الأجزاء المختلفة للمخ.

ومن الطبيعى أن تساعد هذه الدراسات ـ على الرغم من كونها تنصب على الضحك ـ فى تفهم حالات الاكتئاب وغيرها من أعراض الأمزجة المختلة. وتساعد هذه البحوث كذلك فى فهم ما يحدث أحيانا لمن تعرضوا للإصابة بالسكتة الدماغية (stroke) ونجوا منها، حيث يفقد بعضهم الإحساس بالدعابة وتختل أمزجتهم وتتغير شخصياتهم. ومن الطريف أن الجزء من المخ المسئول عن التحكم فى الأمور الاجتما عية والعاطفية والتخطيط هو نفسه المسئول عن الإحساس بالدعابة والفكاهة.

وقد أُجريت أربعة اختبارات على ١٣ متطوعا تعرضوا أثناءها لمثيرات متنوعة للضحك، وقام فريق البحث من جامعة «روتشيستر» بتسجيل صورة الرنين المغناطيسى (MRI) للمخ. ومع أن الهدف من الضحك عند الإنسان ليس معروفا حتى الآن، على الرغم من مرور أكثر من ٢٠٠٠ سنة من المحاولات المستمرة، إلا أن الإحساس بالدعابة يعتبر أحد مفاتيح الشخصية ويمكن أن يلعب دورا قويا فى مواجهة الأحاسيس السلبية مثل «الرهاب». ومن المعتقد أن دراسة وفهم الأحاسيس الإيجابية سيساعد كثيرا فى فهم المخ البشرى تماما مثل دراسة الأحاسيس السلبية.

وهناك كشف «جغرافى» آخر داخل المخ يربط بين ثلاثة أشياء هى المال والكوكايين والوجه الحسن، فما هو الشىء المشترك بينها؟ ربما يكون هناك شىء ما يربط بين هذه الثلاثة، وعلى الأخص لو سألنا الشباب. فقد ثبت أن رؤية وجه امرأة جميلة يثير رد الفعل نفسه فى المخ مثل الكوكايين أو كسب المال. وفى تجربة مثيرة قامت مجموعة من الباحثين من المستشفى العام فى «ماسيتشوسيتس» بعرض صور لحسناوات على ١٠ من الرجال (الطبيعيين جنسيا) تتراوح أعمارهم بين ٢١ و٢٨ سنة اكتشف بعدها فريق البحث أن الجمال يثير المراكز نفسها فى مخ الإنسان التى يثيرها تعاطى الكوكايين أو اكتساب المال.

تضمنت التجارب تعرف الباحثين على الوجوه التى يفضلها الرجال المتطوعون ويُسَرُّون بمشاهدتها. وقد عرضت ٨٠ صورة مقسمة إلى أربع مجموعات من الوجوه: رجال متوسطو الوسامة، ورجال يتميزون بالوسامة، ونساء متوسطات الجمال، ونساء جميلات. ورتبت الوجوه فى مستويات من ١ إلى ٧ وقد طلب من المتطوعين أن يقوموا بالضغط على زرٍّ يسمح لهم بمشاهدة صور الوجوه التى يفضلونها أكثر من غيرها. جاءت النتائج لتؤكد أن الأفضلية فى ترتيب الصور كانت للوجوه الجميلة سواء كانت للرجال أو للنساء. وقد بينت نتائج الاختبارات أن الرجال يبذلون أقصى ماعندهم لمشاهدة وجوه النساء الجميلات، فعلى مدى ٤٠ دقيقة كان متوسط عدد مرات الضغط على الأزرار ١٥٠ مرة فى الدقيقة (!). ومن الطريف أنه المعدل نفسه الذى تضغط به الفئران الأزرار للحصول على الكوكايين. ومغزى هذه النتائج هو أن صور الوجوه الحسناء لها نمط التأثير نفسه الذى للكوكايين أو الطعام أو اكتساب المال.

ويعلق علماء السلوك آمالا عريضة على دراسة ردود الأفعال فى مخ الإنسان تجاه الجمال، فما زال الجدل محتدما حول ماهية الجمال، وهل هو مفهوم فطرى أم مفهوم يصوغه المجتمع ؟ وقد سبق أن أظهرت تجارب أجريت على مواليد من عمر أسبوع واحد أنهم يفضلون الوجوه الجميلة على الوجوه متوسطة الجمال، الأمر الذى يشير إلى أن الجمال مبرمج فى عتاد أدمغتنا. لكن البعض ما زال يجادل ويدفع بأن الجمال مفهوم أو بنية اجتماعية صِرْفة نتعلمها من ظروفنا وبيئتنا، كما جاء فى كتاب «ناعومى وولف Naomi Wolf الشهير» أسطورة الجمال (The Beauty Myth) ويدعو البعض إلى نبذ التفكير فى الأشياء بمنطق الأساطير والخرافات، وأن علينا استخدام أدوات علم الأعصاب لتحليل وفهم كيفية أداء الأشياء لوظائفها.

وتعتبر مراكز ردود الأفعال فى المخ البشرى، والتى تتضمن مناطق مثل (متكئات النواة nucleus accumbens) و(اللوزة amygdala) و(اللحاء أو القشرة) cortex و(الأدمة البطنية) ventral tegmentum وغيرها، من مخلفات التطور التى ورثناها عن الزواحف، وقد ارتبطت بطيف عريض من الخلل السيكولوجى الذى يمتد من الإدمان وحتى الاكتئاب.

هذا هو المخ البشرى الذى نسعد ونشقى به فى صراعنا الأزلى من أجل الحياة، فهل يستخدمه الرجال والنساء بنفس الكيفية ؟ وهل كان الفلاسفة الأولون على حق وبصيرة بتفريقهم بين «عقل» الرجل و«عقل» المرأة ؟ تشير الأبحاث الحديثة إلى أن الأولاد والبنات تحت سن البلوغ يستخدمون أجزاء مختلفة من المخ عندما يسلكون طريقهم فى الحياة. وتبين هذه الأبحاث أن البنات لايتعرفن بشكل أفضل على التغيرات الطفيفة فى تعبيرات الوجوه فقط. بل اتضح أن الجنسين (الأولاد والبنات) يتعاملان مع التعبيرات والتغيرات التى تطرأ عليها بطرق مختلفة. فبينما يتمكن الأولاد والبنات من التعرف على تعبيرات الوجوه بنفس الدرجة، إلا أن الأولاد يستخدمون النصف الأيمن من المخ أكثر، فى الوقت الذى تستخدم فيه البنات النصف الأيسر أكثر، ومن المعروف أن النصف الأيمن من المخ يتعامل مع أشياء خاصة مثل الهيئة أو المظهر وهو المسئول عن إدراك الموقع واستيعاب المعلومات الجغرافية. ومن المحتمل فى ظل هذه النتائج أن يكون تعرف الأولاد على الوجوه مقصورًا على النصف الأيمن بينما يتعرف البنات على الوجوه بطريقة أكثر تدقيقا، ولذا فالبنات قد يكن الأفضل إذا قمن بالمفاضلة الدقيقة بين التعبيرات المختلفة على الوجوه.



وقد أظهرت هذه الدراسات أن المخ مرتب بطريقة مختلفة عند البنات والبنين قبل سن البلوغ، كما أن الدراسات السابقة كانت قد أكدت وجود اختلافات فى طريقة ترتيب المخ عند الرجال والسيدات البالغين. تضمنت الدراسات عرض صور للوجوه على الأطفال بواسطة جهاز عرض مع تسجيل موجات المخ كهربيًا (electroencephalograph) أثناء ذلك. وقام فريق البحث بقياس دقة الأطفال فى تحديد التعبيرات العاطفية على الوجوه فى هذه الصور والزمن الذى يستغرقونه فى ذلك. وقد اتضح ارتباط نشاط نصف المخ الأيمن عند الأولاد بدقة أدائهم لهذه المهمة (تحديد تعبيرات الوجوه)، بينما لايحدث ذلك عند البنات. فالبنات قد يستخدمن أنظمة عصبية مختلفة ومتداخلة لإتمام المهمة. فهل يعنى ذلك أن البنات أذكى أو أمهر من الأولاد؟ كلاً، كل ما فى الأمر أنهن يتعاملن مع العالم المحيط بهن بطريقة مختلفة. وطريقة البنات فى التعرف على تفاصيل التغيرات الدقيقة فى تعبيرات الوجوه قد تكون هى الأفضل، مما يعنى أن لهن مقدرة أكبر على قراءة الوجوه.

ولعل أحد أهم التطبيقات العملية لهذه الدراسات هو تركيز العلاج على مناطق مختلفة من المخ وبطرق مختلفة عند الرجال عنها عند النساء فى حالة تعرضهم للإصابة بالسكتة الدماغية. فإذا أمكننا



هل كان الفلاسفة الأولون على حق وبصيرة بتفريقهم بين «عقل» الرجل و«عقل» المرأة؟



معرفة أوجه الخلاف بالضبط بين الرجال والنساء في أداء وظائف المخ، إذا تمكنا من مساعدة ضحايا السكتة الدماغية الذين يعانون أحيانا من مشكلة التعرف على الناس وتعبيرات الوجوه. ويخطط الباحثون الآن لدراسة عملية التعرف على الوجوه بين البالغين للتيقن مما إذا كانت العمليات نفسها تحدث في مخ الرجال والنساء أم لا.

ومن أحدث الكشوف الجغرافية في تلافيف وثنايا المخ البشرى ما طلع علينا به مجموعة من الباحثين من جامعة مونتريال في كندا حيث تمكنوا من تحديد الموقع المسئول عن الاعتدال في السلوك، بمعنى التهذيب، وضبط النفس والتحكم فيها داخل المخ. وقد أجروا تجاربهم على مجموعة من الرجال أثناء مشاهدتهم لأفلام جنسية، فاكتشفوا منطقة في مقدمة المخ مسئولة عن التحكم في عملية الإثارة الجنسية وكبحها في أكثر أشكالها بدائية. طلب فريق البحث من أكثر من عشرة متطوعين من الرجال أن يطلقوا العنان لأحاسيسهم أثناء مشاهدة مناظر جنسية مباشرة دون محاولة ضبط أو تقييد هذه الأحاسيس. وباستخدام التصوير بالرنين المغناطيسي اكتشف الفريق أن المركز المسمى «المخ العاطفي أو الانفعالي» emotional brain قد نشط عند الرجال المتطوعين. طلب فريق البحث بعد ذلك من الرجال مشاهدة المناظر الجنسية نفسها لكن مع ضبط النفس والتحكم في الأحاسيس ما أمكن، وذلك بمحاولة الانفصال عما يشاهدونه. وقد اتضح من هذه التجارب أن بعض مناطق المخ، وهي اللحاء الجبهي prefrontal cortex قد نشطت عند إظهار المتطوعين لضبط النفس والتحكم في رد الفعل.



من المعروف أن الفص الجبهي هو أحدث الأجزاء التي ظهرت أثناء مسيرة تطور الجهاز العصبي. فالشمبانزي تمتلك فصا جبهيا في المخ، لكن حجمه لا يتعدى ٢٥٪ من حجمه عند الإنسان. وبذلك فإن التحكم وضبط النفس في ردود الأفعال - فيما يتعلق بالجنس - يتم بواسطة عضو فريد خاص بالرئيسيات (منها القردة العليا الشمبانزي والغوريلا والأورانجوتان والجابون) لكنه متطور جدا في الإنسان. وربما يكون لظهور خاصية المقدرة على التحكم وضبط النفس في العواطف والأحاسيس تطبيقات واسعة، فقد تستخدم لمواجهة أنواع من الخلل السيكولوجي مثل الاكتئاب والاستثارة، وهي أمور ترتبط بعدم قدرة المريض على الانفصال عن التفكير في الحزن والقلق في نفسه.

عن الموسيقى والحب

اكتشف العلماء مؤخرا أن أنغام الموسيقى تثير أو تنشط المناطق نفسها التي يثيرها الطعام والجنس في مخ الإنسان. فالناس يستخدمون الموسيقى لتساعدهم في التغلب على الأحزان والرهبة، وهي تثير مراكز في المخ تجعلهم يشعرون بالسعادة استخدم الباحثون في دراسة هذه الظاهرة نوعا من رصد أو تصوير المخ يسمى «توموجرافيا انبعاث البوزيترون» PET أو التصوير الطيفي، ليحددوا المناطق التي تُستحث بواسطة الموسيقى. وقد صرح المتطوعون الذين خضعوا للتجارب بأن صدح الموسيقى كان يبعث بقشعريرة في العمود الفقاري لهم.

وجد العلماء أن كثيرا من مناطق أو مراكز المخ التي تنشط بالطعام أو الجنس هي نفسها التي تنشط بالموسيقى. وكانت دراسات سابقة قد أشارت إلى ارتباط الأجزاء الوسطى والبطنية من التراكيب المخية وكذلك أجزاء من اللحاء بالجنس والطعام. غير أن هذه الدراسة الحديثة بينت وجود رد الفعل نفسه في المناطق نفسها تجاه الموسيقى عند جميع المتطوعين العشرة الذين خضعوا للاختبار. وعندما كان هؤلاء المتطوعون يستمعون للموسيقى التي تبعث فيهم القشعريرة كانت صور المسح المخي تُظهر نشاطا في أجزاء المخ التي يثيرها الجنس والطعام.

ومن جهة أخرى، توصل علماء معهد ماكس بلانك لعلم الأعصاب المعرفي بمدينة لايبزج بألمانيا إلى الارتباط القوى بين مقدرة التعرف على النغمات الموسيقية الجيدة وإجادة اللغة، فقد وجدوا أن المنطقة من المخ التي تتعامل مع القوانين المعقدة للغة هي نفسها التي تساعد في التعرف على جودة النغمات الموسيقية. وقد تساعد هذه الاكتشافات في الإجابة عن السؤال المحير: هل يتعلم الأطفال قواعد الموسيقى في السنوات الأولى من عمرهم أم أن هذه القواعد قد طُبعت في مخهم قبل ولادتهم؟ وعموما فإن الموسيقى العادية محكومة بمجموعة من القوانين قريبة الشبه بالقوانين التي تحكم بنية الجُمل اللغوية.

وقد قام علماء معهد ماكس بلانك بقياس المجال المغناطيسي وذلك بتصوير المخ كهرومغناطيسيا (Magnetoencephalography) أثناء استماع ستة من المتطوعين لم يدرسوا الموسيقى قط إلى خمس نغمات متتالية دون فاصل زمني. وقد وجد الفريق أن منطقة من المخ اسمها: منطقة بروكا (Broca's area) تظهر ردود أفعال مختلفة اعتمادا على ما إذا كانت النغمات تمثل موسيقى حقيقية أم موسيقى زائفة.

ومن الحب واللغة والموسيقى إلى مزج الألم والسرور في مناطق المخ البشرى المسئولة عن ذلك. فقد اتضح مؤخرا أن أجزاء المخ التي تنفعل تجاه الإحساس بالسرور والغبطة هي نفسها التي تنفعل بالألم. وربما يؤدي هذا الاكتشاف إلى تفهم أفضل لتاثيرات الألم داخل المخ، وبالتالي إلى ارتياد طرق جديدة في تشخيص

وعلاج الألم. والألم، كما يقول الدكتور بورسوك من المستشفى العام فى «ماسيتشوسيتس»، خبرة متراكبة معقدة تتضمن كلا من الحس والمشاعر. فإذا فهمنا المكون الشعورى للألم فإننا قد نتمكن من تطوير طرق جديدة لمساعدة مرضى الألم المزمن، والذين هم معرضون أكثر من غيرهم لاحتمالات الإصابة بالتعصب (الحصرى) والاكتئاب والرغبة فى الانتحار.



وقد استخدمت وسائد حرارية ملتصقة بأيدى ثمانية من المتطوعين الشباب، كانوا يتعرضون للتسخين الهين والتسخين الشديد (الذى يحدث الألم) ثم انقطاع التسخين بالتناوب، فى الوقت الذى كان يجرى فيه تصوير مخ كل منهم بتقنية «التصوير الأدائى (الوظيفى) بالرنين المغناطيسى» Functional Magnetic Resonance Imaging (fMRI)، مع التركيز على مناطق معينة فى المخ سبق تحديدها لأنها تتضمن خبرة الإحساس، وكذلك على مناطق ثبت من الدراسات السابقة أنها تنشط بالعوامل التى تُدخل السرور على النفس مثل الكوكايين والطعام والمال. وقد بينت نتائج الدراسات أن درجات الحرارة المرتفعة تنشط الدوائر التقليدية الخاصة بالألم، وتقوم كذلك بتنشيط بعض المناطق التى كانت معروفة بأنها مناطق الانفعالات السارة. وقد اتضح أثناء إجراء الاختبارات أن ردود أفعال دوائر الألم فى المخ أبطأ من ردود أفعال دوائر السرور، فقد نشطت دوائر الألم قرب نهاية فترة التسخين فقط. ومن الطريف أن هذين النظامين لم يرتبطا قط فى الماضى، وهذه أول مرة نجد فيها أن شيئا مبغوضا أو مكروها يثير دوائر وبنية السرور فى المخ. ويبدو أن بعض الفلاسفة كانوا على صواب عندما قالوا بأن «السرور والألم أجزاء من طيف واحد للأحاسيس والمشاعر» وقد تبعث مثل هذه الاكتشافات الأمل فى تطوير علاج بديل للألم لا يتضمن أدوية أو عقاقير، وقد تساعد الذين يعانون الألم بشكل مزمن على التحكم فى درجة احتمالهم له.

وتاخذنا الطيور المغردة إلى آفاق لم نكن نحلم بها من قبل، فهذه الطيور بالتحديد قد تسببت فى اكتشاف ظاهرة غريبة. فقد اتضح أن مخ الكنارى قادر على إعادة إنبات الخلايا العصبية (العصبونات) التى تتلف فى المخ، الأمر الذى كان يعد مستحيلا حتى الآن. اكتشف العالم «فيرناندو نوتيبوهم» من جامعة روكفلر بنيويورك أنه إذا أعطى أنثى الكنارى جرعة من التستوستيرون فإنها ستبدأ فى التغريد مثل الذكر، ذلك لأنها أنبتت عصبونات جديدة فى «مركز الغناء الأعلى» High Vocal Center (HVC) والذى ازداد حجما بتناول هرمون الذكورة (التستوستيرون). وقد اتضح أن مواسم التغريد عند الطيور عموما تتطابق مع مواسم نمو وتلف مراكز الغناء العليا (HVC).

ويكاد هذا الأمر أن يكون من الخيال العلمى حيث إنه من المفروض ألا يقوم المخ ببناء (إنبات) ما يتلف من الخلايا العصبية. فوجهة النظر السائدة والمعترف بها حتى هذه اللحظة هى أننا نولد بجميع عصبوناتنا التى يمكن أن نحصل عليها بلا زيادة، فإذا تعرضت هذه الخلايا للتلف أو الدمار فإننا لا نستطيع تعويضها أبدا، وعلينا أن نحيا بما يتبقى منها. فإذا اكتشفنا الطريقة التى تنبت بها الطيور المغردة عصبونات جديدة، فقد نتمكن من علاج الأمراض المرتبطة بتلف وموت الخلايا العصبية (مرض باركنسون مثلا).



لماذا نحتاج إلى النوم؟ ولماذا يتحول البعض إلى قتلة ومجرمين؟ وهل نتوارث الذكاء؟

يقول كريستوفر نيوتن، المحرر العلمى لوكالة «أسوشيتد برس»: «عندما يتصارع العقل البشرى مع المعضلات فى لحظات التماس بين الحلم واليقظة، فإنه يأخذ الحقائق والذكريات والعواطف والانطباعات ويضمها معا ويفعل بها كما نفعل بالصور المتقطعة عندما نحاول إعادة تجميعها، وقد يأخذ المخ الحالمين أثناء نومهم على موجة شاطئية من الخوف والأمل تحملها العواطف والأمانى المكبوحة». ويختلف العلماء اليوم اختلافا شديدا حول فهم أسباب النوم والأحلام عند الإنسان. ويؤكد الخبراء أن النتائج والاستنتاجات المتباينة فى ما ينشر حول هذا الموضوع ما هى إلا دليل على أن القليل فقط هو المعروف عنه. وقد توصل بعض الباحثين إلى أن المخ يعمل بجد أثناء النوم «لإعادة ترتيب المعلومات فى صورة تساعدنا على فهمها، فالعالم الذى تحيا فيه على درجة عالية من التعقيد، والمخ لا تكفيه ساعات اليقظة لإنجاز مهمة فهم هذا العالم، لذا فهو - أى المخ - يستعين بساعات النوم أيضا».

وعلى العكس من ذلك تماما، يؤكد باحثون آخرون أنهم قاموا بتحليل عشرات النتائج والبيانات حول العلاقة بين الأحلام والمخ والنوم والتعلم، فلم يجدوا دليلا على أن المخ يقوم بعمل أى شىء مهم أثناء النوم. ومنذ القدم تتباين الآراء حول ما يحدث عندما ننام ونحلم، فقد كان الناس قديما يعتقدون أنهم يتصلون بأسلافهم عندما يحلمون، أما اليوم فتظهر نظريات تقول بأن المخ يعمل بجد أثناء النوم. ولا توجد أدلة قاطعة على صحة أية نظرية من كل ما قيل عن النوم والأحلام.

وقد جاءت نتائج التجارب التى أجريت على متطوعين لتزيد من الجدل والتباين فى الآراء. فعندما قسم «ستيكجولد» المتطوعين إلى قسمين، سمح لقسم منهما بالنوم العميق حتى الوصول إلى REM أو نوم حركة العين السريعة rapid eye moveme وحرم القسم الآخر من النوم، وجد أن القسم الذى تمتع بالنوم كان أداؤه أفضل تجاه إيجاد حلول للمشكلات. فسر «ستيكجولد» ذلك بأن جزءًا من المخ يستخدم قسما صغيرا من الذاكرة ليصوغ منها الأحلام بينما ينشغل جزء آخر من المخ بمعالجة المعلومات الجديدة ووضعها فى نظام معين ليتمكن المخ من فهمها. غير أن «جيروم سيجيل» من مركز أبحاث النوم بجامعة هارفارد يرى عكس ذلك، فالمتطوعون الذين حرموا من النوم يعانون من ضغط أو توتر (stress)، الأمر الذى يجعل أداءهم أسوأ أو أقل كفاءة. وتسلك الحيوانات السلوك نفسه إذا حرمت من النوم، لكنها عندما حرمت من النوم العميق (REM) نوم حركة العين السريعة - فإن أداءها لم يتأثر. وينقسم العلماء بين مؤيد ومعارض لآراء ونظريات «ستيكجولد»، لكنهم جميعا يرصدون تحسن الأداء بعد ليلة نوم هادئ، ويتفقون على أن الحرمان من النوم أمر غير صحى.

وإذا تركنا النوم وأسبابه إلى ما يحدث للمرء عندما يتعرض جزء من مخه للدمار، فإننا سنجد «جوناثان بينكوس» رئيس قسم الأعصاب بمستشفى واشنطن لقدامى المديرين والأستاذ بجامعة جورج تاون، سنجده يؤكد فى أحد كتبه أن جميع القتلة الذين فحصهم يتمتعون بصفات مشتركة. فقد اتضح أن ١٠٠ قاتل من ١٥٠ خضعوا للفحص يشتركون فى ثلاثة أشياء : وجود مرض عقلى (ذهنى)، ووجود تهتك أو دمار فى بعض أجزاء المخ، والتعرض للاغتصاب بشكل أو بآخر فى الطفولة. أما الخمسون الآخرون فيشتركون فى اثنين من هذه الأمور الثلاثة على الأقل. ويلاحظ «بينكوس» أن اختبارات الذكاء I.Q. ليست اختبارات شاملة لجميع أجزاء المخ، لأنها فى الواقع لا تصلح إلا للأجزاء الخلفية من المخ، أما الأجزاء الأمامية فالحكم عليها بواسطة اختبارات الذكاء ليس بالجودة نفسها. والأجزاء الأمامية هى مكمن التشوهات العصبية عند القتلة والمجرمين، وعادة ما تصاب الفصوص الأمامية بدمار جزئى أثناء الحوادث (حوادث السيارات) أو عند السقوط أو الضرب على الرأس.



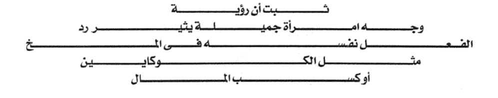
ولا يشعر معظم مرتكبى الجرائم بأنهم على خطأ، وهم يعرفون أنهم مخطئون، لكنهم لا يشعرون أو يحسون بذلك (يعرفون ولا يشعرون). ويروى «بينكوس» مثالا نموذجيا على ذلك، فأحد مرضاه يعمل طبيبا وقد أجريت له عملية جراحية لإزالة ورم من الفصوص الأمامية للمخ، مع ما يتبع ذلك من دمار لهذه الفصوص. وقعت لهذا المريض ثلاث حوادث أثناء قيادته لسيارته جاءت كلها نسخة مكررة من بعضها. تبدأ الحادثة بوجود حاجز على الطريق السريع لا بد من التوقف أمامه أو الالتفاف حوله، لكن الرجل يواصل قيادته لسيارته بالسرعة نفسها حتى يصطدم بالحاجز. إنه يعلم جيدا أن الاستمرار فى السير خطأ لكنه لا يستشعر هذا الخطأ ولا خطورته. وفى مثال آخر قام أحد الأشخاص باغتصاب ابنته بالتبنى وهى فى الخامسة من عمرها بعد أن تعرض لحادث سيارة أدى إلى تدمير الفصوص الأمامية للمخ. ولم يشعر هذا الرجل بأية غضاضة أو ندم، بل اعتبر أن الصحافة والتلفزيون يهولان من الأمر كعادتهما. ولم يكن التدمير الجزئى للفصوص الأمامية فى المثالين السابقين هو السبب الوحيد للتحول الذى أصاب الرجلين، فقد تبين أن أحدهما يعانى من مرض ذهنى وكان عرضة لما يمكن أن يفهم منه أنه اغتصاب فى طفولته. أما الآخر فقد تعرض للاغتصاب من والديه وهو طفل صغير.

أثارت نتائج هذه الدراسات الكثير من الجدل حول أمور حيوية عديدة. فقد أثارت التساؤل عن مكمن الأخلاق والذوق، وعن مسئولية مرتكبى الجرائم الكبرى (إذا سلمنا بأنهم مرضى) وهل يجب محاكمتهم ومعاقبتهم؟، وعن الدعوة لتوقيع الكشف الطبى والنفسى الشامل على مرشحى المناصب العليا حتى لا يبتلينا القدر بأمثال هتلر أو موسلينى..... والقائمة تطول. ويؤكد العلماء أن الأخلاق والذوق مقرهما المخ، لكن أين بالضبط؟ لا يستطيع أحد أن يدعى معرفة ذلك. أما الذكاء والميل لارتكاب الجرائم فأشياء ما زالت قيد البحث والجدل والخلاف بين العلماء وغير العلماء.

وقد أثبتت إحدى الدراسات أن حجم أماكن معينة من المخ البشرى يخضع لعوامل الوراثة، وأنه كلما ازداد حجم هذه الأماكن كلما ارتفع مستوى الذكاء عند الإنسان، ورغم أن هذه الاكتشافات حقيقة واقعة إلا أنها تحمل الطابع الإحصائى الصرف، أى أنها تصدق فقط فى تناولنا للمتوسطات ولا تصلح للحكم على الأفراد، مثلها فى ذلك مثل متوسط العمر المتوقع الذى هو قيمة معروفة بالضبط لكل مجتمع لكنه لا يمكن أن يصلح لتوقع عمر الأفراد. ومن المعروف أن قياس مستوى الذكاء ودور عوامل الوراثة والبيئة فى تحديده كان وما زال محل جدل وخلاف بين المتخصصين. وقد قابل العلماء اكتشاف العلاقة بين الذكاء وحجم بعض الأماكن فى المخ ودور العوامل الوراثية فى ذلك بشتى التعقيبات، فقد قال البعض بأن مناطق فى المخ يسودها التأثير الوراثى، بينما قال آخرون أن وجود ارتباط قوى بين حجم مناطق معينة فى المخ والذكاء يجعل من الذكاء أمرا حقيقيا وليس «عبثا» كما يحلو للبعض أن يصوره. وقد استخدمت تقنية التصوير بالرنين المغناطيسى (MRI) فى هذه الدراسة، وهى تقنية تمكننا من التمييز بين المادة الرمادية والمادة البيضاء فى المخ الحى. وتتكون المادة الرمادية من خلايا المخ بينما تتشكل المادة







البيضاء من خطوط الاتصال التى تتواصل بواسطتها الخلايا مع بعضها.



ويتكون المخ البشرى من عدة وحدات تقوم كل منها بمهام منفصلة، فيقوم الفص الجبهى (الأمامى) مثلا بالتخطيط والتعامل مع المجازفات، بينما تتولى المناطق الخلفية مهمة الإبصار...وهكذا. وقد حاول العلماء أن يكتشفوا التأثير الوراثى على الحجم النسبى لكل وحدة من وحدات المخ، فقام فريق بحثى من جامعة كاليفورنيا بقيادة الدكتور بول طومسون - رائد رسم تراكيب المخ - بدراسة حجم هذه الوحدات فى التوائم. استعان الدكتور طومسون بزملاء من فنلندا، حيث تحتفظ الدولة بسجلات وطنية للتوائم. وقد تم مسح مخ التوائم المتطابقة وغير المتطابقة وقياس حجم وحدات المخ عندهم. ومن المعروف أن الخواص التى تخضع لعوامل الوراثة لا تظهر أى اختلاف يذكر بين التوائم المتطابقة لأن لهم نفس الجينات.

اتضح من الدراسة التى قام بها الدكتور طومسون وفريقه أن كمية المادة الرمادية فى الفصوص الأمامية للمخ تخضع تماما للعوامل الوراثية، كذلك اتضح أن هناك منطقة أخرى بجوار النصف الأيسر للمخ، اسمها «منطقة فيرينيك» (Wernick's area) تخضع لعوامل الوراثة، وهى المنطقة التى تلعب دورا محوريا فى العمليات المرتبطة باللغة. ويحدد الدكتور طومسون الهدف من وراء الدراسة بأنه اكتشاف الجينات المسئولة عن الأمراض العقلية التى يمكن أن تنتقل بالوراثة مثل الشيزوفرانيا والتوحد (Autism) لكنه كان يهدف أيضا هو وفريقه إلى فهم دور الوحدات المختلفة للمخ فى الأفراد الأصحاء، ولذلك فقد قام بإجراء اختبارات الذكاء على الأشخاص المتطوعين، واكتشف أن مستوى الذكاء يرتبط بوضوح بكمية المادة الرمادية فى الفصوص الجبهية (الأمامية) للمخ.

كانت هذه الاكتشافات أول خرائط تبين درجة تحكم العوامل الوراثية فى بنية المخ. ومع أن الاختبارات قد أُجريت على عشرة أزواج من التوائم المتطابقة وعشرة أزواج من غير المتطابقة، إلا أن ذلك كان كافيا للمعالجات الإحصائية وللتوصل إلى الارتباط بين العوامل الوراثية وبنية المخ. وقد أبدى صاحب البحث والدراسة نفسه (طومسون) استغرابه لوجود ارتباط بين كمية المادة الرمادية فى الفصوص الأمامية للمخ وبين مستوى الذكاء :«من الصعب تخيل أن يقوم شيء فى بساطة المادة الرمادية بالتأثير فى شيء فى درجة تعقيد الذكاء»، غير أن كمية المادة الرمادية، والتى تدل مباشرة على عدد خلايا المخ، قد تعكس ما يدل على الذكاء مباشرة (فى صورة عدد الارتباطات بين الخلايا العصبية فى المخ). لكن البعض يرى أن الأمر قد يكون على العكس، فقد يقوم بعض الناس من ذوى المهارات العالية بتشغيل المخ بصورة أكبر مما يؤدى إلى تطوير كثافة أعلى من العصبونات.

وتزداد فرص استخدام طرق مسح المخ للتعرف على عناصر الشخصية والسلوك عند الأفراد، وذلك بتطوير دراسات رسم المخ وتحسينها، الأمر الذى سيجعل هذه الطرق أكثر دلالة حيث ستحمل معلومات أدق وأكثر. وسيثير هذا الأمر موضوع الخصوصية مرة أخرى تماما كما فعلت الاختبارات الجينية، ولذا وجب حماية خصوصية دراسات تصوير وخرطنة المخ بالطريقة نفسها التى طبقت فى حالة الاختبارات الجينية. ويجمع العلماء والمتخصصون ورجال الفكر والثقافة على أنه يجب ألا تستخدم طريقة تعيين حجم المادة الرمادية كمقياس لتحديد ذكاء الأفراد، كما لا يجب أن تستخدم المتوسطات الإحصائية التى تقاس للمجموعات البشرية للحكم أو لمقارنة ذكائها مع بعضها البعض. وسيكون أمرا فى غاية السوء أن تستخدم تقنية تطورت لمواجهة المرض فى مثل هذه الأهداف اللاإنسانية.



وفى مواجهة الآراء التى ذكرناها عن دور عوامل الوراثة المحدد فى بنية ونشاط المخ، ظهرت مؤخرا دراسات وبحوث تشير إلى إمكانية تخطى عقبة الوراثة عن طريق التدريب الموجه، فقد أثبت عالم الأعصاب «ميرزنيتش» أن الأطفال المعاقين لغويا يمكنهم التعلم. وقد أوضحت الصور المأخوذة بالتقنيات المتقدمة أن التدريب باستخدام ألعاب الكمبيوتر التعليمية يؤدى إلى تغيرات فيزيائية فى المخ. ويعتقد «ميرزنيتش» أنه إذا كان التدريب قادرا على التغلب على الإعاقة اللغوية، فلماذا لا يكون قادرا على التغلب على إعاقات أخرى أشد مثل التوحد (Autism) والشيزوفرانيا؟ فمثل هذه الإعاقات ليست أمراضا موروثة بل هى ضعف موروث فى المخ، قد يصبح إعاقة إذا نحى المخ منحى خاطئا، الأمر الذى فى الإمكان دفعه فى الاتجاه العكسى - أى إزالة الإعاقة عنه.

ويتفق علماء الأعصاب اليوم فى شبه إجماع على أن : « لدانة (plasticity) المخ»، والتى تتمثل فى التغيرات المستمرة التى تمكننا من تعلم أشياء جديدة كل يوم، قد تحيد أو تنحرف خارج نطاق التحكم فتسبب خللا كنا نعزوه فى السابق للعوامل الوراثية فقط (الجينات السيئة). ويمكن اعتبار المخ كمبيوتر طيعًا لدنًا، لا يحتوى الكثير من العتاد (hardware) عند الميلاد، لكنه يعمل ببعض البرامج (software) ومع التعلم يتغير المخ فيزيائيا، ومع التغير تزداد إمكانية التعلم فيستمر التغير الذى يفضى إلى مزيد من التعلم...فالتغير... فالتعلم.. وهكذا تطور مستمر يصنع خبرتنا الحياتية. ولو أخذنا عملية الإبصار كمثال لوجدنا أن الأطفال حديثى الولادة لايكادون يبصرون أو يشكلون صورة العالم الذى يحيط بهم. لكن مع مرور الزمن تعمل الرسائل التى تنطلق من الأعين عملها فى تكوين وضبط دوائر الإبصار فى المخ إلى أن يتمكن الأطفال من الرؤية الطبيعية. وقد بينت التجارب التى أجريت على القردة أن الاعتماد فى الإبصار على عين واحدة (بحجب الأخرى) تجعل المخ يعيد ترتيب دوائر الربط الخاصة بالإبصار بحيث يلغى الإشارات القادمة من العين المغلقة.

ولا تحدث عمليات إعادة الترتيب فى وحدات المخ المختلفة للأطفال فقط. ففى الفئران البالغة اتضح أن أعداد الخلايا العصبية التى ينالها التغيير (بالنمو فى الحجم والترابط مع الخلايا الأخرى) فى المخ ضئيل فى حالة الفئران المحبوسة فترات طويلة فى أقفاصها. أما أعداد الخلايا التى تتعرض للتغيير فى الفئران البالغة الطليقة (التى تكتسب خبرة أكبر وتتعلم أكثر) فهى أكبر كثيرا. ويحدث الشيء نفسه فى الإنسان، فقد لوحظ أن المزيد من التدريب والخبرة عند الموسيقيين يزيد من حجم ودرجة تعقيد المناطق من المخ المسئولة عن الموسيقى(!). إلا أن صدعا أو خللا جينيا فى الانتظام العام قد يدمر أو يفسد الدوائر المسئولة عن بعض العمليات فى المخ. فبعض الناس المعاقين لغويا يعانون من مشاكل فى القراءة، ولا يرجع ذلك لضعف إبصارهم ولكن لأن المخ لا يتعامل مع الأصوات بشكل دقيق.

وقد قامت بعض المختبرات بتصميم ألعاب تعليمية على الكمبيوتر لإعادة تدريب وترتيب مناطق المخ المسئولة عن الأصوات. وتبدأ اللعبة بإطالة زمن التعرف على الصوت ثم يبدأ هذا الزمن فى النقصان كلما تمكن الطفل من التعرف على الصوت فى زمن أقل حتى يصبح زمن التعرف عاديا. وقد أظهر تصوير المخ بالرنين المغناطيسى (MRI) بعد ٦٠ ساعة من التدريب أن اللحاء السمعى (auditory cortex) قد أصبح عاديا أو أقرب إلى العادى. وأظهرت الاختبارات أن الأطفال الذين يمارسون التمرين على هذه الألعاب أصبحوا يتعلمون بشكل أفضل.



ويبدو الأمر أشق بالنسبة للإعاقات الأكبر مثل التوحد والشيزوفرانيا، فمن الواضح أن الجينات وحدها (عوامل الوراثة) لا تحدد من الذى يصاب بهذه الأعراض، حيث تبين من الإحصاءات أن ١٥ ٪ من التوائم المتطابقة لمرضى التوحد لايصابون بالمرض (!). كما تبين أيضا أن ٥٠ ٪ من التوائم المتطابقة لمرضى الشيزوفرانيا لا يصابون بها (!). وهكذا ليست الجينات فقط هى التى تحدد من يصيبه المرض. ويعتقد «ميرزنيتش» أن المعرضين للإصابة بهذه الأمراض نتيجة لعوامل وراثية (جينية) لا يصابون بها إلا عندما يحدث خلل ما فى لدانة المخ. و يفسر الإصابة بالتوحد بأنها فشل محاولة التعامل مع فيض المعلومات الذى ينهمر على منطقة المخ المسئولة عن التطور الاجتماعى «اللوزة» (amygdala) فتصبح فى وضع حرج تحاول الخلاص فيزداد الوضع صعوبة. ويشبه «ميرزنيتش» ذلك بالسيارة عندما «تغرس» فى الوحل وكلما حاولت الفكاك ازداد وضعها سوءا.

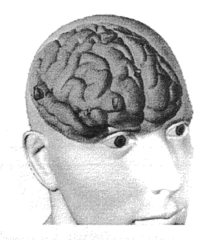
كيمياء المخ

إذا كانت جغرافيا المخ على هذه الدرجة من الصعوبة وما زالت موضع جدل وخلاف شديدين بين الاتجاهات العلمية المتعددة، فإن كيمياء المخ - سواء ما يفرز من كيماويات أو مايستهلك داخل المخ أو ما تؤثر به الكيماويات من خارجه - على درجة أعلى من الصعوبة. فالكوليسترول الذى يسبب المشاكل فى الدم مفيد فى الاتصال والتخاطب بين الخلايا العصبية (العصبونات neurones) فى المخ، الأمر الذى يعتبر أساسيا فى عمليات التذكر والتعلم. وقد أشارت بعض البحوث السابقة إلى أن الخلايا الداعمة (support cells) والمسماة (glial cells) فى المخ تنتج مادة ضرورية تمكن الخلايا العصبية - العصبونات - من التواصل والتخاطب مع بعضها، وقد اتضح أن هذه المادة كوليستيرول.

وبالقطع لا يعنى ذلك أن تناول قطعة دسمة من اللحم ستنشط وتدعم مقدرتك الذهنية، فمستوى الكوليستيرول فى الدم لا يلعب دورا فى تزويد المخ بالكوليستيرول، لأن جزيئات كوليستيرول الدم أضخم من أن تعبر الحاجز الفاصل بين الدم والمخ. وهذا الحاجز عبارة عن آلية خاصة تتحكم بدقة فى نوع الجزيئات المسموح لها بالدخول إلى المخ من الأوعية الدموية. ويبدو أن الخلايا الداعمة تفرز الكوليسترول الخاص بها والمطلوب للمخ. وقد تبين أن عزل الخلايا العصبية خارج الجسم وتنميتها يؤدى إلى إفراز بعض الكوليستيرول، إلا أنه فى وجود الخلايا الداعمة فقط يصبح الكوليستيرول كافيا لتكوين أجزاء الترابط والتواصل (synapses) بكثافة معقولة.

وفى الآونة الأخيرة تبدى الأوساط العلمية اهتماما متزايدا بالمعالجات الهرمونية البديلة (HRT)، وذلك بعد أن تبين فائدتها فى منع التدهور العقلى الذى يصيب السيدات فى السن المتقدمة. كما أن هذا النوع من العلاج الكيميائى يساعد النساء اللاتى لم تظهر عليهن بعد أعراض التدهور العقلى الذى يؤدى إلى الخرف. وقد قام فريق من العلماء من عدة جامعات أمريكية بإجراء دراسة موسعة على ٢٥٠٠ امرأة جميعهن من منطقة واحدة، وينتمى ٩٠ ٪ منهن إلى كنيسة معروفة بتحريمها للكحول والتدخين، الأمر الذى يعنى أن المشاركات فى الدراسة يتبعن نظاما صحيا غير منتشر فى المناطق الأخرى.

اكتشف فريق البحث أن النساء الشابات،



الأقل تعرضـا لمرض الاكتـئـاب، واللاتي استمرت فترة علاجهن لمدة طويلة، ويحملن الجين (apo E4) المعروف بعلاقته بمرض «الزهايمر»، أظهرن نتائج جيدة في اختبارات الوظائف المعرفية. وقد وجدوا عموما أن المعالجات الهرمونية البديلة قد أدت إلى نتائج جيدة في القدرات المعرفية أثناء مرحلة العلاج الأولى. كما أدى العلاج إلى تدهور أقل للقدرات العقلية في نهاية فترة العلاج التي استمرت ثلاث سنوات. وقد اتضح أن النساء اللاتي يفقدن الكثير من قدراتهن المعرفية، واللاتي تجاوزن سن الخامسة والثمانين، يبدو أنهن ينتفعن أكثر من غيرهن من تناول العلاج الهرموني. غير أن بعض المتخصصين يؤكدون أن العلاج الهرموني البديل قد يفيد بعض النساء، لكنه لن ينفع الجميع.



إلى هنا نكون قد أوجزنا - أتعشم دون خلل - الحالة الراهنة لمخ الإنسان بمناطقه المختلفة وما اكتشف حديثا جدا (خلال الأشهر الأخيرة) من تداخلها مع بعضها. لكن الموضوع ينقصه شيء مهم يتعلق بما يسميه الأطباء «بلاسيبو» أو الأدوية (أو العلاج) الوهمية (مثل إعطاء أقراص من السكر أو النشا لمن يرغبون في تعاطي الأدوية بأي شكل). فقد كشفت دراسة حديثة أن أدوية «البلاسيبو» تؤثر على مخ المصابين بالاكتئاب. وحتى الآن كان السائد في اعتقاد الأطباء والعلماء أن العلاج بالوهم لا يؤثر في المخ بالشكل الواضح الذي استطاع فريق بحث من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس أن يثبته بالتصوير الكهربي للمخ.

تضمنت الدراسة التي أجراها فريق البحث ٥١ متطوعا يعانون من اكتئاب حاد، عولج ٢٦ منهم بالبلاسيبو أو الأدوية الوهمية فاظهر ١٠ ردود فعل إيجابية. وفي المقابل عولج ٢٥ بأدوية حقيقية مضادة للاكتئاب فاظهر ١٣ منهم ردود فعل إيجابية. والأكثر من ذلك أظهرت الصور الكهربية لمخ المرضى الذين استجابوا للأدوية الوهمية نشاطا متزايدا في القشرة الأمامية للمخ. بينما لم تبين الصور الكهربية لمخ الذين تجاوبوا مع الأدوية الحقيقية إلا نشاطا محدودا في المنطقة نفسها. ومن المعروف أن للقشرة الأمامية للمخ تأثيرا على نشاط الذاكرة والتعامل مع المعلومات ومعالجتها ونوع السلوك وترتيب الأفكار والتركيز والانتباه. وبذا فقد ثبت أن الدواء الوهمي (البلاسيبو) يؤثر على المخ في حالة الاستجابة له، تماما كما تفعل الأدوية الحقيقية.

وبعد، هل يندرج ما اصطلح على تسميته «غسيل المخ» تحت باب العلاج بالوهم ؟ أم أن الغسيل شيء والوهم شيء آخر مختلف تماما؟ عموما، كم من محاولة للغسيل (العقائدي أو الثيولوجي) أو البلاسيبو (العلاج بالوهم

طلع علينا العلماء
في الأشهر الأخيرة باكتشافات عديدة
تتعلق بالمخ البشري والدور الذي تلعبه المناطق المختلفة
داخله في العمليات الحيوية التي تقوم بها،
سواء إراديا أو لاإراديا

المادي أو المعنوي) - سياسي أو اقتصادي - مرت على أدمغتنا في العصر الحديث فلم تنل منها إلا بقدر ما تسطحت هذه الأدمغة وتفلطحت ولانت وامتزجت فصوصها بلحائها وقشرتها، فتداخل الألم مع الأثم - فلا مسرة هناك - وغابت الموسيقى ومعها اللغة. فاصبحت العربية غريبة في بلاد العرب، ولم يعل شأن إلا لضجيج الطرب الذي يخاطب أدنى الحواس في «الحيوان» الذي أطلق عليه «ديزموند موريس» اسم كتابه الأشهر «القرد العاري The Naked Ape»، كما أطلق على مجتمعه (حديقة الحيوان البشرية (The Human Zoo) اسما لكتاب آخر. فهل قدرنا أعظم عضو ملكناه حق قدره... المخ؟ كلا، وفي رأيي أننا أهدرنا وما زلنا نهدر الطاقات الجبارة الكامنة في أدمغتنا متعللين بعلل وأوهام شتى.

فجميع الحيوانات الفقارية - سواء كانت ثديية أم طيورا أم زواحف أم أسماكا أم برمائيات - تمتلك مخا، لكن المخ البشري متفرد، فهو يمنحنا القدرة على التفكير والتخطيط والتحدث والتخيل، وهو عضو عجيب يقوم بعدة مهام رائعة لأنه :

١ - يتحكم في درجة حرارة الجسم وضغط الدم وضربات القلب والتنفس.

٢ - يستقبل فيض المعلومات عن العالم المحيط بنا من حواسنا المختلفة (العيون والآذان والأنوف... الخ).

٣ - يتحكم في الحركة الفيزيائية عند السير أو التحدث أو الوقوف أو الجلوس.

٤ - يجعلك تفكر وتحلم وتفسر الأمور وتمارس عواطفك.

ويتم التنسيق بين كل هذه المهام والتحكم فيها وضبطها بواسطة هذا المخ الذي لا يزيد حجمه (وإلى حد ما شكله) عن حجم ثمرة قرنبيط صغيرة. ويشكل المخ مع الحبل الشوكي والأعصاب الطرفية نظاما متكاملا ومعقدا للتحكم ومعالجة المعلومات يسمى الجهاز العصبي.

ونظرا للأهمية القصوى للدماغ - المخ - في تسيير وإدارة حياة ونشاط الإنسان فقد تأسست جمعيات ومراكز علمية عديدة في جميع أنحاء العالم لرعاية الحالة العقلية (الذهنية) المبنية على الحالة البيولوجية والفسيولوجية للدماغ. فمن الإحصاءات الرسمية اتضح أن ١٠ ٪ من المواطنين فوق سن ٦٥ عاما مصابون بالعته (أو الخرف)، وترتفع هذه النسبة لتصل إلى ٤٠ ٪ فيمن هم فوق الثمانين من العمر. لكننا جميعا معرضون للإصابة بأعراض العجز المعرفي cognitive deficits . فعادة ما ننسى السبب في حركتنا من غرفة إلى غرفة أخرى في المنزل، أو ننسى اسم إنسان نعرفه حق المعرفة، كما أننا نلقى صعوبة في التعلم مع التقدم في السن. وقد أصدر المعهد الأمريكي للشيخوخة مع المركز الدولي للعمر المديد بالولايات المتحدة تقريرا مبشرا بإمكانية التغلب على العجز المعرفي وتنشيط الذاكرة عند المتقدمين في العمر. فقد توصل العلماء إلى أن معظم الخلايا العصبية لا تفقد مع التقدم في السن على الرغم من التباطؤ في نشاط المخ الذي يصاحب ذلك حتى في الأصحاء المتقدمين في العمر. وفي الواقع تتكون ارتباطات جديدة بين الخلايا العصبية في أي سن مهما كانت متقدمة بشرط استخدام المثيرات المناسبة لذلك، مما يشجع النشاط الذهني ويرفع من فعالية وظائف المخ. وقد أوجز التقرير مجموعة من الإرشادات جاءت نتيجة الخبرة في التعامل مع كبار السن الأصحاء من جهة ونتائج البحوث المتخصصة من جهة أخرى. كانت هناك أربعة تحذيرات هي:

١ - التدخين لأنه يتسبب في تصلب الشرايين وتقلصها.

٢ - الكافيين (الموجود في مشروبات الشاي والقهوة والكاكاو والكولا وتنوعاتها) لأنه يبطيء من سريان الدم إلى المخ.

٣ - المشروبات الكحولية لأن الكحول يقتل الخلايا العصبية.

٤ - التعرض للإصابات المباشرة في الرأس (إيذاء المخ وتدمير أجزاء منه) أو غير المباشرة نتيجة أمراض مثل الحمى المخية والالتهابات وأنواع الصرع.

أما النصائح السبع (المنجيات) فنختتم بها هذا الحديث، وهي على الترتيب كما جاءت في تقرير المعهد والمركز:

١ - التعلم والتدريب الدائم، فالحث الذهني يشجع على استخدام المخ، والشيء الذي لا يستخدم يفقد (use it or lose it) ومن أمثلة الحث الذهني الألعاب التي تعتمد على التفكير والذاكرة مثل تجميع قطع الصور (Puzzles).

٢ - التدريبات الرياضية المنتظمة، فهي تدفع الدم في الشرايين وتحسن من توصيله إلى المخ. وقد تبين أن كبار السن الذين يمارسون تدريبات رياضية منتظمة يؤدون الاختبارات المعرفية بدرجات أعلى.

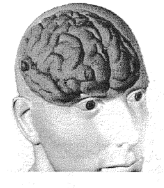
٣ - النشاط اليومي وبالأخص النشاط المتضمن للقاءات مع آخرين، مثل التطوع في جمعيات وهيئات تقوم بأعمال خيرية، أو الالتحاق بنوادي المسنين، والاشتراك في رحلات اليوم الواحد، أو مساعدة الشباب والأطفال في تعلم بعض المهارات التي تجيدها.

٤ - خفض مستوى التوتر (stress) فقد تبين من بعض الدراسات على الحيوانات أن التوتر يؤثر على بنية المخ ويتداخل مع الوظائف الفسيولوجية الطبيعية مما يسبب خللا في أداء الوظائف المعرفية. ويتسبب النشاط الجسماني والتأمل في خفض التوتر، لكن الأمر قد يحتاج إلى تدخل الأخصائيين.

٥ - النوم، حيث يعاني الكثيرون من كبار السن من اضطرابات في نومهم تجعلهم لا يصلون إلى مرحلة REM أو النوم مع حركة العين السريعة، والتي ترتبط بالأحلام، الأمر الذي يؤثر بشدة في الوظائف المعرفية للمخ. وقد أنشأ العديد من المستشفيات عيادات خاصة للنوم لتساعد من يعانون من الاضطرابات.

٦ - الاستقرار العاطفي والروحي، فقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن المقدرة المعرفية تعتمد على الصحة الروحية والعاطفية. وكبار السن معرضون أكثر من غيرهم لنوبات الاكتئاب والتي قد تؤذي المخ وبالأخص الأرامل والذين فشلوا في الالتحاق بعمل أو نشاط ما بعد تقاعدهم. وعادة لا يكتشف المريض بنفسه الإصابة بالاكتئاب، والأمر يحتاج إلى مد يد المساعدة من صديق أو قريب. وتساعد التدريبات الجسمانية المنتظمة كثيرا في التغلب على الاكتئاب، وكذلك التطوع في الأعمال الخيرية وممارسة حياة اجتماعية نشطة.

٧ - التغذية الجيدة، فتناول الأطعمة غير المناسبة قد يؤذي المخ. وقد اتضح أن ذاكرة كبار السن تتحسن كثيرا بتناول مضادات الأكسدة (antioxidant) وفيتامينات E و C والكاروتين بيتا (الموجود في الخضروات والفواكه الملونة بكثافة). ومن القواعد المعروفة: «كلما تقدم الإنسان في العمر قلت حاجته للسعرات الحرارية وزادت متطلباته وشروطه الغذائية». فلنجعل غذاءنا يميل أكثر تجاه مايفيد لا ما يسمن. وأفضل غذاء يمكن أن نحصل عليه يأتينا مع الأطعمة لا مع الأدوية، لكن قد يستفيد العديد من كبار السن من بعض الأدوية المعضدة.



نحـــــن نعــيش فى وقـــت أفــضـــــل شىء يمكن أن تـقـــوم بـه فـــيــــه، إذا أردت أن تـضـــمن

التغـــريب والاغتراب فى تقرير التنمية «الإنســـــانية» العربيـــــة!

جـــــــلال أمـــــين

[١]

لا بد أن أقـر بدهشـتى الشـديدة من الاسـتـقبـال الذى قوبل به: «تـقـرير التنمية الإنسـانيـة العـربيـة للعـام ٢٠٠٢» الذى صدر منذ أربعـة شـهـور عن برنامج الأمم المتـحـدة الإنمائى. وهـو يحـمل أيضًـا على غـلافـه اسم «الصندوق العـربى للإنماء الاقـتـصـادى والاجـتمـاعى، باعـتبـاره إحدى المؤسـسـتين المـمولتـين للتـقرير. وإن كـان من الواضح، أن برنامج الأمم المتحدة الإنمائى هو الذى يتحمل أكبر قدر من المسئولية عنه، إذ يتكرر اسمه وحده بعد ذلك، من صفحة لأخرى، وحقوق الطبع محفوظة له دون غيره، أما كاتبو التقرير فهناك قائمة باسمائهم وكلها تقريبًا أسماء عربية وكثير منها لأشخاص مرموقين يحتلون مكانة ممتازة فى ميادين تخصصهم.

ربما كان من المفهوم الاستقبال الذى حظى به التقرير فى وسائل الإعلام الغربيـة، فنحن نعيش فى وقت أفضل شىء يمكن أن تقوم به فـيـه، إذا أردت أن تضـمن النـجـاح والشـهـرة والتهليل لك فى الغرب، هو أن تشتم العرب أو المسلمـين. وهذه هى فى رأيى الرسـالة الأساسية لهذا التقرير.

أما الحماسـة التى قوبل بها التـقرير فى وسائل الإعلام العربية فهى ما يثير أكبر قدر من الدهشة، والأسف أيضًا. وقد فسرته على أى حال بأمرين:

الأول: أن لدينا نحن العـرب والمسلمـين مدرسة مماثلة لمدرسة تحقير العرب والمسلمين الشائعة منذ فترة فى الغرب. وهى مدرسـة لا يجب التهوين من شأنها من حيث عدد أفرادها أو حجم نشاطها وتأثيرها.

والثـانى: أن هناك عددًا أكبـر مما نظن من مثقفينا لازالوا ينخدعون بسـهولة باى شىء فيه شبهة العلم، ويظنون أن أية كتابة تحتوى على أرقام وبعض المصطلحات الصعبة، لابد أن تكون عملاً علميًا يستحق الإعجاب.

ذلك أنى وجـدت هذا التـقرير، فـضـلاً عن حـرصــه الواضح على اقـتناص أية فـرصـة لتوجيه الاتهام إلى العرب والتقليل من شأنهم، يتضمن استخدامات معيبة للأرقام، ويحتوى على الكثير من الإكلشيهات الضخمة الفارغة من المضـمـون (من نوع العـبـارة الآتيـة: «وفى التحليل النهائى، التنمية الإنسانية هى تنمية الناس، ومن أجل الناس، من قـبـل النـاس» ص١٤)، وكذلك الكثير من التـقريرات التى لا تزيد على أن تكون مصـادرة على المطلوب أو تحصيل الحاصل (من نوع العبارة الآتية: «إن التنمية الإنسانية ضرورية لتـحقيق كل من النمو الاقتصادى المستدام وتخفيف حدة الفقر» ص١٢).



والنسـخـة العـربيـة من هذا التـقرير (التى اعـتمـد عليـهـا فى هذا المقال) مليئـة بـالجمل والتـعـبيرات الملتوية التى تجـعل من الصعب متـابعـتـهـا، مما يرجع فى رأيى، جزئيًـا، إلى محـاولة متـعمدة للإيهام بأن التقرير فيه عمق هو فى الحـقيـقة خـال منه، كمـا يرجع إلى أن النسـخة العـربيـة تفوح منهـا بشـدة رائحـة الترجمة، بمعنى أن النسخة الإنجليزية لابد أن تكون هى التى كـتـبـت أولاً ثم ترجـمـت إلى العـربيـة وليس العكس، مما جـعل كثـيـرًا من العبارات، المفهومة بالإنجليزية عسيرة الفهم بالعربية، إذ يتطلب فهمها تخمينًا فى البداية لما يمكن أن يكون أصلها الإنجليزى.

بالإضافة إلى هذا كله يكاد التقرير أن يكون خاليًا من أية محاولة جدية لتفسير ما حدث، أى تفسير الأداء الاقتصادى والاجتماعى العربى، ففيه من التـقريرات والوصف أكثر مما فيه من تحليل أو تفسير. لقد كان المرء يتوقع من تقرير بلغ من طموحه أن يطرح مفهومًا جديدًا للتنمية يحل مـحل المفهـوم السـائد للتنميـة البشـرية ويسـمى باسم «التنميـة الإنسـانيـة»، أن يبذل واضـعـوه بعض الجـهـد فى تحليل المفـاهيم المختلفة السائدة، أو التى كانت سائدة، كالتنمية بمعنى مجـرد زيادة الدخل، والتـنمـيـة بمعـنى التنميـة البـشـرية، ومفـهوم إشبـاع الحـاجات الأسـاسـيـة، والمفـهوم الذى طرحـه منذ سنوات قليـلة «أمـارتيـا سن» (Amartya Sen) ويقـوم على «توسـيع مـجـال الاخـتـيـار»، وأن يناقش مختلف صور القهر التى يمكن أن تعطل تحـقيق هذا النوع أو ذاك من التنميـة الإنسـانيـة. ولكن القارئ لا يجد مناقشة حقيقية لأى شىء من هذا، بل يجد عـددًا من الأفكار المتناثرة أُخـذت من هنا وهناك، دون تمحيص أو مناقشة، أو يجد رفضًا لما جرى عليه العمل دون تبرير كاف أو مقنع لهذا الرفض. ومـع هذا يقـدم كل هذا للقـارئ دون أية محـاولة للاعتذار عن قصور الجهد فى مواجهة مشكلات فكرية عويصة، وبنبرة خـالية من أى إيحاء بالتـواضع، وإن كانت لا تخلو من خـيلاء ومباهاة لا يجد القارئ لها مبررًا.

فما الذى فعله التقرير بالضبط؟

[٢]

تناول واضـعو التـقرير مقـياس «التنميـة البشـرية» الذى ابتـدعـه برنامج الأمم المتـحـدة منذ ١٢ عامًا، والذى يقوم على ثلاثة مؤشرات: متـوسط الدخل، والعـمر المتوقع عند الميلاد، ومستوى التعليم، حيث تعتبـر الدولة متقدمة فى مضمار التنمية البشرية كلما ارتفع متوسط الدخل فيـها، وزاد العـمل المتوقع عند الميلاد، وانخفضت نسـبة الأمية وزادت نسـبة الطلاب المقيدين بالمدارس. تناول واضـعـو التـقرير هذا المقـيـاس وأدخلوا عليـه تعـديلات جـوهرية: فحذفوا مؤشر متوسط الدخل تمامًا، واحتفظوا بالمؤشـرين الآخـرين، ولكنهم أضـافـوا أيضًـا أربعة مؤشرات جديدة:

١ـ مـؤشـر الحـريـة، ٢ـ ومـؤشـر أسـمـوه «تمكين النوع»، ويعكس على حـد تـعـبـيـرهم «مـــدى توصـــل النـســـاء للـقـــوة فى المجتمع»، ٣ـ ومؤشر الاتصال بشبكة الإنترنت، ٤ـ ومؤشر تلوث البيئة، وسموا المقياس الذى يجمع بين هذه المؤشرات الستة (أو يلخـصـها) «التنمـيـة الإنسـانيـة»، تمـيـيـزًا له عن المقـيـاس السـابق (وهو مـقـيـاس التنمـيـة البـشـرية)، وقدموا لنا المقياس الجديد على أنه يقيس مدى التقدم فى تحـقيق آدميـة الإنسـان أو رفـاهيـة الإنسان أو كلتيهما.



تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٢
المحرر الرئيسى: د. نادر فرجانى
برنامج الأمم المتـحـدة الإنمائى، الصندوق العربى للإنماء الاقتصادى والاجتماعى.

وسوف أترك فى هذا المقال مناقشة ما أقدم عليه التقرير من استبعاد مؤشر متوسط الدخل، وهو (أى هذا الاستبعاد) مسلك غريب أثار دهشة الكثيرين من الاقتصاديين العرب. وهو أيضًا مسلك غير مقبول بالمرة ولا مبرر له، ولكنه يحتاج إلى بحث مستقل لكثرة ما يثيره من قضايا، وسوف أركز فى المقال الحالى على بقية المؤشرات التى استبقاها التقرير من المقياس القديم أو أضافها إليه.

من أول ما يثور فى ذهن قارئ التقرير: لماذا اختيار هذه المؤشرات الستة بالذات (العمر المتوقع عند الميلاد، التعليم، الحرية، تمكين النوع، الاتصال بشبكة الإنترنت، وحالة البيئة)؟

لماذا اختار التقرير هذه المؤشرات بالذات من بين عشرات العوامل الأخرى التى لا شبهة فى تأثيرها فى الرفاهية الإنسانية؟ أين معدل البطالة مثلاً، بما يحمله من آثار على الشعور بالكرامة واحترام النفس؟ أين مستوى الاستقرار العائلى وقوة أو ضعف الشعور بالتضامن بين أفراد العائلة الواحدة؟ أين حجم أوقات الفراغ أو معدل التضخم الذى يؤثر فى مدى الاطمئنان أو القلق على المستقبل؟ أين درجة الاستقرار الوظيفى وما يحمله أيضًا من معنى الاطمئنان على المستقبل؟ أين درجة انتشار العنف والجريمة؟ أين درجة انتشار التشرد بين الأطفال أو درجة انتشار الدعارة؟ أين حجم المدن أو مدى التعرض لأفلام العنف فى التليفزيون أو لحملات الإعلان.. إلخ. لماذا أهملت كل هذه الأمور وغيرها وفُضّل عليها درجة الاتصال بشبكة الإنترنت، وتمكين النوع أو مدى توصل النساء للقوة فى المجتمع؟

إن التبرير الذى يقدمه التقرير لتضمين مؤشر «تمكين النوع» هو أنه «يعكس قصور تمكين المرأة فى المنطقة العربية» (ص١٨). ففضح التقرير نفسه. إذ هل كل شىء يعكس شيئًا سيئًا فى المنطقة العربية يجب تضمينه، بينما يجب استبعاد كل شىء إيجابى لدينا، كقوة الارتباط العائلى مثلاً أو انخفاض درجة انتشار العنف والجريمة؟ أم أن هناك سببًا أهم حتى من هذا، يبرر الاهتمام بمسألة «تمكين النوع» وهو ازدياد نفوذ الحركات النسوية فى العالم الغربى، وأن أى تضمين لمثل هذا المؤشر فى التقرير العربى سوف يضمن رضا المؤسسات الدولية التى سيصدر عنها التقرير؟

أما الاتصال بشبكة الإنترنت، فيبرر التقرير إدخاله فى المقياس بأنه «أحد متطلبات الانتفاع بفرص العولمة فى هذا العصر». فهل استقر الرأى إذن واتضح الأمر على نحو لا يحتمل الشك على أن أى شىء يؤدى إلى مزيد من العولمة هو أفضل من غيره، حتى من حيث الارتفاع بمستوى آدمية الإنسان؟

ثم فلنتساءل عن فائدة الجمع بين كل هذه الاعتبارات المختلفة فى طبيعتها أشد الاختلاف فى مقياس واحد. لنفرض أننا بعد عشر سنوات قيل لنا إن مرتبة دولة عربية، كمصر مثلاً، قد تحسنت طبقًا لمقياس التنمية الإنسانية خلال هذه السنوات العشر فأصبح ترتيبها ٨٢ بدلاً من ٩٢ (كما يقول لنا التقرير الآن)، وأن ترتيب دولة كالكويت قد تحسن أيضًا فأصبح ٦٠ بدلاً من ٧٠ (كما هو الآن طبقًا لهذا التقرير). فما المطلوب من المصريين والكويتيين فى هذه الحالة؟ هل يتعين على المصريين الابتهاج أم يستحسن الانتظار حتى نعرف مصدر هذا التحسن بالضبط: هل هو زيادة قدرة النساء أم زيادة الاتصال بالإنترنت؟ أو فلنفرض أن هذا التحسن الذى طرأ على ترتيب مصر كان نتيجة زيادة الاتصال بشبكة الإنترنت فقط، ولكنها كانت زيادة كبيرة لدرجة عوضت انخفاضًا شديدًا فى قدرة النساء وفى حجم الحريات المتاحة. فهل يجب على المصريين الابتهاج رغم ذلك، مادام الترتيب النهائى الذى وصل إليه تقرير التنمية الإنسانية، فى هذه الأمور مجتمعة قد تحسن؟

ولنفرض أيضًا أن التحسن فى ترتيب الكويت كان ناتجًا عن تخفيض انبعاثات ثانى أكسيد الكربون (التى يقيس بها التقرير درجة تلوث البيئة) بينما كان التحسن فى ترتيب مصر نتيجة لزيادة قدرة النساء، فأى الشعبين يحق له الابتهاج أكثر؟ لا نعرف بالطبع لأننا لا نعرف أيهما أهم: النساء أم ثانى أكسيد الكربون!

هل كان من الممكن حل هذه المشكلة بإعطاء المؤشرات الستة «أوزانًا» تعكس درجة الأهمية النسبية التى نعلقها على كل منها بالمقارنة بالمؤشرات الأخرى؟

لا أعتقد أن هذا الحل مُرْضٍ على الإطلاق، إذ من الذى يستطيع أن يقرر ما إذا كانت الحرية أهم أم المعرفة؟ «تمكين النساء» أهم أم نظافة البيئة؟ وحتى إذا كان هذا ممكنًا، فمن الذى يستطيع أن يعطى لهذه المقارنة أرقامًا، فيقول مثلاً إن النساء أهم من البيئة ثلاث أو أربع مرات، أو أن زيادة العمر المتوقع عند الميلاد أهم بمقدار الثلث أو الربع من الحرية؟!

ولكن التقرير بدلاً من أن يعترف بهذه الصعوبة، ويتبع المسلك القويم بالتخلى عن هذه العملية العبثية التى تجمع وتطرح ما لا يجوز جمعه وطرحه، قرر من باب تسهيل الأمور دون التخلى عن وجاهة التعبير الرقمى، أن يعتبر كل هذه المؤشرات الستة على نفس القدر من الأهمية، ومن ثم أن يعطيها أوزانًا متساوية. ودافع عن هذا المسلك بقوله:

«وكما ينبغى أن يكون معلومًا فإن افتراض تساوى الأوزان يعبر عن الفرض الإحصائى القائل بتساوى الجهل، بمعنى أنه عندما لا يوجد مبرر قوى، بناء على معلومات، لاختلاف الأوزان، يفترض تساويها» (ص٢٠).

لم يوضح التقرير بالضبط ما الذى يقصده بالجهل هنا. والأرجح أنه يقصد بالجهل أحد معنيين:

هناك أولاً الجهل الناتج عن مجرد اختلاف الموقف القيمى، الذى يعبر عنه مثلاً قولى إنى لا أستطيع أن أحكم بما إذا كانت زيادة تمكين المرأة أهم أو أقل أهمية من رفع مستوى المعرفة أو زيادة العمر المتوقع عند الميلاد. فأنا قد أعتبر تمكين المرأة أهم ويعتبر غيرى أن رفع مستوى المعرفة هو الأهم. وقد يسمى هذا الاختلاف وصعوبة حسمه «جهلاً» لا حيلة لنا معه إلا إعطاء المؤشرات كلها نفس الوزن. ولكن هناك ثانيًا الجهل الناتج عن مجرد استحالة التعبير عن أهمية مؤشر بالنسبة لآخر تعبيرًا رقميًا. فأنا مثلاً قد أكون واثقًا من أن الحرية أو رفع مستوى العمر المتوقع عند الميلاد أهم من زيادة تمكين المرأة ولكنى عاجز عن أن أقول أن هذا أهم من ذاك بمقدار كذا، أو أن هذا أهم من ذاك بمقدار الضعف أو الثلث.. إلخ. قد يسمى هذا أيضًا جهلاً. ولكن هذين النوعين من الجهل لا يبرران بالمرة استخدام أوزان متساوية، إذ إن هذا لا بد أن يؤدى إلى نتائج غريبة وغير مقبولة. فمن ناحية، لا يجب أن يؤدى اختلافنا فى تقييم الأشياء إلى القول بمعاملة الأشياء كلها وكأنها متساوية. فهذا المسلك لن يرضى أحدًا فى الحقيقة، وسيسبب لدى الجميع شعورًا بعدم الارتياح إذ لن يعتبره أحد معبرًا عن قناعاته وآرائه. وهذا هو بالضبط ما أدى إليه استخدام أوزان متساوية فى استخراج هذا التقرير لمقياس التنمية الإنسانية، إذ لا بد أن يشعر المرء بالاستغراب عندما يرى ترتيب البلاد العربية طبقًا لهذا المقياس، فيرى الأردن فى القمة تليها الكويت والإمارات.. إلخ.

كذلك فإن العجز عن التعبير بالأرقام عن تفضيل شىء على آخر لا يصلح لتبرير استخدام أوزان متساوية. فأنا مثلاً متأكد من أنى أفضل حكم جمال عبد الناصر على حكم أنور السادات ولكنى لا أستطيع أن أقول أن الأول يفضل الثانى بكذا درجة، فهل يجوز أن نقول إن هذه الصعوبة تسمح لنا بالقول بأنه لا يهم ما إذا كان سيحكمنا هذا الرجل أو ذاك؟ كل هذه النتائج الغريبة نتجت عن جمع وطرح ما لا يجوز جمعه وطرحه، والإصرار على التعبير برقم واحد عن أشياء ذات طبيعة مختلفة أشد الاختلاف. والإحصائى الحصيف هو الذى يعرف متى يجوز أن يمارس مهنته فى الجمع والطرح ومتى يجب أن يمتنع عن ذلك. وهذا هو بالضبط ما لم يفعله هذا التقرير.

أما «الجهل» الذى يشير إليه التقرير باعتباره يسمح للإحصائى باستخدام أوزان متساوية، فالمقصود به فى الحقيقة «اللامبالاة»، أى عدم وجود أى سبب لتفضيل شىء على آخر، ولكن هذه «اللامبالاة» لا يمكن افتراضها فى الموضوع الذى نحن بصدده، لا فى كاتب التقرير ولا فى قارئه. بعبارة أخرى: لا يمكن أن نفترض أن أحدًا منا لا يعلق أهمية أكبر على بعض هذه المؤشرات مما يعلقه على غيرها.



من الذى يستطيع أن يقرر ما إذا كانت الحرية أهم أم المعرفة؟ «تمكين النساء» أهم أم نظافة البيئة؟ وحتى إذا كان هذا ممكنًا، فمن الذى يستطيع أن يعطى لهذه المقارنة أرقامًا



[٣]

ولكن فلنترك جانبًا مسألة الجمع والطرح بين مؤشرات لا تقبل الجمع والطرح، ولنركز على سبب اختيار التقرير لهذه المؤشرات الستة بالذات.

لا شك أن الذى حدث هو شىء كالتالى: سأل المكلفون بوضع هذا التقرير أنفسهم: ما هى طيبات الحياة؟ فلم تتفتق أذهانهم عن أكثر مما يفعله الناس فى الغرب. نظروا إلى الغرب فوجدوا الناس هناك يستهلكون السلع والخدمات بكثرة، ومن أحدث هذه السلع الكمبيوتر، ووجدوهم يذهبون كل بضع سنوات إلى صناديق الانتخاب، ويحاولون بقدر الإمكان - على الأقل فى العقود الأخيرة ، أن يعاملوا المرأة كما يعاملون الرجل.. إلخ وقاسوا الأداء العربى على ذلك، فوجدوا الأداء العربى بالطبع



منخفضًا وهى نتيجة بديهية، تترتب بالضرورة على ما وضعوه ابتداء من افتراضه. فإذا كان التقدم والتخلف يقاسان بما يفعله الآخرون لا بما نفعله نحن، فلا بد أن نكون نحن متخلفين بالمقارنة بهؤلاء الآخرين!

المهمة إذن بسيطة جدًا: ليس من الصعب على واضعى تقرير التنمية الإنسانية العربية أن يرسموا صورة إذا قيست بمنظور الغرب، تبدو بشعة للغاية، وهذا هو ما صنعوه. فما يقال كل يوم عن هذا وذاك جمع كله فى تقرير واحد مدعم بالإحصاءات الملائمة وصيغ فى صيغة أدبية إنشائية. وتصادف أن صدر التقرير فى وقت لم يكن لدى الغرب فيه همٌّ إلا إلحاق كل النقائص الممكنة بالعرب والمسلمين فتلقفته وسائل الإعلام الغربية بالتهليل، ولخصته مجلة «الايكونوميست» البريطانية تلخيصًا وافيًا مع الثناء الشديد عليه، ونشرت ذلك فى مقال يحمل عنوان «كيف يقود المرء نفسه إلى الفشل» (Self-doomed to failure)، قاصدة بذلك أن العرب متخصصون فى الفشل والخيبة، وهم الذين يجلبون لأنفسهم الخراب والبؤس، وليس من مسئول عما هم فيه إلا هم أنفسهم، وهل هناك دليل أقوى على ذلك من تقرير كتبه كتّاب عرب مائة بالمائة؟ بل وعرب من الخبراء المرموقين؟ هكذا شهد شاهد من أهلها بانه لا الغرب ولا إسرائيل يمكن أن يعتبر مسئولاً عما حدث للعرب.

من أجل التدليل على فساد عملية الاختيار التى قام بها واضعو هذا التقرير بين مختلف صور «التنمية الانسانية»، أو التقدم والتاخر فى مضمار الرفاهة الإنسانية، أو الارتقاء أو التدهور فى معاملة الإنسان باعتباره إنسانًا، سأثير السؤال الآتى:

لنفرض أنه حدث فى السنوات العشر المقبلة أن تدهور حال اللغة العربية بأكثر بكثير مما حدث لها فى العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة، بحيث أصبح الأولاد والبنات العرب أقل قدرة على التعبير تعبيرًا صحيحًا عن أنفسهم بلغتهم القومية. ألا يجب أن يعتبر هذا تدهورًا وتراجعًا فى مضمار «التنمية الإنسانية» العربية؟ إذ ألا يعتبر من حقوق الإنسان ومصادر رفاهيته قدرته على التعبير باللغة التى نشأ عليها والتى يتكلمها آباؤه وأجداده؟ بل ألا يقول البعض (بحق فى رأيى) أن القدرة على الإبداع مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بقدرة المرء على التفكير والتعبير بلغته الأم، لا بأية لغة أخرى؟ إذا كان الأمر كذلك، فأين المؤشر الذى يعكس هذا التدهور أو التقدم من بين المؤشرات المستخدمة فى هذا التقرير؟

أو فلنضرب مثالاً آخر أقل تشاؤمًا وإن كان مفرطًا فى عدم واقعيته. لنفرض أن بعض الدول العربية خلال السنوات العشر القادمة نجحت فى تحقيق نوع من الوحدة أو التكامل السياسى والاقتصادى والثقافى بحيث أصبحت أجزاء الأمة العربية أقرب بعضها من بعض، والعلاقات الثقافية بين أبناء جزء من هذه الأمة وجزء آخر أقوى بكثير مما هى الآن، بل إننا نجحنا فى توحيد مناهج التعليم وتقليل الفوارق بيننا فى التعبير عن نفس الأفكار. ألا يعتبر هذا تقدمًا فى مضمار التنمية الإنسانية العربية شبيهًا بالتقدم الذى يجلبه ازدهار اللغة العربية وحلولها محل اللغات الأجنبية فى حياتنا اليومية؟ فأين يمكن أن يظهر مثل هذا التقدم فى مؤشرات «التنمية الإنسانية» المستخدمة فى هذا التقرير؟




إن مثل هذا يمكن أن يقال عن مجالات أخرى للتقدم والتاخر «إنسانيًا»، كطبيعة العلاقات العائلية السائدة ومدى تماسك العائلة أو تفككها أو نوع الرعاية التى يحصل عليها المسنون من أهلهم وذويهم، بدلاً من إيداعهم الملاجئ والبيوت المخصصة لكبار السن.. وهكذا، يمكن أن نضرب أمثلة كثيرة من هذا النوع، ولكن تقرير التنمية الإنسانية العربية ليس معنيًا بمثل هذا التقدم أو التاخر، إذ أن مثل هذه الأمثلة، وإن كانت تتعلق قطعًا بجوانب «إنسانية» فى التنمية، تتعلق بالتقدم أو التاخر فى مجالات «عربية» صرف، والتقرير لا يُعنى إلا بما يعتبره الأجانب تقدمًا أو تاخرًا، بل ما يعتبرونه الآن كذلك، مثل التقدم أو التاخر فى «تمكين المراة»، وفى درجة الاتصال بالإنترنت». كما أن المؤشرات الأخرى (كالحرية والتحصيل التعليمى وتلوث البيئة) سوف يتبع فى تعريفها وقياسها نفس المفاهيم المستخدمة فى الغرب دون غيره، مع أن أهدافًا كالحرية أو التحصيل التعليمى أو نظافة البيئة يمكن أن تُفهم عندنا بمعانٍ مختلفة عما تُفهم به عندهم.

خذ مثلاً مؤشر «الحرية»، إن التقرير يتعامل مع موضوع الحرية ببساطة غريبة فلا يعترف بأن الحرية شىء متعدد الأبعاد والجوانب ولا يمكن تحويل بعض هذه الأبعاد والجوانب إلى غيرها، ومن ثم يستحيل قياسها. لا عجب إذن أن يستسهل التقرير إصدار الحكم التالى:

«على مستوى مناطق العالم السبع الوارد فى الشكل ٢ ـ ٤، يظهر أن الناس فى المنطقة العربية كانوا الأقل استمتاعًا بالحرية، على صعيد العالم، فى التسعينيات الأخيرة». (ص٢٥).

إن إصدار مثل هذا الحكم القاسى دون أية محاولة لتحليل المفاهيم المختلفة للحرية، والصور المختلفة لفقد الحرية، يحتاج حقًا إلى جراة فائقة، ذلك أنى كنت أظن أن المرء يجب أن يتردد كثيرًا قبل أن يقرر ما إذا كان المصرى أكثر أو أقل حرية من الكينى أو البرتغالى، أو أن اليمنى أكثر أو أقل حرية من الأمريكى أو السويدى. من هذا النوع أيضًا من الأحكام المتسرعة ما جاء بالتقرير عن مفهوم «التمثيل والمساءلة»، إذ لم يتردد واضعو التقرير طويلاً قبل أن يقرروا أن الأردن أفضل بلد عربى من حيث «التمثيل والمساءلة»، ويليه فى ذلك الكويت. (ص١٠٧).

إن من الممكن أن نفهم «التمثيل والمساءلة» بمعنى اقتراب المجالس النيابية من التعبير الحقيقى عن رغبات المواطنين ومصالحهم، ومدى قدرتها على محاسبة السلطة التنفيذية على أخطائها. فهل حقًا من السهل على من يراقب الحياة السياسية فى البلاد العربية المختلفة أن يقرر دون تردد أن الأردن والكويت هما أفضل الدول العربية فى هذا الصدد؟ أم أن الأمر يحتمل بعض التردد والاختلاف والكثير من التحفظات؟

وقل مثل ذلك عن معيار «فعالية الحكومة»، الذى يقول التقرير أنه فيما يتعلق به، تاتى دولة عمان فى المقدمة وتليها تونس ثم الأردن وقطر، أو عن «استقلال الإعلام» (الذى تحتل الأردن بشأنه المركز الأول) وعن الحريات المدنية.. الخ، حيث لا يشرح لنا التقرير كيف جرى قياس هذه الأشياء التى تستعصى حقًا على القياس. كل ما نعرفه هو أنه اعتمد فى ترتيب البلاد طبقًا لهذه المعايير على دراستين أمريكيتين قامتا بمقارنة بلاد العالم المختلفة وفقًا لما سمى «بكفاءة الحكم» Governance، وقام بنشرهما البنك الدولى فى سنة ١٩٩٩. وللقارئ أن يخمّن ما إذا كان من الممكن أن تعتمد وتقر مؤسسة كالبنك الدولى، أى تحليل لمعايير مثل الحرية أو التمثيل والمساءلة أو فعالية الحكومة أو استقلال الإعلام.. الخ، لا يتفق مع أيديولوجية البنك وما يؤمن به من مبادئ الحرية الاقتصادية وإطلاق الحرية لقوى السوق.



لا يمكن أن نتوقع طبعًا أن تدخل دراسة يقوم بنشرها البنك الدولى «درجة التبعية السياسية» مثلاً، كمؤشر من مؤشرات «الحرية أو كفاءة الحكم» أو «التمثيل والمساءلة» أو «استقلال الإعلام». وأقصد بالتبعية السياسية مدى تبعية الإرادة السياسية فى بلد ما لقوة خارجية، مع أن مثل هذه التبعية السياسية لابد أن تؤثر فى كل هذه الأمور جميعًا.. تقلل من قدر «الحرية» المتاح، ومن كفاءة الحكم فى تحقيق مصالح المواطنين، ولابد من أن تضعف من درجة تمثيل الحكومة لهؤلاء المواطنين، وتجعل هذه الحكومة «مسئولة» أمام جهات خارجية أكثر مما هى مسئولة أمام مواطنيها، كما أنها لابد أن تضعف أيضًا من درجة استقلال الإعلام، إزاء هذه القوة الخارجية وشركاتها. كذلك، أفلا تؤثر هذه التبعية السياسية، متى وجدت، فى درجة حرية المواطن العربى مثلاً فى التعبير عن تضامنه مع إخوانه فى العراق مثلاً أو مع السودان؟ بل ألا تؤثر حتى على حرية انتقال المواطن العربى بين بلد عربى وآخر؟

لا يمكن أن يكون مثل هذا قد دخل فى الحساب أو أُخذ فى الاعتبار فى إحدى الدراستين (كوفمان وآخرون) اللتين قام بنشرهما البنك الدولى، إذ لا يمكن أن يهتم كوفمان أو البنك الدولى بمثل هذه الأمور التى تهم المنطقة العربية أكثر من غيرها.

مما يثير الشك أيضًا فى فهم واضعى التقرير لموضوع الحرية والديمقراطية أن التقرير يساير الموضة الشائعة (ولكن المشكوك جدًا فى صحتها) فى أن هناك موجة من الديمقراطية تكتسح العالم الآن، ولكن لم يلحق بها للأسف العالم العربى. فالتقرير يشكو من أن رياح الديمقراطية التى هبت على «معظم بلاد أمريكا اللاتينية وشرق آسيا فى



هناك سبب أهم حتى من هذا،
يبرر الاهتمام بمسألة «تمكين النوع»
وهو ازدياد نفوذ الحركات النسوية فى العالم الغربى،
وأن أى تضمين لمثل هذا المؤشر فى التقرير العربى
سوف يضمن رضا المؤسسات الدولية
التى يصدر عنها التقرير



الثمانينيات وأوائل التسعينيات لم تصل إلى البلدان العربية بعد (ص٢). فهل أدخل واضعو التقرير فى حسابهم يا ترى انتشار الدعارة فى أوروبا الشرقية بعد سقوط الشيوعية، وهل اعتبروا ذلك دليلاً على زيادة الحرية أم نقصانها؟ وهل أخذوا فى اعتبارهم الموجة المكارثية الأخيرة فى أمريكا فى أعقاب ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وهل اعتبروها دليلاً على زيادة الحرية أم نقصانها؟

[٤]

الحقيقة التى يبدو أنها غابت تمامًا عن واضعى التقرير هى أن ما يسمى بالتنمية الإنسانية ليس له مقياس واحد صالح للتطبيق فى مختلف الثقافات، بل لابد من تطبيق مقاييس مختلفة لأن اختلاف القيم يؤدى إلى اختلاف مصادر الرفاهية ومصادر الاعتداء عليها، بل يؤدى إلى اختلاف مصادر الشعور بالكرامة الإنسانية ومصادر إهدارها. إن شيئًا قد يبدو واحدًا، وكان من الممكن الاتفاق عليه، (كزيادة تمكين المرأة أو توسيع قدراتها) له صور عديدة بتعدد الثقافات، كما أن لقهر المرأة والتضييق عليها صورًا عديدة بتعدد الثقافات أيضًا.

المرأة قد تشعر بالقهر لصعوبة حصولها على الطلاق فى بعض الثقافات، ولكنها قد تشعر بالقهر فى ثقافات أخرى بسبب السهولة التى يجرى بها الطلاق وتشتيت جمع الأسرة. المرأة قد تُقهر فى بعض الثقافات بسبب إجبارها على ارتداء ملابس لا تريد ارتداءها، لكنها قد تُقهر فى ثقافات أخرى لتعريضها لخلع ملابسها بأكثر مما ترغب فيه.

لهذا السبب قال عالم أنثروبولوجى مرة أن التعريف الذى يفضله للتنمية هو «زيادة قدرة المجتمع على تحقيق القيم التى يؤمن بها هذا المجتمع». أما هذا التقرير الذى نحن بصدده الآن، فإنه لا يترك لدى قارئه أى شك فى ماهية المعايير التى يستخدمها للتقدم والتأخر الإنسانى، وماهية القيم التى يعتبرها - دون غيرها - جديرة بالتحقق والاحترام. إنها ليست إلا المعايير والقيم التى يرضى عنها برنامج الأمم المتحدة للإنماء.

وهذا هو ما يجعل هذا التقرير مثالاً صارخًا للتغريب والاغتراب معًا، وهو مثال يصيب المرء منا بخيبة أمل مضاعفة لأن الأمر يتعلق هنا ليس بمجرد «نمو اقتصادى»، أى زيادة حجم السلع والخدمات، بل بشىء أعظم وأهم وهو ما يسمى «بالتنمية الإنسانية» الذى يفترض أن يتسع للاهتمام بالقيم والثقافة وآدمية الإنسان.

[٥]

بقيت ملاحظتان ختاميتان:

الأولى: تتعلق بتفسير صدور التقرير بكل هذه النقائص رغم كثرة الأسماء المرموقة التى وردت فى مطلع التقرير باعتبارها أسماء «المشاركين فى إعداد التقرير»، إما كأعضاء فى «الفريق الاستشارى» أو «الفريق الرئيسى» أو باعتبارهم «مؤلفين مشاركين» أى «معدى الأوراق الخلفية» أو من «فريق القراء» (وهى ترجمة للفظ إنجليزى معناه هنا من يطلب إليه قراءة التقرير بعد الانتهاء من وضعه لإبداء ملاحظات عليه بغرض تقويمه وإصلاح عيوبه).




والتفسير الذى أقدمه لهذا اللغز هو أن المعتاد فى كتابة مثل هذه البحوث المعدة بتكليف من هيئة دولية أن تترك درجة عالية من الحرية للمؤلفين الرئيسيين، أو للمؤلف الرئيسى ومعاونيه المباشرين، فى الأخذ أو عدم الأخذ بما يجرى إبداؤه من ملاحظات، وكذلك فى تحديد حجم الإفادة من الأوراق الخلفية. وكثيرًا ما يحدث ألا تستخدم هذه الأوراق الخلفية على الإطلاق، فيبقى الموقف الأيديولوجى (والسياسى) فى النهاية ليتحدد طبقًا لقرار المؤلف الرئيسى ومعاونيه المباشرين، ناهيك بالطبع عن المسئولين الكبار الذين قاموا باختيار المؤلف الرئيسى ابتداء، ولابد أن يقروا التقرير ويرضوا عنه فى صورته النهائية قبل أن يسمحوا بإصداره. الخلاصة إذن أنه من الممكن أن تظهر الصورة النهائية للتقرير فى شكل يفاجأ به كثيرون من هؤلاء «المشاركين» المرموقين مثلما فوجئنا نحن بالضبط.

والملاحظة الثانية والأهم، هى أن كل ما عبرت عنه فى هذا المقال لا يعنى رفض تقديم أى نقد أو اتهام للعرب، أفرادًا أو مؤسسات أو حكومات. إنما العبرة هى بالهدف من النقد والاتهام كما يتبدى من لهجة النقد وطريقة الاتهام، وهل يصب هذا النقد وذلك الاتهام فى نفس الوعاء الذى لا يكف المعادون لنهضة العرب والمسلمين عن ملئه. إن عيوبنا كثيرة وأخطاءنا عديدة، وأوجه التقصير من جانبنا لا نهاية لها، وفى كل ميدان من الميادين. ولكن الاعتراف بكل هذا شىء، وترديد الاتهامات بالحق والباطل بهدف الإذلال والإضعاف و«تمكين» الأجنبى منا، شىء مختلف تمامًا.

نحن نريد بالطبع أن ينهض العرب إنسانيًا ولكن على أن يكون هذا بطريقتنا وطبقًا لقيمنا الخاصة. نعم نحن نحتاج إلى نشر المعرفة، ولكن معايير التقدم فى هذا المجال كثيرة وليس أهمها استخدام الإنترنت والحاسوب.

نعم نحن نحتاج إلى رفع شان المرأة، ولكن ليس بالضرورة بزيادة عدد أصوات النساء فى مجالس نيابية لا تمثل أحدًا. لا النساء ولا الرجال ولا حتى الأطفال.

نعم نحن نحتاج إلى الارتفاع بالمستوى التعليمى، ولكن رفع مستوى تعليم اللغة العربية لا يقل أهمية عن رفع مستوى تعليم الإنجليزية أو الفرنسية، وهناك مقاييس لقياس مستوى التعليم والمعرفة أفضل بكثير من ذلك المقياس الذى ذرف واضعو التقرير من أجله الكثير من الدموع، وهو عدد الكتب المترجمة إلى العربية من الإنجليزية والفرنسية.

نعم نحن نريد حريات أكثر، ولكن ليس بالضرورة حرية الاختيار بين خمسين قناة تليفزيونية تذيع كلها نفس الكلام الفارغ وتقوم كلها بعملية مستمرة من غسيل المخ. ■

كتاب الزاوية

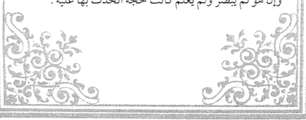
عمر بن عبد العزيز

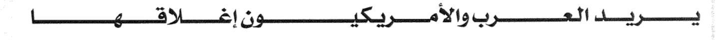
إنه قاسى من تكميم الأفواه أيام الوليد بن عبد الملك، فقد دخل السجن ثلاثًا وقد أصيب بأذى ووجع شديد فى رقبته لما اشتد فى نصحه للوليد وأمره أن يكف عن قتل المسلمين ومنع ولاته السفاحين من سفك الدماء لأوهى الأسباب. إنه ليدرك معنى الحرية السياسية، بل إنه ليرى أن الحاكم لا يركب موجة الطغيان إلا إذا أخرس الألسنة وحال بينه وبين الناصحين الراشدين.

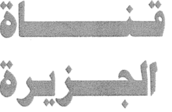
إن الخلافة ليست جلب مغانم ولا التسلط على رقاب الناس ولا علوًا فى الحياة، بل هى مسئولية جسيمة لا ينهض بها إلا أولو العزم من الرجال. وكان ابن عبد العزيز يستشعر خطرها فكان يقول: «فلعمرى ما ازددت علمًا بالولاية إلا ازددت لها مخافة ومنها وجلاً ولها إعظامًا، حتى قدر الله لى منها وقدر على ما قدر، فأنا أشد ما كنت لها استقتالاً، ثم أحسن الله حميد أعوانى وعاقبتى وعاقبة من ولانى أمره، فأصلح أمرهم وجمع كلمتهم».

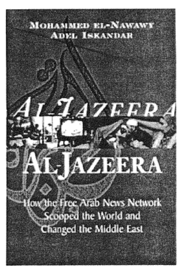
وعرف عمر أنه ما من حكومة رشيدة إلا وتقيم قوائمها على العدل، فكان أول ما فعله أن نحى الولاة الظلمة.

واختار قضاته من العلماء بما فى كتاب الله وبما مضت به السنة، وممن اتصفوا بالحلم والعفاف والمشاورة وعدم الاستبداد بالرأى. ولم يتركهم دون توجيه بل كتب إليهم كتابًا بين لهم فيه أصول الحكم: «.. فإذا حضرك الخصم الجاهل الخرق ممن قدر الله أن يوليك أمره وأن تبتلى به، فرأيت منه سوء نزعة وسوء سيرة فسدده ما استطعت وبصره وأرفق به وعلمه، فإن اهتدى وأبصر وعلم كانت نعمة من الله وفضلاً، وإن هو لم يبصر ولم يعلم كانت حجة اتخذت بها عليه.









«محزن أن يتخذ وزراء إعلام دول مجلس التعاون الخليجي قرارا بمقاطعة فضائية «الجزيرة» بما في ذلك مقاطعة الشركات التي تتعامل معها إعلانيا، ولو أن هذا القرار اتخذه وزراء الداخلية أو رؤساء أجهزة المخابرات أو حتى وزراء الخارجية لكان أمرا مفهوما».

صالح القلاب
وزير الإعلام الأردني السابق

أيمن الصياد

ضبط العربُ - أو نخبهم على الأقل - في نصف القرن العشرين مؤشرات أجهزة المذياع على «هنا لندن» وألفت آذانهم أصوات حسام أحمد شبلاق ومديحة المدفعي وحسن الكرمي صاحبَ «قول على قول». وأيامها - وربما للمرة الاولى - عرف المغربيون فيروز وناظم الغزالي. وعرف المشرقيون عبد الوهاب الدوكالي. وتعرف الجميع إلى الطيب صالح. ويومها أيضاً، اختلف العرب، وكان هذا طبيعياً - بحكم ضرورات مرحلة، ومقتضيات سياسة، وإرث تاريخٍ قريب - حول الـ BBC والتي هي في التحليل النهائي «بريطانية» اسما، وملكية. فشوشت على بثها حكومات، وأجهد الناس مؤشرات أجهزتهم كل ليلة في البحث عن إرسالها على الموجة «القصيرة» صعبة المنال.

لم يكد يرحل القرن العشرون الذي شهد نصفه الثاني العصر الذهبي للراديو، إلا وكانت الأقمار الصناعية المخصصة للبث الفضائي قد احتلت سماوات صُنفت «إعلامياً» لعقود على أنها المحيط المتلاطم «لموجات» الأثير. وشدت الشاشاتُ التي صارت ملونةً عيوناً كانت تَترُكُ للآذان - تقليدياً - مهمة التلقي للخبر والتحليل... والثقافة.

من منا لايذكر هذا الصباح البارد من يناير ١٩٩١ و«بيتر أرنت» مراسل الـ CNN يقف بجوار هوائياته على سطح فندق الرشيد في قلب بغداد. لينقل لنا «حرباً على الهواء» صوتاً وصورة.. وإبهاراً. يومها نعى البعضُ مرحلة الـ BBC وافتقد البعضُ بديلاً بالعربية، لغة ومضامين. وأدرك الجميعُ أن عصراً جديداً قد بدأ.

من رحم الـ BBC - وياللمصادفة أو المفارقة - وُلدت «الجزيرةُ» قبل سنوات ست، وقبل أن تنتقل بالتبني، أو الملكية، أو العتق «من الحرية.. أو إليها ربما».

aljazeera: How The Free Arab News Network Scooped The World And Changed The Middle East
الجزيرة: كيف أحرزت شبكة إخبارية عربية حرة السبق العالمي وغيرت الشرق الأوسط.
Mohammed El-Nawawy, Adel Iskandar
Westview Press (USA)

والقصة المعروفة للإجهاض والولادة مليئةٌ تفاصيلُها وملتبسةٌ بكل المفردات العربية: حساسية أنظمة.. وأموال نفط.. وحسابات مصالح.. ومنطق المؤامرة؛ نفترضه أحياناً ونروج له أحياناً أخرى. ويتلاقى كل ذلك حينا. ويتعارض في معظم الأحيان مع الاعتبارات المهنية المجردة.

أيًا ما كان أمر الميلاد والنشاة فالحاصل أن الجزيرةَ جاءت. واحتلت الشاشات العربية. بما هو - بكل المقاييس - غير مسبوق «مهنياً وسياسياً» وبكل ما هو صادم ومتجاوز لأبجديات الإعلام العربي المعتادة. جاءت الجزيرة لتلقي ربما - كما شعارها المتلفز - حجرا في الماء الراكد للإعلام العربي في العقد الأخير من القرن العشرين.

صخب الجزيرة وقصتها كانت موضوعاً لكتاب / دراسة صدرت قبل أشهر فقط (أبريل ٢٠٠٢) في الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن بات اسم القناة «العربية» على مدى العام الماضي مألوفا للمواطن الامريكي ومترددا على ألسنة ومانشتات الصحف. بعد أن هددها المسؤولون مرة ملوحين باتهامات الترويج للإرهاب اعتراضاً على ماتبثه عن الشأن الفلسطيني وأخبار القاعدة، الأمر الذي أثار يومها كثيراً من الاستغراب حول المفهوم الامريكي «الجديد» لحرية الإعلام.

يتحدث الكتاب في عجالة وتبسيط عن مجموعة من الصحافيين العرب في لندن الذين وجدوا أنفسهم بلا عمل بعد ان استغنى القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية عن خدماتهم بعد إغلاق تلفزيونه العربي. وفي نفس الوقت كان أمير قطر، الذي تولى الحكم في انقلاب ابيض، راغبا في انشاء محطة تلفزيونية خاصة به. تسهم ربما في إعطاء قطر الاسم الذي بات معروفا. ولابد من الاعتراف بأن القطريين، أو على الأقل العارفين منهم بقوة الاعلام في عالم اليوم قد نجحوا في ذلك. فشبه الجزيرة الخليجية تلك (تبلغ مساحتها ١١٤٣٧ كلم مربعا ويبلغ عدد سكانها قرابة ٦٠٠ الف نسمة يشكل المواطنون القطريون ١٠٠ ألف منهم) أصبحت محطة لحوارات ولقاءات ليست فقط تلفزيونية. فقبل أيام فقط كانت الدوحة / العاصمة مكانا لمؤتمر نظمه معهد بروكنجز للعلاقات الدولية حول العلاقات الأمريكية مع العالم الاسلامي.

العلاقة «الحتمية» بين الجزيرة وقطر غابت بعض تفاصيلها ربما عن الدراسة التي لا تجيب عن السؤال «المُلِح» والمزمن على ألسنة منتقدي القناة :«من يمتلك الجزيرة على وجه التحديد؟.. وما هي آليات اتخاذ القرار وتحديد السياسات؟وإن كان الواقع الإعلامي في منطقتنا يقول بوضوح أن مسألة الملكية الملتبسة ليست غريبة أبدا عن وسائل الإعلام العربية الرئيسة كلها. تتساوى في ذلك تلك التي تسمَت «بالقومية» أو الأخرى التي اختارت المهجر موطنا لها لتصبح «لندنية» إذا اخترنا الرجوع الى الأوراق القانونية الثبوتيه، أو «غير ذلك» إذا شُغلنا بمركز القوى وسلطة القرار.



وفي حين ينكر البعض أن القناة بوصفها إخبارية كان لها السبق الصحفي في أكثر من مناسبة معتبرين أن المسألة لا تعدو كون حفنة من الإرهابيين اختاروها لتكون منصتهم الدعائية. وهو الأمر المعروف على مدى التاريخ، يرى آخرون أن الأمر لم يكن أبداً بهذه البساطة. فرغم حقيقة تعاون مفترض من الذين رأوا أنها يمكن بالإمكانيات «المهنية» أن تكون ناقلاً جيداً ومؤثراً لآرائهم ومواقفهم، إلا أن الامر من وجهة النظر الاعلامية البحتة - لم يكن يخلو أبداً من «مهنية وحرفية» عالية.

كما أن القناة نجحت - اتفقنا أو اختلفنا معها - في أن تاخذ مكاناً مرموقاً بين منافسيها يعرف ذلك «يومياً» المراسلون الذين يتقدمون بطلبات لاختيارهم ضمن المجموعة الصحفية

انه لأمر مثبط للعزيمة أن نرى
مسـؤولين أمـريكـيين يتبـنـون
«تكتيكات مماثلة لأنظمة الحكم العربية التى سعت إلى التأثير
فى تغطية قناة الجزيرة للأخبار»

آن كـوبـر
المديرة التنفيذية للجنة حماية الصحفيين
الأمريكية فى نيويورك

المنتقاة لتغطية هذا الحدث أو ذاك. ويدركون مقدماً أن المكانين الأول والثانى محجوزان دوماً للـ CNN والجزيرة. والمنافسة انما تنحصر فيما خلا من أماكن بعد ذلك.

ويشهد بذلك طبعاً من شهد على شاشاتها حواراتها الخاصة مع زعماء العالم شرقاً وغرباً. ومن يعرف أن طلبها لإجراء حوار مع هذا الزعيم أو ذاك لا تتأخر الاستجابة له أكثر من أيام معدودة. يتساوى فى ذلك تونى بلير أو العقيد القذافى. والإعلاميون المتخصصون يعلمون معنى ذلك جيداً.

ورغم الاتفاق على مستوى الخدمة الإخبارية وحرفية البرامج الوثائقية والثقافية التى تقدمها الجزيرة، يبقى الخلاف ـ أو الاختلاف ـ حول برامجها الحوارية حادا وصاخبا. وربما سببًا وحيداً فى لائحة الاتهام الطويلة الموجهة الى القناة. والتى أشار إليها الكتاب حين وصف طريقة القناة بانها «مستفزة وعدائية وتصادمية ومثيرة للصراعات ومهيجة للمشاعر وهجومية».

ويرى بعض منتقدى الجزيرة ـ رغم ذلك ـ أن ليست لديها أجندة حقيقة، على عكس ما تتصور بعض الحكومات العربية، بل إدمان لنوع من صحافة الاثارة تشترك فى كثير منه مع التلفزيون الامريكى، يعتمد على أحداث الصدمة، ورفع درجة الحرارة للحصول على عدد أكبر من المشاهدين.

وفى حين يبالغ مؤلفا الكتاب فيعتبرون أن «الجزيرة» غيرت الشرق الاوسط. يبقى المثير أن كتابات صحفية (انتقدت الكتاب والمحطة معا) وتصف الجزيرة بالديماجوجية والإثارة وإشاعة الفرقة، تنتقد الفضائية العربية من زاوية أنها لم تنجح فى احداث أى تغيير «فالشرق الاوسط بقى كما هو ولم يتغير، ومازالت الحكومات نفسها باقية فى السلطة».

والمثير أيضا أنه ورغم التصريحات الأمريكية الرسمية التى تتهم الجزيرة بالتواطؤ مع تنظيم القاعدة و «إذاعة رسائل مشفرة لقادته» يقترح مؤلفا الكتاب على واشنطن استخدام «الجزيرة» لكسب قلوب العرب وتاييدهم بدلاً من «إنفاق أموال طائلة فى شبكة تلفزيونية إذاعية باللغة العربية كجزء من حربها على الإرهاب».. معتبرين ـ والعهدة هنا على صاحب الرأى ـ أنها الأنسب لحمل هذه المسؤولية.. «وهى جاهزة ومستعدة لها»!!

وكان الاهتمام بقناة الجزيرة قد تعاظم فى الولايات المتحدة فى أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر. وبسبب انفرادها باذاعة بيانات بن لادن وغيره من زعماء القاعدة. ثم سرعان ما أصبحت مثار قلق بالغ بسبب تغطيتها الإعلامية للحرب على أفغانستان، فى الوقت الذى تحاول فيه الحكومة الأميركية تقليص مساحة الحرية الإعلامية لنقل أخبار القصف اليومى.

يومها قالت المديرة التنفيذية للجنة حماية الصحفيين الأمريكية فى نيويورك آن كوبر إنه لأمر مثبط للعزيمة أن نرى مسؤولين أمريكيين يتبنون «تكتيكات مماثلة لأنظمة الحكم العربية التى سعت إلى التأثير فى تغطية قناة الجزيرة للأخبار».

ويومها اعتبرت الواشنطن بوست أن «الجزيرة دولة عاصمتها قطر». وقالت فى تقرير لها إن قناة الجزيرة وضعت قطر على الخارطة بشكل لم تكن عليه من قبل، بعد أن تمكنت من الوصول إلى ٣٥ مليون مشاهد وبشبكة مراسليها على نطاق العالم بدءا من كابل حتى لندن وواشنطن، وأنها ربما حققت شهرة أكبر من الدولة التى تعمل منها. وأن هذا يرجع ـ حسب البوست ـ إلى أنها تبث فى منطقة لم تعتد الحرية. وأنها خلال مدة وجودها القصيرة نجحت فى إثارة كل شخص تقريبا بدءا من وزارة الخارجية الأمريكية وانتهاء بالأصوليين المسلمين والسعودية والدول العربية المحافظة فى الخليج.

يومها أيضا تناولت صحيفة نيويورك تايمز فى افتتاحية لها الرقابة على وسائل الإعلام وتعرضت فيها لقناة الجزيرة، وقالت الصحيفة إن إذاعة صوت أمريكا والمفترض أنها هيئة مستقلة، تمولها الحكومة الأمريكية، وهى فى الوقت نفسه معرضة لضغوط الكونجرس وضغوط وزارة الخارجية، مما يجعل استقلاليتها بالضرورة محل تساؤل.

وكانت صوت أمريكا وقد أجرت مقابلة مع الملا محمد عمر، ورغم أن المقابلة كانت وبلا شك مادة إعلامية تستحق البث فإن وزارة الخارجية طلبت من الإذاعة عدم بثها، وقد ترددت الإذاعة عدة أيام قبل أن تكتفى بوضع مقتطفات من المقابلة فى تقرير مطول. وقد أدى الجدل حول الواقعة كلها إلى جدل حول استقلالية ومن ثم مستقبل إذاعة صوت أمريكا ذاتها.

وفى الوقت الذى كان وزير الخارجية كولن باول يعرب «بصراحة» لأمير قطر عن قلقه من التعبيرات المثيرة التى تبثها محطة الجزيرة التلفزيونية. طالبا منه عمل مايمكن «لكبح جماحها». كانت افتتاحية الواشنطن بوست تعتبر أن أكثر ما يقلق فى عمل الجزيرة هو أنها عادة ما تكون فى أخبارها متحاملة على إسرائيل وعلى الولايات المتحدة. ناصحة المسؤولين فى الخارجية الأمريكية بالتفكير «والحال هكذا» فى إنشاء محطة بث تلفزيونى باللغة العربية، تستطيع منافسة الجزيرة وتكون فى مستواها التقنى ذاته.

ويبدو أن الفكرة، أو على الأقل التوجه، لم تكن بعيدة عن فكر الإدارة الأمريكية التى خصصت ملايين من الدولارات لتحسين الصورة الأمريكية لدى العرب «نريدهم أن يفهمونا». وتمثلت أولى الأدوات فى إنشاء إذاعة SWA بدلاً من «صوت أمريكا» الشهيرة. والتى بدأت إرسالها فعلاً بخمس لهجات مختلفة. معتمدة تقسيماً ثقافياً «خماسياً» للعالم العربى: خليجى، خليجى، عراقى، شامى، مصرى.. ومغاربى. والنتيجة أن المتابع لـ SWA يكتشف كيف أن الأمريكيين هم الذين بحاجة إلى فهم الذين يحاولون مخاطبتهم.



وبغض النظر عن الكتاب الذى يبدو فى بعض أفكاره «ترويجيا». كما يؤخذ عليه ماتضمنه من ادعاءات يصعب إثباتها. وتضعه فى مربع الغموض والالتباس ذاته الذى كثيرا ماتدخله الفضائية العربية، يبقى لافتا أن الجزيرة متهمة طوال الوقت بالتواطؤ «والعمالة». فحين أذاعت (فجاة) فى أوج الاجتياح الإسرائيلى شريطاً لأحد منفذى هجمات سبتمبر يرتدى الكوفية الفلسطينية، ويعترف بمسئولية القاعدة، اتُهمَت بالعمالة لإسرائيل و أمريكا. وأنها استهدفت لفت الأنظار عن جرائم شارون. فى الوقت الذى كانت واشنطن تطالب فيه رسمياً بكبح جماح القناة مهددة بمعاقبتها لموقفها المتحيز من إسرائيل ولتحريضها على العنف والإرهاب فى الاراضى الفلسطينية.

وحين أتاحت الفضائية الإخبارية «كل الفرصة» لإذاعة بيانات القاعدة اتُهمَت بالتواطؤ معها. والسماح بإذاعة تعليمات قادتها «المشفرة» إلى قواعدهم. فى حين لم تسلم من اتهامات عربية مستمرة بأنها أداة للاستخبارات الأمريكية. التى تبدو بصمات أصابعها ـ حسب قول مسؤول خليجى ـ فى الكثير مما تبثه هذه القناة.

الجدل حول القناة والبحث فى توجهاتها (فى عالمنا العربى يعتبرون أن التوجه دائماً سابق للمهنية المجردة) امتد إلى ساحات الحوار العربية على الإنترنت. لدرجة أنك إذا جربت استخدام محرك بحث مثل Google للبحث عن الكلمة: «الجزيرة» على الإنترنت لوجدت عجباً. ولدرجة أن الموضوع / الجزيرة احتل منفرداً كل ساحات الحوار العربية على الشبكة الدولية يوم أن (أعلن) الأمريكيون أنهم اعتقلوا رمزى بن الشيبة. وكان ذلك قبل يوم واحد فقط من بث مقابلة معه على القناة / اللغز(تبين بعدها أن الحوار أجرى قبل أشهر من تاريخ الإعلان عن اعتقال القيادى فى تنظيم القاعدة).



أيًا ماكان الأمر تبقى حقيقة أن «الجزيرة» ـ رغم كل المآخذ وتشابك الخيوط الغامضة ـ دفعت الإعلام العربى كله، شكلا ومضمونا، دفعة قوية إلى الأمام. وسلحت الجميع بجرأة ربما جاوزت حدود التهور. وأن تقنياتها وحرفية العاملين فيها حثت باقى المحطات العربية على احتذائها. وأنها نجحت فى إزالة عائق اللهجة باعتمادها الدائم للغة عربية سليمة. وأنها الأولى التى ألغت من عناوينها الرئيسية أخبار الزيارات البروتوكولية للرؤساء والحكام و استقبل وودع.

ويبقى أن الجزيرة، وإن أغضبت الجميع؛ عربا وإسرائيليين وأمريكيين وفلسطينيين، الا أن ذلك «الجميع» يحرص على متابعتها. وتبقى حقيقة أن موقعها على الإنترنت يزوره سبعة ملايين زائر شهريًا.

ويبقى أن الزميل القديم صالح القلاب الذى كان وزيراً لحكومة خاصمت الجزيرة ـ مثلها مثل حكومات عربية كثيرة ـ قبل أن يعود إلى القلم «صحفياً» كان على حق. فقرار التضييق على وسيلة «إعلام» لا يليق فى الأرجح بوزراء إعلام.

قــــــــــــراءات جـــــــــــديــدة

اقتصاد

اقتصاديات الوقت الضائع

عبدالخالق فاروق

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٢

تضمنت الدراسة جانبين مهمين أحدهما ميداني والثاني إحصائي، وتشير الاستخلاصات النهائية إلى أن أكثر من ثلث ساعات العمل اليومية يضيع في قراءة الجرائد واستقبال الزوار، أو في الجلوس دون عمل حقيقي، وتشير كذلك إلى الخسارة المتحققة من جراء إهدار الوقت بهذه الطريقة والتي تنعكس بالسلب على المستقبل.

■■■

مستقبل الجنوب في عالم متغير

سمير أمين

القاهرة: مركز البحوث العربية ودار الأمين للنشر، ٢٠٠٢

الفكرة الأساسية التي يطرحها المؤلف هنا تدحض الخلاف الأيدلوجي السائد الذي يمجد الليبرالية في شقها الاقتصادي، بوصفها وصفة مضمونة لتحقيق ازدهار اقتصادي يستفيد الجميع منه، كما أنها تكرس على الصعيد السياسي لمفاهيم الديمقراطية داخل المجتمعات وتوطّد علاقات سلمية على الصعيد العالمي.

المؤلف يرى أن الليبرالية فعلت العكس تمامًا، ركود اقتصادي وتفاوت متزايد في توزيع الثروة وتفاقم مظاهر الفقر والتهميش الاجتماعي وتآكل شرعية النظم السياسية، وتحولت إدارة النظم من الأساليب السلمية المتعارف عليها، إلى أشكال من العنف البوليسي العسكري.

■■■

The Mind and the Market: Capitalism in Modern European Thought

(الذهن والسوق: الرأسمالية في الفكر الأوروبي الحديث)

Jerry Z. Muller

Knopf, 2002, 448PP, $ 30.00

يبين المؤلف، وهو أستاذ في تاريخ الفكر الاقتصادي، كيف أن شعارات المناهضين للعولمة ليست أمرًا جديدًا وإنما هي مخاوف أساسية لازمت المفكرين الأوروبيين منذ أن شهدوا صعود الرأسمالية الحديثة، فحتى أهم من نادى باقتصاد السوق ومميزاته من المفكرين الكبار أمثال آدم سميث وجوزيف شومبيتر عبروا عن الآثار السلبية المتخوفة من نمو رأسمالية السوق.

■■■

Global Woman: Nannies, Maids, and Sex Workers in the New Economy

(المرأة المتعولمة: المربيات والخادمات وبائعات الهوى في الاقتصاد الجديد)

Barbara Ehrenreich & Arlie Hochschild (editors)

Holt/Metropolitan, 2002, 288PP, $25.00

الخادمة الفلبينية في هونج كونج ودول الخليج، والمربية اللاتينية في الولايات المتحدة، وبائعات الهوى في تايلاند، وعقود الزواج العابرة للقوميات.. كلها مظاهر الجانب الخاص بالمرأة في العولمة الاقتصادية. فالعمل الذي تقوم به هؤلاء النساء يعد مصدرًا رئيسيًا للعملة الصعبة في بلادهن، وقد أصبحن سلعة مطلوبة في الدول المتقدمة التي طالما اعتمدت على استيراد الموارد الطبيعية من العالم الثالث. وسلعة اليوم هي «الفلاحة السعيدة» التي تقوم بالخدمات الجنسية، وتربية الأطفال الصغار، والعناية بالعجائز.

بيئة

تلوث الهواء.. القاتل الصامت

حسن أحمد شحاتة

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

تسبح كثير من المواد السامة في الهواء الذي نتنفسه، وهي ناتجة عن عوادم السيارات والغازات المنبعثة من المصانع والأبخرة المتصاعدة من المحارق وغيرها.

المؤلف يحلل تركيب الغلاف الغازي المحيط بالأرض ودوره المهم في الحفاظ على الصحة، وكيف يمكن الإبقاء على هذا الغلاف الجوي لأهميته باستخدام بدائل أخرى للطاقة، وهي بدائل أكثر نظافة وأقل ضررًا مثل الطاقة الشمسية وغيرها.

تاريخ

متون الأهرام المصرية القديمة

ترجمة: حسن صابر

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

إطلالة على أقدم النصوص الدينية على الإطلاق وهي النصوص المصرية القديمة التي وجدت في غرف الدفن داخل الأهرامات المصرية، وهي النصوص التي اشتملت على دراما وترانيم وابتهالات ونصوص سحرية وأخرى شعائرية وطقوسية.. إلخ.

■■■

1421: The Year China Discovered the World

(١٤٢١: عام اكتشاف الصين للعالم)

Gavin Menzies

Bantam Press, 2002, 389PP, £20.00

يقدم الأدلة على أن الصينيين - وليس الأوروبيون - كانوا أول المستكشفين البحريين في العالم. ففي الثامن من فبراير من عام ١٤٢١، أبحر أكبر أسطول بحري شهده العالم من قاعدته في الصين في مهمة «الوصول إلى آخر الأرض لجمع الغنائم من البرابرة فيما وراء البحار وتوحيد العالم كله في ظل التجانس الكونفوشي».

استمرت الرحلة عامين دار فيها الصينيون حول العالم، ولكن عند عودتهم كان الامبراطور قد سقط من السلطة ودخلت الصين في عصر العزلة الذي فرضته على نفسها. وهكذا دمرت سجلات الرحلة كما تركت السفن في مرساها حتى أصابها العفن. ولم يدرك العالم أن السفن الصينية وصلت إلى أمريكا قبل كولومبوس بسبعين عامًا، ودارت حول العالم قبل ماجيلان بقرن كامل. كذلك يتضح أنهم اكتشفوا أنتاركتيكا ووصلوا إلى أستراليا قبل «كوك» بثلاثمائة وخمسين عامًا.

■■■

A Secret History of the IRA

(التاريخ السري للجيش الأيرلندي الجمهوري)

Ed Moloney

Norton, 2002, 512PP, £ 28.95

يؤرخ هذا الكتاب لحركة الجيش الأيرلندي الجمهوري بالتركيز على الدور المحوري لجيري أدامز الذي استطاع أن يحول فكر وعمل المنظمة من حمل السلاح إلى مفاوضات التسوية مع العدو البريطاني.

يبدأ مولوني - وهو صحفي أيرلندي - كتابه بعام ١٩٦٩ الحاسم الذي انشقت فيه المنظمة، ثم يتتبع مراحل صعود جيري أدامز في الجيش الجمهوري الأيرلندي المؤقت، من العمل العسكري إلى قيادة الجناح السياسي، ومفاوضات السلام السرية التي قام بها مع الحكومتين البريطانية والأيرلندية. يركز مولوني على السياسات الداخلية للمنظمة، وتظهر صورة جيري أدامز في كتابه شخصية ماكيافيلية لا تتورع عن التضحية بالرفاق المناضلين في سبيل تحقيق نصر سياسي أشمل.

دوريات

الآداب

رئيس التحرير: سماح إدريس

بيروت: دار الآداب

يخصص العدد الجديد من مجلة الآداب ملفًا كاملاً عن فنان الكاريكاتير الفلسطيني ناجي العلي يكتب فيه مريد البرغوثي وسليمان الشيخ وفيصل دراج وبشير الديك وأحمد مطر وجورج بهجوري وآخرون، كما يشارك برسومه محمود كحيل ويوسف عبدلكي ومحمد الزواوي ومحمد حاكم وعبدالله الدرقاوي وعمرو سليم وضياء العزاوي وغيرهم من الرسامين العرب.

يتضمن العدد أيضًا حوارًا مع الطاهر لبيب أجراه ماجد السامرائي في تونس تحت عنوان المثقف، دوره وصوره وتحولاته.

وفي قسم الأبحاث دراسات عن العرب والحركة السياسية الناشئة في العالم لقاسم عزالدين، القدرات الصاروخية العربية والإسلامية لكمال مساعد، ثم كي لا يطرد الفلسطينيون من جديد، إضافة لعدد من القصائد والقصص وقراءات في ملف العدد السابق من المجلة، أما ندوة المجلة فهي عن الإرهاب وعالم ما بعد ١١ سبتمبر ويشارك فيها صادق جلال العظم وبرهان غليون ويوسف سلامة.

■■■

الجينات والمرض النفسي

باحثون

بيروت: مركز الدراسات النفسية والجسدية، ٢٠٠٢

ملف خاص في العدد يبحث في العلاقة بين الاضطرابات الجينية والأمراض النفسية ويطرح سؤالاً وثيق الصلة بأحداث عالمنا المعاصر من السيكولوجيا وصراع الحضارات، كما يتضمن حوارًا مع مؤلف كتاب الثلاثاء الأسود. إضافة إلى موضوعات أخرى عديدة مما يدخل تحت عنوان دراسات نفس سياسية، فضلاً عن عروض لعدة كتب.

■■■

الفن المعاصر

فوزي فهمي

القاهرة: أكاديمية الفنون

في عددها الرابع تقدم هذه الدورية التي تعنى بترجمة الجديد في الفنون المعاصرة والثقافة ترجمات لدراسات عديدة في الفنون المختلفة. منها في المسرح: العرض بوصفه تعبيرًا مجازيًا لبيرت أو. ستيتس، وفي السينما: الجنون في السينما بقلم جوزيبي برايديزو، وفي الموسيقى: الموسيقى والزمن الفعلي لبيتر سنيدي، وفي الرقص: أجسام حية آلات حية ليوهانس برنجر، وفي الفنون التشكيلية: الركائز البيئية للأيقونية بقلم جوران سونسون، وغيرها من الدراسات في النظريات النقدية والثقافية وفنون الاتصال والإبداع.

■■■

أمكنة

باحثون وصحفيون

الإسكندرية: خاصة، ٢٠٠٢

عدد جديد من هذه الدورية غير منتظمة الصدور والتي يصدرها مجموعة من الشباب بجهود ذاتية تعبر عن وعي وفهم وموهبة في الكتابة والتصوير والمتابعة، وهي مجلة تعنى في الأساس بالعلاقة بين الإنسان والمكان في تجلياتها المختلفة، وهذا العدد يقدم بانوراما شاملة عن حال الفلاحين في العصر الحالي، وتأثير التحولات الاقتصادية العالمية والسياسات الحكومية المحلية على أوضاعهم، وتأثير ذلك كله على المكان، هل مازالت البيوت كما كانت، هل مازالت علاقة الفلاح بقريته كما كانت قبل عشرين سنة مثلاً، هل مازالت القرية كمفردة مهمة في علاقات المكان والجغرافيا تمثل المكانة ذاتها في منظومة التحديث كما كان عليه الحال قبل نصف قرن مثلاً.

دين

الحرية في الإسلام.. الضرورة المحظورة

نشأت جعفر

على نفقة المؤلف، ٢٠٠٢

وضع الإسلام ضوابط شرعية وأخلاقية لمفهوم الحرية التي كفلها وكانت أعظم ما انطوت عليه رسالته التي حررت الأفراد من العبودية لإلاله سبحانه وتعالى وهذه أسمى معاني الحرية، التي لا تتحقق إلا بمحاربة هوى النفس ونوازع الشر والشهوة والتعصب، والحرية تحتاج إلى

يقظة ومجاهدة وتضحية، وفهم صحيح لمعناها ومراميها والمقاصد الشرعية التي تقف وراءها، هذه هي الحرية في الإسلام كما بينها المؤلف.

■■■

مقولات في فقه الموقف

سلمان بن فهد العودة

الرياض: دار المحقق للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢

يطرح الكتاب خمس مقولات وتحت كل منها عدة تساؤلات يسعى للإجابة عليها، المقولة الأولى عن مفهوم الفقه وغرض الفقيه، وفيها إجابة عن أسئلة من نوع: ماذا تعنيه كلمة الفقه لدى المختصين، وكيف توازن بين الأحوال المتعددة للنفوس وبين مصالح الأمة في دعوتها وجهادها، والمقولة الثانية عن مفهوم الاجتهاد في الموقف الشامل وأدب أهل الاجتهاد فيه، والثالثة عن حقيقة الخلاف الذي أقرته الشريعة، ويجيب فيه المؤلف عن أسئلة من نوع: هل الخلاف والنزاع محمود، وهل يمكن اتفاق العلماء في سائر مواطن الاجتهاد، والمقولة الرابعة عن الموازنة بين القصد والولاء وبين الفقه والتصور، والخامسة عن التفاضل والتكاليف.

■■■

What Everyone Needs to know about Islam

(ما ينبغي لأي شخص أن يعرفه عن الإسلام)

John L. Esposito

Oxford University Press, 2002, 244PP, $17.95

أنشأ جون إسبوزيتو مركزًا للتفاهم المسيحي الإسلامي في جامعة جورجتاون، وهو خبير في الدراسات الإسلامية والإسلام السياسي، ومنذ أحداث ١١ سبتمبر زاد الطلب على كتبه في أمريكا وأصبح يدعى باستمرار لإلقاء المحاضرات المختلفة للتعريف بالإسلام بصورة يرضاها غالبية المسلمين. هذا الكتاب أعده إسبوزيتو بشكل مبسط في شكل أسئلة وأجوبة لكي توفر المعلومات الأساسية للشخص العادي الذي لا يعرف شيئًا عن الإسلام.

■■■

When Religion Becomes Evil

(عندما يتحول الدين إلى شر)

Charles Kimball

Harper San Francisco, 2002, 235PP, $21.95

حصل تشارلز كمبال على درجة الدكتوراة من هارفارد في الدراسات الإسلامية، وهو الآن قس بروتستانتي وأستاذ في تاريخ الأديان، وقد خدم من قبل في منصب مدير مكتب الشرق الأوسط بمجلس الكنائس الوطنية. في هذا الكتاب يتناول كمبال مجموعة من الأديان ولكن بالتركيز على الإسلام والمسيحية ليبين كيف يمكن أن تتحول ممارسة الدين إلى شر، حيث يعتقد أن أي دين يمكن أن يكون حافزًا للخير وللشر. وهو يقدم خمسة مؤشرات تنذر بأن أصحاب دين ما يتجهون به إلى الشر: أولاً: عندما يؤكد أصحاب دين ما أنهم يملكون السبيل الوحيد إلى الله والتفسير الوحيد الصحيح للنصوص المقدسة، ثانيًا: الطاعة العمياء للقادة الدينيين، ثالثًا: الاعتقاد بعلامات معينة لنهاية العالم، رابعًا: استخدام وسائل شريرة لتحقيق غايات دينية، وخامسًا: إعلان الحرب المقدسة.

«رحلات»

أمريكا من الداخل

إبراهيم عبدالرسول

القاهرة: على نفقة المؤلف

يصنف المؤلف كتابه ضمن أدب الرحلات، وقد سبق له أن قدم كتابًا في هذا الفن الأدبي ذاته هو «مصريون فوق جبال الألب» سجل فيه مشاهداته لبعض دول أوروبا التي زارها، أما في هذا الكتاب فهو يسجل مشاهداته وانطباعاته عن الولايات المتحدة الأمريكية بعد ٥٠٠ عام على اكتشافها.

■■■

Without Reservatios: The Travels of an Independent Woman

(بدون تحفظات: رحلات امرأة مستقلة)

Alice Steinbach

Random House, 2002, 320PP, $ 13.95

قررت صحفية أمريكية ـ حائزة على جائزة بوليتزر ـ أن تترك الروتين اليومي لعملها وتسافر في رحلة طويلة إلى أوروبا من أجل إعادة اكتشاف ذاتها وحياتها. هذا الكتاب يحتوي على خلاصة تجاربها ومغامراتها في فرنسا وإنجلترا وإيطاليا، وهي تبدأ كل فصل من كتابها ببطاقة بريدية ترسلها إلى نفسها، فيها أهم ما شاهدته في المدينة المذكورة، وأهم ما تعلمته وما تغير فيها بفضل هذه الزيارة.

«روايات وقصص»

تقارير السيدة راء

رضوى عاشور

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

لوحات قصصية ترسم جوانب من سيرة المؤلفة، وتتعرض لأحداث حميمة حياتية، وبينها ذكريات عن أيام عاشتها المؤلفة متنقلة بين بريطانيا وأمريكا وإسبانيا، وكذلك علاقتها مع الإبداع والكتابة.

■■■

I Don't know How She Does It: The Life of Kate Reddy, Working Mother

(حياة كيت ريدي، أم عاملة)

Alison Pearson

Knopf, 2002, 332PP, $23.00

صدرت هذه الرواية في بريطانيا منذ عدة أشهر والآن تحقق نجاحًا كبيرًا في الولايات المتحدة، بعد أن جذبت أقلام النقاد وأرقام المبيعات معًا. بل إنه قد تم بيع حقوق تحويلها إلى فيلم سينمائي، فهي على غرار «مذكرات بريجيت جونز» تدور حول سيدة تكتب مذكراتها ولكنها في هذه المرة ليست فتاة تبحث عن الحب والزواج، وإنما زوجة وأم لطفلين وموظفة لامعة في شركة مالية كبيرة في لندن. وبالتالي تواجه صعوبات يومية (ضاحكة/باكية) في محاولتها لتحقيق التوازن بين واجباتها كأم وزوجة وبين طموحاتها العملية.

■■■

Dar El Salaam

(دار السلام)

Tara Kai

Bridge Works, 2002, 240PP, $24.95

رواية تدور أحداثها في عاصمة تانزانيا حيث تذهب أسرة بريطانية لقضاء عطلة، فتقع الابنة المراهقة «تاتوم» في غرام «محمد» صديق والدها الهندي الأصل والذي يبلغ من العمر ٤٠ عامًا.

■■■

Baudolino

(بودولينو)

Umberto Eco

Secker & Warburg, 2002, 522PP, $10.00

رواية تاريخية، أسطورية من تأليف الكاتب الإيطالي الشهير أمبرتو إكو، تدور أحداثها في القرن الثالث عشر في مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، وبالتحديد في أبريل من عام ١٢٠٤ عندما هاجمها وحرقها فرسان الحملة الصليبية الرابعة.

«سياسة»

الأفكار والأسرار ١١ سبتمبر ٢٠٠١

محمد قدري سعيد. عبدالمنعم سعيد

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٢

سيظل ما جرى في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ عالقًا في أذهان الأمريكيين وذاكرتهم، ومؤثرًا عليهم وعلى العالم كله لسنوات طويلة مقبلة، ما جرى كان أشبه بالخيال أو ما فوقه، لكن تداعياته التي بدأت بالهجوم الأمريكي الكاسح على أفغانستان، وتستمر في العراق وفلسطين لا يمكن التنبؤ بها دون أن تكون الإجابة واضحة تمامًا عن من فعلها.

والكتاب ينقسم إلى ثلاثة أجزاء، يناقش الأول منه الحدث ذاته ويرده إلى عناصره الأولية ويناقش ما سبقه وما لحقه من تطورات. والثاني يعود إلى الأطراف المباشرة المحرِّكة للحدث سواء كانت طالبان أو تنظيم القاعدة من جانب أو اليمين الأمريكي المسيطر على الإدارة الأمريكية من جانب آخر.

أما القسم الثالث فيعيد صياغة الحدث وفق أربع قضايا رئيسية هي: «العولمة وصراع الحضارات» و«الأصولية الإسلامية» و«الفكر العسكري» و«الصراع العربي الإسرائيلي».

■■■

الأمة والدولة في الوطن العربي نظرة تاريخية

يوسف الشويري

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢

يسلط الكتاب الضوء على جهد سياسي ونضالي كبير سعى فيه عدد من رجالات الأمة منذ القرن التاسع عشر إلى إعادة هيكلة الوطن العربي وتوحيده بوسائل عدة، وقد طرح هذا الجهد فكرة القومية العربية باعتبارها حركة طمحت إلى مقاومة الاستعمار وصد الاختراق الاستعماري الأوروبي في ذلك الوقت، وقد حققت الحركة نجاحات مهمة وتعرضت أيضًا لانتكاسات خطيرة في مواجهة التكتل الاستعماري الذي استهدف تفتيت وحدتها وإفشال محاولاتها للوحدة.

■■■

الحلم المصري أي مصر نريدها؟

رضا هلال

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢

يستعير المؤلف ما قاله رفاعة الطهطاوي في أوائل القرن التاسع عشر حين سُئل عن مصر التي يريدها فاجاب: أن تكون مكان سعادتنا أجمعين نبنيه بالحرية والفكر والمصنع.

والمؤلف يراها كذلك ولا يرى مستقبلاً لها إلا إذا أخذت بالليبرالية في شقيها السياسي والاقتصادي، وأن على الدولة دورا مهما هو استكمال تحديث الاقتصاد والسياسة لا تعويقهما تحت أي دعاوى.

الكتاب يتضمن عشرات المقالات التي نشرها المؤلف في الفترة الأخيرة جمعها تحت سبعة عناوين كبرى هي: مصر التي نريدها وتناقضات الحلم المصري ومصر وإسرائيل وجماعة بن لكن ومصلحة مصر والحربجية ومكانة مصر والخوف من العولمة ومصر وتغيير العالم بعد ١١ سبتمبر.

■■■

العلاقات العربية الأوروبية

سمير أمين. على الكنز

منير الحمش. مصطفى الجمَّال

القاهرة: مركز البحوث العربية ودار الأمين، ٢٠٠٢

يمثل هذا الكتاب قراءة نقدية عربية للعلاقات العربية الأوروبية، وهو يضم خلاصة ندوة عقدت في أبريل من العام الماضي في الموضوع، وشارك فيها مثقفون عرب وقدمت فيها أوراق بحثية دارت حول المشروع الأورومتوسطي بين الواقع والخيال والإقليمية والأورومتوسطية وبدائلهما، فضلاً عن تعقيبات على أفكار عديدة في الموضوع.

■■■

ملف التعويضات المصرية من إسرائيل

رجب عبد المتولي. منال مصطفى غانم

القاهرة: على نفقة المؤلفين، ٢٠٠٢

يرى المؤلفان أن هذا الملف لا يجوز إغلاقه بعدما تأكدت الجرائم الإسرائيلية في حق الأسرى المصريين، فضلاً عن الأضرار المادية الرهيبة التي لحقت بالمناطق التي كانت تحت الاحتلال، ويشير المؤلفان إلى استفادة إسرائيل القصوى مما لاقاه اليهود على يد النازي في أثناء الحرب العالمية

قـــــراءات جـــــديدة

الثانية وسعيهم إلى تضخيم المأساة واختراع أكاذيب تسوغ لهم الحصول على معونات وتعويضات هي التي أقامت الاقتصاد الإسرائيلي وهي التي تحافظ على بقاء دولتهم حتى اليوم.

■■■

من داخل إسرائيل الآن ومنذ نصف قرن
تحرير: عماد جاد
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

يقدم الباحثون في ثمانية فصول الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية داخل دولة إسرائيل، فيتناولون الصراع الإسرائيلي الفلسطيني وتأثيره على مستقبل إسرائيل والاقتصاد الإسرائيلي، وانتشار المجتمع الإسرائيلي على سياسات حكومته، والتعليم والتطور التكنولوجي في إسرائيل والقدرات العسكرية الإسرائيلية والتهديد الذي تمثله على جيرانها، وعلاقات إسرائيل الخارجية سواء مع العرب أو مع الغرب.

■■■

God, Oil and Country: Changing the Logic of War in Sudan
(الله والبترول والبلد: تغيير منطق الحرب في السودان)
by: International Crisis Group
International Crisis Group, 2002, 274PP, $15.00

التقرير يتوجه لصناع القرار السياسي في الدول الغربية، يحثهم على استغلال الوضع الحالي في السودان بعد أحداث ١١ سبتمبر لإنهاء الحرب الأهلية الدامية هناك. ففي ظل الضغوط الأمريكية على السودان للتعاون معها في محاربة الإرهاب، وفي ظل رغبة الخرطوم في التمتع بعوائد اكتشافاتها البترولية الجديدة، أصبح الآن هناك صراع في داخل الحزب الإسلامي الحاكم بين المتشددين والمعتدلين.

"سير ومذكرات"

ابن منظور مؤلف لسان العرب
أبو القاسم محمد كرو
تونس: دار المغرب العربي، ٢٠٠٢

يأتي هذا الكتاب ضمن سلسلة رواد منسيون ويتناول سيرة ابن منظور أو ابن المكرم مؤلف المعجم الكبير «لسان العرب»، والمؤلف يحقق في روايات مولده ونشأته، ثم من تتلمذ عليهم من المشايخ والكتب التي ألفها ومنها كتاب مختار الأغاني في الأخبار والتهاني وهو مختصر لكتاب الأغاني للأصفهاني، وأخبار أبي نواس ونثار الأزهار في الليل والنهار وسرور النفس بمدارك الحواس الخمس ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر فضلاً عن عدد من المخطوطات والكتب المفقودة الأخرى، أما أشهر ما ألفه على الإطلاق فهو معجم لسان العرب.

■■■

عبدالقادر القط ذكريات عمر
عبدالبديع عبدالله
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

منذ ما يزيد على نصف قرن، لم تنقطع إسهامات الدكتور عبدالقادر القط النقدية ومتابعاته للحياة الأدبية وإفرازاتها شعرًا ونثرًا، وبرغم أنه رومانسي النزعة ـ كما يقول المؤلف ـ فقد ساند حركة الشعر الحر ودعم مواهب ممثليها في مصر من أمثال صلاح عبدالصبور وزملائه.

وقد ترجم الدكتور القط عديدًا من الكتب المهمة، وأشرف على عشرات الرسائل الجامعية ورأس تحرير مجلات المسرح وإبداع وكانت بصمته في كل منها واضحة حتى رحل عن دنيانا مؤخرًا.

■■■

Elizabeth Taylor: My Love Affair With Jewelery
(إليزابيث تايلور: قصة غرامي مع المجوهرات)
Elizabeth Toylor
Simon & Schuster, 2002, 240PP, $65.00

تعرض إليزابيث تايلور على القراء مجموعتها الكاملة من المجوهرات التي اشتهرت بها، من خلال الحكايات الشخصية التي ترويها عن قصة اقتنائها لكل قطعة، بالإضافة إلى الصور التي يضمها الكتاب. ويظهر أزواجها السبعة السابقون في خلفية كثير من هذه القطع الثمينة، من أمثال ريتشارد برتون الذي أهداها ماسة ٣٣ قيراطا بمناسبة هزيمتها له في مباراة بنج بونج.

"سينما"

سينما النور والظل
مصطفى عبدالوهاب
القاهرة: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٢

يسعى المؤلف إلى رؤية سينمائية لأفلام التليفزيون مستندًا إلى أن الأساس الدرامي للفيلم السينمائي والتليفزيوني واحد مما يجعل بالإمكان الاستغناء عن السينما، أو بتعبير المؤلف: هل يصبح الفيلم التليفزيوني طوق النجاة إلى سينما نظيفة، والمؤلف يختص بالذات الأفلام المنتجة من خلال اتحاد الإذاعة والتليفزيون، وبعضها عرضته دور السينما مثل ناصر ٥٦ وأيوب والقتل اللذيذ واضحك الصورة تطلع حلوة وغيرها.

■■■

Dangerous Men: Pre-Code Hollywood and the Birth of the Modern Man
(ستان وأولي: جذور الكوميديا، الحياة المزدوجة للوريل وهاردي)
Simon Louvish
St. Martin, 2002, 528PP, $27.95

صورة لحياة كل من لوريل وهاردي، اللذين اشتهرا كثنائي كوميدي في سلسلة من الأفلام السينمائية في العشرينيات والثلاثينيات. وبالرغم من النجاح المهني الذي صادفه الثنائي، إلا أن الحياة الشخصية والزوجية لكل منهما كانت تعيسة.

■■■

Stan and Olly: The Roots of Comedy The Double Life of Laurel and Hardy
(رجال خطرون: هوليوود ما قبل قانون الإنتاج ومولد الرجل العصري)
MIch Lasalle
St. Martin's Press, 2002, 272PP, $24.95

في عام ١٩٣٤ أصدرت القوى الرجعية في ذلك الوقت قانونا للسينما يدعى «قانون الإنتاج» يسمح لمجموعة صغيرة أن تحدد ما هو مقبول على شاشة السينما في أمريكا، واستمر هذا القانون لمدة ربع قرن بعد ذلك. هذا الكتاب يبحث السنوات الخمس السابقة للقانون، والتي تبدأ من عام ١٩٢٩ مع بداية السينما الناطقة، مركزًا على صورة الرجل العصري التي ظهرت في هذه الفترة التي عانت فيها أمريكا من الكساد وتأثرت بالحرب العالمية الأولى. في تلك الفترة ظهرت نماذج جسدها كلارك جيبل ورودولف فالنتنو وجيمس كاجني وغيرهم، وأفلام مثل «كل شيء هادئ على الجبهة الغربية» و«ابن الشيخ»، و«القيصر الصغير».. وغيرها. هؤلاء تحدوا السلطة القائمة وظللوا الخطوط الفاصلة بين الخير والشر، وقدموا مشاهد عنيفة لأول مرة في السينما.

"شعر"

أسطار موسى
موسى حوامدة
بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٢

يستوحي الشاعر قصائده من قصة سيدنا موسى مع قومه، ويستشهد بها على ما يحدث في أرض فلسطين المغتصبة في وقتنا الحالي، من أجواء الديوان: وأرفع عن أرض الكنعانية الجور/هارون أخي/ والشعر شقيقي الأوفى/ ولساني لا بد يدور.

"صحافة وإعلام"

حمد الجاسر ومسيرة الصحافة والطباعة والنشر في الرياض
عبدالعزيز بن صالح بن سلمة
الرياض: المؤلف، ٢٠٠٢

يغطي الكتاب مساحة زمنية تمتد عشر سنوات فقط (من ١٩٥٢ وحتى ١٩٦٢) من مسيرة علامة الجزيرة العربية حمد الجاسر ودوره في مجال الصحافة والنشر، وهو رائد من روّاده في المملكة العربية السعودية. فهو الذي أنشأ دار اليمامة للصحافة في الرياض وعنها نشأت جريدة ومجلة، ومازالت المجلة تصدر حتى اليوم، والمؤلف يشير إلى جهود الشيخ حمد الجاسر الكبيرة طيلة السنوات العشر التي منحها للصحافة.

■■■

فن الإعداد التليفزيوني
طلال سيف
القاهرة: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٢

في ظل انتشار القنوات الفضائية، وتنامي الدور الذي يلعبه التليفزيون كوسيلة ثقافية، يكتسب الإعلام التليفزيوني أهمية متزايدة حتى أنه يعد فنًا قائمًا بذاته، والمؤلف يؤكد على أهمية أن يكون المعد ملمًا بجميع العناصر الفنية التي تمكنه من توصيل رسالته بالشكل الذي يريد.

■■■

Editor
(رئيس تحرير)
Max Hastings
Pan, 2002, 608PP, £ 20.00

في فبراير الماضي، تقاعد ماكس هاستنجز، رئيس تحرير «الديلي تلغراف» إحدى أكبر المؤسسات الصحفية في بريطانيا. الذي اشتهر منذ أن تولى رئاسة تحرير الصحيفة في ١٩٨٥، وهو هنا يروي معاركه مع رؤساء الوزارة في بريطانيا، والأحداث الكبرى التي قام بتغطيتها، إلى جانب الروتين اليومي. كذلك يصف هاستنجز علاقته المعقدة بكونراد بلاك مالك الجريدة، وصعوبة التعامل مع أفراد العائلة المالكة، والمحامين، والنجوم.. وأخيرًا حرص هاستنجز على ضم لحظات الفشل ولحظات الإحراج في كتابه إلى جانب لحظات النجاح والتألق.

"علم نفس"

الإسقاط في دراسة الشخصية
سلمى المصري
بيروت: مركز الدراسات النفسية والنفسية جسدية، ٢٠٠٢

يبدأ الكتاب بمقدمة تشرح فيها الباحثة نظريات الشخصية المختلفة، ثم تعرض للمفهوم الفرويدي للإسقاط والمفاهيم التحليلية المتفرعة عنه، ثم يتطرق لكيفية توظيف الإسقاط في الاختبارات النفسية كوسيلة لمعرفة لاوعي الشخصية موضع الفحص.

■■■

C.S. Lewis and Sigmund Freud Debate God, Love, Sex, and the Meaning of Life
(مناظرة بين سي إس لويس وسيجموند فرويد حول الله والحب والجنس ومعنى الحياة)
Armand M. Nicholi
Free Press, 2002, 304PP, £ 25.00

بعد أن درس المؤلف الكتابات الفلسفية لكل من سيجموند فرويد وسي إس لويس، قام بتخيل هذه المناظرة التي لم تجر مطلقًا في الواقع. فالكاتب وهو دارس أيضًا لكل من الطب النفسي وعلم النفس، اختار الزاوية الإيمانية التي يعبر عنها، لويس والزاوية العلمانية التي يمثلها فرويد، لمناقشة مسائل مثل الضمير، والألم النفسي، والسعادة، والموت، ومعنى الحياة.

"فكر"

تحديث مصر. قراءة نقدية ومستقبلية

قـــــراءات جـــــديـدة

سامي خشبة
القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٢

يعرض المؤلف للوجه الآخر لتيار النهضة والتحديث في مصر منذ عهد محمد على وحتى اليوم، كاشفًا النقاب عن سلبيات بعض مراحل النهضة وسنوات الردة والانتكاس، ويركز بشكل خاص على العلاقة بين التعليم والنهضة، ويلفت إلى التحولات والتأثيرات الاجتماعية خصوصًا على صعيد الهجرات الداخلية والخارجية وأثرها في البيئة الاجتماعية والعلاقات بين الناس.

■■■

صراع الحضارات أو العولمة

عبدالمنعم سعيد
القاهرة: مركز الدراسات السياسية بالأهرام، ٢٠٠٢

مجموعة من المقالات التي نشرها المؤلف في الفترة الأخيرة والتي يفند في بعضها ادعاءات صمويل هنتنجتون عن صراع الحضارات، وتأثير حوادث الحادي عشر من سبتمبر على أمريكا والعالم، ومعنى العولمة في صيغها المتعددة.

■■■

نساء رائدات

إملي نصرالله
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

قدمت المؤلفة ٦ كتب عن أهم الرائدات اللائي أسهمن في تطور مجتمعاتهن، وقدمت في الكتب الثلاثة الأولى نماذج من نساء شرقيات تركن بصماتهن على الصعيدين السياسي والأدبي، وفي الكتب الثلاثة التالية ركزت على رائدات أجنبيات في الفن والطب والعلوم والأدب.

فن تشكيلي

الفن التشكيلي العربي وأبرز مبدعيه

محمد مهدي حميدة
الكويت: دار سعاد الصباح، ٢٠٠٢

يعرض المؤلف لتاريخ حركات الفن التشكيلي في الوطن العربي منذ القدم وتأثير الإسلام عليه، كما يعرض لتأثير الاستعمار وخصوصًا الاستعمار الفرنسي على الحركة الفنية، ويقسم الدول العربية إلى ست مجموعات تتشابه في تكوينها الفني، ويخصص فصلاً لتأثير الفنانين العرب المهاجرين على الحركة الفنية في البلاد التي يقيمون فيها، ويعرض بالتحليل والنقد للمتابعات النقدية في الصحف والتي تتناول الفن التشكيلي ومبدعيه.

■■■

Picasso's War: The Destruction of Guernica and the Masterpiece that Changed the World

(حرب بيكاسو: تدمير جورنيكا واللوحة التي غيرت العالم)

Russell Martin
Dutfon, 2002, 256PP, $23.95

في ٢٦ أبريل من عام ١٩٣٧ ألقيت فوق مدينة جورنيكا في شمال إسبانيا قنابل هتلر المدمرة، في نفس الوقت التي كانت تعاني فيه المدينة من بشائع الحرب الأهلية، كان هذا أول عدوان على مدنيين بهذا الحجم يشهده العالم الحديث، حيث دمرت المدينة تمامًا وقتل معظم سكانها. صور بيكاسو هذا المشهد الحزين في لوحة شهيرة تحمل اسم المدينة، وهذا الكتاب يتتبع التاريخ الفني لهذه اللوحة، من إعدادها إلى استقبال النقاد لها، حيث تراوح تقدير النقاد لها من التجاهل ووصفها بالقبح والسذاجة في أول الأمر، إلى اعتبارها الآن أعظم لوحة فنية في القرن العشرين.

معاجم

القاموس الجنسي عند العرب

عبد الحليم حمزة
بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٢

قاموس يتناول مفردات الجنس عند العرب، وأهم الألفاظ الدالة على العلاقة الزوجية وبعض المسميات التي تطلق على أعضاء جسم الرجل والمرأة، ويكشف المؤلف عن وجود نحو سبعين لفظًا بمعنى ثدى، ونحو ستة وستين لفظًا تدل على العجز الجنسي، وعشرات غيرها من الألفاظ والإيحاءات الواردة في اللغة والتي جمعها المؤلف عن طريق معجم لسان العرب.

■■■

The American Heritage Abbreviations Dictionary

(معجم «أميريكان هيرايج» للكلمات المختصرة)

Houghton Mifflin, 2002, 304PP., $ 6.30

معروف عن الأمريكيين ولعهم بالسرعة واختصار الوقت. وفي مجال استخدامهم للغة الإنجليزية، قاموا بتقديم أكبر طائفة من الاختصارات لمختلف أنواع الكلمات الطويلة (والقصيرة) التي يشيع استخدامها في شتى المجالات. هذا المعجم يساهم في فك هذه الشفرة الأمريكية بتقديم شرح لتسعة عشر ألف كلمة مختصرة تستخدم في المراسلات التجارية والرسمية، أو تستخدم في الإنترنت والمجال التكنولوجي، أو في إعلانات الصحف وغيرها من المجالات الرياضية والفنية والعلمية.

مكتبة الإسكندرية

أسطورة الإسكندرية

قصة أشهر مكتبة عرفها العالم

إعداد: نوال مصطفى
القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠٠٢

في مناسبة الاحتفال العالمي بإعادة افتتاح مكتبة الإسكندرية، يأتي هذا الكتاب الوثائقي بلغات ثلاث هي العربية والإنجليزية والفرنسية في ثلاثة مجلدات تحت عنوان «أسطورة الإسكندرية».

الكتاب رحلة تمتد لأكثر من ألفي عام، يلتقي القارئ فيها رجالاً صنعوا التاريخ وأضاءوا ظلام الجهل بنور المعرفة من أمثال الإسكندر الأكبر، أرسطو، بطليموس، أرشميدس، إقليدس، ديميتريوس الفاليري، ودور كل منهم في مسيرة أقدم وأشهر مكتبة عرفها العالم.

يكشف الكتاب أيضًا عن القصص المختلفة حول حريق المكتبة، ويتابع في الجزء الثاني منه الجهود الخارقة التي بذلتها السيدة سوزان مبارك لإحياء مكتبة الإسكندرية من جديد.

يتضمن الكتاب صورًا لأهم المخطوطات بالمكتبة ومجموعة من أندر وثائق قناة السويس التي اقتنتها المكتبة.

موسيقى

Parallels and Paradoxes: Explorations in Music and Society

(متوازيات ومتناقضات: استكشافات في الموسيقى والمجتمع)

Daniel Barenboim and Edward W. Said
Ara Guzelmiam (editor)
Pantheon, 2002, 208PP, $24.00

ثمة صداقة من نوع خاص تجمع بين الناقد الشهير الفلسطيني الأصل إدوارد سعيد والمايسترو دانييل بارنبوام اليهودي من أصل روسي. فقد اشتركا معًا عام ١٩٩٩ في ورشة عمل ضمت موسيقيين عربا وإسرائيليين وألمان لتكوين أوركسترا، كما دعا إدوارد سعيد المايسترو بارنبوام للعزف في جامعة بيرزيت الفلسطينية، إيمانًا بأهمية الموسيقى في التوحيد بين المتصارعين سياسيًا. في هذا الكتاب مجموعة من حواراتهما التي تتناول العلاقة بين الموسيقى والأدب، والعزف والجمهور، وحركة الأصالة في الفن. يدير الحوار ويحرره أراجوزيلمان مدير قاعة كارنيجي ومستشارها الفني.

■■■

Tropical Truth: The Story of Music and Revolution in Brazil

(الحقيقة الاستوائية: قصة الموسيقى والثورة في البرازيل)

Coetono Veloso
Trans. by Isabel de Sena
Knopf, 2002, 336PP, $24.00

أول كتاب يكتبه المغني ومؤلف الأغاني البرازيلي فيلوزو الذي يشتهر في الأوساط المثقفة في أوروبا وأمريكا باعتباره رمزًا من رموز الحركة الثقافية والفنية التقدمية في الستينيات، وهو كثيرًا ما يقارن ببوب ديلان.

■■■

Bang Your Head: The Rise and Fall of Heavy Metal

(صعود وسقوط موسيقى الهيفي ميتال)

David Konow
Crown, 2002, 496PP., $14.00

يرصد المؤلف تاريخ موسيقى وفرق «الهيفي ميتال» التي اشتهرت بالأنغام الصاخبة العنيفة، فيبدأ في تتبعها من منشأها في مدينة برمنهجام في إنجلترا عندما كوّن أوزي أوزبورن فريق «بلاك ساباث» تمردًا على حركة الهيبيز، وفي نفس الوقت تقريبًا كوّن جيمي بيج فريق «ليدزبلين». يسير الكتاب حسب التسلسل الزمني من فريق إلى آخر، مبينًا أسباب صعود فرق مثل «فان هايلن» و«بون جوفي» و«ميتاليكا» و«جنز أند روزس» ثم أسباب هبوطها وخفوت نجمها.

نقد

إطلالة

أمل جمال
القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠٢

دراسة نقدية تحليلية لفن الرواية والقصة القصيرة لدى أجيال مختلفة ومن جنسيات مختلفة، وقد اختارت المؤلفة نماذج تطبيقية لإطلالاتها منها قصة للكاتب العراقي جبار ياسين «وداعًا أيها الطفل» وقصتان للكاتب صبري موسى «حادث النصف متر» و«السيدة التي.. والرجل الذي لم» وغيرها من النماذج.

■■■

تحليلات عروضية لشعر الجواهري

عبد الحميد الرشودي
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

دراسة تحليلية لقصائد آخر الكلاسيكيين الكبار الذين رحلوا عن عالمنا قبل سنوات، يكشف الباحث فيها عن البحور والأوزان التي نظم عليها الشاعر العراقي الكبير قصائده، وكشف عن العلاقة الوثيقة بين الأغراض التي عالجها الجواهري والبحور التي اختارها، واعتمد الباحث في دراسته على ديوان الجواهري بأجزائه السبعة، والذي طبعته وزارة الثقافة والإعلام العراقية في الثمانينيات.

■■■

Why Orwell Matters

(أهمية أورويل)

Christopher Hitchens
Basi Books, 2002, 208PP, $24.00

يدافع الكاتب اليساري كريستوفر هتشنز (مؤلف كتاب محاكمة هنري كيسنجر) عن جورج أورويل ضد هجوم النقاد اليمينيين واليساريين على السواء، على الرغم من رفضه أيضًا لعشاق أورويل الذين يسبغون عليه القداسة.

يتناول هتشنز كراهية أورويل لجميع أشكال الشمولية خاصة الإمبريالية والفاشية والستالينية، وكذلك كراهيته للعنصرية واستغلال الطبقات الدنيا، ويقول إنه من الممكن قراءته باعتباره من مؤسسي تيار ما بعد الكولونيالية. ودفاعًا عن الهجوم النسوي على أورويل باعتباره كان يكره النساء القويات أو الذكيات، يؤكد هتشنز أن هذا اتهام ظالم من خلال تحليل علاقات أورويل الواقعية بالنساء وصورتهن في رواياته، ومع ذلك فهو يشير إلى كراهية أورويل للإجهاض وتنظيم النسل.

عـــــــروض
مـــــوجـــــزة

كتب عربية

نهاية الإنسان
فرانسيس فوكوياما
ترجمة: أحمد مستجير
القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٢



يطرح فوكوياما ثلاثة سيناريوهات جميعها قريبة الحدوث في خلال جيلين على الأكثر، في السيناريو الأول تحدث تطورات مذهلة في علم العقاقير العصبي، وستتمكن شركات الأدوية من تفصيل الأدوية حسب الخريطة الوراثية لكل مريض، وهكذا سيتدفق متبلدو المشاعر حيوية ونشاطًا، ويصبح الانطوائيون أكثر انفتاحًا على الناس، وبوسع الإنسان أن يبدل شخصيته حسب رغبته، فهو تارة صارم حازم متجهم، وتارة أخرى بشوش رقيق أليف متواضع.

في السيناريو الثاني، سيكون بالإمكان توليد أي نسيج في جسم الإنسان بما يعني تعويض الأعضاء المعطوبة كي تعمل بدائلها بالكفاءة ذاتها وربما بكفاءة أكبر.

في السيناريو الثالث سيفحص الأثرياء الأجنة قبل زرعها ليحصلوا على أبناء أقرب ما يكونون إلى الكمال، وهكذا يضمنون أبناء أكثر ذكاء وموهبة وأقدر على تحقيق طموحاتهم الاجتماعية.

محصلة هذه السيناريوهات الثلاثة هي إطالة عمر البشر، وتفصيل أبناء على هوى الآباء (الأكثر ثراء)، والوصول إلى حالة السعادة الكاملة بتوفير العقاقير المعالجة للتقلبات العصبية، والتجديد المستمر للخلايا كلما أصابها وهن.

لكن فوكوياما رفض السيناريوهات الثلاثة، فهو ينفي إمكانية تحقيق توازن بين الزيادة في عمر الإنسان والقضاء على أمراض الشيخوخة أو تأجيل ظهورها أطول فترة ممكنة.

أما استنساخ أطفال حسب الطلب، وهو بعد خطير آخر تعد به الثورة البيوتكنولوجية، فهو كما يقول فوكوياما، يشبه عملية يا نصيب وراثي غير عادلة.

ويقترح فوكوياما لمقاومة هذه السيناريوهات البشعة تحركًا دوليًا للتحكم في انتشار البيوتكنولوجي على نطاق واسع، ويحذر من التمسح بمقولات حرية البحث العلمي.

ثمة تناقض لا تخطئه العين يقع فيه صاحب «نهاية التاريخ والإنسان»، والذي يمكن رده إلى سعيه غير الموفق للموازنة بين حياده العلمي كأكاديمي، وموقعه بالقرب من صانع القرار في البيت الأبيض والذي يلزمه بموقف برجماتي يضع مصلحة أمريكا فوق كل اعتبار.

□ □ □

لماذا أخفقت النهضة العربية
محمد وقيدي - أحميدة النيفر
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢، ٤٢٤ صفحة



لماذا بقيت أسئلة النهضة مطروحة حتى الآن؟

هل لأن النهضة لم تتحقق أصلاً، أم أن ما تحقق منها لم يكن كافيًا للإجابة عن تساؤلاتها الأساسية؟

السؤال يجيب عنه أكاديميان هما محمد الوقيدي أستاذ الفلسفة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس، وأحميدة النيفر الأستاذ بجامعة الزيتونة.

ويبدأ كلاهما بمبحث يحدد مفهوم النهضة وعلاقتها بالفكر الأوروبي، أحميدة النيفر والذي ينطلق أساسًا من أرضية تربط النهضة بالفكر الإسلامي في إسهاماته واجتهاداته التنويرية، يتساءل عما إذا كانت النهضة حلمًا لم يطأ أبدًا أرض الواقع ويجيب بأن النهضة التي انطلقت وهي موصولة بالماضي كان لديها طموح إلى تمثل الحس النهضوي الذاتي الذي تأسست عليه الحضارة العربية الإسلامية، وهي بهذا المعنى لم يكن هدفها استنساخ نظرية الأسلاف في النهوض، وإنما أضافت إليها بُعدًا نقديًا اكتسبته من متابعة التجارب الحديثة، وهكذا قدمت النهضة تصورًا للإسلام مختلفًا عن التراثيين والسلفيين.

محمد الوقيدي يميز بين مرحلتين في النهضة: الأولى قادها أصحاب الثقافة التقليدية، والثانية لعب فيها ذوو الثقافة الغربية والداعون إلى الإصلاح بالمفهوم الغربي دورا كبيرا، ويشير في الإطار ذاته إلى تعارض مؤكد بين نوعين من تثوير بيئات المجتمع، التثوير الذي قامت به السلطات الاستعمارية وفقًا لغاياتها، والتثوير الذي صار مطلوبًا بعد الاستقلال الوطني والذي يعيد بناء المجتمع وفق بنيات أساسية مغايرة. ويشير أخيرًا إلى أن شروط العالم المعاصر، جعلت البلدان العربية في حالة طلب مستمر للنهضة، وهكذا تبرز الأسئلة ذاتها التي طرحت في مراحل سابقة من طلب النهضة، وبدا العالم العربي والإسلامي وكأنه لم يحقق أي مظهر من مظاهر التقدم منذ بداية القرن التاسع عشر، ولكن الوقيدي يرى أن الأمر ليس كذلك، فالتحولات كبيرة والأسئلة جديدة وشروط الإجابة عنها مختلفة بالضرورة، خصوصًا مع الثورة العلمية والتقنية التي تسارعت وتيرتها في الربع الأخير من القرن العشرين.

وفي التعقيب ينتقد النيفر عدم وقوف الوقيدي على الجوانب المهمة في البناء الفكري للنهضة العربية في سيرورتها الذاتية، وهكذا لم يفلح في تفسير كيف أن مصلحًا ذا خلفية أزهرية تقليدية مثل الإمام محمد عبده أثر في كتابات قاسم أمين وأحمد لطفي السيد وسعد زغلول وعلي عبدالرازق وغيرهم.

من جهته عاود الوقيدي التذكير بالتقسيم الذي اقترحه لمرحلتين من النهضة وتحدث عن تيارات ثلاثة دعا أولها إلى استلهام التجربة الإسلامية السلفية بحذافيرها، وتيار ثان دعا إلى استلهام النهضة الغربية بشروطها العلمانية كما هي، وتيار ثالث يدعو إلى موقف وسط لا يتماهى كليًا مع الغرب، ولا يستلهم تجربة السلف كما كانت قبل أربعة عشر قرنًا. ويلاحظ الوقيدي أن رواد النهضة الأوائل واجهوا سؤال النهضة برصيد معرفي غير كاف اعتمد على تراث فكري عاني من الركود لقرون، وهكذا ظلت النهضة في العالم العربي والإسلامي حلمًا تاريخيًا، لأن الواقع لم يتطور في الاتجاه الذي يسمح بتحويل الحلم إلى واقع.

□ □ □

صناعة الكراهية
في العلاقات العربية الأمريكية
تحرير وتقديم: أحمد يوسف أحمد، ممدوح حمزة، ٢٠٠٢
مطابع الأهرام التجارية - (مصر)



لماذا يكره العرب أمريكا؟

تساءل أحدهم عقب أحداث ١١ سبتمبر وأجاب: لأنهم ضد الحداثة. المعنى ذاته كرره توماس فريدمان في واحدة من مقالاته حين قال إن العرب يكرهون أمريكا لأنها أكثر تحضرًا ورفاهة وثراء.

لكن السؤال على النحو الذي طُرح به من قِبل مفكرين ومحللين أمريكيين ليس صحيحًا، ربما يكون الأصوب طرح السؤال كما يلي: لماذا تكره أمريكا العرب والمسلمين؟

هنا يجيب جميل مطر في دراسته بما يشبه الهجوم المضاد، محذرًا إيانا من الوقوع في فخ التصور الذي يسعى الأمريكيون لفرضه وهو أن الأمريكيين يكرهون العرب والمسلمين من دون البشر أجمعين، فبحسب ما يقول جميل مطر فإن الأمريكيين لا يثقون في الشعوب الأخرى.

وفيما يتعلق بالعرب والمسلمين - يضيف جميل مطر - فإنه لم تتكون عنهم لدى الأمريكيين حتى قرب نشوب الحرب العالمية الثانية صورة نمطية واضحة، وبقيت صورة العرب والمسلمين والشرق عمومًا هي تلك المستوحاة من ألف ليلة وليلة وروايات الحروب الصليبية وكتابات الاستشراق، ويشير إلى أن ثمة طرفًا ثالثًا بذل جهودًا كبيرة على مدى قرون في الإعلام ولدى مراكز صنع القرار الأمريكية كي يعمق كراهية الأمريكان للعرب حتى أنهم يرون أنه: «لا حل في النهاية إلا بتحقيق نصر كامل وشامل ضد المسلمين يعقبه عمل من نوع العمل الذي قامت به أمريكا في ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية وفي شرق أوروبا بعد الحرب الباردة، أي فرض تغيير جذري يمتد إلى النصوص في الإسلام».

وفي دراسته القيِّمة يشير الدكتور رءوف عباس عبر تتبع تاريخي للعلاقات المصرية الأمريكية، إلى أن الكراهية لم تكن سمة من سمات التعامل العربي مع أمريكا، بل إن العكس هو الصحيح، فقد كانت الكراهية من نصيب دول الاستعمار القديم فرنسا وانجلترا وغيرهما، وحتى في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وبعدما خابت آمال العرب في السياسة الأمريكية، فإن صورة الولايات المتحدة لدى العرب - كما يقول الدكتور عبدالعزيز حمودة في بحثه - لم تتأثر، وسعى الساسة العرب إلى مد جسور الصداقة مع الولايات المتحدة أملاً في تحرير بلادهم من الاستعمار القديم.

وربما لولا التأييد الأمريكي المطلق لإسرائيل - كما تقول الدكتورة هالة سعودي - لظلت رؤية العرب لأمريكا كما هي، وتضيف الباحثة إلى هذا البُعد الحاسم بُعدًا آخر وهو مسألة أمن الخليج ومصالح أمريكا النفطية وأطماعها فيه، وتشير إلى أن البُعد الوحيد الذي كان بوسعه أن يعوض جزئيًا الآثار السلبية للبُعدين السابقين هو المختص بالديمقراطية وحقوق الإنسان، لولا أن هذا البُعد ذاته خضع لاعتبارات المصلحة الأمريكية، ولم يعدُ كونه سلاحًا سياسيًا يستخدم ضد الخصوم عند الحاجة.

ثمة إسهامات مهمة في الكتاب «يؤصِّل» فيها الدكتور بهجت قرني للأبعاد الفكرية في السياسة الخارجية الأمريكية، وتحلل د. نيفين مسعد، وحسنين توفيق تداعيات الحادي عشر

عروض موجزة

من سبتمبر على مسار هذه العلاقات، فيما يرسم محمد سيد أحمد استراتيجية من عشر نقاط لإقامة حوار «حتمى» مع الولايات المتحدة الأمريكية فى زمن أصبحت للعبة الموت أسبقية على لعبة الحياة، وبدت البشرية وكأنما باتت تراهن على الهلاك «المتبادل».

□ □ □

بعيداً عن اليسار واليمين

أنطونى جيدنز

ترجمة: شوقى جلال

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٢



يرى الليبراليون الجدد أن المشروع الرأسمالى هو جوهر ولب كل ما هو صالح فى الحضارة الحديثة، ويرون أن النزعة الفردية هى مفتاح نجاح الديمقراطية فى سياق دولة الحد الأدنى، أما ما أصاب الأسرة والمؤسسات الأخلاقية الأخرى من تفكك، فيردها الليبراليون الجدد إلى الإباحية التى انتشرت على أيدى المفكرين اليساريين، وهو ما يرفضه نقادهم حتى من خارج صفوف اليسار ويرون أن الدعوة إلى المبادرة الفردية فى مجال الاقتصاد ستطال مجالات أخرى بينها الأسرة وغيرها من رموز التضامن التقليدية، ومن ثم فإن فكر الليبراليين الجدد ينطوى على تناقض يجعلهم يمزجون بين الحريات الليبرالية والنزعة التسلطية حتى الأصولية منها.

أما الاشتراكيون، وبعد أن تحولوا إلى موقع الدفاع فقد ركزوا تماماً على دولة الرفاه، والتى يرى «كروسلاند» أن كثيراً من مظاهرها تحقق فعلاً، ومنها الإيمان بعمل الفريق والمشاركة الجماعية، لكنه يرى أن العمل لا بد أن يستمر من أجل إعادة التوزيع الاقتصادى للثروة وخفض التفاوتات والنزعات الاجتماعية، ويوصى بترسيخ «ديمقراطية صناعية رفيعة المستوى» وبمزيد من تاميم الصناعات الأساسية، وقد ووجهت أفكار «كروسلاند» تلك بانتقادات صارمة، فقد رأى منتقدوه أن المقترحات التى يقدمها للناس كى يطوروا إمكاناتهم للوفاء بشئون حياتهم فى مجتمع اشتراكى، مقطوعة الصلة تماماً بالحجج التى يقدمها فى متن الكتاب.

وبعد استعراض لرؤى عديدة عن ثورات العصر الاجتماعية ونظريات الديمقراطية والرفاه الإيجابى وعلاقة الفقر بقيم الحياة، يفرد المؤلف فصلاً خاصاً يعرض فيه لعدد من القضايا ذات الصلة بالبيئة، والتى يمكن إدراجها تحت ما بات يعرف بـ «سياسة الحياة».

والمجتمع الإيكولوجى فى رأى «بوكشين» وهو أحد دعاة الإيكولوجيا الراديكالية هو الذى يستعيد توازن المحيط الحيوى، ويعزز التنوع بين الجماعات البشرية وفى الطبيعة ويسلم بضرورة تفكيك مركزية السلطة جذرياً ليعهد بها إلى المجتمعات المحلية لتديرها اعتماداً على تقنيات بسيطة.

ويضيف بوكشين: يمكن إنقاذ الراديكالية وتعميقها عن طريق الحركة الإيكولوجية، وإقامة تناغم جديد بين الطبيعة والبشر وأن نستعيد الملامسة البشرية للتربة وللنبات وللحياة الحيوانية وللشمس والرياح.

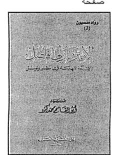
ويبدو أن فكرة المجتمع الإيكولوجى هى ما أراد المؤلف ترسيخه «بعيداً عن اليمين واليسار»، حيث المصالح المشتركة والمخاطر كذلك، لكن يبقى الاعتراف بقداسة الحياة البشرية وبالحق الكونى الشامل فى السعادة وتحقيق الذات، وتدعيم التضامن «الكوزموبوليتانى» واحترام الكائنات الفاعلة غير البشرية فى الحاضر والمستقبل، وجميعها قيم تكتسب ربما للمرة الأولى فى تاريخ البشرية قوة دفع حقيقية، هى الأمل فى مستقبل أفضل للبشرية.

□ □ □

الأميرة نازلى فاضل
رائدة النهضة فى مصر وتونس

أبو القاسم محمد كرو

تونس: دار المغرب العربى، ٢٠٠٢، ١٩١ صفحة



الأميرة نازلى فاضل هى صاحبة أول صالون نسائى عربى فى القرن التاسع عشر، وفى هذا الصالون دارت مناقشات جادة ومهمة بين رجالات ذلك العصر من أمثال سعد زغلول ومحمد عبده وقاسم أمين، وطوال السنوات الثلاث عشرة التى عاشتها فى تونس لعبت الدور ذاته وأسهمت فى نهضتها وسياستها المعاصرة. وتنحدر الأميرة نازلى فاضل من الأسرة العلوية التى أسسها محمد على باشا، وكان مصطفى فاضل مرشحاً لولاية مصر لولا أن الخديوى إسماعيل تمكن من استصدار فرمان من الباب العالى، يمنحه هو ولاية مصر، وصارت إقامة مصطفى فاضل فى مصر مستحيلة فغادرها بعد ما باع لأخيه إسماعيل جميع قصوره وأطيانه وأملاكه واحتفظ لنفسه فقط ببعض القصور وبمكتبة ثمينة.

وفى الأستانة تزوجت نازلى من خليل شريف باشا الذى كان سفيراً للدولة العثمانية فى عديد من العواصم الأوروبية، وقد تفاوتت الآراء بشأن الأميرة نازلى، فكثيرون أثنوا على آرائها المستنيرة وذكائها وأفكارها التقدمية، وقد زارت الأميرة نازلى تونس لأول مرة فى عام ١٨٩٩ وتزوجت من خليل بوحاجب، وهناك بدأت نشاطها التنويرى من خلال الجمعية الخلدونية التى تاسست قبل وصولها إلى تونس بعامين ونصف، وفضلاً عن آرائها التنويرية فى الثقافة والسياسة واجتماع رواد النهضة التونسية فى صالونها، كما كان الحال فى مصر، فقد ساهمت بأفكارها ومالها فى تأسيس أول مدرسة للبنات المسلمات.

الكتاب يتضمن مقالات عديدة كتبها عدد من رواد الإصلاح والنهضة فى تونس يثنون فيها على دورها فى نشر الوعى القومى فى البلاد، فضلاً عن مقالة للزعيم المصرى محمد فريد الذى لم يكن رأيه إيجابياً تماماً فى الأميرة نازلى.

□ □ □

مكتبة الإسكندرية القديمة ومشروع إحيائها فى الوقت الحاضر

شعبان عبد العزيز خليفة

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢، ٢٧٠ صفحة



فى السادس عشر من الشهر الماضى أعيد افتتاح مكتبة الإسكندرية فى احتفال حضره رؤساء دول كبرى وملكات وشخصيات دولية معنية بالثقافة الإنسانية على اتساعها.

من خطط لإنشاء مكتبة الإسكندرية كان الإسكندر الأكبر نفسه الذى بنى المدينة وحملها اسمه، كما فعل فى دول عديدة فتحها، لكن خلفاءه هم الذين بنوا المكتبة.

كانت المكتبة جزءاً من المتحف الذى أنشئ فى عهد الإمبراطور بطليموس الأول، وقد كان - أى المتحف - أكاديمية كاملة للدرس والبحث العلمى، ضم مجموعة من البنايات الضخمة المشيدة من الرخام الأبيض، خصصت بعضها كقاعات لعرض التماثيل واللوحات الفنية، وبعضها خصص لإقامة العلماء والباحثين الذين تكفلت بهم الدولة ووفرت لهم سبل الراحة كى يتفرغوا للبحث والدرس فى كل فروع المعرفة، كان المتحف بحسب وصف أحد المؤرخين، أكبر جامعة فى العالم الهلينى، كانت للمكتبة إدارتها المستقلة عن المتحف، وكان رئيسها يعين بقرار من الملك، وتنوعت جنسيات رؤساء المكتبة على نحو يؤكد عالميتها ويفسر الطبيعة «الكوزموبوليتانية» لمدينة الإسكندرية ذاتها، وجلبت إلى المكتبة كتب من اليونان وغيرها من المدن التى كانت بحوزة اليونانيين وقت انتشار الحضارة الهللينية وسيادتها، فضلاً عن الإهداءات الشخصية التى مثلت مصدراً بالغ الأهمية لتوريد الكتب للمكتبة.

وقد كانت المكتبة تضم فى القرن الثانى الميلادى، بحسب ما يذكر بعض المؤرخين حوالى ٧٠٠ ألف مجلد، قبل الحريق الجزئى للمكتبة الذى يحتمل أن يكون وقع مع ضرب يوليوس قيصر للإسكندرية، لكن من حرق المكتبة تحديداً ليس معروفاً، لكنه واحد من هؤلاء كما ذكرت المصادر، يوليوس قيصر (٤٧ ق.م)، أورليان ٢٧٣م، ثيودوسيوس وثيوفيلوس ٣٩١م، عمرو بن العاص ٦٤٢م.

والمؤلف بعد استعراض تاريخى لا يعطى فرضية حرق بطليموس للمكتبة أكثر من ١٠٪، أما أورليان، فالأرجح أن المكتبة والمدينة معاً حرقا جزئياً فى عهده وخفت نشاط المكتبة وعلماؤها وإن لم تنته تماماً، وقد فعل ثيوفيلوس الأمر نفسه فدمر كثيراً من محتويات المكتبة ومبانيها، أما حكاية عمرو بن العاص للمكتبة فيدورها ظنية ولا تصل نسبة صحتها إلى ١٠٪، وربما تجود الحفريات بأدلة جديدة تكشف عن مصير المكتبة القديمة، أما المكتبة الحديثة وجهود إحيائها فيخصص لها المؤلف قسمه الثانى من الكتاب متضمناً وثائق وملاحق ورسوماً توضيحية.

□ □ □

أوان القطاف

محمود الوردانى

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢، ١٦٠ صفحة



بعد ثلاث مجموعات قصصية وروايات أربع كان آخرها الروض العاطر ١٩٩٨، يطل الكاتب المصرى محمود الوردانى بمغامرة أدبية وفكرية جديدة، تبدأ برأس الراوى وقد تعلق

عروض موجزة

بجسر حديد بعدما انفصل عن جسد صاحبه الذى كان يتقافز فوق سطح القطار، هذا الرأس يستدعى رؤوسًا أخرى قطفت فى أزمنة خلت (مستعيدًا مقولة الحجاج بن يوسف الثقفى عن الرءوس التى أينعت وحان أوان قطافها)، وأشهرها رأس الحسين بن على بن أبى طالب الذى فر إلى مصر قبل أن يتلقفه غنيمة يزيد بن معاوية ليستقر فى حجر أم الغلام، التى يقال أنها ذبحت ولدها وألقت برأسه لجنود الخليفة عوضًا عن رأس الحسين. والحكاية برمتها يدحضها البعض لسبب تاريخى وجيه هو أن القاهرة لم تكن بنيت بعد حين «قطف» رأس الحسين سيتكلم رأس الحسين ويحكى عن قسوة الظلم وغشامة الاستبداد الذى أحال الشورى إلى ملك وراثى عضود.

سيتكلم رأس شهدى عطية، الشيوعى الوطنى الذى أحب بلده حتى الثمالة ومات ركلاً بالأقدام وبأكف البغاة فى سجون عبد الناصر، رفض أن يقول «أنا مرة» وأصر حتى آخر نفس على وطنية النظام رغم خطاياه وجرائمه.

سيشهد رأس العائد من الخليج بعد عشر سنوات حصد خلالها مائة ألف دولار على خيانة زوجته وسائق التاكسى الذى «لمه من الشوارع» بتواطؤ مدهش من ابنته «هبة». وستدمع عينا الصبى الذى انخرط بلا تخطيط مسبق ضمن من خرجوا فى انتفاضة ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ وهو يرى رأس زميله يطير ويغطى دمه أرض الشارع، سيطير رأس أبى الهول - أيضًا - دون نقطة دم واحدة فيما المصريون يحتفلون بين أنامل مخرج فرنسى بقدوم الألفية الثالثة. رؤوس عديدة طيرتها المحن، فهل ذبحت لأن أوان قطافها قد حان، أم لأن ثمة من احترف قطف الرءوس منذ رأس الحسين بن على وحتى رأس أبى الهول؟

□ □ □

مؤامرة أم مراجعة

مكرم محمد أحمد

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ٢٤٠ صفحة



فى عام ١٩٩٧ تقدمت الجماعة الإسلامية بمبادرتها لوقف العنف من جانب واحد، أعلنها أحد قادة التنظيم فى قاعة المحكمة، غير أن أحداث عنف تالية، كان أشهرها وأكثرها تأثيرًا حادث الاعتداء على سياح أجانب فى الأقصر، شككت فى جدية المبادرة برغم إدانة الجماعة وكافة تنظيمات وتيارات الإسلام السياسى لها.

وبعد مرور خمس سنوات تقريبًا عادت الجماعة الإسلامية تطرح مبادرتها من جديد وبصورة أكثر عملية هذه المرة، قادة الجماعة التاريخيون - كما يطلق عليهم - كرم زهدى وناجح إبراهيم وأسامة حافظ وعلى الشريف، أصدروا كتبًا أربعة أسموها سلسلة تصحيح المفاهيم، وتضمنت مراجعات لمواقف الجماعة من قضايا الجهاد والتكفير والحسبة والغلو فى الدين، وهى مواقف تمثل فى مجملها توجهًا جديدًا للجماعة وإدانة لمواقف سابقة كلّفت الجماعة الكثير ووضعتها فى حالة عداء مع الدولة والمجتمع.

الجماعة تعلن فى مراجعاتها أن جهادها لم يكن فى موضعه، وأن خروجها على الحاكم كان مفسدة كبرى، وأنه لا يجوز الخروج على الحاكم حتى لو ارتأى عدم تنفيذ شرع الله لأسباب يقدرها، فالمهم ألا يكون منكرًا لهذا الشرع، كما تعترف الجماعة فى كتابها عن الحسبة بأن سلطة منع المنكر لا تعود إلى «محتسبيها» وإنما لسلطات الدولة من قضائية وتنفيذية، وأن إطلاقها يد أعضائها لممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نتج عنه مفاسد عظيمة وشرور كان يمكن تجنبها لو ترك الأمر لأهل الاختصاص، وتؤكد كتب المراجعات أيضًا على أنه لا يجوز تكفير مسلم مهما كانت الأسباب، إلا أن يعلن شركًا صريحًا بالله، وحتى إن فعل فيستتاب، فإن أصر على شركه يترك الأمر للعلماء الثقاة. يقدرون موقفه، هذه الأفكار التى دلل عليها قادة الجماعة فى كتبهم بأسانيد صحيحة من الكتاب والسنة، وأجازها الأزهر الشريف، تعد انقلابًا فى فكر الجماعة الذى استند فيما مضى إلى أفكار سيد قطب وأبى الأعلى المودودى عن الحاكمية وتكفير الحاكم والدولة والمجتمع، والذى رأى فى العنف وسيلة وحيدة لإجبار الدولة على «تحكيم شرع الله» كما يسمونه، والذى هو فى الحقيقة يسعى إلى تنصيبهم ولاة وقادة يديرون شئون البلاد.

المؤلف يعرض لهذا الفكر الجديد ويحاور قادة الجماعة فى رؤاهم الجديدة عن «فقه الواقع» القائم على «الفتوى والجدوى» بحسب تعبير أحدهم، والذى يقدم «مصلحة الناس على النص».

ويلقى المؤلف بالكرة فى ملعب المؤسسة الدينية الرسمية وجهات تنفيذية وسيادية أخرى، ويرى أن دورها الآن هو تلقف هذه المبادرة وتبنى جوانبها الإيجابية العديدة وتعظيم فوائدها، واحتواء فرص الجنوح والتطرف التى يمكن أن تعصف بآلاف الشباب كما عصفت بغيرهم من أعضاء الجماعة الإسلامية وغيرها.

كتب أجنبية

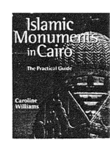
Islamic Monuments in Cairo
The Practical Guide

(الآثار الإسلامية فى القاهرة)

Caroline Williams

Auc Press Publication, 2002,

LE 70.00, Fifth edition



باستثناء مدن قليلة للغاية فى العالم الإسلامى تنفرد القاهرة بتراث معمارى شديد الثراء والتنوع يمتد تاريخه إلى عمق ألف عام منذ نشأة هذه المدينة العريقة على أيدى الفاطميين، ورغم أن التطور الهائل الذى شهدته القاهرة على مدى القرن الماضى وتحولت نتيجته إلى مدينة يسكنها حاليًا ما يربو على ١٥ مليون نسمة، قد حجب إلى حد ما نواحى الجمال الرائع، خاصة الآثار الإسلامية. إن هذه الآثار كانت خلال القرن التاسع عشر بمثابة اكتشاف من جانب الفنانين الغربيين الذين توافدوا على مصر وألفوا الكتب التى تكشف عن نواحى الجمال فى هذه الآثار ثم جاء القرن العشرون ليكون بمثابة فرصة للمتخصصين فى الفنون الإسلامية لكى يكتشفوا آفاق جمال وروعة هذه الآثار، وها هى القاهرة الآن تستقبل الألفية الثالثة من تاريخها المديد وقد أصبحت مزارًا سياحيًا شهيرًا يأتيها السياح من شتى أنحاء العالم للتعرف على تاريخها وحاضرها وفى القلب من كل ذلك الآثار الإسلامية.

وهذا الكتاب يعد دليلاً للزائر الأجنبى للتعرف على ملامح الآثار الإسلامية فى القاهرة وهو يسير مع الزائر ليطوف به فى حوالى مائتى أثر إسلامى فى المدينة. ويحتوى الكتاب على ٥٠ رسمًا توضيحيًا و١٥ خريطة تبين جميعها بشكل جلى معالم وتفاصيل هذه الآثار ولا تنسى مؤلفة الكتاب أن تضمنه التطورات الحديثة حتى يكون القارئ على علم بها.

إن الكتب التى يستهدف مؤلفوها أن تكون دليلاً للسياح والزائرين منتشرة بصورة كبيرة فى الغرب ويندر أن يكون هناك سائح لا يحمل معه كتابًا أو مجموعة من الكتب عن المكان الذى سيزوره. وهذه الكتب لم تعد مجرد مجموعة من المعلومات والإرشادات عن المكان، بل أصبح يكتبها متخصصون فى مجالات معينة موجودة فى ذلك المكان، وهى لهذا تكتسب أهميتها. وهذه هى الطبعة الخامسة من الكتاب الذى أصدرته الجامعة الأمريكية فى القاهرة.

□ □ □

Muslim Europe or Euro-Islam

(مسلمو أوروبا أو الإسلام الأوروبى)

Edited by: Nezar Alsayyad and Mauel Castells

New York Lexington Books, 2002, 204PP



هذا الكتاب ثمرة فكرة مشتركة بين محرريه نزار الصياد ومانويل كاستلز، الأول يرأس مركزًا لدراسات الشرق الأوسط فى جامعة كاليفورنيا فى بيركلى، والثانى كان يرأس مركزًا لدراسات أوروبا الغربية فى الجامعة نفسها. وقد لاحظ المحرران أن قضيتى الهوية والمواطنة تبقيان فى مقدمة القضايا ذات الاهتمام فى منطقتى الشرق الأوسط وأوروبا الغربية، وأنهما لم تتم دراستهما أكاديميًا بشكل كاف، وواتتهما الفرصة فى القيام بهذا المشروع المشترك الذى يركز على المسلمين فى أوروبا.

لقد أصبحت أوروبا حاليًا بعد خمسة قرون من خروج المسلمين من الأندلس (إسبانيا حاليًا) أرضًا للإسلام يعيش فيها ملايين المسلمين. وأصبحت مسألة التواجد الإسلامى على أرض القارة قضية مثار مناقشات كثيرة سواء على المستوى الأكاديمى أو السياسى أو حتى رجل الشارع العادى خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

وقد شارك فى مناقشة أوضاع المسلمين فى أوروبا نخبة من الباحثين من أوروبا والشرق الأوسط والولايات المتحدة وتناول هؤلاء الباحثون فى الكتاب عديدًا من القضايا حول أوضاع المسلمين فى هذه القارة ودور أوروبا فى إعادة صياغة الإسلام حاليًا. ويثير الكتاب عديدًا من الأسئلة المهمة حول المواطنة بالنسبة للفرد المسلم فى أوروبا ومسألة الانصهار أو التعددية الثقافية فى دول أوروبا ومدى تقبل المسلمين لأى من النموذجين. ومدى قوة الإسلام فى تحديد الهوية، ولماذا لا يعد الإسلام دينًا أوروبيًا رغم أنه موجود فى القارة منذ قرون.

وينقسم الكتاب إلى جزءين، الأول عن الإسلام وأوروبا وهوية الدولة القومية المتغيرة. وفى هذا الجزء يكتب نزار الصياد عن خطاب الهوية والثقافة لدى مسلمى أوروبا ويقدم بسام طيبى بحثًا عن المهاجرين المسلمين فى أوروبا بين

عروض موجزة

الاندماج والانغلاق، كما يكتب كريشان كومار عن الاتحاد الأوروبي والدولة القومية والهويات عبر القومية.

كما تتناول الدكتورة هالة مصطفى في بحثها قضية الإسلام والغرب في عصر العولمة.. صدام حضاري أم تعايش.

ويتحدث الجزء الثاني من الكتاب عن التجارب الإسلامية في بريطانيا وفرنسا وغيرهما.

□ □ □

Mussolini

(موسوليني)

R.J.B. Bosworth

Oxford University,2002, 584PP., $ 35.00



الزعيم الفاشي الإيطالي الراحل بينيتو موسوليني في مخيلة الكثيرين ليس سوى الصورة الكوميدية للديكتاتور، فطريقته في الحديث وفي وضع يديه على صدره وارتداء القبعة تثير السخرية والضحك أكثر من الغضب والاستياء، على الأقل بالنسبة للناس في الوقت الحاضر. وربما لا تساعد هذه الصورة في تفهم واضح لشخصية ودور موسوليني الذي ولد عام ١٨٨٣ وتسلم السلطة في إيطاليا عام ١٩٢٢ إلى أن تم إعدامه عام ١٩٤٤.

ورغم أن أنطوني إيدن وزير الخارجية البريطاني، ثم رئيس الوزراء وصف موسوليني بأنه قاطع طريق بامتياز إلا أن أدولف هتلر حليف موسوليني كان يشعر بسعادة عندما يطلق عليه «موسوليني ألمانيا». ويشير مؤلف الكتاب وهو واحد من أبرز الدارسين لتاريخ إيطاليا الحديثة ويعمل أستاذًا في جامعة «استراليا الغربية» إلى أن شخصية موسوليني أعقد بكثير مما يعتقد كثيرون، فقد كان قارئًا لسقراط وأفلاطون، وقادرًا على المناقشات الفلسفية ودرس ماركس وداروين وألف ٤٤ كتابًا، ولديه اهتمام كبير بالأشجار والبيئة.

وإحدى المميزات الأساسية في الكتاب أن مؤلفه يقدم رؤية واضحة وشاملة ليس فقط لكيفية انبهار الإيطاليين بموسوليني وإعطائهم زمام القيادة له حتى خرب البلاد، ولكن لطبيعة الفاشية الإيطالية في تلك السنوات المضطربة التي تلت الحرب العالمية الأولى. ويرفض المؤلف قطعيًا وصف موسوليني بأنه رجل دولة ويرسمه على أنه الفشل بعينه. ويقول إن محاولات موسوليني خلق ثقافة فاشية أثبتت فشلها الذريع وكذلك محاولته صنع صورته كزعيم لا يشق له غبار. لقد كان موسوليني انتهازيًا أكثر منه متطرفًا، فقد بدا غير راغب في الموافقة على التطرف النازي ومسألة نقاء الجنس الآري وغيرها، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا يميزه.

ويشير المؤلف أن موسوليني تصور نفسه عندما تولى السلطة عام ١٩٢٢ على أنه ريتشارد الثالث الذي ادخره القدر لإنقاذ إيطاليا. ومن سخريات القدر أنه هو الذي قاد إيطاليا إلى الدمار والخراب.

□ □ □

The Myth of the Holy Cow

(أسطورة البقرة المقدسة)

D N Jha

Verso, 2000, 183PP., £ 14



دائمًا ما يأخذ المتطرفون الدينيون حوادث التاريخ الخاصة بأديانهم بتسليم مطلق حتى الجانب غير الواقعي وربما الأسطوري منه. وقد واجه مؤلف هذا الكتاب وهو مؤرخ كبير في الهند هجومًا عنيفًا لأنه تجرأ وبحث بشكل علمي أسطورة تقديس البقر لدى أبناء ديانة الهندوس. وكان عديد من الناشرين في نيودلهي قد رفضوا نشر هذا الكتاب خشية أن يقوم المتطرفون الهندوس بأعمال عنف وشغب ضدهم وضد ممتلكاتهم وحرق الكتاب.

ويحاول المؤلف أن يثبت من خلال دراسته أن أكل لحوم البقر كان أمرًا معروفًا في الهند قبيل دخول الإسلام إليها، وهو أمر يعترف به مؤرخون عديدون، لكن الهندوس يرفضونه. إن الزائر للهند يندهش لمنظر غريب يراه وهو مرور قطيع طويل من الأبقار المريضة والطاعنة في السن ويخيل إليه أن هذه الأبقار وُجدت فقط لإعاقة المرور. ويشير المؤلف إلى أن تقديس البقر لم يكن معروفًا لدى البدو في آسيا الوسطى الذين استقروا في شمال الهند في الألفية الثانية قبل الميلاد والذين أقاموا الثقافة البراهمية التي أصبحت تعرف بالهندوسية، وكانت الطقوس القديمة للهند تتضمن ذبح البقر إما للطعام أو كأضحية، ثم جاء رجال دين وفلاسفة هندوس رفضوا ذبح الأبقار، وبعد ذلك أصبح أكل لحم البقر خطيئة، وذلك في بداية العصور الوسطى، لكن ذلك لم يكن يعني تقديس الأبقار، وهو الأمر الذي حدث في القرن ١٩ عندما بدأت الطبقة الوسطى الناهضة من الهندوس ترى البقرة كرمز مهم للتقاليد المجيدة للهندوس والتي يتحداها الحكام المسلمون على حد قولهم، وأصبح حظر ذبح الأبقار علامة على الهوية وجزءًا من مسعى الهندوس للحصول على السلطة في الهند التي كان يستعمرها البريطانيون آنذاك وبعد ذلك استمرت الأسطورة.

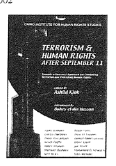
□ □ □

Terrorism and Human Rights After September 11

(الإرهاب وحقوق الإنسان بعد ١١ سبتمبر)

Edited by Ashild Kjok

Cairo institute for Human rights- 192pp., 2002



في الشهر الماضي وتحديدًا الحادي عشر منه مر عام كامل على الحدث الذي اعتبره البعض الشرارة الأولى للحرب العالمية الثالثة أو أولى حروب القرن الحادي والعشرين وخلال ذلك العام، الذي كان طويلاً بصورة استثنائية بالنسبة لكثيرين في العالم، نتيجة لما حدث فيه.

وهذا الكتاب يتحدث بالضبط عن هذه المسألة وقد صدر باللغة الإنجليزية عن مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، وشارك في تأليفه ١٤ من خبراء السياسة والقانون الدولي والإعلام ودعاة حقوق الإنسان من أمريكا وبريطانيا وكندا وبنجلاديش والمغرب ولبنان وفلسطين ومصر، وقامت بتحرير الكتاب باحثة متخصصة من النرويج، وقدم له مدير مركز القاهرة، وستصدر طبعته باللغة العربية في وقت لاحق.

يتناول الكتاب بالبحث التأثيرات السلبية لهجمات ١١ سبتمبر الإرهابية وما تلاها من تطورات على حقوق الإنسان في العالم، وبشكل خاص في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية والعالم العربي وفلسطين وأفغانستان. كما يحلل بعمق التحديات الخاصة التي يشكلها ما يسمى «بالحرب ضد الإرهاب» للقانون الدولي وحركة حقوق الإنسان، وللتعايش والحوار بين الثقافات.

وينتهي الكتاب بالتقرير الختامي الصادر عن أعمال المؤتمر الذي ناقش هذه القضايا، ونظمه مركز القاهرة بالتعاون مع الفيدرالية الدولية لحقوق الإنسان والشبكة الأوروبية المتوسطية لحقوق الإنسان، بمشاركة عدد من الخبراء وممثلي منظمات حقوق الإنسان في العالم، من ماليزيا في أقصى الشرق، إلى كولومبيا وأمريكا في أقصى الغرب، ومن جنوب أفريقيا في الجنوب إلى الدانمارك في أقصى الشمال، فضلاً عن بعض دول حوض المتوسط العربية والأوروبية.

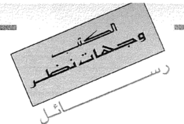
ويقول بهي الدين حسن مدير مركز القاهرة في تقديمه للكتاب، إن الطريقة التي أديرت بها هذه الحرب حتى الآن، لم تؤد إلى استئصال خطر الإرهاب، بل تهدد بتعظيم مخاطره وتوسيع نطاقه، من خلال تغذية التربة السياسية والثقافية الحاضنة للإرهاب بشرايين جديدة، وبسبب الانهيار المتزايد - خاصة منذ شن «الحرب ضد الإرهاب» - في ثقة الأفراد والجماعات والشعوب في القانون الدولي ومؤسسات المجتمع الدولي، بمفاقمة الشعور بالظلم، وعدم التصدي لمعالجة القضايا العادلة للشعوب والجماعات، بحلول منصفة تقوم على مبادئ الحق في تقرير المصير والعدل والمساواة والتكافؤ. وفلسطين هي المثال الأبرز وبالاستهتار الصريح واللامسئول بالقانون الدولي ومؤسسات المجتمع الدولي، وبالاعتداء الصريح على حقوق الإنسان على نطاق واسع في العالم ممارسة وتشريعًا، بما في ذلك داخل أوروبا والولايات المتحدة.

وأخيرًا بالدفعة الكبيرة التي منحتها لسيناريو صراع الحضارات، وبالتالي انتعاش موجات الكراهية العنصرية وخاصة ضد العرب والمسلمين.

إن المطالع لهذا الكتاب سيجد أن المشاركين فيه قد تنبأوا بهذه النتائج وحذروا منها، بعد ٤ شهور فقط من شن ما عرف باسم «الحرب ضد الإرهاب»، رغم أنهم ينتمون إلى خلفيات ثقافية ودينية وسياسية متعددة.

لقد توصل المشاركون في مؤتمر «الإرهاب وحقوق الإنسان» إلى مجموعة من التوصيات تضمنها التقرير الختامي للمؤتمر. الاتجاه العام لهذه التوصيات يشير إلى الاتجاه المعاكس تمامًا لمجريات «الحرب ضد الإرهاب»، برغم أن كلا من التوصيات والحرب، تتوخيان هدفًا معلنًا واحدًا، أي مكافحة الإرهاب، لكنهما تختلفان جذريًا بعد ذلك في حرص المشاركين في المؤتمر على عدم التضحية بحقوق الإنسان والشعوب ومؤسسات المجتمع الدولي والقانون الدولي، وعلى استهداف جذور الظاهرة الإرهابية، وعدم الاقتصار على أعراضها الظاهرة.

تبقى حقيقة أساسية مؤكدة، وهي أنه بعد عام كامل من الحرب ضد الإرهاب التي بدأت في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، لا يعرف أحد متى وأين تنتهي؟ وليس هناك حتى اتفاق على تعريف «الإرهاب»! ولا مسعى جاد في المجتمع الدولي نحو ذلك.



ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء - مثلها مثل المقالات ذاتها - لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

تنافس اللغات

اطلعت على مقال (الطريق إلى بابل.. الحيرة بين لغة القلب ولغة العقل) المنشور بعدد أبريل ٢٠٠٢ من المجلة، والذى يتناول عدة قضايا تدخل فى مجال علم الاجتماع اللغوى، كما يبرز الدور الذى تلعبه اللغة الإنجليزية فى عالم اليوم باعتبارها اللغة المشتركة المستخدمة فى شتى مجالات الحياة.

وتعليقًا على ذلك أقول إن المجلس الثقافى البريطانى فى لندن أصدر تقريرًا بعنوان (مستقبل اللغة الإنجليزية) منذ حوالى خمس سنوات. ونظرًا لأهمية هذا التقرير فقد كتب فى مقدمته الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا، وجاء فى التقرير أنه يتوقع أن تظل اللغة الإنجليزية اللغة العالمية الأولى فى القرن الحادى والعشرين، إلا أنه بحلول منتصف القرن لن تكون الإنجليزية اللغة الوحيدة فى هذا المجال، أى لن تحتكر هذا الموقع، بل ستنافسها لغات أخرى بحيث تصبح لغات عالمية أيضًا، واللغات المرشحة لأن تحتل هذه المكانة الرفيعة والمرموقة هى: العربية والصينية والإسبانية والهندية/الأوردية، ويعود السبب فى ذلك إلى العوامل الديموجرافية (السكانية) والثقافية والتغيرات السياسية والاقتصادية التى سيشهدها العالم فى النصف الأول من القرن الحادى والعشرين.

كما ذكر التقرير أن اللغات الفرنسية والألمانية واليابانية ستتضاءل أهميتها ويقل انتشارها على الساحة الدولية. كما قرأت فى بحث آخر نشر مؤخرًا أن اللهجة الأمريكية هى التى ستنتشر فى العالم وتتفوق على اللهجة البريطانية، بل لقد بدأت اللهجة الأمريكية تغزو اللهجة البريطانية فى عقر دارها، إذ أن قطاعات عريضة من الشعب البريطانى - خاصة الشباب - يتحدثون ويكتبون اللغة الإنجليزية بالطريقة الأمريكية.

د. شعبان عبدالعزيز عفيفى
قسم اللغة الإنجليزية
كلية الدراسات التجارية - الكويت



أول اشتباك نقدى

أسعدنى للغاية أن أقرأ على صفحات «وجهات نظر» الدراسة المهمة التى نشرت على عددين للناقد المعروف الأستاذ فاروق عبد القادر تحت عنوان «فى الرواية المصرية الجديدة - نماذج مختارة». فقد ظهرت من قبل محاولات متناثرة هنا وهناك لإلقاء الضوء على رواية أو أخرى من موجة ما سمى «الانفجار الروائى»، لكن ما تقدم به فاروق عبد القادر كان أول اشتباك نقدى كبير مع تلك الظاهرة الروائية الجديدة فى مجملها، فى محاولة لاستنباط المغزى الاجتماعى والأدبى العام لتلك الروايات، وهكذا طرح الناقد الكبير - من الناحية المنهجية - ضرورة النظر إلى تلك الروايات مجتمعة، لاستخلاص القوانين العامة للظاهرة دون أن ينفى ذلك بالطبع أهمية تناول كل عمل بمفرده. وبفضل ذلك الطرح وذلك الجهد النقدى أصبح بوسعنا الحديث عن الملامح المشتركة لتلك الرواية ومنها ما أشار إليه فاروق عبد القادر من التداخل الملحوظ بين شكلى القصة والرواية، والإفادة من اللغة السينمائية، والحجم الصغير للأعمال المكتوبة، وما أطلق عليه «الحس التاريخى» فى عدد منها، ثم إشارته المهمة إلى أن «نصف النماذج التى تعرض لها من إبداع كاتبات، وتلك واقعة ثقافية واجتماعية جديرة بالاهتمام». وقد فتح فاروق عبد القادر فى «وجهات نظر» الباب واسعًا لتناول جديد، لا يعتمد على قراءات منفردة لكل عمل على حدة، ولهذا لم يكن مستغربًا أن يظهر من بعد دراسته عدد من المحاولات النقدية على ضوء ما طرحه وبادر إليه من ضرورة تفسير جوهر الظاهرة إجمالاً.

وبطبيعة الحال فإن كل جهد كبير يحتمل الملاحظات، وقد لا أجدنى متفقًا مع ناقدنا الكبير فى مسألة أو أخرى، كقوله إن رواية «لصوص متقاعدون» لحمدى أبو جليل هى: «حى عشوائى، وشخصيات ورقية، ونص لا يخلو من طرافة» هذا لأنه رغم شعورى بارتباك الرواية، فإن ثمة شعورًا آخر أقوى يطغى بقدرات الكاتب وإن لم تبلغ مداها فى تجربته الأولى. لكن هل تمنع الملاحظات الصغيرة أن فاروق عبد القادر قد قدم لنا جهدًا عظيمًا من منظور شامل حافل بكل خبرته وثقافته العميقة؟

لناقدنا الكبير إذن تحية تقدير حقيقى، لما كتبه، ولصدقه، ولمنهجه، الذى نادرًا ما يرضى الجميع. لكن هذا هو فاروق عبد القادر، الذى نعتز به، قيمة إنسانية وأخلاقية ونقدية كبيرة فى حياتنا الثقافية.

أحمد الخميسى

احتفاء بهيكل

احتفلت على طريقتى الخاصة بعيد ميلاد أستاذنا الكبير محمد حسنين هيكل، وذلك بالحصول على آخر كتبه حيث كنت أمضيت السنوات الاثنتى عشرة الماضية - أى منذ كنت فى الرابعة عشرة من العمر - فى متابعة كل ما كتب ويكتب، فقرأت كتبه كافة ابتداء من «إيران فوق بركان» وحتى مقاله الأخير - فى انتظار ثورة - حيث كان الأستاذ رائعًا كعادته - أطال الله فى عمره - وإننى فى ذكرى ميلاده أتقدم لمجلتكم الحبيبة «وجهات نظر» باقتراح لكى تبدأ استعدادها المبكر للاحتفال بعيد ميلاده القادم وذلك بتخصيص مساحة كافية منها واعتبارًا من العدد القادم للحديث عن الأستاذ.. شخصيته وتاريخه ومؤلفاته ومقابلاته ومنهجه الفكرى والمهنى الذى ظل مخلصًا له.. أطال الله فى عمر الأستاذ وأمده بالصحة والعافية ومتعه ومتعنا بنعمة الكتابة والقراءة والتفكير وسط هذا البحر اللجى المتلاطم الأمواج من الجهل والتخلف والتكفير..

بهاء الدين غالب البشير
عمان/البنك العربى ص ب (٦٩٠٤)



وجهة نظر!

عندما طالعتنا «وجهات نظر» فى أعدادها الأولى تهافت عليها جمهور المثقفين وأهل الفكر والمشتغلين بالسياسة، لما كانت تقدمه من أبحاث ومقالات وعروض تتسم بالعمق والصدق ووضوح الرؤية، وتتعامل مع هموم أمتنا وقضاياها من منطلق قومى عربى، ولكن الأمر اختلف فى الآونة الأخيرة حيث اتخذت المجلة منحى آخر وكادت تحصر موادها فى التاريخ والأدب والفن بدلاً من السياسة والثقافة والفكر إلا النزر اليسير.

فعلى سبيل المثال جاء فى العدد الرابع والأربعين لشهر أيلول سنة ٢٠٠٢ ما لا يقل عن ٨٠٪ من مواد المجلة تتحدث فى التاريخ وبعض العروض الأخرى التى لا تمت لأوضاعنا الراهنة بأية صلة، حتى مقال الأستاذ محمد حسنين هيكل ركز على الجانب التاريخى فى الوقت الذى تواجه فيه أمتنا هجمات شرسة تهدد وجودها.

فى فلسطين، احتلال وهدم وتقتيل وتهجير وتهويد، فى العراق، تهديد بعدوان واحتلال ووقف عجلة النمو لحماية أمن إسرائيل من جهة وللهيمنة المباشرة على منابع النفط من جهة أخرى، فى السودان، زرع بذور الفتنة بين أبنائه ودعم الفصائل المتمردة بالمال والسلاح والعمل على تجزئته وإيجاد نظام انفصالى فى الجنوب يتحكم بمياه النيل ووضع حياة الشعب العربى فى مصر فى موقع حرج. وغير ذلك الكثير فى بؤر التآمر الغربى على هذه الأمة، ناهيك عن مأزقنا الداخلى الذى تعكسه القطيعة بين الأنظمة الحاكمة والشعوب مما يعطل آليات النمو وبالتالى الضياع ومن ثم التخلف.

ونقول لا بأس من مراجعة بعض فصول التاريخ، ولكن فى سياق محسوب يراعى الظروف التى تمر بها الأمة ضمن أجندة واضحة تتفاعل مع المعطيات.

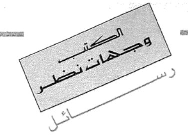
إن الإنسان العربى يا سيدى يقف هذه الأيام مشدوهًا أمام حركة التاريخ المتسارعة المليئة بالانتكاسات والتى تعبث بمقدرات وطنه، يقف مفتشًا عن وسائل تسهل له فهم ما يدور من حوله فى خبايا الدوائر السياسية وصناع القرار من استراتيجيات وأهداف تعكسها حالة الاستفراد بالقوة والغطرسة الدولية والتى تهدد وجود الأمم المستضعفة ونحن فى مقدمتها بسبب اختلاف الحضارات.

د. خليل حمدى
علوم سياسية - الأردن



لغة حية وقادرة

أود أن أحييكم على نشر مقال نبيل على «الصفر والواحد» فى عدد سبتمبر الماضى.. إن نبيل على يواصل فيه جهده التأسيسى فى استكشاف الأسس النظرية لعصر المعلومات. فيرينا كيف تطيح النقلة المعرفية الجديدة بأغلب الثنائيات



التى درجنا على التفكير طبقًا لها (النظرى والتطبيقى، الذاتى والموضوعى، الشكل والمضمون، الوعى واللاوعى إلخ)، وتغلب عليها ثنائية جديدة، وهو تطور خطير يقلب كثيرًا من المواضعات فى الفكر والأخلاق والسياسة والإبداع، وهو على الأقل مسئول عن مولد «الرقمنة»، أى تحويل أى معلومة إلى مقابل رقمى.

لكن أهم ما فى عمل نبيل على هو اللغة التى يستخدمها، فهى سلسلة بسيطة قريبة من فهم الشخص المتعلم، إنها لغة العالم (بكسر اللام) الحقة، فاكثر الموضوعات تعقيدًا يمكن عرضها ببساطة تامة، بشرط أساسى أن يكون الكاتب هاضمًا لموضوعه وتسيطر عليه إلى درجة الهوس رغبة حارقة فى التوصيل فضلاً عن امتلاكه ناصية اللغة، وهذه «الناصية» ليست القدرة على اللعب بالمفردات المهجورة وإنما القدرة على التوصيل بالمفردات الشائعة، وفى نفس الوقت الجراة على نحت مفردات جديدة يمكن بها التعبير بدقة عما يجد من علم. («واقع خائلى» الدقيقة المولدة بطريقة علمية بدلاً من «الواقع الافتراضى» غير المحددة والفضفاضة).

مرة أخرى أثبت نبيل على أن اللغة العربية حية وقادرة على مواكبة الجديد، وهو الأمر الذى يحتل مركز الصدارة فى عمله.

صنع الله إبراهيم



يهـودى وصهـيـونى

قرأت مثل غيرى من إخوانى الحريصين على قراءة الدورية كلمة الأستاذ / أيمن الصياد كمقدمة عن موضوعين: الأول لنعوم تشومسكى الأستاذ بمعهد (MIT) الأول بالفعل يهودى وهو ما يتضح جدًا فى مقاله، فالرجل لا يخفى يهوديته ولا تمنعه من قول الحق والمتابع لأعمال تشومك يرى أنه يعتبر من أعلى الأصوات الأكاديمية اليهودية اليسارية (الليبرالية) فى الولايات المتحدة، ودائمًا ما تحاول الميديا تجاهله ولكن الرجل معروفة مكانته العلمية وجاديته العلمية، فدائمًا ما يصل كلامه للناس وتعتبره الإدارات الأمريكية من أخطر عشرة كتاب وأكثر الكتاب انتقادًا لسلوك الإدارات الخارجية فى العالم كله منذ فيتنام / البوسنة / نيكاراجوا / بنما / جمهوريات أمريكا اللاتينية...

أما الآخر «برنارد لويس» فهو ينتمى للتيار المسيحى الصهيونى الحاكم حاليًا فى الولايات المتحدة وتدعمه الميديا الصهيونية المسيحية، فالرجل ليس مجرد أستاذ تاريخ الشرق الأدنى وإنما هو عميد الدراسات الأوسطية فى العالم وهو ضيف دائم على المحطات الصهيونية التى يملكها أشخاص مثل (بات ربرتسون / جيرى فالويل / بيلى جراهام، والرجل لا يخفى صهيونيته، بل نجد أنه يبدأ مقالاته ببعض آيات من التوراة، ودائمًا ما يحاول أن يخفى سمومه التاريخية معتمدًا على القيمة العلمية له فى مستوى العالم الغربى على الأقل، فمثلاً المقال الذى نشرته لنا «وجهات نظر» مثل موضوع الأكل بالأصابع يوضح لنا أننا مازلنا بدائيين نأكل باصابعنا وأيدينا مما يوحى بالقذارة، بل ويصل الأمر إلى التحقير من شأن المسيحيين الشرقيين فى قوله (يكاد الدير يظهر فى الشعر القديم فى اللغة العربية والفارسية على أنه حانة وكما هو معروف أن الفارسية وريثتها الشرعية هى إيران التى تظهر فى الأدبيات الصهيونية أنها منبع الإرهاب الإسلامى الأصولى ليوضح للقارئ الغربى أن الشرق الأوسط الذى يسكنه المسلمون والعرب هو منبع الإرهاب..

وثانى هذه المغالطات التاريخية هو ربطه بين الفتوحات الإسلامية وبين الأكل كان الإسلام والمسلمون جماعات من آكلى لحوم البشر أو أننا متخلفون لا هم لنا سوى الغزو من أجل الأكل..

ثالث هذه الافتراءات على الإسلام والمسلمين هو إيهام القارئ الغربى أن الشرق الأوسط ومن يسكنه من العرب والمسلمين هم مجرد حشاشين بقوله (هو موطن الحشيش)..

وفى العصر الحديث موضوع المائدة التى تحدث عنها السفير العثمانى فى أوروبا فى القرن الـ ١٩ ويسخر لويس قائلاً: (لا أدرى عن أى الموائد رأى) ليوضح لنا أننا قوم لا نحترم النساء بل إننا لا نجعل النساء يأكلون إلا بعد أن يأكل الرجل ويعطفون على النساء بالفتات من أكلهم.. بالله عليك أليس هؤلاء المسلمون جماعة من المتخلفين..

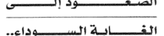
العيب أو الخطأ ليس فى لويس أو غيره ولكن الخطأ فينا نحن، فنحن لسنا ملائكة ولسنا أيضًا شياطين، ولكننا تاخرنا عن الحضارة بما يزيد على ٢٥٠ سنة حتى صار لويس وغيره هم مراجع العلم بعدما كان (الرازى / ابن خلدون / ابن رشد) ولأننا قد ابتعدنا عن الإسلام والقرآن فقد تخلفنا عن الحضارة المعاصرة بما يزيد على ٢٥٠ سنة..

وخير النصائح لحالة المسلمين الحالية قول الله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ صدق الله العظيم. فمتى بالله عليك هذا التغير؟؟

أحمد أبو زيد
علوم سياسية
جامعة أسيوط



"نون"



الصعود إلى الغابة السوداء..

■ يبدأ الصعود إلى الجبل من أطراف المدينة.. تقل الحركة ثم تنقطع، وتخفت الأصوات ثم تغيب، وتتباعد المسافات بين البيوت والأمكنة والأزمنة. تزداد كثافة الخضرة والأشجار. ويتغير طعم الهواء ولون الضوء. وتنتشر شعاعات غامضة من الشمس، تتلاعب بالظلال والأطياف.. يتعرج الطريق الضيق بغير نهاية. فلا يكشف عن منحنياته غير تعرجات مفاجئة، تتباين عندها درجات الظلال، تلف بين أعطافها قامات متسامقة لأشجار ترتفع هاماتها إلى عنان السماء، وأخرى اقتربت من الأرض أو تسلقت والتفت على سيقان غيرها من الأشجار جوعًا وطمعًا.. تخفى بين أغصانها أشباحًا متلفعة بأردية رمادية أو سوداء. تتابعك وتتلصص عليك. ترمقك من بعيد وهى ترقب كل حركة وسكنة.. كل خطوة فى طريق الصعود محسوبة ومقدرة. تنقلك من حالة إلى حالة. وتدلف بك إلى قلب الغابة السوداء، حيث تمتزج الألوان فيها بين الأصفر الفاقع، والأزرق الساطع، والأخضر الذى يضرب إلى السواد، ثم سرعان ما تهب دفقة مفاجئة من رياح خفيفة، تعبث بالأغصان، وتدغدغ الأشجار، فتعيد توزيع الأضواء والألوان ببراعة فائقة فى لوحات سيريالية، تزيح الستار عن مفاتن الجمال وسحر الكون.. وتقدم إليك مقعدًا مجانيًا فى مسرح الطبيعة!



لا يكتمل الصعود إلى الجبل بغير نداء داخلى مُلح وجهد جسدى منظم. تلتقى فى حركته وثبات العقل واحتياجات الجسد وتعطش الوجدان.. خطوات الارتقاء من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى، تشى بالعناء والتحدى. وتستدعى طاقة جسدية واستنفارًا عضليًا، قلما يلجأ إليه الإنسان.. فإذا الأنفاس قد انتظمت فى إيقاع متتابع، وإذا طريق الصعود بعد وهلة قصيرة قد انفتح أمامك، وإذا انطلاقة العقل وصفاء الروح قد بعثت فيك حيوية غائبة ونشاطًا مفقودًا، تستغنى فيها بنفسك عن نفسك.. عن كل العلاقات والمشاعر والمواقف التى تربطك بالآخرين. وتحيطك العزلة بستار من الشفافية والتجرد..

أنت وحدك فى الغابة ترتقى الطريق صعودًا إلى قمة الجبل. لا تصادف فى الطريق بين الحين والحين غير أطياف عابرة وشخوص مثل الرسوم المتحركة.. تفقد ملامحها من الذاكرة بمجرد مرورها العابر السريع. فكل واحد يمضى فى طريقه مكتفيًا بذاته، لا يلوى على شىء، ولا يهمه أن يدرك من الكائنات المحيطة به غير الغابة بأشجارها وظلالها وحيواناتها وطيورها. بعضهم يتوكأ على عصا مدببة يتجاوز بها نتوءات الصخور والتفافات الطريق. والبعض الآخر يتوكأ على نفسه. ولكن الغابة السوداء تبتلع الجميع فى أنحائها المترامية، فلا يرى أحدهم شيئًا غير عالم جديد من صنعه، شكلته الخيالات والرؤى والأحلام!



عند كل مرحلة من مراحل الصعود تستقر دكة خشبية مثبتة فى مكانها من الأرض، أو ينهض كوخ خشبى عتيد فوق صخرة ثابتة، يلتقط السائر عندها أنفاسه لكى يعاود رحلة المشى والصعود من جديد، أو يحتمى من زخات المطر المفاجئة التى لا تحتملها المظلة الواقية من المطر، أو يتملى من موقع استراتيجى كاشف لجمال الطبيعة، يتأمل صفوف الأشجار المتراصة على مسافات قريبة بغير ترتيب مسبق ولكن طبقًا لنظام محكم. هنا تبدو قوانين الطبيعة ناطقة بنوع من الفوضى المنظمة أو النظام الذى لا يخلو من فوضى.. تبدو الغابة فى تناسقها وتلقائيتها وخضوعها لقوانين الطبيعة، صورة مقابلة ولكنها على النقيض من أى تجمع عمرانى فى الوادى صنعته يد الإنسان.. هنا تسقط الحواجز بين الإنسان والطبيعة، ويختفى ذلك السياج المصطنع الذى يفصل الإنسان عن بيئته. تتحول الأشجار إلى كائنات آدمية، تتلاغى وتتحاور، وتتصادم وتأتلف. ويتحول الإنسان إلى كائن نباتى أو حيوانى من بين آلاف الكائنات والمخلوقات التى تسكن الغابة.



أنت وحدك فىّ هذه الغابة ولكنك لست وحدك.. يلفك الصمت والسكون من كل اتجاه. ولكنك تصغى إلى همهمة غامضة بعيدة. تتسلل إلى كيانك عبر الحواس الخمس، بل ربما عبر نوع من الحدس الخفى الذى يتجاوز إدراك الحواس. يخيل إليك أنك تفهم لغة الطيور وهى تتناجى، وصرير الحشرات وهى تدب تحت الأرض أو فوق أوراق الشجر. وقد تصل إلى سمعك أصوات التحذير وإشارات الإنذار المبكر ترسلها مئات المخلوقات من سكان الغابة: أن احذروا ظهور الوحش الأكبر عبر طرقات الجبل ومنحنياته. وفى لحظات تصبح جزءًا من كل. تندمج بجسدك وحواسك وتفكيرك فيما حولك. تصبح حلقة من سلسلة واحدة تضعك جنبًا إلى جنب مع سائر الكائنات. تموت بداخلك نزعة الاستعلاء البشرى، ويختفى الزهو والشعور بالكبر إزاء المخلوقات الأخرى. وتطل عليك رءوس الأشجار الضخمة مستهينة غير عابئة. ويتولد لديك إحساس بالخوف والرهبة والخشوع أمام قوى كونية غامضة لا تملك لها ردًا.. أنت تعود إلى أحضان الطبيعة مبرأ من الأدران والشوائب. مطلق السراح من القيود والعلائق. تجوس بخيالك فى ممالك بعيدة، تستعيد معها ما اندثر من ذكريات وتجارب.



الجبل طبقات فوق طبقات. والغابة تجثم بكلكلها على أنفاسه بأشجارها الهائلة. مئات الألوف منها بل ربما الملايين.. توطد أركانه، وتثبت أطرافه، وتعصمه من الانهيار والزوال. تضرب بجذورها إلى أعماق بعيدة فى باطنه، تغذيه بعصارتها وتستمد منه حياتها. وتغطيه فى فصول الشتاء بطبقة كثيفة من أوراقها الخريفية المتساقطة، لتصنع منها ملاءة سميكة تفترش الأرض وتحتفظ بالرطوبة عند درجات ثابتة. فلا يمضى وقت طويل حتى يبزغ العشب، ويتخلق الفطر، وتنمو الزهور والنباتات البرية وعش الغراب بألوان وأشكال لا حصر لها ولا عد.. لوحات مرسومة بيد الطبيعة إثر لوحات. وكأن ثمة تحالفًا وثيقًا غير معلن يجمع بين الأضداد: بين الجبل والغابة، بين الصخرة والشجرة، بين الحجر والبشر، بين الساكن والمتحرك، بين النبات والحيوان والجماد.



لم أكن قد قطعت من الطريق بين سفح الجبل وقمته غير ما يقرب من ثلثه أو أقل. فالزمن يكاد يتوقف. والمسافات يصعب قياسها إلا بعلامات وأسهم مرقومة على جذوع الشجر، تحمل أسماء ورموزًا محفورة.. هل هى لشعوب وأقوام مرت من هنا؟ أم كتبتها مخلوقات غريبة تسكن الغابة؟ هل هى أطلال حضارة غابرة أم بداية نشوء كونى فى بدء الخليقة؟ هل هو عالم مسحور من صنع الخيال أم مشاهد تخيلية وهمية على شاشة الكمبيوتر؟ ولكنك تستطيع أن تواصل السير فى مسالك الغابة، وأن تمد يديك فتمسك الأغصان وتحتضن الأشجار. تستطيع أن تنطلق وتجرى وتقفز فى الهواء.. تستعيد طفولتك وبراءتك، فلا شىء يحاصرك أو يضيق الخناق عليك..

عند منعطف فى الطريق تطالعك لافتة صغيرة معلقة بجذع شجرة. تقرأ عليها بخط صغير واضح «مدينة المسرات». تتبع السهم الذى أمامك، فإذا أنت فى طريق متعرج ضيق لا يسمح إلا لشخص بمفرده أن يسير فيه. تناوشك شجيرات صغيرة من كل جانب، بعضها يداعبك فى رقة وعذوبة. وبعضها الآخر يحذرك بأشواكه وأوراقه المدببة من الاقتراب أو اللمس. وفجأة وبدون مقدمات تجد نفسك أمام منطقة مكشوفة واسعة خلت من الأشجار. يغطيها العشب وتغمرها أشعة الشمس الصفراء إيذانًا بالرحيل والإياب. تحيط بها أشجار عالية إحاطة السوار بالمعصم.

لا تحتاج «مدينة المسرات» إلى تذكرة للدخول ولا إذن بالاقتراب. فقد تناثرت المقاعد والمناضد الخشبية فى أرجائها وما عليك إلا أن تختار. وتحولت جذوع الشجر فيها إلى بيوت صغيرة أو أكواخ بدائية مغطاة بالأغصان. يأوى إليها العشاق أو يتجمع فيها أفراد الأسرة والأصدقاء للطعام والشراب. وغير بعيد فى ركن من الساحة تجمعت ألعاب للصغار والكبار. ليس كل مكان فى الغابة يصلح للهو واللعب. ولا كل ساعة من ساعات الليل والنهار تصلح للهدوء والتأمل والعزلة. فللغابة قانونها الذى يبسط سلطانه على الكائنات المحتمية بها.

أوشك الليل أن يرخى سدوله. وبقيت شعاعات من شمس غاربة تسابق عتمة الغروب. وما بين الصعود إلى «مدينة المسرات» والهبوط منها توشك معالم الجبل وأشباح الغابة أن يحتويها الظلام.. ولكنك تستطيع أن تتبين بصعوبة صخرة تعترض طريقك حُفرت عليها عبارات موحية:

الإغراق فى المرح طول الوقت خطر عليك..

والإغراق فى الأحزان طول الوقت ينأى بالأصدقاء عنك.

والإغراق فى السعادة طول الوقت ضرب من المستحيل..

فليكن لكل حال ما يناسبها!!

سلامة أحمد سلامة



Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 47 - December 2002 مجلة شهرية . العدد السابع والأربعون . السنة الرابعة . ديسمبر ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات

٥ ليالٍ طوال !

محمد حسنين هيكل / ثورة يوليو : خمسون عاما

جورج فيدال
مسئولية الإدارة الأمريكية عن أحداث ٩/١١

أندرو ناثان - بروس جيلى
الجيل الرابع يحكم الصين

مديحة السفطى - أحمد عكاشه - محمد أبو الغار
لماذا لا يتزوج المصريون ؟!

« نون » سلامة أحمد سلامة
من أزمة الصواريخ الكوبية : إلى أسلحة الدمار العراقية !

حلمى التونى 2002

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد السابع والأربعون
ديسمبر ٢٠٠٢

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

كتاب العدد:

- أحمد عكاشه.. رئيس الجمعية العالمية للطب النفسي.
- أناتول لايڤن.. باحث بمؤسسة كارينجي للسلام، واشنطن.
- أندرو ناثان.. أستاذ العلوم السياسية بجامعة كولومبيا.
- أيمن الصياد .. صحفي.
- بروس جيلي.. طالب دكتوراه في العلوم السياسية بجامعة برنستون.
- جمال إسماعيل.. صحفي.
- جودت بهجت.. أستاذ العلوم السياسية ومدير مركز الدراسات الشرق أوسطية بجامعة إنديانا.
- جور فيدال.. كاتب أمريكي.
- حسين عبدالله... أستاذ اقتصاديات البترول ووكيل سابق لوزارة البترول المصرية.
- رشدى سعيد.. أستاذ جيولوجيا مصرى مقيم في الولايات المتحدة الأمريكية.
- رءوف عباس.. أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفي.
- صبرى حافظ .. أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة لندن.
- محمد أبو الغار .. أستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة.
- محمد حسنين هيكل .. صحفي.
- محمود عبد الفضيل .. أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة.
- مديحة محمد السفطى .. أستاذ علم الاجتماع بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- نادر فرجاني .. مدير مركز المشكاة للبحث.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى - سعد الدين شحاتة





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمة..

الأرقام..

«٩,٥ مليون مصرى (من الجنسين) تجاوزوا سن الـ٣٥ عامًا، دون أن يتمكنوا (أو يتمكن) من الزواج».

الرقم - الصادم والمثير - ظلت الصحف المصرية، ومن بعدها برامج التليفزيون، تلوكه على مدى شهرين كاملين. وكان طبيعيًا - لتكامل عناصر الإثارة فيه - أن يحتل طوال الصيف، العديد من برامج التليفزيون الحوارية. كتب الصحافيون.. وشارك الخبراء والأكاديميون بالرأى و«الصورة»، دون أن يحاول أحدهم التوقف للتأكد أو السؤال. وللتوثق من نقطة البداية: «الرقم».

فى «وجهات نظر» كان طبيعيًا أن نهتم بمناقشة القضية، وأن نقدم قراءة للرقم «المخيف» إلا أنه كان طبيعيًا أيضًا فى «وجهات نظر» أن نسأل ونستوثق.

شهر كامل عكفت فيه هيئة تحرير هذه المجلة على البحث والسؤال. قبل أن تطلب من أساتذة أفاضل الكتابة فى الموضوع. شهر كامل استغرقته رحلة طرق أبواب كل من له صلة بالمعلومات والبيانات فى هذا البلد. لنصل فى نهاية المطاف إلى مفاجأة أن الرقم الصحيح لتعداد من فاتهم قطار الزواج حتى وصلوا إلى سن الخامسة والثلاثين هو بالتحديد (٣٦٩,٥٧٨) نسمة منهم (٢١٦,٩٢٢) من الذكور و(١٥٢,٦٥٦) من الإناث.. وليس ٩,٥ مليون.

ولنعرف أن الرقم الذى شاع كانت بدايته قصة صحفية أرادوها أن تكون مثيرة فاختاروا «المبالغة» واختاروا عنوانًا مثيرًا.. وتلك هى المصيبة الأولى، ولندرك ثانيًا أن الرقم قد تم «تدويره»، هكذا ببساطة، فى مانشيتات الصحف وأغلفة المجلات وشاشات التليفزيون. وعلى ألسنة الضيوف و«الخبراء» وأساتذة الجامعات دون تمحيص أو تدقيق.. وتلك هى المصيبة الثانية.

ولنتأكد - ثالثًا - كم هو صعب الحصول على البيانات والأرقام فى مصر.. فى عصر «تسود فيه بقدر ما تعرف» وتحدد فيه كيفية التعامل مع المعلومات قوة الدول، ورقى المجتمعات.. وتلك «ثالثة الأثافى».

والحقيقة المرة اكتشفناها أيضًا قبل شهرين. حينما تصدينا لطرح موضوع الائتمان والقروض البنكية، لنكتشف ما دأبنا على نسيانه من أنه لا توجد أرقام دقيقة. أو بالأحرى لا يوجد تداول دقيق للأرقام. فالكلام عادة «على عواهنه».. ولكم هى معبرة تلك اللفظة العربية القديمة.

يومها تبين أن الأرقام «الرسمية» فى البيانات البرلمانية تختلف عن تلك الموجودة فى محاضر التحقيق. كما تختلف هذه وتلك عن الأرقام التى تذكرها الصحف أو تصريحات المسئولين.

كل هذا فضلاً عن خلط غير مقبول فى التعريفات - خفة أو جهلاً - من بعض من لا يستنكفون أن يجرى الحبر على ألسنة أقلامهم فى ما لا يعرفون حق المعرفة، أو فى ما لم يدرسوه الدراسة الواجبة.

لم يكن أمامنا يومها - بعد البحث والدراسة - غير التوثيق بالإحالة إلى المصادر الموثوق فيها افتراضًا - بحكم الموقع والمسئولية - لتظل «العُهدة على الراوى».



ليس بعيدًا عن هذا كله، ويعكس مدى تردى الاهتمام بالعودة إلى المصادر وضرورة «التثبت قبل القول» الضجة التى أثيرت فى أكتوبر الماضى وشارك فيها صحافيون وأكاديميون ذوو علاقة للتحذير من آثار تطبيق «قانون الشيك» بعد أيام، فى حال السوق فيها راكدة والتجّار على حافة الإفلاس، الأمر الذى دفع بمسئول كبير إلى طمأنة الجميع إلى «سندرس تشريعيًا تأجيل العمل بالقانون».

ولم تمض أيام حتى تبين - بعد الضجة لا قبلها، وبعد التصريح الرسمى لا قبله - أن العمل بالقانون «مؤجل فعلاً» حتى عام ٢٠٠٣ بموجب تشريع صدر - فعلاً - قبل عام.

وإذا كان النسيان آفة «مغفورة»، فالكتابة للجمهور والكلام أمام الميكروفونات دون العودة للبيانات ذات الصلة، يظل حكمها مختلفا.



الأرقام، وإجادة قراءتها ومن ثم تفسير دلالاتها. يبقى لها دائمًا أهمية خاصة.

فى هذا العدد من «وجهات نظر» نفرد ملفًا خاصًا عن حرب النفط نردفه برسوم بيانية للأرقام ذات الصلة. والتى تؤدى قراءتها المتمهلة إلى فهم كثير مما يجرى حولنا هذه الأيام.

يقارن د. حسين عبد الله فى قراءته للأرقام بين موقف أوروبا السلمى من قضية تأمين الإمدادات البترولية وموقف الولايات المتحدة الأمريكية من الأمر نفسه.

فأوروبا تقف من القضية موقفا سلميا، وتعالجه فى إطار العلاقات التجارية المعتادة، وإن كانت تقوم بتنسيق مواقفها واستخدام قوتها التفاوضية فى إطار جماعى. وهذا فى ذاته يعتبر عملا مشروعا. أما الولايات المتحدة فإنها تنتهج نهجا مخالفا فى هذا المجال، إذ تبادر بالضغط السياسى على الدول المصدرة للبترول كلما ارتفع سعره، وتبعث ممثليها لإقناع تلك الدول بزيادة الإنتاج وخفض الأسعار. وفى الآونة الأخيرة اتخذ الضغط الأمريكى منحى أشد عنفا إذ أدخلت فى إطار «محور الشر» المستهدف بضرباتها العسكرية كلا من إيران والعراق وهما من دول أوبك التى كانت توصف بالصقور فى مداولات المنظمة حول الإنتاج والأسعار.

وتشير «الأرقام»، وهنا أهميتها، إلى أن السوق البترولية مقبلة على فترة تشح فيها الإمدادات. وإن كان هذا لا يعنى أن الإنتاج العالمى سوف يأخذ فى الانخفاض، وإنما المقصود أن الإنتاج العالمى من البترول سوف لا يتجاوب ارتفاعا بالمعدلات التى يتزايد بها الطلب العالمى عليه.

يشار هنا - والأرقام لها دلالتها أيضا - أن البترول يمثل نحو ٤٠٪ من استهلاك الولايات المتحدة من الطاقة، كما يمثل الغاز الطبيعى نحو ٢٥٪، بينما يشترك فيما تبقى كل من الفحم والطاقة النووية والطاقة المائية وغيرها من مصادر الطاقة الجديدة والمتجددة.

يشار هنا أيضا إلى أن الارتفاع الطارئ فى سعر البنزين عام ٢٠٠٠ احتل المرتبة الأولى فى الحملة التى شنها بوش ضد حكومة كلينتون أثناء انتخابات الرئاسة فى العام المذكور. فى بلد يحرص ساسته على تدليل المواطن الأمريكى فيما يتعلق باستخدامه للسيارة والتى تمثل جانبا مهما فى حياته اليومية.

وربما كان من الطريف هنا، أو مما يعكس «كيف تنظر المؤسسات الأمريكية إلى العالم الآن»، أن قاضيا فدراليا فى ولاية الاباما الأمريكية لم يتردد فى أن يصدر قرارا فى أبريل ٢٠٠١ يتهم فيه أوبك أنها تتواطأ بهدف تقييد حرية التجارة فى البترول مخالفة بذلك قوانين مكافحة الاحتكار الأمريكية. والمثير أن أوبك اضطرت إلى الاستعانة بمحامين للدفاع عنها، وأن القضية ما زالت تتداول فى المحاكم الأمريكية حتى الآن.

فهل تتسع دائرة التعريف الأمريكى لصفة الإرهاب بحيث لا نستغرب أن تطلق يوما على من يحاول تنسيق إمداداته من البترول أو مساندة أسعاره وحمايتها من التآكل، وذلك بدعوى أن هذه السياسة تهدد أمن المواطن الغربى وتعرض اقتصاده للدمار؟ يتساءل دكتور عبد الله. ويبقى السؤال، على غرابته، غير مستبعد فى هذا الزمان «العولمى».

ليس بعيدا عن هذا على أية حال أن أصواتا فى الكونجرس - لايخفى طبعا ما وراءها من دوافع انتخابية - تصاعدت تحرض ضد أوبك. على أساس أن الشعب الأمريكى يعانى كل يوم من مصاعب حقيقية نتيجة لتصرفات المنظمة البترولية. «وهذا لم يعد مقبولا..» كما يقول السناتور مايك دوين الذى لم يتردد هو الآخر فى توضيح «أنه مادامت أوبك تركت لكى تتحكم فى العرض العالمى للطاقة فإن علينا أن نتوقع المزيد من الصدمات والمزيد من المشاكل التى يعانى منها المستهلك الأمريكى». خاصة إذا تركت أسعار البترول لكى تحددها قوى السوق دون ضغط من جانب الدول الصناعية الغربية بقيادة الولايات المتحدة، فإن تلك الأسعار، يمكن أن ترتفع إلى مستويات شاهقة وترتفع معها فاتورة الواردات البترولية إلى ما يقرب من نصف تريليون دولار سنويا بالدولارات الجارية.

وتقول الأرقام إن المنطقة العربية، ومعها إيران، يمكن أن تزود العالم بنحو ٤٥٪ من احتياجاته عام ٢٠٢٠، كما يمكنها أن تساهم بنحو ٦٣٪ من صادرات البترول العالمية المتوقعة خلال العام المذكور.

هل قالت الأرقام شيئا..؟

فقط، علينا أن نجيد القراءة.

وجهات نظر

محمد حسنين هيكل



٥ ليال طَوال!

"١" تمهيد قبل رواية قصة حافلة!

■■ بين يومى ١٨ـ و ـ ٢٣ يولية ١٩٥٢ كان حال مصر أشبه ما يكون بسفينة تمزق شراعها بقوة الريح، وانكسرت دفتها بضرب الموج، وأصبحت بمن فيها: قبطانا وبحارة وركابا ـ لعبة عاجزة فى قبضة إعصار هائج.

وكانت تلك الأيام الخمسة فى الواقع خمس ليال، لأن الهموم تستولى على الجميع بالأرق، يفكرون فيما عساهم فاعلين فى الصباح، فإذا طلع الفجر اكتشفوا أن ما رتبوا له فات أوانه، وأنهم الآن عند أفق مختلف لم يستعدوا له ـ وهكذا كل ليلة!

والواقع أن أحدا لم يكن فى مقدوره ـ تلك الليالى الخمسة ـ أن يعتمد على خرائط ملاحية ـ أو أرصاد جوية ـ أو خط سير مرسوم بين ميناء إبحار وميناء مرسى، لأنه حين تتحكم الرياح تتعطل الخرائط، وحين تنقض العواصف هوجاء فإن هَمَّ الجميع يكون بالتعامل مع المفاجآت فى مكانها ـ وفى زمانها.

وحين تكون مثل هذه الحال ظرفا تاريخيا فى حياة أمة، فإنه لا يصبح فى مقدور أى طرف أن يزعم رؤية الصورة كاملة، ومعايشة المفاجآت كل ساعة وموقع، وربما من هنا أن الروايات عما جرى تلك الأيام ـ الليالى ـ الخمسة الطوال اختلفت باختلاف مواقع الرؤية، وبمسافة القُرب والبُعد عن مسرح الحوادث (وذلك على فرض صدق الرواة ـ ودقة كل منهم فى الإحاطة بما كان فى مجال نظره).

والشاهد أن هذا المدخل تمهيد للطريقة التى يجرى بها هذا الحديث، والأسلوب الذى يتبعه فى تناول موضوعه ـ وبمعنى:

١ـ أننى أروى ما عندى فى مساحة ما رأيت بعينى أو عرفت عن ثقة أو تابعت إلى آخر الرحلة (وفى ذلك لا أركن إلى ما تستطيع الذاكرة أن تستدعيه، وإنما إلى أوراقى المكتوبة فى أوانها، تستعيد الوقائع كما جرت ـ إيقاعا ونبضا وحسا).

٢ـ وبالتوازى فإننى أغطى ـ فى نفس السياق ما غاب أو خفى عنى بالعودة للمراجع السرية المسجلة فى حينها، سواء من الوثائق البريطانية والأمريكية والفرنسية والإسرائيلية، وذلك إلى جانب أوراق وشهادات وأوراق مصرية أستطيع أن أطمئن إليها، متأكدا من أصلها وأصالتها.

٣ـ ثم إننى وبمقدار ما هو ممكن أحاول تحديد الأيام (الليالى)، بحيث تبين لأحداثها المهمة ـ خطوطا وفواصل تعرض لها سياقا جاريا ـ أقرب ما يكون اتصالا بالحقيقة). ■

اليوم الأول ـ الليلة الأولى

الجمعة ١٨ يولية ١٩٥٢

سحب عاصفة تتجمع!

■■ [فى الساعة التاسعة والربع ـ صباح ذلك اليوم ـ فى مبنى أخبار اليوم (شارع الصحافة المتفرع من شارع الجلاء على مدخل بولاق) ـ كان هناك اجتماع لهيئة تحرير أخبار اليوم ـ مهمته ترتيب عدد الغد (السبت ١٩ يولية). وفرغ الاجتماع بسرعة لأن بعض المشاركين فيه كانوا على موعد آخر مع الأستاذ «أحمد عنان» وهو أيامها رئيس مجلس إدارة شركة مصر للتامين، وفى نفس الوقت قائم على مهام عضو مجلس الإدارة المنتدب لأخبار اليوم، ومعه مباشرة يعمل مديرها العام ـ أيامها ـ الأستاذ «عبد العزيز عبد العليم».

وخرجنا من اجتماع هيئة التحرير (وكان فى مكتب الأستاذ «مصطفى أمين») إلى مكتب توأمه الأستاذ «على أمين» حيث كان فى انتظارنا الأستاذ «أحمد عنان» عضو مجلس الإدارة المنتدب. (وكنتُ ذلك الوقت عضو مجلس الإدارة الوحيد بين محررى أخبار اليوم)، وهكذا جلسنا ثلاثة من الصحفيين نسمع الأستاذ «أحمد عنان» يوجه إلينا تحذيرا بأن «جريدة الأخبار» التى صدرت يومية قبل أسابيع تواجه خسائر مالية يستحيل استمرارها، ومع أن أخبار اليوم الأسبوعية تكسب ـ إلا أن خسارة جريدة الأخبار اليومية تبلع أى ربح، وخصوصا أن هذه الجريدة لم تصمد كما كان محسوبا أمام المنافسة فى السوق (من جانب الأهرام والمصرى)، (ولم يكن لها الحظ كأختها الكبرى (أخبار اليوم) أن تصدر يوم عطلة الأهرام (السبت). وحين كان لكل جريدة يومية ـ عطلة أسبوعية، ووقتها اختار «مصطفى وعلى أمين» بموافقة من صاحب الأهرام «جبرائيل تكلا» (باشا) ـ طبع أخبار اليوم على ماكينات الأهرام (مساء الجمعة) ـ لكى تصدر جريدتهم الجديدة صباح السبت وليس أمامها غير جريدة المصرى، (وجريدتين حزبيتين لا يُحسب لهما فى ذلك الزمن حساب وهما «الأساس» عن حزب السعديين، و«الكتلة» عن حزب الكتلة. وهنا فإن صعود أخبار اليوم تحقق سريعا، لأن السوق كان جاهزا ومهيأ.

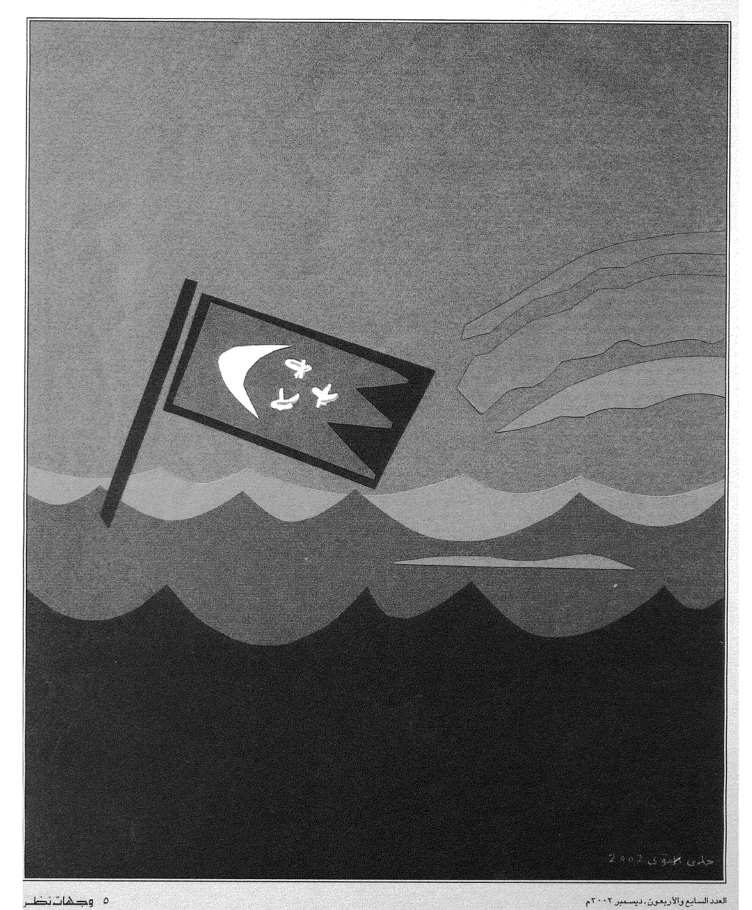
لكن جريدة «الأخبار» الجديدة لم تكن لها مثل تلك الفرصة. فالجرائد اليومية تخلت عن تقليد يوم العُطلة، ومعنى ذلك أن «الأهرام» فى السوق كل يوم، ثم إن جريدة «المصرى» (وبسبب سخونة الظروف السياسية والنبرة العالية للخطاب الوطنى ـ حققت سبقا)، وهنا فإن جريدة «الأخبار» تراجعت من توزيع مائة وعشرين ألف نسخة يوم صدورها إلى توزيع يقل عن سبعين ألف نسخة (أى قرابة ٤٠٪ فى ظرف عدة أسابيع، ثم إن الهبوط مستمر ـ وذلك هو الخطر).

وبهذا أضاء «أحمد عنان» أمامنا (نحن الثلاثة) مصباحا أحمر للتحذير، ثم تركنا وانصرف يلحق بأسرته التى سبقته إلى مزرعة «عبد المقصود أحمد» (باشا) رئيس مجلس إدارة بنك مصر، وهى على أول طريق القاهرة ـ بلبيس.

ورحنا نبحث ما نقدر عليه ـ وبسرعة. وكان «على أمين» هو الذى طرح فكرة «أن الأزمة السياسية الراهنة وتغطيتها إخباريا بتوسع شديد فرصة متاحة يمكن أن ترتب فيها «الأخبار» مكانها فى السوق، ووجهة نظره أن التطورات المتلاحقة من يوم حريق القاهرة ٢٦ يناير ١٩٥٢ حتى الآن (١٨ يولية ١٩٥٢) ـ هى فترة شهدت سقوط أربع وزارات فى خمسة شهور: وزارة «النحاس» ـ وزارة «على ماهر» ـ وزارة «الهلالى» الأولى ـ ووزارة «حسين سرى» (وهى الآن على وشك السقوط) ـ وذلك خلق اهتماما كبيرا بالسياسة، تستطيع الأخبار أن تكسبه لصالحها إذا ركزت عليه. وكان الأستاذ «على أمين» يعرف أن ذلك رأيى، طرحته دائما ودافعت عنه على أساس «أن الأخبار هى المادة الأولية لأى جريدة يومية، وعلى الباقى أن يدور حولها» ـ وفى ذلك اليوم بالذات لم يكن الأستاذ «مصطفى أمين» على خلاف معنا.

وبعد مناقشات، اتفقنا على تقسيم العمل فى تغطية الأزمة السياسية الراهنة، التى تدافعت بسرعة على منحدر خطر (بعد قرار الملك «فاروق» بحل

ثورة يوليو: خمسون عاما... السؤال الأول: هل كانت الثورة لازمة؟





مجلس إدارة نادى ضباط الجيش الذى يرأسه اللواء «محمد نجيب» ـ فى مناخ كل ما فيه يدعو إلى التوجس).

كان واضحا لنا ظهر يوم الجمعة ١٨ يولية ـ أن هناك صداما سياسيا (وربما أشد) يكمن على الطريق ـ وأنه خلال أيام (وبصرف النظر عن أية اعتبارات عامة) ـ فإن هذا الصدام يمكن أن يكون قضية حياة أو موت بالنسبة لدار أخبار اليوم ـ لأن خسائر جريدة الأخبار المتصاعدة سوف تلتهم أرباح جريدة أخبار اليوم الأسبوعية.

وبهذه التقديرات اتفقنا على توزيع التغطية الإخبارية بيننا:

ـ الأستاذ «مصطفى أمين«: يسافر إلى الإسكندرية لأن البلاط الملكى هناك وكذلك الوزارة منذ بدأ موسم الصيف ـ و«مصطفى» مسئول ـ بصلاته مع القصر («كريم ثابت») (باشا)، ومع الأستاذ «محمد هاشم» (صهر «سرى» (باشا) ووزير الداخلية) ـ أن يغطى ما يدور بين الطرفين الرسميين فى إدارة الأزمة: القصر والوزارة.

ـ ومسئوليتى أن أبقى فى القاهرة لمتابعة تداعيات قرار حل مجلس إدارة نادى ضباط الجيش، وذلك بحكم معرفة بكثيرين فيه (نشأت بظروف عملى أثناء تغطية حرب فلسطين) ـ وضمنهم اللواء «محمد نجيب» (وهو رئيس مجلس إدارة نادى الضباط) ـ وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الترتيب أن أظل على اتصال برئيس الوزراء المستقيل «نجيب الهلالى» (باشا)، وكنت قريبا منه (صديقا للعائلة).

ـ وأما ثالثنا (الأستاذ «على أمين») فقد كان عليه أن يظل فى القاهرة للتنسيق بين عمل «مصطفى» فى الإسكندرية، و«عملى» فى القاهرة، وبحيث يشرف على توجيه جهدنا المُرَكَّزْ فى جريدة الأخبار يوميا، ويكون فى موضع يسمح له بأن يطلب من القاهرة والإسكندرية تكميلات إخبارية يراها لازمة عبر المدينتين]. ■

كان سؤالى لنفسى وأنا فى طريقى إلى بيت اللواء «محمد نجيب» فى الزيتون «كيف يشعر الرجل وكيف يتصرف وقد وضعته المقادير وسط ما لم يكن يتوقعه، وربما لم يكن يريده لو أن الخيار فى يده!»



"٢"

لقاء أقدار فى بيت «محمد نجيب»!

■■ فى الساعة الخامسة والنصف (بعد ظهر يوم الجمعة ١٨ يولية ١٩٥٢) ـ كانت الطبعة الأولى من عدد «أخبار اليوم» (التى تصدر غدا) قد أصبحت بكامل صفحاتها عُهدة لدى سكرتير التحرير الأستاذ «حسين فريد» ـ وغادرت مبنى «أخبار اليوم» متوجها إلى حى الزيتون حيث بيت اللواء «محمد نجيب»، وتقديرى أن «البؤرة الفعلية» لتداعيات قرار حل مجلس إدارة نادى ضباط الجيش ـ موجودة هناك حول رئيس مجلس إدارة النادى (اللواء «محمد نجيب»). وبينما كنت أقود سيارتى (من طراز أوبل كابتين ـ سوداء اللون) ـ متوجها من وسط العاصمة إلى طرفها عند حى الزيتون، كنت أفكر فى اللواء «محمد نجيب».

....

....

[لم يتح لى أن أقابل الرجل أثناء معارك حرب فلسطين، (خصوصا أننى تركت ميدان القتال فى أغسطس ١٩٤٨، لكى ألحق بالدورة غير العادية للجمعية العامة للأمم المتحدة (فى قصر دى شايو) بباريس ـ لأن قضية فلسطين والحرب التى اندلعت فى الأرض المقدسة فرضت نفسها على قمة جدول أعمال الجمعية العامة، وأصبحت شاغل مجلس الأمن ـ وبالتالى فإن الجانب الدولى لقضية فلسطين طغى ذلك الخريف على الجانب العسكرى].

....

....

[كنت قد تعرفت على اللواء «محمد نجيب» عندما كان قائدا لسلاح الحدود، ثم زادت معرفتى به من خلال معركة مجلس إدارة نادى ضباط الجيش وتوابعها، وزار مكتبى مرات، وزُرت بيته مرات، واحدة منها (كما هو مسجل فى أوراقى) عندما أراد اطلاعى على محاضر التحقيق فى سقوط طائرة ركاب أمريكية شمال غرب القاهرة (وبين ركابها نجمة مشهورة تلك الأيام هى «كاميليا» (كوهين)، وكانت هناك حكايات كثيرة شائعة عن علاقة بينها وبين الملك «فاروق»). وكان الحادث فى منطقة اختصاص اللواء «نجيب» كقائد لسلاح الحدود.

وكان الرجل ـ فى كل مرة لقيته فيها ـ يبدو لى شخصية متميزة فى زمن ما بعد حرب فلسطين وحين كان أظهر لواءات الجيش ـ بصفة عامة ـ ثلاثة أنواع:

- نوع وراءه فى المعارك تجربة وأصحابه لا يملون الحديث عن تجربتهم ـ واعتقادهم أنها وحدها الصواب وغيرها الخطأ (مثل اللواء «فؤاد صادق» واللواء «محمد أحمد المواوى» وكلاهما كان على المعاش بعد ترك القيادة العامة للقوات فى العريش).
- ونوع سبقت له الدراسة فى الخارج من أركانات الحرب وهم على استعداد دائما لإلقاء الدروس فيما كان ينبغى عمله فى فلسطين لكن الآخرين لم يعملوه فضاعت الفرص (مثل اللواء «سعد الدين صبور» ـ قائد سلاح الفرسان واللواء «حمدى هيبة» مدير مكتب وزير الحربية).
- ونوع ثالث من رجال القصر تشغلهم المناسبات والمراسم تأخذهم بعيدا عن ميدان القتال فعلا أو مباشرة (مثل اللواء «عمر فتحى» قائد الحرس واللواء «عثمان المهدى» رئيس الأركان).

ولم يكن «محمد نجيب» من هؤلاء على اختلاف أنواعهم ـ وفى نفس الوقت فإنه لم يكن من جيل الشباب الذى بدأ يظهر مرموقا بعد حرب فلسطين (مثل «حافظ إسماعيل» فى رياسة الأركان، و«رشاد مهنا» فى رياسة المدفعية ـ وكذلك كان محمد نجيب حائرا فى موقعه بين الأنواع والأجيال.

وكان الرجل يبدو لى دائما مرتاحا مع نفسه، وكانت قناعته أظهر ما تكون حين يخرج من جيبه علبة من سيجار التوسكانى الجاف، ويهرس واحدا منها بمطواة فى جيبه ثم يحشو بهذا التبغ المهروس غليونه ويشعله بِهِمة، ويشد الدخان منه بسعادة تضوى فى عينيه. وكان الرجل قد عرف من أحد أصدقائه فى القصر أنه رُشح وزيرا للحربية فى وزارة «نجيب الهلالى» (باشا) ـ ثم عرف من اللواء «أحمد شوقى عبد الرحمن» (رئيس قسم الملحقين العسكريين الأجانب فى الجيش وقائد المنطقة الشرقية بعد ذلك) ـ أننى صاحب اقتراح ترشيحه، وكان تعليقه أول مرة لقيته بعدها («وزير حربية مرة واحدة» ـ ثم كان قوله «يتركونى فقط أكمل مدة خدمتى وأخرج بمعاشى كاملا ولا أريد فوق ذلك شيئا)].

....

....

والآن وفى طريقى إلى بيت اللواء «محمد نجيب» فى الزيتون كان سؤالى لنفسى: «كيف يشعر الرجل وكيف يتصرف وقد وضعته المقادير وسط ما لم يكن يتوقعه، وربما لم يكن يريده لو أن الخيار فى يده!».

كانت هناك ثمانى درجات بالعدد فى الفناء الداخلى الضيق لبيت اللواء «نجيب» يصعد عليها الزائر فيجد أمامه بابين، باب يؤدى إلى صالة من حولها غرف المسكن، وباب آخر يؤدى إلى غرفة مستقلة هى غرفة الاستقبال ـ يدخل منها الزائر ليجد فى صدر هذه الغرفة مكتبا خشبيا متواضعا، وحوله على جوانب الغرفة طاقم صالون مذهب (دمياطى فى الغالب) مكون من أربعة «فوتيلات» و«كنبة» واحدة. وحين انفتح الباب ودخلت قاعة الاستقبال ذلك المساء ـ كان أول شخص وقع بصرى عليه هو اللواء «محمود صبحى» الذى كان قائدا للكلية الحربية، ثم أُحيل إلى التقاعد قبل شهور. وكان هناك ضابط آخر لم يقدمه أحد ولا هو قدم نفسه، بل ظل جالسا فى مكانه لا يتجه إلى ناحيته خطاب وهو من جانبه لا ينطق بكلمة، ولم يكن اللواء «نجيب» فى قاعة الاستقبال لأنه خرج فيما يظهر يطلب «قهوة» لضيوفه، ولم يلبث الباب الموصل إلى القاعة من الداخل أن فُتح ودخل «نجيب» وغليونه بين أسنانه، وأقبل يرحب ودودا وحفيا، ويسأل عن آخر الأخبار وقلت: «إن آخر الأخبار لابد أن تكون هنا». وقال الرجل بنبرة يشيع فيها الصدق والقلق معا: «أخبار إيه؟» ـ ربنا يجيب العواقب سليمة». وكان اللواء «محمود صبحى» هو الذى سألنى: «ما الذى سوف تنشره أخبار اليوم غدا عن تطورات أزمة حل مجلس إدارة النادى (يقصد نادى الضباط) ـ وقَبْلَ أن أُجيب، سألنى اللواء «نجيب»: «همه عاوزين يعملوا إيه؟ مطلوب منى أعمل إيه؟». ونظرت إليه أستشف ما وراء سؤاله، لأنى علمت قبل المجىء إلى بيته أنه على موعد آخر

(غدا السبت ١٩ يولية) مع الأستاذ «محمد هاشم» وزير الداخلية وصهر رئيس الوزراء، وسألته: «ألم يقل لك أحد شيئا عما يريدونه منك؟» - وقال ببراءة لا تترك ثغرة لشك «إنه حائر والآراء حوله موزعة»، (وقلت لنفسى لحظتها: إن الرجل ليس بسيطا إلى الحد الذى أظنه، فهو نائم على سر يحسن إخفاؤه)، وتدخل اللواء «محمود صبحى» فقال «إن رأيه مازال رفع قضية ضد قرار حل مجلس الإدارة أمام مجلس الدولة، لأنه لا يمكن السكوت على هذا القرار، وحتى إذا أراد «سعادة اللواء» (يقصد «محمد نجيب») أن يتنازل عن حقه - فإن جموع الضباط لن تتنازل». ورد «محمد نجيب»: «إنه هو أيضا لا يملك أن يتنازل لأنه حق مئات الضباط الذين انتخبوا المجلس - لكن المسألة هى ما الذى يمكن عمله؟». وكان اللواء «محمود صبحى» (كما كنت أعرف قد التحق أثناء الخدمة منتسبا لكلية الحقوق، وتخرج بالفعل فيها، وانضم بعد إحالته للمعاش فورا إلى مكتب محاماة) - والآن كانت أول قضية يريد أن يشارك فيها هى الطعن أمام مجلس الدولة فى قرار حل مجلس إدارة نادى ضباط الجيش، وتشعب الحديث قُرابة نصف الساعة ثم قطعت الحديث طرقة أو طرقتين على باب غرفة الاستقبال من ناحية السلم، وقام الضابط الساكت بفتح الباب، ودخل شابان كلاهما يرتدى بنطلونا رماديا وفوقه قميصا أبيض، وتذكرت أحدهما، وأما الثانى فقد كان غريبا، تقع عليه عيناى لأول مرة.

كان الأول هو البكباشى «جمال عبدالناصر» - وكان الثانى هو الصاغ «عبد الحكيم عامر».



....

....

كنت قد تقابلت مع «جمال عبد الناصر» ثلاث مرات من قبل، لكنها جميعا مقابلات عابرة:

● كانت المرة الأولى فى فلسطين، وكنت مرتحلا فى سيارة جيب على الطريق الشمالى للنقب، قادما من مقر قيادة «أحمد عبد العزيز» فى بيت لحم، قاصدا إلى «المجدل» لملاقاة اللواء «محمد أحمد المواوى» القائد العام للقوات المصرية فى فلسطين، وكان «أحمد عبد العزيز» قد أمر أحد ضباطه وهو الصاغ (الرائد) «حسن فهمى عبد المجيد» (الذى أصبح فيما بعد سفيرا لمصر فى المغرب) - أن يصحبنى (ومعنا جندى حراسة بمدفع رشاش) - فى سيارة جيب تابعة لقيادته، ويذهب بى فى الصباح إلى المجدل ويعود معى مساء الغد إلى بيت لحم. لكن سيارتنا توقفت فى عراق المنشية لأن معركة كانت تدور بين المواقع المصرية هناك وبين قوات إسرائيلية خرجت من مستعمرة «نجبا»، وكانت «نجبا» مقرا لقيادة البريجادير «ييجال يادين» (الذى أصبح فيما بعد نائبا لرئيس وزراء إسرائيل ووزيرا للخارجية) - وتوقفنا عن السير حتى انفتح الطريق، وعرفت من أحد الضباط أن نتيجة المعركة كانت طيبة، وأن المدرعات التى خرجت من «نجبا» لتقطع طريق النقب الشمالى تراجعت إلى المستعمرة فى حماية طلقات من قذائف «المورتار» غطت الانسحاب وما زالت تواصل تمشيط المنطقة حتى الآن.

وعرفت أن قائد المعركة على الناحية المصرية ضابط شاب برتبة «صاغ» اسمه «جمال عبد الناصر حسين» وطلبت مقابلته، وكان على وشك أن ينام فى مقر قيادة الكتيبة السادسة المشاة (وكانت من قبل قسم بوليس بَنَتْهُ سلطة الانتداب البريطانية فى فلسطين مع عشرات غيره - ضمن خطتها لإقامة سلسلة مواقع حصينة أثناء الحرب العالمية الثانية - تحسبا لتقدم الألمان عبر مصر إلى الشام). وحين ذهبت ومعى «حسن فهمى عبد المجيد» إلى حيث كان الصاغ «جمال عبد الناصر حسين» وجدته يرتب لنفسه فراشا ينام عليه فى بدروم مركز البوليس القديم، وقد فرش بطانية على الأرض ثم كَوَّر ثانية جعلها شبه وسادة، واضطجع ينام، وعندما قيل له «أننا نريد مقابلته» - اعتدل يستقبلنا، وبدا لى الضابط الشاب «نافد الصبر» وعزوت ذلك إلى الجهد الذى بذله فى معركة لم ينم فيها ليلة الأمس (كما قيل لى) دقيقة واحدة، وحين خرجنا من قسم البوليس - قال الصاغ «حسن فهمى عبد المجيد» فى شبه اعتذار «هو معروف بين زملائه الضباط بأنه قليل الكلام»، وعلقت بقولى «من الواضح أنه لم يكن يريد أن يتكلم، وربما أنه لا يعرف كيف يقول ما عنده»! - وكذلك كان اللقاء الأول.

● وكانت المرة الثانية فى مكتبى فى أخبار اليوم (سنة ١٩٥١) عندما أعطيت موعدا لضابط فى الجيش أراد مقابلتى لموضوع رآه مهما، وقد جاء هذا الضابط وهو الصاغ «زكريا محيى الدين» ومعه زميل له فى الجيش - هو مرة ثانية: الصاغ «جمال عبد الناصر حسين» - الذى بدأ وذكرنى بلقائنا الأول وكنت تذكرته فور أن رأيته.

كان «زكريا محيى الدين» وقتها ضابطا مشغولا بأمن سيناء، وقد اكتشف مسألة وجدها خطيرة، مؤداها أن إسرائيل تمنح «بطاقات مرور» خاصة لبعض «عرب قبائل العزازمة» الذين يقطنون سيناء وهم يتنقلون بهذه البطاقات وراء المرعى عبر خطوط الحدود وبين خطوط الهدنة من سيناء إلى النقب وبالعكس، وهو يشك أن هذه البطاقات تهيئ لضباط الأمن الإسرائيليين فى المنطقة الجنوبية سلطة على رعايا مصريين، والصاغ «زكريا محيى الدين» يجد ذلك وضعا غير مقبول، وغير مأمون. وقد حاول لفت نظر رؤسائه، لكنهم لم يفعلوا شيئا، وخطر له أنه إذا نشرت إحدى الجرائد أو المجلات شيئا عن ذلك، فإن السلطات المختصة قد تتنبه. وكان «زكريا محيى الدين» مرتبا فى عرضه للموضوع، وقد شرحه أكثر بصور عدد من بطاقات المرور الإسرائيلية التى استوجبت قلقه.

وطوال ثلث الساعة كان «جمال عبدالناصر» يتابع الحديث فى صمت، ولاحظته أكثر من مرة يطيل النظر إلى رفوف كتب تغطى حائطا من غرفة مكتبى فى ذلك الوقت. وانتهز لحظة صمت فقال إنه تابع تحقيقاتى عن الحرب فى فلسطين من داخل الحصار فى الفالوجة، واهتم بما كتبته عن اجتماعات دورة الجمعية العامة غير العادية للأمم المتحدة فى باريس - سبتمبر ١٩٤٨ - ثم إنه بعد الحصار فكر أن يجيء ليقابلنى، لكنه وجدنى أغطى الانقلابات السورية (من حسنى الزعيم - إلى سامى الحناوى - إلى أديب الشيشكلى)، وفى تلك الأوقات كانت لديه أسئلة عما يجرى فى سوريا «تمنى» لو استطاع توجيهها إلىَّ، ورجوته إذا كان يذكر منها شيئا أن يفعل ذلك ولو بأثر رجعى، وسأل عدة أسئلة (لا أذكر تفاصيلها لأننى لم أحرص على تسجيلها).

وواصل «جمال عبد الناصر» كلامه فذكر أنه تابع ما نشرته عن ثورة إيران (الدكتور مصدق) وقال «إنه توقف طويلا أمام مشهد «آية الله الكاشانى» الذى خرج بمظاهرة ضد الشاه بعد أن اغتسل وارتدى كفنه مستعدا للقاء ربه». ثم أبدى ملاحظات انتهى منها إلى أنه «شاهد مع باعة الصحف كتابا يضم ما كتبته عن إيران - عنوانه «إيران فوق بركان»»، وسألنى إذا كان يستطيع استعارة نسخة منه وهو يتعهد بإعادتها، وأضاف «أن الكتاب غالى الثمن - يُباع بعشرة قروش، وذلك مبلغ لا يستطيع مواطن عادى أن يخصصه لشراء كتاب، وطلبت نسخة من الكتاب قدمتها هدية له.

● ولم تكن المرة الثالثة التى رأيت فيها «جمال عبد الناصر» لقاءً بالمعنى الحقيقى، لأنه وقع مصادفة عابرة لم تستغرق أكثر من دقائق، وكان ذلك فى المساء المبكر من يوم حريق القاهرة (٢٦ يناير ١٩٥٢)، على رصيف (شارع فؤاد الأول - ٢٦ يولية الآن) - أمام محلات شيكوريل، وهى لاتزال مشتعلة ببقايا لهب، وكان «جمال عبد الناصر» قادما من ناحية حديقة الأزبكية، وكنت قادما من الاتجاه العكسى، وعلى وهج الحريق لمحت قامته، وبدت لى تقاطيعه شبه نحاسية، وسألنى بصوت مشحون بما يعنى القلق من هذا الذى نراه أمامنا، ومن المسئول عنه، ولا أتذكر بم رددت عليه، ولم يكن الظرف يسمح باستفاضة، وكذلك مضى كل منا إلى سبيله!.



ذكر «جمال عبدالناصر» أنه تابع ما نشرته عن ثورة إيران و«أنه توقف طويلا أمام مشهد «آية الله الكاشانى» الذى خرج بمظاهرة ضد الشاه بعد أن اغتسل وارتدى كفنه مستعدا للقاء ربه»

....

....

والآن الساعة السادسة والنصف من مساء ١٨ يولية ١٩٥٢ وفى غرفة الاستقبال فى بيت اللواء «محمد نجيب»، دخل «جمال عبدالناصر» (ومعه عبد الحكيم عامر) - وعندما دخلا كان اللواء «محمود صبحى» لا يزال يشرح ويعيد شرح فكرته عن ضرورة رفع قضية أمام مجلس الدولة فى معارضة قرار حل مجلس إدارة نادى الضباط، مؤكدا أن فى رأسه الآن نقطا تبلورت لصياغة المذكرة التى تقدم إلى مجلس الدولة فى عرض القضية، وهو واثق من إمكانية كسبها.

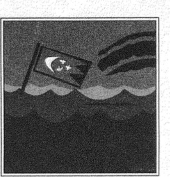
ومضت دقائق وقام «عبد الحكيم عامر» من مقعده ماشيا نحو اللواء «محمد نجيب» ومال عليه يهمس فى أذنه بشيء، وقام «نجيب»وتبعهما «جمال عبد الناصر»، واتجه الثلاثة نحو باب الغرفة المؤدى إلى الصالة الرئيسية للبيت وأغلق الباب. ومع أن هذه «الحركة» لفتت نظرى فإننى لم أعلق كثيرا عليها وإنما واصلت «استجواب» اللواء «صبحى» عن النتيجة التى يمكن أن تصل إليها فكرته فى رفع قضية أمام مجلس الدولة - حتى على فرض أنه كسبها.

ومضت فترة ما بين ربع وثلث الساعة - ثم انفتح باب الغرفة المؤدى إلى الصالة، وعاد الرجال الثلاثة إلى صالون الاستقبال وجلسوا حيث كانوا من قبل، وقال «جمال عبد الناصر» وهو ينقل بصره بين اللواء «محمود صبحى» وبينى: «هل وصلتم لرأى فى موضوع القضية؟»، واستعاد اللواء «صبحى» تدفقه - وبان تحفظى. وقال «جمال عبد الناصر» موجها كلامه لى «حضرتك(!) لا تجد فائدة من رفع قضية؟» - وسَكَتَ قليلا ثم استطرد «هل تتصور أن الجرائد سوف تكتب عن قضية ضد قرار صادر عن السلطات العليا؟ - أقصد هل يمكن أن تصل القضية بالتفاصيل والظروف إلى الرأى العام؟» - وأبديت تشككى فى أن الرقابة يمكن أن تسمح بالنشر، أو على الأقل بالنشر على نطاق يكفى للتعريف بالتفاصيل والظروف! وعاد «جمال عبد الناصر» يسأل بما مفاده «وإذا لم تكن هناك قضية فما العمل لوقف هذه «الإهانة»؟».

....

....

استعمل «جمال عبد الناصر» هذا التعبير وقد نسبته إليه عندما



سجلت وقائع ذلك اللقاء بعدها بأكثر قليلا من أسبوع، ومن المفارقات أننى لم أسجله يومها مكتفيا بعبارة «الساعة السادسة: عند «محمد نجيب» (اللواء «صبحى» واقتراحه) - وعندما تطورت الأمور في ظرف أيام بما لم يخطر على البال فى حينه، عُدت فسجلت يوم ٢٧ يولية ما شاهدته - مساء يوم ١٨ - متأخرا تسعة أيام].

....

....

استوقفنى لفظ «إهانة» وسألت «جمال عبد الناصر» بما معناه «هل يرى أن حل مجلس إدارة نادى ضباط الجيش فعل «إهانة» أو أنه أكبر؟»، ولم يكن يتوقع السؤال كما بدا لى، على أنه بعد لحظة رد بما معناه «بالطبع إهانة - لأن «كرامة» الجيش من كرامة الشعب»، وقلت (كما سجلت بعدها بتسعة أيام) أن الموضوع يتجاوز «الإهانة» ويتجاوز «الكرامة» - لأنه يمس شيئا أكبر من العواطف. واستطردت «ومع ذلك ولو قبلت بلفظ الإهانة فى وصف ما جرى، فإننى أتساءل»: «ماذا تستطيع القوات المسلحة أن تفعل للرد على الإهانة؟». ولم أسكت وإنما واصلت : «فى ميدان القتال سنة ١٩٤٨ لم يستطع الجيش أن يدافع عن «كرامة البلد»، والآن وبعد أربع سنوات (من سنة ١٩٤٨) - فإن الجيش ليس مطالبا بالدفاع عن كرامة البلد، وإنما عن كرامته هو نفسه».

وربما أن «جمال عبد الناصر» أحس بالاستفزاز، فقد سألنى «ما هو اقتراحك لرد الإهانة؟». ثم أضاف: «شيئا نستطيع أن نفعله فى هذه الأحوال والظروف». وقلت بسرعة (دون تفكير كاف وتدقيق) «إننى أتصور مظاهرة من ألف ضابط مثلا - يتجمعون - كما جرى يوم احتفل الملك بتقديم ولى عهده إلى الجيش (فى ٢٦ يناير) - ثم يسجلون فى دفتر التشريفات طلبهم إلى الملك بإلغاء قرار حل مجلس إدارة النادى، ويوقعون عليه بإمضاءاتهم واحدا بعد واحد، وتكون هذه مظاهرة احتجاج - بقوة - تُعيد بعض العقل إلى بعض الرؤوس»!

وسكت «جمال عبد الناصر» وكأنه يفكر فيما قلته، ثم رد بما مؤداه «أن ذلك لو حدث سوف يُعتبر نوعا من أنواع التمرد، وسوف تتصرف «السراى» إزاءه على هذا الأساس، وترد عليه بإجراءات إحالات للتقاعد وتشتيت ومطاردة - إن لم يكن اعتقال». وبدا منطقه معقولا، وكذلك عاد اللواء «محمود صبحى» يطرح فكرة القضية أمام مجلس الدولة، وذكر اللواء «صبحى» أن كل ما يحتاجه هو رسوم للقضية يقدرها بسبعين جنيه، وراح كل منا يقدم ما يقدر عليه. وساهم «جمال عبد الناصر» فى التبرعات بثلاثة جنيهات أخرجها من جيب بنطلونه، ثم تهيأ للخروج ومعه «عبد الحكيم عامر»، وبالفعل خرجا ومعهما اللواء «محمد نجيب» حتى وصلا إلى درجات السلم ونزل الاثنان عليه وعاد هو إلينا، ولعشر دقائق ظل اللواء «صبحى» يتحدث عن القضية، واللواء «محمد نجيب» صامتا يسمع (ولا يشير بهمسة إلى موعد له غدا مع وزير الداخلية وصهر رئيس الوزراء «محمد هاشم» (باشا)).

وخرجت وما زال فى خواطرى أن الرجل ليس بسيطا كما ظننت، وإنما هو «رجل ناضج» عَوَّد نفسه أن لا يتكلم كثيرا، وأن يسمع أكثر مما يقول، وأن يمسك بطرف أكثر من خيط ليوازن موقفه. وكان شعورى أن الرجل له العذر، فهو يجد نفسه فى موقف تزداد خطورته عما كان يتصور حين دخل انتخابات نادى الضباط.

ومن الغريب أن خلوته بـ «جمال عبدالناصر» و«عبد الحكيم عامر» لم تترك تلك اللحظة تساؤلا (لَدَىَّ) عن دلالتها، ولعله غلب على ظنى وقتها «أنها تتعلق بتفاصيل حل مجلس إدارة النادى!». ■

بدا أن ما قلته لجمال عبدالناصر فى تحليل الأسباب التى تنفى احتمال تدخل عسكرى بريطانى (على نمط ما حدث وقت ثورة عرابى). قد أجاب دون أن أدرى على هاجس ثقيل يلح عليه وقتها (ولم يكن فى علمى). وليس أفعل فى التأثير بالعمق على النفوس من جواب يجىء لرجل فى موضوع يهمه دون أن يخاطر بتوجيه سؤال!



«٣»

حوار فى الطريق العام

■ ■ خرجت من بيت اللواء «محمد نجيب» وكانت الساعة السابعة والثلث، وركبت سيارتى وعبرت الطريق الجانبى إلى الشارع الرئيسى المؤدى من الزيتون إلى القبة، وعلى رصيف قريب لمحت «جمال عبد الناصر» و«عبدالحكيم عامر» واقفين مازالا - كما يظهر - فى انتظار أتوبيس، واقتربت أسألهما إذا كان فى استطاعتى أن آخذهما معى، وقال «جمال عبد الناصر» ما معناه «إنه لا يريد أن يخرجنى عن طريقى، وقلت إننى ذاهب إلى وسط البلد (دار أخبار اليوم) - فإذا كان ذلك اتجاههما فأنا وحدى فى السيارة وأهلا بهما معى». وقال «جمال عبد الناصر» على الفور «إذا لم يكن فى ذلك «تعب» نجىء معك إلى «باب الحديد» (يقصد ميدان المحطة «رمسيس الآن») - وصعد إلى المقعد المجاور لى، وصعد «عبد الحكيم عامر» إلى المقعد الخلفى».

وبدأ «جمال عبد الناصر» بإيضاح لعله وجده مناسبا لفتح حديث - عن سبب وقوفه على محطة الأتوبيس قائلا ما معناه «وقفنا هناك ربع ساعة ويظهر أن الناس الذين يركبون السيارات لا يشعرون بحجم أزمة المواصلات العامة» - ثم أضاف «سيارتى - واستدرك - سيارة «أوستن» صغيرة - أخذتها صباح اليوم للميكانيكى، وكان مفروضا أن أستَلِمْها منه «على العصر»، وعندما ذهبت فى الموعد اكتشفت أنها لن تكون جاهزة قبل صباح الغد». وسادت فترة سكوت، ثم سمعت صوت «عبد الحكيم عامر» لأول مرة من المقعد الخلفى يسألنى بما معناه «هل تعتقد أن فكرة القضية التى يقترحها اللواء «صبحى» يمكن أن تحل...؟» - وأكمل «جمال عبد الناصر» بما مؤداه «لا تحل شيئا...» - ثم بدا التردد فى صوته ولكنه واصل «وإذا سمحت فإن الاقتراح الذى سمعناه من «حضرتك«(!) عن قيام ألف ضابط بتسجيل أسمائهم فى دفتر التشريفات - اقتراح يصعب تنفيذه!».

ورددت (دون أن أُراجع نفسى) «بأننى لا أرى وجه الصعوبة التى يشير إليها، لأن الظروف تقتضى إجراءً يسمع له دوى!».

ولم يظهر أنه اقتنع، وقال: «إنهم (يقصد السلطة) سوف يبذلون كل جهدهم فى محاصرة أى فعل، ويتعاملون مع الحدث باعتباره تمردا، ونكون كمن رقص على السلم، لا هو سكت وقَبِلَ الإهانة، ولا هو احتج وَرَدَّهَا». وقلت (وبشىء من نفاد الصبر) «لنفرض أنهم اعتبروها تمردا - فلست أظنهم قادرين على المخاطرة بإجراءات عنيفة - سجلوا موقفا وليكن ما يكون!». ومرة أخرى ساد صمت، وكانت السيارة تخرج بنا إلى طريق منشية البكرى، وبعد قليل عاد «جمال عبد الناصر» إلى الكلام بما معناه «أنتم المدنيون سهل أن تقولوا تمردوا لأنكم مدنيون - أمّا فى «العسكرية» فإن الموضوع مختلف، وأى مظاهرة سوف تعتبر تمردا!» - سكت قليلا ثم استطرد «تعتبر عصيانا - أليس ذلك ما حدث من «عرابى» ورفاقه (يقصد الزعيم الوطنى أحمد عرابى (باشا)) ثم يتدخل الإنجليز - كما تدخلوا سنة ١٨٨٢، والنتيجة أن الجيش يتحمل على «شرفه» مصيبة احتلال عسكرى سافر للبلد مرة أخرى».

وقلت (ولا أعرف ما دعانى لقولها) «إن الإنجليز لن يتدخلوا مهما حدث فى القاهرة». وسألنى وفى نبرات صوته استغراب ظاهر - قائلا: «كيف أستطيع الجزم بهذه الطريقة القاطعة؟». ورحت أرد عليه كما لو أنى كنت أكتب خبرا - أو تحليلا.

قلت:

أولا: لأن الإنجليز اتخذوا قرارا بعدم التدخل فى القاهرة والدلتا - قرارهم الآن أن لا تتجاوز قواتهم حدود منطقة القناة، وهم توصلوا لهذا القرار ذات اليوم الذى احترقت فيه القاهرة، بإدراك أنهم إذا تقدموا سوف يواجههم موقف فوضوى معقد لا يريدون لقواتهم أن تتورط فيه.

وثانيا: لأن التطورات فى منطقة الخليج الفارسى متأزمة بسبب الثورة فى إيران، وبعد احتلال الجيش الإيرانى لمحطة تكرير النفط

الكبرى فى منطقة عبدان، فإن القوات البريطانية تم تعزيزها فى الكويت، وكانت قوات التعزيز من قاعدة قناة السويس، التى سحبت منها ست كتائب وربما سبع، ولذلك فإن القوات اللازمة لأى تدخل بريطانى ليست هذه اللحظة كافية، وإذا أريد إعادة حجمها إلى ما كان عليه، فذلك يحتاج إلى شهر أو شهرين على الأقل.

وثالثا: لأن موسم الصيف «فى عِزِّه» سواء فى لندن أو فى القاهرة، وخطوط الاتصال فى الصيف شبه معطلة خصوصا من مصر، وأعرف يقينا أن «ونستون تشرشل» رئيس وزراء بريطانيا يستعد لرحلة بحرية فى الجزر اليونانية، وأن وزير الخارجية البريطانى «أنتونى إيدن» يستعد للذهاب إلى جزيرة «بربادوس».

ورابعا: وهو دليل آخر على توقعاتهم لهذا الصيف فى مصر - أن السفير البريطانى السير «رالف ستيفنسون» بدأ إجازة فى إسكتلندا، وأن الجنرال «أرسكين» قائد القوات البريطانية فى منطقة القناة بدأ إجازة فى قبرص، بل إن الملحق العسكرى البريطانى فى مصر البريجادير «توماس جولبرن» هو الآخر على وشك أن يقوم بالإجازة، وأظنه سافر اليوم.

وخامسا: أنه فى هذه الأحوال فإن الحكومة البريطانية لن ترد عسكريا - لأنها فى هذه الحالة تكون مطالبة بحساب موقف الفرقة المصرية الموجودة فى العريش وهى خلف قاعدة قناة السويس، وهذه الفرقة يمكن أن تمثل تهديدا إلا إذا ضمنت الحكومة البريطانية تثبيت هذه الفرقة باتفاق مع إسرائيل وهذه مسألة غير مطروحة لدواع تتخطى مصر!

وسادسا: ومن ناحية أخرى فظنى أن السياسة البريطانية لا تستطيع «أخلاقيا» أن تدافع عن الأوضاع الراهنة بعد كل ما جرى خصوصا فى السنين الأخيرة، بل لعلها لا تمانع فى إعطاء بعض الناس درسا، خصوصا إذا لم تكن هى التى تتحمل مسئولية الدرس.

وبدا «جمال عبد الناصر» شديد الدهشة (إلى درجة الانبهار!) بما قلته - وسألنى: «هل هذه كلها معلومات متاحة للصحفيين؟».

وقلت: «لا أعرف - ولكن ما قلته صحيح».

(والحقيقة أن المصادفات كانت تلعب دورها فى نسيج الحوادث بكفاءة، ذلك أننى قبل أربعة أيام فقط كنت ضيفا على العشاء عند اللواء «أحمد شوقى عبد الرحمن» (قائد المنطقة الشرقية)، وكان العشاء فى بيته بشارع الملك فى حدائق القبة، وضيف الشرف فيه البريجادير «جولبرن» (الملحق العسكرى البريطانى فى مصر).

وكان «جولبرن» يتطلع بشوق إلى إجازته التى يبدؤها بعد أقل من أسبوع، ويقضيها فى بيت استأجره لعائلته فى مقاطعة «بروفانس» الملاصقة شمالا للريفيرا الفرنسية. وكان سفر السير «رالف ستيفنسون» معروفا لا يحتاج إلى معلومات خاصة، لكن خبر سفر الجنرال «جورج أرسكين» قائد القوات البريطانية جاء مباشرة من خلال الحديث مع البريجادير «جولبرن».

وفى الواقع فإن ذلك العشاء فى بيت اللواء «أحمد شوقى عبد الرحمن» كان سهرا طويلا مع أحاديث السياسة وعن الموقف الراهن - وكنت فى اليوم التالى للسهرة قد استعدت التفاصيل لأسجلها فى أوراقى وأضيف إليها ملاحظاتى، وفى ذهنى أننى قد أنشر شيئا حولها - وكذلك فإن النقاط كانت حاضرة فى فكرى - وجارية على لسانى!



كنا قد وصلنا إلى قُرب ميدان المحطة، وتوقفت بالسيارة قبل دخول الميدان لتامين فرصة للنزول قبل احتمال الزحام، وبدا لى أن «جمال عبد الناصر» يتلكأ - لكنه مُحرج لا يعرف كيف يتصرف.

وبعد تردد سألنى بما معناه «إنه لم يستوعب بالكامل ما قلته، فـ«حضرتك» تكلمت بسرعة، والكلام مهم لأى ضابط أركان حرب، بصرف النظر عن الأزمة الحالية».

ثم سألنى مترددا - وعلى نحو ما راغبا - بما مؤداه «إذا كنا نستطيع أن نذهب إلى أى مكان نكمل فيه الحديث، على الأقل ونحن جلوس على مقاعد ولسنا «ماشيين» بسيارة فى الشوارع». ودعوته إلى مكتبى وقَبِلَ. وتحركت بالسيارة لكنه لم يلبث حتى بان أن لديه استدراكا، وسألنى «مكتبك فى أخبار اليوم؟». قلت «نعم». قال: «هل نستطيع أن نذهب إلى أى مكان آخر؟». وأحس (ربما) أنه مدين بإيضاح فقال بصوت يحمل نبرة اعتذار بما معناه «يقول الناس إن أخبار اليوم هى جريدة السراى»، وسألته «إذا كان يحب أن نذهب إلى بيتى»، وأبدى ترحيبا ظاهرا.

وعند هذه اللحظة فقط! - أحسست بشعور غريب لم أتوقف لتحليله ليلتها، ولكنى فعلت ذلك عندما سجلت وقائع المقابلة بعدها بتسعة أيام، فقد كتبت «لماذا أراد أن يستعيد مرة أخرى ما قلته له؟»، ثم «ما هو معنى إشارته إلى أن أخبار اليوم هى جريدة السراى؟».

(لحظتها وبتأثير ذلك الشعور الغريب الذى أحسست به ولم أتوقف لتحليله - نظرت ناحية «جمال عبد الناصر» والتقت عيناى بعينيه ومضة، وخيل لى أننى لمحت شعلة تيقظ وتحفز، ولم أجد ذلك مثيرا للشك من ضابط أركان حرب يقول إنه يهتم بالتفكير الاستراتيجى).

....

....

وكان اعتقادى ولا يزال حتى هذه اللحظة أن ذلك اللقاء كان حاسما فى علاقة الصداقة التى تأسست - عميقة وراسخة - بين «جمال عبد الناصر» وبينى، ذلك أنها وضعت للعلاقة حجر أساس فيه الكثير من الثقة والاحترام - وفيه نوعا من ألفة محفوفة بتحفظ الغرباء حين يتعارفون ويتقاربون على فكر وراءه سر (يعلمه هو وقتها ويكتمه)، لكن ثقل السر عليه يدفعه إلى الاستزادة والاقتراب أكثر من رجل يعرف (كما بدا له) عن دخائل الأمور ومعانيها - أشياء تغيب عنه.

والحقيقة أن الظروف تلك الليلة كانت مواتية لعلاقة من نوع خاص:

- ففى ذلك اللقاء بيننا (ليلة ١٨ يولية) كان الصحفى وليس الضابط هو الطرف الأقوى، وكنت تلك الأيام صحفيا (يظهر اسمه فى العناوين الحمراء للصفحة الأولى من أكبر جريدة فى الشرق الأوسط يومها وهى أخبار اليوم)، وصحفيا تظهر صورته مع النجوم من مشاهير الزمان (من أول آية الله الكاشانى - حتى عصمت أينونو رئيس جمهورية تركيا - إلى الملك «عبد الله» الأول مؤسس الأردن - حتى الإمبراطور هيلاسلاسى فى أديس أبابا) - وأما هو فقد كان تلك اللحظة «ضابطا عاديا» فى القوات المسلحة، يحتفظ فى قلبه بسر كبير، ولكن سره الكبير مخاطرة قد تذهب بحريته - وبحياته.

وبالتالى فإنه فجر يوم ٢٣ يولية حين التقينا أول مرة بعد الثورة لم أكن ذلك الصحفى القادم إلى موقع حدث كبير يستطلع أخبارا ويسأل فى الظلمات، وإنما كنت رجلا سبق التعرف عليه وسماع رأيه.

- ومن ناحية ثانية فقد بدا أن ما قلته لجمال عبد الناصر فى تحليل الأسباب التى تنفى احتمال تدخل عسكرى بريطانى (على نمط ما حدث وقت ثورة عرابى) - أجاب دون أن أدرى على هاجس ثقيل يلح عليه وقتها (ولم يكن فى علمى) - وليس أفعل فى التأثير بالعمق على النفوس من جواب يجىء لرجل فى موضوع يهمه دون أن يخاطر بتوجيه سؤال.

وفى تلك الليلة فإن «جمال عبد الناصر» وجدنى دون تعمد أو قصد - أرد على سؤال عمره قبل أن ينطق به، ولم يكن فى مقدوره أن ينطق به، وهنا فإن الشعور بالعرفان يخلق إحساسا حميما نافذا إلى العمق.

- ثم إن ما قلته فى عرض وجهة نظرى بأن الإنجليز لن يتدخلوا - بدا منطقيا ومعقولا ومؤكدا بما فيه من معلومات وعلى نحو لفت نظره فيما ظهر لى - وقد تجلى فى نوع من شبه الانبهار بسؤاله: عما إذا كان الصحفيون فى العادة يعرفون هذا كله؟!

● وكان الأثر واضحا بشدة فجر ٢٣ يولية ١٩٥٢ - ففى تلك الساعة المبكرة من فجر ثورة يوليو ١٩٥٢ - كان سؤال كل صحفى وصل إلى مقر قيادة الثورة فى كوبرى القبة هو «كيف جرى ما جرى؟». وبالنسبة لى (أعترف على استحياء) فإن سؤال «جمال عبد الناصر» على خلفية ما كان بيننا قبل أربعة أيام كان: «ما رأيك فيما فعلنا؟».

والفارق كبير بين السؤالين!

«٤»

ملك فى فخ من تدبيره!

يوم الجمعة ١٨ يولية سنة ١٩٥٢ - كان القصر الملكى فى حالة دوار شديد - ومفاجئ.

والشاهد أنه من ثقة زائدة بالنفس تَصَنَّعَهَا الملك بعد صفقة بيع وزارة «نجيب الهلالى» (باشا) إلى المليونير «أحمد عبود» (باشا) فى مقابل مليون فرنك سويسرى (أودعت حساب الملك فى جنيف، و٢٥٠ ألف جنيه تقاسمها أربعة رجال هم «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس» و«أنطون بوللى» و«محمود أبوالفتح» فى رواية «نجيب الهلالى» للقائم

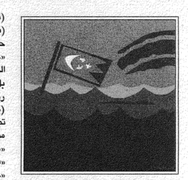


بالأعمال البريطانى «مايكل كرسويل») - راح قناع الثقة الملكى يتشقق يوما بعد يوم.

■ فى البداية - وعندما تالفت وزارة «حسين سرى» (باشا) وهو المقرب من «عبود» إلى درجة اعتباره «صديقه المخلص ورجله المعتمد» - كان الملك يواجه جميع الذين شكوا ثم تيقنوا من وجود صفقة مالية وراء التغيير الوزارى - بإشارات حازمة وملامح صارمة، فهو دون تفصيل يوحى للجميع بأن هناك إشاعات ضده، يروج لها الإنجليز بسبب شكوكهم القديمة والجديدة فيه، وأول إيحاءاته لكل من يهمه الأمر أنه رجل غنى، يملك من الأموال ما يكفيه دون أن يحتاج لرجل مثل «عبود» (باشا) ياخذ منه مليون فرنك سويسرى، حتى ينقذه من وزارة (برئاسة «الهلالى») تطالبه بمتأخرات ضرائب تزيد على ٥ ملايين جنيه.

(ولم يكن «فاروق» هنا يدعى الغِنى، فقد كان بالفعل من أغنياء زمانه، وهنا وجه العجب فيما أقدم عليه لأنه لم يكن فى حاجة إليه ماليا، ولا كان - من الناحية السياسية - تحت ضغط يدفعه إلى تغيير وزارة لم يطل عمرها عن أسابيع - بعد سلسلة من أربع وزارات تعاقبت فى ظرف خمسة شهور).

ومع ذلك فإن الملك كما هو ثابت، عقد الصفقة ونفذ نصيبه منها، وجاء بـ«حسين سرى» (باشا) رئيسا للوزارة بعد أن أخذ عليه تعهدا أن وزارته لن تصبح مثل كل مرة جسرا يعود به حزب الوفد إلى الحكم (سواء تحقيقا لمساعى «عبود»



(باشا) - أو تحقيقا لاقتناع ذاتى عند «سرى» (باشا) بأن الوفد هو حزب الأغلبية) - وعلى أى حال فإن الملك كان مطمئنا هذه المرة إلى أن «حسين سرى» (باشا) غير رأيه فى الوفد، لأن الوفد نفسه تغير فى السنوات العشر الأخيرة - بل إن «سرى» (باشا) قال للملك «فاروق»، وكما روى الملك للسفير الأمريكى «جيفرسون كافرى» (مجموعة وثائق الملف رقم ٧٧٤٠٠) أن تصرفات حزب الوفد فى وزارته الأخيرة من منتصف سنة ١٩٥٠ حتى أوائل ١٩٥٢ كانت «مقرفة» - Disgustingومع ذلك فإن الملك «فاروق» فى صميم قلبه كان يخشى من ضعف «حسين سرى» أمام ضغط «أحمد عبود.

■ فى الأسبوع الأول من شهر يولية (والغالب أنه فى اليوم الثامن من ذلك الشهر) - ظهر أول شرخ على سطح القناع الملكى الصارم، لأن «حسن يوسف» (باشا) وكيل الديوان الذى سافر إلى الولايات المتحدة على عجل فى مهمة تتعلق بقضايا مالية تخص الملكة «نازلى» - فوجئ وهو فى نيويورك بأن وكيل وزارة الخارجية لشئون الشرق الأوسط «هنرى بايرود» يدعوه إلى مقابلته فى واشنطن، ويلقاه فعلا يوم ٢ يولية ويقول له (طبقا لمذكرة عن اللقاء فى الملف ٧٧٤٠٢ - محفوظات الخارجية الأمريكية) ما نصه «أن أطرافا عديدة من أصدقائنا وأصدقائكم طلبوا إلينا أن نتحدث معكم بالحقيقة دون مجاملة فى شأن النفوذ الطاغى لعناصر فاسدة فى القصر الملكى، وعناصر أخرى فاسدة فى حزب الوفد. وحكومة الولايات المتحدة لا ترغب فى اقتحام الشأن المصرى، لكن حرصها على سمعة الملك «فاروق» ورغبتها فى علاقة ودية معه تدعوها إلى لفت النظر بشدة إلى أخبار كثيرة مؤكدة تتردد حول ملابسات سقوط وزارة «نجيب الهلالى» ».

وطبقا لرواية «حسن يوسف» (فى شهادته المسجلة بصوته) - فإنه حين عاد إلى مصر بعد أيام، تشاور مع رئيس الديوان «حافظ عفيفى»، واستقر رأى الاثنين على أن «حسن يوسف» لا يستطيع أن يجلس أمام الملك ويحدثه «بالحقائق الأربع» (les Quatre Verites)، (حسب التعبير الفرنسى الشائع) والأكثر ملاءمة أن يكتب له مذكرة مختصرة بما جرى، ويضعها فى مظروف مختوم - عليه رجاء أن لا يفتحه أحد غير «حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم»! ويظهر أن الملك اطلع على المذكرة لأنه اتصل بـ«حسن يوسف» تليفونيا وبدأه سائلا بالفرنسية «حسن.. ما هذه البلاهات التى كتبتها لى؟». ورد عليه «حسن يوسف» بأن ذلك ما أبلغه به وكيل الخارجية الأمريكية، وكان لزاما عليه أن يضعه تحت نظر «مولانا». ورد الملك بأن «تلك إشاعات يروج لها الإنجليز، وأنه سوف يشكو السفارة هنا إلى رئيس الوزراء البريطانى نفسه». ووجد «حسن يوسف» من واجبه أن يقول للملك إنه فى طريق عودته من واشنطن توقف ساعات فى لندن وقابل (السفير المصرى) «عمرو» (باشا) الذى عرف من وزارة الخارجية أن ما نشر فى الصحف البريطانية خاصا «بهذه المزاعم» استوجب لفت نظر من رئيس الوزراء «تشرشل» إلى وزير الخارجية «إيدن»، وأنهم لسوء الحظ هناك «يتداولون معلومات فيها ما يسىء إلى «مولانا» ». وثار الملك «فاروق» وبين ما قاله «أن هناك أطرافا معينين يريدون أن يفضحونى فى العالم حتى أمام «ترومان» (الرئيس الأمريكى)، وأمام «تشرشل» (رئيس الوزراء البريطانى)، وأنه بدأ يشك فى الموضوع حين سمع بما نشر فى الصحف البريطانية الصفراء عن حكاية بيع وزارة «الهلالى» لـ«عبود» - وقال «حسن يوسف» مضغوطا (وكان بالفعل محرجا) «إن المشكلة تعقدت حين نشرت جريدة التيمس أيضا» (وهى ليست جريدة صفراء، بل إنها فى تلك الأيام كانت تعتبر فى مصر أصدق تعبير عن السياسة البريطانية عند مستوى صنع القرار) - وزادت ثورة الملك. وقال «إن ذلك كله شغل عناصر فى السفارة (البريطانية) هنا تكرهه، وهو كثيرا ما نبه الديوان إلى هذه العناصر، لكن بعضهم فى الديوان لم يكن يريد أن يصدق، والآن فإن الدليل ظاهر أمام الكل يؤكد شكوكه من البداية إلى النهاية. وكان «حسن يوسف» يسمع ساكتا وفوجئ بالملك يقول له باللغة العربية وبلهجة حادة «إنت ساكت ليه؟ وإلا صدقت إنت كمان»؟ ورد «حسن يوسف» تلقائيا بقوله «أعوذ بالله».

(وروى «حسن يوسف» (باشا) بصوته فى التسجيل أنه لم يكن فيما قال به «منافقا» وإنما كان يعبر فى ضميره عن رغبة فى إنكار صحة وقائع يعلم لسوء الحظ أنها صحيحة!)

لكن الملك «فاروق» فيما بينه وبين نفسه أخذ يشعر بضيق شديد، فقد أحس أن لعبة صغيرة (من نوع ألعاب القمار التى يمارسها فى نادى السيارات وغيره) - تحولت إلى فضيحة دولية، وتأثر قناع الثقة الزائدة الذى وضعه «فاروق» على وجهه.

■ ويوم ١٢ يولية تلقى الجناح الملكى الخاص (الخدمة الشخصية) «محمد حسن» مذكرة عن نص مكالمة تليفونية جرت بين المستشار «يحيى» (بك) (الذى كان ملحقا بالوفد المصرى فى الأمم المتحدة ثم ترك الخدمة ونذر نفسه لتحسين العلاقات بين السفارة البريطانية والوفد فى محاولة لبعث دور «أمين عثمان» (باشا))، وفى هذه المحادثة التى تظهر فى أوراق «محمد حسن» (وقد نقلت كلها إلى وزارة الداخلية بعد الثورة) - ظهر أن «يحيى» (بك) يبلغ المستر «باروز» المستشار فى السفارة دعوة من «فؤاد سراج الدين» (باشا) سكرتير حزب الوفد (الذى صدر قرار بالإفراج عنه) إلى الوزير البريطانى المفوض «مايكل كرسويل» كى يلقاه ويقضى نهارا كاملا فى عزبته ببلبيس لحديث شخصى وغير رسمى.

(وهناك إشارة فى الوثائق البريطانية إلى هذا الاتصال (٢١٢ / ١٠١٩) - وهو على شكل مذكرة تفاهم سلمها «يحيى» (بك) إلى المستر «باروز» المستشار فى السفارة البريطانية - تحتوى على أربع نقاط:

١- أن الوفد على استعداد لفتح صفحة جديدة من الصداقة والتعاون.

٢- أن الصحافة الوفدية يمكن أن توقف حملاتها الدعائية ضد بريطانيا- بادئة من فترة الانتخابات القادمة.

٣- أنه إذا عاد الوفد إلى السلطة فإن اثنين من وزرائه السابقين لن يشتركوا فى وزارته الجديدة وهما «محمد صلاح الدين» و«إبراهيم فرج».

٤- أن حكومة الوفد سوف تكون على استعداد لمفاوضات بناءة مع بريطانيا، وسوف يتضمن خطاب العرش الذى يلقى فى افتتاح البرلمان الجديد إشارة واضحة إلى هذا العزم.

ولم يقرأ الملك «فاروق» بطبيعة الحال هذه الرسالة، لكنه عرف من تسجيل المكالمة التليفونية بين «يحيى» و«باروز» أن السكرتير العام لحزب الوفد يدعو الوزير المفوض فى السفارة البريطانية ليوم كامل معه فى ريف الشرقية!

(ولم يعرف الملك أيضا أن وزارة الخارجية طلبت إلى «كرسويل» أن يعتذر عن تلبية الدعوة).

وأصيب قناع الثقة الزائدة الذى وضعه الملك فاروق على وجهه بشرخ آخر إضافى.

■ يوم ١٣ يولية رفع الديوان الملكى إلى «المقام السامى» (حسب التعبير الرسمى) نصوصا لأحاديث صحفية أجراها المستر «والتر كولينز» (مدير وكالة اليونايتد برس فى مصر مع «مصطفى النحاس» (باشا) و«فؤاد سراج الدين» (باشا) قبل سفر الاثنين إلى أوربا، إلى جانب حديث ثالث مع «حسين سرى» (باشا) رئيس الوزراء.

وطبقا لبرقية اليونايتد برس أُذيعت من «ماركونى» فى القاهرة عند الساعة الواحدة بعد منتصف ليلة ١٤ يولية - ورد على لسان «النحاس» (باشا) قوله «إنه واثق أن حكومة «حسين سرى» (باشا) سوف تحترم الموعد المقرر لإجراء الانتخابات النيابية فى شهر أكتوبر القادم، وأنه شخصيا وكذلك حزب الوفد يثقون فى نظافة أى انتخابات يجريها «حسين سرى» ويقبلون عن طيب خاطر نتائجها.

وأما «فؤاد سراج الدين» (باشا) فقد قال (طبقا للأحاديث الصحفية) مع «والتر كولينز»: «إن زعيم الوفد يعتزم قضاء ثلاثة أسابيع فى أوربا ويعود استعدادا لإعلان برنامج الوفد وأسماء مرشحيه فى الانتخابات البرلمانية القادمة».

وبالنسبة لـ«حسين سرى» (باشا) (رئيس الوزراء)، فقد ورد فى رسالة «والتر كولينز» أنه سأله: «هل تنوون سعادتكم إجراء الانتخابات النيابية فى المستقبل القريب؟ وهل هناك اتجاه إلى تعديل قانون الانتخابات؟»، ورد «سرى» (باشا) قائلا:

«أريد تذكيرك بأننى نصير قوى (A Staunch Supporter) للنظام البرلمانى. وإذا بدا لك أن وزارتى الجديدة تركز أكثر على الجوانب الاقتصادية، فإن هذا لا يعنى أننى أتجاهل الجانب السياسى فى حياتنا الوطنية، وعلى أى حال فنحن نقوم بدراسة الموقف من كافة نواحيه وبكل جدية».

وطبقا لشهادة «حسن يوسف» (باشا) فإن الملك لم يتحدث إليه مباشرة فى شأن مجموعة أحاديث «والتر كولينز» وما جاء فيها على لسان «النحاس» و«سراج الدين» و«حسين سرى» - لكن ما بعث به إلى «المقام السامى»

الملك «فاروق» يبلغ سفير البرازيل فى مقابلة معه: «إنه يئس من إيجاد حكومة سياسية فى مصر تحكم بكفاءة وأمانة كما هو ضرورى لمصلحة البلاد، وعلى أى حال فقد قرر خطة ينتظر الفرصة قريبا لتنفيذها - ومقتضاها أن يحكم مباشرة، عن طريق نظام ديكتاتورى مقنع





حافظ عفيفى



حسين سرى

عاد إليه وعلى الهامش علامة استفهام كبيرة وضعها الملك بقلمه! ويستنتج «حسن يوسف» (باشا) أنه ربما - من لحظتها - بدأ الملك «فاروق» يشك أن هناك طبخة (يقوم بإعدادها أناس يتصورون أنه (أى الملك) فى وضع لا يسمح بحرية التصرف كما يريد).

وطرأ شرخ آخر على قناع الثقة الزائدة الذى يضعه الملك على وجهه.

■ كان سفير البرازيل فى القاهرة آخر سفير أجنبى قابله الملك قبل هبوب عاصفة يولية، وكان «فاروق» يريد إبلاغه رسالة إلى الرئيس البرازيلى «دا جارسيا آرانها» (بشأن مشكلة طلبت منه النبيلة «فاطمة طوسون» أن يساعدها على حلها، وتخص الرجل الذى تزوجته، ويظهر أن «فاروق» أراد أن يساعد «فاطمة طوسون» ليثبت لها كرمه وحتى تعرف مدى الخسارة التى لحقت بها حين رفضت عرض زواج منه وآثرت غيره - وهو كونت برازيلى من أصل برتغالى).

وانتهز سفير البرازيل فرصة لقائه مع ملك مصر فى أجواء أزمة حادة، وساله «كيف يرى صاحب الجلالة تطورات الأزمة الراهنة فى مصر؟». وروى السفير فى برقيته (التى اطلع عليها السفير الأمريكى فى القاهرة «جيفرسون كافرى» وأرسل ملخصا لها إلى واشنطن (ملف ٧٧٤٠٢) - أن الملك رد عليه بقوله:

«إنه يئس من إيجاد حكومة سياسية فى مصر تحكم بكفاءة وأمانة كما هو ضرورى لمصلحة البلاد، وعلى أى حال فقد قرر خطة ينتظر الفرصة قريبا لتنفيذها - ومقتضاها أن يحكم مباشرة، عن طريق نظام ديكتاتورى مقنع (Veiled Dictatorship by Himself)، وداعيه إلى ذلك شعوره بأن واجبه الأول تجاه بلاده يفرض عليه أن يقودها إلى استقرار يبدأ باتفاق مع الإنجليز ويكون بعده التركيز على الإصلاح الداخلى».

واستطرد السفير البرازيلى فى تقريره: «إننى استمعت إلى صاحب الجلالة باهتمام عميق» ثم قلت «إن خطة كتلك التى أشار إليها تقتضى تاييدا كاملا من الجيش، فهل جلالته مطمئن من هذه الناحية، خصوصا بعد كل ما شاع فى الأسابيع الأخيرة؟». ورد الملك بقوله «إننى مستعد لذلك وقد طردت من الخدمة العسكرية عددا من الضباط لم تكن «عندنا» ثقة كافية فى ولائهم، والآن فإنى ضامن لولاء الجيش بنسبة ١٠٠٪!».



والراجح أن الملك «فاروق» ساورته وساوس وشكوك فى أن «حسين سرى» (عميل مزدوج Double Agent) ويمكن أن يورطه فى آخر لحظة ويمهد الطريق أمام عودة الوفد (لحساب «عبود») - ثم يجد الملك نفسه أمام أمر واقع لا يستطيع منعه ولا يقدر على التعامل معه!

وهنا ذهب تفكيره إلى ما أسماه ديكتاتورية عسكرية، وهى فى ظن «حسن يوسف» (باشا) وزارة جديدة برئاسة «مرتضى المراغى» (وزير الداخلية السابق) (رجله القوى الذى أعده مبكرا للموقف الصعب وتكون مهمته تاجيل الانتخابات البرلمانية إلى أجل غير مسمى، والحكم بمراسيم لها قوة القانون لفترة تطول سنتين على أقل تقدير!).

ويوم ١٧ يولية - وبعد تلك الاجتماعات الصاخبة التى شهدها نادى ضباط الجيش (بسبب رغبة الملك فى تعيين «حسين سرى عامر» عضوا فى مجلس الإدارة ممثلا لسلاح الحدود - ورفض المجلس لهذه الرغبة الملكية - وصدور القرار بحل مجلس إدارة نادى ضباط الجيش) - تطورت الأمور بحيث عاد الملك «فاروق» مرة أخرى إلى الإلحاح على تعيين «حسين سرى عامر» وزيرا للحربية لإنهاء هذه الفوضى فى نادى الضباط، وفوجئ الملك «فاروق» بأن رئيس وزرائه يعرض عليه فى المقابل ترشيح «محمد نجيب» وزيرا للحربية والبحرية، ثم إن رئيس الوزراء يلح على قبول هذا الترشيح «لأن ذلك أدعى إلى الأمان والاطمئنان»، مضيفا للتاكيد أن زوج ابنته (وزير الداخلية) سوف يقابل بعد غد (يوم ١٩ يولية) اللواء «محمد نجيب» مرة أخرى ليختبر استعداده، وهنا نهض الملك «فاروق» واقفا، إشارة إلى أن مقابلته مع رئيس الوزراء قد انتهت.

ويوم ١٨ يولية (وهو يوم جمعة) فوجئ «حافظ عفيفى» (باشا) - فى مزرعته (لؤلؤة الصحراء) على طريق المنصورية بوكيل الديوان «حسن يوسف» (باشا) يتصل به تليفونيا ليقول له «إنه أبلغ على لسان جلالة الملك أن «سرى» لم يعد «ينفع»، وأن «مولانا» يفكر فى تغيير وزارى سريع».

وتحمس رئيس الديوان وأحس «حسن يوسف» بحماسته، وتعليقه - طبق شهادته - «إنه استشعر منذ تشكيل وزارة «سرى» بعد سقوط وزارة «الهلالى» أن «حافظ عفيفى» يرتب للخروج من القصر، لكنه حائر فى الأسلوب الذى ينفذ به رغبته، وأن إحدى قدميه داخل السراى والقدم الثانية خارجها». لكنه فى ذلك اليوم وبعد معرفته بأن الملك قرر التخلص من «حسين سرى» - راح يتصرف بثقة وكانه بقدميه الاثنتين داخل السراى و«عنده تدبير». ■

اليـــوم الثـــانى - الليلة الثـــانيـــة

الســـبت ١٩ يوليــــة ١٩٥٢

الأوهام تســـبق الحـــقـــائق!

■ ■ عندما وصل «حافظ عفيفى» (باشا) (رئيس الديوان الملكى) إلى مكتبه صباح السبت ١٩ يولية ١٩٥٢ فى الساعة العاشرة إلا ربعًا، وجد رسالة من «كريم ثابت» (المستشار الصحفى للملك) (الذى دخل وزيرا للدولة فى وزارة «حسين سرى» التى أصبح الملك «فاروق» مقتنعا بأنها لم تعد «نافعة») - وكانت الرسالة رجاءً من كاتبها إلى رئيس الديوان أن يتصل تليفونيا به فور وصوله، وطلب «كريم ثابت» أن يجيء فورا إلى مكتب «دولة الرئيس» لأن لديه «رسالة ملكية مهمة». وفوجئ «حافظ عفيفى» (وفق روايته لحسن يوسف ذات اليوم) - أن «كريم ثابت» يبلغه «أن هناك إرادة ملكية تعهد إلى دولته (حافظ عفيفى) بتشكيل وزارة جديدة تحل محل وزارة «حسين سرى» (التى مضى عليها فى الحكم عشرون يوما)، ولم يكن «حافظ عفيفى» جاهزا برد، لكنه أبلغ «كريم ثابت» أنه سوف يحاول أن يتصل «بجلالة الملك» شخصيا ويأمل أن يتمكن من ذلك بسرعة لكى يفهم طلبه ويتأكد من أفكاره، ويعرض «على جلالته» تقديره للموقف.

وخرج «كريم ثابت» من مكتب «حافظ عفيفى»، ودخل «حسن يوسف» ليعرف أن الملك الذى اعتزم الاستغناء عن خدمات «حسين سرى» قد اختار الآن «حافظ عفيفى» رئيسا لوزارة جديدة، وحين توجه وكيل الديوان إلى رئيسه بسؤال عن رأيه، قال «حافظ عفيفى» «إنه لا يستطيع أن يقول شيئا قبل أن تُتاح له الفرصة للكلام مع جلالة الملك».

ويبدو أن ترشيح «حافظ عفيفى» لرئاسة الوزارة انتشر بسرعة (فى الغالب عن طريق «كريم ثابت»)، والشاهد أن القائم بالأعمال البريطانى «مايكل كرسويل» كتب برقية (رقم ١٠١٨/١٩٨) يقول فى بند من بنودها (البند الرابع) ما نصه: «هناك تقارير تفيد بأن وزارة «حسين سرى» قدمت استقالتها للملك «فاروق»، وأنه قَبِلَها، وكلف «حافظ عفيفى» رئيس الديوان بمهمة تشكيل وزارة جديدة».

ولا يتوقف «كرسويل» عند هذا الحد فى برقيته، لكنه يضيف فى آخرها بندا (البند الخامس) يقول فيه ما نصه:

«إننى آمل أن تكون القيادة العامة للقوات البريطانية (فى منطقة القناة) على إحاطة باحتمالات الأزمة السياسية الراهنة، والتى تسببت فيها حماقة الملك (Folly of the King)، فهناك إمكانية أن تتسبب التداعيات المتلاحقة خلال الأيام القليلة القادمة فى مشاكل كبيرة، وعلى أى حال فإنى أرجو أن أستطيع تقديم تحليل متوازن للموقف حالما تتضح الصورة».

لكن القائم بالأعمال البريطانى «مايكل كرسويل» يعود بعد ساعات لتخفيف تشاؤمه، ويظهر أن ذلك كان من أثر زملاء له فى لجنة التنسيق الدبلوماسى بين الحلفاء فى القاهرة، وكانت هذه اللجنة (ولاتزال حتى الآن) تضم سفراء دول حلف الأطلنطى يجتمعون مرة كل شهر، مع وجود لجنة فرعية مصغرة من سفراء الدول الثلاثة الكبرى: الولايات المتحدة - وبريطانيا - وفرنسا، تجتمع كل أسبوع للمتابعة، خصوصا فى ظروف الأزمات.

ويوم ١٩ يولية كانت هذه اللجنة المصغرة على موعد، وطبقا لبرقية (ملف ٧٧٠٤٢) من السفير الأمريكى فى القاهرة «جيفرسون كافرى» إلى «هنرى بايرود» مساعد الوزير المكلف بالشرق الأدنى وافريقيا، فقد قال «كافرى»:

«أحسست أن زميلى البريطانى مبالغ فى تشاؤمه، وتقديره أن الموقف السياسى متازم، وبالتاكيد فإن الموقف متازم، لكن وجهة نظرى - وكذلك هيئة سفارتى - لا ترى ما يدل على أن الموقف وصل إلى طريق مسدود».

وأضاف «كافرى» أن زميله الفرنسى (السفير «كوف دى مورفيل» لم يحضر هذا الاجتماع لأنه سافر إلى باريس (هو الآخر) وحل محله وزيره المفوض) - الذى «يرى أن احتمالات الموقف قبيحة جدا (Very Nasty)، لكنه يرى أن الأمور سائرة نحو عودة الوفد إلى الحكم.

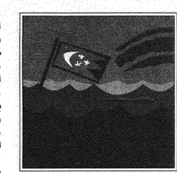
«وقد علمنا ونحن فى الاجتماع أن «حافظ عفيفى» يقوم الآن بتشكيل وزارة جديدة، ويُحتمل أن ينتهى ذلك اليوم، لأن الظروف لا تحتمل إضاعة الوقت من وجهة نظر القصر».



وفى لندن يكتب رئيس قسم الشرق الأوسط «روجر آلن» مذكرة (رقم ٩٦٨٧٧/ ٣٧١) تحت عنوان الموقف المصرى يقول فيها:

«دعوت «عمرو» (باشا) (السفير المصرى فى لندن) إلى الغداء حتى أقوم - معه بمحاولة لمراجعة واستكمال الأخبار الواصلة إلينا من مصر. بدا لى أن «عمرو» ليس لديه شيء محدد، ولكن ما لديه عموما يؤكد المعلومات الواصلة إلينا، وبالذات فيما يتعلق بضيق الملك «فاروق» عندما اقترح عليه رئيس الوزراء «حسين سرى» اسم اللواء «محمد نجيب» ليكون وزيرا للحربية والبحرية، ولم يكن «عمرو» (باشا) على وجه العموم متشائما جدا فيما يتعلق بحالة السخط السائدة فى الجيش بسبب تردى الأحوال السياسية».

وذكر لى «عمرو» أن «حافظ



عفيفى» كلف بتشكيل وزارة جديدة، وهو يرى أن «عفيفى» سوف يخطئ كثيرا إذا لم ينتهز فرصة حاجة الملك الماسة إليه حتى يضع شروطه وأهمها: ضرورة تطهير القصر الملكى من رجال مثل «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس»، وإذا قبِلَ «حافظ عفيفى» دون قيد أو شرط، فإنه سوف يسيء إلى نفسه، وسوف يلقى به إلى «مقلب الزبالة» فى أول فرصة، وطلب منى «عمرو» أن أعمل على تشجيع «حافظ عفيفى» للوقوف بصلابة، حتى يدرك الملك «فاروق» خطورة الطريق الذى يسير فيه».

وكانت هذه المذكرة فى حد ذاتها ـ وبما ورد فيها نقلا عن «سفير الملك» فى لندن ـ نذيرا بأن سوء الأحوال بلغ مداه.

والمُلاحظ أن هذه المذكرة تلتها فى الوثائق البريطانية رسالة إلى الوزير البريطانى المفوض «مايكل كرسويل» تطلب إليه الاتصال بحافظ عفيفى، وقد أُرفق بالبرقية ملخص «عما قال به «عمرو» (باشا) لروجر آلن على غداء بينهما أمس».



وحوالى الظهر اتصل الجناح الخاص (محمد حسن) من قصر المنتزه بالإسكندرية بـ«حافظ عفيفى» (باشا) يقول له بسرعة «إن مولانا مع سعادتك»، ثم سمع رئيس الديوان صوت الملك يسأله «جاهز؟»، ومع أن «حافظ عفيفى» كان مُهيأ لاتصال من الملك، فإنه لم يتوقع هذه البداية للتصرف فى أزمة سياسية خطيرة. وقال «حافظ عفيفى» أنه «يلتمس» بضع دقائق من وقت الملك، يعرض عليه تقدير الديوان للأوضاع والاحتمالات. ورد الملك بدعوة رئيس الديوان إلى لقائه فى قصر المنتزه، وهناك قضى قرابة نصف الساعة مع الملك، ثم عاد متوجها مباشرة إلى مقر الديوان خلف القصر وهو مبنى «السلاملك». وطبقا لشهادة «حسن يوسف» فإن «حافظ» (باشا) عاد إلى السلاملك وقد بدت عليه «علامات الرِّضا» ـ ولم يدخل فى تفاصيل عما جرى فى المقابلة مكتفيا بخطوط عامة أفضى بها إليه:

١ ـ أنه بادئ الأمر فكر فى قبول التكليف بتشكيل الوزارة لعدة شهور يقوم فيها «نجيب الهلالى» (باشا) بتأليف حزب سياسى جديد (يأخذ أهم العناصر فى الوفد، وأهم العناصر بين المستقلين)، ويخوض بهم معركة الانتخابات القادمة، ويصنع من حزبه الجديد قوة سياسية مستقلة «تكون أكثر من مجرد مسكن لمرض مزمن ومؤلم».

٢ ـ لكنه عند الصباح غَيَّر رأيه فى «تصوراته الليلية» بتقدير أن مثل هذه التصورات يصعب تحقيقها بخطوة واحدة، لأن هناك «احتقانا» فى البلد الآن لابد من التعامل معه، وتأجيل ذلك حتى أكتوبر مع تعليق الأمل على نجاح «الهلالى» فى تشكيل حزب جديد ـ يستطيع (أو لا يستطيع) إثبات وجوده فى الانتخابات ـ سابق لأوانه، والأولى الآن تخفيف الاحتقان السياسى وبسرعة.

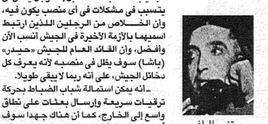
٣ ـ والحل المعقول وذلك ما اقترحه «على جلالة الملك الذى قَبِلَ بعد تردد» هو أن يعود «نجيب الهلالى» (باشا) إلى رئاسة وزارة أقوى من وزارته الأولى، وبحيث يواصل ما بدأه بكفاءة أكثر، ثم يكون من ذلك فى الداخل وفى الخارج (ذات الوقت) تكذيب عملى لشائعات مغرضة سمعناها جميعا، وتألم لها جلالة الملك «وهذا رده العملى بتكذيبها».

وفى الغالب فإن تلك الحجة الأخيرة هى التى أقنعت الملك لأنها تجاوبت مع وساوسه إزاء فضيحة لحقت به فى عين «تشرشل» و«إيدن» والرئيس الأمريكى «هارى ترومان» أيضا!.



وتظهر الوثائق البريطانية أن «حافظ عفيفى» (باشا) كان أكثر استفاضة فى الحديث مع الوزير البريطانى المفوض عما كان مع «حسن يوسف». وطبقا لتقرير مُرسل إلى لندن (٢٠٣ / ١٠١٨) فقد كتب «مايكل كرسويل» يقول:

«ذهبت لمقابلة رئيس الديوان فى بيته (على شاطئ البحر بين منطقتى ستانلى وجليم) مساءً، وبدأت بتهنئته على النتيجة السعيدة التى توصل إليها فى معالجة الأزمة السياسية فى مصر، وقلت له «إن هذه النتيجة انتصار لصبره ودبلوماسيته الهادئة مع الملك».



نجيب الهلالى — مرتضى المراغى

وأنكر «حافظ عفيفى» أنه لعب دورا فى إقناع الملك بالاستغناء عن وزارة «حسين سرى»، لكنه قال إنه الآن أكثر ثقة بالمستقبل مما كان فى أى وقت مضى خلال الشهور الستة الماضية.

أضاف «حافظ عفيفى» أن «الهلالى» يجيء الآن على شروطه، واعتقاده أن حكومة يرأسها «الهلالى» الآن ـ سوف تتمكن من البقاء فى الحكم لفترة معقولة».

وقال لى «حافظ عفيفى» «إن الملك ظن بعد أن أحس بتردده (فى تشكيل الوزارة بنفسه) أنه خائف من المسئولية لا يريد أن يتحملها، وأنه (أى الملك) جرب التفكير فى بديل وسمع اقتراحا بترشيح «على ماهر» مرة أخرى (رجل مواجهة الأزمات واستيعاب الصدمات) ـ ولكنه لا يثق فى «على ماهر»، وأنه إذا كان أمامه خيار بين «نجيب الهلالى» و«على ماهر» فهو يختار «الهلالى» ».

قال «حافظ عفيفى» «إنه بدا له من الملك استعداد لإعطاء «نجيب الهلالى» فرصة حقيقية يحكم فيها دون تدخل من الحاشية، وأن الملك أصبح يرى أن «بعض هذه الحاشية» يسيء إليه شخصيا».

وكتب «كرسويل» فى برقيته بين قوسين «لدينا معلومات من مصادر مستقلة بأن الملك فى إحساسه بحرج موقفه (بعد فضيحة بيع وزارة «الهلالى» الأولى) ـ بدأ يشك أن بعض رجاله مسئولون عن الإساءة إلى سمعته».

ثم عاد «كرسويل» إلى سياق تقريره:

«قال لى «حافظ عفيفى» أن بؤرة التوتر فى الجيش سوف تتم تصفيتها فى ظرف عشرة أيام على الأكثر، وأن لديهم الآن معلومات كافية عن مُثيرى الشغب، والملك داخل بنفسه فى عملية واسعة لتأمين الوضع فى الجيش، وأنهم فى الديوان قضوا بعد الظهر بطوله يرتبون متصلين بالملك طول الوقت وقد رسموا خطة قابلة للتحقيق:

ـ سوف يكون «إسماعيل شيرين» صهر الملك (بزواجه من الأميرة ـ الإمبراطورة السابقة فوزية) ـ وزيرا للحربية والبحرية وهو يعرف كل شباب الضباط فى الجيش، كما أنه (حافظ عفيفى) واثق أن «إسماعيل شيرين» سوف يكون مقبولا فى الجيش، ثم إنه شخصيا يطمئن إلى «إسماعيل شيرين» لأنه يعرفه منذ كان طفلا، وكان هو الذى اقترحه بالفعل على «الهلالى» (باشا) عندما قابله ليعرض عليه تشكيل الوزارة فى ظروف جديدة.

ـ وقد اتفقوا على أن يُحال «حسين سرى عامر» للتقاعد فى مقابل إحالة «محمد نجيب» للتقاعد أيضا، و«حافظ» (باشا) بما لديه من معلومات لا يعتقد على الإطلاق أن «محمد نجيب» ضابط كفء، بل إنه رجل يمكن أن يتسبب فى مشكلات فى أى منصب يكون فيه، وأن الخلاص من الرجلين اللذين ارتبط اسميهما بالأزمة الأخيرة فى الجيش أنسب الآن وأفضل، وأن القائد العام للجيش «حيدر» (باشا) سوف يظل فى منصبه لأنه يعرف كل دخائل الجيش، على أنه ربما لا يبقى طويلا.

ـ أنه يمكن استمالة شباب الضباط بحركة ترقيات سريعة وإرسال بعثات على نطاق واسع إلى الخارج، كما أن هناك جهدا سوف يُبذل فى سلاح الطيران بالذات، لأن ضباط الطيران يضايقهم أن يخدموا تحت قيادات من الجيش، ويظنوا أن ضباط الجيش لا يعرفون ما فيه الكفاية عن الطيران.

ـ وأنه عندما تستقر الأمور فى الجيش فإن الأحوال يمكن أن تتحسن، وربما يكتشف «أحمد عبود» وقتها أن كل رهاناته خاسرة وأن رشاويه ضاعت سدى، وعلى أى حال فهو يتوقع عودة الهدوء لأن العادة فى مصر أنه عندما يبدأ موسم جنى محصول القطن، تتحرك الدورة الاقتصادية.

ويختم «كرسويل» تقريره بقوله:

«يبدو لى أن هناك فرصة لتحسن الأحوال إذا استطاع الملك أن يبتعد بأصابعه عن «الفطيرة السياسية» (If the King is able to keep his fingers out of the Political Pie».

ثم يضيف «كرسويل» كخاتمة لتقريره:

«أبلغنى «حافظ عفيفى» أنه يرتب لإجازة فى أوربا تبدأ منتصف أغسطس».



وتكتمل دورة التفاؤل برسالة تظهر فى وثائق هيئة أركان الحرب الإمبراطورية فى لندن وهى مُرسلة من قيادة القوات البريطانية فى الإسماعيلية (برقم ١٠٥٥) وهى تبدأ قائلة:

«بالإشارة إلى تقرير الملحق العسكرى فى القاهرة ٤٧ / ١٨٧ / ف / م.ع) نفيدكم بأن التحركات العسكرية المصرية التى تم رصدها هى تحركات عادية تشمل تغييرا روتينيا لمواقع اللواء الخامس واللواء المصرى».

«كرسويل» الوزير البريطانى المفوض فى تقريره إلى لندن: «قال لى «حافظ عفيفى» إن بؤرة التوتر فى الجيش سوف تتم تصفيتها فى ظرف عشرة أيام على الأكثر، وأن لديهم الآن معلومات كافية عن مُثيرى الشغب، والملك داخل بنفسه فى عملية واسعة لتأمين الوضع فى الجيش



اليوم الثالث - الليلة الثالثة

الأحد ٢٠ يولية ١٩٥٢

«هل أطلب توقيع الملك على كمبيالة؟!»

صباح يوم الأحد ٢٠ يولية ومبكرا (الساعة السادسة وعشر دقائق) - دق التليفون وكان المتكلم هو الدكتور «محمود محفوظ» (صهر «نجيب الهلالى» (باشا) ووزير الصحة فيما بعد) - يقول لى: «إن «نجيب» (باشا) كلف بتشكيل وزارة جديدة وهو يطلبك فى الإسكندرية إذا استطعت أن تجىء اليوم».

وسالت «محمود محفوظ» بدهشة «وهل قَبِلَ «نجيب» (باشا)؟ ورد «طبعا.. لديه أسباب جعلته يقتنع - وسوف تسمع منه عندما تجىء !».

(كان مفروضا وفقا لترتيب العمل الذى اتفقنا عليه فى شأن الفرصة المُتاحة (بالأزمة الراهنة) لزيادة توزيع الأخبار - أن أظل فى القاهرة، لكنه - وبما أن دورى فى تغطية الحوادث كان من قسمين: نصف يركزعلى متابعة ما يجرى فى الجيش بحكم علاقات من أيام حرب فلسطين وهو ما يقتضى بقائى فى القاهرة، ونصف آخر يتعلق بتغطية نشاط «نجيب الهلالى» (باشا). وبما أنه الآن على وشك أن يؤلف الوزارة مرة ثانية - إذن فمن المعقول أن أترك القاهرة إلى الإسكندرية التى أصبحت بؤرة الحوادث الآن).

وهكذا اتصلت بالأستاذ «على أمين» واكتشفت أنه عند منتصف الليل أمس سافر إلى الإسكندرية ليلحق بـ «مصطفى» الذى سبق مبكرا، ثم إن «على أمين» ترك لى رسالة موجودة الآن بخطه على مكتبى.

وتوجهت بسرعة إلى مبنى أخبار اليوم أقرأ رسالة «على أمين» وكانت مختصرة:

«لم أستطع أن أمسك أعصابى، وذهبت إلى الإسكندرية»، اتصل بى أو بمصطفى فى فندق «سيسيل» - مصطفى فى الغرفة ٢١٢، أما أنا فلا أعرف رقم الغرفة التى حجزوها لى، ما رأيك فى تطورات الموقف السياسى، سوف يكون عليك الليلة إعداد الصفحة الأولى من الأخبار!

واتصلت بمصطفى فى فندق «سيسيل»، ولم يكن فى غرفته - بل كان فى ركن صالة الفندق مع «مرتضى المراغى» (باشا) (الذى شاع أن القصر طلبه وزيرا للداخلية، وكان ذلك متوافقا مع توجه رئيس الوزراء المكلف لأن «مرتضى المراغى» كان يشغل ذات المنصب فى وزارته الأولى - ثم إنه امتنع عن دخول وزارة «سرى»).

بادرنى «مصطفى» بالسؤال «إذا كنت عرفت بآخر الأخبار؟» وقلت «إن ذلك ما دعانى للاتصال به، لأن «على» تركنى فى القاهرة وذهب عند «نص الليل» إلى الإسكندرية، والآن تلقيت دعوة من «نجيب الهلالى» (باشا) لمقابلته فى الإسكندرية». وأدرك «مصطفى» أن ذهابى إلى الإسكندرية أنفع من بقائى فى القاهرة، ولو ليوم واحد، «أقابل فيه «نجيب» (باشا) وأتابع عملية تشكيل وزارته ثم أعود غدا إلى القاهرة» - ثم أضاف «وأما بالنسبة لليلة فلا بد أن نلتقى فى الساعة التاسعة مساءً هنا فى «سيسيل»، ويكتب كل منا ما عنده، ونُعد منه رسالة واحدة نُمليها بالتليفون.»

وبدأت أستعد لمغادرة أخبار اليوم منطلقا بسيارتى على الطريق الصحراوى إلى الإسكندرية، ورأيت أن أجرى اتصالا مع الدكتور «محمود محفوظ» قبل أن أبدأ رحلة الطريق الصحراوى، وبالفعل تحدثت إليه وإلى «فريد زعلوك» وكانا فى بيت «نجيب الهلالى» (باشا) على شاطئ البحر فى حى العصافرة بالإسكندرية.

وقال لى «محمود محفوظ» أن «نجيب» (باشا) ذاهب إلى مقابلة جلالة الملك فى قصرٍ المنتزه فى الساعة العاشرة والنصف، وأن علىّ فور الوصول إلى الإسكندرية أن ألحق بهم على الغداء فى بيت «الباشا» بالعصافرة!

وحين وضعت سماعة التليفون فوجئت برنين صادر عنه وخطر ببالى - بداعى العجلة - أن لا أرد، لكننى مع ذلك تناولت السماعة - وكانت المكالمة الطارئة مفاجأة!

كان المتكلم هو الصاغ «سعد توفيق»، وهو وقتها من ضباط المخابرات العسكرية، وكان يعمل مع اللواء «أحمد شوقى عبد الرحمن»، عندما كان هذا الأخير مديرا لإدارة الملحقين العسكريين فى الجيش المصرى، وهناك رأيت «سعد توفيق» عدة مرات، كذلك جاء «سعد» إلى مكتبى أكثر من مرة يحمل ملفات شئون سياسية عسكرية رأى اللواء «عبد الرحمن» أن أطلع عليها. وفى هذه المرة على التليفون كان «سعد توفيق» يتحدث إلىّ بالرموز:

قال: «صديقك الذى قابلته أول أمس».

ومع أننى أحسست بالغريزة مقصد إشارته فقد سألته: «أى صديق؟».

قال: «صديقك الذى ركب سيارتك أول أمس.. هل تذكرت؟».

وقلت: «نعم«! فقال: «يريد أن يقابلك الليلة مرة أخرى لأمر هام فهل تستطيع أن تحدد موعدا يكون فى بيتك؟».

وقلت: «لسوء الحظ لن أكون فى بيتى هذا المساء لأنى ذاهب فورا إلى الإسكندرية فهناك وزارة جديدة، ومن الضرورى أن أتابع تشكيلها».

سألنى بصوت يوحى بأنه فوجئ: «متى تعود؟».

وقلت: «غدا على أكثر تقدير». وعاد يُلح: «ألا تستطيع الليلة؟».

وقلت: كيف أعود الليلة والظروف كما قلت لك؟ - وأضفت «غدا تتصل بى إذا شئت». وسأل: «متى؟». وقلت: «أى وقت بعد الظهر»!



وصلت إلى بيت «نجيب الهلالى» (باشا) فى حى العصافرة فى الإسكندرية وكانت الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، وكان هناك الدكتور «محمود محفوظ» والأستاذ «فريد زعلوك» والأستاذ «نبيل الهلالى»، لكن «نجيب الهلالى» (باشا) نفسه لم يكن هناك. وقال «محفوظ» إن مقابلة «الرئيس» مع الملك تغير موعدها لتكون فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، وأنه الآن فى بيت «حافظ عفيفى» (باشا). وقلت للدكتور «محفوظ»: «وماذا نفعل نحن هنا؟ ثم اقترحت أن نلحق بنجيب (باشا) فى بيت رئيس الديوان الملكى نراه ولو لدقائق قبل أن يخرج من هناك إلى قصر المنتزه، وتحمس «محمود محفوظ» لأنه كان متلهفا على المتابعة (وأما الأستاذ «نبيل الهلالى» فقد كان أقل تلهُفا، وقرر البقاء فى انتظار والده».

ومضينا نجرى على طريق الكورنيش نحاول اللحاق بنجيب الهلالى (باشا) قبل أن يتوجه من بيت رئيس الديوان إلى قصر المنتزه، ووصلنا إلى بيت «حافظ عفيفى» (باشا) من بابه المواجه لقصر سموحة، ثم توقفنا أمام المبنى الجديد الذى أقامه «حافظ» (باشا) وأراد تصميمه على شكل سفينة تواجه «البحر»، وجاء ضابط الحرس على الباب يقول لنا «إن «الباشوات» خرجوا قبل خمس دقائق.

وعُدنا إلى حيث كنا فى بيت «الهلالى» (باشا) على شاطئ العصافرة!

....

....

[ولا أعرف كيف ولماذا - هناك - ونحن فى انتظار صاحب البيت - لمع فى فكرى خاطر يخص تلك المكالمة التى تلقيتها من الصاغ «سعد توفيق»، وكان ذلك غريبا، فطوال الطريق من القاهرة إلى الإسكندرية أقود سيارتى وحدى لم يخطر على بالى أن أفكر طويلا فى تلك المكالمة التى جاءتنى على غير انتظار، بل كان على بالى هذه الوزارة الجديدة: رئيسها وتشكيلها؟ - وماذا تستطيع عمله؟ ولماذا يعرض الملك الآن رئاسة الوزارة على «نجيب الهلالى»؟ - وقد كان فى ذلك المنصب فعلا قبل ثلاثة أسابيع ثم جرى بيعه بيعا فى سابقة لم تحدث من قبل فى السياسة المصرية على كثرة ما رأت هذه السياسة من غرائب؟... ثم لماذا قَبِلَ «نجيب الهلالى» الآن ذلك المنصب الذى اكتشف قبل ثلاثة أسابيع أنه لا يستطيع البقاء فيه بعد أن رآه سلعة فى السوق ثم قرر أن عليه - بلا خيار آخر - أن يقدم استقالة وزارته للملك؟... وبعد ذلك - وربما قبله - ما الذى يستطيع «الهلالى» أن يفعله الآن، وقد صدر قرار من القائد العام للجيش المصرى بحل مجلس إدارة نادى ضباط الجيش؟ - وضياع ثقة الملك فى وزارة «حسين سرى» وقبوله استقالتها - رافضا بشدة اقتراحا متجددا من رئيسها باختيار اللواء «محمد نجيب» وزيرا للحربية، لأن الملك يريد اللواء «حسين سرى عامر» - ورئيس الوزراء يفضل اللواء «محمد نجيب» (الذى تقابل بالفعل قبل ساعات من سقوط وزارة «سرى» (باشا) مع صهره وزير الداخلية «محمد هاشم» (باشا)، ثم إن جزءًا من اللقاء حضره «كريم ثابت» (باشا).

وتداعت أفكارى من اللواء «محمد نجيب» إلى البكباشى «جمال عبد الناصر» الذى التقيته عنده أمس الأول، ثم إلى الصاغ «سعد توفيق» الذى أبلغنى رسالة من «جمال عبدالناصر» - يسأل عما إذا كان يستطيع أن يلقانى الليلة؟!].

....

....



فى تلك الساعة تقريبا كان الوزير البريطانى المفوض فى مصر «مايكل كرسويل» يتلقى وهو فى الإسكندرية برقية عاجلة من وزير الخارجية البريطانى (٩٦٨٧/ ٣٧١) يقول له فيها:

«الأخبار التى تصل إلينا متناقضة ما بين اتجاه ترشيح «حافظ عفيفى» أو «نجيب الهلالى» لرئاسة وزارة جديدة».

أنت مكلف بإبلاغ «حافظ عفيفى». باسمى أن رئاسته للوزارة عقيمة إذا لم يكن ينوى الوقوف بحزم أمام الملك، ويواجهه بحد أدنى من الشروط التى لا يصح التنازل عنها، وأولها ضرورة إقصاء كل من «كريم ثابت» و«أندراوس» ليس فقط عن القصر، ولكن عن البلد ولو لفترة الشهور القليلة القادمة.

إن نفس التوجيهات تنطبق أيضا فى حالة ما إذا كان «الهلالى» هو الذى سيُعْهَد إليه بتشكيل الوزارة.

إن حدا من الجدية والمصداقية لابد أن يتوافر الآن، وإلا فإن الزمام سوف يفلت.

تضيف رسالة «إيدن» سؤالا: «هل تستطيعون إمدادنا بمعلومات تفصيلية عاجلة عن التطورات المحتملة؟».

وقبل أن تمر ساعة يكون «كرسويل» من الإسكندرية يكتب ردا على «إيدن» يقول:

من الصعب جدا الحصول فى هذه الظروف على معلومات مفصلة يمكن اعتمادها، وما نستطيع الجزم به هو:

١- هناك سخط منتشر فى الجيش، ومن المحتمل أن يتبلور هذا السخط فى عملية من «نوع ما»، ولذلك فنحن نقترح من هنا تقليل «مدة الإنذار» بالنسبة للخطة «روديو» (تقدم الجيش البريطانى من قاعدة قناة السويس لاحتلال الدلتا والقاهرة)، وذلك تحسبا للطوارئ وحتى لا نفاجأ بما لا نكون مستعدين له.

٢- يبدو أن الحزب الاشتراكى نشيط جدا فى أوساط الضباط -!!- رغم أن رئيسه «أحمد حسين» يُحاكم الآن



لـمـاذا يعـرض الملك الآن رئاسة الـوزارة عـلى «نجيب الهلالى»؟ ـ وقد كان «الهلالى» فى ذلك المنصب فعلا قبل ثلاثة أسابيع ثم جرى بيعه بيعا فى سابقة لم تحدث من قبل فى السياسة المصرية علـى كثـرة مـا رأت هـذه السياسـة من غرائب؟



بتهمة تدبير حرائق القاهرة (٢٦ يناير ١٩٥٢).

٣ـ ليس من المستبعد أن تقع حالة عصيان بين القوات المسلحة تستغلها عناصر متطرفة، مما يؤدى إلى فوضى شديدة.

وكان «أنتونى إيدن» وزير الخارجية يتغدى يومها مع رئيس الوزراء فى بيته الريفى «تشيكرز»، ورأى رئيس القسم المصرى وقتها المستر «بوكر» أن يبعث له برسالة خاصة على جهاز الإرسال الذى يربط مقر رئاسة الوزارة فى لندن بالبيت الريفى لرئيس الوزراء «تشيكرز»:

آخر التطورات فى مصر

أفاد «كرسويل» من الإسكندرية بأن الموقف بالغ الخطورة بسبب توتر الأحوال فى الجيش المصرى، وأنه بعث بآخر ما توافر له من المعلومات إلى رئاسة القوات البريطانية التى تبحث الموقف وفيه توصية من «كرسويل» بتقليل مدة الإنذار اللازمة لتنفيذ الخطة «روديو» من عشرة أيام (كما هى الآن) إلى ٤٨ ساعة.

وقد قام «كرسويل» بإخطار السفارة الأمريكية، ولكن السفير الأمريكى هناك «كافرى» يظن أن الأزمة السياسية فى مصر الآن تسير نحو الحل».

وتُظهر الإشارة فى الوثائق البريطانية وعليها توقيع «أنتونى إيدن» بالحرفين الأولين من اسمه إشارة إلى أنه اطلع عليها.



....

....

فى الساعة الرابعة وخمس وثلاثين دقيقة وصل «نجيب الهلالى» (باشا) عائدا إلى بيته فى العصافرة من قصر المنتزه القريب، وكان بعد لقائه بالملك «فاروق» قد توجه إلى السلاملك، وقضى بعض الوقت فى مناقشة قائمة ترشيحات وزرائه، وتابعت «نجيب الهلالى» (باشا) وهو يصعد بنشاط درجات السلم من حديقة البيت الصغيرة إلى الشرفة، ولاحظت أن خطوته زادت نشاطا. كان يرتدى بذلة كاملة من التيل الأبيض، ولفت نظرى أن البذلة الصيفية من التيل الأبيض كان لها أيضا «صديرى» يكسو صدر «نجيب» (باشا) رغم الحر الشديد.

ونظر «الهلالى» (باشا) إلينا (فريد زعلوك ـ ومحمود محفوظ ـ ونبيل الهلالى ـ وأنا) وهو يضحك قائلا: «لابد أنكم متُّم من الجوع»، وعبر من صالون الاستقبال الكبير واصلا إلى قاعة الطعام التى انفتح بابها أمامه، والتفت «الهلالى» (باشا) نحوى يسألنى متى وصلت من القاهرة؟ ـ وما هى الأخبار هناك؟.

وقلت: «إن الأخبار هنا فى الإسكندرية» وأضفت «أن الناس جميعا سوف يدهشهم أنه قَبِلَ تأليف الوزارة بعد تلك التجربة التى مر بها قبل ثلاثة أسابيع».

وقال «الهلالى» (باشا) «إن الملك استجاب لشروطى ولم تبق لى عليه حجة».

وسألت (والباقون يتابعون ذلك الحوار بيننا): «وما هى الشروط»؟، ومد «نجيب الهلالى» أصابعه إلى جيب الصديرى الذى يرتديه تحت الجاكتة البيضاء، ثم أخرج قطعة صغيرة من الورق فردها ثم قال:

«وقف تدخل غير المسئولين فى الشأن السياسى».

وهؤلاء غير المسئولين هم (عاد يقرأ من الورقة التى أخرجها من جيبه): «كريم ثابت» ـ «إلياس أندراوس» ـ «أنطونيو بوللى».

ثم توقف «نجيب الهلالى» عن قراءة الأسماء قائلا: «أليست هذه كفاية؟ ـ فى القائمة آخرون... هناك ستة»!

وسألت «الهلالى» (باشا) «وما الذى يضمن؟».

وقال بتؤدة: كلمته.

ولم أسكت وإنما واصلت: «وأى ضمان أن يلتزم بها؟».

ورد «الهلالى» (باشا) ـ قائلا: «يعنى أطلب من الملك توقيع كمبيالة؟!».

وسَكَتُ وقد أحسست أننى لا أريد أن أتزيد عليه (ولكن شعورا غريبا راودنى تلك اللحظة بأننى لم أكن أريده أن يؤلف الوزارة هذه الساعة لأمر ما لا أستطيع تحديده، لكن ما أحس به غير بعيد عن تلك المكالمة التليفونية التى جاءتنى قبل أن أترك مكتبى فى القاهرة من الصاغ «سعد توفيق»!)

وانهمكت بعد ذلك فى حديث الترشيحات للمناصب الوزارية، وكانت مع «نجيب» (باشا) قائمة بأسماء جديدة كلها مقبولة: وبينهم «مريت غالى» وزيرا للشئون البلدية والقروية، و«على كامل الشيشينى» وزيرا للزراعة، وآخرين.

وكنت ما أزال أخشى أننى أثقلت على «الهلالى»، لكن الرجل (شاء كريما أن يزيل مثل هذا الشعور عندى) فإذا هو يقول «فى المرة الماضية سألتك عن مرشح لوزارة الحربية، واقترحت «محمد نجيب» وقد رفضوه، وهذه المرة أجد أننا نسينا وزارة الصحة، فهل عندك مرشح لها؟ ـ وجاء من يدعو «الهلالى» (باشا) إلى التليفون لأن رئيس الديوان يطلبه، وقال «نجيب» (باشا) «فكر خمس دقائق وحاول أن تعثر على مرشح». وحاولت أن أعصر ذهنى لأجد رجلا أعرفه يصلح لوزارة الصحة، ولم تسعفنى الذاكرة وخرجت لحظة من غرفة الطعام إلى الشرفة، وقد تجمع عليها عدد من الصحفيين لمحت بينهم زميلى وصديقى الأستاذ «على حمدى الجمال»، وربما أنه خواء الذاكرة تلك اللحظة أو لعله غرور الشباب ما دعانى لسؤال «على حمدى الجمال» همسا: «ما إذا كان يتذكر شخصية رجل يصلح لوزارة الصحة»، والغريب أنه رد على بسرعة قائلا «سيد شكرى»، وعُدت إلى قاعة الطعام حيث كان «نجيب الهلالى» على وشك العودة بعد انتهاء حديثه مع «حافظ عفيفى»، وقلت: «ما رأيك فى الدكتور سيد شكرى؟». وتهلل وجه «نجيب الهلالى». وقال «نِعْمَ الاختيار». ثم تذكر أن الدكتور «أحمد حسين» هو وزير الشئون الاجتماعية على قائمة الترشيحات وأنه متزوج من الدكتورة «عزيزة حسين» ابنة الدكتور «سيد شكرى»، وقال ضاحكا: «يعنى الرجل وحماه فى الوزارة». وكتب اسم الدكتور «سيد شكرى» وطلب من «فريد زعلوك» أن يبلغ الاقتراح بترشيحه على التليفون إلى مكتب وكيل الديوان.

وكانت المفاجأة فى نهاية المشاورات ترشيح «إسماعيل شيرين» صهر الملك (زوج الأميرة «الإمبراطورة السابقة» فوزية) وزيرا للحربية والبحرية.

....

....

[وكنت أعرف «إسماعيل شيرين» معرفة شخصية من رئاسته لوفد مفاوضات الهُدنة بين مصر وإسرائيل فى «رودس» (يناير ١٩٤٩) ـ وكان «إسماعيل شيرين» مفاوضا صلبا إذ أصر على استحالة لقاء الوفدين المصرى والإسرائيلى رغم وجودهما فى فندق واحد، وهو فندق «دى روز»، وكذلك جرت المفاوضات بواسطة ممثل الأمم المتحدة الدكتور «رالف بانش» الذى كان ينتقل بين الدور الخامس الذى ينزل فيه الوفد الإسرائيلى والدور السادس حيث ينزل الوفد المصرى حاملا المقترحات والصياغات والتعديلات حتى أمكن التوصل إلى اتفاق.

لكنه خطر ببالى أن مصاهرة «إسماعيل شيرين» للملك «فاروق» يمكن أن يكون لها تأثير سلبى على اختياره].

....

....



وكان لابد أن أغادر بيت «الهلالى» (باشا) فى العصافرة متوجها إلى فندق «سيسيل» فى ميدان سعد زغلول لموعدى مع «مصطفى» و«على أمين» فى الساعة التاسعة كى نعد رسالة مشتركة لعدد الأخبار (غدا) قبل أن تمثل الجريدة للطبع.

وكذلك حدث، وجلسنا بعده لتناول العشاء وانضم إلينا عدد من الساسة بينهم «مرتضى المراغى» (باشا) ـ و«حفنى محمود» (بك) ـ شقيق «محمد محمود» (باشا) رئيس الدستوريين ورئيس الوزراء الأسبق ـ والأستاذ «كامل الشناوى».

وطال السهر حتى الساعة الواحدة والنصف صباحا، وقُمت أبحث عن غرفة أقضى فيها سواد الليل فى «سيسيل» على اتفاق مع «مصطفى» و«على أمين» بأن أعود فى الصباح الباكر إلى القاهرة. ■

اليـــــوم الرابع ـ الليلة الرابعـــــة
الاثنـــــين ٢١ يوليـــة ١٩٥٢

ســــــباق مــــع الـــزمـــن

▪ في الصباح الباكر يوم ٢١ يولية كان الوزير المفوض البريطاني يكتب إلى لندن تقريرا عن وزارة «الهلالي» الثانية رقم (١٠٥٤) يقول فيه:

يقدم الهلالي (باشا) اليوم رسميا إلى الملك «فاروق» أسماء وزرائه الجدد، ويحلفون اليمين الدستورية أمامه. وأعضاء الوزارة الجديدة في معظمهم من وزارة «الهلالي» السابقة، خصوصا وزارات: الخارجية: «عبدالخالق حسونة» ـ والداخلية: «مرتضى المراغي» ـ والمالية: «زكي عبد المتعال». وكان هناك حديث بأن يتولى «المراغي» وزارة الحربية كما كان في الوزارة السابقة، لكن القصر اقترح مرشحا زكاه «حافظ عفيفي» وهو الكولونيل «إسماعيل شيرين» صهر الملك.

وعلمت من مصدر موثوق أن «الهلالي» (باشا) وضع مجموعة شروط استجاب لها الملك:

ـ التطهير الذي بدأته وزارته السابقة يستمر.

ـ الانتخابات تؤجل إلى موعد غير محدد.

ـ الأحكام العُرفية تظل مُطَبَّقَة حتى تتم محاكمة المتهمين في قضية حريق القاهرة.

ـ يتوقف تدخل غير المسئولين من رجال الحاشية الملكية في السياسة.

وقد تبين لي الآن أن السبب الرئيسي الذي دعا الملك إلى إخراج وزارة «سرى» (باشا) رغبته في احتواء الفضيحة التي جاءت بها الوزارة، وذلك هو نفس السبب الذي أقنعه بقبول ترشيح «الهلالي».

والسؤال المُلِحُّ الآن هو ما إذا كانت هذه الوزارة قادرة على معالجة الموقف الخطر داخل الجيش!

وفي نفس الوقت كانت قيادة القوات البريطانية في منطقة القناة ترسل إلى هيئة أركان الحرب الإمبراطورية في لندن بتقدير للموقف (رقم ١١٤) يقول:

١ـ الموقف السياسي في مصر في حالة سيولة خطرة ونتائجه مما يصعب توقعها، ورأى القائم بالأعمال البريطاني في السفارة كما أرسله لنا «إن الوضع خطر وأن الملك «فاروق» قد يرتكب حماقة في أي لحظة تؤدي إلى تدهور مفاجئ».

٢ـ المعلومات لدينا أن هناك توترا على نطاق واسع في الوحدات العسكرية المصرية، واحتمالات العصيان واردة، وقد صدر أمر برفع درجة استعداد القوات لمواجهة أي احتمال.

٣ـ الفارق هذه المرة ـ ونحن نرفع درجة الاستعداد ـ أن المشاكل المحتملة ليست موجهة ضدنا لأول مرة، ولكنها موجهة بالتحديد ضد «فاروق»، وكذلك وبصفة عامة ليست موجهة ضد الأجانب.

٤ـ سوف نبقى على اتصال مستمر حتى تظهر أمامنا علامات انخفاض في درجة التوتر!



....

....

توجهت من الطريق الصحراوي إلى دار أخبار اليوم مباشرة ودخلت مكتبي حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، ورُحت على الفور أتصل بالإسكندرية أسأل عن آخر ما جرى بعد أن قضيت أكثر من ثلاث ساعات مقطوعا عن الأخبار في الطريق الصحراوي إلى القاهرة.

واتصلت بـ«نجيب الهلالي» (باشا) أحاول الحصول على أول تصريح له بعد حلف اليمين، وكان رأيه أن أنتظر إلى الغد حتى يعقد أول اجتماع لمجلس وزرائه.

واتصلت بالأستاذ «مصطفى أمين» أسأله عما لديه، وكانت لديه حكايات طويلة استغرقت حديثا تليفونيا ـ دخل فيه «علي أمين» وطال أكثر من ساعة، وسألت «علي أمين» متى سيعود إلى القاهرة؟، ووعد بأنه سوف يلحق بي غدا أو بعد غد على أكثر تقدير، وفي كل الأحوال قبل عدد أخبار اليوم القادم.

....

....

عندما أصبح عدد الأخبار الذي يصدر صباح غد (الثلاثاء ٢٢ يولية) جاهزا، توجهت إلى بيتي شاعرا بإرهاق شديد، ودخلت لأجد رسالة تقول:

«الصاغ «سعد توفيق» اتصل خمس مرات ويطلب الاتصال به الليلة ضروري».

ونظرت في ساعتي وكانت الواحدة والربع صباحا.

ولم أجد الوقت مناسبا لرد اتصالاته.▪

اليوم الخامس ـ الليلة الخامسة.. الثلاثاء ٢٢ يولية ١٩٥٢

ســـوف تنقـــلب الدنيـــا هـــذه الليلــة

▪ أيقظني تليفون مبكر (الساعة السادسة والنصف) وكان المتحدث هو الأستاذ «فريد زعلوك» يسألني: «هل هناك حسب علمي شيء في الجيش، لأن «نجيب» (باشا) يتلقى أخبارا مزعجة». وقلت «إنه حتى خروجي من أخبار اليوم بعد منتصف الليل أمس لم أسمع بجديد يزيد عما كان «عندنا» ونحن في الإسكندرية».

ووضعت سماعة التليفون أفكر فيما عساه أن يكون قد وصل من معلومات إلى رئيس الوزراء الجديد خلال ساعات الليل؟ ولم تمض غير نصف ساعة حتى دق التليفون والمتحدث «علي أمين» من فندق «سيسيل» في الإسكندرية، يقول هامسا «هناك عملية اعتقال لعدد من الضباط سوف تتم اليوم، ويُستحسن أن «تاخذ بالك»، مع أنني لا أتوقع أن يكون في مقدورنا نشر شيء عنها إلا إذا صدر بلاغ رسمي أو كان لدينا تصريح خاص، وإذا جرى ما هو متوقع فإن «مصطفى» سوف يحاول أن يحصل على تصريح بالنشر من الديوان، وأنت من ناحيتك حاول مع رئيس الوزراء، ولكن ليس قبل أن يتصل بك «مصطفى» حتى لا يكون من شأن تصرف أحد منا أن يُفْشي سرا قبل وقته».

وفي الساعة الثامنة والربع صباحا وكنت لا أزال في بيتي، أفكر إذا كان الوقت مناسبا لأتصل بالصاغ «سعد توفيق»، أرد له مكالماته بالأمس، وأستشعر ما لديه ـ وإذا الصاغ «سعد توفيق» يطلبني، ويبدأ الحديث بسرعة سائلا «إذا كنت عرفت أنه لم يتوقف بالأمس عن طلبي». وقلت له «عرفت أنك سألت عني خمس مرات».

وقال «سعد توفيق» وقد أخذ صوته نبرة استوقفت سمعي:

«كان صاحبك يريد أن يمر عليك أمس، وسوف أتصل بك بعد قليل فأين ستكون؟ ـ وقلت في مكتبي، ووجدته يسكت ـ ثم يسألني: «هل تستطيع أن تنتظر حتى أتصل بك بعد قليل، نصف ساعة على أكثر تقدير لأني لا أريد أن أطلب تليفونات «أخبار اليوم».

وبدا الطلب مشحونا بالغموض، وقلت إنني سوف أبقى نصف الساعة المقترحة هنا في بيتي، وفي عشر دقائق لا أكثر كان «سعد توفيق» يعاود الاتصال سائلا بسرعة «أين ستكون الليلة؟ ـ إذا لم يكن لديك ما يمنع فأنا أريد أن أعرف أين ستكون الليلة حوالي العاشرة مساءً؟». وطلبت إليه أن ينتظر وراجعت مفكرتي وعدت إليه (وهناك شعور خفي يقود تصرفي) ـ أقول «إنني سوف أكون على العشاء في الخارج في بيت المستشار «ماهر دوس» (ابن «توفيق دوس» (باشا)) ـ (وهذا البيت الآن هو مقر السفير السعودي في القاهرة، بشارع محمد مظهر في الزمالك) ـ وسألني «سعد توفيق» عن رقم تليفون البيت، ووجدتني أمليه عليه.

وعندما وصلت إلى بيت «توفيق دوس» (باشا) لعشاء مع ابنه «ماهر دوس»، وجدته جالسا ينتظر ومعه صديق قديم لنا هو الوزير المفوض (وقتها) «محمود محرم حماد».

وأخذت «ماهر دوس» على جانب من الصالون وهمست له «إنني أعطيت رقم تليفونك لرجل قد يتصل بي هنا، فهل تستطيع ترتيب أن «يخطروني» إذا سأل عني أحد؟». وفي الساعة العاشرة والربع جاء من يقول «إن هناك من يسأل عني» ـ وتوجهت إلى بهو خارجي، وتناولت سماعة التليفون وإذا صوت يقول همسا «أرجوك تتوجه إلى بيتك وسوف اتصل بك هناك لأقول لك شيئا يهمك!».

وأحسست بأجواء قصة بوليسية، لكن شيئا داخلي كان يأخذ المكالمة جدا بأكثر من وقائع قصة بوليسية.

واستأذنت لأنصرف قبل العشاء، وأدرك «ماهر دوس» بحسه أن هناك شيئا، وكان آخر ما سمعته منه وهو يودعني على باب بيته أركب سيارتي:

«يظهر أن الدنيا سوف تنقلب هذه الليلة»!

وكان حدسه صحيحا بأكثر مما خطر له ـ أو خطر لي!▪

مسئولية الإدارة الأمريكية

جور فيدال

جور فيدال

قد لا يأتى أبداً اليوم الذى يعرفُ فيه العالم ماذا حدث بالضبط فى الحادى عشر من سبتمبر فى العام الأول بعد الألفين.! الآلةُ الإعلاميةُ الجهنميةُ لم تدع مجالاً للكثيرين أن يفكروا بشكلٍ مستقل. محاولين أن يَصُفّوا قطعَ اللغز «البازل» المتناثرة بجوار بعضها. البعضُ حاولَ.. والكثيرُ أخافتهم رياحُ المكارثيةِ السموم. والأكثرُ - بحكم الطبيعةِ والعادة - قنعوا بما يتمُّ ترويجه.. بعد أن تم تعليبه بمهارةٍ وحرفيةٍ وإتقان. جور فيدال.. كان واحداً من الذين حاولوا. وكان ذلك طبيعياً بحكم تاريخه ومكانته. فحينما بدا أن الولايات المتحدة، القوة الغربية المنتصرة، قد تبنت عقيدةً تُواصلُ بمقتضاها السعيَ لاجتثاثِ أى عامل يمكن فى يوم من الأيام أن يمثّل تهديدا، أو أن يسمحَ بنهوض تهديدٍ قديم، وعندما وجد العالمُ كله نفسه فجأة فى وضع دولى غير مألوف من قبل.. ربما منذ عصر الإمبراطورية الرومانية. وعندما صار اسما صمويل هنتينجتون، فرانسيس فوكوياما وغيرهما من مفلسفى الانتصار العظيم أسماءً لامعة، وصار علماء وأكاديميون من «الصقور» من أمثال إدوارد تيلر صاحب فكرة الحرب النووية المحدودة، وميلتون فريدمان «أبو اقتصاد السوق» ومن لف لفهما، مصدرَ الإيحاء وحُداةَ المستقبل. كان جور فيدال أحد أوائل من نبّه إلى أن إلحاق الهزيمة بالاتحاد السوفيتى وتدميرِه لن يجلبا السلام إلى العالم لأن طبيعة القوة المنتصرة تحتاج إلى عدو يبرِّر استثمارها فى أسباب القوة... وإذا لم يكن هذا العدو موجوداً سيوجدونه. ويومذاك حدد فيدال الأعداء المحتملين بالإسلام. غير غافلٍ عن القوتين الأكبر فى الشرق الأقصى، والبؤر الحساسة.. كمصادر النفط فى الشرق الأوسط، والمياه الدافئة على تخوم روسيا، وكل مايمكن أن يمثل مناخات قد تكون مناوئة للنظام الجديد.. جور فيدال (٧٧ عاما وأكثر من ٥٠ كتابا) حفيد السيناتور الأسطورى توماس جور، ومن أبناء عمومته آل جور نائب الرئيس



جور فيدال

السابق رغم أنه لم يلتقه مرة واحدة، والذى يقول فيدال عنه «إنه هو ابن عمى، ولست أنا ابن عمه». إضافة لقرابته بكل من جيمى كارتر الرئيس الأسبق وجاكلين كيندى زوجة الرئيس الأسبق، عدا عن صداقاته ومعاركه السياسية والانتخابية التى خاضها فى الثمانينيات. بدأت كتب جور فيدال تأخذ طريقها لأرفف المكتبات، وهو بعد فى الحادية والعشرين من العمر. ويكاد يكون تخصص فى تاريخ الطبقة السياسية التى أنشأت الولايات المتحدة وحكمتها وأدارت شئونها. وبدقة يحسده عليها المؤرخون المحترفون، وإذا كان هناك من لايذكر عنوانه الأول «عاصفة»، إلا أن كتابه «هبوط وسقوط الإمبراطورية الأمريكية» أثار جدلا كبيرا. وكثيرا ما يصدم فيدال المؤسسة الأمريكية بتصريحاته المثيرة للجدل. فهو يتهم الحكومة الأمريكية ووسائل الإعلام بتضليل الرأى العام معتبرا: أن: «أمريكا تضم ربع مليار نسمة مضللين تماما ومغيبين من جانب حكومتهم» وكان قد انتقد الرئيس بوش، قائلا إنه يريد أن تستمر الحرب ضد الإرهاب إلى الأبد، وأشار إلى أن بعض الأمريكيين يشعر بالسعادة لأن هجمات ١١ سبتمبر، حددت المسلمين على أنهم الأعداء الجدد. هنا مقال جديد للمفكر الأمريكى، تنشره «وجهات نظر» بترتيب خاص. وكانت The Observer Review قد أفردت له أربع صفحات كاملة لأهميته.

المحرر

بعد أن انقضى عام كامل على أحداث الحادى عشر من سبتمبر، مازلنا لا نعرف من الذى ضربنا فى ذلك الثلاثاء المحزن، ولا الغرض الحقيقى لما جرى، لكن من الواضح لكثير من المعنيين بأمورنا المدنية أن ٩/١١ لم يصب بالضرر فقط دستور حقوقنا الهش، بل أصاب أيضًا نظام حكمنا الذى كان الآخرون يحسدوننا عليه، ذلك النظام الذى تلقى ضربة قاضية فى السنة الماضية، عندما تدخلت المحكمة العليا وتلاعبت بشئوننا وأقامت مكان رئيس جمهوريتنا المنتخب بحرية عصبة «شينى - بوش» من رجال البترول والغاز.



وفى غضون ذلك تتبع حكومتنا التى تزداد كل يوم ابتعادًا عن الخضوع للمساءلة، سياسات مختلفة فى شتى أنحاء العالم دون أن نعرف عنها شيئًا نحن حملة الرماح (والذين كان يطلق علينا فى الماضى اسم الشعب)، ومع ذلك فقد تلقينا خلال هذه السنة بعض الإجابات عن السؤال المهم: لماذا لم يحذرنا أحد مقدمًا بما سيقع فى ٩/١١؟ غير أنه يبدو أن هناك من قام بتحذيرنا بالفعل، ففى وقت مبكر من السنة قال لنا البعض أنه سيكون ثمة زائرون غير مرغوب فيهم فى سماواتنا فى وقت ما من سبتمبر ٢٠٠١، ولكن الحكومة لم تبلغنا بذلك ولم تقم بحمايتنا، وعلى الرغم من التحذيرات التى تلقيناها فى أول مايو من الرئيس بوتين ومن الرئيس مبارك، ومن الموساد، وحتى من عناصر فى شرطة المباحث لدينا FBI، وقد جاء فى تقرير صادر عن الاجتماع المشترك للجنتى المخابرات فى الكونجرس (١٩ سبتمبر ٢٠٠٢، جريدة نيويورك تايمز) أنه منذ وقت مبكر يرجع إلى ١٩٩٦ اعترف الإرهابى الباكستانى عبدالحكيم مراد لعملاء فيدراليين بأنه كان «يتعلم الطيران حتى يصدم بطائرته مبنى وكالة المخابرات المركزية CIA».

ولكن يبدو أنه لم يأخذ تلك التحذيرات مأخذ الجد أحد غير جورج تنيت مدير الوكالة. وقد كتب فى ديسمبر ١٩٩٨ إلى مساعديه يقول: «إننا فى حالة حرب مع أسامة بن لادن. وقد بلغ من اهتمام إدارة المباحث بهذا التحذير حد أنه بحلول يوم ٢٠ سبتمبر ٢٠٠١ لم يكن لدى إدارة المباحث غير باحث واحد مكلف طول الوقت بتتبع تنظيم القاعدة.

وفى تقرير مقدم إلى الرئيس بوش فى بداية شهر يوليو ٢٠٠١ قالت المباحث: «أعتقد أن أ.ب.ل (أسامة بن لادن) سيشن هجومًا إرهابيًا كبيرًا على مصالح الولايات المتحدة أو إسرائيل أو كلتيهما خلال الأسابيع المقبلة. وسيكون الهجوم لافتًا للأنظار، ويرمى إلى إحداث خسائر جسيمة بالمرافق أو المصالح الأمريكية. وقد تمت الاستعدادات للهجوم. وسيقع الهجوم دون إنذار». وهذا ما حدث، ومع ذلك فإن كوندوليزا رايس مستشار الأمن القومى، تقول أنها لم تتوقع فى أى وقت أن يعنى ذلك شيئًا آخر أكثر من اختطاف طائرات.

Dreaming War: blood for oil and The cheney-Bush

(الحلم بالحرب: الدم من أجل البترول وعصبة تشيني - بوش)

Gore Vidal

Thunder's Mouth Press, 108PP, $ 9.56, 2002.

ومن حسن الحظ، أنه توجد عبر مياه المحيط قارة أوروبا - هذه القارة التى أعلنت وسائل الإعلام الأمريكية مؤخرًا أنها معادية للسامية، لأن معظم دولها لا تريد حربًا مع العراق، وهى حرب تريدها العصبة الحاكمة لأسباب يمكن الآن أن نبدأ فى تفهمها بفضل الباحثين الأوروبيين والآسيويين الذين تتوافر لهم وسائل إعلام حرة نسبيًا.

وفى موضوع «كيف ولماذا وقع الهجوم على الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، يعتبر أفضل التقارير وأكثرها توازنًا حتى الآن، التقرير الذى قدمه نفيس مصدق أحمد.. نعم إنى أعرف أنه «واحد منهم» لكنهم كثيرًا ما يعرفون أشياء لا نعرفها نحن - ولاسيما بشأن الأشياء التى نحن مقدمون عليها. ونفيس أحمد بوصفه من المشتغلين بشئون السياسة، هو المدير التنفيذى لمعهد بحوث السياسات والتنمية، وهى هيئة فى برايتون مكرَّسة للدفاع عن حقوق الإنسان والعدالة والسلام. وكتابه المعنون (الحرب على الحرية) The War on Freedom نشرته مؤخرًا فى الولايات المتحدة دار نشر صغيرة ولكنها ذات سمعة طيبة.

ويقدم نفيس أحمد معلومات أساسية عن حربنا الدائرة ضد أفغانستان، ووجهة نظره لا تتفق بأى حال مع ما قالته لنا حكومتنا. وقد اعتمد المؤلف على مصادر متعددة، من أهمها الأمريكيون الذين حذروا مبكرًا، والذين بدأوا يتكلمون علنًا ويقدمون شهادتهم مثل عملاء المباحث الذين نبهوا رؤساءهم إلى أن «القاعدة» تعد لضربة من طراز الكاميكاز اليابانى ضد نيويورك وواشنطن. غير أنه قيل لهم أنهم إذا أعلنوا شيئًا من ذلك سوف يتعرضون لتطبيق «قانون الأمن الوطنى» عليهم. وقد عهد كثير منهم إلى دافيد شيبرز كبير مستشارى التحقيقات لدى اللجنة القضائية بمجلس النواب ليمثلهم أمام المحاكم. وكان شيبرز الرائع قد أدار عملية المحاكمة الناجحة التى عقدت للرئيس كلينتون فى مجلس النواب. وقد يطلب منه، إذا فشلت الحرب ضد العراق، أن يقدم نفس الخدمة لبوش، الذى ترك الشعب الأمريكى دون تنبيه أو إنذار بشأن الهجوم الوشيك على اثنتين من مدننا الكبرى ليكون شفيعًا لضربة عسكرية مقررة من جانب الولايات المتحدة ضد طالبان.

وقد نشرت «الجارديان» (٢٦ سبتمبر ٢٠٠١) أنه حدث فى يوليو ٢٠٠١ أن التقت مجموعة من الأطراف المعنية فى أحد فنادق

عن ٩/١١ ... العدو من الداخل

برلين لتستمع إلى موظف سابق بوزارة الخارجية الأمريكية، هولى كولدرين، وهو ينقل رسالة من إدارة بوش مؤداها أن «الولايات المتحدة قد ضاقت بطالبان لدرجة أنها قد تنظر فى اتخاذ إجراء عسكرى.. وكان الأمر المخيف فى هذا الإنذار السرى أنه جاء ـ وفقًا لما قاله أحد الحاضرين وهو الدبلوماسى الباكستانى نياز نايق ـ مصحوباً بتفاصيل محددة بشأن الكيفية التى ستتصرف بها إدارة بوش.. وكانت «الجارديان» قد نشرت قبل ذلك بأربعة أيام أن أسامة بن لادن والطالبان تلقوا تهديدًا بوقوع عمل عسكرى أمريكى ضدهم قبل شهرين من وقوع الهجمات على نيويورك وواشنطن.. وذلك يثير الاحتمال بأن بن لادن قد قام بضربة استباقية ردًا على ما رأى فيه تهديدات أمريكية. هل كان ذلك تكرارًا لـ«يوم العار» فى المحيط الهادئ قبل ٦٢ عامًا؟

لماذا كانت الولايات المتحدة بحاجة إلى مغامرة فى أوراسيا؟

فى ٩ سبتمبر ٢٠٠١ قدم إلى بوش مشروع توجيه رئاسى بشأن الأمن القومى يتضمن الخطوط الرئيسية لحملة عالمية لتحرك عسكرى ودبلوماسى ومخابراتى يستهدف منظمة القاعدة، يدعمه إنذار بالحرب، وتقول وكالة أنباء NBC: «كان المنتظر أن يوقع الرئيس بوش خططًا تفصيلية لحرب على القاعدة فى كل أنحاء العالم..ولكنه لم يجد الفرصة لذلك قبل وقوع الهجمات الإرهابية..» وكان الأمر الرئاسى على نحو ما عرفته وكالة NBC فى جوهره هو نفس خطة الحرب التى وضعت موضع التنفيذ بعد ١١ سبتمبر.. والأرجح أن الحكومة تمكنت من الرد السريع لأنه لم يكن عليها غير أن تنزع الخطط من «على الرف».

وأخيرًا، ذكرت شبكة BBC فى ١٨ سبتمبر ٢٠٠١ أن «مسئولين أمريكيين كبارًا ذكروا لنياز نايق، وزير خارجية باكستان الأسبق، فى منتصف يوليو أن التحرك العسكرى ضد أفغانستان سيقع فى منتصف أكتوبر.. وكان من رأى نياز أن واشنطن لن تتخلى عن حربها ضد أفغانستان حتى لو قامت طالبان على الفور بتسليم بن لادن».

فهل يمكن أن يقال أن أفغانستان تحولت إلى تراب ودمار انتقامًا لثلاثة آلاف أمريكى قتلهم أسامة؟ يصعب تصديق ذلك.. لكن الإدارة مقتنعة بأن الأمريكيين من السذاجة بحيث لا يستطيعون أن يتعاملوا مع سيناريو أكثر تعقيدًا من سيناريو السفاح المنفرد المختل العقل (يساعده فى هذه المرة أعوان أسطوريون) يصنع الشر لمجرد الاستمتاع به، لأنه يكرهنا، ولأننا أغنياء وأحرار وهو ليس كذلك. وقد تم اختيار أسامة على أسس جمالية ليكون هو الرمز المرعب لعملية غزو ودحر أفغانستان التى فكرنا فيها طويلاً، والتى كان التخطيط لها قد أعد قبل ٩/١١ بسنوات، وأعد مرة أخرى فى ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٠ عندما وضعت مجموعة كلينتون التى كانت تتهيأ لمغادرة البيت الأبيض، خطة لضرب «القاعدة» ردًا على الهجوم الذى تعرضت له السفينة الحربية «كول»، وقد قام ساندى بيرجر مستشار الأمن القومى لكلينتون بشخصه بإبلاغ الخطة لخليفته، ولكن كوندوليزا رايس، التى كانت لاتزال متأثرة بدورها كأحد مديرى شركة شيفرون تكساس، والتى لها واجبات خاصة تجاه باكستان وأوزبكستان تنكر الآن أنه أبلغها شيئًا من ذلك. وبعد انقضاء سنة ونصف السنة (١٢ أغسطس ٢٠٠٢) كتبت مجلة «تايم» بشجاعة تقريراً عن هذا النسيان الغريب.



وكل ما فعله أسامة، إذا كان هو وليس دولة بكاملها، هو أن وفر الصدمة اللازمة لتبدأ حرب الغزو، ولكن غزو ماذا؟ ما الذى يوجد فى أفغانستان البائسة المتربة يستحق الغزو؟ يرد زبينيو برجنسكى بدقة على هذا السؤال، وذلك فى دراسة قدمت فى ١٩٩٧ لمجلس العلاقات الخارجية بعنوان «رقعة الشطرنج الكبرى: التفوق الأمريكى وما يفرضه من ضرورات جيواستراتيجية :The Ground Chessboard: American Primacy and its Geostrategic Imperatives.

وكان برجنسكى البولندى المولد والمعتبر من الصقور، هو مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر، وفى الكتاب المذكور يعطى برجنسكى درسًا قصيرًا فى التاريخ. يقول: منذ أن بدأت القارات تتعامل فى المجال السياسى منذ ما يقرب من ٥٠٠ سنة، كانت أوراسيا مركز القوة فى العالم». وأوراسيا هى كل الأراضى الواقعة إلى الشرق من ألمانيا. وذلك يعنى روسيا، والشرق الأوسط، والصين، وأجزاء من الهند. ويسلم برجنسكى بأن روسيا والصين المجاورتين لآسيا الوسطى الغنية بالبترول، هما القوتان الرئيسيتان اللتان تهددان الهيمنة الأمريكية فى تلك المنطقة.

وهو يعتبر أن من الأمور المفروغ منها أن الولايات المتحدة يجب أن تسيطر على الجمهوريات السوفيتية السابقة فى آسيا الوسطى. والمعروفة لدى محبيها باسم «الستانات»: تركمانستان، وأوزبكستان، وطاجيكستان، وقرغيزستان. وكلها لها أهمية من وجهة نظر الأمن، والمطامع التاريخية لثلاثة على الأقل من أقرب جيرانها وأقواهم ـ روسيا وتركيا وإيران ـ وكذلك الصين التى تنتظر دورها. ويذكر برجنسكى أن استهلاك الطاقة فى العالم آخذ فى الزيادة، وبالتالى فإن من يسيطر على البترول والغاز فى بحر قزوين سوف يسيطر على الاقتصاد العالمى. وعند ذلك ينتقل برجنسكى غريزيًا إلى التبرير الأمريكى المضاد للاتجاه الامبراطورى. فيقول إننا لا نحتاج شيئًا، فى أى وقت، لأنفسنا، وإنما نريد منع الأشرار من الحصول على الطيبات التى يستطيعون بها أن يضروا الناس الطيبين. ويستنتج من ذلك أن مصلحة أمريكا الأساسية هى المساعدة على ضمان ألا تصل دولة (أخرى) بمفردها إلى السيطرة على ذلك الفضاء الجيوسياسى، وأن تتاح للمجتمع الدولى فرصة الوصول إليه ماليًا واقتصاديًا بلا عائق.

وبرجنسكى على بيِّنة تمامًا من أن القادة الأمريكيين يجهلون التاريخ والجغرافيا جهلاً مطبقًا، ولذا فهو يتمادى فى آرائه ويصل إلى حد الحديث عما يسميه «القدر الحتمى» رغم خطئه السياسى. وهو يذكر المجلس بالمساحة الشاسعة لأوراسيا. ويذكر أن ٧٥٪ من سكان العالم يعيشون فيها. وإذا لم أخطئ فى الحساب فمعنى ذلك أننا لا نسيطر حتى الآن إلا على ٢٥٪ من سكان العالم. ثم يقول: إن أوراسيا تمثل ٦٠٪ من الناتج القومى الإجمالى للعالم، وثلاثة أرباع مواد الطاقة المعروفة.

ومن الواضح أن الخطة الكبرى التى وضعها برجنسكى لعالمنا لقيت قبولاً لدى عصبة شينى ـ بوش. أما أمريكا الشركات التى تتلهف على الثروة المعدنية لأوراسيا فقد تبنت الخطة من البداية.

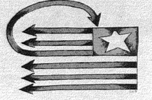


ويلخص نفيس أحمد الموقف بقوله: «لقد رأى برجنسكى أن إقرار وتعزيز وتوسيع الهيمنة العسكرية الأمريكية على أوراسيا من خلال آسيا الوسطى يتطلب إضفاء الطابع العسكرى الصريح والممتد زمنيًا على السياسة الخارجية، وأن يقترن ذلك بصناعة لم يسبق لها مثيل فى التأييد الداخلى وتوافق الرأى حول هذه الحملة لنشر الروح العسكرية. وأفغانستان هى البوابة المؤدية لكل هذه الثروات. فهل سنقاتل لنحصل عليها؟ وينبغى ألا ننسى أن الشعب الأمريكى لم يكن راغبًا فى القتال فى أى من الحربين العالميتين اللتين شهدهما القرن العشرون، ولكن الرئيس ويلسون قام بمناورة أدخلتنا فى الحرب الأولى، وقام الرئيس روزفلت بمناورة دفعت اليابانيين لتوجيه الضربة الأولى فى بيرل هاربور، مما دفعنا لدخول الحرب الثانية نتيجة لهجوم خارجى كاسح. وبرجنسكى يدرك هذا كله وهو فى سنة ١٩٩٧ ينظر إلى الأمام ـ كما ينظر إلى الوراء ـ «وبالإضافة إلى ذلك، فعندما تزداد أمريكا اتجاهًا لأن تصبح مجتمعًا متعدد الثقافات، فقد تجد من الأصعب تشكيل توافق فى الرأى حول قضايا السياسة الخارجية، إلا فى حالة تهديد خارجى مباشر كاسح وظاهر للعيان، وكانت تلك هى البندقية الرمزية التى أنتجت تلك السحابة السوداء من الدخان التى هومت فوق مانهاتن والبنتاجون.

ومنذ أيام الحرب الإيرانية العراقية انتشرت الأقاويل التى تصف الإسلام بأنه عقيدة إرهابية شيطانية تشجع الهجمات الانتحارية وينبغى أن نقول أن تلك أوصاف مخالفة للدين الإسلامى. وقد عرضت صورة أسامة بن لادن حتى يبدو متعصبًا للإسلام. وحتى يمكن تقديم هذا الشرير للعدالة (حيًا أو ميتًا) كان من اللازم أن تصبح أفغانستان، موضوع المباراة، مكانًا آمنًا ليس فقط للديمقراطية بل أيضًا لشركة «يونيون أويل أوف كاليفورنيا» التى كان مشروعها لإنشاء خط أنابيب يمتد من تركمنستان إلى أفغانستان إلى باكستان إلى ميناء كراتشى على المحيط الهندى، قد توقف فى ظل نظام الطالبان غير المستقر. أما الآن فإن مشروع خط الأنابيب قد عاد إلى الحياة بفضل تعيين العصبة الحاكمة أحد موظفى الشركة (وتسمى اختصارًا يونوكال) هو جون مارسكا مبعوثًا أمريكيًا لهذا البلد الديمقراطى الجديد الذى كان رئيسه الحالى حامد قرضاى أيضًا ـ وفقًا لما تقول به جريدة لوموند ـ موظفًا سابقًا فى شركة من الشركات التابعة ليونوكال. هل هى مؤامرة؟ بل هى مصادفة!

وبمجرد أن بدا أن أفغانستان





دخلت إلى الحظيرة. تحولت العصبة الحاكمة بصورة مفاجئة عن الاهتمام بأسامة، الذى كان تجسيدًا للشر، إلى الاهتمام بصدام. وذلك كان أمرًا يصعب تفسيره لأنه ليس هناك ما يربط بين العراق و٩/١١.. ولكن لحسن الحظ أن الدليل يجرى ابتداعه الآن. إلا أن تلك مهمة صعبة، ولا تساعد عليها الحكايات التى تنشرها الصحف عن ثروة العراق الهائلة من البترول التى يجب - لمصلحة العالم الحر - أن تعود السيطرة عليها إلى اتحادات الشركات (الكونسورتيوم) الأمريكية والأوروبية.

وعلى نحو ما تنبأ به برجنسكى. فإن «خطرًا خارجيًا مباشرًا وكاسحًا وظاهرًا للعيان، أتاح للرئيس أن يرقص رقصة الحرب أمام الكونجرس، ويصيح منتشيًا «إنها حرب طويلة الأمد!» وعند ذلك أعلن محورا للشر، غير متناسق الأعضاء، ينبغى مقاتلته، وبالرغم من أن الكونجرس لم يعطه تفويضًا رسميًا بإعلان الحرب فقد حصل على تصريح بتعقب أسامة الذى قد يكون الآن تسلل إلى العراق.

بوش والكلب الذى لم ينبح:

بعد ٩/١١ امتلأت وسائل الإعلام الأمريكية بالإدانة المتسرعة لـ«أصحاب نظرية المؤامرة» الذين لا وطنية لهم والذين يسهل على وسائل الإعلام عادة أن تضر بسمعتهم، لأنه من الأمور المفروغ منها أنه ليس ثمة مؤامرة فى الحياة الأمريكية. ومع ذلك، فقبل سنة أو نحوها من كان يتصور أن الجانب الأكبر من الشركات الأمريكية يتآمر مع مكاتب المحاسبة للتلاعب فى دفاترهم على الأقل منذ الفجر المشرق لعصر ريجان وإلغاء الضوابط والقيود.

ولاشك فى أن سلوك الرئيس جورج دبليو بوش فى ١١ سبتمبر يدعو إلى إثارة كثير من الشكوك غير الطبيعية. ولا أستطيع أن أتصور رئيسًا لدولة حديثة أخرى كان يمكن أن يستمر فى الوقوف أمام عدسات المصورين لالتقاط صور «دافئة» له وهو يستمع إلى تلميذة صغيرة تروى له حكايات عن عنزتها التى تربيها، بينما كانت الطائرات المخطوفة ترتطم بالمبانى الثلاثة الشهيرة، وبمقتضى الدستور، فإن بوش ليس مجرد رئيس للدولة، بل هو أيضًا القائد الأعلى للقوات المسلحة. والمعتاد فى مثل هذه الأوقات أن يتجه القائد الأعلى مباشرة إلى مقر القيادة، ويوجه العمليات ويتلقى آخر المعلومات. وهذا ما فعله بوش بالضبط أو لم يفعله وفقًا لما قال به ستان جوف، وهو ضابط متقاعد فى الجيش الأمريكى قام بتدريس العلوم السياسية فى قاعدة ويست بوينت. كتب جوف فى رسالة بعنوان «الدليل المزعوم حكاية كاذبة»: لست أدرى لماذا لا يسأل الناس أسئلة محددة للغاية عن تصرفات بوش وشركاه فى يوم وقوع الهجمات؟ فقد تم اختطاف أربع طائرات وأخرجت من خط طيرانها المقرر، وكل ذلك ظاهر على رادارات سلاح الجو الأمريكى.

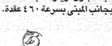
وبالمصادفة فإن جوف، كغيره من الخبراء العسكريين المندهشين، لا يستطيع أن يفهم لماذا لم ينفذ الأمر الحكومى الآلى المعتاد بشأن الإجراءات التى تتخذ فى حالة خطف طائرة. فبمجرد ما تنحرف إحدى الطائرات عن خط طيرانها، تحلق طائرات مقاتلة فى الجو لتتحرى السبب. وهذا بحكم القانون ولا يتطلب موافقة من الرئيس، فهذه الموافقة لا تكون مطلوبة إلا لاتخاذ قرار بضرب الطائرة وإسقاطها. ويقول جوف صراحة: «لقد تم اختطاف الطائرات بين الساعة ٧:٤٥ و٨:١٠ صباحًا. فمن الذى أبلغ بذلك؟ هذه واقعة لم يسبق لها مثيل. ومع ذلك فإن الرئيس لم يبلغ بها، وذهب إلى مدرسة ابتدائية فى فلوريدا ليستمع إلى الأطفال وهم يقرأون دروسهم.

وحوالى الساعة ٨:١٥ صباحًا كان من الواضح تمامًا أن شيئًا خطيرًا قد حدث. وكان الرئيس يصافح المعلمين سعيدًا. وبحلول الساعة ٨:٤٥ عندما اصطدمت طائرة أمريكان إيرلينز فى رحلتها رقم ١١ بالبرج الشمالى، كان بوش يقف مع الأطفال لالتقاط صورته. وكان من الواضح أن أربع طائرات قد اختطفت فى نفس الوقت، وأن إحداها غيَّرت ارتفاعها بسرعة لتصطدم بالبرجين التوأمين، ومع ذلك لم يقم أحد بإخطار الرئيس الأعلى الأسمى للقوات المسلحة.

ومن الواضح أن أحدًا لم يرسل بطائرات سلاح الجو الاعتراضية أيضًا. وفى الساعة ٩:٠٣ اصطدمت الطائرة ١٧٥ بالبرج الجنوبى. وفى الساعة ٩:٠٥ يهمس أندرو كارد رئيس الأركان فى أذن بوش الذى يتجهم لوهلة قصيرة، حسب ما ذكره مندوبو الصحف، فهل ألغى زيارة المدرسة وعقد اجتماعًا طارئًا؟ لا.. بل استأنف الاستماع إلى تلاميذ الصف الثانى.. واستمرت المهزلة حتى بعد أن غيَّرت طائرة أمريكان ايرلينز فى رحلتها رقم ٧٧ اتجاهها كلية ودارت حول أوهايو وانطلقت فى اتجاه واشنطن العاصمة.

هل أصدر الرئيس تعليماته للجنرال كارد بأن تحلق طائرات سلاح الطيران فى الجو؟ لا.. وبعد ٢٥ دقيقة حاسمة أخرى، فإنه يتنازل بالإدلاء ببيان عام يبلغ فيه الولايات المتحدة بما سبق أن كانت قد رأته بعينيها.. إنه قد حدث هجوم على مركز التجارة العالمى. وكانت هناك طائرة مخطوفة تحلق متجهة إلى واشنطن، فهل كانت التعليمات قد صدرت لسلاح الطيران حتى ذلك الوقت للدفاع عن أى شىء؟ كلا.

وفى الساعة ٩:٣٥ تغير هذه الطائرة مسارها وتدور ٣٦٠ درجة فوق البنتاجون، وأجهزة الرادار تتبعها طوال الوقت ولا يتم إخلاء البنتاجون، ولا تظهر حتى هذا الوقت أية طائرات من سلاح الطيران فى الجو فوق مدينتى الإسكندرية وواشنطن. ثم تأتى أغرب الحكايات: فهم يريدوننا أن نصدق أن قائدًا للطائرة قد تدرب فى مدرسة فلوريدا للقفز بالباراشوت للقيام ببعض الألعاب المدنية، قام بهبوط حلزونى محسوب بدقة بحيث انخفض مسافة السبعة آلاف قدم الأخيرة فى دقيقتين ونصف، وأصبحت الطائرة على ارتفاع منخفض للغاية بحيث قطعت أسلاك الكهرباء عبر الشارع أمام البنتاجون، ويقودها بدقة تامة بحيث تصطدم بجانب المبنى بسرعة ٤٦٠ عقدة.



وعندما بدأت نظرية إجادة الطيران إلى هذه الدرجة فى مدرسة لتعليم القفز بالباراشوت تفقد مصداقيتها، أضيف القول بأن الذين قادوا الطائرات حصلوا على تدريب إضافى على محاكى للطيران.. وهذا يشبه القول بأنك دربت ابنتك الصغيرة للقيام بأول رحلة لها على الطريق فى ساعة الذروة بأن اشتريت لها لعبة قيادة بالفيديو.. إن هناك قصة ملفقة بشأن هذه الأحداث.

ثم هناك المزيد فكلما أوغلنا فى القصة زاد الغموض، فاللامبالاة التى أبداها الجنرال ريتشارد مايرز، نائب رئيس الأركان المشتركة تدعو إلى الحيرة بقدر ما يدعو موقف الرئيس من إدارة الأمور على الوجه المعتاد. كان مايرز فى مبنى الكابيتول يدردش مع السيناتور ماكس كليلاند، وكتب فيما بعد أحد ضباط الصف فى مجلة القوات المسلحة يصف ما رآه من مايرز عند وجوده فى الكابيتول يقول أنه عندما كان فى مكتب خارجى رأى تقريرًا فى التليفزيون يبين أن طائرة قد اصطدمت بمركز التجارة العالمى. وقال مايرز إنهم تصوروا أنها طائرة صغيرة أو شىء من هذا القبيل.. ومن ثم استأنف الرجلان المكالمة التى كانت دائرة بينهما.

وأيًا كان الموضوع الذى تكلم فيه مايرز وكليلاند (اعتمادات أكثر للعسكريين؟) فلابد أنه كان بالغ الأهمية، لأنه أثناء الدردشة بينهما - كما ذكرت المجلة - اصطدمت طائرة نفاثة أخرى بالبرج الثانى. وقال مايرز «لم يبلغنا أحد بذلك. ولكننا عندما خرجنا، كان الأمر واضحًا. ثم قال أحد الأشخاص فى ذلك الوقت بالذات إن البنتاجون تعرض للضرب. وفى النهاية، وضع أحدهم تليفونًا محمولاً فى يد مايرز، وكأنما بفعل السحر كان على الخط القائد العام لسلاحنا الجوى فى الوقت الذى كانت مهمة خاطفى الطائرات قد تمت بنجاح، باستثناء الطائرة التى سقطت فى بنسلفانيا. وفى شهادة أدلى بها أمام لجنة سلاح الطيران فى مجلس الشيوخ قال مايرز إنه يعتقد أنه إلى أن تمت المكالمة بالتليفون المحمول بينه وبين نوراد «كان القرار قد اتخذ بتحليق الطائرات فى الجو». وكانت الساعة عندئذ ٩:٤٠ صباحًا. أى بعد ساعة وعشرين دقيقة من معرفة المراقبين الجويين بأن الطائرة رقم ١١ قد اختطفت، وبعد ٥٠ دقيقة من تدمير البرج الشمالى.

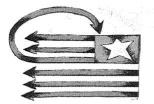
ولا أعتقد أن جوف كان متشككًا بغير موجب عندما تساءل عن الشخص والسبب الذى منع سلاح الطيران من اتباع التدابير المعتادة، بدلاً من الانتظار لمدة ساعة وعشرين دقيقة حتى وقع الضرر، بعد ذلك فقط حلقت المقاتلات فى الجو. من الواضح أن شخصًا ما أصدر الاوامر لسلاح الطيران بألا يتحرك لاعتراض تلك الطائرات المختطفة إلى أن يتم.. ماذا؟

وفى يوم ٢٢ يناير ٢٠٠٢ لخص بارى زويكر المحلل السياسى الكندى فى محطة CBC-TV الموقف بقوله: «فى ذلك الصباح لم تستجب أى من الطائرات الاعتراضية فى الوقت المناسب لأقصى حالات الانتباه. وهذا يشمل أسراب أندروز التى لا تبعد عن البيت الأبيض بأكثر من ١٢ ميلاً.. وأيا كان تفسير هذا الفشل المدوى، لم تأت أخبار - فى حدود علمى - عن توقيع جزاءات. وهذا يزيد من ضعف نظرية عدم الكفاءة». فعدم الكفاءة يواجه عادة بالعقاب. وهذا يدفعنى إلى التساؤل عما إذا كانت هناك أوامر بـ«البقاء على الأرض»؟ وفى ٢٩ أغسطس ٢٠٠٢ ذكرت محطة BBC أنه فى يوم ٩/١١ لم تكن هناك غير أربع مقاتلات فى حالة استعداد فى شمال شرق الولايات المتحدة. مؤامرة؟ مصادفة؟ خطأ؟

من الطريف أن نلاحظ أنه كثيرًا ما حدثت فى تاريخنا، عندما تقع الكوارث، أن تكون حجة عدم الكفاءة أفضل من.... أجل، فهناك أشياء أسوأ، وبعد واقعة بيرل هاربور، بدأ الكونجرس يتحرى السبب فى أن القائدين العسكريين فى هاواى، الجنرال شورت والأميرال كيمبل، لم يتوقعا الهجوم اليابانى، ولكن الرئيس روزفلت أوقف ذلك التحقيق عن طريق القيام بتحقيق أجراه بنفسه، وقد أدين شورت وكيمبل بعدم الكفاءة، ومازالت «الحقيقة» خافية حتى اليوم.



فى وقت مبكر من السنة قال لنا البعض أنه سيكون ثمة زائرون غير مرغوب فيهم فى سماواتنا فى وقت ما من سبتمبر ٢٠٠١، ولكن الحكومة لم تبلغنا بذلك ولم تقم بحمايتنا، وعلى الرغم من التحذيرات التى تلقيناها فى أول مايو من الرئيس بوتين ومن الرئيس مبارك، ومن الموساد، وحتى من عناصر فى شرطة المباحث لدينا FBI



أسلحـــــة الدمـــــار
الشـــامل الإعـــلامـيـــة:

واقعة بيرل هاربور درست دراسة واسعة، أما أحداث ١١ سبتمبر فيبدو أنه لن يدور تحقيق بشأنها إذا ترك الأمر لجورج بوش. ففي يناير ٢٠٠٢ ذكرت محطة CNN أن «بوش شخصيًا طلب من توم داشيل زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ تضييق نطاق تحقيقات الكونجرس في أحداث ١١ سبتمبر.. وقد قدم هذا الطلب في لقاء خاص مع زعماء الكونجرس.. وقالت المصادر أن الرئيس هو الذي بدأ الحديث في الموضوع.. وطلب بوش ألا يطلع أحد غير لجنتي المخابرات في مجلسي النواب والشيوخ على جوانب الضعف المحتملة لدى الهيئات الفيدرالية والتي سمحت بحدوث هجمات الإرهابيين، وألا يمتد التحقيق ليشمل جوانب أوسع من ذلك.. وقد جاءت مناقشة يوم الثلاثاء بعد واحدة من المكالمات القليلة التي أجراها ديك تشيني نائب الرئيس يوم الجمعة السابق وقدم فيها نفس الطلب..».

وكان العذر المقدم ـ وفق ما ذكره داشيل ـ هو أن «المصادر والأشخاص سينشغلون عن الحرب على الإرهاب في حالة حدوث تحقيق أوسع نطاقًا. وهكذا، فلأسباب يجب ألا نعرفها، ينبغي إلقاء اللوم في ذلك الإخفاق على عدم الكفاءة. وأما إذا لم تكن المسألة راجعة إلى عدم الكفاءة بل إلى أوامر بعدم التحليق، فذلك شيء لا يجوز لنا أن نتصدى له. ومن المؤكد أن مرور ساعة كاملة وعشرين دقيقة دون أن تنطلق الطائرات المقاتلة إلى الجو، لا يمكن أن يكون راجعًا إلى عدم الكفاءة في كل وحدات سلاح الطيران على طول الساحل الشرقي. لقد طلب إيقاف الإجراءات المعتادة الإلزامية وعدم تطبيقها.

وفي غضون ذلك كلفت وسائل الإعلام بمهمتها المعتادة وهي إثارة الرأي العام ضد بن لادن، دون أن يكون هناك دليل قاطع على أنه مدبر العملية. وهذه الحملات الدعائية كثيرًا ما تتشابه مع الحيل التي يلجأ إليها الساحر عند تقديم ألعابه: فبينما تنصب أنظار المشاهدين على الألوان البراقة لمناديله الحريرية في إحدى اليدين يكون قد وضع الأرنب باليد الأخرى في جيب أحد المتفرجين. وقد أكدوا لنا باستعجال أن العائلة الكبيرة التي ينتمي إليها أسامة وصاحبة الثروة الهائلة قد قطعت علاقتها به، كما فعلت الأسرة المالكة في بلده الأصلي: المملكة العربية السعودية، وأقسمت الـCIA وقد وضعت يدها على قلبها بأن أسامة لم يكن يعمل لحسابها في الحرب ضد الاحتلال السوفيتي لأفغانستان. وأخيرًا، فإن الشائعات التي ترددت عن أن أسرة بوش قد استفادت بأي شكل من مشاركتها لأسرة بن لادن على امتداد سنوات طويلة كانت مجرد خطأ في الاختيار.. وماذا يمكن أن تكون غير ذلك؟



لكن مشاركة بوش الصغير ترجع إلى سنة ١٩٧٩ على الأقل، عندما أدت محاولته الفاشلة الأولى لأن يصبح أحد اللاعبين في رابطة البترول الكبيرة في تكساس، إلى التقائه برجل يدعى جيمس باث من هيوستون، وهو من أصدقاء الأسرة، وأعطى بوش الصغير ٥٠ ألف دولار ليشتري بها حصة تبلغ ٥ بالمائة في مؤسسة بوش المسماة آربوستو إنرجي Arbusto Energy. وفي هذا الوقت، كما يقول واين ماتسن (كتاب «في تلك الأيام» الذي يحمل رقم ٢٥ بين مطبوعات معهد الشئون العامة) كان باث هو رجل الأعمال الأمريكي الوحيد الذي يمثل سالم بن لادن، رئيس الأسرة وشقيق (واحد من ١٧) لأسامة بن لادن.. وفي بيان صدر بعد وقت قصير من هجمات ١١ سبتمبر، أنكر البيت الأبيض بشدة تلك العلاقة مؤكدًا أن باث كان يستثمر أمواله الخاصة وليست أموال سالم بن لادن في شركة أربوستو. وفي أقوال متضاربة، أنكر بوش في البداية أنه عرف باث في أي وقت، ثم اعترف بحصته في آربوستو وبأنه كان يعرف أن باث يمثل مصالح سعودية.. وبعد عدة تحولات تغير اسم آربوستو وظهرت في ١٩٨٦ تحت اسم شركة هاركن للطاقة Harken Energy Corporation.

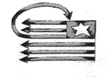
وكان وراء بوش الصغير بوش الكبير، الذي عمل مقابل مبلغ كبير لصالح مجموعة كارلايل Carlyle Group التي لها رؤوس أموال في عدد لا يقل عن ١٦٤ شركة في أنحاء العالم، مما أثار إعجاب تلك الجريدة الصديقة للأغنياء، جريدة «وول ستريت جورنال» التي ذكرت في وقت مبكر يرجع إلى ٢٧ سبتمبر ٢٠٠١ أنه: «إذا عمدت الولايات المتحدة إلى زيادة إنفاقها العسكري سعيًا لإيقاف أنشطة أسامة بن لادن الإرهابية المزعومة، فقد يكون هناك مستفيد واحد غير متوقع: هم المستثمرون في مؤسسة أنشأتها مجموعة كارلايل، وهي بنك تجاري له اتصالات قوية في واشنطن ومتخصص في شراء Buyoutes الشركات المشتغلة بشئون الدفاع والطيران.. وأسامة هو واحد من أكثر من ٥٠ من أبناء محمد بن لادن الذي أنشأ أعمال الأسرة والتي بلغت ٥ مليارات دولار».

ولكن بوش، الأب والابن، في السعي وراء الثروة والمناصب، لا يخجلان من شيء، أو لعلهما يتبعان المنطق السليم. وهناك من يوحي بأنهما يقفان دون البحث في مدى اتصال بن لادن بالإرهاب. وقد نشرت وكالة الأنباء الفرنسية في ٤ نوفمبر ٢٠٠١ أن «رجال المباحث FBI الذين كانوا يتتبعون أقارب الإرهابي المشتبه فيه أسامة والمنحدر من أصول سعودية.. قد طُلب منهم ألا يواصلوا عملهم بعد وقت قصير من جلوس جورج دبليو بوش على مقعد الرئاسة.. ووفقًا للنشرة المسائية التي أذاعتها محطة BBC T.V (٦ نوفمبر ٢٠٠١).. بعد أيام قليلة فقط من انطلاق خاطفي الطائرات متجهين إلى البرجين التوءمين، تسللت طائرة شارتر خاصة من نفس المطار حاملة ١١ من أفراد أسرة أسامة متجهة إلى المملكة السعودية. ولم يكن ذلك داعيًا لقلق البيت الأبيض، إذ أن خطه الرسمي هو أن «آل بن لادن هم فوق الشبهات». وتلخص مقالة «فوق القانون» (جرين برس، ١٤ فبراير ٢٠٠٢) الموقف بقولها: «لقد كنا نواجه ما يبدو أنه أكبر فشل للعاملين في المخابرات منذ واقعة بيرل هاربور، ولكن يؤخذ مما نعرفه الآن أن الأمر لم يكن فشلاً، بل كان توجيهات». صدق؟ كذب؟ إن جورج بوش الابن سوف يقسم على أن يقول الحق عند استجوابه في الموضوع. فهل سنسمع من يسأل: «ما هو التوجيه؟ ومن أين يصدر؟».

وبالرغم من أن الولايات المتحدة كانت تشير طوال السنوات إلى أسامة على أنه إرهابي خطير، لم تبذل أية محاولة جادة قبل ٩/١١ لتقديمه للمحاكمة «حيًا أو ميتًا، بريئًا أم مذنبًا» على نحو ما يطالب به قانون الغابة المطبق في تكساس. وقد سلمت الخطة التي وصفها كلينتون للتحرك في هذا الصدد إلى كوندوليزا رايس على يد ساندي بيرجر، كما تذكرون، ولكنها تقول إنها لم تتسلمها.

وفي وقت سابق يرجع إلى شهر مارس ١٩٩٦، عندما كان أسامة في السودان، عرض اللواء الفاتح عروة وزير الدفاع السوداني في ذلك الوقت إبعاد بن لادن. وقد نشرت الواشنطن بوست (٣ أكتوبر ٢٠٠١) أن عروة قال إنه يسعده أن يراقب بن لادن بدقة لحساب الولايات المتحدة. ولكن إذا لم يكن هذا كافيًا فإن الحكومة على استعداد للقبض عليه وتسليمه لها.. وقد قال المسئولون الأمريكيون.. يكفي أن تطلبوا منه مغادرة البلاد. إلا أنه لا يجوز أن يذهب إلى الصومال» حيث كانت قد نسبت إليه عملية الهجوم الناجحة التي قامت بها «القاعدة» على القوات الأمريكية في ١٩٩٣ والتي قتل فيها ١٨ جنديًا من القناصة. وقد قال عروة في مقابلة صحفية: «إننا قلنا إنه سيذهب إلى أفغانستان، وقال المسئولون الأمريكيون «فليذهب».

وفي ١٩٩٦ طرد السودان أسامة و٣٠٠ من أعوانه. وبعد سنتين، واصلت إدارة كلينتون التراث الأمريكي، فبدلاً من تقديم الشكر للسودان على عرضه تسليم أسامة، شنت الولايات المتحدة هجومًا بالصواريخ على مصنع «الشفا» للأدوية بدعوى أن السودان يؤوي أتباع أسامة بن لادن الإرهابيين. وأنهم كانوا يصنعون أسلحة كيماوية وبيولوجية، في حين لم يكن المصنع ينتج شيئًا غير المواد اللازمة للتطعيم لحساب الأمم المتحدة.



وبمجرد أن بدا أن أفغانستان دخلت إلى الحظيرة. تحولت العصبة الحاكمة بصورة مفاجئة عن الاهتمام بأسامة، الذي كان تجسيداً للشر، إلى الاهتمام بصدام. وذلك كان أمراً يصعب تفسيره لأنه ليس هناك ما يربط بين العراق و٩/١١.. ولكن لحسن الحظ أن الدليل يجري ابتداعه الآن



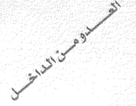
عـــالم آمن من أجل الســـلام
وأنابيب البــــتـــرول:

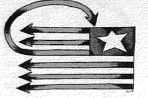
لقد شاهدت بوش وتشيني على شبكة CNN عند إلقاء الخطاب الخاص بمحور الشر وعند إعلان «الحرب التي ستستمر طويلاً». وقد وجه الاتهام إلى العراق وإيران وكوريا الشمالية باعتبارها الأعداء التي سينزل بها العقاب. لأنها تؤوي أو لا تؤوي الإرهابيين الذين قد يدمروننا أو لا يدمروننا أثناء الليل. ولذا ينبغي أن نبدأ نحن بالضرب عندما يروق لنا ذلك. وهكذا أعلنا «الحرب على الإرهاب» ـ وهو اسم مجرد، ومن ثم لا يمكن خوض حرب عليه مطلقًا، لأن الحرب تعلنها دولة على دولة أخرى. وبطبيعة الحال كانت هناك أفغانستان التي لم ترتكب إثمًا، والتي سويت بالأرض من ارتفاع كبير. ولكن ماذا يهم الضرر عندما يكون العدو هو تجسيد لكل ألوان الشر على نحو ما تذكر مجلة تايم وجريدة نيويورك تايمز وشبكات التليفزيون؟



وقد ثبت فيما بعد أن غزو أفغانستان لم تكن له صلة بأسامة، وإنما كان أسامة مجرد ذريعة لاستبدال الطالبان بحكومة أكثر استقرارًا تستطيع أن تسمح لشركة Union Oil of California بمد خط الأنابيب الذي يحقق الأرباح لعصبة شيني بوش ضمن أطراف أخرى.

هل تريدون معرفة خلفية هذه الأحداث؟ إن مقر رئاسة شركة يونوكال، كما هو المتوقع، قائم في تكساس. وفي ديسمبر ١٩٩٧ دعي ممثلو طالبان إلى اجتماع في شوجرلاند بتكساس. وفي ذلك الوقت كانت شركة يونوكال قد بدأت بالفعل في تدريب بعض المختصين الأفغان على إنشاء خط الأنابيب، بموافقة الحكومة الأمريكية. وقد ذكرت محطة BBC (٤ ديسمبر١٩٩٧) أن «متحدثًا باسم شركة يونوكال ذكر أن من المتوقع أن يقضي رجال الطالبان بضعة أيام في المقر الرئيسي للشركة (في تكساس).. وأن مراسلاً محليًا للمحطة يقول إن اقتراح إنشاء خط للأنابيب عبر أفغانستان هو جزء من مشروع دولي للاستفادة من تنمية موارد الطاقة الغنية في بحر قزوين». وذكرت





وكالة أنباء Inter Press (IPS) أن «بعض رجال الأعمال الغربيين يعملون على تحسين علاقاتهم مع الطالبان، بالرغم من لجوء تلك الجماعة بصورة منتظمة إلى أعمال الإرهاب والاغتيال والخطف ونشر الفقر». وذكرت CNN (٦ أكتوبر١٩٩٦) أن «الولايات المتحدة تريد إقامة علاقات طيبة مع الطالبان ولكنها لا تستطيع أن تعلن تأييدها لهم بينما يقومون بقمع المرأة وحرمانها من حقوقها».

وكانت جماعة الطالبان، وهى أقوى تنظيمًا مما يشاع عنها، قد استعانت بخدمات موظفة فى العلاقات العامة تدعى ليلى هيلمز، وهى ابنة أخت ريتشارد هيلمز المدير السابق للـ CIA. وفى أكتوبر ١٩٩٦ نشرت جريدة «فرانكفورتر رونشاو» أن شركة يونوكال حصلت على الموافقة من المسيطرين الجدد على السلطة فى كابول لإنشاء خط لأنابيب البترول يمتد من تركمنستان عبر أفغانستان إلى باكستان...» وكان هذا انتصارًا حقيقيًا ليونوكال، وكذلك للمرشحين الآخرين لإنشاء خطوط الأنابيب، ومن بينهم شركة شيفرون التى كانت كوندوليزا رايس من موظفيها فى السابق. وبالرغم من أن الطالبان كانت معروفة بالفعل بجرائمها الخطيرة ضد البشرية فإن جريدة «وول ستريت جورنال» عندما شمت رائحة المشروع المربح الكبير كتبت بجسارة تقول: «سواء شئنا أم أبينا، فإن الطالبان هى القادرة على تحقيق السلام فى أفغانستان فى هذه اللحظة من التاريخ». ثم قفزت النيويورك تايمز (٢٦ مايو ١٩٩٧) إلى مركبة خط الأنابيب فكتبت تقول: «إن حكومة كلينتون أخذت بالرأى القائل بأن انتصار الطالبان سوف يجد قوة موازنة لإيران.. ويفتح الباب أمام سبل جديدة للتجارة يمكن أن تضعف نفوذ روسيا وإيران فى المنطقة».

ولكن بحلول عام ١٩٩٩ كان من الواضح أن الطالبان لا يمكن أن توفر لنا الأمن الذى نحتاجه لحماية خطوط أنابيبنا المعرضة للأخطار. وأدى ظهور أسامة على المسرح كمقاتل من أجل الله إلى تغيير الموقف. وبدأ إنشاء تحالفات جديدة. ولم تلبث إدارة بوش أن تبنت فكرة غزو أفغانستان. وقد كتب فردريك ستار رئيس «معهد آسيا الوسطى بجامعة جون هوبكنز» فى الواشنطن بوست (١٩ ديسمبر ٢٠٠٠) يقول: لقد بدأت الولايات المتحدة بهدوء فى الوقوف إلى جانب من يدعون فى الحكومة الروسية إلى القيام بعمل عسكرى ضد أفغانستان وأنها تناقش فكرة شن غارة جديدة للقضاء على بن لادن».

وبالرغم من أننا قمنا بدعاية كبيرة للأخذ بالثأر من ذلك المتعصب الدينى السادى المجنون الذى قتل ٣٠٠٠ مواطن أمريكى، لم تكد تلك «الحرب» تبدأ حتى هبط الاهتمام بأسامة، وعدنا إلى الاهتمام بخط أنابيب يونوكال الذى أصبح الآن مشروعًا قابلاً للتنفيذ. وعلى ضوء ما نعرفه اليوم، يرجح أن العصبة الحاكمة لم تكن ستسعى للقبض على أسامة حيًا، إذ أن لديه حكايات يرويها. وقد أصبح من أفضل النمر التى يلعبها وزير الدفاع دونالد رامسفيلد الآن أن يقول: «أين هو؟ فى مكان ما؟ هنا؟ هناك؟ فى مكان ما؟ من يدرى؟» ولا نأخذ منه غير التساؤلات. ولا بد أنه سعيد الآن - ومندهش - لكون وسائل الإعلام قد قبلت القصة الشاذة القائلة بأنه إذا كان أسامة حيًا فإنه سيكون باقيًا فى أفغانستان، فى انتظار القبض عليه بدلاً من أن يكون مقيمًا فى قصر مريح فى جاكارتا المتعاطفة مع أسامة والتى تقع على مسافة ٢٠٠٠ ميل إلى الشرق ويسهل الوصول إليها بالسجاد الطائر رقم ١.



وقد لاحظ كثير من المعلقين الذين تقدم بهم العمر مدى التشابه بين ما كان يقوله هتلر وما تقوله عصبتنا الحاكمة وهى تهدد أولاً إحدى الدول ثم تهدد الأخرى لأنها تؤوى الإرهابيين. وصحيح أن هتلر كان يميل لأن يتظاهر بأنه الطرف المعتدى عليه - أو المعرض للاعتداء - قبل أن يضرب ضربته. ولكن هتلر كان له أسلاف عديدون ليس أقلهم شأنًا «روما الإمبراطورية».

وابتداءً من الأول من أغسطس ٢٠٠٢، كانت بالونات الاختبار تنطلق فى كل مكان فوق واشنطن حتى يعتاد الرأى العام العالمى على فكرة أن «بوش أفغانستان» كسب انتصارًا شبيهًا بانتصار أبيه «بوش الخليج العربى» وأن بوش الصغير يتلهف الآن لأن يضيف إلى أمجاده العراق وبابل. وقد سقطت هذه البالونات على أوروبا والعالم العربى كأثقال من رصاص. ولكن شيئًا جديدًا أضيف إلى الأساليب الرومانية الهتلرية، وهو القول «إنهم يهددوننا، فلا بد لنا من أن نضربهم أولاً». وعلى ذلك أصبح الجميع الآن فى العراء. وكتبت الإنترناشونال هيرالد تريبيون فى أغسطس٢٠٠٢ «لقد بدأ تسريب الأنباء فى ٥ يوليو، عندما وصفت النيويورك تايمز خطة مؤقتة للبنتاجون يقال إنها معدة للغزو تشارك فيها قوة أمريكية تصل إلى ٢٥٠ ألف جندى، تقوم بمهاجمة العراق من الشمال والجنوب والغرب. وفى ١٠ يوليو ذكرت التايمز أن الأردن قد يستخدم كقاعدة للغزو. وذكرت الواشنطن بوست فى ٢٨ يوليو أن «كثيرًا من العسكريين الأمريكيين يرون أن صدام حسين لا يمثل خطرًا مباشرًا.. » وأنه ينبغى الإبقاء على الوضع الحالى. وبالمصادفة، فإن هذا هو نوع الحوار الذى كان الآباء المؤسسون يرون أنه يجب أن يدور باسمنا نحن الشعب فى الكونجرس وليس بين البيروقراطيين العسكريين، ولكن هذا النوع من المناقشة قد حرمنا نحن منه منذ أمد طويل.

وهناك نغمة منعشة تعرف الآن بطريقة لم يكن أحد يتصورها فى روما الإمبراطورية: وهى الاعتراف ببساطة بأننا نلجأ إلى الاستفزاز من وقت لآخر. فالتريبيون تواصل القول: «لقد هدد دونالد رامسفيلد بأن يودع السجن أى شخص يتبين أنه كان وراء تسريب الأنباء». ولكن أحد جنرالات الجيش المتقاعدين، فريد فيرنار، يرى أن عمليات التسريب متعمدة. وقد ذكر مؤخرًا «لعلنا بدأنا فى تنفيذ خطة. فهل نحن بصدد عملية سيكلوجية هدفها دفع العراق إلى عمل شىء يكون مبررًا لهجوم تقوم به الولايات المتحدة أم لإلزامه بتقديم تنازلات؟ ولابد أن هناك من يعرف».

وفى موضع آخر من هذا العدد الطريف من أعداد الهيرالد تريبيون يكتب وليم ايفاف الحكيم: «هناك مناقشة ثانية دائرة فى واشنطن بصدد ما إذا كان ينبغى أن تقوم بهجوم مفاجئ على إيران لتدمير المفاعل النووى الذى يجرى إنشاؤه بمساعدة الروس، والخاضع لتفتيش الوكالة الدولية للطاقة الذرية فى نطاق معاهدة عدم الانتشار النووى، وهى المعاهدة التى وقعتها إيران.. وليست هناك حكومة أخرى يمكن أن تؤيد خطوة كهذه، فيما عدا حكومة إسرائيل التى ستفعل ذلك، لا لأنها تتوقع أن تتعرض لهجوم من جانب إيران، بل لأنها - ولديها مبرراتها - تعارض وجود أية قدرة نووية لدى أية حكومة إسلامية.

الدول المتهمة وطبول الانتقام:

من بين كل أعداء الحريات العامة، ربما تكون الحرب هى أخطرها، لأنها تشمل وتولد جرثومة كل الأخطار الأخرى. وهى باعتبارها الغاية التى تنشأ من أجلها الجيوش، تشجع على الاستدانة وفرض الضرائب، وهى الأدوات المعروفة لإخضاع الكثيرين لسيطرة القلة. وفى ظل الحرب أيضًا تتسع السلطات الاستثنائية للأجهزة التنفيذية.. وتضاف كل وسائل التأثير على العقول إلى وسائل إخضاع قوة الشعب.. وهذا ما حذرنا منه جيمس ماديسون فى فجر وجود جمهوريتنا.

وبعد ١١/٩ وبفضل «سيطرة القلة» التزم الكونجرس والميديا الصمت بينما تعمل السلطة التنفيذية، عن طريق البروباجندا واستطلاعات الرأى الموجهة، للتأثير على الذهن العام من خلال مراكز لم يكن فى الوسع تصورها من قبل مثل وزارة الأمن الداخلى (وهى وزارة جديدة ستضاف إلى وزارة الدفاع القائمة) كما وجهت الدعوة إلى ٤ بالمائة من السكان مؤخرًا للانضمام إلى هيئة TIPS وهى شبكة من الجواسيس المدنيين هدفها الإبلاغ عن أى شخص يبدو مريبًا.. أو يعترض على ما تفعله السلطة التنفيذية فى الداخل أو الخارج.

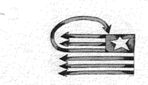


وبالرغم من أن كل دولة تعرف - إذا توافرت لها الوسائل والإرادة - كيف تحمى نفسها من البلطجية من النوع الذى جلب لنا أحداث ١١/٩، فإن الحرب ليست خيارًا مطروحًا أمام الحكومات، فالحرب تشنها الدول ولا تشن على عصابات لا جذور لها. أنت تحدد ثمنًا لرؤوس أعضائها وتتعقبهم حيثما كانوا. وفى السنوات الأخيرة كانت إيطاليا تفعل ذلك مع أعضاء المافيا الصقليين، ولكن لم يقترح أحد حتى الآن استخدام الطائرات فى قصف باليرمو.

غير أن عصبة شينى - بوش تريد حربًا للسيطرة على أفغانستان، وإنشاء خط للأنابيب، والتحكم فى بترول ستانات أوراسيا لصالح شركائها فى الأعمال، وكذلك لإنزال أكبر قدر من الدمار بالعراق وإيران بدعوى أن هذين البلدين الشريرين ربما ينشران فوق حقول القمح الذهبى لدينا بودرة الجمرة الخبيثة أو شيئًا كهذا.

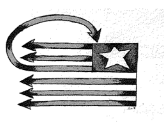
وقد كانت الميديا دائمًا ضعيفة فى التحليل، وهى الآن تزداد لهاثًا وتخبطًا. وعلى شبكة CNN، حتى رجل ذكى مثل جيم كلانسى فقد أعصابه عندما حاول أحد الأكاديميين الهنود أن يذكر أن العراق كان فى يوم من الأيام حليفنا و«صديقنا» عندما كان يحارب ضد عدونا الشيطانى إيران، عند ذلك قالت كلانسى «لا مكان هنا لهذا الحديث عن المؤامرة». ومن الواضح أن «حديث المؤامرة» هو الآن طريق مختصر إلى الحقيقة التى لا يريد أن يتحدث عنها أحد.

ومنذ شهر أغسطس، كان هناك توافق متزايد فى الرأى على الأقل بين رجال الاقتصاد لأنه بالنظر إلى الدين الوطنى الهائل (نحن نقترض اثنين من مليارات الدولارات كل يوم حتى تتمكن الحكومة من أداء أعمالها العادية) وبالنظر إلى النقص الشديد فى الوعاء الضريبى الذى أقدمت عليه العصبة الحاكمة حتى يستفيد الواحد فى المائة الذين يملكون الجانب الأكبر من الثروة الوطنية، ليس ثمة سبيل نستطيع أن نحصل منه على المليارات اللازمة لتدمير العراق فى «حرب طويلة الأمد» أو حتى حرب قصيرة المدى، بينما تتخذ معظم دول أوروبا موقفًا معارضًا لنا، وقد دفعت ألمانيا واليابان بعض تكاليف حرب الخليج على كره منها وتشاجرت اليابان معنا فى آخر



طلب بوش ألا يطلع أحد غير لجنتى المخابرات فى مجلسى النواب والشيوخ على جوانب الضعف المحتملة لدى الهيئات الفيدرالية والتى سمحت بحدوث هجمات الإرهابيين، وألا يمتد التحقيق ليشمل جوانب أوسع من ذلك





وتشاجرت اليابان معنا فى آخر لحظة حول سعر الصرف فى وقت التعاقد. والآن فإن ألمانيا شرودر قالت لا.. ولزمت اليابان الصمت.

ولكن الطبول مازالت تقرع للأخذ بالثأر.. وإذا كانت أغلبية العالم تعارض حربنا، فإن ذلك لا يدفع بحمرة الخجل إلى وجوه أعضاء إدارة بوش (فبوش الكبير ينتمى إلى مجموعة كارلايل، وبوش الصغير كان منتميًا إلى شركة هاركين، وتشينى كان منتميًا إلى شركة هاليبرتون، وكندوليزا رايس كانت منتمية إلى شركة شيفرون، ورامسفيلد كان منتميًا إلى شركة أوكسيدنتال.



وإذا كان ينبغى لأية إدارة أن تنأى بنفسها عن المسائل المتعلقة بالطاقة، فهى العصبة الحالية، لكنها ليست شبيهة بأية إدارة سابقة فى تاريخنا. فقلوب أعضائها متجهة بصراحة فى اتجاه آخر، وهو كسب المال، ولا يبقى لنا منهم غير رؤوسهم التى تحلم بالحرب، ويستحسن أن تكون حربًا ضد الدول الهامشية الضعيفة.

إن محمد حسنين هيكل الصحفى المصرى اللامع والمحلل الدقيق للأحداث. وقد قال فى ١٠ أكتوبر ٢٠٠١ لجريدة الجارديان: «إن بن لادن لا يملك القدرة اللازمة لعملية بهذا الحجم. وعندما أسمع بوش يتكلم عن القاعدة كأنما هى ألمانيا النازية أوالحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى، فإنى أضحك لأنى أعرف حقيقة الأمر، فقد كان بن لادن موضوعًا تحت المراقبة على امتداد سنوات، وكانت كل مكالماته التليفونية مرصودة، وكانت القاعدة مخترقة من جانب المخابرات الأمريكية، والمخابرات الباكستانية، والمخابرات السعودية، والمخابرات المصرية. وما كانت القاعدة لتستطيع أن تحافظ على سرية عملية تحتاج إلى هذا القدر من التنظيم والدقة».

وقد تحدث إيكهارت فرتباخ الرئيس السابق للمخابرات الألمانية الداخلية(American Free Press، ٤ ديسمبر ٢٠٠١) عن ذلك فقال إن هجمات ٩/١١ كانت تحتاج إلى سنوات من التخطيط، وحجمها يبين أنها نتيجة لأعمال تنظمها دول. وهذه هى الحقيقة. ولعل بوش الصغير كان على حق فى نهاية الأمر فى وصفها بأنها حرب. ولكن من هى الدولة التى هاجمتنا؟

هل يتفضل هؤلاء المشتبه فيهم بالوقوف فى الطابور. المملكة السعودية؟ لا، لا. فنحن ندفع لهم ٥٠ مليون دولار فى السنة لتدريب الحرس الملكى فوق ترابنا المقدس وإن يكن فاصلاً، وصحيح أن المملكة تحوى العديد من الأعداء الأثرياء الحاصلين على تعليم مرتفع ولكن.... وهنا يتبادل بوش الكبير وبوش الصغير نظرة ذات مغزى. مصر؟ لا يمكن. فهى مفلسة بالرغم من المساعدات الأمريكية. سوريا؟ لا تملك الأموال. إيران؟ تظن نفسها أنها أكبر من أن تلقى بالاً لدولة بلا تاريخ مثل الولايات المتحدة. إسرائيل؟ إن شارون يمكن أن يعمل أى شىء. ولكنه لا يملك شجاعة أو نبل الكاميكازى الحقيقيين، وعلى أى حال فإن شارون لم يكن مسئولاً عندما بدأت هذه العملية لغرس «عناصر نائمة» فى مدارس تعليم الطيران الأمريكية قبل خمس أو ست سنوات. الولايات المتحدة؟ هناك عناصر من أمريكا الشركات يمكن أن تستفيد من «هجوم خارجى كاسح» يتيح لنا أن ندخل فى حرب فى أى وقت يرى فيه الرئيس أن ذلك ملائم ، فى نفس الوقت الذى نعلق فيه الحريات المدنية. (ومن المعروف أن قانون الوطنية الأمريكية الذى يتألف من ٣٤٢ صفحة قد أعد قبل ٩/١١). ولاشك فى أن بوش الكبير وبوش الصغير يقهقهان الآن.. لماذا؟ لأن كلينتون كان هو الرئيس فى ذلك الوقت، وعندما يخرج الرئيس السابق من طابور المشتبه فيهم فإنه يقول بغضب أكثر منه بأسف: عندما تركنا البيت الأبيض كانت لدينا خطة لحرب شاملة ضد القاعدة. وقد سلمناها لهذه الإدارة ولكنها لم تفعل شيئًا بشأنها. فلماذا؟ ويعض على شفتيه ثم يمضى. ويكف الرئيسان بوش عن الضحك. إذ تتدخل باكستان قائلة: «أنا التى فعلتها! إنى أعترف! لم أستطع أن أمنع نفسى من ذلك. انقذونى. إننى ممن يرتكبون الشر!».



ومن الواضح أن باكستان قد فعلتها ـ أو فعلت جانبًا منها ـ وينبغى لنا الآن أن نعود إلى سنة ١٩٧٩ عندما أجريت أكبر عملية سرية فى تاريخ الـCIA» ردًا على الغزو السوفيتى لأفغانستان. وقد كتب أحمد راشد المتخصص فى شئون آسيا الوسطى (مجلة Foreign Affairs، نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٩٩) إنه بتشجيع قوى من المخابرات الأمريكية، والمخابرات الباكستانية اللتين كانتا تريدان تحويل الجهاد الأفغانى إلى حرب عالمية تشنها كل الدول الإسلامية علي الاتحاد السوفيتى، انضم ما يقرب من ٣٥ ألفًا من المسلمين المتطرفين من ٤٠ بلدًا إسلاميًا، إلى المقاتلين فى أفغانستان فى الفترة من ١٩٨٢ و١٩٩٢.. وأنه كان هناك أكثر من ١٠٠ ألف من المسلمين الراديكاليين الأجانب تحت التأثير المباشر للجهاد الأفغانى». وكانت الـCIA تدرب هؤلاء المقاتلين سرًا وترعى شئونهم.

وفى مارس ١٩٨٥، أصدر الرئيس ريجان التوجيه رقم ١٦٦ بشأن الأمن القومى الذى تضمن زيادة المعونة العسكرية فى نفس الوقت الذى التقى فيه خبراء الـCIA مع نظرائهم فى المخابرات الباكستانية بالقرب من روالبندى بباكستان. وكتبت مجلة Jane's Defence Weekly (١٤ سبتمبر ٢٠٠١) أفضل عرض للموضوع: كان المدربون أساسًا من المخابرات الباكستانية الذين تعلموا حرفتهم من رجال الكوماندوز الأمريكيين ذوى القلنسوات الخضراء ورجال البحرية فى مؤسسات أمريكية مختلفة للتدريب، وهذا يفسر السبب فى إحجام الإدارة الأمريكية عن تفسير ما كان يدعو إلى إعطاء تأشيرات لهذا العدد الكبير من الأشخاص غير المؤهلين للحصول عليها، امتداد فترة زمنية طويلة، لزيارة شواطئنا المضيافة.

وأثناء الوجود فى باكستان «كان يجرى بعد ذلك تدريب المتعصبين الأفغان على نطاق واسع على يد الجيش الباكستانى تحت إشراف جهاز الخدمات الخاصة..وفى سنة ١٩٨٨، وبعلم الولايات المتحدة، أنشأ بن لادن منظمة القاعدة ، وهى تجمع لخلايا إرهابية إسلامية شبه مستقلة. منتشرة عبر ما يقرب من ٢٦ دولة. وكانت واشنطن تغمض عينيها عنها. ■



فاروق جويدة

كما أشعلت انتفاضة الأقصى روح المقاومة فى الشارع العربى فإنها أيقظت شياطين الشعر وملائكته وألهمت قرائح المبدعين، ينعون زمن السبات والخديعة ويأملون فى غدٍ بلون الشهادة وبراءة النضال.

بين هؤلاء الشاعر المبدع فاروق جويدة الذى قدَّم للمكتبة العربية ١٧ مجموعة شعرية وعددًا من المسرحيات الشعرية التى لاقت نجاحًا كبيرًا حين عرضها، وقد جمع قصائده عن القدس فى كتاب صدر أخيرًا، هنا بعضها.

إلى آخر شهداء الانتفاضة

مُتْ صامدًا . .

واتركْ عيونَ القدسِ تبكى

فوق قبرِكَ ألفَ عامْ . .

قد يسقطُ الزمنُ الردىءُ

ويطلعُ الفرسانُ من هذا الحطامْ

قد ينتهى صخبُ المزاد . .

وتكشفُ الأيامُ أقنعةَ السلامْ

إن نامت الدنيا . .

وضاعَ الحقُ فى هذا الرُّكامْ

فلديك شعبٌ لن يضلَّ . . ولن ينامْ . .

مُتْ صامدًا . .





أسرار الاندفاع الأمريكى نحو غزو العراق!

أناتول لايفن

أشد ما يلفت النظر فى خطة إدارة بوش لغزو العراق ليس أنها ستؤدى إلى تدمير النظام الدولى، أو كونها خطة شريرة عندما نأخذ فى الاعتبار الدور الذى لعبته الولايات المتحدة (وبريطانيا) ومازالت تلعبه فى الشرق الأوسط، أو أنها تلقى معارضة من جانب الغالبية العظمى من المجتمع الدولى، أو ما يبدو من أنها تتعارض مع بعض الاحتياجات الأساسية للحرب على الإرهاب. فهى كل هذا، ولكنه ليس موضع اهتمام كبير من جانب المتشددين فى «الإدارة». وقد لقى هذا الفريق إحباطًا مؤقتًا على الأقل نتيجة لإصرار بريطانيا على إشراك الأمم المتحدة فى الأمر، وموافقة صدام حسين على التفتيش على أسلحته. غير أن هذا الفريق مازال مصممًا على الحرب - وقوته داخل الإدارة وفى السياسة الأمنية للولايات المتحدة تعنى أن المرجح أنه سيمضى فى سبيله دون أن يعوقه شىء. وحتى جريدة الواشنطن بوست انضمت إلى وسائل الإعلام اليمينية المتطرفة وباتت تؤيد الحرب.



وأكثر ما يدهش فى الاندفاع إلى الحرب أنه اندفاع طائش ومتهور. وإذا كنت سأراهن على نتيجة هذه الحرب فإنى أقول إن احتمالات النجاح السريع فى تدمير النظام العراقى تبلغ ٥ إلى ١ أو أكثر بالنظر إلى التفوق العسكرى الأمريكى، والطبيعة السيئة لحكم صدام حسين، وعدم إمكان الاعتماد على صواريخ بغداد، والانقسامات العميقة فى العالم العربى. ولكن مكاسب الولايات المتحدة فى المدى الطويل تبدو محدودة فى حين أن نتائج الفشل ستكون كارثة. إذ إن الاشتعال العام فى منطقة الشرق الأوسط، وتعرض المزيد من الدول العربية المؤيدة للغرب لمشاكل خطيرة سيؤديان إلى خسارتنا للحرب على الإرهاب، وسيقضى بالموت على الآلاف من المدنيين الغربيين فى العقود المقبلة، وسيدفع بالاقتصاد العالمى إلى الكساد.

وهذه المخاطر لا تحيط فقط بحياة ومصالح الأمريكيين (والبريطانيين) بل تحيط أيضًا بمستقبل الإدارة الأمريكية. وإذا سارت الأمور فى الحرب على غير المتوقع فإنها ستلقى استنكارًا عامًا أشد مما لقيته أى حرب تعيها الذاكرة، وستكون تلك الحرب النهاية السياسية لأصحابها - النهاية التى لا قومة بعدها - وإذا كانت المخاوف الأخرى لا تؤثر على هؤلاء الناس، فلعل هذا الأخير يثير مخاوفهم.

وخطة الحرب هذه شبيهة بالتدخل فى فيتنام الذى لقى عند بدايته تاييدًا من كلا الحزبين السياسيين، ومن البنتاجون، ومن مؤسسة الأمن، ومن وسائل الإعلام. ومن الصحيح أن الديمقراطيين اليوم لا يتخذون موقفًا واضحًا - لأسباب سوف أعود إليها - ولكن جزءًا كبيرًا من مؤسسة الأمن الجمهورية القديمة قد أدان الفكرة، كما أن البنتاجون أوضح عدم ارتياحه لها بجلاء.

وعلى ذلك فقد تم تحذير الإدارة من المخاطر. وإذا كان وقوع هجوم جديد من جانب «القاعدة» أثناء الحرب سوف يساعد على تعزيز مشاعر الوطنية الأمريكية المعادية للإسلام، فسوف توجه اتهامات عديدة للإدارة بأنها أهملت مطاردة مرتكبى أحداث ١١ سبتمبر سعيًا وراء ثأر تافه. وفيما يتعلق باللوبى الإسرائيلى، فإن وقوع كارثة فى الشرق الأوسط قد يكون هو الشىء الوحيد الذى يدفع إلى النور فى الولايات المتحدة بالمناقشة الدائرة حول دوره الفاجع.

وباستثناء دونالد رامسفيلد الذى كان من

حظه أن يقوم بخدمته العسكرية في الفجوة الواقعة بين حرب كوريا وحرب فيتنام، فلا الرئيس بوش ولا أى من المؤيدين الكبار الآخرين لهذه الحرب قد أدى الخدمة العسكرية. وقد أدى الجنرال كولين باول الخدمة طبعًا فى فيتنام، ولكن من المعروف أنه يبدى شكوكًا قوية بشأن مهاجمة العراق. وقد بذل الآخرون جميعًا كل جهد ممكن لتجنب الخدمة العسكرية. فإذا سارت الحرب فى غير مسارها الصحيح سوف يستخدم أعداؤهم وصف «صقور الدجاج» وسيكون لذلك أثر سياسى مدمر عليهم. وقد بدأ بالفعل من شهدوا حرب فيتنام من الديمقراطيين والجمهوريين على السواء فى إثارة هذه القضية، مدفوعين فى ذلك جزئيًا باللهجة المهينة التى استخدمها ريتشارد بيرل كبير مستشارى البنتاجون حاليًا ومن لف لفه بشأن الحرص الذى يبديه العسكريون المحترفون. وقد عبرت عن ذلك رسالة تلقتها الواشنطن بوست جاء فيها «إن الرجال الذين يوصفون بأنهم صقور الدجاج قد تجنبوا الخدمة العسكرية أثناء حرب فيتنام بينما كانوا يؤيدون تلك الحرب من الناحية السياسية. وهم ليسوا متهمين بالافتقار للخبرة أو سلامة الرأى بالمقارنة بالعسكريين، ولكنهم متهمون بالنفاق والجبن». وبالنظر إلى المخاطر السياسية المحيطة بالفشل ـ مخاطر تحيط بأشخاصهم قبل كل شىء ـ فلماذا يفعلون ذلك؟ وبشكل أكثر عمومية، ما الذى أوجد هذه الروح المستهترة؟

حتى نفهم دوافع الإدارة الأمريكية ينبغى أن ندرك النطاق العريض للمطامح الداخلية والعالمية التى يأمل الوطنيون المحافظون الجدد فى تحقيقها بواسطة الحرب، والتى تتجاوز بكثير الأهداف التى يعلنونها. فهناك بطبيعة الحال جماعات مختلفة داخل هذا المعسكر: فبعضهم أكثر ميلاً لإسرائيل، وبعضهم أقل عداء للصين، ولن يؤيدوا جميعًا أشد جوانب البرنامج تطرفًا. ولكن الخطة الأساسية والتى يتفقون عليها كلهم هى السيطرة المنفردة على العالم عن طريق التفوق العسكرى المطلق. وهو مسار دافعت عنه بإصرار وعملت من أجله مجموعة المثقفين القريبين من ديك تشينى وريتشارد بيرل منذ انهيار الاتحاد السوفيتى فى أوائل التسعينيات.

وهذا الغرض الأساسى موضع اتفاق من جانب كولين باول وبقية المؤسسة الأمنية. ولا يجوز أن ننسى أن باول هو الذى أعلن، بوصفه رئيس أركان الحرب فى ١٩٩٢، أن الولايات المتحدة تحتاج إلى قوة كافية «لردع أية جهة عن أن تحلم بتحدينا على المسرح العالمى». غير أن فكرة الدفاع الاستباقى، التى أصبحت الآن العقيدة الرسمية، تدفع الأمور بعيدًا إلى الأمام، وأبعد كثيرًا من المدى الذى يرغب فيه باول. وهذه العقيدة يمكن أن تستخدم من ناحية المبدأ لتبرير تدمير أية دولة أخرى إذا بدا فى أى وقت أنها يمكن أن تتمكن فى المستقبل من تحدى الولايات المتحدة. وعندما تم التعبير عن هذه الآراء لأول مرة على لسان بول بولفووتز نائب وزير الدفاع الأمريكى وغيره بعد انتهاء الحرب الباردة، قوبلت بانتقاد عام، حتى من جانب المحافظين. أما اليوم، فبفضل تصاعد دور الوطنيين المتطرفين فى الإدارة الأمريكية، وتحت تأثير هجمات ١١ سبتمبر على المشاعر الأمريكية، أصبح لهذه الآراء تأثير جوهرى على السياسة الأمريكية.

وحتى نفهم نشأة هذا الطموح غير المألوف،

> **من شأن تدمير الحكومة العراقية الحالية واحتلال أراضيها والسيطرة على المنطقة بالوسائل العسكرية، أن يزيل حتى الخطر المحدود حاليًا من جانب «الأوبك»، ويقلل من احتمالات حدوث صدمة بترولية جديدة، ويقضى على الحاجة إلى مغازلة روسيا والاستثمار فيها باعتبارها مصدرًا بديلاً للطاقة**

ينبغى أيضًا أن نحيط بالعالم المعنوى والثقافى والفكرى الذى تشكلت فيه الوطنية الأمريكية وقد كانت هذه النزعة الوطنية موجودة قبل سبتمبر الماضى بكثير، ولكن أشعلتها تلك الهجمات، والأخطر من ذلك أنها باتت أكثر ارتباطًا بالنزعة الوطنية لدى اليمين الإسرائيلى.

ودعونا نتناول الأهداف الجيوسياسية أولاً. ففيما يتعلق بنظام الدفاع الصاروخى عن الولايات المتحدة، فإن الدافع المعلن للحرب مع العراق هو فى الأساس للحصول على التأييد العام اللازم لعملية هدفها الحقيقى أوسع من ذلك بكثير. فعدم مبالاة الجمهور الأمريكى بالمناقشة الجادة للشئون الخارجية أو شئون الأمن، وإهمال وسائل الإعلام الجماهيرية وجمودها الأيديولوجى يجعل الحوار الجدى حول هذه المسائل صعبًا للغاية، ويسمح لمثل هذه الألاعيب بالنجاح.

وفعلاً فإن الهدف المباشر هو القضاء على أسلحة الدمار الشامل لدى العراق. غير أنه ليس هناك خوف حقيقى من أن يسلم صدام حسين هذه الأسلحة للإرهابيين ليستخدموها ضد الولايات المتحدة ـ وإن كان هناك خوف أقرب إلى المنطق من أنه قد يفعل ذلك فى حالة إسرائيل. كما أنه ليس هناك احتمال جاد بأنه ربما يستخدمها بنفسه فى هجوم لا يسبقه استفزاز على الولايات المتحدة أو إسرائيل، لأن ذلك ستعقبه إبادة فورية لقواته. والدعاية الفجة التى تصور صدام حسين كدكتاتور انتحارى وفاقد للفعل تلقى نجاحًا فى الشارع الأمريكى، ولكنى لا أعتقد أن هذا هو رأى الإدارة الأمريكية، وإنما هى ترمى إلى الاحتفاظ بقدرتها على الدفاع عن دول الخليج فى مواجهة أى هجوم عراقى، ولكن الأهم من ذلك لديها هو أن يظل للولايات المتحدة وإسرائيل حرية التدخل فى الشرق الأوسط بكامله.



ومن وجهة نظر إسرائيل واللوبى الإسرائيلى وممثليها فى الإدارة الأمريكية، فإن منافع هذه الحرية فى التصرف واضحة. وترى المجموعة المحيطة بتشينى أن أهم اعتبار منفرد هو إمكانية الحصول على البترول الرخيص بشكل مضمون ودون عائق، والسيطرة عليه أكبر سيطرة ممكنة عند المنبع. ومن شأن تدمير الحكومة العراقية الحالية واحتلال أراضيها والسيطرة على المنطقة بالوسائل العسكرية، أن يزيل حتى الخطر المحدود حاليًا من جانب «الأوبك»، ويقلل من احتمالات حدوث صدمة بترولية جديدة، ويقضى على الحاجة إلى مغازلة روسيا والاستثمار فيها باعتبارها مصدرًا بديلاً للطاقة.

كما أن ذلك سيضعف بشكل حاسم الخطوات التى اتخذت بالفعل فى سبيل تنمية مصادر بديلة للطاقة. لقد كانت هذه المصادر قليلة إلى حد مزعج حتى الآن. ومع ذلك فإن ١١ سبتمبر أعطى قوة جديدة لحجج الأمن الداعية إلى إنقاص الاعتماد على البترول المستورد، وهى قد تصبح مع تطوير تكنولوجيات بديلة خطرًا حقيقيًا على اللوبى البترولى ـ وهو اللوبى المرتبط، شأن اللوبى الإسرائيلى، ارتباطًا وثيقًا بإدارة بوش. ولذا يمكن النظر إلى الحرب مع العراق كنتيجة ترتاح لها كلتا المجموعتين. ولكن الأهم من ذلك بالنسبة لمستقبل الجنس البشرى، أنها أيضًا جزء مما يعد فى الأساس استراتيجية لاستخدام القوة العسكرية الأمريكية حتى تستمر تفرض على بقية العالم تكاليف الاقتصاد الأمريكى الحالى ـ بدون الحاجة إلى أية تضحيات فى الأجل القصير من جانب الرأسماليين الأمريكيين أو الصفوة السياسية الأمريكية أو الناخبين الأمريكيين.

وينطبق نفس القول على الحرب على «القاعدة» وحلفائها: فخطة تدمير النظام العراقى الحالى ترتبط بهذا الكفاح ولكن ليس بالصورة التى عرضت بها على الجمهور. فليس هناك دليل على وجود علاقات بين بغداد و«القاعدة» وهى علاقات مستبعدة فى الواقع: وما تأمل فيه إدارة بوش بسحقها لدولة شرق أوسطية أخرى (العراق) بأقل تكلفة عسكرية ممكنة هو تخويف كل الدول الأخرى فى العالم الإسلامى، ودفعها إلى التعاون التام فى مطاردة وتسليم المتهمين بالإرهاب، والتخلى عن القضية الفلسطينية. ولكن إيران من جانبها، لا يمكن تخويفها إلى حد التخلى عن برنامجها النووى ولا عن تأييدها للفلسطينيين، ولا يمكن التدبير لتدمير مرافقها النووية عن طريق القصف بالطائرات.

والفكرة بعبارة أخرى هى تخويف تلك الدول بحيث تقتصر على المساعدة فى مطاردة أعضاء «القاعدة» بل تصل إلى حد الرضوخ للأجندة الأمريكية، ثم الأجندة الإسرائيلية فى الشرق الأوسط. وقد أعلن ذلك فى الورقة سيئة السمعة بشأن المملكة العربية السعودية، التى قدمها لوران نوراويك من مؤسسة راند إلى مجلس سياسات الدفاع الذى يرأسه ريتشارد بيرل. فقد دعا ذوراويك إلى إرسال إنذار نهائى للسعوديين لا يكتفى بالمطالبة بأن تتعاون الشرطة السعودية تعاونًا كاملاً مع السلطات الأمريكية، بل أيضًا أن تقمع انتقادات الجمهور للولايات المتحدة وإسرائيل داخل المملكة ـ وهو أمر قد يكون مستحيلاً على أية دولة عربية.

وعلى الرغم من ذلك فإن المطالبة بمنع المطبوعات والإذاعات والأنشطة المناهضة لإسرائيل لقيت صدى واسعًا فى الإعلام الأمريكى.

إن القول بأن الطريق إلى سلام الشرق الأوسط يمر ببغداد، قول تستخدمه إدارة بوش واللوبى الإسرائيلى. وربما يكون بعض أعضاء الإدارة الأمريكية على اقتناع حقيقى بأنه بتدمير أقوى أعداء إسرائيل الباقين، فإن أسهمهم ستزيد لدى الإسرائيليين واللوبى الإسرائيلى بحيث يتمكنون من الضغط على إسرائيل. ولكن هذا بالتأكيد ليس ما يؤخذ من التصريحات العلنية لأعضاء الإدارة ـ فضلاً عن حلفاء الليكود فى إسرائيل. فقد وصف رامسفيلد مؤخرًا المستوطنات اليهودية بأنها نتيجة شرعية لانتصار إسرائيل العسكرى، كما أن ديك آرمى قائد الأغلبية الجمهورية فى مجلس النواب (وهو من المتشككين بشأن الحرب مع العراق) قد أيد التطهير العرقى («الترانسفير») للفلسطينيين عبر الأردن. وفى ١٩٩٦ دعا ريتشارد بيرل ودوجلاس سيس (وهو الآن موظف كبير فى البنتاجون) بنيامين نتنياهو للتخلى عن عملية أوسلو للسلام والعودة إلى قمع الفلسطينيين بالوسائل العسكرية.

ولذا فالأرجح أن معظم أعضاء إدارتى بوش وشارون يأملون فى أن يؤدى سحق العراق إلى إضعاف الروح المعنوية للفلسطينيين، وبذلك يقل التأييد العربى الواسع لهم، بحيث يمكن إلزامهم بقبول تسوية بانتوستانية، ليس لها أى شبه بالدولة المستقلة، ولا تحمل معها أية إمكانية للنمو الاقتصادى والرخاء.

ومما يدعو للدهشة أن يتصور أشخاص أذكياء أن ذلك يمكن أن ينجح، بالنظر إلى تاريخ السنوات الخمسين الماضية. ويجب ألا ننسى أن الإسرائيليين هزموا الدول العربية عدة مرات ومع ذلك لم تهدأ الوطنية الفلسطينية أو يتناقص التعاطف العربى معها. ولكن الجماعات المهيمنة فى الإدارتين الحاليتين فى واشنطن والقدس على السواء، جماعات «واقعية» حتى النخاع، وهذا يعنى ـ كما يعنى فى حالات كثيرة ـ أنها تأخذ بوجهة نظر بعيدة تمامًا عن الواقع بشأن بقية العالم، وأنها غير حساسة إلى حد الانفصال عن الواقع عندما يتعلق الأمر بطبائع الآخرين ودوافعهم. وهم منتشرون بالقوة، وبتقسيم العالم إلى أصدقاء وأعداء، وكثيرًا ما يقسمون العالم إلى بلدهم وبقية البلدان)، ويعتقدون بأن إبداء أى قدر من «الضعف» يؤدى فورًا إلى أخذ «العدو» بمناهج أكثر تطرفًا.



ولا يشك شارون ومؤيدوه فى أن انسحاب إسرائيل من لبنان ـ وليس الاحتلال الإسرائيلى للأراضى الفلسطينية ـ هو الذى أدى إلى الانتفاضة الأخيرة. ومن يسمون «الواقعيون الهجوميون» فى واشنطن على يقين من أن موقف ريجان المتشدد وتسارع سباق التسلح فى مواجهة الاتحاد السوفيتى هو الذى أدى إلى انهيار تلك الدولة. وكلاهما على اقتناع بأن استمرار وجود نظام صدام حسين فى حد ذاته يومئ إلى ضعف محفوف بالمخاطر من جانب الولايات المتحدة ويسمها بالجبن، مما يقوى ساعد أعداء أمريكا وإسرائيل عبر الشرق الأوسط وما وراءه.

ومن وجهة نظر النزاع العربي الإسرائيلي فإن للحرب مع العراق بعض سمات.. الهروب إلى الأمام، من جانب الإدارة الأمريكية. فمن ناحية، أصبح من الواضح أن النزاع يرتبط ارتباطًا وثيقًا بكل ما يجرى فى الشرق الأوسط، ولذا لم يعد فى الوسع الاكتفاء بتجاهله على نحو ما حاولته إدارة بوش فى السنة الأولى لتقلدها السلطة. ومن ناحية أخرى فإن أعضاء الصفوة السياسية الأمريكية الذين يملكون قدرًا من فهم الحالة ولديهم اهتمام بالعدالة، يخافون من مواجهة إسرائيل واللوبى الإسرائيلى بالطريقة التى تلزم لوجود أية فرصة لإقرار السلام.

وعندما تطلب الولايات المتحدة إقامة «الديمقراطية» فى الأراضى الفلسطينية قبل أن تعود إلى العمل فى عملية السلام فإنها تحاول جزئيًا، وبطريقة ساخرة، أن تخرج من هذا المأزق. ولكنها عندما تتحدث عن نشر الديمقراطية فى العالم العربى بأسره، تصبح الأجندة أكثر اتساعًا وأدعى إلى القلق. ولما كانت العبارات الطنانة تجتذب كثيرين من الليبراليين فعلينا أن نبحث هذه الأجندة بقدر كبير من العناية.

والاعتقاد بإمكان نشر الديمقراطية عن طريق القوة الأمريكية لا يكون دائمًا حديثًا مخادعًا. وعلى العكس فهو لا ينفصل عن التصور الأمريكى بأن للولايات المتحدة رسالة فى العالم وضرورة نشر «العقيدة الأمريكية». غير أن هذا الاعتقاد التبشيرى ثبت أيضًا أنه عظيم الفائدة فى تدمير منافسى الولايات المتحدة أو شل حركتهم، وكان آخر مثال لهم هو الاتحاد السوفيتى.

وعلى أى حال فإن الحرب المعتزمة ضد العراق لا تهدف فقط إلى إبعاد صدام حسين، بل إلى تدمير هيكل الدولة العراقية الوطنية العربية التى تهيمن عليها طائفة السنّة على النحو الذى وجدت به منذ نشأة هذا البلد. والمفترض أن «الديمقراطية» التى تحل محل النظام العراقى الحالى ستكون شبيهة بالديمقراطية القائمة فى أفغانستان - أى تحالف عشوائى من الجماعات العرقية ولوردات الحرب، يعتمد بصورة كلية على القوة العسكرية الأمريكية ويخضع تمامًا للرغبات الأمريكية (والإسرائيلية).

وبالمثل، فبعد تدمير نظام صدام حسين، إذا لم تخضع المملكة العربية السعودية للرغبات الأمريكية وتعرضت للهجوم بدورها، فعند ذلك - واستنادًا إلى الأفكار التى يجرى تداولها فى دوائر البحث فى واشنطن - سيكون الهدف ليس مجرد استبعاد النظام السعودى والقضاء على الوهابية كأيديولوجية للدولة، بل سيكون تدمير الدولة السعودية وتقسيمها. وعند ذلك توضع آبار البترول الخليجية تحت الاحتلال العسكرى الأمريكى، ويتولى الأمور فى المنطقة أمير تابع، وربما تعاد مكة والحجاز إلى الأسرة الهاشمية الحاكمة فى الأردن، والتى كانت تحكم هذه المنطقة قبل أن يفرض ابن سعود سلطته عليها فى ١٩٢٤، أو بعبارة أخرى يجرى بعث البرنامج الإمبريالى البريطانى لسنة ١٩١٩ (وإن كان على الهاشميين إذا كان لديهم أى عقل أن يرفضوا هذا المشروع الذى سيصبح بغير شك حكمًا بالإعدام فى المدى الطويل).

وبعيدًا عن ذلك تقبع الصين. فعندما جاءت إدارة بوش إلى السلطة لم يكن الشرق الأوسط محور اهتمامها الأمنى. وكانت سياستها هناك فى البداية هى الإهمال الحميد (الحميد على أى حال بالنسبة لإسرائيل). وكان أكبر مخاوف دعاة الوطنية اليمينيين أمثال روبرت كيجان تتعلق ببروز الصين فى المستقبل كدولة عظمى منافسة - وهى مخاوف كان من دواعى تصديقها حجم الصين ونمو اقتصادها. وكما جاء فى الوثيقة الاستراتيجية الشهيرة التى وضعها بول وولفويتز فى السنة الأولى لإدارة بوش الأولى - ثم اعتبرها بوش الابن هى السياسة الرسمية المعلنة فى الخطاب الذى ألقاه فى كلية ويست بوينت فى شهر يونيو - أن يكون الغرض الرئيسى للاستراتيجية الأمريكية بعد انتهاء الحرب الباردة هو منع ظهور أى «فريق منافس» فى أى مكان من العالم.

وما يفكر فيه القوميون الأمريكيون المتطرفون هو إما «احتواء» الصين بالقوة العسكرية الساحقة وإنشاء حلقة من حلفاء أمريكا، أو فى حالة المتطرفين الحقيقيين تدمير الدولة الصينية الشيوعية كما سبق تدمير الاتحاد السوفيتى، والمفترض أن يتم ذلك كما حدث مع الاتحاد السوفيتى، بتقسيم الصين عن طريق «تحرير» التبت وغيرها من المناطق، وتحت ستار الديمقراطية يتم تطويق الإدارة الصينية المركزية وشل قدرتها على تنمية اقتصادها أو تقوية جيشها.

وإذا حكمنا بما تنشره وسائل الإعلام الوطنية اليمينية فى الولايات المتحدة، فقد استمر هذا العداء للصين حتى بعد ١١ سبتمبر، وإن يكن فى صورة مخففة. وإذا تمكنت الولايات المتحدة من إثبات تفوقها العسكرى الساحق فى الشرق الأوسط، لا شك فى أنه ستكون هناك مجموعات فى الحزب الجمهورى تجد الشجاعة على المطالبة بموقف أكثر تشددًا تجاه الصين. وهذه الفئات تؤيد قبل كل شىء بطبيعة الحال الاستقلال الرسمى لتايوان.

ولا ريب فى أن نصرًا عسكريًا أمريكيًا آخر سوف يقنع هذه الجماعات بأنه ليس لدى الولايات المتحدة ما تخشاه فى الوقت الحالى من الأسطول الصينى أو سلاح الجو الصينى، وأنه فى حالة إعلان استقلال تايوان سيكون فى الوسع الدفاع عن الجزيرة دون عقاب جزئيًا. وفى الوقت ذاته فإن إذلال الصين المشهود بشأن تايوان يمكن أن يعتبر خطوة أساسية نحو إسقاط الشيوعية وفرض الشلل على جهاز الحكومة الصينية.

أما فى الوقت الحالى فليست هناك غير مطامع فى المدى الطويل أو أحلام. وهى بغير شك ليست مشتركة حتى بين أغلبية الإدارة الأمريكية، ويستبعد أن تنفذ بأى طريقة منهجية. ومن ناحية أخرى، لا ينبغى أن ننسى أن الفريق المهيمن فى الإدارة الأمريكية قد تخلى الآن علنًا عن الاستراتيجية والفلسفة التى أخذت بها إدارة كلينتون، والتى كانت تدعو إلى إدخال الدول الرئيسية الأخرى فى العالم ضمن نظام رأسمالى ليبرالى يحكمه القانون، وبذلك يتضاءل خطر التنافس بين تلك الدول.

وهذا الاتجاه لم يمت. والواقع أنه ممثل تمثيلاً قويًا فى شخص كولين باول وأشخاص أقل أهمية مثل ريتشارد هاس. ولكن منافسيهم الوطنيين الأكثر قوة يعلنون التزامهم باستخدام كل وسيلة ممكنة لمنع ظهور أى منافس جاد أو مجموعة من المنافسين للولايات المتحدة، فى أى مكان فى العالم، ومعارضة وجود ليس مجرد أى منافس محتمل فى الهيمنة على العالم بل أيضًا قدرة الدول الأخرى على القيام بدور الدولة العظمى داخل أقاليمها.

وتحت ستار نظام الدفاع الصاروخى، تحلم الإدارة - أو عناصر فى داخلها - بأن تمد الولايات المتحدة سيطرتها إلى خارج حدود الكرة الأرضية ذاتها (وهو طموح أشير إليه بوضوح فى الورقة الرسمية المعنونة «توجيهات بشأن تخطيط الدفاع للسنوات المالية ٢٠٠٤ - ٢٠٠٩» التى صدرت فى هذه السنة عن مكتب رامسفيلد). ولئن كان هذا الطموح يصل إلى حد الميجالومانيا «جنون العظمة» فهو ليس مجرد أوهام فى بعض العقول. وفى ظل التفوق الأمريكى الكاسح ربما يظل هذا الوهم قائمًا عشرات السنين إلى أن يؤدى مزيج من الإرهاب والتكاليف الاجتماعية والسياسية والبيئية غير المحتملة على كاهل الولايات المتحدة إلى إلزامها بتغيير الأوضاع الحالية للعالم.

أما فى الأوضاع الحالية فإن الشعب الأمريكى لا يمكن أن يساند عن بينة برنامجًا كهذا - بل ولا يمكن أن يسانده العسكريون الأمريكيون. فالولايات المتحدة حتى بعد ١١ سبتمبر ليست دولة عسكرية بالمقاييس التاريخية ومهما تكن النزعات الإمبريالية الصريحة المتزايدة لدى فئة المفكرين القوميين، فلا العسكريون ولا عموم المواطنين يرغبون فى أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم استعماريون. ومازال الخوف شديدًا من وقوع الضحايا والاشتباك العسكرى لأمد طويل فيما وراء البحار. وقد بينت كل استطلاعات الرأى أن أغلبية الأمريكيين يبدون اهتمامًا بالتعاون مع الحلفاء الآخرين أكثر مما تبديه هذه الإدارة بكثير.

وإلى جانب ذلك، إذا استمر الاقتصاد الأمريكى فى حالة الركود أو أصابه تراجع شديد، والأرجح أن الجمهوريين لن يظلوا فى مقاعد السلطة بعد سنة ٢٠٠٤. ومع ازدياد عدد الشركات التى تعلن إفلاسها، ستغدو ارتباطات الإدارة بدوائر الأعمال التى أصابها الفساد موضوعًا للحديث المتزايد. ومن شأن المزيد من التراجع الاقتصادى المقترن بتضخم الإنفاق العسكرى، أن يؤدى عاجلاً أم آجلاً إلى إرهاق المالية العامة الناتج عن المصروفات العسكرية لهذه الإدارة وما قامت به من إنقاص الضرائب على الأغنياء. وعند ذلك سيثار التساؤل حول الأساس المالى للتأمينات الاجتماعية، وسيضعف تأييد الجمهوريين بين صفوف «الطبقات الوسطى».

ولا تملك أية إدارة أمريكية وسائل كثيرة تسمح لها بتنشيط النمو الاقتصادى. وحتى إذا عاد النمو، يكاد يكون من المؤكد أن تحول الاقتصاد سيستمر. وهذا يعنى أن دخل «الطبقات الوسطى» (والتى تشمل فى الصياغات الأمريكية البروليتاريا العاملة) سيستمر فى الانخفاض، وأن الفجوة بينها وبين أصحاب الأموال سيستمر فى الاتساع. ويمكن للإنفاق العسكرى المرتفع أن يصحح هذا الاتجاه إلى حد ما، ولكن بدرجة أقل مما حدث فى القرن التاسع عشر ومعظم القرن العشرين بسبب ما طرأ من تغيير على طبيعة الأسلحة. وإذا ظلت كل الأشياء الأخرى على حالها سيكون من نتيجة ذلك تحول ملحوظ فى اتجاه الناخبين نحو اليسار.

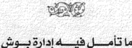


ولكن ليست كل الأشياء الأخرى باقية على حالها. وهناك استراتيجيتان على الأخص يمكن أن تتيحا للجمهوريين فرصة الكسب فى ٢٠٠٤، بل وتكرار النجاح الذى حققه روزفلت للديمقراطيين فى الثلاثينيات وأن يصبحوا هم الحزب الطبيعى الذى يحكم خلال المستقبل المنظور. الأولى هى الاستراتيجية العصرية الكلاسيكية التى تمارسها الأوليجاركية اليمينية المهددة، وهى الانحراف بالسخط الجماهيرى نحو مشاعر الوطنية المتطرفة. والثانية، وهى خاصة بأمريكا بالذات، هى نزع الصوت اليهودى من مكانه التقليدى لدى الحزب الديمقراطى، عن طريق إثبات التزام الجمهوريين القاطع لا بالدفاع عن إسرائيل فحسب بل بالدفاع أيضًا عن مطامعها الإقليمية.

وهذا يرتبط بالتحول اليمينى فى إسرائيل كما يرتبط بزيادة توثيق العلاقات بين الجمهوريين والليكود، من خلال أشخاص مثل بيرل وفيث. وهذا يمثل تغيرًا جذريًا عن موقف الحزب الجمهورى القديم تحت قيادة أيزنهاور ونكسون وبوش الأب، وهو الحزب الذى كان مستقلاً عن إسرائيل بدرجة أكبر من الديمقراطيين. وكان من الأمور المهمة فى هذا الصدد ازدياد التحالف بين اليمين المسيحى - المرتبط بقوة بـ «الجنوب الأبيض» القديم - واللوبى الإسرائيلى، أو على الأقل عناصره الليكودية المتشددة.

وعندما بدأ هذا التحالف يتشكل قبل بضع سنوات، بدا الأمر كأنه توافق غير محتمل. فقد كان اليمين المسيحى والجنوب الأبيض فى وقت من الأوقات موطنًا لنظريات التآمر المعادى للسامية. ومن ناحية أخرى فإن الجوانب المتعلقة بـ «العهد القديم» لدى المسيحية الأصولية أدت إلى إيجاد قدر من التعاطف مع اليهودية وإسرائيل من وقت طويل يرجع إلى بدايات الولايات المتحدة فى القرن السابع عشر.





ما تأمل فيه إدارة بوش بسحقها لدولة شرق أوسطية أخرى (العراق) بأقل تكلفة عسكرية ممكنة هو تخويف كل الدول الأخرى فى العالم الإسلامى، ودفعها إلى التعاون التام فى مطاردة وتسليم المتهمين بالإرهاب، والتخلى عن القضية الفلسطينية



وبالنسبة للأصوليين المسيحيين اليوم، يحتل الفكر الألفى مكانة ملموسة فى تشكيل التأييد لإسرائيل: فهم ينظرون إلى وجود دولة إسرائيل على أنه مقدمة ضرورية لمجىء المسيح المنتظر، ونهاية العالم، وإقامة حكم المسيح وحوارييه. ولكن قد يكون الأهم من ذلك أن هذا الالتقاء بين اليمين الأصولى والصهيونيين المتشددين التقاء طبيعى، لأنهما يشتركان فى العديد من الكراهيات. فاليمين المسيحى كان دائمًا يكره الأمم المتحدة، وذلك جزئيًا لأسباب وطنية صريحة، ولكن أيضًا بسبب مخاوف غربية من قيام الحكومة العالمية على يد المسيح المنتظر. وقد كرهوا الأوروبيين على أسس دينية بوصفهم ملحدين منحلين، وعلى أسس طبقية باعتبارهم شركاء «صفوة الساحل الشرقى: البغيضة، وعلى أسس وطنية باعتبارهم ممن ينتقدون القوة الأمريكية غير المحدودة. ويشترك الجانبان فى الحب الغريزى للقوة العسكرية. وكلاهما يعتبر نفسه ضحية تاريخية. وقد يبدو هذا غريبًا فى حالة اليمينيين الأمريكيين، ولكنه لن يكون غريبًا إذا أخذنا فى الاعتبار تاريخ الهزائم التى نزلت بـ «الجنوب الأبيض» ومشاعر اليمين المسيحى منذ الستينيات (١٩٦٠) عند هزيمته وإحراجه بسبب التغير الثقافى والابتعاد عن الإيمان بالدين.

وأخيرًا، وأكثر الأمور خطورة، إن كليهما ينظر إلى نفسه على أنه المدافع عن «الحضارة» فى مواجهة «الهمج» ـ وهذا تمييز كان موجودًا دائمًا لدى اليمين المسيحى الذى يتحدد فى المقام الأول على أسس عرفية. ولم يعد فى الوسع الحديث فى أمريكا الآن على هذه الأسس بشأن الأمريكيين السود أو الآسيويين أو اللاتينيين ـ ولكن بات من الممكن منذ ١١ سبتمبر على الأقل أن يقال ذلك عن العرب والمسلمين.

وحتى فى انتخابات ٢٠٠٠ تمكن الجمهوريون من انتزاع جزء كبير من أصوات الطبقة العاملة البيضاء من «آل جور» عن طريق اللجوء إلى النزعة الشعبوية الثقافية ـ وخاصة مخاطبة مشاعر المعارضين للحد من حمل السلاح وحماية البيئة. وعلى الرغم من الهوية الطبقية الحقيقية والمصالح الثقافية للصفوة الجمهورية، فقد بدا أنها قادرة على إقناع كثيرين من العمال بأنها هى الحليف الطبيعى للوقوف فى وجه «صفوة الساحل الشرقى» الغريبة عنهم ثقافيًا والتى عرضت على أنها المؤيدة لآل جور.

وهذه القيم الشعبوية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالقيم التقليدية للقوميين المتشددين. وهى القيم التى وصفها المؤرخ والتر روسل ميد وآخرون بأنها قيم وطنية شعبوية «جاكسونية» نسبة إلى النزعة الوطنية الشعبوية للرئيس أندرو جاكسون فى سنوات ثلاثينيات القرن التاسع عشر (١٨٣٠). وكما ذكر «ميد»، أدت أحداث ١١ سبتمبر إلى زيادة قيمة هذا الاتجاه بين الجمهوريين.

وإذا أضيف إلى هذا أن الجمهوريين يستطيعون أن يجتذبوا أصوات اليهود بصورة دائمة بعيدًا عن الديمقراطيين ـ وهى عملية توحى بها مصالح طبقية خالصة وكانت تجرى على مهل ولكن باطراد منذ أيام ريجان ـ تكون هناك فرصة لديهم لشل الديمقراطيين لمدة جيل أو أكثر. وإذا حرم الديمقراطيون من جانب كبير من دعمهم المالى ومساندتهم الفكرية، فقد يصبحون تحالفًا من النقابيين من العمال البيض ومن السود واللاتينيين. ولا يقتصر الأمر على أن هذه الفئات لا تحب إحداها الأخرى ولا تثق بها، بل إنه كلما زادت صورة تحكم الأقليات فى الديمقراطيين زاد ميل الأبيض للهروب إلى الجمهوريين.

وقد حدث بالفعل أن أدت معاداة السامية من جانب بعض القادة السود فى الحزب الديمقراطى إلى المساهمة فى إبعاد كثير من اليهود ودفعهم نحو الجمهوريين. أما الانتلجنسيا اليهودية الليبرالية فقد قطعت بحكم ولائها لإسرائيل شوطًا بعيدًا فى الابتعاد عن نزعاتها الأممية القديمة. وهذا التحول واضح فى الصحف التى كانت فى السابق ليبرالية وذات نزعة أممية نسبية مثل مجلتى Atlantic Monthly و New Repulic وحتى الـ New Yorker. وليس من المبالغة القول بأن الموقف الأممى قد ضعف فى الحزب الديمقراطى وفى الولايات المتحدة بوجه عام.



والديمقراطيون على بينة من هذا الخطر الذى يهدد أصواتهم الانتخابية. وقد كان الحزب فى مجموعه ملتزمًا بقوة بتأييد إسرائيل. وبشأن العراق والحرب ضد الإرهاب، يبدو أن نهجه هو تجنب ما قد يبدو موقفًا «غير وطنى» بأى ثمن. وإذا تمكن الديمقراطيون من تجنب سحق مواقفهم من جانب الجمهوريين بتهمة «الضعف» وانعدام الوطنية سيكون لا يزال لديهم أمل فى كسب انتخابات ٢٠٠٤ على أساس السخط الاقتصادى. ولكن النتيجة هى أن الحزب قد اختفى تقريبًا من الجدل الدائر حول العراق. فالديمقراطيون يؤكدون السمعة الشائعة عنهم بأنهم يأخذون مواقف ضعيفة، بينما يأخذ الوطنيون الجمهوريون مواقف متحمسة وواضحة ـ وهى المواقف التى ساعدتهم فى نوفمبر ٢٠٠٠ فى الضغط على القضاء بشأن أصوات الناخبين فى فلوريدا، مما أسفر فى الواقع عن سرقتهم للانتخابات.

وهذه الحماسة هى التى تعطى اليمين القومى جانبًا كبيرًا من قوته لا أود فى طرحى لآمال وخطط الجماعات المهيمنة على إدارة بوش، أن أعطى الانطباع بأن كل شىء هو مجرد تلاعب واع ومستهتر من أجل تحقيق مصالحهم الذاتية الضيقة. فمثل هذه الاقترابات القاطعة هى التى أضرت بالطريقة التى تطرح بها الأفكار القومية والخلافات الوطنية. وهذا أمر غريب ومحزن، لأن الدراسات التاريخية التى أجريت فى العقود الأخيرة عن النزعة الوطنية الألمانية قبل سنة ١٩١٤ ـ على سبيل المثال ـ والتى كانت تبنى على أساس خداع الطبقات قد تراجعت أمام التحليل الأكثر دقة والذى يؤكد دور التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، والارتباطات غير الواعية، وتفسير المؤثرات السياسية من أعلى ومن أدنى.

وحتى نفهم اليمين الوطنى المتطرف فى الولايات المتحدة، والقوى المهيمنة فى إدارة بوش، يجب قبل كل شىء أن نفهم تصويرهم لأنفسهم كما لو كانوا هم الولايات المتحدة، إلى حد النظر إلى وجود أى جماعة أخرى فى الحكومة على أنها جماعة مغتصبة، وأنها بعيدة عن الشرعية، وأنها «لا أمريكية». وأيضًا بالعناصر المتشددة فى مؤسسة الأمن الأمريكية والمجمع العسكرى الصناعى، فإنها نتيجة للحرب الباردة، وقد تشكلت بذلك الصراع وما ولد من بارانويا وتعصب. وكما هو المعتاد لدى النخبة الأمنية، فإنهم يصبحون مبرمجين عبر عشرات السنين بحيث ينظرون إلى أنفسهم ليس فقط على أنهم أقوى وأشجع وأكثر حكمة ومعرفة عن زملائهم الجهلة السذج، بل أيضًا على أنهم القوة الوحيدة التى تحول دون وقوع البلد فى التفكك والانهيار.

لقد أدت الحرب الباردة إلى ظهور هياكل حكومية واقتصادية وفكرية فى الولايات المتحدة يتطلب استمرارها الإيمان بوجود أعداء أقوياء للوطن ـ ليسوا إرهابيين فحسب، بل دول معادية. ومن ثم فإنهم فى تحليلاتهم ودعايتهم يعملون غريزيًا على خلق الصورة الضرورية للعدو. ولكننا نقول مرة أخرى أنه ليس من الحكمة أن نتصور أن تلك عملية واعية، إن الحرب الباردة شجعت وعززت وأضفت الشرعية على خطاب بالغ القِدم قائم فى الولايات المتحدة على الكراهية القومية، ويقال أنه موجه إلى الشيوعيين وحلفائهم ولكنه يحوى عادة لونًا قويًا من التعصب العرقى.



ومن ناحية أخرى فإن جذور هستيريا اليمين تذهب إلى أبعد من النزعة الوطنية والأمن القومى وكراهيتهم المرضية لإدارة كلينتون لا يمكن تفسيرها بدواعى الأمن القومى أو حتى بأسباب سياسية أو اقتصادية معقولة، لأنه بعد فترة قصيرة للغاية من الراديكالية الجزئية (والتى تركزت بالكامل تقريبًا على المحاولة الفاشلة للإصلاح الصحى) كرس كلينتون جهوده بطريقة أشبه ما تكون بطريقة بلير للأخذ بجانب كبير من الأجندة الاجتماعية الاقتصادية للجمهوريين. والواقع أن كلينتون، وزوجته، وأسلوبه الشخصى، وخلفيته الشخصية وخلفية بعض أتباعه المقربين، كان ينظر إليها على أنها غير أمريكية من الناحية الثقافية، وبالتالى من الناحية الوطنية، وذلك أساسًا بسبب الارتباط بالثقافة المضادة التى انتشرت فى الستينيات والسبعينيات.

والتجسيد المعاصر لهذه الروح يظهر قبل كل شىء كرد فعل للهزيمة المزدوجة التى عاناها اليمين فى حرب فيتنام ـ وهى هزيمة يأملون أن يؤدى انتصار فى العراق، وموجة جديدة من النزعة الوطنية فى الداخل، إلى الغائها بصورة نهائية ـ وفى فيتنام تلازمت الهزيمة العسكرية التى لم يسبق لها مثيل مع ظهور ثقافة حديثة وجدها الأمريكيون التقليديون غريبة عنهم، وبعيدة عن أخلاقهم، وكريهة إلى حد لا يوصف. وقد قيل فى وقت المحاولة التى قام بها نيوت جنجريتش لإحداث ثورة جمهورية فى منتصف التسعينيات، إنها كانت من وسائل النظر إلى الجمهوريين المتشددين ـ خاصة من اليمين الدينى ـ على أنهم مدفوعون برغبة وطنية كلاسيكية للعودة إلى «عصر ذهبى» كان فى حالتهم أيام الخمسينيات السابقة على فيتنام.

ولا ينطبق شىء من هذه الخيالات على الشعب الأمريكى فى مجموعه. ولكن الانحصار فى الذات لدى هذا الشعب وجهله بوجه عام لأمور العالم خارج الشواطئ الأمريكية، عندما اقترن بتأثير ١١ سبتمبر، ترك مساحات سياسية واسعة أمام الجماعات المنتشية بالخيالات والطموحات التى أشرنا إليها.

ويمكن طرح الأمر بصورة أخرى بأن نقول: إن الغالبية العظمى من الشعب الأمريكى لا تميل إلى العسكرية أو الإمبريالية أو العدوانية على نحو ما كان عليه نظراؤهم الألمان فى ١٩١٤، ولكن معظم أفراد الشعب الألمانى كانوا يستطيعون على الأقل أن يعرفوا مكان فرنسا على الخريطة.

وكذلك فقد حرمت الانتلجنسيا الشابة من أية معرفة حقيقية للعالم الخارجى بسبب الإهمال الأكاديمى للتاريخ والدراسات الإقليمية لصالح فروع العلم التى لا تزيد غالبًا عن أن تكون طرحًا فجًا للافتراضات والتجهيزات الأمريكية (وأسوأ أمثلتها «نظرية الاختيار العقلانى»). وأسفر ذلك عن المزيد من تضييق قدرتهم على التحليل الجاد لأحوال بلدهم وتصرفاته. وعندما اقترن هذا بهروب العناصر الأممية القوية، أصبحت الانتلجنسيا مهياة لقبول الدعوة التبشيرية الوطنية المتلفعة بالرداء المتسامح لـ «نشر الديمقراطية».

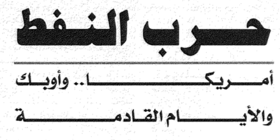
وقد حدث الآن مرتين خلال العقد الماضى أن أتاحت القوة العسكرية الساحقة والسيطرة الاقتصادية للولايات المتحدة الفرصة لقيادة بقية العالم عن طريق القدوة وتوافق الآراء. وكان فى وسعها أن تأخذ باستراتيجية (أخذت بها بدرجة محدودة للغاية فى ظل كلينتون) يتم من خلالها تخفيف هذه السيطرة وإعطاؤها غطاءً شرعيًا من خلال الكرم الاقتصادى والمسئولية الأيكولوجية، ومن خلال ضبط النفس الجيوسياسى، وإبداء «الاحترام لرأى البشرية» ـ على حد تعبير إعلان الاستقلال الأمريكى ـ كانت المناسبة الأولى هى انهيار الاتحاد السوفيتى الدولة العظمى المعادية وسقوط الشيوعية كأيديولوجيا. وكانت المناسبة الثانية هى الخطر الذى تمثل فى منظمة «القاعدة»، وقد ضاعت كلتا الفرصتين، ضاعت الأولى جزئيًا، ويبدو أن الثانية ضاعت نهائيًا. وما نشهده الآن هو مأساة دولة عظيمة، لديها دوافع نبيلة، ومؤسسات ناجحة، وإنجازات تاريخية رائعة، وطاقات هائلة، أصبحت خطرًا على نفسها وعلى البشرية. ■

بترتيب خاص مع
Londan Revien of Books
ترجمة: أسعد حليم

القول بأن الطريق
إلى سلام الشرق الأوسط يمر ببغداد،
قول تستخدمه إدارة بوش واللوبى الإسرائيلى.
وربما يكون بعض أعضاء الإدارة الأمريكية على اقتناع
حقيقى بأنه بتدمير أقوى أعداء إسرائيل الباقين،
فإن أسهمهم ستزيد لدى الإسرائيليين
واللوبى الإسرائيلى







حرب النفط

أمريكا.. وأوبك والأيام القادمة

حسين عبدالله

■■ ماذا تعني العبارة Energy Security في قاموس الدول الصناعية الغربية أعضاء منظمة OECD وهي أساسًا الولايات المتحدة وكندا وأوروبا واليابان وأستراليا؟

معناها ضمان وتأمين مصادر وإمدادات رخيصة للطاقة لمواجهة احتياجاتها المتزايدة والتي تزداد مع الوقت اعتمادا على الاستيراد. وإذ يمثل البترول أهم تلك المصادر (٤٠٪)، فإن فجوة العجز في احتياجات تلك المجموعة سوف تأخذ في الاتساع لكي ترتفع معها وارداتها البترولية من نحو ٢٦ مليون برميل يوميًا (ب/ى) في الوقت الحاضر إلى نحو ٤٠ مليون ب/ى بحلول عام ٢٠٢٠. وسوف يحدث هذا في وقت تشح فيه موارد البترول العالمية وتتركز إمداداتها في أيدي عدد قليل من الدول المصدرة له، وهذا ما يثير قلق المجموعة الصناعية الغربية التي تستهلك نحو ثلثي الاستهلاك العالمي من البترول وتنفرد الولايات المتحدة بربع ذلك الاستهلاك. ويبقى السؤال: كيف تستطيع تلك المجموعة تأمين احتياجاتها المتزايدة من هذا المصدر الاستراتيجي الحيوي، وهل تستخدم لتحقيق هذا الهدف أصول المعاملات التجارية والأعراف الدولية المتبعة، أم تستخدم وسائل الضغط السياسي والقهر العسكري لتحويل آليات السوق في صالحها وهي التي ترفع راية العولمة وحرية التجارة وتطلق لشركاتها العنان كي تفعل في الأسواق الدولية ما تشاء؟

بدهي أن تأمين الإمدادات البترولية لا يمكن أن يتحقق بدون تكلفة. فالاحتفاظ بمخزون استراتيجي كبير من البترول معناه رأس مال حبيس في نشاط لا يدر عائدًا مباشرًا، كما يتحمل أصحاب المخزون تكلفة إنشاء وإدارة وصيانة المخازن التي تحتويه فضلا عن التأمين ضد المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها. ويدخل في تلك التكلفة أيضًا ما تقيمه الولايات المتحدة من قواعد عسكرية بالقرب من منابع البترول تحسبًا لما يعتقد ساستها أنها عوامل تهدد تدفقه بالكميات التي تريدها وبالأسعار التي تناسبها.



وتأكيدًا لذلك يقول بيتر هين وزير الطاقة البريطاني السابق في مؤتمر تأمين الطاقة الذي عقد في لندن يوم ١٧ أكتوبر ٢٠٠٢ إن تكلفة حماية وتأمين الإمدادات البترولية التي مصدرها الشرق الأوسط وإن كانت الولايات المتحدة تتحمل الجانب الأكبر منها إلا أنها تكلفة باهظة إذ تتراوح بين ١٥-٢٥ دولارًا للبرميل. وينصح الوزير هين بأن أفضل الوسائل لتأمين الطاقة هي تطوير البدائل التي يمكن استخدامها في قطاع المواصلات (سيارات وبواخر وطائرات) والذي يكاد البترول أن يكون وقودها الوحيد. ومع ذلك يعود الوزير هين فيؤكد أنه على الرغم من المليارات التي أنفقت لتطوير تلك البدائل إثر أزمة البترول عام ١٩٧٣، فإن تلك المعجزة التكنولوجية لم تتحقق حتى الآن. إذ على الرغم من الجهود التي بذلت في البداية ونجحت في خفض استهلاك البترول إلى ما يقرب من نصف ما كان يمكن أن يصبح عليه بدونها، إلا أن تلك الجهود لم تلبث أن تراخت نتيجة لما طرأ على أسعار البترول من تدهور خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات.

كذلك أقرت المفوضية الأوروبية للاتحاد الأوروبي في ١١ سبتمبر ٢٠٠٢ مقترحين يستهدفان إقامة آليات فعالة لضمان الحصول بشكل دائم على منتجات الطاقة بأسعار مناسبة لمواطني الاتحاد الأوروبي Efficient mechanisms to guarantee permanent access to energy products at affordable prices to European citizens. . ويعتمد المقترح الأول على استخدام المخزون البترولي لمواجهة التقلبات الحادة في سعر البترول بينما كان هذا المخزون مخصصا فقط لمواجهة الانقطاع الطارئ للإمدادات وفقا لبرنامج وكالة الطاقة الدولية International Energy Agency التي أنشئت عام ١٩٧٤ لحماية مصالح الدول الصناعية الغربية في مجال الطاقة وبخاصة البترول. ويستند أنصار المقترح الأوروبي إلى أن النظام الذي وضع منذ ٣٠ عامًا لم يعد يلائم الظروف الجديدة التي تجمع دول الاتحاد الأوروبي في سوق واحدة تتسم بالتضامن وتتمتع بقوة تفاوضية يجب استثمارها لصالح مواطنيها.

أما المقترح الأوروبي الثاني فيتعلق بإمدادات الغاز الطبيعي ويحاول التوفيق بين التناقض القائم بين مطالب منتجي الغاز وبين إجراءات الاتحاد الأوروبي التي استنت لتحرير أسواق الغاز وزيادة التنافسية فيها وذلك بهدف خفض أسعاره. فمنتجو الغاز يؤكدون استحالة توفير التمويل اللازم لتوسيع الطاقة الإنتاجية للغاز ما لم يكن التعاقد مع الدول المستوردة للغاز على أساس عقود طويلة الأجل ضمانًا لتلك الاستثمارات. هذا على حين تستهدف الإجراءات الأوروبية تحرير أسواق الغاز بالتعامل على أساس عقود قصيرة الأجل والتوسع في الأسواق الفورية للغاز حيث ينخفض السعر لاعتبارات تتعلق بطبيعة تلك السوق ولا تنطبق على العقود طويلة الأجل.

وتحقيقًا لما تستهدفه المفوضية الأوروبية فإنها توصي بزيادة حجم المخزون البترولي بحيث يغطي احتياجاتها لمدة ١٢٠ يوما بدلاً من ٩٠ يومًا وهو المستوى الذي قررته وكالة الطاقة الدولية في أعقاب أزمة ١٩٧٣، كذلك تقترح المفوضية أن يكون المؤشر الداعي لإطلاق المخزون البترولي إلى الأسواق عندما يبدو أن فاتورة الواردات البترولية لمجموع دول الاتحاد الأوروبي سوف تتجاوز ٠,٥٪ (نصفًا في المائة) من الناتج المحلي الإجمالي للمجموعة (وهو ما يتحقق عندما يقترب السعر من ٣٠ دولارًا للبرميل في الوقت الحالي).

وإذ تدرك المفوضية أهمية التنسيق مع منتجي البترول والغاز، فإنها تدعو إلى تنشيط الحوار الدائر معهم في إطار المنتدى العالمي للطاقة International Energy Forum والذي انعقدت آخر دوراته في أوزاكا باليابان خلال سبتمبر ٢٠٠٢ وكان انعقاد أولى دوراته في فرنسا عام ١٩٩١ وثانيها في النرويج عام ١٩٩٢ وهما الدورتان اللتان شارك فيهما الكاتب ورفضت الولايات المتحدة المشاركة فيهما كما وقفت الدول الصناعية الأخرى فيهما موقف الرفض من مناقشة الأسعار.

وإذا كانت دعوة الاتحاد الأوروبي لتنشيط هذا الحوار الآن تدل على شيء فإنما تدل على ما تتوقعه من ازدياد شحة البترول خلال المستقبل المنظور، ومن ثم اتجاه الأسعار إلى الارتفاع حتى بدون تنسيق من جانب منتجي البترول. وبدهي أن القول بأن السوق البترولية مقبلة على فترة تشح فيها الإمدادات لا يعني أن الإنتاج العالمي منه سوف يأخذ في الانخفاض المطلق، وإنما المقصود أن الإنتاج العالمي من البترول سوف لا يتجاوب ارتفاعا بالمعدلات التي يتزايد بها الطلب العالمي عليه. وهذا هو المقصود بالشحة التي ينعكس أثرها في السعر وليس في توفر الإمدادات ذاتها.

انفراد الولايات المتحدة بموقف خاص:

هكذا تقف أوروبا من قضية تأمين الإمدادات البترولية موقفًا سلميًا، وتعالجه في إطار العلاقات التجارية المعتادة، وإن كانت تقوم بتنسيق مواقفها واستخدام قوتها التفاوضية في إطار جماعي. وهذا في ذاته يعتبر عملا مشروعًا وإن كانت الدول الأوروبية تضج بالشكوى عندما تقوم أوبك بعمل مماثل لوقف تآكل أسعار البترول سواء في صورتها الاسمية أم في صورتها الحقيقية.

أما الولايات المتحدة فإنها تنتهج نهجًا مخالفًا في هذا المجال، إذ تبادر بالضغط السياسي على الدول المصدرة للبترول كلما ارتفع سعره، وتبعث ممثليها لإقناع تلك الدول بزيادة الإنتاج وخفض الأسعار. وفي الآونة الأخيرة اتخذ الضغط الأمريكي منحى أشد عنفًا إذ أدخلت في إطار «محور الشر» المستهدف بضرباتها العسكرية كلا من إيران والعراق وهما من دول أوبك التي كانت توصف بالصقور في مداولات المنظمة حول الإنتاج والأسعار.

ويمكن البحث عن دوافع الولايات المتحدة لتبني هذا الاتجاه بتحليل موقفها البترولي في الحاضر وعبر المستقبل المنظور. فقد بلغ استهلاكها من الطاقة بكافة مصادرها خلال ٢٠٠٠ نحو ٢٢٨٨ مليون طن بترول معادل أو ما يعادل ٤٩ مليون ب/ى (أي بعد تحويل المصادر غير البترولية إلى ما يعادلها حراريًا من البترول) وهو ما يعادل ٢٥٪ من الاستهلاك العالمي من الطاقة والذي بلغ نحو ٩٠٩٦ مليون طن بترول معادل (١٩٥ مليون ب/ى) خلال العام المذكور.

ويمثل البترول نحو ٤٠٪ من استهلاك الولايات المتحدة من الطاقة، كما يمثل الغاز الطبيعي نحو ٢٥٪، بينما يشترك فيما تبقى كل من الفحم والطاقة النووية والطاقة المائية وغيرها من مصادر الطاقة الجديدة والمتجددة.

الولايات المتحدة لا تقبل أن يمارس منتجو البترول حقهم المشروع فى إدارة مرفق البترول الذى يكاد يكون مصدرهم الوحيد للحياة، وتثور ثائرتها عندما يمارس هؤلاء المنتجون من الحرية فى السوق قدرًا لا يقارن بما تمارسه شركاتها العالمية



ويختلف نمط استهلاك البترول فى الولايات المتحدة عن نظيره فى أوروبا، إذ يستخدم الجانب الأكبر من البترول فى الولايات المتحدة فى قطاع المواصلات الذى يحتل مرتبة حيوية فى الحياة اليومية للمواطن الأمريكى ويجعله يجأر بالشكوى متى ارتفع سعر الوقود سنتات قليلة. أما فى أوروبا فإن استهلاك البترول يتوزع توزيعًا متوازنًا بين مختلف القطاعات من مواصلات وصناعة وتوليد كهرباء.

كذلك يختلف نمط تسعير المنتجات البترولية التى يحصل عليها المستهلك النهائى، إذ يبلغ سعر البرميل من تلك المنتجات فى السوق الأوروبية واليابان نحو ١٠٠ مائة دولار، بينما لا يتجاوز هذا السعر فى الولايات المتحدة ٤٧ دولارًا. ويرجع التفاوت بين السعرين إلى التفاوت بين ما يفرض من الضرائب فى الجهتين، إذ تبلغ الضرائب الأوروبية نحو ٦٨ دولارًا للبرميل بينما لا تتجاوز ١٥ دولارًا فى الولايات المتحدة التى يحرص ساستها على تدليل المواطن الأمريكى فيما يتعلق باستخدامه للسيارة والتى تمثل جانبا مهمًا فى حياته اليومية. ولذلك لم يكن غريبًا أن يحتل الارتفاع الطارئ فى سعر البنزين عام ٢٠٠٠ المرتبة الأولى فى الحملة التى شنها بوش ضد حكومة كلينتون أثناء انتخابات الرئاسة فى العام المذكور.

وبينما يمثل سعر البترول الخام الذى تستورده أوروبا واليابان واصلا موانيها نحو ٢٠٪ من السعر النهائى للمستهلك، فإن تلك النسبة ترتفع إلى ٤٠٪ فى الولايات المتحدة. ولذلك فإن ارتفاع أو انخفاض سعر البترول الخام يجد عند المستهلك الأمريكى صدى أقوى نسبيًا من نظيره لدى المستهلك الأوروبى. وهذا ما مهد الطريق أمام قاض فدرالى فى ولاية الاباما الأمريكية لكى يصدر قرارًا فى أبريل ٢٠٠١ يتهم فيه أوبك أنها تتواطأ بهدف تقييد حرية التجارة فى البترول مخالفة بذلك قوانين مكافحة الاحتكار الأمريكية مما دفع أوبك إلى الاستعانة بمحامين للدفاع عنها، وما زالت القضية تتداول فى المحاكم الأمريكية حتى الآن. كذلك تقدم منذ وقت وجيز عضوان فى مجلس الشيوخ الأمريكى بمشروع قانون يستهدف تمكين وزارة العدل الأمريكية ووكالة التجارة الأمريكية من إقامة الدعوى القضائية ضد أية دولة أجنبية، بما فى ذلك الدول أعضاء أوبك، وذلك فى حالة وجود اتفاق ينطوى على تواطؤ لتحديد أسعار البترول أو حجم إنتاجه. وتدعيمًا لذلك الاتجاه يحرض السناتور هيرب كوهل ضد أوبك بقوله إن الشعب الأمريكى يعانى كل يوم من مصاعب حقيقية نتيجة لتصرفات أوبك، كما يتابع السناتور مايك دوين نفس النغمة التحريضية بقوله إنه مادامت أوبك تركت لكى تتحكم فى العرض العالمى للطاقة فإن علينا أن نتوقع المزيد من الصدمات والمزيد من المشاكل التى يعانى منها المستهلك الأمريكى.

فى ضوء تلك الخلفية يمكننا الآن أن نتقصى الآثار المحتملة لازدياد اعتماد الولايات المتحدة على استيراد البترول، ومدى انعكاس تلك الآثار على سياسة الولايات المتحدة تجاه مصدرى البترول عمومًا، وتجاه المنطقة العربية التى تضم ثلثى احتياطات البترول بصفة خاصة.

ففى عام ١٩٨٠ بلغ الاستهلاك المحلى من البترول فى الولايات المتحدة نحو ١٧ مليون ب/ى بينما لم يتجاوز إنتاجها منه نحو ١١ مليون ب/ى، وبذلك بلغ العجز ٦ ملايين ب/ى أو ما يعادل ٣٥٪ من احتياجاتها البترولية. أما فى عام ٢٠٠١ فقد انخفض الإنتاج المحلى إلى نحو ٧,٧ مليون ب/ى بينما ارتفع الاستهلاك إلى نحو ١٩,٦ مليون ب/ى، وبذلك ارتفع العجز إلى نحو ١٢ مليون ب/ى وهو ما يعادل ٦٠٪ من احتياجاته البترولية.

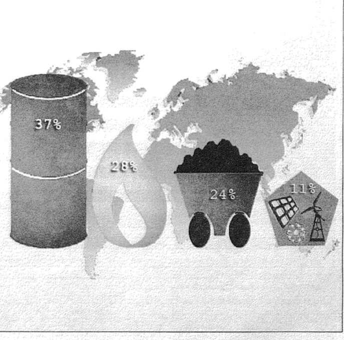
بذلك صارت قيمة فاتورة الواردات البترولية فى الولايات المتحدة تتراوح خلال السنوات الأخيرة بين ٨٠ و١٠٠ مليار دولار سنويًا. وكمثال على مدى تأثير سعر البترول الخام على تلك الفاتورة فإن انخفاض سعره خلال ١٩٩٨ من ١٨ إلى ١٢ دولارا أدى إلى انخفاض فاتورة الواردات الأمريكية من البترول بنحو ٢٥ مليار دولار، بينما انخفضت إيرادات الدول أعضاء أوبك بنحو ٥٦ مليار دولار وما يقرب من تلك القيمة لباقى الدول المصدرة للبترول غير الأعضاء فيها، وكلها تقريبا دول نامية تعتمد على إيرادات سلعة وحيدة وناضبة فى تمويل احتياجاتها الجارية والتنموية.

وإذ يتوقع أن يرتفع استهلاك الولايات المتحدة بحلول عام ٢٠٢٠ إلى نحو ٢٦ مليون ب/ى بينما لا يتجاوز إنتاجها المحلى فى العام المذكور نحو ٩ ملايين ب/ى، فإن اعتمادها على الاستيراد يمكن أن يرتفع من ١٢ مليون ب/ى إلى نحو ١٧ مليون ب/ى بحلول العام المذكور، وكنسبة مئوية إلى ٦٥٪ من إجمالى الاحتياجات البترولية.

وإذا تركت أسعار البترول لكى تحددها قوى السوق دون ضغط من جانب الدول الصناعية الغربية بقيادة الولايات المتحدة، فإن تلك الأسعار، يمكن أن ترتفع إلى مستويات شاهقة وترتفع معها فاتورة الواردات البترولية إلى ما يقرب من نصف تريليون دولار سنويا بالدولارات الجارية (وذلك على أساس معدل للتضخم ٣٪ سنويًا فى المتوسط وزيادة حقيقية فى السعر بمعدل ٢٪ سنويا وهو ما يمثل معدل نمو الطلب العالمى على البترول وفقا لمبدأ سبق إقراره فى اتفاقية طهران عام ١٩٧١، وإن كانت تلك الاتفاقية لم تعد قائمة).

ولكن الولايات المتحدة لا تقبل أن يمارس منتجو البترول حقهم المشروع فى إدارة مرفق البترول الذى يكاد يكون مصدرهم الوحيد للحياة، وتثور ثائرتها عندما يمارس هؤلاء المنتجون من الحرية فى السوق قدرًا لا يقارن بما تمارسه شركاتها العالمية، وخاصة الشركات المنتجة للسلاح وللتكنولوجيا المتقدمة Hi Tech، والتى تمنح وتمنع من ينتفع بها، كما تحدد ما تراه محققا لأرباحها الاحتكارية الباهظة. وإنما تعتبر الولايات المتحدة كحق مشروع لها أن تفرض على الدول المصدرة للبترول إنتاج القدر الذى يغرق السوق ويؤدى إلى خفض الأسعار. وقد كانت تلك هى الرسالة التى حملها وزير الطاقة الأمريكى ريتشاردسون أثناء الرحلة التى توجه فيها لدول الخليج مارا بالقاهرة فى فبراير ٢٠٠٠ مناديًا بزيادة الإنتاج وخفض أسعار البترول التى ادعى أن ارتفاعها يضر الاقتصاد العالمى ويساهم فى زيادة حدة التضخم. وقد علق الكاتب على المحاضرة التى ألقاها الوزير الأمريكى فى القاهرة فأوضح له أن سعر الزيت الخام لا يمكن أن يكون سببًا فيما يدعيه، أولا لأن المحتوى البترولى فى المنتجات الصناعية قد انخفض بحكم التقدم التكنولوجى إلى أقل من نصف ما كان عليه عام ١٩٧٣ عندما صححت أسعار البترول لأول مرة فى ظل حرب أكتوبر، وثانيا، لأن سعر البترول خلال عقد التسعينيات لم يتجاوز ١٧ دولارا فى المتوسط، وهو ما يعادل فى قيمته الحقيقية نحو ٤,٨٠ دولار بدولارات ١٩٧٣. أما السبب الحقيقى لما تعانى منه الاقتصادات الغربية فينبغى البحث عنه فى مجالات أخرى لصيقة بتلك الاقتصادات ومنبثقة عنها. وإذا كان منها ما يتصل بالبترول فهو ناتج عن ارتفاع الضرائب التى تفرضها حكومات الدول الصناعية على المنتجات البترولية وتغذى بها خزائنها والتى تصل لنحو ٧٠ دولارا للبرميل فى المتوسط، وتبلغ نحو ٩٥ دولارا فى دولة مثل بريطانيا وهى دولة منتجة للبترول وتعرف كيف تقتنص القدر الأكبر من الريع البترولى، بينما تضن على الدول البترولية النامية بممارسة مثل هذا الحق. بل إن الدول الصناعية لا تسمح بانتقال الانخفاض الذى يطرأ على سعر البترول الخام - فى صورته الاسمية أو صورته الحقيقية - إلى المستهلك النهائى. ومن ذلك أن انهيار السعر من نحو ٢٨ دولارا عام ١٩٨٥ إلى نحو ١٨ دولارا عام ١٩٨٧ لم تقابله الدول الأوروبية إلا بزيادة ضرائبها البترولية من نحو ٢٢,٥٠ دولار للبرميل عام ١٩٨٥ إلى نحو ٣٠ دولارا حيث استمرت تلك الضرائب فى الارتفاع إلى أن بلغت المستوى الذى ذكرناه. ويأتى مشروع الاتحاد الأوروبى لفرض ضريبة الكربون بحجة حماية البيئة كعبء إضافى على هيكل الضرائب البترولية فى الدول الأوروبية المستوردة للبترول.

ولا تسعى الولايات المتحدة فقط لتأمين احتياجاتها البترولية وبأقل الأسعار، سواء بالضغط السياسى كما كان يحدث فى الماضى أم بوسائل أشد عنفا كما هو متوقع فى إطار الحرب التى تشنها الولايات المتحدة ضد ما تطلق عليه الإرهاب العالمى. بل إن الولايات المتحدة التى تعتبر مسئولة عن ربع ملوثات الغلاف الجوى، بحكم استهلاكها لربع الطاقة العالمية، تتنصل من الالتزام الذى أقره العالم فى إطار بروتوكول كيوتو الذى يلزم الدول الصناعية بخفض مبتعثاتها الكربونية المسببة لاحترار الغلاف الجوى والذى يهدد نوعية الحياة على كوكب الأرض. وكما هو معروف، فقد أعلن الرئيس بوش عقب توليه السلطة أنه لن يقوم بالتصديق على البروتوكول وما زال يصر على ذلك. («وجهات نظر» عدد أغسطس ٢٠٠٢).



من المتوقع أن يمثل البترول ٣٧٪ من استهلاك الطاقة العالمية، يتبعه الغاز الطبيعى ٢٨٪، ويتبقى ٢٤٪ لباقى أنواع الوقود الحفرى، أما باقى مصادر الطاقة فتمثل ١١٪ فقط.

شح الإمدادات البترولية:

فى تقريرها الذى أذاعته وكالة الطاقة العالمية أثناء انعقاد منتدى الطاقة العالمى International Energy Forum فى أوزاكا فى سبتمبر ٢٠٠٢ تؤكد أن مصادر الوقود الحفرى (البترول والغاز الطبيعى والفحم) سوف تمثل نحو ٩٠٪ من الزيادة المتوقعة فى الاستهلاك العالمى من الطاقة حتى عام ٢٠٣٠ والذى يتوقع أن ينمو بمعدل ٢,١٪ سنويا فى المتوسط لكى يرتفع من نحو ٩,٢ مليار طن بترول معادل (١٩٤ مليون ب/ى) عام ٢٠٠٠ إلى نحو ١٥,٣ مليار طن بترول معادل (٣٢٥ مليون ب/ى) عام ٢٠٣٠، كذلك يؤكد



التقرير أن الوقود الحفرى سوف يظل يغطى نحو ٨٩٪ من الاستهلاك العالمى من الطاقة وأن نصيب البترول من ذلك الاستهلاك لن يقل عن ٣٧٪ بحلول العام المذكور، كما سيرتفع نصيب المواصلات فى استهلاك البترول من نحو ٤٧٪ فى الوقت الحاضر إلى ٥٥٪ بحلول عام ٢٠٣٠، وبعبارة أخرى فإن البترول سيظل يمثل أكثر من ثلث استهلاك العالم من الطاقة على مدى ثلث القرن الحالى، كما سيزداد الاعتماد عليه فى القطاع الذى لا يوجد له فيه منافس قوى وهو قطاع المواصلات.

أما نصيب الغاز الطبيعى فيتوقع أن يرتفع خلال الفترة المذكورة من ٢٣٪ إلى ٢٨٪ من الاستهلاك العالمى من الطاقة، لنظافته بيئيا وسهولة تداوله واستخدامه وارتفاع كفاءته فى توليد الكهرباء. وبذلك يبلغ نصيب البترول والغاز الطبيعى معا نحو ٦٥٪ من الاستهلاك العالمى بحلول عام ٢٠٣٠، وهو ما يدعم الموقف التفاوضى للدول المصدرة للبترول والغاز، خلافا لما يدعيه البعض من أن العالم سوف يستغنى عنهما مما يثير المنافسة بين المنتجين لتسويقهما بأقل الأسعار.

وكما يستخلص من نتائج الدراسات المتاحة، فإن الطلب العالمى على البترول سوف ينمو بمعدل ٢٪ سنويا فى المتوسط خلال الفترة ٢٠٠٠-٢٠٢٠، وبذلك يرتفع استهلاكه العالمى من نحو ٧٥ مليون ب/ى عام ٢٠٠٠ إلى نحو ١١١ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠ وهو ما يزيد بنحو ٣٦ مليون ب/ى أو ما يعادل ٤٨٪.

أما بالنسبة للعرض العالمى للبترول فإن أغلب الدراسات الغربية تبدأ بتقدير الاحتياجات العالمية منه، ثم تقوم بتقدير الإنتاج المتاح خارج دول أوبك لكى تنتهى بما ينبغى على أوبك أن تقوم بسده معبرا عنه بفجوة العجز. ومن الواضح أن الفصل بين أوبك وبين غيرها من المنتجين فى معالجة العرض العالمى من البترول إنما يرجع إلى توجهات الهيئات البحثية الغربية والتى تفترض قيام أوبك بدور المنتج المكمل Residual producer، بمعنى أنها مطالبة بتوسيع طاقتها الإنتاجية، وخاصة فى منطقة الخليج العربى، بحيث تقوم بسد الفجوة بين الإنتاج خارجها وبين الاحتياجات العالمية المتزايدة من البترول.

وإذ يتركز اهتمام الهيئات البحثية الغربية حول مصالح الدول الصناعية الغربية، فإنها تتوقع أن يرتفع استهلاكها البترولى بحلول عام ٢٠٢٠ إلى نحو ٥٨ مليون ب/ى، فى حين لا يتجاوز إنتاجها المحلى فى ذلك العام ١٨ مليون ب/ى، وبذلك ترتفع فجوة العجز من نحو ٢٦ مليون ب/ى عام ٢٠٠٠ إلى نحو ٤٠ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠ (منها نحو ١٧ مليون ب/ى فى الولايات المتحدة وحدها ونحو ١٦ مليون ب/ى فى أوروبا الغربية ويتوزع الباقى بين اليابان وباقى المجموعة).

وإذ ترى تلك الهيئات أيضا أن المجموعة الصناعية الغربية سوف تعتمد على دول أوبك الواقعة فى منطقة الشرق الأوسط لتوفير نحو ٧٦٪ من وارداتها البترولية بحلول ٢٠٢٠، وأن المنافسة قد تحتدم للحصول على البترول من جانب الدول النامية التى يتزايد استهلاكها بمعدلات تفوق معدل الزيادة فى الدول الصناعية، فإنها تدعو الدول الصناعية الغربية لاتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة هذا الموقف.

فما هى الدول التى يمكن ان يتركز عليها الضغط الغربى للوفاء بتلك الاحتياجات وسد فجوة العجز خلال المستقبل المنظور؟

لا يوجد سوى أوبك التى يتوقع أن ترتفع طاقتها الإنتاجية من نحو ٣١ مليون ب/ى عام ٢٠٠٠ إلى نحو ٦٠ مليون ب/ى بحلول عام ٢٠٢٠، وفى داخل أوبك يوجد ست دول فقط ممن سيكون لديها القدرة على توسيع وتنمية طاقتها الإنتاجية بحيث ترتفع من نحو ٢٤ مليون ب/ى حاليا إلى نحو ٤٨ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠، وهذه الدول الست هى السعودية والإمارات والكويت والعراق وإيران، ثم فنزويلا.

بذلك يرتفع نصيب أوبك من الطاقة العالمية لإنتاج البترول بحلول ٢٠٢٠ إلى ٥٤٪ كما يرتفع نصيب الدول الست الكبار إلى نحو ٤٣٪. أما الدول الخمس الباقية من أعضاء أوبك، فلا يتوقع أن تتجاوز طاقتها الإنتاجية مجتمعة نحو ١٢ مليون ب/ى على تفاوت فى الأنصبة الفردية.



وإذا أضيف إلى الدول الأربع العربية داخل مجموعة الستة الكبار من سوف تسعفه احتياطاته من البترول للمساهمة فى الإمدادات العالمية مثل عمان والجزائر وليبيا، فإن إنتاج البترول العربى (متضمنا سوائل الغاز الطبيعى) يمكن أن يرتفع من نحو ٢٣,٥ مليون ب/ى فى الوقت الحاضر إلى نحو ٤٥ مليون ب/ى بحلول ٢٠٢٠، وبإضافة إنتاج إيران المقدر بنحو ٥,٥ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠، فإن المنطقة العربية، ومعها إيران، يمكن أن تزود العالم بنحو ٤٥٪ من احتياجاته عام ٢٠٢٠، كما يمكنها أن تساهم بنحو ٦٣٪ من صادرات البترول العالمية المتوقعة خلال العام المذكور وتقدر بنحو ٧٠ مليون ب/ى.

هذه هى توجهات أغلب الهيئات البحثية الغربية والتى تفترض أن دول أوبك، وخاصة دول الخليج العربى، سوف تلعب دور المنتج المكمل، وأن إمكانياتها البترولية سوف تتسع لكى تفى باحتياجات العالم المتزايدة عند الأسعار المتدنية التى تبنتها افتراضات تلك الهيئات.

غير أن وكالة الطاقة الدولية IEA التى تضم وتخدم مصالح الدول الصناعية الغربية، تتبنى توجها مختلفا، وهو فى نظرنا الأقرب للواقع. إذ تفرق الوكالة بين ما تطلق عليه البترول التقليدى والبترول غير التقليدى. وتتوقع الوكالة أن يبلغ إنتاج البترول التقليدى ذروته فى منتصف العقد الثانى من القرن الواحد والعشرين (أى حوالى ٢٠١٥) ليبدأ بعد ذلك مرحلة النضوب الطبيعى تدريجيا وبذلك يتوقع أن يرتفع إنتاجه من ٦٤ مليون ب/ى فى الوقت الحاضر إلى نحو ٧٢ مليون ب/ى ٢٠٢٠، أما البترول غير التقليدى ومن أمثلته سوائل الغاز الطبيعى وفوائض التكرير والبترول المستخلص من الطفل البترولى ومن رمال القار ومن الفحم..إلخ، فإن الوكالة تتوقع أن يرتفع إنتاجه، من نحو ١٠ ملايين ب/ى فى الوقت الحاضر إلى نحو ٢٠ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠.

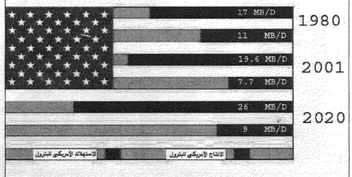
فى ضوء هذا التعريف المزدوج للبترول، يتوقع أن يرتفع إجمالى العرض العالمى من البترول بنوعيه من نحو ٧٥ مليون ب/ى فى الوقت الحاضر إلى نحو ٩٢ مليون ب/ى بحلول ٢٠٢٠، وإذ تقدر وكالة الطاقة الدولية احتياجات العالم البترولية عام ٢٠٢٠ بنحو ١١١ مليون ب/ى فإن العالم يمكن أن يواجه عام ٢٠٢٠ عجزًا يقدر بنحو ١٩ مليون برميل يوميًا، وهو ما ينبغى توفيره من مصادر بترولية غير تقليدية وغير معلومة فى الوقت الحاضر.

ولعل مما يساند رؤية الوكالة ما توصل إليه بعض خبراء جيولوجيا البترول العالميين من أن عصر الحقول العملاقة قد ولى، وأن أغلب ما اكتشف فى الماضى القريب كان من الحقول الصغيرة أو فى مناطق صعبة، وأن العالم لم يتمكن من تعويض ما استخرج منه على مدى السنوات العشرين الماضية. كذلك يتوقع هؤلاء الخبراء أن الإنتاج العالمى من البترول سوف يتجه إلى الانخفاض المطرد فى منتصف العقد الثانى من القرن الواحد والعشرين، ويؤكدون أن نحو ٨٠ بالمائة من الإنتاج الحالى يتدفق من حقول اكتشفت قبل ١٩٧٣ وبدأ أغلبها بالفعل رحلة النضوب المطرد. كذلك يعارض هؤلاء الخبراء التقارير التى تدعى أن احتياطات البترول قد ارتفعت خلال السنوات العشرين الماضية ويصفون الزيادة بأنها وهمية، ويؤكدون أن العالم بعد أن استهلك بالفعل ما يقرب من ثلث الثروة البترولية (٧١٨ مليار برميل حتى عام ٢٠٠١)، سوف يواجه صعوبات متزايدة فى استخلاص الباقى (ويقدر بنحو ٩٥٩ مليار برميل كاحتياطات مؤكدة ونحو ٩٣٩ مليار برميل لم يتم اكتشافها بعد).

ومما يؤكد تلك الرؤية أيضًا أن بعض الزيادات التى أدخلت على حجم الاحتياطات البترولية كانت زيادات وهمية، إذ قامت بعض دول أوبك خلال النصف الثانى من عقد الثمانينيات بزيادة حجم احتياطياتها البترولية بنحو ٧٠٪ دفعة واحدة وكان أغلب تلك الزيادة ناتجًا من إعادة التقدير Revision أكثر منه نتيجة لجهود استكشافية جديدة. ومن ذلك أن الدول البترولية الست الكبار (الخمس الخليجية ومعها فنزويلا) قامت برفع حجم احتياطياتها خلال الفترة ١٩٨٥-١٩٨٩ من ٤١٣ مليار برميل إلى ٧٠٤ مليارات برميل، وكان الدافع الأساسى لتلك الزيادة محاولة كل دولة عضو فى أوبك استخدام تلك الزيادة لرفع حصتها من الإنتاج بعد أن لجأت أوبك لنظام الحصص كوسيلة لوقف تدهور أسعار البترول التى انهارت إلى النصف عام ١٩٨٦.

وكما يستخلص من بيانات المساحة الجيولوجية الأمريكية US Geological Survey data لعام ٢٠٠٢ فإن الاحتياطات البترولية العالمية المؤكدة حتى الآن (بما فى ذلك سوائل الغاز الطبيعى) تبلغ نحو ٩٥٩ مليار برميل وذلك بنقص قدره ١١٪ عن التقديرات التى تتبناها أوبك وجهات أخرى وتقدرها بنحو ١٠٧٧ مليار برميل (بدون سوائل الغاز الطبيعى). كذلك تبرز البيانات الأمريكية المذكورة تباينًا كبيرًا فى تقديرات احتياطات دول أوبك إذ تقدرها بنحو ٦١٢ مليار برميل بينما تبلغ تقديرات أوبك لهذه الاحتياطات نحو ٨٤٧ مليار برميل. وفى ضوء تلك التقديرات، وأخذًا فى الاعتبار أن الإنتاج العالمى من البترول يمكن أن يبلغ نحو ٩٣ مليون ب/ى كمتوسط سنوى خلال الفترة ٢٠٠٠-٢٠٢٠، فإن عدد سنوات نضوب الاحتياطى أو ما يطلق عليه نسبة الاحتياطى إلى الإنتاج (R/P ratio) (وهو مؤشر متعارف عليه فى صناعة البترول) يمكن أن تنخفض من ٣١,٧ سنة إلى ٢٨,٣ سنة.

وإذا صح أن الأرقام المتداولة بالنسبة لاحتياطات أوبك تتجاوز الحقيقة كما توضحها تقديرات المساحة الجيولوجية الأمريكية بنحو ٣٨٪، فإن ما يشاع عن قدرة أوبك على سد فجوة العجز العالمى المتزايد يصبح موضعا للشك، كما يبعث على التساؤل عن أصحاب المصلحة فى إقناع أوبك بأن لديها ما يكفى لزيادة طاقتها الإنتاجية إلى مثلى حجمها الحالى وذلك على غير أساس من الواقع. وإذا تحققت تلك الشكوك حول حجم الاحتياطات فى دول أوبك، فإن استجابتها لمطالبة الدول الصناعية الغربية



فى عام ١٩٨٠ بلغ الاستهلاك المحلى من البترول فى الولايات المتحدة نحو ٢٧ مليون ب/ى. وبذلك بلغ العجز ٦ مليون ب/ى أو ما يعادل ٣٥٪ من احتياجاتها البترولية. أما فى عام ٢٠٠١ فقد انخفض الانتاج المحلى الذى نحو ٧,٧ مليون ب/ى بينما ارتفع الاستهلاك إلى نحو ١٩,٦ مليون ب/ى وهو ما يعادل ٦٠٪ من احتياجاتها البترولية. كما يتوقع أن يرتفع استهلاك الولايات المتحدة بحلول عام ٢٠٢٠ إلى نحو ٣٦ مليون ب/ى بينما لا يتجاوز انتاجها المحلى فى العام المذكور نحو ٩ مليون ب/ى. فإن اعتمادها على الاستيراد يمكن أن يرتفع من ١٢ مليون ب/ى إلى نحو ١٧ مليون ب/ى بحلول العام المذكور. وكنسبة مئوية إلى ٦٥٪ من اجمالى الاحتياجات البترولية.

بسد فجوة العجز المتزايد يمكن أن يلحق ضررًا بالغًا بتلك الاحتياطات ويعجل باستنفادها فى زمن يقل كثيرا عما تبرره معايير الإنتاج الرشيد والاعتبارات الاقتصادية التى تحقق مصالح الدول المصدرة للبترول.

مواجهة أم مصالحة:

كما أوضحنا، فإن البترول يعتبر - وسيظل - يعتبر واحدًا من أهم مصادر الطاقة، إذ يمثل نحو ٤٠٪ من الاستهلاك العالمى للطاقة وسيظل يحتل نفس المكانة خلال المستقبل المنظور. ومن ثم فإن العلاقة بين الدول المصدرة للبترول والدول المستوردة له سوف تظل بالضرورة ممتدة ووثيقة على مدى هذا المستقبل.

والسؤال الذى يطرح نفسه: هل ستمتد تلك العلاقة امتدادا طبيعيا بصورتها التقليدية التى لا تخلو من الضغط السياسى من جانب الدول الصناعية المستوردة، أم أن أحداث سبتمبر سوف تضيف إلى تلك العلاقة بعدًا جديدًا؟

إن الواضح من تداعيات أحداث سبتمبر أن الدول الغربية بقيادة الولايات المتحدة قد ابتكرت ما تطلق عليه «الحرب ضد الإرهاب». وقد اتخذت تلك الحرب ذريعة للالتفاف حول الشرعية على المستويين الدولى والمحلى. فعلى الصعيد المحلى أخذت تلك الدول تمارس فى تطبيقها للقانون أساليب مقيدة للحريات التى تعود المواطن الغربى على التمتع بها. وتبدو تلك الظاهرة أكثر وضوحا فى الولايات المتحدة التى تسلب فيها أبسط الحقوق الإنسانية للمواطن غير الأمريكى، إذ يحرم من يشك فى صلته بما سمى الإرهاب من الانتفاع بحقوقه القانونية بما فى ذلك حقه فى إقامة محام للدفاع عنه أمام القضاء. ومن ثم صار ممكنا أن يعتقل المشتبه لمدة غير محددة دون أن توجه إليه تهمة ودون أن يقدم للقضاء.

وأما على الصعيد الدولى فقد توسع أنصار تلك الحرب فى تعريف الإرهاب بحيث صار يطبق على كل من يتعارض سلوكه مع مصالح الدول الصناعية الغربية.

هكذا تتسع دائرة التعريف الأمريكى لصفة الارهاب بحيث لن يستغرب أن تطلق يوما على من يحاول تنسيق إمداداته من البترول أو مساندة أسعاره وحمايتها من التآكل، وذلك بدعوى أن هذه السياسة تهدد أمن المواطن الغربى وتعرض اقتصاده للدمار. وحينئذ قد لا يتردد المتشددون فى الدول الصناعية الغربية فى المطالبة بتجاوز الضغط السياسى المعتاد إلى ممارسة ضغوط أشد عنفا مثل ما يخطط له من ضرب العراق. ونحن لا نشك فى أن الإصرار الأمريكى على ضرب العراق، رغم ما يلقاه من معارضة عالمية قوية، لا يعدو أن يكون مقدمة لهذا الاتجاه. كما لا نشك فى أن تكريس الوجود الأمريكى فى الخليج، وما يقترن به من عودة شركات البترول العالمية للعمل فى قطاع البحث عن البترول والغاز وإنتاجه فى المنطقة، يمثلان شقى الرحى التى تستهدف السيطرة على البترول العربى ليس فقط فى العراق بل فى منطقة الخليج بكاملها وتحويل مسار الصناعة إلى ما يخدم المصالح الغربية، وبخاصة الأمريكية.

ولقد بدأ بالفعل مؤخرا صراع محموم حول توزيع الأنصبة فى البترول العراقى عقب إزاحة صدام حسين، إذ شاعت المخاوف حول نية الولايات المتحدة قصر هذا النشاط على شركاتها البترولية. ومما يؤكد ذلك ما أعلنته قيادات المعارضة العراقية المقيمة فى الخارج من أن جميع العقود البترولية التى أبرمتها حكومة صدام سوف تخضع للمراجعة، كما أن تلك القيادات على موعد للالتقاء بممثلى الخارجية الأمريكية فى أوائل ديسمبر ٢٠٠٢ للتباحث حول مستقبل البترول والغاز العراقى بعد صدام حيث تتجه النية لتكوين مجموعة مشتركة من تلك القيادات ومن خبراء وزارة الطاقة الأمريكية لعمل الترتيبات اللازمة فى هذا المجال. وكرد فعل لتلك المخاوف أعلن جون براون رئيس الشركة البريطانية للبترول يوم ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٢ أنه ينبغى إتاحة فرص متكافئة لجميع شركات البترول فيما يتعلق بالتعاقد على بترول العراق فى حالة تغيير نظام الحكم فى العراق. كذلك أخذت الشركات الروسية التى سبق لها التعاقد مع الحكومة العراقية تلهث وراء حكومتها لكى تسعى لدى الأمريكان للاحتفاظ بحقوقها التعاقدية مؤكدة أنها لن تمارس أية أنشطة قبل أن يرفع الحظر رسميا عن العراق. وهذه هى الورقة التى ظلت إدارة بوش تلوح بها للحصول على موافقة الروس فى تفويض الولايات المتحدة بضرب العراق.

هذه هى نوعية المخاطر المحدقة بالمنطقة العربية، فما الذى يمكن أن تقوم به الدول العربية عموما والمصدرة للبترول بصفة خاصة؟

بداية ينبغى أن تدرك الدول العربية حجم ما يحيط بها من مخاطر تهدد كيانها وتتجاوز فى آثارها المدمرة حجم الخلافات العربية / العربية.

وثانيا، ينبغى أن ينبذ العرب سياسة الصمت وانتظار ما يحدث من جانب الغير لكى يقابلوه بردود أفعال يغلب أن تجهض فى مواجهة الفعل المخطط والذى يأخذ فى اعتباره مقدما ما سوف يلجأ إليه الجانب العربى. ولذلك ينبغى الأخذ بسياسة المبادرة والتأثير الفعال فى مسار الأحداث لكى تبلغ المنتهى الحميد قبل أن تصل الأمور إلى نقطة المواجهة الحادة.

وثالث ما ينبغى السعى لتحقيقه أن تقوم الدول البترولية باستخدام أوراق الضغط التى تملكها، وفى مقدمتها علاقاتها المتميزة بشركات البترول العالمية والتى تتمتع بدورها بعلاقات وثيقة مع الإدارة الأمريكية. وعلى تلك الدول ربط تعاقداتها ومعاملاتها مع تلك الشركات بمقدار ما يمكن أن تقدمه من عون فى سبيل تحقيق سياسة غربية متوازنة تعترف للجانب العربى بحقوقه المشروعة وتتعامل معه على أساس من الندية والاحترام المتبادل.

ورابع ما يمكن أن تفعله الدول العربية بذل أقصى جهد، من منطلق جماعى كما تفعل أوروبا، لوضع صفة الإرهاب بالنسبة للعرب فى حجمها الطبيعى، والعمل على إزالتها عن أية دولة عربية. فهذه الصفة إن صحت لا يصح أن تتجاوز الأفراد لكى تطلق على الدولة. وبصفة خاصة ينبغى الحرص على عدم ربطها بأية أنشطة بترولية والتى لا تخضع لغير العلاقات التجارية الحرة بعيدا عن الضغوط السياسية والتدخلات الحكومية من جانب الدول المستوردة للبترول. ■

روسيا

البديل الأمريكى للبترول السعودى!

جودت بهجت

■■ أوجدت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ آثارًا استراتيجية مهمة فى علاقة الولايات المتحدة بكل من السعودية وروسيا، وبينما وجدت واشنطن وموسكو أنفسهما فى مواجهة عدو مشترك هو الإسلام فى صورته النضالية، كان هناك خلاف كبير بين واشنطن والرياض، ورغم أن المسئولين الأمريكيين أعربوا عن رضاهم عن التعاون السعودى مع الولايات المتحدة فى الحرب ضد الإرهاب إلا أن حقيقة أن خمسة عشر سعوديًا من بين مختطفى الطائرات الأمريكية التى نفذت هجمات ١١ سبتمبر، والبالغ عددهم ١٩، وكذلك الاتهامات الموجهة للرياض بأن بعض الأموال السعودية جرى استخدامها فى تمويل المنظمات الإرهابية أدى إلى وجود شكوك فى التحالف القائم بين الدولتين والذى يعود إلى عقود مضت.

وقد ساد فى الآونة الأخيرة مناخ من فقدان الثقة فى العلاقات السعودية الأمريكية جعل إدارة الرئيس الأمريكى جورج بوش تبحث جديًا كيف يمكن تقليل اعتماد الولايات المتحدة على بترول الشرق الأوسط وإيجاد مناطق أخرى للحصول على احتياجاتها البترولية. وأصبحت روسيا من أهم الدول المرشحة للقيام بهذا الدور.

ويحاول هذا المقال أن يستكشف إمكانية تحقيق هذه الفكرة على أرض الواقع والمدى الزمنى الذى ستستغرقه من خلال الحديث بشكل تفصيلى عن العوامل الجيوسياسية الجديدة المؤثرة على صانع القرار «البترولى» فى الولايات المتحدة وروسيا والسعودية.

فى الوقت الذى التزمت فيه السعودية بحصتها فى إنتاج البترول كعضو فى منظمة الأوبك، توسعت روسيا فى إنتاج البترول، ومن ثم فقد تخطى معدل إنتاجها ما تنتجه السعودية من البترول فى أوائل العام ٢٠٠٢م

البعد الاستراتيجى فى البترول السعودى

تتمتع صناعة البترول فى السعودية بالعديد من المميزات التى جعلت من السعودية واحدة من أهم الدول المؤثرة والتى تلعب دورًا فاعلاً فى سوق البترول العالمية: فالسعودية هى أولى الدول المنتجة والمصدرة للبترول فى العالم، وتمتلك أكثر من ربع المخزون العالمى من البترول، حيث يبلغ حوالى ٢٦٤,٢ بليون برميل من البترول المخزون.

بالإضافة إلى ذلك، فإن تكلفة إنتاج البترول فيها تعتبر أقل مقارنة بالدول الأخرى، إذ تبلغ ١,٥ دولار أو أقل أحيانًا للبرميل فى حين أنها قد تصل إلى خمسة دولارات فى أماكن أخرى من العالم.

كذلك، فإن السعودية ودول الخليج العربى الأخرى تعتبر من أكبر الدول إنتاجًا للبترول، وأقلها استهلاكًا له. فى حين أن كبرى الدول المنتجة له مثل الولايات المتحدة وروسيا تكاد تستهلك كل ما تنتجه من البترول. ويعطى ذلك للسعودية ثقلاً أكبر فى تجارة البترول العالمية.

علاوة على ذلك، فإن صناعة البترول السعودية تخضع لملكية الحكومة على عكس روسيا مثلاً التى تتجه تدريجيًا إلى خصخصة صناعة البترول بها. فالحكومة السعودية تسيطر على آبار البترول وتمتلكها منذ أواخر السبعينيات من القرن



الماضى، ولذا فهى لا تخضع لتأثيرات القطاع الخاص وشركات البترول الخاصة فى رسم السياسة البترولية على المستويين المحلى والعالمى.

وتتمتع السعودية بمزايا طبيعية فى مجال صناعة البترول، إذ تقع على الخليج العربى والبحر الأحمر اللذين تقع عليهما موانئ التصدير التى ترتبط بحقوق إنتاج البترول الخام عن طريق شبكة عملاقة من أنابيب البترول.

كذلك، فإن السعودية قادرة على ضخ معظم احتياجات السوق العالمية الإضافية من البترول. وهذا يعطيها بعدًا استراتيجيًا لا تتمتع به كثير من الدول الأخرى المنتجة للبترول. إذ إنها بمقدورها تعويض أى نقص فجائى فى كميات البترول المنتج عالميًا، وتامين احتياجات العالم الإضافية من البترول.

لكل هذه الأسباب فليس من المستغرب أن تهتم الولايات المتحدة وهى أكبر مستوردى البترول فى العالم بضمان التعاون بينها وبين السعودية فى مجالين أساسيين: (١) ضمان عدم حدوث أى اضطرابات فى إمدادات البترول السعودية، (٢) ثبات أسعار البترول.

إذ إن الاقتصاد المعاصر شديد التأثر بأى اضطراب فى كميات البترول المتاحة عالميًا، وبأى آثار عكسية على موازين المدفوعات بسبب حدوث أية ارتفاعات حادة ومفاجئة فى أسعار النفط.

تعد السعودية ممولاً أساسيًا للنفط لكل من الولايات المتحدة واليابان، إلا أن الدول المنتجة للبترول فى النصف الغربى من الكرة الأرضية (كندا وفنزويلا والمكسيك) بدأت فى السنوات الأخيرة تمثل تحديًا للسيطرة السعودية على سوق البترول فى الولايات المتحدة. ورغم أن الدول الآسيوية استوردت فى السنوات الأخيرة من السعودية بترولاً أكثر مما استوردته الولايات المتحدة، إلا أن السعودية ترغب فى الحفاظ على نصيبها فى السوق الأمريكية وتوسيعه. وفى الحقيقة، استطاعت السعودية والولايات المتحدة إقامة علاقة ذات طبيعة خاصة تم الحفاظ عليها طوال السنوات الماضية تضمن المصالح المشتركة للجانبين فى مجال البترول.

وعلى عكس الكثير من الدول المنتجة للبترول فى منطقة الخليج العربى والدول الأعضاء فى منظمة الأوبك فإن عمليات الكشف عن البترول وتنمية الثروة البترولية فى السعودية قامت بها بصورة تكاد تكون كلية، شركات أمريكية. ففى بداية الثلاثينيات من القرن الماضى كانت شركات البترول الأمريكية تتطلع إلى فرص تجارية فيما وراء البحار. فى تلك الآونة تم اكتشاف مخزون هائل وواعد من البترول فى عدة مناطق على الخليج العربى تشمل إيران والعراق والبحرين. فى ذلك الوقت كانت تسيطر على تلك الثروة الهيدروكربونية المكتشفة حديثًا القوى الأوروبية، خاصة بريطانيا. وكان القادة الأوروبيون فى تلك الأثناء يسعون للحصول على امتيازات للشركات العاملة فى مجال البترول بهدف دعم قوتها الاقتصادية والسياسية الآخذة فى النمو. وسط هذه الأجواء أعطى الملك عبد العزيز آل سعود (مؤسس الدولة السعودية) عام ١٩٣٣، والذى كان متشككًا فى النوايا الأوروبية الحق لشركة بترول كاليفورنيا فى الكشف عن البترول فى بلاده وإنتاجه. وتوسعت هذه الشركة فيما بعد واتخذت اسمًا جديدًا لها عرف بالشركة العربية الأمريكية للبترول (أرامكو)، ورسخت التعاون مع الحكومة السعودية فى هذا المجال. ونجحت هذه الشركة على عكس الشركات الأجنبية الأخرى فى إقامة علاقات طيبة مع الحكومة السعودية. ففى الوقت الذى كان هناك نزاع كبير بين السلطات الإيرانية وشركة البترول البريطانية BP فى بداية الخمسينيات، كان التعاون وثيقًا بين شركة أرامكو والحكومة السعودية. فقد اتفق الطرفان فى نهاية الخمسينيات على نظام معدل للمشاركة فى الأرباح بنسبة النصف بالنصف. وفى عام ١٩٧٤م أصبح نصيب الحكومة السعودية فى الشركة ٦٠٪. وفى عام ١٩٨٠م أصبحت شركة أرامكو شركة سعودية بنسبة ١٠٠٪. ورغم الهيمنة الكاملة للحكومة السعودية على شركة أرامكو فقد ظل الإداريون والفنيون الأمريكيون يحتلون المناصب المهمة فى الشركة إلى جانب شركائهم السعوديين. وأخيرًا وفى عام ١٩٨٩م سلم آخر مدير أمريكى للشركة وهو جون كليبر، السلطة لأول رئيس سعودى للشركة وهو على النعيمى والذى أصبح فيما بعد وزيرًا للبترول السعودى.

إلا أن هذا التعاون أصابه بعض الخلل فى عام ١٩٧٣ حين شاركت السعودية فى الحظر المفروض على تصدير البترول إلى الولايات المتحدة بسبب دعمها لإسرائيل أثناء حربها مع العرب. لقد كانت فكرة استخدام البترول العربى كسلاح للضغط السياسى على الدول المساندة لإسرائيل محل اعتبار لدى الدول العربية لفترة طويلة من الوقت، بيد أن السعودية لم تكن مقتنعة بجدوى ذلك اقتناعًا كافيًا، حيث كانت تفضل استخدام عوائد البترول كسلاح إيجابى يمكن استخدامه فى دعم القوة العسكرية والاقتصادية للدول العربية. إلا أن الجدل حول جدوى استخدام سلاح البترول للضغط استمر طويلاً. فبعد اندلاع الحرب العربية الإسرائيلية بوقت قصير طلب الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون من الكونجرس الأمريكى رصد مبلغ ٢,٢ بليون دولار لدعم إسرائيل وتعويضها عن خسائرها فى هذه الحرب.

وفى اليوم التالى لذلك أعلنت السعودية حظرًا كاملاً على تصدير البترول إلى الولايات المتحدة. وانخفض الإنتاج السعودى من البترول فى الأشهر التى أعقبت ذلك انخفاضًا كبيرًا مما أدى إلى حدوث ارتفاع جنونى فى أسعار البترول. وتم رفع الحظر فى مارس ١٩٧٤ ردًا على الجهود الأمريكية للفصل بين القوات العربية والإسرائيلية المتحاربة. ويمكن القول بأن العلاقات بين السعودية والولايات المتحدة بلغت أدنى مستوياتها فى هذه الأثناء. واستطاع الجانبان بعد ذلك بعدة سنوات قليلة التغلب على تلك الأزمة واستعادة التعاون الوثيق بينهما.



ويمكن استخلاص عدة دروس من هذه المرحلة، حيث تعهدت السعودية بمواجهة أى نقص فى إنتاج البترول لأى سبب سياسى أو عسكرى أو للكوارث الطبيعية من احتياطيها البترولى. وأدى ذلك إلى استعادة الثقة فى سوق البترول وتجنب حدوث ارتفاع مبالغ فيه فى أسعاره. وأخيرًا فقد قررت السعودية فى أعقاب الهجوم على البنتاجون ومركز التجارة العالمى إرسال تسعة ملايين برميل إضافى من البترول إلى الولايات المتحدة لضمان توفير الاحتياجات الكافية منه، وتعبيرًا عن مساندتها للحكومة الأمريكية فى أزمتها.

ويمكن القول إن السعودية باستثناء فترة الحظر البترولى عام ١٩٧٣م، أثبتت أنها شريك للولايات المتحدة يمكن الاعتماد عليه، فلم تستمر السعودية فى تزويد الولايات المتحدة والأسواق العالمية بحاجتها من البترول فقط، بل وضعت مخزونها فى خدمة الأسواق العالمية عند حدوث أى نقص فى الإنتاج لأى سبب سياسى أو بسبب الكوارث الطبيعية. كما أن السعودية كانت دائمًا فى مقدمة الدول الساعية للحفاظ على أسعار البترول العالمى وثباتها عند حد مقبول.

الأوبك وصراع المصالح

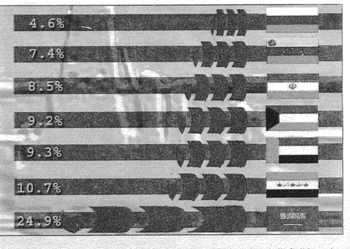
كانت السعودية واحدة من المؤسسين الخمسة لمنظمة الأوبك عام ١٩٦٠م، ومنذ ذلك الحين فإن الرياض تفضل العمل فى إطار هذه المنظمة للحفاظ على أسعار البترول حول المعدل المعتدل. وعلى وجه العموم فقد عملت السعودية على المواءمة بين مصالحها الوطنية ومصالح أعضاء الأوبك الآخرين والدول الأخرى المنتجة للبترول. ورغم الجهود المبذولة لتكوين جبهة متحدة ومتوائمة إلا أن منظمة الأوبك لم توحد كلمتها فى كل الأحوال. ففى إطار منظمة الأوبك نجد أن دولاً مثل الجزائر ونيجيريا وإندونيسيا، والتى يرتفع عدد سكانها نسبيًا، وتمتلك مخزونًا قليلاً من النفط، تفضل غالبًا اتباع استراتيجية قصيرة المدى للوصول بعوائد البترول إلى أقصى حد لها، وعدم التساهل السياسى والاجتماعى بالمشكلات الناشئة عن انخفاض ذلك العائد. ومن ناحية أخرى فإن الدول ذات التعداد السكانى المنخفض والمخزون الكبير من البترول مثل الكويت والإمارات العربية والسعودية تفضل غالبًا اتباع استراتيجية طويلة المدى للوصول بعوائد البترول إلى أعلى معدل لها. وغالبًا ما كانت فى موقف أقوى للحد من انخفاض الأسعار.

وخاصة أن السعودية نظرًا لضخامة إنتاجها البترولى تحتل عادة موقع القيادة فى تحديد سياسات منظمة الأوبك الخاصة بإنتاج ووضع أسعار البترول.

جدول الإنتاج

توضح الأرقام الواردة بالجدول أن إنتاج السعودية من البترول هو الأكبر بين دول العالم، وأنه يمثل النسبة الأكبر من إنتاج دول الأوبك، وعلى نفس القدر من الأهمية فإن الأرقام توضح كذلك أن نصيبها من الإنتاج الكلى للبترول لمنظمة الأوبك قد بلغ ذروته فى عام ١٩٨١، ١٩٩١م إذ مع بداية الحرب الخليجية الأولى بين العراق وإيران، وعند بداية حرب الكويت، لجأت السعودية إلى رفع معدل إنتاجها من البترول لتعويض النقص الحاد فى إمدادات البترول بسبب الصراع فى المنطقة.

إن اتباع سياسة الحفاظ على أسعار البترول حول معدلات معتدلة ومنع الارتفاع الكبير فى الأسعار يخدم المصالح السعودية ذاتها، خاصة على المدى المتوسط والمدى الطويل. فارتفاع أسعار البترول بصورة مبالغ فيها قد يؤدى إلى ظهور بدائل لمصادر الطاقة قد تقلل من أهمية البترول. ومن المعروف أن البترول إذا تعدى حافته التنافسية فإنه من الصعب استردادها حتى لو حدث انخفاض لاحق فى الأسعار. ومن المساوئ الأخرى لارتفاع



تحتل روسيا المركز السابع من حيث كمية الاحتياطى العالمى للبترول، بعد من المملكة العربية السعودية، العراق، الإمارات العربية المتحدة، الكويت، إيران، وفنزويلا.

حـــرب النـــفط



أسعار البترول أنه يؤدى إلى زيادة أنشطة التنقيب عن البترول في الدول غير الأعضاء بمنظمة الأوبك، والذى بدوره يؤدى إلى زيادة الإنتاج وتخفيض الأسعار إلى حد كبير. وأخيرًا وكما أشار الدكتور على النعيمى وزير البترول السعودى فإننا نعيش فى عالم تتشابك فيه المصالح الاقتصادية وتؤثر فى بعضها البعض تأثيرًا كبيرًا. لذا فإن الأسعار المغالى فيها للبترول يمكن أن يكون لها آثارها السلبية على الاقتصاد العالمى، والذى بدوره يضعف الطلب على البترول على المدى البعيد، وبالتالى تفقد الدول المنتجة للبترول كثيرًا من مزاياها.

وهكذا، وعلى الأقل جزئيًا، فإن الجهود السعودية فى الحفاظ على أسعار البترول جعلت معدل أسعار البترول ما بين منتصف الثمانينات من القرن الماضى وحتى النصف الثانى من التسعينيات يتراوح بين ١٥، ٢٠ دولارًا أمريكيًا للبرميل، ذلك المستوى من الأسعار الذى حاز رضى الدول المنتجة والدول المستهلكة فى آن واحد.

أدى غزو العراق للكويت عام ١٩٩٠ إلى نقص مؤقت وقصير الأمد فى إمدادات البترول فى العالم، مما أحدث حالة من التوتر والاضطراب فى أسواق البترول العالمية وارتفاع أسعار البترول. وفى خلال وقت قصير زادت السعودية من إنتاجها لتعويض النقص فى البترول الكويتى والعراقى ولذا فقد انخفضت الأسعار إلى معدلاتها التى كانت سائدة قبل هذه الأزمة.

وفى رد فعل للزيادة الكبيرة فى أسعار البترول فى أواخر التسعينيات لجأت الأوبك إلى اتباع سياسة للحفاظ على أسعار البترول منذ مارس عام ٢٠٠٠ سميت باسم «طوق الأسعار» Price band والتى تقضى بأنه فى حالة زيادة أسعار سلة أوبك عن ٢٨ دولارًا أمريكيًا للبرميل أو انخفاضها عن ٢٢ دولارًا للبرميل لعدة أيام، يتم عمل تعديلات فى الإنتاج. ونجحت هذه السياسة فى الحفاظ على سعر سلة أوبك فوق الحد الأدنى لمعدلها المستهدف خلال معظم فترات عام ٢٠٠١م. ولقد أدت أحداث سبتمبر فى الولايات المتحدة الأمريكية والركود الاقتصادى الذى أعقبها إلى تغيير منظمة الأوبك لسياستها الخاصة بالأسعار. وأعلن وزير البترول السعودى فى يناير الماضى، أنه تم تعليق أو الإيقاف المؤقت لتنفيذ سياسة طوق الأسعار لأن ثبات الأسعار فى السوق يعد أكثر أهمية من تحقيق الأوبك لسعرها المستهدف. ومنذ منتصف عام ٢٠٠٢ ظل سعر سلة أوبك حول معدل طوق الأسعار.

وتلخيصًا لما سبق فإن سياسة السعودية فى الحفاظ على أسعار البترول حول مستوى معتدل توافقت مع مصالح الولايات المتحدة الاقتصادية. فثبات الأسعار عند معدل معتدل يحقق دخلاً ثابتًا للسعودية، ويضمن استمرارية نموها الاقتصادى والسياسى. وكذلك فهى تخدم الاقتصاد الأمريكى، إذ تشبه عملية خفض الضرائب التى تزيد من دخل الفرد، وتخفض من نسبة التضخم، وتزيد من النمو الاقتصادى.

روسيا.. قوة بترولية صاعدة!

تعد روسيا من الدول الرئيسة التى تلعب دورًا كبيرًا فى سوق البترول العالمية، حيث تعتبر ثانى دولة فى العالم إنتاجًا وتصديرًا للبترول بعد السعودية. وتشكل صناعة البترول نسبة كبيرة من مصادر الدخل القومى فيها، ورغم أن الاتحاد السوفيتى السابق كان فى يوم ما أكبر منتج للبترول فى العالم، إلا أن إنتاج البترول فى روسيا فى بداية التسعينيات من القرن الماضى وبعد تفكك الاتحاد السوفيتى شهد اضطرابًا كبيرًا، حيث هبط إنتاج البترول من ١١،٥ مليون برميل فى عام١٩٨٧ إلى ٦،١ مليون برميل فى عام ١٩٩٦. ويرجع ذلك إلى الركود الاقتصادى الذى أصاب روسيا خلال معظم سنوات التسعينيات من القرن الماضى، وكان لهذا التدهور الكبير فى إنتاج البترول أثره السلبى على عمليات التنقيب عن البترول والاستثمار فى مجاله.



بيد أن الاقتصاد الروسى خاصة فى مجال صناعة البترول شهد تقدمًا ملحوظًا منذ عام ٢٠٠٠، حيث وضع الرئيس الروسى فلاديمير بوتين الإصلاح الاقتصادى فى صدر اهتماماته، وأعطى صناعة الطاقة على وجه الخصوص اهتمامًا كبيرًا. وبلغ الاقتصاد الروسى مع بداية الألفية الجديدة أعلى معدل نمو له منذ تفكك الاتحاد السوفيتى.

ففى الوقت الذى التزمت فيه السعودية بحصتها فى إنتاج البترول كعضو فى منظمة الأوبك، توسعت روسيا فى إنتاج البترول، ومن ثم فقد تخطى معدل إنتاجها ما تنتجه السعودية من البترول فى أوائل العام ٢٠٠٢م. وهكذا فقد بلغ إنتاج البترول فى روسيا أقصى طاقاته الإنتاجية، بينما تحكمت السعودية فى إنتاجها البترولى تجنبًا لإغراق أسواق البترول العالمية.

وقد كان لارتفاع معدل إنتاج روسيا من البترول آثاره على المستويين المحلى والعالمى:

فعلى المستوى المحلى فإن أسعار البترول تؤثر كثيرًا على الاقتصاد الوطنى حيث تمثل صادرات البترول مصدرًا رئيسًا فى الدخل القومى الروسى، ويمثل الدخل الناتج عنها ٢٥٪ تقريبًا من الدخل القومى. وكل انخفاض فى سعر البرميل بمقدار دولار أمريكى واحد ينتج عنه عجز فى الموازنة العامة للدولة يقدر بحوالى بليون دولار، ويقلل من معدل النمو بمقدار ٠،٥٪. لذا فليس بمستغرب أن يتأثر الاقتصاد الروسى تأثرًا كبيرًا مع أى اضطرابات فى أسعار النفط فى العالم.

أما على المستوى العالمى، فقد ازداد الدور الروسى بدرجة كبيرة فى تحديد أسعار النفط العالمية. فروسيا ليست عضوًا فى منظمة الأوبك، لكنها شاركت فى الكثير من اجتماعات المنظمة منذ عام ١٩٩٧، وقام الجانبان بجهد مشترك لمنع انهيار أسعار البترول العالمية. إلا أن هذا التعاون أصابه بعض الخلل فى أعقاب الهجمات الإرهابية فى الحادى عشر من سبتمبر الذى نتج عنه تراجع كبير فى الاقتصاد العالمى وفى الطلب على البترول.

وبالرغم من التعهدات الرسمية بتخفيض الإنتاج، إلا أن مدى التزام الشركات الروسية بإجراء تخفيض فعلى ظل موضعًا للشك. حيث أكدت البيانات الصادرة عن وزارة الطاقة الأمريكية US Department of Energy أن صادرات روسيا البترولية شهدت ازديادًا كبيرًا خلال النصف الأول من عام ٢٠٠٢. علاوة على ذلك، فقد أنهت موسكو اتفاقها مع منظمة الأوبك بشأن تخفيض إنتاجها من البترول، وذلك فى منتصف عام ٢٠٠٢م.

ومن هذا الدور المتنامى لروسيا فى تحديد أسعار البترول العالمية يمكننا الخروج بأربعة استنتاجات أساسية:

١ - إن استخراج البترول فى بعض الدول الأعضاء بمنظمة الأوبك يتم بتكلفة منخفضة مما يعطيها مزايا نسبية عن غيرها من الدول الأخرى المنتجة للبترول. فالسعودية على سبيل المثال يمكن أن تتحمل انخفاض أسعار البترول عن غيرها من الدول التى يتم فيها استخراج البترول بتكلفة عالية مثل روسيا.

لذا فالسعودية وبعض دول الشرق الأوسط المنتجة للبترول يمكنها تحقيق مكاسب مادية عندما يبلغ سعر برميل النفط عشرة دولارات أمريكية، بينما لا تستطيع روسيا وشركاتها تحقيق أرباح عندما يكون سعر البرميل اثنى عشر دولارًا.

٢ - تعتمد السعودية وبعض الدول الأعضاء فى منظمة أوبك فى دخلها على البترول بدرجة أكثر من روسيا التى تعتمد فى دخلها على مصادر أخرى غير البترول لأن خسائرها تزداد كلما انخفض سعر البترول.

٣ - لقد ازدادت خصخصة صناعة البترول فى روسيا فى أوائل عام ٢٠٠٠ مقارنة بدول الشرق الأوسط التى تمتلك حكوماتها صناعة البترول بها. نتيجة لذلك فإن القرارات المتعلقة بتخفيض أو زيادة الإنتاج يتم اتخاذها من قبل السلطات الحكومية فى هذه الدول. بينما يختلف الوضع فى روسيا حيث يتم مناقشة تلك القرارات بين شركات البترول الروسية والحكومة.

٤ - إن روسيا باعتبارها على قمة قائمة الدول المنتجة والمصدِّرة للبترول فى العالم يجب عليها المشاركة فى المناقشات والاستراتيجيات الرامية إلى التقليل من ارتفاع أسعار البترول فى السوق العالمية.

شراكة بترولية أمريكية - روسية:

لقد تزامن استئناف روسيا لدورها الرائد كدولة رئيسية فى مجال إنتاج الطاقة بعد الركود النسبى خلال معظم سنوات حقبة التسعينيات من القرن الماضى مع التغيرات السياسية والاستراتيجية التى أعقبت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١. فقد عمقت تلك الأحداث من إحساس الأمريكيين باحتمال تأثرهم سلبًا بمقدار وارداتهم البترولية خاصة من السعودية، فى هذه الأجواء ولدت الشراكة بين الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا، وتزداد تلك الشراكة قوة مع مرور الوقت. إن هذا التعاون الناشئ بين أكبر دول العالم استهلاكًا للبترول (الولايات المتحدة) وثانى دول العالم إنتاجًا للبترول (روسيا) يرتكز على شيئين أساسيين: أن الولايات المتحدة ستقوم بدعم صناعة البترول الروسية ماديًا، وفى المقابل ستقدم موسكو نفسها كبديل للشرق الأوسط المتقلب ويضمن ثبات إمداد الولايات المتحدة باحتياجاتها البترولية.



وبرغم ذلك الحماس المتزايد لإقامة شراكة أمريكية روسية فى مجال الطاقة، فإن الآمال المعقودة على هذه الكميات الهائلة من البترول الروسى التى غمرت السوق الأمريكية ليست آمالاً واقعية. فهذه الشحنات يجب النظر إليها على أنها مجرد إشارة لحسن النوايا، وهى فى الواقع رمزية أكثر منها إنجازًا فى مجال توفير الأمن المتعلق بالطاقة للولايات المتحدة الأمريكية، فصناعة البترول الروسية لايزال أمامها الكثير كى تتغلب على كل الصعوبات الاقتصادية والسياسية واللوجستية.

بالرغم من التغيرات والتوسعات الكبيرة التى حدثت فإن إنتاج وتصدير البترول الروسى لازال مكبلاً ببعض المعوقات



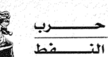
إن السعودية قادرة على ضخ معظم احتياجات السوق العالمية الإضافية من البترول. وهذا يعطيها بعدًا استراتيجيًا لا تتمتع به كثير من الدول الأخرى المنتجة للبترول. إذ إنها بمقدورها تعويض أى نقص فجائى فى كميات البترول المنتج عالميا



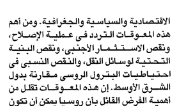
كتاب الزاوية

مرثية حلم

دَعني وجرْحي
فقدْ خابتْ أمانينَا
هَل مِنْ زمانٍ
يُعيدُ النبضَ يُحيينَا
يا سَاقيَ الحُزنِ
لا تعْجَبْ ففي وطَني
نهرٌ من الحُزنِ
يجْري في رَوابينَا
كمْ منْ زمانٍ كئيبِ الوجْهِ
فرَّقنَا
واليومَ عُدْنَا
ونفسُ الجرْحِ يدْمينَا
جُرحي عميقٌ
خُدعْنَا في المدَاوينا
لاَ الجرحُ يشْفَى
ولا الشَّكْوى تعزّينا
كان الدّواءُ سُمومًا
في ضمائرنا
فكيفَ جئنَا بداءٍ
كيْ يداوينَا



حرب النفط



الاقتصادية والسياسية والجغرافية. ومن أهم هذه المعوقات التردد فى عملية الإصلاح، ونقص الاستثمار الأجنبى، ونقص البنية التحتية لوسائل النقل، والنقص النسبى فى احتياطيات البترول الروسى مقارنة بدول الشرق الأوسط. إن هذه المعوقات تقلل من أهمية الفرض القائل بأن روسيا يمكن أن تكون بديلاً محتملاً للسعودية كمصدر أساسى للبترول إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد بدأت روسيا إعادة هيكلة قطاعها البترولى فى عام ١٩٩٣م عن طريق الشروع فى عملية خصخصة تمت على مرحلتين. ففى المرحلة الأولى (ما بين عامى ١٩٩٣-١٩٩٥) بدأ تكوين شركات متحدة ذات رؤوس أموال مشتركة فى سوق يزداد التنافس فيها يومًا بعد يوم. أما المرحلة الثانية التى بدأت عام ١٩٩٥م فقد تضمنت بيع أنصبة الحكومة الكبيرة فى هذه الشركات فى المزاد العلنى. وهكذا ومع بداية الألفية الجديدة فقدت الحكومة الفيدرالية السيطرة على قطاع البترول الذى أصبح معظمه فى يد القطاع الخاص، إلا أن المحللين يؤكدون أنه منذ تولى الرئيس بوتين مقاليد الحكم فى روسيا فى يناير عام ٢٠٠٠ هناك توجه متنام إلى إعادة صناعة البترول الروسية إلى ملكية الدولة.

وسيحدد مستوى إنتاج البترول الروسى فى المستقبل مدى قدرة شركات البترول الروسية على تنمية احتياطى البترول فى القطب الشمالى وغرب سيبيريا وجزيرة سخالين. إن زيادة الإنتاج الروسى من البترول يحتاج إلى كميات كبيرة من رؤوس الأموال التى تتطلبها عملية تطوير آبار البترول الحالية وإطالة عمرها الافتراضى وحفر آبار جديدة. ورغم الجهود المبذولة لإصلاح قطاع البترول الروسى فإن الاستثمار الأجنبى فى مجال صناعة البترول هناك لايزال محدودًا.

لقد قررت بعض شركات البترول الأجنبية بعد رحلة الإصلاح الأولية انتظار حدوث تحسن فى مناخ العمل وفى مجال القوانين والتشريعات قبل أن تودع أى أموال جديدة فى مجال البترول الروسى. وأدى عدم الاستقرار فى مجال الضرائب والتشريعات إلى ابتعاد كثير من المستثمرين.

وقد كان من الممكن أن تكون صادرات روسيا من البترول أعلى مما هى عليه الآن لولا تردى أحوال البنية الأساسية لوسائل النقل. فقد تم بناء خطوط أنابيب البترول أثناء عصر الاتحاد السوفيتى حينما كانت الأسواق المستهدفة موجودة فى أوروبا الشرقية وتحتاج هذه الخطوط الآن إلى إصلاحات كبيرة.

إن تكلفة شحن البترول إلى الولايات المتحدة تعتبر عالية نظرًا لبُعد المسافة بين الدولتين، وعدم ملاءمة البنية التحتية الروسية خاصة المتمثلة فى عدم وجود موانئ بحرية عميقة تصلح لرسو ناقلات البترول العملاقة. وللتغلب على هذه العقبة ولكى يصبح شحن البترول إلى الولايات المتحدة ذا جدوى اقتصادية اقترحت شركة «لوكويل» وهى أكبر شركات البترول فى روسيا خطة لبناء ميناء خاص بمنتجات البترول فى مدينة مورمانيسك Murmansk، هذا الميناء سيؤدى إلى انخفاض تكلفة النقل بحيث يمكن تصدير البترول إلى الولايات المتحدة دون خسائر.

وأخيرًا فإنه من أهم المعوقات أمام قيام روسيا بدور كبير فى سوق النفط العالمية، وإمكانية أن تصبح دولة أساسية فى مجال تصدير البترول إلى الولايات المتحدة هو محدودية احتياطيها من البترول مقارنة بدول الشرق الأوسط خاصة السعودية. فرغم أن روسيا تعد ضمن أوائل الدول المنتجة والمصدرة للبترول إلا أنها تحتل مرتبة متدنية من حيث نسبة احتياطى البترول لديها. إذ تحتل المرتبة السابعة بين الدول من حيث نسبة الاحتياطى، إذ يبلغ احتياطيها ٤,٦٪، بينما تبلغ نسبة احتياطى السعودية ٢٤,٩٪، العراق ١٠٪، الإمارات ٩,٣٪، الكويت ٩,٢٪، إيران ٨,٥٪، وفنزويلا ٧,٤٪.

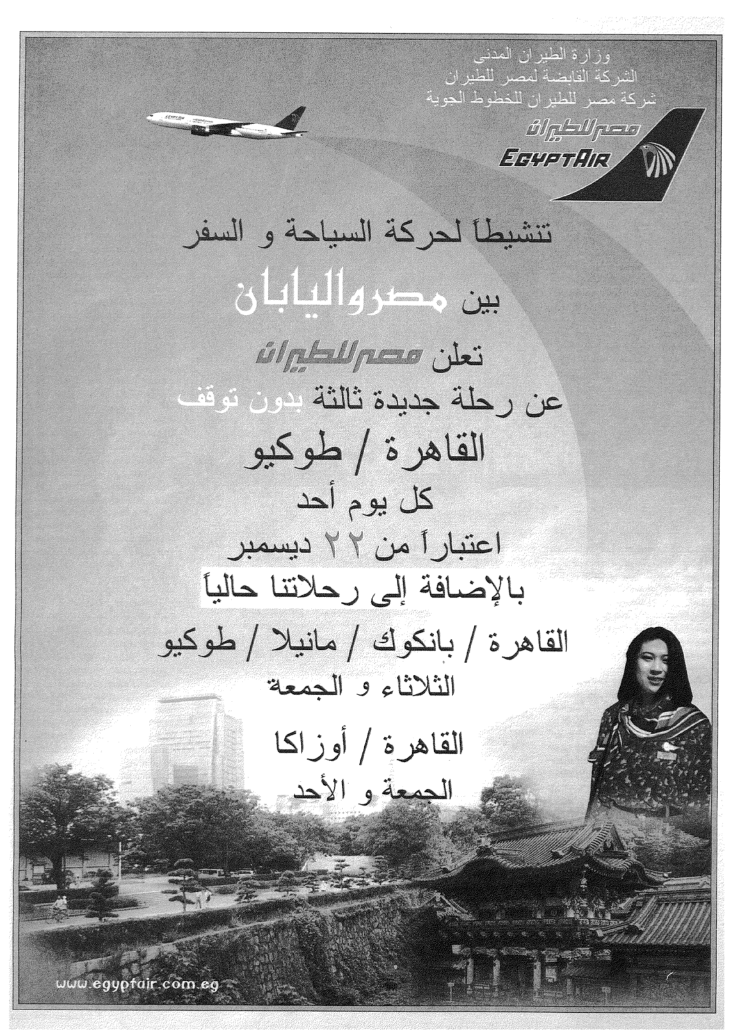


ترتيبًا على كل ما سبق يمكن استخلاص ما يلى:

١- أنه بالرغم من ارتفاع نسبة إنتاج البترول فى روسيا إلا أن احتياجات العالم المتزايدة من البترول سيتم توفيرها من قبل الدول التى تمتلك أعلى نسب الاحتياطى النفطى. إن أقصى طاقة لإنتاج البترول فى دول الخليج يتم التخطيط لزيادتها من ٣١٪ من إنتاج البترول العالمى عام ٢٠٠٢ إلى ٣٦٪ فى عام ٢٠٢٠، لذا فإن السعودية سوف تستمر فى تحمل مسئولية مهمة فى مواجهة الاحتياجات العالمية المتزايدة من البترول، وفى إدارة إمدادات وأسعار البترول العالمى. أما روسيا فإنها ببساطة لا تمتلك احتياطات البترول ولا الطاقة الإنتاجية التى تمكنها من أن تحل محل السعودية.

٢- إن الأمن البترولى كان يتم تعريفه لفترة طويلة بأنه تقليل الاعتماد على البترول المستورد، وكان يُنظر إلى العلاقات بين المنتجين والمستهلكين للبترول بأنها تحقق لمصالح أحد الجانبين على حساب الجانب الآخر مع وجود هامش محدود من الفائدة المتبادلة بينهما. إلا أنه فى أسواق العالم فى الوقت الحالى فإن هناك اتجاهًا متزايدًا لتعريفه بأنه مسألة مشتركة بين المنتجين والمستهلكين. ففى بداية عام ٢٠٠٠ أصبحت سوق البترول العالمية أكثر تكاملاً، ويوجد فيها العديد من المنتجين والمستهلكين والعديد من الشركات الوطنية والعالمية. ومن السمات الأساسية لهذه السوق العالمية الجديدة الاعتماد المتبادل بين أعضائها على بعضهم البعض. فنمو إنتاج روسيا من البترول لا يكون بالضرورة على حساب السعودية أو غيرها من الدول المنتجة للبترول، فإن الإنتاج الروسى من البترول سيساهم كثيرًا فى تحقيق مفهوم الأمن البترولى وفى إحداث الثبات اللازم فى أسعار البترول. ■

بترتيب خاص مع:
The Middle East Economic Survey (MEES)
ترجمة: د. صلاح الدين محمد بدر


وزارة الطيران المدنى
الشركة القابضة لمصر للطيران
شركة مصر للطيران للخطوط الجوية
مصر للطيران
EGYPTAIR
تنشيطاً لحركة السياحة و السفر
بين مصر واليابان
تعلن مصر للطيران
عن رحلة جديدة ثالثة بدون توقف
القاهرة / طوكيو
كل يوم أحد
اعتباراً من ٢٢ ديسمبر
بالإضافة إلى رحلاتنا حالياً
القاهرة / بانكوك / مانيلا / طوكيو
الثلاثاء و الجمعة
القاهرة / أوزاكا
الجمعة و الأحد
www.egyptair.com.eg



الطـــــريق إلـى الســـــلطة

أنـــدرو ناثان وبروس جــيلى



خلافًا للصـراع العنيف على خلافة قمة الزعامة الذى ظل قاعدة سارية فى الصين منذ استيلاء الشـيوعيين عـلى الحكم فى ١٩٤٩، فـــإن هـــذا هـــو أول انتقـــال للســـلطة يتـــم بصـــورة منظمـــة

اعتبارًا من ١٥ نوفمبر الماضى أفسح الرجال الذين حكموا الصين منذ أحداث «تيانانمن» فى ١٩٨٩، بقيادة «جيانج زمين»، الطريق أمام مجموعة جديدة من الحكام، يطلق عليهم الصينيون الجيل الرابع. (كان الأول جيل ماو؛ والثانى جيل دينج زياو بنج؛ والثالث جيل جيانج). وأصبح هؤلاء هم أعضاء اللجنة الدائمة للمكتب السياسى للحزب الشيوعى الصينى - الزعماء الذين يتمتعون بأعلى سلطة فى الصين. ولن تصبح التعيينات بالمناصب العسكرية والحكومية نهائية حتى مارس ٢٠٠٣، عندما يجتمع مؤتمر الشعب القومى لإعلانها رسميا، ومن المستبعد تغييرها إلا فى حال حدوث أزمة عسكرية أو اجتماعية. وينهى انتقال السلطة هذا معركة هادئة، لم تخلُ من صراع حاد، حول الخلافة، ويشير إلى أن الحزب الشيوعى الصينى قادر على تجديد نفسه من القمة. على أن الجيل التالى قد يسير بالصين فى اتجاهات جديدة مفاجئة.

وبعد انتخابهم رسميا خلال اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى الحاكم، عقب المؤتمر السادس عشر للحزب، وقف أعضاء اللجنة الدائمة للمكتب السياسى، طبقا للتقاليد، لمدة قصيرة أمام مصورى الصحافة المحلية والعالمية. وحسب ترتيبهم باللجنة الدائمة توجهوا إلى غرفة مفروشة بالبُسط بقاعة الشعب الكبرى ببكين. مبتسمين للكاميرات ثم انصرفوا بسرعة. وبهذه الطريقة، ستظهر نتائج الصراع الطويل على السلطة فى أكثر بلاد العالم تعدادا، لتختفى على الفور. وإذا ما سارت الأمور كما يريدون، فإن هذه المجموعة من الرجال ستظل على غموضها الحالى بقية المدة التى سيقضيها أفرادها فى مناصبهم.



أول من وقف أمام الكاميرات هو «هو جينتاو» (٥٩ عامًا)، ذو الشعر اللامع والابتسامة المميزة، الذى اختير سكرتيرًا عامًا، وهو أعلى منصب فى الحزب. فمنذ زمن طويل، وبعد اختياره لعضوية اللجنة الدائمة عام ١٩٩٢ كأصغر الأعضاء سنا، و«هو»، الذى كان يعمل مهندسًا للطاقة الكهرومائية، يعد أحد قيادات الحزب البارزة. وفى مارس ٢٠٠٣، عندما يجتمع البرلمان القومى، سيوكل إليه منصب رئاسة الدولة المركزية. وهكذا سيخلف جيانج زمين، الذى تنحى عن رئاسة الدولة وأمانة الحزب الشيوعى محتفظًا برئاسة اللجنة العسكرية. وفى الصين يبسط كبار قادة المؤسسات الحزبية كذلك سلطتهم على الوزارات والقوات المسلحة.

وكان التالى لـ«هو» وون بانج جو - ٦١ عامًا - الذى أصبح المسئول الثانى فى الحزب ويفترض أن يصبح رئيسًا للبرلمان ثم وون جياباو الذى يفترض أن يخلف رئيس الوزراء الحالى «زو رونج جى» - رئيس مجلس الدولة المسئول عن كل الهيئة فى الصين.

إن سبعة من بين أعضاء اللجنة الدائمة للمكتب السياسى للحزب الشيوعى والتى تم توسيعها إلى ٩ أعضاء من المقربين لجيانج زمين الذى سيظل متمتعًا بنفوذ قوى، من خلف الستار، على صياغة القرار عقب إعادة انتخابه رئيسًا للجنة العسكرية فى الحزب مما يجعله القائد الأعلى للجيش الصينى.

وسيدير هؤلاء القادة الجدد الصين على مدى السنوات الخمس المقبلة، والحقيقة أنهم من صغر السن بحيث يمكنهم الاستمرار فى العمل لفترتين. وقد ثار جدل قبل المؤتمر عما إذا كان جيانج زمين سيتخلى عن مناصبه الثلاثة رئاسة الحزب والدولة والجيش.. وقد نجح بالفعل فى الاحتفاظ برئاسة اللجنة العسكرية، كما نجح فى اعتماد نظريته المهمة التى تسمح بدخول الرأسماليين فى صفوف الحزب وهو تغيير نوعى كبير فى الأطر الفلسفية والفكرية للحزب الشيوعى الصينى.

وتثور تساؤلات عديدة عن مسيرة الصين الجديدة فى ظل حكم الجيل الرابع ومدى تدخل القادة القدامى فى هذه المسيرة.

وفى اعتقادنا فإن أكثر الإجابات عن هذه الأسئلة إقناعا نجدها فى كتاب جديد رائع كُتب باللغة الصينية، يعتمد على تقارير سرية قامت بتجميعها إدارة التنظيم السرية الموثوق بها للحزب الشيوعى الصينى بهدف معاونة اللجنة الدائمة فى اختيار المرشحين للمناصب العليا. وقد صدر الكتاب المعنون باسم الجيل الرابع فى نوفمبر من دار ميرور بوكس، وهى دار مقرها الولايات المتحدة وتتولى نشر الكتب باللغة الصينية. ومؤلفه واسع الاطلاع على أمور الحزب ويستخدم اسما مستعارا هو زونج هاينر، وسبق له الكتابة عن سياسات حكام الصين. وقد أمد زملاء فى مناصب كبيرة ببكين زونج بمسودات من تقارير إدارة التنظيم، لمساعدته فى إصدار كتاب يعتمد على موادها. وبدوره، صرح هاينر لنا بنشر المعلومات التى تلقاها بالإنجليزية.

لقد قرأنا مخطوطة الكتاب بعناية وناقشناها مع المؤلف بإسهاب وكذلك جذوره ودوافعه. وإننا لعلى قناعة بأن الكتاب جدير بالتصديق ومهم. وقد أمدنا زونج، الذى انتهى من إنجاز كتابه فى فبراير ٢٠٠٢، بمعلومات إضافية بحيث إن روايتنا تتواصل حتى آخر فبراير، عندما دفعنا بها للنشر.



بالنسبة لكثيرين، وخاصة فى الدوائر الرسمية الأمريكية، ستكون الصورة التى يقدمها زونج هاينر للزعماء الجدد مطمئنة، حيث إنها تظهرهم كدعاة تحديث جادين، تحدوهم الرغبة فى إدماج اقتصاد الصين فى الاقتصاد العالمى والحفاظ على علاقات طيبة بالولايات المتحدة. ومعظمهم مديرون أكفاء، على قدر كبير من الخبرة بمركب بيروقراطية الحزب - الدولة فى الصين، وتكنوقراطيون نفعيون قادرون على حفظ النظام ودفع التنمية فى أكثر بلاد العالم تعدادا. والبعض منهم لديه الرغبة فى السماح بقدر من التنافس السياسى مع الحزب الشيوعى ومنح الصحافة والتليفزيون المزيد من حرية انتقاد أداء الموظفين فى المستويات الدنيا والوسطى.

لكن بالنسبة لغيرهم من المراقبين الخارجيين، فإن الصورة التى يقدمها زونج قد تكون مخيفة. فهو يكتب عن مجموعة من الرجال الذين يؤمنون بالحكم التسلطى كشرط مسبق لتحديث الاقتصاد الصينى. إنهم يؤمنون بقمع المعارضة العلنية للحكم الشيوعى وبالحد من الجريمة بالتوسع فى استخدام عقوبة الإعدام. ويعتقدون بأن حكومتهم تتعامل بكرم زائد مع سكان تايوان والتبت وزنجيانج، ولا يبدون أى قدر من التعاطف مع شكاوى أو تطلعات شعوب هذه المناطق. وعلى الرغم من إيمانهم بالكثير من القيم الاقتصادية الغربية، فهم لا يؤمنون بكثير من القيم الأخلاقية للغرب. إنهم يتوقعون منافسة استراتيجية مع الغرب ويرغبون فى إبقاء سيطرتهم على التبت، وتأكيد سيطرتهم على تايوان، واستغلال علاقاتهم بروسيا وأوروبا فى اختبار القوة أمام الولايات المتحدة. وإن كانوا على قناعة بأن المصالح الاقتصادية للولايات المتحدة وغيرها من البلاد الأوروبية تملى عليها الاحتفاظ بعلاقات طيبة بالصين.

وخلافًا للصراع العنيف على خلافة قمة

1- China's New Rulers: The Secret files

حكام الصين الجدد.. الملفات السرية

Andrew J. Nathan and Bruce Gillez
New York Review Books, 2002.

2 - China's New Rulers: The Path to power

حكام الصين الجدد.. الطريق إلى السلطة

Andrew J. Nathan and Bnce Gillez
New York Review Books, 2002.

الزعامة الذى ظل قاعدة سارية فى الصين منذ استيلاء الشيوعيين على الحكم فى ١٩٤٩، فإن هذا هو أول انتقال للسلطة يتم بصورة منظمة. وبالرغم من التخمينات الكثيرة التى سرت فى العالم - وبين ملايين المواطنين الصينيين المعنيين ممن لا تتوفر لهم معلومات صحيحة - خلال الشهور القليلة الماضية، فإن المفاجأة الحقيقية فى كتاب زونج هى أن خمسة من زعماء القمة الستة تم اختيارهم بطريقة سرية خلال السنتين الماضيتين.

وكما فى الماضى، كان الولاء الشخصى والتنافس بين العُصب السياسية حاسما فى اختيار هؤلاء الرجال. لكن الصراع أُخرس بفضل الإجماع فى مستويات القمة على أن التنظيم الحزبى لا يمكن أن يعيش صراعا شرسا آخر كتلك الصراعات الأيديولوجية التى شهدها الحزب على عهد ماو، أو عمليات التطهير المفاجئة التى ميزت زعامة دنج.

فى أرجاء الصين بحثهم عن أشخاص فى حوالى الأربعين من عمرهم، من أصحاب التعليم الجامعى والخلفية التقنية، ومن أعضاء الحزب، ويتمتعون بسجل إدارى مشرف. فقد كان دنج يسعى إلى ترسيخ مبدأ الكفاءة الشخصية كأساس للاختيار فى نظام حزبى يعطى الأولوية للولاء السياسى. ففى إقليم جانسو القاحل فى شمال غربى البلاد، على سبيل المثال، عثر سكرتير الحزب الإقليمى سونج بينج على الشاب هو جينتاو الذى كان يعمل ضمن أفراد هيئة التشييد الإقليمية. ونظرا لتأثره بذكائه وقدراته، قام بترقيته عدة درجات ليصبح نائب رئيس الهيئة. ومثل هذه الترقيات السريعة كانت ولا تزال نادرة بين كوادر البيروقراطية الصينية، المولعين بالأقدمية. وكان نفس النوع من الترقى السريع وراء دفع الحياة العملية للى رويهوان، الذى انتقل من وظيفة من المستوى المتوسط بسكرتارية رابطة الشباب ببكين إلى منصب

المناصب التى صار هو وريثا لها الآن يثير المزيد من الجدل ويشير إلى مدى هشاشة معايير ومؤسسات الحزب. وقد كُتب الكثير فى صحافة الغرب عن رغبة جيانج فى البقاء فى السلطة، لكن ما لم يفهمه هؤلاء الكتاب هو مدى محدودية الخيارات المتاحة أمامه. فجيانج، الذى يبلغ الآن السادسة والسبعين من عمره، قضى فترتين ونصف الفترة كسكرتير عام. وفى ١٩٩٧، وكجزء من محاولة ناجحة للتخلص من زميل أقدم هو قياو شى الذى كان يهدد نفوذه، اتفق جيانج مع موظف محترم معتزل على أن يقدم الأخير اقتراحا يقضى بألا يعاد تعيين القادة المركزيين بعد سن السبعين - باستثناء جيانج نفسه الذى كان وقتها فى الحادية والسبعين من عمره، مع وعد منه آنذاك بأن يظل الاستثناء الوحيد. وقد أرسى هذا قاعدة غير رسمية بألا يعود قادة اللجنة الدائمة إلى مناصبهم بعد سن السبعين.

نيته فى المساومة بشأن احتكار الحزب الشيوعى للسلطة. فإذا كان بمقدورهم التحكم فى مساحة التغيير، فمن المرجح أن تنتقل الصين إلى مرحلة بعد تسلطية أيديولوجية تركز على التنمية الاقتصادية. شيء أشبه بالنظم التسلطية التى شهدتها كوريا الجنوبية وتايوان، والتى لاتزال قائمة فى سنغافورة. لكن إذا أدت إصلاحاتهم المحدودة إلى المطالبة بتغيير أكبر فمن الممكن، فى رأينا، أن تتحرك الصين بصورة أسرع باتجاه ثورة ديموقراطية كتلك التى شهدناها فى المجر وبولندا.



.. الجيل الرابع يحكم الصين

لقد اتخذت قرارات اختيار أعضاء اللجنة الدائمة والمكتب السياسى (وغيرها من التعيينات، مثل أعضاء سكرتارية الحزب الشيوعى الصينى) بالاتفاق بين عدد محدود من قيادات القمة، ضم جيانج ولى بنج رئيس البرلمان، وأيضًا رجل جيانج، السياسى التكتيكى زنج قنجهونج. ومن جانبهم، وضعوا نصب أعينهم ما يطلق عليه الحزب «الرأى العام»، وهو تعبير يشير إلى آراء مائتين أو ثلاثمائة من كبار موظفى الحزب فى أرجاء البلاد.

ومع ذلك، تزايدت حدة الصراعات الشخصية خلال العامين المنصرمين. فقد قاتل جيانج حتى النهاية للتأثير بشكل حاسم على اختيار زعامة ما بعد الانتقال، وحاول إجبار منافسه الرئيسى، لى رويهوان، على التقاعد، وهو ما تم بالفعل. وستتزايد الخلافات مع بدء مفاوضات القيادة الجديدة لاختيار الصف الثانى وشغل المناصب البرلمانية والمقرر حسمها فى مارس القادم. وربما كانت هذه أول مرة تدار فيها معركة الخلافة وفق قواعد متفق عليها. لكنها تظل معركة، ومعركة لم تنته بعد.

إن كل الزعماء الجدد من المستفيدين من نظام الفرز على أساس الكفاءة الشخصية الذى بدأ تنفيذه منذ عشرين عاما على يد دنج زياوبنج، صاحب الإصلاحات الاقتصادية التاريخية فى الصين. فقد تبنى دنج برنامج «التحولات الأربعة»، الذى كان يهدف إلى إيجاد قادة شيوعيين «ثوريين، وشباب، وأكثر معرفة وتخصصا»، على حد قوله. وفى أوائل الثمانينيات من القرن الماضى، كان من شأن هذا البرنامج تدعيم المسيرة الوظيفية لكل الرجال والنساء الذين اختيروا لعضوية المكتب السياسى الجديد.

واستجابة لحملة دنج، كثف كبار الموظفين

نائب عمدة فى تيانجين. ويمكن سرد قصص شبيهة عن ون جياباو، ووو بنجيو، ولو جان، وزنج قنجهونج، وغيرهم من أفراد قائمة المكتب السياسى الجديدة.

على أن تحديد نمط الترقى لا يفسر النجاح الشخصى فى بلوغ أعلى المناصب. فلم تكن القدرات الشخصية والطموح الشخصى وحدهما كافيين فى كل الحالات، بل لعب أيضا التوفيق فى إيجاد الراعى الصحيح دورا حاسما. فبعد أن عمل هو جينتاو، على سبيل المثال، لفترة قصيرة برابطة الشبيبة الشيوعية ببكين، انتقل للعمل سكرتيرا للحزب فى اثنين من أقاليم الصين المناوئة، جيزهو ثم التبت. ولم يحقق إنجازات كبيرة فى أى من الإقليمين - باستثناء إعلان الأحكام العرفية فى لهاسا فى مارس ١٩٨٩، وهى المرة الأولى التى تشهد فيها جمهورية الصين الشعبية إجراء كهذا. وهو ما شكل سابقة لإعلان الأحكام العرفية فى بكين بعد ذلك بشهرين اثنين.

على أن دنج رغب، فى ١٩٩٢، فى أن يرقى شخصا واحدا تحت سن الخمسين إلى أعلى هيئة كوسيلة لإظهار أن عملية الخلافة فى الصين أصبح لها أسسها، وأن من الممكن التنبؤ بها، بالقدر الذى يسمح بدخول شاب أمامه مدة خدمة طويلة إلى المكتب السياسى. فاختار «هو»، ذا التاسعة وأربعين عاما. وحتى الآن لم يعرف لماذا اختير «هو» من بين العديد من المرشحين، من بينهم المرشح الحالى لرئاسة الوزارة ون جياباو، ويرجع زونج هايرن ترقية «هو» إلى نفوذ مستشاره القادم من جانسو، سونج بينج، الذى كان فى ١٩٩٢ عضوا باللجنة الدائمة للمكتب السياسى، وكان له صوت مؤثر فى اختيار المجموعة الجديدة من القادة بوصفه رئيسا لإدارة التنظيم.

وإذا كان صعود «هو» للسلطة يبدو تقدما هادئا حثيثا صوب القمة، فإن اعتزال جيانج

ومما سيحد من نفوذ «هو» احتفاظ جيانج زمين بقيادة الجيش على غرار ما حدث مع الزعيم الراحل دنج، الأمر الذى سيمكنه من ممارسة حق الاعتراض على قرارات الجيل الرابع فى أكثر المسائل حساسية، مثل الإصلاح السياسى الداخلى والموقف تجاه تايوان.

واعتبارا من منتصف ٢٠٠٢، شرعت قطاعات من الصحافة التى يسيطر عليها الحزب وتلك التى يسيطر عليها الجيش بترويج القصص التى تحتفى بالقدرات «الفريدة» لزعامة جيانج وتدعو إلى الالتفات إلى الأهمية التاريخية لنظرياته حول دور الحزب. وقد قيل الكثير حول تقديمه لأسس اجتماعية جديدة لدور الحزب فى إطار نظريته الخاصة بـ«الأمثولات الثلاث» - قوى الإنتاج المتقدمة، والثقافة المتقدمة، والكتل العريضة من الشعب، التى يجب أن تحظى كل منها، كما يرى، باهتمام رئيسى عند رسم السياسة القومية. وهى مقولة جديدة من حيث إنها تخاطب بوضوح الطبقة الوسطى المتعلمة ذات النزوع الاقتصادى الفردى.

إن الحكام الجدد لا يخططون لمجرد استمرار الوضع القائم. فهناك تجمع مهم، يرغب فى انتخابات شبه تنافسية لتولى المناصب الحكومية حتى المستوى الإقليمى والمزيد من الحريات المحدودة للصحافة والتليفزيون والإذاعة فى الصين.

وقد تحدث أولئك المسئولون عن مستقبل الاقتصاد الصينى وعن خططهم لمواجهة الاضطراب الذى حدث نتيجة تحويل السوق خلال العقدين الماضيين، مع توجيه المزيد من العناية لتحقيق النمو عبر زيادة الطلب المحلى على حساب النمو الناتج عن تنمية الصادرات؛ ويقولون أنهم يريدون تقليل التفاوت بين الدخول وضمان المزيد من الحماية للبيئة.

ولم يشر أى من الزعماء الجدد إلى

ومثل أسلافهم، يرى زعماء الجيل الرابع أن النمو الاقتصادى السريع هو أهم متطلبات استمرار الاستقرار الاجتماعى والسياسى. لكنهم يحملون أفكارا جديدة لتحقيق هذا. ففى ظل حكم دنج زياوبنج وجيانج زمين كان هناك إجماع على تحقيق النمو عبر التصدير، الذى تحفزه الاستثمارات الأجنبية، هو مفتاح التنمية السريعة. لكن ون جياباو، رئيس الوزراء ورئيس مجلس الدولة الجديد، يتبنى، كما يقال، رؤية مختلفة للنمو تقوم على زيادة الطلب المحلى:

«يجب أن ينبع الاتجاه الاستراتيجى لنمو الاقتصاد الصينى على المدى البعيد من توسيع الطلب المحلى ... ورفع مستوى معيشة الشعب يجب أن يكون نقطة الانطلاق للعديد من المشروعات. إن ما نحتاجه، بوضوح، هو إجراءات فعالة لرفع دخول السكان، وخاصة دخول أسر الفلاحين ومحدودى ومتوسطى الدخل فى المدن الصغيرة، والعمل على رفع القدرة الشرائية لهؤلاء السكان».

ولو قدر لهذه السياسة أن تطبق لترتب عليها عدة نتائج. فمن الممكن أن تسهم زيادة الدخول ورفع مستويات المعيشة فى تعزيز شعبية النظام، وجعل السوق الصينية سوقا حقيقية بالنسبة للصينيين والمؤسسات الأجنبية على حد سواء، وتعزيز قدرة الصين على الحركة فى مجال السياسة الخارجية عن طريق تقليل اعتمادها على التصدير للأسواق الغربية.

وتعانى الصين تفاوتا ضخما فى الدخول بين المدن الساحلية المزدهرة نسبيا وبين الأقاليم الزراعية والصناعية الداخلية الفقيرة. ونفس التفاوت قائم بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، حيث يحقق العمال اليدويون والفلاحون دخولا متدنية للغاية مقارنة بأصحاب المشروعات الخاصة والمديرين وموظفى المشروعات الأجنبية. وهذه التفاوتات يستشهد بها منتقدو النظام فى الداخل والمحللون الأجانب، على حد سواء، ممن يتوقعون «انهيار الصين». وهو ما لا يخفى على زعماء الجيل الرابع. ففى زيارة للأحياء الفقيرة بإقليم شانزى، بشمال غرب البلاد، علق لى رويهوان قائلا: «الحزب الشيوعى الصينى فى الحكم منذ ٥٠ عاما ولا يزال هناك ٣٠ مليونا يعانون الفقر و٥٠ مليونا محرومون من التعليم الأولى. هذا هو فشلنا؛ هذه هى خطيئتنا».

وفى شاندونج عام ٢٠٠١ أضاف: «فى هذه المسألة، علينا أن نزيد من اهتمامنا بالمحرومين، أمثال العمال غير

الدائمين والعاطلين، وأصحاب المعاشات والعمال، وسكان الريف الذين مازالوا لا يحصلون على ما يكفي من الكساء والغذاء».

إن تغيير الاستراتيجية الاقتصادية يعني المزيد من الضغط على مشروعات الدولة التي لا تحقق أرباحا، خاصة الصناعات الخفيفة، والثقيلة التي تنتج الصلب والسيارات والناقلات والسفن والفحم. فبعد ما يقرب من العقدين، دفع المسئولون خلالها باتجاه تنمية الشركات المملوكة للدولة وتصفية أصول المنشآت الخاسرة، أصبح إسهام مشروعات الدولة في إجمالي الناتج القومي لا يزيد على الربع. والكثير منها لا يزال متعثرا، وهو ما يفسر عدم استرداد أكثر من نصف القروض التي قدمتها بنوك الدولة، وكذلك تظاهرات العمال وأصحاب المعاشات المتكررة احتجاجا على عدم صرف أجورهم ومعاشاتهم.

ويميل ون جياباو وغيره من واضعي السياسة الاقتصادية مستقبلا إلى الإسراع بتصفية مشروعات الدولة الخاسرة. فسياسة جيانج زمين ورئيس الوزراء المنصرف زو رونجي كانت تقوم على «التمسك بالكبيرة والتخلي عن الصغيرة» - أي بيع الشركات الصغيرة وتقديم استثمارات جديدة للشركات الكبيرة، لإقامة نظام مختلط على غرار كوريا الجنوبية، يبقي على سيطرة الدولة على الاقتصاد. ويعارض ون هذا الشعار، قائلا بأنه لا يجب تناول الأمر وفق «معيار مطلق». وهو يرى أن بعض شركات الدولة الكبيرة التي تحقق خسائر يمكن بيعها أيضا، مادامت لا تدخل ضمن الصناعات الاستراتيجية، مثل الدفاع، والطاقة، والنقل، والاتصالات، التي يرى ضرورة سيطرة الدولة عليها.

وفي المسألة البيئية، يعتبر «ون» صاحب أكثر الآراء تقدمية في الصين. فهو ينتقد خطة تنمية المنطقة الغربية الكبرى، التي بمقتضاها ترصد بكين الأموال لتطوير المنطقة الغربية النائية بهدف استغلال موارد الإقليم وربطه سياسيا ببقية أجزاء الأمة. وهو ينادي بتنمية متمهلة تركز، ضمن إجراءات أخرى، على تقليل تلوث الهواء والمياه، من أجل وقف تردي الأوضاع البيئية. كما يوجه انتقاداته لبرنامج «نقل الماء من الجنوب إلى الشمال» الذي يقترح إنشاء شبكة من القنوات والأنابيب لنقل كميات كبيرة من المياه من الجنوب، حيث يتوفر الماء، إلى الشمال الذي يعاني الجفاف. وفي تفنيده للبرنامج، يتحدث «ون» بتواضع قل أن تراه في زعيم شيوعي: «يجب أن نحفظ الماء قبل نقله، ونتحكم في التلوث قبل أن نفتح الصمام، ونحمي البيئة قبل أن نستهلك الماء. يجب أن نفكر بجدية في الفاعلية الاقتصادية والاجتماعية والبيئية لنقل الماء ... لا ينبغي أن نتعجل البدء في العمل قبل الوصول إلى ضمانات علمية كاملة. إذ يجب أن نجرب حفظ الماء قبل أن نقرر نقله».

كذلك تريد الزعامة الجديدة تخفيف بعض الضوابط الاجتماعية والحفاظ، في ذات الوقت، على الدولة البوليسية. فعضو اللجنة الدائمة المسئول عن المسائل الأمنية، لو جان، ينادي بإصلاح نظام تسجيل الملكية الماوي، الذي لايزال يربط الفلاحين إداريا بالأرض، من خلال سجل حالة قومي واحد لجميع المواطنين. وإذا ما التزم لو بأفكاره، سيصبح الفلاحون قادرين على الهجرة بحرية إلى أي مكان تتاح فيه فرص العمل، ويستطيع أي مواطن صيني استخراج جواز سفر بسهولة.

والمشكلة الرئيسية للنظام السياسي الصيني الحالي، كما يراها الجيل الرابع، هي الفساد وإساءة استخدام موظفي الحزب للسلطة، وما يترتب على هذا من نفور الجماهير الصينية وسخطها. والوثائق تشير، على سبيل المثال، إلى العديد من الحالات التي اتهم فيها موظفون وعائلاتهم بتبديد أموال تخص مصانع الدولة أو الحصول على رشاوى لتسهيل أعمال القطاع الخاص. وتورد الوثائق قول رويهوان: «من المؤكد أن عضوية الحزب الشيوعي الصيني قد زادت عدديا حتى جاوزت الستين مليونا ... لكن لماذا تراجعت وحدتنا وجاذبيتنا بصورة غير مسبوقة؟ لماذا لا يشعر المرء بالفخر أو بدوره التاريخي النابع من كونه عضوا أو كادرا بالحزب؟ إن هذا أكبر خطر يواجهنا اليوم، والفتيل لإشعال غليان اجتماعي محتمل».



كما تورد الوثائق قول هو جنتاو: «إن أكبر خطر يواجهه الحزب منذ توليه السلطة هو افتقاده الاتصال بالجماهير.. إذا أردنا لشيء أن يحدث أسفل علينا أن نفعله أولا فوق. إذا أردنا أن يمتنع الناس عن فعل شيء، فعلى القادة أنفسهم أن يمتنعوا عنه أولا».

وأعضاء الجيل الرابع منقسمون إلى معسكرين بشأن كيفية مواجهة هذه المشكلات. فهناك مجموعة - تضم هو جنتاو، وون جياباو، ولو جان - تؤمن باستخدام آليات الحزب الداخلية لتقويم سلوك «الكوادر»، أي موظفي الحزب والحكومة. ويقول هو أن الحزب يجب أن يحسن تجنيد وتقييم وتدريب وترقية كوادره، وقد أيد التنظيمات الجديدة التي صدرت في يوليو ٢٠٠٢، التي تحدد إطارا صارما للترقي يدخل فيه التحريات وجلسات الاستماع والاختبارات.

وهناك مجموعة أخرى - تضم لي رويهوان، و- يا للعجب - أكبر مساعدي جيانج زمين، زنج قنجهونج - ترى أن الآليات الداخلية وحدها لا يمكن أن تجنب كوادر الحزب الانغماس في الفساد وإساءة استخدام السلطة. وهم يعتقدون بأن كوادر الحزب بحاجة إلى انضباط إضافي من خلال إجراءات تقوم مقام «الرقابة» الشعبية الخارجية، ويطلق عليها أيضا «الديموقراطية». ويشمل هذا انتخابات تنافسية محدودة وإعلاما حرا بقدر ما، بما في ذلك الصحافة والتليفزيون والإذاعة. يقول لي رويهوان: «إذا أردنا تغيير الوضع ومنع الفساد ومكافحته بصورة فعالة، علينا تقييد السلطة ومراقبتها». وفي مناسبة أخرى قال: «إن الناس لا يصدقون أننا نطبق على أنفسنا في الحزب الشيوعي الصيني رقابة ناجحة ... لماذا وصل حزب متقدم، حزب يمثل مصالح أكبر عدد من الجماهير، إلى هذا الوضع؟ في أي موضع من الماركسية أو نظرية دنج زياوبنج نقرأ أن الحزب يجب أن يخاف من الشعب، أن يخاف من رقابة المجتمع، أن يخاف من إصلاح نفسه، أن يخاف من سيادة القانون، أن يخاف من أن يعرف الشعب دخولنا ودخول أسرنا؟».

ويتطلع «لي» إلى أن يمتد نظام الانتخابات التنافسية لاختيار قادة الحكومة، القاصر حتى الآن على مستوى القرية، ليشمل الخمسين ألف حكومة بالجهات النائية - وهو ما يجرى تطبيقه بالفعل بصورة تجريبية في حوالي ١٢ جهة لكن بدون الحصول على موافقة اللجنة الدائمة. وحسبما يقول «لي»، فإن الانتخابات المباشرة يجب أن تمتد، خلال ثلاث لخمس سنوات، إلى مستوى المدن والمقاطعات، لتغطي في النهاية كل الأقاليم. وسيكون الترشيح لهذه الانتخابات متاحا لغير أعضاء الحزب، لكن لن يسمح بقيام أحزاب غير الحزب الشيوعي. وسيكون لدى الموظفين الذين يخوضون انتخابات المنصب الحافز لإرضاء الناخبين.

تبنى دنج زياوبنج برنامج «التحولات الأربعة»، الذي كان يهدف إلى إيجاد قادة شيوعيين «ثوريين، وشباب، وأكثر معرفة وتخصصا» وكل الزعماء الحاليين استفادوا من ذلك

إن القيام بحركة إصلاح سياسي حقيقي رهن بحسابات زنج قنهونج، الذي كان لسنوات المخطط السياسي الاستراتيجي، الداهية الهادئ، لزيانج زمين. وتقارير التحريات الخاصة بزنج لا تحوي سوى القليل من البيانات حول الإصلاح السياسي، لكنه في أحاديثه الخاصة، حسبما يرد بكتاب زونج هايرن، يحبذ إلغاء الحظر على قيام أحزاب معارضة. كما يميل إلى مد الانتخابات المباشرة إلى مستوى المقاطعات فاعلي، وإتاحة المزيد من استقلالية الصحافة. لكنه، شأن باقي القيادات، يرفض محاكاة النموذج الأمريكي. يقول: «لدى أمريكا الكثير مما نحتاج إلى دراسته، لكننا، نحن الصينيين، لا نحبذ اتباع النظام الأمريكي. وعندما نقوم بإصلاح جرئ للنظام السياسي، فإن ذلك يجب أن يتم على أساس من الوحدة القومية، والتماسك العرقي، والاستقرار الاجتماعي».

وليس هناك ما يشير إلى نية أي من أفراد الجيل الرابع في تخفيف الحظر المفروض على التنظيمات المستقلة للعمال والفلاحين والطلاب من ذلك النوع الذي ظهر لفترة قصيرة في ١٩٨٩، والذي شكل - حسب رأي المتشددين في ذلك الحين - تهديدا لسلطة الحزب. ولا تكشف التقارير عن جورباتشوف صيني في صفوف الزعامة الجديدة - رجل يرى أن مشكلات الحزب من الحدة بحيث تتطلب تغييرات يمكن أن تهدد وجود الحزب نفسه. وهذا أمر ربما لا يثير الدهشة. فلو أن أحدا قال بضرورة إنهاء احتكار الحزب للسلطة، لاستبعد من البداية من عملية الترشيح لاختيار اللجنة الدائمة للمكتب السياسي.



على الرغم من أن أفراد الجيل الرابع أفضل تعليما وخبرة فنية من أسلافهم، فإن خبرتهم في المجال الدولي أقل. واحد منهم فقط، هو لو جان، درس خارج الصين، مقابل ثلاثة أعضاء باللجنة الدائمة السابقة. كما قام الزعماء السابقون بزيارات دبلوماسية عديدة، وشاركوا في مؤتمرات للقمة، واستقبلوا سيلا من الزوار الأجانب. وباستثناء هو جنتاو الذي عمل مع القيادة المنصرفة، فإن أفراد الجيل الرابع لم تتح لهم الفرصة بعد للاتصال بالخارج.

وحتى الآن، لا يرى الزعماء الجدد حاجة كبيرة لتغيير سياسة جيانج زمين الخارجية. فقد كان أهم إنجاز له هو تحقيق قدر من الاستقرار في العلاقات بين الصين والولايات المتحدة، بالرغم مما يراه الصينيون من تقلب ولا منطقية في السياسة الأمريكية تجاه الصين في غالب الأحيان. وعندما تولى جيانج الحكم في ١٩٨٩، كانت الصين خاضعة للعقوبات من جانب العديد من الدول، تطاردها لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة ببيانات تستنكر القمع الذي تعرضت له حركة تيانانمن شبه الديموقراطية. أما الآن، بعد أن أصبحت عضوا بمنظمة التجارة العالمية، وتعدد لقاءات القمة مع الولايات المتحدة، وبعد اختيارها لتنظيم دورة الألعاب الأوليمبية عام ٢٠٠٨، فإن الصين ترى نفسها زعامة محترمة بين بلدان العالم. وهو ميراث سيسعى جيل «هو» للحفاظ عليه.

وفي ملاحظاتهم الداخلية، لا يعتبر القادة الجدد بلادهم قوة نافرة، كما يصورها البعض في الغرب، أو كقوة متحدية لسيادة الولايات المتحدة الإقليمية، بل كقطب من أقطاب الوضع العالمي الراهن، وكقوة لحفظ السلام والاستقرار. والصين تؤيد الأمم المتحدة، وتتبنى كذلك ما تطلق عليه التعددية القطبية - وهو المبدأ الذي يعطي العديد من البلاد حق المشاركة في تقرير السياسة الدولية. كما تؤيد - بالكلام على الأقل - الحملات الدولية ضد الإضرار بالبيئة، وكذلك ضد الفقر والمرض، وتجارة المخدرات، وإساءة معاملة اللاجئين، والإرهاب الدولي، بالرغم من تسامحها الكبير مع الأضرار التي تتعرض لها بيئتها نفسها.

وحسب «هو» وغيره من الزعماء، فإن الصين تتمتع الآن بسجل دولي جيد وأن صعودها لا يمثل تهديدا لأحد. وكما يقول «هو»، فإن الصين كلما تقدمت، «كلما أتيح لنا المزيد من الموارد لمواجهة سياسات القوة والهيمنة»، ومصدر سياسات الهيمنة والقوة تلك، والتهديد

الحقيقى للنظام العالمى، فى رأى زعماء الصين الجدد، هو الولايات المتحدة.

يقول هو جنتاو: «إن تحرك أمريكا الاستراتيجى باتجاه الشرق قد تسارع». فعند النظر حول الحدود الصينية، يلاحظ جنتاو أن الولايات المتحدة «قد عززت من وجودها العسكرى فى منطقة آسيا ـ الباسيفيك، ودعمت تحالفها العسكرى مع اليابان، وتعاونها الاستراتيجى مع الهند، وحسّنت علاقاتها مع فيتنام، واستدرجت باكستان، وأقامت حكما مواليا لها فى أفغانستان، وزادت من مبيعات الأسلحة إلى تايوان، وغير ذلك. إنهم يدعمون قوتهم ويضغطون علينا من الشرق والجنوب والغرب. وهذا يشكل تغييرا كبيرا فى مجالنا الجيوبوليتيكى».



وحسبما يرى زنج قنجهونج، فإن المحاولة الأمريكية لاحتواء الصين كانت حتمية. فهو يقول: «الأمريكيون قلقون دائما من أن قيام صين قوية يمكن أن يهدد مكانتهم. لذلك فإن الولايات المتحدة تريد السيطرة على السوق الصينية وفى ذات الوقت توفير كل السبل الممكنة لاحتواء تطورها. وهذا الموقف المتناقض يشير إلى أن العلاقات الأمريكية ـ الصينية تتخذ مسارا متعرجا، يختلف كثيرا عن (التطور السلس) للعلاقات الصينية الأوروبية».

وبالإجمال، فإن بيانات الزعماء تشير إلى أنهم لا يؤمنون إلا بجانب واحد من الجدل الدائر فى الولايات المتحدة بشأن السياسة الصينية. فآراؤهم تتماشى مع آراء «الواقعيين» الأمريكيين (وتبدو متأثرة بها) الذين يرون أن الصين والولايات المتحدة، باعتبارهما قوتين بالغتى القوة، محكوم عليهما بالتصادم. ولا تشير أى من هذه البيانات، ولو مجرد إشارة، إلى الرأى الأمريكى المعارض، الذى يعبر عنه غالبا الرؤساء الأمريكيون وغيرهم من المسئولين، من أن المصالح الأمريكية تحفظها صين مزدهرة ومستقرة.

وعلى الرغم من آرائهم السوداوية بشأن النوايا الأمريكية على المدى البعيد، فلازال الزعماء يعبرون عن تفاؤلهم من أن الولايات الأمريكية سوف تكبح جماح نفسها. وحسب قول ون، فإن البلدين لهما «مصالح وأهداف مشتركة فى كثير من المسائل الدولية مثل معاداة الإرهاب، والتصدى لزيادة النسل، ومكافحة المخدرات والجريمة المنظمة ... كل هذا يبين أن المصالح المشتركة بين البلدين أكبر من الخلافات».

ويشير لى رويهوان إلى أن المصالح الاقتصادية تقرب بين البلدين، ويقول زنج قنجهونج: «إن بوش وكلينتون واضحان، إذ يدركان أن إقامة علاقات سيئة مع الصين يضر بالمصالح القومية الأمريكية فى المدى البعيد. ومن هنا، فإن الولايات المتحدة لن تسىء إلى تلك العلاقات فى المدى البعيد، ولا يمكن للعلاقات الصينية الأمريكية أن تتطور إلى ما يشبه العلاقات الأمريكية السوفيتية فى السابق».

وكما يقول هو جنتاو، فإن الهيمنة الدولية للقوة الأمريكية جعلت من العلاقة مع الولايات المتحدة «تهديدا رئيسيا لاستراتيجية السياسة الخارجية لصين». وينظر زعماء الصين إلى أى علاقة سياسية خارجية أو أى مشكلة أخرى

مثل أسلافهم، يرى زعماء الجيل الرابع أن النمو الاقتصادى السريع هو أهم متطلبات استمرار الاستقرار الاجتماعى والسياسى. لكنهم يحملون أفكارا جديدة لتحقيق هذا

من زاوية العلاقات مع الولايات المتحدة. فهم، على سبيل المثال، يقدرون صداقتهم الجديدة مع روسيا. لكنهم يدركون أن أى محاولة لتوسيع التعاون الصينى ـ الروسى الاستراتيجى رهن بالمصالح الروسية الأساسية فى علاقتها بالولايات المتحدة. وعند حديثه عن العلاقة بروسيا، يستشهد جنتاو بكونفوشيوس: «العلاقات بين النبلاء يجب أن تكون فى رقة الماء» ـ لا ينبغى أن نطلب منها الكثير. كما أنهم يقدرون منظمة شنغهاى للتعاون، التى يرعاها الصينيون، والتى تضم روسيا وخمسة من بلاد آسيا الوسطى، منها كازخستان وأوزبكستان. فالمنظمة تسهم، حسب اعتقادهم، فى تحقيق السلام والاستقرار على الحدود الشمالية والغربية للصين.

وبالنسبة لزعماء الصين الجدد، فإن أوروبا تتيح ساحة دبلوماسية مشرقة، حيث تلتقى مصلحة الصين وبلاد الاتحاد الأوروبى على وضع حد للانفراد الأمريكى. أما اليابان، فتعتبر، على العكس، أداة بيد القوة الأمريكية وتشكل من ثم تهديدا كبيرا للمصالح الصينية. والعيب الوحيد فى العلاقة بأوروبا، كما يراه الزعماء الصينيون، هو الانتقادات الأوروبية لسجل الصين فى مجال حقوق الإنسان. على أنهم يردون هذه الانتقادات إلى الفروق الثقافية، بينما يرون فى الانتقادات الأمريكية واحدة من أدوات استراتيجية الاحتواء الأمريكية. ومن هنا، فإن ون، على سبيل المثال، يبدو أكثر استعدادا لتقديم التنازلات أمام قلق أوروبا بخصوص حقوق الإنسان عن ذلك الصادر عن أمريكا.

كذلك تؤثر العلاقات الأمريكية الصينية على مواقف زعماء الصين تجاه ثلاث مشكلات يعتبرونها، بوضوح، من الشئون الداخلية لا الخارجية ـ العلاقة مع تايوان، والتبت، وزنجيانج، تلك المنطقة الشمالية الغربية الشاسعة التى تفصل التبت عن آسيا الوسطى، والتى تواجه فيها الصين نزعات انفصالية من جانب المجموعات العرقية المسلمة، وخاصة اليغور الذين يشكلون ٤٧٪ من مجموع سكان المنطقة البالغ عددهم مليون نسمة. والمعارضة الشعبية للحكم الصينى، فى رأى الزعماء الجدد، ليست المصدر الحقيقى للمتاعب فى تايوان والتبت. فالأمريكيون يستغلون الأوضاع ويبالغون فى الموقف، بل إنهم هم الذين خلقوا هذه المتاعب كجزء من استراتيجيتهم لاحتواء الصين.



ويصف زنج قونجهونج تايوان والتبت بـ «كروت المساومة» فى الاستراتيجية الأمريكية تجاه الصين. وحسب قوله، «عندما ترى الولايات المتحدة أن تحسين العلاقات مع الصين يخدم مصالحها، تفقد تايوان أهميتها؛ وعندما ترى ضرورة الصراع بين الجانبين، توضع مسألة تايوان على أجندة البيت الأبيض. والأمريكيون لا يأخذون فى اعتبارهم أبدا مصالح تايوان، بل مصالحهم وحدهم. أتعتقدون أن التايوانيين لا يدركون هذا؟ إنهم يدركونه بالطبع ـ لكنهم لا يجرؤون على الكلام».

ويأمل الزعماء فى أن يكون ظهور الحزب الديموقراطى التقدمى ذى النزعة الاستقلالية فى تايوان، والذى فاز زعيمه شن شوى ـ بيان برئاسة البلاد فى ٢٠٠٠ وحقق أكبر أغلبية برلمانية فى ٢٠٠١، أمرا مؤقتا. يقول زنج قونجهونج، فى تقييمه لشن: «إن لديه القوة لكن ليس لديه أدنى فكرة عن كيفية استخدامها؛ إنه ليس سياسيا ماهرا. وقد أيده التايوانيون مؤقتا بدافع من العواطف، والزمن وحده كفيل بإثبات قوة هذه العواطف. إن شن يعتمد الآن على الرخاء الاقتصادى الذى حققه نظام حكم الكومنتانج (السابق) ليبقى وليس بمقدوره الحفاظ على هذا الرخاء. ولذلك لن تبقى العواطف التى يكنها له الشعب التايوانى طويلا».

وشأن تايوان، يرى الجيل الرابع فى التبت ساحة قتال بالوكالة فى العلاقات مع الولايات المتحدة. وحسب زنج قونجهونج، فإن الاتهامات الدولية للصين بالوحشية والعنصرية فى مسألة التبت «تكشف بجلاء عن النية المبيتة لدى عصبة الدالاى لاما والقوى الدولية المعادية لاستغلال ما يسمى بـ«مشكلة التبت» لزعزعة استقرار الصين، وتقسيم المنطقة، واحتواء تطور الصين وقوتها». ويضيف زنج: «إن التبت هو تبت الصين، وليس تبت أمريكا أو أوروبا. إن الجميع يعرفون أن هنود أمريكا قد عانوا إبادة جماعية ثقافية، كما تعانى الولايات المتحدة وأوروبا مشكلات التمييز العنصرى، فبأى حق تعيّر الولايات المتحدة الآخرين بحقوق الإنسان؟ إن عليهم أن يحلوا مشكلاتهم أولا».

ومن المثير للدهشة أن الجيل الرابع يعتبر الموقف فى زنجيانج أكثر حرجا منه فى التبت أو تايوان. فعلى عكس آراء كثيرين من الخبراء الغربيين، يرى لو جان أن الإرهاب العنيف فى زنجيانج يعد مشكلة خطيرة، وأن حل المشكلات هناك أكثر صعوبة من التبت ذات الأقلية العرقية الواحدة وغير العنيفة بشكل عام. ومن الواضح أن الزعماء يرون أن المعارضة الداخلية هناك هى الأكثر خطورة لتمتعها بدعم قوات اليغور الانفصالية المتمركزة خارج الصين، فى أوزبكستان بالأساس. ويدعو هو جنتاو بقوة إلى إقامة نظام مراقبة شامل جديد فى منطقة الحكم الذاتى.

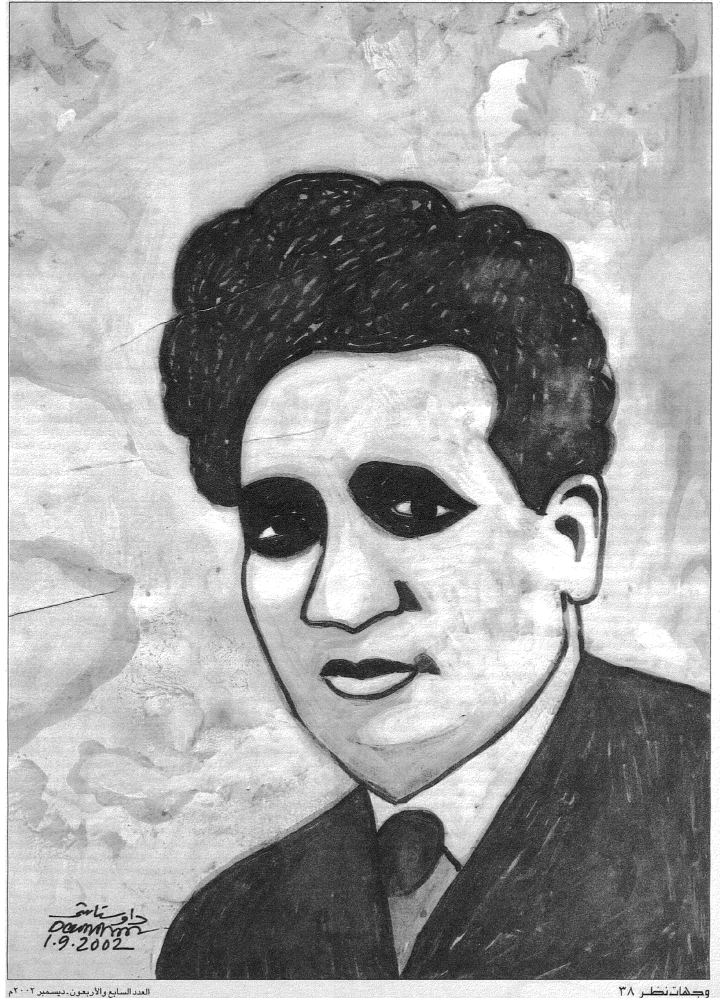


يقول جنتاو: «علينا أن نرسل مجموعة كبيرة ومنتقاة من الكوادر الممتازة الشابة وفى منتصف العمر، تدخل أجورهم وترقياتهم ضمن ميزانية الحكومة المركزية، للعمل فى القرى ذات الأوضاع المعقدة، والفقيرة اقتصاديا، والتى يصعب الحفاظ على الاستقرار فيها ... علينا أن نرسل أفضل عناصرنا إلى خطوط النار، ويجب أن يكون للجان الحزب فى القرى والمناطق دور قيادى أساسى، يجب أن تصبح فروع الحزب فى القرى قلاع حرب، وعلى مكاتب شرطة المناطق، وشرطة الشعب المسلحة، وقواعد الميليشيا أن تطور دورها كمركز للكوادر والفلاحين المتقدمين».

أما بالنسبة للغرب، فالرسالة الأساسية لوثائق زونج هايرن، التى لا زالت سرية حتى الآن، هى الكشف عن أن الحكام الصينيين الجدد قادمون إلى السلطة بثقة رجال تفوقوا فى الأداء على منافسيهم ويتربعون على قمة نظام سياسى قوى. وتوضح السجلات والبيانات أن لديهم، وعلى عكس الزعماء السوفييت السابقين على جورباتشوف، فكرة واقعية عن آليات نظامهم ومواطن الضعف فيه. والجيل الرابع على علم بالاستياء الشعبى من الحزب الشيوعى، لكن هذا لا يخيفهم. وهم مؤهلون لمواصلة إصلاحات الماضى الاقتصادية واتخاذ إجراءات جديدة لمواجهة تفاقم التفاوت الاقتصادى دون التخلى عن دور الدولة فى توجيه الاقتصاد. إنهم يتطلعون إلى التصدى للمشكلات التى طال أمدها والمتصلة بتحديث الحزب ـ الدولة، لكن بعيدا عن نموذج الديموقراطية الغربية. وهم يقبلون بعلاقة الاعتماد المتبادل والشكوك المتبادلة مع الولايات المتحدة كأمر لا مفر منه؛ يأملون فى كبح جماح القوة الأمريكية، ويقيمون علاقات مجزية معها. كما يرون آفاقا طيبة لعلاقاتهم بأوروبا، وعازمون على الإسهام فى النظام العالمى، والاضطلاع بدور فى صياغته.

إن نوايا الجيل الرابع قد لا تتحقق فى المستقبل. فالصين قد تضطر للسماح بقدر كبير من الديموقراطية، وقد ترتد إلى تسلطية أشد صرامة، أو تنهار. وقد تدفع تطورات الأحداث الصين إلى مواجهة مع الغرب، أو تحولها إلى النموذج الاقتصادى والاجتماعى الغربى. لكن أيا من هذه الاحتمالات، والتى يجرى تناولها كثيرا فى الغرب، لا يشير إليها قادة الصين الجدد مطلقا وهم يتأهبون لاستلام السلطة. ■

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
ترجمة: بدر الرفاعى


1.9.2002



أطلال بيت رجل مهم

فـــى حــــى «كـــــوم الـدكـــــة»

جمــــــال إســــماعـيل



[١]

انتشرت بين أهالى الإسكندرية القدامى أسطورة فى غاية الغرابة، حول حى كوم الدكة، أحد أشهر أحياء الإسكندرية، تقول إن الإسكندر الأكبر كان يجلس على أريكة «دكة بالعامية» مصنوعة من الذهب ومطعمة بالماس والياقوت والجواهر النفيسة. وعندما قرر القيام بحملة من حملاته العسكرية إلى خارج البلاد خشى على الأريكة من السرقة، فجاء بأحد المهندسين وكلفه ببناء غرفة تحت الأرض وضع فيها الأريكة ثم قام بقتل المهندس الذى يعرف السر، حتى لا يكون هناك من يعرف مكان الأريكة غيره، وأمر بردم المكان كله دون أن يضع فيه ما يشير إلى مكان الأريكة النفيسة المدفونة. ولم يعد الإسكندر الأكبر إلى الإسكندرية. مات فى تلك الغزوة التى كانت آخر غزواته، وظل مكان الأريكة مجهولاً، لكنه اشتهر باسم «كوم الدكة».

وبعيدًا عن «الأسطورة» يظل هذا الحى العتيق بؤرة المنطقة الأثرية فى الإسكندرية. ولايزال إلى يومنا هذا مليئًا بالحفريات والآثار. وربما يكون من بينها قبر الإسكندر الأكبر نفسه. وقد استعمل المكان كمقبرة فى ثلاثة عصور مختلفة هى اليونانى، الرومانى وعصر المماليك.

وفى عصر محمد على أعيد تخطيط الإسكندرية وأصبح حى كوم الدكة فى مركز الدائرة، وتقود شوارعه الضيقة، الصاعدة الهابطة، إلى مختلف أرجاء المدينة: إلى الميناء الشرقى والبحر، وإلى محطة القطارات الرئيسية، وأحياء الرمل والمنشية والحى اللاتينى و«محرم بك» والوسط التجارى والجامعى فى الإسكندرية. ومع مرور الأيام تحول حى كوم الدكة إلى منطقة تقطنها أغلبية شعبية تضم الحرفيين وأصحاب المهن البسيطة والعاملين فى قصور الأغنياء فى الأحياء المحيطة.



وفى زمن الاحتلال البريطانى كان جنود الاحتلال يخشون الاقتراب من ذلك الحى «الذى تتجسد فيه القضية الوطنية واقعًا ساخنًا تعجز ألاعيب السياسة عن تبريره»، فكان الداخل إليه منهم مفقودًا، والخارج منه مولودًا. وكان أهالى الحى يتجمعون كل مساء، بعد فراغهم من أعمالهم، فى مقهى صغير، وكان أكثر ما يشغل عقولهم شئون السياسة وما ينتاب مصر من شرور على يد المستعمرين والتابعين لهم من كبار الملاك والتجار وأصحاب التوكيلات الأجنبية والنفوذ المستمد من الاحتلال البريطانى.

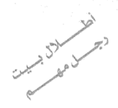
وفى صباح ١٧ مارس ١٨٩٢ عرف كل أهالى الحى أن «الأسطى درويش البحر» أبو البنات وصاحب ورشة النجارة الصغيرة فى شارع «علوة حكيم».، والقاطن فى منزل صغير بالقرب من ورشته، قد رُزق بطفل جميل من زوجته الحاجة ملوك.. وقد أسماه سيد. لكن أحدًا من سكان الحى لم يكن يتصور أن الطفل سيد درويش سينفرد بموهبة موسيقية متفردة فاقت كل التصورات. فقد أدرك فى وقت مبكر من عمره أن الموسيقى هى تصوير وتعبير، فجدد القديم وابتكر الجديد، وخلف تراثًا يصلح للتداول فى كل عصر وأوان.

ومن الضوء الخافت فوق أرصفة مقاهى وأركان حى كوم الدكة، بدأ سيد درويش يلمع. ومن حفلات الأفراح والموالد ومقاهى الإسكندرية، ورحلاته الفنية إلى الشام، انتقل إلى القاهرة نجمًا ساطعًا وموسيقارًا مؤلفًا لموسيقى «أوبريتات» وملحنًا للأغانى، خاصة عندما شارك بموسيقاه وكلماته فى أحداث ثورة ١٩١٩. وبقدر جعل الفن يبرز، وربما لأول مرة، معبرًا عن القضايا الوطنية.. الأمر الذى دفع العديد من المؤرخين للفن إلى القول: «إذا كان سعد زغلول هو الزعيم السياسى للثورة، فإن سيد درويش هو زعيمها الفنى». كانت موسيقاه هى الأمل الذى استراحت له القلوب تطلعًا إلى نور الحرية فى وطن محتل، وكانت ألحانه وأغنياته الوطنية «منشورات سياسية» تتغنى بحب البلد وتدعو المصرى إلى النهوض والمقاومة. وقبل وفاته بأيام عكف سيد درويش على إعداد النشيد الوطنى الذى سوف يردده الشعب عند استقباله لزعيمه سعد زغلول، العائد من منفاه إلى مصر يوم ٢٧ سبتمبر العام ١٩٢٣. وقد استطاع - بالفعل - تدريب المنشدين والعازفين على الأداء. حفظ الناس اللحن. واستقبلوا به زعيمهم العائد. لكن صاحب اللحن والكلمات لم يكن بين المستقبلين فقد انطفأ سراج عمره قبل عودة سعد زغلول إلى مصر بثمانية أيام، عن عمر يناهز ٣١ عامًا، ودُفن فى مقابر «المنارة» على بُعد خطوات من المنزل الذى ولد وعاش فيه، فى حى كوم الدكة.



قبل عام أو يزيد، أبدى فاروق حسنى وزير الثقافة اهتمامًا بأمر حى كوم الدكة، وأوفد إليه لجنة مُشكّلة من محمد غنيم وكان وقتها وكيلاً لوزارة الثقافة، د. أحمد نوار رئيس قطاع الفنون التشكيلية والمعارض والمتاحف، وأحد المهندسين المعماريين. وقد جالت اللجنة فى الحى العتيق، وحول بيت سيد درويش، وعادت إلى القاهرة ومعها دراسة عن «الحى والبيت» مدعمة بالصور والخرائط، تطوع بإعدادها الفنان التشكيلى عصمت داوستاشى ابن الإسكندرية،

←





الغسيل على باب منزل سيد درويش المتهدم وقد تحول المكان إلى خرائب.

وتتضمن مشروعًا يعتبر بيت سيد درويش نواة لمتحف ومركز موسيقى.

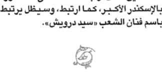
وقبل مدة رأيت البيت وقد تهدم وتحول إلى أنقاض تحيط بها جدران الطابق الأرضى، وتجلس حولها بعض النساء يغسلن، على الرصيف، ويحفزن كل من يأتى إلى المكان لكى يصعد إلى الطابق العلوى للمنزل المواجه ليرى بنفسه، ومن علٍ، ما جرى، وكيف تحول مسقط رأس فنان الشعب، صاحب «زُورونى كل سنة مرة» و«أنا هويت وانتهيت» و«قوم يا مصرى» والـ٢٠ مسرحية غنائية، وأكثر من مائتى لحن، كيف تحول منزل صاحب كل هذا التراث إلى خراب تسرح فيه الزواحف، وقد يتجرأ بعض الجيران ويحولونه، مع مرور الأيام، إلى مستودع للزبالة والنفايات.

[٢]

«المكان ينمو وتكون له صيرورة، ليس فقط عن طريق الناس الذين يعيشون فيه، ولكن كذلك عن طريق الذين مروا منه وحملوا صورته فى خيالهم وذهبوا به إلى جميع أنحاء الأرض.. ثم الذين أحبوا المكان وماتوا، الموت أيضًا يُعمِّق فكرة الميثيولوجيا. ويخلق ميثيولوجيا المكان».

الكلمات بين القوسين هى للروائى القدير الطيب صالح، وهو يتحدث عن «مكان» يراه نموذجًا لكيفية حدوث تنمية بواسطة جهد وهمة أبناء البلد، «خصوصًا إذا كان من يتعهد هذا العمل أحد أبناء المدينة، يحب أهله ويعمل على رفاهيتهم».

يتحدث الطيب صالح عن «المكان» ويقصد «أصيلة» القرية المغربية الواقعة ما بين «طنجة» و«العرائش» الساحلية، وهى قرية كانت تفتقر إلى البنيات الأساسية، بلا ماء أو كهرباء، وبشوارع متربة وحالتها مزرية، إلى أن نمت فى رأس نفر من أبنائها المخلصين «فكرة» بدأت بمهرجان ثقافى متواضع، و«تحركت» لتصبح مدينة عصرية جميلة يسعى إلى أحضانها، فى كل عام، فنانون وكتَّاب وشعراء وأدباء ومبدعون من شتى أصقاع الأرض. وقبل أن يهل شهر أغسطس من كل عام يعمل الرسامون، من الشرق والغرب، على تجميل جدران وأرصفة وشوارع المدينة بلوحات فنية، ويعيش البشر فى أصيلة فى أعراس ثقافية وفنية، وفى انتعاش لا حدود له يشمل كل دوائر الحياة ودوراتها. ولقد تذكرت أصيلة، وكنت فى طريقى إلى «كوم الدكة» حيث عبق المكان والتاريخ والبشر يلف الحى العتيق الذى ارتبط اسمه فى الأسطورة بالإسكندر الأكبر، كما ارتبط، وسيظل يرتبط باسم فنان الشعب «سيد درويش».



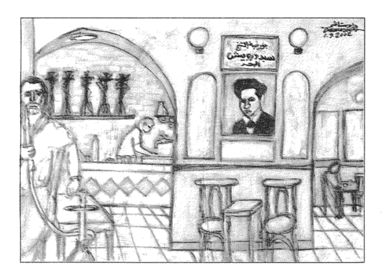
ولم تكن أصيلة وحدها على البال، عند دخولى إلى حى كوم الدكة من ناحية المسرح الرومانى الأثرى، فما أكثر النماذج الرائعة لكيفية حدوث تنمية بواسطة جهد وهمة أبناء المكان. وفى الإمكان استدعاء صور لبعض هذه النماذج من حولنا، فى أحياء لندن والمدن البريطانية القديمة وسوق الخضار العتيق فى «كوفنت جاردن» الذى تحول إلى منطقة جذب سياحى علت قيمتها العقارية وازدهرت أسواقها وانتعش سكانها. أو حى «كامدن لوك» فى العاصمة البريطانية أيضًا، الذى تحول من منطقة لبيع «الخردة» والورش الصناعية الصغيرة المهملة، إلى حى له حيزه الواضح فوق خريطة المناطق النامية المتجددة فى لندن. وهذا هو الحال نفسه فى المناطق الخلفية بشارع أكسفورد التجارى الشهير، الذى اشتهر ببيع الخضار واللحوم، وتحولت إلى مقاصد للمثقفين والفنانين والسائحين. وما حدث فى لندن حدث ويحدث فى مناطق أخرى متفرقة من العالم، فى باريس ومدريد وبرشلونة وفالنسيا فى أسبانيا و«حوارى» ميلانو وروما والمدن الإيطالية، وأيضًا فى القاهرة حيث المناطق التى تحولت إلى أماكن مغلقة مخصصة للمشاه فى وسط القاهرة التجارى وما حوله. نماذج لا تعد ولا تحصى لكن استدعاء صورها يجلب إلى النفس حسرة ترسم علامات دهشة وتعجب وأكثر من سؤال: كيف يمكن لحى كوم الدكة القديم والمؤهل بكل عناصر ميثيولوجيا المكان، أن ينتشى، وأن ينمو ويزدهر فى زمن التحديث؟ وما هى سبل تحويله إلى بؤرة مضيئة تربط الماضى بالحاضر والمستقبل، عبر الاتكاء على عراقته وتاريخه وتاريخ من عاشوا فيه أو مروا به؟ تجيب التجارب البعيدة والقريبة بـ«نعم يمكن» وتشير إلى أن الثقافة والفنون تتصدر السبل الكفيلة باستعادة حى كوم الدكة لعافيته، رغم اختفاء بيت أشهر من عاش فى المكان، وآمن بأن ضياع الشخصية القومية مرهون بزوال الهوية الفنية. وتمثلت همومه الذاتية للحرفة، حرفة الموسيقى والغناء، فى أن البيئة الغنائية السائدة فى طفولته وصباه كانت عبارة عن تكريس للانحلال والتخلف، واستمرار سيطرة الأجنبى. أغنيات «فرانكو آراب» و«هنك ورنك» وغيرهما من أنغام تدور حول اللوعة والعذاب الأجوف والمكابدة الفارغة، غناء بلا هوية لا يعبر عن شخصية. وشخصية بلا غناء خاص لا هوية لها.

هذا هو الفنان الذى، بعد رحيله بعشرات السنين، يمكن أن يكون وحده، المرتكز والكفيل برد الروح إلى المكان الذى أنجبه، إلى حى كوم الدكة العتيق.

[٣]

فوق جدران منزل عند الناصية، لمحت لافتتين: واحدة قديمة كُتب عليها «شارع الشيخ سيد درويش»، والثانية وهى الأحدث، وقد وضعت أسفل الأولى، تكتفى باسم الرجل دون ذكر للقب «الشيخ». وكان سيد درويش قد التحق منذ صغره بالمعهد الدينى وحفظ القرآن، وانتمى إلى عالم المشايخ بكل طبقاتهم وأنواعهم، وكان لذلك أكبر الأثر فى جذبه نحو الغناء. ويقول الروائى خيرى شلبى، وهو يتحدث عن عبقرية سيد درويش و«ثورة الوجدان ووجدان الثورة» أن الوسط الدينى - ومنذ قرون - لم تنقطع صلته بالغناء والموسيقى، وأن مجتمع المشايخ لعب دورًا كبيرًا فى العصور الحديثة، فى الارتقاء بالموسيقى العربية، سواء على جناح المقرئين والمنشدين والمبتهلين الذين طوروا كثيرًا من المقامات الموسيقية وطوعوها لمقتضيات المعانى القرآنية والابتهالية والتوحيدية، أو على جناح الطرق الصوفية التى ارتبطت منذ نشأتها بالموسيقى ارتباطًا وثيقًا. وقد ساهم رجال الطرق الصوفية فى عصور ازدهارها فى وضع مقامات موسيقية جديدة، وتطوير مقامات أخرى. وقد استفاد سيد درويش من هذا التراث الصوفى للموسيقى. كما أن اندماجه فى عالم المشايخ، فى سنوات شبابه، كان له أكبر الأثر فى تنمية إدراكه وحسه الوطنيين. ويبدو أن الموهبة الموسيقية التى تفتحت بداخله مبكرًا، قد ملكت عليه نفسه فترك دراسته فى المعهد الأزهرى بالإسكندرية، ثم صدر القرار بفصله وهو فى السادسة عشرة من عمره. كان قد تزوج، وكان قرار فصله هو البداية الحقيقية له كنجم عريق ولامع فى سماء الفن المصرى والعربى.

ومن الشارع، الذى يحمل مدخله لافتتين باسمه، صعدت باتجاه البيت، درت حول جدران الطابق الأرضى الباقية حول أنقاضه، ومررت بالمقهى الذى اعتاد رواده الجلوس حول سيد درويش يستمعون إلى غنائه وعزفه، وهو المقهى ذاته الذى ارتاده ذات يوم أحد أصحاب الفرق الفنية واستمع إليه يغنى فضمه إلى فرقته «أولاد عطا» ومعها سافر - عن طريق البحر - فى أول رحلة فنية له إلى الشام. كان ذلك فى عام ١٩٠٩، وكان عمره وقتها ١٧ عاماً. ورغم «الخسارة المادية» كانت الفائدة الفنية كبيرة بالنسبة لسيد درويش، وبحكم ولعه الشديد بالموسيقى. فقد وقف على أحوال الموسيقى العربية فى بلاد الشام وهناك التقى - ولأول مرة - بالموسيقار عثمان الموصلى، وعاد وقد زاد من قدراته ومهاراته، وأكثر إتقاناً لكتابة النوتة الموسيقية والعزف على العود. عاد سيد درويش إلى حى كوم الدكة يجلس فى المقهى يغنى ويعزف ويستعين على القيام بأعباء أسرته بالتجارة فى الأثاث. لكنه سرعان ما قرر العودة إلى الشام. وفى عام ١٩١٢ قام برحلته الفنية الثانية إلى هناك، مع فرقة «أولاد عطا»، وكانت هذه الرحلة هى نقطة التحول الكبيرة والمهمة فى حياته، فقد تجددت صلته بأصدقائه القدامى وأساتذته فى دمشق وحلب. راح يحفظ عنهم ويستمع إليهم. أقام هناك سنتين كاملتين وعندما عاد إلى الإسكندرية كان محملاً بأصول هذه الموسيقى، وبموسوعة من الأنغام والألحان. ومن المؤكد أن رواد المقهى وسكان الحى وأهالى الإسكندرية قد عاشوا مع عودة سيد درويش من رحلته الثانية إلى الشام، حالة عالية من النشوة والطرب وروعة التلقى مع الفنان العائد، وقد حقق نقلة نوعية فى نضجه الفنى أكسبته الثقة بالنفس والإيمان بدوره وشخصيته وإدراكه لما تحفل به الشخصية القومية، المصرية والعربية، من تراث موسيقى متنوع الأشكال والألوان. عاد سيد درويش وكوَّن فرقته الموسيقية الخاصة، وراح يؤلف ويلحن ويعزف ويغنى ويبدع فى المسرح الغنائى وأغانى العمال والموظفين والحرفيين و«الحلوة» التى قامت «تعجن فى الفجرية». وفى عام ١٩١٧ قام بتلحين «أوبريت» فيروز شاه لفرقة جورج أبيض، وكان فتحًا فى التاليف الموسيقى العربى، وعلامة مضيئة فى تاريخ الموسيقى العربية الحديثة، ومفتاح دخوله إلى القاهرة التى شهدت سطوع نجم لامع. وعلى مدار أكثر من ٤ سنوات استطاع سيد درويش أن يصنع مجده الفنى ويعيد بناء الوجدان الموسيقى العربى ويثبت أسسه ويرسخ أعمدته ويصبح بذلك علامة مضيئة فى تاريخ الأمة، ويُطلق اسمه على قاعة كبرى للموسيقى العربية بالقرب من أهرامات الجيزة، كما يطلق اسمه على شارع



مقهى الشيخ سيد درويش
ميدان بكوم الدكة.

وميدان فى حى كوم الدكة حيث مسقط رأسه، وحيث بيته الذى كان وأصبح مجرد خرابة. واللافت أن معاول الهدم طالت بيت سيد درويش فى الوقت الذى كانت فيه سيرته، وما قدمه من أعمال فنية ووطنية، تتردد على ألسنة فنانين متخصصين، فى ندوات صحفية، مرئية ومسموعة ومقروءة، حول «فن المقاومة» ودور الأغنية الوطنية والقومية. على هامش ما يجرى هذه الأيام فى فلسطين تحت الاحتلال الإسرائيلى.. فقد كان سيد درويش «فارسًا عظيمًا من فرسان المقاومة بالموسيقى والغناء».

[٤]

تحتاج «رؤية الفنان»، لكى تتجاوز دوائر «الحلم» بواقع جميل، إلى «آليات» تنقل الرؤية إلى دوائر التحقق.. كما تحتاج إلى «دعائم» تستند إليها «الفكرة» فتنمو الرؤية على أرض الواقع.

ويحتاج «التحقق» إلى إطار، أو أطر، تفعيل لآليات ودعائم تنفيذ الفكرة، ومتابعة لنمو «الواقع الجميل الذى كان حلمًا».

وينمو «المكان» ويزدهر عندما تكون له «شخصية اعتبارية» تحفظ له هويته الحقيقية وتعلى من قيمته وقيمة «صورته»، وتكون لها القدرة على تحقيق أهداف بعينها، وتفعيل العلاقة بين البشر والمكان فتكون له صيرورة. وتجربة «أصيلة» السابق الإشارة إليها، والتى تعيش هذه الأيام موسمها الثقافى السنوى، بدأت قبل أكثر من ٢٤ عامًا بوجود «جمعية ثقافية أهلية»، أبرز المتحمسين فيها، ولها، هو محمد بن عيسى، وكان نائبًا فى البرلمان. وهو مثقف متفتح. ذهب إلى الغرب ودرس فى أمريكا، وعمل فى الأمم المتحدة وتقلد وظيفة كبيرة وهو بعد فى العشرينيات من عمره. بعد ذلك عاد إلى بلدته وبنى لنفسه منزلاً داخل المدينة القديمة فى أصيلة، قرب قبر أمه، ثم راح يستعيد هويته الحقيقية، ومعها صنع للمكان هوية عبر جمعية أهلية حولت «أصيلة» من قرية قديمة مهملة إلى مدينة جميلة لها رونق يشع على من يعيش فيها أو يمر منها، وبها، أو يحبها ويحمل صورتها فى خياله.

وفى تجارب أخرى تتوفر بدائل وأطر متعددة فى مجالات الخدمة المدنية: دوائر حكومية فى وزارات ومحافظات ومجالس مدن وأحياء، تضع فى خططها ضرورات تنمية وتحديث «المكان» وتجميله، والحفاظ على عبق الماضى فيه وتأهيله لكى يكون «حاضرًا» كصورة لها رونق فى عيون الناس. يحدث ذلك فى مدن العالم من حولنا، ويحدث فى مصر، فى القاهرة خاصة المناطق القديمة والإسلامية والأثرية، وفى مختلف محافظات الشمال والجنوب، وفى الإسكندرية نفسها التى يقع حى كوم الدكة فى بؤرة مناطقها الأثرية القديمة.



وهناك تجارب كان وراء نجاحها ووجودها على أرض الواقع، رجال أعمال وأصحاب مصلحة فى تنمية المكان وتعلية قيمته «المادية» وقيم الجمال فيه. وأقرب الأمثلة يقع على بُعد خطوات من ميدان طلعت حرب وتمثاله الشهير فى الوسط التجارى للقاهرة، حيث أصبحت بعض الشوارع المتفرعة من شارع قصر النيل، للمشاه فقط، مُنع دخول السيارات إليها، وطُليت واجهات المنازل والمحال التجارية ورُممت. ووُضعت أعمدة إنارة من نمط واحد يتسق مع الأعمدة القصيرة الموضوعة عند مداخل الشوارع وحدود الأرصفة والطرق التى أعيد رصفها باستخدام نوعية من «البلاط» يضفى مزيدًا من الجمال، ويؤكد أن هذه المنطقة أو تلك لا تصلح لسير وصخب السيارات، وإنما تصلح لكى يتجول فيها البشر بحرية وأمان، ويجدون آرائك خشبية يستريحون إليها، وهذا ما نراه فى المناطق القريبة من شارع ٢٦ يوليو التجارى فى القاهرة.

ويرى الفنان التشكيلى عصمت داوستاشى، فى دراسته حول «كوم الدكة» أن الحى يصلح لأن يتحول إلى منطقة مغلقة ممنوع دخول السيارات إليها. وأن تمتد إلى منازلها ومحالها التجارية وأرصفتها وشوارعها الهابطة الصاعدة، يد الترميم والتجميل، فتصبح المنطقة بما فيها ولها من عبق تاريخى وحكايات وذكريات، مركز إشعاع ومنطقة جذب مضيئة على مدار أيام العام كله، وليس لأيام معدودات فقط يعيشها الناس كل عام عند احتفال «الثقافة الجماهيرية» أو الهيئة العامة لقصور الثقافة، بذكرى سيد درويش، وسط الحى الذى يشكو حاله، وتزيد مرارة شكواه بعد أن تحول بيت صاحب الذكرى إلى أطلال.

وكانت الدراسة التى أعدها عصمت داوستاشى قد تضمنت مشروعًا يقترح أن تقوم وزارة الثقافة بشراء البيت، وبعض المحال التجارية المجاورة له، وتحوله إلى متحف ومركز للموسيقى. ولا يعرف داوستاشى مصير دراسته، أو ما هو قرار و«رؤية» اللجنة الثلاثية التى شكَّلها وزير الثقافة، وعاينت المكان ودارت حول البيت. وقد مرت الأيام وهُدم البيت. وقد يصف البعض تهدمه بانه عبث بالتاريخ، وخيانة فى حق المكان و«محض تهريج». وقد يرى البعض الآخر أن البيت الذى تهدَّم لا قيمة له من الناحية المعمارية - الأثرية - وربما يحظى الرأى الأخير بأغلبية تستند إلى أن القيمة الحقيقية للبيوت التى ولد بها المشاهير أو العظماء هى قيمة أدبية وهذه يسهل الحفاظ عليها أبد الدهر عبر لافتة يحرص أصحاب الأرض والعقار، و«مجلس الحى»، على وضعها فوق جدران المكان. توضع اللافتة فى مكان ملحوظ فى كل مرة تمتد يد التغيير إلى البناء.. ويظل العابر والمقيم يقرأ حروفها البارزة ويعرف أن «هنا وُلد وعاش سيد درويش».

ويبقى «الحى» وتبقى ضرورة أن تتضافر «جهود» تنميته وتوظيف «عبق المكان» فيه، وكل ما يزخر به من أساطير وذكريات تاريخ تجسد له خصوصية عالية، حتى لا يأتى يوم نحُنُّ فيه إلى الماضى ونلتفت فلا نجد غير أطلال مكان فقد روحه.

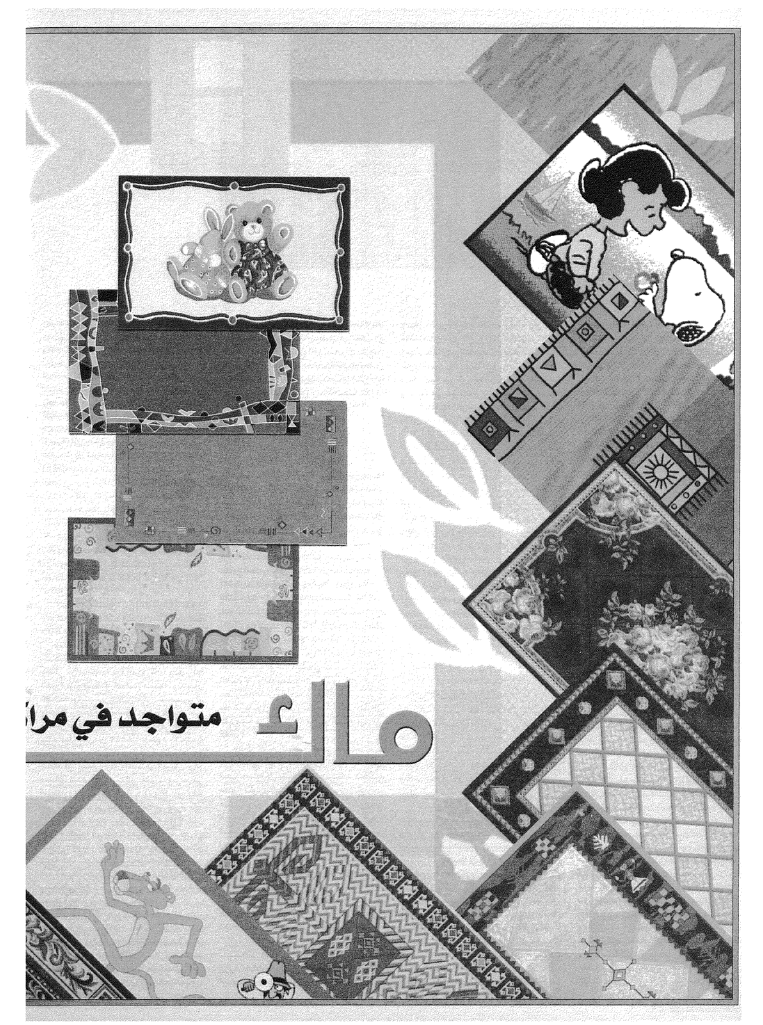
[٥]

بين الإسكندرية والقاهرة فركة كعب ومسافة قصيرة يقطعها القطار السريع فى ساعتين، أمضيتهما أقلب فى صور فوتوغرافية لشارع الشيخ سيد درويش، والميدان الذى يحمل اسمه أيضًا، والقهوة التى اعتاد أن يجلس بها يعزف ويغنى، والبيت الذى وُلد وعاش فيه، قبل أن يُهدم، وصورة أخيرة له وقد تحول إلى أنقاض.

أستعيد «رؤية الفنان» ونقاط دراسة عصمت داوستاشى، فأرى بعين الخيال والتمنى ملامح لصور جميلة لأرجاء الحى وقد امتدت إليها يد التجميل والترميم واحتضنتها «صحوة» الإحساس بقيم الجمال وإدراك أن الازدهار «حالة» تكمن بداخلها عوامل الرواج والانتعاش الجذب، وأن التحديث لا يعنى الهدم وبناء الجديد. أعود أنظر إلى الصور الفوتوغرافية الصغيرة فى يدى، ألتفت فترتسم، إلى جوارى، فوق زجاج نافذة القطار العائد إلى القاهرة ملامح مغايرة استعاد فيها وجه المكان جماله بفعل «عمل» يضع العناصر الثقافية والفنية الخاصة بالمكان فى اعتباره، ويحاصر الجوانب السلبية فى المعمار، ويضع «أساسيات لنظام» خاص بحى كوم الدكة، يتحكم فى واجهات بيوته ومحاله التجارية.. يعيد النظر فى كل الإضافات القائمة فوق الجدران والأرصفة، كما يعيد النظر فى شكل أعمدة الإضاءة والإعلانات وصور الأشخاص واللافتات، حتى لا تؤدى العشوائية فيها إلى إفساد النظام الجمالى المنتظر والقادر على إعادة الحياة إلى دورته الاقتصادية عبر الاهتمام بتجديد «دكاكينه» ومقاهيه وحسن استخدامها واستحداث محال تجارية وخدمية جديدة.



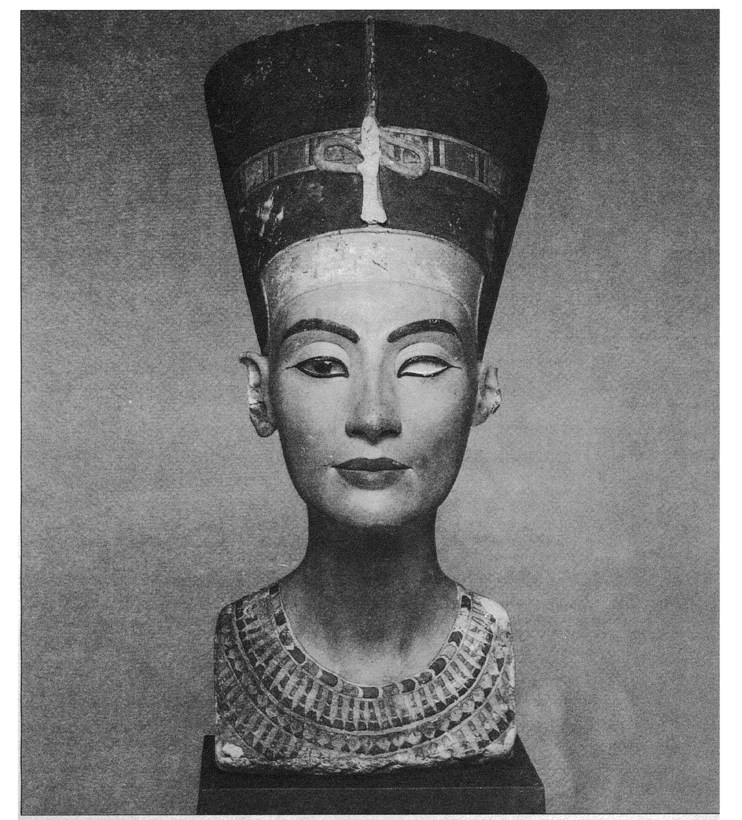
تدفعك الصورة المعدلة ملامحها إلى التجول فى أرجاء الحى، والمكوث فيه أطول فترة ممكنة، بعد التغيير المأمول، وأنت تنصت إلى لحن قديم من ألحان سيد درويش، ينبعث من «المركز والمتحف الموسيقى» أو محال تبيع ألبوماته وتسجيلاته، وكذلك أعمال من سبقوه أو لحقوا به من عمالقة الموسيقى المصرية والعربية. وقد تستمتع إلى اللحن وأنت جالس تحتسى الشاى فى المقهى «الجديد» تنظر إلى وجوه رسمتها ريشة الفنان لبشر أحبوا المكان، ولا تنظر، كما هو الحال الآن، إلى جدران كالحة ووجوه يعلوها الملل. وقد ترغب فى السير فى الشوارع الضيقة الهابطة الصاعدة وتستند إلى جدار من الأرابيسك أو قاطع من الحديد المؤكسد «الفور فورجيه» تتأمل واجهة مشغل للبنات أو ورشة نجارة لتصنيع الأثاث أو حتى إعداد الأطر الخشبية للوحات الفنية التى يرسمها طلبة وطالبات كلية الفنون الجميلة الذين يعرفون المكان وتراهم يرسمون ملامحه التى تنتظر التجديد. وفى الحى المأمول، وليس الحال هكذا الآن، تستطيع أن ترى مكتبة لبيع الكتب الفنية و«نوت» الألحان القديمة وإلى جوارها تطالع واجهة لمحل يبيع الآلات الموسيقية أو يصنعها. وقد تمتد صور التحديث إلى أبعد من ذلك فتتحول صور الخيال إلى ملامح حقيقية موجودة. وكل شىء مرهون بـ«جهد وهمة نفر من أبناء البلد»، وفى المقدمة منهم الفنانون ورجال الأعمال، الذين يؤمنون بأن الجهد السياسى والاقتصادى لابد أن يواكبه جهد ثقافى. فالثقافة هى الأساس، والفن وسيد درويش هما الركيزة والجوهر إذا ما تعلق الحلم بتطوير وتنمية حى كوم الدكة. ذلك الحى الذى تتوافر له كل عناصر ميثيولوجيا المكان ويعانى الإهمال فى زمن التحديث. ■


متواجد في

تاريـــــخ الآثـــــار المصـــرية .. عـــــلم ..

رشـــدى ســـعـــيـــد

تمثال لرأس الملكة نفرتيتى «متحف المصريات فى برلين»



ونفـــوذ.. وســـرقـــة.. وصـــراع!

من يملك التاريخ؟

دونالد مالكوم ريد Donald Malcolm Ried أستاذ التاريخ بجامعة ولاية جورجيا الأمريكية والذى اشتهر بأنه «المؤرخ الذى أحب مصر» صدر له أخيرًا كتاب عكف على جمع مادته وكتابته عشر سنوات كاملة قبل أن يصبح بين أيدى القراء. يناقش فيه العلاقة الملتبسة «سلبًا وإيجابًا» بين الآثار المصرية القديمة والأجانب الذين اهتموا بها فى وقت مبكر من القرن التاسع عشر.

.. ومع الاحتفال بالذكرى المئوية لإنشاء المتحف المصرى تنشر «وجهات نظر» مقالين حول الكتاب أحدهما أرسله من واشنطن دكتور رشدى سعيد والثانى طلبته هيئة تحرير المجلة من د. رءوف عباس رئيس الجمعية التاريخية المصرية.

المحـــرر

فراعنة من؟ كتاب يعالج نشأة وتطور علم الآثار فى مصر خلال المائة وستة عشر عامًا التى انقضت منذ بدء دراساته الجدية وقت الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ـ١٨٠١) وحتى نشوب الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤، وكيفية استخدام الأوروبيين لهذا العلم لتحقيق مطامعهم الاستعمارية لضم مصر إلى الإمبراطوريات التى تتكون خلال هذه الفترة والكيفية التى استخدم بها الوطنيون المصريون هذا العلم من أجل تأكيد الهوية القومية. والكتاب من تأليف دونالد مالكولم ريد المؤرخ الأمريكى والأستاذ بجامعة ولاية جورجيا بالولايات المتحدة والذى عرف بدراساته وأبحاثه المتعمقة فى تاريخ مصر الحديث والتى تميزت بموضوعيتها واهتمامها بأخذ الرؤية المصرية للأحداث فى الاعتبار قبل الوصول إلى أية نتائج أو أحكام. وكنت قد تابعت عددًا كبيرًا من أبحاث دونالد مالكولم ريد وأعجبت بها ووصفته بحق «بالمؤرخ الذى أحب مصر». ولا يختلف هذا الكتاب عن سابق مؤلفاته فى موضوعيته وإبرازه للدور المهم الذى أهمل عن عمق والذى لعبه العلماء المصريون فى هذه الفترة المبكرة لإيجاد مكان لمصر فى البحث عن آثارها وكتابة تاريخها بل وإعادة امتلاكه بعد أن كاد أن ينزع منها، واستخدم المؤلف مئات الوثائق التى كتبت باللغة العربية وبعدد من اللغات الأجنبية استخرجها من سجلات دار الكتب المصرية ووزارة المالية المصرية وجامعة القاهرة ومن أرشيف وزارتى الخارجية الفرنسية والبريطانية ومن المكتبة البريطانية وجامعة بنسلفانيا ومن مذكرات مرقس سميكة والتى لازالت مخطوطة لم تنشر.

آثار مصر عند مقدم الحملة الفرنسية

وعلى الرغم من أن الاهتمام بآثار مصر بدأ يتزايد فى أوروبا خلال القرن الثامن عشر إلا أن المعرفة الحقيقية لها ولتاريخ بُناتها وطبيعة الحضارة التى نشأت فيها حدث بعد الكشف عن سر الكتابة الهيروغليفية الذى قام به عالم اللغويات الفذ فرانسوا شامبليون الذى استطاع أن يفك رموز هذه اللغة من حجر رشيد الذى كانت الحملة الفرنسية قد كشفت عنه مصادفة خلال إعدادها بعض الاستحكامات العسكرية فى هذه المدينة فى سنة١٧٩٩. وبعد ثلاث وعشرين سنة من هذا الكشف توصل شامبليون إلى فك رموز لغة الفراعنة وإلى معرفة معانى كلماتها بمقارنتها بقريناتها باللغة القبطية التى احتفظت بالكثير منها. وفتحت القدرة على قراءة لغة مصر القديمة الباب واسعًا لإعادة اكتشاف مصر القديمة وكتابة تاريخها من جديد ولتغيير مفهوم أوروبا عنها. وكان هذا المفهوم مستمدًا على طول العصور الوسطى وحتى اكتشاف شامبليون إما عن طريق التوراة وشخصيات الأنبياء الذين ارتبطت أسماؤهم بمصر كإبراهيم ويوسف وموسى وعيسى عليهم السلام والتى جعلت من مصر جزءًا من الأراضى المقدسة التى كانت تقع فى طريق الحج أو من كتابات المؤلفين القدامى كهيرودوت المؤرخ اليونانى الذى زار مصر فى سنة ٤٥٠ق.م. ومانيتو الكاهن المصرى الذى لم يبق من كتاباته غير قائمة الأسرات الفرعونية القديمة التى لازالت تستخدم حتى اليوم وأراطوسطين وغيرهم من مؤلفى اليونان والرومان كصطرابو وديودور الصقلى.

ولم يكن مفهوم المصريين أنفسهم عن مصر القديمة فى ذلك الوقت مختلفًا. فقد ارتبط منذ أن قبل المصريون المسيحية، فالإسلام بالأحداث التاريخية التى جاء ذكرها بالكتب المقدسة والتى لم يكن الفرعون فيها إلا رموزًا للقسوة والطغيان مما أبعدهم عنه وجعلهم يتبرأون من آثاره وينظرون إليها فى إطار هذا الرمز. وكانت الأهرام عند البعض مرصدًا وعند البعض مخبأ أقامه هرمس (إدريس) ليحفظ العلم ودروس الصناعات وحكمة الأقدمين لكى تسلم من طوفان النبى نوح عليه السلام، وعن الكثيرين مخزنًا للغلال أقامه النبى يوسف عليه السلام، أما عن إهمال مؤرخيهم لآثار مصر القديمة فيكفى أن أذكر أن الرحالة الشهير ابن بطوطة لم ير فى آثار مدينة الأقصر شيئًا يستحق أن يذكر فى كتابه «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» غير قبر الصالح العابد أبو الحجاج الأقصرى الذى يوجد بداخل الجامع الصغير الذى أقيم ببهو معبد الأقصر المهيب، وقد تغيرت هذه الصورة بعد اكتشاف أسماء اللغة الهيروغليفية وبدء انفتاح المصريين المحدثين على العالم الجديد الذى فتحه هذا الاكتشاف عن مصر القديمة. وفى رأى ريد أن المسئول الأول عن هذا التغيير لمفهوم المصريين المحدثين عن مصر القديمة هو رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) الذى استطاع بكتاباته عن مصر القديمة بمجلة «روضة المدارس» التى كان يحررها وبكتابه «أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل» أن يلعب نفس الدور الذى لعبه شامبليون للأوروبيين. وفى رأى ريد أن رفاعة الطهطاوى كان واحدًا من أبرز شخصيات مصر فى القرن التاسع عشر وأكثرهم أثرًا فى تشكيل هويتها، فقد استطاع بالإضافة إلى دوره فى تغيير مفهوم المصريين عن تاريخهم القديم أن يعرفهم بالحضارة الغربية التى عاش فى ظلالها وعرفها معرفة وثيقة وكتب عنها بالعربية كتابه الشهير «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» وفى هذا المجال فإن دوره فى نقل الحضارة الغربية لأهل مصر لا يقل أهمية عن دور إدوارد وليم لين البريطانى الذى عاش فى مصر وعرفها ونقل حضارتها إلى بنى وطنه فى كتابه الشهير «عادات المصريين المحدثين».

وكما لعب اكتشاف شامبليون للغة الفراعنة دورًا كبيرًا فى تغيير مفهوم الأوروبيين عن مصر القديمة، فقد كان لصدور موسوعة «وصف مصر» التى كتبها العلماء الذين صاحبوا الحملة الفرنسية إلى مصر فى باريس بين سنتى ١٨١٠، ١٨٢٩ أكبر الأثر فى تعريف الأوروبيين بمصر وحضارتها، بل والافتتان بها. وتحتوى موسوعة وصف مصر على ثمانية مجلدات من القطع الكبير من المتن، أربعة منها عن مصر القديمة ومجلدان (من ثلاثة أجزاء) عن مصر المعاصرة ومجلدان (من خمسة أجزاء) عن التاريخ الطبيعى. هذا بالإضافة إلى تسعة مجلدات بنفس الحجم من اللوحات البديعة الإخراج تضم ثلاثة آلاف لوحة عن آثار مصر القديمة (خمسة مجلدات) ومصر المعاصرة (مجلدان) والتاريخ الطبيعى (مجلدان من ثلاثة أجزاء). وبعد سنوات من إصدار هذه المجلدات وفى سنة ١٨٢٩ صدر ملحق الأطلس الجغرافى الذى احتوى على أول الخرائط الطوبوغرافية لمصر.

وهكذا جاءت معرفة الأوروبيين لمصر وحضارتها القديمة ومولد علم المصريات ذاته عن طريق الحملة العسكرية الفرنسية التى حدثت وسط فترة المد الاستعمارى الأوروبى وأحداث العنف والحرية التى سببها التنافس بين بريطانيا وفرنسا على امتلاك الأسواق وفرض السيطرة على الغير. وتعكس المقدمة التى كتبها فوربيه J.B. Fourier لموسوعة وصف مصر والتى وافق عليها نابليون بنفسه هذا المناخ العام الذى كان سائدًا فى تلك الفترة. ففى هذه المقدمة يبدأ الكاتب بإبراز الموقع المميز لمصر بين ثلاث قارات والتاريخ العظيم لها عندما كانت موطن العلوم والفنون منذ أقدم الأزمنة وقبل حرب طروادة، فيها درس هرمر وسولون وفيثاغورس وأفلاطون وإليها سعى الإسكندر وقيصر ومارك أنطونيوس وأغسطس ونابليون ثم يعود فيقول إن مصر الحديثة قد تدهورت وسقطت فى هوة التخلف والبربرية حتى مقدم الفرنسيين إليها لكى يعيدوا إليها الحضارة من جديد، وتعكس لوحة غلاف موسوعة «وصف مصر» نفس هذه الرسالة وهى رسم يحيطه برواز شديد البهرجة لعدد من الآثار الفرعونية موزعة على خلفية أرض مصر الممتدة من أسوان إلى الإسكندرية، وليس بالرسم أثر غير فرعونى أو وجه لمصرى معاصر. وفى أعلى البرواز رسم لنابليون وهو عار وفى صورة الإسكندر أو الإله أبولو ملوحًا بحربة وممتطيًا عربة تجرها خيول تدوس على المماليك الذين سقطوا أمامها.

علم الآثار علم أوروبى

ولا يشك أحد فى أن إعادة اكتشاف آثار مصر وتاريخها القديم يعود بالدرجة الأولى إلى العمل الكبير والجاد الذى قام به علماء أوروبا الذين توافدوا عليها منذ الحملة الفرنسية وعلى طول الفترة التى يعالجها الكتاب، إلا أن هذا العمل ارتبط بمحاولة الإمبراطوريات الأوروبية البازغة استخدام علم الآثار لإيجاد موقع لها فى مصر ولإبعاد المصريين عن العمل فيه، فلا غرو أن كان أمر إعادة امتلاك تاريخ مصر هو أحد أهم معارك الحركة الوطنية المصرية، وحتى لا تغيب شراسة المعركة التى كان على الأجداد أن يخوضوها لكى يجدوا مكانًا لهم فى عالم الآثار فإن مؤلف الكتاب يورد نصًا للفرنسى فونيناك سان مور كتبه فى سنة ١٨٣٥ يطلب فيه من أوروبا والعالم المتمدن أن يتقدم بالشكر إلى فرنسا لأنها استولت على إحدى المسلات المصرية ونقلتها إلى بلادها فأنقذتها بذلك من أيدى الجهلة التى حدث وأن كانت بأرضهم ووضعتها بالأرض التى تقدرها والتى ينبغى أن تكون فيها، فالآثار كالحديقة لا ينبغى أن ينال ثمارها إلا من اهتم بها.

وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة التى قام بها المصريون لانتزاع مكان لهم فى دراسة علم الآثار إلا أن الحال يبدو أنه لم يتغير خلال المائة عام التى انقضت منذ صدور موسوعة «وصف مصر» وحتى بناء المتحف المصرى بقلب القاهرة الجديدة وعلى ضفاف النيل (ميدان التحرير حاليًا) وافتتاحه فى سنة ١٩٠٢، فقد جاء المتحف وتصميمه

Whose Pharaohs?
Archeology, Museums, and Egyptian National Identity From Napoleon to World War 1
فراعنة من؟ الآثار والمتاحف والهوية الوطنية المصرية
Donald Malcolm Ried
University of Clifornia Press, 2002

بمثابة تذكرة للمصريين بأن آثارهم حتى ولو تم عرضها ببلادهم، لازالت فى غير أيديهم، فواجهة المتحف وحديقته التى يقع فى وسطها تمثال ماريت مؤسس المتحف ليس بها شىء يمت إلى مصر، فعلى الواجهة نقشت أسماء أعلام علم المصريات من الأوروبيين الذين اعتبروا من مؤسسى هذا العلم ولم يرد بالقائمة اسم مصرى واحد، وإن كانت قد احتوت على أسماء ستة من الفرنسيين وخمسة من البريطانيين وأربعة من الألمان وثلاثة من الإيطاليين وهولندى ودانمركى وسويدى، وفى لوحة أخرى من لوحات الواجهة نقشت أسماء كبار المفكرين الكلاسيكيين ممن ساهموا فى تعريف الأوروبيين بحضارة مصر القديمة هيرودوت وأراطوسطين ومانيتو وهن أبوللو، وعلى جانبى البوابة الرئيسية وضع تمثالان لإلهين إغريقيين يلبسان ملابس شفافة تظهر مفاتن جسميهما يمثلان مصر السفلى ومصر العليا، وجاء وضع التمثالين على هذه الصورة بمثابة تأكيد على أن علم الآثار هو علم أوروبى فلم تكن لمثل هذه التماثيل أية علاقة بمصر التى لم يكن لسيدات طبقاتها العليا أى ظهور واضح فى المجتمع أو حرية الخروج دون حجاب، الشىء الوحيد الذى يمكن أن يذكر الزائر بأنه أمام مبنى أقيم فى مصر هو اسم الخديوى عباس حلمى الثانى الذى نقش فوق البوابة الرئيسية للمتحف وإن جاءت كتابته وما صاحبه من متن باللغة اللاتينية التى يمكن القول إنه لم يكن هناك مصرى يعرفها، فلم تكن هذه اللغة تدرس بمدارسها، وحتى سنة افتتاح المتحف الهجرية (سنة ١٣٤٢) والتى نقشت فوق البوابة الرئيسية بجوار السنة الميلادية للافتتاح فقد كانت باللغة اللاتينية وبأرقامها anno Hegirae MCCCXVIL.

وكما يقول ريد فإن ما جاء من نقش على واجهة المتحف المصرى يكاد أن يكون رسالة للمصريين بأن «علم الآثار علم أوروبى وأن مصر القديمة التى كشف عنها هذا العلم هى جزء من الحضارة الغربية ليس للمصريين المحدثين أية صلة بها وهم غير مؤهلين لدراستها دراسة جدية»، وهكذا وعلى طول قرن كامل بعد خروج الحملة الفرنسية لم يستطع المصريون أن ينتزعوا مكانًا لهم فى دراسة آثار أجدادهم على الرغم من المحاولات التى قاموا بها خلال ذلك القرن.

آثار مصر فى عصر محمد على

كان محمد على فى مبدأ توليه حكم مصر ولسنوات طوال يستخدم الآثار للمساومة بها للحصول على المساندة الدبلوماسية والمساعدة التقنية من أوروبا وكان مستعدًا فى سبيل ذلك لإصدار الفرمانات للأفراد والقناصل الأوروبيين للسماح لهم بالبحث والكشف عن الآثار فى أى مكان يطلبونه. والحكايات كثيرة عن التجاوزات الكبيرة التى حدثت فى السنوات الأولى من حكم محمد على والتى نهبت فيها الآثار، والتى قام بالنصيب الأكبر منها قنصلاً بريطانيا وفرنسا هنرى سولت وبرناردينو دروفيتى واللذان كانا يستخدمان مقاولين من الباطن للكشف عن الآثار وتهريبها والإتجار فيها وبيعها للمتاحف الأوروبية. وكانت تجارة الآثار فى عشرينيات القرن التاسع عشر فى أوجها والتسارع للحصول عليها كبيرًا شارك فيه بالإضافة إلى سولت ودروفيتى الكثير من المغامرين والذين كان من بينهم قناصل بعض الدول كالنمسا وبلجيكا وغيرهما. وفى سنوات هذا العقد كان محمد على كريمًا فى إهدائه الكثير من الآثار إلى الدول الأوروبية. وتقف المسلتان المصريتان بميدان الكونكورد بباريس وعلى ضفاف نهر التيمس بإنجلترا مثالاً على

ابن بطوطة لم يـر فى آثار الأقصر شيئًا يستحق أن يذكر غير قبر الصالح العابد أبو الحجاج الأقصرى!

هذا الكرم الذى كان هذا الحاكم مستعدًا لإبدائه نظير مساندة هذه البلاد لسياساته، كما أن هذا الحاكم بدا وكأنه على غير اهتمام بالحفاظ على آثار مصر فى هذه الفترة المبكرة من حكمه، فقد غض الطرف عن أعمال الهدم التى تمت للكثير من المعابد القديمة لاستخدام أحجارها فى بناء المصانع أو تكسية قنوات الرى التى كانت تشق فى أرض الدلتا. وكاد معبد دندرة أن يهدم وأن تستخدم حجارته فى بناء مصنع للنسيج بجواره. وفى سنة ١٨٣٠ أرسل شامبليون التماسًا إلى محمد على يطالبه فيه بالحفاظ على الآثار وعلى معابد مصر القديمة والتى قال فى رسالته إن ثلاثة عشر منها قد تهدم منذ خروج الحملة الفرنسية من مصر، ولا يستطيع المرء أن يحكم على جدية هذا الالتماس أو عن مغزاه، فالأغلب أنه كان موجهًا لمحمد على للتوقف عن هدم المعابد واستخدام أحجارها فى بناء المصانع التى كان يقيمها ولم يكن موجهًا للأجانب الذين كانوا يقومون بتهريب الآثار والتى كان الأوروبيون يظنون أن مكانها ينبغى أن يكون فى بلادهم، وقام شامبليون بنفسه وبعد سنوات قليلة من تقديم الالتماس بقطع لوحة بديعة من معبد سيتى نقلها إلى متحف اللوفر بباريس.



وفى ثلاثينيات القرن التاسع عشر بدأت علاقة محمد على بأوروبا تتوتر ومساندتها له تقل مما دعاه إلى إعادة النظر فى سياسته نحو الآثار والتى يبدو أنه تبين أهميتها فى بناء الهوية القومية التى أساء استثمارها لمواجهة ما يمكن أن تدبره له أوروبا من أخطار، وفى سنة ١٨٣٥ رأى أن يقبل نصيحة رفاعة الطهطاوى بحفظ آثار مصر بداخلها وأن يصدر مرسومًا يقضى «بمنع تصدير الآثار وجمعها فى متحف بالعاصمة من أجل أن يراها زوار البلاد» كما يقضى «بمنع هدم الآثار وبذل كل الجهد للحفاظ عليها». وأرجع محمد على عملية هدم الآثار إلى الأجانب والذين «لو تركوا لشأنهم لما تبقى شىء منها بمصر». وأن المرسوم أن تذهب كل الآثار التى تجمع إلى رفاعة الطهطاوى ناظر مدرسة الألسن بالأزبكية، والذى كلف هو «جوزيف هككيان» الأرمنى والذى لعب دورًا هامًا فى تاريخ جمع الآثار المصرية ويوسف ضيا أفندى ببناء المتحف والتفتيش على الآثار. وقد بدأ يوسف ضيا عمله بالفعل بالصعيد وأخذ يرسل الآثار التى يكشف عنها إلى القاهرة تمهيدًا لوضعها فى متحف مركزى. ووقفت كافة الدول الأوروبية ضد تنفيذ هذا المرسوم ووصفته فرنسا بأنه غير جاد وأنه وضع للانتقام منها ومنع قنصلها ميمو Mimaut من جمع الآثار وحفظها من تبديد محمد على الذى اتهمته بأنه المسئول الأول عن هدم المعابد المصرية التى حدث بالفعل هدم البعض منها بعد صدور المرسوم مباشرة واستخدام حجارتها فى بناء المصانع. ومما زاد من صدق الفرنسيين ما أعلنه محمد على بنفسه بعد عام واحد من صدور المرسوم عن نيته لاستخدام حجارة أهرام الجيزة فى بناء القناطر الخيرية، وهو الأمر الذى لا يعرف على وجه اليقين إن كان جادًا فيه أم لا ولكنه أخذ على محمد على مما دفع القنصل الفرنسى ميمو إلى توجيه خطاب إليه يطالبه بالحفاظ على الأهرام فهى «بالنسبة للأوروبيين إحدى عجائب الدنيا السبع والأثر الموقر الذى يعتبر ملكًا لكافة الشعوب وعلى الأخص الشعب الفرنسى الذى وقف على قمته نابليون مخاطبًا جنوده ومذكرًا إياهم بأن أربعين قرنًا تنظر إليهم، إن الأهرام وديعة تركها العالم القديم فى أرض مصر للإنسانية جمعاء ينبغى أن تحفظ لها».

ولم يقدر لمرسوم سنة ١٨٣٥ أن يطبق، فقد واصل الأوروبيون بعد إصداره جمع الآثار وتهريبها إلى بلادهم كما استمر هدم الآثار لاستخدام حجارتها فى بناء المصانع والمنافع العامة، ومع ذلك فيمكن القول إن مجرد صدوره كان بمثابة الاعتراف من قبل الحكومة المصرية بالحاجة إلى القيام بعمل شىء لوضع حد للتدمير الذى نال الآثار كما كان نجاحًا لمثقفى مصر بقيادة رفاعة الطهطاوى للمطالبة بأن يلعبوا دورًا فى دراسة وحفظ آثار بلادهم.

آثار مصر فى عصر خلفاء محمد على

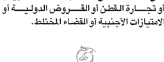
وحتى منتصف القرن التاسع عشر كانت مصر بقيادة محمد على ترفض الدخول فى شبكة المواصلات العالمية التى بدأت تمد فى ذلك الوقت باختراع القطار والمراكب البخارية والتلغراف. وغير ذلك من وسائل النقل والمواصلات الحديثة، لذا فقد ظلت بعيدة عن رجل أوروبا العادى وصناعة السياحة التى بدأت تظهر فى ذلك الوقت ـ ولم يبدأ السواح والأجانب فى التدفق على مصر بأعداد كبيرة إلا بعد وفاة محمد على وإنشاء هذه الشبكة التى بدأ فيها عندما تولى عباس حلمى الأول حكم مصر فى سنة ١٨٤٨ وقبوله العرض البريطانى الذى كان محمد على قد رفضه لمد خط حديدى بين القاهرة والإسكندرية ومجىء سعيد باشا من بعده إلى كرسى الحكم فى سنة ١٨٥٤ وإعادته للنفوذ الفرنسى الذى كان قد راج إبان حكم سلفه وقبوله عرض الفرنسيين بشق قناة السويس لإيصال البحرين الأبيض والأحمر.. وهو العرض الذى كان قد رفضه محمد على أيضًا.. وبدخول مصر شبكة المواصلات العالمية والتوسع فى مد الخطوط الحديدية زادت معرفة العالم بها وبآثارها وبدأت تتدفق عليها أفواج السائحين والتجار والمغامرين بأعداد كبيرة.



ولم يأت هذا التدفق الكبير إلى مصر مباشرة فقد كان عهد عباس منغلقًا، طورد فيه الفرنسيون وأنصارهم وأوقف العمل فى الآثار وأغلقت المدارس على مختلف أنواعها بما فيها مدرسة الألسن والمتحف الصغير الذى ألحق بها ونفى ناظرها رفاعة الطهطاوى إلى الخرطوم. ولم يحدث الانفتاح الكبير على العالم وعلى أوروبا إلا بعد أن تولى الحكم سعيد باشا الذى أعاد الفرنسيين إلى مصر وعمل على إرضاء حكام أوروبا وبدأ طريق الاستدانة من بيوت المال الأوروبية.. أما عن الآثار فقد كان سعيد باشا كريمًا بها فقد أهدى بعض معروضات المتحف الذى كان قد أسسه محمد على وانتقل إلى مدرسة المهندسخانة بعد إغلاق مدرسة الألسن إلى السلطان عبدالعزيز الذى لم يكن يعرف عنه اهتمامه بالآثار، ثم قام بإهداء كل المتحف إلى صديقه أرشيدوق النمسا ماكسميليان فى سنة ١٨٥٥.. وتوجد هذه المجموعة من الآثار الآن فى متحف الفن بفيينا Kunsthistorischen Museum.

وأعاد سعيد باشا رفاعة الطهطاوى من منفاه بالخرطوم إلى منصبه القديم كما أعاد فتح الباب أمام الأوروبيين الراغبين فى البحث عن الآثار. وفى سنة ١٨٥٠ وصل إلى مصر عالم الآثار ماريبت، ليبدأ رحلة استمرت بمصر حتى مماته سنة ١٨٨١، وكان لها أكبر الأثر فى تاريخ علم الآثار بمصر، عاصر خلالها العديد من الأحداث والشخصيات التى لعبت أهم الأدوار فيه.. وكان ماريبت قد وصل إلى مصر

فى مهمة لجمع مخطوطات الأديرة القبطية لصالح المتحف الوطنى بفرنسا فلما فشل فى هذه المهمة بسبب الموقف الحازم الذى اتخذه بطريك الأقباط بمنع دخول الأجانب الأديرة بعد السرقة الكبيرة لمخطوطاتها والتى حدثت لصالح المتحف البريطانى قبل وصول ماريت بسنوات. انتقل للبحث فى منطقة سقارة حيث تبين له أن يكتشف معبد السرابيوم من تحت الرمال التى كانت قد ردمته. ونال ماريت بسبب هذا الاكتشاف شهرة كبيرة أعطى بعدها امتياز للحفر والحق فى استخدام المئات من عمال السخرة بفرمان من سعيد باشا. وفى سنة ١٨٥٨ تم تعيينه بالحكومة المصرية وكلف بإنشاء المتحف والذى عادة ما يعاد فضل إنشاؤه إليه ودون أى ذكر للمحاولة التى قام بها محمد على ورفاعة الطهطاوى قبل ذلك بسنوات عديدة والتى سبقت فيها مصر الكثير من الدول الأوروبية ذاتها.. وبزغ نجم ماريت خلال عمله بمصر والذى استمر حتى وفاته.. فبالإضافة إلى ما قام به من أعمال فى المتحف المصرى، فقد كان مسئولاً عن اشتراك مصر فى المعارض الدولية وفى تنظيم احتفالات افتتاح قناة السويس وكتابة نص كلمات أوبرا عايدة.. وكان ماريت موزع الولاء فهو من جهة موظف الحكومة المصرية التى أراد أن يخدمها ومن جهة أخرى مواطن فرنسى وطنى مخلص لبلده الذى كانت سياساته هى الحد من استقلال مصر تمهيدًا لضمها إلى أملاكها.. وقد تزامن إنشاء المتحف فى مصر مع نشأة الكثير من المتاحف فى أوروبا والتى كانت تقام بها كرمز للقوة والعزة القومية والرأسمالية التى كانت توجه سياسة أوروبا فى ذلك الوقت.. أما فى مصر فقد ساعد الأوروبيون على إنشاء المتحف فيها بغرض استخدامه كإحدى الأدوات لاختراق مصر تمهيداً للاستيلاء عليها.. وبطبيعة الحال فلم يكن للمتحف المصرى نفس الأهمية والظهور الذى كان للأدوات الأخرى التى استخدمت فى هذا المجال كقناة السويس أو تجارة القطن أو القروض الدولية أو الامتيازات الأجنبية أو القضاء المختلط.





وعلى الناحية الأخرى فقد كانت هناك الحركة الوطنية البازغة والتى أراد فيها الوطنيون أن يستخدموا الآثار والمتحف الناشئ للتعبير عن الإرادة الوطنية ولكى يكون أداة من أدوات الاستقلال والعزة القومية.. ويمكن القول أن الخديوى إسماعيل كان راعيًا لهذه الحركة التى لعب فيها رفاعة الطهطاوى دورًا رائدًا.. وأفلح إسماعيل فى أن ينشئ مدرسة للمصريين لتعلم لغة مصر القديمة (مدرسة اللسان القديم) على الرغم من محاولات الأوروبيين لمنع إنشائها.. ففى سنة ١٨٧٠ كلف الخديوى هيزيس بروجسن عالم الآثار الألمانى الشهير بإقامة هذه المدرسة والتى حاربها ماريت منذ إقامتها وحتى أفلح فى إغلاقها بعد خمس سنوات من افتتاحها ولكن بعد أن كان قد تخرَّج منها الأثرى الكبير أحمد كمال (١٨٥١ - ١٩٢٣) وآخرين. ويمكن القول أن عصر إسماعيل شهد نهضة كبرى كما شهد مولد برجوازية مستنيرة كان من الممكن أن يكون لها أكثر الأثر فى بناء مصر الجديدة والقوية لولا الهزيمة التى لحقت بهذا العصر بسبب الأزمات المالية والسياسية والاجتماعية الاقتصادية التى حلت به والتى أدت إلى احتلال مصر، ومن التبسيط المخل أن يقال أن هذه الهزيمة جاءت فقط بسبب سياسة إسماعيل المالية وقبوله الاستدانة من الدول الأوروبية على مقاييس واسعة. فالحقيقة هى أن مصر كانت مستهدفة للاستيلاء عليها من دول أوروبا التى كانت فى أوج توسعاتها الاستعمارية فى ذلك الوقت.

المتحف المصرى وتصميمه
بمثابة تذكرة للمصريين بأن آثارهم حتى ولو تم عرضها ببلادهم، لازالت فى غير أيديهم

وفى خلال حكم إسماعيل تأسست الكثير من معاهد العلم والثقافة: دار الكتب والجمعية الجغرافية ودار الأوبرا والمسرح القومى ومدرسة دار العلوم، كما أعيد تنظيم التعليم وأنشئت المدارس التجهيزية والثانوية الحديثة وظهرت الصحافة وأنشىء مجلس للنواب وشاركت مصر فى المعارض والمؤتمرات العلمية الدولية، وفى حقل الآثار كان الطهطاوى وعلى مبارك وأحمد كمال يمثلون الأجيال المتعاقبة من المصريين التى بدأت العمل فيه على الرغم من الصعوبات البالغة التى كان يضعها ماريت أمامهم، وأصبح المتحف المصرى الذى تأسس فى بولاق سنة ١٨٥٨ وافتتح فى سنة ١٨٦٣ وانتقل إلى مبناه القائم اليوم فى سنة ١٩٠٢ مركزاً يتعرف فيه الوطنيون على هويتهم.. وكان كتاب الطهطاوى «أنوار الجليل» الذى سبق الحديث عنه فتحاً جديداً فى كتابة التاريخ بالعربية فقد اعتمد ولأول مرة على الوقائع والكتابات القديمة التى كانت قد فكت رموزها بدلاً من النقل عن الكتب السابقة دون تمحيص.

الاحتلال البريطانى والاتفاق الودى لسنة ١٩٠٤:

ولم يمس احتلال مصر فى سنة ١٨٨٢ ودخولها ضمن أملاك الامبراطورية البريطانية الطريقة التى كان علم الآثار يدار بها إلا أن اهتمامًا أكبر أعطى للكلاسيكيات وللتاريخ اليونانى الرومانى والذى كان حتى ذلك التاريخ مهملاً ولم يكن ضمن اهتمامات المصريين.. وربما عاد اهتمام البريطانيين بالكلاسيكيات إلى بناة الإمبراطورية كانوا يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين للإمبراطورية الرومانية وحراس الحضارة الإغريقية القديمة التى كانت دراساتها تشكل مادة أساسية فى مناهج مدارسهم وجامعاتهم.. وكان جلادستون رئيس وزراء بريطانيا الذى أعطى الأمر للجيش البريطانى بغزو مصر أستاذًا فى علم الكلاسيكيات وصاحب مؤلفات كثيرة عن هومر وغيره من كبار مفكرى الإغريق واللاتين الأقدمين. كما كان كرومر المندوب السامى البريطانى فى مصر من نفس هذه المدرسة. ويعود الاهتمام أيضًا بهذا العصر إلى الجاليات الأجنبية الكبيرة التى بدأت تنشأ فى مصر فى ذلك الوقت وعلى الأخص بمدينة الإسكندرية، والتى كان اليونانيون والإيطاليون يحتلون الجزء الأكبر فيها والتى لابد أن شدها الاهتمام بآثار بلادها الأصلية التى كانت تشهد حركات تحرير وطنية.. ولعبت هذه الجاليات دورًا مهمًا فى تمويل وإنشاء متحف الآثار اليونانية الرومانية بمدينة الإسكندرية والذى افتتح فى سنة ١٨٩٢ بحضور الخديوى عباس حلمى الثانى.. وكان للمتحف مدير إيطالى تعينه بلدية الإسكندرية التى كانت مسئولة عنه حتى منتصف القرن العشرين عندما ضم إلى مصلحة الآثار.. ولابد من التنويه هنا إلى أن المصريين بدأوا يعون أهمية هذا العصر بل أهمية دراسة الكلاسيكيات فى هذه السنوات أيضًا.. وفى سنة ١٨٧٢ نشر العالم المصرى الفذ محمود الفلكى (١٨١٥ - ١٨٨٥) نتائج أبحاثه وحفائره عن مدينة الإسكندرية القديمة فى مجلد نشر باللغة الفرنسية لايزال يعتبر مرجعًا مهمًا عن التاريخ اليونانى الرومانى القديم لهذه المدينة.. وبعد ذلك بأعوام نشر على مبارك (١٨٢٣ - ١٨٩٣) فى كتاب «الخطط» فصولاً عن هذا العصر.. ثم جاءت ترجمة الكلاسيكيات اليونانية إلى العربية والتى كان من روادها سليمان البستانى وجورجى زيدان ثم لطفى السيد من بعدهما ونهاية بطه حسين رائد الدراسات الكلاسيكية فى مصر ومؤسس مدرستها العتيدة فيها.

ولم يغير كرومر من عمل مصلحة الآثار التى ضمها إلى نظارة الأشغال العمومية وتركها فى أيدى الفرنسيين والتى كان قد اختير لإدارتها عالم الآثار ماسبيرو (١٨٤٩ - ١٩١٩) بعد وفاة ماريت سنة ١٨٨١.. وكان ماسبيرو وقت اختياره مديرًا للبعثة الفرنسية بمصر، والتى كانت قد تأسست فى سنة ١٨٨٠ وسميت بالمدرسة الفرنسية بالقاهرة ثم المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى سنة ١٨٩٨ وهو المعهد الذى لايزال قائمًا حتى اليوم.. وقد لعب هذا المعهد دورًا مهمًا فى ميدان الآثار فى مصر وتميز بإصداراته المرجعية من بحوثه وكشوفه والتى كانت تطبع بمطابعه الحديثة بالقاهرة وكذلك بسبب صلته الوثيقة بمصلحة الآثار فقد خرج من بين علمائه جميع مديرى هذه المصلحة وحتى سنة ١٩٣٦ (باستثناء دى مورجان الذى شغل المنصب لخمس سنوات بين سنتى ١٨٩٢. ١٨٩٧).

وربما عاد عدم تدخل كرومر فى أعمال مصلحة الآثار وعدم تشجيعه لإنشاء معهد بريطانى لدراسة الآثار بمصر كذلك الذى أنشأته فرنسا وألمانيا بعد ذلك بسنوات إلى أنه كان يسعى لإرضاء فرنسا حتى يمكن الحصول على موافقتها مع استيلاء بريطانيا على مصر وهو الأمر الذى تم بالفعل بعد ذلك بسنوات فى الاتفاق الودى الذى أبرم فى سنة ١٩٠٤ والذى يعرفه العرب باتفاق سايكس - بيكو وفى هذا الاتفاق وافق البريطانيون على بقاء إدارة مصلحة الآثار المصرية فى يد الفرنسيين.. ولاشك أن السياسة البارعة التى اتبعها ماسبيرو فى إدارة مصلحة الآثار قد ساهمت فى نجاح سياسة كرومر فى الوصول إلى هذا الاتفاق. فقد غيَّر ماسبيرو سياسة المواجهة التى كان يسير عليها سلفه ماريت وفتح الباب أمام البعثات البريطانية التى كانت تمول فى ذلك الوقت من صندوق خاص Egypt Exploration Fund.. وفى هذه الفترة برز الأثرى البريطانى الشهير فلندرز بترى باكتشافاته الكبيرة التى سلك فى الوصول إليها طرق البحث العلمى.. كما فتح الباب أمام البعثات الألمانية وعين مساعدًا له هنرى بروجسن الألمان.. وكانت ألمانيا فى ذلك الوقت ترنو أن يكون لها موضع قدم فى مصر خاصة بعد أن توحدت وأصبحت قوة عسكرية لا يستهان بها وقوة علمية وثقافية مهيبة ببروز نجم معاهدها العلمية وجامعاتها.. ولابد من التنويه هنا إلى أنه كان لألمانيا (أو بروسيا) وجود كبير فى أوائل القرن التاسع وقت نشاط الأثرى الكبير لسبيوس.. وقد توج النشاط الأثرى الألمانى بإنشاء المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة فى سنة ١٩٠٥.



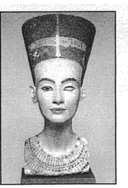
أما أكبر الأثر الذى تركه ماسبيرو فقد كان فى فتحه الباب أمام المصريين للدخول فى حقل الآثار، وكان أحمد كمال خريج مدرسة اللسان القديم التى أسسها بروجسن فى سنة ١٨٧٠ ولم يقدر لها أن تستمر أول أثرى مصرى يعين فى مصلحة الآثار.. وكان ماريت قد نجح فى إغلاق هذه المدرسة وعدم الاعتراف بها ومنع تعيين خريجيها، لذا فقد ظل أحمد كمال يتنقل بين مختلف الوظائف وحتى التحاقه بالعمل بمتحف بولاق كمترجم فى سنة ١٨٨١.. وبعد تعيينه بشهور لم

اسمه بسبب ما أدَّاه لإنقاذ مومياوات ملوك الفراعنة التى كانت قد أُخفيت فى إحدى مغارات الجبل المطل على الدير البحرى بالأقصر فى عهد الأسرة الواحدة والعشرين من التبديد الذى لحقها من أسرة عبدالرسول التى كانت قد كشفتها وحرصت على إخفاء سرها وأخذت تبيع مومياواتها الواحدة بعد الأخرى.. وصاحب أحمد كمال بروجسن فى مهمة إنقاذ هذه المومياوات والتى تمت بنجاح.. ولمع اسم أحمد كمال وكُلف بعمل مدرسة صغيرة داخلية للمصريات بالمتحف كان يُدرِّس فيها اللغة المصرية القديمة والفرنسية والتاريخ.. وكان هناك مدرسون آخرون يدرسون اللغة العربية والحساب والجغرافيا.. وأفلحت المدرسة فى الاستمرار خلال ثورة عرابى ودخول الإنجليز وحتى تخريج أول وآخر دفعة لها فى سنة ١٨٨٥.. وعُيِّن خريجوها بالمتحف فى وظيفة مفتشين مساعدين للآثار بمرتب قدره ستون جنيها فى السنة.. ورُقى أحمد كمال إلى وظيفة نائب مدير المتحف التى كان يشغلها بوريان فى سنة ١٨٩١ وبعد أن ظلت الوظيفة خالية لأكثر من ست سنوات شغل منصب مدير المتحف فى أعقاب استقالة ماسبيرو فى سنة ١٨٨٦ وحتى سنة ١٨٩٢.. وأغلب الظن أن ترقية أحمد كمال كانت بسبب رغبة جريبو فى تفادى تعيين بريطانى فى هذا المنصب، فقد وجد فى تعيين مصرى فيه سببًا وجيهًا يمنعه من تعيين بريطانى.

المصرى الآخر من خريجى مدرسة اللسان القديم والذى وجد مكانًا له فى حقل الآثار هو أحمد نجيب (١٨٤٧ - ١٩١٠) الذى قام بترجمة كتاب «أجرومية اللغة العربية» لبروجسن إلى اللغة العربية فكان بذلك أول من كتب بالعربية عن هذه اللغة القديمة.. واستفاد أحمد نجيب، كما استفاد من قبله أحمد كمال من التنافس الذى كان قائمًا بين فرنسا وانجلترا على قيادة علم الآثار فى الفترة التى ترك فيها ماسبيرو إدارة المتحف بين سنتى ١٨٨٦ و١٨٩٩ وعُيِّن بالمتحف حتى يمتنع تعيين إنجليزى فيه.. وقد عمل ماسبيرو عند عودته لإدارة المتحف فى سنة ١٨٩٩ وحتى وفاته فى سنة ١٩١٦ على إزالة هذا التنافس والذى مهد به لعقد اتفاق سنة ١٩٠٤ الودى.

الآثار العربية والإسلامية:

كان من أثر توسع القاهرة فى عصر إسماعيل وانتقال نخبها للعيش فى المناطق الجديدة التى تم تخطيطها وزودت بخطوط المياه والأنوار وشقت فيها الطرق الواسعة وربطت بطريق النيل بإقامة كوبرى قصر النيل، إهمال القاهرة القديمة وما حوته من آثار عربية وإسلامية مما دعا الخديوى إسماعيل إلى إنشاء لجنة للحفاظ على هذه الآثار فى سنة ١٨٦٩، عُيِّن لإدارتها المهندس المعمارى جوليس فرانز الألمانى والموظف بإدارة الأوقاف التى كانت تتبعها هذه الآثار. وقام فرانز بجمع بعض الآثار وعرضها بجامع الظاهر بيبرس بالقاهرة.. إلا أن عمل اللجنة سرعان ما تعثر بسبب الأزمة المالية التى حاقت بالبلاد مما دعا المؤتمر الدولى للمستشرقين إلى دعوة الحكومة المصرية للموافقة على إنشاء لجنة مشتركة للعمل على الحفاظ على هذه الآثار وقَبِلَ الخديوى توفيق الدعوة وتشكلت اللجنة من عدد من المهتمين بهذه الآثار، من المصريين والأجانب فى سنة ١٨٨١ وأثناء أحداث الثورة العرابية.. وعندما احتل الإنجليز مصر أُعيد تشكيل اللجنة بعد أن أُبعِدَ عنها محمود سامى البارودى وغيره من أنصار الثورة العرابية وإن كان قد أبقى فيها على مبارك ومحمود الفلكى بعد أن أظهرا ولاءهما للخديوى توفيق.. ودفع اللورد كرومر العمل باللجنة ودبَّر لها من صندوق الدين ميزانية كافية لبناء متحف للآثار العربية والإسلامية ولدار الكتب وهو المبنى الذى أقيم على الطراز الإسلامى وافتتح فى سنة ١٩٠٣ بحضور الخديوى عباس حلمى الثانى والذى لازال قائمًا حتى اليوم بميدان باب الخلق بالقاهرة.



من يملك التاريخ؟

كان محمد على فى مبدأ توليه حكم مصر ولسنوات طوال يستخدم الآثار للمساومة بها للحصول على المساندة الدبلوماسية والمساعدة التقنية من أوروبا وكان مستعداً فى سبيل ذلك لإصدار الفرمانات للأفراد والقناصل الأوروبيين للسماح لهم بالبحث والكشف عن الآثار فى أى مكان يطلبونه



ولم يكن عمل اللجنة سهلاً فقد تنازعته مصالح الجهات المختلفة التى كانت تتشكل منها.. وكانت اللجنة تابعة لإدارة الأوقاف التى كان الخديوى توفيق ومن بعده عباس حلمى يحرصان على أن تتبعهما وأن تكون تحت سيطرتهما بسبب أن هذه الإدارة كانت تتيح لهما دخلاً لم يكن الحصول عليه محتاجًا لموافقة السلطة البريطانية الحاكمة.. وأدى هذا الحرص إلى كثير من النزاعات التى كان يثيرها رئيس وأعضاء اللجنة من موظفى إدارة الأوقاف مع زملائهم من أعضاء اللجنة من الأوروبيين ممن كان لهم جدول أعمالهم أو من أعضاء اللجنة من الوطنيين ممن كانوا يرغبون فى أن يجعلوا من هذه الآثار تراثًا قوميًا يثرى الحركة الوطنية.. وقد لعبت الصدفة فى أن يقوم بهذا الدور حسين فخرى وزير الأشغال ويعقوب أرتين ذو الأصول الأرمينية واللذان دفعا بالمصريين للعمل باللجنة وشجعا الحفاظ على الآثار من التبديد ومن سوء الاستخدام.. وكان أول من التحق بالعمل باللجنة من المصريين على بهجت (١٨٥٤ - ١٩٢٤) الذى كان قد بدأ اهتمامه بالآثار الإسلامية والعربية فى سنة ١٨٨٧ عندما قام بترجمة محاضر جلسات أعمال اللجنة التى كانت تكتب اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية بتكليف من أرتين الذى توسم فيه المستقبل الحسن وأرسله لدراسة هذه الآثار بالمعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة والذى كان قد بدأ دراستها العلمية بوصول رائد هذه الدراسات السويسرى ماكس فان برشم Max Van Berchem ولمع اسم على بهجت بسبب كتاباته العلمية التى وجدت طريقها للنشر فى أمهات المجلات العلمية وبسبب حفائره فى منطقة الفسطاط التى أعاد اكتشافها ونبه إلى أهميتها التاريخية البالغة.

وأتاح قيام الحرب العالمية الأولى وعودة جوليس فرانز مدير المتحف إلى ألمانيا الفرصة أمام على بهجت لكى يصبح مديرًا لهذا المتحف فكان بذلك أول مدير مصرى له.

الآثار القبطية

جاء الاهتمام بالآثار القبطية متأخرًا، فلم تكن بتقسيمات التاريخ المصرى المعمول بها فترة قبطية بسبب أن أمور مصر لم تتولها أبدًا حكومة قبطية أو أمير قبطى سكت النقود باسمه أو كان مؤسسًا لأسرة حاكمة، وطبقًا لهذه التقسيمات فقط سقط المصريون من التاريخ على طول الفترة اليونانية الرومانية (٣٣١ قبل الميلاد - ٦٤١ ميلادية) والتى انتقلوا منها إلى الفترة الإسلامية مباشرة، ومما أسهم فى تأخر الاهتمام بالآثار القبطية وقوع معظمها بداخل آثار مصر القديمة ومعابدها التى كان قد احتلها المصريون عندما دخلوا الأماكن المسيحية وغيروا من معالمها وحولوها إلى أماكن لعبادتهم مما أحدث تشويها لهذه الآثار القديمة التى كان الاهتمام بها يسبق أى اهتمام آخر، وبالإضافة إلى ذلك فإن الأقباط أنفسهم، مثلهم مثل باقى المصريين، لم يكونوا على اهتمام بآثار أجدادهم، ويروى مرقس سميكة فى مذكراته أنه دخل ذات يوم على البطريرك كيرلس الخامس فى سنة ١٩٠٨ فوجده مشغولاً بنزع الأغلفة الفضية لعدد من الأناجيل القديمة التى يعود تاريخها إلى القرنين الرابع والخامس عشر من أجل تذويبها وإعادة استخدامها. وقد استطاع مرقس سميكة أن يقنع البطريرك بألا يفعل ذلك وأن يتركها سليمة لتصبح نواة لمتحف قبطى.



واستطاع مرقس سميكة (١٨٦٤ - ١٩٤٤) بفضل مثابرته أن يقوم - ربما يكاد أن يكون عملاً فرديًا - بإنشاء المتحف القبطى الذى افتتح فى سنة ١٩٠٨. واستطاع سميكة أن يحصل على مساندة البابا كيرلس الخامس الذى تولى كرسى البطريركية لأكثر من ثلاث وخمسين سنة (١٨٧٤ - ١٩٢٧) بعد أن هادنه وتوقف عن نقده بسبب موقفه ضد حركة الإصلاح الدينى التى كان قد بدأها سلفه البابا كيرلس الرابع فى خمسينيات القرن التاسع عشر والتى كان مرقس سميكة أحد أبنائها من أشد المؤيدين لها، وشهدت فترة البابا كيرلس الخامس نزاعًا مستمرًا بين البطريرك والعلمانيين أعضاء المجلس الملى والداعين إلى الإصلاح، وكافأ البطريرك سميكة بالموافقة على بناء المتحف وعلى إعطائه المبنى التاريخى الذى يقع فيه اليوم وعلى السماح له بزيارة الكنائس والأديرة على طول البلاد وحتى الخرطوم لانتقاء ما يصلح من مقتنياتها للعرض به. أما عن تمويل المتحف فقد استطاع سميكة أن يحصل عليه عن طريق التبرعات التى جاءته من أعيان الأقباط والمسلمين وكذلك من لجنة الآثار العربية التى وافقت على رعاية المتحف ومده بإعانة مالية سنوية، ويعتبر المتحف القبطى الوحيد من بين متاحف مصر الذى أقيم ومول بجهد شعبى وظل شبه مستقل حتى دخوله مصلحة الآثار وافتتاحه رسميًا بحضور الملك فاروق فى سنة ١٩٤٦.

ويمكن القول إن ظهور المتحف القبطى كان تعبيرًا عن خروج الأقباط من نظام الملة وانتقالهم إلى نظام المواطنة الكاملة فى إطار الدولة القومية فقد اكتشفوا عن طريقه أن لهم تاريخًا أكثر مجدًا وإثارة للفخر من ذلك الذى عاشوا فى ظله على طول تاريخهم، والذى لم يعرف غير المساكين والمضطهدين من الشهداء أو رهبان الصحراء، فقد رأوا فيه مجدًا يصلهم بحضارة الفراعنة العظيمة، وبهذه الرؤية الجديدة دخل الأقباط الحركة الوطنية مرتفعى القامة وأكثر ثقة بالنفس ودون خوف من الاندماج الكامل فى الوطن الكبير والجديد الذى كان يتشكل فى ذلك الوقت.

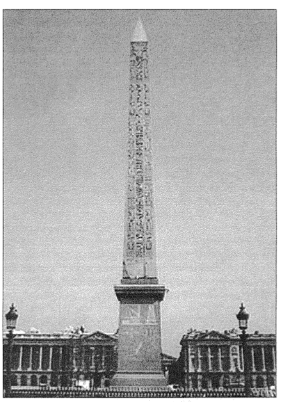
الخلاصة

كتاب فراعنة من؟ كتاب موثق يعالج تاريخ الكشف عن الآثار المصرية فى إطار تاريخ مصر الحديث ويثير قضايا كثيرة ويفتح الباب واسعًا لإعادة التفكير فيما حمله الكشف عن حضارة مصر القديمة المبهرة من نزاع بين كاشفيها من الأوروبيين الذين اعتبروا أن من حقهم الاحتفاظ بها لأنفسهم والوطنيين من أحفاد بناة هذه الحضارة والذين اعتبروها ملكًا لهم ونقطة ارتكاز لبناء وطنهم الجديد، وهو كتاب يعالج أيضًا أزمة البحث العلمى عندما تتعارض دوافع وولاءات القائمين به مع أسسه الراسخة فى العالمية والموضوعية وعندما يستخدم كأداة لتحقيق أهداف هى أبعد ما تكون عن أسسه المثالية، وعلى الرغم من أن الكتاب يعالج فترة القرن التاسع عشر إلا أن فى قراءته فائدة كبرى لمن يريد أن يعتبر، فالكثير مما يحدث أمامنا اليوم فى مصر قريب جدًا مما حدث خلال ذلك القرن. ■

كيف تحرر علم الآثار المصرية من السيطرة الأجنبية؟



رءوف عباس



المسلة المصرية بميدان الكونكورد ـ باريس

لازالت الآثار المصرية القديمة تخلب لب العالم، وتثير اهتمام الرأى العام المعنى بالتراث الإنسانى، ولا أدل على ذلك مما شهده صيف هذا العام من متابعة عالمية للجهود الأخيرة التى بذلك للكشف عن إحدى حجرات الهرم الأكبر، استخدمت فيها أحدث الأساليب التقنية، ورعتها أهم هيئة علمية دولية. ولا عجب أن نسمع أن هذا الحدث قد حظى باعلى نسبة مشاهدة للبث التليفزيونى، رغم انه لم يكشف عن جديد مثير، ورغم أن البث تم فى غضون الأيام السابقة على ذكرى كارثة ١١ سبتمبر التى ركزت عليها آلة الإعلام الدولى. هذا فضلاً عما أثارته التجربة ذاتها، والوسائل المستخدمة فيها من جدل على الصعيد العلمى بين مؤيد ومعارض، مما يعكس مدى «الولع» بالآثار المصرية التى لم تبح بكل أسرارها بعد.

أضف إلى ذلك، ما تخرجه المطابع من كتب بمختلف اللغات عن الحضارة المصرية القديمة، ولعلنا نذكر العمل المهم الذى وقع فى مجلدين بعنوان: «أثينا السوداء» الذى يرجع مؤلفه «برنال» أصول الحضارة الإغريقية إلى الحضارة المصرية القديمة، ملقيًا أضواء باهرة على دور «أكاديمية الإسكندرية» (التى نعرفها باسم مكتبة الإسكندرية) فى بلورة وإثراء العلوم والفلسفة فى العصر الهلينستى، والجذور المعرفية عند علماء ذلك العصر التى تغوص فى أعماق حضارة مصر القديمة. وقد أثارت هذه النظرية ـ ولازالت ـ الكثير من الجدل بين المتخصصين فى مختلف أرجاء العالم.



وبمعزل عن «أثينا السوداء»، بل وقبل صدور الكتاب بما يزيد على عقد من الزمان، التمس دعاة «النزعة الإفريقية Africanism»، وكذلك الأمريكيون السود (أو«الأمريكيين من أصل إفريقى» كما يطلقون على أنفسهم). التمسوا فى الحضارة المصرية القديمة تاصيلاً لتوجهاتهم السياسية، باعتبار الحضارات المصرية القديمة ـ أم الحضارات ـ إفريقية الهوية، عالمية العطاء.

ولم تنج الحضارة المصرية القديمة من ادعاء الصهيونية بأن لليهود الفضل فى بناء ما تركته تلك الحضارة العظيمة من آثار تقف شاهدًا على عبقرية صناعها، وهم يزعمون أن اليهود كانوا بناتها عندما استعبدهم المصريون قبل أن يبعث موسى «لتحريرهم». وزايد مناحم بيجن بتلك الفرية عندما حرص أن يطير فوق الأهرام ليشهد «عمل أجداده»، عند حضوره إلى مصر ـ لأول مرة ـ لمقابلة الرئيس السادات بالإسماعيلية، رغم أن الأهرام بنيت قبل ظهور العبرانيين فى التاريخ بما يزيد على الألفى عام.

وهكذا أصبح تراث مصر القديم ـ وسيظل ـ يحتل بؤرة اهتمام العالم، ودليلاً على عبقرية المصرى القديم وقدرته على الإبداع، غير أنه لقى الإهمال من أحفادهم قرونًا عديدة، ويرجع ذلك الإهمال إلى ظرف تاريخى محدد، يتصل باعتناق المصريين المسيحية، واتخاذها أداة فى النضال الوطنى ضد حكم الرومان، فقد أدى التحمس للدين الجديد والعقيدة الجديدة، إلى نبذ كل ما اعتبر وثنيًا. وبذلك حدث انقطاع بين ذلك التراث القديم والعقيدة الجديدة، نبذت فيه المعابد القديمة، وتعرضت نقوشها للتشويه، وكذلك بعض تماثيلها، وخاصة فى المعابد التى تحولت جوانب منها إلى كنائس فى صدر المسيحية. وزاد الانقطاع مساحة، فتحول إلى قطيعة عندما استقلت المسيحية المصرية بكنائسها وأديرتها، وبعدت عن المعابد القديمة.

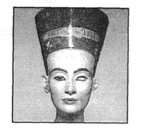
ولكن تلك «القطيعة» مع الآثار القديمة، لم تكن قطيعة مع التراث الثقافى المصرى القديم الذى يكمن فى الإنسان ذاته، وليس فى الآثار المشيدة تعبيرًا عن إبداع ذلك الإنسان. وتجلى ذلك فى الموروث الثقافى من العادات والتقاليد، بل والإطار الإيمانى للمصرى، سواء كان قبطيًا أو مسلمًا (وأعنى بذلك ما يسميه علماء الاجتماع «الدين الشعبى»)، كما كانت اللغة القبطية تعترف من منهل اللغة المصرية القديمة، لتفيض ـ فيما بعد ـ فى اللهجة المصرية العامية من اللغة العربية.



وإذا كانت العرب قد أبقوا على الآثار المصرية القديمة ـ بعد فتح مصر ـ فلم يمسوها بسوء، ولم يكن لهم موقف معاد منها، فذلك يرجع إلى أنها لم تكن غريبة عليهم، فكم كانوا يرونها كلما جاءوا مصر تجارًا، وكم رأوا آثارًا أخرى فى الشام والعراق وفارس عندما ارتادوها تجارًا أيضًا، هذا فضلاً عن كونها «خرائب» لا تقام بها عبادات من أى نوع؛ تخالف ما جاء بالكتاب والسنة، وهكذا بقيت تلك الآثار تبغى الإهمال حتى تم فك طلاسم الكتابة المصرية القديمة (عام ١٨٢٢) بفضل جهود العالم الفرنسى شامبليون، ومولد علم الآثار المصرية (المصريات Egyptology).

ولعل القطيعة مع ماضى مصر الفرعونى، وما ترتب عليها من إهمال للآثار المصرية القديمة لما يقرب من ١٩ قرنًا من الزمان، كان وراء الآراء المتغطرسة التى روج لها من زاروا مصر من الرحالة الأوروبيين والمشتغلين بالاستشراق، فأرجعوا هذا الإهمال للآثار إلى قصور متوارث فى الثقافة الإسلامية التى عدوها السبب الرئيسى لتخلف شعوب الشرق. ولا يتسع المجال ـ هنا ـ للخوض فى هذا الموضوع الذى يحتاج إلى معالجة خاصة، ويرتبط بمقولة «صراع الحضارات» بحبل سرى، واكتفى هنا بالإشارة إلى ما جاء بكتاب اللورد كرومر «مصر الحديثة» (نشر سنة ١٩٠٧)، وما جاء بمذكرات رونالد ستورس (السكرتير الشرقى بمصر، وحاكم القدس العسكرى زمن الحرب العالمية الأولى) التى نشرت عام ١٩٣٧ بعنوان: «توجهات Orientations»، من إشادة بفضل «الأوروبى المتحضر» الذى يعى قيمة هذه الآثار، ويحرص على الحفاظ عليها كتراث إنسانى، إنقاذًا لها من «جهل» و«تخلف» تلك الشعوب التى لا تدرك قيمتها، بل يبلغ الشطط ببعض كتاب الغرب حد إنكار إمكانية قيام مثل هذه الشعوب «المتخلفة» ببناء تلك الصروح الخالدة التى تعد من عجائب الدنيا. من ذلك ما رددته بعض الأقلام فى ستينيات القرن العشرين من أن بناة الأهرام جاءوا من كوكب آخر!

لكن ذلك لا يعنى أن «لا شيء يأتى من الغرب يسر القلب»، وأن جميع أهل الغرب نظروا إلى تراثنا وما نتج عن تقصيرنا فى رعايته، تلك النظرة السلبية، فهناك من وضعوا تراثنا الحضارى فى موضعه الصحيح من خلال الدراسة العلمية الدقيقة، وهناك من اهتم عند تاريخه لعلم الآثار المصرية بما بذل روادنا من جهد فى العناية بآثارنا فى مختلف العصور. من هنا تأتى أهمية كتاب صدر منذ ثلاثة أشهر كتاب جديد عن دار نشر جامعة كاليفورنيا بالولايات



المتحدة حمل عنوان: «فراعنة من؟ الآثار والمتاحف والهوية الوطنية المصرية من نابليون حتى الحرب العالمية الأولى»، ليسد فراغًا فى الدراسات التاريخية الخاصة بتاريخ العلوم، وتاريخ علم المصريات على وجه الخصوص، وهو مجال ندر التأليف فيه عمومًا، وغاب التأليف فيه عندنا.

ومؤلف الكتاب هو الصديق دونالد مالكولم ريد Donald Malcolm Ried أستاذ التاريخ بجامعة ولاية جورجيا بالولايات المتحدة الأمريكية، وتخصص منذ ما يزيد على ربع القرن فى تاريخ الثقافة العربية الحديثة، بدأه بكتاب عن فرح أنطون وريادته للعلمانية (نشر ١٩٧٥)، وثنى بكتاب عن «المحامين والسياسة فى العالم العربى ١٨٨٠ - ١٩٦٠» (نشر عام ١٩٨١)، وكان كتابه الثالث عن «جامعة القاهرة وصناعة مصر الحديثة» (نشر ١٩٩٠) وصدرت ترجمته العربية عن المجلس الأعلى للثقافة (المشروع القومى للترجمة) عام ٢٠٠١. والكتاب الذى بين أيدينا هو عمله الرابع المهم الذى شُغل بإعداده - فيما أعلم - فى السنوات العشر الأخيرة، وقضى بالقاهرة عامين متفرقين فى ١٩٨٨ و١٩٩٩ عكف خلالهما على جمع مادته العلمية، حتى استطاع أن يقدم للأوساط العلمية هذا الكتاب المهم الذى ينفرد به فى التاريخ لعلم المصريات، ولم يثبت دونالد ريد - بهذا الكتاب - تميزه بين المؤرخين الغربيين المتخصصين فى تاريخ مصر فحسب، بل أثبت تميزه كمصور ينافس المصورين المحترفين، فالكثير من الصور التى وردت فى الكتاب كانت من عمله، وهى على درجة عالية من المستوى الحرفى.



لقد سار علم الآثار - كما يلاحظ المؤلف - مع الامبريالية والهيمنة الغربية يدًا بيد، فهناك من علماء الغرب، ورحالته، وقناصله فى مصر وغيرها من البلاد التى كانت تخضع للدولة العثمانية، من كانوا يرون أن أهل البلاد لا حق لهم فى تلك الآثار التى يتم العثور عليها، فهم لا يقدرون قيمتها، ولا يعنيهم من أمرها إلا ما قد يدره عليهم بيعها من مال، والأولى بها الأوروبيون الذين يفردون لها الأماكن اللائقة بها فى متاحفهم باعتبارها تراث الإنسانية، فلا علاقة للمصريين أو العراقيين أو الفلسطينيين (المتخلفين) بما يتم العثور عليه من آثار فى بلادهم، فهى تخص حضارات أرقى، لا يمت إليها أولئك (الهمج) بصلة.

من هذه المقولة التى رددها المؤلف غير مرة فى فصول كتابه القيِّم، كان انطلاقه لتأليف الكتاب لدحضها، متخذًا من حالة مصر ومن علم المصريات مدخلاً للدراسة، فيبدأ - للوهلة الأولى - فى تلك الفرية التى كادت أن تصبح حقيقة مسلمة فى الثقافة الغربية، بل كانت كذلك (على أقل تقدير) فى القرن التاسع عشر. فيعدد دونالد مالكولم ريد كُتَّاب الخطط الذين ذكروا الآثار المصرية وقدموا وصفًا لها فى العصر الذى كتبوا فيه قبل القرن التاسع عشر بعدة قرون، ولكنه يلقى المزيد من الضوء على اهتمام الشيخ عبدالرحمن الجبرتى ورفاعة رافع الطهطاوى وعلى باشا مبارك، لا بالآثار وحدها، ولكن بتاريخ مصر القديم، وبين ما تدل عليه كتاباتهم من وعى بالقيمة التاريخية لما يقع على أرض مصر من شواهد أثرية تدل على تراثها الحضارى العريق.

ومن ثم يصبح اتهام المصريين خصوصًا والعرب عمومًا بعدم إدراك القيمة التاريخية للحضارات القديمة التى قامت فى بلادهم مجرد مبرر - من وجهة نظر المؤلف - لاستلاب المصريين آثارهم الثمينة لتعمر بها متاحف أوروبا، وتزدان ميادينها بالمسلات المصرية.

وإذا كان النصف الثانى من القرن التاسع عشر يمثل عصر نضج الثورة الصناعية فى أوروبا، الذى شهد هيمنة غرب أوروبا على الأسواق العالمية لتصريف بضائعها واستثمار فائض رؤوس أموالها، وضمان الحصول على المواد الخام اللازمة للصناعة بأبخس الأثمان، فهو العصر الذى لعب فيه الأوروبيون الدور الرئيسى فى وضع أسس «علم المصريات» وفى إرساء دعائم علم الآثار والعناية بها، وإقامة المتاحف فى مصر. ففيما بين عامى ١٨٥٨ و١٩٠٨ سيطر الأوروبيون على الإدارة التى عنيت بالآثار، وعلى المتاحف التاريخية الأربعة التى أقيمت خلال تلك الفترة: المتحف المصرى (الأنتيكخانة) الخاص بتاريخ مصر فى العصر الفرعونى، والمتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية، والمتحف القبطى بمصر القديمة، ومتحف الفن العربى (الذى عُرِفَ بمتحف الفن الإسلامى فيما بعد). وهكذا سيطر الأوروبيون على الآثار المصرية فى نفس الوقت الذى كانوا يحكمون فيه السيطرة على مصر ذاتها من خلال الهيمنة على اقتصادها وماليتها ثم احتلالها.

لقد عرف المصريون علم الآثار عن طريق الأوروبيين، ولكنهم ما لبثوا أن عملوا على امتلاك ناصيته، وتوظيفه لخدمة أمانيهم الوطنية، وإذا كان سعيد باشا هو أول من أنشأ متحفًا للآثار الفرعونية عام ١٨٥٨ وإدارة للآثار رأسهما معًا ماريبت بك الفرنسى، فقد أسس الخديوى إسماعيل عام ١٨٦٩ أول مدرسة مصرية عليا لدراسة المصريات عُرفت باسم «مدرسة اللسان المصرى القديم» تولى (نظارتها) عالم الآثار الألمانى هنريش بروجش، والتحق بالمدرسة عشرة من الطلاب المصريين الذين اختيروا من بين المتفوقين فى اللغة الفرنسية، باعتبارها لغة التدريس بالمدرسة، وقد درس أولئك التلاميذ الكتابة المصرية القديمة واللغة القبطية، إضافة إلى الألمانية والإنجليزية، وتاريخ مصر القديم، وأصول علم الآثار. وإضافة إلى إدارته لهذه المدرسة وتكوينه للطلاب المصريين، قام هنريش بروجش بإلقاء محاضرات فى تاريخ مصر القديم بدار العلوم، كان يلقيها بالفرنسية، ويترجمها أحد تلاميذه أو معاونيه إلى العربية، ونشر بعضها بمجلة «روضة المدارس المصرية» التى رأس رفاعة الطهطاوى تحريرها. كذلك نشر بروجش جدولاً بملوك مصر القدامى، ومقالات فى أصول الكتابة المصرية القديمة بنفس المجلة، مما أتاح فرصة نشر المعرفة بالمصريات وتاريخ مصر القديم لأول مرة باللغة العربية. وتدرب الطلاب بمدرسة «اللسان المصرى القديم» على الحفريات الأثرية فى الصعيد.

وفى عام ١٨٧٢ تخرج فى أول مدرسة للآثار المصرية سبعة طلاب كان على رأسهم أحمد كمال (الذى أصبح أول عالم مصريات مصرى فيما بعد). ولكن ماريبت باشا مدير الآثار رفض قبولهم للعمل بإدارة الآثار خشية أن يؤدى وجودهم فيها إلى إنهاء الوجود الأوروبى (خاصة الفرنسى) بالإدارة. وكان قد بدأ يضايق الطلاب منذ افتتاح المدرسة، فأصدر أوامره لموظفى المتحف بمنع الطلاب من نسخ النصوص المصرية القديمة. ولما لم يجد أولئك الخريجون مكانًا لهم فى مجال الآثار عينوا مدرسين ومترجمين للغتين الفرنسية والألمانية. وهكذا بددت السيطرة الأوروبية على إدارة الآثار الجهود التى بذلها إسماعيل لإعداد أول أثريين مصريين، فقد أغلقت مدرسة «اللسان المصرى القديم» فى نفس السنة التى تخرج فيها أولئك الطلاب السبعة.

ورغم ذلك أثمرت جهود المدرسة وناظرها، وما نشرته مجلة «روضة المدارس المصرية» من محاضرات الدكتور بروجش فى دار العلوم وغيرها من المقالات والدراسات التى نشرت مترجمة إلى العربية أو كتبها بعض طلاب المدرسة، أثمرت فى نشر الوعى بتاريخ مصر القديم بين المتعلمين ورجال السياسة، وتجلى ذلك فى الخطاب السياسى والثقافى الذى تغنى بمجد مصر القديم، سواء كان ذلك فى كتابات رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وميخائيل عبدالسيد، أو فى أحاديث السيد جمال الدين الأفغانى وأحمد عرابى وعبدالله النديم، أو فى تصميم الجناح المصرى فى معارض لندن وباريس والولايات المتحدة على النسق الفرعونى، أو فى اتخاذ الأهرام وأبى الهول رمزًا لمصر على طوابع البريد وغيرها، واتخاذ «الأهرام» اسمًا لأبرز الصحف التى صدرت فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر. هذا الوعى بالتراث المصرى القديم ما كان ليتحقق لولا ذلك الدور البارز الذى لعبته أول مدرسة للمصريات «مدرسة اللسان المصرى القديم» - رغم قصر عهدها - وساهمت فى نشره أهم مجلة ثقافية مصرية «روضة المدارس».

وساهم الأجانب المقيمون فى مصر - أيضًا - فى ذيوع الاهتمام بالتراث المصرى القديم، ففى عام ١٨٥٩ أسست مجموعة من نخبة الجاليات الأجنبية فى مصر «المجمع المصرى» بالإسكندرية، حيث كان الوجود الأجنبى كثيفًا. وجاء إنشاء «المجمع المصرى» مصاحبًا للبدء فى أعمال حفر قناة السويس، وقد كانت ذكريات «المجمع العلمى المصرى» الذى أقامه نابليون بونابرت فى مصر أيام الحملة الفرنسية، حاضرة فى أذهان مؤسسى المجمع المصرى، فأرادوا إحياءه تحت رعاية الوالى محمد سعيد باشا، ولكن ليصبح اهتمامه مركزًا على الآثار المصرية والتراث المصرى القديم. وتعاقب على رئاسته (فيما بعد ١٨٦١ - ١٩١٧) أربعة فرنسيين ثم خلفهم يعقوب باشا أرتين وكيل نظارة المعارف، وضم المجمع فى عضويته بالإضافة إلى الفرنسيين، انجليزًا، وإيطاليين وألمانًا، وكانت اللغات الأربع لغات معتمدة لمنشورات ومحاضرات المجمع، بينما كانت الفرنسية لغة مجلس الإدارة، وحدد المجمع هدفه بالعمل على «إحياء المعارف القديمة على ضفاف النيل، تلك المعارف التى تعود إليها عظمة مصر القديمة مهد الآداب والعلوم والفنون». وقد انتقل «المجمع المصرى» إلى القاهرة عام ١٨٨٠.

إذا كان النصف الثانى من القرن التاسع عشر يمثل عصر نضج الثورة الصناعية فى أوروبا، فهو العصر الذى لعب فيه الأوروبيون الدور الرئيسى فى وضع أسس «علم المصريات» وفى إرساء دعائم علم الآثار والعناية بها، وإقامة المتاحف فى مصر

لقد سار علم الآثار مع الإمبريالية والهيمنة الغربية يدا بيد، فهناك من علماء الغرب، ورحالته، وقناصله فى مصر وغيرها من البلاد التى كانت تخضع للدولة العثمانية، من كانوا يرون أن أهل البلاد لا حق لهم فى تلك الآثار



ورغم أن الأجانب كانوا يمثلون أغلبية أعضاء «المجمع المصرى» وجدت نخبة العلماء المصريين لنفسها مكانًا بين الأعضاء، وكان على رأس تلك النخبة رفاعة الطهطاوى وإلى جانبه على باشا مبارك ومحمود الفلكى (الذى كان العضو المصرى الوحيد بمجلس الإدارة).

وتجلى اهتمام «المجمع المصرى» بالآثار المصرية من اختيار مارييت نائبًا للرئيس، وغلبة الموضوعات الأثرية على محاضرات المجمع ومنشوراته، فألقى ماريت ومحمود الفلكى محاضرات حول تاريخ مصر القديم، وقدم الفلكى دراسة لفرع النيل الكانوبى الذى كان يصل فرع رشيد بالإسكندرية. وقد نشرت دراسات الفلكى بالفرنسية فى عدد من الدوريات العلمية الأوروبية الشهيرة عندئذ، وانضم أحمد كمال (أول عالم آثار مصرى) إلى المجمع عام ١٩٠٤.

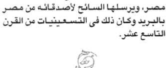
كذلك اهتمت «الجمعية الجغرافية الخديوية» التى أسسها الخديوى إسماعيل عام ١٨٧٥، اهتمامًا جزئيًا بالآثار المصرية القديمة. وكانت تلك الجمعية تضم فى عضويتها أغلبية من الأجانب الممثلين للجاليات الموجودة ـ عندئذ ـ بمصر، على نحو ما رأينا فى «المجمع المصرى» ولكن تميزت «الجمعية الجغرافية الخديوية» بوجود أعضاء أمريكيين من الضباط الذين عملوا فى قيادة الجيش المصرى فى عهد الخديوى إسماعيل.

ويربط المؤلف بين اشتراك مصر فى المعارض الدولية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ورواج حركة السياحة الأوروبية والأمريكية المتجهة إلى مصر لمشاهدة الآثار المصرية، ويلفت المؤلف الأنظار إلى مواكبة الاهتمام بزيارة مصر مع بدء حركة السياحة الأوروبية الخارجية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، حيث نضجت مرحلة الرأسمالية الصناعية، واتسع نطاق الطبقة الوسطى ذات الدخول الكبيرة، وزاد ميلها إلى الاستمتاع بجانب من فائض مدخراتها فى السياحة الخارجية، وخاصة زيارة مصر وفلسطين حيث مهد الحضارة القديمة ومسرح الأحداث التى سجلها الكتاب المقدس.

فقد جاء اشتراك مصر فى «المعرض الصناعى الدولى الكبير» الذى أقيم بلندن عام ١٨٥١ بجناح صمم على الطراز الفرعونى، مثيرًا لاهتمام الأوروبيين والأمريكيين الذين جاءوا لزيارة أول معرض دولى يقام فى العالم، وبهرتهم مظاهر الحضارة المصرية القديمة التى عبر عنها الجناح المصرى»، وحدث نفس الأثر عندما اشتركت مصر فى «المعرض الدولى» الذى أقيم فى باريس عام ١٨٥٥، وكذلك عام ١٨٦٧، خاصة أن المعرض الأخير شهد جناحًا مصريًا متميزًا عبر عن التراث المصرى القديم ببعديه الفرعونى والإسلامى.

وبعد أن كان قدوم الأجانب إلى مصر مقصورًا على الرحالة والمغامرين وأعضاء البعثات التى جاءت إلى مصر بقصد جمع الآثار للإتجار بها فى أوروبا أو لحساب المتاحف الأوروبية، شهدت مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قدوم الأفواج السياحية التى نظمها بيت سياحى بريطانى ما لبث أن اكتسب شهرة عالمية كأول مشروع يعرفه العالم فى هذا المجال، ونعنى به «توماس كوك وولده» الذى بدأ نشاطه عام ١٨٤١ بتنظيم رحلات داخلية بالقطار من وسط انجلترا إلى لندن، واتسع نشاطه مع إقامة «المعرض الصناعى الكبير» عام ١٨٥١، فزادت رحلاته الداخلية إلى لندن لمشاهدة المعرض، ثم نظم رحلات خارجية ـ لأول مرة ـ لزيارة معرض باريس ١٨٥٥، وكذلك رحلات لزيارة جبال الألب وإيطاليا وجاء تنظيم توماس كوك للرحلات السياحية إلى مصر ليحول هذا البيت السياحى إلى مشروع دولى كبير ربط أوروبا وأمريكا بمصر من خلال الرحلات السياحية التى قام بتنظيمها مستخدمًا السفن البخارية، ومبتدعًا خطوط البواخر النيلية، ومشجعًا ومشاركًا فى إقامة الفنادق لإقامة السيّاح بالأقصر وأسوان والقاهرة، ثم جاء امتداد الخطوط الحديدية إلى أسوان قبيل نهاية القرن ليساعد على اختزال زمن الرحلة، ومن ثم تخفيض تكلفة الرحلة، وزيادة أعداد الرحلات السياحية المتجهة إلى مصر. وهكذا صنع «توماس كوك وولده» إمبراطورية سياحية كبرى ظلت تسيطر على هذا المجال كبيت عائلى حتى تم بيعها لشركة «عربات النوم الدولية» لتتحول بذلك إلى شركة مساهمة عالمية (عام ١٩٢٦).

ويرتبط بظاهرة السياحة الخارجية التى كان الاهتمام بالآثار المصرية وراء قيامها وتطورها، ظهور نوع من المطبوعات لم يكن معروفًا من قبل، وهو «دليل السائح» الذى حمل بالإنجليزية اسم «كتاب اليد Hand Book» وبالفرنسية اسم كتاب الجيب «livre de poche»، ففى ثلاثينيات القرن التاسع عشر طبع أول دليل سائح لمصر باللغة الإنجليزية وآخر بالفرنسية، وازداد العدد فى الستينيات من نفس القرن ليصبح أربعة بالإنجليزية وثمانية بالفرنسية، وظهر أول دليل بالإيطالية فى الستينيات، وبالألمانية فى السبعينيات، وعند نهاية القرن التاسع عشر، بلغ عدد أدلة السائح المنشورة بالإنجليزية ٣١ دليلاً، وبالفرنسية ١٥ دليلاً، وبالألمانية تسعة أدلة، وبالروسية دليل واحد. وهكذا صاحب ظاهرة الاهتمام بالسياحة الخارجية التى استقطبتها مصر ظهور وتطور صناعة الأدلة السياحية المطبوعة التى أصبحت عند نهاية القرن التاسع عشر تتنافس مع بعضها البعض من حيث تنوع المعلومات التى تهم السائح لا عن الآثار المهمة وحدها وإنما عن مصر ذاتها تاريخًا ومناخًا ومجتمعًا، إلى غير ذلك من معلومات. وكذلك بما تقدمه للسائح من خرائط ورسوم وصور إيضاحية، كذلك ارتبط بظاهرة السياحة الخارجية رواج اللوحات المرسومة باليد لمناظر من مصر كان يرسمها بعض السيّاح الأوروبيين، ثم يطبعونها ويبيعونها فى بلادهم أو يصدرونها إلى مصر لتباع للسيّاح. ومع ظهور التصوير الفوتوغرافى عند منتصف القرن التاسع عشر، بدأت تظهر صناعة طبع الصور التى تعبر عن الآثار المصرية ومظاهر الحياة فى مصر، وأتاح ذلك ظهور «البطاقات البريدية Post - Card» التى تحمل صورًا من مصر، ويرسلها السائح لأصدقائه من مصر بالبريد وكان ذلك فى التسعينيات من القرن التاسع عشر.



ولم تكن زيارة المواقع الأثرية وحدها على جدول زيارات الأفواج السياحية الأوروبية والأمريكية التى كان يجلبها «توماس كوك وولده» إلى مصر، بل كانت زيارة المتحف المصرى بالقاهرة من أهم المواقع التى تتجه إليها أفواج السائحين، وكان المتحف قد أقيم ـ على نحو ما رأينا ـ عام ١٨٥٨ فى عهد سعيد باشا على شاطئ النيل عند بولاق (وهو الموقع الذى يقع الآن بين مبنى التليفزيون ومبنى وزارة الخارجية على كورنيش النيل). وكان اختيار الموقع يهدف إلى تيسير نقل الآثار التى ترد من الصعيد على المراكب النيلية، واشتمل المبنى على «مصلحة الأنتيكخانة» (التى كانت تابعة لنظارة الأشغال العمومية)، وصالات عرض التحف الأثرية، ومقر إقامة مدير الآثار. ولكن ما لبث المكان أن ضاق بمقتنياته وزواره، فتم نقل المتحف فى أواخر عهد الخديوى إسماعيل إلى قصر الحرملك بالجيزة (وكان يقع على مشارف حديقة الأورمان)، واستمر هناك حتى أقيم له مبنى خاص بميدان الخديوى إسماعيل (التحرير الآن) وهو المبنى الحالى الذى افتتح فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى عام ١٩٠٢، وينوء الآن بما يحتويه من آثار بعد قرن من الزمان دون أن تسعى الحكومات المتعاقبة إلى التفكير فى إقامة متحف آخر إلا فى السنوات الأخيرة، ولم يتجاوز الأمر بعد حدود التفكير!!

وظلت الآثار الفرعونية وحدها موضع الاهتمام حتى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر عندما بدأ الاهتمام بالآثار اليونانية ـ الرومانية وكذلك الآثار العربية (الإسلامية) لتضاف بذلك نواة لمتحفين آخرين لهذين العصرين، وجاء الاهتمام بالعصر القبطى متأخرًا (فى أوائل القرن العشرين). وأسفر ذلك الاهتمام عن إقامة المتحف القبطى، لتكتمل بذلك دور العرض المتحفى للآثار المصرية على مر العصور.

جاء الاهتمام بالعصر اليونانى ـ الرومانى من خلال البحث فى تاريخ مدينة الإسكندرية، ويعود إلى العالم المصرى محمود الفلكى فضل ريادة الحفائر الأثرية بالإسكندرية (عام ١٨٦٥ ـ ١٨٦٦) بهدف التحقق من بعض مواقع الإسكندرية القديمة، ونشر خريطة الإسكندرية القديمة محققة فى مجلة المجمع العلمى المصرى (١٨٦٨ ـ ١٨٦٩) مع تقرير بنتائج الحفائر، وقد نشر أيضًا بكوبنهاجن، وقد استفاد محمود الفلكى من خبرته كمهندس فى تحديد مواقع الحفر وتنفيذه فى وقت لم يكن قد عُرف فيه ـ بعد ـ الأصول العلمية والفنية لتنفيذ الحفائر الأثرية، ومن ثم كان عمل محمود الفلكى مبتكرًا فى هذا المجال، ولم يتابع أحد بعده الحفر بالإسكندرية بشكل علمى منظم حتى نهاية القرن.

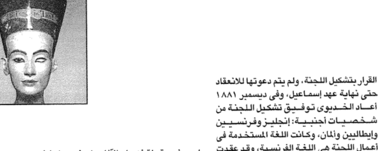
وفى ١٨٩١، أسس بعض الإيطاليين والإنجليز بالإسكندرية «الجمعية الأثينية» ونجحت الجمعية فى إقناع المجلس البلدى بالإسكندرية لاتخاذ قرار بإنشاء المتحف اليونانى ـ الرومانى، ومكتبة البلدية، ووافقت الحكومة على القرار بعد تردد لبعض الوقت، على أن يخضع المتحف لإشراف مصلحة الآثار المصرية، وتتحمل البلدية نفقات إقامته» وتأسست «جمعية آثار الإسكندرية» عام ١٨٩٣ لترعى إقامة المتحف دون أن يكون بين أعضائها مصرى واحد، بل ضمت نخبة الجاليات الأجنبية بالمدينة من المثقفين ورجال الأعمال، ونجحت الجمعية فى إقامة المتحف اليونانى الرومانى عام ١٨٩٧. وظلت إدارة المتحف بيد الإيطاليين حتى مطلع النصف الثانى من القرن العشرين، على حين ظلت إدارة «المتحف المصرى» بيد الفرنسيين حتى ذلك التاريخ أيضًا.

واستطاعت «جمعية آثار الإسكندرية» أن تجمع أموالاً كونت «صندوق الاكتشافات المصرية» تم الإنفاق منه على الحفائر الأثرية المتعلقة بالعصر اليونانى ـ الرومانى، وشراء التحف لعرضها بالمتحف وكذلك أوراق البردى اليونانية التى تم جمعها من الحفائر.

أما عن الآثار الإسلامية، فيعود الاهتمام بها إلى «لجنة حفظ الآثار العربية» التى شكلها الخديوى إسماعيل عام ١٨٦٩ بناء على اقتراح من مهندس نمساوى (أوجست سالزمان) لترميم مسجد الظاهر بيبرس، ولكن الأمر لم يتجاوز حد صدور

فى عام ١٨٧٢ تخرج فى أول مدرسة للآثار المصرية سبعة طلاب كان على رأسهم أحمد كمال (الذى أصبح أول عالم مصريات مصرى فيما بعد). ولكن ماريت باشا مدير الآثار رفض قبولهم للعمل بإدارة الآثار خشية أن يؤدى وجودهم فيها إلى إنهاء الوجود الأوروبى





القرار بتشكيل اللجنة، ولم يتم دعوتها للانعقاد حتى نهاية عهد إسماعيل، وفي ديسمبر ١٨٨١ أعاد الخديوي توفيق تشكيل اللجنة من شخصيات أجنبية: إنجليز وفرنسيين وإيطاليين وألمان، وكانت اللغة المستخدمة في أعمال اللجنة هي اللغة الفرنسية، وقد عقدت اللجنة أول اجتماعاتها في فبراير ١٨٨٢، ثم تعطلت أعمالها بسبب حوادث الثورة المصرية ووقوع الاحتلال البريطاني لمصر، فاجتمعت في ديسمبر ١٨٨٢ برئاسة ناظر الأوقاف محمد زكي باشا الذي أصبحت اللجنة تتبع وزارته. وظل عمل اللجنة مقصورًا على النظر في ترميم المساجد القديمة التاريخية في حدود الميزانية الفقيرة التي ظلت في حدود ما يقل قليلاً عن أربعة آلاف جنيه سنويًا حتى عام ١٨٩٦ عندما قفزت الميزانية المخصصة لها إلى عشرين ألفًا من الجنيهات. ولم يتجاوز ما تم إنفاقه على ترميم الآثار الإسلامية حتى عام ١٩٠٦ (أي بعد ربع قرن من إنشاء اللجنة) ٢٠٥ آلاف من الجنيهات.

وتولت لجنة «حفظ الآثار العربية» إقامة «متحف الفن العربي» عام ١٨٨٤ في فناء مسجد الحاكم بأمر الله، حيث تكدست التحف المجموعة من هنا وهناك دون اتباع لأساليب العرض المتحفي، ودون أن يكون هناك خبراء بالفن العربي (الإسلامي) بذلك المتحف، ولم تهتم كتب «الدليل السياحي» الخاصة بمصر بذكر ذلك المتحف إلا نادرًا، وفي عام ١٨٩٨ تم رصد اعتماد لبناء مبنى بباب الخلق يضم دار الكتب الخديوية ومتحف الفن العربي معًا. حيث تم افتتاح المتحف عام ١٩٠٣ (ويعرف الآن بمتحف الفن الإسلامي).

وجاء الاهتمام بإقامة «المتحف القبطي» بمبادرة شخصية من مرقس سميكه - أحد أعيان الأقباط - الذي راعه ما تتعرض له التحف القبطية من ضياع، فأخذ على عاتقه مهمة جمعها والدعوة لإقامة متحف للفن القبطي للحفاظ عليها، وكان مرقس سميكه قد سعى لمد اختصاص «لجنة حفظ الآثار العربية» ليشمل ترميم الكنائس والأديرة التاريخية، وهو ما كان محل اعتراض البابا كيرلس الخامس. وفي ١٨٩٦ تم تعديل تشكيل اللجنة لينضم إليها عضوان من الأقباط، وتم رصد اعتماد لترميم الكنيسة المعلقة. ولكن كيرلس الخامس ظل معترضًا على تدخل اللجنة في أعمال ترميم الكنائس باعتباره أمرًا يخص الكنيسة وحدها، وأخيرًا وافق البابا على ترميم الكنيسة المعلقة عام ١٩٠٦ (وهو العام الذي أصبح فيه مرقس سميكه عضوا باللجنة)، كما وافق على إقامة «متحف قبطي» عام ١٩٠٨ مقابل مساندة مرقس سميكه له في مواجهة دعاوى الإصلاح التي تبناها المجلس الملي للأقباط الأرثوذكس. واشترط أن يكون «المتحف القبطي» تابعًا للكنيسة، وتم افتتاح المتحف القبطي عام ١٩١٤.

وقد حرص دونالد مالكولم ريد في هذا الكتاب «فراعنة من؟» أن يؤرخ لرواد علم الآثار المصريين ممن مارسوا العمل الأثري ليدحض مقولة أن علم الآثار علم غربي لا شأن لأهل الشرق به. وهكذا رأيناه يحرص على تسجيل اهتمام الكتّاب المصريين بالآثار، ويلقي الضوء على الوعي بتاريخ مصر القديم وتراثها الحضاري عند المصريين، كما سجل فضل محمود الفلكي في ريادة الحفائر الأثرية في الإسكندرية (على نحو ما رأينا)، ولكنه أفرد مساحة أوسع من دراسته لثلاثة من رواد العمل الأثري المصريين: أحمد كمال وعلي بهجت ومرقس سميكه (باعتباره صاحب فكرة المتحف القبطي).

كان أحمد كمال أبرز الخريجين السبعة لمدرسة «اللسان المصري القديم» الذين حال ماريت بك دون تعيينهم بمصلحة الآثار حتى لا يؤدي وجودهم إلى تمصير العمل بالآثار مما يضر بالوجود الفرنسي خاصة والأوروبي عامة بتلك المصلحة، وقد ظل ماريت في منصبه حتى مات عام ١٨٨١ وخلفه ماسبيرو «Maspero» الذي كان أكثر مرونة وأقل تعصبًا منه. وإضافة إلى كشوفه وأعماله الأثرية، كان له فضل صدور قانون الآثار عام ١٨٨٣ الذي اعتبر الآثار ملكًا للدولة ووضع ضوابط الحفاظ عليها، ولكن استمرت تبعية الآثار لوزارة الأشغال العمومية حتى عام ١٩٢٩ عندما انتقلت تبعيتها إلى وزارة المعارف.

ورغم اضطرار أحمد كمال إلى العمل كمدرس للغتين الفرنسية والألمانية بالمدارس بعد تخرجه من «مدرسة اللسان المصري القديم» ظل يتطلع إلى العمل بالآثار، ولم يستطع الحصول على وظيفة مترجم بالمتحف المصري إلا بوساطة مصطفى رياض باشا رئيس الوزراء (١٨٨١)، وسرعان ما أثبت أحمد كمال كفاءته للعمل كأثري، وأسند إليه ماسبيرو مهمة إدارة مدرسة صغيرة أقيمت بالمتحف لتعليم خمسة من المصريين علم المصريات، وكان أحمد كمال يتولى تدريس الكتابة المصرية القديمة، واللغة الفرنسية والتاريخ براتب قدره ثمانية جنيهات شهريًا، وعاونه ثلاثة من المدرسين المصريين لتدريس اللغة العربية والرياضيات والجغرافيا. وفي أبريل ١٨٨٢ أضاف ناظر الأشغال العمومية عشرة طلاب آخرين إلى المدرسة من أبناء الأعيان كان من بينهم أربعة من الأقباط. وفي عام ١٨٨٥ تم تخريج طلاب المدرسة المصرية الثانية لعلم المصريات، ولم يجد ماسبيرو سبيلاً لتعيينهم كمفتشين للآثار إلا بإلغاء المدرسة وتحويل اعتماداتها المالية لتمويل الوظائف التي عيّن عليها الخريجون.

وفي ١٨٩١ أصبح أحمد كمال أمينًا مساعداً للمتحف المصري، وظل أحمد كمال يرقب الأجانب الأقل كفاءة يتخطونه إلى منصب أمين المتحف حتى عام ١٩١٤، ولم يستجب أحد لشكواه المتكررة من التحيز للأجانب على حساب المصريين. ورغم ذلك كان أحمد كمال محل تقدير ماسبيرو (الأدبي) فاشركه معه ضمن لجنة من علماء الآثار في أوروبا للمشاركة في إعداد كتالوج الآثار المصرية الذي نشر بالفرنسية والإنجليزية والعربية. كما أصبح أحمد كمال عضوًا بالمجمع المصري عام ١٩٠٣. وقام بتدريس تاريخ مصر القديم بالجامعة المصرية عند تأسيسها عام ١٩٠٨، وأقنع وزارة المعارف بإنشاء قسم لعلم المصريات بمدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٠، تخرجت أول دفعة منه (عشرة طلاب) عام ١٩١٢، وساهم أحمد كمال وتلاميذه في الحفائر التي تمت حتى قيام الحرب العالمية الأولى. وكتب عددًا من الكتب، ونشر ٢١ تقريرًا عن الحفائر بالفرنسية في مجلة المجمع العلمي ومجلة الجمعية الجغرافية الخديوية.

أما علي بهجت (رائد علم الآثار الإسلامية) فقد كان موظفًا بديوان وزارة المعارف، ونقل عام ١٩٠٠ إلى «لجنة حفظ الآثار العربية» لإنقاذه من دانلوب (مستشار الوزارة) بوساطة يعقوب أرتين باشا (وكيل الوزارة). وفي عام ١٩٠٢ عين أمينًا مساعدًا بمتحف الفن العربي، وظل (كصاحبه أحمد كمال) دون ترقية حتى عام ١٩١٤ بسبب تفضيل الأجانب على المصريين رغم قلة كفاءتهم، وقد استطاع عام ١٩١٢ أن يدير حفائر الفسطاط بكفاءة كبيرة جعلته رائدًا للآثار الإسلامية، وأصبح أول أمين مصري للمتحف الإسلامي عام ١٩١٤، ولكن أمانة المتحف انتقلت إلى الأوروبيين مرة أخرى بعد وفاته (عام ١٩٢٤).

وخلال تتبعه لتاريخ علم الآثار المصرية والمتاحف من حملة نابليون بونابرت حتى عام ١٩١٤، لم يسقط المؤلف من اعتباره التطور العلمي والمعرفي والثقافي في مصر القرن التاسع عشر، بل اتخذ منه إطارًا عامًا لدراسة موضوعه الأساسي، فرسم للقارئ معالم النهضة العلمية والثقافية التي صاحبت مشروع محمد علي من إقامة نظام التعليم الحديث إلى حركة الترجمة إلى الاتصال المعرفي بالحضارة الأوروبية الحديثة، كذلك وضع بين يدي القارئ العلاقة بين التطورات التي شهدتها مصر في عهد الخديوي إسماعيل ومشروعه الثقافي الشامل الذي تولى صياغته علي مبارك بمساعدة رفاعة الطهطاوي. كما لم يفصل المؤلف بين الاهتمام بالآثار من جانب الأجانب والموجة الإمبريالية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر التي استهدفت فتح الأسواق لاستثمار فائض رؤوس الأموال وتصريف الإنتاج، وسعت إلى حماية مصالحها من خلال الهيمنة السياسية على مصر.

وهو إذ يتحدث عن محاولات الأجانب إبعاد المصريين عن ميدان الآثار، يضع أمام القارئ صورة الصراع الذي دار بين المصريين والأجانب من أجل تحرير بلادهم من الهيمنة الأجنبية، ويعالج العلاقة بين الرواد أحمد كمال وعلي بهجت والأجانب في سياق العمل الوطني الذي يهدف إلى الحفاظ على الهوية المصرية، ويحرص في خاتمة الكتاب أن يلقي الضوء على ما حدث لعلم الآثار من تطورات بعدما ملكت مصر أمرها بيدها، وما تركته الكشوف الأثرية المهمة (مثل اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون) من آثار إيجابية على الحركة الوطنية المصرية.

لقد سبق للمؤلف أن قدم تاريخًا ثقافيًا لمصر في القرن العشرين من خلال دراسته لجامعة القاهرة، وكتابه الذي بين أيدينا اليوم يقدم تاريخًا ثقافيًا لمصر في القرن التاسع عشر من خلال دراسته لتاريخ علم الآثار والمتاحف في مصر، وهو ما يضفي على العمل أهمية خاصة، ويجعله مرجعًا أصيلاً لمن يريد الوقوف على تطور مصر الثقافي في القرن الذي شهد التحولات الكبرى في تاريخ مصر الحديث. ■



جاء اشتراك مصر
في «المعرض الصناعي الدولي الكبير»
الذي أقيم بلندن عام ١٨٥١ بجناح صمم على الطراز الفرعوني، مثيرًا لاهتمام الأوروبيين والأمريكيين الذين جاءوا لزيارة أول معرض دولي يقام في العالم، وبهرتهم مظاهر الحضارة المصرية القديمة التي عبر عنها الجناح المصري»

لماذا لا يتزوج المصريون؟!

مديحة محمد السفطى

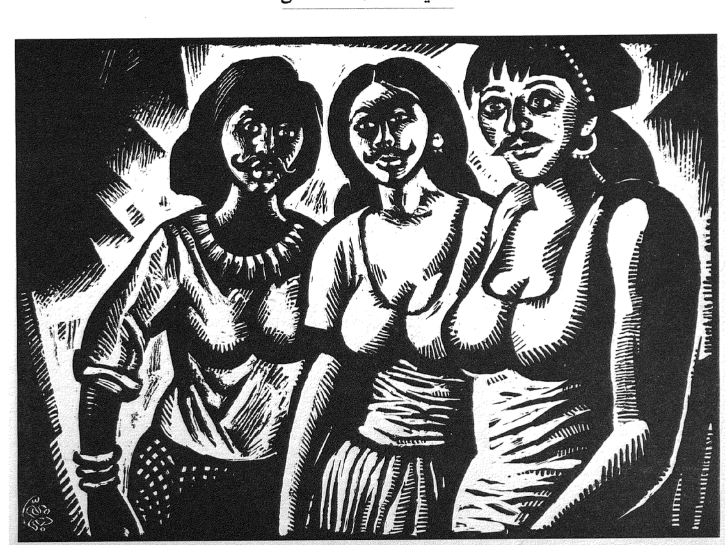
قد لا تصل الأرقام الرسمية لأعداد غير المتزوجين فى مصر إلى حد اعتبارها مؤشرًا على وجود ظاهرة، قياسًا إلى عدد السكان الذى يصل إلى ٦٧ مليون نسمة حسب التعداد الرسمى للسكان الصادر عن الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء فى شهر يناير من هذا العام ٢٠٠٢. إلا أنها وبالمقارنة بفترات زمنية سابقة تشير إلى اتجاه يتنامى فى المجتمع المصرى ويتمثل فيما يمكن تسميته بتأخر سن الزواج عجزًا أو عزوفًا. أو ربما بطرًا من بعض الفتيات.

إن التفاوت بين الجنسين فى الأرقام باعلى بدهى، إذ أن سن الزواج بالنسبة للفتاة تسبق سن الشاب فى مجتمعنا، أولاً: بسبب العادات السائدة به والتى تحبذ زواجها المبكر، وثانيًا: بسبب الوقت الذى يحتاج إليه الشاب ليصنع لنفسه مستقبلاً يسمح بتكوين أسرة، وهو العائل الرئيسى لها حسبما تحدد التقاليد. وعادة لا يتم ذلك قبل سن الثلاثين. ولذا نجد ارتفاع عدد الذكور غير المتزوجين فى شريحة الخامسة والعشرين عنه فى شريحة الثلاثين.

ومع تخطى مرحلة الثلاثين من العمر، يرى المجتمع أن الفتاة قد فاتها قطار الزواج. وقد لا ينطبق ذلك على الشاب بنفس الصورة، وبشكل عام، يقل عدد الشباب بلا زواج بعد هذه السن، فنجد أن البيانات تشير إلى أن من هم بلا زواج بدءًا بسن الخامسة والثلاثين فاعلى يمثلون ٣٦٩,٥٧٨ شخصًا، منهم ٢١٦,٩٢٢ من الذكور، و١٥٢,٦٥٦ من الإناث.

ومع ذلك، فإن وجود شباب غير متزوجين يثير تساؤلاً لدينا جميعًا، ونحن نعيش فى مجتمع يقدس الزواج، ويعتبره «نصف الدين»، ويحمل فى بنائه ضغوطًا اجتماعية تدفع الشباب من الجنسين إلى استكمال هذا النصف فى مرحلة مبكرة من حياتهم. لماذا يحجم الشباب عن الزواج؟ وهل هو إحجام طوعى، أم عزوف تفرضه الظروف، أيًا كان نوع هذه الظروف؟ هل هو اختيار من الشباب؟ أم هل هو انسياق وراء اتجاه مستورد، أوجدته مقتضيات العولمة، فتسلل إلينا، مثله فى ذلك مثل عناصر أخرى غريبة علينا؟ هل هو نتاج نسق اجتماعى جديد أفرزته عوامل التغير الطبيعى، وأعاد صياغة أولويات الشباب؟ أم هل هو قبل ذلك كله، محكوم بأوضاع اقتصادية، تحد من فرص الشباب فى الزواج وتقيدها؟ وهل وجود مثل هذا الاتجاه يعبر عن ارتفاع سن الزواج نتيجة لمتغيرات التحول الاجتماعى فى مجملها، أم هو انعكاس لما هو أكثر من ذلك وأبعد منه؟

كلها تساؤلات تدور فى الذهن عند محاولة فهم ذلك الاتجاه؟ وإدراك أبعاده المختلفة. وربما



إن بقاء الفتاة دون زواج حتى سن متأخرة يعتبر وضعًا غير طبيعى، وغير مألوف فى مجتمعاتنا العربية، بخلاف ما هو مقبول، وبصورة منتشرة فى المجتمعات الغربية. وبالتالى فهو يثير تساؤلات كثيرة حولها، وتبرز محاولات عدة لتفسير بقائها بلا زواج حتى هذه السن

يكون مرجع هذه التساؤلات - ولو جزئيًا - أنه حتى منتصف القرن الماضى تقريبًا لم تكن هذه التساؤلات لترد فى أذهاننا، ولم تكن هناك مشكلة تراجع عن مؤسسة الزواج. وكان الوضع الطبيعى متى بلغ الشاب والفتاة سن الزواج المتعارف عليها - وكان مبكرًا - أن يقدما عليه كخطوة طبيعية فى مشوار حياتهما. وليس معنى ذلك أن الوضع كان يخلو من معوقات فى هذا الصدد، ولكنها كانت أقل منها فى الوقت الحالى، وربما تختلف فى مضمونها أيضًا.

ولأن مناقشة عزوف الشباب عن الزواج هى فى الواقع مناقشة وضع غير مألوف لدينا، فإننا نحاول أن نتفهم أبعاد هذا الوضع. وفى نطاق هذه المحاولة، لابد من التطرق إلى ما نعيشه من أنساق المجتمع فى الفترة الآنية، والتى لها مردودها على ما يدور به من اتجاهات وأيضًا سلوكيات، إذ لا يمكن فهم أى منها بمعزل عن هذه الأنساق ولا منفصلة عنها. وهنا لا يمكن إغفال عملية التغير التى يمر بها المجتمع، والتى من خلالها تبرز أنماط سلوكية جديدة، تستحدثها الأوضاع المتغيرة، والتى لا تكون بالضرورة وافدة إلينا من مجتمعات خارجية، ولكنها قد تكون نتاج عملية التحول الداخلى نفسه، واتساقًا مع عجلته، يفرزها السياق الطبيعى له. وأنه لا يمكن القول إن هذه الأنماط تخلو من قدر من التأثير الخارجى، تختلف درجته من وضع إلى آخر نتيجة لأكثر من متغير فى هذا الصدد. فإذا اعتبرنا أن المجتمع الغربى يعيش اتجاهًا واضحًا نحو رفض فكرة الزواج بين الشباب، والذى قد يصل إلى حد الظاهرة هنا بسبب اتساع حجمه، وبالتالى ترتفع نسبة الشريحة غير المتزوجة بينهم، فإن مجتمعنا لا يزال بعيدًا عن ذلك الوضع، حتى مع ارتفاع عدد غير المتزوجين به، لأن النسق القيمى لدينا يختلف عنه فى المجتمعات غير العربية بشكل عام. فالأخيرة لها عاداتها التى تحكمها، ولها من النواميس ما لا يضع الزواج ضمن أولويات الشباب. ولذلك يمكن القول إن المجتمع المصرى - مثله فى ذلك مثل المجتمعات العربية الأخرى - مازال يقدس الزواج رغم كل شىء، ومازال يعتبر الأسرة نواته، وركنًا أساسيًا به، بل ويتضمن تقاليد وعادات تحبذ الزواج وتحث عليه. ولكن، لا يمكن إغفال تسلل بعض عناصر الثقافة الخارجية إلينا، ولا تأثيرها علينا، كما أسلفنا الذكر، ولا يمكن إغفال بعض الأسباب الداخلية ومردودها على الزواج.

إننى أتطرق إلى هذا الموضوع ليس فقط كمراقبة لما يدور فى المجتمع من منطلق التخصص الأكاديمى بل وأيضًا كباحثة لجوانبه المختلفة، ولكن قبل ذلك كجزء منه، أعيش أوضاعه وأشعر بمشكلاته وقضاياه.

فإذا اعتبرنا أن ثمة أسبابا مجتمعية قد أدت إلى ارتفاع عدد غير المتزوجين من الجنسين، فهل هى نفس الأسباب لكليهما؟ وهل تتساوى الأسباب فى هذا الصدد بين الذكر والأنثى باعتبارها دوافع سلوكية لكل منهما؟ وأيضًا هل تتساوى بالنسبة لجميع أفراد المجتمع مع اختلاف انتمائهم إلى الشرائح الاجتماعية المختلفة؟

إن محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة تؤكد اختلاف الأسباب بين الجنسين، وكذلك الدوافع، وأيضًا بين الشرائح الاجتماعية المختلفة، إذ أنه مع وجود متغيرات فى المجتمع تشكل عوامل لها أثرها على جميع الأفراد، لأنها تتأثر بدورها بظروف عامة، إلا أن هناك تباينًا فى الأسباب بين الجنسين، وأيضًا بين الشرائح الاجتماعية المختلفة، والذى قد يكون حادًا فى بعض الأحيان. وهناك أيضًا الأوضاع التى تفرق بين الريف والحضر، وهما ثقافتان تختلفان فى عدد لا يستهان به من الأنساق. ومعنى ذلك أن لكل فئة من السابق ذكرها خصوصيتها، والتى تنعكس على سلوكيات الأفراد بها، بل وأيضًا توجهها. فالأسباب التى تتعلق بتأخر سن الزواج لدى الإناث قد لا تكون بالضرورة نفس الأسباب التى تؤجل زواج الشباب من الذكور. كما أن الشباب من الشريحة الاجتماعية العليا لا يعيشون نفس الظروف التى يعيشها الشباب من الشريحة المتوسطة ولا الشريحة الدنيا، فلكل من هذه الشرائح أوضاعها الخاصة بها والتى تميزها عن غيرها. وينطبق نفس الشىء على شباب الريف فى مقابل شباب الحضر.

وجدير بالذكر هنا أن بعض هذه الأسباب، والتى سوف نتعرض لها فى الجزء التالى، قد تتطابق بعضها مع بعض، أى بين الجنسين فى شريحة اجتماعية واحدة، وقد تنطبق على جنس واحد فى شريحة بعينها دون الجنس الآخر.

ولكن لابد من إدراك أن المجتمع هو ذكور وإناث، والذكور يتزوجون إناثًا، فإذا كانت هناك أسباب تجعل أحد الجنسين يعزف عن الزواج، فمن البدهى أن يكون لذلك أثره على الجنس الآخر. وبالتالى تنعكس الأسباب التى تؤثر على إحجام أحد الجنسين عن الزواج على الجنس الآخر، وتؤدى فى النهاية إلى نفس المحصلة، وهى انحسار مؤسسة الزواج كمؤسسة اجتماعية.

ولعل ما يمكن البدء به هو متغير له دلالته على المجتمع بشكل عام، وكذلك انعكاساته التى تمتد إلى أكثر من جانب من الجوانب الحياتية به، وإن كان يرتبط بالإناث فى سياق عملية التغير. وهنا نعنى ما حدث من إقدام الإناث على الاستفادة من حقوق كانت محدودة بالنسبة إليهن من قبل، وخاصة فيما يتعلق بالتعليم والعمل. إذ أنه منذ تم التوسع فى التعليم، لحقت الإناث بالركب. وعندما وجدت المرأة أن باب التعليم قد فتح أمامها على مصراعيه، اندفعت نحوه بشوق وحماس. وبعد أن كان أقصى ما تسعى إليه الفتاة فى المراحل التعليمية هو التعليم الثانوى، وربما إتمامه كهدف أمثل، امتد طموحها إلى المرحلة الجامعية وأيضًا ما بعدها. وأصبح من الطبيعى إذن أن يؤدى ذلك الوضع إلى تأخر سن الزواج عند الإناث، باعتبار أنهن ينتظرن حتى ينتهين من التعليم الجامعى، أو على الأقل يصلن إلى مرحلة ما به. بل أيضًا أصبحت الفتاة تتجه إلى السفر إلى خارج البلاد للحصول على درجات علمية، غالبًا فى الدراسات العليا، ولم يعد يعيبها ولا يعيب أسرتها أن تفعل ذلك.



ويتصل بالتعليم، ويرتبط به، انفتاح سوق العمل أمام المرأة، إذ أن اتجاه المرأة نحو العمل واتساع فرصها فيه نتيجة لاتساع فرص التعليم أمامها، قد أوجد لديها آفاقًا جديدة لتحقيق ذاتها، كانت محجمة فى الماضى، فاستجابت لهذا النداء، وسعت الفتيات نحو طموحات جديدة بعد أن اكتشفن مجالات اختيارات لمستقبلهن خلاف الأسرة والبيت - ومثلما يحدث عند اكتشاف الجديد، وضعت الكثير من الفتيات العمل على رأس قائمة أولويات طموحاتهن، بعد أن كان الزواج يحتل هذه المكانة. ومع مزيد من النجاح فى العمل، يتوارى حلم الزواج فى ذهن الفتاة، وخاصة إذا توهمت أنه قد يعوقها عن مسيرة نجاحها. إن الفتاة الطموحة مهنيًا تجد فى عملها ما يحقق ذاتها ويشعرها بشخصيتها، وبالتالى قد يصبح من الصعب عليها أن تدخل شخصًا آخر، أو شيئًا آخر كشريك لعملها.

إن المراقب لعملية التحول فى المجتمع المصرى لابد أن يلفت نظره ارتفاع نسبة الإناث ممن يسعين إلى تحقيق طموح مهنى يطغى على قبول الزواج فى تفكيرهن. وهذا وضع حديث نسبيًا، له انعكاسات فى المجتمع. فالثقافة الذكورية لا ترى فى طموح الشاب المهنى تناقضًا مع الزواج، بل إن الشاب قد يسعى إلى الزواج بهدف تحقيق استقرار يعينه على الوصول إلى طموحاته فى العمل. ولكن الوضع يختلف بالنسبة للفتاة، فهى فى هذه الحالة تجد نفسها فى مواجهة تعارض بين طموحها المهنى والزواج. وقد لا يقتصر ذلك الشعور على تفكيرها وحدها، بل عادة يعكس رأى الشاب المقبل على الزواج أيضًا.

وثمة بعد آخر لتعليم الفتاة وعملها وأثرهما على زواجها، يتضح من خلال أحاديث الفتيات وتعبيرهن عن اتجاهاتهن، مما يجعلهن أكثر دقة فى اختيار شريك الحياة، فالفتاة فى الماضى كانت تقبل الزواج برؤية سنها الصغيرة، وبفرحتها بدخول حياة جديدة من خلال الزواج وما يرتبط به من أحلام، تعيشها منذ نعومة أظفارها، وتمثل هدفها الأكبر - وربما الوحيد - فى الحياة، يعزز ذلك الشعور ويغذيه عوامل التنشئة الاجتماعية فى الأسرة، بل وربما فى المدرسة ووسائل الإعلام أيضًا. وعادة ما كان الدور الأكبر فى اختيار الزوج هو حق الوالدين، وواجبهما نحو الابنة، من منطلق حرصهما على مصلحتها واستقرار حياتها. أما الفتاة العصرية، والتى تكون عاملة، فلديها من الدراية والمعرفة ما يجعلها فى موقع يسمح لها باختيار - لنفسها وبنفسها - من تراه مناسبًا لها. وهى هنا تدقق وتكون أكثر انتقائية، حسبما تضع لنفسها من معايير، اكتسبتها من خلال خبرتها فى الحياة. وفى كثير من الأحيان يؤدى ذلك إلى تحجيم فرص الاختيار أمامها.

ومعنى ذلك أن أثر التعليم والعمل على المرأة لا ينعكس فقط على تأخر سن الزواج بالنسبة للإناث، ولكن له أيضًا دلالاته على نظرة الفتاة لنفسها وعلى نظرتها للزواج أيضًا. إن النجاح فى العمل يتيح للفتاة عادة قدرًا من الحرية. والحديث عن الحرية بالنسبة للفتاة هنا لا يعنى الحرية بمعناها السلبى، أو تلك التى يساء استخدامها، ولكنها الحرية التى تمنحها الثقة بالنفس والشعور بالاستقلالية فى حياتها، والتعامل مع القيود التى قد تعوقها عن تحقيق طموحها. ولذلك فإن الفتاة فى هذه الحالة قد تتردد فى الارتباط بشخص قد يحد من هذه الاستقلالية، وتبحث عمن لا يمس إحساسها الكامل بكيانها المهنى، وهنا يبرز عائق آخر أمامها عندما تشعر أن الزواج يتعارض مع استقلال شخصيتها.



ولعل ما يساعد على إحجام الإناث الطموحات فى العمل عن الزواج هو تلك الردة التى انتشرت بصورة تلفت النظر بين الذكور عامة والشباب منهم بشكل خاص، والتى أصبحت تنادى بعودة المرأة إلى المنزل ورفض التحاقها بعمل خارجه. فالملاحظ أنه فى السنوات الأخيرة - وربما فى العقد الأخير بالذات - ظهرت هذه الدعوة بين الشباب وبدأوا يفضلون المرأة غير العاملة عند اختيار شريكة الحياة. فهم إما ينتقون زوجة غير عاملة، أو يمنعونها من العمل بعد الزواج إذا كانت أصلاً تعمل. إن محاولة فهم هذا الاتجاه تضعنا أمام واحد من سببين أو كليهما معًا. فهناك الشاب الذى يرفض عمل زوجته لأنه من أسرة تعمل بها الأم وربما عاش طفولته فى معاناة نتيجة لانشغالها عنه. ثم هناك الشاب الذى يرى فى عمل المرأة خروجًا على الأعراف والتقاليد ويعزز موقفه بتفسير يحاول وضعه فى إطار دينى.

لا يمكن الحديث عن تأخر سن الزواج بالنسبة للمرأة دون التعرض لنظرة المجتمع للفتاة التى يفوتها قطار الزواج، والتى تتسم بالسلبية فى معظم الأحوال، وبالشفقة فى أفضلها، ذلك أن بقاء الفتاة دون زواج حتى سن متأخرة يعتبر وضعًا غير طبيعى، وغير مألوف فى مجتمعاتنا العربية، بخلاف ما هو مقبول، وبصورة منتشرة فى المجتمعات الغربية. وبالتالى فهو يثير تساؤلات كثيرة حولها، وتبرز محاولات عدة لتفسير بقائها بلا زواج حتى هذه السن، أقلها سلبية هو ما يتسم بالشفقة عليها وعلى أسرتها. فالمجتمع هنا قد يتقبل وضع الشاب الذى يفوته قطار الزواج، ولكنه لا يتقبل المرأة فى نفس الوضع، فينعكس ذلك الاتجاه على أسرة الفتاة فى هذه الحالة. ونجد أن الأسرة التى لديها ابنة تأخرت فى الزواج تصاب بقلق شديد، ليس فقط بسبب الرغبة فى الاطمئنان عليها وفى



إن وجود شباب غير متزوجين يثير تساؤلاً لدينا جميعًا، ونحن نعيش فى مجتمع يقدس الزواج، ويعتبره «نصف الدين»

تأمين مستقبلها فى كنف زوج يحافظ عليها، وهى الصورة النمطية للزواج لدينا، ولكن ـ وهو الأهم ـ بسبب نظرة المجتمع إليها.

وليس بغريب أن يصيب الأسرة قلق عندما تتمادى الابنة فى دراستها العلمية أو فى نجاحها العملى، خوفًا من أن تتاخر فى الزواج أو تحجم عنه. لذلك نجد انه فى كثير من الأحيان، تقبل الفتاة الزواج من شخص قد لا يكون مناسبًا لها تحت ظروف الضغوط المجتمعية، والتى يعززها إلحاح أسرتها عليها، حتى لا تشوه صورتها فى المجتمع، أو على الأقل اتساقًا مع توقعاته وتوقعات أسرتها منها.

فإذا كانت النظرة الشمولية لظروف المجتمع تعتبر التعليم بالنسبة للمرأة والتحاقها بالعمل عاملين لهما أثرهما فى تأخر سن زواج الفتاة، فإن ثمة سببًا مماثلاً يعتبر العائق الأول أمام الذكور، والذى يحول دون إقدامهم على الزواج، وهنا نعنى الأوضاع الاقتصادية بالمجتمع، والتى لا يمكن إغفال آثارها السلبية على الشباب بشكل عام، وعلى الزواج بشكل خاص. إذ انه مع ارتفاع نفقات الزواج ومتطلباته، وأحيانًا مع المغالاة من قبل أهل العروس فى ذلك الصدد، أصبح من العسير ـ وأحيانًا من المستحيل ـ على الشباب اتخاذ هذه الخطوة. وربما تجدر الإشارة هنا إلى أن ذلك الوضع يساعد على تفسير ظاهرة انتشار الزواج العرفى بين الشباب، وهو ما يلجاون إليه تجنبًا لهذه العقبات وهربًا منها. فلقد وجد الشباب فى الزواج العرفى حلاً بديلاً فى مواجهة صعوبة ـ أو استحالة ـ تحقيق حلم الزواج بالنسبة لهم. فاصبح هذا النوع من الارتباط يمثل مخرجًا لهم من هذه الأزمة. ولكن تبقى نظرة المجتمع والقانون لهم فى هذه الحالة ـ وأيضًا موقف الدين ـ خاصة بالنسبة للإناث من بينهم، وغالبًا فهم يتغاضون عن كل ذلك فى سبيل تحقيق حلم عجزوا عن تحقيقه بصورة شرعية، مقبولة أمام المجتمع والقانون، فى ظل المعوقات التى تواجههم.

ومما يزيد الأمر تعقيدًا هو انتشار البطالة بين الشباب، وهو ما يلقى بعبء عليهم، خاصة الذكور من بينهم، ويحول دون تمكينهم من تكوين أسرة.

ويقع الشباب من الشريحة الاجتماعية المتوسطة ضحية لعائق الظروف الاقتصادية أكثر من أمثالهم من شباب الشريحتين العليا والدنيا. إذ أن الشريحة المتوسطة تعيش فى ظل نمط محافظ، متمسك بالعادات. ويسعى أفرادها إلى التعليم بهدف تحقيق مستقبل مهنى محترم، يحقق لهم وضعًا متميزًا فى المجتمع. وهذه الشريحة هى العمود الفقرى للمجتمع، والعماد الذى يقوم عليه، بقيمها وتقاليدها. فالسمة الغالبة لأفراد هذه الشريحة إذن هى سعيها نحو تحقيق طموحات لأبنائها، استنادًا على التقاليد التى تهتم بالمكانة الاجتماعية وتعزز قيمتها. وبالتالى يعيش الشاب مع أحلامه بحراك اجتماعى، فى حين تضيق موارده المالية عن الوصول إليها. ولا تخلو تلك الأحلام بطبيعة الحال من الزواج والاستقرار العائلى، بما يتضمنانه من نمط معيشى مستقر ومحترم. وغالبًا ما يتوقع الشاب هنا أن يصل إلى طموحاته عن طريق ما حصل عليه من مستوى تعليمى ـ جامعى فى معظم الأحوال ـ ولكنه يفاجأ بواقع لم يدخل فى حساب أحلامه، خاصة الجانب المادى منها، لأنه لو كان سعيد الحظ وحصل على وظيفة، سرعان ما يكتشف أن مرتبه لا يحقق له ولو جزءًا من هذه الأحلام، وكثيراً ما يلجأ الشباب من الشريحة المتوسطة إلى قبول أعمال هامشية كحل لأزمتهم، وعادة لا تدر عليهم هذه الأعمال دخلاً يعينهم على الحياة المستقرة. إن المعوقات المادية أمام الزواج لا تؤدى إلى تاخر زواج الشباب من الذكور فقط بل إن أثرها يمتد إلى الإناث أيضًا من هذه الشريحة، لأنهن يعشن تحت نفس الظروف، وفى أسر لها نفس المعاناة.

وجدير بالذكر أن الشباب من هذه الشريحة الاجتماعية هم أكثر الشباب عرضة للإصابة بالإحباط، بسبب التعارض الصارخ بين طموحاتهم وواقع مواردهم. وليس بغريب إذن أن يكون هؤلاء هم أيضًا أكثر عرضة للاتجاهات المتطرفة أيًا كان موقعها.

فإذا كان الوضع الاقتصادى له أثره على الشباب بشكل عام، مع حدة ذلك الأثر على الشباب من الشريحة المتوسطة، فإن الشباب من الشريحة الاجتماعية الدنيا لديهم من الحلول العملية ما يسمح لهم بالزواج فى سن مبكرة. إذ أن هذه الشريحة عادة ما تعيش فى ظل نمط براجماتى يتعامل مع الأمور الحياتية بشكل عملى. فالشاب هنا قد ينجح فى الزواج بنفقات معقولة نسبيًا، مع وجود العوائق المادية المتوقعة بالطبع. ولكن الأهم من ذلك كله أن الشاب هنا يواجه مشكلة من أصعب المشاكل التى تواجه الشباب فى الفترة الآنية، إن لم تكن أصعبها، خاصة بالنسبة لأفراد الشريحة المتوسطة، وهى مشكلة الحصول على مسكن. إن هذه الشريحة لا تجد غضاضة فى إقامة الزوجين الجدد من الأبناء فى مسكن واحد مع الأبوين وبقية أفراد الأسرة، بصرف النظر عن مساحة هذا المسكن ومن المالوف أن نجد أسرة ممتدة كبيرة الحجم، يعيش أفرادها فى مسكن واحد، يحتل كل فرد منهم حجرة يسكنها مع أسرته النووية الصغيرة، مع محاولة استغلال أمثل لكل جزء من مساحة الوحدة السكنية حتى تتسع للجميع. وهذا ما نعنيه بالحل البراجماتى، فهو إحدى الوسائل التى يلجأ إليها أفراد هذه الشريحة للتعامل مع ظروفهم، التى غالبًا ما تكون محدودة، نتيجة لسنوات طويلة، بل عصور طويلة من محاولة للتكيف مع هذه الظروف. لقد لمسنا تلك الأوضاع فى دراسات لنا عن واقع الإنسان الحضرى، وبالذات فى القاهرة، ورأينا كيف ترتفع نسبة الكثافة السكانية داخل الوحدة السكنية الواحدة، لأسباب كثيرة كان ما سبق أحدها.

لذلك قد لا يتاخر الشباب عن الزواج من الشريحة الدنيا كما هو الحال بالنسبة لأمثالهم من الشريحة المتوسطة، بل إن أفراد هذه الشريحة عادة ما يكونون أكثر تماسكًا بالتقاليد التى تحبذ الزواج فى سن صغيرة، وتشجعه، وبالتالى يتعرض الشباب من الجنسين لضغوط اجتماعية تدفعهم إليه فى سن مبكرة، وليس معنى ذلك أن الشريحة المتوسطة لا تخلو من هذه الضغوط بسبب اهتمامها بالتقاليد أيضًا، ولكن ضيق الموارد المالية لديها يقف حائلاً فى هذا الصدد أمام نمط الحياة الذى يعيشونه.

وفى مقابل ذلك نجد أن الشباب من الشريحة العليا لا يواجهون مشقة فى تدبير نفقات الزواج، بالمقارنة بأمثالهم الذين يصابون بالإحباط أو هؤلاء الذين يتكيفون مع أوضاعهم بصورة أو باخرى. ومعنى ذلك أن إحجام الشباب عن الزواج هنا لا يكون عادة لأسباب اقتصادية، أى ليس بسبب نقص الموارد. وبشكل عام ينخفض سن الزواج فى هذه الشريحة بين الجنسين نتيجة لذلك.

ولعله من المهم أن نشير هنا إلى نمط الفتاة ذات الطموح فى العمل كما جاء مسبقًا ينتشر بصورة أكثر بين إناث الشريحة العليا، ربما لأن ظروف حياتهن تسمح لهن بقدر أكبر من الحرية، ليس فقط فى حياتهن بشكل خاص، ولكن فى نطاق اختيار شريك الحياة أيضًا. وليس معنى ذلك أن هذا النمط غير موجود فى الشرائح الاجتماعية الأخرى، ولكن تواجده يكون بنسب أقل، وذلك لاختلاف أسلوب الحياة لكل شريحة من الشرائح الاجتماعية المختلفة ونمطها بالصورة التى أوردناها مسبقًا.

أما الذكور من الشريحة الاجتماعية العليا، فمنهم من يفضل الانتظار بلا زواج لأسباب خاصة به، إما للتمتع بحياة العزوبية، أو لانشغاله بحياته العملية، أو للدراسة، أو لعدم عثوره على الفتاة المناسبة له، خاصة أن عزوف الفتيات عن الزواج فيما أوردناه فيما سبق يحجِّم من فرص الذكور أيضًا ولكن أيًا كانت أسباب عزوف الشاب عن الزواج من هذه الشريحة، فلديه ترف الاختيار متى قرر ذلك، أو سنحت له الفرصة المناسبة، وذلك لغياب العائق المادى.

ما سبق عرضه ينطبق على سكان المدينة، أى على المجتمع الحضرى بفئاته المختلفة. ولكن المجتمع الريفى له ثقافته الخاصة به، والتى مازالت تعيش فى ظل نسق اجتماعى يؤكد ضرورة الزواج المبكر، ومن ثم لا يختلف الوضع من شريحة اجتماعية إلى أخرى فى هذا الصدد. ويعتبر الزواج خطوة ضرورية لدى الشاب والفتاة على حد سواء، بصرف النظر عن الظروف الاقتصادية للأسرة.

قد يرى البعض أن اتجاه الشباب نحو العزوف عن الزواج يمثل قضية تستحق الدراسة أو على الأقل المناقشة بهدف التوصل إلى حل لها. وقد يرى البعض أنها ليس ذات أهمية تذكر، خاصة أن عدد هؤلاء لا يرقى إلى مستوى الظاهرة، بالمقارنة إلى إجمالى عدد السكان، وأيضًا إلى إجمالى العدد بالشريحة الشبابية التى تغلب على الهرم السكانى بشكل عام.

أما أصحاب الرأى الأول فهم ينظرون إلى هذا الوضع على انه يدق ناقوس الخطر، ويشكل تهديدًا لمجتمع من تراثه وضع مؤسسة الزواج فى مرتبة عالية، فهو يعكس رؤى لها خطورتها تجعل من قيمة الأسرة ككيان اجتماعى تتوارى وتنحسر، ومن ثم تفقد مكانتها التقليدية كنواة للمجتمع، خاصة إذا أحجمت الفتيات عن الزواج فقد يتبع ذلك انهيار الأخلاق والقيم السلوكية الأصيلة، التى هى عماد ثقافتنا، متى انحسرت قيمة الأسرة. بل إن القلق على مستقبل مجتمعنا يصل إلى حد الخوف من انحسار قيمة الأمومة لدى المرأة المصرية أيضًا نتيجة لاتجاهها نحو إعادة ترتيب أولوياتها، ووضع العمل فى مرحلة متقدمة منها، إن لم يكن على رأس القائمة، بدلاً من تكوين أسرة، والتى هى الدرع الواقى للأخلاق القويمة.

وقد يتعجب أصحاب هذا الرأى من رأى مخالف يرى فى تاخر سن الزواج، أو حتى العزوف عنه، جانبًا إيجابيًا ربما لا يرد فى ذهن الكثيرين. فنجد أن هناك من يعتقد أن هذا الاتجاه سيساعد على علاج المشكلة السكانية. إذ أن إحجام الشباب عن الزواج، أو حتى تأجيله، من الطبيعى أن يؤدى إلى انخفاض معدل المواليد، حتى ولو لفترة مؤقتة، فينخفض بالتالى معدل الزيادة الطبيعية فى السكان، ليس فقط فى الفترة الآنية، بل فى المستقبل القريب أيضًا، وثمة بُعد آخر لهذه القضية يتضح فى أثر الحد من الزيادة السكانية، والمقصود هنا هو انكماش الشريحة الشبابية فى الهرم السكانى نتيجة لذلك، وعليه تنخفض نسبة الإعالة بالمجتمع بانخفاض نسبة الشباب به. وهنا ينجح ما يراه البعض كاتجاه له آثار سلبية فى أن يجئ بنتائج إيجابية عندما يشكل حلاً تفرضه الظروف فى مقابل حلول أخرى عادة لا تلقى قبولاً من الثقافة التقليدية.

وتبقى كلمة أخيرة.. أيًا كانت وجهة النظر نحو ذلك الاتجاه، وأيًا كانت محاولات تفسيره ومنهجه، فلابد من إدراك أنه وضع قائم، وواقع نعيشه. وتبرز تساؤلات هنا فى النهاية عن توقعات مستقبلية فى هذا الصدد.. هل ينكمش الاتجاه أم يتزايد؟ وهل يتوقع حدوث أى تغير فيه؟ سواء فى المستقبل القريب أم فى المستقبل البعيد؟ وما الذى يمكن أن يؤدى إليه هذا التغير؟ هل نحن حقًا نواجه خطرًا حقيقيًا إذا ما قاطع شبابنا الزواج لفترة طويلة؟ وماذا يمكن أن يكون نوع هذا الخطر؟ هل هو أخلاقى أم هو مؤسسى يتعلق بالأسرة؟ أم أنه فقط قلق على انحسار عاداتنا وتقاليدنا؟ أم هو قلق غير مبرر أساسًا ولا خطر منه على مجتمعنا؟

كلها تساؤلات قد تدور فى الأذهان، ولكن يصعب الإجابة عنها، على الأقل فى المستقبل القريب، وأغلب الظن وبناء على المعطيات الآنية، لن ينحسر ذلك الاتجاه، بل ربما يتزايد مع استمرار الأوضاع الاقتصادية التى نعيشها، وربما تدهورها، وأيضًا الظروف المجتمعية الحالية. وقد نفاجأ يومًا بأن شبابنا قد وجدوا صيغة جديدة للزواج كحل لمشكلاتهم، أيًا كان نوعها، مثلما وجدوها فى الزواج العرفى. ■

اكتئاب.. وضمور فى خلايا المخ!

أحـــمـــد عكاشـــه

لا شك أنه يوجد عدد كبير من الذكور والإناث محرومين من الزواج لأسباب اقتصادية، اجتماعية، الأمر الذى يمثل ظاهرة سلبية من وجهة نظر الصحة النفسية. إذ أثبتت التجارب العملية والمعملية أن الاغتراب والوحدة والانعزالية لها تأثير مدمر على الصحة النفسية، فكثير من المهاجرين أو هؤلاء الذين يطلبون الرزق فى الخارج، أو هؤلاء الذين يكملون دراستهم الأكاديمية فى الخارج، ويتعرضون لحضارة وثقافة مختلفة، لغة غربية، وصعوبة فى التواصل الاجتماعى يعانون من أمراض نفسية مختلفة، بل بعضهم ينهون أعمالهم أو دراستهم بالخارج لما أصابهم من خلل فى الصحة النفسية مما أثر على عملهم أو دراستهم بل وجوده الحياة.

وربما كان من المناسب هنا ذكر تفاصيل دراسة مهمة أجريت على الفئران والشمبانزى وساعقبها بالتشابه مع السلوك الإنسانى، وقبل سرد التجربة، يجب أن نعلم أن يوجد فى المخ جهاز ومسار يسمى بنظام المكافاة واللذة وله مركز واتصالات عصبية تبدأ من قاع المخ إلى المخ الأمامى والفص الحدى المسئول عن العواطف والانفعالات، وكذلك يوجد أحد فصوص المخ المسمى بفرس البحر نظرًا لتشابه الشكل الخارجى له بفرس البحر، وهذا الفص مسئول عن التنسيق فى عملية التعليم، والتركيز، والعواطف، والحوافز، وكذلك التكيف للظروف الخارجية وكروب الحياة، ولذا نستطيع القول بان طمأنينة الإنسان، وإحساسه بالإنجاز وتحقيق الذات، وخلو المزاج من الهم والكرب يعتمد على عمل هذين المركزين جهاز المكافاة واللذة وفص فرس البحر، وبالطبع يمكن قياس نشاط هذين المركزين بوضع مقياس على مخ الفئران أو القردة لقياس النشاط الكهربى، بل وأخذ عينات من هذه المناطق لقياس نسبة الموصلات العصبية المسئولة عن الحالة النفسية. وكذلك بفحص النمو وزيادة الخلايا العصبية فى هذه المنطقة بتاثير التنبيه الاجتماعى.



قام العلماء الذين تولوا هذه التجارب بوضع بعض الفئران أو القردة وسط الكثير من أبناء وبنات جنسهم وكأنها عائلة ممتدة، ووضعوا البعض الآخر فى غرف منفصلة، وتتشابه كل الظروف الأخرى من طعام وشراب ودرجة حرارة.. إلخ، وبعد عدة أسابيع بدأ قياس الموصلات العصبية والنشاط الكهربى فى المراكز التى تبعث البهجة والطمأنينة، فوجدوا اختلافًا شديدًا، فهؤلاء الذين اقاموا فى نسيج اجتماعى وتبادلوا الانفعالات كانت حالتهم النفسية طبيعية، وكان نشاط المراكز المسئولة فى حالة من اليقظة والانتباه، أما هؤلاء المنعزلون فى وحدة، فقد أصابهم اليأس والعجز وتوقف تام عن النشاط النفسى مما يدل على أن النسيج الاجتماعى يؤثر كميائيًا على مراكز المخ المسئولة عن البهجة واللذة، بل إن أحد البحوث الأخيرة أثبت أن وجود الإنسان فى نسيج اجتماعى دافئ به الحنان والحب يزيد من تكوين الخلايا العصبية والنسيج الدماغى فى هذه المراكز.

أظهرت الدراسات الانتشارية المتعددة فى منظمة الصحة العالمية فى بلاد العالم المختلفة أن مآل مرضى الفصام (السكيزوفرنيا)، وهو أخطر الأمراض العقلية، أفضل بكثير فى البلاد النامية عنه فى البلاد المتقدمة، بالرغم من قلة الخدمات النفسية المختلفة كالأطباء، والعاملين فى حقل الصحة النفسية وندرة العلاج الكيمائى والنفسى المتاح لمرضى البلاد النامية، ونقص خدمة علاج المتابعة. ولن نستطيع تفسير هذه الظاهرة إلا أنه فى الدول النامية مازالت الأسرة تعيش فيما يسمى بالعائلة الممتدة، أى أن صلة القرابة والاتصال بالأقرباء، والبيت الكبير والسند الاجتماعى الأسرى يعطى مناعة وحماية ضد كل المسببات الكيميائية والفسيولوجية لمرضى الفصام، أى أن كيمياء المخ تتأثر بالحياة مع زوج محب وسط عائلة وأن السند الاجتماعى له أثره فى شفاء مرضى الفصام مثل العلاج الكيميائى إن لم يتفوق عليه، كذلك يثير الدهشة زيادة نسبة مرضى الفصام فى البلاد الاسكندنافية عنها فى البلاد الأوروبية المختلفة، ولا يوجد تفسير علمى واضح لهذا الاختلاف إلا أنهم فى هذه البلاد يعيشون فى مجتمعات متفرقة بل قد يبعد المنزل عن الآخر بحوالى ٥٠٠ متر، وهنا تكون العزلة وعدم وجود السند الاجتماعى أحد أسباب زيادة انتشار مرض الفصام، وهنا نستطيع القول بأن الوحدة والعزلة أثرت على نمو النسيج العصبى فى المخ وكذلك فى الموصلات العصبية مما سبب تفجير المرض.

كذلك تدل البحوث المختلفة أن الزواج لمرضى الفصام الذكور والسند الاجتماعى من الزوجة يوقف استمرار وتدهور المرض، وللأسف لا ينطبق ذلك على الأنثى حيث إن مسئولية الزواج تتضاعف مقارنة بالرجل.

وإذا أفردنا بعض المعلومات عن اضطراب الاكتئاب الذى يعتبر ثانى الأمراض بعد أمراض القلب سببًا فى العجز (بين النساء يعتبر المرض الأول المسبب للعجز وعدم القدرة على العمل)، كما أنه من أكثر الأمراض انتشارًا، فهو يصيب ما لا يقل عن ٥-٧٪ من مجموع أى شعب، ومن المهم أن نذكر هنا بأن الاكتئاب ما هو إلا اضطراب كيميائى فى الدماغ وهو يختلف عن الحزن، والأسى، والنكد، والغضب وهى تغيرات مزاجية حياتية طبيعية.



ويتوقع الباحثون زيادة معدل الاكتئاب فى القرن القادم وترجع الأسباب إلى زيادة عمر الإنسان، وتفكك الأسرة، وهجرة الأولاد، وبقاء المسنين فى حالة من العزلة الاجتماعية، وفى حالة من الحرمان من المساندة الاجتماعية. يعتقد البعض أن الكثرة السكانية والازدحام تزيد من المساندة الاجتماعية، وعلميًا هذه فكرة خاطئة، فكلما ازداد الزحام والتكدس السكانى كلما تفرد الإنسان بالأنانية، وعدم الاكتراث بالغير وتمركز حول ذاته وأسرته ولا يسأل عن الأصدقاء أو الجيران ويصبح محاصرًا بالازدحام مما يجعله فى حالة من الاغتراب والاستغراق الذاتى، والصحة النفسية هى مساندة الغير. أما المرض النفسى فهو التمركز حول الذات. فالقاهرة مثلاً من أكثر بلاد العالم ازدحامًا إذ يعيش ٥٢٠٠٠ فرد فى كل كيلو متر مربع، مما يجعل المساحة الجغرافية المتاحة للفرد محدودة، مما يخلق بيئة تساعد على العزلة الاجتماعية والكفاح للبقاء وليس للإبداع أو الخلق أو العمل.

مما سبق نستطيع استنباط بعض الحقائق وهو أن المساندة الاجتماعية ليست فقط حماية ضد الأمراض النفسية المختلفة من فصام واكتئاب وغيرها، ولكنها كفيلة بتغيير مطاوعة ولدونة المخ وقدرته على زيادة النسيج الدماغى وخلايا المخ فى مراكز المزاج والانفعال. المساندة الاجتماعية قادرة على إعطاء الفرد القدرة على الإبداع والخلق، بل إنها تواكب الحالة المزاجية المبهجة، والانتباه واليقظة اللازمين لأى عمل ناجح، وأحد تعريفات الصحة النفسية وهو أن تعمل وتحب بكفاءة، والمرض النفسى يؤثر على العمل والحب والعطاء.

يذكرنى ذلك بإحدى مسرحيات الفيلسوف جان بول سارتر حين يموت أحد الأفراد وكانت حياته مملوءة بالرذيلة والفسق والاستهتار، ويقابل فى العالم الآخر الملاك المسئول، وسرعان ما يتضح له أن مصيره جهنم، ثم يُقتاد إلى شقة مفروشة بأثاث أنيق، مكيفة الهواء، بها كل المباهج، ويأتى بعد فترة وجيزة الساقى ليعطيه قائمة بالمأكولات والمشروبات ويتعجب صاحبنا من هذه المعاملة الفائقة فى جهنم، ويسأل الساقى عن الجنة فيجيبه نفس المساكن ونفس الطعام ونفس الشراب فيتساءل: أين النار والتعذيب إلخ؟ فلايرد الساقى، وبعد فترة وجيزة يأتى الآخر فى نفس الشقة، ثم يأتى الآخر وتزدحم الشقة بأناس لا يستطيع أى إنسان معاشرتهم من طباعهم السيئة وغلاسة سلوكهم ونمطية كلامهم، وثقل ظلهم، وتمر الأيام ولا يستطيع تحمل العذاب ويذهب للملاك ويقول له: أفضل النار والنهاية على أن أستمر فى هذا المناخ. والجنة هى أناس تسعد بلقائهم ومحادثتهم، أى أن جان بول سارتر يريد أن يبعث برسالة أنه فى الحياة والآخرة السعادة هى فى الصحبة والإنسان الآخر وينطبق ذلك على المثل الشعبى «الجنة من غير ناس ما تنداس».

تدل الإحصائيات فى مصر وكل البلاد العربية على تأخر سن الزواج، وأحيانًا عدم القدرة على الزواج نظرًا لتكاليفه الباهظة سواء من ناحية الزوج أو الزوجة، والاهتمام بالمظاهر الخارجية، والمنافسات بين الأسر، وعدم اقتناع الوالدين بقدرة الزوج أو الزوجة المحدودة، مما يؤجل الزواج. كما يزيد على ذلك العطالة بين خريجى الجامعات والمعاهد سواء بين الذكور أو الإناث، وعدم وجود السكن المناسب أو إصرار الأسر على السكن فى المستوى الذى وصل إليه الوالدان بعد عمر ومشوار طويل!!

إن تأجيل الزواج وانتشار العنوسة أو العزوبية مشكلة صحية عامة، يجب تداركها من صانعى القرار السياسى، إن المساندة الاجتماعية فى الزواج تلعب دورًا رئيسيًا فى إحساس المرء بالانتماء، ومن ثم العمل، ومن ثم الإنتاج وتقدم الأمة اقتصاديًا. إن الارتباط الأسرى والنسيج الاجتماعى والزواج عوامل مهمة للحماية من الاكتئاب وعدة أمراض نفسية مختلفة، عوامل مهمة لإنماء النسيج الدماغى والخلايا العصبية فى المخ، وهذه تؤثر فى التفكير والوجدان والإرادة والذاكرة والطموح، وتجعل الفرد قادرًا على الإبداع والخلق.

دعنا نامل فى أن تعود الطمأنينة إلى نفوسنا، وأن نحب ونعطى للآخر، وأن نجد الوقت للمشاركة الإنسانية مع الآخرين، فى السعادة والإنجاز فى المساندة الاجتماعية، ونلفظ الحقد والكراهية اللذين يترعرعان فى مناخ الاغتراب، والتمركز حول النفس وإيثار الذات.

نقص فى الخصوبة واحتمالات تشوه!

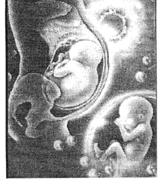
محـمـــــد أبو الـغــــــار

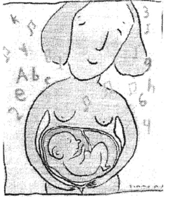
■ تعتبر العلاقة بين خصوبة المرأة وعمرها وثيقة الصلة ومؤكدة بجميع البحوث العلمية ومن المعروف أن درجة الخصوبة عند المرأة ترتفع تدريجيًا من عمر خمسة عشر عامًا لتصل أقصى درجات الخصوبة فى سن الخامسة والعشرين وتبدأ درجة الخصوبة فى الانخفاض تدريجيًا بعد ذلك وعند بلوغ المرأة سن الخامسة والثلاثين يبدأ الانخفاض بسرعة كبيرة وعند الأربعين يحدث انخفاض حاد فى درجة الخصوبة حتى تنعدم تمامًا بعد الأربعين ببضع سنوات.

وفى السيدات اللاتى يتزوجن بين عمر الخامسة والثلاثين وحتى الرابعة والأربعين تكون نسبة العقم التام وعدم القدرة على الإنجاب حوالى ثلاثين بالمائة وحتى إن لم يكن هناك مشكلة عند الرجل والمرأة أو كلاهما سليم تمامًا. وبالتالى تكون سن الزوجة هى العامل الحاسم والأساسى فى تحديد نسبة النجاح فى علاج العقم ومع تقدم وسائل العلاج ودخول وسائل الإخصاب المساعد هذا المجال أصبحت هناك فرصة حدوث حمل فى أكثر الحالات تعقيدًا عن طريق أطفال الأنابيب ولكن يتبقى أن سن الزوجة ستكون العامل الحاسم فى تحديد نسبة النجاح بغض النظر عن المشكلة القائمة وصعوبة علاجها بالإضافة إلى تكاليف علاج العقم والتى تتجاوز قدرة معظم المصريين الاقتصادية.

يعنى ذلك أن المرأة التى تتزوج بعد سن الخامسة والثلاثين تكون فرصتها فى حدوث الحمل الطبيعى أقل كثيرًا من المرأة التى تتزوج فى الخامسة والعشرين وقد يتأخر حدوث الحمل الطبيعى طويلاً. وفى حالات التدخل بالعلاج إذا كان هناك سبب طبيعى لمنع الحمل فتكون نسبة النجاح أقل. ولنكون أكثر تحديدًا فإن المرأة فى عمر الخامسة والعشرين عندها







فرصة حوالى خمسين بالمائة فى نجاح عملية أطفال الأنابيب بينما هى ٣٥٪ عند عمر الخامسة والثلاثين وحوالى ١٥٪ عند سن الأربعين وأقل من ٥٪ بعد سن الثانية والأربعين.

وحسب الإحصائيات المنشورة أخيرًا فإن مئات الآلاف من المصريين قد لا يستطيعون الإنجاب بسبب تأخر سن الزواج.

يدفعنا ذلك للتساؤل: هل هناك بعض المشاكل التى قد تتعرض لها المرأة بسبب تأخر سن الحمل إلى نهاية الثلاثينيات؟ والإجابة نعم فمن المعروف أن الأورام الليفية وهى أورام حميدة تنمو داخل الرحم وقد تسبب النزيف والآلام فى الحوض، بالإضافة إلى إعاقة حدوث الحمل تحدث بنسبة أكبر كثيرًا فى السيدات اللاتى لم ينجبن أطفالاً أو تم حدوث الحمل فى سن متأخرة نسبيًا.

ويوجد أيضًا مرض الـ «إندومتريوزيس» وهو عبارة عن أكياس تحمل مادة دموية مشابهة للشيكولاتة داخل الحوض وحول المبيضين. وهذا المرض يسبب آلامًا مبرحة عند المرأة ويسبب أيضًا حدوث العقم عندها، ومن المعروف من ضمن العوامل المهمة المسببة لهذا المرض هو تأخر سن إنجاب الطفل الأول.

هل هناك مخاطر فى حدوث الحمل الأول بعد سن السابعة والثلاثين؟

تكون السيدة معرضة لبعض المشاكل أثناء الحمل من أهمها ارتفاع نسبة تسمم الحمل والذى يصاحبه ارتفاع فى ضغط الدم وظهور الزلال فى البول وهو ما قد يؤدى إلى مشاكل ضخمة بالنسبة لصحة الأم تؤثر على عمل الجهاز العصبى والكلى والكبد. وتؤثر أيضًا على المشيمة التى تغذى الطفل أثناء الحمل مما قد ينتج عنه ضعف فى نمو الجنين داخل الرحم وإذا كان التأثير على المشيمة شديدًا، فقد يتوقف نمو الجنين تمامًا وقد تحدث له وفاة داخل الرحم، ومن المشاكل الممكن حدوثها أثناء الحمل هى الولادة المبكرة بمشاكلها المتعددة وكذلك زيادة نسبة الاختلال فى كروموزومات الجنين والتى قد ينتج عنها ولادة الطفل المغولى.

والسيدة الحامل فى سن الأربعين معرضة لضعف نسبة حدوث الإجهاض فى السيدة صغيرة السن وقد تبلغ هذه النسبة حوالى خمسة وعشرين بالمائة أو أكثر وترجع هذه النسبة المرتفعة إلى زيادة اضطراب الكروموزومات والجينات فى البويضات فى هذه المرحلة العمرية للمرأة.

أما عن الولادة نفسها فمن المعروف أن الولادة تكون أكثر صعوبة كلما تأخر سن المرأة عند حدوث الحمل الأول وهناك فرصة أكبر فى اللجوء للعملية القيصرية وذلك لصعوبة الولادة الطبيعية فى كثير من الأحيان فى هذه السن.

هناك مشاكل أخرى مهمة وهى أن ولادة الطفل الأول والمرأة عمرها أربعون عامًا أو أكثر، وربما يكون الزوج قد قارب الخمسين تجعل تربية الطفل أكثر صعوبة، وعندما يصل الطفل لمرحلة الشباب الأولى تكون الأم تعدت الستين من عمرها وقد يكون الأب قارب سن السبعين.

وهناك مشاكل أخرى نفسية وجنسية سببها تأخر سن الزواج وعدم وجود فرصة لتلبية الرغبة الجنسية المتوقدة فى الشباب وفى مجتمع شرقى متدين لا توجد علاقات جنسية بصفة عامة خارج إطار الزواج، ومما لا شك فيه أن هذه الطاقة الجنسية تولد مشاكل نفسية واجتماعية قد تدفع بصاحبها للتطرف الدينى أو قد تشجع على ارتكاب بعض الجرائم مثل الاغتصاب التى كانت نادرة الحدوث عندما كانت الحياة أسهل للشباب.

وأعتقد أن مشكلة بهذا الحجم كما جاء فى التقرير تشكل أيضًا مشكلة صحية ونفسية بجوار الجوانب الاجتماعية والسياسية الناتجة عن تأخر سن الزواج. ■

رســـــــــائل

المدير.. والعانس والدميمة!

■ عزيزتى..

أنا فى ورطة كبيرة.. ففى أى لحظة يمكن أن يدق باب شقتى وعندما أفتح الباب أجد رجال الشرطة فى انتظارى.. ويمكن أيضًا أن تأتى الشرطة للقبض علىّ أمام زملائى فى البنك الكبير الذى أعمل فيه ووصلت فيه إلى مركز مرموق.

أما لماذا أعيش فى رعب فى الأيام الأخيرة، فالسبب أننى منذ عامين وأنا أرتكب مجموعة من الجرائم التى وجدت نفسى مدفوعة إليها وهى جرائم التلاعب فى كشوفات البنك وفى حسابات العملاء وفى اختلاسى مبالغ وصلت اليوم إلى عشرات الملايين.. والمصيبة يا سيدتى أننى لم أرتكب هذه الجرائم التى قد أقضى بسببها بقية العمر فى السجن من أجل المال.. وإنما بسبب الحب.

وأنا يا سيدتى امرأة فى الرابعة والأربعين من العمر، قضيت اثنين وأربعين عامًا منها وأنا أحمل لقب عانس.. وما أبشع وقع هذا الوصف على الفتاة.. ولم تكن مشكلتى هى مشكلة عدم الزواج وحدها.. وإنما المشكلة الحقيقية كانت فى دمامتى الشديدة.. وأعترف وقلبى يتمزق بأنه لا توجد فى وجهى لمسة جمال ولا يحمل جسدى أى أثر من آثار الأنوثة.

وقد مرت سنوات العمر وأنا أعيش فى معاناة نفسية قاسية وهو أمر جعلنى شديدة العدوانية، لكننى وجدت عملاً كسكرتيرة لأحد مديرى البنوك الكبيرة، فقد اختارنى المدير- ولك أن تدهشى - ليس لتفوقى الدراسى أو لذكائى، وإنما لأن زوجته كانت تغار من أن تكون سكرتيرة زوجها جميلة! وهكذا بدأت عملى فى البنك الكبير ومرت السنوات وأنا أتقدم بخطى سريعة جدًا!!

وكنت قد وصلت إلى مركز مرموق فى البنك عندما أحيل المدير الجاد الذى كان يساندنى إلى المعاش وعين مدير آخر كان بينى وبينه ما

صنع الحداد، فقد كان وسيمًا مغرورًا ومتزوجًا من امرأة غاية فى الجمال، ولم يكن هذا وحده سبب حقدى عليه وإنما لأنه كان يلاطف كل موظفات البنك فيما عداى.. فلم يحدث أن وجه إلىَّ كلمة رقيقة واحدة وكان يدير وجهه عنى وكنت أحيانًا أسمعه يردد «إن الله سبحانه وتعالى جميل يحب الجمال».. وما كاد هذا الموظف الكبير يجلس على مقعد المدير حتى بدأت بتوجيه قذائفى إليه، فقد تصورت أنه سوف يبعدنى عن الموقع الممتاز الذى وصلت إليه فى البنك، وكان رد فعل المدير الجديد عجيبًا فقد تلقى عدائى له بشكل غير متوقع وبدلاً من أن يثور إذا به يعاملنى معاملة طيبة وإذا به يسند إلىَّ أعمالاً أخطر مما كنت أقوم به فى زمن المدير السابق، وإذا به ينتهز كل فرصة للإشادة بعملى وذكائى وخبرتى أمام العاملين فى البنك وكانت هذه المعاملة سببًا فى نوع من المصالحة والتفاهم قامت بينى وبينه ثم تطورت الأمور بشكل سريع وإذا به فى إحدى المرات التى انفردت معه فى المكتب يعلن لى أنه لم يعد يستطيع الاستغناء عنى فى حياته الخاصة.. وأنه يريد أن يتزوجنى!

وصدقينى أن هذا الطلب الذى لم أتوقع سماعه من مخلوق قد هز كيانى هزًا وزلزلنى زلزالاً.. وقد تم زواجى أو ما أسماه هو بالزواج فى نفس اليوم وعن طريق قصاصة ورق لم يوقع عليها غيره وغيرى ولم يحدد فيها مهر وكان الاتفاق أن تظل فى السر. وكنت أعرف فى أعماقى أن هذه الورقة لا تساوى شيئًا.. وخاصة أنها كانت من نسخة واحدة احتفظ بها لنفسه. ولكننى كنت على استعداد بعد هذا الحرمان الطويل أن أفعل أى شىء فى سبيل أن أجد نفسى فى أحضان رجل أيًا كان.. فما بالك بهذا المدير الخطير الوسيم.. كان هذا الزواج الصورى الذى هو فى حقيقة الأمر علاقة غير مشروعة بداية لأن يطلب منى هذا المدير بحكم موقعى أن أعبث بحسابات المودعين وأن أقوم بالتزوير ثم الاختلاس، يتم بعدها تحويل المبالغ الكبيرة المختلسة إلى الخارج وإلى حسابات كنت موقنة أنها تخصه وزوجته وأولاده، وذلك بجانب القيام بتقديم قروض بالملايين لشخصيات كان يحددها بنفسه دون أن تكون هناك ضمانات لهذه القروض، وباختصار قمت لحساب هذا المدير بكل الأعمال القذرة التى كان يدفعنى للقيام بها، والتى كنت أظهر فيها وحدى فى الصورة دون أن يكون له دخل بها على الورق.. فكل التوقيعات والموافقات حملت وزرها وحدى.

فجأة.. وبعد أن تمت جريمة تحويل عشرات الملايين من الدولارات إلى الخارج توقف المدير الذى كان يزعم أنه زوجى عن زيارتى التى كان يتعطف بها علىَّ بعد كل تحويل.. لكن بلغنى بطريق الصدفة أنه قرر الاستقالة من البنك وأنه يقوم بإجراءات السفر وعائلته إلى الخارج. إننى أفكر فى الانتقام منه والكشف عن جرائمه وجرائمى.. لكننى أخشى الفضيحة. ▪

أخبار اليوم ٢٠٠٢/٨/٣١

بلا عودة!!

▪ ▪ أنا رب أسرة أعمل مديرًا عامًا بإحدى الجهات وزوجتى سيدة فاضلة ترعى الله فى زوجها وأولادها، وحالتنا المادية أكثر من متيسرة والحمد لله كثيرًا، فلنا أكثر من عمارة وسيارة حديثة، فضلاً عن المرتب الكبير والدخل الخارجى، ولدينا ولدان فى التعليم الثانوى وابنتان إحداهما تخرجت من كلية نظرية والأخرى فى السنة النهائية، والبنتان - ولله الحمد - على خلق ودين وتصومان الاثنين والخميس ومحجبتان، هذا فضلاً عن أنهما على درجة عالية من الجمال خاصة الكبرى، وهى صاحبة المشكلة أو المأساة التى أكتب لك عنها، فنحن والحمد لله نحب الخير للكل ونساعد كل محتاج، ولقد من الله علينا بمشروع كان فاتحة الخير لنا، ونستطيع أن نقول إنه نقلنا إلى مصاف الأغنياء وأما مشكلة ابنتى - وهى على درجة عالية من الجمال والأخلاق وقبل كل ذلك متدينة إلى أقصى درجة - فهى أنها كلما تقدم لها عريس مناسب ورحبنا به فإنه يذهب بلا عودة وبلا سبب، وتكرر ذلك عشرات المرات إلى أن ساءت حالتها النفسية.. وأشار البعض علينا أن نلجأ إلى العرافين، فعلاً حدث ذلك وقالوا هى مسحورة ودخلنا فى طريق مسدود، الدجل فيه أكثر من الحقيقة، ولا تتصور حالتنا جميعًا بسبب هذا الموضوع فضلاً عن حالة الابنة التى تذوب أمام عيوننا وتمر بها الأيام والسنون فى حسرة.

فهل أجد عندك الحل لأب حزين يتمنى أن يرى بسمة على شفاه ابنته؟ ▪

الأهرام ٢٠٠٢/١١/١



رسالة إلى صلاح الدين!

يَا سَيِّدى . . فَلأعْترِفْ . .

أن الجوَادَ الجَامحَ

المجنُونَ قد خَسرَ الرِّهانْ

وبأنَّ أوْحالَ الزمَانِ الوَغدِ

صَارتْ ثيابَ الُملك والتيجَانْ

وبأن أشباه الرجال تحكموا

وبأن هذا العَصرَ للغلمانْ . .

يا سيِّدى . . فَلأعترف

أن القصَائدَ لا تسَاوى رَقْصةً

أو هزَّ خِصرٍ فى حِمَى السُّلطانْ

أن الفراشَاتِ الجميلةَ

لنْ تقاومَ خِسةَّ الثعبانْ

أن الأسُودَ تمُوتُ حزنًا

عندمَا تتحكم الفئرانْ . .

أن السَّماسرَةَ الكبارَ توَحَّشُوا

باعُوا الشُّعوبَ . . وأجهضُوا الأوطانْ . .

ولأعترفْ يا سيدى . .

إنى وفيتُ . . وأن غَيرىَ خانْ

أنى نزفتُ رَحِيق عمْرى

كىْ يُطِلَّ الصبحُ

لكنْ . . خَاننى الزمنُ الجبانْ

قــراءة نقــدية لتقرير التنميــة


التغريب والاغتراب في تقرير التنمية الإنسانية العربية

حول تقرير التنمية الإنسانية العربية

يعكس حجم الجدل الدائر حول تقرير التنمية الإنسانية العربية غير المسبوق الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائى وبدعم من الجامعة العربية، قدر أهميته. وفى العدد الماضى من «وجهات نظر» كتب د. جلال أمين مقالاً نقديًا تضمن وجهة نظره فى التقرير وزوايا اهتماماته. ونستكمل فى هذا العدد بمقالين أحدهما للدكتور محمود عبدالفضيل والثانى للدكتور نادر فرجانى المحرر الرئيسى للتقرير يرد فيه على ما أثاره جلال أمين ويقدم فيه رؤيته «النقدية» لما أثير من اعتراضات وانتقادات.

المحــــرر

تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٢
المحرر الرئيسى: د. نادر فرجانى
برنامج الأمم المتحدة الإنمائى، الصندوق العربى للإنماء الاقتصادى والاجتماعى.

[١]

تم استقبال تقرير التنمية الإنسانية العربية (٢٠٠٢) بضجيج إعلامى كبير، نظراً لأنه التقرير الأول عن التنمية الإنسانية فى البلدان العربية كمنطقة عربية مستقلة، ولأنه صادر عن البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة ويحمل شارتها وبالتالى يتمتع بحصانتها فى المحافل الدولية.

وليس هناك من شك أن هذا التقرير يمثل أول تقرير عربى مجمع عن قضايا ومشاكل «التنمية الإنسانية» فى المنطقة العربية. وبالتالى فهو يحوى جهدًا تجميعيًا جيدًا لعناصر الصورة الإحصائية حول بعض قضايا «التنمية الإنسانية» للمنطقة العربية فى إطار مقارن. كما أنه يحتوى على إشارات واضحة ومهمة إلى مصادرة عمليات «التنمية البشرية» فى فلسطين والعراق، فى ظل الاحتلال والحصار الاقتصادى والمالى والثقافى (حيث يتم اغتيال مستقبل جيل كامل من الأطفال والشباب فى فلسطين والعراق).

كذلك قام بالمساهمة فى إعداد التقرير نخبة من المفكرين والمتخصصين العرب، سواء على مستوى الهيئة الاستشارية أو فى مجال كتابة الأوراق الأساسية والخلفية.

ولكن بالرغم من كل هذا، فإن التقرير يحتاج إلى وقفة تاملية وقراءة نقدية متعمقة، حتى يمكن تحديد النواقص التى ينطوى عليها التقرير، وكذلك نواحى القصور المنهجية المنتشرة فى ثناياه، حتى يمكن تلافيها فى التقارير القادمة.

وسوف نركز هنا فى هذه القراءة النقدية على بعض القضايا التى نعتقد أنها تستحق وقفة تاملية، وهى على الترتيب:

١ـ الإطار المفاهيمى: مقولة أن «التنمية الإنسانية هى الحرية».

٢ـ حول مدى صلاحية تشخيص «النواقص الأساسية» فى مسيرة التنمية الإنسانية العربية على أنها: نقص الحرية – نقص تمكين المرأة – نقص المعرفة.

٣ـ المسكوت عنه فى تقرير التنمية الإنسانية العربية.

٤ـ نظرة تقويمية عامة.

وبداية، وعلى مستوى شديد العمومية، يحتوى التقرير على مقولة أساسية خاطئة، وهى أن البلدان العربية أكثر ثراء ولكن أقل تقدماً (Richer than developed). إذ تنطوى هذه المقولة على قدر من التضليل نتيجة عدم التمييز بين «البلدان النفطية» الغنية / قليلة السكان، والبلدان «غير النفطية» الأكثر اكتظاظاً بالسكان. وتأسيساً على ذلك، يصل التقرير إلى العديد من الاستنتاجات شديدة العمومية، والمضللة أحياناً نتيجة وضع كل البلدان العربية فى سلة واحدة، مما يؤدى إلى ما يسميه الإحصائيون «أخطاء التجميع» (Aggregation errors). هذا بينما كانت هناك محاولات سابقة فى الأدبيات العربية أكثر علمية وتطوراً فى مجال تصنيف البلدان العربية فى مجموعات متسقة من حيث الخصائص فى الموارد والإمكانات: (نفطية، نصف نفطية، غير نفطية)، أو «ريعية» من الدرجة الأولى، أو «ريعية» من الدرجة الثانية، لم يتم الإشارة إليها بالمرة فى هذا التقرير.

كما نلاحظ أنه تم التركيز فى معظم التقرير على الأوضاع السكانية والصحية والتعليمية والتشغيل، وهى مناطق بحثية مطروحة جيداً منذ سنوات طوال، بينما لم يهتم التقرير بحرث أرض جديدة فى مجالات مهمة تتعلق بصميم عملية التنمية الإنسانية مثل: الإسكان العشوائى، وضعف الحماية الاجتماعية والتامينية، ومصادرة وتبديد «وقت الفراغ» لدى الشباب.

ومن ناحية أخرى، ورغم حجم التمويل الكبير الذى أتيح للتقرير، فإن حجم العينة من الشباب التى طبق عليها الاستقصاء لم يتجاوز ١٢٨ فردًا يتوزعون على خمسة بلدان عربية فقط، بالإضافة إلى ١١٢ طفلاً تم عمل مقابلات معهم فى المؤتمر العربى للطفولة المنعقد فى عمان (يوليو ٢٠٠١)، وهى عينة متحيزة للأطفال الأردنيين.

ونظراً لضآلة حجم العينة، فإنه لا يعتد بتلك النتائج حتى بصفتها استطلاعية، ولابد من عمل استقصاء كبير يستند إلى عينة كبيرة جيدة التصميم للوصول إلى نتائج لها صفة تمثيلية. وهكذا لم يقدم لنا التقرير معالجة جادة ومعمقة للطموحات والإحباطات التى تعتمل فى صدور الشباب العربى الذين يشكلون مستقبل الوطن العربى، حيث يتحدث البعض اليوم عن شعور متزايد «بفقر الكرامة وفائض الإحباط» لدى هذا الشباب العربى.

[٢]

القضية المحورية فى التقرير: التنمية هى الحرية.

أعطى التقرير وزناً طاغياً ومبالغًا فيه لقضية الحرية باعتبارها كبرى القضايا، وأنها تفوق كل شىء فى حياة العرب. إذ جاء فى التقرير (باللغة العربية، ص ١٨)، ما يلى بالنص:

«يفرض الفهم الصحيح لفلسفة التنمية الإنسانية اعتبار القدرات الإنسانية، خاصة الحرية، وليس التمكن من السلع والخدمات عن طريق الدخل، الوسيلة الأساسية لتمكين البشر. ولهذا، فإن استبعاد الدخل من مؤشر التنمية الإنسانية يمثل فارقًا جوهريًا مع مقياس التنمية البشرية، وفى منظور مفهوم التنمية الإنسانية، تحسيناً أكيداً».

وهذه المقولة التى تختزل كل شىء فى قضية «الحرية» ضرب من «الطوباوية». فلا أحد ينكر أهمية «الحرية» ومحوريتها كضرورة للتقدم الإنسانى. ولكن تلك الصياغة لقضية الحرية هى صياغة متطرفة، تهمل جوانب مادية مهمة تساعد على ممارسة الحرية، مثل إشباع الحاجات الأساسية، والدخل اللائق الذى يساعد الإنسان على عدم امتهان كرامته وتسوّل الرزق تَسوّلاً.

وقديماً كان اليسار التقليدى يرفع شعار «الخبز والحرية»، وفى الستينيات كتب الدكتور يوسف صايغ (الاقتصادى الفلسطينى الكبير) كتابًا بعنوان «الخبز مع الكرامة». أى أنه كان هناك باستمرار توازٍ فى الطرح بين ركنى الحرية: السياسى والاجتماعى.

حتى «أمارتيا سن» الاقتصادى الهندى المرموق (الحائز على «جائزة نوبل» فى الاقتصاد) الذى تم الاستناد إلى كتابه (Development as freedom)، سبق أن طرح مفهومًا أكثر ثراء وواقعية أسماه «الحقوق الإنسانية الأساسية فى مجال التبادل» (Exchange entitlements)، وحددها على النحو التالى:

(أ) الحق فى التوظف.

(ب) الحق فى الحصول على دخل يحقق الحياة الكريمة.

(ج) الحق فى أن تكون أثمان السلع والخدمات فى متناول المستهلك، أيّاً كان موقعه فى خريطة توزيع الدخل.

ومن ناحية أخرى، فإن التركيز على أهمية قضية الحرية ومحوريتها ليس جديداً على الفكر والنضال العربى. فمنذ كتاب عبد الرحمن الكواكبى طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، كانت هناك أجيال متعاقبة دافعت عن الديمقراطية بضراوة، وناضلت ضد غياب الحريات عبر كافة الأقطار العربية، ودفعوا ثمناً لذلك السجون والمنافى. ويخرج علينا التقرير وكأنه جاء بكشف جديد حول ضرورة ومحورية «الحرية» كأساس للتنمية الإنسانية والتقدم الإنسانى عمومًا.

وعندما نجىء لمشاكل القياس، نجد أن التقرير، يعتمد بصفة أساسية على المقياس الذى أقرته مؤسسة freedom house ، وهى مؤسسة أمريكية «لا تهدف للربح»، كما جاء بالتقرير! وهو مؤشر يعبر عن درجة التمتع بالحريات السياسية والمدنية، ويتم وفقاً له إعطاء درجات للبلدان المختلفة على «سلم مقياس الحرية» الذى تم اعتماده من قبل هذه المؤسسة، وكأنه مقياس علمى موضوعى يتسم بدقة شديدة مثل «مقياس ريختر»، لا يجيئه الباطل من أمامه أو من خلفه.

ولكن الجميع يعرف أن مؤشراً من هذا النوع يتضمن درجة كبيرة من التحكم، وعدم القابلية للتطبيق بشكل ناجح عبر كافة بلدان المعمورة، وخاصة إذا ما استخدم لترتيب البلدان العربية فيما بينها، أو إذا ما قورنت البلدان العربية بغيرها عبر بقاع العالم. فاين الإبداع العربى والجهد الذاتى الذى قدمه واضعو التقرير النهائى فى مجال تركيب «مقياس جديد للحرية، ياخذ بعين الاعتبار كافة التحفظات التى ترد على مقياس مؤسسة «بيت الحرية» الأمريكية.

ثم ماذا عن التحرر من الحاجة (إشباع الحاجات الأساسية)، والتحرر من الخوف فى الحاضر والمستقبل. إذ أنه بجوار الحرية السياسية، هناك ضرورة توافر التسهيلات الاقتصادية، والأمان الاجتماعى لتمكين الناس من ممارسة الحريات الأساسية والعمل على المشاركة فى الحياة السياسية مشاركة فعالة والتمتع بالحريات الديمقراطية الأساسية.

وإذا كان التقرير قد أسرف فى الحديث عن «حرية المواطن» والحريات الفردية، فإن التقرير لم يتحدث عن كيف يمكن تحقيق «حرية الوطن»؟! فبالرغم من إيماننا من أن «حرية الوطن» لا تتحقق بدون «حرية المواطن»، فإن العكس غير صحيح. نظراً لأنه إذا ما تحققت «حرية المواطن» فى وطن تابع أو مغلولة حريته ومنتقص من سيادته، فإنها تظل حرية شكلية.

وهنا نجد أن بعد العلاقات السياسية والاقتصادية الدولية غائب تماماً عن التقرير. ولاسيما دور المال والإعلام والقوة (Finance, Media, and Power) فى تشكيل مصائر الشعوب والنظم فى ظل موجة العوْلمة

الراهنة التى تقودها الولايات المتحدة الأمريكية. وهكذا، فإن نقطة الضعف الرئيسية فى التقرير تكمن فى غياب العلاقة الجدلية من بين أوضاع الوطن العربى فى الداخل وبين أوضاع العلاقات الاقتصادية والسياسية السائدة فى العالم من حولنا (العولمة).

[٣]

حول تشخيص النواقص فى مجال «التنمية الإنسانية».

ركز التقرير على ثلاثة أنواع من «الفجوات» أو «النواقص»، باعتبارها أهم «النواقص» التى تعيق مسيرة «التنمية الإنسانية» فى الوطن العربى، وهى:

* فجوة فى التمتع بالحريات.
* فجوة فى تمكين المرأة.
* الفجوة المعرفية.

ـ ويحاول التقرير أن يقيس فقر الاغتراف من المعرفة، بعدد الحاسبات المتصلة بالإنترنت لكل ألف من السكان (١٩٩٨)، ويرى أنها أقل من منطقة «دول أفريقيا جنوب الصحراء». وهذا المقياس السطحى لترتيب البلدان عربياً وعالمياً، لا يتطرق إلى «نوعية الاستخدام المعرفى» لساعات الإنترنت. إذ أن هناك فرقًا جوهريًا بين «المعلوماتية» و«المعرفة». فالإنترنت هى أداة فعالة للاتصال فى مجتمع المعلومات، ولكنها ليست بالضرورة أداة معرفية، لأن هناك بنية تحتية معرفية لابد من توافرها لاستخدام ما هو متاح عبر «الإنترنت» مثل النظام التعليمى وبناء الكوادر الفنية، ووحدات «البحوث والتطوير».(R&D)

والكتابات العلمية فى هذا المجال تركز على مقاييس فرعية مهمة مثل:

* عدد علماء ومهندسى البحوث والتطوير (R&D) لكل ألف من السكان.

* عدد براءات الاختراع المسجلة سنوياً، مقابل تراخيص البراءات المستوردة من الخارج.

وغير ذلك من المؤشرات ذات الدلالة المهمة فى هذا المجال.

ثم من قال أن تلك «النواقص الثلاث»، التى ذكرها التقرير، هى النواقص الحاكمة فى عملية التنمية الإنسانية العربية. إذ لم يقدم التقرير تحليلاً وافياً لعلاقات السببية: أى ما هى «المتغيرات» و«العلاقات» الحاكمة، وما هى «المتغيرات» و«العلاقات» التابعة، لكى يبرر هذا الانتقاء للنواقص الثلاثة، اللهم إلا أنها تتماشى مع «الصرعات» الجديدة فى الدوائر الدولية.

وباستثناء «الفجوة المعرفية»، هناك أنواع أخرى من «النواقص» التى قد تكون أكثر خطورة وتعويقاً لمسيرة التنمية الإنسانية فى الوطن العربى، نذكر منها على سبيل المثال، وليس الحصر:

* العجز المؤسسى.
* عجز القدرات الإنتاجية.
* عجز الدخول عن إشباع الحاجات الأساسية للسكان.
* عجز فى مظلة «الحماية الاجتماعية».

ومن يدريك أنه إذا ما تم تشخيص دور تلك «النواقص الأخرى» بدقة، فقد يتبين لنا أن «نقص الحرية» و«نقص تمكين المرأة» هى متغيرات «تابعة» وليست «حاكمة» فى مسيرة التنمية الإنسانية العربية.

[٤]

المسكوت عنه فى تقرير التنمية الإنسانية
لم يتعرض التقرير لعدد من القضايا التى تدخل فى صميم عملية التنمية الإنسانية العربية. ونسوق على سبيل المثال، عددًا من القضايا المسكوت عنها فى التقرير.

* عدم التعرض بشكل إحصائى وموثق إلى ازدياد «درجة عدم العدالة» فى توزيع فرص التعليم الجيد (Quality education)، نتيجة تعدد القنوات التعليمية، وصورية «مجانية التعليم». مما سوف يؤثر مستقبلاً على أنماط تكوين ما يسمى «رأس المال البشرى»، وبالتالى على فرص ومستقبل التنمية الإنسانية لجيل كامل من خريجى النظام التعليمى العربى.

* اتساع «الفجوة الرقمية» (digital Divide)، ليس فقط فيما بين بلدان العالم العربى وبقية بلدان العالم.. فهذا معروف ومرصود وموثق. ولكن الأهم هو توثيق اتساع «الفجوة الرقمية» داخل البلد الواحد، وانقسامه إلى «شمال» و«جنوب»، مما يؤثر على التماسك المجتمعى، وتوافر فرص التنمية الإنسانية المتوازنة للجميع: الغنى والفقير.

* لم يعالج التقرير فى القسم الخاص بالإسكان (Habitat) قضية من أخطر القضايا تأثيراً على واقع ومستقبل التنمية الإنسانية فى الوطن العربى، ألا وهى النمو الهائل لحجم الإسكان العشوائى، وحجم السكان الذين يعيشون بين جنباته. حيث لا توجد المرافق اللازمة من كهرباء ومياه، وحيث تطفح مياه المجارى فى الطرقات والحوارى، وتزداد معدلات التزاحم فى الغرفة الواحدة، وترتفع معدلات الجريمة، وحيث يتم اغتيال ومصادرة «وقت الفراغ» الذى يرتقى بالإنسان ومواهبه ويطلق طاقاته المعطلة.

* رغم أن هناك إشارة عابرة لأهمية شبكات الأمان الاجتماعى (Social protection) من منظور التنمية فى بداية التقرير، فإن هذا الموضوع لم يحظ بأية معالجة جادة فى ثنايا التقرير، رغم أن هناك إجماعًا عالميًا على أهمية بناء شبكات للأمان الاجتماعى من أجل ضمان عملية التنمية الإنسانية، ولكى يأمن الإنسان من جوع ومن خوف على مستقبله. وهناك دراسات حديثة فى عالمنا المعاصر عما يسمى حجم السكان «المؤمن عليهم» (insured population)، أى الذين يستظلون بمظلة التأمينات، وحسب أنواع التغطية التأمينية.



* لم يعالج التقرير اتساع نطاق وحجم العمالة «المتقطعة» و«غير الدائمة» (Casual employment) فى الوطن العربى، ومضاعفات ذلك على التنمية الإنسانية لقسم مهم من قوة العمل العربية، واقتصر على معالجة موضوع «البطالة» من منظور تقليدى ليس فيه جديد.

* لا توجد أدنى مناقشة فى التقرير لقضايا «وقت الفراغ» (Leisure time) وأسلوب استخدامه لدى الإنسان العربى، بكافة فئاته الاجتماعية. وتلك قضية تدخل بلا شك فى صميم قضايا «التنمية الإنسانية»، وهى موضع اهتمام فى الدراسات الحديثة فى مجال التنمية الإنسانية. إذ أن أسلوب استخدام «وقت الفراغ» (أو انعدامه من الأساس) لغالبية السكان فى الوطن العربى، يعتبر قضية جوهرية من منظور «التنمية الإنسانية».

قد تكون هذه القضايا أكثر صعوبة فى المعالجة، وتحتاج لبيانات إحصائية ليست ميسورة، ولكن هنا يكمن التحدى الحقيقى فى مجال التصدى بالمعالجة العلمية لتلك القضايا التى هى فى قلب عملية «التنمية الإنسانية»، وتحتاج لحرث أرض جديدة.

[٥]

نظرة تقويمية عامة

خلاصة القول هنا أن موضوع «التنمية الإنسانية» هو موضوع مطروح فى الكتابات والنضالات العربية منذ أمد طويل. إذ كان الحديث يدور دوماً ـ منذ السبعينيات ـ حول أن بناء البشر أهم من بناء الحجر. ولم يأت التقرير بفتح جديد فى هذا الموضوع، اللهم سوى تقديم صورة إجمالية لتطور جوانب معينة من عمليات التنمية الإنسانية فى المنطقة العربية، كما أسلفنا.

ومعظم المجالات التى غطاها التقرير هى أرض تم حرثها وبذرها من قبل، ولا سيما فى حقول:

(أ) السكان ـ الصحة ـ البيئة (الفصل الثالث).
(ب) حالة التعليم وسبل إصلاحه (الفصل الرابع).
(ج) النمو الاقتصادى ـ التشغيل ـ الفقر (الفصل السادس).

ونفس الشىء ينطبق على الفصل السابع المعنون «الحكم الصالح والتنمية الإنسانية». ومصطلح «الحكم الصالح» يعتبر ترجمة ركيكة لمصطلح Governance، الذى شاع مؤخراً فى الكتابات الدولية الغربية. وبهذا الصدد، استند التقرير إلى المؤشر المركب الذى ركبه مستر «كوفمان وشركاه» فى دراسة قدمت للبنك الدولى خلال عام ١٩٩٩، وركز هذا المؤشر على عدة قضايا هى: المحاسبة ـ درجة الاستقرار السياسى ـ فعالية الحكومة ـ حكم القانون ـ .Regulatory Burden ولم يتطرق هذا المؤشر لعدالة توزيع الدخول والثروات والسلطة فى المجتمع كمقياس «لجودة الحكم»، بينما تراثنا العربى يقول لنا أن «العدل أساس المُلْك»، قبل أن تخرج علينا المنظمات الدولية بتلك المصطلحات الجديدة مثل «الحكم الصالح» و«الشفافية».

ويبقى لنا أن نشيد فقط بالفصل الخامس المعنون «نحو مجتمع المعرفة» الذى يمثل إضافة حقيقية فى هذا الموضوع. وفى المقابل، فإن الفصل الثامن المخصص «لقضية التعاون العربى»، جاء ضعيفاً ودون مستوى الكتابات والمساهمات العربية الغنية فى هذا المجال خلال عقدى الثمانينيات والتسعينيات.

ولكن إحقاقاً للحق، فإن بعض الأوراق الخلفية، التى اطلعت عليها، هى أكثر ثراء بكثير مما جاء فى التقرير فى صيغته النهائية المنشورة.

ومن حيث المنهجية وأدوات القياس، تم استعارة معظم المؤشرات والمقاييس المستخدمة فى التقرير من مصادر فكرية «غير عربية»، نخص منها:

١ـ حول مركزية قضية الحرية:
Amartya Sen, Development as freedom (1999)

٢ـ حول دالة الرفاه الاجتماعى:
P. Dasgupta, An enquiry into welfare and distribution, (1993)

٣ـ حول أسلوب قياس الحرية:
Annual survey of freedom (Freedom House).

٤ـ حول المقياس المركّب «للحكم الصالح»:
Kauffman D. A. and al. (1999), Aggregating governance indicators, a World Bank Memo.

وكنت أتمنى على فريق التقرير أن يقدم لنا رؤية نقدية لتلك المقاييس، من منظور الواقع العربى، وأن يقترح مؤشرات أكثر ثراء وارتباطاً بالواقع العربى، حتى لا نصل إلى مقارنات خاطئة وظالمة فيما بين البلدان العربية، من ناحية، وفيما بين البلدان العربية والبلدان النامية الأخرى، من ناحية أخرى.

وتبقى المحاولة الوحيدة فى التقرير التى تحتوى على قدر من الاجتهاد هى تلك الخاصة بتركيب مؤشر مستحدث للتنمية الإنسانية (ص ١٨ من الطبعة العربية)، وذلك بغض النظر عن عدم اتفاقنا مع مكوناته والأوزان المستخدمة.

وحول فحوى ما جاء فى التقرير من نقد شديد للأوضاع العربية الراهنة فى ثلاثة مجالات محددة هى: الحريات الفردية – المرأة – المعرفة دون غيرها، فإن أحد الكتاب الغربيين التقدميين المتعاطفين مع القضية العربية (MERIP Report, summer 2002)، رأى أن هذا التقرير: «يؤسس لنظرة استشراقية جديدة للمنطقة العربية، ولكن هذه المرة بأقلام عربية»! ومن هنا، نفهم تلقف بعض الأوساط الغربية المعروفة بعدائها للعرب والإسلام لبعض ما جاء فى التقرير، واعتبار أن مقولاته واستنتاجاته تنطوى على جرأة نادرة وصراحة غير مسبوقة!

وختاماً، أود أن أقول أن موضوع «التنمية الإنسانية» موضوع قديم.. قديم، وسبقت معالجته من خلال منهجيات عدة تأخذ بعين الاعتبار: البعد التاريخى (التراث الثقافى والمعرفى)، والإطار الدولى (علاقات التبعية)، والخبرة الذاتية للأمة.

وقديماً قال الحكماء فى الصين:

* إذا أردت أن تزرع أرزًا، فخطط لذلك قبل عام.
* وإذا أردت أن تزرع أشجارًا باسقة، فخطط لذلك قبل ذلك بعشرين عاماً.
* أما إذا أردت أن تزرع وتربى رجالاً للغد المأمول، فخطط لذلك قبل مائة عام.

فهل هناك أروع من هذه المقولة فى مجال التنمية الإنسانية، قبل أن تصبح شعاراً براقاً ترفعه المنظمات الدولية.



نادر فرجانى

توطئة:

لن يخفى على القارئ الفطن المتابع لهذه الدورية أن هذا المقال يتوخى الرد على مقال الدكتور جلال أمين نقداً لتقرير التنمية الإنسانية العربية، والمنشور فى العدد ٤٦ من «وجهات نظر»، لكنى اخترت أن يرقى الرد أولا إلى مصاف مناقشة فكرية لقضايا مهمة عوضاً عن أسلوب التقاتل أو « المصارعة الحرة» الذى انتهجه جلال أمين، على أن أرجئ قليلاً من الرد المباشر إلى بعض حواشى فى نهاية المقال. كما اخترت، تكريسا لتقاليد العلم الاجتماعى الناقد، أن أقدم وجهة نظرى الخاصة فى نقد محتوى تقرير التنمية الإنسانية، دون أن يعنى ذلك تنصلا من مسئوليتى عن التقرير.

العلم الاجتماعى الناقد، وموقع تقرير التنمية الإنسانية منه

أى علم اجتماعى يخدم النهضة فى المجتمعات المتخلفة؟

نرى أن العلم الاجتماعى الناقد هو الأجدر بالتبنى، خاصة فى المجتمعات المتخلفة.

ويعد العلم الاجتماعى الناقد محاولة لفهم النواحى القهرية فى المجتمع، عقلانياً، بحيث يحفز هذا الفهم جمهور العلم من الناس لتغيير مجتمعهم، وتحرير أنفسهم. فالقصد ليس مجرد الفهم أو التفسير، بل تغيير المجتمع، فى وجهة تحررية، من خلال العلم الاجتماعى.

ويقوم العلم الاجتماعى الناقد على أن القهر هو أساس آفات الوجود البشرى المعاصر. ومن هنا يهتم العلم الاجتماعى الناقد، علمياً، بثلاث عمليات مجتمعية جوهرية: الاستنارة، والقيام أو التمكن بمعنى النهوض، والتحرر.



ومن المهم الإشارة إلى أن هذه التوجهات النبيلة للعلم الاجتماعى الناقد ربما تبالغ فى مقدرة الناس، خاصة فى المجتمعات المتخلفة، على امتلاك المعرفة العقلانية وإمكان استغلالها، بكفاءة، فى مكافحة القهر. بعبارة أخرى، هناك خصائص للمجتمعات البشرية القائمة تعيق وظيفة العلم الاجتماعى الناقد، خصوصاً فى مضمارى الاستنارة والقيام. وتتمثل هذه العوائق فى غياب القدرة على التفكير العقلانى، بسبب نجاح هياكل القوة المسيطرة فى وأد هذه القدرة من خلال أساليب التنشئة القهرية (خاصة التعليم النظامى والإعلام المدار)، وعقابها عن طريق اللجوء إلى القوة الغاشمة، وسيطرة التقاليد التى قد يعنى الانضواء تحتها التسليم بواقع القهر المعاش، بل تدويمه.

ورغم أهمية هذه التحفظات على نجاح الوظيفة المجتمعية، والإنسانية، للعلم الاجتماعى الناقد، إلا أننا نرى، إيجابياً، أن هذه العوائق تشكل، فى حد ذاتها، موضوعات لهذا الصنف من العلم الاجتماعى، وتُقوّى الحاجة إليه فى المجتمعات المتخلفة.

وعلى هذا فإن نقد الوضع الراهن، عبر توسل العلم الاجتماعى الناقد سبيلاً للتغيير خدمة للتقدم، يمثل فى نظرى الوظيفة الأسمى للعلم والعمل المجتمعى لفئة المثقفين، خاصة فى المجتمعات المتخلفة.

ويدخل فى نطاق نقد الوضع الراهن، لا ريب، نقد الإنتاج المعرفى. وفى هذا المنظور، فإن نقد تقرير التنمية الإنسانية ظاهرة صحية بامتياز، يزيد إسهامها فى صنع التقدم فى البلدان العربية كلما كان النقد موضوعيا ومترفعا على الاستعداء الفج والمزايدة الرخيصة. وفى هذا المنظور، أستقل شخصيا، دون تنصل من مسئوليتى باعتبارى المؤلف الرئيسى للتقرير، قطار نقد تقرير التنمية الإنسانية فى قسم تال.

تقرير التنمية الإنسانية كنموذج للعلم الاجتماعى الناقد

لقد مثّل تقرير «التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٢» اجتهاداً فى مضمار العلم الاجتماعى الناقد، بمعنى أن التقرير اجتهد فى أن يقدم للشعب العربى مقاربة تستحث عمليتى الاستنارة والقيام، تاسيسا للتحرر والنهضة فى الوطن العربى عبر إثارة حوار جاد حول بعض القضايا التى قدّر واضعو التقرير صلتها الجوهرية بفرص التقدم فى هذه البقعة من العالم.

ومن المهم ملاحظة أن العلم الاجتماعى الناقد بحق لا يلقى دعماً من هياكل القوة المسيطرة، محلياً ودولياً. بل هى تقاومه، هذا إن لم تحاربه، قدر الطاقة. ومن هذا المنطلق، فإن صدور تقرير التنمية الإنسانية حاملا رسائل نقدية قوية للواقع العربى الراهن، وسياقيه الإقليمى والدولى، رغم رعاية إعداده من أهم مؤسستين تعنيان بالتنمية فى البلدان العربية على الصعيدين العربى والدولى، لهو إنجاز يستحق التقدير. ولعل فى ذلك أحد أهم أسباب ما حظى به التقرير من اهتمام وما أثار من جدل، عربيا ودوليا.

والتقرير، ككل اجتهاد، لاشك يحتمل الخطأ والصواب، ولكنه يستحق، فى كلتا الحالتين، وفق القاعدة الفقهية، أجر الاجتهاد.

ولا ريب أن أى جهد بشرى هو فى النهاية قاصر ويظل يطلب الكمال. ولكن يكفى التقرير أن أثار كل ذلك الاهتمام، عربيا ودوليا، اختلافا قبل الاتفاق. فالقصد هو عرض القضايا المثارة فى التقرير على القوى الحية فى المجتمعات العربية، كافة، لتنظر ما هى فيها فاعلة.

لقد كان منتهى أمل فريق التقرير أن يثير نقاشا حيا حول القضايا الجوهرية التى يثيرها. وقد تجاوز الاهتمام بالتقرير، فى البلدان العربية وخارجها، توقعات الفريق الذى أعده. وفى نطاق وحيوية النقاش الذى جرى حتى الآن فى البلدان العربية وخارجها، دليل على ذلك. غير أن قلة قليلة من الناقدين قد حادوا عن الموضوعية لأسباب واضحة أحياناً، وتبدو غامضة فى أحيان أخرى.



هل يمتنع النقد الذاتى فى ظروف الأزمة أو استهداف الأمة من أعداء؟

عندى أن معاناة الأمة لأزمة أو استهدافها من أعداء لا يحل فئة المثقفين من التزامها بنقد الأوضاع الراهنة وصولاً للتقدم، باعتباره التزاماً بالمصلحة العليا للوطن التى تجب كل مصلحة عداها، بل تجعل النقد الذاتى ألزم.

لا يخدم غرض النهضة، فى تقديرى، أن نمتنع عن نقاش أمور نراها حيوية لتقدمنا إذا ما كان للغرب فيها رأى أيّاً كان؟ وليس جديرا بأمة تريد أن تنهض أن نعتبر كل ما يقال فى الغرب، رغم العداء السافر، بشاننا كفرًا بواحًا فنغلق عقولنا وراءه وأمامه؟ إن نهج التنمية الإنسانية يجد فى إغناء التنوع الثقافى داخل الأمة، وفى التلاقح المغنى مع الثقافات الأخرى دعائم نهضة إنسانية تصل العرب بالعالم والإنسانية.

فى تجاوز محتوى تقرير التنمية الإنسانية، وجهة نظر شخصية للمؤلف الرئيسى للتقرير!

لا أخالنى أفشى سرا، أو أخون أمانة، بقولى أن لى شخصيا مآخذ على محتوى تقرير «التنمية الإنسانية العربية» للعام ٢٠٠٢، لا تخفى على من تابع مسيرتى البحثية والفكرية. فمحتوى تقرير كهذا، شارك فى العمل عليه ما يقارب مائة شخص، من مشارب مهنية وفكرية متباينة، عبر أدوار مختلفة ينتهى محصلة لتفاعل، بل أحيانا تصادم، عديد من الإرادات وربما المصالح، الفردية والمؤسسية، بحيث يكاد يستحيل أن يرضى أحدًا، ولو ممن شاركوا فى إعداد التقرير، رضاء كاملا عن محتواه النهائى.

ولهذا فإنه من منظور إعلاء منظور العلم الاجتماعى الناقد سبيلا للنهضة، لا أرى أى غضاضة فى أن ينتقد بعض ممن ساهموا فى إعداد التقرير مضمونه النهائى، شريطة تحرى الموضوعية وتوقى المزايدة، ولا أستثنى نفسى. فمن ناحية، أقر بأخطاء، استشعرتها خاصة فى خضم النقاشات التى شاركت فيها، وأتحمل مسئوليتها. ومن ناحية أخرى هناك قضايا كان يحسن، فى تقديرى، أن يتجاوز مضمون التقرير ما قدّم بشأنها، وأعرض فيما يلى لمحات خاطفة بشأن بعضها، وقد يتسع مقال تال لقدر من التفصيل فى هذه الأمور. ويقع تركيزى على البنية المؤسسية للتنمية فى البلدان العربية حيث أقدر أن اختلال السياق المؤسسى للبلدان العربية، وضعف اكتساب المعرفة وقلة توظيفها، بفعالية، فى خدمة التنمية الإنسانية، ناهيك عن القعود عن إنتاجها، هما السببان الأشد حرجاً فى قيام أزمة التنمية فى المنطقة. فانساق الحكم، رغم تطورات مشجعة فى طرفى الوطن العربى، فى المغرب والبحرين، فى الأغلب سيئة السمعة لقلة تمثيلها وصعوبة مساءلتها، والتعاون العربى وهن، ولم تستفد المنطقة حتى الآن بالقدر الكافى من الفرص التى تتيحها العولمة، خاصة ثورة المعلومات والاتصال. وحيث عالج التقرير مسألة اكتساب المعرفة بصورة مناسبة فى

نظرى، أركز فى ملحوظاتى النقدية على القضايا المتصلة بالبنية المؤسسية للتنمية على المستويات العالمية والقومية والقطرية.

ومن حسن الطالع أن أعدادا تالية من سلسلة «تقرير التنمية الإنسانية فى البلدان العربية»، يجرى الإعداد لها حاليا، واحد عن «بناء مجتمع المعرفة» وآخر عن «توسيع نطاق الحرية وإقامة الحكم الصالح» فى البلدان العربية، ستتيح فرصا للتحسين والتطوير وتجاوز ما جاء به التقرير الأول (والذى منعت طبيعته الشاملة، باعتباره التقرير الممهد للسلسلة، من التعمق والتفصيل فى أى موضوع بعينه، بالإضافة إلى عدم التطرق إلى موضوعات يراها البعض مهمة، وبحق فى نظرى، مثل الثقافة والدين). وليست الفرص مقصورة على فرق إعداد التقارير التى ستتنوع باطراد، وتسعى لتنقيح أساليب عملها، ولكنها رهن أيضا بالسياق الذى يجرى فيه إعداد التقارير وتناقش نتائجها.

خطأ أعترف به وسبيل لتصحيحه

وأبدأ بالخطأ الذى يؤرقنى أكثر من غيره، ألا وهو اعتماد مؤشر الحرية الذى يصدره «بيت الحرية» الأمريكى. يقينى الآن أن الاعتبارات الفنية والعملية التى قدمها التقرير لتبرير استعمال هذا المؤشر، رغم التحفظات المهمة التى أبداها عليه، لا تصمد أمام إمعان النظر. وتتلخص الاعتبارات الفنية والعملية هذه فى توافر سلسلة زمنية طويلة وقاعدة بيانات تفصيلية عن المؤشر المذكور، مع غياب بديل آخر مقنع خال من شوائب مؤشر «بيت الحرية» نتيجة لضعف قياس الحرية ومؤشرات الحكم الصالح بوجه عام. وقد كان جماع الرأى فى هذا الأمر المشكل، نظرا للأهمية الحيوية لموضوع الحرية، هو استعمال المؤشر، دون تبنيه، مع الدعوة لتجاوزه، بل العمل على تجاوزه، لإثارة موضوع الحرية من أوسع باب، وقد حدث!

لكننى الآن مقتنع بأن تحيزات المؤسسة التى تصدر المؤشر، وأساليب تقييمها لمدى التمتع بالحرية، تخضع لتأثيرات عقائدية وسياسية أقوى، وأشد خطرا، من أن تهمل.

نحن بحاجة، لا ريب إلى تقييمات رصينة علميا ولا يشوبها تحيز عقائدى أو سياسى، لمفهوم ومدى التمتع بالحرية، بمعناها الشامل، وسبل توسيع نطاقها فى البلدان العربية، كما طالب التقرير. والسبيل المناسب لتجاوز ذلك الخطأ فى تقديرى يتمثل فى إنفاذ دعوة التقرير للقيام بدراسات ميدانية مضبوطة فى البلدان العربية فى هذا الميدان الجوهرى فى البلدان العربية. وغاية الرجاء أن يمثل التقرير المزمع عن الحرية والحكم الصالح فرصة لتحقيق ذلك التجاوز، الأمر الذى يتطلب بداهة ظروفا مجتمعية تتجاوز جهد فريق التقرير فى كثرة من البلدان العربية.

قضايا كان يتوجب، فى تقديرى، أن يتجاوز تحليلها ما جاء فى التقرير

التحديات الإقليمية والعالمية

أنا، من حيث المبدأ، ضد المغالاة فى مدى إعاقة التحديات الإقليمية والعالمية للتنمية فى البلدان العربية، هذا مسلك هروبى فى المقام الأول، مريح للنفس المكدودة ولكنه شديد الخطر، حيث ينطوى على تكريس قعود الهمة ووهن القدرة، كما يعمى الأبصار عن مهمة الإصلاح الذاتى التى يمكن أن تؤدى لبناء القدرة الذاتية العربية وهى السبيل الوحيد السليم لمجابهة التحديات الإقليمية والعالمية الجسام التى تواجهها البلدان العربية. ومن هنا كان الخيار الاستراتيجى للتقرير التركيز على الإصلاح المطلوب فى البيت العربى.

ومع ذلك، كان يحسن، فى نظرى، التصدى للتحديات «الخارجية» بما يتناسب مع جسامتها. فبلدان المنطقة تعيش صراعا ضاريا، يتكثف فى مقاومة المشروع الصهيونى الاستعمارى فى الوطن العربى، الذى يعود إلى حرص القوى المهيمنة فى النظام العالمى الراهن على إحكام السيطرة على مستودع الوقود الحفرى الهائل فى منطقة الخليج العربى، وعمد إلى زرع كيان عنصرى - هو الوحيد الباقى من صنفه فى العالم - فى قلب البلدان العربية، عامل فرقة ونزاع، ونزف مستمر، ماديا وإنسانيا، ما كان له أن يقوم أو يستمر دون دعم مادى ومعنوى هائل من الغرب، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية، لإسرائيل حتى أصبح يرشح نفسه لقيادة المنطقة، قهرا لأهلها، وعلى وجه الخصوص الشعب الفلسطينى.

وقد تفاعل هذان التحديان، مع خلل جسيم فى نظم الحكم العربية، فى إنتاج مأساة الشعب الفلسطينى من ناحية، وإلى مرابطة قوات عسكرية أجنبية على الأرض العربية بعد عقود من الاستقلال، وإلى معاناة العرب بعضًا من أقسى أشكال عنت زمرة من القوى المهيمنة على النظام العالمى الراهن وحيد القطب والذى يمارس تسلطا صارخا على منظمة الأمم المتحدة ويقترف ازدواجية فاضحة فى تطبيق المعايير التى يتنادى بها مثل حقوق الإنسان وأضحت هذه القوى المهيمنة تأخذ القانون بيدها تدخلا عسكريا سافرا حين ترى فى ذلك مصلحة لها دون اعتبار للشرعية الدولية، أو حتى حقوق الإنسان التى تتشدق بها. كل هذا يوشك أن يهدر مصداقية المنظمة الدولية، وقيمة مواثيقها وعهودها، بل والقانون الدولى ذاته.

ولعل المنطقة العربية هى أشد مناطق العالم تضررا من هذا النظام الدولى المعوًج فقد تعرضت بلدان المنطقة أكثر من أى منطقة أخرى من العالم لفرض الحصار عليها. وقد بلغ السيل الزبى فى الحصار المفروض على العراق لمدة تربو على سنوات عشر، والذى كلف شعبه، وأطفاله خاصة، تضحيات باهظة، وفى فرض مناطق للحظر الجوى فى شمال وجنوب العراق دون أى سند من الشرعية الدولية.



وتتبدى معاداة النظام العالمى الراهن، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، للعرب فى دعم الولايات المتحدة الأمريكية غير المشروط لإسرائيل، شاملا تعطيل آليات الشرعية الدولية عبر إشهار الفيتو الأمريكى على أية قرارات تدين إسرائيل، حتى تلك التى كانت تستهدف إقامة آلية دولية لحماية الفلسطينيين أثناء عدوان إسرائيل السافر عليهم مؤخراً.

وتدخل المنطقة العربية الآن، فى حقبة راعى البقر الأمريكى الأهوج وحربه على ما يتصوره إرهابا فى منطق المشروع الصهيونى الاستعمارى للمنطقة العربية، مرحلة «أفغنة» بلدان عربية، قد تبدأ بالعراق ولكن لا تنتهى عنده

العولمة و الرأسمالية الطليقة (البطالة والفقر وتوزيع الدخل)

إن تيارات عالمية جارفة فى العالم تضع العرب أمام تغيرات بعيدة المدى، تعيد تشكيل الحياة الإنسانية بمختلف أبعادها. وتنطوى هذه التغيرات على تبعات اجتماعية وثقافية- وربما سياسية- واسعة وعميقة، من ناحية. وإن كانت العولمة تحمل فرصا يتعين على البلدان العربية أن تتوفر على اغتنامها، خاصة فى ميدان الثورة المعرفية والتقانية، إلا أنها تحمل بوجه عام مخاطر محتملة على الوطن العربى يتعين التحسب لها أيضا. ويتمثل أحد السبل الأمثل لتحقيق هذين الغرضين أن تتوقف البلدان العربية عن محاولة الانتساب للعالم فرادى، ومن ثم متنافسين، ضعافًا وهامشيين.

كذلك بدأت البلدان العربية تشهد، بدرجات متفاوتة، منذ منتصف السبعينيات، تحت سياسات «الانفتاح» و«الإصلاح الاقتصادى» و«التكيف الهيكلى»، تغييرات عميقة فى هياكلها الاقتصادية، نفضل تسميتها «إعادة الهيكلة الرأسمالية»، وتستدعى، فى السياق المحلى والإقليمى والعالمى الذى تقع فيه، آثاراً مجتمعية مباشرة وبعيدة المدى.

ونقصد بإعادة الهيكلة الرأسمالية إحداث تغييرات جذرية فى الهياكل الاقتصادية تجاه سيادة توجهات نظام السوق الحر فى النشاط الاقتصادى. وفى بعض البلدان العربية تبلور هذا التوجه، على صورة تنصيب رأس المال الخاص على أنه الفاعل الرئيسى، وإعلاء الربح كالحافز الأساسى، فى إحداث النمو الاقتصادى، الذى يُصبح صنو التقدم، دون ضبط مجتمعى للأسواق أو لنتائج أدائها. أى إقامة الرأسمالية طليقة من الضبط الاجتماعى المحقق لكفاءة الرأسمالية والعدالة المجتمعية فى آن واحد.

وتكفى الإشارة السريعة، أولاً، إلى أن إعلاء دور رأس المال فى النشاط الاقتصادى هكذا يستتبع، تلقائياً، مُحاباته على حساب العمل، وتوكيد سيطرة الأول على الأخير. وغنى عن البيان أن مالكى رأس المال فى مُجتمع فقير قلة، وأن الكسب من العمل يُمثل مصدر الدخل الأهم للسواد الأعظم من الناس. مما يعنى، خاصة فى ظروف الأزمة الاقتصادية، استشراء البطالة السافرة والغلاء والفقر وتفاقم سوء توزيع الدخل، وربما الأهم هو تفاقم سوء توزيع الثروة (حيث ترتبط بتوزيع القوة فى المجتمع). ولكن تبعات التغيير تمتد إلى نسيج المجتمع بكامله بما فى ذلك نسق الحوافز المجتمعى الذى ينحى لتكريس الفردية واقتناء المال.

ولا ريب أن الآثار المجتمعية لبرامج التكيف الهيكلى تعتمد، إلى حد بعيد، على كيف يتم «الإصلاح». ولكن الرأسمالية الطليقة تميل لأن تكون وحشية (مع اعتذار واجب للوحوش فى الغابات) ولا تمتلك، بوجه عام، ضميرا اجتماعيا، فالأسواق الطليقة دائماً تحابى الأقوياء ولا تكترث بالفقراء، بل تنتهى بعقابهم. وعلى وجه الخصوص، إذا نجح نظام السوق فى تحقيق نمو اقتصادى، ولو كان كبيراً، فإن عوائد هذا النمو لا تتقاطر بالضرورة لعموم الناس. بعبارة أخرى قد يزيد نمو الناتج الكلى ولكن يسوء توزيع الدخل والثروة، ومن ثم القوة، فى المجتمع.

ولذلك لا مناص من أن تتولى الدولة، وليس فقط الحكومة، مسئولية توزيع عوائد النشاط الاقتصادى بحيث تحمى المستضعفين من ناحية، من خلال العدالة التوزيعية، من ناحية، وتضمن الكفاءة الاقتصادية، عبر مكافحة الاحتكار وحماية التنافسية، الأمور التى تضمن إمكان تنامى النشاط الاقتصادى ذاته من ناحية أخرى. وهذا هو دور الدولة، وواقع الحال، فى المجتمعات الرأسمالية الناضجة. فقط تحت هذه الشروط، المفتقدة فى النظام الرأسمالى الطليق القائم فى بعض البلدان العربية الآن، يمكن أن تتحقق الكفاءة الاقتصادية، وتتوزع عوائد النمو الاقتصادى بعدالة، مما يضمن أن يطرد النمو.



أما فى النمط الرأسمالى الطليق الذى تبلور فى بلدان عربية منذ منتصف السبعينيات فقد كان مطلوبًا، وتحقق، إضعاف الدولة، ليس فقط فى ميدان النشاط الاقتصادى ولكن أيضا أن تنسحب من أية مسئولية مجتمعية. ونتيجة لكل ذلك يقدر البعض أن التشكيلة المجتمعية المصرية على سبيل المثال قد عادت لما كانت عليه تقريبًا منذ



رسالة ثانية.. إلى شارون

قبيحٌ وجْهُك المرسوم من أشلاء قتلانا

جبانٌ سيفُكَ المسموم فى أحشاء موتانا

وضيعٌ صوتُك المرصُودُ فى أنَّاتِ أسرانا

قبيحٌ أنتَ يا ملعونُ عندَ اللهِ . . فى الأديانِ

إنجيلاً . . وقرآنا

قبيحٌ أنت يا خنزير كيف غدوتَ إنسانًا

***

قبيحٌ وجهُكَ الملعونْ

مهانٌ يا زمانَ العارِ أوسمة وتيجانًا

ذليلٌ يا زمانَ العجز كهانا وأوطانا

جبانٌ يا زمان القهرِ مَن قد باعَ أو خانَ

خيولٌ أسلمت لليأسِ رايتها

فصار الجبنُ نيشانا

خيولٌ باعها الكهانُ أمجادًا وتاريخًا وفرسانا

فصارت ساحةُ الفرسانِ يااللعارِ غلمانا

كسيحٌ يا زمانَ العجزِ

حين ينام سيفُ الحق بين يديك خزيانا

قبيحٌ يا زمان اليأس

حين يصير وجهُ القدسِ فى عينيكَ أحزانا



حول تقرير التنمية الإنسانية العربية

قرن ولى (ما يسمى مجتمع النصف فى المائة!).

وقد كان الأمر يقتضى، فى تقديرى، معالجة أجرأ لتفاقم البطالة والفقر وتفاقم الاستقطاب الاجتماعى، وآثاره السياسية الوخيمة، فى البلدان العربية. ومن المهم فى هذا الصدد تحاشى تقريبات ومقاربات البنك الدولى فى هذه الأمور، حيث البنك شهادته مجروحة بضلوعه فى ارتكاب جريمة إعادة الهيكلة الرأسمالية، ناهيك عن العيوب الفنية الكبيرة التى تشوب تقديراته عن الفقر وتوزيع الدخل فى البلدان العربية.

ولا ريب عندى أن انتشار الفقر وزيادة حدة الاستقطاب الاجتماعى فى البلدان العربية أشد بكثير مما يقدر التقرير. إذ أقدّر أن الفقر أكثر شيوعاً، كما أن توزيع الدخل أقل تساوياً، مما تشير إليه مجموعات البيانات الدولية. والأكثر أهمية هو أنه يخشى، فى ضوء مؤشرات متباينة أن كلا من محددى الرفاه الإنسانى هذين يتردى: أى أنه يُقدّر أن الفقر يتزايد كما يسوء توزيع الدخل (تتراوح تقديرات نسبة الفقر من مسوح قطرية فى التسعينيات بين ٢١٪ فى الأردن، ٣٠٪ فى اليمن، ٤٥٪ في جيبوتى و ٨٥٪ فى السودان - وفى مصر مثلا قدّر معامل جينى فى العام ١٩٩٧ بما يقارب ٣٧٪ مقارنا بحوالى ٢٨٪ فى العام ١٩٩٥ وهو ارتفاع ضخم فى مدة قصيرة، يدل على تفاقم سريع فى سوء توزيع الدخل، كما انخفض نصيب العمل من القيمة المضافة فى مصر من ٤٦٪ فى العام ١٩٧٥ إلى ٢٥٪ فى العام ١٩٩٥).

وينذر استشراف المستقبل بتفاقم الفقر والاستقطاب الاجتماعى إذا ما استمرت الأوضاع الراهنة، فمنذ عقدين والبلدان العربية تعانى من نمو اقتصادى بطىء وارتفاع مطرد فى حجم البطالة وتوسع رقعة الفقر بمعناه الأوسع المتمثل فى الحرمان من القدرات البشرية. ويدل عدد من المؤشرات على أن توزيع الناتج الاقتصادى يزداد استقطابا (انحيازا لأصحاب رأس المال) بشكل مطرد. ويصعب فى هذه الظروف أن تقل البطالة أو يخف الفقر، أو تتحسن عدالة توزيع الدخل والثروة، بل إن هذه كلها ظروف لا تبشر حتى بازدهار التشغيل أو تعافى النمو الاقتصادى فى المستقبل.

التعاون العربى

ربما لا تتاح لمجموعة من الدول فى العالم مقومات التعاون والتكامل، بل والتوحد، قدر ما يتوافر للبلدان العربية، وعلى حين تسعى بلدان العالم جميعها للانتماء لكيانات أكبر خاصة فى عصر العولمة والمنافسة الشرسة، فمازالت الدول العربية تواجه العالم الخارجى، وتحديات المنطقة، فرادى، بل وتفضل التعاون مع الأجانب عن التعاون العربى، الأمر الذى يفوّت على العرب ثمار التعاون الوثيق فى كلا مضمارى التنمية الإنسانية والأمن القومى. وعليه فإن التشرذم العربى من أشد معوقات رفعة العرب فى العصر الآتى.

و تتسم مؤسسات الحكم (عبر القطرى) العربية بالهشاشة وقلة الفاعلية، وتسيطر الاعتبارات القطرية على القومية فى مجمل نسق الحكم العربى، مما يؤدى فى النهاية لقلة صيانة مصالح العرب جميعا، حيث يدور نسق الحكم العربى حول خدمة مصالح الفئات المتنفذة فى كل من الدول العربية، وقد تتعارض هذه، و ليس من ضمان لأن تتوخى، إن تلاقت، الصالح العربى العام.

ويقتضى تعظيم مساهمة التعاون العربى فى بناء التنمية الإنسانية، اتساعه لمجالات تتعدى تحرير التجارة إلى توليد التجارة من خلال التعاون المشترك فى بناء القدرات الإنسانية والتقانية والإنتاجية فى عموم المنطقة العربية وإقامة منطقة مواطنة عربية تكفل الانتقال الحر لعناصر الإنتاج، شاملة البشر- دون الاكتفاء برأس المال، وليس مجرد السلع والخدمات، تحقيقا لأعلى إنتاجية مجتمعية لعناصر الإنتاج. ويستلزم كل ذلك إنشاء البنية المؤسسية الكفيلة بتحقيق هذه الأهداف بما يضمن تحقيق المشاركة الشعبية الفاعلة فى تعظيم عائد التعاون العربى على التنمية الإنسانية فى عموم المنطقة.



ومن ثم تقوم حاجة ملحة لتقوية مؤسسات للحكم عبر- القطرى و فوق - القطرى فى الوطن العربى مع العمل على تقوية تنظيمات المؤسسات الأهلية والناس، وإحكام مساءلة مؤسسات الحكم عبر القطرى أمام عامة الناس فى البلدان العربية قاطبة. ويتمثل سبيل التصحيح الأهم هو فى توسيع نطاق المشاركة الشعبية الفاعلة فى اتخاذ القرار على الصعيد العربى.

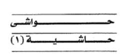
وهناك ثلاثة سبل رئيسية لذلك يتمثل الأول فى العمل على إنشاء «مجلس الأمة العربية» أو برلمان العرب لتمثيل القوى الشعبية العربية فى اتخاذ القرار على الصعيد العربى. أما السبيل الثانى فهو إنشاء محكمة عدل عربية يمكن أن يلوذ بها المواطن العربى من عسف حكومته. والسبيل الثالث هو دعم وتنشيط منظمات العمل الأهلى العربى، وإدماجها فى عملية صنع القرار على الصعيدين القطرى والقومى.

ولعل هذه التطورات تتمخض يوما عن نشأة شكل لسلطة تنفيذية فوق قطرية فى الوطن العربى على غرار المفوضية الأوربية مثلا.

الحرية والحكم الصالح

حيث يمثل التضييق على الحرية، بمعناها الشامل، وفساد الحكم، أساس أزمة التنمية الإنسانية، فى تقديرى، تتطلب خدمة النهضة فى الوطن العربى معالجة ضافية، رصينة وجريئة، نرجو أن يتسع لها تقرير التنمية الإنسانية المزمع الانتهاء من إعداده فى منتصف العام ٢٠٠٤ عن «توسيع نطاق الحرية وإقامة الحكم الصالح».





حواشي

حاشية (١)

الادعاء بأن «شتيمة العرب أو المسلمين تضمن التهليل في الغرب.» بإيحاء أن تقرير التنمية الإنسانية قد «شتم» العرب والمسلمين. ليس إلا محض افتراء. فمن ناحية، لم يتضمن التقرير كلمة عن المسلمين. وليس حشر المسلمين عنوة في الهجوم على التقرير إلا توسيعاً رخيصاً لنطاق الاستعداء على التقرير دون ما سند في الحقيقة. بلغة الفن التجارى («إضافة المسلمين تبيع أكثر!»).

وأتحدى أن يبين لنا أحد أن نص التقرير قد تضمن أى صياغة يمكن أن تُعدّ سباً لأحد أو لبلد عربي أو إسلامى، أو حتى تهكماً على أحد أو سخرية من أحد. وليكن معيار المقارنة هو كتابات جلال أمين ذاته الممتلئة بالسخرية اللاذعة والتهكم الموجع.

ويحق لنا أن نتساءل إلى أين ينتهى الأمر بجلال أمين نفسه إذا أعملنا على كتاباته معياره في الحكم على تقرير التنمية الإنسانية. إن مجرد تصفح كتاب جلال أمين «ماذا جرى للمصريين» مثلاً لابد سينتهى، حسب معاييره، باعتبار جلال أمين عدواً أول لمصر وللمصريين، بل والمستعدى الأول عليهم. قليلاً من الرحمة، بنفسك قبلنا، يرحمك الله!

وفى النهاية نرى أن الاستعداء على النقد الذاتي بتهمة مداهنة أعداء الأمة قد يجلب استحساناً شعبوياً رخيصاً، في ظروف الأزمة التى تعيش الأمة. ولكنه لايمثل، تأكيداً، نقداً علمياً رصيناً يشكل زاداً للتقدم عبر المعرفة.

إن تُهَم العمالة والتخديم على أغراض الغرب في الهجوم على الوطن العربى هى تُهَم سهلة، ولا يليق البتة أن تصدر عن مثقفين يدَّعون شرف الفكر. هذه تهم تصدر عن مخبرى أمن في نظم قهرية، وليس عن «مفكرين» في مواجهة عمل علمى يتوخى رفعة الأمة، وإن أخطأ اجتهاداً.

وفى هذا السياق فإن اتهام من يتصدون للنقد الذاتي بأنهم يخدمون أغراض أعداء الأمة، يكتسى مسحة «مكارثية» عربية مقيتة، لا طائل من ورائها إلا تكريس تكميم الأفواه، ومن ثم تدويم حبس الطاقات الخلاقة للناس، مبعث كل بلاء في هذه المنطقة من العالم. وننزه جلال أمين عن أن يكون هذا قصده!

حاشية (٢)

واضح أن ثمة حملة شعواء على تقرير التنمية الإنسانية بما في ذلك كتابات جلال أمين، حيث تواترت كتاباته ضد التقرير في أكثر من دورية وبأكثر من لغة. ومثل هذه الحملات تثير الريبة حول ما يمكن أن يكون وراءها. ويثير الريبة أكثر اعترافه علناً في ندوة بأنه كتب هجومه الأول على التقرير («الحياة»، ٢٥ يوليو ٢٠٠٢) والذى كشف قلة درايته بمحتوى التقرير بل بعنوانه، دون أن يكون قد قرأه، حتى أسميت الرد عليه حينئذ «هجوم على وهم». وفيه استنتجت انه استشاط غضباً من مدح بعض وسائل الإعلام الغربية للتقرير فقرر أن يهاجمه، هكذا!! ويحق لنا أن نتساءل: هل في مدح بعض دوائر لعمل ما، وكل يقرأ من منظوره، يستوجب أن يتوفر كاتب لشن حملة هجوم على العمل؟ وهل يليق أن يهاجم أحداً عملاً لم يقرأه؟ والآن يؤكد لنا جلال أمين أنه قرأ التقرير، ولكن واضح أنه قرأه بعين الغضب والثأر المبيت، ففى ماذا نفعت قراءته للتقرير؟

حاشية (٣)

يظهر أن الكاتب لم يلحظ في غمار تلهفه على التهجم على التقرير أنه، أى التقرير، قد أدان بغير تحفظ الاحتلال الإسرائيلى للأرض العربية والحصار على شعب العراق بما أثار حفيظة إسرائيل وبعض الدوائر الأمريكية الرسمية حد الاحتجاج الرسمى لدى الأمم المتحدة.

إن العدوان على العرب، الذى لا ننكره، ويدينه التقرير، يزّين له في الجوهر ضعف العرب وفرقتهم، وليس تقريراً ما، وقد بدأ قبل صدور تقرير التنمية الإنسانية بآجال. وهل كانت محاولة الغرب، بقيادة الولايات المتحدة، للتحكم في ثروات العرب وتصعيد قدرتها على الإمساك بمقدرات الشعب العربى، بإقامة إسرائيل، ودعمها غير المشروط مادياً ومعنوياً، وشن العدوان الثلاثى على مصر، وحرب ١٩٦٧، وحصار العراق، وإعادة قواتها المسلحة إلى الأرض العربية بعد عقود من الاستقلال، وعدوان إسرائيل الوحشى على الفلسطينيين مؤخراً تنتظر صدور التقرير؟ وحتى في خضم الهجوم الغربى الأخير على العرب والإسلام بعد أحداث ١١ سبتمبر، لا بل في غمارها، لم يكن العدوان المبيَّت ينتظر التقرير، الذى كان قد انتهى الفريق الذى أعده من صياغته قبل الأخيرة في ذلك الحين.

بل أزيد أن رد الفعل الأساسى من كثرة العرب وغير العرب على صدور التقرير- وقد شاركت في عديد من مناقشات التقرير داخل وخارج الوطن العربى- تمثّل في الاحترام الشديد للمنطقة العربية، وللفريق الذى أعد التقرير. حيث اعتبر التقرير شهادة قوية على أن المنطقة العربية لا تفتقر إلى الفكر العلمى الرصين أو القدرة على النقد الذاتى البناء، ولا إلى الأمل في الإصلاح من الداخل، أكرر من الداخل، إذا توافرت شروطه. وأن التقرير يؤذن بنهاية عصر أدمن فيه العرب دفن الرؤوس في الرمال وهجاء المقادير والأعداء، فعميت بصائرهم عن دروب المستقبل الزاهر الذى لا يمتلكه إلا من استنارت بصيرته وبدأ بإصلاح نفسه.

حيث تتمثل رسالة التقرير الرئيسية، عند من قرأوه واستوعبوا محتواه، أن طريق العرب الوحيد السليم لمواجهة التحديات الإقليمية والعالمية الضخمة التى تواجه الوطن العربى هو في بناء القدرة الذاتية العربية عبر إطلاق الطاقات الخلاقة الهائلة للشعب العربى، والتى طال حبسها بما أورث الأمة الوهن والهوان. ولن يتم ذلك إلا عبر بناء التنمية الإنسانية في ربوع الوطن العربى كافة. ■

كتاب الزاوية

عودة الأنبياء

عطرٌ ونور فى الفضاءْ

والأرضُ تحتضنُ السماءْ

والشمسُ تنظرُ

بارتياحٍ للقمر

والزهرُ يهمسُ

فى حياءٍ للشجر

والعطرُ تنشُره الخمائلُ

فوقَ أهدابِ الطيورْ

والنجمُ فى شَوقٍ

تصافحه الزهورْ

ضوءٌ يلوحُ من بعيدْ

الأرض صارت فى ظلامِ الليلِ

لؤلؤةٌ يعانقها ضياءْ

والناسُ تُسرعُ فى الطريقْ

صوتٌ يدَنْدِن فى السماءْ

الآن، عادَ الأنبياءْ

***

هذا ضياءُ محمدٍ

ينسابُ يخترقُ المفارقَ

والجسورْ..

من فلسطين إلى جوانتنامو

مهرجان أفينيون المسرحي

منذ أن بدأت التردد على هذا المهرجان المسرحي الكبير Avignon Festival، وتابعت أحداثه مع القراء، سعيت إلى معرفة ما يدور فى فضاءات المدينة المسرحية، ولكنه كان سعيًا مشروطًا فى كثير من الأحيان بطبيعة وجودى فى المدينة أو بالقرب منها، كسائح ثقافى من ناحية، وبقصر المدة التى كنت أقضيها عادة هنا من ناحية أخرى. ولذلك فقد كان علىّ دوما أن أتلقى جرعة كبيرة من هذا النشاط المسرحى فى فترة شديدة القصر. وهذا أمر يصيب المرء بشىء أقرب ما يكون إلى التخمة، بما يصاحبها عادة من عسر فى الهضم، ومتاعب فى الاستيعاب. أما هذا العام فقد تغير الحال كلية. حيث جئت هنا لقضاء ما يقرب من شهر كامل فى بيت ريفى فى محافظة «الجارد Gard» المتاخمة لأفينيون، ولذلك فإن لدى الوقت الكافى للتعامل مع المهرجان دون استعجال، واستيعاب أعماله واحدا إثر الآخر دون تخمة. وكان من نتائج هذه الإقامة الأطول أنه قد أتيحت لى الفرصة لاكتشاف عالم المدينة والمنطقة المحيطة بها. ومعرفة مدى سطوة هذا المهرجان على المدينة، وما يستأديه من تخطيط وإعداد طوال العام. وكيف أن أهلها، وأهل المناطق المحيطة بها، وجزءًا كبيرًا من اقتصادها يرتبط بهذا المهرجان الكبير. بالصورة التى أصبح معها هو الميقات السنوى الذى يضبط التخطيط فى المدينة، وينظم حركة الاقتصاد والحياة الاجتماعية فيها. لأن المهرجان الجيد يصبح رافدا يثرى اقتصاد المدينة، والمنطقة المحيطة بها، وليس عبئا عليها كما هى الحال فى مهرجاناتنا التى ننفق عليها بسفه، ولكنها لاتعود على اقتصادنا أو حتى على حركتنا الثقافية أو المسرحية بأثر ملموس.

وسوف أبدأ هذا المقال بتناول عدد من عروض المهرجان الرسمى الذى جرى تنظيمه من ٥ -٢٧ يوليو، ثم أتعرض بعد ذلك لعدد من عروض المهرجان الموازى Festival Off. وضم المهرجان الرسمى هذا العام تسع عشرة مسرحية قدمتها فرق فرنسية، وثلاث عشرة مسرحية قدمتها فرق أجنبية من تونسية وروسية وبولندية وأسبانية، وبلغارية، وألمانية، وبرازيلية، وإيطالية. وخمسة عروض من الرقص الحديث، حصل أحدها ـ وهو عرض ساشا والتز من مسرح «الشو بوهن» الشهير فى برلين ـ على مكانة الشرف فى العرض. إذ يقدم فى قاعة الشرف بالقصر البابوى، وهى القاعة التى تحجز عادة لأهم عروض المهرجان. حيث يقدم فيها طوال فترة المهرجان عملان فقط يعرض أولهما ـ وكان هذا العام هو عرض مسرحية تشيكوف الأولى «بلاتونوف» للمخرج الفرنسى الشهير إيريك لاكاسكيد ـ بها فى النصف الأول من المهرجان، ويستأثر الثانى ببقية أيام المهرجان. والواقع أن هذا العام شهد مشاركة عربية فى المهرجان الرسمى لأول مرة منذ عدة سنوات، ألا وهى مشاركة المسرحى التونسى الشهير الفاضل الجعايبى بمسرحية (جنون) التى كتبتها، وقامت ببطولتها، الممثلة التونسية القديرة جليلة بكار. وهى المسرحية التى حظيت بقدر كبير من اهتمام النقاد والجمهور عند عرضها فى تونس فى العام الماضى. ومن من القراء العرب المهتمين بالمسرح لا يعرف قدر الفاضل الجعايبى وجليلة بكار.



وقد افتتح المهرجان فى ساحة الشرف بالقصر الباباوى التى تتسع لما يقرب من ألفى متفرج، بمسرحية تشيكوف الرقيقة الجميلة (بلاتونوف). وهى المسرحية التى كتبها تشيكوف وهو فى الثانية والعشرين من العمر. ثم أعاد كتابتها بعد خمس سنوات بعنوان (إيڤانوف). وقد كانت هذه النسخة المعدلة هى المسرحية الأولى لتشيكوف التى أخرجها «إيريك لاكاسكيد Eric Lacascade». لكنه وعلى عادة الكثيرين ممن يدمنون تشيكوف، ويغرمون بشاعريته الشفيفة، عاد بعد سنوات طويلة ـ وبعد أن أخرج بنجاح للمسرح الفرنسى روائع تشيكوف الأخرى من (النورس) إلى (الشقيقات الثلاث) إلى (بستان الكرز) ـ إلى نبع هذه المسرحية الأولى الصافى. وتصور المسرحية فى فضاء ساحة الشرف المتميز فى أڤينيون، فكان الإخراج شديد الوعى بجماليات المكان التى استخدمها بحذق، للكشف عن جماليات هذه المسرحية الشاعرية الرقيقة. فلم تستخدم المسرحية جرم المكان الصرحى، ومهابة هذا الجرم الهائل بأحجاره العملاقة فحسب، وإنما استخدمت كل ما يوفره من عناصر جمالية من أقواس ومقرنصات ونوافذ. كان العرض يدخل منها الممثلين أو يحركهم فى تناسق رقيق معها بصورة أضافت الكثير إلى التأويل الإخراجى من ناحية، ومكنت

Avignon Festival

(مهرجان أفينيون المسرحي)

France: 5-27 July 2002.

... الإبداع فى مواجهة القهر

صبرى حافظ

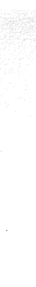
المشاهد من إعادة اكتشاف جماليات المكان التاريخى المألوف من ناحية أخرى. بالصورة التى يتم فيها نوع من التفاعل الخلاق بين المكان الصرحى المهيب، والشخصيات التشيكوفية التى تتخبط فى شباك من صنعها، وتتعثر فى جراحها التى أثخنتها، وما أن تسعى إحداها إلى هدهدة جراح الأخرى حتى تعمق هذه الجراح وتنكأ آلامها دون قصد.

فمسرحية (بلاتونوف) توشك أن تكون النبع الذى خرجت منه الكثير من رؤى تشيكوف وشخصياتها الرقيقة التى تسحقها الفظاظة والغلظة بينما تتخبط فى أحلامها البسيطة والمستحيلة معا. غافلة عما يدور حولها، وعن كر الزمن الذى يتجاوز أحلامها البسيطة ويسحقها فى آن. ولكنها فى الوقت نفسه مسرحية مترعة بالتوتر والحدة والعواطف الجياشة، فيها الكثير من عثرات المسرحية الأولى وغموضها، والكثير من التناقضات والمبالغات الواقعة فى غواية الأفكار الكبرى والرؤى المثالية والتى تجسدها شخصية العنوان الأساسية «بلاتونوف» نفسه، بكل ما تنطوى عليه شخصيته من تناقضات فهو شره يريد كل شىء لنفسه، ورقيق دمث فى آن، ثائر مجازف وأنانى معا، عاشق وملىء بالكراهية، مندفع بإخلاص وكذاب أشر. إنه تجسيد للإنسان فى عرامته وصدقه وتناقضاته معا، ومن هنا فإنه يتيح للمسرحى أن يفجر الشخصية على المسرح بكل طاقاتها وتناقضاتها، وقد استحالت إلى حركة جمالية خالصة، تراقب فيها الشخصيات مساراتها، ولكنها لا تستطيع النجاة بنفسها من الفخاخ المنصوبة لها، والتى لا تستطيع إلا المشاركة فى إحكام أحبولتها من حولها. فالمسرحية تؤكد لنا أن الإنسان يساهم فى صنع تعاسته، ولكن دوره محدود للغاية فى تحقيق سعادته. وليس هنا مجال تفصيل الحديث عن مستويات المعنى المتعددة التى استطاع هذا الإخراج المتميز أن يكشفها للجمهور. ولكن أهم ما طرحه هذا الإخراج هو كيف أن العرض المسرحى الجيد يعيد خلق جماليات المكان الذى يعرض فيه فى أعين مشاهديه، ويضفى عليه دلالات جديدة.

والواقع أنه من المستحيل فى هذا المقال أن أتناول حتى أهم هذه العروض بشىء من التفصيل. وخاصة أن عددا كبيرا مما عرض من المسرحيات غير معروف للقارئ، فالمسرحيات المعروفة منها للقارئ قليلة مثل مسرحيات شكسبير وموليير وتشيكوف. أما بقية المسرحيات فهى جديدة عليه كلية. ولابد إذا ما توقفنا عندها أن نقدم للقارئ شيئا عن حبكتها وخلفيتها ثم نتحدث عن إضافات العرض الخاصة فيها. وحتى يكتسب هذا التقرير شيئا من البعد النقدى، ولا يكتفى بالجانب الإخبارى، وهو مهم بلاشك، فلابد من التوقف ولو وقفة وجيزة عند حفنة من هذه العروض. وسأبدأ بالعرض الشيق الذى شاهدته لإعداد (رباعية الإسكندرية) للورانس داريل. لأن هذا العرض قدم فى محجر «بولبون» الذى سبق أن قدم فيه بيتر بروك عرضه الشهير للملحمة الهندية الكبيرة «المهابهاراتا» قبل عدة سنوات. وهو عرض استغرق أربع ساعات كاملة فى هذا الفضاء المفتوح الذى يؤكد مقولة بروك الشهيرة عن المساحة الخالية. فقد استخدم مساحة تم إخلاؤها عبر عشرات السنين بنحت هذا الجرف أو الهوة العميقة فى الجبل، حفرة بمساحة عدة أفدنة، قدت فى قلب الجبل الصخرى يتم فيها العرض ويجلس فيها الجمهور. بينما بقية حواف هذا الجبل الذى نحتت حوائطه وتشهد كل آثار هذا النحت على ملايين قطرات العرق التى نزفت فى عملية إخلاء هذا الفضاء، وتسوية قاعه بطريقة لا أجد قريبا منها إلا تشبيهها بعرض عمل عند سفح الهرم، بينما جرم الأهرام العملاق يطل على العرض ليسجل حضور التاريخ. مع فارق كبير هو أن جمالية هذا الجرف المحجرى من النوع الخشن الذى يقترب من البداءة أكثر من أى شىء آخر.



والواقع أن العرض/المسرحية نفسها لا تقل عن هذا الجرف المحجرى تاريخية وتأثيرا. ليس فقط لأن الرواية قد كتبت منذ زمن طويل، وتم اختيار هذا المحجر لتمثيلها فيه لأن داريل نفسه قد عاش فى قرية قريبة منه لسنوات عديدة. ولكن أيضا لأن معد هذه الرواية للمسرح - ستيوارت سيد - ظل منذ سنوات طويلة يراوغ هذا الإعداد المسرحى للرواية، على وجه الدقة منذ عام ١٩٨٨، فالأعمال الجيدة تحتاج إلى تفان وإخلاص وزمن طويل، ويتأملها فى واحد من فضاءات المنطقة. فقد أغوته مدينة أفينيون ومهرجانها، كما أغواه العمل الأدبى نفسه، لأنه يقول إن غواية المدينة لا تقل لديه عن غواية الرواية وسلطانها عليه. وقد استطاع فى النهاية أن يحقق غايته بأن أعد هذه الرواية



للمسرح، وحافظ فى هذا الإعداد على بنية الرواية الأساسية: أربعة أقسام، فى أربعة أيام، وأربع شخصيات أساسية: جوستين، بالثازار، مونت أوليف، وكليا. ويستهدف الإعداد فتح الباب على هذا العالم الروائى الخصيب. ولكن من خلال هذا التساوق المدهش بين عالم الرواية، والمكان الذى تعرض فيها المسرحية التى تمسرح أحداثها ورؤاها. ومن خلال التصور الجوهرى فى الرواية وهو أن البطل الأساسى فيها، والذى استأثر بعنوانها هو المدينة /الإسكندرية، وهى كما يقول هنرى ميلر فى حديثه عن الرواية «وجود كامل منسوج من لحم وحجر وإثم وحلم وأسطورة». وهى كيان طاغ مسيطر يمسك الجميع فى قبضته ويصوغ تصرفاتهم ويحدد إيقاع حيواتهم. سطوة المدينة على نص داريل تناظرها سطوة مهرجان أڤينيون على إعدادها المسرحى، حيث اختار المعد هذا المكان العريق ليناظر الإعداد المدينة التى خلق منها داريل أسطورته الخاصة.

ويؤكد داريل أن منهجه الإبداعى فى هذه الرواية يختلف من حيث منطلقه الفلسفى عن بروست أو جويس اللذين يمثلان فى رأيه نظرية الديمومة البرجسونية، أما منطلقه الأساسى وشاغله المقيم فهو العلاقة بين الزمان والمكان، ونظرية الزمن والنسبية. وقد استلهم الإعداد تصور داريل نفسه عن روايته بأنها رقصة ذات أبعاد أربعة، وهى فى نفس الوقت قصيدة روائية عن النسبية من حيث تناولها لما هو مثالى وما هو نموذجى. إذ جسد الإعداد حلم داريل المستحيل بأن تقرأ أجزاء رباعيته بشكل متزامن، وليس بشكل متتابع كما كتبها بها. لأن التزامن هو الذى يكشف حقيقة جوهر مشروعها الروائى، ومدى نسبيته. فالروايات الثلاث الأولى توشك أن تكون كل منها رواية متكاملة مستقلة بذاتها نسبيا. فقد كتب داريل روايته ـ وهى رواية من أربع مراحل ـ بطريقة تعتمد على مبدأ النسبية ذاته: حيث تشكل الأجزاء الثلاثة الأولى ما يمكن اعتباره الأبعاد الثلاثة للمكان، بينما يقدم الجزء الرابع البعد الرابع للمكان وهو الزمان إذ يدور بعد الأجزاء الثلاثة الأولى بزمن طويل. ذلك لأن الأجزاء الثلاثة الأولى ليست متصلة ببعضها البعض، ولكنها تستخدم نفس المكان وتمزج الأحداث وتدير حوارا بينها، وتعيد تقديمها من أكثر من منظور، فيما يتعلق بالمستوى المكانى، ويبقى فيها الزمان معلقا أو حتى متوقفا. حتى يجيء الجزء الرابع الذى يقدم الزمن ويمضى بالأحداث إلى نهاياتها وغاياتها الحتمية والقاسية فى كثير من الأحيان. محيلا بذلك الجزء الختامى للنص إلى نوع من التأويل الزمنى لكل ما دار، وإلى برهان على قدرة الفن على استنقاذ الماضى من قبضة الفناء. ذلك لأن الرباعية ـــ فى مستوى من مستويات الدلالة بها ـــ أطروحة فى الفن، تجسد سعى الكاتب لمعرفة الفن من خلال معرفة الإنسان والمكان فى الزمان، والكشف عن أهواء القلب الإنسانى وشهواته.

لكن رباعية الإسكندرية ليست مجرد تجربة فى البناء الروائى وجماليات النسبية فحسب، ولكنها عمل يستوحى عالما تقوض ويستنقذه بالفن من طوايا النسيان. وهو عالم يقدمه النص لا من خلال الحنين إليه وإنما من خلال قدرة الفن على أسر لحظات توهجه وتألقه المنصرمة. وهو بسبب إعمال المخيلة فيه عمل عن الإسكندرية المتخيلة والمصاغة من الحلم الاستعمارى القديم، بقدر ما هو عمل عن البطل/الراوى/داريل نفسه، وعن رغبته فى استكناه حقيقة مشاعره وطبيعة صبواته ومواقفه، وعن الإسكندرية التى لم يستطع حقيقة سبر أغوارها. وهى من هذه الناحية عمل متخيل عن الحب والجنس والتحلل الذى يدب فيهما معا، دون أمل فى إيقاف دبيبه الحثيث. عمل عن اللقاء والوقوع فى الحب أو الغواية والفراق المضنى الصعب. وهى فى الوقت نفسه عمل عن هشاشة الإنسان إزاء سريان الزمن الذى لا سيطرة له عليه، ولا قدرة له على التدخل فى تدفقه المستمر.

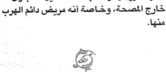


وقد استطاع الإعداد المسرحى وقد اختار أن يعرض هذه المسرحية فى محجر بولبون التى لاتبعد كثيرا عن قرية سومير Sommières التى كتب فيها داريل رباعيته بعدما ترك الإسكندرية. وقدمه من خلال راو هو داريل نفسه، وقد تقدم به العمر بعدما عاد من الإسكندرية، يروى لنا عن الأحداث التى عاشها والشخصيات التى عرفها. وقد أتاح استخدام تقنية الراوى /المعلق الذى يكتفى بدور الراوى بينما يقوم أكثر من ممثل بأداء دوره فى الأحداث المجسدة على المسرح، تجسيد النسبية والتراكب فى الشخصية المحورية فى الرواية التى تتبدى لنا فى أكثر من صورة، وتتنوع تجلياتها وتتزامن على الخشبة بطريقة نجح العرض فى ألا يجعلها مربكة أو ملتبسة. كما أتاح للعرض أن يتحرك فى الزمن بحرية نسبية. وأن يتقدم فيه ثم يعود به إلى الوراء دون أن يربك ذلك الجمهور، بل يمكنه من متابعة الأحداث والتعليق عليها فى وقت واحد. كما أتاح له أن يقدم التزامن المرتجى فى التعامل مع روايات الرباعية الأربع أو قراءتها فى آن واحد. فقد كانت تعرض الأحداث المتزامنة بتزامن علينا فى أجزاء متعددة من الخشبة فى وقت واحد. لأن أهم ما قدمه العرض فى تصورى هو قدرته على تجسيد هذه النسبية فى المكان والزمان معا التى ينهض عليها العمل الروائى من ناحية، واستخدامه الحاذق للمكان الذى عرض فيه العمل، بحيث حكم المكان جماليات العرض، واستخدمت المناظر والملابس نفس الألوان الطبيعية التى تتكون منها مهاوى المحجر وجدران جرفه الهائل التى يصل ارتفاعها إلى أكثر من ثلاثين مترا، وهى الألوان الرملية بدرجاتها المختلفة. فأصبح المحجر بوعورته الحجرية وصلادته هو البديل والنقيض معا للبحر الذى تطل عليه أحداث الرباعية بسيولته الرجراجة وعرامته المخيفة وأصبحت ضخامة الصخور العملاقة هى المقابل لاتساع البحر وانفساحه اللامحدود.

مشهد من العرض البولندى «القطبى»

ولننتقل الآن إلى المسرحية العربية الوحيدة فى المهرجان الرسمى وهى (جنون) التى عرضت فى دير الرهبان السيليستيين cloitre des Célestins الذى شكلت أقواسه العملاقة وأعمدته السامقة الخلفية المسرحية الجميلة لهذا العرض العربى الشيق الذى استطاع من خلال تناوله لحالة محددة من حالات الجنون، واستعاضته عن أسماء الشخصيات بالحروف أن يصوغ استعارته المسرحية الجميلة للوضع العربى فى هذا الزمن الردىء. حيث يسرى الجنون فى أوصال الواقع، ويتغلغل فى كل تفاصيله البالغة الدقة. ويبدأ العرض بتلك التشكيلات المسرحية الحركية الصامتة التى تقول لنا أنه فى البدء كان الصمت، وكان الصمت هو الداء العربى الأصيل الذى تدفقت منه شلالات الجنون الذى يلفنا جميعا. وهى تشكلات تعبيرية دالة تؤسس من البداية منهج التعبير المسرحى عند فاضل الجعايبى الذى يمزج بين التعبيرية والواقعية بحساسية شعرية مرهفة. وتحتاج هذه المسرحية العربية الجميلة فى حقيقة الأمر إلى مقال مستقل لأنها تكشف لنا عن أن الجنون ليس حالة طارئة أو عارضة فى واقعنا العربى، ولكنها المنطق التحتى الذى يسرى فى أوصال الواقع، ويكرس فيه العسف والظلم والهزيمة والطغيان. وكيف أن الجنون فى أشد حالاته تجسيدا وخصوصية ليس مفصولا بأى حال من الأحوال عن عسف السلطة الغاشمة وتناقضاتها ونفاقها، سواء أكانت سلطة الأب داخل الأسرة التقليدية، أو سلطة المؤسسة العلاجية التى تتقيد بحرفية المنطق العلاجى أكثر مما تفهم روحه العلمية الاستقصائية، أو سلطة المؤسسة السياسية التى تهيمن على الواقع بمنطق من يعرف أنه سلب حقا ليس له، وأنه يفتقر للشرعية والمصداقية على السواء. أو السلطة الدينية التى تتذرع بفهمها السطحى للدين للسيطرة والقهر وتحقيق المآرب الشخصية.

فهى مسرحية تتقصى حالة جنون محددة فترتقى بها إلى حالة الجنون الجمعى الشاملة، كى تدين عبرها الخوف والاستبداد والقهر والطغيان الذى أصبح من سمات عالمنا العربى الراهن، بعدما فقدت فيه السلطة كل مصداقية ومشروعية، وفقدت حتى ورقة التوت الأيديولوجية، ولم يبق لها من قدرة إلا قدرتها على أن تصيب الجميع بالجنون. فقد قلب العرض مفهوم الجنون من حالة فردية استثنائية،إلى حالة جمعية عامة يعانى منها الجميع، ولايستطيعون التخلص من شبكتها العنكبوتية المدوخة. وتقدم لنا المسرحية قصة مجنون محدد هو «نون» تعالجه طبيبة نفسية، لاتزال تؤمن بقدرة الفرد على مواجهة هذا الجنون وعلاجه فى بداية العرض، ولكنها سوف تعانى بعد سلسلة من المثبطات من اليأس والقهر والإحباط قرب نهايته. وتبدأ المسرحية بتقديم أولى جلسات العلاج والبحث فى حالة المريض على المسرح من خلال وضع ميكروفون فى نهاية المسرح من ناحية، وآخر فى نهايته من الناحية المقابلة، تطرح الطبيبة أسئلتها فى الأول فى نهاية المسرح، ويجيب المريض عليها فى الثانى فى النهاية المقابلة. وعندما ينحرف بوجهه عن الميكروفون، فى نوع من حركات المعاتيه التقليدية، أو التشنجية، تسير إلى نهاية المسرح، تعدل من وضعه أمام ميكروفونه، ثم تعود إلى ميكروفونها لتواصل الحوار. وهو تجسيد مسرحى بارع لطبيعة التواصل العلاجى فى منهج التحليل النفسى وإشكالياته فى آن. ولمدى ما فى هذه العلاقة من اصطناع وتعمّل من ناحية، ومدى تحصن كل من طرفيها فى موقفه بعيدا عن الآخر. إنها فى حقيقة الأمر صياغة جمالية درامية لصعوبة التواصل الحقيقى والحميم بين الطبيب والمريض. وهو الأمر الذى تحاول الطبيبة التغلب على عراقيله بالإجهاز على الفجوة بينهما من خلال معرفة أسرة المريض، ومتابعة تفاصيل ما جرى له خارج المصحة، وخاصة أنه مريض دائم الهرب منها.



وما أن تتعرف الطبيبة على تفاصيل حياة أسرته حتى نكتشف معها مدى تفاوت حظ كل فرد من أفرادها من الجنون، فكلما توغلت بنا المسرحية فى حياة أسرته، كلما وسعت من دائرة الجنون وكثفت دلالاته. فهناك الأخ الأكبر الذى حل محل الأب وتقمص دوره، وهو أخ يتسم بالعنف والإجرام، ويمارسهما فى حياته خارج البيت. وهناك الأخت الكبرى التى تزوجت عن حب، ولكنها سرعان ما انصرفت عن الاهتمام بزوجها الذى يطاردها بهوسه الجنسى، لأن الحب فى هذا الواقع المحبط ليس



مشهد من رباعية الإسكندرية

إلا قناعا باليا للشهوة، بينما الحب الحقيقي الذي ينهض على الفهم العميق والتكامل هو ما تفتقده الأخت، وما يدفعها فقدانه إلى الضيق بمطاردات زوجها الشهوانية لها، والتي أحالها العرض إلى شيء ممجوج لا يثير إلا السخرية. أما الأخت الوسطى فإنها لم تعثر على عمل بعد تخرجها من الجامعة، فاحترفت نوعا من الدعارة المقنعة، تركت في أعماقها نوعا من الشرخ أو الجرح الغائر غير المرئي الذي لايندمل، برغم اعتدادها بنفسها، ووعيها بمساواية قدرها. أما الصغرى التي يقع عليها عبء معظم العمل بالبيت، ويطالبها الجميع برعايتهم في وضع من التراتب المقلوب حيث تصبح الصغرى، وهي الأولى برعاية الآخرين، هي راعية الجميع، وهو وضع يملؤها بالتوتر الشديد، ولا تجد مجالا للتنفيس عن هذا التوتر، فيتجلى باستمرار في تصرفاتها العصبية. ولاتقل الأم عن بناتها حدة وتوترا وعصبية، بالرغم من استغلالها لمكانتها المتميزة بالأسرة. وتحاول الطبيبة معرفة سر كل هذه التوترات فتكتشف أن الأب الميت كان ومازال يحكم أسرته بيد من حديد، وكان يقمعهم بالتزمت الديني الكاذب، في حين كان يسرف كل ليلة في شرب الخمر، ويعود للبيت مخمورا يمارس عنفه الجسدي على أفراد أسرته، في إشارة مستترة جريئة معا لما تنطوي عليه البيوت الشعبية من أسرار. فكره الابن «نون» كل ما يمت للعنف والجنس بصلة.

من خلال هذه التنويعات المختلفة للجنون، والتي يصيب الطبيبة المعالجة شيء من رذاذها، عندما تتهمها المؤسسة بالخروج على تقاليد المهنة، لاتصالها بالمريض خارج المصحة، وتوقفها عن العمل، ترتقي المسرحية بالجنون من خلال تمثيلها الذي يمزج بين المنهج التعبيري والمنهج الواقعي إلى مستوى الاستعارة الدرامية التي يتحول فيها الجنون إلى القرين الدائم للحياة السليمة من ناحية، وإلى تجسيد للوضع الإنساني المأزوم من ناحية أخرى. وترجع بأسبابه إلى تسلط المؤسسة، وانسحاق الفرد أمام شتى تجليات القهر والهوان. وتكشف عن ضلوع المؤسسات الدينية منها والأسرية والسياسية في توليد الجنون الساري في كل تفاصيل الواقع العربي المنكوب، وفي هذا التردي والهوان الذي يعيشه الإنسان العربي في هذا الزمن الرديء. وهذا الارتقاء بالجنون إلى مستوى الاستعارة هو الذي مكن جمهور أڤينيون من الاستمتاع بهذا العمل برغم خصوصيته التونسية، فقد تم حجز كل مقاعد العرض في لياليه الأخيرة، بالرغم من سعة المكان الذي عرض فيه وزيادة مقاعده على الخمسمائة مقعد، وكثرة العروض المنافسة في هذا المهرجان الكبير.



إلى جانب هذه العروض الجميلة شاهدت عددا آخر من المسرحيات المهمة في هذا المهرجان الرسمي. من مسرحية (زيارات) للكاتب النرويجي المعاصر، جون فوسا، وهو أشهر كتاب المسرح النرويجي المعاصرين أوروبيا فقد سبق أن شاهدت له أكثر من عمل في لندن، ولذلك أود أن أقدمه هنا لجمهور المسرح العربي الذي تأخرت متابعته لما يدور في هذا البلد الجميل. فهو كاتب يواصل تقاليد المسرح الاسكندنافي القائمة عند أوجست ستريندبرج خاصة. حيث يكشف مدى ما تنطوي عليه المواقف اليومية البسيطة في الحياة العصرية من كوابيس مبهظة. ويستخدم في ذلك لغة شديدة التركيز والتكثيف، وبناء مسرحيا يتسم بالتقشف والحدة. فنحن هنا بإزاء أسرة اسكندينافية من الطبقة الوسطى، تركها الأب، ويبهظها الصمت والبحث عن رافد للتحقق. ويبدو هذا الرافد في صورة حبيب الأم وزياراته المتكررة التي يجيء فيها حاملا زجاجة نبيذ تدخل شيئا من البهجة الحسية عليها. وهو رجل عاطل عن العمل، سرعان ما يقيم علاقة مع ابنتها الغضة التي لم تبلغ العشرين من عمرها، وهي علاقة تثير في أعماق البنت الأزمات، فتهجر مدرستها، وتبتعد عن صديقاتها، ولكنها تخرج كل يوم من البيت في مواعيد المدرسة، وتعود بعد انتهائها ممضية الوقت في التسكع. وتسعى الأم، لمعرفة سبب غياب ابنتها عن المدرسة، ولكن البنت لا تصرح لها به. بينما تفصح لأخيها عن حقيقة الأمر، والأخ يعمل ويقيم وحده بعيدا عنهما. فيحاول الابن أن يواجه العشيق ويهدده بسكين، ولكنه لايستطيع أن يحقق تهديده، فيترك البيت عند وصول أمه التي تدرك أنه لم يجيء لزيارتها، وإنما لمواجهة عشيقها. إن المسرحية تتعمد أن تكشف لكل شخصياتها جوانب من حقيقة ما جرى وأن تحجب عنهم أخرى. ليظل الأمر كله في منطقة الالتباس، لأن الالتباس هو الوضع الإنساني الأكثر حقيقية وعمقا، ولأن المسكوت عنه لايقل أهمية عما يقال في هذه المسرحية. لأن المسرحية تهتم بتجسيد ما تنطوي عليه علاقات هذه الشخصيات الأربع من إشكاليات. ولا تساهم النهاية في حل هذه الإشكاليات بل في تعقيدها، لأن الأم تقرر أن تترك الشقة لتبدأ حياة جديدة مع عشيقها، بينما تأخذ ابنتها شقة العشيق الصغيرة ـ في نوع من الحلول الرمزي محله ـ لتعيش فيها وحدها. وهكذا تأخذ المسرحية الفردية الاسكندنافية إلى منتهاها، حيث تضع الأم سعادتها الفردية قبل ابنتها. ولكن أيا من الشخصيات الثلاث لا تستطيع بهذا القرار أن تنجو من شبح الخواء الذي يحوم حول أفراد هذه الأسرة جميعا. وهي من هذه الناحية شهادة على خواء الحياة العصرية، ووصمة دامغة للفردية التي تتنصل من كل مسئولية عن الآخرين.

ومع أنني شاهدت عروضا أخرى من عروض المهرجان الرسمي، فإنني سأتجاوزها هنا كي أختم الحديث عن المهرجان الرسمي بالعرض الآخر الذي قدم في ساحة الشرف بالقصر البابوي واستأثر بالنصف الثاني من المهرجان. ودائما ما يكون العرض الثاني تجريبيا. لأن العرض الأول يقدم عادة تأويلا جديدا لإحدى كلاسيكيات المسرح، بينما يقدم العرض الثاني أحدث ما في جعبة التجريب المسرحي الحديث من إنجازات. وكان عرض هذا العام بعنوان (غياب الجسد noBody) لمخرجة ومصممة الرقص الحديث الألمانية الشهيرة ساشا ڤالتز Sash Waltz يستخدم كلمة الجسد باللغة الانجليزية، ويسبقها بمنطق السوابق واللواحق اللغوية السائد في اللغة الألمانية، بأداة النفي التي يتعمد كتابتها بالحروف الصغيرة، لتشير إلى نفي الجسد أو غيابه. وللتمييز بينها وبين كلمة nobody الانجليزية التقليدية التي تعني لا أحد. وتعد صاحبة هذا العرض واحدة من أهم مخرجات المسرح الألماني، وهي مديرة مسرح «الشو بوهن» Schaubühne الشهير في برلين. وقد طلب منها مدير مهرجان أڤينيون قبل عامين أن تعد عملا للعرض في ساحة الشرف بالقصر البابوي، وهو الطلب الذي يعد بمثابة التتويج للمسرحي الأوروبي المعاصر الذي يطلب منه ذلك. وكان في ذهنها في هذا الوقت ـ كما تقول لنا ـ مشروع عمل عن غياب الجسد، أو عن الموت باعتباره نفيا للجسد وتغييبا له. فالعرض الذي استغرق إعداده ما يقرب من العامين وتطلب من ساشا ڤالتز أن تزور القصر البابوي في أڤينيون عدة مرات، ينطلق من طرح سؤال مهم: ما الذي يبقى بعد موتنا العضوي؟ وهل ثمة شيء بعد غياب الجسد يبقى منا في الآخرين، أو في الحياة بشكل عام؟

ويعد هذا العمل الذي عرضته في أڤينيون هو الجزء الثالث من ثلاثيتها عن الجسد والتي تناول جزؤها الأول «الجسد Körper» الجانب التشريحي والفسيولوجي للجسد الإنساني. أما الجزء الثاني «س S» وهو الحرف الأول من كلمة الجنس بلغات أوروبية عديدة فقد تناول أصل الحياة والجانب الشبقي وعملية الإخصاب والتوالد. لذلك كان طبيعيا أن يكون هذا الجزء الثالث عن «الموت وغياب الجسد» وعن الوجود الميتافيزيقي للإنسان، وماذا يحدث له بعد الموت، وهل هناك وجود للروح؟ وقد أعدت هذا العمل تحت وقع إحساسها الفادح بالفقدان، عندما فقدت أمها فجأة في العام الماضي، ولم تستطع أن تتقبل فكرة غيابها النهائي ذاك؟ لأنها لم تستطع استيعاب كيف يمكن لمن منحتها الحياة أن تموت فجأة هكذا! وهل يبقى من الأم شيء بعد رحيلها؟ هذه الأسئلة الملحة هي التي كانت تشغلها حينما طلب منها إعداد هذا العرض، ولذلك فإن هذا العرض مسكون بمسألة غياب الجسد، وعلاقة الجسد الفردي بالجسد الجمعي للجماعة من ناحية، وبروح هذه الجماعة القادرة على استنقاذ الفرد من الغياب والموت، من ناحية أخرى.



وقد استطاع هذا العرض أن يستخدم الفضاء الصرحي المهيب للقصر البابوي بشكل بارع، ويوظف كل نوافذه وارتفاعاته وأقواسه. ويعتمد العرض على نفي المركز وتشتيت الانتباه، والإجهاز على الحبكة، وخلق علاقات بالغة الحداثة من حيث جدلها المستمر بين المتجاورات، واستخدامها الومضات بدلا من التتابع. وتوظيفها الموسيقى المسكونة بالغموض والمخاوف، وموسيقى الضجيج والعجيج اليومي، وتقطيعها للجسد باستخدام شاشات خيال الظل، ولجوئها للتشكيل والصيغ النحتية في تكوين الكتل وجدل علاقاتها، واستخدام الحوار والصراع بين الفرد والمجموع كالنغمة الأساسية، أو نغمة القرار، في العرض. فقد استخدمت ساشا ڤالتز خمسة وعشرين راقصا وراقصة من جنسيات متعددة أوروبية وآسيوية. وخلقت بهم جماليات جديدة للحركة، كما أقامت حوارا شيقا بين رأسية هذا الصرح المعماري المهيب وصلابته، وأفقية الحركة البشرية والجسد الإنساني اللين وهشاشته. لكن أبرع ما خلقه هذا العرض هو أنه استطاع أن يجسد حضور الموت وسطوته العاتية. من خلال استخدامها هذا البالون المربع الأبيض الضخم الذي يقترب حجمه من حجم بيت صغير، فهو بالقطع أكبر من حجم صالة كبيرة، انطلق من أعلى المبنى، وتم نفخه التدريجي حتى اكتمل، ثم أسقط على المسرح ككابوس رازح لاسبيل للفكاك منه. أو باعتباره الحقيقة الوحيدة المؤكدة في الحياة، وهي أنها ستنتهي بالموت. تحاول الشخصيات أن تتملص من حضوره الفج، ولكنها ما أن تفلت منه حتى تتخبط فيه من جديد. ويبدو من خلال الجدل بين هذا البالون الضخم والراقصين أن ساشا ڤالتز تسعى لإدارة حوار بين الكون وبين جسد الراقص الإنساني، بين الحسي والمقدس، أو كأنها تطرح أحدهما في وجه الآخر بالمعنى الميتافيزيقي للمواجهة. والواقع أن المشاهد يخرج من هذا العرض الأثيري مثقلا بوطأة الوجود غير المحتملة، وبعبء الأثر الفادح الذي يتركه الجسد الغائب على الجسد الباقي، سواء أكان جسد الفرد أم الجماعة. يخرج مسكونا بأسئلة هذا العرض الأساسية: ما قيمة الجسد دون الروح؟ وما هو الإنسان خارج الجسد؟ وما هي

أهمية الجسد دون حب؟ وهل يمكن الاحتفاظ بالذين رحلوا داخلنا؟ وكيف يعرقل هذا الاحتفاظ بهم حياتنا، ويبهظها؟ لكن المشاهد المهموم بوضع المسرح العربي مثلي سيضيف إلى هذه الأسئلة الفلسفية سؤالا آخر: متى يستطيع مسرحنا أن يقدم عروضا من هذا النوع؟ ولماذا تفصلنا سنوات ضوئية من الفهم والحساسية عما يبدو أنه أرقى ما وصل إليه التعبير المسرحي الأوروبي الآن؟

لكن قبل أن تصيبني مثل هذه الأسئلة بالكمد والحزن على حالنا المسرحي، وحالنا العربي والسياسي فليس الأول بمفصول عنهما، دعنا نتأمل معا ما قدمه المهرجان الموازي والمدهش Festival Off، لأن ما شاهدته من عروض المهرجان الموازي مليء بالإثارة ومترع بالرؤى التي تهم القارئ العربي في كثير من جوانبها.

وقبل أن أتوقف عند بعض المسرحيات التي شاهدتها في هذا المهرجان الهامشي والتي تجاوزت العشرين مسرحية، وهي قطرة من بحر، فإنني أود أولا أن أشير إلى عدد ما ينطوي عليه من أعمال. فقد ضم برنامج المهرجان الموازي هذا العام أكثر من ستمائة عمل مسرحي، بالإضافة إلى عروض السيرك والرقص. بالصورة التي يمكن القول معها أن عدد عروض مهرجان هذا العام تجاوز السبعمائة عمل. عرض معظمها لأكثر من عشرين عرضا على مدى أيام المهرجان ٥-٢٧ يوليو. لذلك يمكن القول أن عروض هذا المهرجان تجاوزت الأربعة عشر ألف عرض أو حفلة في هذه الأسابيع الثلاثة، وبلغ عدد التذاكر المباعة فيه أكثر من نصف مليون تذكرة، دفع فيها المشاهدون أكثر من ستة ملايين يورو. فقد أصبح هذا المهرجان الفرعي فضاء ثقافيا لا مثيل له، لا بسبب عدد المشاهدين وحدهم، ولكن بقدرته على إبداع مسرح مغاير، وخلق أشكال جديدة من التعبير المسرحي والإبداع الدرامي قادرة على الحوار المستمر مع قضايا الواقع الراهن الملحة من فلسطين إلى الجزائر، ومن أفغانستان إلى رواندا، ومن سجناء جوانتنامو إلى الأحداث العرقية في كوسوفو والبوسنة، ومن الحروب إلى قضايا الفساد والعنصرية. ناهيك عن الإسهام الجمالي في تجديد الصيغ والبنى المسرحية. فهو مسرح فقير، ولكنه مترع بالإبداع والتجديد والتجريب.

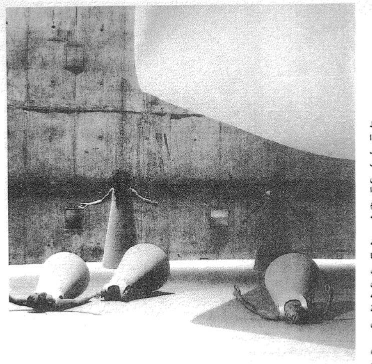


ولنبدأ أولا بالأعمال التي تتناول العالم الإسلامي الأعرض قبل الحديث عن واحدة أو اثنتين من مسرحيات العالم العربي المثقل بهمومه وحظه السيئ، سنجد أنفسنا بإزاء مسرحية (كباريه عمر الخيام) التي أعدها وقام ببطولتها أندريه بينيديتو ـــ وهو صاحب فكرة المهرجان الموازي ومؤسسه. وهي عرض كما يقول عنوانه من نوع الكباريه السياسي الذي يستشرف حياة هذا الشاعر الفارسي الكبير ويتغيا أن يقدم للجمهور الفرنسي شيئا من رباعياته وفلسفته وما دار في زمنه من أحداث عاصفة. وخاصة أن حياة هذا الشاعر الكبير توازت مع مرحلة الاستعداد للحملة الصليبية المشهورة على العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر، وهي الحملة التي خرجت من أفينيون وبمباركة مجمعها البابوي.

ويحاول العرض أن يدخل المشاهد إلى قلب عالم عمر الخيام المترع بالاهتمامات الحسية والفلسفية في آن. وبدلا من أن يجلس الجمهور في مقاعد المسرح الصغير الذي دار به العرض، أخذه إلى خشبة المسرح التي نظمت على هيئة مقهى يجلس الجمهور حول مناضده، وعلى كل منضدة شمعة تخلق مناخا حميميا، في حلقة يدور في وسطها التمثيل. وهو ليس تمثيلا بالمعنى المعروف، ولكنه مزيج من المحاضرة والتمثيل، فنحن هنا بإزاء كباريه مسرحي بمعنى الكلمة. وهي محاضرة مجسدة يرويها علينا البطل / الكاتب معا «أندريه بنيديتو» والذي يقوم بدور عمر الخيام والراوي الذي يتحدث عنه في آن. وتصاحبه فتاة راقصة تلعب دور راقصة الحانة، ودور المرأة التي تدور حولها رباعيات الحب التي كتبها هذا الشاعر العظيم في آن. ولكنها تلعب في نفس الوقت دور المرأة المعاصرة التي تريد أن تتحرر من الدور القديم الذي رسم لها، ومن الصيغة الأوروبية لتصور المرأة في الوقت نفسه، ولذلك فقد اختار الممثل / المؤلف راقصة من الكاميرون تجيد الرقص الشرقي في وقت واحد.

لأن العرض يريد أن يجعل قصة الخيام قصة صالحة لعصرنا الحاضر. ولذلك فقد استخدم ازدواج الأدوار والدلالات، شخصية الراوي الأوروبي المعاصر وشخصية عمر الخيام يمثلهما ممثل واحد يقدم لنا هم الممثل الذي يبحث عن شريكته في العرض من ناحية، وهم الأوروبي المثقل بميراث الحروب الصليبية المخجل، وهو ميراث لازلنا نشهد تجلياته المعاصرة في مغامرات غربية لاتقل إخجالا عن ميراث التاريخ، كانت آخرها في أفغانستان. أما ازدواج دور المرأة فإن له هو الآخر وظيفته، فهي تلك الراقصة الرقيقة التي تغزل فيها الخيام في رباعيته، وهي في الوقت نفسه المرأة الأفريقية المثقلة بآثار الاستعمار الغربي الفادحة لبلادها، وضحية التصور الأبوي الظالم لوضعها في آن. تتعامل كممثلة وراقصة مع الراوي / الممثل وهو يبحث عمن يلعب الدور الذي يكتبه، ولكنها تتعامل أيضا كافريقية مع الأوروبي الأبيض فيه، وتكشف لنا عن أنه لم يرق بعد وهو على مشارف القرن العشرين إلى مستوى عمر الخيام الذي عرف كيف يعامل حبيبته بندية لم يستطع الإنسان المعاصر استيعاب حقيقتها بعد. ويستمر العرض في إدارة حواره الخلاق بين مختلف هذه المستويات الدلالية، ويقدم لنا في الوقت نفسه الكثير عن حياة عمر الخيام وأشعاره. وحتى نتذوق هذه الأشعار يقدم لنا أثناء العرض النبيذ، كما كان الحال في الحانات التي كان يتردد عليها الخيام نفسه. في هذا الزمن الإسلامي الزاهر، ويستخدم العرض هذا الزمن المتحرر ليضعه في مواجهة التزمت الإسلامي المعاصر. بصورة جعلتني أشعر بفداحة ما أصاب به الجمود والوهابية واقعنا العربي، وكيف أساءت لسمعة الإسلام الوضيئة. وينتهي بنا العرض وقد شاركنا جميعا في هذا المناخ المتحرر بالرقص والشراب.

وكانت هناك مسرحيتان عن وضع المرأة الأفغانية إبان حكم الطالبان. كتب أولاهما (الأفغانيات وأفغانستان) الكاتب الفرنسي الشاب جان جاك جرينو Jean Jacques Greneau وهو الذي كتب عرضا آخر عن فلسطين سأتناوله بعد قليل، بينما أعدت الأخرى (الوجه الخفي للمرأة الأفغانية) كاتبة وممثلة من أصل مغربي هي معاني صاديه Maani Sadia وإذا كانت المسرحية الأولى قد تناولت وضع المرأة الأفغانية خلال مرحلة طالبان من خلال تجسيدها لقصة امرأة أفغانية «دارية» عانت من زمن الحرب ضد السوفييت، وفقدت عددا من أبناء أسرتها بسببها، ثم بلغت معاناتها ذروتها في زمن الطالبان، حيث فقدت كل المكاسب التي حققتها المرأة إبان فترة نجيب الله، وعادت مرة أخرى إلى قسوة سجن التصورات السلفية الجامدة عن المرأة والإسلام. لكن مشكلة هذه المسرحية التي كتبت قبل أحداث سبتمبر أنها توجه نداءها للغرب لإنقاذ المرأة الأفغانية من تحجر الطالبان، وتطلب منه أن ينهض بواجبه في الدفاع عن حرية المرأة، التي لا تتحقق في عالمنا مثل هذا الوضع. وما أن تشاهدها بعدما أسفر تدخل الغرب - الولايات المتحدة خاصة - في أفغانستان عن وجهه القبيح، وعن جشع احتكارات النفط الكبرى، ولم يعد يهمه حقيقة وضع الإنسان الأفغاني مادام قد أمن مصالحه، حتى تدرك مدى ما ينطوي عليه نداؤها من إشكاليات. وقد تحدثت مع مؤلفها قبل العرض، فأخذ يؤكد على ضرورة أن نرى المسرحية في سياق كتابتها، وقبل التدخل الأمريكي في أفغانستان. لكن المسرح لابد أن يكون قادرا على الفاعلية والتأثير بعد انصرام زمن عليه. أما المسرحية الثانية فإنها تختلف كثيرا عن الأولى في تناولها لوضع المرأة الأفغانية، لأنها اعتمدت على مجموعة من القصائد التي كتبتها النساء الباشتون في زمن الحرب، وحاولت من خلال مسرحتها، وتجسيدها على المسرح بمصاحبة عدد من الآلات الموسيقية التقليدية الأفغانية أن تقدم لنا وجهة نظر هؤلاء النسوة دون تدخل فيها فخرجت المسرحية وكأنها عمل عن الحب في زمن الحرب، أو عن الحياة الإنسانية القادرة على تجاوز المحن وخلق عالم إنساني راق في أشد الظروف ضراوة وصعوبة.





ولابد أخيرا من الحديث عن مسرحيتين عن عالمنا العربي أولاهما كتبها جان جاك جرينو Jean Jacques Greneau، وهو نفس الكاتب الذي كتب المسرحية الأفغانية الأولى عن الوضع الراهن في فلسطين المحتلة. وهو كاتب يردنا إلى زمن الكتاب الفرنسيين الذين يشعرون بأن الكاتب هو ضمير العالم، وأن عليه أن يكون ملتزما إزاء قضاياه الساخنة. من أميل زولا الذي رفع إصبع الاتهام (إني أتهم) ضد العنصرية، إلى جان بول سارتر الذي كان الضمير المثقف لعصره في الخمسينيات والستينيات. فقد كتب هذه المسرحية (حملان الرب) مستخدما فيها هذا الرمز التوراتي أو الإنجيلي الذي يتجذر في الوجدان المسيحي عن الوضع الراهن في فلسطين المحتلة عقب زيارة أخيرة لها إبان اجتياح العدو الصهيوني الشرس لجنين. وهي مسرحية سياسية بكل معنى الكلمة، إذ أنها تقدم لنا صحفيا يروي لنا ما شاهده، في نوع من التقرير الإخباري الذي يتحدث عن تصرفات شارون الوحشية، وردود فعل عرفات وبوش عليها، ويلتقط صورا لما يدور أمام عينيه، بينما تقدم الممثلة التي تقوم بدور امرأة فلسطينية تعاني من الحصار في وطنها المحتل بتجسيد هذا الوضع المؤلم ومنحه وجها إنسانيا على خشبة المسرح. فنحن هنا بإزاء امرأة فلسطينية نبيلة تحكي لنا عن معاناتها الإنسانية تحت وقع القصف الوحشي والحصار، وعن مواجهتها اليومية للمصفحات والاستجوابات، وعن وقوفها اليومي أمام الحواجز العسكرية التي نصبها المحتلون الصهاينة في كل مكان، ويبددوا بها وقتها وأمنها. وعن تشبثها بأرضها وبيتها ورغبتها في حماية أطفالها وتوفير الحياة الكريمة لهم. وكيف يذهب ابنها للمدرسة فيجد مدرسه صريعا برصاصة صهيونية غادرة، فيتعلم الكراهية بينما كانت تود أن يتعلم الحب والتسامح. وتقدم لنا من خلال شهادتها الملموسة والحسية والمؤثرة صورة مجسدة

لهذا الوضع المأساوى الذى يجد فيه الفلسطينى الباسل نفسه وحده يحارب هذا الطغيان الصهيونى البربرى البشع، بينما بقية العالم، والعالم العربى على وجه الخصوص، لايمد له يد العون فى هذا الزمن الردئ.



ولايكتمل الحديث عن همومنا العربية فى هذا المهرجان دون تناول واحدة من المسرحيات العربية العديدة التى تناولت الوضع الدامى فى الجزائر وعلاقتها المعقدة مع فرنسا. وقد كانت مسرحية (ذكريات مستجلبة) لسليمان بن عيسى واحدة من أجمل المسرحيات العربية التى شاهدتها فى هذا الصدد. فهى مسرحية تتناول قضايا الهوية الجزائرية المعقدة، وذلك من خلال عملية تحليل نفسى لشاب جزائرى يعانى من فقدان الذاكرة، وهى هنا ليست مجرد الذاكرة الفردية، وإنما الذاكرة الجمعية، والذاكرة التاريخية التى يعيش العربى عامة حالة مزمنة من فقدانها الدائم. ويلعب الفرنسى فى هذه المسرحية عددا من الأدوار من دور السجان، إلى المستجوب، إلى المحلل النفسى، إلى راقص الاستربتيز فى الملهى الليلى، وهى كلها على المستوى الرمزى الأدوار التى تلعبها فرنسا بالنسبة للجزائر عبر مسيرتها الحديثة. بينما يلعب الجزائريان فيها دور الأب ودور الابن. فقد كان الأب مجاهدا من الذين حاربوا فى حرب الاستقلال والمليون شهيد. أما الابن فإنه من الجيل الذى عانى من ويلات القهر وتخثر أحلام الاستقلال ودموية الحرب الأهلية. وتتحول المسرحية بالتدريج إلى محاكمة للتاريخ الجزائرى المعاصر، وإلى محاولة لسبر أغوار الشخصية الجزائرية والتعرف على هويتها الوطنية فى آن، بعدما تم تعميد هذه الهوية بالدم والفساد. وإذا كان الفرنسى يحاول أن يطرد أشباح الماضى التى ساهم فى خلقها بالنسبة للوضع الجزائرى، ويدرك فداحة مسئوليته عما دار إبان الفترة الاستعمارية، فإن الأب يشعر بالامتنان لأنه استشهد قبل الاستقلال، ولم ير كيف مسخت أحلامه وأهينت تضحياته وتاجر بها العملاء. بينما يبقى الابن حائرا، بل ضائعا بين شقى رحى تناقضات مرحلة الاستقلال، وما أنجبته من حرب أهلية دامية. لا يستطيع الابن التنصل من مسئوليته عنها، ولكنه لا يستطيع فى الوقت نفسه تحمل أوزار هذه المسئولية لأنه فى حقيقة الأمر أحد ضحاياها.



وقبل أن أنهى هذا المقال أود أن أشير إلى المسرحية التى سعت إلى الدخول بنا إلى قلب الكابوس الأمريكى الناجم عن غزو أفغانستان، وهى (جوانتنامور Guantanamour) لجيرار جيلاس عن سجناء هذا المعتقل الجهنمى فى خليج جوانتنامو. وهى مسرحية تلعب على المزج بين اسم هذا المعتقل، وكلمة حب بالفرنسية للكشف عن زيف الدعاوى الإنسانية الأمريكية من خلال هذا المحك الفعلى لاختبارها جميعا. إذ تسعى المسرحية التى تستخدم تقنية الراوى والمراوحة بين الحوار والمنولوج إلى إدخال المشاهد إلى قلب هذا المعتقل الجهنمى الذى لم يسمع العالم عن وجوده الغريب قبل الغزو الأمريكى لأفغانستان. فيقدم لنا الراوى الإطار التاريخى الذى مكن أمريكا من الاحتفاظ بموطئ قدم على الأرض الكوبية، ويكشف لنا مدى النفاق السياسى الذى دفعها إلى اللجوء لهذه البقعة الكوبية المستعمرة كى ترتكب فيها جرائمها البشعة حتى يتاح لها فيما بعد الزعم ببياض صفحتها ونصاعة تاريخها. ثم يقدم لنا مجموعة من الحقائق عن واقع الحملة الأمريكية على أفغانستان، وعن تبريرها للقبض على هؤلاء الأسرى، ويكشف لنا من خلال الراوى الذى يقدم لنا الخطاب التبريرى لها، والأسرى الذين يقدم كل منهم منولوجا يروى فيه حالته مدى التناقض والرياء والمفارقة بين الخطاب الأمريكى والواقع. فالخطاب الأمريكى مترع بالتبريرات الإنسانية والمزاعم الكاذبة عن الحب وحقوق الإنسان، بينما يجسد لنا الواقع هذا «الحب» الأمريكى المترع بالعنف والكراهية. وقد استخدم العرض أربعة ممثلين يقدم كل منهم عددا من منولوجات السجناء، بصورة يمكن معها القول أن كلا منهم يقدم منولوجات مجموعة متجانسة منهم. أولاها هى مجموعة الأفغان الذين لايريدون غير ما يريده الأمريكى لبلده، السيادة والأمن والاستقرار، ولا يقبلون وقوعها تحت وطأة الاستعمار الأمريكى الجديد. وثانيها هى مجموعة ضحايا هذا الاستعمار الأمريكى من الذين غررت بهم أمريكا وشجعتهم على الجهاد ضد «الكفرة» السوفييت، ودربتهم فى معسكراتها وأمدتهم بالمال والعتاد حتى حرروا بلدهم منه، ثم وجدوا أنفسهم من جديد ضحية لمن شجعهم من قبل، وسجناء له. أما المجموعة الثالثة فهى مجموعة من الذين حاربوا ضد طالبان، ولكنهم حاربوا كذلك ضد عملاء أمريكا من الطاجيك، ووجدوا أنفسهم من الخاسرين فى كل الحالات. والمجموعة الأخيرة هى أكثرها مأساوية لأنها تتكون من الذين وضعتهم المقادير التعسة فى طريق الأمريكان بصدف عابثة. مجموعة البشر العاديين غير المسيسين الذين وجدوا أنفسهم فجأة إزاء تهم كبرى لا يدركون أبعادها، أو ألعوبة فى أيدى مردة مجرمين. وفى نهاية المسرحية، يتحول الراوى الذى كان يتذرع بخطاب أجوف متحضر إلى سجان وحشى، يغلق السجن على الجميع، ويطلق زبانيته عليهم إذلالا وتعذيبا، وقد رفض خطاباتهم المتعددة التى لايعترفون فيها بأنهم أجرموا فى حق أمريكا. كاشفا فى نهاية المطاف عن وجهه الحقيقى البشع، وواضعا الجمهور أمام مسئوليته إزاء ما يدور فى هذا العالم الردىء.

والواقع أنه إذا كان على بعد هذا العرض السريع لعدد من مسرحيات المهرجان الرسمى والموازى أن أتحسس شيئا من الاتجاه العام فى كثير من المسرحيات المهمة فى هذا المهرجان فهو أن نظرية بيتر بروك الشهيرة عن «المساحة الخالية» قد تلقت فى هذا المهرجان ما يمكن دعوته بالتطبيق الخلاق لها. والذى أكد أن المسرح الجيد لا يمكن أن يتخلق فى أى مساحة خالية فحسب. بل إن هذه المساحة تستطيع أن تدير ببنيتها الخاصة، وجمالياتها الفريدة حوارا متميزا مع هذا الفضاء وبنيته، وأن تمكنه من أن يكون أحد العناصر الأساسية فى عملية التأويل الإخراجى. بصورة يعيد فيها المسرح اكتشاف جماليات المكان، ويمنحه حياة جديدة ودورًا جديدًا. ■

كتاب الزاوية

رسالة إلى بوش من طفلة مسلمة

يَا سَيِّدِى بوُش العَظِيمْ . .

أنَا طفلةٌ

نَبتَتْ عَلَى أحَضْانِ بوُسنةَ

مُنذُ آلافِ السِّنينْ . .

وعَلَى ثرَاهَا

لاَحَ فِى عَيْنِى ضياءُ اللَّهِ

يسْرى فِى قلوبِ المؤْمنِينْ

ورَأيتُ فِى أمِّى كتابَ اللَّه

نُوراً فى الضلوعِ

وأنجُمًا فوق الجَبينْ

وأتَيْتُ للإسلامِ راغِبةً

وَلمْ أسمَعْ صُراخَ الحاقدِينْ

ورسَمْتُ فى قَلبْى

بِلادَ اللَّهِ حبًا

لاَ يُعادِى أىَّ دِينْ

الآنَ يا مَوْلاَىَ

تَسْحَقُنَا جيُوشُ الغَاصبِينْ

مِنْ ثَدْىِ أمِّى

كَانَ لونُ الدَّمِ

يَحْكى قِصَّةَ الأهوالِ

فى الزَّمَنِ اللعِينْ

أســـئـلـة..!

■■ لماذا..؟!

السـؤال.. طرحـه الأمـريكيـون - أو بعضُهم على الأقل - بعد الحادى عشر من سبتمبر الشهير. وتعامى الأمريكيون - أو مســؤولوهم على الأقل - عن الإجابة. واعتبر مروجو المكارثية الجديدة، طرحَ السؤال؛ مجردَ طرحِ السـؤال! «تبريراً للإرهاب». يقع صاحبُه - مهما كانت جنسيتُه أو مكانُ إقامته - تحت طائلة قوانينِ «أشكروفت» المطاطة الجديدة، فى أجواء مسممة بهستريا الخوف وهوسِ الجبروت (اعتقل الامريكيون ثلاثة طلاب أوروبيين: سويدى وألمانى وأسبانى لترديدهم، على سبيل المزاح، عبارات تمجيد لأسامة بن لادن ومحمد عطا فى شريط فيديو عائلى).

السؤال - الذى غابَ للأسف - حتى عن خطابات المثقفين المفتوحة الشهيرة، عاد للواجهةَ على استحياء. يطلُ - لمن يريدُ أن يقرأ - من بين سطورِ عناوينِ الأخبار، ومن خلف ظلال صورِ وكالات الأنباء. أما من يريدُ أن «يشطُب» السـؤالَ ذاتَه، فله أن يحاولَ - ولو على سبيلِ حبِ الاستطلاع - زيارةَ منتديات الحوار العربية والإسلامية على الانترنت، حيث الكلام بلا حدود ولا قيود. أو يطالع أرقامَ الاستبيانات الأسبوعية على صفحات الشبكة الدولية، حيث لا توجَدُ صناديقُ استفتاءٍ «حكومية» ولا نتائج معدة سلفاً.

الخبرُ الأول.. والصورةُ «التى هى بألف كلمة» كما يقولون، لأكثرَ من عشرة آلاف شخص (رويترز ١٤/١١/٢٠٠٢) احتشدوا فى إحدى ساحات «كويتا» الباكستانية الواسعة، قادمينَ من أزقتها الفقيرة الضيقة لأداء صلاة الجنازة وتشييع جثمان «مير ايمل قانسى» الباكستانى الذى أُعدمَ بحقنة قاتلة قبل أسابيع فى أحد سجون «فرجينيا»، لإدانته بقتل موظفين فى وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA عام ١٩٩٣، قبلَ أن يتمكنَ عملاءُ مكتب التحقيقات الفيدرالية من اختطافه من داخل باكستان عام ١٩٩٧ فى عملية سينمائية مثيرة. يومها قال عميلُ الـ FBI براد جارت أن قانسى (٣٨ عاماً) أقر بأنه نفذ عملية الاغتيال «انتقاماً للمعاملة الفظة التى يلقاها المسلمون من أمريكا».

الجنازةُ صارت مظاهرة.. والجانى (حسبَ القانون الأمريكى) صار بطلاً وشهيداً و «مثلا أعلى». رغم كل الاتفاقات العلنية والسرية بين مشرف وباول. ورغم صور المصافحة الباسمةِ الأنيقة فى واشنطن واسلام آباد.

الصورةُ الثانية، لآلاف من اليابانيين، الدولةُ التى مازالت - قانونياً على الأقل - تدفعُ فاتورةَ الهزيمةِ فى الحرب العالمية الثانية، يسيرونَ فى هدوء وصمت البوذيين رافعين لافتات صغيرة بسيطة تحمل شعاراً - أونداءً - واحدا: «لاتضربوا العراق».

فى «سيدنى» البعيدة التى هزتها عن قرب - بحكمِ الجغرافيا وجنسية الضحايا - حادثةُ بالى قبل أن يهدأ صخَبُ الجدلِ حولَ واقعة الاغتصاب اللبنانى الجماعى، كانت الصورةُ فيها - بحكمِ الثقافة - مختلفة، وإن كانت أكثر «إثارة». ففى وسط الشارع الذى ازدحمَ بمئات المتظاهرينَ أمامَ المبنى الذى انعقدَ فيه قبلَ أيام «اجتماعُ التجارة الدولية»، تجردت ثلاثُ فتيات من كامل ثيابهن. ورقدن عاريات تماماً مفترشات علما أمريكيا ملطخاً بالدماء (AFP ١٤/١١/٢٠٠٢).

والحاصل أن «العرىَ» الاسترالى الصادمَ والمثير كان احتجاجاً على العولمة. والتى هى بمقتضى الواقع وبحكم التوصيف والتعريف.. «أمريكية».

«كما تَقتلون ستُقتلون.. وكما تَقصفون ستُقصَفون... تذكروا أطفالنا الذين يُقتلونَ فى فلسطين والعراق، وتذكروا رجالنا ونساءنا الذين قُتلوا فى أفغانستان...».

النص مجتزأً من شريط بن لادن الصوتى الأخير، الذى أحيا مَخاوفَ تجاوزت بالضرورة تطمينات ديل داتسون رئيس مكتب مكافحة الإرهاب فى مكتب التحقيقات الفيدرالى. والذى كان قد قال - بكل ثقة وسخرية - قبل أسبوعين فقط من إذاعة تسجيل بن لادن الصوتى: «إذا لم يكن قد مات، فلعله تبخر.. وإلا لماذا لا نسمع صوته على الجزيرة..».

أياً ما كان الأمر، وأيًا ما كان الموقفُ من آراء ومن ثم أفعال المتمرد السعودى، تبقى حقيقةُ أن التساؤلَ حول ما إذا كانت تلك الآراءُ تقدمُ إجابةً على السؤال المسكوت عنه أمريكياً: «لماذا..؟» وجد طريقه إلى العديد من مواقع الإنترنت (منها موقع أمريكى حذف فوراً من على الشبكة الدولية..!) . وتبقى حقيقة أن رأى توماس فريدمان المعبِر عن رأى قطاع لا يستهان به من صنَّاع العقل الأمريكى من أن «العرب إنما يكرهون أمريكا لأنها أكثر تحضراً ورفاهةً وثراءً..» يصعب فهمه فضلاً عن الاقتناع به.

«كما تَقتلون ستُقتلون.. وكما تَقصفون ستُقصَفون... تذكروا أطفالنا الذين يُقتلونَ فى فلسطين والعراق، وتذكروا رجالنا ونساءنا الذين قُتلوا فى أفغانستان...».

أسامة بن لادن
فى قناة الجزيرة
١٢/١١/٢٠٠٢

GERMANY'S WOEFUL WORKERS • BRITAIN'S ROYAL MESS
Newsweek
THE INTERNATIONAL NEWSMAGAZINE
"As You Kill, You Will Be Killed"
Osama bin Laden Returns

تتعدد الصور.. وتتعدد الأسبابُ الظاهرةُ على السطح. ولا يستوقفُ الأمرُ الأمريكيين اللاهثين خلفَ صيحات الحرب، وتحتَ سياطِ التهديدِ والفزعِ والخوف.

صورةٌ واحدةٌ، تذكرها المعلقون وكتابُ الأعمدة بعد حديث بن لادن الأخير. الذى أثبت أن «الشبحَ مازال حياً» وأعاد صورتَه لتحتل أغلفةَ المجلات من جديد. تَذَكَّر الأمريكيون أنه قبلَ أسابيع، وفى الكويت التى هى «أكثر من صديقة»، تجمعت الحشودُ أيضاً لتشييع جنازة «شهداء فيلكه» كما أسماهم البعضُ على منابرِ المساجد. وأن جدلاً حول التوصيف، شغلَ لكثيرِ من الوقت ديوانيات البلد الخليجى الذى «يتواجدُ» فيه الأمريكيون منذ عشرة أعوام. وتذكر البعضُ - بحكم تداعى الأحداث وترابطها - أن بدايةَ هذا التواجد وتوابعه، كانت البداية «المعلنة على الأقل» لحرب بن لادن على الأمريكان. وكان طبيعياً أن يستعيدَ المراقبون الجادون قولتَه التى لم يلتفت إليها أحدٌ أبداً وقتها: «اخرجوا من ديارنا..».

قبل عشرة أيام، وخلال أربع وعشرين ساعة فقط، تعرض عدد من المصالح الأمريكية، ومواطنون أمريكيون؛ عسكريون ومدنيون، إلى اعتداءات مختلفة فى دول عربية عدة. من الرياض.. إلى الكويت.. إلى صيدا جنوبى لبنان.

السؤال: لماذا شيع الآلافُ قانسى فى كويتا، وترحمَ من ترحمَ فى الكويت على «إرهابيى» فيلكه؟

أو إذا استعرنا الصياغة الأمريكية للسؤال: «لماذا يكرهوننا..؟».

لاعاقلَ يمكنه أن يدافعَ عن ما فعله أويفعله بن لادن (وبغض النظر عن الغموض الذى مازال يغلف كل شىء) إلا أنه لاعاقلَ أيضاً يمكنه أن يتجاهل أن الاستبيانات على الإنترنت تقول أن ٧٠ ٪ من الشباب (النويتى) يعتبره بطلاً. وأن القمصان التى تحمل صورته توزع على نطاق واسع فى دول آسيا الإسلامية. كما احتلت صورته واجهات التليفونات المحمولة فى غير بلد عربى.

ماذا فعل الأمريكيون فى مواجهة هذا الشعور المتنامى؟

فى ثقافة الـ World Trade Center النيويوركية، لاتوجد عادة مشكلة. ما دمت تملك المال.. والحرفية Professionalism.

بوب وودوارد الشهير كشف فى كتابه الذى يصدر بعد أيام، كيف كسبت الدولارات الحرب فى أفغانستان (٧٠ مليون دولار دفعتها الـ CIA لشراء ولاء أمراء الحرب). إذن ليس غريباً أن يُوجَد هناك فى الإدارة من يقتنعُ بأن الحل ليس فى تغيير السياسات لتصبح أكثر عدلاً، أو أقل عنجهية. وإنما فى «تغيير العقول» لتصبح أكثر تقبلاً للسلعة المراد ترويجها، وبغض النظر عن مستوى الجودة. والخطوات (بمنطق الشركات التجارية) محددة سلفاً فى الـ Text Book: مليون دولار تم تخصيصها لحملة «علاقات عامة». و شارلوت بيرس الخبيرة فى الموضوع، بوصفها مديرة سابقة لإحدى شركات العلاقات العامة، تم تعيينها مساعدا لوزير الخارجية لشئون العلاقات الدبلوماسية العامة. ومن ثم احتلت الصحف العربية الكبرى إعلانات ملونة صيغت بحرفية بالغة تحاول أن تقول: «نحن الأمريكيين طيبون».

ورغم أن المضمون الإعلانى - ذا

الترجمة الركيكة - لا يتضمن مبالغة في كثير من الأحيان إلا أنني لست متأكداً أنه قادر على إزالة الأثر الذي يمكن أن تحدثه صورة منشورة، في الصفحة ذاتها ربما، لأم تبكي ابنها الذي مزقته إربا قذيفة «أباتشي» أمريكية الصنع في أحد شوارع مدينة نابلس القديمة.

مزيد من الاستقطاب إذن و«سوء الفهم» إذا شئنا تعبيرًا باردًا، رغم إذاعة «سوا» الصاخبة، ورغم كل الجهود المخلصة و«المغرضة» من الطرفين. ورغم استضافة المثقفين و«أشباههم» في زيارات وجولات في هذه الولاية أو تلك. فكتب التسويق ذاتها تقول: أن كل إعلانات الكوكاكولا مهما كانت مثيرة وملحة ومشوقة، تصبح غير ذات فائدة إذا وجدت صرصوراً في زجاجة.

وكم بالسياسة الأمريكية من صراصير..!



قبل أسابيع صدر في مصر كتاب مهم يناقش «صناعة الكراهية في العلاقات العربية الأمريكية» ولا يبدو د. أحمد يوسف أحمد محرر الكتاب الذي شارك فيه عدد من الكتّاب والأكاديميين العرب مقتنعًا بما يكرره فريدمان من أن العرب يكرهون أمريكا «لأنهم ضد الحداثة». بل يذهب مع المشاركين في الكتاب إلى أن «السؤال» على النحو الذي طُرِحَ به من قِبَل مفكرين ومحللين أمريكيين ليس صحيحًا، وربما يكون الأصوب طرح السؤال كما يلي: لماذا تكره أمريكا العرب والمسلمين؟!

مزيدٌ من الاستقطاب إذن. تغذيه كل يوم أخبار هنا وتأويلات هناك. وتهديدات وتحذيرات لا تتوقف.. في أجواء مشحونة بالتربص والقلق.

مزيد من الاستقطاب يُذكِّر بكتاب طارق علي The Clash of Fundamentalisms وبالفهم العقيم لمقولة أن «الشرق شرق والغرب غرب.. لا يلتقيان».

حتى صفوة المفكرين للأسف في خطاباتهم الفكرية الرفيعة المتبادلة. بدا أن هاجس العولمة سحرهم. فأجهدوا أنفسهم والمسألة كلها، تنقيبًا في «ثقافة الآخر». وبَدَوا كأنهم لا يرضون بأقل من تطابقٍ مستحيل، غافلين عن أن التمايز من سنَنَ الله في خلقه. وأن التباين «الثقافي» فيه إثراءٌ ولا شك، وأنه لا ضير في اختلاف بلا إضرار.

مزيد من الاستقطاب.. و«الكراهية» إذن. فرغم الصورة الباسمة لوفد الأفغانيات «حاسرات الرأس» يحطن بجورج دبليو بوش في المكتب البيضاوي (إعلانا للانتصار على طريقة الـ PR)، ترك «رجل أعمال» تجارته - كما ذكرت النيوزويك قبل أسبوعين - ليلتحق بمعسكر تدريب جهادي متنقل في حضن أحد جبال أفغانستان الوعرة. حيث يتعلم من مدربه بداية أن «هدفنا قتل الأمريكيين وخدامهم.. لا فرق بين بوش وكرزاي».

مشاعر الكراهية تلك.. تقابلها مشاعر الخوف والفزع هناك. فالتقارير الواردة من واشنطن تحكي كيف أدت كلمات بن لادن الأخيرة «رغم صوته الهادئ الرتيب» إلى حالة من القلق غير المنظور. فمحللو الاستخبارات أعلنوا أن التسجيل حقيقي.. وأنه دليلٌ على أن «الشبح ما زال حيـاً». ووسط عدد هائل من التسريبات غير الموثقة عن أن الرجل أجرى تجارب ناجحة في « صناعة واختبار كميات من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، ذكر مكتب التحقيقات الفيدرالي في إنذار «رسمي» غامض يعكس حالة انهيار الأعصاب أن «رجال القاعدة قد يفضلون الهجمات الاستعراضية المثيرة التي بإمكانها أن تسفر عن أعداد كثيرة من الضحايا ودمار شديد للاقتصاد الأمريكي..» وذكرت الصنداي تايمز أن الإدارة الأمريكية بدأت تتعامل بجدية مع المنجمين وأصحاب قدرات «ما وراء الطبيعة» الاستثنائية للتنبؤ مقدمًا بالهجمات القادمة وللبحث عن «الشبح الغامض»!!

ما العمل..؟

يعيب السؤال أنه يذكر «لفظا» بفلسفات دارت حولها الحرب الباردة. وربما كان مستفزاً لأمريكيين ما زالوا يتذكرون عدوهم القديم.. ولكن يظل «السؤال» حتمياً. ويعتقد الكثيرون أن الاجابة أيضاً «حتمية».

يبحث الامريكيون عن الأمن.. وهذا حقهم ولا ريب. ويبحث «الآخرون» عن العدل.. وهذا أيضاً حقهم ولا ريب.

ويبدو أنه كما أن السؤال حتمي فالإجابة أيضاً كذلك.

هل هناك ما يدعو للتفاؤل؟

رغم جوانتنامو.. والـB52 وآلاف الأطنان من القنابل.. و٧٠ مليون دولار لشراء أمراء الحرب.. و٣٥ مليونا للعلاقات العامة، مازال الشبحُ مختفيًا.. ومازال الأمريكيون خائفين. ويبدو أن أسئلةً طرحناها في هذا المكان عشية الحادي عشر من سبتمبر مازالت تحتفظ بعلامات استفهامها.

السؤال يومها كان: هل يتجاوز الأمريكان - ولو بعد حين - ما حدث، ليراجعوا أنفسهم بحثًا عن الأسباب الكامنة وراء ما حدث؟

هل سيجدون بعد أن تهدأ الجلبة والصراخ والعويل وصيحات الانتقام، من يُذكِّرُهم بأن ضحايا قنبلتي هيروشيما ونجازَاكي «من المدنيين» أضعاف أضعاف ضحاياهم، وإنهم يومًا ما، بزهو القوة، بطشوا - أو على الأقل بطش سلاحهم وقرارهم وحصارهم ونفوذهم - بأطفال في العراق، وأبرياء في ليبيا والسودان. وضحايا «باليومية» في أزقة الأراضي الفلسطينية المحتلة الفقيرة.

هل سيتذكرون مظاهرات سياتل وجنوا.. ويدركون مغزى اتفاق الجمعيات الأهلية في دربن - بعيدًا عن حسابات الحكومات والساسة - ضد صلف نفوذهم.

هل هناك ما يدعو للتفاؤل؟

يومها تساءلنا: هل من الممكن أن تُجد تلك القوة العظمى - ذات الآليات الخاصة جدًا لصنع القرار - الشجاعة لأن يعترف بعضهم بأن أسباب ما حدث ربما تكمن في السياسات الأمريكية ذاتها.

هل سيتبينون، بعد انقشاع الدخان من سماء نيويورك - الملبدة دائمًا بالغيوم و«ناطحات السحاب» - الخيطَ الأبيضَ من الأسود، ليؤذنوا بفجر عالمي جديد. يَعرف فعلاً «العَدلَ المُطلق» لا شعارًا لحرب لا تعرف أهدافها.. بل عنوانا على زمن جديد.

قلنا يومها أنه ربما يكون صحيحًا تمامًا أن بن لادن بدأ مقاتلاً ضد الشيوعية التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، ولكن يبقى صحيحًا تمامًا أيضًا أن أفكاره نمت وترعرعت وانتشرت بين جيل الإحباط العربي بسبب سياسات التسعينيات الأمريكية، التي لم تخف يومًا انحيازها. ولم تدرك أبدًا «مغترة بصلف القوة وجبروتها» أنها بحاجة إلى هذا التخفي.

والآن نقول إن «محاربة الشبح» الذي تصدرت صورته أغلفة المجلات الأمريكية قبل أسبوعين لن يكون أكثر من حلقة أخرى من مسلسل «صناعة الأسطورة» الذي لعبه الأمريكيون باقتدار - وربما بغباء أيضًا - على مدى العشرين عامًا الماضية.

لقد تبين للجميع صباح الحادي عشر من سبتمبر حقيقة أن عشرة مليارات من الدولارات سنويًا مخصصة لمكافحة الإرهاب لم تمنع ما حدث، وأن الترتيبات الأمنية مهما كانت مُحكَمَةً. والقوة مهما بلغت سطوتها، لا يمكن أن تحمي مجتمعات صناعية حديثة.

ويبدو أننا في حاجة إلى تكرار القول بأن الضمان الوحيد لأمنك هو ألا يكون لك أعداء يكرهونك إلى درجة «الانتحار لإيذائك».

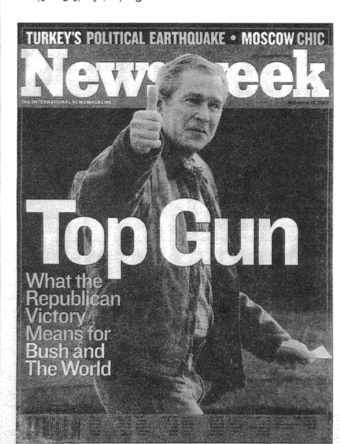
في عالم له «حاكم واحد».. يبدو أن الوصفة الوحيدة لأمن القوة العظمى «الوحيدة» هي تلك القادمة - ويا للمفارقة - من أعماق تراث المسلمين: «حكمتَ.. فعدلتَ.. فأمِنتَ.. فنمتَ يا عمر». ■

«نحن قادة العالم.. ولا يهمني ما يقوله الآخرون عنا.. أو عني».

جورج دبليو بوش

لبوب وودوارد

في كتابه الجديد: «بوش محاربًا»



"آثــــار"

The Meaning of the Dead Sea Scrolls: Their Significance for Understanding the Bible, Judaism, Jesus, and Christianity

(معنى مخطوطات البحر الميت: أهميتهم فى فهم الكتاب المقدس واليهودية والمسيح والمسيحية)

James VanderKam, and Peter Flint
Harper San Francisco, 2002, 480PP.,
$ 34.95

تم الكشف عن مخطوطات البحر الميت فى كهوف تقع شرق مدينة القدس فى الفترة ما بين ١٩٤٧ و١٩٥٦. وقد أثارت هذه اللفائف جدلاً عنيفًا حول طبيعة كل من اليهودية والمسيحية، فهى تضم أقدم مخطوطات الكتاب المقدس، كما تكشف عن الأشكال المتنوعة من اليهودية التى كانت سائدة فى عهد المسيح وبداية ظهور المسيحية.

يأتى هذا الكتاب متزامنًا مع قرب الانتهاء من نقل وترجمة مخطوطات، لكى يقدم القصة بتفاصيلها منذ اكتشاف اللفائف والملابسات التى أحاطت بهذه العملية، إلى محتوى هذه اللفائف وعلاقته بالكتاب المقدس العبرى والعهد الجديد، وما قد تثيره هذه اللفائف من خلافات.

"اجتماع"

لغة الشارع كدراسة للشخصية المصرية فى الأمثال الشعبية

عزة عزت
القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٢

تعتبر المؤلفة أن لغة الحياة اليومية هى خريطة نفسية واضحة المعالم تهدى الدارس لتفاصيل التحولات فى المجتمع، المؤلفة تتابع هذه التحولات من خلال الأمثال الشعبية بما تنطوى عليه من عبقرية تلقائية وحكمة بالغة وتعبير صادق عن الشخصية الجمعية.

"إعلام"

حرب المصطلحات

تحرير: أحمد عبد الرحيم
تقديم: صلاح الدين حافظ
القاهرة: اتحاد الصحفيين العرب، ٢٠٠٢

لم تكتف إسرائيل بحرب الإبادة التى تشنها ضد الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة، وإنما تشن حرب مصطلحات بهدف قلب المفاهيم وإيجاد مناخ من البلبلة وتزوير الحقائق وتزييف التاريخ وتلبيس الحق بالباطل، ودس المصطلحات الإسرائيلية المشوهة فى لغتنا بدهاء شديد، وقد ابتلع كثيرون فى مجال الإعلام الطعم فاستخدموا المصطلحات الإسرائيلية بما يخدم الأهداف الصهيونية دون إدراك من هؤلاء لخطورة المسألة.

هذا الكتاب الذى شارك فيه نخبة من الكتاب والمختصين فى الصهيونية يفضح هذه الممارسات ويكشف عن عشرات المصطلحات الإسرائيلية المدسوسة من هذا النوع.

"اقتصاد"

بورصات الأوراق المالية

صلاح الدين السيسى
القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٢

يقدم المؤلف الخريطة الصحيحة للتعامل مع البورصات، وكيفية تجنب الهبوط المفاجئ والأزمات التى تواجه البورصات وتأثيراتها على حركة الأسواق والنقد فى العالم كله، وإلى جانب النصائح التى يقدمها المؤلف لإنعاش البورصات وتصحيح أوضاعها، يسرد تاريخ البورصات ودورها فى الاقتصاد العالمى.

"بيئة"

البيئة وقضايا التنمية والتصنيع

أسامة الخولى
القاهرة: عالم المعرفة، ٢٠٠٢

احتلت مشكلات البيئة فى السنوات الأخيرة أهمية متزايدة وتصاعدت مخاطرها على العالم كله مع التغيرات المناخية التى تهدد الأخضر واليابس، وأثرت التنمية الصناعية على البيئة بدرجة لافتة، المؤلف يطرح المشكلة ويقترح حلولاً يتصل أكثرها ببيئة المجتمع الدولى والدول الصناعية وخصوصًا الولايات المتحدة الأمريكية التى اتخذت مواقف سلبية دائمًا من كافة مؤتمرات البيئة.

■■■

State of the World 2002

(حالة العالم ٢٠٠٢)

Worldwatch Institute (editor)
WW. Norton & Co, 2002, 256PP,
$ 15.95

تقرير شامل عن حالة البيئة على كوكب الأرض فى عام ٢٠٠٢، يصف فيه الفريق البحثى التابع لمعهد وورلد واتش المشاكل البيئية التى يواجهها العالم وأفضل السبل لحلها. يهتم المعهد الذى يقع فى واشنطن بإعادة التوازن بين الزيادة السكانية فى العالم والمعدلات المتزايدة من الاستهلاك، ومنظومة الطبيعة التى تعتمد عليها الحياة على الأرض.

"تاريخ"

Cursed Is the Peacemaker: The American Diplomat Versus The Israeli General, Beirut 1982

(صانع السلام ملعون: الدبلوماسى الأمريكى ضد الجنرال الإسرائيلى، بيروت ١٩٨٢)

John Boykin
Applegate Press, 2002, 488PP, $ 29.95

دراسة تفصيلية لجهود السفير الأمريكى فيليب حبيب فى وقف الاحتلال الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢، ورفع الحصار الإسرائيلى عن بيروت وتأمين خروج ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية. يضع المؤلف الأحداث فى إطار مواجهة بين دبلوماسى أمريكى مضطر للعمل فى ظل مساندة ضعيفة ومشوشة من واشنطن، والجنرال الإسرائيلى آريل شارون، الذى خدع حكومته نفسها متجاوزًا الأوامر الصادرة إليه بسبب طموحه العسكرى وطبيعته العنيفة.

■■■

A History of Iraq (2 nd Edition)

(تاريخ العراق ط٢)

Charles Tripp
Cambridge UP, 2002, 346P, $ 20.00

استجابة للأحداث الجارية قام تشارلز تريب المحاضر فى قسم العلوم السياسية بجامعة لندن بتحديث كتابه عن تاريخ العراق ليضم ما حدث من تطورات حتى منتصف العام الحالى.

الكتاب يتتبع تاريخ العراق منذ القرن التاسع عشر أثناء الحكم العثمانى، مرورًا بإنشاء الدولة والتحول من النظام الملكى إلى النظام الجمهورى، وصعود حزب البعث وبروز صدام حسين.

■■■

The Two O'Clock War

(حرب الساعة الثانية)

Walter Boyne
Thomas Dunne Books, 2002, 320PP.,
$ 25.95

رواية تفصيلية لحرب أكتوبر والمعارك العسكرية والدبلوماسية التى اشتملت عليها فصولها، للمؤلف والتر بوين وهو كولونيل سابق فى القوات الجوية الأمريكية ومدير متحف الفضاء فى الولايات المتحدة. يؤكد الكتاب على الهزيمة العسكرية الإسرائيلية فى بداية الحرب، وامتياز خطة الهجوم المصرى/السورى المفاجئ، ودقة تنفيذه. كذلك يرى المؤلف أنه لولا التدخل الأمريكى العسكرى بالجسر الجوى لكانت اختفت إسرائيل ونشبت حرب نووية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

"تعـــليم"

الإنترنت فى التعليم

زكريا يحيى لال
مكة المكرمة: المؤلف، ٢٠٠٢

اقتحم الكمبيوتر مجال التعليم بصورة غير مسبوقة تتوافق مع مقتضيات العصر. فقد صار الإنترنت بما يقدمه من تسهيلات معلوماتية مما لا يمكن التغاضى عن أهميته فى الارتقاء بمستوى التعليم والخريجين وربطهم بعلوم العصر وتقنياته.

■■■

تهيئة الطفل للقراءة برياض الأطفال

فهيم مصطفى
القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٢

حلول عملية يقدمها الكتاب لتنمية مهارات القراءة وتدريب الأطفال عليها فى هذه المرحلة من عمرهم، والتى تسبق الانتظام فى الدراسة، وتشرح كيف يمكن أن ننمى الوعى المعرفى للأطفال لمساعدتهم على اكتشاف طرائق حياتهم وتحديد اختياراتهم.

"حقوق الإنسان"

حقوق الإنسان العربى

أحمد الرشيدى - عدنان السيد حسن
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

مازال الوطن العربى يتنازل طوعًا أو كرهًا عن العديد من حقوقه المدنية والدستورية تحت ذرائع مختلفة، كما أن حقوق الإنسان ليست شعارات غريبة، بل هى قيم مترسخة فى تراثنا القديم، وفى هذه الحوارية، يقدم لنا مفكران عربيان متخصصان فى القانون والسياسة، جدلاً متميزًا حول هذه المسألة ضمن سلسلة حوارات لقرن جديد التى تبنتها دار الفكر وصدرت منها كتب عديدة فى موضوعات شتى.

■■■

Like Water on Stone: The Story of Amnesty International

(كالماء على الحجر: قصة منظمة العفو الدولية)

Jonathan Power
Sir Paul Mc Carthey (Foreword)
Penguin Books, 2002, 352PP, £ 8.99
(pb)

فى العام الماضى احتفلت منظمة العفو الدولية بمرور أربعين عاماً على إنشائها، وبهذه المناسبة قام الصحفى جوناثان جاور ببحث تاريخ هذه المنظمة غير الحكومية التى أصبحت من أكثر منظمات حقوق الإنسان نفوذًا واحترامًا فى العالم. أنشأ منظمة العفو الدولية محام شاب يدعى بيتر بيرنسون فى لندن عام ١٩٦١ عندما قرأ عن حبس طالب برتغالى لمناداته بالحرية، وتعبر الشمعة التى تتخذها المنظمة شعارًا عن مثل قديم يقول: «من الأفضل أن تشعل شمعة بدلا من أن تلعن الظلام».

"ديـــن"

مواقف من حياة الصحابة

على أحمد الخطيب
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

هذا هو الجزء الخامس من الكتاب الذى يحمل العنوان ذاته ويتضمن سيرًا لأربعة عشر صحابيًا هم عكاشة بن محصن وقتادة ابن النعمان وعبادة بن الصامت وسماك بن خرشة وأنس بن النضر وعتبة بن فرقد وثوبان بن بجدد وخراش بن أمية وعتبة بن أبى لهب وجبار بن صخر وعمرو بن شاس وبسبس الأنصارى وقثم بن العباس وعروة بن نفاثة.

Abraham: A Journey to the Heart of Three Faiths

(إبراهيم: رحلة فى قلب ثلاث ديانات)

Bruce S. Feiler

William Morrow & Co, 2002, 240PP, $ 23.95

حرص الناشر على أن يصدر هذا الكتاب مواكبًا لذكرى مرور عام على أحداث ١١ سبتمبر، فمؤلفه سعى أن يقدم عملاً يذكر أصحاب الديانات السماوية الثلاث برمز يجمعهم ويوحدهم فى ظل الصراعات القائمة بينهم مؤخرًا، فاختار أن يقدم قصة «أبو الأنبياء» سيدنا إبراهيم. يتناول الجزء الأول من الكتاب ما ورد عن سيدنا إبراهيم فى كل من الكتاب المقدس والقرآن الكريم، خاصة دعوته لعبادة إله واحد، وقصة أولاده إسماعيل وإسحق. ومن اللافت أن المؤلف - وهو يهودى أمريكى من الجنوب - ذكر كيف استعار أصحاب كل ديانة من الديانات الأخرى القصص الواردة فيها عن سيدنا إبراهيم. فقد ظهر فى القرن الثامن فى الكتابات اليهودية استعارات من التراث الإسلامى تتعلق بسيرة سيدنا إبراهيم.

فى الجزء الثانى من الكتاب يتعرض المؤلف للفهم الحاضر لسيدنا إبراهيم وما يعنيه بالنسبة لليهود والمسيحيين والمسلمين المعاصرين، فيلجأ للقاءات حيّة ومقابلات مع الدارسين والعلماء من عدة مدن فى الشرق الأوسط. وفى النهاية يدعو المؤلف أتباع وورثة سيدنا إبراهيم حول العالم إلى الحوار من أجل إحلال السلام والقضاء على الصراعات.

رحـــــلات

Among Muslims: Meetings at the Frontiers of Pakistan

(بين المسلمين: لقاءات على حدود باكستان)

Kathleen Jamie

Sort of Books, 2002, 224PP, £ 6.99

تشتهر كاثلين جايمى فى المملكة المتحدة باعتبارها شاعرة متميزة من سكوتلاندا، وفى أوائل التسعينيات قامت الشاعرة برحلة فى المناطق الشمالية من باكستان فعاشت واختلطت مدة طويلة بالمسلمين الشيعة والإسماعيلية هناك، وتأثرت بطقوسهم واحتفالاتهم الدينية العاطفية التى ذكرتها بمسيرات جماعات «أورانج مين» فى شوارع جلاسكو. كتبت كاثلين جايمى عن رحلتها فى هذا الكتاب الذى صدر منذ سنوات، ولكن بعد أحداث ١١ سبتمبر والحرب فى أفغانستان قام مجموعة من الشباب الباكستانى بعمل مسيرة سلمية حول منزلها، فعادت جايمى إلى باكستان فى زيارة قصيرة لتضيف فصلا أخيرا لكتابها الذى أعيد نشره مرة أخرى منذ شهرين.

روايات وقصص

السيد ستون ورفقة الفرسان

ف. س نايبول

ترجمة: ياسر شعبان

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

رواية لحائز جائزة نوبل فى الآداب العام الماضى عن السيد ستون، وهى تنقسم لفترتين: الأولى قضاها بين عمله وحديقة منزله فى وحدة وعزلة، والثانية مع زوجته الأرملة التى تعرف عليها فى حفلة الكريسماس.

■■■

انتحالات عائلية

عبد الهادى سعدون

عمان: دار أزمنة، ٢٠٠٢

قصص قصيرة تجوب مناطق عدة من النفس الإنسانية، وتلتقط مشاهد من الحياة اليومية وتعيد صياغتها فنيًا، بينها: طيران بالمقلوب وحراكه وحنين ومخبرو أجاثا كريستى ومصارعات ثيران والعنعنة.

■■■

وفاء إدريس وقصص أخرى

محمد سلماوى

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢

مجموعة قصصية جديدة تستلهم تضحيات المناضلين فى فلسطين المحتلة، وكفاحهم من أجل الحرية والاستقلال، وإلى جانب الشهيدة وفاء إدريس، لا تغفل المجموعة شهداء آخرين منهم محمد الدتو وراجى وغيرهم.

■■■

Adelle: Jane Eyres Hidden Story

(آديل: قصة جين إير المحجوبة)

Emma Tennant

Harper Collins, 2002, 240PP., $ 25.00

تبنى المؤلفة روايتها حول شخصية ظهرت فى رواية أخرى، هى رواية «جين إير» الكلاسيكية للكاتبة الإنجليزية تشارلوت برونتى. أما الشخصية فهى شخصية الطفلة أديل التى أنقذها أبوها أو عشيق أمها «روتشستر» من الحياة المستهترة لأمها المثلة الفرنسية المشهورة. فالشخصية التى كانت هامشية فى الرواية الأولى هى مركز هذه الرواية وتدور الأحداث من خلالها كما تستمر أحداث جديدة مع تحولها من طفلة صغيرة إلى امرأة شابة تبحث عن والدتها فى باريس وتتعرض لعذابات متنوعة.

سـياسة

الحركات الإسلامية

حسن حنفى وآخرون

أبو ظبى: مركز الإمارات للدراسات والبحوث، ٢٠٠٢

يتناول الكتاب الحركات الإسلامية المعاصرة، من أين انبثقت وما هى الأيديولوجيات التى تحكمها والمرجعيات التى تستند إليها وخصوصًا أن بعضها لا ينسجم مع بعضها الآخر رغم الادعاء بالمرجعية الواحدة.

كيف نشأت هذه الحركات وما أهدافها، وكيف يمكن ترشيد أدائها، هذا بعض ما يناقشه المشاركون فى هذا الكتاب.

■■■

العراق وأسلحة الدمار الشامل

أحمد إبراهيم محمود

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٢

تتناول الدراسة الإطار التاريخى والاستراتيجى لنشأة وتطور وأهداف برامج الأسلحة العراقية وبرامج العراق النووية وأنماط أسلحته الكيماوية والبيولوجية والصاروخية وحدود فاعليتها فى حرب الخليج، ثم الإجراءات التى اتخذتها الولايات المتحدة الأمريكية والأمم المتحدة لنزع أسلحة الدمار الشامل العراقية بعد حرب الخليج الثانية وعمليات الشد والجذب بين لجان التفتيش والعراق حتى وصلت الأمور إلى ما آلت إليه الآن.

■■■

الموقف اليهودى من الإسراء والمعراج وانعكاساته على المسجد الأقصى

زاهية راغب الديجانى

عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

دراسة جديدة تضاف إلى سابقاتها تؤكد على عروبة القدس وقدسية المسجد الأقصى وما حوله من أرض مباركة، وتحلل المؤلفة ظاهرة الإسراء والمعراج والموقف اليهودى المشكك فيها كى ينفى عن القدس عروبتها، كما تعرض لأهم النكبات التى تعرضت لها هذه البقعة المقدسة مثل الحملات الصليبية وغيرها.

■■■

رهان المليون السابع

كارم يحيى

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٢

يسعى الكتاب إلى الإجابة عن أسئلة مهمة من نوع: من أين ستأتى إسرائيل بمليون مهاجر جديد حتى عام ٢٠٢٠؟ ولماذا وكيف، وهل مازال يهود العالم مستعدين للهجرة إلى إسرائيل برغم الحالة الأمنية المتردية والتى تتفاقم يومًا بعد آخر بسبب السياسات الإسرائيلية الخرقاء، المؤلف يؤكد على أهمية البعد الديموجرافى فى الصراع العربى الإسرائيلى وهو ما تنتبه إليه إسرائيل جيدًا وتبذل جهدها للتفوق فيه.

■■■

عروبة إريتريا

محمد عثمان على خير

دمشق: دار الجليل، ٢٠٠٢

دراسة تاريخية للمجتمع الإريترى منذ القدم وحتى اليوم، والمؤلف يتابع الدور التاريخى الذى لعبته إريتريا لمساندة الدعوة الإسلامية فى مهدها فى هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة وكذلك مساندتهم للدعوة فى زمن الصحابة، ويعرض للموقف من عروبة إريتريا لدى المؤيدين والرافضين وحججهم السياسية وغيرها.

■■■

Bush at War

(بوش فى الحرب)

Bob Woodward

Simon & Schuster, 2002, 400PP, $ 28.00

فى هذا الكتاب يقدم بوب وودوارد، الصحفى الذى اشتهر بالكشف عن فضيحة واترجيت، قصة الشهور الأولى من تولى جورج بوش الابن رئاسة الولايات المتحدة وخاصة إدارته لأزمة ١١ سبتمبر والحرب التى لحقتها. اعتمد وودوارد على لقاءات شخصية مطولة مع المسئولين فى الإدارة الأمريكية، من بينها أربع ساعات مع الرئيس بوش واقتباسات مباشرة من أعضاء مجلس الأمن القومى الأمريكى قدرها خمسة عشر ألف كلمة.

يكشف الكتاب عن الخلافات داخل الإدارة، خاصة الخلاف المستمر بين كولين باول من جانب وديك تشينى ودونالد رامسفيلد من الجانب الآخر. كما يؤكد الكتاب أن هزيمة قوات طالبان لا ترجع سوى للسبعين مليون دولار التى دفعتها الـ CIA نقدًا فى أرض المعركة لكسب تأييد المحاربين الأفغان.

سير ومذكرات

منيرة المهدية.. السلطانة

رتيبة الحفنى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

مثّلت منيرة المهدية عهدًا من عهود الفن الأصيل، لقبت بسلطانة الطرب وحققت مجدًا لم يحققه نجم فى عالم الغناء من قبل حيث تربعت على عرش الغناء أكثر من ثلاثين عامًا وانتشرت أغانيها فى ربوع الوطن العربى من المحيط إلى الخليج، وعبر مسرحها تزعمت حركة وطنية وناضلت لتحرير المرأة، وفى بيتها التقى مفكرون وساسة وأدباء حتى أن الصحافة أطلقت على مسرحها هواء الحرية.

■■■

Martha Inc: The Incredible Story of Martha Stewart Living Omnimedia

(قصة نجاح مارثا ستيوارت)

Christopher Byron

Wiley, John & Sons, 2002, 416PP, $ 27.95

تمتلك مارثا ستيوارت الآن ثروة شخصية تقدر بأثنين مليار دولار، وأصبحت تتولى رئاسة مجلس إدارة مؤسسة تحمل اسمها. هذا الكتاب يروى قصتها منذ أن ولدت فى أسرة فقيرة فى نيوجيرسى، إلى أن صعدت سلم الشهرة والمال من خلال برنامجها التليفزيونى الذى يقدم نصائح منزلية لربات البيوت عن كيفية إعداد الطعام والعناية بالمنزل.

طـــب

طريقك إلى الشفاء.. الأعشاب، العطور، الغذاء

عز الدين الدنشارى
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢

يعنى الطب البديل العودة للطبيعة للوقاية والعلاج من الأمراض بعيدًا عن الأدوية المصنعة وآثارها الجانبية، العلاج العشبى والعطرى يتم استخدامه الآن بكثرة لتقوية جهاز المناعة وعلاج الزهايمر، وهناك أعشاب أخرى كثيرة استخدمها الأقدمون ومازالت فاعلة لعلاج أمراض الكبد والروماتيزم وغيرها. هذا الكتاب يعد موسوعة مبسطة فى هذا المجال.

■■■

Chiropractor's Self help Back & Body Book: How you can Relieve Common Aches and Pains at Home and on the Job

(دليلك الخاص لآلام الظهر والجسم: كيف تتخلص من الآلام والأوجاع الشائعة فى المنزل وفى العمل)

Samuel Hamola
Hunter House, 2002, 320PP, $ 17.95

دليل لمساعدة الأشخاص الذين يعانون من الآلام المزمنة فى المناطق المختلفة من الجسد للتغلب عليها ومعالجتها معتمدين على أنفسهم، ودون اللجوء لطبيب. يركز الدليل على الآلام الشائعة التى يشكو منها الناس فى مناطق الرأس والظهر والرقبة والكتف والسيقان والأذرع.

"علوم"

The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature

(الصفحة البيضاء: الإنكار الحديث للطبيعة البشرية)

Steven Pinker
Viking Press, 2002, 528PP, $ 27.95

يعمل ستيفن بنكر أستاذًا لعلم النفس بقسم العلوم المعرفية فى معهد ماستشوستس للتكنولوجيا، وهو من أبرز العلماء فى مجال أبحاث المخ وعلاقته باللغة. فى هذا الكتاب يتصدى ستيفن بنكر للجدل العلمى حول الطبيعة البشرية، وما يتبعه من مدلولات أخلاقية وسياسية. فهو يعارض الرأى القائل بأن الطفل يولد بمخ يشبه الصفحة البيضاء وبالتالى تتحدد شخصيته حسب الظروف الخارجية التى يتعرض لها فى حياته، كما أن روح الإنسان هى التى تتحكم فى خياراته بشكل منفصل عن خصائصه البيولوجية. فعلى العكس، يرى بنكر أن العلوم البيولوجية الحديثة تثبت أن الإنسان يولد بشفرة جينية محددة مسبقًا داخل مخه تحتوى على سمات الشخصية المميزة، محاولاً توضيح أن هذا لا يعنى بالضرورة غياب المسئولية الفردية وتكريس عدم المساواة بين الأنواع والأجناس.

■■■

The Definitive Guide to the Evolutionary Biology of Sex

(الدليل الشامل للجنس من مدخل الأحياء التطورية)

Olivia Judson
Henry Holte & Co, 2002, 308PP, $ 24.00

استعراض لغرائب الجنس عند مختلف أنواع الكائنات الحية؛ من الحشرات والحيوانات الثديية إلى الزواحف والأسماك والكائنات الخلوية. الكتاب يجمع بين المعرفة العلمية بخصائص الجماع عند الكائنات المختلفة والأسلوب الساخر الذى يقارنها بالمعايير البشرية السائدة.

"عمارة"

أطلس العمارة الإسلامية والقبطية بالقاهرة

عاصم محمد رزق
القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٢

أكثر من ستمائة أثر تتنوع مستوياتها ووظائفها ما بين قصور ومنازل وكتاتيب وقلاع وأسوار وبوابات ووكالات وخانات يتناولها الكتاب، كما يتناول التأثير المتبادل بين فنون العمارة المختلفة قبطية وإسلامية، وتداخل الخطوط بينها لتفرز فى النهاية هذا الفن المصرى البديع.

■■■

Gardens, Landscapes, and Vision in the Palaces of Islamic Spain

(الحدائق والمناظر الطبيعية والرؤية فى قصور أسبانيا الإسلامية)

Fairchild Ruggles
Pennsylvania State UP, 2002, 264PP., $ 29.95

تقدم المؤلفة رؤية جديدة لفهم دلالة تاريخ الحدائق فى أسبانيا أثناء الحكم الإسلامى، حيث إن الرؤية التقليدية ترجع شكل الحديقة الإسلامية إلى محاولة المسلمين بناء ما يشبه الجنة التى وصفها القرآن. أما هذا الكتاب فيثبت أن حدائق القصور كانت أساسًا منشآت بيئية واقتصادية وسياسية، وأن رمزية الجنة لم تؤثر عليها إلا بعد أن أصبحت هذه الحدائق تضم قبورًا لملاكها.

"فنون"

أزياء الاستعراض فى السينما المصرية

مها فاروق
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢

بانوراما تاريخية لفن الاستعراض فى الحضارات القديمة وحتى اليوم، وتتتبع المؤلفة المراحل المختلفة لتطور هذا الفن ونجومه ونجماته، نعيمة عاكف وسعاد حسنى وسامية جمال ومحمود شكوكو وغيرهم، وكذلك أهم المخرجين فى هذا المجال، كما تستعرض العلاقة بين الشخصية واختيارها للزى وكيف يمزج المصمم كافة العناصر المؤثرة من لون وإضاءة وماكياج لصناعة الاستعراض.

■■■

المسرح الهندى

نينميتشا ندراجين
ترجمة: مصطفى سويف - منى أبو سنة
القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠٢

للسينما الهندية شهرتها فى العالم كله وإن على صعيد تجارى، أما المسرح الهندى فليس معروفًا على أى مستوى، المؤلف يرصد تاريخ المسرح الهندى باحثًا عن قضاياه وتوجهاته الثقافية والفنية ومفندًا ما يشاع عن أن هذا المسرح مأخوذ عن الغرب فى مجمله.

■■■

The (New York Times) Book of Broadway

(كتاب «نيويورك تايمز» عن برودواى)

Ben Brantley
St. Martins Press, 2002, 272PP., £ 25.00

قائمة أعدها الناقد بن برانتلى بأهم مائة مسرحية قدمتها مسارح برودواى خلال القرن العشرين إلى جانب أهم المسرحيات التى قدمتها مسارح أخرى خارج برودواى أو Off Broadway.

يقدم الكتاب هذه المسرحيات من خلال العروض التى كتبت عن هذه المسرحيات بعد ليالى العرض الأولى وغيرها من المقالات النقدية المنشورة فى أعداد صحيفة النيويورك تايمز.

■■■

London's Theatres

(مسارح لندن)

Mike Kilburn, Alberto Arzoz
New Holland pub., 2002, 160PP, £ 24.99

مسح شامل يقدمه هذا الكتاب المصور لما يزيد على خمسين مسرحًا من أشهر مسارح مدينة لندن. يتناول تاريخ إنشاء كل مسرح وتطور دوره المسرحى والفنى عبر العصور، إلى جانب العديد من الصور الفوتوغرافية التى تنقل أهم سماته المعمارية.

"قضايا المرأة"

حدائق النساء

فريدة النقاش
القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٢

تقتحم المؤلفة مشكلات المرأة العربية التى تعانيها منذ عشرات السنين كجزء من حالة الاضطهاد والاستغلال والتمييز والقهر التى يعانيها المواطن العربى، ويعد الاقتراب من مشكلة المرأة بأوجهها اقترابًا من الهم العربى كله ومحاولة لاستكناه جوهره.

■■■

مدخل إلى قضية المرأة فى سطور وصور

هدى الصده (محررة)
القاهرة: ملتقى المرأة والذاكرة، ٢٠٠٢، ٢٧٧ صفحة

إضافة مبتكرة للأدبيات النسوية فى مصر، تقدم للقارئ العادى فكرة مبسطة عن أهم القضايا والحقوق التى تدافع عنها المرأة، والحجج الرئيسية التى تدفع بها فى الجدل الدائر حول التمييز أو التحامل الواقع ضدها فى المجتمع المصرى.

يعتمد الكتاب على الرسوم والكاريكاتير بشكل رئيسى فى تقديم أفكاره التى تشمل أيضًا تاريخ الحركة النسوية فى مصر.

■■■

Desiring Revolution

(الرغبة فى ثورة)

Jane F. Gerhard
Columbia University Press, 2002, 192P, $ 13.99(Pb)

تعمل المؤلفة محاضرة فى التاريخ والأدب بجامعة هارفارد. وهى فى هذا الكتاب تقوم بتحليل قضية الجنس فى الموجات الثلاث للحركة النسوية فى الغرب، خاصة نسويات الموجة الثانية التى ظهرت فى السبعينيات وأفرزت ما سمى بالثورة الجنسية. ثم تحلل المؤلفة الانقسام الموجود حاليًا بين النسويات المعاصرات، حيث يعارض فريق مهن العرى وتصوير الجنس بينما يعارض الفريق الآخر أى رقابة على البورنوغرافى.

"مراجع"

The Guardian Media Guide 2000

(الدليل الإعلامى لعام ٢٠٠٠)

Guardian Books
Atlantic Books, 2002, 453PP, £ 15.00

للعام العاشر على التوالى تصدر جريدة الجارديان البريطانية دليلها الإعلامى والذى يحتوى على عناوين وأرقام ومواقع الإنترنت للشركات العاملة فى كل الحقول الإعلامية فى بريطانيا، بالإضافة إلى قسم خاص بالمصادر الخارجية والتى تشمل الجهات الناشطة فى الاتحاد الأوروبى. تشمل هذه الشركات المجلات والصحف ومحطات التليفزيون بالإضافة إلى مراكز الدراسات ومعاهد التدريب الإعلامى.. إلخ.

"نقد"

أفق آخر.. آراء ومتابعات فى الشأن الثقافى الليبى

محمد الفقيه صالح
ليبيا: سلسلة منشورات المؤتمر، ٢٠٠٢

تفتقر ليبيا إلى منابر ثقافية وصحافية تعكس ما يموج بها من تيارات أدبية ونقدية، المؤلف يبدى آراء فى الشأن الثقافى الليبى إبداعًا ونقدًا من خلال هذه المتابعات.

■■■

تلطيف المزاج من شعر ابن حجاج

نجم عبد الله مصطفى
تونس: دار المعارف، ٢٠٠٢

مختارات شعرية من إبداع الشاعر المصرى عبد الله بن الحجاج، تلخص أهم الموضوعات التى تناولها والقضايا التى اهتم بها، ومدى تعبير هذه القصائد عن عصرها وانعكاس عصرها عليها.

عـــــــروض مــــوجـــزة

كتب عربية

العرب فى مواجهة العدوان

طارق البشرى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ١٢٠ صفحة



ما وجه الشبه بين مايحدث اليوم فى فلسطين، وما جرى هناك قبل أربعة وخمسين عامًا، أى فى عام ١٩٤٨؟

المؤلف يرى أن العرب اليوم فى موقف شبيه بهزيمتهم الأولى قبل أكثر من نصف قرن وتتحمل الأنظمة وسياسات الحكم العربية مأساة ضياع فلسطين بأكثر مما يحملها للشعب الفلسطينى ذاته، وعليه فإن هذه الأنظمة مسئولة أخلاقيًا وتاريخيًا عن استرداد فلسطين واسترجاعها من أيدى الصهاينة، وهذا لن يتأتى - الآن على الأقل - بالحرب التى لا تقوى عليها الأنظمة، كما أنه لن يتأتى عبر الشرعية الدولية ممثلة فى الأمم المتحدة، فقد صارت هى ذاتها فى جيب الولايات المتحدة، والبديل الذى يطرحه المؤلف هو الصراع السلمى، بل ما يعنيه من مقاطعة تجارية واقتصادية ودبلوماسية. وإلى هذا يشير المؤلف فى مقالة أخرى إلى المشكل الذى أثارته الانتفاضة الفلسطينية الباسلة أكثر من أى حدث آخر هو العلاقة بين الدول والشعوب، إذ فيما تبدو المواقف الرسمية عاجزة ومحاصرة، يأتى الموقف الشعبى معبرًا عن صلابة وفهم واعٍ لطبيعة الصراع، ويتساءل المستشار البشرى: إلى أى مدى صارت قوة الدولة المركزية الحديثة عندنا مما يضعف قوة الأمة وفاعليتها، وكيف يمكن فك هذا التلازم بين قوة الدولة وضعف الأمة؟

الحديث عن الصراع العربى الإسرائيلى يستدعى بالضرورة الولايات المتحدة الأمريكية وما جرى فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وما تلاه من قصف وتدمير وحشى لأفغانستان، وما ينتظر العراق بصرف النظر عن موقف المجتمع الدولى. ويتضمن الكتاب قراءة على هوامش الحدث الأفغانى ودراسة فى ضوابط العنف السياسى، ويشير إلى ما آل إليه الصراع اليوم فى عالم غابت فيه الشرعية تمامًا.. «وصارت القوة المادية المعتدية تواجه بقوة الصدور العارية وبروح الشهادة وصارت الدنيا تواجه بالآخرة».

ويبشر المؤلف عبر تحليله التاريخى العميق بأن «هذا التجبر والقهر والشراسة كانت فى الغالب من ملامح نهاية العصور ومن مظاهر الانحدار الأول بالنسبة للدول العدوانية».

□ □ □

تأميم شركة قناة السويس
دراسة فى عملية اتخاذ القرار

محمد السيد سليم

القاهرة: ٢٠٠٢، ٢٦٧ صفحة



عبر تسعة فصول يتناول المؤلف قرار تأميم شركة قناة السويس الذى اتخذه الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦، والذى يرى المؤلف أنه نموذج للقرارات التى اتخذت فى بيئة تتضمن قدرًا كبيرًا من عدم اليقين.. «فضلاً عن أنه أدى إلى تغيير جوهرى فى المسرح الاستراتيجى الإقليمى والعالمى».

وهو يبدأ بفصل تمهيدى عن اتخاذ القرار فى مجال السياسة الخارجية، ثم يبحث فى علاقة مصر بشركة قناة السويس ثم علاقة الثورة المصرية بها، ويخصص الفصل الثالث للإجابة عن السؤال المهم: هل كان قرار التأميم ضروريًا آنذاك، أم كان يتعين الانتظار حتى عام ١٩٦٨، وهى السنة التى ينتهى فيها امتياز شركة قناة السويس ويناقش بعد ذلك عملية اتخاذ القرار واستراتيجية حمايته ونتائجه، قبل أن يعرض لعدد من الملاحق المصرية والأجنبية والمذكرات المتبادلة ووثائق ذات صلة بشركة قناة السويس.

والخلاصة التى يقدمها المؤلف هى تأكيده على أن تأميم شركة قناة السويس لم يكن رد فعل لسحب عرض تمويل السد العالى، إذ أن التأميم كان يجرى التحضير له منذ عام ١٩٥٢، وأن عبدالناصر كان قد قرر بالفعل تأميم الشركة عام ١٩٦٠، لكن سحب عرض تمويل السد كان المناسبة التى عجلت باتخاذ القرار.

ويشير المؤلف إلى الدور المهم الذى لعبته «السرية» فى اتخاذ قرار التأميم، حيث لم تكن القوى الغربية تتوقعه مما ساعد على نجاحه وعدم قدرتها إعاقته، والمؤلف إذ يثنى على سرية اتخاذ قرار التأميم. فإنه يؤكد من ناحية ثانية على أهمية الرقابة الاجتماعية على عملية صنع السياسات العامة ومناقشتها على نطاق واسع وإتاحة المعلومات التى تعطى جدوى لعملية المناقشة، لكنه يؤكد أيضًا على أهمية ترك مساحة من حرية الحركة لمتخذ القرار، خصوصًا فى الحالات التى تلعب فيها المفاجأة دورًا رئيسيًا فى نجاح تنفيذ القرار.

على الجانب الآخر، يشير المؤلف إلى أن الخطأ الرئيسى هو أن عبدالناصر لم يضع فى حسبانه احتمال الرد العسكرى الغربى السريع، وكان رده أن مصالح بريطانيا فى الوطن العربى ستمنعها من التواطؤ مع إسرائيل.

ويرى المؤلف أن عبدالناصر قلل من شأن البدائل التى لا تتسق مع عقيدته السياسية ومنها فرض حراسة قانونية على شركة قناة السويس.. «رغم أن هذا البديل كان أقل البدائل من ناحية المخاطرة السياسية مع تحقيق الهدف ذاته» كما أن إخراج قرار التأميم بالصورة التى تم عليها أدى إلى تصعيد لم يكن عبدالناصر يتوقعه. وأخيرًا فإن الردع الذى قدمه عبدالناصر لمواجهة احتمالات الرد الغربى كان لفظيًا وفاقدًا مصداقيته، وهو ما يشير إليه المؤلف فى تحليله لاستراتيجية حماية القرار.

□ □ □

الإنسان والحضارة

عبد الوهاب المسيرى

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢، ٣٩١ صفحة



تقوم دراسات الكتاب على استخدام منهج تحليلى يعمد إلى النماذج المركبة فى تفسير الظواهر الإنسانية، أى الإحاطة بجوانب الظاهرة عبر عدة عناصر متشابكة معًا، سياسية واجتماعية واقتصادية وحضارية ومعرفية.

وينطلق المؤلف من فرضية أساسية هى أن ثمة فارقًا جوهريًا بين عالم الإنسان المركب وعالم الطبيعة، فالإنسان موجود فى الطبيعة لكنه بخصائصه الفريدة، قادر على تجاوز قوانينها الحتمية.

وفى هذا الإطار يدرس المؤلف الظاهرة الصهيونية، ويميز بين أشكال عدة من الخطاب فى التعاطى معها، وبينها الخطاب العملى (الدعائى التعبوى) والذى يهدف إلى تعبئة الجماهير دون اكتراث بالتفسير، وتحت هذا النوع من الخطاب يندرج الخطاب التآمرى الذى يشيع عن اليهود فكرة التآمرية، ويختزلهم جميعًا فى قوالب جاهزة تحيل أفعالهم الشريرة إلى مخطط رهيب وضعه حاخاماتهم لتخريب الأخلاق وإفساد النفوس، وهذا الخطاب يجعل من اليهود محركًا أساسيًا لمصائر الشعوب.

وضمن الخطاب العملى أيضًا يأتي الخطاب شبه الديني الذي يعبئ الجماهير ضد اليهود باعتبار أن الشر متاصل فيهم وراثيًا إلي يوم الدين.

ويورد المؤلف إلى جانب الخطاب العملى بأنواعه خطابًا تفسيريًا وهو الآخر يشتمل على أنواع متعددة، منها ما هو نفسى، أى يدور داخل الذات الفلسطينية والإسرائيلية، ومنها الخطاب النصوصى الذى يفسر سلوك اليهود فى ضوء ما جاء فى العهد القديم وكتب اليهود المقدسة، ومنها الخطاب الموضوعى المتلقى، وهو يراكم المعلومات والأفكار والتصريحات الصادرة عن اليهود دون تمييز لمقدرتها التفسيرية ومركزيتها وأهميتها ذات الصلة بالصراع.

ويعتمد الخطاب التفسيرى على فكرة النموذج، لكن هذا النموذج قد يكون اختزاليًا يرد الظاهرة برمتها إلى عامل وحيد وهو ما يرفضه المؤلف، ويقترح بديلاً عنه النماذج المعرفية الإدراكية والتحليلية، وهذا النموذج المركب هو نموذج منفتح تعددى يحوى عناصر متعددة، وبواسطته يدرس المؤلف الظاهرة الصهيونية كنموذج تطبيقى عبر فصول الكتاب الثمانية.

□ □ □

أمكنة

علاء خالد - مهاب نصر - سلوي رشاد

الإسكندرية: ٢٦٠ صفحة



يأتي الإصدار الرابع من هذه الدورية ليؤكد قدرة المبادرة الفردية علي إنجاز عمل ثقافي يتجاوز بهما قدرة المؤسسات بما لها من طاقات تمويلية وقدرات تنظيمية هائلة علي إبداع مماثل.

«أمكنة» كتاب غير دوري يحرره ويصوره ويموله مجموعة من الشباب، وهو يصدر عن مدينة الإسكندرية - وهذه ميزة إضافية - في وقت تستأثر فيه القاهرة بالإصدارات الثقافية وغيرها، بما يعكس حالة من المركزية الشديدة لا تفلت منها - ربما - عاصمة عربية..

خصص القائمون علي أمكنة هذا العدد لـ«الفلاح»، لم يشأ المحررون أن يقولوا لـ«القرية»، وهو ما يعكس الامتزاج بين الاثنين إلي حد التماهي، فما جري للفلاح المصري الذي تغرَّب وسافر إلي العراق ودول الخليج وليبيا بحثًا عن

عروض موجزة

الرزق، انعكس بالضرورة علي القرية.

لم يعد الفلاح هو الفلاح ولم تعد القرية هي القرية، ما يكتبه علاء خالد الذي جال في قريتي شبراويش والسلامية في الدلتا، وفي قرى الأسدية وعزبة أبوحرجة والعسيرات في الصعيد، والحوارات التي أجراها مع ناسها، تعيد اكتشاف القرية وترسم ملامحها «الحداثية» وطموحات فقرائها، بعيدًا عن الصورة النمطية التي قدمتها السينما للفلاح، والذي تحفظ الذاكرة كثيرًا من تفاصيلها، والتي في معظمها بريئة ساذجة لئيمة عفية متهاودة في آن معًا، هل مازال «محمد أبوسويلم» - بطل فيلم «الأرض» الذي لعبه محمود المليجي باقتدار - ماثلاً في الأذهان؟ أظن أنه لا.

غابت الدهشة، وتراكمت خبرات معرفية وإنسانية جديدة، وتجاوزت الأماني ملء بطون ناس المدينة إلي محاكاة عيشتهم، ما كتبه عادل عصمت عن قريته التي «طغت فيها البيوت الجديدة علي المكان وشغلت مساحات كانت في صبانا جزءًا من الغيطان»، وما كتبه أسامة الديناصوري عن قريته «محلة مالك» القريبة من مركز دسوق يؤكد هذا المعني.

العدد يتضمن ترجمات لمستشرقين كتبوا عن الريف المصري وفلاحيه، ودراسة عن الريف والمدينة في أدب يوسف إدريس وإبراهيم أصلان، ودراسة للصحافية البريطانية نرمين نزار عن فلاحي فلسطين، ودراسة أخري عن الفلاح في لوحات ثلاثة من الفنانين التشكيليين المصريين هم: راغب عياد وإنجي أفلاطون وصبري منصور، ومقالات عديدة تصب في المجرى ذاته، والهدف كما يقول المحرر في الافتتاحية: أن نحمي هذا الكيان الشفيف من النسيان والتجاهل.

□ □ □

عشاق بيّة

الحبيب السالمي

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٢، ٢٣٠ صفحة



رواية يحكيها أربعة من العجائز، الطيب والبرني والمكى ومحمود الصبايحى، أصدقاء عمر تنتهى بهم رحلة الحياة عند زيتونة الكلب. يقضون فى ظلها يومهم كله، لا يتخلفون عن اللقاء مهما جرى، اثنان منهم يحبان المرأة ذاتها التى تبدو لهما مثل حلم بعيد المنال لا تقوى عليه أجسادهم التى ضمرت وأرواحهم الشائخة، لكن بيَّة الهجَّالة التى أشعلت صبا وصبابة البرنى حين رآها «تتعرى فى مكان مقفر تحت شمس حارقة»، تتزوج من ابن صديق عمره المكى، الشاب الذى عاش فى بلاد الألمان وجمع الفلوس وعاشر الروميات، ثم عاد ليصحب معه «بيًّه»، ولتكتشف هناك فى بلاد الغربة، أن زوجها لص، وأنه ينفق عليها من مال حرام، وأن الفلوس التى وعد بإرسالها إلى أبيه كى يحج - وهو حدث لم يجرِّبه أحد فى كل «دواوير العلا» - هى من حصيلة سرقات، حكت لهم «بيَّه» ذلك كله فى خطابات، قالت لهم أيضًا أنها صارت تكرهه لأنها تكره السرقة.. «التى هى كما تعلمون حرام فى حرام»، ورد هو عليها بكراهية مماثلة وضرب.. «يفعل ذلك بعنف شديد كأنه ينتقم من شىء ما».

شغلت مشكلة بيَّة وابن المكى بالهم، هم الذين اكتفوا من الدنيا بالصمت ومراقبة الأموات يساقون فى نعوشهم إلى الجبانات حيث يواريهم التراب، فى انتظار يومهم الذى نبأت به عظامهم التى تئن فى كل موضع، تلاحقهم الهواجس، هواجس الموت الذى صار قريبًا منهم إلى حد مجادلته ورؤيته بعين الحقيقة، وكان محمود الصبايحى هو أول من فارقهم.

إنها حكايات العجائز، عالمهم الصغير، الممتد فى عمق الزمن، سنوات بعيدة مرت ربما يذكرون تفاصيلها ويضحكون أو يتأوهون، ويأسون على صبا ولَّى وشباب آل إلى شيخوخة مُذلَّة.

□ □ □

المخ البشرى

كرستين تمبل

ترجمة: عاطف أحمد

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٢، ٢٣٥صفحة



كيف يعمل المخ، وما علاقته بالسلوك البشرى؟

في الماضى كان جزء كبير من الظواهر النفسية والعقلية يرد إلي الخرافات وأعمال السحرة، جري ذلك في كل الحضارات، فلما ظهرت الفلسفة اليونانية وتطورت مباحثها، شرعت في تفسير عديد من هذه الظواهر، ومع التقدم العلمي والإنسانى والمجالات الجديدة التي خاض فيها الفكر الإنساني، صار للعقل الكلمة العليا.

المؤلفة وهي متخصصة في «السيكولوجيا العصبية للعمليات المعرفية»، تبدأ بفصل تمهيدى عن خلايا المخ وتركيبه، تنتهي فيه إلي أن الاختلال في «الموصلات العصبية» يمكن أن يقود بدوره إلي خلل في التفكير وفي السلوك، وهي في سبيلها لتوضيح فكرتها وتقدم عددًا من الرسوم التوضيحية كي نعرف تحديدًا: أي الأجزاء في المخ يعمل ماذا؟ وهي تشير في تقديمها للفصل الثاني إلي أن أقدم سجل مكتوب يشير إلى ارتباط عمليات التفكير بمواضع محددة في المخ اكتشف في الأقصر ويعود تاريخه إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد.

وهكذا مثلاً، فإن الشعور بالجوع تختص به منطقة في المخ تسمي تحت المهاد، والتعرف على ما هو صالح للأكل يختص به الجسم اللوزي، والفصوص القفوية تشترك في العمليات الخاصة بالإبصار،وتميز الفصوص الجدارية بين الأنواع المختلفة من الطعام، وتساعد الفصوص الصدغية في عمليات التنصت وتذكر النكت والحكايات، وحين تتحدث عن الجسم الجاسئ تنبه إلى حقيقة علمية غاية في الطرافة، هي أن كل نصف مخى بوسعه أن يتخذ قرارًا مستقلاً عن الآخر في الوقت نفسه، أما اللغة فإنتاجها تختص به المواقع الأمامية في المخ، فيما تتولى المواقع الخلفية عمليات فهم وإدراك اللغة.

أما الزهايمر، فيحدث حين تتلف أجزاء في المخ الأوسط، وكذلك أجزاء في المنطقة الصدغية من القشرة الدماغية، أما مرض الانفعالات العصبية والفصام وأنواع أخرى من الأمراض النفسية، فإن الفصوص الأمامية وجذع المخ والنخاع الشوكي ومكونات المخ الوسيط إجمالاً، ذات صلة بحالاتهم المرضية.

هكذا يمكن أن يفسر تحليل المخ السيكولوجيا والسلوك.

□ □ □

خدعة التكنولوجيا

جاك إلول

ترجمة: فاطمة نصر

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٢، ٤٨٥صفحة



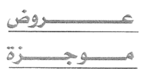
على مدار ربع قرن شهد العالم تحولات كاملة أثرت على كافة الأنشطة المجتمعية، وتضافرت لإحداث هذه التحولات أربعة عناصر مسيطرة هى علوم الحاسب والهندسة الوراثية وعلوم الفضاء والليزر، ولم يعد بالإمكان تجاهل المنظومات المتكاملة من العلاقات وطرق العيش التى تفرضها التقنية الناجمة عن تكنولوجيا الحاسب الآلى مثلاً، ولا سبيل حتى أمام رافضيها سوى التكيف معها والاستفادة منها، وهكذا يصبح الإنسان أمام تحدى التكيف نفسيًا وفكريًا واجتماعيًا مع الحاسب، والتكيف أخلاقيًا مع الهندسة الوراثية ونتائجها، بعبارة أخرى فإن الإنسان مطالب بالإجابة عن تساؤلات من نوع: ماهية إطالة العمر، وجدوى «تخليق» الإنسان السوبر، والعلاقة بين الذكاء الطبيعى والذكاء الصناعى، وما ستئول إليه الأيديولوجيات السياسية والدينية فى ضوء احتكاكها بالواقع التقنى الضاغط بقوة، وأين الحدود بين ما نستطيع أن نقرره وما لا نستطيع أن نرفضه فى العلاقة مع هذه التقنيات، ثم ما هو شكل العلاقة بين الشمال والجنوب، وهى علاقة تنحى فيها السياسى لصالح التقنى بصورة أكبر كثيرًا من ذى قبل، فالعالم يعيش مفارقة غير مسبوقة، إذ هو عالم واحد بفعل الاقتصاديات المتكاملة وثورة الاتصالات وتلاشى الفروقات الأيديولوجية، لكنه منقسم إلى عوالم بعضها مفرط فى التقدم وأكثرها لا يعى شيئًا مما يحدث على الشاطئ الآخر. كثيرون يطرحون فكرة سيادة القانون على التقنية، ويعنون هنا القانون الدولى فى صورة مؤسسات ومعاهدات دولية ومواثيق تحدد المسئولية، لكن الواقع السياسى يرد بما يخيب آمالهم على الأقل فى اللحظات الراهنة.

والفكرة الأساسية التى يبنى عليها المؤلف استنتاجاته عن الخدعة التكنولوجية تتصل بالتناقض بين المجتمع التقنى والنظام التقنى، فالمجتمع يحمل بين طياته مجموعات متكاملة من الأيدلوجيات والأساطير والتقاليد والعادات، وهو بهذا المعنى يبقى خارج النظام التقنى مهما بدت التقنية متغلغلة وأساسية فى مرافق حياته، الناس تعود إلى ماضيها وجذورها كى تكتسب ملامحها، فيما التقنية والتكنولوجيا ترنو دومًا للمستقبل، وعبقرية التقنية هى إنتاج أشكال من الآلات أكثر ألفة وطمأنينة، وهنا بالضبط يكمن الخداع التكنولوجى.

المؤلف يبرز الدور المتصاعد «للتقنيين» فى عالم تقوم القوة فيه على المعرفة، ويسميهم الأرستقراطيين الجدد، وهؤلاء لا يعطون للقانون ولا للدولة بحدودها التقليدية أهميتها المفترضة، هؤلاء هم حكام العالم الجدد وصانعو قراراته ومستشارو رؤساء دوله العظمى.

عشرون فصلاً عن عدم اليقين الذى بشرت به التقنية وعن خطابها وخبراتها وانتصار العبث والإلهاء اللذين سيطرا على قطاع كبير من المنتج التكنولوجى، كما يتضمن الكتاب مناقشات جادة لعدة كتب صدرت فى الإطار ذاته.

□ □ □



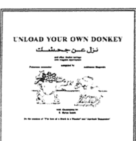
كتب أجنبية

The Threatening Storm.. The Case For Invading Iraq

(العاصفة المتوعدة.. حجة غزو العراق)

Kenneth M. Pollack

Random Nause, 2002, 494PP., $25.95



يقدم كينث بولاك مؤلف الكتاب، والذى عمل محللاً فى المخابرات المركزية الأمريكية، ثم مدير شئون الخليج فى مجلس الأمن القومى الأمريكى، ما يعتبره حججًا قوية لتبرير غزو العراق. وهو يجادل بأن إرسال حوالى ٢٠٠ ألف جندى أمريكى لغزو العراق ليس أمرًا مرغوبًا فيه، لكن الغزو، حسب رأيه، هو أقل الخيارات ضررًا. إن الغزو هو الخيار الوحيد، كما يقول بولاك، لإنهاء موقف خطير. ويتصاعد خطره مادام ظل صدام حسين فى السلطة.

ويشير المؤلف إلى أن سياسة الاحتواء التى أعقبت حرب الخليج ١٩٩١ وتعتمد على فرض عقوبات اقتصادية واستمرار التواجد العسكرى الأمريكى فى الخليج ومواصلة فريق التفتيش الدولى عمله، تآكلت بسرعة.

إن التواجد الأمريكى الحالى فى الخليج يثير استياء المواطنين، كما أن العنصر الأهم فى سياسة الاحتواء وهو فريق التفتيش على أسلحة الدمار العراقية توقف عن العمل عام ١٩٩٨، وفى نظر المؤلف فإنه لن يكون فعالاً لو تمت إعادته للعمل مرة أخرى.

ما العمل؟ يستعرض بولاك كل الخيارات من فعل لا شىء إلى عمل عسكرى يعتمد على المعارضة العراقية ومدعوم بضربات جوية على غرار ما جرى فى أفغانستان ضد نظام طالبان. ويتناول مميزات وعيوب كل خيار، ثم يخلص إلى أن العمل الوحيد العملى أمام الولايات المتحدة هو القيام بغزو شامل للعراق لتحطيم القوات المسلحة العراقية وإسقاط نظام صدام حسين والتخلص من أسلحة الدمار الشامل.

ويعدد بولاك المزايا التى ستنجم عن التخلص من صدام حسين وأهمها قيام نظام ديمقراطى على النمط الغربى، لكنه رغم كل تلك الحجج لا يركز على سؤال أساسى وهو.. هل يمثل العراق بالفعل تهديدًا خطيرًا للولايات المتحدة والعالم الحر كما يقول بولاك؟ بمعنى هل بقي لدى صدام أسلحة دمار شامل بعد كل عمليات التفتيش التى تمت وبعد أن أكد خبراء فى فريق التفتيش أن ما لا يقل عن ٩٥٪ من ترسانة أسلحة الدمار العراقية جرى التخلص منها؟

ثم إن بولاك لا يعير المعايير والمواثيق الدولية الكثير من الاهتمام، فالقضية واضحة أمامه وهى أن على أمريكا أن تغزو العراق وتتخلص من صدام حتى لو أدى ذلك إلى إثارة استياء الرأى العام العالمى والأوروبى بشكل خاص، ومسألة احترام واشنطن لسيادة الدول أو دور الأمم المتحدة ومجلس الأمن أمر غير ذى جدوى فى نظر المؤلف. لقد أعطى بولاك رأيه المؤيد بشدة لغزو العراق دون أن يتساءل عن عواقب ذلك على الشرق الأوسط والعالم.

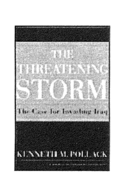
□ □ □

Ramesses The Great

(رمسيس العظيم)

T.G.H James

Cairo: Auc press, 2002, 304PP., $59.50



إذا أمكن للمرء أن يختزل الحضارة الفرعونية فى مصر القديمة فى شخص واحد، وهو أمر صعب للغاية بالنظر إلى مدى ثراء وتنوع وطول فترة هذه الحضارة، فإن الاسم الذى يأتى إلى الذهن للوهلة الأولى هو رمسيس الثانى، وهو اسم ورمز وصورة وتمثال يجده الزائر الأجنبى فى كل مكان يزوره، ففى القاهرة هناك التمثال الضخم فى محطة رمسيس الرئيسية فى هذه المدينة. وهو هناك فى المعابد العظيمة فى أبو سمبل.

وقد تولى رمسيس الثانى حكم مصر لمدة ٦٧ عامًا فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد فى ذروة قوة مصر وتأثيرها وترك هذا الفرعون وراءه واحدة من أفضل المجموعات الأثرية التى خلفها فرعون مصرى سواء كانت مبانى أو تماثيل أو معابد منتشرة فى أنحاء مصر وحتى فى السودان فقد كان مشغولا بتخليد نفسه وأعماله.

وهذا الكتاب الذى ألفه تى جى إتش جيمس مسئول قسم المصريات فى المتحف البريطانى فى الفترة من ١٩٧٤ حتى ١٩٨٨، يعيد فرعون مصر رمسيس الثانى وأعماله إلى الحياة بأزهى صورة كما لم يحدث من قبل من جانب أى متخصص آخر فى علم المصريات، فمن خلال ٥٠٠ صورة ملونة للمعابد والمقابر والتماثيل والمبانى يمكن للقارئ أن يرى بعينيه صورة من قريب لعصر هذا الفرعون وأعماله بالإضافة إلى المادة الثرية التى كتبها جيمس. ويتحدث المؤلف عن رمسيس الثانى كشخص وملك واصفًا الظروف التى أحاطت بتوليه العرش وأجواء عصره والسياسات المتبعة آنذاك وصراعه مع الحيثيين ومعركة قادش.

إن رمسيس الثانى كان ولاشك أحد البنائين العظام فى تاريخ مصر الطويل لكنه أيضًا كان سباقًا لعصره فى الدعاية لنفسه وصنع صورة لنفسه تتجاوز الواقع إلى حد واضح. أيضًا فى الكتاب تفاصيل عن زوجات رمسيس الثانى وأطفاله والمسئولين الذين عملوا معه، وكذلك عن أحوال الشعب المصرى فى تلك الفترة كما يتناول الكتاب ماذا بقى من رمسيس الثانى.

وقد وصف عديد من النقاد والكتاب بأنه غير عادى وهو واحد من أهم الكتب التى تناولت عصر رمسيس الثانى.

□ □ □

The British Museum.. A history

(تاريخ المتحف البريطانى)

David M Wilson

London. British Museum,2002, 416PP., £ 29.99

بمناسبة الاحتفال بالذكرى الـ ٢٥٠ على إنشائه والتى توافق العام المقبل صدر هذا الكتاب ليتناول سيرة واحد من أقدم وأعظم المتاحف على الإطلاق فى العالم وهو المتحف البريطانى الشهير فى لندن. لكن صدور الكتاب توافق مع أزمة مالية شديدة يمر بها المتحف حيث بلغ العجز فى ميزانيته ٦ ملايين جنيه استرلينى. وهناك محاولات متعددة لاستكشاف سبل الخروج من هذه الأزمة.

ومؤلف الكتاب مدير سابق للمتحف الذى تأسس بمقتضى قانون من البرلمان البريطانى عام ١٧٥٣ بناء على وصية من السير هانز سلوين الفيزيائى الذى كان يمتلك أكبر مجموعة مقتنيات عالمية لدى شخص واحد وأراد أن يتم إنشاء متحف لجمع تلك المقتنيات وتتم المحافظة عليها. وتضمن قانون إنشاء المتحف أن يتولى شئونه هيئة أوصياء وأن تتم تغطية كل التكاليف سواء شراء مقتنيات جديدة أو إدارة مكتبة المتحف أو المبانى من خلال أموال اليانصيب أى أن الحكومة البريطانية لم تدفع مليمًا واحدًا. وظل الأمر على هذا المنوال حتى عام ١٧٦٢ وحتى عندما بدأت الحكومة تمد يد المساعدة للمتحف فإنها كانت تقدم منحًا غير كافية وكان لابد أن يصوت عليها البرلمان.

ورويدًا رويدًا زادت مقتنيات المتحف وترافق ذلك مع التوسع الهائل فى الإمبراطورية البريطانية حيث تم جلب الآثار عنوة فى أحيان كثيرة من المستعمرات ولذلك فإن المتحف أصبح يضم واحدة من أكبر المجموعات الأثرية الفرعونية خارج مصر وهناك أيضًا آثار بابلية ويونانية وغيرها مما يفتخر به البريطانيون حاليًا والتى أصبحت بحكم التاريخ ومرور سنوات طوال مملوكة قانونيًا للمتحف لا يمكن إعادتها إلى دولها الأصلية.

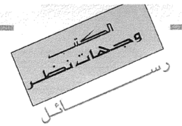
ويركز المؤلف بشكل رئيسى على تكوينات المتحف والمبانى التى يتألف منها والأشخاص الذين عملوا فيه.

ويشير المؤلف إلى أن المتحف كان نتاج أفكار شخص طمح إلى العالمية ورغم جمال العديد من المقتنيات فى المتحف إلا أن القائمين عليه لم يركزوا فقط على الفن بل كان التاريخ ركنًا أساسيًا فى اهتمامات المتحف الذى أصبح بمثابة جامعة تجرى فيها الأبحاث وتصدر عنها الدراسات المعتمدة.

وعلاوة على ذلك، فقد أصبح المتحف ثروة لا غنى عنها للحركة السياحية فى بريطانيا حيث يتدفق الملايين سنوياً من خارج البلاد لزيارة المتحف والوقوف عند آثاره ومقتنياته وفى مقدمتها المجموعة المصرية.

وقد تعرضت مقتنيات المتحف كثيرًا للسرقة والضياع وإساءة الاستخدام وتهدمت مبانيه من جراء الحرب العالمية الثانية. إن التجربة المفيدة التى تختزل الأعوام المائتين والخمسين للمتحف البريطانى هى أن تمويله جاء من الشعب وليس من الحكومة، أى أنه أصبح هيئة شعبية وبالتالى تخلص من أعباء البيروقراطية ليتطلع إلى آفاق أرحب من البحث والإبداع، وإذا كانت الإمبراطورية البريطانية قد غربت عنها الشمس فإن التأثير الحقيقى لبريطانيا فى عالم اليوم يتمثل فى تلك المجموعة من المؤسسات التى نجحت فى الحفاظ على المبادئ التى قامت من أجلها ولم تخضع لمقتضيات العصر مثل هيئة الإذاعة البريطانية والمكتبة البريطانية وبالتأكيد المتحف البريطانى.

□ □ □



** ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها.
مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها **

رأى

تناولت «وجهات نظر» في مقالات عديدة تأثير أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على العالم العربي وفي هذا الصدد أود أن أبدى بعض الملاحظات:

يدخل العالم الألفية الثالثة وينظر إلى العالم العربي باستغراب واستهجان وخاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر.. فإلى جانب اتهامه بالإرهاب يبدو العالم العربي كما لو كان متسمراً عند الألفية الأولى في طريقة تفكيره بمصالحه، وبرغم حصوله على كل الكماليات المادية للعالم الغربي مع التفاوت ما بين الأقطار العربية تبقى الظاهرة الأكثر وضوحاً ألا وهي الافتقار إلى البنية التحتية الملائمة للتطور، وهي الافتقار إلى الأساسيات التي يرتكز عليها العالم الغربي في أنظمته وفي تطور ديمقراطيته التي ضمنت الحقوق الأساسية لكل إنسان من ضمان اجتماعي وصحي وتساوي فرص التعليم.. وسيادة القانون والعدالة والمساواة فيه القائمة على احترام الكرامة الإنسانية للجميع وتمثل بمجموعها أساسيات التطور الغربي بدلاً من المحسوبية والفساد والقفز على القانون وهي الظاهرة الغالبة في العالم العربي.

كيف نستطيع إحداث نقلة نوعية في التفكير العربي لإحداث التغيير المطلوب لتغيير الصورة القاتمة التي رسمها لنا هذا الغرب. والتي ساهمنا فيها بدون أن نعي خطورة وعواقب ما ساهمنا فيه.

* عدم الانسياق وراء العواطف والشعارات الرنانة التي تؤدي إلى مزيد من الحواجز والكراهية بيننا وبين العالم الذي نعيش فيه.

* الإقرار باستحالة الثورة أو الانقلابات كما كان يحدث في السابق.. نظراً لاختلاف الظروف ومدى سيطرة وسلطة الأنظمة الموجودة التي تصل إلى كل مكان.. ومنعاً لأي بعثرة أو تخريب للممتلكات الوطنية والتي هي الثروة الوحيدة للإنسان العربي وهي أيضاً تتفاوت بين قطر وآخر.

* إحداث تغيير جذري في الثقافة العربية التي استندت طيلة سنوات طويلة وعقيمة على السمع والطاعة والصبر.. وتوقفت عند التاريخ الموروث الذي حمل الكثير من الفكر القمعي.. الذي رضيناه بدون مناقشته أو فتح حوار صادق فيما إذا كان هذا الفكر الموروث يتناسب مع الظروف الحالية والعصرية ويتناسب مع مصالحنا.

* أن نكون صادقين مع أنفسنا.. هل حقاً نريد هذا التغيير أم نريد البقاء في نفس الصورة التاريخية التي تستهوينا والتي أطبقت على عقولنا؟ هل نريد حقاً عصرنة الفكر العربي؟ الإجابة عن هذا السؤال هي أول الطريق.. على أن يتلوها عدة خطوات تتكافل مع بعضها البعض تبعاً لمسئولية كل طرف ودوره ومدى المسئولية التي يتحملها فيما وصل إليه الحال العربي.. فمثلاً...

- دور رجال الدين في المساعدة لإحداث نقلة نوعية في تفكير الإنسان العربي.. لما يتحملونه من مسئولية بعد كل هذه السنين من الخطب النارية التي تشعل الأحاسيس وتلغي دور العقل.. تغيير الخطاب التقليدي الذي قادنا إلى الكثير من التعصب والانغلاق ورفض الحضارات الأخرى لاستنادها إلى العلمانية على اعتبار أن العالم كله مصيره أن يتحول إلى القيم الإسلامية.. وتأكيد روح الدين التي اعترفت ببقية الأديان الأخرى وحرية العقيدة والداعية إلى المساواة بيننا كبشر وحقنا جميعاً في الحياة بأمن مع أنفسنا ومع من حولنا والمساواة ما بين مسئوليتنا عن أمننا وأمن المجتمع الدولي.. واستعمال اللغة الإنسانية التي تنادي بالتسامح والرحمة بدل لغة شحن العواطف للقتال والعدوانية. والتعاون مع أشقائنا المسيحيين ليكونوا جسر السلام بيننا وبين العالم الغربي مؤكدين مساواتنا مع الأقليات التي تعيش بيننا واحترامنا لهم ولحقوقهم ومساواتهم في المواطنة بدون تقييد ولا تمييز.

- مسئولية الأنظمة في إعادة حساباتها لخلق شيء من التوازن ما بين مصلحتها ومصلحة شعوبها وحقهم في ثرواتهم القومية، فليس من أصول الديانات تميزهم الكبير في الثروة في ذات الوقت الذي يرزح فيه المواطن تحت أعباء الحياة الكثيرة مع محدودية فرصه فيها.. والتأكيد بأن مصالحهم الآن ترتبط بمدى تقدمهم في خطوات سريعة نحو التعددية والديمقراطية والشفافية.. وأن الإنسان العربي عاجلاً أم آجلاً سينقلب على فكرة الوراثة وتزييف الانتخابات.

- تطوير التعليم والخروج به من التلقين إلى إعمال العقل بالحرية الفكرية.. وأن تركز المناهج التعليمية على القواسم الإنسانية المشتركة.. لتأكيد وتطوير العلاقة ما بين مصلحة الفرد التي تزداد وتستفيد من التطور الإنساني لمجتمعه.. وأن نتوقف عن استخدام اللغة كوسيلة تحريض وتعميم فكري وإرهاب عقلي.. بل فتح حوار حضاري يستند إلى إنسانيتنا كبشر للخروج من دائرة الحسابات الفردية إلى حساب مصلحة الدولة ثم مصلحة القطر وبعدها المصالح المشتركة للمنطقة العربية ثم مصالحنا مع العالم من حولنا.

- دور المثقفين العرب في الصدق مع الإنسان العربي بمدى إمكانياته وبمدى ترابط مصالحه مع الأقطار الأخرى ولكن أيضاً بالحدود التي يتوقف عندها هذا الترابط لأولوية المصالح ثم تكاملها.. والخروج الطوعي للبعض من جيل المثقفين القدامى من المعركة الإعلامية للتقليل من حدة الاختلافات ولتجاوز مرحلة المد والجزر ما بين آراء المثقفين الجدد الذين ينتمون إلى عصر العولمة والانترنت وانفتاح أقطار العالم على بعضها البعض مما يزيد من القدرة على الحوار العقلاني القائم على المنطق وليس على موروثات متجمدة، فاختلاف العصر يلزمنا الاعتراف بأن التاريخ سيضحى بعد فترة مجرد قصص تنتمي إلى الرومانسية وكثير من قصصه لا يمكن إثبات حقيقتها علمياً.

دور الإعلام العربي في نشر ثقافة كونية جديدة للعالم العربي تنتمي إلى العصر تستعمل فيها لغة العقل لما يخدم مصلحة الإنسان العربي في ظل النظام العالمي الجديد.. والابتعاد عن لغة الخطابة والشعارات وتأجيج الأحاسيس.. فتح حوارات عن العولمة تبتدئ من أسبابها وضرورتها نظراً للارتباط العالمي وعدم وجود حواجز حدودية ونتائجها ومدى ما قد نستفيد منها وحدود هذه الاستفادة. بصدق سواء كانت هذه النتائج إيجابية أم سلبية وليس بمجرد الصريح، كل يحاول إثبات أن فكرته هي الأصح.

كل ما سبق والكثير الآخر يجب أن يتم تحليله بصدق ولكن والأهم بشيء من التواضع والابتعاد عن الغرور الذي أصابنا منه الكثير إلى أن اعتقدنا بأن الله الذي حبانا بثروة معينة ميزنا عن بقية خلقه.. وهو الخطأ الذي وقعنا فيه لأننا كلنا من خلق الله وكلنا أحبابه.

أحلام عميرة أكرم
ناشطة في حقوق الإنسان - لندن



مقالات عن الدستور

أرجو من مجلتكم القيام بعمل سلسلة مقالات عن الدستور وأقترح التالي:

١- مفهوم الدستور وبدايته التاريخية.
٢- نبذة عن أشهر الدساتير.
٣- نماذج من الدساتير المعاصرة لدولة ملكية وأخرى جمهورية.
٤- التركيز حول مصر وتاريخ الدستور بها والدساتير المختلفة التي صدرت في مصر.
٥- الإطالة بخصوص الدستور الدائم «١٩٧١» ومناقشة سلبياته وإيجابياته.
٦- ما ترون إضافته لإتمام دراسة الموضوع.

وإنني أطالب بهذه السلسلة من المقالات لإيماني بأهمية هذا الموضوع واعتباري إياه نقطة البداية الصحيحة لعمل إصلاح واسع المدى، لذا أعتقد بأهمية عمل مثل هذه السلسلة من المقالات لنشر حد أدنى من الوعي والفهم لهذا الموضوع.

أحمد زهران
مهندس

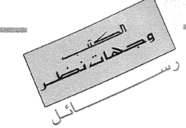


بعض الحقائق

قرأت «نون» الشعرية للأستاذ رئيس التحرير في عدد نوفمبر ٢٠٠٢ «الصعود إلى الغابة السوداء» بعبارات حكيمة محفورة على صخرة أختار منها خاتمتها: «فليكن لكل حال ما يناسبها».. كحكمة خالدة تلخص جوهر الأسلوب الأمثل لاستمرار الحياة بالمرونة وبالتفاعل أخذاً وعطاءً واستمراراً لمسلسل التغريب والاغتراب الذي أوضحه الأستاذ جلال أمين في مقالته الموجعة عن تقرير التنمية الإنسانية العربية، يسعدني أن أحاول تسجيل بعض الملاحظات (لعلها بعض الحقائق) من التاريخ ومن الحياة المحيطة بنا.. مستخدماً أسلوبك الرمزي.. ليس خشية من التصريح ولكنها الرغبة في حياد التوضيح دون شبهة العمالة أو التجريح.

أذكر منذ حوالي خمسين سنة وفي الصف الأول الثانوي بالمدرسة التوفيقية بشبرا، أنني سمعت لأول مرة من مدرس التاريخ هذه المقولة «إن الظلم لم يكن يوماً سبباً في قيام الثورات.. ولكن الإحساس بالظلم كان السبب الدائم لقيامها».. وكان يشرح لنا أسباب قيام الثورة الفرنسية.. ولكي يقرب الصورة لأذهاننا حكى لنا نكتة الإمبراطورة الجميلة ماري إنطوانيت عندما تعجبت من طلب المظاهرات الشعبية للخبز متسائلة ولماذا لا يأكلون البسكويت؟! وفي ذلك توضيح للمعنى النسبي المقصود من الإحساس بالظلم عند المقارنة بين طرفي الحياة العليا وغيرها.. وبسبب هذه المقارنة اندلعت الثورة وزأرت الحناجر منادية بالحرية والإخاء والمساواة، ورغم أنها أصبحت قيماً بدهية اليوم إلا أنها كانت انقلاباً كاملاً في أسس الفكر الإقطاعي للسادة تجاه العبيد.

لقد كان التغيير الأكبر في تاريخ البشرية ناتجاً عن تغير البيئات بعدما انتهى العصر المطير، وتوقف هطول المطر في بعض المناطق فجفت بعض المراعي



وتنوعت صور الحياة بين أخضر طرى ويابس جاف. وعرفت الإنسانية «الاقتناء» ووسائل «إكثار القطيع» كمصادر للغذاء باللحم ووسيلة لرعاية الحياة في الصحراء ومؤشرًا للغنى، كما عرفت الاستقرار عند الماء ووسائل «استزراع الحبوب» كمصادر للغذاء بالخبز ووسيلة لرعاية الحياة في الريف حيث أصبح امتلاك الأرض المنتجة هو مؤشر الغنى، وبدأ الصراع الأبدى من أجل الحصول على ما في يد الآخر بين شعوب الرمل وشعوب الطين سواء عند الشح أو حين الطمع!

لقد عاش المصريون آمنين في جنتهم حول الوادى آلاف السنين فأبدعوا للبشرية قيمها العليا في الفكر والفن والحياة بفضل عقيدة التوحيد وجائزتها الكبرى الفوز بالحياة الأبدية في جنة طاعة أوامر الله. ولكن حدث أن توحد رعاة الشرق الحاسدون الطامعون وابتكروا «العربة فوق العجل يجرها الحصان» وانكسر بها أمامهم حاجز زمن العطش ومسافة عبور الصحراء ودهست سنابك الخيل جنة الخير. وكان الانقلاب في مفهوم معنى الخير والشر بين نسبية المصالح التى يطلبها العطشى الجائعون وبين مطلق المبادئ التى توصل إليها الشبعانون؟ وهكذا انكسرت القلوب الطيبة بشراسة الغزاة ونذالتهم، وانكسرت النفوس السوية بالتقوى بآلام فجور القتل بلا جريرة.

وعرفت البشرية أنه لابد أن يتطهر ثوب السلام الأبيض بدماء الثأر لتحرير الأرض ورد ظلم الغزو. ودخلت البشرية كلها سلسلة متوالية من الصراع الأبدى الدائم بين المثاليين من المؤمنين بالحفاظ على الحياة الدنيا طاهرة خالية من مخالفات العقيدة بأمل تحقيق الخلود في الحياة الأبدية، ضد غيرهم من الكافرين بهذه العقيدة الذين يدعون إن هي إلا حياة واحدة! وضاعت الحروب حلم الجنة الأبدية.. حتى يفوز الغاصبون بمتع الحياة الدنيا.

ويسجل تاريخ البشرية مع بداية القرن الحادى والعشرين تبلور انتكاسة كبرى في مسيرة الحرية الإنسانية وذلك من خلال تجديد النظام الإقطاعى للسادة والعبيد وتعميمه على مستوى الكرة الأرضية كلها، ويستتر القانون على ذلك بقناع الحرية ومسمى «العولمة».

ويتم ذلك بإنهاء عصر الهوية القومية، وبداية عصر الكيانات الكبرى، التى تتركز حاليًا في ثلاثة لا غير: أمريكا الشمالية (وتضم الولايات المتحدة وكندا والمكسيك!)، وأوروبا المتحدة، وآسيا الشرقية (وتضم اليابان والصين وكوريا). ويتأكد ذلك من حرص هذه الكيانات على تكريس الوحدة والتكامل في داخلها، وحرصها على تكريس التقسيم والتجزئة في الدول الأخرى مثل تفتيت يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفيتى في أوروبا، وتفتيت أثيوبيا والمغرب والكونغو وغينيا وجنوب أفريقيا والمحاولة في السودان وساحل العاج وغيرهما في أفريقيا. وهو أيضًا ما تم ويتم تكريسه في آسيا الغربية والجنوبية بنشأة نموذج تيمور الشرقية وغيرها من الكيانات على أسس قبلية أو دينية أو ما في أرضها من ثروات قيمة ونادرة!

لقد أصبح العالم - اليوم - تجسيدًا عصريًا لفكرة جمهورية أفلاطون حيث يتمتع السادة الأحرار بكل (حقوق المواطنة) التى تكفل لهم سريان إرادتهم التى تنشأ من مناقشة مصالحهم داخل (الفورم أو مجلس الأمن؟!) على سواهم من العبيد. كما تكفل لهم هذه المواطنة الحق في حياة الرفاهية القصوى بحيث لا يبقى للعبيد سوى فضلات الموائد. ويحصلون عليها في مقابل قيامهم بوظائف إمتاع السادة (بالمصارعة الحديثة) أو الحروب الصغيرة الهادفة إلى اختبار كفاءة تطوير الأسلحة الذكية المدمرة، والهادفة أيضًا إلى تطبيق استراتيجية مروض القرود القديمة بذبح القطة وضرب المربوط حتى يخاف الباقى؟ كما يكتسب (العبيد) عادات إشباع رغباتهم في حياتهم اليومية بتقليد نماذج قيم (السادة) الفردية المنطلقة بلا وازع، واعتبارها بديلاً عن قيم (بالية) كانت تعرف بالطهارة والوفاء والفداء بزعم تعارضها مع الحرية الفردية؟ وبهذه القيم العصرية لمفهوم الحرية تقوم تجارات بيع المتع لمن يرغب من السادة بعد بذل بعض من أوراق عملاته (الصعبة)، وربط رواج هذه التجارات بحسن السير والسلوك والطاعة لرغبات السادة. مع الاستمرار في القيام بالعمل في فروع الشركات العملاقة عابرة القارات مالكة حقول الزراعة وأسواقها أو البترول وعملياته أو المناجم وتكنولوجية استخلاص عناصرها أو الصناعات المدمرة للبيئة المنقولة من دول السادة بدعوى إنشاء صناعات وطنية في بلاد العبيد؟!

لقد أصبحت كلمة الهوية المستقلة في القاموس الجديد للعولمة تعنى التخلف في حين أصبح التفريط والإفراط في الاستهلاك يعنى الحرية ويقاس مدى الالتزام بها بميزان ذى كفة واحدة يتم قراءة لوحته حسب هوى عيون السيد «متولى الحسبة» في العولمة الجديدة!

ورغم أن المسلسل مستمر.. لكن يبقى حلم المدينة الفاضلة أملاً يشيده الفلاسفة والمفكرون في خيالهم وليس على الخيال في الأحلام قيود.. لأن ذلك كله عارض.. والعرض لا يبقى زمانين.. كما قال الأشعرى.

د. حمزة إبراهيم عامر
أستاذ الجيولوجيا التطبيقية



من أزمة الصواريخ الكوبية
إلى أسلحة الدمار العراقية

■ التاريخ لا يُعيد نفسه بكل ملابساته وتفاصيله وأحداثه، ولكن الإنسان هو الذى لا يتعلم من أخطائه، فيعيد تكرارها على نحو أو آخر. وقبل أقل من نصف قرن، وبالتحديد فى عام ١٩٦١ شهد العالم أزمة مشابهة للأزمة الراهنة التى تدور مشاهدها حول العراق والتى توشك أن تندلع بسببها حرب فى الشرق الأوسط. ولكنها فى ذلك الحين كانت تدور حول كوبا. وكان مسرحها خليج الخنازير بدلاً من الخليج العربى.. كان العالم غير العالم، وتوازن القوى الذى يحكم العالم فى الستينيات فى ظل سباق الرعب النووى والحرب الباردة والتكتلات العسكرية، غير هيمنة القوة الكبرى الوحيدة التى تفرض استراتيجيتها على العالم الآن.. كان النظام الشيوعى الذى أقامه كاسترو فى كوبا يمثل شوكة فى جنب أمريكا التى اتهمته بإيواء قاعدة للصواريخ السوفيتية على الأراضى الكوبية. وكانت المشكلة التى واجهت أمريكا هى كيف ترغم كاسترو على تفكيك هذه الصواريخ ونزعها من قواعدها، دون أن تخاطر بمواجهة مع موسكو قد تؤدى إلى إشعال حرب نووية.



وفى كتاب صدر حديثًا فى أبريل من هذا العام «جهاز من الأسرار» Body of Secrets يكشف مؤلفه جيمس بامفورد عن أسرار هذه الحقبة، وبين يديه ملفات وكالة الأمن القومى الأمريكى السرية.. كانت تمور تحت السطح فى أمريكا حينذاك تيارات محملة بمشاعر الخطر، وكانت شكوك العسكريين تجاه القيادات المدنية التى تولت زمام الحكم فى واشنطن بعد فوز جون ف.كنيدى عميقة الجذور، إلى درجة تصورت معها بعض القيادات العسكرية أن القيادات المدنية تم اختراقها بواسطة الشيوعية الدولية.. خصوصًا أن كنيدى كان يمثل تيارًا ليبراليًا اجتماعيًا داخل الحزب الديمقراطى، وكان ايزنهاور قد عيَّن قبل انتهاء ولايته رئيسًا لهيئة الأركان يعد من أكثر العسكريين انغلاقًا وتعصبًا هو الجنرال ليمان ليمنتزر، الذى كان يؤمن بمبادئ جمعية جون بيرش العنصرية المعادية للسود.. وكان يتمنى فى جلساته الخاصة لو زحفت القوات الأمريكية على شوارع هافانا وأطاحت بكاسترو ومزقت النظام الشيوعى إربًا.

يفصل الكتاب أجواء العداء والتوتر التى سادت أمريكا فى ذلك الوقت، ويثبت نمط التفكير الأمريكى فى مواجهة الظروف العالمية التى ميزت الحرب الباردة، والحجج التى كانت تُساق لتشويه صورة كاسترو والشيوعية، وكأننا نسمع نفس الحجج ونقرأ نفس الادعاءات التى تُساق اليوم ضد صدام حسين وضد الإسلام والمسلمين.. «إن أنصار الشيوعية فى العالم قد عقدوا العزم على تدمير حضارتنا وكل قيمنا.. وبات تراثنا فى الحرية والآمال التى احتضنتها البشرية منذ آلاف السنين فى مهب الريح. ولابد أن نعثر على الرد المناسب لمواجهة هذه الأخطار المميتة.. ليس كحكومات فقط بل كأفراد ومواطنين...».



لم يختلف الرد المناسب الذى طرحته الإدارة الأمريكية بأجهزتها المختلفة قبل نحو خمسين عامًا عما يجرى هذه الأيام.. فقد نشب خلافٌ بين وكالة المخابرات المركزية التى وضعت خطة سرية تقوم على تهريب ما يقرب من ألفين من العملاء الكوبيين المعارضين لكاسترو إلى كوبا، بينما رأى الجنرال ليمنتزر رئيس هيئة الأركان أن الحل يقوم على شن هجوم عسكرى ساحق برًا وبحرًا وجوًا.. وكان التحفظ الوحيد هو أن خطة الهجوم العسكرى الشامل يمكن أن تثير ردود فعل عالمية وتعيد إلى الأذهان قصة الغزو السوفيتى للمجر.. ومن ثم تفتق ذهن هيئة الأركان المشتركة عن خطة سرية لخداع الرأى العام الأمريكى والعالمى، وإيهامه بأن كوبا هى التى شنت الهجوم على أمريكا.. طبقًا لنظرية «هز ذيل الكلب»!

وتحكى الوثائق السرية الأمريكية أن ليمنتزر وهيئة الأركان المشتركة اقترحوا على الرئيس كنيدى تدبير هجوم على القاعدة البحرية الأمريكية فى خليج جوانتنامو واتهام كاسترو بأنه هو الذى قام به. واقتناعًا من الرأى العام الأمريكى المخدوع بأن كاسترو هو المعتدى، فسوف يؤيد الشعب الأمريكى شن حرب ضد كوبا.. وفى النهاية فمن الذى سيصدق تكذيبات كاسترو ونفيه فى مواجهة بيانات البنتاجون ووثائقه وقياداته العسكرية؟

لا يغيب عن البال أن مثل هذه الحرب.. لو تمت.. كان مقدرًا أن يقع لها من الضحايا عدد لا بأس به من الجنود الأمريكيين، استنادًا إلى نسيج من الأكاذيب الملفقة، ومع تطور الأحداث فى تلك الأيام، أصبحت هذه الخطة هى القمة الظاهرة لجبل ثلج غاطس تحت الماء.. خاصة بعد أن تطورت الخطة واقترح ليمنتزر على كنيدى تشكيل حكومة فى المنفى ووافق كنيدى على تكليف البنتاجون والمخابرات (سى.آى.إيه) بمراجعة الخطط اللازمة لإرسال المعارضين لكاسترو إلى كوبا للاستيلاء على السلطة، بعد أن تنجح القوات الأمريكية فى عملياتها العسكرية.

ولكن وكالة المخابرات المركزية التى كانت تحت رئاسة آلن دالاس فى ذلك الوقت، كان لها رأى آخر. فلم يكن كاسترو مكروهًا من شعبه بل كان ينظر إليه كبطل حرر بلاده من ديكتاتورية «باتستا» الدموية. ومن ثم فقد كانت هناك شكوك قوية فى أن ينضم الشعب الكوبى إلى قوات الاحتلال الأمريكية، أو أن تنجح المخابرات الأمريكية فى تنظيم مقاومة داخلية لمساندة الغزو الأمريكى!



بينما كانت الاستعدادات تتقدم على طريق تنفيذ الخطة، رغم الخلافات، ركَّزت وكالة الأمن القومى الأمريكية جهودها على التحركات السوفيتية. ورصدت أجهزة التجسس الأمريكية حركة نشطة لسفن شحن سوفيتية فى ميناء هافانا. ودون دخول فى تفاصيل كثيرة، فقد منيت المحاولة الأولى لإنزال قوات غزو أمريكية فى خليج الخنازير فى ١٧ أبريل ١٩٦١ بالفشل.

ولكن فشل عملية الغزو التى دبرتها المخابرات المركزية، لم يصرف نظر حكومة كنيدى عن كوبا. وقرر كنيدى أن يحول مسئولية حل المشكلة الكوبية من المخابرات إلى البنتاجون. وكانت تلك هى الفرصة الذهبية لكى يشد العسكريون عضلاتهم ويثبتوا كفاءتهم بعد الفشل الذريع للمخابرات المركزية.

ولأسباب تبدو كامنة فى صلب المجتمع الأمريكى، فإن اليمين الأمريكى المحافظ دائمًا ما يجد له حلفاء فى المؤسسات الأمريكية الأخرى.. ويشير الكتاب إلى تقرير قدمته لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشيوخ وحذرت فيه آنذاك من سيطرة جناح يمينى متطرف على قيادات الجيش. وألمحت إلى خطورة وقوع محاولة من العسكريين لتغيير سياسة الحكومة كما حدث فى الانقلاب الذى قاده بعض غلاة المتطرفين من الجيش الفرنسى فى الجزائر.

ويبدو أن هذه المخاوف كان لها ما يبررها. إذ تكشف الوثائق السرية التى أذيعت أن هيئة الأركان المشتركة وضعت وأقرت خطة من أغرب وأقذر ما يمكن أن يخطر على البال لخداع الرأى العام الأمريكى.. تقوم على شن «حرب ضد الإرهاب» فى داخل أمريكا نفسها.. وأطلق على هذه الخطة اسم «عملية نورثوود». يجرى خلالها إطلاق النار على بعض المواطنين الأبرياء فى الشوارع الأمريكية، وارتكاب أعمال عنف فى واشنطن وميامى وغيرها، وإغراق عدد من الزوارق التى تحمل لاجئين هاربين من كوبا، واختطاف طائرات، واستخدامها كأدلة لإدانة كاسترو باعتباره مسئولاً عن تدبير هذه العمليات الإرهابية.



ولسبب أو لآخر لم يتحمس كنيدى لأى من هذه الخطط، التى ظلت وثائقها محفوظة وغير مسموح بالكشف عنها لمدة أربعين سنة.. ولم يتوقف ليمنتزر عن تفريخ خططه الشيطانية إلا بعد أن أُبعد من منصب رئيس الأركان إلى قيادة حلف الأطلنطى.

ومن الواضح أن أزمة كوبا مثلت فى تاريخ أمريكا نموذجًا بالغ الدلالة فى أسلوب مواجهة الصراعات الدولية. فقد استشهد بها الرئيس بوش أخيرًا، كدليل على أن الضربة الإجهاضية هى العلاج الوحيد لمواجهة عدو يصوب إليك بندقيته. وادعى أن هذا ما فعله الرئيس كنيدى حين اكتشفت طائرات التجسس الأمريكية قواعد للصواريخ السوفيتية يجرى تشييدها فى كوبا، ولكن السناتور ادوارد كنيدى شقيق الرئيس الراحل رأى فى الأزمة الكوبية ما يؤكد أن «القوة لا تعنى الحق». وأن أمريكا لو تصرفت تصرفًا فرديًا مدفوعًا بمشاعر الغضب فى هذه الأزمة لفجرت حربًا عالمية.

ولهذا السبب اختار الرئيس كنيدى من بين ثلاثة خيارات قدمها إليه مستشاروه حلاً وسطًا: إما قصف كوبا جوًا واحتلالها، أو فرض حصار بحرى عليها، أو اللجوء إلى الأمم المتحدة. وكان الحصار البحرى هو الذى أنهى الأزمة مع خروشوف.

ما نريد أن نخلص إليه من كشف أسرار هذه الحقبة الحافلة، وما ترويه وثائقها، هو أن مواقع المسئولية الرئيسية حتى فى أكبر دول العالم لا تخلو من أفاقين وأشرار يمكن أن يقودوا العالم إلى كارثة.. وأن أساليب التمويه والتغطية وخداع الرأى العام لحمله على دفع تكاليف الحروب والمغامرات العسكرية، ليست جديدة، بل ازدادت تعقيدًا وبراعة وغموضًا، حتى لتستعصى على أبرع أجهزة المخابرات العالمية المنافسة.

سلامة أحمد سلامة

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر
Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 48 - January 2003
مجلة شهرية. العدد الثامن والأربعون. السنة الرابعة. يناير ٢٠٠٣. الثمن عشرة جنيهات





ثورة يوليو: خمسون عاما

محمد حسنين هيكل

ساعة سقوط الملكية فى مصر

منع الانتشار النووى.. عودة إلى الأساسيات / محمد البرادعى

فاتورة حرب العراق.. من يدفعها هذه المرة؟ / ويليام نوردهاوس

يهود أوروبا يطاردون «حلم» مراهقة مصرية / رنا جايك

السينما العربية فى الانتظار / إبراهيم العريس

الهندسة الوراثية.. أمل الجوعى / أحمد مستجير

«نون» استنساخ الديمقراطية على الطريقة الأمريكية / سلامة أحمد سلامة

فنون مصر المسيحية

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد الثامن والأربعون
يناير ٢٠٠٣

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

كتّاب العدد:

- **إبراهيم العريس**.. ناقد سينمائى من لبنان.
- **أحمد مستجير** .. أستاذ بكلية الزراعة جامعة القاهرة.
- **أيمن الصياد** .. صحفى.
- **جيرشوم جورينبرج** .. صحفى.
- **جيمس ميك** .. صحفى بريطانى.
- **حمزة إبراهيم عامر** .. أستاذ الجيولوجيا التطبيقية.
- **رنا حايك** .. صحفية.
- **سلامة أحمد سلامة** .. صحفى.
- **عمرو محيى الدين**.. أستاذ الاقتصاد.
- **فاروق وهبة**.. أستاذ بكلية الفنون الجميلة.
- **كلود جوردا**.. رئيس المحكمة الجزائية لشئون دولة يوغسلافيا السابقة.
- **محمد البرادعى**.. مدير عام الوكالة الدولية للطاقة الذرية
- **محمد حسنين هيكل** .. صحفى.
- **وائل عبد الفتاح** .. صحفى.
- **وليام نوردهاوس** .. أستاذ الاقتصاد بجامعة ييل الأمريكية.
- **يحيى الرخاوى**.. أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى ـ سعد الدين شحاتة



المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٢٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــــة..

الكتـــب.. والقـــراءة و«وجـــهـــات نظـــر»

بهذا العدد الثامن والأربعين ـ تختتم «وجهات نظر» عامها الرابع. وهى مناسبة تعودنا فيها أن نتوقف ـ فى هذا المكان ـ لنتذكر: لماذا كانت تلك المطبوعة؟ ولنتدبر ما هو آت، بعد أن نسأل: إلى أى مدى اقترب واقع ما كان مع أحلام الولادة وطموحات البداية.

ونتذكر ـ كعادتنا كل عام ـ كيف استقبل قراء العربية المطبوعة الوليدة يومها، استقبالاً تفاوت بين الترحيب والقلق.

رحب بها ـ كما أدركنا مبكرًا ـ من كانوا ينتظرون مطبوعة عربية تدقق اللفظ والمعنى.. واختيار الموضوع.

وأشفق عليها يومها أصدقاء خشوا أن الأصوات «الهادئة» قد لا تجد صدى فى ساحة امتلأت بالصخب والألوان والأصوات العالية.

وكان ـ كما نقول ونفخر دائمًا ـ أن توسط «عِقد» كتّابنا الكرام؛ الأستاذ محمد حسنين هيكل عميد كتّاب الصحافة العربية المعاصرة صديقًا «دائمًا» للمجلة، وقلمًا يتصدر شهريًا أقلامها. وفى حين نعترف أن هناك من رأى فى ذلك حسمًا حتميًا ومبكرًا لمنافسةٍ مفترضة مع مطبوعةٍ جديدة. رآه القائمون على تلك المطبوعة ـ كما نكرر دائمًا ـ تحديًا يفرض عليهم صرامةَ الالتزام بمستوى مهنى «يليق».



ويعرف قراء «وجهات نظر» أنها مطبوعة تعنى بشكل رئيسى بالكتب، كمصدر لا ينضب للمعرفة الإنسانية والأصول والمنابع والمرجعيات.

ويعرف كتّابُ «وجهات نظر» أنها أبدًا لم تقصد، ولم تحاول، أن تكون مجرد نافذة تقليدية لـ«عروض الكتب» بالمفهوم أو المعنى الذى استقر طويلاً فى صحافتنا العربية. فتلك حالة قد تغنى فيها مطالعة الكتاب ذاته عن قراءة عرضه. فـ«وجهات نظر» ـ وهى بحكم الاسم والهدف ـ ساحة لـ«الرؤى المتمعنة» ـ عندما تعرض لكتاب أو لوثيقة، فإنما تقدم «قراءة» للأوراق تتضمن بالضرورة رؤية القارئ (الكاتب)، والتى يتصور القائمون على تلك المجلة أن لها خصوصيتها بالضرورة، بحكم تباينٍ طبيعى فى الخبرة، واختلافٍ واردٍ فى زاوية النظر.

يفترض القائمونَ على تلك المجلة إذن ـ ويوضحون فى كل مناسبة ـ أن «القراءة» التى تسعى إلى تقديمها هى فى الحقيقة «خلاصةٌ» لمزيج متفاعل حى بين الكاتب والكتّاب.. أو لعلنا قائلون: بين فكر «الكاتب» وأفكار «الكتّاب».

ينتظر قارئ «وجهات نظر» ـ ونعرف ذلك ـ أن لا تكتفى بتقديم ما فى الكتب، بل يتوقع دائمًا ـ وله ذلك ـ أن تقدم له قراءةَ كتّابها لهذه الكتب.

ولأن القائمين على تلك المطبوعة يدركون ما ينتظره قارئها منها نترك ترجمة المقالات المتخصصة إلى المتخصصين. ففى هذا العدد يقدم دكتور أحمد شوقى ـ أستاذ علم الوراثة بجامعة الزقازيق ـ ترجمته لمقال مهم فى الهندسة الوراثية ننشره بترتيب خاص مع لندن ريڤيو أوف بوكس.



الكاتب الأرجنتينى ألبرتو مانويل أصدر كتابًا ممتعًا ومحفزًا للتفكير اختار له عنوانًا قد لا يبدو مثيرًا «تاريخ القراءة». وفى هذا العدد من المجلة التى تعنى بحكم طبيعتها بالكتب والذى يواكب صدوره الدورة الـ ٣٥ لمعرض القاهرة الدولى للكتاب، يعرض وائل عبدالفتاح كتاب مانويل ـ أو بالأحرى ـ يقرأه. حيث يرى أن عملية القراءة فى العالم العربى مازالت عملية معقدة. تتشابك فيها طبائع الاستبداد فى الأنظمة السياسية مع خريطة الفقر والثراء فى المجتمعات العربية.. إلى جانب علاقات أخرى بين الدولة والمثقفين.. وبين المثقفين والمجتمع.. وفضلاً ـ الصدى المرعب للتقدم التكنولوجى الذى يخلق فى المجتمعات المختلفة طبقة من «العارفين الجهلاء» يعرفون استخدام الوسائل المتطورة لكنهم عاجزون عن اكتشاف المعرفة أو إبداعها من خلال هذه الوسائل.

وربما تكون رحلة الكتاب فى العالم التى يستعرضها مانويل مرت بمراحل تقنية من الحفر على ألواح الحجر ثم الصلصال.. إلى أوراق البردى فى مصر القديمة.. وحتى عجينة الورق الحديثة.. وصولاً إلى الكتاب الإلكترونى الذى يهدد بالعودة إلى الثقافة الشفهية بعد قرن من اكتشاف الكتابة.

إلا أن الكتاب العربى ـ يرى كاتبنا ـ مازال أسير رحلة أخرى. تبدأ مصاعبها مع فيروس الأمية المنتشر فى بعض البلاد العربية مثل الوباء. ولا تنتهى عند علاقة العرب المتوترة بفكرة الكتابة والكتب. توتر له أصول دينية. فالإسلام يعتبر أن الكتاب هو القرآن. كتاب الله الموحى به من السماء. وهذا يعنى أن الكتاب بعقد الألف واللام هو صناعة إلهية. وفى المقابل أى محاولة بشرية إما أن تأتى على هامشه. تفسيرًا أو شرحًا. فالعلم هو الدين والعلماء هم شارحو الدين ومفسرو نصه الكبير.

ورغم أن هذه العلاقة التاريخية المتوترة خفت حدتها الظاهرة إلا أنها للأسف لم تجعل الكتب عنصرًا أساسيًا فى الثقافة الشعبية. والإنسان العادى لا يلجأ إلى الكتاب إلا فى سنوات التعليم. وخارج هذا ليس هناك عادة إلا الكتب التراثية أو بعض كتب «الوجبات السريعة» حول القضايا التى تبدو ساخنة.

فالكتاب العربى لا يطبع منه الآن أكثر من ألف نسخة (هناك الآن دور نشر تطبع من الأعمال الأدبية خمسمائة نسخة فقط). ونجيب محفوظ الأوسع انتشارًا بين الروائيين، بسبب السينما ونوبل، طبعته لا تزيد على ثلاثة آلاف. أما نزار قبانى الشاعر الأشهر فديوانه لا يصل إلى رقم العشرة آلاف إلا فى حالات نادرة. رغم أن أغانيه روَّجت لكتبه. ورغم أنه تعدى فكرة الشعر وأصبح من علامات المراهقة. وبدايات المعرفة.

غير هذا ليس هناك الآن إلا الكتاب السريع الذى يستثمر بهارات القضايا الصحافية المثيرة. توزيع هذه الكتب يعتمد على ضربة الحظ وعلى حساسية خاصة بالسوق ويعتمد أيضًا على «الموضة».. ضربة الحظ قد تصل بأحد هذه الكتب إلى رقم ٤٥ ألف نسخة كما حدث مع كتاب أشار عنوانه يومًا إلى اسم راقصة مشهورة.

ألبرتو مانويل من مواليد بيونيس أيرس (١٩٤٨). ورغم أن حياته كانت دائمًا حافلة بالكتب والأدب، إلا أنه ترك المدرسة مبكرًا دون أن يحصل على درجة جامعية. وقضى حياته بين موطنه الأصلى وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا قبل أن يستقر به المقام فى كندا حيث يعيش.



يكتب مانويل عن «تاريخ القراءة» ويَذهبُ الخوفُ من «القراءة» عند البعض إلى حد شن حملة لا تستهدف غير منع القراء من الاطلاع على كتاب/رواية كتبتها فتاة إيطالية من أصل مصرى لا يزيد عمرها على ١٥ عامًا.

الكتاب: «حالم بفلسطين»، والذى أثار غضب الجمعيات اليهودية على ناشريه بعد أن باع ١٤ ألف نسخة فى إيطاليا وحدها، قالت كاتبته «راندة غازى سلامة» أن مؤلفه الحقيقى هو «الجيش الإسرائيلى.. لأن جنوده يمارسون التعسف اليومى بحق الفلسطينيين. ويزودون الكتّاب والروائيين بمادة خام من إنتاجهم».

وكانت دار الشروق قد استشعرت أهمية هذا العمل قبل وقت طويل من المعركة التى ثارت. وقد لا يعرف كثيرون أن رندا غازى زارت القاهرة قبيل شهور حيث اتفقت مع أميرة أبو المجد مدير قسم كتاب الأطفال بالدار على حق نشر الرواية باللغة العربية.

وجهات نظر

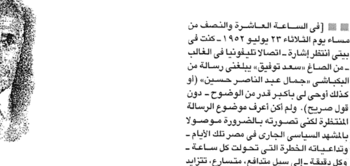


وقد أتم الأستاذُ الجزءَ الأولَ من سِفرِه الكبير المؤَرِّخ ليوليو بـ «الطرقِ على أبوابه»، فقد ارتأى أن تخرجَ بقية القصة فى كتاب. وأن يعود القلم من العدد القادم ليناقش همومًا حاضرة تتكاثف غيومها يومًا بعد يوم وساعة بعد ساعة.

«سقوط نظام.. لماذا كانت ثورة يوليو لازمة» هو عنوان الجزء الأول/ الكتاب الذى يصدر عن «وجهات نظر» هذا الشهر. ويلحق به قريبًا الجزء الثانى.

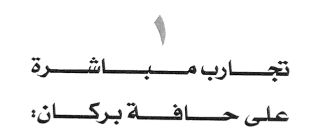
ســـــاعة ســــقوط

ثورة يوليو / خمسون عاما





محمد حسنين هيكل



١
تجارب مباشرة على حافة بركان:

[في الساعة العاشرة والنصف من مساء يوم الثلاثاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - كنت في بيتي أنتظر إشارة - اتصالا تليفونيا في الغالب - من الصاغ «سعد توفيق» يبلغني رسالة من البكباشي «جمال عبد الناصر حسين» (أو كذلك أوحى لي بأكبر قدر من الوضوح - دون قول صريح). ولم أكن أعرف موضوع الرسالة المنتظرة لكني تصورته بالضرورة موصولا بالمشهد السياسي الجاري في مصر تلك الأيام - وتداعياته الخطرة التي تحولت كل ساعة - وكل دقيقة - إلى سيل متدافع، متسارع، تتزايد حركته وتتعالى منذرة بأنه الطوفان!

....

....

[كانت الدقائق - والثواني - تمر ببطء ثقيل كأن وحدات الزمن طال عمرها ونامت عقاربها على سطح الساعة لا تخطو من خط إلى خط ولا تنتقل وتمشي لتمارس حسابها للوقت.

وفي الساعة الحادية عشرة إلا ربعا دق جرس التليفون، لكن المتكلم لم يكن من أنتظره، وإنما كان «فريد زعلوك» (باشا) (وهو الآن وزير للدولة مع «نجيب الهلالي» (باشا) ومساعد مباشر له).

وبادرني «فريد زعلوك» وصوته مشحون بنبرة قلق اختلف معها صوته الطبيعي كما ألفته (فقد كان صوته دائما مشحونا بكفاءة خطيب محرض من أيام زعامته للطلبة الوفديين في جامعة فؤاد الأول لمدة عشر سنوات كاملة قضاها بالقصد المقصود طالبا في كلية الحقوق).

وبتلك النبرة المشحونة بالنذر سألني «فريد زعلوك» إذا كنت عرفت أن «ضباط الجيش نزلوا إلى الشارع؟» وبدا لي التعبير غريبا - وأضاف «فريد زعلوك» أن المعلومات «لديهم» - أي لدى القصر والوزارة - في الاسكندرية تفيد أن هناك حالة عصيان في الجيش، وأن هناك ضباطا تركوا ثكناتهم «ونزلوا إلى الشارع!» - واستطرد «فريد زعلوك» يقول أن «نجيب (باشا)» كان يريد أن يكلمني لكنه الآن في اجتماع مع رئيس الديوان الملكي (حافظ عفيفي) لتدارس التطورات».

وقلت «أنه ليس لديَّ رد على سؤاله بشكل محدد - لكن «حواسي الصحفية» تقول لي أن هناك أمرا يجري الآن وإن كنت لا أعرف على وجه اليقين شكله أو حجمه أو اتجاهه». وكان سؤاله التالي مباشرة «هل رأيت اللواء نجيب بعد عودتك من الإسكندرية أو سمعت منه؟» وأجبت بالنفي وشعوري الداخلي أنني لا أريد لحديثنا أن يطول - من هاجس يلح عليَّ بأن أترك الخط التليفوني مفتوحا لاتصال أنتظره وقد يكون فيه جلاء ويقين.

وأخذت من «فريد زعلوك» رقم تليفون مكتبه في بولكلي (مقر رئاسة الوزارة في الاسكندرية) قائلا «إنني سوف أعود للاتصال به بعد قليل لعل لديه أو لديَّ جديدا عن «تطورات الموقف».

ووضعت سماعة التليفون مكانها ورحت أنظر إليها وكأنها كائن حي أمامي أنتظر منه أن يشاركني في حوار. وعندما وصلت عقارب الساعة بشق الأنفس إلى الحادية عشرة لم تبق لديَّ طاقة على الصبر، وكان الخاطر الذي يلح عليَّ «أنني لا أقدر على انتظار إشارة الصاغ «سعد توفيق» - بل إن الانتظار في حد ذاته لم يعد مقبولا من «مخبر» صحفي «في لحظات نزلت فيها الحوادث (ضباطا) إلى الشوارع» (حسب تعبير وزير الدولة «فريد زعلوك» (باشا)]

....

....

[وعندما فتحت باب بيتي لأخرج (وفي ذهني أن أقصد إلى مبنى أخبار اليوم بظن أنني هناك أقرب إلى مجرى الحوادث) - سمعت رنين التليفون وعدت ملهوفا أسمع صوت الصاغ «سعد توفيق» دون مقدمات يسألني بما معناه «إذا كنت أعرف محطة البنزين وراء كوبري القبة؟ وإذا كان ذلك، فعليَّ أن أكون هناك حوالي الساعة الثالثة قبل الفجر». ثم يضيف «لا تذهب عن طريق العباسية - جرب الطريق الخلفي من ناحية قصر القبة» ثم مضيفا وبسرعة «سوف تجدني أو تجد خبرا مني هناك» - وانتهى الاتصال!

كانت «حواسي المهنية» يقظى، وكان أول ما فعلته أنني عدت إلى باب بيتي أغلقه بعد أن تركته مفتوحا حين سمعت رنين تليفون في اللحظة الأخيرة قبل الخروج! - لأني أحسست بحاجة إلى ترتيب خطاي قبل أن أتحرك على غير هدى مسوقا - ومشوقا إلى الجري وراء «أمور» أعرف «أنها الآن تقع» أو «على وشك أن تقع» - لكن المعلومات اللازمة لتوجيه أي عمل لا تزال مجهولة - على الأقل غير محددة! وكان تفكيري ينتقل من «تصور» إلى «تصور» كأنها طرفات جفن (وهي حالة يعرفها أولئك الذين يكون عليهم أن يختاروا على عجل في مواقف يمكن أن تكون فارقة).

كانت أفكاري تتداعى واحدة متصلة بواحدة:

- لا وسيلة ولا جدوى من محاولة الاتصال مرة أخرى بالصاغ «سعد توفيق» لسؤاله عن أكثر مما نطق به «خطفا» ولم يزد ولم ينتظر - ثم إنني لا أعرف أين هو؟!

- ومن الآن الساعة الحادية عشرة وحتى ذلك الموعد المعلق في الهواء عند الفجر - مدة أربع ساعات وهي في السياسة «دهر»، وفي مثل أحوال مصر لحظتها «أبد» يستحيل انتظاره حتى يحل.

- والذهاب إلى مبنى «أخبار اليوم لن يفيد في الغالب بشيء إلا البقاء رهن مكتب يستطيع أن يطلب محررين من بيوتهم لكنه لا يعرف إلى أين يدفع بهم - كما أنه لا يستطيع من هناك الاتصال بالإسكندرية - لأن الإسكندرية هي التي تحاول الآن أن تعرف شيئا عما يجري في القاهرة (بدليل اتصال «فريد زعلوك» بي).

- ولمع في ذهني خاطر مثل ومض برق وسط الضباب: «محمد نجيب» (وكان ذلك استطرادا من سؤال «فريد زعلوك» عما إذا كنت رأيت «محمد نجيب» أو سمعت منه بعد عودتي من الإسكندرية).

وبان وسط تضارب التصورات خط راح يزداد وضوحا كلما ركزت عليه:

- هناك أربع ساعات من الآن - حتى الفجر
- وإذا كان هناك «ضباط نزلوا إلى الشارع»
- فالغالب أن «محمد نجيب» يعرف شيئا - أو أنه يستطيع أن يعرف شيئا.
- وما داموا في الإسكندرية (وزير الدولة باسم رئيس الوزراء يسألني عن «محمد نجيب»)، فلا بد أنهم يظلنون بوجود اتصال على نحو ما بينه وبين ما هو جار الآن أو ضمن توابعه.
- وفي كل الأحوال فإن «محمد نجيب» هو نفسه عقدة الموضوع في أزمة حل مجلس إدارة نادي ضباط الجيش التي هي بالتحديد بداية الانزلاق نحو ما يجري هذه الساعة.

والغريب أنني أثناء ذلك كله لم أفكر في الاتصال تليفونيا ببيت «محمد نجيب» وإنما وجدت نفسي أقود سيارتي على الطريق إليه: شارع فؤاد الأول - شارع الملكة نازلي - ميدان المحطة - شارع الملك - إلى الزيتون من وراء قصر القبة (وذلك طريق أطول قليلا من طريق العباسية لكنني - ربما - بوحي الوعي الباطن كنت أتبع نصيحة «سعد توفيق» - وكانت تلك «ضربة حظ» - فلو أخذت طريق العباسية لوجدته مغلقا بسبب التحركات العسكرية التي كان نطاقها يتسع)

....

....

[وعندما توقفت بسيارتي أمام بيت اللواء «محمد نجيب» كان البيت غارقا في الظلام فيما عدا خطوط ضوء تبين من خلال الرقائق العرضية للباب الخشبي الذي يسبق الضلف الزجاجية لباب غرفة الاستقبال المجاورة لمدخل البيت الطبيعي.

ووقفت لحظة أتلفت حولي - وبدا كل شيء هادئا وكل الناس نيام. وصعدت درجات السلم القليلة إلى الشرفة الصغيرة التي يطل عليها البابان: باب الدخول الطبيعي إلى البيت وباب غرفة الاستقبال. وكانت خطوط الضوء العرضية وراءه هي الإيحاء الوحيد باليقظة أو بالسهر!

الملكيـــة فى مصـــر

واقتربت «أدق» على الباب خفيفا - وخيل إلىَّ أننى أسمع صوتا شبيها بصوت اللواء «محمد نجيب». ومضت ثوان مشدودة على الآخر كأنها وتر قوس مسحوب إلى أقصى حد ليدفع بسهم إلى أقصى مدى. ثم سمعت صوت الباب الزجاجى يفتح وبعده مزلاج الباب الخشبى (ولم أسجل ولا أتذكر من الذى فتح الباب وفى الغالب فإنه جندى المراسلة الذى كان يقوم على خدمة البيت) ثم وجدت صاحب البيت اللواء «محمد نجيب» جالسا وراء مكتبه والتليفون فى يده وهو مصغ باهتمام - ويشير إلىَّ أن أدخل وأجلس وأنتظره حتى يفرغ من حديثه!

كان انتباهى كله مركزا عليه أستشف من كلمات قليلة ينطق بها - موضوع حديثه أو شخصية محدثه. ثم كانت المفاجأة حين وجدته يقول ما معناه «أنه سوف يحاول تكملة الصورة ومعرفة التفاصيل» ثم يضيف على غير انتظار «وحتى عندى هنا الأستاذ هيكل من «أخبار اليوم» » ثم يزيد قائلا لمحدثه «نعم . . . نعم»! - ثم يمد سماعة التليفون ناحيتى يدعونى إلى الكلام هامسا «هذا مرتضى المراغى باشا (وزير الداخلية) .... طلب أن يتكلم معك حين قلت له أنك عندى». وفاجانى ما فعل كما فاجانى ما قال. ولم يكن هناك مجال للتردد.

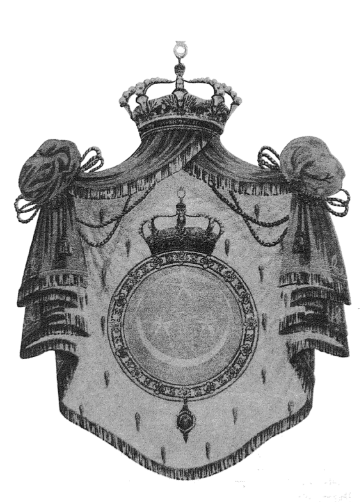
وسألنى «مرتضى المراغى» (وزير الداخلية ورجل الملك القوى المدخر للحظة العصيبة) دون مقدمات «عما يجرى عندكم!» وقلت «إن فريد زعلوك (زميله فى الوزارة) اتصل بى قبل أكثر من ساعة وأبلغنى بعض التفاصيل عما وصل إليهم فى الإسكندرية عن خروج ضباط فى الجيش من ثكناتهم إلى الشارع. وقد خطر لى أن أجىء إلى بيت اللواء نجيب بظن أنه قد يعرف شيئا، ولكنى وجدته وحده يتحدث إليك!» وقال «المراغى» - (كما سجلت فى أوراقى) - «هناك عيال مجانين .... ضباط جيش تركوا ثكناتهم وخرجوا فى حالة عصيان سوف تودى بهم «فى داهية» وهذا «الجنون» يجب أن ينتهى قبل أن يطلع الصباح، وأنا «كلفت» اللواء نجيب أن يتصرف كما يرى مناسبا وأن يتوجه إلى حيث يقابل «هؤلاء المجانين» ويقنعهم بفض اعتصامهم والعودة إلى بيوتهم. واللواء نجيب مخوَّل بإبلاغهم «أنه لن تجرى ملاحقة أحد منهم بعقاب وسوف نعتبر الأمر طيش شباب دفعت إليه الحماسة الزائدة...»

وتوقف لكنه لم يلبث حتى فاجانى بسؤال مؤداه:

«إذا كنت أعتقد أنه (اللواء نجيب) يستطيع إقناعهم - لأن هذه فضيحة للبلد لا بد من تداركها قبل أن يعرف عنها أحد، والمطلوب هو لمُّ الموضوع بسرعة بحيث يمكن نفى خبره إذا تسرب شىء عنه» -

ثم يضيف «مرتضى المراغى»: «أعطنى اللواء نجيب» - ثم يزيد «إنه لا بد أن يتحرك اللواء نجيب فورا وخصوصا أنهم يعرفون أنه رجل محترم فى أوساط الضباط الشبان - على أنه يتعين عليه الآن أن يستعمل حزمه قبل

مرتضى المراغى يطلب أن يتحرك اللواء نجيب فورا وخصوصا أنهم يعرفون أنه رجل محترم فى أوساط الضباط الشبان. يتعين عليه الآن أن يستعمل حزمه قبل طيبته ولأنه إذا مضى هؤلاء «المجانين» فى جنونهم فإن المشانق سوف تكون صفوفا قبل أن يطلع الصبح»!



طيبته قبل أن يضطروا إلى إجراءات لا داعى لها لأنه إذا مضى هؤلاء «المجانين» فى جنونهم فإن المشانق سوف تكون صفوفا قبل أن يطلع الصبح»!

ثم يصل «المراغى» إلى أن يقول لى «حاول أن تقوى عزيمة اللواء نجيب ما دمت معه الآن - وتعرفه».

وناولت سماعة التليفون إلى اللواء «نجيب» ولم يطل حديثه مع وزير الداخلية وإنما أنهاه وهو يقول ويكرر «حاضر... إن شاء الله خير».

وأعاد اللواء «محمد نجيب» سماعة التليفون إلى مكانها وسألته مستغربا وإلى حد ما معاتبا - «لماذا قال لوزير الداخلية أننى هنا؟» ورد بلهجة أحسست فيها بيقظة ذكاء بما مؤداه «أردت أن يطمئن المراغى باشا. أردت أن أؤكد له أننى لا أعرف شيئا بشهادة أننى الآن مع صحفى يمثل جريدة يقال أنها الأقرب إلى «السراى»!»

ومد يده فى هدوء إلى منفضة سجائر من المعدن ترك عليها غليونه عندما انهمك فى حديثه التليفونى مع وزير الداخلية - والآن عاد يشعله مرة أخرى وهو ينظر إلىَّ من وراء شعلة عود كبريت ينعكس لهيبها فى عينيه]

....

....

[لم يكن اللواء «محمد نجيب» يعرف كثيرا عما يجرى وما أستطيع ترجيحه سواء من الحديث معه أو (فيما بعد) مع آخرين غيره ملخصه:

١ - إن اللواء «نجيب» كان بحكم الظروف محور ومدار أزمة نادى ضباط الجيش.

٢ - إن ذلك وضعه فى مكانة معنوية لها قيمة بين التنظيمات السرية النشطة فى الجيش وأولها تنظيم الضباط الأحرار (الذى يقوده البكباشى «جمال عبد الناصر حسين»).

٣ - إن تنظيم الضباط الأحرار لم يتصل باللواء «محمد نجيب» إلا فى وقت ما من شهر يوليو سنة ١٩٥٢ لأن فكرة القيام بحركة عسكرية واسعة تحتاج إلى قائد من رتبة كبيرة لم تنشأ إلا فى ذلك الوقت.

٤ - ولأنه قبل أن تنشأ هذه الفكرة - أى حتى يوليو ١٩٥٢ - كان تركيز حركة الضباط الأحرار على عمليات اغتيال لقيادات سياسية وعسكرية تهز أعمدة النظام الملكى بحيث يصبح سقوطه محتملا (فى ظرف سنة أو سنتين) بما يفتح الطريق إلى ثورة شعبية سنة ١٩٥٣ حسب تصورات قيادة التنظيم.

٥ - ومع التدهور السياسى فى شهر يونيو والنصف الأول من شهر يوليو وتساقط الوزارات السريع فى تلك الأسابيع الحاسمة فإن «لجنة القيادة» فى تنظيم الضباط الأحرار قررت فى «وقت ما» «قرب» منتصف يوليو ١٩٥٢ - أن تقوم بتغيير أساسى فى خططها - ملخصه العدول عن فكرة الاغتيالات والتعجيل بـ «حركة عسكرية» تفتح الطريق إلى «التغيير».

٦ - وكانت خطة الحركة العسكرية هى «السيطرة على الجيش» وإملاء الشروط على الملك وعلى السياسيين وفتح الطريق لثورة شعبية.]

....

....

[وفيما بعد سمعت فكرة خطة السيطرة على الجيش من «جمال عبد الناصر» بنفسه وهى بالنص كما سجلته يومها:

«أدركنا أن منطق الاغتيال لا يحل شيئا سوى أنه يغرق البلد فى «بركة دم».

والحل الحقيقى أمامنا أن نفرض على الملك تغييرا كاملا.

كان تقديرنا أن الملك قادر على إملاء إرادته لأنه يستعمل الجيش عصا يرهب بها الشعب، ولذلك فإن خطتنا كانت أن نأخذ «العصا» من يد الملك ونضعها فى يد الشعب، أى أن ننقل ولاء القوات المسلحة من خدمة الملك لكى نضعها فى خدمة الشعب.

وجوهر الفكرة أننا إذا أخذنا الجيش من الملك فمعناه أن القصر فقد سلطته على فرض إرادته فوق الشعب.]

3- يترتب على ذلك أن الاتصال العملى باللواء «محمد نجيب» لقيادة «حركة الجيش» لم يبدأ إلا «فى وقت ما» من شهر يوليو ١٩٥٢ - لأن فكرة السيطرة على الجيش لم يؤخذ بها (بديلا لفكرة الاغتيالات) إلا فى تلك الفترة. ولم يكن معقولا أن تتصل جماعة من الشباب (تنظيم الضباط الأحرار) بضابط على مستوى اللواء «محمد نجيب» مبكرا عن شهر يوليو لإقناعه بالمشاركة فى عمليات اغتيال تمهد بعد سنة أو سنتين لثورة شعبية!

وربما أن ذلك اللقاء بين «جمال عبد الناصر» و«عبد الحكيم عامر» مع اللواء «محمد نجيب» فى بيته مساء يوم ١٨ يوليو ١٩٥٢ والذى جرى أمامى دون أن أعرف ما دار فيه - كان بذاته المناسبة التى أكد فيها الضباط الأحرار عرضهم على «محمد نجيب» لكى يتصدر حركتهم (وتقديرهم المبدئى أن يتم ذلك فى ظرف شهر).

وكان «عبد الحكيم عامر» الذى خدم لبعض الوقت تحت قيادة «محمد نجيب» هو الذى اقترح اسمه أولا، وربما كان هو أول من فاتحه، ولعل التأكيد الرسمى لهذا العرض هو لقاء «جمال عبد الناصر» (ومعه «عبد الحكيم عامر») فى بيت «نجيب» (مساء ١٨ يوليو) - وعندما تصادف وجودى هناك]

....

....

[ومهما يكن الآن - الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف ليلة ٢٣ يوليو فإن اللواء «محمد نجيب» عرف بصورة قاطعة أن حركة الجيش بدأت مبكرة «جدا» عن الموعد الذى يتوقعه، ثم إنه تلقى هذه اللحظة من وزير الداخلية (ورجل القصر القوى) «أحمد مرتضى المراغى» (باشا) - تكليفا رسميا من أعلى مستوى بأن يبذل كل جهده لتدارك «تصرفات شبان مجانين» تركوا الثكنات ونزلوا إلى الشارع فى حالة عصيان ضد النظام توالت وقائعها حول مبنى رئاسة هيئة أركان حرب القوات المسلحة على طريق منشية البكرى وما فيه من مبان تضم رئاسات أسلحة الجيش وقتها.]

....

....

وهكذا كان اللواء «محمد نجيب» الذى جلست أمامه فى بيته رجل الساعة (وسط ذروة الأزمة) ربما دون أن يقصد - ذلك أنه:

معروض عليه - أولا - من تنظيم الضباط الأحرار أن يقود خطتهم الجديدة بالسيطرة على الجيش (وقد عجَّلوا بها شهرا عما أبلغوه به لأنهم وجدوا الظرف السياسى مناسبا إلى جانب اعتبار أمنى فرضه ما بلغهم من توصل أجهزة الأمن إلى قائمة بأسماء معظمهم).

ثم أنه مطلوب منه - ثانيا - بتكليف من القصر الملكى والوزارة القائمة على الحكم وعلى لسان «مرتضى المراغى» - «أن يبذل جهده لفض اعتصام أو عصيان قام به مجانين من ضباط الجيش نزلوا إلى الشوارع وإقناعهم بالعودة إلى بيوتهم وكان شيئا لم يكن تجنبا لفضيحة أو مصيبة سوف تقع قبل أن يطلع الصبح!»

وعندما فرغ اللواء «محمد نجيب» من حديثه التليفونى مع «مرتضى المراغى» - كان توقعه أنه سوف يتلقى مع أى لحظة إشارة أو رسالة أو دعوة من القائمين على حركة الجيش.

وكان الرجل (الذى رأيته فى تلك الساعة المتأخرة من الليل) يستشعر مسئوليته وكان قلبه وعقله فى حالة اتساق مستريح مع نفسه ولعله كان كذلك مطمئنا إلى فرصته:

بمعنى أنه:

«إذا وجد أن الشبان نجحوا فى السيطرة على الجيش فهو معهم (وذلك قلبه) - وإذا تعثرت خطاهم فهو وحده يقدر على حمايتهم بوعد رسمى يملكه «وكأن شيئا لم يكن» (وذلك عقله).

على أن الأهم هذه اللحظة كان أن يتلقى اللواء «نجيب» إشارة - أو رسالة أو دعوة من «الجماعة» كما كان يسميهم - ومشكلته الملحَّة أنه لا يعرف أين يذهب لو أراد أن يؤدى ما هو معروض عليه (من قيادة الحركة) وما هو مطلوب منه (بتكليف القصر).

ومرت قرابة نصف الساعة واللواء «محمد نجيب» يحاول الاتصال ببعض من يعرف من قواد الجيش (وفيهم شقيقه «على نجيب» قائد سلاح المشاة) - لكنه لم يوفق فى العثور على أحد منهم (لأن كبار الضباط الذين استدعاهم القصر لقمع حركة التمرد وقعوا فى أسر المتمردين واحدا بعد الآخر وهم فى طريقهم إلى اجتماع عاجل دعوا إليه فى مكتب رئيس هيئة أركان الحرب الفريق «عثمان المهدى»). ويدير اللواء «محمد نجيب» رقم سكرتير الفريق «عثمان المهدى» وحين يذكر اسمه - إذا هو يقع على «عبد الحكيم عامر» ويميز صوته من أول كلمة نطق بها، وكذلك تجيئه دعوة الجماعة لكى يتوجه إلى حيث كانوا هذه اللحظة - فى رئاسة هيئة أركان حرب القوات المسلحة (وهى مقر وزارة الدفاع الآن).

٣
وسط العاصفة بمحض مصادفة

[دخلت باب رئاسة هيئة أركان الحرب (وهو الآن مبنى وزارة الدفاع) فى الساعة الرابعة إلا ثلثا بالضبط.]

....

....

وكان اللواء «محمد نجيب» قد وصل قبل ذلك بسبعة وثلاثين دقيقة واستقبله الصاغ «عبد الحكيم عامر» ليبلغه أن القاهرة «تحت السيطرة». ويكون السؤال الأول للواء «نجيب» عن «موقف الفرقة الأولى مشاة فى العريش؟» (وهى القوة الرئيسية الضاربة فى الجيش المصرى ذلك الوقت) ويرد «عبد الحكيم عامر» بأن «تأييد الفرقة للمعركة مضمون وفى الطريق (ولم يكن ذلك دقيقا لأن قائد الفرقة فى تلك الساعة رفض قبول طلب بعض الضباط المنتمين إلى حركة الأحرار (صلاح سالم وآخرين) - بأن يعلن تأييده - للحركة. وخشى «صلاح سالم» وأربعة ضباط كانوا معه أن تأخير التأييد قد يدعو قيادات المناطق العسكرية (الموزعة على أقاليم البلاد) - إلى الانتظار والتردد مما يثير شكوكا لا داعى لها هذه اللحظة الحرجة وقرر «صلاح سالم» وزملاؤه التصرف على مسئوليتهم - وكان تصرفهم أن أشهروا السلاح فى وجه اللواء «سيف اليزل» ثم اقتادوه إلى حمام غرفته وأغلقوا عليه الباب مع حارس عليه منهم، ثم خرجوا ليبعثوا إشارة باسمه إلى قيادة الحركة فى القاهرة نصها «أنا ومن معى نؤيد حركتكم». وكان نص الإشارة غريبا لكن صياغته فى ذلك الموقف حققت غرضها!

....

....

[وقفت قرب باب المبنى أتأمل المشهد حولى وقد ازدحمت ردهته بأعداد من الجنود الذين شاركوا بالدور الحاسم فى الحركة قادمين من معسكر «هاكستيب» تحت قيادة المقدم «يوسف منصور صديق» الذى رأيته جالسا على كرسى بجوار الباب يسعل بشدة وهو يطلب أى «تموين» (طعام) لجنوده لأنهم منذ الأمس «على لحم بطونهم لم يأكلوا ولم يشربوا شيئا.» وبدا «يوسف منصور صديق» مستثارا لسبب لم أتبيَّنه. وكان بين نوبات السعال يطلق شتائم مرسلة كالقذائف فى كل اتجاه!

وصعدت درجات سلم المبنى إلى الدور الأول واتجهت يسارا إلى ناحية مكتب «عثمان المهدى» (باشا) وكان الممر المؤدى إليه مليئا بزحام شديد اختلط فيه الضباط وضباط الصف والجنود - بشرا وسلاحا. ولمحت وسطهم الصاغ «كمال الدين حسين» وفى يده مدفع رشاش (وكنت لقيته أول مرة مع «قوات أحمد عبد العزيز» فى الخليل وكان يومها قائد مدفعية تلك القوات من المتطوعين وقضيت معه يوما كاملا أتابع ضرباته الموجهة إلى مستعمرة «رامات راحيل» على مشارف «بيت لحم»). وقصدت ناحيته وبجانبى «سعد توفيق»، وحين رآنى اندفع معانقا - وبيننا مدفعه الرشاش! - يقول بلهجة الهتاف وليس لهجة الكلام - ! - «هذا نصر من الله وفتح مبين». ولم ينتظرنى لأعلق أو أسأل وإنما شدَّنى إلى جانب من الممر يقول لى «كان

ساعة سقوط الملكية فى مصر



فاروق — جمال عبدالناصر — عبدالحكيم عامر



محمد نجيب — علي أمين — مصطفى أمين

البكباشى جمال (عبد الناصر) يتحدث معنا قبل نصف ساعة عن «تقديرك بأن الإنجليز لن يتدخلوا»!» ورجوته أن ينتظر لأن كل ساعة لها حساباتها ولكل ظرف أحكامه. وكان «كمال الدين حسين» ذاهبا إلى غرفة أخرى فى نهاية الممر وكذلك قال لى: «سوف تراه الآن على أى حال» وأضاف «إن البكباشى جمال لم يكن يعرف أننى قابلتك منذ أيام الفرقة «الخفيفة الحركة» - (وهو الوصف الرسمى لقوات المتطوعين التى يقودها «أحمد عبد العزيز»).

ودخلت غرفة سكرتارية «عثمان المهدى» (باشا) وكان الباب الداخلى المؤدى منها إلى مكتب رئيس هيئة أركان الحرب مغلقا وعليه حراسة مسلحة. وقال لى «سعد توفيق»: «القيادة كلها فى الداخل مع سعادة اللواء (نجيب) يرتبون لبقية العملية».

ومضت قرابة العشر دقائق ثم خرج «جمال عبد الناصر» من مكتب رئيس أركان الحرب وأقبل وعلى شفتيه نصف ابتسامة وفى عينيه نظرة يصعب ترجمتها لكنها موحية بمعان كثيرة صامتة، وسألنى: «ما رأيك؟» وقلت على الفور «إننى مأخوذ مما أرى وأسمع»، واتسعت نصف الابتسامة وضوت عيناه بذلك البريق الذى لمحته فيهما قبل خمس ليال وقال: «لدينا اجتماع لم يبق منه كثير، نصف ساعة على أقصى حد ثم أعود!» وكان «عبد الحكيم عامر» وراءه وقد تصور ما قلته لـ«جمال عبد الناصر» تعبيرا عن القلق، وهكذا قال: «لا تخف، كل شىء يسير بالضبط كما رسمنا» وقلت بسرعة: «المشكلة أننى لا أعرف بالضبط ماذا رسمتم؟!» وعقَّب «جمال عبد الناصر» وهو يتجه عائدا إلى حيث كان اجتماع القيادة: «سوف نتحدث فيه عندما نعود إليك» - سألنى «عبد الحكيم عامر» قبل أن يلحق بـ«جمال عبد الناصر»: «هل تلحق الجرائد ببيان يجرى إعداده الآن؟» ونظرت إلى ساعتى وكانت الخامسة إلا عشر دقائق بالضبط.

وأجبت بأننى «أشك» !]

....

....

[كان «عبد الحكيم عامر» هو الذى ذكَّرنى عن غير قصد بما نسيته فى خضمٍ أحداث بدت لى «غير معقولة»، وملأى بالاحتمالات».

وهكذا اتصلت لأول مرة بأخبار اليوم ورد علىَ «حامد» عامل التليفون المكلف بالسهر. وعرفت منه أن الأستاذين «مصطفى» و«على أمين» اتصلا من الإسكندرية «أكثر من عشرين مرة» يسألان عنى، ويطلبان منه استعمال كل مهاراته فى العثور علىَّ أينما أكون. ثم إنه حاول فى الساعات الأخيرة وأيقظ أقارب لى وأصدقاء ولم يصل إلى شىء. وأخيرا وصل إلى القول بأن الأستاذ «حسين فريد» «سكرتير التحرير العام لأخبار اليوم موجود فى مكتبه» وطلبت توصيلى به. وراح «حسين فريد» فور أن سمع صوتى يبدى الانزعاج - «يظهر أن هناك أخبارا مهمة جدا ومصطفى (بك) يكاد يجن ليعرف أين أنت؟» سألت «حسين فريد» عن موقف «طبعة القاهرة» وقال: «هذا بالضبط ما كان مصطفى (بك) ينتظرك من أجله». لم نكمل حديثنا فقد قطعه «حامد» (عامل التليفون) الذى دخل على الخط يقول لى «إن مصطفى (بك) على الخط من فندق سيسيل فى الإسكندرية، وقد عرف أننى أتحدث مع حسين فريد وطلب قطع المكالمة مع حسين فريد وتوصيله بك». وجاءنى صوت «مصطفى أمين» كأنه يهز الأسلاك ويكاد يقطعها «هل تعرف ما جرى؟» ثم يواصل دون توقف «فريد زعلوك قال لى أنه اتصل بك أول الليل. وتصورتك وراء الحوادث التى تجرى عندكم وتوقعت أن أسمع منك لكنك اختفيت بالكامل والدنيا مقلوبة». عاد يكرر منفعلا (كما هى عادته أوقات الأزمات) «الدنيا مقلوبة، أين أنت؟» وقصدت أن أكون هادئا فقلت «بالضبط فى الموقع الذى انقلبت فيه الدنيا!»

وصرخ «مصطفى» : «إيه؟» وخطف «على أمين» منه سماعة التليفون وجاءنى صوته باندفاعه الطبيعى يصوب عشرات الأسئلة فى نفس واحد: «أين أنت؟ هل لديك صورة عما جرى؟ ماذا تقول؟» ثم زعق بأعلى صوته «هناك تمرد عسكرى!» وقلت - مرة أخرى - قاصدا إظهار الهدوء «إنى فى مركز هذا التمرد!»

وأراد «على» فى اندفاعه أن يتأكد فسألنى «ورحمة والدتك؟» وكان ذلك هو القسم الشائع على لسان التوءمين منذ رحيل السيدة «رتيبة» والدتهما. وقلت «على ... والدتى على قيد الحياة»، وتدارك معتذرا. وبدأت أشرح أننى تابعت حركة عسكرية يظهر لى أنها استولت على قيادة الجيش وسيطرت على القاهرة. وبدوره عاد «مصطفى أمين» يخطف سماعة التليفون من توءمه ولديه ألف سؤال كأنها طلقات مدفع رشاش، وقلت: «إننى لا أستطيع أن أرد على هذه الأسئلة الآن والقضية العاجلة فى رأيى هى ماذا نفعل بالطبعة الأخيرة من الأخبار وهل نضع فيها إشارة إلى ما جرى أو ننتظر؟» وتبادلنا الرأى من زواياه المهنية والسياسية واستقر الرأى بيننا «بلا خلاف» على أفضلية أن تصدر جريدة «الأخبار» دون إشارة لما جرى. وأول دواعينا أننا لا نعرف حدوده حتى هذه الدقيقة، ومع أن هناك بيانا منتظرا - فإن هذا البيان لم يصل إلينا حتى الآن «لأنهم ما زالوا يكتبونه هنا فى الغرفة المجاورة».

وسألنى «مصطفى» «هل أستطيع أن آخذ رقم التليفون الذى تتكلم منه حتى نظل على اتصال؟!» ورجوته أن ينتظر حتى أسأل لأن التصرفات فى مثل هذه الأجواء لا تحتمل أى خطأ حتى إذا توافر فيها حسن النية.

....

....

[كان الصاغ «سعد توفيق» ما زال واقفا إلى جانبى وقد اعتراه توتر ظاهر من حديث تليفونى يسمعه ولا يعرف هل يتركه يستمر أو يقطعه - والتفتُ إليه أستأذنه «هل من المسموح به أن أعطى لمصطفى أمين رقم تليفون هذا المكتب؟» واعترض «سعد توفيق» بحزم. وفى تلك اللحظة انفتح باب الغرفة التى كان فيها اجتماع القيادة وخرج «جمال عبد الناصر» ووراءه «عبد الحكيم عامر». ولاحظ «جمال عبد الناصر» فورا تفاصيل المشهد: سماعة التليفون فى إحدى يدىَّ - ويدى الأخرى مطبقة على بوقها لكتمان الصوت - و«سعد توفيق» يبدو عصبيا - وأنا أحاول أن أشرح له شيئا. وبسرعة عرض «سعد توفيق» للمشكلة شارحا «مصطفى أمين على الخط من الإسكندرية يطلب رقم تليفون هذا المكتب» و«أننى سألته إذا كنت أستطيع إعطاءها له» «وهو معترض وأنا أحاول إقناعه» - وتطلعت ناحية «جمال عبد الناصر» أنتظر رأيه وقد احتكم إليه «سعد توفيق». وسبقه «عبد الحكيم عامر» تلقائيا برفض قاطع - لكن «جمال عبد الناصر» تدخل ليقول «أعطه الرقم... ذلك لم يعد الآن يضر، وربما ينفع». ولم يجادل «سعد توفيق» ولا «عبد الحكيم عامر»، وأعطيت الرقم لـ«مصطفى» (وكان ٥٥٤٥٥). وأعدت سماعة التليفون إلى مكانها والتفتُ لأجد «عبد الحكيم عامر» يعبر بملامحه عن الدهشة بينما «جمال عبد الناصر» يشرح له وجهة نظره، ويعرضها بتأنٍ وكأنه يفكر فى الأمر وهو يشرح:

«أولا لم يعد هناك خطر لأنهم عرفوا بالفعل بما قمنا به.

وإذا اتصلوا مع «الأستاذ هيكل» هنا فسوف نعرف نحن كيف يفكرون؟ وحتى كيف يتصرفون هناك فى الإسكندرية!

ثم إننا نحتاج إلى قناة اتصال إضافية معهم» ثم زاد «هم بدأوا يتصلون بنا - هناك عم للملكة ناريمان اتصل منذ قليل يبلغ رسالة ونحن أعطينا ردا - وسوف نرى ما يحدث والصبح لم يطلع بعد، والنهار أمامنا طويل!»

ولفت نظرى لحظتها «علامات» لها «دلالات»:

● لفت نظرى أن الطريقة التى استبعد بها جمال عبدالناصر ردة الفعل الأولية لعبدالحكيم عامر تظهر أن له وضعا خاصا فى الحركة يتقدم به على آخرين.

● ولفت نظرى أن جمال عبدالناصر أبدى رأيه على شكل قرار نهائى ولم يلتفت وراءه ليستأذن غيره، ومعنى ذلك أن المسئولية عنده.

● ولفت نظرى أخيرا أن جمال عبدالناصر أبدى رأيه بسرعة وعرض مبرراته فى وضوح، أى أنه يملك كفاءة ربط المنطق بالقرار، وبسرعة.]

....

....

[ومضت خمس وثلاثون دقيقة، وعند الساعة الخامسة والنصف وكنت قد تركت غرفة مكتب سكرتارية الفريق «عثمان المهدى» (باشا) وخرجت إلى الممر الواسع أمامها أراقب ما يجرى وأتابع الحركة دون تدخل بسؤال لأحد - حتى عندما لمحت وجوها أعرفها. ونزلت على السلم إلى مدخل المبنى مأخوذا بمشهد جنود من الكتيبة الثالثة عشرة المشاة وقد افترشوا أرض الفناء الخارجى لمبنى القيادة وراحوا يتناولون طعامهم فى سكون (أرغفة من الخبز وقطع من الجبن الأبيض وفتافيت من الحلاوة الطحينية) وسؤالى لنفسى «ماذا يعرف هؤلاء عن

لفت نظرى أن جمال عبدالناصر
أبدى رأيه على شكل قرار نهائى ولم يلتفت
وراءه ليستأذن غيره، ومعنى ذلك أن المسئولية عنده.
ولفت نظرى أيضا أن جمال عبدالناصر
أبدى رأيه بسرعة وعرض مبرراته فى وضوح،
أى أنه يملك كفاءة ربط
المنطق بالقرار، وبسرعة

لعمل الذى شاركوا فيه، وهل كانوا مدركين منذ لبداية أنهم يشاركون فى تمرد عسكرى - عصيان - انقلاب؟ ثم ماذا يعرفون الآن بالضبط وكيف يشعرون هذه اللحظة وهم معرضون للعقاب - ربما على أعواد المشانق؟»

وتوقفت تاملاتى عندما سمعت صوتا ينادينى. والتفتُ لأجد جاويشا يقول لى «إن جناب الصاغ سعد يريدك حالا فى المكتب».

وكان «مصطفى أمين» على الخط من الإسكندرية، يقول إنه فى مكتب وزير الدولة فى بولكلى (الإسكندرية). ثم سمعت «فريد زعلوك» (باشا) وصوته بالهمس يقول «سوف أحوِّلك إلى دولة الباشا». وسمعت تكة خافتة ثم صوت رئيس الوزراء («أحمد نجيب الهلالى» باشا) دون مقدمات يسألنى أولا أين أنا؟ - وقلت «إننى فى مبنى رئاسة القوات» - وكان سؤاله الثانى بما مؤداه «أفهم أنك لا تستطيع أن تتكلم على حريتك ولكن قل «لا» أو «نعم» وذلك يكفينى - هل هو انقلاب عسكرى؟»

ورددت بأمانة بأننى لا أشعر أن هناك قيدا يمنعنى من الكلام - وأما عن سؤاله فالجواب أننى لا أعرف إلا ما أستطيع أن أرى، وهناك بالتأكيد فيما هو أمامى «حركة ضباط لديهم مواجع خاصة بالأحوال فى البلاد ويبدو لى أنهم قرروا أن يتصرفوا بنوع من الغضب إزاء السلطة السياسية». وسألنى رئيس الوزراء: «هل اللواء نجيب عندك فى نفس المبنى؟» وأضاف «عرفت من مرتضى (باشا) أنك كنت عند نجيب فى بيته بعد منتصف الليل». وقلت «إن اللواء نجيب هنا فى المبنى.» وسأل «الهلالى» (باشا) «ما هو موقفه؟» ولم ينتظر إجابة بل استطرد «هل له نفوذ وسطهم؟ - هل يسمعون كلامه؟ - أو هل هو معهم؟»

وقلت لرئيس الوزراء (ولم تكن الأمور تحتمل شيئا آخر): «دولة الباشا - كل ذلك لا أستطيع الإجابة عليه لأننى بحق لا أعرف.»

وساد الصمت لثوان وعاد «نجيب الهلالى» (باشا) يقول لى «الموقف خطير والبلد على كف عفريت، وسوف أضغط عليك أكثر وأسألك : هل اللواء نجيب فى مكان قريب منك؟ - وإذا كان - هل تقدر على رجائه بأن يجىء إلى هذا التليفون الذى تكلمنى منه لأسأله وأسمع منه؟»

وقلت لرئيس الوزراء: «دولة الباشا - لك علىَّ أن أحاول ورجائى أن تظل على التليفون وسوف أعود إليك بأسرع ما أستطيع». ووضعت سماعة التليفون على المكتب.]

....

....

[والتفت إلىَّ «سعد توفيق» الذى كان جالسا على كرسى أمامى وعيناه معلقتان بشفتىَّ لا يريد أن يفلت منه حرف أنطق به. وسألته «إذا كان فى مقدوره أن يدخل غرفة الاجتماع ويستأذن اللواء محمد نجيب - هل يستطيع المجىء إلى هنا لأن نجيب الهلالى (باشا) رئيس الوزراء يطلب أن يتحدث معه». وقال «سعد توفيق» «أنه لا يستطيع مقاطعة اجتماع القيادة ولكنه سيكتب ورقة للبكباشى جمال.» ثم خرج من باب المكتب إلى الممر الفسيح المزدحم بالضباط والجنود أمامه، ومضت قرابة الدقيقتين ثم انفتح باب غرفة الاجتماع (مكتب «عثمان المهدى» (باشا)) المؤدى إلى مكتب سكرتاريته

وظهر اللواء «محمد نجيب» ووراءه «جمال عبد الناصر» وخلفهما «عبد الحكيم عامر» و«كمال الدين حسين». وكان «جمال عبد الناصر» يهمس بشىء فى أذن اللواء «محمد نجيب» الذى تقدم من المكتب وعليه سماعة التليفون ورفعها وتحدث بأسلوب مؤدب ومنضبط: «أفندم دولة الباشا» - ولم نكن نسمع ما يقوله رئيس الوزراء بالطبع ولكن صوت اللواء «نجيب» كان واصلا إلينا بنبرته الهادئة.

ولم يطل الحديث، وكان ما سمعناه من ردود اللواء «نجيب» على رئيس الوزراء موحيا بعباراته المقتضبة - والواضحة فى نفس الوقت:

- «نعم يا دولة الباشا»
- «هم لديهم طلبات يصرون على تنفيذها»
- «طلباتهم خاصة بالجيش وضرورة تطهيره»
- «نعم، طلباتهم كلها فى إطار الجيش، هذا ما يهمُهم»
- «طبعا . . . طبعا»
- «أوامرك يا دولة الباشا»
- «تستطيع الاتصال بنا فى أى وقت»
- «هم أيضا حريصون على الوطن وتهمهم مصر والكل يفديها بحياته!»

والتفت اللواء «نجيب» ناحيتى يقول: «رئيس الوزارة يريد أن يتحدث معك». وبينما كنت أتناول منه سماعة التليفون كان «جمال عبد الناصر» يستدير عائدا إلى قاعة الاجتماعات مفسحا الطريق أولا للواء «محمد نجيب».

وسألنى «نجيب الهلالى» (باشا):
«محمد - يظهر أن اللواء نجيب معهم؟»
وقلت «إن ذلك ظنى أيضا» - وعاد يسأل:
«هل انضم إليهم أم أنه كان معهم من البداية؟» وقلت «إننى صادقا لا أملك إجابة على هذا السؤال».

....

....

وفى الساعة السادسة وخمس دقائق توافق حدثان مع نفس اللحظة دعى «سعد توفيق» إلى غرفة اجتماع القيادة لأقل من دقيقة وعاد وفى يده ورقة عليها صورة من بيان سوف يعلن بعد قليل (الساعة السابعة) من إذاعة القاهرة (وقد تمت بالفعل سيطرة القوات على استوديوهاتها فى شارع الشريفين).

وكان «سعد توفيق» يناولنى الورقة قائلا «هل لديك رأى أو ملاحظة على هذا النص؟» ورحت أجرى بعينى على سطوره (وكان البيان رقم ١ من «قيادة حركة القوات المسلحة»).

ولحظتها دق جرس التليفون ورد «سعد توفيق» الذى كان واقفا بجوارى وفى يده نسخة نهائية من البيان رقم (١) وراح يناولنى سماعة التليفون قائلا: «مكتب رئيس الوزراء يطلبك».

وكنت قد وصلت إلى آخر نص البيان حيث «إمضاء اللواء محمد نجيب». وكذلك أعدت الورقة إلى «سعد توفيق» - لكنه قبل أن يسلمنى سماعة التليفون عاد يكرر سؤاله على عجل وقلت بسرعة «ما قرأته معقول - لكنكم تعرفون أكثر من أى طرف آخر ما الذى تريدونه - أو ما الذى تقدرون عليه». قلت ذلك وأمسكت بسماعة التليفون وسمعت صوت وزير الدولة («فريد زعلوك») يقول خطفا «دولة الباشا معك»، ثم صوت «الهلالى» (باشا) فى لهجة مشحونة لم أسمعها منه قبلا:

«محمد - أريد أن أكلفك بمهمة هذه اللحظة من أجل مصلحة البلد. إذهب للواء نجيب حيث يكون الآن وأبلغه على لسانى «أننى توصلت إلى نتيجة مرضية مع جلالة الملك. الوزارة سوف تستصدر مرسوما ملكيا بتعيين اللواء محمد نجيب قائدا عاما للجيش (بدلا من «محمد حيدر» (باشا)) واللواء نجيب من هذا المنصب يستطيع إجراء أية تغييرات فى الجيش بما يحقق مطالب عرفنا أن «الجماعة عندك» مصرين عليها. وأنا شخصيا متحمس لهذه المبادرة الطيبة التى تظهر استعداد جلالة الملك للتعامل مع الموقف بحكمة وأضيف إلى ذلك أن الوزارة تضمن تنفيذ هذه المطالب كما تضمن عدم مساءلة أى ضابط عن أى تصرف قام به هذه الليلة!

وكذلك فإن المشكلة تصبح محلولة قبل أن تصحو الدنيا، وحلها يكون فى الإطار الدستورى السليم دون «فرقعة».» كرر «نجيب الهلالى»: «دون فرقعة لأن أى فرقعة فى هذا الظرف لها عواقب لا يعلم نتائجها غير الله وحده».

وأحس رئيس الوزراء بحرجى فاستطرد «إننى أقدر أننا نضغط عليك - لكنه لو كانت لدينا وسيلة أخرى فى هذا الوقت الضيق لأعفيتك من هذه المهمة - تحامل على نفسك وابذل جهدك لأن الظروف خطرة - وسوف أظل على التليفون حتى أسمع منك - والله يوفقك».

وتركت سماعة التليفون على المكتب وإحساسى أن دائرة حصار تضيق من حولى. وتنبهت بسرعة إلى صوت حركة تزايدت فى الممر الخارجى، ووجدت «سعد توفيق» يتجه بسرعة إلى الباب الرئيسى للغرفة قائلا «إن اجتماع القيادة انتهى». ولحقت به، وبالفعل فإن الاجتماع انتهى كما أن المشاركين فيه يخرجون وقد وقف عدد منهم يتحدث إلى بعض العسكريين من الضباط (وضباط الصف) - وكان «محمد نجيب» ومعه «جمال عبد الناصر» أول من وقع بصرى عليه وكأنه كتلة «مغناطيس مسحور» تشد إليها الأبصار دون انتظار - وقصدت إلى حيث يقف أرجو اللواء «محمد نجيب» فى «كلمة على جنب». واتجه إلى أول غرفة مفتوحة، وهو يسحب بيده «جمال عبد الناصر» ليجىء معنا ووراءه جاء «عبد الحكيم عامر» (وثلاثة أو أربعة من الضباط الذين كانوا يحضرون اجتماع القيادة) - ولم يكن لأحد خيار - وعلى أى حال فإن الموقف كان أدق من كافة الأسرار ولعله كان من الأوفق الآن لكل الأطراف أن يكونوا جميعا على معرفة ونور بما يجرى ويقال دون خفاء أو إخفاء!

ونقلت للواء «نجيب» رسالة «الهلالى» (باشا) وأنهيت بأنه على التليفون ينتظر. وسمعنى الكل فى صمت. وكان اللواء «نجيب» هو الذى قطع الصمت بسؤال وجهه إلى «جمال عبد الناصر» لفت نظرى فيه بقوله «ما رأيك ياجمال «بيه» ؟» (ولفت نظرى هذا اللقب المضاف فجأة) - ثم استطرد اللواء «نجيب» «مسألة تستحق البحث». وأخذ «جمال عبد الناصر» من يده وسحبه إلى ناحية نافذة الغرفة يقول له بالهمس شيئا. وعندما عادوا بعد نصف الدقيقة تقريبا كان «جمال عبد الناصر» هو الذى وجه إلىَّ القول بأن «اللواء نجيب يريد أن يتحدث بنفسه مع رئيس الوزارة ليسمع منه ما لديه ويقول له ما عندنا».

ورجعنا إلى غرفة المكتب حيث كانت سماعة التليفون فى مكانها عليه، وفى فترة الانتظار فإن «الهلالى» (باشا) كما ظهر تركها لـ«فريد زعلوك» الذى بادر فور سماعه صوتى بقوله «ثانية واحدة!» ثم ناول السماعة للهلالى باشا (لأن صوت رئيس الوزراء) هو الذى رد علىَّ. وبادرته على الفور «إن اللواء نجيب جاء ليتحدث بنفسه معك وهو واقف بجانبى الآن - فهل ذلك مناسب؟» ورد «الهلالى» (باشا) بسرعة «خير ما فعلت»!

قال لى الهلالى (باشا) أبلغ اللواء نجيب على لسانى «أننى توصلت إلى نتيجة مرضية مع جلالة الملك. الوزارة سوف تستصدر مرسوما ملكيا بتعيينه قائدا عاما للجيش (بدلا من «محمد حيدر» (باشا)) ومن هذا المنصب يستطيع إجراء أية تغييرات فى الجيش بما يحقق مطالب عرفنا أن «الجماعة عندك» مصرين عليها

وسمع اللواء «نجيب» (وفى الغالب فقد سمعه بنفس الألفاظ التى سمعته بها) وإن أضيف إليه مع تواصل الحديث (فيما بدا) لمسة من «السكر» رفضها اللواء «نجيب» وقصد أن يبين رفضه فقد رد بصوت يسمعه الواقفون حوله، قائلا «لا ـ يا دولة الباشا ـ الترقية إلى رتبة الفريق لا لزوم لها، فلا أستطيع أمام إخوانى قبول مكافأة على واجب أديته معهم».

ثم جرى تبادل عبارات سريعة واستأذن اللواء «نجيب» لدقيقة أو دقيقتين يتشاور خلالها مع «زملائه» ـ واتجه مع «جمال عبد الناصر» وآخرين من ضباط القيادة إلى طرف الغرفة وكان واضحا أن اللواء «نجيب» يميل إلى قبول عرض رئيس الوزراء ـ ثم نادانى اللواء «نجيب» إلى حيث كانوا واقفين يسألنى «هل تفتكر أنهم جادون فيما يقولون به لتجنب حدوث «فرقعة»؟» وقلت «لكى أكون أمينا فيما أقول فاظنهم جادين فيما يتعلق بتعيينك قائدا عاما، وأما فيما يتعلق بعدم مساءلة أحد فيما قام به هذه الليلة فإننى لست متأكدا أن ذلك ممكن!» وتدخل «جمال عبد الناصر» مقاطعا بما معناه «إن لديه اعتراضا على سؤال اللواء نجيب من الأصل ـ وأما عن الفرقعة فإنها مطلوبة فى ذاتها ولا يمكن أن تكون الآن حجة فى يد طرف». وأراد اللواء «نجيب» أن يقول شيئا، وتدخلت ألفت نظر الجميع إلى أن رئيس الوزراء على التليفون ينتظر. وتوجه اللواء «نجيب» إلى ناحية «جمال عبد الناصر» يسأله «ماذا أقول له؟» ورد «جمال عبد الناصر» بدون انتظار «قل له أن يفتح الراديو على إذاعة القاهرة الساعة السابعة وسوف يجد جوابا على أسئلته كلها».

كانت الثوانى تمشى مكثفة بثقل وعمق يجعل كل ثانية عمرا كاملا. وتحرك اللواء «نجيب» ناحية التليفون يستأنف حديثه مع رئيس الوزراء، وراح يتكلم محاولا انتقاء ألفاظه: «دولة الباشا ـ إخوانى هنا لا يوافقون وردهم سوف يصل للحكومة عن طريق الإذاعة الساعة السابعة (بعد أكثر قليلا من نصف ساعة) ـ يا دولة الباشا هذا رأينا هنا جماعة ـ والله يقدم ما فيه الخير للبلد وكلنا نريد خدمة مصر ـ نحن نقدر الظروف ولذلك قامت الحركة ـ اطمئن يا دولة الباشا كل الناس متحملة لمسئولياتها.»

وتوقف اللواء «نجيب» ثم التفت إلىَّ يقول «رئيس الوزراء يريد أن يكلمك ثانية». وسمعت «الهلالى» (باشا) يسألنى «ما رأيك؟ يظهر أن الجماعة عندك مصممين على الفرقعة؟» ورددت «بأن لديهم فى ذلك وجهة نظر». وسألنى عما أقصد، ولم أجد حرجا فى أن أقول له «إننى سمعت رأيا يقول إن الفرقعة مطلوبة فى حد ذاتها!» وسألنى عما يعنيه ذلك وقلت «لا أعرف بالضبط، لكنى أظن أن ما يعنونه هو الإعلان عن وقوع حدث كبير».

وكانت المفاجأة التى لم أتوقعها سؤال من «الهلالى» (باشا): «هل تستطيع سؤالهم إذا كانوا يريدون من الوزارة أن تستقيل؟» وعندما أحس رئيس الوزراء بدهشتى أكد أن السؤال ضرورى. وكذلك وضعت يدى على سماعة التليفون والتفتُ إلى اللواء «نجيب» أنقل إليه السؤال ـ وظهرت الحيرة واضحة على ملامحه من مفاجأة سؤال لم يكن ينتظره. ولكن «جمال عبد الناصر» تولَّى الإجابة مرة ثانية قائلا: «له حق ـ الأفضل أن تستقيل الوزارة»، وحاولت أن أتدخل برأيى لأول مرة فقلت ما معناه «إن الهلالى رجل نزيه وقدير. وهو بالكاد عاد أول أمس إلى رئاسة الوزارة بعد موقعة هائلة من أجل التطهير». ورد «جمال عبد الناصر» بما مؤداه «إن ذلك خارج الموضوع ـ قل له إن ذلك طلبنا وقد وفَّر علينا أن نحرجه بأن نطلبه منه». ولم يكن هناك بد مما ليس منه بد، وكذلك قلت عبارة (من أثقل العبارات التى وردت على لسانى طوال تجربتى الصحفية) «يظهر يا دولة الباشا أنهم يريدون ذلك». ولم يقل «نجيب الهلالى» (باشا) فى هذه اللحظة إلا كلمتين ـ أو كلمة واحدة كررها مرتين «حاضر. . حاضر».

وعندما أغلقت سماعة التليفون مع «نجيب الهلالى» (باشا) ـ التفتُ حولى لأجد أن لجنة القيادة اكتشفت على حين غرة وبتداعى التطورات أنها أمام مشكلة لم تخطر على بال أحد منهم، والمشكلة:

إذا كانوا قد طلبوا الآن استقالة وزارة «الهلالى» ـ وإذا كان ظاهرا أن «الهلالى» سوف يقدم استقالته ـ فمن يكون رئيس الوزراء فى هذه الحالة؟ وبالتأكيد فإن ذلك سؤال سوف يطرح عليهم حتى بإملاء الظروف ـ ولم يكونوا على استعداد له.

....

....

[والحاصل أن الإشكال وجد لنفسه حلا بالمصادفة، ففى ذلك الوقت وصل عدد من الصحفيين إلى مقر القيادة كان أولهم الأستاذ «حلمى سلاَّم» (من دار الهلال). وبعده الأستاذ «إحسان عبد القدوس» (وهو رئيس تحرير روز اليوسف) ـ وكان «إحسان» هو الذى اقترح اسم «على ماهر» (باشا) لتشكيل الوزارة (الرجل المستعد دائما للمهام الصعبة فى الظروف الأكثر تعقيدا!) وقبلت لجنة القيادة بالاقتراح. والحقيقة أن أحدا لم يعترض عليه لأن المشكلة قفزت إلى داخل الصورة فى اللحظة الأخيرة وعلى غير انتظار!]

٣

فاروق يحاول الهرب صباح ٢٣ يوليو

لأن الوثائق البريطانية والأمريكية والفرنسية تمثل أكثر المصادر حيدة واطلاعا على لحظات سقوط أسرة «محمد على» فى مصر ـ ومن رغبة فى الدقة ـ وفى نزاهة العرض فقد يكون من الأفضل ترك هذه الوثائق تروى قصة السقوط مشهدا بعد الآخر حتى نزل الستار عن مأساة الملك فاروق!

سرى

أسبقية ـ أسبقية

الساعة ٦:٢٥ صباحا

(١٠١٨/٨٢٠٤)

أفاد القائم بالأعمال السير مايكل كرسويل فى الإسكندرية إلى أن هناك تقارير تفيد أن عددا من ضباط الجيش المصرى المتضايقين (disaffected) من الأوضاع تمكنوا من السيطرة على القاهرة أثناء وجود البلاط الملكى والحكومة فى مصيفهم بالإسكندرية. ويبدو أن هؤلاء الضباط تمكنوا أيضا من إملاء رغباتهم على البوليس وقد وجهوا رسالة إلى القائم بالأعمال البريطانى لإخطاره بأنهم سوف يقاومون بكل سلاح معهم أى حركة للقوات البريطانية تقصد إلى التدخل ضد حركتهم. وقد أخطروه أيضا أن دوافع حركتهم هى التطهير الداخلى دون مقاربة للشئون الخارجية، وأنهم ـ كما يؤكد بيان يصدر عنهم ـ مسئولون عن حماية أرواح وممتلكات الرعايا الأجانب.

نرى إخطار دول الكومنولث عن طريق المفوضين السامين لها فى لندن (لأن هذه الدول قد تكون لها قوات أو أفراد عسكريين فى قواعد منطقة قناة السويس.)

الإسكندرية

سرى للغاية

الساعة ٦:٥٥ صباحا

٢٣ يوليو ١٩٥٢

(رقم ١٠١٨/٢٠٢)

١٠٦٠ ـ طوارئ

١ ـ تأكدت الآن أن مجموعة عسكرية يقودها ضباط متمردون تمكنت من السيطرة على القاهرة خلال الليل وفرضت طاعة أوامرها على البوليس المحلى. وبعثت المجموعة مندوبا إلى سفارة الولايات المتحدة تخطرها بأن ما قاموا به عمل داخلى بحت. وتطلب إخطار السلطات البريطانية بأنهم سوف يقاومون أى تدخل بكل شدة ـ وهم لا يرغبون فى أكثر من تطهير بلدهم من الفساد.

٢ ـ نحن نعلم أن سياستنا هى الامتناع عن التدخل عسكريا ـ بطريقة أوتوماتيكية ـ للدفاع عن الملك فاروق وموقفنا أننا إذا تلقينا منه طلبا رسميا بمساعدته فإننا سوف ندرسه فى وقته على ضوء الظروف. ومع ذلك فقد ترون ضرورة إخطار القائد العام للقوات البريطانية فى مصر باتخاذ ما يراه من إجراءات فى منطقة القناة أولا وذلك لضمان عدة أهداف: أولها أن تكون القوات جاهزة لما قد يطلب منها ـ وثانيها أن نضمن حرية الملاحة فى قناة السويس.

٣ ـ فهمنا من المعلومات المبدئية أن قيادة الحركة الحقيقية من شباب ضباط الطيران ـ وكان بعضهم مسئولا عن الشغب أثناء انتخابات مجلس إدارة نادى ضباط الجيش. ويظهر من معلومات أولية أن هؤلاء الطيارين لديهم مشاعر وفدية. ويبدو لنا أن الموقف خطر ودقيق خصوصا وأن زعماء الوفد أيضا كلهم فى فرنسا وسمعنا أنهم دعوا على عجل لكى يعودوا.

٤ ـ إننى لا أستطيع فى الوقت الحاضر أن أقرر مدى قوة الحركة واتساعها ولكنه يبدو أن اللواء نجيب قائد المنطقة المركزية فى القاهرة (يقصد اللواء «على نجيب» شقيق اللواء «محمد نجيب») قد انضم إلى الطيارين الشبان الذين دعوه لقيادة حركتهم.

....

....

[كانت المعلومات الأولية كلها مغلوطة: ابتداء من وصف قيادة الحركة بأنها من ضباط الطيران ـ إلى الإشارة لميولهم الوفدية ـ إلى دعوة زعماء حزب

الوفد للعودة من فرنسا - إلى أن قائد الحركة هو اللواء «على نجيب» (والمفارقة أن اللواء «على نجيب» كان ساعتها ضمن كبار الضباط الذين تم اعتقالهم بأمر من قيادة الحركة!]



سرى - عاجل
٢٣ يوليو ١٩٥٢
من السفير البريطانى فى واشنطن
السير أوليفر فرانكس
إلى وزير الخارجية - لندن

١ - أبلغتنى وزارة الخارجية الأمريكية أن الملك فاروق اتصل فى الساعة الخامسة صباحا (٢٣ يوليو) بالسفير الأمريكى المستر جيفرسون كافرى طالبا منه - بدافع إحساسه الشديد بالخطر - أن تساعده الولايات المتحدة على مغادرة الأرض المصرية بأسرع ما يمكن - وقد سأل فاروق «إذا كانت هناك أى قطعة بحرية أمريكية قريبة من الشواطئ المصرية تستطيع أن تتحرك بسرعة إلى ناحية الميناء الخاص بقصر رأس التين لكى تأخذه وعائلته إلى خارج مصر تحت حماية أمريكية». وذكر فاروق للسفير كافرى:

إنه لا يستطيع وأسرته أن يغامروا بالذهاب إلى أى مكان لأنهم قد يقعون فى الأسر، وهو لا يستطيع أن يتبين مدى الاتصال بين حركة الضباط فى القاهرة وبين قوات حامية الإسكندرية.

وقد فكر فى المغادرة بواسطة اليخت الملكى «المحروسة» لكن القومندان («جلال علوبة») قائد اليخت أبلغ جلالته أنه يخشى أن تكون بطاريات السواحل موالية للانقلابيين ومن ثم تقوم بضرب اليخت الملكى بمدافعها وتعطله أو تغرقه.

ذكر فاروق لكافرى أنه لم يوجه مثل هذا الطلب إلى السلطات البريطانية لأنه لا يريد أن يغادر مملكته تحت حماية المدافع البريطانية حتى لا تسوء صورته أمام شعبه، فضلا عن أنه ليس واثقا من النوايا البريطانية تجاهه.

٢ - إن وزارة الخارجية الأمريكية أبلغتنى أنها على اتصال بوزارة الدفاع لتحديد موقع أقرب سفينة حربية أمريكية من الشواطئ المصرية لكن ذلك الإجراء من قبيل الاحتياط فقط إذا دعت الظروف - كما سيجرى البحث فى إمكانية ترتيب نقل الملك وعائلته بالجو إذا استحال طريق البحر.

٣ - وفى الوقت الراهن فإن كافرى نصح الملك فاروق بأن يحتفظ بهدوء أعصابه لأن «ذعره» (panic) الظاهر لا يخدم هدفه ولا حياته والأفضل له أن يقعد ثابتا فى قصره فى انتظار الكيفية التى سوف يتصرف بها الانقلابيون - كما أنه أخطر الملك بأن الحكومة الأمريكية لن تخذله بما يعرض سلامته للخطر دون أن يتسبب ذلك فى تدخل أمريكى سافر فى شأن يبدو حتى هذه اللحظة داخليا لأن مطالب الضباط مقصورة على إبعاد عدد من رجال الملك فى الجيش.

٤ - إن الحكومة الأمريكية بتلك النصيحة بسطت حمايتها على الملك على أنه لا يظهر حتى الآن أن هناك تهديدا جديا لعرشه أو لحياته - والحكومة الأمريكية تتقصى الأمور بدقة وإذا ظهر أنه بين الانقلابيين ضباط شيوعيون فإنها سوف تعاود حساب موقفها من الامتناع عن التدخل المباشر.

٥ - إن السفير جيفرسون كافرى نصح الملك إلى جانب ذلك بفتح قناة اتصال مع «ضباطه المتمردين» واستطلاع نواياهم.

٦ - طلب منى «هنرى بايرود» (مساعد وزير الخارجية الأمريكى) من باب الاحتياط أيضا أن نخطرهم بموقع أقرب سفينة حربية بريطانية إلى ميناء قصر رأس التين الملكى فى الإسكندرية.



مرتضى المراغى

جيفرسون كافرى

طوارئ - سرى جدا
من مايكل كريسويل (القائم بالأعمال البريطانى فى مصر)
إلى وزير الخارجية
(رقم ٢١٩/١٠٠٩)
٢٣ يوليو الساعة ٧:٥٥ (صباحا)

١ - أبلغت السفير الأمريكى كافرى موافقتنا الكاملة على النصيحة التى قدمها إلى الملك فاروق بأن يظل قاعدا فى مكانه (to sit tight) باعتبار أن ذلك هو أفضل الخيارات له ولسلامته الشخصية والمحافظة على عرشه.

٢ - أعلن الانقلابيون فى القاهرة بيانهم الرسمى ونقوم بإجراء تحليل له الآن، ويبدو أن قائد الحركة المعلن عنه هو اللواء محمد نجيب ولكن القوة الحقيقية كما بلغنا هو الضابط مصطفى كمال صدقى (النشط البارز فى تنظيم الحرس الحديدى!!). ويظهر أيضا أن الضابط الثانى بعده فى الحركة هو القائمقام أنور السادات الذى كان متهما فى اغتيال أمين عثمان (باشا).

٣ - يبدو أن حامية الإسكندرية لا تزال على الحياد حتى الآن ويبدو الموقف هادئا فى كل معسكرات الجيش فى هذه المدينة.

٤ - قرر الملك أن يتصل بقيادات التمرد وكلف وزير الداخلية مرتضى المراغى بأن يتصل باللواء نجيب (كان المراغى وزيرا للداخلية مع نجيب الهلالى ولكنه فقد هذه الصفة عندما قدم الهلالى استقالة وزارته).

٥ - علمت هذه اللحظة أن المراغى اتصل من الإسكندرية بقادة الحركة العسكرية فى القاهرة ودعا اللواء نجيب إلى مقابلته فى الإسكندرية لكن اللواء نجيب اعتذر عن السفر وطلب مجىء المراغى إلى القاهرة، وسوف يتوجه المراغى فعلا إلى القاهرة.

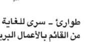
٦ - نقدر قوة الانقلابيين فى القاهرة بثلاثة ألوية - وتتكون حامية الإسكندرية من لواء واحد.

٧ - بعثت حركة المشاة المتمركزة على الحدود فى العريش برسالة تأييد إلى اللواء نجيب.

٨ - تعليق: رغم أننى غير متأكد من معلومة وصلتنى الآن ملخصها أن ضباط الحركة فى القاهرة يفكرون فى التخلص من الملك فاروق للقضاء نهائيا على سلطته فى العمل ضدهم - إلا أننى أرسل لكم هذه المعلومة كما بلغتنى حتى تتأكدوا منها.

....

[مرة أخرى تظهر الإشارة إلى «مصطفى كمال صدقى» كقائد للحركة العسكرية أن سفارات الدول الكبرى فى القاهرة لم تكن لديها معلومات كافية عن الحركة العسكرية وأن محاولاتها لمتابعة الحوادث كانت تعتمد على الإشاعات والتخمينات أكثر من الاعتماد على معلومات حقيقية.]



طوارئ - سرى للغاية
من القائم بالأعمال البريطانى
إلى وزير الخارجية
(رقم ١٠٧٤) الساعة ١١ صباحا

١ - لم يتمكن مرتضى المراغى من مقابلة اللواء نجيب فقد طلب إليه بعد وصوله إلى القاهرة أن يجىء لمقابلته فى وزارة الداخلية ولكن نجيب رد عليه بالطلب إليه أن يجىء هو («المراغى») إلى قيادة الحركة. رفض المراغى وعاد فورا إلى الإسكندرية.

٢ - طلب المراغى أن يقابلنى أو يقابل مسئولا مفوضا من السفارة البريطانية وبعثت هاملتون لمقابلته.

٣ - أوضح المراغى ما يلى:

أ - أن على ماهر (باشا) ضالع فى المؤامرة ويعاونه فيها مصطفى كمال صدقى(!) ومعهم بعض الضباط، وقد وضعوا خطة التمرد ونفذوها حتى الآن بنجاح باهر.

ب - إن الحركة العسكرية كما يراها «منظمة» و«موجهة» بواسطة الشيوعيين والإخوان المسلمين وقد طرحوا ثلاثة شروط:

أن يتولى على ماهر تشكيل وزارة جديدة — أن تجرى انتخابات برلمانية بأسرع وقت — أن تلغى الأحكام العرفية.

٤ - فى تقدير المراغى أن الملك فاروق انتهى عمليا وأن العسكريين يريدون الخلاص منه وإزاحته عن طريقهم (!)

٥ - أنه («المراغى») يتقدم إلينا بطلب تدخل عسكرى بريطانى قبل أن يتعقد الموقف ونجد أنفسنا أمام تحالف من الإخوان المسلمين والشيوعيين يمسك بالسلطة فى مصر ويوجه نتائج الانتخابات على هوى أفكارهم المتطرفة المعادية لمبادئ الرأسمالية.

٦ - سوف أقابل المراغى بنفسى وأسمع منه.

من السفارة - مصر
إلى وزارة الخارجية
١٠١١/٩١/٥٢٦٥
سرى جدا

قابلت الآن مرتضى المراغى وهو متشائم جدا من احتمالات الموقف ورأيه أن كل ما أعلن عن أهداف الحركة العسكرية هو ذر للرماد فى العيون (pure eye wash) مقصده التضليل، فى حين أن الهدف الحقيقى من الحركة هو إقامة حكومة عسكرية من ضباط كانت لهم جميعا أدوار فى العمليات الإرهابية التى وقعت



الملك «فاروق» أبلغ السفير الأمريكى «كافرى»، أنه فكر فى المغادرة بواسطة اليخت الملكى «المحروسة» لكن القومندان «جلال علوبة» قائد اليخت أبلغ جلالته أنه يخشى أن تكون بطاريات السواحل موالية للانقلابيين ومن ثم تقوم بضرب اليخت الملكى بمدافعها وتعطله أو تغرقه





ضد القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس فى الشتاء الماضى، وهم جميعا خليط من فوضويين وشيوعيين وإخوان مسلمين. وهو يعتقد أنهم إذا تركوا لتدعيم موقفهم فى السلطة فإنهم لن يلبثوا بعد قليل حتى يدخلوا فى حرب عصابات حقيقية ضد القوات البريطانية فى منطقة القناة.

وقد أحسست أن المراغى متأثر برؤاه ـ كما أن الشعور بالمفاجأة والعجز غالب عليه ولذلك فهو يبالغ فى «سواد» الصورة على أنه ليس بمقدور أحد أن يدَّعى أن الصورة بيضاء ولذلك فإن متابعة الاستعدادات لا بد أن تاخذ طريقها.

طوارئ ـ سرى جدا
من السفارة البريطانية فى مصر
إلى وزارة الخارجية ـ لندن
٢٣ يوليو ١٩٥٢ (رقم ١٠١٨/٢٠٦)
الساعة الرابعة (بعد الظهر)

أبلغنى السفير الأمريكى كافرى أن الملك فاروق اتصل به قبل قليل (الساعة ٣ بعد الظهر) وأبلغه أنه الآن لا يجد بديلا عن قبول مطالب العسكريين بما فيها استقالة الهلالى وتعيين على ماهر رئيسا للوزراء، خصوصا وأن على ماهر عندما ذهب إليه بعض المندوبين العسكريين عن القيادة لتوجيه الطلب إليه بتشكيل وزارة جديدة رجاهم أن يصدر إليه التكليف من الملك رعاية للدستور. وهكذا فإنه سوف يكلفه برئاسة الوزارة دون مشاكل!

أبدى الملك فاروق للسفير الأمريكى شعوره بالمرارة الشديدة ضدنا (بالطبع لأننا لم نبلغه باستعدادنا للتدخل). بل إنه قال لكافرى أنه يعرف أننا نحن المدبرين الحقيقيين للانقلاب ضده وهو على أى حال مستعد الآن لمواجهة كل الاحتمالات ولن يترك البلد مهما كان.

....

....

[يلفت النظر أن هذه الصورة كانت مختلفة عن الانطباع الذى تكوَّن عند «أحمد نجيب الهلالى» (باشا) ـ الذى روى لى فيما بعد (وفى حضور زوج ابنته الدكتور «محمود محفوظ» وابنه الأستاذ «نبيل الهلالى») ـ أنه توجه إلى قصر راس التين بعد حديثه مع اللواء «نجيب» (فى حضورى) وعرض عليه الموقف بطريقة لا تحتمل اللبس ـ وبما مؤداه أن:

١ ـ هناك حالة تمرد فى الجيش ـ لكن التمرد كما هو واضح فى بيان «الحركة العسكرية» الذى أذيع قبل قليل (الساعة السابعة صباحا) من إذاعة القاهرة ينص على طرد عدد من ضباط الجيش الفاسدين، وعلى إخراج بعض رجال الحاشية الذى كان الملك بنفسه قد وافق على إبعادهم (بطلب منه ـ أى من «الهلالى» ـ عندما كلفه برئاسة وزارته الثانية). ومع أن قرار الإبعاد تأخر لسوء الحظ ولم يصل إلى علم ضباط الحركة ومن ثم تصرفوا على النحو الذى تصرفوا به ـ فإن «ضرورات أمن البلد» تقتضى الآن قبول طلباتهم «حتى لا يتسع الخرق».

٢ ـ إن جلالة الملك فى هذه اللحظة مطالب بالارتفاع من مشاعره الشخصية والقبول بمطالب الحركة حتى يمكن «حصر الفتنة» ولا ينفتح المجال لاحتمال تدخل خارجى.

٣ ـ إنه «كرئيس لوزراء جلالة الملك» ـ وكخادم مخلص له يرجوه ألا يلجأ إلى طلب تدخل أجنبى بريطانى أو غيره فى هذا الوقت حتى لا يكرر موقف عمه الخديو «توفيق» الذى طلب تدخل الأسطول البريطانى ضد «عرابى» (ثورة «عرابى» ١٨٨٢)، وهو الطلب الذى أدى إلى احتلال مصر ووقوعها فى قبضة الاستعمار البريطانى.

وفى رواية «نجيب الهلالى» (باشا) أن الملك «فاروق» وافق على ما قال وأضاف إليه «أنه ليس الرجل الذى يطلب تدخلا بريطانيا مسلحا لحماية عرشه أو أسرته أو نفسه، وقد استبعد هذا الخاطر من حساباته فور سماعه بما جرى فى القاهرة لأنه «لا يريد أن يعطى الانجليز هذا الشرف ـ ولا هذه الفرصة للشماتة فيه فضلا عن أنه لا يثق فى نواياهم أو حسن مقاصدهم».

وقال «نجيب الهلالى» «أنه خرج من المقابلة مع الملك مستريحا مطمئنا إلى صدق مشاعره الوطنية!».

وكذلك قدَّم له استقالة وزارته حتى يعطيه حرية التصرف بعد أن عرف أن الحركة تريد تغييرا وزاريا!]

٤

طلب تدخل عسكرى بريطانى

طوارئ ـ سرى جدا
من القائم بالأعمال البريطانى
إلى وزارة الخارجية ـ لندن
(رقم ٩١ / ١٠١٤)
٢٤ يوليو ١٩٥٢ الساعة ١٠:٦ صباحا

تقابلت الآن مع السفير الأمريكى المستر كافرى. قال لى أن الملك فاروق يلاحقه بالتليفونات منذ الفجر يقول له «إن الوسيلة الوحيدة لمساعدته هى تدخل عسكرى لإنقاذه وإنقاذ أسرته». وهو لم يطلب تدخل السفارة البريطانية ـ لكن تلميحاته واضحة نحو ذلك الطلب، ومن الواضح أن كافرى يريد أن يعرف رد فعلنا فى هذه الحالة وقد أخبرته أنه يستطيع أن ينقل إلى الملك ما يلى:

١ ـ إن حكومة جلالة الملكة على علم بما يجرى، وكذلك رئاسة أركان الحرب الإمبراطورية، ونحن فى انتظار تعليمات منهم.

٢ ـ أنه إذا أراد رأيى الشخصى فهو الآن أمام مشكلة داخلية عويصة ومن المشكوك فيه أن تدخلا أجنبيا يمكن أن يساعده على حلها ـ على أنه إذا أراد تدخلا عسكريا لصالحه فسوف نطلب منه توضيح طلبه.

٣ ـ سألت كافرى إذا كان ما سمعه منى سوف يؤدى إلى جعل الملك أكثر يأسا بحيث يحاول مغادرة البلاد فى أسرع وقت. وقال كافرى أن الملك فى حالة ذعر هائل (tremendous panic) وهو يبذل قصارى جهده لتهدئة مخاوفه وإقناعه بأن ينتظر فى ثبات. طلبت من كافرى أن ينقل إلى الملك أن تلك أيضا نصيحتى. وحتى الآن فإنه لا يبدو لى أن المتمردين فى القاهرة قد فرضوا عليه شيئا يخصه ـ وإذا انتظر فقد تتطور الأحوال لصالح ملك دستورى.

٤ ـ قال لى كافرى «إن الملك ذكر له أنه ما زال حتى الآن يستطيع أن يعتمد على ولاء البحرية المصرية واستعداد قيادتها لمساعدته.

٥ ـ لاحظنا ـ كافرى وأنا ـ أن الملك فى هذه الأزمة قطع صلته بحكومته وهو يجرى اتصالاته بنفسه وحتى بدون وساطة الديوان الملكى. وقد أبلغه كافرى أنه سوف يبعث إليه برسول معتمد يلازمه حتى يترجم له رغبات سيده فى حالة انقطاع الاتصالات التليفونية.




طوارئ ـ سرى جدا
من القائم بالأعمال البريطانى
مايكل كرسويل
إلى وزير الخارجية
ورئاسة الوزراء
٢٤ يوليو ١٩٥٢ الساعة ١٠:٨

يتضح لى أكثر فأكثر أننا أمام خطر حقيقى بقيام نظام عسكرى متطرف فى مصر ولذلك أتقدم بالمقترحات التالية:

١ ـ وضع الخطة روديو (التدخل العسكرى لاحتلال الدلتا والقاهرة) فى وضع الإنذار لتكون الخطة قيد التنفيذ بعد إخطار لا يزيد على أربع وعشرين ساعة، مع إمكانية أن تتقدم بعض الوحدات إلى نقط التماس ـ خط «أرسكين» الدفاعى (خط بلبيس ـ بحيرة المنزلة) بحيث يعرف الانقلابيون على الفور أن احتمال التدخل العسكرى من جانبنا وارد وجدىٌ. أقترح أيضا إجراء تحركات بحرية ظاهرة قرب الشواطئ المصرية. كذلك يمكن إخطار السلطات المصرية المعنية أن المدمرة البريطانية جلاسجو التابعة لأسطول صاحبة الجلالة البريطانية فى البحر الأبيض ومعها مدمرة ملحقة بها سوف تتوجه إلى ميناء الإسكندرية بدلا من وجهتها الأصلية إلى ميناء بورسعيد. ورأيى أن هذه الوحدات ـ وغيرها ـ لا يجب أن تظهر على الشواطئ المصرية حتى لا تتسبب فى تفجير مظاهر عداء ضد الرعايا البريطانيين والأجانب فى مصر وحين تكتمل الاستعدادات لبدء تنفيذ العملية روديو.

٢ ـ إن ملحقنا البحرى قد أقام صلات طيبة مع قيادة الأسطول البحرى المصرى ونحن واثقون أن وحداتنا البحرية لن تقابل بردود فعل عدائية من جانبهم. على أن موقف قائد بطاريات السواحل ليس مؤكدا حتى الآن.

٣ ـ إننا نرى خطرا كبيرا يزحف بسرعة على الموقف فى مصر، وهو يتطور على نحو فورى يدعو للقلق ويتطلب حلا وقائيا قبل أن تفوت الفرصة. والغالب أننا الآن على نحو مماثل مما عانته روسيا أيام الثورة البلشفية على طريقة كيرنسكى بمعنى ظهور واجهة تبدو معتدلة وهى فى الواقع تمهد للمتطرفين. ورأينا أن غالبية ضباط الجيش سوف يعودون إلى رشدهم إذا أحسوا بالخطر المحدق عليهم اليوم. وقد عرفنا الآن أن كل ضباط الجيش فوق رتبة العقيد قد طلب إليهم البقاء بعيدا عن وحداتهم حتى إشعار آخر، وذلك يخلق مناخا مناسبا لما نفكر فيه.



من وزارة الخارجية ـ لندن
إلى القائم بالأعمال البريطانى ـ الإسكندرية
طوارئ ـ عاجل

الساعة ١٥:١ صباحا ٢٤ يوليو ١٩٥٢
ردا على مقترحاتكم:

١ - نرى أن فترة الإنذار الخاصة بالخطة روديو يمكن تقصيرها بحيث تكون الخطة جاهزة للتنفيذ فى ظرف ٢٨ ساعة للمرحلة الأولى - ٩٦ ساعة للمرحلة الثانية - وسوف تقوم رئاسة أركان الحرب بإصدار التعليمات المناسبة.

٢ - نختلف معكم فى شأن القيام بحشود بحرية أمام الإسكندرية على الأقل فى هذه المرحلة.

٣ - إننى أفكر فى إجراء اتصالات مع كل من اللواء محمد نجيب ورئيس الوزراء المقترح على ماهر (باشا).





إشارة عاجلة
من القائد العام للبحر الأبيض
إلى رئاسة أركان الحرب
تقديراتنا لمقترحات الإسكندرية:

١ - لا يبدو لنا أن تقدم وحدات عسكرية من «فايد» إلى خط التماس مع وحدات الجيش المصرى مناسبا فى هذا الوقت.

٢ - المعلومات المتوافرة لدى القيادات العسكرية فى فايد تظهر أن قوات الجيش المصرى تقف بالكامل وراء حركة اللواء نجيب وأفرادها متحمسون لإقصاء الحاشية السيئة للملك فاروق وتحجيم نفوذه. وعليه فنحن نعتقد أن أى مظاهرة عسكرية من جانبنا لن تؤدى إلى تعليم ضباط الجيش المصرى درسا فى التعقل بقدر ما سوف تدفعهم أكثر إلى الوقوف وراء الحركة العسكرية.

٣ - إن منطقة قناة السويس هادئة الآن، وفى رأينا أن أى ظهور عسكرى بريطانى سوف يجعل الجميع - بما فيهم قوات البوليس - فى حالة عصبية تمكن لقوى الشغب أن تعاود نشاطها. وسوف يبدو مثل ذلك النشاط فى الوقت الراهن مبررا بتدخلنا فى صميم الشأن المصرى وتأييدا لملك تخلَّى عنه رعاياه.

٤ - لا نرى فائدة محققة من اقتراح التظاهر البحرى أمام الإسكندرية، وإذا كان مثل ذلك التظاهر لازما فإن توقيته لا بد أن يجىء مصاحبا لتنفيذ الخطة روديو إذا استقر الرأى على ذلك. وفى حالة ما إذا كان قراركم هو إجراء مظاهرة عسكرية بالقوة أمام الاسكندرية فسوف نجد أننا أمام ضرورة أن أتلقى منكم توجيها عن الهدف النهائى السياسى الذى يستدعى إجراء التظاهر البحرى المقترح.




من وزارة الخارجية
إلى السفارة البريطانية (مايكل كرسويل القائم بالأعمال) - فى مصر
مذكرة - عاجل وسرى
٢٤ يوليو ١٩٥٢ (الساعة ٤:١٥ بعد الظهر)

إننا لا نريد - ولا نقصد - ممارسة هواية قيادة السيارات من المقعد الخلفى (backseat driving).

ونحن نرى أن المعلومات الواردة من مصر لا تزال غير كافية لاتخاذ قرارات كبيرة. ومن الأفضل أن ننتظر حتى جلاء الأمور. وحتى إذا تحوَّل اللواء نجيب إلى ديكتاتور عسكرى فنحن لا نريد أن نظهر باعتبارنا الطرف المعتدى من أول لحظة وقبل أن تتضح نوايا الآخرين على أن ذلك لا يمنع أن نكون مستعدين لكل الاحتمالات.

ونحن نقترح عليه إخطار رئيس الديوان الملكى حافظ عفيفى بوجهة نظرنا رغم أننا نشعر أن الديوان الملكى فى عزلة عما يجرى لدرجة أن عفيفى (باشا) لم يستطع أن يفرق بين اللواء محمد نجيب وبين شقيقه اللواء على نجيب واعتبر الأخير هو قائد الانقلاب العسكرى، ويكون إبلاغ حافظ عفيفى بوجهة نظرنا فى الحدود التالية:

١ - إننا سوف نبذل جهودنا ونوظِّف وسائلنا لمنع قيام ديكتاتورية عسكرية فى مصر.

٢ - من مصلحة الملك أن يخرج من هذه الأزمة ملكا دستوريا، وهذا يعنى أن عليه أن يترك حكومة يرأسها على ماهر - الذى اختاره بنفسه قبل شهور لرئاسة الوزارة - تعمل دون عراقيل، وإذا كان له أن يقوم بدور بناء فعليه تشجيع حكومته للوصول فى الوقت المناسب إلى تسوية مناسبة للعلاقات بين بلدينا.

٣ - ولعلمك الخاص فنحن الآن لا نرى بأسا من أن يشعر فاروق بالخوف (scare).

إلى وزير الخارجية - أنتونى إيدن
من وكيل وزارة الخارجية - آلين
مذكرة

اتصل بى تليفونيا عبد الفتاح عمرو (سفير مصر فى لندن) يبلغنى رسالة مقتضاها أن من المهم جدا أن نتجنب أى اشتباك بين القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس وبين الحركة العسكرية التى قامت فى مصر.

ومع أنه يرى ضرورة أن نكون مستعدين لكل الاحتمالات فإنه من الخطر أن يظهر وكأن القوات البريطانية تستعد لاجتياح الدلتا والقاهرة. وهو يرى أنه إذا كان ضروريا أن تقوم طائراتنا فى قواعد القناة بعمليات استطلاع جوى فمن المستحسن أن يظل عمل الطائرات فى أجواء منطقة القناة.

طلب منى عمرو أن أنقل ذلك إليكم وإلى مجلس الوزراء بسرعة - وأبلغته أن تفكيرنا ليس بعيدا عما يقترحه.



عاجل - سرى (إشارة ٢٢٥)
من قيادة القوات البريطانية فى فايد
إلى السفارة البريطانية فى مصر
٢٤ يوليو ١٩٥٢

هناك معلومات قد تهمكم فى الجانب السياسى من الأحداث الجارية فى مصر الآن.

أولا - إن الكولونيل ميللور من رئاسة أركان القوات البريطانية فى فايد توجه اليوم (٢٤ يوليو) لمقابلة اللواء شوقى بك (اللواء «أحمد شوقى عبد الرحمن») قائد القيادة الشرقية المصرية (فى منطقة قناة السويس) يستطلع رؤيته للموقف الجديد فى القاهرة وقد أبدى له اللواء شوقى:

١ - أنه تلقى اتصالا تليفونيا من اللواء نجيب الذى أبلغه بقيام الحركة وأنه سوف يتلقى منه الأوامر من الآن فصاعدا - وقد رد عليه اللواء شوقى بأنه يقبل سلطته.

٢ - إن معلومات شوقى عن اللواء نجيب أنه رجل لا يهتم بالسياسة وهو رجل طيب (a good man) وإنما وراءه مجموعة من الضباط الشبان الوطنيين لم يستطع بعد أن يتعرف على أسمائهم.

٣ - إنه يعرف من اتصالات سابقة أن القوات البريطانية لن تتدخل لإنقاذ الملك من مستنقع سياسى تسبب فيه لنفسه ودخل إليه بحماقة، وهو يأمل أن يظل ذلك موقفنا حتى تنجلى الأمور - وإنه يعرف أن قوات الجيش المصرى وضعت عوائق ضد الدبابات على طريق السويس وأنهم مستعدون لمقاومة أى تدخل لأن ذلك يجنب الجميع بدائل خطرة وغير مؤكدة.

٤ - إننا لم نصل بعد إلى نتيجة مؤكدة تقنعنا بقبول الأحوال المستجدة فى مصر - لكن علينا أن نراقب بحذر - مستعدين لمختلف الاحتمالات.

٥ - فى رأينا أن الوقت قد يكون مناسبا لاتصال على مستوى معين مع محمد نجيب، ومن الأفضل أن يتم الاتصال بواسطة دبلوماسى من هيئة سفارتك.

من القيادة العامة للقوات البريطانية - فايد
إلى السفارة البريطانية
(عاجل - سرى رقم ١٦٦٨/ت.ن.أ)

للعلم فإن البريجادير جولبرن (الملحق العسكرى البريطانى فى مصر والذى كان قد سافر بالأجازة يوم ١٨ يوليو ١٩٥٢) عاد إلى هنا بالجو من قبرص. وقد التقى أمس باللواء شوقى (اللواء «أحمد شوقى عبد الرحمن» - قائد المنطقة الشرقية) فى قيادته بالمعسكر، وطبقا لما قاله اللواء شوقى يظهر الآن:

١ - اللواء نجيب دفع إلى قيادة الحركة بواسطة عدد من الضباط الشبان الذين يكرهون الملك.

٢ - إن هذه المجموعة من الضباط الشبان لا يزيد عددها على عشرة وهم الذين قاموا على التنظيم.

٣ - إن الوفد والإخوان ليس لهم دور فى الحركة - ولكن التأييد يصل إلى القيادة من كل أنحاء البلاد.

٤ - إن هدف الحركة تطهير حاشية الملك ووضع حد للفساد فى السياسة - والعناية بقوة الجيش.

٥ - إن سياسة قيادة الحركة الآن تجنب تدخل عسكرى بريطانى ضدها.

٦ - إن الملك فاروق عندما أحس بحرج موقفه السياسى قبل أسبوع طلب من بعض رجاله فى البوليس السياسى تدبير عملية اغتيال لعدد من الرعايا البريطانيين فى مصر حتى يحوِّل اهتمام الشارع المصرى من مشاكل الداخل إلى مخاطر خارجية، وإن مثل ذلك الاحتمال كان واردا فى ذهن اللواء فؤاد صادق عندما فاتحه بعض شباب الضباط كى يقود حركة تفرض الإصلاح على الملك، وأن ذلك الاحتمال كان أول أسبابه عندما تردد فى قبول عرضهم.

٧ - إن اللواء نجيب كان هو الذى اختار على ماهر لرئاسة الوزارة بعد الحركة لأنه يعرفه من وقت ترشيحه وزيرا للحربية بعد حريق القاهرة.

٨ - إن ضباط الحركة لا يفكرون فى

فاروق — أنطونى إيدن

فى إشارة من القائد العام البريطانى للبحر الأبيض إلى رئاسة الأركان: المعلومات المتوافرة لدى القيادات العسكرية فى فايد تظهر أن قوات الجيش المصرى تقف بالكامل وراء حركة اللواء نجيب وأفرادها متحمسون لإقصاء الحاشية السيئة للملك فاروق وتحجيم نفوذه



إجراءات متعصبة (fanatic) ضد الملك، بل هم على استعداد لقبوله وفق شروط مختلفة.

٩ - إن ضباط البوليس مستاءون من ضباط الحركة بسبب اعتقالات وقعت ضد قياداتهم خصوصا اللواء طلعت (قائد بوليس القاهرة)، وقد اضطر هو (اللواء «أحمد شوقى عبد الرحمن») إلى تهدئة خواطر ضباط البوليس فى بورسعيد حتى لا يتصرف أحد منهم بحماقة.

١٠ - إن اللواء نجيب يتلقى التوجيهات من عدد من الضباط الشبان الذين يريدون تصحيح العلاقة مع بريطانيا باتفاق جديد يسمح بتقوية الجيش المصرى.

وهنا قال البريجادير جولبرن للواء أحمد شوقى عبد الرحمن إذا كنت تستطيع إيجاد وسيلة لإبلاغ هؤلاء الشبان فى القاهرة فأرجوك إبلاغهم بما يلى:

ليست هناك معاهدة جديدة منا (no new treaty)

وليس هناك سلاح جديد لهم (no new arms)



طوارئ - سرى (١٧٠)
من السفارة البريطانية (القاهرة)
إلى القائم بالأعمال البريطانى (الإسكندرية)
٢٤ يوليو ١٩٥٢

هذه الرسالة من هاملتون (المستشار القانونى للسفارة) إلى كرسويل (القائم بالأعمال) «التقى مساعد الملحق العسكرى الكولونيل «تاملين» هذا الصباح مع صديق له على اتصال مع بعض ضباط نجيب وعرض عليه فكرة ترتيب اجتماع لى معه. وقد عاد هذا الصديق واتصل بـ«تاملين» وأبلغه أن فكرة اللقاء غير مناسبة لأن القيادة العسكرية تفضل أن تجرى اللقاءات العسكرية مع رئيس الوزراء «على ماهر» - خصوصا وأن أهداف «حركة الجيش» ليست سياسية.



طوارئ - سرى جدا
من وزير الخارجية - أنتونى إيدن
إلى القائم بالأعمال البريطانى فى مصر - الإسكندرية - مايكل كرسويل
٢٤ يوليو ١٩٥٢ - (رقم ١٠١١/٩٦/٥٢٤)

إذا لم يكن لديك ما يدعوك إلى الاعتراض فإننا نرى أن عليك مقابلة على ماهر بأسرع ما يمكن والتحدث إليه بالخطوط التالية:

١ - إن حكومة صاحبة الجلالة الملكة لا ترغب فى التدخل فى الشأن المصرى لكنها تجد نفسها إزاء ضرورة إخطار رئيس الوزراء المصرى بأن الحكومة البريطانية لن تتردد فى التدخل إذا نشأت أحوال تتطلب حماية أرواح الرعايا البريطانيين. ولذلك فإن حكومة صاحبة الجلالة البريطانية أصدرت أمرها إلى قواتها المسلحة فى مصر بأن تكون فى حالة الاستعداد القصوى للتدخل. وقد أبلغنا اللواء نجيب بوسائلنا («جولبرن» إلى اللواء «شوقى عبد الرحمن») ليكون واضحا أمامه أن أية استعدادات تراها وحدات من الجيش المصرى ليست موجهة بشكل من الأشكال فى صورتها الراهنة ضد القوات المصرية المسلحة. بل إن الأوامر لدى القوات البريطانية هى تجنب وقوع أى حادث.

٢ - عليك أن تنتقل من هذه المقدمة إلى إبلاغه بأننى شخصيا أراقب تطورات الموقف فى مصر خلال الشهر الحاضر بكثير من القلق وأشعر أن المستجدات الأخيرة طرأت نتيجة حتمية لفساد شديد وسوء فى الحكم سببا أضرارا كبيرة لمصر. لكننا نأمل أن تتحسن الأوضاع فى ظل إدارة مستقرة. ومع أنه من الصعب علينا التنبؤ بمسار الحوادث فإننا نخشى أن الحديث فى الساعات الأخيرة عن إلغاء الأحكام العرفية وإجراء انتخابات نيابية كلها سابقة لأوانها لأن أهم شىء هذه اللحظة هو إعادة شىء من التوازن تستطيع به مصر أن تقف على قدميها. ■

٥

طابور مسلح يتجه إلى الإسكندرية

■■ طوارئ - عاجل
إلى وزير الخارجية - أنتونى إيدن - لندن
من مايكل كرسويل القائم بالأعمال البريطانى - الإسكندرية
٢٥ يوليو ١٩٥٢

١ - قابلت على ماهر هذا الصباح وأبلغته برسالتكم وطلب منى نصا مكتوبا للفقرتين (١) و (٢) منها. ويظهر كما ألمح أنه يريد هذه النصوص مكتوبة فى حوزته لأنه يخشى أن يضغط الانقلابيون الجدد على الوزارة بدباباتهم وطائراتهم! وقد ألمحت له بأن هؤلاء الشبان عليهم أن يعرفوا أن هناك دبابات أقوى وطائرات أحدث مما لديهم!

٢ - كان على ماهر يبدى الود الخالص طوال المقابلة وقد أبلغنى أن أشكركم بحرارة على رسالتكم وحتى تعرفوا أنه يرى الموقف بوضوح ويوافق على كل شىء فى رسالتكم.

٣ - قدم لى على ماهر وصفا تفصيليا لأحداث الأزمة، وأبلغنى أنه جاء إلى الإسكندرية أمس (٢٤ يوليو) يحمل مطالب محددة من اللواء نجيب وضباطه وهى على النحو التالى:

أ - بالنسبة للجيش: تثبيت اللواء محمد نجيب قائدا عاما للقوات المسلحة وتفويضه بإجراء تطهير فى الجيش يتضمن إنهاء خدمة ٥٦ ضابطا بينهم ٢١ لواء وقع اعتقالهم فعلا.

وبالتوازى مع ذلك ضرورة البدء فى تسريح الحرس الحديدى التابع للملك مباشرة وتسليم سلاحه إلى الجيش، كما أنه يتعين على أعضائه تسليم أنفسهم إلى قيادة الحركة فى القاهرة.

ب - بالنسبة للقصر: طرد سبعة رجال من أعوان الملك فاروق فورا وهم: محمد حسن أمين الخدمة الشخصية - وأنطون بوللى مدير شئونه الخاصة - وإلياس أندراوس مدير أعماله المالية - وكريم ثابت مستشاره الصحفى - والقائمقام حلمى سائقه الخاص الذى أصبح قائد الملكية - ويوسف رشاد طبيبه الخاص - واللواء عاكف طياره الخاص.

وأضاف على ماهر أنه عندما قابل الملك بطلبات الجيش وجده فى البداية عنيدا يرفض الاستغناء عن أقرب رجاله - لكنه استسلم للحقائق فى النهاية بشرط ألا يطرد هؤلاء جميعا وإنما يقدمون استقالاتهم.

٤ - ذكر لى على ماهر أنه لا يعرف من هو القائد الحقيقى للانقلاب لكن تخمينه أنه «البكباشى» أنور السادات الذى جاءه صباح يوم الانقلاب يبلغه باختياره لتشكيل وزارة جديدة، وهو لا يعرف عنه الكثير. وإن كان الملك فاروق قال له عندما قابله أمس أن «هذا الضابط أنور السادات هو فى الواقع مجرم (criminal).

٥ - قال لى على ماهر أيضا أنه أبلغ بعد أن غادر القاهرة إلى الإسكندرية أمس أن القيادة العسكرية أمرت باعتقال قائد بوليس القاهرة اللواء طلعت وكذلك مدير القلم السياسى المخصوص فى وزارة الداخلية إلى جانب وكيل الوزارة - وقد أضيف إليهم اعتقال الأخوين مصطفى وعلى أمين وأبدى أن هذه تصرفات لا تريحه على الأقل لأنه لم يعلم بها إلا بعد حصولها.

٦ - وأبلغنى على ماهر أنه يتوقع وصول مبعوث من اللواء نجيب إلى الإسكندرية ولا يستبعد وصول اللواء نجيب نفسه ظهر اليوم - وعلى أى حال فهو ينوى إعادة الحكومة إلى القاهرة وإنهاء مصيفها فى الإسكندرية مع نهاية الأسبوع. أبلغنى أيضا أن الأحزاب السياسية كلها تحاول الاتصال به وهو ينوى تشكيل وزارة من المستقلين لكنه سوف يختار وزير دولة معه يتولى مهمة ضابط اتصال بين الوزارة وبين الأحزاب السياسية الرئيسية. وعلى أى حال، فإنه قرر بالفعل إبقاء الأحكام العرفية وتأجيل أى تفكير فى إجراء انتخابات نيابية. وقد طلب من القيادة العسكرية أن تترك له القرار فى هذه المسائل لأنها موضوعات سياسية يختص هو شخصيا ووزراؤه بالقرار فيها.

٧ - تكلم على ماهر عن خطط لديه لإعادة تنظيم الحكومة وتطهير الإدارة الحكومية من الفساد السياسى الذى لحق بها من جراء التعيينات الحزبية وأهواء الوزراء المتعاقبين، وأنه كذلك سوف يعمل على تخفيف حدة الأزمة التموينية، وعلى سبيل المثال ذلك النقص الخطير فى السكر.

٨ - وصل على ماهر إلى القول بأن الجيش يشعر بالضيق لتخلف سلاحه، وهو يفهم مشاعر الضباط فى هذا الصدد خصوصا وأن القيادة العليا فى الجيش اقتصرت على المقربين من القصر الملكى، وأن تسليح الجيش وتدريبه أهمل أمره وصرفت الاعتمادات العسكرية فى غير موضعها. ونبهت رئيس الوزراء إلى أن تلك كلها مشاكل يمكن تسويتها عندما نتوصل إلى اتفاق دفاعى مع مصر.

....

....

[كان اعتقال الأستاذين «مصطفى» و«على أمين» نتيجة

لتبليغ من رئيس تحرير جريدة «المصرى» (الأستاذ «أحمد أبو الفتح») يتهم فيه الأخوين بنقل معلومات حساسة عما يجرى فى مصر إلى جهات أجنبية. وقد سجل الأستاذ «مصطفى أمين» هذه الواقعة بخط يده فى التحقيق الذى أجرى معه (بعد ذلك بسنوات). وفى مسار الوقائع بعد اعتقال الأخوين فقد سارعت بالاتصال بـ«جمال عبد الناصر» ورتبت مقابلة حضرها معنا الأستاذ «محمد التابعى»، وكان عرضنا للموضوع بحضوره وحضور اللواء «محمد نجيب» نفسه أن اعتقال اثنين من الصحفيين فى مصر فى الساعات الأولى من الثورة مسىء إلى صورتها، ثم أن العلاقة بين أسرة «أبو الفتح» وأسرة «أمين» - علاقة معقدة شهدت فى بعض الأحيان شراكة مالية كما شهدت فى بعضها الآخر عداوة لا تتضح أسبابها الحقيقية، وأن المسألة تحتاج إلى تحقيق دقيق لأن التهمة خطرة والأوقات مضطربة. وفى كل الأحوال فإن «الحركة» لا ينبغى لها من الساعات الأولى لعملها أن تقوم بإجراءات تبدو متحازة - أو تحسب فى الخارج وكأنها تخويف للإعلام المصرى وإنذار له].

....

....



فاروق   كافرى

من القائم بالأعمال البريطانى فى مصر إلى وزير خارجيته فى لندن: «أبلغنا الملحق البحرى الأمريكى أنه شاهد طابورا عسكريا يحوى عناصر من الدبابات يزحف بسرعة على الطريق الصحراوى بين القاهرة والإسكندرية، وأن طلائعه تصل إلى الإسكندرية فى أية لحظة. وفى الغالب فإن الملك فاروق أمامه ساعات مزعجة»



إلى وزارة الخارجية البريطانية
من مايكل كرسويل القائم بالأعمال البريطانى فى مصر
(رقم ٩١ / ١٠٩٥)
٢٥ يوليو ١٩٥٢ - الساعة الثالثة بعد الظهر

أبلغنى القنصل الفرنسى العام أن هناك وحدات من قوات الجيش المصرى تصل الآن إلى الإسكندرية وتتجه إلى معسكر مصطفى باشا كما أن بعضها تمركز فى استاد الإسكندرية قرب محطة السكة الحديد.

وفى رواية القنصل الفرنسى أن هذه القوات القادمة إلى الإسكندرية قوبلت بترحيب وحماس عند مرورها فى حى المكس وتجمع حولها حشد من الجماهير مهنئين للجيش ولنجيب ويطلقون شعارات معادية للملك بلغت حد الوقاحة.

وفى معلومات القنصل الفرنسى أيضا أنه سمع من مصادر مطلعة أن هناك خلافات بين رئيس الوزراء على ماهر وبين اللواء محمد نجيب الذى وصل إلى الإسكندرية فعلا فى الصباح الباكر بالطائرة.



إلى وزير الخارجية - لندن
من القائم بالأعمال فى مصر
عاجل جدا (١٠٩٥/٩٦)
٢٥ يوليو ١٩٥٢

أبلغنى السفير الأمريكى جيفرسون كافرى أن الملك فاروق اتصل به منفعلا يطلب حاملة طائرات أمريكية تقترب من الشاطئ المصرى أمام قصره وتنقله إليها طائرة هليوكوبتر تابعة لها لأنه مقتنع الآن بضرورة الإفلات هربا من بلده.

وقد بذل السفير الأمريكى كل نفوذه وحججه ليقنع الملك بعدم مغادرة بلاده حتى لا يفتح الطريق أمام إعلان جمهورية متطرفة، وذلك خطر شديد على مستقبل أسرته. ومن المحتمل أن ينجح كافرى فى إقناع الملك بالبقاء خصوصا إذا لم يشعر فاروق بأن هناك إجراءات مستجدة تتخذ ضده. وقد أبلغت السفير الأمريكى أننى أوافق على موقفه بغير تحفظات.

ويظهر أن الحرس الملكى قرر نقل ولائه إلى اللواء نجيب، وقد عرف فاروق ربما عن طريق التنصت أن اتصالا جرى بين عدد من ضباط حرسه وبين قيادة اللواء نجيب، كما أن قادة الحركة تلقوا معلومات عن اتصالات قام بها الملك فاروق وطلب خلالها تدخلا بريطانيا ضدهم وأن ذلك أثار الانقلابيين عليه.

وقد أبلغنا الملحق البحرى الأمريكى أنه شاهد طابورا عسكريا يحوى عناصر من الدبابات يزحف بسرعة على الطريق الصحراوى بين القاهرة والإسكندرية، وأن طلائعه تصل إلى الإسكندرية فى أية لحظة.

وفى الغالب فإن الملك فاروق أمامه ساعات مزعجة.



(درجة السرية القصوى للمعلومات)
من جفرسون كافرى (السفير الأمريكى بالقاهرة)
إلى وزير الخارجية (واشنطن)

اتصل بى الملك فى الساعة الثامنة صباحا ليبلغنى أن قصره محاصر - ثم عاد يتصل بى بعد نصف ساعة ليقول لى أن هناك إطلاق نار فى محيط القصر وأنه فى موقف «يائس» ويسألنى إذا كنت أستطيع أن (desparate) أساعد بسرعة (could I help quickly)

كافرى

إلى وزارة الخارجية - لندن
من السفارة فى مصر (مايكل كرسويل القائم بالأعمال)
(٩ ج ٢ - ١٠١٨)

أبلغنى رئيس الوزراء على ماهر أنه حينما غادر القاهرة يوم ٢٤ يوليو قادما إلى الإسكندرية كان كل ما فهمه من اللواء نجيب أن ضباط الحركة لن يذهبوا إلى أبعد مما وصلوا إليه من إجراءات تتصل بإقصاء عناصر من حاشية الملك. لكنه عندما لحق به اللواء محمد نجيب فى الإسكندرية - فى اليوم التالى ٢٥ - عرف منه أنه وضباطه قرروا المضى إلى أبعد من ذلك وفيه اتخاذ إجراءات حاسمة يتطلبها الموقف وإلا فإن الملك سوف يلجأ إلى الاعيبه القديمة مرة أخرى (his old tricks) وقال لى على ماهر أنه بعد التروى والتفكير توصل إلى أن تفكير «الحركة» فى الاتجاه الصحيح.

من رئاسة أركان الحرب الإمبراطورية - لندن
خطة طوارئ لإنقاذ الملك فاروق
رقم (أ / ٢٤٠ - ١٠١٨)
٢٥ يوليو ١٩٥٢ - ليلا

١ - لقد سئلنا فى واشنطن - البرقية رقم ١٤٢٠ مساء ٢٥ يوليو بواسطة وزارة الخارجية - عن موقفنا عندما تظهر الحاجة إلى إنقاذ الملك فاروق وتعرضت حياته للخطر وما إذا كنا مستعدين لإرسال سفينة حربية للمشاركة فى العملية. وقد ناقشنا الموضوع آخذين فى اعتبارنا أن قوات الحركة العسكرية تحاصر القصر الملكى الذى يوجد فيه فاروق.

٢ - وجوابنا أن المدمرة «مانكس مان» وهى أسرع سفينة فى الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض المتوسط تستطيع القيام بالمهمة. وفى اللحظة الراهنة فإن هذه المدمرة موجودة فى ميناء بورسعيد وتستطيع أن تصل إلى الإسكندرية فى ظرف عشر ساعات ونصف، ويمكن اختصار هذه المدة بمقدار ساعتين ونصف إذا صدر إليها أمر بالتحرك مبكرا لأن الست ساعات ونصف هى مدة الإبحار الفعلى إذا كانت لدى المدمرة أوامر مبكرة من الأميرالية. ولذلك فقد ترون من المناسب إخطار الأميرالية بالاستعداد حتى قبل اتخاذ القرار بالمشاركة فى إنقاذ الملك فاروق. ونحن نستحسن ذلك فى كل الأحوال لأن عطلة نهاية الأسبوع (كان الوقت مساء جمعة) قد تتسبب فى غياب بعض طواقم البحارة.

٣ - لا بد أن نأخذ فى اعتبارنا أننا لا نستطيع إنقاذ الملك فاروق من قصره بقوة السلاح لأن ذلك قد يتسبب فى اشتباكات بيننا وبين القوات المصرية التى تحاصر القصر مما تنتج عنه عواقب سياسية خطيرة، مع العلم بأن المقصود بإنقاذ الملك هو إنقاذ حياته، وعليه فلا يجب تعريضه لموقف يجد نفسه فيه وسط اشتباكات مسلحة.

٤ - وعلى هذا الأساس فإن الملك فاروق أمامه من الناحية الواقعية خياران:

أ - إما أن يجد وسيلة يطير بها إلى قاعدة قناة السويس

ب - أو يجد وسيلة يخرج بها من ميناء القصر وملاقاة المدمرة «مانكس مان» خارج المياه الإقليمية. وفى هذه الحالة فإنه يسهل علينا اعتباره لاجئا إلى الأسطول البريطانى.

٥ - هناك خيار يستحق أن يبحث وهو إصدار تعليمات حازمة إلى الوزير المفوض البريطانى فى مصر مايكل كرسويل بأن يتدخل بطريقة حازمة مع المتمردين (the rebels) محذرا من التعرض لحياة الملك أو إصابته بسوء. وفى هذا السياق فإنه يستطيع إخطارهم بأنه من الأفضل أن نتلقى منهم موافقة على إرسال إحدى قطعنا البحرية إلى الإسكندرية لكى تأخذ الملك فاروق منها.

إلى القائد العام للبحرية البريطانية بالبحر الأبيض المتوسط
من الأميرالية
عمليات - عاجلة

١ - قد تنشأ الحاجة بسبب التطورات الجارية فى مصر الآن إلى التقاط (to pick up) الملك فاروق خارج المياه الإقليمية المصرية أمام الإسكندرية. وفى هذه الحالة فإنه يمكن إعطاؤه حق الحماية (sanctuary) إذا وصل فى مثل هذه الظروف إلى إحدى قطع أسطول صاحبة الجلالة البريطانية.



٢ ـ وإذا نشأت الضرورة لهذه العملية فإن رأينا أن المدمرة «مانكس مان» هى الأكثر ملاءمة للمهمة.

٣ ـ وفى اللحظة الراهنة فإننا نرى وضعها تحت الإنذار استعدادا للحركة فى ظرف أربع ساعات.

٤ ـ وفى هذه الحالة فإننا سوف نرسل إليكم إشارة رمزية هى الكلمة (halo Manx Man) وهذه الإشارة الأولى تعنى أن «مانكس مان» عليها أن تكون مستعدة للتحرك فورا ولكن دون إبحار.

٥ ـ وعندما تتسلمون الإشارة الرمزية وفيها كلمة «برسيل» (persil) قبل (halo Manx Man) فإن «مانكس مان» لا بد أن تتحرك نحو الإسكندرية بأقصى سرعة.

٦ ـ سوف نبعث إليها أثناء الإبحار بالموعد المتفق عليه وإشارات التعارف اللازمة لإتمام المهمة.



من الأميرالية ـ لندن
إلى وزارة الدفاع

إن قائد الأسطول (The First Lord) يريد أن يكون الأمر واضحا فى ذهنه بشأن طلبكم إلى الأميرالية استخدام المدمرة «مانكس مان» فى إنقاذ الملك فاروق. ويريد قائد الأسطول أن يتأكد أن المهمة الملقاة على «مانكس مان» فى هذه الظروف تحظى بموافقة رئيس الوزراء مباشرة وبنفسه.

إن بطاريات المدافع الساحلية المصرية فى حالة جيدة ويمكن أن تكون فى هذه الظروف مستعدة للعمل. ولذلك فإن وقوع خسائر أمر محتمل وهو ما يتطلب موافقة رئيس الوزراء.



إلى وزارة الخارجية ـ لندن
من السفارة البريطانية ـ مصر (القائم بالأعمال مايكل كرسويل)
٢٦ يوليو ١٩٥٢

بعثت الآن بالملحق البحرى ومعه نسخة من تعليماتكم الأخيرة للتنسيق مع قائد البحرية المسئول فى قصر رأس التين (فى عملية ترتيب أية وسيلة بحرية يجدها الملك للوصول إلى موقع المدمرة «مانكس مان» ـ بما فى ذلك التوقيت والموقع). وقد وجد الملحق البحرى أن الطريق إلى قيادة البحرية وإلى القصر مغلق بحشود من الجماهير ووحدات من الجنود كما شاهد بعض قطع المدفعية مصوبة إلى القصر. وقد أبلغوه فى قصر رأس التين أن ضباط البحرية مشغولون باجتماع فى ثكنات البحرية بالأنفوشى. وقصد إلى هناك حيث وجد عددا من شباب الضباط الذين أبلغوه أن أية رسالة لابد أن تذهب إلى اللواء نجيب وهو يقوم بتحويلها إلى الجهات المعنية.

وقد تكون لدى ملحقنا البحرى الانطباع بأن ضباط القيادة برأس التين جرى اعتقالهم بواسطة شباب الضباط الذين كانت نظراتهم إليه غير ودية، وقد شعر بالقلق لأن جموعا من الناس أحاطت بالقيادة وبدت مشاعرهم متحفزة ضد عسكرى بريطانى رأوه أمامهم.

لاحظ الملحق البحرى أن بعض القوات تتجه إلى قصر المنتزه.

علمت الآن أن سفير الولايات المتحدة قد بعث برسالة عاجلة إلى على ماهر وإلى اللواء نجيب يحث على ضبط النفس وسوف أتوجه الآن لمقابلة المستر كافرى والتنسيق معه.



من جفرسون كافرى
إلى وزارة الخارجية الأمريكية
واشنطن

تمكن السكرتير الأول للسفارة (ماكلينتوك) من مقابلة اللواء نجيب وأبلغه بقلقنا من التطورات الحادثة هذا الصباح كما أبلغه أنه ليس من مصلحة أحد أن تتدهور الأمور إلى حد يمس شخص الملك. وقال اللواء نجيب أن التحركات العسكرية الجارية الآن هدفها تعزيز القوة العسكرية فى الإسكندرية بعد معلومات تلقتها قيادة الحركة عن نشاط تقوم به عناصر من الطابور الخامس، وأن نشاط هذه العناصر قد تمت مواجهته بحزم (severely dealt with) وأن هناك اعتقالات أخرى جارية، وأن ذلك هو ما استوجب الإجراءات الإضافية التى تقرر اتخاذها اليوم. قال السكرتير الأول للسفارة للواء نجيب إننا نعتمد على كلمته فى أن ضررا لن يلحق بالملك.

حاولت أن أتصل بالملك تليفونيا بنفسى لأبلغه تأكيدات اللواء نجيب ولم يجب قصر رأس التين. واتصلت برئيس الديوان حافظ عفيفى فى بيته أبلغه الرسالة بظن أنه قد يجد وسيلة لإبلاغها للملك، واكتشفت أن رئيس الديوان تحت الإقامة الجبرية فى بيته.



إلى وزارة الخارجية ـ لندن
من القائم بالأعمال بالسفارة فى مصر (مايكل كرسويل)

١ ـ اتصل الملك فاروق تليفونيا بالسفير الأمريكى وأبلغه أن الموقف يتدهور دقيقة بعد دقيقة، وأن إطلاق النار يشتد. بعث السفير الأمريكى مرة أخرى بالسكرتير الأول للسفارة (روبرت ماكلينتوك) ليقابل اللواء محمد نجيب فى ثكنات مصطفى باشا. وفى نفس الوقت اتصل بعلى ماهر يطلب منه ألا يكون هناك سفك للدماء.

أكد اللواء نجيب لمبعوث كافرى أنه وقع سوء فهم لأن أفرادا من الحرس الملكى أطلقوا النار على إحدى الوحدات المكلفة بحصار القصر الملكى مما تسبب فى جرح بعض الجنود. وقد أكد اللواء نجيب أنه يدرك أهمية الحيلولة دون سفك الدماء وحفظ الأمن والقانون، وأنه يتعهد بأن الملك لن يصاب بسوء. وقال أنه يعطى كلمة شرف بضمان هذا الوعد.

٢ ـ لم يستطع كافرى أن يتصل بالملك تليفونيا لأن الخطوط كلها قطعت، وقرر إرسال سكرتيره الخاص لمحاولة الوصول إلى قصر رأس التين ومقابلة الملك بأى وسيلة. (وكان سكرتير السفير وهو الكولونيل سمبسون صديقا شخصيا للملك فاروق).

٣ ـ توجه المستر كافرى الآن لمقابلة على ماهر وتسليمه رسالة من الحكومة الأمريكية.



من جفرسون كافرى (السفير الأمريكى فى القاهرة)
إلى وزارة الخارجية ـ واشنطن
٢٦ يوليو ١٩٥٢

عندما فشلت كل وسائلى فى الاتصال تليفونيا بالملك فاروق أرسلت إليه سكرتيرى العسكرى الكولونيل سمبسون الذى قاد سيارته إلى قصر رأس التين مصمما فى كل مرحلة وأمام كل عقبة على الوصول إلى أبواب القصر. وقد تمكن فعلا من دخول القصر فى الساعة ١١:١٥ صباحا، وأخذوه مباشرة إلى حيث كان الملك فاروق. وهناك قدم له الضمانات التى قطعها محمد نجيب على نفسه بشأن سلامته الشخصية. قال له الملك فاروق أنهم أخطروه الآن بأن عليه أن يعلن تنازله عن العرش لصالح ابنه، وأنه لا يملك وسيلة غير الرضوخ. وقام الملك بإبلاغ سمبسون رسالة لى يطلب فيها ألا أتدخل لصالحه من أجل تغيير قرار تنازله عن العرش. لكن لديه منى طلبين محددين:

الأول : أن أضمن سلامته حتى يخرج من مصر

والثانى: أن أكون بنفسى معه حتى يغادر.

أرتب الآن لكى أقابل الملك وأبقى معه حتى أودعه.



إلى وزارة الخارجية ـ لندن
من السفارة فى مصر (الوزير المفوض مايكل كرسويل)
٢٦ يوليو ١٩٥٢ ١٢:٢ ظهرا

قال لى على ماهر أنه سعيد لأنه كلف بأن ينقل إلى الملك فاروق طلب التنازل عن العرش، لأنه كان يخشى أن يقوم اللواء نجيب أو أحد من ضباطه بهذه المهمة ويتصرف بطريقة غير مناسبة مع الملك فاروق. ويكفى أن إنذارهم له كان مكتوبا بصيغة مهينة جدا (in very insulting terms) وقال لى على ماهر أن ذلك الخطاب أحرجه إلى درجة أنه نسيه دون قصد فى سيارته عندما دخل من باب القصر ليقابل الملك ويقدم له الإنذار.

قال لى على ماهر أيضا أن الملك بعد أن اطمأن بعض الشىء قال موجها كلامه لرئيس الوزراء «إنهم سوف يطردونك بعد قليل من رئاسة الوزارة كما طردونى من العرش» ـ ثم أضاف «أنه فى الواقع أدرك خطورة مطالب الضباط ومداها البعيد عندما وجدهم يطلبون السيطرة الكاملة على وزارة الداخلية.»



من جفرسون كافرى (سفير الولايات المتحدة فى مصر)
إلى وزير الخارجية ـ واشنطن

مصطفى أمين — على أمين — أحمد أبو الفتح — محمد التابعى

قام الملك بإبلاغ الكولونيل «سمبسون» السكرتير العسكرى للسفير الأمريكى بالقاهرة «كافرى» رسالة يطلب فيها ألا يتدخل لصالحه من أجل تغيير قرار تنازله عن العرش، لكن لديه طلبين محددين: الأول: أن يضمن سلامته حتى يخرج من مصر والثانى: أن يكون السفير بنفسه معه حتى يغادر



قــابلـت علـى مــاهـر الذى أعطانى كل التأكيدات التى طلبتها عن سلامة الملك فاروق وعن مسئولية الحركة العسكرية عن حماية أرواح الرعايا الأجانب فى مصر. أبلغنى على ماهر أن الملك اختار أن يسافر باليخت الملكى «المحروسة» ومعه عائلته ـ زوجته وكل أبنائه. وأن الملك سوف يتنازل لصالح ابنه لكنه مصمم أن يأخذه معه إلى أوروبا وقد وافقه على ماهر فى ذلك. وقال لى على ماهر إن بعض الضباط المتهـورين(hotheaded young officers) كانوا مصممين على قتل الملك ولذلك قرر اللواء نجيب ألا يتـواجد أى ضابط شـاب قرب الملك عند سفره.

أبلغنى على ماهر أن ضباط الحركة وافقوا على سفر الملك على المحروسة شريطة أن يتعهد بعـودتها إلى مصـر فـور وصـوله إلى مـيناء نابولى.



أولوية ـ أولوية
إلى وزارة الخارجية ـ لندن
من السـفارة فى مصـر (مايكل كـرسويل الوزير المفوض)
(١١٢٢/٢٦٣) ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ـ الساعة السابعة مساء

غـادر الملك فـاروق الأراضى المصـرية فى الساعة السادسة مساء بالضبط. وفيما يلى المشهد الذى وصفه لى المستر جفرسون كافرى السفير الأمريكى الذى كان مشاركا فى وداع الملك بناء على طلبه (طلب الملك):

١ ـ لم يكن هناك غير على ماهر والمستر كافرى وقائد اليخت الملكى وعدد من ضباط الحراسة الشخصية للملك وبعض من أفراد الخدمة الخاصة لجناحه. وقد انفجر هؤلاء بالبكاء عندما بدأ الملك يتحرك نحو القارب الذى ينتظره، وفى هذا الوقت كان الملك محافظا على أعصابه أثناء إجراء مراسم الشرف العسكرية التى أديت له.

٢ ـ قبل أن يخطو الملك إلى القارب التفت إلى كافرى وإلى على ماهر قائلا لهما «إن هؤلاء الذين أرغموه على الخروج هم مجرمون وأن على مـاهـر سـوف يكتشف ذلك بنفسـه مع الأيام، وهو متأكد أن أيامه لن تطول ويعتقد أن على مـاهر لن يظل على رئاسة الوزارة إلا لعدة أيام».

٣ ـ تأخر اللواء نجيب وضباطه الذين كان مقررا أن يشاركوا فى وداع الملك. وعندما سمع الملك دقات الساعة السادسة من برج القصر قال «إن الوقت قد حان للذهاب فهذه لحظة انتهاء الإنذار وهو ليس مستعدا للمجازفة بالبقاء على الأرض المصرية ثانية واحدة بعدها». وبعد تحرك قاربه وصل اللواء نجيب ومعه بعض ضباطه وقد أبدوا ضيقهم لأن فاروق تحرك قبل وصـولهم ولحـقـوا به إلى اليـخت الملكى المحروسة.

٤ ـ إن وجهـة سفر الملك ليست محددة بالضبط ولكنها إلى إيطاليا.

٥ ـ انتشرت أخبار سفر الملك وامتلأت شوارع الإسكندرية عن آخرها بجماهير تحتفل وتصفق بحماسة للمركبات العسكرية التى يتصادف مرورها.

٦ ـ قال لى كافرى فى ختام تلخيصه للموقف «إن لديه شعورا بالقلق وإن أمامنا أياما من الشك لأنه إذا ظهر أن الإخوان المسلمين لهم دور فى الحركة العسكرية فإن العواقب قد تكون بالغة الخطورة. وقد طلب منى أن أنصح بإبقاء استعداداتنا العسكرية للتدخل قائمة حتى تنجلى الأمور.



من الاستطلاع
إلى القائد العام لـلأسطول البريطانى فى البحر المتوسط
(أس ٥٩١٩) ٢٦ يوليو ١٩٥٢
برجاء إخطار الأميرالية

تم رصـد اليـخت الملكى المحـروسـة الآن ومرافقته ـ موقع اليخت الآن فى اتجاه جزيرة كريت:
٣٤ درجة ٥٤ دقيقة شمالا
٢١ درجة ٥٠ دقيقة شرقا
اتجاه ٣١٠ درجات
سرعة ١٨ عقدة
تم تبـادل إشـارات التـعـارف بيننـا وبين اليخت.



من جفرسون كافرى (السفير الأمريكى فى القاهرة)
إلى وزارة الخارجية ـ واشنطن

كان الملك فاروق مرتابا عندما صافحته للمرة الأخيرة وسألنى إذا كان يمكن لإحدى قطع الأسطول الأمريكى أن تتولى حراسته. وعندما عدنا إلى الرصيف بعد سفر اليخت الملكى المحـروسة اتصل بى رئيس الوزراء على مـاهر يبلغنى أن العسكريين يريدون إرسال طائرة عسكرية لملاحقة اليخت الملكى وإرغامه على العودة مرة ثانية لأنهم عرفوا أن صناديق محملة بالذهب قد نقلت ضمن أمتعته. وأبلغت رئيس الوزارة أن مثل هذه الخطوة لو اتبعت فسوف تكون خطأ قاتلا (a fatal mistake) وقد وافقنى رئيس الوزراء، لكنى أشعر أنه غير مطمئن إلى الضباط. وأنا أعد الساعات راجيا أن يكون اليخت الملكى قد جاوز المدى الذى تستطيع أن تبلغه طائرات السلاح الجوى المصرى على فرض أن الأوامر صدرت إليها بمطاردة المحروسة. وآمل أن أقصى ما سوف يستطيعون تحقيقه هو أن يجعلوا أنفسهم مزعجين. وأتمنى أن أتلقى من مالطا تأكيدا أن اليخت أصبح الآن فى دائرة الأمان.

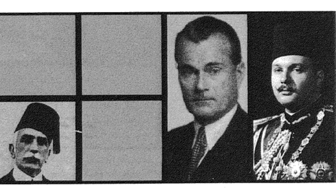
من وزارة الخارجية البريطانية ـ لندن
إلى سفيرها فى مصر
(١٠١١-١٤٢-٥٢٩)

اتصل الأمير محمد على (عم الملك فاروق الذى كان ولى عهده قبل أن تنتقل ولاية العهد إلى ابن الملك فاروق) بمكتب وزير الخارجية وعزز اتصاله كتابة بتبليغ أكد فيه: «إنه ابتداء من الآن فصاعدا يعتبر نفسه المسئول عن حقوق الأسرة المالكة فى مصر وأن قرارها فى الشأن المصرى ابتداء من الآن فى يده وحده».

....

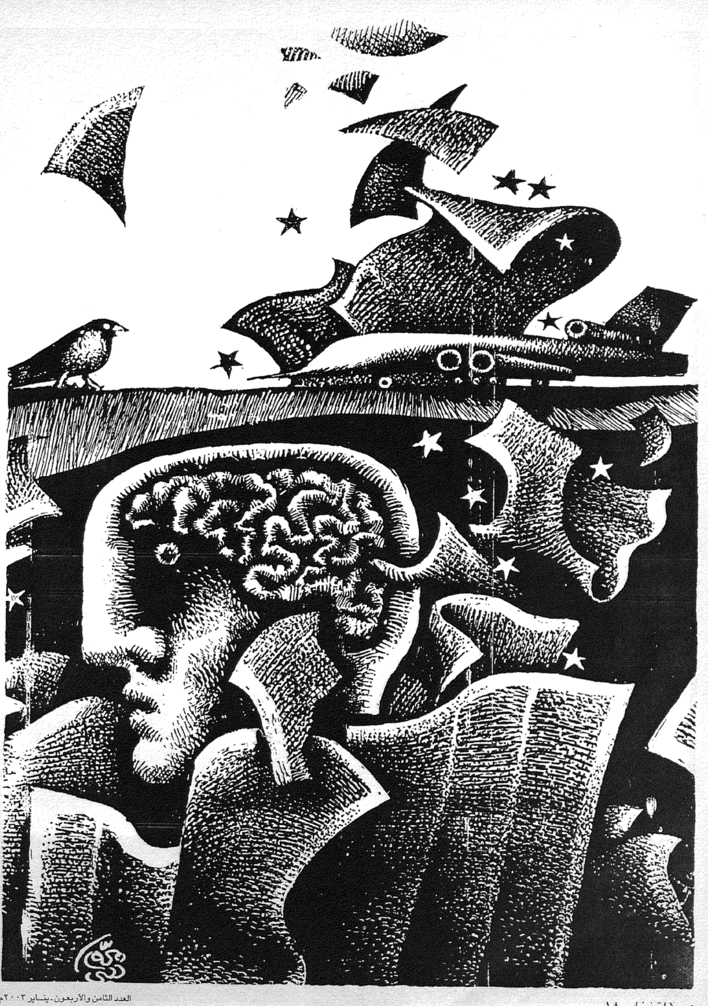
....

ولم يدرك الأمير «محمد على» أن ما فى يده كان قبضة رماد من بقايا حريق، وأن القرار فى الشأن المصرى لم يعد لأسرة «محمد على» لأن صفحة من التاريخ المصرى طويت، وصفحة أخرى بدأت ـ ومعها زمان مختلف!



فـاروق — كـافرى — الأمير محمد على





عودة إلى الأساسيات

محمد البرادعي

لا شك أن إحدى الحقائق المؤلمة في عالمنا المعاصر هي أنه في فترة تتجاوز نصف القرن بقليل، تم تصنيع ما يزيد على ١٢٥٠٠٠ رأس حربي نووي، تتعدى القوة التفجيرية لمعظمها قنبلة «ليتل مان» Little Man التي استخدمت في هيروشيما، هذا بالإضافة إلى ما تم من تجارب للأسلحة النووية في نفس الفترة والتي زادت على ٢٠٠٠ تفجير نووي - في الجو وفي الفضاء وتحت الماء وتحت الأرض. وعلى الرغم من انتهاء الحرب الباردة، فإن هناك تحديات كثيرة مازالت تواجه محاولات الحد من التسلح ليس فقط بالنسبة للأسلحة النووية، بل بالنسبة لجميع فئات «أسلحة الدمار الشامل» - سواء كانت نووية أو بيولوجية أو كيمائية. وعلى الرغم من أننا لم نبلغ مستوى التوقعات التي سادت في الستينيات - بأن عدد الدول الحائزة لأسلحة نووية سيتراوح في المستقبل بين ١٥ و ٢٠ دولة - فإن الواقع المؤسف هو أنه بعد مرور ٤٠ عامًا هناك ثماني دول على الأقل تمتلك أسلحة نووية، وأن هدف إخلاء العالم من الأسلحة النووية مازال هدفًا طويل الأمد وصعب المنال.

وحتى الآن فإن معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية المبرمة في عام ١٩٧٠، والتي تضم حاليًا ١٨٨ دولة طرفًا، مازالت تمثل حجر الزاوية في الجهود المبذولة على المستوى العالمي لتحقيق عدم انتشار السلاح النووي وإخلاء العالم منه. ولكن إذا كان لنا أن نحرز المزيد من التقدم نحو عالمية نظام منع الانتشار النووي وإخلاء العالم من تلك الأسلحة، فإني أعتقد أنه من الضروري إعادة النظر في عدد من الافتراضات والسمات الأساسية التي يقوم عليها نظام منع الانتشار، وأن نفكر في عدد من المناهج الجديدة.

معالجة الاختلال بين «من يملكون ومن لا يملكون»

هناك فرضية أساسية تكمن في صميم معاهدة عدم الانتشار، وهي أن الاختلال القائم بين الدول الحائزة للأسلحة النووية والدول غير الحائزة لها سيختفي تدريجيًا، طبقًا لالتزام الدول الخمس الحائزة للأسلحة النووية - أي الدول التي كانت قد صنعت سلاحًا نوويًا وفجرته قبل (كانون الثاني/يناير ١٩٦٧) بالتخلص من تلك الأسلحة عن طريق مفاوضات تجرى «بحسن نية» في مقابل التزام جميع الدول الأخرى الأطراف في الاتفاقية بعدم حيازة أسلحة نووية وبقبول تحقق الوكالة الدولية للطاقة الذرية (التي سأشير إليها بعد الآن اختصارًا باسم «الوكالة») من جميع أنشطتها النووية السلمية، وفي مقابل الحصول على التكنولوجيا النووية السلمية.

ولكن إذا راجعنا سجل تنفيذ تلك الالتزامات فإننا سنجد أنه سجل مختلط يشمل نجاحًا وقصورًا في ذات الوقت، فالاستفادة من التكنولوجيا النووية السلمية على مستوى العالم - في مجالات توليد الطاقة والصحة البشرية واستخدام موارد المياه وإنتاج الأغذية وإصلاح البيئة - ونقل تلك التكنولوجيا إلى دول العالم الثالث قد أحرز تقدمًا كبيرًا بفضل جهود الوكالة وغيرها في هذا المجال، وكذلك يمكن القول إن نظام عدم الانتشار قد نجح بشكل عام وإن شابه بعض أوجه النقص التي سأتناولها فيما بعد، أما في مجال نزع السلاح النووي، فإنه مازال هناك الكثير الذي يجب عمله وتنفيذه بالرغم من بعض التقدم المحدود الذي تم إحرازه.

لقد ركزت معظم استراتيجيات نزع السلاح النووي على عقد اتفاقيات ثنائية للحد من الأسلحة النووية بين حائزي أكبر ترسانتين نوويتين - الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، بالإضافة إلى عدد قليل من الاتفاقيات المتعددة الأطراف التي تهدف إلى السيطرة على تطوير الأسلحة النووية كمًا ونوعًا. وبانتهاء الحرب الباردة وما كانت تمثله من دافع كبير للتسلح، تم إحراز قدر ما من التقدم في أوائل التسعينيات ومنتصفها نحو نزع السلاح النووي، ولكن للأسف، تباطأت هذه العملية مرة أخرى في أواخر العقد. فعلى الرغم من أن معاهدة تخفيض الأسلحة الاستراتيجية - ستارت الأولى - بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والتي دخلت حيز النفاذ في عام ١٩٩٤ قد حققت خفضًا كبيرًا في عدد الأسلحة النووية الاستراتيجية المنشورة (Deployed)، فإن معاهدة ستارت الثانية، التي وقعت في عام ١٩٩٣، تم التخلي عنها بالكامل. وبالرغم من أن الجهود التي بذلت لإنهاء تطوير الأسلحة النووية قد حققت تقدمًا مهمًا بعقد معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية في أيلول/سبتمبر ١٩٩٦، إلا أن التصديق عليها كان بطيئًا من جانب الدول الـ ٤٤ التي يشترط تصديقها على المعاهدة لدخولها حيز النفاذ، ولا شك أن رفض مجلس الشيوخ الأمريكي لهذه المعاهدة في ١٩٩٩ قد شكل انتكاسة بارزة بالنسبة لدخول تلك المعاهدة حيز النفاذ في المستقبل القريب، ومن ناحية أخرى فإن التفاوض بشأن التوصل إلى معاهدة لوقف إنتاج المواد الانشطارية لأغراض التسلح يسير بخطى متراخية في مؤتمر نزع السلاح في جنيف بالرغم من مضى أكثر من سبع سنوات على تفويض المؤتمر بالعمل للتوصل إلى هذه المعاهدة.

وفي رأيي أنه يمكن إيعاز هذه المشاكل بوجه عام إلى استمرار الاعتماد على نظرية الردع النووي والافتقار إلى استراتيجية شاملة لنزع السلاح، وفي بعض الحالات - مثل معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية واتفاقية الأسلحة البيولوجية والسامة - فإن التعثر في إحراز تقدم يرجع بقدر كبير إلى تشكك بعض الأطراف في فعالية نظام التحقق الخاصة بهذه الاتفاقيات. وقد أدت هذه الانتكاسات مجتمعة إلى جمود عملية نزع السلاح، وإلى تثبيط الأمل في إحراز مزيد من التقدم.

وبالرغم من أن المؤتمر الذي عقد في عام ٢٠٠٠ لاستعراض ومراجعة معاهدة عدم الانتشار النووي قد أسفر عن عدد من التعهدات والالتزامات المشجعة، والتي من أبرزها «الالتزام المطلق» من جانب الدول الخمس الحائزة للأسلحة النووية بإزالة ترساناتها النووية تمامًا، فإننا الآن، وبعد انقضاء عامين، نجد أننا قد ابتعدنا كثيرًا عن تلك التعهدات، والدليل على ذلك أن عددًا من «الخطوات الـ ١٣» على طريق نزع السلاح النووي التي تم الاتفاق عليها في المؤتمر - مثل عدم جواز الرجوع عن التعهدات التي قطعتها الدول على نفسها، وإجراء مزيد من التخفيضات «من طرف واحد» في الترسانات النووية، وإجراء مزيد من التخفيض في عدد الأسلحة النووية غير الاستراتيجية، والانتظام في تقديم التقارير عن تنفيذ المادة السادسة من معاهدة عدم الانتشار والخاصة بالتفاوض للتوصل إلى نزع السلاح النووي - بقى دون متابعة بل وفي بعض الحالات تم العدول عنه تمامًا.

هذا لا يعني أنه لم تكن هناك بوادر مشجعة أيضًا تستحق الذكر. فقد وقع الرئيس الروسي ورئيس الولايات المتحدة في صيف هذا العام معاهدة لخفض الرؤوس الحربية النووية الاستراتيجية الروسية والأمريكية المنشورة إلى ما بين ١٧٠٠ و٢٢٠٠ رأس بحلول نهاية عام ٢٠١٢، كما اتفقا على سحب كميات إضافية من المواد النووية من الاستخدامات العسكرية. وبالإضافة إلى ما تقدم فقد اتفق رؤساء دول مجموعة الـ ٨ في اجتماع القمة الذي عقد في حزيران/يونيو هذا العام في كندا على قيام «مشاركة لمكافحة انتشار أسلحة ومواد الدمار الشامل»، وتعهدوا بتخصيص مبلغ ٢٠ مليار دولار خلال السنوات العشر المقبلة لتمويل جملة أنشطة منها التخلص من المواد النووية الناتجة عن تخفيض عدد الأسلحة النووية.

وبالرغم مما تقدم فإن الاختلال بين من أشار إليهم الرئيس الأمريكي كينيدي بعبارة «من يملكون ومن لا يملكون» مازال قائمًا بشكل واضح، فضلاً عن أن بعض الدول الحائزة للأسلحة النووية قد عكست مؤخرًا اتجاه سياساتها التي أصبحت تؤكد على استمرار أهمية الأسلحة النووية في الدفاع عن المصالح الأمنية الوطنية، بما في ذلك مناقشة جدوى تطوير أنواع جديدة من هذه الأسلحة وكذلك مناقشة سيناريوهات مختلفة لاستخدام الأسلحة النووية ضد دول غير نووية.

وفي تقديري أنه كلما طال أمد هذا الاختلال، كلما زادت خطورته على البنية الأساسية التي يرتكز عليها نظام عدم الانتشار. فالوضع الحالي، مثلما وصفته لجنة كانبرا - التي شكلتها الحكومة الأسترالية قبل بضع سنوات للنظر في موضوع نزع السلاح النووي - «لا يمكن أن يظل على ما هو عليه لأن امتلاك أي دولة للأسلحة النووية هو حافز مستمر للدول الأخرى لكي تمتلكها أيضًا». وعلى الرغم من أن نزع السلاح النووي التام في المستقبل القريب قد يكون أملاً غير واقعي، إلا أنه من الضروري في رأيي أن تتخذ جميع الأطراف المعنية خطوات جدية لإظهار استعدادها لخفض ما لديها من الأسلحة النووية وتقليل اعتمادها عليها، وذلك تنفيذًا لتعهداتها بموجب اتفاقية منع الانتشار.

وفي رأيي كذلك أن خطوة حيوية وأساسية على طريق نزع السلاح النووي تتمثل في ضرورة إعادة النظر في نظرية «الردع النووي» وهي النظرية القائمة منذ أمد طويل، والتي مازالت راسخة في استراتيجيات الأمن القومي لجميع الدول الحائزة للأسلحة النووية، والتي يعتمد عليها كذلك

عدد كبير من الدول غير النووية من خلال ما يسمى بترتيبات «المظلة النووية» ـ والتى تلتزم بمقتضاها دولة نووية عضو فى تحالف أو ترتيب أمنى معين بتوسيع غطاء الحماية التى توفرها ترسانتها النووية وتأثيرها الرادع ليشمل الدول غير النووية الأعضاء فى هذا التحالف أو الترتيب ـ كجزء أساسى من مكونات أمنها.

وبغض النظر عما كان للأسلحة النووية من أثر رادع أثناء الحرب الباردة، فالواقع أنها تفقد الآن قيمتها تدريجيًا كعملة للقوة يمكن استخدامها ـ خاصة عندما يتعلق الأمر بمنع النزاعات المحلية والتصدى للتهديدات التى تشكلها الجماعات الإرهابية. وبالتالى، وإذا كان الاستخدام الوحيد الممكن تصوره لتلك الأسلحة هو لحماية وجود الدول، فإنه ينبغى للدول الحائزة للأسلحة النووية على أقل تقدير أن تسارع فى التحرك نحو تخفيض مخزونها من تلك الأسلحة إلى الحد الأدنى.

على الرغم من أننا لم نبلغ مستوى التوقعات التى سادت فى الستينيات ـ بأن عدد الدول الحائزة لأسلحة نووية سيتراوح فى المستقبل بين ١٥ و ٢٠ دولة ـ فإن الواقع المؤسف هو أنه بعد مرور ٤٠ عامًا هناك ثمانى دول على الأقل تمتلك أسلحة نووية، وأن هدف إخلاء العالم من الأسلحة النووية مازال هدفًا طويل الأمد وصعب المنال

تقوية نظام التحقق

كان اكتشاف وجود برنامج سرى للتسلح النووى فى العراق بعد حرب الخليج فى عام ١٩٩١ دليلاً ملموسًا ومؤلمًا على أن نظام الوكالة للتحقق بتركيزه على الأنشطة النووية المعلنة وسلطاته المحدودة فيما يتعلق بالاطلاع على المعلومات ومعاينة المواقع، ليس كافيًا لكى توفر الوكالة التأكيدات الشاملة المطلوبة بموجب معاهدة عدم الانتشار بأن الأنشطة النووية لدولة ما مقصورة على الاستخدامات السلمية. وكان إدراك هذه الحقيقة القاسية دافعًا للمجتمع الدولى لكى يوسع صلاحيات الوكالة فى مجال التحقق بشكل كبير، وقد ضُمنت هذه الصلاحيات الجديدة فى بروتوكول إضافى لاتفاقيات الضمانات اعتمد فى عام ١٩٩٧ ودعيت جميع الدول إلى الانضمام إليه.

ونتيجة لذلك أصبحت الوكالة الآن قادرة على أن توفر، بالنسبة للدول غير النووية التى لديها اتفاق ضمانات وبروتوكول إضافى معًا، تأكيدات جديرة بالثقة ليس فقط بعدم استخدام المواد النووية المعلنة لأغراض عسكرية، بل ـ وبنفس الأهمية ـ تأكيدات كذلك بعدم وجود مواد وأنشطة نووية غير معلنة. ولكن من دواعى الأسف أن العديد من الدول لم تتخذ الخطوات اللازمة حتى الآن لعقد اتفاقيات الضمانات المطلوبة مع الوكالة، ناهيك عن البروتوكولات الإضافية، فمازالت هناك ٤٩ دولة من الدول غير النووية ـ الأطراف فى معاهدة عدم الانتشار ـ بدون اتفاقات ضمانات مع الوكالة ولم يدخل حيز النفاذ إلا ٢٨ بروتوكولاً إضافيًا، ومن الواضح أن الوضع يتطلب بذل مزيد من الجهود لكى تأخذ الدول غير النووية التزاماتها بعدم الانتشار بمزيد من الجدية. وهنا يجدر بى أن أذكر أن بعض الدول غير النووية تبرز تباطؤها فى عقد البروتوكولات الإضافية المطلوبة، بعدم إحراز تقدم ملموس على صعيد نزع السلاح النووى، وفى كل الأحوال فإن الوكالة لاتستطيع القيام بأى أنشطة تحقق أو توفير أى تأكيد بعدم الانتشار بدون اتفاقات الضمانات، وبالنسبة للدول بدون بروتوكولات إضافية فتبقى صلاحيات التحقق التى تتمتع بها الوكالة فى هذه الدول كما كانت عليه قبل اكتشاف البرنامج النووى العراقى غير المعلن. وباختصار، فلكى تتمكن الوكالة من توفير التأكيدات المطلوبة فيما يتعلق بمنع انتشار الأسلحة النووية فإنه يجب أن تتوافر لها الصلاحيات اللازمة.

من الواضح أن نجاح تحقق الوكالة سيعتمد بشكل كبير على تحقيق عالمية اتفاقات الضمانات والبروتوكولات الإضافية اللازمة من جانب جميع الدول غير النووية الأطراف فى معاهدة عدم الانتشار. وسيستفيد نظام تحقق الوكالة أيضًا من توثيق التعاون مع الدول الأعضاء فى مجال تقاسم المعلومات. وبغض النظر عما لدى الدول من معلومات عن احتمال عدم امتثال أحد الأطراف فى اتفاقية منع الانتشار لالتزاماته، فإن الوكالة فقط هى التى يمكنها ـ من خلال التفتيش ـ التأكد من تلك المعلومات والتوصل إلى نتائج محددة، ولهذا فإنه من الأهمية بمكان أن تقوم الدول بتقديم ما لديها من معلومات فى الوقت المناسب، بشأن حالات الشك فى عدم الامتثال إلى الوكالة، فنجاح الوكالة فى عمليات التفتيش يتوقف على مدى توافر المعلومات لديها سواء المستخدمة فى عمليات التفتيش ذاتها أو تلك التى توفرها الدول. وبوسعى أن أقول إن تقدمًا ملموسًا يجرى إحرازه حاليًا بشأن وضع إجراءات عملية تحصل الوكالة بموجبها على المعلومات التى تهمها فى الوقت المناسب من الدول الأعضاء مع حماية سرية هذه المعلومات، من جهة، واحترام استقلالية الوكالة، ووضعها كإحدى منظمات الأمم المتحدة، من جهة أخرى.

نهج موحد فى التعامل مع حالات عدم الامتثال لالتزامات منع الانتشار

من أهم جوانب نظام عدم الانتشار التى تحظى حاليًا بأقصى قدر من الاهتمام الشق الخاص بالامتثال لالتزامات منع الانتشار ـ والتى يثيرها فى الوقت الحالى الوضع فى العراق وفى كوريا الشمالية.

العراق

لقد أوضحت فى مقالة افتتاحية فى جريدة واشنطن بوست مؤخرًا تقديرى لماهية الغرض من عمليات التفتيش على الأسلحة فى العراق وأهمية هذه العمليات. فعمليات التفتيش التى توقفت فى كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٨ كانت قد نجحت فى إحباط مساعى العراق لتطوير برنامج العراق للتسلح النووى كما قمنا بإزالة جميع المرافق والمعدات ذات الصلة بإنتاج الأسلحة النووية. أو تحييدها بالإضافة إلى مصادراتنا للمواد الصالحة لصنع الأسلحة النووية وفى حين أننا لا نزعم أنه كان لدينا يقين مطلق، إلا أننا كنا على ثقة من أننا لم نغفل أى مُكون ذى حيثية من مكونات البرنامج النووى العراقى.

وعلى الرغم من أن الرصد بالأقمار الصناعية والعمل التحليلى قد استمرا منذ مغادرتنا العراق فى ديسمبر ١٩٩٨، إلا أنه لا يمكن للتحليل عن بعد أن يحل محل عمليات التفتيش أو أن يمكننا من التوصل إلى نتائج محددة بشأن أية محاولات لتطوير أسلحة نووية فى العراق أثناء السنوات الأربع الماضية. فالتفتيش هو السبيل الوحيد لاستجلاء الحقائق.

وأعتقد أن نجاح عمليات التفتيش فى العراق سيعتمد على خمسة شروط مسبقة ترتبط ببعضها البعض:

١ ـ معاينة أى مكان أو موقع فى العراق ودون شروط، وممارسة جميع السلطات التى خولنا إياها مجلس الأمن ممارسة كاملة ـ بما فيها السلطات الإضافية المنصوص عليها فى القرار الجديد ١٤٤١.

٢ ـ تيسير اطلاع الوكالة على جميع المعلومات التى فى حوزة الدول والخاصة بأية أنشطة مرتبطة بتنفيذ قرارات مجلس الأمن.

٣ ـ دعم كامل من مجلس الأمة لمهمة التفتيش فى العراق، مع تصميم حازم على التصرف بسرعة فى حالة عدم الامتثال.

٤ ـ تعاون إيجابى من جانب العراق، مع إظهاره على الدوام استعداده المعلن للتحلى بالشفافية وتمكين المفتشين من تنفيذ مهمتهم دون شروط.

٥ ـ صوت هيبة ونزاهة عملية التفتيش وتحررها من التدخل الخارجى لضمان قبول استنتاجاتها باعتبارها موضوعية وجديرة بالثقة من جانب جميع الأطراف. فمساعى الحكومات الوطنية لاختراق التفتيش ستأتى بنتائج عكسية فى نهاية الأمر، لأنها تؤدى إلى تدمير بنية العملية ذاتها، ناهيك عن مصداقيتها.

وأحيانًا يتم توجيه الانتقاد لعمليات التفتيش بأنها مجدية أو فعالة فقط فى حالة إبداء الدولة التى يتم التفتيش عليها التعاون الكامل فى هذا الاتجاه. إلا أن هذا الانتقاد يشوبه بعض اللبس وخلط الأمور، حيث إن ماهية مهمة التفتيش، سواء فى العراق أو فى أى دولة أخرى، لا تعتمد فى الأساس على مبدأ «الثقة» وإنما تعتمد أساسًا على جهد دءوب ودقيق من أجل استقصاء الحقائق من خلال معاينة وفحص جميع المعلومات والبيانات المتوفرة، علمًا بأن المعلومات ذات الصلة التى فى حوزة الدول الأخرى والتى تحصل عليها الوكالة تشكل أحد العناصر الأساسية لإنجاح التفتيش وأهدافها، خاصة إذا كانت الدولة المعنية التى يتم التفتيش فيها لا تبدى التعاون المطلوب.

غير أننى واثق فى أن المفتشين، إذا ما منحوا السلطات المناسبة وحصلوا على المعلومات اللازمة، سيتمكنون من التحقق بفعالية من نزع سلاح العراق. وفى اعتقادى أن استعمال القوة ينبغى أن يكون الملاذ الأخير لا الخيار الأول. ولكن بغض النظر عن مجرى الأحداث فى المستقبل المنظور، ستبقى عمليات التفتيش هى الأساس على الأمد الطويل التى تستهدف كشف وإحباط المساعى السرية لتطوير الأسلحة النووية فى العراق أو فى أى مكان آخر. فليس هناك يقين، مثلاً، بأن أى نظام جديد فى العراق سيتخلى تلقائيًا عن الأسلحة غير التقليدية، إذا كان هذا التخلى لا يتسق فى مفهومه مع تصوره للتهديدات الخاصة بأمنه. فعلى الرغم من أن مهمة التفتيش تستغرق بعض الوقت فى بعض الأحيان، إلا أن نتائجها مضمونة وذات مصداقية، وإذا نجحت فى تحقيق الأهداف المرجوة منها فإنها ستسهم بالتأكيد فى تجنب إزهاق أرواح بريئة. ولهذا فإن من الضرورى أن نبذل كل جهد لإنجاح نظام الوكالة للتحقق، والذى يشكل محور جميع الجهود المبذولة للحد من الأسلحة النووية ـ فى العراق وفى أى مكان آخر، وهذا يستلزم أن نواصل التعلم من تجاربنا الماضية وأن نحسن النظام و ـ قبل كل شىء ـ أن نواصل العمل سويًا لتحقيق ذلك النجاح.



وإننى لآمل وأثق أيضًا بأن إبداء العراق تعاونًا كاملاً وشاملاً سيؤدى إلى تجنب استخدام القوة، وسيفتح الطريق لتعليق العقوبات ـ التى عانى منها الشعب العراقى طويلاً ـ ثم إزالتها بالكامل فى مرحلة لاحقة، أما فى حالة عدم التعاون الكامل، وكما أوضح قرار مجلس الأمن الأخير، فستكون هناك عواقب وخيمة بالنسبة للعراق. ولذلك فإن من الأهمية بمكان أن تعمل جميع دول المنطقة على التأكيد

للعراق بأن التعاون الشامل والمستمر من جانبه مع مهام التفتيش يمثل شرطًا جوهريًا لتجنيب المنطقة حربًا غير معروفة العواقب أو النتائج، وهو ما قد أشار إليه الرئيس الفرنسي شيراك عندما ذكر «إنما تمثل الحرب دومًا الحل الأسوأ» لأية مشكلة.

كما يجب أن أضيف في هذا السياق بأنه في اعتقادي أن إحراز تقدم على مسار المسألة العراقية وحلها، سيساهم بشكل واضح وملموس في دعم فرص إحلال السلام في الشرق الأوسط، وسيساهم كذلك - في إطار هذا السلام - في دعم إمكانية التوصل إلى ترتيبات خاصة بالأمن الإقليمي، والتي يجب أن تتضمن إنشاء منطقة خالية من السلاح النووي وأسلحة الدمار الشامل الأخرى في الشرق الأوسط.

كوريا الشمالية

انضمت كوريا الشمالية إلى معاهدة عدم الانتشار في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٥، ولكن اتفاق الضمانات الذي عقدته لم يبدأ نفاذه إلا في نيسان/أبريل ١٩٩٢، بعد ست سنوات من انضمامها إلى المعاهدة. وبعد ذلك بفترة وجيزة، في عام ١٩٩٣، أعلنت الوكالة ومجلس الأمن أن كوريا الشمالية غير ممتثلة لاتفاق الضمانات الذي عقدته. ويعزى ذلك إلى عدم منح الوكالة حق الاطلاع اللازم على المعلومات ومعاينة الأماكن والتي بمقتضاها يتسنى لها أن تتحقق من أن كوريا الشمالية قدمت إعلانًا كاملاً وصحيحًا عن المواد النووية التي تمتلكها والخاضعة لنظام الوكالة للتحقق.

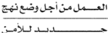
وطبقًا لتقديراتنا، فإن العمل اللازم للتحقق من صحة واكتمال الإعلان المبدئي لكوريا الشمالية يمكن أن يستغرق من ثلاث إلى أربع سنوات، على افتراض أنها ستتعاون تعاونًا تامًا. إلا أنه وفقًا لمعلومات حديثة فإن كوريا الشمالية يمكن أن تكون قد عكفت خلال السنوات القليلة الماضية على تنفيذ برنامج جديد غير معلن لإنتاج اليورانيوم الشديد الإثراء، بالإضافة إلى برنامجها السابق لإنتاج البلوتونيوم.

وكما هو معروف، فإن المقارنة بين النهجين المختلفين المتبعين حيال العراق وكوريا الشمالية لا تتوقف، لأن البلدين كليهما ينتهكان التزاماتهما المتعلقة بعدم الانتشار، ولقد طرحت تفسيرات شتى لهذا الاختلاف بين النهجين. وبديهي أن الحالتين مختلفتان وفي غاية التعقيد، ومن المفهوم استخدام سياسة «الجزرة والعصا» بدرجات متفاوتة في كلتا الحالتين، ولكن في تصوري أنه على الرغم من أن اختلاف الظروف قد يستلزم اختلاف الاستجابات للتحديات المطروحة، فإن النهج في جميع الأحوال يجب أن يكون نهجًا واحدًا لا يتغير: وهو عدم التسامح إطلاقًا في حالة عدم الامتثال لالتزامات عدم الانتشار، وذلك حرصًا على مصداقية النظام ذاته.

تقوية نظام عدم الانتشار

بالإضافة إلى ما تقدم، ينبغي أن نواصل استكشاف مزيد من الطرق التي تؤدي إلى تحقيق النتائج المنشودة من أجل تقوية نظام عدم الانتشار. والنهج المتبع إزاء الدول الثلاث الباقية خارج نظام عدم الانتشار - الهند - باكستان - وإسرائيل - أمر وثيق الصلة بهذا الموضوع. وينبغي لنا، في اعتقادي، ألا نواصل معاملة هذه الدول باعتبارها مجرد دول خرجت عن الإجماع، وإنما ينبغي أن نحثها على العمل كشريك في الجهود العالمية المبذولة لتقوية نظام عدم الانتشار وإحراز التقدم نحو نزع السلاح النووي.

ويمثل موضوع الضوابط المفروضة على تصدير المواد والتكنولوجيا النووية مثلاً جيدًا على ذلك. فالهند وباكستان تواصلان تشغيل بعض المفاعلات النووية والمرافق المتصلة بها الخاضعة لضمانات الوكالة. ومع ذلك لا يستطيع أي من البلدين - بسبب الضوابط المفروضة على التصدير - الحصول على معدات وتكنولوجيا خاصة بالأمان النووي هما في أشد الحاجة إليها. فبدلاً من التركيز - فقط - على سياسة الحرمان، يجب أن نبحث عن فرص لاشتراكهما، وعلى سبيل المثال من خلال تقديم الحوافز دون الاقتصار فقط على فرض العقوبات، فمثلاً، يمكن في مقابل الحصول على المساعدة في مجال الأمان النووي - وهو استثناء تسمح به المبادئ التوجيهية Guidelines لمجموعة موردي المواد النووية Nuclear Suppliers Group أن تلتزم هذه الدول باتباع تلك المبادئ التوجيهية بالإضافة إلى دعم معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية والعمل نحو عقد معاهدة لوقف إنتاج المواد النووية للأغراض العسكرية.



العمل من أجل وضع نهج جديد للأمن

يتعلق الموضوع الأخير الذي سأتطرق إليه بالمسألة الأساسية، وهي الأمن. وفي اعتقادي أنه يجب علينا، لفهم كيفية تحقيق التقدم المطلوب، ألا نكتفي بفحص الأعراض، وإنما نبحث كذلك في الأسباب أي في العوامل المحركة والحافزة التي تفضي للانتشار النووي. فلماذا، يشكل الشرق الأوسط، مثلاً، منطقة تعج بأنشطة الانتشار بشكل كبير بالمقارنة بمناطق أخرى، كإسكاندنافيا مثلاً؟ من الواضح أن حالة النزاع والتوتر الدائمين هي التي تخلق هذا الوضع، ويمكن أن يقال الشيء نفسه بالنسبة لجنوب آسيا وشمال شرق آسيا.

لقد تم حسم شواغل واعتبارات الأمن الأساسية في بعض المناطق، عن طريق ترتيبات، المظلة النووية، التي أشرت إليها من قبل أو عن طريق ترتيبات وتسويات إقليمية. وبالتالي فإن الطلب على أسلحة الدمار الشامل منخفض أو منعدم في المناطق التي عولجت فيها شواغل الأمن، ولا يجب أن نندهش إذا رأينا أن المناطق التي تشهد قصورًا في الأمن أو نزاعًا لم يحسم، هي أيضًا المناطق التي يكون فيها الطلب مستمرًا على نظم الأسلحة المختلفة.

وفي كل تلك المناطق التي تعاني من مشكلة أمنية ونزاعات إقليمية، فإن حيازة بلد واحد لأسلحة الدمار الشامل هي حافز واضح لكي يمتلكها الآخرون. وبالتالي فإن مناقشات الأمن الإقليمي، بالنسبة لمثل هذه المناطق، لا يمكن فصلها عن تسوية النزاعات الإقليمية ويجب معالجتها بالتوازي وبصورة شاملة تأخذ في الحسبان الشواغل الأمنية للجميع، فالأمن المطلق لطرف ما قد يكون على حساب الأمن المطلق لطرف آخر.

وقد بدأت تبرز حاليًا استراتيجية يزداد الاعتماد فيها على نظم الأمن الإقليمية، مثل النظام الذي يقام حاليًا في أوروبا. وسوف تكشف لنا الأيام مدى فاعلية هذه النظم. ولكنني أعتقد أن إمكانية المضي إلى الأمام - ليس يخص شواغل الانتشار فحسب، بل أيضًا في اتجاه تحقيق تخفيضات ذات شأن في الترسانات النووية الحالية - تعتمد بشكل حاسم على قدرتنا على وضع استراتيجيات أمنية بديلة جديرة بالثقة، استراتيجيات ليس من سماتها الردع النووي، استراتيجيات يمكن العمل بها ويمكن لجميع الدول أن تعتمد عليها بدقة.



ولتحقيق هذه الغاية هناك حاجة ملحة لإعادة تنشيط نظام الأمن الجماعي لعام ١٩٤٥ على نحو ما ورد في ميثاق الأمم المتحدة، وذلك عن طريق وضع تعريف أوسع لمفهوم التهديد للسلم والأمن الدوليين - بحيث لا يقتصر الأمر على التهديدات العسكرية وحسب، وإنما يشمل أيضًا التهديدات المرتبطة بالنظم الاستبدادية واغتصاب سيادة الشعوب، وبانعدام التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وبانتهاك حقوق الإنسان. وبنفس الأهمية، هناك حاجة ملحة إلى إدخال إصلاحات على مجلس الأمن لكي يعبر بشكل أفضل عن الحقائق المتغيرة التي شهدتها العقود الأخيرة وبحيث يتمكن، عن طريق قواعد محددة بوضوح Rules of engagement ليس فقط للتصدي لتهديدات السلم والأمن الدوليين، بل ومنعها. ويمكن أن تشمل الإصلاحات إنشاء آلية فعالة لتسوية النزاعات - بما في ذلك اللجوء إلى القضاء والتحكيم الدوليين، وإيجاد نظام عقوبات ذكي للتصدي لعدم الامتثال يمكن تكييفه حسب اختلاف أنظمة الحكم، وإنشاء قوات تابعة للأمم المتحدة دائمة الاستعداد ومجهزة بشكل أفضل لاحتواء النزاعات وإدارتها قبل أن تستفحل، ووضع حدود متفق عليها لاستعمال حق الاعتراض (الفيتو).

الخلاصة

برغم التحديات التي أشرت إليها، فإنه لا يمكن إنكار المساهمات الإيجابية التي مازالت تقدمها نظم المعاهدات متعددة الأطراف من أجل منع الانتشار النووي، ومنع استخدام أسلحة الدمار الشامل. وتجدر الإشارة في النهاية إلى كلمات قالها الجنرال الأمريكي عمر برادلي منذ نصف قرن تقريبًا: «لقد كشفنا النقاب عن أسرار الذرة ولكننا نسينا دروس «موعظة الجبل» فنحن نعرف عن الحرب أكثر مما نعرف عن السلم».



مازالت هناك ٤٩ دولة من الدول غير النووية - الأطراف في معاهدة عدم الانتشار - بدون اتفاقات ضمانات مع الوكالة ولم يدخل حيز النفاذ إلا ٢٨ بروتوكولاً إضافيًا، ومن الواضح أن الوضع يتطلب بذل مزيد من الجهود لكي تأخذ الدول غير النووية التزاماتها بعدم الانتشار بمزيد من الجدية



٥٠ مليـــــار دولار معــــــارك . .

ويلـــيـــــام نـــوردهـــاوس

تسير الولايات المتحدة نحو حرب العراق، حيث تتقدم خطوتين وتتراجع واحدة. وقد أعلنت حكومة بوش عما لديها من أسباب لخوض الحرب، إلا أنها لم تقدم تقديرات رسمية لما ستكلفه الحرب. ومع أن معظم الناس كثيرًا ما يتجاهلون تقديرات التكاليف حين يدور النقاش حول الحرب، إلا أنهم يعترفون بأن التكاليف بالدولار، وبالدم بصورة خاصة، تكون مقبولة فقط ما دامت منخفضة. فإذا بلغت تقديرات الخسائر الأمريكية آلاف الأرواح، وإذا كانت التكاليف التى يتحملها الاقتصاد زيادة كبيرة فى الضرائب أو ركودًا اقتصاديًا شديدًا، أو إذا كانت الولايات المتحدة ستصبح منبوذة من العالم بسبب الهجمات التى لا تراعى أية مشاعر تجاه السكان المدنيين، فإن على متخذى القرار فى البيت الأبيض والكونجرس ألا يسرعوا الخطى إلى المعركة.

ومع ضخامة التكاليف، فمن المستغرب عدم وجود تحليلات عامة معتمدة لاقتصاد الصراع العسكرى مع العراق. وهذا المقال محاولة لملء هذا الفراغ. ولا بد أن نبدأ بالاعتراف بأن التقديرات المقدمة هنا يفترض أن خطأها مؤكد فى بعض الجوانب، ذلك أن ضباب الحرب يمتد إلى ما وراء ميدان القتال بكثير ليشمل ردود الأفعال السياسية والنتائج الاقتصادية. إلا أنه، كما يقول كينيز، من الأفضل أن تكون على صواب بشكل غير واضح من أن يكون خطؤك شديد الوضوح.

[١]

لا بد أن يعتمد تقدير تكاليف الحرب مع العراق على سيناريو خاص بإدارة الحرب، والأعمال العدوانية التى تعقبها، وآثار ذلك على سوق النفط وما يتصل بها من أسواق أخرى، والآثار «الاقتصادية الكلية»، أى على الاقتصاد الأمريكى بالكامل. ومن المستحيل التنبؤ بالاستراتيجيات العسكرية المفصلة. إلا أنه يمكننا بيان الخطوط العامة الخاصة بـ«الانتصار السريع» و«الصراع المطول» ومحاولة وضع بطاقة سعر على كل منهما.

ولا يتوقف الفرق بين الحالات الجيدة والحالات السيئة على من الذى سيفوز، ذلك أن هناك شكًا قليلاً لدى المتخصصين العسكريين بأن الولايات المتحدة سوف تكون لها الغلبة إن هى دخلت بقوة ساحقة وكانت لديها الرغبة فى المثابرة عند مواجهة العقبات جميعها. إلا أن الفرق يكمن فى طول أمد الصراع، وما يلحق بالعراق من أضرار، والخسائر بين المدنيين، واحتمال الحرب غير التقليدية، وامتداد الصراع إلى خارج العراق.

أوضحت دراسة أعدها أعضاء لجنة الموازنة من الديمقراطيين فى مجلس النواب ودراسات أخرى لمتخصصين مثل أنطونى كوردسمان ومايكل أوهانلون نقطة تبدو مقنعة يبدأ من عندها التحليل. فهذه التحليلات تقدر أنه لكى تحقق الولايات المتحدة القوة الساحقة سوف تنشر ما بين ١٥٠ و٣٥٠ ألف فرد، وهو ما يساوى تقريبًا نصف مستوى نشر القوات فى حرب الخليج الأولى فى عامى ١٩٩٠ / ١٩٩١. ويقدم الاختصاصيون تشكيلة كبيرة من سيناريوهات الحرب، بما فى ذلك الاعتماد بشدة على القوات الخاصة، والحرب الجوية المكثفة والغزو البرى. ولا يمكن التكهن بالتفاصيل التكتيكية، غير أنها لا تهم التحليل الاقتصادى.

سوف يشبه سيناريو «الانتصار السريع» حرب الخليج الأولى، وحرب كوسوفو، وحرب أفغانستان. وسوف ينطوى على توليفة ما من الاستراتيجية والحظ يلقى فيها القبض على صدام حسين وقياداته أو يقتلون، ويستسلم الجيش العراقى بسرعة، وتمنع القوات الأمريكية انتشار الاضطرابات فى الجنوب أو فى المناطق الكردية فى الشمال. وهذه هى «الحرب الجديدة أ» المحللة فى تقرير الأعضاء الديمقراطيين، حيث تتصور أنه ستكون هناك حرب جوية وبرية تتراوح مدتها بين ثلاثين وستين يومًا، يليها شهران ونصف من وجود القوات بعد الانتصار على مسرح العمليات. ومن الصعب رؤية أن هناك شيئًا أقل تكلفة من هذا السيناريو سوى الاستسلام الوقائى من جانب النظام العراقى.

و«الصراع المطول» هو الموقف الذى يتدحرج فيه زهر الحرب على غير هوى من يرميه. ويشير المحللون إلى مجموعة من المضاعفات والتكاليف المحتملة التى لا بد من أخذها فى الاعتبار. وتشمل هذه المضاعفات الصراع المطول والاستراتيجية العراقية الخاصة بتركيز القوات فى المناطق الحضرية كبغداد، والآثار الضارة على النفط والأسواق، وتصعيد إسرائيل للحرب، والأعمال الإرهابية فى أنحاء العالم، وتكاليف الاحتلال وحفظ السلام الباهظة، وتكاليف إعادة التعمير وبناء الدولة الباهظة، والمساعدات الإنسانية المكلفة، والصدمات التى ستحدث للاقتصاد الأمريكى إجمالاً، واستخدام أسلحة الدمار الشامل.

[٢]

هناك نقطتان أساسيتان لا بد من توضيحهما قبل بدء التحليل. النقطة الأولى هى أننا نحاول تقدير التكاليف الإجمالية التى تتحملها البلاد، وليس مجرد تكاليف الميزانية. ونحن نسأل عن مقدار مُخْرَجنا القومى الذى ستضحى به الحرب ونتائجها؛ وهو فى الواقع ضياع الزبد بسبب اللجوء للسلاح. أما الثانية فهى أن هذه التقديرات يجب أن تحسب فقط تكاليف الحرب المتزايدة. فالفرقة الثانية والثمانون المحمولة جوًا تُدفع لها رواتبها سواء أكانت فى العراق أم فى كارولينا الشمالية. ولكن التكاليف الإضافية كتلك الخاصة بالنقل ورواتب القتال، وتكاليف الاستبدال الخاصة بالذخيرة، هى التى ينبغى حسابها ضمن تكاليف الحرب.

هناك دراستان مفصلتان فقط عن تكاليف الحرب مع العراق، وكلتاهما من إعداد لجنة الميزانية بالكونجرس. إحداهما دراسة سبق ذكرها أعدها الأعضاء الديمقراطيون فى لجنة الميزانية بمجلس النواب والثانية أعدها مكتب الميزانية بالكونجرس.

وكانت دراسة مجلس النواب «من أعلى لأسفل». وهى تتنبأ بتكاليف حرب الخليج الثانية بناء على تكاليف صراع ١٩٩٠ـ١٩٩١، وقدرت الدراسة تكلفة سيناريوهين للحرب. وتشمل الحرب التى نحن بصدد الحديث عنها ٢٥٠ ألف فرد. وطبقًا لسيناريو مجلس النواب، تتراوح التكلفة المقدرة بين ٤٨ و ٦٠ مليار دولار بخلاف الفوائد. ويقل هذا الرقم بعض الشىء عن تكلفة حرب الخليج الأولى التى بلغت ٨٠ مليار دولار بأسعار ٢٠٠٢.

واستخدمت دراسة مكتب الميزانية طريقة بحث مختلفة، وهى طريقة «من أسفل لأعلى» التى حسبت أسعار المكونات المختلفة للحرب مع العراق ثم طلبت منا جمعها. وتشمل الحالة الأوثق صلة، وتسمى خيار «الأرض الثقيلة»، ٣٧٠ ألف فرد عسكرى فى العراق وبالقرب منها.

ويمكننا مقارنة دراستى الكونجرس بمطابقة الافتراضات التى وراء تقديرات تقرير مجلس النواب على تقديرات مكتب الميزانية الخاصة بمختلف المكونات. وبالنسبة لما يسميه مجلس النواب صراع «الحرب الجديدة أ»، باعتبارها حربًا قصيرة ناجحة، يصل مجموع صيغ مكتب الميزانية إلى ٤٤ مليار دولار، مقابل تقدير مجلس النواب الذى يتراوح بين ٤٨ و٦٠ مليار دولار. وبناء على هاتين الدراستين، فإن التقدير التقريبى هو أن الحرب القصيرة الناجحة سوف تكلف حوالى ٥٠ مليار دولار. هذا مقابل تكلفة حرب الخليج الأولى البالغة ٨٠ مليار دولار بأسعار ٢٠٠٢.

ولا يقدم أى من التقريرين تقديرات لتكاليف الحرب المطولة. فهذه التكاليف سوف تتوقف على طول مدة الصراع، ومقدار امتداده إلى الدول الأخرى، والموارد الإضافية المكرسة للدخول فى الحرب. ولنتأمل حالة ترفض فيها الدول المجاورة حق الولايات المتحدة فى إنشاء القواعد واستخدام الأجواء ويسعى العراق إلى اتباع استراتيجية لدفاع المدن، حيث قد يمتد الصراع إلى عام كامل، وقد تضطر الولايات المتحدة إلى تكريس ٥٠ بالمائة من الموارد إضافة إلى ما تكرسه فى حرب «الأرض الثقيلة» التى يحللها مكتب الميزانية. فى تلك الحالة سوف ترتفع التكاليف من ٥٠ مليارًا إلى ١٤٠ مليار دولار. ومع أن هذا التكاليف ستكون أكبر بكثير، فهى ستظل فى حدود ١,٥ بالمائة من إجمالى الناتج المحلى؛ أى فى حدود تكلفة الحربين المكسيكية الأمريكية أو الأسبانية الأمريكية وليس الحربين الفيتنامية أو الكورية الأكثر تكلفة.

تعد دراستا الكونجرس مساهمتين قيمتين فى الوعى العام بتكاليف الصراع العسكرى. إلا أنهما غير كاملتين. فبالإضافة إلى التكاليف العسكرية المباشرة للحرب فى العراق، من المفترض أن هناك نفقات حتمية أخرى بعد الصراع. وتلخص التقديرات التالية التكاليف الكبيرة التى يمكن تحديدها وتتحملها الولايات المتحدة على مدى العشر سنوات التالية للحرب، أى من ٢٠٠٣ إلى ٢٠١٢.

بطبيعة الحال تتعلق الفئة الأولى بضرورة وضع قوات احتلال وحفظ سلام ضخمة فى العراق لمدة طويلة بعد الحرب. وليس هناك ما يدل على أن الشعب الأمريكى مستعد للمدى المحتمل للعملية. وتقدر لجنة الميزانية بالكونجرس أن يتكلف الاحتلال ما بين ١٧ و٤٥ مليار دولار سنويًا، أى حوالى ٢٥٠ ألف دولار لكل فرد من أفراد حفظ السلام فى العام. وهذا الرقم هو الحد الأدنى من تكلفة أفراد حفظ السلام الأمريكيين فى كوسوفو. وقد يكون هذا التقدير أقل مما يجب إذا كانت بيئة ما بعد القتال فى العراق معادية وتشبه أخطارها تلك الأخطار التى فى الضفة الغربية أكثر من تلك التى فى البلقان.

كما أنه ليس بالإمكان التنبؤ بالزمن الذى يستغرقه جهد الاحتلال وحفظ السلام. فقد استمر احتلال اليابان سبع سنوات، بينما وضعت الولايات المتحدة أكثر من ٣٠ ألف جندى فى كوريا الجنوبية لمدة نصف قرن. ومن الصعب أن نرى كيف يكون احتلال العراق الناجح أقل من خمس سنوات وربما يمتد بسهولة إلى عشرين سنة. وبينما لا توجد تقديرات عامة للإجمالى، فإن الحد الأدنى المقدر للتكاليف سيكون ٧٥ مليار دولار، بينما يصل الحد الأقصى للتكاليف إلى ٥٠٠ مليار دولار؛ وسوف تتساوق هذه الأرقام مع عمليات حفظ السلام فى البلقان وحجم مهمة العراق ومداها.

وحين تُفرض درجة ما من النظام، لا بد أن تتجه الولايات المتحدة وشركاؤها إلى إعادة الإعمار وبناء البلاد. فما هى الأهداف الخاصة بالعراق، وكيف ستحقَّق هذه الأهداف؟ هل سيعقب «تغيير النظام» أن يُعهد بمهمة اختيار قيادة إلى لويا جيرجا، كما فى أفغانستان؟ وهل ستضع الولايات فى الحكم نظامًا كذلك الذى كان فى ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية، أم تفرض دستورًا على النمط الغربى، وصحافة حرة، وانتخابات حرة، وكل البنية التحتية الخاصة بالديمقراطية الغربية؟ وهل ستقدم الولايات مشروع مارشال جديدًا لديمقراطيات الشرق الأوسط؟

يحذر الباحثون الذين درسوا تاريخ بناء الدول من أن العملية صعبة ومكلفة وتزخر بالمآزق. وتشير النماذج الحديثة لمحاولة الولايات المتحدة بناء الدول، ومنها هاييتى والبوسنة وأفغانستان، إلا أن الولايات المتحدة لم تكتشف أية صيغة للنجاح السريع وغير المكلف. كما أن طول الزمن الذى يستغرقه جهد بناء الدولة غير مؤكد إلى حد كبير، إلا أنه من الصعب رؤية مدى إمكانية تحقيق محاولة جادة لتحويل العراق إلى مجتمع ديمقراطى خلال أقل من عشر سنوات.

الذى سيحدد تكاليف إعادة التعمير وبناء الدولة إلى حد كبير هو الطموحات الخاصة بعراق ما بعد الحرب. فإذا كان لا بد أن يصل

فاتـــورة حـــرب العـــراق من يدفعـــها هذه المرة؟

نصيب الفرد في العراق من إجمالي الناتج المحلي إلى مثيله في مصر وإيران. وإذا كان نصف الموجودات الرأسمالية بحاجة إلى إعادة بناء، فإن هذا يوحي بأن إعادة الإعمار يحتاج إلى حوالي ٨٠٠ دولار للفرد، أو إلى مبلغ إجمالي قدره ٢٠ مليار دولار. ويقترب هذا التقدير من تقديرات إعادة إعمار ما بعد الصراع الخاصة بلبنان وتيمور الشرقية والبوسنة الصادرة عن البنك الدولي التي تستلزم حوالي ألف دولار للفرد.



قد تكون الخطة الأكثر طموحًا هي «مشروع مارشال من أجل العراق». ولنتذكر أن مشروع مارشال كلف الولايات المتحدة ١٣,٣ مليار دولار خلال فترة تزيد على أربع سنوات. وهو ما يصل إلى ٤.٥ بالمائة من إجمالي الناتج المحلي، أو ٤٥٠ مليار دولار. وحسب مستويات الدخل الحالية، بلغت المساعدات حوالي ألفي دولار للفرد، أو ٥٠٠ دولار للفرد، في السنة في الدول المتلقية، وهو ما يزيد مرتين على حجم الـ ٨٠٠ دولار للفرد المذكور آنفًا.

هذا التشبيه متفائل بل تبسيطي، ذلك أن مشروع مارشال قُدِّم بعد أن كانت دول أوروبا الغربية قد نفذت جزءًا كبيرًا من جهود إعادة الإعمار داخلها بنفسها، وكان لدى الدول الأوروبية الجزء الأكبر من بنية الديمقراطية التحتية والمجتمع المدني قبل الحرب. واعترافًا بأن بناء الدولة في العراق يبدأ بقدر يقل كثيرًا من رأس المال الاجتماعي والبنية التحتية المدنية، فإننا قد نتوقع بتحفظ أن يتطلب الأمر ست سنوات وليس أربع سنوات من الجهد بمعدل إنفاق مشروع مارشال، بإجمالي قدره ٧٥ مليار دولار.

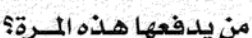
ولذلك فإن تقديرات إعادة الإعمار وبناء الدولة ضخمة وتتراوح بين ٢٥ مليار دولار و١٠٠ مليار دولار لإعادة الإعمار.

وسوف تكون المساعدات الإنسانية ضرورية لرعاية اللاجئين والجرحى والمرضى في العراق، وربما في الدول المجاورة. ولكن تقديرات المساعدات الإنسانية غير مؤكدة لأنها تنطوي على معرفة عدد السكان المعرضين للخطر، ومستوى الحاجة بعد الحرب، وطول مدة المساعدة. وتشير أرقام البلقان في التسعينيات إلى أن المساعدات الإنسانية قد تكلف حوالي ٥٠٠ دولار للفرد في العام.

قد يكون التقدير الذي يبدو مقنعًا هو أن ما بين مليون وخمسة ملايين من سكان العراق (من بين إجمالي عدد السكان البالغ حوالي ٢٤ مليون نسمة) سيحتاجون إلى مساعدة في بيئة ما بعد الحرب. وإذا كان الوقت اللازم للمساعدة يتراوح ما بين سنة وأربع سنوات، ففي هذه الحالة ستتراوح تكلفة المساعدات الإنسانية ما بين مليار و١٠ مليارات دولار.

من الذي سيدفع ثمن كل هذه الجهود؟ أحد مصادر التمويل المحتملة هو عائدات النفط العراقي. وإذا كان بإمكان العراق إعادة إنتاجه إلى ثلاثة ملايين

فاتورة حرب العراق





برميل يوميًا، فسوف يحقق ذلك ٢٥ مليون مليار دولار سنويًا بأسعار النفط الحالية. إلا أن هذه العائدات عليها مطالبات كثيرة. بداية، يبلغ نصيب الفرد في هذه العائدات ألف دولار حسب تعداد العراق الحالي. وسوف يكون جزء كبير من هذا المبلغ مطلوبًا لاستيراد الغذاء والدواء وغيرها من ضرورات الحياة اليومية. وسوف يحتاجون إلى بعض العائدات لتمويل إعادة إعمار بنية العراق الاقتصادية التحتية وتحديثها. يضاف إلى ذلك أن إجمالي مطالبات الدول الأخرى من العراق بعد حرب ١٩٩١ كانت تزيد على ٣٠٠ مليار دولار دُفع منها القليل أو شطب. وسيكون نقل الأموال من الضرورات الحيوية إلى دفع نفقات قوات الاحتلال الأمريكية حماقة اقتصادية وسياسية.



تقدر لجنة الميزانية بالكونجرس أن يتكلف الاحتلال ما بين ١٧ و٤٥ مليار دولار سنويا، أي حوالي ٢٥٠ ألف دولار لكل فرد من أفراد حفظ السلام في العام. وهذا الرقم هو الحد الأدنى من تكلفة أفراد حفظ السلام الأمريكيين في كوسوفو



هل ستتقدم دول أخرى لدفع الفواتير، كما فعلت بعد حرب الخليج الأولى؟ قد لا يحدث ذلك. ذلك أنه إذا شُنَّت الحرب بدون إذن من الأمم المتحدة أو دعم دولي واسع، قد تُجبر الولايات المتحدة على دفع معظم التكاليف.

هل ستقوم الولايات المتحدة فعلاً بالجهد الموسع اللازم لإعادة بناء العراق ومقرطته؟ من الناحية العملية حدث في كل دولة تدخلت فيها الولايات المتحدة عسكريًا على مدى العقود الأربعة الماضية أن اتبعت فلسفة «اضرب واجرِ»، حيث نادرًا ما كان يلي القصف دخول أطقم التشييد. وأحدث الحروب في أفغانستان مثال واضح على ذلك. ففي العام الذي انتهى في سبتمبر ٢٠٠٢ أنفقت الولايات المتحدة ١٣ مليار دولار على المجهود الحربي. وفي المقابل بلغ إجمالي جهد البنتاجون الملتزم به نحو الأشغال المدنية أو المساعدات الإنسانية ١٠ ملايين دولار فقط.

ولا ينبئ عدم التناسب بين التدمير العسكري والتشييد المدني في أفغانستان وفي غيرها بخير بالنسبة لأي جهد إعادة بناء طموح في العراق. هل يبدو مقنعًا أن يخصص الكونجرس اعتمادات لهذا المجهود المدني، بينما لا تنفق الولايات في الوقت الراهن سوى ١٥ مليار دولار سنويًا على المساعدات الخارجية للعالم كله؟ ويبدو أن خطة بناء الدولة الطموح التي تترك العراق نصف مبني هي التوقع الأكثر واقعية.

[٣]

قد تحدث الحرب في الخليج اضطرابًا ضخمًا في أسواق النفط، إما بسبب الدمار الفيزيقي أو لأن الأحداث السياسية تجعل منتجي النفط يقيدون الإنتاج بعد الحرب.

النتيجة التي تبعث على القلق إلى حد كبير هي حدوث دمار على نطاق واسع في منشآت النفط في العراق، وربما في الكويت وإيران والمملكة العربية السعودية. ففي حرب الخليج الأولى دمر العراق جزءًا كبيرًا من آبار النفط الكويتية وغيرها من البنية التحتية النفطية عند انسحابه من الكويت. وقد أوقف التخريب إنتاج النفط الكويتي لما يقرب من العام، ولم يعد مستوى إنتاج النفط إلى ما كان عليه قبل الحرب إلا في عام ١٩٩٣؛ أي بعد عامين تقريبًا من انتهاء الحرب في فبراير ١٩٩١.

وما لم يكن هناك حذر تام إزاء القيادة العراقية في الحرب الجديدة، فمن المحتمل أن تتمكن القوات العراقية من تدمير منشآت النفط العراقية. والأساس المنطقي الاستراتيجي لهذا التدمير غير واضح في وقت السلم، ولكن هذا العمل من تدمير الذات لا يمكن استبعاده في زمن الحرب. بل إن تلويث منشآت النفط في منطقة الخليج بالوسائل البيولوجية أو الكيماوية سيشكل خطرًا أكبر على أسواق النفط.

ومع ذلك فإن الاحتمال الآخر هو تخفيض إنتاج النفط المنسق من جانب دول الأوبك. وقد يحدث ذلك من خلال مقاطعة للولايات المتحدة كتلك التي أعقبت الحرب العربية الإسرائيلية في عام ١٩٧٣، كما يمكن أن تحدث إذا أصبح جزء كبير من موارد نفط الأوبك تحت سيطرة العناصر المعادية للغرب.

أجرى مؤخرًا جورج بيري الخبير الاقتصادي بمعهد بروكنجز دراسة على الآثار الاقتصادية لاضطراب واردات النفط العالمية. وقد حلل حالة سيئة، وحالة أسوأ منها، وحالة هي الأسوأ على الإطلاق. ومع أن دراسته أشارت إلى الإرهاب، فإن التحليل الاقتصادي الأساسي ينطبق بشكل جيد كذلك على أي نوع من تخفيض العرض.

وتمثل أسوأ حالات بيري نتيجة سيئة تبدو معقولة للحرب المطولة في العراق. وتفترض هذه النتيجة انخفاضًا في إنتاج النفط العالمي مقداره سبعة ملايين برميل يوميًا، يعوض بشكل جزئي بتقديم ٢٫٥ مليون برميل يوميًا مسحوبة من مخزون النفط الاستراتيجي الأمريكي. ويمكن أن تؤدي توليفات كثيرة من الأحداث - التي تنشأ عن دمار زمن الحرب أو الإرهاب أو رد الفعل السياسي للحكومات في المنطقة - إلى مثل هذه النتيجة. وقد تكون النماذج الملموسة تدمير معظم قدرة إنتاج النفط العراقية إلى جانب ربع القدرة الإنتاجية لدول الخليج الأخرى. وسوف يشمل السيناريو المحتمل الآخر مقاطعة الأوبك للولايات المتحدة ودول أخرى، مما يخفض إنتاج النفط بنسبة ٢٥ بالمائة. ويبدو استخدام هذه المقاطعة مقنعًا من الناحية الاقتصادية في أسواق النفط، لأن أرباح المنتجين تزيد ولا تنقص مع تخفيض الإنتاج.

وقد تشمل آثار مثل هذا الهبوط في الإنتاج زيادة حادة في أسعار البترول، وارتفاعًا في معدلات التضخم، وانتقالات ضخمة للثروة من مستهلكي البترول إلى منتجي البترول. وفي هذه الحالة الأسوأ، يتنبأ بيري بزيادة أسعار البترول إلى ثلاثة أضعاف ما هي عليه الآن لتصل إلى حوالي ٧٥ دولارًا للبرميل، حيث يزيد سعر البنزين ليصل إلى ٣ دولارات للجالون. وسوف ترتفع تكلفة واردات النفط المستوردة بمقدار ٢٠٠ مليار دولار في العام، وربما تؤدي صدمة أسعار النفط والدافع التضخمي إلى بدء الركود الاقتصادي. ولتقدير التكاليف الإجمالية، افترضت أنا استمرار تخفيض الإنتاج لمدة عام ونصف العام. ويمكن استنباط نتائج مشابهة من نموذج اقتصادي لأسواق النفط باستخدام الزيادة التي قدرها بيري في أسعار النفط. وتستبعد هذه الأرقام الآثار التي ستقع على دائرة الأعمال الأمريكية، وهي الآثار التي سنناقشها فيما بعد.

قد يراهن خبراء الاستراتيجية في حكومة بوش على النتائج السعيدة لأسواق النفط. ذلك أن الانتصار الحاسم في العراق، مع عدم تدمير منشآت النفط، وأن يتبع ذلك استقرار سياسي في المنطقة، قد يؤدي إلى زيادة في قدرة إنتاج النفط في العراق. وقد يخفف هذا الضغط على أسعار النفط. إلا أنه لا ينبغي المبالغة في تقدير السرعة التي يمكن أن يزيد بها العراق إنتاج النفط. ويشمل السيناريو المتفائل المعقول زيادة العراق لقدرته الإنتاجية إلى حوالي أربعة ملايين برميل يوميًا خلال خمس سنوات بعد الحرب. وطبقًا لافتراضات تبدو مقنعة بشأن الآثار على واردات النفط من المناطق الأخرى، سوف يؤدي هذا إلى انخفاض ضئيل يقل عن الدولار الواحد في البرميل على مدى السنوات العشر المقبلة. وباستخدام توقع أساسي مقداره ٢٥ دولارًا للبرميل، سوف يؤدي هذا إلى انخفاض في تكلفة واردات الولايات المتحدة من النفط بمقدار ٣٠ مليار دولار على مدى العشر سنوات المقبلة.

الهم الاقتصادي الأخير هو أثر الحرب على إجمالي النشاط الاقتصادي. ففي الماضي كانت الحروب الكبرى تُحدث انتعاشًا اقتصاديًا، بما تسببه من زيادة كبيرة في نفقات الدفاع. ففي الحرب العالمية الثانية، على سبيل المثال، زاد إنفاق الدفاع بمقدار ١٠ بالمائة تقريبًا من إجمالي الناتج المحلي قبل بيرل هاربر، وساعد ذلك على خروج الاقتصاد من ركود فترة الكساد الأكبر. كما صاحبت حشود عسكرية مشابهة ولكنها أصغر التوسعات الاقتصادية أثناء حربي كوريا وفيتنام.



وفي المقابل، شهد إنفاق الدفاع الخاص بحرب الخليج الأولى زيادة مقدارها ٠٫٣ فقط في إجمالي الناتج المحلي. وأسفر الغزو العراقي للكويت عن رد فعل نفسي سلبي على أسعار الأسهم وعلى رأي المستهلكين. وقللت تلك العوامل إنفاق المستهلكين، وبالأخص على السلع الاستهلاكية المعمرة، وحدَّت من الاستثمار التجاري؛ بينما لم يسد إنفاق الدفاع الفجوة. وكانت النتيجة كسادًا حادًا بدأ في الشهر التالي لغزو العراق للكويت، وهو أمر فريد بالنسبة لما حدث في زمن الحرب خلال التاريخ الأمريكي القريب.

ومن المحتمل أن تكون التكلفة العسكرية المباشرة لحرب الخليج الثانية صغيرة نسبيًا، وهو ما يوحي بأن الأثر الاقتصادي الكلي ستحركه إلى حد كبير العوامل النفسية. ومن غير المحتمل تكرار هبوط ١٩٩٠-١٩٩١ لأن الأسواق خفضت إلى حد ما توقع الحرب، وخفضت قيمة الدولار، كما أن مؤشرات رأي المستهلكين في أدنى مستوى لها خلال عشر سنوات تقريبًا. وفي حالة النصر السريع، من المحتمل أن يكون الأثر الاقتصادي الكلي تافهًا.

وإذا سارت الحرب بصورة سيئة في مراحلها الأولى، فقد تسوء الآثار الاقتصادية الكلية بسرعة. ولنتخيل توليفة ما من الخسائر الثقيلة في الأفراد، أو حرب المدن المطولة، أو الصور الدموية في أخبار المساء، أو انتشار

الاستنكارات الأجنبية للسياسة الأمريكية، أو شائعات استخدام الأسلحة الكيماوية أو البيولوجية، أو الأعمال الإرهابية الكبيرة فى الداخل والخارج. وحتى بدون أية صدمة فى أسعار النفط، فقد تشبه ردود الأفعال الاقتصادية ذلك الهبوط الذى أعقب الحادى عشر من سبتمبر. وسوف تكون النتيجة التى تبدو مقنعة هى ركود اقتصادى متوسط يحدثه الصراع المطول، مع خسائر فى المُخْرَجات تتراوح بين ٢ و٥ بالمائة من إجمالى الناتج المحلى (أى ما بين ٢٠٠ و٥٠٠ مليار دولار بأسعار هذه الأيام). ولكى أجعل الأمر ملموسًا أفترض أن الحرب المطولة ستؤدى إلى ركود اقتصادى مساو لذلك الذى أعقب حرب الخليج الأولى.

[٤]

يمكننا الآن جمع تقديرات مختلفة لتكلفة الحرب. ولا بد أن نؤكد على أن التقديرات تتفاوت فى الدقة وفى الأدلة الإمبريقية التى تدعمها. والواقع أنه بصرف النظر عن التكهنات الخاصة بالتكاليف العسكرية المباشرة، ينبغى النظر إلى التقديرات على أنها تخمينات قائمة على المعلومات. بل إن هذه التكاليف لا تحاول تقدير فوائد اللجوء إلى السلاح. وبما أن تجنب الأعمال التدميرية التى سيقوم بها العراق فى المستقبل هو السبب البارز لشن الحرب خلال الشهور المقبلة، فإنه لا يمكننا أن نوازن تكاليف الحرب وفوائدها موازنة حقيقية بدون أن نأخذ فى اعتبارنا أى تخفيض فى المخاطرة التى سوف تنشأ عن نزع السلاح وتغيير النظام فى العراق.

ويبين الجدول (١) ملخصًا لتجميع العناصر المختلفة التى يمكن معايرتها. وتستلزم الحالة المواتية فى عمود الأرقام الأول تكاليف اقتصادية متواضعة نسبيًا، تبلغ حوالى ١٢٠ مليار دولار. (هذه هى التكاليف الإجمالية على مدى السنوات العشر المقبلة). وتفترض هذه النتيجة نجاح الحملات العسكرية والدبلوماسية وحملات إعادة بناء الدولة.

أما الحالة غير المواتية فهى توليفة من النتائج غير المواتية المحتملة وليست سيناريو واحدًا. وهى تبين مجموعة من التكاليف التى قد توجد إذا طال أمد الحرب، وامتد زمن الاحتلال، وكان بناء الدولة باهظ التكاليف، ودمرت الحرب جزءًا كبيرًا من البنية التحتية النفطية العراقية، وكانت هناك مقاومة عسكرية وسياسية طويلة الأمد للاحتلال الأمريكى، وكانت للصراع ردود أفعال نفسية سلبية. وإذا جمَّعنا الآثار السلبية المختلفة معًا لبلغت ١,٦ تريليون دولار، يأتى معظمها من خارج الصراع العسكرى المباشر.

إلا أن هذه المناقشة تبالغ إلى حد كبير فى تبسيط التحليل بخلق حالتين فقط، بينما يمثل الواقع مجموعة فظيعة من النتائج. وعودة إلى تشبيه الحرب بعملاق يلقى بالزهر، فإننا قد نقول إن الأمر قد ينتهى بالولايات المتحدة إلى دفع تكاليف «منخفضة» تبلغ حوالى ١٢ مليار دولار إذا كان الزهر مواتيًا. أما إذا كانت الرمية

	تكاليف الحرب (بمليارات الدولارات بأسعار ٢٠٠٢)	
	التقدير الأدنى الخاص بالحرب القصيرة التى تفضلها الولايات المتحدة	التقدير الأعلى الخاص بالحرب المطولة التى لا تفضلها الولايات المتحدة
الإنفاق العسكرى المباشر	$٥٠	$١٤٠
تكاليف المتابعة (*)		
الاحتلال وحفظ السلام	٧٥	٥٠٠
إعادة الإعمار وبناء الدولة	٢٥	١٠٠
المساعدات الإنسانية	١	١٠
أثر الحرب على سوق النفط	-٣٠	٥٠٠
أثر الحرب على الاقتصاد الكلى	صفر	٣٤٥
الإجمالى	١٢١	١,٥٩٥

(*) هذه التكاليف هى إجمالى الأعمال التى تعقب الحرب (أى فى الفترة من ٢٠٠٣ إلى ٢٠١٢) بأسعار ٢٠٠٢. وتعتبر الأرقام السلبية فوائد.

غير مواتية، فسوف تكون التكاليف فى موضع ما بين الحالتين المنخفضة والمرتفعة. إلا أنه إذا كانت لدى الولايات المتحدة سلسلة من سوء الحظ والأحكام الخاطئة أثناء الحرب وبعدها، فقد تصل النتيجة إلى ١,٦ تريليون دولار الخاصة بالتقدير الأعلى، وهو أمر أقل احتمالاً.

بل إن التقدير الأعلى لا يبين مقدار عبوس الحظ. وتستبعد التكهنات التى أوضحتها أية تكاليف تتحملها دول أخرى، باستثناء النتائج الأكثر تطرفًا (مثل الحرب الكيماوية أو البيولوجية) ومع استبعاد «أسوأ» حالات بيرى فى أسواق النفط. بل إن التكاليف المعايرة تتجاهل الخسائر المدنية والعسكرية التى ستقع بين العراقيين وأية آثار جانبية ملموسة أو غير ملموسة تنتج عن رد فعل عالمى ضد أى تجاهل أمريكى متخيل لأرواح الآخرين وممتلكاتهم.

[٥]

يبدو من المحتمل أن يقلل الأمريكيون تقدير الالتزام الاقتصادى الذى تنطوى عليه الحرب مع العراق. وليس هذا بالجديد، لأن السجل حافل بالتوقعات الفاشلة بشأن نتائج الحروب الاقتصادية والسياسية والعسكرية. إن تاريخ الحروب هو مسيرة الحماقة، وهو ما اتخذته باربرا تكمان عنوانًا لكتابها المدهش. فهل تكتب أمريكا فصلاً من فصول مسيرة الحماقة؟ من المستحيل معرفة ذلك مقدمًا، ولكن المؤرخين قد يعودون إلى العديد من علامات التحذير المبكرة العديدة الخاصة بالحسابات الاقتصادية والسياسية الخاطئة.

الهم الأول هو أن حكومة بوش لم تقدم أى تقدير علنى جاد لتكاليف الحرب المقبلة. والجمهور والكونجرس عاجزان عن إصدار حكم قائم على المعلومات بشأن تكاليف الصراع المقبل وفوائده حين لا يقدم أى تقدير. والأمر الذى يبعث على القلق بشكل خاص هو وعد ما يعقب الحرب من احتلال وإعادة إعمار وبناء الدولة فى العراق. وإذا رفض دافعو الضرائب الأمريكيون دفع الفواتير، فسوف يخلِّف هذا جبلاً من الركام و غوغاء غاضبين فى العراق وفى المنطقة.

وهناك متلازمة ثانية ترتبط بذلك ارتباطًا وثيقًا، وكثيرًا ما وجدناها فى الصراعات السابقة، وهى الخاصة بدخول الحرب مستعدين عسكريًا وغير مستعدين اقتصاديًا. لقد تدهورت اقتصاديات البلاد تدهورًا حادًا منذ تولى جورج دابليو بوش السلطة. فقد انخفضت الميزانية الفدرالية السنوية بمقدار ٣٦٠ مليار دولار من ربيع ٢٠٠١ إلى خريف ٢٠٠٢، ومن المحتمل مع خوض حرب قصيرة أن يزداد عجز الميزانية فى السنوات المقبلة. ولم تجهز حكومة بوش الجمهور لتكلفة تمويل ما قد يثبت أنها مغامرة باهظة التكلفة. ربما كانت الحكومة تخشى من أن تغذى المناقشة العلنية لاقتصاد زمن الحرب الشكوك المحيطة بالحرب، وربما كانت تخشى من أن يعرِّض الاعتراف بالتكاليف خفض الضرائب الكبير فى المستقبل - الذى هو أهم ملامح السياسة الديمقراطية - للخطر. ومع ذلك لا بد من دفع الثمن؛ بزيادة الضرائب، أو بتقليل النفقات، أو بإجبار بنك الاحتياط الفدرالى على رفع سعر الفائدة، وبذلك يحد من الاستثمارات وخاصة الإسكان. وسوف يدفع الأمريكيون الثمن بصورة أو بأخرى ثمن الحرب.

الأمر الثالث هو أن اتجاه الولايات المتحدة فى عهد حكومة بوش الخاص اتخاذ إجراءات أحادية يشكل مخاطر كثيرة. فمن الناحية العسكرية، يمكن أن يجعل الهجوم بدون تحالف واسع من الدول، إدارة الحرب أكثر صعوبة وتكلفة. وربما يزيد آمال القيادة العراقية فى مجىء الآخرين لنجدتهم، مما يؤدى إلى اتساع مدى الصراع. ومن الناحية السياسية، فإن الإجراءات الأحادية، وخاصة تلك التى تتخذ دون دعم من العالم الإسلامى، تلهب مشاعر المعتدلين، وتشجع الراديكاليين، وتزيد من أعداد الإرهابيين فى تلك البلاد. ومن الناحية القانونية، سوف يقضى إصرار أمريكا على حقها فى خلع الحكومات الأجنبية دون إذن من القانون الدولى على مجموعة كبيرة من الجهود التعاونية الخاصة بالتمويل العالمى ونزع السلاح والبيئة ومنع انتشار الأسلحة النووية ومعاداة الإرهاب. ومن الناحية الاقتصادية، توحى الإجراءات الأحادية بأن الولايات المتحدة سوف تتحمل أغلب التكاليف.

الأمر الرابع هو أن خبراء الاستراتيجية قد يخدعون أنفسهم بشأن رد فعل العالم الإسلامى والشعب العراقى تجاه التدخل الأمريكى. ويتعلق شك أساسى بولاء القوات العراقية واستعداد القادة العسكريين العراقيين للقيام بالدفاع من داخل مدينة بغداد. بل إنه رغم عدم وجود حكومة عربية كبرى تساند الولايات المتحدة مساندة قوية، يبدو أن الحكومة الأمريكية مقتنعة بأن المسلمين ينتظرون الإطاحة بصدام حسين كى يرقصوا فى الشوارع، وبأن الأمريكيين سيستقبلون فى بغداد استقبال المحررين وليس استقبال الكفار. إلا أن التكاليف الإضافية الكبيرة يمكن أن تحدث إذا ثبت أن المعارضة أكثر ضخامة وأن الإعجاب بالأمريكيين أقل انتشارًا مما تعتقد الحكومة الأمريكية.



وأخيرًا، يشعر المرء بفكرة مسيطرة تقترب من الغباء فى تركيز حكومة بوش على العراق بصورة عامة وعلى تغيير النظام بصورة خاصة. فعلى النقيض من الخطر الواضح للأنشطة الإرهابية، ليس هناك خطر وشيك من العراق. إن الحرب فى العراق تهدد بالمطالبة بالموارد النادرة والاهتمام بالجيش الأمريكى لعدة سنوات، مما يشتت اهتمام البلاد بمناطق مضطربة أخرى، مثل كوريا الشمالية، أو بالصراع العربى الإسرائيلى. وتركز الحكومة الأمريكية على العراق بينما هناك نمو اقتصادى بطىء، وعجز مالى، وأزمة سيطرة الشركات، ومشاكل الرعاية الصحية التى تهدد البلاد فى الداخل. وسوف يحتل الاقتصاد المحلى وسائر العالم المقعد الخلفى، بينما الولايات المتحدة مشغولة بالحرب فى العراق.

ورغم كل علامات التحذير، تمضى الحكومة فى طريقها غير آبهة بالواقع المالى ولا تعوقها تحذيرات الأصدقاء والحلفاء والأعداء. ■

بترتيب خاص مع:

The New York Review of Book

ترجمة: أحمد محمود

الجنــــود الرافضـــون للقتـــال فـــى الأراضـــى

«الأمر ليس صدمة بل أزمة نفسية خطيرة تشكل قنبلة موقوتة».. هكذا وصف أحد الأطباء النفسيين الإسرائيليين ظاهرة إصابة مئات الجنود الإسرائيليين، الذين نفذوا مهمات عسكرية فى الأراضى الفلسطينية خلال شهور الانتفاضة الفلسطينية الراهنة، بأعراض نفسية وتحولهم إلى تعاطى المخدرات، بسبب ما قاموا به من عمليات قتل ضد الفلسطينيين وإزاء هذا الوضع المخيف سعى المسئولون فى الجيش الإسرائيلى إلى إنشاء قرية خاصة لمعالجة هؤلاء الجنود. وجرى إطلاق اسم «إيزون» - أى التوازن - على هذه القرية التى بلغ عدد الجنود الذين قدموا للعلاج فيها أكثر من ٩٠٠ جندى حتى نهاية نوفمبر الماضى.

وبين الحالات التى وصلت إلى القرية العلاجية عشرات الجنود ممن حاولوا الانتحار، وحسب أقوال الأطباء النفسيين الذين يشرفون على علاجهم فإن الجنود يبكون ويتهمون أنفسهم بقمع الفلسطينيين وتعذيبهم وسرقتهم ولا يجد هؤلاء الجنود مخرجا من هذا الموقف سوى الاتجاه نحو المخدرات.

وقد نشرت صحيفة «ها آرتس» فى ١٨ نوفمبر الماضى أن الجيش الإسرائيلى يشهد أزمة خطيرة بسبب التهرب من الخدمة العسكرية ازدادت بشكل حاد خلال الفترة الأخيرة مع تزايد تدهور الأوضاع الاقتصادية. وقالت الصحيفة إن عدد الفارين من الخدمة العسكرية فى ٢٠٠٢ بلغ ٢٦١٦ جنديا أغلبهم من جنود الاحتياط مقابل ١٥٦٤ فارا من الخدمة عام ٢٠٠١، الأمر الذى يعنى ارتفاع نسبة عدد الفارين بحوالى ٧٦,٢٪. والتحقيق التالى يلقى ضوءا كاشفا على الظاهرة التى يحاول المسئولون الإسرائيليون بكل جهدهم تحجيمها دون إدراك أن الاحتلال هو السبب الرئيسى فى تفاقمها.

المحـــــرر



عند الظهيرة تماما، يصل الشبان الستة إلى ميدان مظلل على الجانب الغربى من القدس، وبدقة عسكرية يضعون طاولة تحت فروع شجرة زيتون. أخبار الإذاعة التى تنساب من أحد المقاهى هى كالمعتاد عن الإرهاب: محاولة فلسطينية فاشلة لتفجير خزان وقود وسط حى مزدحم من أحياء تل أبيب (كانت فى حال نجاحها ستودى بحياة أعداد أكبر من تلك التى راحت فى هجمات الحادى عشر من سبتمبر) والاتهام المتوقع للعديد من مستوطنى الضفة الغربية اليهود لمحاولة تفجير قاموا بها فى القدس الشرقية العربية. شرطية صففت شعرها على هيئة ذيل حصان ذهبى تراقب عن كثب كل من يعبر الميدان، على أمل التعرف على ذلك الشخص الذى يخفى المتفجرات تحت ملابسه.

يرتدى الشبان فانلات عليها عبارة «رسالة الجنود». ينزل أحدهم علامة مفرزته بين ظهره وحقيبة الظهر كى يتعلق فوق رأسه المستطيل الأبيض الذى يضم كلمات «أنا جندى مقاتل يرفض من أجل إسرائيل» كأنه مستطيل كلام فى رسم كاريكاتيرى سياسى. ولو كان ذلك كاريكاتيرا لكان عن جنود الجيش الاحتياط الذين نشروا رسالة فى وقت سابق من العام الحالى معلنين رفضهم الخدمة فى الضفة الغربية وقطاع غزة، قائلين إن تلك «المهام الخاصة بالاحتلال والطغيان» لا علاقة لها بالدفاع عن البلاد. وكان الرسم الكاريكاتيرى سيصور هؤلاء إما على أنهم خونة أو وطنيون بناء على موقف الفنان فى ذلك النقاش العنيف الذى أثارته رسالة الجنود. يسلم جندى الاحتياط ذو اللوحة منشورا إلى رجل فى الخمسينيات يعبر الميدان فى اتجاه محل سوبر ماركت فيردها قائلا: «أنا، أنا أؤيد الاحتلال».

يزداد حجم الجدل السياسى بسرعة إلى أن يتحول الميدان بعد نصف ساعة إلى مكان صاخب. يصيح رجل أصلع أشيب فى وجه الجندى الرافض إيال نير: «أنا ضد الاحتلال ولكنى ضد رفض أداء الخدمة العسكرية كذلك! حين ترفض الذهاب فى بلد ديمقراطى، فإنك تقوض الأساس».

فسأله نير: «حين رفض الأمريكيون الذهاب إلى فيتنام، هل تحسنت الديمقراطية أم انهارت؟»

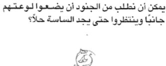
فرد عليه الرجل وهو يبتعد عنه بقوله: «فى حالة فيتنام لم يكن هناك تهديد لأمريكا». دفع النقاش رافضا آخر لأن يقول لنير: «إنك تجادل أكثر مما يجب مع اليساريين».

فيرد نير، وكله مرارة من هؤلاء الذين يعتبرهم مدافعين عن السلام فى الصالونات: «اليساريون هم الأسوأ على الإطلاق». تكاد كلماته تختفى تحت صياح رجل عريض الصدر يقول: «كن واقعيا. لقد قدم لهم باراك أقصى ما يمكن وقال عرفات: «لا. إننا نريد البلد بكامله». إن دينهم يأمرهم بأن يكونوا مفجرين انتحاريين».

على مقربة من ذلك، رافض آخر يسلم منشورا لشاب يرتدى «تى شيرت» يحمل شعار وحدة المدرعات الخاصة به. يقول الشاب بصوت مهتز: «يجب على الجندى أن يطيع الأوامر، ما لم تكن غير قانونية. إذا طلبوا منى أن أسقط قنبلة على جمع من الناس، سوف أرفض. ولكن إذا كان هذا الشخص يقول «لا» لهذا السبب، وذلك الشخص يقول «لا» لذاك السبب، فمن ذا الذى سيدافع عن البلاد»؟

يرد عليه الرافض إيتاى هافيف، وهو نقيب نحيف طويل فى احتياطى سلاح المدفعية قائلا: «اسمع. أمرونى بالقيام بدوريات فى معسكرات اللاجئين، وقمت بذلك، وأمرونى بإطلاق الطلقات المطاطية على قاذفى الحجارة، وأطلقت، وأمرونى بمطاردة سيارة الإسعاف إلى المستشفى وإلقاء القبض على شخص ما، وطاردت، واليوم أدرك أن هذا هو أبو الأوامر غير المشروعة».

وبينما أشاهد ما يجرى، أشعر بإغراء لأن أقفز وسط النقاش أكثر مما كان لدى فى أية مظاهرة غطيتها فى هذا البلد الملتهب سياسيا، على الجانبين فى وقت واحد فى بعض الأحيان. وباعتبارى صحفيا إسرائيليا، لم أخف اعتقادى بأن احتلال إسرائيل الذى بلغ عامه الخامس والثلاثين للضفة الغربية وغزة لا بد أن ينتهى. إلا أن من يعارضون الاحتلال يرون أن رسالة جنود الاحتياط معضلة عويصة: هل يصح للجيش، الذى ينبغى أن يكون محايدا من الناحية السياسية، أن يصبح منبرا للعصيان المدنى ضد سياسات الساسة الذين انتخبوا بطريقة ديمقراطية؟ ومن ناحية أخرى، هل يمكن أن نطلب من الجنود أن يضعوا لوعتهم جانبا وينتظروا حتى يجد الساسة حلا؟



كان دافيد زونشتاين هو الذى كتب رسالة الجنود فى أواخر ديسمبر. وكان مرشحا غير محتمل لهذا العمل الراديكالى: فهو المقابل الإسرائيلى لخريج الأكاديمية العسكرية الأمريكية «ويست بوينت»، وهو كشاف نسر سابق من عائلة أمريكية قديمة كانت لوحة من لوحات نورمان روكويل (الذى كانت رسوماته رؤية مثالية للحياة اليومية الأمريكية تعبر عن الحنين للماضى). إلا أن هذا ما يجعل احتجاجه مهما: فتحوله الشخصى يبين كيف خلق الاحتلال لبعض الإسرائيليين توترا غير محتمل لأهم قيم البلاد.

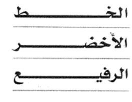
نلتقى فى مقهى فى شارع جانبى متفرع من شارع ديزنجوف الذى تصطف على جانبيه الأشجار شمالى تل أبيب، حيث يرتشف كل اثنين يرتديان ملابس الكاجوال قهوة الإسبريسو على موائد صغيرة ويناقشان أمورهما العاطفية. على الجانب الآخر من الشارع تقع العمارة التى يعيش فيها زونشتاين مع حبيبته فى المدرسة الثانوية، بعد ١٤ عاما من أول لقاء لهما. العنوان مرادف ليسار الوسط، مؤسسة إسرائيل، وهو ما يناسبه. نشأ فى أحد أحياء تل أبيب حيث تعلم كفتى كشاف ألا يعبر الشارع والإشارة حمراء لأن هذا يجعل منه نموذجا سيئا. إنه مهندس برامج كمبيوتر، وهى أكثر المهن حداثة فى إسرائيل. ويجعله وجهه المستدير الحليق يبدو أصغر من ٢٩ سنة. وحتى وقت قريب كان من الناحية السياسية «وسطيا إلى أقصى حد». وبينما يميل على الطاولة ليتحدث إلىّ بصوت خافت وبتركيز، كثيرا ما يستعيض عن ضمير المتكلم بضمير المخاطب لتحاشى التباهى بشأن السيرة الذاتية التى يحلم بها أى مدرس للتربية الوطنية.



الواقع أن الخدمة العسكرية واجب عام فى إسرائيل؛ فهى ضرورة تعبر كذلك عن قيم المساواة والعطاء من أجل المصلحة العامة. ولا يزال زونشتاين يؤمن بهذه القيم. «إنك تنشأ هنا، وتتعلم كى تخدم فى أفضل وحدة، وتعطى أفضل ما عندك. مات جزء كبير من عائلتى فى الهولوكست.... لو كان هناك جيش (يهودى) أثناء الهولوكوست ما كنا متنا».

منذ العاشرة كان يرغب فى ارتداء البيريه الأحمر الخاص بقوات المظلات، وهى أفضل ما فى الجيش. وفى عام ١٩٩١ حصل على البيريه وهو فى الثامنة عشرة، حيث تطوع للانضمام لوحدة خاصة يقول إنها ذات طابع سرى. ومن هناك اتجه إلى تدريب الضباط وانتهى بحصوله على مرتبة الشرف. كان جزء كبير من خدمته فى لبنان. وهو يصف بهدوء موت أحد أصدقائه فى المدرسة الثانوية فى كمين نصبه حزب الله، والكمين الذى نصبته وحدته ردا على ذلك، حيث قضوا على مهاجمى حزب الله.

عند تسريحه من الخدمة عام ١٩٩٦ كلف بالانضمام لإحدى وحدات الاحتياط. ومن حيث المبدأ، يظل كل الرجال الإسرائيليين حتى الأربعينيات يؤدون خدمة احتياطية سنوية؛ ومن الناحية العملية، الأرجح هو أن يستدعى الجنود المقاتلون، ويخدم الضباط فترة أطول. وهو يقول مبتسما خجلا من جديته: إن كونك مواطنا إسرائيليا يعنى أن «تكون جنديا فى أجازة لمدة عشرة أشهر فى السنة. إنه جزء من أخلاق المجتمع....إنى أشعر أن البلاد كلها تجلس على كتفى». كثيرا ما كان يقضى خدمة الاحتياط فى الضفة الغربية وقطاع غزة، حيث كان يشارك فى نقاط التفتيش ويقوم بدوريات



فى الشوارع ويلقى القبض على المشتبه فى أنهم إرهابيون.«هذه هى الطريقة التى تمارس بها الاحتلال، مثل فرنسا فى الجزائر. إنك تبين للناس أنك ملك». بهذه الكلمات ينتقل من تحديد الهوية إلى المرارة. حيث يمثل من جديد، بينما أستمع أنا إليه، تحوله المؤلم من ابن كل إسرائيل إلى منشق.

بدأ منذ عامين فى طرح الأسئلة.«تقف فى نقطة التفتيش وتعرف أن (المستوطنين الإسرائيليين) يمرون على الفور والعرب لا يمرون. وتتذكر جنوب أفريقيا....تدخل أحد المنازل ليلاً (للقبض على رجل)، وتفصل الرجال عن النساء. لقد نشأت على قصص الهولوكوست. ليس هذا هو الشيء نفسه بحال من الأحوال، ولكن الصورة هى هى».

وكما لو كان مجبرًا على ذلك، عاد إلى الموتيفة التى ترد فى كل المناقشات الإسرائيلية الخاصة بالقوة. فـ«الهولوكوست» اختصار لـ«الضحايا اليهود». وهو يعلم مدى الحاجة إلى القوة، وإلى تمكين الناس الذين طال اضطهادهم. بل إن حل المشاكل بالطرق السلمية ليس موضوعًا للمناقشة. إلا أن الهولوكوست يقوم مقام المجاز المطلق بالنسبة لكيفية إساءة استغلال القوة: إنه أقوى مثال للسبب فى أن على الجيش الاحتفاظ بما يسميه«نقاء الأسلحة» أو الاستخدام الأخلاقى للقوة.

والواقع أن صورة الهولوكوست تستخدم دائمًا على أنها مبالغة، سواء أكانت تصف الأعداء أو أعمال إسرائيل نفسها. إلا أنها تعبر عن الأزمة التى يشعر بها زونشتاين، وغيره ممن قد ينضمون إليه وهم يؤدون الخدمة فى المناطق. فقد كان يعتقد أن لبلاده الحق فى استخدام القوة: إلا أنه يؤمن بأنها كانت تطلب منه استخدام القوة بطريقة غير مشروعة.

وعلى غرار قول ألبير كامى«أنا أومن بالعدل، غير أنى سوف أدافع عن أمى قبل العدل» يقول زونشتاين:«لو قالوا لى إننى يجب أن أفعل شيئًا ما وإلا قتلوا أمى غدًا فى تل أبيب، فإنى سأفعله بكل وضوح». لم تكن مشكلته هى الدفاع عن بلده. بل كانت مشكلته أنه لم يعد يؤمن بأن أوامره تخدم هذا الغرض.



ركز زونشتاين إعادة نظره بشكل مميز عن طريق قراءة الرواية الطوباوية التى كتبها المؤسس الصهيونى تيودور هرتزل -Altneu land(الأرض الجديدة القديمة). وهو يقول إن الكتاب كشف عن رؤية إنسانية للدولة اليهودية لم تحققها إسرائيل. وهو مثل قول أحد الأمريكيين إنه تعلم الراديكالية من إعلان الاستقلال. وبعد ذلك جاء ديكارت وماكيافيللى وإحصاءات الحكومة. وهو يشير إلى أنه منذ توقيع اتفاق أوسلو فى ١٩٩٣ تضاعف تقريبًا



جيرشوم جورينبرج

المحتلة.. قنبلة موقوتة فى وجه إسرائيل

عدد المستوطنين اليهود فى المناطق؛ وهو خرق واضح للاتفاق. كما يقول إن «القليل من الإسرائيليين يعلمون ذلك. فالغالبية تظن فقط أن الفلسطينيين هم الذين خرقوا الاتفاق».

بعد بداية الانتفاضة الفلسطينية الجديدة فى عام ٢٠٠٠، لم تزدد أسئلته إلا عمقًا. فبينما أقنع رفض ياسر عرفات لعروض السلام التى قدمها باراك وما أعقب ذلك من هجمات إرهابية الكثير من مؤيدى عملية السلام بأن الفلسطينيين لا رغبة لديهم فى حل وجود دولتين، سارت شكوك زونشتاين فى اتجاه مختلف. وهو يتساءل: «الذى أثار انتباهى هو لماذا بدءوا الانتفاضة....إذا كانوا يكرهوننا، فلماذا ظل الوضع هادئًا حتى الآن؟ وإذا كان باراك قد أعطى كل شيء، فلماذا لم يأخذوه»؟

فى الوقت الذى تلقى فيه طلب الاستدعاء فى الخريف الماضى لمدة ٢٥ يومًا فى قطاع غزة «كان واضحًا لى أننى سوف أفعل أشياء تضر بالفعل الأمن القومى، وتضر الأساس الأخلاقى للدولة». إلا أنه ذهب إلى هناك.

وهو يصف تلك المهمة بحرص واضعًا قيدًا على مشاعره. فحين دخلوا القطاع رأى مساحات من الأراضى على جانبى الطريق جرى «تنظيفها» من البساتين أو الصوب أو المبانى لإزالة مخابئ المسلحين الفلسطينيين؛ وهو حل لمشكلة عسكرية تكلف المدنيين ثمنًا فادحًا. وكانت وحدته تتولى مسئولية نقطة تفتيش عند مفترق طرق تتقاطع عنده حركة السير الفلسطينية بين بلدتين كبيرتين مع حركة السير الإسرائيلية من مجموعة مستعمرات قطيف. كان أحد الجنود يدير إشارة المرور؛ وحين كان يلمح سيارة إسرائيلية تقترب كان يضيئ النور الأحمر للفلسطينيين. وكان الغرض هو منع إطلاق النار على السيارات الإسرائيلية. وكانت النتيجة أن ينتظر الفلسطينيون ساعات كى يعبروا، أما المستوطنون - الذين يقول زونشتاين إنهم «لوردات البلاد» - فلم يروا الإشارة الحمراء قط. ويضيف قائلاً: «لا أعنى أن قوات الدفاع الإسرائيلية جيش بلا أخلاق. بل إنه يتلقى أوامر غير أخلاقية».

وطبقًا للقانون الإسرائيلى، فإن أى جندى مجبر على رفض أى أمر «يحمل راية عدم المشروعية السوداء». وقد وضع هذا المبدأ بعد مذبحة ١٩٥٦ التى اتبعت فيها القوات أوامر بإطلاق النار على أى إنسان يعود إلى إحدى القرى العربية بعد حظر التجول. ففى دولة يهودية، وبعد حوالى عشر سنين من الهولوكوست، وجدوا أن دفاع «اتباع الأوامر» غير مقبول. ويقول زونشتاين إن المشكلة فى غزة هى أن كل أمر على حدة كان مبررًا فى السياق؛ إلا أن السياق لم يكن له ما يبرره.

وحين عاد إلى داره فى أوائل شهر ديسمبر لم يستطع النوم. «اندهش أصدقائى. كنت أبدو مختلفًا، غاضبًا. كل ما كنت أدافع عنه اتضح أنه كذب». ظل أسبوعًا يتحدث مع ملازم آخر من وحدته اسمه يانيف إزكوفيتس كان غاضبًا مثله. ثم التقى بقائده. «قلت: لن أعبر الخط الأخضر» أى الحد بين إسرائيل ذات السيادة والمناطق المحتلة. وسوف يعصى أمر الاستدعاء التالى، ويدفع ثمن ذلك دخوله السجن.

ولكن الاحتجاج المنفرد لم يكن كافيًا. ويقول زونشتاين إنه عند مدخل القاعدة التى يجرى فيها تدريب الضباط لوحة تعلن عن مبدئهم: «راقبنى وافعل كما أفعل». قرر أن يكون عمله علنيًا؛ فقد كان عليه أن «يقاتل كى يضمن عدم أداء أى جندى الخدمة» فى المناطق المحتلة. سوف يحارب ذلك كى يدافع عن بلده.

وفى الساعة الثالثة من إحدى ليالى شهر ديسمبر كتب زونشتاين رسالته. وبعد ثلاثة أسابيع، وقع ٥٠ من جنود الاحتياط المقاتلين على النص. وفى أواخر شهر يناير نُشر الإعلان كمادة إعلانية فى «ها آرتس» الصحيفة القومية ذات التاريخ المعروف: «نحن... الذين كنا أول من ننفذ أية مهمة... لحماية دولة إسرائيل... نعلن بذلك أننا لن نستمر فى القتال فيما وراء حدود ١٩٦٧ كى نسيطر على شعب بكامله ونطرده ونجوِّعه».



على خلفية الانتفاضة والشلل الذى أصاب حركة السلام، كانت رسالة الجنود مثيرة للانتباه. أجرى مقدمو أكبر برامج التلفزيون الحوارية مقابلات مع الجنود الرافضين وخصصت صحيفة «يديعوت أحرونوت» واسعة الانتشار موضوع الغلاف فى عددها الأسبوعى لهم. ويصف النشطاء اليساريون الرسالة بأنها كانت سببًا رئيسيًا وراء تجدد نشاط الاحتجاج ضد الاحتلال. وأدى الإعلان إلى ظهور موجة ثانية من التوقيعات؛ ٥٠ فى أول أسبوع بعد الإعلان، و١٠٠ فى الأسبوع الذى تلاه.

كان أول من أضاف اسمه هو إيتاى هافيف. ويتحدث دارس الجيولوجى ابن الثلاثين عن قراره بابتسامة الشخص الذى حقق السلام مع نفسه بعد معركة طويلة. فطوال عشرة أعوام، أثناء خدمته العسكرية النظامية وفترات الاحتياط، خدم فى المناطق المحتلة. وكان على الدوام يعانى من معضلة أخلاقية. إلا أنه لم تكن هناك أوامر تحمل «راية غير المشروعية السوداء»، إن نحن نظرنا إليها بمفردها. «يأمرونك بتدمير منزل ما لأنه يطل على طريق ويستخدم لإطلاق النار منه. وهذا من الناحية العسكرية أصح ما يمكن عمله على الإطلاق... ولكن حين يستمر ذلك ٣٥ سنة، فإنه يتحول إلى راية سوداء». ويقول هافيف إنها وجهة نظر نادرًا ما تكون لدى الطفل الذى أنهى للتو دراسته فى المدرسة الثانوية ولا يعرف سوى الجيش. وكجندى احتياط «تدرك أنهم يغشونك»، وأن المسألة ليست للدفاع عن البلاد، وإنما «للدفاع عن المستوطنات». وحتى قبل ظهور الإعلان كان قد عقد العزم على تحدى أمر الاستدعاء للقيام بمهمة بالقرب من أريحا فى شهر مارس.



وكما يشير قرار هافيف، فلم تكن رسالة الجنود بداية الاعتراض الواعى الانتقائى. فتاريخه يعود إلى عام ١٩٨٢ حين بدأت منظمة تسمى «ييش جفول» - هناك حد - تدعو الجنود إلى رفض المشاركة فى غزو إسرائيل للبنان. وكان «الأب الروحى» للحركة كما يشير أحد الرافضين المخضرمين هو البروفيسور إشعياهو لايبوفتس، وهو فيلسوف متدين يحظى بالاحترام، معروف بأنه أحد أول المنتقدين للاحتلال، وربما كان أعلاهم صوتًا. (توفى لايبوفيتس عام ١٩٩٤؛ وحفيده شاماى لايبوفيتس محام وجندى احتياط وهو اليوم يؤيد بشدة رفض الخدمة فى المناطق من الناحيتين القانونية والدينية).

ويقول بيريتس كيدرون عضو «ييش جفول» منذ مدة طويلة، إنه بعد عامين دخل السجن ١٦٨ جندى احتياط بدلاً من أن يدخلوا لبنان. وهو يقدر أنه أثناء الانتفاضة الفلسطينية الأولى (١٩٨٧-١٩٩٣) سُجن ٢٠٠ آخرون لرفضهم الخدمة فى المناطق. إلا أنه يشير إلى أن الكثير من القادة كانوا يمتنعون سرًا عن وضع الرافضين فى الحبس، وكانوا بدلاً من ذلك يكلفونهم بمهام داخل الخط الأخضر ويغطون على النسب الكاملة من رفض الخدمة.



ويؤكد كيدرون على أن ييش جفول ترفض حل النزاع سلميًا - «الداعى إلى التسوية السلمية للنزاع يترك الجيش للفاشى» - ولكنها تصر على أن «كل جندى مسئول عن أفعاله». وبذلك تدعم المنظمة كل تنويع على الرفض الاختيارى، من رفض حراسة سجن يحتجز فيه فلسطينيون إلى رفض الخدمة بالمرة مادام الاحتلال مستمرًا. وتختلف رسالة الجنود من حيث إنها خلقت معيارًا واضحًا، وهو عدم عبور الخط الأخضر. ويعترف كيدرون بسعادة أن المسعى الجديد أعاد الرفض مرة أخرى إلى الأجندة الوطنية. وربما أدى كذلك إلى تشدد الجيش.

وفى استدعائه للاحتياط فى ٣ مارس، عرض إيتاى هافيف أداء الخدمة داخل إسرائيل. وهو يقول: «لو كان الأمر بيد «قادته» لتم ذلك. إلا أنه كان هناك جو فى الجيش يشير إلى ضرورة معاقبتنا». وفى محاكمة تأديبية قصيرة أمام كبار الضباط، حُكم عليه بالحبس ثلاثة أسابيع. إلا أنه طالب بأن تجرى له محاكمة عسكرية كاملة، وهى التى كان من المحتمل أن تصدر ضده حكمًا بالسجن ثلاث سنوات، إلا أنها كانت ستصبح بمثابة «منبر عام لشرح ما يحدث فى المناطق». ورفض الجيش طلبه.

وبحلول الصيف كان حوالى ٥٠٠ جندى احتياط قد وقعوا على رسالة الجنود، وكان أكثر من ربعهم ضباطًا. وكان أكثر من ٩٠ منهم قد أمضوا عقوبات فى الحبس. وتحولت قائمة التوقيعات إلى حركة احتجاج، أوميتس ليزاريف، أو شجاعة الرفض. ويقول زونشتاين: «لدينا تنظيم قوى من أناس فى سن الشباب مستعدين لدفع ثمن معتقداتهم». ومنذ فترة قريبة قال له عمه، وهو أحد مستوطنى الضفة الغربية الذى يختلف بطبيعة الحال مع كل ما يفعله: «المجتمع الإسرائيلى ينظر إليكم على أنكم مستوطنو اليسار». وهذه إشارة إلى عدم توازن قديم قدم المعركة السياسية بين اليمين واليسار بشأن إذا ما كان ينبغى لإسرائيل أن تبنى المستوطنات أو تنسحب من المناطق المحتلة. فالمطالبون بالسلام ينظمون المظاهرات ثم يعودون إلى بيوتهم. أما المستوطنون فيخاطرون بحياتهم، وفى بعض الأحيان يتحدون القانون كى يستولوا على الأرض. ويؤكد زونشتاين على أن الجنود الرافضين يبينون للجمهور أن اليسار مخلص كذلك لقضيته.



ومع ذلك يرفض اليمين الإسرائيلى أية صورة من حجج الرافضين. ويقول يوفال شتاينيتس عضو الكنيست عن حزب الليكود: «تمنحك الديمقراطية حرية التعبير وتجبرك على إطاعة القانون». ثم يضيف قائلاً: «وعلى عكس الدول الأخرى، تقاتل إسرائيل من سوف يدمرونها....اسألنى عن رأيى فيمن رفضوا مقاتلة هتلر».

إلا أنه على جانب اليسار كذلك، أثارت رسالة الجنود الجدل. فمن ناحية يعود هذا إلى أن الخدمة العامة تظل قيمة مدنية راسخة. بل إن إسرائيل، كما يراها معظم الإسرائيليين من يسار الوسط، تقاتل فى عهد شارون معركتين: معركة ضد الإرهاب والأخرى لاستدامة الاحتلال والمستوطنات. المعركة الأولى دفاع عن النفس، أما الثانية فلا معنى لها. والمشكلة هى إن كان بالإمكان فصل المعركتين عن بعضهما. والتأكيد على أن كامل نسيج العمل العسكرى فى الضفة الغربية وقطاع غزة هو فقط ما تسميه رسالة الجنود «حرب المستوطنات»، يعنى الزعم بأن الإرهاب سوف ينتهى إذا انسحبت إسرائيل إلى الخط الأخضر وتخلت عن المناطق، أو أن قدرة إسرائيل على الدفاع نفسها من داخل حدودها ستكون أفضل من قدرتها على ذلك من داخل المناطق.

هذان الزعمان قد يكونان صحيحين. إلا أنهما فى الوقت ذاته حكمان سياسيا؛ وتفضيل الجنود لوجهات نظرهم السياسية على أوامر الحكومة المنتخبة يمثل سابقة خطيرة. يصح هذا على وجه التحديد فى بلد صغير، حيث لا يزالون يضعون قواعد الديمقراطية. إلا أن الجنود الرافضين يقولون إن الجندى يجب أن يرفض الأعمال غير الأخلاقية أو غير القانونية؛ وإنه مقضى فى الظروف الراهنة على محاولة الفصل بين الأحكام السياسية والأحكام الأخلاقية والقانونية بالفشل.

لم تكن رسالة الجنود بداية الاعتراض الواعى الانتقائى. فتاريخه يعود إلى عام ١٩٨٢ حين بدأت منظمة تسمى «ييش جفول» - هناك حد - تدعو الجنود إلى رفض المشاركة فى غزو إسرائيل للبنان

ويظل رون شاتسبرج على عدم اقتناعه. وقد يكون شاتسبرج صورة نموذجية لليسار. فهو يقيم في مدينة بيت شمش العمالية في كيبوتس تموز الحضرى؛ وهو محاولة لتجديد نموذج الحياة الجماعية التى لم تعد تتماشى مع إسرائيل في الوقت الحاضر إلى أبعد حد. وهو يعمل في مؤسسة التعاون الاقتصادى، وهى منظمة صغيرة كانت تقود المفاوضات السرية التى أدت إلى اتفاق أوسلو. واليوم يصف عمله بأنه «إدارة الأزمات» بصوت يبلغ من الانخفاض بحيث يبدو أنه مقصود به محو إمكانية الصياح بالقرب منه. وهو يقول: «إننى أساعد على إنهاء الاحتلال».

إلا أن شاتسبرج ابن السادسة والثلاثين يخصص ٨٠ يومًا من كل عام لخدمة الاحتياط باعتباره مقدمًا يقود إحدى كتائب المشاة. (هذا ليس بالأمر غير الشائع. ففى إسرائيل لا تعنى كلمة «عسكرى» أن من يحملها «صقر». فكثير من الساسة والنشطاء الإسرائيليين من الحمائم سبق لهم العمل ضباطًا مقاتلين، ويدافع بعض الجنرالات السابقين عن الانسحاب باعتباره أفضل طريق إلى الأمن). وقد أمضى شاتسبرج شهر مايو في القيام بدوريات في التلال المحيطة بالخليل. وكان ذلك هو وقت حصاد القمح، وكذلك الاشتباكات المحتملة بين المستوطنين والفلسطينيين القريبة حقولهم من المستوطنات. وقد أجرى اتصالات مع السكان الفلسطينيين المحليين، من خلال جماعة سلام إسرائيلية تحمل اسم «حاخامات حقوق الإنسان»، كى يعرف متى وأين سيقومون بالحصاد. وهو يقول: «أرسلت جنودى إلى هناك لخلق منطقة عازلة؛ لحماية المستوطنين وللتأكد من أنهم لا يتحرشون بالفلسطينيين». وتبين القصة سبب اعتقاد شاتسبرج أنه من الضرورى أن يستمر الإسرائيليون المؤيدون للسلام في أداء الخدمة العسكرية في المناطق، «وإلا فإننا نترك اتخاذ القرار لأناس... ليست لدى فكرة عن قيمهم».

«لا بد أن يكون هناك قرار ديمقراطى للعودة إلى حدود ٦٧ مقابل اتفاق سلام. إنها مسألة وقت». وفى الوقت ذاته يقول شاتسبرج: «أقبل أن جزءًا من مهمتى في بلد ديمقراطى هو حماية المستوطنين، رغم إدراكى أن المستوطنين هم مصدر كل التلوث». وهو يقول إن الجنود الرافضين مخطئون لسعيهم إلى تغيير الحقائق على أساس من تحدى المسئولين الإسرائيليين المنتخبين. ويقول شاتسبرج إن هذا الأمر الواقع جزء من ذخيرة المستوطنين، وهو يود تركهم هناك. كما يقول: «فى بلد على هذا القدر الكبير من الانقسام وهذا القدر الكبير من التشظى لا بد من الحفاظ على قواعد اللعبة الديمقراطية».

ولا يقبل شاتسبرج كذلك أن حماية المستوطنين هى المهمة الوحيدة الخاصة التى يقوم بها الجيش الإسرائيلى في المناطق: «بما أن المناطق تتعامل مع البلد ككل على أنه جبهة قتال وتشن هجمات داخل إسرائيل، فهذه المقولة ليست صحيحة». فالدفاع الاستراتيجى يتطلب النشر المتقدم للقوات «بالقرب من مصدر الهجمات... حيث يمكنك خلق الشك لدى العدو». وهو يقول إن إسرائيل يمكن أن تتخلى عن هذا النوع من الدفاع في ظل اتفاق سلام وحسب؛ وهو الأمر الذى يمكن أن يحدث فقط حين يكون الطرفان مستعدين.



ويؤكد شاتسبرج على أن رسالة الجنود «أثارت مناقشة مسألة السلوك الأخلاقى أثناء الاحتلال. وأنا لا أنكر ذلك». إلا أنه يعود فيقول إنها «ماتت. إنها لم تعد تحدث أمواجًا». وهو يقول إنه حتى من ناحية الأمر الواقع ليس رفض ٥٠٠ جندى كافيًا لإنهاء الاحتلال.

أنماط الحجج التى يسوقها شاتسبرج يناقشها آخرون في منابر اليسار التى لا حصر لها، وبالأخص في حزب ميرتس، وهو حزب اليسار الذى يشغل ١٠ مقاعد من بين أعضاء الكنيست المائة والعشرين وهو صوت المعارضة الرئيسى لحكومة أريئيل شارون. ويقول عضو الكنيست عن حزب ميرتس ران كوهين، وهو عقيد سابق ومعارض مخضرم للاحتلال: «إذا كان معسكر السلام يريد أن يقود البلاد، فلا بد أن يفوز في معركة الرأى العام. ولا يمكنكم أن تفعلوا ذلك عن طريق رفض الخدمة، لأن هذا هو ما يوصمكم بأنكم غرباء. ولهذا السبب لا يحظى اليسار بالشعبية».

عرضت المشكلة بالتفصيل في مناسبة وقعت يوم العاشر من يونيو في ذكرى مرور ٣٥ عامًا على الاحتلال برعاية ميرتس في إحدى ضواحى تل أبيب. حضر تلك المناسبة مائة شخص، وكان أغلبهم من التقدم في العمر بحيث يتذكرون متى بدأ الاحتلال. وكان المتحدثان من شجاعة الرفض، وهما رائدان في أوائل الثلاثينيات. كانا يجلسان خلف طاولة ويتحدث كل منهما على استحياء، وكأنه في حرج من مناقشة شىء شخصى مثل رفض الاستدعاء للاحتياط، وكان يقابل بتصفيق حاد.

وبعد ذلك يرفع عضو الكنيست عن حزب ميرتس أفشالوم فيلان، وهو جندى صاعقة سابق ومؤسس حركة السلام الآن، الميكروفون بيده ويهدر صوته قائلاً: «سؤالى هو الفاعلية السياسية». يجب أن يكون هدف الحركة السياسية هو الوصول إلى أكبر عدد من الجمهور. وهو يقول إنه في المجتمع الإسرائيلى ليس السبيل إلى تحقيق ذلك هو رفض الخدمة. وللتأكيد على ما قاله، يتذكر أنه أثناء حرب لبنان، التقى دعاة السلام الإسرائيليون مع الفيلسوف الأمريكى مايكل والتزر. امتدح والتزر حقيقة أنه على عكس ما فعله المحتجون الأمريكيون أثناء حرب فيتنام، لم ينسلخ الإسرائيليون عن التيار العام، ولم يتخلوا عن الرغبة في أن يكونوا أغلبية سياسية. وعند هذه النقطة صاح أصحاب الشعر الأبيض من الرجال والنساء في وجه فيلان قائلين: «ولكنهم أخرجوا أمريكا من فيتنام!» واستمرت المضايقة بالأسئلة حتى بدا فيلان في نهاية الأمسية غريبًا في حزبه.

ومع ذلك ظل سؤال فيلان في الهواء. إنها معضلة قديمة: فما يثير المخلصين قد يكون على وجه الدقة هو ما يسكت الوسط. ومن المفارقة أنه حتى صورة الجندى الرافض باعتباره ابن كل إسرائيل يمكن أن تؤدى إلى نتائج غير مرغوبة. وغالبًا ما صور زعماء اليسار السياسى أنفسهم على أنهم أكثر إسرائيلية من أى إنسان آخر، وطوال عشرات السنين وهذه النبرة المتعالية الأرستقراطية تبعد الناس عن قضيتهم. قد يكون جذب انتباه الجمهور صعبًا؛ فما إن خفت حدة الصدمة الأولى لقول الضباط المقاتلين «لن أذهب»، حتى انتقلت أخبار حبس الجنود الرافضين إلى الصفحات الأولى من الصحف الإسرائيلية.



قد يتغير هذا حين يقدم زونشتاين للمحاكمة.

فى أوائل شهر يونيو استدعى ضابط المظلات للاحتياط في شمالى الضفة الغربية. وكما هو متوقع أبلغ قائده أنه على استعداد للخدمة في أى مكان غير المناطق المحتلة. وحين أتوا به أمام رتبة أعلى طالب بمحاكمته محاكمة عسكرية كاملة. وطبقًا للوائح، رفع طلبه إلى ضابط التحقيقات العسكرية لإصدار الحكم. رفض الطلب في ذات اليوم بدون إبداء الأسباب. وهكذا حكم عليه القائد بالحبس لمدة ٣٥ يومًا.

فى اليوم السابق حذرنى زونشتاين من أن ذلك سيحدث. فقد قال إنه يريد أن يحاكم محاكمة علنية وأن يأتى بشهود وأن يتقدم بدعوى قانونية أمام قضاة مؤهلين ضد الخدمة في المناطق. كما كان يريد أن يفعل ذلك بينما الإعلام يشاهده. كان يعلم أن فرص تبرئته «قريبة من الصفر» وأنه من المحتمل أن يقضى في الحبس فترة أطول، إلا أنه قال: «أريد أن يعلم الجمهور أن الشخص الذى يقود هذا الكفاح مستعد للمخاطرة بدخول السجن».

طبقًا للنظام القضائى الإسرائيلى، يمكن لأى مواطن أن يتقدم بالدعوى إلى المحكمة العليا مباشرة ضد أعمال السلطة التنفيذية، بما في ذلك الجيش. وفى صباح اليوم التالى لإصدار الحكم ضد زونشتاين، تقدم محاميه - وهو رقيب احتياط وجندى رافض للخدمة - بالتماس للمحكمة كى تأمر الجيش بمنحه الحق في محاكمة عسكرية كاملة.

وفى ١٧ يونيو جاءوا بزونشتاين من السجن الحربى إلى المحكمة العليا لحضور الجلسة الأولى. جلس على مقعد في جانب من جوانب قاعة المحكمة بينما كان محاميه ومحامى الحكومة يتجادلان أمام ثلاثة من قضاة المحكمة العليا. امتلأت قاعة المحكمة بشبان جادين ذوى أكتاف معتدلة، هم زملاء زونشتاين من الجنود الرافضين. وحين انتهت الجلسة، خرج زونشتاين حيث كانت الميكروفونات والكاميرات في انتظاره في البهو. كان يرتدى زيًا عسكريًا أخضر وعلى كل كتف من كتفيه مستطيلان من النحاس الأصفر وقد دس البيريه الأحمر تحت الاسبلايت على أحد كتفيه. لقد طوى خجله وتركه مع ملابسه المدنية. وأدركت أنه قرر محاربة الاحتلال من خلال معركة واحدة مع الدولة.



وبعد أسبوع أمرت المحكمة بإطلاق سراحه بينما أيدت حقه في المحاكمة. وقال كبير القضاة أهارون باراك: «المشكلة ليست سهلة بالمرة والمحكمة بحاجة إلى وقت وتفكير كى تصدر حكمها». لقد كسب زونشتاين الجولة الأولى. وفى منتصف يوليو فاز في جولة أخرى. وطلبت المحكمة العليا من زونشتاين اتخاذ إجراء مطالبة الإدارة القانونية في الجيش بمراجعة الحكم التأديبى الصادر ضده. وفى حالة تأييد الجيش للحكم (عكس ذلك قد يطلق العنان للأمور) يمكن لزونشتاين تقديم دعواه مباشرة للمحكمة العليا. والواقع أن القرار خلق مسارًا قضائيًا سريعًا متخطيًا مرحلة المحاكمة العسكرية. ويقول محامى زونشتاين إنه بحلول الخريف «سوف تدخل أعلى محكمة في البلاد في جدل مع القضايا القانونية والأخلاقية» التى أثارها الجنود الرافضون.



الميدان المظلل في القدس: رجل ذو شعر أحمر في الأربعينيات من عمره يتجادل بهدوء مع العديد من الجنود الرافضين للخدمة. تقف زوجته صامتة على بعد أقدام خلفه وقد أمسكت بسلسلة كلبهما. يقول الرجل: «صحيح أن الاحتلال يدمرنا، ولكن لدى مشكلة صغيرة مع مسألة الرفض. لقد خدمت طوال حياتى. ويؤدى ابنى الخدمة في قوات المظلات. وحين يضطر للذهاب إلى بيت أحد تغرورق عيناه بالدمع، ولكنه يذهب».

تتقدم زوجته خطوة وتنظر إليه وتسأله: «وماذا يفيد روعى حين يدخل والدموع في عينيه؟» وفجأة تحول كل من سواهما إلى كومبارس. وإذا سلطت أضواء المسرح على المشهد بدلاً من الشمس، فسوف تركز عليهما تاركة الجميع في الظل، بينما الاثنان ينظر كل منهما إلى الآخر.

«هل تريدينه أن يرفض؟»

«وإذا لم يرفض، هل سيمزقه ذلك حين يبلغ الخامسة والأربعين؟».

يصيح عابر سبيل. يبدأ الجدل من جديد، وهو كله خاتمة لأسئلته وأسئلتها. ■

ترجمة: أحمد محمود

بترتيب خاص مع مجلة

MOTHER JONES

فى إسرائيل لا تعنى كلمة «عسكرى» أن من يحملها «صقر». فكثير من الساسة والنشطاء الإسرائيليين من الحمائم سبق لهم العمل ضباطًا مقاتلين، ويدافع بعض الجنرالات السابقين عن الانسحاب باعتباره أفضل طريق إلى الأمن

هوس.. هلع.. انهيار

عمرو محيى الدين

الكتاب هو إحدى العلامات البارزة في الدراسات والكتابات الاقتصادية في نظرية التجارة الخارجية في القرن العشرين، والكتاب المعروض في هذه الصفحات يمثل الطبعة الرابعة الصادرة عام ٢٠٠٠. وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٧٨ حيث تناولت الأزمات المالية خاصة تلك الأزمات السابقة على الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩، إلا أن يوم الاثنين الأسود في ١٩ أكتوبر ١٩٨٧ بجانب دراسة أكثر عمقا تتعلق ببعض المشكلات والاضطرابات السابقة أظهرت الحاجة إلى إعادة النظر أو ربما إلى نظرة ثانية فكانت الطبعة الثانية، أما الطبعة الثالثة فقد دفع إليها وشجع على إصدارها الانهيار الياباني عام ١٩٩٠، و أما الطبعة الرابعة فكان الدافع إليها الأزمة المكسيكية عام ١٩٩٤/١٩٩٥ وبصورة أكثر حدة الصعوبات والأزمات التي واجهتها بلدان شرق آسيا عام ١٩٩٧/١٩٩٨ والتي لا تبعد زمانيا عنا كثيرا الآن، وقد تناولت هذه الطبعة أيضا وباستفاضة موضوع المقرض الأخير المحلي والدولي ودوره في معالجة هذه الأزمات وضرورة وجوده من عدمه والحجج التي تسانده ودور صندوق النقد الدولي وإمكاناته في القيام بدور المقرض الأخير على المستوى الدولي. وتحتوي هذه الطبعة على إضافة تاريخية مهمة بجانب أزمة ١٩٩٧، ذلك أن الطبعات الثلاث الأولى تبدأ بأزمة (فقاعة) الميسيسيبي Missisipi Bubble وأزمة (فقاعة) السوث سي South Sea Bubble في القرن الثامن عشر (١٧١٩-١٧٢٠) أما الطبعة الرابعة فتبدأ بتناول أزمة التيوليب في القرن السابع عشر (١٦٣٦-١٦٣٧) المعروفة بهوس Mania التيوليب، بل هناك تناول للأزمة المالية عام ١٥٥٠.

ولد تشارلز كندلبرجر في مدينة نيويورك عام ١٩١٠، وقد جاءت اهتماماته بموضوع التجارة الخارجية نظرا لالتحاقه بوظيفة عامل رصيف في ميناء نيويورك خلال العطلات الصيفية، كما درس العلاقات التجارية الدولية في إجازة الصيف في مدرسة جنيف، وحصل على البكالوريوس في الاقتصاد من جامعة بنسلفانيا عام ١٩٣٢، وحصل على الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة كولومبيا عام ١٩٣٧. وفي عام ١٩٣٦ بدأ عمله في الجهاز الحكومي لمدة ١٢ عاما حيث عمل في بنك الاحتياط الفيدرالي في واشنطن واللجنة المشتركة الأمريكية الكندية في عام ١٩٤٢، والمركز الأمريكي للخدمات الاستراتيجية (١٩٤٢-١٩٤٤)، وفي النهاية في وزارة الخارجية حتى كان اهتمامه منصبا على عملية إعادة بناء أوروبا، وفي عام ١٩٤٩ عين في قسم الاقتصاد بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا في بداية انطلاقة هذا القسم، وذاعت شهرته العالمية وظل في هذا القسم حتى عام ١٩٨١ حيث بلغ سن التقاعد، وقد أشرف على تخريج المئات من الاقتصاديين العظماء، وظلت كتبه تمثل مقررات دراسية مهمة في أغلب الجامعات الأمريكية، وقد اهتم أساسا بموضوع التجارة الدولية ومعدلات التبادل الدولي ونظم المدفوعات الدولية، وحركات رؤوس الأموال، وله العديد من المؤلفات التي تربو على السبعين مؤلفا، وقد اهتم بموضوع التاريخ المالي وله كتاب صدر عام ١٩٨٤ حول التاريخ المالي لأوروبا الغربية، وأدى ذلك إلى اهتمامه بموضوع الأزمات المالية في أوروبا أولا وامتد هذا الاهتمام لبقية أجزاء العالم.

وعلى الرغم من خفة دم الكتاب، واحتوائه على مواقف مسلية وكوميدية، إلا أنه خلف ذلك كله هناك بحث جاد وباحث مبتكر، فالنمط الذي يسلكه البشر في اكتساب معيشتهم ودخولهم ليس بالأمر المضحك أو الهزلي، خاصة إذا قام كل فرد بهذا المسعى على حساب الآخرين. وهذا ما يؤكده كندلبرجر، إن الهوس والهلع والانهيار هي نتاج بيئة تساعد على تفريخ الجشع وحب التملك، والنصب والخداع، وشهوة المال. وقد استخدم كندلبرجر التاريخ ليثبت ويؤكد أفكارا نظرية على جانب كبير من الأهمية، وهو يعرف هذه العملية جيدا حين يشير إلى أن «التاريخ خاص، أما الاقتصاد فهو عام»، ولا شك أن محاولته لمزج الاثنين تمثل المساهمة الإبداعية لكندلبرجر في كلا الفرعين من فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية. ويستند كندلبرجر إلى حجج قوية لإثبات فروضه وأحكامه ومقولاته، وهو يقف موقفا ناقدا للجمود الفكري والالتزام الأعمى للعقيدة الذي يسود نظرة البعض بأن الأسواق تعمل دائما برشد وكفاءة، والبعض الآخر الذي يرى أنها لا تعمل بكفاءة ورشد إلا إذا تدخلت الدولة، إذ يرى أن الأسواق في أغلب الأحيان أو في العادة تعمل بكفاءة وتميل إلى السلوك الرشيد إلا في بعض الأحيان حيث يصيب هذا السلوك الفشل، ومن هنا كان ناقدا لاذعا لفريدمان وللنقوديين الذين يرون أن الأسواق تعمل دائما بكفاءة ولا تخطئ أبدا.

وترتبط الأزمات المالية بذروة الدورة الاقتصادية، والدورات الاقتصادية وهي إيقاع عملية الانتعاش والركود وتواليهما ليست هي محل الاهتمام، ولكن ينصب اهتمام الكتاب على الأزمة المالية، إذ تمثل أقصى أو ذروة فترة التوسع والانتعاش حيث تؤدي إلى التدهور والركود، وإذا كانت هناك دورات اقتصادية لم تصاحبها أزمات مالية فهي تقع خارج اهتمام الكتاب، كما أن الأزمات المالية التي أمكن إدارتها بنجاح ليست هي أيضا محل الاهتمام.

والهوس Mania هو الإفراط في المضاربة، وهو يؤدي إلى الفقاعة، والفقاعة هي الارتفاع الحاد والمتواصل في سعر أصل أو عدد من الأصول، على أن يخلق الارتفاع الأول في الأسعار توقعات باستمرار الارتفاع مما يجذب معه مستثمرين جددا. هذا الارتفاع عادة ما يعقبه انقلاب في التوقعات وانهيار حاد في الأسعار وهو ما يطلق عليه الأزمة المالية. وهكذا فالأزمة المالية كما يشير إليها الكتاب هي «انهيار حاد، قصير الأمد، في ذروة الدورة الاقتصادية في عدد من المؤشرات المالية كأسعار الأصول (الأسهم، العقار، الأراضي) وعدم ملاءة أو إفلاس في القطاع التجاري... إلخ.

أ- نموذج الأزمة:

الأزمة المالية كالمرأة الجميلة من الصعب تعريفها وإن كان من السهل التعرف عليها حين رؤياها. وعلى الرغم من عدم إيمان كندلبرجر بالنماذج الرياضية إلا أنه يتبنى نموذجا للأزمة يتسم بالاتساق الداخلي والمنطقي وبتواتر الأحداث بنمط لا يتغير، وقد حاول كندلبرجر الاستناد إلى المادة التاريخية منذ بدء الأزمات المالية في القرن السابع عشر وحتى أزمة النمور الآسيوية في التسعينيات من القرن الماضي لإثبات صحة هذا النموذج للأزمة المالية.

وقد استند هذا النموذج على نموذج هيمان مينسكي H. Minisky وهو اقتصادي معروف بين المنظرين النقوديين، وقد اشتهر بتشاؤمه الشديد، وهو نقودي منظر وليس مؤرخا اقتصاديا إلا أن نموذجه قادر إلى حد بعيد على تفسير التاريخ المالي والاقتصادي. ولا يختلف نموذج مينسكي ومن ثم كندلبرجر عن نموذج تم بناؤه مع بعض الاختلاف الطفيف من مفكر إلى آخر من أمثال جون ستيوارت ميل، والفرد مارشال، نت فيكسل، وارفنج فيشر... إلخ.

ما هو النموذج؟ أو ما هو النمط المعتاد للأزمة؟ يبدأ الأمر بحدث مهم أو صدمة يترتب عليها تغير في الرؤية الاقتصادية تدفع إلى الإفراط في التفاؤل وهو النشوة، وهو ما يدفع إلى الإفراط في المضاربة «الهوس»، وهي عملية بناء الفقاعة، والهوس يؤدي إلى المحنة ثم الهلع أو الذعر، وهو أول خطوات الانهيار (الأزمة). إذًا صدمة، فتفاؤل، فهوس، ففقاعة، فمحنة، فهلع، فانهيار. وهو يتشابه وإن كان يختلف بعض الشيء، مع النموذج الكلاسيكي الذي يبدأ بالإزاحة Displacement فالإفراط في التجارة، فالتشنجات أو التقلصات (توقف البنوك عن الإقراض بضمان هذه الأصول)، وفقدان الثقة، فالانهيار.

وهكذا طبقا لنموذج مينسكي وكندلبرجر تبدأ الأزمة أو نموذج الأزمة بالصدمة وهو حدث خارجي أي خارج النظام، ويختلف نوع الصدمة من رواج إلى آخر فقد يكون اشتعال حرب أو انتهاءها، أو محصولا استثنائيا جيدًا جدًا، أو فشل محصول، أو انتشار استخدام اختراع معين كالسكك الحديدية، أو السيارات، أو بعض الأحداث السياسية أو الأحداث المالية المهمة... إلخ.



وأيا كانت طبيعة ومصدر هذه الصدمة فلابد أن تكون كبيرة وعميقة الانتشار بحيث يترتب عليها تغير جذري في الرؤية الاقتصادية وإلا انتفت عنها صفة الصدمة. هذا التغير في الرؤية الاقتصادية إنما يتأتى عن طريق تغيير في فرص الربحية المتاحة على الأقل في قطاع واحد من قطاعات الاقتصاد، هذه الصدمة تؤدي إلى استغلال فرص جديدة متاحة لتحقيق الأرباح تدفع المستثمرين (المضاربين) أو الجمهور إلى الإفراط في استغلالها والتكالب عليها بصورة تبعد عن الرشاد بحيث تشكل ما يمكن تسميته بالهوس، وحينما يدرك الجميع الطابع المفرط لعملية الرواج أو حينما يتأكد الجميع من أن هناك إفراطا صاحب عملية التوسع والانتعاش يبدأ النظام المالي يعاني من محنة Distress أو بمعنى آخر تبدأ محنة النظام المالي، وتحدث المحنة حينما تتوقع الوحدات الإنتاجية وجود احتمال لعدم وفائها بالتزاماتها، وتمثل المحنة ضغوطا شديدة تدفع إلى الرغبة والتكالب لتغيير اتجاه هذا التوسع والرواج أو الحد من غلوائه، هذا الاتجاه قد يكون من السرعة والعجلة بحيث يبدو وكأنه حالة هلع أو ذعر. والهلع أو الذعر يؤدي حتما إلى الانهيار.

وفي مرحلة الهوس (الإفراط في المضاربة) فإن أصحاب الثروة والمقترضين تميل اختياراتهم نحو الخروج من السيولة النقدية أو التحول من الأصول السائلة نحو الأصول الحقيقية (العينية) والأصول المالية غير السائلة، أما في حالة الهلع فتحدث عملية معاكسة أي يسير اختيار الأصول في اتجاه عكسي أي الانتقال من الأصول الحقيقية (العينية) أو غير السائلة إلى السيولة النقدية والميل إلى سداد القروض، ويصاحب ذلك انهيار أسعار السلع الأولية، والمساكن والمباني والأراضي والأسهم والسندات وكل ما كان محلا للمضاربة.

وتتم تغذية هذا الرواج في المضاربة ودفعه بواسطة التوسع في الائتمان المصرفي الذي من شأنه زيادة عرض النقود، ولا تقتصر الزيادة في عرض النقود بواسطة البنوك على إصدار البنكنوت - كما كان يتم في الماضي البعيد - ولكن عن طريق الإضافة إلى نقود الودائع، وقبل أن تنشأ البنوك كان يتم تغذية هذا الهوس بالتوسع اللانهائي في الائتمان الشخصي، وهكذا فالتوسع في وسائل الدفع ليس بالضرورة أن يتم داخل النظام المصرفي ولكن هناك وسائل عديدة للتوسع في الائتمان خارج إطار النظام المصرفي خاصة الائتمان الشخصي، ومادام هناك حافز للمضاربة، فسيظل الائتمان الشخصي مصدرا مهمًا لتمويل هذا الرواج في المضاربة.

والرغبة في المضاربة تتحول إلى طلب فعلي على السلع والأصول المالية، وبعد فترة زمنية فإن الزيادة في الطلب تمارس ضغوطا

Manias, Panics, and Crashes:
A History of Financial Crashes
هوس، هلع.. وانهيار..
دراسة في تاريخ الأزمات المالية
Charles P. Kindleberger
John Wiley & Sons, 2000 (4th Edition)

.. دراسة فى تاريخ الأزمات الاقتصادية

«هذا كتاب ممتع
ويصدق عليه ما قاله بول سامولسون
الحائز على جائزة نوبل فى الاقتصاد عام ١٩٧٠ من أنك قد تكون مضطرا لركل
نفسك أكثر من مرة إذا فاتتك قراءة
وإعادة قراءة هذا الكتاب»

على الطاقة الإنتاجية المتاحة للسلع وعلى عرض الأصول المالية مما يترتب عليه ارتفاع فى أسعارها، هذا الارتفاع فى الأسعار يخلق فرصا جديدة للربحية مما يترتب عليه جذب مستثمرين جدد، وينتج عن ذلك آلية تغذية راجعة حيث يؤدى الاستثمار الجديد إلى زيادة الدخل وهو ما من شأنه تنشيط ودفع استثمارات جديدة ومن ثم الزيادة فى الدخول وهذه هى المرحلة التى وصفها كندلبرجر بمرحلة النشوة، وهى الإفراط فى التفاؤل، والمضاربة لارتفاع الأسعار تضيف إلى الاستثمار الموجه لزيادة الإنتاج والمبيعات وإذا استمرت هذه العملية فإنها تؤدى إلى «الإفراط فى التجارة»، كما وصفها آدم سميث ومعاصروه.



ومفهوم الإفراط فى التجارة Over-Trading مفهوم غير دقيق وغير واضح إذ يتضمن مجرد المضاربة بهدف رفع السعر، أو الغلو فى تقدير العائد المتوقع، أو الإفراط فى المديونية، والإفراط فى التجارة على مستوى الوحدة الإنتاجية معناه توسع الوحدة الإنتاجية إلى درجة لا تسمح بها الموارد المتاحة لديها. والمضاربة تنطوى على الشراء بهدف البيع بدلا من الاستخدام (الاستهلاك) فى حالة السلع أو البيع بدلا من الدخل (العائد) فى حالة الأصول المالية، وحينما ترى الشركات والأفراد أن الآخرين يحققون أرباحا من المضاربة عن طريق الشراء وإعادة البيع فإنهم يفعلون بالمثل طبقا للميل للمحاكاة والتقليد «القرد يرى، القرد يفعل»، وحينما يزداد عدد الشركات والأسر (العائلات) التى تقوم بهذه الممارسات وما يترتب عليه من دخول قطاعات من السكان كانت بطبيعتها بعيدة عن هذا المضمار فإن المضاربة من أجل تحقيق الأرباح الرأسمالية تؤدى إلى الانحراف عن النمط الرشيد للسلوك المعتاد إلى ما يمكن تسميته بالهوس ويسميه البعض بالفقاعة، وإن كنا نرى أن الفقاعة قبل انفجارها أو فرقعتها هى تراكم هذا الهوس. ويطلق البعض خطأ على دخول هذه الفئات الجديدة إلى طابور المضاربة ديمقراطية السوق، أى دخول أناس هواة لا علاقة لهم بالسوق وقواعده وفهم آلياته مما يترتب عليه حدوث هذا الانحراف. ويرى البعض أن الفقاعة هى انحراف عن الأساسيات سواء إلى أعلى أم إلى أسفل حيث تؤدى إلى الفقاعة السالبة أى الانفجار وهو الانهيار، وتحركات الأسعار الصغيرة حول القيم الأساسية يطلق عليها الضوضاء، أما فى هذا الكتاب فإن الفقاعة هى الحركة المستمرة إلى أعلى للأسعار عبر فترة ممتدة من الزمن.

وإذا استمر الرواج والانتعاش المبنى على المضاربة فإن أسعار الفائدة، وسرعة تداول النقود، والأسعار تستمر جميعا فى الارتفاع، وفى مرحلة معينة يقوم بعض المستثمرين المطلعين على بواطن الأمور أو العارفين ببعض الأسرار الداخلية للسوق بجنى أرباحهم وبيع أصولهم أو ما لديهم من سلع، أى يتجهون نحو الانسحاب من

هوس.. هلع.. انهيار

السوق، وفى ذروة السوق هناك نوع من التوازن بين الداخلين الجدد إلى السوق وبين المنسحبين العارفين ببواطن الأمور، وهكذا تستقر الأسعار وتتجه نحو الثبات النسبى أو تتوقف حركة الارتفاع ويبدأ التراخى. ويعقب ذلك فترة تسودها الضغوط والمحن المالية، وهو مفهوم يأتى من موضوع تمويل الشركات حينما تبدأ الشركة بالتخوف من احتمال عدم قدرتها على سداد التزاماتها والوفاء بها. أما بالنسبة للاقتصاد ككل فهو انتشار الوعى لدى جزء مهم من مجتمع المضاربين بتصاعد الاتجاه الضاغط نحو السيولة - أى للخروج من الأصول المالية الأخرى والتوجه نحو السيولة النقدية وهو ما سوف تترتب عليه آثار مدمرة على أسعار السلع والأصول المالية والعينية بحيث يصعب على بعض المدينين سداد ديونهم. وإذا استمرت المحنة يتحقق المضاربون سواء بالتدريج أو بشكل مفاجئ من أن السوق لن تتجه نحو الارتفاع وأن الأوان قد آن للانسحاب من السوق، والسباق والتسابق لتحويل الأصول الحقيقية أو المالية طويلة الأجل إلى سيولة نقدية سوف يتولد عنه الهلع أو الذعر.

والمؤشر الذى يسبق الأزمة أو الإشارة المحددة التى تسبق الأزمة قد تتمثل فى فشل بنك أو شركة مهمة ضعفت سيولتها، اكتشاف أو الإفصاح عن عملية نصب واحتيال كبيرة أو عملية اختلاس بواسطة شخص يحاول تفادى المحنة والهروب منها بطرق ملتوية وغير قانونية أو بصورة أدق بطرق غير شريفة، أو انخفاض حاد فى أسعار بعض موضوعات المضاربة كان هناك شعور سائد وقناعة بارتفاع أسعارها أكثر من اللازم.

وحينما يستمر الهجوم نحو السيولة النقدية تنخفض الأسعار (أسعار الأصول والسلع موضوع المضاربة) وتزداد الإفلاسات، وقد تقوم البنوك باستدعاء قروضها، وقد يلجأ البعض إلى تصفية أوضاعه مما يدفع الأسعار نحو مزيد من الانخفاض ويجعل البنوك تحجم عن الإقراض بضمان هذه السلع والأصول، وتتحول هذه الحالة إلى هلع إذا ذاع الاعتقاد بأن السيولة النقدية المتاحة غير كافية لإشباع كافة الطلبات عليها لمن يريد البيع فتتجه الأسعار نحو الانخفاض الحاد. وهذا هو الانهيار أى انفجار الفقاعة. وينطوى الهلع على تغذية ذاتية كما هو الحال فى المضاربة، ويتمثل الهلع كما يقول المثل الألمانى (الباب - مغلق - ذعر) فى قيام الناس بالازدحام على الباب محاولين الدخول منه قبل إغلاقه. وتتوقف التغذية الذاتية للهلع كما هو الحال فى المضاربة حين يحدث واحد من ثلاثة وهى: ١) انخفاض الأسعار إلى الدرجة التى تغرى المستثمرين نحو العودة إلى الأصول غير السائلة: ٢) وقف التداول بوضع حدود على انخفاض الأسعار، أو إغلاق البورصة، أو وقف التداول: ٣) وجود مقرض أخير قادر على إقناع السوق أن السيولة سوف تكون متاحة وبكميات كافية.

وتجدر الإشارة إلى أن مرحلة النشوة وما يعقبها من مرحلة الهوس إنما هى بيئة مواتية لعمليات النصب والاحتيال والاختلاس وكافة أنواع الجرائم المالية التى قد يكون من شأنها تفجير الأزمة.

ب - الهوس: Mania

كلمة هوس فى هذا الكتاب تعنى فقدان الصلة بالواقع أو البعد عن الرشاد، وهو شيء



قريب بشيوع الهستيريا لدى الجماعة أو عدم العقلانية. وهو مفهوم يتم استخدامه بصورة متكررة فى التاريخ الاقتصادى المليء بهوس القنوات المائية، هوس السكك الحديدية، هوس الشركات المساهمة، هوس الأراضى، هوس أسهم التكنولوجيا، ومجموعات أخرى. ومع ذلك فإن العلوم الاجتماعية بصورة عامة تتبنى فرضية أن الرجل أو الرجال يسلكون سلوكا رشيدا، فكيف يمكن التوفيق بين سلوك الفرد الرشيد وسلوك الجماعة غير الرشيدة. وماذا نعنى بأن الأسواق رشيدة؟ هل من المفروض أن أغلب الأسواق تسلك سلوكا رشيدا فى أغلب الأوقات، أو أن كل مشارك فى السوق لديه ذات مستوى الذكاء، وذات المعلومات، وذات الأهداف، وذات النموذج الاقتصادى فى ذهنه حينما يتخذ قراره، أو أن كل الأسواق تعمل برشاد كل الوقت؟ والرشاد هو فرضية مسبقة عن السلوك الإنسانى وليست وصفا للعالم. وتبنى كندلبرجر صيغة توفيقية وهى أن الأسواق تعمل أو تسير برشاد أغلب الأوقات ولكنها أحيانا تفشل.

وما تجدر الإشارة إليه هو أن فرض رشاد الأسواق ورشاد السلوك معناه طبقا لميلتون فردمان أن المضاربة لن تؤدى إلى عدم الاستقرار وأن المضارب المتسبب فى عدم الاستقرار «الذى يشترى حينما ترتفع الأسعار ويبيع حينما تنخفض الأسعار» لن يوجد. وقد انتقد كندلبرجر هذه الحجة بالرجوع إلى العديد من الأمثلة التاريخية بدءا من هوس شركة السوث سى وشركة الميسيسيبى فى القرن الثامن عشر. وهو يؤكد بأمثلة متعددة ارتباط الهوس بعدم رشاد السلوك بين العامة أو الهستيريا التى تمثل انحرافا مؤقتا عن السلوك الرشيد، وهو يشير إلى أمثلة عديدة مثل أثر المحاكاة الذى يدفع الدول النامية لتبنى أنماط استهلاكية لا تتلاءم وقدراتها الإنتاجية، وما يطلق عليه فى علم الاقتصاد «أثر دينرنبورى» وهو رفض تخفيض الاستهلاك حينما ينخفض الدخل أسوة بزيادة الاستهلاك مع زيادة الدخل، أو ما هو معروف بأثر المزفة Bandwagon Effect وهى الانضمام إلى زفة العروس واللحاق بها والتصفيق مع المصفقين وهو يؤدى إلى تقليد أنماط الاستهلاك للطبقات العليا ظنا أن ذلك سيؤدى إلى الانضمام الاجتماعى إليهم. وأشار كندلبرجر إلى موجات الإفراط فى التفاؤل أو النشوة Euphoria التى يعقبها موجات فى الإفراط فى التشاؤم حيث تتحول الأولى إلى هوس وتتحول الثانية إلى هلع. وفى ظل الهوس يسلك الأفراد والمؤسسات المالية وغير المالية سلوكا، كان لا يمكن قبوله بأى حال فى ظل طقس أكثر عقلانية. أما عن أمثلة متعلقة بالحدود الفاصلة بين الرشاد وعدم الرشاد فى السلوك فيشير كندلبرجر إلى أربع حالات تتعلق بأثر دينرنبورى، منحنى عرض العمل المائل إلى الخلف (أثر جون بول)، الرواج والانتعاش فى السوق الدولية للقروض المشتركة للدول النامية ١٩٧٠ - ١٩٨٢، الاستناد أحيانا فى السلوك إلى نموذج رشيد ولكنه النموذج الخطأ.

ويرى كندلبرجر أن المضاربة تمر بمرحلتين تمثلان تطورها، المرحلة الأولى يمكن تسميتها بالمرحلة العقلانية للاستثمار حيث يستجيب القطاع العائلى، الشركات، والمستثمرون وكافة اللاعبين فى السوق إلى «الصدمة» بأسلوب رشيد ومجرد، أما فى المرحلة الثانية فإن الأرباح الرأسمالية تلعب دورا فعالا فى تحريك التوجهات. فى المرحلة الأولى الرغبة هى فى سعر الفائدة، العائد أو الدخل المرتفع، ولكن هذه الرغبة ما تلبث أن تأتى فى المرتبة الثانية، إذ أن هناك شهية وشهوة الوصول إلى مكاسب كبيرة من بيع الأصل وقد أعطى كندلبرجر لتأكيد هاتين المرحلتين أمثلة من المضاربة على الأراضى فى ثلاثينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر فى الولايات المتحدة، والمضاربة على أسهم السكك الحديدية ومشروعاتها قبل ١٨٣٥ فى بريطانيا وبعد ١٨٣٥، وكذلك مرحلتا المضاربة على أراضى البناء فى فيينا فى سبعينيات القرن التاسع عشر. ويرى المؤلف أن المرحلتين تثيران قضية مجموعتين من المضاربين، هؤلاء الذين يعلمون من الداخل والمطلعين على الأسرار وبواطن الأمور، وهؤلاء القادمون من الخارج أو الزائرون أو الضيوف، أما الفئة الأولى من المضاربين فهم الذين يدفعون الأسعار إلى أعلى ويلعبون دورا فى عدم استقرار السوق ويقومون بالبيع إلى الزائرين أو الواقفين فى الخارج حينما تصل السوق إلى ذروتها محققين بذلك أرباحا طائلة، أما الآخرون أو الفئة الثانية فهم الذين يشترون حينما تصل السوق إلى ذروتها ويبيعون حينما تصل السوق إلى القاع أى حينما يقوم المطلعون بدفع حركة السوق إلى أسفل، ولا شك أن مكاسب هؤلاء تساوى خسارة أولئك. ويشير الكتاب إلى العديد من الأمثلة التاريخية بدءا من ١٨٦٩ أيام هلع الذهب وحتى يوم الاثنين الأسود فى أكتوبر عام ١٩٨٧ ليؤكد هاتين المرحلتين لعملية المضاربة والاستثمار.

أما عن موضوعات المضاربة فقد تكون العملات المعدنية (١٦١٨ - ١٦٢٣) وقد تكون الأزهار النادرة مثل التيوليب أو المنازل الفاخرة (١٦٣٦ - ١٦٤٠)، أو دين الحكومة البريطانية (أمستردام ١٨٦٣) وقد استعرض الكتاب مئات الأمثلة من التاريخ على موضوعات المضاربة مثل المواد الأولية، والأسهم والسندات لكافة أنواع الشركات محلية وأجنبية، وأراضى البناء، والأراضى الزراعية، والأسواق المركزية، والمنازل الفاخرة، ومجمعات المساكن والشركات والعملات الأجنبية، والأوراق المالية والتجارية، وقد أشار الكتاب إلى تاريخ استخدام هذه الموضوعات للمضاربة وموقعها الجغرافى وذلك منذ القرن السابع عشر وحتى نهاية التسعينيات من القرن العشرين.

ج - تأجيج النار: (التوسع النقدى)

يتسارع إيقاع المضاربة من خلال التوسع النقدى عن طريق التوسع فى الائتمان، وقد تبدأ موجة هوس المضاربة نتيجة لتوسع ائتمانى ونقدى فى البداية، ويستطيع الإنسان أن يعود إلى الوراء ويتابع بعض أنواع الهوس التى حدثت وانتهت إلى أزمة انهيار ليعرف أين يكمن الخطر والخطأ. فالمتتبع للأزمات بدءا من هوس التيوليب (١٦٣٦ - ١٦٣٧) وهوس شركة سوت سى فى إنجلترا (١٧١٩ - ١٧٢٠) وشركة المسيسيبى فى فرنسا(١٧١٩ - ١٧٢٠) بجانب الأزمة الهولندية ١٧٦٣، وأزمة الثلاثينيات من القرن التاسع عشر ورواج الخمسينيات من القرن التاسع عشر، يرى أنها قد استندت جميعا إلى التوسع النقدى من خلال التوسع فى الائتمان، وكذلك فإن توسع إنشاء البنوك فى كل من إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة ومؤسسات بيوت المقاصة وبيوت الخصم كلها ساعدت على التوسع النقدى خلال القرن التاسع عشر، كما شهدت العشرينيات من القرن الماضى التوسع فى نظام البيع بالتقسيط وسوق النقود الحالة أو تحت الطلب الذى ساعد على تمويل انتعاش سوق الأسهم قبل أزمة عام ١٩٢٩، وتؤكد كل من أزمة المكسيك ١٩٩٤ وأزمة دول شرق آسيا ١٩٩٧ أن التوسع النقدى وانفكاك الائتمان كان هو العامل الحاسم فى تأجيج نار الأزمة. وبلغ التوسع فى الائتمان المصرفى مداه خلال السنوات ١٩٧٧ - ١٩٨٢ حينما كانت الأصول العقارية والمالية (الأسهم) تباع فى سوق المناخ بالكويت (السوق غير الرسمية) بناء على شيكات آجلة وصلت إلى بلايين الدينارات (٢٢ بليون دينار) ولم يكن هناك ضرورة لوجود رصيد مقابل فى حساب البنك لإصدار شيك آجل لأن المستفيد كان يتوقع وجود الرصيد حين يحل الأجل وقد حدث الانهيار حينما تقدم بعض المستفيدين لصرف شيكاتهم حين حلول الميعاد فلم يجدوا رصيدا.

ويشير كندلبرجر إلى أنه فى تاريخ النظرية النقدية كانت هناك معركة مستمرة بين ما يعرف قديما بمدرسة العملة «٢» ومدرسة البنوك أو المصارف «٣» وهى الأسماء التى عرفت بها هاتان المدرستان حينما انفجر الحوار بينهما بعد عام ١٨١٠ حول تقرير المعادن، مدرسة العملة تقابل اليوم مدرسة النقوديين ومدرسة البنوك تقابل اليوم المدرسة الكينزية، الأولى ترى عدم التوسع النقدى وضرورة تثبيت عرض النقود أو على الأكثر تحديد معدل نمو ثابت للمعروض النقدى، فى حين أن مدرسة المصارف ترى ضرورة التوسع النقدى فى بداية عملية الانتعاش والرواج لإعطاء الدفعة الأولى. وقد أيقنت مدرسة العملة الحاجة إلى حدود عليا على زيادة المعروض من النقود ويتمثل ذلك فى تحديد حدود عليا على معدل نمو النقود، والمشكلة التى أثيرت هى أن النقود اصطلاح من الصعب تعريفه فهو مفهوم مراوغ من الصعب تحديده بدقة أو كما قال والتر باجيهوت «أن النقود من الصعب تعريفها ومن السهل عدها»، ويؤكد التاريخ الاقتصادى أنه فى كافة الحالات التى حاولت فيها السلطات النقدية تحديد كمية النقود بشكل مطلق أو تثبيت معدل نموها فإن نشوة الانتعاش وفورة الرواج تدفع دائما إلى كمية أكبر بكثير، والنظام الاقتصادى فى ظل موجة الهوس يبحث عن وسائل جديدة لزيادة الائتمان ومن ثم عرض النقود. ففى الدول المتقدمة يوجد عدد غير محدود من المؤسسات المالية المصرفية وغير المصرفية وكذلك العديد من الأصول السائلة التى تمثل بديلا قريبا

للنقود بحيث يمكن حيازتها وهى أقل منها حينما تأتى لحظة الدفع.



والمشكلة لا تتوقف عند حدود توسع الائتمان مع نشوة الانتعاش والهوس، لكن هذا التوسع يأتى مصحوبا دائما بتدنٍ فى مستوى الدين فمع التوسع فى الائتمان يتم الانتقال فى تمويل المشروعات من تلك الأقل خطورة إلى الأكثر خطورة أو التى ترتفع درجة مخاطرها، وفى التمويل التجارى والشخصى يتم بالضرورة مع التوسع فى الائتمان الانتقال إلى من هم أقل جدارة ائتمانية حسب تصنيف عملاء البنك، بمعنى آخر مع التوسع فى الائتمان ترتفع بالضرورة درجة مخاطر هيكل الأصول للبنك أو الشركة المالية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ففى حالة الرواج والارتفاع المتواصل فى أسعار الأصول، فإن منح الائتمان بضمان هذه الأصول يصبح أكثر سهولة بل تتخطى قيم الضمانات حجم المديونية الممنوحة وهو ما يخلق اطمئنانا اصطناعيا لدى المؤسسة المانحة للائتمان، وفى ظل الهوس بالرواج تصبح المؤسسات المالية أكثر تراخيا وأقل شدة فى تطبيق القواعد المصرفية المتعارف عليها فى منح الائتمان أى تصبح أكثر سهولة. ويشير الكتاب إلى مثال سندات الخردة Junk Bonds على أنها مثال لتدنى نوع المديونية مع انتعاش سوق السندات فى الثمانينيات، وهى سندات تصدرها شركات تقع جدارتها الائتمانية أسفل درجة «مستثمر» طبقا للتصنيف الذى تقوم به أكبر مؤسستين عالميتين هما موديز وستاندارد آند بور، فهى سندات ذات مخاطر عالية وبالتالى يرتفع عائدها.

وعند حدوث الانهيار الحاد فى أسعار الأصول، أى عند انفجار الفقاعة، تنخفض قيم ضمانات القروض، وقد تقوم البنوك باستدعاء قروضها، ويتعثر المدينون عن السداد وترتفع نسبة الديون غير المنتظمة فى المحافظ الائتمانية للبنوك وهو ما يدفع البنوك إلى الإحجام عن منح ائتمان جديد أو التشدد فى شروط منحه حتى للمدينين ذوى الجدارة المقبولة مما يحول دون تشغيل طاقاتهم الإنتاجية وتوليد التدفقات النقدية التى تمكنهم من سداد ديونهم فيتعثرون وقد يعلنون إفلاسهم...الخ، وهكذا يدخل الجهاز المصرفى فى حلقة مفرغة.

وقد أشار الكتاب وبنوع من التفصيل إلى بعض الأدوات المستخدمة والتى يمكن عن طريقها التوسع فى الائتمان على أساس قاعدة نقدية ثابتة مثل الكمبيالات، فأوراق البنكنوت وهى وعد بالدفع عند الطلب، والكمبيالة هى ورقة تجارية تتضمن أمرا من شخص يسمى الساحب إلى شخص آخر يسمى المسحوب عليه بأن يدفع لشخص ثالث مبلغا معينا فى تاريخ معين أو قابل للتعيين، والكمبيالة يمكن خصمها لدى البنوك حيث تتحول إلى أوراق بنكنوت ويمكن تداولها كأداة إبراء عن طريق تظهيرها ولها قوة الإبراء كالنقود، وقد تحوى الكمبيالة خمسين أو ستين تظهيرا. وتثار المشكلة عندما تنفلت نسبة الدين فى شكل كمبيالات إلى ثروة المدين وهو ما يمكن أن يحدث فى فترة الهوس، ويكتب جون بول عام ١٨٥٧ عن شركات برأس مال ١٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى فى حين بلغت مديونيتها ٩٠٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى، وفى عالم اليوم هناك مثال «صندوق المخاطر» المعروف باسم لونج تيرم كابيتال مينجمنت (LTCM) وهو صندوق مخاطر تم إنقاذه بواسطة بنك الاحتياط الفيدرالى فى سبتمبر عام ١٩٩٨ حيث بلغت قاعدته الرأسمالية ٥ بلايين دولار فى حين بلغت مديونيته ١٢٥ بليون دولار من البنوك وبيوت الاستثمار وصناديق المعاشات، وهى نسبة ١:٢٥ فى حين أن النسبة المعتادة لا تتعدى ١:١٠ وفى القرن الثامن عشر كما يشير الكتاب هناك العديد من الشركات التى ضاربت بما يزيد على ٢٠ ضعف رأس مالها خلال رواج ١٧٦٣.



أما المثال الثانى للتوسع فى الائتمان فيتمثل فى النقود تحت الطلب أو الودائع تحت الطلب «Call Money» وقد لعبت هذه الأداة دورا فى أزمة عام ١٨٨٢ وأزمة عام ١٩٢٩ وهى حالة كلاسيكية للهوس الذى تم تمويله بواسطة الودائع أو النقود تحت الطلب، وهى نقود تم إقراضها من البنوك إلى السماسرة «تحت الطلب» وهى قروض يمكن استدعاؤها فى أى وقت، وهى عادة لمدة ٢٤ ساعة.

أما المثال الثالث من الإمكانيات اللانهائية المتاحة للتوسع فى الائتمان على أساس قاعدة نقدية ثابتة ولكنها لها الطابع الدولى فتتمثل فى قاعدة الذهب (قاعدة الصرف بالذهب) أو نظام الإضافة إلى الاحتياطات الدولية للبنك المركزى برصيد ثابت من الذهب على أساس أن يحتسب ضمن هذا الاحتياطى حيازة أو رصيد العملات الأجنبية فى مواجهة الدول الأخرى التى تتبنى قاعدة الذهب.

د ـ النصب والاحتيال:

ترتبط الأزمة المالية والتجارية برباط وثيق بأنواع من المعاملات تتخطى حدود القانون والأخلاق مهما بدت لنا هذه الحدود غامضة بعض الشىء، فالميل للنصب والاحتيال والغش يسير موازيا للميل للمضاربة خلال فترات الرواج وحالة الذعر والهلع بتعبيرها الشائع Sauve qui peut أى أنقذ ما يمكن إنقاذه وهو ما قد يدفع إلى مزيد من الغش رغبة فى الإنقاذ، كما أن أحد مؤشرات الهلع قد يتمثل فى اكتشاف عملية غش، أو سرقة، أو اختلاس أو تزوير.

ويشير الكتاب إلى ما يعرف باسم نظام بونزى Ponzi Scheme وهى حيلة كلاسيكية تم تكرارها فى العديد من المرات قبل وبعد تشارلز كارلوبونزى عام ١٩٢٠ وهو الذى أعطاها اسمه. ويتمثل ذلك فى إقامة مؤسسة مالية أو بنك لتلقى الودائع ويقوم المحتال بدعوة الجمهور بوضع ودائعهم فى هذه المؤسسة المحتالة مع وعد بدفع فائدة غاية فى الارتفاع بحيث يتم دفع الفائدة من الودائع النقدية الجديدة فى حين يعيش المحتال عيشة فاخرة من الودائع القديمة. وينهار هذا البناء حينما لا توجد ودائع جديدة كافية وقادرة على تغطية مدفوعات الفوائد على الودائع القديمة، وفى الوقت الراهن يتمنى بونزى الجديد أو الحديث أن يعيش متمتعا بدفء حرارة الشمس فى بلاد جميلة ليس لها قوانين لتسليم المجرمين، وقد وعد بونزى بدفع فائدة نسبتها ٥٠٪ على ودائع لمدة ٤٥ يوما استنادا إلى خطة للمراجحة فى أسواق الصرف الأجنبى، وقد تلقى حوالى ٧,٩ مليون دولار فى حين وجد فى حوزته ٦٠ دولارا عند القبض عليه فى بوسطن عام ١٩٢٠. ويمتد نظام بونزى إلى حالات كثيرة نذكر منها على سبيل المثال سداد القروض القديمة عن طريق قروض جديدة.

وينصب اهتمام الكتاب على الأسواق المالية ومن ثم بالاحتيال والنصب على أصحاب الأسهم أو حاملى الأسهم بواسطة المديرين، النصب على المستثمرين بواسطة المروجين للأوراق المالية بما فيهم السماسرة، بنوك





إن الهوس والهلع والانهيار هى نتاج بيئة تساعد على تفريخ الجشع وحب التملك، والنصب والخداع، وشهوة المال

الاستثمار، والمصدرون للأوراق المالية، والنصب من خلال الأسماء الوهمية على الكمبيالة. ويرى البعض أن الاحتيال هو نتاج للتضخم حيث يحطم ميزانية الأسرة فيدفعها للمخاطرة من أجل البحث عن مصدر للدخل، والحقيقة أن الجرائم المالية يقارن فيها المحتال بين العائد من عملية الاحتيال وبين مخاطر عملية الاحتيال ألا وهو احتمال اكتشافه والقبض عليه وهو احتمال يزيد أو يقل حسب قوة النظام الرقابى والقضائى.



ويرى كندلبرجر أن الاحتيال والنصب يتحددان من جانب الطلب وذلك جريا على قانون كينز وهو أن كل طلب يخلق العرض عليه، خلافا لقانون ساى وهو أن كل عرض يخلق الطلب عليه، ففى أثناء الرواج والهوس تتراكم الثروات ويزداد الأفراد جشعا، وهنا يتقدم النصابون والمحتالون لاستغلال هذا الجشع من أجل الحصول على الثروة وزيادتها ـ والمثل القديم يشير إلى أنه «هناك مغفل يولد كل يوم». والجشع لا يخلق فقط الذين يتم الاحتيال عليهم ولكنه من ناحية أخرى يدفع بعض الهواة إلى ارتكاب جرائم التزوير والاختلاس، والغش وجرائم مالية أخرى.

والاحتيال والنصب كما ذكرنا ينمو مع الانتعاش وفى ظل الهوس به وهى تزداد أكثر أثناء المحنة المالية "Financial Distress" حيث يسود نظام ائتمانى مشدود ـ وهو ما يعنى نظاما ائتمانيا توسع بما لا تسمح به موارده المتاحة ـ وحيث توقفت الأسعار عن الارتفاع واتجهت نحو الهبوط، وحينما يتم اكتشاف النصب والاحتيال تزداد المحنة وهى عادة تسبق حالة الهلع والذعر ثم الانهيار، وفى عام ١٧٢٢ هرب الكسندر نورديز من لندن إلى أوروبا تاركا شركاءه لمواجهة الالتزامات ـ إذا أمكنهم ذلك وطبعا لم يكونوا قادرين ـ والبالغة ٥٥٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى فى صورة كمبيالات مقبولة الدفع مشكوك فيها.

والفقاعة قد تكون احتيالا أو لا تكون، ففقاعة المسيسيبى (١٧١٩ ـ ١٧٢٠) وهى الشركة التى تكونت لتمويل عمليات الاستيطان فى لويزيانا وتطوير التجارة مع الأسبان فى تكساس والجنوب لعب فيها الدور الرئيسى جون لو J. Law وهو مصرفى ومنظر نقودى مع الحاكم الإدارى سيردى بينفل، وكانت مثلا لسوء استخدام الموارد، إذ أعلن عن وعد بتوزيع كوبون للسهم نسبته ١٢٪ فى عام ١٧١٩ ثم ارتفع الوعد إلى ٤٠٪ مما أدى إلى صعود شاهق فى أسعار الأسهم حيث تم تمويل شراء هذه الأسهم بقروض مصرفية بسعر فائدة منخفض. أما شركة سوث سى فقد أسست أساسا لمعالجة ديون الحكومة البريطانية ومنحت احتكار التجارة إلى الإمبراطورية الأسبانية. وقد ارتفعت أسهم هذه الشركة نظرا لزيادة حجم الإقراض من الشركة بضمان أسهمها وكانت القاعدة هى أنه مقابل كل إيداع لأسهم بقيمة ١٠٠ جنيه إسترلينى يمنح المودع قرضا مقداره ٢٥٠ جنيها إسترلينيا.

وفى مراحل لاحقة أصبح ترويج أسهم الشركات لا علاقة له بالواقع كما يشير بذلك المؤرخون والروائيون، فقد تم إنشاء شركات عديدة دون أن تقوم بأى نشاط كما أنشئت سكك حديدية دون طرق أو أحجام يتم نقلها، وبدلا من البناء قام الكثيرون بالمضاربة على أراضى البناء، وتدفع المحنة المالية إلى الغش بغرض تحويل عبء الخسارة إلى الغير.

وأدبيات التاريخ الاقتصادى مليئة بالإدانة للعديد من المقامرين النبلاء والعالمين ببواطن الأمور أى بالأسرار الداخلية للمؤسسات وكان يظن بهم مراعاة الالتزامات المالية كديون شرف ولكنهم على العكس من ذلك اشتهروا «بالكفاءة بالوعد» بالدفع بدلا من دفع اكتتابهم، ومن الأمثلة على ذلك الماركيزدى يوهان مؤسس بنك يونيفرسال الذى كان «إذا كسب يضع المكسب فى يده وإذا خسر فلا يدفع» ويسعى النبلاء إلى الحصول على مقاعد فى مجالس إدارات الشركات الصناعية والبنوك للحصول على معلومات تمكنهم من استغلالها للحصول على مكاسب فى السوق أو بيع هذه المعلومات للغير.



والأشكال المختلفة للجنح المالية كثيرة العدد، بجانب السرقة المباشرة، والكذب، وقول الحقيقة ناقصة، فهناك ممارسات عدة تكاد تقترب من ذلك مثل تحويل الأرصدة المالية من الأغراض المخصصة لها إلى أغراض أخرى، ودفع أرباح من

رأس المال أو عن طريق الاقتراض، تداول أسهم شركة معينة بناء على معلومات سرية داخلية، بيع الأوراق المالية دون الإفصاح عن المعلومات الجديدة، استخدام أرصدة الشركة لإعطائها كقروض إلى مصالح داخلية، والتغيير في دفاتر الشركة ونقل الأموال المخصصة من بند إلى آخر دون أساس محاسبي لذلك.

وهناك رجل أصبح محل إعجاب الكثيرين حيث ارتكب أغلب ما سبق من جرائم عام ١٨٤٦ أثناء ما عرف بهوس السكك الحديدية وهو جورج هدسون الذى شغل فى وقت واحد مدير أربع مناطق للسكك الحديدية، إذ اعتقد أنه فوق القانون الذى رأى أنه ينطبق فقط على منافسيه، وكانت حساباته مغشوشة ومدلسة، وقد حصل على أسهم وأرصدة ملك سكك حديد يورك وميدلاند فى إنجلترا، وقد قام كفرد بالتعاقد مع شركات كثيرة كان يعمل بها مخالفا بذلك قانون الشركات السائد، ورفع عائد السهم فى سكك حديد المقاطعات الشرقية من ٢٪ إلى ٦٪ قبل إعداد البيانات المالية ثم قام بتغيير البيانات ليبرر هذه المدفوعات، كما قام بدفع عائد السهم فى سكك حديد يورك وميدلاند من رأس المال.

ويعتبر عقد العشرينيات من القرن الماضى فى الولايات المتحدة كما يشار إليه دائما «العصر الأكبر للنصب والاحتيال فى التمويل لم ير العالم مثله» ومن أشهر النصابين والمحتالين فى هذه الحقبة التاريخية هارولد راسل سيندر الذى كانت السرقة هى الطريق الذى سلكه للخروج من الخراب الذى وصل إليه فى انهيار سوق الأسهم، وارثرمونتجمرى الذى أعد برنامجا للاستثمار فى العملات الأجنبية يولد عائدا نسبته ٤٠٠٪ فى ستين يوما واحتفظ بأغلبها لنفسه، وغيرهم كثيرون، وأنتج عقد الثلاثينيات من القرن الماضى أمثلة لا يمكن أن تنسى من التزوير والاحتيال يقع على قمتها إفلاس بنك الولايات المتحدة، وشركة كروجرأند تول، والشركة القابضة لتوفير المنافع العامة لغرب الوسط والتى هرب صاحبها «ساموبل إنسل» من المحاكمة. أما النصف الثانى من التسعينيات للقرن العشرين فقد تميز بالانتعاش الكبير إلى درجة إنتاج محصول وفير من عمليات النصب والغش والاحتيال، وسلوكيات عديدة تنطوى على أحكام خاطئة وعلى أخلاقيات محل شك كبير، وقد قدمت الطبعة الثالثة من هذا الكتاب أمثلة صارخة سواء من النصف الأول أو النصف الثانى من الثمانينيات من القرن الماضى وقد حكم بالسجن على العديد من المختلسين بعد محاكمات طويلة. ويحوى الكتاب عينة صغيرة من القضايا.

مثال هذه القضايا قضية البانيا وهى مشروع جذب حوالى بليون دولار، وقد قام على أساس تمويل بونزى أو شبيه بذلك حيث وعد المستثمرين بعائد ٣٠٪ شهريا وانهار هذا المشروع فى يناير ١٩٩٧ فى أعقاب اكتشاف الاحتيال والنصب، ليس فقط هناك ولكن فى دول أخرى من شرق أوروبا شاملة روسيا، وهناك قضية بانكرزترست حيث تم الاعتراف بالجرم فى مارس ١٩٩٩ فى جريمة تحويل ودائع غير مطالب بها كان يجب أن تذهب إلى الحكومة طبقا للقانون السائد، وقد أعاد البنك الأموال ودفع غرامة قدرها ٦٧,٥ مليون دولار أمريكى وقد اتهم بنك أوف أمريكا بسان فرانسيسكو بذات التهمة وقام برد المبالغ ودفع غرامة، وهناك قضية بنيت فندنج جروب (مجموعة بنيت للتمويل) وهى شركة صغيرة فى سيراكيوز(نيويورك) كانت تقوم بتأجير معدات وأدوات مكتبية وقامت ببيع ما مقداره ١,٥ بليون دولار عقود تأجير لحوالى ١٠٠٠٠ مستثمر، وقد استخدمت هذه العقود كضمان للاقتراض من البنوك، هذه الأموال التى تم اقتراضها استخدمت لتمويل نمط معيشة

هوس.. هلع.. انهيار

معينة فاخر لنائب الرئيس الأول للشركة شاملة المقامرة بهذه الأموال التى منىَ فيها بخسارة كبيرة وأفلست الشركة فى عام ١٩٩٥، وهناك روبرت.ب. برنان الشهير وهو رجل خير من نيوجرسى عاشق لسباق الخيل أنشأ شركة نيوجيرسى للأوراق المالية، وقد تم اتهامه بأنه احتال ونصب على المستثمرين خلال الفترة من ١٩٨٨ ـ ١٩٩٥ بحوالى ٣٠٠ مليون دولار باستخدام تكتيكات عجيبة وباللعب فى الدفاتر وقد تم تسوية الاتهام بالغش فى الأوراق المالية ودفع حوالى ١٠٠ مليون دولار إلى بلدية نيوجيرسى وشطب من سجل المتداولين فى الأوراق المالية.

ولا يفوتنا ذكر شركة بركس إكس مينرال ليمتد ونائب رئيسها جون فيلدرهوف حيث تم توجيه التهمة لهما فى ١١ مايو عام ١٩٩٩ بالتجارة بناء على أسرار داخلية وبالغش والتزوير بالإعلان عن اكتشاف منجم ذهب فى إندونيسيا أدى إلى صعود أسعار أسهم الشركة صعودا فلكيا وحدث الانهيار حينما تأكد عدم وجود المنجم. ومن القصص الطريفة أيضا قصة«ديوا بوندترادر» أو تاجر سندات ديوا فقد اعترف تاكاشى فرجيساوا فى سيرته الذاتية أنه قد خسر حوالى ١,١ بليون دولار فى تجارة السندات الأمريكية خلال أحد عشر عاما حتى عام ١٩٩٥. وقد حاول تغطية هذه الخسارة ببيع الأوراق المالية التى يملكها بعض عملائه، وقد حكم عليه بالسجن أربع سنوات وبغرامة ٢,٦ مليون دولار. أما قضية مارفن بى فرنكل فقد اتهم بسلب ونهب سبع شركات تامين ويضاف إليها مؤسسة سانت فرنسيس أوف أسبسى للفاتيكان بما مقداره ٢ بليون دولار تقريبا وقد عاش فرنكل فى جرينتش كينتكت فى منزل فاخر يحيط به ويقوم على خدمته العديد من النساء والكثير من الخدم وفى مايو ١٩٩٩ هرب من الولايات المتحدة وقد تم القبض عليه فى هامبورج بألمانيا.

ويتضمن الكتاب أيضا الإشارة إلى قضية س. جولدمان وشركاه وهو سمسار فى نيوجرسى تم اتهامه والحكم عليه فى ٨ يوليو عام ١٩٩٩ حيث قاد عملية غش وتزوير كبيرة فى الأوراق المالية كلفت بعض المستثمرين ١٠٠ مليون دولار. ويشير الكتاب أيضا إلى فضيحة وزارة المالية والبنك المركزى اليابانى حيث تم فى مارس عام ١٩٩٨ الكشف عن سلسلة من الفضائح متعلقة ببعض المسئولين الكبار الذين يقومون بإخطار البنوك بمواعيد التفتيش القادمة. وقد تم القبض على أربعة من هؤلاء المسئولين فى حين قام رئيسهم بشنق نفسه، وفى مارس عام ١٩٩٨ استقال محافظ البنك المركزى اليابانى متحملا مسئولية اثنين من العاملين بالبنك قاما بكشف الأسرار المتعلقة بالسياسة النقدية، وهناك الفضيحة المالية لهنرى ليونز الرئيس السابق لمؤتمر الناشيونال بابتست والذى حكم عليه بالسجن ٥ سنوات فى يونيو عام ١٩٩٩، ولا يفوتنا أن نشير إلى قضية شركة سوميتومو الشهيرة، إذ أعلنت فى سبتمبر عام ١٩٩٦ أن أحد موظفيها ويدعى ياسو هماناكا قد ترتب على سلوكه تراكم خسارة من تداول المشتقات فى سوق النحاس بلغت ٢,٦ بليون دولار بدلا من ١,٨ بليون دولار والتى أعلنت قبل ذلك فى شهر يونيو عام ١٩٩٦، وقد أعلنت الشركة فى يونيو عام ١٩٩٩ أنها ستقاضى بنك سويسرا المتحد مقابل ٢٣٠ مليون دولار، وبنك تشيس منهاتن مقابل ٥٣٢ مليون دولار، وكانت قد قاضت بنك جـ. ب. مورجان، وبلغت قيمة القضايا لمورجان وتشيس مانهاتن حوالى بليون دولار ـ وذلك لقيام هذه البنوك بإقراض هماناكا بالرغم من علمهم أنه ليس لديه السلطة لإلزام الشركة، وفى مارس عام ١٩٩٨ تم الحكم على هماناكا بالسجن ٨ سنوات فى طوكيو.

وقد تساءل كندلبرجر عما إذا كانت العقوبات فى هذه الجرائم الخاصة بالنصب والاحتيال والغش والتدليس والتزوير والاختلاس المالى كافية أم لا؟ وهو لا يحاول الإجابة عن هذا السؤال لأنه يقع خارج نطاق دراسته وإن كان يشير إلى قيام أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى أيام أزمة شركة سوث سى (١٧١٩ ـ ١٧٢٠) باقتراح أن ينظر إلى المتهمين فى هذه الشركة على أنهم من قتلة الأبوين وتطبيق العقوبة التى قررها الرومان لهذه الجريمة وهى وضع المجرم فى شوال مع قرد أو ثعبان ويلقى فى البحر.

هـ ـ المرحلة الحرجة:

فى النموذج الذى سار عليه الكتاب لتتبع تاريخ الأزمات المالية يسير الترتيب كالتالى، الصدمة فالنشوة، فالهوس، فالمحنة، فالهلع، فالانهيار، وهو نمط فى التتابع لا يختلف عن ذلك الذى أشار إليه لورد أوفر ستون أحد رواد البنوك فى منتصف القرن التاسع عشر اقتبسه ووافق عليه والتر باجيهوت وهو: هدوء، تحسن، ثقة، انتعاش، هياج، إفراط فى التجارة، تشنجات، ضغوط، ركود، ثم هدوء، هذه الصيغة تؤدى إلى مدَ فترة النشوة إلى خمس مراحل وهو غير مستساغ، كما أنها تضع الضغوط تالية بدلا من كونها سابقة للتشنجات أو التقلصات(الأزمة)، إذ تغير الترتيب فإن المحنة والضغوط يتكونان فى فترة تتحول فيها سواء بالتدريج أو بالمفاجأة التوقعات الوردية للرواج لكى تفسح الطريق للتوقعات المتشائمة.

وهكذا يلعب التغير فى التوقعات من حالة الثقة إلى فقدان الثقة دورا محوريا فى سير الأزمة، إلا أن التوقعات فى التاريخ المالى تختلف عما تقول به نظرية التوقعات الرشيدة من أن التوقعات تتغير فوريا استجابة لأحداث محددة. فالتوقعات قد تتغير فوريا وقد تتغير ببطء شديد وفترة المحنة قد تمتد إلى أسابيع أو أشهر أو سنوات وقد تتركز فى عدد محدد من الأيام. وإحدى المؤسسات التى تلعب دورا مهمًا فى التأثير فى التوقعات وتغيير مسارها هى الحكومة. ولذا يرى فردمان أن الحكومة إذا كانت لديها معلومات أكبر من الأفراد فلا بد من الإفصاح عنها، صحيح أن كلمة من العاقل قد تكفى ولكنها أحيانا لا تكفى، ولكن السؤال هو هل تدخل الحكومة قبل الأزمة بالإفصاح عن معلومات أو بالإنذار المبكر يمكن أن يؤثر فى التوقعات وفى سلوكيات الأفراد؟



تتبع الكتاب تحذيرات الحكومة بدءا من أزمات ١٨٢٥ ـ ١٨٥٧، واستمر فى إعطاء الأمثلة حتى أزمة أسواق المال خاصة أسواق الأسهم فى أمريكا فى النصف الثانى من التسعينيات خاصة تصريحات جرينسبان محافظ بنك الاحتياط الفدرالى عام ١٩٩٦ عن الارتفاعات غير المقبولة لأسعار الأسهم وعن تاثير أسعار الأسهم على صياغة أسعار الفائدة إلا أن كل هذه التحذيرات للأسف لم يكن لها صدى ولم تؤثر فى سير حركة التوقعات ولم تقيّد حركة المضاربين فى البورصات.

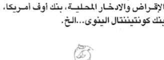
دعنا الآن نناقش حالة المحنة باعتبارها حالة حرجة، فللمحنة معنيان، الأول أنها حالة من المعاناة والثانى أنها موقف ينطوى على مخاطرة كبيرة، والمحنة التجارية تتضمن المعنى الأول فى حين تتضمن المحنة المالية المعنى الثانى، وبالمعنى الدارج تعنى المحنة التجارية وجود حالة انخفاض حاد فى الأسعار والنشاط الاقتصادى وإفلاس العديد من المنشآت الصناعية والتجارية، أما المحنة المالية على مستوى شركة أو مؤسسة واحدة فتعنى أن قدرة المؤسسة على اكتساب الدخل أو توليد التدفقات النقدية قد انخفضت مما يثير احتمالات بعدم القدرة على سداد الالتزامات (الفوائد وأصل الدين) وبالتالى تولد احتمال تدهور المركز الائتمانى، أما المحنة بالنسبة لاقتصاد ما، فهى أمر ينطوى على احتمالات أو توقعات بالمستقبل بدلا من كونها تعبيرا عن حالة فعلية، إنه الهدوء الذى يسبق العاصفة وليس بداية العاصفة.

والمحنة المالية تبدو تعبيرا غير دقيق ولكنها على الرغم من ذلك كثيرة الاستخدام جدا فى مناقشات الأزمات المالية، أما الاصطلاحات التى تصف الحالة أو المهلة بين انتهاء النشوة وبداية ما يطلق عليه الكلاسيكيون التشنجات أو التقلصات فى النموذج الحالى (هلع وانهيار) فهى: عدم الراحة، الخوف، التوتر، الضغوط، الشح، عدم اليقين، الضعف والهشاشة، وتستخدم كثيرا هنا التعبيرات المستخدمة فى علم المترولوجيا، وقد كتب لورد أوفر ستون عام ١٨٤٥ لصديقه جو مونتاجو نورمان محافظ بنك إنجلترا فى أوائل القرن العشرين «لا يوجد لدينا انهيار فى الوقت الحالى ولكنه هاجس بسيط بأن الأرض تتحرك من تحت أقدامنا» وكان ذلك لعامين قبل هلع وانهيار عام ١٨٤٧.

وإذا كانت المحنة Distress حالة موضوعية بالنسبة لشركة واحدة، فلا يمكن النظر إليها باعتبارها كذلك بالنسبة للاقتصاد ككل، والنظرة التاريخية توضح كيف توترت حالة الأسواق حينما انحرفت مؤشرات بعض الكميات الاقتصادية والمالية عن مسارها المعتاد مثل نسبة الاحتياطى للبنوك المركزية، نسبة المديونية إلى الثروة فى القطاع العائلى وقطاع الشركات، نسبة خدمة الدين الخارجى لحصيلة الصادرات وما شابه ذلك، كما قد يحدث وعى وصحوة مؤقتة نتيجة لاقترابنا من سقف بعض الكميات مثل حدود إصدار البنكنوت بواسطة بنك إنجلترا طبقا لقانون البنوك عام ١٨٤٤، والحد الأدنى من الذهب

المطلوب لوزارة الخزانة الأمريكية ١٨٩٣ (١٠٠ مليون دولار أمريكي) والحد الأعلى للإقراض للخزانة بواسطة بنك فرنسا عام ١٩٢٤.

ومن الصعب فصل أسباب الأزمة عن مظاهرها وسماتها ولكنها تتضمن الطلب على سوق رأس المال من أجل السيولة النقدية حينما تشح تلك النقدية، والارتفاع الحاد في الأسعار في بعض السلع والأصول التي كانت محلا للمضاربة، وانتهاء فترة ارتفاع الأسعار يؤدي إلى المحنة حيث تعود كل من المستثمرين والمضاربين على ارتفاع الأسعار وما تنطوي عليه من أرباح ورقية، ومن الصعب جدا في هذه الآونة التفرقة بين التوقف المؤقت في ارتفاع متواصل وبين الوصول إلى الذروة التي بعدها يبدأ النزول. وقد تنشأ المحنة من الاستنزاف الخارجي، مثل محصول سيئ؛ يتطلب زيادة الواردات ومن سياسة نقدية متشددة في الخارج تؤدي إلى جذب رؤوس الأموال المحلية نحوها، عودة العائد على رأس المال الأجنبي إلى بيئته الطبيعية، المهم في كل ذلك أن جوهر المحنة المالية هو فقدان الثقة، ما يأتي بعد ذلك هو انهيار الأسعار، الهلع والتسابق للسحب من البنوك والتسارع للتخلص من الأصول غير السائلة... الخ. ولعل السؤال المهم هو إلى متى تطول المحنة، إذا لم يل المحنة ذعر أو هلع كما هو الحال في فرنسا عام ١٨٦٦، وبريطانيا ١٨٧٣ و١٩٠٧ فإن المحنة المالية سوف تصفي نفسها أي تنتهي ذاتيا وتدريجيا، أما إذا تلت المحنة حالة الهلع فلا يوجد معيار لهذه الفترة أو الفجوة فقد تكون أياما أو شهورا أو أسابيع أو سنين. ويستعرض الكتاب أمثلة عديدة منذ عام ١٨٢٥ وحتى أزمة ١٩٨٧ عن المحن المالية خاصة في الولايات المتحدة في الوقت الحاضر نتيجة لفشل بنوك الإقراض والادخار المحلية، بنك أوف أمريكا، بنك كونتيننتال الينوى...الخ.



والسؤال المهم هو عن ابتداء الأزمة فلا بد أن يتذكر طلبة المنطق المناقشة التي دارت حول المفرقعة التي رماها (أ) لتستقر عند أقدام (ب) ومن (ب) إلى (ج) إلى (د) وهلم جرا لتنفجر بعد أن رماها (و) في وجه (ى). من الملوم في هذه الحالة؟ هل هو (أ) المسبب البعيد أم هو (و) المسبب القريب؟ الأسباب البعيدة للأزمة هي المضاربة والتوسع في الائتمان، والأسباب القريبة هي حدث يترتب عليه فقدان الثقة في النظام المالي والاقتصادي ككل، وهو ما يؤدي بالناس إلى التفكير في مخاطر وعواقب الفشل والانهيار بحيث يدفعهم إلى التخلص مما لديهم من السلع والعقارات والكمبيالات والسندات الإذنية، - أيا كان - هربا إلى السيولة النقدية، ومسببات الأزمة القريبة قد تكون تافهة مثل إفلاس، انتحار، هروب، كشف عملية تزوير أو اختلاس، رفض منح الائتمان لمقترض كبير، تغير في الرؤية أو وجهة النظر تدفع لاعبا كبيرا إلى التخلص من حمولته، فتنخفض الأسعار وتتغير التوقعات وتنقلب توجهاتها، ويتسارع إيقاع هذه الحركة النزولية. وحيث تم تمويل المضاربين بواسطة الائتمان المصرفي، فإن انخفاض الأسعار يؤدي إلى استدعاء البنوك لقروضها لتسوية شروط التمويل بالمارجن أو لتوفير السيولة النقدية، وهو ما يدفع المقترضين إلى تصفية أصولهم وهو ما يؤدي إلى مزيد من انخفاض الأسعار الذي يترتب عليه تعثر القروض المصرفية وهو ما قد يدفع إلى فشل واحد أو أكثر من البنوك أو الشركات المالية أو بيوت الخصم أو السمسرة، يبدو النظام الائتماني مهتزا كمن يقف على رمال متحركة، وهكذا يستمر الاندفاع نحو السيولة النقدية، والكتاب مليء بالأمثلة القديمة والحديثة من القرن الثامن والتاسع عشر وكذلك من أواخر القرن العشرين عن حالات الهلع والانهيار أي الخوف المفاجئ الذي يدفع إلى تصفية الأوضاع والاتجاه نحو السيولة النقدية ثم انهيار الأسعار.

وكما يبدو من الكتاب فالنموذج السابق للأزمة هو نموذج قائم على التغذية الراجعة، إذ يترتب على انخفاض الأسعار، انخفاض في قيمة الضمانات المقدمة إلى البنوك وهو ما يدفع البنوك إلى استدعاء قروضها من ناحية ووقف منح قروض جديدة، مما يؤدي ببيوت التجارة إلى بيع ما لديها من سلع، وقيام القطاع العائلي ببيع ما لديه من أصول مالية (أوراق مالية) وقيام الصناعة بتأجيل الاقتراض وهو ما يؤدي إلى انخفاض أكثر في الأسعار ومن ثم الانخفاض الأكثر في قيم الضمانات مما يدفع إلى مزيد من التصفيات. وإذا فشلت الشركات والمشروعات تتحول القروض المصرفية إلى قروض رديئة وغير منتظمة مما يترتب عليه فشل بعض البنوك، وإذا فشلت البنوك يتجه المودعون نحو سحب ودائعهم بسرعة، وقد كان هذا هو الحال قبل قوانين ضمان الودائع. وسحب الودائع يدفع إدارات البنوك إلى استدعاء قروضها للسداد مما يدفع بكثير من الأصول المالية وغير المالية نحو البيع. وتقوم بيوت التجارة والمستثمرون والشركات الصناعية ببيع أسوأ ما في حوزتهم من أصول إذا أمكنهم ذلك وأفضل ما لديهم من أصول إذا اضطروا إلى ذلك.

و- العدوى: المحلية والدولية

يبدأ الكاتب في معالجة هذا الموضوع بطرح أمثلة من الواقع التاريخي بادئا بأزمة التيوليب أو هوس التيوليب « Tulip Mania » فيما بين (١٦٣٦-١٦٣٧) وقد حدثت في هولندا حين انكمش اقتصادها في العشرينيات من القرن السابع عشر حيث بدأت مرة أخرى الحرب مع أسبانيا بعد توقفها ١٢ عاما، وترتبط أزمة التيوليب بالرواج المرتبط بالحرب. وكان موضوع المضاربة أسهم شركة الهند الشرقية الهولندية، أنواع التيوليب الفاخرة، أنواع التيوليب العادية، العقار والمنازل الفاخرة، والقنوات المائية. ووصلت الذروة في فبراير عام ١٦٣٦ وحدث الذعر والانهيار في فبراير عام ١٦٣٧.

أما العلامة المهمة في العدوى الداخلية فتتمثل في انتقال العدوى من سوق الأسهم إلى سوق العقار والعكس، كذلك أسعار السلع الأولية ويشير كندلبرجر إلى كتاب «مائة سنة من قيم الأراضي في شيكاغو» عام ١٩٣٣ حيث تتبع الكاتب خمس دورات من الرواج والانكماش موضحا العلاقة الوطيدة بين تحركات سوق الأسهم وسوق العقار وذلك في المائة السنة السابقة على عام ١٩٣٠. والأمثلة على هذه الروابط واضحة أيضا في فيينا وبرلين حتى عام ١٨٧٣ حيث ارتبط الرواج في السوقين معا، وانتقال النشوة والهلع من سوق لأخرى أصبح أمرا مفهوما الآن، ولعل المثل الواضح على الارتباط بين سوق الأوراق المالية وسوق العقار ومنها إلى البنوك هو اليابان في السبعينيات والثمانينيات فقد كان مؤشر نيكي للأسهم = ١٠٠ عام ١٩٤٩ ووصل إلى ٥٠٠٠ في أوائل السبعينيات وإلى ١٠،٠٠٠ عام ١٩٨٤ وارتفع إلى ١٢٠٠٠ في عام ١٩٨٦ ثم انطلق في مسار الفقاعة بالغا ٣٩٠٠٠ في نهاية عام ١٩٨٩ قبل انفجار الفقاعة بعام ولم يتأخر كثيرا سوق العقار فالرقم القياسي لأسعار العقار السكني في ست مدن كبيرة بدأ عام ١٩٥٥ = ١٠٠ وصل إلى ٤١٠٠ في منتصف السبعينيات و٥٨٠٠ في عام ١٩٨٠ ثم قفز إلى ذروته عام ١٩٨٩ إلى ٢٠٦٠٠، وتوقفت حركة أسعار العقار عن الصعود حينما انخفض مؤشر نيكي ثم اتجهت بعد ذلك إلى الانخفاض، وقد ساعدت البنوك في تأجيج حمى المضاربة وهوس الأسهم والعقار نتيجة للاتجاه نحو التحرير وإلغاء القيود وحينما تراجعت سوق الأسهم والعقار ظهرت المديونية المتعثرة في البنوك اليابانية التي بلغت حوالي ٥٥٠ بليون دولار أمريكي، ووصل معدل إفلاس الشركات الصناعية أو التجارية حوالي ١٠٠٠ وحدة شهريا، ويقرب من الإفلاس عدد لا بأس به من البنوك.

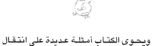




عند انفجار الفقاعة، تنخفض قيم ضمانات القروض، وقد تقوم البنوك باستدعاء قروضها، ويتعثر المدينون عن السداد وترتفع نسبة الديون غير المنتظمة في المحافظ الائتمانية للبنوك وهو ما يدفع البنوك إلى الإحجام عن منح ائتمان جديد

أما عن العدوى الدولية فقد كان التقليد السائد قديما هو توزيع مسئولية الأزمة جغرافيا، ففي أزمة ١٨٣٧ المالية قسم الرئيس جاكسون المسئولية بين بريطانيا والولايات المتحدة، وفي عام ١٩٢٩ اتهم الرئيس هوفر أوروبا باعتبارها مسئولة عن الأزمة وإن اعترف بمسئولية المضاربة في بورصة نيويورك ولكنه اتهم العالم بتهمة الإفراط في الإنتاج للقمح والبن والمطاط والسكر، أي المواد الأولية.

ولكن المهم هو آلية الانتقال فالرواج والمحنة والهلع يتم انتقالها بين الاقتصاديات الوطنية من خلال روابط وصلات متعددة منها آلية التجارة، وآلية انتقال الأموال سواء كانت هذه الأموال في شكل نقدية سائلة أم ودائع أم كمبيالات أم أنواع وأشكال مختلفة من رؤوس الأموال مثل الاستثمار الأجنبي المباشر والاستثمار في المحافظ المالية، وكذلك عملية المراجحة Arbitration تمثل رافدا مهما لانتقال الأزمات، وهناك أيضا القنوات السيكولوجية التي تسبق الإشارة إليها. فالرواج والهلع في دولة يبدو وكأنه يدفع إلى الرواج والهلع في دولة أخرى. وتؤكد الدراسات الحديثة الروابط القديمة بين أسواق الأسهم والسندات في العالم كله خاصة في ظل العولمة. هناك أيضا الروابط السعرية فحينما ارتفع سعر القطن في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر في دولة واحدة انتقل إلى باقي الدول. هناك أيضا تحركات أسعار الصرف وارتباطها بحركة الأسعار المحلية ولعل المثل الواضح على ذلك تخفيض سعر الصرف في الأرجنتين وأورجواي واستراليا ونيوزيلندا في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين وتأثيره على أسعار الغلال في أمريكا وانهيارها وإفلاس المزارعين الأمريكيين وفشل البنوك في المجتمعات الزراعية الأمريكية خاصة عام ١٩٣٠ في ميسوري، إنديانا، الينوى، أيوا، أركانساس.



ويحوى الكتاب أمثلة عديدة على انتقال الأزمة بدءا من فقاعات المسيسيبي وسوث سي حتى أزمة عام ١٩٩٧ في شرق آسيا، فأزمة عام ١٧٢٠ كانت هي الأزمة العالمية الأولى لأن المضاربة فيما بين عامي ١٧١٨ - ١٧٢٠ في فرنسا وإنجلترا كان لها صداها في هولندا وشمال إيطاليا وهامبورج، وأزمة عام ١٧٦٣ شملت كلا من هولندا، هامبورغ، بروسيا، واسكندنافيا، كما امتدت آثارها إلى لندن، وحرب السنوات السبع كانت موجهة ضد فرنسا، ولعبت المضاربة على الأراضي في الولايات المتحدة دورا في الأزمة، وأزمة عام ١٧٧٢ انتقلت من لندن واسكتلندا إلى امستردام ومن ثم إلى استكهولم وسانت بيترزبرج. أما أزمة عام ١٨٢٥ فقد شملت بريطانيا وجنوب أمريكا، وتولدت عنها آثار خارجية مميزة إلى باريس وامتدت حتى تولد الهلع هناك في يناير عام ١٨٢٨، وحينما ظهر الهلع في لندن في ديسمبر عام ١٨٢٥ توقفت المبيعات في أوروبا. والرواج الذي تحول إلى هلع عام ١٨٥٧ كان عالميا وشرحه الكثيرون من المؤرخين الاقتصاديين، اكتشاف الذهب في كاليفورنيا وأستراليا، المحاصيل السيئة نتيجة لحرب القرم وما ترتب عليها من ارتفاع أسعار القمح لكل المزارعين في العالم، وانفجار الهلع يوم الجمعة الأسود في ١١ مايو عام ١٨٦٦ حيث ارتبط بالحرب البروسية - النمساوية عن طريق انهيار أسواق الأسهم الراجعة إلى شائعات الحرب. كذلك فإن قضية ١٨٧٣ معروفة ولا تحتاج إلى رصد حيث حدثت بعض الصدمات المهمة منها افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، خطأ الحكومة الألمانية في تقديم عملة جديدة بدل العملة التي تم سحبها، التفاؤل الشديد المصاحب للوحدة الألمانية تحت قيادة بسمارك، الانهيار في مارس عام ١٨٧٣ في النمسا وألمانيا بعد شهور من المعاناة. ولا يفوتنا الإشارة إلى الأزمة المالية الشهيرة عام ١٩٠٧ والتي توضح

بجلاء الارتباط والتفاعل المتبادل بين الانهيار في الخارج والانهيار في الداخل، حيث بدأت المحنة المالية عام ١٩٠٥ نتيجة المضاربة عن طريق الاقتراض وإفلاس العديد من الشركات. ويعالج الكتاب بالتفصيل أزمة عام ١٩٢٩ وكيف تحولت إلى أزمة عالمية شملت العالم كله، والنموذج الأخير الذى عالجه الكتاب هو أزمة جنوب شرق آسيا عام ١٩٩٧ وانتقالها إلى كل من روسيا والبرازيل عام ١٩٩٨ و ١٩٩٩.

ز- كيفية الخروج من الأزمة:

١- دعها تحرق نفسها: لا إدارة

أول الحلول التى يناقشها كندلبرجر هى تحت عنوان لاحل، أو لا إدارة للأزمة، أو اترك النار تطفئ نفسها، أو دع الهلع ينهى مسيرته التى بدأها. إذ يعتقد أغلب النقوديين وبعض غير النقوديين أن شرور الهلع سوف تخلق حلولها، ومن ثم فإن أفضل الحلول هو ترك الحريق يطفئ ذاته. ويشير أوفرستون أحد أهم رجال البنوك فى إنجلترا فى القرن التاسع عشر أن دعم النظام المالى وقت الأزمة غير ضرورى، لأن موارد النظام من الكبر بحيث تكفى لتوفير القروض وقت الشح لمن هو على استعداد لدفع سعر فائدة مرتفع. ويقتطف أمثلة من أزمة عام ١٨٤٧ حيث ارتفع سعر الخصم فى لندن وتوقف تدفق الذهب إلى الولايات المتحدة. ويرى الكثيرون أن هناك مخاطر عديدة من الدخول إلى السوق لإنقاذه ووقف حالة الهلع قبل الوقت الملائم لذلك، فى حين أن وجهة النظر المعارضة ترى ضرورة التدخل لتطهير الفقاعة من الاستثمارات المتراكمة نتيجة للهوس، وأهم من هذا وذاك هو توفير السيولة وقت الأزمة عند الانهيار، ويعطى كندلبرجر أمثلة عديدة على الأزمات التى تعمقت وتحول الانهيار إلى هاوية نتيجة لصعوبات الاقتراض وقت الأزمة بل استحالة هذا الاقتراض، ومن أمثلة ذلك أزمات عام ١٧٣٦، عام ١٨٢٥، عام ١٨٤٧، عام ١٨٥٧، عام ١٨٦٦، عام ١٨٧٣، عام ١٨٨٣، وعام ١٨٨٤. وفى هذا الصدد لا يفوتنا الإشارة إلى حالة اليابان عام ١٩٩٠ وما بعدها حيث اتجه سعر الخصم نحو الانخفاض حتى وصل إلى الصفر، ومع ذلك لم يتزايد الطلب على السيولة إطلاقا، ومعنى ذلك دخول اليابان فى ما يمكن أن نسميه «بمصيدة السيولة Liquidity Trap»، وذلك لأن البنوك والشركات مقيدة بالقروض المتعثرة، وللتناقض بين طرق وأدوات وسياسات متعددة لمعالجة الأزمة.

٢- التوقف المؤقت:

فى حالة الهلع يهرع المودعون إلى البنوك فى عجلة من أمرهم من أجل سحب أموالهم، أما البنوك فهى ليست فى عجلة من أمرها، وفى الهجوم على البنوك خلال الفترة من عام ١٩٣١ وحتى عام ١٩٣٣ كانت هناك قصص عديدة لبنوك تلكأت ومنحت نفسها الوقت للوفاء بديون المودعين على أمل أن يحدث شىء لعلاج المشكلة خلال فترة التوقف المؤقت، هذا الأسلوب قديم جدا ويرجع إلى القرن الثامن عشر وقد اتبعه بنك إنجلترا عام ١٧٢٠، وهناك أسلوب خداع المودعين وخلق قناعة لديهم بأن البنك سوف يقوم بالوفاء بودائعهم، ففى بعض الأحيان كان بنك إنجلترا يضع فى الصفوف الأمامية أكثر عملائه ثقة ليسلمهم ودائعهم أمام الجمهور ثم يقومون بعد ذلك برد هذه الودائع دون أن يراهم أحد من الباب الخلفى.

٣- الإغلاق الكامل:

إحدى الوسائل لوقف الهلع هو إغلاق

أدبيات التاريخ الاقتصادى مليئة بالإدانة للعديد من المقامرين النبلاء والعالمين ببواطن الأمور، أى بالأسرار الداخلية للمؤسسات وكان يظن بهم مراعاة الالتزامات المالية كديون شرف ولكنهم على العكس من ذلك اشتهروا بالكفاءة بالوعد بالدفع بدلاً من دفع اكتتابهم

السوق، حدث ذلك فى سوق نيويورك للأوراق المالية عام ١٨٧٣ وفى ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١، كما حدث فى لندن وعدد من العواصم الأوربية عند اندلاع الحرب عام ١٩١٤. ويرى البعض أن إغلاق السوق قد يزيد الطين بلة بحيث يزداد الهلع ويتعمق الانهيار، ولذا كانت آخر مرة لإغلاق سوق نيويورك هى عام ١٨٧٣، ومن أشكال إغلاق السوق إعلان إجازة رسمية، وإيقاف إصدار بيانات مالية عن البنوك، ومن الإجراءات المقبولة فى حالة السلع الأولية وضع حدود لتغيير السعر اليومى، أو إعلان موريتاريوم أى وقف سداد الديون أو بعض أنواع الالتزامات مؤقتا، كما حدث فى مصر فى الثلاثينيات.

٤- شهادات بيت المقاصة: Clearing House Certificates

هى وسيلة استخدمت فى الولايات المتحدة قبل إنشاء نظام الاحتياط الفيدرالى، وشهادات بيوت المقاصة هى شهادات تصدرها مؤسسات نشأت فى أمريكا فى منتصف القرن التاسع عشر.

٥- تعاون البنوك فيما بينها:

ويعطى كندلبرجر مثالين على ذلك، الأولى هى أزمة الساتيان عام ١٨٢٨ حيث بدأت بفشل ثلاث شركات للنسيج فى ديسمبر عام ١٨٢٧، وأزمة هامبورج عام ١٨٥٧.

٦- ضمان الالتزامات (المطلوبات):

ويعطى كندلبرجر مثالين على هذا الأسلوب وهو أزمة بارنج فى إنجلترا عام ١٨٣٦ وأزمة لونج تيرم كابيتال منجمنت عام ١٩٩٨ وهى إلى حد ما شبيهة بأزمة بارنج.

٧- النظام الفيدرالى لضمان الودائع: FDIC

منذ عام ١٩٣٤ ساعد هذا النظام على منع سحب الودائع من البنوك فى شكل هجوم أو تزاحم بتقديم ضمان سابق لهذه الودائع أولا فى حدود ١٠٠٠٠ دولار ثم فى حدود ١٠٠٠٠٠ دولار.

وبجانب ما سبق تشمل الحلول التاريخية أيضا إصدار أذونات الخزينة Exchequer Billsوهى وسيلة قديمة جدا وتتمثل فى إقراض شركة تعانى من مشكلات عن طريق إصدار أوراق مالية قابلة للتداول لهذه الشركة على أساس ضمان مقبول، ويبدو استخدام هذه الآلية صعبا وقت الأزمة لصعوبة تسويق حتى أكثر الأوراق سيولة، هذه الأوراق المالية قد تكون خاصة وقد تكون عامة، وكان النوعان جزءا من توليفة مركبة تم تطبيقها فى هامبورج عام ١٨٥٧، أما التطور الواسع فقد كان إصدار أذونات الخزينة فى بريطانيا عام ١٧٩٣ وعام ١٧٩٩ و عام ١٨١١. وقد تحولت هذه الأداة بعد ذلك لتصبح أداة عامة تصدرها الحكومة فقط لتمويل العجز فى الموازنة العامة ولضبط السيولة النقدية. ومن الحلول الأخرى تعديل لوائح البنوك وتقوية أجهزة الرقابة والمتابعة لنشاطها.

ح- المقرض الأخير: محليا ودوليا

فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر تطور فن إدارة البنوك المركزية ومن هذه التطورات خروج مفهوم المقرض الأخير (Lender of Last Resort)وهو تعبير مأخوذ عن الفرنسية (Dernier Ressort) ويعنى به ذلك المستوى القضائى الذى لا يمكن الاستئناف بعده، وقد شاع الاستخدام الإنجليزى وهو استخدام يعطى وزنا أكبر لجانب المقرض وواجباته بحيث يفوق جانب المقترض وحقوقه. والمقرض الأخير يقف دائما على استعداد لوقف هروب المستثمرين من الأصول الحقيقية وغير السائلة إلى السيولة النقدية وذلك بتوفير كميات إضافية من السيولة النقدية، والأسئلة المطروحة فى هذا الصدد هى كم من السيولة؟ ولمن؟ وبأى سعر؟ ومتى؟ وهى أسئلة تؤكد بعض معضلات المقرض الأخير، إلا أنه يجب فى البداية أن تحدد من هو المقرض الأخير؟

والمقرض الأخير ليس هو نتاج العقل الاقتصادى ولكنه نتاج تجربة السوق، فحينما تحدث الأزمة لابد أن تقوم المؤسسة المالية (المقرض الأخير) بتغذية المعاملات التجارية عن طريق توفير كميات كبيرة ورخيصة من الخصم للتخفيف من كثافة وحدة الأزمة.

ولم يكن دور المقرض الأخير محل تقدير من جانب أصحاب النظرية حتى جاء كتاب والتر باجيهوت ولومبارد ستريت عام ١٨٧٣، كما قام سير فرانسيس بيرنج بجذب الانتباه إلى المفهوم عام ١٧٩٧ وقام كتاب هنرى ثورنتون الكلاسيكى عن الائتمان الورقى بتطوير النظرية والحجج المناهضة لها أثناء مناقشته للبنوك الإنجليزية. من هو المقرض الأخير إذن؟

فى بريطانيا لم يكن هناك تحديد صريح أو دقيق لمن هو المقرض الأخير ولا توجد قاعدة ثابتة لمن يقوم بهذا الدور، وقد أعطيت المهمة إلى بنك إنجلترا، وقد قامت وزارة المالية قبل ذلك بهذه المهمة ولكنها انتقلت شيئا فشيئا إلى بنك إنجلترا، كذلك فى فرنسا فإن بنك فرنسا الذى أنشئ عام ١٨٣٠ وافق على تحمل مسئوليات الأزمة، كذلك خبرة الولايات المتحدة تستحق الذكر ويشير إليها الكتاب باستفاضة حيث قامت وزارة المالية بهذا الدور فى البداية بقبول الأوراق التجارية وتوفير الودائع الحكومية...إلخ، ثم تولى بنك الاحتياط الفيدرالى بعد إنشائه هذه المهمة.

إلى من؟ القاعدة المتفق عليها والتى يشير إليها الكتاب هو أن القروض لابد أن تمنح لكل من يتقدم على أساس توافر ضمانات سليمة، أى تمنح للمقترضين المتمتعين بالملاءة وبضمانات جيدة إلا فى حالة استثنائية حتمية، ولدى البنوك المركزية أدوات كثيرة منها تحديد شروط قبول الضمانات، وتغيير فترات استحقاق الكمبيالات، وتخفيض نسبة الاحتياطى.

متى وكم؟ قليل جدا ومتاخر جدا من الجمل الحزينة ليس فقط فى قاموس البنوك المركزية ولكن فى أغلب الأنشطة، والسؤال هو ما هى كمية السيولة النقدية التى يجب أن يوفرها المقرض الأخير، افترض أنه يتدخل فى الأزمة عن طريق عمليات السوق المفتوحة، وقد رأى الكثيرون بما فيهم بنك الاحتياط الفيدرالى فى نيويورك أن توفير ١٦٠ بليون دولار فى أكتوبر ١٩٢٩ ثم إضافة ٢١٠ بلايين دولار فى نوفمبر عام ١٩٢٩ لم يكن كافيا بأى معيار. وكان توقيت قيادة بنك الاحتياط الفيدرالى مثاليا فى التدخل يوم الاثنين الأسود ١٩ أكتوبر عام ١٩٨٧، كذلك المساعدة فى سوق رأس المال فى الولايات المتحدة حينما انهار لونج تيرم كابيتال منجمنت فى سبتمبر عام ١٩٩٨، هذان التاريخان يؤكدان قدرة البنوك المركزية على التعلم، ويمثل التوقيت قضية مهمة فمع تصاعد الانتعاش إلى الذروة فلا بد من إبطائه دون إحداث هلع، وبعد حدوث الانهيار فمن الأهمية الانتظار وقتا كافيا لحين فشل الشركات غير المليئة، ولكن لا يجب الانتظار إلى الدرجة التى يترتب عليها انتقال الأزمة إلى الشركات المليئة والتى هى فى حاجة إلى سيولة، بمعنى آخر لا يجوز «تأجيل موت السباحين الأقوياء».

ولعل السؤال الأهم الذى يطرحه الكتاب ويعالجه بتوسع شديد هو من هو المقرض الأخير على المستوى العالمى؟ لأنه فى ظل عدم وجود حكومة عالمية، وعدم وجود بنك مركزى عالمى، وفى ظل سيادة قانون دولى ضعيف فإن طرح هذا السؤال يعتبر من الأهمية بمكان. ويؤكد التاريخ الاقتصادى أن المركز المالى القيادى فى العالم عادة ما يقدم يد المساعدة للدول الأخرى كما يؤكد التاريخ أنه حينما لا يوجد المقرض الأخير العالمى كما هو الحال عام ١٨٧٣، وعام ١٨٩٠، وعام ١٩٣١، فإن

الانكماش التالى للأزمة المالية يكون بالضرورة طويلا وعميقا، هذا بخلاف الحالات التى توافر فيها المقرض الأخير.

وتوضح خبرة السنوات الماضية أهمية هذه القضية، ولنذكر على سبيل المثال أزمة مديونية العالم الثالث عام ١٩٨٢، وانهيار عملة بعد أخرى كالاسترلينى والليرة الإيطالية عام ١٩٩٢، وانهيار الروبل الروسى فى أكتوبر عام ١٩٩٤ وأغسطس عام ١٩٩٨، وأزمة دول شرق آسيا عام ١٩٩٧/١٩٩٨ وأزمة البرازيل عام ١٩٩٩ فقد تطلب كل ذلك ضرورة التدخل من جانب مقرض أخير.



وقد حاول الكاتب تتبع الأزمات المالية وكيف احتاجت إلى مقرض أخير وأعطى أمثلة عديدة على قيام بنك إنجلترا بأداء دور المقرض الأخير أحيانًا بمفرده وأحيانا بمساعدة بنوك خاصة، وكيف حاولت فرنسا أن تنافس إنجلترا كمركز مالى رئيسى وأعطى أمثلة عديدة للتعاون بين البنوك المركزية، بدءا بأزمة عام ١٧٦٣، وأزمة عام ١٧٧٢ والتعاون بين بنك فرنسا وبنك إنجلترا خلال الفترة عام ١٨٣٦ - ١٨٣٩، ويؤكد كندلبرجر أن التعاون بين البنوك المركزية لم يكن مستحبا عالميا - وهذا التعاون لا ينفى أن لندن ظلت هى المركز المالى حتى عام ١٩١٤.

أما بعد عام ١٩١٤ فلم يكن هناك مقرض دولى أخير فى أزمة عام ١٩٢٠/١٩٢١ وقد عوض النقص جزئيا بنظام سعر الصرف المتغير أو العائم، أما عن انكماش عام ١٩٣١ الممتد فقد كان هناك حاجة لمقرض أخير بطريقة تختلف فى نطاقها ونوعيتها عن الفترات السابقة - ففى يوليو عام ١٩٣٢ خرجت إنجلترا من قاعدة الذهب. ولكن قبل المؤتمر الاقتصادى لعام ١٩٣٣ بحثت لجنة مجلس الوزراء حول المعلومات الاقتصادية والتى كان كينز عضوا فيها فى وظيفة المقرض الأخير. وأوضح تقرير اللجنة عدم قدرة بريطانيا على القيام بهذا الدور. ويقترح التقرير تعديل لائحة بنك التسويات الدولية للقيام بهذه المهمة. وذلك من خلال إصدار الورق الذهبى وهى شهادة دولية مثل حقوق السحب الخاصة التى تم تقديمها بعد ذلك بحوالى ٣٦ عاما. وبدء الأمر فى مايو عام ١٩٣١ بانهيار بنك كريدت إنستالت بفيينا، وانتقل التزاحم على السحب من البنوك إلى ألمانيا حيث ضعف مركز البنوك الألمانية نتيجة للإفراط فى المضاربة، وإلغاء أوراق مالية كثيرة، عمليات الغش والاحتيال، الصراع والتشاحن بين البنوك، دعم البنوك لأسهمها وتخفيف الاحتياطى السائل وهى المشاكل الكلاسيكية المعتادة - ثم جاءت إنجلترا بعد ذلك حيث بدأ التهافت على البنوك فى منتصف يوليو عام ١٩٣١، وقد دفع إليها الخسارة الكبيرة فى أوربا وتمت تغذية الأزمة من خلال تقرير ماى ومكميلان حول عجز الموازنة والتقدير المرتفع للأرصدة الأجنبية فى لندن والمحتمل سحبها. وفى ٥ أغسطس عام ١٩٣١ كتب كينز إلى رئيس الوزراء ماكدونالد لاتخاذ سلسلة من المقترحات لتخفيض الجنيه الاسترلينى وإقامة نظام سعر الصرف الثابت المستند إلى قاعدة الذهب بحوالى ٢٥٪ أقل من سعر التعادل الذى دعيت للمشاركة فيه كافة دول الإمبراطورية (الكومنولث). وقد أثبتت أزمة عام ١٩٣١ ما يلى: ١) عدم قدرة بريطانيا على القيام بدور المقرض الأخير؛ ٢) عدم رغبة الولايات المتحدة للقيام بهذا الدور، هذا بصرف النظر عن الجهد غير الكافى تجاه بريطانيا وهى الدولة ذات العلاقة الخاصة؛ ٣) عدم تحمل الدول الصغيرة للمسئولية.

ومع قرب نهاية الحرب الثانية جاءت اتفاقية بريتون وودز عام ١٩٤٤، ويبدو أن دروس عام ١٩٣١ والحاجة إلى المقرض الأخير لم يتم استيعابها بعد، ذلك أن إنشاء صندوق النقد الدولى لا يشبع الحاجة إلى المقرض الأخير، فلا لائحة الصندوق ولا أهدافه ولا موارده المتاحة تسمح له بالقيام بدور المقرض الخير، ويقوم الصندوق بمساعدة الدول التى تعانى عجزا فى ميزان المدفوعات يمكن تصحيحه بواسطة بعض الإصلاحات المحدودة، ولقد تطلب نظام بريتون وودز القابلية للتحويل بالنسبة للحساب الجارى - التى اكتملت بحلول عام ١٩٥٨ - مع وجود قيود على حركة رؤوس الأموال، بل إن نظام سعر الصرف الثابت الذى فرضه هذا النظام يتطلب وجود هذه القيود على حركة رؤوس الأموال. وقد ثبتت صعوبة الجمع بين هذين الأمرين، وفى عام ١٩٦٠ امتد نظام الصندوق بواسطة الاتفاقية العامة للإقراض، وفى ظلها اتفقت عشر دول مالية كبرى على تقديم ضمانات بحوالى ٦ بلايين دولار بالإضافة إلى ١٤,٤ بليون دولار الخاصة بحصص الصندوق بحيث تصبح متاحة فى حالة حدوث انقلاب مفاجئ فى توجه حركة رؤوس الأموال، وقد ثبت عدم كفاية هذه الأموال. وقد أوضح كندلبرجر كيف أن تدفق الأموال الساخنة أظهر الحاجة إلى سبل جديدة وأدوات جديدة لمواجهتها فى فترة ما بعد الحرب الثانية.





وقد تطور مفهوم المقرض الأخير فى الستينيات متمثلا فى اتفاق بازل ويتطلب ذلك تعاونا دوليا متعدد الأطراف. وحين حدثت أزمة الإسترلينى اجتمعت مجموعة من الدول الكبرى ونظمت قرضا بحوالى ١ بليون دولار لبريطانيا للسحب منه، وجاء صندوق النقد الدولى فى خط الدفاع الثانى، أما خط الدفاع الأول أو المقرض الأخير الأول فيتمثل فى نادى البنوك المركزية حيث نظم ١ بليون دولار لكندا عام ١٩٦٢، ١ بليون دولار لإيطاليا عام ١٩٦٣ و٢ بليون دولار من النادى وصندوق النقد الدولى لبريطانيا عام ١٩٦٤ وارتفع إلى ٣ بلايين دولار، وبليون أخرى من أعضاء النادى عدا فرنسا عام ١٩٦٥، وحزمة أخرى قدرها ٢ بليون دولار لإنجلترا فى أبريل عام ١٩٦٦، ولعبت الولايات المتحدة دورًا مهمًا فى نادى بازل. وقد انهار هذا النظام لأنه تم الاعتماد عليه دون اعتبار لعيوبه وهو تأجيل عمليات التصحيح الضرورية وفقدان الاعتماد على الذات وضعف الحوافز، بجانب خطأ فى فهم كل من ألمانيا والولايات المتحدة لما يجب اتباعه من سياسات نقدية.

وانتقل الكتاب لتناول أزمات عام ١٩٨٢ للمديونية العالمية وكيف تبين أن استفحال الأزمة يرجع إلى عدم وجود المقرض الأخير وعدم إمكانية قيام صندوق النقد الدولى بهذه المهمة، وكانت أزمة المكسيك عام ١٩٩٤ هى التأكيد على أهمية هذا المقرض الأخير، وقد لعب هذا الدور وبكفاءة حكومة الولايات المتحدة بالتعاون مع صندوق النقد الدولى حيث تم ترتيب حزمة إنقاذ (٤٥ بليون دولار) فى أيام محدودة تخطت بكثير حجم الموارد التى تحتاجها الأزمة مما ترتب عليه انتهاء الأزمة فى أيام محدودة، وهو عكس ما حدث تماما فى أزمة جنوب شرق آسيا حيث لم تكف حزمة الإنقاذ لهذه الدول الاحتياجات الحقيقية لمواجهة الأزمة وكان هذا مؤشرًا مهمًا للمستثمرين والمضاربين فى السوق بأن النية غير متجهة نحو حل الأزمة واقتلاعها من جذورها كما هو الحال فى المكسيك. وهكذا تثبت الأيام والأزمات مدى الحاجة إلى هذا المقرض الأخير. ■





إغاثة الأمة بكشف الغمة
تقى الدين المقريزى

يمتاز هذا الكتاب - الذى لا يزيد عدد صفحاته على ٩٢ صفحة - بجدية موضوعه وفرادته، إذ يتناول تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور حتى سنة ٨٠٨هجرية، وهى السنة التى أُلف فيها، والمقريزى فى هذا الكتاب هو المؤرخ المصرى الوحيد الذى تعرض بالبحث لتلك الناحية الاقتصادية والاجتماعية من تاريخ مصر. وهو فى تدوينه لأخبار المجاعات يحاول أن يتقصى أسبابها ويقترح العلاج الاقتصادى الصحيح لها حسب رؤيته. كما يتناول طبقات المجتمع المصرى فى عصره بالتقسيم والتصنيف، وهو فى ذلك قد شابه أستاذه ابن خلدون فى «المقدمة»، فكلاهما كتب فى صميم النواحى الاقتصادية والاجتماعية ماعدا أن كتاب «إغاثة الأمة بكشف الغمة» مقصور على مصر الإسلامية بينما المقدمة شاملة للعالم الإسلامى.

والكتاب يقدم عرضًا لطيفًا للأساليب التى كان أرباب الحكم يطبقونها لتخفيف آلام المجاعات وأمراضها عن الشعب المصرى فى العصور الوسطى.

ولد تقى الدين أبو العباس أحمد بن على المقريزى - حسب بعض الروايات - فى لبنان الحالية عام ١٣٦٤م (٧٦٦هـ) وتوفى عام ١٤٤١م (٨٤٥هـ) وعاصر التحولات التى كانت تجرى فى تلك الفترة فى تاريخ مصر وشغل نفسه بتاريخ مصر بعد أن استقر فيها منذ صباه (وأصبح الدارسون يعتبرونه مصريًا). وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى يناير ١٩٤٠ بتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال محمد الشيال ثم أعادت الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إصدار الطبعة الثالثة لهذا الكتاب خلال عام ٢٠٠٢.



يهـــود أوروبـــا يطـــاردون

على مدى عقود، درج القراء العرب على متابعة أى جدل ثقافى أو فكرى أو سياسى يثور مع الغرب من حين لآخر من خلال وسيط غير مباشر.. فالقارئ العربي يقرأ عن الموضوع لكنه لا يقرأ الموضوع.. حدث ذلك مرارًا وتكرارًا دون أن يجد هذا القارئ الفرصة ليحكم بنفسه فى القضية بدلاً من الاعتماد على «وصايا» و«أحكام» و«آراء» «الحكماء» من رجال الصحافة والإعلام.

وعندما تفجرت قبل أسابيع قضية كتاب «حالم بفلسطين» للمراهقة المصرية راندة غازى الذى صدر بالإيطالية، ثم جرت ترجمته إلى الفرنسية، تابع القارئ العربى ردود الأفعال الغاضبة والهستيرية من جانب الجماعات اليهودية فى أوروبا من خلال الصحف التى أسهمت فى نشر اللغط الذى ثار دون أن تعطى القارئ الفرصة لكى يقرأ ما كتبته راندة غازى.

هذه المرة.. الأمر يختلف. فالنسخة العربية لـ«حالم بفلسطين» تصدر بعد أيام عن «دار الشروق» ليعرف القارئ العربى «علام تلك الضجة..» وماذا تقول الأصوات المطلوب إخراسها؟

المحرر

رائحة الدم والوجع..

وطأة العجز وعيون بعيدة ترصد، نفوس تعبت من استعجال النهاية فاستكانت، وقلوب طرية لا تفهم لغة السياسة التى تحكم الموقف فتحرّكت.

تتصاعد أصوات جمعيات تناضل للدفاع عن حقوق الحيوان، أخرى تهتم بإعادة تدوير المنتجات الصناعية للحفاظ على نظافة هواء يستنشقه المتحضرون الذين لا يهتزون لاستنشاق الظلم.

وماذا بعد؟

عالم مجنون لا يرى الكبار جنونه بحكم العادة التى أوصلتهم لمراحل متقدمة من الخنوع. ليس لديهم خيار آخر بينما سؤال صغير ينبض باستنكار المهزلة: لماذا؟

راندة غازى لم تفهم.

تلك الهمجية التى تطالعها كل يوم على شاشة التليفزيون ببيتها الدافئ فى المدينة الهادئة، كل هذا الموت وكل هذا التنكيل بشعب فى الطرف الآخر من العالم. لم تفهم استسهال الموت فى عيونهم.

أليسوا هم الذين أرادوا العولمة؟ ألم يشجعوا على ازدهار عصر المعلوماتية؟

أم أنهم أرادوا غسل جرائمهم بمسحوق اللامبالاة والتجاهل فلم يخافوا بث نزواتهم السادية على الهواء.

نفس المشاهد تتكرر كل يوم، ونفس التعليق أسفل الشاشة: No Comment (لا تعليق).

تعب الثائرون من الثورة، بحّ صوت الهاتفين.

المتعاطفون أصابهم الشلل.

أنمنع الدهشة عن الأطفال أيضًا؟ أنقتل فيهم روح الاستنكار والغضب؟

نرفض شرودهم عن قطيع مجتمع الاستهلاك الأجوف حين تحركت فيهم بذور حياة تتجسد رفضًا لسياسة الأمر الواقع؟

أنقتل أحلامهم؟

أنقتل حلم راندة غازى بفلسطين لنؤكد رسميًا أننا أمة ممنوع عليها الحلم؟

هل فى نصوص راندة غازى دعوة مفتوحة لمعاداة السامية؟

هل فيها حث على العنف من قبل طفلة تنادى بمجانية التخريب؟

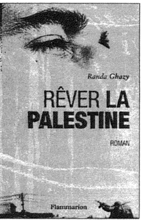
أم هى تجسيد فعلى لصرخة مراهقة تحتج على منطق اللامبالاة السائد، خدَش عيونها منظر الدم السائل فى شوارع فلسطين منذ الأزل؟

غلاف الطبعة الايطالية



غلاف الطبعة الفرنسية





غلاف الطبعة العربية التى تصدر عن دار الشروق



«حالم بفلسطين» رواية راندة غازى، مراهقة مصرية «١٥ عامًا» تعيش فى إيطاليا، أصدرت دار «فلاماريون» الفرنسية ترجمتها عن الإيطالية فى الرابع من نوفمبر الماضى فأشعلت نار جدل حاد فازت فيه المنظمات اليهودية بموقع الهجوم مستندة على كواليس الهولوكوست.

نيران المعركة انطلقت من «الرابطة الدولية ضد العنصرية وعداء السامية» التى طالبت كلا من وزيرى الداخلية والعدل فى فرنسا بسحب الكتاب كونه «يشكل خطرًا على الجيل الناشئ بسبب المكانة التى يحفظها للجريمة، للعنف، للتمييز والكراهية العنصرية».

من جهته ناشد رئيس اتحاد «محامون بلا حدود»: جيل ويليام جولدنايل، «وزير الداخلية» نيكولا ساركوزى بتطبيق القانون العائد إلى ١١ تموز ١٩٤٩ أى بمنع الكتاب، وأبدى المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا اعتراضه عبر بيان نشر فى الصحف، طالب فيه بسحب الرواية من السوق كما يتجلى من نص البيان:

«يعترض المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية بصفة رسمية على نشر دار «فلاماريون» لرواية «حالم بفلسطين» ضمن مجموعة موجهة للصغار والمراهقين. لقد اطلع المجلس على مقاطع كثيرة من الرواية تشكل حسب رأيه دعوة للعنف وتمجيدًا للإرهاب وللجهاد، إضافة إلى التحريض على الكراهية العرقية والعداء للسامية.

فإلى جانب المبالغة والعنف اللتين تتسم بهما اللهجة العامة للرواية، تمجّد بعض المقاطع العمليات الانتحارية، لا سيما تلك المنفذة من قبل المراهقين، كما تدعو لخوض الحرب «باسم الله».

يندهش المجلس من كون دار «فلاماريون» قد ارتأت نشر رواية موجهة لقراء يانعين تنعت اليهود «بشعب ملعون» وتدعو لكره كل إسرائيلى يعيش على وجه الأرض و«لقتلهم جميعًا». يرى المجلس دون أن يحمل نيّة الاعتداء على حرية التعبير، لا سيما فى مجال الخيال الأدبى، أنه من غير المقبول أن تخالف رواية موجهة للمراهقين أحكام قانون ١١ تموز ١٩٤٩ ـ حول المنشورات الموجهة للصغار سنًا ـ والتى أصدرت فى إطاره.

إذا كان من الطبيعى والمحبب توعية القراء الصغار بكبريات المشاكل المعاصرة، فمن المشين التذرع برواية فى إطار الصراع العربى الإسرائيلى للاسترسال فى هذا التمجيد للحرب.

ـ لم تقتصر حالات الاعتراض على هاتين الجهتين، فقد تصاعدت الأصوات من عدة مصادر لتعم الشارع اليهودى، موجة غضب ما لبثت أن نبشت حقائب التاريخ كالعادة، لدعوة الأوروبيين إلى التكفير عنه عبر الحكم على الحاضر وإحكام الطوق على تصرفات المستقبل

قبل أن تتحقق من هذه الخلفية انطلق مركز سيمون فيزنتال «منظمة دولية يهودية لحقوق الإنسان» الآخذ على عاتقه مهمة المثابرة على استحضار واقعة الهولوكوست، وتذكير المجتمع اليهودى خصوصًا والدولى عمومًا بها، ليشن حملة عنيفة على «فلاماريون» داعيًا إياها إلى سحب الكتاب من السوق، وعلى كافة المروجين عمومًا ومن ضمنهم موقع Amazon الذى يوزع الكتاب عبر الإنترنت.

نفت دار «فلاماريون»، ثالث أكبر دور النشر فى فرنسا والتى تعود ملكيتها للمجموعة الإيطالية "ريزوللى كوريرا دى لاسيرا"، نيتها سحب الكتاب فى بادئ الأمر إلا أن المعركة لم تتوقف هنا.

فقد طلبت «فلاماريون كندا» من بائعى الكتب فى مونتريال إعادة جميع النسخ لا سيما تلك التى بعهدة Amazon. Co. سقط حصن، والمناورات مستمرة.

على صعيد آخر، دعت فى ١٠/١٢/٢٠٠٢ مجموعة «لا تلمسوا الأطفال» التى يديرها «جيل طيب» رئيس جمعية «من أجل راحة الجندى الإسرائيلى» المنضوية تحت لواء المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية إلى مظاهرة أمام مؤسسة دار «فلاماريون» فى فرنسا تدعو إلى إيقاف توزيع الكتاب، لكنها لم تحقق النجاح المرجو حيث شارك فى المظاهرة

حوالى ٣٥٠ شخصًا، بينما كان منظموها يتوقعون على الأقل ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ مشارك، ويفسر هذا الفشل بالطابع السياسى المتشدد يمينيًا الذى أضفاه المنظمون عليها.



لم تقتصر الحملة على الصحافة المطبوعة والتحركات على أرض الواقع بل إنها شملت أيضًا القطاع الالكترونى حيث اهتمت بعض المواقع بنشر مقالات تشجب الرواية كما فتح البعض مساحات للحوار «Forum» تم فيها بث الرسائل من قبل قراء عاديين حول رأيهم الخاص بالكتاب.

كان موقع (www.proche-orient.info) هو الرائد على هذا المستوى فهو موقع ينشر جريدة فرانكفونية تصدر عن (Proche Ori-ent) أى الشرق الأدنى: جمعية فرنسية غير هادفة للربح تهتم بتوفير «معلومات مهنية حصرية وكاملة، دقيقة وقاطعة عن الشرق الأدنى، لاسيما عن الوضع الإقليمى خصوصًا الصراع الإسرائيلى - الفلسطينى».

أطلق هذا الموقع حملته على يد «إليزابيث شملا» التى تدير هيئة التحرير فيه.. وهى كاتبة أيضًا لدى دار فلاماريون عبر مقال أسمته: «حلم فلسطين أو عار دار فلاماريون».

تبدأ شملا بدحض الوقائع التى أوردتها المؤلفة فى الرواية، والتى - حسب رأى شملا - تعمدت فيها الكذب متسترة بالخيال الذى تحتجت به قائلة: بعض الوقائع أتت تغذيه «الجملة لراندة غازى»، ثم تنتقل شملا لتصب سخطها على دار النشر التى اعتبرت على لسان مديرها القانونى: «أن الكتاب جميل، ومتوازن بين الفلسطينيين والإسرائيليين، هو بالأحرى أنشودة حب بين الشباب من الجهتين، المرعوبين مما يفعله أهاليهم، حيث إن أحد أبطال الرواية فلسطينى يقع فى حب شابة إسرائيلية ويطلب منها الذهاب معه إلى مخيم خان يونس، كما يتخلل الكتاب ظهور امرأة من حركة «السلام الآن» الإسرائيلية.

كما هاجمت «شملا» مديرة قسم فلاماريون للناشئين «هيلين فادوفسكى» التى صرحت بأن: «الكتاب غير منحاز، وأنه يتكلم عن الحرب، كل ما فى الأمر أنه يتكلم عنها من الجانب الفلسطينى. إنه يبحث عن كيفية الخروج من دائرة الحرب ويتكلم عن الألم بشكل عام، عن فظاعة فقدان الأقارب بالنسبة لمراهق فى الخامسة عشرة من عمره. إنه ليس وثيقة تثير بعض مقاطعها النقاش. إنه رواية، ومن الطبيعى أن تتكلم شخصياتها عن العمليات الانتحارية التى تقع كل يوم».

«حلم» مراهقة مصرية!

رنـــا حـــايك

رانـــدة غازى

وتنتهى «شملا» بتوجيه إصبع الاتهام بالعداء للسامية نحو مدير الدار فى فرنسا قائلة: «يبقى أن نعرف ما الذى دفع فلاماريون لنشر هذه الرواية»..

* فى إيطاليا نشرت هذه الرواية المؤسسة العملاقة «ريزوللى» التى تملك فلاماريون، بيد أن «ريزوللى» هى أيضًا الناشر الإيطالى لـ«الغضب والعجرفة» رسالة القدح فى الإسلام الأكثر مبيعًا لـ«أوريانا فلاتشى» التى أثارت ضجة كبيرة فى أوروبا، والتى أيقظت سخط الصفوة الذين لم يهتزوا كما هو واضح برواية «راندة غازى».

لقد كان منطقيًا أن تصدر فلاماريون فى فرنسا رواية «فالاتشى»، لكن «شارل هنرى فلاماريون» المحتفظ بملكية الدار التى أسسها والده لمدة سنة إضافية حسب العقد لم يكن ليقبل بهذا، فقد بدا له كتاب «هولبيك» الأخير بطعم الكبريت بالنسبة للإسلام، والمحاكمة التى تبعته زلزالًا كافية.

و«ريزوللى» لن يقبل أن ترفض دار نشر تابعة له تسويق أحد كتبه، هكذا وجد كتاب «راندة غازى» سبيله إلى كل أنحاء أوروبا.

لم تكن «شملا» الوحيدة التى أثارت موضوع «فالاتشى» و«هولبيك»، فالدعاوى التى رفعت على هذين الكاتبين تعتبر الحدث الأهم فى الواقع الأدبى الحالى.

«فالاتشى» الصحفية الإيطالية المعروفة التى أجرت حوارًا مع آية الله الخمينى خالفت خلاله البروتوكول بجلوسها مكشوفة الشعر أمام آية الله، استفزت الإسلام مرة أولى فى كتابها «الغضب والعجرفة»، ومرات كثيرة فى مقالاتها التى عبّرت فيها عن كرهها للإسلام وللإسلاميين، مما كلفها قضية مازالت تبحث حيثياتها حتى الآن فى المحاكم.

أما «هولبيك» فهو الذى قاضته منظمات إسلامية «المنظمات التى تدير مساجد باريس وليون» والرابطة الإسلامية العالمية، ورابطة حقوق الإنسان بسبب ما قاله عن رأيه فى الإسلام ضمن حوارين له فى مجلتى (Livre) و(Le Figaro) الفرنسيتين سنة ٢٠٠١ «الإسلام هو الدين الأكثر غباء فى العالم».

بينما يمثل الإنجيل بالنسبة إليه «موهبة اليهود الأدبية المقدسة»، تمت تبرئة هولبيك على يد قضاة اعتبروا أن كاتب «جزئيات أساسية»، و«سطوح»: «لم يحمِّل تصريحاته دعوة للكراهية وللعنف ضد المسلمين فهى تندرج تحت نظام فكرى خاص به»، وأضاف القضاة: «القول بأن الإسلام هو الدين الأكثر غباء لا يعنى ولا يوحى حتى بضرورة إلقاء هذه الصفة على كل المسلمين».

وهذا التصريح لا يحمل أية رغبة بالإهانة، الاحتقار أو الشتيمة تجاه الأشخاص المعنيين.

تمت تبرئة «هولبيك» منذ شهرين، وعلّق عليها محامي مسجد باريس بعد التصريح عن نيته باستئناف الحكم، قائلاً: «يبدو هذا الحكم مستوحى من معرفة خاطئة بالإسلام الذى يفرق بين شتم القرآن والتطاول على المسلمين.

دافع كثيرون عن «هولبيك»، في مقدمتهم «سلمان رشدى» فى مقالة له نشرت خلال المحاكمة على موقع: www. emarrakech. info، أسماها «لـ هولبيك الحق فى الكتابة»، اعترف فيها أن الإبداع حر ولا محدود، بأن لـ«هولبيك» مطلق الحق فى تضمين كتابه «سطوح» جملاً معادية للإسلام على لسان البطل الذى علم أن مقتل أبيه كان على يد مسلمين.



وتزايد عدد الأصوات التى ربطت بين فالاتشي، هولبيك وراندة غازي، واحتدمت النقاشات التى أتاحها Pnoche Orient عبر المساحة المخصصة لها في موقع (Commu-Col nau´online)، الذى تملكه الجمعية الخاصة بالطائفة اليهودية، تنادى بعدم التغاضي عن هذا التعدى الذى سمحت به لنفسها المؤلفة «راندة غازى»، المترجمة «أنا بورس»، ودار النشر ذاتها، وتعبر عن سخطها حول ما تضمنه الكتاب من وصف الإسرائيليين، وما حث عليه من ممارسة للعنف ضدهم.

كما تساءل البعض عما قد يدفع شابة مصرية تعيش فى إيطاليا إلى الحديث عن الواقع الفلسطيني في غزة بين ١٩٩٥ - ٢٠٠٠؟



- كيف استفزتها قضية يعمل الرأى العام العالمى على تمييعها؟

كيف تجرأت على الحلم فى عصر يصادر فيه الكبار أحلام صغارهم؟

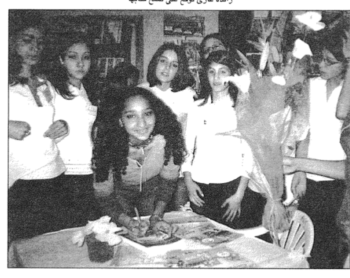
بينما يجرى الغرب حاليًا محاكمة لحلم راندة غازى بلا نيّة لإغلاق الملف، تبدو أصوات العرب خافتة، وخلت النقاشات على ساحات الصحف والتليفزيون ومواقع الإنترنت من صوت عربي واحد مدافع.

يبحث الغرب فى حيثيات إدانة طفلة أذى الظلم عينيها المشمستين وعيون العرب نائمة عن الحلم، جفونهم مثقلة بأحلام قديمة لم تتحقق، وأيديهم مكبلة بالعجز عن خلق غد آخر مخالف أو عن إنقاذ واقع يسلبهم القرار.

راندة غازى صوت جيل لم تنكسر أحلامه بعد، لم يتشبع بالمرارة إلى حد الإحباط، ولم يملأ الصراع جسده بالندوب، لهذا تخشاه المنظمات اليهودية وتحرص على أن تلحقه بجيل آبائه: عاجزًا، معتبرًا أن الخلل فى توازن القوى العالمى أمر واقع لا يجب ولا يصح أن يفكر فى تغييره.

فهل ستظل الأصوات العربية خارج اللعبة؟ أم ستقتحمها حماية لحلم راندة غازى؟ سؤال موّجه لكل حالم بفلسطين؟

راندة غازى توقع على نسخ كتابها



من الروايـــة عن الطبعـة الفرنسيـة

- إبراهيم، ذو الثلاثين ربيعًا، هو بطل الرواية.. الكتاب الوحيد الذى يطالعه عن طيب خاطر هو القرآن.. شغف استمده من أبيه الذى كان مؤذن القرية ورجلاً متدينًا قتلته الحرب.

- جمال، شاب بسيط فى العشرين، لا يعرف إلا شيئًا واحدًا: الهتاف ضد الإسرائيليين: شارون قذر، قاتل.. دون أن يكون على علم حتى بشكله أو بما فعله. كان يعرف فقط أنه قذر وقاتل وهكذا تقبّل كراهية لم تكن منه وحده، بل كراهية شعب بأسره.

- ص٢٤، جمال ينفذ عملية استشهادية:

«.. هكذا كبر جمال، دون إمكانية الخيار.. ثم إن الجميع كانوا يعلمون بأن هذا سيحصل لا محالة، الجميع كانوا يعلمون، هكذا (.....) اقترب من قاعدة عسكرية إسرائيلية، قاموا بتفتيشه، وفى لحظة معينة انفجرت القذيفة. تكسّر جذعه، تحوّل إلى قطع وجزئيات من اللحم. انفجر جسمه وفجّر وحده منطقة مراقبة إسرائيلية، خمسة جنود ماتوا فى نفس لحظة موته، خمسة، تجعلك فى مقابل المئات المتواجدة فى كل مكان تتساءل عميقًا فى داخلك، لماذا تطيح بحياتك الشخصية لاستهداف خمسة فقط من أعدائك، إنه عدد تافه.....».

(....) سنشتاق إليك، أنت شجاع، أنا حقًا جادة فيما أقول، لا أعرف إن كنت أملك الجرأة الكافية للقيام بالعمل نفسه، سوف نتذكرك.. سوف ننتصر، وسوف ننتصر أيضًا بفضلك، ليكن الله معك، وتركوه يرحل....».

- ص٣١ - ٣٤ إبراهيم يتذكر أباه «فتحى»:

«كان يعترى إبراهيم شعور جامح بالفخر وهو يسمع صوت والده الجهور يدعو المسلمين للصلاة عبر مكبرات الصوت (...)

.. لم يكن أبوه شغوفًا إلا بشيء واحد خارج نطاق الدين: الحرب.

الحرب المجنونة الدائرة أمام عينيه منذ ولادته، الحرب التى قتلت زملاءه، أصدقاءه وأهله، الحرب التى تغذت على الدم والدموع، والتى تدق بشراسة وبقوة على أبواب الشعب الفلسطيني (...) لطالما قال أبوه أن هذى أرضنا وأن الجهاد شرعي.. شرعي. تذكروا، أوصانا الله بالدفاع عن أرضنا (...) وستكون حربًا مقدسة، جهادًا».

تقدم والده، توقف أمامه وتلا: «ولا تحسبنّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون».

ص٣٥: قتل الجنود الإسرائيليين للأب:

«.. رأى أباه مطروحًا على الأرض والكل يتفرج، الدمُ لطخ المكان، القرآن مدنس وملقى على الأرض، مفتوح، ممزق غلافه. أبوه على الأرض، كل هذا الدم.

كان قد وصل مسلمًا، بيده القرآن، وبدأ بتلاوة الآيات يدين الجنود، يدين عنفهم وقسوتهم (...) قلّق الجنود واستفزتهم ذراع الأب الملوحة تجاههم وهو يتهمهم بجرائم الدم والإيمان (...) كان فى النهاية مجرّد شيخ يتلو الآيات، لكنهم تدخلوا وأطلقوا عليه النار..

ص٤٤ اقتحام الجنود الإسرائيليين للمسجد:

«دخلوا بأسلحتهم تاركين على سجادات الصلاة آثار الوحل والغبار، كان التوتر يبدو على أشده موشكًا على الانفجار بشكل فظيع (...) ورأى إبراهيم ما كان يخشاه، شيئًا فى عيني أحد الجنود، وأكثرهم تبجحًا وغطرسة (...)

بدأ الناس بالصراخ، وبطرد الجنود، اتركونا فى بلدنا، فى وطننا، اذهبوا، ودعونا وحدنا، لاتدخلوا مساجدنا وتدمروا حياتنا (...)

شاب ملثم فى العشرين يرتدى سروالا من الجينز الممزق رمى بنفسه إلى الأمام متحديًا متمنيًا دور بطولة، القيام بشيء ملموس وواقعي لوطنه. بلمح البصر، بحركة شبه ميكانيكية لمتمرس على سحب البندقية، ضغط زنادها ثم القتل، بحركة ميكانيكية سحب الجندى المتغطرس سلاحه وأطلق النار..».

ص٤٩ مصرع شاب آخر وهو يلقى بالحجارة:

«اندفعت امرأة حاسرة الرأس نحو ابنها، نحو جسد أعزل ممدد على الأرض باكية تصرخ: ابني، ابني! فى اللحظة التى رآها فيها الجنود تتقدم أطلقوا النار، كانوا أربعة، فارتمت المرأة أرضًا وتدفق الدم».

ص٥٧: قصة جهاد وريهام، مراهقتان فلسطينيان:

أبيد أبوى جهاد وريهام وأخويهما التوءم وهما مازالا صغيرين.

قانون الإصدارات الموجهة للناشئين فى فرنسا

ينص قانون ١١ يوليو (تموز) ١٩٤٩ الذى ينظم الإصدارات الموجهة للناشئين فى فرنسا على الأحكام التالية:-

المادة ٢: يحظر على هذه المنشورات أن تتضمن أى تصوير، أو نص، أو حولية، أو فقرة أو إدماج تعرض بشكل محبب للصوصية، الكذب، السرقة، الكسل، الجبن، الكراهية، الفجور، أو كل عمل يقع تحت تصنيف الجرائم أو الجنح أو ما من شأنه إفساد أخلاق الناشئين أو الإيحاء بأحكام مسبقة إثنية أو تناولها».

المادة ٧: «تعاقب كل المخالفات المنصوص عليها فى المادة ٢ بالسجن من شهر إلى سنة، وبغرامة من ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ فرنك فرنسي». «تستطيع الجمعيات الممنوحة صفة «الأهمية العامة» فى حالة لحظت حالات المخالفة هذه أن تطبق الحقوق الممنوحة للمدّعى بالحق المدنى».

المادة ١٤: «يعود لوزير الداخلية الحق بمنع عرض أو توزيع أو بيع منشورات لقصّر دون الـ١٨ تشكل خطرًا على الناشئين بسبب ما تفرده من مكانة للجريمة أو العنف».

دخلت الدبابات فى ذلك اليوم القرية وأطلق الجنود النار على كل من صادفوهم: نساء، وشيوخا وأطفالا، دخلوا المنازل بأجمعها، حرقوا بعضها بأهلها، واغتصبوا نساء البعض الآخر، سرقوا محتوياتها ثم دمروها.

ضربوا المسنّين وكسّروا عظام الأطفال دون أن يقتلوهم، حتى تعيش العائلات طويلاً تحت عبء أطفال وصبيان عليلين فتكرهم، هؤلاء الأولاد الذين لن يستطيعوا حمايتهم ذات يوم خلال انتفاضة».

ص ٦٤، ريهام تهتف بتعجب:

«هذه الحرب هى جرحنا (...) اللعنة! أليس هناك من وسيلة لإيقاف هؤلاء اليهود الملاعين؟ إنهم يقتلوننا جميعًا.. لماذا؟

ص ٧٦، رامى، الطبيب المسيحى فى المستشفى:

«أنا أعرف يا محمد. هذه المشاهد، إننى أراها كل يوم: فى المستشفى، وفى بيتى حين أعود، ليالى تسكنها الكوابيس. هؤلاء الإسرائيليون وحوش، وحوش، ينبغى قتلهم جميعًا».

ـ محمد يجيب:

«لا يهمنى السلام. السلام مستحيل التحقيق حاليًا! إنهم يريدون إبادتنا جميعًا. هذه هى الحقيقة، فليعذرنى عرفات: لكن يجب أن أفعل شيئًا.

يعيش اليهود هانئين فى بيوتهم بينما تغص مستشفياتنا بالموتى، وتدمَّر قرانا، يضرب مسنُّونا، وتغتصب نساؤنا. لا نستطيع أن نقبل باستمرار هذا. اسمع يا رامى، لقد اتخذت قرارًا، يجب أن أفعل شيئًا!».

ص ٧٧، محمد يتابع:

«.. لماذا يفعلون بنا هذا؟ إنه شعب ملعون، أقول لك يا رامى، إنه شعب ملعون: لقد عانوا كثيرًا لكنهم يريدوننا أن ندفع نحن ثمن ما عانوه، لماذا يتابعون تلويث أياديهم بالدم»؟

ص ٨٥، إبراهيم:

«إذا كان العنف هو الوسيلة الوحيدة المتبقية للتوصل إلى السلام، يجب القبول بها من أجل التفوق عليهم»..

ص ٨٦، نضال:

«.. إنهم لا يتساءلون إن كان ربهم يقبل بالعنف (...) إنهم يعاقبوننا بالتعذيب الذى عوقبوا به قبلنا (...) يأتون لاحتلال أراضينا ويطلقون نارهم دون حتى أن ينظروا فى وجوهنا مباشرة.

إذا وجدت نفسى يومًا أمام يهودى ما سأسأله: ألا تخاف الرب؟

أحب فعلاً أن أعرف ما قد تكون إجابته».

ص ٨٦، إبراهيم:

«.. سبل الحوار، جربناها مائة مرة ومائة مرة، لم يحترموا الاتفاقات. قاموا، بما أرادوا القيام به، مواجهين العالم بأسره (...). التفتيش عن سبل للحوار حاليًا لا يعنى سوى الاستسلام لمشاكستهم والخضوع لإرادتهم».

تستمر الحبكة ويكبر المراهقون:ـ

ص ١٢٦:

هكذا كانوا يكبرون، مغمورين بالألم وبالغضب. وكان من الخبث ومن الظلم انتقادهم وهم يرمون الحجارة ويبحثون عن الموت ليصبحوا شهداء كان هذا ظالمًا.

كيف كان لإبراهيم أن يستطيع لوْم أحمد على العنف الذى سيواجهه حتمًا به الإسرائيليين ذات يوم؟ من السهل جدًا انتقاد من يستعمل العنف.

ص ١٢٧، حول إبراهيم:ـ

كان أحيانًا، حين تستبد به كراهية الأعداء بعنف يأخذ القرآن بين يديه ويعظ أصدقاءه ﴿يا بنى إسرائيل.......﴾ سورة البقرة

لقد حررهم وأنقذهم. أهكذا يشكرونه؟ يقتل أبنائه؟ إنهم مذنبون»!

ص ١٤٠ ـ ١٤٢

كان إبراهيم يعرف تمامًا أن الحكومة الإسرائيلية لا تريد السلام، لأن السلام يعنى مفاوضات، يعنى تسويات واحتواء إنسانية وإحساس، بينما الإسرائيليون يريدون الأراضى، كل الأراضى يريدون أرض إسرائيل، يريدون تحقيق حلم إسرائيل الكبرى. لن يسمحوا للفلسطينيين بإنشاء دولتهم فهم لم يحترموا فى حياتهم الاتفاقات، إنهم يحاولون الحصول على كل شىء. كل شىء.. الله، والعالم بأسره لا يلاحظون، ماذا يفعلون كى لا يلاحظوا؟ يتساءل إبراهيم ـ ويجيبه صوت فى أعماقه بأن العالم لا يريد أن يلاحظ، لقد أخذ قراره منذ زمن. وقراره أن يغض الطرف عما يحصل وكأن لا شىء هناك. قرّر أن يسمح للإسرائيليين بأن يفعلوا ما يريدون. اختار الحرب. اختار الموت. اختار التخلى عن شعب مهمل منذ الأزل.

كان إبراهيم يعرف ما سيحصل: إنها الإبادة الثانية فى التاريخ.

لم يقبل ذوو السلطة، المسئولون عن هؤلاء القتلى عبرة الوجع. كلاّ. بل قرروا أن يعذّبوا شعبًا آخر كما عذّبوهم، أن يجعلوه يسدّد فاتورة معاناتهم، شعب يائس بائس فقد كل شىء ما عدا شيئًا واحدًا ربما: الإيمان. لهذا يوّجه الانتقاد إليه، لأنه قرر ألا يفقد الإيمان بالله، لهذا ينتقد، يقتل ويعذب.

معسكرات الإبادة. لا. لا تفتش عنها بالنظر، لن تراها. هذه المعسكرات هى فى أذهان العبريين الذين يقودون حكومة نفاق، ويعيدون خلق هذيان رئيس حكومة ألمانى فى عقول يهود يبدون كاليهود الوحيدين فى العالم ولو أنهم ليسوا كذلك.

إبراهيم يعرف، يؤمن، ويتمنى ألا يكونوا كلهم هكذا. لا يمكن لشعب بأكمله أن يكون هكذا.

هناك أشخاص مازالوا يؤمنون بذلك، لا يقنعون بالمأساة بالوهم، بل ينظرون إلى وجه الحقيقة، كتلك المرأة التى رآها ذات يوم على شاشة التليفزيون عند جاره رياض، تلك المرأة التى كانت تتكلم باسم المجتمع اليهودى فى سويسرا والتى صرحت بأن حكومة إسرائيل لا تمثلهم، وبأنهم يعترضون على العنف الممارس ضد الفلسطينيين، وبأنهم يهود لكن اليهود لا يلعنون بمجملهم الفلسطينيين ولا يؤيدون بمجملهم تدميرهم. فإذًا، لا يمثل هؤلاء الأقوياء إرادة كل يهود العالم، لكنهم يملكون القدرة على إفهام العالم العكس.

معسكرات التعذيب كامنة فى عقولهم، لا يبنونها ويرمون الفلسطينيين فيها لأن كاميرات التليفزيون ستطالهم، ولأن العالم سينزع عن نفسه فى حينها عباءة الخمود التى يرتديها، الخمود الذى جعله يقبل بالقتل، لأن العالم سيُجبر وقتها على الاستيقاظ. ربى. لا يُصنع السلام بالموتى.

ص ١٥٦ ـ ١٦٦، إبراهيم يحضر مظاهرة أولاد معصوبى الجبين تمجيدًا للجهاد ـ

«.. حكم على هؤلاء الأطفال بحياة العنف، موتهم كان قد كُتب ونهايتهم تقدّرت. كانوا سجناء سلسلة لن تكسر قط. سجناء العنف. لم تكن لدى إبراهيم الجرأة على إدانة أهالى هؤلاء الأشخاص، لأنهم كبروا مشوشين بالوجع، مخطوفين بالكراهية. كيف نحاكمهم؟ كيف ندينهم؟

سيبقى الطفل الذى يشهد بعينيه مقتل أبويه مسكونًا طوال عمره بعطش الانتقام، ستشوّشه الكراهية، فلا يستطيع إلا أن يستسلم لها.

بذور الشر أصبحت مزروعة بينهم.

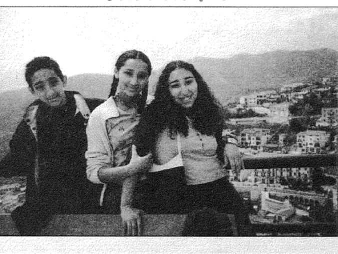
كان يؤلم إبراهيم أن يعترف بأنه فى عمقه مثل هؤلاء الأطفال، أصحابه كذلك، وكل شعبه، كانوا مدمَّرين بالكراهية وبالشر. حتى الهواء الذى يستنشقه أصبح يحمل هذه البذور. الكراهية. حتى الأرض التى يطاها انتقلت إليها العدوى. أرض الكراهية.

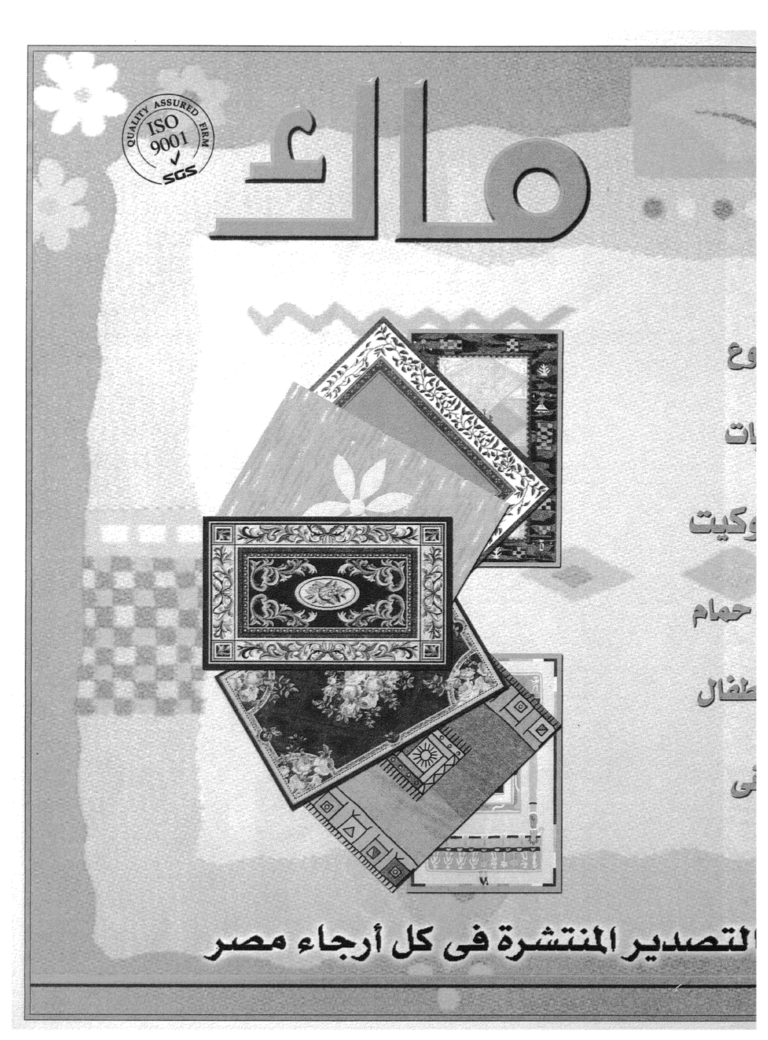
ص ١٨٠، موت محمد الدرة:

«.. أفكر فى الثالث من سبتمبر (من أيلول) العام الماضى، عندما قُتلَ هذا الطفل محمد الدرة، عندما استُجوبَ الجندى الذى قتله قال إنه أبقى على الأب حيًا كى يظل يتالم. هكذا قال: تركته حيًا كى يتالم. ■

راندة غازى تتسلم جائزة كتابها

راندة مع شقيقتها رشا وشقيقها رامى




QUALITY ASSURED FIRM
ISO 9001
SGS
وع
ات
وكيت
حمام
طفال
التصدير المنتشرة فى كل أرجاء مصر



فنـــون مصـــر المســـيحية

فـــاروق وهبـــة

في جانب من جوانبه المتعددة، لم يكن الفن سوى محاولة من الفنان للتقرب من الخالق المبدع. فقد ارتبط الفن، وعلى مدى آلاف السنين بالدين، وحاول الفنان البدائي التعبير عن عميق إيمانه بخالقه من خلال أعمال فنية تلقائية بسيطة تطورت مع الزمن لتنسج ببطء وبشكل تراكمي أحد فصول العلاقة بين الإنسان واعتقاداته.

نشأ الفن - إذن - في كنف الدين ومضى معه قرونًا طويلة سائرًا على نبراسه ومعبرًا عن مبادئه إلى أن جاء عصر النهضة الأوروبية فبدأ الانفصال رويدًا رويدًا.

من رحم الكنيسة الكاثوليكية وبرعايتها أحيانًا، خرجت الأعمال الفنية العظيمة .إلى أن شق الفن طريقه معبرًا عن الحياة بملامحها وجمالياتها.. ومن ثم تعقيداتها تاركًا بعضًا منه في علاقته القديمة مع الدين.

ضفاف النيل لم تكن بعيدة عن القاعدة، ففي مصر القديمة، انطلق الفن من المعابد الفرعونية. وكان الكهنة حراسًا عليه: تم إن إبداع المصري القديم من أهرامات وتماثيل ومعابد لم تكن في بعض منها سوى محاولة للتقرب من الخالق.

ثم جاءت المسيحية إلى مصر قبل حوالي ألفي عام لتعيد تأكيد العلاقة بين الفن والدين وأبدع الفنان المصري القبطي في التعبير عن إيمانه بالمسيحية من خلال الأيقونات والتصوير بالموزاييك والمنسوجات الكتانية والتماثيل والأواني الفخارية، وحتى شكل العمارة كان في خدمة الدين.

وبعد أن اعتنقت مصر الإسلام وأصبحت إحدى قلاعه في العالم، أبدع الفنان المصري المسلم في التعبير عن إيمانه من خلال الفنون الإسلامية العديدة كالزخرفة والمنمنمات وأعمال الخشب والتطريز والعمارة وفن الأرابيسك والحلي.. ونظرًا لعمق الفن المصري - تاريخًا وقيمة، فقد أصبح تخصصًا مهمًا لعلماء الآثار والباحثين، ولا يكاد يمر عام إلا وتظهر في المكتبات، خاصة الغربية منها، مؤلفات تتناول بعمق مرحلة معينة من هذا الفن الذي يحظى باهتمام كبير من المتخصصين وحتى رجل الشارع العادي في الغرب.. إنه امتداد بشكل أو بآخر لظاهرة «الهوس» بمصر المنتشرة في الغرب.

ومن أحدث الكتب في هذا المجال السفر الضخم الذي أصدرته الجامعة الأمريكية في القاهرة تحت عنوان «مصر المسيحية.. الفنون والصرحيات المسيحية في مصر خلال ألفي عام».

وقام بتقديم الأبحاث فيه، ثلاثة من علماء الآثار المعروفين في مجال الفن المسيحي المصري حيث عرض الباحث «مينا ردوس» الجانب التاريخي للمسيحية في مصر بين الماضي والحاضر، وقدمت الباحثة «روتشوسكايا» الاستخدامات الفنية للون في الفن المسيحي في مصر، وعرض الباحث «ماسيمو كابواني» تقدم الطرز المعمارية للكنائس المصرية، ثم بحث في المناطق والأقاليم المصرية، وقدم الكتاب د. جودت جبرا مدير المتحف القبطي في مصر.

والكتاب من القطع الكبير، مزود بصور ملونة للفنون والعمارة المسيحية، وواضح اهتمام المكتبة الأمريكية بهذا الجانب من المؤلفات.

ويعرض هذا المؤلف جانبًا متسعًا من الفنون المسيحية في مصر والتي تحددت شخصيتها عبر الألفي عام الماضية وظهر تأثير المعتقد الديني في تناول الفكر الفني وفلسفته باختلاف أنواعه منذ تطور الفكر الثقافي في مدرسة الإسكندرية وظهورها كمؤسسة فكرية لها شأن وتأثير في ثقافة المنطقة والمناطق المحيطة، وإن برزت المؤثرات الفنية الوافدة على تلك المكونات الفنية لهذه الشخصية للفنون المسيحية في مصر، مثل التأثير البيزنطي واليوناني والروماني والفارسي والهندي والمصري القديم، سواء في التكوين الفكري لأعمال التصوير بالموزاييك وتصوير «الفرسكو» وتصوير التمبرا أو فن النحت والعمارة.

وأخذت الأيقونات المصرية شخصيتها الفنية المعروفة من المؤثرات البيزنطية والتي كانت منتشرة في هذا الوقت ثم التأثير الفارسي في التصوير في تحديد حلول شكل الوجه والأعين الواسعة المحدقة والمتأملة، وذلك عند الالتجاء إلى رسم القديسين والقصص الديني، وكان للأيقونات المصرية بريق فني انتشر في منطقة الشرق الأوسط، وحرفت إلى أشكال وإضافات أخرى في روسيا، حيث اشتقت الأيقونة الروسية من المصرية وأضيف عليها أشكال معدنية لمعالجة الملابس، ولكن ظلت الهالة القدسية التي تبدو فوق رأس القديسين في الحالتين كرمز للقداسة والنورانية، ويختص الشكل المعماري للكنيسة المسيحية في مصر بشخصية منفردة ومعروفة، ويبدو عليها التأثيرات المأخوذة من الطراز البازيليكي، والطراز القبطي والبيزنطي.

وتختص الباحثة «ماري هيلينة روتشوسكايا» بجزء في هذا المؤلف للاستخدامات الفنية للون في الفنون المسيحية بمصر، حيث تذكر أن أقدم الأعمال التصويرية المسيحية في مصر وجدت في «كرموز» بالإسكندرية «بالكتاكومب» في نهاية القرن الثالث الميلادي، ولم تكن هذه الأعمال الفنية تحتوي على تشخيص ولكنها احتوت على



Christian Egypt.. Coptic Arts and Monuments Through Two Millennia

مصر المسيحية.. الفنون والصرحيات القبطية خلال ألفي عام

Massimo Capuani

Cairo - Auc Press - 2002









التوريقات النباتية والأسماك، وكانت هذه العناصر ترمز إلى أفكار دينية، حيث استخدمت الرمزية فى هذا الوقت للإفادة الدينية والإشارة إلى مضامين للإرشاد الدينى، وقد وجد أيضًا نماذج من هذا التصوير فى واحة الخارجة بصحراء مصر، وقد استخدمت الألوان المذابة فى الماء والمثبتات والتصوير بها على الجدران، كتقليد كان متبعًا فى العصور الرومانية واليونانية والمصرية القديمة، حيث كسيت المعابد الفرعونية بالألوان والأكاسيد، بل أكثر من ذلك استخدمت الألوان بشكل رمزى كاستخدام اللونين الأصفر والأحمر للدلالة على الرجل والمرأة غير أن اختلافًا فى الأساليب الفنية نشأ تدريجيًا بين الشرق والغرب، موازيًا لما حدث من الانشقاق العقائدى بين كنيسة روما وكنيسة بيزنطة، ولكن فى كل الأحوال كان الاهتمام منصبًا على رفض كل ما هو مرتبط بعصور الوثنية من الصور ورفض ما يمثل الهيئة البشرية، والاتجاه إلى الأعمال الفنية التى تهدف إلى تصوير هالة من القداسة، ثم تلا ذلك إقرار وضع الأيقونات، أو صور القديسين.

ولم يتح للفن المسيحى أن ينمو ويتقدم إلا عندما صارت المسيحية هى الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية فى القرن الرابع الميلادى، فصار عندئذ من الممكن للفن المسيحى أن يتخذ طابعًا عامًا، كما صار من الممكن إقامة أماكن عامة للعبادة وتصميمها وزخرفتها لكى تلبى مقتضيات الدين الجديد.

ولأن الأيقونات كانت تمثل الفن الأمثل للكنيسة المصرية فقد أخذت خطوات لتطور التقنية الخاصة بها وانتهت إلى الرسم على الأخشاب وإعدادها لاستقبال الألوان بخامة الجص، ثم استخدام ألوان «التمبرا» لتصوير القديسين وهى تقنية دقيقة تصنع من زلال البيض أو بياضه مع إضافة الأكاسيد اللونية ومواد حافظة، أما التصوير بالموزاييك أو الفسيفساء، فهو فى العصر المسيحى فى مصر امتداد للتقنية البيزنطية،التى ازدهر هذا الفن فى عصرها (الدولة البيزنطية) وزينت به الحوائط والأسقف والأرضيات، وتقدم هذا الفن كثيرًا باستخدام الألوان المذهبة وقطع الزجاج الشفاف ونصف الشفاف من القطع الخزفية الملونة بمواد «الجليز»، أما عن فن النحت فقد ازدهر النحت على الخشب لتوفر خاماته وكثرة أشجار الجميز والأشجار الأخرى الصالحة لهذا الفن، واقتصر النحت على تماثيل رموز الدين المسيحى مثل تماثيل السيد المسيح والعذراء والملائكة والآباء القديسين واستوردت فى هذا الوقت أنواع أخرى من الأخشاب مثل الأبنوس من بلاد بونت وإثيوبيا والأرز من فينيقيا والجوز والنبق والبلوط من أوروبا، واستخدم أيضًا الفنان المسيحى فى ذلك الوقت خامات أخرى مثل العاج والجص والطين.

ومنذ العصر الفرعونى، ومصر تشتهر بصناعة المنسوجات الكتانية عالية الجودة، وتطورت هذه الصناعة فى العصر البيزنطى فأصبحت الملابس تنسج بطريقة «القباطى» التى لم تعرف إلا فى مصر، وهى زخرفة لونية نسجية بتقسيم الخيوط إلى مجموعتين متساويتين فى الحدود ويجرى توزيعهما بالتعادل، وتحدث الزخرفة عن طريق استخدام خامات ملونة تنسج جميعها غير ممتدة فى العرض، وفى هذا الفن يكون غالبية الثوب من اللون الأبيض أو الأزرق الغامق أو الأرجوانى أما الزخارف فبألوان متعددة.

وتعددت أنواع هذه الثياب المزركشة على طريقة «القباطى» لتناسب الطبقات الاجتماعية، فأصبح منها الثياب الدينية من النسيج الكتانى المزين برسوم هندسية نباتية دقيقة، كما وجدت الثياب جميلة التوشية

للرجال والنساء، وظهرت أيضًا شباك الشعر للنساء وعرائس للأطفال عليها رسوم دينية، والأثواب المرسوم عليها رسوم تمثل حياة القديسين.

وقد تأثرت صناعة النسيج في مصر بمؤثرات يونانية وفارسية وبدأت بعد ذلك صناعة المنسوجات الحريرية في الرواج، نتيجة جلب دودة القز عن طريق اثنين من رجال الدين جاءا ومعهما سر صناعة الحرير.

وكان لصناعة الأقمشة المصرية والمنسوجات الزخرفية أثر كبير في انتقال هذا الفن إلى أنحاء العالم الذى دهش بهذا الفن الذى أوضح ما لمدرسة الإسكندرية الفنية وما أظهرته من الأثر الدينى المسيحى من أهمية، من خلال الرسوم والزخرفة بمناظر الكتاب المقدس ومعجزات السيد المسيح عليه السلام، وحوارات الحواريين مع السيد المسيح، ورسوم الشهداء والقديسين وقد انتشر هذا الفن لسهولة تبادل وحمل الأقمشة من مكان لآخر.

وكانت صناعة الأواني الفخارية من الصناعات المزدهرة، حيث زخرفت بالرسوم وأشكال الحيوانات والطيور وأشجار الكروم وعناقيد العنب متأثرة بالتراث الهيليني، وبدأت تأثيرات الديانة المسيحية في زخرفة الأواني الفخارية من خلال رسومات وألوان زاهية. واستخدم زوار الأديرة هذه الأواني (كنائس القديس مينا) وعرفت بقوارير مينا، تملأ بالمياه تبركًا بمهد القديس.

كانت العمارة في مصر في العصر البيزنطي والمسيحي، متأثرة بالنواحي الدينية أكبر تأثير، وقد سارت على الطرق المعمارية السائدة آنذاك، البازيليكى والبيزنطي والقبطي وهذا ما اتبع في الكنائس والأديرة والعمارة الدينية بصفة عامة، فالبازيليكا عبارة عن قاعة مستطيلة يتقدمها فناء أو صحن ذو أعمدة عرضية، ويحيط بالفناء جدار واحد من الخارج. وهذا النظام مأخوذ من النظام الفرعونى في المعابد، ويضم الفناء صفًا من الأعمدة ويتصدره المدخل الخارجي وتوجد أبواب بعدد الأقسام الطولية، التى ينقسم إليها الفراغ الداخلي للكنيسة ويبلغ عرض الأجنحة عادة اتساع المجاز العريض الأوسط الذى يحيط بتلك الأجنحة، وتحمل الأعمدة سقف المجاز الأوسط وتتخلله طاقات أو نوافذ عليا لإضاءة المبنى تسمى النوافذ المشعة. واشتملت بعض النماذج على صفين من الأعمدة، يحمل الجزء المنخفض منها شرفة تخص السيدات وتقع كوة المذبح نصف الدائرية والمسقوفة بنصف قبة في الجانب الشرقى من القاعة المقابلة للمدخل، وتعد القاعة العرضية في بعض الكنائس بمثابة قاطع كوة المذبح، عن البازيليكا فاعلة شكل الصليب للإيحاء بجسد المسيح المصلوب.

وقد قدم الكتاب الفن المسيحى في مصر من زوايا ترتكز على أهدافه الدينية الواضحة التى كرست كل جهود الفنان في خدمة المعتقد أو للإرشاد الدينى، داخل أماكن العبادة وأوضح الكتاب قصة كفاح الشعب المسيحى المصرى ضد الوثنية حتى استطاعوا بكفاحهم أن ينتصروا على قوى اللاوعى بالدين وبالخالق لتصبح كل الدولة البيزنطية تدين بالدين الجديد.

وحتى شكل العمارة الدينية الذى شيد على شكل جسد السيد المسيح حتى يكرس الإيمان بالمتعبدين وتحل البركة عليهم، فالفن كان في هذا الوقت يخدم قضية معتقد، ويبدو فيه تأثر الفنان بروح التبتل والبساطة والشفافية، والإيمان الكامل بالرسل والباباوات والقديسين، والإيمان بالقصص الدينى وقصة آدم وحواء، وبدا هذا الفن برمته بسيطًا شعبيًا يخلو من الحرفيات التى أدخلت بعد ذلك على فن عصر النهضة بأوروبا. ■





«رشيدة» للجزائرية يمينة بشير

غياب مصرى وتراجع تونسى وأمل فلسطينى

السينما العربية فى الانتظار!

إبراهيم العريس

كانت سنوات خمس قد انقضت منذ عرفت «السينما العربية» آخر أمجادها الكبيرة فى مهرجان «كان» السينمائى فى جنوب فرنسا. ففى ذلك المهرجان الذى يعتبر، عادة، الأشهر بين مهرجانات السينما العالمية، كانت السعفة الذهبية التى منحت ليوسف شاهين العام ١٩٩٧، عن مجمل أعماله لمناسبة مشاركة فيلمه «المصير» فى المسابقة الرسمية لتلك الدورة، آخر تكريم تحظى به السينما العربية، والثالث الكبير فى تاريخ المهرجان بعد سعفة الجزائرى محمد الأخضر حامينا (عن فيلمه «وقائع سنوات الجمر» ـ ١٩٧٥) وجائزة لجنة التحكيم التى نالها اللبنانى الراحل مارون بغدادى (عن «خارج الحياة» ـ ١٩٩١). صحيح أن المغرب، وقبل استقلاله، كان فى العام ١٩٥١، قد فاز بالسعفة الذهبية ولكن، تحديدًا، عن فيلم لأورسون ويلز هو «عطيل» الذى صور ـ فقط ـ فى المغرب وشاء مخرجه أن ينسبه إلى هذا البلد العربى لأسباب إنتاجية بحتة.

إذن، كانت سنوات خمس قد انقضت على هذا كله، حين جاء التكريم الجديد فى «كان» فى العام ٢٠٠٢ من حيث لم يكن أحد يتوقع: من السينما الفلسطينية، وعن طريق فيلم «يد إلهية» للمخرج إيليا سليمان. فاز الفيلم يومها بجائزة لجنة التحكيم الخاصة. وكان من المتوقع له، منذ عرض أوائل أيام المهرجان أن يفوز بالسعفة الذهبية.

يومها لم يكن «يد إلهية» الفيلم العربى الوحيد المعروض فى «كان» والخائض مسابقاته. استثنائيًا، كان هناك عدد من الأفلام العربية الأخرى: من لبنان، من فلسطين وأيضًا من الجزائر، من موريتانيا ومن سورية.

لم يكن هناك أى فيلم مصرى. وكان هذا مستغربًا.

ولكن أو لم يُبن التاريخ الراهن للسينما العربية على أمور مستغربة؟

المهم فى الأمر، أن السينما العربية ـ غير المصرية ـ حضرت بقوة وعلى مدى عالمى.

وكان فى هذا بعد غريب أيضًا:ذلك أن هذا الحضور آتى فى وقت تُنعى فيه السينما العربية ككل. فى وقت من الصعب أن نرصد فيه أى حضور حقيقى للسينما العربية (الجادة) فى الصالات العربية أو على الشاشات العربية.

وحسبنا للتنبيه إلى هذا أن نذكر أن «يد إلهية» نفسه، على رغم فوزه فى «كان» ذلك الفوز الاستثنائى، لم يعرض بعد، أية عروض جماهيرية فى أى بلد عربى. بل لا يزال يسعى جاهدًا للحصول على موزعين، فى وقت تدعوه فيه المهرجانات والندوات للمشاركة، فى وقت حقق فيه فى عروضه الفرنسية ما يجاوز المائتى ألف متفرج مما يعتبر أمرًا استثنائيًا بالنسبة إلى فيلم غير أمريكى وغير أوروبى، من دون نجوم ويكاد يكون من دون موضوع حتى.

فلسطين/إنترنت

يشارك «يد إلهية» فى هذا المصير الفيلمان الفلسطينيان الآخران اللذان عرضا فى «كان» ثم فى غيره من المهرجانات، واعتبرا مع «يد إلهية» تجديدًا أساسيًا فى السينما الفلسطينية، يزيد من استقلاليتها ويعطيها حضورًا عالميًا ومحليًا لم يكن أحد ليتوقع له أن يكون حقيقيًا لعقد خلا من السنين، فالسينما الفلسطينية، وخلال العقود السابقة، كانت مجرد شرائط تسجيلية، أو حضور فى السينمات العربية الأخرى، أو نتيجة حماس مخرجين،آتين من آفاق عديدة يعلنون انتماءهم إلى «القضية» عبر تحقيقهم أفلامًا عنها، من الصعب اليوم وصفها بأنها فلسطينية حقًا، ولا سيما بعد ما صار للسينما الفلسطينية أهلها الحقيقيون. ونعرف أن البداية العملية كانت على يد ميشال خليفى الذى بعدما حقق أواخر الثمانينيات فيلمًا تسجيليًا متميزًا هو «الذاكرة الخصبة»، طلع على العالم المنتظر بواحد من أول الأفلام



ايليا سليمان وبالون عرفات فى «يد إلهية»

الروائية الفلسطينية الحقيقية، وهو «عرس الجليل» ثم كرت مسبحة: رشيد مشهراوى وعلى نصار، ونورما مرقص وليانة بدر، وصولاً إلى إيليا سليمان الذى عبر فيلمين طويلين وبضعة شرائط قصيرة حققها خلال أقل من عقد من السنين عرف كيف يضع السينما الفلسطينية، حقًا، على خارطة السينما العالمية. وأتى ذلك فى وقت يكاد يكون فيه ميشال خليفى صامتًا، ولكن، أيضًا فى وقت تضع فيه مى مصرى (التى كانت تحقق أفلامًا مشتركة مع زوجها المخرج اللبنانى جان خليل شمعون قبل أن تنفصل عنه، فنياً، منذ عشر سنوات وتحقق أفلامها بنفسها) بدورها فلسطين أخرى على تلك الخارطة. والحال إنه لئن كان إيليا سليمان قد قدم واحدًا من أجمل الأفلام العربية وأقواها فى العام ٢٠٠٢ عبر «يد إلهية» فإن مى مصرى بدورها قدمت واحدًا من أجمل وأقوى الأفلام الفلسطينية «التسجيلية» فى العام نفسه، وكان أن تقاسم الاثنان الساحة، هو بذلك الفيلم الطريف الجاد والهادف الذى صور الداخل الفلسطينى، ويومياته المرة انطلاقًا من حادث موت أبيه، كما صور استحالة اللقاء، تحت وقع الاحتلال بين حبيبين (هو نفسه أحدهما) إلا عند منطقة محايدة تقع غير بعيد عن حاجز إسرائيلى بين القدس ورام الله. وهى «مى مصرى» عبر لقاء تقيمه فى فيلمها المعنون «أحلام المنفى» بين صبايا وفتيان يقيمون بينهم عبر الإنترنت علاقة تعبر الحدود بين المنفى الفلسطينى فى لبنان والمنفى الداخلى فى فلسطين. إن الإنترنت يلعب هنا نفس الدور الذى يلعبه البالون الذى يحمل صورة ياسر عرفات والذى يطلقه صبيا «يد إلهية» ليعبر الحواجز واصلاً إلى القدس.

الحاجز

الحاجز هو القاسم المشترك بين الفيلمين، وتخطى الحاجز هو الهاجس الذى يهجس به شخوصهما. وفى هذا السياق يبدوان فصيحين، أيضًا، فيلم هانى أبو أسعد ورشيد مشهراوى. وهما بدورهما عرضا فى العديد من المهرجانات («كان» وغيره بالنسبة إلى الأول، و«بينالى باريس» وغيره بالنسبة إلى الثانى) وفازا بالعديد من الجوائز. ففى الفيلم الأول (عرس رنا) أو (القدس فى يوم آخر) كما فى الثانى (تذكرة إلى القدس) لدينا موضوعة الحاجز، فى فيلم هانى أبو أسعد يمنع الحاجز من إتمام مراسم الزفاف بين «رنا» شخصية الفيلم الرئيسية وحبيبها، بحيث أن ضغط أبيها لمحاولة منع ذلك الزواج بدوره يكاد ينجح. أما فى الثانى (تذكرة إلى القدس) فإن رشيد مشهراوى رسم حكاية شاب فلسطينى لا يهمه فى الوجود إلا أن يعرض أفلامًا على الفلسطينيين صغارًا وكبارًا، كوسيلة فعالة (ربما) للوصول إلى وعى فلسطينى جديد.

ولكن هناك أيضًا الحاجز الذى يضع ألف عقبة وعقبة. وفى الحالتين لدينا قدرة الإنسان الفلسطينى على الصمود وعلى تخطى الحاجز.. ولكن هذه المرة ليس من أجل انتصار مباشر، لا يبدو مطلاً فى الأفق، بل من أجل انتصار طويل المدى ينبنى على اكتساب الوعى وعلى تعلم خوض الحياة اليومية فى شكل أكثر صلابة وقوة.

إنه الوعى الفلسطينى الجديد. وعى اليومى والذى يقول أن الأحلام الكبيرة لن تتحقق إلا إذا نحن تعلمنا كيف نحقق الأحلام الصغيرة من الحب والزواج وعرض الأفلام. إنه اقتراح جديد لمستقبل فلسطينى جديد، يشارك فيه (يد إلهية) لايليا سليمان، و(أحلام المنفى) لمى مصرى.. والحال أن هذا الامتزاج ما كان فى إمكانه أن يكون فاعلاً، لولا ذلك الواقع الجديد الذى مكن السينمائى الفلسطينى من أن يقبض على واقعه بيده. إذ وكما نعرف أن العمل السياسى الفلسطينى ما كان فى إمكانه أن يحقق ما حقق منذ عشر سنوات، وبعد الهزيمة الكبرى فى لبنان على يد الإسرائيليين مرة، وعلى يد «الأشقاء» العرب مرة أخرى، وعلى يد الفلسطينيين أنفسهم مرات ومرات، إلا باستقلاله النسبى عن التدخلات والإرادات العربية..وفى يقيننا أن ذلك هو الدرس الأساسى الذى يمكننا استخلاصه من واقع السينما الفلسطينية كما رسم أمام أعيننا فى العام الذاهب.

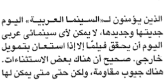
ولكن. إذ نقول هذا، لن يغرب عن بالنا أن هذه السينما، إذا استقلت فى ذاتها وصارت حرة فى موضوعاتها المطالبة للفلسطينى بأن يعيش حياته ويختار أساليب نضاله، لاتزال غير قادرة على الاستقلال ماليًا .. ولنلاحظ هنا أن (أحلام المنفى) تم بفضل إنتاج أمريكى، و(تذكرة إلى القدس) بفضل إنتاج هولندى أوروبى مشترك، مثله فى هذا مثل (عرس رنا) فيما تولى الفرنسيون إنتاج «يد إلهية» فهل لنا أن نستنتج من هذا شيئًا؟

ربما.. ولكن لابأس أن نلاحظ هنا أن الاستقلالية النسبية التى تحققت لهذه الأفلام تفوق ما تحقق لأية أفلام فلسطينية سابقة كانت عربية الإنتاج.

أين المصريون؟

هذا أمر يمكن أن يُسأل عنه على أية حال، مخرجنا الكبير يوسف شاهين، الذى ما كان فى إمكانه ومنذ سنوات عديدة أن يحقق أفلامه، بغثها وسمينها، لولا ما توافر له من تمويل غربى - فرنسى خاصة - فهل علينا أن نذكر بأن هذا الواقع بات راسخًا فى حال السينما العربية، مشرقًا ومغربًا؟

فمن يسرى نصرالله إلى أسامة محمد، ومن عبداللطيف بن عمار، إلى غسان سلهب اللبنانى، إلى عدد غيرهم من



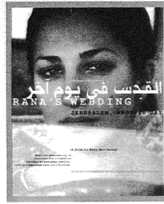
الذين يؤمنون لـ«السينما العربية» اليوم جديتها وجديدها، لا يمكن لأى سينمائى عربى اليوم أن يحقق فيلمًا إلا إذا استعان بتمويل خارجى. صحيح أن هناك بعض الاستثناءات. هناك جيوب مقاومة، ولكن حتى متى يمكن لها أن تصمد؟

لقد حقق الراحل رضوان الكاشف فيلمه الأخير (للأسف) «الساحر» بتمويل مصرى بحت. وكذلك فعل داود عبدالسيد فى «مواطن ومخبر وحرامى». والفيلمان على رغم التطويل أحيانًا، واستخدام النجوم بشكل أساء إلى كل من الفيلمين فى أحيان أخرى، محمود عبدالعزيز فى فيلم «الساحر» وشعبان عبدالرحيم فى فيلم «مواطن ومخبر وحرامى»، كانا عملين مشرفين ونالا حظوة لدى المتفرجين، ولكن أى متفرجين؟ أى جمهور؟ وما نوع الحظوة؟ وهل كان يمكن لرضوان الكاشف، لو عاش أن يكرر التجربة؟ وهل فى وسع داود عبدالسيد اليوم أن يكرر تلك المغامرة؟ سؤال لابد من طرحه؟ خاصة إذا تذكرنا أن كل المخرجين الذين برزوا فى مصر خلال العقدين الأخيرين، قد تراجعوا: فهل يمكن مقارنة (زواج بقرار جمهورى) لخالد يوسف بـ(العاصفة) «فيلمه الأول»؟ وهل يمكن الإجابة حول أسباب عدم إنجاز (بحب السينما) لأسامة فوزى؟ وأين عاطف حتاتة بعد رائعته (الأبواب المغلقة) وأين (كونشرتو درب سعادة) لأسماء البكرى من (شحاذيها ونبلائها)؟ ثم هل حقًا يمكن لـ(الساحر) نفسه، للراحل رضوان الكاشف أن يصمد أمام فيلميه السابقين (ليه يا بنفسج)، وخاصة (عرق البلح)؟ يسرى نصرالله بعد (المدينة) الذى، وفى الحسابات كافة، لم يرق إلى (مرسيدس) أو حتى إلى فيلمه التسجيلى (صبيان وبنات) يجرب حظه اليوم مع رواية يحولها فيلمًا عن القضية الفلسطينية. ولكن هل حقًا كان من طموحات يسرى نصرالله وصاحب التجريبية المدهشة فى أعماله الأولى، أن يحقق فيلمًا مباشرًا عن قضية يتصور منتجوها أنها، إذ تحول فيلمًا جماهيريًا ـ يُصور الآن فى سوريا ـ مضمونة النجاح والكسب سلفًا؟

نشك فى هذا، ونتساءل فى مجال الحديث عن التجريبية عما آل إليه مصير أحمد عاطف، بعد الجرأة المطلقة التى طبعت فيلمه الأول (عمر ٢٠٠٠)؟ وعن جواز المقارنة بين آخر ما حققته ساندرا نشأت، والطابع الإنسانى الفنى المبدع الذى طبع فيلمها الأول (مبروك وبلبل).

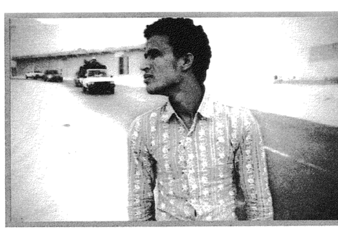
والحال أننا لم نورد هذه الأسماء هنا إلا لأنها هى التى ـ لأعوام قليلة خلت ـ كانت تبدو حاملة لعبء النهوض بالسينما المصرية ـ والعربية ـ إلى مستويات تكمل مسيرة يوسف شاهين، من ناحية، ومسيرة جيل (الواقعية الجديدة) من ناحية ثانية (جيل محمد خان وخيرى بشارة وعلى بدرخان والراحل عاطف الطيب.. ترى أين هو هذا الجيل الآن؟ وهل يكفى «أيام السادات» لإعلان حضوره المتواصل؟) فهل ستخيب الأحلام أكثر وأكثر ومرة أخرى؟

إنه سؤال لابد من طرحه اليوم على ضوء واقع يبدو شديد الغموض إن لم نقل شديد الاهتراء.



ملصق «القدس فى يوم آخر» لهانى أبوأسعد

ملصق «وبعد» لمحمد إسماعيل (المغرب)



«فى انتظار السعادة» للموريتانى عبدالرحمن سيساكو

جيل لبنانى مفاجئ

والواقع نفسه هو الذى يمكن رصده فى لبنان. ومع هذا يبدو أن للبنان، فى هذا السياق أيضًا، خصوصية لا يمكن نكرانها: ثمة فى لبنان، على الأقل، جيل جديد يعد.. ومن المؤسف أنه الجيل العربى الوحيد الذى لديه حتى الآن هذه المواصفات.

وهذا الجيل يحاول أن يكمل اليوم مسيرة متميزة كان بدأها، قبل ٢٥ سنة، جيل الحرب السينمائى، الذى كان أبدع للبنان بعض أفضل الأفلام التى حققت باسمه فى تاريخه. وهذا الجيل كان من أعلامه الراحل مارون بغدادى والمخضرم برهان علوية وجان شمعون وجان كلود قدسى وبهيج حجيج إضافة إلى جوسلين صعب ورندة الشهال وهينى سرور.. وبعض الأسماء الأخرى. وقبل ربع قرن، فى خضم الحرب اللبنانية كان هذا الجيل واعدًا بدوره، وجديًا. ولقد وصلت نجاحاته إلى ذروتها مع الجوائز العربية (قرطاج) التى فاز بها (كفر قاسم) برهان علوية، والعالمية (كان) التى فاز بها مارون بغدادى، ولكن بعد تلك النجاحات الأولى الكبيرة، اختفى ذلك الجيل تقريبًا: رحل بغدادى وصمت علوية، صحيح أن قدسى وشمعون حققا فيلميهما الروائيين الأولين (آن الأوان) بالنسبة إلى قدسى، و(طيف المدينة) بالنسبة إلى شمعون، لكن النجاح لم يكن مضمونًا. فصمت قديس تقريبًا، وراح شمعون يغوص فى أفلامه التسجيلية المتميزة أكثر وأكثر.. وينتج لزوجته مى مصرى إذ استقلت عنه سينمائيًا. فى تلك الأثناء نهض جيل روائى / تسجيلى جديدمن أبنائه سمير حبشى (الإعصار) وديما الجندى (بينى وبينك بيروت) و(طريق الحرير) ثم زياد دويرى (النجاح الأكبر محلياً وعالميا لأى فيلم لبنانى عبر «بيروت الغربية») وغسان سلهب وكريستين دبغى، ولكن حين أطل العام ٢٠٠٢، راحت الصورة تبدو على غير ما كانت وعدت به: سلهب حقق فيلمًا ثانيًا، ولكنه بدا فيه كالمقلد نفسه (فى تشابه مزعج مع فيلمه الأول «أشباح بيروت»).. فلم يكن «أرض مجهولة» سوى نسخة عرجاء من الفيلم الأول. صحيح أن «أرض مجهولة» عرض فى دورة «كان» الأخيرة ولقى بعض الصدى، لكنه كان صدى التشجيع وإحساس الأبوة، أكثر منه صدى ناتجًا عن مفاجاة فنية ما، هذا بالنسبة إلى سلهب، أما الآخرون فصمتوا، أو عملوا فى صمت: رنده الشهال حققت فيلمًا جديدًا، وبرهان علوية ينجز الآن شريطًا يحاول أن يعود به إلى الساحة بعد صمت قرن ونصف القرن من الزمن! وجوسلين صعب تحاول أن تعثر على منتج لفيلم جديد تدور أحداثه فى القاهرة.

وفى انتظار عودة هؤلاء.. أو إعلان صمتهم النهائى، نما فى لبنان جيل جديد. جيل شباب يكاد يكون من دون تراث سينمائى مكبل، جيل صوره آتية من الصورة. جيل يحقق الآن أفلامًا قصيرة. روائية أو تسجيلية. يغلب عليها طابع الذات والاكتشاف، ولكن من الواضح أن بعد الهواية فيها يعد ببعد احترافى مؤكد. ومن أبرز أبناء هذا الجيل أكرم زعترى (الجائزة الكبرى فى مهرجان الاسماعيلية عن فيلمه المتميز «هو + هى فان ليو») وميشال كمون الذى حقق فيلمين قصيرين (رائعين) للتلفزة الإنجليزية قبل أن يطوى على مضض مشروع فيلمه الروائى اللبنانى الأول ويتوجه إلى برشلونة حيث يصوِّر هناك ـ من دون أدنى علاقة بالسينما اللبنانية التى مع هذا ينتمى إليها بقوة ـ فيلمه الروائى الطويل الأول.

إن زعترى وكمون وغيرهما من أبناء جيلهم ـ مهى حداد ومنى مرعى وإليان الراهب ويوسف مكى وإيلى خليفة وفؤاد عليوان وعشرات غيرهم يماثلونهم سنًا ـ لن يستطيعوا المواصلة من دون دعم، غالبًا ما يأتى من الخارج الآن، أو من الجامعات والمؤسسات الصغيرة التى ترعى مشاريعهم المتواضعة فى انتظار ما هو أفضل. غير أن هذا الواقع لم يمنع واحدًا من أبناء هذا الجيل نفسه، وهو أسد فولادكار، من أن يوفر من مصروفه العائلى ١٥ ألف دولار تمكن بها من تحقيق فيلم / مفاجاة، حقق، حتى اليوم العديد من النجاحات ولاسيما فى مصر وباريس (جوائز فى الإسكندرية وفى البينالى الباريسى) وهو فيلم «لما حكيت مريم» الذى عرف فيه كيف يتجاوز، لقوة موضوعه وبساطة معالجته، مشكلة التمويل. ولكن هل يمكن لفولادكار أن يكرر التجربة نفسها؟ هو يشكك فى ذلك. ويشاركه الشك زميله بهيج حجيج، الذى بعد انتظار عشرين عامًا، وبعد سلسلة من الأفلام القصيرة، أنجز أخيرًا فيلمه الروائى الطويل الأول «زنار النار» الذى لم يكلف سوى ١٣٥ ألف دولار، ويتميز بكونه أول فيلم لبنانى ينطلق من رواية أدبية («المستبد» لرشيد الضعيف) فاتحًا أمام زملائه أبوابًا جديدة، بعيدة عن تلك الأفلام شديدة الذاتية التى يكتبها المخرج بنفسه وغالبًا عن «تجربته» الحياتية، إذن، مع الفيلم الذى أنجزه حجيج ويواصل أشغاله التقنية حتى الآن، يمكننا أن نقول أن ثمة أربعة أو خمسة أفلام لبنانية تصور أو تنجز اليوم، فهل يكون العام ٢٠٠٣ عام السينما اللبنانية عبر إنتاج يبدو، نسبيًا، كبيرًا؟

البحث عن حرية

العام ٢٠٠٢ كان فى سورية على أية حال عام استعادة الأنفاس، وإلى حد ما، تمكن محمد الأحمد الناقد المعروف والذى تسلم مقدرات «مؤسسة السينما» منذ فترة، من أن يفى، ولو جزئيًا بما كان وعد به: أن يعيد السينما السورية إلى خارطة السينما العربية بعد ما غابت لفترة من الزمن. صحيح أن النتيجة لم تكن، حتى الآن، سوى عدد قليل من الأفلام. لكنها كانت أفلامًا حاضرة وكان لها معجبوها وأنصارها، تمامًا كما كان لها ناقدوها. وفى الحالين حضرت السينما السورية. بل كان الحضور استثنائيًا إذا نحن تذكرنا أن من مزايا هذا العام السينمائى السورى المنصرم أنه شهد

امرأة تحقق أول فيلم لامرأة في سوريا: واحة الراهب، التي سوف يعرض فيلمها الأول العام ٢٠٠٣. وفي انتظار فيلم واحة الراهب لنعرف كيف تنظر المرأة السورية إلى مجتمعها، علينا أن نكتفي بالفيلمين اللذين حققهما أسامة محمد («صندوق الدنيا») وعبد اللطيف عبد الحميد («قمران وزيتونة»). وستكون مفاجأتنا الأولى التشابه الكبير بين الفيلمين، في الموضوع والأجواء والحقبة التاريخية. فالفيلمان ريفيان، كل منهما يتناول كما يبدو طفولة مخرجه أو ما يشبهها. وباللهجة العلوية نفسها. والفيلمان سوداويان قاسيان (في حق النساء والأطفال). وأي من الفيلمين، على أية حال، لا يرقى إلى ما سبق لمخرجيهما أن حققاه فـ«صندوق الدنيا» أبقى المعجبين الكثر بفيلم أسامة محمد الأول «نجوم النهار» على ظمئهم. أما «قمران وزيتونة» فإنه سجل تراجعًا في الأسلوب والتعبير، عن المستوى المتميز والشفاف الذي كان طبع فيلم عبد اللطيف عبد الحميد السابق «نسيم الروح». لكن هذين الفيلمين أثارا من السجال مالم يسبق أن أثاره أي فيلم سوري آخر، منذ «أحلام المدينة» لمحمد ملص، الذي من المؤسف أنه يبدو غائبًا تمامًا، عن الساحة منذ رائعته «الليل».

والحال أنه إذا كانت وعود محمد الأحمد - الصادقة حتى الآن - تقول لنا أن السينما السورية سوف تشهد نهضة ما خلال المرحلة المقبلة، فإن فيلمي أسامة محمد وعبد اللطيف عبد الحميد يضعاننا أمام تساؤلات شكاكة: ما الذي يمكن حقًا للسينمائي السوري أن يقوله بعد، في وقت تستنفد فيه الدراما التليفزيونية المواضيع المحدودة، على أية حال، التي يمكن للسينما أن تتناولها؟ ونطرح هذا السؤال لأننا نعرف تمامًا أن السينما - كتعبير فردي - وعلى عكس التلفزة - كتعبير حرفي جماعي - تحتاج إلى قدر من الحرية من الصعب توفره في سورية حيث دلتنا تجارب المنابر المفتوحة - ثم المغلقة - على حدود الحرية في بلد يعيش مجابهة دائمة ومحاصر ومحكوم من توجه سياسي واحد. ولعل هذا الواقع هو الذي يحول اليوم دون انبعاث جيل سينمائي جديد ها هو ينبعث في لبنان. وفي انتظار انبعاث هذا الجيل يبقى المخضرمون يسعون.. ويحتالون على الرقابة، أو يزورون التاريخ والطفولة في تجربة علمتنا السينما الإيرانية حدودها.. وأيضًا كيفية تجاوز هذه الحدود. فهل نقول أن السينما السورية ستعيش هكذا كل تناقضاتها في انتظار مجيء كياروستاميها أو مخملبافيها أو زميلات سوريات لرخشان بني اعتماد وتخمينة ميلاني وجعفر بناهي؟



من «أرض مجهولة» للبناني غسان سلهب



«عرائس من طين» لنوري بوزيد (تونس)

تراجع تونسي

مهما يكن من الأمر، فإن الحرية التي يتمتع بها بلد مثل تونس، لم تنقذ سينماه من الانهيار. وليست هذه من قبلنا، مرافعة ضد الحرية، بل ضد واقع بات يدمّر السينما أكثر وأكثر، فاليوم وعلى ضوء الإنتاج السينمائي التونسي الذي نرصده، ورصدنا نماذج قليلة منه في العام ٢٠٠٢، يمكننا أن نقول بأن أجمل وأقوى ما حققته السينما التونسية يبدو اليوم وكأنه أصبح وراءها.

لقد عاد عبد اللطيف بن عمار، إلى الشاشة الكبيرة بعد غياب أكثر من عشرين سنة، في فيلم «نغم الناعورة». ولكن حتى وإن كان خاض موضوعًا جيدًا عبر «فيلم الطريق» هذا وعبر شخصيات بدت مبتكرة وجديدة على السينما التونسية، فإن تلك الرحلة التي قامت بها مطلقة وعاشقيها مع مغترب آتى حديثًا في سيارة عبرت تونس وقدمت لنا صورة عن شتى مجتمعاته وأحواله، لم تبد مقنعة في المحصلة الأخيرة. بدت مفتعلة في سيناريو يفتقر إلى التماسك. «نغم الناعورة» بدا واحدًا من أفلام النوايا الطيبة. لكنه في الوقت نفسه بدا قديمًا جدًا، وعجز عن أن ينسينا أن عبد اللطيف بن عمار كان، خلال المراحل الأكثر بهاءً للسينما التونسية قد قدم رائعتين «سجنان» و«عزيزة». ومع هذا إذا قارنا «نغم الناعورة» وموقعه في سينما صاحبه بالفيلم التونسي الآخر «عرايس الطين» الذي عاد به إلى السينما واحد من كبار الذين صنعوا لها عصرها الذهبي: نوري بوزيد (صاحب «رجل من رماد» و«صفائح من ذهب» و«بزنس» وكاتب سيناريو «صمت القصور» لمفيدة تلاتلي)، سنجده مقبولاً. ذلك أن تراجع نوري بوزيد يبدو هنا كبيرًا، ويواصل تراجعه المعلن منذ «بنت فاميليا». هل معنى هذا أن نوري بو زيد قال كل ما عنده وانتهى؟

ليس بالتأكيد، ذلك أن في «عرايس الطين» - حسبما أكد نقاد شاهدوا الفيلم ويمكننا الوثوق بكلامهم - لحظات سينمائية كبيرة تقول أن مخرجها لم ينته، لكن عليه أن يبحث أكثر وأكثر عن مواضيع جديدة. عن أفكار مبتكرة هي ما ينقص سينما التوانسة الكبار منذ سنوات. وبالتالي يجعل أعمالهم الأولى أفضل أعمالهم: «رجل من رماد» لبو زيد نفسه لا يزال أفضل ما حقق حتى اليوم، و«صمت القصور» هو الأفضل بين الفيلمين اللذين حققتهما مفيدة تلاتلي. ويسري الكلام نفسه على فريد بو غدير الذي كان حقق عبر «حلفاوين» تحفة صغيرة، لم يستطع تكرارها في «صيف في حلق الوادي» فيلمه الثاني والذي صمت من بعده ولايزال صامتًا، حتى اليوم للأسف. وفي مقابل هؤلاء واصل رضا الباهي، الأكثر رسوخًا عند مستوى متوسط على الأقل، مسيرته. في فيلمه الجديد «صندوق عجب» في وقت لايزال فيه محمد زرن في انتظار فرصة جديدة بعد فيلمه الأول «السيدة» الذي برز متميزًا قبل سنوات. فهل عليه أن يطمع في أن تكون نتيجة انتظاره أفضل من نتيجة انتظار زميله ناصر قطاوي الذي - كما حال إبراهيم باباي - لم يتمكن في شريطه الجديد من تجاوز نفسه؟

إن الأسماء التي ذكرنا هي، بالنظر إلى تاريخها، في مقدمة صانعي السينما العربية الجديدة. والمؤسف أنها لم تعد تبدو كذلك اليوم. إن السينما التونسية تعيش تراجعًا مأساويًا. ولعل البحث عن الأسباب أن يكون من مهمة علم الاجتماع على ضوء الواقع السياسي الراهن - المغرب بأكثر مما ينبغي - الذي باتت تعيشه تونس، ذلك البلد الذي عبر مهرجان «قرطاج» كما عبر إنتاج طلع كالمعجزة قبل حقبة، كانت تعد بأن تكون لها مكانة كبيرة في خارطة السينما العالمية، والراهن يكذب هذا.

استعادة الأنفاس

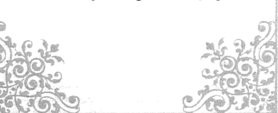
في المقابل تبدو السينما الجزائرية وكأنها اليوم، تحاول أن تستعيد أنفاسها. فبعد كانت من الأكثر وعدًا وحضورًا في آخر الستينيات وطوال السبعينيات، أصابها ركود كاد يكون شيخوخة بعد رحيل بومدين. قبل ذلك لم يحدث للسينما الجزائرية أن نمت وكبرت وحدها، بل إنها واكبت في اندفاعتها سينمات أخرى، فأنتجت ليوسف شاهين ولكوستا جافراس، وإيف بواسيه، وبدت ذات حضور في اندفاعة السينما الأفريقية، كما في اندفاعة العالم الثالث ككل. ولكن بعد ذلك، وبالتزامن مع التفات السينمائيين الجزائريين إلى الداخل في حركة كانت منارتها السينما التي راح يحققها مرزاق علواش منذ فيلمه الأول «عمر قتلته»، بالتقابل مع حركة مندفعة إلى الخارج مع فاروق بلوفة، مثلاً الذي حقق «نهلة» عن الحرب اللبنانية، راحت هذه السينما الجزائرية تفقد توجهها الإجمالي الخارجي، لتطلع بإنتاجات أخذت عالميتها وأهميتها من محليتها. ولكن بالتدريج خفتت تلك الحركة: لم يعد ما يحققه محمد الأخضر حامينا متناسبًا مع ضخامة ونجاح عمليه الكبيرين «رياح الأوراس» و«وقائع سنوات الجمر». وصمت أحمد راشدي وسليم رياض تدريجيًا. وهاجر البعض فيما كانت محاولة آسيا جبار في التحول من أديبة إلى سينمائية (في «نوبة نساء جبل شنوة»)، محاولة وحيدة.. وراح التراجع يترسخ على رغم أفلام قليلة وطموحة ظلت تطلع بين الحين والآخر. أما الخاسر الأكبر في هذا كله فكان مرزاق علواش نفسه، فهو بعد تميز «عمر قتلته» واستثنائية «مغامرات بطل»، وكما حدث للعديد من زملائه بدأ يتراجع بمقدار ما راح يغوص في سينما القضايا المباشرة «باب الواد» و«سلامًا يا ابن العم» و«بيروت / الجزائر»، بحيث إن فيلمه الأخير الذي حققه في الجنوب الجزائري لم يبق فيه من علاماته القديمة سوى بعض اللغة السينمائية الجميلة.

ومرزاق علواش كان في هذا كناية عن مسيرة السينما الجزائرية نفسها. فإذ تصل هذه السينما إلى زمن تبسط فيه مواضيعها كما في «رشيدة» الفيلم الجزائري الوحيد الذي برز في العام ٢٠٠٢ (عرض في «كان» وفي «بينالي باريس» وفي عدد من المهرجانات العربية الأخرى). و«رشيدة» هو الفيلم الروائي الطويل الأول الذي تحققه المؤلفة يمينة بشير، زوجة المخرج محمد



إغاثة الأمة بكشف الغمة

وقع فى أيام المستنصر الغلاء الذى فحش أمره وشنع ذكره، وكان أمده سبع سنين. وسببه ضعف السلطنة، واختلال أحوال المملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الفتن بين العربان، وقصور النيل، وعدم من يزرع ما شمله الرى. وكان ابتداء ذلك فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة، فنزع السعر، وتزايد الغلاء، وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضى من الزراعة، وشمل الخوف، وخيفت السبل برًا وبحرًا، واستولى الجوع لعدم القوت حتى بيع رغيف خبز فى النداء بزقاق القناديل من الفسطاط بخمسة عشر دينارًا، وبيع الأردب من القمح بثمانين دينارًا؛ وأكلت الكلاب والقطاط حتى قلت الكلاب، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير. وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضًا، وتحرز الناس، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم سَلَب وحبال فيها كلاليب، فإذا مر بهم أحد ألقوها عليه ونشلوه فى أسرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه. ثم آل الأمر إلى أن باع المستنصر كل ما فى قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره؛ وصار يجلس على حصير، وتعطلت دواوينه، وذهب وقاره؛ وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن «الجوع الجوع!»، تُردن المسير إلى العراق، فتسقطن عند المصلى، وتمتن جوعًا. واحتاج المستنصر حتى باع حلية قبور آبائه؛ وجاءه الوزير يومًا على بغلته فأكلتها العامة، فشنق طائفة منهم، فاجتمع عليهم الناس فأكلوهم. وأفضى الأمر إلى أن عدم المستنصر القوت، وكانت الشريفة بنت صاحب السبيل تبعث إليه فى كل يوم بقعب من فتيت، من جملة ما كان لها من البر والصدقات فى تلك الغلوة.







السينما العربية

شويخ، الذى يصمت هو الآخر بعد أعمال متميزة، ومنها «القلعة» و«سفينة الصحراء».. إلخ. من ناحية شكلية فيلم «رشيدة» عمل متميز، تضفى عليه بهاؤها بطلته ابتسام جورى. لكنه ساذج الموضوع ويدور فى أجواء من الواضح مدى افتعالها. وإذ تقول مخرجته إنه «نشيد إلى السلام» يبدو الأمر سرياليًا تمامًا مثل أحداث الفيلم. ويقول لنا هذا كله أنه بات على السينما الجزائرية أن تبذل الكثير من الجهود الآن، ليس لكى تسير قدمًا، بل لكى تستعيد ألقًا كان لها.

أجيال المغرب

هذا الألق يمكن القول إن السينما المغربية تعيشه منذ فترة. حتى وإن كان قد صمت - لأسباب غامضة! - بعض الذين كانوا صنعوا لها فى الماضى مجدها الكبير: سهيل بن بركة، أحمد المعنونى ورفاقهما، دون أن ننسى جلالى فرحاتى وفريدة بليزيد.

إن من يحضر بقوة منذ سنوات فى السينما المغربية، هم أبناء الجيل الأجد، من أمثال سعد الشرايبى وحسن بن جلون وعبد القادر لقطع، وخاصة نبيل عيوش وعبد الحى العراقى الذى برز هذا العام عبر فيلم عنوانه «منى صابر» تناول وفى جرأة استثنائية موضوعين كانا لسنوات، يعتبران من المحظورات فى المغرب: موضوع المختفين لأسباب سياسية منذ الانقلاب المجهض ضد الحسن الثانى، وموضوع مصير أبناء الزيجات المختلطة. صحيح أن هذا الفيلم لم يلفت الانتباه كثيرًا، غير أنه أتى متميزًا مع هذا. وسد مخرجه الفراغ الذى نتج عن تضاؤل الإنتاج، كميًا، هذا العام.. إذ لايزال سعد الشرايبى منهمكًا بعرض فيلمه الأخير «عطش» وعبدالرحمن القازى يبحث عن موضوع جديد، وكذلك يفعل نبيل عيوش، الذى كان خلال السنوات الأخيرة، وعبر فيلمين على الأقل هما «مكتوب» و«على زاوا» الظاهرة الأبرز فى السينما المغربية، أسلوبًا وجرأة فى التناول. وهذه الجرأة نفسها نجدها فى العديد من الأفلام التى حققها مخرجون أتوا من آفاق أخرى: التصوير الفوتوغرافى بالنسبة إلى داود ولاد سيد (صاحب «وداعًا سويرتى») والإنتاج بالنسبة إلى محمد إسماعيل الذى حقق فيلمًا لفت الأنظار، كذلك بجرأة موضوعه، هذا العام هو «وبعد؟» عن موضوع الهجرة السرية - عبر البحر القاتل - من شمال أفريقيا إلى أوروبا، حيث الحلم الذهبى بالنسبة إلى ملايين البائسين والعاطلين عن العمل، وحيث السعادة.

سعادة أوروبية

وفى انتظار هذه السعادة، هو تحديدًا موضوع الفيلم الموريتانى الذى حققه الموريتانى عبدالرحمن سيساكو، الذى يبدو أنه وحده الآن يحمل عبء إحياء السينما الموريتانية بعدما صمت مؤسسها الكبير محمد عبيد هندو، لسنوات طالت حتى الآن. و«فى انتظار السعادة» عرض بدوره خلال الدورة الأخيرة لمهرجان «كان» السينمائى ولفت الأنظار قبل أن يفوز بالجائزة الكبرى، عن جدارة، فى بينالى السينما العربية فى معهد العالم العربى فى باريس. والفيلم يتمحور من حول حياة الفتى عبدالله فى مدينة نواديبو، والذى يزور أمه فى انتظار هجرته إلى فرنسا، لكنه يكتشف عجزه عن التواصل مع الناس هناك، لجهله لغتهم، ثم بالتدريج يتعرف إلى شخصيات تحلم مثله وتحزن مثله وتنتظر السفر مثله. ويتعلم فى انتظار ذلك السعادة التى تنتظره.

ترى أفلا يمكننا عبر حكاية عبدالله هذه أن نتلصص على ذلك الأمل الذى يعشش اليوم فى أفئدة السينمائيين العرب أنفسهم ويقول لهم: أوروبا هى الحل.

فالواقع أننا إذا أعدنا النظر فيما آل إليه حال معظم السينمات العربية (الجادة) سنجد أن إنتاجها، بل أيضًا عرضها والتفاعل معها، لم يعد متوفرًا فى البلدان العربية كافة. إنها تنتج اليوم بأموال أوروبية، وتعرض فى أوروبا، فى المهرجانات وعلى شاشات التلفزة. وأحيانًا فى الصالات السينمائية نفسها، وهذا يستتبع بالضرورة تغييرًا فى الموضوعات. وفى اللغة السينمائية. أو الأفضل أو الأسوأ؟ لسنا نحير جوابًا. وفى مطلق الأحوال نعتقد أن الجواب كامن داخل الأفلام نفسها، وقد بدأت تخرج من معطف الجماعة إلى بُرد الأفراد. ومن دون أن نحدد ما إذا كان هذا حسنًا أم سيئًا. خطأ أم صوابًا، لابد أن نختم هذا العرض الذى لم يكن شاملاً، بقدر ما كان مركزًا على الإنتاجات الأبرز والأكثر حضورًا، بغثها وسمينها، بالقول - مع شىء من التفاؤل الضرورى - أن ماشهدناه هذا العام، كان أشبه بالمرحلة الانتقالية.

فالوعود قائمة..

وثمة ما هو أكثر من الوعود، عبر إنتاجات تحققت وستعرض العام المقبل، وأجيال تولد وتزدهر لتنتظر منضمة إلى قائمة المنتظرين. أجيال ستجد طريقها السليم ولو بصعوبة.

ذلك أن ثمة، بعد هذا، يقينا واحدًا وهو أن السينما لن تموت.

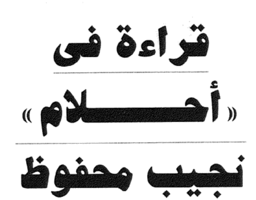
إنها الآن - كما يبدو - فى غرف العناية الفائقة، لكنها بالتأكيد لن تموت. ■

الحلم وعى آخر، والإبداع الحقيقى واقع أعمق وأبعد مدى من كل واقع. الواقع الإبداعى هو أكثر موضوعية من الواقع الظاهر، والإنسان هو الكائن الحى الوحيد - من بين ما نعرف - الذى يستطيع أن يتجول فى ذاته الممتدة خارجه، كما أنه يستطيع أن يحتوى الخارج فى طبقات وعيه، وأن يُبرمج المكان فى الزمان، وبالعكس، ثم هو يعيد تشكيل وجوده والعالم بلعبٍ جميل، أو استشراف مخترِق، أو كشفٍ مرعب، أو حتى شُواش يتخلّق.

استجابة لدعوة **«وجهات نظر»** الغراء، قررتُ أن تكون هديتى لشيخى الجليل فى هذه المناسبة هى أن أنهل من عطائه أكثر، ثم أحمل بعض ما وصلنى منه - أخطأتُ أم أصبت - إلى أصحابه، لعل فى ذلك تحقيقا لما قلته فى نفس المناسبة: **«.. لو أن كل من يحب هذا الرجل.. يزيد من عمله الجاد أكثر، ويسمح لوعيه أن يتسع أكثر.. لكان هذا أعظم ما يمكن أن نقدمه لهذا الشيخ الجميل»**. إن شيخنا يتأسف مكررا على تواضع الحركة النقدية التى بغيرها يسير الأدب والإبداع على ساق واحدة، من هنا انتبهت إلى ما يمكن أن أستجيب به لهذه الدعوة الكريمة، فرحت أطرق أبواب بعض **«أحلام فترة النقاهة»**، وخاصة أنها كانت مثارا للجدل بشكل طيب، وغير ذلك.



أعظم ما نقدمه لشيخنا الجليل ... العمل الجاد



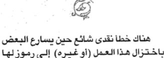
قراءة فى «أحلام» نجيب محفوظ

يحيى الرخاوى

إن المتابع لما كُتب عن عودة نجيب محفوظ إلى الكتابة بعد نوبل، وبعد الحادث الآثم، لابد أن يتوقف كثيرا أو قليلا وهو يتساءل عن الدافع، والمغزى والهدف. نجيب محفوظ لا يعيش إلا مبدعا. لا يمكن أن يستمر إلا مبدعا. هذه الحقيقة بلغت من القوة والحضور مبلغا تكاد لا تصبح معه اختيارا مطروحا، هى حقيقة ماثلة. إبداع نجيب محفوظ يتجلّى فى حياته كما يتجلى فى إنتاجه. إن احتفاظه بالقدرة على الدهشة، والشغف بالتعلّم، والجدّية فى الإنصات، ثم امتلائه بكل ما يصله ليدعه يتحرك فى رحابة وعيه بهذه السلاسة المتجددة، هو إبداع طول الوقت. حتى وهو يحلم، راح يبدع فى الحلم، ثم يلتقط بعض ما تبقى ليعيد صياغته وتشكيله وتفاصيله فيما يطل علينا فيما أسماه **«أحلام فترة النقاهة»**. لم يكفه أن يقوم بإعادة تخليق مريديه من حوله يوما بعد يوم، ذلك الإبداع الذى أسميتُه يوما فى مثل هذه المناسبة «إبداع: حى(=) حى».(قياسا على صواريخ أرض أرض). البشر يتخلقون من جديد من علاقتهم بعضهم ببعض، فما بالك وهم فى حضور هذا الكيان الفذ الذى يفجّرنا إلينا!! إن من لا يخرج من مجلس هذا الرجل مختلفا هو الآنية والكراسى. حتى الآنية والكراسى رأيتها مرة وقد فرحت به، وهى ترقص على كلماته.

ثمة قصة لا يعرفها الكثيرون تفصيلا عن كيفية ظهور هذه الأحلام أصلا، لا من حيث المضمون والنشر ولكن من حيث إمكانية كتابتها أصلا. شيخنا لا يعرف الإملاء. لم يعتده، وقد رفضه المرّة تلو المرة ونحن نعرض عليه احتماله. وهو لا يعرف التسجيل ويرفضه أيضا. حدث ما حدث من غدر جبان وشيخنا فى حال حُرم معها من القراءة، ومن مشاهدة التليفزيون والمسرح والسينما، وهو القارئ النهم، والمشاهد المندهش المنتظم. أضاف الحادث إلى ذلك عجزه أن يمسك بالقلم، مجرد إمساك. وهو لا يستطيع أن يعيش إلا إذا أمسك به وخط ما عنده. فما العمل؟ لم يكن عند أحد منا أى احتمال لأى جواب، لكن يبدو أنه هو وحده الذى كان يعرف الجواب. ظل شيخنا يدرب نفسه كل يوم طوال ست سنوات حتى استطاع أن يكتب بضع كلمات مفهومة فى الصفحة الواحدة، كانت البداية لا تُقرأ أصلا، ثم نجح أن يخط حرفا واحدا فى الصفحة كلها، ثم كلمة، ثم يضع كلمات، حتى استعاد هذا النبش الذى تُظهره: «نصف الدنيا» مشكورة جنبا إلى جنب مع النص المطبوع (ولكن يبدو أن هذا التصوير الأمين لم يكن أبدا دافعا كافيا لتحرّى الدقة، ومقارنة النص المصوّر بما ينشر تحته مطبوعا. لست أدرى لماذا؟). المهم أنه قُبيل، أو ربما بُعيْد كتابة أول حلم (دون علمنا) لاحظنا أن شيخنا يلوح فى أفق وعيه الكامن ضوء فجر جميل، قلنا إنه ينوى خيرا جديدا. ربما أنه بعدُ أن وثق أنه يستطيع أن يخط بضع كلمات بجوار بعضها سوف يفعلها. سألته فاطرق قائلا فى تواضع متردد: **«يعنى .. باين فيه «نغبشة» كده بتشاور عقلها»**. ثم تبين أن هذه «النغبشة» كانت الحَمْل الذى أخرج لنا هذا العمل الجديد غير المسبوق. صحيح أن أصداء السيرة الذاتية كانت الحدس الباكر لهذا النوع من الكتابة، لكن الأرجح أنه لولا الإعاقة والحدود والإصرار وإلحاح الإبداع وحب هذا الرجل للناس والحياة، ما كان يمكن أن يعاود أو يحاول من جديد هذا النوع الخاص جدا من الكتابة.

العجيب أن كثيرين تصوروا أن هذه الأحلام هى أحلام فعلا تحدث أثناء نوم شيخنا، وأنه لا يفعل إلا أن يرصدها مثلما يحكى أى منا حلمه، وقد نفى شيخنا ذلك عدة مرات، كما نبّه إلى أن بعض ما يتبقى من أحلامه عند اليقظة يصبح المادة الخام التى ينسج منها إبداعات الأحلام المكتوبة. إن الإبداع هو الإبداع، سواء كانت مادته أو مثيراته حلما، أم ذكرى، أم حادثًا أم شخصًا أم لا شىء.



هناك خطأ نقدى شائع حين يسارع البعض باختزال هذا العمل (أو غيره) إلى رموز لها دلالتها، من أول «حميدة» فى زقاق المدق، حتى «سمارة» فى ثرثرة فوق النيل. صحيح أن نجيب محفوظ يغلب على وعيه الإبداعى أحيانا مثل هذا الإصرار على الترميز، لكن الصحيح أكثر أنه لا ينبغى أن يعمم النقاد هذا الموقف خصوصًا على أحلام فترة النقاهة، ومن قبل «رأيت فيما يرى النائم» (وقد سبق أن تناولت هذا الأمر فى نقد هذا العمل السابق).

المتابع لتطورات علم المعرفة Cognitive Science لابد أن يبلغه كيف تراجع موقع الرمز والمنطق الخطى المسلسل عن دوره الطاغى فى التفكير واللغة لحساب التشكيلات الكلية والصورة. هذا ما حدث أيضا بالنسبة لقراءة الأحلام والإبداع. إن الدراسات الأحدث قد تجاوزتْ كل الشائع عن الحلم سلفيًا (ابن سيرين كمثال) أو تحليلاً نفسيًا (فرويد، كمثال). إن نفس هذا العلم المعرفى راح يؤكد كيف أن التفكير يتم فى اللاشعور أساسا، بل وفى الجسد وبالجسد. حين اخترق هذا العلم تقديس الرمز اعتبرت هذه الاختراقة هى **«الهرطقة الأولى»**، وحين تجرأ هذا العلم على نَفْى الدماغ (المخ) كعضو أوحد للتفكير اعتُبرت هذه الحركة هى **«الهرطقة الثانية»**. إذا كان ذلك كذلك بالنسبة للتفكير العادى، فهو أولى أن يكون مدخلنا لقراءة الحلم **«صورة ماثلة مكثفة بما هى»** دون الإسراع إلى اختزاله رمزا متعسفا. أيّد هذا الاتجاه (ترجيح حضور الصورة التمثيلية قبل الرمز) زيادة الاهتمام بنوعية عمل النصف غير الطاغى من المخ، مما لا مجال لتفصيله هنا الآن.

ولكن كيف أختار ما يناسب من هذه الأحلام؟ وأنا لم أقرأها مجتمعة؟ وإن كنت قد عايشت الحمل بها حتى ولادتها؟ انحلّ هذا الإشكال فجأة بنوع من القُرعة هدتنى إلى البدء بثلاثة أحلام متتالية، الحلم ٢٥، ٢٦، ٢٧، وقد تصدروا لى فى بداية المجموعة الثانية التى أصدرتها مجلة نصف الدنيا. لا يوجد أى سبب واضح لهذا الاختيار. تذكرت كيف سجّلت قراءتى لأصداء السيرة الذاتية فقرة فقرة، قبل أن أبدأ فى القراءة المشتملة. قلت: لعل هذا هو السبيل المناسب لقراءة مثل هذا العمل المكثف واحدة واحدة أيضا، ثم بعد ذلك قد تلوح الفرصة لاستلهام العمل كله. وهاكم ما جرى:

الحلم [٢٥]

رأيتها فى الحجرة معى. ولا أحد معنا، فرقص قلبى طربا وسعادة، وكنت أعلم أن سعادتى قصيرة. وأنه لن يلبث أن يفتح الباب ويجئ أحد.. وأردت أن أقول لها أن جميع الشروط التى أُبلغت بها على العين والرأس، ولكن تلزمنى فترة من الزمن ولكنى فتنت بوجودها فلم أقل شيئا، وناديت رغبتى فخطوت نحوها خطوتين، لكن الباب فتح ودخل الأستاذ وقال بحدة «إنك لا تفهم معنى الوقت» واقتلعتُ نفسى، وتبعته إلى معهده القائم قبالة عمارتنا، وهناك قال لى «أنت فى حاجة إلى العمل عشر ساعات يوميا حتى تتقن العزف»، ودعانى للجلوس أمام البيانو فبدأت التمرين وقلبى يحوم فى حجرتى، وسرعان ما انهمكت فى العمل. وعندما سمح لى بالذهاب كان المساء يهبط بجلاله. وبادرت أعبر الطريق على عجل. ولكن لم يكن ثمة أمل فى أن تنتظرنى مدة غيابى. وإذا برجل صينى طويل اللحية بسام الوجه يعترض سبيلى ويقول: «كنتَ فى المعهد وأنت تعزف، ولا شك عندى أنه ينتظرك مستقبل رائع» وانحنى لى وذهب وواصلت سيرى وأنا مشفق مما ينتظرنى فى مسكنى من وحشة.



المتابع لأحلام فترة النقاهة لابد قد لاحظ كيف أن علاقة محفوظ «بالأماكن» ما زالت تمثل المعمار الذى ينطلق منه وبه فى معظم إبداعاته. هذا ليس جديدا طبعا، إلا أنه فى أحلام النقاهة أصبح للمكان حضور أقوى وأكثر مثولا. قلت فى نفسى: لعل هذا هو التعويض الإبداعى لما لحق بالبصر من كلال، وهو نفس التفسير الذى جاءنى حين رصدت عنده يقظة وغلبة نشاط النصف غير الطاغى من الدماغ (المختص بالتصور الكلى، والإيقاع المتداخل، والتكثيف الضام..إلخ) ربما حدث ذلك لشيخنا نتيجة لتناقص فرص تدريب النصف الطاغى لمواصلة طغيانه بالمنطق الخطى والتسلسل الترابطى المتتالى، حدث هذا بعد الإعاقات الحسية المتزايدة التى امتحن بها شيخنا. هل هذا هو ما جعل للمكان كل هذا الحضور الغالب المتزايد فى هذا العمل؟ ذلك الحضور الذى تزيد من الإحساس به سرعة

الحركة، وتداخل النقلات بفجائية تحافظ على الدهشة وتجددها؟

الحجرة هنا هى المشهد الأول الذى جمعه معها وحدهما، وقبل أن يعلن فرحته، أو يرصدها، قفز إليه الزمن يشكك فى الاستمرار. منذ البداية، قبل ومع الفرحة ، لاح له التهديد بالفراق «**...كنت أعلم أن سعادتى قصيرة، وأنه لن يلبث أن يفتح الباب**». الزمن الملاحَق هنا «لن يلبث» أن يكسر خصوصية المكانَ بفتح الباب، فيختفى وتختفى معه رقصة القلب وسعادة اللقاء. بدا فتح الباب كأنه انتهاك، فإلغاء لهذه الحميمية الواعدة. لم يترك له شعوره بالزمن المهدِّد بالنهاية فرصة أن يعلن قبوله لكل شروطها.

هنا يقفز زمن آخر زمن الحسابات الخطىّ التتبعى حين يقترن قبوله شروطها بضرورة الانتظار «**فترة من الزمن**». الزمن الأول كان ذاتيا محيطا «**.. أعلم أن سعادتى قصيرة**» أما هذا الزمن المحسوب فهو زمن الساعة ذات العقارب الدوارة والأرقام المتدرجة (**فترة من الزمن**). من فرط حرصه وفتنته بوجودها لم يعلن موافقته المرتبطة بفترة السماح المحسوبة. استبدلها بأن «**نادى رغبته**». كيف ينادى الواحد رغبته؟ يقولها محفوظ هكذا ببساطة وكأنها(الرغبة) كانت تنتظر ـ فى حجرة مجاورة ـ نتيجة حسم المعركة بين الأزمان. زمن التوجس بسرعة اختفاء السعادة، ثم زمن الانتظار «**فترة**» حتى يحقق طلباتها. يبدو أن نداءه رغبته كان نوعا من طلب النجدة ليكف عن الحسابات. وبدلا من أن تستجيب الرغبة لندائه يدخل الأستاذ وهو يحمل معه معنى ثالثا لما هو «زمن». يؤنبه الأستاذ مباشرة على ضياع الوقت «**أنت لا تفهم معنى الوقت**» وكما نادى الراوى رغبته وكأنه ينادى الحاجب، «اقتلع نفسه» وكأنه ينقلها نقلا من مكانها. وتبع الأستاذ إلى الجانب الآخر «**قبالة عمارتنا**». أىُّ وقت يعنيه الأستاذ بسؤاله ؟ الوقت الذى استجابت فيه الرغبة إلى دعوته حتى عجز أن يعلن قبول شروط الحبيبة؟ أم الوقت الذى يحتاجه لإعداد نفسه للوفاء بطلبات المحبوبة، والذى أسماه «**فترة من الزمن**» حتى يمكنه أن يحقق طلباتها؟ أم الوقت الذى تمنى أن يطول بصحبتها وهما وحدهما وقلبه ممتلئ فرحا وسعادة ؟

نلاحظ هنا، قبل أن نستطرد، قدرة محفوظ على التجول بين حالات ذاته (ذواته)، فاختياره لتعبيرىْ «**ناديتُ رغبتى**» و «**اقتلعتُ نفسى**» يشير إلى ذات محورية axon self (مستعيرين أبجدية ساندور رادو Sandor Rado) وهى الذات التى تتمحور حولها الكيانات (الذوات) الأخرى الداخلية. الرغبة هنا تبدو مُشَخْصَنَة فى «ذات» وليست مجرد عاطفة.



المهم أنه ما إن اقتلع نفسه وتبع أستاذه حتى وجد نفسه فى حال آخر تماما، لا هو الحال الذى رقص قلبه فرحًا به، ولا هو الحال الذى أنساه أن يعلن قبوله شروط حبيبته، وجد نفسه فى حال الابن المطيع، أو الطالب النجيب المجتهد. شعر هنا باستجابة طيبة لحرص أستاذه على تنبيهه لمعنى الوقت، ثم مبادرته بالتدريب الجاد على دروس البيانو (وليس حثه على حفظ جدول الضرب مثلا: انظر حلم ٢٧) . من هذا المنطلق بدأ التدريب على الفور باجتهاد شهد له الحكيم الصينى فيما بعد. إن البديل هَنا كان ملء الوقت بتدريب مهارات إبداعه، لم ينسِه هذا البديل نبض قلبه فى حجرة اللقاء الطروب، لكن هذا الشوق بدا وكأنه حافز لمواصلة التدريب، وليس صراعا معه ضد مواصلة التدريب.

هذه اللقطة تشير إلى أن محفوظا فى هذا الحلم لم يلجأ إلى الاستقطاب الشائع بين القلب والعقل، بين سعادة الحب وضرورة الواجب، بين الواقع والحلم، بل هو قدّم بديلا محيطا لملء الوقت بما يجعل له معنى «**إنك لا تفهم معنى الوقت**»، بديلا يحتوى طاقة الوجدان فى تشكيل الجمال بالتزام مثابر (التدريب على البيانو). وهكذا انهمك الراوى فى مهمته غير مقهور.

لكن الحسبة لم تكن سهلة، فبالرغم من أنه يمارس ما رضى أن يستوعب طاقة وجدانه، وليس فقط ما يؤكد تفوقه أو نجاحه، إلا أن قلبه ظل يحوم حول حجرة اللقاء. صحيح أن التدريب على البيانو (الإبداع المثابر الذى اشتهر به شخص محفوظ بالذات) يمكن ـ من حيث المبدأ ـ أن يحتوى الجمال ويطرب له القلب والعقل معا، لكن صحيح أيضا أن القلب الطفل لا يستطيع أن ينتظر حتى تنصقل العواطف وتشحذ الأدوات ليحتوى نبضاته إيقاعُ الإبداع، فيستغنى به عن جوعه العاطفى، وحنينه إلى الوليف ليعيش معه الفرح والسعادة بلاحسابات.

هنا تقفز الحكمة فى صورة الرجل الصينى طويل اللحية تبارك اجتهاده وتطمئنه على مستقبله. هل يكفى تشجيع هذا الحكيم (الصينى) وتنبؤه له بالتفوق أن يحققا التوازن الذى يحتوى جوعه العاطفى الرقيق؟ لا يبدو أن الأمر كذلك. فمع هذا الإنجاز الواعد، يرجع الراوى إلى نفسه ليواصل سيره إلى مسكنه (لا إلى حجرتهما ـ لا يوجد دليل على أن حجرة اللقاء كانت إحدى حجرات مسكنه) ، يرجع وهو منغمر ببصيرة النضج، راض عن الثمن الذى دفعه فى تحقيق الولاف الصعب، متقبّل لما ينتظره من وِحده. فهو الذى اختارها فى نهاية النهاية حين رضى أن يجعل للوقت معنى بأن يصقل أدوات الإبداع الواعدة باحتواء دفق عواطف طفولته الجائعة. وتشكيل إيقاع نبضات وجدانه الغض فى ضربات البيانو وهو يعزف. كل ذلك على حساب عاطفته الجياشة الجائعة. فليكن انتظار الوحشة هو الثمن. لينتهى الحلم وهو يمضى فرحا بإنجازه متقبلا للوحشة (ولو مؤقتا).

الحلم [٣٦]

جمعنا مقهى بلدى، وقص علينا صاحبى قصة بوليسية من تاليفه.. وقبيل الختام دعانا إلى الكشف عن القاتل. ومن (يفز يعفى من)[1] **دفع ثمن طلبه، ووفِّقت إلى الإجابة الصحيحة وحدث بذلك غاية السعادة. وبعد ساعة استاذنت فى العودة إلى بيتى. ولانشغالى بنجاحى تهت فسرت فى طرق حتى وجدت نفسى أخيرا أمام المقهى مما أثار ضحك الجميع، وتطوع أحدهم فاوصلنى إلى بيتى وودّعنى وانصرف. وبيتى مكون من طابق واحد وحديقة صغيرة وشرعت فى خلع ملابسى ولما صرت بملابسى الداخلية لاحظت أن خطا من التراب يتساقط من أحد أركان الغرفة.. وكان هذا المنظر قد ورد فى القصة التى ألفها صاحبنا وكان نذيرا بسقوط البيت على من فيه فبكيت أن بيتى الصغير سينقض فوق راسى. وملكنى الفزع فغادرت البيت بسرعة ولهوجة واستزادة فى الأمان انطلقت بعيدا عن البيت باقصى سرعة فى الهواء الطلق.**

المكان هذه المرة هو مقهى بلدى (لاحظ البداية بتحديد المكان فى كل مرة) والبداية بقصة بوليسية يحكيها مؤلفها(يبدو أنه ألفها لتوه) وهو أحد الأصدقاء فنستنتج أنها قصة سطحية للتسلية ، وينجح الراوى (الحالم) فى حل اللغز (مَنِ القاتل)، ومع أن الجائزة تبدو تافهة (ثمن ما شرب) إلا أنه يبدو أن نشوة النجاح فى ذاتها كانت غامرة حتى أسكرته فكاد يفقد وعيه وتاه عن بيته ودار حول نفسه حتى عاد إليهم فى نفس المكان مما اضطر أحد أصحابه أن يوصله إلى بيته.

نكتشف من البداية كيف أن نشوة النجاح الذاهلة هذه لا تتناسب مع حقيقة المكسب (ثمن المشاريب) ، ومع ذلك ، فالنجاح هو النجاح، والتنافس هو التنافس، والجوائز هى الجوائز، والنشوة هى النشوة حتى الذهول.

حين يعود صاحبنا إلى نفسه (بيته) ويتعرى إلا قليلا (بقيت الملابس الداخلية) ينقلب الخيال إلى واقع حتى تكاد القصة ـ على تفاهتها ـ تصبح حقيقة، وهنا يقفز إلينا سؤال آخر غير سؤال القصة اللغز، سؤال يقول «**من القتيل؟**» (لا من القاتل؟). التعرى بعد ذهول الفوز على تفاهة الجائزة أمكن أن ينبه الراوى أنه: إذا كان شخصه بهذه الهشاشة، تسكره نشوة فوزٍ لا قيمة له، فهو مقتول بأى فوز تافه يُغرقه فى اغترابه حتى الذهول.

هكذا فجأة يضعنا محفوظ أمام التساؤل عن معنى النجاح ومعنى التنافس، ومعنى الفوز. يعلن محفوظ أن تمثيلية النجاح التى نمثلها جميعا هى دوّامة فراغ، وأن سعار الفوز الذى يسكرنا برغم تفاهة الجائزة هو الضياع ذاته. إن الراوى برغم فوزه بمكافأة حل اللغز هو هو القتيل بسكره بتافه الفوز ، وهو ـ برغم فوزه، أو حتى بسبب فوزه هذا ـ يواجه انهيار وجوده الهش الذى يعلنه تساقط التراب من أحد أركان الغرفة. فهو الفزع من خدعة فوزٍ لا قيمة له حيث لم يمنع انهيار وجودٍ كان هشًا طول الوقت، ولم ينتبه صاحبه إلى هشاشته إلا حين غمره ذهوله بفوزه الخائب ، فوجب الهرب.



لكن هل ثم سبيل إلى الإصلاح أو التعديل أو الإفاقة أو البدء من جديد؟ يترك محفوظ النهاية مفتوحة ، يترك صاحبنا وهو يبحث عن الأمان بعد أن تيقن من قرب انهيار وجوده (بيته الصغير)، راح يبحث عن الأمان خارج ذاته فهو يعدو بعيدا عن بيته . يجرى بأقصى سرعة فى الهواء الطلق، يجرى من نفسه (لأن بيته هو نفسه)، وهذا الهواء الطلق لا يعد بشىء إلا مواصلة الجرى.

ملاحظ هامشية : فى الحلم الأول توجه الراوى إلى بيته وهو يستشعر ما ينتظره من وحشة، لكنه توجَّهَ مسئولا، وحيدا، مبدعا، ماهرا (عازفا للبيان) رغم الوحدة. أما هنا فالراوى هارب من بيته الوشيك على الانهيار إلى الخلاء ، لعل وعسى !!

الحلم [٢٧]

فى سفينة عابرة للمحيط أجناس من كل لون ولغات شتى. وكنا نتوقع هبوب ريح وهبت الريح واختفى الأفق خلف الأمواج الغاضبة،إنى ذعرت ولكن أحدا لم يكن يعنى باحد. وقال لى خاطر إننى وحيد فى أعماق المحيط. وانه لا نجاة من الهول المحيط إلا بان يكون الأمر كابوسا وينقشع بيقظة دافئة بالسرور. والريح تشتد والسفينة كرة تتقاذفها الأمواج. وظهر أمامى فجاة حمزه افندى مدرس الحساب بخيرزانته وحدجنى بنظرة متسائلة عن الواجب. كان الإهمال الواحد بعشرة خيرزانات تكوى الأصابع كيا. وازددت كرها من ذكريات تلك الأيام. (وقال لى الرجل سوف تكتب «....» عن «....» (٢)) وهممت بدق عنقه ولكنى خفت أن يكون اى خطا سببا فى هلاكى فسكت على الذل وتجرعته رغم جفاف ريقى. ورأيت حبيبتى فهرعت نحوها اشق طريقا بين عشرات المذهولين. ولكنها لم تعرفنى وتولت عنى وهى تلعن(٣) ساخطة وجرت نحو حافة السفينة ورمت بنفسها فى العاصفة واعتقدت أنها تبين لى طريق الخلاص فجريت متعثراً نحو حافة السفينة ولكن مدرس الحساب القديم اعترض سبيلى ملوِّحا بعصاه.

المكان هذه المرة متحرك، لكنه مكان محدد يسمح بالتجمع والتجمهر والانتقال. فقط هو محاط بالمحيط. فلا مجال للهرب إلى المنزل مع الرضا بالوحشة مثلا، ولا مهرب إلى الهواء الطلق قبل انهيار البيت الصغير (نهاية الحلمين ٢٥و٢٦). وكما بدأ حلم «٢٥» بتوقع قصر عمر السعادة. يبدأ هذا الحلم بتوقع العاصفة، **«وكنا نتوقع هبوب الريح، وهبت الريح»** (لاحظ اختفاء أى برهة زمنية بين التوقع والواقع).



ومع أن السفينة بها أجناس من كل لون ولغات شتى، إلا أن الراوى يشعر بالوحدة **«وقال لى خاطر اننى وحيد»**، هذا الخاطر نقله فجاة من السفينة إلى أعماق المحيط. فتمنى بأن يكون هذا الذى يعيشه كابوسا. بدت هذه الأمنية لى وكانها جذب العودة إلى الرحم الحانى هربا من احتمال الغرق فى المحيط الهادر، إنها أمنية نكوصية واضحة. لو أحسنا قراءة تعبير «يقظة دافئة بالسرور» هذا تعبير نادر. اليقظة عادة تكون نقلة من الدفء إلى النشاط، من سكينة النوم إلى دفع الحركة، لكن هذا الدفء الذى يصف اليقظة بأنها **«دافئة بالسرور»** لم يُحْضر إلى وعيى إلا خدر الإحاطة بالسائل الأمنيتونى داخل الرحم والجنين ما زال **«يبلبط»** فى الداخل بعيدا عن العواصف والأنواء. لم يدم هذا الخاطر الهروبى طويلا وحل محله واقع أظهر (كما فى الحلم الأول ٢٥) المعلّم هنا من نوع آخر **«مدرس حساب قديم»**. هذا المدرس لا يسأل أو يتساءل عن : **«معنى الوقت»** مثل أستاذ البيانو (حلم ٢٥) ، وهو لا يدعو فى حزم إلى تدريب على مهارة (البيانو). هو مدرس جاف لا يتكلم إلا بلغة الواجب، والإهمال، وليس عنده إلا العقاب . المواجهة هنا مع الخيرزانة لا أكثر ولا أقل. فكانت استجابة الراوى هى الرغبة فى قتله. وحين تبين عجزه، استشعر الذل وابتلعه وهو خائف من أن يضبطوه متلبسا بالشروع فى القتل، ثم كان ردّ فعل القتل إلى ذاته، فهو الخوف من الهلاك.

مازلنا فى السفينة، ومازالت العاصفة تحيط بها، وظهور معلم الحساب (الأب القاهر الجاف) لم يكن بديلا إيجابيا ليحتوى الفنّ الرغبة، بل إن هذا المدرس لم يكن واقعا أصلا، كان مجرد تجسيد لذكرى (وازددت كرها من ذكريات تلك الأيام)

يبدو أن الحبيبة التى ظهرت هنا كانت ضربا من الخيال. هى لم تحضر. هو الذى جسدها بخياله ثم راح يشق طريقه إليها (بعد أن فشل فى الهرب إلى الرحم) وهى لا تعرفه، فتولت وهى تلعن ساخطة (لم يقل تلعن من)، ثم إنها اختفت (هل زال الخيال) بأن رمت نفسها فى العاصفة (لم يقل فى المحيط)، فكاد يتبعها وهو يتصور أنها بفعلتها تلك إنما تشير إليه أن هذا هو الحل: إفناء الذات.

الذى حال دون إتمام استجابته لهذه الدعوة هو مدرس الحساب، والصورة التى يقدمها محفوظ تشير إلى أن هذا المدرس لم يكن حريصا على إنقاذه بمعنى دعوته إلى بديل محيط راقٍ مثابر (مثل معلم البيانو فى حلم ٢٥) وإنماَ الإنقاذ هنا كان أيضا بالتهديد بالعقاب (اعترض سبيلى ملوحا بعصاه). وكأن الدافع لاستمرار الحياة هنا هو الخوف من العقاب الذى ينتظر المنتحِرْ (كما يقول النص الدينى) وليس قبول تحدىَ الحياة بخوض تجربتها.

ينتهى هذا الحلم دون أن نعرف ماذا حدث للراوى ولا للمدرس ولا للباقين لينطلق خيال المتلقى كيفما شاء.

فـــمــــاذا بعـــد؟

أولا: إن تحية هذا الرجل الجميل، الذى بلغ الحادية والتسعين من عمره منذ أسابيع، والذى يعانى من كل ما نعرف وما لا نعرف، لا تكون إلا بان ناخذ حياتنا ماخذ الجد، مثلما يفعل، نقف عند كل كلمة قالها، أو خطها، حتى تلك التى لم نستطع قراءتها، ونحاول أن نجد موضعها فى وعينا، وأن نتعلم من حفزها لنا. أن نقابلها بمثلها، أو نكون عند مسئولية حفزها. هذا هو الاحتفال بمثل هذا الإبداع وهذا المبدع.

ثانيا: إن الاقتصار على ثلاثة أحلام متتالية، لم أتعمد اختيارها، هو خطأ نقدى جسيم، إنه لا يعدو أن يكون دعوة للاجتهاد لأخذ هذه النصوص الظاهرة مأخذ الجد مهما بدا الأمر صعبا.

ثالثا: إننى أتصور أن السبيل لاستكمال هذه القراءة إنما يكون بنفس النهج الذى سلكتُهُ فى قراءة أصداء السيرة، وبالتالى يؤَجلُ الربط الشامل للخطوط العامة والأعماق المحورية إلى ما بعد الانتهاء من القراءة المنفصلة حلماً حلماً.

رابعا: إن ما ذهبتُ إليه من قراءة، لم يكن تفسيرا لحلم بالبحث عما يرمز إليه، بل كان محاولة كشف لتركيب النص، وبعض تركيب الكاتب، فمثلا المعلم فى الحلم «٢٥» ليس رمزا لسلطة جادة بقدر ما هو إعلان حضور مثل هذه «الذات» فى ثنايا التركيب المكثف للنفس البشرية (مما يحتاج إلى تفصيل لاحق) وهكذا.

خــــاتمـــــة

يا شيخنا الجليل ، ما زلتُ آمل أن يتبنى أهل الحل والربط الفكرة التى اقترحتُها بعد تشريفك لنوبل بإنشاء دورية تختص بنقد أعمالك، ليس لى اعتراض على نصبٍ أو تمثال أو جدارية يقيمونها لك فى الميادينَ، نفخر بها، ونشرف بانتمائنا إليك إذ تذكرنا بك. لكننى أتصور أن الاحتفال الأبقى عاما بعد عام، فى أعياد الميلاد وغيرها، هو أن تصدر دورية باسم **«نقد نجيب محفوظ»**، دعنا نبدأها دورية سنوية ، تقوم بجمع النقد الجارى، ثم ما سبق نشره هنا وهناك، ثم نضيف ما تيسر، ثم يكون نقد النقد، ثم معاودة النقد. ولا نتوقف أبدا.

لقد سبق أن أرسلت هذا الاقتراح إلى أ.د. عز الدين اسماعيل رئيس تحرير مجلة فصول (فى: ١١/١١/١٩٨٨) بعد تشريفك لنوبل، وشرحت تصورى وأملى أن الحوار سيكون شديد الثراء، وأن هذه الدورية سوف تكون بداية نهضة نقدية شاملة، لا تقتصر على أعمالك، وهى خليقة أن تنعش جو الإبداع وتثرى حياتنا، وتكشف إمكاناتنا .

فإذا كانت الدولة لم تستجب لهذا الاقتراح طوال أربع عشرة سنة، فهل تستجيب له دار الشروق؟ أو الشركة المصرية للنشر العربى والدولى؟ أو أى ممن يهمه الأمر ، ويحبك ؟ يا ليت .

أدعو الله أن نرى هذا الأمل يتحقق وأنت بيننا،

وكل عام وأنت بخير. ■

الهــوامـــش

(١) ما بين القوسين فى النص المنشور، وهو موجود فى الأصل المصور.

(٢) ما بين القوسين سقط فى النص المنشور، وهو موجود فى الأصل المصور، والنقط مقابل كلمتين غير مقروءتين.

(٣) فى النص المنشور «تعلن»، وصحتها من الأصل المصور «تلعن».

التفكير العلمى

■ ■ أزعم - فى البدء - أننى واحد من الإلكترونات الهائمة فى أحد المدارات البعيدة - منذ خمسين عامًا أو يزيد - حول النواة الثقيلة للأستاذ نجيب محفوظ. وقد كنت محظوظًا - بذلك البعد! - لأنه أتاح لى التنقل بين مدارات أخرى فى مادة نادرة مكونة من أنوية عمالقة فى الفكر والعلم والأدب والفن، وأتاح لى - ذلك البعد أيضًا! - امتياز النحلة وحريتها فى الاختيار بين الزهور الجميلة والاستمتاع بصنوف الرحيق الرائق الصافى المعطر.

وأزعم - بعد هذه المعايشة الطويلة الحميمة القديمة - أن الأستاذ نجيب محفوظ عالم مفكر منهجى. وأن كتاباته فى جوهرها بحوث فى فلسفة العلم من أجل التوصل إلى معرفة الحقيقة وصياغتها. وأن عبقرية الأستاذ الكبير - كإنسان مرهف الحس - تكمن فى اختياره الأدب وسيلة لتدوين محاوراته مع نفسه وملاحظاته ونتائج أبحاثه على الغير، فتحول اختياره إلى مهنة له، اشتهر بها، وتفوق فيها على أساتذتها الكبار فى العالم وفى مصر، وكذلك تكمن فى اختياره الأقصوصة والقصة والرواية كبواتق يصهر فيها خام الحقائق لينقيها بمختبر ذهنه المتقد ذكاء وهو سعيد. ذلك لأن أوقات عمله هى أوقات متعته - أو نشوته - بخمر الفكر. وتكمن أيضًا فى اختياره الحوار (الديالوج) كوسيلة يعرض بها من خلال أبطاله رؤاه للحقائق أو للأوهام المعاكسة لها من أجل دحض الأساطير التى ينكرها.. وفى اختياره حوار الذات (المونولوج) كوسيلة أخرى - أمينة وآمنة - يعبر بها عن آرائه.. وأيضًا فى اختياره صيغة الحلم أو (الرؤية الصوفية) كصياغة رمزية للحقائق غير القابلة للنقاش؟ أو للبوح المباشر!، وتكمن - كذلك - فى حساسية استلهامه واستخدامه الوقائع السابقة عليه أو المعاصرة له - التى يلاحظها فى مشيه أو يعايشها فى عمله أو يقرأها فى جرائده أو كتبه أو يسمعها فى جلساته بالمقهى بين صفوة الناس البسطاء - كأردية تستر أو أضواء تكشف عما يريد أن يقول.. (فى العرائض والشكاوى للمظلومين وأصحاب الحاجات.. كما قال فى افتتاحية أولاد حارتنا).



ولعله كان يعنى نفسه حين كتب فى ص ١٩١ من قصر الشوق.. «الأدب متعة سامية بيد أنه لا يملأ عينى، إن مطلبى الحقيقة، ما الله، ما الإنسان، ما الروح، ما المادة؟! الفلسفة هى التى تجمع كل أولئك فى وحدة منطقية مضيئة كما عرفت أخيرًا، هذا ما أروم معرفته من كل قلبى وهذ ه هى الرحلة الحقيقية التى تعد رحلتك حول العالم بالقياس إليها مطلبًا ثانويًا، تصور سوف أجد أجوبة شافية لهذه المسائل جميعًا..! «وحين أكد ذلك فى الصفحة التالية.. «لن ينقطع ما بينى وبين الأدب، إن حب الحقيقة لا يناقض تذوق الجمال، ولكن العمل شىء والراحة شىء آخر، وقد عزمت على أن أجعل الفلسفة عملى والأدب راحتى..». ثم قوله فى ص ٣٢٩ من نفس الرواية.. «ما أجمل أن يكرس الإنسان حياته للحق والخير

عند نجيب محفوظ

حمزة إبراهيم عامر

والجمال..». ثم قوله فى نفس الصفحة.. «المؤمن يستمد حبه لهذه القيم من الدين، أما الحر فيحبها لذاتها..».

ولعله كان يؤمل أن يكون هو نفسه ذلك الشيخ الذى أراد أن يصلح الدنيا البشعة فى أقصوصة «الشر المعبود» من مجموعة قصصه الأولى «همس الجنون» التى نشرها فى صدر شبابه عام ١٩٣٨، حيث يقول ـ ذلك الشيخ ـ فى شرح منهجه لتحقيق ذلك الأمل المنشود بالمقارنة مع منهج المسئولين! وهم: القاضى وحارس الأمن والطبيب الذين وهبوا حياتهم لهذا العمل النبيل!، يقول وهو يخاطب القاضى الذى يحاكمه: ص١٦٦ وما بعدها.. «إنهم يا سيدى يطاردون الأشرار ويعالجون الأمراض ويضمدون الجراح.. أما أنا فسبيلى أن أقضى على الداء. إن الداء كمين فى مخبئه آمنًا. وهم لا يكترثون إلا لآثاره. وقد أمعنت النظر فوجدت أن المعدة أصلاً بلاء هذه المقاطعة. وجدت كثيرين لا يستطيعون أن يملئوا منها فراغًا فيعيوا جوعًا، وآخرين لا يتركون بها فراغًا قط فيهلكوا نهمًا، ومن التجاذب والتنافر بين هاتين المعدتين يحدث السلب والنهب والقتل فالداء بين والدواء بين». ويرد على قول القاضى بأن هذا داء لا دواء له!: «هذا قولهم يا سيدى. وما يقولونه إلا لأنه ينقصهم شيء متعنى الرب به: هو الإيمان به: هو الإيمان بالخير. إنهم لا يؤمنون بالخير حق الإيمان، ويجاهدون فى سبيله جهاد الآلات الصماء التى لا تحس، ويعملون بالأجر وللجاه والمجد «فإذا خلوا إلى أنفسهم تهالكوا على ما يجاهرون بمقته من الإثم هذا شأنهم يا سيدى، أما أنا فمؤمن حقًا بالخير، فدعنى أعمل على طريقتى وأمهلنى رويدًا..!». ثم وهو يصف حال ذلك الشيخ الجليل بعد أن غادر المحكمة وهو يحس بنشوة الظفر. «وكان على وجه اليقين مؤيدًا بروح سام لأنه كان يسير فى الأرض بقوة مارد، ويتدفق فى الحديث بحماسة شاب، ويفيض عليه قلبه بتفاؤل نبى، وكان لسانه ينفث سحرًا حلالاً وحجة تلزم المتكبرين، فاستطاع فى مدة وجيزة أن يستأثر بآذان القوم ويسحر قلوبهم ويهيج عاطفة الخير فى نفوسهم ويوجههم إلى حيث يريد، فاتبعه الفقير وخضع له الغنى وذل له المتمرد العاصى، وكان أساس دعوته الجمال والاعتدال اللذان يعيش فى ظلهما الفقير بالقناعة والغنى بما فيه الكفاية. ووجد فيه ذاك المجتمع المريض طبيبًا صادقًا بارعًا فتعلق بمثله واعتنق مبادئه. وجاءت النتائج باهرة يخطف نورها الأبصار ويذهل عقول العقلاء، فسحقت الجريمة وهزم الشر وأدبرت الأمراض، وأظلت السعادة بجناحيها المقاطعة، فهلل الحكام وكبروا وآمنوا بالرجل الذى كانوا فيه يمترون. وسعدوا جميعًا لبلوغ الغاية النبيلة التى أنفقوا أعمارهم عبثًا فى سبيل بلوغها».

وبعدها.. يتابع الأستاذ نجيب محفوظ تطور الحال فكريًا موضحًا كيف اطمأن الإقليم جميعًا إلى الخير إلا أولئك الذين وهبوا أنفسهم لـ «صناعة الخير». وكيف وجد الحكام أنفسهم عاطلين، وكيف رد حارس الأمن إلى شيء تقتحمه العيون وتستهين به القلوب، وكيف أصبح القاضى يقلب كفيه آسفًا حزينًا لا يسمع تحية ولا رجاء، ولا يساق إلى رحابه من يهابه، وكيف أنّ الطبيب بشكوى مكتومة، وحبس نفسه فى داره لا يزوره إنسان ولا يزور إنسانًا، وكان يكنز المال فى القدور فأصبح ينفق مما جمع وقلبه واجف. ثم.. كيف اتفقت كلمتهم.. على أمر.

ويقول الأستاذ: ص١٦٩.. «وأشرقت الشمس ذات صباح فإذا بالرجل الغريب قد اختفى، وبحث عنه مريدوه فى كل مكان وفتشوا عنه فى كل بقعة من الإقليم فلم يعثروا له على أثر. وأحدث اختفاؤه دهشة وانزعاجًا، وأثار أقاويل متباينة، فمن قائل إنه هجر المقاطعة إلى غيرها بعد أن اطمأن إلى ثبات عقيدته: ومن قائل إنه صعد إلى السماء بعد أن أدى رسالته. وشمل الحزن المقاطعة كلها ووجفت القلوب جميعًا..».

ثم كيف تفتق ذهن حارس الأمن! عن فكرة كفيلة بأن تفقد عامة الناس تمسكها بالدعوة وأن تنسيها ذكرى الشيخ الغريب وذلك عندما اقترح استعارة راقصة فاتنة من إقليم مجاور لكى: «تفرق ما بين الأخ وأخيه والزوج وزوجه، وبأن تغرى الأغنياء بالانقضاض على السلاسل التى وضعوها فى أعناقهم طائعين...»».

ويتضح من تلك الأقصوصة الجميلة هدف المنهج الفكرى المثالى للأستاذ نجيب محفوظ وكيف كانت ـ تلك الأقصوصة ـ الترنيمة الأولى التى عزف على تنويعاتها أسمى ألحانه الفكرية رقة وعذوبة وجرأة بعد حوالى عشرين سنة فى «أولاد حارتنا».. ثم بعد ذلك فى غيرها من القصص والروايات من مراحل إنتاجه المتتالية.

ومن الدراسة التفصيلية لإنتاج الأستاذ نجيب محفوظ تعرفت على تلك الحميمية التى تربط بين إنتاج الأستاذ نجيب محفوظ ودوائر التأثير والتأثر المحيطة به، وهو ما أتاح لى أن أميز إنتاجه إلى ست مراحل تاريخية ـ حتى الآن ـ هى:ـ

١ـ مرحلة الإنتاج الحر ـ البحث عن الطريق (من حوالى ١٩٣٢ ـ ١٩٥٢).

٢ـ مرحلة ما بين الثلاثية وأولاد حارتنا (فترة خمس سنوات توقف فيها عن الكتابة لا التفكير).

٣ـ مرحلة الإنتاج الرمزى المركب (من ١٩٥٦ ـ ١٩٧٤).

٤ـ مرحلة الإنتاج الرمزى المرير (من ١٩٧٤ ـ حتى تعثرت يده بمحاولة اغتياله ١٩٩٤).

٥ـ مرحلة الإنتاج الشفاهى (حوارات نجيب محفوظ ـ أستاذ/ محمد سلماوى).

٦ـ مرحلة الخلاصة (بدأت بالأصداء فى نهاية الرابعة ومستمرة بالأحلام بالتوازى مع الخامسة).

ولقد تميز منهجه الفكرى بوضوح شبه كامل منذ بداياته الأولى.. واستمر ذلك الوضوح دافقًا بنفس الحيوية والعذوبة والجمال ـ بلا خوف أو وجل من قهر ـ مع زيادة فى التحديد والتركيز والعمق بلا يأس أو إحباط حتى الآن. وأن مرحلة إنتاجه الأدبى هى تنويعات فكرية على جميع مستويات التفاعل بين أنغام العقل وألحان الروح التى تتوافق أو تتعارض مع إيقاعات البدن. وهى تنويعات تعزفها النفوس الحية فى حدتها أو هدوئها، وفى قوتها أو ضعفها، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ومن أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، آملاً فى الفوز بالتناغم



كتاب الزاوية

إغاثة الأمة بكشف الغمة

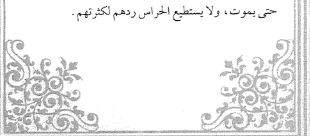
وقع الغلاء فى الدولة الأيوبية وسلطنة العادل أبى بكر بن أيوب، فتكاثر مجىء الناس من القرى إلى القاهرة من الجوع، ودخل فصل الربيع فهب هواء أعقبه وباء وفناء. وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بنى آدم من الجوع، فكان الأب يأكل ابنه مشويًا ومطبوخًا، والمرأة تأكل ولدها؛ فعوقب جماعة بسبب ذلك. ثم فشا الأمر وأعيا الحكام، فكان يوجد بين ثياب الرجل والمرأة كتف صغير أو فخذه أو شىء من لحمه، ويدخل بعضهم إلى جاره فيجد القدر على النار فينتظرها حتى تتهيأ، فإذا هى لحم طفل؛ وأكثر ما يوجد ذلك فى أكابر البيوت. ووجدت لحوم الأطفال بالأسواق والطرقات مع الرجال والنساء مختفية، وغُرِّق فى دون شهرين ثلاثون امرأة بسبب ذلك. ثم تزايد الأمر حتى صار غذاء الكثير من الناس لحوم بنى آدم بحيث ألفوه، وقل منعهم منه لعدم القوت من جميع الحبوب وسائر الخضروات وكل ما تنبته الأرض. فلما كان آخر الربيع احترق ماء النيل فى برمودة حتى صار المقياس فى بر مصر، وانحسر الماء عنه إلى بر الجيزة؛ وتغير طعم الماء وريحه. ثم أخذ الماء فى الزيادة قليلاً قليلاً إلى السادس عشر من مسرى، ثم وقف أيامًا، وأخذ فى زيادة قوية أكثرها ذراع إلى أن بلغ خمسة عشر ذراعًا وست عشرة أصبعًا، ثم انحط من يومه، فلم تنتفع به البلاد لسرعة نزوله. وكان أهل القرى قد فنوا، حتى أن القرية التى كان فيها خمسمائة نفس لم يتأخر بها سوى اثنين أو ثلاثة، ولم تعمر الجسور ولا مصالح البلاد لعدم البقر فإنها فقدت، حتى بيع الرأس الواحد من البقر بسبعين دينارًا، وجافت الطرق كلها بمصر والقاهرة وسائر دروب النواحى بجميع الأقاليم من كثرة الموتان.





إغاثة الأمة بكشف الغمة

لما تجاوز الأمر الحد أمر السلطان بجمع الفقراء وذوى الحاجات، وفرقهم على الأمراء، فأرسل إلى أمير المائة مائة فقير وإلى أمير الخمسين خمسين، حتى كان لأمير العشرة عشرة. فكان من الأمراء من يطعم سهمه من الفقراء لحم البقر مثرودًا فى مرقة الخبز، يمده لهم سماطًا يأكلون جميعًا، وفيهم من يعطى فقراءه رغيفًا رغيفًا، وبعضهم كان يفرق الكعك، وبعضهم يعطى رقاقًا؛ فخف ما بالناس من الفقر. وعظم الوباء فى الأرياف والقرى، وفشت الأمراض بالقاهرة ومصر، وطُلبت الأدوية للمرضى، فباع عطار برأس حارة الديلم من القاهرة فى شهر واحد بمبلغ اثنين وثلاثين ألف درهم، وبيع من دكان يعرف بالشريف عَطوف من سوق السيوفيين بمثل ذلك، وكذلك حانوت بالوزيرية وآخر خارج باب زويلة - بيع فى كل واحد منها بنحو من مثل ذلك. وطلب الأطباء، وبذلت لهم الأموال، وكثر تحصيلهم، فكان كسب الواحد منهم فى اليوم مائة درهم، ثم أعيا الناس كثرة الموت، فبلغت عدة من يرد اسمه الديوان السلطانى فى اليوم ما ينيف عن ثلاثة آلاف نفس؛ وأما الطرحاء فلم يحصر عددهم بحيث ضاقت الأرض بهم، وحُفرت لهم الآبار والحفائر وألقوا فيها؛ وجافت الطرق والنواحى والأسواق من الموتى. وكثر أكل لحوم بنى آدم خصوصًا الأطفال، فكان يوجد الميت وعند رأسه لحم الآدمى، ويُمسك بعضهم فيوجد معه كتف صغير أو فخذه أو شىء من لحمه. وخلت الضياع من أهلها، حتى إن القرية التى كان بها مائة نفس لم يتأخر بها إلا نحو العشرين، وكان أكثرهم يوجد ميتًا فى مزارع الفول لا يزال يأكل منهُ إذا وجده حتى يموت، ولا يستطيع الحراس ردهم لكثرتهم.



العذب أو النشوة الكبرى بخمر الفكر، وحلمًا بالوصول إلى الحقيقة.

وأنه فى سبيل ذلك جرب جميع الأشكال المعروفة فى دنيا الأدب، بل وابتكر أشكالاً جديدة للحكى أو لنقل رؤاه للقارئ المتجدد بتوالى الأجيال التى كتب لها، والتى قرأت له، عبر سبعين عامًا. وقد عبر الأستاذ نجيب محفوظ عن ذلك بكل صراحة وصدق فى حواره مع الأستاذ الناقد فؤاد دوارة فى مجلة «الكاتب» (العدد الثانى والعشرون - يناير ١٩٦٣) حين نقل إليه رأى ناقد كبير وصف الأستاذ نجيب محفوظ بأنه مؤرخ أكثر منه فنانًا، وبأن أعماله تخلو من وجهة نظر معينة!؟ فرد قائلاً: «وهل يعرض المؤرخ التاريخ بغير وجهة نظر؟» أين هو هذا المؤرخ؟ ليس هذا هو الفارق بين المؤرخ والفنان، فالمؤرخ باعتباره عالمًا يدرس التاريخ كظواهر عامة ويورد من الحوادث والشخصيات ما يؤيد هذه الظواهر ويفسرها، أما الفنان فيعبر عن الحياة عن طريق العلاقات الخاصة بين شخصيات عادية من أفراد الشعب، والأحداث التاريخية بالنسبة إليه ليست أكثر من عوامل ثانوية تؤثر فى الشخصيات.

وقد ناقش الدكتور نبيل راغب فى كتابه «قضية الشكل الفنى عند نجيب محفوظ، فى دراسة تحليلية لأصولها الفكرية والجمالية» الطبعة الثالثة١٩٨٨ بمناسبة فوزه بجائزة نوبل للأدب. وقد خلص فى الخاتمة إلى: ص٣٩٠ «وهكذا يتضح لنا أن نجيب محفوظ استغل أدوات الشكل الفنية فى إثارة إحساسات معينة لدى القارئ تجاه أعماله دون التصريح بوجهات نظر معينة كما فعل من سبقوه الذين اعتقدوا أن الأسلوب المباشر هو الطريق الوحيد المؤدى إلى ميدان الفن الفسيح ونسوا أن العمل الفنى عبارة عن كائن معقد تحكمه العلاقات العضوية التى تربط الجسم الحى وتمنحه الحركة الجمالية، تلك هى الإضافات الجديدة التى أضافها نجيب محفوظ إلى الأدب العربى عامة والرواية العربية خاصة.. عن طريق الشكل الفنى الذى ابتدعه بما يتضمنه من شخصيات تنبض بالحياة وحوار منطلق يكشف ملامح الشخصيات الداخلية والخارجية ومواقف درامية ذات أبعاد عميقة تضيف خصوبة وثراء للشكل العام لأعماله فى ذلك الشكل الذى تميز بالتكثيف التعبيرى، والرمز الموحى، والصور الخصبة والخط الدرامى الواضح. كل هذا يندمج ويتفاعل داخل توليفة درامية رائعة تساعد الشكل الفنى على النمو والتطور والتفاعل من داخله شأنه فى ذلك شأن كل جسم حى..».

وأزعم أنه قد نجح فى جميع مراحل إنتاجه أن يتبع منهجه العلمى الخاص الذى وقر فى وجدانه منذ فجر شبابه الأول، بفضل قراءاته الواعية لمدارس الفلسفة المادية والروحية، وأنه منذ ذلك الحين - وفى خضم موج الحيرة العاتى قد عثر على صخرة نجاة «ثابتة» مثلثة الأضلاع أسماها «بصخرة العلم والفلسفة والمثل الأعلى».. قصر الشوق ص٣٧٠.

ولقد اجتهدت لصياغة ذلك الكشف «المحفوظى» على هيئة قانون فى المعادلات التالية:ـ

العلم + الفلسفة + المثل الأعلى = ثابت (نجيب محفوظ).

(حيث إن الثابت = حقيقة رياضية لا يمكن تفسيرها، كما لا يمكن تفسير مقدار سرعة الضوء مثلاً) أى أن العلم + الفلسفة +المثل الأعلى = ثابت = الإيمان.

وبما أن البدن + التصور بالعقل = النفس = الإنسان (ابن رشد فى تلخيص أرسطو)

إذًا فإن العلم + الفلسفة = النفس = الإنسان.

بمعنى أن قوة العقل لا تساويها قوة النفس إلا بالإيمان بالله.. والعكس بالعكس.. فلا تستقر النفس إلا بالعقل القانع بالإيمان بالله.. وفى المعادل الاجتماعى (أو الأدبى) فإن النفوس الضعيفة ذوات عقول ضعيفة وإيمان ضعيف بالمثل الأعلى، ومصيرها - دائمًا - إلى شقاء.

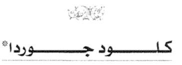
ونستطيع بالقياس أن نتبين أن التوازن الكائن بين العقل (أو الروح) مع البدن فى النفس الواحدة، هو نظير - أو ند - للتوازن الكائن بين الطاقة والمادة داخل الكون المحدود (الذرة) أو فى الكون الوسيط (الإنسان) أو فى الكون الفسيح (الكواكب والنجوم أو المجموعات الشمسية أو المجرات أو.....) وإن اختل هذا التوازن انهدمت الوحدة وقامت القيامة!

إن نجيب محفوظ من خلال نفس صافية آمنة اهتدى إلى ذلك التوازن الرهيف بين شهوات البدن وتسامى الروح فى صوفية خاصة به.

كما يقول الدكتور مصطفى عبد الغنى فى كتابه «نجيب محفوظ.. الثورة والتصوف» ص١٢٢ «والواقع أن فكر نجيب محفوظ كان يحمل دائمًا هذا التقسيم الفطرى، فى دائرة بين العقل والروح، أو الفلسفة والتصوف، وهو ما يقرب به من «حالة» عديد من المتصوفة فى الشرق، ممن كانوا - فى الأصل - فى التراث العربى من أفلاطون وأفلوطين واسبينوزا والسهروردى.. وغيرهم. وإذا كان بعض هؤلاء غاب فى الطريق الصوفى، فإن نجيب محفوظ لم يهبط إلى قاع الفلسفة، كما لم يسقط فى بئر التصوف، فلكل عنده مفهوم، وكل لديه يؤدى إلى غاية، وإذ بدا التمازج فى فكر أو خاطرة، فبقصد الوصول إلى الحقيقة، إما بالفلسفة وإما بالتصوف، أو بكليهما معًا».

ويعيش بيننا نجيب محفوظ - أطال الله عمره - فى صحو متحفز وعقل يقظ ووجدان هادئ مطمئن، يطاوعه إحساسه المرهف فى التفاعل والتعامل مع متغيرات الحياة فى الدائرة الصغرى للإنسان والكبرى للوطن وفى الدائرة الأكبر للعالم كله، ويتابع المكتشفات العلمية الحديثة، ويكتب عن هبوط الإنسان فوق سطح القمر كقمة للعلوم الطبيعية، كما يكتب عن الاستنساخ كقمة للعلوم الحيوية، و«يقيم واقع العولمة المعاصرة التى كانت أحد أحلامه القديمة فى إحدى لحظات النشوة».

استخلاص العِبَر



كلود جوردا*

إن القضاء الدولي لا يريد لنفسه أن يكون قضاء المنتصرين، ومن هنا تأتي الصعوبة في إيجاد توازن بين الواقعية السياسية والعدل كمثل أعلى. إن على القضاء الدولي أن يتكيف مع المحيط السياسي شئنا أم أبينا

أصبحت محكمة العقوبات الدولية CPT أمرًا واقعًا منذ الأول من يوليو/تموز٢٠٠٢.

إنه لحدث بالغ الأهمية جاء يجسد حلمًا قديمًا للبشرية، ووحده المستقبل كفيل بأن يبين لنا إذا ما كانت هذه الهيئة، التى لم يسبق لها مثيل، سوف تستجيب للآمال المرجوة منها. إن ما نحن ملمون به حتى الساعة هو كون هذه الهيئة ترزح تحت عبء ثقيل بسبب عدم إقدام أغلبية كبيرة من الدول، ومن بينها بعض من الدول الأعظم فى العالم، بالتصديق عليها، أى وبتعبير آخر، الاعتراف بها. وعليه، وبغية إقناع هؤلاء، يتوجب على هذه الهيئة القضائية أن تقوم سريعًا بإثبات وجودها. ومن هذا المنطلق تأتى أهمية استخلاص العبر من تلك التجربة التى تمثلها المحكمة الجزائية الدولية TPI المكلفة بمحاكمة من افترض بأنهم مجرمو حرب فى دولة يوغوسلافيا السابقة.

بالرغم من العوائق الكثيرة التى هددت كيانها، نجحت المحكمة الجزائية بعد أقل من ثمانى سنوات من تاريخ تأسيسها، فى إتمام القسم الأكبر من المهمة التى عهد لها بها مجلس الأمن، سواء من حيث عدد الأشخاص الذين حكم عليهم أم من حيث رتبهم. أما أسباب هذا النجاح غير المتوقع فى الحقيقة، فينبغى على محكمة العقوبات الدولية الحديثة العهد أن تقوم بتحليلها كى تتمكن من مواجهة التحديات التى سوف تصادفها والمنبثقة عن خصوصية الدعوى الدولية التى سألخصها كالآتى: هناك مفارقة تكمن فى حاجة القضاء الدولى على بذل المزيد نسبة إلى نظيره القضاء الوطنى، وبسلطات أقل. ما يطلب منه فى الواقع ليس أقل من الحد من حالات الإفلات من القصاص وبالتالى تدارك العود إلى جرائم ضد الجموع، أى تكرارها، بحيث يلقى الضوء على أحداث التاريخ ويفتح الطريق أمام الصلح على الصعيد الوطنى. ولكن وفى نفس الوقت من الجدير القول بأن هذا الأمر يجعل من مهمة القاضى غاية فى التعقيد: بالبُعد الدولى للنزاع، والطابع الجماعى للجرائم، وصعوبة جمع الأدلة التى ينبغى المجىء بها من أراض ليست بقريبة والتى غالبًا ما يكون إعطاؤها رهنًا بإرادة القيادات السياسية الباقية على سدة الحكم، إضافة إلى خوف الضحايا من الإدلاء بشهاداتهم والتعاون المنقوص، ليس فقط من قبل الدول المعنية مباشرة بل أحيانًا من جانب دولة ثالثة تعرف بتعلقها بالفضيلة، وجميع هذه الأمور تشكل عناصر مسيئة ليس فقط للسرعة المتوجبة بل أيضًا لانبعاث الحقائق القضائية والتاريخية، يتعين على محكمة العقوبات، بداية، أن تثبت فعاليتها وذلك من خلال تحديد سياسة جزائية مما يفترض تواجد مرشد فى الدعوى وتعاون من جانب الدول. إن خيار اتباع أصول توجيه الاتهام وتفضيله على إجراءات التحقيق والتحرى فى المحاكمات ليس موضع اعتراض بل يقتضى التخفيف منه، فهو بالأخص الذى يحرم القاضى من إمكانية التحكم بالمسيرة القضائية وتوجيهها. فى هذا النوع من الإجراءات الموضوعة إلى حد واسع بين أيدى الفرقاء، أثبتت التجربة أن صحة الوقائع والاهتمام بحماية النظام الدولى العام تأخذان أهمية ثانوية فى معركة قضائية فريدة تدور بين المدعى والمدعى عليه، ويتحول الضحايا فيها إلى مجرد شهود توثق أقوالهم. فى المحكمة الجزائية الدولية لشئون دولة يوغوسلافيا السابقة تمثل أحد الحلول الناجعة بإسناد مزيد من السلطات للقاضى لتمكينه من اتخاذ المبادرات. إن النظام القانونى الذى اعتمدته محكمة العقوبات الدولية من خلال تأسيس غرفة تمهيدية كهيئة فعلية للتحقيق الجنائى يبدو سائراً على هذا المنحى. يبقى أنه سيكون من الملائم أيًا كان النظام القضائى الذى ينتمى إليه القضاة، أن تقودهم ثقافتهم إلى استخدام سلطاتهم، لأنهم بدون ذلك سينجم عن نفس الأسباب النتائج نفسها، أى البطء فى سير الدعاوى، وإطالة مُهَل التوقف، وقراءة متعثرة لسير عمل المحكمة.



إن التجربة التى قادتها المحكمة الجزائية الدولية قد أظهرت أن هناك خطر انزلاق عندما يكون هناك ادعاء بأنه يتم، بصبر وبشكل تسلسلى، ملاحقة القيادة السياسية والعسكرية وصولاً إلى رأس الهرم، ومن خلال توجيه الاتهام بداية لأفراد منفذين ومن ثم الانتقال إلى مستوى وسطى قبل التوصل إلى أعلى المسئولين. فلقد نتج عن ذلك شبه اختناق عانت منه المحكمة فى الوقت الذى كان يتعين عليها التطرق لأكبر الدعاوى، تلك التى تقع دون شك فى دائرة اختصاصها. قامت المحكمة الجزائية الدولية بعناية فائقة بتحديد القواعد القانونية التى من شأنها حماية مصدر المعلومات وكذلك الشهود الذين عرفوا بالشهود «ذوى الوضع الحساس» وذلك سعيًا لتحقيق التوازن بين ما يعتبر من المصالح العليا للدولة من جهة وحقوق المتهم من جهة أخرى، وقد استلهمت محكمة العقوبات الدولية نظامها القانونى من هذه القواعد.

ويتوجب على محكمة العقوبات الدولية فيما بعد أن تحدد موقعها من هيئات العدل الوطنية. وهنا أود التذكير بأن المحكمة الجزائية قد تم تخصيصها بصلاحية تتفوق بها على المحاكم الوطنية، مما له مفعول الإكراه البالغ على دول المنطقة. إلا أن محكمة العقوبات الدولية قد أنيطت بها صلاحية هى ثانوية بالنسبة للهيئات القضائية الوطنية، وهذا أمر أقول بأننى أرحب به شخصيًا فقد يكون هناك من وجهة نظرى جانب إيجابى للدور المهم الذى ستضطلع به الدول وفقًا لنظام محكمة العقوبات. وبالفعل، لقد تبين على مر السنين بأنه من الضرورى «إعادة إشراك» الهيئات القضائية المحلية بمحاكمة بعض ممن يفترض بأنهم مسئولون عن جرائم مرتكبة. إلا أن العملية ليست بالسهولة التى نعتقد بل شديدة التعقيد. فبعد مرور عدة سنوات على تاريخ انتهاء النزاعات رسميًا وحتى فى الدول التى ارتقت إلى تطبيق ديمقراطية كاملة، تبقى البنية القضائية، التى لم تُحسن إعادة تأسيسها، هشة. وقد أثبتت لنا التجربة أن النوايا المعلنة للدول بالقيام بمحاكمة قضاياها الذاتية غالبًا مالا تتناسب وقدراتها، لا بل ورغبتها، وحتى تكون معاكسة لها. لقد تمكنت المحكمة الجزائية . بعد كثير من التردد والتلمس، من اعتماد نهج يسمح لها بأداء المهمة التى عهد لها بها بمجلس الأمن ويسهل فى نفس الوقت المصالحة الوطنية فى دول البلقان، إن هذا التوازن سيكون من الصعب تحقيقه لدى محكمة العقوبات لأن الدول ستحتفظ بتفوقها على هذه الأخيرة التى سيكون مالديها من سلطة إكراه أكثر ضعفًا: فهى لن تتمتع بالسلطة الآمرة التى يوفرها لها قرار ملزم لمجلس الأمن ولا بمساندة، حتى شكلية، من جانب المجموعة الدولية بمجملها، وذلك لأن جزءًا من دول هذه المجموعة فقط انضم إلى نظام المحكمة القانونى، وعلى هذه الأخيرة بذل مجهود أكبر من مجهود المحكمة الجزائية كى تتمكن علاوة على مراقبتها لمقدرة الدول على محاكمة نفسها بنفسها، من المساهمة أيضًا فى إعادة إصلاح البنية القضائية المحلية. إذ من المفترض أن تقوم محكمة العقوبات بمجهود متواصل لتفسير ماهية تحركها وما يقوم عليه دورها، وأن تؤَمِن مواكبة قضائية بمعنى تعاون تقنى (لاسيما فى مجال التأهيل) وأن تشجع على جميع أنواع المصالحة بالتراضى، أى خارج القضاء. فبغض النظر عن الدور المنمق، المبالغ به برأى البعض، الذى ستعطيه محكمة العقوبات للدول، سوف يتعين عليها الامتناع عن الظهور على شكل غرفة لتسجيل إرادة الدول «فى إجراء المحاكمات محتكمة إلى نفسها»... أو ربما ما هو أسوأ، أى الظهور على شكل نمر من ورق.

إن المهمة الأكثر دقة بالنسبة للقضاء الدولى سوف تكون أخيرًا فى إيجاد نوع من الاعتدال بين ما تتسم به مهمة دولية شاملة من طابع مطلق وما سيتصف به بالضرورة دخول القضاء الدولى وانخراطه من نسبية فى سياق بلد يسعى إلى إعادة إعمار نفسه وشعب يسعى إلى التصالح مع نفسه. إن السياسة هى التى تتقدم إلى القوس بمواكبة سائر التباساتها لتكشف، من ضمن أمور أخرى، عن تقاعس بعض القضاة عن الاضطلاع بدورهم أو عن اللعبة الحاذقة التى تلعبها السلطات الجديدة الحاكمة والتى تأبى أن تفضح أسرارها. إن صعوبة التعايش بين عملية تفاوض سياسى تجريها شرعيًا المجموعة الدولية من جهة ودعوى قضائية أطلقها بشكل لا يقل شرعية المدعى العام. من جهة أخرى تظهر بوضوح خصوصية القضاء الدولى الذى لا يريد لنفسه أن يكون قضاء المنتصرين. ومن هنا تأتى الصعوبة فى إيجاد توازن بين الواقعية السياسية والعدل كمثل أعلى: على القضاء الدولى أن يتكيف مع المحيط السياسى، شئنا ذلك أم أبينا. من المؤكد أن عمل مدعى عام محكمة العقوبات سوف يكون محاطًا بصورة أكبر لاسيما من قبل مجلس الأمن. فالبعض يبدى أسفه بهذا الشأن، ولكننى لا أوافقهم الرأى. إن المجتمع الدولى يتكون أولاً وقبل أى شىء من مجموعة دول ذات سيادة واحترام هذه السيادة هو الثمن الذى ينبغى دفعه للترويج لأى جهاز مؤسسى دولى، و بالأولى لأى عملية قضائية.



إن القرن الجديد يشهد بزوغ نزعة مزدوجة: حماية أكبر لحقوق الإنسان من خلال مضاعفة عدد الأجهزة القضائية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى هناك تراجع فى شكل من أشكال القومية القضائية التى تدفع بالدول إلى النظر بكثير من الريبة والتشكيك إلى كل تدخل أو غزو تمارسه هيئة يمكن تشبيهها بحكومة قضاة. ومما لاشك فيه أن محكمة العقوبات الدولية تتجاذبها هذه النزعة المزدوجة، وفى خضم هذا التشابك القضائى والسياسى يتعين على محكمة العقوبات إعطاء أول الدلائل تثبيتًا لوجودها، وفى سياق مختلف، سمح نشاط المحكمة الجزائية الدولية تدريجيًا بترسيخ فكرة مفادها أن أية تسوية سياسية للنزاع أو أية مصالحة وطنية لن تكون ممكنة إذا لم يتم إنصاف الضحايا والحكم بالعدل لهم، ولقد ساهم بذلك إلى حد كبير تشبث القضاة وكفاءاتهم. لقد أظهرت المحكمة الجزائية الدولية أنه من الممكن وجود عدل جزائى دولى فعلى. يجب على محكمة العقوبات الدولية الآن أن تكمل السير على الطريق الذى تم رسمه متجنبة ما قد تمثله لها من إغواء ممارسة سلطة شمولية لم تكلف بها، أيًا كان نوعها، ومتجنبة أيضًا الانطواء السلبى الذى سوف يحبط أولئك الذين يأملون الحد من حالات الإفلات من القصاص.

(*)رئيس المحكمة الجزائية الدولية لدولة يوغوسلافيا السابقة

ماذا يقرأ الديكتاتور قبل النوم؟!....

وائل عبد الفتاح

هذه واحدة من المرات النادرة التى أكتب فيها عنوان المقال قبل الانتهاء منه. لكن السؤال خطر على بالى وأنا أقرأ:

«إن النظم الشمولية ليست الوحيدة التى تخشى القراءة».

هذه الجملة محشورة فى كتاب ممتع من الصفحة الأولى اسمه «تاريخ القراءة». والمؤلف البرتو مانجويل يكملها بجمل أقوى: «.. حتى فى ساحات المدارس، وفى خزائن الملابس، وفى دوائر الدولة والسجون تجرى مراقبة جمهرة القراء بعين الارتياب، نظرًا لما يشعر المرء به من سلطان القراءة وقوتها الكامنة، وعلى الرغم من الاعتراف بأن العلاقة بين الكتاب والقارئ علاقة مفيدة ومثمرة، إلا أنها علاقة تعتبر مترفعة ورافضة ربما لأن مشهد قارئ وقد انزوى فى أحد الأركان ونسى العالم المحيط به يشير إلى جو شخصى غير قابل للاقتحام وإلى نظرة منطوية على الذات وتصرف أنانى..»!!

هكذا كانت أم البرتو مانجويل تقول له عندما تراه يقرأ:«اذهب إلى الخارج وعش حياتك».. وكان «انشغالى الصامت هذا كان يتعارض مع تصوراتها عن الحياة»، يقول البرتو، وهو يتأمل ذلك الخوف المستشرى مما قد يفعله القارئ بكتابه والذى يشبه الخوف الأزلى الذى يبديه الرجال مما قد تفعله النساء بالأجزاء المخفية من أجسادهن، ومما قد تمارسه الساحرات ويزاوله الكيميائيون فى السر وراء الأبواب الموصدة لمطابخ سمومهم!!



[١]

البرتو يصحبك من الصفحات الأولى فى رحلة مع قراء يتتبع كل إيحاءاتهم وقدراتهم ومسراتهم ومسئولياتهم والطاقات التى تقدمها لهم القراءة. وهو تاريخ مثير ليس لأنه فقط يروى سيرة التحرر الذى يبديه كل قارئ للحظات وهو يمسك الكتاب. ولا لأنه يعتبر أن «القراءة ضرورية مثل التنفس». ولا حتى لأنه يحكى تاريخ القراء العاديين بجوار روايته لتاريخ التطور الذى انتقلت به القراءة من فعل يعلن به الفرد الانتماء إلى الجماعة المغلقة. إلى طريقة لاكتشاف الذات وخصوصيتها المطمورة تحت ركام المعرفة العمومية المستبدة.

طريقته هى التى أعجبتنى بالأساس. بدأ البرتو مانجويل من هاجس شخصى لرواية حكايته مع القراءة التى أعطته عذرًا مقبولا لعزلته..«بل ربما أعطت مغزى لتلك العزلة المفروضة علىّ. فبعد رجوعى إلى الأرجنتين (بلده الأصلى وكان والده كثير السفر لأنه يعمل فى السلك الدبلوماسى) عام ١٩٥٥ قضيت معظم أيام طفولتى بعيدًا عن أفراد عائلتى، محاطًا برعاية مربيتى، حيث كنا نسكن فى أحد الأقسام المعزولة عن المنزل الذى كانت تقيم فيه عائلتى. كان مكان القراءة المفضل لدى هو أرضية غرفتى الصغيرة، حيث كنت أستلقى على بطنى وقد ركزت قدمى الصغيرتين فى أحد الكراسى. ثم سرعان ما أصبح السرير أأمن الأماكن لمغامراتى الليلية خلال الفترة الضبابية التى كنت أتأرجح خلالها بين اليقظة والخضوع لسلطان النوم. لا أستطيع أن أتذكر أبدًا أننى كنت وحيدًا فى لحظة من اللحظات. على العكس تمامًا، فإن ألعاب وأحاديث الأطفال الذين ما كنت ألقاهم إلا نادرًا، وجدتها أقل إثارة بكثير من المغامرات والأحاديث التى كنت أعيشها فى كتبى».

«إننى لست وحيدًا»:هذا هو الاكتشاف الشخصى الذى دفعه لتتبع مئات الحكايات واقتفاء آثار النصوص المكتوبة والمقروءة والمطبوعة عبر مختلف العصور وفى الكثير من مكتبات العالم. ليعرف سر القرابة العنيفة بين المتيمين بقراءة الكتب وكأنهم يعيشون حياة سرية متراكمة عبر أزمنة تاريخية. تتناقل الأسرار من شخص إلى آخر. ومن مجتمع إلى آخر..بين «أولئك الذين أظهروا على مر العصور شغفهم بهذه الكتب أو بتلك، الذين اهتدوا بأحكام الأكبر منهم سنًا، أولئك الذين انتشلوا الكتب من طى النسيان، أو أولئك الذين جمعوا على رفوف كتبهم درر الأدب المعاصر».

وهذا هو البرتو مانجويل يكتب «تاريخ انتصاراتهم الصغيرة وآلامهم المحجوبة عن الأنظار».

فى كل مرة كان البرتو يجد حكاية تقوده إلى تفاصيل وحكايات أخرى. يبحث عنها فى النصوص. ويبحث عنها فى داخله. فى ذاكرته التى تبدو دائمًا مثل الكورس فى مسرحيات شكسبير. يمنح مفتاح فهم العالم.

هذه الطريقة هى المتعة. لم يعتمد فيها على تسلسل زمنى أو تطور تاريخى .فالحكاية هى التى ترسم طريق اكتشاف طريقها. ترك البرتو نفسه تقريبا مثل عاشق فى الظلام ينسى معرفته بجسد العشيقة لينفتح أمامه فى كل مرة عالم جديد. إنه يلهث وراء تاريخ لم ينته بعد. يبدأ مع كل قارئ. وتدمره كل قراءة جديدة..وهذا سر الكتاب الذى ينتمى إلى نوعية الكتب التى لا تنتهى قراءتها. أو التى يمكن أن تعود إليها لتطمئن إلى نفسك.

كانت أمه تخاف عليه من التناقض بين القراءة والحياة. وهاهو يرد عليها بمقطع من رواية «الحصان الأبيض» للتركى أورهان باموك:«..لا يستطيع المرء أن يبدأ الحياة، هذه الرحلة الوحيدة، بعد أن تكون قد انقضت..إلا أنك عندما تمسك كتابًا بيدك، مهما كان هذا الكتاب معقدًا أو صعبًا على الفهم، فإنك تستطيع بعد الانتهاء منه، العودة إلى البداية إن أردت، وأن تقرأه مِّن جديد، كى تفهم ما هو صعب، وبالتالى فهم الحياة أيضًا».

وهذا هو التناقض بين القراءة والحياة.



[٢]

القراءة تكسر الحياة الرتيبة. تدمر العلاقة بها فى لحظة خاطفة. وترتب العالم من جديد. الكاتب التشيكى فرانز كافكا كتب عام ١٩٠٤ إلى صديقه أوسكار بولاك:«..على المرء ألا يقرأ أبدا إلا تلك الكتب التى تعضه وتوخزه. إذا كان الكتاب الذى نقرأه لا يوقظنا بخبطة على جمجمتنا، فلماذا نقرأ الكتاب إذًا؟! كى يجعلنا سعداء كما كتبت؟! يا إلهى، كنا سنصبح سعداء حتى لو لم تكن عندنا كتب، والكتب التى تجعلنا سعداء يمكن عند الحاجة أن نكتبها. إننا نحتاج إلى الكتب التى تنزل علينا كالبلية التى تؤلمنا. كموت من نحبه أكثر مما نحب أنفسنا، التى تجعلنا نشعر وكأننا طردنا إلى غابات بعيدًا عن الناس، مثل الانتحار. على الكتاب أن يكون كالفأس التى تهشم البحر المتجمد فى داخلنا. هذا ما أظنه».

كافكا طلب من صديق آخر أن يحرق مؤلفاته بعد موته. لكن صديقه لم يحقق له هذه الرغبة. وتم تفسير تلك الأمنية على أنها لعبة نفسية يصرخ فيها المؤلف: «..أنا غير جدير بالاستحقاق..» وهو ينتظر من الأجيال القادمة أن تصرخ: «..كلا إنك جدير بالاستحقاق».

لكن هناك تفسيرًا آخر، كما يقول البرتو مانجويل، هو أن كافكا كان يريد لأعماله ذلك الخلود الذى منحته أجيال القراء للكتب المحروقة فى مكتبة الإسكندرية، وللمسرحيات الثلاث والثمانين لإسخيلوس، ولكتب لجيوس المفقودة. وللنسخة الأولى من كتاب الثورة الفرنسية لكارلايل التى كانت خادمة أحد الأصدقاء قد رمتها خطأ فى النار، وللمجلد الثانى من الروح الميتة لجوجول الذى أمر أحد البابوات المتشددين بحرقه.

كافكا ممن يرون أن حياة الكتاب تكتمل لدى القارئ. كل قارئ. وربما لهذا لم ينه أغلب رواياته. إنه يبحث عن حياة أخرى لكتابه عبر تلك القراءة المتوحشة التى تقوده كل مرة إلى عالم جديد.

هذا النوع من القراءة مرعب لكل نظام مستقر. مرتب. تبدو المعرفة فيه قادمة من أعلى وباتجاه واحد فقط. اقتربت مرة من تنظيم سياسى من النوع القومى الراديكالى. لم أكن عضوًا لكنى كنت فى مرحلة التصور الساذج الذى يدفعنى إلى أن أذوب فى إحداها كتعبير عن أهمية أو كهروب من فردية محرمة أو حتى من أجل شىء كبير غامض. توقفت أكثر من مرة عند قائمة ممنوعات كانت تسرب فى الخفاء إلى وعى الأعضاء. لا تقرأوا أدونيس. إنه شعوبى. عدو للقومية العربية. لم أقترب أكثر لأعرف بقية القائمة لكننى فوجئت يوما بزعيم التنظيم يتحدث بسعادة كبيرة عن سهرته الممتعة مع كتاب يجمع بعض الإفيهات الساخرة لكاتب صحافى مشهور. سر دهشتى أننى كنت أضع مراتب ودرجات للقراءة تضع الكتابة الساخرة فى مرتبة أدنى من أن تحقق متعة لزعيم سياسى. مثقف. لكن دهشتى بعد ذلك كانت أكبر لأننى وبعد أن أزلت المراتب والفوارق الهرمية بين أنواع الكتب. وبعد أن أصبح ترتيبها يخضع لأفكار مختلفة تمامًا عن تلك الرومانتيكية. وأدركت أن التقييم لا يمكن أن يكون مطلقًا.. المهم كان اكتشافى المدهش أن الزعيم لا يقرأ، وأن هذا الكتاب هو آخر حدود علاقته بالكتب التى قد تتباهى بامتلاك دواوين شعر لمحمود درويش أو سميح القاسم على سبيل الوجاهة الثقافية ذات الطابع السياسى. لكنها لا أكثر فالعالم مرتب. ولا يمكن الاقتراب من ترتيبه «المقدس». فالمعرفة انتهت. وكل قراءة هى من أجل تأكيدها. وليس الخروج عنها. تلك هى وظيفة القراءة والتثقيف السياسى المنظم: أن تؤمن بما سبق أن عرفه الأولون!!



[٣]

«المخاطر المرعبة للقراءة» عنوان مقال ساخر كتبه فولتير مؤكدًا على الفكرة السابقة، فالكتب «تشتت الجهل، هذا الحارس الأمين والضامن الحريص للدول ذات الأنظمة البوليسية». البرتو مانجويل تشجع اعتمادا على مقولة فولتير وقال حكمه التالى: «.. كان الحكام الدكتاتوريون على مر العصور والأزمان، ومازالوا، يعرفون أن الجماهير الأمية سهلة الانقياد، ونظرًا إلى عدم التمكن من إبطال مفعول القراءة بعد تعلمها، يلجأون إلى الحل الثانى الذى يفضلونه ألا وهو منع تعلم القراءة. إن الحكام الدكتاتوريين يخافون الكتب أكثر من أى اختراع بشرى آخر على الإطلاق. ولذا نرى القوة المطلقة لا تسمح إلا بنوع واحد من القراء فقط، هو النوع الرسمى. وبدل المكتبات الكاملة المملوءة بالآراء المتنازعة لا يراد الإبقاء إلا على كلمة الحاكم بأمره».

كانت دهشة القديس أوغسطينوس عندما دخل على القديس الأكبر منه عمرًا وخبرة امبروسيوس وجده يقرأ بطريقة عجيبة:«..كانت عيناه تغطيان الصفحة، وكان يستقبل المعانى بقلبه، وكان صوته يصمت، ويبقى لسانه دون حراك. وكان بمقدور كل واحد أن يقترب منه بمطلق الحرية. ونظرا لأن الضيوف لم يكونوا يعلنون مسبقًا عن قدومهم، كان يحدث عندما نزوره أن نراه يقرأ بصمت مطبق لأنه لم يكن يقرأ بصوت عال قط».

كانت القراءة بصمت فعلاً مدهشًا فى تلك الأزمنة (القرون الأولى بعد الميلاد).

القراءة كانت تدرك بالسمع. وهى جزء من أفعال مقدسة يشترك فيها الجسم كله. كان على الجسم أن ينصهر فى المعانى التى تجعله ينتمى إلى الجماعة المؤمنة. القراءة الصامتة كانت خطرًا لأنها كانت تعنى فعلا من أفعال الناسك المعتزل. والقارئ الصامت يكسب وقتا للتمعن بالكلمات والتلذذ بها، والإنصات إلى ايقاعاتها فى داخله، كما يقول البرتو عن النص المحروس من أعين الدخلاء المتطفلين. ومع تطور تغليف الكتاب وتحويله إلى مخطوطة بغلافين. أصبح ملك يد القارئ كنز معلوماته السرى، وهذا ما كان يزعج بعض العقائديين وقتها. راقبوا التطور الجديد بشىء من الحذر والريبة. إذ أن القراءة الصامتة حسب اعتقادهم تشجع على أحلام اليقظة وكانت مكمنًا لخطر الانزلاق فى الشهوات الحسية.

القراءة المستقلة. الفردية كانت ـ ولا زالت ـ خطرًا. فهى تسمح بالاتصال البعيد عن الأعين بين الكتاب والقارئ على نحو لم يكن يتحمله حراس العقيدة المغلقة. وهنا يولد «الإنعاش الفريد للعقل..» كما قال القديس أوغسطينوس صاحب الاعترافات الشهيرة.

تاريخ القراءة

البرتو مانجويل

ترجمة: سامى شمعون

بيروت: دار الساقى ـ ٢٠٠١

تاريـــــخ القـــــــراءة... والســـــــلطة

[٤]

ابن خالتي الكبير كان زهوة العائلة. أطلقوا عليه «طه حسين الصغير» لأنه كان يقرأ الثلاث صحف الرسمية وهو في الابتدائي. يتجمع حوله المهتمون من أهل الحي ليسمعوا تفاصيل ما يحدث في العالم. هذا في نهاية الستينيات. وقتها كانت الناس حتى في ذلك الميدان الحيوي في مدينة مثل المحلة الكبرى يحرصون على متابعة الحدث السياسي. وعبقرية الطفل في فك طلاسم الحروف المكتوبة وليست في نقل الأخبار التي قد يسمعونها في الإذاعة أو التليفزيون. لكنها سلطة الحرف المطبوع تعطي لقارئ الجريدة ميزة لفتت انتباهي بشكل مبهم وأنا في سنوات الدراسة الأولى. وقتها منحت رتبة أقل وأطلقوا عليّ اسم ابن خالتي مع إضافة وصف «الصغير» على أساس أنني سارت العبقرية مادمت أحرص على التقاط الصحيفة من زوج خالتي الذي كان يؤجر الصحف من البائع الشهير في المحطة.

ظلت القراءة هي الميزة الوحيدة التي أنفرد بها. لكنها تحولت من سبب لمكانة متوقعة إلى عنصر مطاردة. فقد بدأ أهلي يعاقبونني على الهروب من كتب المدرسة إلى كتب أشتريها بعيدًا عن أعينهم. بدأت أعي وقتها خطر القراءة ومتعتها الخفية. حين عثرت وأنا في الخامسة عشرة على كتاب ملقى في الشارع بدون غلاف وصفحاته الأولى ضائعة. ظل هذا كتابي السري. أكثر من عام. أخبئه في أبعد مكان عن رقابة العائلة وأطلع عليه الأصدقاء المراهقين الباحثين عن منفذ لبركان الرغبات الحسية المحاط بالسيطرة والمنع. بدأت أربط بشكل مبهم بين الحكايات الخرافية في الكتاب وحمى المشاعر والرغبات الغامضة. قبل أن أكتشف بعد سنوات أن هذا الكتاب لم يكن سوى نسخة من ألف ليلة وليلة. بالتحديد من طبعاتها غير المهذبة. لكن ذاكرتي كانت قد سجلت العلاقة بين القراءة ولذة الخروج عن النص الرسمي.



[٥]

اللافت هنا أن عملية القراءة في الثقافة العربية مازالت عملية معقدة. تتشابك فيها طبائع الاستبداد في الأنظمة السياسية مع خريطة الفقر والثراء في المجتمعات العربية.. إلى جانب علاقات أخرى بين الدولة والمثقفين.. وبين المثقفين والمجتمع.. وأخيرًا هناك الصدى المرعب للتقدم التكنولوجي الذي يخلق في المجتمعات المتخلفة طبقة من «العارفين الجهلاء» يعرفون استخدام الوسائل المتطورة لكنهم عاجزون عن اكتشاف المعرفة أو إبداعها من خلال هذه الوسائل.

وربما تكون رحلة الكتاب في العالم مرت بمراحل تقنية من الحفر على ألواح الحجر ثم الصلصال.. إلى أوراق البردي في مصر القديمة.. وحتى عجينة الورق الحديثة.. وصولاً إلى الكتاب الإلكتروني الذي يهدد بالعودة إلى الثقافة الشفهية بعد قرون من اكتشاف الكتابة.

إلا أن الكتاب العربي مازال أسير رحلة أخرى. تبدأ مصاعبها مع فيروس الأمية المنتشر في بعض البلاد العربية مثل الوباء. ولا تنتهي عند علاقة العرب المتوترة بفكرة الكتابة والكتب. توتر له أصول دينية. فالإسلام يعتبر أن الكتاب هو القرآن. كتاب الله الموحى به من السماء. وهذا يعني أن الكتاب بعقد الألف واللام هو صناعة إلهية. وفي المقابل أي محاولة بشرية إما أن تأتي على هامشه. تفسير. شرح. فالعلم هو الدين والعلماء هم شارحو الدين ومفسرو نصه الكبير. وإما ستكون موضع شك. وغرابة. والمرتبطون بكتابة خارج الهامش الديني غرباء. يستمدون مرجعيات غريبة.

هذه العلاقة المتوترة ربما خفت حدتها الظاهرة. ولم يبق منها إلا فورات ضد كتب تمثل الثقافة الحديثة خاصة في حال اقترابها من حدود الدين. وهو ما حدث مع طه حسين في «الشعر الجاهلي» وعلي عبد الرازق في «الإسلام وأصول الحكم» ومؤخرًا مع نصر أبو زيد في «مفهوم النص».

لكن هذه العلاقة لم تجعل الكتب عنصرًا أساسيًا في الثقافة الشعبية. والإنسان العادي لا يلجأ إلى الكتاب إلا في سنوات التعليم. وخارج هذا ليس هناك غير كتب التفاسير والأحاديث النبوية. ومؤخرًا بعض الكتب السريعة حول قضايا ساخنة.

ولا تنتشر عادة القراءة والاهتمام بالكتب إلا في لحظات تحول المجتمع. أو في محطة من محطات التحديث المتعثر أساسًا.

هذه الرحلة الصعبة أسفرت عن وضع أقرب إلى التراجيديا. فالكتاب العربي لا يطبع منه الآن أكثر من ألف نسخة (هناك الآن دور نشر تطبع من الأعمال الأدبية خمسمائة نسخة فقط). ونجيب محفوظ الأوسع انتشارًا بين الروائيين، بسبب السينما ونوبل، طبعته لا تزيد على ثلاثة آلاف. أما نزار قباني الشاعر الأشهر فيبدو أنه لا يصل إلى رقم العشرة آلاف إلا في حالات نادرة. رغم أن أغانيه روجت لكتبه. ورغم أنه تعدى فكرة الشعر وأصبح من علامات المراهقة. وبدايات المعرفة.

غير هذا ليس هناك الآن إلا الكتاب السريع الذي يستثمر بهارات القضايا الصحافية المثيرة. توزيع هذه الكتب يعتمد على ضربة الحظ وعلى حساسية خاصة بالسوق ويعتمد أيضا على «الموضة».. ضربة الحظ قد تصل بأحد هذه الكتب إلى رقم ٤٥ ألف نسخة كما حدث مع كتاب أشار عنوانه إلى اسم الراقصة المشهورة فيفي عبده، واعتمد مؤلفه على نجاح كتبه السابقة حول اعترافات الفنانات التائبات والبنات المنحرفات.. لم يصنع قنبلته التي نقلته في عام واحد إلى نادي المليونيرات!!



[٦]

طه حسين ابن هذه المفارقات. هو مارق في نظر القراءة السائدة. لكنه مشهور ورمز ويمكن اعتباره مثلاً أعلى لفكرة القراءة. ربما يتم هذا بمفهوم اجتماعي يعلي من فكرة التغلب على الظروف الصعبة. وربما أيضا لأنه بنفسه هو الذي طلب الحجر على كتبه وعاد مرة أخرى للعب بذكاء مع القراءة المسيطرة. لكنه يبقى الأعمى الذي رأى ما عجز عنه مبصرون ملتزمون بالتعليمات. لأنه أصيب بهوى القراءة!!

البرتو مانجويل كان أحد قراء كاتب أعمى آخر هو خورخي لويس بورخيس، وكانت القراءة على الرجل المكفوف المسن تجربة غريبة بالنسبة له. لأن بورخيس كان، كمستمع، سيد النص. كنت مثل قائد سيارة. يقول البرتو، أما المكان الذي كان يمتد أمامنا فكان ملك يديه كما يفعل راكب السيارة العادي، الذي ما كان عليه إلا استلهام الطبيعة التي كان يشاهدها. بورخيس كان يختار الكتاب، وبورخيس كان يمنحني الدعم اللازم، أو كان يطري الاسترسال في القراءة، وبورخيس كان يقاطعني للادلاء بتعليق، وبورخيس كان يترك الكلمات تتوجه صوبه، أما أنا فكنت غير منظور.

لكنه تعلم معه كيف يكون القارئ مخربًا.

تعلم أن القراءة فعل تراكمي يحدث بصورة هندسية.

في إحدى الجلسات حكى له بورخيس حكاية المظاهرات الشعبوية التي نظمتها حكومة بيرون عام ١٩٥٠ ضد المثقفين المناوئين للحكم التي كان المتظاهرون يهتفون خلالها: «أحذية نعم، كتب لا»!

أما الهتاف المقابل: «أحذية نعم، كتب أيضًا» فلم يقنع أحدًا. وهكذا فإن الواقع، الواقع القاسي العقلاني كان بالنسبة للجماهير لا يتوافق مع عالم الأحلام الخيالي للكتب. بموجب هذه الذريعة يقوم الحكام بنجاح بتأجيج نار التناقضات الاصطناعية بين القراءة والحياة.

الحكومات الشعبوية - يقول البرتو - تطالبنا بأن ننسى، لذا فإنها تدمغ الكتب بأنها بهرجة لا حاجة إليها. أما الحكومات الشمولية فتطالبنا بالتوقف عن التفكير، لذا فإنها تمنع العقل وتلاحقه وتخضعه لمقص الرقيب. إن النظامين يريدان جعلنا أغبياء وإخضاعنا، مما يجعلهما يشجعان على استهلاك القمامات التليفزيونية. ■

أمل الجـوعى

أحـمـد مـسـتـجـيـر

كان خبراً غريباً حقاً، لا، كان خبراً يثير الغضبَ والذعر. دولةٌ أفريقية من بين ست ضربتها المجاعة يرفض ساستُها معونةً ضخمة من الذُّرة. لماذا؟ لأنها مُهَنْدَسةٌ وراثياً! قد نجلس نحن الآن لنتجادل حول صحة هذا القرار، بينما يموت آلاف الناس جوعاً. ثلاثة ملايين من البشر هناك يتضورون جوعاً. أرسلت حكومتُهم بعثةً تستطلع الآثار المحتملة للمحاصيل المهندسة وراثياً على الصحة وعلى البيئة. زارت البعثة الولايات المتحدة وبريطانيا وبلجيكا وهولنده والنرويج وجنوب أفريقيا، ثم عادت ليقول وزير الزراعة «بالنظر إلى الشك العلمي حول القضية، فقد قررت الحكومة - استناداً إلى مبدأ الحيطة - ألا تقبل الأطعمة المحورة وراثياً. بذا تتجنب الدولةُ القيام بفعل قد يؤثر سلباً على صحة الإنسان والحيوان، كما قد يؤذي البيئة». قررت الحكومةُ إذن رفضَ ١٨ ألف طن من الذرة المحورة وراثياً التي تبرعتْ بها الولايات المتحدة. وَصَفَ رئيسُ تلك الدولة الطعامَ المهندسَ وراثياً بأنه «سمٌّ».. ولقد قالها ذلك الرئيس: «إن جوعَ شعبي ليس مبرراً كي أُقدِّمَ له السم... إن الموتَ جوعاً أفضلُ من أكل ذُرةٍ محورة وراثياً - كان بالطبع يقصد موت الفقراء الجوعى من شعبه، لا موته هو. هو لن ينام جائعاً، ولكنه سيترك للجوعى «مهمة» تأكيد صدقِ مقولته!

عَبَّرتْ الدول الخمس الأخرى من دول الجنوب الأفريقي التي اجتاحتها المجاعة عن القلق من أن العونَ الغذائي من حبوب الذرة المحورة وراثياً قد يُستخدم في الزراعة: إن بعضَ الفلاحين قد «يأثمون» فيلجأون إلى زراعة بعض البذور، لتنتج نباتاتٍ محورة وراثياً، تنثر حبوبَ لقاحها «الملوثة» بجينات غريبة، «فتلوث» النباتات بالأراضي المجاورة، ليصبح قَدْرٌ كبير من الذُّرة في المستقبل غيرَ قابل للتصدير إلى أوروبا، حيث لا تشيع الأطعمة المحورة وراثياً مثلما تشيع في أمريكا، وحيث تُرْفَضُ أحياناً لحوم الأبقار إذا دخلت مثل هذه الحبوب المحورة في غذائها. وقد وافقت أربع من هذه الدول على قبول منحة الذرة بشرط أن تكون مطحونةً. أما تلك الدولة فقد رفضَتْها حتى مطحونة. إنها سم. بالرغم من أن الملايين من الأمريكيين يأكلونها كل يوم منذ أواسط التسعينيات، ومن أن ثلثي محصول الذرة الأمريكي عام ٢٠٠٢ كان مُحَوراً وراثياً، ومن أن ٧٠ - ٨٠٪ من الأغذية الأمريكية يحمل شيئاً من محاصيل مُهَنْدَسة وراثياً، ومن أن المساحة المزروعة بالمحاصيلِ المهندسة وراثياً بالعالم قد تزايدت من ٤ ملايين فدان عام ١٩٩٦ إلى ١٢٥ مليون فدان عام ٢٠٠١.



تكمن المشكلة الحقيقية في هذا الجدل الدائر الآن حول البيوتكنولوجيا، لا في رجال الدولة المُضَلَّلين في أفريقيا، بل من مكاتبهم الفاخرة يشير معارضو الهندسة الوراثية بأصابعهم، ويُنَظِّرون، دون أن يدركوا النتائجَ الواقعية لفصاحتهم وشعاراتهم. في بساطة بالغة ينفون أن المحاصيل المحورة وراثياً يمكنها أن تُسهِمَ في إطعام الملايين المتزايدة من الأفواه في العالم، معتمدين على معلومات خاطئة، ثم إنهم يلجأون إلى التخويف وبث الذعر والشك بين الجماهير إذ يرسمون صورةً كئيبة لمجتمع يقوده «علْم فرانكنشتاين» إلى الفناء! ولقد آنَ لهم الآن أن يواجهوا «الجنِّي» الذي أطلقوه: أن يواجهوا أمثال هؤلاء الحكام في جنوب القارة الأفريقية الذين يضحون بأرواح الأبرياء من شعوبهم باسم «البذور المأمونة» و«المحاصيل المأمونة» و«البيئة المأمونة». لِمَنْ الأمان حقاً، والمجاعة التي وَلَّدها الجهلُ والعلم الكاذب تحصد أرواح الملايين؟ أي أمانٍ هذا الذي يرنو إليه أصحاب الأيديولوجيا الغافلون عن البيولوجيا؟! يرشفون قهوتَهم «المأمونة» الناتجة عن شجيرات بُنٍّ «طاهرة» «مأمونة»، زُرِعَتْ «عُضْويًا» دون استعمال أسْمِدة كيماوية أو مبيدات، ويتفكرون في طبيعة الكفاح العقائدي، تفصلهم البحار والمحيطات عَمَّن يموتون جوعاً من جَرَّاء ما أذاعوه ويروجون له من سخف!

الملايين من الجوعى في أفريقيا يريدون الطعام، ولا تهمهم في كثير أو قليل مناقشة أيديولوجيا تحوير جينوم النباتات الذي يأكلونه، أو حتى جينوم الإنسان!



> آنَ لهم الآن أن يواجهوا «الجنيَّ» الذي أطلقوه: أن يواجهوا أمثال هؤلاء الحكام في جنوب القارة الأفريقية الذين يضحون بأرواح الأبرياء من شعوبهم باسم «البذور المأمونة» و«المحاصيل المأمونة» و«البيئة المأمونة». لِمَنْ الأمان حقاً، والمجاعة التي وَلَّدها الجهلُ والعلم الكاذب تحصد أرواح الملايين؟

قصة الـ «د.د.ت.»

يُذَكِّرُني هذا بقصة شبيهة لا بأس من أُعيدَ روايتها. في عام ١٨٧٤ ابتكر أحد الأكاديميين مادة تسمى دايكلورو دايفينايل ترايكلورو إيثان Dichlorodiphenyl trichloroethane، أو الـ «د. د. ت»، ثم اكتشف العلماء أن هذه المادة يمكن أن تُستخدم في مقاومة القَمْل الذي يُعَرِّض جيوشَ الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية لمرض التيفوس، فبدأ تصنيعها بكميات ضخمة بلغت ٢ مليون رطل في الشهر. ثم عُرِف عام ١٩٤٨ أنها تقتل أيضاً بعوض الملاريا، الحشرة التي تنقل طفيليَ الملاريا. في عام ١٩٤٨ كان في سرى لانكا ٢,٨ مليون شخص مصاب بالملاريا عندما بدأ استخدام الـ د. د. ت ضد البعوض، وعلى عام ١٩٦٤ وصل عدد مرضى الملاريا إلى سبعة عشر شخصاً لا أكثر. وتحت ضغوط أمريكية ودبلوماسية أوقفت الدولة استخدام هذا المبيد لأنه « يؤذي الإنسان والبيئة». وبعد خمس سنين من وَقْف استعماله ارتفع عدد المصابين ثانيةً إلى ٢,٥ مليون شخص. قد لا يكون لمنع استخدام الـ د. د. ت أيّ أثر في الولايات المتحدة أو في أوروبا، لكن الأمر مختلفٌ في العالم الثالث - سيموت الملايين من الأطفال بالملاريا، سنُنْقِذُ هذا الطيرَ أو ذاك من الانقراض، والثمن؟ بضعة ملايين من أرواح أطفال الفقراء!

ما الهندسة الوراثية؟

ربما كان أهم بحث علمي ظهر في القرن العشرين هو البحث المكون من ٩٠٠ كلمة، لا أكثر، الذي نشره جيمس ديوي واطسون وفرانسيس كريك في أبريل ١٩٥٣ بمجلة «نيتشر» عن تركيب جزئ الدِّنا DNA، الأساس المادي للوراثة. هذا جزئ يشبه خيطين من الحروف، يشكِّلان معاً لولباً

هنـــاك مشـــروع لإنتـــاج «أرز الأحـــلام»، يُنتـــظر أن تعـــرض نتائجُـــهُ فى مؤتمـــر ســـيعقد بالهنـــد فى فبـــراير المقبل ســـيوفـــر هذا الأرز بجانب البيتاكاروتيـــن: الحـــديدَ وحمـــضَ اللايسيـــن الأمينى. يُقدَّرُ أن ثلثَ سكان العالم الثالث يعانـــون مـــن الأنيميا بســـبب نقص الحـــديد. ســـيكون لهذا الأرز الحُلم قيمته الهائلة بالنسبة لصحة هؤلاء

مزدوجاً يَسْهل نسخُه عند انقسام الخلايا. تتابعاتُ الحروف فيه - ومنها أربعة لا أكثر - تشكل جُمَلاً نسميها جينات. هذه الجُمَل هى تعليمات لصناعة الخلية الحية وتشغيلها. وهناك من الجمل نوعان: تتابعاتٌ من الحروف تُصْدِرُ التعليمات الضرورية لصناعة واحد من البروتينات المختلفة اللازمة لإقامة البِنْية والإنزيمات والإشارات وكلِّ الآليات الأساسية للحياة، وتتابعات أخرى تُستخدم كآليات تَحَكُّم يمكن بها للخلية أن تَعْرِفَ متى تَصْنَعُ هذا البروتينَ أو ذاك، أو تقومُ بهذه المهمة أو تلك.

وعلى عام ١٩٦٦ كان العلماءُ وقد تعلَّموا لغةَ الجينات صانعات البروتين، وهى لغة تشترك فيها كلُّ صور الحياة، فجملةُ الجين اللازمة لصناعة بروتين الإنسولين البشرى، مثلاً، يمكن أن تُنْقَلَ من خلية بشرية إلى خلية بكتيرية، فتقوم هذه الأخيرةُ بصناعة هذا الإنسولين.

تُوَزَّعُ جينات الكائنِ الحى على عددٍ من «الكروموزومات» مُحَدَّدٍ لكل نوع. يبلغُ هذا العدد فى الإنسان مثلاً ٢٣ زوجاً، وفى الغوريلا ٢٤ زوجاً، وفى الفأر ٢١ زوجاً وفى الذرة ١٠ أزواج وفى القطن ٢٦ زوجاً وفى الأرز ١٢ زوجاً. يرقد كلُّ جين فى موقعٍ محدَّد من كروموزوم بذاته. وقد عُرفت مواقعُ الآلاف من الجينات فى الكائنات المختلفة، كما عُرفتْ طريقةُ عملها، لكن هناك لا يزال الكثير والكثير مما يحتاج إلى الكشف وتحديد الوظيفة. (قد يكون للقارئ أن يرجع إلى بعض التفاصيل، فى مقال لهذا الكاتب، نُشِرَ بمجلة «وجهات نظر» عدد يوليو ٢٠٠٠ تحت عنوان «الجينوم»).



مع تقدم التكنولوجيا أصبح من الممكن أن يُنْقَلَ جينٌ من نوع من الأنواع إلى دنا نوع آخر، ليقوم هذا الجين فى موقعه الجديد بأداء نفس وظيفته الأصلية. هذه هى الهندسة الوراثية. نُطْلِق على الكائنات التى تُنْقَلُ إليها الجينات اسم «كائنات مُهَنْدَسَة وراثياً» أو «كائنات محورة وراثياً» أو «كائنات عَبْرَ جينية». ولقد استُخدمت الهندسةُ الوراثية فى كثير من التطبيقات العملية. كانت أولى التطبيقات فى مجال الطب، فقد استُعْمِلَت بكتريا حُوِّرت وراثياً فى صناعة عقاقير مثل الإنترفيرون وهرمون النمو الآدمى والإنسولين البشرى، ولم تظهر حتى الآن أية اعتراضات ضدها. أما المجال المهم الآخر من التطبيقات فكان فى حقل الزراعة. ولقد تسببتْ المحاصيلُ المحورة وراثياً فى هذا الجدل حامى الوطيس الذى يدور الآن فى الغرب، والذى كان من بين نتائجه ذلك الموقف العجيب الذى اتخذته دول الجنوب الأفريقى التى اجتاحتها المجاعات. لكن دعنا نلقى أولاً نظرة على بعض الفتوحات التى تمت فى هذا الميدان الزراعى.

* نُقِل إلى نبات القطن الأمريكى جينٌ من بكتيرة من بكتريا التربة، اسمها بى تى (Bt)، يُنْتِجُ مادةً تَقْتل ديدان اللوز. ولقد نُقل أيضاً إلى محاصيل أخرى أهمها الذرة ليقتلَ الثاقبات. وهو لا يُسَمِّمُ أىَّ كائن آخر خارج عائلة حرشفيات الأجنحة (عائلة الفراشات وأبى دقيقات). تصبح النباتاتُ المهندسةُ بهذا الجين مقاومةً لتلك الحشرات مقاومةً ذاتية، ولا تحتاج إلى الرش بالمبيدات التى تلوث البيئة وتؤذى الإنسان، والتى تتسبب سنوياً فى نحو ثلاثة ملايين حالة تسمم فى العالم، يموت منهم ٢٢٠٠٠٠ شخص كل عام. ولقد عُثر على جين بى تى آخر يُسَمِّمُ الخنافس، واستُخدم فى هندسة البطاطس وراثياً.

* ثمة مبيدٌ للحشائش رخيصُ السعر سريعُ التحلل غير سام للإنسان يسمى جلايفوسيت glyphosate، لكنه إذا رُش يقتل المحصولَ مثلما يقتل الحشائش. عثر العلماءُ على جين يجعل النبات مقاوماً لهذا المبيد، وأمكن بالهندسة الوراثية نَقْلُه إلى فول الصويا. عندما ترش الحقول بهذا المبيد، فإنه يقتل الحشائش ولا يمس المحصول المهندس وراثياً. ٦٣٪ من فول الصويا الذى يزرع الآن بالولايات المتحدة تحمل هذا الجين وتتحمل الجلايفوسيت. مثل هذه النباتات تعفى الفلاحَ من الحرث والعزق وتوفر وقته وماله.

* من الممكن بسهولة أن تُهَنْدَسَ النباتات وراثياً لحمايتها من الفيروسات المُمْرِضَة، بأن تُولَج فى دنا النبات نسخةٌ من الجين الذى يُشَفِّر بروتين الغلاف الخارجى للفيروس، فيقوم النبات عندئذ بصناعة هذا البروتين، وهو لا يؤذى، لكنه يحث الدفاعات الطبيعية للنبات، فإذا ما أصاب الفيروسُ النباتَ واجهتْه على الفور مقاومةٌ. نُقلت صفة مقاومة الفيروسات إلى الكثير من المحاصيل كالطماطم والبطاطس والباباظ. أُصيب باباظ هاواى بفيروس مُهْلِك قضى تقريباً على السلالات التجارية هناك، ولم ينج منه إلا الباباظ عبرالجينى.

* هناك فُطْرٌ يصيب البطاطس باللَّفْحَة blight، وكان هو السبب فى المجاعة الرهيبة التى اجتاحت أيرلنده فى أربعينيات القرن التاسع عشر. فى عام ٢٠٠١ ظهر فُطْرٌ مشابهٌ فى حقول البطاطس بجزيرة البرنس إدوارد، ليدمِّرَ أكثرَ من ٣٠٠ مليون كيلوجرام من البطاطس، المحصول الرئيسى للجزيرة. تمكن العلماء مؤخراً من أن ينقلوا إلى البطاطس، من البرسيم الحجازى، جيناً يجعلها مقاومة للفُطر.

* تُجرى جامعة بوردو الآن التجاربَ الحقلية على سلالة جديدة من الطماطم لمقاومة السرطان، سلالة توفر أكثر من ثلاثة أضعاف كمية الليكوبين lycopene، المضاد للأكسدة، التى تحملها السلالات التقليدية. المعروف أن الليكوبين يقتنص الجزيئات الضارة التى تدمر أنسجة الجسم ودنا الخلايا، وأنه يقلل من خطر سرطان الثدى وسرطان البروستاتا، وكذا مرض القلب الوعائى. ثمة سلالات من الموز ومن البطاطس تحمل فاكسيناً مضاداً للفيروس الحليمى، وهذا أكثر الفيروسات الجنسية انتشاراً ويكاد يكون هو وحده المسئول عن كل حالات سرطان عنق الرحم عند النساء، وقد وصل بها العمل الآن إلى المرحلة الثالثة من التقييم الإكلينيكى.

* من بين المنتجات الحديثة بطاطسُ مهندسة وراثياً لا يُقصد بها أن تُستعمل كغذاء، وإنما أن تعمل كمراقب. يحمل هذا النباتُ جيناً منقولاً من حيوانَ قنديل البحر، وهو يُزْرَعُ بجانب المحصول الأساسى، فإذا أحس هذا النبات «الخفير» بنقص الماء، تَوَهَّج - بالمعنى الحرفى - ليعرف المزارع أن عليه أن يروى حقله.

* لا تحمل حبوب الأرز الكثير من فيتامين أ. تشيع أمراض نقص هذا الفيتامين فى أفقر مناطق آسيا حيث يشكل الأرزُ الغذاءَ الأساسى للسكان. ولقد تم نقل جينات البيتاكاروتين (سليف فيتامين أ) إلى الأرز، من نوع نباتى آخر، فنتج «الأرز الذهبى» الذى يوفر ما يأكله الفرد منه يوميا نحو ١٥٪ من احتياجاته من الفيتامين، أى ما يكفى لحمايته من العمى. وهناك مشروع لإنتاج «أرز الأحلام». يُنْتَظَر أن تُعرض نتائجُهُ فى مؤتمر سيعقد بالهند فى فبراير ٢٠٠٣ (وإن كان تتجيره سيحتاج إلى بضع سنين). سيوفر هذا الأرزُ بجانب البيتاكاروتين: الحديدَ وحمضَ اللايسين الأمينى. يُقَدَّرُ أن ثُلُثَ سكان العالم الثالث يعانون من الأنيميا بسبب نقص الحديد. سيكون لهذا الأرزِ الحُلْمِ قيمتُه الهائلة بالنسبة لصحة هؤلاء.

* تُنْضِجُ شجيرةُ البُنِّ بضعَ بذور فى كل يوم على مدى بضعة أشهر، وأفضل نوعية من حبوب البن هى تلك التى تُجمع عقب النضج مباشرة. يحتاج جمعُ المحصول إذن إلى عمل مستمر. آه لو كانت البذور تَنْضَج جميعاً فى نفس الوقت! هناك جين فى نبات البن يعمل كى تبدأ المرحلةُ الأخيرة من نضج الثمار. قام العلماء بتحوير جين تَحَكُّم بحيث لا يعمل جينُ النضج الأخير هذا إلا إذا رُشَّ النبات بمادة تَحُثُّه (مسجلة وتبيعها الشركة صاحبةُ السلالة)، وعلى هذا تصل كل شجيرات الحقل إلى مرحلة ما قبل النضج النهائى. ثم تتوقف انتظاراً لإشارة الحث. يمكن للمزارع إذن أن يرشَّ الشجيرات ليحصد محصوله فى بضعة أيام.

تُحَسِّنُ هذه السلالةُ المحورةُ وراثياً من حياة صغار المزارعين. يُمْكِنُ للمزارع الصغير أن يأخذَ إجازة قصيرة دون أن يفقدَ مصدرَ رزقه، يمكنه أن يعملَ ساعات أقل فى اليوم، وأن يجمعَ محصولَه فى أيام قليلة ويزيد دخلَه بالعمل فى مكان آخر. أما المُزارِعُ الكبير فسيحتاج إلى عدد أقل من العمال لجمع نفس الكمية من ثمار البن.

والتحكم فى وقت جنى المحصول سيكون مفيداً أيضاً فى محاصيل أخرى غير البن. تتدهور نوعية العنب مثلاً بعد أن تصل حَبَّاته إلى أفضل محتوى من السكر، ويصبح على مُزارع العنب أن يحشد فى ظرف أيام معدودة عدداً كبيراً من العمال لجنى المحصول بالكامل فى فترة زمنية قصيرة جداً. سيكون الوضعُ أفضل لو أمكن إطالة زمن جمع المحصول ليتم فى أسابيع لا فى أيام.

تَعَرَّفَ الباحثون مؤخراً (أكتوبر ٢٠٠٢) على الجين المسئول فى جينوم البصل عن المُرَكَّب الذى يثير الدموع، ولم يَعُدْ من الصعب إنتاج سلالة من البصل محورة وراثياً لا تحمل هذا المُرَكَّب. اتضح أن ثمة إنزيماً خاصاً هو الذى يقوم بصناعة هذا المركَّب، وأنه ليس مُنْتَجاً ثانوياً للعمليات البيوكيماوية التى تُخَلِّق مركَّباتِ النكهة فى البصل. سيكون لمثل هذا البصل المُحَوَّر وراثياً بحيث لا يُنْتِج الإنزيمَ، نفسُ طعمِ البصل ونكهته، ربما بتغييرات طفيفة. يُقال إن المركَّبَ الذى يثير الدموعَ يساعد فى حماية النبات من آكلات العُشب. لكن اتضح أيضاً أن هذا المركَّبَ ذاته هو الذى يهدى أحد الفُطْريات المُمْرِضَة إلى النبات!

فى يناير ٢٠٠٢ أعلن أحد العلماء اليابانيين أنه وفريقه البحثىَّ قد تمكنوا من إنتاج خنازير (وفئران) مهندسة وراثياً تحمل جينات من نبات السبانخ - قال إنه أولُ من نجح فى إيلاج جين نباتى فى حيوان! تَحْمِلُ الخنازير المحورة وراثياً جيناً من السبانخ يُسَمَّى FAD2، يُحَوِّل الدهنَ المُشَبَّعَ إلى دهن غير مُشَبَّعٍ هو حامض اللينوليك الأفضل صحياً للإنسان: ظهر أن الخنازير عبرالجينية تحمل من الأحماض الدهنية المُشَبَّعَة نسبةً تقل ٢٠٪ عَمَّا تحمله الخنازير العادية. وُلِدَت هذه الخنازير فى أواسط عام ١٩٩٩ وأثبتَت نتائجُ ثلاثة أجيال أن التحويرَ يُمَرَّرُ إلى النسل.

تُصْنَعُ الأجبانُ الجافة من اللبن الكامل بإضافة إنزيم يسمى الكيموزين أو المنفحة، يؤخذ من معدة العجول الرضيعة. نُقل جين الكيموزين من الأبقار إلى الخميرة. تُنْتِجُ هذه الخميرةُ المُحَوَّرَةُ الإنزيمَ بصورة أنقى وأرخص كثيراً من منفحة العجول. ٩٠٪ من الجبن الجاف فى زماننا هذا يصنع بإنزيم الكيموزين الذى تنتجه الخميرةُ عبرالجينية.

سيظهر قريباً بُنٌّ بلا كافيين. يُزال الكافايين حالياً من البُن بعملية كيماوية مكلِّفة، وستقوم الهندسة الوراثية بهذا العمل وحدها بأقل تكلفة. ويجرى الآن إنتاجُ فول سودانى عبرجينى لا يصيب الحساسين له بأذى. ولقد اكتشف العلماءُ الجينَ المسببَ الأصلى للحساسية من فول الصويا، وأنتجوا فولَ صويا يخلو من الألَّيرجين (مسبب الحساسية).

هل الهندسة الوراثية ابتكار شيطانى؟

هل الهندسةُ الوراثية شىء لم تعرفه الطبيعة قبلاً، ومن ثَم فهى ترفضه، ولا يجوز لنا نحن البشر أن نفرضَه عليها، لأنَّا بذلك نحطمها ونحطم أنفسنا؟ هل هى حقاً ابتكار شيطانى غير مسبوقٍ لعقل الإنسان، يجب أن يُوءَدَ قبل أن يُخَرِّبَ الحياةَ على سطح الأرض كما يقول الرافضون لها؟

إن الطبيعة ذاتها تقول غير ذلك!

القمح كما نعرف هو قوام الحياة البشرية، ولهذا النبات قصةٌ وراثية تستحق أن تُرْوَى، فالواقع أنه قد نشأ نتيجةً لثلاث وقائع منفصلة من هندسة وراثية طبيعية: إنَّا ندين بحضارتنا للهندسة الوراثية.

تُوَزَّعُ جيناتُ النجيليات الشبيهة بالقمح بين سبعة أزواج من الكروموزومات. من بين أقدم سلالات القمح المستأنسة هناك قمح آينكورن einkorn (واسمه العلمى Triticum monococcum) وله سبعة أزواج من الكروموزومات. لكن هناك سلالةَ قمحٍ أخرى لها ١٤ زوجاً، هى سلالة قمح إيمَّر emmer، جاءت عن تهجينٍ



«مستحيل» بين القمح وحشيشة برية اسمها إيجيلوبْس (Aegilops). حدث هذا التهجين قبل ظهور «البيوتكنولوجيا» ببضعة آلاف من السنين، حدث طبيعياً، أو ربما بمساعدة الفلاحين السومريين. كان لهذا النبات الهجين الجديد خصائصُ جديدة استغلها المربون فى إنتاج الكثير من السلالات المعاصرة من القمح الصَّلْد durumذى الحبوب التى يمكن فَصلُ قشورها والذى منه تُصْنَعُ المكرونة. لم تنته قصة الهندسة الوراثية الطبيعية عند هذا الحد. فلقد حَصَلَ فى عصر الإمبراطورية الرومانية تهجينٌ آخر «مستحيل»، مع حشيشة برية أخرى (Tr. tau (sii فنتج قمح الخبز الذى نأكله (Tr. aestivum) وله ٢١ زوجاً من الكروموزومات: الجينومات الكاملة لهذه الأنواع الثلاثة من النجيليات وقد اجتمعت فى نبات واحد. ولقد جاءت مع هذا التهجين «المستحيل» الأخير صفةُ وجود الجلوتين gluten الذى يعطى عجينَ القمح خصائصه المتفردة. وسِجلُ هذه التهجينات مكتوب فى جينومات القمح، ويكشفه تحليل الحبوب فى المواقع الأثرية.

ثم كانت الحلقةُ الأخيرة من التهجينات «المستحيلة»، وقد قام بها الإنسانُ الذى هَجَّن القمح بالجُويْدار ryeدون استخدام تكنولوجيا نقل الجينات. القمح الذى نأكله نشأ مؤكداً عن هندسة وراثية طبيعية.

لكن، لماذا نذهب بعيداً. فلنتأمل جينوماتنا نحن. فى داخل كل خلية من خلايا أجسادنا أجسامٌ تُسمى السُّبْحيَات. كانت السبحياتُ يوماً بكتيرةً حرة. لها دناها الخاص، وهى تصنع إنزيماتها الخاصة، وبها كل الآليات اللازمة لتسيير الخلية، سوى أنها بعد أحقاب زمنية طويلة نَقلَتْ معظمَ جيناتها إلى جينومنا نحن. بل إن أكثر من نصف دنا الجينوم البشرى قد نشأ عن دنا فيروسات مهاجمة.

ثمة نوع من البكتريا له طريقة عجيبة فى الحياة، إذ يُهَاجمُ النباتات ليُحدث تَدَرُّناً يستخدمه كمأوى. تَفرض هذه البكتيرة نفسَها على النبات الذى تهاجمه، إذ تولج فى دناه عدداً من جيناتها. هذه البكتيرة فى الواقع مُهَنْدَسَةٌ وراثية طبيعية تغير من جينوم النباتَ الذى تصيبه بحيث ينتج لها ما تحتاج من غذاء ومأوى، والحق أنها كانت من أولى الوسائل التى استخدمها العلماءُ فى تقنية الهندسة الوراثية، إذ كانوا يُحَمِّلُونها بالجينات الغريبة التى يرغبون فى نقلها إلى النبات، ثم يتركونها لتصيب النبات وتولج الجينات فى دناه.

هذه الأمثلة للمزج الطبيعى للدنا عبر الأنواع، وحتى بين النباتات والحيوانات والبكتريا والفيروسات إنما تقول إن الطبيعة تعرفها، إنها هى التى «اكتشفتْ» الهندسة الوراثية قبل أن يكتشفها الإنسان، وأن الطرقَ التكنولوجية الحديثة ليست سوى عوامل تُسرع من عملية نقل الجينات بين الأنواع والأجناس والعائلات، بل وحتى بين ممالك الكائنات الحية، تُسرعها حقاً بملايين المرات وتوجهها إلى حيث نرغب نحن.

عن تربية المحاصيل

كان التحوير الوراثى للمحاصيل، والانتخاب للصفات المرغوبة جزءاً من التقدم الزراعى عبر الزمن. وفَّر اكتشاف قانونىْ مندل عام ١٩٠٠ الدافعَ لتطوير الزراعة، الذى قاد إلى المحاصيل التى نراها اليوم. طور المربون سلالاتِهم الجديدةَ من المحاصيل مستخدمين ما وجدوه من تباين فى النبات أو ما استحدثوه من تباين فيه (بالإطفار مثلاً عن طريق التشعيع). فإذا أرادوا نقل جين من واحد من الأقارب البرية إلى النبات الذى يعملون عليه، فقد يجدون أن التهجينَ غيرُ ممكن، وهنا يتعذر عليهم العمل تماماً. فإذا كان التهجين ممكناً، فسيُنْقَلُ مع الجين الهدف آلافٌ أخرى من الجينات، ويصبح على المربى أن يعمل سنين طويلة كى يخلص نباتاته منها ليستبقى فقط هذا الجين المطلوب. كان مُرَبِّى النباتات التقليدىُّ حبيسَ النوعِ الذى يعمل عليه وأقاربِه البريةِ التى يمكن أن تتهاجن معه. لكن الهندسةَ الوراثيةَ قد جعلت من الممكن إيلاجَ الجين المطلوب إيلاجاً مباشراً. فَتَحَتْ أمامه مَنْجَماً من الجينات يستطيع أن يَلِجَهُ وينتقى منه ما يشاء يُضيفه إلى نباتاته. منجماً يحمل فى جوفه كلَّ ما خلقه الله لنا من جينات فى كل نوع حىٍّ على الأرض. إنها مجرد امتداد لطرق التربية التقليدية، نقفز فيه فوق حاجز الأنواع، نستحضر به جينات قد لا تكون موجودة من أصله فى النوع الذى نُحَسِّنُه. وقد تكون للجين المنقول آثارٌ جانبية إذا ما وَجَدَ نفسَه داخل متن وراثى جديد مختلف. يحدث هذا فى التربية التقليدية مثلما قد يحدث بالهندسة الوراثية.

أين تستقر الجينات العابرة؟

المهندس الوراثى لا يعرف بالضبط أين سيستقرُ الجينُ الجديد الذى سيولجه فى دنا نباته، فقد يولَجُ الجين فى مكان يُفْسِدُ عملَ جينٍ طبيعى، فالهندسة الوراثية لم تتمكن (بعدُ) من تحديد الموقع الذى سيحتله الجينُ المضاف داخل الجينوم. والجين، كما ذكرنا، إنما يمثل جُمْلَة. افترضْ أن بجينوم النبات المتلقِّى جيناً يقول «الماء ملوث»، وأن الجين المنقول يقول «جيد، هذا الطعام». فإذا أُولج الجينُ الأخير بعد كلمة «الماء» كانت النتيجة: «الماء جيد، هذا الطعام ملوث»، وتكون الهندسة الوراثية قد أفسدت المعنى تماماً! ولما كان من الممكن أن يقع الجينُ المنقول فى أى مكان بالجينوم المُتَلَقِّى، فمن الصعب أن نكتشف ما سينجم عن نقل الجين من مشاكل: غرسُ الجينات الغريبة فى النبات ليس حتى الآن علماً مضبوطاً، وبذا فقد تحدث آثار جانبية فى بيوكيمياء النبات، فتتزايد مثلاً سمومٌ توجد طبيعياً فى النبات بنسَب لا تؤذى، وربما تدهورت أيضاً القيمة الغذائية للنبات.

هذه مشكلة حقيقية تنشأ عن إيلاج جينات جديدة، بالهندسة الوراثية أو بالتربية التقليدية. لكن القضية زائفة، ولا يجوز أن تُستخدم فى الهجوم على الهندسة الوراثية. صحيح أن المهندس الوراثى لن يَعْرفَ أين سيستقر الجينُ المُولَج، ويعرف أن هذا الجين قد يُمَزِّق جيناً فى النبات ويُفْسد عملَه، لكنه سيعرف بعد إيلاج الجين أين استقر، ومن ثَمَّ يمكنه أن يَسْتَبعد النبات الذى استوعبه فى الموقع الخطأ. ثم يجرب ثانيةً. والواقع أن المحاصيل المهندسة وراثياً تُخْتَبَرُ قبل تتجيرها بصورة أقسى كثيراً من المحاصيل الناتجة عن التربية التقليدية. لابد أن يكون كلُّ محصول مُحَوَّر وراثياً مأمونا كطعام، ليس فقط لمصلحةَ المستهلك، وإنما أيضاً لمصلحة الشركة التى تنتجه. ثَمَ إن التقنيات التقليدية لتربية النبات يمكن أن تنتج هى الأخرى فى بعض الأحايين أغذيةً ضارة. ثمة مثال شهير هو إنتاج سلالة محسَّنة من الكرفس تسببتْ فى أن يُصبحَ العمالُ الذين يقطفونه فى غاية الحساسية لضوء الشمس. وهناك أيضاً صنفٌ من البطاطس (اسمه لينيب lenape) سُحب من السوق الأمريكية فى ستينيات القرن الماضى بعد ما اتضح أنه يحمل مستوياتٍ مرتفعةً من سموم جليكوسيدات السولانيدين solanidine glycosides.

حملة ضارية على الهندسة الوراثية

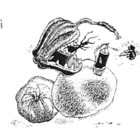
الكثيرون ممن يعارضون الهندسة الوراثية لا يرقى الشك إلى نواياهم الطيبة. والحق أن معظم المعارضين هم من هذا القبيل. فلأن النَّاسَ معظمَهم لا يعرفون الكثير عن العلم، فسيكون من السهل العبث بمشاعرهم وإثارة مخاوفهم. وكل ما وصل إلى أسماعِ الجماهير ضد الغذاء المُحَوَّر وراثياً قد جاء عن عَرْض خادع غير أمين قام به متمرسون فى البروباجنده لم تكن أهدافهم دائماً فوقِ مستوى الشبهات: يحكون نصف الحقيقة، يهوِّلون من أخبار ويخفون أخرى، حتى أنْ يصل الأمر بالبعض إلى تخريب الحقول (فى إنجلترا مثلاً والنمسا وألمانيا والهند وعدد من الولايات المتحدة)، وإلى الهجوم على المعامل الجامعية بالقنابل (فى ميتشجان) وإلى إحراق مراكزِ لبحوث النبات.

الدكتور أرباد بوزتاى Arpad Pusztai من معهد روويت بأبردين باسكتلنده أجرى تجربة. بدأت التجربة عندما نُقل جين من نبات سام (زهرة الثلج snowdrop) إلى البطاطس، وهذا الجين ينتج مركَّباً ساماً (هو اللكتين (lectin) غَذَّى الباحث عدداً من الجُرَذان على هذه البطاطس النيئة التى هُنْدست لتحمل السم، واستَعمل مجموعةً للمقارنة غُذِّيَتْ على بطاطس طبيعية وأُعطيت كمية من اللكتين تعادل الكمية التى ستأكلها المجموعةُ المعامَلَةُ عندما تأكل البطاطس عبرالجينية. طورت المجموعتان أعضاءً مشوهة، ولم تكن هناك فروقٌ إحصائية معنوية بين المجموعتين. لكن بوزتاى ادعى أن بياناته تقول إن الجرذان التى أكلت البطاطس النيئة المحورة كانت تحمل أعضاءً مشوهةً أكثر. لم تَقبل المجلاتُ العلميةُ تفسيرَ بوزتاى، ولم يقف معهدُه إلى جانبه. قام خبيرٌ إحصائى بمراجعة البيانات وأكد أنها لا تشير إلى فروق حقيقية بين المجموعتين. تفاقم الخلاف بين المعهد والرجل، فأُعفى من عمله.

سنحت الفرصة! قام معارضو الهندسة الوراثية بتهويل الأمر ليصبح قضيةً تثير اهتمام الرأى العام. صُوِّر الدكتور بوزتاى وكأن المؤسسةَ العلمية قد كَمَّمَتْهُ لأن نتائجه تدين الهندسة الوراثية. نشرتْ مجلة «لانسيت» الطبية البريطانية المعروفة البحثَ فى نهاية الأمر بسبب هذا الخلاف الحاد، وقامت الصحافةُ البريطانية بتغطية القصة دون ملل، ونَشَرَتْ صوراً لأعضاء الفئران المشوهة، وأصبحت هذه البطاطس - التَى هُندست أصلاً لتكون سامة - مرادفةً لكل غذاء محوَّر وراثياً.

هناك سلالاَت جديدة عديدة من البطاطس، رُبِّيَتْ بهدف غذاء الإنسان، وإنما هُنْدست لمقاومة الحشرات أو الفيروسات أو الفُطر، غُذِّيت عليها الجرذان، وأبداً لم تُصبْ فرداً واحداً بأى أذى. لم يقدم المعارضون تفسيراً لهذا. التقطوا تجربة بوزتاى التى تسىء إلى النباتات المحورة وراثياً، والتى استُخدمت فيها بطاطس لم يُقصد بها أبداً أن تؤكل، واستغلوها للتخويف وتحريك الشك.

سيظهر قريباً بُنٌ بلا كافايين. يُزال الكافايين حالياً من البُن بعملية كيماوية مكلفة، وستقوم الهندسة الوراثية بهذا العمل وحدها بأقل تكلفة. ويجرى الآن إنتاجُ فول سودانى عبرجينى لا يصيب الحساسين له بأذى



للدكتور بول بيلنجز Paul Billings قصة أخرى. كتب هذا الرجل مقالاً في أغسطس ١٩٩٩ في «بوسطون جلوب» يحمل حقيقة واحدة، وكل ما عداها إما معروف وإما خاطئ. قال إن فول الصويا عبرالجيني تنقصه مادة غذائية، لم يُحَدِّدْها (اتضح أنها الفيتواستروجين أو الفيتوستيرول)، وأن هذه المادة تساعد في الوقاية من السرطان. وقد جاءت هذه «الحقيقة» عن الدكتور مارك لاب Marc Lappe المعروف بتحيزه ضد الهندسة الوراثية.

إليك الطريقة التي أثبتَ بها لاب هذه «الحقيقة». قارن الرجل بين سلالة صويا تقليدية وأخرى محورة وراثياً، فوجد اختلافاً قدره ١٢٪، لكن الأصناف المختلفة تتباين بأكثر من ١٠٠٪ في محتواها من الفيتوستيرول. بل إن مصلحة الغذاء والدواء الأمريكية لا تُقَدِّرُ محتوى الغذاء من هذه المادة، وإنما تقول إن الصويا الخضراء (الصغيرة) تحمل ٥٠ ملليجراما لكل ١٠٠ جم، أما الصويا الناضجة فتحمل ١٦٠ ملليجراماً، ثم إن المحتوى من هذه المادة غير ثابت فهو يتدهور بالتخزين بأكثر من ١٢٪ بكثير. لكن لاب كان على الأقل أميناً إذ أشار إلى البيانات التي تَوَصَّلَ منها إلى تفسيره المتحيز. أما بيلنجز فقد نشر التفسير وأخفى أنه عن عَالِمٍ متحيز بل وأخفى اسم المادة نفسها، ولم يذكر أن دورها في صحة الإنسان لم يتأكد بعد. مَنْ مِنَ القراء سيبحث حقاً في القضية؟ كان الهدف هو زراعة «الشك» في أذهان الناس، ليبقى ويمتزج بغيره من المعلومات الخاطئة حتى يصبح في النهاية حقيقةً مسلماً بها لا تقبل «الشك».

حاولتْ إحدى الشركات مرةً أن تستغل جيناً من سمكة الفلاوندر القطبية التي تتحمل الماء البارد، لأن دمها يحمل مضاداً طبيعياً للتجمد، على أمل أن تُنتج طماطمَ مقاومةً للبرد. تَمَّت عملية نقل الجين، واختُبر النبات فلم ينجح، فأهملت الشركة الموضوع بلا عودة. لكنك لازلت تجد ملصقات ضخمة عليها صورة ثمرة طماطم ذات زعانف! أو سمكة ذات ساق وأوراق خضراء!

الهندسة الوراثية والتنوع البيولوجي

يقول معارضو الهندسة الوراثية إن المحاصيل عبرالجينية ستؤدى إلى محو التنوع البيولوجي، وهذا ادعاء يصعب حقاً تصديقه، فالمتوقع أن يحدث العكس. يقولون إن الفلاحين في طول العالم وعرضه يزرعون سلالاتِهم المحليةَ من المحاصيل، سلالات متباينة الصفات، لكن المحاصيل عبرالجينية «المتطابقة» ستطردِ كلَّ السلالات المحلية وتحل محلها ليصبح كلُّ محصول رئيسي سلالةً واحدة في العالم بأسره، وقد تحمل السلالاتُ المحلية هذه التي ستندثر جينات مفيدةً ستضيع إلى الأبد، فإذا احتجناها يوماً فلن نجدها!

نعم، هناك في المناطق المختلفة سلالات محلية من معظم المحاصيل الرئيسية، تسمى السلالات البلدية landraces، لاسيما في المَوَاطِنِ التي نشأتْ فيها المحاصيل، في بيرو مثلاً نجد المئات من سلالات البطاطس، وهي مستودع للتنوع البيولوجي. ولقد استغل مربو النبات التقليديون هذا التنوع الوراثي في تحسين خصائص المحاصيل. لكن المحاصيل عبرالجينية ليست أبداً متطابقة. أما أن بعض السلالات المحلية سينقرض، فهذا أمر يرجع إلى مربي النبات. فهناك سلالات تَفْضُلُ السلالات المحلية إنتاجاً، سلالاتٌ ليست بالضرورة عبرجينية، وقد يرى المربي أو المزارع أن يُكْثِرَ منها بديلاً عن سلالته البلدية. الأمر لا علاقة له بالهندسة الوراثية. ثم إنه قد أصبح من الممكن أن نحفظ بضع مئات من بذور كل سلالة محلية في بنوك خاصة أُقيم منها الكثير حتى قبل أن يظهر أي محصول عبرجيني بعشرات السنين. بل الواقع أن البيوتكنولوجيا الجديدة قد قَضَتْ على التهديد بانقراض أي سلالة، فمن الممكن الآن أن يؤخذ دنا خلية واحدة من النبات، وأن تُكَاثر جيناته إلى ما لا نهاية. إن البيوتكنولوجيا المعاصرة يمكنها أن تنقذ الأنواع النباتية المهددة بالانقراض.

يحمل النبات النمطي نحو ٤٠ ألف جين، من بين هذه هناك نحو ١٠٠٠ جين قد تتباين ما بين السلالات. هذه الجينات الألف هي التي تشكل التنوع البيولوجي لأي نوع. ومن الممكن بالهندسة الوراثية أن نُضيفَ إلى المستودع الجيني للنوع جينات جديدةً من خارجه، وهذا يعني زيادة التنوع البيولوجي. هذا أمر واضح للغاية، واجهه معارضو الهندسة الوراثية بالقول إن كل المحاصيل عبرالجينية متطابقة، وأن السلالات البلدية ستصبح عرضة للانقراض بسبب السلالات عبرالجينية، وبأن خطر انقراضها يزداد بسبب الهندسة الوراثية!

الهندسة الوراثية والبيئة

يقول البيئيون إن أحداً لا يعرف ما إذا كانت النباتات المحورة وراثياً ستتهاجن مع أي نبات آخر في الطبيعة، لا أحد يعرف أثرها على النباتات البرية، فلماذا المغامرة؟ والواقع أن التهجين بين الأنواعِ المختلفة من النباتات أمر غير شائع، ولم يُكْشَفْ عن تهجينٍ تم بين أنواع بعيدة الصلة، اللهم إلا حادثة القمح التاريخية. الطماطم مثلاً لا تتهاجن مع البطاطس رغم أنهما من عائلة واحدة. هم يريدون الناس أن يصدقوا أن أيَّ نبات يمكن أن يُهَجِّن أيَّ نبات آخر! أذاعوا مثلاً أن تهجيناً قد حدث بين نباتي الكانولا والخردل البري، لكنهم لم يذكروا أن الكانولا ذاتها هجين بين نوعين من نفس الجنس، هما براسِّيكا نَابَصْ وبراسِّيكا رابا، وأن براسيكا رابا هو الخردل البري!



كان يوماً مشهوداً للبيئيين عندما أعلن البروفسور جون لوزي J. Losey من جامعة كورنيل، مؤخراً، أن حبوب لقاح ذرة بي تي (التي أولج فيها جين بي تي) تَقْتُلُ يرقات فراشة الملكة، الفراشة الجميلة المحبوبة. فسرعان ما أُذيع الخبر على أوسع نطاق، وظهرتْ القصةُ في اليوم التالي بمئات الجرائد. وبعد يومين أعلن الاتحاد الأوروبي تعليقَ أيَّ موافقة على أي محصول مُهَنْدَسٍ وراثياً بسبب قصة فراشة الملكة هذه. في كل أسبوع يظهر شخص وقد ارتدى ما يجعله يشبه فراشة الملكة ليحتج على الأطعمة المهندسة وراثياً!

إليك تجربة لوزي: رَشَّ الرجل حبوب لقاح ذرة بي تي فوق أوراق حشيشة اللبن، ثم وضع يرقات فراشة الملكة في برطمان لا يحمل غذاءً سوى هذه الأوراقِ المُعَفَّرة، فلاحظ نسبة نفوق مرتفعة. لم يتذكر أحد أن الفراشات تتغذى فقط على رحيق الأزهار لا حبوب اللقاح، وأن اليرقات لا تأكل إلا أوراق حشيشة اللبن، ومن يا ترى سيُعَفِّرُها لها بحبوب لقاح الذرة؟!

بل إنهم قد يلجأون إلى القضاء ـ مثل جيريمي ريفكين، عدو التقدم العلمي الذي رفع قضايا ضد خمس شركات كبرى تنتج النباتات المهندسة وراثياً. بل ثمة دعوى رفعها حاخامٌ وإمامُ مسجد ادعيا فيها أن التهجينَ بين الأنواع إهانةٌ للدينِ اليهودي والإسلامي (رفضت المحكمة نظر الدعوى).

البيئيون والزراعة العضوية

من بين أسلحة مقاومة الهندسة الوراثية انتشرت فكرةٌ غريبة روَّج لها البيئيون، تقول بضرورة أن نعود إلى الوسائل البدائية للزراعة «من أجل صحة الإنسان وصحة البيئة»، لأن الأسمدة الكيماوية سيئة، ولأن الوراثة هي الأخرى سيئة. لنَعُدْ إذن إلى الاعتماد على السماد البلدي، إلى الزراعة العضوية (Organic farming)، حيث لا تُستخدم المبيدات، ولا الأسمدة الكيماوية، ولا البيوتكنولوجيا والنباتات المهندسة وراثياً، ولا المضادات الحيوية، ولا التشعيع، ولا هرمونات النمو. ويا لها من فكرة مدمرة!

هم يقولون إن الأسمدة العضوية يمكن أن تسد النقص في خصوبة التربة وأن تضمن زيادة في الإنتاج الزراعي في حدود ٤ـ٦٪ سنوياً. لكن تجربة الصين تقول غير ذلك. كان الفلاح الصيني، ولقرون عديدة، هو خير مَنْ يستخدم المادة العضوية في التسميد. كان إنتاج الفدان من الحبوب في الصين عام ١٩٦٠ أعلى من مثيله في الهند بنحو ١٦٠ كيلوجراماً لأن الصيني يستخدم مخلفات الحيوان في تسميد حقله بينما يستخدمها الهندي وقوداً للطبخ.

ثم حدث أن اجتاحت الصينَ مجاعةٌ رهيبة في عام ١٩٦٠ ومات من الجوع أكثر من ٣٠ مليوناً من البشر، ولم يعد في استطاعة الدولة الاعتماد على الأسمدة العضوية للحفاظ على خصوبة التربة وزيادة إنتاج المحاصيل لمواكبة التزايد السكاني، فبدأت على الفور استراتيجية جسورة لبناء مصانع الأسمدة الكيماوية، وكانت هي السبب في الطفرة الكبرى التي حدثت في إنتاج المحاصيل هناك.

والزراعة العضوية في واقع الأمر قد تقود إلى التصحر. تقول إحدى الجمعيات التعاونية البريطانية التي تقوم بزراعات عضوية وزراعات تقليدية إنها تحصد محصولاً من القمح من الحقول العضوية يقل بنسبة ٤٤٪ عن الحقول التقليدية. فإذا كان هذا الرقم صحيحاً فمعناه أن أوروبا إذا لجأت إلى الزراعة العضوية فستحتاج كي تكفي حاجاتها الغذائية، بلا تصدير، أن تضيفَ إلى المساحات المحصولية مساحات تعادل كل غابات ألمانيا وفرنسا والدانيمرك والمملكة المتحدة. يقول بورلوج، قائد الثورة الخضراء الأولى في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي: «إننا لا نستطيع أن نطعم ستة بلايين فرد (تعداد العالم الآن) بالأسمدة العضوية. إذا حاولنا ذلك فعلينا أن نجتث معظم الغابات، ثم إن الأراضي المُضَافَةَ عن هذا الطريق ستنتج لفترة زمنية قصيرة فقط». إذا كان كوكب الأرض ينتج هذا القدر من الطعام اليوم، فلم يكن هذا بسبب «الزراعة العضوية»، إنما بسبب العلم.

لو استخدمنا كلَّ ما يَنْتُجُ على الأرض من أسمدة عضوية ـ رَوْث المواشي، مخلفات البشر، بقايا النباتات ـ فلن نستطيع أن نُطْعِمَ أكثر من أربعة بلايين شخص. يستخدم العَالَمُ اليومَ ٨٠ مليون طن من الأسمدة الأزوتية فإذا أردنا أن نوفر هذا القَدْرَ من الأزوت عضوياً فسيلزم أن نُضيف ٥ – ٦ بلايين من رؤوس الماشية. كم يا ترى من الأرض

القمح كما نعرف هو قوام الحياة البشرية، ولهذا النبات قصة وراثية تستحق أن تروى، فالواقع أنه قد نشأ نتيجة لثلاث وقائع منفصلة من هندسة وراثية طبيعية: إنا ندين بحضارتنا للهندسة الوراثية

أمل الجوعي




سنُخصص لهذه الرؤوس نزرعها بمحاصيل العلف بغرض تحويلها إلى روث؟! ثم من قال إن الغذاء «العضوى» أفضل غذائياً من المُسَمَّد بالكيماويات؟

بل إن الكثيرين يرون أن زراعة الفاكهة والخضروات عضوياً يشكل خطراً صحياً على الإنسان، فقد تنتقل مُمْرِضات مثل إ. كولاى والشِّيجيلاً والسالمونيلاً ـ التى تتكاثر بمعدة الحيوان، إلى أوراق الخضروات وثمار الفاكهة والدرنات. لقد اتضح أن نسبةً تتراوح ما بين ١.٢٪ و ٤.٤٪ ممَّا يسوَّق من هذه المنتجات العضوية تحمل السالمونيلا والشيجيلا، إذ تلتقطُها من التربة أو من الرَّوْث المستخدم فى التسميد، أو من الماء الذى تُغْسَلُ به الفواكه والخضروات عند تجهيزها للبيع. وقد وجد البعض أن احتمالَ التسمم من بكتريا إ.كولاى بالطعام العضوى يفوق بكثير جداً احتمالَ التسمم من الغذاء غير العضوى.

إطعـــام الجـــوعى

تحمل الأرضُ الآن من البشر ستةَ بلايين، يُضاف إليهم فى كل عام ثمانون مليوناً. يعانى ٨٠٠ مليون إنسان من الجوع ونقص الغذاء، ويعانى أكثر من بليونين من سوء التغذية، ونتيجةً لذلك يموت من الجوع وسوء التغذية فى كل عام خمسةُ ملايين طفل بالعالم الثالث الذى يحمل ٨٠٪ من سكان العالم. وإمكانياتُ زيادة الرقعة المزروعة، ومياه الرى، محدودةٌ فى الكثير من بلاد العالم. لابد أن تزدادَ غلةُ ما ينتجه فدانُ الأرض من المحاصيل، نوفر بذلك الغذاءَ ونحمى الطبيعة فلا نلجأ إلى اجتثاث الغابات. والبيوتكنولوجيا والهندسة الوراثية هى السبيل الذى هدانا له الله لمواجهة المشكلة. والحركاتُ البيئية معظمُها ليست مهياةً لإيجاد الحلول. الحلول التى تقدمها هزيلة وهزلية وتتسم أحياناً باللاإنسانية ـ وظيفتها الحقيقية هى الدراما والفضائح. تنسى حياة ملايين الفقراء وتخشى موت فراشة!

تَزَايُدُ الطلب فى أوروبا على الطعام العضوى الأغلى سعراً، وكُرْهُ الأوروبيين للأطعمة المحوَّرة وراثياً يثير البلبلة فى الدول النامية كما رأينا، ويعطل قبولها لهذه الأغذية. والتعطيل أصبح يعنى أرواحاً بريئة تُزْهَق. قد لا يتأثر مجتمع الرفاهية الأوروبى بمثل هذا السلوك، حيث فائض الغذاء، أما فى العالم الثالث فالأمر جد مختلف. منذ عام ١٩٩٨ والاتحاد الأوروبى يرفض الترخيص بأية محاصيل عبرجينية جديدة، ولقد ظل طويلاً متمسكاً بموقفه هذا على الرغم من أن الملايين من الأمريكيين يأكلون هذه المحاصيل كلَّ يوم دون أية آثار سلبية (وغياب الشواهد على وجود آثار سلبية ليس شاهداً على غيابها. كما يقول مذهب الحيطة!!)، وعلى الرغم من أن السائحين الأوروبيين فى أمريكا لا يصطحبون معهم حقائبَ مليئةً بالطعام «المأمون»، وعلى الرغم من أنهم فى بلادهم يأكلون أجباناً صُنِعَتْ بإنزيمات أنْتَجَتْها كائناتٌ دقيقة مُهَنْدَسَةٌ وراثياً، وعلى الرغم من أنهم لا يعترضون على لِبْسِ منسوجاتٍ من قطن مُحَوَّرٍ، أو على الإنسولين البشرى الذى تصنعه لهم البكتريا عبرالجينية. ولقد دفع هذا بعض المراقبين إلى القول إن كلَّ هذا الجدل الذى يدور الآن فى أوروبا حول الأغذية المحورة وراثياً، ليس فى واقع الأمر سوى محاولة لستر تخلف الزراعة الأوروبية عن الزراعة الأمريكية: هو فى جوهره صراع اقتصادى بين الشركات الأوروبية والأمريكية!




وأخيراً تحولتْ سياسةُ المفوضية الأوروبية (فى ١٧ أكتوبر ٢٠٠٢) لتقبل ثانية طلبات تسجيل المنتجات المحورة وراثياً، وإن كان هذا التحولُ لا يعنى أن العقبات أمام تسويق هذه المنتجات قد أُزيلت تماماً، فهناك من القوانين فى دول الاتحاد الأوروبى ما يُمَكِّنُ أقليةً منها من أن تُوقف تداول هذه الأطعمة فى بقية الدول ـ والدول المعارضة هى فرنسا والنمسا وبلجيكا والدانيمرك وفنلنده واليونان وإيطاليا. ولقد وافق البرلمان الأوروبى مؤخراً (فى ٢١ نوفمبر ٢٠٠٢) بأغلبية ٢٨٤ صوتاً ضد ١٦٠ (وامتناع سبعة) على تعضيد إلغاء وقف التسجيل.

كما أن البعض من حكومات العالم الثالث قد رأت أن تطرح المخاوف جانباً وأن تدخل المجال بجسارة. فى عام ٢٠٠١ زَرَعَتْ الصين من قطن بى تى المُحَوَّرِ وراثياً مليون فدان ونصف المليون، وكانت فى عام ١٩٩٨ تزرع مائة ألف فدان فقط. تنوى الشركةُ صاحبةُ هذا القطن أن تزرع منه بالهند مليون فدان فى مايو ٢٠٠٣، بعد أن وافقت الحكومة على ذلك (فى أكتوبر ٢٠٠٢). كان الفلاحون الهنود فى مارس ٢٠٠٢ قد هددوا بأن يقوموا بحركة عصيان مدنى ويبدأوا بزراعة بذور هذا القطن إذا لم توافق الحكومة، وذلك بعد أن رأوا بأعينهم التجربةَ فى بلادهم، وظهر لهم كيف أنه يقاوم الحشرات ويعطى محصولاً أوفر بكثير من سلالاتهم المحلية.

ولقد وَصَلَتْنا رسالةُ التخويف، وأصبح الناسُ فى بلادنا يتوجَّسون خيفةً من الهندسة الوراثية. كم مرة سمعتُ فيها من يؤكد أن الغذاءَ المُهَنْدَسَ وراثياً أقلُّ جودةً من طعام «الأيام الخوالى»: كانت الفراولة «أَطْعَم»، ذات نكهة، أما الآن فهى «ماسخة»! هذا فى الوقت الذى لا توجد فيه بأسواقنا أصلاً أية فراولة محورة وراثياً! لقد بَلَغَتْنا المخاوفُ والشكوكُ حتى قبل أن نبدأ جدياً فى استخدام الهندسة الوراثية فى تحسين المحاصيلَ الرئيسية. هذا المناخ يعم بلادنا. التكنولوجيا الحديثة أصبحت تعنى عندنا الكمبيوتر والإنترنت والتليفون المحمول. أما البيوتكنولوجيا فليس ثمة مَنْ يَذْكُرُها. أصبح من بين أهم المشاريع «القومية» تزويدُ كل طالب وكل بيت بجهاز كمبيوتر. كما بدأت بعض الشركات الزراعية تُنتج «الغذاء العضوى» (لتصديره إلى أوروبا، ربما). متى نسمع مَنْ يتحدث بصوت عال ويقول إن البيوتكنولوجيا أهم لبلدنا بكثير من الكمبيوتر، وأن توفيرَ الرغيف لكل طالب أهم كثيراً من توفير الكمبيوتر له! ■

لكـــل منـــا صوتــه الخــاص...

جـيـمـس مـيـك

■■ فى المدرسة، تعلمت الرياضيات على أيدى الزوجين دياز. بالنسبة للسيدة دياز، تطلب الأمر بعض الخيال. فقد كانت تعلمنا ما يعرف فى المنهج الإسكتلندى بالحساب، الذى كان سهلاً بشكل عام. فمازلت أذكر درسًا اسمه «كيف تكتب شيكًا، وغياب الدرس الذى يقابله «كيف تصرف شيكًا». لم تكن السيدة دياز فى حاجة إلى أن تشرح الفائدة من معرفتنا بكيفية الحساب. ورغم هذه المعرفة، لا أمتلك القدرة على حساب الفوائد المركبة، التى تفيد كثيرًا فى التعامل مع صاحب القروض العقارية.

أما السيد دياز فقد ركب الصعب، حيث كان يقوم بتدريس الرياضيات نفسها. وكان عليه أن يبنى على أسس الجبر التى تعلمناها فى المدرسة الابتدائية عالمًا متألقًا من حساب التفاضل ونظرية المصفوفات. لقد بدا آنذاك بصورة تثير الإعجاب. وكان مأسورًا بما فى البراهين التى يقدمها لنا من رونق. واستهواه دور مصارع الثيران، الذى يعترض مسار الجنون المرعب لدنيا الرياضيات قبل أن يظهر قدرته على وضعها تحت السيطرة. ولم تكن سيطرته على الوحوش الأخرى فى الفصل ـ نحن ـ أقل شدة. فقد أعطاه صوته البارد، مثل أجلاف هوليوود، عبقرية طبيعية فى إشعارنا بالإزعاج.

لكنه كان يفتقد القدرة على التخيل ليشرح لنا جدوى دراسة موضوعات غامضة ومعقدة مثل حساب التفاضل، وكجيش من الريفيين تم حشده وتلقينه، افتقدنا بدورنا التخيل الذى يدفعنا إلى التساؤل.

كان بفصلنا عدد من الطلبة الجيدين، وإن تميز أحدهم بشكل استثنائى. وقد مارس هذا الأخير نوعًا من الانتقام السلبى من السيد دياز، بأن صار محاسبًا بدلاً من التوجه إلى دراسة الرياضيات. وانخرط آخرون فى دراسة الرياضيات والفيزياء بالجامعة. وتخلصت البقية من الامتحان، ثم نسيت كل ما تعلمته. وبالنسبة لى، مازلت أستطيع الجمع والطرح وحساب النسبة المئوية البسيطة (وكتابة الشيكات) لكننى لا أستطيع حل أقصر المعادلات. ولا ألوم السيد دياز على ذلك. لقد كان من الأفضل أن يربط ما يعلمه لنا بما فى الواقع من أمور وأشخاص، كالأسلحة النووية أو إينشتين أو السفر فى الفضاء. نعم، كان ذلك أفضل، لكنه ما كان ليجعلنى جيدًا فى الرياضيات. فالرياضيات صعبة، وتحتاج إلى موهبة خاصة للتميز فيها. فلا يكفى أن تدرسها، أو أن يكون لديك مدرس يثير إلهامك، أو ألا تكون كسولاً. عليك أن تمتلك الرغبة، والقدرة على السباحة فى الأرقام، دون أن تكتفى بحبس أنفاسك وتغطس.

إن العلماء يستمدون القوة من تماثلهم. فالكل ينتمى إلى الامتهان بالعلم، ولديهم نظم اجتماعية مشتركة ـ ضغوط النشر فى مجلات علمية والسعى وراء الحصول على منح بحثية. ومع ذلك، عندما نقترب منهم بدرجة أكبر لا نجد علماءً. هنالك فقط مشتغلون بالرياضيات أو الفلك أو البيولوجيا الجزيئية، وآلاف المتخصصين فى مجالات أخرى، ولكن فى عقول غير المشتغلين بالعلم تعانى هذه التخصصية من تداعى المعانى. ولعل الغموض السحرى للرياضيات، الذى نتذكره بعدم ارتياح من أيام الدراسة، يمثل أكثر من أى شىء آخر الدوافع لإثارة الرهبة عند الجمهور والحرص عند الصحفيين بالنسبة للعب دور الوسيط بين العلماء والناس.

هذا الأمر يعد غريبًا، لأن القضايا العملية الخلافية فى وقتنا الحالى، وبغض النظر عن الوصف الجامع المانع «للعلم»، لا تتصل كثيرًا بالرياضيات والمعادلات. فقضايا الاستنساخ وبحوث الخلايا الجذعية والعلاج الجينى والاختبارات الوراثية، والأغذية المحورة وراثيًا (التى تمثل موضوع الكتب الثلاثة التى نعرضها) قد تكون صعبة فى تفاصيلها الدقيقة، لكنها ليست كذلك فى أساسياتها. فغير المتخصص يمكن أن يستوعبها بدرجة تفوق بكثير استيعابه للحوسبة الكمية أو الفلك أو فيزياء الجسيمات. وهو أمر لا يصدق فقط بالنسبة لغير المتخصصين، بل ينطبق على العامة الذين تركوا الدراسة دون تأدية الامتحان فى المواد العلمية.

إن انعدام الرغبة لدى العامة، والإعلام فى بعض الأحيان، بالنسبة لاستيعاب أسس البيولوجيا، يعد عند أنصار المحاصيل المحورة وراثيًا ومؤيديهم فى المعسكر المختلط للعاملين فى الكيماويات الزراعية، السبب فى معارضة هذه الأغذية. فالعلماء محبطون. والتساؤل الذى بدأ بمقولة «لماذا لا يثقون فينا، ما دمنا نعرف أفضل؟» يمكن أن يكون قد تحول إلى «لو أنهم فهموا، إذًا لوثقوا بنا»، لكن مصدر الاستياء واحد: جهل غير منطقى أو ضرورى، يغذيه بشناعة نشطاء ينشرون الخرافات، هذا ما يجب أن نلومه بالنسبة للحركة المعادية للتحوير الوراثى.

لكن هذا الاستياء غير مبرر. صحيح أن معظم الناس يمكنهم فهم الجانب العلمى لهذه المحاصيل بمجهود أقل مما يتصورون، وأن الرغبة غير متوفرة لبذل هذا الجهد. لكن المعارضة الجماهيرية للمحاصيل المحددة وراثيًا ليست لها علاقة كبيرة بفهم العلم من عدمه. لكنها ترتبط إلى حد كبير بكراهية أن تسيطر شركات لا يمكن محاسبتها على الزراعة، وبحس

١ـ **A Grain of Truth: The Media, The Public and Biotechnology**

(الإعلام والجمهور والتكنولوجيا الحيوية)

Susanna Hornig Priest

Rownan & Littlefield, 2002, 160PP.

٢ـ **Travels in the Genetically Modified Zone**

(رحلات فى منطقة التحوير الوراثى)

Mark Winston

Harvard UP, 2002, 88PP.

٣ـ **Seeds of Contention: World Hunger and the Global Controversy over GM Crops**

(الجوع والجدل العالمي حول المحاصيل المحورة وراثيًا)

Per Pinstrup-Arderson

Johns Hopkins, 2002, 176PP.

المحاصيل المحورة وراثياً .. لماذا يخشاها الناس؟

دقيق يوصي بأن العلماء قد لايكونون على معرفة تامة بما يعملونه، وأخيرًا بارتباط بفكرة «الطبيعة»، التي تعد انفعالية وعاطفية ولا منطقية، وبالتالي لايمكن تخطئتها أو إثبات صحتها بالأساليب العلمية. ولعل الاعتماد المتزايد على رأس المال الخاص جعل الكثير من العلماء غير مدركين للفارق بين العلم وتطبيقاته العملية. وعلى هؤلاء أن يتذكروا أن حكم العامة على تطبيقات العلم، حتى لو بنى على معايير غير علمية، لايمكن تجاهل فعاليته.



في كتاب A Grain of Truth تذكر سوزانا هورنج بريست أن دراسة مسحية جرت في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٩٨ أوضحت أن ما يزيد قليلاً على خمس العينة فقط استطاع أن يقدم تعريفًا معقولاً للدنا (DNA). وتواصل قائلة: إن عدم قدرة البعض على إعطاء تعريف مقبول للدنا لا يستتبعه بالضرورة ألايكون لهم صوت في المجالات الدائرة حول التكنولوجيا الحيوية».

لقد زرت منذ بضعة أسابيع مزرعة لنباتات القلوف (كبش القرنفل)، وبراعمها، المصطفة على الشجرة بلحائها الأسود والأبيض تشبه إلى حد ما البتولا. هذه البراعم التي لم تكن قد نضجت بعد، كانت صغيرة ذات لون أخضر زاه وعصيرية، وبتشجيع من الدليل، التقطتُ أحدها من على الشجرة، وقمت بمضغه. هذا البرعم، كان قبل التعاطي له مباشرة جزءًا من شجرة حية. وهو يتكون من ملايين من خلايا القلوف، كل منها يحتوى على مجموعة كاملة من جينات القلوف المبنية من الدنا. وفي كل خلية عشرات الآلاف من بروتينات القلوف التي تتفاعل فيما بينها. فباستخدام جينات القلوف كقوالب تقوم بعض البروتينات ببناء بروتينات جديدة، وتتبادل بروتينات أخرى الرسائل فيما بينها، بينما تقوم مجموعة أخرى من البروتينات باستخدام القوالب الجينية فتكرار الجينات نفسها كجزء من عمليات بناء خلايا جديدة. هذا هو جوهر استمرارية الحياة: الجينات تعمل كقوالب للبروتينات، التي تنسخ بدورها الجينات، التي تعمل مرة أخرى كقوالب للبروتينات، وهكذا وهكذا إلى الأبد.

لقد وضعت هذا الشيء الأخضر الصغير في فمي، بكل ما فيه من بلايين من جينات وبروتينات القلوف الغريبة عني. ومع كل ما كان يموج بها من جراء هذا الطارئ المفاجئ الذي تعرضت له، لم أتحول إلى قلوف.

لكن شيئًا ما قد حدث بالطبع. لقد تفاعلت مجموعة صغيرة من البروتينات في خلايا القلوف مع بروتينات خلاياي وأرسلت إلى عقلي إشارة الإحساس بالمرارة والمذاق الشديد للقلوف، كما جعلت فمي يشعر بالخدر الذي جعل من زيت القلوف علاجًا قديمًا لآلام الأسنان.



إن الفارق بين الجينات والبروتينات يعد محور سوء الفهم الشائع بالنسبة للجانب العلمي للخلاف حول المحاصيل المحورة وراثيًا.

الجينات هي المعلومات: والبروتينات مستخدمو هذه المعلومات. فبدون البروتينات تعتبر الجينات كمجموعة من التعليمات التي لا يقرأها أو ينفذها أحد. وبدون الجينات تصير البروتينات كعشيرة نسيت كل ما تعرفه وليس لها من سبيل لتعرف ما الذي تقوم بعمله بعد ذلك. والبروتينات الخطأ قد تكون سامة أو ممرضة، أو حتى قاتلة إذا ما هضمناها.

أما الجينات الخطأ، فلا تستطيع ذلك من تلقاء نفسها. من السهل جدًا أن تصل البروتينات الغريبة إلى خلايانا وتسبب المتاعب، لكنه أمر بالغ الصعوبة بالنسبة للجينات الغريبة. ففي الظروف الطبيعية، هنالك طريقتان لدخول الجينات الغريبة إلى خلايانا - عبر الفيروسات، وعن طريق الجنس بين الأنواع شديدة القرابة. إننا نتناول الجينات الغريبة طوال الوقت، لكنها لا تؤثر فينا. فعندما نتناول التونة الطازجة نقوم بهضم العديد من تريليونات النسخ من المجموعة الكاملة لجينات التونة، دون أن نتحول إلى تونة. وفي نفس الوقت، يمكن أن نكون قد هضمنا ملايين النسخ من مجموعات جينات البكتريا المصاحبة، دون أن نتحول إلى بكتريا. لكن البروتينات السامة التي تنتج عن هذه المجموعة من الجينات البكتيرية قد تتسبب في تسممنا.

لقد مارس الإنسان التحوير الوراثي للمحاصيل بصورة محدودة لأكثر من عشرة آلاف عام، أي منذ أن كان هنالك مزارعون. في البداية، تم ذلك ببساطة بانتقاء أفضل النباتات بعد كل حصاد ووضع بذورها جانبًا لاستخدامها كتقاوى لمحصول العام التالي. هذه العملية بلغت أوجها على يدى روزول جارست، وهو مقاول من كون رابيدز بأيوا، ابتدع منذ الثلاثينيات وما بعدها نموذجًا للصناعات الزراعية جعل إدماج المحاصيل المحورة وراثيًا في الزراعة الأمريكية بالغ اليسر. لقد جمع جارست بين التكنولوجيا الجديدة (زيادة محصول الحبوب من خلال البحوث الخاصة بالتهجين بين سلالات الذرة) وفن البيع والتنظيم. لقد أقنع المزارعين بشراء كميات التقاوى المطلوبة سنويًا من شركة كبيرة تنتج الهجن بالطرق العلمية، بدلاً من شرائها من تاجر التقاوى المحلي، ناهيك عن استخدام تقاويهم الخاصة. وتمثلت قمة انتصاره في قيام خروشوف بالسفر إلى كون رابيدز لمقابلته وشراء تقاويه (يشير مارك ونستون إلى أن كلاً من نظامى الزراعة الأمريكي والسوفيتي، اللذين يحتاجان إلى كميات كبيرة من الأسمدة، قد عانى من الانهيار في نفس الوقت تقريبًا في الثمانينيات، بسبب العجز المالي في النظام السوفيتي، وبسبب وفرة الذرة في النظام الأمريكي، بحيث صارت تكلفة زراعته تفوق ضعف ثمنه في الأسواق). إن التقنيات الحديثة للتحوير الوراثي ليست موجهة بالضرورة لإنتاج كائنات مشوهة شكلاً وحجمًا، بحيث تبدو المحاصيل التقليدية اليوم بالمقارنة بأصولها البرية مثل سلالة كلاب الدشهند الألمانية بجانب الذئاب. إن كيزان الذرة التي تنتجها، والتي تبلغ طول الساعد، لا تستطيع أن تعيش في البرية، بينما لا يتجاوز حجم أول كيزان ذرة زرعت منذ سبعة آلاف عام حجم الإبهام. ولكن، بالنسبة لتحسين المحصول نجد أن الحثكة المتزايدة في عمليات التربية عبر القرون القليلة الماضية، أدت إلى نتائج ملحوظة. ففي العصور الوسطى في أيرلندا، لم يكن المزارعون يتوقعون الحصول على أكثر من نصف طن من القمح لكل هكتار من الأرض. وفي عام ١٩٩٠ بلغ الرقم أكثر من ثمانية أطنان.

إن لوبى (جماعات ضغط) الصناعات الزراعية - الذي يوصف عادة بكونه أمريكيًا، رغم أنه يتضمن العديد من الشركات متعددة الجنسية الأوروبية - يحبذ النظر إلى حلول المحاصيل المحورة وراثيًا باعتباره امتدادًا لبرنامج جراست: المزيد من التحسينات العلمية، محاصيل أكثر تحملاً وأكثر غلة. استخدام أكثر كفاءة للأسمدة ومبيدات الآفات والحشائش، وقدرة أكبر على استزراع الأراضي منخفضة الجودة. كما أن مؤيدي المحاصيل المحورة وراثيًا في المجتمع العلمي (رغم صعوبة التفرقة بين العلماء ورجال الأعمال بالنسبة لعلوم الحياة في هذه الأيام) يعتقدون أن العامة قد ضللوا بواسطة جهل وحقد وإثارة الإعلام الغربي، ودفعوا إلى عدم الثقة في الجانب العلمي للتحوير الوراثي بشكل لا عقلاني.

ومن أكثر أشكال التحوير الوراثي للمحاصيل شيوعًا ما يتضمن إدماج جينات البكتريا العصوية باسيلي ترنجنسس (Bacillus Thuringiensis) أو Bt اختصارًا. هذه البكتريا، التي توجد عادة في التربة، تنتج بروتينات سامة تضر ببعض أنواع الآفات الحشرية. وعندما نقوم بإدماج الجينات التي تشفر لهذه البروتينات ضمن الجينات الطبيعية للنباتات، تبدأ هذه النباتات في إفراز السموم في أوراقها، مما يجعلها قادرة على صد هجوم العديد من الحشرات دون استخدام المبيدات. وقد تم السماح بالاستخدام التجاري للمحاصيل المحورة بجينات Bt في الولايات المتحدة عام ١٩٩٥، وبحلول عام ٢٠٠٠ كان ما يقرب من ثلث الإنتاج الأمريكي من الذرة والقطن محوراً بهذه الطريقة.

وكما هو الحال بالنسبة للقلوف والتونة، فإن هضم مثل هذه الذرة المحورة لا يعطى لجين Bt فرصة ليتسلل داخل خلاياك ويصير جزءًا منك - أو على الأقل ليست هنالك فرصة لحدوث ذلك أزيد من المتاح لجينات الذرة الطبيعية. أما إذا كان البروتين السام للحشرات له نفس التأثير بالنسبة للإنسان، فإن من الخطر تناول ذرة Bt، لكن هذه البروتينات تعتبر آمنة بالقدر الكافي الذي جعلها من بين المبيدات القليلة التي يستخدمها أنصار الزراعة العضوية. إذا كان الأمر كذلك، فما هو الخطأ بالنسبة لمحاصيل Bt؟



يميل اللوبى المؤيد للتحوير الوراثي إلى المبالغة في تقدير ما نعرفه عما يحدث في الخلايا الحية، النباتية أو الحيوانية. نعم، من غير المحتمل أن تحدث الجينات الغريبة المولجة اصطناعيًا بنفسها ضررًا لأحد، كما أن البروتينات التي تنتجها هذه الجينات يمكن اختبار درجة أمانها بصورة منعزلة.

ولكن مالا نعرفه هو كيفية تفاعل الجينات المولجة مع الجينوم، أو مجموع الجينات الطبيعية. إن العلماء يعرفون أن هنالك من البروتينات في الخلايا ما يفوق كثيرًا ما يوجد من الجينات، مما يعني أن بعض الجينات لابد أنها تنتج أكثر من بروتين. كيف تقوم بذلك؟ لسنا متأكدين بالقطع. إن البروتينات معقدة جدًا حتى أن



إغاثة الأمة بكشف الغمة

حصلت الفتنة بين السلطان والأمراء، وتوقفت أحوال الوزير فخر الدين بن الخليلي، وازداد ظلم أتباع السلطان ومماليكه، وتكاثر جورهم وعظم طمعهم في أخذ البراطيل والحمايات، وكثر عسفهم وغصبهم من الأمراء. ولعبت الناس في الفلوس لما ضربت، فنودي أن يستقر الرطل منها بدرهمين، وزنة الفلس درهم؛ هذا أول ما عُرف من وزن الفلوس. واشتد ظلم الوزير - وهو الصاحب فخر الدين بن الخليلي - لتوقف أحوال الدولة من كثرة الكلف، فأرصد متحصل المواريث للغداء والعشاء، وأخذ الأموال الموروثة ولو كان الوارث ولدًا أو غيره: فإذا طالبه الولد بميراث أبيه، أو الوارث بما أنجرّ إليه من الارث، كلفه إلى إثبات نسبه أو استحقاقه، فلا يكاد يثبت ذلك إلا بعد عناء طويل ومشقة، فإذا تم الإثبات أحاله على المواريث، حتى إذا مات آخر وله مال ووارث من ولد ذكر أو غيره فعل معهم كذلك، فتعجز الورثة من الطلب، فتترك المطالبة.

ووقع بآخر هذا الغلاء أعجوبة في غاية الغرابة لم يسمع بمثلها: وهي أن رجلاً من أهل الفلح بجبة عسال - إحدى قرى دمشق الشام - خرج بثور له ليرد الماء، فإذا عدة من الفلاحين قد وردوا الماء، فأورد الثور حتى إذا اكتفى نطق بلسان فصيح أسمع من بالمورد، وقال: «الحمد لله والشكر له. إن الله تعالى وعد هذه الأمة سبع سنين مجدبة، فشفع لهم النبي صلى الله عليه وسلم، وإن الرسول أمره أن يبلغ ذلك، وإن قال يارسول الله فما علامة صدقي عندهم، قال: أن تموت بعد تبليغ الرسالة»، وأنه بعد فراغ كلامه صعد إلى مكان مرتفع وسقط منه ومات.





كل ما وصل إلى أسماع الجماهير ضد الغذاء المحوَّر وراثيًا جاء نتيجة عرض خادع غير أمين قام به متمرسون في البروباجنده لم تكن أهدافهم دائمًا فوق مستوى الشبهات: يحكون نصف الحقيقة، يهوّلون من أخبار ويخفون أخرى

أقوى كمبيوترات العالم تحاول أن تقوم بنمذجة عمليات الطي لأحدها. ولأن هناك من يظن أن جنون البقر كان نتيجة للطي الخاطئ لأحد البروتينات الطبيعية، كيف لنا أن نعرف ما إذا كان أحد التفاعلات غير المتوقعة بين بروتين طبيعي وبروتين محور وراثيًا ليس من المحتمل أن يؤدي إلى جزيء هجين غير مرغوب؟ لا ندري.

إن القاعدة العامة التي تقصر سبل انتقال الدنا من كائن إلى آخر على الفيروسات والجنس ليست مطلقة. فالانتقال الأفقي للجينات، كما يسمى، يحدث بصورة محدودة عندما تتناول الحيوانات، بما في ذلك الإنسان، أي غذاء - فجينات الغذاء تدخل عددًا قليلاً من الخلايا المبطنة للجهاز الهضمي دون أن تحدث ضررًا، ولا تذهب إلى أبعد من ذلك. لكن الأكثر مدعاة للقلق هو النقل الأفقي للجينات الذي يتضمن البكتريا. فالأسلوب التي تولج به الجينات في المحاصيل المحورة وراثيًا قد يعني انتقالها من النبات إلى البكتريا البرية ومن البكتريا البرية إلى البكتريا التي تعيش في أحشاء الإنسان. وهذا أمر مزعج، إذا ما عرفنا أن بعض الجينات التي تولج اصطناعيًا في النباتات تستطيع إكساب البكتريا القدرة على مقاومة المضادات الحيوية.

ومن المخاوف ذات الصلة، إن انتشار محاصيل Bt قد يؤدي إلى التلقيح والإخصاب الخلطي بينها وبين النباتات البرية شديدة القرابة وإنتاج حشائش فائقة؛ وأن تعرض الحشرات الثابت لهذه المحاصيل المحورة قد يجعلها مقاومة، مما يحرم مستخدمي الزراعة العضوية من واحد من أهم خطوطهم الدفاعية ضد الحشرات، وربما يتمثل أكبر المخاوف في أن السيطرة العلمية الأكبر على البيولوجيا تعني سيطرة أكبر للشركات على هذا العلم، وبالتالي سيطرتها على الحياة نفسها.

إنني أشك في أن يؤدي الفهم الشعبي الأكبر في هذا البلد (بريطانيا) للجانب العلمي للتحوير الوراثي إلى درجة أكبر من الحماس في الاقتداء بأمريكا وتطبيق هذه التكنولوجيا بالجملة، ومع ذلك يبقى الفهم أمرًا محبذًا وضروريًا. إن بريست، وهي أستاذ الصحافة المشارك في جامعة تكساس، تدين وسائل الإعلام المطبوعة في أمريكا لكونها جاهزة لقبول موقف الشركات بالنسبة للمحاصيل المحورة، وأنها شديدة الاعتماد على السطوة المحلية لوكالة أنباء عملاقة واحدة، هي الأسوشيتد برس (تذكر مصحوبة بأداة التعريف في أمريكا، وبدونها في بريطانيا). وهي تقارن بشكل سلبي بين الصحافة الأمريكية غير الموالية ووسائل الإعلام الأوروبية الموالية. فبينما تصور الصحافة الأمريكية على أنها «حرة قانونيًا لكنها مقيدة اقتصاديًا»، تقول إن الوضع في المملكة المتحدة وأغلب أوروبا يؤدي إلى أن التقارير الإخبارية لا يتوقع أن تكون موضوعية بمعنى خلوها من المغزى السياسي - رغم وجود توجه نحو تسيد وجهة نظر مؤسسة أكبر، كما هو الحال في الولايات المتحدة.

والأكثر من ذلك، بالنسبة لحالة المحاصيل المحوَّرة وراثيًا، نجد أن وصف بريست للصحافة المنحازة، لا ينطبق على الحالة في بريطانيا، على الأقل بالنسبة لتصنيف الصحف باعتبارها مؤيدة أو معارضة. فليست هناك جريدة لم تتملق المحاصيل المحوَّرة بذكر ما يمكن أن يكون لها من استخدامات وفوائد، وفي نفس الوقت ليست هناك جريدة غير متحفزة لإطلاق النار عند أية إشارة ضعيفة لما قد يكون لها من أضرار. والقواعد الطبيعية التي تحكم «اليسار» و«اليمين» لا تنطبق هنا. أي وجهة يمكن أن تتخذها الصحف الملكية، عندما يعلن ولي العهد اعتباره أن المحاصيل المحوَّرة معرَّضة للنتن؟ وما موقف الصحف التي كانت تؤيد أفكار التقدم بالنسبة لكل البشر، وتدعو إلى أن يعالج العلم المشكلات العالمية، بعد أن تمت خصخصة البيولوجيا؟

ليس هنالك من بين هذه الكتب ما هو بريطاني أو حول الوضع في بريطانيا، عدا ما جاء في كتاب ونستون من التغطية الواعية، وإن كانت أقل من الواقع، عن الصدام بين أحد خبراء النحل الكنديين ومناصري التحوير الوراثي، هذه التغطية تعرض صورة أمينة للمزاج السائد في بريطانيا في ضوء زيارته لها. فهو يتفهم المغزى الكبير لكارثة جنون البقر في تشكيل الموقف الشعبي تجاه العلم. ويشير إلى تمسك البريطانيين بنقاء الريف، الذي تم تطويقه لخدمة احتياجاتهم منذ آلاف السنين. ويرى في العداء البريطاني لقيام الشركات بتصدير التكنولوجيا الحيوية كالتزام يمليه الضمير تجاه الطبيعة الاستغلالية لإمبراطوريتها. وبالمقارنة بأمريكا الشمالية، التي توجد بها المحاصيل المحوَّرة في كل مكان، تعد بريطانيا «عالمًا بديلاً». لقد «أخذ العلماء على حين غرة بقوة المعارضة، وأصيبوا بالحيرة حيال قصور القضايا العلمية لدى المحتجين».

يميل لوبي التحوير الوراثي إلى لوم وسائل الإعلام المتشككة فيه، لقد كان هنالك بالقطع نوع من التحريف والتبسيط الزائدة في التغطية البريطانية للتحوير الوراثي، تمامًا مثلما كانت هناك صحافة أكثر حرصًا، وذات ضمير حي. وإن كان على العلماء ولوبي التكنولوجيا الحيوية أن يتذكروا أن الصحف والتليفزيون والإذاعة، مهما كانت طموحاتهم، لا





يمكن أن يكونوا معلمين، وأن قراءهم ومشاهديهم ومستمعيهم ليسوا تلاميذ. إن وسائل الإعلام تحذر وتعطي المعلومات وتشرح وتجادل بعنف وتسلى وتُذكِّر وتسترجع وتحُث. ولا يعد أى من هذه الأمور تدريسًا. ليس هنالك اختبار. لقد عرف العالم «لغة» علم النفس من وسائل الإعلام، ونجم عن ذلك اعتبار من لا يستطيع اتخاذ قرار بسهولة مصابًا بالفصام، أو يعاني من البارانويا إذا ما استشعر أن هنالك من لا يحبه، أو عصابيًا إذا ما عانى القلق. أو شاذًا سلبيًا إذا ما كان رقيقًا، أو ذهانيًا إذا كان غضوبًا. إن التدريس يجب أن يتم بواسطة المدرسين. وفى عالم امتلك فيه العلماء القدرة على تحويل الكائنات على المستوى دون الخلوى، فإن السماح للأبناء بمغادرة المدرسة دون أبسط خلفية عن بيولوجيا الخلية، يعد أمرًا غير مسئول مثل السماح لهم بتركها دون معرفة الكتابة والقراءة والحساب. كل فرد عليه أن يعرف ما هو الچين، وما هو الدنا، وما هو البروتين. ومن العظيم أن نعرف أن لب هذه المعرفة يتميز بدرجة كبيرة من المباشرة والبداهة، ولا يقتضى معرفة بالرياضيات. إن تدريس هذه المعارف للأطفال، الذى يفضل أن يتم فى المرحلة الابتدائية، يعد مرغوبًا فيه، وإن كان لا يؤدى بالضرورة إلى قناعة أفضل لدى الناس بالمحاصيل المحوَّرة وراثيًا.

لقد أشار برينستـرب ـ أندرسن، وإيبى شولر فى كتابهما، الذى طُبع أولاً بالدانماركية، إلى نقطة جيدة بشكل غير جيد. لقد حاولا البرهنة على أن أكثر دول العالم فقرًا، التى لا تستطيع إطعام نفسها أو شراء الطعام من الآخرين، فى حاجة إلى إتاحة المحاصيل المحوَّرة وراثيًا حتى تستطيع زيادة إنتاجها واستخدام الأراضى القاحلة لإطعام الأعداد المتزايدة من السكان. ويرون بالتالى أن من حق هذه الدول الفقيرة، وليس من حق معارضى هذه المحاصيل فى الدول الغنية، تقرير الحاجة إلى استخدامها من عدمه. وهنا علينا أن نتذكر أن المتاح من الأرض المزروعة لكل فرد من سكان الكوكب يتوقع أن يكون ٠,١٥ من الهكتار فقط فى عام ٢٠٥٠، فى مقابل ٠,٢٦ فى الوقت الحالى.

لم يوضح العالمان لماذا يبدو مقبولاً بالنسبة لعلماء العالم الغنى التعاون مع علماء العالم الفقير، وبالنسبة لشركات العالم الغنى أن توقف التعامل مع حكومات العالم الفقير، بينما لا يبدو مقبولاً لديهم أن تتضافر جهود الحركات المناهضة للمحاصيل المحوَّرة وراثيًا فى كلا العالمين الغنى والفقير. إنهم يقرون بداية بإمكانية أن تؤدى طرق الزراعة العضوية بالأسلوب الغربى إلى تحسين المحصول فى الأراضى الأقل إنتاجية بالدول النامية. ومن الأمور ذات الدلالة الكبيرة، أنهم وجدوا عددًا قليلاً جداً من الأصوات الأفريقية والآسيوية التى تساند حججهم. وهذا لا يعنى أنهم مخطئون بالنسبة للدول التى تعانى من الجوع؛ إن تغذية عالم مكون من عشرة بلايين نسمة تستلزم علمًا بارعًا. والواقع أن الكتاب تجرى به حركة مخادعة، تجعل من المحتمل أن تكون النقطة التى يريد المؤلفان تسجيلها ليست وجوب ألا تعيق الدول الغنية دخول المحاصيل المحوَّرة وراثيًا إلى العالم الفقير، ولكن الإشارة إلى أن حاجة الفقراء الملحة إلى هذه المحاصيل تواجه بموقف غير مسئول من الأوروبيين، يعطون به قدوة سيئة لمستعمراتهم السابقة.

نعم، يجب أن تكون القرارات المتعلقة بالمحاصيل المحوَّرة وراثيًا فى الهند من حق الهنود، ولكن يجب أيضًا أن تكون القرارات المماثلة فى بريطانيا من حق البريطانيين. إن المؤلفين يقتبسان بموافقة واضحة من جريدة «وول ستريت جورنال» تساؤلاً فى كلمة المحرر المنشورة فى فبراير الماضى «هل يمكن لأحد أن يشرح لنا بالضبط ما هو الخطأ بالنسبة للأغذية المحوَّرة وراثيًا؟ إن السؤال يحتاج إلى إجابة رياضية. وهذا ما لن يحصل عليه. إن اعتراضاتى على المحاصيل المحوَّرة وراثيًا، مثلى فى ذلك مثل الكثيرين فى هذا البلد، ليست علمية، أو حتى دينية، بل عاطفية رومانسية ووجدانية. إن نظامنا الإيكولوچى يمكن أن يكون قد تعرض للتسمم والنهب والخصخصة أكثر من مرة، وكذلك التحوير والترويض: لكنه مازال يعمل على أساس التجديد الذاتى، باعتباره النظام الذى صممه التطور فى الطبيعة. إنه مازال مصدرًا للعجب والتواضع والأمل المتبقى غير القابل للتوقع بالنسبة للموارد، التى نعانى بشدة من نقص إمداداتها. إن النظام الإيكولوجى مازال مشاعًا فى الواقع، وبما أن تكنولوجيا التحوير الوراثى لا يمكن احتواؤها بشكل آمن فى الأملاك الخاصة، فكل منا له صوت.

إننى غير متأكد من كونى قد أجبت على سؤال الجريدة. قد تأتى الإجابة الأفضل من مصدر متصل بالشركات: چين هارونج من سنسبرى.

ففى الحديث عن المستهلكين البريطانيين (لابد أنك تذكرهم، فهم البشر الذين اعتادوا أن يكونوا مواطنين فى هذا البلد) تقول هارونج: «إنهم ينظرون إلى الأمر ولسان حال كل منهم يقول: «إنكم تتلاعبون بحياتى ولستم متأكدين بالقطع أنكم تفعلون هذا الأمر بشكل آمن، وحتى يمكنكم ذلك أريدكم ألا تفعلوا». ■

بترتيب خاص مع مجلة: لندن ريڤيو أوف بوكس.

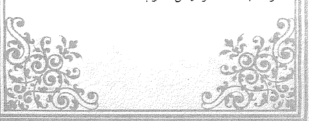
ترجمة: أحمد شوقى



إغاثة الأمة بكشف الغمة

فى أول شهر رجب سنة ست وثلاثين وسبعمائة «٧٣٦هـ» وقع الغلاء بالديار المصرية، فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ وعزّ القمح ووصل كل أردب إلى سبعين درهمًا، والفول إلى خمسين، والخبز كل خمسة أرطال بدرهم، ولا يكاد يوجد. وعدم القمح من الأسواق، وصار على كل دكان من دكاكين الخبازين عدة من الناس، وصار الخبز كالكُسب من السواد؛ فرتب الوالى على كل حانوت أربعة من أعوانه معهم المطارق لدفع الناس عن حوانيت الخبز لئلا ينهب. فضج الناس للسلطان واستغاثوا، فجمع الأمراء وقال لهم: «يا أمراء! شهر عليكم، وشهر علىّ، وشهر على الله»؛ ففتح الأمراء الشون، وباعوا كل أردب بثلاثين درهمًا، ففرج عن الناس؛ وفتح السلطان حواصله فى شعبان، وباع كل أردب بخمسة وعشرين درهمًا. ودخل الفول الجديد والشعير، فأكل الناس منه إلى أن دخل شهر رمضان، فجاء القمح الجديد، وانحل السعر.

ثم وقع الغلاء فى أيام الأشرف شعبان، وسببه قصور النيل فى سنة ست وسبعين وسبعمائة، فلم يبلغ ستة عشر ذراعًا. وكُسر الخليج، فانحط الماء وارتفع السعر، وعزّت الأقوات وقل وجودها، فمات الكثير من الجوع حتى امتلأت الطرقات؛ وأعقب ذلك وباء مات فيه كثير من الناس. وفى هذا الغلاء بلغ الفرّوج إلى مائة درهم فما فوقها، والبطيخة إلى مائة وخمسين؛ فأمر السلطان بجمع الفقراء، وفرقهم على الأمراء ومياسير التجار. ودام هذا الغلاء نحو سنتين، ثم أغاث الله الخلق وأجرى النيل، فارتوت الأراضى، وحصل الرخاء بعد ما خامر اليأس القلوب.



أيًا ما كان الخطأ أو «التعمد» فى دخول أو «اختراق» الطائرات الأمريكية الأجواء السورية المحاذية للعراق قبل أسبوعين، والذى كان «رسالة لنا» كما وصفه بشار الأسد، فإن الحدث ـ الذى بدا للبعض عرضيًا ولآخرين غير ذلك ـ لابد أن يُذكِّر بما كان من تصريحات أدلى بها زعماء عرب كبار قبل حوالى عام، أكدوا فيها أن واشنطن لن تضرب بغداد (بعد كابول). وأن تأكيدات أمريكية طمأنتهم.

يومها بدا أن التوقعات ـ رغم ما يتطلبه استشرافُها من تجرد ـ اختلطت بالتمنيات مع ما يسكنها بحكم الطبيعة من أحلامٍ وذاتية.

أيًا ما كان الأمر فإن خبر الطائرات التى أخطأت دقة المسار، ذكَّر الكثيرين أيضًا بما شاع (أو تم تسريبه) من خطة الأمريكان «الشرق أوسطية» ذات المراحل. ولم يكن غريبًا بحال أن تعمد مواقع الإنترنت التى نقلت خبر الطائرات إلى وضع أخبار الخطة الأمريكية على الهامش فى خانة (الموضوعات ذات الصلة).

ماذا بعد؟ يظل إذن السؤال الأهم. بعد أن بات السؤال: «هل يضرب الأمريكان العراق؟» غير ذى موضوع. إذا وضعنا التمنيات ـ على أهميتها ورغم الحاجة المعنوية إليها ـ جانبًا. وإذا وضعنا جانبًا أيضًا كل الجدل؛ عقيمه ومفيده، حول علامات الاستفهام: «هل.. ومتى» وأيهما أقرب للواقع، وأولى بالرعاية والاهتمام.

ماذا بعد؟

السؤال المهم له إجابات «غامضة» ثلاث: عراقيًا، وفلسطينيًا.. وفى المنطقة كلها التى لن يقتصر «الصدى» فى أجوائها حتمًا على ذلك الناتج عن ضجيج طائرات دخلت «عرضًا» المجال السورى قبل أسابيع.

ماذا بعد..؟

عراقيًا، انفضت «اللويا جيرجا» Version 2 بوثيقة توفيقية صدرت عن مؤتمر فى لندن للمعارضة العراقية يُذكِّر حتمًا بخلافاته الكامنة تحت السطح، بذلك الذى كان قبل حوالى العام فى العاصمة الألمانية بون، للبحث «أمريكيًا» فى مستقبل أفغانستان بعد طالبان.

يختلفُ الفندق.. والعاصمة.. وتختلف السحنات والوجوه. وربما أزياء بعض المؤتمرين.. وتبقى ثوابت ثلاثة: المفردات.. وأمريكا.. وكاميرات التليفزيون.

تحدثوا هناك عن الاثنيات والمذاهب الدينية والأقليات. وامتلأ خطابهم هنا بالمفردات ذاتها، وبغض النظر عن الفارق بين الاثنى عشرية والباشتون وبين الصابئة والآشوريين. إذ يبقى ذلك من التفصيلات.

وأمريكا التى تظللت هناك بشعار الأمم المتحدة واسم الأخضر الإبراهيمى وسماحته، لم تتردد هنا فى أن تعد الطبخة ـ علنًا ـ فى واشنطن قبل أن ترسل «مبعوثها» ـ الأفغانى الأصل ـ ليتولى التنسيق و«التحكم». إن لم يكن بحكم حق الطاهى فى طبخته، فبحكم واقع الحال de facto.

وهنا أيضًا، ورغم غياب أناقة كرازاى اللافتة، و«نساء بلا شادور» كانت كاميرات التليفزيون متواجدة ومتزاحمة. تُرهقُ مصوريها بحثًا عن لقطة مختلفة «تقطع الكادر» الممل لخطباء يتتابعون يقرأون من أوراق صيغت نصوصُها بعناية حسب ما يستوجبه المقام والمناسبة التى رغم أنها لم تفاجئ أحدًا، إلا أنها تفتح من أسئلة المستقبل (ناهيك عن جروح الماضى) أكثر مما تجيب.

اجتماعات لندن احتفظت ـ بحكم التاريخ القريب والبعيد ـ من العاصمة البريطانية بضبابيتها. فرغم برودة طقس ديسمبر وثلجية العبارات الدبلوماسية لخطباء القاعة المكيفة.. وربما حُسن نواياهم، إلا أن ضباب لندن لم يكن بوسعه أن يخفى حقائق التاريخ.. أو تعقيدات الجغرافيا. وبدا أن تحت السطح المتململ والذى يبدو هادئًا ـ الآن فى حضرة الأمريكان ـ محاور استقطاب مستقبلية حادة، فمع من رأى أن الجيش العراقى هو ضمان للوحدة، كان هناك من لم يخف ـ ولو فى لقاءات العشاء والغداء ـ رغبته فى ضرورة أن نستبدل بالجيش الذى حاد عن نهجه «مليشيات» وطنية وشعبية. لاحظ أننا نتحدث عن وطن مترامى الأطراف، وفير الثروات، متعدد الأعراق والطوائف والاثنيات. ترتبط بعض من ألوان فسيفسائه بألوان فى دول مجاورة. ويحفل تاريخ المنطقة كلها ـ القريب والبعيد ـ بالنتائج الطبيعية للموزاييك.

هل تفلح الاتفاقات أو الاجتماعات ـ غير المعلنة ـ للمندوب الأمريكى فى جناحه الخاص بعيدًا عن ردهات المؤتمر، بل وعن المؤتمرين المعارضين/المتعارضين، فضلاً عن عدسات الصحفيين وأنوفهم فى ضمان مستقبل واضح للعراق؟



(Iraq War Peace Syndrome) كان هو المسمى الذى اختاره أنتونى كوردسمان (المحلل الاستراتيجى والناصح للإدارة الأمريكية) موضوعًا لتقريره الذى طرح مسودته قبل أيام فقط أمام «مركز دراسات الاستراتيجية الدولية» فى واشنطن.

ولم يكن كوردسمان مبالغًا أبدًا عندما ذكر فى العبارة الأولى من تقريره أن السلام هو غالبًا المرحلة الأصعب فى أى حرب The Hardest part of war is often the peace. وأن هذه القاعدة ستجد تطبيقها المثالى فى حالة العراق بعد أن يذهب الأمريكيون للحرب هناك.

وفى مسودة تقريره الذى حمل عنوان Us Policy to Reshape a Post - Saddam Iraq يعدد كوردسمان أعراض Syndrome حالة ما بعد الحرب فى العراق، فى ثمانى عشرة نقطة مؤكدًا أن هذا «ليس على سبيل الحصر».

«أعراض كوردسمان»، ومفردات مؤتمر لندن، وجدول أعماله الذى تضمن بندًا واحدًا: «ماذا بعد؟»، وكذا دبلوماسية صياغة خطبه وكلماته، لم تكن بعيدة عن معنى ومناسبة ودلالات بل وحتى لهجة المحاضرة «متقنة الصياغة» التى ألقاها كولين باول على الناحية الأخرى من الأطلنطى فى قاعة مؤسسة Heritage الأمريكية المحافظة.

المحاضرة التى طال انتظارها تضمنت التصور الأمريكى ـ أو ربما الخارجية الأمريكية ـ للإصلاح الديمقراطى والتنموى و«التعليمى» فى بلدان الشرق الأوسط العربية.

وواقع الحال أن لا أحد بإمكانه أن يجادل باول ـ عن قناعة ـ إذا تعلق الأمر بواقع الاقتصاد أو الديمقراطية فى بلادنا، فهنا جمهوريات يُعَدَّل دستورها بالطلب. وهنا تعليمٌ يكرس الجهل، أو فى أحسن الأحوال «النقل لا العقل» وهنا عصبية «عشائرية أو طائفية» وأحزاب ورقية؛ تتساوى فى ذلك تلك الحاكمة أو تلك «المكملة للصورة». وهنا فقرٌ وبطالةٌ وفسادٌ ومحسوبية. ولافتاتٌ فخمة بلا كيانات حقيقية. وهنا برلماناتٌ تقبل أن تكيل بمكيالين.. و«قوانين لها أنياب» نتذكرها ـ أو يتذكرونها ـ فقط عند الحاجة!! وهنا ـ أيضًا ـ حكامٌ وخلفاءٌ يزيد عدد صورهم فى الشوارع الفقيرة ـ وربما ألقابهم أيضًا ـ على عدد المارة. هل زرت بغداد أخيرًا؟!

«الحرب الأمريكية ستعيد العرب عقودًا إلى الوراء..».

الرئيس السورى بشار الأسد ـ (٢٠٠٢/١٢/١٧)

«إذا ضربت أمريكا العراق.. سننفذ قرارنا بالانسحاب من الجامعة العربية..».

عبد المنعم الهونى ـ المندوب الليبى لدى الجامعة العربية ـ (٢٠٠٢/١٢/١٨)

«ما يتعرض له العراق وفلسطين جزء لا يتجزأ من معاناة شعوب العالم بسبب انفراد الولايات المتحدة بالنفوذ الأكبر.. وفرضها هيمنتها باستخدام القوة وعسكرة العالم».

من إعلان القاهرة ـ الصادر عن مؤتمر مناهضة الحرب بمشاركة ٧٠ شخصية دولية ـ (٢٠٠٢/١٢/٢٠)

«نخشى أن يخدعنا الأمريكيون ويتركونا فى منتصف الطريق.. مثلما فعلوا دائمًا..».

د. محمود عثمان ـ ممثل الأكراد المستقلين ـ إلى مؤتمر المعارضة ـ (٢٠٠٢/١٢/١٥)

«هذه كارثة حقيقية بالنسبة للعراق.. سأهاجم المنظمين عندما ألقى كلمتى، فقد زرعوا بذور الانقسام فى صفوف العراقيين قبل أن يبدأ المؤتمر».

كنعان مكية ـ المعارض والمثقف العراقى البارز ـ واشنطن بوست ٢٠٠٢/١٢/١٤

ماذا بعد؟

أيمن الصياد

نتفق ويتفق المثقفون إذن مع كثير مما قاله باول. وبالطبع مع ما استشهد به من شعر حافظ إبراهيم. ولكن هل يقصد الأمريكيون حقًا ما يقولونه؟ لا ماضيهم يعد بذلك.. ولا حاضرهم يثبته.

ويكمن المأزق فى أنه ورغم أن لا أحد هنا بإمكانه أن يزعم استتباب الديمقراطية فى عالمنا العربى، إلا أنه - وبنفس الدرجة - ليس بوسع أمريكا بعد أن أسفرت عن وجهها القبيح تسويق بضاعتها مهما بدت/ أو كانت جيدة. فبعد أيام فقط من «محاضرة» باول، وقبل أن ينتهى حتى المدافعون عنها (أو عنه) من مرافعاتهم، كان أحد مرؤوسى وزير الخارجية الأمريكى نفسه يستخدم حق الفيتو ليمنع قرارًا يستنكر قتل الجيش الإسرائيلى لموظفى الأمم المتحدة ذاتها. والتى تحت شعارها استخدم الأمريكان حق النقض. ومشكلتنا مع واشنطن أننا نعرف - وهم يعرفون - أنها ليست المرة الأولى، كما أنه بالقطع لن يكون «الفيتو» الأخير.

لا أعرف لماذا أشعر بأن كولين باول - حتى وإن كان حسن النية - خدم ربما دون أن يقصد أنظمة استبدادية، بمشروعه هذا الذى استفز البعضَ مصدرُه «الآن»، وتحرَّج الكثيرون من تبنيه حرجًا من المجاهرة بما يؤمنون به خشية وضعهم مع «المتغطرسين الجدد» فى قارب واحد. ومن سوء الطالع أن البعض الآخر انتهز الفرصة ليماهى بين أمريكا «غير المقبولة» والديمقراطية التى هى بالضرورة غير ذلك.

الموقف الملتبس هذا، ومشاهد الأباتشى شبه اليومية تطلق قذائفها المجنونة «المقصودة» فى أزقة غزة الترابية الفقيرة.. فضلاً عن الاستمراء الأمريكى الفج لسياسة الكيل بمكيالين. يبدو أنها لسوء الحظ تدفع - إن لم يكن بين أوساط المثقفين فبين العامة - بالشعار المصرى القديم «الاحتلال على يد سعد أفضل من الاستقلال على يد عدلى».



ماذا بعد..

فى المنطقة العربية الحافلة بعوامل الارتباط والانفجار فى آن، لا أحد يعرف. ولذا لا أحد يريد تلك الحرب مجهولة التوابع، عدا هؤلاء الذين يريدون التشفى وتصفية الحسابات القديمة، مكتفين بالنظر تحت أقدامهم. وأولئك الذين أرهقهم الانتظار و«اللأيقين».

لا أحد يعرف.. بل لا أحد يمكنه أن يتوقع «مطمئنًا» كيف سيكون شكل تلك المنطقة بعد الحرب. وما هى بالضبط توابع الزلزال الكبير، غير الفوضى طبعًا. فالأسد رغم التوضيح لم يخف إدراكه للرسالة الأمريكية حين اخترقت طائراتها الأجواء السورية.

والإيرانيون يتذكرون إعلان بوش «إن الإرهاب ينتشر فى ستين دولة وأن الحرب عليه ستستمر عشر سنوات كاملة..». ولذا فهم يتخوفون - ولهم كل الحق - أن يكونوا المحطة التالية. رغم وعيد الخطباء كل جمعة بأن «إيران غير أفغانستان.. والعراق». وهو بالضبط ما كان يقوله العراقيون والمتفائلون العرب على مدى عام كامل.

والمصريون حذروا غير مرة من ردة فعل شعبية ومن فوضى غير محسوبة.

والليبيون يرون فى الحرب «مشهد النهاية للتاريخ العربى» ويعلنون أنهم سيتصرفون على هذا الأساس.

والأتراك الذين حصلوا من قبل على ثلاثة مليارات من الدولارات لدعمهم الحرب الأولى، قلقون على تجارتهم الحالية الحيوية مع العراق وعلى مصير «الدمل» الكردى المتقيح فى الجنوب.

والسعودية التى دمجت عقيدتُها السياسية والشعبية لعقود بين «الاستقرار والاستمرار» تمنت ألا تَسفر «عاصفة الصحراء» إلاعن إثارة الرمال وتحريك كثبان هنا وكثبان هناك. وهو أمر تعرفُه - بحكم الطبيعة - الباديةُ التى لم تألف الزلازل ولا البراكين.

وحتى أكراد العراق قلقون على وضعهم المتميز «شبه المستقل» تحت مظلة الحماية الغربية لمناطق حظر الطيران الشمالية. ويعلمون قطعًا أن القادم لن يخبئ لهم بالضرورة ما هو أفضل.

رغم كل ذلك فهناك أيضًا من أرهقه الوضع المتوتر، وكثرة «العجيج بلا طحن» فأصبح يتمنى إزاحة الرئيس العراقى صدام حسين بأسرع وقت «حتى نرتاح.. لكن الأمر ليس فى أيدينا. الأمر برمته يعود إلى أمريكا. وما علينا سوى الانتظار والفرجة».. كما قال المواطن الكويتى مشعل المطيرى لمراسل «الشرق الأوسط».



ماذا بعد؟

حتى الأمريكان لا يعرفون (راجع تقرير كوردسمان) إلا أن كل هؤلاء وأولئك يعلمون، أو على الأقل يتخوفون من أن يؤدى الجهل الأمريكى بشئون المنطقة وتعقيداتها الاثنية والمذهبية، فضلاً عن تدخلات للجيران ستمليها حتمًا حقائقُ الجغرافيا السياسية، إلى خلق مشكلة أخرى، وربما فرض واقعٍ لا يختلفُ فى نتائجه النهائية عن الوضع الذى يشكو منه البعضُ الآن.

الثابت فقط أن الولايات المتحدة الأمريكية، التى لم تعد تُخف نهجها الإمبراطورى (راجع تصريحات بوش) أعادت صياغة انتشارها الاستراتيجى فى المنطقة، وسط الضجيج الحالى للأزمة العراقية. فالوجود العسكرى فى قطر يمتد قانونًا عشرين عامًا. والقواعد الأمريكية تغطى ثلث الأراضى الكويتية كما ذكرت الواشنطن بوست. وخطط الإصلاح الديمقراطى وتعديل مناهج التعليم.. و«تمكين المرأة» أصبحت جاهزة.

والثابت فقط أن الإسرائيليين يجهزون للعمل «على الأرض» وسط دخان الحرب الكثيف القادم من الخليج مع رياح الشمال. إذ لم يعد خافيًا على من يحسن القراءة، أنهم يستعجلون «الزلزال» وأن لديهم أجندتهم الخاصة لاستغلال الفوضى. ويوم يكون «لكل امرئ شأن يغنيه..».



إلى أين؟!

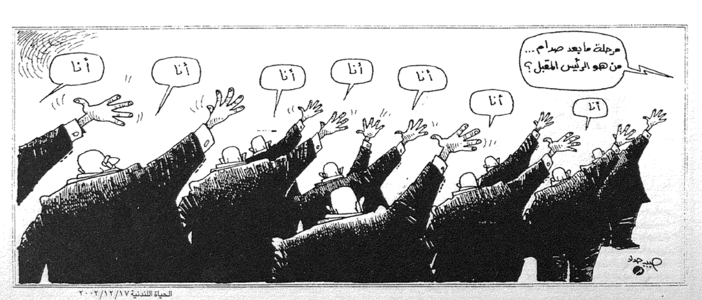
رغم كل الانضباط وتوخى الحكمة و«الحذر»، لا أحد أبدًا يعرف.

البعض تعلق بالمركبة الأمريكية. وفتح لهم - علنًا - أبوابه وقواعده وسماواته. متبنيًا - بلا حرج - حكمة «الاعتراف بحقائق القوى». والبعض يكتفى - أو لا يملك ربما - غير الإعلان عن قلقه. والبعض الآخر يتمنى. ويحاولُ - رغم الاستحالة - أن يعيشَ فى أمنياته.

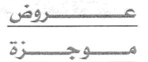
والأمريكيون تجاوزوا بزمان ما كان يبدو أنه حساباتهم القديمة. فلم يعد يعنيهم. أو لعلهم لم يعودوا يصدقون، بعد خبرة أفغانستان التى قصفت فى رمضان، مقولة «الشارع العربى».

ماذا بعد؟

تقرأون هذا - ربما - فى اليوم الأول من الشهر الأول من عام ٢٠٠٣، الذى يبدو أنه سيصبح بالنسبة لتلك المنطقة «عام الحسم». وبالاعتذار لكل من لا يزال يذكر التعبير «السبعينى» وصاحبه.. وقصته. ■



الحياة اللندنية ١٧/١٢/٢٠٠٢



كتب عربيــة

توجهات في المجتمع الإسرائيلي

أعده للنشر: بروفيسور أفرايم ياعر وزئيف شابيط

الجامعة المفتوحة. تل أبيب، ٢٠٠١، ٧٠٠ صفحة (بالعبرية)





يمثل الكتاب إضافة مهمة إلى إصدارات جماعة من المؤرخين الجدد التي دأبت على إعادة النظر في كتابة تاريخ دولة إسرائيل بحيادية تنأى عن أفكار الصهيونية التي أسست لقيام الدولة.

والكتاب يقوم على محورين رئيسيين: الأول دراسة أبعاد الهوية الجماعية للمجتمع الإسرائيلي، مضامينها: مسلماتها؛ والاختلافات التي نشأت حولها. والثاني التعرض بالتحليل لمجالات شكلت الأساس للواقع والنشاط الاجتماعي، كالهجرة والاستيعاب؛ عدم المساواة الاجتماعية؛ الاقتصاد السياسي وغيرها.

إن الصهيونية - كما ورد بالكتاب - لم تكن إلا أحد عدة حلول أخرى للمشكلة اليهودية، وكانت البدائل الذاتية بصورها المختلفة هي أكبر منافس للصهيونية. فمثلاً فكرة الاندماج كحل كانت تعني بالنسبة للجماعة التنازل عن وجود قومي مستقل، بينما كانت فكرة الانعتاق تعني التخلي عن الوحدة القومية اليهودية مقابل بقاء الوحدة الدينية فقط؛ في حين كانت الهجرة كحل تعني استمرار الوجود اليهودي كأقلية قومية وسط أمم «مضيفة أخرى».

ولقد لفت الكتاب نظرنا إلى أن الشرعية التاريخية لليهود في أرض إسرائيل، ظهرت فعليًا في سياق الجدل حول أوغندا كوطن قومي. ولكن في أعقاب الصدام مع عرب فلسطين والانتداب البريطاني، برزت دعاوى أخرى تجهر بشرعية مطالبة اليهود بحق في فلسطين، من بينها محاولة اعتبار الصراع بين اليهود والعرب لعبة لا خاسر فيها، بما يعنيه ذلك من فائدة ستعود على عرب فلسطين من وراء الاستيطان الصهيوني، وفشلت محاولة ترويج هذا الادعاء، في حين نادى فريق آخر بتوسيع مفهوم الصراع وتعميمه على جميع العرب وليس فقط من يسكنون فلسطين، وبذلك يمكن القول بأن العرب لديهم أراض كثيرة ومن العدل أن يحصل اليهود على هذه المنطقة الضئيلة في أرض فلسطين.

وبمرور الوقت راجت دعاوى أخرين، أهمها القول - في أعقاب كارثة الإبادة - بأن كيانًا سياسيًا يهوديًا ذا سيادة على أرض فلسطين، هو الضمان الوحيد لعدم تكرار هذه الكارثة.

□ □ □

السلطانة منيرة المهدية

رتيبة الحفني

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ١٩٠ صفحة



بين الفئات التي انتشرت في مصر في نهاية القرن التاسع عشر فئة من الفنانات عرفت بالعوالم، تمتعن بمكانة ممتازة بين الأغنياء وعلية القوم، الذين كانوا ينثرون الذهب والفضة تحت أقدامهن، وبين هؤلاء أمينة الصرفية وبمبة كشر وأمينة شخلع وسيدة صواني. واسما الكمسارية وشفيقة القبطية.

وفي هذا المناخ المشحون بالتحولات والإرهاصات الفنية الكبرى ظهرت منيرة المهدية التي لقبت بسلطانة الطرب، وتربعت على عرش الغناء لأكثر من ثلاثين عامًا.

ولدت منيرة المهدية في بيت متواضع بقرية المهدية بمحافظة الشرقية عام ١٨٨٥ في أسرة متوسطة، توفي والدها وهي رضيعة فقامت برعايتها أختها التي كانت متزوجة من أحد الملاك الزراعيين ومقيمة بالإسكندرية، ودرست في المدرسة حتى تعلمت القراءة والكتابة ثم تركتها واتجهت مبكرًا جدًا للفن، وحين ارتحلت للقاهرة التقت بالشيخ سلامة حجازي الذي تبناها واستأجرت لنفسها بعد أن ذاعت شهرتها قليلاً مقهى أسمته مقهى «نزهة النفوس» اكتسب شهرة كبيرة، بعده انتقلت إلى مقهى برنتانيا وقدمت فيه أغاني عديدة حتى ذاع صيته بين مقاهي ومسارح ذلك الزمان، وبعده بدأت تتجه نحو المسرح الغنائي بتشجيع من أستاذها الشيخ سلامة حجازي وقدمت عدة أوبريتات غنائية ناجحة لحّنها أساطين التلحين في ذلك الزمن: سيد درويش، زكريا أحمد، سلامة حجازي، القصبجي، داود حسني وكامل الخلعي.

ولحبها في فن التمثيل ظهرت في دور رجالي في مسرحية لعزيز عيد، حيث كان ظهور النساء المسلمات على المسرح آنذاك من المحرمات، وكانت الأدوار النسائية تلعبها اليهوديات، وكان ظهور منيرة المهدية - حتى في دور رجالي - بداية للاستعانة بالمصريات في المسرح.

«أسمر ملك روحي» هي أشهر أغنيات منيرة المهدية، التي غنّت أيضًا بعضًا من الأغنيات الهابطة التي كانت شائعة في زمانها، ومثلها فعل سيد درويش وآخرون، لكنها أيضًا غنت أغاني وطنية خصوصًا في أوبريتاتها الغنائية.

وقد توقفت منيرة المهدية عن الغناء بعدما ذاعت شهرة أم كلثوم ولكنها عادت بعد انقطاع دام عشر سنوات، وبالتحديد في عام ١٩٤٨، لكن الجمهور كان قد نسيها فآثرت الانسحاب وعاشت حياة زوجية هادئة حتى توفيت في مارس ١٩٦٥ عن عمر يناهز الثمانين.

□ □ □

سينما العالم الثالث والغرب

روي آرمز

ترجمة: أبية الحمزاوي

الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٢، ٢٤٨ صفحة



يوحي عنوان الكتاب بمنهج مؤلفه، الذي يفترض أن ثمة تأثيرات مؤكدة للغرب المستعمر على سينما العالم الثالث، الذي وقعت دوله جميعًا في قبضة استعمار واحد أو أكثر عبر تاريخها الحديث، والحكمة البليغة التي تلخص هذه التأثيرات تأتي من كتاب فانون «سود البشرة بيض الأقنعة»، يقول: إن زنوج الأنتيل يزدادون بياضًا مع اطراد إتقانهم اللغة الفرنسية.

لهذا السبب يحلل الكتاب في القسم الأول منه التأثيرات الحادة - نفسيًا وإنسانيًا - للاستعمار على دول العالم الثالث التي تبدو مدفوعة لمحاكاته، خصوصًا النخبة التي تتم صياغتها بمزاج المستعمر ووفق رغبته، وتتجلى هذه التأثيرات في الأدب وفي أشكال الإبداع المختلفة ومنها السينما.

ومنذ اخترع لويس لوميير السينما عام ١٨٩٥ عرفها العالم الثالث، حيث قدم أول عرض سينمائي في أمريكا اللاتينية عام ١٨٩٦، بعد أشهر قليلة من باريس ولندن ونيويورك، وبعدها بشهور زار فريق لوميير بومباي وشنغهاي والقاهرة والإسكندرية، وقدم أول عرض في مانيلا عام ١٨٩٧، وشهدت أفريقيا السوداء أول عرض لها في داكار عام ١٩٠٠، وشهدت سيول أول فيلم عام ١٩٠٣.

وكانت السينما الغربية في البدايات مسيطرة على السوق المحلية في العالم الثالث، وحتى في الهند التي حققت فيما بعد سيطرتها على السوق المحلية، كانت العروض الأجنبية تشغل نحو ٨٥٪ من مجمل عروضها حتى عشرينيات القرن الماضي، وحين عرضت السينما الصوت - أي انتقلت من مرحلة السينما الصامتة - انتعشت السوق المحلية واقبل الجمهور على سينما تخاطبه بلغته، كان ذلك في بدايات العقد الثالث من القرن العشرين، وقد وصل إنتاج دول العالم الثالث إلى أكثر من ٢٠٠ فيلم متجاوزة أكثر من ٥٠٪ من الانتاج السينمائي العالمي في أواسط السبعينيات، كانت أغلبها ذات طبيعة تجارية.

لكن المؤلف يشير إلى نماذج عديدة من الأفلام التي انعكست عليها مجريات السياسة العالمية منذ أواسط الخمسينيات، ونمو مفهوم جديد للهوية الفردية والقومية وبروز تيار الواقعية الجديدة الذي عكس الالتزام تجاه المجتمع وطموحاته، ونفذت شرائطه بتكاليف قليلة، وكان صلاح أبوسيف على سبيل المثال تعبيرًا واضحًا عن هذا التيار في مصر ومعه توفيق صالح ثم يوسف شاهين فيما بعد.

يتابع المؤلف تطور صناعة السينما متوخيًا المنهج ذاته، الذي يقرن بين لغة السينما والسعي نحو الفرادة والتميز، بالسعي للتخلص من الاستعمار وتحقيق الاستقلال الوطني، ويقدم «شبه سيرة سينمائية» لعدد من أبرز مخرجي سينما العالم الثالث الذين عكسوا - وانعكست فيهم - تلك التحولات، منهم ساتيا جت راي من الهند ويوسف شاهين من مصر وجلوبير روشا من البرازيل ويلمازجوناي من تركيا وعثمان سمبين من السنغال وجورج سانجينس من بوليفيا.

□ □ □

قبر يوسف النبي.. بين النصوص الأثرية والمرويات التاريخية

علاء عريبي

أبوظبي: مركز زايد للتنسيق والمتابعة، ٢٠٠٢، ١٢٣ صفحة



الفكرة الأساسية التي سعت إليها الدراسة منذ البداية، هي إثبات أن المرويات التاريخية والأثرية بشأن قبر النبي يوسف عليه السلام ليست صحيحة، وأن ما وصلنا منها تم استغلاله من قبل اليهود المعاصرين للاستيلاء على مزيد من الأراضي العربية، وأن ما كتب حول هذا الموضوع سواء استنادًا إلى الروايات التاريخية أو نقلاً

عن مؤرخين مسلمين، انتهى إلى روايتين تتأرجح بينهما نسب الصحة والخطأ، تقول إحداهما أن قبر يوسف فى نابلس (شاكيم قبل الفتح الإسلامى)، وتقول أخرى إنه فى الخليل (حبرون قبل الفتح الإسلامى).

ثمة روايات أخرى تشير إلى موقعين لقبر يوسف فى مصر، حسب بعضها فقد دفن يوسف فى قلب مياه النيل، وهى رواية يدحضها المؤلف ولا يرى لها سندًا تاريخيًا صحيحًا، ويرجح أن من قالوا بها استقوها من اليهود المصريين الذين عاشوا بمصر فى تلك الفترة (القرن الثالث الهجرى) فالمصريون لم يتحدثوا العربية (لغة الفاتحين الجدد إلا فى القرن السادس الهجرى) وكان طبيعيًا أن يلجأ مؤرخوهم إلى من سبقهم من اليهود لمعرفة قصص أنبيائهم التى جاءت مجملة فى القرآن الكريم، وكان طبيعيًا أيضًا أن يعطيهم اليهود من مخزونهم الثقافى والشعبى الذى يخلط الأسطورة بالحقيقة.

أما رواية «نابلس» فيراها المؤلف أيضًا غير صحيحة. ولا توجد شواهد أثرية أو تاريخية عليها. كما أن الأثريين أكدوا أن مدينة نابلس الحالية ليست هى القديمة التى تعرضت لتدمير شديد، كما أن عالم الآثار الإسرائيلى «مئير بن دوف» فحص مقام يوسف فى قرية بلاطة القريبة من نابلس عام ١٩٨٦ وأكد أنه من أضرحة المسلمين ويرجع للعصر المملوكى ولا علاقة له باليهود.

والأمر ذاته ينطبق على الرواية التى تشير إلى وجود قبر يوسف فى مدينة الخليل الحالية، فهى بدورها لا يمكن للباحث أن يطمئن إلى صحتها.

وينتهى المؤلف إلى أن هذه الروايات لم تكن سوى أدوات للصهاينة، استخدموها فى صراعهم مع أصحاب الأرض الأصليين من الفلسطينيين، بهدف ضم هذه الأراضى إلى ممتلكاتهم بزعم ضمها رفات أنبيائهم، وهذه افتراءات لا تصمد أمام أى بحث تاريخى جاد.

□ □ □

ريادة الثورة فى الأعمال

غارى هاميل

تعريب: مروان أبو حبيب

الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٢، ٥٠٥ صفحات

المؤلف الذى سبق له أن ألهب خيال مديرى الشركات الراغبين - أو الذين يتحتم عليهم - أن يدخلوا سوق المنافسة العالمية بكتابه «المنافسة من أجل المستقبل»، يسوق الحجج فى هذا الكتاب الجديد على أن الشركات إذا أرادت أن تحقق ازدهارًا فى السنوات المقبلة، فإن عليها أن تتبنى برنامجًا راديكاليًا.

خطوات عديدة يشرحها المؤلف لتحقيق الثورة فى إدارة الشركات، وتحت عنوان «كيفية البدء بالعصيان» نبدأ الخطوات: الخطوة الأولى أن يدرس المدير المتغيرات فى العالم والفرص التى تتيحها هذه المتغيرات.

وينبه المؤلف الراغبين فى التغيير الإدارى إلى أنه لا يكفى أن يكون لديهم أيديولوجية للتغيير وإنما ينبغى أن يتمتعوا بالقدرة على نقلها للآخرين، فالأفكار مثل العدوى تنتقل من فرد لآخر، وأن هذه الأيديولوجية يجب أن تخاطب القلب والعقل معًا كى تصبح أخاذة وأكثر تأثيرًا. والخطوة الثانية هى تحديد الأهداف كتابة وبعبارات بسيطة وقوية تتيح للعاملين تداولها بسهولة.

والخطوة الثالثة هى إنشاء تحالف يعمل مع الإدارى الناجح صاحب الأفكار التقدمية، فهو لن يتمكن من تحقيق أهدافه بمفرده، ومن ثم فيجب أن يؤازره تحالف يضم الموالين لأفكاره.

والخطوة الرابعة هى التقاط اللحظة المناسبة لتنفيذ هذه الأفكار الجديدة لضمان أن تؤتى ثمراتها بأقل خسائر ممكنة، والخطوة الخامسة هى ألا يجد فيه رفقاء العمل من المديرين الآخرين منافسًا يشير إلى قصورهم وتقاعسهم بقدر ما

اعترافات حافظ نجيب

الناشر: دار الحسام، ١٩٩٦، ١٨٣ صفحة

هل كان مقدرًا لأوراق صفراء قديمة كتبها صاحبها قبل ما يزيد على نصف قرن أن تحدث كل هذه الجلبة؟

هل توقع «المغامر» كاتب المذكرات أن تشعل يومياته خيال فنان فيجد فيها ما يستحق أن يروى تمثيلاً؟

هل قاربت أحلام حافظ نجيب (الأصل) ومحمد صبحى (الصورة) فى أقصى حالات شططها وانفلاتها، أن يحتدم الجدل حول دراما «فارس بلا جواد» إلى حد الأزمة السياسية، وأن يتبادل رؤساء الدول المخاطبات بشأنها توضيحًا وتفسيرًا؟

أغلب الظن أن لا، لكن ذلك كله جرى، وتحولت مغامرات حافظ نجيب أو ذكرياته من أوراق ملقاة لدى أحد باعة الكتب القديمة بسور الأزبكية، إلى حدث ملأ الدنيا وشغل الناس.

مهدت لهذا الجدل حملة إعلانية ضخمة سبقت المسلسل بشهور، بشّرت بـ «دراما نضالية»، تفضح ممارسات الصهيونية العالمية وتكشف مخططاتها، مما استفز الصهاينة فى أمريكا وخارجها، فطالبوا بإجراءات عقابية ضد مصر التى سمحت بعرض هذه الدراما العنصرية.

بعيدًا عن هذا كله، وبعيدًا حتى عن سطحية المسلسل وركاكة لغته الدرامية، فإن مذكرات حافظ نجيب تكشف البون الشاسع بين ما خطه صاحب المذكرات نفسه، والصورة التى طلع بها على الناس.

أول ما يصدم قارئ المذكرات المتابع لسيرة حافظ نجيب على الشاشة هى صورة الأب، ففيما يبدو حنونًا عطوفًا شديد الاعتداد بكرامته ومصريته على الشاشة، يراه ابنه - فى مذكراته - قاسيًا متلافًا بلا أخلاق، لم يعترف بفضل مَن ربوه، الباشا التركى الذى التقطه من الشارع وزوجته، وكلاهما احتضنه ورбياه وزوجاه من ابنتهما، وبدلاً من أن يرد لهما الجميل، عاد مخمورًا ذات ليلة إلى القصر وحاول دخول غرفة الأبوين، ولما اعترضته الخادمة راودها عن نفسها فأبت، استفزت الجلبة الباشا فطرده من قصره.

أما الأم فتفرط المذكرات فيما لاقته من قسوة على يد الجدة إلى حد إصابتها بالعمى وتشغيلها مع الخدم حتى وفاتها محترقة عقابًا على إخلاصها لزوجها الفاسد، الذى لم يضيع وقتًا فتزوج من أخريات بينهن حبشية عاش معها الابن (حافظ) على الكفاف إلى أن ألحقه أبوه بمدرسة عسكرية مجانية.

وليس أدل على كراهية حافظ لأبيه من هذه العبارة التى ترد تعليقًا على وفاة أمه.. «كانت النتيجة فقدها البصر ثم الحياة، فماتت شهيدة الإخلاص لمن لا يستحقه».

الصورة التى يقدمها حافظ عن نفسه وبخط يده هى صورة مغامر لا مناضل، بارع فى نصب شباكه حول النساء وإيقاعهن فى براثنه، وفى كل مرحلة من مراحل حياته التى قضى سنوات منها مسجونًا لتهم النصب والاحتيال، كان مسنودًا بدعم مادى ومعنوى من امرأة أو أكثر، فالأميرة الروسية فرنسكى هى التى أتاحت له الدراسة العسكرية فى فرنسا والتحاقه بالمخابرات الفرنسية فيما بعد. ولما فشل فى المهمة الوحيدة التى أسندت إليه عاد إلى القاهرة بلا عمل ولا مأوى، ليعيش فى كنف الراقصة حميدة ويقيم معها بصفة دائمة، ويصاحب فى الوقت نفسه «ألكنسدرا فرينو» صاحبة مجلة «أنيس الجليس» والتى كانت على صلة قوية بالعائلة المالكة فى مصر، والتى اتهمته بسرقة أحد نياشينها. وكشف صديقه السورى «جورج طنوس» عن أنه أهدى النيشان إلى الراقصة حميدة. كما كشف كثيرًا من حياته الماجنة فى كتاب أصدره عنه جعل عنوانه «نابغة المحتالين»، يحتوى على عديد من عمليات النصب التى مارسها حافظ حتى على «الحوذية» الذين تقدم ستة منهم فى يوم واحد ببلاغ إلى الشرطة ضده، فقد كان يركب الحنطور يلف به شوارع القاهرة بالساعات ثم ينزل أمام أحد المحلات أو المقاهى ذات البابين، فيدخل من باب ويخرج من الآخر دون أن يدفع الأجرة.

يذكر طنوس أيضًا أن حافظ سافر إلى دمياط سنة ١٩٠٤ وادعى أنه السكرتير الأول لسفارة فرنسا بالقاهرة ونصب على أحد الشعراء وحصل منه على مبلغ كبير، كما نصب على أحد رؤساء الأديرة التى دخلها بوصفه راهبًا واستولى من الرجل على ستمائة جنيه وهو مبلغ ضخم بمعايير ذلك الزمن، كما أن هروبه إلى دير المحرق واختفاءه فيه وتنكره فى زى راهب لم يكن بدوافع وطنية أو بسبب مطاردة الجنود الإنجليز، وإنما بسبب جرائم النصب التى اتهمته فيها بنات الهوى وراقصات المقاهى العامة!

وبعيدًا عما كتبه طنوس عن حافظ نجيب، فإن حافظ نفسه لم يدع فى مذكراته وطنية من أى نوع، ولم يبد ندمًا لعمله فترة فى المخابرات الفرنسية، ولم يذكر مرة واحدة شيئًا عن بروتوكولات حكماء صهيون. وهذا مما يتسق مع طبيعة المرحلة، إذ أن مذكرات حافظ نجيب تنتهى فى يناير عام ١٩٠٨ قبل صدور وعد بلفور وبدء الاهتمام بالمسألة الصهيونية بتسع سنوات. أما ادعاءات حافظ نجيب بأنه دخل الدير بترتيب مع أحد الزعامات الوطنية الكبيرة (يقصد مصطفى كامل أو محمد فريد) متنكرًا فى زى الراهب غالى جرجس، فليس ثمة ما يؤكدها حتى داخل المذكرات نفسها.

وتبرهن واقعة دفنه حيًا ثم تحطيمه جدار القبر بأدوات كان وضعها إلى جواره «سلفًا»، ليظهر بعد ذلك بزى آخر واسم آخر ويتزوج من الكونتيسة الإسبانية رائعة الجمال «سيجريس»، إننا أمام خيال مبدع تتشابك عنده الحدود الفاصلة بين الحقيقى والمتخيل إلى حد مذهل، وخصوصًا أن حافظ نجيب كتب شعرًا وترجم كتابين فى الفلسفة وكتب مغامرات على شاكلة مغامرات أرسين لوبين جعل عناوينها (صريحة هكذا «مغامرات حافظ نجيب».

نحن إذن أمام شخصية مغامرة درامية بامتياز، تتماهى بداخلها وقائع حياتها بهواجس النفس وتخيلاتها وأمنياتها على نحو مدهش، وأغلب الظن أن المذكرات تحمل من هذا وذاك بمقادير مختلفة.

عماد الغزالى

عــــــروض مـــــوجــــزة

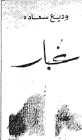
يرون فيه باعثًا على التجديد لمصلحة المجموع. والخطوة السادسة هى أن يكون لأفكارك «مترجم» أى ناقلاً أمينًا وهو واحد أو أكثر من بين مشايعينك. والخطوة السابعة هى ألا تفرط فى تقديم الوعود، وتعلم أن تربح قليلاً ومبكرًا كى تبقى رابحًا دائمًا. وأخيرًا فإن المكافح من أجل التغيير ينبغى أن يتحلى بعدة صفات شخصية مهمة منها الصدق وتجاوز النزعة المصلحية الشخصية الضيقة وحب المغامرة مع القدرة على تحمل المخاطر المحتملة.

□ □ □

غبار

وديع سعادة

بيروت: دار المسار. ٢٠٠١



العابرون سريعًا جميلون. لا يتركون ثقل ظل.

ربما غبارًا قليلاً، سرعان ما يختفى.

الأكثر جمالاً بيننا، المتخلى عن حضوره. التارك فسحة نظيفة بشغور مقعده، جمالاً فى الهواء بغياب صوته. صفاء فى التراب بمساحته غير المزروعة. الأكثر جمالاً بيننا: الغائب.

ربما يلخص هذا النص من «جمال العابر» والذى يجىء على الغلاف الأخير للكتاب الذى يضم ثلاثة عشر نصًا، بينها نص «النسيان» يتضمن ثمانية تنويعات على اللحن ذاته، منها: مأساة الذاكرة وذاكرة الرغبة وذاكرة الوصول.

يحيى وديع سعادة الغبار وتضجره الأصوات والرغبات والغايات وراغبو الوصول إلى المحطات وأصحاب الذاكرة.. «الذاكرة تعيق الراغبين فى الموت. وتجعل الراغبين فى الحياة موتى».

وربما لهذا هو يُجل المنتحرين الذين «كلما سقط واحد منهم فى الماء ولدت موجة، وكلما هوى واحد فى فضاء هبّت نسمة. المنتحرون يبتكرون بحارًا ورياحًا جديدة.

النصوص تبحث فى بلاغة الصمت وعبقرية اللاجدوى ورجاحة الجهل.. فـ«كل معرفة قلق، كل جهل اطمئنان» و«العارف يهلك فى قلق معرفته، أما الجاهل فيهلك فى اطمئنان الجهل».

النصوص تحفل بالهامشى والمنسى والعابر وتكشف عن الجمال الكامن فى الوحدة والشرود والعزلة وفقدان الذاكرة، وترى «المنحرفون الذين ماتوا فى المصحات أو فى السجون، هم آباؤنا الحقيقيون» و«المنبوذون هم رئة الحياة، قلب الحياة، هم العالم».

□ □ □

محاكم التفتيش فى إسبانيا

رمسيس عوض

القاهرة: مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، ٢٠٠٢، ٢٦٠صفحة



مهد آباء الكنيسة العظام من أمثال القديس أوغسطين وتوماس الإكوينى لظهور محاكم التفتيش، فهما اللذان طالبا بضرورة موت المهرطقين كى لا يصبحوا خطرًا على المؤمنين. وفى القرن الثانى عشر زادت الهرطقات والمهرطقين بدرجة كبيرة خصوصًا فى جنوب فرنسا، وعقد البابا «إنسونت الثالث» العزم على استئصال شأفة الهرطقة لا من فرنسا فقط وإنما من أوروبا كلها.

وفى هذه الظروف لقى كثيرون حتفهم حرقًا فى فرنسا وإيطاليا وسواهما من دول أوروبا بزعم أنهم مهرطقون، وفى العام ١٢٣٢ أنشأ البابا جريجورى التاسع أول محكمة تفتيش، وهذا البابا نفسه هو الذى أوعز إلى الإمبراطور فردريك بالقيام بحملة صليبية فى العام ١٢٢٧ لاستعادة بيت المقدس من المسلمين، وفى عهده سُنّت القواعد التى تبنتها محاكم التفتيش فى أوروبا كلها، والتى بمقتضاها كان الحرق هو عقاب أى مهرطق يرفض التوبة.

لكن لماذا كانت محاكم التفتيش الإسبانية هى الأكثر عنفًا وضراوة بين محاكم التفتيش الأوروبية، يقول المؤلف إن الاستعمار المتكرر لإسبانيا من شعوب وجنسيات مختلفة، ربما كان هو السبب فى أن ملكها فرديناند الخامس وملكتها إيزابيلا يتطلعان إلى إنشاء محاكم تفتيش قوية تعيد للبلاد وحدتها وتماسكها، وهكذا تعاملا بعنف بالغ مع المسلمين بعد القضاء على آخر معاقلهم فى غرناطة، وكذلك تعرض اليهود لمجازر أودت بحياة عشرات الآلاف منهم.

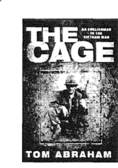
المؤلف يورد تفاصيل كثيرة عن مجازر محاكم التفتيش الإسبانية وآليات عملها ويشير إلى ملاحظتين لافتتين، هما استمرار المعارضة لمحاكم التفتيش رغم ضراوتها، وخلو إسبانيا من المذهب البروتستانتى والحركات الإصلاحية، ويخصص فصلاً من فصول كتابه الثمانية عن حالة الآداب والفنون فى ظل محاكم التفتيش الإسبانية، ودورها فى حرق كثير من الكتب والمؤلفات، وعمليات الرقابة الواسعة التى مارستها على العقول والكتابات.

كتب أجنبية

The Cage
An Englishman in The Vietnam War

(القفص.. رجل إنجليزى فى حرب فيتنام)

Tom Abraham
Bantam Press, 2000, 299PP., £16.99



القصة المحيطة بهذا الكتاب ربما تكون أكثر إثارة من الكتاب نفسه، رغم أنه لا يخلو من مادة ثرية ومثيرة وأحيانًا مرعبة، فالمؤلف إنجليزى هاجر مع والديه إلى الولايات المتحدة فى سن ١٩ والتحق بالجيش الأمريكى وحارب وجرى أسره فى فيتنام وحصل على عديد من الميداليات من الحكومة الأمريكية تقديرًا لدوره فى تلك الحرب. وبعد عودته من فيتنام بدأ حياة جديدة، فقد تزوج وأصبح أبًا ثم نجح فى عالم الأعمال والتجارة، وبدأ المؤلف توم إبراهام كما لو كان قد نسى كابوس ماضيه فى فيتنام لكن بعد ٣٠ عامًا من نهاية هذا الكابوس بدأ توم بشرب الخمور بحدة لدرجة جعلته يدخل فى مشاكل عنيفة مع البوليس. وتعرض لسلسلة من الكوارث حيث فقد كل شىء تقريبًا.. أسرته ومنزله واحترامه لنفسه. وتدريجيًا أدرك أن جروحه النفسية والعاطفية من جراء حرب فيتنام لم تندمل بعد. وفى محاولة لإعادة بناء نفسه كان على توم أن يواجه هذه الذكريات المريرة من خلال التخلص منها بسكبها على الورق.

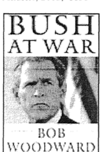
إن الكتاب يحيى قصة توم فى الحرب والألم الذى تركه سجنه على أيدى الفيتناميين، وللغرابة فإن الأسر أو السجن لم يدم سوى أسبوع واحد تمكن بعده من الهرب، لكن المؤلف خلال تلك المدة الشديدة القصر تعرض لتعذيب هائل، فقد تم وضعه فيما يشبه القفص وإذا تذكرنا أن هناك من الأمريكيين من أمضى سنوات فى الأسر الفيتنامى لأدركنا كم كانت المدة التى قضاها المؤلف فى الأسر قصيرة بشكل لا يقارن إلا أن التأثيرات التى تركتها كانت على ما يبدو شديدة التأثير لدرجة أن توم لم ينسها بعد أكثر من ٣٠ عامًا.

□ □ □

Bush At War

(بوش محاربًا)

Bob Wood Ward
Simon and Schuster, 2002,400PP



أخيرًا أدركت المؤسسة السياسية فى أمريكا كيفية التعامل مع الصحفى الشهير بوب وود وورد الذى تمكن من خلال التحقيقات التى نشرها مع زميل له فى صحيفة «واشنطن بوست» من القضاء على رئاسة ريتشارد نيكسون فيما عرف «بفضيحة ووتر جيت» لقد ظل وود وورد يحوم فى كتاباته حول السلطة الرئاسية فى الولايات المتحدة ولكن بدلاً من أن يبتعد عنه السياسيون الأمريكيون ويختفون منه، فإنهم دعوه إلى فنجان شاى وتحدثوا معه. وبعد أن كان هذا الصحفى الشهير يناضل بكل ما أوتى من موهبة وقدرة للحصول على المعلومة فإن هذه المعلومة أصبحت فى متناول يديه ومن أكبر السياسيين وفى مقدمتهم الرئيس الأمريكى جورج بوش الذى تحدث معه طويلاً فى مزرعته بتكساس عن أسلوبه فى إدارة شئون البلاد خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر.

إن الكتاب «بوش محاربًا» ملئ بالاقتباسات من أهم المسئولين فى إدارة بوش سواء فى البيت الأبيض أو المخابرات المركزية أو وزارة الخارجية كما أنه يحتوى على مذكرات وأوراق صادرة عن البنتاجون وهيئات أخرى وتتضمن معلومات لا تقدر بثمن وعلى سبيل المثال فقد كشف كوفر بلاك مدير فريق مكافحة الإرهاب فى المخابرات المركزية أنه أبلغ أحد أبرز جواسيسه بأنه يريد رأس أسامة بن لادن فى صندوق لكى يراها الرئيس بوش بنفسه، إلا أن أهم ما فى الكتاب هو التفاصيل التى أوردها المؤلف عن الصراع بين جناح الصقور بقيادة ديك تشينى نائب الرئيس وجناح الحمائم بقيادة كولين باول وزير الخارجية ومحاولات الصقور تقويض سلطة باول بإقناع الرئيس بأن الأفكار التى يطرحها باول، ومن بينها ضرورة عرض قضية العراق على مجلس الأمن قبل أى ضربة مرتقبة، ليست فى صالح واشنطن، وكيف نجح باول فى النهاية فى اكتساب ثقة الرئيس. إن أمورًا كثيرة فى هذا الكتاب كان يمكن أن تبقى فى السر إلى أن يتم الكشف عنها بعد سنوات طويلة بمقتضى قانون الوثائق.

□ □ □



Russia: Experiment With A People from 1991 th The Present

(روسيا: تجربة مع شعب من ١٩٩١ حتى الآن)

Robert Service

Macmillan, 2002, 408PP., £ 20.00



في أكتوبر الماضي، احتفل الرئيس الروسي فلاديمير بوتين بعيد ميلاده الخمسين، وقد قدم إليه مجموعة من المعجبين الروس به هدية نادرة باهظة الثمن عبارة عن مجسم للتاج الذي وضعه على رأسه أول قيصر روسي وهو إيفان الرهيب وتكلف المجسم ١٠ ملايين دولار. ويثور التساؤل هل بعد كل الأحداث الدموية الرهيبة التي تعرضت لها روسيا على مدى القرن الماضي لازال هناك من الروس من يريد قيصرًا أو على الأقل شخصًا يتصرف مثل قيصر؟

منذ أن أصبح بوتين رئيسًا، أعاد الحكم المركزي وقص أجنحة حكام الولايات والمناطق وصعد حملته على الشيشان وضيق على وسائل الإعلام والصحفيين وأيضًا زاد من مكانة روسيا خارجيًا وحتى بعد انتهاء احتجاز الرهائن في نوفمبر الماضي والذي أسفر عن وفاة أكثر من ١٢٠ رهينة بغاز القوات الخاصة الروسية فإن شعبية بوتين مازالت في قمتها.

ويحاول مؤلف هذا الكتاب أن يكتب تاريخًا لروسيا من ١٩٩١ ليحاول أن يفسر لماذا يحدث كل ذلك. لقد كان جورباتشوف ويلتسن الشخصيتين الرئيسيتين في بداية التسعينيات في روسيا فمن جانبه كان جورباتشوف في نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات مازال ملتزمًا بالشيوعية ويحاول الإصلاح إلا أن يلتسن هو الذي امتلك «حسب المؤلف» شجاعة كبيرة في إنهاء الاتحاد السوفيتي والانتقال بروسيا إلى النظام الرأسمالي وأعطى جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق الاستقلال، لكن كوارث يلتسن كانت معروفة للجميع فقد قصف البرلمان الروسي عام ١٩٩٣ وغزا الشيشان عام ١٩٩٤، وفشل فشلاً ذريعًا، ثم اندلعت في عهده أزمة الروبل عام ١٩٩٨ وأحاط نفسه بشلة سيئة، ثم إنه كان سكيرًا وجعل من نفسه مثار سخرية الآخرين.

وفي ٣١ ديسمبر ١٩٩٩، استقال من الرئاسة وطالب الشعب بأن يسامحه على أخطائه الهائلة، ثم جاء بوتين فحاول أن يعيد الكرامة الروسية ويلملم أشلاء الوطن الباكي على أمجاد الماضي.

إن في روسيا حاليًا نوعًا من الحنين إلى الماضي إلى روسيا القوة المهابة الجانب لكن مع ذلك فإن المخاطر لازالت قائمة، فبينما لدى البلاد ثروات هائلة فإن ٤٠٪ يعيشون تحت خط الفقر والبنية الأساسية على وشك الانهيار والمشاكل الاجتماعية في تصاعد مستمر.

ويقول المؤلف: ربما يحاول بوتين أن يعيد الثقة في الروس وأن يوقف نزيف التدهور وأن يعطي لبلاده دورًا على المسرح العالمي، لكن ذلك كله لا يعني أن روسيا ستعود كما كانت قوة عظمى.

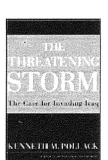
□ □ □

The Threatening Storm.. The Case For Invading Iraq

(العاصفة المتوعدة.. حجة غزو العراق)

Kenneth M. Pollack

Random House, 2002, 494PP., $25.95



يقدم كينث بولاك مؤلف الكتاب، والذي عمل محللاً في المخابرات المركزية الأمريكية، ثم مدير شئون الخليج في مجلس الأمن القومي الأمريكي، ما يعتبره حججًا قوية لتبرير غزو العراق. وهو يجادل بأن إرسال حوالي ٢٠٠ ألف جندي أمريكي لغزو العراق ليس أمرًا مرغوبًا فيه، لكن الغزو، حسب رأيه، هو أقل الخيارات ضررًا. إن الغزو هو الخيار الوحيد، كما يقول بولاك، لإنهاء موقف خطير. ويتصاعد خطره مادام صدام حسين في السلطة.

ويشير المؤلف إلى أن سياسة الاحتواء التي أعقبت حرب الخليج ١٩٩١ وتعتمد على فرض عقوبات اقتصادية واستمرار التواجد العسكري الأمريكي في الخليج ومواصلة فريق التفتيش الدولي عمله، تآكلت بسرعة.

إن التواجد الأمريكي الحالي في الخليج يثير استياء المواطنين، كما أن العنصر الأهم في سياسة الاحتواء وهو فريق التفتيش على أسلحة الدمار العراقية توقف عن العمل عام ١٩٩٨، وفي نظر المؤلف فإنه لن يكون فعالاً لو تمت إعادته للعمل مرة أخرى.

ما العمل؟ يستعرض بولاك كل الخيارات من فعل لا شيء إلى عمل عسكري يعتمد على المعارضة العراقية ومدعوم بضربات جوية على غرار ما جرى في أفغانستان ضد نظام طالبان.

ويتناول مميزات وعيوب كل خيار. ثم يخلص إلى أن العمل الوحيد العملي أمام الولايات المتحدة هو القيام بغزو شامل للعراق لتحطيم القوات المسلحة العراقية وإسقاط نظام صدام حسين والتخلص من أسلحة الدمار الشامل.

ويعدد بولاك المزايا التي ستنجم عن التخلص من صدام حسين وأهمها قيام نظام ديمقراطي على النمط الغربي، لكنه رغم كل تلك الحجج لا يركز على سؤال أساسي وهو.. هل يمثل العراق بالفعل تهديدًا خطيرًا للولايات المتحدة والعالم الحر كما يقول بولاك؟ بمعنى هل بقي لدى صدام أسلحة دمار شامل بعد كل عمليات التفتيش التي تمت وبعد أن أكد خبراء في فريق التفتيش أن ما لا يقل عن ٩٥٪ من ترسانة أسلحة الدمار العراقية جرى التخلص منها؟

ثم إن بولاك لا يعير المعايير والمواثيق الدولية الكثير من الاهتمام، فالقضية واضحة أمامه وهي أن على أمريكا أن تغزو العراق وتتخلص من صدام حتى لو أدى ذلك إلى إثارة استياء الرأي العام العالمي والأوروبي بشكل خاص، ومسألة احترام واشنطن لسيادة الدول أو دور الأمم المتحدة ومجلس الأمن أمر غير ذي جدوى في نظر المؤلف، لقد أعطى بولاك رأيه المؤيد بشدة لغزو العراق دون أن يتساءل عن عواقب ذلك على الشرق الأوسط والعالم.

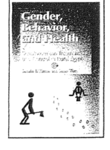
□ □ □

Gender, Behavior and Health Schistosomiasis Transmission and Control in Rural Egypt

(النوع، السلوكيات والصحة.. البلهارسيا، الإصابة والوقاية في ريف مصر)

Samiha El Katsha and Susan Watts

Cairo-Auc Press, 2002, L.E 75.00



اعتمد هذا الكتاب على نتائج الدراسة الميدانية المتعمقة أجرتها المؤلفتان عن مرض البلهارسيا، تلك المشكلة ذات الأبعاد المتداخلة والتي تعتبر من أهم المشاكل التي تواجه الصحة العامة في ريف مصر. وتم إجراء هذه الدراسة في قريتين بدلتا النيل وذلك في الفترة من عام ١٩٩١ حتى عام ١٩٩٧ بدعم من مشروع بحوث البلهارسيا بوزارة الصحة والسكان وتحت إشراف مركز البحوث الاجتماعية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

وروعي في تكوين فريق الدراسة أن يكون متعدد التخصصات حيث اشتمل على متخصصين في علوم الاجتماع والأنثروبولوجيا والأوبئة والإصحاح البيئي حتى يمكن دراسة هذه المشكلة من جوانبها وزواياها المتعددة.

بدأ مشروع الدراسة بالتركيز على مدى تأثير المياه الآمنة والبيئة على مدى الإصابة بمرض البلهارسيا، وفي ضوء تطور الدراسة قام فريق البحث بالتمحيص والبحث والتعرف على الصورة الكلية لمرض البلهارسيا، السلوك البشري تبعًا للنوع والوضع البيئي في مجتمع الدراسة، وذلك للوقوف على كيفية انتقال المرض، التشخيص والعلاج والاستراتيجيات والآليات الممكنة للتحكم ولتجنب الإصابة بمرض البلهارسيا.

إن دراسة الظروف المحلية المحيطة المرتبطة بالتعرض للإصابة بمرض البلهارسيا تأخذ في الاعتبار الربط والجمع بين الظروف البيئية التي تعمل على استمرارية دورة حياة البلهارسيا.

ويحاول علماء الاجتماع تفهم أسباب إصرار الناس على ممارسة هذه السلوكيات التي تعرضهم للإصابة بالرغم من إدراكهم لخطورة انتقال هذا المرض فيما بينهم. إن الإصابة بهذا المرض هي سلوك بشري ولا تتم بصورة عشوائية حيث إنها ذات نمط اجتماعي تتم على نفس المنوال، إنها نتيجة للأنشطة الحياتية اليومية التي تمارس بواسطة الفئات المختلفة من أفراد المجتمع كل في موقعه ووفقًا لوضعه ومكانته الاجتماعية.

إن أحد الأهداف الرئيسية لهذا الكتاب هو التركيز على سلوكيات النوع (جندر) والأدوار التي يلعبها كل منهما في القرية بوجه عام. وفيما يتعلق بمرض البلهارسيا ـ على وجه الخصوص ـ يتم التركيز على السمات الاجتماعية والثقافية والوضع الاقتصادي للنوع (جندر) ومدى ارتباط ذلك وعلاقته بانتقال مرض البلهارسيا، والتشخيص والعلاج والوقاية من التعرض للإصابة بالمرض. لقد تبين من دراسة سلوكيات النوع (جندر) بأن لكل منهما أدوارًا متميزة وواضحة وتوقعات يكمل بعضها البعض الآخر حتى لو كانت ـ أحيانًا ـ تبدو في نفس الوقت متعارضة.

ولقد قام الباحثون في فريق العمال بالتعرف على معلومات العاملين في القطاع الصحي فيما يتعلق بصفة خاصة بالتعامل مع مرض البلهارسيا، وملاحظة ممارساتهم الفعلية اليومية أثناء أدائهم للأعمال الموكولة إليهم من حيث الفحص وتقديم العلاج والمتابعة الدورية للحالات المصابة، مع العمل معهم وإشراكهم في كيفية الارتفاع بكفاءة وفعالية هذه الممارسات في حدود مسئولياتهم والإمكانات المتاحة.

□ □ □

قـــــراءات جـــــــديـدة

"اجتماع"

ضرب المرأة (وسيلة لحل الخلافات الزوجية)

عبد الحميد أحمد أبو سليمان

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

هل ينهي ضرب المرأة خلافات الزوجين ويقدم الحل المناسب لهما، وهل يعني الضرب القسوة البالغة التي تنال من جسد المرأة ومن كرامتها، في زمن ترتفع فيه الأصوات المطالبة بمزيد من الحقوق للمرأة ووضعها في مكانتها اللائقة.

المؤلف يجيب عن عديد من الأسئلة ذات الصلة بالموضوع خصوصًا تلك التي تتردد في دوائر غربية، ويزيل اللبس عن بعض المفاهيم الخاطئة عن الإسلام في الغرب.

"اقتصاد"

Beyond Sweatshops: Foreign Direct Investment and Globalization in Developing Countries

(الاستثمار الأجنبي المباشر والعولمة في الدول النامية)

Theodore H. Mooran

Brookings Press, 2002, 224P, $ 18.95

يحارب المعارضون للعولمة الاستثمار الأجنبي المباشر في الدول النامية بسبب صور استغلال العمالة الرخيصة في المصانع التي تقام في هذه الدول، خاصة تلك التي تنتج الملابس والأدوات الرياضية والأحذية ولعب الأطفال. حيث يعاني العمال في هذه المصانع من ضآلة الأجور وظروف العمل الضارة صحيًا ونفسيًا. لهذا يقوم الكتاب الذي يدافع عن العولمة بالتأكيد على فوائد الاستثمار الأجنبي المباشر في تحقيق النمو والرفاهية في المجتمعات النامية، مع تقديم عدة حلول عملية لوضع قوانين وضوابط تمنع من استغلال العمال. ويشير الكتاب إلى أن الاستثمار الأجنبي المباشر في الصناعات المتقدمة مثل الدواء والإلكترونيات والسيارات يتطلب عمالة مدربة وبالتالي ليس من السهل استغلالها.

■■■

A Consumers Republic: The Politics of Mass Consumption in Postwar America

(جمهورية المستهلكين: سياسات الاستهلاك الجماهيري في أمريكا ما بعد الحرب العالمية)

Lizabeth Cohen

Knopf, 2003, 480PP, $ 32.50

تشكلت حياة الأمريكيين بعد الحرب العالمية الثانية على نظم اقتصادية وسياسية واجتماعية تعمل بافتراض أن الاستهلاك الجماهيري الكبير سوف يحقق الرفاهية والمساواة الاجتماعية.

في هذا الكتاب تحاول المؤرخة اليزابيث كوهين إثبات إخفاقات ثقافة الاستهلاك في مجال تحقيق المساواة الاجتماعية، خاصة مع التطور الذى لحق بأساليب التسويق التي تستهدف شرائح معينة لبيع منتجات معينة وتسويق أسلوب حياة معين، مما يساهم في زيادة الفوارق والفواصل بين شرائح المجتمع المختلفة.

"بيئة"

The Voice of the Infinite in the Small: Re-Visioning the Insect - Htuman Connection

(إعادة تصوير علاقة الإنسان بالحشرة)

Joanne Elizabeth Lauck

Forward by: Thomas Berry

Shambhala, 2002, 320PP, $ 14.95

تشجع المؤلفة التي تعمل بمجال البيئة القراء على بذل الجهد من أجل فهم أعمق للحشرات. فالصلة التي تجمع الإنسان بالحشرة انقطعت، كما ترى المؤلفة، بسبب الثقافة التي تحفز على كراهية وقتل الحشرات، مما أدى إلى تلوث البيئة من فرط استخدام المبيدات والإخلال بالتوازن الحيوي الطبيعي.

الكتاب مليء بالمعلومات الشيقة عن الحشرات وما تتمتع به هذه الكائنات الصغيرة من صفات مميزة وحميدة، إلا أنه سيصعب على الكثيرين احتمال دعوة المؤلفة بأن نقبل أن يشاركنا البعوض في دمائنا من حين إلى آخر!

"تاريخ"

الشرق الأدنى في العصرين الهيللينستي والروماني

أبو اليسر فرج

القاهرة: دار عين، ٢٠٠٢

في هذين العصرين حدث تبادل وتلاقح حضاري وثقافي بين بلاد شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر، واستفادت حضارات المنطقة من بعضها البعض بما يؤكد حوار الحضارات لا تصادمها، وأثمر هذا الحوار فوائد جمة على الصعيد العلمي والفني والأدبي.

■■■

النبي ويهود المدينة

محمد الجميل

الرياض: مركز الملك فيصل، ٢٠٠٢

يدرس المؤلف العلاقة بين النبي ويهود المدينة، كيف استقبلوه في هجرته المباركة، وكيف كان وقع محاولاته لتوطيد أركان دولته الإسلامية، وهل كانوا فعلاً صادقين في إظهار المودة له أم كانوا يضمرون شرًا، وكيف تحالفوا لإسقاط دولته الوحيدة وهز أركانها وتأثير ذلك على الغزوات الإسلامية، ثم يعرض لبعض آراء المستشرقين في هذه القضية.

■■■

تاريخ طبرستان

محمد بن حسن بن اسفنديار

ترجمة: أحمد محمد النادي

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

يرسم المؤلف خريطة لمنطقة طبرستان في العصرين الأموي والعباسي وعصر الدويلات، متضمنة الأوضاع الاجتماعية والدينية والعلمية والسياسية، ويتضمن الكتاب ترجمة لكتاب «وتنرنامة» وهو من الوثائق المهمة ذات الصلة بتاريخ طبرستان.

■■■

Natasha's Dance: A Cultural History of Russia

(رقصة ناتاشا: التاريخ الثقافي لروسيا)

Orlando Figes

Henry Holt & Co, 2002, 729PP, $ 35.00

يشير عنوان الكتاب إلى مشهد من رواية تولستوي الشهيرة «الحرب والسلام». فالمؤلف يعود إلى الأدباء والفنانين والموسيقيين الروس لمعرفة كيف فهموا وعبّروا عن الروح الروسية، وحقيقة روسيا نفسها؛ فهل قلب روسيا في أوروبا أم في آسيا؟ وهل الشخصية الروسية تتجلى في عبيد الأرض الأميين أم في الثقافة الأوروبية لرجال البلاط الإمبراطوري؟ يمزج المؤلف في رصده لهذا التاريخ، الذي يتركز في الفترة من القرن الثامن عشر إلى نهاية المرحلة السوفيتية بين أعمال وأفكار تشيكوف ودوستويفسكي وسترافنسكي وبين التطريز الشعبي وأغاني الفلاحين والرموز الدينية، بالإضافة إلى العادات اليومية في المأكل والملبس والمعتقدات.

■■■

How the Scots Invented the Modern World: the True Story of How Western Europes Poorest Nation Created our World and Everything in It

(كيف اخترع السكوتلانديون العالم الحديث: قصة أفقر أمة في أوروبا الغربية وكيف أبدعت عالمنا وما فيه)

Arthur Herman

Crown, 2002, 400PP, $ 14.95 (pb)

يؤكد المؤلف إن إسهام السكوتلانديين في الحضارة الحديثة، خاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، يفوق إسهام أي أمة أخرى على الأرض. وقد تجلت هذه العبقرية السكوتلاندية التي يزعمها المؤلف في كل من آدم سميث الذي أرسى مبادئ اقتصاد السوق، والفيلسوف دافيد هيوم الذي أنتج فكرًا سياسيًا تأثر به مباشرة جيمس ماديسون في وضع الدستور الأمريكي. إلى جانب جيمس وات الذي اخترع في جامعة جلاسكو التكنولوجيا التي قامت عليها الثورة الصناعية وهي آلة البخار، وجون نوكس الذي أضاف إلى المذهب البروتستانتي سمات رئيسية تجلت بشكل واضح في الولايات المتحدة. يسترسل المؤلف حتى يصل إلى آرثر كونان دويل مبدع شخصية شيرلوك هولمز وينتهي بالعميل رقم ٧.. السكوتلاندي: جيمس بوند.

■■■

14 - 18: Understanding the Great War

(١٤-١٨: فهمًا للحرب الكبرى)

Stephane Audoin - Rouzeau and Annette Becker

Hill & Wang, 2002, 272PP, $ 24.00

قام الدارسون أو المؤرخون الفرنسيون في الخمس عشرة سنة الماضية بإنتاج مجموعة من الدراسات حول الحرب العالمية الأولى، غيرت كثيرًا من التصورات السائدة بين الدارسين والمؤرخين في الولايات المتحدة الأمريكية. هذا الكتاب قام بتأليفه اثنان من مديري «المتحف الفرنسي للحرب الكبرى» ويقدمان فيه أهم التحليلات والنتائج التي قدمتها الدراسات الفرنسية السابقة.

"تراث"

حرق الكتب في التراث العربي

ناصر الحزيمي

ألمانيا: دار الجمل، ٢٠٠٢

عرف التاريخ العربي ظاهرة إحراق الكتب وإعدام المخطوطات حتى من قبل مؤلفيها أنفسهم، بعض ما جرى من عمليات إحراق وتدمير كانت أسبابه سياسية وبعضها كانت له دوافع نفسية وشخصية.

■■■

رسالة الكلم العثماني

الشيخ حسين المرصفي

تحقيق: محمد حافظ دياب

القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠٢

نادى الشيخ حسين المرصفي في كتابه الذي ألفه عام ١٨٨١ في أعقاب ثورة عرابي بإلغاء الطبقية والنظام الإقطاعي، ورسم تصحيحًا للأوضاع السياسية والاجتماعية في مصر، وقد لاقى النص اهتمامًا من قبل المستشرقين الذين سعوا لتحليل الأوضاع في مصر.

"تعليم"

التخاطب والسمع والكلام

المجموعة الاستشارية لنظم المعلومات

القاهرة: لندن، ٢٠٠٢

عن الصعوبات التي يواجهها ذوو الاحتياجات الخاصة في التعلم والتأقلم مع الحياة، وكيف يمكن لأسر هؤلاء الأطفال أن يتعاملوا مع هذه الاحتياجات وينموا ذكاء أطفالهم وقدراتهم، كي يتواصلوا مع المجتمع ويصيروا أفرادًا نافعين.

■■■

القراءة وقاية وعلاج

عبد الغني عبود

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

تمثل القراءة أهمية لا تنكر لتربية جيل جديد، وهو ما جعل المنظمات الدولية وحكومات عديدة بينها مصر، تهتم بمشروعات تيسر القراءة للجميع، المؤلف يتعرض لأهمية القراءة في إنقاذ شبابنا من حالة التيه والضياع التي يعانيها، وكيف يمكن للقراءة أن تبني شخصيته وتوجه أهدافه.

■■■

قـــــراءات جـــــديـدة

Reaching Higher: The Power of Expectations in Schooling

(الطموح إلى الأعلى: أثر التوقعات فى عملية التعليم)

Rhona S. Weinstein

Harvard UP, 2002, 352PP, $ 39.95

يتناول الكتاب «نظرية التوقعات» فى مجال التعليم التى تتضمن أن التوقعات السلبية أو المنخفضة لأداء الطفل الدراسى يجعله يحقق النبوءة ويفشل بالفعل. وتحاول المؤلفة التى تعمل أستاذًا لعلم النفس بجامعة كاليفورنيا أن تقدم أفكارًا لتطوير نظام التعليم والتقييم، بحيث نتجنب تلك النبوءات التى تحقق ذاتها. فهى ترى أن هذه النتائج يخلقها مناخ وثقافة عامة داخل المدارس وفى مفهوم المجتمع بأكمله لمعنى الإنجاز. تنطلق جهود المؤلفة وأبحاثها فى هذا المجال من إيمانها بالمساواة فى فرص التعلم، وإمكانية أن يصل جميع الأطفال إلى إمكاناتهم وقدراتهم الكامنة.

" دوريات "

المناهل

مثقفون وكتّاب مغاربة

المغرب: وزارة الثقافة المغربية، ٢٠٠٢

يتناول هذا العدد من هذه الدورية المهمة جدل الحوار بين الأنا والآخر فى الإبداع المغربى وفى الواقعين السياسى والاجتماعى، ويلقى الضوء على جذور وتداعيات الأزمة المغربية الإسبانية الأخيرة، ٥٥٠ صفحة يشارك فيها عبد الله إبراهيم وعبد السلام الحيمر ومهنا يوسف حداد وآخرون.

■■■

Sight and Sound

(صوت وصورة)

London: The British Film Institute, January 2003

يتضمن عدد يناير من المجلة السينمائية الشهرية التى يصدرها معهد الفيلم البريطانى مجموعة من العروض النقدية للأفلام الصادرة حديثًا، إلى جانب عدد من التحقيقات والمقابلات الصحفية. من بين الأفلام التى يتناولها العدد فيلم «١١ سبتمبر» الذى شارك فيه مجموعة من المخرجين من كل أنحاء العالم ومن بينهم المخرج المصرى يوسف شاهين. كذلك يضم العدد مقابلة مع المخرج الفلسطينى إليا سليمان، وتحقيقًا واسعًا حول فيلم مارتين سكورسيز المنتظر «عصابات نيويورك».

■■■

Foreign Policy

(سياسة خارجية)

Washington D.C: Carnegie Endowment For International Peace

November/ December 2002

تصدر العدد الأخير من مجلة «فورين بوليسى» التى تهتم بالقضايا السياسية والاقتصادية الدولية، ملفًا بعنوان «سلة مهملات التاريخ». يطرح التساؤلات حول النظريات التى سيطرت على الخطاب السياسى فى القرن العشرين وما إذا كانت توارت نهائيًا أم لا. ضم الملف ستة مقالات بأقلام مفكرين غربيين معروفين تناولت بالترتيب كلاً من الماركسية، والقيم الآسيوية، والتدمير المتبادل، وحدود النمو، نظرية الاعتمادية، وأخيرًا العقدة العسكرية ـ الصناعية.

إلى جانب هذا احتوى العدد أيضًا على مقالات عن بارونات الإعلام الكبار، والانقسام السياسى الأوروبى ـ الأمريكى، ثم مقال يكتبه «حسين حقانى»، وهو خريج إحدى المدارس الفرعية، عن المعاهد الإسلامية التى انتشرت عالميًا، وما إذا كان لها دور فى دعم الإرهاب.

" دين "

قصة السفور والنقاب

محمد سلام زناتى

القاهرة: دار البستانى للنشر، ٢٠٠٢

ترتبط قضية السفور والنقاب بفكرة الاختلاط التى يرى المؤلف أنها كانت موجودة قبل الإسلام، ولم ينل منها التشريع الإسلامى الذى أبقى على الاختلاط مادام لا شبهة ضلال وإفساد فيه، وأما النقاب بالشكل الذى تغالى فيه بعض النساء فليس من الإسلام الذى لم يحدد زيًا محددًا للمرأة وإنما اشترط الحشمة فى الملبس.

■■■

مشكلة التأليه فى فكر الهند

عبد الراضى عبد المحسن

الرياض: دار الفيصل، ٢٠٠٢

تحتوى الهند بامتدادها الجغرافى وكثافتها السكانية على عشرات اللغات واللهجات فضلاً عن عشرات العقائد السماوية وغير السماوية، المؤلف يناقش الإله فى فكر الهند وكيف تطور هذا المعنى متأثرًا بحضارات وديانات أخرى.

■■■

Before the Flood: Dramatic New Evidence that the Biblical Flood was a Real Event

(قبل الطوفان: الأدلة الحديثة على أن طوفان الكتاب المقدس كان حادثًا حقيقيًا)

Ian Wilson

St. Martins Press, 2002, 352PP, $ 26.95

يشرح الكتاب الاكتشافات العلمية والأثرية التى ظهرت فى السنوات الماضية والتى تثبت وقائع طوفان النبى نوح التى ذُكرت فى الكتب المقدسة، وتضيف إليها بعض الملابسات والتفاصيل.

يقول ويلسون فى كتابه إنه فى حوالى عام ٦٠٠ قبل الميلاد، تسبب ذوبان الجليد الذى تبقى من أواخر العصر الجليدى فى تكون موجة كبيرة فى البحر الأبيض المتوسط غطت الأراضى الواقعة بين تركيا وأوروبا، مكونة مضيق البوسفور. هكذا غرقت المجتمعات الزراعية المحيطة بالبحر الأسود، وتشتت من نجا منها فى كل من مصر والعراق ومناطق أخرى فى الشرق الأوسط.

■■■

The Place of Tolerance in Islam

(مكانة التسامح فى الإسلام)

Khaled Abou El Fadl With Tariq Ali, Milton Viorst, John Esposito et al

Beacon, 2002, 128PP., $15.00

يقدم أستاذ القانون فى جامعة كاليفورنيا خالد أبو الفضل المقال الأول فى الكتاب عن التسامح فى القرآن، والآيات التى يساء تفسيرها من قبل غير المتسامحين، مبينًا التفسير الصحيح من وجهة نظره لهذه الآيات فى ضوء السياق التاريخى والسياق العام لتعاليم فى القرآن ذاته. يلى هذا مجموعة من الردود على مقال خالد أبو الفضل، بعضها من كتاب ومنظرين مشهورين مثل طارق على وجون إسبوزيتو وأمينة ودود وعابد علاجان. ينتهى الكتاب برد ختامى من خالد أبو الفضل يعلق فيه على الأفكار التى طرحها المشاركون فى هذا الحوار.

" رواية "

العيون السود

ميلسون هادى

عمان: دار الشروق، ٢٠٠٢

لوحتان متقابلتان للحياة فى الأراضى العراقية، يتبدى فيهما مشهد ما قبل الحرب العراقية وما بعدها. كيف أثرت الحرب فى الناس، كيف أثرت فى الشوارع والحوارى والبنايات، وكيف صاغت العلاقات بين البشر كما صاغت علاقات العراق بالمجتمع الدولى الذى صار محصورًا فى المفتشين الدوليين والرعب الذى يسببونه للناس هناك، وكيف سرق المفتشون الأمن والسلام من هذه البقعة من العالم.

■■■

الضنطاس، قصة حياة أمة

عمرو عبدالسميع

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣، ٢٣٩ص

أحدث رواية للصحفى والكاتب عمرو عبدالسميع الذى سبق أن قدم من خلال الأدب الساخر عددًا من الروايات التى تعكس الواقع الاجتماعى المعاصر فى مصر، ومن بينها روايات «الأشرار»، و«النسوان»، و«العنكبوت». تدور الرواية الجديدة حول شخصية «سمير متولى» الذى تتبعه الراوى فى مسيرته إلى الشهرة التى وصل إليها من خلال عمله فى «المركز الوطنى للدراسات» واستفادته من علاقاته بأمريكا وإسرائيل، وترويجه لفكرة «السلام».

■■■

بيروت ونهر الخيانات

محمد على اليوسفى

بيروت: دار الفارابى، ٢٠٠٢

رواية تجمع خلائط من عوالم متشابكة من الذكريات والأحلام والوقائع، تسعة فصول تدور فى هذا المزيج منها رواية عمران وأنا، عزوز المرداسى، ثمار على الضفتين، نهايات، القناع قبل الأخير، وغيرها.

■■■

مسك الليل

أحمد الشريف

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

عالم سحرى غريب ملىء بالمتناقضات، أبطاله من المهمشين الذين لفظهم الواقع ولفظوه، وبعضهم من المشردين المعتوهين غريبى الأطوار، هؤلاء هم من تحفل بهم قصص المجموعة، فتعيد إليهم الاعتبار بعد ما طردتهم الحياة خارج دوائرها المتباعدة.

■■■

Seek My Face

(فتش عن وجهى)

John Updike

Knopf, 2002, 288PP, $ 23.00

أحدث رواية للكاتب الأمريكى جون أبدايك الذى بلغ السبعين من عمره، وبلغ عدد رواياته العشرين. وهذه الرواية تدور أحداثها جميعًا فى يوم واحد طويل من خلال حوار صحفى بين صحفية شابة وفنانة كبيرة تبلغ من العمر ٧٩ عامًا. حيث تعود الفنانة الطاعنة فى السن إلى ذكريات حياتها وماضيها الذى يرتبط بأهم الحركات الفنية التى ظهرت فى القرن العشرين. حيث تحكى عن زواجها من فنان تجريدى عبقرى (مستمد من شخصية جاكسون بولوك الحقيقية)، ثم زواجها من فنان آخر ذى توجه ما بعد حداثى. (مستمد من شخصية الفنان الشعبى آندى وارهول الحقيقية).

■■■

Oscar Wilde Discovers America

(أوسكار يكتشف أمريكا)

Louis Edwards

Scribner, 2003, 304PP, $ 24.00

تصور روائى يركز على الرحلة التى قام بها الكاتب الأيرلندى الشهير أوسكار وايلد فى أمريكا عام ١٨٨٢. بطل الرواية ليس وايلد، وإنما الخادم الشخصى الأسود الذى صاحب وايلد فى رحلته.

" سياسة "

العولمة والإرهاب.. حرب أمريكا على العالم

مجموعة من الكتاب الأمريكيين

ترجمة: حمزة المزينى

القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٣

يضم هذا الكتاب مجموعة من المقالات لكتاب أمريكان بينهم أستاذ اللغويات الشهير نعوم تشومسكى والمعروف بمواقفه المساندة للعرب، وعلى نهج تشومسكى يسير المشاركون فى الكتاب، الذين يعلنون تمردهم على عمليات الابتزاز والتجهيل التى تقوم بها الجماعات الصهيونية فى دوائر صنع القرار داخل أمريكا وخارجها، والمحوران الأساسيان اللذان تدور حولهما مقالات الكتاب هما حرب أمريكا على العالم

قـــــراءات جـــــديـدة

وانتهاكها لمبادئ القانون الدولي وسعيها لتصدير القيم الأمريكية عبر منظمة التجارة العالمية، والمحور الثاني يدور حول المجازر الإسرائيلية في فلسطين والتستر الأمريكي عليها وتأثير ذلك على مصداقية أمريكا التي تقدم نفسها دومًا بوصفها زعيمة للعالم الحر ومنبر الديمقراطية في العالم.

■■■

أزمة الأقليات في الوطن العربي

حيدر إبراهيم - ميلاد حنا

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

جدل حول موضوع من الموضوعات المؤرِّقة في العالم وفي الوطن العربي على وجه الخصوص، وهو جدل لم يحسم بعد برغم الاجتهادات التي أطلقها البعض، والسجال هنا يحمل بالضرورة آراء مختلفة ربما إلى حد التضاد، لكنها تثرى الحوار حول هذا الموضوع المهم.

■■■

الثورة فوق الديمقراطية نحو حكم الفرد

محمد الجوادي

القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠٢

قراءة في مذكرات عدد من الضباط الأحرار مثل محمد نجيب وخالد محيي الدين وعبد المنعم عبد الرءوف وغيرهم، وتركز بالذات على آراء ومواقف الضباط الأحرار من فكرة الديمقراطية ورؤيتهم لها، وكيف غابت الديمقراطية في خضم الصراع بينهم، وكيف غابت عن مشروعهم برغم أنها جاءت ضمن مبادئهم الستة الشهيرة.

■■■

الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية

رشاد الشامي

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢

لم يتوقف الكيان الإسرائيلي بوصفه كيانًا استعماريًا استيطانيًا أبدًا عند حدود جغرافية بعينها، لكنه اتسم بسمات نفسية واضحة، هي نتاج عقود طويلة من الشتات والنبذ من مجتمعات أوروبا التي صدرت المشكلة اليهودية إلى منطقتنا العربية، بكل ما انطوت عليه الشخصية اليهودية من ميل للابتزاز والعنف والسيطرة، وهي سمات شكلت الروح العدوانية التي تتبدى في صراعهم الآن مع أصحاب الأرض الأصليين.

■■■

المجتمع المدني وأبعاده الفكرية

الحبيب الجنحاني - سيف الدين عبد الفتاح

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

مؤسسات المجتمع المدني رديف للدولة، تربط بين الحقوق والواجبات وتتيح فرصة الممارسة والعمل، إلا أن هناك تيارًا آخر يرى فيها تهديدًا لسلطة الدولة وتأثيرًا للتماسك الاجتماعي للجماعات على حساب الانتماء الوطني، فهل حقًا للمجتمع المدني كل هذا التأثير، وما هي أبعاده الفكرية؟

■■■

النص والسلطة في المجتمع

عمّار علي حسن

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ٢٠٠٢

يجيب الباحث عن عدة تساؤلات مهمة منها: هل يتأثر النص الروائي بالانتماء الطبقي والانحياز الأيديولوجي للأديب، وهل يتأثر بنمط السلطة القائم والأوضاع الاقتصادية ومدى انعكاس القيم الإيجابية مثل الحرية والمساواة والانتماء، وكذلك القيم السلبية كالانفلات والإكراه والجور والأنانية في الرواية السياسية العربية.

وهذه الكتب في الأصل أطروحة جامعية للمؤلف.

■■■

النهضة اليابانية المعاصرة

مسعود ضاهر

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢

تمثل النهضة اليابانية المعاصرة معجزة حقيقية في المجال الاقتصادي والتكنولوجي، ورغم ما تعرضت له اليابان من تدمير شبه كامل في الحرب العالمية الثانية، فإنها نجحت في تجاوز محنتها والوقوف بقوة في مصاف الدول العظمى وتجاوز أكثرها في معدلات التنمية والتطور، ما هي أسرار هذه المعجزة، وهل ثمة ما يفسرها من داخل التقاليد اليابانية والإرث العقيدي والتاريخي، هذا بعض ما يجيب عنه المؤلف.

■■■

بوش ضد العراق لماذا؟

ويليام ريفرزبيت

ترجمة: فاطمة نصر

دار سطور، ٢٠٠٢

برغم كل المساعي لتجنب ضربة أمريكية محتملة ضد العراق، وبرغم الإذعان العراقي الكامل لمطالب الأمم المتحدة التي توعز بها أمريكا وعمليات التفتيش المهينة لسيادة العراق، فإن بوش يصر على ضرب العراق، المؤلف يجيب عن السؤال: لماذا يقف بوش ضد العراق؟

■■■

ديمونة والترانسفير العاملان الوحيدان للحرب والسلام بين العرب وإسرائيل

محمد حسام الدين

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٢

يتناول الكتاب في جزءين فكرة تحويل مفاعل ديمونة الذري الإسرائيلي من سيف في يد إسرائيل على رقاب الحكومات العربية وفقًا لنظرية توازن القوى، إلى سيف في يد الشعوب العربية على رقبة إسرائيل وفقًا لنظرية توازن الرعب والإيلام.

لذا فإن إصرار شارون على تنفيذ عملية الترانسفير (الترحيل الجبري) للعرب من فلسطين، سوف يجعل العرب ييأسون من عملية السلام ويتحركون ضد ديمونة، مما سيؤدي إلى عملية الترانسفير لليهود من إسرائيل هربًا من الإشعاعات النووية، لذلك فعزل اليمين الإسرائيلي المتطرف برئاسة شارون هو الحل الوحيد للأمن والسلام بين العرب واليهود.

■■■

ضد الهيمنة

مصطفى عبد الله

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢

جمع المؤلف عددًا من المقالات التي نشرها في زاويته الأسبوعية بجريدة أخبار الأدب القاهرية ويتصل معظمها بقضية الحوار الثقافي بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ويرى المؤلف أن أخطر موضوع ينبغي التصدي له في الوقت الحاضر هو التصدي للمحاولة الغربية الظالمة لصنع صورة سلبية عن العرب والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية اعتمادًا على ضلالات وافتراءات كاذبة.

■■■

The Mission: America's Military in the Twenty First Century

(المهمة: العسكرية الأمريكية في القرن الواحد والعشرين)

Dana Priest

Norton, 2003, 384PP, $ 26.95

تحلل مراسلة الشئون العسكرية في جريدة الواشنطن بوست الدور المتنامي للعسكرية الأمريكية في مجال السياسة الخارجية، حيث أصبحت تحظى بمسئوليات وسلطات واسعة من جديد، يقابلها الإعداد اللازم والحكمة الواجبة. يركز التحليل بشكل خاص على القوة المتعاظمة لرؤساء الأركان الإقليميين منذ عاصفة الصحراء، إذا تجاوزوا هذا الدور ليصبحوا مستشارين سياسيين للإدارات المتعاقبة دون أن يطوروا سياسات خارجية متماسكة. تهتم المؤلفة بنموذج الجنرال أنتوني زيني كمثال بارز لهذه العملية.

■■■

World on Fire: How Exporting Free Market Democracy Breeds Ethnic Hatred and Global Instability

(العالم يحترق: كيف يؤدي تصدير ديموقراطية السوق الحرة إلى الكراهية العرقية وعدم الاستقرار العالمي)

Amy Chua

Doubleday, 2002, 304PP, $ 26.00

تلوم المؤلفة - وهي أستاذ في جامعة ييل الأمريكية - الغرب لإصراره على تصدير نموذج من الرأسمالية والديموقراطية في دول العالم النامي لم يتبنه الغرب نفسه في يوم من الأيام. فالرأسمالية الغربية، كما تقول المؤلفة طبقت بشكل حكيم آليات لإعادة توزيع الثروة بحيث تتجنب الصراعات العرقية، في حين أن التحولات نحو رأسمالية السوق والديمقراطية في الدول النامية الآن تخلو من هذه الممارسة. وبالتالي يتجمع الثراء في أيدي أقليات مسيطرة، بينما تتزايد القوة السياسية للأغلبية المحرومة اقتصاديًا، الأمر الذي يفسر عنف المسلمين في إندونيسيا الموجه ضد التجار الصينيين الأثرياء على سبيل المثال.. وهي المسألة المتكررة في كل من روسيا وبوليفيا والشرق الأوسط.

"سير ومذكرات"

أعلام مضيئة في تاريخ مصر

إعداد: مينا بديع عبد الملك - أحمد عبد الفتاح

القاهرة: بيت مدارس الأحد، ٢٠٠٢

نحو مائة شخصية قدموا إسهامات مهمة كل في مجاله، في السياسة والاقتصاد والفن والإبداع الأدبي ومجالات العمل العام في عمومه، شخصيات نسائية ورجالية معظمها من الأقباط الذين أسهموا إلى جانب المسلمين في رفعة المجتمع المصري ورقيه.

■■■

سيرة محمود البدوي

علي عبد اللطيف - ليلى محمود البدوي

القاهرة: مكتبة مصر، ٢٠٠٢

دراسة عن القاص الذي أولى اهتمامًا استثنائيًا بقضايا مجتمعه والتحولات من حوله وتأثيرها على الحياة والناس، كيف بدأت هذه المسيرة وكيف تشكلت وما المؤثرات التي صاغتها حتى النهاية، ورؤية لأهم القضايا التي طرحها البدوي في أعماله.

■■■

نساء في امرأة - سيرة لور مغيزل

إيمان شمس شقير

بيروت: دار النهار، ٢٠٠٢

عن واحدة من الشخصيات النسائية البارزة التي جاهدت لتحرير المرأة وصمودها في وجه التيار الذكوري في المجتمع اللبناني، نادت لور مغيزل بالحرية الاجتماعية والسياسية للمرأة وأنشأت عددًا من الجمعيات لمساندة الحقوق الاجتماعية والشرعية لها وتفعيل دور النساء في المجتمع.

■■■

Frida: A Biography of Frida Kahlo

(فريدا: قصة حياة فريدا كاهلو)

Hayden Herrera

Harper Collins, 2002, 528P, $ 24.95 (Pb)

قصة حياة الفنانة التشكيلية المكسيكية فريدا كاهلو، التي نشأت أثناء الثورة المكسيكية وارتبطت بالحزب الشيوعي من خلال زوجها الفنان دييجو ريفيرا. امتلأت حياة فريدا بعلاقات غرامية صاخبة، واحتجاجات سياسية راديكالية، إلى جانب معاناة طويلة مع المرض، مما جعل منها مادة شيقة لعدة كتب تناولت سيرتها إلى جانب فيلم سينمائي أنتجته هوليوود مؤخرًا تمثل فيه النجمة سلمى حايك دور فريدا.

■■■

Condi: The Condoleeza Rice Story

(كوندي: قصة كوندوليزا رايس)

Antonia Felix

New Market, 2002, 260PP, $ 19.95

قصة السيدة الأمريكية السوداء التي ولدت في ولاية الآباما الجنوبية عام ١٩٥٤، وكسرت كل الحواجز حتى أصبحت مستشار الأمن القومي للرئيس في مجال يتسيده البيض من الرجال.

قـــــــــراءات جـــــــــديـدة

شعر

ترجع المؤلفة الفضل لأسرة كوندوليزا التى كرست كل الجهود من أجل دفع ابنتها الوحيدة للإنجاز من خلال الدراسة والخدمة العامة. كما ترى أنها تأثرت كثيرًا بوالدها الذى كان لاهوتيًا وراعيًا لكنيسة إنجيلية، وأمها مدرسة البيانو. يبين الكتاب كيف تعددت وتلاحقت هوايات كوندوليزا فى صباها من الموسيقى إلى رفع الأثقال وكرة القدم!

القصيدة العباسية

ترجمة وتقديم: إلهام عبد الوهاب المفتى
القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٢

معالجة تحليلية ونقدية لعدد من قصائد أبى نواس والأجواء النفسية التى كتبت فيها والأغراض التى عالجتها والموضوعات التى عنيت بها أكثر من غيرها، وكيف كانت هذه القصائد انعكاسًا للحالة الاجتماعية والسياسية فى ذلك الوقت، ويقدم تحليلاً لقصيدة الربيع لأبى تمام بوصفها حالة لغوية مميزة فى وصف الطبيعة.

■■■

درجة حميمية

ظبية خميس
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

بعد «خطوة فوق الأرض» و«وصبابات المهرة العمانية» و«انتحار هادئ جدًا» و«المشى فى الأحلام الرومانتيكية»، تعيد الشاعرة اكتشاف مساحات أخرى من ذاتها المبدعة، بعد سنوات من الترحال فى أوروبا وأمريكا واستقرارها أخيرًا فى مصر، والديوان يعكس هذه الأجواء.

■■■

ديوان ابن المقرب العيونى وشرحه

تقديم: أحمد موسى الخطيب
الكويت: مؤسسة جائزة البابطين للإبداع الشعرى، ٢٠٠٢

خصصت المؤسسة واحدة من دوراتها لهذا الشاعر الذى أثرى ديوان الأدب العربى برغم كونه مجهولاً حتى بين الدارسين والمختصين. وقد أثمرت هذه الدورة شرحًا للقصائد التى كتبها العيونى وتفسيرًا لها فى ديوانه الذى يعكس صورًا من البيئة الاجتماعية والحياة الأدبية فى فترة تاريخية معينة.

■■■

ديوان نبوية موسى

تقديم وتحليل: عفاف عبد المعطى
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

عرفت نبوية موسى بوصفها رائدة من رائدات النهضة فى مصر والعالم العربى، وحطمت السور الذى وقف حائلاً بين المرأة والتعليم والخروج للعمل العام، لكن أحدًا لم يلتفت إلى موهبتها الإبداعية، المؤلفة تقدم لنا ديوان هذه الرائدة النسائية الذى نشرته فى العام ١٩٣٨، وترسم فيه صورة للمرأة الجديدة كما تخيلتها.

■■■

ليل خارجى

محمد خير
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

يستخدم الشاعر فى ديوانه الأسلوب السينمائى، حيث يرسم فى أبياته صورًا متحركة لمشهد كامل له بداية ونهاية، ففى إحدى القصائد صورة لشخص يحاول الانتحار، ويتابع المشاهد مع البطل ذاته الذى يسقط على الأرض فى ليل حالك السواد، وتتعالى صرخاته ساعية لإنقاذه، بطريقة تتابع المشهد الدرامى على شريط سينمائى.

طب وصحة

عقم الرجال بين الإسلام والطب

عبد الخالق يونس
القاهرة: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٢

تمثل هذه القضية حساسية خاصة فى المجتمعات الشرقية والإسلامية منها خصوصًا، وتؤثر فى حياة آلاف الأسر، المؤلف يشرح القضية فى هيئة أسئلة وأجوبة، يشرح فيها أسباب العقم وكيفية علاجه والتعاطى معه دينيًا وطبيًا، كما يقدم عديدًا من الفتاوى التى صدرت عن الأزهر الشريف فى هذا الموضوع.

■■■

مكافحة التدخين بين النظرية والتطبيق

حسن البنا محمد عبد المعز
المدينة المنورة: المؤلف

يوثق هذا الكتاب تجربة عملية متميزة فى المدينة المنورة التى اعتبرتها منظمة الصحة العالمية فى العام الماضى خالية من التدخين.

ويبين المؤلف أن مسئولية مكافحة التدخين تقع على عاتق الجميع دون استثناء كل حسب موقعه ودوره فى الأسرة والمجتمع، ويجيب عن أسئلة المدخنين وراغبى الإقلاع عن التدخين واستفساراتهم.

■■■

A Map of the Child: A Pediatrician's Tour of the Body

(خارطة الطفل: رحلة طبيب أطفال داخل الجسم)

Dar Shak Sanghavi
Holt, 2003, 320PP, $ 24.00

المؤلف، وهو طبيب أطفال وأب، يكتب بالتفصيل عن التشوهات الخلقية والأمراض التى يمكن أن تصيب الأعضاء المختلفة فى جسم الطفل، كما يستعرض من خلال الحالات التى تعامل معها إمكانات الطب فى معالجة هذه الأمراض. يؤكد الطبيب فى النهاية أنه بالرغم من التقدم فى الطب والتكنولوجيا إلا أنه فى كثير من الأحيان يستحيل إنقاذ الأطفال من الأمراض التى تصيبهم أو التى يولدون بها.

فنون

المنمنمات فى إسبانيا الإسلامية

رحيل إربى
الرياض: دار الفيصل، ٢٠٠٢

تمثل الأندلس جرحًا فى التاريخ العربى والإسلامى، وقت أن كانت الأندلس جزءًا من الدولة الإسلامية التى مدت أجنحتها شرقًا وغربًا، وقد غادرها العرب قبل خمسة قرون، لكن آثارهم الفنية فى العمارة على وجه الخصوص مازالت باقية، المؤلف يعرض لفن المنمنمات وهو فن إسلامى أصيل فى إسبانيا، كيف عبر هذا الفن عن الحضارة الإسلامية وكيف تطور.

■■■

مغامرة المسرح

أسامة أبو طالب
القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢

محاولة لإحياء هذا الفن الجميل الذى كان سابقًا على عشرات الفنون التى عرفها العرب، والذى عرفته المعابد والساحات وبلاط الحكم، المؤلف يدعو إلى تجديد دماء هذا الفن عبر المغامرة والتجريب ويقدم نماذج تطبيقية لما يطرح.

للأطفال

Hey, Frog!

(أيها الضفدع!)

Piet Grobler
Front Street, 2002, 32PP., $ 15.95

(للأطفال من سن عامين إلى ٦ سنوات). حكاية من التراث الأفريقى، يكتبها كاتب من جنوب أفريقيا قام بنشرها أول مرة فى هولندا. الكتاب يصور الحياة المرحة بين الحيوانات فى منطقة السفانا الأفريقية. فبالرغم من وجود مشكلة يسببها الضفدع لمجتمع الحيوانات حين ابتلع كل المياه مسببًا الجفاف وفقدان بعض الحيوانات المائية لمأواها، إلا أن الحيوانات تتوصل إلى حل للمشكلة يخلو من العنف.

■■■

Tales of Thieves and Robbers

(حكايات اللصوص والحرامية المستمدة من التراث العربى)

Retold by Denys Johnson-Davies
Illustrated by Walid Taher
Cairo, Sunflower Books: 2002, 53 PP., 20 L.E.

عشر حكايات من التراث العربى القديم، تدور معظمها حول لصوص اعتقدوا أنهم أذكياء وحاولوا الاحتيال على عدد من الشخصيات مثل جحا أو تاجر كبير، أو القاضى أو إمام الجامع.. إلخ. ثم ينتهى الأمر بطبيعة الحال إلى اكتشاف مكرهم والقبض عليهم.

الحكايات يكتبها المؤلف الإنجليزى دنيس جونسون دايفز الذى يعد من رواد ترجمة الأدب العربى الحديث إلى اللغة الإنجليزية. أما الرسوم الملونة التى تتخلل جميع صفحات الكتاب فللفنان المصرى وليد طاهر.

مراجع

الألمانية فى الإرشاد السياحى

علية عزت عياد
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

يتناول الكتاب الحضارة المصرية من خلال نصفين أحدهما بالعربية والآخر بالألمانية، ويقدم شرحًا لأهم الأعمال الفنية ووصفًا للتماثيل الضخمة والنحت البارز والرسم على الحوائط والجدران، كما يتضمن قاموسًا بأهم المصطلحات المتخصصة حسب ورودها فى كل فصل من فصول الكتاب الأربعة.

نقد أدبى

الأدب الجاهلى (قضاياه- أغراضه- أعلامه- فنونه)

غازى طليمات- عرفان الأشقر
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

لا يستطيع الإنسان العربى فى العصر الحديث أن يدرس حضارة العرب فى صيرورتها ويتعرف إلى لسانهم وبيانهم، مالم يدرس الأدب الجاهلى فى عمومه شعرًا ونثرًا، خصوصًا الموزون منه، لا لرفعة الموزون وضعة المنثور، بل لأن المنظوم بالذاكرة أعلق وبالذائقة ألصق.

■■■

عين ترى

هدى النعيمى
الدوحة: المؤلفة، ٢٠٠٢

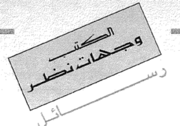
رؤية نقدية وتحليلية لعدد من الأدباء والمفكرين من أمثال أمل دنقل ويوسف إدريس وسعد الله ونوس وعبد الله الفزانى وغيرهم، والدور الذى لعبه كل منهم فى مجال إبداعه ومدى إثرائه لواقع الأدب العربى والفكر العربى إجمالاً.

■■■

نظرية الأدب المقارن

أحمد درويش
القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٢

تنهل الفنون والآداب من بعضها البعض، ومن العسير صد التلاقح الثقافى حتى فى ظل أقصى درجات الجمود السياسى وعداء الكيانات السياسية لبعضها البعض، والأدب واحد من المجالات التى تخضع لعمليات تأثير وتأثر مستمرة، وكثير من الأجناس الأدبية دخلت أدبنا العربى بعد أن ظهرت وتوطدت فى أوروبا، المؤلف يدرس نظرية الأدب المقارن فى المدرستين الفرنسية والأمريكية وتأثيرهما على الأدب العربى.



ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

هيكل.. نبع لا ينضب

طابت أيامكم وأوقاتكم، وزادت «وجهات نظر» انتشارًا وتالقًا، بعمق أبحاثها، بسعة آفاقها، برصانتها، بانضباط ساعتها على عقارب الحدث وقضايا الفكر.

أتناولها آخر كل شهر، أتلقى العدد، ومن لحظة تلقيه يبدأ انتظارى للعدد الذى يليه، ومعه يبدأ اشتياقى إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل، إلى كلماته أترقب وصولها، أتسقط الأيام بما يشبه الوله والإدمان.

عجيب هذا القلم، هذا البحر الزاخر بما يعرف ويكتب، بما يكتشف ويكشف، بما يحلل ويقول. يُمسك قطعة من الزمن بين يديه فيؤديها بين يديك قطعة من التاريخ. ينقل المشهد بأشخاصه، بمواقعه وواقعاته وظروفه وثناياه، فينساب الحديث متعة من متع الكلام فى سبك وسلاسة سرد ورصف بالصورة واللون، أين لسينما الأخوين «لوميير» أن تكون لها هذه البلاغة وذلك الإيقاع.

وفيما أنت مسحور بأجواء القصة وكانك فى رحلة هى أجزل مما لو كنت مع «بلوتارك» أو «ابن خلدون» أو «فولتير» أو «سان سيمون» أو «برنارد شو» أو «الجاحظ»، إذ يُفاجئك فى أحد المنعطفات بين السطور رعد يلعلع على القرطاس أو لذعات إبرة يا لنحس من تغرز جلده!

عذرًا، فالكلام عن أستاذنا الكبير نبع لا ينضب.. تجدون سيادتكم مع رسالتى هذه بطاقة اشتراك، ذلك لأن العدد الذى سأتلقاه هنا آخر كل شهر هو بحاجة إلى رفيق، فأحفظ الاثنين بما أن ما يرد فيه خليق بأن يحفظ مرتين.

إميل بجانى
محامٍ بالاستئناف



سمو روحى

مقالة الأستاذ سلامة أحمد سلامة رئيس التحرير «نون» فى ختام العدد السادس والأربعين ـ نوفمبر ٢٠٠٢ كانت ضربًا من السحر والسمو الروحى للكاتب حين يكتب متخلصًا من كل قيود اللغة الصعبة والمشاعر الحادة، قرأنا مقالتك ونحن نشعر بانتشال الروح للجسد من أكاذيبه وأثقاله، ومع كل سطر وكل جملة سبحنا لدقائق غنية بفيض من الأحاسيس الإنسانية السهلة الغضة، بدائية البكورة والسلام الذاتى والهدوء المستحيل.

.. انتهت المقالة ومازال عطرها الهادئ يغمرنى ويغمر ويفيض على المكان، ومازال صدى معانيها الخضراء الرقيقة يريح العيون والآذان والنفس والروح.

.. شكرًا لكاتبنا الكبير لنصائحه الثلاث التى ختم بها مقالته الصوفية وعدده الرائع، وليتنا نتذكرها ونعيها ونتلمسها ونتمسك بها كلما تهنا فى سراديب العمر والزمان أو غابته الشاسعة الضيقة.

د. سمير عنتر
استشارى حميات الطالبية ـ الهرم




«وجهات نظر» فى أمريكا

أكون شاكرًا لو تفضلتم بالنظر فى إيجاد طريق آخر لإيصال مجلتكم للمشتركين بخارج مصر حتى تصلهم بانتظام ذلك لأن الطريق المستخدم فى الوقت الحاضر لا يضمن وصول المجلة لهم ـ وقد فهمت من مكتب الأهرام بواشنطن والذى يقوم بإرسال مجلتكم (وغيرها من المجلات والمطبوعات) أن عدم الانتظام يعود إلى قصور من الشركة القومية للتوزيع التى كثيرًا ما ترسل أعدادًا أقل من عدد المشتركين للتوزيع، هذا وقد لاحظت أن المجلات والمطبوعات التى تصلنى من مصر مباشرة هى أكثر انتظامًا من تلك التى تصلنا عن طريق الشركة القومية.

كما أكون شاكرًا أيضًا لو تكرمتم بالنظر فى أمر إعادة ترتيب موقعكم على الإنترنت حتى يأتى متمشيًا مع ما يجب أن يكون عليه مستوى مجلتكم الرفيع.

فحرام أن تنقطع بنا السبل. فلا المجلة (الاشتراك) وصلت، ولا تمكنا نحن من الوصول إليها على الإنترنت.

د. رشدى سعيد
واشنطن




«وجهات نظر».. والمستقبل

أطلت علينا مجلتنا الناضجة «الكتب.. وجهات نظر» قبل أربع سنوات، بوجه ثقافى صبوح وعقل ثرى بالمعلومة والرأى والبحث والدراسة. ولدت كبيرة تقودها مجموعة من رواد الفكر وقادة الرأى وصناع الثقافة.. منهم أساتذة الأجيال ومنهم عمالقة الفكر.. ومنهم أصحاب الرؤية المستقبلية والتحليل العميق.

طافت بنا فى بحار الفكر والأدب والفن والسياسة والثقافة والتاريخ والجغرافيا. وأتحفتنا بالصورة المعبرة والرسوم المجسدة لمعان كبيرة. ولا يضيق صدرها بنقد.. بل تناقش الرأى والرأى الآخر.. وتقارع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان.. فهى معين يفيض بالفكر.. ونبع لا يغيض من الثقافة.

وقد لا يسعدها قول مادحيها.. قدر حرصها على تفهم رأى ناقديها.. فهى أرض خصبة للفكر تثمر للأجيال ما افتقدوه زمنًا.. وعجزوا عن بلوغه ثمنًا.

لكن ـ والحق يقال ـ نرجو لها المزيد قيمة وانتشارًا على الساحة الثقافية العربية فنجدها فى ندوات الرأى وعلى موائد الثقافة.. حضورًا ماديًا ومعنويًا.. ومن أجل ذلك نتمنى أن نجد على صفحات مجلتنا نظرة المستقبل التحليلية سياسة واقتصادًا تفوز باهتمام أكثر ومساحة أوسع.. فالعالم من حولنا يتغير بسرعة ورؤية المستقبل غائمة ومشوشة خاصة لدى كثير من الشباب.. فالصحافة التى تصنع الرأى المستنير تنير العقول والقلوب، ونحن أحوج ما نكون فى وقتنا هذا لهذه المهمة.. لتظل مصر غنية بعقولها لا ببترولها.. ولادة معطاءة كما العهد بها دائمًا.. وتمتلئ ساحتنا الثقافية بالأعلام فى الأدب والفن والفكر، بل فى المجالات كافة.. وتظل مائدة القاهرة عامرة بالعمالقة والرواد.

ولتظل مجلتنا «وجهات نظر» دائمًا لها من اسمها حظ ونصيب.. فهى وجهات نظر فى الماضى والحاضر والمستقبل.. عامرة بالأفكار الخلاقة والآراء البناءة.. تترك بصمة بل بصمات على صفحات الحضارة.. وأرجو أن نقرأ على صفحات مجلتنا «ندوة فكرية» نلتقى فيها بحوارات مع أسماء متعددة من صناع الفكر.. نتعرف فيها على تجارب وخبرات هؤلاء المفكرين.. لتتفاعل الأجيال الجديدة مع الكتاب الذى هبط إلى ذيل القائمة فى اهتمامات الشباب وأصبحت العقول الشابة تتعثر فى القراءة وتتعسر فى فهم محتوى الكلمات..

أعلم أن هذا حصاد مر.. لمراحل سابقة خاصمنا فيها القراءة فخاصمتنا الثقافة.. وصارت الشاشة الصغيرة هى المربى والمعلم والمُثقِّف.. وفرح النشء بدعابات وابتسامات.. ضمنت لهم وقتًا مسليًا وأحلامًا جميلة.. لكنها تركت العقول خواء والأفئدة هواء.

«وجهات نظر» رسالة سامية ومهمتها رفيعة.. تحية عظيمة لفرسانها وقادتها وأدعو الله أن يثمر جهدهم المزيد والمزيد.

محمد السيد
القاهرة

صين جديد

لقد كانت مجلة «وجهات نظر» عدد ديسمبر ٢٠٠٢ أكثر من رائعة، فلقد كانت حافلة بأكثر من موضوع فى أكثر من مجال، ولقد استوقفنى مقال «الطريق إلى السلطة.. الجيل الرابع يحكم الصين» لأندرو ناثان وبروس جيلى، حيث يحسب لمجلة وجهات نظر طرحها هذا الموضوع المهم الذى يعد تغييرًا واضحًا فى الأيديولوجية السياسية المطبقة فى الصين، فالسماح للرأسماليين بالدخول فى صفوف الحزب الشيوعى يعد تغييرًا ليس فقط فى الطرق والاستراتيجيات بل فى الأفكار الشيوعية ذاتها، والذى يعتبره البعض تهديدًا للوجود الشيوعى فى العالم ونكسة قد تكون قاضية للشيوعية بعد انهيار الاتحاد السوفيتى السابق، وربما يكون هذا الانهيار هو السبب فى مراجعة الأيديولوجية الشيوعية ككل، وعلى الرغم من وجود العديد من الأصوات المناهضة لهذا التغيير باعتبار أنه نذير بسقوط الصين كما حدث للاتحاد السوفيتى السابق، إلا أننى أراه تغييرًا حتميًا وضروريًا فى عالم متغير بل وأكثر من ذلك، فإننى أراه محاولة لتفادى السقوط الصينى، فهو يضمن انتقالاً تدريجيًا وهادئًا فى أيديولوجية استمرت لأكثر من خمسين عامًا وأدت وظيفتها على نحو جيد وتبعًا لظروف الوقت والمجتمع، إلى أيديولوجية أخرى أصبحت مطلوبة لاستكمال المسيرة الصينية، فلقد قبلت الصين التغيير المنطقى الحتمى واستطاعت إيجاد وسائل تطبيقية فى حين أنه كان فرضًا حتميًا على الاتحاد السوفيتى.

منى محمد عقيل القويضى
كلية الاقتصاد والعلوم السياسية
طالبة بالفرقة الأولى



تصويب

ورد فى العدد الماضى من مجلة «الكتب.. وجهات نظر» عدد ٤٦ ـ صفحة ١٧ فى الفقرة الثانية أن «عمر بن العزيز ولد لأب هو عبد العزيز بن عبد الملك بن مروان» والصحيح أن الأب هو عبد العزيز بن مروان وقد أضيف اسم عبد الملك سهوًا، ويتضح ذلك مما جاء فى الفقرة التالية أن «عمر بن عبد العزيز تزوج من فاطمة ابنة عمه الخليفة عبد الملك بن مروان».

و«وجهات نظر» تشكر القارئ المدقق الذى حرص على لفت الانتباه إلى خطأ مثل هذا.

المحرر



إغاثة الأمة بكشف الغمة

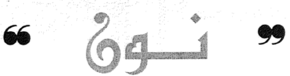
اعلم تولى الله أمرك بالحياطة والهداية، ولا أخلاك من الكفاية والعناية، أن الغلاء الذى حل بالخلق منذ كانت الخليقة، فيما نُقل من أخبارها بسائر البلاد فى قديم الزمان وحديثه، إنما يحدث من آفات سماوية فى غالب الأمر: كقصور جرى النيل بمصر، وعدم نزول المطر، أو آفة تصيب الغلال، أو جراد يأكلها، وما شابه ذلك. هذه عادة الله تعالى فى الخلق، إذا خالفوا أمره وأتوا محارمه، أن يصيبهم بذلك جزاء بما كسبت أيديهم.

وسبب ذلك كله ثلاثة أشياء لا رابع لها:.

السبب الأول: وهو أصل هذا الفساد، ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة، كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال، بحيث لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل.

والسبب الثانى: غلاء الأطيان، وذلك أن قومًا ترقوا فى خدم الأمراء يتولفون إليهم بما جَبَوا من الأموال إلى أن استولوا على أحوالهم، فأحبوا مزيد القربة منهم، ولا وسيلة أقرب إليهم من المال، فتعدوا إلى الأراضى الجارية فى إقطاعات الأمراء، وزادوا فى مقادير الأجر. حتى بلغ الفدان لهذا العهد نحوًا من عشرة أمثاله قبل هذه الحوادث.

والسبب الثالث: رواج الفلوس، إن النقود التى تكون أثمانًا للمبيعات وقيمًا للأعمال إنما هى الذهب والفضة فقط، لا يعلم فى خبر صحيح ولا سقيم عن أمة من الأمم ولا طائفة من طوائف البشر أنهم اتخذوا أبدًا فى قديم الزمان ولا حديثه نقدًا غيرهما، حتى قيل إن أول من ضرب الدينار والدرهم آدم عليه الصلاة والسلام، وقال لا تصلح المعيشة إلا بهما.



استنساخ الديمقراطية على الطريقة الأمريكية

في أعقاب الهجمات التي تعرضت لها أمريكا في سبتمبر ٢٠٠١، فرضت وسائل الإعلام الأمريكية على نفسها حظرًا يقرب من التحريم، على ما يمكن أن يشير من قريب أو بعيد إلى مسئولية أمريكا نفسها عن الأسباب والظروف التي أفضت إلى وقوع هذه الهجمات. وأبعدت بعض محطات التليفزيون والصحافة المطبوعة بعض الصحفيين الذين حاولوا ترديد مثل هذه الأقوال والآراء.

غير أن أي شخص على قدر من الجدية ممن يحيطون علمًا بطبيعة العلاقات التي تربط بين الولايات المتحدة الأمريكية والعالم العربي والإسلامي في الشرق الأوسط، كان يدرك عن يقين أن هذه هي الحقيقة. بل إنها لا تعدو أن تكون غير جزء من الحقيقة. فليس هناك من يجهل أن ممالأة أمريكا لإسرائيل سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، منذ عام ٦٧، بل وقبل ذلك، قد أدى إلى تآكل الموقف الأمريكي تدريجيًا في العالم العربي، وأنشأ علاقة مركبة من الحب والكراهية، من الانبهار والازدراء، من استجداء المساعدة وصب اللعنات بين الغالبية الغالبة من طبقات الرأي العام على اختلافها.

ولكن السياسيين والمفكرين الذين يعملون تحت عباءة المؤسسة الأمريكية اكتفوا بالوقوف عند أعراض المشكلة دون جذورها. فالمسألة في نظرهم لا تعدو أن تكون تعارضًا حادًا في منظومة القيم بين أمريكا والغرب من ناحية، والعالم الإسلامي من ناحية أخرى.. المجتمعات الإسلامية في رأيهم. وقد يكون ذلك صحيحًا بدرجة ما ولكنه ليس السبب في أحداث سبتمبر. تعاني من تخلف شديد في درجة الحريات الدينية والسياسية، وفي التنمية الاقتصادية، وفي وضع المرأة. ومرد ذلك في تصورهم إلى أن المجتمعات الإسلامية تمسكت بنظام للقيم يرفض الحرية الدينية، والتكنولوجيا الغربية، وأساليب الحكم السائدة في الغرب. وهو ما أدى في اعتقادهم الذي ما فتئوا يرددونه إلى جمود هذه المجتمعات وافتقارها إلى الديناميكية اللازمة لمواجهة تحديات العصر. حتى أصبحت بمرور الوقت تربة صالحة لتوليد الإحباط واليأس بين الشباب. واختمار نزعات العنف والإرهاب في ظل تزايد الهوة بين الأغنياء والفقراء، وتضاعف معدلات البطالة، وعجز النظم التعليمية وامتلاء المناهج بالمبادئ التي تروج للجهاد والثورة من ناحية أو للخضوع والخنوع للسلطة من ناحية أخرى.



وخلال الفترة الأخيرة تصاعدت هذه النغمة في الغرب وفي أمريكا على وجه الخصوص، لتبرر للرأي العام الأمريكي أسباب الهجمات التي تعرضت لها البلاد في سبتمبر. وفي المحاضرة التي ألقاها باول فولفيتز نائب وزير الدفاع الأمريكي في لندن أخيرًا، ودعا فيها صراحة إلى ضرورة تغيير الأنظمة في عدد من الدول العربية، لم يتردد في القول بأن نظام الاختيار الحر الذي تقوم عليه الديمقراطية، يصطدم بمبادئ الأصولية الإسلامية، التي انقلبت إلى نوع من الثورة على الحكومات غير الدينية وعلى الغرب.. وانتهى في محاضرته إلى التنبؤ بأن «لونا» جديدًا من «الإسلام» سوف ينبثق من أعماق هذه التيارات، أكثر تلاؤمًا مع الديمقراطية وتكيفًا مع منظومة القيم التي تعبر عنها حضارة الغرب.. إسلامًا يصلح للعصر، ولا يعادي أمريكا والغرب، ولا يكون عقبة في طريق التقدم. وبينما يرى فولفيتز في التطور الذي حدث في تركيا مدعاة للتفاؤل بقرب انتشار هذا الاتجاه، فإنه يرى أن «الأنظمة السلطوية في مصر والسعودية وباكستان لا تبدي استعدادًا للتكيف مع هذا الزلزال التاريخي الذي يكتسح العالم».

ثم انضمت إلى «الكورس» أصوات أخرى غير فولفيتز، مهدت للخطاب المهم الذي بشر به كولين باول وزير الخارجية العالم العربي والإسلامي بقرب انبلاج فجر الديمقراطية على العرب بمساعدة أمريكا. وكان من أهمها تلك المحاضرة التي ألقاها ريتشارد هاس مدير إدارة التخطيط بوزارة الخارجية الأمريكية، ونعى فيها على العالم الإسلامي تلك الفجوة الديمقراطية الهائلة التي تفصل بينه وبين العالم. ولكي لا تبدو تلك المقولة اختراعًا أمريكيًا صرفًا، فقد استند هاس إلى تقرير التنمية البشريّة عن العالم العربي الذي نشرته الأمم المتحدة قبل عدة شهور، وصور فيه المنطقة العربية في وضع متخلف عن مناطق العالم الأخرى في العديد من أوجه الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وكان لابد أن تحمل أمريكا على عاتقها مسئولية الرسالة التي نذرت نفسها لها وهي نشر الديمقراطية في العالم.. وفي العالم العربي على وجه الخصوص.

ولا يجد هاس في ذلك شيئًا غريبًا أو خارجًا عن المألوف. فمبادئ المنفعة الأمريكية تطوع كل شيء لخدمة أهدافها.. انتشار الديمقراطية في العالم الإسلامي لن يعود بالنفع على شعوب هذه الدول فحسب، بل يعود بالنفع أيضًا على أمريكا نفسها. لماذا؟ لأن الديمقراطية تفتح آفاق الحرية الاقتصادية، وتحرر الأنظمة السياسية المغلقة، وتخفف من الضغوط الداخلية التي تولد التطرف، وتجعل من اليسير على الأنظمة الحاكمة أن تتحالف مع أمريكا في محاربة الإرهاب ونزع أسلحة الدمار الشامل. تلك هي فلسفة «المشاركة الجديدة» التي ستحكم العلاقات الأمريكية بالعالم الإسلامي، والتي تردد كولين باول وزير الخارجية الأمريكية ثلاث مرات قبل إعلانها. وفي ظنه أن هذه المشاركة لابد أن تدعم التنمية في ثلاثة مجالات رئيسية من أجل دفع التقدم في العالم العربي لإصلاح الاقتصاد، والتعليم، والنظام السياسي.



يحار المرء كثيرًا في فهم الدوافع الأمريكية وراء توقيت إعلان هذه المبادرة وأهدافها الحقيقية. وعلى الرغم من أن الإدارة الأمريكية تنكر تمامًا أن يكون لها أجندة خفية وراء الدعوة الباغتة للإصلاح المدني والاقتصادي والسياسي الذي وضعته وخططت له دون مشاورة أحد من أصحاب الشأن في العالم العربي الإسلامي.. إلا أن التصورات الأمريكية لتنفيذ هذه الرؤية الإصلاحية تبدو وكأنها ستتم في معامل البحث الأمريكية. وكأنها تجربة لاستنساخ الديمقراطية تتم وسط شروط معملية في أحد مراكز الأبحاث الأمريكية، بعيدًا عن أجواء الريبة والسخط التي تسد أفق الرؤية في العالم العربي. سواء بالنسبة لخضوع السياسة الأمريكية للتأثيرات الليكودية فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، أو بالنسبة لمنطق الحرب الذي فرضته إدارة الرئيس بوش على الأزمة العراقية وأخذت تهيئ الظروف الدولية والإقليمية لخوضها.

غير أن هذه الحيرة سرعان ما تتبدد، حيث يتأكد أن ثمة تطابقًا في الأهداف بين طموحات الإمبريالية الأمريكية الجديدة التي باتت مقتنعة بضرورة القضاء على الأنظمة العربية التي أفرزت مشاعر عداء ضد أمريكا، كمقدمة لإدخال الديمقراطية والإصلاحات السياسية فيها.. وبين هدف إسرائيل الاستراتيجي باستئصال النظام العراقي من جذوره، وإيجاد قيادة فلسطينية بديلة على استعداد لقبول الحلول التي يضعها شارون واليمين الإسرائيلي. وهذا ما يوصف أحيانًا بإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط.. طبقًا لمخططات أمضى اليمين الأمريكي وقتًا طويلاً في تدبيجها بالتعاون مع إسرائيل قبل أن يصل إلى البيت الأبيض.

وفي مقال نشرته «لوس أنجيلوس تايمز» الأمريكية لباحثين أمريكيين في جامعة بيركلي بولاية كاليفورنيا هما ساندي تولان وجاسون فليش، فإن الخطة الأمريكية تبدو قريبة في طموحها وأهدافها من اتفاق «سايكس - بيكو» الذي عقد بين فرنسا وبريطانيا عام ١٩١٦، لتقسيم الإمبراطورية العثمانية بين البلدين. ويستند هذا التحليل إلى أن الأنظمة العربية قد وصلت الآن إلى حالة من الضعف، تؤهلها للسقوط كثمرة ناضجة. وباستثناء أربع دول عربية تحت حكم شبان يفتقرون إلى الخبرة، فإن بقيتها في قبضة حكام متقدمين في السن، تحيط الشكوك بأسلوب خلافتهم.



لا جدال في أن صعود اليمين الأمريكي المحافظ، يقابله من ناحية أخرى صعود اليمين الإسرائيلي المتطرف، قد أسهم في خلق بيئة دولية جديدة هي التي ستحدد معالم الموقف في الشرق الأوسط ونحن في بدايات القرن الواحد والعشرين. ولا تبدو عملية استنساخ الديمقراطية من جينات أمريكية غير ذريعة لتفكيك المنطقة، بهدف سيطرة أمريكا على البترول العراقي والتحكم في أسعار النفط العالمية. بكسر احتكار الأوبك إذا لزم الأمر. هو ما سوف يضمن لإسرائيل سيطرة عسكرية على الشرق الأوسط.. وبعد العراق سوف يأتي الدور على إيران وسوريا والسعودية لتغيير أنظمة الحكم فيها.

هذه هي «خريطة الطريق» الحقيقية التي تتضمنها أجندة البيت الأبيض. وعندما تنتهي فترة الولاية الأولى للرئيس بوش، فإن البند الرئيسي من جدول أعماله، ربما يكون قد تحقق. وهو غزو العراق والإطاحة بنظام صدام حسين وإقامة نظام عميل ولكنه يحمل جينات الديمقراطية الأمريكية كما في أفغانستان. ليضمن بذلك إعادة انتخابه واستكمال مخططاته العظمى!

سلامة أحمد سلامة



Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 49 - February 2003 مجلة شهرية . العدد التاسع والأربعون . السنة الخامسة . فبراير ٢٠٠٣ . الثمن عشرة جنيهات

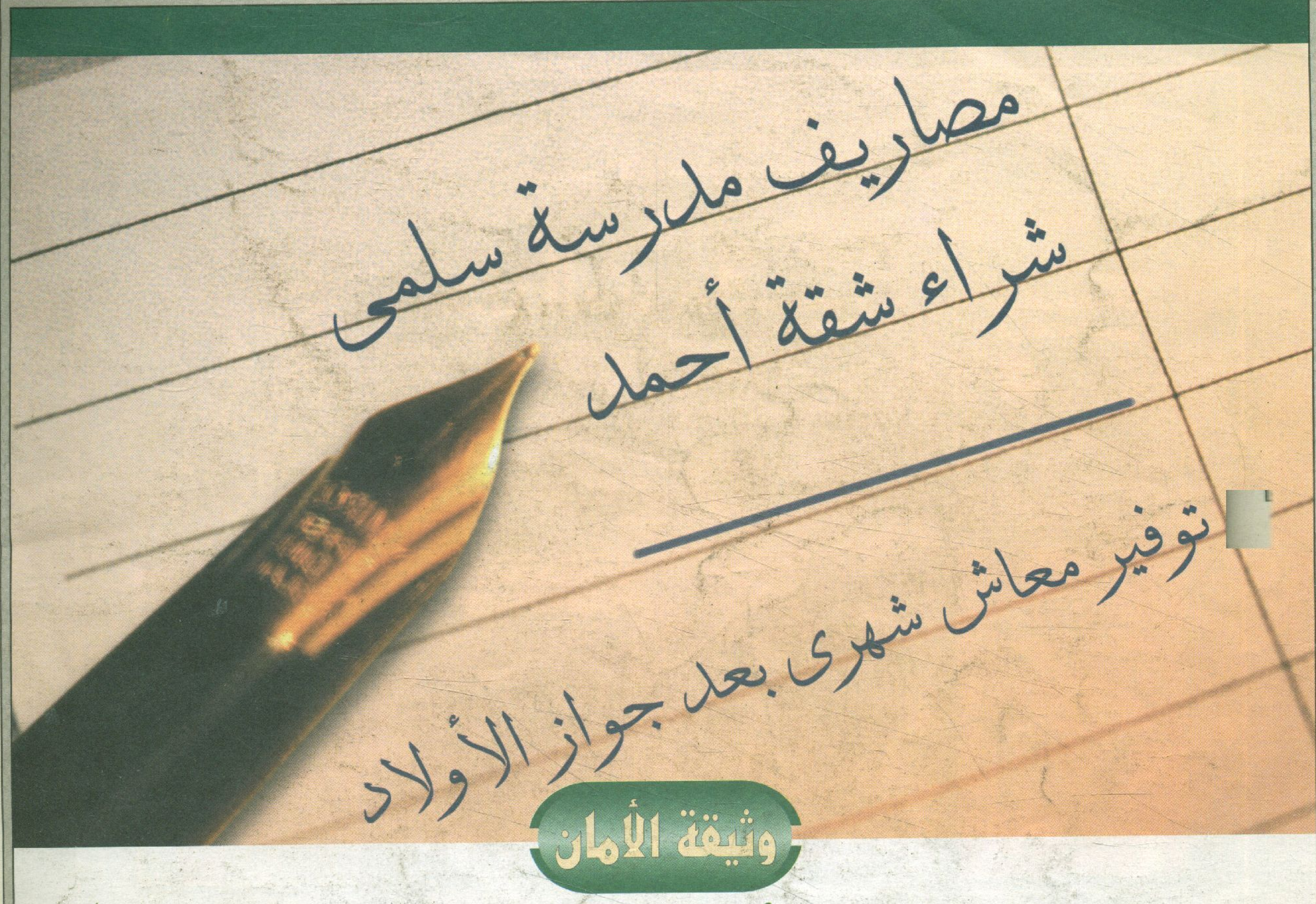
محمد حسنين هيكل

مهمة تفتيش فى الضمير الأمريكى



حلمى التونى 2003

- القاهرة نداهة اليتيم — خيرى منصور
- «نون»: أسطورة حرب الصحافة فى أمريكا — سلامة أحمد سلامة
- أعراض الحرب والسلام فى العراق / انتونى كوردسمان
- عام صعب .. وعام أصعب / أيمن الصياد
- قصة الرق فى السودان / يوسف الشريف
- حواء الجديدة / محمد أبو الغار



وثيقة الأمان

الحياة رحلة طويلة.. فأمن مستقبلك وخطط له جيداً.

اشترك الآن فى البرنامج الادخارى الجديد من البنك العربى "وثيقة الأمان"

الذى يساعدك على تلبية احتياجاتك المستقبلية. وتحصل من خلاله على عائد مغرى فى نهاية مدة الوثيقة.

مثال:

إدفع شهرياً مبلغ	وأحصل بعد ١٠ سنوات على مبلغ	أو أحصل بعد ٢٠ سنة على مبلغ
١٠٠ جنيه	١٨.٧٢٨ جنيه	٥٣.٣٤٥ جنيه
٢٠٠ جنيه	٣٧.٤٥٦ جنيه	١٠٦.٦٩٤ جنيه
٣٠٠ جنيه	٥٦.١٨٤ جنيه	١٦٠.٠٤٢ جنيه
وفى حالة الوفاة "لا قدر الله" يحصل المستفيدون الشرعيون **فوراً** على كامل قيمة الوثيقة المستثمرة		

RESALA

بالإضافة إلى المميزات التالية:

- مدة الوثيقة تتراوح من ٥ إلى ٢٠ عاماً بأقساط تبدأ من ١٠٠ جنيه شهرياً.
- إمكانية الحصول على العائد فى نهاية المدة على دفعة واحدة أو على دفعات لمدة تصل إلى ١٥ سنة.
- التأمين** مجاناً على صاحب الوثيقة بكامل قيمتها.
- إمكانية الإقتراض بضمان الوثيقة.
- إمكانية إسترداد المبالغ المدخرة بعد مرور عام طبقاً لجداول الاسترداد.

البنك العربي
ARAB BANK
رؤية جديدة

لمزيد من المعلومات خصصنا لكم هذا الرقم الجديد

١٩١٠٠

فى خدمتكم ٧ ايام فى الأسبوع من ٩ صباحاً حتى ٩ مساءً

www.arabbank.com

- أحقية الحصول على الوثيقة ترجع إلى شروط وقرارات البنك العربى.
- ** يتم التأمين من خلال إحدى الشركات التابعة الهيئة المصرية للرقابة على التأمين

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الخامسة
العدد التاسع والأربعون
فبراير ٢٠٠٣

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أمل فرح.. كاتبة قصص أطفال.
- أنطوني كوردسمان... أستاذ كرسي أرلاي بيرك في الاستراتيجية بمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بواشنطن.
- أيمن الصياد.. صحفي.
- حسن أبو طالب.. مساعد مدير مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية.
- خيري منصور.. كاتب وصحفي من الأردن.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفي.
- سهير السكري.. خبيرة سابقة بالأمم المتحدة.
- عبد الرشيد محمودي.. أستاذ الأدب العربي.
- عمرو كمال حمودة.. مدير مركز الفسطاط للدراسات.
- محمد أبو الغار.. أستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة.
- محمد حسنين هيكل.. صحفي.
- ميريام رزق الله.. مترجمة.
- هديل غنيم.. صحفية.
- هنري فورد.. رجل صناعة أمريكي، مؤسس شركة فورد للسيارات.
- يوسف الشريف.. صحفي.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجي - سعد الدين شحاتة - محمد حاكم

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولاراً أمريكيا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكيا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكيا - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهماً - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهماً - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمة..

كتابان..

قد لا يبدو طبيعياً الاحتفاءُ بكتابٍ صدر قبل ما يقرب من قرنٍ من الزمان. وقد لا يكون جديدًا الكلامُ - أو إعادة الكلام - عما هو معروفٌ من تفرد اليهود بين أقوام العالم أجمع (وقد اختاروا الديانة عَسْفًا: جنسيةً وقوميةً وعنصرًا) بالتأثير الحقيقى أو المتوهَّم، على مدى تاريخ يوغلُ فى القِدَم بحكم أسبقية الديانة، وعلى مدى جغرافيا تمتد فى الآفاق بحكم التيه والشتات.

وقد يكون حقيقياً أن بعضَ هذا التأثير مبالغٌ فيه، بحكم تراكم للحكايا وضبابيةٍ فى الثقافة. إلا أن «التخطيطَ للتأثير»، وإن استبعدنا غموض المحافلِ وأجوائها الدرامية المعتمة، وحكاياتها غير الموثقة، يظل متوقعًا ومقروءًا - بالضرورة - بين سطورِ عقيدةٍ، أو ثقافةٍ تنصُ بلا مواربةٍ على تميزِ «شعبٍ مختار». ويحفل قاموسُها بمصطلحاتٍ، ربما كان أكثرها دلالة: «الأغيار».



لا نعرف.. وقد لا يكون بوسعنا أن نعرف إن كان المفكر الفرنسى روجيه جارودى قد قرأ ما كتبه رجل المال - الأمريكى - هنرى فورد قبل قرن من الزمان، ولكننا نحسب أن قصة جارودى التى تسببت فى نهاية المطاف فى اضطهاده وشن حرب صهيونية «عالمية» عليه، تُذكّر حتما بهذا الكتاب «القديم». كما أن هذا الكتاب الذى اختفى - ربما عن قصد - من على أرفف المكتبات فى الولايات المتحدة الأمريكية، ربما هو الذى كان - بحكم السبق والتوقيت - تقديمًا مناسبًا. ليس لبعضٍ من أفكار جارودى ربما، بل لفهم ما تعرض له - وهو من هو - من اضطهاد فكرى، فى بلده فرنسا - وهى من هى - إذا تحدثنا عن «حرية الفكر والرأى».



فى قلب لندن، طرحوا المؤرخ البريطانى المدقق «دافيد ايرفنج» على أرضية مقهى «ريكشو» الذى كان يحتسى فيه قهوته.. وضربوه. كما حكى محمد حسنين هيكل، والذى كان شاهد عيان للحادثة، ولم يكن السبب أن «ايرفنج» كتب عن المحرقة النازية، وإنما كان السبب أنه بحث وتقصّى.. وشاع أنه أوشك على ملامسة حقائق ربما تكون قد توارت لنصف قرن وسط أضابير مترية، وخلف الخزائن الحديدية للأرشيف السوفيتى. والذى هو بحكم ما جرى على أرض الحرب الثانية يمثل السجل الحقيقى - ربما - للقصة كلها؛ قوائم وتفاصيل.

وفى فرنسا، نجح اليهود فى استصدار قانون «Fabius-Gayssot» سنة ١٩٩٠ ليلاحقوا به مفكرًا بحجم جارودى، وفى سِنِّه (٩٠ عامًا) ولينجحوا «بالقانون» فى استصدار حكم بمعاقبته وسجنه لجرأته على ما أبداه من أراء فى كتابه الشهير «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» (صدرت الطبعة الخامسة لترجمته عن دار الشروق قبل أيام).

وفى الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى بُعد أمتار من تمثال الحرية «الفرنسى النشأة» استخدمت حكومة واشنطن «الفيتو» أكثر من ثلاثين مرة، ضد إرادة جميع الدول الأعضاء فى مجلس الأمن فى معظم الأحيان، لا لشىء إلا لحماية إسرائيل. حتى من مجرد التنديد بإقدامها على قتل موظفين تابعين للمنظمة الدولية «ذاتها».

كيف حدث ذلك؟

وكيف نجح اليهود فى أن يكونوا القوة الأولى «ذات النفوذ» فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية؟ وهل يستمر لهم ذلك فى عالم ما بعد تلك الباردة؟

هنرى فورد كتب سفره الضخم هذا (أربعة أجزاء وثمانين مقالة فى ٩٤٠ صفحة) قبل الحربين. وبالتحديد فى سنة ١٩٢٠. وفى أجواء كانت بعيدة - يومها - عن صخب إرهاب مكارثية الاتهام عالى الصوت بـ«اللاسامية». والواقع أنه فى ضجيج الصخب - وهو البادى فى دنيا الفكر اليوم - يختفى عادة صوت العقل والحكمة. ويكون طبيعيّاً، وسط قرع الطبول، أن يهيمن الصوتُ العالى، وأن تُشَوِّشَ أفكارُ البعض.. وأن يؤثر الآخرون الصَمتَ او الابتعاد.

ولأن «فورد» ليست مجرد سيارة أمريكية، يعتبر الكثيرون أن «هنرى فورد» ليس مجرد صانع سيارات. بل هو كقليلٍ غيره يمثل «رمزًا» لأمريكا ذاتها. والتى صاغت كينونتها طوال قرن من الزمان من تضافرٍ لمفاهيم كان منها ما هو اقتصادى مثل «الإنتاج الكبير Mass Production من أجل الاستهلاك الواسع Mass Consumption».

ولد هنرى فورد عام ١٨٦٣ فى بلدة صغيرة «ديربورن فيل». جعل من اسمها لاحقًا اسمًا لجريدته. قبل أن يخصص إحدى صفحاتها لعرض آرائه المحافظة. والتى كان محورًا فيها لفت انتباه الأمريكيين إلى معتقداته الخاصة باليهود والتحذير من أنهم «يخططون للسيطرة» على المال والاقتصاد والنفوذ فى المجتمع الجديد.

وعرف عن هنرى فورد تدينه الشديد وتمسكه بقيمه المحافظة، حتى أنه ورغم نجاحه فى إقامة إمبراطورية صناعية كانت هى الأكبر فى يوم من الأيام، إلا أن مخالطيه لم ينظروا إليه أبدًا على أنه «مجرد رأسمالى يسعى إلى تحقيق الربح». وكان لافتًا من ذلك «الرأسمالى الذى لا يدخن ولا يقرب الخمر» اهتمامه بالجانب الأخلاقى فى سلوكيات عمال مصانعه. ويذكر له قيامه بخطوة غير مألوفة بين الرأسماليين عندما بادر بتخفيض ساعات العمل فى المصنع ورفع أجور العمال دون أن يطلب منه أحد ذلك. كما كان داعية للسلام ومناهضًا للحرب. وكان لديه اعتقاد راسخ بأن اليهود كانوا دائمًا وراء النزاعات والحروب الأوروبية، وهو الأمر الذى لم يكن - كما أوضح دائمًا - يريد له أن ينتقل للعالم الجديد مع المهاجرين «ذوى القبعات السود» عبر الأطلنطى.

وكان أن نشر هنرى فورد فى جريدته سلسلة مطولة من المقالات يعبر فيها عن أفكاره تلك. وهى الأفكار التى اعتبرت لاحقًا «معادية للسامية». ودلل بها الكثيرون على «الجذور الأمريكية لمعاداة السامية».

ويحكى عن فورد، والذى كانت جريدته قد بدأت فى نشر «بروتوكولات حكماء صهيون» سيئة السمعة، أنه قال: «الأهم بالنسبة لنا نحن الأمريكيين ليس من الذى صاغ هذه البروتوكولات.. وما إذا كان مدعيّاً أو مجنونًا، فالمهم - والقول لفورد - «أن البرنامج المنشور عام ١٩٠٥ قد تحققت الأجزاء الرئيسية منه خلال عشرين سنة فقط».

وأيّاً ما كان الموقف من أفكار الرجل، والتى - للحق - شاركه فيها غيره أيامها. فإن الذى كان أن الرأسمالى الأمريكى والذى يوصف بأنه «أبو صناعة السيارات» تعرض بسبب مواقفه هذه لضغوط شديدة، اضطرته فى نهاية المطاف إلى إغلاق جريدته تمامًا. بعد أن كان قد فكر فى ترشيح نفسه لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية.. ولهذا متطلباته. وبالفعل قام هارى بنيت مدير عام شركته بالتفاوض مع زعماء اليهود لوقف الحرب التى بدأوها ضد الشركة. على أن يقدم هنرى فورد اعتذارًا شخصياً لليهود يُنشر بتوقيعه فى كل الصحف والمجلات الأمريكية.. وقد كان.



يرى البعض إذن فى هنرى فورد، وهو أحد أهم رموز الحياة الأمريكية الحديثة «معاديًا للسامية». ويرى البعض أنه كان معبرًا عن مزاج عام ساد فى أوائل القرن العشرين. وكان من سماته «التحذير» من تغلغل.. ومن ثم سيطرة «مفترَضة» لليهود على مقدرات السياسة والاقتصاد والفكر.

وسواء صدق فورد فى «بعض» ما ذهب إليه. أو كان مبالغًا أو «متجنيّاً» كما اتهموه، فإن قراءته لا تصح - أو لا تكتمل - اليوم، إلا بقراءة الخريطة «الفعلية» لدوائر النفوذ والقوة فى الولايات المتحدة الأمريكية «سيدة العالم الجديد»، وهى الخريطة التى تحاول «سهير السكرى» أن ترسم ملامحها (فى مقال ننشره لاحقًا لفصل من كتاب فورد) من خلال استعراض تقارير وردت فى الموقع الالكترونى لـExecutive Intelligence Report (EIR)».



مات فورد.. واختفى كتابه.. وحوكم جارودى.. ومازال الصراخ عاليًا، موجبًا - فى بعض الأحيان - للصمت.

وجهات نظر





محمد حسنين هيكل



أولا:

تعامل مع شبه مستحيلات

■ ■ مشكلة المشاكل بالنسبة للعالم العربي - في المدى المنظور من المستقبل (عشرة إلى عشرين سنة) - وفي مجال السلامة القومية (تحصيل وتحصين أسباب الأمن، والقوة على تنوع مجالاتها) - هي العلاقة مع الإمبراطورية الأمريكية وإدارتها باستنارة وكفاءة - وسط شبه مستحيلات أربعة، تبدو كأنها أضلاع صندوق مغلق!

■ ضلعه الأول: صعوبة إقامة صداقة حقيقية مع الإمبراطورية الأمريكية، لأن تلك فرصة أفلتت من زمن طويل، ونظريا فإن هذه الفرصة تبدت لها احتمالات ممكنة سنة ١٩٤٥ - لكن هذه الاحتمالات تبددت عمليا سنة ١٩٤٨، (بالتحديد بعد الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى).

■ والضلع الثاني: خطورة الدخول في عداء مطلق مع الإمبراطورية الأمريكية، لأن هذه الدرجة من العداء تصل بحركة الأشياء إلى الصدام العنيف، وذلك تحد لا تستطيع الأمة احتماله، فهو في هذه اللحظة - وللزمن المرئي - يفوق طاقتها أو يتعدى مواردها.

■ والضلع الثالث: منزلق الاندفاع إلى النهاية في مثل هذا العداء بدون حد، لأن ذلك يصل بأصحابه إلى حالة من الكراهية العاجزة، تضرهم بأكثر مما تصيب غيرهم، وتلك وصفة فشل أكثر منها بشرى نجاح.

■ والضلع الرابع: استحالة الصبر إذا تَوَهَّم العرب أن بإمكانهم تجاهل الإمبراطورية الأمريكية وتركها لعوامل الزمن تعريها وتكسر شوكتها، كما حدث لإمبراطوريات سبقتها، لأن وزن الحقائق لا يسمح بمثل هذا التجاهل، فالواقع الراهن له أحكامه وانتظار الظنون فرض يصعب اعتماده للتصرف الآني مع وجود الإمبراطورية الأمريكية بسطوتها وبأسها في قلب العالم العربي - بطلبه مرة أو بطلبها مرات!

والشاهد أن الأوضاع العربية الآن تحمل أصداء ذلك الأسى المضغوط في عبارة مأثورة عن الرئيس المكسيكي الأسبق «فارجاس» (أوائل الثلاثينيات) حين سُئِلَ وبلاده غارقة في المشاكل عن: «حقيقة أزمة المكسيك!» - وأطرق الرجل لحظة يفكر ثم قال مكررا السؤال:

«أزمة المكسيك»؟!:

ثم أضاف جوابه:

«أزمتها أنها قريبة جدا بحدودها من الولايات المتحدة - بعيدة جدا بروحها عن الله».

وذلك جار على أحوال كل الدول العربية اليوم: «قريبة جدا إلى درجة الالتصاق من الإمبرطورية الأمريكية - بعيدة جدا إلى درجة الانفصام عن أي عقل وفعل!

وهكذا فإن علاقة العرب بالولايات المتحدة الأمريكية شبه مأساة إغريقية، ولو تُركت للمصادفات لانتهت بالدم - قتلا أو انتحارا للبطل - وكلاهما في الشأن السياسي محظور، لأن مهمة السياسة - في العصور الحديثة - وفي كل العصور - أن تمنع المأساة، وتربط الصلة بين الإرادة والتاريخ!

ومؤدى ذلك أن العلاقات العربية الأمريكية صراع لا يصح أن يُترك وشأنه - وإنما يلزم إدارته.. يُدار بالرشد، مع الوعي بأنه سوف يطول ويشتد ويزداد خشونة وقساوة.



ومع أن السياسة الأمريكية - في هذه اللحظة - تبدو أمام العرب عاصفة من العنف الأحمق والجامح - إلا أن ذلك لا ينبغي أن يخيف ويغري بالفرار، لأن واحدا من أهم دروس التاريخ: أن الإمبراطوريات العاتية تكابر حتى تصل إلى الذُرى العالية، ثم تكتشف عند الوصول هناك أن البقاء فادح التكاليف، وعندها تظهر حتمية النزول، لكن الإمبراطوريات تعاند وساعتها يبلغ العنف مداه، وذلك ما حدث لكل الإمبراطوريات سابقا: من الإمبراطورية الرومانية في العالم القديم - إلى الإمبراطوريتين الأكبر في التاريخ الإسلامي (الأموية والعباسية) في العصر الوسيط - إلى الإمبراطوريات الأوروبية في العصرين القريب والحديث.

فتلك الإمبراطوريات جميعا بلغت الذُرى زمن الصعود، وكلها بعد ذلك - وبسبب أعباء وتكاليف الإمبراطورية - اضطرت للنزول على السفوح، وكلها في حالة الصعود استعانت بالقوة، وكلها في اتقاء النزول قاومت بالعنف.

وذلك ما يحدث للإمبراطورية الأمريكية، وإن كان في حالتها يستدعي قدرا أكبر من الحرص والتدقيق، لأن هذه الإمبراطورية فصيلة تختلف عما سبقها.

١ - فهذه الإمبراطورية الأمريكية تملك من عوامل القوة الاقتصادية والمالية ما يتفوق على سابقاتها طول التاريخ.

٢ - وهذه الإمبراطورية توظف لخدمة أهدافها أقوى وأكبر منجزات التقدم الإنساني في كافة المجالات.

٣ - وهذه الإمبراطورية عاشت حياتها بعيدة عن أي تهديد مباشر لأرضها وسكانها، وراكمت من أسباب القدرة والثروة مددا وفيرا، وبالتالي قدرا ضخما من المناعة والثقة بالنفس يزيد أحيانا عن الحد.

٤ - وهذه الإمبراطورية تملك سطوة في السلاح لم تتوافر لغيرها من الإمبراطوريات مع وجود توافق حرج بين التكنولوجيا العسكرية والتكنولوجيا المدنية.

فى الضميــــر الأمريكــى

٥ ـ وهذه الإمبـراطوريـة استطاعت إلى جـانب سطوة السلاح أن تعـرض نوعـا من جاذبية النموذج يمهد لتوسعها وانتشارها، بغواية فى أساليب الحياة ـ تعزز وسائط القوة.

٦ ـ وهذه الإمبراطورية تمكنت من أسلوب جديد فى السيطرة، يقوم على نظام شديد الجرأة والجسارة إلى درجة الاقتحام والاختراق لخصوصيات الدول والشعوب، والقدرة على خطف وعى الآخرين وارتهانه ـ أسير إعلام مصور وملون ـ مكتوب وناطق ـ يعطى لنفسه احتكار وضع جدول اهتمامات الرأى العام العالمى وسحب الآخرين وراءه أو جرهم مهرولين.



وحصيلة ذلك أن طاقات هذه الإمبراطورية الأمريكية وأدواتها منحتها خصائص وميزات لم تتح لغيرها من الإمبراطوريات على مسار التاريخ.

لكن الحكمة الصوفية المأثورة القائلة بأنه «عند التمام يبدأ النقصان» ـ تظل صادقة بالعرفان وبالبرهان معا، لأن كل كائن حى له أجل ولهذا الأجل مراحل: طفولة وصبا وشباب وكهولة وشيخوخة وموت. وذلك قانون نافذ حتى على الإمبراطوريات باعتبارها كيانات حية، وعندما يصل عمر أى كائن حى إلى ذروته فإن النزول على الناحية الأخرى من التل حتمى، لأن أى كائن حى عند الذروة يكون قد استعمل إلى أقصى حد كافة مصادره وموارده، وهو حين يستعملها إلى أقصى حد ـ يستهلكها بنفس المقدار.

وبقواعد الحساب فإن إسراف أى كائن حى فى استعمال المصادر والموارد المتوافرة لديه، تلزمه أن يصرف وينزح منها أكثر وأسرع، وذلك مأزق الإفراط فى أى سلوك. وإذا كانت التسمية الشائعة للإمبراطورية الأمريكية أنها تحولت من قوة أعظم (Super Power) ـ إلى قوة كاسحة (Hyper Power) ـ فإن القواميس المعتمدة تورد تعبير (Hyper Power) ـ مترجما إلى اللغة العربية بـ: «القوة المفرطة»!



وأغلب الظن أن الاختبار الحقيقى أمام العرب فى المرحلة الحالية وما بعدها يتعلق بمدى استعدادهم للوقوف جنبا إلى جنب مع قوى عديدة فى العالم يهمها ـ كما يهمهم ـ تجاوزات الإمبراطورية الأمريكية، ويعنيها ـ كما يعنيهم ـ وضع حد لهذه التجاوزات ويشغلها ـ كما يشغلهم ـ إجراء حسابات دقيقة لعناصر الصراع معها لا تجعل الهدف هزيمة القوة الأمريكية، وإنما ترويضها بحيث تخضع لحكم القانون، وذلك يكفى الجميع، تاركين الباقى لحقائق الطبيعة وأحكام التطور.

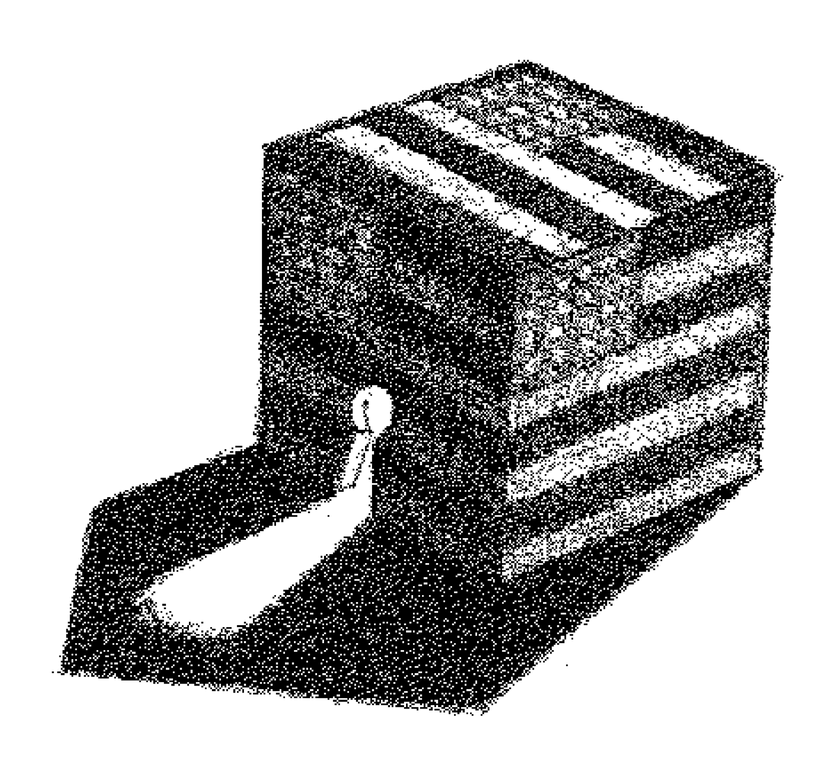
والواقع أن الإمبراطوريات الكبرى فى التاريخ لا يهزمها خصومها فى صراعات مباشرة إلى النهاية ـ وإنما تتولى هى هزيمة نفسها بالإفراط فى استعمال القوة وفى الغرور، إذ يعجز عن مسايرة التطور ويتصور قدرته غالبة إلى الأبد!

ومع أنه مما يطمئن العرب ـ إلى حد ما ـ أنهم ليسوا وحدهم فى مواجهة الإمبراطورية الأمريكية المفرطة ـ إلا أنهم أكثر من غيرهم ـ يحتاجون إلى مهمة تفتيش فى أعماق شخصية وضمير هذه الإمبراطورية، وبحيث لا يكونون ـ كما وقع لهم مرات ـ مهزومين بلا مبرر، وأسرى بلا مقاومة، وضحايا بلا ثمن.

والواقع أن مهمة التفتيش الدقيق فى أعماق الضمير الأمريكى تكتسب أهمية مضافة من حقيقة اختلاف الإمبراطورية الأمريكية عما سبقها من التاريخ، وبحيث لا يصح معها الاكتفاء بما هو ظاهر على المواقع، أو خبئ فى الملفات، وإنما تقتضى مهمة التفتيش فحصا للأصول والجذور ينزل إلى باطن التربة، عندما انبثق أول نبت وتردد أول نفس ـ مع التحفظ بأن عمليات التفتيش تنطوى بالضرورة على تجوال لا تسنده خريطة دقيقة، وإنما تلفته علامات وشواهد يحاول أن يتقصاها، ويعثر فى بعض المحاولات على دليل ولا يعثر فى بعضها الآخر على شىء!



وفى التحضير لأى مهمة تفتيش بهذا الاتساع، فقد يلزم الاتفاق ـ بشكل عام ـ على أن أى إمبراطورية لابد أن تنشأ وتقوم وتستند على دولة ـ وعليه فإن البحث فى الخصوصيات الأولية للدولة الأمريكية كشاف لفهم طبائع الإمبراطورية الأمريكية وتمييز شخصيتها ومقاصدها وسلوكها وممارساتها فى السياسة (وهى التعبير اليومى عن حركة القوة)، ثم إن القصد من هذه العودة إلى البدايات لا يكون هدفه المحاكمة والإدانة، وإنما يكون مطلبه الفهم، لأن مهام التفتيش فى العادة صعبة وحتى إذا كانت لدى المفتشين خيوط يظنونها كافية لتقود خُطاهم إلى ما يبحثون عنه، فإن التفتيش فى أعماق الضمائر أكثر تعقيدا من التفتيش فى الأمكنة وفى المواقع، خصوصا إذا كانت المحاولة فى ضمير إمبراطورية كاسحة (مفرطة فى قوتها)!■



ثانيا: من الدولة - إلى الإمبراطورية

[١]

■ ■ وعلى سبيل المثال فإن الولايات المتحدة الأمريكية كما عرفتها الدنيا نشأت مهجرا ومنفى وملاذا لعينات مختلفة ومتناقضة من البشر:

● كانت موجة الهجرة الأولى إلى أمريكا جماعات من المكتشفين والمغامرين ذهبوا يبحثون - بتشجيع ملوك أوربا وأمرائها - عن طريق إلى الشرق يتجنب سيطرة الممالك الإسلامية الحاكمة على طريق البحر الأبيض (ممالك مصر والشام) - أو على طريق الحرير (ممالك الفرس والمغول) إلى قلب آسيا - والذى حدث أن المكتشفين الأول والمغامرين وصلوا إلى الغرب بدلا من الشرق، ثم راح ملوك وأمراء أوربا يسمعون الأعاجيب عن ثروات العالم الجديد: من أرض خصبة، ومياه وفيرة، وسهول خضراء، وجبال من معادن تخطف العيون - أولها الذهب.

● وحين تولى البابوات والكرادلة مراسم إقطاع العالم الجديد - باسم معجزة الرب - إلى ملوك أوربا وأمرائها - كان جنود هؤلاء الملوك يسابقون الريح إلى العالم الأسطورى الجديد حتى لا يسبقهم غيرهم أو ينفرد بالثروة هؤلاء الذين اكتشفوا وغامروا - وكانت تلك هى الهجرة الثانية.

● وجاءت موجة الهجرة الثالثة حين احتاجت الموارد إلى قوة عمل، ووجد الملوك والأمراء الذين لا يريدون شراكة زائدة، أن حلهم الأمثل شحن نزلاء سجونهم إلى العالم الجديد، فهناك في انتظارهم «أشغال شاقة مؤبدة» ومفيدة فى نفس الوقت، لأنها تنتج غنى متواصلا يتراكم فى خزائن السادة، بدلا من أن تستهلك طعاما فى كسر الأحجار وحمل الأثقال.

وهكذا أفرغت سجون إنجلترا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال (وغيرها) - زحامها فى سفن فردت قلوعها جارية عبر المحيط.

● وكانت الموجة الرابعة طوائف من المضطهدين دينيا وسياسيا فى أوروبا، وقد سمعوا عن أرض مفتوحة بلا نهاية وبلا حدود لا يحكم فيها سلطان المدعين بالعصمة الإلهية أو بالذات الملكية، وقرر هؤلاء المضطهدون أن يتبعوا النجوم الهادية إلى الشواطئ البعيدة، وظنهم أنهم عليها فى أمان مع معتقداتهم وأفكارهم، يجربون إقامة فردوس حلموا به وفشلوا فى تحقيقه حيث ولدوا - والأمل أن العالم البعيد قد يكون بالنسبة لهم ولادة وحياة من جديد!

● ثم توالت موجات الهجرة وتنوعت الأشكال والألوان من كل الأنواع، ولم يمض غير قرن أو قرنين حتى ظهر على مساحة القارة الأمريكية مجتمع فريد، فهو خليط قلق ومتنافر - متحفز ونشيط، تجمعه المجازفة، وأمله فى درجة من الاستقرار أن تتولى ضرورات الحياة تعليم أهله أسلوبا ما من أساليب العيش المشترك فى عالم مازال مجهولا متراميا وراء الأفق.



ولم يكن عبور المحيط تلك الأيام (ما بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر) نزهة سهلة أو رحلة هينة، بل كانت ركوبا للصعب وموعدا مع المشقة لا يقدر عليه غير الأشداء من الناس أبدانا ونفوسا.

ولم يكن فى خيال هؤلاء الأشداء أن ينشئوا وطنا تتساوى فيه حقوق الناس ومسئولياتهم، وإنما كان مطلب كل واحد منهم أن يسبق أو يلحق، ويعوق غيره أو يعطله، وكذلك لأن الجميع متسابقون إلى وضع أيديهم على ما تطوله أطراف أصابعهم. وحين وجدوا أن أمريكا لم تكن أرضا خالية من الناس، فقد أدركوا من أول لحظة أنه إذا كان لهم أن يتملكوا الدنيا الجديدة، فإن «الآخر» (وهو الهندى الأحمر) لابد أن يختفى - كما أن اختفاءه لا يتم إلا بالقضاء عليه تخليصا ماديا ومعنويا للأرض وما عليها!

وهم بالطبع يريدون أن يجمعوا عنه معلومات كافية، لكنهم لا يريدون القُرْب منه نفسيا أو إنسانيا، لأن مثل ذلك القُرْب يضع عليهم قيدا أخلاقيا أو عاطفيا لا يحتاجون إليه.

أى أن السلاح ضرورى كل وقت، والمعلومات كل لحظة لازمة، لأن العدو غريب عنهم بالكامل - منتشر فى الأرض حيث لا يعلمون - خبير بالتضاريس متآلف معها!

....

....

[ويلاحظ أن هذا السلوك تكرر فى تاريخ الحركة الصهيونية - حين فكر «تيودور هرتزل» فى مشروع دولة يهودية فى فلسطين تكون وطنا قوميا لليهود، ووقتها بعث باثنين من الحاخامات فى رحلة استطلاع تؤكد له ولغيره أنها «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، وكانت مفاجأة «هرتزل» حين تلقى من رسوليه إلى فلسطين تلغرافا شهيرا فى تاريخ الحركة الصهيونية يقول:

«العروس جميلة، ولكنها متزوجة فعلا».

وكان الحل الإسرائيلى مثل الحل الأمريكى: قتل الزوج والاستيلاء على ممتلكاته واغتصاب العروس باحتلال الأرض!].

....

....

وكانت التجربة الأمريكية سبَّاقة فى هذا السلوك، وقد مارسته إلى النهاية - ومازالت تمارسه إلى هذه اللحظة ضد أى عدو حقيقى أو متصور، بل ومارسته على المستوى الفردى موجها إلى أشخاص بذواتهم وصفاتهم. وكان القانون الأمريكى حتى سنة ١٩٧٤ يعطى لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية سلطة إصدار أوامر قتل تنفذها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية على من يرى الرئيس أنهم أعداء للولايات المتحدة من زعماء العالم.

وحدث فى أعقاب الضجة الكبرى التى صاحبت سقوط الرئيس الأمريكى «ريتشارد نيكسون» وعزله، أن خلفه الرئيس «جيرالد فورد» أصدر أمرا رئاسيا يُحَرِّم ممارسة قتل الزعماء السياسيين لدول أجنبية باعتبار ذلك أداة من أدوات السياسة الخارجية الأمريكية، وظل هذا الأمر ساريا - إلى حد ما! - حتى أصدر الرئيس الأمريكى الحالى «جورج بوش» (الابن) أمرا رئاسيا بالعودة إليه فى حرب أمريكا المقدسة الجارية الآن (ضد الإرهاب)!

....

....

[٢]

وعلى سبيل المثال فإن الدولة الأمريكية وبواقع النشأة والظهور لم تقم على قاعدة شعب بعينه، أو أمة بذاتها، أو عقيدة حلت فى قارة من الأرض وربطت ناسها، بل كانت النشأة والظهور فى إطار مغامرة تاريخية نادرة، وكذلك فإن الإمبراطورية التى قامت عليها هذه الدولة اختلفت عن الإمبراطورية البريطانية أو الإمبراطورية الرومانية، (كلتاهُما قامت على شعب بعينه) - كذلك فإنها اختلفت عن الإمبراطورية النمساوية أو الإمبراطورية الروسية، (كلتاهما قامت على أمة بذاتها) - وأيضا فإنها ليست مثل الإمبراطورية الإسلامية أو الإمبراطورية البيزنطية. (كلتاهما قامت على عقيدة حلت وتسيدت).

....

....

[وترتب على ذلك أن الإمبراطورية الأمريكية لم تستطع فى أى وقت أن تستوعب فكرة الوطنية الموحدة، أو فكرة القومية الجامعة، أو فكرة الرابط الدينى الواسع، وبالتالى فإنها عند تعاملها مع أطراف تستند على مثل هذه الأسس - وقفت أمام حاجز ثقافى منيع أدى بها إلى مشاكل بلغت حد العناد والعداء مع بلدان تمسكت بداعى الوطنية المستقلة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وحتى فى أوروبا (الصين ومصر وكوبا - وكذلك فرنسا على عهد «ديجول»).

ولأنه كان لابد من وعاء جامع يضم السكان على أرض جديدة، فقد راج ادعاء بأن الوعاء الواحد هو الجسارة - تشهد عليها معجزة الكشف، وسرعة السبق، وروح المغامرة وشدة القوة والبأس، وتغطية ذلك بأن العالم الجديد أرض الميعاد المتحققة فعلا - منحة سماوية للأقوياء والقادرين، وليس لغيرهم من الذين قعدوا فى العوالم القديمة وترددوا فى ركوب الموج العاتى لبحر الظلمات - وبطبائع البشر فقد نشأت فوق ذلك نزعة ادعاء بتميز أمريكى، مسحة التميز عن بقية البشر، فهُم الأكبر والأقوى، وهم الأوفر غنى، ولهذا السبب يحسدهم الآخرون ويحقدون عليهم وذلك لا يهمهم لأن «نعمة الرب» وحدها كافأت جسارتهم وحرمت منها غيرهم!].

....

....

[وفى تعويض مفعول الوطنية أو القومية - فإن مشروع المغامرة الذى تمثل فى هجرة الأقوياء الأشداء، أعطى الأفراد نوعا من مواطنة المصلحة والأمن بديلا عن مواطنة الأرض والبلد، وكانت مواطنة المصلحة والأمن ظاهرة إنسانية مستجدة - بسيطة وشديدة البساطة لأنها لا تريد من عموم مواطنيها أن يشغلوا أنفسهم بما هو أكثر من الضرورى - لحياة تستغرق وقتهم وتستهلك جهدهم، وتبقى لهم فى الشأن العام أحد خيارين من اثنين:

- إما طمأنينة تترك كلا منهم لشاغله العادى (وحده).

- وإما أنها قلق يدعوهم إلى التنبه لخطر لابد أن يخشوه (مجتمعين).

وبناءً عليه فإن مزاج المواطن الأمريكى يعرف نفسه مع حالة الرخاء ويعرف المجموع فى حالة التهديد.

وتلك هى رسالة الخطاب السياسى من كافة الاتجاهات. فهو إما عملية لتشجيع الطمأنينة الفردية وصرفها إلى شواغلها - وإما عملية لإثارة المخاوف لتعبئة الجماعة وإثارتها، أى أنه باستمرار: بيع الحلم أو بيع الخوف، وفى الغالب فإن بيع الطمأنينة تجارة داخلية، وأما بيع الخوف فهو التجارة الخارجية].

....

....

وقد بلغ من عجز الإمبراطورية الأمريكية عن قبول فكرة القومية، أن رئيسا أمريكيا على مستوى «دوايت أيزنهاور» أُتيح له أن يقود أكبر جيش متحالف فى التاريخ لمعركة تحرير أوروبا، لم يستطع أن يتقبل حتى من أقرب الأصدقاء العرب إلى السياسة الأمريكية - فكرة

لم يجلس مفاوض عربي - أو محاور عربي - إزاء نظير له أمريكي وحاول أن يقدم ويشرح له قضية فلسطين إلا وسمع منه طلب أن يعفيه من الخلفيات التاريخية، فهي تفاصيل لم تعد تهم - لأن «الحاضر الراهن» هو النقطة التي نعيشها ونتصرف منها، بصرف النظر عما سبقها وجرى في الزمن قبلها



وجود أمة عربية يحوطها الاتصال الجغرافي والتواصل التاريخي والعمق الثقافي المخزون في اللغة الواحدة، والتجربة المحكومة بمصدر شرعي وقانوني غالب.

[٣]

■ وعلى سبيل المثال فإن الدولة الأمريكية - قاعدة الإمبراطورية الأمريكية - قامت على مبدأ طارئ بالكامل لم تعرفه من قبل تجارب نشأة الدول، ففي حين كان مبدأ السابقين هو استمرار الجغرافيا وتدفق التاريخ، فإن التجربة الأمريكية كان مبدؤها الأول بالتصميم هروبا إلى جغرافيا جديدة - وانقطاعا عن تاريخ سبق. والداعي أن المهاجرين الذين قصدوا إلى أمريكا كانوا مطالبين (لدواع إنسانية وعملية) بقطع صلتهم بالأوطان التي وُلدوا فيها وتركوها وراء ظهورهم، والقبول بمخاطرة عبور المحيط وركوب أهواله (وقتها) - ملهوفين على وعد يبشرهم بالثروة الموفورة والفرصة المفتوحة، لأن ذلك هو الأمل الذي ضحى الكل في سبيله بفراق الأهل والوطن، وكذلك كان المبدأ الذي فرض نفسه على الجميع - نسيان الماضي والتخفف من حمولاته، مسلمين أنهم في حاجة إلى ثقافة وأخلاق وقانون من مصادر تناسب ظروفا مختلفة عن أي ظرف نشأت فيه دولة من قبل.

وهنا بدأت في الظهور مجموعة قيم مثيرة ومرنة في مواجهة أحوال عالمها الجديد من رغبة في استكشافه والنفاذ إلى عمقه، والقسوة في التعامل معه، من إدراك أنها لا تستطيع أن تعود إلى حيث كانت قبل أن تعبر المحيط.

وباختصار فإن التاريخ الجديد كان مطلوبا منه أن يكون صفحة بيضاء. وحينما بدأ التدوين فإن «قتل الآخر» كان فاتحة أول سطر، لأن القتل له وظيفة مزدوجة: ضمان الأمن (وذلك إنساني) - وضمان المصلحة (وذلك حق من وجهة نظر أصحابه)!

وكان السطر الثاني في تجربة مجتمعات المهاجرين - اختراع صيغة أخلاق تَدَّعي البراءة - حتى تتخفف من عبء ما اضطرت إليه وتغطي عليه بذرائع وضرورات الاستقرار والتقدم - وبإضافة من الصلوات تمزج المصلحة بأسطورة من نوع ما!

وهنا تكفلت طقوس من نوع «عيد الشكر» وفلسفته بغزل ونسج الغطاء الأخلاقي المطلوب، وتمكنت من صنع وتجهيز أعراف أخلاقية تحتاجها المغامرة الأمريكية، والعبرة فيها «أن الهندي الأحمر ليس مؤمنا بالله بحيث يستحق نعمة هذه القارة وخيرها العميم - كما أن الحكمة الإلهية لم تخلق موارد الطبيعة بهذا السخاء الرباني لكي يهدرها المتخلفون، وتأسيسا عليه فإن الأحق بالموارد هم الأقدر على استغلالها. ومع الوصول بالمقدمات إلى نتائجها فإن اغتصاب الأرض يصبح واجبا على المؤمنين - كما أن استغلالها خير الصلاة - لخالقهم وخالقها!».

ثم جاء دور التشريع، وكان المدخل المفتوح أمامه - قانون المصلحة، يقضي بأن «ما هو نافع لأصحابه - قانوني بالضرورة».

وكذلك أصبحت القوة كاتب النصوص، وبالتالي فإن الأمر الواقع الذي تفرضه هذه القوة: هو الحقيقة والحق في آن واحد، حتى وإن كان عُمر هذا الأمر الواقع سنة أو شهرا - أو أقل!

....

....

[وبهُدى هذه التجربة الثقافية عند البذور والجذور في نشأة وتطور الدولة الأمريكية وكذلك الإمبراطورية التي قامت عليها، فإنه - يمكن فهم المنطق الذي تعتمده السياسة الأمريكية حتى هذه اللحظة، بالذات في الشرق الأوسط.

وعلى هذا المنطق فإنه لم يجلس مُفاوض عربي - أو محاور عربي - إزاء نظير له أمريكي وحاول أن يقدم ويشرح له قضية فلسطين إلا وسمع منه طلب أن يعفيه من الخلفيات التاريخية، فهي تفاصيل لم تعد تهم - لأن «الحاضر الراهن» هو النقطة التي نعيشها ونتصرف منها، بصرف النظر عما سبقها وجرى في الزمن قبلها].

....

....

[وسمعت بنفسي - وأشرت إليه مرة من قبل - طلب نسيان التاريخ من الدكتور «هنري كيسنجر» - وهو أستاذ علوم سياسية ذائع الصيت وسياسي ممارس في نفس الوقت، وكان وقتها يشغل منصبين: وزير خارجية الولايات المتحدة ومستشار الأمن القومي لرئيسها - وبرغم هذه المؤهلات فإنه في أول لقاء بيننا في ٧ نوفمبر ١٩٧٣ (داخل جناحه في الدور الثاني عشر بفندق هيلتون النيل) - أراد «كيسنجر» أن يضع «بروتوكول» حوارنا الذي استغرق ساعات، مركزا على طلبين:

■ أرجوك أن تحدثني عن مصر وحدها - ولا تدخل بي إلى أمور تخص بلدانا عربية أخرى غيرها، فذلك الذي تسمونه بالقومية قضية لا أعرف وقائعها!

■ أرجوك أن تحدثني عما نستطيع عمله هذه اللحظة دون عودة إلى ما كان قبل ذلك، ودعني أذكرك بأني عندما وصلت إلى مطار القاهرة أمس قلت للصحفيين الذين كانوا ينتظرونني، بكلمات عربية أجهدت نفسي أياما لأحفظها أن: «ما فات مات».

ومن المدهش أن ذات المنطق وإن بأسلوب أكثر رُقيا ورد في حوار جرى في أثينا مع عدد من أكبر المفكرين في الولايات المتحدة وبينهم «كينيث جالبرايت» الذي قال لي بعد نِقاش طال بعد منتصف الليل «تذكر أننا نعود إلى التاريخ لكي نعرف عنه - وليس لكي نتمسك به»، وببساطة فإن المؤدى العملي لهذا المنطق هو التنازل مقدما - ليس عن التاريخ فحسب، وإنما عن القانون أيضا!].

....

....

وعليه فإن أي مفاوض أو محاور عربي مع طرف أمريكي لا يستطيع التأثير عليه أو إقناعه بحجج من نوع «عدم جواز الاستيلاء على أراضي الغير بالقوة» - أو «بحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى أراضيهم». وللإنصاف فإن عددا من المحاورين والمفاوضين الأمريكيين يحسنون قراءة ما هو مكتوب في القرارات الدولية المعنية بهذه المطالب العربية، لكن عائقا من الثقافة المؤسسة لتجربة الدولة الأمريكية - يظهر أمامهم فاصلا: بين النص القانوني المكتوب وبين المقتضى السياسي والعملي لذلك النص.

....

....

[٤]

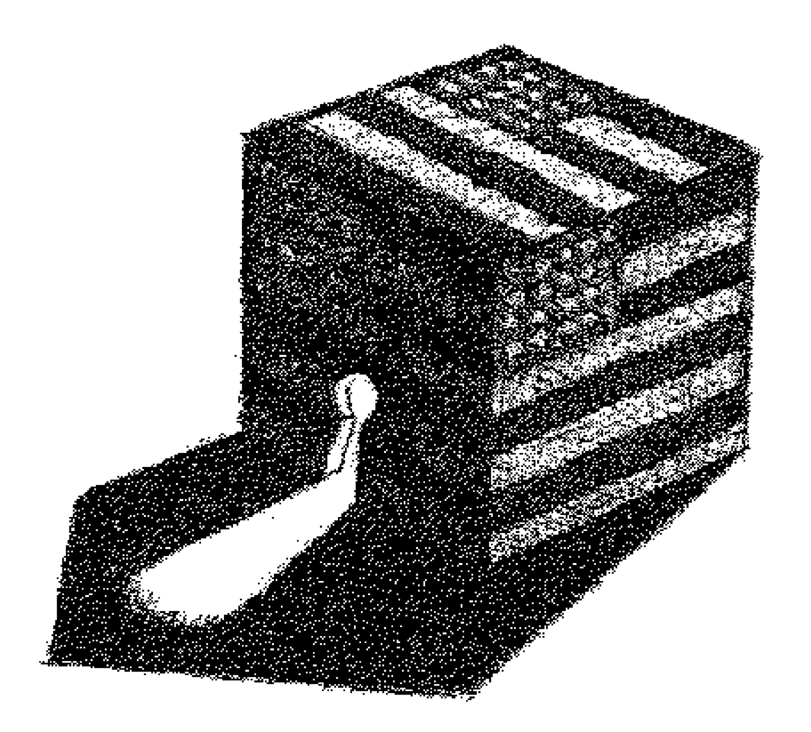
وعلى سبيل المثال فإن المشروع الأمريكي وبسبب اتساع المسافات، وتسابق الناس فُرادى وجماعات نحو عمق القارة في كل الاتجاهات - لم يحدد للدولة مركزا - وإن عرف لها فيما بعد عاصمة سياسية يذهب إليها ممثلو الأقاليم القريبة والبعيدة كي يباشروا مسئوليات «الضروري» و«المشترك» بينهم - دون أن تتحول واشنطن إلى سكن دائم، أو حاضنة مؤثرة، وترتب عليه أن مراكز النفوذ والتأثير بقيت في العمق وفي البعد، ولم تنتقل إلى المركز السياسي للدولة. وذلك أضاف إلى الفردية ورسخها على أي شعور اجتماعي (مع التسليم ببقاء تكتلات بشرية متجانسة اختارت أن تظل قريبة من بعضها لدفع الوحشة واستبقاء الألفة، ومن ذلك ما وقع حين تجاور مهاجرون من أصول فرنسية في ولاية لويزيانا، ومهاجرون من أصول أيرلندية في ولاية «ماساشوزيتس»، ومهاجرون من أصول اسكندنافية في ولايات الشمال حول «مينوسوتا»، ومهاجرون من حوض البحر الأبيض (يونانيون وطليان وأسبان) في الغرب يستعيدون شيئا من مظهر ومذاق حزام الزيتون المتوسطي يؤنسهم في ولاية كاليفورنيا على شاطئ المحيط الهادي).

وفيما عدا هذا التجاور البشري هنا وهناك على مساحة القارة، فإن الفردية ظلت الطابع الرئيسي للمجتمع (ولم تكن هذه الفردية ضررا طول الوقت لأنها أكسبت أصحابها قدرا من التنوع واستقلالية الرأي وضوابط للتوازن والمراجعة)، وفي المجتمع الفردي فإن النجاح أو الفشل هما معيارا الحكم على أي إنسان وعلى مكانته، وفي مجتمعات ناشئة ليست لها على الأرض الجديدة أسلاف أو أنساب - فإن معيار النجاح تعلق بالثروة، وهنا فإن بديل الأمير الأوروبي أصبح المليونير الأمريكي، مع وجود فارق بين إقطاع الأمير وثروة المليونير، فالإقطاع ثابت له مصدر معلوم، والثروة جارية ليس من حق أحد أن يسأل فيها عن مصدر أو مشروعية - لأن النجاح في حد ذاته له قوة القانون، ومواد هذا القانون في الحالة الأمريكية (وبالتحديد في مرحلة التراكم) - تتمثل في حسابات وأرقام وليس في قيود وحدود!

وهنا لم يكن مستغربا أن تكون مقدمة الظهور الأمريكي مع مطلع القرن العشرين، وبداية الخروج الأمريكي إلى العالم، رجالا من طراز «مورجان» (وهو رأس أسرة اعتمدت ثروتها في الأصل على جد من كبار القراصنة خبأ كنزه في إحدى جزر البحر الكاريبي ثم ترك لأسرته خريطة تدل على موقعه، وعندما تمكن الورثة من فك الرموز - أصبح الكنز في العصر الحديث أهم أصول واحد من أكبر البنوك الأمريكية) - ونفس الطراز من الرجال تكرر في «جون روكفللر» (فقد تحصل على غنى أسطوري من إبادة قبائل بأكملها في «فنزويلا» كي يفسح المجال لحقول بترول تأكد له وجودها وصمم على امتلاكها، واستحق أن يوصف بأنه أسال دما على سطح فنزويلا بأكثر مما استخرج من عمق آبارها نفطا) - ونفس الطراز كذلك تكرر في «فاندربيلت» (الذي تسابق مع «مورجان» في مشاريع مد السكك الحديدية تربط أمريكا الشمالية بقضبان من الصلب تشق طريقها صاعقة نافذة في الجبال - مارقة في السهول - مكتسحة لمواطن ما بقي من قبائل الهنود الحُمر، والجيوب المنسية من جماعات المهاجرين - وكان الاعتماد في هذه المشاريع على جحافل وحشود من العبيد شبه عرايا ونصف جياع!) - أو من طراز «دي بونت» (وهو رجل صنع ثروته من تجارة البارود يبيعه أولا لأطراف حرب الاستقلال الأمريكي مع وضد بريطانيا وفرنسا - ثم يبيعه فيما بعد لولايات الشمال والجنوب، أي تلك المطالبة بالوحدة، وتلك الراغبة في الانفصال، وتكدست ثروة الرجل من تجارة البارود لكل الناس - مع كل الناس - وضد كل الناس).

ولعل القصة الشهيرة عن «جون روكفللر» الكبير تلخص فلسفة الرجال الثلاثة وغيرهم، فقد وضع «روكفللر» على مكتبه لوحة كُتبت عليها عبارة مأثورة عن مستعمر أسباني في القرن السابع عشر هو الكونت «هيرناندُو دي سوتو» تحمل نص نداء موجها منه إلى السكان المحليين في كافة مستعمرات أسبانيا في أمريكا اللاتينية يقول لهم:

«عليكم أن تعرفوا من الآن فصاعدا أنكم رعايا لملك أسبانيا ولابد أن تعتنقوا الدين الكاثوليكي (!) - ومن هذه اللحظة أنتم عمال لنا، وزوجاتكم وأولادكم عبيد عندنا، وإذا لم تمتثلوا وقع عليكم العذاب». وكان بين صنوف العذاب التي ابتكرها الكونت «دي سوتو» منشار لأشجار الخشب، أمر



الكونت باستخدامه لنشر أجساد العمال المشاغبين أو الكسالى.

وكان «روكفللر» وأمثاله هم البناة الأول للقوة الإمبراطورية الأمريكية، (مع انه لابد من الاعتراف أن نموذج هؤلاء البناة الكبار للقوة الأمريكية أطلق لدى كل مهاجر أملا بلا حدود في الوعد الأمريكي، وإحساسا بقدرة أى رجل على الانطلاق عاليا وبعيدا).

وكان رئيس الولايات المتحدة في أوائل القرن العشرين «تيودور روزفلت» هو الذى أطلق على هؤلاء البناءين الكبار وصف «البارونات اللصوص» (The Robber Barons)، وكان صادقا في وصفه، فهُم اثنان في واحد ـ لص وقاطع طرق في الشباب ـ وبنّاء كبير عند ذروة الحياة ـ وبارون مع نهاية العمر، تقي متدين وكانه ينشد الغفران!

....

....

[وفي شهادة لصالح هؤلاء البناة للقوة الأمريكية (أو البارونات اللصوص في وصف «روزفلت») أنهم فيما بعد اشتروا بالدولارات أجمل منجزات الثقافة الأوروبية رسما ونحتا وأثاثا، وكذلك فإنهم لم يصبحوا بارونات فحسب، وإنما تحولوا إلى أرستقراطية ـ بدون أصول ـ أقامت لنفسها قلاعا ـ بدون أسوار ـ على هيئة مؤسسات تحمل اسماءهم (روكفللر وراند وكارنيجي وغيرهم)، وهي مؤسسات تقوم أحيانا بأعمال طيبة تُماثل ما قام به أمراء الاستنارة في أوروبا، والرجاء أن يصبح الظاهر مستغنيا عن الباطن، كما أن الحاضر يتكفل بإسدال ستائره الذهبية على الماضي، باعتبار أن النجاح وهو هبة الله يحمل معه صك البراءة!].

....

....

[والنجاح لا يضع قانونه فقط وإنما هو كذلك يختصر الإجراءات إلى طلبه. وفي كل القضايا التي تخص الولايات المتحدة فإن واشنطن لا تقيد النجاح بشرط القانون ـ بما في ذلك القانون الدولي، والمنطق في هذه الحالة أيضا ـ حاضر ملخصه «أن قواعد القانون الدولي كما شاعت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وُضعت دون مشاركة الولايات المتحدة وفي غيبتها (أى قبل أن تخرج الدولة الأمريكية إلى الدنيا الواسعة من وراء عُزلة المحيطات) ـ وعليه فإن تلك المبادئ والقواعد غير مُلزِمة إلا في حالة أن تعترف بها الولايات المتحدة تأسيسا على وجود مصلحة أمريكية، على أنه وحتى مع الاعتراف العام يصبح تطبيق القانون انتقائيا].

....

....

[وقد يصح الانتباه في هذه الملابسات إلى أنه مما يزكي إسرائيل لهذه الدرجة الهائلة من القبول في الولايات المتحدة الأمريكية ـ أنها تظهر أمام معظم الناس هناك باعتبارها مشروعا ناجحا حقق هدفه بصرف النظر عن الوسائل أعرافا وأخلاقا ـ أو قانونا].

....

....

[وبهذا المنطق يمكن فهم موقف الإمبراطورية الأمريكية من قضايا الشرعية الدولية، فالأمم المتحدة ناجحة إذا كانت في حوزتها ـ وفاشلة إذا كانت شرعيتها مسئولية مشتركة بين دول العالم، كما أن الإجراءات لا يصح لها أن تقع أسيرة تضارب تعدد في المستويات أو تعقيد الصياغات.

وبهذه العقلية العملية والواقعية اختزلت الولايات المتحدة سلطة المنظمة الدولية في مجلس الأمن وحده ـ ثم اختزلت سلطة مجلس الأمن في أعضائه الخمسة الدائمين ـ ثم اختزلت سلطة الخمسة الدائمين في نيابتها وحدها عن الجميع بواقع القوة «المفرطة»، وعليه ـ مثلا وفعلا ـ فإن «ثقافتها القانونية» حرضتها ولم تردها عن «خطف» التقرير الذى قدمه العراق إلى مجلس الأمن عما يملكه ـ أو كان ـ من أسلحة الدمار الشامل، وكانت عملية خطف التقرير العراقي ـ في ظروف طبيعية ـ جريمة ابتزاز وسرقة بالإكراه تحت أى قانون. وفي وقائعها أن السفير الأمريكي لدى الأمم المتحدة أخذ معه ثلاثة من ضباط وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وتوجه إلى مكتب رئيس مجلس الأمن (لشهر نوفمبر ٢٠٠٢) وهو سفير «كولومبيا» ثم طلب منه (بناء على اتصال أجراه وزير الخارجية الأمريكي «كولين باول» مع عاصمة بلاده) أن يسلمه هنا والآن ـ أصل التقرير العراقي الموجه إلى مجلس الأمن. ولم يكن لدى رئيس المجلس خيار غير أن يسلم التقرير إلى المندوب الأمريكي ومرافقيه لكي ينقلوه بأقصى سرعة إلى واشنطن، ولم يسمح صنّاع القرار الأمريكي لبقية الأعضاء الخمسة الدائمين إلا بنسخة منه (مُنَقَّحَة)، وأما بقية أعضاء مجلس الأمن، فلم يحصل أحد منهم إلا على ملخص معلومات (مصنوع يدويا)!

والأمثلة غير ذلك كثيرة أشهرها رفض الولايات المتحدة لأية أحكام صادرة عن محكمة العدل الدولية في «لاهاى»، بما في ذلك الحكم بإدانتها في جريمة الحصار غير المشروع لموانى «نيكاراجوا» أيام نظام الساندينستا، وفوق ذلك حقيقة أن معظم القضايا أمام محكمة العدل الدولية «لاهاى» ـ مرفوعة ضد الولايات المتحدة الأمريكية!].

....

....

[يتصل بهذه الظاهرة في نشأة الدولة الأمريكية وطبيعة الإمبراطورية المستندة إليها، أن المجتمع الأمريكي في حسابه للنجاح على أساس الأرباح والخسائر ـ كان مستعدا للتكلفة المادية ـ مترددا ذات اللحظة إذا كانت التكلفة دما ـ وذلك موقف يسهل فهمه، لأنه إذا كانت فكرة «المصلحة» هي الجامع المشترك ـ فإن الدم لا تصبح له ضرورة، بل إنه يتعارض مع العقد الأساسي لشراكة المصلحة، بمعنى أن الشراكة تنظيم يدخل فيه كل طرف بحصة من رأس المال، لكن الدم يظل خارج الحسبة لأنه لا يحتمل الربح والخسارة].

....

....

وذلك يفسر لماذا جاءت الولايات المتحدة متأخرة ـ وفي بعض الأحيان متأخرة جدا ـ في كل الحروب الكبرى التي خاضتها، فقد شاركت في الحرب العالمية الأولى مع شتاء سنة ١٩١٧ (مع أن الحرب بدأت صيف سنة ١٩١٤)، أى أن الولايات المتحدة تأخرت عن بدء الحرب ثلاث سنوات ووصلت إلى ميادين القتال مع الهجوم الأخير ـ وبعد أن سال الدم أنهارا ـ لكي تكون في مقاعد المنتصرين وقت حساب الأرباح وتحديد نسب توزيعها!

ونفس الشيء تكرر في الحرب العالمية الثانية، فقد بدأت تلك الحرب في سبتمبر سنة ١٩٣٩، وشاركت فيها الولايات المتحدة بعد أكثر من سنتين أى في ديسمبر ١٩٤١، وهي لم تدخل وتشارك إلا بعد أن تأكدت أن معركة بريطانيا التي وقفت وحدها أمام العاصفة النازية منذ اليوم الأول ـ كسرت شوكة الطيران الألماني (في سماء لندن سنة ١٩٤٠) ـ وأن مدرعات «هتلر» غرزت في وحول الشتاء الروسي (سنة ١٩٤١)، وضلت طريقها في بحور الثلج اللانهائي من «وارسو» إلى «موسكو» وعندها اقتربت الولايات المتحدة وشاركت، مع ملاحظة أنها كانت «طرفا» في الحرب من أول يوم، لكنها من أول يوم فضلت أن يكون إسهامها بالقروض والمساعدات والإعارة والتأجير، حتى تستوفي حمامات الدم مطالبها.

وحتى الآن ـ هذه اللحظة ـ وعلى طول مسار الصعود الإمبراطوري الأمريكي، فإن الدم كان الرقم الأصعب في حسابات المشروع، لأن أصحابه قبلوا مخاطره طلبا لمكاسبه، ولم يطلبوها لكي يسقطوا قتلى على الطريق ويكون المكسب من نصيب آخرين!

وحدث في ميادين القتال على مسار الحرب العالمية الثانية ما هو بالفعل مستغرب، ولولا أن الوثائق الأمريكية قاطعة في شأنه، لما كان في مقدور أحد أن يعتمد على حجيته. والحاصل أن الولايات المتحدة الأمريكية بدأت خطوتها الأولى في ميادين الدم والنار بحملة «تورش» (الشعلة) وهدفها احتلال شمال أفريقيا (المغرب العربي)، لكن النزول الأمريكي على شواطئ المغرب تحت قيادة الجنرال «أيزنهاور» جاء عند تنفيذه شبيها بالسفر السياحي، لأن الجيوش «المعادية» التي تحمي المغرب كانت تابعة لحكومة الماريشال «بيتان في فيشي»، وكان كبار الضباط الفرنسيين في المغرب (مثل الأميرال «دارلان» والجنرال «جيرو» وغيرهما) ـ يتحينون الفرص للتحلل من الولاء لتلك الحكومة التي وقعت صك الاستسلام لألمانيا النازية، وكان هؤلاء الضباط الفرنسيون الكبار قد احتفظوا لأنفسهم بمسافة عن حكومة «فيشي» قابعين في الانتظار على الشاطئ الجنوبي الغربي من البحر الأبيض، آملين أن يوفر لهم البُعد استقلالية تحرر خياراتهم إذا تغيرت موازين الحرب.

وعندما قامت الأساطيل الأمريكية بعبور المحيط آخر سنة ١٩٤٢ متجهة إلى شطآن المغرب، كانت الجيوش الفرنسية هناك مستعدة للاستقبال، وهكذا فُتحت الموانئ لاستقبال السفن دون مقاومة، وقام عُمالها بإنزال الأسلحة والذخائر بحماسة، وكانت جماهير المرحبين محتشدة، وباقات الزهور جاهزة، بل إن سلطان المغرب «محمد بن يوسف» (محمد الخامس) جاء بنفسه إلى ميناء الدار البيضاء ليكون في انتظار وصول الجنرال «أيزنهاور» وتحيته.

على أن ما هو أغرب جاء مع المعركة الثانية للقوات الأمريكية على مسار الحرب، وهي معركة النزول في صقلية. وكان محتملا في هذه المعركة أن تكون إنزالا حقيقيا (بكل مخاطر عمليات الإنزال من البحر إلى الشاطئ أمام تحصينات قوية ونيران معادية) ـ لكن البيت الأبيض تحرك لكل الوسائل، وشاغل الرئيس فيه (وهو «فرانكلين روزفلت» وقتها): كيف يمكن تقليل خسائر الإنزال في عملية صقلية بأقل كلفة في الدم، لأن هذه الجزيرة مطلوب منها أن تتسع لنصف مليون جندي أمريكي ثم تتحول إلى منصة قفز لهم على شبه الجزيرة الإيطالية المتدلية في البحر الادرياتيكي.

وكان البيت الأبيض بنفسه هو الذى تولى رسم ورتب تنفيذ خطة تقليل خسائر الإنزال في صقلية ـ وكان الرسم والترتيب على شكل مقايضة مباشرة وعملية (دون روادع من أى نوع: ديني ـ أخلاقي ـ قانوني أو غيرها!)، شملت ترتيبات لا تتخفى ولا تتستر ـ وسياقها على النحو التالي:

■ أن «عصابات المافيا» في نيويورك (ذلك الوقت) على اختلاف أسرها هم في الأصل مهاجرون من صقلية.

■ ولعصابات المافيا في هذه الجزيرة أقارب وأنصار واستثمارات كبيرة توفر أرزاقا وتعقد ولاءات، بل وتشترى السلطة المحلية في الجزيرة.

■ ومعنى ذلك أن «عصابات المافيا» قادرة على تسهيل عمليات إنزال القوات الأمريكية القادمة من المغرب إلى صقلية لكي تبدأ غزو إيطاليا (مقدمة لكسر قبضة ألمانيا وكسر رأسها أيضا!).

■ وبناء عليه فقد كلف الرئيس «روزفلت» أحد مساعديه («هارى هوبكنز») أن يعرض على زعماء مافيا نيويورك صفقة مقايضة ـ قبلت بها عصابات المافيا، واتفقت عليها بأعصاب باردة ـ وشروطها:

١ ـ تحصل عصابات المافيا مقدما على ٢٥ مليون دولار «لوضع قطع من الحلوى في أشداق بعض المسئولين في صقلية» ـ (كذلك سجلت مذكرة للرئيس عن الاتصالات)!

فى كل القضايا التى تخص الولايات المتحدة فإن واشنطن لا تقيد النجاح بشرط القانون ـ بما فى ذلك القانون الدولى، والمنطق فى هذه الحالة أيضا ـ حاضر ملخصه ـ أن قواعد القانون الدولى كما شاعت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وُضِعَت دون مشاركة الولايات المتحدة وفى غيبتها (أى قبل أن تخرج الدولة الأمريكية إلى الدنيا الواسعة من وراء عُزلة المحيطات). وعليه فإن تلك المبادئ والقواعد غير مُلزمة لها

٢ ـ تكون للمافيا «حقوق حماية» بعد تحرير إيطاليا، وهذه الحماية يلزم أن تكون إيجابية، بمعنى أنها لا تقتصر على مجرد التغاضى عن نشاط هذه العصابات فى أمريكا وحدها، وإنما تضمن لها فوق ذلك وزيادة عليه مشاركة فاعلة ومؤثرة فى الشأن الإيطالى.

٣ ـ تتشاور الجهات الأمريكية المعنية مع زعماء عائلات المافيا فى ترتيب «علاقة عمل» مع أجهزة الأمن الأمريكية تكفل كذلك تغطية نشاط عصاباتها فى الولايات المتحدة ذاتها، بما فى ذلك أن يكف مكتب التحقيقات الفيدرالى عن الوقيعة بين عائلاتها وتحريض بعضها على بعضها الآخر.

وبعد هذه الصفقة ـ وليس قبلها ـ وصلت ناقلات الجنود الأمريكية إلى شواطئ صقلية، ونزل الجنرال «باتون» ومدرعاته من البحر إلى البر، وكان زعماء عائلات المافيا وأبناؤهم وزوجاتهم وأطفالهم ورجالهم وأعوانهم فى الإدارة المحلية (بل وحتى تلاميذ المدارس) يلوحون بالأعلام الأمريكية، ويهللون لوصول كل قارب من قوارب الإنزال الناقلة للجنود والأسلحة والذخائر.

ومن المدهش أن ذلك الوضع الخاص للمافيا ـ بناء على اتفاق النزول الأصلى فى صقلية ـ ظل ساريا حتى وقت قريب. والشاهد أن محاكمة السياسى الإيطالى «جوليو أندريوتى» والحكم عليه قبل أسابيع قليلة بالسجن لمدة ٢٢ سنة بتهمة التغطية السياسية على عصابات الجريمة المنظمة ـ جاء مظهرا من مظاهر نفاذ واستمرار ذلك الاتفاق بين حكومة الولايات المتحدة وبين عصابات المافيا سنة ١٩٤٢، وتاكيدا لسريان مفعوله حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بأكثر من ستين سنة (سنة ٢٠٠٢) ـ مع ملاحظة أن «أندريوتى» تولى رئاسة الوزارة فى إيطاليا ثمانى مرات! (ومن الغريب أن «أندريوتى» حينما سمع الحكم عليه بالسجن لمدة اثنتين وعشرين سنة لم يغضب ولم يثر، وإنما ذكَّر الصحفيين بعمره (٨٥ سنة)، وكان تعليقه بعدها بسخرية: «يظهر أن هؤلاء القضاة يتصورون أن عمرى ممتد إلى الأبد!»).

ومن الأغرب فى القضايا المنظورة الآن والمتصلة بنزاهة الحكم فى عهد رئيس وزراء إيطاليا الحالى «برليسكونى» ـ أن ظل عصابات المافيا مازال ـ حتى هذه اللحظة يحوم حول قاعة المحاكمة ـ يظهر ويختفى ثم يعود إلى الظهور!

....

....

[وفى تجربة الإمبراطورية الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط، وفى مصر بالتحديد، تكررت عروض البيع والشراء أكثر من مرة:

ـ فى العصر الملكى فى مصر (سنة ١٩٥٠) رغبت الولايات المتحدة فى حل قضية اللاجئين الفلسطينيين، وكان أن عرضت على مصر مشروعا لشراء سيناء وتوطين اللاجئين الفلسطينيين فيها، (وكان ذلك العرض على هامش مشروع «كلاب» وهو اسم السياسى الأمريكى الذى كُلف به) ـ ورفض الملك «فاروق».

ـ وفى تجربة العصر الجمهورى سنة ١٩٥٥ حاولت الإمبراطورية الأمريكية شراء صلح منفرد بين مصر وإسرائيل بواسطة بعثة قادها «روبرت أندرسون» وزير مالية «أيزنهاور».

وكانت الصفقة خطة سرية عُرفت وقتها باسم الخطة «ألفا»، وبمقتضاها عرض «أندرسون» تَعَهُّدَ أمريكا بالمساعدة فى بناء السد العالى مقابل قبول مصر بصُلح منفرد مع إسرائيل، يكون تمهيدا لصلح عربى شامل بين العرب والدولة اليهودية، وكان ذلك بمقتضى خطة سرية أوسع هى الخطة «أوميجا».

ورفض «جمال عبد الناصر».

ـ وحدث بعدها فى العصر الجمهورى أيضا (سنة ١٩٥٦) ـ وبعد تاميم قناة السويس أن الولايات المتحدة فكرت فى حل لقضية التاميم، وبعثت وفدا من رؤساء بعض شركات الملاحة الكبرى يحملون عقدا بمبلغ ٢ بليون دولار نظير الحق فى إدارة قناة السويس، ووصل الوفد إلى مصر فعلا وطلب أعضاؤه مقابلة رئيس الجمهورية الذى حولهم إلى نائبه وقتها السيد «عبد اللطيف البغدادى» ـ وفوجئ «البغدادى» بالعرض مكتوبا ينتظر التوقيع، وأبدى دهشته، ورفض العرض حتى دون أن يعود فى شأنه إلى «جمال عبد الناصر» (الذى أقره على ما تصرف به).

....

....

[وفى وثائق مجلس الأمن القومى الأمريكى سنة ١٩٥٨ سلسلة محاضر عن اجتماعات هذا المجلس طوال شهر أغسطس من تلك السنة التى تمت فيها وحدة مصر وسوريا (فبراير ١٩٥٨) ـ وقامت فيها الثورة ضد النظام الملكى فى العراق (يوليه ١٩٥٨)، ويتضح من هذه المحاضر أن الرئيس «أيزنهاور» راح يطرح سؤالا واحدا على مجلس الأمن القومى، ثم يعود إليه كل جلسة، مستفسرا: «هل ناصر (يقصد «جمال عبد الناصر») رجل المستقبل فى الشرق الأوسط؟».

ثم يضيف: «إذا كان كذلك فلابد أن نعقد صفقة معه».

لكن الصفقة كانت مستحيلة لأن «جمال عبد الناصر» كان لديه مشروع مختلف ـ وكذلك ـ وهو ظاهر فى الوثائق ـ فإن الرئيس «أيزنهاور» أعطى توجيها لرئيس وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (آلان دالاس وقتها) باغتيال زعيمين: أحدهما هو «جمال عبد الناصر»، والثانى هو «فيدل كاسترو»، أولهما يهدد المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط، والثانى يعطى مثلا سيئا لبلدان أمريكا اللاتينية.

وفى جانب منها فإن الصفقة الأمريكية كانت خيارا بين واحد من اثنين: «يقبل الآخرون بما نعرضه أو نقتلهم عندما نقرر»].

....

....

[ـ وفى تجربة أخيرة يذكرها الصحفى الأمريكى الأشهر «بوب وودوارد» فى كتابه الذى ظهر قبل أسابيع عن الصراع الخفى فى الإدارة الأمريكية بين معسكر نائب الرئيس «ديك تشينى» ومعسكر وزير الخارجية «كولين باول» ـ واقعة تستحق الالتفات، لأنها تؤكد مرة أخرى منطق البيع والشراء فى ممارسات الإمبراطورية الأمريكية، وكذلك يكشف «وودوارد» أن وكالة المخابرات الأمريكية قامت بتوزيع مبلغ سبعين مليون دولار على زعماء القبائل الأفغانية قبل بدء عمليات التدخل الأمريكى فى أفغانستان ـ وقد حمل مندوبون عن هذه الوكالة أموالها فى حقائب تمتلئ كل واحدة منها بثلاثة ملايين دولار نقدا، وتسلقوا الجبال إلى مقار الزعماء القبليين وتعاهدوا وتعاقدوا ودفعوا، وبرغم الصفقة فقد دارت ساقية الدم الأفغانى لتوفير الدم الأمريكى!]

....

....

[يتصل بسياسة توفير الدم الأمريكى أن حروب الإمبراطورية «المفرطة» تبدأ دائما بتمهيد مروع، بطيران عالى الكفاءة، مخيف فى قوة نيرانه وفى العادة ضد عدو ضعيف ومكشوف، وهذا النوع من قوة النيران لا يكلف غير ثمن الوقود والذخيرة، فهو أرخص أنواع الحروب على المهاجم وأغلاها على المستهدف به. والمعنى أنه إذا كان الدم الأمريكى هو السلعة النادرة التى تساوى الحرص عليها، فإن حياة الآخرين ـ رجالا ونساءً وأطفالا ـ لا تهم، وكذلك لا تهم مرافقهم ومنشآتهم الحيوية، ومدنهم الكبرى ومواقع الحياة عليها].

....

....

ومنطق صفقات البيع والشراء يعبر عن نفسه متناسبا مع السوق ـ وفيه إبداء الغضب مبررا فى بعض الأحيان، وفيه ادعاء الغضب دون تبرير ليكون جواب الآخرين عليه باتقاء شره، وانتظار أن يهرع الآخرون خفافا إلى استرضاء الآلهة المستاءة من نُكران الجميل!.

وفى مثل هذه الأحوال لا يكون أمام بقية الأطراف فى العالم غير أحد مخرجين:

ـ إما الإذعان لما هو مطلوب منهم لنيل الرضا، حتى وإن اضطروا إلى تسخير قوتهم وثروتهم ـ مياههم وبحارهم ـ فكرهم وجهدهم ـ بحيث تكون كلها فى خدمة أى قرار أمريكى بلا مراجعة أو مساءلة.

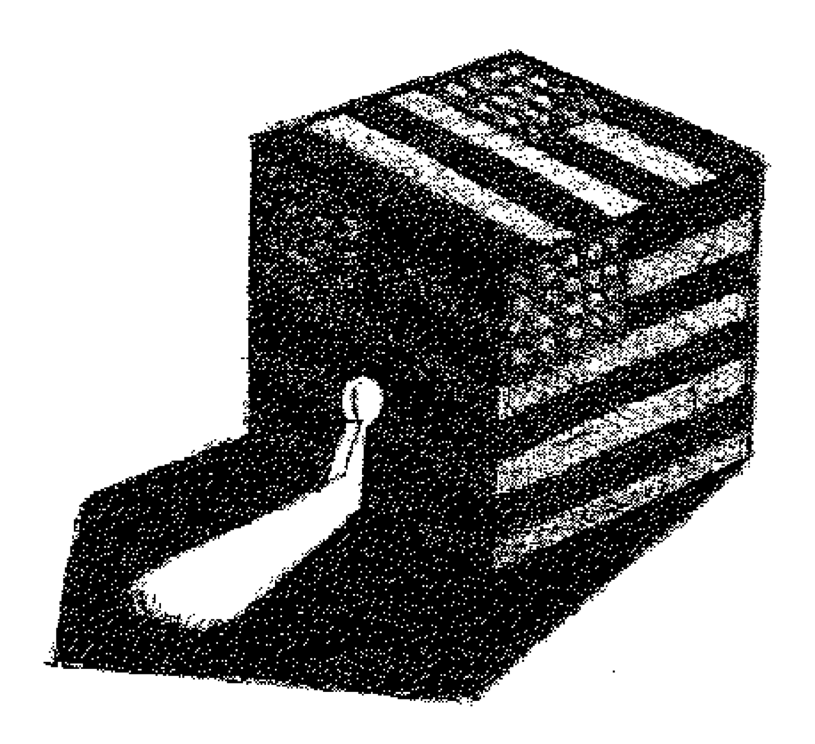
ـ وإما التردد أو التلكؤ فى الإذعان ـ وعندها فإن الولايات المتحدة تعطى نفسها حق التصرف منفردة، ومن ثم ترتب لنفسها سلطات تحدد هى حجمها ومداها بقرار منفرد بغير شريك:

ـ فمن حقها أن ترد العدوان بمثله (وهو معقول).

ـ ومن حقها أن تضرب مصادر التهديد (حسب تقديرها وحدها).

إذا كان الدم الأمريكى هو السلعة النادرة التى تساوى الحرص عليها، فإن حياة الآخرين ـ رجالا ونساءً وأطفالا ـ لا تهم، وكذلك لا تهم مرافقهم ومنشآتهم الحيوية، ومدنهم الكبرى ومواقع الحياة عليها

مهمة تفتيش في الضمير الأمريكي



ـ ومن حقها أن تردع نوايا الأعداء إذا لمحت نوايا العدوان، ولو تعبيرات على الوجوه (وتلك مسالة معقدة).

ـ وأخيرا فمن حقها أن تختار آخرين تضربهم لكي تؤدب غيرهم، ومعنى ذلك أنها حروب «على المزاج» والضحية هي الجبهات الأسهل غالبا حتى تتم استعراضات العقاب، وترى الجبهات الأصعب وتتعظ بغير تكاليف أو مصاريف!.

....

....

[٥]

■ وعلى سبيل المثال فإن الدولة الأمريكية التي قامت عليها الإمبراطورية الأمريكية لم تكن على وفاق مع فكرة الحدود والسيادة على إقليم معين، لأن هذه الدولة لم تنشأ في إطار دستوري وقانوني له مساحته المعترف بها وعلى القواعد التي أقرتها التجارب في نشأة الدول وتأسيسها، والسبب أن حدود الدولة الأمريكية ظلت مفتوحة تتوسع كل يوم بمختلف الطرق والأساليب حتى أن بعض ولايات الاتحاد جرى شراؤها مثل «نيومكسيكو» ومثل «لويزيانا»، وكلاهما عمق الجنوب الأمريكي وأغنى بقاعه.

ونتج عن ذلك أن مفهوم السيادة على إقليم له حدود مرسومة ـ اكتسب سيولة لم تعرفها التجارب من قبل. ففي الظرف الأمريكي وقع استبدال مبدأ السيادة الثابتة ـ بمطلب الاتساع المستمر، وكان الاتساع الأمريكي معتمدا بالدرجة الأولى على الأمن يوفره محيطان: الأطلنطي يحميه إلى درجة العزل الوقائي عن أوربا في الغرب، والباسيفيك يعزله بنفس الطريقة عن آسيا في الشرق.

وبالطبع فإنه اعتمادا على عزلة المحيطين الواسعين ـ ظلت الولايات المتحدة طوال تمددها القاري بعيدة عن أي خطر مباشر على أرضها وسكانها. وفي حين أن عواصم أوروبا من «لندن» إلى «باريس» ـ إلى «برلين» ـ إلى «موسكو» تعرضت للدمار وللغزو، فإن «واشنطن» و«نيويورك» و«لوس أنجلوس» و«سان فرانسسكو» بقيت في الحفظ والصون، وكانت القاعدة أن الولايات المتحدة تذهب إلى الحرب خارج أمريكا ـ لكن الحرب نفسها لا تذهب إلى أمريكا.

....

[ولعله من هنا يمكن تقدير حجم العصبية الأمريكية التي قاربت درجة الهستيريا بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فقد كانت تلك أول مرة يتعرض فيها قلب الإمبراطورية (مقر الشركة) للحريق، وتصيبه داخل بيته مفاجأة الدمار في وضح النهار!].

....

[٦]

■ وعلى سبيل المثال فإنه في تفكير الشركة ـ حتى وإن اتسعت إلى حجم إمبراطورية ـ ثم كان حساب الأرباح والخسائر هو ما يعول عليه ويقاس به ـ فإن التوسع يجيء مع الأرباح، والانكماش يحل مع الخسائر، بمعنى أن النجاح هو الذي يستحق التعزيز، في حين أن التعثر يستوجب الانسحاب بل يفرضه دون اعتبار لكبرياء أو كرامة.

....

[وتجارب الإمبراطورية الأمريكية تشهد أن الرئيس الأمريكي «ريتشارد نيكسون» ـ بعد سلفيه «جون كنيدي» و«ليندون جونسون» ـ قرر الانسحاب من فيتنام الجنوبية رغم فداحة الاستثمارات والتضحيات التي دفعتها الإمبراطورية (الشركة) في مشروعها الفيتنامي ـ وجاء قراره بعد هجوم «تيت» المشهور في قلب «سايجون» عاصمة فيتنام الجنوبية، وسقوط مئات من الجنود الأمريكيين في مبنى القيادة الأمريكية (مقر فرع الشركة الإمبراطورية) ـ وعندها قرر الرئيس سحب قواته دون كبرياء أو كرامة، ووصل داعي الانسحاب إلى استعمال طائرات الهليوكوبتر تحط وتقلع بالناجين من سطح مبنى السفارة الأمريكية في عاصمة فيتنام الجنوبية.

ومرة أخرى تكرر نفس المشهد تقريبا عندما هوجم جنود قوات المارينز في لبنان وقُتل منهم قُرابة أربعمائة في تفجير واحد، ولم يتردد الرئيس الأمريكي «رونالد ريجان» لحظة في سحب القوات الأمريكية إلى آخر رجل من لبنان فرارا قبل أن تطلع شمس اليوم التالي.

ونفس الشيء تقريبا وقع زمن الرئيس الأمريكي «بيل كلينتون»، عندما نزلت القوات الأمريكية في الصومال وسط حملة دعائية صاخبة ترفع أعلاما إنسانية جليلة، ثم إذا هي فجأة تنسحب في ظرف أسابيع عندما تمكنت قوات زعيم قبلي هو الجنرال «محمد عيديد» ـ من حصار سرية من جنود البحرية الأمريكية في قلب «مقديشيو» وقتلت معظمهم واستعملت رؤوسهم في لعب الكرة وسط الشوارع والأزقة!

في تلك الوقائع وغيرها ـ كان حساب الأرباح والخسائر هو المعيار والحكم، بمعنى أن السياسة الأمريكية لا تستوعب دعاوى الكبرياء أو الكرامة، وإنما يقنعها ـ أو يفرض عليها ـ ما تقول به الحقائق والأرقام، وما إذا كانت تمنحها فرصة التوسع وتعزيز النجاح ـ أو أنها تدعوها لطي الإعلام تجنبا لتعزيز الفشل!].

....

يتصل بذلك أن الولايات المتحدة لا تعذب نفسها بلغة العواطف أو حديث الذكريات.

ومع أن قصة الإمبراطوريات على طول التاريخ لم تعرف سخونة الغرام ودفء الحنين ـ إلا أن الإمبراطورية الأمريكية وصلت في إنكار العواطف والذكريات إلى مدى غير مسبوق، فالإمبراطوريات القديمة مثلا تحملت مرات بالتزامات أدبية وأخلاقية، كان ضمنها رعاية حليف أو حماية صديق، حتى أن جيوش «نابليون» وهي تنسحب من مصر بعد غزوتها الفاشلة في مطالع القرن التاسع عشر، اصطحبت معها الجنرال «يعقوب» الذي ساعدها ضد قوى المقاومة الوطنية، واعتبرت فرنسا أنه من العار عليها أن تتخلى عنه.

لكن الإمبراطورية الأمريكية وبدون عناء ثقيل على الضمير ـ تخلت عن أهم رجالها في الشرق الأوسط وهو شاه إيران «محمد رضا بهلوي» ورفضت أن تمنحه حق لاجئ سياسي في أمريكا، بل وكانت على وشك تسليمه إلى الثورة الإيرانية في مقابل الإفراج عن الرهائن الأمريكيين الذين احتجزهم شباب الثورة الإسلامية في السفارة الأمريكية بطهران!].

....

....

[٧]

■ وعلى سبيل المثال فقد قامت تجربة بناء الدولة الأمريكية (أساس الإمبراطورية الجديدة وسندها) ـ فكرا وفعلا وفي جزء كبير منها على جهد آخرين جرى توظيفهم بأسهل الوسائل وأرخص الأثمان، (وذلك بند آخر في منطق حساب الأرباح والخسائر).

ـ ففي مجال الفكر كان أمام الدولة الجديدة مخزون التراث الأدبي والعلمي وحصيلة الفكر السياسي والاقتصادي العالمي بأكمله ـ وهو تراث دفعت فيه ثقافات أخرى دم الرواد من أبنائها، لكن الدولة الأمريكية حصلت عليه من أوله لآخره دون مقابل ـ أو حقوق ملكية علمية أو أدبية أو فكرية. (ومع أن التجربة الأمريكية أبدعت في مجال التطبيق وتفوقت في مجال الإدارة ـ إلا أن المنابع والمناهل والمراجع الأساسية جاءت إلى أمريكا عابرة للمحيط ـ دون عناء ومجانا).

ـ ثم وقع في مجال العمل ما وقع قبله في مجال الفكر، ذلك أن الموارد الهائلة التي كشفت غناها أمام أفواج المهاجرين أكدت لهم من أول نظرة أن استثمارها يفوق طاقة عملهم. وكانت «العبودية هي الحل»، وهنا راحت قوافل السفن تحمل قطعان العبيد من أفريقيا أكداسا (كالبضائع)، يموت نصفهم على مدة الرحلة بسبب مشاق المحيط وقساوته، ثم يصل نصفهم الآخر (بمعجزة) إلى شطآن العالم الجديد مقيدين بالسلاسل معروضين في المزاد (ووثائق الدولة الأمريكية تكشف أنه من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر وصل إلى الأرض الأمريكية ما بين ٢٥ ـ ٣٠ مليون أفريقي أطبقت عليهم قيود العبودية). وكان هؤلاء العبيد بشهادة كل مؤرخ لنمو الاقتصاد الأمريكي ـ هم الذين أنشأوا القاعدة الزراعية الأولى التي نهضت عليها الدولة الأمريكية ـ وهم الذين وقفوا أمام أفران الحديد والصلب ونارها اللافحة عندما توهجت الثورة الصناعية.

وأكثر من ذلك فإن المجندين السود كانوا هم الذين تحملوا بأصعب المهام في الحروب الأمريكية كلها وآخرها وأشهرها حرب فيتنام. ورغم أن نسبة السكان من الزنوج في الولايات المتحدة تقارب ١٢٪ من مجموع السكان ـ فإن نسبة قتلاهم في الحرب العالمية الأولى بلغت ٣٨٪، وفي حرب فيتنام بلغت النسبة ٥٠٪، حتى أن «مارتن لوثر كنج» الزعيم الزنجي الأمريكي المشهور (الحاصل على جائزة نوبل للسلام) لم يكن يكف في مواعظه عن الاستشهاد بالتعبير الذي يقول «إن حرب فيتنام كانت مذبحة كُلِّف فيها الرجل الأسود بقتل الرجل الأصفر («يقصد أهل الشرق الأقصى»).

وانتهت العبودية دون تصفية آثارها، وإنما بقي بعدها تمييز عنصري مازال حتى اليوم جُرحا غائرا في الوجدان الأمريكي ـ مسكوتا عنه ـ لكنه حتى هذه اللحظة دون علاج، لأن الصمت عن الوجع لا يشفيه.

....

....

[وقد فقد السيناتور «ترنت لوت» عضو مجلس الشيوخ عن ولاية مسيسيبي وزعيم الأغلبية الجمهورية مركزه الرسمي لأنه تحسر على ظرف ضاعت فرصته لتشديد القيود على الزنوج، وكانت خسارة السيناتور «لوت» لمركزه لا ترجع لإساءته إلى مشاعر الأمريكيين السود، وإنما لأنه ذكر ـ أو أعاد التذكير ـ بقضية التمييز العنصري، وهي قضية لا تزال متفجرة ـ لكن أحدا لا يريد عود ثقاب بالقرب من مستودع البارود].

وكان انعكاس هذه الملابسات على سياسة الإمبراطورية الأمريكية شديد الوطأة، فالإمبراطوريات القديمة حاولت أن تغطي استغلالها للمستعمرات بدعاوى أخلاقية من نوع «مسئولية الرجل الأبيض عن نشر الحضارة»، ومن نوع «إدخال النور إلى قارات الظلام»، ومن نوع «حرية البحار وحرية التجارة»، ومع أن هذه الدعاوى كانت ـ في معظم الأحيان ـ شحنات من نفاق، فإن الدلالة الأهم لها أن «الأقوياء» استشعروا حاجتهم إلى سواتر أخلاقية ـ ولعل هذه السواتر الأخلاقية أحيانا اعتذار تقدمه القوة بين يديها كي تبرر لنفسها وتلتمس الصفح ـ لكنه في النموذج الأمريكي فإن هذه السواتر الأخلاقية بدت زوائد لا تحتاجها المصالح، وبالتالي فإنه لا حاجة إليها، اتكالا على الصمت أن يؤدي واجبه حتى يجيء دور النسيان ليسدل أستاره إلى الأبد!

....

....

عندمـا نزلت القــوات الأمريكية فى الصومـال وسـط
حملة دعائية صاخبة ترفـع أعلامـا إنســانيــة جليلة، ثم إذا هى
فجـأة تنسـحب فى ظـرف أســابيع عندما تمكنت قــوات زعيــم قبلى هو الجنرال
« محمــد عيـديد ». مــن حصـار ســرية مـــن جنــود البحريـــة الأمريكــيـة فى
قلب « مقـديشـيو » وقتلـت معظمهـــم واســتعملت رؤوســــهم
فى لعـــب الكـــرة وســط الشـــوارع والأزقـــة!



[وعِبْرَة ذلك أن الإمبراطورية الأمريكية تعرف كيف تأخذ ولا تعرف كيف تعطي - وهي إذا أعطت تحسب الفوائد مركبة - والحساب له قواعد اقتصادية ومالية - وليس قانونية أو أخلاقية، وذلك درس وعاه رئيس وزراء إسرائيل الأسبق «مناحم بيجن» الذى لم يتوقف لحظة فى الإلحاح على الرئيس «أنور السادات»، مذكرا بأن «أحدا لا يستطيع أن يطلب شيئا مقابل لا شيء»، ولم يكتف « بيجن» بأن تكون مبادرة الرئيس السادات بزيارة القدس دفعة معنوية هائلة سبقت مقدما - وإنما كان حساب «بيجن» أن الأشياء التى يصح فيها الأخذ والعطاء هي المحسوسات الماديات - أرضا تُقاس بالكيلومترات وأحيانا بالأمتار - أو بضائع عينية وأى شيء غير ذلك كلام في الهواء!].

....

....

[٨]

■ وعلى سبيل المثال فإن الدولة الأمريكية - قاعدة الإمبراطورية الأمريكية وسندها - وبمنطق «البضائع» - اعتمدت منطق الشركة حين يزيد إنتاجها ويتسع نشاطها ويتخطى حدود الإقليم وخطوط الماء وحواف القارات ويتطلع إلى السوق البعيدة الواسعة.

فالشركة تعتمد هناك عبر الشواطئ النائية على عملاء لها يقومون بشراء بضائعها دون مسئولية من جانبها - ثم يكون اعتمادها بعد ذلك على وكلاء محليين يمثلون مصالحها حيث تتواجد مقابل نصيب معلوم - ثم هي بعد العملاء والوكلاء المحليين تفتح لنفسها فروعا تتولى التعامل مباشرة في السوق المحلية - وأخيرا فإنها على استعداد في بعض المواقع المهمة أن تعطى تراخيص تصنيع محلى لمنتجاتها بمساحة اتساع السوق وإمكانياتها، وقصدها من التراخيص أن تتخذ البضائع لنفسها أعلاما مختلفة عن العلم الأمريكي («علم ملاءمة» Flag of Conveniece) - بقصد زيادة الرواج دون عقد أو تعقيدات!

....

....

[وهنا وفى التجربة الإمبراطورية الأمريكية في الشرق الأوسط بالذات، فإن علاقة الشركة بالسوق مرت بكل المراحل:

- مرت بمرحلة «المتعامل» الإمبراطورى الكبير (بريطانيا - وفرنسا) - أو الذى كان كبيرا - ثم انتهت الحاجة إليه.

- ومرت بمرحلة الوكيل المحلي أو ما اسمته الاستراتيجية الأمريكية بعد الحرب نظام رجل «البوليس المحلي» وقد ظهر منه في المنطقة عدد من المرشحين - لكن أوضاع معظمهم كانت قلقة].

....

....

وعند بداية الدخول الأمريكي إلى أسواق الشرق الأوسط، فقد كان المرشحون للوكالة عن الولايات المتحدة - ممثلين أو متعهدين أو شركاء في التصنيع المحلى - ثلاثة:

- السعودية (باعتبار أن المصلحة الأمريكية الأكبر وهى البترول كامنة تحت رمال صحاريها - وبالتالى فهى الأولى نظريا).

- ومصر (باعتبارها أكبر دولة عربية من ناحية السكان، كما أنها الأسبق علميا وثقافيا (أيامها)، وذلك يعطيها ميزة قد تهيئها للوكالة).

- ثم تركيا (لكونها أكبر وأقوى دولة إسلامية، وإلى جانب ذلك فهى تحمل ذكرى آخر خلافة إسلامية، مما يمهد لها الفرصة تلقائيا).

وبالفعل فإن رئيس مجلس إدارة الشركة (الإمبراطورية الأمريكية) - وعند بداية الاتساع والانتشار بعد الحرب العالمية الثانية - جاء بنفسه إلى المنطقة يقابل المرشحين للوكالة (على كافة الدرجات)، ويجرى لكل منهم بنفسه امتحان قدرات وكشف هيئة. وهكذا فإنه في شهر فبراير سنة ١٩٤٥ وفى أعقاب مؤتمر «يالطا» الشهير على شاطئ البحر الأسود - جاء إلى مصر على ظهر الطراد الأمريكى «كوينسى» - رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وقتها «فرانكلين روزفلت».

وألقى الطراد مراسيه وسط البحيرات المرة على مجرى قناة السويس واستقبل «روزفلت» على ظهره رؤساء ثلاث دول إقليمية:

- استقبل الملك «عبد العزيز آل سعود» واستمع إليه طويلا، وبدا له بعض ما سمعه غريبا على «ثقافته»، فالملك «عبد العزيز» يحدثه بلغة زعماء القبائل ويقول له «أنت أخي وكنت أشتاق دائما إلى رؤيتك - وأريد أن يكون تعاملي معك أنت وليس مع غيرك لأنك رجل مبادئ ونصير حقوق، ونحن العرب نتطلع إليك في طلب العدل والإنصاف من تحكم واستبداد الآخرين (يقصد الإنجليز!)».

(وصحيح أن الملك «عبد العزيز» تحدث في موضوع المظلومين من الفلسطينيين، وأبدى تخوفه من فتح أبواب ذلك البلد العربي لهجرة يهودية غير محددة، إلا أن لهجة الملك كانت رجاءً ونداءً إلى الرئيس الأمريكي باعتباره «السيد القوى العادل»، وكان الملك السعودى حريصا على التركيز بأنه هو والرئيس الأمريكي «توأمان في الروح»، وحتى في الظروف الصحية، لأن كليهما غير قادر على المشي، فالرئيس الأمريكي يجلس على مقعد متحرك بسبب إصابته بشلل الأطفال، وباني الدولة السعودية وهنت عظام ساقيه فلم تعودا قادرتين على حمل قامته الطويلة، وكذلك أهداه «روزفلت» كرسيا متحركا).

وقد أعجب «روزفلت» بالملك «عبد العزيز»، لكنه نوع من الإعجاب لا يؤهل لاختيار وكيل محلي، فقد كتب «روزفلت» عن لقائه بالملك «عبد العزيز» يقول: «بدا لى الرجل طرازا بدويا من النوع المتوحش النبيل، يذكر بأزمان غابرة وتقاليد تعود إلى عصور لم يعد لها الآن مكان»، (والغريب أن تعبير المتوحش النبيل هو نفس التعبير الذى شاع عن بعض زعماء قبائل الهنود الحُمر الذين أحسنوا الظن في المهاجر الأمريكي).

- واستقبل «روزفلت» بعد ذلك - ملك مصر «فاروق» - واستمع إليه أكثر من ساعة، ولفت نظره أن الملك جاء إلى مقابلته على ظهر الطراد «كوينسى» يرتدى زى «أميرال أسطول» - ثم وجده يصرف معظم الوقت معه في الشكوى من الطريقة التى يعامله بها السفير البريطاني في مصر (اللورد «كيلرن»)، وكيف أنه يقوم بإذلاله داخل مملكته ويستقوى عليه داخل قصره إلى درجة حصاره بالدبابات ليفرض عليه رئيسا للوزراء لا يريده («مصطفى النحاس»).

ولم يعجب «روزفلت» بالملك «فاروق» وتساءل كما كتب في يومياته - قائلا: «لا أعرف لماذا كان ملك مصر يرتدى زى أميرال أسطول بحرى، وهو لا يملك في البحر غير يخت للنزهة، إن «فاروق» يذكرني بجيل من أمراء أوروبا الذين أغرقهم الترف حتى ذابت عندهم إرادة الفعل وأخذتهم المظاهر حتى ضيعت منهم «جوهر الشخصية»!

ولم يحصل فاروق على رخصة التوكيل الأمريكي، (وربما لم يكن قد خطر بباله حتى تلك اللحظة طلب الوكالة، لأنه ظن واهما أن مستقبل مصر سوف يظل مربوطا ببريطانيا، ولم يدرك الملك «فاروق» حجم الدخول الإمبراطورى الأمريكي إلا في مرحلة لاحقة!).

- ثم استقبل «روزفلت» رئيس جمهورية تركيا «عصمت أينونو»، واستمع إليه، واكتشف أن تركيا الحديثة لها رأى بالغ السوء في العرب عموما، لأنهم خانوا الخلافة العثمانية وقت الحرب العالمية الأولى وتعلقوا بأذيال الإنجليز، وقد خص الرئيس التركي كلا من السعوديين والهاشميين بالجزء الأكبر من كلامه عن الخيانة العربية التى لا يصح الاعتماد عليها - شريكا، وإنما يصح التعامل معها تابعا، فالعربي - في رأيه - مهيأ لأن يُقاد ولا يقود، ويُساق بأمر الغالبين ولا يُدعى للتعاون على قدم المساواة معهم.

وأدرك «روزفلت» أن «تركيا» قد تصلح لدور في البلقان موصول على نحو ما بأوروبا، لكنها لا تنفع وكيلا في الشرق الأوسط، لأن تاريخها (برغم الإسلام) ليس متوافقا مع مزاج بقية المنطقة وأغلب دولها عربية - بينها وبين تركيا (العثمانية) رواسب وتعقيدات مازالت حية في ذاكرة الطرفين.

وكذلك لم ينجح «عصمت أينونو» في اختبار الوكالة.

ومن المدهش أنه منذ ذلك الوقت وحتى هذه اللحظة لم يتغير رأى الولايات المتحدة كثيرا في تقييم المرشحين من المتعهدين بين أهل المنطقة!

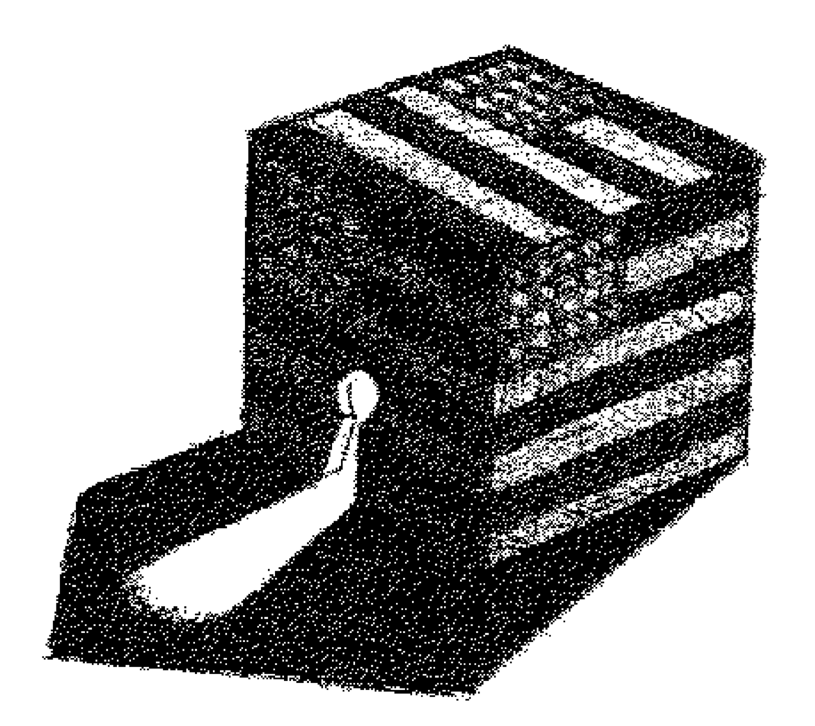
....

....

[وعندما قامت إسرائيل فإن بحث (الشركة) الإمبراطورية

لم يكتف « بيجن » بأن تكون مبادرة الرئيس السادات بزيارة القدس دفعة معنوية هائلة سبقت مقدما . وإنما كان حساب « بيجن » أن الأشياء التى يصح فيها الأخذ والعطاء هى المحسوسات الماديات . أرضا تقاس بالكيلومترات وأحيانا بالأمتار . أو بضائع عينية وأى شىء غير ذلك كلام فى الهواء!





الأمريكية عن وكيل لها في الشرق الأوسط وجد جواب سؤاله.

● فإسرائيل وكيل مؤتمن لأنه من خارج «الأسرة» - غريب عن المنطقة - دينا وعرقا - ثقافة ومشروعا.

● وإسرائيل لهذه الأسباب شريك موثوق فيه لأنه يحتاج إلى الإمبراطورية الأمريكية (الشركة) بمقدار حاجتها إليه، وذلك يزكي ولاءه ويضمنه.

● وهذا الوكيل الإسرائيلي المؤتمن نجح في إثبات وجوده وإشهار دوره في المنطقة سنة ١٩٤٨، وقدم مؤهلات لها الحظ الأوفر من القبول، فقد بين بالتجربة أنه طرف قوى وناجح - قادر أن يتصرف بالمنع والردع، تاركا للإمبراطورية الأمريكية تحصيل الأصول والأرباح، مقابل أن ترد له نسبته المقررة فيها].

....

....

[ومع الأيام والتجارب - خصوصا في عهد الرئيس «ليندون جونسون» في ستينيات القرن العشرين - جرى تجديد وتأكيد التعاقد الإسرائيلي مع الإمبراطورية الأمريكية (الشركة) في المنطقة، وكان مما يزكي الوكيل الجديد عوامل تمتد إلى عمق التجربة في الحالة الإسرائيلية كما في التجربة الأمريكية، لأن الثقافة تلعب دورها في إقامة التحالفات بين المجتمعات (والمجتمع الإسرائيلي - كما هو حال المجتمع الأمريكي - هجرة وعنف واستيطان وتعامل بالقوة يملك عناصرها وأولها السلاح)، وكذلك وجهت الإمبراطورية الأمريكية (الشركة) عهدة التصنيع الإقليمي - والتوزيع - في الشرق الأوسط إلى إسرائيل، ولم تغير رأيها حتى هذه اللحظة.

....

....

[وعلى عشاء في بيت «كاترين جراهام» صاحبة جريدة الواشنطن بوست الأسطورية، وخلال حوار طويل على مائدتها مع «زبجنيو برجنيسكي» مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكي السابق «جيمي كارتر» - قال لي الرجل بصراحة: إذا أردتم اعتبار علاقة إسرائيل الخاصة بالولايات المتحدة نوعا من الانحياز، فهذا حقكم، ولكن دعنا لا نخدع أنفسنا وننسى لحظة، أن قوة إسرائيل العسكرية (تقليدية ونووية) كانت هي التي ساقت الرئيس «السادات» إلى رحلته «التاريخية» للقدس، كما أن هذه القوة هي التي أوصلت العرب جميعا - رضًى أو غصبًا - إلى أبواب البيت الأبيض، طالبين وراجين (وفي قول سياسي عربي من الجيل الجديد - متوسلين (أو متسولين)!

ومن هذه الحقيقة سابقا (وقبل تأثير اللوبي اليهودي في واشنطن لاحقا) تظل إسرائيل هي الوكيل المعتمد والوحيد للإمبراطورية الأمريكية، يضاف إلى كفاءتها أنها الوكيل المأمون الذي يمكن الاعتماد عليه والاطمئنان إليه، خصوصا أن الدولة اليهودية تبدو أمام الولايات المتحدة (على الأقل) دولة «ديمقراطية» يمكن التنبؤ بقرارها «غدا» لأنه قرار «مؤسسات» وليس قرار أفراد يكونون اليوم في السلطة - وخارجها غدا!].

....

....

وفي المحصلة فإنه لا يحق للعرب أن يظهروا في العتاب والشكوى، أو الاستغراب والألم، لأن واشنطن تسمع لإسرائيل قبل غيرها، وتقبل منها أكثر مما تقبل من أي طرف آخر.

ومن المفارقات أن الدكتور «هنري كيسنجر» وزير خارجية الولايات المتحدة على عهد الرئيس «نيكسون» وبفكر الوكالة والوكيل، أبدى سعادته الغامرة بقرار الرئيس «السادات» - سنة ١٩٧٢ - طرد الخبراء السوفييت من مصر، لكنه في نفس الوقت استغربه - بلا ثمن - ولم يكتم شعوره بل عبر عنه مدهوشا وسائلا «لماذا لم يتصل بنا مسبقا ويطلب مقابلا له؟».

وعندما قام الرئيس السادات بزيارته إلى القدس - سنة ١٩٧٧ - فإن محاضر مجلس الأمن القومي الأمريكي تكشف عن سؤال ظل الرئيس «كارتر» يردده «ما الذي دفعه إلى هذه الخطوة - وعلى أي شيء أجرى حساباته لنتائجها؟».

....

....

[والغريب أن تلك كانت أسئلة «مناحم بيجن» رئيس وزراء إسرائيل في نفس اللحظة حتى وهو يصافح الرئيس «السادات» على أرض مطار بن جوريون قرب القدس!].

....

....

وكان «كارتر» مُعجبا بالرئيس «السادات» مشجعا لذهابه إلى إسرائيل ما دامت المسئولية عليه وليست على غيره، وظل «كارتر» مأخوذا بالزيارة ليومين، ثم أفاق يحاول مع غيره إنجاحها، لكنه وغيره من أقطاب إدارته اعتبروها مخاطرة فردية تحولت إلى أمر واقع يكسر عقدة مستعصية وعليهم الآن أن يهرولوا لتدعيمها، لكنهم ببساطة لم يجدوا فيها ما يبرر إعطاء وكالات لأنها تَصَرُّف يصعب أن تُبنى عليه سياسات قابلة للاستمرار، وتقوم عليه علاقات تمكن من الاستمرار في السوق!

....

....

[٩]

■ وعلى سبيل المثال فإنه إذا جرى اتخاذ مثال الشركة في نشأة الدولة الأمريكية - فإن ممارسات أي شركة لا تعرف مرجعية لأي تعاقد غير فائدته المباشرة هذه اللحظة بالنسبة لها، فإذا قلت الفائدة فالتملص من روح الالتزام تمهيدا لإسقاط بنوده!

....

....

[وبهذه المرجعية - قبل غيرها - يمكن حساب الطريقة التي خرجت بها الإمبراطورية الأمريكية من معاهدات الحفاظ على البيئة (معاهدة كيوتو)، و(اتفاقية) حظر استخدام الأسلحة البيولوجية، و(ميثاق) الحساب عن الجرائم الدولية (اتفاقية روما). وكانت الولايات المتحدة (ومعها الصومال فقط) هي التي رفضت التوقيع على ميثاق الأمم المتحدة بشأن حقوق الأطفال - وهي التي تحفظت وعرقلت اتفاقية العقاب عن جرائم الحرب، ومع أنها الدولة التي صاغت اتفاقيات «التجارة العادلة» مع أوروبا التي تمنع الدعم الحكومي للسلع تأكيدا لحرية المنافسة الاقتصادية - فقد كانت هي التي خالفتها بدعم هائل لمنتجات الزراعة والصناعة، وفيها عقود بيع الطائرات الأمريكية!

ومن غرائب ما يرويه الرئيس الحالي لمجلس العموم البريطاني «روبن كوك» عندما كان وزيرا للخارجية (في الفترة الانتخابية الأولى من رئاسة «توني بلير» للوزارة) أنه جلس يتفاوض مع وزيرة الخارجية الأمريكية «مادلين أولبرايت» وقتها، والموضوع هو «كوسوفو» ثم وقع خلاف بين الاثنين في إحدى النقط، وقال وزير الخارجية البريطاني لزميلته الأمريكية:

«مادلين... إن خبراءنا القانونيين لا يوافقون على ما تطلبون منا»!

وردت «مادلين أولبرايت» وفق رواية وزير الخارجية البريطاني:

«روبن... إذن فقد جاء الوقت لكي تغيروا مجموعة خبرائكم القانونيين»!!].

....

....

[وكذلك يضيع كل جهد عربي في التذكير بشيء يسمونه «الشرعية الدولية» - ذلك أن النصوص التي تجرى في أحاديثهم تنزل على آذان صماء، أو تصل إليها أصداء الحروف والألفاظ - إذا وصلت - بنبرات تطن في فضاء أزمنة تجاوزتها الحقائق وتركتها وراءها!

والمعنى أن التأثير الحقيقي على فكر الولايات المتحدة لا تكفله مرجعية يقول بها نص، وإنما لابد لها من حقائق قوة - تسندها إرادة تستطيع!].

....

....

[١٠]

■ وعلى سبيل المثال في تجربة الدولة الأمريكية (وبعدها إمبراطوريتها)، أنها الدولة الأولى في العالم التي بدأت فور إنشائها تدعو أبناء الشعوب والأمم للهجرة إليها، وكان هدفها بالطبع جذب حجم من السكان يكفل تلبية المطلوب الإنساني لاستغلال الموارد الطبيعية.

ويستحق الالتفات أن الولايات المتحدة دعت أنفع العناصر في أكثر مجتمعات الدنيا تقدما كي يهرعوا عبر المحيط قاصدين إليها، وهنا فقد كان لابد للدعوة أن تستعير لنفسها كل محسنات الغواية، ومن الطبيعي أن تكون أسطورة الفرص اللامحدودة مغناطيسا يجذب. ولأن أمريكا كانت بالفعل غنية، فإن «أسطورة الفرص» المتاحة كان لها أساس ينتظر من يعبئه ويعلبه ويبيعه للباحثين عن فرص ليس لها حد وليس عليها قيد!

وكان النداء الأمريكي إلى الباحثين عن الفرص في الدنيا - أكبر ممارسة لفنون الإعلان عرفتها العصور. وبهذه الممارسة ظهرت قوة الشعار يختزل رسالته في كلمتين أو ثلاث تتحول معها الرسالة - بالتكرار - إلى رمز يستدعي كل المخزون فيه، ويذكر به سريعا وشاملا: فأمريكا هي «أرض الفرص» - وهي «أرض الوفرة» - وهي «قصة النجاح المتاح لكل الناس».

....

....

[وفي هذا الإطار فإن السياسة الأمريكية اعتمدت قوة الشعار ونقلته من مجال الدعوة للهجرة إلى مجالات السياسة والتجارة من نوع: «معنا أو مع الإرهاب»! (وذلك ليس خيارا حقيقيا مقنعا) - ومن نوع «نزع سلاح الدمار الشامل من يد «صدام حسين» » (وهي أول من يعرف أنه لم يبق في العراق من هذه الأسلحة شيء) - ومن نوع «التصدى لـ «إمبراطورية الشر» (وكانت تعني الاتحاد السوفيتي في وقت كان الاتحاد السوفيتي يتآكل ويتداعى أمام نظر الجميع) - ومن نوع «محور الشر» في تعبير الرئيس «بوش»، ويقصد حصار العراق وإيران وكوريا الشمالية (دون أن يكون هناك رابط أو وجه شبه بين البلدان الثلاثة)].

....

....

وهنا فإنه يتعين على كل الأطراف المتعاملة مع الولايات المتحدة أن تهتم بالشعار الذي تطلقه واشنطن في اتجاهها، لأن الشعار في حد ذاته يملك بالتكرار قوة إقناع لها قابلية أن تتحول إلى سياسة، ومن عملية إعلان تبدو سطحية ومؤقتة إلى عنصر ضغط يمارس سلطانه بقدرة ذاتية فيه على الحركة أو التحريك.

والحقيقة أن الشعارات تكتسب بما ينصب فيها بالتكرار كل يوم - خطورة كرة ثلج تبدأ صغيرة ثم تزيد عليها وهي تتدحرج على السفوح طاقة تدمير لم تكن متصورة عندما سُمع صوتها في البداية. ■

....

....

إن السياسة الأمريكية اعتمدت قوة الشعار ونقلته من مجال الدعوة للهجرة إلى مجالات السياسة والتجارة من نوع: «معنا أو مع الإرهاب»! - ومن نوع «نزع سلاح الدمار الشامل من يد «صدام حسين»» ومن نوع «التصدى لـ«إمبراطورية الشر» ومن نوع «محور الشر» فى تعبير الرئيس «بوش»، يقصد حصار العراق وإيران وكوريا الشمالية (دون أن يكون هناك رابط أو وجه شبه بين البلدان الثلاثة)



ثالثا: الحرب فى تاريخ أمريكا

■ ■ يبقى أن الدولة الأمريكية التى قامت على العنف علمت الإمبراطورية الأمريكية درس عمرها الذى حفظته عن ظهر قلب ولم تسمح لنفسها أن تنساه لحظة.

● قامت الدولة بالعنف، ولم يكن ممكنا أن تقوم بغيره، لأن الأخلاق والقوانين لا تقنع أحدا بأن يتخلى عن أرضه وموطنه وحياته للغرباء، إلا إذا كان مرغما ومقهورا.

● وبالحرب حقق «جورج واشنطن» استقلال أمريكا، وبالحرب حقق «إبراهام لينكولن» وحدة الولايات الأمريكية شمالا وجنوبا وصنع الدولة الأمريكية الحديثة، وبالحرب أيضا قامت هذه الدولة بتأمين جوارها القريب للقفز عبر المحيطات إلى الأبعد والأوسع.

● ولم تحدث حرب عالمية فى القرن العشرين إلا وكانت الولايات المتحدة طرفا فيها، وذلك ما جرى فى الحرب العالمية الأولى وفى الحرب العالمية الثانية التى جاءت نهايتها وقد سجلت الولايات المتحدة أنها القوة الوحيدة التى استعملت السلاح النووى، ثم إنها استعملته دون ضرورة ماسة إليه، لأن هزيمة اليابان كانت تحققت أمامها بالسلاح التقليدى وإلى حد دفع اليابان لطلب شروط وقف القتال عن طريق المفوضية اليابانية فى برن (عاصمة سويسرا) - وبرغم ذلك فإن «ترومان» أمر باستخدام السلاح النووى لتجربته عمليا من ناحية، ومن ناحية أخرى لإنذار الاتحاد السوفيتى مبكرا قبل أن تحدثه نفسه بإمكانية أن يكون ندا للولايات المتحدة متوهما بانتصاراته الكبرى ضد جيوش هتلر! - ومن ناحية ثالثة فقد وقع استعمال السلاح النووى كإعلان للعالم بأن عهدا إمبراطوريا جديدا قد أطل على الدنيا، وهذا العهد الإمبراطورى أمريكى ولا ينبغى لأحد أن يجهل هذه الحقيقة أو يتجاهلها!

وفى فترة ما بين الحربين العالميتين كانت الولايات المتحدة تقاتل للسيطرة على مقدرات وثروات أمريكا اللاتينية. وفى فترة ما سُمى بالحرب الباردة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية لم تتوقف عجلة الحرب الأمريكية، بل إن كل رئيس أمريكى كان يعرف أن مكانته بين ساسة بلاده وفى تاريخها لا تكتمل إلا بأن تكون له «حربه الخاصة»، يثبت فيها «رجولته» ويظهر للشعب الأمريكى أنه وفى لعقيدته، وممثل لفحولة هذه العقيدة، وقادر على الاختبار: نار أمريكية ودم الآخرين!

وطوال نصف قرن وأكثر من الحرب الباردة خاض رؤساء الولايات المتحدة حروبهم الساخنة مباشرة أو بالوساطة، إما عن طريق تحريض أطراف أخرى على الاقتتال فيما بينها، وإما بحروب الانقلاب من الداخل على نظم تقاوم المسعى الإمبراطورى الأمريكى.

■ كان الرئيس «هارى ترومان» هو ساكن البيت الأبيض عندما عصفت رياح الحرب الباردة (١٩٤٥ - ١٩٥٢)، لكن الرئيس «ترومان» خاض حروبا ساخنة فى كوريا وفى اليونان وفى إيران، ومن المفارقات أن قائده العسكرى لإدارة هذه الحروب الثلاثة كان رجلا واحدا هو الجنرال «فان فليت».

■ وكان خلف «ترومان» على رئاسة الولايات المتحدة عسكريا من الأصل والأساس هو الجنرال «دوايت أيزنهاور»، ولم تتوقف حروب «أيزنهاور» بخلعه للزى العسكرى وارتدائه لزى مدنى ليدخل به البيت الأبيض.

وكان «أيزنهاور» يقول إنه كرجل عسكرى عرف مأساة الحرب وأدرك أفضلية تجنبها، لكن «أيزنهاور» لم يجنح إلى السلم، وإنما اختار أسلوب الانقلاب من الداخل بالمخابرات وبالسلاح.

وذلك حدث ضد حكومة «أربينز» فى جواتيمالا، وضد حكومة الدكتور «مصدق» فى إيران، وكان ذلك هو العهد الذهبى لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى مزج المؤامرة مع السلاح لضرب حركات التحرر والثورة فى العالم الثالث خصوصا.

....

....

[وأتذكر حوارا فى تلك الفترة مع زعيم الهند ورئيس وزرائها الكبير «جواهر لال نهرو»، وقد جرى هذا الحوار فى بيت الزعيم الهندى وسط دلهى سنة ١٩٥٨ - وكان «نهرو» فى فترة نقاهة بعد أزمة كلى داهمته بينما كان يتحدث أمام مجلس النواب الهندى، لكنه - كعادته - حتى وهو على فراش المرض يريد أن يسمع ويريد أن يحاور، ويومها فى حجرة نومه ومعنا مساعده الأقرب إليه وقتها «كريشنا مينون» قال «نهرو»:

«نحن محاصرون فى منافسة بين قوتين أمريكيتين، واحدة شريرة غامضة تُستعمل للتطويع والإخضاع (هى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية)، والثانية براقة وخدّاعة (تستعمل للغواية والإغراء) وهى هوليوود (عاصمة السينما)».

ومشكلتنا أنه إذا فازت وكالة المخابرات المركزية أصبحت حريتنا مهددة، وإذا فازت هوليوود تصبح ثقافتنا مهددة.

وتدخل «كريشنا مينون» يُذكّر «نهرو»: بأنه نسى قوة ثالثة لابد أن تدخل فى المعادلة وهى قوة «البنتاجون» (وزارة الدفاع)، ورد «نهرو» قائلا لمينون: «لك حق - ولكنى أظن أن فقدان الناس لحريتهم وفقدانهم لثقافتهم يمكن أن يتم بغير صخب، وحتى دون أن يشعروا - لكن السلاح عندما يتحرك يثير ضجة تُنبّه الآخرين إلى أنهم معرضين لتهديد النار!].

....

....

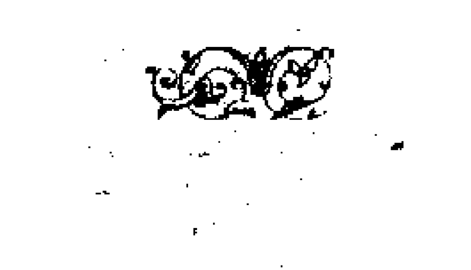
بعد «أيزنهاور» جاء «جون كنيدى» رئيسا للولايات المتحدة ينشر على العالم وعدا بحدود جديدة - لكن «جون كنيدى» كان عليه أن «يثبت رجولته» بالحرب وقد فعلها فى خليج الخنازير ضد كوبا - وعندما لم تنجح حربه فى تحقيق هدفها، كان عليه أن ينتظر فرصة أخرى واتته حين أصدر الأمر بقتل رئيس فيتنام الجنوبية «نجوديم»، ثم مارس هذه الرجولة مرة أخرى سنة ١٩٦٣ بفرض حصار حول الكاريبى كاد أن يتسبب فى حرب نووية مع الاتحاد السوفيتى، ثم مارسه مرة ثالثة بفتح باب التدخل الأمريكى الواسع فى حرب فيتنام.

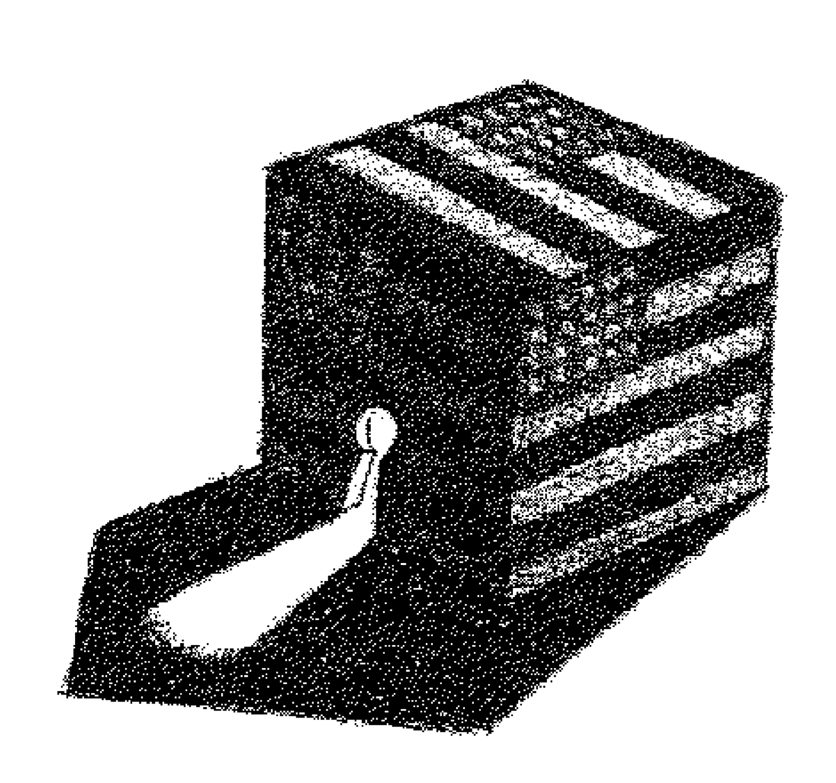
وكانت رئاسة «ليندون جونسون» تكملة لرئاسة «جون كنيدى»، وكذلك واصل حرب فيتنام إلى النهاية، وقد استغرقته بغير حد، وتمادى فيها إلى درجة الهجوم على فيتنام الشمالية مباشرة، وبرر هجومه بحجج ثبت للكونجرس الأمريكى أنها ملفقة، وكان ضمنها الزعم بوقوع اعتداء على الأسطول الأمريكى فى خليج تونكين الذى ثبت أنه كان عملية «مصنوعة» لتبرير الهجوم، ثم كانت ذروة حروب «جونسون» الخفية دوره فى «هندسة» حرب الشرق الأوسط سنة ١٩٦٧ لصالح إسرائيل وضد العرب وأولهم مصر.

وبعد «جونسون» جاء «ريتشارد نيكسون» ليمد دائرة الحرب من فيتنام إلى ما حولها فى لاوس وكمبوديا، وفى عهد «نيكسون» دخلت الولايات المتحدة بمشورة وزير خارجيته



كان «أيزنهاور» يقول إنه كرجل عسكرى عرف مأساة الحرب وأدرك أفضلية تجنبها، لكن «أيزنهاور» لم يجنح إلى السلم، وإنما اختار أسلوب الانقلاب من الداخل بالمخابرات وبالسلاح ذلك حدث ضد حكومة «أربينز» فى جواتيمالا، وضد حكومة الدكتور «مصدق» فى إيران





إن الحرب هى الوسيلة التى تكتشف بها الأمم موارد قوتها الداخلية قبل قوتها الخارجية، والبوتقة التى تتبلور فيها شخصيتها وتتجسد إرادتها. ثم هى بعد ذلك أوثق رباط لوحدتها وأقوى حافظ لتماسكها، وهنا فليس مصادفة أن الولايات المتحدة الأمريكية فى فترة الحرب الباردة شاركت فى سبعين نزاعا مسلحا وتدخلت بالعنف فى الشأن الداخلى لأكثر من مائة دولة!

«هنرى كيسنجر» حروبا وانقلابات من الداخل فى أفريقيا، وفى أمريكا اللاتينية بالذات ضد حكومة شيلى الشرعية وضمنها قتل رئيسها «الليندى» على سلم قصره - وكانت الذروة فيما يتعلق بالعرب دور «نيكسون» و«كيسنجر» فى معركة العرب سنة ١٩٧٣ إلى الدرجة التى دعت الرئيس «السادات» فى ذلك الوقت إلى قبول وقف إطلاق النار قائلا فى رسالة مكتوبة بخط يده إلى شريكه الرئيس «حافظ الأسد»: «إننى أستطيع أن أحارب إسرائيل - لكنى لا أستطيع أن أحارب الولايات المتحدة!».



وكان «جيمى كارتر» وهو الرئيس الأمريكى الوحيد الذى حصل على جائزة نوبل للسلام - بادئ حرب مسلحة ضد الاتحاد السوفيتى بالوساطة فى أفغانستان، وكان هو ومعه مستشاره للأمن القومى «زبجنيو برجينسكى» ورئيس مخابراته «ستانسفيلد تيرنر» أصحاب نظرية «تسليح الإسلام» لكى يطارد ويطرد الإلحاد الشيوعى فى أفغانستان، وكان ذلك الإسلام المسلح والمدرب بواسطة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية هو نفسه انتقام العناية الإلهية من المسلمين الذين رضوا أن ينخرطوا فى صفوفه تحت رايات الجهاد المزعوم، فالمقاتلون المسلمون الذين حملوا السلاح أصبحوا هم الإرهابيون الذين تطاردهم الولايات المتحدة مستعينة بحكوماتهم - حتى جاء وقت وجدت فيه هذه الحكومات نفسها أنها مطاردة مثل شبابها الذين غرر بهم - لا فارق بين شباب وقع في الخديعة و«جاهد» - وحكومات وقعت في الفخ وأطاعت!

والداعى أن الحروب تهتم بالغايات وتحافظ عليها، أما الوسائل فهي تؤدى دورها وتستنفد صلاحيتها ولا يعود لها نفع سواء كانت الأدوات من حديد وصلب أو ناس من لحم ودم!

بعد «كارتر» جاء الرئيس «رونالد ريجان» وقد أثبت هو الآخر رجولته في الحرب، وكانت حروب الرجل على مثال ثقافته - سينمائية: فقد بدأ برواية هزلية فى بنما ضد الجنرال «نورييجا» - ثم أعقبها بواحدة تليفزيونية على ساحة جزر «أجرانادا» وكانت تلك معركة قصد بها أن تغطى على مهانة الانسحاب المفاجئ من لبنان بعد نسف مقر قيادة قوات جنود البحرية «المارينز» على حافة بيروت.

وبعد «ريجان» جاء «بوش» الأب ليثبت رجولته بحرب الخليج الأولى، وبالنزول فى آخر أيام رئاسته على شواطئ الصومال دون قتال فى غزوة شنها باسم الإنسانية، ثم هجرها خلفه «بيل كلينتون» الذى أثبت «رجولته» بالسلاح هو الآخر، على شكل موجات من قذائف الصواريخ موجهة إلى «بغداد» وإلى «الخرطوم» وإلى بيت يسكنه «أسامة بن لادن» فى ضواحى قندهار!

ثم جاء الدور أخيرا على «بوش» الابن ليثبت «رجولته»، وكما هو لازم - بصخب السلاح وحشد القوات والتهديد بالحرب.

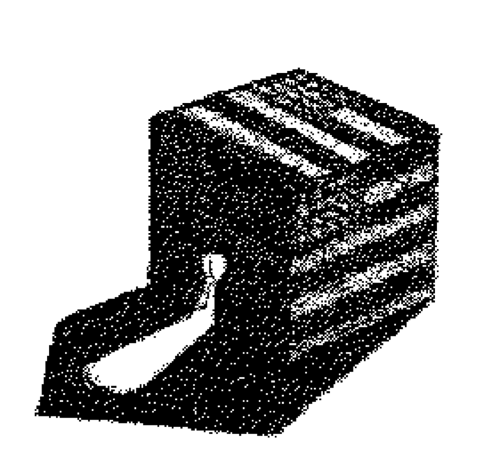
والحقيقة أنها بعد الدولة المحاربة - إمبراطورية تحمل السلاح وتعتبره وسيلتها المجربة لتحقيق مطالبها، وأكثر من ذلك فهى تعتبر - وعلى لسان الرئيس «جورج بوش» نفسه - «أن الحرب هى الوسيلة التى تكتشف بها الأمم موارد قوتها الداخلية قبل قوتها الخارجية، والبوتقة التى تتبلور فيها شخصيتها وتتجسد إرادتها - ثم هى بعد ذلك أوثق رباط لوحدتها وأقوى حافظ لتماسكها»، وهنا فليس مصادفة أن الولايات المتحدة الأمريكية فى فترة الحرب الباردة شاركت فى سبعين نزاعا مسلحا وتدخلت بالعنف فى الشأن الداخلى لأكثر من مائة دولة!

ومع ذلك فإن بعض العرب المحبين للسلام لا يملون تكرار القول بأن «الحروب لم تقدم حلا لأى مشكلة فى التاريخ»، وهو قول فيه بعض الصحة، لكن فيه الكثير مما يحتاج إلى المراجعة.

فليس فى وظيفة الحروب حل المشاكل، ولكن فى وظيفة الحروب أن تكسر الحواجز وتفتح الأبواب وتضبط موازين القوة بما يتيح للسياسة أن تؤدى دورها وتحقق هدفها بتصميم وعزم!



وكانت هذه مهمة تفتيش فى الضمير الأمريكى صعبة بالطبيعة - ناقصة بالضرورة - لكنها فى كل الأحوال محاولة مُلِحَّة ومتكررة فى طلب الفهم أو بعض منه، لَعل وعسى يتمكن من يقدر من العرب على الوقوف مع آخرين فى العالم - أن يجعلوا الفهم مقدمة لهدف لا يتزيد فى مطلبه عن مجرد نزع غرور إمبراطورى يتبدى تصميمه على أن يكون خاتمة إمبراطوريات التاريخ إلى الأبد - أو طوال القرن الحادى والعشرين على الأقل! ■



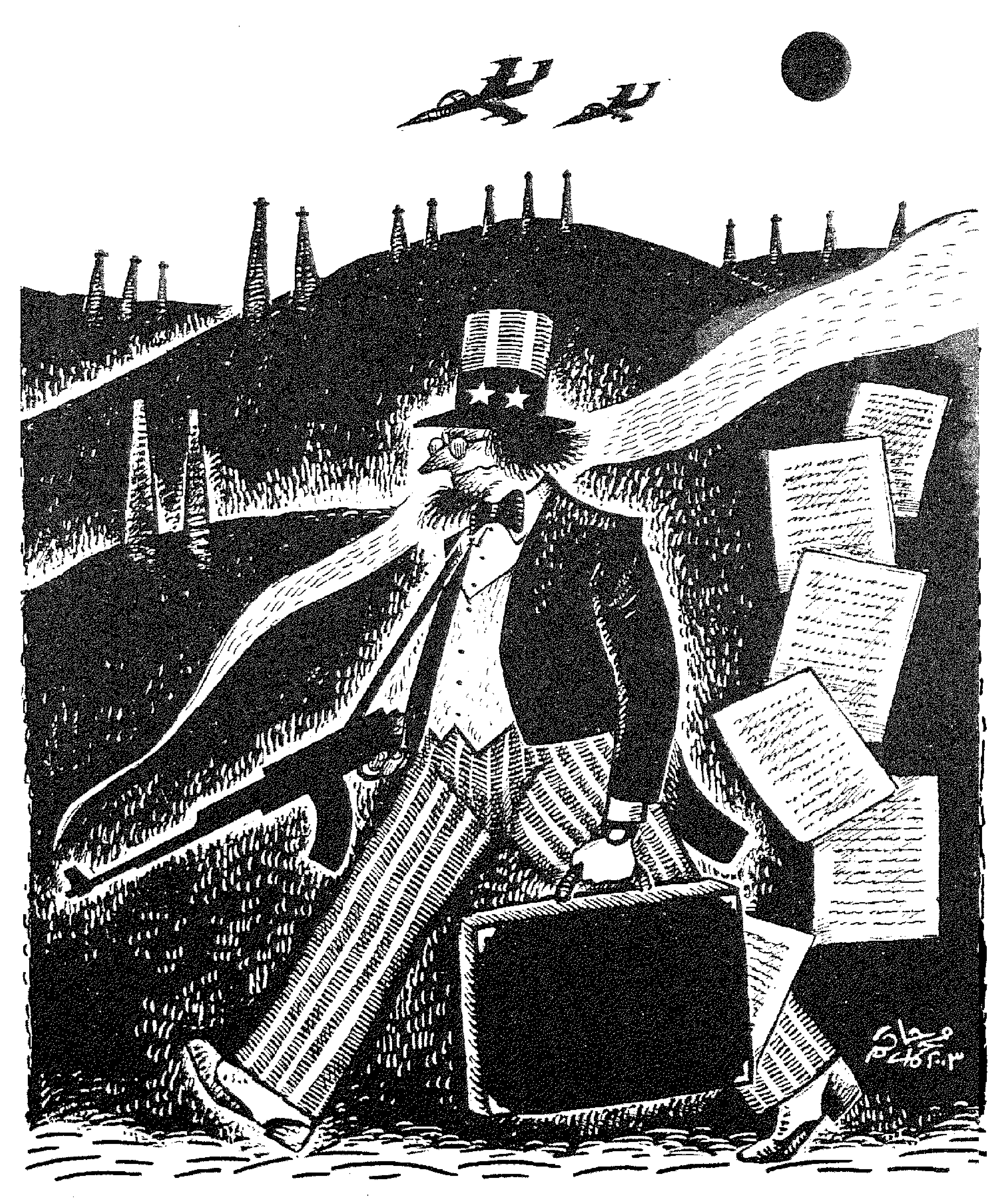

حوارات لقرن جديد
حوارات تؤسس بها دار الفكر
لمشروع ثقافي نهضوي
العولمة
المجتمع المدني
العلمانية
الديمقراطية
مفكرو العالم العربي
من المغرب و المشرق
المرأة
رغم تباعد اتجاهاتهم الفكرية
أزمة الأقليات
يلتقون في محاولة جادة
لكسر طوق العزلة
حقوق الإنسان
ولمعالجة أهم
القضايا الفكرية المعاصرة
دار الفكر
آفاق معرفة متجددة
ص.ب ٩٦٢ هاتف ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦ دمشق - سورية
Http://www.fikr.com - E-mail:info@fikr.com

السياسة الأمريكية لتشكيل

أعراض الحرب والسلام!

■■ غالبًا ما يكون أصعب جزء في الحرب هو السلام، وهذا هو الأرجح ما سيكون عليه الحال إذا دخلت الولايات المتحدة الحرب مع العراق. وليست المسألة هي أن الولايات المتحدة لا تخطط لمثل هذه الأمور الطارئة، بل هي نوعية ذلك التخطيط الذي نحن بصدده. فما لم يتحسن تحسنًا حادًا فقد يصبح إلى حد بعيد جرحًا أحدثته أمريكا في نفسها بناء على سلسلة من «المتلازمات» الناجمة عن الجهل، وعن تجاهل حاجات العراق، وعن المركزية العرقية.

وليست الولايات المتحدة مضطرة لأن تعاني من «أعراض حرب وسلام العراق». وتتوالى في الظهور الدراسات وجهود التخطيط الجيدة، غير أنها الاستثناء وليست القاعدة، وهي تجرى في إطار مسعى يفتقر إلى التنسيق ويتسم بالتردد. وكثيرًا جدًا ما نتعجل جهود التخطيط التي نقوم بها دون بذل الجهود الواجبة للتعويض عن نقص المعلومات. والنتيجة هي أن الحال قد ينتهي بالمخططين داخل الحكومة الأمريكية وخارجها إلى إحداث ضرر يفوق ما يتحقق من نفع، وإلى وضع أساس لاحتكاكات ومشاكل خطيرة بعد الحرب. والواقع أن نمطًا لأعراض حرب وسلام العراق قد بدأ في الظهور وهو على قدر شديد من الإزعاج.



١ - عرض: «نحن نعرف ما نقوم به»

من أهم الأشياء التي يجب علينا القيام بها هو الاعتراف بمستوانا من الجهل وعدم اليقين. فالكثير جدًا من «الخبراء» الذين يضعون تخطيط ما بعد الحرب (أ) لم تسبق لهم الإقامة في العراق بالقدر الذي يجعل لديهم معرفة عملية بذلك البلد، كما أنهم (ب) ركزوا جهودهم على التهديد مادامت لديهم معلومات استخبارية قليلة بشأن الطريقة التي تعمل بها حكومته والمجتمع المدني والاقتصاد فيه.

وبشكل أكثر عمومية، ليس لدى الحكومة الأمريكية الكثير من المعلومات التي تحتاجها لوضع خطة سلام مفصلة. وإذا نظرنا للوراء على مدى العشر سنوات الأخيرة، لوجدنا بصورة عامة أننا لم نبحث بجدية ما كان يجرى داخل العراق من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية، ولم نجمع معلومات عن التغير الاجتماعي والاقتصادي والطريقة التي تعمل بها الحكومة، ولم نحلل تلك المعلومات التحليل الأمين.

لا بد أن ننشط في تجميع كل المنفيين، ورجال الأعمال الأصدقاء وغيرهم ممن يعملون في العراق، والأمم المتحدة، والمنظمات غير الحكومية، وغيرهم ممن لديهم علم بشأن طريقة العمل اليومي الخاص بأنشطة حكومية قومية وإقليمية ومحلية بعينها في العراق. وينبغي أن نبحث البُنى والمؤسسات العراقية الموجودة بالفعل بحثًا مفصلاً لمعرفة ما يحتاج

أنطـــــونى كوردســـمان

إلى تغيير وما يمكن أن نبنى عليه. ولا بد أن ندرس بعناية الدستور والنظام القانوني العراقي كي نرى ما يمكن أن يكون أساسًا مشروعًا للتغيير.

والأهم من ذلك هو أنه ينبغي أن تكون لدينا فرق مستعدة لمسح الوضع في كل منطقة وبلدة ومحافظة ونحن نتقدم. وينبغي أن تكون لدينا فرق مستعدة للعمل مع القيادات المحلية ثم مع قيادات المحافظات. وينبغي أن تكون لدينا فرق على استعداد للعمل مع الوزارات في حكومة العراق بمجرد وصولنا إلى بغداد. وينبغي أن نعترف بأننا في واقع الأمر لا نعرف ما نقوم به، ولن يمكننا معرفته إلى أن يتكشف أمر الحرب. وينبغي أن نكون مرنين ونؤكد على إجراء مسح لما تحتاجه العراق بعد الحرب بمشاركة العراقيين داخل العراق على المستوى المحلي والإقليمي والقومي، بحيث نجرى أدنى قدر ممكن من التغييرات على طريقة عمل البُنى المدنية.

٢. عـــــرض: «الولايات المتحدة باعتبارها محرّرًا»

قد ينظرون إلينا على أننا محرِّرون، وربما لا نحظى بهذه النظرة. فنحن نتعامل مع طغيان شديد التعقيد طال أمده، و لا نعرف في واقع الأمر كيف سيكون رد فعل ذلك الشعب شديد الوطنية ذي الانقسامات الداخلية العميقة، وكيف سينعكس أثر القتال على الشعب. ونحن لا نعرف مقدار الوقت الذى سيستمر عليه تأييد مجموعة بعينها أو فصيل بذاته حين نصبح مشاركين فيما بينهم من مبادلات.

وقد نواجه كذلك شعبًا أكثر عداءً بكثير مما في أفغانستان. ونحن في أمس الحاجة إلى أن نضع نموذج لبنان في اعتبارنا؛ وأعنى التحول من وضع البطل إلى وضع العدو قبل أن يمر العام. ولا بد كذلك أن نأخذ في اعتبارنا نموذج البوسنة / كوسوفو حيث لم تترك الانقسامات الداخلية أية خيارات سوى البقاء وحفظ النظام أو الرحيل ومراقبة الصراع المدني وهو ينشا.

سوف يفيد القليل من الصدق مع الذات بشأن أخطاء الماضي فيما يتعلق ببناء الدولة والاحتلال؛ وخاصة حين نؤيد خرافة أننا فعلنا ذلك في ألمانيا واليابان بشكل رائع. فقد نجحت الأمور في نهاية المطاف في ألمانيا واليابان لأننا فرضنا أقل قدر ممكن من التغيير واستفدنا من المؤسسات القائمة بالفعل. إلا أننا لم نتبنَّ هذا الأسلوب إلا مضطرين، لأن الحرب الباردة أجبرتنا على إلغاء الكثير من خططنا وسياساتنا الأصلية. واحتاج الانتعاش الاقتصادي خمس سنوات كي يحدث. وفي العام الأول كان الناس يموتون بسبب نقص العناية الطبية، وكانوا يتضورون جوعًا، وكانوا يعانون. وقد حققنا ذلك دون التعرض لأية عواقب وخيمة، لأن معظم دول العالم كانت تعاني، وكذلك بسبب ميراث الغضب تجاه ألمانيا واليابان الناتج عن الحرب. وليس من المحتمل توقع مثل هذا التسامح في الوقت الراهن.



وإذا ما اقترن هذا بمستوى لا يمكن التكهن به - ولكنه حتمي - من الدمار والخسائر البشرية المصاحبة، وبما تعنيه كلمة «احتلال» في العالم العربى بسبب إسرائيل، وبالذكرى التاريخية للانتداب البريطاني والعلاقات الأمريكية بالشاه، وبالتوترات الشيعية بشان العلاقات الأمريكية مع إيران ومحور الشر، وبالتوترات التي بين الفصائل المختلفة في العراق. ونكاد نكون متأكدين من مواجهة مشاكل خطيرة على الأقل مع كتل العراقيين الرئيسية.

وليست هناك دراسة نفعها أكثر من ضررها ما لم تعالج هذه المخاطر باستفاضة أو تعد لها العدة على أساس أنها أمر محتمل. فلا بد أن نركز على منح العراقيين ما يريدون، وليس على منحهم ما نشعر نحن أنهم يريدونه. ولا بد أن تكون إجراءاتنا قائمة على الشراكة ودرجة عالية من التواضع، وليس على الاحتلال والغطرسة.

٣. عــرض: «نحن نقود وهم يتبعوننا»

قد يكون لائتلاف الراغبين الخاص بنا أصغر إلى حد كبير من تحالف غير الراغبين. ولا بد أن نفهم وحسب مقدار عمق عداء العالم العربى بسبب الانتفاضة الثانية وعلاقاتنا بإسرائيل. وتبين الاستطلاعات أن حوالى ٨٠٪ من العرب ونسبة كبيرة من الدول الإسلامية تنظر إلى الفلسطينيين على أنهم القضية الأساسية، ويعبر هؤلاء عن غضبهم من الولايات المتحدة بسبب علاقاتها مع إسرائيل. كما أن علينا فهم أن الكثيرين من العرب في الخليج ينظرون إلى الولايات المتحدة على أنها مسئولة عن معاناة الشعب العراقى في ظل العقوبات.

وتبين مناقشات الأمم المتحدة أننا نواجه عالمًا على قدر كبير من الشك ومعاداة الحرب. ومن الناحية العملية سوف نكون عرضة لاختبار ونقد لا يرحم على المستوى العربى والإقليمي والعالمى منذ بداية العمليات. ولا يمكن أن نأمل في الحصول على تفويض عراقي أو إقليمي أو عالمي كي نعمل بصفتنا محتلين. فالواقع أننا إذا عملنا بهذه الصفة فمن المؤكد أننا سنواجه مشاكل جمة.

وسوف يعود أى فشل إنسانى في أية مرحلة من المراحل ليلازمنا. وكذلك الحال بالنسبة لأية أخطاء في العمل مع الفصائل العراقية، وأى تأخير في نقل السلطة، وأية صفقات مع الخارج يرى العراقيون والعرب أنها على حساب العراقيين.

لا بد أن نقيم خطط السلام الخاصة على حقيقة أنه سوف يُحكم على نجاحنا بنجاحها على امتداد سنوات مقبلة، وأن أى فشل ستكون له آثاره الإقليمية المدوية. والواقع أننا لا بد أن ننجح هذه المرة وأن نكون مستعدين لتقديم التعهد اللازم بالرغم من التكلفة المحتملة. وعلينا في الوقت ذاته أن نفهم وحسب مقدار صلابة واستمرار الارتباط بنجاحنا في التعامل مع الصراع العربي الإسرائيلي والانتفاضة الثانية. وقد يكون لدينا ترف الدخول في حرب واحدة كل مرة، غير أنه ليس لدينا ترف التركيز على سلام واحد.

٤. عـــــــرض: «حـــرب أفضل الحالات»

نحن نبنى خطط ما بعد الحرب إلى حد كبير جدًا على خوض حرب أفضل الحالات. وليس لدينا ما يبرر لهذا التخطيط. فقد يواجهنا قتال المدن. وربما نجد استخدامًا لأسلحة الدمار الشامل. وقد نضطر إلى التصعيد الحاد وتكبيد خسائر مصاحبة خطيرة. ومن المحتمل أن نجد صراعات طائفية ويظهر أمراء الحرب، بما في ذلك المؤتمر الوطنى العراقي.

وليست هناك خطة تستحق أن تؤخذ في الاعتبار ما لم تبحث صراحة الأخطاء الممكن حدوثها أثناء القتال وكيف ستؤثر على النتائج التي تعقب القتال.

٥. عــرض: «جهود إعادة البناء تبدأ بعد أن تضع الحـــرب أوزارها»

لا بد أن يبدأ سعينا لإعادة بناء العراق في اليوم الأول لبدء العمليات، وليس بعد الحرب. فإن كل ما سوف نفعله من قصف أو اتصال أرضي بالعراقيين سوف ينقلها الإعلام على الهواء مباشرة حيث يشاهده العالم وغالبًا ما سيبحث عن أى عيب أو خطأ. ولا يمكن أن نتصف بالكمال، ولكن من الممكن أن نكون مستعدين ونعمل ونحن على علم بأنه حتى الأعمال التافهة أثناء الحرب يمكن أن يكون لها أثر عالمي قوي وتشكل مواقف ما بعد الحرب.

ولا بد أن ندرك أنه في يوم ما بعد دخول قواتنا المنطقة، سوف يلقى العالم اللوم علينا فيما يتعلق بكل جزء مما سيعقب ذلك من معاناة العراقيين، وكذلك على ميراث صدام من الأخطاء الاقتصادية والإهمال. إن اللحظة الأولى من الحرب هي بداية السلام، وأية خطة لا تعترف بهذا صراحة لهي خطة خطيرة.

٦. عــرض: «فلنتجاهل قضية الإعلام والمعلومات العراقية»

يبدو هذا غير معقول، إلا أن عددًا من الدراسات يتجاهل ضرورة توفير تغطية إعلامية مفصلة للجمهور العراقى لحظة دخولنا الحرب، ثم نسيطر في الحال على وسائل الإعلام ووزارة الإعلام العراقية ونغيرها بحيث تصبح مصادر مشروعة للمعلومات. بل إن بعض الدراسات الجيدة الخاصة بجهود الحرب النفسية للتعامل مع الجيش العراقي تعالج المشكلة باعتبارها مشكلة تتناول العمل العسكرى وليس الشعب العراقي والفصائل المختلفة داخله.

ونحن الآن نخوض بالفعل معركة لكسب القلوب والعقول لم نفعل الكثير كي ننتصر فيها. وسوف نواجه في القتال دكتاتورًا يائسًا، وما سوف نقوله في الإذاعة والتليفزيون، وقد تكون لما سوف نقوله للشعب العراقي أثناء تقدمنا أهميته في الحد من حرب المدن والمقاومة المطولة أو تحاشيها. ولا بد كذلك أن نكون قادرين على التحدث إلى الفئة المنشقة داخل العراق وطمأنة من نخطط للعمل معهم. ولا بد من إعادة تشكيل وزارة الإعلام والإذاعة والتليفزيون والصحافة التابعة للدولة في اللحظة التى نصل فيها إليها. والمعروف أن وزارة الإعلام على وجه التحديد واحدة من أسوأ أدوات القمع في العراق، ولا بد من إلغائها أو إعادة هيكلتها في اللحظة التي يمكننا فيها ذلك.

لا يمكن معاملة العراق على أنه ملعب فكـرى لعلمـاء السياسة والأيديولوجيين، ويجب ألا يعامل شعبه على أنه مجموعة من الفئران البيضاء التى يمكن لحفنة من الجنود والمنظمات غير الحكومية الأمريكيين دفعها للجرى في متاهة ديمقراطية



٧- عرض: «تكفي الإطاحة بالنظام كهدف سياسي أمريكي»

عدم تحديدنا بوضوح لأهدافنا السياسية الخاصة بالعراق فيما بعد الحرب مجال آخر لا بد لنا فيه من القيام بعمل مبكر. فالواقع أن حكومة بوش ترددت بالفعل ترددًا شديدًا. كما أن هناك اضطرابًا وعداءً خطيرين في العالم العربي وسائر مناطق العالم بشأن أهداف الدخول في الحرب.

ونحن نواجه عالمًا عربيًا الكثيرون فيه ينظرون إلينا على أننا ندخل الحرب من أجل بترول العراق، وإجراء صفقات مقايضة مع الفرنسيين والروس، وخلق قاعدة عسكرية جديدة للسيطرة على المنطقة وخدمة المصالح الإسرائيلية. وقد شجع غياب البيانات السياسية الواضحة بالفعل كل نظرية مؤامرة محتملة.

وخلاصة القول هي أن مقاصدنا النهائية في العراق بالفعل قضية أساسية لا سبيل للكلمات الغامضة من معالجتها. وهناك حاجة ماسة إلى توضيح مقاصدنا بتفصيل كاف كي نبين أننا نعمل بالفعل من أجل مصلحة الشعب العراقي ونفند نظريات المؤامرة الأساسية التي ظهرت بالفعل، ونثبت أننا لسنا «إمبرياليين جددًا» ولا «محتلين». والواقع أنه لا بد أن نفعل ذلك بأسرع ما يمكن.

٨- عرض: «لا أهمية للأمم المتحدة والعالم في تشكيل السلام»

نحن نواجه مشكلة قانونية يتجاهلها الكثير من الدراسات الأمريكية الحالية. وتحكم مجموعة من قرارات الأمم المتحدة ما يمكن وما ينبغي عمله في العراق، حيث يعد «النفط مقابل الغذاء» أوضحها. وفي العالم الواقعي أمامنا الخيارات التالية: (أ) رفض صدارة الأمم المتحدة وقرارات مجلس الأمن التي تتناول النفط والغذاء وتدعو إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان في العراق ووضع ما يخصنا من خطط وهيكل عام و(ب) الاعتماد على الأمم المتحدة في القيام بما هو واضح أنها مستعدة للقيام به وعمله من أجلنا و(ج) الاعتماد على خليط يضم الولايات المتحدة والأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية سيكون علينا إقامته في حال نشوب الحرب، وهو خليط لا يمكننا التكهن بما سيكون عليه حاله.

وكل هذه الخيارات سيئة، إلا أن (ج) هو أفضلها ولا بد لنا من مواجهة هذه الحقيقة. ولا بد لنا كذلك من مواجهة حقيقة أنه لا يمكننا نقل مشاكلنا إلى مجتمع دولي لا وجود له على استعداد لأن يقوم بعملية تطهير بعد عرضنا العسكري. وقد نحصل بالفعل على التعاون الدولي وتعاون الأمم المتحدة، ولكن فقط إذا كانت لنا الريادة وأسهمنا إسهامًا فعالاً. ولا بد من الانتظار مقدار ما يستغرقه ذلك، أو على الأقل إلى حين تسليمنا المهمة للعراقيين.

٩- عرض: «الديمقراطية تحل كل شيء»

تتسم التعميمات العريضة بشأن الحل المفاجئ الذي تقدمه الديمقراطية لمشاكل العراق بقدر شديد من الغباء. فسوف يستفيد العراق من التعددية المضافة من ذلك النوع الذي دعت إليه قرارات الأمم المتحدة بالفعل. بل إن لدى العراق بالفعل بندًا خاصًا بهذه الخطوات في دستوره الموجود فعلاً أو مسودة الدستور. إلا أن التطبيق في العراق على مدى ما يقرب من نصف قرن تقريبًا كان رجالاً أقوياء وحكامًا مستبدين. وليس في العراق أحزاب سياسية يمكن أن يكتب لها البقاء، وليس هناك قادة في المنفى أو في الداخل يتمتعون بالمشروعية الشعبية التي لا شك فيها، بينما هناك انقسامات عرقية ودينية وقبلية وعشائرية عميقة.

ولا بد لنا كذلك من التعامل مع مختلف الأهداف والأولويات الخاصة بجيران العراق والأمم المتحدة. وسوف تكون تركيا وإيران قيدين فعليين على الطريقة التي تتعامل بها أية حكومة تأتي مستقبلاً مع الأكراد والشيعة. ويعني هذا أن لدينا بالفعل أولويات «غير ديمقراطية». ولا بد لنا في واقع الأمر من فرض وحدة التراب وتحديد الحكم الذاتي الكردي. ولن يكون هذا تقرير مصير مشروعًا أو حلولاً ديمقراطية لهذه القضايا.

ولن يكون العراق حكومة أو ديمقراطية نموذجية لعدة سنوات. فهو يواجه الكثير جدًا من المشاكل الخاصة بالمشاركة في السلطة الداخلية والتعامل مع القضايا الإقليمية وإنشاء أحزاب سياسية يمكنها تجاوز المصالح الأنانية. وهو يواجه الكثير جدًا من التحديات فيما يتعلق بإقامة حكم القانون وحماية حقوق الإنسان والتعامل مع القضايا الاقتصادية والأمنية الملحّة.

وإذا حاولنا فرض أكثر مما يجب من نظامنا السياسي، فسوف نواجه كذلك مشاكل متزايدة مع العراقيين والعالم العربي، في اللحظة التي نحاول فيها أن نقول للعراقيين كيف ينبغي أن يحكموا بها بدلاً من مساعدتهم في العثور على حلول أفضل. وبدلاً من تحفيز دول عربية أخرى كي تصبح ديمقراطية، سوف نحفز العداء العربي ونعطي العالم العربي انطباعًا بأننا انضممنا إلى إسرائيل في الاحتلال.

١٠- عرض: «الوجود المحدود وحفظ السلام»

هناك خطط أمريكية للحرب تدعو إلى وجود أمريكي مبكر في كركوك لضمان عدم محاولة الأكراد الاستيلاء عليها وللحيلولة دون قيام تركيا بأية تحركات. وليس واضحًا بالقدر نفسه أن الولايات المتحدة قد أعدت خططًا لاحتلال المناطق الشيعية بطريقة تمنع المغامرات الإيرانية وتوقف الانتفاضات أو مساعي الفصائل الشيعية للسيطرة عليها. وهناك كذلك من يعارضون بشدة بذل هذه الجهود بسبب المخاطرة أو التكلفة، ويرغبون في تجنب قيام أمريكا بدور عسكري كبير لحفظ السلام بغض النظر عن المخاطر.

إن شكلاً من أشكال حفظ السلام واستراتيجيات حفظ السلام الواضحة ضروري، وتعد الحروب السابقة بمثابة درس يفيد بأنه كلما كان تواجد القوات الأمريكية أكثر تبكيرًا كانت المهمة أيسر والتواجد المطلوب أصغر. وهذا لا بد منه في حالة العراق لمنع وقوع حرب أهلية وللتصدي لأمراء الحرب ولتوفير الأمن اللازم لإعادة بناء الدولة. وما لم يحدث هذا فستكون البدائل إما الدخول في وقت متأخر بموارد أكبر بكثير، أو الفشل في الجوانب الأساسية الخاصة بتشكيل السلام.

ولا بد أن تكون الولايات المتحدة مستعدة من البداية للتعامل مع قضايا إقليمية أكثر اتساعًا؛ وهي السيطرة على مدينة كركوك وما جاورها، وتشكيل خليطها العرقي، والسيطرة على مناطق إنتاج البترول وتوزيعه. ولا بد كذلك من استعداد الولايات المتحدة لمساعدة العراقيين في التعامل مع المسألة الدستورية؛ ما هو الخليط الذي يجمع بين تفويض السلطة وبين السلطة المركزية ويكون مقبولاً من العرب والأكراد على السواء؟ (آخر مرة طرحت فيها القضية للتحكيم في ظل انتداب عصبة الأمم، احتاجت إلى سنوات للحل، وفي النهاية كان لابد من فرضه بواسطة القوات الجوية الملكية باستخدام الغاز السام. ومن المؤكد أن هذه ليست بأفضل سابقة!)

١١- «طريقة إعادة هيكلة حكومة العراق بناء على العوامل المرتبطة بالتكلفة»

لا يمكن معاملة العراق على أنه ملعب فكري لعلماء السياسة والأيديولوجيين، ويجب ألا يعامل شعبه على أنه مجموعة من الفئران البيضاء التي يمكن لحفنة من الجنود والمنظمات غير الحكومية الأمريكيين دفعها للجري في متاهة ديمقراطية. إن العراق بلد تعداد شعبه ٢٤ مليون نسمة وله تاريخ يزيد على ٨٠ عامًا. وهو له دستور ومسودة دستور. وبه بنية المجلس الوطني، ونظام قضائي حديث نسبيًا، وتاريخ خاص باتفاقيات الحكم الذاتي القديمة مع الأكراد.

ولدى العراق بنية مركزية قوية تقوم على مجتمع على درجة كبيرة من التحضر. وهو يعتمد اعتمادًا كبيرًا على واردات الأغذية وتخصيص العائد من صادرات النفط. كما أن به ٢٣ وزارة موجودة بالفعل. بعضها الآن أدوات للقمع ولابد من حلها أو إعادة بنائها تمامًا، إلا أن معظمها ضروري لإدارة البلاد. وكثير من مراكزه الحضرية ومجمعاته ومحافظاته معد طبقًا للحاجات المحلية. وسوف تفشل المقاربة النمطية للحكم المحلي أو الإقليم فشلاً ذريعًا في أي مكان في العالم. وهي وصفة تؤدي إلى كارثة في العراق.

ولا يعد أي عراقي ذي خبرة حقيقية في حكم العراق في مجالات تقنية في عمومها لا سبيل إلى حصرها ضروريًا لحاجات ٢٤ مليون شخص بخلاف بنية الحكم الحالية. ورغم ما في المحاكم والنظام القضائي والمحامين من عيوب كثيرة، إلا أنهم في الوقت ذاته عراقيون. ودور حكم القانون وحقوق الإنسان وأمن الفرد أهم بكثير من الديمقراطية، ولا بد أن تقام كذلك على بنية الحكم العراقية الحالية.

نعم، لا بد أن نعمل مع العراقيين على كل مستوى لتطهير النظام الحالي. ولا بد لنا من القضاء على الحزب السياسي الواحد القائم - البعث - و«إزالة الصبغة الصدامية» من الحكومة الحالية، بينما نقيم حكم قانون حديث ونصلح الاقتصاد. ولا بد أن نعطي دورًا للمنفيين، وليس فقط الجماعات التي تعيش في المنفى مثل المؤتمر الوطني العراقي الذي يتمتع بقوة داخل الطريق الدائري في واشنطن أكثر من أي مكان داخل حدود العراق. ولكن ليس هناك ما يمكن تبرير كل شيء ينفق عليه.

١٢- عرض: «فلتكون جميعًا حلقة مناقشة عملاقة أخرى»

ذلك الخليط العراقي من التوترات الداخلية والخارجية يجعل أية طريقة لإعادة هيكلة السلطة في العراق تتسم بالبطء، أو تكون من أدنى لأعلى، أو ذات توجه خاص بـ«حلقة المناقشة»، وصفة يكاد يكون فشلها مؤكدًا. وليس لدينا الزمن الكافي لمساعي خلق الإجماع التي تستنفد الوقت. كما أنه من المؤكد أن المجالس والهيئات الاستشارية الصورية تحدث حركة ارتجاعية كبيرة.

وربما نضطر لدفع العراقيين إلى شكل جديد من أشكال بنية السلطة خلال أسابيع من إنهاء القتال. ومن المؤكد أنه ليس لدينا أكثر من بضعة أشهر. كما أنه ليس لدينا وقت للحوار الطويل، وإن كان من الممكن استخدام ذلك لتعديل الترتيبات الأولية.

ولا بد أن نمعن النظر في الدستور العراقي الحالي وفي مسودة الدستور، وقد أفلحت في أماكن أخرى فكرة المؤتمر الدستوري والاستفتاء الذي يخلق نظامًا لمواصلة المسيرة. وربما يسمح لنا هذا كذلك بالتعامل مع واقع الصراع على السلطة بتغيير الدستور العراقي الحالي للتعامل مع شكل معدل للجمهورية أو الفدرالية، إضافة إلى شكل ما من أشكال حقوق الأقلية الكردية.

ولكن ليس أمامنا شهور كي نستعد خلالها ولا أكثر من عام كي نجعل النظام الجديد يفلح خلاله. وأية خطة سلام لا تتضمن أهدافًا

واضحة ومحددة منذ البداية، وتستغرق أكثر من ستة أشهر لوضع الترتيبات الرئيسية لاقتسام السلطة، هي خطة مكتوب عليها الفشل منذ البداية.

ولا بد لنا من العثور على طرق لإيجاد اقتسام سريع للسلطة ولإعادة تخصيص ثروة النفط والقيام بذلك بطرق تؤكد الاستقرار السياسي وليس الديمقراطية في حد ذاتها. وهذه ليست قضية كردية وحسب، بل هي قضية من الذي سيقود الشيعة، ويكاد يكون من المحتم أن أى ترتيب يعقب الحرب سوف يعاقب النخبة السنية التي تحكم في الوقت الراهن.

١٣- عرض: «لنتجاهل جميعًا دور الدولة الحالي في الاقتصاد»

يدخل في هذا كذلك ما هو أكثر من الحكم وحقوق الإنسان. فشركة النفط العراقية الوطنية هي وحدها أهم تلك الكيانات الكثيرة المملوكة للدولة التي يجب استخدامها لإعادة تشكيل الاقتصاد وتطويره. ولا بد أن نعمل مع العراقيين على الفور على تطهير الشركة وغيرها من المؤسسات الاقتصادية التي تؤثر على التنمية، وتحرير القطاع الخاص بقدر الإمكان، وخلق بنية صادقة ذات أساس عراقي من أجل الاستثمار الدولي، وإعادة العراق من جديد إلى التنمية بأسرع ما يمكن.

إن قضية الإصلاح الاقتصادي على نفس قدر أهمية قضية الحكم. ولا بد أن تكون هناك خطط صريحة للتعامل مع الصناعة، إلى جانب التركيز بشكل كبير على الطاقة. كما أن تحرير القطاع الخاص، وتشجيع الاستثمار الأجنبي الصادق، والتعامل مع الإصلاح الزراعي، وخلق هيكل للقانون التجاري، جميعها قضايا مهمة.

١٤- عرض: «الجيش وقوات الشرطة»

الحرس الجمهوري والشرطة السرية وغيرهما من القوات الموالية لصدام جديرة بالازدراء، ولكن فكرة قيامنا بحل كل قوات الجيش والشرطة والبدء في تدريب مجموعات جديدة من الصفر مسالة غير عملية وتتسم بالخطورة.

الكثير من عناصر الجيش النظامي وطنية وليست موالية لصدام. ونحن لا نريد أن يكون الشارع هو مصير ٤٠٠ ألف وطني يصبحون معادين. كما أننا لا نريد أن نترك جيشًا ضعيفًا في الخدمة وجيشًا غاضبًا في الشوارع. وكانت ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى مثالاً واضحًا للأثر الذي يمكن أن نلمسه. فلنطهر الجيش، ولنطهر سلك الضباط، ولنوفر التدريب السياسي، وغيره وغيره بكل السبل، ولكن لنترك العناصر المحترفة والقادرة على ما هي عليه من قوة. ولنترك للعراق بعض الكرامة، ولنستميل الجيش بدلاً من أن ندمره.

بل إن ترك الشرطة كما هي - بعد التطهير نفسه - أكثر أهمية. إذ يأتي على رأس الأولويات الغذاء والأمن وبعد ذلك الوظائف والأمن.

ومحاولة جلب توليفات الخبرة الخاصة بالأجانب، وتدريب قوات شرطة جديدة من الصفر، وخلق نظام جديد للشرطة والقضاء من الصفر يكاد يكون مهمة مستحيلة فيما يتعلق بالقوى العاملة والتكلفة ودقة التوقيت. أما تطهير القوة الموجودة بالفعل فليس كذلك.

١٥- عرض: «الدَين والتعويضات»

لا بد أن نكون على قدر كبير جدًا من الحرص بشأن مجرد التلميح إلى أننا نبادل مستقبل عراق ما بعد صدام بالحصول على الدعم، وسوف يؤدي تحميل النظام الجديد عبء مليارات الدولارات من الديون والتعويضات وعقود الطوارئ إلى شل حركته، تمامًا مثلما شللنا حركة جمهورية فايمار في يوم من الأيام.

وينبغي أن نتخذ قرارًا بشأن السياسة الداعية إلى الإعفاء من الديون والتعويضات، وإبطال النظام الجديد لعقود الطوارئ.

١٦- عرض: «دخل النفط يعوم كل السفن»

حان الوقت لمراجعة الواقع. فوزارة الطاقة تقدر أن إجمالي عائدات صادرات النفط العراقية في عام ٢٠٠١ كان ١٤,١ مليار دولار (بما في ذلك التهريب) من بين إجمالي الصادرات البالغ ١٥,٨ مليار دولار واقتصاد يساوي ٢٨,٢ مليار دولار بسعر السوق. ويقل إجمالي الناتج المحلي عن ثلث ما كان عليه في عام ١٩٨٩، إلى جانب عقدين من الحرب والعقوبات يجب التعويض عنهما.

وليس من المحتمل أن تحل عائدات النفط كل مشاكل التنمية في العراق. فسوف يكون نصيب الفرد الحقيقي من ثروة النفط أقل من عُشر ما كان عليه في ذروته عام ١٩٨٠ نتيجة لزيادة عدد السكان وانخفاض أسعار النفط. ومع ذلك لا يزال بإمكان النفط تسديد الكثير، ولكن لا يمكنه تسديد تكلفة إعادة البناء والتنمية. ولنأخذ النقاط التالية بشأن العراق في اعتبارنا:

* الهبوط المطرد في الثروة النسبية منذ ١٩٨٢ وليس ١٩٩١؛ حيث انخفض نصيب الفرد من إجمالي الناتج المحلي بنسبة ٧٠٪ قبل حرب الخليج.

* الزيادة الضخمة في عدد السكان: ٩,١ ملايين عام ١٩٧٠، و٢٢,٧ مليون في عام ٢٠٠٠، و٣٦,٩ مليون في عام ٢٠٢٠، و٤٠٪ من السكان تحت سن الخامسة عشرة. ويزيد معدل البطالة على ٢٥٪.

* لم تعد لديه ثروة نفطية من الناحية النسبية.

فنصيب الفرد حاليًا يزيد قليلاً على ٧٠٠ دولار مقابل ما يزيد على ٦ آلاف دولار في عام ١٩٨٠ وهناك ما هو أسوأ في العائدات الثابتة. فقد كان نصيب الفرد السعودي في عام ١٩٨٠ حوالي ٢٣,٨٢٠ دولار مقابل ٢,٥٦٣ دولار في عام ٢٠٠١.

* يعتمد العراق على النفط للحصول على الغذاء وعلى القطاع «الأسود» في التشغيل. وهو يعتمد اعتمادًا شديدًا على واردات الأغذية منذ أواخر السبعينيات. وتشير التقديرات إلى أنه سوف يعتمد في ٧٠٪ من الغذاء على الواردات بمجرد انتعاش الاقتصاد.

* وجود أزمة طبية وتعليمية.

* الكثير من نتائج الاقتصاد المُوجه الذي تركز لمدة ثلاثة عقود تقريبًا حول الحكم الدكتاتوري. وهناك بعض المؤسسات الاقتصادية القوية دون أن يكون هناك نظام سوق حقيقي فيما يتعلق بتوزيع الأعمال المصرفية والقانون التجاري الموحد والتأمين وسعر الفائدة.

* التنمية الصناعية ضعيفة وتاريخها ضعيف.

* عائدات النفط وقضية التنمية أمر مهم، وكذلك المشاركة في العائدات، ولكن شركة النفط العراقية الوطنية لديها بلطجيتها وقتلتها. وهناك كلام عن حقن بالمياه وضخ مفرط؛ وهناك ٢٤ حقلاً تعمل من بين ٧٣ حقلاً، كما أن من ٢٠ إلى ٤٠ بالمائة من الحقول في خطر.

نعم، إن المال سيكون مشكلة خطيرة، وخاصة ما لم يكن هناك إعفاء من الديون والتعويضات.

١٧- عرض: «نزع الأسلحة سريع ودائم»

لابد لنا من سياسة واضحة تجاه الصناعات الحربية العراقية والمنشآت مزدوجة الاستخدام منذ البداية، ولا بد أن نفهم أن عراق ما بعد الحرب سوف يظل قائمًا في منطقة لا تزال تمثل تهديدًا ويزداد انتشار الأسلحة النووية فيها. ومع ذلك فمهما كان ما نتخلص منه، فسوف تبقى الموهبة البشرية والمنشآت الرئيسية مزدوجة الاستخدام. كما أنه من الممكن أن يدفع التخلص من الأسلحة النووية العراق في اتجاه الاعتماد على الحرب البيولوجية.

إننا بحاجة إلى خطة قصيرة المدى وأخرى طويلة المدى لنزع أسلحة العراق. ولابد أن تتضمن الخطة طويلة المدى طريقة ما لاستخدام توليفة من قرارات مجلس الأمن والعمل الوطني للحد من أي احتمال لانتشار الأسلحة النووية في المستقبل، وربما كانت هناك حاجة إلى شكل من أشكال ضمانات الأمن الأمريكي للحد من الحافز الذي يمنع أية أنظمة حاكمة في المستقبل من نشر الأسلحة النووية.

١٨- عرض: «استراتيجية ممنوع الخروج»

أظهر كل جهد سابق لحفظ السلام أن وجود استراتيجية خروج واضحة أمر في غاية الأهمية. والأمر الأساسي في هذه الحالة هو استراتيجية الدخول التي تجعل السلام ممكنًا، ووضع أهداف متواضعة وقابلة للتحقيق، ومعاملة العراقيين كشركاء، والرحيل حين يريدون هم ذلك أو نكون نحن على استعداد للرحيل. ولكي لا تكون هناك أية فرصة لنشوب حرب أهلية، لا بد أن نعمل بوضوح لما فيه مصلحة العراق وأن نخطط للرحيل مبكرًا وليس في وقت متأخر.

علاج «أعراض الحرب والسلام في العراق»

أول خطوة لعلاج مرض معقد مثل أعراض الحرب والسلام في العراق هي التعرف على طبيعة المرض. وكما أظهرت القائمة السابقة، فإن هذا غالبًا ما يوحي بالعلاج. إلا أن الحقيقة التي تظل قائمة هي أننا سنواجه عقدًا على الأقل فيه المزيد من عدم الاستقرار بمنطقة الخليج، سواء أدخلنا في حرب مع العراق أم لم ندخل، وبغض النظر عن الطريقة التي ستسير بها الحرب. فالتخلص من صدام وما لدى العراق من أسلحة الدمار الشامل مجموعة مهمة من الأهداف إذا سارت الحرب سيرًا حسنًا. إلا أن عدم الدخول في الحرب يمكن أن يُحْدث ما هو أكثر من توفير قاعدة لجعل العراق أفضل إلى حد ما، وبالتالي يتيح للعراقيين التحكم في مصيرهم. وأية نتيجة للحرب لن تعيد تشكيل الخليج أو الشرق الأوسط.

وتلغي فكرة التحول الديمقراطي الفوري بعد انتهاء الحرب والانتشار في أنحاء المنطقة قانون السبب والمسبِّب، وهي فكرة مثيرة للضحك. وكذلك الحال بالنسبة لفكرة أننا نعرف ما يكفي عن البناء القومي بحيث ننشئ الولايات المتحدة العراقية.

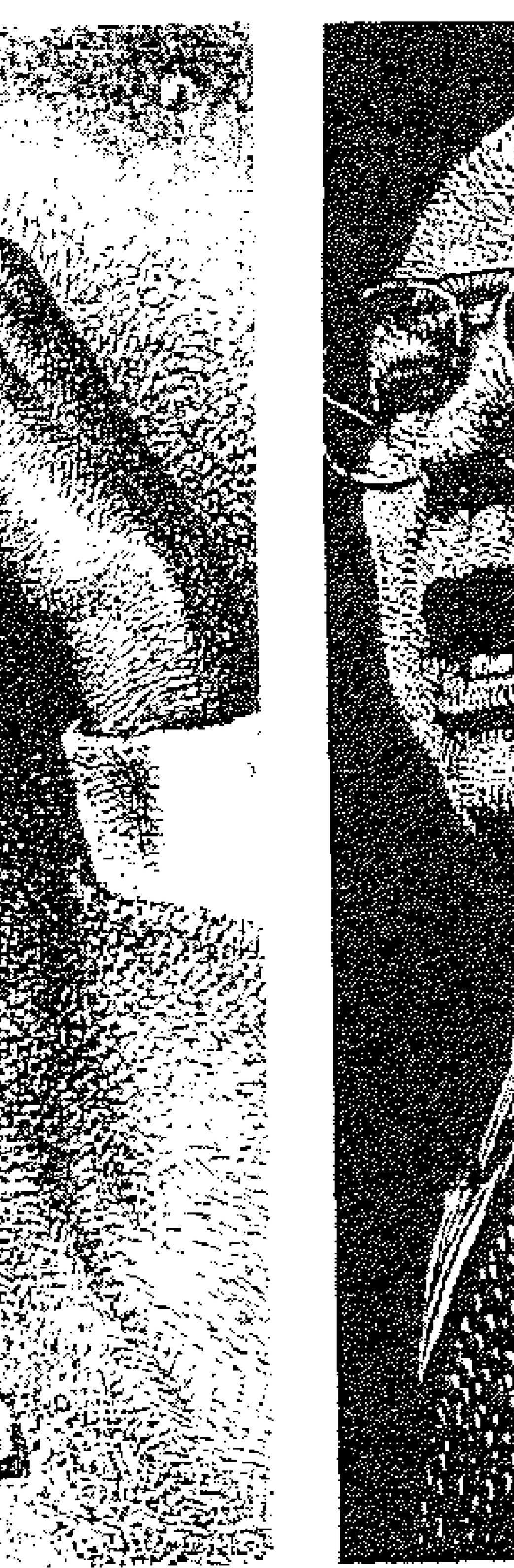
إن أفضل ما يمكننا عمله هو تقليل أخطائنا وأثر قانون النتائج غير المتعمدة إلى أدنى حد ممكن. ويتطلب ذلك الواقعية والالتزام. وإذا كنا نعتمد على المعجزات والنوايا الطيبة، أو نعمل باعتبارنا محتلين وليس شركاء، فمن المؤكد أن نكون غالبًا أكثر شقاء حين تحل الذكرى العاشرة للحرب المقبلة، مثلما كنا في الذكرى العاشرة لحرب الخليج. ■

ترجمة: أحمد محمود

عـــام صـــعـب...

قـال باول.. ويقـول البشرى





■ ■ لم أكن قد تشرفتُ بمعرفة «مباشرة» بالمستشار طارق البشرى قبل هذا اليوم من خريف عام ١٩٩٥ حين التقيته «شخصيًا» للمرة الأولى في حفل توزيع لجوائز خصصت للصحافة العربية.

يومها كان على وشك أن يترك منصة القضاء، بعد أن بدا أن «الواقع» قد لا يحتمل مطلق حياديته واستقلاليته.

ويومها كان قد تم اختياره كمفكرٍ للعام. وكانت بعضُ محاولاتي الصحافية لتأصيل وتوثيق وللتدقيق في القصة «الحقيقية» لنشأة تيارات العنف الديني قد اختيرت لجائزة «التحقيق الصحفي». وكان أن جمعتنا لبعض الوقت طاولةٌ واحدة.. وبحكم المناسبة والبروتوكول صورةٌ تذكاريةٌ واحدة.

ويومها استوقفني هذا القدرُ من الخجلِ الرفيع وتلك الدرجةُ من التواضعِ الجم لدى «مفكر العام». ويومها استغربت كيف كان هذا الصوت الخفيض الهادئ ينطق بأحكام صارمة في عدالتها.. حادة في استقلاليتها.

ويومها أدركت كيف «يمشون على الأرض هونًا».. وكيف إذا «خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا».

بعدها حرصت على ألا يفوتني ما يكتب طارق البشرى.. وهو مُقلٌ في ما يكتب. ولعلها سمة القاضي في إصدار الأحكام؛ يتمهلُ حتى يتحقق، وتبقى لديه «تبرئة مائة جانٍ خير من إدانة برىء واحد».

العرب في مواجهة العدوان
طارق البشرى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ١٢٠ صفحة

وحين قرأت عرفتُ قيمةَ أن يدرسَ القانونَ من يتصدى للكتابة، فيجيد التسبيبَ والاستنباطَ والتكييف. ويدققُ اللفظ والمعنى. ويبتعدُ بالضرورةِ عن «الكلام المرسل».. وكان طبيعيًا أن يكون البشرى من أولئك الذين «يُقَنّنون» الكتابة.

آخر كتابات البشرى ـ أو بالأحرى آخر كتبه ـ حمل غلافُه الموحي، بسيطُ التصميم عبارةً بسيطةً تقريريةً مباشرة «كقرارات القضاء». تخلو من الإبهامِ أو الإيهامِ.. أو المبالغة: «العرب في مواجهة العدوان». وهو عدوانٌ ـ وبغض النظر عن الاختلاف حول الأسباب أو حتى الوصف و«التكييف» ـ تتسارعُ وتيرتُه وتتعددُ أساليبُه.. بل وحتى إطاره الجغرافي. من تدميرٍ وإنهاء بات واقعًا لقوةٍ كانت مفترضةً في وادي الفرات، إلى غيومٍ تبدو داكنةً في الأفق الجنوبي لوادي النيل. ومن محاولات لمحو قضية العرب المحورية في فلسطين «نهائيًا»، إلى محاولات لمحو الهوية ذاتها، بدعوى التطوير أو التشذيب. ومن ملاحقات عنصريةٍ بالتوقيف و«التبصيم» في المَطارات والمَوانئ، إلى مطالبات بالتغيير، تحملُ شكلاً واسمًا عنوان «الشراكة» وتأخذُ ـ بواقع منظومة العلاقات والقوى ـ سلطةَ الجبر. وإن أبدى المجبورون ـ مع اختلافِ أسبابهم ـ غيرَ ذلك. محاولين «هم أيضًا» تسميةَ الأشياء بغير أسمائها. رافعين حينًا شعارَ الواقعية، ومحتمين حينًا آخر بحكمة «بيدي لا بيد عمرو». أو مؤكدين ـ إعلاميًا على الأقل ـ أننا already على الطريق: فالنساءُ مُمَكَّنات.. وتطوير التعليم على قدمٍ وساق.. والديمقراطيةُ «مطابقةٌ للمواصفات».. وكل شيء إذن على ما يرام. ولسنا ـ نحن ـ المقصودين بالخطاب أو المطالبة.



ورغم أن طارق البشرى كان قد انتهى من كتابه قبل الإعلان عن خطاب وزير الخارجية الأمريكي كولين باول والذى عُرف «بمبادرة الشراكة في الشرق الأوسط»، إلا أن «التزامن» جمع بالمصادفةِ بين المبادرةِ ذات البنود التى باتت معروفة والكتاب الذى يتصدى عنوانُه «لمواجهة العدوان».

ونحن حين نعمد إلى مناقشة أطروحات باول بأفكار البشرى خاصةً، فإن هذا إنما يرجع إلى أسباب ثلاثة:

١ ـ أنه عُرِفَ عن صاحب الكتاب أنه مهمومٌ دائمًا بقضايا «ذات صلة». مثل الهوية.. والديمقراطية.. وحقوق الأقليات في المواطنة. (كتاب البشرى «المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية» والذى صدر في أعقاب أحداث خريف ١٩٨١ يعد مرجعًا في الموضوع).

٢ ـ أن موضوع الكتاب، ومن ثم عنوانه «في مواجهة العدوان».. وفي بعضٍ من محاضرة باول ـ رغم اتفاقنا مع كثيرٍ مما فيها من تشخيص ـ عدوانٌ يراه الكثيرون يستأهل المواجهة.

٣ ـ أن صاحب الكتاب ـ وبغض النظر عن دقة المصطلح والتعريف ـ محسوبٌ على «الإسلاميين». والإسلامُ (دينًا ومفاهيمَ وأتباعًا) هو بطبيعة الحال في القلب من مبادرة باول ـ مهما حاولت الدبلوماسيةُ ـ كعادتها ـ الانزلاق بنعومة حول الحقائق.

أيًا ما كان الأمر فإن طارق البشرى يرى في مبادرة وزير الخارجية الأمريكي، أو بالأحرى فيما انطوت عليه ـ كما قال لي في حديث خاص ـ انتهاكًا بواحًا لكل ما كان مستقرًا في قواعد القانون الدولي ومبادئه. معتبرًا أن الدرس الوحيد الإيجابي الذي يجب أن نتعلمه من هذا الخطاب هو أنه إذا كان الأمريكيون يعتبرون بلادنا التي هي على بعد آلاف الأميال، مجالاً لاهتمامهم، مما يعطيهم الحق في مشاركتنا شؤونها «فما أحرانا أن نعتبر فلسطين وهي على بعد مائتي ميل فقط مجالاً لاهتمامنا وجزءًا لا يتجزأ من أمتنا ومن مستقبلنا».

وكانت العلاقةُ بين الأمن القومي و«العمق الفلسطيني» قد أخذت نصيبها من البحث والدرس في غير موضعٍ من كتاب طارق البشرى. والذي بعين «المؤرخ» يلاحظ أنه «بالرجوع إلى تاريخ نصف القرن الأخير لمصر، فإننا لا نكاد نرى أمرًا واحدًا تلتقي عليه سياسات الملك فاروق عندما كان يحكم مصر، ومصطفى النحاس زعيم حزب الوفد وقتها وخصم الملك فاروق، وجمال عبد الناصر الذي خلع الملك فاروق وأزاح النحاس والوفد، لا يوجد ما التقت فيه سياسة هؤلاء الثلاثة إلا أهمية فلسطين لمصر والعداء للصهيونية

وعـــــام أصـــــعب؟

أيمـــــن الصيـــــاد

ودولتها إسرائيل، واستشعار الخطر على أمن مصر من الوجود الصهيوني عند حدودها الشمالية الشرقية.

فماذا إذا كنا اليوم نجد السلاح النووي بيد إسرائيل على بعد مائتي كيلو متر تقريبًا من القاهرة، ومن وادي النيل بمصر، وهو في يد دولة عدوانية خاضت أربع حروب ضد مصر في مدى نصف القرن الأخير. وهي دولة استيطانية تعتمد على الكذب والتوسع والعدوان. فإذا لم تكن فلسطين في هذا الإطار ذات أهمية أمنية لمصر، وإذا لم تكن إسرائيل بوصفها الحاضر وبوصفها الذي نشأت به، مجال خطر يتهدد الأمن المصري والسوري واللبناني، فما هو الخطر إذًا. وهذا كله يفضي بنا إلى اليقين، أو إلى الظن الراجح، والكلام للبشري، بأن من لا يتفق مع فاروق - النحاس - عبد الناصر فيما لم يجمعوا على أمر غيره، ومن لا يدرك مخاطر ما نحيا فيه الآن من ظرف سياسي وعسكري محدق بنا، من لا يفعل يكون مفرطًا في حق مصريته أو سوريته.. إلخ، فضلاً عن أنه يكون مُفَرِّطًا في عروبته وإسلاميته».

ويعبر طارق البشري عن مفهوم «الأمان في العمق» والذي يعنون به فصلاً آخر من كتابه، بسرد حكاية سفينة مصرية جنحت على شاطئ الإسكندرية في السبعينيات وتهشمت جوانبها. أيامها - يحكي البشري - أوضح له صديق كان من ربابنة السفن الكبيرة: «إن ربان السفينة الجانحة أخطأ بالاقتراب من الشاطئ عندما اشتدت به الريح وعلا الموج، كان الأحرى به ألا يقترب من الشاطئ، وأن يدخل بسفينته في عرض البحر». وحين سأله متعجبًا وكيف يكون عرض البحر الهائج آمن على السفينة من الشاطئ الأقل هياجًا، أجابه بأنه عندما يشتد الريح ويعلو الموج، فأمان السفينة في العمق، إنها إن اقتربت من الشاطئ ضربتها الأمواج على صخوره فتتكسر، أما في العمق فهي كلها أمواج في أمواج، إن ضربها موج تلقاها موج آخر وحملها.. وعندما تعصف الريح ويثور الموج فالأمان في العمق».



يعتبر طارق البشري - ويشاركه الكثيرون الرأي - أن بعض ما جاء في خطاب باول «حقًا» إنما كان يُقصَد به «باطلَ التدخل الأمريكي المتبجح في الشؤون الداخلية». وهو أمرٌ مهينٌ تحظره كل الوثائق الدولية.

ويبقى السؤال: كيف كان لوزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية إذن أن يقف هكذا - بلا حرج - ليملي من جانب واحد خطوات «ما سنتشارك في تحقيقه»؟

في كتابه يقدم طارق البشري قراءته للحدث الأفغاني، راصدًا كيف أن مفهوم «العولمة»، ومع الدفقات الإعلامية والفكرية والسياسية التي راج بها، طمس في المقابل مبدأين دوليين جوهريين، كانا هما أقوى ركنين تعتمد عليهما في الساحة الدولية حركات شعوب «العالم الثالث» وحكومات هذه الشعوب، هذان المبدآن هما: مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها، ومبدأ عدم التدخل في الشئون الداخلية للدول. وقد صرنا الآن لا نكاد نرى أو نسمع أيًا من هاتين العبارتين في أي مقروء أو مسموع من الصحف والكتب الحديثة والخطب والمؤتمرات والتصريحات، وذلك في السنوات العشر الأخيرة، رغم أنهما عبارتان كانتا تملآن أسماعنا وأبصارنا لعشرات السنين منذ بداية القرن العشرين.

ويستغرب طارق البشري في حديثه معي عن مبادرة باول أمورًا ثلاثة:

١- أنه يتكلم عن الإصلاح السياسي والديمقراطي، برغم أن الولايات المتحدة هي من يدعم الحكومات المستبدة في بلادنا. وهو كثير الإشارة «لأصدقاء» الولايات المتحدة من حكام الشرق الأوسط في حين أنه في ذات الوقت يلوح بتغييرهم.

٢- أن وزير الخارجية الأمريكي يرسم لبلادنا «نحن» سياسات حول نظم الحكم وحول الاقتصاد والتنمية، وحول التعليم. رغم أنه هو ذاته وحكومته لم يخترهم أحد «من شعوبنا» ليتكلم باسم مصالحه في انتخابات حرة أو مزيفة.

٣- أن الولايات المتحدة مع تحدثها «الممل» عن الديمقراطية، تصنع حكامًا في الخارج. وتضع لهم أسماء مثل أسمائنا.. ثم تصدرهم إلى بلادنا. حسبما حدث في أفغانستان. وحسبما يراد للعراق ولغيره. وهي في نهاية المطاف تفرض هؤلاء بقوة الوجود المادي - لا الديمقراطي - للجيش الأمريكي بعد الغزو والاحتلال.

ويلاحظ البشري أن باول يخصص لتحقيق كل ذلك ٢٩ مليون دولار. في حين أن وزارة الثقافة المصرية احتاجت ٩,٥ مليون من الدولارات لتغطية نفقات ليلة واحدة احتفلت فيها ببداية الألفية الثالثة.



قضيةُ الديمقراطية والمجتمع المدني، والتي يرى عدد من المثقفين أنها تمثل الجوهر - المقبول على الأقل - في مبادرة باولَ، شغلت بعض إشكالياتها جانبًا مهمًا ومثيرًا من كتاب البشري. فهو يرى أن الدولة المركزية الحديثة نشأت في بلادنا ونمت واستفحلت، وذلك على حساب وجوه النشاط الشعبي المختلفة، ونعرف أنها اليوم أشد استفحالاً بما هي مصرة عليه من السيطرة على كل وجوه الأنشطة والخدمات وغيرها، وبحسبان أنها ليست مستعدة لأن تدع لأي فرد أو جماعة أن تمسك بإمكانية المبادرة العامة أو إصدار القرارات الذاتية أو إنفاذها في أي شأن عام.

ويلاحظ البشري أن تكوين الدولة وتشكيلها المهني والهرمي لا ينفتح على خارجها، وهي لا تتغذى من خارجها بما يظهر في المجتمع من خبرات وكفايات في أي فرع من فروع النشاط، ولا يحدث ذلك إلا في النادر الذي يعول عليه، ولا يحدث بطريقة ذات اطّراد وذات أساليب تنظيمية تكفل حسن الاختيار مع التتابع.

ولأن «الأمر ليس شراً كله» يبقى هناك أن لهذا الوضع أثرًا حميدًا، يتعلق بأن أجهزة الدولة والإدارة في مثل بلدنا إنما تتكون من أشخاص وأفراد ينتمون إلى النسيج العام الذي يتكون منه المواطنون، ويحملون الطابع الثقافي والاجتماعي العام ذا الغلبة في تكوين المواطنين، وهذا لا يجعله محصور الفكر والنظر الاجتماعي في تكوين طائفي أو قبلي محدد، ولا يجعله أيضًا مقصورًا على تشكيل حزبي محدد أو على انتماء طبقي اقتصادي محدد.

ولكن من جهة أخرى، فإن هذا الوضع ذاته يكسب هذه الأجهزة طابعًا استبداديًا، ويولد لدى رجالها دائمًا أنهم قوامون على المجتمع أوصياء على الجماعة الوطنية في سائر وجوه نشاط أفرادها ومجموعاتها، وإن التشكيل الهرمي لهذه الأجهزة هو من طبائع الأشياء بحسبانها أجهزة تنفيذ، ولكنها عندما تصير أجهزة تقرير ذات طابع وصائي على المجتمع كله أفرادًا وجماعات، وعندما تكاد تنعدم الطرق النظامية لتجديد أشخاص الأجهزة وعناصرها، عندما يحدث ذلك لمدد طويلة تنمو ظاهرتان هما غاية في الإضرار، إحداهما هي «شخصنة القيادة» أي تصير قيادة شخصية وفردية، وثانيتهما أنها تصير هي مصدر الشرعية في المجتمع، لأنها تمثل التشخيص الفردي لجهاز وأجهزة هرمية ذات يقين ثابت أنها القوامة على المجتمع والوصية عليه في جميع وجوه نشاطه أفرادًا وجماعات.

وهو يقصد «بالشخصنة» هنا: «ما يؤدي إليه طول المُكْث في العمل العام في وظيفة محددة ذات أداء معين، ما يؤدي إليه ذلك من اندماج بين الشخص وبين الوظيفة، من حيث كون الشخص ذا طموح ومصالح فردية ومشاعر ذاتية، ومن حيث إن الوظيفة مجموعة صلاحيات تتعلق بالعمل العام وبالمهام المرصودة ضمن جهاز معين، لإدارة هذا الجهاز وتحديد خططه وأساليب عمله ومواجهة التحديات وحل المعضلات في إطار الصالح العام الذي أعد الجهاز لحراسته وتحقيقه. وأن طول المكث يدمج بين الأمرين سيما إن كان ذلك في موقع ذي قرار، وسيما أن توافر لذي القرار من أوضاع الاستبداد ما يجعله يبدو في أعلى التكوين الهرمي مصدرًا للشرعية، ويبدو ثابتًا لا يحتمل التغيير».

الكتاب الذي خصصه صاحبه للحديث عن مواجهات العام «الصعب» صدر مع إطلالة عام يبدو أنه لن يكون بحال أقل صعوبة، إن لم يكن - بحكم الشواهد - «أصعب»



إن وزير الخارجية الأمريكي يرسم لبلادنا «نحن» سياسات حول نظم الحكم وحول الاقتصاد والتنمية، وحول التعليم. رغم أنه هو ذاته وحكومته لم يخترهم أحد «من شعوبنا» ليتكلم باسم مصالحه في انتخابات حرة أو مزيفة











ويخلص البشرى من كل هذا معالجًا مسالة الديمقراطية إلى أن الدولة «بتكوينها المشار إليه تقف بعناد وإصرار من دون تحقق أية إمكانية لتداول السلطة أو تفتح أبواب التغيير فيها أو التعديل من خارجها. وتسد الذرائع في وجه أى مما يمكن أن يفضي إلى إمكانية تداول أو تغيير أو تعديل من خارج نطاقها التنظيمي».



يتحدث باول - والمفاهيمُ مقبولةٌ بلاشك - عن «الديموقراطية.. والحرية.. وتطوير التعليم.. وتمكين المرأة»، وبغض النظر عن رأي يتطرفُ - يسارًا - فيذهبُ إلى القول بانه «سُمٌ في العسل» وبانها «كلمة حق يراد بها باطل»، أو - يمينًا - فيرى أنها الفرصة التاريخية للحاق بركب الحداثة والتقدم، يبقى الأوفق، والذى يمكنُ الإجماعُ عليه أن الإشكاليةَ الأولى هنا تتمثل في «التعريف.. والمصطلح». أخذًا في الاعتبار هنا خصوصيةٌ ثقافية، لا يمكن - أو على الأقل لا يصح - تجاهلها.

ويحضرني هنا ما قراته ذات يوم للبشرى في سياق آخر. وهو الحريص - كقاض - على تدقيق المصطلحات وتبيانها، ليصح تداولها بين مستخدميها. محذرًا من استيراد تعبير وافد من استخدام مجتمع آخر «نعزله عن سياقه الخارجي، ونزرعه في مجتمعاتنا وهو غريب عليها بمفهومه الوافد واستخدامه في السياق المغاير». ضاربًا مثلاً بتعبير «الأصولية الإسلامية» وهو الذى يجد اعتراضًا عليه من جل من يُطلَق عليهم بالدلالة السياسية التى يستخدم بها في السنين الأخيرة. «لأن تعبير الأصولية الإسلامية أطلق على الحركات السياسية المعاصرة. من خارج هذه الحركات، فهم لم يطلقوا على أنفسهم هذا الاسم، ولا واحدة من هذه الحركات رضيت وتسمت به. وأكثر من ذلك فقد أطلق على ظاهرة سياسية وثقافية منبثقة من مجتمعاتنا، وأطلق عليها من خارج هذه المجتمعات، وعلى أسنة أقلام أوروبية وأمريكية وله عند هؤلاء الأقوام مدلول خاص بهم، ثم نقل بمضمونه المتبلور في سياق تلك المجتمعات الغربية، ليشير إلى ظواهر وجدت لدينا وهي بعيدة تمامًا عن السياق الغربي».

وليس هذا الأمر جديدًا، يوضح البشرى «المؤرخ»، فلقد استخدمنا في الثلاثينيات والأربعينيات مصطلح الفاشية «الذى ظهر في الفكر السياسي الأوروبي تعبيرًا عن ظاهرة سياسية ظهرت في إيطاليا بعد الحرب الأولى وانتشرت، وقواها الحكم النازى في ألمانيا في الثلاثينيات. استخدمنا هذا اللفظ الذى وفد إلينا من الخارج لنشير به ونسمي به حركات سياسية وطنية ودينية ظهرت لدينا في إطار التحرير الوطني من الاستعمار، وكان من أوفد إلينا هذا المصطلح هو الأقلام الغربية، وأخذناه عنها لنصف به أنفسنا أو بعضًا من أنفسنا، رغم اختلاف السياق واختلاف التجارب التاريخية المولِّدة لكل من الظواهر السياسية الغربية والظواهر السياسية لدينا، وكان أوضح هذه الظواهر ان ما أطلق عليه لفظ «الفاشية» في أوروبا كان حركات سياسية تستهدف فيما تستهدف التوسع والعدوان على الشعوب الأخرى، وما أطلق عليه لفظ «الفاشية» في بلادنا كان حركات سياسية تستهدف فيما تستهدف رد العدوان السياسي والثقافي على شعوبنا ومقاومة هذه الشعوب للاستعمار في صوره المتعددة.

ويعتبر البشرى أننا بهذا الاستخدام للمصطلحات السياسية الاجتماعية الغربية في غير سياقها الاجتماعي السياسي الذى نشأت فيه واستخدمت، وبهذا النقل لها إلى سياق اجتماعى وسياسي مختلف، إننا نكون بذلك قد طمسنا على أعيننا ونكون غمت علينا ظواهرنا المعيشية وغفلنا عن معانيها، وليس بعد ذلك درجة من درجات التبعية الفكرية، وليس بعد ذلك درجة من درجات الاغتراب عن أنفسنا والذهول عن واقعنا.

ولحرصه على الحوارِ والتواصل، يعتقدُ البشرى - ولسماحته هنا فضلٌ في هذا الاعتقاد - أن التباين الدلالي للألفاظ لدى جماعات وأفراد ومثقفين في هذا المجتمع، قد يكونُ مسؤولاً - ولو إلى حد ما - عن استقطاب يبدو حادًا أحيانًا. وعن ضياع لإمكانات التفاهم بين من هم متشاركين - بالضرورةِ - في مجتمع واحد - وبالافتراضِ - في همٍ واحد.



ويبدو اهتمامُ البشرى بإيجاد نوعٍ من التفاهم المشترك - بديلاً عن الصراع - بين جماعات الأمة الثقافية المختلفة، واضحًا وجليًا في كتابه. إذ يحذر في «التمهيد» له (وهو تحذيرٌ لا يبتعد كثيرًا عن أجواءِ ما بعد مبادرة باول) من كل التوترات السياسية والفكرية التى عانينا منها خلال العقود السابقة. ومن الإدارة السيئة لوجود الحوار الفكرى والثقافي التى عانينا منها خلال هذه العقود القريبة، وهي إدارة للحوار تمثل سوؤها في تعمد إثارة وجوه التفريق بين التيارات السياسية والثقافية وإشاعة جو من الخوف المتبادل بين بعضها البعض، وهي إدارة نبع سوؤها من عاملين أساسيين:

أولهما: التوجهات الثقافية والإعلامية الوافدة من الخارج، والتى آلت على نفسها وعلى أتباعها أن يتحول انتباه شعوبنا من فكرية الصراع والمواجهة بيننا وبين أطماع الدول الكبرى الغربية، أن يتحول إلى فكرية الصراع والمواجهة بين فصائلنا الفكرية والسياسية بعضها البعض، من نوع قضايا حقوق الإنسان وحرية التعبير والتعددية والمرأة وغير ذلك من القضايا، واعتبارها هي «أم القضايا»، وذلك ليكون باسنا بيننا ولئلا يستمر باسنا موجهًا ضد المعتدين على أرضنا وشعوبنا من الخارج.

وثانيهما: السياسة الداخلية لدولنا المركزية لإدارة الإعلام في بلادنا بالطريقة التى لا تمكن المعارضة السياسية من أن تتوحد أو تتقارب أو تبلور موقفًا مشتركًا في مواجهة سياسات التبعية الاقتصادية والسياسية، وفي مواجهة قوى الاستبداد السياسي الداخلية.

ورغم ذلك، لا يُخفي البشرى تفاؤله المعتاد فيلاحظ أنه ورغم كل هذه التوترات والصراعات السياسية، ورغم سوء قصد الإدارة الرسمية الإعلامية والثقافية، استطعنا أن نقارب بين التيارات السياسية والفكرية في بلادنا في عدد من القضايا المهمة. ويلاحظ أنه في السنوات القليلة الماضية، بدأ يشيع نوع من التفاهم المشترك بين الداعين إلى الجامعة الإسلامية السياسية والداعين إلى الجماعة العربية. والتفاهم أيضًا بين رؤى المرجعية الإسلامية والداعين إلى استعادة سيادتها وبين ذوى المنهج الوضعي العلماني من الوطنيين. وذلك فضلاً عن أسس التفاهم والعيش المشترك ذات الجذور الممتدة بين المسلمين والمسيحيين بجامع المواطنة.

ومن باب أن «رُبَّ ضَارةٍ نافعة» يعتبر البشرى أن مخاطر التهديد العدواني لسياسات الهيمنة الأمريكية ومخاطر التهديد الصهيوني على بلادنا، كان ذلك من وقائع التمهيد للتقارب بين ذوى المنطلقات المتباينة من المواطنين الحريصين على الذود عن أوطانهم وشعوبهم وثقافاتهم. وكانت القدس وفلسطين ووقائع ما يحدث فيهما وانتفاضات الشعوب من أجل تحريرهما هو من عوامل التوحيد في المواقف والتقريب في الأهداف والتفاهم في الأفكار.

ويستدرك بانه لا يمكن القول بأن ما تحقق صار عصيًا على الانتكاس من بعد أو النقصان، ولا أقول أنه لا يحتاج دائمًا إلى يقظة وحيطة وحراسة، «ولكنني أقول أنه تحقق قدر إيجابي معتبر من التقارب في هذه الجوانب، رغم المعوقات ومحاولات الإفشال ممن هم يملكون الكثير الذى يقدرون به على التعويق والإفشال».



أيًا ما كان الأمر فإن باول ألقى محاضرته بعد كثير من الانتظار و«التوجس». والحاصل ورغم هذا «الاستقطاب» الذى يبدو مزمنًا وتاريخيًا في حالتنا الثقافية، إلا أن الموقف «العاطفي» المسبق من كل ما يأتي من الناحية الأخرى من الأطلنطي، كان في أغلب الأحوال وراء ما بدا موقفًا عربيًا «مبدئيًا» وآنيًا ومباشرًا من مبادرة باول. إلا أنه ورغم كل شيء، سرعان ما وجد السؤالُ الحرجُ مكانه - وإن على استحياء - لطاولات البحث ونقاشات المثقفين: «أيهما نقاوم ونجعل له الأولوية في المعالجة. هل هو في إصلاح أمراض الداخل أم مقاومة أخطار الخارج؟ وأيهما السبب وأيهما النتيجة، وهن الداخل أم طمع الخارج؟ وبأيهما نبدأ؟

يعتبر طارق البشرى في كتابه أن السؤال يجسد واحدة من المشاكل الفكرية الثقافية شبه المزمنة في تاريخ أمتنا. ذلك «لأننا لم نهتم بحلها الحلول الشاملة، ونكتفي كثيرًا إزاءها بالحلول السياسية السريعة أو بالتغطية الإعلامية الكثيفة، فتخبو ونحن نظن أنها زالت، ثم تحدث الواقعة التاريخية بكل وضوحها وتضاريسها وينقسم الناس

أيهما نقاوم ونجعل له الأولوية في المعالجة. هل هو في إصلاح أمراض الداخل أم مقاومة أخطار الخارج؟ وأيهما السبب وأيهما النتيجة، وهن الداخل أم طمع الخارج؟ وبأيهما نبدأ؟









وعـــام أصـــعب..

حولها كما كانوا في السابق «وكأننا لم نبت ليلة معًا» كما يقول الشاعر القديم.

ويستعرض البشري أمثلة «للسؤال الأزمة» من التاريخ القريب والبعيد. إذ أنه «ما أن ظهرت أزمة الخليج في عامي ١٩٩٠ - ١٩٩١ حتى انقسم الناس - أو القسم الغالب من الرأى العام السياسي الفعال - انقسم إلى فريقين كادا أن يكونا متواجهين، قسم يركز على الأوضاع الداخلية وما فيها من استبداد ويستخلص من ذلك إدانة العراق ويغض الطرف عن الوجود الأمريكي العسكرى باعتباره مجرد أثر ورد فعل، ويغلو البعض فيرى الوجود الأجنبي عنصر دفاع مبرر الوجود عن استقلال بلد عربي. وقسم يركز على الاحتلال الأمريكي بحسبان أن المشاكل العربية لابد أن تحل في الإطار العربي وحده، ويغلو البعض فيتخذ موقف الدفاع عما صنعت العراق في الكويت، وليس المهم هو ما غالى به البعض من الفريقين، ولكن المهم هو أن هذا الجدل الفكرى والسياسي الذى اتخذ طابع الصراع جاء ترداداً لذات ما قام من جدل وصراع في بداية القرن العشرين حول إصلاح الأمة من الداخل على طريقة حزب الأمة في مصر أم بجلاء الاحتلال الأجنبي على طريقة الحزب الوطني.

والأهم من ذلك - يرى البشرى - أن غالب الأحزاب في بلدنا وغالب الجماعات السياسية قد صادفه هذا الانقسام من داخله، سواء من التيار الإسلامي أو التيار القومي أو التيار الليبرالي أو التيار اليسارى، في كل من هذه التيارات، وجدنا من يركز على الخطر الخارجي على طريقة الحزب الوطني القديم أيام مصطفى كامل ومحمد فريد، ووجدنا من يركز الاستبداد الداخلي باعتباره أصل المشاكل على طريقة حزب الأمة القديم أيام أحمد لطفي السيد ومن شايعه. وهذا ما يظهر نوعًا من الوهن الذى يمس قوة التماسك والاتساق الفكرى والثقافي في نظرنا لقضية أساسية عايشناها منذ بداية القرن العشرين. ويعكس قدرًا من الاضطراب في موقفنا من هذه القضايا.

ويعتبر البشرى أننا كنا «قد وجدنا الهدفين في مصر وجعلناهما عملية سياسية واحدة في ثورة ١٩١٩، ولكن الحل الذى كنا أدركناه في هذه الثورة التي جمعت بين مطلب الاستقلال ومطلب الديمقراطية، ما لبثنا أن تعثرنا به عندما لم يحل أى من الهدفين حله الحاسم، وجاء من تيارات الثلاثينيات وما بعدها من يطرح خيار الأولوية من جديد، ويركز على أى من الهدفين قبل الآخر، أو دون الآخر. وهكذا لم يحسم أمر المزج بين المسألتين في نسق فكرى واحد، أو بعبارة أدق فإن هذا النسق الواحد لم يشع في البيئة الثقافية ليشكل أحد أركان التيار الرئيسي الأساسي في الفكر السياسي السائد».

ورغم إقرار البشرى بتاريخية «السؤال الأزمة»، إلا أنه يلاحظ «في قراءته للحدث الأفغاني» أن ثمة ما تغير. وأن شيئًا شبيهًا في هذه المسألة لم يحدث. وأن السؤال المزمن توارى ولو إلى حين. فالكثيرون من الإسلاميين لا يطيقون نظام حكم «طالبان» في أفغانستان، ناهيك عن غير الإسلاميين، ومع ذلك فلم يظهر صوت يؤبه بقوته أو فاعليته يؤيد الأمريكيين في ضربهم الأفغان وغزو أراضيهم، ومن الناحية الشعبية بين العرب والمسلمين، يكاد يقوم نوع من التوافق الجماعي - إن لم نقل الإجماع - على إدانة الحرب الأمريكية ضد الأفغان مع كراهة هذا الصنيع القمعي المتجبر من الساسة الأمريكيين، ومن ناحية الحكومات فإنه فيما عدا تركيا وباكستان، لا نكاد نجد حكومة عربية أو إسلامية أيدت الصنيع الأمريكي ولا وافقت أمريكا إلا بسبب الخضوع والانصياع، خضوع الضعيف وانصياع الخائف.

ورغم أننا نوافق البشرى في كثير مما ذهب إليه بهذا الخصوص، إلا أن أسئلة «مُؤَرِّقةً» وذات صلة تظل مشروعة:

١- إلى أى مدى.. وإلى أى فترة من الزمن يظل هذا «التوافق الجماعى» كما يسميه البشرى، والذى كان منا - ربما - أمام الحدث الأفغاني. ففي بلادنا و«بعد أن تهدأ الفورة.. ويبدو جليا ما في القِدْر»، يصبح طبيعيًا أن ننسى أو ننشغل.. أو نتشاغل. ويصبح طبيعيًا أيضًا أن ترتفع أصوات تتحدث عن «الواقعية.. والحسابات». ولعلي أذكر هنا ما لاحظه الأستاذ هيكل ذات يوم من أن تظاهرات الاحتجاج في الغرب على حرب مزمعة ضد العراق، وعلى ما يجرى في فلسطين، يتجاوز بمراحل، حجمًا وتأثيرًا، تلك التي تشهدها، عنوة أو على استحياء، شوارعنا العربية.

٢- هل تمتد وحدة الموقف والشعور و«الحسابات» إلى «الحالة» العراقية؟ (راجع خطاب المثقفين الكويتيين الذى رفضت صحف عربية نشره لفترة من الزمن.. وكذلك بيان المثقفين المصريين «المحاولة».. ولاحظ ما لحق بصور ابتسامات وسلامات وقبلات قمة بيروت من تآكل وبهتان).

٣- إلى أى مدى تنجح الآلة الإعلامية الرهيبة، وضغوط الفقر ولقمة العيش، وتصريحات «العجز وقلة الحيلة»، والإحساس المتنامي بالوهن والإحباط واليأس، في أن تدفع بالبعض إلى حالة من الرضا، بما هو واقع. بل - وهذا يفهمه علماء النفس - تحبيذه أحيانًا والدفاع عنه.



بدأ العامُ الأصعب والمشهدُ عربيًا كالآتي: عاصفةٌ تهدد تخومَ الشرق، وإن لم تدو الصواريخ في سماء بغداد «فوراء الأكمة ما وراءها». وعاصفةٌ تهدد بالاقتلاع «ضمير الأمة وهويتها». واجتياحٌ وإذلالٌ وقتلٌ يومي. وتجريفٌ للأراضي وتدميرٌ للمنازل أمام كاميرات التليفزيون، التي يبدو أن العالمَ كلَّهُ قد اكتفى بها «حركةً وفعلاً» أمام ما يحدث أمامه - وأكرر - يوميًا في قرى فلسطين وبلداتها. وبعد أن وجد البعضُ ضالته - إبراءً للذمة والضمير - في الالتهاء بجدلٍ عقيمٍ حول «الاستشهاد والانتحار».

يبدأ العامُ الأصعب، وغيومٌ كثيفةٌ من الغموض والإلهاء والإرباك. وجروحٌ تبدو جديدة وأخرى لا تريد أن تندمل. ومخططاتٌ «سوداء» تقضم بأنياب «اثنية» جنوب الوادى، تحت دعاوى الحريةَ وحماية الأقليات. ووسط طبول «القبائل» ونذر التمزق، مازال حمَّام الدم يغسل شوارع الجزائر التي لم تحتمل ديمقراطيةً التي تصور البعضُ يومًا أنها ستكون مبشرتها في عالمنا الإسلامي المتهم.

يبدأ - هكذا - العامُ الأصعب، والذى سيشهد على الأغلب لمسةً «أو ضربةً» المبضع الأولى في جراحة، هي كبيرةٌ بحكم الشواهد، وعميقةٌ بحكم تشخيصٍ أعلنت أعراضُه - أو بعضُها على الأقل - مهما كانت دبلوماسية المحاضر في قاعة Heritage. وهو بالمصادفة كان رئيسًا للأركان في حرب الخليج الثانية ١٩٩١ والتي انتهت - وبغض النظر عن المقدمات والأسباب - بالاحتلال العسكرى «الفعلي» للولايات المتحدة الأمريكية للخليج العربي. واستقرار وجودها الصريح «والشرعي» على ضفافه العربية.

وكان هذا الحدث قد اتسم بأمرين مهمين - وأعود هنا إلى كتاب البشرى - أولهما «أنها كانت المرة الأولى التي تضربنا فيها الولايات المتحدة الأمريكية بنفسها، فلم يحدث قبلها في الوطن العربي أن استخدم السلاح الأمريكي بالأيدى الأمريكية ضد بلد عربي. كان يستخدم من قبل عن طريق الصهاينة، وكان يستخدم عن طريق الصراعات الداخلية، ولكن التدخل الأمريكي المباشر في حرب صريحة ضد بلد عربي، وتضرب بنفسها شعبًا عربيًا مسلمًا، فقد كان ذلك هو الحادث الأول، إن لم تخطئ الذاكرة، وثاني الأمرين: أنها كانت المرة الأولى التي تجتمع فيها دول الغرب ذات الثقل على ضرب بلد عربي أو إسلامي بغير تعارض ذى شأن بين مصالح هذه الدول وبغير اختلاف في السياسات يصل إلى حد التعارض إزاء حرب ساخنة. وذلك كله منذ اجتمعت الدول الأوروبية الكبرى ضد محمد على في عام ١٨٤٠».



ربما يبقى لازمًا الإشارةُ - ثانيةً - إلى أن طارق البشرى انتهى من كتابه قبل الإعلان عن مبادرة باول. وأن الصلة بينهما «توقيتًا وموضوعًا» لم تكن أكثرَ من مصادفة.

والكتاب على أية حال يضم عددًا من المقالات التي كتبها البشرى في مطبوعات مختلفة خلال العام «الصعب» ٢٠٠٢ والذى بدأ فيه العالم (ونحن في القلب المستهدف منه بحكم اتهامٍ حار في قضائه القضاة) يشهد توابع «الزلزال» الضخم الذى هز الدنيا كلها صباح الثلاثاء الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

والكتاب الذى خصصه صاحبه للحديث عن مواجهات العام «الصعب» صدر قبل أسابيع، ومع إطلالة عام يبدو أنه لن يكون بحال أقل صعوبة، إن لم يكن - بحكم الشواهد - «أصعب» وسط طبول حرب تدق عاليًا منذرة - دعك من كل شيء آخر - بطوفانٍ لا يأمنُ أكثرُ المتفائلين «العقلاء» نتائجَه. مهما كانت «الجبال عالية» في نظر الواهمين باستقرار، أو المتوهمين بصداقة وعلاقات استراتيجية. ■



يحاول المجبورون تسمية الأشياء
بغير أسمائها. رافعين حينًا شعارَ الواقعية،
ومحتمين حينًا آخر بحكمة «بيدى لا بيد عمرو»،
أو مؤكدين. إعلاميًا على الأقل
- أننا already على الطريق



وطــن يأكــل أبنــاءه .. اليمــن

حســن أبو طالــب

■■ الذين تابعوا المشهد الجنائزى المهيب الذى ودع جثمان الراحل جار الله عمر، الأمين العام المساعد للحزب الاشتراكى اليمنى، إلى مقبرة الشهداء فى الثلاثين من ديسمبر الماضى، ولاحظوا الشعارات المنددة بالإرهاب والتطرف والمتمسكة بالديمقراطية والداعية إلى ثقافة التسامح، والتى رفعتها كل الأحزاب اليمنية، يقعون فى حيرة من أمرهم، فإذا كانت كل القوى السياسية اليمنية مؤمنة بالتعددية السياسية والفكرية، فمن المسئول إذا عن بيئة التطرف السياسى والفكرى التى أفرزت قاتلى جار الله عمر، ثم الأطباء الأمريكيين الثلاثة الذين عاشوا فى اليمن لمدة تزيد على العقدين يقدمون خدمات إنسانية لبسطاء اليمن فى قرية جبلة النائية التى عجزت أيادى الدولة عن الوصول إليها لقلة الموارد. ومن قبل هؤلاء مئات من شهداء الكلمة والعمل السياسى، أخذتهم طاحونة العنف والاقتتال الأهلى.

وإذا كان الجميع لا علاقة له بأى خلايا إرهابية أو مجموعات على علاقة بتنظيم القاعدة، فكيف تحولت البلاد إلى ملاذ لهؤلاء، يعبرونه وقت يشاءون ويعملون انطلاقا منه ضد هذا الطرف أو ذاك وقت يريدون؟، ثم كيف يكون الخطاب الرسمى متباهيا بالديمقراطية والتعددية، وفى الوقت نفسه ترى كل القوى السياسية الخارجة عن سلطان الحكم، بما فى ذلك من لهم نواب منتخبون بإرادة الشعب فى البرلمان، أنها منبوذة ومستبعدة عن المشاركة فى صنع القرار أو التأثير فى صيرورته؟.

أسئلة مثيرة وكثيرة وتزداد إثارة بعد تلك الاتهامات التى كالها رئيس الوزراء عبد القادر باجمال فى تقرير رسمى قدمه لمجلس النواب فى اليوم الأخير من العام ٢٠٠٢ حول جهود الحكومة لمواجهة الإرهاب، وهى اتهامات طالت أحزابا معينة لم تحدد بالاسم، باعتبارها تحمى الإرهاب وتتستر على عناصر ذات صلة بالقاعدة عادت إلى البلاد فى الفترة الماضية، وشجعتها على القيام بأعمال تخريبية وإرهابية، والتحريض ضد الحكومة ومصالح الشعب وذلك من منابر المساجد، التى خرجت منها فتاوى بمحاربة الأجانب عامة والأمريكيين خاصة باعتبارهم كفرة. وفى التقرير تأكيدات على صلات مالية لهذه العناصر الحزبية - المفترض أنها معروفة للدولة ولكن لها وزنها السياسى الثقيل - مع تنظيم القاعدة، وذلك من خلال بعض تنظيمات خيرية ودينية وبعض شخصيات فى الخارج، استخدمت فى تمويل تفجيرات فى بعض المحافظات اليمنية.

وبعيدًا عن الاتهامات والتلميحات التى اعتُبرت موجهة بالأساس إلى حزب التجمع اليمنى للإصلاح الذى يقوده الشيخ عبد الله بن حسين الأحمر رئيس مجلس النواب اليمنى، فإن السؤال الذى يطرح نفسه، لماذا لم تقدم الدولة على اعتقال هؤلاء المتورطين فى أعمال أو صلات إرهابية وقدمتهم إلى العدالة، أم أن هناك أسوارا من الحماية السياسية والمعنوية حول هؤلاء يصعب اختراقها وتستعصى على الدولة نفسها؟.

وهنا فإن واقعة توقيف السلطات الألمانية ١١ يناير ٢٠٠٣ الشيخ محمد على المؤيد الذى وصل ألمانيا لغرض العلاج، ومساعده، بطلب من السلطات الأمريكية، تقدم بعض الدلالات المهمة. فحسب الرواية الأمريكية أن الشيخ المؤيد أحد العناصر التى دعمت تنظيم القاعدة بالأموال، وفقا لما جاء فى اعترافات عبد الرحيم الناشرى المتهم بكونه أحد قيادات القاعدة فى منطقة الخليج. وهو ما لم يتم إبلاغه للحكومة اليمنية رغم التعاون الأمنى المفترض بين الجانبين.

وهناك ثلاثة جوانب، كل منها يعبر عن جانب من الأزمة السياسية فى اليمن. الأول: أن الشيخ المؤيد عضو بارز فى التجمع اليمنى للإصلاح، وإمام وخطيب مسجد ورئيس جمعية أهلية ومستشار فى وزارة الأوقاف اليمنية، أو بعبارة أخرى هو رمز إسلامى شعبى ورسمى معا، ومن شأن اعتقاله والفشل فى منع تسليمه إلى السلطات الأمريكية، أن يهز مصداقية الحكومة بشأن حماية مواطنيها، وأن يضعها فى موقف حرج سياسيا أمام الرأى العام، ومن ثم تزداد مساحة الرفض الشعبى للتعاون الحكومى مع أمريكا فى الحملة ضد ما يسمى بالإرهاب الدولى.

وثانيًا: إن كون الرجل عضوا فى الإصلاح يجعل الأخير معنيا مباشرة بالجهود القانونية والدبلوماسية الهادفة إلى منع تسليمه للسلطات الأمريكية من جانب، والتأكيد على براءة الرجل من التهم الموجهة إليه كعضو نشط فى «الإرهاب الدولى»، باعتبار أن التهمة هنا موجهة أيضا ولو بطريق غير مباشر للتجمع نفسه، وفى ظل الملابسات التى أحاطت باغتيال جار الله عمر، يمكن للمرء أن يتصور حجم المأزق السياسى الذى يواجه التجمع كحزب ينطلق برنامجه من رؤية دينية إسلامية، ويعمل على إثبات دوره كحزب دينى يدعو إلى التسامح وينبذ ثقافة العنف، وينفى عن نفسه أى تهمة تتعلق بالإرهاب داخليًا أو خارجيًا.

وثالثاً: إن اعتقال الشيخ المؤيد الذى يعرف شعبيا داخل اليمن كداعية وكرجل يهتم بمساعدة الفقراء عبر جمعية الإحسان التى يرأسها، من شأنه أن يعمق الرؤية القائلة بأن الحرب الأمريكية على الإرهاب لا تفرق بين المعتدلين أو المتطرفين من أبناء المجتمعات الإسلامية، وإنما هى موجهة بالأساس إلى الإسلام كدين، وكل تعبيراته الأهلية، وإن السلوك الأمريكى يبرر عمليات عنف ضد المصالح الأمريكية فى اليمن نفسها كما فى غيرها.

دعــاوى الانتــصــار وعــمليــات الاســتــبــعــاد:

مثل هذه الأسئلة المحيرة وغيرها كثير تعبر عن بعض ملامح الحالة السياسية التى يعيشها اليمن منذ ما يقرب من عقد، وتحديدا منذ انتهاء ما يعرف بحرب صيف ١٩٩٤، أو حرب انتصار الوحدة على الانفصال وفقا للتعبيرات الرسمية الشائعة. وهى حالة معقدة إلى حد بعيد، تختلط فيها دعاوى الانتصار مع عمليات استبعاد وتقييد منهجية للأحزاب المعارضة، وتزداد فيها شعارات التمسك بالتعددية كخيار سياسى لا محيص عنه، وفى الوقت نفسه تقل مساحة المشاركة أمام كل التيارات السياسية بما فى ذلك تجمع الإصلاح الذى لعب دورا مشهودا فى إقصاء الحزب الاشتراكى عسكريا فى صيف ١٩٩٤، واعتبر نفسه من المنتصرين حينها، ولكنه خرج من تحالف الحكم لاحقا، وفضل العمل كحزب معارض ولكن تحت مظلة السلطة.

وفى ظل خطاب إعلامى غالب تصريحا وتلميحا، ويعكس مفردات الفرز السياسى والمناطقى والتخوين الوطنى، تطالب أحزاب المعارضة المنضوية تحت أحزاب اللقاء المشترك، وفى مقدمتهم الحزب الاشتراكى بالمصالحة الوطنية العامة كمخرج من حالة الجمود السياسى التى تخيم على البلاد، ويأتيها الرد متمثلا فى اتهامات بخيانة الوطن والوحدة، ونصائح بالخروج من اللعبة السياسية، باعتبارهم مهزومين لا حق لهم فى الوجود السياسى أو حتى العضوى. فضلا عن التشكيك فى مشروعية مطالب المصالحة السياسية وتصويرها رغبة شريرة فى الالتفاف على الديمقراطية، وتعبيرا عن نزعة لاقتسام السلطة بعيدا عن إرادة الناخبين. ثم تطورت اللغة والمفاهيم إلى دعوة بالاصطفاف الوطنى، لكن دون أمل فى المشاركة فى الحكم، وكأن الدعوة تعنى أن تؤيد الأحزاب ما يقوم به الحزب الحاكم، وأن تمنحه صكا ناصع البياض، يملأه بالطريقة التى يريد.

حــرج ســيــاسـى وانــكــشــاف أمــنـى:

وقد ازداد الوضع السياسى حرجا، والأمنى انكشافا طوال عام ٢٠٠١، فعلى خلفية الحرب الأمريكية ضد الإرهاب، وفى ضوء الحقائق الخاصة بأن اليمن كان معبرا - على الأقل منذ منتصف الثمانينيات إبان حملة «الجهاد» الأمريكية الإسلامية ضد الاحتلال السوفيتى السابق لأفغانستان، وحتى منتصف التسعينيات حين عاد «الأفغان العرب» إلى بلادهم - لعناصر أصيلة فى تنظيم القاعدة، فضلا عن بيئة فكرية واجتماعية وقبلية حاضنة لهذه الأفكار والتنظيمات منذ فترة طويلة، وفى ضوء الضغوط الأمريكية والخيارات المحدودة أمام الحكومة اليمنية، لم يكن سوى سبيل التعاون الأمنى واسع المدى. وفى مثل هذه المسائل الأمنية التى تختلط فيها عمليات الاستخبارات السرية بالتعاون العضوى غير المعلن، يصبح كشف الحقائق أمرًا متعذرًا، مما يثير الشائعات والتفسيرات التى تخرج أحيانًا بعيدًا عن جوهر الأمر وصحته. لكن الأمر المؤكد للجميع، ومنذ زيارة الرئيس على عبد الله صالح للولايات المتحدة فى نوفمبر ٢٠٠١، أن هناك تعاونا يمنيا أمريكيا فى مواجهة القاعدة وفلولها الذين احتموا بقبائل اليمن وجبالها وطبيعتها الوعرة، إضافة إلى بعض الشخصيات النافذة فيها. وهى صيغة تعاون ذات طبيعة فريدة اختلطت فيها معونات أمريكية لتدريب طواقم يمنية مع بعض معدات حديثة فى مجال مكافحة الإرهاب وحماية الحدود، إضافة إلى وعود قاطعة من قبل القيادة اليمنية بالسيطرة على حركة شخصيات دينية يمنية نافذة، والتى تعتبر أمريكيا متورطة مباشرة فى الهجوم على مصالح أمريكية فى اليمن وفى المنطقة. ومن أبرزها الشيخ عبد المجيد الزندانى رئيس مجلس شورى الإصلاح، ومؤسس جامعة الإيمان التى ينظر إليها كحاضنة لأفكار التطرف الدينى.

بيد أن الأمر الذى لم يكن متصورا لدى قطاع كبير من اليمنيين، أن يصل التعاون الأمنى مع الجانب الأمريكى إلى حد الطلب الرسمى بقيام عملية اغتيال لعناصر متهمة بكونها قيادية فى تنظيم القاعدة، مثل ما حدث مع ابو على الحارثى وستة من مرافقيه فى الثانى من نوفمبر ٢٠٠١ فى صحراء مارب، بواسطة طائرة أمريكية بدون طيار، أطلقت صاروخا أودى بحياة من كانوا فى السيارة.

وبينما تحمل الرؤية الرسمية تفسيرا مفاده ان اغتيال هؤلاء أمر مشروع، باعتبارهم عناصر إرهابية خارجة عن الدولة، وأن التعاون مع الولايات المتحدة بالصورة التى تمت بها عملية الاغتيال مبرر بعدم قدرة الأجهزة الأمنية على الوصول إليهم، وأن الأمر لا يعدو أن يكون

الأمر المؤكد للجميع، ومنذ زيارة الرئيس على عبد الله صالح للولايات المتحدة فى نوفمبر ٢٠٠١، أن هناك تعاونا يمنيا أمريكيا فى مواجهة القاعدة وفلولها الذين احتموا بقبائل اليمن وجبالها وطبيعتها الوعرة، إضافة إلى بعض الشخصيات النافذة فيها. وهى صيغة تعاون ذات طبيعة فريدة



فى مهب الريح!

استعانة بالأجهزة المتطورة التى لدى الجانب الأمريكى، وأن قرار الاغتيال كان يمنيا بحتا حسب بيان رئيس الوزراء أمام مجلس النواب. أما الرؤية الشعبية والسياسية الأخرى فترى الواقعة من منظور التفريط فى السيادة الوطنية وتجاوز القانون، والتحول إلى سياسات لاتليق بالدول المتحضرة، فالأصل هو إخضاع الخارجين عن القانون إلى العدالة، وترك القضاء يحدد المسئولية الجنائية والعقاب المناسب.



هذه الواقعة الفريدة تعكس شقا معتبرا من أزمة النظام السياسى اليمنى نفسه، فالظاهر أن تيارات أصولية منظمة وذات علاقة وثيقة مع القاعدة أو مع جماعات إسلامية عربية معروف عنها انتهاجها للعنف، وتدخل تحت تعريف الإرهاب بصورة أو بأخرى، هى جزء من بنية النظام السياسى نفسه، ومعنى أى مواجهة حقيقية معها، هى مواجهة النظام لنفسه، أو بالأحرى مواجهة أركان من النظام أركانا أخرى، بما يعنيه الدخول فى مرحلة أخرى من الحروب الأهلية التى تعتبر سمة طبيعية من سمات التطور السياسى اليمنى عبر العصور، والتى تُحسم عادة عبر التوازنات القبلية والأموال والأسلحة.

تداخل هيكلى:

هذا التداخل الهيكلى الذى زادت حدته منذ حرب صيف ١٩٩٤ سمح بعمليات اختراق أعضاء من التنظيمات المتهمة بالتطرف والإرهاب إلى كبريات أجهزة ومؤسسات الدولة. ويُشار هنا إلى واقعتين مهمتين: الأولى أن أحد المطلوبين فى القائمة الأمريكية التى قدمت للجهات الأمنية اليمنية نهاية عام ١٩٩١ ويدعى فواز البرعى كان يعمل فراشا فى دار الرئاسة، حيث اختفى أو قد يكون أُخفى بعد تسلم الأجهزة اليمنية القائمة الأمريكية للمطلوبين. أما الواقعة الثانية، ففى أثناء محاكمة أبو الحسن المحضار قائد تنظيم جيش أبين عدن الإسلامى، الذى اختطف سياحا أجانب عام ١٩٩٨، ذكر أن هناك أعضاء فى التنظيم يشغلون مراتب عليا فى الأمن اليمنى والجيش. ووفقا لمعلومات الأمن اليمنى، فإن هذا التنظيم هو جزء أساسى أو على الأقل له صلات تنظيمية مع حركة الجهاد اليمنى التى يعد الشيخ طارق الفضلى أحد رموزها.

إن دور الشخصيات البارزة دينيا أو عسكريا أو قبليا فى تدعيم الرؤى الاستبعادية للآخر، لايغنى عن الإشارة إلى أن نمو هذا التيار سواء أخذ صورة دينية أو سياسية ذات شكل ظاهرى حديث فى اليمن له أسبابه وأشكاله المختلفة، نشير إلى أربعة عوامل مرتبطة معا:

* دور القبيلة التى تمثل البناء الاجتماعى المُحكم فى اليمن وما زالت تحافظ على تقاليدها ولا تتنازل عنها بسهولة وتعتبر أن ذلك عار عليها إلى يوم الدين، لاسيما فى توفير الحماية لمن يستجير بها.
* العوامل الطبيعية حيث التضاريس الجبلية الوعرة، التى تساعد أى مجموعة إذا ما تسللت إليها فى التحصن بها بعيدا عن أعين الدولة. والشواطىء البحرية الطويلة التى يستحيل السيطرة عليها كلية، وهى من مصادر التهريب للأفراد والسلع والأسلحة.
* الفوضى والفساد فى الجهاز الإدارى وغياب المحاسبة والقانون، فضلا عن اختراق التنظيمات الأصولية لمؤسسات الدولة وأجهزة الأمن والجيش.
* تغلغل كبار أعضاء وقيادات التيارات الأصولية فى البنية الاقتصادية اليمنية، وربما مثل بعضهم غطاء اقتصاديا لتمويل الأنشطة شبه العسكرية لتنظيماتهم الأصولية المختلفة.

قيود العمل السياسى:

«التفريط فى السيادة الوطنية» وفقا للرؤية السياسية غير الحكومية فى موضوع الإرهاب والعلاقة مع الولايات المتحدة لا يعد المصدر الوحيد لنقد الحكومة وإثارة التساؤلات أمام القيادة السياسية، فهناك قضايا داخلية أخرى فرضت نفسها أضافت قدرا من السخونة والحماسة على مجمل العمل السياسى. فبالرغم من اقتراب موعد الانتخابات النيابية فى أبريل المقبل، ومن ثم اقتراب نهاية البرلمان الحالى، فإذا بالمؤتمر الشعبى الحاكم، وعبر الأغلبية الساحقة التى يتمتع بها فى البرلمان يعمد إلى تعديل اللائحة الداخلية لمجلس النواب، وبحيث تصادر على حق النواب فى التقدم بأسئلة أو استجوابات للوزراء، حيث جعل التعديل الذى تم فى الأسبوع الثالث من ديسمبر ٢٠٠١ للمادتين ١٩ و٢٥ من اللائحة، هذا الحق النيابى الصرف مشروطا بموافقة رئيس المجلس وتسليم الأسئلة مسبقا للجنة مختصة قبل السماح بتوجيهها إلى الوزير المختص. والأمر هنا لم يعد يخص المجلس الحالى نظرا لاقتراب موعد حله، ولكنه يخص المجلس القادم، وكأن الحكومة تحصن نفسها مستقبلا من حق المساءلة البرلمانية، وتلغيه عمليا حتى قبل أن يُنتخب النواب من قبل المواطنين.

فبدلاً من توسيع دائرة الرقابة البرلمانية وتفعيل دورها فى بيئة سياسية مُقيدة بالأساس، فإذا بالتعديلات والقرارات تتخذ لمزيد من تقييد الحق الرقابى، وذلك لصالح السلطة التنفيذية التى تحتاج فى الأعراف الديمقراطية والبرلمانية إلى مزيد من الرقابة الشعبية على أدائها، وليس العكس.

وفى سياق المزيد من القيود على العمل السياسى تجرى محاولة تشريع قانون جديد للمظاهرات والمسيرات، يحد من هذه الظاهرة ويحمل المسئولين عنها أعباء قانونية وأمنية ليست من سلطتهم. وهى المحاولة التى أثارت أحزاب اللقاء المشترك، ورأت فيه حسب بيانها الصادر فى ١٧ ديسمبر ٢٠٠١، قانونا يصادر ما تبقى من الهامش الديمقراطى وقمع الحريات الأساسية ومنع المواطنين من حقهم فى التعبير والاحتجاج، وأنه لا يخدم سوى الفساد المستشرى والممارسات الخاطئة والمظالم القائمة، وأنه بمثابة إعلان لحالة الطوارئ، وهو لايزيد على كونه مشروع عقوبات تجرّم المواطنين فى حال التعبير عن رأيهم، فيما يؤكد التوجهات السيئة للحكومة.

وبينما ركزت الأنظار على مناهضة قانون التظاهر والمسيرات، فإذا بمشروع الميزانية المقدم للبرلمان يجد معارضة حتى من قبل النواب المنتمين للمؤتمر الشعبى، باعتبار أن الموازنة تفتقر إلى الحد الأدنى من التوازن، وتضفى على غالبية المواطنين مزيدا من الفقر وكثيرا من المعاناة.



على الجانب الآخر، تنشط أحزاب اللقاء المشترك للحفاظ على الحد الأدنى من شروط العمل الديمقراطى المتمثل فى ضبط إجراءات العملية الانتخابية المقبلة، حيث تمكنت هذه الأحزاب بالمشاركة مع المؤتمر الشعبى العام فى أكتوبر ٢٠٠٢، من التوصل إلى اتفاق تعديل قانون الانتخابات وتشكيل اللجنة العليا للانتخابات، وتنفيذ عملية القيد والتسجيل، رغم بعض التجاوزات. وتبلور الدافع الأكبر لمثل هذه المهمة فى تمهيد البيئة السياسية لانتخابات تتمتع بأكبر قدر ممكن من النزاهة، وتتيح مشاركة أوسع، وتساعد على انتخاب برلمان جديد يعكس التوازن السياسى والاجتماعى والمناطقى القائم فعلا فى البلاد. وهو تطور إيجابى بكل المقاييس، وإن كان بحاجة إلى برهان عملى، وبحاجة إلى اختبار حقيقى وقت الانتخابات المقبلة.

أسلحة شرقية وأموال غربية:

وفى المدى الزمنى نفسه كشفت واقعة صواريخ سكود الكورية الشمالية التى استوردتها اليمن وأوقفتها السفن الأسبانية والأمريكية فى الحادى عشر من ديسمبر ٢٠٠٢ فى بحر العرب قبل دخولها الموانئ اليمنية، ثم ما لبثت أن أفرجت عنها الولايات المتحدة بعد الحصول على تفسيرات وضمانات يمنية رسمية عليا بأن الصواريخ، وهى خمسة عشر صاروخا تحمل رؤوسا شديدة الانفجار، هى مجرد تنفيذ لعقود قديمة تعود إلى عامى ١٩٩٨ و١٩٩٩، وأنها جاءت

في ضوء دروس حرب الوحدة ضد الانفصال عام ١٩٩٤، وأنه لا نية لشراء صواريخ جديدة من كوريا الشمالية، وأن المسألة مرتبطة بتطوير القدرات الدفاعية اليمنية ليس إلا. فضلا عن أن اليمن جزء من الحملة الدولية ضد الإرهاب، وأنها تتعاون في ذلك مع الولايات المتحدة تعاونا كبيرا، وليس من حق واشنطن بالتالي أن تضع القيود على مساعي اليمن لتطوير قدراته الدفاعية، طالما أنها تخصه وحده، وأن تلك النوعية من الصفقات لن تحول إلى أي طرف آخر.

ونظرا لأن الصواريخ متوسطة المدى، ولا تصلح في حال مواجهة جماعات إرهابية منتشرة في ثنايا الجبال والأودية اليمنية، فقد طرح التساؤل نفسه: من هي جهة التهديد التي ترغب الحكومة اليمنية في ردعها؟ وخاصة أن العلاقات اليمنية مع الجيران المباشرين، كعُمان والسعودية، في حال طيبة، وما دامت هناك مساعٍ يمنية للانضمام إلى مجلس التعاون لدول الخليج العربية، فالمفترض أن الشعور بحالة التهديد ليس قائمًا وغير موجود في هذا الاتجاه. وربما اجتهد البعض في تحديد جهة التهديد التي تعمل الحكومة اليمنية على ردعها بأنها في الجانب الآخر على البحر الأحمر، أو بالتحديد إريتريا. بيد أن مثل هذه التفسيرات لم تجد صداها لدى المواطن اليمني العادي الذي نظر إلى المسألة من زاوية أن الحاجة للإنفاق على مشروعات التنمية وتحسين حياة الناس البائسة مقدمة على الإنفاق على أسلحة ليس هناك ما يشير إلى احتمال استخدامها، ولا ضرورة حالة لامتلاكها.

بيد أن التطورات في مجال التسليح كشفت جانبا مثيرا آخر، ففي أثناء زيارة الرئيس علي عبد الله صالح الى موسكو، والتي جاءت بعد أيام قلائل من إغلاق ملف صواريخ سكود، تم التفاهم على شراء اليمن مقاتلات روسية حديثة من طراز ميج ٢٩ و٢٠ نظاما صاروخيا من طراز «كورنيت إي» المضاد للدبابات، وطائرات مروحية حربية من طراز «كاموف». والمثير في الأمر كله أن الأسلحة الشرقية التي تتوافق مع العقيدة العسكرية اليمنية والتي قوامها أسلحة روسية بالأساس، سوف تتولى تمويلها الولايات المتحدة. وهي سابقة تتوافق مع طبيعة النظام الدولي القائم حاليا والذي بات يسمح بالمتناقضات وبأمور لم يكن يمكن تصورها من قبل، وذلك حسب ملاحظة الرئيس علي صالح إبان زيارته إلى لبنان التي تلت زيارته لموسكو، التي فسر فيها ما قيل عن تمويل بقيمة ٦٥ مليون دولار لشراء أسلحة روسية وطائرات بأنه من دواعي الحرب ضد الإرهاب التي جعلت أشياء كثيرة ممكنة. والمهم هنا أن هذه السابقة تكشف عن حجم التداخل في المصالح الاستراتيجية الكبرى بين اليمن والولايات المتحدة وروسيا في آن واحد.

قـضـــايا مـتـــرابطة ومـتـنـاقـضـات بالجـملة:

مثل هذه القضايا المترابطة مع بعضها ما بين سياسي أمني واقتصادي واجتماعي واستراتيجي، تشير إلى حالة تعبئة فكرية واستقطاب سياسي في كل الاتجاهات، وقدر من التضارب إن لم يكن الانفصال بين التبريرات الرسمية وبين القناعات الشعبية ورؤى وتحركات أحزاب المعارضة، وهي حالة تبدو غير مريحة سياسيا ومحملة بمتناقضات كثيرة، ولاسيما أن الشعور الجارف بالاستبعاد يسيطر على حركة أحزاب اللقاء المشترك، وهو شعور سلبي، في الوقت نفسه تجتهد دوائر عديدة من السلطة التنفيذية في تعميقه، مدفوعة باعتبار أن ذلك يؤدي إلى سوء الحسابات السياسية بين هذه الأحزاب وبعضها، أو داخل كل حزب بمفرده، ومن ثم يحدث انفلات لرابطة العقد التي تجمع بين هذه الأحزاب، وهو ما يتيح فوزا كبيرا للمؤتمر الشعبي في الانتخابات البرلمانية المقبلة، ومن ثم سيطرة مريحة على عمل مجلس النواب دون إزعاج من معارضة أيا كانت نوعيتها أو طبيعة فكرها وأيديولوجيتها.



في مثل هذه البيئة السياسية محدودة الآفاق ومقيدة الحركة، مشدودة الأنظار إلى مزيج من لقمة العيش والكرامة وحريات سياسية ومشاركة مشروعة، هناك من يجتهد في فتح قنوات للتغيير السلمي، عبر تحسين عمل الآليات التعددية الموجودة وتوسيع آفاقها، وهناك أيضا من يؤمن بأن التطوير السياسي والاجتماعي والنهضوي الحقيقي في ربوع اليمن، لا يستطيع أي حزب بمفرده أيا كانت إمكاناته أن يحققه، فالقضية كبيرة وتحتاج إلى جهد كل أبناء اليمن أيا كانت رؤاهم السياسية والفكرية. ويمكن القول أن تجربة أحزاب اللقاء المشترك، والتي تطورت عبر تجربة أحزاب مجلس التنسيق الأعلى خلال السنوات الخمس الماضية، تمثل هذا الجهد السياسي السلمي الهادف لبلورة صيغة ائتلاف وتنسيق حزبية عريضة تتفق على برامج وخطط محددة من أجل دعم الديمقراطية وضمان نزاهة الانتخابات القادمة وإفساح المجال أمام تشكيل مجلس نواب يعكس الحالة التعددية القائمة في المجتمع وفي الشارع السياسي معا، جنبا إلى جنب إفساح المجال أمام عملية احتكاك سياسي طبيعي بين الأحزاب اليمنية بعيدا عن أساليب المكايدة السياسية، وتهميش الأدوار وتشتيت عمل الأحزاب من خلال تأجيج الصراعات الداخلية بين قيادييها وكوادرها. وهي الأساليب التي برعت فيها طوال العقد الماضي أجهزة تنفيذية محسوبة على المؤتمر الشعبي، وعلى نحو جعل العمل الحزبي مزيجا من المغامرة والمشقة وهدرا للإمكانات البشرية والمادية، ودون عائد حقيقي على التطور السياسي في البلاد.

هذه المفردات السياسية والأمنية، والتناقض بين الخطاب الرسمي بمفرداته المتفائلة عن الديمقراطية والتعددية السياسية، وفي الآن نفسه جملة من الممارسات البعيدة عن الانفتاح على الآخر السياسي، الممزوجة بحملات إعلامية تقوم على التشكيك الدائم في صدق القوى السياسية الأخرى، وتدينها دومًا وتشكك في وطنيتها على خلفية مطالبها بتوسيع هامش الحريات السياسية وإفساح المجال لمشاركة حقيقية غير مقيدة، كل ذلك يشكل بعضا من خلفية حادثتي الاغتيال اللتين نفذهما قاتلان محسوبان على عمليات التعبئة الفكرية والدينية والسياسية الخاطئة، وذلك بغض النظر عن كونهما ذوي صلة بتنظيم القاعدة أو خلية إرهابية، أو جهة أمنية ما، أو حزبا سياسيا مشروعا ذا طابع أيديولوجي وديني معين.

دلالات الاغـــتـــيــــال:

ولعل الدور الذي كان يقوم به جار الله عمر في تجسيد الترابط الحزبي في مواجهة سياسات الانغلاق والتقييد السياسي ومسعى تأكيد الطابع السلمي على العملية السياسية برمتها، تفسر كثيرا بعض بواعث الاغتيال، إضافة إلى بواعث أخرى تكمن في الانغلاق الذهني والتطرف الديني الذي يميز قطاعًا لا بأس به من الأجيال اليمنية الجديدة، والذي تغذيه تفسيرات وفتاوى دينية وسياسية معا، تقوم أساسا على تكفير المخالف وطنيًا ودينيًا، ونفي الآخر، ومشروعية التخلص منه بقرار فردي محض، والنظر إلى مثل هذا العمل باعتباره تقربا إلى الله تعالى، وليس عملاً شائنًا يرفضه الشرع ولا يقره منطق، ولا يقبل به وجدان فطري سليم.

إن المتأمل لتاريخ جار الله عمر السياسي وأفكاره السياسية، ودوره لاسيما في السنوات الخمس الماضية في تشكيل ائتلافات سياسية عريضة بين الأحزاب اليمنية وبعضها، يدرك تماما أن عمل الاغتيال لم يكن مقصودا به كفرد وحسب، بل كتيار سياسي أخذ في التجذر والترسخ - وإن كان ببطء - في الحياة السياسية اليمنية، يدعو إلى الشفافية السياسية وتشكيل الائتلافات الحزبية والسياسية العريضة، وعدم الانسحاب من العمل السياسي مهما كانت القيود والتبعات، وتحمل المخاطر في سبيل الهدف الأسمى المتمثل في إقامة حالة سياسية ديمقراطية حقيقية، وباعتبارها عاصمًا من التورط في أساليب القمع، وتخليص الحسابات السياسية بالعنف والقوة الغاشمة وفق الطريقة التي تميزت بها اليمن بشطريها قبل الوحدة وبعدها، ووصلت إلى آفاق دموية كبرى كما في أحداث يناير ١٩٨٦ في الجنوب سابقا، وفي حرب صيف ١٩٩٤ بعد الوحدة. وهو ما لا يأتي إلا من خلال ربط الناس بالسياسة وربط الأحزاب بهموم الناس وقضاياهم الحقيقية التي يعيشونها كل يوم وكل لحظة، والدفاع عنهم وعن مصالحهم والترويج لأمانيهم وتطلعاتهم، والسعي الدءوب إلى تجسيد تلك الطموحات فعلا وقولا.



هذه المعاني والدلالات الرمزية والمادية، والتي تربط بين الخاص والعام في عملية اغتيال جار الله عمر تتضح تماما في الأسلوب الذي تم به الاغتيال من حيث المكان والمناسبة. فبينما سعى أصحاب المناسبة، أي حزب التجمع اليمني للإصلاح، لجعل مؤتمرهم العام الثالث المنعقد في ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٢، تعبيرا عن نقلة كيفية في علاقة الحزب بمجمل الأحزاب السياسية اليمنية الأخرى، عبر دعوة قياداتهم ورموزهم للمشاركة في أعمال المؤتمر، وتجسيدا لسياسة الحزب المتصاعدة في التلاقي مع الأحزاب الأخرى لمواجهة عثرات العمل الديمقراطي في البلاد تحت مظلة «أحزاب اللقاء المشترك» (التي أثبتت دورها في تنقية الجداول الانتخابية قبل عدة أشهر)، جاء الاغتيال في باحة المؤتمر وأمام كل الحاضرين من قيادات سياسية ومندوبين وأعضاء الحزب، ليجسد رسالة سياسية مختلفة تماما. فالمطلوب شق اللحمة الحزبية المتصاعدة، وإثارة الشكوك فيما بين الأحزاب اليمنية، ودفعها لمناطحة بعضها بعضا، وأن تبقى مُشرذمة في عملها وفي رؤيتها، وبما يتيح لقوى أخرى أكثر تنظيما وإمكانات مادية أن تسود وتتحكم في المصير الوطني، فضلا عن إلصاق تهمة الإرهاب بالتجمع اليمني للإصلاح، وإفشال مؤتمره الثالث ودفعه إلى بؤرة الدفاع عن الذات، والتخلي عن المشاركة في تجمع أحزاب اللقاء المشترك، وإثارة الشقاق بين التجمع من جهة والحزب الاشتراكي من جهة أخرى.

وهي الرسالة التي فهمتها أحزاب اللقاء المشترك على نحو سريع، أدركت أن عملها في صورة ائتلاف عريض وفق برنامج يهدف إلى

نظرا لأن الصواريخ متوسطة المدى، ولا تصلح في حال مواجهة جماعات إرهابية منتشرة في ثنايا الجبال والأودية اليمنية، فقد طرح التساؤل نفسه: من هي جهة التهديد التي ترغب الحكومة اليمنية في ردعها؟ وخاصة أن العلاقات اليمنية مع الجيران المباشرين، كعُمان والسعودية، في حال طيبة



تطوير العمل الديمقراطي أولاً وأخيرًا، بات يشكل مصدر قلق حقيقي لقوى سياسية متنفذة في البلاد، كما أدركت أن انغماسها في حالة شك متبادل سيعني تحقيق هدف القاتل والجهة التي وراءه أيّاً كانت. ومن ثم فإن الرد الوحيد هو استكمال مسيرة أحزاب اللقاء المشترك والعض عليها بالنواجز. وهو ما أكدته هذه الأحزاب في أكثر من تحرك رمزي وموضوعي على السواء فيما بعد واقعة الاغتيال. فيما أدرك قادة التجمع اليمني للإصلاح أن الاغتيال بالطريقة التي تم بها كان هدفه «فتنة عمياء لا تبقي ولا تذر، لا لشيء إلا لأن الإصلاح قد اتخذ قراره من وقت مبكر، بالنضال السلمي الدءوب والمستمر لترسيخ قيم الخير وتجذيرها في واقع المجتمع خلقًا وسلوكًا وممارسة في واقع الحياة»، وذلك حسب قول محمد عبد الله اليدومي أمين عام التجمع. (جريدة الصحوة، ٩ / ١/ ٢٠٠٣)

كلمات سياسية أخيرة:

هذا الجانب العام تتضح معانيه ومضامينه أكثر في ضوء الرسالة السياسية والفكرية التي كان يعبر عنها جار الله عمر من موقعه الحزبي تارة، واستنادا إلى رؤيته الثقافية العريضة لأحوال اليمن تارة أخرى، ومن خلال استيعابه لطبيعة الأزمة العضوية التي تستحكم باليمن سواء قبل الوحدة أو بعدها، ومدى تأثرها بعوامل ذاتية وأخرى إقليمية، والتي يتطلب مواجهتها بالعمل الدءوب والمخلص، ومشاركة كل قطاعات الشعب، ولملمة جهود الخيرين من أبناء الوطن. فواقعة الاغتيال من جانب آخر، استهدفت التأثير على حالة التماسك الداخلي التي تميز بها الحزب الاشتراكي في أعوامه الأخيرة رغم الهجمات الشرسة التي تعرض لها. وهي الحالة التي لعب فيها جار الله عمر دورا بارزا من خلال موقعه الحزبي وتحركاته المحلية والعربية والدولية في الفترة التالية لحرب صيف ١٩٩٤، ومن خلال أفكاره التي استطاع أن يجسدها بالمشاركة مع رموز اشتراكية أخرى، في برنامج الحزب ووثائقه المختلفة، والتي قامت على التمسك بالوحدة، ومناهضة الفكر الشمولي والتمسك بالتعددية، وإعلاء مفاهيم النظام والقانون والعدالة والمواطنة المتساوية بين كل أبناء اليمن.

إن الخطاب الأخير الذي ألقاه القائد الحزبي الاشتراكي أمام الحضور في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الثالث لتجمع الإصلاح يعطي لمحة عن آخر الهموم التي كان يحملها الرجل. وهي جميعها تدور حول قيمة الديمقراطية سواء للعمل الحزبي الداخلي أو بالنسبة لبناء الأوطان وتجنيبها آثار التشظي والتفتت وويلات العنف والحروب الأهلية. «فالديمقراطية ليست شعارا بل منظومة متكاملة لا تتجزأ أساسها المواطنة المتساوية واحترام العقد الاجتماعي بين الحكام والمحكومين وصيانة الحريات والحقوق الإنسانية دونما تمييز. وكما أن جمهور المواطنين يحتاج على الدوام إلى تأمين الحد الأدنى من المساواة في الفرص، وقدرا من العدالة والخدمات الاجتماعية المتاحة للجميع»، كما أن اليمن بحاجة إلى مجلس نواب يمثل اليمن بكل فئاته ومصالحه المختلفة.

وإن ثمة حاجة ماسة إلى تسريع الخطى في طريق التحديث عبر سياسة شاملة وجملة إجراءات وقوانين ثورية بما في ذلك التصدي لثقافة العنف ومنع الثارات والإسراع في إصدار قانون ينظم حيازة وحمل الأسلحة ومنع المتاجرة بها، وذلك بدلا من فرض قانون يمنع المظاهرات ويناهض الحريات».

(جريدة الأيام ١/٢٩/٣/٢٠٠٣).

أفكار أصيلة:

مثل هذه الأفكار الجامعة لم تكن وليدة اللحظة، أو مجرد رطانة سياسية، ولكنها تعبير عن قناعات كبرى ذات جذور، تشكلت من خلال تجربة حزبية وسياسية عريضة، ومرت على تجارب مختلفة لم تخلُ من دماء ومواجهات وقتال وتسويات وتوازنات وتضحيات جسيمة. وهي من جانب آخر تلخص القناعات الأساسية التي توصل إليها الحزب الاشتراكي اليمني، كدليل عملي لإخراج البلاد من معضلات التنمية التي تحيط بها من كل مكان. ومنذ اللحظة الأولى التي أتيح لي اللقاء معه قبل عقد كامل في مبنى اللجنة المركزية للحزب وسط صنعاء، أثناء إجراء بحث ميداني عن الوحدة اليمنية، نشره لاحقا مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت مطلع ١٩٩٤، ولم يكن قد مر على إعلان دولة الوحدة سوى شهور معدودة، سادها مناخ من التفاؤل السياسي الذي استند على تقاسم السلطة بين المؤتمر الشعبي كممثل للشمال والحزب الاشتراكي كممثل للجنوب، كانت مفردات دولة النظام والقانون والمواطنة المتساوية والتمسك بآليات الحوار السلمي تمثل المفاتيح الأساسية لما يفكر فيه ويدعو إليه بين أجهزة الحزب ومؤسساته المختلفة. وفي هذا اللقاء الذي استمر أكثر من سبع ساعات متواصلة في مكتب متواضع مليء بالكتب المفتوحة على صفحات بعينها، والدراسات التي اختلطت فيها ملاحظات وهوامش عدة بأصلها ونصها، فضلا عن أوراق حزبية ومجلات ثقافية متنوعة، دار الحديث في معظمه حول الطريقة التي تمت بها اتفاقات الوحدة وتقاسم السلطة والربط بين الوحدة وإطلاق حالة تعددية سياسية، أو ما سمي آنذاك بالربط العضوي بين الوحدة والديمقراطية، وكانت هناك فكرة مسيطرة على تحليل جار الله عمر لكل هذه التطورات، وهي فكرة ربطت بين حالة الأزمة المستحكمة التي وصل إليها الشطران ولم يكن لها من مخرج سوى الوحدة القائمة على توازن دقيق يعكس حالة اليمن بكل تنويعاته وخبراته. وهو توازن لا يتحقق إلا من خلال إطلاق الحريات وربطها بمشروع تحديثي حقيقي وشامل، يخرج اليمن من دائرة التخلف التي تعصف به، سواء في آليات عمل السلطة أو طريقة التفكير الجماعية أو البنى التعليمية والأداء الإعلامي، وأيضا إعادة النظر جذريا في أداء الأحزاب اليمنية، سواء التي خبرت السلطة، أو تلك التي عملت بصورة سرية لمدة طويلة، وأعلنت عن نفسها بعد قيام الوحدة.

لم يقتصر الحوار وقتها على شئون اليمن وهمومه، وتطرق إلى موضوعات شتى، كانت تجد صداها في تطورات عربية ودولية شتى من جانب وفي الكتب والأوراق التي كانت متناثرة حوله من جانب آخر. وفي هذا الحوار، الذي كان الأول في سلسلة لقاءات امتدت على مدى عشر سنوات في صنعاء وعدن والقاهرة ودمشق وبيروت، تجسدت قدرة الرجل على ربط الأحداث وبعضها، والنظر إليها كسلسلة متواصلة، وليست كمجرد وقائع متفرقة ومنفصلة عن بعضها البعض. ومما تحتويه ملاحظات أولية عن الحوار الأول الذي جرى في صنعاء ١٩٩١، تحليله لأزمة التيارات الدينية الإسلامية، والذي يبدو صالحا حتى اللحظة، وقام على أن أصل الأزمة التي تواجهها المجتمعات الإسلامية بأحزابها المشروعة وغير المشروعة يعود إلى التحول من نظرية ومناهج القدوة السلمية التي جسدتها تحركات الأوائل من المسلمين، تجارا وعلماء وطلاب علم وفقهاء، والذين تحركوا صوب كل المناطق الجغرافية، إلى نظرية الفتح القسري للمجتمعات، بما فيها المجتمعات التي يعيشون فيها. وبينما كانت آليات القدوة السلمية تفتح المجتمعات أمام مد إسلامي سلس وشفاف دون هزات أو توترات أو مواجهات حضارية، فإن نتيجة الفتح القسري والعنيف لا تعدو أن تكون إلا فتحا لأبواب المواجهات السياسية والفكرية وحالة فوضى، نتيجتها دائما خسارة المجتمعات الإسلامية ودخولها في معارك جانبية، أفقدتها القدرة على تطوير ذاتها، كما أفقدتها القدرة على التواصل الطبيعي مع المجتمعات الأخرى هنا وهناك.

كان جار الله عمر أحد أوائل المنادين بالتعددية السياسية في ظل تجربة دولة اليمن الديمقراطي بقيادة الحزب الاشتراكي، حيث نظر إليها، وعن قناعة أصيلة ونتيجة تحليل عميق للوضع اليمني والدولي معا، كمخرج سلمي من حالة الاقتتال الداخلي التي ميزت تجربة الحزب الاشتراكي في الحكم، والتي وصلت إلى ذروتها المأسوية في يناير ١٩٨٦، حيث راح ضحية الانقسام ثم الاقتتال بين أعضاء اللجنة المركزية حوالي أربعة آلاف قتيل. وتمثلت أولى أفكاره حول التعددية في طرح فكرة التعددية الثورية داخل الحزب وأجهزته، ولكنها لم تجد الصدى المناسب نظرا لسطوة الأفكار الثورية والاشتراكية الكلاسيكية. ثم تطورت الفكرة لاحقا وفي الفترة السابقة مباشرة على الدخول في عملية الوحدة، إلى إطلاق تعددية حزبية تقتصر على ما وصفه آنذاك بالأحزاب الثورية، القريبة من الفكر الاشتراكي أو غير المتصادمة معه، وذلك دون الأحزاب التي كانت في حالة صراع تاريخي مع الحزب الاشتراكي. وفي تلك الفترة، وحسب اعترافه الذاتي، كانت أحداث التحول الدموي التي لحقت بتجارب النظم الشيوعية في بلدان أوروبا الشرقية، ماثلة في الأذهان، وكان من الضروري البحث عن مخرج سلمي، يعترف بقيمة التنوع الاجتماعي والتعدد السياسي.

وفي مقال مبكر نشر في خضم الجدل حول ضرورة اتخاذ خطوات وحدوية ملموسة، ربط جار الله عمر بين ضرورة ربط أي تصور للوحدة بين مسألتين «الأولى شكل الوحدة كإطار لجمع شمل اليمنيين وتحقيق مطلبهم الوطني في وجود الكيان الموحد، والثانية أن تكون الوحدة وسيلة للتقدم الاقتصادي والاجتماعي ولتحقيق الديمقراطية وتعميمها في أوساط السكان.. فبإنجاز هاتين المسألتين سوف تأخذ الوحدة أفقها التاريخي التقدمي وستشكل أساسا حقيقيا للنهوض الحضاري» (في جدلية الوحدة والديمقراطية، مجلة قضايا العصر، العدد ١٢، ديسمبر ١٩٨٩، ص ١٢).

واقعتان بارزتان:

هذا الإدراك المبكر بقيمة الديمقراطية كآلية للتحديث والنهوض، كانت تدفع أحيانا إلى طرح مسارات عمل مختلفة عن التوجه السائد، وثمة واقعتان تبرزان هذا المعنى. الأولى أثناء الأزمة السياسية التي بدأت نهاية عام ١٩٩٣ وانتهت بحرب صيف ١٩٩٤، والمعروفة بأزمة الاعتكاف الثالث لنائب رئيس مجلس الرئاسة علي سالم البيض، والتي مرت بعدة مراحل، من أبرزها التوصل عبر لجنة حوار القوى الوطنية إلى وثيقة العهد والاتفاق في ١٨ يناير ٩٤ في عدن. ورغم أن جار الله عمر بصفته عضوا في المكتب السياسي للحزب، كان دائما ما يناط إليه المشاركة في أية حوارات بين الحزب الاشتراكي والقوى الحزبية

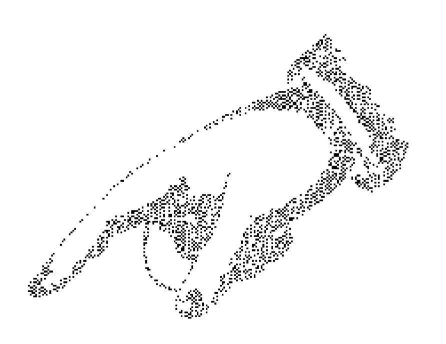


كان جار الله عمر أحد أوائل المنادين بالتعددية السياسية في ظل تجربة دولة اليمن الديمقراطي بقيادة الحزب الاشتراكي، حيث نظر إليها، وعن قناعة أصيلة كمخرج سلمي من حالة الاقتتال الداخلي التي ميزت تجربة الحزب الاشتراكي في الحكم، والتي وصلت إلى ذروتها المأسوية في يناير ١٩٨٦





كتاب الزاوية



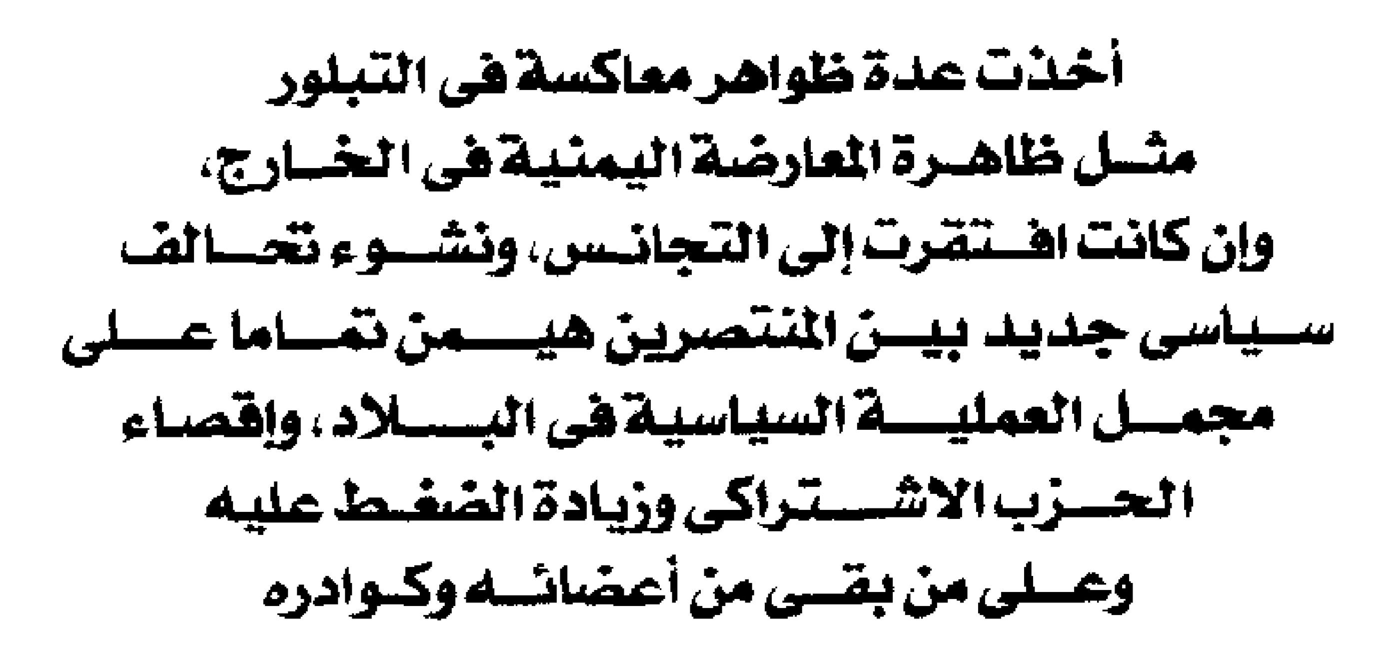
السيف والنار فى السودان
تأليف: سلاطين باشا

يعد هذا الكتاب إحدى أهم الوثائق التاريخية التى تتحدث عن فترة مهمة للغاية فى تاريخ مصر والسودان وهى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والذى شهد حوادث شديدة الأهمية والتأثير وفى مقدمتها الثورة المهدية فى السودان.

ومؤلف الكتاب سلاطين باشا وهو ضابط نمساوى ولد عام ١٨٥٧ فى فيينا وجاء إلى مصر عام ١٨٧٨ ودخل فى خدمة الحكومة المصرية، وقد عيَّنه جوردون باشا أحد القادة الذين أداروا السودان بالإنابة عن مصر حاكمًا لدارفور عام ١٨٨٤ لكنه لم يمض عليه سوى وقت قصير فى منصبه حتى اعتقلته جيوش المهدى فادعى اعتناق الإسلام والإيمان بالمهدية إلى أن فر عام ١٨٨٥ إلى الجيش المصرى واشترك معه فى استرداد دنقلة وأم درمان.

وبقى سلاطين باشا بعد ذلك موظفًا فى حكومة السودان فى الفترة من ١٩٠٠ حتى ١٩١٤ ثم ترك الخدمة مع بدء الحرب العالمية الأولى وعاد إلى النمسا ليعمل فى خدمة الصليب الأحمر، ولما عقدت الهدنة عام ١٩١٨ انتُدِبَ عضواً فى بعثة الصلح فى باريس.

وقد ألَّف سلاطين باشا كتابه عام ١٨٩٥ ثم نقله السير ونجت باشا الذى كان حاكمًا للسودان ثم معتمداً لبريطانيا فى مصر، إلى الإنجليزية، وقامت جريدة البلاغ بتعريبه وتولت مكتبة الحرية بأم درمان طبعه عام ١٩٣٠ . . ثم أصدرت سلسلة «تاريخ المصريين» التى تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية منه عام ١٩٩٠ .


أخذت عدة ظواهر معاكسة فى التبلور مثل ظاهرة المعارضة اليمنية فى الخارج، وإن كانت افتقرت إلى التجانس، ونشوء تحالف سياسى جديد بين المنتصرين هيمن تماما على مجمل العملية السياسية فى البلاد، وإقصاء الحزب الاشتراكى وزيادة الضغط عليه وعلى من بقى من أعضائه وكوادره



الأخرى، إلا أنه لم يشارك فى هذا الحوار الذى جرت جولاته الختامية والأساسية فى عدن، حيث ظل مقيمًا فى صنعاء، ومحافظًا على عادته فى الذهاب إلى مكتبه بمقر الحزب الكائن فى وسط العاصمة. وكان تساؤلى له فى ذلك الوقت - أثناء حوار جمعنا فى منزله بصنعاء - لماذا لم تشارك فى الحوار وبقيت هنا فى العاصمة؟ وجاءت إجابته: «حتى لا تقطع شعرة معاوية مع الإخوة فى صنعاء».

وفى ظل مناخ الأزمة السياسية والتحرشات الأمنية التى لحقت بالكثير من كوادر الحزب الاشتراكى، تم استدعاء الكثيرين منهم إلى عدن، أخليت مواقعهم التنفيذية لمن كانوا فى الوزارات المختلفة، ولم تبق الاعناصر محدودة جدا. وكان مثل هذا الوضع يثير اتهامات بالتحضير لتحرك انفصالى. وبينما كان التيار السائد بين كوادر الحزب هو العودة إلى عدن للاحتماء بها من الضغط والتحرش الأمنى الغالب فى صنعاء، تمسك جار الله عمر بالبقاء فى صنعاء درءا عن الحزب اتهامات الانفصال وتوتير الحالة السياسية وتعميق الأزمة، وتوفيرا لقناة اتصال لغرض التهدئة والاحتواء.



الواقعة الثانية ترتبط أيضا بالطريقة التى أدار بها الحزب، وتحديدا أمينه العام، الأزمة السابقة مباشرة على الحرب ١٩٩٤، فبعد التوصل إلى وثيقة العهد والاتفاق، والتوقيع عليها فى ٢٠ فبراير ١٩٩٤ فى العاصمة الأردنية عمان، برز تياران داخل الحزب الاشتراكى، الأول يصر على التشدد واشتراط تطبيق البنود الأمنية الواردة فى الوثيقة بكل ما فيها من ضمانات، وذلك قبل أن يعود البيض إلى العاصمة صنعاء ومعه كوادر الحزب إلى مواقعهم المختلفة. أما التيار الثانى وكان الأقل عددًا وتأثيرًا، وكان يرى أن تطبيق الوثيقة، التى هى مشروع تحديثى شامل، يحتاج إلى وقت طويل وخطط عمل وموارد، وأن المهم أن يكون هناك بعض المرونة فى مواقف الحزب حتى لا تتطور الأمور إلى ما لا تحمد عقباه، خاصة فى ضوء الاستعدادات العسكرية الكثيفة من قبل الطرف الآخر. واستنادا إلى مبررات واقعية وحرصا على حد أدنى من التواصل بين الطرفين المؤسسين لدولة الوحدة، قدم جار الله عمر رؤية مكتوبة فى ٣٠ مارس ٩٤، أى قبل حوالى شهر واحد من اندلاع القتال، وقدمها فى صورة رسالة إلى أعضاء المكتب السياسى، والأمين العام للحزب ونائبه بعنوان «أبعاد الأزمة الراهنة ومصير الوطن». وفيها لاحظ الرجل أن الأسلوب الهجومى الذى عمل به الحزب إبان أزمة الاعتكاف، وتكلل بالنجاح فى التفاف القوى السياسية وراء مطالب الحزب المعروفة بالمطالب الـ ١٨، ثم تضمينها فى وثيقة العهد والاتفاق، لم يعد مناسبًا بعد التوقيع عليها. فحركة الطرف الآخر تحولت من الدفاع إلى الهجوم، ومثل تبنى السلطة فى صنعاء للوثيقة مبررًا لأن يبدى الحزب بعضًا من المرونة، وحتى لا يفقد تعاطف وتأييد التيارات السياسية اليمنية التى وقفت معه سابقا. وطرح جار الله عمر أسلوبًا تدريجيًا يتمثل فى عودة تدريجية لبعض كوادر الحزب إلى صنعاء، وأن يترافق ذلك مع بعض الخطوات الأمنية، على أن يتم التئام مؤسسات الدولة وعودة البيض بصورة متدرجة أيضا.

المهمة الصعبة..
البقاء حيناً تحت الضغوط:

كانت حرب ١٩٩٤ تعبيرا عن استمرار القاعدة اليمنية المعروفة المتمثلة فى الحسم عبر السلاح والمال، وتراجعا عن الالتزام بالآليات السياسية، وبعدها تشكلت عدة ظواهر سلبية طالت اليمن دون استثناء، مع حجم أكبر من المعاناة لأبناء المناطق الجنوبية. وتمثلت أكبر النتائج فى استمرار الوحدة كحقيقة عضوية لا قابلية للتراجع عنها، ويقابلها تضعضع المشروع الحضارى التحديثى الذى مثلته عملية بناء الوحدة بالطريقة السلمية التى قامت بها فعلا فى مايو ١٩٩٠، وإلى جانب هذه النتيجة الأساسية أخذت عدة ظواهر معاكسة فى التبلور مثل ظاهرة المعارضة اليمنية فى الخارج، وإن كانت افتقرت إلى التجانس، ونشوء تحالف سياسى جديد بين المنتصرين هيمن تماما على مجمل العملية السياسية فى البلاد، وإقصاء الحزب الاشتراكى وزيادة الضغط عليه وعلى من بقى من أعضائه وكوادره، رغم أنه لم يكن لهم أى دور فى مسألة «إعلان الانفصال» بالطريقة التى جرى بها بعيدا عن أجهزة الحزب ومكتبه السياسى، وتفاقم الأزمة الاقتصادية، ونشوء حالة من الانكسار النفسى بين أبناء الجنوب وميل عام للعزوف عن المشاركة فى الحياة السياسية.

كانت مهمة صعبة لمن بقى من قيادات الحزب الاشتراكى، وكان عمادها الأساسى الحفاظ على الحزب كمؤسسة سياسية، والدخول فى عملية مراجعة ونقد ذاتى لما حدث، واستيعاب حالة الضغط السياسى والمعنوى التى أجادت فيها القوى المنتصرة فى الحرب على نحو فريد، وإعادة بناء أجهزة الحزب بما يلائم الأوضاع الجديدة، لكن فى



الوقت نفسه التمسك بالأفكار التحديثية وبالتعددية السياسية، والخروج من حالة الانكسار السياسي، والتطلع إلى المستقبل عبر التمسك بوثيقة العهد والاتفاق، وإعادة تصحيح المسار السياسي لدولة الوحدة ورفع المظالم عن أبناء الجنوب التي لحقت بهم عقب عمليات الاجتياح والنهب التي تعرضوا لها أثناء القتال وبعده.

لم تكن المهمة سهلة خاصة في تزايد الضغوط الداعية إلى إعادة تشكيل قيادة الحزب وإقصاء من سموا بالانفصاليين، وربط إعادة مقار الحزب والإفراج عن أمواله ووثائقه وممتلكاته بإعادة تشكيل الأجهزة القيادية للحزب. وكم تحملت القيادات والكوادر التي استمرت في صنعاء الكثير من الضغوط المعنوية والمادية على السواء. لكن التيار الغالب كان مع مواجهة هذه الضغوط وعدم الانصياع إليها، خاصة مطلب إدانة الانفصال، كشرط مسبق لتطبيع العلاقة مع الحزب، وتقليل الهجوم الإعلامي عليه. وفي هذه المرحلة كان كثيرون من قيادات الحزب في الخارج، ومنهم من عارض قرار الانفصال صراحة ومنهم من لم يشارك فيه أصلا، ومنهم من نفى نفسه طواعية إلى الخارج. وكان جار الله عمر واحدا من الذين نفوا أنفسهم طواعية إلى خارج اليمن، حيث جاء إلى القاهرة لمدة اقتربت من العام، في الوقت نفسه استمروا في التمسك بعلاقتهم ودورهم داخل الحزب.

في هذه الفترة التالية للحرب والمفعمة بالضغوط، جرت حوارات مكثفة بين قيادات الداخل وقيادات الخارج، بهدف الإبقاء على الحزب واستمراريته. وكانت الحصيلة طرح شعارين مترابطين، الأول إدانة الحرب وإدانة الانفصال معا، والثاني نحو مصالحة وطنية عامة وشاملة.

إدانة مـــــزدوجـــــة

ومن وجهة نظر جار الله عمر فإن هذه الإدانة المزدوجة لها ما يبررها، فالحرب على السلطة التي ميزت تاريخ اليمن الحديث والقديم على السواء، والتي تكررت كثيرا «تسببت في تدمير العمران على قلته، أفضت إلى إفشال كل محاولات بناء دولة مركزية فاعلة أشاعت الفوضى وعدم الاستقرار الأمني، وأدت - وهذا هو الأخطر - إلى خلق قابلية شعبية للاستبداد، ووضعت مصير البلاد برمتها رهنًا للقوة دون أن يكون للأغلبية راى أو مشاركة من أى نوع. كما أن الحرب كرست عادات سلبية من قبيل احتراف مهنة الحرب وتمجيد القوة وأسبقيتها على العقل، وخلقت مجتمعًا قابلاً للتحريض على الكراهية، وفي كل الحروب الأهلية اليمنية أديرت فى ظل هالة من الشعارات الوطنية والدينية المقدسة بينما كانت فى حقيقتها ترمى إلى تحقيق أهداف دنيوية محضة».

«وعلى الرغم من أن حرب صيف ١٩٩٤ أنهت ما كان يعرف بازدواجية السلطة، إلا أنها من جانب آخر لم تنه معاناة المواطنين، وليس ثمة شيء يستطيع إعادة قطار اليمن للسير على قضبان المستقبل سوى الحوار والمصالحة التي تنهى حالة الانقسام السياسى والاجتماعي وتؤهل اليمن للقرن الجديد». بيد أن المصالحة ليست مجرد جلسة حوار أو بيانات تعتمد لغة الاسترضاء الشكلي، إنها خطة عمل، تتضمن «الاتفاق على برنامج شامل وتفصيلي للإصلاح السياسي، والفصل بين الدولة بوصفها كيانًا وطنيًا وبين المؤتمر الشعبى العام باعتباره حزبًا سياسيًا كسائر الأحزاب. وإبعاد القوات المسلحة عن الانشغال بالشئون السياسية والحزبية، وإصدار القوانين لإقامة منظمات مجتمع مدني بطريقة حرة ومسئولة. وإجراء انتخابات محلية حرة ونزيهة». (المصالحة في سبيل الديمقراطية والبناء، ص ص ١٥ - ٢٢)

ورغم مرور خمس سنوات على دعوة المصالحة هذه، فإن الواقع اليمنى الراهن يبدو بحاجة ماسة إلى كل عنصر فيها، ويكفى أن أحد أبرز دعاة المصالحة الوطنية الشاملة والمشروع التحديثى الشامل قد دفع حياته ثمنًا لها، أم سيظل اليمن عاجزا عن إدراك أنه بات وطنًا يأكل أبناءه حينا، ويدفع بهم إلى الخارج والمجهول حينا آخر. ■

أهـم المراجـع

- د. حسن أبو طالب، الوحدة اليمنية.. دراسات فى الانتقال من التشطير إلى الوحدة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٤.

- مجموعة من الباحثين، وحدة اليمن.. الأزمة والحل، أوراق مؤتمر لندن نوفمبر ١٩٩٥، معهد الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن.

- بشير البكر، حرب اليمن.. القبيلة تنتصر على الوطن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (د. ت).

- محمد ردمان الزرقة، اليمن.. مؤامرة الانفصال وانتصار الوحدة، ط ٢، صنعاء، ١٩٩٥.

- على هيثم الغريب، اليمن.. أسباب الأزمة وإعلان الحرب والانفصال، عدن (د. ت)

(مساعد مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام، وباحث متخصص فى الشئون اليمنية.

(تضم «أحزاب اللقاء المشترك» أحزاب: التجمع اليمنى للإصلاح، الحزب الاشتراكى اليمنى، حزب الحق، التنظيم الوحدوى الشعبى الناصرى، حزب البعث الاشتراكى القومى، اتحاد القوى الشعبية.

كتاب الزاوية



انتصار المهدى

كانت هزيمة يوسف باشا سببًا فى خضوع كردوفان كلها للمهدى فصار فى إمكانه الآن أن يهيىء لنفسه العدة التى كانت تنقصه. فأخذ فى جمع الأموال والأسلحة والخيول وسائر الغنائم يوزعها على رؤساء القبائل التى انضمت إليه. وكانت هذه القبائل تعتقد أنه المهدى المنتظر الذى لا تحدثه نفسه إلا بإقامة الدين ولا قيمة للأموال والأمتعة فى نظره.

وفشت أخبار المهدى فى كل ناحية وكانت هذه الأخبار إذا تنوقلت بين أهالى كَردوفان الذين لم يصيبوا إلا قليلاً من التعليم يبالغ فيها مبالغة عظيمة. وخرج من الأهالى عدد عظيم تركوا بيوتهم يؤمون جبل غدير الذى كان يسمى جبل ماسة وبعض من الأهالى تجمعوا حول رؤسائهم لمقاتلة موظفى الحكومة المشتتين فى أنحاء البلاد. وكانت هذه الأحوال توافق أهواء العرب الرُحَّل فكانوا بدعوى الحرب الدينية يقتلون وينهبون الأهالى وكانوا يتهمونهم بالولاء للأتراك، وفي الوقت نفسه أيضًا وجدوا في هذه الحالة طمأنينة من حيث عدم دفع الضرائب لتلك الحكومة المكروهة.

واتصل المهدى بتجار الأُبَيِّض الذين كانوا بواسطة ثروتهم ونفوذهم يحكمون البلدة بل جزءًا كبيرًا من سائر البلاد. وقد أدركوا هم الحالة تمامًا وكانوا يعرفون ضعف الحكومة وتوانيها واستعد كثير منهم لمشايعة المهدى.

أما مشايخ الدين فقد رأوا فى هذه الحركة ما يرفع مقامهم وكانوا يفخرون بأن واحدًا منهم قد تجرأ على أن يعلن عن نفسه، أنه المهدى وكانوا يترقبون الوقت حين يطرد هذا المهدى جميع الأتراك من البلاد ويبقى هو الحاكم لها.

■■ شغلت «المسألة اليهودية» وهى صيغة دبلوماسية مهذبة لـ «المشكلة اليهودية» سياسيى العالم خاصة أوروبا فى نهاية القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين. وتناول جوانبها المختلفة عشرات الكتاب والمؤرخين من اليهود وغيراليهود. ومن بين الذين شغلتهم هذه المسألة أو المشكلة - سمها ما شئت - رائد صناعة السيارات في الولايات المتحدة وأحد آباء الصناعة الأمريكية هنرى فورد الذى كتب بين عامى ١٩٢٠ و١٩٢٢ مقالات فى صحيفة ديوبورن إندبندنت جمعها فى كتاب بعنوان «اليهودى العالمى». يقول فورد فى كتابه إنه استهدف من كتابة هذه المقالات تعريف الشعب الامريكى بحقيقة المسألة لوضع الحلول الصحيحة لها، بدلاً من تركها تتفاقم كما حدث فى أنحاء أخرى من العالم. ويرى رجل الصناعة الامريكى أن اليهودى نوعان.. نوع يريد أن يسيطر على غير اليهود «الاغيار» ليحكم اليهود العالم من أورشليم، والثانى يهودى يضحى بالعالم ليقيم دينه ويحافظ على سبته. ويرصد فورد فى هذا الكتاب محاولات اليهود للسيطرة على الإعلام والتمويل والسياسة بأقوال زعماء اليهود وقادتهم آنذاك لدعم ما يقول. ويخلص فورد إلى أن عمله هذا ما هو إلا صيحة تحذير لمواطنيه الامريكيين أغيارًا ويهودًا من طموحات ذلك «اليهودى الدولى». وقد قامت مكتبة الشروق الدولية بترجمة الكتاب لإصداره فى خمسة أجزاء، صدر الجزء الاول منها قبل أيام.

وتقدم مجلة «الكتب.. وجهات نظر» الفصل الأول من الجزء الأول من الكتاب■

المحـــرر

قصـــــة اليهـــــود فى أمريكا

هـنـــــرى فـــــورد

■■ يبـدو - للوهلة الأولى - وكـان النظام الاقتصادى لأمريكا الشمالية قد تطور بشكل مستقل عن اليهود. ورغم تلك المقولة فانا مازلت أتمسك بما أكدته من أن الولايات المتحدة (ربما أكثر من أى دولة أخرى) قد امتلأت للحافة بالروح اليهودية. وقد بات هذا أمرًا معروفًا فى أماكن عدة، ولا سيما تلك التى سكانها أكثر قدرة على تقييم مثل هذا الموضوع..

فى مقابل تلك الحقيقة، أليس هناك مبرر لوجهة النظر القائلة بان الولايات المتحدة تدين بوجودها لليهود؟ وإذا كان الأمر بالفعل كذلك، كم مرة إذن يجب التأكيد على مقولة أن النفوذ اليهودى هو الذى أفضى بالولايات المتحدة إلى ما هى عليه الآن، بمعنى آخر كونها أمريكية؛ فما نطلق عليه «الهوية الأمريكية» «الأمركة»، ما هو إلا الروح اليهودية لكن بعد أن ردت إلى أصلها».

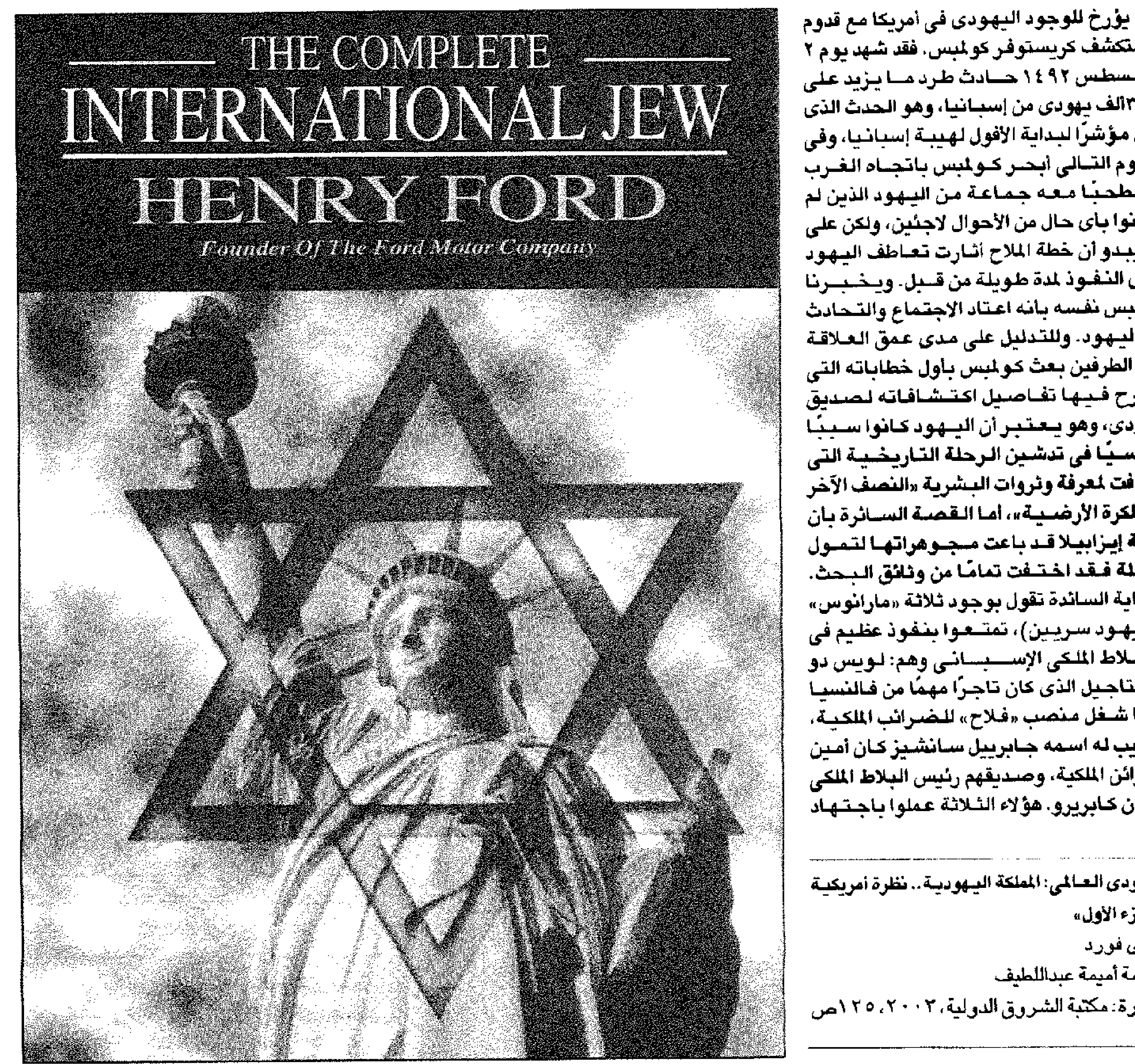
(ويرنر سومبارت «اليهود وراس المال الحديث» صفحتا ٣٨ و٤٣).



يؤرخ للوجود اليهودى فى أمريكا مع قدوم المستكشف كريستوفر كولمبس. فقد شهد يوم ٢ أغسطس ١٤٩٢ حادث طرد ما يزيد على ٣٠٠ألف يهودى من إسبانيا، وهو الحدث الذى كان مؤشرًا لبداية الأفول لهيبة إسبانيا، وفى اليوم التالى أبحر كولمبس باتجاه الغرب مصطحبًا معه جماعة من اليهود الذين لم يكونوا باى حال من الأحوال لاجئين، ولكن على ما يبدو أن خطة الملاح أثارت تعاطف اليهود ذوى النفوذ لمدة طويلة من قبل. ويخبرنا كولمبس نفسه بانه اعتاد الاجتماع والتحادث مع اليهود. وللتدليل على مدى عمق العلاقة بين الطرفين بعث كولمبس باول خطاباته التى يشرح فيها تفاصيل اكتشافاته لصديق يهودى، وهو يعتبر أن اليهود كانوا سببًا رئيسيًا فى تدشين الرحلة التاريخية التى أضافت لمعرفة وثروات البشرية «النصف الآخر من الكرة الأرضية»، أما القصة السائرة بان الملكة إيزابيلا قد باعت مجوهراتها لتمول الرحلة فقد اختفت تمامًا من وثائق البحث. الرواية السائدة تقول بوجود ثلاثة «مارانوس» (أو يهود سريين)، تمتعوا بنفوذ عظيم فى البلاط الملكى الإسبانى وهم: لويس دو سانتاجيل الذى كان تاجرًا مهمًا من فالنسيا كما شغل منصب «فلاح» للضرائب الملكية، وقريب له اسمه جابرييل سانشيز كان أمين الخزائن الملكية، وصديقهم رئيس البلاط الملكى خوان كابريرو. هؤلاء الثلاثة عملوا باجتهاد للتاثير على تفكير الملكة إيزابيلا مصورين لها نضوب الخزائن الملكية واحتمال أن يكتشف كولمبس ذهب جزر الإنديز، حتى بدت الملكة على أهبة الاستعداد لان ترهن مجوهراتها لتمويل الرحلة، وتمنى سانتاجيل أن يحصل على إذن يخوله إقراض المال بنفسه، وقد كان، حيث قدم حوالى ١,٧٠٠ دوكات أى ما يعادل ٢٠ ألف دولار وهو يساوى ١٦٠,٠٠٠ بقيمة المال اليوم (عام ١٩٢٠). ومن المحتمل أن القرض قد فاق تكاليف الرحلة.

وقد رافق كولمبس فى الرحلة خمسة يهود على الأقل هم: لويس دى توريز المترجم، ماركو الجراح، بيرنال الفيزيقى، الونزو دولاكال وجابرييل سانشيز، كما أن الأدوات الفلكية والخرائط التى استخدمها الملاحون كانت يهودية الأصل. وكان لويس دى توريز أول رجل تطا قدمه الأرض الجديدة، بل وأول من اكتشف استخدام الدخان، وقد استقر دى توريز بكوبا، ويقال إنه هو من أسس للسيطرة اليهودية على صناعة الدخان كما هو الحال اليوم. وقد نال عملاء كولمبس القدامى العديد من المزايا للدور الذى قاموا به، غير أن كولمبس نفسه أصبح ضحية لمؤامرة دبرها بيرنال طبيب السفينة، وتلقى معاملة سيئة للغاية، ثم انتهى به الأمر إلى السجن كمكافأة له.

بدأ اليهود ينظرون لأمريكا - منذ تلك اللحظة - على أنها حقل خصب، وبدأت أفواج المهاجرين تتجه بقوة صوب أمريكا الجنوبية وعلى الأخص البرازيل، ولكن مساهمة اليهود العسكرية فى أحد الخلافات التى نشبت بين البرازيليين والهولنديين جعلت يهود البرازيل يرتأون ضرورة الهجرة وهو ما فعلوه، حيث هاجروا باتجاه إحدى المستعمرات الهولندية، أو ما يطلق عليه الآن مدينة نيويورك. فى البداية لم يلق الوجود اليهودى ترحيبًا من عمدة المدينة الهولندى آنذاك بيتر ستيفسانت الذى اعترض على استقرار اليهود بين السكان المحليين وأمرهم بالرحيل، غير أن اليهود كانوا قد أخذوا حذرهم، وحتى يتاكدوا من أنه سيتم استقبالهم حتى وإن لم يكن مرحبًا بهم، قاموا بشراء أسهم فى الشركات؛ ولذا بعد إبطال أمر ستيفسانت بترحيلهم، قال المديرون الذين وافقوا على استقبال اليهود بأن السبب الأهم الذى حتم عليهم ذلك هو «راس المال الضخم الذى استثمروه فى أسهم الشركة». ورغم ذلك فقد منعوا من الالتحاق بالخدمة العامة، ولم يسمح لهم بافتتاح محلات البيع بالتجزئة والتى كانت ستقودهم لمجال التجارة الخارجية - التى بدأوا فى ممارستها كلها بشكل يقارب الاحتكار بسبب صلاتهم باوروبا. هذا فقط مثال من آلاف الأمثلة التى يمكن الاستدلال بها على ثروة اليهودى. فإذا فرضت عليه حظرًا من ناحية ستجده يبرع فى ناحية أخرى، وحينما حظر عليه الاتجار فى الملابس الجديدة قام بالاتجار فى الملابس المستعملة، وبشن ذلك بداية عمليات التهريب المنظم للملابس المستعملة. وحينما حرم عليه الاتجار فى البضائع تاجر فى النفايات، فاليهود هم من



اليهودى العالمى: المملكة اليهودية.. نظرة أمريكية «الجزء الأول»
هنرى فورد
ترجمة أميمة عبداللطيف
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٢، ١٢٥ص

**اليهود هم من أسسوا لتجارة النفايات فى العالم،
بمعنى آخر لقد عثروا على الثروة فى حطام الحضارة
وعلموا الناس كيفية استخدام السجاجيد القديمة وكيفية تنظيف الريش
القديم والاستفادة من جلود الأرانب وقد طوروا
تجارة الفراء والتى يحتكرونها الآن**

أسسوا لتجارة النفايات فى العالم، بمعنى آخر لقد عثروا على الثروة فى حطام الحضارة، وعلموا الناس كيفية استخدام السجاجيد القديمة وكيفية تنظيف الريش القديم والاستفادة من جلود الأرانب وقد طوروا تجارة الفراء والتى يحتكرونها الآن، وإليهم ينسب كذلك تحويل العديد من أنواع الجلود إلى علامات تجارية جذابة، والترويج لها على أنها أنواع من الفراء ذات درجة عالية من الجودة. وكان اليهود هم أول من أعطوا لفكرة التجديد قيمة تجارية، حيث إننا سنجد فى هؤلاء «الكهنة الرجال» ـ الذين نفخوا فى أبواقهم فى مدننا وأنقذوا المكواة القديمة والزجاجات القديمة والأوراق والمنسوجات القديمة ـ سنجدهم نسل أولئك اليهود الأوائل الذين برعوا فى تحويل (المصائب) إلى نجاح ونفاية الأرض إلى مادة ذات قيمة.



وفى حركة تخلو من الذكاء، أجبر بيتر ستيفسانت اليهود على جعل نيويورك الميناء الرئيسى فى الولايات المتحدة، ولكن بعد ذلك أجبر غالبية يهود نيويورك على الفرار إلى فيلادلفيا أثناء الثورة الأمريكية، إلا أن معظمهم آب إلى نيويورك فى أقرب فرصة واتتهم، ويبدو أن الدافع الغريزى جعلهم يدركون بأن نيويورك ستكون فردوس المنفعة الرئيسية لهم فى الأيام الآتية وقد تأكد صدق حدسهم، ذلك أن نيويورك استقر بها أكبر تجمع يهودى فى العالم، وغدت البوابة التى يتم من خلالها فرض ضرائب على معظم صادرات وواردات أمريكا، كما أنها صارت ـ عمليًا ـ معقل التجارة فى أمريكا، وتدين بالفضل فى ذلك لسادة المال، أما أرض المدينة ذاتها فقد صارت هى الأخرى ضمن حيازات اليهود، وتكشف قائمة بمالكى العقارات فى المدينة أنه نادرًا ما يوجد اسم لمالك غير يهودى، وبالتالى لم يكن أمرًا مستغربًا أن الكتاب اليهود ـ حينما رأوا هذا الرخاء غير المسبوق والنمو فى الثروة والنفوذ اليهودى ـ كانوا يصيحون بشكل حماسى بأن الولايات المتحدة هى بالفعل الأرض الموعودة والتى تنبأ بها الأنبياء، وأن نيويورك هى القدس الجديدة، بل إن البعض ذهب إلى حد تشبيه قمم جبال الروكى بأنها جبال صهيون، كما أن هناك سببًا آخر يتمثل فى الثروة المعدنية والساحلية التى كانت بحوزة اليهود.

هذا النفوذ كاد يتعرض للتهديد حينما ظهر مشروع مقترح بإنشاء ممر مائى من شأنه أن ينشئ ميناء فى كل مدينة كبيرة على البحيرات العظمى، وأن يأخذ من نيويورك الهيبة التى احتفظت بها باعتبارها البوابة التى تتوقف عندها خطوط السكك الحديدية الرئيسية، هذا الأمر حدا باليهود لتقديم احتجاجات شديدة كان الدافع الرئيسى وراءها هو أن معظم ثروتهم الموجودة فى نيويورك تعتمد بالأساس على أن تظل نيويورك كذلك، وسوف تتحول هذه الثروة إلى قيمة زائفة مصطنعة فى حال ما إذا جد أى تطور من شأنه أن يحول نيويورك إلى مدينة عادية على الساحل وليست المدينة التى يقطن بها ممولو الضرائب لجباية الضرائب، ونتيجة لذلك كان لابد من عمل أى شىء لإيقاف المشروع وإلا فإن معظم ثروة اليهود فى المدينة سيكون مآلها التناقص. لقد كان الوضع رائعًا قبل الحرب، أما ما آل إليه الأمر الآن، فإن الإحصائيين سيجدون الأمر صعبًا بمكان للحديث عنه.

فى خلال خمسين عامًا زاد تعداد السكان اليهود فى الولايات المتحدة من (خمسين ألف نسمة) إلى ثلاثة ملايين وثلاثمائة ألف نسمة، ويقطن فلسطين حوالى مائة ألف نسمة، أما الجزر البريطانية فيبلغ تعداد اليهود فيها حوالى ثلاثمائة ألف نسمة، وهذه نقطة تحسب لصالح اليهود؛ لأن السيطرة الكبرى والواضحة التى يمارسها اليهود فى إنجلترا فيما يتعلق بالشئون المهمة كانت ستجعل الوضع شديد الصعوبة بالنسبة لليهود الأكثر فقرًا إذا تواجدوا فى إنجلترا بأعداد أكبر، وبالتالى من المستحسن أن يتواجدوا فى بريطانيا بأعداد قليلة، ويعترف بعض البريطانيين ـ الذين يتمتعون بدرجة من الوعى ـ بأن مشاعر العداء للسامية قد تطفو على السطح فى بريطانيا فى سبيل قضية ما، غير أن هذه المشاعر لن تظهر ـ بأى حال من الأحوال ـ ضد اليهود الأغنياء الذين لا يمكن الوصول إليهم والذين فى أيديهم السيطرة على الأمور السياسية والشئون الاقتصادية العالمية، وربما يكون صحيحًا أن أكثر الأسباب شيوعًا لمعاداة السامية هو أفعال اليهودى الدولى (العولمى)[1]، والذى هو فى العادة غير معروف، وآمن، بينما يكون ضحية ذلك هو اليهودى الفقير، ولكن العداء للسامية سيكون موضوع المقال القادم. وإذا ما تفحصنا أعداد اليهود فى كل من بريطانيا والولايات المتحدة سنجد أنها تشير إلى أن النفوذ الخارق الذى تمتع به اليهود الماليون لم يكن فى واقع الأمر معتمدًا على أعداد اليهود، ولكن الحقيقة المذهلة حول اليهود تتمثل فى كون هذا النفوذ العالمى ـ الذى لا يجابه ـ قد اقترن بتدنٍّ نسبى فى أعداد اليهود، حيث إن هناك حوالى أربعة عشر مليون يهودى فى العالم، وهم مماثلون فى هذا التعداد مع الكوريين، وسنرى لاحقًا كيف أن هذه المقارنة مع الكوريين ستكون بمثابة دليل حى على مدى النفوذ الذى يمتلكه اليهود. ففى عهد جورج واشنطن ـ على سبيل المثال ـ كان هناك حوالى أربعة آلاف يهودى فى البلاد، وكان معظمهم من التجار الميسورين الذين كانوا يفضلون الاستقرار بالساحل الأمريكى، وكان من بينهم حاييم سولمون الذى ساعد المستعمرات بإقراض ثروته كلها فى وقت حرج. غير أن هؤلاء وجدوا صعوبة فى الاندماج فى المجتمع ولم يشغلوا أى وظائف عادية أو حتى فى قطاع الزراعة، ولم يبدوا اهتمامًا يذكر بعملية الصناعة، ذلك أن جل اهتمامهم تركز على عملية البيع، ولم يظهر اليهود اهتمامًا بعملية الصناعة إلا مؤخرًا، ولكن حتى عمليات الصناعة التى انخرطوا فيها كانت ملحقة بخطط التجارة. الصناعة من شأنها أن تدخر الربح، والنتيجة لم تكن تقليص تكاليف المنتج للجمهور ولكن على العكس من ذلك؛ لأن أحد ملامح العمل اليهودى ـ كما اتضح ـ تمثلت فى جعل الاقتصاديات تتم لصالح العمل وليس لصالح الجمهور.

بالنسبة لليهودى كلمة العمل مرادفة للمال، أما ما يفعله اليهودى الناجح بالمال بعد أن يحصل عليه فتلك قصة أخرى، ولكن لا يسمح له بالتورط فى «وحل المثالية»؛ لأن ذلك الأمر من شأنه أن يحول بينه وبين الحصول على الدولار. أما فيما يتعلق بأرباحه المالية فلا يجب أبدًا أن ترتبط بالإصلاحات التطوعية التى يحاول من خلالها حفنة من الرجال تحسين ظروف العمال. وهذا الأمر لا يعود بأى حال من الأحوال لأن اليهود قاسية قلوبهم بالضرورة، وإنما هو مرتبط بالدرجة الأولى بالتصور اليهودى لمفهوم العمل، فالعمل هو مسألة أموال وسلع وليس مسألة أشخاص، ووفقًا لهذا المبدأ إذا كنت تمر بمعاناة وقلق فسوف يتعاطف معك اليهودى، أما إذا كان بيتك هو أحد عناصر نزاع العمل بينك وبينه فهو يتعامل بمبدأ أنك أنت وبيتك كيانان منفصلان؛ لأنه وفق نظريته للعمل فإنه يجد صعوبة شديدة فى «أنسنة» هذا البيت؛ لأن ذلك معناه أن يسلك سلوكًا أكثر رحمة من السلوك الذى يصفه بعض الناس بأنه «قاس»، أما اليهودى نفسه فلا يشعر بأن هذه التهمة عادلة؛ لأنه يبرر ذلك السلوك بأن الأمر فى النهاية ما هو إلا «عمل».



وربما فى خلال هذا الإطار يمكن توضيح ظاهرة «محلات العرق» اليهودية فى مدينة نيويورك، فحينما أشفق أفراد الأمة العطوفون على فقراء يهود محلات عرق نيويورك، لم يكن لديهم أدنى علم بأن أصحاب فكرة ومديرى تلك المحال هم أنفسهم من اليهود. وبالفعل فعلى الرغم من أنه فخر لبلدنا بأنه لا يوجد اضطهاد للأفراد بسبب لونهم أو جنسهم أو عقيدتهم الدينية، فالحرية مؤمنة للجميع غير أن الحقيقة التى رصدها كل المحققين تقول بأنه إذا كانت هناك معاملة غير إنسانية عومل بها اليهودى، فمصدرها دائمًا يأتى من قومه والقيمين عليه وسادته، وليس هناك دليل على أن أيًا من «صاحب المحل» أو العامل ـ كلاهما يهودى ـ قد تعاملا مع هذا الأمر على أنه وضع ليس إنسانيًا أو قاسيًا، وإنما كانوا يعتبرونه «عملاً» وكان العامل اليهودى يعيش على أمل أنه فى يوم ما ستكون لديه غرفة مليئة بالأفراد الذين يحيكون له الملابس، هذا الأمل حثهم على الاهتمام اللانهائى بـ «العمل» والطموح الشديد للعمل من أجل تحقيق هدف أساسى ألا وهو صعود السلم المهنى والتحول إلى سادة يعملون، بدون أدنى إحساس بالقهر أو الظلم، وهو على كل حال أسوأ شىء يسببه الفقر. ولا ينظر اليهود مطلقًا للعمل الشاق على أنه نكبة، كما أنهم لا يعتبرون أنهم سيظلون قابعين فى المراتب الدنيا من الوظائف للأبد، وبالتالى فهم يبذلون طاقاتهم فى محاولة الصعود بدلاً من إلقاء اللوم على الظروف التى يعملون فيها، أو حتى محاولة العمل على تحسينها.



كل ما ذكر هو أمر محمود من الناحية الفردية ولكن على المستوى الاجتماعى هو أمر ضار؛ لأنه حتى وقت قريب كانت المراتب الدنيا من الوظائف غير مراقبة (ليست خاضعة لأى إشراف من الدولة) ولم تر الدوائر العليا ضرورة حتمية فى استحداث إصلاحات ومكاسب صناعية، ورغم أن لليهود سجلاً عظيمًا فى مجال الأعمال الخيرية إلا أن سجلهم فى الإصلاح الصناعى لا يكاد يذكر. وإذا كان التعاطف المحمود الذى يكنونه لذويهم يدفعهم للتبرع بجزء من أرباحهم لتصحيح بعض من الحاجات الإنسانية التى نتجت عن الطريقة التى يحصلون بها على أرباحهم، فإنه يبدو من الناحية الأخرى أن فكرة إصلاح الطريقة التى يحصلون بموجبها على أرباحهم ـ حتى تختفى الحاجات وأوجه القصور الناتجة عن ذلك أو حتى تتقلص ـ هو أمر لم يطرأ على أذهانهم. وللتدليل على ذلك فإن هناك عددًا من الأسماء الخيرة بين صفوف اليهود الأغنياء، ولكن لا يوجد فى مقابل ذلك اسم واحد يؤيد الأنسنة الفعالة للصناعة وطرقها وعوائدها. وهذا أمر سيئ، ولكنه مفهوم، بل أهم من ذلك أنه يكشف عن العديد من الأمور التى يلام عليها اليهودى من قبل أولئك الذين لا يفهمون طبيعته، وربما يسمح اليهودى للآخرين بأن يشاركوه جزئيًا نتائج الرفاهية التى يتمتع بها، غير أنه لن يذهب بعيدًا فى السماح بتقاسيم العمليات التى أدت لهذه الثروة أو حتى المشاركة فى الثروة أثناء صناعتها، ولا يجب أن يفهم هذا السلوك على أنه تم بدافع اللاإنسانية وبلادة الشعور، وإنما بدافع المفهوم المتأصل لدى اليهودى حول قواعد لعبة العمل، فى ضوء هذا المفهوم تبدو بعض مقترحات الإصلاح الصناعى ضربًا من الجنون، مثلما يعتبر اقتراح أن تنسب إحدى ضربات البيسبول لصالح الخصم على اعتبار أنه أمر إنسانى.



اليهودى الأمريكى لا يندمج فى المجتمع، هذه حقيقة ليس الغرض منها تقريعه أو كيل اللوم له، فاليهودى

بإمكانه الاختلاط مع الأمريكيين إن أراد، ولكنه لا يفعل ذلك، وإذا ما حدث وتحقق هذا الاختلاط وتصادف أن تعرض لتحامل ضده - باستثناء نوع من التحري يثيره النجاح الخارق لهم - فسيكون ذلك التحامل بسبب ترفعهم. لا يتم الاعتراض على اليهودي لشخصه أو لعقيدته أو لجنسه. وقيمه الروحية يشاركه فيها العالم بأسره، ولكن رغم ذلك فهو لا يندمج؛ لأنه يحيا على الشعور بالتفرد وبكونه غير منتمٍ. هذا ما يميزه ويجعله متفردًا عن الآخرين، ومن وجهة نظر معينة قد يكون هذا تميزًا رائعًا، ولكن لا يجب أن يكون هذا التميز مبررًا دائمًا لشكواه ضد الأغيار[2] بصفة عامة، ذلك أن هنالك ميلاً يهوديًا لفعل ذلك. ولكن بدلاً من الشكوى من الأفضل أن يوضح للأغيار ما هو الموقف الحقيقي لليهود من المسألة اليهودية، وحينما قال أحد اليهود الشباب: «هناك فرق كبير بين اليهودي الأمريكي والأمريكي المتهود، فالأخير هو من الأغيار الهواة، مكتوب عليه أن يظل طفيليًا للأبد». إن الجيتو ليس نتاجًا أمريكيًا وإنما هو استيراد يهودي صرف، ذلك لأنهم اختاروا أن ينعزلوا في تكوينات اجتماعية متميزة، وتقول الموسوعة اليهودية في معرض تعليقها على هذا الموضوع: «إن التنظيم الاجتماعي لليهود المقيمين في الولايات المتحدة مختلف بعض الشيء عن هذا التنظيم في بلدان أخرى، ذلك أن اليهود سعوا - بدون أي إجبار - للعيش جنبًا إلى جنب وهي صفة مميزة مازالت سائدة».

وإذا أردنا عمل قائمة بمجالات العمل التي سيطر عليها يهود الولايات المتحدة، فإن ذلك يعني أننا حتمًا سنضع أيدينا على معظم الصناعات الحيوية للبلاد. وصناعة المسرح - وكما يعلم الجميع - هي صناعة يهودية بحتة. إنتاج المسرحيات والحجز وعمليات المسرح كلها في يد اليهود، وهذا من شأنه أن يفسر حقيقة أنه في كل عملية إنتاجية يمكن أن تشتم رائحة الدعاية، وربما من خلال إعلانات تجارية صارخة لا يعود أصلها للكتاب المسرحيين وإنما للمنتجين. وتشمل القائمة كذلك:

* صناعة السينما.
* صناعة السكر.
* صناعة الدخان.
* ما يقرب من نصف صناعة تغليف اللحوم.
* ستين بالمائة من صناعة الأحذية.
* الملابس الجاهزة للرجال والنساء.
* معظم متعهدي الحفلات الموسيقية.
* المجوهرات.
* الحبوب.
* القطن.
* تأليف المجلات.
* نشرات الأخبار.
* الكحول والقروض.

هذا فقط لذكر بعض الصناعات التي تقع تحت سيطرة اليهود في الولايات المتحدة إما بمفردهم أو بالشراكة مع يهود آخرين وراء

و.. من يحكم أمريكا؟

سهير السكري

■■ قد لا يكون من الخطأ تمامًا القول بأن الولايات المتحدة الأمريكية الدولة الأقوى في عالم اليوم هي دولة مؤسسات تعتمد على التخطيط ويرسم سياساتها خبراء الـ Think Tanks «مجامع الخبراء»، إلا أن هذا القول كان يمكن أن يكون صحيحًا إلى ما قبل السنوات العشرين الماضية، ولكن الأوضاع في الولايات المتحدة تغيرت الآن إلى حدّ أن الكثير من الأمريكيين أخذوا يشعرون بأنهم فقدوا القدرة على حكم أنفسهم بأنفسهم، وبخاصة بعد التطورات الأخيرة قبيل الانتخابات لعضوية الكونجرس في نوفمبر الماضي وبعدها، ولاسيما فيما يتعلق بقرار الكونجرس السماح بشن الحرب على العراق. ذلك أن الصهاينة، وعلى رأسهم مورس ج. أميتاي (Morris J. Amitay)، رئيس اللوبي الصهيوني في واشنطن المسمى «اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للشئون العامة» (America Israel Public Affairs Committee (AIPAC))، وريتشارد بيرل (Richard Perle)، رئيس مجلس السياسة الدفاعية الذي يسدي المشورة إلى وزير الدفاع رامسفيلد، كشفوا القناع أخيرا عن حقيقة قوتهم بعد أن نجحوا في إحكام قبضتهم على جميع مراكز صنع القرار في الولايات المتحدة، فأخذوا يظهرون على التليفزيون وفي الإذاعة وغيرهما من وسائط الإعلام، ويتحدثون بكل صلافة واستكبار خلف واجهة مزيفة من الوطنية الأمريكية المتطرفة لإمرار أجندة صهيونية عنصرية لا تخدم غير مصالح إسرائيل والصهيونية واليهودية العالمية مع إلحاق أشد الضرر بمصالح الولايات المتحدة ومكانتها في العالم، والويل لمن يعترض على وجهة نظرهم أو يمس بها ولو مسا خفيفا سواء أكان مواطنا عاديا أم صحافيا أم محللا سياسيا أم مفكرا أم عضوا في الكونجرس نائبًا أو شيخًا، إذ سرعان ما يجعلونه يحس بشناعة ما ارتكبه من خطأ أو خطيئة، إما في جيبه أو في وظيفته أو في مكانته أو، في الحالات المستعصية، في حياته! ولكن نجد مع ذلك أن هناك من أخذ يتساءل عن سبب هذه القوة، ومن الذين يقفون وراءها.



إن الولايات المتحدة هي بالفعل دولة كبرى تعتمد على مؤسسات ترسم سياساتها بعد دراسة وتمحيص. وقد فطن الصهاينة من وقت طويل لتلك المؤسسات وأدركوا ما لها من أثر قوي في الحياة العامة الأمريكية ودور حاسم في استقطاب مراكز القوى في الولايات المتحدة. فعملوا بصورة منهجية على التغلغل فيها والسيطرة عليها و/أو إنشاء مؤسسات خاصة بهم على غرارها؛ وبذلك احتكروا، أو كادوا أن يحتكروا، سوق «مجامع الخبراء» الآنفة الذكر في الولايات المتحدة. وها نحن نجد اليوم أن أشد تلك المؤسسات تأثيرا هي مؤسسات تخضع للسيطرة الصهيونية التامة.

ولم تقتصر المؤسسات الأمريكية على إجراء الدراسات الموالية لإسرائيل، بل تخصصت أيضا في «تفريخ» عدد من أنبغ وأقدر الشخصيات، يهودا أو غير يهود، أمريكيين أو مزدوجي الجنسية، من ذوي الميول الصهيونية أو المؤمنين بأن المخططات الصهيونية تخدم أمريكا، ثم تتولى الجهات الصهيونية الصرف بعد ذلك في «زرع» هؤلاء في مراكز صنع القرار وغيرها من الأماكن الحساسة في الإدارة الأمريكية سواء كانت ديمقراطية أو جمهورية. بل بلغ من جراءة تلك الجهات أنها حين ترى أن شخصا ما، حتى إذا كان غير أمريكي، يمكن أن يخدم سياسة بذاتها في وقت بذاته، فإنها لا تتورع عن ترتيب أمر منحه الجنسية الأمريكية قبل ما لا يزيد على يوم واحد من تاريخ تعيينه في المنصب، وذلك كما حدث في حالة «مارتن إنديك» (Martin Indyk).

والتحكم في هذه المؤسسات نابع من سياسة عامة تنفذها «المنظمة الصهيونية العالمية» ويرجع عهد وضع خطوطها الرئيسية



البحار. وسيدهش الأمريكيون إذا ما رأوا قائمة برجال الأعمال الأمريكيين تلون الهيبة التجارية فيما وراء البحار، وهم في معظمهم يهود ولديهم فهم لقيمة الاسم الأمريكي، وحينما تكون في بلد أجنبي وتصل إلى مكتب يحمل علامة «الشركة الأمريكية للاستيراد» أو «الشركة التجارية الأمريكية» أو غيرها من الأسماء الفضفاضة، تذهب هناك أملاً في أن تجد شخصًا أمريكيًا، غير أنك بدلاً من ذلك تجد شخصًا يهوديًا كل علاقته بأمريكا هي رحلة قصيرة قام بها، وربما يلقي هذا بعض الضوء على الطريقة التي تدار بها طرق العمل الأمريكية في بعض أنحاء العالم، حيث يمكن لحوالي ثلاثين أو أربعين جنسية مختلفة أن تقوم بالعمل تحت الاسم الأمريكي، بل وتقوم به بشكل قانوني، لذا ليس بمستغرب أن الأمريكيين لا يدركون بعض ملامح أسلوب العمل الأمريكي والتي يتم تغطيتها في الصحافة الأجنبية. وكان الألمان يشتكون منذ فترة طويلة بأن العالم يحكم على الألمان من خلال صورة التاجر اليهودي الرحالة والذى يتحدث بالألمانية.



وتبدو حوادث الرخاء اليهودى في الولايات المتحدة أمرًا شائعًا، ولكن الرفاهية وهي مكافاة عادلة لبعد النظر والتطبيق، لا يجب أن تُخلط بالسيطرة والاحتكار. أما فيما يتعلق بالرفاهية التى حازها اليهود، فيمكن لأى مجموعة أخرى أن تحوزها، فقط إذا ما كانت على استعداد لدفع الثمن الذى دفعه اليهود وهو ثمن غال جدًا، وكقاعدة، فكل شيء يمكن أن يوضع تحت الاعتبار. ولكن سيكون من المستحيل على أى تحالف من الأغيار، وفي ظل ظروف مشابهة أن يحوز ذات السيطرة التي حصل عليها اليهود، لسبب غير متوافر في الأغيار، وهي صفة العمل معًا واتحاد الهدف والتماسك الذى يفرضه الانتماء لمجموعة عرقية واحدة، وهو ما يميز اليهود. فبالنسبة للأغيار لا يهمهم في شيء أن هناك أغيارًا آخرين، أما بالنسبة لليهودى فيهتم كثيرًا إذا ما علم أن الرجل الذى يقف ببابه ما هو إلا يهودى آخر مثله. يمكن القول إذن بأن اليهودى قد صادفه النجاح في كل شيء جربه في الولايات المتحدة فيما عدا الزراعة، والمبرر الذى غالبًا ما يقدم في الأدبيات اليهودية هو أن الزراعة العادية تعد أمرًا بسيطًا للغاية لأن ينخرط فيه اليهودى بمواهبه وذكائه، وبالتالي فهو غير مهتم بها لإنجاحها، ولكنه حقق نجاحًا في صناعة الألبان والماشية وهى صناعة تحتاج «للعقل». وقد بذلت محاولات عديدة في أنحاء عدة من الولايات المتحدة لبدء إنشاء مستعمرات زراعية يهودية ولكنها قصة من الفشل المتواصل، وقد عزا البعض هذا الفشل إلى نقص معرفة اليهود بالزراعة العلمية، بينما قال آخرون بأنه يعود إلى كراهية اليهود للعمل اليدوى، وقال آخرون إنه يعود إلى نقص عنصر المضاربة في الزراعة. في كل الأحوال فإن اليهودى حقق نجاحًا في الوظائف غير المنتجة عن الوظائف المنتجة. وبعض دارسي المسألة يقولون بأن اليهودى لم يكن أبدًا إنسانًا يهتم بالأرض ولكنه كان دائمًا تاجرًا، واحد البراهين على تاكيد ذلك هو اختيار اليهود لفلسطين لأن تكون بلادهم، هذا القطاع من الأرض الذى يشكل بوابة بين الشرق والغرب، والذى هو أيضًا قبلة المرور البرى للعالم.■

الهوامش

(١) كما عرفنا، كتب هنرى فورد مقالات الكتاب سنوات ١٩٢٠ إلى ١٩٢٢م، ولم يكن مصطلح العولمة ظهر ذلك العصر، ونعتقد أن ما قصده بالدولي، هو ما نقصده بالعولمي اليوم.

(٢) الأغيار، غير اليهود (Gentiles).



إن الصهاينة الذين بدأوا في أول عهدهم منذ مائة عام، تسخير أنفسهم لخدمة مصالح الغرب خدمة العبد للسيد إذا ساندهم الغرب في تحقيق أمانيهم، قد انتهى الأمر بهم، إلى أن أصبحوا الآن هم الأسياد

إلى أول مؤتمر صهيوني عالمي عقد في بال في سويسرا عام ١٨٩٧ وتمخض، في جملة أمر، عن تاسيس تلك المنظمة. ونحن نرى الآن أن المخطط الصهيوني الذى رسم منذ ذلك الزمن قد نُفّذ بحذافيره ولم يتبق غير وضع اللمسات الأخيرة لإسرائيل الكبرى فالسيطرة على العالم أجمع من خلال أقوى دولة أيا كانت، وهذه الدولة هى اليوم الولايات المتحدة الأمريكية.

ففي الأشهر الثمانية عشر الأولى من رئاسة بوش، نجحت هذه الشبكة من الشخصيات البارزة المتواجدة في وزارة الدفاع، ووزارة الخارجية، ومجلس الأمن الوطني فضلا عن المكتب التنفيذى لرئاسة الجمهورية في اختطاف وتقويض كامل برنامج إدارة بوش في مجالي الأمن الخارجي والوطني وذلك إلى الحد الذى أصبح معه حلفاء أمريكا في أوروبا وأمريكا اللاتينية والعالم العربي ومنطقة آسيا والمحيط الهادى يعتبرون الولايات المتحدة الشريكة الرئيسية لأرييل شارون في السير بالعالم في الطريق المؤدية إلى الوقوع في هاوية الانهيار الاقتصادى والحروب السكانية، بدءا من الخليج العربي والشرق الأدني.



ويرجع الجانب الأكبر من قدرة هذه الخلية على تقويض دعائم أى سياسة رشيدة إلى أنها تعمل في شكل شبكة وثيقة الترابط، بنقاط تنسيق وطيدة مع وكالات الأنباء في الولايات المتحدة ومع مجموعة بأكملها من مجمعات الخبراء (Think Tanks)والمؤسسات المعفاة من الضرائب التي تمد الجهود التخريبية لأعضاء تلك الخلية بالدعم الإدارى في واشنطن العاصمة. ومن بين تلك المؤسسات معهد المشروع الأمريكي / المبادرة الأطلسية الجديدة» (The American Enterprise Institute/New Atlantic Initiative)، و«مؤسسة التراث» (The Heritage Foundation)، و«معهد هدسون» (The Hudson Institute)، و«معهد كاتو» (The Cato Institute).ويتم تمويل جميع هذه المؤسسات بدورها من خلال رابطة صغيرة من المؤسسات المعفاة من الضرائب، على رأسها «مؤسسة ميلون سكيف» (The Mellon Scaife Foundation)، و«مؤسسة برادلي» (The Bradley Foundation)، و«مؤسسة أولن» (The Olin Foundation)، و«مؤسسة سمث ريتشاردسون» (The Smith Richardson Foundation).غير أن قوة هذا الجهاز تعتمد على مدى تواجد أعضائه في أجهزة الإدارة. ذلك أنك ما إن تزيحهم من مناصبهم حتى تفقد عملياتهم كل فعاليتها فتتلاشى وتموت.

ومن بين الذين قرروا التصدى لهذا التحكم وكشف مخططاته ليندون لاروش (Lyndon LaRouche)، المرشح للرئاسة الأمريكية لعام ٢٠٠٤، ووزير العدل الأمريكي السابق رامزى كلارك (Ramsay Clark)، ومنظمة A.N.S.W.E.R المنتشرة في كل أنحاء الولايات المتحدة وغيرها من المنظمات، إذ تزعموا حركة جبارة انضم إليها عدد هائل من الأمريكيين العرب لأنهم وجدوا فيها السند الأمريكي القوى للتصدى لحملة التشويه الموجهة عالميا ضد العروبة والإسلام ومحليا ضد ذات وجودهم في الولايات المتحدة.

وقد قال رامزى كلارك في إحدى كلماته التى يستمع إليها مئات الألوف من الأمريكيين «إن أغلبية الشعب الأمريكي لا تؤيد الحرب، لا بل إن ما لا يقل عن نصف الشعب يعارضها صراحة. ومن الأدلة على ذلك خروج ٢٠٠٠٠٠ أمريكى في ٢٦ أكتوبر الماضى للتظاهر أمام البيت الأبيض تحت شعار «لن تشنوا الحرب باسمنا».

وكلام وزير العدل السابق هذا يجد صداه فيما لا يحصى من المواقف المعلنة، التى ظهر بعضها في شكل بيانات صادرة عن كبرى كنائس البلاد، ومن أهمها الكنيسة الكاثوليكية ونفس الكنيسة البروتستانتية التى ينتمى إليها الرئيس بوش، وكذلك عن اتحادات العمال والنقابات المهنية، وظهر بعضها الآخر في شكل إعلانات، من بينها إعلانات على صفحات كاملة من كبريات الصحف اليومية، تحت توقيع آلاف المثقفين والأكاديميين والمنتمين إلى الأوساط الفنية، ولاسيما في هوليوود، لا بل حتى أعضاء الجماعات اليهودية المناهضة للصهيونية.

إذن لماذا تصر الإدارة الأمريكية على الاستمرار في دق طبول الحرب على العراق والاستماتة في البحث عن أى حجة لشنها؟ ومن هى القلة القليلة التي تخطط لتلك الحرب، ولمصلحة من تخطط لها إذا وضعنا في اعتبارنا أن أغلبية الشعب الأمريكي لا ترى أن مثل تلك الحرب تخدم مصلحته؟ ومن هم المسئولون الحقيقيون عن رسم هذه السياسة؟



إن أفضل سرد موثق لماهية هذه المجموعة والانتماءات الحقيقية لكل من أعضائها ورد في الموقع الإلكتروني www.larouchein2004.com الخاص بـExecutive Intelligence Report(EIR).

(١) دوجلاس ج. فايث
(Douglas J. Feith)

(٢) دافيد وورمزر
(David Wurmser)

إن هذين الموظفين اللذين عينهما بوش، أولهما في منصب وكيل وزارة الدفاع المسئول عن السياسات العامة وثانيهما في منصب المستشار الأقدم لوكيل وزارة الخارجية المسئول عن مراقبة التسلح والأمن الدولي، يجسدان مشكلة «الشبكة» أو «الخلية» المذكورة على أنصعها. فقد كانا قبل تولى منصبيهما الحاليين في الحكومة مرتبطين ارتباطا وثيقا بأعنف الدوائر الإسرائيلية ذات الميول الجابوتنسكية ويدعوان علنا إلى سياسات تتعارض كل التعارض مع هدف بوش المعلن المتمثل في الحل القائم على دولتين للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني.

ودوجلاس فايث مسئول في منصبه الحالى عن صوغ التوجيهات في مجال السياسة الدفاعية، واتصالات وزارة الدفاع بالحكومات الأجنبية، والمشاركة في أفرقة العمل المشتركة بين مختلف الوكالات. وقد مثل وزارة الدفاع في جميع المفاوضات مع إسرائيل، وكان أكبر موظف في الوزارة يشارك في اجتماعات عقدت في يونيه ٢٠٠٢ مع وزير داخلية إسرائيل عوزى لانداو والجنرال داقيد تزور بشأن تأسيس مكتب إسرائيلي - أمريكي دائم في واشنطن لتنسيق شئون «الأمن الداخلي». ويستدل من الأنباء المنشورة أنه لو قُدّر لهذا المكتب أن يخرج إلى الوجود لزوّد إسرائيل بإمكانية غير مسبوقة للحصول على بيانات تتعلق بالأمن الوطني للولايات المتحدة فضلا عن مقادير خطرة من المدخلات المتصلة بالسياسات التى تحدد تطور الإستراتيجية الأمريكية لمكافحة الإرهاب.

ومن الجدير بالذكر هنا أن اسم فايث ورد قرب رأس قائمة المتهمين بالتآمر مع بولارد (Pollard)، اليهودى الأمريكي المدان بالتجسس لحساب إسرائيل والمحكوم عليه بالسجن مدى الحياة، علما بأنه لم يقبض لا على فايث ولا على أى أحد من المتهمين الآخرين.

وفي الفترة التى ترك فايث فيها العمل في الحكومة وقبل أن يعود إلى العمل فيها، أصبح المحامى المسئول عن إدارة «مكتب محاماة فايث وزيل»، الذى نفذ مهام واسعة النطاق بالاشتراك مع الصناعات العسكرية الإسرائيلية، وكانت له فروعه في واشنطن ونيويورك والقدس وتل أبيب وموسكو.

وخلال عمله خارج الحكومة، شارك فايث أيضا في عدد من أجهزة اللوبى الإسرائيلى المعروفة وكذلك في مكتب استشارات ذى صلات وثيقة بالروابط العسكرية فيما بين تركيا وإسرائيل.

وقد شارك فايث في دراسة استغرقت سنة كاملة أُعدّت لـ«معهد الدراسات الإستراتيجية والسياسية العليا»

الواقع مقره في القدس وواشنطن، وعنوانها «قطيعة حاسمة: استراتيجية جديدة لكفالة أمن الدولة». وكان من بين المشاركين الآخرين في إجراء هذه الدراسة ريتشارد بيرل ودافيد وورمزر وزوجته ميراف وورمزر. ومن جملة ما دعت إليه هذه الدراسة وقف ما تقدمه إسرائيل بحسب اتفاقات أوسلو من الموارد المالية إلى السلطة الفلسطينية وقيام إسرائيل بالتحضير للعمليات العسكرية ضد سوريا في سياق ازدياد نشاط حزب الله في جنوب لبنان.



وكتب فايث في الفترة التي كان فيها خارج الحكومة لهيئتين لهما أهميتهما الكبرى من هيئات اللوبي الإسرائيلي هما: «الأمريكيون العاملون لكفالة سلامة إسرائيل» و«المنظمة الصهيونية الأمريكية».

وقد شاركت كلتا هاتين الهيئتين مع عدد من قادة الصهاينة المسيحيين في اجتماع ابتزازي في البيت الابيض عقد في يولية ٢٠٠١ عمد الصهاينة المسيحيون فيه إلى التهديد بوقف دعم المسيحية التبشيرية للرئيس بوش مالم يُعْطِ النور الأخضر مائة في المائة لآريل شارون لكي يسحق الفلسطينيين.

ونشرت «المنظمة الصهيونية الأمريكية» في عام ١٩٩٩ كتابا يشرح بوضوح استحالة إقامة دولة فلسطينية. وقد كتب فايث أحد فصول ذلك الكتاب، وبذلك سجل على نفسه من جديد معارضته الصارخة للسياسة الراهنة لإدارة بوش تجاه هذه المسألة.

ودافيد وورمزر يشبه فايث من حيث إنه يبرز هو أيضا كشخص لا يخجل من كونه من أتباع جابوتنسكي يعمل من داخل وزارة الخارجية الأمريكية لتقويض سلطة وزير الخارجية كولن باول. وقد كان وورمزر حتى تعيينه في أوائل هذه السنة في منصبه الحالي في وزارة الخارجية المدير المسئول عن السياسة المتصلة بالشرق الأوسط في «معهد المشروع الأمريكي» ومدير برنامج البحوث الإستراتيجية والسياسية في «معهد الدراسات الإستراتيجية والسياسية العليا». وكان هذا المعهد قد أعد الإستراتيجية لرئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو بمشاركة من فايث وبيرل أيضا، في حين أن مكتب وورمزر أعد التقرير اللازم بتوجيه من بيرل، علما بأن التقرير المذكور دعا إلى إنهاء «صهيونية العمل» وإخضاع إسرائيل بالجملة للسياسة الجابوتنسكية المبنية على القمع الوحشي لحقوق الفلسطينيين والقيام في نهاية المطاف بضم الأراضي التي احتلتها إسرائيل في حرب عام ١٩٦٧.

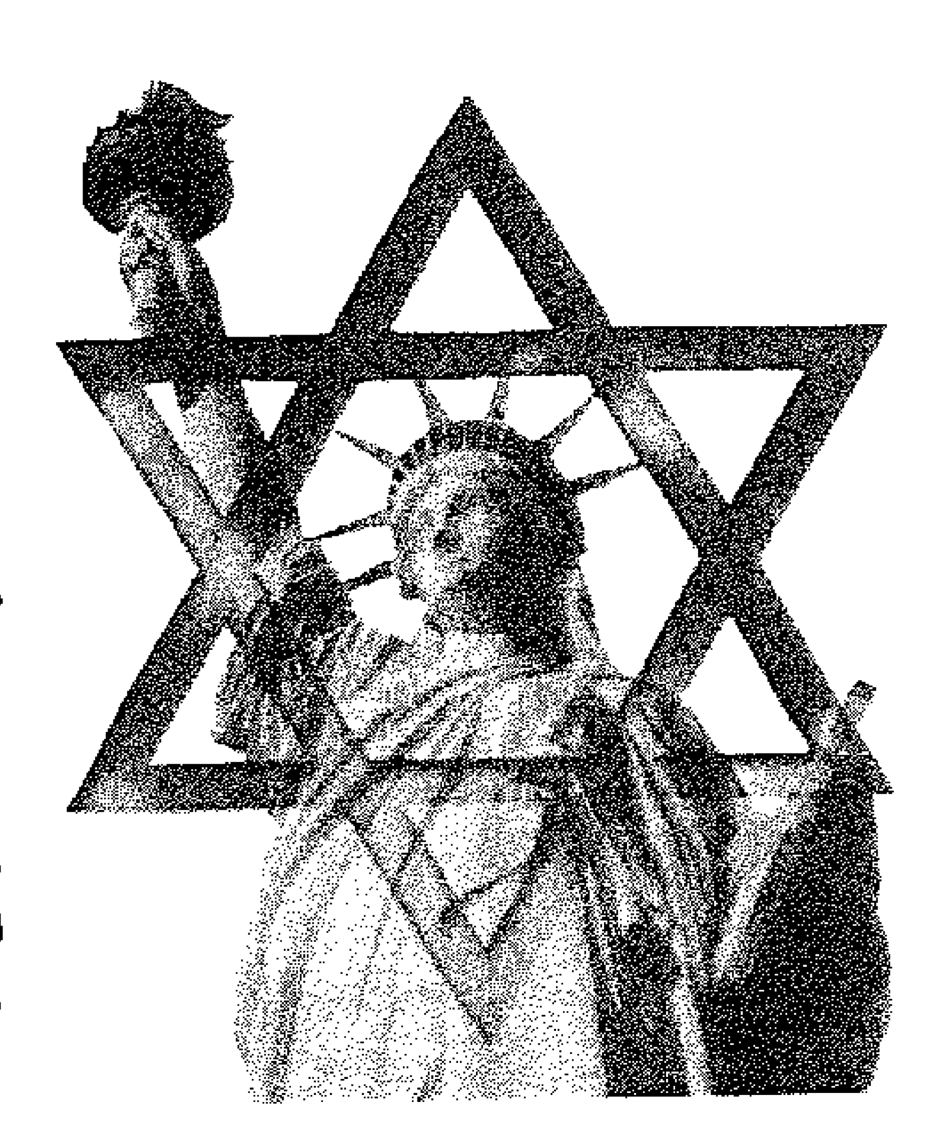
ومن عام ١٩٨٤ إلى عام ١٩٩٤، كان وورمزر مدير المنح الدولية لـ«معهد واشنطن للسياسة المتصلة بالشرق الأدنى»، وهو مجمع خبراء (Think Tank) متفرع من «اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للشئون العامة» (إيباك) (America Israel Public Affairs Committee (AIPAC))، أسسه مارتن إنديك (Martin Indyk) المولود في أستراليا الذي كان مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى في عهد الرئيس كلنتون ثم أصبح سفير الولايات المتحدة لدى إسرائيل. وقبل مجيئه إلى الولايات المتحدة، كان إنديك يعمل في مكتب رئيس الوزراء الإسرائيلي الذي كان آنذاك إسحاق شامير. وفي وقت أسبق، حين كان يعمل في الهيئة الأسترالية المناظرة لمجلس الأمن الوطني الأمريكي، كانت تحوم حوله شبهات كثيرة بكونه عميلا لإسرائيل. وفي أواخر أيامه كسفير للولايات المتحدة لدى إسرائيل، حقق مكتب التحقيق الفيدرالي (إيف. بي. آي) معه بسبب سلسلة من الانتهاكات الأمنية التي ارتكبها، كان من بينها اجتماعات لم يبلغ عنها مع رئيس الاستخبارات الخارجية الإسرائيلية، أي الموساد، وكذلك بسبب حيازته لبيانات سرية مخزونة في كمبيوترات شخصية غير مصونة.

وورمزر يشبه فايث من حيث إنه أسهم بالعديد من المقالات في مجلة «آوتبوست» (Outpost) التي تصدرها المنظمة الصهيونية الأمريكية. وعقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، كتب وورمزر على صفحات «الويكلي ستاندرد» (Weekly Standard) الصادرة عن الإمبراطورية الصحافية التي يملكها روبيرت مردوك (Rupert Murdoch)، وهو من أكبر أنصار إسرائيل، أن المملكة العربية السعودية، وبخاصة ولي العهد الأمير عبد الله، ينبغي أن يُحَمَّلا المسئولية المباشرة عن ارتكاب الهجمات الإرهابية. كما أنه ربط بين ولي العهد وبين «الوهابية المتزمتة» وحذر من أن في إمكان الأمير أن يستعيد التعاون بين المملكة العربية السعودية والعراق وسوريا. ثم كتب في ٢٩ أكتوبر ٢٠٠١ «أن شبكة بن لادن نشأت داخل هذه الكتلة الإستراتيجية المؤلفة من الوهابية والأمير عبد الله وسوريا والعراق ومنظمة التحرير الفلسطينية ثم أصبحت الهيكل الإرهابي الذي يوحد بين ما كانت حتى الآن جماعات مستقلة ومنعزلة وغير منسقة استراتيجيا. و«القاعدة» في أساسها وليدة سياسات آل سعود».



لماذا تصر الإدارة الأمريكية على الاستمرار في دق طبول الحرب على العراق؟ ومن هي القلة القليلة التي تخطط لتلك الحرب، ولمصلحة من تخطط لها إذا وضعنا في اعتبارنا أن أغلبية الشعب الأمريكي لا ترى أن مثل تلك الحرب تخدم مصلحته؟





(٢) ميراف وورمزر (Merav Wurmser)، زوجة دافيد

كانت الدعوة إلى إحداث قطيعة استراتيجية بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية موضوعا رئيسيا من المواضيع التي عني بها عدد من مجامع الخبراء المرتبطة بصلات وثيقة مع وورمزر. وفي هذا الصدد، نجد أن ميراف وورمزر زوجة دافيد، التي تدير برنامج الشرق الأوسط لمعهد هدسون، أخذت بزمام المبادرة في التهجم على المملكة العربية السعودية في أعقاب ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

ولميراف ارتباطات واسعة النطاق بالاستخبارات الإسرائيلية تكونت نتيجة لنشاطها السابق كمشاركة في تأسيس (Middle East Media Research Institue (MEMRI)) معهد البحوث المتصلة بوسائط إعلام الشرق الأوسط (ميمرى)، وهو هيئة أخرى من الهيئات الواقعة مقارها في القدس وواشنطن تتوفر على اختيار وترجمة المقالات المهيجة للمشاعر من الصحف العربية والإسلامية لتعميمها على وسائط الإعلام العالمية والحكومة الأمريكية.

وقد أسست ميراف معهد «ميمرى» بالاشتراك مع ييجال كارمون، وهو كولونيل متقاعد كان يعمل في استخبارات الجيش الإسرائيلي وشغل عدة مناصب عليا في الاستخبارات وعمليات مكافحة الإرهاب الإسرائيلية.



ويعمل «معهد هدسون» علانية على الدعوة إلى قيام الولايات المتحدة بالاحتلال العسكري للمقاطعة الشرقية من المملكة العربية السعودية التي توجد فيها كل احتياطياتها البترولية و«تحرير» تلك المقاطعة من حكم آل سعود. وقد كتب ماكس سنجر، المشارك في تأسيس معهد هدسون، مقالة نشرت في مايو ٢٠٠٢ في كل من «الجيروسالم بوست» و«النيويورك صن» (ويملك كليهما عضو مجلس إدارة المعهد كونراد بلاك) بعنوان «حرروا المقاطعة الشرقية من المملكة العربية السعودية»، طالب فيها باقتطاع ما سماه «الجمهورية الإسلامية لشرق الجزيرة العربية» من جسد المملكة. وفي يونية ٢٠٠٢، عقدت في مبنى الكونجرس برعاية معهد هدسون حلقة دراسية استهدفت آل سعود بوصفهم المسئولين عن رعاية الهجمات التي وقعت في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وتولت رئاسة الحلقة ميراف وورمزر.

ولايخفى أن السيناتور الجمهوري ماكين والسيناتور الديمقراطي ليبرمان آخذان في شن هجوم منسق على بوش يهددانه فيه بأنه إذا لم يعلن الحرب على صدام حسين ويوفر الدعم التام لخطط شارون الحربية فإن ماكين سينافسه في انتخابات الرئاسة لعام ٢٠٠٤، الأمر الذي سيضمن فشل بوش. وقد أحدث هذا التهديد مفعوله كما يدل على ذلك رضوخ بوش لشارون في خطابه الذي ألقاه في ٢٤ يونيه بشأن مستقبل العلاقات الإسرائيلية ـ الفلسطينية.



وتذكر مصادر مقربة من إدارة بوش أن المدير السياسي للبيت الأبيض كارل روف (Carl Rove) بالتهديد الذي يمثله تآلب ماكين وليبرمان على الرئيس فأخذ يصر على تفحص كل قرارات الرئيس المهمة في مجالي السياسة الخارجية والأمن الوطني للتكفل بألا تتخذ إدارته أي إجراء يمكن أن يغضب حكومة شارون أو اللوبي الصهيوني الأمريكي، الأمر الذي كان سيعرض للخطر فوز الحزب الجمهوري في الانتخابات لعضوية الكونجرس التي أجريت في نوفمبر ٢٠٠٢ وإعادة انتخاب بوش في عام ٢٠٠٤.

(٤) بول فولفوفتز (Paul Wolwowitz)

إن نائب وزير الدفاع بول فولفوفتز شخصية لها سطوتها داخل إدارة بوش، وكان لها فضل فتح الأبواب على مصراعيها لدخول أعضاء «الخلية» في صفوف موظفي وزير الدفاع.

وفولفوفتز يدعو من عهد طويل إلى الأخذ بالمبدأ المنصوص عليه في «مذكرة دراسة الأمن الوطني ٢٠٠» (National Security Study Memorandum 200 (NSSM-200)) والقاضي بالحد من تعداد سكان بلدان العالم الثالث ومن سيادة تلك البلدان بأي ثمن، سواء أكان ذلك بالحرب أم بالأمراض الفتاكة أم بأي وسائل إبادة أخرى «مشروعة» أو غير مشروعة لكي لا تستخدم هي مواردها الطبيعية التي يعتبرها التقرير ملكا لأمريكا وإنجلترا. وكان على رأس قائمة البلدان المستهدفة مصر وإيران وبعض دول أفريقيا السوداء.

هذا وقد بدأ فولفوفتز حياته الوظيفية الحكومية في عهد إدارة فورد حين عمل تحت رئاسة هنري كيسنجر وفريد إيكليه (Fred Ikle) وهو شخص آخر يشتبه في انتمائه إلى «اللجنة السينية» (X Committee) بصفة مساعد خاص لمدير وكالة مراقبة التسلح ونزع السلاح. وفي عهد إدارة ريجان ـ بوش، كان فولفوفتز مدير تخطيط السياسات في وزارة الخارجية، ثم أصبح فيما بعد رئيس شئون شرق آسيا وسفير الولايات المتحدة لدى إندونيسيا. أما تحت رئاسة جورج بوش الأكبر، فقد كان فولفوفتز وكيل وزارة الدفاع

المسئول عن رسم السياسات.

وكان لفولفوفتز دور فعال في تعيين فايث في البنتاجون وكذلك في اختيار ريتشارد بيرل لرئاسة مجلس السياسة الدفاعية التابع لوزير الدفاع رامسفيلد. كما أنه عين دوف زاكهايم، وهو عميل يميني آخر من عملاء اللوبي الصهيوني، في وظيفة عليا في البنتاجون بصفة مراقب حاسبات.

ومن حيث أن فولفوفتز ثاني أعلى مسئول في البنتاجون، فإنه اضطر إلى الامتثال للخط المرسوم في تصريحاته العلنية؛ أما فيما وراء الكواليس، فإن الأمر مختلف. من ذلك أنه عمد في اجتماع في كامب دافيد عقد في ٢١ سبتمبر ٢٠٠١ وضم كبار موظفي الإدارة في مجال رسم السياسات إلى الدعوة إلى القيام بغزو أمريكي كامل للعراق بغية الإطاحة بصدام حسين ردا على هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بالرغم من عدم وجود أي دليل على ضلوع العراق فيها.

(٥) ريتشارد بيرل
(Richard Perle)

إذا أردنا الدقة فإن ريتشارد بيرل لا ينتمي إلى إدارة بوش، ووظيفته كرئيس لمجلس السياسة الدفاعية هي محض استشارية. وواقع الحال أن بيرل موظف لدى «هولنجر كوربوريشن» (Hollinger Corporation, Plc.)، وهي امبراطورية إعلامية تابعة لعضو مجلس اللوردات كونراد بلاك يقع مقرها في لندن وتملك «الديلي تيلجراف» في انجلترا و«الجيروسالم بوست» في إسرائيل وسلسلة من الصحف في جميع أنحاء الكمنولث البريطاني وفي الولايات المتحدة. وهنري كيسنجر يشارك في رئاسة المجلس الاستشاري الدولي لـ «هولنجر كوربوريشن».

وفي الآونة الأخيرة، بدأ كونراد بلاك ومايكل ستاينهارت، وهو من أكبر مقدمي الدعم المالي لجوزيف ليبرمان، في إصدار صحيفة يومية جديدة في مدينة نيويورك هي «النيويورك صن»، والمقصود بها بجلاء ترويج برنامج فريق دعاة الحرب.

(٦) هنري كيسنجر
(Henry Kissinger)

وهنري كيسنجر هو أيضا عضو في مجلس السياسة الدفاعية الذي يرأسه بيرل، شأنه في ذلك شأن مدير وكالة الاستخبارات المركزية السابق جيمز وولزي (James Woolsey)، الذي هو أيضا محامي المؤتمر الوطني العراقي وأكبر داعية للقيام بغزو عسكري أمريكي للعراق.

وقد ذكرت «النيويورك تايمز» مؤخرا أن إعادة إدراج غزو العراق في جدول أعمال إدارة بوش جاء نتيجة لتوصية من مجلس السياسة الدفاعية.

وقد كرس بيرل، المعروف في أوساط صنع السياسات في واشنطن باسم «أمير الظلام»، حياته العامة لترويج سياسة هنري كيسنجر الفتاكة المتجسدة في «مذكرة دراسة الأمن الوطني ٢٠٠» (National Security Study Memorandum 200 (NSSM-200).

وفي عام ١٩٧٨، نجد أن بيرل، الذي كان آنذاك موظفا في لجنة التحقيق الفرعية الدائمة التابعة لمجلس الشيوخ التي كان يرأسها السيناتور الديمقراطي هنري جاكسون، استضاف المستشرق الدكتور برنارد لويس حين جاء إلى واشنطن لترويج سياسته القائلة بوجود ما أسماه «قوس الأزمات» لدى مجلس الأمن الوطني على عهد كارتر الذي كان يضم زبجنيو برجنسكي وصموئيل هنتنجتون صاحب نظرية «صراع الحضارات» سيئة الصيت.

وفي عهد إدارة ريجان، قدم براين (Bryen) من «المعهد اليهودي لشئون الأمن الوطني» ليصبح نائب بيرل، واستخدم الاثنان منصب بيرل لتنفيذ «أبارتهيد تكنولوجي» ضد طائفة واسعة من بلدان العالم الثالث عن طريق المطالبة بإعطاء وزارة الدفاع حق الفيتو ضد أي مبيعات خارجية لأي تكنولوجيات «ذات استخدام مزدوج» يمكن أن تكون لها أي تطبيقات عسكرية.

(٧) جون بولتون
(John Bolton)

وكيل وزارة الخارجية الأمريكية المسئول عن مراقبة التسلح والمنظمات الدولية، وهو الذي جاء بدافيد وورمزر ليكون مساعده الخاص.

وفي إطار منصبه المذكور بوصفه رئيس هيئة مراقبة التسلح، قام بولتون بدور رئيسي في «استعراض السياسة النووية» الذي اضطلعت به إدارة بوش، والذي انتقده بشدة الجنرال الروسي ليونيد إيفاشوف في مقابلة له مع إحدى وكالات الأنباء في ١١ يناير ٢٠٠٢. وكان من رأي إيفاشوف أن الاستعراض ينادي بالاستخدام الوقائي أو الإستباقي للأسلحة النووية ضد الدول اللانووية، وأنه بالإضافة إلى ذلك يتسق مع سياسة هنري كيسنجر المجسدة في «مذكرة دراسة الأمن الوطني ٢٠٠» (National Security Study Mem orandum 200 (NSSM-200) بشتى مظاهر تلك السياسة.

وقال إيفاشوف في هذا الخصوص: «لو طالعنا استراتيجية الأمن الوطني التي وضعتها الولايات المتحدة للقرن القادم لوجدنا أن الأمريكيين يعتبرون استنفاد الموارد الطبيعية وتسارع نمو سكان العالم مشكلتين من المشاكل ذات الأولوية... ولهذا فإن من الجلي أن ما تفعله الولايات المتحدة في مختلف بقاع العالم إنما تفعله لإجبار أمم تلك الأصقاع على الدخول في مسار التنمية التراجعية... وإذا كانت هذه النتيجة التي خَلُصْتُ إليها صحيحة، فإن الأسلحة النووية تصبح في تلك الحالة حقا أسلحة من أسلحة ميدان القتال».

(٨) ج. د. «جاك» كراوتش
(J. D. "Jack" Crouch)

هو مساعد وزير الدفاع المسئول عن الأمن الدولي، وله مكانه كعضو كامل العضوية في عشّ «الشبكة» أو «الخلية» داخل البنتاجون.

وقد بدأ كراوتش حياته الوظيفية الحكومية كمساعد تشريعي للسيناتور الجمهوري مالكولم والوب (Malcolm Wallop)، وهو سيناتور موال للإنجليز من أعضاء اللجنة المختارة المعنية بالاستخبارات، وكان يساعده فيها معاونه الرئيسي آنجيلو كودفيلا (Angelo Codevilla) الذي هو الآن مدير مشارك لشعبة الأمن الوطني في «معهد الدراسات الإستراتيجية والسياسية العليا» التي كان دافيد وورمزر يعمل فيها أيضا. وهذا المعهد هو مجمع الخبراء الذي أعد برئاسة بيرل، لأغراض نتنياهو الذي كان رئيس الوزراء في ذلك الوقت، دراسة عن كيفية سحق أي تحرك نحو إنشاء دولة فلسطينية، ووضع حدّ لـ «الصهيونية العمالية» المتمثلة في «حزب العمل» الإسرائيلي والاستعاضة عنها باقتصاد «السوق الحرة» الذي تنادي به «جمعية مونت بلران» (Mont Pelerin Society).

وكراوتش معروف بأنه من دعاة الحرب العريقين، وقد روّج في السنوات الأخيرة للحرب ضد كوريا الشمالية لتدمير «المجمع النووي فيها»، وكذلك للحرب ضد كوبا للقضاء على نظام كاسترو.

أيقن الكثير من الأمريكيين الآن أنهم فقدوا السيطرة على حكم أنفسهم بأنفسهم بسبب الصهاينة الأمريكيين المتحدين مع الصهيونية العالمية ومركزها إسرائيل. وقد ضاق بعضهم بهذا الوضع إلى درجة أنهم بدأوا يتهمون أعضاء الكونجرس بخيانة أمريكا



ولكن ما هي جذور الأفكار التي تجعل كراوتش ينادي بشن مثل «حرب الثلاثين سنة» هذه؟ حين كان كراوتش خارج الحكومة، انتمى إلى جماعة «الجمهوريون المغتربون / جامعة أكسفورد» (Republicans Abroad-Oxford University) التي تدعو أعضاءها إلى «الاعتماد على التجارب الإمبريالية البريطانية». وعلى الأخص، أخذت هذه الجماعة بالأفكار التي بشر بها في أوائل القرن العشرين السر هالفورد ماكندر (Halford MacKinder)، صاحب «الجغرافية السياسية» التي تقضي بالاستيلاء على «قلب» المنطقة الأوراسية، والتي وفرت للملك إدوارد السابع الغطاء الذي تستر تحته لإشعال نيران الحرب العالمية الأولى.

(٩) آيان برجنسكي
(Ian Brzezinsky)

يعمل في البنتاجون تحت الرئاسة المباشرة لكراوتش بصفة نائب مساعد وزير الدفاع لأوروبا وحلف شمال الأطلسي (الناتو). وهو نجل زبجنيو برجنسكي الذي كان مستشار الأمن الوطني للرئيس كارتر، وعراب المجاهدين الأفغان، وأحد مريدي المستشرق البريطاني برنارد لويس.

(١٠) إليوت أبرامز
(Elliot Abrams)

هو المدير الأقدم لمكتب الشئون الديمقراطية وحقوق الإنسان والعمليات الدولية. وكان زميلا أقدم في فرع معهد هدسون في واشنطن العاصمة. وبعد الاشتغال لمدة قصيرة في قطاع الأعمال والمجال القانوني، عُيِّن أبرامز رئيسا للجنة الأمريكية المعنية بالحرية الدينية على الصعيد الدولي التي عمل من خلالها مع الحاخام مورتن روزنثال (Rabbi Morton Rosenthal)، مدير شعبة أمريكا الجنوبية لرابطة مكافحة التشهير التابعة لـ «بناي بريث».

وكان أبرامز أحد الكامنين في عش المشتبه بكونهم جواسيس لإسرائيل - وبضمنهم بيرل وجافني (Gaffney) وبراين - وكانوا جميعا من موظفي مجلس الشيوخ في أواخر السبعينيات وأسندت إليهم وظائف مهمة داخل إدارة ريجان.

(١١) تم جوجلن
(Tim Goegelin)

مسئول عن تيسير اتصالات البيت الأبيض بـ «المجتمع الديني»، وقد تولى وظيفته في البيت الأبيض على أساس ما له من صلات قديمة العهد بـ «جاري باور» (Gary Bauer)، وهو صهيوني مسيحي يروج لمساعي شارون الحربية في الشرق الأوسط.



كل هؤلاء هم بالفعل أمريكيون، ولكنهم كلهم وبدون استثناء صهاينة خدموا خدمة مباشرة إما في إسرائيل، أو في لجان أو مؤسسات إسرائيلية لها فروع في أمريكا. والترشيح لعضوية الكونجرس ورئاسة الجمهورية في أي من الحزبين الديمقراطي والجمهوري لا يمكن أن يتم إلا بموافقة اللجنة الرئاسية لكل من الحزبين، وبذلك فإنها تتحكم فيمن يُقْبَل ترشيحه لينوب عن الشعب الأمريكي، علما بأن الصهاينة نجحوا في السيطرة التامة على كلتا هاتين اللجنتين. أما التمويل فإنه يتم من خلال مؤسسات مالية ذات ارتباط مباشر بالمؤسسات الراسمة للسياسة الأمريكية المذكورة أعلاه. وهذه المؤسسات المالية تدعم هذا الترشيح وتعمل من خلال إعلام ممول ومسيطر عليه من الصهيونية العالمية. ويتعين على كل مرشح و/أو ممثل ألا يحيد عن «الصراط المستقيم» الذي تحدده السياسة الصهيونية المرسومة، وإلا فإنه يحدث له ما حدث للنائبة السوداء «سينثا ماكني» (Cynthia McKinney)، التي تجرأت على طلب إجراء تحقيق نزيه لمعرفة حقيقة ما حدث في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، كما تجرأت على انتقاد سياسة إسرائيل في فلسطين، وصوتت ضد الحرب على العراق، فإذا بأموال الصهاينة تتدفق بالملايين من جميع أرجاء الولايات المتحدة كما جاء في صحيفة «النيويورك تايمز»، وتم شراء الأصوات لإزاحتها من الكونجرس. وحين نجحوا في إزاحتها، قال رئيس «إيباك» مورس أميتاي «فلتكن هذه عبرة لمن اعتبر»، وذلك على ما ذكرت «النيويورك تايمز» أيضا في عددها الصادر في ٢٢ أغسطس ٢٠٠٢. ويلاحظ في هذا الصدد أن قرار الحرب على العراق اتخذ قبل أسبوع واحد من الانتخابات لعضوية الكونجرس في نوفمبر الماضي، وكان التصويت بالموافقة على ذلك القرار هو الثمن الذي دُفِع للصهاينة من أجل الفوز فيها. وبذلك أصبحت الديمقراطية الأمريكية «معروضة للبيع» على حد قول الكثير من الأمريكيين المخلصين المحبين لبلدهم.



وها نحن نجد اليوم أن العبيد أصبحوا هم الأسياد! ولكن مع أنهم يحاولون دائما اتهام كل من يعارض الحرب بالخيانة. فإن الأصوات تعلو باتهامهم هم بالخيانة بتدبيرهم وإقحامهم أمريكا في حرب غير إنسانية تخالف الدستور الأمريكي. لا لشيء إلا لخدمة مصالح إسرائيل والصهيونية العالمية التي تريد السيطرة على العالم.

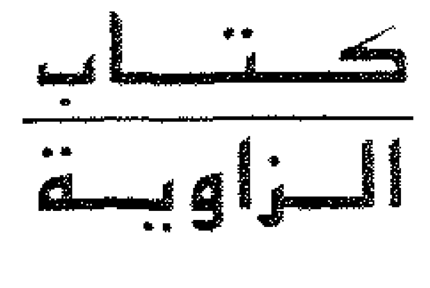
وقد أيقن الكثير من الأمريكيين الآن أنهم فقدوا السيطرة على حكم أنفسهم بأنفسهم بسبب الصهاينة الأمريكيين المتحدين مع الصهيونية العالمية ومركزها إسرائيل. وقد ضاق بعضهم بهذا الوضع إلى درجة أنهم بدأوا يتهمون أعضاء الكونجرس بخيانة أمريكا.

إن الصهاينة الذين بدأوا في أول عهدهم منذ مائة عام، بتسخير أنفسهم لخدمة مصالح الغرب خدمة العبد للسيد إذا ساندهم الغرب في تحقيق أمانيهم، قد انتهى الأمر بهم، على ما بينا آنفا، إلى أن أصبحوا الآن هم الأسياد. وقد اعتمد الصهاينة أكثر ما اعتمدوا على إنجلترا وفرنسا، كل منهما عندما كانت لها صولة وجولة في زمانها. ولا مشاحة في أنهم قدموا خدمات جليلة لهاتين الدولتين، ثم من بعدهما إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنهم أخفوا طوال ذلك الوقت أن ما كانوا يعملون ويخططون له في الحقيقة هو أن يتملكوا في نهاية المطاف زمام حكم العالم في غضون فترة المائة عام التي انتهت في عام ١٩٩٧.



بيد أن من حسن الحظ أن أعداد الساخطين على هذا الوضع آخذة في الإزدياد يوما بعد يوم وهناك اليوم حالة وعي شعبي أخذت تسري سريان النار في الهشيم، كما بدأت الأصوات تعلو في الكنائس وفي الجامعات والنقابات والأوساط الفنية ولاسيما في هوليوود، لا بل حتى في الكثير من الجماعات اليهودية المناهضة للصهيونية. ولأول مرة في تاريخ الولايات المتحدة، يتظاهر ٢٠٠٠٠٠ أمريكي أمام البيت الأبيض يوم ٢٦ نوفمبر الماضي ضد الحرب قبل اندلاعها. وهناك جماعات كثيرة، من بينها جمعية A.N.S.W.E.R وجمعية وزير العدل الأمريكي السابق رامزي كلارك، تخطط لمظاهرات أخرى حاشدة أمام البيت الأبيض ليعلم راسمو سياسة الدمار الشامل أن غالبية الشعب الأمريكي تقول «لا» للحرب.

نعم، إن الصهاينة يملكون القوة بالفعل عن طريق الإدارة الأمريكية، إلا أن سياسة الحرب والاحتلال والاستعمار تحتاج إلى دعم شعبي، وهو غير متوفر لهم. ولهذا فإن المعارضة الشعبية العامة العارمة لابد لها أن تنتصر على القوة الغاشمة أيا كان طغيانها. ■





مصر والسودان

هل تصبح مصر مرة أخرى الحاكمة الفعلية الحقيقية للبلاد التى كانت مصر سيدتها الشرعية ومالكتها قبل حكم المهديين؟

هل تدرك وتفهم جيداً كل مملكة من الممالك المتمدينة - السائرة مجردة عن الهوى إلى شواطئ النيل الصالحة للملاحة - أن الواجب يقضى عليها بعدم محاولة قطع أو مقاومة مصدر حياة مصر النائية بتحويل منافع الماء الراوية إلى الأراضى التى تحصل عليها كل منهن؟

هل تسعى الممالك المتمدينة سعيًا شريفًا فى كل ما يعملنه وتفكر كل على حدة فى أن الفضيلة تقتضى التجرد عن الهوى وعدم تعريض مصالح مصر للخطر؟ هل ترضى كل مملكة رضاء المخلص الشريف بعدم التقدم لسفك الدماء وإنفاق الأموال فى سبل غير مشروعة كل ما فيها مكسب لا يجيء إلا من اعتداء غير مشروع؟ هل تدرك كل دولة أنه من غير اللائق أن تتدخل فى شئون مصر وحقوقها المشروعة؟

تلك أسئلة تدخل فى دائرة السياستين العملية والتدريبية وقد لا يكون من عملى البحث فيها ومناقشتها والإفصاح عن غوامضها . . إن كل ما أرمى إليه هو الإفضاء بآرائى المجردة عن الهوى والتى يدفعنى إلى تقريرها وازع من ضميرى يذكرنى دائمًا بأهمية وفائدة وقيمة السودان لمصر، وإنى أصرح بمناصرتى لذلك الرأى ودفاعى عنه بكل ما لى من قوة.

إن الأسباب التى دفعت محمد على إلى امتلاك السودان منذ ثلاثة أرباع قرن، كانت ولاتزال وستبقى وجيهة جداً، ويكفى تلخيص ذلك فى أن النيل حياة مصر.



بإبداعات جديدة وأسرار جديدة
يعود للقاهرة لثالث مرة...!

شيف شامبون يلقاكم مجدداً
فى الجريل

من ٢٩ يناير وحتى ٦ فبراير

سميراميس
انتركونتيننتال
القاهرة

شيف شامبون فى الجريل لثالث مرة



الجريل يستقبل الشيف الفرنسى دانييل **شامبون** الحاصل على **ميشلان ستار** ليقدم إبداعات وأسرار جديدة فى الفترة من **٢٩ يناير وحتى ٦ فبراير**. إستمتعوا بمذاق وخبرة عشرات السنوات وتراث عائلى تتوارثه الأجيال، شامبون ينقل إبداعاته من **بيرجوار** الفرنسية حيث أشهر أطباق **الفواجراه والترُفل** إلى القاهرة من خلال الجريل... مطعمنا الفرنسى.
تعال إلى الجريل حيث سحر الليالى الفرنسية.

بالتعاون مع:

AIR FRANCE

للحجز وللمزيد من المعلومات برجاء الإتصال بمكتب حجوزات المطاعم تليفون: ٧٩٧١٨١٨ داخلى: ١١٥١

للحجز فى جميع أنحاء العالم برجاء الإتصال بالهاتف المجانى رقم: ٢٢ ٣٣٣ ٤٤ ٠٠ ٨٠.

حــواء الجديدة

الحقيقــــة والمبالغــــة

فى قصة

الاســـتنســــــاخ البشـــــــرى

مـــحـــمـــد أبوالغـــار

الاستنســـاخ شيء عـادى وطبيعي فى بعض الكائنـات ذات الخلية الواحدة مثل البكتيريا والميكروبات المرضية التى تنقسم بسـرعة فائقة إلى الآلاف والملايين من نسـخ أخـرى مطابقـة تمامـاً للخليـــة الأولى



■■ منذ بدء الخليقة وحتى يومنا هذا يعتبر مجيء طفل جديد إلى الدنيا حدثاً مهماً بالنسبة لأسرته، ويكون الحدث أكثر أهمية، إذا تم الحمل بعد فترة عقم طويلة، وقد يكون حدثاً قومياً للأمة كلها إذا كـان المولود ولـيّـاً للعــهـد، ويذكـر تاريخ مـصـر الحـديث الأفـراح والليالى الملاح التى صاحبت مولد الأمير أحمد فؤاد ابن الملك فاروق والذى استمر وليّاً للعهد ثم ملكاً لفترة قصيرة وهو طفل حتى تم إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية، وعبر التاريخ كان الإنسان يرغب دائماً فى محاولة تخليد نفسه بإنجاب الأطفال.

وفى بعض الأحيان يعانى الزوجان من مشاكل تؤدى إلى العقم وصعوبة فى حدوث الحمل بالطريق الطبيعي، حينئذ يتدخل الطب لحل المشكلة، وأصبحت إمكانية حدوث الحمل متاحة بالطرق الحديثة التى تطورت فى السنوات الأخيرة، وبقيت نسبة بسيطة من حالات العقم التى يعجز الطب عن إيجاد علاج لها.

وكانت طريقة «أطفال الأنابيب» هى المدخل الأساسى لعلاج الحالات المستعصية من العقم.. وكانت هذه التكنولوجيا المتقدمة هى السبب الرئيسى لتفكير العلماء فى تطويرها إلى تكنولوجيا الاستنساخ.

كـيـف يحـدث الحـمل الطبـيـعـى؟

تتحرك الحيوانات المنوية من المهبل داخل الرحم ومنه تتحرك إلى أنابيب فالوب حيث تلتقى بالبويضة التى تكون قد خرجت من المبيض ودخلت الأنبوبة، ويتم الإخصاب بدخول الحيوان داخل البويضة. وتتحرك البويضة المخصبة داخل الأنبوبة فى اتجاه الرحم ويحدث انقسام داخل هذه الرحلة وداخل الرحم وفى النهاية يلتصق الجنين بجدار الرحم ويتم الحمل.

كـيف يحـدث الحـمل فى أطفـــال الأنـابـيـب؟

فى أطفال الأنابيب يتم تكوين الجنين من حيوان الزوج وبويضة الزوجة خارج الجسم وتستخدم هذه الطريقة للتغلب على مشاكل تعوق إخصاب البويضة داخل الجسم، مثل انسداد قنوات فالوب التى تحمل البويضة من المبيض للرحم أو بسبب الضعف الشديد للحيوانات المنوية القادرة على إخصاب البويضات بالطريقة الطبيعية أو عدم وجود حيوانات منوية فى السائل المنوى مع وجودها داخل الخصية.

وفى جميع الحالات يتم إعطاء السيدات أدوية منشطة تسبب نضوج عدد من البويضات يتم متابعة نموها عن طريق الموجات الصوتية، وعندما تصل للحجم المناسب يتم التقاط البويضات بإبرة طويلة تدخل إلى المبيض عن طريق المهبل ويكون توجيهها بمساعدة الموجات الصوتية، ويتم إخصاب البويضة بالحيوان المنوى للزوج الذى يؤخذ من السائل المنوى أو من داخل الخصية، ويتم ذلك فى المعمل وتوضع البويضة المخصبة فى الحضانة فى سوائل مغذية ودرجة حرارة ونسبة ثانى أوكسيد الكربون مماثلة للظروف الموجودة داخل رحم الأم. ويستمر انقسام الجنين خارج رحم الأم لمدة تتراوح بين يومين إلى ثلاثة أيام وأحياناً خمسة أيام وبعدها ينقل الجنين إلى داخل الرحم.

وتكنولوجيا أطفال الأنابيب مخالفة تماماً لتكنولوجيا الاستنساخ.

مـــا هو الاســـتنســـاخ؟

هو تكوين مجموعة من الخلايا أو إنسان أو حيوان تكون متطابقة تماماً فى تكوينها الجينى والوراثى للكائن الذى استنسخت منه.

و الاستنساخ شيء عادى وطبيعي فى بعض الكائنات ذات الخلية الواحدة مثل البكتيريا والميكروبات المرضية التى تنقسم بسرعة فائقة إلى الآلاف والملايين من نسخ أخرى مطابقة تماماً للخلية الأولى.

كـــيف بـدأت رحـلة الاستنساخ وكيف تطورت؟

بدأت هذه الرحلة عام ١٩٠١ حين استطاع العالم الألمانى هانز سبنسمان إجراء انقسام فى دودة مكونة من خليتين فقام بشطرها إلى دودتين كل منهما تحتوى على خلية واحدة مماثلة تماماً للأخرى.

وفى سنة ١٩١٤ قام نفس العالم باستنساخ دودتين متشابهتين، ثم قام بعد ذلك بتفريغ بويضة من المواد الجينية الموجودة بها ونقل خلية مكتملة النمو داخل البويضة.

وكان ذلك البحث هو أول الطريق فى استنساخ الإنسان وقد حصل سبنسمان على جائزة نوبل فى الفسيولوجيا والطب عام ١٩٣٥ عن هذه المجموعة من الأبحاث.

وفى عام ١٩٥٠ قام عالم النبات الشهير ستيوارد باستنساخ النبات واستطاع زيادة إنتاج الجزر آلاف المرات بهذه الطريقة.

وفى عام ١٩٥٢ استطاع العالمان الأمريكيان كينج وبريج استنساخ ضفدعة ولكنهما لم يسمحا، لأسباب أخلاقية للضفدعة بأن تنمو وتتحول إلى ضفدعة ناضجة وأنهوا التجربة. ومنذ هذا التاريخ أصبح استنساخ الفواكه والطماطم والجزر وكثير من الحشرات والكائنات الحية الصغيرة شيئاً عادياً.

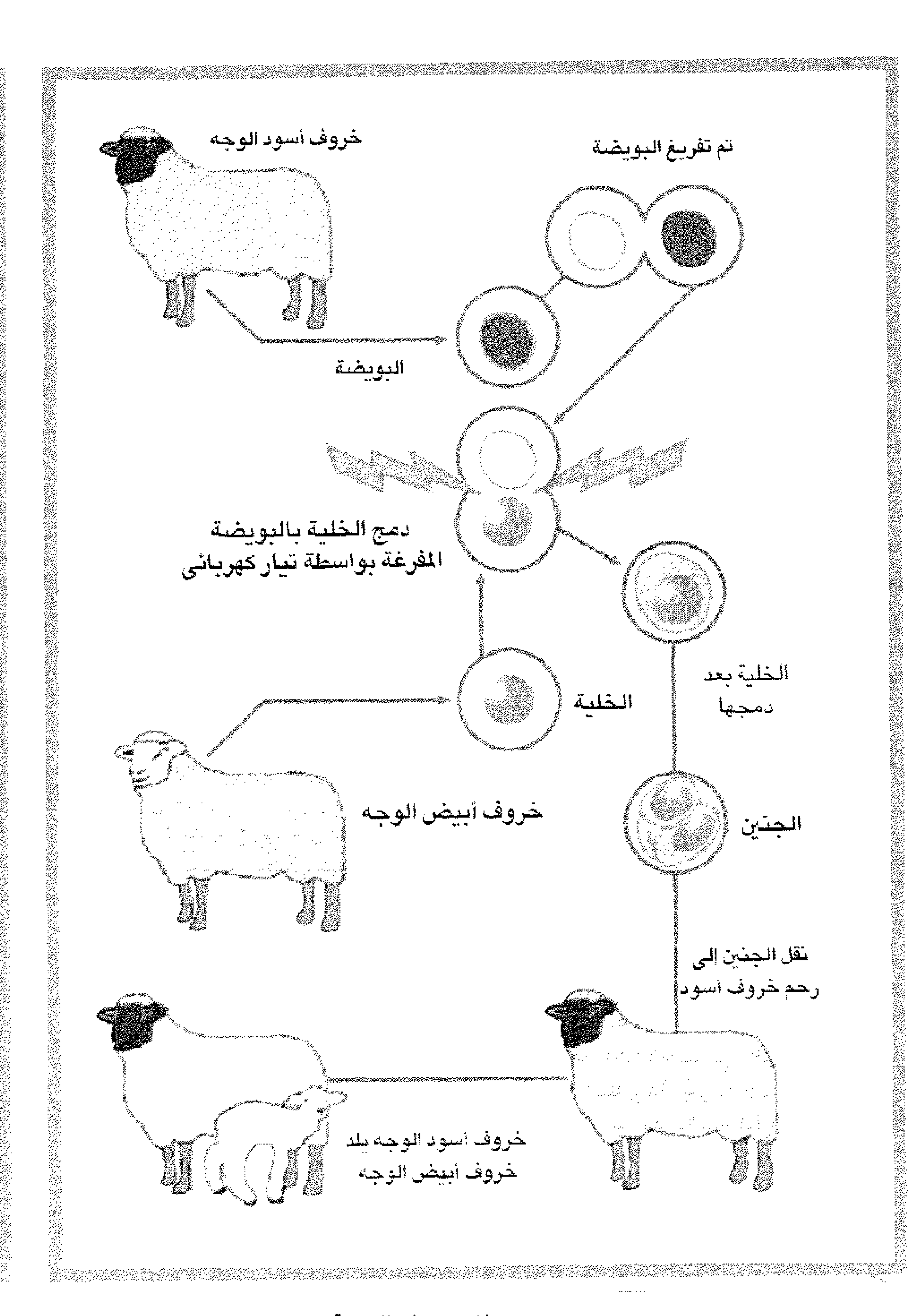
وفى عام ١٩٥٣ حدثت الثورة الكبرى فى عالم البيولوجيا والطب وذلك باكتشاف مكونات الدنا (DNA) والتى هى أساس كل شيء فى الحياة وموجودة داخل النواة فى كل خلية كائن حى. ونال العالمان الأمريكيان واطسن وكريج جائزة نوبل فى الطب على هذا الاكتشاف الذى غير وجه الحياة على الكرة الأرضية.

وبهذا الاكتشاف الذى يعتبر من أكبر الاكتشافات العلمية فى تاريخ الطب - إن لم يكن أكبرها وأهمها - بدأت ثورة البحث فى علوم الوراثة، والذى أصبح التقدم فيه طريقًا مهمًا لخير البشرية إذا أحسن استخدامه وكارثة على البشرية إذا أسيء استخدامه.

وتطبيقاً لهذا الاكتشاف بدأ علم الهندسة الوراثية الجبار فى اكتشافاته المثيرة للجدل.

وبدأ التطور سريعاً فاستطاع العالم البريطانى هالدان استنساخ ضفدعة كاملة وكان ذلك أول خطوة فى طريق استنساخ الفقريات.

وفى عام ١٩٧٠ قام العالم الأمريكى بريج باكتشافه المذهل فى الهندسة الوراثية وذلك بإحداث انقسام فى الدنا (DNA) واستطاع تكوين أول (دنا) مصنعة فى المعمل والذى



رسم توضيحى لاستنساخ النعجة

سيدة متبرعة بالبويضة
تم تفريغ الخلية
البويضة
دمج الخلية بالبويضة
المفرغة بواسطة تيار
كهربائى
الخلية بعد دمجها
الشخص المستنسخ
الخلية المستخدمة فى
الاستنساخ
الجنين
نقل الجنين إلى
رحم سيدة
ولادة الطفل المستنسخ

رسم توضيحى لاستنساخ الإنسان

أصبح الأساس فى تصنيع أنواع مهمة كثيرة من الأدوية فى المعمل وخاصة الهورمونات مثل الأنسولين بدلاً من استخراجها من دم وبول الإنسان والحيوان وحصل بريج على جائزة نوبل على هذا الكشف الجبار.

وفى عام ١٩٧٤ وافقت المحكمة الدستورية العليا فى الولايات المتحدة على أن يجرى العلماء أبحاثًا على الأجنة البشرية الناتجة من الإجهاض.

وفى عام ١٩٧٨ ولدت فى بريطانيا أول طفلة أنابيب وذلك بإخصاب بويضة الأم بالحيوان المنوى للزوج خارج الجسم ونقل الجنين للرحم بعد ثلاثة أيام وقام بذلك العالمان البريطانيان إدواردز وإستبتو.

وفى نفس العام كتب مليونير أمريكى كتاباً يدعى فيه أنه استنسخ نفسه وحقق أرباحاً تقارب المليون دولار من بيع الكتاب ولكن الهيئات الطبية اعتبرت الكتاب رواية خيالية وليست حقيقية كما ادعى المؤلف.

وفى عام ١٩٨٤ استنسخ العالم الدنمركى ويلادنسن نعجة من خلية مأخوذة من جنين ووضعها فى بويضة مفرغة وهى خطوة أسهل بكثير من استخدام خلية مكتملة النضوج والذى تحقق بعد ذلك فى النعجة دوللى. جذبت الولايات المتحدة هذا العالم الدنمركى ليعمل فى شركة أمريكية لاستنساخ السلالات الراقية من جميع الحيوانات بما فى ذلك البقر. وكانت أبحاث هذا العالم هى التى شجعت ويلمت على إجراء التجربة المعجزة وهى استنساخ دوللى من خلية مكتملة النضوج فى عام ١٩٩٧.

وفى عام ١٩٩٨ استخلص العلماء الخلايا الجذرية وبدأت مراحل استخدامها فى العلاج وفى نفس العام بدأ إنتاج حيوانات بها جينات آدمية نقلت إلى الحيوان من الإنسان مثل النعجة دوللى. ووضعت النعجة دوللى أول مولود لها وثبت أن النعجة المستنسخة يمكن أن تقوم بالحمل الطبيعى.

وفى نفس العام تمت بنجاح زراعة خلايا قاعدية فى المعمل تنتج إلى مالا نهاية خلايا ممكن أن تستخدم كقطع غيار للأنسجة التالفة فى جسم الإنسان وفى نفس الوقت أثيرت قضية عمر الحيوانات المستنسخة والتى ربما يكون عمرها أقل من العمر الافتراضى ولكن هذا الموضوع لم يحسم علمياً حتى الآن.



وفى سنة ٢٠٠٠ وافق الرئيس الأمريكى بوش على تمويل أبحاث الخلايا القاعدية لإنتاج الأنسجة ووافق مجلس اللوردات البريطانى على استنساخ الخلايا القاعدية بغرض أبحاث العلاج على أن لا يستمر عمر الجنين الذى تستخرج منه الخلايا أكثر من ١٤ يومًا وبعد ذلك يتم تدميره وكان ذلك فى يناير ٢٠٠١.

وفى ٢٠٠١ أيضاً نجح العالم الأمريكى واليابانى الأصل واكاياما فى استنساخ خلايا آدمية تنتج الأنسولين البشرى فى الحيوانات.

وفى مارس ٢٠٠١ استنسخ العلماء فى كاليفورنيا ثلاثة خراف ولدت بصحة جيدة ولكن اثنين منها ماتا فجأة بسبب مرض نقص المناعة والكثير من الحيوانات المستنسخة عاشت فترة أقل من عمرها الافتراضى ولم يعرف السبب بالضبط هل هو بسبب مشكلة فى الجزء الأخير من الكروموزومات أو بسبب زيادة العمر الأصلى للخلية المستخدمة أو لأسباب أخرى يمكن التغلب عليها فى المستقبل.

وبالطبع هذا الأمر يثير قلق الباحثين لأن تطبيقه على الإنسان يكون له عواقب وخيمة ولو أن عمر المولود المستنسخ سوف يكون أقصر من عمر الإنسان الطبيعى ويعتقد بعض العلماء أن هذه الحيوانات المستنسخة ضعيفة البنية والمناعة ولو أنها تُركت فى المزارع مع بقية الحيوانات لماتت ولم تستطع الحياة والتكيف ولكن وجودها تحت رعاية طبية يعطيها إمكانية استمرار الحياة، وفى معمل إحدى شركات الاستنساخ للحيوانات فى ولاية كانساس الأمريكية كانت نسبة حدوث الحمل فى الخراف المستنسخة ٦٪ فقط ونصفها يموت فى الأيام الأولى بعد الولادة.

وفى يوليو عام ٢٠٠١ نشر مقال مهم فى مجلة سيانس (Science) وهى من أكثر المجلات العلمية احتراماً فى العالم، ويقول الكاتب أن هناك حقائق بدأت فى الظهور تشير بأن الحيوانات المستنسخة ليست طبيعية تماماً من الناحية الجينية وهذا يفسر قصر عمرها.

أنواع الاستنساخ:

استنساخ الخلايا والأنسجة

بعد مرور حوالى خمسة أيام من عمر الجنين فى المعمل يصبح فيه عدد كبير من الخلايا التى تكون قادرة على الانقسام بسرعة فائقة ثم التطور لتصبح خلايا متخصصة كخلايا الأعصاب أو الكبد أو القلب أو الجلد وهى التى يتكون منها جميع أنسجة الجنين بعد ذلك. وهذه الخلايا الأولية تسمى الخلايا القاعدية وقد استطاع العلماء فصل هذه الخلايا وزرعها فى المعمل وحيث إنها تتكاثر بسرعة فائقة إلى ما لا نهاية فنتج عن ذلك البلايين والبلايين من هذه الخلايا ويستطيع العلماء إعطاء إشارات كيميائية معينة لتحويل الخلايا القاعدية إلى خلايا متخصصة كخلايا الكبد أو الكلى والأعصاب وغيرها. ويمكن بعد ذلك نقل هذه الخلايا عن طريق فيروسات معينة لا تؤذى الإنسان إلى العضو المصاب لإصلاحه وإعادته لوظيفته الطبيعية وهذه الطريقة قادرة على شفاء كثير من الأمراض العضال وسوف توفر الأموال الطائلة التى تنفق على عمليات نقل الأعضاء وهى مكلفة للغاية وفيها كثير من المخاطر وحيث إن أهم مشاكل نقل الأعضاء هى رفض الجسم المريض للعضو المنقول وطرده خارج الجسم وهو ما يعنى فشل العملية. أما بالنسبة لحقن الخلايا المستخرجة من الخلايا القاعدية داخل نسيج العضو المريض فربما سوف تتعرض أيضاً للرفض والطرد، ولذا فإن استخدام خلايا من المريض لتكوين الجنين الذى سوف تستخدم خلاياه القاعدية فى إنتاج الخلايا المتخصصة سوف يكون خطوة مهمة لأن النسيج المستنسخ لن يتم طرده لأنه أصلاً مكون من خلايا المريض. وتعتبر هذه الوسيلة فى حالة نجاح تطبيقها هى العلاج الأمثل للأمراض المزمنة وهى مستقبل الطب فى العالم.

وحالياً تجرى الأبحاث بمئات الملايين من الدولارات للتقدم فى هذا المجال المهم الذى سوف يكون فتحاً هائلاً فى عالم الطب. وهذا النوع من الاستنساخ مفيد للبشرية ولمستقبلها وللطب والجميع يشجعون الأبحاث فيه وقد تراجعت كثير من الدول التى رفضت تمويل الأبحاث فى هذا المجال مثل الولايات المتحدة وبدأت فى تمويل هذه الأبحاث حتى تستطيع أن تحافظ على السبق فى التقدم الطبى والعلاج الحديث.

وقد اختلط الأمر عند الكثيرين مما أدى إلى المطالبة بوقف أبحاث استنساخ الخلايا القاعدية وهى التى تفيد فى علاج الأمراض المزمنة وهناك فارق كبير بين استنساخ إنسان ياكل ويشرب وله حقوق وبين استنساخ مجموعة من الخلايا فى المعمل.

الاستنساخ فى الحيوان

وفى ٢٧ فبراير ١٩٩٧ نشر فى مجلة ناتشر (Nature) العالمية المتخصصة فى العلوم مقال يعلن فيه استنساخ النعجة دوللى من خلية حيوان مكتمل النمو. وقد قاد الباحث إيان ويلمت فريق البحث العلمى الذى استطاع دمج خلية أخذت من الثدى فى بويضة مفرغة وخصبت البويضة وتكون جنين تم نقله إلى رحم نعجة أخرى لتلد النعجة دوللى.

وقد انتفض العلماء فى العالم من الدهشة والذهول لهول الحدث ولم تكن الخطورة بسبب استنساخ أحد الثدييات وهى النعجة وإنما لأن الإنسان أيضاً من الثدييات، وقد أعلن العالمان الكبيران الحائزان على جائزة نوبل فى الطب عام ١٩٦٢ فرانسيس كريك وجيمس واتسون واللذان اكتشفا الجزيئات المكونة للأحماض المكونة للجينات والكروموزومات وهى أصل كل علوم الإخصاب والوراثة أن هذا كشف مذهل يصعب تصديقه وانطلق العلماء فى البحث فى الاستنساخ بواسطة خلايا مكتملة النضوج فاستنسخ العالم واكاياما الفأر فى اليابان فى عام ١٩٩٨ والعالم كاتو الخروف والعالم باجوس المعزة وفى عام ٢٠٠٠ استنسخ العالم شان القردة والعالم أونوشى الخنزير.

وقد استخدم هذا التكنولوجى فى استنساخ سلالات متميزة من بعض الحيوانات واستخدمت الماعز التى قد نقلت لها بعض الجينات الآدمية لتنتج لبنًا يعالج أمراض الإنسان أو تنتج لبن أطفال طبيعيًا مثل لبن الأم بجميع فوائده ولكنه أُنتج فى الحيوان. وهناك أفكار تراود بعض العلماء باستنساخ خنزير به جينات آدمية يصلح كقطع غيار بشرية للإنسان.

أما استنساخ الحيوانات الصغيرة فسوف يساعد على التحكم فى الجينات وذلك لاستخدامه فى المحافظة على الحيوانات النادرة.

الاستنساخ البشرى بغرض التناسل

تحتوى كل خلية من جسم الإنسان على ٤٦ كروموزومًا داخل النواة وهى تحمل الصفات الجينية والوراثية الكاملة لهذا الإنسان ويستثنى من ذلك البويضة عند الأنثى والحيوان المنوى عند الذكر والذى يحتوى كل منهما على ٢٣ كروموزومًا وفى الأحوال العادية عند الإخصاب يتم اتحاد البويضة بالحيوان المنوى وتتكون الخلية التى تحتوى على ٤٦ كروموزومًا وهو مجموع الكروموزومات الناتجة عن هذا الاتحاد. وتنقسم هذه الخلايا لتُكوّن جميع أنسجة جسم الإنسان والتى تحتوى كل خلية فيها على ٤٦ كروموزومًا. وببساطة، الاستنساخ هو تفريغ بويضة السيدة من ٢٣ كروموزومًا التى تحتوى عليها وتوضع خلية مكتملة النضوج بها ٤٦ كروموزومًا تؤخذ من أى مكان من جسم الإنسان المراد استنساخه وباستخدام تيار كهربائى بسيط يتم تخصيب البويضة المفرّغة بالخلية الناضجة، وكانت إعادة برمجة النواة الموجودة فى خلية ناضجة ومتخصصة بواسطة السيتوبلازم الموجود فى البويضة هو الفتح الكبير فى عالم الاستنساخ لأن ذلك يعنى أن هذه الخلية قادرة على الإخصاب وتنقسم البويضة المخصبة لتنتج جنيناً يمكن نقله للرحم وحين يلتصق الجنين بجدار الرحم يتم الحمل ثم الولادة بعد ذلك. وهذا الجنين لا يحمل جينات وراثية من الأم وبالتالى لا ياخذ منها أية صفات وراثية. باستثناء بعض المواد البسيطة الموجودة فى السيتوبلازم وياخذ الجنين جميع الصفات الوراثية من صاحب الخلية التى استخدمت فى الإخصاب والذى قد يكون ذكراً أو أنثى ويكون الطفل المولود مشابهاً تماماً وبنسخة طبق الأصل من صاحب الخلية التى استخدمت فى الإخصاب.

التطورات التى حدثت فى استنساخ الإنسان:

إن التكنولوجيا التى استخدمت فى استنساخ النعجة دوللى من خلية ناضجة مكتملة تدمج مع بويضة مفرغة من المواد الجينية والوراثية بها هى نفس التكنولوجيا الممكن استخدامها فى استنساخ الإنسان.

والطفل المستنسخ سوف يشبه فى جميع الصفات المظهرية والوراثية وكذلك الجنس الإنسان الذى أخذت منه الخلية، ويعنى ذلك أن المرأة ممكن أن تلد بدون وجود ذكر وهو ما يسمى بالتكاثر اللاجنسى، وكون الطفل يحمل جميع الصفات الوراثية لمن أخذت منه الخلية، فإن ذلك لا يعنى أنه مطابق له فى كل شىء لأن البيئة والمجتمع الذى عاش فيه صاحب الخلية منذ سنوات طوال يختلف عن المجتمع الذى سوف يعيش الطفل المستنسخ فيه. ولتقريب الأمر فإن الطفل المستنسخ سوف يكون مثل التوأم المتشابه مع وجود فارق عدد كبير من السنوات فى العمر.

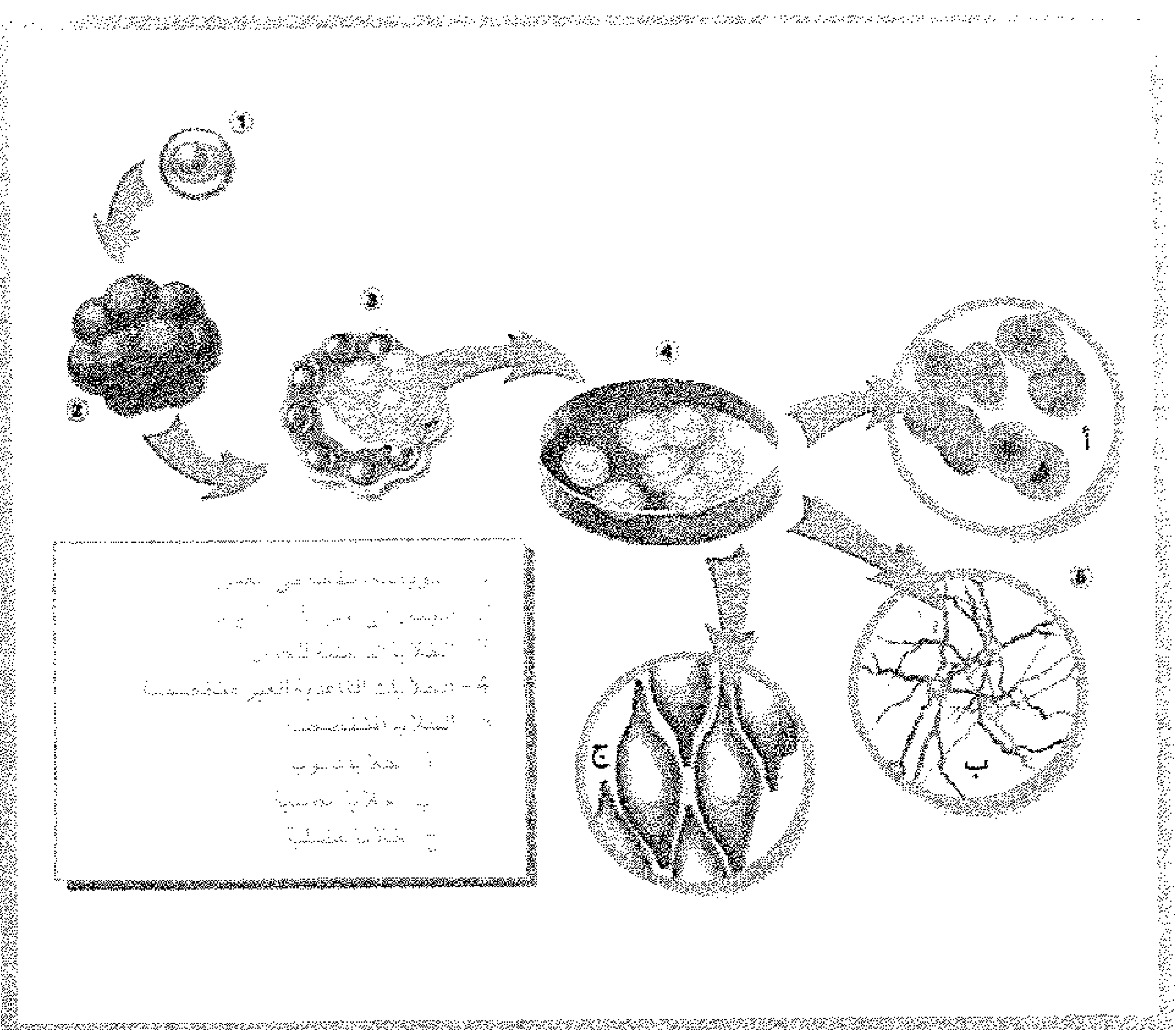
ويعتبر استنساخ الإنسان من الموضوعات المهمة والمثيرة للجدل فى العالم وفى الأخلاقيات والأديان والسياسة. وفى السابع من أغسطس عام ٢٠٠١ أعلن العالم الأمريكى زافوس والعالم الإيطالى أنتينورى فى مؤتمر صحفى أنهما بصدد استنساخ حوالى مائتى طفل. بما أن العلماء قد استنسخوا كل هذه الثدييات والحيوانات الصغيرة، فلماذا لا يستنسخ الإنسان وهو من نفس الفصيلة؟

ولذا أصبح من المعقول بل والمنطقى أن يحاول بعض الباحثين استنساخ الإنسان ولما كان حب الاكتشاف فى الاختراع لا يعادله شىء عند العلماء، فلك أن تتصور حجم الحافز لتكون أنت العالم الأول فى هذا السبق.



الطفل المستنسخ يشبه فى جميع الصفات المظهرية والوراثية وكذلك الجنس الإنسان الذى أخذت منه الخلية، ويعنى ذلك أن المرأة ممكن أن تلد بدون وجود ذكر

زراعة الخلايا القاعدية فى المعمل



وقد شجع ذلك الإعلان الكثيرين على الدخول فى هذا المجال حتى ولو كانوا من غير المتخصصين، وأعلن عالم الطبيعة الأمريكى رتشارد سيد بأنه سوف ينشئ معملاً لاستنساخ الإنسان، ولما أعلنت الحكومة الأمريكية أنها لا تساعد أبحاث الاستنساخ أفاد بأنه لا يرغب فى معونة أو مساعدة من الحكومة وقد أرسلت له هيئة الرقابة على الأدوية الأمريكية إنذاراً تحذره من إجراء هذه الأبحاث.



وفى هذه الأثناء أعلن عدد من الشركات فى العالم عن استنساخ الإنسان والكثير من هذه الشركات لا يملك الكفاءة العلمية أو الخبرة البحثية للقيام بذلك.

وأحد الأمثلة هى شركة كلونيد وقد سجلت هذه الشركة عام ١٩٩٧ فى جزر الباهاما لتفادى إجراءات التسجيل والقيود الرقابية فى كل الدول الغربية. ويرأس هذه الشركة كلود فوريلهون وهو صحفى سابق وقائد محترف لسيارات السباق وقد سمى نفسه (النبى رائيل) وهو يقود طائفة صغيرة اسمها الرائيليين وتقود الفريق العلمى لهذه الطائفة طبيبة فرنسية اسمها بريجيت بواسيليه. وبعد أن أعلنت هذه الطبيبة بأن جمعية الرائيليين عازمة على استنساخ إنسان، تم استدعاؤها أمام لجنة فى الكونجرس الأمريكى وحلفت اليمين فى ٢٥ مارس ٢٠٠١ وأخبرت اللجنة بأنها عازمة على ذلك وفى الطريق إلى استنساخ طفل من خلايا طفل آخر عمره عشرة أشهر وقد توفى فى حادث. ومن المعروف أن هذه الطبيبة ليس عندها خبرة سابقة أو أبحاث منشورة فى هذا المجال. وأعلنت الطبيبة أنه من وجهة نظر الأب والأم أن استنساخ طفل بدلاً من الطفل الذى مات يعتبر عملاً لا يتعارض مع الأخلاق وحيث إن الطرق العلمية يمكن لها ذلك فإنها لا ترى أن هناك مانعًا أخلاقيًا فى منع الاستنساخ. وأعلنت الدكتورة بواسيليه أيضاً أن هناك أكثر من خمسين سيدة ترغب فى حمل الطفل المستنسخ داخل رحمها حتى يكبر وتلده ومن بين هؤلاء السيدات ابنة الطبيبة بواسيليه شخصيًا والبالغة من العمر اثنين وعشرين عاماً.

وفى هذه الفترة طالبت هيئة الأغذية والصحة الأمريكية شركة كلونيد والدكتورة بواسيليه بالتوقف عن هذه الأبحاث لأن ذلك مخالف للقوانين الفيدرالية الأمريكية.

وفى عام ١٩٩٨ أعلنت شركة أمريكية أخرى عن استنساخ جنين وذلك بنقل بويضة إنسان داخل بويضة بقرة بعد تفريغها من المواد الجينية وبعد أن وصل عدد خلايا الجنين إلى ٣٢ خلية قرر العلماء تحطيم الجنين وعدم نقله داخل رحم البقرة. وقد صنعت أجنة مشابهة بعد ذلك بين الإنسان والخنزير.

وقد قررت ٢٩ دولة أوروبية فى ١٩ يوليو ٢٠٠١ منع تجارب الاستنساخ إلا للأغراض العلاجية وهو ما يعنى استنساخ الخلايا بغرض إحلال الخلايا مكان الخلايا المصابة فى الكبد والكلى وغيرها من الأعضاء.

هل هناك مخاطر من استنساخ الإنسان بغرض التناسل؟ :

يبالغ الكثيرون في تقدير مخاطر الاستنساخ على البشرية لأن نسبة النجاح في استنساخ الحيوان ضعيفة جداً وسوف تكون أضعف في الإنسان، ولذا فإن القول بأن العلماء سوف ينتجون جيشًا من المستنسخين أو أنهم سوف ينتجون الإنسان ذا القدرات الخارقة، فإن هذا لا يتماشى مع الحقائق العلمية المتاحة، ومن المعروف أن أكبر وأهم المخاطر الحقيقية هي ولادة طفل غير طبيعي. وهناك كثير من المعلومات المستقاة من استنساخ الحيوانات تفيد بأنه يبدو أن عمر الحيوانات المستنسخة ربما يكون أقل من عمرها الافتراضي وغير معروف حتى الآن بدقة السبب في ذلك. وبالطبع قد ينطبق ذلك على الإنسان وليس هناك على وجه الأرض إنسان يريد طفلاً له، معروف مسبقاً أن عمره قصير. وحتى الآن لم تنجح في الحيوان عمليات استنساخ من خلايا الخصية أو الخلايا العصبية وهذا يعني أن طريقاً طويلاً ما زال أمام العلماء.



أن العلماء الحقيقيين وحتى الراغبين منهم في استنساخ الإنسان لا يتصورون إطلاقاً أنهم قد يحاولون إجراء هذه العملية الآن وقبل إجراء دراسات طويلة على الحيوان والتي لازالت هناك مشاكل جمة يجب التغلب عليها أولاً للتأكد أن الحيوانات المستنسخة ستكون سليمة وتتمتع بصحة جيدة.

وهناك أيضاً مشاكل نفسية لأن المولود سوف يظل دائماً وأبداً يقارن بالشخص الذى استنسخ منه وربما يسبب ذلك ضغوطاً أو توقعات منه تؤثر عليه نفسياً. وربما يضغط الأبوان لتحفيز مهارات وقدرات الطفل ليكون مثالاً لأبيه وذلك بسبب التركيز على الدور الذى يتوافق فيه مع الأب. وقد يتأثر الطفل بأنه نسخة وليس أصلاً مما قد يؤثر عليه نفسياً.

وهناك ايضاً مخاوف مستقبلية بعدم الاقتصار على الاستنساخ وإنما نقل الجينات من خلية لأخرى من الإنسان إلى الحيوان والعكس. ويكون ذلك فى منتهى الخطورة لأنه يعني أن بعض الآباء قد يطلبون أطفالا (تفصيل) بمقاسات وألوان معينة.

وبالرغم من أن غالبية رجال القضاء وعلماء الأخلاق يرفضون الاستنساخ إلا أن البعض منهم يوافق عليه مثل جريجورى بنس الذى ألَف كتاباً اسمه (من يخاف من الاستنساخ) والذى قال فيه أن الأطفال المستنسخين هم أطفال مثل بقية الأطفال الطبيعيين ويكون المستنسخ مماثلا للتوام الواحد الخارج من بويضة واحدة.

ويقول أحد العلماء أن اعتراضه الوحيد على الاستنساخ هو أنه قد يؤدى إلى مضار على المولود أو الأم والأب. ويبدو أنه ليس هناك اتفاق كامل ورأى واحد نهائي بين العلماء وكذلك بين رجال الدين فى هذا الأمر.

الدين والاستنساخ

الإسلام: رفض علماء الدين الإسلامي فى مصر الاستنساخ للتكاثر والإنجاب ووافقوا عليه بغرض إنتاج خلايا تستخدم فى علاج فشل الأعضاء المختلفة.

تبقى نقطة واحدة فيها اختلاف بسيط وهو الرأى في أخذ خلية من الزوج وحقنها فى بويضة الزوجة، هناك رأى يوافق على ذلك ورأى لا يوافق لأنه في هذه الحالة يكون الجنين من الناحية الوراثية من الأب فقط والأصل أن يتكون الجنين من ذكر وأنثى أما استنساخ الحيوان فهو موافق عليه لخدمة البشرية.

الكنيسة القبطية: رأيها مشابه لرأى الدين الإسلامى فى تحريم الاستنساخ (الآدمى) بغرض الإنجاب والتكاثر.

الكنيسة الكاثوليكية: تحريم الاستنساخ بصفة تامة وفى جميع الأحوال لأنهم يعتقدون أن الاستنساخ هو استنساخ للجسد ولا يوجد دليل على استنساخ الروح.

اليهودية: الموافقة على استنساخ البشر فى حالات معينة لأن الاستنساخ فى رأيهم لا يتعارض مع كرامة الإنسان ولكن بعض رجال الدين يعارضون الاستنساخ لأنه قد يؤذى الأسرة.

الكنيسة البروتستانتية: معارضة الاستنساخ مثل الكنيستين القبطية والكاثوليكية.

رأى علماء الأخلاق

هناك اختلافات كبيرة بين علماء الأخلاق حول الاستنساخ ولكن معظم العلماء يعارضون الاستنساخ على الأقل فى الوقت الحالى لعدة أسباب أهمها: احتمال حدوث ضرر للطفل المولود بوجود أمراض عضوية أو أن عمره قد يكون قصيراً.

وهناك أيضاً احتمال الأضرار النفسية التى تقع على الطفل لأنه لن يكون إنساناً له كيانه وشخصيته المستقلة وإنما هو نسخة من إنسان آخر وقد تظهر مشكلة عند الآباء والأمهات أثناء تربية الطفل لأنهم قد يعتقدون أنه يجب أن يكون له صفات معينة وأن يتصرف بطريقة معينة.

وقد يتصرف الآباء حيال الأبناء كأنهم أشياء وليسوا آدميين يتطورون مع الزمن. ويخاف البعض انه مع تطور التكنولوجيا يصبح الاستنساخ هو الوسيلة المفضلة للإنجاب بحيث يختار الأب صفات وشكل الطفل مما يؤثر على تكوين البشرية.

اما مؤيدو الاستنساخ فيقولون أنه مع تقدم التكنولوجيا. سوف يتفادى الآباء الأطفال المشوهين والذى يحملون جينات وراثية ضارة. وأن الطفل المستنسخ سوف يعرف وهو طفل صغير مواهبه، فيمكنه أن يتعلم ويتدرب فى هذا الاتجاه، وأن الآباء والأمهات سوف يحبونه بنفس درجة الأطفال العاديين.

والمؤيدون يعتقدون أن الاستنساخ سوف يزيد أعداد العلماء والموهوبين فى مختلف المجالات وهو مفيد للمجتمع.

ويقولون أيضا أن الاستنساخ ممكن أن يعالج العقم الميئوس منه ويمكن فى المستقبل أن ينتج عن هذه التكنولوجيا علاج لكثير من الأمراض المستعصية. ■


متواجد في مراكز



أوعية الحكمة

الفخار فى حياة المصريين

Poteries et Proverbes d'Egypte
(الفخار والأمثال الشعبية فى مصر)
Nessim Henry Henein
Le Caire: Institut Francais
D'archeologie Orientale, 1992.

عمرو كمال حمودة

الصور الملونة: نائلة رفعت

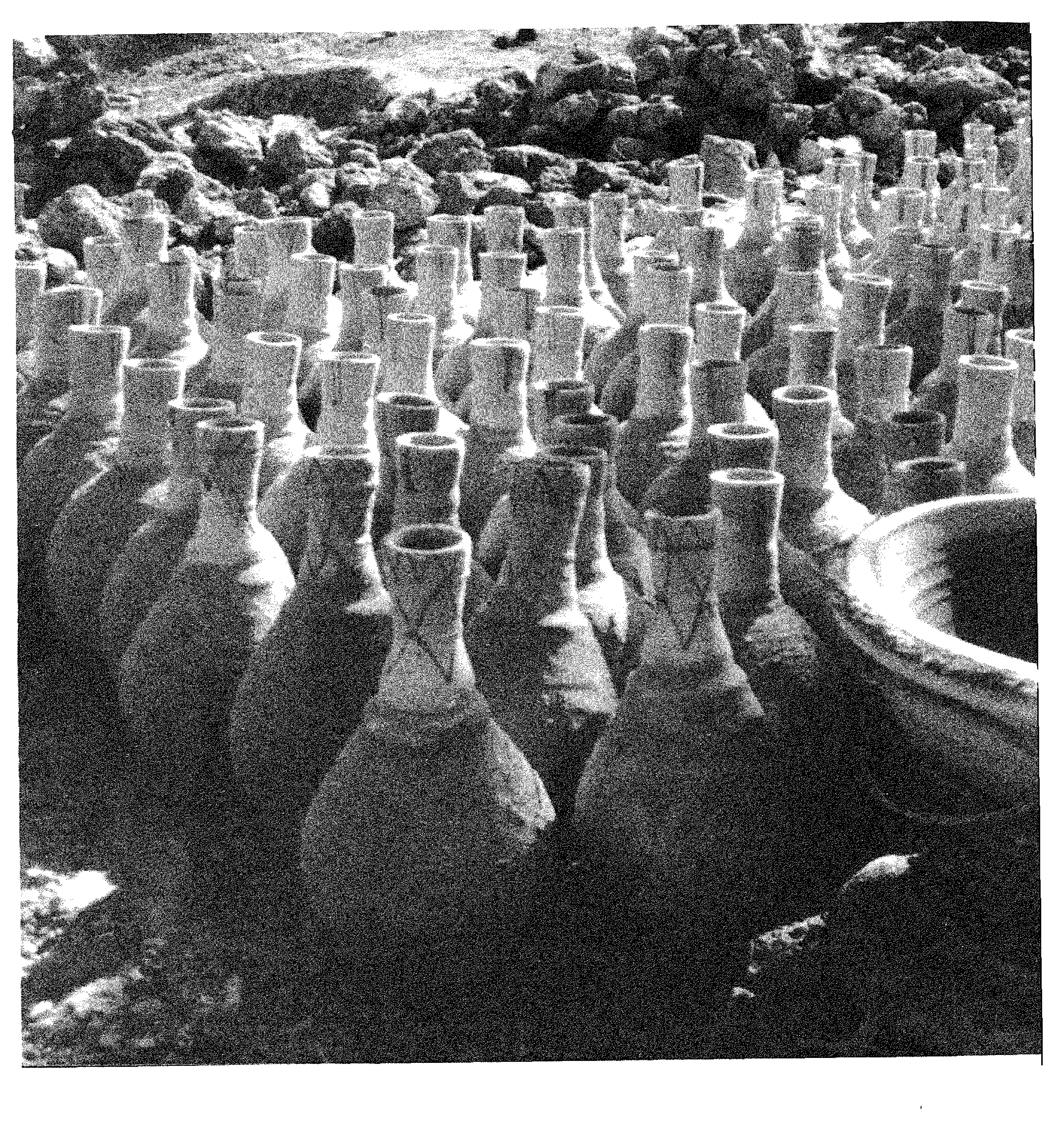
■ ■ هناك كتب صغيرة تحمل من معانى الحكمة ما يفوق الكتب الضخمة المعقدة.. منها هذا الكتاب الجميل الذى يتحدث عن الفخار فى حياة المصريين، وارتباط أصنافه المتعددة والمتنوعة بميراث من الأمثال الشعبية، عبرت بعفوية وحكمة عن معان عميقة وذكية من حياة الناس على مدى تاريخي طويل.

وهى المرة الأولى والفريدة فى تاريخ الإنسان المصرى أن يُحكي جزء مهم من حياته عبر إحساسه وارتباطه بنوع من الفن ألا وهو صناعة الفخار.

نبتت فكرة الكتاب عندما رأت إدارة متحف «دوفين» بفرنسا عام ١٩٧٩ إقامة معرض عن الفخار الشعبى المصرى، واتفق المتحف مع العلامة نسيم حنين كى يجمع نماذج تبرز الأنواع والأشكال المختلفة للفخار المصرى والتى تعبر عنه بأصالة.. مع صلتها على صعيد آخر بحياة الطبقات الشعبية.

فى البداية تجول المؤلف فى أنحاء الدلتا، وزار «الفواخير» فى قرية «أشمون جريس» بمحافظة المنوفية وثنى بمدينة «سمنود» بمحافظة الغربية، ثم طاف بصعيد مصر بادئًا بمحافظة الفيوم حيث زار «فاخورة نزلة أبشواى» ومنها إلى «فاخورة البلاص» و«فاخورة حجازة» بمحافظة قنا، ثم ختم جولته بزيارة «فاخورة القصر» بواحة الداخلة.

ولقد اكتشف نسيم حنين من خلال الرحلة، أن استخدام الطين (الطفلة ـ الصلصال) علامة مهمة بل خط



مهيمن في الحياة اليومية عند المصريين، فاليوم مثلما كان في الماضي يستخدم الفخار بكثرة وبطريقة عادية في نقل المياه للبيوت وفي الاحتفاظ بالطعام وفي تخزين الحاصلات الزراعية وفي صناعة الجبن الريفي وفي خض اللبن وفي شرب الماء وترطيبه وغير ذلك من الاستخدامات المتنوعة، التي نجدها في تفصيلات الحياة اليومية.

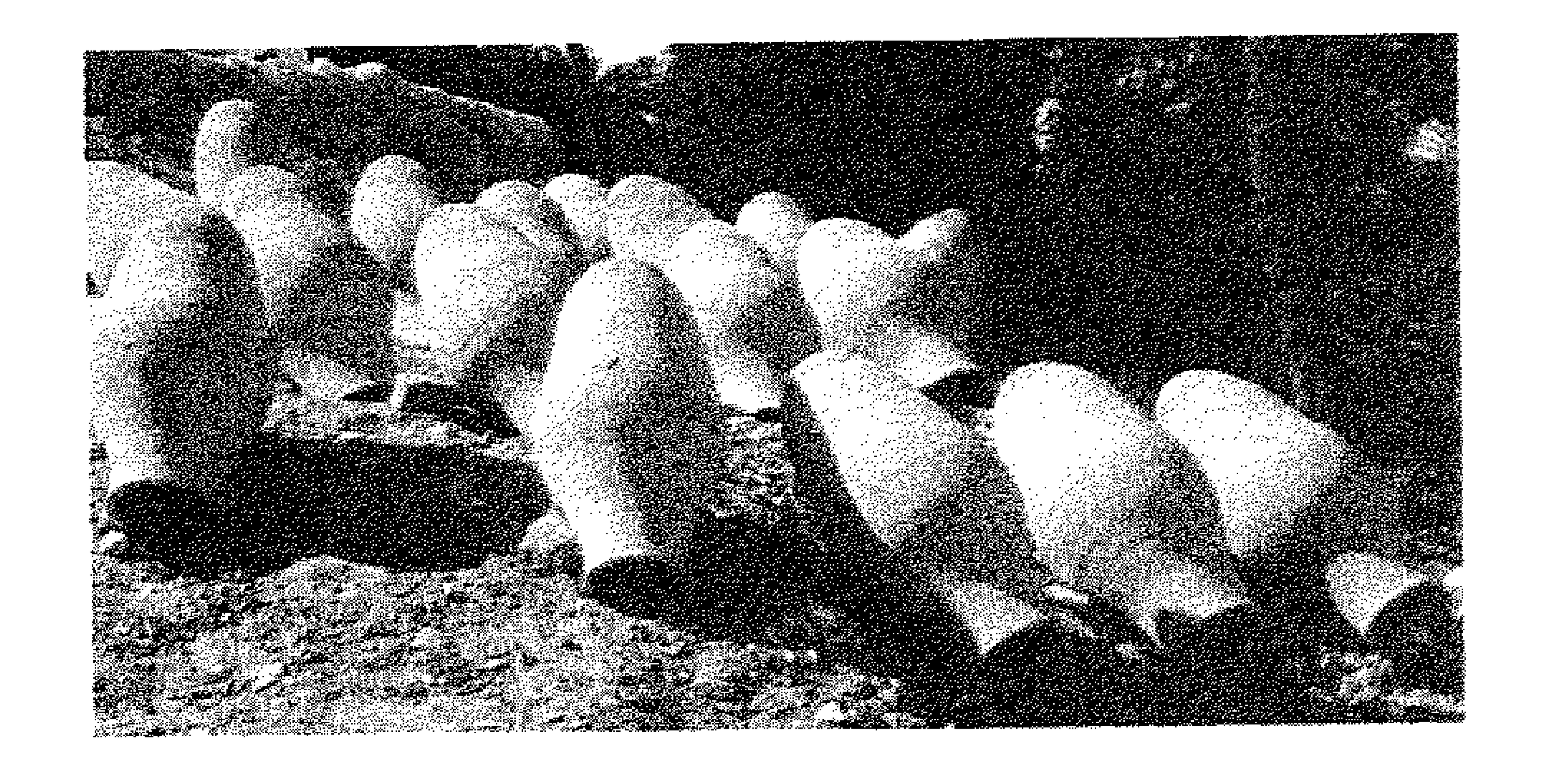
ويبدو أن الدافع الأولى للمؤلف، كان تقديم شهادة حول الأشياء التي لم تفلح المدنية الحديثة في هزيمتها. فالبلاستيك - رغم حجم وسرعة انتشاره - وكذلك الألومنيوم، لم ينجحا في طرد الفخار عن عرش الاستخدام، فالمصريون لايزالون يحبون شرب الماء من «القلة الفخارية» ومن «الزير الفخار» ويخضون اللبن في الريف والبوادي بالمخضات الفخارية.. ويعود ذلك للولع القديم المتأصل منذ الحضارة الفرعونية، ثم لسبب آخر وهو الفقر. فبسبب رخص أسعار الأواني الفخارية استمر استخدامها حتى الآن.

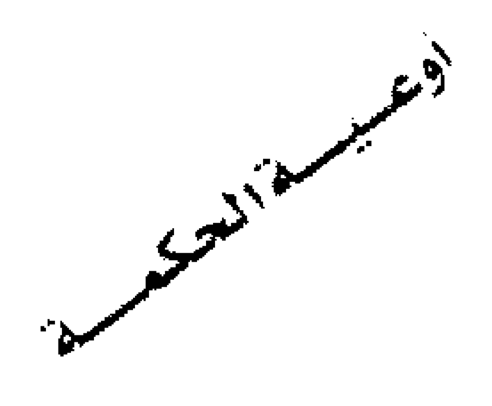
ومن خلال البحث اكتشف نسيم حنين عدم اهتمام أية جهة بالتاريخ لصناعة الفخار أو تجميع نماذج دالة منه اللهم إلا المجموعة الضئيلة الموجودة بالمتحف الزراعي بالدقي، لذا كان من دوافعه الأخرى التوثيق والحفاظ على الميراث القديم من الأواني الفخارية المصرية.

وترتيبًا على ذلك تمكن من التاريخ لحياة المصريين من خلال استعراضه لتطور صناعة الفخار، وأوضح أن الحضارة المصرية القديمة ولدت من الطين والصلصال، وقامت صناعة الفخار على طول ضفاف النيل وبالواحات الصحراوية، لتصاحب احتياجات المصرى وترتبط بإبداعاته وفلسفته في الحياة، فتلك القطع الفخارية التي تناولها الكتاب نتاج مذهل لحب المصرى للتشكيل والتكوين والصياغة. ولم يكن غريبًا أن الإله «خنوم» كان الإله المكلف بتشكيل الجسم الإنساني قد تصوره ونحته المصريون على هيئة صناع الفخار (الفخراني) بجدارية بمعبد «أمنحتب الثالث» بمدينة الأقصر حيث تراه وهو يعمل على «طبلية الفخار».

وإذا كان الإناء والقدرة هما وحدة الأثاث الأولى لدى الإنسان المصرى، فإن العلاقة الحميمة قد ولدت بينهما منذ اللحظة الأولى. بل إن المحتوى يمتزج بالآنية في علاقة حميمة هي الأخرى. ولو أردنا توضيحًا أكثر.. فالعدس أو اللحم الذى يطبخ داخل الآنية يعطي رائحة متميزة للآنية تزداد توثقًا والتصاقًا مع كل مرة تتم فيها عملية الطبخ.

انظر للمرأة وعلاقتها بالبلاص.. هي علاقة حميمة، منها التعبير عن الأنوثة. فعندما تضع المرأة البلاص على رأسها وتتمايل به وترفع باليد الأخرى جلبابها كاشفة عن ساقها، فهي تلفت أنظار الرجال لفتنتها.. ومن ناحية أخرى فهي تستعرض كفاءتها في الحفاظ على البلاص ممتلئًا بالماء وهي تسير به دون أن تسقط منه نقطة واحدة.. وقد لا يعرف الكثيرون أن «البلاص» عند المرأة المصرية له وظيفة أخيرة.. فهو ملاذها عند الأحزان.





الأواني الفخارية.. والأمثال الشعبية:

أثناء عملية التأليف للكتاب.. تداعت أفكار المؤلف نحو سياق جديد. فلقد بدأت الأفكار تتغير وتتسع بما اكتشفه نسيم حنين من أمثال شعبية متعلقة بالأواني الفخارية.

لقد وجد أن هذه النماذج التي جمعها ترتبط بها خبرات وتجارب وأحلام وتعبيرات في اللغة اليومية المتداولة بين المصريين، على هيئة حكم وأقوال مأثورة من الأدب الشفاهي والتي تحمل كمًا كبيرًا من المتناقضات، إلا أنها تدور حول «تيمات» محددة. الإنسان، سواء كان رجلاً أو امرأة، الفقر، الحرمان، الحرية، اللعنة.

والمثل الشعبي نتاج إبداع فردي، تعيد إنتاجه الجماعة، وتحتفظ به، ويحوله العقل الجمعي إلى مأثور شعبي وحكمة للجماعة ذاتها على مدى الأيام مما يصعب معه تحديد زمان المثل أو المكان الذي ظهر فيه.

ويقول نسيم حنين:

«في عام ١٩٨٨ عثرت لدى ورثة تاجر أقمشة بالحمزاوي في حي الجمالية يدعى الحاج سيد حسن الحريري (رحل عن الدنيا في شهر يوليو ١٩٧٧ عن عمر يناهز السادسة والسبعين) على مخطوطتين تحتويان على عشرين ألف مثل شعبي بالإضافة لنداءات للباعة الجائلين، وفوجئت بكم هائل من الأمثال الشعبية المرتبطة بصناعة الفخار، تعكس سلوك الإنسان المستخدم للأواني الفخارية أمام التفاصيل المختلفة للحياة وأسبابها، بل وجدت نفسي أمام عملية نقد فذة للمواقف المختلفة مع بحث دائم عن الحقيقة حتى أدركت أن هناك توازيًا دقيقًا بين فكرة الحفاظ على الفورم (الشكل) للآنية الفخارية والفكرة من المثل الشعبي الذي يحفظ الحكمة والمأثور في اللغة.. وعند لحظة الإدراك تلك نبعت فكرة العلاقة بين الفخار والأمثال الشعبية في حياة المصريين اليومية».

كان جميلاً من المؤلف أن أدخل القارئ في هذه الحياة اليومية دون استخدام خطاب نظري فتحول الكتاب من ناحية.. إلى نزهة مرحة بين أشكال الفخار والخزف والأمثال الشعبية، ثم دراسة جادة وبحث إثنوجرافي من ناحية اخرى.

أنواع الفخار.. والمدن.. والأمثال:

تقع الفواخير الرئيسية لصناعة الفخار في مصر في الدلتا والصعيد في الأماكن التالية:

* الدلتا.. دسوق - منشية شربال وتلا ومنوف وأشمون في محافظة المنوفية ثم الزقازيق وبلبيس بمحافظة الشرقية ثم الفسطاط بمدينة القاهرة.

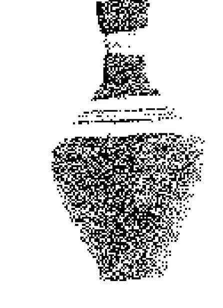
* الصعيد.. نزلة إبشواي بمحافظة الفيوم ثم سمالوط الحواتكة وأخميم وجرجا ثم حجازة وبلاص وإسنا بمحافظة قنا ثم قرية القصر بواحة الداخلة.

حلة



المدينة: بلبيس
المحافظة: الشرقية
المادة: طين أحمر أو صلصال
المثل: «إذا اتعود القط كشف الحلة.. مش ممكن يرجع عنها».
(بمعنى أنه من الصعوبة بمكان التخلص من العادة السيئة).

قلة



المدينة: بلبيس
المحافظة: الشرقية
المادة: طين أحمر بشرائط بيضاء
المثل: «سيبوا دى.. واشربوا من دى»
وقد أطلق الفلاحون هذا المثل على أورطة عسكرية تركية كانت تسقى الفلاحين حسب مزاجها.. فصار مثلاً حول تعنت صاحب السلطة.

قدرة غزاوي



المدينة: أشمون جريس
المحافظة: المنوفية
المادة: طين أحمر
المثل: «كانت القدرة ناقصة بتنجانة.. صبحت طافحة ومليانة».
وهو يقال للسخرية من شخص أصابه الثراء فجأة.

مخاضة



المدينة: أشمون جريس
المحافظة: المنوفية
المثل: «خض من غير زبدة».
(المعنى.. مجهود يتم بدون نتيجة).

وعاية



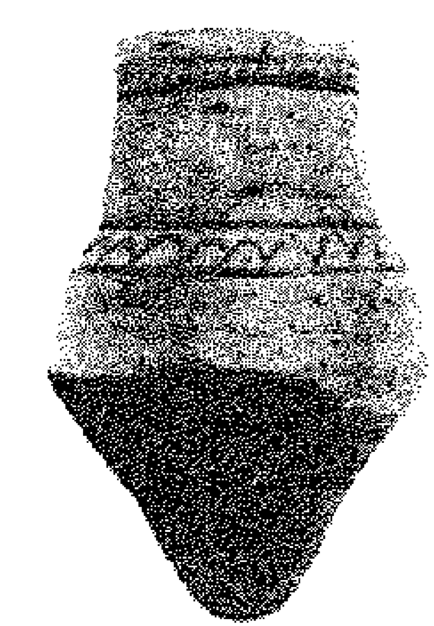
المدينة: أشمون جريس
المحافظة: المنوفية
المادة: طين أحمر مضاف إليه رماد الفرن
المثل: «كل وعاء يضيق بما فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع».

بلاص



المدينة: أشمون جريس
المحافظة: المنوفية
المثل: «اسمها فهيمة وهي عبارة عن بلاص مش»

زير



المدينة: منوف
المحافظة: المنوفية
المثل: «آدى الزير.. وآدى غطاه».
ويقال عند البرهنة على حقيقة معينة.

كـــــــــانـــون

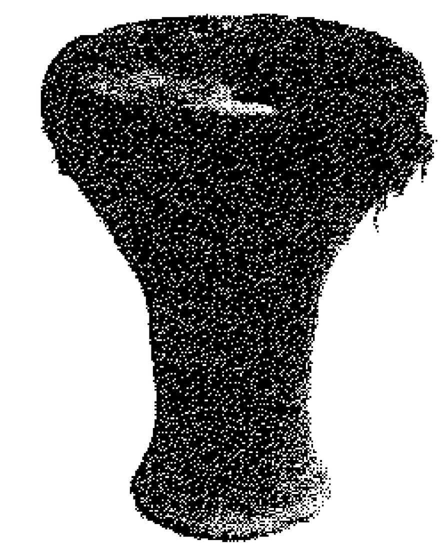
المدينة: سمالوط.
المحافظة: المنيا
المثل: «قبل ما حطب جاب الحطب وقال ابنى الكوانين فين».
ويقال عن الشخص الذى يضع العربة امام الحصان.

طاجن كـــحـــريت

المدينة: أخميم
المحافظة: سوهاج
المثل: «حط طاجن على طاجن.. حزينة ياللى مالكيش راجل».
ويقال عن المرأة التى تعيش وحيدة ولا يشغلها سوى الأعمال اليومية.



طـــبـــلـــة

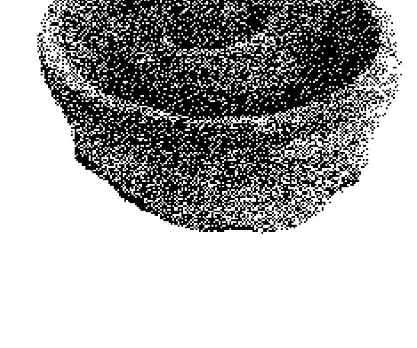


المدينة: أخميم
المحافظة: سوهاج
مجموعة أمثال:
* «إذا كان رب البيت بالطبل ضاربًا.. فلا تلومن الصبيان على الرقص».
* «طول ما أنت زمار وأنا طبال ياما قدامنا من الليالى الملاح».
* «زى الطبل منفوخ على الفاضى».
* «زى الطبل.. صوت عالى وجوف خالى».
* «اسمه زى الطبل».

رحـــــايـــة

المدينة: أخميم
المحافظة: سوهاج
المثل: «الحبة تدور وللرحاية ترجع».
بمعنى أن كل شيء يأخذ دورته ثم يصل لنهايته. وأيضًا مثل آخر: «إيده زى الرحاية» ويقال على الشخص الذى يتمكن من عمل كل شيء مثله مثل الرحاية التى تطحن جميع أنواع الحبوب.





زيــــــــــر

المحافظة: قنا
الأمثال: «إكفى الزير على غطاه يظهر اللى وراه».
«نواية تسند الزير»
«بمعنى: شيء صغير جداً يمكنه أن يكون ذا نفع كبير»
«طلب الغنى شقفة كسر الفقير زيره»
«الفقى يقيس المية فى الزير»

بـــــــــلاص

المدينة: بلاص (وهى أصل صناعته)
المحافظة: قنا
وتوجد ثلاثة أحجام من البلاص:
* علاوة وهو البلاص الكبير
* نصة وهو البلاص المتوسط
* بوكلة وهو البلاص الصغير
المثل: «تهجيص فى بلاليص»
(بمعنى كلام كبير فارغ.. وفى النهاية لا قاع له)

قـــــــــادوس

المدينة: البلاص
المحافظة: قنا
المثل: «زى قواديس الساقية.. المليان يكب على الفارغ»

قـــدرة فـــول
(جـــدرة فـــول)

القرية: حجازة
المحافظة: قنا
المثل: «العين تدخل الرجل القبر وتدخل الجمل القدرة».

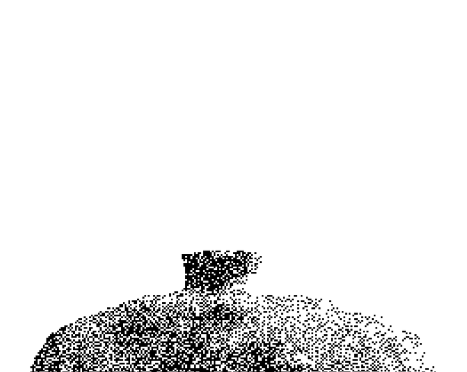
إبـــريـــق

القرية: إبشواى
المحافظة: الفيوم
المثل: «إذا تصادم إبريقين لابد واحد ينكسر»

قـــدرة فـــول

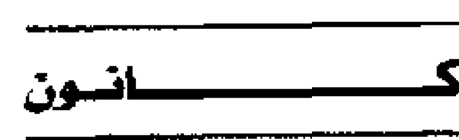
القرية: إبشواى
المحافظة: الفيوم
المثل: «اكفى القدرة على فمها تطلع البنت لأمها»

جــرة أو ســقى



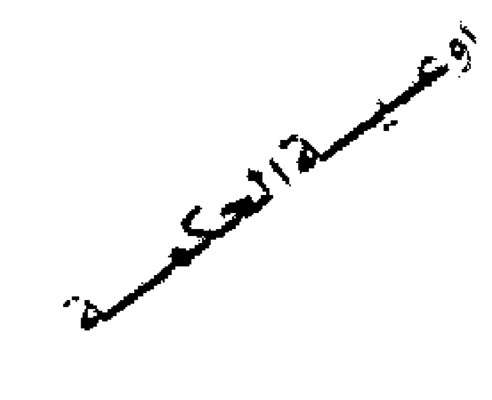
القرية: القصر بواحة الداخلة
الأمثال: «الضرة مُرة ولو كانت حلق جرة».
«شربة من برة توفر الجرة»
«خلى العسل فى جراره لما تيجى أسعاره»

كـــــانـــون



القرية: النازلة بمحافظة الفيوم
المثل: «آخد الغندور وأنام جنب الكانون»





طشت ومصفاية



القرية: القصر بواحة الداخلة
المثل: «لما أنا ست وانت ست مين يكب الطشت»

إبريق



القصر - واحة الداخلة
المثل: «مين يقدر يقول البغل فى الإبريق»

قادوس



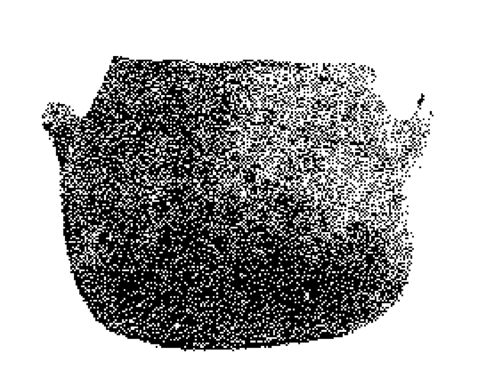
القصر - واحة الداخلة
المثل: «زى قادوس الساقية مشنوق من رقبته ورجله»

ماجور



القصر - واحة الداخلة
(وعاء كبير لعجينة الخبز)
الأمثال: «إكفى على الخبز ماجور»
«فاتت عجينها فى الماجور وراحت تضرب الطنبور»

دست



القصر - واحة الداخلة
(وعاء لطبخ الطعام)
الأمثال: «ماله الدست بيغلى.. قال من كتر ناره»
«نايبك فى الدست والمغرفة تايهة»
«الدست قال للمغرفة يا سودة يا معجرفة..
قالت كلنا ولاد مطبخ»
«اغسل الدست وصفيه ما ينضح إلا اللى فيه»

عن صانع الفخار وفنه وأدواته:

الفخار فن صاحب الإنسان منذ فجر التاريخ، ووصل عنده إلى درجة القدسية (الراكو وهو فن الخزف والفخار فى اليابان يعتبر فناً مقدساً وهى صناعة تحت الرعاية المباشرة للإمبراطور) وكان لكل حضارة نماذجها الفخارية المتميزة سواء فى الصين أو اليونان أو مصر أو العراق أو إيطاليا.. ذلك أن الطين مادة طيعة وبسبب لدانتها أصبحت قادرة على التحور والتشكل بسهولة، وعندما تأخذ شكلها النهائى كآنية تتماسك وتثبت ويصبح سطحها أملس رقيقًا وبعد حرقه يتحول لخزف جميل لا ينكسر.. وتلك هى عبقرية الطين ومن الطين جاء الإنسان، نفس المادة مختلطة بالهواء والماء.

ويشكل أكسيد الألومنيوم ومادة السيليكا بالإضافة لبعض المعادن الأخرى الأقل فى الأهمية.. المكون الرئيسى لمادة الطين.



والطين بجودته توفر فى الحضارة المصرية بسبب طمى النيل، ولذلك عرفت الأسرة المتوسطة الحاكمة من ٢٢٠٠ إلى ٢٠٠٠ قبل الميلاد أنواعًا عالية من الفخار والخزف مثل الجعران المطلى باللون الأزرق الفاتح والكراسى الخزفية الصغيرة بوجوه الرجال والحيوانات المطلية «بالجليز» ومنها مجموعة كبيرة بمتحف المتروبوليتان فى جناح المصريات.

ومن عهد الأسرة الثامنة عشرة وجدت مزهريات جميلة بقرية «القرنة» بالأقصر عليها كتابة رقيقة تؤكد أن المزهرية قد تم تكريمها بلمسات الإله أوزوريس، (محفوظة بمتحف المتروبوليتان).

ومن مدينة الفسطاط جاءت مجموعة رائعة من الأطباق الخزفية أثناء الحكم الإسلامى الفاطمى فى القرنين ١١ و١٢ الميلاديين وهى موجودة لدى المقتنى الأرمنى الأمريكى المليونير ديكران كيليكيان.

ولكن الجماليات الفائقة فى الخزف جاءت من الحضارة الصينية نتيجة لوفرة مادتى البنتونيت والكاولين فهما يعطيان تلك اللمعة والبريق الأخاذ عند حرق الأوانى الفخارية فى الأفران.



صانع الفخار هو الفنان الوحيد الذى يتعامل بصورة مباشرة مع الطين (مادة فنية).. يد بيد ووجه بوجه فى ملامسة وتلاحم كاملين دون أية حواجز.. وعندما تحدثت مع الفنان أحمد أبوزيد عن ذلك قال: «الفخار هو أنا.. عندما أمسك بقطعة الطين يصيبنى الخوف، لأننى فى تلك اللحظة أكون فى طريقى لمحاولة الفهم.. وعندما أحرك الماء مع الطين تتحرك روحى هى الأخرى، وعندما أقوم بتحريك الدولاب بقدمى ومعه اليدان الممسكتان بقطعة الطين على القرصة، فإن روحى هى الأخرى تهتز مع وقع (الريتم) وعادة ما أكون متوتراً، عصبياً، شاعراً بالضعف ثم تتسق الروح فى داخلى وأرتفع إلى الانتظام وأبدأ فى الشعور بالتحكم فيما هو مرن ويعمل الحوار بقوة بينى وبين المادة وقد أنتشى وأصل لحالة غياب عن الوعى ولأننى فى تلك اللحظة أعبر إلى الماوراء وهذا هو الفن».

وسألته عن طريقة العمل.. فقال:

«الماء عنصر مهم وفى غالب الأحوال تنشأ ورشة الفخار بجوار مجرى المياه. أقوم بتفتيت الطينة ثم أدخل عليها القش تتحمل درجة الحرارة وبعد ذلك أدير الدولاب وأمسك بالطين لأقوم بعملية التشكيل. وبدايتى تكون فى تحديد نقطة المركز، وأعمل من خلال هذه النقطة ولا أخرج عنها أبداً، لأن المركز هو الذى يحدد توازن كل شىء.

أثناء عملى لا أفكر أبداً.. فالفخار هو الذى يفرض علىّ الاختيار، وأنا أتعامل معه بحب وانحنى على قطعة الطين بحب واهتمام.. وعندما أضيف قليلا من الماء للطين أشعر وكأنى أضيف ماء الحياة فيتحقق الوجود».■

حقيقــة مشــكلة

الـــرق

فى الســــودان



يوســــف الشــــريف



■■ منذ استيلاء الجبهة الإسلامية على السلطة فى السودان عبر الانقلاب العسكرى الذى تزعمه العميد عمر حسن البشير فى ٣٠ يونيو ١٩٨٩، والحديث عن ممارسة الرق فى القطر الشقيق ظاهرة تترى تباعًا ضمن الشواغل الإنسانية فى العديد من الصحف ومراكز الدراسات ومنظمات حقوق الإنسان فى أمريكا بوجه خاص، حيث أسفر هذا الاهتمام مؤخرًا عن خطة مبيتة لوصم العرب المسلمين فى الشمال بالقهر والجور فى تعاملهم غير الحضارى واللا إنسانى مع أبناء الوطن الواحد من الزنوج المسيحيين والوثنيين فى جنوب السودان، وتكمن خطورة هذا الاتهام فى كونه واحدًا من الادعاءات المغلوطة التى دأبت الإدارة الأمريكية على استخدامها فى تبرير مشروعية منح الجنوبيين حق تقرير المصير، إيذانًا بتقسيم السودان إلى دولتين وربما دويلات عرقية متناحرة يسهل السيطرة عليها.

وإذا كان نظام الإنقاذ الحاكم فى السودان قد ارتكب جريمة سياسية وتاريخية فادحة حين أضفى القداسة على الحرب الأهلية، واعتبر قتال أبناء الشمال «جهادًا» فى سبيل الله، وضحاياهم شهداء أبرارًا فى جنة الخلد مع الملائكة والقديسين، بينما يعتبر الضحايا من أبناء الجنوب كفرة وملحدين ومأواهم النار وبئس القرار. فلا يلومن هذا النظام سوى نفسه إذا كان الرئيس بوش قد ابتلاه بالسيناتور جون دانفورث مبعوثًا شخصيًا له فى السودان وهو أولاً قسيس الاعتراف للرئيس الأمريكى، وأيضًا مرشح التحالف المسيحى اليهودى واللوبى النفطى فى الكونجرس!

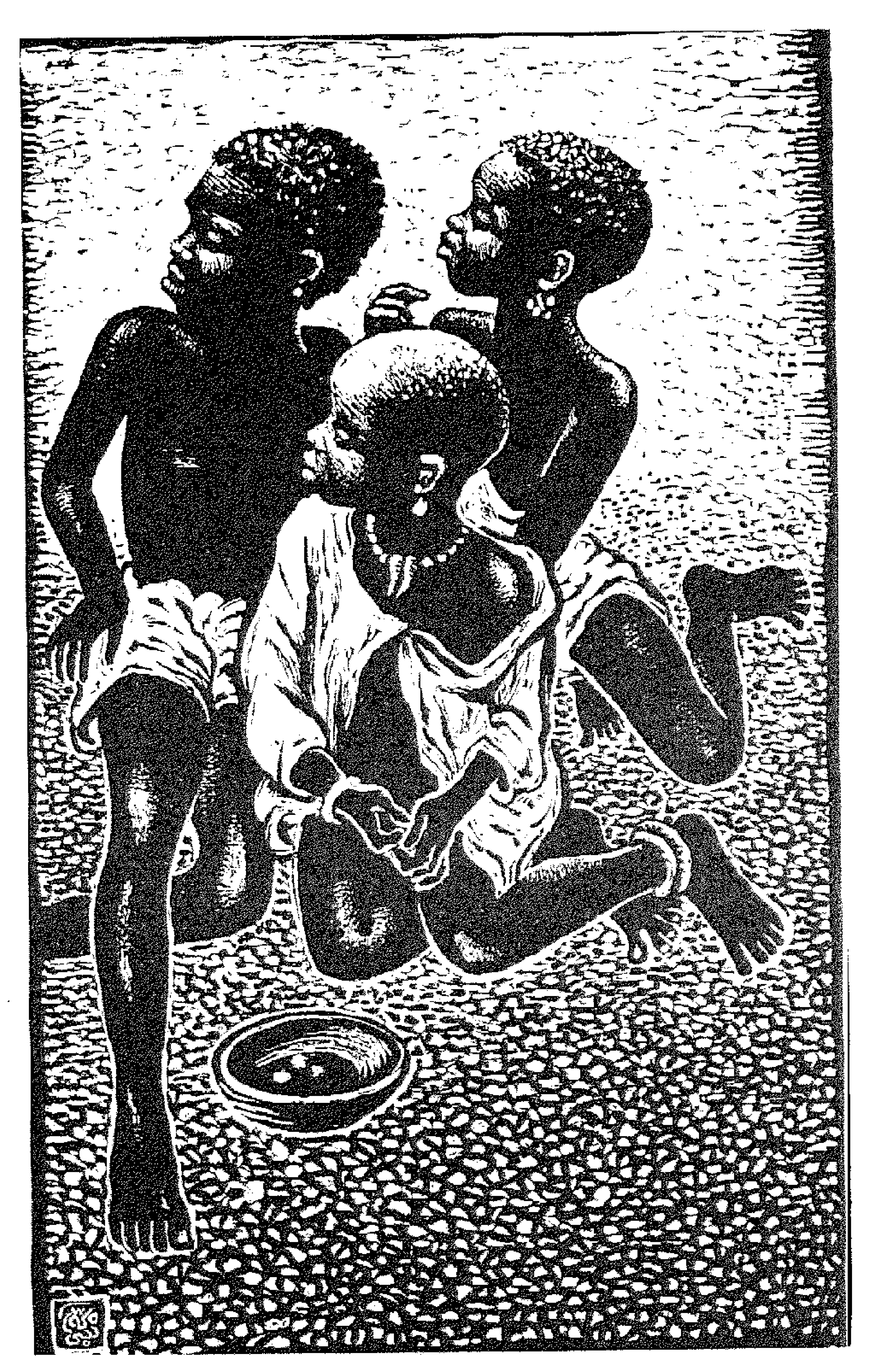
ومنذ مباشرة دانفورث لمهامه فى السودان، وهو يذكى نيران الفتنة عرقيًا تحت شعار الاضطهاد الدينى وانتهاك حقوق الإنسان الذى يكابده أبناء الجنوب، ومن ثم راح يدعم فى المقابل أنشطة المنظمات التبشيرية المشبوهة بنحو مليون دولار يوميًا بدعوى الإسهام فى أعمال الإغاثة الإنسانية للمتضررين من ويلات المجاعات والأوبئة والمروعين بالحرب الأهلية، ولا شك أنه جهد مقدر ومشكور لدى الجنوبيين فى غياب الدور العربى وضعف إمكانات الحكومة السودانية، على أنه تزامن مع هذا النشاط شن حملة دعائية محمومة تستهدف وصم السودان بممارسة الرق، كان أول من روج لها الرابطة القومية الأمريكية المناهضة للرق (NAPS) تحت قيادة الدكتور أنطونى بول وهو رئيس شعبة الأحياء بكلية أوكورد فى هانتشفيل بولاية الباما، حيث تواصل إرسال أعداد من أعضائها إلى جنوب السودان ووضع التقارير الدورية عن تطورات ظاهرة الرق، فيما قامت الرابطة ببناء بعض المدارس ومساكن لإيواء التلاميذ فى عدد من القرى الجنوبية أوائل التسعينيات!



وهكذا تسربت تلك التقارير إلى وسائل الإعلام الأمريكية، وراحت تتداعى لمأساة الرق فى السودان بشكل مثير للكراهية ضد العرب المسلمين فى السودان، وقد بدأت صحيفة «لوس انجيلوس تايمز» الحملة عام ١٩٩٥ بتقرير نشرته حول غارة شنتها قوات الدفاع الشعبى التابعة للجبهة الإسلامية على إحدى قرى الجنوب لمطاردة فلول الحركة الشعبية التى تمارس التمرد تحت قيادة العقيد جون جارنج وقالت الصحيفة إن الغارة صرعت العديد من الرجال وأسفرت عن نهب الكثير من ممتلكات السكان و.. سبى بعض النساء والأطفال، ثم خلص التقرير إلى قصة تحرير الفتاة تريزا نيابول دينق ابنة الاثنى عشر ربيعًا من أسر الرق مقابل خمسين دولارًا!

بعدها عرضت بربارا فوجل المدرسة بالصف الخامس فى إحدى مدارس مدينة دينفر بولاية كلورادو الأمريكية قصة تريزا على تلاميذها، وسرعان ما انفعلوا بها وانخرطوا ضمن حملة دولية تهدف إلى شراء الأرقاء من سادتهم بغرض تحريرهم، ومن ثم تبرعوا مبدئيًا بقيمة وجبة الغذاء لهذا الغرض.

وفى أكتوبر عام ١٩٩٦ دعا النائب دونالد.م. باين إلى جلسة استماع فى الكونجرس حول نفس القضية، ونجح فى تكوين هيئة خاصة لبحث المسألة السودانية فى الاجتماع السنوى للمؤتمر العام للسود، ثم لم تمض أيام حتى أطلق باين حملة مناشدة قومية تدعو إلى تحرير ١٠٣ بين نساء وأطفال من أسر الرق فى السودان، ونجحت الحملة فى الحصول على توقيعات الآلاف من الأمريكيين على المذكرة التى قدمت إلى الرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون والأمين العام للأمم المتحدة كوفى أنان.



وكان المفوض السابق لحقوق الإنسان فى الأمم المتحدة، كاسبار بيرو قد زار السودان عدة مرات وخلص إلى وجود ممارسات للرق فى إطار الحرب الأهلية بين القوات الحكومية وقوات المعارضة بقيادة جارنج، بينما تقول منظمة «هيومان رايتس واتش» أن الحكومة لا تعير انتباهًا إلى سلوك أفراد قواتها وميلشياتها فى مناطق القتال، فى الوقت الذى عرضت حالات صارخة خضع فيها أطفال جنوبيون للتجنيد العسكرى قسرًا بعد انتزاعهم من وسط ذويهم، ثم ينتهى التقرير الأول للمنظمة الصادر عام ١٩٩٥ بعنوان «أطفال الشوارع الأرقاء والأطفال الجنود» ثم الملحق الإضافى الصادر عام ١٩٩٦ بعنوان «خلف خط النار»، إلى وصف مسهب للمجاعة فى جنوب السودان وشهادات موثقة حول ممارسات الرق.

وقد أدانت المنظمة - وهى أمريكية - الحكومة السودانية لعدم التزامها بالمواثيق الدولية وخاصة ما يتعلق منها بحقوق الطفل، واتفاقية الرق لعام ١٩٢٦، وكذا الاتفاقيات الملحقة بها عام ١٩٥٦ حول مناهضة الرق، فيما استنكرت «هيومان رايتس واتش» نفى الحكومة السودانية للاتهامات الموجهة لها بهذا الخصوص، رغم ثبوتها فى أضابير لجان الأمم المتحدة، وأهابت فى نفس الوقت بالمنظمات الدولية المعنية مثل «اليونيسيف» و«الصليب الأحمر» للنهوض بمسئولياتها عبر التدخل لوقف هذه المعاناة الإنسانية وإنهاء تلك التجارة غير المشروعة!

والشاهد أن الحملة كانت لها تداعياتها المؤسفة فى أوساط الأمريكيين السود، الذين تتنازعهم ذكريات الاسترقاق التى تعرض لها جدودهم وجداتهم، حين جرى انتزاعهم من بيئتهم وعائلاتهم الأفريقية وبيعهم عبيدًا لفلاحة الأرض والقيام بالأعمال الشاقة فى القارة الأمريكية الجديدة بعد اكتشافها على يد البيض الأوروبيين.

وتروى الصحافة الأمريكية قصة شايلا مونتجمرى وهى كانت طالبة لعلم الأحياء فى كلية دوثان بالباما، وكيف تمكنت مع ١٨

طالبًا وطالبة من السود من قضاء أعياد رأس السنة عامًا بعد عام في إحدى القرى التي تعاني ويلات الحرب الأهلية في جنوب السودان، وكم هي سعيدة لأن كونها أمريكية لم يفقدها صلتها بجذورها الأفريقية، الأمر الذي جعلها تأخذ على عاتقها مساعدة أبناء عشيرتها الذين يتعرضون للفقر والمرض والخوف والرق في جنوب السودان!



ولم تختص أمريكا وحدها السودان بالترويج لممارسة الرق، ولكن بريطانيا التي استعمرت السودان وتبنت سياسة المناطق المقفولة على جنوبه عبر وضعها إسفينًا حضاريًا ولغويًا وثقافيًا واجتماعيًا بينه وبين الشمال، من هنا استثمرت البارونة كوكس تراكم الخبرات البريطانية بالسودان والحنين إلى أمجاد الدولة العظمى التي لم تكن تغرب عنها الشمس، وشنت أقوى وأذكى حملة ضد نظام الجبهة الإسلامية إبان كان الدكتور الترابي رجله ومفكره وعرابه، ثم لم تتوقف رغم استبعاده من السلطة عن مواصلة ما بدأته.

وقد أثارت هذه المرأة حولها شخصيًا وحول نشاطاتها السياسية والإعلامية جدلاً واسعًا سواء داخل بلادها أو على صعيد السودان، فهي قد بدأت حياتها ممرضة كرست حياتها للعمل الطوعي، فخلعت عليها الملكة إليزابث لقب بارونة، تقديرًا لجهودها في العديد من مناطق العالم التي تعاني مآسي الحروب والنزاعات والأوبئة والمجاعات وبينها بورما والسودان الذي قامت بزيارته عدة مرات، وخاضت تجربة العمل تحت وابل الرصاص والقنابل والصواريخ، وقد حازت بشجاعتها ومبادراتها الإنسانية على العديد من الأوسمة والدكتوراة الفخرية في بريطانيا وغيرها، حيث وقع عليها الاختيار كراعية لجامعة بورتموث!

البارونة كوكس التي تشغل منصب نائبة رئيس مجلس اللوردات، تحظى باحترام المعارضة السودانية، لمعرفتها وتبنيها هموم وشجون السودان، ودعوتها لرموزه ومفكريه للتنوير بقضاياه وشرحها أمام مجلس اللوردات، بينما يكن لها نظام الجبهة الإسلامية عداء مستحكمًا إلى حد اعتبارها شيطانًا في هيئة امرأة، بسبب انتقاداتها الصارخة له، واتهامه بالتعصب ضد المسيحيين سواء عبر ما يسمى «المشروع الإسلامي» أو التوجه الحضاري، ووصمه - وهو الأخطر - بممارسة الرق والعبودية المنافية للإسلام ضد الجنوبيين!

وقد بدأ اهتمام كوكس بالسودان حين كان ابنها يعمل ضمن برنامج إنساني لرعاية اللاجئين الإريتريين في مدينة «الدمازين» بشرق السودان، وفي إحدى رسائله لها شكا من نقص شديد في عدد الممرضات، وعندئذ قررت التوجه إلى هناك مع فريق من الممرضات الإنجليزيات المتطوعات، حيث عاشت ثلاثة أشهر في منطقة «حمرة الوز» تؤدي واجبها حتى نقلت نشاطها بعدئذ إلى مدينة الأبيض عاصمة ولاية كردفان.

أما عن اهتمامها بمشكلة الرق، فكان عبر قراءتها كتابًا مهمًا عنها بالإنجليزية بعنوان «الرق في السودان» من تأليف الدكتور علي بالدو والدكتور عشاري، وكلاهما يعمل ضمن هيئة التدريس بجامعة الخرطوم، حيث كان للأمانة العلمية والجهد المبذول في جمع الوثائق والشهادات والتحقق من صحتها دور بارز في رواج الكتاب داخل السودان وخارجه باعتباره أهم مرجعية علمية لمشكلة الرق في السودان، وخاصة أنه شهادة من أهلها!

وحين امتنعت حكومة الجبهة الإسلامية عن تقديم التسهيلات التي طلبتها البارونة كوكس لزيارة المناطق المنكوبة بالرق في جنوب وغرب السودان وجبال النوبة، لم تعدم الوسيلة في القيام بالتحقيقات الميدانية عبر بعض الدول الأفريقية المجاورة للسودان ومنظمات الإغاثة والتبشير وكذا الحركة الشعبية بزعامة جارنج.

كوكس التي ولدت في السادس من يوليو عام ١٩٣٧ استطاعت بنفوذها وشهرتها فضح ممارسات العبودية في السودان، وهي دائمًا تعزز ادعاءاتها بالحجج والوثائق والصور، مؤكدة على أن نظام الجبهة الإسلامية هو المسئول الأول عن تشجيع تلك الممارسات أو السكوت عليها، بل وإنكارها إذا لزم الأمر، وتقول إنها لمست خلال جولاتها في المناطق المنكوبة تعاطفًا كبيرًا من جانب بعض التجار وزعامات القبائل العربية المسلمة تجاه ضحايا الرق، إذ كانوا يبادرون إلى دفع الإتاوات إلى خاطفيهم مقابل تحريرهم، مؤكدة على أنها كانت شاهدة عيان على تحرير ٣٢٠ طفلاً وامرأة، وأنها التقت بهم وبالسماسرة الذين تولوا مهام التسوية ودفع مبالغ الفدية للخاطفين، كما أنها تحققت من تشغيل عدد آخر من الفتيات والنساء الجنوبيات خادمات لدى أسر عربية وأطلقت عليهم وصف «أسياد»، غير عدد آخر من الأطفال الذين جرى تشغيلهم غصبًا كرعاة لقطعان الماشية التي يملكها شماليون.

والملافت للانتباه أن صدى اتهام السودان بالرق، وصل عبر البارونة كوكس إلى منظمة التضامن المسيحي التي تتخذ من سويسرا مقرًا لها، وقد تضمن تقريرها الصادر في يوليو عام ١٩٩٩ وبثته وكالة رويتر مزاعم خيالية حول نحو ٦٠٠ صبي وفتاة من جنوب السودان كانوا مجتمعين تحت شجرة في منطقة «يارجوت» بانتظار تحريرهم من الرق، وعلى لسانهم روى التقرير ألوان وأشكال القسوة والوحشية التي عوملوا بها من الشماليين، غير عشرات القصص حول عشرات الآلاف من العبيد الجنوبيين الذين يعمل غالبيتهم لدى العرب في ولايتي دارفور وكردفان.. إلخ.



كل هذه الاتهامات والشهادات والتقارير الغربية حول ممارسات الرق في السودان، لا تكاد تجافي في الغالب الأعم منها الحقيقة والموضوعية، لكنها - وهنا بيت الداء - بعيدة كل البعد عن فهم أبعاد الظاهرة عبر اعتماد معايير الرصد والتقييم الغربي، وليس كما يجب في سياقها التاريخي والتقاليد والقيم الشعبية الموروثة في السودان، ولعل الأمر برمته يدعونا إلى حد استدعاء منطق المؤامرة في الترويج المتعمد لمأساة الرق في السودان على هذا النحو.

هنا نضرب مثالاً بالافتراءات التي دأب المؤرخون الغربيون والإنجليز بصفة خاصة، حول جلب محمد علي الرقيق من شباب السودان، بينما الحقيقة التي تؤكدها وقائع التاريخ وشهاداته ووثائقه، أن السودانيين كانوا مع المصريين قوام جيش محمد علي ومتساوين في الحقوق والواجبات والامتيازات، وهم قد تشربوا العلوم أو التدريبات العسكرية الحديثة في الكلية الحربية ومعسكرات الجيش بأسوان، على يد نخبة متميزة من الضباط الأكفاء تحت رئاسة الجنرال سيف، وهو كان أحد قادة جيش نابليون، حتى أعلن إسلامه وعرف باسم سليمان باشا الفرنساوي، وهؤلاء الضباط والجنود السودانيون كانوا طليعة التنوير والتقدم في المناطق التي جاءوا منها بعد عودتهم إلى السودان.

وفي كتاب القاضي الأمريكي بيير كرابت «الخديوي إسماعيل المفترى عليه»، ما يشي بالحقيقة التي تبرئ ساحة مصر من تهمة ممارسة الرق في السودان، حيث يؤكد بالوثائق الثبوتية أن تجارة الرقيق كانت وقفًا على الأجانب فحسب، وتحت حماية قناصل الدول الأوروبية وأمريكا المعتمدين في الخرطوم عهدئذ، وكانت البواخر النيلية التي تنقل العبيد من جنوب السودان ترفع أعلام تلك الدول وفي مقدمتهم العلم الأمريكي، بينما كان معظم المقاولين والوسطاء والجلابة من السودانيين وفي



النظام الحاكم في الخرطوم رغم كل سوءاته وكم وألوان المصائب التي يعاني السودان من ويلاتها، ليس المسئول الأول عما يثار حول قضية الرق، فهو قد ورث تلك المتناقضات عن الأوضاع السابقة

كتاب الزاوية



فشل حملة هيكس

كان المهدى مع قدوم حملة هيكس للقضاء عليه قد حمَّس جنوده وأخبرهم أن النبى قد أوحى إليه أن عشرين ألفًا من الملائكة سيقاتلون الكفار مع جنوده يوم المعركة . وفى أول نوفمبر برح الأبيض قاصدًا إلى بركة فانضمت قواته إلى جيش الأمراء الذى كان قد أرسله قبلاً وأخذ الجميع فى مناوشة المصريين والتضييق عليهم وكان العطش والإعياء قد فعلا فيهم فعلهما . وفى ٣ نوفمبر كان أبو أنجه والجهادية السود مختبئين فى غابة كثيفة فصبوا نارهم على قلب المصريين حتى اضطر الجيش إلى الوقوف وإقامة زريبة حوله وكانت الدواب والرجال هدفًا ظاهرًا لا يُخطئه أى رام . فكان فى كل لحظة يقع جمل أو بغل أو إنسان قد أعياه السير . واستمر هذا التقتيل ساعات وكل فرد من الجيش يعانى الآلام من العطش ولا يستطيع السير إلى أى جهة .

وفى الليل زحف أبو أنجه ورجاله ثانيًا وصبوا النار طول الليل على هذه الكتلة المؤلَّفة من الناس والدواب وخارت قوى المصريين فكانوا يندبون حظهم قائلين : «مصر فين يا ست زينب دلوقت وقتك» ، أما السود فكانوا منبطحين على بطونهم فلا ينالهم رصاص المصريين الذى كان يذهب فى الهواء .

وفى صباح اليوم التالى تقدم هكس وقد خلف وراءه أكوامًا من القتلى وبعض المدافع التى قُتل رجالها . ولكنه قبل أن يقطع ميلاً هجم عليه نحو مائة ألف من المتحمسين المتوحشين الذين خرقوا الجيش ودخلوا إلى القلب ، وحدثت عندئذ مقتلة هائلة ، وبعد خمسة عشر يومًا عاد المهدى إلى الأبيض ومعه الغنائم التى أودعها بيت المال .

إن وصم هذه العمليات بالرق لا يستند إلى الحقيقة والواقع، لأن الهدف من الاختطاف ليس الاسترقاق فى الغالب ولا البيع والشراء، وإنما انتظارًا للربح عبر الفدية التى يتكفل بها القادرون من الشماليين أو الأجانب

مقدمتهم الزبير باشا، هذا فى الوقت الذى تغاضى فيه المؤرخون الأجانب عمدًا عن الدور الإنسانى والسياسى المشهود الذى لعبه الضباط والموظفون المصريون فى تنفيذ الأوامر المشددة الصادرة من الخديوى إسماعيل فى التصدى لتجارة الرقيق وحماية أبناء السودان من الاسترقاق ووقف مأساة انتزاع الأطفال من ذويهم وقطع دابر الأجانب وتأديب التجار والوسطاء المحليين، وفى وقت سابق لتحريم الرق دوليًا!

من هنا يجدر الحذر من الوقوع فى شراك الخطط المشبوهة والأساليب الملتوية والادعاءات الملتبسة التى تتهم السودان بممارسة الرق، غفلاً من الإدراك الواقعى المعايش لهذه الظاهرة ميدانيًا، وكيف عادت تطل برأسها من جديد بعد صدور الحكم بإعدامها فى السودان وكافة دول العالم نهاية القرن ١٩.



فالسودان الذى تبلغ مساحته مليون ميل مربع بما يوازى مساحة دول غرب أوروبا وجزر البحر الأبيض المتوسط، ويضم مئات القبائل وعشرات القوميات والأعراق والثقافات والأديان واللغات والرطانات، إلا إنه كامة وكيان سياسى متناسق ومتماسك لم يتخلق بعد، ولا تزال السلطة المركزية فى الخرطوم عاجزة عن بسط هيبتها ونفوذها على مختلف ربوع السودان، ولعله من هنا كانت نشأة وضرورات «الإدارة الأهلية»، كونها الوكيل عن السلطة المركزية بحكم شعبيتها ونفوذها القبلى أو الدينى أو السياسى فى العديد من المناطق النائية ومناطق أطراف السودان!

كانت للإدارة الأهلية محاكم وسجون وقوانين محلية موروثة وغير مكتوبة، وكانت لها سطوتها وكلمتها النافذة فى حل المشكلات، سواء بين الأفراد أو القبائل وفقًا لتقاليد «الأجاويد» التى كانت تغلب الحكمة والعدل والتسامح، وقد نجحت الإدارة الأهلية فى القيام بمهامها على خير وجه قرونًا بعيدة، حتى تبنى الرئيس نميرى دعوة اليسار السودانى لإلغائها بدعوى التحديث والتقدم حتى لو كان على حساب التطور الطبيعى.

من هنا فقد السودان واحدة من أهم آليات الإدارة والأمن والتحكيم، خاصة فى النزاعات المستحكمة فى مناطق التماس بين القبائل العربية والقبائل الزنجية، فهذه القبائل السودانية كانت حريصة على تمييز أفرادها عبر ما يسمى «الشلوخ» أى تشريط الوجه أشكالاً معينة، ومثال ذلك حرف H الذى كانت تختص به قبيلة الشايقية وحرف T وكان وقفًا على قبائل دنقلة أو الدناقلة، وعلى غرارهم كانت القبائل الجنوبية الزنجية لديها ما يميز ملامح أفرادها عبر عمليات الكى والوخز بالإبر، بل إن هذا التمييز كان سائدًا حتى فى التعرف على ما لدى كل قبيلة من أبقار أو جمال أو أغنام.

وكأى مجتمع قبلى موغل فى التخلف كانت المعارك غالبًا ما تندلع بين هذه القبائل عندما تثور الخلافات حول تحديد زماماتها من الأراضى أو نصيبها من المياه، وربما بسبب اختلاط الماشية أو الادعاء بسرقتها، بينما كانت الأسلحة التى يشهرها كل طرف تجاه الطرف الآخر لا تتعدى السيوف والحراب، ولعل من قرأ كتاب الزعيم والمفكر السودانى الجنوبى فرنسيس دينق (Dynamics of Identification) «القوى المحركة للهوية» يدرك إلى أى مدى كان يعود الوئام والصفاء وروح التكامل فى أعقاب المعارك التى كانت تنشب آنذاك بين قبيلة «البقاره الحمر» العربية فى الشمال وقبيلة «الدينكا أنفوك» الزنجية فى جنوب السودان.



فى خضم تلك العلاقات والمنازعات بين القبائل فى مناطق التماس، كان الاختطاف المتبادل للأطفال والنساء جزءًا مكملاً لعمليات الغزو والانتقام أو الانتصار، كما كانت استعادتهم فى مقابل فدية من الماشية أو استبدالهم رهينة برهينة جزءًا مكملاً أيضًا لعملية المصالحة وفقًا لما يصدر عن الإدارة الأهلية فى الجانبين من أحكام بهذا الشأن.

فلما اندلع التمرد الثانى لأبناء الجنوب عام ١٩٨٣ بزعامة العقيد جون جارنج، وقويت شوكة ميلشياته عددًا وعتادًا وتنظيمًا عبر الدعم الأفريقى والعربى والدولى، ونجاحه فى اختراق الصفوف والخطوط العسكرية للقوات الحكومية فى عهد نميرى، ثم تصاعدت قوة التمرد إلى حد الاستيلاء على المدن تباعًا فى عهد حكومات الصادق المهدى الائتلافية (٨٦ ـ ١٩٨٩)، بدأ فى استدراك الفراغ الذى تخلف عن إلغاء «الإدارة الأهلية» عبر تسليح القبائل من ميزانية الدولة لمواجهة زحف التمرد وقوته، ومن هنا تحديدًا تغيرت تقاليد المعارك وحسم النزاعات بين قبائل التماس، بالتزامن مع تصاعد موجة اختطاف الرهائن، وفيما غابت تقاليد الأجاويد برزت إلى السطح ظاهرة تحرير المختطفين





مشكلة الرق في السودان

مقابل فدية مالية ومن الإنصاف أن يوجه الاتهام إلى الغرب وأمريكا ومنظمات الإغاثة والتبشير وحقوق الإنسان الدولية بمسئوليتهم عن ابتداع هذا الأسلوب، ومن ثم تحولت عمليات الاختطاف تحت تهديد السلاح إلى لون من المغامرات التجارية وباب للإثراء غير المشروع!

ومن الإنصاف كذلك أن يقال إن وصم هذه العمليات بالرق لا يستند إلى الحقيقة والواقع، وذلك لأن الهدف من الاختطاف ليس الاسترقاق في الغالب ولا البيع والشراء في سوق النخاسة، وإنما انتظارًا للربح عبر الفدية التي يتكفل بها القادرون من الشماليين والأجانب بوجه خاص، بمعنى أن هذه الظاهرة لا علاقة لها بالدين ولا لدوافع عرقية أو عنصرية، أولاً لكونها مشتركة بين القبائل العربية الشمالية والقبائل الزنجية الجنوبية، في ضوء الاتهامات الدولية التي تلاحق جارنج حول اختطاف ميلشياته للأطفال الجنوبيين وتجنيدهم في صفوفها، أو اختطاف أطفال شماليين واستعادتهم بالتبادل مع أطفال جنوبيين رهائن لدى القبائل الشمالية!

والأدهى والأمر أن وكالات الأنباء فاجأت الجميع بخبر وصول أول فوج من الفتية الجنوبيين إلى أمريكا منذ نحو عامين، حيث أعلن عن تعاون الحكومة الأمريكية بإعاشتهم وتعليمهم وتأهيلهم لتولي الوظائف، ولا أحد يعلم كيف وبأى أسلوب تم تجميع هؤلاء الصبية، وهل بموافقة ذويهم أم لا؟ ولماذا اقتصر الاختيار على الجنوبيين فحسب، إلا أن يكون الهدف رعاية نواة السلطة في الدولة الجنوبية الانفصالية المرتقبة!

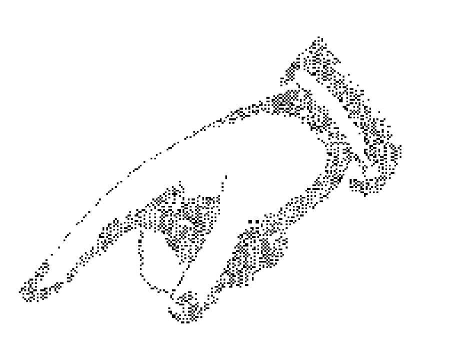
من جهتها لم تتوان الحكومة السودانية عن الرد على الافتراءات التي تتهمها بغض الطرف عن ظاهرة الرق، واتهمت البارونة كوكس باعتماد المعايير المزدوجة عبر التغاضي عن اختطاف ميلشيات جارنج للصبية والشباب ودفعهم إلى ميادين القتال، باعتبار أن هذا التعامل يخضع لمعيارها للرق، وقالت إن كوكس دأبت على الدخول بدون تصريح رسمي إلى المناطق التي يحتلها جارنج، وأنها لذلك تتبنى ادعاءاته الكاذبة على غرار اتهام السودان بصناعة أسلحة الدمار الشامل، وقصف أمريكا لمصنع أدوية الشفاء بالخرطوم لهذا الغرض، فيما روجت حكومة السودان للنقد العنيف الذي وجهه رئيس صندوق حماية الطفولة العالمي «يونسيف» كارول بيلامي إلى نشاط منظمة التضامن المسيحي في السودان عبر مقولته الشهيرة «عندما تدفع ٥٠ دولارًا على الرأس في بلد يعيش غالبية الناس فيه على أقل من دولار في اليوم، فإن هذا يشجع على تفاقم هذا النشاط الإجرامي، بينما قال جيمس جاكوسن الذي عمل فترة في مهام خاصة بمنظمة التضامن المسيحي في السودان، إنه وجد خلال رحلة قام بها في السودان عام ١٩٩٩ أن أطفالاً وفتية جنوبيين كانوا يدعون خضوعهم للاسترقاق حتى يجتذبوا الدولارات الغربية حسبما نشرته صحيفة «الحياة» اللندنية يوم ٩ سبتمبر١٩٩٩!!

وقد طعنت حكومة الجبهة الإسلامية في صحة ومصداقية الصور الفوتوغرافية والأفلام التسجيلية حول عمليات أسر الرهائن ومشاهد تسليم الفدية للمختطفين، بدعوى التزوير والتلفيق، استخفافًا بالرأى العام العالمي أو لتحقيق انتصارات صحفية مزيفة.

والحقيقة التي لا خلاف حولها أن أبناء الجنوب عانوا ومازالوا يعانون وطأة المظالم التاريخية والحرب الأهلية وفداحاتها غير الجوع والمرض والقسمة غير العادلة للثروة والسلطة.. ما في ذلك شك، لكن النظام الحاكم في الخرطوم رغم كل سوءاته وكم وألوان المصائب التي يعاني السودان من ويلاتها، ليس المسئول الأول عما يثار حول قضية الرق، فهو قد ورث تلك المتناقضات عن الأوضاع السابقة.. وصحيح أن نحو ثلاثة ملايين فروا من الجنوب، لكن معظمهم لم يلجأ إلى أى من دول الجوار وفضلوا النزوح إلى الشمال والعيش في أمان ووفاق مع إخوانهم الشماليين من العرب والمسلمين.

استكمالاً لبانوراما المأساة، يبدو قصور حكومة الجبهة الإسلامية إما عن عمد أو جهل بمخاطر اختيار موقع الدفاع عن نفسها عبر أفكار مسئوليتها حول ما يثار عن الرق، بينما المطلوب دون تراخٍ أن تبادر إلى التعامل مع المشكلة بجدية ومسئولية، عن طريق سدّ المنافذ والثغرات الخاصة باستغلال ظروف الحرب الأهلية في تسخير الأطفال والنساء للعمل قسرًا، وتشديد العقوبات حول شبهات الاسترقاق إلى الإعدام شنقًا وعلنًا في مواقع الجريمة على حد دعوة البعض من القانونيين في السودان. وكذلك فإن المطلوب من «التجمع الوطني الديمقراطي» الذي يضم فصائل المعارضة في شمال وجنوب السودان الامتناع فورًا عن استغلال قضية الرق في الهجوم على الجبهة الإسلامية. إذ أنه برغم أن زعامات التجمع تمثل قمة الثقافة والاستنارة في السودان وهم على علم تام بأبعاد وتعقيدات القضية، إلا أنهم على ما يبدو يقللون من شأن استغلالها من قبل أمريكا والغرب وإسرائيل بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في الزراية بالعرب وبالإسلام والمسلمين وتوسيع شقة الخلاف بين الشمال والجنوب!■

كتاب الزاوية



سقوط الخرطوم

وفي الليلة المشئومة ليلة ٢٥ يناير علم جوردون بأن المهديين سيهجمون على المدينة فأرسل أوامره يخبر القواد هذا الخبر. ولعله كان يشك في صدق نيتهم في الهجوم في بكور اليوم التالي، وفي الوقت الذي عبر فيه المهدي إلى الضفة الشرقية. كان جوردون قد أمر بإطلاق بعض الأسهم النارية في الفضاء وكانت ألوانها كثيرة مختلفة وكانت الموسيقى تعزف في الوقت نفسه والغرض من كل ذلك تحميس الجنود الذين أضناهم الجوع.

ولما دخل الدراويش من جهة النيل الأبيض تصايحوا وهم يعدون في المدينة «للسراية. للكنيسة» لأنهم كانوا يعتقدون أنهم سيجدون هناك الأموال المدخرة، ولما دخلوا السراي وجدوا الخدم في قبو السراي فقتلوهم في الحال، وكان جوردون واقفًا على السلم المؤدي إلى غرفة الجلوس فقال لهم عندما رآهم: «أين مولاكم المهدي؟». ولكنهم لم يكترثوا لهذا السؤال وتقدم أولهم وطعن جوردون بحربته فوقع على وجهه دون أن ينطق بكلمة. فأخذ القتلة يجرونه على السلالم إلى باب السراي، وهنا أخذوا رأسه وأرسلوه إلى المهدي في أم درمان. أما الجسم فقد تُرك لرحمة المتعصبين.

ولما أحضر رأس جوردون للمهدي قال أنه كان يود أن يحضر إليه جوردون حيًا لأنه كان ينوي أن يُدخله في الإسلام ثم يقايض به الحكومة الإنجليزية على عرابي باشا لأنه كان يأمل أن يساعده عرابي في فتح مصر. واعتقادي أن المهدي كان ينافق في تأسفه هذا على قتل جوردون لأنه لو كان يرغب حقيقة في الإبقاء على حياته لما خالف أمره أحد.

القاهرة.. نداهة اليتيم

وحفيف العذارى الخالدات



خيـــــرى منصـــــور

■ ■ هكذا تولد الحكاية، سواء تخثّرت عند فاصل زمني وانكفأت على أرجاع وتداعيات تغذيها نوستالجيا مزمنة، أو اندفعت إلى الأقاصي لتستكمل أقانيم الرواية.

على الرصيف المقابل لسينما ريفولي، قرب دار القضاء العالي، حيث يرشح زمن ولّى تاركا الظلال والأصداء من المباني التي علت التجاعيد واجهاتها وبدت درداء لكنها لم تفقد سحرها، أغمضت عيني في مساء يوم الجمعة من أكتوبر ٢٠٠٢ لأستذكر الغارة الوهمية التجريبية التي حوّلت القاهرة إلى ظلام مفعم بالصخب عام ١٩٦٧، قبيل حرب حزيران، لم يكن تيار الكهرباء قد انقطع في هذا المساء التجريبي الذي أجريته لحساب أنانية خاصة بل الذي انقطع هو تيار آخر، أسمعه أحيانًا وأوشك أن أستدل عليه، لكن يدًا مجهولة الكتف الذي تنبع منه تعيدني إلى حيث أقف، وأراوح، وأتهجى بين المارة ذلك الرفيق الذي كان توامي.

والكتابة عن القاهرة، كي لا تتورط بمزالق استشراقية، يجب أن تكون منها لا عنها، وفيها لا حولها، قد لا أضطر لبذل جهد كبير كي أفي بهذا الشرط، الذي قد يكون باهظًا على من كان عصيًا على الهضم، وأصاب مدينة عملاقة بالغثيان، ولفرط تعلّقي بالقاهرة التي تفتّحت فيها على الأسئلة كلها، وفي مقدّمتها سؤال الحرية والكتابة، قرأت عشرات الكتب عنها فلم أجد ضالتي، وأذكر أن واحدًا من أبرز المعاصرين الذين كتبوا عن مصر والمصريين هو (فاسلييف) الروسي، الذي كان سفيرا في مصر أيام الراحل عبد الناصر، التقيت الرجل في معهد أفريقيا الذي كان يرأسه في موسكو عام ١٩٨٩ وتحدّثنا طويلا عن مصر السياسة والسياحة، أو مصر القديمة والحديثة، كانت لهجته مصرية ككل الأجانب الذين عاشوا في مصر، وقال لي أن ما كتبه في مجلّده عن مصر والمصريين يحتاج إلى إعادة نظر. فمصر كلما ابتعد المرء عنها ازداد شوقًا إليها وبالتالي معرفة بها. وهذا ما سمعته من فتاة صينية تعلّمت في مصر وعادت إلى بلادها، التقيتها في بكين عام ١٩٩٥ أثناء انعقاد مؤتمر المرأة العالمي وكانت لهجتها مصرية، لكن مشوبة بلكنة يستطيع المرء من خلالها أن يحزر بأنها آسيوية إن لم يحزر بأنها صينية.

في الستينيات القاهرية، كان الزمن عربيًا بامتياز، على الأقل بالنسبة لجيلنا، الذي كانت جموع غفيرة منه تتجمع في نادي الوافدين ومكتب القبول في الجامعات، ليعاد ضخ هذه الطاقات الشابّة في شرايين تصب في جامعات مصر، بدءًا من العاصمة إلى أقاصي الصعيد، وأسوأ ما تعرّض له هذا العقد الفريد «الستينيات»، من قراءات بأثر رجعي هو تلك القراءة بعين واحدة، التي حاولت إعادة إنتاجه كي يلبي الإسقاطات السياسية التي طرأت بعده.

طلاب فلسطينيون وأردنيون وسوريون وسودانيون ويمنيون وكويتيون، يتحلقون

كانوا في قـريتي (دير الغصون) يسألونني كل صيف في أية جامعة أدرس، فأجيب إنني أدرس في جامعة اسمها مصر، أتعلم من سائق السيارة وجرسون المقهى، وسمسار البيوت، والجارة العجوز الطيبة كما أتعلم من أساتذتي وهم من أبرز الأكاديميين في الستينيات



حول موائد في جروبي أو الأمريكين، ويقرأون بصراحة لهيكل، ويناقشون شجون أقطارهم، يعدون أنفسهم بأدوار قادمة.

كان نجيب محفوظ قد طاف بنا أزقة القاهرة، مثلما مضى بنا عبر القطار إلى إسكندريته التي لاذ بها عيسى الدبّاغ في السمّان والخريف فرارًا من السياسة، وتعلمنا منه أن الخير والشّر يمكن لهما أن يتزوّجا في كيان آدمي واحد، لكن لينجبا بشرًا يتمتّعون ببعد ثالث، خارج المدار المكرّس لثنائية الأبيض الذي كله بياض والأسود الذي كله سواد أيضًا.

ركبت القطار مع صابر الرحيمي بحثًا عن أبي في شوارع القاهرة وفي أكواخ الصيادين وقصور الأثرياء، وحين طلب مني الشتاء الماضي ٢٠٠١ أن أكون ضيف برنامج تلفزيوني للحديث عن واحدة من أهم روايات القرن العشرين، اخترت « ميرامار » وتحدّثت كنزيل سابع في البنسيون لاكقارئ، فهذا المكان ـ الزمان، تلخّصت فيه أشجان جيلي، حين كان الصراع على أشدّه بين طهرانية ثورية هي وحدها ما يحقق العودة إلى الفردوس المفقود (بلادى) حتى الغرباء الذين حلّوا في المكان، اندمجوا فيه رغم النبرة الاستشراقية التي صاحبت سردهم للمشاهد المصرية.

أذكر أن لورنس داريل اقتادني عبر الجزء الأول من رباعيته إلى فندق سيسل في الإسكندرية، وشاهدت قامتي في المرآة المغبرّة التي كانت جوستين تصغي عبر انعكاساتها إلى الصمت العميق المنبعث من لعبة شطرنج في صالة الفندق.

ولم أقاوم إغواءات اليوناني« كفافي»، الذي كان يوقد شمعة لضيفه ثم ينفخ عليها ليطفئها عندما تأزف لحظة العزلة، وتنتهي زيارة الضيف، نكهة الكابوتشينو المائلة إلى المرارة اللذيذة في كافتيريا أوستريا بمحطّة الرمل، وانعكاسات الأضواء على الشاطئ، والحفيف الليلي لكائنات عاشت نصف الأسطورة ونصف التاريخ.

بعشرين قرشًا فقط قرأت عام ١٩٦٤ بضعة كتب لسارتر وكامو وبوفوار، حين كان سور الأزبكية يعج بالكتب والمجلات القديمة، وفي تلك الأيام كان السجال في ذروته بين الوجودي والماركسي، وبين القومي والأممي، أذكر مثلا مساجلات محمود أمين العالم والحفني، وما كانت تنشره مجلة الآداب البيروتية من معارك بين الراديكاليين من مختلف الهموم والجنسيات العربية.



ما من مدينة دافعت عن نفسها كالقاهرة، فهي ليست فقط ذات الألف مئذنة، إنها أيضا ذات الألف رأس ورأس، فما من حجر لا يشي بقرون خلت، وبكل ما مهره من أزمنة غربت شموسها، لكن أقمارها تغمر السماء.

في شقة صغيرة بضاحية الجيزة، على بعد ساندويتش فقط من مطعم المانش الصغير وعلى بعد قميص من القطن المصرى الخالص في محلات عمر أفندى، كان الطالب ابن الحادية والعشرين يجلس على كرسي مقلوب، ويغسل المارة والأرصفة بعينين مفعمتين بالفضول، وكان أحيانا يستشعر الأسى كما لو أن كل نظرة هي وداع، ما دامت سنوات الدراسة قد أوشكت على النهاية.

كانوا في قريتي (دير الغصون) يسألونني كل صيف في أية جامعة أدرس، فأجيب إنني أدرس في جامعة اسمها مصر، أتعلم من سائق السيارة وجرسون المقهى، وسمسار البيوت، والجارة العجوز الطيبة كما أتعلم من أساتذتي وهم من أبرز الأكاديميين في الستينيات.

هناك، على الشاطئ فيما كنت أصغي إلى حفيف العذارى الخالدات، عمّاتنا ، أشجار النخيل التي لا تنحني حتى للعواصف.

سماء فاض باتجاهها توتر الماء واليابسة ومساءات مضمّخة بصدى «كلثومي» لا يغادر الذاكرة.

ليلة استقال عبد الناصر، في تلك الشقة بالجيزة. كان الغروب في أوله ، والقاهرة تغرق في غسق حذر، قال لي د.مصطفى ابن خالي أن عبد الناصر قد يستقيل، غضبت، وصرخنا في وجهه، لكن عبد الناصر استقال بالفعل، وشاهدت الجموع الغفيرة وهي تعدو كالملدوغين في شوارع القاهرة، وتحت ظلام أتاح للأشباح في الذاكرة أن تعدو أيضًا نحو مكان ما.

فقدت صوتي في تلك الليلة، وحذائي أيضا، وفي اليوم التالي قالت لي صديقتي الراديكالية اليافعة إنني كنت مجنونًا، فلا يحق لي أن أهتف لمن تخلّى عني بالعودة، لكنها أخبرتني بعد ثلاث سنوات، وفي أواخر أيلول عربي ذيله مبلول بالدم، إنها فقدت صوتها في جنازة عبد الناصر. وكلّما عدت إلى القاهرة، على ندرة ما عدت بعد عام ١٩٦٧، فإنني أتأكّد بأن الراحل فاض عن ساحة قبره، فهو مبثوث في أمكنة وذاكرات لا سبيل إلى حذفها.


في آخر عودة، كي لا أقول آخر زيارة إلى القاهرة،دلّني طلعت حرب كما قلت إلى مقهى ريش، فالحديقة الرصيفية الصغرى اختفت، والواجهة تغيّرت، وكذلك رائحة الشارع العريق الذى لم يسلم من منجزات إمبراطورية الهامبورجر.

العم فلفل ابن السبعين الذى قدّم لمحفوظ ومئات المبدعين المصريين والعرب القهوة، لم يتغيّر إلا قليلاً طوال خمسة وثلاثين عامًا، والزبائن الذين رحلوا، لم يرحلوا تمامًا، فصورهم على الجدران، وعيونهم بها قليل من العتاب وكثير من الإشفاق.

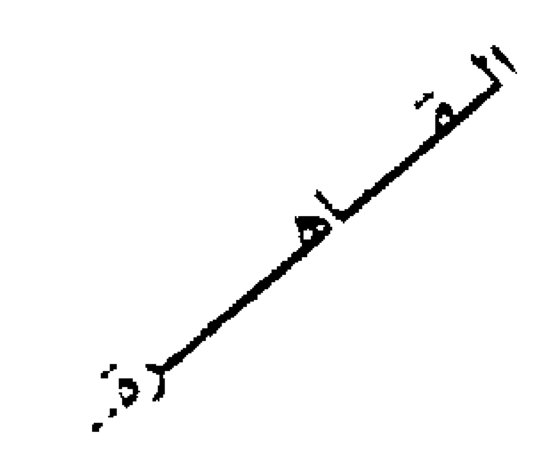
فنانون وروائيون ورسامون وشعراء وصحفيون طالما اشتبكوا ببراءة وفضّت القهوة نزاعاتهم، ستة من هؤلاء المعلمين الراحلين على الأقل عرفتهم وصاحبتهم، وأكثرهم عتابًا عبد الوهاب البياتي الذى عاش ثلاثة أرباع العمر في المقاهي ريش ولاباس في القاهرة، والفينيق في عمان وهافانا في دمشق والإكسبرس والمودكا في بيروت إضافة إلى مقاهي مدريد وموسكو وباريس، نسيت للحظة أنه ميت، فقلت لمجدى عبد الملك صاحب المقهى إننى سأخبره فور عودتي إلى عمان أن صورته قد علّقت في مقهى ريش، ثم تذكّرت أنه مات، لكن مجدى قال بجدية ساخرة أو سخرية مرّة: حاول!!!

تلك المدينة.... ذلك العقد

إن الكتابة عن القاهرة خصوصًا في ستينياتها البهية والشقية في آن، محفوفة بمخاطر عديدة، فالفلسطيني في مصر ليس مستشرقًا، وليس حتى زائرا أو سائحا، إنه في الصميم من أشواق مبثوثة في أضرحة ومساجد ورؤى ونصوص ودماء وماء وهواء، كانت كل نسمة تهب من النيل الذى يجرى شرقا تعد بنيلوب بعودة عوليس، وكانت أغنية حليمية واحدة تدير المفتاح في باب الدار والقلب معًا، فالطالب الذى كان حائرًا بين الجامعة والشارع وبين كتاب المعلّقات السبع



2003



وكتاب ثورة يوليو١٩٦٨، لم يكن قد انتهى إلى قرار، وجاءت صاعقة حزيران لتودى بكل من لا يملك المصدات التاريخية لمثيلاتها.



عندما غنّى عبد الحليم حافظ: ابنك يقول لك يا بطل هات لى نهار، لم أكن متزوجًا، والآن أسمعها من جهاز التسجيل مع ولدَىّ، وأبحث في عيونهما عن السؤال الدامي: أين هو النهار؟

الأمكنة ذاتها حتى لو نبت العشب في صدوع الجدران، وأصبحت الأبواب طاعنة ولها صرير يشبه السّعال، لكن الزمن ليس مجرّد أوراق منتزعة من تقاويم لاآخر لها، قد يتحوّل إلى نسيج عنكبوتي في سقف قلعة او معبد أو حتي عمارة شبه مهجورة، وأحيانًا تتكثف الأعوام الغابرة في غيمة داكنة صغيرة تجوب سماء المدينة، ما من مرة أزور فيها القاهرة بحثًا عن قاهرتي فيها إلا ويشتبك المكان والزمان فأقيس الشوارع بدقّات الساعة لا بالأمتار، وأقيس عمر المقهى الذى تفتّحت فيه على سؤال الحرية والمعنى والزمن بعدد فناجين القهوة التي كسرت طوال ثلاثين عامًا، ما أقسى أن تذهب إلى بيت أقمت فيه وحلمت بين جدرانه، وضربت المواعيد فيه مع ذاتك في أقاصي الشوق، ثم تجده مطعمًا، أو حانوتًا يكتظ بأناس ولدوا بعد رحيلك، لكنك تتعرّف عليهم واحدًا واحدًا من خلال الشّبه المزمن بينهم وبين آبائهم وأمهاتهم الذين قاسموك القشعريرة لحظة الانتشاء بانتصار صغير، ثم قاسموك أصعب وأقسى أسبوع في التاريخ، أسبوع حزيران الذى مضى ولم يمض، وكان ما تبقّى من العمر اليوم السابع في حرب سداسية.

هناك، قبالة الباب الخلفي للجامعة الأمريكية في ساحة التحرير، كان مقهى أسترا مغناطيس الغرباء والعشّاق والصحفيين الذين يلتقطون أنفاسهم ساعة أو بعض ساعة بالقرب من جريدة أخبار اليوم.

فجاة، توقّف الزمن عند تلك اللحظة، مشهد من فيلم الطريق رواية نجيب محفوظ عن سعيد مهران أو سفّاح القاهرة، رشدى أباظة وسعاد حسني يقتسمان مائدة والناس يحتشدون على المدخل، والكاميرا تشق الطريق بصعوبة، فيما المخرج يرجو الناس أن يتراجعوا قليلا.

مات بطل الفيلم، وانتحرت أو قتلت البطلة، أما أسترا فقد تحوّل إلى« هارديز» ونجيب محفوظ حيّ وشاهد بعد أن أوشك أن يكون الشهيد في صومعة لا يؤمها غير الحواريين؟

كنّا عند مدخل أسترا أو « هارديز » اثنين، أنا والطالب الذى كنته ذات زمن معشب شديد الاخضرار، يكاد السّواد أن ينبثق من اخضراره.

أينا سيكون دليل الآخر في مدينة تضاعف عدد سكانها خلال ثلاثين عاما؟ وأينا سيقود الآخر إلى أطلال الصّبا؟ للحظة كنت الكسيح الذى يبحث عن أعمى يقايضه كي يصل الاثنان إلى المنابع.

للسمّان ربيعه أيضا

خريف قاهرى دافيء، ومؤتمرات تعقدها العصافير على أشجار باسقة على الشاطئ، ومصاطب أسمنتية يتقاسمها فتيان وفتيات، يتأبّطون كتبًا وأحلامًا وقلّما ينظرون إلى الأسفل لأن السّماء شديدة الجاذبية، حتى عندما تكون مغطاة بالشبّورة التي تحجب الرؤية.

لاشيء يتحدّى الوقت كالتماثيل، ليس لأنها من حجر أو فولاذ، بل لأن الذين يقيمون في المعدن أناس خالدون في الذاكرة الوطنية لا السياحية.

طلعت حرب، هو الذى دلّنى إلى مقهى ريش، مصطفى كامل هو الذى أمسك بيدى ودلّنى على ميدان الأوبرا، والأسدان الصامتان على الكوبرى القديم، كدت أسمع زئيرهما وأنا أبطيء السير على الكورنيش.

منازل الذاكرة هي منازل الأسى بلا منازع سواء كانت تطل بما تبقى من رؤوسها على شرفة عباس العقّاد في شارع سليم الأول، أو في حديقة كرمة بن هانيء منزل أحمد شوقي الذى أورث القاهرة بيتا هو أمير البيوت أيضًا.

أتحسس كالأعمى بصمات أصابعي على مقعد هرم في مقهى اكسيلسيور، وأحدّق إلى الشارع من النافذة، سينما ميامى، ومخزن البن البرازيلي، وشيكوريل العريق ذو الواجهة الزجاجية العملاقة،

وعندما دخل إلى محل لبيع الأحذية اسمه «زلط » يحفظه عن ظهر قدم كل من عاشوا في تلك القاهرة، حاولت أن أشترى منه حذاء لكنني لم أجد قدميّ، ولم يكن يخطر ببالي أنني فقدتهما في مكان ما، فلم أعد حتى بخفيّ حنين.

في مقهى الفيشاوى، في حي الحسين، روائح قادمة من جنة نائية، زحام غير عسير على المارّة، وضجيج غير مبهم على الإطلاق، كان رسّام الكاريكاتير عصام حنفي يقف بجوارى عندما أمسكت المرآة القديمة العملاقة على باب المقهي، تحسست نقوش الخشب وقلت: لم يتغيّر شيء إلا أنا، أى صورتى في تلك المرآة، وأعادت رائحة النعناع إلى ذاكرتي كل صورة محفورة بعمق من رواية الصديق الراحل غالب هلسا، كان عنوانها هو « الضحك » لكنها وليمة من البكاء.

مساءات مطرّزة بحرير أبدى

رائحة النعناع والقرفة، والزيت الذى تفرقع فقاقيعه الذهبية حول الحمام المذبوح وما يرشح من جدران البيوت والمسجد والمقهى وأجساد الناس، كل هذه عوامل تشبه كعكة مارسيل بروست التي فجّرت في ذاكرة الروائي الفرنسي زمنًا ضائعًا، فعادت الجدّة الميتة منذ عشرين عامًا تسرّح شعرها الفضي في المدخل أمام المرآة وعادت الصبايا كحديقة من ضوء في النهار. ولا أدرى من أين تسرّبت إلىّ تلك العادة التي لم أفلح في الإقلاع عنها رغم أنها أكثر ضررًا من التدخين، وهي إدمان البحث عن اليافطات وأسماء المحلات القديمة التي علاها وتراكم عليها الصدأ، إنها تخفف من وحشتي، بل تؤنسني، وأحس بأنني لم أتغيّر وأن الزمن لم يتبدّل رغم كل ما يعجّ به المشهد من قرائن التغيير، لم أشأ أن أطرق تلك الأبواب لأسأل عن أصدقاء الصبا وزملاء الجامعة، كي أحافظ على اخضرارهم في الذاكرة.

بيوت تحوّلت إلى أطلال، وأبراج نهضت قربها أو على أنقاضها، وثمة جدران تقاوم، سواء كانت لمساجد أو لكنائس أو للمقاهي التي يجرى تجديد شبابها عبر جراحات عمرانية لا تخفي التجاعيد.

وثمة مدن لا يمكن لمن تفتح له أحضانها أن يكون مجرّد سائح فيها، إنه جزء من صميم النسيج البشرى والأرضي في أزقّتها، وجامعاتها وفنادقها ومقاهيها.

شكرا للأمير الذى ترك للمدينة أمير البيوت فدلّني على صباى، شكرًا لأحمد شوقي وشكرًا لأسدين لم تنل عوامل التعرية التاريخية منهما، وشكرا لطلعت حرب الذى أمسك بيدى عندما أصابني الدوار ودلّنى على مقهى ريش، وشكرًا لمدينة، لولاها لما كنت قادرًا على صياغة ذكرياتي عنها، لأنها باختصار علّمتني، وأنا الفتي الذى قدم إليها في ستينيات القرن الغابر من قرية لاكهرباء فيها ولا جريدة، ولا تمثال يدل الغريب على داره.

مفاتيح سحرية لليل

المقاهي هى بوابات المدن، بل المفاتيح السحرية، خصوصًا عندما تكون عريقة، وتنعقد في فضاءاتها سحابات شجيّة من زفير من رحلوا ولم يرحلوا.

باليما في الرباط المغربية قبالة البرلمان، الاكسبرس والكافي دى بارى والدولتشي فيتا في بيروت، وريش واكسيلسيوروالأمريكين في القاهرة، والكافيه دى فلور في باريس، والمرابط في تونس، والبرازيلية في بغداد، كانت رائحة التبغ الذى بخّنه سارتر لعقود لم تزل في المكان، وكذلك السلّم المستدير الصاعد إلى الطابق الثاني، هناك تلقّى سارتر نبأ فوزه بجائزة نوبل، وهناك أيضا اعتذر عنها بعد أن أشعل سيجارة جيتان وطلب ساندويتش جبنة.

في مقهي المرابط في تونس، تساقط الياسمين في أكواب الشاي، حيث يتنقّع اللوز والنعناع، ويتضمّخ المكان بشذى قادم من الأندلس، عندما اقتسمنا أدونيس وعبد اللطيف اللعبي وأنا مائدة في المقهى تحت مظلّة من الياسمين، لم يكن شاتوبريان الفرنسي بعيدًا وهو يتفحّص إناء مرمريًا على الضريح.

وفي باليما الذى تغمر باحته الواسعة أوراق الكالبتوس، ويعج بالزبائن طلابًا وعمالاً وعلى سفر، حيث لا تبعد عنه محطة القطار سوى مسافة قصيرة، كان يمكن للغريب أن يجد ضالّته في عينين سوداوين، أو وشم أخضر على ذراع فتًى.

وفي الإكسبريس الذى لحق بستراند وضاع في حمّى الهامبورجر والشاورما، كانت تحاك مؤامرات وتصاغ المسوّدات الأولى لانقلابات عسكرية في عواصم عربية، أما الهورس شو فلم يعد له معنى بعد انفجار غسّان كنفاني، إذ تحوّل هو الآخر إلى ساندويتش بسعة مقهى.

لكن الأمريكين واكسيلسيور وريش وجروبي، علامات فارقة في سرّة القاهرة، شممت رائحة النفتالين في حمامات جروبي، وشاهدت المارة من زجاج الأمريكين وكأنهم مكثوا خمسة وثلاثين عامًا بانتظار مساء واحد يخص الجميع.

حضن بسعة مدينة

القاهرة، كبسولة الزمان وكيمياء العناصر التي ذوّبها عشق آسر في إناء فخارى، ترشح مساماته روائح قادمة من بعيد، فهى من الأهرامات إلى قصر البارون مرورًا بالبوابات التي تفضي إلى جنة مفقودة، ومن عربة فرعوني مطعّمة إلى عربة مترو، انتهاء بآخر موديل للسيارات الحديثة، بوتقة سحرية لصهر ما لا يصهر، فما أن يدلف الغريب إليها حتي يذوب، ويعاد إنتاجه، لأنها دينامية ماصّة لا طاردة حتي في زمن بدت فيه وقد أصاب معدتها الإعياء.

قال لى صديقى الراحل غالب هلسا الذى عاش ربع قرن، إنها النّداهة الأبدية لمن فتحت له الباب، كان لعدة سنوات في بغداد وبيروت ودمشق يصحو على فجر قاهرى يفتش عنه خارج السرير فلا يلقاه.

ومرّة قال لى: عثرت على تعريف دقيق للمنفى، إنه الإقامة خارج مصر.

وعندما زرت مقهى ريش ورأيت الزبائن من أبرز الفنانين والمبدعين والراحلين يقتسمون الجدران لم أجد غالب بينهم، وطلبت من صاحب المقهى أن يباعد قليلاً بين عباس الأسوانى ويحيى الطاهر عبد الله، ليستضيف غالب الذى فاضت مصر من قلبه على لسانه وبقى يتحدّث باللهجة المصرية حتى الموت. ووعدنى صاحب المقهى بذلك.

لكل مدينة في العالم رحيق خاص بها، يهتدى إليه النحل المغامر، ليظفر بمؤونة الشتاء



عندما غنى عبد الحليم حافظ:
ابنك يقول لك يا بطل هات لى نهار،
لم أكن متزوجًا، والآن أسمعها من جهاز
التسجيل مع ولدىّ، وأبحث فى عيونهما
عن السؤال الدامى:
أين هو النهار؟





من الشهد، ولكل مدينة « صبى » ليلي يتشكّل من خلاصة أنفاسها وروحها، كانت كاتبة سويدية قد اعتصرت مدينة «فير» وأصغت إلى صبى أسرارها يعزف عند مدخلها بعد أن ينام الجميع، فمن هو صبى القاهرة وعازفها الليلي؟

هي مدينة بخلاف فير الأسطورية، قلّما تغفو، وقلّما تهجع، فالليل موصول بالنهار، ولليل ظهيرته أيضًا فيها، عليك أن تبتعد عنها كي تراها، كاللوحة على جدار، ما أن يتفلطح أنفك على بقعة لونية منها حتى تختفي.

محظوظ من ولد فيها، وقد يكون أيضا محظوظًا من نام فيها إلى الأبد، لأن ثمة من يسامره ويخفف من وحشته، فالمدن العريقة يتحوّل الموت فيها إلى وعكة، لأن الكائن جزء حميم من دورتها الأبدية.

هل يمكن لقارئ هذه الأرجاع أن يختزلها في عبارة واحدة؟ كأن يسميها مديح مدينة، أو نوستالجيا شخصية أعادت إنتاج المكان وفق الرغائب والإسقاطات؟

من يشاء ذلك، فله الحق، لكن النازع الفعلي لهذه الكتابة كما أستشعر الآن في الأقل هو إعادة اكتشاف القاهرة بعد تجريب عشرات العواصم، فهي تزدهر في المفاضلة، ولمائها إصابة في صميم الروح وسويداء الحلق الناشف، فالظمأ قدر من غادرها ولم يجد غير السراب....

القاهرة - القدس
أقصر الطرق وأطولها

طوال السنوات الخمس التي عشتها في القاهرة، كان الطريق الجوى بين مطار القاهرة ومطار قلنديا قرب القدس هو المشوار الفضّي الذي جعلني أتعلّق زمنا بالطائرة، فالورق الملوّن الذي أطلقته في الطفولة شأن أبناء جيلي في سماء صيفية صافية، لم أكن أحلم بأن يتحوّل وأنا في السابعة عشرة من العمر إلى طائرة دي.سي.سكس، ذات المراوح الأربع، الأثاث المتقشف قياسا إلى أثاث طائرات اليوم.

المرّة الوحيدة التي هبطت فيها الطائرة خارج مدرج قلنديا ومدارج فلسكين كلّها كانت في الثاني من آب ١٩٦٧، هبطت في مطار عمان.

أكثر ما أخشاه عندما أنقطع لسبب طارئ عن الكتابة في سياق واحد، وتحت مظلّة واحدة، هو فقدان الإيقاع والبحث العسير عن طرف الخيط الحريري في الكبّة التي عبثت بها قطّة الزمن.

أما المفارقة، فهي في هذا الإيقاع المحموم الذي تزامن مع طائرة دي.سي.سكس في الستينيات من القرن الماضي، وهذا الإيقاع التأملي البطيء فور الهبوط من طائرة بوينج، لكأن الفتى هو ما يمهر المسافات بإيقاع خطاه، لا الطائرة ولا البعير ولا حتى الصاروخ إذا ما تحوّل في الخيال السياسي إلى وسيلة ركوب لا وسيلة إبادة.

عندما ينفتح باب الطائرة في أى مطار في العالم، يلتقط الأنف رائحة المدينة، قد تكون تبغًا مبثوثًا في الهواء كما يحدث للهابط في مطار مدريد، أو زهورا محترقة السيقان كما يحدث في باريس، أو رائحة بيضاء معقّمة كما يحدث في موسكو.

كانت الرائحة الأولى في مطار القاهرة، بعد ثلاث ساعات من التشبّث الطفولي بالمقعد، وقراءة آية الكرسي كما أوصتنا أمي في الرحلة الأولى، مزيجًا من النعناع والليمون والثوم، ولا أدرى لماذا تفتّحت مسامات جلدى وأنا أتنشّق ذلك الهواء المشبع بالرطوبة.

فطفولتي بحرية بامتياز، رغم أن البحر الذى كانت أمواجه تلامس ظلّي كان ولا يزال محتلاً، كالهواء والتراب حيث لم يبق من شبه الجزيرة الأسطورية هذه غير النار، وهي حتما ليست بيد المحتل، لأن بروميثيوس لم يكن على الإطلاق مستوطنا في أثينا، كما أن سرقة النار لم تكن لتعذيب الأحرار.

في المرحلة الابتدائية كان درس الجغرافيا أثيرًا لمن لم يسافروا إلا على الورق، وكان معلّم الجغرافيا يأمرنا أن نسافر من يافا إلى الإسكندرية ونذكر أسماء المحطات والأمكنة التي نمر بها......



سافرنا في سفن الورق، وطائرات الورق، وقطارات ملفّقة من نشارة الخشب وبرادة الحديد، وكنّا نصفر نيابة عنها، كما كنا نصهل ونحن نمتطي أعواد القصب نيابة عن الخيول، في الطائرة، وعلى ارتفاع يثير الهلع، تذكّرت درس الجغرافيا والمعلّم وسفن الورق، وشدّني إلى الإسكندرية شيء آخر غير صيفها، وشواطئها وفيروز التي صدحت بها.

لم أكن قد اغتسلت بماء البحر المتوسط الذى تطرّف حتى حذفني إلى اليابسة، وفي الإسكندرية فعلتها، لكأن الموجة قادمة من هناك.

نوستالجيا الجبنة البيضاء

صديقي اللبناني زهير ماجد، زار القاهرة لأول مرة وهو تلميذ ضمن وفد طلابي استقبله الراحل جمال عبد الناصر، وأهدى الوفد صفائح من الجبنة المصرية، قال لي زهير إنه يحتفظ بها مغلقة حتى الآن، لفرط تعلّقه بتلك الأيام، وذلك الرجل وتلك المدينة..

أية نوستالجيا تلك التي تملّكت العربي كما لو أن اللحظة الطللية تهجع منذ ستة عشر قرنا في باطن القلب والذاكرة؟

ما فعله زهير، فعله صديقي العراقي « أبو نافع » الذي يحتفظ بحفنة تراب من قبر أخيه الشهيد في مقبرة جنين عام ١٩٤٨ في صرّة حريرية، مثلما احتفظ صائغ الفضة الصابئي أبو عارف بقميص الحرير الذي أهدته إياه وهو طفل نور الهدى عندما مرّت بحيفا مع محمد عبد الوهاب إلى لبنان، كان أبوه يعمل صائغ فضة هناك، وقدّم لعبدالوهاب ونور الهدى هدايا فضية نقش اسميهما عليها، ولدى العودة مرورًا بحيفا قدّما له تلك الهديّة التي بقيت في الصندوق حتى بلغ أبوعارف الخامسة والثمانين.

تماما كما أن الفلسطيني العجوز الطاعن في المنفى يحمل مفتاح بيته الأول وينتظر، وكما احتفظت أنا أيضا بخاتم أبي وحزامه الجلدي لعلّي أضمن الحظ لأبنائي.

نوستالجيا، أقسى من نعيق غراب ادجار آلن بو، الذى كان يردد في وحشة الليل على باب الشاعر (ما مضى لن يعود)...

وعندما دخل د. محمد شاهين الكاتب والأكاديمي الذى ناب عن إدوارد سعيد في استلام جائزة التكريم التي قدّمتها مؤسسة الفكر العربي لسعيد في القاهرة إلى مقهى ريش ووجدني مستغرقًا في استدراج الصّبى الذى كنته إلى المائدة، قال:

ـ سأدعك مع نوستالجياك، ولن أفسدها.....

هل كان هذا التعلّق الطللي بالماضي مرضًا تفاقم في حاضر بارد، مفرغ من دفء الصداقة والحياة برمّتها.. ربما.



ففي كل مدينة عدت إليها بعد زمن، كنت أشبه بالآركيولوجست الذى يتفحّص حجارة الرصيف، وخشب الزوايا، والصور الشاحبة المعلّقة على الجدران، لكن القاهرة، قاهرة بالفعل، لأنها عصية على التحوّل إلى أطلال، آخر وجبة لمن ناموا في الأهرام، لم تفسد بعد، وكأن القمح والشّهد من محاصيل الأبدية، وحتى لو باضت الحمائم والسمّان في أذن رمسيس الثاني أو طلعت حرب، فإن العافية تندلع في التماثيل قبيل الفجر، وقد يمشيان معا بضع دقائق على الكورنيش، ثم يعود كل منهما إلى قاعدته الخالدة..

أذكر أنني كنت أشم رائحة جواز سفرى القديم والأول، مثلما أشم رائحة حزام أبي وصفحات ديوان شعر وجدته ملقى كطائر ميت على سطح بيت الجيران...

أين ذهب هؤلاء؟ شوقي ومحمد وأشجان ومهجة ومديحة.....؟ وعم أمين ماسح الأحذية والهموم في كافتيريا كليّة دار العلوم؟

لم أطرق باب أحد منهم، كي لا يقال لي أنه مات أو هاجر، أردت الاحتفاظ بهم بكامل الصّبا والعافية في الذاكرة، ولم يسعفني أحد مثل فرجينيا وولف، المرأة الملدوغة حتى القتل بالزمن، والنوستالجيا، فقد شاهدت وهي طفلة من نافذة قطار امرأة تنشر الغسيل على شرفة، وبقيت تلك المرأة إلى الأبد تنشر الغسيل، وقد بقي مبلولا أيضا لأن اللحظة تخثّرت، والزمن توقّف عن الجريان.

في ظهيرة ربيعية مضاءة بشذى الليمون، وفي شارع فوزى المطيعي بمصر الجديدة، كانت نبيهة عبد الغفار(طنط) في تلك الأيام تروى لي حكايات لم أعثر عليها في كتاب عن مصر الأربعينيات وعن عباس العقاد، ومديحة يسرى، ولعام كامل كانت طنط نبيهة الجبرتي المؤنث الذى يضيء لي أزقة تاريخ غمرها النسيان..كانت تطلب مني أن أعد القهوة بطريقة كانت تسميها شاميّة، وذات مرّة كان يزورها الأميرالاى المتقاعد أحمد الشاهد شقيق صلاح الشاهد الذى كان كبير الأمناء في رئاسة الجمهورية، وأعددت القهوة لكنني نسيتها قليلاً حتى غلت، واختفت الرغوة، ضحك الضيف ذو الشعر الأبيض والعينين الحادّتين، وقال لي:

ـ هل شربت (وجه القهوة)؟

كان أول عهد لي بما يسمى «الروب دى شامبر» مع طنط نبيهة، اشترته لي من محلات شيكوريل، وطلبت مني مرافقتها إلى سيدنا الحسين لأنها تشتهي « لحم الرأس»، وكنّا، هي ابنة السبعين وأنا ابن العشرين في مشهد عاشقين لفرط ما تشبّثت بيدها كي لا أضيع، ولفرط ما أحسّت بأني حفيدها الضال في بلاد غريبة....

هكذا يقطع النهر مرتين

في سمرقند، تحت سماء أوزبيكية يرشح منها زفير صحابي مهاجر، وفارس يتردد صدى صهيل جواده في أرجاء آسيا أو قارة الأسى، أضعت ساعتي، وتولى القمر هدايتي بين المآذن التي ختنها ستالين، وفي صنعاء عثرت عليها وقد تراكم الصدأ على عقربيها، فيما كانت الصبية آمنة، تفرط عنقود أمهات بدءًا من أم النبي... إلى أم الصبي. وفي القاهرة، على الرّصيف المغنط الذى تتسمّر عليه الأصابع بين المتحف والجامعة العربية تحوّلت ساقاى إلى عقربين لساعة تدفق رنينها في قيلولة الناس؛ ومشى الجميز والنخيل في جنازة نهار فاض عن البحار كلها.

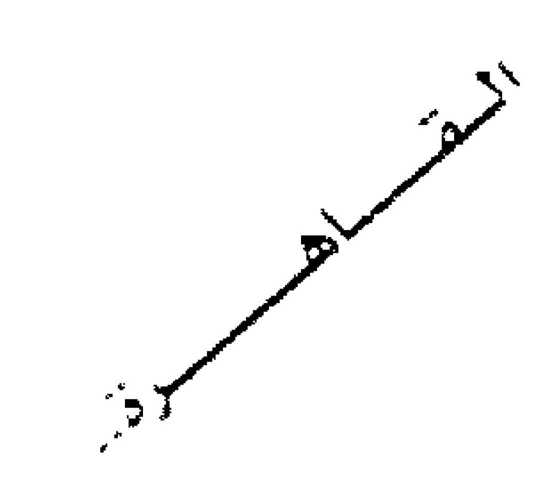
أتشبّث بما تبقّى من غسقه قبل حلول الظلام الذى تضاعفه الكهرباء، ويعد العشق بأبدية من الحنين، والأقمار التي تتأرجح كالأقراط على عنق مدينة بنت سماؤها حتى تدلّت عناقيد نجومها، وشملت اليتيم! فيما الحفيف الخالد، تواصله العذارى، سواء كنّ من نخيل باسق، أو عرائس ملفوفات بأكفان زرقاء في النيل الذى تعددت منابعه، لكنه ذو مصب واحد.

بقي أن أضيف وأنا ما زلت في طور الدوزنة أو طور العذراء من رحلة دودة القزّ، وقبل أن أدلف إلى قاهرتي من بابها غير المخصص للمستشرقين أو السّائح، أن أعترف بأنني في مساء اليوم السابع من



هي مدينة بخلاف فير الأسطورية، قلما تغفو، وقلما تهجع، فالليل موصول بالنهار، ولليل ظهيرته أيضًا فيها، عليك أن تبتعد عنها كي تراها، كاللوحة على جدار، ما أن يتفلطح أنفك على بقعة لونية منها حتى تختفي







حرب الأيام الستة، وهو أطول مساءات التاريخ على الإطلاق، وجدت الساعاتي العجوز قبل الأوان الذي كنت أصلح عنده ساعتي يطرق الباب ويقول لي:

- هل تريد أن تبيع ساعتك وتتخلص من أعبائها؟ ودفع لي ثمنا يعادل ما تستحقه عشرين مرة على الأقل، فهمت منه أنه يريد مساعدتي دون أن يحرجني أو يجرحني، عانقته وبكيت. ومنذ تلك اللحظة، لم تدر عقارب الساعة التي اقتسمناها، وعندما سألت عنه بعد خمسة وثلاثين عامًا قيل لي إنه مات منذ ربع قرن، ولو عثرت على قبره لقلت له........ إن قيامتك أيها الطيب وشيكة، الساعة التي أعدتها إليّ تجاوزت الرابعة والعشرين، وهي الآن تتهيأ لرنين قد يوقظ الموتى، سواء كانوا في باطن الأرض أو على سطحها!

المسافة بين بولاق والزمالك، يمكن قطعها في بضع دقائق على الأقدام، يفصل أكثر الأحياء شعبية في القاهرة وأرقاها في الستينيات من القرن الماضي جسر، لكن النهر يوحّد بينهما وهو الذي لا يقطع مرتين حسب ما قال هيراقليطس، والذي يقطع مرّات عديدة حسب ما قال عاشق مجهول.

ذات ظهيرة، شربت الكركديه السّاخن بقرش واحد في مقهى شعبي في حي الجدعان والمعلمين، وبعدها بنصف ساعة شربت القهوة في الهيلتون مع صديق يزور مصر، وفي المساء دعاني إلى كافتيريا النايت اند دي في سميراميس ذى المصاعد السوداء العارية والمدخل الأرستقراطي، وحين صعدنا إلى الروف لم يتح لي الدخول لأنني أرتدي الجينز، وكان ذلك المساء لسبب لا أعرفه مكرسًا للسموكن وربطة العنق.

سكنت في شقة مفروشة في جاردن سيتي، وفي غرفة على السطح في حي عليش بالجيزة، شربت عصير القصب في شبرا الخيمة، وعصير الأناناس في خارينوس بمصر الجديدة، وكنت أقتسم قطعة جاتوه في الأنتريون في روكسي مع لاجئ سياسي وأقتسم كوب شاي كشري أو طبق أرز بالحليب في الموسكي مع شوقي عسكر أو محمد درّة. تعلمت الرقص الغربي في سرّة العاصمة، وعند مدام نسيت اسمها، ورقصت بالعصا في ساحة أقيم فيها عرس لشقيق أحد زملائي في الجمالية، وقد أكون دفنت في الدراسة، ونسيت لأن ما عشته في القاهرة، كان يتطلّب عدة ميتات كي أنهض معافى، وقد أكون أول ذكر في التاريخ حبل بنفسه وأنجبها فكان أب ذاته وابنها.

ليلة الخامس من حزيران، وفي هزيعها الأخير، أيقظتنا والدة شوقي عسكر من النوم، ابنها وأنا كي نهيئ أنفسنا للامتحان، لكن الامتحان تأجل وحلّ مكانه امتحان قومي عسير لأمة بدت كالطاووس الذي فقد ريشه، أو السلحفاة التي قلبت على ظهرها.

كانت فايدة كامل تصدح في ساحات القاهرة والليل نيل آخر يجري في الفضاء، غزير السّواد، والنجوم فيه تومض وتختفي وراء غيوم صيفية.

أعود بعد خمسة وثلاثين عامًا إلى الرصيف المقابل لسينما ريفولي، وقرب دار القضاء العالي، وبالتحديد تحت فندق أمية، فأغمض عيني، وأسمع صفارة الإنذار، ويعم الظلام فأسمع أصوات المتطوعين في الدفاع المدني يطالبون الناس بإطفاء النور، وأفتح عينيّ، فأرى المارة أمام الأمريكين والضوء يغمر وسط المدينة، أتوقف قليلا عند تمثال طلعت حرب، وقد أصابني الدوار فيدلني مرة أخرى على مقهى ريش، وما إن أدلف إليه حتى أجلس متهالكا على ساقيّ قبالة مجدي، وأروي له ما حدث.



عندما حزمت حقائبي - استعدادا لمغادرة القاهرة، لم تكن العمارات والأشجار تتراجع من نافذة السيارة، أنا الذي كنت أمشي إلى الوراء، كي أبحث عن أصابع قدميّ المبعثرة بين روكسي والجيزة وبولاق وجاردن سيتي والقصر العيني، في المطار، وددت لأول مرة أن يعلن عن عطل مفاجئ في الطائرة لأظفر بساعات أخرى قرب نفسي، رغم أن الطائرة هذه المرة لم تكن منطلقة كالسهم ذى العينين الذي يعرف وجهته إلى القدس.

إذا كان للمكان عبقريته، فإن الزمن ليس خلوا منها، لكن قطيعة ما قد تحوّل مدينة بكل ما تعج به من كائنات إلى غزلان تعدو واقفة على جدار مزهرية، كتلك التي وصفها الشاعر كيتس، فالمدن تشبه النساء إلى حد بعيد رغم ظاهرها الذكوري، منها من قد تبادلك الحب، ومنها من تغلق كل شيء في وجهك غير باب الفندق.

أما القاهرة، فإن لشوارعها ذاكرات، تتهجى موسيقى اليتيم، وتستدرجه إلى دفئها، فالنيل له لدغة طيبة، وساحرة، وقد لا يبرأ منها من شرب منه وتوضأ منه، وأصغى إلى حفيف عذاراه الزرقاوات!

ليلة حزيرانية بلا نجوم

على سطح بيت قديم قبالة المسجد في قريتي، دير الغصون التي احتلت عام ١٩٦٧، كان التجوّل ممنوعًا، والناس مشتبكون مع كابوس الاحتلال، وتحت سماء صيفية صافية، فيما كان الندى يبلل أهداب اللحاف سمعت من الراديو نعي رئاسة الجمهورية العربية المتحدة للمشير عبد الحكيم عامر، خفق قلبي حتى بلغ الحنجرة وأنا أحدّق إلى تلك الجهة من السّماء، كانت الريح جنوبية، وكذلك جهة الوجع، وكان الغموض يلفّ ليلنا الطويل، فيما كانت الدبابات الإسرائيلية تسير ببطء كالسلاحف المعدنية العملاقة.

لم يكن معنا في تلك الأيام غير ما يردنا عبر الأثير من القاهرة، وعد بتطهير آثار العدوان، ومشروع حذر في تعبئة تحوّلت إلى حرب استنزاف، حلفنا مع حليم بسمائها وترابها، وعلى بعد صرخة أو استغاثة من بيتنا الجبلي، كان يسوع يصغي مثلنا إلى أغنية شجية يتردد صداها في لندن، ولا يجد النظّارة ما يعضونه لحظة العودة إلى بيوتهم غير حديد السرير.

في مركز الشرطة القديم بمدينة طولكرم، هناك عند تخوم المخيم، رفع المحتلون راية لم نشاهدها من قبل في الفضاء، هي نجمة داود السداسية، والخطان الأزرقان، وسواء كانا النيل والفرات أو خطوط الطول والعرض لأسبارطة القرن العشرين فإن ما بقي في الذاكرة طيلة تلك الأعوام، سؤال محتقن بالسّم وجهه لي ضابط يهودي يرطن بعربية مشوبة بخاءات العبرية: هل عرف المصريون أن سيناء قد احتلت؟؟ وماذا قال لهم عبد الناصر؟؟

وكانت الإجابة عن سؤال كهذا تكلّف التلميذ العائد مع الرّيح بلا تصريح حياته، وليس اصطناعا لشجاعة أو أي شيء كهذا وجدتني أجيبه بما لم يرضه، فضربني على وجهي، بلكمة، ضاعف من قوتها وتدفق الدم في فمي من خاتم غليظ كان يلمع في أصبعه، ثم قال: انتظر ناصر ثلاثمائة عام.



وأعترف بأنني احتملت الألم، ولم أبد أية إيماءة تدل عليه، وصرت أضحك من فرط الحزن وأقول له إن ثلاثمائة عام ليست كثيرة وها أنت تعترف بعمر الاحتلال على الأقل!

في عمّان، كان الشتاء غزيرا وندف الثلج يغمر ممرات الحديقة الواسعة أمام فندق الفورت جراند، عندما ذهبت لمقابلة جوليوس نييريري، الرجل الأخضر الذي عاد إلى بلاده على متن حمامة لا دبابة، وعمل في الشأن الدولي حتى الموت، بعد سؤالين أو ثلاثة عن سبب حضوره إلى عمان، حدّقت إلى عينيه، وقلت له إن صبانا مضمّخ باسمه، وباسماء آخرين من صانعي ذلك الزمن، نكروما، أحمد بن بيلا، جميلة بوحيرد، شوين لاي، تيتو، ونهرو، ولومومبا، أسماء مهرت عقدين من الزمن، واقترنت بأحلام الفقراء والمحرومين والمحتلين، وكنا أصغر سنًا من فهم ما جرى في باندونج، لكن الرجال والنساء كبار السن من حولنا، كانوا يرددون كلمات غامضة مثل عدم الانحياز والقوة الثالثة، وبالرغم من المصير الفولكلوري لتلك المحاولات الباسلة في وقتها، ترسب في اللاوعي ما لا يمكن حذفه بجرة رصاصة أو قلم.

شاهدنا في السنة الأولى من دراستنا الجامعية عبد الناصر يقف إلى جوار شوين لاي في استاد القاهرة ويمنح عباس العقّاد جائزة الدولة، وأصغينا إلى العقّاد وهو يشكر الزعيم دون أن يتخلى عن رواقيته، أو عن «خنزوانيته» تلك التي وصف بها خالد بن الوليد المخزومي الذي اتّصفت قبيلته «بخنزوانية» هي الكبرياء الفائض.

وفي تلك الأعوام، تحوّلت مقدمة سارتر لكتاب د. فرانز فانون « معذّبو الأرض» إلى نشيد، وأعاد جول جمال الفتى الشامي الذي استشهد في حرب السويس سليمان الحلبي إلى الذاكرة العربية، عندما قتل جنرال كليبر، ولم نكن في ذلك الصبا الراعف بحاجة إلى محرّض قومي، أو جيوبوليتيكي حاذق وعبقري كالدكتور جمال حمدان كي ندرك أن لا شام بلا مصر، وأن عبقرية الجغرافيا تفيض على التاريخ، لكن هذا العالم الفذ، الذي تزوّج فكرة وعاش معها حتى الموت الغامض إثر انفجار أنبوبة غاز، تعهّد فينا تلك البذرة وسقاها، حتى تحوّلت إلى غابة.

جوليوس نييريري، أحد أولئك الذين ضمّخوا صبانا السياسي والثقافي، قلت له في ذلك المساء المطر، في عمّان:

- كنت طالبًا في جامعة القاهرة، عندما انتظرت على شرفة الشقة ساعتين، كي أرى الرئيس الراحل عبد الناصر وقد أمسك باليد الخضراء لنييريري، ولوّحا معًا للمستقبل.

تراقصت عينا الرئيس الأفريقي السابق والإنسان اللاحق، وبدا كما لو أنه يقاوم دمعًا يوشك أن يتفجّر من عينيه وقد غطّاهما احمرار مفاجيء.

أعرف أن التسلسل الزمني ليس من شأن هذه التداعيات، التي يصبح فيها اليوم عامًا، والعقد ربع ساعة، بمقاييس أخرى لا تعرفها التقاويم وساعات الجدران الصماء.

فالقاهرة تتسع وتتمدد لتشمل قارّتين على الأقل ثم تبدأ بالانحسار حتى تصبح قطرة دم على جناح فراشة، أو على خد عصفور، فهي الملكوت الأول، لمن كبت أحصنته الصغيرة التي تلثغ بالصهيل في شوارعها الواسعة والمزدحمة، وهي لحظة البدء التي لا تفضي إلى خاتمة.

أخيرًا، هل كتبت القاهرة أم كتبتني؟

أينا مهر الآخر بموسيقاه الشجية؟

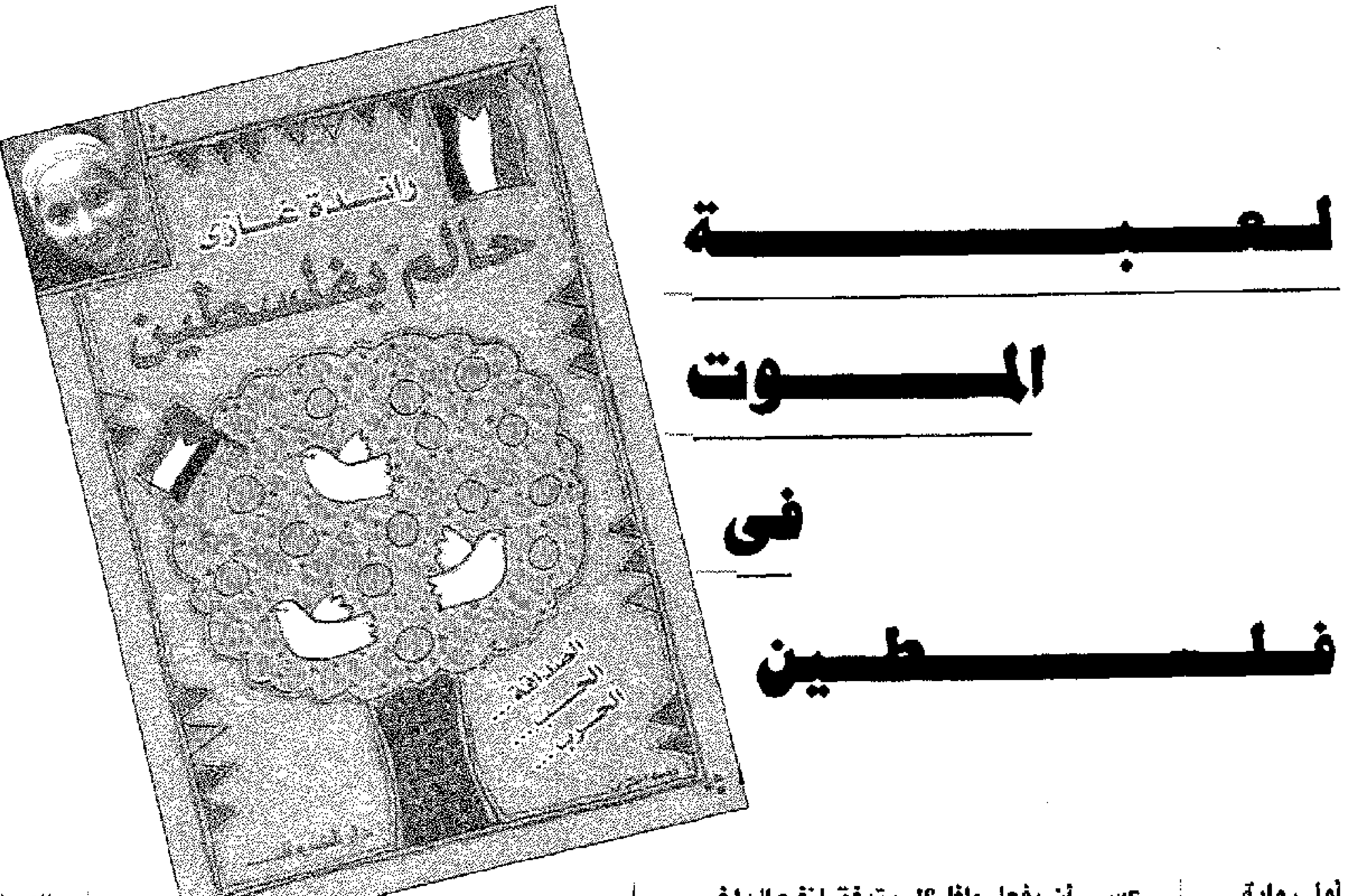
الأرجح أنني ما زلت في المقدمة، وبداية البداية، فالزمن في صباي الذي استعدته مؤخرا في القاهرة كان قاهريًا بامتياز، وكانت أفعال الماضي رغم نقصانها لا تليق بأبدية شاهدتها بعينيّ تتثاءب على الشاطئ تحت شبّورة من زفير الزمن. ■



عندما حزمت حقائبي - استعدادا لمغادرة القاهرة. لم تكن العمارات والأشجار تتراجع من نافذة السيارة، أنا الذي كنت أمشي إلى الوراء، كي أبحث عن أصابع قدميّ المبعثرة بين روكسي والجيزة وبولاق وجاردن سيتي والقصر العيني



لعبة الموت في فلسطين



■ ■ «حالم بفلسطين» هي أول رواية لمؤلفتها راندة غازى ذات الخمسة عشر عاما. يتناول الكتاب موضوع الصراع القائم بالشرق الأوسط والذى يغلب على الأجيال الحالية وخاصة الغربية منها، عدم الإلمام به أو الإدراك لأبعاده. تبدأ الأحداث بسرد موجز لحياة بطل الرواية إبراهيم الذى يُقتل أبوه المؤذن على أيدى الجنود الإسرائيليين. يغرق إبراهيم فى حالة من الحزن الشديد ولا يخرجه منها إلا صديقه نضال الذى يكون له الفضل فى إدخال بعض السعادة إلى قلبه والتى سرعان ما تنتهي بوصول دبابات الاحتلال الإسرائيلية إلى بلدته. الرواية تعرض القضية بقوة، إلا أنها فى الوقت الذى تستفيض فيه فى تحليل هذا الصراع الأزلى لا تعطى أية حلول شافية؛ فالحاضر والمستقبل يصبغهما السواد، وتهيمن عليهما مصالح القوى الكبرى فى العالم.

وراندة هى فتاة مصرية الجذور.. إيطالية الجنسية.. عربية الانتماء.. ولدت فى إيطاليا وتلقت تعليمها هناك، وتأثر فكرها إلى حد كبير بالإعلام والثقافة الغربيين. إلا أنها حافظت - والفضل فى ذلك يرجع لوالديها - على التواصل مع وطنها العربى، فلم يكن أمامها من وسيلة أفضل من القنوات الفضائية العربية. وأزعجها ما رأت كثيرا بل أذهلها، وفجر فى رأسها الصغير طوفانًا من الأسئلة وعلامات التعجب. فماذا رأت؟..



كان ذلك فى يوم ٣٠ من سبتمبر ٢٠٠١.. «لما قُتل ذاك الصبى.. محمد الدرة.. ولما أُجرى حديث صحفى معه.. ذاك الجندى الذى قتل الصغير.. قال إنه أبقى على الأب حيًا حتى يعذبه.. هذا ما قاله.. قتلتُ الابن وتركت الأب حيًا حتى يتعذب..».

انفعلت راندة بموت الصغير محمد الذى كان فى الثانية عشرة فقط من عمره. لم تفهم سببًا لقتله، لأنه لم يفعل شيئًا، فما عسى أن يفعل طفل؟!. وتدفق انفعالها فى صورة نهر من الكلمات وضعتها على لسان إبراهيم الذى قال بمرارة:

«حسنا.. يبدو أن حقيقة أن الجندى قال شيئا كهذا لا تزعج أحدًا سواى.. باقى العالم لا يبالى.. رأى الناس هو أن الأمر لا يتعدى ضحية صغيرة وسط ضحايا أخرى كثيرة.. هكذا.. وأقول لنفسى.. أيبقى للرأى العام وزنه بعد ذلك؟ حسنا.. أعتقد أنه فى الحقيقة : لا..».

كتبت راندة غازى روايتها أولا فى صورة قصة قصيرة، وتقدمت بها لمسابقة أدبية تقام للأطفال فى إيطاليا، وفازت قصتها. فتحمست لها دار نشر ريتزولى - ليبرى الإيطالية RCS Libri، وطلبت منها إعادة كتابة القصة فى شكل رواية طويلة لنشرها بالدار. ونُشرت الطبعة الإيطالية الأولى من الكتاب فى أبريل ٢٠٠٢ تحمل عنوان Sognando Palestina .



ويتناول الكتاب الصراع الفلسطينى مع الصهيونية الإسرائيلية من خلال المعاناة التى تختبرها مجموعة شباب فلسطينيين تجمعهم ظروف الحرب بعد فقدانهم لآبائهم وأحبائهم، وتدفعهم ظروف الاحتلال إلى الإقدام على محاولة يائسة للانتفاضة تنتهى بموت عدد منهم وتشتت المجموعة. والكتاب يدين الحكومتين الإسرائيلية والأمريكية كما يدين الدول الأوروبية التى تأخذ موقف المراقب الصامت للأحداث؛ والكتاب يتمتع بإيقاع جذاب، وبه كثير من قصص الحياة اليومية التى تسهم فى مجملها فى رسم صورة واقعية ودقيقة للواقع الفلسطينى. فالأحداث تبدأ من انتفاضة ٢٠٠١، وتتخللها بعض الاستدعاءات من أحداث تاريخية سابقة لها. وقد اتبعت راندة أسلوبا شعريا سرديا فى الكتابة، وعمدت إلى إعادة جمل وكلمات بعينها تأكيداً وتثبيتاً للحقائق والأفكار فى ذهن القارئ.

تعرضت راندة غازى لهجوم قوى فور صدور الطبعة الفرنسية من كتابها فى نوفمبر الماضى عن دار نشر فلاماريون Flammarion، والذى أفردت له مجلة «الكتب.. وجهات نظر» تحقيقا كاملا فى عدد يناير ٢٠٠٣. يتناول الادعاءات التى روجتها الجماعات اليهودية فى فرنسا بأن الكتاب معاد للسامية ويحرض على العنف والإرهاب. ولعل أبرز ما ساعدهم على الإيحاء بصحة أقوالهم هو الصورة الموجودة على غلاف الطبعة الإيطالية، والتى يظهر فيها طفل فلسطينى يحمل رشاشا، وهى الصورة التى تبدو للوهلة الأولى مفتعلة ومبالغًا فيها حتى أن حجم الرشاش لا يتناسب بالمرة مع جسم الطفل النحيل، ولا مع ابتسامته الحائرة التى تتنافى مع قوة وهيمنة سلاحه. إلا أن هذه الصورة جاءت تجسيدا للُعبة الوحيدة التى تركتها الحرب لأطفال فلسطين.. لُعبة الموت التى رآها إبراهيم، وهو يراقب - بحسرة - الأطفال يلعبون فى معسكر اللاجئين..

«كان هناك ما يشبه ميدان المعركة.. مُشيَّد بألواح خشبية.. إطارات مطاطية.. حبال.. أدوات بالية.. وأطفال فى الزى العسكرى.. برشاشات ومسدسات مزيفة.. يرددون آيات القرآن الكريم التى تحتفى بالجهاد.(...) والغريب أن أصواتهم كانت تخيف قليلا.. بل كانت تكاد تكون متوعدة.. متوعدة..».

باتت القضية أن راندة غازى تُحرض على العنف،موجهة رسالتها المشبعة بالافتراءات على الإسرائيليين إلى الأطفال والشباب.. إلا أن هذا الادعاء يَبعد كل البعد عن الحقيقة.. فراندة نفسها أكدت فى عدة مناسبات أنها ضد العنف.. ضده تماما.. إلا إن ذلك لا ينفى حقيقة أن العنف موجود.. وملموس.. ليس فى فلسطين فحسب بل إن أمثلته ظاهرة وكثيرة فى العالم كله.. فماذا يجدى النكران إذن؟!.. هل هناك أبلغ من الصور التى نراها كل يوم، بل كل ساعة على شاشات التليفزيون.. هل هناك أبلغ من صور القتلى.. وأشلاء الجثث.. التى نراها مخضبة بلون الدم؟! أليست تلك هى الحقيقة؟! أتقول راندة أن أحداث القصة وأبطالها من صنع خيالها، لكنها لم تَبْن هذا الخيال من فراغ بل أسسته على أحداث وحقائق فعلية جمعتها من الصحف والكتب ووسائل الإعلام. بحثت عن الحقيقة وعزمت على إعلانها. عجبت من صمت الكبار ولا مبالاتهم. وقررت ألا تسكت مثلهم.. أن تتكلم.. وتشرح.. وتحلل.. قررت أن تكتب فلمست كلماتها الوتر.. وأصابت - لا شك أنها أصابت - وإلا لم يكن شيء مما كان ضد الكتاب. قالت ما لم يفلح الكبار فى قوله - ليس ذلك فحسب - بل قالته بكل الصدق والنضج والبلاغة!

ورغم كل ما سبق، قد يوحى عنوان «حالم بفلسطين» أن الحرب هى موضوع الكتاب الرئيسى، إلا أن راندة تناولتها كضلع من أضلاع مثلث الحب والحرب والصداقة. تناولت تأثير الحرب فى حياة مجموعة من الشباب تتراوح أعمارهم ما بين سن العشرين والثلاثين.. تأثيرها على مشاعرهم.. أحلامهم.. علاقاتهم.. ومصائرهم. ومن خلال عدة نماذج من العلاقات التى تربط أبطال القصة: أب وابن.. أخت وأخ.. صديق وصديق.. حبيبة وحبيب.. ترسم راندة ملامح كل شخصية مشيرة إلى الصراع الذى تعيشه ما بين الرغبة فى السلام وبين الاضطرار إلى اللجوء للعنف.



تشرح راندة كيف أن الأبطال يحاولون التمسك بحقهم فى الحياة.. فى الاستمتاع بشبابهم.. فى الفرح بالحب.. وكيف أن الحرب تخطف فى جولة أولى أعز أحبابهم.. وتتركهم بعدها فى حالة من الضياع والجمود والهروب.. الهروب من كل شيء.. بيوتهم وأحبائهم وآلامهم وأنفسهم.. وكيف أنهم يجاهدون للخروج من تلك الحالة.. وينجحون بالفعل.. يعودون من جديد.. يلملمون أجزاء وأشلاء ما بقى لهم من حياة طبيعية كانت لهم فى الماضى.. ويسعون لإعادة بناء وجود لهم من جديد.. وينجحون.. ينجحون بمساعدة بعضهم البعض وبحبهم لبعضهم البعض.. ويعيشون فترة من السعادة معا.. لكن عمر السعادة قصير.. تَشن الحرب جولتها الثانية عليهم.. وكأنها قد اغتاظت من قدرتهم على الوقوف على أقدامهم والصمود من جديد.. وتدوسهم - هم - هذه المرة.. تدوسهم بكل قوتها.. وتسحقهم تماما!!!

تنتهى القصة نهاية مأساوية، يتمنى المرء لو لم تكن بتلك القسوة.. يتمنى لو أن أحدا منهم تمكن من النجاة.. لكن تلك هى الحقيقة المُرَّة.. ليست هناك نهاية سعيدة للحلم.. فالحقيقة لا تزال كابوسا!.. ■

ميريام رزق الله

حالم بفلسطين
راندة غازى
ترجمة : ميريام رزق الله
القاهرة : دار الشروق، ٢٠٠٢

التفسير «القهوجى»

■■ فنجان القهوة، مثله مثل أشياء كثيرة معتادة فى حياتنا اليومية، نأخذه كأمر مسلم به، وتنحصر أهميته لدى الملايين من المتعاطين له حول العالم في مذاقه أومفعوله المنبه وأحياناً آثاره الصحية. فهل تتصور أن أحد المؤرخين يعتقد بجدية أن فى هذا الفنجان تكمن القوة المحركة للتاريخ؟ فهو فى كتابه ينسب النهضة الأوروبية وميلاد عصر التنوير إلى بداية إقبال الأوروبيين على شرب القهوة فى أواسط القرن السادس عشر. وقد وجد مؤلف آخر خلف كل فنجان من القهوة تجسيداً للظلم الاقتصادى والقهر السياسى الذى وقع على شعوب استعبدت فى الماضى وما زالت تستعبد فى ظل العولمة بسبب تجارة البن. بل إن القهوة التى نعدها الآن أكثر المشروبات وقاراً كانت موضوعاً لقضية شرعية وسياسية ساخنة فى العالم الإسلامى حسب ما جاء فى كتاب ثالث، إذ تم تحريمها أكثر من مرة فى القرن السادس عشر. من خلال هذه الكتب، ومن خلال تاريخ القهوة، وجدت من المشوق رؤية تاريخ الإنسان من منظور الفنجان.



ذات يوم عثر صحفى أمريكي شاب يدعى «ستيوارت لى آلن»على كتاب للمؤرخ الفرنسى «جول ميشليه»الذى عاش وكتب فى القرن التاسع عشر، بعنوان Mon Journal يتناول فيه تاريخ أوروبا وأحوالها فى العصور الوسطى والعوامل التى أدت إلى نهضة الحضارة الأوروبية وميلاد عصر التنوير. وقد اندهش ستيوارت عندما وجد أن القهوة لها مكان بين تلك العوامل، يقول ميشليه:

« إن التفجر الباهر للإبداع الفكرى يعود الفضل فيه جزئياً إلى ذلك الحدث الكبير الذى خلق عادات جديدة، وغيّر من المزاج الإنسانى- كان هذا الحدث هو مجىء القهوة».

فى البداية اعتبرها ستيوارت فكرة رومانسية تليق بالفرنسيين أن يتم إرجاع ميلاد حضارة إلى فنجان من «الاسبرسو». ولكنه عاد وبحث ليجد حقلاً بحثياً كاملاً ينتمى

---

١. **The Devil's Cup, Coffee :The Driving Force in History**
(القهوة: القوة المحركة في التاريخ)
Stewart Lee Allen
New York: Soho Press,2000, 231p.

٢- **Coffee and Coffeehouses: The Origins of a Social Beverage in the Medieval Near East**
(جذور مشروب اجتماعي في الشرق الأدنى في العصور الوسطى)
Ralph S. Hattox
Washington U.P ,1985,178p.

٣- **Uncommon Grounds: The History of Coffee and How it Transformed Our World**
(تاريخ القهوة وكيف غيّرت عالمنا)
Mark Pendergrast
Basic Books,2000,552p.

إلى علم الأنثروبولوجيا يسمى « الإثنو بوتاني»أو علم الأجناس النباتي توصل الباحثون فيه إلى نتائج على شاكلة نظرية ميشليه، إذ يجدون علاقة بين السمات النفسية والعقلية والمزاجية التي تميز الشعوب وما تتناوله من أنواع الغذاء والعقاقير. فقرر ستيوارت أن يختبر صحة هذا التفسير «القهوجي»للتاريخ بان يقوم برحلة حول العالم متتبعاً المسيرة التاريخية والجغرافية التي اتخذتها القهوة منذ أن اكتشفت لأول مرة في إثيوبيا من عدة قرون.

وكانت النتيجة كتاب «القهوة: القوة المحركة للتاريخ»، وهو كتاب مشوق مكتوب بأسلوب عصري يجمع بين التسلية التي نجدها في كتب أدب الرحلات، والمعرفة التاريخية المبحوثة بعناية التي نجدها في كتب التاريخ المملة في كثير من الأحيان. وأقصد بالأسلوب العصري ذلك الأسلوب في الكتابة الذي ينتهجه كتّاب -كثيرون في الغرب وقليلون عندنا- أدركوا أنهم يخاطبون جمهوراً تتجاذبه وسائل الإعلام الحديثة بالصوت والصورة لتزوده بالمعلومات وتسليه دون عناء القراءة، فأصبح عليهم أن ينافسوا كل هذا بتقديم مادة علمية مشبعة لعقلية إنسان هذا العصر، ولكن في قالب جذاب يتناسب مع صبره المحدود ومله السريع.



يرتبط اكتشاف نبات البن بحكاية شبه أسطورية ولكنها شائعة في معظم الروايات التاريخية، مضمونها أنه منذ حوالي ألف عام تقريباً لاحظ راعي ماعز إثيوبي أن معزة من قطيعه أخذت ترقص وتقفز وتماميء بطريقة محمومة، ولاحظ الراعي أن هذه الحالة تنتابها كلما تناولت ثمار نبات معين، فقرر أن يجرب هذه الثمار بنفسه فإذا بنشاط غريب يدب فيه بعد أن أكل من تلك الثمار. وكان عم هذا الراعي متصوفًا يقيم الليل صلاة ودعاء، فاكتشف أن تلك الثمار تبقيه يقظاً وتمنع عنه النعاس، فراح يقدمها لتابعيه ودراويشه، فذاعت سمعة هذا الشيخ الحكيم الذي توقظ حكمته المصلين حتى الفجر.

وبصرف النظر عن مدى صدق الأسطورة، فالثابت لدى ستيوارت أن أول من تناول حبوب البن هم قبائل الأورومو التي عاشت في مملكة «كيفا»بشرق إثيوبيا، ويقول البعض أن كلمة «كوفي» coffeeاشتقت من اسم تلك المملكة. ولكن الأورومو لم يشربوا القهوة قط - إنما أكلوها! فقد كانوا يسحقونها ويمزجونها بالدهن ويشكلونها على هيئة أقراص. ومن إثيوبيا أخذنا كلمة «بن»في العربية، حيث يطلقون هم على القهوة «بونا». وقد ظهر الصنفان الرئيسيان من البن منذ البداية في إثيوبيا أيضاً، فالمناطق السهلية التي تشبه أراضي كيفا فتنمو فيها شجيرات تثمر حبوب البن المعروف الآن باسم «روبستا»، وهو النوع الرديء الرخيص الثمن. أما في مناطق المرتفعات تنمو الحبوب الطويلة الأجود والتي تسمى «أرابيكا»، وتلك هي التي تم جلبها إلى اليمن.

صحيح أن مدارس الشريعة الرئيسية تبيح الآن شرب القهوة إلا أنها اعتبرت «بدعة» وحرمت في وقت من الأوقات



اليمن: من القهوة إلى القات

بعد أن انتهى ستيوارت من جولته في إثيوبيا وتذوق قهوتها المأكولة والمشروبة، وتذوق القهوة المصنوعة من أوراق نبات القهوة وليس ثمارها، توجه شرقاً إلى اليمن وبالتحديد مدينة «مخا»فقد كان هذا هو الطريق الذي سلكته القهوة في التاريخ.

ظل ميناء مخا مرادفاً للقهوة لمدة ألف عام، ومن اسمه جاءت تسمية «موكا»التي تطلق في الغرب على أحد أصناف القهوة. وإذا كان الإثيوبيون هم أول من عرف القهوة، فإن العرب هم أول من صنعوا منها مشروباً. حيث يتفق معظم الرواة أنه في مخا في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي قام أحد أئمة الطريقة الشاذلية وهو الشيخ علي بن عمر الشاذلي بإعداد أول كوب من القهوة في التاريخ. فالعالم كله يدين للمتصوفة من أتباع الطريقة الشاذلية بالتعرف على مشروب القهوة، فقد تجولوا في أنحاء الجزيرة العربية عاقدين حلقات الذكر، يتعبدون ليلاً بعد تناول القهوة التي حملوها معهم أينما ذهبوا. وتوجد روايات أخرى تنسب هذا الاكتشاف إلى شيخ يمني آخر أيضاً من المتصوفة يدعى جمال الدين ابن سعيد الدهباني توفي عام ١٤٧٠ ميلادية.

والعرب لم يقوموا بتحميص حبوب القهوة أو طحنها، وإنما أعدوها نيئة، وفي هذه الحالة يكون لون شراب القهوة ذهبياً صافياً. وهذه الطريقة لا تزال معروفة الآن في بعض البلدان العربية ويطلق عليها « القهوة العربية». ومن اليمن ثم الحجاز انتشرت القهوة وجاءت إلى مصر عبر رواق اليمنيين في الأزهر الشريف في أوائل القرن السادس عشر ومن بعدها إلى سوريا ووصلت إلى اسطنبول في منتصف القرن نفسه تقريباً.

وارتبط انتشار القهوة بانتشار الإسلام، فأينما حل الإسلام حلت القهوة، ومع توسع الامبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر، أصبحت مخا هي مركز البن في العالم الإسلامي كله. وعندما زارها تاجر إنجليزي اسمه «جون جوردون»عام ١٦٠٦ كتب عن مشاهدته لأكثر من ٣٥ سفينة تجارية يزدحم بها هذا الميناء الكبير تنتظر شحنها بالبن. ويتضح مما كتبه التاجر الإنجليزي كيف كانت أوضاع التجارة الدولية في ذلك الوقت في صالح كفة العرب، حيث تصف عبارته الآتية صورة أسعار الصرف التي كانت على العكس تماماً من صورتها المعاصرة. كتب جوردون شاكياً: « مخا بها كل أصناف السلع الفاخرة والغالية الثمن إلى درجة لا تسمح لنا بالدخول في معاملات تجارية، خاصة في ظل الأسعار المرتفعة التي يتم البيع بها لتجار القاهرة الكبار».



ولكن مخا التي شاهدها ستيوارت على مشارف القرن الواحد والعشرين شيء آخر غير الذي شاهده جوردون. فقد راح البن وحل القات، حل في الأراضي والمدرجات والجبال التي كانت تعطي أفضل أنواع البن للعالم، وحل في العقول التي كان البن يشحذها، متخذاً له مكاناً ومستقراً في كل بقعة صالحة للزرع وكل فم قادر على المضغ و«التخزين». وقد تحدث شاب يمني إلى ستيوارت عن القات فقال له:

«إنه أسوأ شيء حدث لبلادنا...لقد انتشر انتشاراً رهيباً، أصبح غالبية الرجال يدمنونه وكثير من النساء أيضاً، حتى أنه أفسد الاقتصاد وهدد البن بالاختفاء من البلد الذي كان أول من زرعه. لقد بدأ الأمر حين كانوا يمضغون القات لمدة ساعة بعد الغداء، ثم امتد لثلاث ساعات...والآن يمضي اليوم في التخزين ولا ينجز أي عمل».

هذا النبات المدمر يعتبر الأخت الشريرة لنبات القهوة، فكلاهما من المنبهات ولكن القات أيضاً مخدر، ويحتل موقعاً من بين فئات المخدرات السبعة التي حددتها منظمة الصحة العالمية. بل إن بعض الحكومات تعتبره خطراً يوازي خطر الهيروين. فإذا كان تعاطي القات بالفعل على هذا القدر من الشيوع الذي يصفه المؤلف فليس من قبيل المصادفة أن تخرج الجماعات المتطرفة بأفكارها الشاطحة من تلك البقعة التي كانت في القدم منبع الحضارة في الجزيرة العربية يخرج منها كذلك كبار الشعراء والعلماء والمتصوفة.

القهوة وذهنية التحريم

أما قضية تحريم القهوة في البلاد الإسلامية فقد ذكرها ستيوارت في كتابه باختصار، ونظراً لأهميتها وقلة ما هو معروف عنها بحثت عن كتاب آخر يتناول هذه القضية بالتفصيل، فوجدت كتاب «القهوة والمقاهي في الشرق الأدنى»وقد بني على دراسة علمية قام بها المؤلف رالف هاتوكس أثناء دراسته للشريعة الإسلامية في جامعة برنستون الأمريكية.

صحيح أن مدارس الشريعة الرئيسية تبيح الآن شرب القهوة ولا تعارضها، ولكن قليلاً منا يعرف أنها اعتبرت «بدعة»في وقت من الأوقات. حدث هذا عندما أخذت في الانتشار بعيداً عن حلقات الذكر الصوفية وأصبح يتم تناولها في تجمعات يغلب عليها الترفيه والتسلية أحياناً والمناقشات السياسية أحياناً أخرى، فتم تحريمها بالفعل أكثر من مرة في القرن السادس عشر قبل ترسخها كعادة أصيلة بين العرب. وقد وجد هاتوكس أنه من الواجب فحص ذلك المنطق التشريعي الذي حرمها في وقت من الأوقات ثم المنطق الذي أحلها مرة أخرى. فكتابه يلقي الضوء على منطق مجتمع بأكمله حيال كل ما هو «جديد»، سواء كان هذا الجديد منتجاً أو فكرة أو عادة.

وبالرغم من أن فصول هذه القضية وقعت في القرن السادس عشر الميلادي، إلا أنها ذكرتني بالقضايا التي تنفجر من حين لآخر في مجتمعاتنا العربية المعاصرة على أشياء مثل مشروعية تأليف وقراءة رواية ما، أو حق المرأة في قيادة السيارات، أو مشاهدة مصارعة الثيران. فقد تحولت مسألة القهوة إلى قضية فقهية وشرعية وثقافية ثار حولها جدل عنيف في عدد من العواصم الإسلامية، وألقيت خطب وصدرت فرمانات وحدث شقاق بين المعارضين والمؤيدين للقهوة من العلماء والقضاة والمثقفين. وأقيمت محاكمات في اسطنبول، ووقعت جزاءات، وقامت مظاهرات وأحداث شغب في القاهرة، وشنت الشرطة غارات على المقاهي دفاعاً عن الأخلاق. فلماذا رأى بعض المسلمين في القرن السادس عشر في القهوة ما يشكل تهديداً للمجتمع والأخلاق؟

اعتمد هاتوكس في جمع وقائع إحدى هذه القضايا على مخطوطة يرجع تاريخها إلى عام ١٥٥٨ لمؤرخ عربي يدعى عبد القادر بن محمد الأنصاري الجزيري بعنوان «عمدة الصفوة في حل القهوة»وهي محفوظة في المكتبة الوطنية في باريس. القصة باختصار هي كالتالي:



في يوم الجمعة، ٢٠ يونيو ١٥١١ (٣ ربيع الأول ٩١٧ هجرياً) فرغ خيري بك المعمار- باشا المماليك في مكة ومحتسب المدينة- من صلاة العشاء في المسجد النبوي الشريف، وفي طريق عودته وجد تجمعاً من الرجال معهم مصابيح في أحد الجوانب الخارجية من المسجد، وعندما اقترب منهم سارعوا إلى إطفاء مصابيحهم، مما جعله يشك في طبيعة النشاط الذي يقومون به، وعندما تحرى أمرهم وجدهم يبتلعون شراباً ما بنفس الطريقة التي يبتلع بها الشاربون الخمرة المسكرة. وهنا وجد المحتسب أن من واجبه قمع مثل هذه الممارسات، فهذه المقاهي شديدة الشبه بالحانات وما يجري بها من منكرات، وعليه، قام بفض المجلس وفي اليوم التالي قرر أن يجتمع مع علماء مكة لبحث مسألة القهوة.

وفي اليوم التالي اجتمع العلماء من مذاهب الشافعية والمالكية والحنفية لبحث المسألة، ويقول الجزيري أن القضاة فضلوا التعامل مع



للتاريخ!

هديل غنيم

مسالة مشروعية التجمع، ولم يتناولوا مشروعية القهوة ذاتها، وتركوا للأطباء مسئولية تحديد هذا الأمر. ولكن يروى الجزيرى أن المحتسب اتى من عنده بطبيبين شهدا بان القهوة ضارة بالعقل والبدن، وقدم شهودًا مؤيدين لهذا الحكم، ولأن المحتسب كان صاحب نفوذ وبطش فقد خاف القضاة منه وقبلوا شهادة الأطباء والشهود رغبة في إرضائه، وقرروا أن القهوة محرمة في ذاتها. وفي الحال أعلن خيرى بك في جميع أنحاء مكة أن بيع واستهلاك القهوة ممنوع منعاً باتاً، وأن من يتجاهل هذا الحظر سوف يتعرض للعقاب.

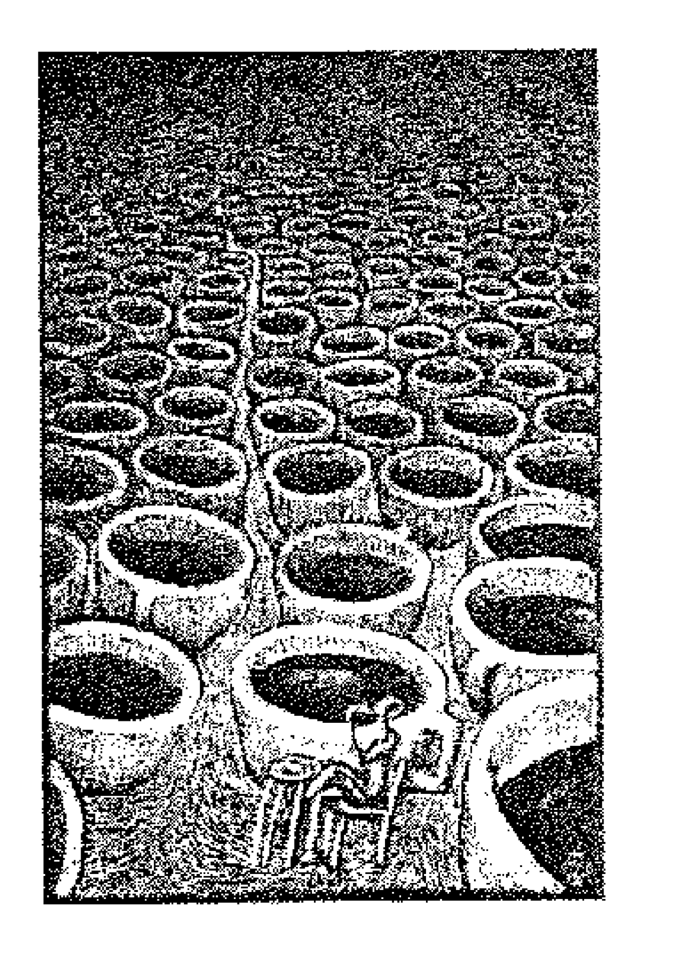
استمر الحظر لمدة عام في مكة ثم تكرر مرة أخرى عام ١٥٢٥ ميلادية، ولم تتردد فتاوى مكة في باقي أنحاء الدولة الإسلامية إلا بدرجات خافتة. وفي القاهرة ثارت قضيتان حول تحريم القهوة، الأولى -وهي الأعنف- دارت عام ١٥٣٢ أما الثانية فحدثت عام ١٥٣٩، وقد انطلقت الحملة المعادية للقهوة في القاهرة من الأزهر الشريف - نفس المكان الذى شهد أول فنجان قهوة في مصر ومنه شاع المشروب في أنحاء البلاد. كان قائد الحملة شيخاً من أنصار المذهب الشافعي اسمه الشيخ أحمد بن عبد الحق السنباطي، وقد اتبع فتواه بتحريم القهوة كثير من الشيوخ. ولكن بينما كان إسهام الشيخ السنباطي في الحملة نظرياً، أشعلت خطبه الساخنة حماسة آخرين أكثر حركية. وفي إحدى المرات اندفعت جماعة لا تحمل أى صفة رسمية إلى الشوارع تهاجم المقاهي وتكسر محتوياتها وتضرب الجالسين عليها. ثم وصل الأمر إلى قاض في القاهرة من أتباع المذهب الحنفي اسمه محيي الدين محمد بن إلياس الذى جمع العلماء وانحاز لرأى المؤيدين لحلّية القهوة.

الغريب أن المعارضين للقهوة أسسوا تحريمهم لها على أساس أنها شراب «مسكر»، وأحدهم ساوى بين القهوة والحشيش، وكان أكثرهم اعتدالاً يرى أنه يكفي لحرمانيتها أنها تحدث تغييراً في العقل والبدن. وقد اعتمد المؤيدون للقهوة على مبدأ «الإباحة الأصلية» الذى أنقذ القهوة من التحريم، وأشار أحدهم معلقاً على نظرية التغيير أن الثوم والبصل وغيرها من أنواع الطعام والبهارات تحدث تغييرات قوية في الجسم والمخ ومع ذلك لم يدع أحد إلى تحريمها.



وبينما يرى الجزيرى وهو المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث أن المعارضين للقهوة كانت دوافعهم تنحصر في التعصب الأحمق، يرى رالف هاتوكس أن الأمر لا يخلو من الدوافع السياسية والاجتماعية، وخاصة أن ظاهرة التجمع أو التجمهر هي التى راعت المحتسب وغيره وليس مشروعية مكونات المشروب في ذاته.

تجب الإشارة إلى أن ذهنية التحريم هذه لا تتصل فقط بالعرب أو المسلمين دون غيرهم، والدليل على ذلك موجود أيضاً في تاريخ القهوة. ففي عام ١٧٧٧ شن فريدريك الأكبر حملة كبيرة لحظر القهوة في بروسيا دفاعاً عن صناعة البيرة التى رأى فيها رمزاً للهوية الألمانية، وكان ذلك في وقت سادت فيه ثقافة لا تثق في أى شيء غير ألماني. وقد انعكست هذه القضية في عمل فني ظهر عام ١٧٣٢ للموسيقار الألماني الشهير يوهان سيباستيان باخ، حيث ألف كانتاتا (مقطوعة موسيقية تحتوى على قصة تنشدها المجموعة على أنغام الموسيقى من غير تمثيل، مثل أوبرا مصغرة) للدفاع عن القهوة اسمها «كانتاتا القهوة». وهى تحكي قصة عن أب صارم يهدد ابنته التى تعشق شرب القهوة بأن تختار بين خطيبها أو الاستمرار في عادتها، ولكنها تصر على مشروبها المفضل، بل وتشترط في النهاية أن ينص عقد الزواج على حقها في صنع وشرب القهوة في أى وقت تشاء!





بفنجان القهوة وفطيرة الكرواسان يحتفل الأوروبيون يوميًا بذكرى الهزيمة العثمانية وضياع مجد العرب والمسلمين



وفي إثيوبيا وهي بلد مسيحي، تم حظر القهوة عدة مرات على أسس دينية وذلك منذ أن ارتبط شراب القهوة بالمسلمين، وقد قابل ستيوارت أحد القساوسة الإثيوبيين يعتقد أن المسلمين يستخدمون القهوة لصنع اللعنات وأعمال السحر للناس. ولكن المطمئن في الأمر أن دعاوى الحظر والتحريم هذه لم تنجح أبداً في الاستمرار، وإنما يبدو أنها كانت تظهر أو تفتعل في فترات الضعف الحضارى والسياسي، وهي تدل على أن استراتيجية توظيف الدين في خدمة الأغراض السياسية استراتيجية تكاد تكون أزلية.

حصار فيينا ودخول أول حبة قهوة إلى أوروبا

عودة إلى رحلة ستيوارت في تاريخ القهوة ومحاولته إثبات نظرية ميشليه في الأثر الحضارى للقهوة. فحسب ما يرويه، يبدو أن الشراب العربي الأصل اتخذ منعطفاً تاريخياً وحضارياً مهماً في مدينة فيينا حيث عبر فيها من العالم الإسلامي إلى عمق القارة الأوروبية والتقاليد الغربية. يذكر ستيوارت في كتابه أنه في عام ١٦٨٣ ومع امتداد طموحات الدولة العثمانية في التوسع داخل القارة الأوروبية، زحفت الجيوش العثمانية إلى عاصمة امبراطورية الهابسبورج التى كانت تمثل أكبر كيان سياسي في الغرب، وطلبوا من أهلها إعلان الاستسلام. وعندما رفض أهالي فيينا قام الجنود الأتراك وعددهم ٣٠٠ ألف بإقامة الخيام حول الأسوار وظلوا محاصرين للمدينة حتى انتشر الوباء ونفد الطعام وفر الكثير من السكان بمن فيهم الملك ليوبولد. وأثناء ذلك كله كان الأتراك يحفرون الأنفاق في سرية من تحت أسوار المدينة.



لكن ما لم يكن يدركه الأتراك أن جيشاً بولندياً مكوناً من ٥٠ ألف جندى كان يقترب من المدينة من خلفهم. وظهر جاسوس اسمه فرانز كولشتسكى كان قد عاش في اسطنبول ويتحدث التركية بطلاقة قام بإبلاغ أهل فيينا بأمر الأنفاق السرية، كما أبلغهم بموعد تفجير الأسوار.. ثم فاجأ البولنديون الأتراك من الخلف فاضطروا إلى الفرار حيث كانوا قد أهملوا ظهر الجيش. وقد مثلت هذه الموقعة نهاية التوسع العثماني الإسلامي بعد ثلاثمائة عام من السيادة.

كما شهدت هذه الموقعة تحولاً تاريخياً آخر..فبعد أن فر الأتراك اكتشف النمساويون أنهم تركوا وراءهم آلاف الزكائب من الحبوب الخضراء التى ظنوها علفاً للجمال والجياد. ولكن الجاسوس كولشتسكى كان يعلم أنها حبوب القهوة، لذلك عندما طلبوا منه أن يحدد لهم مكافأته على خدماته ودوره في إنقاذ المدينة طلب منهم زكائب القهوة، ثم أهدوه المبنى الذى افتتح فيه أول مقهى في فيينا «الزجاجة الزرقاء».

يقول ستيوارت أنه قبل حصار فيينا بعشر سنوات كانت كل مكونات فنجان القهوة تاتى من داخل الامبراطورية العثمانية: حبوب البن من اليمن والسكر من أفريقيا، ولكن في غضون خمسين عاماً أصبح الأتراك يشربون قهوتهم بمكونات مزروعة ومصنعة في مناطق مسيحية.

من هنا يتضح أن وجبة الإفطار الكونتيننتال تعد أكثر وجبة في العالم محملة بالرمز السياسي والتاريخي. فهي بفضل القهوة التى سرقت من العثمانيين وفطيرة الكرواسون المصنوعة على شكل هلال، والتى صنعها خباز نمساوى أثناء حصار فيينا استهزاءً بشعارهم، تعد احتفالاً يومياً بذكرى الهزيمة العثمانية، وتذكرة للعرب والمسلمين بالمجد الضائع.



وفي فيينا حدث لشراب القهوة تطور مهم، حيث توقفت في مقاهي تلك المدينة العادة التركية في ترك البن المطحون في قاعدة الفنجان، كذلك وهذا هو الأهم، قام أهل فيينا بإضافة اللبن أو الكريمة إلى القهوة. وهذا اختراع أوروبي خالص لأن الأتراك اعتقدوا أن إضافة القهوة إلى اللبن تؤدى للإصابة بمرض الجذام. كما أن المجتمع اللندني الذى كان قد سبق أوروبا إلى القهوة لم يكن يستخدم اللبن، وهكذا كان النمساويون والإيطاليون هم مبتكرو هذه العادة، وتعد النمسا وإيطاليا تقليدياً بلاد القهوة في القارة الأوروبية.

وبمناسبة القهوة بالحليب، اكتشف ستيوارت وهو في إيطاليا أن العجائز يطلبون أن تكون قهوتهم في لون «رداء الراهب». وهم بذلك يشيرون إلى الرهبان الكبوشيين الذين كتب عنهم الشيخ محمد عبده بعدما زار ديرهم أثناء وجوده في صقلية. وكلمة Capuchin تعني غطاء الرأس المدبب، وهي تطلق على أتباع إحدى الطرق التى استقلت عن طريقة الفرانسيسكان التابعة للكنيسة الكاثوليكية. فقد تاسست طائفة الفرانسيسكان نسبة إلى القديس سانت فرانسيس دى أسيسى الذى كان معروفاً بتواضعه وبساطته وحبه للطبيعة، ولكن بعد مرور السنين أصبحت تحتوى على فرق متناحرة كل منها يهاجم الآخر، مما أحزن راهباً فرانسيسكانياً طيباً يدعى ماثيو دا باسكيو عاش في إيطاليا في أوائل القرن السادس عشر. وذات يوم، رأى الراهب ماثيو في المنام القديس فرانسيس يحدثه عن تدهور سلوكيات أتباعه، وابتعادهم عن صحيح الدين. وقد استرعى انتباه الراهب أن القديس كان يرتدى غطاءً للرأس مدبباً وليس ذا الشكل المربع المعروف. وفي اليوم التالى قدم الراهب ماثيو طلباً لبابا الفاتيكان للسماح له بتأسيس طريقة مستقلة عن الفرانسيسكان ويكون رداء الرأس لرهبانها على شكل مدبب. ومن هنا ولدت طريقة الكبوشيين، واتخذت القهوة الممزوجة باللبن لقب الكابوتشينو cappuccino لتماثل لونها مع اللون البني الفاتح لرداء الرهبان الكابوشيين. ترى، كيف كان العرب يسمون اللون البني قبل أن يعرفوا البن؟

القهوة وميلاد عصر التنوير

إن الأثر الثورى الذى أحدثه قدوم القهوة إلى أوروبا في منتصف القرن السابع عشر لا يمكن إدراكه حقيقة إلا إذا عرفنا كيف كان الأوروبيون يعيشون قبل ذلك الحين، أى قبل ٤٠٠ عام. في هذا الشأن يتفق ما جاء في كتاب مارك بندرجراست « تاريخ القهوة وكيف بدلت عالمنا» مع ما كتبه ستيوارت في توصيف الحالة الغذائية والمزاجية في أوروبا القرون الوسطى قبيل مجيء القهوة. حيث يتضح من خلال الكتابين أن البيرة كانت أهم مصدر للغذاء بعد الخبز، وكان ينتظر من كل زوجة أو ربة منزل أن تصنع بيرتها منزلياً كما تخبز خبزها. وكانت وجبة الإفطار الشعبية في ألمانيا في ذلك الوقت وحتى منتصف القرن الثامن عشر عبارة عن بيرة مخلوطة بالبيض ومصبوبة على قطع الخبز. وفي إنجلترا كانت ثلث المساحات المزروعة مخصصة لزراعة الشعير بينما كانت الحانة تمثل واحدة من سبع بنايات في كل حي. ولأن المشروبات الساخنة كانت نادرة ومياه الشرب غير آمنة كانت البيرة هي الشراب الأساسي حتى أن العمال كانوا يتناولونها أثناء العمل.. في استراحة بيرة بدلاً من استراحة قهوة!

لقد كان الشخص المتوسط في أوروبا يشرب ما يعادل ثلاثة لترات من البيرة يومياً

بما في ذلك النساء والأطفال. وكان الناس الذين يشغلون مراكز عليا مثل رجال البوليس يشربون أكثر بكثير، مثل الضباط الفنلنديين الذين كان يتم إعطاؤهم حصة يومية من الجعة تصل إلى خمسة لترات. حتى أنه كان يعتقد ان كثرة الشرب ترفع من المكانة الاجتماعية (drunk like a lord). وحسب ما نقل ستيوارت عن المؤرخ الفرنسي ميشليه كانت الحياة اليومية للأوروبيين في العصور الوسطي تعتمد علي شيئين أساسيين، الكنيسة والبيرة. وكانوا كثيراً ما يجمعون بين الاثنين، ففي باريس عام ١٦٦٠ كان هناك أكثر من مائة عيد ديني، ويتم الاحتفال بكل منها بعقد مسابقات في شرب البيرة.

هكذا كان المجتمع الأوروبي في تلك العصور، شعب مخمور وعسكريون وسياسيون في حالة دائمة من الثمالة. أضف إلى ذلك المجاعات والأوبئة والحروب ومسيحية القرون الوسطي والخرافات التي احتلت أذهان الناس. لذلك ليس من المستغرب الآن أن نعرف أن أحد أهداف مارتن لوثر عندما بدأ حملته من أجل إصلاح الكنيسة الكاثوليكية في منتصف القرن السادس عشر كان التقليل من عادة الإكثار من شرب الخمر. ولكن محاولات مارتن لوثر باءت بالفشل كما يقول ستيوارت لأنه لم يأت ببديل. هذا البديل ظهر بعد وفاته بمائة عام تقريباً، في عام ١٦٥٠ عندما افتتح أول مقهى في أوكسفورد بانجلترا في نفس الوقت الذي سيطر فيه المتطهرون أو البيوريتانيون علي البرلمان، وقد رحب البيوريتانيون في بريطانيا بالقهوة ولقبوها بالنبيذ الأسود.

هكذا سبقت انجلترا باقي أمم القارة الأوروبية كلها في شرب القهوة بحوالي مائة عام، وحسب نظرية ميشليه فإن عادة شرب القهوة ربما تدخل ضمن الأسباب التي جعلت بريطانيا تسبق أوروبا في النهضة والثورة الصناعية. ففي حوالي عام ١٦٨٠ كانت لندن عاصمة المقاهي في العالم الغربي وقد افتتح المقهى الأوكسفوردى الأول علي يد يهودى من الشرق الأوسط تزامناً مع الحظر الذى فرضه السلطان مراد الرابع على تناول القهوة في الدولة العثمانية.



ثم بدأت الأفكار التي غيرت العالم ودفعته إلي التقدم تخرج من تلك الأماكن التي كانت تقدم القهوة. ويمتلئ كتاب ستيوارت لي آلين بالأمثلة التاريخية التي تدلل على هذا الرأى، فيروى عن مقهى كان يسمى «لويدز كوفيهاوس» أنه كان ملتقى للبحارة وملاك سفن الشحن والتجار حيث يجتمعون لمعرفة آخر أخبار الشحن. وفي إحدى المرات راهن واحد من الزبائن العاديين على أى سفينة سوف تصل الميناء وأيها سوف تغرق. فإذا عادت السفينة لمالكها يخسر رهانه ويحتفظ مقهى «لويدز» بالمال، وأما إذا غرقت فيدفع العاملون في لويدز الخسارة. وتحول مقهى لويدز إلي أول مؤسسة للتامين. وحوّل الزبائن التجار موائدهم إلى مكاتب صغيرة، ثم تخلى أصحاب المقهى عن تقديم القهوة وأصبح مقهى لويدز كوفيهاوس هو شركة تامين لويدز أوف لندن Lcyds of London، . Ltd.

ويبدو أن قدرة القهوة على تعظيم الثراء كانت واضحة في بريطانيا، حيث تحولت العديد من المقاهي إلى مكاتب رئيسية لأكبر الشركات والتجارات العالمية ليس فقط لويدز ولكن أيضاً شركة الهند الشرقية التي كان مكتبها الرئيسي في الجيروزالم كافيه وشركة شيبنج اكستشاينج التي كانت في الأصل مقهى بالتك كوفيهاوس. بل إن التصميم الداخلي للمقهى البريطاني كان له أكبر الأثر في شكل المكتب الحديث، وفي البورصة البريطانية ما زال يطلق على ساعي المكتب كلمة نادل أو waiter.

وهناك قصة أخرى عن ميلاد الصحافة الحديثة في المقاهي البريطانية، حيث يقول ستيوارت أن شخصاً يدعى رتشارد ستيل قرر أن ينشر أسبوعياً أهم نمائم المجتمع التي يتم تداولها في المقاهي. فكانت تأتي قصائد الشعر من مقهى ويلز، والأخبار الخارجية من مقهى سانت جيمس وهكذا.. وكان الكتاب يكتبون بطريقة جديدة في ذلك الوقت، وكأنهم يتلصصون على أحاديث حية من المقاهي، ومن هنا تولد الأسلوب الصحفي في الكتابة كما يقرر المؤرخ الأدبي الإنجليزى هارولد راوث حيث أصبح أكثر قرباً لبساطة الأحاديث العادية وليس الخطب الأدبية الرصينة. وسرعان ما أصبحت صحيفة تاتلر التي انشاها رتشارد ستيل أول مجلة حديثة، وقامت الصحف الحديثة على فكرة المراسلين والأقسام التي ابتدعها لمتابعة نمائم رواد المقاهي. أما ثاني أقدم صحيفة في لندن فكانت «لويدز نيوز» والتي نشأت كصحيفة حائط في مقهى لويدز.

كذلك ظهرت الميول الديموقراطية الأولى هي الأخرى في المقاهي التي كانت قد بدأت تنتشر حديثاً. فالقهوة بطبيعتها تحفز الذهن على الإفاقة والتركيز، لذلك عندما أصبحت المقاهي توفر بديلاً للحانات كمكان للتجمع والحديث والالتقاء، اختلفت موضوعات النقاش ودرجة جديته. فالحانات لم تكن أبداً أماكن صالحة أو آمنة لمناقشة أمور في الدين أو في السياسة، حيث كان الرواد في الغالب مخمورين ومسلحين، وهي توليفة خطرة، لذلك حرص أصحاب الحانات على تجنب المناقشات الساخنة. أما المقاهي فكانت على الجانب الآخر ساحات للحوارات السياسية، وهو السبب الذى جعل الملك تشارلز الثاني يغلق جميع المقاهي عام ١٦٧٥ ثم اضطر للعدول عن قراره بعد أحد عشر يوماً.

وربما تكون الديموقراطية الحديثة مدينة للمقهى اللندني الشهير Turks Head Coffee-house حيث ظهر فيه لأول مرة صندوق الاقتراع حسب ما يروى ستيوارت. فقد تم ابتكار هذا الصندوق في عهد أوليفر العظيم لكي يعبر زبائن المقهى عن آرائهم بشكل آمن في المسائل السياسية المثيرة للجدل، في ظل وجود جواسيس الحكومة الذين كانوا يدخلون المقاهي للتعرف على الخونة.

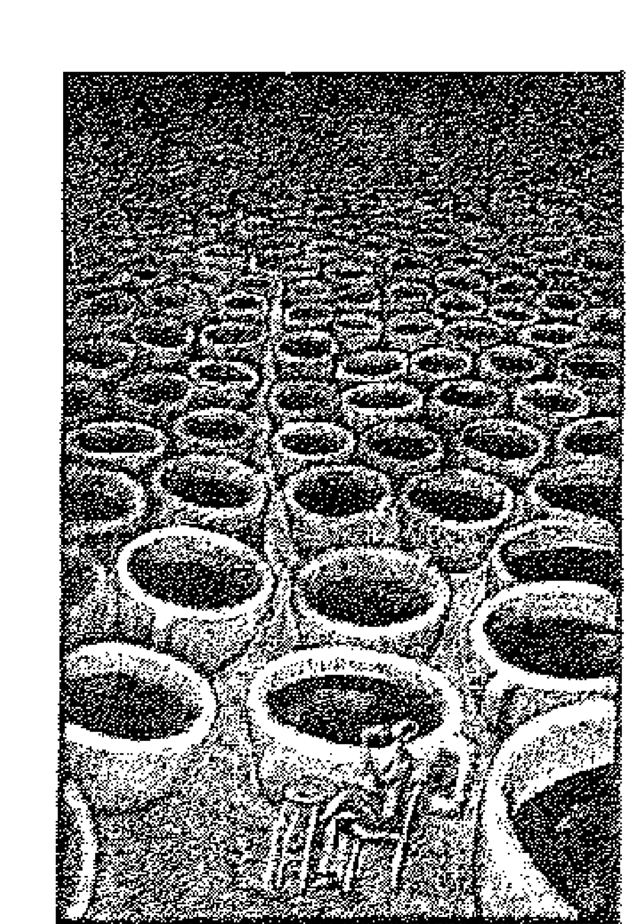
قد يكون من الصعب أو من المستحيل قياس تاثير عقار أو مكيف ما على حال مجتمع باسره، ولكن من السهل معرفة هذا الأثر إذا نقلنا مستوى التحليل إلى الفرد. فإذا كان هناك فرد يتناول ٣ لترات من الجعة يومياً، فإن قدرته على تذكر أى شيء تعلمه تقل بنحو ٨٠٪، وعلى العكس من ذلك يزيد تناول القهوة من هذه القدرة. كذلك يسهل على السكران اللجوء إلى العنف، والأهم من ذلك أن المرأة الحامل إذا تناولت ثلث هذه الكمية من الجعة فإن مستوى ذكاء مولودها يقل بنسبة ٧ درجات على مقياس IQ . فالعقاقير إذن تغير من سلوك الإنسان ومستوى إنتاجيته وحالته العقلية، وقد أكدت التجارب أن كوبين من القهوة القوية تقويان من الأداء الرياضي في ٧٠٪ من المختبرين، حتى أن اللجنة الأوليمبية تعتبر أن تناول كمية معينة من الكافيين يدخل ضمن المنشطات غير القانونية.



إن تحول أوروبا من ثقافة مدمنة للعقاقير الخافضة المتمثلة في الخمر إلى ثقافة مدمنة للعقاقير المنبهة ساعدها على التخلص من المجاعات والأوبئة في أقل من ٢٠٠ سنة، وأصبحت حكوماتها أكثر ديموقراطية وارتفع فيها مستوى المعيشة ومستوى التعليم. ربما يكون هذا أكثر مما تحتمله القهوة لأننا نعرف أن الأحداث التاريخية تصنعها مجموعة من الظروف، ولكن المصادفة تجعلنا على الأقل نصدق أن القهوة كانت واحدة من هذه الظروف.



عندما كان تناول القهوة مقصوراً على العرب ازدهرت حضارتهم أكثر من أى أمة أخرى وعندما عثر العثمانيون على الحبة السحرية أصبحوا أكبر قوة على الأرض



فالمصادفة غريبة وكبيرة، فعندما كان تناول القهوة مقصورًا علي العرب ازدهرت حضارتهم أكثر من اى أمة أخرى في ذلك الوقت، وعندما عثر العثمانيون على الحبة السحرية أصبحوا أكبر قوة على الأرض. كذلك فإن ظهورها المبكر في بريطانيا ساعدها في ريادة سباق السيطرة على العالم. وفي مقاهي باريس ارتبطت أسماء المفكرين والفنانين من أعلام التنوير بالمقاهي التي كانوا يجلسون فيها، واشتهر عن فولتير انه لا يشرب اقل من أربعين فنجاناً من القهوة في اليوم، وقد كتب بالزاك عن مفعولها في توثب الأفكار في الدماغ. ومن مقهي الباليه روايال انطلقت شرارة الثورة الفرنسية عندما صعد كاميل دسمولين فوق الطاولة وحث الجماهير على حمل السلاح في مواجهة الأرستقراطية. كما أن نابوليون كان شديد الإعجاب بالقهوة وقال عنها:« القهوة القوية توقظني، وتمنحني دفئاً وقوة غير عادية، وألماً ممتعاً. فانا افضل المعاناة عن فقدان الوعي».

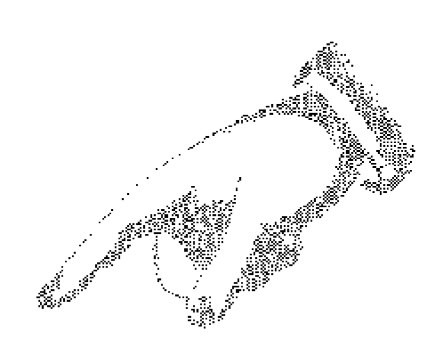
بل إن القهوة ارتبطت بانتقال ميزان القوة والسيطرة العالمية من الإمبراطورية البريطانية إلى الإمبراطورية الأمريكية. وقد بدأ هذا التحول التاريخي في القرن الثامن عشر عندما تحولت بريطانيا من مجتمع محبي القهوة إلى مجتمع يدير حياته الاجتماعية حول تناول الشاى. فبالرغم من مستعمراتها الكبيرة فشلت بريطانيا في امتلاك مزارع القهوة، حيث سيطرت غريمتها فرنسا على مزارع الكاريبي بينما سيطرت البرتغال على مزارع البرازيل، وسيطر الهولنديون على مزارع إندونيسيا. معنى هذا أن كل فنجان قهوة يدفع ثمنه مواطن بريطاني يساوى مكسبًا يحصل عليه المنافسون الأوروبيون. وقد تزامن ذلك مع الاستعمار البريطاني لأمريكا، فاصبح شرب القهوة ومقاطعة الشاى عملاً من أعمال الوطنية ومقاومة المستعمر. وعندما قام الملك جورج بفرض ضريبة على الشاى، تنكر مجموعة من الوطنيين في زى هنود حمر وقاموا بإغراق شحنات الشاى في ميناء بوسطون. هذا الحدث هو المعروف «بحفلة شاى بوسطون» والذى يعد الشرارة الأولى التي فجرت الثورة الأمريكية من أجل الاستقلال.

ويعد الأمريكيون الآن أكثر الشعوب استهلاكاً وإدماناً للقهوة، فهي مرادف للطموح والإنجاز والسرعة التي يعشقها الأمريكيون، بل إن البنتاجون اكتشف مبكراً فوائد الكافيين في زيادة درجة العدوانية والشجاعة لدى الجنود فأصبح منذ الحرب العالمية الأولي يخصص لهم حصصًا يومية كبيرة من القهوة أو الكافيين المركز أثناء المعارك الحربية.

القهوة بين عبودية الأمس وعولمة اليوم

لم يقنع الأوروبيون باستهلاك المنتج النهائي للقهوة دون تدخل في عملية الإنتاج من بدايتها. وقد وصل ستيوارت لي آلين إلى أمريكا اللاتينية بعد أن زار إندونيسيا، حيث كانت أراضي تلك البلاد هي التي استغلها المستعمرون الأوروبيون في استزراع قهوتهم. وحسب ما ذكره كل من ستيوارت وبندرجراست كان الهولنديون هم

كتاب الزاوية



موت المهدى

فى يوم ما مرض المهدى ولم يذهب إلى المسجد للصلاة. ولم يأبه أحد لمرضه أولاً لأنه كان قد أعاد على أسماع الناس عدة مرات أنه سيفتح مكة والمدينة والقدس ثم يموت بعد عمر طويل فى الكوفة. وأن النبى قد أظهره على هذه الرؤيا. ولكن مرض المهدى لم يكن وعكة خفيفة فقد استولت عليه حمى التيفوس وبعد ستة أيام من مرضه بدأ الذين حوله يقنطون من شفائه.

وكان المهدى يغيب عن وعيه من وقت لآخر ولما شعر بأن آخرته قد قربت قال للذين حوله: «إن الخليفة عبدالله هو الخليفة الصادق، وقد عيَّنه النبى للخلافة بعدى. فهو منى وأنا منه. وكما أطعتمونى وأنفذتم أوامرى كذلك افعلوا معه.. الله يرحمنا».

ثم جمع ما فيه من قوة وكرر عدة مرات عبارة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ووضع يديه مشبوكتين على صدره ومد ساقيه وأسلم روحه.

وقبل أن يبرد دمه أقسم أنصار المهدى يمين الولاء للخليفة عبدالله. وكان أول من بايعه سيد المكى ثم عقب ذلك الخليفتان الآخران وتبعهم جميع الموجودين ولم يكن من الممكن أن يحتفظ بوفاة المهدى سرًا لا يذاع بين الجمهور ولكن أمر الجميع بألا يبكوا أو ينوحوا وطولبوا بمبايعة الخليفة. وكانت ستنا عائشة أم المؤمنين كبري زوجات المهدي في غرفة وفاته قاعدة متلففة في إحدي الزوايا فلما مات خرجت من الغرفة لكي تخبر سائر النساء بوفاة مولاها وزوجها، وكان عليها أن تعزيهن وتمنعهن من النوح والندب.



يعد الأمريكيون الآن أكثر شعوب العالم استهلاكا وإدمانا للقهوة، بل إن البنتاجون يخصص للجنود حصصا يومية كبيرة من الكافيين المركز لزيادة درجة العدوانية لديهم



اول من قاموا بجلب (أو سرقة) شتلات نبات القهوة من «مخا» فى اليمن عام ١٦١٦ وبدءوا فى استزراعها فى جزيرة جاوه Java بإندونيسيا التى كانوا يحتلونها. وسرعان ما ازدهرت تجارتهم وتوسعوا فى زراعة البن فى باقى الجزر الإندونيسية.

ويقص ستيوارت فى كتابه كيف أخذ الهولنديون يهادون الأرستقراطية الأوروبية بشجيرات القهوة، إلى أن تسببت واقعة شهيرة فى فقدانهم هذا الاحتكار الأوروبى. ففى عام ١٧١٤ تلقى لويس الرابع عشر شجيرة قهوة هدية فوضعها فى الحديقة البوتانية الملكية بباريس. وبعد سنوات قليلة أتى إلى باريس ضابط فرنسى فى أجازة من عمله فى مستعمرة فرنسية فى منطقة الكاريبى بأمريكا الوسطى اسمها جزر المارتنيك. هذا الضابط الذى يدعى جابرييل دو كليو كان يحلم بمزارع قهوة فرنسية فى المارتنيك على شاكلة مزارع الهولنديين فى جاوه، فتقدم بطلب إلى الملك لأخذ فرع من الشتلة الموضوعة بالحديقة الملكية ولكنه قوبل بالرفض. فما كان من كليو إلا أن تسلل إلى الحديقة ليلاً وقام بسرقة النبتة ثم فر هارباً. ثم قام بعبور الأطلنطى عائداً إلى المارتنيك فى رحلة بحرية عنيفة كادت أن تقضى على حياته، وهناك نمت النبتة الصغيرة إلى شجرة قوية وأثمرت عنها ١٨ مليون شجرة فى خلال خمسين سنة.

ومن هنا بدأت العلاقة بين القهوة والعبودية، حيث تلازما منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا كما يقول ستيوارت. فقد تجسدت العلاقة المريرة عندما وصل الأفارقة إلى أمريكا الجنوبية (أو العالم الجديد) ليجدوا أنفسهم مستعبدين لزراعة نبات سرق من موطنه الأصلى تماماً كما سرقوا هم أنفسهم. حيث احتاجت مزارع القهوة الشاسعة هناك إلى طلب متزايد من عبيد الأرض، وفى غضون عشر سنوات من جلب دو كليو للشجرة الأولى كانت الحكومة الفرنسية تستورد ٣٠ ألف عبد سنوياً، نصفهم يتعرض للموت أثناء عملية الاختطاف والنقل. واستمرت فرنسا وغيرها من القوى الأوروبية فى حكم هذه البلاد حتى عام ١٧٩١، عندما نجح عبيد هاييتى فى خلع الطغاة المحتلين وأصبحت أول أمة سوداء تحصل على حريتها فى نصف الكرة الغربى.



وقد وصل إلي البرازيل اكبر عدد من العبيد إذ وصل إليها خلال ٢٠٠ عام أكثر من ٣ ملايين أفريقي لكي يعملوا فى ممالك البن الخاصة، وتم جلب ٥ ملايين آخرين من أجل العمل فى زراعة السكر، بينما لم يصل إلى أمريكا الشمالية سوى نصف مليون أفريقي. وقد وجد ستيوارت وهو فى البرازيل أن هذا النموذج الاجتماعي ما زال يشكل أساساً للمجتمع البرازيلى الحديث، حيث يمتلك ١٠٪ من سكانه نحو ٥٥٪ من الثروة. ومن بين المشردين والأميين فى البرازيل، يمثل الذين ينحدرون مباشرة من أصول العبيد نسبة تفوق المنحدرين من أى أصل آخر بنحو عشرة أمثال.

واليوم تستمر العبودية فى بعض المناطق فيما يشبه ميلاد جديد للعبودية البرازيلية كما يؤكد ستيوارت. فالفلاحون يتم إغراؤهم بالعمل مقابل أجور مرتفعة ثم سرعان ما يجدون أنفسهم يسكنون فى أشباه سجون، مجبرين على العمل بأجور زهيدة تضمن مديونيتهم إلى الأبد. ومن يحاول منهم الهرب يتم ضربه حتى الموت. لقد قفزت العبودية الجديدة فى البرازيل من ٦٠٠ حالة عام ١٩٨٩ إلى ٢٥٠٠٠ حالة فى عام ١٩٩٦.

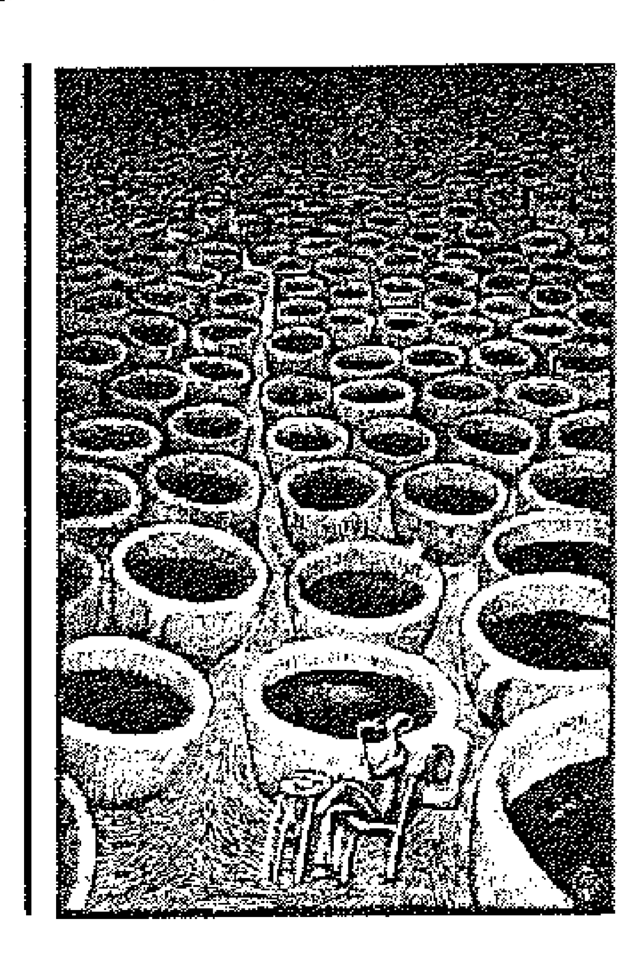
اليوم تعد القهوة ثانى أثمن سلعة فى العالم بعد البترول. وقد تسببت فى إثراء القليلين، وإفقار الكثيرين. وفى كتاب «تاريخ القهوة وكيف بدلت عالمنا» يقوم مارك بندرجراست باستعراض الجوانب الاقتصادية فى تاريخ صناعة القهوة فى الولايات المتحدة، والآثار الاقتصادية والسياسية والبيئية التى لحقت ببلاد كثيرة فى العالم كله نتيجة لهذه التجارة. فمنذ بداية عهد السيطرة الأوروبية على تجارة القهوة، ارتبطت المصائر الاقتصادية والسياسية للشعوب الاستوائية بأسواق بعيدة عن بلادها تتسم بالتقلب والتذبذب الشديد. وبالتالى لم تعرف بلاد مثل البرازيل وكولومبيا وكوستاريكا الاستقرار السياسى والاقتصادى بسبب ما يمكن أن يطرأ على محصول البن بفعل الأحوال المناخية أو الاحتكارية على السواء.



يبين بندر جراست فى كتابه كيف أن شعوب هذه الدول تعيش فى ظل حكومات أوليجاركية (حكم الأقلية المحتكرة) تستغل الفلاحين، ولكنها مدعومة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية التى تساند تلك الحكومات خوفاً من أى تمرد ذى طابع يسارى، وحرصاً على ضمان رخص أسعار البن. وهو يقول إن العاملين فى حقول القهوة أكثرهم يعيش فى فقر مدقع بدون كهرباء أو مياه نظيفة أو رعاية صحية أو حتى طعام مغذ. وهم يحصلون على أجر يومي يعادل ثلاثة دولارات، بينما على الطرف الآخر يدفع المستهلك فى المدينة بعد عمليات الشحن والتصنيع ما يعادل نصف هذه القيمة على الأقل مقابل فنجان واحد من القهوة.

وتعد الأضرار البيئية التى تصيب العالم بسبب أساليب زراعة البن من أهم الآثار الكونية لهذه السلعة. فالزراعة فى بلد مثل البرازيل تعنى حرق الغابات فى سبيل زرع المحاصيل النقدية مثل البن، خاصة مع التحول الذى تم فى السبعينيات من زراعة الظل التى تتعايش

التفسير «القهوجى» للتاريخ



مع أشجار أخرى إلى الزراعة الشمسية التى تتطلب حرق الغابات، ومن هنا تتصحر الأراضى الخضراء شيئاً فشيئاً ويكثر الاعتماد على الأسمدة والمبيدات الحشرية بسبب نقص التنوع البيولوجى الطبيعى، وتهاجر الطيور التى كانت تسكن الأشجار المحروقة ثم ينتهى الأمر باندثار الكثير من أنواعها.

وخلال تتبعه لأشهر العلامات التجارية والشركات الأمريكية التى تنافست على السوق الأمريكية والعالمية فى مجال القهوة، يرصد بندرجراست تطور دور حملات الدعاية والإعلان واستراتيجيات التسويق المختلفة. كما توقف عند المنعطفات المهمة فى التاريخ التسويقى للقهوة مثل اختراع القهوة الفورية، وعصر الإنتاج الكبير الذى ضحى بالجودة والنكهة فى مقابل تخفيض الأسعار والانتشار. ومن ضمن الحقائق المثيرة التى يكشف عنها كتابه قضية توظيف الطب والعلم من أجل الترويج والمنافسة، فقد دفعت إحدى شركات المياه الغازية الأموال لأحد المعامل الطبية الشهيرة لكى تنشر تقارير عن أضرار القهوة، وبالعكس تقف الاتحادات التجارية والصناعية للشركات العاملة فى القهوة وراء الأبحاث التى تدعم فوائد القهوة الصحية.

ستارباكس، ماكدونالدز القهوة الصهيونى

ستارباكس، سلسلة مقاه أمريكية شهيرة نمت وتغولت فى سنوات قليلة حتى أصبحت رمزاً يعادل مطاعم ماكدونالدز فى تجسيد العولمة والغزو الثقافى الأمريكى للعالم. الآن لا يمر أسبوع دون أن يتم افتتاح فرع جديد لستارباكس فى مكان ما فى العالم، وفى آخر تعداد وصل المجموع إلى ٥٤٠٥ فروع فى العالم يقع معظمها فى الولايات المتحدة. ويعتبر ستارباكس مقهى ومتجرًا أيضاً، فهو يقدم القهوة ويبيع أخلاطاً متنوعة من البن، وصاحب براءة اختراع «الفرابوتشينو»، وهى قهوة بالكريمة المثلجة تباع فى زجاجات مغلقة. كما أن لستارباكس بطاقة خاصة، وموقعاً على شبكة الإنترنت لمن يرغب فى شراء البن عبر الشبكة.

ويثار فى أوروبا جدل عنيف بشأن تلك السلسلة التى بدأت تتوسع فى أرجاء القارة، وبلغ الصدام قمته فى نهاية العام الماضى عندما افتتح أول فرع لستارباكس فى فيينا. فتلك المدينة العريقة التى أرست التقاليد الأوروبية فى شرب القهوة وفى شكل المقهى الكلاسيكى أصابها الذعر عندما جاءتها محلات ستارباكس لتبيع القهوة تيك اواى (take away أو to go وهو المصطلح الأحدث) فى أكواب من البلاستيك، وتمنع رواد المقهى من التدخين بالداخل، وتطلب منهم أن يخدموا أنفسهم help yourself، ثم تضيف إلى القهوة نكهات غريبة. وفى تحقيق نشرته صحيفة الهيرالد تريبيون فى شهر أبريل الماضى عبّر المواطنون النمساويون عن قلقهم على ثقافتهم وأسلوبهم فى الحياة، فقد اعتادوا على الذهاب إلى المقهى أكثر من مرة فى اليوم لمقابلة الأصدقاء أو للعمل، ويأتى لهم نادل فى سترة سوداء غالباً ليقدم القهوة فى فناجين من الصينى، ثم يمضى الوقت فى شرب القهوة والتدخين أثناء الحديث أو القراءة.

أما فى العالم العربى حيث تقع محلات ستاربكس فى كل من السعودية والكويت والبحرين وعمان وقطر والإمارات ولبنان، تثور حركة مقاومة من نوع آخر. ليست مقاومة للغزو الثقافى الأمريكى أو العولمة المتمثلة فى سلسلة المقاهى الشهيرة، وإنما حملة لمقاطعة ستارباكس بسبب الميول الصهيونية والإسرائيلية لرئيس مجلس إدارتها «هوارد شولتز». وقد كتب روبرت فيسك من بيروت فى شهر يونيو الماضى إبان مظاهرة مجموعة من الشباب أمام فروع ستاربكس الأربعة فى العاصمة اللبنانية، يوضح كيف انتقد شولتز الفلسطينيين فى خطابه إلى الأمريكيين اليهود فى مدينة سياتل حيث دافع عن احتلال شارون لمدن الضفة وقال إن الفلسطينيين لا يقومون بواجبهم فى وقف الإرهاب. وقد أكد فيسك أن شولتز يستقبل باستمرار فى إسرائيل بوصفه من «أصدقاء صهيون» الذين يلعبون أدواراً مهمة فى تقوية التحالف الأمريكى الإسرائيلى، كما حصل عام ١٩٩٨ على جائزة تقديرية بمناسبة مرور ٥٠ عاماً على قيام دولة إسرائيل قدمها له صندوق «ايش ها توراه» للقدس، وهى مؤسسة معادية للرئيس عرفات وتصر على تسمية الأراضى المحتلة فى فلسطين بالأراضى «المتنازع عليها».



إن الناظر إلى تاريخ القهوة بهذه الطريقة، يرى فيها تجسيداً للدراما العربية الإسلامية عبر خمسة قرون، تحول فيها العرب والمسلمون من دور البطولة إلى دور الضحية أو على الأقل دور المتفرج. فقد تحولوا من الأمة التى ابتكرت شراباً اتخذه العالم من بعدها، تزرعه وتصدر أجود أنواعه، وتتاجر فيه وتسيطر بحضارتها وثقافتها على البلاد شرقها وغربها، إلى الأمة التى تدفع العملة الصعبة لكى تستهلك النسكافيه والبن المزروع فى آسيا وأمريكا اللاتينية عبر وسطاء غربيين، بل إن بن «أرابيكا» الفاخر الذى يطلق عليه اسم العرب يستورده العرب، الآن من بلاد غير عربية!

.. ليتهم فكروا فى عقد اتفاقية دولية لحماية الملكية الفكرية فى القرن الخامس عشر.■

كتاب الزاوية

تجارة الرقيق فى السودان

لئن أصيبت التجارة بكساد عظيم فى السودان فثم تجارة لقيت الرواج الكبير والتأييد الكلى من جانب المهدى والخليفة عبدالله، وأعنى بذلك تجارة الرقيق وبما أن تصدير العبيد إلى مصر لبيعهم أصبح أمراً محظوراً ومعاقبًا عليه، فالخليفة بطبيعة الحال معنى بتوسع تلك التجارة فى جميع المديريات والنواحى الداخلية فى دائرة نفوذه.

فى كثير من الأحيان كان يبلغ الضجر والتعب بعشرات من أولئك التعساء من الرقيق حدًا يفضلون معه إلقاء أجسامهم فى ماء النيل حتى يريحوا أجسامهم العارية وبطونهم الخاوية من عذاب لا يعرفون مداه، فكانوا يموتون هناك، وبما أنه لم يوجد من يعنى بإخراج جثثهم فإن النتيجة المنطقية هى اكتساح الجثث بقوة التيار إلى الشاطئ. فإذا ما ظهرت جثة ألقيت خارج الشاطئ مما يدعو إلى نشر رائحة كريهة فى الجهات المجاورة.

هذا فيما يختص بالقريبين من شاطئ النيل أما الذين كتب عليهم الشقاء الأكبر فكانوا يدفعون فى الصحراء. حيث لا ماء ولا زرع. على طول الطريق بين دارفور وأم درمان، وقد كان أولئك البائسون تحت إمرة رجال غلاظ القلوب. وكان من عادة أولئك المتوحشين الهمج أن يقطعوا آذان من يعجز من الأولاد أو الرجال أو النساء عن السير إلى أم درمان. بمناسبة ما نزل بهم من الكلال. ليقدموا الآذان المقطوعة للخليفة علامة على مقدار من ماتوا من سباياهم وسط الطريق. وقد أخبرنى أحد أصدقائى أنه شاهد فى مرة من المرات إحدى النساء مقطوعة الأذنين ولكنها لم تكن قد فارقت الحياة بعد. فدب دبيب الشفقة فى قلبه فأحضرها إلى القاشر، وبعد أيام مَنّ الله عليها بالشفاء فى حين أن أذنيها قدمتا للخليفة دليلاً على موتها.

العلم والدين ...

إن طه عندما عدّد أوجه النزاع بين العلم والدين على تفسير بعض الظواهر الطبيعية لم يكن محايدا بين الطرفين كما يبدو؛ بل كان يؤمن ضمنا بأن النزاع ينبغي أن يفض لصالح العلم، وبأن للعلم وحده حق القول الفصل في مسائل الجيولوجيا والكوزمولوجيا وعلم الأجنة

■■ شهدت الثلاثينيات من القرن الماضي ظهور حركة أدبية بارزة في الثقافة المصرية، وهي تحول عدد من أعلام الأدب إلى تناول الموضوعات الدينية. ومن ثم كانت العبقريات (للعقاد) وعلى هامش السيرة (لطه حسين) وحياة محمد (لهيكل) ومحمد (لتوفيق الحكيم). وقد استوقفت الظاهرة أنظار الباحثين في الشرق والغرب ووصفت بالأزمة، لأن ممثليها - مناصري الحداثة والانفتاح على الثقافة الغربية الليبرالية - قد تحولوا فيما قيل إلى موقف محافظ يتجه إلى الماضي. وتعددت الآراء في تفسير هذه «الأزمة»، ولكنها تندرج بصفة عامة في إطار التفسير السياسي الاجتماعي. ولا شك أن لهذا النوع من التفسير مشروعيته وجدواه، ولكن يعيبه التسرع في التعميم والاقتناع بما يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى. ومثال ذلك أن أحدًا من الأدباء الذين ذكرناهم لم يتنازل قط عن الإيمان بالليبرالية وضرورة الانفتاح على الثقافة الغربية.

ثم يعيب هذه التفسيرات أنها تغفل بطبيعتها ما وراء التحول إلى الموضوعات الدينية من تجارب الأفراد الفكرية والروحية. وتستدعي معالجة هذه التجارب دراسة متعمقة لكل حالة على حدة مع وضعها في فضائها الإسلامي الفسيح؛ وذلك أن موقف كل كاتب عن الإسلام ينطوي بالضرورة على تواصل مع تراث الفكر الإسلامي. وأنا أود في المقالة التالية أن أتناول حالة طه حسين فأدرس تحوله إلى الموضوعات الدينية بوصفه جزءا من تجربة فكرية وروحية لها سياق واسع في حياته وصلات وثيقة مع علم الكلام والفلسفة الإسلاميين.

وقد كان طه حسين من بين الكتاب الذين تناولوا ظاهرة التحول إلى الكتابات الدينية ورأى أنها كانت أمرا طبيعيا تماما. فلم يكن بين أنصار الحداثة وبين الإسلام فيما قال قطيعة أصلا؛ وكل ما هنالك أنهم بعد أن تمكنوا في مرحلة أولى من الانتصار على التيار التقليدي السلفي وعلى العقائدية الجامدة وحصلوا على حقهم في التعبير عن آرائهم بحرية توقفوا قليلا ثم أخذوا يعيدون النظر في التاريخ القديم للإسلام(١).



غير أن هذا الوصف لا يمس من الظاهرة إلا سطحها الظاهر فضلا عن أنه يوحي بأن الانتقال من حال إلى حال مر بهدوء وسلام، كأن لم يكن في الأمر قلاقل فكرية وأزمات. والواقع أن دراسة حالة طه حسين بصفة خاصة من شأنها أن تبدد هذا الانطباع. فهو من بين الكتاب المعنيين صاحب الانقلابات الكبرى وفارسها الأول.

وقد سبق لي أن أعربت عن رأي من هذا المنطلق، فذهبت إلى أن فترة الثلاثينيات شهدت تحولا جذريا في موقف طه حسين من الدين. وكان أن لقي هذا الرأي استنكارا شديدا من بعض النقاد(٢) الذين يفضلون أن يروا طه ثابتا على مواقفه المبكرة. وذهب أحدهم إلى أنني أسأت قراءة على هامش السيرة. وهو نقد يسعدني بقدر ما يتيح لي الفرصة لكي أستوفي بحث الموضوع وأقرأ مرة أخرى بعض أجزاء هذا الكتاب الجميل الذي لم يحظ حتى الآن بالاهتمام اللائق، وقنع النقاد منه بالقشور، ولم يستطع أي منهم سبر أغواره الروحية والفلسفية.

لقد شغل موضوع العلم والدين طه حسين منذ الفترة المبكرة من حياته الأدبية (كتاباته الأولى التي سبقت «ذكرى أبي العلاء» (١٩١٥) حتى كتاب «مرآة الإسلام» (١٩٥٩). وخلال هذا التاريخ الطويل عالج طه الموضوع بأساليب مختلفة فيما بين البحث المنهجي والمقالة والقصة والكتابة التاريخية. وإذا استطعنا أن نتبين متى وكيف ظهرت المشكلة في حياته الأدبية أدركنا أنها نشأت في إطار تجربة فكرية صادقة وبدا لنا فهم طول اهتمامه بها.

وينبغي إذن أن نأخذ أقوال طه بكثير من الجد، وأن نرفض منذ البداية أي رأي يرمي إلى تفسير آرائه بوصفها استجابة لضغوط سياسية أو نوعا من المناورة أو التمويه اتقاء للخطر أو من «السفسطة». فقد كان يعي بوضوح أنه يتناول موضوعا شائكا من شأنه أن يعرضه للخطر، وكان يعمد أحيانا إلى المناورة والتمويه. وهو ما سنبينه في مواضعه. ولكن هذا الجانب من تفكير طه حسين ينبغي أن يشغل حيزا محدودا من الاهتمام حتى يتيسر الانصراف إلى ما هو أهم وأخطر، وهو أنه كان يعالج مشكلة تعنيه حقا ويقدم لها حلولا ترضيه شخصيا قبل أن ترضي أو تخدع غيره. وينبغي ألا يصرفنا شيء عن دراسة طريقته في إدارة الأزمة من وراء الأقنعة إذا كان حديثه مقنعا ولا عن ذلك الحديث الجاد الذي أداره مع نفسه قرابة نصف قرن بغية تحقيق التوازن والرضى في حياته.

الإصلاح والتوفيق:

بدأ انشغال طه حسين بالمسائل الدينية على نحو يتعارض مع آراء الجمهور - أو رأي «السواد» كما يقول - عندما كان صبيا في السنوات الأولى من دراسته في الأزهر. ففي تلك السنوات تأثر بأفكار الشيخ محمد عبده في الإصلاح الإسلامي وأصبح من «أتباعه» حتى قبل أن يستمع إلى أي من دروسه. فنحن نقرأ في الفصل ١٦ من الجزء الثاني من الأيام أن الصبي كان يحلو له في فترة العطلة الدراسية أن ينتقد معتقدات ذويه وأهل قريته. ومن ذلك مثلا أنه كان يرى أنه لا ينبغي التوسل بالأنبياء والأولياء وأنه لا ينبغي أن يكون بين الله وبين الناس واسطة؛ فذلك ضرب من الوثنية. وقد جرت عليه آراء أخرى مشابهة كثيرا من المتاعب في الأزهر حتى لقد اتهم بالمروق.



ولكن لعل وعي طه بأن ثمة مشكلة بين العلم والدين لم يتضح إلا عندما اطلع واستوعب - في تاريخ لا نعرفه بدقة - آراء محمد عبده في التوفيق بين الإسلام من ناحية وبين المدنية والعقل والعلم الحديث من الناحية الأخرى. ولعله قد تابع الشيخ في آرائه التوفيقية كما تابعه في مذهبه الإصلاحي، ورأى أن الإسلام في صفائه - أي إذا فهمت نصوصه الأساسية وفسرت بمعزل عن الأوشاب والخرافات التي لحقت بها في العصور المتأخرة - يتفق مع العقل والعلم.

ويمكننا أن نستخلص إذن أن طه حسين أنفق جزءا من فترة الدراسة في الأزهر دون أن يدرك أن ثمة مشكلة أصلا بين العلم والدين. صحيح أن بعض آرائه في تلك الفترة كانت تتميز بالجسارة وتخرج عن التقاليد، ولكنها لم تخرج عن مبادئ الإصلاح كما وضعها محمد عبده. وإذا صح أن طه لم يدرك أن ثمة مشكلة إلا من خلال توفيقية محمد عبده، فإن هذا يعني أنه أدرك في نفس الوقت أن المشكلة سهلة الحل لأنه ليس بين العلم والدين خلافات أساسية. ويبدو أن هذا الوئام قد استمر طيلة فترة الدراسة في الأزهر وجزءًا من فترة الدراسة في الجامعة المصرية.

منشأ الأزمة:

نشأت المشكلة في سياق بحث أجراه طه في كتاباته المبكرة عن المبادئ والقواعد المنهجية اللازمة لدراسة تاريخ الأدب العربي دراسة علمية حديثة. وقد انتهى به البحث في رسالة الدكتوراه التي أعدها عن أبي العلاء إلى شكل صارم من أشكال الوضعية أسماه «الجبر في التاريخ». فدراسة تاريخ الأدب العربي دراسة علمية تقتضي فيما رأى ألا تعزى الأعمال الأدبية إلى مؤلفيها، بل ينبغي تعليلها بالرجوع إلى أسباب عميقة في نفس كل مؤلف، ومن ثم إلى عوامل خارجية تتصل بحياة المجتمع المعنوية وبيئته المادية، ومن ثم إلى نظام كوني شامل موصول الحلقات وخاضع للضرورة المطلقة.

أما أن ذلك الموقف يعد شكلا من الوضعية فهو واضح إذا تذكرنا أن الوضعية هي المذهب الذي يدعو إلى توسيع نطاق المنهج التجريبي المتبع في العلوم الطبيعية بحيث يشمل العلوم الإنسانية. ويتميز هذا المنهج وفقا للوضعية بأنه ينصب على الحوادث ويبحث عن أسبابها كما تتعاقب في حيز المشاهدة أو الخبرة الحسية بدلا من الرجوع إلى علل لاهوتية (غيبية) أو ميتافيزيقية (على شكل ماهيات أو طبائع مزعومة كامنة في الأشياء).

ومن الممكن توضيح جبرية طه حسين في تلك الفترة بما قاله صديقه الدكتور «محمد حسين هيكل» في شرح مذهب هيبوليت تين صاحب المذهب الوضعي في تاريخ الأدب والذي تأثر به طه حسين فيما يتعلق بالجبر في التاريخ. يعرّف هيكل هذا المذهب فيقول إن الفنون بعض ثمرات الإنسان، والإنسان ثمرة وسطه، والوسط الذي يعيش فيه الإنسان خاضع لعوامل طبيعية وتاريخية لا قبل له ولا سلطان له عليها («هيبوليت أدولف تين»، تراجم مصرية وغربية).

ومن المستحسن أن نطلق على هذا المذهب صفة «الحتمية» بدلا من «الجبرية» التي يستخدمها طه متأثرا في ذلك بعلم الكلام. فالجبرية في علم الكلام تنكر حرية الإنسان في الاختيار لأنها تعزو كل أعماله إلى قوة عليا هي الله بينما تقتضي الحتمية الوضعية تفسير جميع الحوادث بالرجوع إلى أسباب طبيعية في نطاق نظام مكتف بذاته مغلق دون العلل الغيبية.

وبذلك يصبح من السهل أن نرى كيف أدى اعتناق الوضعية بالمعنى السالف إلى نهاية الوئام بين العلم والدين. وذلك أن الحتمية تستبعد بالضرورة إمكان التدخل الغيبي في المجرى العادي للأحداث. وقد ظهرت بوادر النزاع في إحدى المقالات المبكرة التي ألفها طه حسين وتعرّض فيها لتفسير بعض أحداث التاريخ الإسلامي عن طريق المعجزة، فقال: «لا تحدثني بالمعجزات وخوارق العادات، فتلك أمور لا يعرفها المنطق ولا التاريخ. وإنما هي خليقة أن توضع موضعها من علوم الدين»(٣). فماذا تعني هذه العبارة؟ لاحظ أن نصها يدل على استبعاد المعجزات من علم التاريخ أو دراسته ولا يستبعدها من حيز الأحداث التي قد تقع في التاريخ. ومعنى ذلك أن هذا القول في حد ذاته لا يدل بالضرورة على إنكار المعجزات أو احتمال حدوثها. فابن رشد على سبيل المثال كان يرى رأيا مشابها وإن كان يسلم بالمعجزات التي ورد ذكرها في القرآن. فالمعجزات في نظره مبدأ من مبادئ الشرائع ولا يجوز للفلاسفة أن يتعرضوا لها بنفي ولا إبطال، بل يجب عليهم وعلى كل إنسان أن يسلم بها ويقلد فيها، على أن يئول البحث فيها إلى «الصناعة الشرعية» (تهافت التهافت، تحرير محمد عابد الجابري، بيروت، ١٩٩٨، ص ٥١٠).



ومعنى ذلك أن ابن رشد - وهو الذي كان يؤمن بترابط الأشياء ترابطا ضروريا بحكم طبائعها - كان يفسح مجالا لاستثناء الخوارق المنصوص عليها شرعا. وكان ابن خلدون بدوره يسلم بأن للضرورة الطبيعية استثناءات خارقة لها. ولقد كان هذا الحل ماثلا أمام طه حسين. فهل كان ذلك هو الرأي الذي ارتآه عندما أحال المعجزات إلى علوم الدين؟

إذا افترضنا جدلا أنه أخذ بهذا الرأي، فإن من المؤكد أنه لم يثبت عليه طويلا. وذلك أنه سرعان ما أوصد الباب دون فكرة الخوارق الاستثنائية عندما استبعد الدين نفسه من مجال الطبيعة. وقد بدأ هذا الاستبعاد في حاشية ترد في ذكرى أبي العلاء والحق فيها الدين بما أسماه «العاطفة والوجدان» (تجديد ذكرى أبي العلاء، في المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين، المجلد العاشر، بيروت، ١٩٧٤، الحاشية ١، ص ٨٧). وكانت تلك

فى أدب طـــــــــه حســـــين

عبدالرشيد الصادق محمودى



الخطوة التى اتخذت على استحياء بداية للفصل بين مجالين: مجال للعلم (هو أمور الواقع أو الطبيعة) ومجال للدين هو العاطفة والوجدان. وباستبعاد الدين من مجال الواقع تلقى المعجزات بدورها نفس المصير. وذلك أن الفصل يفترض ضمنا أن ثمة نزاعا بين العلم والدين فى ظل الحتمية وأن حل النزاع غير ممكن إلا بانسحاب الدين وملحقاته من مجال الطبيعة والتسليم للعلم بسلطة مطلقة فيه.

كما يعد هذا الفصل خروجا ضمنيا على توفيقية الأستاذ الإمام. وذلك أن التوفيق يفترض أن العلم والدين يتعلقان بنفس المجال (تقرير حقائق الواقع)، وأنهما منسجمان أساسا فى نطاق هذا المجال، وإن كان لكل منهما لغته الخاصة فى التعبير؛ ومن ثم كانت الحاجة إلى التأويل أو تفسير النصوص لإثبات الانسجام الأساسى.

وقد أقام طه الفصل فى هذه المرحلة دون أن يعلن ما يفترضه وما يترتب عليه من نتائج. لكننا سنرى فى المراحل التالية ظهور ما كان كامنا.

كيف يمكن الجمع بين طرفين متناقضين؟

لم يواجه طه مشكلة العلم والدين كموضوع قائم بذاته إلا فى العشرينيات من القرن الماضى عندما خصص لها عدة مقالات كانت أولاها «فى السفينة» (١٩٢٣). وقد جمعت هذه المقالات فى كتاب «من بعيد» (١٩٣٥).

وأول ما يلفت النظر فى هذه المقالات أن مؤلفها يستأنف الحديث فيها عن أمور تركها كامنة فى كتاباته الفترة المبكرة أو مسها مسا خفيفا عابرا. فهو هنا يواجه بمزيد من الصراحة موضوع الفصل بين العلم والدين بما فى ذلك فكرة «العاطفة» التى ربط الدين بها، وأوجه النزاع بين الطرفين. وصحيح أن البحث المفصل لا ينتهى دائما إلى نتائج حاسمة ولا يخلو من التباس، ولكنه ينم بصفة عامة عن ميل طه إلى مناصرة جانب العلم من الخصومة.

وهو يتوسع إذن فى الحديث عن الفصل الذى أقامه ضمنا بين الطرفين. فهناك الآن ملكتان أوشخصيتان إحداهما خاصة بالعلم وثانيتهما خاصة بالدين: أولاهما تنقد وتحلل والأخرى «شاعرة تلذ وتألم وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وترغب وترهب فى غير نقد ولا بحث ولا تحليل.» والشخصية الخاصة بالدين شخصية «ديانة مطمئنة طامحة إلى المثل العليا»، «العلم والدين».

كما أنه يشرح الآن بإسهاب ما كان يفترضه ضمنا عن النزاع بين العلم والدين. وهو يقدم إذن بيانا مفصلا للعوامل التى تؤدى إلى إثارة النزاع بينهما. فهناك فى واقع الأمر أوجه خلاف أساسية بين العلم

والدين. أولا، أن الدين يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء ويأخذ الناس بالإيمان بهما في حين أن العلم لم يستطع إلى الآن أن يثبتهما أو أن ينصرف عنهما انصرافا تاما. ثانيا، أن هناك تناقضا لا سبيل إلى فضه بين نتائج العلم ونصوص الدين فيما يتعلق بمسائل تتعلق بنشأة الكون والجيولوجيا ونشأة الإنسان وتكون الجنين. وثالثا، أن العلم يطمع إلى إخضاع الدين لبحثه ونقده وتحليله شأنه في ذلك شأن اللغة والفقه واللباس، فكلها في نظر العلم ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة وتتبع الجماعة في تطورها.



وبناء على ذلك يقرر طه أن العلم والدين لابد منفصلان؛ ويؤكد أن النزاع بين الطرفين قائم لا محالة؛ ويرفض من ثم كل محاولات التوفيق بداية من ابن رشد والغزالي إلى محمد عبده وتلاميذه، بما فيهم صديقه هيكل.

وكل ذلك مفهوم لأنه ليس إلا تصريحا بما كان مضمرا. ولكن الأمر الجديد والغريب هو أن طه يرى مع ذلك أن من الممكن بل ومن الضروري الجمع بين الطرفين المتناقضين. فهو يتمنى أن يتاح للإنسان أن يكون مؤمنا وعالما في نفس الوقت وأن يجمع بين هاتين القوتين وأن يطمئن إلى كلتيهما اطمئنانا بريئا من التناقض والاضطراب «في السفينة». بل إنه يجزم أن عددا من كبار العلماء، ومنهم باستور، استطاع أن يحقق هذا الجمع في «حياته النفسية»، «العلم والدين».

فكيف نفسر هذا الموقف؟ الواقع أن هذا الجانب من تفكير طه ينطوي على التباس. ومرد الالتباس أن طه بحكم التزاماته الوضعية قد أزال التناقض بين الجانبين وتمكن من الجمع بينهما وإن كان يصر على ضرورة الاستمرار في البحث عن صيغة لهذه المصالحة. فهو بناء على هذه الالتزامات مضطر إلى رفض محاولات التوفيق لأنها ترمي إلى فض النزاع بين العلم والدين مع إبقائهما في نفس المجال الواحد، مجال تقرير أمور الواقع. وهذا أمر غير ممكن لأن أوجه الخلاف عندئذ أساسية ولا سبيل إلى فضها. وهو بناء على نفس الالتزامات مضطر إلى فض النزاع بطريقة أخرى، وهي الفصل بين الطرفين بحيث يستقل العلم بأمور الواقع بينما يقتصر جانب الإيمان على إشباع احتياجات الإنسان النفسية ومطامحه الأخلاقية. فإذا تم الفصل بين الطرفين على هذا النحو زالت الخلافات وأمكن الجمع بينهما دون تناقض. وبعبارة أخرى يتحقق الجمع بين الطرفين عندما يزول التناقض بينهما بانفصالهما كل في مجاله.

وإذا صح هذا التفسير فإن طه يكون قد حل المشكلة خفية على نحو يرضي الوضعية. وهناك من الشواهد ما يشير إلى أنه كان يتحرك في ذلك الاتجاه. يبدو هذا في محاولات بذلها في مناسبات مختلفة بهدف تجريد الدين من حقه في تقرير أمور الواقع وجعل هذا المجال وقفا على العلم. ومن ذلك مثلا أنه يقرر في كتاب في الشعر الجاهلي أن ورود اسمي إبراهيم وإسماعيل في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي. وهو يرى أن القصة التي تروي هجرة إسماعيل إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها ليست إلا «حيلة» أو «أسطورة» تهدف إلى إيجاد صلة مادية بين العرب وأهل الكتاب (في الشعر الجاهلي، ص ٢٦ - ٢٧). ومعنى ذلك أن طه عندما عدد أوجه النزاع بين العلم والدين على تفسير بعض الظواهر الطبيعية لم يكن محايدا بين الطرفين كما يبدو؛ بل كان يؤمن ضمنا بأن النزاع ينبغي أن يفض لصالح العلم، وبأن للعلم وحده حق القول الفصل في مسائل الجيولوجيا والكوزمولوجيا وعلم الأجنة.





طه حسين أنفق جزءا من فترة الدراسة فى الأزهر دون أن يدرك أن ثمة مشكلة أصلا بين العلم والدين. صحيح أن بعض آرائه فى تلك الفترة كانت تتميز بالجسارة وتخرج عن التقاليد ولكنها لم تخرج عن مبادئ الإصلاح كما وضعها محمد عبده



ولكن لماذا لم يحسم طه الأمر صراحة إذا كان قد حسمه منطقيا؟ ولماذا حاول أن يعطي الانطباع بأن الجمع بين العلم والدين ما زال هدفا منشودا؟ هناك احتمالان. أولهما أن طه حسين يمارس التمويه لصرف الأنظار عن الصيغة الوضعية للتسوية بما تعنيه من تسليم بهيمنة العلم على أمور الواقع وتنازل الدين عن حقوقه. وهو احتمال لا يمكن استبعاده. ولكن هناك احتمالا آخر لا يمكن استبعاده بدوره ولا يتنافى مع الاحتمال الأول، وهو أن طه حسين لم يكن راضيا تماما عن الحل الذي كان مساقا إليه بحكم الوضعية. كانت تتجاذبه قوتان: قوة تدفعه إلى الاتساق مع منطق الوضعية وقوة أخرى تدفعه إلى تمني الفكاك. ولعل طه حينما تمنى لو أمكن الجمع بين العلم والإيمان كان يرجو حقيقة أن يجد طريقة لعقد الصلح بينهما على نحو أفضل من الطريقة التي تمليها الضرورات المنطقية. وهو أمر غريب وينطوي على مفارقة، ولكن من قال إن هذا الميدان - ميدان الإيمان - يخلو من المفارقات؟.

ولعل أقوى شاهد على هذا التفسير هو أن البحث المفصل للقضية في العشرينيات لم يغلق باب النقاش. وذلك أن طه يعود في الثلاثينيات إلى استئناف البحث بعقل - أو لنقل بقلب - أكثر تفتحا لمطالب الإيمان. فهو لا يستأنف الحديث إلا ليواجه الوضعية بمنطق مضاد، هو منطق القلب. وسوف نرى أنه سيجد عندئذ وسيلة للفكاك.

قصة الفيلسوف الحائر:

فترة الثلاثينيات هي الفترة التي شهدت التحول إلى الموضوعات الدينية. وقد تمخض هذا التحول في حالة طه عن كتاب على هامش السيرة؛ وهو كتاب ضخم يتألف من ثلاثة مجلدات نشرت فيما بين ١٩٣٣ و١٩٣٨. وقد صدّر طه الجزء الأول بمقدمة أعلن فيها بوضوح أنه لم يكتب كتابه للعلماء ولا للمؤرخين ولم يرد به إلى العلم ولا إلى التاريخ. وهو يقول في مكان آخر إنه إنما أراد بكتابه أن يروي بعض «الأساطير» التي تتصل بالعلامات المبشرة بمقدم النبي (من الشاطئ الآخر، ص ٨٤). ومؤلف الكتاب يقرر أن الأخبار التي يتناولها لا يطمئن إليها العقل ولا يرضاها المنطق ولا تستقيم لها أساليب التفكير العلمي، ولكنه يلتمس فيها ما يلتمسه الناس من ترفيه عن النفس حينما تشق عليهم الحياة.

وإنه لمن المؤسف أن النقاد لم يعلق في ذهنهم إلا تلك العبارات المضللة ووجدوا من المريح أن يلتزموا بالقيود التي فرضها طه حسين أو خيل إليهم أنه فرضها. ولقد كانوا في ذلك مخطئين بقدر ما كان طه حسين مضللا.

صحيح أن مادة الكتاب تتألف من مجموعة من «الأساطير». ولسنا مطالبين إذن بأن نؤمن بأنها تروي أحداثا وقعت بالفعل لأشخاص حقيقيين كما عرفهم التاريخ، إذا كان قد عرفهم على الإطلاق. ومن حقنا أن نستمتع بتلك الأساطير إذا كانت ممتعة. ولكن الفلاسفة وعلى رأسهم أفلاطون يلجأون أحيانا إلى الأسطورة لبث آرائهم. ولحديث الفلاسفة جمال فني في بعض الأحيان. فهل ينبغي أن ننصرف عن هذه الآراء لنفنى في المتعة الفنية الخالصة أو لنرفه عن أنفسنا دون تفكير؟

وأنا أود أن أصدم النقاد الذين اغتروا بالعبارات الافتتاحية لطه، فأخبرهم أنه عندما ألف الجزء الثاني من على هامش السيرة كان أقرب ما يكون إلى الفيلسوف. فقد استخدم أسطورة يناقش من خلالها مشكلة العلم والدين، وهي المشكلة التي ما زالت تشغله منذ كتاباته المبكرة. وقد اختار للقصة عنوانا صارخا هو «الفيلسوف الحائر». والفيلسوف الحائر هو الذي يشك بعقله ولكنه يصغي لقلبه ولحديث الإيمان. وهي بناء على ذلك قصة في صميم الموضوع. وإذا شئنا أن نحدد بدقة النوع الأدبي الذي تنتمي إليه قلنا إنها قصة رمزية (allegory كما يقول الإنجليز). فهل يجوز لنا أن نتجاهل الآراء التي يريد المؤلف بثها من خلالها؟

وليس من قبيل المصادفة أنه يشير إلى محاورة فيدون لأفلاطون. وذلك أن طه يعالج القصة بلغة السرد تارة وبلغة الحوار تارة أخرى. وهو من هذه الناحية يحاكي - عن عمد - نموذجا في التفلسف هو فن المحاورة، وهو نموذج عريق يرجع أصلا إلى الفيلسوف اليوناني العظيم. وإذا كانت محاورة فيدون عملا فلسفيا في المقام الأول فعلينا عندما نقرأ كتاب طه حسين ألا ننسى أن هذا الكتاب الأدبي عمل فكري أيضا.

تروي القصة رحلة فيلسوف حائر نحو الإيمان. وهو فيلسوف يوناني رواقي يهجر بلاده بحثا عن الإيمان في بلاد العرب فيأسره بعض سكانها ويسترقونه ويسمونه «صبيحا» حتى ينقذه من الرق زيد بن عمرو الذي كان حنيفا. وينطلق الرجلان معا إلى مكة ولكنهما يقتلان في الطريق.

والقصة مفعمة بالإشارات إلى التراث الرواقي. فحادثة استرقاق الفيلسوف تذكر بالفيلسوف الرواقي إبيكتيتوس، فقد كان لفترة عبدا. ومن ذلك أيضا استشهاد طه بسقراط - بطل الرواقيين الأكبر ونموذجهم الأعلى للحكمة - والتوقف عند أحاديثه عن خلود الروح وقصة مصرعه كما تروى في فيدون؛ وتمجيد طه لحرية الضمير واكتفاء الرجل الفاضل بذاته والطمأنينة الداخلية التي ينعم بها مهما ساءت الظروف من حوله؛ والرأي الذي سيرد فيما يلي عن أن نفس الإنسان مفطورة على الإيمان. فكل تلك أفكار ومثل رواقية.



أما الحوار فهو يدور بين أربعة أشخاص يتهددهم اضطهاد قيصر الروم الذي يحارب الوثنية دينا وفلسفة ويحاول فرض دين المسيح على رعاياه بالقوة والقهر: حاكم المدينة أو رجل السياسة الذي يريد أن يتقي شر سيده فينفذ تعليماته أو يتظاهر بتنفيذها في فرض الدين الجديد؛ وأندرونيكوس الذي ينزع نزعة أبيقورية فجة ويرى ضرورة التظاهر بطاعة قيصر طالما استطاع أن ينعم بامتيازاته ويمارس لذاته؛ وكلكراتيس الفيلسوف الرواقي الحائر الذي يرى بحكم رواقيته أن في دين المسيح شيئا جديرا بتعاطفه وحقيقة ما تشده إليه، كما يتشوق إلى الدين الجديد الذي تبشر الأنباء بقرب ظهوره في بلاد العرب، ولكن عقله لا يستطيع أن «يسيغ» دين المسيح فضلا عن أنه لا يتقبل إصرار قيصر على التدخل بين الإنسان وضميره؛ وهناك أخيرا الراهب المسيحي كلينيكوس الذي يطالب بتقييد سلطة العقل ويدعو إلى الإيمان ويحمل الأنباء السارة والبشارات.

فمن من هذه الشخصيات يمثل طه حسين؟ وما هي وجهة النظر التي يخصها بالتأييد من بين وجهات النظر المتعارضة في هذا الحوار؟ ذلك سؤال مشروع لأن موضوع القصة يمس المشكلة التي ما زالت تشغل طه حسين منذ كتاباته المبكرة. من السهل علينا أن نستبعد رجل السياسة وصاحب مذهب اللذة؛ فكلاهما بعيد كل البعد عن موقف طه. وبذلك تنحصر دائرة الاختيار بين الراهب الشيخ والفيلسوف الحائر أو الفيلسوف الفتي كما يسميه طه أحيانا. يقول الراهب الشيخ لصديقه الفتي: «...فإني أرى يا بنيّ أن لنفسك غرائزها كما أن لجسمك غرائزه، وأن غرائز النفس كغرائز الجسم لا تصدر عن العقل ولا





كان طه حسين
فى العشرينيات يتمنى
لو أمكن الجمع بين مقتضيات العقل
الصارمة وبين حاجة القلب إلى الدين. بل كان يعتقد
أن ذلك الجمع ممكن على صعيد الحياة
النفسية وأنه تحقق
فى بعض الحالات



تنشأ عنه، وإنما تصدر عن الطبع وتنشأ عن المزاج وحاجة النفس يا بني إلى الإيمان كحاجة الجسم إلى الطعام والشراب، تألم إن فقدت الإيمان، وتستريح إن ظفرت به، ليس للعقل في ذلك أثر. فكن أعقل الناس، وكن أحزمهم وأصرمهم وأمضاهم عزما، فلن يغير ذلك من نفسك شيئا إن كانت طبيعتها طبيعة النفس الإنسانية التي فطرت كما فطرت نفوس الناس على الإيمان.» (على هامش السيرة، المجموعة الكاملة، المجلد الثالث، ١٩٨١، ص ٢١٢). فمن من طرفي الحوار يمثل طه حسين أو ينطق باسمه؟



يرى الأستاذ بيير كاكيا أن الراهب الشيخ هو الناطق باسم طه حسين. وحجته في ذلك أن ما يقوله الراهب من ضرورة الجمع بين العقل والإيمان لا يختلف في شيء عن أقوال طه في العشرينيات، فالأهمية المعلقة على الإيمان بوصفه إشباعا لحاجة عاطفية لا تنال في شيء من سلطة العقل المطلقة. وهو رأى يبدو مغريا حتى نتبين أنه يعتمد على قراءة جزئية للقصة. وسوف أوضح بعد قليل أن للراهب أقوالا أخرى تتجاوز آراء طه في العشرينيات وتنطوي على عناصر جديدة. والأرجح عندي أن يكون الفيلسوف الرواقي الحائر هو ممثل طه حسين من بعض الجوانب. ومن الضروري أن نراعي هذا التحفظ الأخير توخيا للحذر؛ فأقصى ما يمكن أن يقال هو أن كلكراتيس أقرب الشخصيات إلى حالة طه حسين وأفضلهم تمثيلا لها.

وليس من باب المصادفة أن يكون كلكراتيس رواقيا، فالرواقية تؤمن بالقدر أو بحتمية النظام الطبيعي مع إيمانها بالعقل وحرية الإنسان الفاضل واكتفائه الذاتي وتطلعه إلى المثل الأخلاقي الأعلى. وكلكراتيس صاحب نفس مركبة مضطربة فيها عقل يشك ويحلل وينقد وفيها شعور يتعطش إلى طمأنينة الإيمان. أما الراهب الشيخ فهو صوت الدين وممثله وصاحب الإيمان المستقر والنفس المطمئنة، والداعي إلى إلجام العقل وكبح جماحه والإصغاء لصوت القلب. ومن المحال أن نعد الداعية المطمئن ناطقا باسم طه حسين أو ممثلا لشخصيته القلقة. ولا شك أن الفيلسوف الحائر أقرب إلى طه وأفضل تصويرا لحالته.

فما هي العناصر الجديدة التي تحملها القصة؟ أول هذه العناصر هو الشكل الدرامي. كان طه حسين في العشرينيات يتمنى لو أمكن الجمع بين مقتضيات العقل الصارمة وبين حاجة القلب إلى الدين. بل كان يعتقد أن ذلك الجمع ممكن على صعيد الحياة النفسية وأنه تحقق في بعض الحالات. ولكن تلك الطمأنينة الوضعية الناجمة عن تنازل الدين وانتصار العلم تزول في قصة الفيلسوف الحائر وتحل محلها الأزمة المتفجرة. ومن ثم كان عنصر الدراما.

ومن شأن هذا الشكل الدرامي أن يفسح المجال لتضارب الآراء. وطه حسين يستغل هذا الشكل لكي يتيح للراهب الشيخ (صوت الإيمان) أن يعارض الفيلسوف الفتي (صاحب العقل المتشكك). غير أن العنصر الدرامي لا يقتصر على الحوار وتضارب الآراء، فهو يتجلى أيضا في الصراع الذي يمتد إلى نفس الفيلسوف المضطربة. يقول طه حسين عن الفيلسوف الحائر: «كانت نفسه تحدثه بأن وراء هذه المعجزات التي تمتلئ بها التوراة والإنجيل وقلوب الناس وأحاديثهم، حقا لا ينبغي أن يكون فيه شك. ولكن عقله كان عاجزا عن أن يسيغ هذه المعجزات، أو يحسن الإذعان لها والرضى عنها. فكان الفتى مقسما، إذا نظر في الكتب المقدسة، بين إيمان يشيع في قلبه ويدعوه إلى الرضى والاطمئنان، وشك يشيع في عقله ويدعوه إلى التمرد والجموح». (نفس المصدر، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦).

وطرح المشكلة على هذا النحو يصورها كتجربة مريرة يحياها صاحب العقل المفتقر إلى الإيمان فيشعر بالتمزق ويشتهي الموت. لقد زعم طه في العشرينيات أن العالم الحكيم يستطيع أن يحسم النزاع بين العلم والدين ويجمع بينهما في نفسه على نحو مستقر متزن. ولكنه يصور النزاع الآن وقد عاد إلى الاحتدام في نفس حكيم رواقي.

وقد يقتضي توخي الحذر ألا نفترض أن طه طرف في هذا النزاع؛ ولكن يحق لنا على الأقل أن نقول إنه أصبح يرى أن فض النزاع على الطريقة الوضعية لا يحسم الموضوع تماما وأن الأمر يقتضي إيلاء مزيد من الانتباه إلى مطالب القلب. وإيلاء مزيد من الانتباه إلى مطالب القلب عنصر جديد آخر تتكشف عنه مرحلة الثلاثينيات. فالكتاب الذي نحن بصدده يستأنف حديث العلم والدين مع الحرص على استجلاء جانب الإيمان.

وقد آن الأوان الآن لكي نتفحص أقوال الراهب الشيخ الذي يمثل صوت الإيمان المطمئن لنرى ما إذا كانت تنطوي على جديد. يقول الراهب للفتى الحائر: «فإني أرى يا بني أن في العقل تمردا وغرورا. قد خضعت له طائفة من الأشياء، وذلت له بعض صور الطبيعة، فظن أن كل شيء يجب أن يخضع له، وأن كل صورة من صور الطبيعة يجب أن تذعن لسلطانه...وإن غرور العقل يا بني قد زين له أن يجعل للطبيعة قوانين، ويفرض عليها قيودا وأغلالا... ولكن قوانينه لم تحط بكل شيء، ولكن قيوده وأغلاله لم تبلغ كل شيء. وما زالت الطبيعة حرة طلقة، وما زالت أكبر وأوسع من سلطانه وأبعد من مرماه. وما زالت أحداث تحدث لا يستطيع العقل إنكارها، ولا يستطيع تفسيرها، ولا يستطيع إخضاعها لقوانينه ولا لقيوده وأغلاله». (نفس المصدر، ص ٢١٣).

هنا نجد حجة جديدة يطرحها طه على لسان الراهب الشيخ. وهي حجة تقوم على بيان حدود العقل وتناهيه في مقابل اتساع الطبيعة إلى ما لا نهاية. والأحداث التي يشير إليها الراهب والتي تخرج عن سلطة العقل هي كما يوضح بعد ذلك المعجزات التي تروى عن المسيح: «إنك يا بني لا تستطيع أن تفسر بعقلك كيف يحيا الميت بعد أن مات وشبع موتا. ومع ذلك فقد نهض الميت من قبره، وقد قرأت عليك ذلك في الإنجيل، وما أنكرت منه شيئا! لأن الناس جميعا قد عرفوه واطمأنوا إليه...» (نفس المصدر، ص، ٢١٣-٢١٤).

والجديد هنا أن أقوال الشيخ الراهب تهاجم وضعية طه حسين في معقلها، فهي ترمي إلى كسر احتكار العلم للطبيعة والتسليم بأن للإيمان دورا فيها. فالأحداث التي يشير إليها الشيخ أحداث طبيعية معروفة للناس ظاهرة للعيان وإن كانت تخرق قوانين الطبيعة كما حددها العقل.



وهاهو الإيمان الذي استبعده طه في سالف الأيام من مجال الأمور الطبيعية قد عاد في الثلاثينيات لينازع العلم في هيمنته على الطبيعة ويطالب بحقه في نصيب منها. وما دام النزاع سيدور في نطاق هذا المجال الواحد، فقد يبدو لأول وهلة أن لا سبيل إلى فضه. ولكن حقيقة الأمر تدل على عكس ذلك. فالإيمان لا يطالب الآن بفرض سلطانه على الطبيعة بأكملها، بل يطالب باقتسامها مع العلم؛ أو أنه يطالب بأن يستقل ببعض الاستثناءات من قوانين الطبيعة. ومن الواضح أن هذا المطلب يتعارض مع الوضعية الصارمة. ولكن طه لا يبدي في أي موضع من الكتاب أي اعتراض أو تحفظ على نقد الراهب للوضعية ولا يحاول سد الثغرة التي أحدثها في جدار الحتمية المحكم. وصحيح أن عدم الاعتراض لا يدل بالضرورة على الموافقة، ولكنه يترك الباب مفتوحا أمام هجمة الخصم. فهل معنى ذلك أن طه تنازل عن وضعيته في الثلاثينيات؟

أنا أعتقد أن الإجابة ينبغي أن تكون بالإيجاب. فهو لا يكتفي بالسكوت أمام حجج الراهب، بل يدع القصة تجري في اتجاه محاب للإيمان. فالفيلسوف الفتي إن لم يستطع حسم الأمر على الصعيد النظري فقد اتخذ مبادرة إيجابية على صعيد العمل. وذلك أنه يخرج من دياره مقتفيا خطى الراهب ساعيا نحو «الحق» الذي لا يستبينه أو ما يسميه الشيخ بالمعجزة الكبرى. والمعجزة الكبرى هي الرسالة التي بشرت النبوءات والعلامات بنزولها في أرض الحجاز.



ومؤدي كل ذلك أن التسوية التي يطالب بها الراهب لا يكتمل إبرامها على صعيد النظر المحض وأن الجدل بين طرفي النزاع لا تحسمه الحجة القائلة بتقييد العقل. والأمر يقتضي بالإضافة إلى ذلك اتخاذ عمل من أعمال الإرادة. وذلك ما فعله الفيلسوف الحائر.

ونحن إن لم نستطع أن نقول إن سعي الفيلسوف إلى اليقين مطابق لحالة طه بوصفه مؤلفا، فإن بإمكاننا على الأقل أن نقول إنه يرى أن للخطة نوعا من الوجاهة ويبدي شيئا من التعاطف معها. وهي خطة لا تدل على أنه (أي كلكراتيس) آمن بالمعجزات أو بالمسيحية أو بالإسلام المبشر به، ولكن سفره سعيا إلى «الحقيقة» وخروجه لمشاهدة «المعجزة الكبرى» يدل على أن الجمع بين العلم والدين لم يعد أمرا يتمناه المرء أو يحققه على صعيد النظر، وإنما هو أمر يريده ويغامر من أجله ويتحرك نحو تحقيقه على أرض الواقع. وكل ذلك يختلف عن موقف طه من الموضوع في العشرينيات.

إلا أن أقوى دليل على أن الآراء التي وضعها طه على لسان الراهب كان لها في نفسه وقع كبير، وقع يفوق من حيث إيجابيته السكوت عن التصدي لها، هو أنه سلم بها تماما في تاريخ لاحق.

الانصياع لمنطق القلب:

لم يحل الفاصل الزمني الطويل بين الجزء الثاني من على هامش السيرة (١٩٣٧) وبين مرآة الإسلام (١٩٥٩) دون استئناف حديث العلم والدين في هذا الكتاب الأخير. صحيح أن طه لم يتخذ من القضية موضوعا رئيسيا لكتابه وإنما تطرق إليها في سياق عرض لتاريخ الإسلام، ولكنه حرص على أن يسترجع بعض الآراء المطروحة في الكتاب المتقدم ويعبر بها عن نفسه. وبعبارة أخرى نقول إن مؤلف مرآة الإسلام يتبنى صراحة ما وضعه على لسان الراهب الشيخ من آراء في حدود العقل والعلم وفي المعجزات وفي حق الدين في احتلال مكان في عالم الوقائع، وكذلك في «المعجزة الكبرى». ومن حسن الحظ أن طه حسين لا يكتب هذه المرة بلغة القص والحوار ولا يلجأ إلى الرمز، بل يعبر عن نفسه مباشرة ودون قناع.

وطه حسين يقدم مرآة الإسلام دون تحفظات علمية كما فعل في «على هامش السيرة». ولكنه يحدد الغرض من الكتاب بعد أن قطع فيه شوطا طويلا فيقول بإيجاز: «إننا لا نكتب السيرة في هذا الحديث، وإنما نصور في إيجاز شديد ما ليس بد من تصويره لنعرض عليك مرآة صادقة للعصر والبيئة اللذين

العلم والدين.. في أدب طه حسين

عاش فيهما النبي وأصحابه، ونشأة الإسلام وانتشاره قليلاً قليلاً حتى شمل جزيرة العرب كلها، قبل أن يختار الله نبيه الكريم لجواره.» (مرآة الإسلام، المجموعة الكاملة، المجلد السابع، ١٩٧٥، ص ٢٢٠).

هو إذن كتاب في التاريخ، ولكنه أبعد ما يكون عن التاريخ «العلمي» أو «الوضعي». بل إن الكتاب يختلف عما وضعه طه حسين من مؤلفات في تاريخ الإسلام مثل الفتنة الكبرى والشيخان وعلي وبنوه. فطه حسين في مرآة الإسلام لا يحقق ولا يمحص ولا ينقد الروايات. وهو لا يسرد الحوادث ويعللها وفقا لمقتضيات المنهج العلمي، وإنما يقرر الوقائع تقريرا، إما لأنها ثابتة أو تكاد من الناحية التاريخية (كما هو الحال فيما يتعلق بوصف وثنية العرب قبل الإسلام أو وضع قريش فيها) أو لأنها الوقائع كما يقررها الإسلام ويقتضيها الإيمان. ومثال ذلك قول طه أن «...قد ولد له [أي لعبدالله أبي النبي] بعد موته صبي هو الذي اختاره الله ليأتي العرب بدينهم الجديد»، أو روايته في مواضع عدة لواقعة الوحي أو تنزيل القرآن، أو عرضه للمعجزات التي تتصل بمولد المسيح أو تنسب إليه إبان حياته؛ فهو يثبتها كما ورد ذكرها في القرآن.



ونحن إذن بصدد تاريخ من نوع خاص؛ فهو تاريخ للإسلام من وجهة نظر دينية ووفقا لما تمليه العقيدة الإسلامية. وهو يفترض أساسا رأيا منافيا تماما للوضعية مؤداه أن الأحداث الخاصة بظهور الإسلام وانتشاره تجري وفقا لخطة إلهية. يقول طه حسين: «وكذلك عظم أمر الإسلام وانتشر في الجزيرة العربية كلها. ونظرة سريعة إلى ما بدأ الإسلام عليه في مكة وما انتهى إليه في المدينة في هذا الوقت القصير، تبين في جلاء أن قوة عليا أرادت لهذا الدين أن يقوى وينتشر...» (نفس المصدر، ص ٢٢٤).

ومن الملاحظ أيضا أن طه حسين يقطع الرواية التاريخية أحيانا ليتوقف طويلا عند أمور يرى أنه كان لها تأثير ضخم على تاريخ الإسلام. وهو يخصص من ثم مساحة كبيرة للقرآن الكريم وبيان أوجه إعجازه. وطه بصفة عامة يتقبل القرآن على ظاهره ويرفض تأويل ما تشابه من آياته. وهو من ثم يحمل على جدل الأحزاب الإسلامية وفرق المتكلمين وإغراق المعتزلة في تحكيم العقل وثقتهم في قدرته. بل إنه ينقد أبا العلاء لاتخاذه من العقل إماما لا إمام سواه. وهو يؤثر على كل ذلك موقف أصحاب النبي الذين سمعوا القرآن وتقبلوا ما جاء فيه عن صفات الله دون أن يخطر لأحد منهم أن ينكر تلك الصفات أو أن يسرف في السؤال عنها.

ونحن إذن بإزاء انقلاب ضخم في تفكير طه حسين. فها هو يسلم بأن للدين أن يصف أمور الواقع ويفسرها بطريقته. وفي هذا السياق ـ سياق نقد التأويل الذي يحتكم إلى العقل ـ تظهر قضية العلم والدين. وعندئذ يستعيد طه أقوال الراهب الشيخ في حدود العقل ويتبناها. فالعقل ـ فيما يقول مؤلف مرآة الإسلام ـ ملكة كغيرها من ملكات الإنسان محدودة القوة، تستطيع أن تعرف أشياء وتقصر عن معرفة أشياء لم تهيأ لمعرفتها (نفس المصدر، ص ٣٤٠). ويزداد الأمر وضوحا عندما يقول: «وليس على الدين بأس أن يلائم العلم الحديث أو لا يلائمه، فالدين من علم الله الذي لا حد له، والعلم الحديث كالعلم القديم محدود بطاقة العقل الإنساني وبهذا العالم الذي يعيش فيه الإنسان.» (نفس المصدر، ص ٣٤٤).

وقد يوحي قول طه إن العلم محدود بالعالم الذي يعيش فيه الإنسان بأنه ما زال يعتقد أن للعلم سلطة مطلقة على أمور هذا العالم. ولكن هذا الانطباع يتبدد تماما إذا تريثنا قليلا. وذلك أن طه أصبح يعتقد مثله مثل الراهب الشيخ أن قدرة العلم الحديث محدودة حتى في نطاق هذا العالم. فهو كما رأينا يعتقد أن القرآن في حد ذاته معجزة. كما أنه يسلم بالمعجزات التي ورد ذكرها في القرآن، وخاصة المعجزات التي تتصل بالمسيح (نفس المصدر، ص ٢١٤ ـ ٢١٥).



ومؤدى هذا أن مؤلف مرآة الإسلام لم يعد يرى أن للعلم سلطة مطلقة في تقرير أمور الواقع وأنه (أي العلم) يتقاسم هذه المهمة مع الدين. وإذا صح هذا الوصف لموقف طه في أواخر الخمسينيات، كان معناه أن وضعيته انهارت انهيارا كاملا. فقد كان يعتقد في العشرينيات أن الدين قاصر على إشباع الاحتياجات النفسية والمطامح الأخلاقية، ولكنه أصبح يرى أن الدين يشارك العلم في المجال الطبيعي.

ولكن ألا يؤدي تقاسم الطبيعة على النحو المذكور إلى نشوء نزاع بين الطرفين؟ ألم ير طه حسين نفسه وهو ما زال في مقتبل العمر أن لا وسيلة إلى منع هذا النزاع إلا بالفصل بين الطرفين كل في مجال؟ ولن نجد في أقوال طه حسين إجابة عن هذا السؤال. ولكن كان بمستطاعه أن يقول إن تقاسم الطبيعة ليس من شأنه أن يثير النزاع، فالتسليم بالمعجزات لا يكون إلا على سبيل الاستثناء. كما كان بإمكانه أن يشير إلى أن هذا الحل الاستثنائي ليس غريبا على التراث العقلاني في الفكر الإسلامي. وسوف أقول المزيد عن هذا بعد قليل.

ولكن يتضح مما قيل حتى الآن أنه كانت لدى مؤلف مرآة الإسلام حجتان رئيسيتان في التدليل على رأيه في إعطاء الدين موطئ قدم في مجال الوقائع الطبيعية. أول هاتين الحجتين هي التي تتعلق بحدود العقل والعلم، وهي حجة يسهل التسليم بها حتى بين أنصار العقل والعلم. غير أن هذه حجة سالبة تقييد سلطة العقل والعلم ولكن لا يترتب عليها بالضرورة التسليم بسلطة الدين في المجال المذكور. أو لنقل بعبارة أخرى إن القول بأن الطبيعة حرة لا متناهية تتجاوز دائما قدرة العلم لا يعني بالضرورة إفساح المجال للخوارق. وهنا يأتي دور الحجة الثانية التي تبرر إفساح هذا المجال، وهي حجة تستند إلى سلطة القرآن.

وهنا قد يقول قائل: ولكن هذه الحجة الثانية لا تلزم إلا المسلمين؛ وأنها لا تحسم الأمر بالنسبة لغير المسلمين والجاحدين. وهذا صحيح، ولكن المهم هو أن ندرك أن الحجتين مجتمعتين كانتا كافيتين لإقناع طه حسين، وأن الرجوع إلى القرآن كان حاسما في حالته. ويبقى أن نعرف لماذا كان الأمر كذلك.

لقد كانت لدى طه أسبابه الخاصة للإيمان بسلطة القرآن. من ذلك ما يقوله بالتفصيل عن أوجه إعجاز القرآن. وهي أقوال جديرة بالنظر، ولكني سأكتفي منها الآن بما يقول طه عن أخص مزايا القرآن؛ وهي نقطة مهمة لأنه حرص على تأكيدها، وهي تتعلق بتأثير القرآن في نفس الجاحد أو المعاند. يقول في هذا الصدد: «وأخص مزايا القرآن أن الذين يقرءونه أو يسمعونه دون أن يؤمنوا به يكذبون على أنفسهم، فقلوبهم خاشعة وأذواقهم راضية، وعقولهم هي المعارضة المكذبة، فهم حين يقرأونه أو يسمعونه يناقضون أنفسهم: يظهرون الإباء ويضمرون الاستجابة، فقد اختلفت قلوبهم وألسنتهم ووجوههم. فقلوبهم تذعن، وألسنتهم تنكر، ووجوههم تعرض...» (نفس المصدر، ص ٢٤٤).

وهي عبارات تذكرنا مرة أخرى بما جاء في «على هامش السيرة» من تصوير للفيلسوف الحائر إذ يقرأ أخبار المعجزات أو تتلى عليه كما وردت في الإنجيل فيستجيب لها قلبه وينكرها عقله. ولكن طه يضيف إلى الصورة لمسة أو لمسات أخرى تتعلق بتأثير القرآن. فالقرآن فيما يرى يكشف التناقض الذي يقع في نفس الجاحد بين عقله وقلبه ويفضح كذبه على نفسه. ويبدو أن عبارات طه حسين توحي أيضا بأن القلب المذعن أصدق وأحرى أن يتبع.

وربما اعتقد مؤلف مرآة الإسلام أن انفضاح أمر الجاحد على هذا النحو يدفعه خطوة نحو الإيمان وإن لم يجعله مؤمنا كامل الإيمان. ويخيل إلي أن طه حسين كان يفترض أن عقل الجاحد من حيث هو عقل يظل على عناده ويستعصي إقناعه رغم اكتشاف كذبه. ولا بد لحدوث الإيمان إذن من خطوة أخرى ليست في مقدور العقل ولا تقع في دائرة نفوذه. وهي خطوة تتوقف فيما يبدو على عمل من أعمال الإرادة، عمل يراهن على حديث القلب وينصاع له. وأنا أبني هذا الافتراض على ما يقوله مؤلف مرآة الإسلام عن تسليمه بظاهر القرآن، وعلى ما قال من قبل عن قرار الفيلسوف الحائر أن يخرج من دياره سعيا إلى معاينة المعجزة الكبرى في أرض الحجاز.







هاهو الإيمان الذي استبعده طه في سالف الأيام من مجال الأمور الطبيعية قد عاد في الثلاثينيات لينازع العلم في هيمنته على الطبيعة ويطالب بحقه في نصيب منها. وما دام النزاع سيدور في نطاق هذا المجال الواحد، فقد يبدو لأول وهلة أن لا سبيل إلى فضه. ولكن حقيقة الأمر تدل على عكس ذلك



وينبغي لكي نتوصل إلى نظرة متوازنة عن آراء طه حسين أن نورد في ختام هذه المقالة عددا من الملاحظات المهمة. أولا، أن الدور الهام الذي يسنده طه إلى القلب فيما يتعلق بالإيمان لا يعني أنه يعتقد أن العقل ليس له دور في هذا المجال. ويخيل إلي بناء على ما يقوله في أوجه إعجاز القرآن المتعددة أنه كان يفترض بالأحرى أن للعقل شوطا يقطعه في هذا المضمار، ولكن القلب هو الذي يحسم الأمر في نهاية المطاف. ثانيا، أن طه وقد سلم بمنطق القلب وبالمعجزات لم يختتم مرآة الإسلام دون أن ينوه بقيمة العقل والعلم. فهو يحث المسلمين على أن يستيقظوا حقا ليصبحوا أكفاء لقدمائهم وأندادا لمن يريدون إذلالهم، ويرى أن من مظاهر هذه اليقظة أن يستدركوا ما فاتهم من العلم الحديث وأن يوطنوه في بلادهم ويجعلوه ملكا لهم (نفس المصدر، ص ٣٦١). ومعنى ذلك أن التسليم بالمعجزات لا يعني في نظره فتح الباب لكل أشكال الخرافة والدجل.

ثالثا، أن الموقف الأخير لطه ليس غريبا على تراث الفكر العقلاني في الإسلام، ولم يكن غريبا على طه نفسه. وذلك أن ابن رشد وابن خلدون كانا كما أشرت من قبل يعتقدان أن نظام الطبيعة الذي يخضع للضرورة لن يضار في شيء إذا كانت له بعض الاستثناءات الخارقة. وقد كان هذا الحل ماثلا أمام طه في شبابه، فلم يأخذ به. ولكنه عاد إلى ما يشبهه في مرآة الإسلام.

رابعا وأخيرا أن طه لم يكن في يوم من الأيام مطمئنا تماما لوضعيته الصارمة. وذلك أنه ظل يصطرع معها طيلة حياته. وليس أدل على ذلك من علامات التصدع التي بدأت تظهر في بنائها حتى في فترة ازدهارها. ولكن هذا حديث يطول وليس مكانه هنا. ■

الهوامش:

(١) انظر طه حسين، «الاتجاهات الدينية في الأدب المصري المعاصر»، في «من الشاطئ الآخر». كتابات طه حسين الفرنسية، ترجمة عبدالرشيد الصادق محمودي (القاهرة ١٩٩٧)، ص ٨١ و٨٢.

(٢) انظر مراجعة رشيد العناني (Rasheed El-Enany) لكتاب Taha Husain's Education from the Azhar to the Sorbonne by Abdelrashid Mahmoudi, Middle Eastern Studies, vol. 36, April 2000, pp. 199-203 وانظر أيضا مراجعة بيير كاكيا (Pierre Cachia) لنفس الكتاب في: Journal Of Semitic Studies, XLV/2 (2000) pp.397-398

(٣) طه حسين، «حياة الأدب» ٨، الكتابات الأولى، تحقيق وتقديم عبدالرشيد الصادق محمودي (القاهرة ٢٠٠٢)، ص ٢٤٠.

حكاية «أراجوز»

«فن الاثنين في واحد»

■ ■ كما يجذبنا طرطور الاراجوز الأحمر من بين زحام المولد لمتابعة عرض مسرحه الصغير، يشدنا كتاب حكاية أراجوز إلى عالم القراءة ببرواز أحمر لكتاب مربع القطع تماما كتلك النافذة التي يطل منها الأراجوز الشاب، وأمه الجميلة صاحبة المنديل «أبو أوية»، وأبوه والشحاذ الرذل واللص، والشاويش ومساعده، وأخوه الأراجوز الصغير، وكل أفراد الفرقة في عرضهم الجوال.

في هذا الكتاب يتجلى مفهوم لا يتحقق إلا في القليل المتميز من الكتب الموجهة للأطفال، حيث تصير القراءة متعة مشاهدة لتفاصيل حية، تملأها الحركة رغم سكونها بين دفتي كتاب. والحقيقة أن اقتناص فكرة بسيطة وعميقة في الوقت ذاته، وعرضها بلغة بسيطة ومدهشة في الوقت نفسه، واحدة من أهم معادلات كيمياء الكتابة للأطفال حيث تمتزج البساطة والعمق والدهشة - تلك النابعة من طرافة وجدة التناول - بكميات قد تختلف من حيث المقدار عن بعضها البعض من ناحية، ولكنها لا تقل من حيث القيمة أو الأهمية في الجانب الآخر. حيث تتحول كل كتابة عبقرية للأطفال لكتابة موجهة في حقيقة الأمر للطفولة بمفهومها الأعمق، لا بوصفها مرحلة عمرية، ولكن باعتبارها طريقة لرؤية العالم، رؤية من زاوية الدهشة والتأمل والاهتمام بالتفاصيل. فيعبر الكتاب من سجن المرحلة السنية إلى مطلق القيمة التي تتوجه إلى كل الأعمار.

وحكاية أراجوز هي حكاية المولد - الدنيا - ذلك الذي يضم كمًا غير منته من التفاصيل، زحامًا من الناس كبارًا وصغارًا يتنقلون بين عناصر دنيا المولد، عربيات حب العزيز، والبطاطا، وبائعي الحلبسة - حمص الشام المغلي - وألعاب النيشان والمراجيح.

بين كل هذا ينصب عم سعفان مسرحه المتنقل أمام شادر عم رضوان بائع الحلوى، بعد أن يكون قد ركب الأمانة لصوته - تلك الصفارة التي يعلقها محرك الأراجوز في سقف حلقه، فتعطي للأراجوز صوته المميز من بين العرائس.

ترى هل جاء إطلاق اسم الأمانة على تلك الصفارة اعتباطا أم لمعنى مقصود، حيث أداء الأراجوز نفسه وقدرته على صوغ الحقائق بلا خوف وبمنتهى الأمانة، محتميا بمظلة السخرية.

ينصب عم سعفان مسرحه فيقف الأراجوز الخشب الفنان أمام فارس الحلاوة الراكب على الحصان، ومن بين كل هذا الزحام يختار قلب الأراجوز عروس الحلاوة الجميلة الأميرة، تلك التي تتوسط صفوف العرائس وتقف بينهن وكأنها أميرة، بينما تكون الأخريات بمثابة الوصيفات، يدق قلب الأراجوز لها، وبعد محاولات منه لكتم مشاعره لا يطيق إلا التصريح، فيتقدم لخطبتها، واعدا إياها أنه سيسعى لرضاها وسيحكي لها الحكايات والطرف والنكات يضحكها ويسليها. لكن الفارس راكب الحصان يعترض الأراجوز طالبا من العروس الأميرة الجميلة ألا تلتفت إلى طلب أراجوز غلبان، بل ترتبط به هو فارس الفرسان الذي سيسعدها ويحميها، وتقترح العروسة التي تحتار بينهما أن تقام مباراة بين الفرسان والأراجوزات الحلاوة، والمنتصر منهما في الصراع سيكون هو الأكثر شجاعة والمناسب لها وسيكسب قلبها وينعم بحبها.

وتنتظم مجموعة الاراجوزات بعصيها الغليظة وطراطيرها الحمراء، لمواجهة فرسان الحلاوة راكبي الأحصنة، حاملي السيوف، ببدلهم المزينة بالشرائط الحمراء أيضا.



وتماما كالأراجوز ذلك الواحد الذي هو في حقيقته اثنان، دمية خشبية وإنسان محرك، تصوغ الكاتبة الفنانة سميرة شفيق حول هذا العالم (عالم المولد) منظومة من الثنائيات التي تجتمع في كل واحد.

أولى هذه الثنائيات هي ثنائية الكتابة الفصيحة التي لا تخلو من روح العامية، لغة عربية سليمة تتمتع بخصوصية مصرية، قاموس بسيط لا يخلو من تفاصيل حميمة لواقع المجتمع المصري (كان العم سعفان يحمل مسرحه الخشبي الصغير، ومعه كل عرائسه، يلصق صفارته في سقف حلقه حتى يخرج صوت الأراجوز المميز الذي يحكي به حكاياته وينطلق في طريقه وسط الزحام بين عربات حب العزيز، والبطاطا، والفاكهة، والحلبسة «حمص الشام المغلي»).

ثم تأتي ثنائية الإنشاء الذي يخلو من روح الإنشاد، فالنص يكتسب روح الحكاية المروية اعتمادا على الحوار الدائم بين الشخصيات واعتبار السرد فرصة لوصف المشاهد من عين راوي محايد تماما كالراوي الشعبي عازف الربابة الذي يبدو وكأنه لا يتبنى وجهة نظر في القص، بل يعرض القصة كما هي معتنيا بتقديم تفاصيل الحدث ووصف المشاعر بدقة وحياد، تاركا للمتلقي حرية الانتماء لأي من فريقي الصراع. لكن نقله لمشاعر وأحاسيس الشخصيات يكون قويا وذكيا ودقيقًا في التعبير « هذا ما كان يشغل بال أراجوزنا الفنان، فلم يعد يضحك أو يتشاجر، أو حتى يداعب أمه الأراجوزة ويشد منديلها المشغول بالأوية، لم يعد يتكلم مع الشاويش أو حتى مع أبيه الأراجوز، وكلما سألته الأراجوزة: ماذا غير حالك يا بني؟! سكت وقال أنا تعبان».

إن محور الصراع في القصة بين الفنان والفارس الذي ينتهي إلى أن الفنان لا يخلو من شجاعة الفرسان، والفارس لا يخلو من رقة الفنان، ثنائية جديدة يجمعها مفهوم واحد هو مفهوم القيم.

وبنفس منطق الثنائيات التي تجتمع في كل واحد يشكل الفنان الكبير إيهاب شاكر دنيا القص، مازجا بين البساطة والعمق.

يبدأ من اختيار قطع الكتاب الذي هو أقرب من منطق مسرح الأراجوز، ثم اختيار منظور اللوحات الداخلية - فضلا عن لوحة الغلاف أيضا - وكأنها تطل علينا هي من خلال نافذة مسرح الأراجوز، أو نراها نحن عبر كاميرا ترى مسرح القصة، وليس بوصفها لوحات ثابتة تعبر عن نص.

كذلك يقدم الفنان ثنائية الشعبي العام التراثي (الأراجوز، عروس المولد، فارس الحلاوة) بشكل خاص معاصر.

ويقدم الخامة السهلة الميسرة (الألوان الخشب والباستيل) يشكل بها تفاصيل وأحاسيس غاية في التعقيد.

ثنائية أخرى ينجح إيهاب شاكر في دمجها في واحد إنها ثنائية السكون والحركة، حيث لا تخلو لوحة في هذا الكتاب القيم من حركة رغم يقين ثبوت اللوحة، بل حتى على مستوى تشكيل الشخصيات أيضا فإن ثبات ملامح عرائس مسرح الأراجوز - بعيونها المكحلة السوداء الواسعة وحواجبها المدهشة - لم يمنع أن تتمتع كل هذه الوجوه بخصوصية وتميز بما تشتمل عليه كل شخصية من انطباعات ومشاعر.

عالم ساحر وقصة جميلة وقيمة متميزة في مطبوعة يتوازى فيها الرقي الفني برقي المستوى الطباعي.

إن المستوى الطباعي المتميز الذي خرج فيه ذلك الكتاب يثبت أن الخدمة الطباعية ليست طرفا زائدا عن الحاجة، بل يؤكد أن من أكبر مهام كتاب الأطفال خلق حاسة التذوق الجميل عند الطفل والرغبة في كمال رقي الإنجاز. ■

أمل فرح

حكاية اراجوز
سميرة شفيق
رسوم: إيهاب شاكر
القاهرة: دار الشروق. ٢٠٠١

قراءات جديدة

** آثار **

الدمى الطينية

غادة القدومي

الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٢

تعرف مدينة إيكاروس القديمة في الكويت باسم ميلكا، وهي تضم مجموعة كبيرة من الآثار والأواني والأدوات التي كانت مستخدمة في تلك الفترة.

الكتاب يتناول تاريخ هذه المدينة وآثارها والشواهد التاريخية التي تضمها.

■■■

Angkor: Celestial Temples of the Khmer

(أنكور: المعابد السماوية للخمير)

Jon Ortnor, Eleanor Mannikka

Abeville Press, 2002, 288PP, $ 95.00

خلفت حضارة الخمير الذين ازدهرت امبراطوريتهم في جنوب شرق آسيا أحد أهم الكنوز الأثرية في العالم، وهي مجموعة المعابد التي بنيت في الفترة من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر الميلادي على امتداد مساحة تزيد على ١٢٠ مترًا مربعًا.

آثار هذه المعابد موزعة اليوم بين كل من أحراش كامبوديا وشرق تايلاند، وقد زارها جون أوتنر والتقط ما يزيد على ٢٥٠ صورة منشورة في هذا الكتاب الذي اشترك في كتابته فريق من الخبراء ليقدموا التحليل التاريخي والفني والديني لحضارة أنكور القديمة.

** أدب ونقد **

عصر الشك

ناتالي ساروت

ترجمة: فتحي العشري

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

عن التطورات التي لحقت بمفهوم الرواية والإضافات التي قدمها كل من ديستوفيسكي وكافكا وفرجينيا وولف وصمويل بيكيت وغيرهم، ولماذا استمرت هذه الأعمال دون غيرها وبقيت خالدة حتى اليوم.

■■■

موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث

نصوص مختارة ودراسات

السعودية: دار المفردات، ٢٠٠٢

عشرة مجلدات تقوم على تقسيم الأعمال الأدبية في السعودية في المائة عام الأخيرة إلى أربع مراحل: مرحلة البدايات ١٩٠٢-١٩٢٣، ومرحلة التأسيس ١٩٢٤-١٩٥٣، ثم مرحلة التجديد ١٩٥٤-١٩٧٠ وأخيرًا مرحلة التحديث ١٩٧١-١٩٩٨.

■■■

لمحات من الأدب المجري

ترجمة: ثائر صالح

دمشق: دار المدى، ٢٠٠٢

يسعى الكتاب إلى تعريف قراء العربية ببعض ملامح الأدب المجري باختياره نصوصًا لمجموعة من أهم الكتّاب المجريين خلال القرنين الأخيرين، خصوصًا أن الأدب المجري ليس معروفًا على نطاق واسع في المنطقة العربية.

** اقتصاد **

Imagine There's No Country: Poverty, Inequality, and Growth in the Era of Globalization

(الفقر وعدم المساواة والنمو في زمن العولمة)

Surjit S.Bhalla

Institute for International Economics, 2002, 248PP, $ 28.00

يتحدى هذا الكتاب المقولات السائدة بأن العالم في السنوات الأخيرة أصبح يواجه ارتفاعًا في معدلات الفقر وعدم المساواة الاقتصادية وأن ذلك سببه انخراط كثير من الأمم في الاقتصاد العالمي.

فعلى العكس تمامًا، يبرهن هذا الكتاب على أن الفقر يتناقص من العالم عقدًا بعد عقد، من ٥٦٪ من شعوب الدول النامية في عام ١٩٥٠ إلى ٩٪ عام ٢٠٠٠، وكذلك بالنسبة لمعدلات عدم المساواة. هذه النتائج الصادمة تدافع عنها الدراسة بمناقشة تفصيلية حول التقنيات الخاصة بالمصادر والبيانات وأساليب التحليل.

■■■

No Collar: The Human Workplace and its Hidden Costs

(بلا ياقات: أماكن العمل الإنسانية وثمنها الكامن)

Andrew Ross

Basic Books, 2003, 304PP, $ 27.00

جاءت مع موجة الاقتصاد الجديد القائم على تكنولوجيا الإنترنت والإبداعات الحديثة المرتبطة به، حركة «اللا ياقات»، والتي تضمنت قيم الانفتاحية والتعاون والإدارة الذاتية وتقدير الإبداعات الفردية بدلاً من قمعها. ولكن بعد الخسائر المفاجئة التي تعرضت لها هذه الشركات عادت الأولوية للإدارة وليس للعمل الفني والإبداعي، وتم الاستغناء عن مبدعين كثيرين. يهتم هذا الكتاب بالتجارب الحقيقية لقطاع عريض من هؤلاء الشباب الذين تحمسوا لأعمالهم لدرجة العمل تسعين ساعة أسبوعيًا، والحياة بالكامل داخل أماكن العمل، ثم الصدمات التي عانوها بعد الاستغناء عنهم بسبب هبوط أسهم شبكات الإنترنت في الآونة الأخيرة.

■■■

Globalizing Intellectual Property: The Trips Agreement

(عولمة الملكية الفكرية: اتفاقية تريبس)

Duncan Mathews

Routledge, 2002, 202PP, $ 80.00

تعد قضية حقوق الملكية الفكرية، وما تتضمنه من براءات الاختراع والعلامات التجارية وحقوق النشر، إحدى أهم القضايا الخلافية على أجندة الاقتصاد الدولي في الوقت الراهن. هذا الكتاب يتناول اتفاقية تريبس التي افرزتها دورة أوروجواي عام ١٩٩٤ والمعنية بالجوانب التجارية للملكية الفكرية، فيقوم بمناقشة جذور هذه الاتفاقية ومضمونها ومعناها، والجوانب الخلافية والغامضة فيها، بالإضافة إلى عيوب الاتفاقية خاصة فيما يتعلق بآليات تطبيقها العملي.

** تاريخ **

الحضارة العربية الإسلامية

وحيد كاظم - عواطف محمد شنقارو

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

لم تكن الحضارة الإسلامية روحانية فقط كما يشيع خصومها، بل هي حضارة عمران وتعليم وبناء، وعطاؤها الفكري لم يتوقف عند الجوانب المعيشية فحسب، وإنما شمل البنى السياسية والأنظمة الاقتصادية والإدارية، إذ كان هدفها بناء الإنسان كاملاً متكاملاً في شقيه المادي والروحي، وهو ما يؤكده المؤلفان بدراساتهما عن عطاء هذه الحضارة ومنجزها.

■■■

العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة

أحمد زكريا الشلق

القاهرة: دار مصر العربية للنشر، ٢٠٠٢

أربعة قرون حكمت فيها الدولة العثمانية المنطقة العربية أو يزيد، منذ القرن السادس عشر وحتى بدايات القرن العشرين، كيف أثر الحكم العثماني طيلة هذه القرون على المنطقة، كيف أثر عليها سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وفكريًا، وكيف كانت علاقة العرب بالغرب في هذه الفترة، وكيف كان مصير حركات الإصلاح الاجتماعي والسياسي والديني التي ناهضت الدولة العثمانية.

■■■

رجال ريا وسكينة

صلاح عيسى

القاهرة: دار الأحمدي، ٢٠٠٢

تحليل سياسي واجتماعي للقضية رقم ٢٣ لسنة ١٩٢٠ قسم شرطة اللبان بالإسكندرية وهي القضية الأشهر بين قضايا الجريمة في مصر والمعروفة باسم قضية ريا وسكينة، وهما المرأتان اللتان نظر إليهما بوصفهما قاتلتين، لكن المؤلف يقترب أكثر من الظروف التي أحاطت بحياتهما وأودت بهما إلى هذا المصير.

■■■

Paris 1919: Six Months that Changed the World

(باريس ١٩١٩: الشهور الستة التي غيّرت العالم)

Margaret MacMillan

Random House, 2002, 570PP, $ 35

اجتمع قادة كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة في باريس في الفترة من يناير إلى يونيو من عام ١٩١٩ لكي يقرروا نتائج الحرب الكبرى التي فازوا فيها على دول المحور، وهي سلسلة الاجتماعات والمحادثات التي افرزت صلح فرساي الشهير.

يبين هذا الكتاب الظروف التي أحاطت بهذه المحادثات والأدوار المختلفة التي لعبها الساسة الذين شاركوا فيها. وتبرهن المؤلفة على أن معظم مناطق الصراع الساخنة في عالم اليوم، إنما تعود جذورها إلى ما تم تخطيطه في هذه الشهور الحاسمة، التي شهدت انهيار أربع امبراطوريات كبرى وإنشاء العديد من الكيانات السياسية المفتعلة.

** تكنولوجيا **

علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية

فريال مهنا

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

يرصد الكتاب التحولات العميقة التي طرأت على شروط الوجود الإنساني وعلى طرائق إنتاج الفكر والمعرفة الإنسانية والتي سببتها الثورة المعلوماتية وتقنياتها وعلوم الاتصال التي زادت استخداماتها بوتيرة متسارعة.

■■■

Build your Own PC

(اصنع كمبيوتر شخصي لنفسك!)

Morris Rosenthal

Mc Graw Hill Co, 2002, 214PP, $ 24.99

دليل عملي يشرح كيفية تجميع أجزاء الكمبيوتر المختلفة وتركيبها وتشغيلها. الكتاب يحتوى على ١٥٠ صورة توضيحية مصاحبة للخطوات المشروحة.

■■■

Digital Photography Click - by- Click: The Step- by- step Guide to Creating Perfect Digital Photographs

(الفوتوغرافيا الرقمية خطوة بخطوة: المرشد لصناعة صور فوتوغرافية مثالية)

Jerry Glenwright

Friedman, Michael, 2003, 304PP, $ 27.00

أحدثت ثورة التكنولوجيا الرقمية ثورة مماثلة في عالم التصوير، حيث انتشرت الكاميرات الرقمية التي تسمح بمعالجة وحفظ الصور وتداولها على الكمبيوتر الشخصي. هذا الدليل يقدم الخطوات العملية للشخص المبتدئ من أول اختياره لنوع الكاميرا التي تناسب نظام التشغيل الخاص بجهازه، إلى كيفية معالجة الصورة وإجراء التحسينات عليها وعلى ألوانها بعد التقاطها باستخدام البرامج الحديثة المتوفرة للكمبيوتر.

** ثقافة شعبية **

الخبز في المأثورات الشعبية

سميح عبدالغفار شعلان

القاهرة: دار عين، ٢٠٠٢

رصد علمي من خلال الأطالس الفلكلورية للعلاقة الحميمة بين المصريين

قــــــراءات جــــــديـدة

والخبز والتي جعلت الخبز مرادفًا للعيش عندهم، والتحولات الاقتصادية والاجتماعية التي أثرت على هذه العلاقة، كما يرصد المؤلف خطوات «الخبز» في الريف المصري، وما يرتبط به من طقوس وتقاليد.

■■■

Nelson Mandela's Favorite Folktales
(الحكايات الشعبية الأفريقية المفضلة عند نلسون مانديلا)

Nelson Mandela
Norton w.w.&Co., 2002, 144PP, $ 24.95

يقدم الزعيم الأفريقي المناضل نلسون مانديلا ٣٢ حكاية شعبية من اختياره تحتوي على أقدم المأثورات الأفريقية والتي يأتي معظمها من جنوب أفريقيا وأجزاء أخرى من القارة. الكتاب صالح للأطفال والكبار على السواء.

■■■

Irish Fairy and Folk Tales
(حكايات شعبية وخيالية من أيرلنده)

William Butler Yeats (editor)
Friedman, Michael PG, 2002, 416PP, $ 16.95

تم تجميع هذه المجموعة من الحكايات والحواديت والأغاني أول مرة عام ١٨٩٢ على يد الشاعر ويليام ييتس الحاصل على جائزة نوبل، والذي كان مسحورًا بالخرافات الشعبية الأيرلندية. وقد كان ييتس أحد الشعراء والكتّاب الذين شاركوا في الحركة الأدبية المسماة بـ«البعث الأدبي الأيرلندي». تمتلئ هذه الحكايات بالأشباح والشياطين والأقزام والجنيات والعمالقة والسحرة والملوك في دوائر متداخلة من الحب والألم والموت..

** دوريـــات **

آفاق بيئية

مشرف على التحرير هويدا مصطفى
القاهرة: معهد الأهرام الإقليمي للصحافة، ٢٠٠٢

في هذا العدد من هذه الدورية التي تعني بالشئون البيئية، موضوعات عن أنواع الملابس والسيارات ذات التأثير الضار على البيئة، وحوار حول مواصفات الغذاء الجيد العالمية، وتقرير عن نتائج قمة الأرض، وكذلك عن السحابة السوداء التي يتكرر ظهورها في سماء مصر منذ سنوات، دون أن يجزم أحد بأسبابها.

■■■

المحيط الثقافي

رئيس التحرير: فتحي عبد الفتاح
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

ملف العدد عن الاستشراق والاستغراب ويشارك فيه عاطف العراقي وأحمد مرسي ورمضان بسطاويسي وعبد المنعم تليمة وأنور مغيث وملكة يوسف وهاني نسيرة، كما يتضمن العدد حوارًا مع المفكر والناقد السوري جورج طرابيشي، وتغطية لندوة الإبداع عند المرأة التي عقدت أخيرًا بالقاهرة، ومقالاً عن التشكيلي الرائد الذي رحل مؤخرًا حسين بيكار، وموضوعات أخرى عديدة.

■■■

فصول

رئيس التحرير: هدى وصفي
القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٢

يتناول هذا العدد إشكالية التفاعل بين الثقافة الشعبية والحداثة، وتأثير الحداثة على المشهد الثقافي العام في ملف كامل، إضافة إلى الأبواب الثابتة من دراسات أدبية ونقدية وترجمات.

** ديـــن **

الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، أمريكا اللاتينية - جنوب أفريقيا - فلسطين

الأب مايكل برير
ترجمة: أحمد الجمل وزياد متي
دمشق: قدمس، ٢٠٠٢، ٤٠٠ص، ٤٠٠ ليرة سورية.

يتعامل هذا الكتاب، الذي لايزال يثير زوبعة علمية لا تهدأ، مع موضوع تجاهله الباحثون الغربيون، هو توظيف الدول الاستعمارية الغربية للكتاب المقدس عمومًا، وسفرى الخروج ويشوع بخاصة، لتسويغ الاستيلاء على بلاد «الكفار» ونهب ثرواتها واستعباد سكانها، موظفًا أمثلة أمريكا اللاتينية وجنوبي أفريقيا، مع تركيز خاص على فلسطين «أرض الميعاد».

■■■

اللآلئ الحسان في علوم القرآن

موسى شاهين لاشين
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

تناول الكتاب علوم القرآن الكريم ومعارفه وأسراره، ويشتمل على مباحث تتعلق بالقرآن، بعضها مرتبط بالعلوم الدينية وبعضها الآخر مرتبط بعلوم اللغة العربية.. فهو يدرس جمع القرآن وكتابته والقراءات وأنواعها وأسباب نزول الآيات والمحكم والمتشابه في القرآن والنسخ والقصص القرآني وغيرها من الموضوعات.

■■■

An Interpretation of the Qura'n: English Translation of the Meanings
(ترجمة إنجليزية لمعاني القرآن)

Trans. by: Masjid Fakhry
NYU, 2002, 648PP, $ 25.95

طبعة ثنائية اللغة للقرآن الكريم، تحتوي على النصوص القرآنية العربية إلى جانب ترجمة لمعنى الآيات بالإنجليزية. المترجم هو الدكتور مسجد فخري، أستاذ الفلسفة بالجامعة الأمريكية ببيروت، وهو يهدف كما يقول في المقدمة إلى التعبير عن معنى الآيات القرآنية بلغة إنجليزية بسيطة وواضحة. تضم مقدمة المترجم أيضًا شرحًا للفرق بين السور المكية والسور المدنية، وتاريخ نزول وحفظ ونسخ القرآن، بالإضافة إلى ملاحظات عن مكانة «أهل الكتاب» في القرآن.

** رحـــلات **

رحلات إلى الشرق والغرب

صلاح منتصر
القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢

يطوّف بنا المؤلف في عديد من مدن العالم التي زارها من كوريا شرقًا وحتى سان فرانسيسكو غربًا، مرورًا بالهند وماليزيا وبكين وقبرص وتركيا، متناولاً أهم العادات والتقاليد لشعوب هذه البلدان، فضلاً عن الأزمات السياسية التي عصفت بها وأحدثت تحولات في أنظمتها السياسية والاقتصادية.

** روايات وقصص **

الجميلات

محمد عبد السلام العمري
القاهرة: دار عمرو للنشر، ٢٠٠٢

رواية خيالية محورها المرأة وكل ما يتعلق بها، تدور أحداثها في مدينة متخيلة، مدينة للمطلقات والأرامل، تحتوي على عشرات النماذج لكل منها همومه وأحلامه.

■■■

خلوة الغلبان

إبراهيم أصلان
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣

نصوص جديدة لصاحب «مالك الحزين» و«وردية ليل» و«عصافير النيل»، عن الحياة ومنها، يحضر فيها المؤلف بشخصه، فهو طرف مشارك أو مراقب للوقائع كلها، ولذا فهو يظهر جليًا دون حيل فنية من أي نوع، وبرغم هذا الطابع للنصوص، فهي ليست تقارير صحفية أو يوميات سريعة، لكنها نثر بديع يحاكي الشعر في اختزاليته وعمقه ورهافته، ويكشف عن جانب «الحكّاء» اللاقط لأدق التفاصيل في شخصية المؤلف.

■■■

سهرة تنكرية للموتى

غادة السمان
بيروت: منشورات غادة السمان، ٢٠٠٢

شخصيات الرواية تعاني الاغتراب الداخلي في أوطانها، تتشابك الأحداث والشخوص، لكن اللوحة في مجملها ترسم صورة للواقع العربي المفكك من المحيط إلى الخليج، لكن بالأخص في لبنان الذي تهاجر منه شخصيات الرواية وتعيش في باريس حاملة همومها وطموحاتها في آن، المعالجة تحتفي بالغرائبية والحلم كعادة المؤلفة في نثرها.

■■■

فردوس

محمد البساطي
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

رواية شائكة عن امرأة مشتهاة من ابن زوجها الذي يطاردها كالفريسة وتفر منه حاملة معها رغباتها المكبوتة، وفقدانها مشاعر الأنثى التي تنتهك مع زوج عاجز يكبرها كثيرًا، وعبر هذه المطاردة التي تخفي رغبة مستحيلة تتبدى حياة الريف بما فيه من فقر وعوز وحرمان، وهو العالم الأثير للبساطي في كل رواياته تقريبًا.

■■■

صوت من العالم الآخر

نجيب محفوظ
القاهرة: قسم النشر بالجامعة الأمريكية، ٢٠٠٢

مجموعة قصصية كتبها نجيب محفوظ في ثلاثينيات القرن الماضي، صوّر فيها الحياة الفرعونية: تتضمن مجموعته «همس الجنون» ثم قصة «صوت من العالم الآخر» و«يقظة المومياء» إضافة إلى قصص أخرى نشرها الأديب الكبير لكنها لم تجمع بعد في كتاب مثل «عودة سنوح» و«الشر المعبود» و«عفو الملك كاف».

■■■

The Lovely Bones: A Novel
(العظام الجميلة: رواية)

Alice Sebold
Little Brown & Co, 2002, $ 21.95

الرواية الأمريكية التي أجمع معظم النقاد على أنها أفضل رواية لعام ٢٠٠٢، بالإضافة إلى النجاح الجماهيري الذي حققته باحتلالها المركز الأول في قائمة الروايات الأفضل مبيعًا.

تدور الرواية على لسان بطلتها سوزي سالمون التي اغتصبت وقتلت وهي في الرابعة عشرة من عمرها، وهي تحكي ما حدث لها من موقعها في الجنة المؤقتة التي تمكنها من متابعة ما يحدث لأسرتها وسكان حيّها، والمجرم المخادع الذي يحاولون اكتشافه. وجنة سوزي المؤقتة تظل مؤقتة حتى تتنازل عن اهتمامها بما يجري على الأرض وبعدها تنتقل للجنة الأبدية التي لا تعرف شكلها. ومن خلال ما تشاهده سوزي نتعرف على الأزمات النفسية التي تواجه كل فرد من أفراد أسرتها نتيجة للحادث الذي أودى بحياتها، بالإضافة إلى أفكارها عن الحياة والموت والسعادة الأبدية.

** رياضـــة **

الرياضة والمجتمع

أمين الخولي
القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٢

عن أهمية الرياضة في حياتنا، وفاعليتها في تنمية المجتمع وتهذيب سلوك أبنائه، كذلك تأثيرها الفاعل في تحقيق التناسق والتناغم بين النواحي النفسية والعقلية لدى الأفراد، بما يعني أن تحقيق البطولات ليس هو الهدف الوحيد من الرياضة، وإنما ثمة أسباب أخرى يشير المؤلف إليها.

■■■

Judo Techniques and Tactics
(تقنيات وتكتيكات الجودو)

Didier Janicot, Gilbert Pouillart
Sterlin Pub Co, 2002, 104PP, $ 12.95

قـــــراءات جــــــديـــدة

مرشد عملي للرياضيين المبتدئين في رياضة الجودو، يحتوي على شرح لأهم الخطوات والحركات أثناء الاشتباك والحيل الدفاعية المختلفة.. يهتم الكتاب أيضًا بتقديم الجودو باعتباره رياضة وفنًا وأسلوبًا في الحياة يؤثر في كل من العقل والبدن

■■■

Swimming Fastest

(السباحة أسرع!)

Ernest Maglischo

Human Kinetics Pub, 2003, 6884PP, $ 44.95

طبعة محدثة ومراجعة من الكتاب الذي يعتبره المدربون والسباحون من أفضل الكتب على الإطلاق في مجال السباحة التنافسية. المؤلف يكشف عن الحقائق العلمية الصغيرة خلف أساليب التدريب التي تحقق أعلى السرعات، خاصة وهو قد عمل مدربًا للسباحة في الولايات المتحدة لمدة ٣٨ سنة وفاز بـ١٣ بطولة محلية و١٩ بطولة دولية، وعدد من الجوائز الرفيعة في هذا المجال إلى جانب شهادة دكتوراة في فسيولوجيا التمرين. الكتاب يتضمن أكثر من خمسمائة صورة وعدد كبير من البرامج التدريبية التفصيلية.

"سياسة"

الإرهاب الصهيوني والسلام العربي بين الشهادة والإبادة

رنا أبوظهر الرفاعي - محمد قبيس

بيروت: دار الرحاب، ٢٠٠٢

يومًا بعد يوم تتصاعد حدة المواجهات الفلسطينية الإسرائيلية حتى تحولت إلى حرب منظمة تقودها قوات الاحتلال الصهيوني مخلفة وراءها مئات القتلى وآلاف الجرحى في صفوف الفلسطينيين، وبسبب الموقف الدولي المتواطئ، والموقف العربي المتخاذل، فإن الشعب الفلسطيني يواجه منفردًا آلة الحرب العسكرية الإسرائيلية بشجاعة وبسالة نادرة، خصوصًا أن العرب رفعوا شعار السلام هو خيارنا الاستراتيجي، معطلين بذلك أية خيارات أخرى، فهل من مَخْرَج؟

■■■

عرب وسط آسيا في أفغانستان

توماس بارفيلد

الرياض: مركز الملك فيصل، ٢٠٠٢

تحليل تاريخي ونفسي لعرب وسط آسيا الذين يقطنون الشمال الشرقي لأفغانستان، كيف كانوا في الماضي وما حقيقة وضعهم الآن وتأثير الأحداث الراهنة عليهم سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا.

■■■

من ميشال عفلق إلى ميشال عون. تجارب في علاقة مستحيلة

فايز قزي

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٢

من خلال ثلاثة أقسام (مواسم الهجرة والتبدل) و(مواسم البحث والعبث) و(المستحيلات إلى متى) يرصد الباحث التحولات السياسية في لبنان من القومية العربية التي مثلها ميشال عفلق إلى الشوفينية المغرقة التي مثلها ميشال عون.

■■■

مواقف وتحديات في العالم العربي

عصمت عبدالمجيد

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

لفترة عشر سنوات واجه الدكتور عصمت عبدالمجيد عديدًا من المشكلات والتحديات بوصفه أمينًا عامًا لجامعة الدول العربية، واتخذت الجامعة قرارات كان لبعضها تأثير إيجابي ولبعضها الآخر تأثير سلبي، منها الموقف من أزمة الخليج العربية الثانية وأزمة لوكيربي وأزمة لبنان وأزمة احتلال إيران للجزر الإماراتية الثلاث.

المؤلف يحكي من واقع منصبه وخبرته السياسية الطويلة عن هذه الأحداث وتلك القرارات الصعبة.

■■■

Passion for Islam: Shaping the Modern Middle East: The Egyptian Experience

(العاطفة الإسلامية وتشكيل الشرق الأوسط الحديث، الخبرة المصرية)

Cary Caryl Murphy

Scribner, 2002, 359PP, $ 27.00

يضع الكتاب مصر في قلب الصحوة الإسلامية التي تنتشر في منطقة الشرق الأوسط والتي ترى المؤلفة أنها ستكون من أهم العوامل التي ستعيد تشكيل الشرق الأوسط من جديد. وقد عملت المؤلفة كاريل مورفي رئيسة لمكتب صحيفة الواشنطن بوست بالقاهرة لعدة سنوات، شهدت خلالها العديد من الأحداث وتعرفت على شخصيات مصرية كثيرة تذكرها في كتابها. تنظر كاريل مورفي إلى الصحوة الإسلامية في مصر باعتبارها ظاهرة تنقسم إلى أربعة مستويات، المستوى الأول هو مستوى التقوى الإسلامية التي تضم القاعدة العريضة من المصريين الذين يلتمسون في الدين عزاءً روحيًا وشخصيًا، أما المستوى الثاني فهو الإسلام السياسي الذي يستخدم الطرق السلمية إلى جانب العنف أحيانًا لمحاولة الإفلات من الحكم التسلطي، ثم مستوى الإسلام الثقافي الذي يجسد محاولة مقاومة الغزو الثقافي الغربي وتثبيت الهوية المستقلة، وأخيرًا مستوى الإسلام الفكري الذي يكشف عن محاولة المثقفين الإسلاميين إعادة النظر في تراثهم التشريعي بهدف إيجاد صيغة حديثة للإسلام المعاصر.

■■■

Made in Texas: George W.Bush and the Southern Takeover of American Politics

(صنع في تكساس: جورج بوش والاكتساح الجنوبي للسياسة الأمريكية)

Michael Lind

Basic Books, 2003, 201PP, $ 29

يفسر بعض المحللين توجهات بوش السياسية بالتركيز أحيانًا على انتماءاته الحزبية أو الدينية أو المالية، أما هذا المؤلف الذي له عدة كتب في التاريخ الأمريكي فيقوم بتفسير سياسات بوش بالعودة إلى ولاية تكساس التي ينتمي إليها، والتي لها تاريخ خاص وثقافة طبقية فريدة مما يجعلها مصدرًا مهمًا لفهم بواعث العنف واليمينية المتعجرفة لدى بوش.

"شعر"

الأعمال الكاملة للشاعر حسين عفيفي

عبدالعزيز موافي

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

يعد حسين عفيفي (١٩٢٠ - ١٩٧٩) أحد أبرز شعراء الحركة الرومانسية، وأول من كتب الشعر المنثور، وفي أعماله الكاملة تلك يقدم المؤلف تحليلاً نقديًا لشعره وما يميزه عن نظرائه من شعراء الرومانسية، وتجربته في الشعر الحديث.

■■■

البحث عن دمشق

شوقي بغدادي

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٢

يستعيد الشاعر في ديوانه العلاقة مع المكان الذي كلما غاب في الواقع، كلما كان حضوره طاغيًا في الشعر، والمكان يحضر لا عبر حارات أو قاعات ونواصي وأسماء شوارع فحسب، وإنما عبر أشخاص باعينهم يأتلفون مع المكان ويرتبطون في مخيلة الشاعر بالمكان ذاته.

■■■

الإشراقات.. رامبو، دراسة أدبية

سوزان برنار

ترجمة: ليس خضور

دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٢

مازال رامبو رغم مرور عقود على وفاته مثيرًا للجدل ومادة خصبة للدارسين في حقل النقد الأدبي ودراسات الشعر على وجه الخصوص، والجدل لا يتوقف عند شعر رامبو، إنما يتجاوزه إلى شخصية الشاعر الذي جمع متنافرات مدهشة، فهو عند البعض جاسوس، وعند آخرين «مثلي قذر» ولدى طرف ثالث صوفي حالم، لكن الجميع لا يتفق على شيء قدر شاعريته.

■■■

شعر السبعينيات في إسبانيا

حامد أبو أحمد

القاهرة: آفاق عالمية، ٢٠٠٢

دراسة عن الشعر الإسباني في حقبة السبعينيات واتجاهاته وأهم شعرائه من أمثال بوستافو أدولفوبيكر والشاعرة روساليا دي كاسترو وآخرين.

"علوم"

طبيعة العلم غير الطبيعية

لويس وولبرت

ترجمة: سمير حنا صادق

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

يتناول المؤلف الخلط الشائع بين العلم والمعرفة، والعلم والعقلانية، والعلم والبديهيات، ويوضح أن للعلم منهجًا خاصًا في التعامل مع الظواهر المحيطة بما يساعد على تفهمها.

يعالج الكتاب أيضًا الخلط بين العلم والتكنولوجيا، كما يرسم خريطة لتاريخ العلم ويناقش الأخطاء الشائعة عن نسبويته، تسعة فصول تتناول هذه القضايا جميعها، بينما فصل يخصصه للأخلاقيات والعلم.

■■■

Lost Discoveries: The Ancient Roots of Modern Science- From the Babylonians to the Maya

(اكتشافات ضائعة: الجذور القديمة للعلم الحديث من البابليين إلى المايا)

Dick Teresi

Simon & Schuster, 2002, 453PP, $ 27

جمع المؤلف رصيدًا ضخمًا من المعلومات عن الاكتشافات العلمية التي توصل إليها أصحاب الحضارات غير الغربية من قبل أن يعرفها الغرب بقرون وأحيانًا بآلاف السنين. يضم الكتاب أمثلة عديدة من الحضارة المصرية القديمة والحضارة الصينية والهندية والعراقية والأفريقية وحضارات المايا والأزتيك في أمريكا الوسطى، متحديًا التاريخ النمطي للعلم الحديث الذي يتم تداوله في الغرب والذي يبدأ دائمًا من اليونان ويتجاهل على سبيل المثال أن البابليين طوروا نظرية فيثاغورس قبل أن يولد بما لا يقل عن ألف وخمسمائة سنة!

"عمارة"

Islamic Art and Architecture: From Isfahan to the TaJ Mahal

(العمارة والفن الإسلامي من أصفهان إلى تاج محل)

Henri Stierlin

Thames & Hudson, 2002, 320PP, $ 50.00

يركز الكتاب على «الطراز الفارسي» في الفن المعماري الإسلامي، وهو الذي يمتاز بالزخارف المزهرة والقباب الفيروزية والمنارات الرفيعة، وغيرها من السمات الخاصة التي تجعل منه طرازًا فريدًا، وقد ساد الطراز الفارسي في العمارة في الفترة من القرن العاشر إلى القرن الثامن عشر وامتد تأثيره خلالها خارج إيران إلى الهند وأوزبكستان.

يستعرض الكتاب المساجد والقصور والحدائق التي تنتمي إلى هذا الفن والموجودة في مدن عديدة مثل أصفهان وبخارى وسمرقند ولاهور ودلهي، وهو يحتوي على ما يزيد على خمسمائة صورة ملونة مصاحبة للنص الذي يعمد كذلك إلى مناقشة المفاهيم الصوفية والرمزية خلف التصميمات التي يحللها.

■■■

Warped Space: Art, Architecture, and Anxiety in Modern Culture

(المساحة الملتوية: الفن والعمارة والقلق في الثقافة الحديثة)

قـــراءات جـــديـــدة

Anthony Vidler
MIT Press, 2002, 300PP, $ 19.95

طبعة جديدة من كتاب أنتوني فيدلر الذي يفسر الأثر السيكولوجي أو النفسي للعمارة الحديثة على الإنسان، سواء تجلى ذلك في الخوف المرضي من الأماكن المرتفعة أو الأماكن المغلقة، وغيرها من الآثار العقلية المزعجة لعمارة المدينة. وإلى جانب هذه الأمراض التي عرفت في القرن التاسع عشر، عرف القرن العشرون حالات أخرى من الاغتراب المكاني والشعور بالتشرد وعدم الانتماء، وهي تعود أيضًا حسب ما يبين المؤلف إلى سمات العمارة الحديثة التي تسود المدن الكبيرة.

■■■

The Perfect House: A Journey with the Renaissance Master Andrea Palladio

(المنزل المثالي: رحلة مع آندريا بالاديو، سيد عصر النهضة)

Witold Rybczyhski
Scribner, 2002, 266PP, £ 16.99

يعد المعماري البندقي أندريا بالاديو الذي عاش في القرن السادس عشر صاحب أكبر أثر على الفن المعماري في الغرب. فهو صاحب الفضل في ترجمة المعمار الكلاسيكي الذي نشأ في الحضارات القديمة إلى أشكال وطرازات حديثة مازالت تحمل اسمه، كما أنه مؤلف «الكتب الأربعة للعمارة».

قام المؤلف هنا بسلسلة من الرحلات لمشاهدة المنازل والقصور التي قام بالاديو بتصميمها وبنائها بنفسه، تلك التي اتخذها الإنجليز في القرن الثامن عشر نموذجًا «للمنزل المثالي». فهو معمار الثراء والقوة، فعلى سبيل المثال يعد البيت الأبيض في العاصمة الأمريكية مصممًا على الطراز «البالادي».

فكـــر

الطريق إلى نهضة مصر جـ ١
محمد حسن رسمي
القاهرة: دار البيان، ٢٠٠٢

كيف يمكن لمصر أن تعبر عنق الزجاجة على المستوى الاقتصادي وتحقق معدلات تنمية تليق بقدراتها البشرية والطبيعية، وكيف يمكنها أن تواجه التحديات على المستوى السياسي والاجتماعي وتعبرها إلى آفاق أرحب، في ظل شروط العولمة المهيمنة على العالم كله. هذه بعض أسئلة يتصدى المؤلف للإجابة عنها.

■■■

العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة.
مجلدان
عبد الوهاب المسيري
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

في مجلدين كاملين يشرح المؤلف معنى العلمانية الجزئية التي تكفلت بفصل الدين عن الدولة، لكنها تلتزم الصمت فيما يتصل بالقضايا النهائية ذات الصلة بالغايات النهائية من الحياة والوجود، وتعوّل أكثر على علاقات العلة والمعلول، ولا تأبه بالمرجعيات القيمة والأخلاقية المستمدة من الدين أساسًا والتي تنظم السلوك الإنساني. وأما العلمانية الشاملة فهي تفصل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية عن الحياة في جانبيها الخاص والعام، وتنزع القداسة عن الإنسان والطبيعة، بحيث يتحول العالم بأسره إلى مادة يوظفها الأقوى ويغيب عنه الإحساس بالغائية أو نبل الهدف، فباستثناء إرضاء الذات وإشباع الرغبات، لا شيء بعد في الحياة.

المؤلف يحاول باستخدام منهج تحليلي يتسم بمقدرة تفسيرية عالية، التمييز بين نوعي العلمانية مستعينًا بالفلسفة والتاريخ والاجتماع وعلم النفس وغيرها من العلوم التي تفسر الظاهرة في بعديها النظري والتطبيقي.

لغـــة

أساسيات اللغة
ر.ل. تراسك
ترجمة: رانيا إبراهيم يوسف
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

تلقي المؤلفة ضوءًا حول النواة الأساسية للغة والمراحل المختلفة لتعلمها، ولماذا تختلف اللغة بين الرجال والنساء، وما تأثير المخ والجهاز العصبي في تعلم اللغة في المراحل السنية المختلفة منذ الطفولة وحتى الكبر.

مذكرات وسير

In Search of Fatima: A Palestinian Story

(بحثًا عن فاطمة: قصة فلسطينية)

Ghada Karmi
Verso, 2002, 451PP, $ 26

مذكرات غادة الكرمي بدءًا من خروجها القسري مع أسرتها من فلسطين عام ١٩٤٨ وهي مازالت في التاسعة من عمرها مرورًا بحياتهم اللاحقة في لندن، في قلب «جولدرز جرين» هذا الحي اليهودي الشهير في العاصمة البريطانية. تنقل مذكرات غادة كرمي كيف انعكس المنفى على حياة كل فرد من أفراد أسرتها، إذ عمل والدها في محطة الـ«بي.بي.سي» في محاولة لمد الجسور بينه وبين الوطن، كما نقلت والدتها كل العادات الفلسطينية إلى بيتها بلندن قدر استطاعتها، أما غادة فبالرغم من زواجها بإنجليزي إلا أن أزمة السويس وما تبعها من حرب ١٩٦٧ أرغماها على إعادة تقييم هويتها الفلسطينية، وأصبحت منذ السبعينيات من أبرز النشطاء السياسيين المدافعين عن القضية الفلسطينية في الغرب.

■■■

Thomas Mann: Life as a Work of Art: A Biography

(توماس مان: الحياة كعمل فني: سيرة حياة)

by Hermann Kurzke
Translated by: Leslie Willson
Allen Lane, 2002, 581PP, £ 30

عندما توفي الكاتب الألماني المعادي للنازية توماس مان عام ١٩٥٥ عن عمر يناهز الثمانين عامًا، كانت مذكراته الشخصية مازالت محظورة ولم يتم رفع هذا الحظر إلا في منتصف السبعينيات، وقد تم الانتهاء من تحقيق الجزء العاشر والأخير من مذكراته في عام ١٩٩٥.

وقد اختلفت صورة توماس مان قبل الحرب عن صورته بعد الحرب في مناح كثيرة، وفي هذه السيرة التي كتبها أستاذ الأدب في جامعة ماينز الألمانية نظرية عن رغبات توماس مان المثلية التي تطورت في سنواته الأخيرة، والتي يرى المؤلف أنها تتضح في كل من مذكراته ورواياته الأخيرة. الكتاب يعتبر من أكثر الكتب مبيعًا في ألمانيا الآن.

■■■

Victoria College

(مدرسة فيكتوريا)

Sahar Hammouda
AUC, 2002

من هذه المدرسة العريقة بالإسكندرية تخرجت نخبة متميزة من السياسيين والكتاب والفنانين منهم العاهل الأردني السابق الملك حسين والفنان المصري العالمي عمر الشريف والمخرج الكبير يوسف شاهين وغيرهم، وفي مناسبة احتفال المدرسة بمئويتها، يأتي هذا الكتاب الذي يتناول طريقة التدريس في هذه المسألة والفن المعماري الذي يميزها.

مســرح

أنتولوجيا المسرح الفرنسي الحديث
ماري إلياس
دمشق: دار المدى، ٢٠٠٢

يتضمن هذا الكتاب أهم نصوص المسرح الفرنسي خلال العقود الأخيرة، وهي تقدم لها بتحليل ومقدمة نقدية تعرّف بالتيارات السائدة في هذا المسرح، وأهم رموزه وقضاياه، وهي تعرض لستة مسرحيين معاصرين يمثلون من وجهة نظرها المسرح الفرنسي الحديث.

■■■

فجر المسرح
إدوار الخراط
القاهرة: دار البستان، ٢٠٠٢

يعود للإغريق الفضل في الصيغة التي عُرف بها المسرح كأحد الفنون التي مارستها الشعوب، لكن بدايات المسرح يمكن تلمسها وإن بأشكال بدائية في الحضارات القديمة، والمصريون القدماء مارسوه - وفق بعض الدراسات - في المعابد وطقوسهم الجنائزية والدينية، المؤلف يعود إلى هذه الجذور لدى الحضارات القديمة والقبائل البدائية في رواندا وفيجي وماليزيا وغيرها.

■■■

نجيب الريحاني.. نجم زمن الفن الجميل
أحمد سخسوخ
القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢

نجيب الريحاني إحدى العلامات البارزة في تاريخ الفن العربي، والمسرح على وجه الخصوص، المؤلف يتناول سيرة هذا الفنان الفذ وتأثيره ودوره في ازدهار المسرحين المصري والعربي، ويقارن بين هذا التأثير وتأثير شارلي شابلن في الفن الغربي.

مقـــالات

الدنيا والدين
أحمد عبد المعطي حجازي
القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٢

مجموعة مقالات كتبها الشاعر في الفترة الأخيرة يجمعها خيط واحد هو العلاقة بين الدنيا والدين، وهي في مجملها أيضًا تعادي الفهم الخاطئ لمقاصد الشريعة وتحذر من محاولة البعض تسييس الدين لخدمة مصالح جماعات بعينها تهدف إلى الوصول للحكم والتضييق على الناس بتحريم الحلال وتعتيم حياة الناس وتنفيرها من الدين ذاته.

■■■

بالفصيح - كتابات معاندة
عبد الله محمد الناصر
بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٢

مقالات صحفية كتبها المؤلف تحتفي بالرفض وعدم الاستسلام للسائد والسعي للتغيير والتطوير، وفي الأساس يوجه المؤلف انتقاداته لإعلام يزور الحقائق ويعتم عليها وينشر الأمية والجهل بين شباب الأمة.

■■■

Intelligence Wars and the American Discovery of the CIA: American Secret History from Hitler to Al-Qaeda

(الحروب المخابراتية والاكتشاف الأمريكي للـCIA: التاريخ السري لأمريكا من هتلر إلى القاعدة)

Thomas Powers
New York Review of Books, 2003, 400PP, $ 27.95

مجموعة من المقالات التي نشرتها مجلة «نيويورك ريفيو أوف بوكس» على مدى عدة سنوات للصحفي الحائز على جائزة بوليتزر توماس باورز، والمتخصص في مجال المخابرات السرية. تتناول المقالات تاريخ وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وأهم القضايا التي تورطت فيها منذ الحرب العالمية الثانية ومعارك الحرب الباردة، مرورًا بأزمة خليج الخنازير واغتيال الرئيس كينيدي وفضيحة ألدريتش أيمز. ويستعرض توماس باورز الجدل الدائر حول أهمية ودور الـCIA بعد الحرب الباردة، ومدى كفاءتها في التصدي لخطر الإرهاب المعاصر.

■■■

عـــــــروض مــــوجــــزة

كتب عربية

من عرابى إلى عبدالناصر
صلاح منتصر
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ١٦٢صفحة



زيارة جديدة للتاريخ يقوم بها المؤلف بمناسبة مرور ٥٠ عامًا على ثورة يوليو ١٩٥٢، وهو يرى أن جذور هذه الثورة لم تبدأ مع حركة الضباط الأحرار، وإنما قبل ذلك بعقود، حين بدأت عمليات الحفر فى قناة السويس، وبسبب هذه القناة صارت مصر مطمعًا للمستعمرين الأجانب.

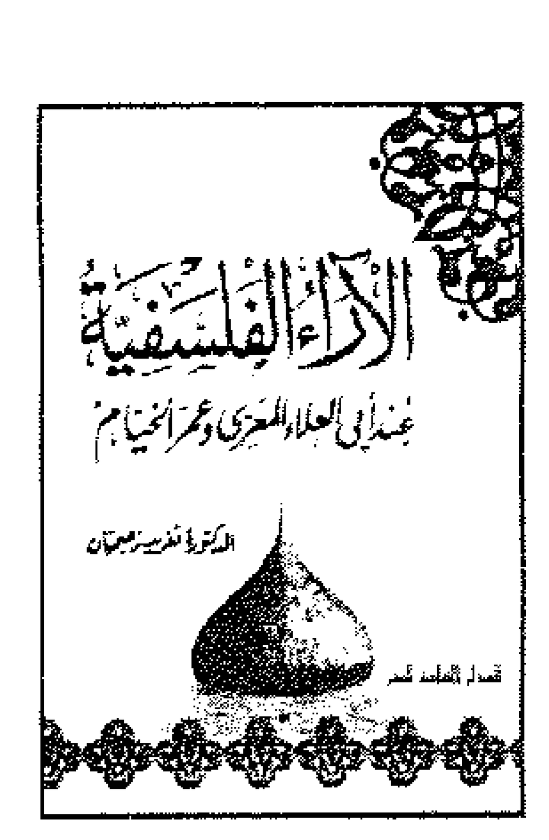
بسبب القناة تدخل الأجانب فى شئون مصر، واستدان الخديوى سعيد لأول مرة فى تاريخ مصر، إذ اقترض من أحد البنوك الإنجليزية ٣,٤ مليون جنيه، كان ذلك فى عام ١٨٥٩.. وقد حصل السماسرة على ٢٠٠ ألف جنيه عمولة عن هذا القرض مما جعلهم يسهلون حصول إسماعيل على القروض فيما بعد ليبلغ حجم ما اقترضت مصر فى عهده ٩١ مليون جنيه، وهو ما يوازى أكثر من ٢٠ ضعف ميزانية البلاد فى ذلك الوقت، وحينما تأزمت الأمور بين إسماعيل والأجانب تسببوا فى عزله ليتولى ابنه توفيق، وفى عهد توفيق استمرت الأمور فى السوء حتى حدثت ثورة عرابى وأعقبها الاحتلال الإنجليزى، ويتوالى كفاح الشعب المصرى من عرابى إلى مصطفى كامل إلى محمد فريد ثم ثورة المصريين الكبرى التى قادها سعد زغلول ونشأة الوفد المصرى الذى قاد نضال المصريين حتى جاءت حركة الضباط الأحرار.

المؤلف فى خضم ذلك كله يتعرض لحوادث عديدة ذات صلة بما كان يجرى فى مصر والعالم فى تلك السنوات، منها الحرب العالمية الأولى وتأثيراتها على الحياة السياسية والاقتصادية للبلاد الواقعة تحت الاحتلال ومنها مصر، كما يتعرض للجهود السلمية التى بُذلت لنيل الاستقلال ومنها تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، والمفاوضات التى قادها سعد وزملاؤه مع الإنجليز، ومعاهدة ١٩٣٦ التى وقَّعها خليفة سعد زغلول فى زعامة الوفد مصطفى النحاس باشا ثم ألغاها فى وزارته الأخيرة. كما يتعرض لحادث ٤ فبراير ١٩٤٢ الذى حاصرت فيه الدبابات الإنجليزية قصر الملك فاروق وأجبرته على إعادة حكومة الوفد كى تحقق الاستقرار فى البلاد، ويصل بنا إلى قرارات تقسيم فلسطين فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨، وحريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢. وقد كانت جميعها مقدمات لثورة يوليو ١٩٥٢.

بعد ذلك يواصل المؤلف استعراضه - الذى لا يخلو من تقييم ونقد - لمجمل الأوضاع التى سادت بعد يوليو ١٩٥٢ وانعطافاتها الكبرى مثل قرارات التأميم والإصلاح الزراعى والعدوان الثلاثى فى ١٩٥٦، وقوانين يوليو الاشتراكية فى بداية الستينيات، وعزل اللواء محمد نجيب وما أشيع بشأن انتحاره أو قتله، انتهاء بهزيمة يونيو ١٩٦٧ وإعلان عبدالناصر التنحى ورفض الأمة ذلك، كما يحلل المؤلف بعض العقد التى حكمت عبدالناصر وأوصلت الأمور إلى ما وصلت إليه.

□ □ □

الآراء الفلسفية عند أبى العلاء المعرى وعمر الخيام
تغريد زعيمان
القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٣



يقارن الكتاب بين آراء الشاعرين الفلسفية والفكرية التى انطوت عليها قصائد كل منهما، بما يؤكد التفاعل المثمر بين الحضارتين العربية والفارسية، وأثر اللغة العربية فى اللغة الفارسية، ونحن نعرف أن واحدًا من أبرز شعراء الفارسية ونعنى به سعدى الشيرازى، أبدع باللغتين معًا، لكن ذلك لم يمنع آخرين من شعراء الفارسية مثل عمر الخيام من الاستفادة من العربية بوصفها لغة القرآن، وتتبدى آثارها على إنتاجهم بالفارسية.

تؤكد المؤلفة على وجود تشابهات عديدة بين الشاعرين، فى الصفات مثلاً كلاهما كان جادًا حازمًا لا يحب المزاح، كلاهما كان ذكيًا عطوفًا ودودًا، كلاهما كان يأبى التكسب بالشعر، برغم أن ذلك كان يمكن أن يحيل حياتهما إلى سعادة ونعيم مقيم، كلاهما أيضًا كان يؤمن بالعقل ويحتكم إليه فى كل مسألة، دون أن ينقص ذلك من إيمانه وقدريته.

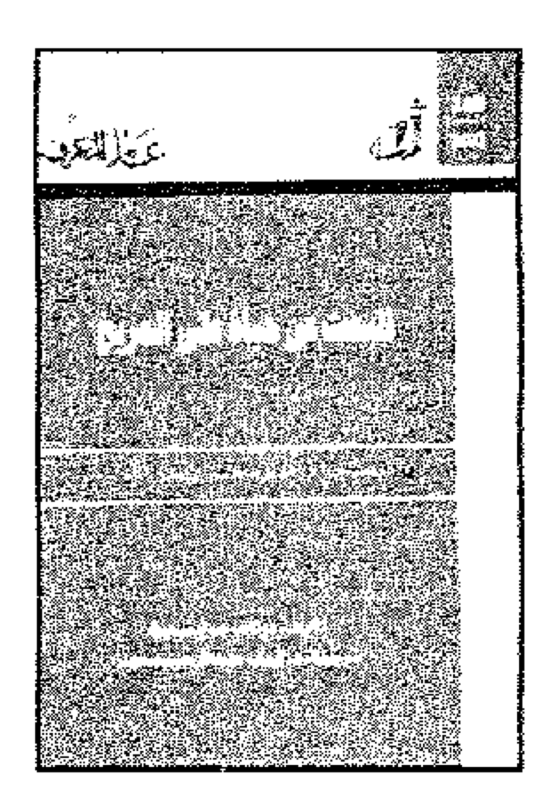
وعلى مستوى آخر، فالشاعران كلاهما لم يتزوج، وكانا يذمان الدنيا ويحقرانها ويدعوان الناس للتفكير بالموت وعُقبى الإنسان.

أما وجوه الاختلاف، فمنها أن المعرى فى قصائده اعتبر الخمر منشأ الشرور والآفات، وكان يذمها ويحذر شربها، أما الخيام فكان يرى فيها راحة وهناءً ونسيانًا للهموم.

والكشف المهم الذى تشير إليه المؤلفة أن كثيرًا من الرباعيات المنسوبة إلى عمر الخيام ليست من نظمه، وإنما من نظم رجل آخر عاش فى عصره اسمه على الخيام، وليس عمر الخيامى (وهو الاسم الحقيقى لشاعرنا وليس الخيام كما هو شائع). والباحثة ترجح أن تكون الأشعار التى قيلت فى الخمر منحولة على عمر الخيامى ولا صلة له بها، أكثر من هذا فإن المؤلفة تؤكد أن الخيام لم يؤلف فى حياته كلها سوى عدد قليل من الأبيات لا يتجاوز عشرين بيتًا، وهذا يعنى أن معظم الرباعيات المنسوبة إليه - إن لم تكن كلها - لا صلة له بها.

□ □ □

البحث عن حياة على المريخ
دونالد جولد سميث
ترجمة: إيهاب عبدالرحيم محمد
الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٢، ٢٧٧ صفحة



فى أغسطس ١٩٩٦، أعلن علماء وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» أن حجرًا «نيزكيًا» سقط على الأرض من المريخ، وترك آثارًا تدل على وجود نوع بدائى من الحياة هناك، ومثَّل هذا الإعلان أول دليل على وجود حياة أخرى خارج كوكبنا الأرضى.

المؤلف يعيدنا إلى هذا الاكتشاف من جديد، ويخبرنا بالقصة الكاملة، ويمحص الأدلة العلمية ووجهات النظر المتباينة فى الموضوع.

من بين الحقائق التى ينبه إليها المؤلف أن المريخ البدائى كانت به وفرة من المياه السائلة، وغلاف جوى أكثر سمكًا بمئات الأضعاف مما هو عليه الآن، وقد كان المريخ البدائى أكثر رطوبة وأكثر دفئًا من حالة المريخ الآن، فقد اختفى ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء من الغلاف الجوى للمريخ، مما أحدث تأثيرًا مأساويًا فى بيئته، لكن السؤال الذى مازال مطروحًا بين العلماء بقوة هو: هل اختفت الحياة تمامًا على كوكب المريخ أم أن الحياة وجدت أماكن قليلة تلوذ بها فيه، فى انتظار اكتشافنا لها؟

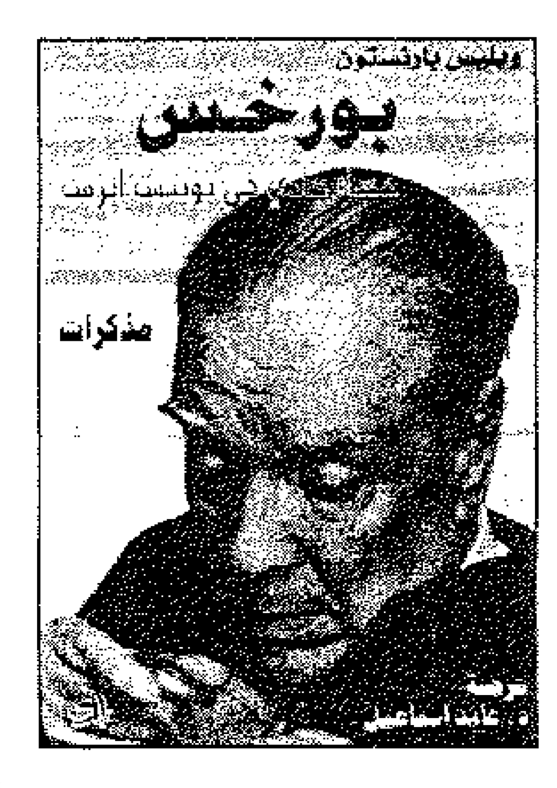
للإجابة عن هذا السؤال أرسلت عدة سفن فضائية لتدور حول المريخ أو تلتقط صورًا لسطحه، لكن كل النتائج جاءت مخيبة للآمال، لكن ذلك لم يمنع ناسا من السعى بقوة لجلب عينات منه لتحليلها برغم أن رحلة جمع صخور وتراب من المريخ تتكلف حوالى ٣٠٠ مليون دولار، ويتوقع المؤلف أن يهبط الإنسان على المريخ إن عاجلاً أو آجلاً.

والمؤلف برغم دعوته لنا أن نفكر بطريقة علمية، يقول أنه لا يوجد دليل قوى على وجود مجتمعات فى كواكب أخرى.. «فالأدلة المقدمة لإثبات وجود زائرين لا أرضيين للأرض تتكون إما من ذكريات وملاحظات فردية، أو أدلة غير مقنعة».

ومن وجهة النظر العلمية فإن احتمال وجود حضارات متطورة فى أماكن أخرى من الكون ليس مؤكدًا، لكنه مع ذلك يذكرنا باحتمالية وجود مواقع كثيرة يحتمل وجود حياة بها، وهذه الحضارات ستسعى للاتصال بأى جيران لها، وهو ما يشير إلى ضرورة أن تعمل البشرية على زيادة جهودها للاستماع إلى إشارات محتملة من أشكال ذكية من الحياة قد توجد حول النجوم الأخرى.

□ □ □

بورخيس
مساء عادى فى بيونس آيرس
ويليس بارنستون
ترجمة: عابد إسماعيل
دمشق: دار المدى، ٢٠٠٢، ٢٠٤ صفحات



لأكثر من عشرين عامًا، رافق بارنستون الشاعر الأرجنتينى الشهير خورخى لويس بورخيس، ومكَّنه هذا الاقتراب من معرفة الكثير عن حياة بورخيس وعاداته وصداقاته وأسراره، فضلاً عن آرائه فى كثير من مجايليه من الشعراء وأيضًا السابقين عليه، وهى ذكريات حميمية، تمثل خلاصة حوارات ومساجلات عميقة وممتدة.

تكشف المذكرات عن رهافة بورخيس، وبصيرته النافذة برغم فقدانه البصر فى عام ١٩٦٨، وقد منحه عمى البصر معنى آخر للوقت، ومستويات أبعد للوعى، وتداخلات رائعة بين الحلم والواقع، صبغت الكثير من أشعاره فى هذه السنوات.

لسنوات طويلة كان بورخيس مثل كثير من مثقفى بلاده، مؤمنًا بشعارات النظام السياسى السائد فى الأرجنتين، وشيئًا فشيئًا تكشفت الخديعة، فغادر هو وسادة النظام، واعتبر - من وجهة نظر

عـــــــروض موجـــــــزة

الحكم فى بلاده - غير مشمول بالرعاية، لكن الشاعر عرف كيف يستمد قوة إضافية فى كل انتكاسة، من بسطاء بلاده وفقرائها الذين يلاقونه فى الشوارع بود وحب بالغ، وقد اعتاد هو أن يجوب شوارع «بيونس آيرس» بعصاه مستمتعاً بحديث مع أحد أصدقائه، أو منهمكاً فى سجال مع العامة، وقد كانت هذه واحدة من متعه الأثيرة.

حين كان لبورخيس عينان - يقول المؤلف - كان يكتب عن شوارع ضبابية مكفهرة.. «وعندما اكفهرت عيناه، وضع الضبابية جانباً وأعطانا رؤيته الواضحة للحاضر وبانوراما لماض حقيقى».

سأله المؤلف مرة: كيف تأتيك القصائد؟

فأجاب: أتجول وهى معى حتى تقوى علىّ، بعدئذ أمليها لأننى لا أستطيع أن أحتفظ بها فى الظلام.

لا يحتفظ بورخيس - كما يذكر المؤلف - بأى كتاب ألفه، ولا يقرأ كتباً كتبت عنه، وهو مولع بانتقاد كتاباته وإبراز مواطن الضعف فيها.. «بما أننى أعرف بعض الأسرار حول العمل وحول خصمى (بورخيس).. فإننا يجب أن نجلس معاً ونصفى حساباتنا».

فيما يتصل بالنساء، فلم تكن لدى بورخيس علاقة عميقة مع أى منهن، باستثناء «ماريا فازكويز».. ومع ذلك كان يحبهن ويحب أن يبقى معهن بشكل دائم وأن يبادلهن الثقة والصداقة، مثلهن مثل الرجال.

□ □ □

كمال ويوسف
أثريان من الزمن الجميل
لؤى محمود سعيد
القاهرة: المجلس الأعلى للآثار، ٢٠٠٢،
١٥٠ صفحة



حين أسس الخديوى إسماعيل مدرسة اللسان المصرى القديم، اختير عشرة من طلاب المدارس الثانوية للانضمام إليها كان من بينهم أحمد كمال الذى يعد واحداً من مؤسسى علم المصريات، وقد شغل كمال مناصب عدة فى مصلحة الآثار، وعانى اضطهاداً من الأجانب وسخرية من بعض المصريين الذين لم يكونوا بعد مقدرين لقيمة آثارهم، وقد توطدت الصلة بينه وبين على مبارك باشا فشاركه فى إنشاء روضة المدارس لنشر الوعى الأثرى، وحاول فى دراساته الربط بين اللغة المصرية القديمة وجذور اللغة العربية، وعمل على بث روح الوطنية المصرية بكتبه ومحاضراته، وحمل الحكومة على إنشاء متاحف إقليمية فى أسيوط والمنيا وطنطا، وكان عضواً بارزاً فى المجمع العلمى المصرى ومجمع اللغة العربية، وعضو شرف بالمعهد العلمى العربى فى الشام، وقام بحفائر مهمة كشفت عن كثير من كنوز الحضارة المصرية استناداً إلى مقدرته الفذة فى الرسم الهندسى، إلى أن رحل فى أغسطس ١٩٢٣.

أما أحمد يوسف مصطفى الذى ولد فى عام ١٩١٢ بحى الدرب الأحمر بالقاهرة، فقد كان من أوائل وأبرع المرممين المصريين، وقد تفوق بدقته وفنيته على نظرائه من المرممين الأجانب، وإليه يعود الفضل فى إعادة تجميع مركب الملك خوفو الذى اكتشف فى عام ١٩٥٤ ووُجد مفككاً إلى ١٢٢٤ قطعة ولم يكن معروفاً شكله الأصلى، وأعمال الترميم التى قام بها الحاج يوسف - كما كان يلقب - لا حصر لها، وعشرات منها تشهد على مقدرته الخارقة، ليس فى المتحف المصرى فقط، وإنما فى الإسلامى والقبطى كذلك، وقد رفض كثيراً من الإغراءات لبيع رسوماته والصور التى التقطها بنفسه فى مركب خوفو وغيره، وأصر على أن يهدى كتبه ودراساته وأرشيف صوره إلى هيئة الآثار المصرية.

□ □ □

رجل أبله.. امرأة تافهة
محمد ناجى
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢



مطاردة يطلعك المؤلف على نتيجتها منذ البداية، انتصرت المرأة طبعاً، ونجحت فى الإيقاع بالرجل الأبله بعدما نصبت شباكها بتؤدة وتدبير محكم.

لم يكن الصيد سهلاً، أبدى مقاومة قدر طاقته وعلى طريقة كهل يضع قدماً أولى

«ثلاثيـة غرناطـة».. مذاق المقاومـة لا مرارة المراثـى

لم تواتنى الجسارة كى أكتب عن «ثلاثية غرناطة» - رواية رضوى عاشور التى سبق لها أن فازت بجائزة الرواية عام ١٩٩٤ من معرض القاهرة الدولى للكتاب، وفازت كاتبتها هذا العام عن «أطياف» وكامل «الثلاثية»، والتى صدرت طبعتها الثالثة أخيرا عن «دار الشروق».

ماذا أضيف بعد ما كتبه شكرى عياد وعلى الراعى ولطيفة الزيات وجابر عصفور وصبرى حافظ وفريدة النقاش وغيرهم من نقاد مصريين وعرب.

كان البديل أن أحاورها فى أجواء الرواية وبواعثها ورسالتها والتحضير لها وتوثيق مادتها، خصوصاً وهى تتناول حقبة تاريخية مهمة، كان للمسلمين فيها مكان ومكانة.

وفاجأتنى الدكتورة رضوى، أن ما أستفسر عنه وأكثر، تضمنته محاضرة ألقتها فى أسبانيا فى نهاية عام ٢٠٠٠، وتضمنه كتابها «صيادو الذاكرة» الصادر عن المركز الثقافى العربى فى بيروت ٢٠٠١.

اختارت هى المقاطع التى ترد على استفساراتنا.. واخترنا نحن أن تكون هذه طريقتنا فى الاحتفاء بها وبثلاثيتها.

عماد الغزالى

* «... لم تشغلنى الأندلس التى بدت نائية وغائمة، وحين كتبت عنها لم تكن الكتابة اختيارا مسبقا ولا تحقيقا لحلم أو لولع بالموضوع، ولا تحايلا أو تقنُّعا، ولكن حدث ذات مساء أن أتتنى صورة المرأة العارية التى بدأت بها بعد ذلك السطور الأولى من الرواية (...)، وأنا أتابع على شاشة التلفزيون قصف الطائرات لبغداد. الأرجح أن المشهد فتح بابا للذاكرة فالتقت بالمشهد مشاهد مثيلة: قصف الطائرات الإسرائيلية لسيناء عام ١٩٥٦ و١٩٦٧، قصف لبنان عام ١٩٧٨ و١٩٨٢، والقصف المتصل للمخيمات الفلسطينية ومدن وقرى الجنوب اللبنانى. فى ذلك المساء، وأنا أتابع أخبار قصف العراق (عام ١٩٩١)، رأيت المرأة العارية تقترب وكأننى أبو جعفر الورّاق فى الرواية يشاهد فى عريها موته. استبد بى الخوف وأنا أسأل: هل هو الموت الوشيك؟ وإن كان فأى علاقة أديرها الآن مع موتى؟ ومع السؤال داهمتنى غرناطة فبدأت أقرأ».

* «... لم أكن أوثق لبحث فى التاريخ الاجتماعى وإن اقتضى التوثيق جهدا قريبا من الباحث فى هذا المجال. (...) ساعدنى البحث التاريخى ومشاهدة العينين على التعرف على ملامح حياة جماعة بشرية عاشت قبل خمسمائة عام(...). كانت هذه المعرفة ضرورية للمشروع. الإطار العام لثلاثية غرناطة تاريخ موثق، كذلك الأحداث المفصلية الواقعة بين عام ١٤٩١ و١٦٠٩: توقيع معاهدة تسليم مملكة غرناطة، تسليم الحمراء، حرق الكتب، ثورة البيازين الأولى والثانية، التشتيت الجماعى لأهالى غرناطة ثم الترحيل النهائى لعرب الأندلس. كانت الوقائع التاريخية هى العنصر الأول بين عناصر التوثيق التى

وظفتها فى نصى ولكنها لم تكن العنصر الوحيد إذ أضيف إليها التاريخ الاجتماعى والثقافى: ملامح الملبس والمأكل والمسكن والحمام، الحكايات الشعبية والخرافات الدارجة، الفتوى الشرعية وعقد الزواج ووثيقة الصلح بين أسرتين متنازعتين... إلخ كلها دخلت فى نسيج حياة متخيَّلة لشخصيات تفعل وتنفعل بمنطق نص معلّق بين تاريخ مهمَّش أعيد تشكيله، ورؤية امرأة تنتمى للنصف الثانى من القرن العشرين».

* «... أتساءل الآن إن كان العرب يلجأون إلى غرناطة حين تلح عليهم حاجتهم للمراثى. أذكّركم أن هناك تراثا من المراثى العربية يرتبط بفقد الأندلس وهو تراث يعود بنا إلى القرن الحادى عشر أسهم فيه المجهول من الشعراء والمعلوم منهم(...). من هذه القصائد المبكرة إلى وقتنا الحالى تتصدر غرناطة / الأندلس كدال على الغربة والفقد. وبدرجات متفاوتة يتصدر أو يتوارى، وإن لا ينفى تواريه وجوده، وعى العبث واللاجدوى. وربما تختلف ثلاثية غرناطة عن ذلك الموروث الأدبى رغم ما فيها من مذاق المراثى لأنها لا تبكى فردوسا مفقودا، فلا حنين فيها ولا تغنّى بل انشغال بتقديم فعل المقاومة لجماعة بشرية، مقاومة جليلة وجميلة تركت علامتها الفارقة فى الزمان. فالتاريخ صاحب حيلة ودهاء، له مساربه المراوغة وديناميسه الباطنية ومجاريه الجوفية، لا شىء يضيع، هكذا أعتقد».

عـــــــروض موجــــزة

على درب شيخوخته، هو صحفي اشتراكي يحمل هموما كبرى، دفع سنوات من حريته في السجون عربون صدق لشعارات صدقها، متخصص في شئون العالم الثالث، يسبح في ملكوت حريته دون قيد من أي نوع، أما هي فامرأة عادية الهموم تعمل في دار للمسنين، تعرفت عليه حين كان يزور أحد أصدقائه بالدار، لا تشغلها هموم الكون مثله، حياتها بسيطة، تعني كثيرًا بالتفاصيل التي يراها هو تافهة ومزعجة، ومنذ رآته قدرت أنه الرجل المطلوب، مركز مرموق وسترة لا تحلم بأكثر منهما، امرأة جاوزت الأربعين دون أن يلفها ظل رجل، وبدأت المطاردة على هذا النحو: يريدها للفراش، وتريده زوجا، وبعقد عرفي - تشترط - كي لا تفقد معاش أبيها، يعاند ويقاوم إلى حد تجريحها، وإهانة أنوثتها، لكنها لا تيأس وتواصل اللعبة للنهاية، موقنة أنها لن تخسر شيئا، وتحرز هدفها في ماراثون طويل، وشيئا فشيئا ينسحب الرجل الأبله إلى تفاصيلها التي كان يراها تافهة، وحين يقول لها في النهاية: دائمًا تهتمين بالتفاصيل التافهة، ترد عليه: هذه هي الحياة أيها الأبله.

الرجل الأبله واجه انكسارًا ساحقًا قبل ذلك حين تهاوت شعاراته عن تنمية العالم الثالث وتحرير شعوبه بفعل ضربات العولمة «الأمريكاني» المتلاحقة، وحين رفعت مقالاته التي لم ير فيها مدير التحرير الجديد ما يجذب قارئ مجلة تعنى بالشئون العامة، ثم حين اكتشف بالتحاليل والأشعة ما صارت إليه حال كبده، سلّم بالهزيمة، للتافهة المنشغلة بالتفاصيل الصغيرة، تمامًا كما خارت قواه عندما اكتشف عدم قدرة شعاراته - التي دفع ثمن إيمانه بها مبكرًا جدًا - على الصمود في وجه التغيرات العاتية لزمن الكوكبة.

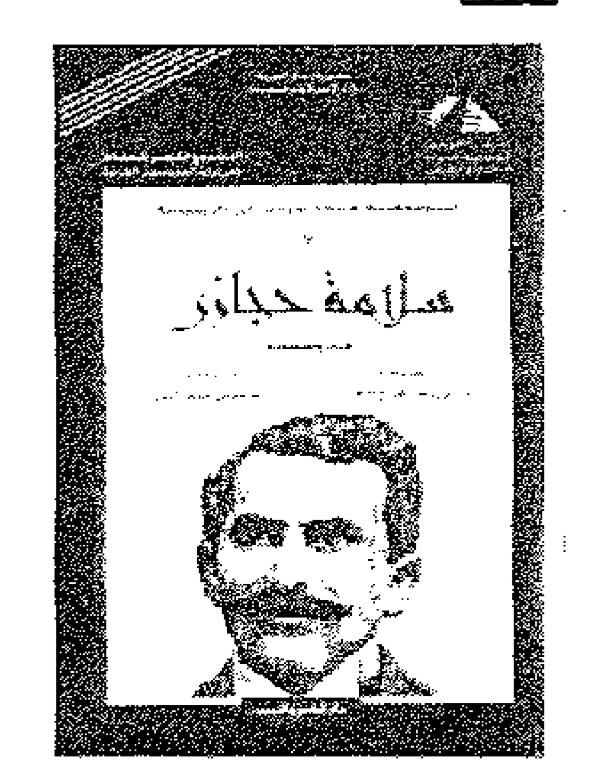
الرواية هي الخامسة للمؤلف بعد «خافية قمر» (١٩٩٤)، «لحن الصباح» (١٩٩٤)، «مقامات عربية» (١٩٩٩)، و«العايقة بنت الزين» (٢٠٠١).

□ □ □

سلامة حجازي

إعداد: إيزيس فتح الله

القاهرة: دار الشروق، المركز القومي لتوثيق التراث الحضاري والطبيعي ٢٠٠٢، ٢١٣ صفحة



يأتي هذا الكتاب ضمن سلسلة موسوعة أعلام الموسيقى العربية، وفي إطار مشروع أشمل للحفاظ على تراث الموسيقى العربية، ويشتمل على أبواب أربعة، يتناول الأول سيرة الشيخ سلامة حجازي رائد المسرح العربي، ويتضمن الثاني بيانًا بإنتاج الشيخ سلامة، ويخصص الثالث لأعماله الغنائية والمسرحية، ثم الرابع للأعمال المسرحية الغنائية التي برز فيها.

ولد سلامة حجازي في حي رأس التين بالإسكندرية لأسرة متواضعة في عام ١٨٥٢، وقد توفي أبوه وهو في الثالثة من عمره فرباه جده لأبيه، وتعلم مبكرًا فنون الإنشاد بعدما حفظ القرآن الكريم وهو في الحادية عشرة من عمره، ثم تعلم الكثير من النظم ووزن النغم على يد كبير منشدي القاهرة الشيخ خليل محرم، ولما ذاع صيته بدأ يغني على التخت وألف جوقة من الموسيقيين أخذ يتنقل بها لإحياء الليالي والأفراح مما ساهم في اتساع شهرته.

وحين بدأت النهضة المسرحية المصرية في أواسط القرن التاسع عشر على يد صنوع ومارون نقاش ويوسف الخياط وزملائهم، أدرك الشيخ سلامة أن ثمة تجديدًا يمكنه أن يضيفه في هذا المجال، وبدأ مع زميليه عبده الحامولي ومحمد عثمان في البحث عن شكل هذا التجديد، وكان نجاح هذا اللون الجديد في رواية «مي وهوراس» التي قدمتها جوقة «الحداد والقرداحي» على مسرح دار الأوبرا الخديوية، بداية لانطلاقته في مجال التمثيل وتطوير المسرح الغنائي، كما كان حبه لـ«خديجة»، وهي من أسرة كريمة بالقاهرة، سببًا لخلعه العمامة وارتدائه الزي الأفرنجي، وأثمر هذا الحب عددًا من أعذب ألحانه وأجمل رواياته منها «أنيس الجليس» و«أبي الحسن» و«خليفة الصياد»، وكان تلحينه لـ«مجنون ليلى» ثورة جديدة في عالم الفن، وبعدما بدأ الشيخ العمل مع فرقة إسكندر فرح، وطلب من أنطون فرح ترجمة بعض الروايات التي قام الشيخ سلامة بالبطولة فيها، ثم ما لبث أن انفصل عنه ليؤسس دار التمثيل العربي وارتحل بها إلى الشام وحقق هناك نجاحات كبيرة كما حقق نجاحًا مماثلاً في تونس.

وبعد هذا النجاح حدث تآلف بين فرقتي سلامة حجازي وجورج أبيض، وبرغم النجاحات الهائلة التي حققاها معًا، إلا أنهما انفصلا عام ١٩١٥، وبدأ الشيخ سلامة يقدم أعماله بجوقته على مسرح برنتانيا، ومزج في ألحانه بين موسيقات حضارات عديدة غربية وشرقية واستمر في عطائه إلى أن رحل في أكتوبر ١٩١٧.

وللشيخ سلامة حجازي عشرات الأعمال الغنائية الخالدة التي غناها أشهر مطربي عصره، كما كانت له تجديدات رائعة في الموسيقى العربية.

□ □ □

كتب أجنبية

Silent No More, Special needs People in Egypt

(لا صمت بعد الآن، أصحاب الاحتياجات الخاصة في مصر)

Lesley Lababidi in Collaboration With Nadia El Arabi

Cairo: Auc Press, 168PP., LE. 80



الإعاقة لا تعرف حدودًا بين الدول والأعراق والديانات أو الخلفيات الاجتماعية. وقد ظل المعاقون لقرون طويلة ينظر إليهم بقية أفراد المجتمع على أنهم عالة عليهم، وغالبًا ما كان هؤلاء الأفراد وغير المحظوظين يتم تركهم للإهمال والمرض والموت إلا أن المدنية الحديثة أبدت اهتمامًا وإن كان متأخرًا بهذه الفئة من البشر التي تعرضت للحرمان الطويل. ومن دلائل هذا الاهتمام بين أمور أخرى تعميم اسم أصحاب الاحتياجات الخاصة على هذه الفئة بدلاً من اللفظ السلبي «المعاقون».

وقد اهتمت مصر في السنوات الأخيرة بهذه الفئة وتسارعت الجهود لتقديم الخدمات لتحسين نوعية الحياة التي تعيشها. وقد كرس هذا الكتاب فصوله للحديث عن جذور المشكلة ومحاولات علاجها.

وقد قدمت السيدة سوزان مبارك قرينة الرئيس حسني مبارك لهذا الكتاب.

يبدأ بمسح قصير للجهود الحكومية في توفير الخدمة الصحية للمعاقين وكيف أصبحت مصر من الدول الرائدة في العالم العربي في توفير برامج التعليم التنموي والخدمات ودعم المعاقين جسديًا وذهنيًا. ويشتمل الكتاب على سلسلة من اللقاءات مع مجموعة كبيرة من أصحاب الحاجات الخاصة وأسرهم ومدرسيهم وأطبائهم ومسئولي المدارس التي يتعلم فيها بعضهم. والجميع هنا يتحدث عن المشكلة وتأثيرها ومدى توفير المجتمع لاحتياجات المعاقين. إن هذه القصص مليئة بالغضب والإحباط وأيضًا الشجاعة والإقدام.. والأهم من ذلك أن كل متحدث لديه رسالة يتحدث فيها عن رؤيته لمستقبل مصر والتحديات التي تواجه المصريين.

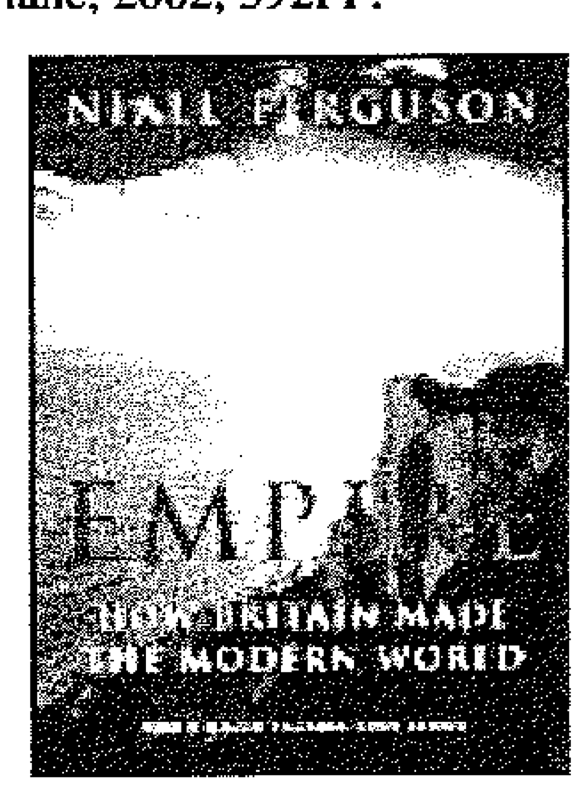
□ □ □

Empire.. How Britain Made the Modern World

(الإمبراطورية.. كيف صنعت بريطانيا العالم الحديث؟)

Niall Ferguson

Allen lane, 2002, 392PP.



مؤلف هذا الكتاب أستاذ للتاريخ السياسي والمالي في جامعة أكسفورد، وكتابه هذا تجميع لسلسلة من ٦ حلقات وثائقية أعدها للقناة الرابعة في التليفزيون البريطاني ويتحدث فيها عن ٣٠٠ عام تقريبًا من سطوع شمس بريطانيا في العالم والتي وصلت إلى سيطرتها في وقت من الأوقات على ربع المعمورة تقريبًا. وهناك كثير من المؤلفات لمؤرخين عظام تتناول آثار هذه الإمبراطورية والبعض كرس جهوده لذكر وتعديد مساوئ وآثام الإمبراطورية لكن المؤلف فرجسون في كتابه يتحدث عن الجانب المضيء في تركة هذه الإمبراطورية وهو يعتقد أنه كثير.

يتحدث المؤلف عن كيفية بناء الإمبراطورية داخليًا أي في بريطانيا في القرن السابع عشر وكيف استطاعت بريطانيا تطوير نظام للدين الوطني تمكنت من خلاله من بناء أسطول ضخم وكيف أن شركة الهند الشرقية استطاعت من خلال انتشارها التجاري في شتى موانئ العالم استحداث نظام العولمة الذي يطلق عليه المؤلف «الأنجلو عولمة».

لكن المؤلف لا ينسى انتهاكات حقوق الإنسان التي حدثت من أجل بناء الإمبراطورية والحفاظ عليها. وهو تحدث عن تجارة الرق وعن معركة أم درمان الشهيرة عام ١٨٩٨ لاستعادة السودان من المهدية وكيف أن ١٠ آلاف سوداني قتلوا خلال خمس ساعات فقط بمدافع القائد البريطاني لورد كيتشنر. ويقول المؤلف إن السؤال هو: هل كانت الإمبراطورية بلا خطيئة والإجابة لا بالطبع.. كما أن سؤالاً آخر يثور وهو: هل كان من الممكن أن تكون الدماء التي جرى سفكها لبناء الإمبراطورية والحفاظ عليها أقل والجواب في هذه الحالة نعم بدون شك.

لكن رغم ذلك كله يعتقد المؤلف أن الإمبراطورية البريطانية أضافت للعالم كثيرًا، ومن أمثلة ذلك اللغة الإنجليزية.. فكرة الحرية. ويشير المؤلف إلى أن الإمبراطورية البريطانية ضحت بنفسها خلال الحرب العالمية الثانية.. لصد الألمان واليابانيين. ثم يتساءل: هل تكفي

عـــــــروض مـــــوجـــــزة

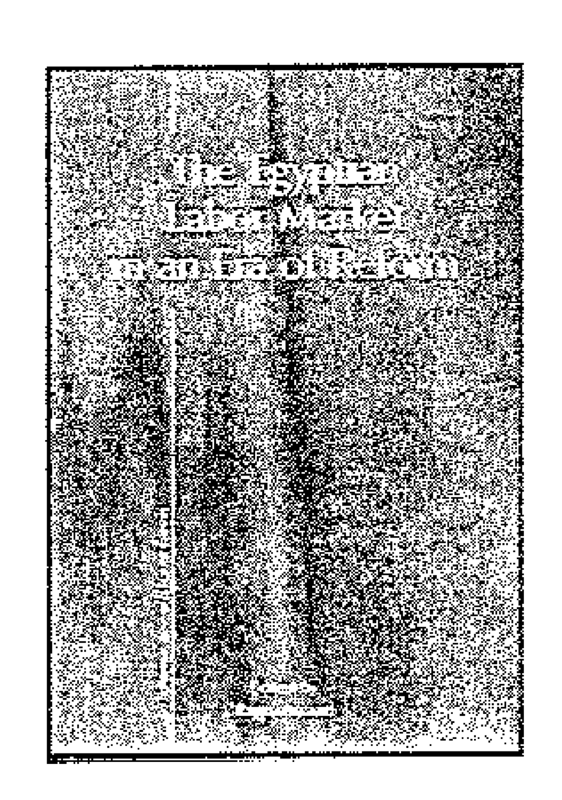
هذه التضحية لتجعل ميزان حسنات تلك الإمبراطورية أكبر من ميزان سيئاتها؟

□ □ □

The Egyptian Labor Market in An era of Reform

(سوق العمل المصرية في عصر الإصلاح)

Edited by Ragui Assaad
Cairo-Auc Press, LE. 90



في عام ١٩٩١ أطلقت الحكومة المصرية برنامج الإصلاح الاقتصادي والتكيف الهيكلي وتضمن هذا البرنامج تحقيق الاستقرار المالي وإصلاح القطاعات المالية والتجارية ونظام أسعار النقد وكذلك خطة طموحة للخصخصة.

وقد حقق البرنامج نجاحًا ملحوظًا في بداياته خاصة على صعيد الإصلاح النقدي، كما تم البدء في خصخصة كثير من الشركات المملوكة للدولة وبيعها للقطاع الخاص إلا أن عديدًا من العوامل بعضها داخلي والآخر خارجي ساهمت في تعرض البرنامج لمشاكل خاصة في السنوات القليلة الماضية.

في هذا الكتاب يتحدث المؤلفون عن تأثير البرنامج الإصلاحي على سوق العمل في مصر، وهناك عديد من المقالات المبنية على أساس مسح واسع النطاق تم إجراؤه عام ١٩٩٨ وكذلك دراسة سابقة تعود لعام ١٩٨٨. وترصد كل هذه المقالات التغيرات التي حدثت لسوق العمل بعد تثبيت برنامج الإصلاح الاقتصادي والهيكلي مقارنة بالوضع السابق اعتمادًا على دراسة ١٩٨٨.

ويتناول المؤلفون التغيرات التي حدثت في العرض والطلب في سوق العمل خاصة الدور الذي قام به القطاع الخاص في خلق فرص عمل وكذلك الجماعات التي استفادت من النمو في سوق العمل. وتدرس المقالات التي يتضمنها الكتاب أيضًا التحولات في الأجور والمرتبات وعمالة الشباب والمرأة وكذلك عمالة الأطفال، كما تحلل دور القطاع غير الرسمي في خلق فرص العمل، والمدى الذي أصبحت بمقتضاه سوق العمل لا تعتمد على الدولة خلال تلك المدة.

وكما يشير الكتاب فإن هذه القضية المهمة لم تحظ بالدراسة المعمقة حيث مازالت المعلومات الموثقة حول تأثير برنامج الإصلاح الاقتصادي على سوق العمل غير معروفة على نطاق واسع.

□ □ □

Fat Land.. How American Became the Fattest People in the World

(الأرض البدينة.. كيف أصبح الأمريكيون أكثر شعوب العالم بدانة)

Greg Critser
Houghton Mifflin, 2002, 232PP., $24.00



في الولايات المتحدة يموت أناس بسبب شراهة الأكل أكثر من الذين يموتون بسبب ندرته.. هكذا كتب العالم الاقتصادي جون كينث جالبريث في «مجتمع الوفرة» الذي أصدره عام ١٩٥٨. ومنذ ذلك الوقت فإن الناس يزدادون بدانة إلى درجة أن الخدمات الصحية ذات العلاقة بأمراض البدانة تكلف الأمة الأمريكية حوالي ١٠٠ مليار دولار في العام.

ويشير مؤلف هذا الكتاب إلى أن ٦١٪ من الأمريكيين يعانون من زيادة في الوزن بدرجة يمكن أن تؤدي إلى تعرضهم لمشاكل صحية.. كما أن ٢٥٪ من كل الأمريكيين تحت ١٩ عامًا وهذا الرقم في زيادة مستمرة. إن ما سبق من أرقام وإحصاءات تمتلئ به الصحف والمجلات الأمريكية لكن المؤلف نجح في تجميع تلك المعلومات وتحليلها والخروج بنتائج حول المشكلة.

ويقول المؤلف إن الموجة الحديثة من البدانة في المجتمع الأمريكي تعود إلى فترة حكم الرئيس الراحل ريتشارد نيكسون في السبعينيات عندما تحقق فائض كبير في إنتاج القمح، الأمر الذي دفع لاستخدامه في إنتاج الحلويات وإضافة إلى تناول الأمريكيين بكثرة للكوكا والبيبسي فإن من السهل توقع نتائج كل ذلك.

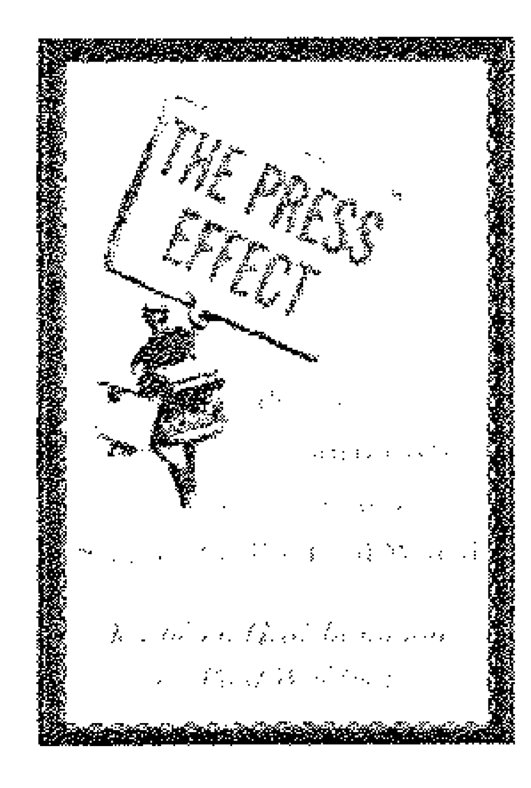
إن النغمة السائدة في الولايات المتحدة لدى نسبة كبيرة من الناس هي أنه من الممكن تناول أطعمة كثيرة مادامت منخفضة الدهون، وقد دفع ذلك هؤلاء الأشخاص إلى تناول كميات كبيرة من الأطعمة باعتقاد أنهم لن يعانوا من البدانة.. وهو ما حدث عكسه.. ثم جاءت موضة مراكز الرشاقة والرياضة لتغري نسبة كبيرة من الأمريكيين بإمكان التخلص من هذه المشكلة التي باتت تشغل بال كثير من الأمريكيين ولا يكاد يخلو مبنى كبير أو عمارة سكنية أمريكية من مركز من هذه المراكز التي تحقق أرباحًا طائلة نظرًا لأنها تعمل على إقناع المواطن الأمريكي العادي بأنه سيحصل على ما يفتقده: الرشاقة، السلامة الجسمانية، طول العمر. لكن ذلك أيضًا لم يحقق النتائج المرجوة والدليل هو زيادة نسبة المصابين بالبدانة في الولايات المتحدة. والظاهرة الأسوأ كما يقول المؤلف هي أن نسبة متزايدة من الأطفال مصابة بالبدانة.

□ □ □

The Press effect.. Politicians Journalists and Stories that Shape the Political world

(تأثير الصحافة.. السياسيون، الصحفيون، والقصص الخبرية التي شكلت العالم سياسيًا)

Kathleen Hall Jamieson
Paul Waldman
Oxford University Press, 2002, 220PP., $26.00



يقول مؤلفا هذا الكتاب إن الصحافة في تغطيتها للأحداث واختيار ما يتم نشره من تقارير تشكل النتائج التي تحدث بعد ذلك، ويحاول المؤلفان وهما مدير مركز آنبرج للسياسة العامة في الولايات المتحدة ومساعد مدير المركز، إثبات هذه الفرضية من خلال تحليل معمم للطريقة التي غطت بها الصحافة الأمريكية الحملة الانتخابية لانتخابات الرئاسة الأمريكية عام ٢٠٠٠ ومشكلة التصويت في ولاية فلوريدا ثم الهجمات الإرهابية في ١١ سبتمبر.

ويجادل المؤلفان بأن الصحافة تعيد تنظيم الحقائق في أشكال معينة بحيث يكون من الصعب على القراء بعد ذلك أن يتعرفوا على حقيقة الأحداث التي وقعت بشكل دقيق. إن الصحافة الأمريكية، على سبيل المثال، جعلت الصفة الأساسية لنائب الرئيس الأمريكي السابق آل جور، خلال الحملة الانتخابية الرئاسية عام ٢٠٠٠، أنه ضعيف أمام القصص الخبرية التي يمكن أن تجعل صورته أفضل بمعنى أنه مستعد لابتكار أي خبر أو موضوع لإثبات أنه الأفضل، أما انطباع الصحافة عن جورج بوش الابن المرشح الجمهوري في الانتخابات (والرئيس فيما بعد) فهو التشكيك في ذكائه وخبرته لكي يكون رئيسًا.

إن هذا التصور من جانب الصحافة لآل جور جعل الجمهور ينظر إليه على أنه غير أمين وربما كاذب أما بالنسبة لبوش فكان الأمر يتعلق بمدى قدراته واستعداده. ويشير الكتاب إلى أن إعلان آل أنه لعب دورًا مهمًا في التشريع الخاص بالإنترنت تحول بسرعة، في الصحافة، إلى القول بأن آل جور اخترع الإنترنت دون أن يكلف كثير من الصحفيين أنفسهم عناء التأكد من المعلومات الخاصة بعلاقة آل بالإنترنت كما ورد على لسانه هو. ولذلك جرى تثبيت عدم الأمانة بآل جور. والخلاصة أن هذه المعالجة الصحفية في الحملة الانتخابية الرئاسية خدمت بوش وأضرت بآل جور.

ويوضح المؤلفان أن أوضح مثال على دور الصحافة هو الخلاف حول نتائج التصويت في ولاية فلوريدا، ففي البداية أعلنت شبكات التليفزيون أن آل جور فاز ثم عادت لتقول إن بوش هو الذي فاز، ثم عادت لتقول أن آل جور يرفض الاعتراف بهزيمته، الأمر الذي جعل ملايين الناس يعتقدون أن جور يحاول أن يحرم بوش من انتصاره، وهو ما أحسن الجمهوريون استغلاله ورسموا جور على أنه خاسر لا هدف له سوى تقسيم البلاد لكي ينتصر.

ويشير المؤلفان إلى تغطية الصحافة والإعلام لأحداث ١١ سبتمبر وما بعدها، الأمر الذي يجعل القارئ للكتاب يشعر أن العلاقة بين الرأي العام والصحافة معقدة إلى حد كبير. فالصحافة ومنظمات الإعلام بدأت عقب الأحداث أكثر انتقادًا لأسلوب إدارة بوش في الرد على الهجمات الإرهابية وعلى معالجتها بشكل عام للأزمة، إلا أن هذه المؤسسات خففت موقفها بعد ذلك بعد أن فوجئت بسيل من رسائل الفاكس والمكالمات التليفونية تهاجمها على موقفها من إدارة بوش.

لقد كانت الإجراءات الشديدة التي اتخذتها إدارة بوش في نظر الصحافة اعتداء على الحريات الخاصة للمواطنين لكن شعبية بوش التي وصلت إلى رقم قياسي في الفترة التي أعقبت الأحداث جعلته أكبر من أي انتقاد.

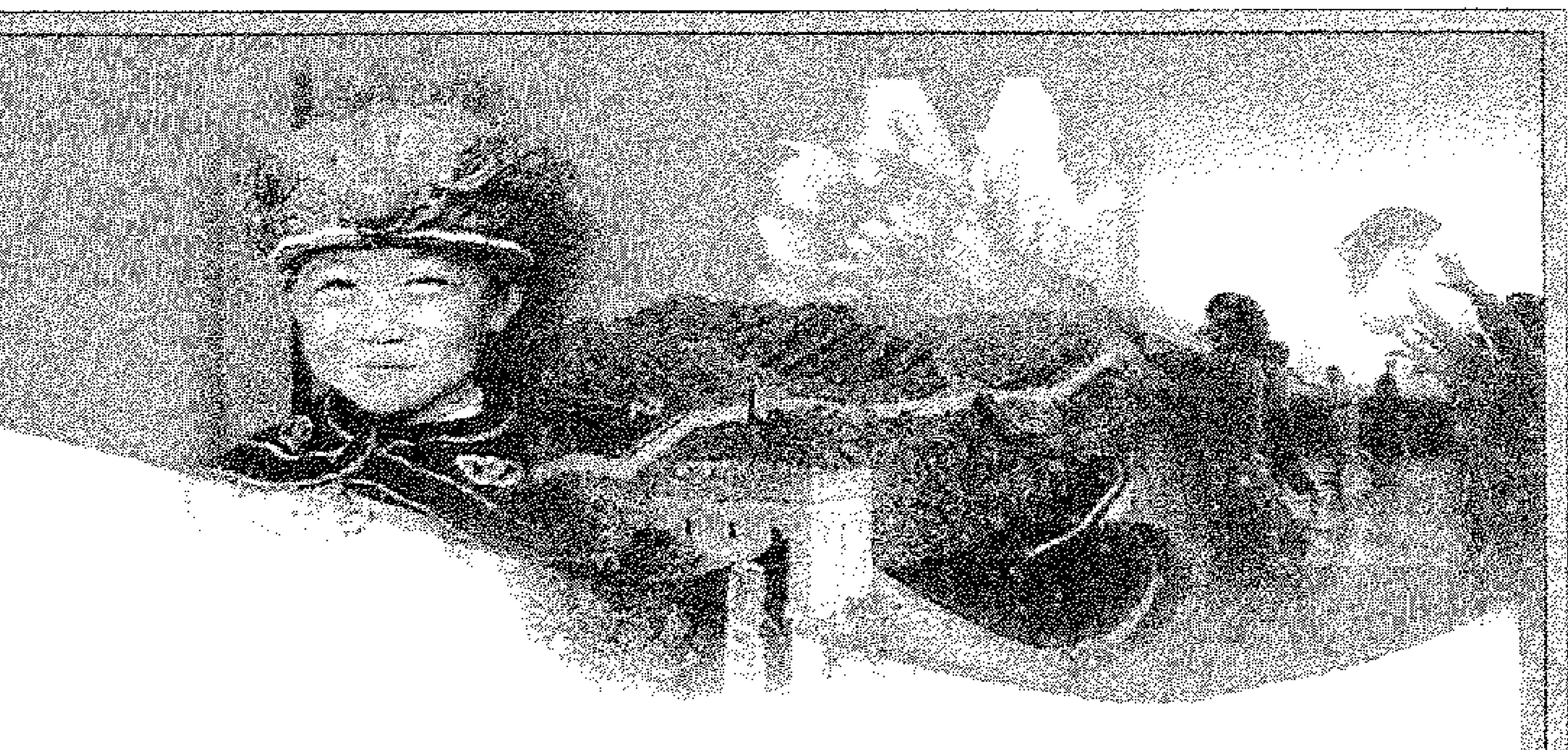
إن القضايا التي اتخذها الكتاب مثارًا للنقاش وهي حملة انتخابات ٢٠٠٠ ونتائج التصويت في فلوريدا وأحداث ١١ سبتمبر قضايا في غاية الأهمية وقد أحدثت استقطابًا شديدًا في المجتمع الأمريكي، ولذلك جاء اختيارها بالغ التوفيق.

لكن مشكلة هذا الكتاب هي أنه يغفل دور شركات الإعلام العملاقة في تشكيل الخبر وتحويره بينما يركز على دور الصحفي أو رجل الإعلام. إن الصحفي قد يكون له دور لكن في عصر مؤسسات الإعلام العملاقة فإن تدخل إدارات هذه المؤسسات يلعب دورًا كبيرًا في الشكل النهائي للمنتج الإعلامي، ثم إن هناك فرقًا بين الإعلام المرئي والصحافة المطبوعة ووضع الكل في «سلة واحدة» دون تمييز ربما يفتقر للموضوعية.

□ □ □

وزارة الطيران المدنى
الشركة القابضة لمصر للطيران
شركة مصر للطيران للخطوط الجوية





الصين

خط جديد .... و رحلة جديدة

مع مصر للطيران

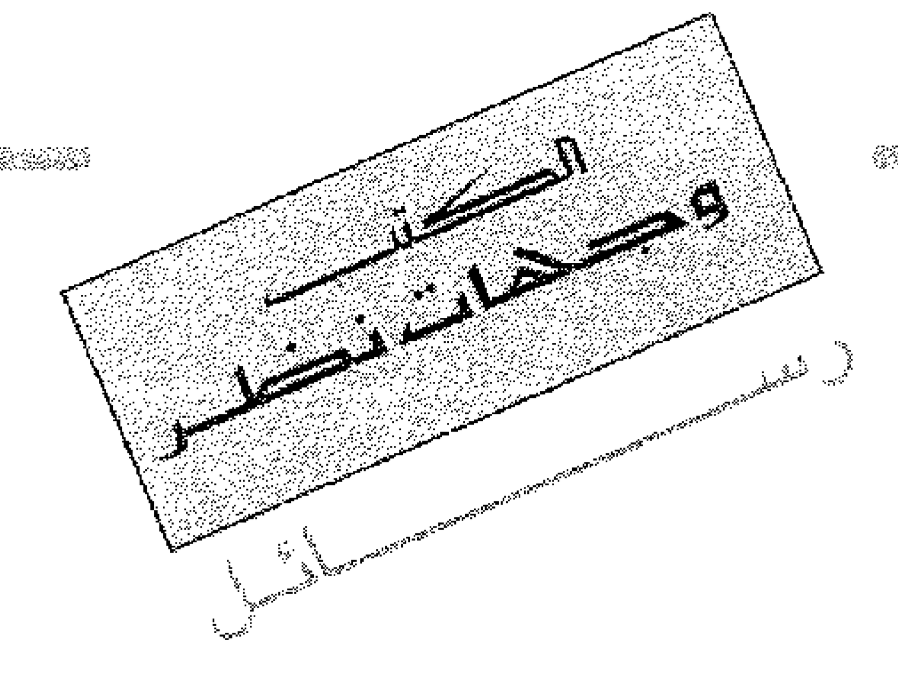
حالياً

القاهرة / بكين / القاهرة

الثلاثاء و الجمعة
بأحدث طرازات الطائرات



www.egyptair.com.eg



دعـــــوة

الأستاذ الفاضل محمد حسنين هيكل..

إن الانتقال من مرحلة كنت ألهث فيها للحصول على ما تكتبون، مع ضعف وضيق في الحالة المعيشية لا يسمح بأكثر من تامين ضرورات الحياة الصعبة، إلى الطموح في مخاطبتكم والكتابة في دورية رائعة تشرفون عليها، يجلب الرهبة، لشعوري أنني لست أمام شخص عادي، إنه أحد أبرز الأساتذة الذين تعلمت منهم، وأحد أبرز رجال الصحافة والفكر، والسياسة أيضًا، ليس في الوطن العربي فقط، بل في العالم.

أستاذي الفاضل، لقد أثبتت مجلة «وجهات نظر»، حضورًا لافتًا، ودورًا مهمًا في خدمة الثقافة العربية، نرجو أن يمتد وينمو، وهذا ما دفعني إلى إرسال مساهمتي المرفقة للنشر في المجلة، راجيًا أن أكون عند حسن ظنكم وظن القراء. هذا علمًا أنني قد نشرت الكثير من المواد الثقافية الفكرية.. أستاذي الكريم، أرجو إعلامي عن مصير المادة المرسلة فيما إذا كانت ستنشر لديكم أم لا، بالتالي فإنني وأنا أعبر عن سعادتي بالتواصل معكم، أريد القول أنني أولاً وأخيرًا قارئ يجهد للحصول على ما يقرأ، وكتاباتكم من أحب ما أرغب بقراءته.

لكم أصدق تمنياتي بالصحة والسعادة.

حسن إبراهيم أحمد
سورية ـ جبله ـ قرية بعبده

* الرسالة وصلت.. ونشكرك.. ويشكرك الأستاذ هيكل الذي يعتبر نفسه صديقًا للمجلة ويصر على ألا يزيد دوره عن هذا الحد. وفي كل الأحوال ترحب وجهات نظر بجميع ما يرد إليها من مقالات سواء عن طريق البريد العادي أو الإلكتروني أو باليد، وهي دائمًا تلقى الاهتمام الكافي وتأخذ مسارها الطبيعي إلى لجنة قراءة للتحقق من تلبية المادة المرسلة لمعايير النشر في وجهات نظر.



ملاحظـــات

لي ملاحظات على ثلاث مقالات نشرت بالمجلة في الشهور الأخيرة. المقال الأول بعنوان (الشيوعيون المصريون وثورة يوليو) للأستاذ محمد سيد أحمد المنشور في عدد أغسطس ٢٠٠٢ حيث ورد في صفحة ٢٥ من المقال إشارة إلى «وصول خروتشوف بالباخرة إلى الإسكندرية لافتتاح السد العالي في أغسطس ١٩٦٤» (على حد قوله). والصحيح هو أن خروتشوف وصل إلى الإسكندرية في مايو ـ وليس أغسطس ١٩٦٤، وذلك لحضور الاحتفال بانتهاء المرحلة الأولى من السد العالي، وهي تحويل مجرى نهر النيل في أسوان.

المقال الثاني بعنوان (تاريخ الآثار المصرية.. علم.. ونفوذ.. وسرقة.. وصراع!) للدكتور رشدي سعيد، والمقال الثالث بعنوان (كيف تحرر علم الآثار المصرية من السيطرة الأجنبية) للدكتور رءوف عباس، وكلاهما منشور بعدد ديسمبر ٢٠٠٢. يقول الدكتور رشدي (صفحة ٤٨) إن المتحف القبطي افتتح رسميًا عام ١٩٤٦ وبحضور الملك فاروق، في حين يذكر دكتور رءوف (صفحة ٥٢) إن المتحف افتتح عام ١٩١٤. فأي التاريخين هو الصحيح..؟

د. شعبان عبد العزيز عفيفي
كلية الدراسات التجارية ـ الكويت

* تم افتتاح المتحف القبطي في عام ١٩٤٦م. أما التاريخ الذي ورد في مقال الدكتور رءوف عباس فهو خطأ مطبعي تأسف المجلة لحدوثه.

المحـــرر



اللواء حسن فريد

الأستاذ هيكل..

بالإشارة إلى فقرة وردت في مقالكم الأخير (عدد يناير ٢٠٠٣) كان اللواء حسن فريد هو الذي يتولى رئاسة الأركان وقت قيام ثورة ٢٣ يوليو.

لواء إبراهيم شكيب
دكتور مدحت القرشي

وجهات نظر:
الملاحظة صحيحة.. وكان الأستاذ هيكل قد طلب فعلاً إجراء التعديل اللازم في الفقرة المعنية على الكتاب الذي يصدر هذا الشهر متضمنًا مجموعة مقالاته تلك تحت عنوان «سقوط نظام.. لماذا كانت ثورة يوليو لازمة».




أسطورة حرية الصحافة.. في أمريكا

■ عندما ظهرت صورة أسامة بن لادن على شاشات الفضائيات لأول مرة، وهو يوجه رسالته إلى العالم بعد أحداث ١١ سبتمبر بأيام قليلة، سارعت الحكومة الأمريكية فطلبت من مسئولي الشبكات التليفزيونية وكبار محرري الصحف الأمريكية وجميع وسائل الميديا في الدول الحليفة في الغرب، أن تمتنع عن إذاعة أو نشر أي شيء على لسان هذا «الشيطان المسلم»، بحجة أن رسائله يمكن أن تحمل تعليمات سرية مشفرة إلى أتباعه من تنظيم القاعدة المنتشرين في جميع أنحاء العالم للقيام بعمليات إرهابية جديدة.

كانت هذه هي الخطوة الأولى، على طريقة تحول الإعلام الأمريكي من أحد أهم الرموز الرائدة التي حملت شعلة الدعوة إلى حرية التعبير وحرية الصحافة في العالم، إلى رمز لأحدث الأساليب المعلوماتية وأكثرها دهاء في كيفية خنق الأنباء وتشويهها وحجبها عن الرأي العام، من أجل تحقيق أهداف سياسية بعيدة المدى لا تقتصر على الرأي العام في أمريكا وحدها بل تستهدف التأثير على العالم بأسره.. وذلك بحجة تعبئة طاقات الأمة الأمريكية في الحرب ضد الإرهاب، والقضاء على «محور الشر» الذي يهدد الولايات المتحدة والغرب بالفناء، وتشكيل الرأي العام الأمريكي بما يساعد على تحقيق هذه الأهداف.

ويطلق أصحاب النظريات الأمريكية على أساليب حرب الدعاية التي انحدر إليها الإعلام الأمريكي، مايعرف باللجوء إلى «القوة الناعمة» Soft Power. وهي القدرة على الحصول على ما تريده عن طريق إقناع الآخرين باحتضان أهدافك.. في مقابل «القوة الصلبة» Hard Power وهي اللجوء إلى استخدام أساليب الضغط الاقتصادي والقوة العسكرية لإجبار الآخرين على الرضوخ والإذعان. وفي رأي العصبة الحاكمة حاليًا في البيت الأبيض والبنتاجون أن الحرب ضد الإرهاب تقتضي استخدام القوتين معًا، الناعمة والصلبة، بحسب مدى قرب الطرف الآخر أو بعده، وتصنيفه كعدو أو صديق طبقًا للمقولة السائدة بأن كل شيء مباح في الحب والحرب!! وفي هذه الحالة فإن القوة الناعمة تنبثق من ثورة الإعلام والمعلومات والقدرة على تشكيلها، ومن الثقافة والفنون في جميع صورها وألوانها. ولا حاجة بنا إلى القول بأن العالم يشهد الآن واحدة من أشرس المعارك التي تستخدم فيها «القوة الناعمة» لخدمة أهداف السياسة الأمريكية، سواء فيما يتعلق بالحرب ضد الإرهاب أو بالحرب ضد العراق، أو بالقضاء على محور الشر.



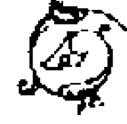
وفي كتاب صدر أخيرًا بعنوان «أسطورة حرية الصحافة» الذي كتب مقدمته الكاتب والروائي الأمريكي الشهير جور فيدال، يستعرض عدد من ألمع وأبرز الصحفيين الأمريكيين تجاربهم خلف الكواليس في الصحف وشبكات التليفزيون، وعلى مر سنوات طويلة من العمل الصحفي.. وكلها تجارب قادرة على إثارة الدهشة التي قد تصل إلى حد الصدمة.. تكشف بجلاء عن السياق الذي تحركت الميديا الأمريكية من خلاله في تغطية الأحداث التي وقعت في أعقاب ١١ سبتمبر، حيث أغرقت وسائل الإعلام أو بالأحرى غرقت في مستنقع من الأكاذيب وأنصاف الحقائق التي وظفت في خدمة السياسة التي رسمها المسئولون في البيت الأبيض.. أمة خيرة، ديمقراطية، مُحبة للسلام. تتعرض لهجوم مجموعة من الإرهابيين المجانين الأشرار، الذين يكرهون أمريكا لما تتمتع به من حرية ورخاء. وإزاء ذلك فلا بد من أن تستخدم أمريكا قدراتها العسكرية، وأن تتعقب المذنبين وتقضي عليهم.. وتهيئ نفسها لحرب تستأصل سرطان الإرهاب من جذوره وتقضي عليه. أما هؤلاء الذين لا يقفون إلى جانب أمريكا في حربها العادلة ـ في الداخل أو في الخارج ـ فلا بد من اعتبارهم متواطئين يسري عليهم ما يسري على مرتكبي الجريمة.. واتخذت الصحافة الأمريكية موقفًا غريبًا: فلم تطرح سؤالاً واحدًا عن مدى استفادة أمريكا عسكريًا وسياسيًا واقتصاديًا من عسكرة الحياة الأمريكية وخوض الحرب. ولم تتساءل عن جدوى الحرب في القضاء على الإرهاب أو إنزال القصاص العادل بالمسئولين عن أحداث سبتمبر. وهي تساؤلات وشكوك كان من الطبيعي أن تثيرها الصحافة الحرة في مواجهة أي حكومة تقف على أهبة حرب عالمية في ظل نظام ديمقراطي.

ويعزو الكتاب هذا الموقف المتخاذل للصحافة الأمريكية، وإذعانها الكامل لما تمليه عليها المصادر الرسمية، إلى الأوضاع المهنية التي فرضت على وسائل الإعلام الأمريكية منذ تم الفصل الكامل في النصف الثاني من القرن العشرين بين السياسة التحريرية للوسيلة الإعلامية وبين النواحي التجارية. ثم غلبت بمرور الوقت الاعتبارات التجارية والرغبة في الكسب ـ في ظل المنافسة الحادة ـ على استقلالية الصحافة. وطغت هذه النزعة التجارية خلال العقود الأخيرة بدرجة مطّردة، فأصبحت تتحكم في تحديد أولويات نشر القصة الصحفية وأيها يجب أن يحتل صدر الصفحة الأولى. وأدى تشابك المصالح بين السلطة التنفيذية وكبار رجال الأعمال والشخصيات المتنفذة في المجتمع من ناحية وبين ما يمكن أن تجنيه الصحيفة أو شبكة التليفزيون من مكاسب من ناحية أخرى، إلى المساومة على أولوية الخبر الصحفي ومدى أهميته بالنسبة للرأي العام ومصالح الأغلبية. وبالتالي فقدت صحافة الخبر وفنون «التحقيق في العمق» مواقعها المتقدمة التي تميزت بها الصحافة الأمريكية.



في إطار هذا التطور وُلدت ونمت وترعرعت صناعة العلاقات العامة، التي برعت في استخدام أساليب البيانات الصحفية المنمقة، والجماعات المدنية المصطنعة، والأخبار الجاهزة المعلبة، والشخصيات الإعلامية التي تقف على تخوم تقارب بين الإعلان والإعلام. وساد شعار قوي بأن «دور العلاقات العامة هو تهيئة الرأي العام لتخفيف آثار الديمقراطية» التي يمكن أن تتعرض للمخاطر بسببها المؤسسات الاقتصادية ورجال الأعمال الأثرياء.. وأصبحت القاعدة المعمول بها في مهنة الصحافة: «إذا وافقت النخبة، أي الـ ٢ أو ٣ بالمائة من الطبقة العليا في المجتمع وهي التي تملك رأس المال وتسيطر على المؤسسات الكبرى، على قضية ما، فلا ينبغي للصحافة أن تقترب منها بالنقد والتمحيص والتحقيق».

وبناء على ذلك تغيرت هياكل المؤسسات الإعلامية الأمريكية تغيرًا جذريًا خلال ربع قرن وعلى وجه التحديد في العقد الأخير. فاندمجت عشرات بل مئات من الصحف وشبكات الإذاعة والتليفزيون الصغيرة في مؤسسات إعلامية عملاقة من المؤسسات متعددة الجنسية، لا يزيد عددها على تسع أو عشر مؤسسات، تعد من بين أكبر ٢٠٠ مؤسسة في العالم، وتغيرت تركيبة هذه الشركات الإعلامية الضخمة، فأصبحت تضم شبكات التليفزيون الرئيسية، وأهم المحطات الإذاعية، وقنوات الكوابل التليفزيونية، وستوديوهات الأفلام السينمائية، ومعظم دور نشر الكتب والمجلات.. أصبحت هذه المؤسسات تمثل إمبراطوريات إعلامية ضخمة، تسيطر على صناعة الصحافة والنشر والسينما والفيديو والكاسيت.. وكلها فروع إعلامية تخدّم على بعضها البعض، وتخضع لقوى رأسمالية عاتية النفوذ والتأثير.



كان يقال عن الشعب الأمريكي قبل ذلك أن معلوماته عن العالم الخارجي مشوهة أو ناقصة. أما الآن فقد حجبت المعلومات عنه تمامًا. وتعتبر هذه المؤسسات الإعلامية الضخمة من أوائل المستفيدين من اتجاهات العولمة وانتشار نفوذ الإعلام الأمريكي خارج الحدود. ومن ثم لم يكن غريبًا أن يكون لشبكة C.N.N نشرة إخبارية للاستهلاك المحلي تخاطب الاهتمامات التي يحددها البنتاجون للرأي العام الأمريكي، وأخرى للأسواق العالمية التي يمكن أن تتابع السياسات الأمريكية بنظرة نقدية متشككة.

وعندما قام أكثر من مائة من أبرز وألمع نجوم هوليوود يوم ١٠ ديسمبر بمظاهرة احتجاج ضد الحرب على العراق، وعقدوا مؤتمرًا صحفيًا قرروا فيه إرسال خطاب مفتوح إلى الرئيس بوش يطالبون فيه بانتهاج الأساليب الدبلوماسية لحل المشكلة بدلاً من القوة العسكرية، تجاهلت الصحف الأمريكية نشر الخبر تمامًا. وشنت شبكتا C.N.N وفوكس هجومًا من السخرية والاستهزاء عليهم.

غير أن انتكاس الإعلام الأمريكي لم يعد مقصورًا على انحطاط الأداء الإعلامي للصحافة وشبكات التليفزيون الأمريكية، بل أخذت وزارة الدفاع الأمريكية تفكر وتنفذ حاليًا مشروعًا جديدًا للقيام بعمليات إعلامية مخابراتية، بهدف التأثير على الرأي العام وصناع القرار سواء في البلدان الصديقة أو المعادية للولايات المتحدة.

وتبدو الفكرة تكرارًا لأساليب الدعاية التي استخدمت إبان الحرب العالمية الثانية وخلال الحرب الباردة.. عن طريق القيام بعمليات سرية وتقديم تمويل سري للتأثير في المدارس والمساجد، وإغراء الصحفيين بكتابة مقالات تنسجم مع الأهداف الأمريكية، وتنظيم المظاهرات والتجمعات المؤيدة لأمريكا.

من الممكن أن يقال أننا في عصر عولمة الديمقراطية. وأن حرية الصحافة والإعلام قد أصبحت نوعًا من العلاقات العامة. ولكن أحدًا لا يستطيع أن يدعي أن الديمقراطية الأمريكية هي النموذج الأفضل في العالم.

سلامة أحمد سلامة



Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 51 - April 2003

مجلة شهرية . العدد الواحد والخمسون . السنة الخامسة . أبريل ٢٠٠٣ . الثمن عشرة جنيهات

محمد حسنين هيكل

هذا الإعصار الأمريكى!

لغة الجنرالات القاتلة / مريد البرغوثى

اقتصاديات ترويج الاكتئاب / مايكل جاكوبسن

«كليلة ودمنة».. الحيلة والدهاء فى مواجهة البغى والاستعلاء!

قراءة: من دفتر ملاحظات الحرب / أيمن الصياد

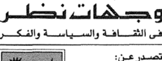
نون : حركات الاحتجاج عندنا وعندهم / سلامة أحمد سلامة

حلمى التونى

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد



وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربي والدولى

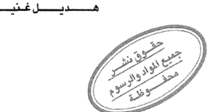


رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

السنة الخامسة
العدد الواحد والخمسون
أبريل ٢٠٠٣

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إدوارد سعيد.. أستاذ الأدب المقارن بجامعة كولومبيا.
- إسحاق لاور.. شاعر وروائي يعيش في تل أبيب.
- أيمن الصياد .. صحفي.
- ديفيد بلانكس.. أستاذ التاريخ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفي.
- عبد الله علي إبراهيم.. أستاذ مشارك في التاريخ، جامعة ميسوري
- فاروق عبدالقادر.. كاتب.
- مايكل بورخ - جاكوبسون.. أستاذ الفرنسية والأدب المقارن بجامعة واشنطن.
- مريد البرغوثي .. شاعر فلسطيني يعيش في القاهرة.
- محمد حسنين هيكل .. صحفي.
- محمد عبد الرحمن يونس .. محاضر في جامعة الدراسات الأجنبية ببكين.
- محمود الكردوسي.. صحفي.
- نبيل علي .. خبير الأبحاث اللغوية العربية والإلكترونية.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجي - أحمد اللباد





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٩٣٠٤٩٠ / ٢٩٣٠٤٩٢ / ٢٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولاراً أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكيًا - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهماً - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالاً - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

كـلـمــــــة..

فى كتب وجهــــات نظـــر

■ فى عدد سبتمبر ٢٠٠١ من «وجهات نظر» وتحت عنوان «تقرير رئاسى أمريكى.. خريف خطر» قدم الأستاذ محمد حسنين هيكل قراءته لتقرير عن سياسة أمريكا فى الشرق الأوسط، كان قد عرف وقتها أنه ربما يتصدر مجموعة تقارير على مكتب الرئيس الأمريكى الجديد جورج دبليو بوش. وكان قد رأى - يومها - أنه (أى التقرير) يقدم إطلالة على القرار الأمريكى فى الشرق الأوسط وتوجهاته فى المرحلة القادمة.. وكانت تلك الإطلالة «الواجبة» هى قصد هيكل (فى سبتمبر ٢٠٠١) كما قال فى تقديمه لمقاله.





التقرير الذى اختاروا له عنوان «الملاحة فى بحور مضطربة» Navigating Through Turbulence والذى كان على مكتب الرئيس الأمريكى قبل أحداث سبتمبر (لاحظ) حدد الخطوط العامة للسياسة الأمريكية والتى لخصها هيكل فى الآتى:

* إن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تدعى لنفسها «رئاسة العالم» وإلا جلبت لنفسها مشكلات تستثير الحساسية أو تستدعى المنافسة أو تستفز الآخرين بغير لزوم لكن عليها فى نفس الوقت أن تحتفظ لنفسها بالكلمة الأخيرة فى أى موضوع.

وذلك يعنى:

* إن الولايات المتحدة لا تقبل قسمة أو توزيعًا فى مسئولية القرار العالمى.

* ولا تقبل قيادة جماعية أو نوعًا من مجلس الإدارة مسئولاً بالتضامن حتى ولو كان لرئيسه صوتان أو حتى ثلاثة!



ويتضمن التقرير الذى عرض له هيكل فى «وجهات نظر» قبل عام ونصف توصيات مستشارى الرئيس فيما يخص الشرق الأوسط والتى منها ..

«عليك أن تكون مستعدًا للقيام «بإجراءات نهائية» ضد القوى التى تهدد المصالح الأمريكية فى المنطقة، وأولها العراق وإيران.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى:

١- عليك تشجيع التغيير فى إيران وفى العراق، وعليك أن تلاحظ أن التغيير فى إيران يمكن أن يتم بوسائل سياسية، أما التغيير فى العراق فلا يمكن أن يتم بوسائل سياسية. ومعنى ذلك أن التغيير فى إيران يمكن أن يتم من الداخل، أما التغيير فى العراق فيقتضى دعمًا من الخارج... ولتسهيل التغيير فى العراق وتقليلاً لتكاليف العنف الملازم له يستحسن إشغال صدام حسين وتشتيت انتباهه على أكثر من جبهة واحدة.

* عليك تقدير ردود فعلك العسكرى مبكرًا إزاء أى تطور يحدث فى العراق.

وفى كافة هذه الحالات ليس هناك ما يمنع من أن يكون صدام حسين على علم برد فعل الولايات المتحدة وتصرفها إزاء كل حالة، ويجرى ذلك بالتوازى مع إعادة بناء إمكانية مالية وعسكرية وتكنولوجية لقوى المعارضة العراقية، على أن تكون هذه القوى على علم أكيد بحجم الدعم الذى يمكن أن تقدمه لها الولايات المتحدة فى كل ما تقوم به من أجل نظام ديمقراطى فى عراق ما بعد صدام حسين.

* عليك أن تشجع المعتدلين فى إيران ضد المتطرفين، وأن تصل من وراء الاثنين مباشرة إلى الشعب الإيرانى: شجع السياحة بين إيران والمغرب - شجع القطاع الخاص فى إيران - ابحث عن قنوات للحوار مع القوى الديمقراطية فى إيران.

٢ - بصرف النظر عن الموجة المعادية لأمريكا - وهى تجتاح المنطقة الآن - فإن عليك أن تعزز التيارات والمواقع الموالية للسياسة الأمريكية.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى.

* عليك أن تشجع عملية واسعة للتعريف بالقيم الأمريكية والديمقراطية الأمريكية والممارسة السياسية فى أمريكا.

* عليك أن تعمل على ظهور قيادات جديدة صديقة لأمريكا وقادرة على إجراء إصلاحات توفر لها (لهذه القيادات) شرعية مقبولة.

* عليك تشجيع الاتجاه نحو الديمقراطية وحماية حقوق الإنسان، وفى هذا الميدان فإن عليك أن «تفكر بجرأة وتتصرف فى حذر» لأن عملك فى هذه المجالات يمكن أن يخلق حساسيات تعطل جهودك. ركز على مصر باعتبارها أكبر دولة عربية. ركز على السلطة الفلسطينية لأن قضية فلسطين موجودة فى كل بلد عربى، وهناك احتمالات واسعة لتطورات ديمقراطية مهمة فى «عصر ما بعد عرفات»!

٣ - «عليك» أن تهتم بتقوية قواعد ووسائل عملك فى «الشرق الأوسط» لمواجهة أية احتمالات تنشأ دون أن يفاجئك منها شىء.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى:

* عليك أن تعرف أن إسرائيل هى الركيزة الأولى لضمان أمن الإقليم، والتحالف الأمريكى مع إسرائيل بالفعل وبالقول هو القاعدة المتينة لكل الخطط والسياسات، والحقيقة فإن قوة الشراكة بين البلدين هى أداة الفعل الرئيسية فى المنطقة، ولابد أن تكون العلاقة بين الطرفين (الأمريكى والإسرائيلى) نظيفة من أى سبب للتوتر.

* عليك - للاستفادة القصوى من هذه الحقيقة الاستراتيجية - أن تكفل لإسرائيل «تفوقًا نوعيًا» متجددًا طول الوقت على كل الأطراف العربية، وهنا فإن عليك أن تقاوم وترفض بشدة كل محاولة من جانب أى طرف عربى يطلب أو يسعى للتساوى مع إسرائيل.

* عليك أن تبذل جهدك لتأييد وتسريع عملية التطبيع بين الأردن وإسرائيل، وإقناع الأردن أن ذلك أفضل ضمان له سياسيًا واقتصاديًا، وحذر الأردن من غواية تصورها أنها تستطيع مغازلة أو مهادنة صدام حسين، ذلك سوف يضر بسلامة الأردن واعتداله.

* عليك أن تشجع تركيا على القيام بدور رئيسى فى المنطقة مع إفهامها بطريقة واضحة أنها لا تستطيع أن تمارس هذا الدور، ولا أن تحقق نتائجه السياسية والاقتصادية إلا بالتعاون مع إسرائيل.



وبشأن مشكلة الشرق الأوسط يلفت التقرير الذى عرضه هيكل نظر بوش إلى أن:

«الممكن هو «إدارة» أزمة الصراع العربى الإسرائيلى وليس حله».

وأن «إدارة الأزمة مهمة ثقيلة لكنها ليست خطرة طالما أمكن تحقيق المطالب الرئيسية فى صلب تقرير اللجنة الرئاسية (الفصل فى منطقة الشرق الأوسط بين نطاق البترول «سريع الاشتعال» ونطاق الصراع العربى الإسرائيلى «القابل للانفجار» ثم التركيز على الدول المعتدلة «الموالية للغرب» على حافة الصراع العربى الإسرائيلى (مصر والأردن)».



وفى مارس ٢٠٠١، قبل عامين كاملين، وبمناسبة انعقاد قمة عمان، اختار هيكل «نهايات طرق» عنوانًا لمقاله مذكّرًا بأنه إذا لم تنتبه القمم العربية إلى أنها قرب «نهاية طريق» فقد يتأكد بأسرع مما يتوقع أحد أنها «نهاية القمة» بمثل ما أنها «نهاية طريق».

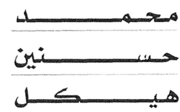
وموضحًا أن أول قوانين الصراع أنه حين يرضى طرف لنفسه أن يَستَخذى فإن الطرف الآخر مدعو لأن يَستَقوى «لأن الغاية النبيلة لا تُحَقِّقها وسيلة ذليلة»، يقلب هيكل كعادته فى صفحات «التاريخ» ليبين لنا كيف أنه يُواصل حركته، ويضع نقاط تَحَوُّله، ويُحَدِّد «نهايات طرقه»، سواء تنبَّه أصحاب القرار فى حينه واستجابوا، أو أنهم غفلوا حتى فات الأوان أو أوشك.

مقالات هيكل تلك جمعها كتابان صدرا عن «وجهات نظر» أحدهما عن «العربى التائه.. نهايات طرق»، والثانى عن «الزمن الأمريكى». ■

وجهات نظر



□□ لاعتبارات طباعية وفنية تأخذ «وجهات نظر» شكلاً، تأمل هيئة تحريرها معرفة رأى قرائها فيه.



■■ لكى يمكن فهم وتحليل مشهد هذا الإعصار الأمريكى الذى يضرب المنطقة العربية هذه اللحظة (أبريل ٢٠٠٣) - فقد يلزم الاتفاق كمقدمة - على مجموعة من الطبائع والأحوال، وبقع اللون والظل والفراغ فى هذا المشهد - حتى تبين الصورة وتتضح التفاصيل.

ومع أن مشهد هذا الإعصار الأمريكى العاتى فيه الكثير مما هو مألوف ومعروف - إلا أنه فى بعض الأحيان وعندما تحل الطوارئ - يكون استرجاع المألوف والمعروف ضروريا ولازما لسببين:

- من ناحية - إعادة التأكيد - حتى مع محظور التكرار.

- ومن ناحية ثانية - فرز المألوف المعروف عما هو طارئ مستجد - وذلك هو الطلب!





"١"

أسلوب جديد فى استخدام السلاح

١ - وبداية فإنه يلزم الاتفاق على أن حركة التاريخ مجرى إنسانى عريض وعميق صبت فيه الجماعات والشعوب والأمم ملكاتها الفكرية والعقلية، ومنجزاتها فى العلوم والتكنولوجيا، وما حققته من حصيلة الإنتاج والتراكم، وما تجمع لديها من مطالب القوة والتفوق - محفوفة بما توفر لديها من حكمة وقيم وفلسفة وفن.

٢ - ثم إنه يلزم الاتفاق - أيضا - على أن التدافع الهائل للحركة الإنسانية عبر التاريخ هو الذى سمح بظهور مجتمعات ودول وإمبراطوريات ضخمة برزت على طول مجراه، وأن هذه المجتمعات والدول والإمبراطوريات حافظت وأضافت فى أحوال صعودها أو انحلالها على مستودع ذاكرة إنسانية متعددة فى منابعها الثقافية متلاقية فى مجرى واحد أصبح منهلا ومـوردا لكل من يريد أن يدرس ويستوعب قصة الحضارة من بدايتها وحتى اللحظة الراهنة.

٣ - ويلزم الاتفاق بعدها مباشرة - على أن قصة الحضارة يقوم على تمثيلها كل بطل علا صيته فى زمانه. وفى أزمنة قريبة فإن تمثيل الحضارة الإنسانية تجلى مرة بملامح فرنسية على عهد «لويس الرابع عشر»، ومرة بملامح إنجليزية على عصر «فيكتوريا»، وأخيرا تجلى بملامح أمريكية ابتداء من رئاسة «فرانكلين روزفلت» للولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية - دون أن يعنى ذلك أن عصور «لويس الرابع عشر» أو «فيكتوريا» أو «فرانكلين روزفلت» هى كاتبة النص الحضارى - فذلك النص كتبته الثقافات الإنسانية جمعاء، وتعاقب على تمثيله النجوم مع اختلاف العصور، وقامت عليه الإمبراطوريات بأحكام التقدم والغلبة!

٤ - ويلزم الاتفاق - كذلك - على أن الإمبراطورية الأمريكية حلقة أخيرة فى

هذا الإعصار

سلسلة متوالية من الإمبراطوريات - لكن هذه الإمبراطورية الأمريكية جاءت لأول مرة في التاريخ مستغنية عن وطنية شعب على أرض - أو جامع أمة بعلاقة قرابة أو لغة أو تاريخ، لأن قيامها بالدرجة الأولى لم يكن له رابط غير المصلحة - تعبر عنها «السوق» في نهاية المطاف، وكان توسيع السوق هو حافز الحرب الأهلية الأمريكية كي تضم الجنوب الزراعي إلى الشمال الصناعي وتتمدد غربا، ثم تعبر المحيطات إلى عوالم أبعد - أي سوقا أكبر.

٥ - ويلزم الاتفاق - أخيرا - على أن هذه الإمبراطورية الأمريكية وبأحوال وظروف نشأتها وصعودها، أخذت بنزعة القوة لبلوغ غاياتها حتى وإن جاء ذلك على حساب قيامها على التراكم الحضاري الإنساني، ولأن منطق السوق الذي هامت غراما به هو بطبائعه عملية إزاحة لأي منافسة - وإصرار يسعى بالضرورة نحو سيطرة غير مشروطة - وذلك طبع الاحتكار.

وكان استعمال القوة في عهود إمبراطورية سبقت - مغلفا على الأقل - باعتبارات ملاءمة إنسانية جرى عليها العُرف واستقرت التقاليد.

....

....

[وفي هذا الموضع أتذكر حوارا أشرت إليه من قبل - دار بيني وبين القائد العسكري البريطاني ذائع الصيت الماريشال «مونتجمري» (بطل العلمين، وهي واحدة من أهم معارك الحرب العالمية الثانية - وقد جرت على صحراء مصر الغربية خريف سنة ١٩٤٢ ضد الجيش الألماني) - وفي هذا الحوار أورد الماريشال العتيد ما أظنه نوعا من التوصيف «المحترم» لشروط استعمال القوة المسلحة (الحرب) - وقال الماريشال في كلامه:

«إنه لابد في استعمال قوة السلاح من توافر عناصر مبدئية لتسويغ الحرب مؤداها: أن يكون لدى شعب أو أمة أو إمبراطورية هدف مطلوب سياسيا، وممكن عمليا، وجائز قانونيا، ومبرر أخلاقيا».

ومع أن القوانين والأخلاق فيما سبق من تجارب التاريخ - تعرضت للذرائع والأهواء، إلا أن استعارة مبادئها - حتى تعسفا - لم يغب قط عن ساحات الحرب. وبساتر المبادئ فإن الحروب الاستعمارية لم تكن للاستيلاء على موارد وأقدار شعوب - وإنما كانت «لنشر الحضارة في قارات الظلام»، أو «منع الرق»، وتحريم استغلال الإنسان للإنسان (رغم أن الجماعات المهيمنة لم تؤرق نفسها ببؤس الرق إلا عندما اطمأنت إلى أن طاقة البخار حاضرة لتعويض عضلات العبيد، وأنها كذلك طاقة أرخص!).

وعلى نفس القياس فإن الحرب العالمية الأولى لم تكن مذبحا هائلا للبشر من أجل توزيع المستعمرات - وإنما كانت حربا من أجل الحرية والتحرر.

والحرب العالمية الثانية التي انتهت بكابوس نووي، لم تكن حربا ورثت بها أمريكا ما سبقها من إمبراطوريات - وإنما كانت حربا لتصفية شرور النازية والفاشية.

والمعنى أن الحروب على طول التاريخ، احتاجت إلى سواتر أو ذرائع قانونية وأخلاقية أو شبه قانونية وأخلاقية، وأما في حالة الإمبراطورية الأمريكية فإن استعمال القوة مع تركيزها أو احتكارها - جاء مكتفيا بما لديه، مستغنيا عن أية إضافات إنسانية «جمالية» - فوقه!

....

....

[وهنا فإن منطق القوة الأمريكية حين تمارس دورها - عبر عن نفسه بأصرح وأصدق ما يمكن بنظرية الدكتور «هارلان أولمان» (وهو أحد المستشارين المسموعين في البيت الأبيض، وفي الأصل أستاذ علوم سياسية في كلية الدفاع الوطني) - وكان تعبيرد عن نفسه أقرب إلى البوح - بحيث يصح أن يستعاد للتذكر والتفكر.

فقد كتب الدكتور «أولمان» مذكرة بعنوان «الصدمة والرعب» (Shock and awe) وُضعت أمام الرئيس الأمريكي ونشرتها الصحافة الأمريكية (وبينها جرائد نيويورك تيمس، وواشنطن بوست، ولوس أنجلوس تيمس) - وفيها يقول بالنص:

«إن الولايات المتحدة عليها أن تستعمل أقوى شحنة من القوة المكثفة والمركزة، والكاسحة - بحيث تنهار أعصاب أي عدو يقف أمامها، وتخور عزيمته قبل أن تنقض عليه الصواعق من أول ثانية في الحرب إلى آخر ثانية، ويتم تقطيع أوصاله وتكسير عظمه وتمزيق لحمه دون فرصة يستوعب فيها ما يجري له!».

ومن المقلق أن الدكتور «أولمان» ظهر بنفسه على شبكة C.B.S (وهي أكبر شركات التليفزيون الأمريكية) في ٩ فبراير الماضي يتحدث عن «نظريته في الحرب» مركزا على عدة شروط:

- أن استعمال أقصى درجات العنف من أول لحظة كفيل بتوليد إحساس بالعجز لدى العدو، يجعله مأخوذا بطغيان تفوق عليه لا مثيل له (ولعل ذلك الأثر هو المقصود من مشاهد الحشد العسكري الأمريكي

الأمـــــريـــكـي!



المتوحش حول العراق من قبل بدء أية عمليات، والظاهر أنه أحدث أثره ساحقا في عدد من العواصم العربية وصلت إلى التسليم اليائس بأنه طوفان كاسح لا يمكن إيقافه ـ ومن قبل أن تقتحم الجيوش حدود العراق!).

ـ أن تكون بداية الضربة الأولى على بغداد حاملة لـ ٨٠٠ صاروخ من طراز كروز متلاحقة على مدى يومين أى بمعدل صاروخ كل أربع دقائق، وفي هذين اليومين ـ طبقا لأولمان ـ فإنه لابد من تدمير كافة محطات الطاقة والماء، وعليه فإنه عندما يجيء اليوم الثالث يكون «سكان العاصمة العراقية قد تأكد استهلاكهم نفسيا ومعنويا ـ قبل ماديا وجسمانيا».

ـ والأثر الذى يجب أن تُحدثه اللحظة الأولى من الحرب، لابد أن يكون مقاربا لأثر قنبلة هيروشيما التى أقنعت القيادة العليا اليابانية والإمبراطور «هيروهيتو» بأن حياتهم ذاتها تحت رحمة الغزاة، وفي رأى «أولمان» أن ذلك ممكن في حالة العراق حتى إذا لم يقع استعمال قنابل نووية، اكتفاءً «بأسلحة متفوقة» لها قوة فتك غير محدودة.

ثم يختم الدكتور «أولمان» شرحه لنظريته في حديثه التليفزيوني بقوله: «إنه قام بتدريس منهج كامل عن نظريته لكبار القادة السياسيين والعسكريين في كلية الدفاع الوطني، وكان بين الجالسين على مقاعد الدرس والتحصيل أمامه: «كولين باول» (رئيس هيئة الأركان السابق في إدارة بوش (الأب)، ووزير الخارجية الحالى في إدارة بوش (الابن)!».

(وذلك في الوقت نفسه ـ حتى تتصل الجذور بالفروع ـ منطق يختصر الوقت، ويقلل في التكاليف، ويوفر الخسائر في أرواح المهاجمين الذين تربوا على أن الوطن مساهمة في شركة وليس تضحية بدم)].

....

....

٦ ـ يجيء بعد ذلك في سياق ما يلزم الاتفاق عليه ـ أن هذه الاستراتيجية في استعمال القوة المسلحة الصاعقة، لم يكن ممكنا تطبيقها في زمن الحرب الباردة، لأن وجود الاتحاد السوفيتى في مواجهة الإمبراطورية الأمريكية فرض درجة من التحفظ استوجبها ميزان الرعب النووى.

ومع أن كلا من «القوتين الأعظم» زمن الحرب الباردة، كلتاهما اهتمت بالحروب المحلية المحدودة وربما شجعتها وحرضت عليها كميادين لاختبار القوة، واحتلال ـ أو إخلاء ـ المواقع، فإن «الإمبراطوريتين الأكبر» في نفس الوقت وعلى امتداد قرابة نصف القرن حرصتا على حصر دائرة النار وإبعادها بكل وسيلة عن خط التماس المباشر بينهما.

وهكذا فإن الصراع بين الإمبراطوريتين ـ إمبراطورية السوق وإمبراطورية الشيوعية ـ دار بالوساطة، ودار بالأساليب الخفية والنفسية والاقتصادية، أملا في اتقاء المحظور وتجنب الدمار المتبادل في جحيم نووى!

٧ ـ وأخيرا يلزم الاتفاق على أنه في تلك الفترة الحرجة (من الحرب الباردة) ـ فإن الولايات المتحدة الأمريكية، منحت تفويضات مفتوحة في مناطق مختلفة من العالم لقوى إقليمية كلفتها بدور رجل البوليس المحلى ينوب عنها في استعمال السلاح عندما تقتنع الولايات المتحدة بأن دور السلاح قد حان في التعامل مع بؤر مقاومة في إقليم معين ـ ثم إنه في إطار هذه التفويضات برز دور إسرائيل في الشرق الأوسط قبل أى وكيل غيرها (مثل كوريا الجنوبية أو جنوب أفريقيا العنصرية أو إيران الشاهنشاهية)، وزاد أن إسرائيل نتيجة اعتبارات إضافية، تمكنت من خلق توافق استراتيجى مع الولايات المتحدة شجعته الإمبراطورية الأمريكية واستفادت من نتائجه.

والشاهد أن إسرائيل إلى جانب التوكيل الممنوح لها في حفظ المصالح الإقليمية للولايات المتحدة ـ بدت قادرة ـ بالزيادة فوقه ـ على تعبئة يهود العالم وراء الولايات المتحدة ـ وعلى التأثير في أهم وسائل الإعلام والترفيه ـ وعلى جمع المعلومات من قلب الاتحاد السوفيتى ومحيطه ـ ومستعدة لأية مهمة تكلف بها دون تدقيق في المقاييس والمعايير ـ وذلك خلق في الشرق الأوسط ـ ضمن ما خلق ـ تناقضا بين الحقائق وخللا في الموازين: بحكم أن المصالح الأمريكية كلها عند العرب، وتأمين نفس المصالح موكول إلى إسرائيل ـ مع تفويض لها تتصرف كما ترى ـ أو كما يُطلب منها!

«٢»

سباق بين «البيان» ـ و«الإعلان»!

بعد ذلك وفي طلب مزيد من الفهم والتحليل لمشهد هذا الإعصار الأمريكى العاتى الذى يضرب المنطقة العربية، فقد يكون مطلوبا استعادة بعض المشاهد ـ بعد لزوم الاتفاق على مقدمة له سبقت.

ومع أن المشاهد فيها ـ بدورها ـ ما هو مذكور ومشهور، إلا أن مراجعة المذكور والمشهور قد تكون ضرورية ـ لسببين أيضا:

ـ استثارة الذاكرة وتحفيزها ـ من ناحية.

ـ والربط والوصل بين المواقف إذ يتضح سياقها ـ من ناحية ثانية.

١ ـ وعلى سبيل المثال فقد يكون مطلوبا استعادة أسلوب الدعوة والترويج التى اتبعتها القوتان الأعظم في فترة الحرب الباردة، لأن الحرب الباردة كانت على الواجهة محاولة من كل طرف لتقديم نفسه للعالم، وتزكية نظامه أمام الشعوب، وتصويره على أنه شكل المستقبل، وبضرورة الأشياء فقد كانت طبيعة كل واحدة من القوتين موجهة لأسلوبها في الدعوة والترويج.

وفي حين أن الإمبراطورية الشيوعية اعتمدت أسلوب التبشير بفردوس تصنعه الطبقة العاملة بريئا من الاستغلال ـ فإن الإمبراطورية الأمريكية ـ وهى بالدرجة الأولى «إمبراطورية سوق»

ـ اعتمدت أسلوب الإعلان في توزيع وبيع السلع!

وفي حين أن الإمبراطورية الشيوعية أخذت بالخطب الرنانة والبيانات الحماسية، يجيء ختامها دائما هتافا بالتحية «لنضال الشعوب» و«بسالة كفاحها» ـ فإن الإمبراطورية الأمريكية أخذت بفنون الإعلان، وأهمها أنه شعار واحد يقول كل شيء في عبارة واحدة مختصرة تستثير صورا حافلة بالتشويق والإثارة.

وفي حين أن الفردوس الشيوعى (مثل أى نعيم مقيم) مؤجل إلى ما بعد إتمام «بناء الشيوعية» ـ فإن السلع الأمريكية معروضة للكافة وفي إيحاءاتها أن شكل زجاجة الكوكاكولا وحده وإلى جانبه عبارة «هى الأصل» جاهز لاستدعاء مذاق منعش، وأن صورة ملونة للهامبورجر وإلى جانبها عبارة «لحم صاف» جاهزة لاستدعاء الشبع والامتلاء، (بل إن صورة الشارة المعدنية الصغيرة لسيارة كاديلاك جاهزة دون زيادة كلمة واحدة، لخلق جو من الفخامة والعز يجرى على أربع عجلات!).

وبالفعل فإن معروضات السوق الجاهز فعلا، تمكنت من إزاحة وعد الفردوس المنتظر!

كان أسلوب الإعلان الأمريكى يقول كل شيء في عبارة واحدة أو صورة واحدة، وكان البيان الشيوعى وعدا مبهما يكرر ويزيد إلى درجة القتل بالملل!

ومن المدهش أن الإعلان الذى يكتفى بعبارة واحدة وصورة واحدة، أدى في مجال السياسة إلى مشاهد ملفقة، لكنها ـ اعترافا بالواقع ـ حققت غرضها.

....

....

[وأتذكر أيام كنت أغطى وقائع الثورة الإسلامية في إيران أننى صادفت طواقم عدد من شركات التليفزيون الأمريكية تبحث في «طهران» و«قم» و«أصفهان» عن مظاهرات تحرق العلم الأمريكى، وكانت تلك هى الصورة المطلوبة لإظهار أن الثورة الإسلامية عدو للولايات المتحدة وللغرب، وبالتالى فإن الرأى العام الأمريكى والأوروبى عليه أن يعاديها.

إن الحروب على طول التاريخ، احتاجت إلى سواتر أو ذرائع قانونية وأخلاقية أو شبه قانونية وأخلاقية، وأما في حالة الإمبراطورية الأمريكية فإن استعمال القوة مع تركيزها أو احتكارها ـ جاء مكتفيا بما لديه، مستغنيا عن أية إضافات إنسانية «جمالية» ـ فوقه!



وفى مرة من المرات فى ساحة «الشاهياد» فى طهران، صادفت موقفا لا يكاد يُصَدَّق، فقد وصل طاقم إحدى وكالات التليفزيون الأمريكي جاهزا بمصوريه وعدساتهم، واللافت أنهم جاءوا معهم أيضا بمجموعة من الأعلام الأمريكية يسلمونها بأيديهم إلى المتظاهرين كى يحرقوها أمام الكاميرات، وكان المتظاهرون بحماستهم متلهفين على تخاطف الأعلام الأمريكية وإشعال النار فيها إظهارا لمشاعرهم، دون أن يخطر لهم أنهم وقعوا - غير مدركين - فى شراك فخ الصور، الذى يبغى تسجيل المشهد الذى يقول كل شيء - ويعبر عن كل «واقع» - فى لقطة واحدة.

وفى الممارسة العملية فإن الخطاب على الناحيتين لم يلبث أن فقد مصداقيته:

- فخطاب الإعلان الأمريكي ظل سطحيا كالقشرة يحرض على شراء سلع، ولا يستطيع تأصيل قيم.

- وخطاب البيانات - السوفيتي - أصبح تناقضا مع الواقع يبشر بالجنة ويسوق الناس نحوها على الطريق - بعصا غليظة (على حد تعبير الزعيم السوفيتي «نيكيتا خروشوف» في نقده الشهير للزعيم الشيوعى «جوزيف ستالين»!).

....

[ولعل نفس الكلام يصدق من ناحية أخرى على الرئيس الأمريكي الحالى «جورج بوش» - ففى خطابه العام دعوة تقول أنها تريد تكريم الشعوب العربية بنعمة الديمقراطية - ولكن بإطلاق الصواريخ على من تشاء بينها!]

....

....

وفى مجال الخطاب بعد مجال الصور، فإن أسلوب الكلمة الواحدة زاد واستفحل، لأن أى معترض على السياسة الأمريكية لاحقه وصف واحد يدمغه مرة بأنه «شيوعى»، أو «إسلامى»، أو«إرهابى» إلى آخر القائمة. كما أن أى رافض لهيمنة واشنطن أعيدت تسميته بـ: «هتلر» - أو «موسولينى» - أو «ستالين» - أو«أسامة بن لادن» أخيرا، وكأن لا فارق بين صروح برلين وكهوف قندهار، ولا بين الجيش السوفيتي وجند طالبان، ولا بين أرقى القوانين الرومانية وفتاوى «المُلا عمر» بأن الأرض مسطحة وليست كروية، كما يزعم «أهل الكفر»!].

....

....

٢ - وقد يكون من المطلوب - أيضا - استعادة ما ظهر من أن فنون «الإعلان الأمريكى» تفوقت بشدة على وعد «الفردوس الشيوعى»، وبرغم ذلك فإن إمبراطورية السوق ظلت تواصل الضغط ضد الخطر السوفيتي وتبالغ فيه، حتى وقت لم يعد باقيا فيه من هذا الخطر غير ترسانة نووية ضخمة مهددة بالشيخوخة بسبب نقص الموارد - ومن باب الحيطة فإن هذه الترسانة المتهالكة بقيت في الظنون، باحتمال أن زعيما سياسيا يائسا أو جنرالا عسكريا مجنونا قد يقوم فى اللحظة الأخيرة بمغامرة ابتزاز حمقاء يقترب فيها بأصابعه من الأزرار الحمراء، واضعا الدنيا على حافة هاوية!

ولم تجد الولايات المتحدة طمأنينة وهى تتابع مرور عشرين سنة من الركود الكبير قضاها الزعيم السوفيتي المريض «ليونيد بريجنيف» على القمة فى الكرملين.

ولم تجد الولايات المتحدة طمأنينة حتى وهى تتابع المواكب الجنائزية لقادة سوفييت («بريجنيف» و«تشيرنينكو» و«أندروبوف») بعد أن وصلوا إلى القمة، وقد أخذت منهم السنون والعلل ضرائبها، وراحوا يموتون واحدا بعد واحد.

ففى تلك الأوقات كانت الترسانة النووية السوفيتية الضخمة سيفا معلقا، واحتمال وصول زعيم يائس أو جنرال مجنون إلى شفرة تشغيلها - واردا ومؤرقا!

٣ - ومن المطلوب استعادة لحظة سقوط حائط برلين (٩ نوفمبر ١٩٨٩) - وسقوط الاتحاد السوفيتي نفسه بعد ذلك بسنتين، عندما آلت قيادته إلى رجلين، أولهما واقعى إلى درجة الاستسلام يهيئه الضعف واليأس (جورباتشوف)، والثانى خيالى إلى حد الأوهام ومعظمها يهيئه إدمانه للفودكا (يلتسين) - ومع ذلك ظلت الولايات المتحدة الأمريكية غير مصدقة للمشهد الذى تراه أمامها ويراه العالم بأسره.

وظل البيت الأبيض - وفيه أيامها الرئيس «رونالد ريجان» - مأخوذا بهذه الصورة المذهلة لما يجرى داخل وخارج أسوار الكرملين. وكان أكثر ما فاجأ واشنطن أن الرجلين الباقيين على دفة الإمبراطورية الشيوعية (يلتسين وجورباتشوف) - كلاهما راح يستعين بها ضد رفيقه، ومن جانبها فقد كان مُناها الخلاص من الرجلين معا، وفى نهاية المطاف تكفل كلاهما بإنجاز المهمة وتحقيق المُنى.

ومع أن المعلومات المتدفقة على المكتب البيضاوى - مكتب الرئيس فى واشنطن - كانت مؤكدة ومفصلة فى رصدها للسقوط الكبير - فإن كافة أجهزة الإدارة الأمريكية حول البيت الأبيض، وفيها وزارة الدفاع (البنتاجون)، ووزارة الخارجية، ووكالة الاستخبارات الأمريكية (C.I.A) ظلت تفرك جفونها تتأكد أن ما تراه هو الحقيقة، ثم كان أول همها وسعيها بعد أن ثبتت الرؤية إبداء اللهفة على مصير الترسانة النووية السوفيتية، والهرولة على عجل بعروض مساعدة على تأمينها (إزاء عمر افتراضى قارب أجله) - وخوفا من مجهول يمد أصابعه إلى زر أحمر مع لحظة مزاج انتحارى!

٤ - ومن المطلوب استعادة حقيقة لا يصح أن تغيب عن الاعتبار، وهى أن الصراعات الكبرى بين إمبراطوريات التاريخ الكبرى - وحين تستحيل المواجهة المباشرة بالقوة - ترتبط نتائجها بمعادلة معروفة فى علم الصراع.

فهى ليست معادلة نصر أو هزيمة بالمعنى التقليدى، وإنما هى اختبار صبر وقدرة على الاحتمال.

(وتلك حكمة مأثورة فى الأدب العربى ترى «أن الشجاعة في القتال بين اثنين يقع حسمها عندما يصرخ أحدهما أولا!»).

أى أن المعول عليه فى ختام أى صراع بين طرفين منوط عند نهايته بمن يفقد إرادته قبل غيره، ومن يلحقه الوهن تاليا!

وقد ترامت إلى أسماع واشنطن فى تلك الظروف صرختان بالألم صادرتان عن موسكو - تلاحقتا بفارق سنوات قليلة:

● صرخة من «جورباتشوف» بأنه لم يعد يستطيع!

● وصرخة ثانية من «يلتسين» بأنه فقد الأمل!

....

....

[بمعنى أن الطرف الأمريكي كان لديه - بدوره - ما يدعوه إلى الصراخ من مواجعه وآلامه، لكنه تحمل ولم يصرخ حتى سمع صرخة خصمه قبله، وبالفعل فقد حدث فى بداية التسعينيات - وكان «رونالد ريجان» قد ترك مكانه فى المكتب البيضاوى لنائبه «جورج بوش» (الأب) - أن الولايات المتحدة وجدت نفسها مثقلة ومستنزفة.

- فقد تبين لها أنها مدينة للعالم بما يزيد على مجمل إنتاجها السنوى (٥ تريليون دولار).

- وتحققت من أن اقتصادها فى عمومه تأثر بالضرر (بما جعل سقوط «جورج بوش» فى انتخابات الرئاسة الثانية محققا على أساس شعار أطلقه «بيل كلينتون» بـ «إنه الاقتصاد يا غبى»).

- واكتشفت أن نظام التعليم الأمريكي تراجع فى جدول الأسبقية العالمية من المكانة الأولى إلى المكانة السابعة عشرة.

- وتبدى لغيرها - ولها - أن لعبة السياسة - المعتمدة على الإعلان - بعد نصف قرن من الحرب الباردة - نزلت بمستوى الأداء وجعلته هو الآخر صورا متحركة تكلف مالا وتصنع خيالا. ولعل سطوة الإعلان وغوايته كانت من أهم العناصر التى هزمت رمادية «جورج بوش» (الأب)، إزاء الألوان الخلابة (والفاضحة فيما بعد) لحيوية وشباب «بيل كلينتون».

- وأهم من ذلك كله فإن الولايات المتحدة ظهرت خارجة من الحرب الباردة وقد استنزفت كثيرا من أرصدتها السياسية (وأولها المصداقية)، كما استنزفت كثيرا من مدخراتها (وأهمها احتياطى الذهب فى فورت نوكس)، ثم إنها - وهذا هو الأخطر - أسرفت فى استعمال الطاقة حتى أصبحت مستوردة للبترول - بقرابة ٨٠٪ من احتياجاتها.

وكان ذلك يقتضى مراجعة، ويلح في طلب حل،



فى مجال الخطاب، فإن أسلوب الكلمة الواحدة زاد واستفحل، لأن أى معترض على السياسة الأمريكية لاحقه وصف واحد يدمغه مرة بأنه «شيوعى»، أو «إسلامى»، أو«إرهابى» كما أن أى رافض لهيمنة واشنطن أعيدت تسميته بـ: «هتلر» - أو «موسولينى» - أو «ستالين» - أو«أسامة بن لادن»

والأفان «إمبراطورية السوق» معرضة لإشهار إفلاسها].

....

....

٥ ـ ومن المطلوب ـ أيضا ـ استعادة مناخ التبرم والضيق والغيظ مما شعرت به الولايات المتحدة حيال حلفاء لها في أوروبا اعتبروا انهيار الاتحاد السوفيتي انتصارا لهم، دون أن يتنبهوا بالقدر الكافي لنوازع الولايات المتحدة في تلك اللحظة الفارقة. ذلك أنهم وهم يحتفلون بانتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتي، لم يظهر عليهم (من وجهة النظر الأمريكية) إدراك لحقيقة أنهم يحتفلون بنصر لم يصنعوه، ولم يتحملوا تكاليفه، بل إنهم على العكس استفادوا على الحساب ـ من حيث إن الولايات المتحدة وفرت لهم طول الوقت عمليات إنقاذ متوالية ابتداءً من مشروع مارشال الذي أسعفهم فور انتهاء الحرب العالمية الثانية، وحتى ضبط أسعار بترول رخيص أتاحته لهم الولايات المتحدة من أسواق الشرق الأوسط التي استحوذت عليها. ثم إن هذا الدعم ظل متاحا حتى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ عندما قفزت أسعار البترول، (وبعدها وقف الدكتور «هنري كيسنجر» وزير خارجية الولايات المتحدة في مؤتمر باريس لتدوير فوائض النفط العربي (١٩٧٤) قائلا لدول أوروبا «إن مشروع مارشال قد انتهى الآن وانتهى معه تطوع الولايات المتحدة بضمان سعر بترول رخيص كان لازما لعملية إنعاش أوروبا) ـ وعلى أي حال فإن هذا المزاج الأمريكي الصارم لم يطل أمده ولم يلبث سعر البترول أن نزل من ذراه العالية ليتيح ـ مرة أخرى ـ وفرة طاقة رخيصة لأوروبا الغربية في وقت دخلت الحرب الباردة فيه إلى مرحلتها الحاسمة مع النصف الثاني من السبعينيات وطول الثمانينيات.

وكانت بقية الدواعي الأمريكية إلى التبرم لدرجة الغيظ من الحلفاء الأوروبيين، «ظنهم» أنهم عاشوا زمن الحرب الباردة في أمان وفرته لهم مظلة نووية أمريكية تولت حمايتهم دون أن تكلفهم شيئا، وهذه المظلة لم تكفل لهم الأمن فحسب، وإنما كفلت لهم أن يتوفروا على صنع الثروة وتكديسها، وتجديد وسائل إنتاجهم وتطويرها، وتحسين خدماتهم والارتقاء بها وأولها التعليم.

والآن هرعوا للاحتفال على حساب ما أنجزته أمريكا وحدها، ثم هم فوق ذلك يحاولون تلقينها درسا في طرائق السلوك والتصرف، ويتبجحون بالرغبة في اعتبار أنفسهم أقطابا دولية ـ أوروبية على قدم المساواة مع أمريكا.

وكان معظم الضيق إلى حد الغيظ موجها إلى فرنسا وألمانيا، وأما القوة الأخرى في الثالوث الأوروبي وهي بريطانيا، فقد برئت من اللوم لأنها ألحقت نفسها مبكرا جدا بالولايات المتحدة ـ سواء بقرابة اللغة أو بلغة المصالح.

وكان الحلفاء الأوروبيون لأمريكا حاضرين دائما بردود تثير الخواطر أكثر مما تلطفها، فهم يعترفون بفضل المظلة النووية الأمريكية، لكنهم يضيفون أن هذه المظلة كانت أمنا لأمريكا بالدرجة الأولى، ثم إنها لم تكن بلا ثمن، لأن أوروبا أعطت الكثير وتحملت الأكثر سواء من غموض النوايا السوفيتية أو من تجاوزات القوة الأمريكية، ومع ذلك فإن أوروبا ـ في الأول والآخر ـ كانت قابلة بدور متميز لأمريكا في قيادة عالم ما بعد الحرب الباردة، ومنتهى طلبها شراكة في المستقبل متكافئة وليس إملاءً إمبراطوريا متعاليا، فهم ليسوا دول عالم ثالث، وإنما هم دول أقدم وأعرق، وثقافات أسبق في الزمن وأعمق، وخبرة أسلم وأعقل!

ثم يضيف هؤلاء الحلفاء «أن أوروبا في كل الأحوال لم تكن عبئا ثقيلا على الولايات المتحدة، ولم تكن هي التي أرهقت الموارد الأمريكية، وإنما أرهقها السباق الفضائي والنووي فيما أسماه «رونالد ريجان» «حرب النجوم»، ثم إن أوروبا لم تكن هي التي تسببت في استنزاف مخزونات الذهب في فورت نوكس. وإنما حسابات حرب فيتنام ورغبة الرئيس «جونسون» في تمويل هذه الحرب بعيدا عن رقابة الكونجرس ـ وذلك ما أدى إلى تذويب السبائك الذهبية، وتسييل مخزونها المتراكم!

٦ ـ ومن المطلوب أخيرا في هذا المفصل الدولي الهام، ملاحظة أن التبرم الأمريكي والضيق وصل جنوب البحر الأبيض المتوسط وشرقه بحيث طال أطرافا عربية متعددة، تحسب أنها تحمست وتطوعت لتحقيق التفرد الأمريكي بقمة العالم:

● فمن ناحية كانت هناك دول تظن أنها لعبت دورا هاما في أفغانستان، حيث وقعت الضربة القاضية Coup de Grace ضد الاتحاد السوفيتي تحت رايات الجهاد الإسلامي المقدس الذي أرهق الجيش السوفيتي، ومرغ أنفه في التراب وأوصل الدولة السوفيتية إلى قبرها تحت ذلك التراب.

● ومن ناحية ثانية دول أخرى تظن أنها لعبت دورا أساسيا في وقت تقدم المد الإسلامي الذي مثلته الثورة الإيرانية، وأقامت ضده سدا هائلا مدعوما ماليا ومخابراتيا حتى أوقفته وحصرته، وبالتالي فإن العقيدة الشيوعية لم تركع أمام التنابل النووية للولايات المتحدة، وإنما أرغمتها على الركوع ـ تلك السيوف المشهرة للجهاد الإسلامي الذي وهب ـ بدوره ـ نصر الله للولايات المتحدة!

والآن كانت هذه الدول العربية على الناحيتين (الفريق الذي صد الزحف الشيوعي في أفغانستان، أو الفريق الذي حصر التيار الإسلامي في إيران) ـ تتقدم مطالبة بحقوق تعتبرها إنصافا وعدلا!

ولم تكن الولايات المتحدة على استعداد للاعتراف للطرفين بما قدماه، ورأيها ـ بأثر رجعي! ـ أن هؤلاء العرب لا يستحقون منها مكافأة، فقد فعلوا ما فعلوا ووقفوا حيث وقفوا دفاعا عن مصالحهم الذاتية، وعن أمنهم قبل الأمن الأمريكي، وبالتالي لا تصح لهم بعد ذلك مطالبة بمستحقات متأخرة أو متقدمة.

ومن المفارقات أن بعض العرب لم يكونوا يطالبون بحق شراكة بإسهام ما قدموه، وإنما كان قصاراهم طلب الرعاية، وأول أملهم أن تكف الولايات المتحدة الأمريكية عنهم أذى إسرائيل وغرورها، مع العلم بأنهم لم يقصروا في حق إسرائيل، فقد اعترفوا بها دون استثناء ـ واعترفوا كذلك بعلاقتها الخاصة بالولايات المتحدة، بل إنهم وبدون استثناء أيضا تعاملوا مع إسرائيل ـ بعضهم في العلن وبعضهم في السر ـ حتى تنفك العقد المتخلفة من القضية الفلسطينية بحيث تداري أمام الناس وتستر، وحينئذ تكون العلاقات مع إسرائيل شمسا في عز الظهر وقمرا بلغ ذروته وصار بدرا (وأكثر).

(والغريب أن القيادات العربية المعنية لم تدرك أنها بهذا النوع من «الأمل» تزكي إسرائيل وترفع من قدرها وأهمية دورها في نظر الولايات المتحدة، لأن ما جاءوا يطلبونه بعد كل ما قدموا هو بعينه اعترافهم للولايات المتحدة بأنها لم تخطئ في سياستها حين اعتمدت إسرائيل وكيلا لها في المنطقة، وكانت على حق عندما استثمرت في ذلك البلد ما استثمرته من مساعدات مدنية وعسكرية، لأن حساب التفوق الإسرائيلي أضيف في النهاية إلى الأرصدة الأمريكية وزاد من قدرتها على ضبط تصرفات العرب رضى أو غصبا!).

"٣"

«المناقشة الكبرى» في واشنطن

■ بعد الاتفاق على ما يلزم الاتفاق عليه وبعده على المطلوب استعادته ـ فإن هناك لحظة تستحق التوقف أمامها لأنها ـ في الحقيقة ـ توقيت ولادة هذا الإعصار الأمريكي العاتي الذي يضرب المنطقة العربية ويدوي الآن رعدا ويلمع برقا على آفاقها.

وكان هذا التوقيت بالضبط لحظة سقوط حائط برلين (٩ نوفمبر ١٩٨٩)، وما تداعى بعده من بشائر أو مخاطر، وتدفق طوفانا ذابت فيه جبال الجليد فوق تضاريس الحرب الباردة مرة واحدة.

كان «جورج بوش» (الأب) لحظتها ـ رئيسا للولايات المتحدة وقد وجد أمامه فرصة نادرة في التاريخ، وعليه أن يتغلب على وساوسه الشخصية ويتقدم صفوف إدارته الجمهورية ويقود، وكان اعتقاد كثيرين أن «بوش» ظل حتى بعد سنتين من رئاسته يتحرك في ظل سلفه «رونالد ريجان» الذي أدار المراحل الأخيرة من استراتيجية هزيمة الاتحاد السوفيتي بجرأة بلغت حد التهور بمشروع حرب النجوم، وذلك هو المشروع الذي أقنع «الكرملين» بعد طول مكابرة بأنه لم يعد قادرا على المضي إلى النهاية في سباق السلاح، وأن الوقت حان لمواجهة الحقيقة حتى وإن كانت في مرارة العلقم أو لسع النار.

وفي ممارسة «جورج بوش» لمسئوليته فرصة نادرة وجدها أمامه، فإنه وجه الدعوة إلى مجلس الأمن القومي الأمريكي لعقد سلسلة من الاجتماعات، مهمتها مواجهة موقف مستجد وطارئ ـ حاسم وفاصل في مستقبل الولايات المتحدة الأمريكية ـ ومستقبل العالم.

وكان بين حضور الاجتماع رجال مازالوا من أهم راسمي السياسات وصناع القرارات في واشنطن ـ من تلك اللحظة سنة ١٩٨٩، وحتى هذه اللحظة (أبريل ٢٠٠٣)، وضمنهم:

ـ «جيمس بيكر» وهو وقتها وزير

الخارجية (وفيما بعد مسئول الحملة الانتخابية لبوش (الابن) وإن لم يقبل بالمشاركة في إدارته).

- و«برنت سكوكروفت» وهو وقتها مستشار الرئيس للأمن القومي (وقد آثر هو الآخر أن لا يشارك في إدارة بوش (الابن) دون أن يفصح عن أسبابه).
- و«ريتشارد تشيني» وهو وزير الدفاع حينئذ (والآن نائب الرئيس).
- و«دونالد رامسفيلد» وهو أيامها وزير دفاع سابق مع «ريجان» (والآن وزير الدفاع مرة ثانية).
- و«كولين باول» وهو رئيس أركان الحرب حينئذ (والآن وزير الخارجية).
- و«ريتشارد بيرل» وهو نائب وزير الدفاع (والآن مسئول هيئة وضع السياسات الاستراتيجية في مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض، ولقبه الشائع في الإدارة هو «أمير الظلام» (Prince of Darkness)).
- و«بول وولفويتز» وهو مساعد وزير الخارجية حينئذ (والآن مساعد وزير الدفاع).
- و«ريتشارد أرميتاج» وهو سكرتير مجلس الأمن القومي حينئذ (والآن مساعد وزير الخارجية).
- و«جيمس وولسلي» وهو مدير وكالة المخابرات المركزية حينئذ (والآن مستشار الرئيس لمكافحة الإرهاب).

وغيرهم كثيرون كانوا في المواقع المؤثرة والحساسة لإدارة «رونالد ريجان»، وانتقلوا منها إلى إدارة «جورج بوش» (الأب) ووصلوا أخيرا إلى إدارة «بوش» (الابن)، كأن الزمن لم يتغير، وكأن رئاسة «بيل كلينتون» لم تقع ولم تتصل ثماني سنوات، ووصل «كارل روفر» وهو كبير مستشاري البيت الأبيض (وأقوى رجل في المقر الرئاسي اليوم) - إلى حد وصف رئاسة «بيل كلينتون» بأنها كانت «فاصلا جنسيا»، تخلل عهدين لرئيسين اسمهما «بوش»! (مع ملاحظة أن ترجمة كلمة «بوش» Bushإلى العربية هي: الخميلة أو الغابة الصغيرة!).

في ذلك الوقت من رئاسة بوش (الأب): عقد مجلس الأمن القومي الأمريكي خمسة اجتماعات متوالية على مساحة ثلاثة شهور ما بين أواخر سنة ١٩٨٩ وأوائل سنة ١٩٩٠، ثلاثة منها داخل البيت الأبيض في واشنطن، واثنان داخل المنتجع الرئاسي «كامب دافيد»، وفيما بين الاجتماعات تواصلت لقاءات «مجموعات العمل» الخاصة التي كُلّفت بالغوص إلى العمق في تفاصيل القضايا التي تناولتها مناقشات الرئيس وكبار مساعديه، وهي اجتماعات ولقاءات أطلق عليها فيما بعد وصف «المناقشة الكبرى» «The Great Debate»، إقرارا بأهميتها عند مفترق طرق أساسي تتحدد فيه وتتقرر سياسات أمريكا في القرن الحادي والعشرين. ولم تكن موضوعات هذه «المناقشة الكُبرى» سرا، بل إن الكثير من أوراقها ومداولاتها مع شهادات بعض المشاركين الكبار فيها - خرج ليرسم صورة شبه كاملة لما دار حوله البحث وترتبت النتائج.

وبصفة أولية فقد كانت لهذه الاجتماعات واللقاءات - نقطة بداية سبقت ونقطة وصول لحقت.

● نقطة البداية التي سبقت - هي الإقرار بأن السياسة الأمريكية تمكنت بعد نصف قرن من تنفيذ التوجيه الرئاسي «رقم ٦٨ لسنة ١٩٥٠» (وهو توجيه صاغه الخبير الاستراتيجي الأشهر «بول نيتزي» وقدمه إلى «دين أتشيسون» وزير الخارجية الذي وضعه أمام الرئيس «هاري ترومان» مع طلب توقيعه واعتماده) - وكان نص مقدمة هذا التوجيه يقول:

«إن الهدف الاستراتيجي لسياسة الولايات المتحدة يتحدد في تدمير الاتحاد السوفيتي، وتحقيق تفوق عسكري أمريكي كامل عليه!».

● و«نقطة الوصول» التي لحقت - أن هناك الآن مشروع توجيه رئاسي جديد تولت صياغته لجنة خاصة رأسها «ريتشارد بيرل» وفيه بالنص:

«إن الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن توصلت إلى تحقيق هدفها المطلوب بالتوجيه الرئاسي رقم ٦٨ لسنة ١٩٥٠، على امتداد أربعين سنة من الحرب الباردة، ووصلت إلى تفوق اقتصادي وعسكري غالب - عليها عند هذا المفصل التاريخي أن تضع وتنفذ السياسات الكفيلة بضمان استمرار القوة الأمريكية غالبة، وبحيث تظل إرادتها غير قابلة للتحدي ودورها غير قابل للمنافسة!».



وفيما بين نقطة البداية التي سبقت، وحتى نقطة الوصول التي لحقت، وفي التطلع إلى المستقبل - وهو هذه اللحظة أفق واسع وليس مجرد نقطة على أفق - وجد المكلفون بالأمن القومي أنفسهم أمام مجموعة اعتبارات أساسية طرحت ضروراتها على المناقشة الكُبرى.

وكانت هذه الاعتبارات الأساسية قائمة طويلة:

١ - منذ كان الرئيس «كارتر» في البيت الأبيض سعى مستشاره «زبجنيو برجينسكي» إلى تشكيل هيئة من أربعمائة خبير يرأسهم «بول نيتزي» (ذاته)، مهمتها التحضير للسيناريوهات المحتملة لنهاية الاتحاد السوفيتي والاستعداد لعواقبها كيفما تجيء، وكان «برجينسكي» يرى نهاية الاتحاد السوفيتي قادمة (في وقت ما من بداية القرن الحادي والعشرين!).

وكانت معظم السيناريوهات المحتملة للنهاية تتحسب لمغامرة حرب مسلحة، أو مفاجأة انقلاب، أو محنة فتنة أهلية - لكنه لا يبدو أن أحدا توقع أن تجيء هذه النهاية بسكتة قلبية هادئة وسلمية، مستعدة للنهاية دون محاولة إنقاذ ولو بالصدمة الكهربائية، سواء قام بها الحزب الشيوعي أو الجيش الأحمر، والمثير لدهشة الجميع في واشنطن أنه بدا في بعض اللحظات وكأن كل الأطراف في الداخل السوفيتي حريصون على «سرعة تكفين الميت ودفنه» - أكثر من حرصهم على إنعاش قلبه واسترجاع نبضه.

وهنا فإن تلك التصورات المدروسة مقدما واحتمالاتها المتوقعة سلفا - لم يعد لها داع أو نفع، وكانت تلك أكبر المفاجآت في قائمة الحقائق الأساسية المطروحة على المناقشة الكُبرى.

٢ - ثم لاحظ الجميع في واشنطن أن مستشار ألمانيا «هيلموت كول» تحرك بسرعة مستغلا فرصة سقوط حائط برلين، ليطرح مطلب «وحدة ألمانيا»، ومع أن الولايات المتحدة الأمريكية ظلت حتى اللحظة الأخيرة تأمل أن تكون مقاومة الوحدة الألمانية آخر معركة يخوضها الاتحاد السوفيتي قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة - فإن المستشار «كول» فاجأ الكل حين عرض مبلغ ثلاثين بليون دولار على الاتحاد السوفيتي المُفلس مقابل أن لا يعترض أو يعارض وحدة ألمانيا، وقد رضي «جورباتشوف» بالصفقة، وأمله أن هذه الجرعة من السيولة تخفف من وجع السقوط، وبالتالي فإن القول الفصل بعد الرضى السوفيتي عاد إلى واشنطن. وطار «كول» إلى العاصمة الأمريكية التي لم يعد لديها عذر مقبول لرفض الوحدة الألمانية، وهي في صميم القلب لا تريدها، مخافة أن تكون مقدمة لبعث ألمانيا - أو تجديد مشروع الرايخ الكبير - أو ترسيخ قوة أوروبا كمنافس محتمل وقادر على عرقلة السيطرة الأمريكية المطلوبة والمستهدفة.

على أن البيت الأبيض اضطر للموافقة على مضض - لأنه لم تكن لديه سياسيا ذريعة مقبولة للاعتراض - وقد بقي رجاؤه أن الوحدة الألمانية ربما تخيف فرنسا أكثر مما تقلق أمريكا، وربما تزعج بريطانيا أكثر مما تهدد أمريكا، وذلك يؤدي إلى انقسام أوروبا أكثر من ترسيخ لقوتها، وإلى جانب ذلك (هكذا التقدير الأمريكي) - فإن ألمانيا الغربية سوف ترهق مواردها بأكثر مما تتصور في تحقيق الوحدة، حين تتكلف ما هو فوق طاقتها لرفع مستوى ألمانيا الشرقية إلى مستوى ألمانيا الغربية، وهذه عملية استنزاف اقتصادي وسياسي مهولة، وهي بالتأكيد كافية لإرباك ألمانيا الموحدة عشرين سنة على الأقل (وذلك صحيح إلى حد كبير).

والخلاصة هنا أن الولايات المتحدة وافقت على مضض، عارفة أن هناك - ربما - مشاكل قادمة مع ألمانيا (أو مع أوروبا) - لكن هذه المشاكل مؤجلة إلى مدى غير منظور.

٣ - أن هناك دواعي لخلل خطرة تتعلق بالأحوال الأمريكية ذاتها، وكلها تقتضي علاجا

كانت معظم السيناريوهات المحتملة لنهاية الاتحاد السوفيتي تتحسب لمغامرة حرب مسلحة، أو مفاجأة انقلاب، أو محنة فتنة أهلية. لكنه لا يبدو أن أحدا توقع أن تجيء هذه النهاية بسكتة قلبية هادئة وسلمية



يحتاج إلى جهود مركزة، فأوضاع الولايات المتحدة هذه اللحظة مضطربة فى مجالات عديدة:

- فهى مرهقة اقتصاديا بقسوة، حتى أنها الآن أكبر مدين فى العالم.

- وهى مجروحة - على الأقل نفسيا - من تأثير هزيمة فيتنام التى لم تشف بعد جراحها.

- وهى مشوهة فى صورتها العالمية من كثرة الحملات التى وجهت إلى سياساتها فى العالم الثالث وفى أوروبا أيضا!

- وأخيرا فهى مكشوفة فى هيبتها، وبعضه من سوء صورة عدد من رؤسائها، خصوصا بعد فضيحة «ووترجيت»، وقد ترتب عليها عزل رئيس أمريكى لأول مرة فى القرن العشرين (ريتشارد نيكسون).

والمعنى أن الولايات المتحدة هذه اللحظة كانت أشد ما تكون فى حاجة إلى عملية ترميم شامل للقوة، لأن قيادة العالم نحو عصر من السلام الأمريكى Paxa Americana مهمة يصعب تحقيقها بالسلاح وحده، أو بسباق فضائى أو نووى ضد طرف منافس - أو بكل ما تقدر عليه فنون الإعلان مهما بلغت مهارتها - أو ببرامج للمساعدة تماثل مشروع «مارشال» الذى اشترت به الولايات المتحدة صدارتها لحلف الأطلنطى، كما فعلت بعد الحرب العالمية الثانية - والسبب حسابى بحت، ففى تجربة مشروع «مارشال» كانت المساعدات المقدرة لأوروبا الغربية حتى تستأنف تشغيل طاقاتها - مساعدات محدودة أو محددة، وهى فى مقدور أمريكا التى خرجت من الحرب العالمية الثانية بأكبر مخزون ذهب فى العالم - وأما الآن فإن مجتمع الدول كله ينتظر مكافآت الحرب الباردة، وأمريكا لا تستطيع الوفاء بها، وأخطر من ذلك فإن طالبى المساعدة - خصوصا فى العالم الثالث - لم ينشئوا بعد طاقاتهم القادرة على «تنمية ولادة للتنمية»، ومن ثم فإن حاجتهم إلى المساعدات ضخمة وأجلها ممتد، وكل ذلك غير مطروح لأنه غير متاح فى هذا الوقت!

٤ - أن هناك شبح خطر يلوح على الأفق وهو خطر نفاد مصادر الطاقة المتوافرة للعالم هذه اللحظة، ودواعى هذا الخطر متعددة:

- أبرزها أن البترول لا يزال عماد الطاقة المحركة فى أمريكا وفى العالم.

- والبترول مورد يستنفد طبيعيا بتزايد استهلاكه سنة بعد سنة، خصوصا فى الولايات المتحدة، وهو بلد وقع فى «غرام الكهرباء والسيارة والطائرة»، وكلها «بالوعات شرهة للنفط».

- وكانت الولايات المتحدة منذ صدمة ارتفاع أسعار البترول سنة ١٩٧٣ - ١٩٧٤ - تسعى إلى بدائل أخرى (كالطاقة النووية وحرارة الشمس، وقوة الريح، وتدافع الموج)، لكن هذه البدائل لم تصنع معجزاتها المتوقعة، رغم ما تدفق عليها من استثمارات.

- والآن فإن الولايات المتحدة عليها واجب الاحتفاظ بما لديها من احتياطيات النفط، مقابل الاعتماد فى استهلاكها على ما تستورده عبر المحيطات، ومؤدى ذلك أنها سوف تستورد كل يوم ٢٠ مليون برميل من النفط، وذلك عبء اقتصادى وأمنى وسياسى ثقيل.

لكن الولايات المتحدة ليس أمامها غير أن تتحمل هذا العبء الثقيل، لأنه مسألة «حياة أو موت» - مع مواصلة البحث عن اختراق علمى يتوصل إلى مصدر آخر للطاقة - أو مصادر - لا تنفد. ومعنى ذلك أن الولايات المتحدة التى اعتمدت على «سباق السلاح» وعلى «التقدم التكنولوجى» فى الحرب الباردة، لم يبق أمامها الآن - وحتى تكسب معركة السيادة على العالم - إلا أن تدخل فى سباق من أجل السيطرة على النفط مهما تكن الوسائل!

- ومن الواضح إلى درجة اليقين أن الشرق الأوسط بقى مصدر أكبر إمدادات النفط، وأكبر مكمن للاحتياطيات المحققة منه، فهذه المنطقة وفيها السعودية والعراق وإيران وإمارات الخليج - وبالقرب منها شطآن بحر قزوين - مخزن أكثر من سبعين فى المائة من النفط الموجود بيقين تحت سطح الأرض.

والمشكلة العويصة أن هذه المنطقة هى فى ذات اللحظة أكثر بقاع العالم تأزما وتوترا: بسبب الصراع العربى الإسرائيلى وتعقيداته - وبسبب الثورة الإسلامية فى إيران وسخونتها - وبسبب تردى الأوضاع السياسية فى شبه الجزيرة العربية - وبسبب الوهن الذى لحق بالدول المؤثرة فى هذه المنطقة تقليديا.

وكانت الولايات المتحدة فى مرحلة السبعينيات والثمانينيات - على استعداد للسكوت، لكن المسألة باتت أكثر تعقيدا، لأن استهلاك البترول يتزايد (دون بديل)، ولأن الاستمرار فى اضطراب الأسعار يربك الدول الصناعية (ويستنزف الفوائض والعوائد).

- وعليه فإنه لا مفر من أن تكون منطقة الشرق الأوسط - وليس غيرها - مجال الاختيار الأمريكى الحاسم، مع ملاحظة أن أوروبا منافس على البترول باعتبارها قارة تتشكل من جديد على أساس سوق مشتركة، ثم إن آسيا مستهلك قادم يطالب بزيادة نصيبه من الطاقة، فهناك كتل بشرية هائلة تستعد لدخول سوق النفط بشهية متزايدة مثل الصين والهند.

وعلى هذا الأساس كانت الولايات المتحدة تدرك أن الشرق الأوسط يحتاج إلى عمليتين متوازيتين:

● الأولى: تسكين الأطراف المنتجة للبترول كل منها فى مربع لا تتجاوزه، وذلك يتطلب:

- تثبيت الأوضاع فى السعودية ودول الخليج.

- وترويض الجموح الإسلامى فى إيران.

- والتعامل مع عراق خرج من حربه مع إيران مرهقا يطلب تعويضا عن حرب استنزفته ثمانى سنوات لوقف المد الإسلامى الصادر عن إيران، وحجز تأثيراته، خصوصا عن منطقة الخليج.

● والثانية: إيجاد حل للصراع العربى الإسرائيلى، وهو بؤرة التوتر فى الشرق الأوسط ومحرك الغضب لدى الشعوب العربية، وهى فى قلب الشرق الأوسط (والمقصود تخفيف احتقان أعصابها).

وحتى ربيع سنة ١٩٩٠ (رئاسة «بوش» الأب) - كانت «المناقشة الكبرى» مازالت جارية فى واشنطن تتجاذبها الاجتهادات والتقديرات، وفى ذلك الوقت ظهر فى مجلس الأمن القومى رأيان:

١ - رأى يمثله «الحمائم» من دعاة التحفظ (وزير الخارجية «بيكر» - ومستشار الأمن القومى «سكوكروفت» - ورئيس الأركان «باول»)، ومجمله «أن السيادة الأمريكية المطلقة على العالم مستحيلة، والأفضل منها قبول سيادة نسبية تسمح بوجود شركاء آخرين بأنصبة محدودة، خصوصا مع الأوروبيين - وفى إطار حلف الأطلنطى بعد إعادة تنظيمه بقيادة الولايات المتحدة بطريقة تتناسب أكثر مع ضرورات ما بعد الحرب الباردة.

٢ - ورأى آخر يمثله «الصقور» دعاة الاندفاع، ومنطقهم «أن الولايات المتحدة لم تتحمل - وحدها - بمسئوليات الحرب الباردة وأعبائها، لكى تقبل الآن شراكة تزاحمها على جوائز النصر، خصوصا من أوروبا التى غازلت الاتحاد السوفيتى (كما فعلت فرنسا على عهد «ديجول» وخلفائه) - أو حاولت استرضاءه (كما فعلت ألمانيا بسياسة التوجه شرقا كما حدث أيام المستشار «ويلى برانت» ومن حذوا حذوه حتى «هيلموت كول»)».

٣ - ثم إن الموقع الأكثر سخونة فى العالم الجديد وهو الشرق الأوسط مفتوح بالكامل أمام الولايات المتحدة، «بما فى ذلك أن كافة الأطراف فيه يطلبونها بالتخصيص ولا يعبأون بغيرها (باعتبار أن العرب يأملون فى ضغط أمريكى على إسرائيل فى حل لقضية فلسطين، ولا يعولون كثيرا على أوروبا، بل ويرفضون الاعتراف لها بدور مؤثر) - ثم إن النفوذ الأمريكى فى الخليج بأسره طارد لغيره - كما أن النفط وهو عماد أى مستقبل موجود فعلا فى حوزة شركات أمريكية عاملة فى المنطقة، والشاهد أن الدول المؤثرة فى الإقليم، وأهمها مصر وتركيا (وبالطبع إسرائيل) - تتسابق فيما بينها على الحظوة فى واشنطن ولا تطلب غير الرضا والقبول».

من الواضح إلى درجة اليقين أن الشرق الأوسط بقى مصدر أكبر إمدادات النفط، وأكبر مكمن للاحتياطيات المحققة منه، فهذه المنطقة وفيها السعودية والعراق وإيران وإمارات الخليج. وبالقرب منها شطآن بحر قزوين. مخزن أكثر من سبعين فى المائة من النفط الموجود بيقين تحت سطح الأرض



وإذن (كـذلك رأى الصـقـور) ـ فـإن الولايات المتـحـدة ليس لـهـا الحق إذا ترددت، وليس لها العذر إذا تخلت.



وكـانت المناقشات فى مـجلس الأمن القومى لاتزال مـحتدمة ـ بينما مـختلف الأجهزة الأمريكية السياسية والأمنية فى المنطقة ـ بضرورات الاستمرار فى الإدارة ـ تمارس مـهـامـهـا على مسئوليـتـهـا حتى يبلغها قرار نهائى.

وطالت المناقشـات بين الحـمـائم والصـقـور، وطال الجـدل بين التـحـفظ والاندفاع، وحلت فى المنطقة حالة ارتباك شديدة بين سياسـات تـنتظر قرارات من واشنطن ـ وبين أجـهزة سياسية وأمنية تـتـحـرك وفق اجـتـهـادهـا على الأرض فى منطقـة الشـرق الأوسط، وسط أجـواء شـديدة الفـوران (بـعـد انتـهـاء الحـرب البـاردة، واخـتـفـاء العـدو السـوفـيـتى التقليدى الذى تصدى أربعين سنة وأكثر) ـ كل ذلك مع تصورات أطراف خطر لها أن أمامها فرصا متاحة لكسب أرض جديدة ومواقع أكثر تقدما.

وفى هذه اللحظة بالتـحـديد وقع خطأ الحـسـابات فى بغـداد، فـجـر يوم أول أغسطس سنة ١٩٩٠ حين قررت القيادة العـراقية ضم الكويت، ليصبح المحافظة التـاسـعة عشرة للعراق، ولم يكن القرار فى حقيقته مجرد قيام بلد عربى باجتياح حـدود بلد عـربى آخـر (مـهـمـا كـانت الذرائع)، وإنما كـان جـوهر الحـقـيـقـة أن خطا أحـمـر وقع تجـاوزه، وفى مناخ لا يسـمـح لطرف بالتـجـاوز، وفى سـاعـة مفتوحة لكل الاحتمالات! ■

"٤"

ذلـك الـخـط عـلـى الـرمـل سـنــة ١٩٩٠

....

....

■ [سـمـعـت رئيـسـة الوزارة البريطانية «مارجريت تاتشر» أكثر من مرة تحكى عن دورها الحاسم فى تشجيع الرئيس الأمريكى «جورج بوش» (الأب) على الوقـوف بحـزم فى وجـه الـغـزو العراقى للكويت، وكيف أن ضغطها عليه بشدة وصل ـ إلى درجة التأنيب ـ عندما لاحظت تردده (كذلك قالت) ـ حتى يرسم خطه المشهور على الرمل قائلا: «إن ذلك لا يمكن قبوله!» (يقصد غزو الكويت).

وفى رواية «مـارجريت تـاتشر» أنها كانت يوم ٢ أغسطس ١٩٩٠ على موعد للقـاء «جـورج بوش» فى إطار مـؤتمر مُـغلق (أمـريكى ـ بريطانى) ينسق الاسـتـراتيـجـيـات ويرتب الخطط بين البلدين، وكان المقرر عقد هذا المؤتمر فى منتـجـع «آسبن» على سفوح مرتفـعـات كلورادو، وعندمـا عُـرِفَتْ «مـارجـريت تاتشـر» نبـأ الـغـزو العـراقى للكويت سـاورهـا الظن بأن «جـورج بوش» ربما يقرر البقاء فى واشنطن لمتابعة الأزمة الطارئة، وكذلك سارعت إلى الاتصال به تقول له (وفق روايتها) ما يكاد نصه أن يكون:

«جـورج ـ لا تؤجل مـجـيـئك إلى هنا مهما نصحك مستشاروك، فلا يصح أن يظن الرأى الـعـام الـعـالمى أن «طاغـيـة شرقيا» أرغم رئيس الولايات المتحدة على التزام مكتبه وتأجيل ارتباطاته، عليك أن تضع الأمور فى حجمها المناسب لها، فضلا عن أن ما جرى فى الشرق الأوسط موضوع لابد لنا أن نبحثه سويا، وقد كنت على استعداد أن أطير إلى واشنطن للقائك، لكنى عدلت لنفس السبب، وهو أن لا يظن أحد أنه أرغمنا جميعا على تغيير جدول أعمالنا».

وتستطرد «مـارجريت تاتشر» «أن جـورج جـاء إلى آسبن، وجلسنا مـعـا وأحسست أنه «مـخضوض» وأن ركبه «سائبة» Wobbly، وبعد ساعة ونصف الساعة تمالك «جـورج» نفسه وأكد لى «أنه سوف يضرب بكل قوته» ـ وأكدت له أننا معه!».

وتستطرد «مـارجـريت تاتشـر» فى روايتـهـا قـائلة «أنها كانت تقدر مبكرا أن هناك فى الغرب خصوصا «أصدقاءنا عبر المانش فى باريس» (تقـصـد الرئيس الفرنسى «فرانسوا ميتران» أيامها) ـ سوف يدعون الحكمة، ويطلبون الانتظار، ناسين درس «هتلر» و«موسولينى» فى أوروبا (قبل الحرب العالمية الثانية) ـ لكى يستأنفوا إدمانهم لسياسة التهدئة، وأما هى فلم تكن ـ ولا تزال ـ من الرافضين لهذه السياسة إزاء العدوان، واعتقادها أن السكوت مرة معناه السكوت كل مرة وإلى آخر المشوار، لأن شهية الغزو تنفتح أكثر حين يـهـضـم مـا أكل ـ ويـعـود مطالبـا بالمزيد!»].

....

....

والواقـع ـ كـمـا أظهـرت الوثـائق والشهادات الحية لاحقا ـ أن «مارجريت تاتشـر» كـانت مـبـالـغـة (أو على الأقل متفائلة) فى حجم الدور الذى لعبته فى تشـجـيـع «جـورج بوش» (الأب) على التصدى بالقوة لاحتلال الكويت.

والحـاصل أنه بصرف النظر عن كل الخطوط الحمراء التى اجتازها العراق فـجـر أول أغـسطس ١٩٩٠، حين اقـتـحـم الأرض المحظورة لمواقع النفط فى الخليج ـ أن «جـورج بوش» لم يكن مُـفـاجـأ بالدخـول العـراقى إلى الكويت، بل لعل العـراق ـ بذاته وصـفـاته ـ لم يكن تلك اللحظة بعيدا عن أفكار مستشارى البيت الأبيض ولا عن تصوراتهم لشكل المستقبل فى القرن الحـادى والعـشرين، الذى كـان قرنا لابد له فى تقديرهم ـ وبأى ثمن ـ أن يظل قـرنـا أمـريكيـا تنفرد فـيـه أمـريكا بالسيطرة على العالم ـ ولأول مرة ـ دون شريك.

● ومن ناحـيـة أن البيت الأبيض لم يفـاجـأ، فـمن المؤكـد الآن أن الأجـهـزة الأمـريكيـة المعنيـة ـ وضـمنهـا وكـالة المخابرات المركزية الأمريكية، والمخابرات العـسكرية، ومكتب اسـتطلاع القـيـادة المركزية التى يقودها الجنرال «نورمـان شـفـارتز كوبف» ـ كـانت تتابع تحركات القوات العراقيـة، وترصد تقدم فرق الحـرس الجـمـهـورى لاتخـاذ أوضـاع هجومية حول منطقة البصرة، وكانت تلك الصورة كافية لتظهر بجلاء أن هناك نية، وأن هذه النيـة على وشك أن تتـحـول إلى خطة لاحتلال الكويت.

واتصل رئيس الأركان «كولين باول» بالبيت الأبيض ـ يوم ٢٥ يوليو ١٩٩٠ ـ يتـشـاور مع مـسـتـشـار الأمن القـومى للرئيس «برنت سكوكروفت»، فـيـمـا إذا كان الأوفق تكليف السفيرة الأمريكية فى بغداد «أبريل جلاسبى» بطلب مـقـابلة عاجلة مع الرئيس العراقى، حـتى تلفت نظره بتـحـذير مبكر إلى التزام أمريكى بحماية الكويت لكى يراجع حـسـاباته، لكن «سكوكروفت» عاود الاتصال برئيس الأركان يبلغه بما اسـتقر عليـه الرأى بين مسـتـشـارى الرئيس وهو أن أى تحـذير مبكر «للعراقيين» لا داعى له، وأن القرار هو الانتظار «حتى نرى ما سوف يفعلون ثم نتصرف بما نجده مناسبا!».

ومن الغريب أن «أبريل جلاسبى» ـ ذات اللحظة ـ كـانت تنقل إلى الرئيس «صدام حسين» رسالة مرتبكة لعلها (إذا جرى استبعاد نظرية المؤامرة) أن تعكس حالة اللاقرار التى كانت سائدة فى الإدارة الأمريكية إزاء مـشـهـد سـقـوط الاتحـاد السوفيتى، وبالطريقة التى جرى بها ذلك السقوط وتداعياته، وأولها كيف يمكن للإمـبراطورية الأمريكيـة أن تسـتـغله لحسابها؟!



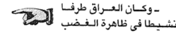
● ومن الناحيـة الثانية فإن العراق بذاته وصفاته لم يكن بعيدا تلك اللحظة عن أفكار مسـتـشـارى الرئيس «بوش» (الأب) وتصوراتهم لشكل المستـقبل فى القرن الحادى والعشرين.

والواقع أن العـراق بذاته وصـفـاته كان متداخلا بشدة فى مسار مناقشات مـجـلس الأمن القـومى واجـتـمـاعـاته الخمسة (أواخر سنة ١٩٨٩ وأوائل سنة ١٩٩٠) ـ بل وكان حاضرا قبل ذلك فى مناقشات لجنة الأربـعـمائة خبـير التى درست احـتـمـالات سـقـوط الاتحـاد السوفيتى وحـاولت أن تتحسب لعواقب هذا السقوط.

وبالتحديد فإن العراق كان داخلا فى عـديد من الاعـتـبـارات التى طرحـتـهـا المناقشات:

ـ كان بالطبع داخلا فى قضية النفط وضرورة السيطرة الكاملة على منابعه وإنتـاجـه (فـالعـراق وحـده يملك ١١٣ بليون برميل من البترول المؤكد، أى ١١٪ من الاحـتيـاطى العـالمى، ولديه فيـمـا هو مرصود ٧٠ حقلا لم يستثمر منها غير ١٥ ـ مما جـعـل وزارة الطـاقـة فى الولايـات المتحدة ترفع حجم الاحتياطيات العراقية ـ فى تقديراتها السرية ـ إلى ٢٢٠ بليون برميل أى أكثر من ضعف ما هو محسوب عالميا أو مرصود.

ـ وكـان العـراق طرفـا نشـيـطا فى ظاهرة الـغـضـب



الإقليمى، فقد خرج من حرب طالت ثمانى سنوات مع إيران، متصورا أن الغرب الذى ناصره فى التصدى للمد الثورى الإسلامى فى إيران (رغم أن هذا الغرب نفسه قاوم الاتحاد السوفيتى بسلاح الجهاد الإسلامى فى أفغانستان) - توقف عن مساعدته، ثم إن الدول العربية - خصوصا دول الخليج - وهى أول وأشد محرضيه على التصدى لإيران، تركته بعد أن أرهق طاقاته وانصرفت تركز على مصالحها.

- وكان العراق داخلا فى قضية أمن إسرائيل، لأنه بسبب عدم وجود حدود بينه وبين إسرائيل - لم يلزم نفسه باتفاقية هدنة، ولم يدخل فى مفاوضات سلام، بل على العكس فإنه اتخذ أكثر المواقف تشددا إزاء أى محاولة لتسوية الصراع العربى الإسرائيلى، وفوق ذلك فإن ضغط العراق كان محسوسا على سوريا، لمنعها من اللحاق بمصر إلى عقد اتفاقية صلح مع الدولة اليهودية.

- وكان العراق - أولا وأخيرا - طرفا رئيسيا فى قضية تكدس السلاح فى منطقة الشرق الأوسط، لأن الولايات المتحدة اعتبرت أن الثورة الإسلامية فى إيران التى أطاحت بنظام الشاه - وهو أقرب الأصدقاء إلى أمريكا وإسرائيل - ضربة قاسية لها، ومن ثم فإنها لم تدخر جهدا فى تسهيل تسليح العراق حتى يستطيع صد المد الإسلامى الإيرانى، ومعاقبة ثورة «الخُمينى» وجموحها الجارف.

....

....

[والحاصل أن الاستراتيجية الأمريكية سعت إلى ضرب إيران بالعراق، والعراق بإيران، وقصدها استهلاك قوة بلدين لا يمكن الاطمئنان إليهما معا على المدى الطويل، وكانت تلك السياسة هى التى سميت فيما بعد بسياسة «الاحتواء المزدوج»، وقد عبر عنها «هنرى كيسنجر» بقوله: «هذه أول حرب فى التاريخ أتمنى أن لا يخرج بعدها منتصر، وإنما يخرج طرفاها وكلاهما مهزوم!».

أى أن سياسة الولايات المتحدة فى تلك الحرب كانت زيادة تأجيج النار وتزويدها بوقود جديد كلما هدأ الحريق].

....

....

[والغريب أن كثيرين لم يلتفتوا بالقدر الكافى إلى الداعى الذى دفع الإدارة الأمريكية فى عهد «بوش» (الابن) (٨ نوفمبر ٢٠٠٢) إلى خطف تقرير العراق المقدم لمفتشى الأمم المتحدة عما بقى لديه من أسلحة الدمار الشامل، وكان السبب هو أن الإدارة الأمريكية أرادت أن تحذف من التقرير كل إشارة إلى أن أكثر من ٢٥ شركة أمريكية عملاقة تولت توريد معظم هذه الأنواع من أسلحة الدمار الشامل إلى العراق أثناء حربها ضد إيران!].

....

....

- وكان العراق بعد ذلك داخلا فى قضية القلق الإسرائيلى من درجة «المعرفة العربية» بأسرار صنع وإنتاج أسلحة الدمار الشامل (أكثر من الاهتمام بما هو موجود فعلا من هذه الأسلحة) - لأن هاجس إسرائيل الدائم كان إقصاء كل طرف عربى عن «علوم وتكنولوجيا» إنتاج الأسلحة المتطورة.

وأمام اجتماعات مجلس الأمن القومى برئاسة «جورج بوش» (الأب) - كان هناك سيل من تحذيرات إسرائيلية تبدى القلق مما يجرى فى مصانع العراق ومعامله، وتلح على ضرورة اتخاذ إجراء حياله، باعتباره «خطرا محتملا» فى المستقبل، حتى وإن لم يكن هذه اللحظة الدقيقة «خطرا متيقنا»!».



وطوال الفترة ما بين دخول العراق إلى الكويت أول أغسطس ١٩٩٠، وحتى خروجه منها فى فبراير سنة ١٩٩١، كان «جورج بوش» وأركان إدارته يشعرون أنهم على أول الطريق المؤدى بهم إلى تأكيد أن القرن الحادى والعشرين سوف يكون - قرن أمريكيا!

وكانت التجربة الإمبراطورية الجديدة - استعدادا للقرن الأمريكى الجديد (الحادى والعشرين) - فريدة من نوعها، فقد قابلت فرصتها، وساعدها أن الفرصة واتتها - ومع الفرصة قضية.

فهى أولا قضية البترول مباشرة.

وهى ثانيا قضية خلل فى الحسابات وقع فى المكان الخطأ والمناخ الخطأ والزمان الخطأ.

بمعنى أن الولايات المتحدة كانت تفكر فى أمر العراق بالتحديد، ثم إنها حامت حوله وقابلت فرصتها عندما ظهر العراق أمامها على الناحية الأخرى من خط الرمل وليس معه غير كتل من الجماهير المحبطة باحثة فى التيه عن علم، ناظرة إلى النجوم على أمل - وكانت إدارة «جورج بوش» (الأب) مصممة أن لا يفلت منها طرف الخيط الذى أمسكت به، وهنا فإن جهدها تحرك على عدة محاور:

● المحور الأول - الاستفادة من صدمة غالبية العرب - على المستوى الرسمى والشعبى - بمفاجأة غزو الكويت، وهنا فإنها بادرت إلى استغلال هذا الشعور لتثبت أرضية عربية تؤسس لمشروعية ضرب العراق. وكان المطلوب هو الإسراع بتجهيز هذه الأرضية قبل أن يتبدد أثر الصدمة، أو يراجع العراق تصرفه عندما يرى النذر، أو يتمكن من تحويل الأغلبية التى تعارض تصرفه إلى أغلبية تسكت عليه بأمل أن تتمكن القدرة العراقية المتضخمة من دور فاعل فى الصراع مع إسرائيل.

● وكان المحور الثانى التأكد - وقد دخل العراق إلى الصندوق - أنه لن يخرج منه، وهنا فإن الضغط الأمريكى كان صارما للحيلولة دون حل عربى لأزمة غزو الكويت. وهنا جاءت - للإنصاف - محاولة ملك الأردن «حسين» (مع التسليم بأنه فيما سعى به كان يحاول الحفاظ على وحدة الأردن وعلى عرشه، وعلى مستقبل أسرته وربما فرصها فى عرش هاشمى فى العراق ذات يوم) - وكان أن الملك «حسين» (كذلك قال لى وأكد - وساندته فيما قال وأكد - وقائع ووثائق صحيحة)، توضح أنه توصل إلى إقناع القيادة العراقية يوم ٥ أغسطس - بعد أن لمعت البوادر والنُذر - بأنها إذا لم تنسحب من الكويت فسوف تواجه ما لا طاقة لها به، وكان شرط العراق فى طلب الأمان - صدور تعهد أمريكى بأن الولايات المتحدة لن تطارد الجيش العراقى فى وطنه - إذا عاد وراء حدوده وترك الكويت.

لكن البيت الأبيض مارس كل نفوذه لقطع الطرق ومنع أى مخرج عليها، وكان مؤتمر القمة العربى فى القاهرة يوم ١٠ أغسطس، وأجواؤه وملابساته بمثابة عملية إغلاق للصندوق حول العراق بالمفتاح وبالترباس!

● وكان المحور الثالث تكثيف الحشود حول العراق، وكذلك راحت الفرق المدرعة وحاملات الطائرات وقواعد الصواريخ الأمريكية - تتسابق إلى اتخاذ مواقعها فى القواعد والتسهيلات العربية ابتداءً من يوم ٦ أغسطس، أى من قبل انعقاد القمة العربية، وكان شكل الحشود قاطعا أنها الحرب ليس فقط لتحرير الكويت، ولكن - بالدرجة الأولى - لتدمير القوة العراقية والسيطرة على مقدرات ذلك البلد، وفى أواخر سنة ١٩٩٠ كانت الحشود العسكرية الأمريكية البريطانية (ومعها تشكيلات متحالفة من كل مكان) تحكم حصارها حول العراق بطوق حديدى.

وكان الملك «حسين» لايزال يبذل مساعى يعرف أكثر من غيره أنها يائسة، وجرى بينه وبين السيدة «مارجريت تاتشر» رئيسة الوزارة البريطانية لقاء عاصف فى مقر رئاسة الوزارة فى لندن، فقد جلس الملك أمام المرأة الحديدية، يقول لها بعد المقدمات «أنه يريد أن يشرح لها النتائج التى يمكن أن تترتب على غزو العراق وتدميره» - وإذا «مارجريت تاتشر» تهب فى وجهه صارخة:

«اسمع.. أريدك أن توفر على نفسك حججك السياسية والقانونية، وتعرف أنك تضع رهانك على الطرف الخاسر، ثم صاحت فيه «أنت تراهن على الخاسر» «You are backing a loser» وكانت عيناها تبرقان بالغضب، وأحس ملك الأردن أنه أُهين، وقال بأدب محاولا ضبط غضبه «سيدتى.. لا يحق لك أن تتحدثى إلىّ بهذه اللهجة».

وقصد الملك بعد لندن إلى الولايات المتحدة يلتقى الرئيس «جورج بوش» (الأب) فى ضيعته «كينيبنكبورت» بولاية «ماين»، وقال له وهما يمشيان قرب شاطئ البحر «إنه يخشى من اندلاع نار مدمرة فى المنطقة»، ورد عليه «بوش» (الأب) بقوله «إنه يعرف أن النار سوف

طوال الفترة ما بين دخول العراق إلى الكويت أول أغسطس ١٩٩٠، وحتى خروجه منها فى فبراير سنة ١٩٩١، كان «جورج بوش» وأركان إدارته يشعرون أنهم على أول الطريق المؤدى بهم إلى تأكيد أن القرن الحادى والعشرين سوف يكون قرنا أمريكيا!



تندلع، لكنه حريص على الملك لا يريد له أن يحرق أصابعه بلهبها».

● وكان المحور الرابع هو تشكيل تحالف عالمي واسع لشن الحرب على العراق، وهنا أصدر مجلس الأمن مجموعة قرارات لَفّت الصندوق العراقى بسلاسل من الفولاذ حتى لا يدخل إليه ولا يخرج منه شيء، وكان الطوق اقتصاديا وسياسيا ودعائيا بحبكة لم يسبق لها مثيل، وعندما توقفت كل أنابيب ضخ البترول العراقى عبر تركيا وسوريا والسعودية، فقد بدا أن العراق - داخل الصندوق الفولاذى - يتعرض لعملية خنق تمهد للضربة القاضية عندما يجيء دور السلاح.

وكانت الولايات المتحدة قاسية مع الجميع، خصوصا هؤلاء الذين بان ترددهم من الأطراف الدوليين، وأولهم فرنسا (واضطر الرئيس «ميتران» إلى تغيير موقفه الذى مال إلى الاعتدال ولو قليلا، لأن ممثلى الشركات الفرنسية الكُبرى ذهبوا إليه شاكين أن سياسة فرنسا سوف تحرم شركاتها من أكبر العقود فى التاريخ، وهى عقود الامتيازات فى بترول العراق وعقود المقاولات لإعادة تعميره) - وكذلك شاركت القوات الفرنسية فى الحشد العسكرى الكبير المحيط بالعراق.

● وكان المحور الخامس هو شن الحرب فعلا ابتداءً بتمهيد جوى تواصل أكثر من أربعين يوما، ولم تكن القيادة العراقية تتصور إمكانيات الحرب الإلكترونية عندما يطلق لها العنان، وكان ظنها أنها سوف تستطيع ممارسة مقاومة مؤثرة اعتمادا على ما لديها من إمكانيات. وحدث فى «فترة الريبة» قبل أن تفتح المدافع فوهاتها - أن رئيس وزراء بريطانيا الأسبق «إدوارد هيث» قصد إلى بغداد وقابل الرئيس «صدام حسين» وقال له ضمن ما قال «أنكم لا تعرفون حجم الأسلحة الأمريكية التى تستطيع الولايات المتحدة أن تستعملها ضدكم»، وكان الرد الذى سمعه «أن الولايات المتحدة تعرف حجم الأسلحة التى يستطيع العراق أن يقاوم بها».

لكن الحرب عندما جاءت أظهرت أنه مهما كان ما تملكه دولة فى العالم الثالث (حتى وإن حصلت على معظمه من شركات أمريكية أو أوروبية) - محسوب كله فى إطار لا يتجاوزه، وأن ترسانات القوة العظمى (بالتحديد الولايات المتحدة) - تحتوى على ما هو قادر عليه!

● وكان المحور السادس أنه عندما انكسرت مقاومة العراق، وبان أن الحرب البرية بعد الضربة الجوية مجزرة شنيعة - راح بعض ملوك ورؤساء الدول العربية (وهم أطراف تحالف فيها) يظهرون قلقهم من الاستمرار أكثر من ذلك فى مواصلة المذبحة. وتشاور الرئيس «جورج بوش» (الأب) مع كبار مستشاريه وبينهم هيئة الأركان المشتركة، وكان رأيهم - وفيهم «كولين باول» أن الحرب حققت أهدافها، لأن الضربة الجوية دمرت فعلا معظم السلاح العراقى، وأما بالنسبة للنظام فى بغداد، فإن ثورة محققة (شيعية فى الجنوب - كردية فى الشمال) سوف تتكفل ببقية المطلوب، وفى أرجح الاحتمالات فإن الجيش العراقى سوف يقوم بانقلاب على قيادة ورطته فى حرب غير متكافئة، وحينئذ تقوم فى بغداد حكومة جديدة ترضى بالشروط السياسية للمنتصر (بعد قبول النظام الحالى بالشروط العسكرية اللازمة لوقف إطلاق النار) - ثم إنه لن يكون فى وسع هذه الحكومة العراقية الجديدة أن تفعل شيئا، سوى أن تفتح الأبواب لعهد جديد مع الولايات المتحدة، وحينئذ يتحقق تغيير النظام، وبعده استدعاء أمريكى إلى قلب بغداد.

● والمحور السابع أن آلة الإعلام الأمريكية الضخمة - وكذلك أجهزة العمل السرى راحت تحرض الجنوب الشيعى والشمال الكردى على الثورة، وبدا لعدة أسابيع أن النظام فى بغداد معزول، لكنه فى نفس تلك اللحظة وقعت معجزة لم تكن فى حساب أحد، ذلك أن الجيش العراقى الذى رأى وحدة الوطن العراقى توشك على الانفراط قبل أن يتحقق سقوط النظام - بذل جهدا خارقا للعادة فى مقاومة الثورة جنوبا وشمالا، وتمكن من السيطرة على الوضع.

وفى ظرف شهور قليلة، بان أن الحرب لم تحقق كامل أهدافها، فقد وقع تدمير الاقتصاد العراقى، واستهلاك قوة الجيش العراقى وسلاحه، لكن النظام تمكن من البقاء، كما أنه على وجه القطع ظل يسيطر على قوة عسكرية لها شأن، مع التسليم بأنها توازى نصف حجمها السابق وربع سلاحها!



ولم تكن هذه النتائج مرضية من وجهة النظر الأمريكية، لكن معظم العالم أصبح يعتقد أن العراق دفع ما فيه الكفاية كفارة عن خطأ الحسابات، ومع ذلك فإن الرئيس الأمريكى «جورج بوش» (الأب) - كان له اعتقاد مختلف - اعتمدته إدارته، باعتبار أن الأسباب التى استهدفت العراق أكبر من الكويت وأولى من المنطقة العربية، وأهم من بقية العالم.

وعندما سقط «جورج بوش» (الأب) فى محاولته للحصول على مدة رئاسة ثانية، وأفسح مكانه فى البيت الأبيض لرجل غيره هو «بيل كلينتون»، فإن هذا الرئيس الجديد لم يكن فى فكره تغيير السياسات الأمريكية، وإنما كان فى مزاجه تغيير الأسلوب، وقد اختار أسلوبا آخر لتحقيقه.

وكذلك ظلت إدارة «كلينتون» على طول ثمانى سنوات تضع العراق تحت نظرها، وتضيق عليه خطوة بعد خطوة معتمدة على سياسة الصندوق المغلق، أى استمرار حصاره اقتصاديا وسياسيا ودعائيا، تظن بذلك أن الخنق - حتى وإن كان بطيئا، أشد قسوة من القتل الذى يجيء سريعا - وزيادة عليه فإنها كانت بين الحين والحين توجه إليه ضربة صاروخية تذكره «بالمصير المحتوم».

وفى أيام رئاسته الأولى وجه «بيل كلينتون» إلى العراق ضربة صواريخ، بحجة أن عملاء عراقيين حاولوا اغتيال الرئيس السابق «جورج بوش» (الأب) أثناء زيارة قام بها إلى الكويت، (وتلقى فى آخرها هدية توازى وزنه ذهبا).

ثم تكررت ضربات الصواريخ، وآخرها ضربة «ثعلب الصحراء»، التى استمرت عدة أسابيع، وهدفها إعادة تحطيم ما أصلحه الشعب العراقى من مرافقه التى دمرتها عاصفة الصحراء، حتى يدرك أنه غير قادر على ترميم حياته فى ظل النظام الذى يحكمه (وكان ضمن ما استهدفه القصف الكبير من مرافق الحياة: محطات المياه والمجارى، ومحطات الكهرباء، والمصانع، ومولدات الطاقة وغيرها وغيرها).

وبالتوازى مع ذلك جرى الضغط على مفتشى الأمم المتحدة، (ورئيسهم فى ذلك الوقت «ريتشارد بتلر») يعاونه مساعده الأول «سكوت ريتر» (الذى اعترف فيما بعد أنه كان ينسق كل تصرفاته مع إسرائيل، وأنه فى فترة عمله زارها سرا اثنتين وعشرين مرة) - لكى يحولوا دورهم من مهمة تفتيش - إلى محكمة تفتيش.

وبالتوازى مع ذلك أيضا جرى تشجيع المعارضة السياسية للنظام العراقى، وكان معظم التشجيع فى المنافى البعيدة، لكنه بعد الأخذ بسياسة مناطق الحظر الجوى فى جنوب العراق وشماله (وقد فرضته واشنطن خارج إطار الأمم المتحدة) - جرى إنشاء مناطق آمنة بالذات فى الشمال الكردى، وعليها فإن المجال أصبح مفتوحا لجماعات مقاومة متعددة الهويات والأعلام والوسائل.

وفوق ذلك كله راح الإعلام الأمريكى يشدد كل يوم ضغطه على الجهاز العصبى للنظام فى بغداد!

كان الصندوق المغلق الذى وُضع فيه العراق - يزداد إحكاما كل يوم دون السماح بثغرة تتسرب منها أنفاس هواء تسمح بحياة صحية أو نصف صحية.

ومع ذلك فإن تلك المجموعة التى توافرت على دراسة الضرورات المُلحة للإمبراطورية الأمريكية فى القرن الحادى والعشرين، والتى نشطت تحت لافتة «ضرورات قرن أمريكى جديد» - لم تكن عاطلة عن العمل، رغم أنها لم تعد مؤثرة على القرار السياسى من البيت الأبيض، فهذه المجموعة كانت جمهورية فى غالبية



عندما سقط «جورج بوش» (الأب) فى محاولته للحصول على مدة رئاسة ثانية، وأفسح مكانه فى البيت الأبيض لرجل غيره هو «بيل كلينتون»، فإن هذا الرئيس الجديد لم يكن فى فكره تغيير السياسات الأمريكية، وإنما كان فى مزاجه تغيير الأسلوب، وقد اختار أسلوبا آخر لتحقيقه



أعضائها - بينما الإدارة والبيت الأبيض في حوزة الديمقراطيين - الآن.

وفي الواقع العملي فإن تلك المجموعة أصبحت بالفعل وبالقول أداة ضغط (لوبي) تفرض على الإدارة القائمة (الديمقراطية) إيقاعا أسرع مما ترغب فيه هذه الإدارة (فالاستراتيجيات في العادة متفق عليها والأساليب وحدها تقبل الاختلاف) - لكن مجموعة الضغط الجمهورية لا تتوانى في تشديد ضغطها - لأنها تخشى من مستجدات تطرأ على الساحة الدولية تشوش أو تعطل.

وبشكل محدد فإن القوى المؤثرة في الولايات المتحدة - في البيت الأبيض أو خارجه - ديمقراطيين وجمهوريين على السواء - ظلت متفقة على مشروع جدول أعمال.

- إمبراطورية أمريكية واتتها الظروف «وواجبها المقدس» - والحال كذلك - أن ترث ما سبقها من إمبراطوريات، وأن تحتفظ بما ورثت، وتضيف إليه، ثم تضمن إحكام قبضتها على السابق واللاحق.

- وعالم لابد من إعادة ترتيب أحواله وإقامة موازينه من جديد على أساس مختلف، يحتفظ للإمبراطورية الأمريكية بالكلمة العُليا في كل شأن.

- وبين أهم اللوازم سيطرة كاملة على موارد الطاقة لأنها محرك القوة والتقدم، حتى إشعار آخر.

- وفي إطار ما هو ضروري ولازم فإن الولايات المتحدة مستعدة بشروط أن تقبل بحق كبرى الدول الصناعية الغربية في شراكة تكون لها نسبة مقررة في القرار العالمي، ونصيب مقنن - في موارد النفط، على أن تظل الكلمة الأخيرة في الموضوعين لواشنطن.

- يساعد على ذلك أن الضرورات واللوازم التي اقتضت أن يكون مجال الحركة الرئيسية مع مفتتح القرن الحادي والعشرين هو الشرق الأوسط - توافقت مع كون الولايات المتحدة حاضرة ومتمكنة منه فعلا، ثم إن النظم الحاكمة في بلدان هذه المنطقة صديقة وموالية.

- وفي التقدير الأمريكي أن الشريك الرئيسي المعتمد في هذه المرحلة بالذات، ليس هؤلاء الأصدقاء الموالين من العرب، وليس بريطانيا كما يبدو على السطح - وإنما هو إسرائيل، فهي - وليس غيرها - بالواقع العملي موجودة على الأرض، وهي بحقائق القوة مؤثرة في الساحة، وبالإضافة إلى ذلك فإن إسرائيل لظروف علاقتها مع الولايات المتحدة لا تتردد من وازع قانوني أو أخلاقي، وإنما هي بيقين داخلي عميق تدرك أن حياتها وبقاءها بعيدا عن الولايات المتحدة الأمريكية - مشروع غير قابل للبقاء ومحكوم عليه تاريخيا!

- والشعوب العربية المعادية لإسرائيل - وأولها الشعب الفلسطيني الذي يدافع عن أرضه ووجوده - لابد لهم أن يتعلموا درس الواقعية السياسية ويقبلوا به (حتى لو أدى إلى خروجهم من المستقبل).

- ومع أنه من وقتها سنة ١٩٩١ وحتى الآن (أكثر من عشر سنوات) - تغيرت الظروف، ودفع العراق كفارة الخطأ عدة مرات، وتحمل شعبه بأكثر مما تحمل أي شعب غيره - فإن العراق حتى وإن لم يعد خطرا داهما - مازال من الممكن استعماله شبحا تحوطه الأوهام!

- وكان مما يزكي العراق لسياسة مطاردة الشبح وحرب الوهم، عنصران:

أولها: أن العراق مستنزف بالحرب والحصار، وبالتالي فهو هدف مكشوف ومعرض!

والثاني: أن العراق بلد موفور الغنى بالثروات الكامنة فيه، وبالتالي فهو قادر على دفع «تكاليف عملية تدميره»، وقادر على دفع «فاتورة إعادة تعميره»، (دون أن يحتاج مثل غيره إلى معونات أو مساعدات!).

وطوال رئاسة «بيل كلينتون» للولايات المتحدة الأمريكية كانت جماعة الضغط الجمهوري (اللوبي) - المطالبة بالإمبراطورية، والسيطرة على البترول، والتحالف مع إسرائيل، وتطويع الشعوب العربية، والتلويح بشبح «الخطر» من العراق - تزداد نشاطا، وتضم إليها مناصرين جُددا، يساعدون على توسيع دائرة نفوذها باستمرار (تحت نفس شعار: «ضرورات قرن أمريكي جديد»!).

والشاهد أنه يمكن متابعة ورصد عدد من قادة هذه الجماعة وتتبع حركتهم عبر دوائر متشابكة - فهُم دائما نفس الوجوه - ودائما نفس الأصوات.

- وكانت البداية من عضوية لجنة الأربعمائة الأصلية التي كلفت ببحث احتمالات سقوط الاتحاد السوفيتي تحت رئاسة «بول نيتزي».

- ومنها إلى دائرة الانتشار والظهور في مناصب كبيرة في وزارات الدفاع والخارجية والطاقة ومراكز المخابرات المركزية الأمريكية (وعضوية مجلس العلاقات الخارجية الأمريكي، وغيره من المراكز السياسية والاستراتيجية).

- ومنها إلى دائرة الجلوس حول مائدة اجتماع مجلس الأمن القومي تحت رئاسة «جورج بوش» (الأب) - عندما طرحت الخطوط العامة الأولى للمشروع الإمبراطوري الأمريكي للقرن الحادي والعشرين.

- وأخيرا إلى دائرة النشاط والمتابعة في عهد الرئيس «بيل كلينتون» بعد أن خسر الجمهوريون انتخابات سنة ١٩٩٢، (وكان ظنهم أن عاصفة الصحراء وحدها تكفل لهم أن يفوزوا فيها).

■ والحاصل أنه في كل هذه الدوائر تكررت نفس الأسماء:

«ريتشارد تشيني» (نائب الرئيس الآن) - «دونالد رامسفيلد» (وزير الدفاع الآن) - «ريتشارد بيرل» (رئيس فريق التخطيط الاستراتيجي الآن) - «بول وولفويتز» (نائب وزير الدفاع الآن) - «ريتشارد أرميتاج» (نائب وزير الخارجية الآن) - وغيرهم كثيرون، وفيهم من رأسوا وكالة المخابرات المركزية مثل (جيمس وولسلي)، وفيهم من رأسوا شركات طاقة كبرى (مثل فرانك كارلوتشي)، ومع هؤلاء حشد من أعضاء بارزين في الكونجرس ديمقراطيين وجمهوريين على السواء (مثل جوزيف ليبرمان وجون ماكين).

وكان هؤلاء وزملاء لهم في الفكر والفعل هم الذين أشرفوا على بناء تحالف حرب الخليج الثانية (سنة ١٩٩٠ - ١٩٩١)، وهم الذين خططوا لمؤتمر مدريد لتحقيق صلح شامل بين العرب وإسرائيل (١٩٩٢)، وهم الذين ساعدوا على تمهيد السبيل إلى لقاء بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل (المعروف باتفاقية أوسلو ١٩٩٤).

وكانوا هم الذين كتبوا خطابا مباشرا إلى الرئيس «كلينتون» بتاريخ ٢٦ يناير ١٩٩٨، يقولون فيه بالنص:

«السيد الرئيس

«إننا نكتب إليكم عن اقتناع بأن السياسة الأمريكية الحالية تجاه العراق لم تحقق أهدافها، وإنها في الغالب سوف تواجه تهديدا في الشرق الأوسط أشد خطورة مما واجهناه وقت الحرب الباردة. ونحن نظن أن خطابكم القادم في شأن «حالة الاتحاد» يمكن أن يكون الفرصة الملائمة لإظهار عزم أمريكا على أن يكون القرن الجديد أمريكيا، ونأمل أن تنتهز هذه الفرصة لكي تعلن استراتيجياتك الكفيلة بتأمين مصالح الولايات المتحدة وأصدقائها وحلفائها في العالم.

إننا نهيب بالإدارة أن تضع كل جهود «الأمة» الدبلوماسية والسياسية والاقتصادية والعسكرية لتأكيد سيطرة الولايات المتحدة بخطوة أولى تضمن إزاحة «صدام حسين» عن حكم العراق، وأن تفعل ذلك من خلال الأمم المتحدة - أو منفردة إذا اقتضى الأمر».

(وكان بين الموقعين على هذا الخطاب: «ريتشارد تشيني»، و«دونالد رامسفيلد»، و«ريتشارد بيرل»، و«بول وولفويتز»).

وتردد «كلينتون» وتصوره أن المعركة ضد الإرهاب لابد أن تحقق انتصارها أولا، لكنه لم يلبث أن توصل مع جماعة «قرن أمريكي جديد» إلى حل وسط، وكانوا هم وبكلماتهم من تولوا صياغة وطرح «مشروع قانون تحرير العراق»، الذي قبله الرئيس «بيل كلينتون»، وأرسله إلى الكونجرس حيث تم إقراره سنة ١٩٩٨، ليصبح نافذ المفعول، ملزما للرئيس الأمريكي.



وفي إطار معركة انتخابات الرئاسة

طوال رئاسة «بيل كلينتون» كانت جماعة الضغط الجمهوري - المطالبة بالإمبراطورية، والسيطرة على البترول، والتحالف مع إسرائيل، والتلويح بشبح «الخطر» من العراق - تزداد نشاطا، وتضم إليها مناصرين جُددا، (تحت شعار: «ضرورات قرن أمريكي جديد»!)



الأمريكية سنة ٢٠٠٠، كان «قانون تحرير العراق» وضرورة تنفيذه الفوري، قضية أثيرت أكثر من مرة في المناظرات بين المرشحين: الجمهوري «جورج بوش»، والديمقراطي «آل جور» دون أن يذكر أحد أن استهداف العراق لم يكن إلهام مبدأ وإنما إلحاح مصالح، ولم يكن قضية عدالة وإنما سبق إصرار على القتل، لأن العراق خلال حقبة التسعينيات - وبعد تحرير الكويت - لم يخرج مرة واحدة في تصرف، ولم يعص أو يخالف، بل كان أمله أنه بالإذعان والامتثال يستطيع أن يخرج من خنق الحصار ويتخلص من كارثة العقوبات.

والحقيقة أن القضية لم تعد قضية العراق، وإنما كان العراق بداية خيط وقع العثور عليه لإمبراطورية القرن الحادي والعشرين.

وكان «جورج بوش» (الابن) هو الأعلى صوتا، خلال الحملة الانتخابية إزاء «آل جور»، عندما يجيء ذكر موضوع العراق، ففي هذه النقطة بالذات كان ادعاء «بوش» أنه الأقدر على استكمال المهمة لأنه عاشها (عائليا)، قبل أن يلتزم بها (سياسيا)، وكانت الإيحاءات بعد ذلك تومئ إلى أن «آل جور» تعايش في البيت الأبيض الوقت نفسه مع «مونيكا لوينسكي» - دون أن يعرف بما يجرى في المكتب البيضاوي، أو أنه عرف ولم يتجاسر على النظر إلى رئيسه في عينيه، وهو في الحالتين لا يصلح، فإذا لم يكن عرف فهو لا يقدر على الإمبراطورية، وإذا لم يكن تجاسر فهو لا يستطيع مواجهة العالم.

وفاز «جورج بوش» بالرئاسة، وإن لم يكن فوزه بمفاضلة أخلاقية أو سياسية (أو شعبية)، وإنما كان فوزه بحيل انتخابية وتلفيقات قانونية - وراءها خطط إمبراطورية، وسياسات مشى في إطارها أحد عشر رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية على مدى نصف قرن من الزمن، تحرك فيها كل منهم بأسلوبه - وبمزاج إدارته - وفي أجواء زمنه (بصرف النظر عن مبادئ الأخلاق وضوابط القانون، لأن الإمبراطوريات لا تحتاج إلى حدودها وقيودها!).

وقد مشى هؤلاء الرؤساء جميعا على نفس الطريق:

١ - الرئيس «فرانكلين روزفلت» (في البيت الأبيض من سنة ١٩٣٢ إلى سنة ١٩٤٥) - تولى قيادة الحرب العالمية الثانية إلى ظرف ظهرت فيه الإمبراطورية الأمريكية «وريثا شرعيا» مطالبا بالإمبراطوريات الأوروبية التقليدية.

٢ - الرئيس «هاري ترومان» (في البيت الأبيض من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٥٢) - وهو الذي وضع توقيعه على التوجيه الرئاسي رقم ٩٨ لسنة ١٩٥٠) بتحديد الهدف الاستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية «بتدمير الاتحاد السوفيتي، وتحقيق تفوق عسكري أمريكي غير قابل للتحدي وغير قابل للمنافسة».

٣ - الرئيس «دوايت أيزنهاور» (في البيت الأبيض من سنة ١٩٥٢ إلى سنة ١٩٦٠) - وهو الذي أشرف على عملية احتواء الإمبراطورية السوفيتية وحصرها - (وهي الإمبراطورية الطالعة المتجددة) - وراء الستار الحديدي وتطويقها بسلسلة من الأحلاف العسكرية في أوروبا وجنوب شرق آسيا، مع محاولة أولى في الشرق الأوسط لبناء نظام عسكري غربي يكمل حلقة الحصار تحت اسم «حلف بغداد»، وقد تعطلت المحاولة (بسبب الحركة الفوارة للقومية العربية).

٤ - الرئيس «جون كيندي» (في البيت الأبيض من ١٩٦١ إلى سنة ١٩٦٣) - وهو الذي جرب أسلوبا آخر في الاحتواء يعتمد على جاذبية النموذج الأمريكي تحت شعار إدارته المشهور - «الحدود الجديدة».

٥ - الرئيس «ليندون جونسون» (في البيت الأبيض من ١٩٦٤ إلى سنة ١٩٦٨) - وهو الذي عاد إلى أسلوب الاحتواء العنيف مرة أخرى في الشرق الأقصى (بحرب فيتنام)، وفي الشرق الأوسط (بحرب سنة ١٩٦٧)، مصمما على أن حركة التحرر الوطني مهما قالت ومهما حاولت هي عنصر مقاوم للإمبراطورية الأمريكية، وبالتالي فهي صديق أو احتياطي (ولو بالمصادفة) للإمبراطورية السوفيتية.

٦ - الرئيس «ريتشارد نيكسون» (في البيت الأبيض من سنة ١٩٦٨ حتى سنة ١٩٧٥)، وهو الذي اعتمد بمشورة من وزير خارجيته «هنري كيسنجر» سياسة وفاق تقصد إلى تثبيت الإمبراطورية السوفيتية في شرق أوروبا - حتى تتمكن الولايات المتحدة أن تعطى نفسها حرية عمل في الشرق الأوسط وفي أفريقيا وآسيا، مع محاولة تكريس الخلاف بين الإمبراطورية السوفيتية وبين الصين وهي القوة الصاعدة في الشرق الأقصى.

٧ - الرئيس «جيرالد فورد» (في البيت الأبيض أكثر قليلا من سنة واحدة من ١٩٧٥ إلى ١٩٧٦) لم تعطه الفرصة لعمل شيء يُذكر له.

٨ - الرئيس «جيمي كارتر» (في البيت الأبيض من سنة ١٩٧٦ إلى سنة ١٩٨٠) وهو الذي ركز جهده بتأثير مستشاره للأمن القومي «زبجنيو برجينسكي» - على قوس المتاعب على الحزام الشمالي للشرق الأوسط، فتصدى للثورة الإسلامية في إيران، وفتح معركة استنزاف الإمبراطورية السوفيتية في أفغانستان بسلاح الجهاد الإسلامي التي جر إليها العالم العربي كله في خدمة سياساته وتنفيذ أغراضه.

٩ - الرئيس «رونالد ريجان» (في البيت الأبيض من سنة ١٩٨١ إلى سنة ١٩٨٨)، وكان هو الذي خطا بسباق السلاح خطوته الحاسمة نحو حرب النجوم، ثم استطاع أن يحول أفغانستان إلى مصيدة حقيقية للدب الروسي، وقاد الحرب الشهيرة ضد إمبراطورية الشر.

١٠ - الرئيس «جورج بوش» (الأب) (في البيت الأبيض من سنة ١٩٨٨ إلى سنة ١٩٩٢)، وهو الذي سقطت في عهده الإمبراطورية الروسية - الشيوعية - وفي أجوائها حقق بحرب الخليج اختراقا هائلا في الشرق الأوسط، حين تمكن من اصطياد العراق في فخ الكويت، وإذا المنطقة كلها حليف للولايات المتحدة وشريك، ثم تنازل التحالف والشراكة إلى درجة أدنى مع ارتهان العرب للسياسة الأمريكية، على أمل حل للصراع العربي الإسرائيلي - يكبح جماح إسرائيل ويكف أذاها!

١١ - وقُرب النهاية جاء الدور على «بيل كلينتون» (في البيت الأبيض من سنة ١٩٩٢ إلى سنة ٢٠٠١)، وهو الذي حاول - رغم تسمية رئاسته «فاصل جنسي» بين رئاسة «بوش» (الأب) و«بوش» (الابن) - إكمال المهمة بقانون تحرير العراق، وجرب تصفية بقايا الصراع العربي الإسرائيلي، ولم تكن قد بقيت منه إلا سلطة وطنية مُحاصرة باليأس ما بين غزة ورام الله.

١٢ - أحد عشر رئيسا حتى جاء الدور أخيرا على الرئيس الثاني عشر «جورج بوش» (الابن)، وهو الآن في البيت الأبيض يزيل آثار المعركة الطويلة التي أسقطت الإمبراطورية الباقية الأخيرة - إمبراطورية الشر - ويجمع الشظايا المتناثرة هنا وهناك، خصوصا على أرض الشرق الأوسط حتى يرسى صرح البناء الإمبراطوري.

وبالطبع فإن «جورج بوش» (الابن) لم يكن وحده، وإنما اتسع المسرح من حوله لتحقيق المشروع الإمبراطوري - الذي يبقى ويحكم في العالم إلى الأبد (هكذا العزم والقصد)

....

....

[كان طريق هذا الطابور من رؤساء الولايات المتحدة طويلا وكان حافلا بالإنجازات الكُبرى، وبالأخطاء الفادحة، وبالسقطات والحماقات، وحتى بالفضائح المجلجلة - لكن اثني عشر رئيسا مشوا جميعا على هذا الطريق الإمبراطوري - كل واحد منهم بمقدار جهده وباتساع فرصه، بعضهم سار أمتارا وبعضهم جرى أميالا، بعضهم تراجع خطوة وبعضهم تراجع شوطا - لكن كلا منهم حاول، لأن المشروعات الإمبراطورية الكُبرى لا تحيد عن أهدافها مهما صادفها، ولا تطيل الوقوف أمام الصدمات بدعوى العجز عن استيعابها، ولا تمارس فعلها بالأهواء الشخصية - في غيبة استراتيجية وطنية أو قومية - وذلك هو الدرس الذي لم تتعلمه ولم تحفظه السياسة العربية، حيث كل رجل في حد ذاته بداية ونهاية - لأنه مستودع الحكمة الأكبر - ومصدر القرار الأوحد - وفي يده المصير!].

....

....

جاء الدور أخيرا على «جورج بوش» (الابن)، وهو الآن في البيت الأبيض يزيل آثار المعركة الطويلة التي أسقطت الإمبراطورية الباقية الأخيرة - إمبراطورية الشر - ويجمع الشظايا المتناثرة هنا وهناك، خصوصا على أرض الشرق الأوسط حتى يرسى صرح البناء الإمبراطوري



من الحظيرة إلى المسيرة!

ولم يكن ما يجرى فى الولايات المتحدة خافيا على قوى العالم الكبرى، فقد تقابلت كلها فى ظروف سبقت المشروع الإمبراطورى الأمريكي، ورأت مقاصده واحتكت مرات به، وكان الاحتكاك فى بعض هذه المرات حادا، يكاد أن يحدث شررا - وربما يشعل نارا.

والآن سنة ٢٠٠٠ وبداية قرن جديد - كانت القوى الكُبرى فى العالم تتابع دخول إدارة أمريكية جديدة إلى السلطة، عارفة مسبقا أنها سوف تكون رئاسة خشنة:

- كان أنصار المشروع الإمبراطورى الأمريكي فى صميم العملية الانتخابية وعلى مواقع توجيهها وقد تحقق الفوز لمرشحهم فيها بما يشبه المعجزة.

- وقد دخلوا من «الخارج» إلى «الداخل» واحتلوا أهم المواقع داخل البيت الأبيض، وعلى رأس الإدارة، وحول مائدة «القرار» فى مجلس الأمن القومى وفى أيديهم أهم مفاتيح القوة الأمريكية، وبالتالى فإن الفرصة «الآن» - و«هنا».

- ومما يسهل المهمة عليهم أنهم مع «رئيس» مستعد بما لديه لأن يتأثر ويسمع ويندفع، وقد اقتنعوه (وهو صحيح) أن استكمال مشروعهم ضمانه لمدة ثانية فى رئاسته، بحيث ينجح فى انتخابات سنة ٢٠٠٤ نجاحا ساحقا لا تشوبه الريب ولا تحوطه الشكوك.

وفوق ذلك فإن جماعة الإمبراطورية كانت تقدر أن مشروعها لفرض سلام أمريكي على العالم (Pax Americana) لن يواجه معارضة جدية حتى من تلك القوى التى ترى «الحالة الأمريكية المستجدة» وتفهم معانيها:

- القوى الأوروبية الكُبرى سوف يضايقها ما تراه وتفهم أنها الإمبراطورية وليس - كما كانت هذه القوى تأمل - مشروع نظام عالمي جديد، لكنه ليس فى مقدور هذه أن تفعل الكثير، وإذا أخذ فى الاعتبار أن بريطانيا مضمونة (بسبب شراكتها فى بترول الشرق الأوسط) - فإن فرنسا وألمانيا لديهما فى أوروبا ما يشغلهما، وأوله رغبة دول الشرق التى تحررت من قبضة الاتحاد السوفيتى أن تزحف إلى الغرب طالبة عضوية الأطلنطى وبعده السوق الأوروبية المشتركة.

- والاتحاد الروسى الوريث للاتحاد السوفيتى لديه ما يكفيه من المشاكل، ومع أن ترسانته النووية المتهالكة مازالت قادرة على الردع، فإن السياسة الأمريكية تستطيع تركيب صمام أمان على الموقف الروسى بضبط فاعليته. وكانت المجموعة الإمبراطورية الأمريكية تعرف من تجارب سابقة أن لحظة المُنى فى موسكو هى تلك اللحظة التى تبدى فيها واشنطن بادرة تدل على أنها مازالت تعتبر الاتحاد الروسى قوة عظمى (أو قوة متساوية) - وكذلك كان أول سعى الرئيس الأمريكي الجديد (الثانى عشر فى ترتيب الرؤساء البنائين للإمبراطورية) هو الذهاب إلى مقابلة «فلاديمير بوتين»، ثم خروجه بعد المقابلة يقول: «إنه نظر فى عينى «بوتين» وعند تلاقى نظراتهما أحس على الفور بشعاع ضوء يوحى بالثقة، وهكذا وقع بينهما الغرام من أول لحظة، واقترح عليه أن ينادى كل واحد منهما الآخر باسمه الأول «فلاديمير وجورج»!

- والدول الآسيوية الكُبرى (الصين واليابان) مشغولة بشئونها، وهى اقتصادية بالدرجة الأولى، وهى لن تعطل نفسها باعتراض على المشروع الأمريكي الإمبراطورى، حتى بمنطق فلسفة (كونفوشيوس وبوذا) يحضها دائما على نظام فى الأولويات والمراتب قادر على التحمل وعلى الانتظار.

وفى هذا كله لم يكن هناك حساب يذكر (لسوء الحظ) لرد فعل من العالم العربى على مشروع إمبراطورى يرسى ويرفع أهم ركائزه على أرض عربية - ومواقع عربية - وموارد عربية.

وعلى نحو ما فإن الولايات المتحدة أخذت العالم العربى مسألة مفروغا منها دون كبير عناء، والسبب أن معظم الدول العربية دخلت «حظيرة» التحالف من وقت حرب تحرير الكويت، ثم إنها مشت من الحظيرة إلى «المسيرة»، وهى عملية صنع السلام مع إسرائيل التى زادت عليها الحركة من مؤتمر مدريد سنة ١٩٩١، ولا تزال مستمرة عليها، لأنها المفاوضات بلا بديل آخر، أى مفاوضات إلى الأبد والاعتماد فيها على الولايات المتحدة وليس على غيرها، وبالتالى فإنه ما بين «الحظيرة» و«المسيرة» لا خوف على العرب ولا خوف منهم!

كذلك كانت حسابات جماعة المشروع الإمبراطورى الأمريكي عندما دخل أقطابه إلى المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض، وحين جلسوا حول مائدة مجلس الأمن القومى، وحين أمسكوا بأهم مفاتيح القوة الأمريكية الهائلة، وراحوا يحركونها لحساب مشروعهم التاريخى.

كانت حساباتهم فى بعض النواحى صحيحة، وكانت الحسابات فى نواح أخرى خاطئة، وكان أول دواعى الخطأ هو العجلة ونفاد الصبر، باعتقاد جماعة الإمبراطورية أنهم أمام نافذة مفتوحة - على فرصة غير محدودة.

وعندها زادت احتمالات الخطأ، ومعه تزايدت أسباب الخطر.



لم يكن هناك حساب يذكر (سوء الحظ) لرد فعل من العالم العربي على مشروع امبراطوري يرسي ويرفع أهم ركائزه على أرض عربية - ومواقع عربية. وموارد عربية



أمـــريـــكـــا

في الأول من شهر شباط/فبراير ورد في بعض الصحف خبر صغير مفاده أن الأمير الوليد بن طلال تبرع مؤخراً بمبلغ عشرة ملايين دولار للجامعة الأمريكية في القاهرة من أجل إنشاء قسم خاص بالدراسات الأمريكية. وكان هذا الملياردير الشاب قد تبرع بدون أن يحضه على ذلك أحد، بمبلغ عشرة ملايين دولار لمدينة نيويورك بعد تعرضها للاعتداء في ١١ أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١. وقد أوضح في رسالة التبرع أن الهبة ما هي إلا من باب الاحترام للمدينة لكنه رأى فيها أيضاً أن على الولايات المتحدة أن تعيد النظر في سياستها في الشرق الأوسط، في إشارة إلى دعمها غير المشروط لإسرائيل كما إلى مجمل سياستها الاستخفافية بالإسلام أو في مطلق الأحوال إلى ما فيها من قلة احترام له.

لكن السيد رودولف جيولياني، حاكم مدينة نيويورك (وهي المدينة ذات الجالية اليهودية الكبرى في العالم)، وقد تملكه الغضب، أعاد الشيك إلى الأمير بدون أي رسميات في تصرف ينم عن ازدراء من النوع العنصري رمى فيه إلى الإهانة والاحتفالية العدوانية في آن واحد. فهو عبر دفاعه عن صورة تميزت بها نيويورك أراد أن يقدم هو شخصياً

بترتيب خاص مع:
Le Monde Diplomatique, Paris
الترجمة إلى العربية بواسطة:
mafhoum.com
(المترجم المعتمد والناشر الإلكتروني الرسمي للجريدة الفرنسية)

السيد عرفات لم يكن يحلم إلا بأمر واحد وهو أن يدعى شخصياً إلى البيت الأبيض ويتفاوض مباشرة مع هذا الرجل من البيض، السيد بيل كلينتون

دعمه لمدينته التي كانت تبرهن عن تماسكها وأن يؤكد رفضه المبدئي لأي تدخل خارجي في شئونها، من دون أن ينسى بالتأكيد تملق الناخبين اليهود الموحدي الرأي كما يفترض بدلاً من أن يعمل على توعيتهم.

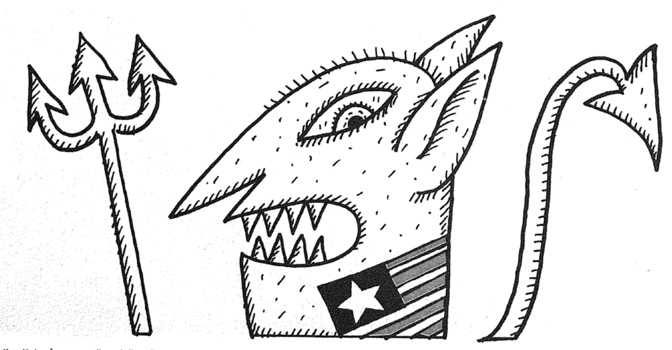
هذا التصرف الفظ من جانب الحاكم شبيه برفضه في العام ١٩٩٥، أي بعد عامين على توقيع اتفاق أوسلو، الموافقة على حضور السيد ياسر عرفات الحفلة الموسيقية في الـ «فيلهارمونيك هول» التي دعيت إليها جميع الشخصيات التي كانت موجودة في الأمم المتحدة. وقد كان رد حاكم مدينة نيويورك على تبرع الشاب السعودي متوقعاً، وهو يأتي في سياق ما تتميز به المناورات الدنيئة التأثيرية التي يقوم بها رجال السياسة الأكثر رداءة في المدن الأمريكية الكبرى.

فمع أن المال كان مخصصاً لمدينة جريحة نتيجة عملية وحشية رهيبة، وهي كانت تحتاجه، إلا أن النظام السياسي والفاعليات الكبرى فيه كانت تقدم إسرائيل على كل ما عداها.

وما من أحد كان يعلم كيف ستكون ردة فعل الطائفة اليهودية لو أن الحاكم قبل الهبة لذلك بادر إلى استباق تحرك اللوبي المقرب من إسرائيل، وهو أساساً على أهبة الاستعداد دائماً. وكما أوضحت الروائية الشهيرة والصحافية جوان ديديون في مقالة لها في «نيويورك ريفيو أوف بوكس»، فإن مبدأ أساسياً في السياسة الخارجية الأمريكية، يعود إلى عهد الرئيس روزفلت، يدعو، وضد كل منطق، إلى دعم النظام الملكي السعودي ودولة إسرائيل في آن واحد. وتضيف قائلة: «إلى درجة أنه لا يمكننا أن نطرح على بساط البحث أي أمر قد يسيء إلى علاقاتنا مع حكومة إسرائيل الحالية».

ربما تؤكد هذه النافلة النظرة الخيالية تماماً إلى الواقع الأمريكي التي ينطلق منها القادة العرب ومستشاروهم المتخرجون عادة من الولايات المتحدة لتحديد سياسة بلدانهم. لكنها نظرة تفتقد فعلا إلى التماسك إذ يتمحور حول الفكرة القائلة بأن «الأمريكيين» يقررون كل شيء في العالم، حتى وإن كان هناك في التفاصيل تشكيلة واسعة وحتى معقدة من الآراء المختلفة، بدءا بالمقتنعة أن الولايات المتحدة ليست سوى مؤامرة يهودية إلى تلك القائلة بأنها ليست إلا مصدراً لا ينضب للبراءة والطيبة ومساعدة الضحايا، أو أيضاً أنها تدار من الألف إلى الياء من البيت الأبيض عبر شخصية بطولية تتمثل برجل أبيض لا نزاع على سلطته.

وعلى مدى عشرين عاماً كنت فيها أتردد على السيد ياسر عرفات، حاولت مراراً أن أوضح له أن أمريكا هي مجتمع معقد تتشابك فيه التيارات والمصالح والضغوط والقصص المتميزة، وأنها لا تحكم مثل سوريا مثلاً، وأنها كحكم وسلطة نموذج مختلف يستحق الدراسة. وقد جندت لهذا الغرض صديقي المرحوم إقبال أحمد الذي تحلى باطلاع عميق على المجتمع الأمريكي والذي كان ربما أفضل المنظرين والمؤرخين لحركات التحرر الوطنية، وقد رغبت إليه أن يبحث بمشاركة غيره من الخبراء مع السيد عرفات في تطوير نموذج أكثر دقة كان في إمكان الفلسطينيين أن يستفيدوا منه في الاتصالات التمهيدية مع الحكومة الأمريكية في أواخر الثمانينيات. لكن ذلك باء بالفشل. كان إقبال أحمد قد درس العلاقات بين جبهة التحرير الوطني في



إدوارد سعيد

الجزائر وبين فرنسا خلال حرب ١٩٥٤ - ١٩٦٢ كما درس الطريقة التي اعتمدها الفيتناميون الشماليون في مفاوضاتهم مع السيد هنري كيسنجر خلال السبعينيات. وقد صدمه هذا الفرق الشاسع بين المعرفة الدقيقة والمفصلة من جانب جبهة التحرير الوطنية والفيتناميين بمجتمع العاصمتين (باريس وواشنطن) وبين معرفة الفلسطينيين الأقرب ما تكون إلى الكاريكاتور بأمريكا (والمستندة بشكل أساسي إلى المزاعم وإلى قراءات سريعة لصحيفة تايم). فالسيد عرفات لم يكن يحلم إلا بأمر واحد وهو أن يدعى شخصياً إلى البيت الأبيض ويتفاوض مباشرة مع هذا الرجل من البيض، السيد بيل كلينتون، كما يحصل له عندما يجد نفسه في موقع الند مع الرئيس المصري حسني مبارك أو الرئيس السوري حافظ الأسد.

وفي انتظار ذلك برز السيد كلينتون كصنيعة السياسة الخارجية الأمريكية وكسيِّدها في آنٍ واحد فعرف كيف يربك الفلسطينيين بجاذبيته وبراعته في المناورة، ومع أن هؤلاء دفعوا الثمن فإنهم لم يغيِّروا نظرتهم إلى أمريكا. ففيما يتعلق بعمل المقاومة وبصنع السياسة في عالم لم يبقَ فيه سوى قوة عظمى وحيدة طاغية، ظلت الأمور كما كانت عليه منذ أكثر من نصف قرن، فغالبيتهم يرفعون أيديهم متذمرين كالعشاق المحبطين، مرددين أن لا أمل يرجى من أمريكا.

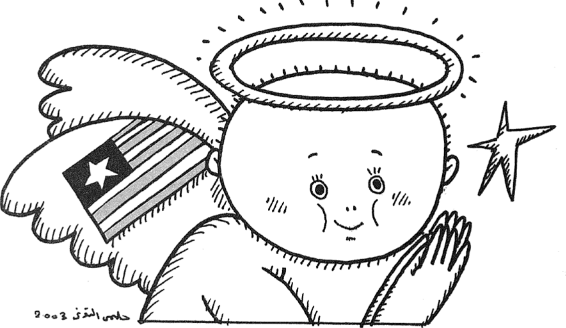
أما الوجه الآخر الأكثر تشجيعاً في هذه القصة فقد ارتسم مع استراتيجية الأمير وليد بن طلال الجديدة، الذي موّل مركز الأبحاث المذكور. فعلى حد علمي أنه باستثناء بعض الدروس أو الندوات المتفرقة في جامعات العالم العربي حول الآداب والسياسة الأمريكية، لم يفتتح ما يمكن اعتباره مركزاً جامعياً للتحليلات المنتظمة والعلمية للولايات المتحدة وشعبها ومجتمعها وتاريخها. ليس حتى في مؤسسات تعليمية مثل الجامعتين الأمريكيتين في كل من القاهرة وبيروت. والحال أنه في عالم بات تحت القبضة الضاغطة لقوة عظمى ذات قدرات لا حد لها، بات من الملحّ معرفة ديناميتها الداخلية المتفاعلة كالإعصار. وهذا ما يستدعي إتقان لغتها، وقلة من الزعماء العرب يجيدونها. نعم إن أمريكا هي بلد ماك دونالدز وهوليوود والجينز والكوكاكولا والسي.إن.إن.، والبضائع المصدرة التي نجدها في كل مكان بفعل العولمة ونتيجة ما يبدو تعطشاً لا يرتوي في العالم أجمع إلى سلع استهلاكية مريحة وسهلة الاستعمال. لكن علينا أن نفهم أيضاً سبب ذلك وكيفية تفسير هذه السيرورة الثقافية والاجتماعية التي تجسدها. فالخطر البارز للعيان هو في النظر إلى الولايات المتحدة نظرة تبسيطية خامدة اختزالية.

ففي مختلف أنحاء العالم دول عاصية باتت تنصاع تحت ضغط المطرقة الذي تمارسه أمريكا في استعداداتها لحرب على العراق لا تحظى أبداً بالتأييد الشعبي (أو أنها تتحالف معها في موقف انتهازي صرف كما هي حال إيطاليا وأسبانيا). ولولا هذه التظاهرات والاحتجاجات الشعبية التي انفجرت في أرجاء العالم، وخصوصاً في ١٥ شباط/فبراير، لجاءت هذه الحرب مجرد قرار فاحش ووقح بالهيمنة لا يلقى أي معارضة. وأن تلقى هذه الحرب الاعتراضات في أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، كما لدى الكثير داخل أمريكا، فهذا يعني أن هناك في النهاية شعوراً بأن الولايات المتحدة، أو أقله ثلة الرجال البيض اليهود - المسيحيين الحاكمين فيها حالياً، قد قرروا فرض هيمنتهم على الكرة الأرضية. فما العمل إذن؟

أود أن أقدم نظرة إجمالية للمشهد العام العجيب للولايات المتحدة، كما يراه أمريكي مثلي يحتفظ، بحكم أصوله الفلسطينية، بنظرة الأجنبي. وأريد أن أقترح بعض الطرائق لفهم هذا البلد من أجل مقاربة أفضل، وإذا ما سمحت الظروف في العالم من أجل مقاومة هذا البلد وهو غير أحادي التركيب كما يظن على الدوام.

وإذا كان لكل امبراطورية أصالتها وتؤكد عزمها على عدم تكرار طموحات أسلافها الجموحة، فإن الولايات المتحدة تدّعي إضافة إلى ذلك غيرية قدسية وبراءة سليمة القصد. وقد تحركت، دعماً لهذا الوهم المقلق، كتائب بأكملها من المفكرين من ذوي النزعات اليسارية السابقة إلى حد ما. وهؤلاء تميزوا في الماضي بمعارضتهم القيام بأي مغامرة عسكرية، وقد باتوا اليوم مستعدين للدفاع عن فكرة الامبراطورية الفاضلة بأساليب متنوعة تراوح بين النزعة الوطنية الديماجوجية والصلافة المرائية. وقد لعبت أحداث ١١ أيلول/سبتمبر دورها في هذا التحول. وعلى كل حال فإن التعامل مع الاعتداءات على البرجين التوأمين وعلى البنتاجون، وبالرغم من هولها، يتم على أنها أتت من العدم وليس من عالم ما وراء البحار الذي فقد اتزانه بسبب التدخلات والوجود العسكري الأمريكي. لا يمكن تبرير الإرهاب الإسلامي، المقيت في كل حال، لكن ما يمكن تلمسه هو أن كل نظرة تاريخية وكل حس بالنسبية قد غاب عن التبريرات المتشددة للأعمال الأمريكية ضد أفغانستان والآن ضد العراق.

والغائب الأكبر في المداخلات الإعلامية لصقور «اليسار» هؤلاء، يبقى اليمين المسيحي (المشابه للإسلاميين بحماسته وادعائه الفضيلة)، وهو في الولايات المتحدة ذو تأثير كبير، بل حاسم. ونظرة هذا اليمين إلى العالم، المستمدة بشكل أساسي من العهد القديم، قريبة من نظرة إسرائيل إليه. ومن غرائب هذا التحالف بين هؤلاء المحافظين الجدد المفرطين الحماسة في الدولة اليهودية والمتطرفين المسيحيين هو أن هؤلاء يشجعون الصهيونية لأنهم ينوون إعادة اليهود جميعاً إلى الأرض المقدسة لدى المجيء الثاني للمسيح، وعندها سيكون على اليهود إما أن يتحولوا إلى المسيحية وإما أن يفنوا



من الوجود. حتى فى صفوف اليهود المناصرين لإسرائيل نادراً ما يشار إلى هذه الغائية الدموية والمعادية بعنف للسامية.

والولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة فى العالم التى تبدى بشكل علنى تمسكها بأهداب الدين. فحياة الأمة مشبعة بالإحالات على الله، من قطع النقد إلى المبانى العامة إلى الشهادات اللغوية من مثل «بالله نؤمن» «In God we trust» إلى «بلاد الله» «God's country» إلى «بارك الله أمريكا» «God Bless America»، إلخ. والقاعدة الشعبية التى يقوم عليها حكم جورج دبليو بوش مؤلفة من حوالى ٦٠ إلى ٧٠ مليون رجل وامرأة يؤمنون مثله بأنهم التقوا يسوع المسيح وأنهم وجدوا على الأرض من أجل إتمام عمل الله فى بلاد الله. وقد زعم بعض علماء الاجتماع والصحافيين (ومنهم فرنسيس فوكوياما) أن النزعة الدينية فى أمريكا المعاصرة نابعة من التطلعات الجماعاتية ومن حنين إلى الاستقرار فى وقت يغير فيه باستمرار ٢٠ فى المائة من الشعب الأمريكى وظيفته ومكان إقامته. وليس هذا سوى جزء من الحقيقة، وما يهم أكثر هو أننا إزاء ديانة نورانية نبوية ذات قناعة راسخة برسالتها الرؤيوية التى لا علاقة لها البتة بواقع الأمور وتعقيداتها. والعامل الآخر يعود إلى هذه المسافة الشاسعة التى تفصل هذا البلد عن العالم المضطرب وإلى عجز جيرانه فى الشمال والجنوب، أى كندا والمكسيك، على الحد من نوثباته.

وكل هذه الأيديولوجيا تتوافق على القول بأن الولايات المتحدة تمثل الاستقامة والصلاح والحرية والأمل الاقتصادى والتقدم الاجتماعى. وهذه الأفكار تنصهر فى الحياة إلى درجة أنها لا تبقى مجرد أيديولوجيات بل تبدو كحقائق «طبيعية». فأمريكا تساوى الخير وتساوى الصدق والمحبة الصافيين. فهناك الإجلال غير المشروط تجاه الآباء المؤسسين وإنما أيضاً تجاه الدستور. تلك الوثيقة العجيبة فى الواقع وإنما الإنسانية فى أية حال. فأمريكا الأزمنة الأولى هى نقطة ارتكاز الأصالة.

فما من بلد فى العالم يلعب فيه العَلَم دور الأيقونة المركزية إلى هذه الدرجة، فهو يُرى فى كل مكان، على التاكسيات وعلى الياقات والنوافذ وسطوح المنازل، وهو خير تجسيد للأمة، يرمز إلى حالة التجلد البطولية وإلى شعور الحصار من جانب أعداء يفتقرون إلى الجدارة. ويبقى الشعور الوطنى هو الفضيلة الأولى، يرتبط بالدين وبفكرة التمتع بكامل الحقوق، ليس داخل البلاد وحسب، وإنما فى كل مكان فى العالم. كما قد يكون الشعور الوطنى جزءاً من النشاطات الاستهلاكية كما حدث بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١ حين طلب إلى المواطنين القيام بالكثير من عمليات الشراء تعبيراً عن ازدرائهم الإرهابيين الخبثاء.

والرئيس بوش وموظفوه، السادة دونالد رامسفيلد وكولن باول وجون أشكروفت والسيدة كونداليسا رايس، يستنزفون كل هذه العدة من أجل تجييش القوات المسلحة للحرب فى أماكن بعيدة بغية «تصفية الحساب» مع صدام، كما يسمونه فى كل مكان. كل ذلك تحت راية آليات الرأسمالية التى تواجه تغيراً جذرياً يزعزعها. فقد بيّنت عالمة الاقتصاد جولى شور أن الأمريكيين يعملون اليوم لوقت أطول مما كانوا يعملون منذ ثلاثين عاماً ليربحوا أقل نسبياً. ومع ذلك تنعدم حتى الآن أشكال الاحتجاج السياسى الجدى والمنظم على معايير «السوق الحرة»، وكما لو أن أحداً لا يهتم لضرورة تغيير النظام الذى يبقى الرأسمال الكبير المتحالف مع الحكومة الفيدرالية عاجزاً عن توفير التغطية الطبية الشاملة والمدارس العامة الجديرة بهذا الاسم. فأخبار البورصة تعود بالفائدة أكثر من إعادة النظر فى النظام.

فكل ما فى الأمر اختصار سريع لمفهوم الإجماع فى الولايات المتحدة، والسياسيون يستغلونه ويحاولون اختزاله إلى مجرد شعارات تبسيطية.

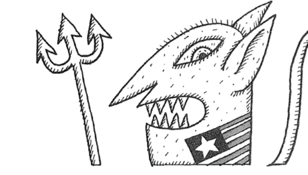
لكن هناك فى هذا المجتمع العجيب بتعقيداته، عدد من التيارات المعاكسة والبديلة. فالاعتراضات المتزايدة على الحرب والتى يحاول الرئيس التقليل من شأنها، تحصل فى أمريكا من نوع آخر، أكثر تجرداً من الصفة الرسمية، هى أمريكا التى تحاول وسائل الإعلام (الصحف المرجعية مثل «نيويورك تايمز»، ومحطات التلفزة وعلى نطاق واسع المجلات ودور النشر) التعتيم عليها على الدوام. فنحن لم نشهد أبداً هذا النوع من التواطؤ المخزى، كيلا نقول الفضائحى، بين نشرات الأخبار المتلفزة واندفاع الحكومة إلى الحرب. فحتى المواطن من أدنى المستويات الذى يشاهد السى.إن.إن. أو أيّاً من المحطات العامة الكبرى ينطق بأحاديث انفعالية حول ما يمثله صدام من شرور وعن الحاجة إلى أن نقوم «نحن» بوقفه قبل أن يفوت الأوان. وكأن هذا لا يكفى، فإذا هناك هجمة على المحطات من العسكريين السابقين ومن الخبراء المتخصصين فى شئون الإرهاب ومن المحللين السياسيين لأوضاع الشرق الأوسط من الذين لا يتكلمون أياً من لغات هذه المنطقة وربما لم تطأها أقدامهم، يرطنون جميعاً بما حفظوه عن ظهر قلب وهم يعظون المشاهدين حول ضرورة أن نحتل «نحن العراق ونقوم فى الوقت نفسه بحماية نوافذنا وسياراتنا من أى هجوم مداهم بغاز الحروب».

وهذا الإجماع الذى رسم وأدير بكل عناية يطبق فيما يشبه الحاضر خارج الزمن. ففى الولايات المتحدة لا مكان للتاريخ فى الخطابات العامة، بل إن الكلمة نفسها تحمل معنى العدم أو اللامعنى وخصوصاً فى الجملة المستخدمة للتحقير ورمز الازدراء «أنت من التاريخ» «you're history» والمقصود بها أن «الزمن قد تجاوزك» وإذا تمت العودة إلى «التاريخ» فالمقصود بالكلمة ما يفترض بالمواطنين أن يؤمنوا به بالنسبة إلى وطنهم (وليس بالنسبة إلى سائر العالم المعتبر «قديماً» ومتخلفاً بشكل عام، أى لا يواكب العصر)، فيصدقون كل ما يقال من دون إعمال الروح النقدية أو الفحص التاريخى. وهنا يمكن تبين نوع من الاستقطابية المستغربة. ففى ذهن الشعب يفترض بامريكا أن تبقى من جهة فوق التاريخ أو أن تتجاوزه، لكن من جهة أخرى هناك فى كل البلاد تشبث بتاريخ كل شىء وأى شىء، من المواضيع المحلية الصغيرة إلى أخبار امبراطوريات العالم الرحبة.

ويجدر هنا التمثيل بما حدث منذ عشر سنين، إذ دارت معركة فكرية كبيرة حول أى صيغة من التاريخ يجب أن تعلم فى المدارس. وفى النهاية فرضت نفسها وجهة نظر قالت بتاريخ للولايات المتحدة على شكل قصة وطنية بطولية واحدة لا يكون لها إلا أصداء إيجابية فى أذهان الشباب. فدراسة التاريخ لا تهدف فقط إلى معرفة الحقيقة لكن إلى ضمان الصوابية الأيديولوجية فى العروض الكفيلة جعل الطلاب مواطنين مطواعين مستعدين لاعتناق عدد من المواضيع الثابتة حول موقع الولايات المتحدة بالنسبة إليهم وإلى سائر العالم. ويجب أن تستأصل من هذه الرؤية المركزة على الجوهر مكوّنات ما يسمّى «ما بعد الحداثة» و«التاريخ الذى يفرق» (تاريخ الأقليات والمرأة والعبيد، إلخ).

غير أن هذه المحاولات لفرض معايير مضحكة بهذا الشكل قد باءت بالفشل، وقد لخصت ليندا سيمكوكس ما حدث: «بالتأكيد من الممكن الدفاع، كما أفعل، عن الفكرة القائلة بأن المقاربة (المحافظة الجديدة) لتعليم الحضارة تشكل محاولة لا يمكن تمويهها لزرع الرؤية الإجماعية فى أذهان الطلاب، وهى رؤية خالية نسبياً من التناقضات. لكن المشروع سيئول إلى تغيير الاتجاه كلياً. فما بين أيدى المؤرخين للمجتمع وللعالم الذين يدبجون عملياً التعليمات للمعلمين ستصبح أى وثيقة رافعة للرؤية التعددية التى تحاول الحكومة محاربتها. وفى نهاية المطاف إن التاريخ الإجماعى (...) سيتعرض لنقد قاس من

كل هذه الأيديولوجيا تتوافق على القول بأن الولايات المتحدة تمثل الاستقامة والصلاح والحرية والأمل الاقتصادى والتقدم الاجتماعى. وهذه الأفكار تنصهر فى الحياة إلى درجة أنها لا تبقى مجرد أيديولوجيات بل تبدو كحقائق «طبيعية»



أولئك المؤرخـــين الذين يؤمنون بأن العدالة الاجتماعية وتقاسم السلطة يفرضان قراءة الماضي بطريقة أكثر تركيبا».

وفي الدوائر العــامــــة، وإن تكن خاضعة بآلاف الطرق لوسائل الإعلام الكبرى، نقع على سلسلة كاملة من «موضوعات الأخبار» كما أسميها، التي تنظم النقاش وتغلفه وتضع له حدودا، بالرغم من مظاهر التنوع والتعدد، ولن أذكر هنا إلا بعضاً منها مما يبدو وثيق الصلة بأحداث الساعة. فأحدها هو هذه الـ«نحن» الجماعية، الهوية الوطنية المتجسدة ظاهرياً، بدون أي مشكلة، في رئيسنا ووزير خارجيتنا وقواتنا المسلحة المنتشرة في الصحراء، وفي مصالحنا المحددة عادة تحت عنوان الدفاع المشروع عن النفس، والمجردة من كل نوازع خفية والمفعمة بـ«البراءة».

ومثل آخر عن هذه «الموضوعات» يتمثل في عدم مصداقية التاريخ ولا شرعية الحديث مجدداً عن السوابق المحرجة، كالدعم الأمريكي للرئيس صدام حسين مثلاً أو لأسامة بن لادن، أو أيضاً لكون حرب فيتنام وما رافقها من دمار متميز يعتبر أمراً «سيئاً» بالنسبة إلى الولايات المتحدة، أو أنها شكلت، كما أكد السيد جيمي كارتر في يوم من الأيام شكلاً من أشكال «التدمير الذاتي المتبادل». والمستغرب أكثر أيضاً هو عملية التهميش المتواصل وحتى المؤسساتي لأمرين معيشين رئيسين في تكوين المجتمع، والمقصود استعباد الشعوب الأفرو-أمريكية واغتصاب أراضي الهنود الأمريكيين وإبادتهم بشكل ناجز تقريباً. ففي حين نجد في العاصمة واشنطن متحفاً للمحرقة اليهودية، ليس في أي مكان آخر ما يماثله لا بالنسبة إلى الأفرو-أمريكيين ولا إلى الهنود الأمريكيين.

والمثل الثالث هو هذه القناعة العمياء بأن كل معارضة لسياستنا هي من نوع «العداء لأمريكا» وقائمة على الغيرة، إنهم يحسدوننا على «ديموقراطيتنا» (الحرية والثروة والنفوذ...) أو أيضاً أن في الأمر شيئاً من الخبث الطبيعي لدى الأجانب الأوغاد، كما هي الحال بالنسبة إلى فرنسا في معارضتها الحرب على العراق. وفي هذا السياق يجري باستمرار تذكير الأوروبيين بأن أمريكا قد أنقذتهم مرتين في قرن واحد، على أساس أن معظم الأوروبيين ظلوا في صفوف المتفرجين في حين أن الأمريكيين هم وحدهم خاضوا الحرب.

أما فيما يتعلق بالمناطق التي تورطت فيها الولايات المتحدة منذ نصف قرن تقريباً، مثل الشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية، فإن الموضوعة التي تقدم الولايات المتحدة على أنها الوسيط الحيادي، كقوة دولية تعمل للخير، لا تجد من يدحضها جدياً. فنحن هنا إزاء فكر لا يأخذ في الاعتبار رهانات السلطة والمكاسب المحققة ونهب الثروات وتغيير الأنظمة بالقوة و/أو بالانقلابات (مثلاً في إيران في العام ١٩٥٣ وفي تشيلي في العام ١٩٧٣)، وهو فكر لا يكاد يسمح بأن تزعزعه جهود أولئك الذين يذكّرون بهذه الوقائع.

ونقترب أكثر هنا من هذا النوع من الواقعية، مع التوريات المقيتة من جانب مؤسسات الأبحاث أو من الحكومة حيث يشار إلى «القوة الهادئة» أو إلى عملية «الإسقاط» أو «الرؤية الأمريكية». وقلما ظهرت فيها أيضاً (أو حتى يثار الحديث فيها) أخبار عن السياسة الوحشية والظالمة التي تضطلع فيها واشنطن بالمسئولية المباشرة مثل دعمها حملة السيد أرييل شارون على المدنيين الفلسطينيين أو الخسائر الرهيبة في أوساط المدنيين في العراق بسبب نظام العقوبات، أو حتى الدعم المقدم للنظامين التركي أو الكولومبي. وهذا كله يبقى خارج إطار أي بحث جدي في السياسة الخارجية.

وهناك أخيراً الموضوعة الخاصة بالحكمة الأخلاقية المتجسدة تلقائياً في رجالات الدولة (السيد هنري كيسنجر أو السيد ديفيد روكفلر، كما بجميع مسئولي الإدارة الحالية)، وهي التسبيحة المتكررة في كل مكان من دون فوارق تقريباً. فمثلاً إن تعيين اثنين من المحكومين قضائياً من زمن فضيحة واترجيت في مناصب مهمة في الحكم، وهما السيدان جون بويندكستر واليوت ابراهمز أثار القليل من التعليقات، والأقل من الانتقادات. ويبرز هذا النوع من التقبل الأعمى للسلطة، الماضية أو الحالية، النظيفة أو الفاسدة في أشكال متعددة تراوح بين الأسئلة، المحترمة وحتى المجاملة، من جانب المعلقين والخبراء، واقتصار النظرة لرجالات الدولة على صورتهم المجملة (مثلاً البدلة الداكنة اللون والقميص الأبيض وحتماً ربطة العنق الحمراء)، البريئة من أي ماض قد يشوهها ولو في أدنى حد. وما وراء ذلك هناك الإيمان بالبراجماتية كنظام فلسفي يعتمد لإدارة الواقع، إنها براجماتية مضادة للماورائية وللتاريخانية وحتى، وهنا الغرابة، للفلسفة. وهذا النوع من اللامسمّى من زمن ما بعد الحداثة يشكل إلى جانب الفلسفة التحليلية أسلوب تفكير بالغ التأثير في الجامعات الأمريكية. ففي الجامعة حيث أعلّم مثلاً يدرّس مفكرون مثل هيجل أو هايديجر في فروع الأدب أو تاريخ الفنون، وإنما نادراً في باب الفلسفة.

إن هذه السلسلة من «رواية الأحداث الكبرى»، العجيبة بثباتها هي التي تتولى وسائل الاتصال الأمريكية التي أنشئت ونشطت مؤخراً، نشرها مهما كلف الأمر وخصوصاً في العالمين العربي والإسلامي.

أما السياسات التي تتشبث بالتمايز فيجري التكتم عليها عن قصد، وهي تشكل نوعاً من الذاكرة المختلفة شبه الرسمية نابعة من كون الولايات المتحدة بلد مهاجرين. وتبرز هذه الاختلافات من خلال بعض الفجوات أو حتى داخل مختلف «مواضيع الأخبار» هذه. لكن وللأسف قلة هم المعلقون في الخارج الذي يأخذون في الاعتبار هذا «البحر من الانشقاقات». وسواء أكانت مجموعات الرأي هذه تقدمية أم رجعية فإنها تشكل، وتبرز للعين المتمرسة، الرابط بين «مواضيع الأخبار» الكبرى وهو رابط غير بديهي.

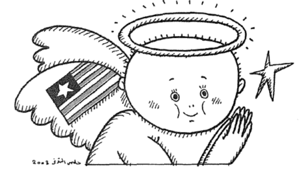
فلو نظرنا مثلاً في المعارضة الشديدة جداً على الحرب ضد العراق فإن صورة مختلفة تبرز عن البلاد، إنها ولايات متحدة مستعدة أكثر للتعاون الدولي والحوار. ولندع جانباً العدد الكبير من الأشخاص الذين يعترضون على الحرب خوفاً من الخسارة في أرواح الأمريكيين أو بسبب كلفة العمليات، ناهيك بالانعكاسات المدمرة على اقتصاد هو أساساً في حالة معاناة. كما أنني لن أنظر في هذا المزيج المعقد الهائل من المحافظين الذين يرون أن أمريكا تتعرض لافتراءات الأجانب المخادعين والأمم المتحدة والشيوعيين الكفار. أما بالنسبة إلى الفريق الفوضوي والانعزالي، هذا التحالف الغريب بين اليسار واليمين، فإنه لا يستدعي أي تعليق آخر هنا.

كما أنني سأدع جانباً أيضاً هذا القسم الكبير جداً من الطلبة الذين يعيشون حالة من الشكوك العميقة تجاه السياسة الخارجية الأمريكية في مختلف أشكالها عملياً وخصوصاً في مجال العولمة الاقتصادية، فهذه المجموعة التي تحدوها مبادئ أخلاقية والتي تصل بتصرفاتها أحياناً إلى حد الفوضوية، تمكنت من تحريك الجامعات في الظروف الكبرى مثل حرب فيتنام والتمييز العنصري في جنوب أفريقيا والحقوق المدنية في الولايات المتحدة نفسها.



إلا أنه يبقى علينا النظر في العديد من جماعات الوعي، والتي تشبه ما يسمّى اليسار في أوروبا وفي أفريقيا وآسيا علماً أنه لم يقم فعلاً في أي لحظة منذ الحرب العالمية الثانية أي تشكيل في الولايات المتحدة يشبه من زاوية ما الحركات الاشتراكية أو اليسار ذا النزعة البرلمانية، إذ أن نظام الحزبين يحكم قبضته جيداً.

إن هذه السلسلة من «رواية الأحداث الكبرى»، العجيبة بثباتها هي التي تتولى وسائل الاتصال الأمريكية التي أنشئت ونشطت مؤخراً، نشرها مهما كلف الأمر وخصوصاً في العالمين العربي والإسلامي







الخطأ الكبير في نظرية فوكوياما حـــول «نهايـــة التاريـــخ»، أو في نظـريـــة صموئيـــل هنتنجتـــون في «صـــدام الحضـــارات» ناتج مـن كـــون كليهما يفـترض خطـأ أن تاريـخ الحضارات يختصر بمسألة مراحل محددة، في مواقـع زمنيـة محددة بدقة

فهناك أولاً الجناح اليساري من الجماعة الأفرو - أمريكية، أي تلك المجموعات المدنية التي تناضل ضد وحشية البوليس والتمييز في مجال العمل وبؤس المساكن والمدارس، وتتزعمها أو تمثلها شخصيات مثل القس آل شاربتون والسيدين كورنل وست ومحمد علي وجيسي جاكسون (وإن كان نجمه قد أفل إلى حد بعيد) وآخرين ممن يسيرون على خطى مارتن لوثر كينج.

وإلى هذه الحركات يمكن ضم العديد من التجمعات الإثنية اللاتينية والهندو - أمريكية والمسلمة، وقد بذلت جهوداً جبارة من أجل دخول الحكومات المحلية والوطنية والتمكن من المشاركة في هذا أو ذاك من برامج الحوار المتميزة ليتسنى لها احتلال مواقع في مجالس إدارات المؤسسات والجامعات والشركات الكبرى. لكن في الإجمال لا يزال يحرّك معظم هذه الجماعات الشعور بالظلم وبالتمييز أكثر منه الطموح، وهي بالتالي ليست جاهزة للالتحاق كلياً بهذا «الحلم الأمريكي» الخاص بشكل أساسي بالطبقات الوسطى البيضاء. وما يثير الاهتمام لدى شاربتون أو فلنقل لدى رجل مثل رالف نادر هو أنهم بالرغم من قدرتهم على الرؤية وإلى أنه يجري التساهل معهم إلى حد ما فإنهم يبقون خارج النظام حيث لا يمكن استيعابهم كونهم متصلبين جداً ولا تغريهم بما يكفي المكافآت المعهودة.

وهناك فريق واسع من الحركات النسائية التي تناضل من أجل الحق في الإجهاض وضد أعمال العنف والإرهاب ومن أجل المساواة في العمل، يشكل ورقة رابحة أخرى في التيار المعارض. وكذلك هناك بعض أصحاب المهن المتحفظين عادة وقد استغرقتهم مسائل المصالح الشخصية أو العملية (أطباء ومحامون ورجال علم وجامعيون بنوع خاص، إلى بعض النقابات وقطاع الحركة البيئية) ممن يساهمون في دينامية هذه التيارات المعاكسة التي أعددها هنا حتى وإن تكن كهيئات نظامية تبقى مرتبطة بالنظام الاجتماعي وبما يفرضه من متطلبات.

وثم يجب عدم التقليل قط من قدرة الكنائس القائمة على أن تكون معيناً للمعارضات ولإرادة التغيير. ويجب الفصل بين أتباعها وأولئك الأصوليين أو المبشرين التلفزيونيين المذكورين أعلاه. فالمطارنة الكاثوليك مثلهم مثل العلمانيين وكهنة الكنيسة الانجليكانية إضافة إلى الكواكرز والمجمع الكالفاني، وبالرغم من الفضائح الجنسية في أوساط الأول وتراجع تأثير الآخرين، قد اتخذوا مواقف تقدمية لافتة في مسائل الحرب والسلام أو ثاروا على انتهاك حقوق الإنسان في الخارج أو على الموازنات العسكرية الضخمة أو على السياسة الاقتصادية النيوليبرالية التي قضت على القطاع العام منذ أوائل ثمانينيات القرن الماضي.

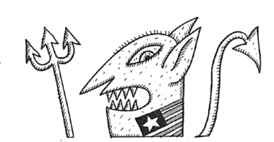
وتاريخياً كان هناك قسم من الطائفة اليهودية المنظمة التزمت على الدوام حركات النضال من أجل حقوق الأقليات داخل البلاد وخارجها. لكن منذ عهد ريجن، كان من شأن صعود المحافظين الجدد، وقيام التحالف بين إسرائيل واليمين الديني إضافة إلى النشاطات المحمومة للحركة الصهيونية الهادفة إلى إقامة نوع من المعادلة بين انتقاد إسرائيل والعداء للسامية وحتى لإثارة المخاوف من «أوشفيتز أمريكية»، أنه خفف إلى حد كبير من الأثر الإيجابي لهذه القوة.

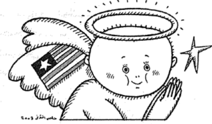
وأخيراً فإن عدداً كبيراً من هذه المجموعات والأفراد الذين يدعون إلى التجمعات والتظاهرات وسائر اللقاءات، قد ظلوا على مسافة من جوقة الحماسة الوطنية المرهقة هذه. وقد تجمعوا للدفاع عن الحريات المدنية (ومنها حرية التعبير عن الرأي) التي باتت مهددة بفعل «قانون الوطنية» «U.S.A. Patriot Act». فالتعبئة ضد قانون الإعدام وأحياناً ضد كل أشكال التعسف المتمثلة في معتقلات جوانتانامو، والكراهية العامة تجاه السلطات العسكرية والمدنية، وحالة الإرباك الناتجة من نظام السجون الذي يخصخص أكثر فأكثر ليأسر من الأفراد (نسبة إلى عدد السكان) أكثر مما في أي بلد آخر في العالم (وبينهم عدد غير متكافئ من رجال ونساء ملونين...)، كل هذا يقض مضاجع الطبقات الوسطى.

وينعكس هذا الوضع المرتبك في الحيز الافتراضي، حيث أمريكا شبه الرسمية تعارض أمريكا الرسمية. فمن المواضيع المقلقة مثلاً، الهوة التي تتعمق بين الأغنياء والفقراء إلى ما لا يمكن تصديقه من التبذير والفساد المسيطرين في الدوائر المالية العليا وإلى المخاطر المستحقة مع نظام التقاعد بسبب مُختلف أشكال الخصخصة وما يرافقها من جشع نادر، كل ذلك يستمر يغطي بقوة على الفضائل التي طالما امتدحت في هذا النظام الرأسمالي الخاص بالولايات المتحدة.

فهل أمريكا هي فعلاً موحدة وراء هذا الرئيس الأمريكي صاحب السياسة الخارجية الاحترابية وصاحب النظرة الاقتصادية المبسطة بشكل خطير؟ وبكلمة أخرى هل هوية الولايات المتحدة قد حددت نهائياً بشكل يفيد أنه بات على سائر العالم أن يتعلم كيف يعيش في ظل قوتها العسكرية (ونحن نجد العسكر الأمريكي في العشرات من الدول)، في ظل كتلة أحادية الأساس تخوض الحروب يميناً وشمالاً في مناطق عاصية وبموافقة تامة من «جميع الأمريكيين»؟ لقد اقترحت هنا نظرة أخرى إلى الولايات المتحدة كبلد تعصف به الصراعات وحيث حالات الاحتجاج أكثر نشاطاً مما يقال بشكل عام. إنها أمة واقعة فريسة صراع هويات جدي، وقد تمكنت من كسب الحرب الباردة كما يطيب للبعض أن يقول، لكن انعكاسات هذا النصر في الداخل قد لا تبدو جلية حتى الآن، فالصراع لم ينته. فالتركيز جداً على السلطة المركزية والعسكرية والسياسية، أي على الجناح التنفيذي، يعني مجانبة المواجهة الداخلية المتواصلة والتي يبدو أن حسمها مؤجل.

فالخطأ الكبير في نظرية فوكوياما حول «نهاية التاريخ»، أو في نظرية صموئيل هنتنجتون في «صدام الحضارات» ناتج من كون كليهما يفترض خطأ أن تاريخ الحضارات يختصر بمسألة مراحل محددة، في مواقع زمنية محددة بدقة، لها بداياتها ونموها ونهاياتها. بينما في الواقع يعتبر الحقل الحضاري السياسي ميداناً لصراع الهويات وتقرير المصير والإسقاطات مستقبلاً. فأي حضارة، وخصوصاً حضارة الولايات المتحدة، تكون مؤلفة من أطوار من الهجرات المتلاحقة، وذلك هو ربما أحد الانعكاسات غير المتعمدة للعولمة، أي ظهور جماعات عبر الحدود ذات مصالح عالمية مثل حركة حقوق الإنسان والحركة النسائية وحركة مناهضة الحروب إلخ. وليست الولايات المتحدة في منأى عن كل ذلك، ويجب النظر ما وراء واجهة الوحدة البادية والمشاركة في مجمل هذه الجدالات التي ينضوي تحتها عدد كبير من البشر في العالم أجمع. وهكذا سيكون في الإمكان إحياء الأمل والشجاعة. ■





أمريكيون فقط!

ديفيد بلانكس

إذا استوقفت مواطنًا أمريكيًا عاديًا، في شارع عادي، في مدينة عادية من مدن الغرب الأوسط، وسألته عن رأيه في الإسلام، فالمحتمل هو أنه سيهز كتفيه. ذلك أن معظم الأمريكيين ليست لهم آراء قوية بشأن العرب والشرق الأوسط والإسلام، أو بشأن العالم الخارجي بصورة عامة. ومن المؤكد أنك ستعثر على الشخص المتحمس الاستثنائي، من ذلك الصنف الذي يحب أن يكتب رسائل للمحرر، غير أن معظم الناس لا يقرءون حتى الصحف، ناهيك عن الكتابة إليها. وعمومًا تكشف رسائل القراء وجهة النظر المتطرفة، سواء أكانت في اتجاه اليمين أم ناحية اليسار.

والمواطن الأمريكي، شأنه شأن غالبية مواطني معظم الدول، تشغله أسرته وصحته ووظيفته (إن كانت له وظيفة) وسيارته (إن كان يملك سيارة). وهو يشاهد التليفزيون كثيرًا، أربع ساعات في اليوم تقريبًا. وحين يبلغ الخامسة والستين يكون قد أمضى تسع سنوات كاملة أسيرًا لجهاز التليفزيون. ويكون قد أمضى القليل نسبيًا من هذا الوقت في مشاهدة الأخبار. أما برامج الألعاب والبرامج الجماهيرية والبرامج الرياضية وقنوات الموسيقى وكوميديا الموقف والمسلسلات - أي عالم الخيال - فهي الغذاء اليومي.

وصحيح إلى حد كبير أن رجل الشارع ينشغل أحيانًا بحالة الأمة، إلا أن همومه، كما في أي مكان آخر، في معظمها هموم محلية؛ فهناك الاقتصاد والمدارس والجريمة والضرائب والفضائح السياسية وغيرها. وهو مستعد إلى حد كبير أن يغامر بالإدلاء برأيه في السياسة الخارجية، ولكنه طبقًا لاعترافه هو سيكون رأيًا موحدًا. فالأمريكي العادي يعرف القليل عن العالم فيما وراء حدود الأمة. أما فيما يتعلق بالإسلام والعرب والشرق الأوسط على وجه الخصوص، فهو لا يعرف شيئًا البتة، بل ولا يهتم كثيرًا بذلك.

يقع بعض اللوم على الإعلام. ففي كثير جدًا من الأحيان لا تتخذ المنظمات الإخبارية موقفًا نقديًا من المعلومات التي تحصل عليها من الحكومة. بل الأدهى من ذلك أنها غالبًا ما تكون مذنبة فيما أسماه ناعوم تشومسكي «بروباجندا الصمت»؛ وهو ما يعني عدم نقل تلك الأحداث التي تتنافى مع مصالح مجلس التحرير أو كبار من يقدمون لها الدعم المالي والسياسي. إلا أنه لا بد أن نكون حريصين على عدم المبالغة في آثار تلك التشويهات. فالواقع أن هناك قدرًا من التواطؤ بين الحكومة وجماعات الضغط والمؤسسات المالية والإعلامية الكبيرة أقل مما يفترضه هؤلاء الذين يعيشون في مناطق حرية الصحافة فيها مقيدة. وتستحق الصحف وشبكات التليفزيون الغربية انتقادنا حين لا تقدم رؤيتنا للأحداث. فقد جرت العادة منذ زمن بعيد على تجاهل قضايا تحظى بالاهتمام في هذا الجزء من العالم، أهمها النفاق الخاص بتأييد أمريكا الأعمى لإسرائيل ورفضها إعطاء الفلسطينيين حقوقهم. إلا أن ما أريد توضيحه هنا هو أن السبب في كون اللوبي اليهودي يبدو على هذه القوة في واشنطن العاصمة هو نفس السبب الذي يجعل جماعات ضغط أخرى مثل «اتحاد البندقية القومي» على هذا النحو من القوة، أي لأنها تسعى سعيًا لا تحيد عنه لتحقيق أهداف بعينها لا تهم الأمريكيين كثيرًا. ومن ثم فإن تركيز الدعاية الإعلامية لن يصل إلى أصل المشكلة، الذي يكمن إلى حد ما في نظام التعليم وفي الإحساس الأمريكي باللامبالاة والنزعة الانعزالية.



وهناك الكثير الذي يمكن قوله. فمعظم الأمريكيين لا يقرءون صحيفتي «واشنطن بوست» و«نيويورك تايمز». بل إن شبكة سي إن إن الدولية، التي يعتبرها المراقبون في الخارج مرجعًا، ليست متاحة داخل الولايات المتحدة. ولا يشاهدها الأمريكيون بالمرة. أما المهتمون بالأخبار - ويبدو لي أن هؤلاء أقلية من السكان - فيحصلون على جرعتهم اليومية مع تناول وجبة الإفطار وهم يشاهدون برنامج Good Morning America أو Today Show ومقدارها ثلاث دقائق من الأخبار الدولية وساعات وساعات من أخبار الطقس والموضة وهوليوود والدردشة المحلية. أو ربما يشاهدون نشرة الأخبار المسائية على إحدى الشبكات القومية («إن بي سي» أو «إيه بي سي» أو «سي بي سي»). أو يقرءون «يو إس توداي»، وهي الصحيفة التي نادرًا ما تستكتب النقاد الإعلاميين الدوليين ولكنها تمثل آراء رجل الشارع الأمريكي أكثر من مطبوعات الساحل الشرقي البارزة التي هي أهداف معتادة للمفكرين غير الغربيين.

ولكن حبرًا كثيرًا جدًا استغل في الكتابة عن هذا الموضوع. غير أنني أظن أن الأمر يستحق التفكير في الجانب الآخر من المعادلة. فبدلاً من تحليل ما يقال للأمريكيين، قد يكون من المفيد محاولة تحديد ما الذي يفكرون هم فيه بالفعل. صحيح أنهم يتلقون جرعات يومية من المعلومات غير الدقيقة والناقصة، ولكن هذا نصف التحليل. ونحن نقرأ القليل جدًا عن كيفية استيعاب هذه المعلومات المنحازة وتأويلها. وإذا كان العرب والمسلمون يريدون أن يكونوا فعالين في جعل أصواتهم مسموعة، فإن عليهم أن يقطعوا شوطًا بعيدًا جدًا في محاولة فهم نفسية جمهورهم المستهدف. وهذه ليست بالمهمة السهلة.



بداية، ليس هناك بالطبع شيء اسمه «الأمريكي العادي»، فكل إنسان له آراؤه الخاصة (أو يفتقر إليها)، التي عادة ما تشكلها الظروف الشخصية أكثر من الأمر القومي. وينطبق هذا على المجتمعات الأخرى كذلك، إلا أنه بدون أن يعيش المرء التجربة بنفسه، ومع مرور معظم المعلومات من مصفاة إعلامها القومي، يصعب على مواطني الدول الأخرى أن يفهموا فهمًا تامًا مقدار تغاير الولايات المتحدة. قد يدهش كثيرون في العالم النامي حين يعلمون، على سبيل المثال، أن أكثر من ٣٤ مليون أمريكي (١٢,٥٪) يعيشون دون خط الفقر، أو أن أقل من ٢٥٪ حاصلون على شهادات جامعية.

هذه الإحصائيات مهمة لأن هناك علاقة متبادلة بين الثروة والتعليم واحتمال أن يكون لدى الأمريكيين آراء مقبولة عن الإسلام والعالم العربي. ففي أغلب الأحيان لا يمتلك الفقراء والأميون الأدوات الفكرية اللازمة للتمييز بين شعب ما وحكومته، أو بين دين ما والطيف العريض من الممارسات والتأويلات التي ترتبط به. ويعني هذا أن هناك حدًا لمدى تعليم «الأمريكي العادي» كيف يفهم أن المسلمين والعرب أفراد، يعيش كل منهم ويفكر بطريقته، وأن الأنماط المقولبة شديدة التعميم التي تقدمها وسائل الإعلام هي كذلك وحسب. وهذه مشكلة يمكن التغلب عليها، ولكن ليس من خلال الوسائل التقليدية مثل إنشاء

**الأمريكى العـادى يعـرف القليـل عـن العـالم فيمـا وراء حـدود الأمـة.
أما فيما يتعلق بالإسلام والعرب والشرق الأوسط على وجه الخصوص،
فهو لا يعرف شيئًا البتة، بل ولا يهتم كثيرًا بذلك**

مواقع إسلامية على الإنترنت أو بث برامج موالية للإسلام. وهذا لا يعنى أن هذه المبادرات غير مفيدة، بل هى مفيدة بالفعل. ولكنى أود فقط أن أوضح أن أمريكيين كثيرين لا يطلعون بالمرة على تلك الأنماط من التقارير الإعلامية الموضوعية التى يطالب بها كثيرون فى الشرق الأوسط. وإذا أمكن إقناعهم بحال من الأحوال، فلا بد أن يكون ذلك من خلال وسائل مختلفة.

ومن الناحية الدينية كذلك، تعد أمريكا أكثر الأمم تغايرًا. فكل نظام إيمانى فى العالم قد حط على شواطئها. وقد يكون مستغربًا كذلك بالنسبة لبعض غير الغربيين أن يكتشفوا أن الأمريكيين عمومًا شديدو التدين. فالأمريكيون الذين يؤمنون بالله أكثر بكثير من نظرائهم الأوروبيين أو الإسرائيليين، وهم أكثر انتظامًا فى حضورهم الصلوات فى أماكن العبادة. وتبين دراسة أجريت مؤخرًا بعنوان «مسح التعرف على الهوية الدينية الأمريكية» (٢٠٠١) أن الأمريكيين أقل علمانية مما يفترضه كثير من غير الأمريكيين. وقد طرح الاستطلاع على المستجوبين السؤال التالى: «حين يتصل الأمر بموقفك، هل تعتبره (١) علمانيًا أم (٢) علمانيا إلى حد ما أم (٣) دينيًا بعض الشىء أم (٤) دينيًا؟». إجمالاً، وصف ١٦٪ موقفهم بأنه علمانى أو علمانى إلى حد ما، بينما وصف ٧٥٪ موقفهم بأنه دينى أو دينى إلى حد ما.

وتحت سطح هذه الاستطلاعات تقع متاهة التعقيدات المتصلة بالانتماء والإخلاص والمكانة الاجتماعية والهوية والنفسية الشخصية وما شابه. ومع أن نصف الـ٧٦,٥٪ من الأمريكيين الذين وصفوا أنفسهم بأنهم مسيحيون تقريبًا من البروتستانت، فإن العقائد والممارسات البروتستانتية متنوعة تنوعًا يدعو للدهشة؛ فهى تتراوح بين أساليب الحياة المسالمة المعادية للحداثة الخاصة بطائفة الأميش فى أوهايو وبنسلفانيا وطوائف البقاء المسلحة والخطيرة فى الشمال الغربى الباسيفيكى. فالمسالمون يحبون الجميع، بينما الفاشيون لا يفعلون سوى الكره، وبهذا المعنى لا تقف أى من الجماعتين مع الشرق الأوسط. إنهم قد يعانقون الجميع (أو يطلقون النار عليهم) دون تفريق بينهم.

وكشأن الكثير من هذه الجماعات الهامشية، يعتمد كذلك عدد كبير من الطوائف البروتستانتية الأكثر انتماء إلى التيار العام على التفاسير الحرفية الصارمة الخاصة بهم للكتاب المقدس. ولكن فى غياب سلطة لاهوتية مركزية كالبابوية، وصلت هذه الجماعات إلى نتائج شديدة الاختلاف بشأن معانى نصوصها الدينية. ومن ثم فليس من الحكمة المبالغة فى التعميم عند تقييم أدوارها فى التيار العام للسياسة الخارجية الأمريكية. ويصف نصف السكان تقريبًا أنفسهم بأنهم بروتستانت، ولكن هذا لا يعنى أنهم جميعًا يفكرون بطريقة واحدة. فالأمر ليس كذلك بالمرة.

ولنأخذ فلسطين على سبيل المثال. فاليمين الإنجيلى المحافظ كان على الدوام الأكثر تأييدًا لإسرائيل. وفى وقت الانتخابات الرئاسية السابقة فى عام ٢٠٠٠، كان معظم الناس فى العالم العربى يؤيدون الجمهوريين، لأنهم كانوا مرعوبين من فكرة وجود نائب رئيس يهودى فى البيت الأبيض الديمقراطى. وما لم يدركوه هو أن المسيحيين الإنجيليين جمهوريون فى أغلبهم، وأن أجندتهم أكثر تأييدًا لإسرائيل من أى أمريكيين ليبراليين، بمن فيهم الكثير من اليهود.

وهذا أمر مرعب آخر. فلماذا يؤيد الإنجيليون إسرائيل؟ لماذا يجمعون المال ويوقعون التماسات البريد الإلكترونى وينشئون المنظمات المحلية؟ هذا ليس نتيجة للإعلام، أو الضغط من جانب اللوبى اليهودى، أو أى عامل خارجى آخر. ومع أن قيادتهم تتحدث بلغة الأمن، فإن معظم المؤمنين يؤيدون إسرائيل لأسباب دينية؛ أى تلك الأسباب التى وردت فى سفر الرؤيا، آخر أسفار العهد الجديد الذى يتنبأ بهرمجدون، وهى المعركة الأخيرة مع المسيخ الدجال التى سوف تنتهى بانتصار المسيح وبداية مملكته على الأرض. وفى استطلاع أجرته مؤخرًا «تايم/سى إن إن» ذكر ٥٩٪ ممن أجريت معهم المقابلات أنهم يؤمنون بأن نبوءات الكتاب المقدس سوف تتحقق، وقال ٣٦٪ إنهم يؤيدون إسرائيل. لماذا؟ لأنهم يؤمنون بنبوءة الكتاب المقدس بضرورة أن تكون الغلبة لإسرائيل قبل أن يعود المسيح إيذانًا بقيام القيامة ونهاية العالم. ويعتقد حوالى ٢٥٪ ممن استطلعت آراؤهم أن الكتاب المقدس تنبأ بهجمات الحادى عشر من سبتمبر. فماذا نفعل مع إحصائيات كهذه؟ إنها فى أهون الظروف تبين أنه على من يشعرون أنه يمكنهم كسب الدعم للقضية الفلسطينية عن طريق الشكوى من اللوبى اليهودى أن يعيدوا النظر فى موقفهم، فليس من الممكن كسب اليمين المسيحى.





ومع ذلك هناك فرصة كبيرة فى الوسط. فأغلبية الأمريكيين - بروتستانت التيار العام ونظراؤهم من الكاثوليك - على استعداد للمطالبة بأن لا تقف الولايات المتحدة مع أى جانب فى الصراع الفلسطينى الإسرائيلى. ورغم صحة أن حوالى ٤٧٪ من الأمريكيين متعاطفون مع الموقف الإسرائيلى - وهو نفس الرقم الذى لم يتغير منذ عام ١٩٦٧ - فإن الغالبية العظمى، التى تبلغ أكثر من ثلاثة أرباع الأمريكيين، تريد من الحكومة أن تعيد كل القوات التى فى الخارج، وتلغى المساعدات الخارجية، بل وتنسحب من الأمم المتحدة، تلك المؤسسة التى لا يفهمها الكثير من الأمريكيين ولا يثقون فيها فى واقع الأمر. (تصور سلسلة من الروايات الجديدة عن سفر الرؤيا تحظى بشعبية كبيرة، السكرتير العام للأمم المتحدة على أنه المسيخ الدجال.) وهذه آراء غير واقعية، ولكن مصدرها ليس الإعلام. إنها نتيجة للنزعة الانعزالية بكل تجلياتها.

ولم يعتد الأمريكيون عمومًا كشعب محاولة فهم الثقافات الأجنبية. فهم مبعدون - ذهنيًا ومـاديًا - عن سائر العالم. وهم لا يتحدثون اللغات الأجنبية. ولا يسافرون. قد يكون من الصعب تصديق أن أقل من ١٠٪ من الأمريكيين لديهم جوازات سفر، ولكن هذا هو الواقع. بل إن الرئيس بوش نفسه لم يسافر خارج الولايات المتحدة إلا مرتين قبل انتخابه، إحداهما للمكسيك والأخرى لكندا. وهذا معناه كبير. وليس هناك ما يجبر المواطن العادى فى إحدى مدن الغرب الأوسط العادية على النظر خارج حدوده. فما الداعى لذلك؟ فالعالم الخارجى لا يؤثر عليه فى واقع الأمر بأية طريقة كانت. وليس مستغربًا أن يهز كتفيه. ومع أن هذا أمر يدعو للأسف، فهو مفهوم كذلك. إذ ما عدد من يعرفون فى الشرق الأوسط الكثير عن الصراعات الواقعة فى أماكن مثل أيرلندا الشمالية أو زيمبابوى أو كشمير أو سريلانكا؟ من المؤكد أن هناك اختلافات كبيرة. فالحكومات العربية بصورة عامة غير مشاركة لهذه الدول من الناحية السياسية. بل إن الموضوع هو أنه حين يتصل الأمر بالواقع اليومى، نجد أن الأمريكى العادى بعيد عن المشاكل التى فى فلسطين بعد المصرى العادى عن المشاكل التى فى كولومبو.

ولكن من الناحية الجدلية هناك مسئولية أخلاقية على مواطنى أقوى دولة فى العالم كى يُعلِموا أنفسهم بأثر سياسات حكومتهم المدمر فى كثير من الأحيان على الدول الأخرى، ولكن من غير الواقعى أن نظن أنهم سوف يصلون فى يوم من الأيام إلى مستوى الوعى السياسى اللازم لخلق سياسة خارجية مستنيرة والسعى لتحقيقها. وكشأن معظم الناس فى الأزمنة والأمكنة الأخرى، يهتم الأمريكيون أكثر ما يهتمون بالأشياء التى تتصل بهم اتصالاً يوميًا؛ وهم على عكس من يعيشون فى أماكن أخرى من العالم، وخاصة فى الشرق الأوسط، نادرًا ما يتأثرون بالأحداث التى تقع خارج منطقتهم. فهم لا يرون أن لذلك صلة بحياتهم، ولا يريدون فى الواقع أن يشغلوا أنفسهم بالسياسة، وخاصة سياسة الدول الأخرى.

إن فى أذهانهم أشياء أخرى. وهذه هى الطبيعة البشرية، ربما يكون الأمر محزنًا ولكنه واقع البشر. ولنتذكر أنه قبل الحادى عشر من سبتمبر كلف أقل من ٤٠٪ من الأمريكيين الذين يحق لهم التصويت أنفسهم عناء الإدلاء بأصواتهم فى انتخابات الرئاسة. وهذا معناه أن فريق بوش فاز بتأييد من حوالى ٢٠٪ من الأمريكيين، وكان معظم هؤلاء يصوتون بشأن قضايا محلية. أما عدد الأمريكيين الذين صوتوا لمصلحة جورج بوش بناء على سياسته الخارجية فضئيل جدًا. فالغالبية لا تهتم. ذلك أنها مسألة بعيدة كل البعد. وكان الذين هاجموا مركز التجارة العالمى يدركون هذا، وتغير الموقف تغييرًا مؤقتًا، إلا أنك ستدهش من السرعة التى تمكن بها الناس من العودة إلى عاداتهم الذهنية المألوفة.

ومن المفارقة أن مواقف الأمريكيين تجاه الإسلام والعالم العربى ربما تكون قد تحسنت بعد الحادى عشر من سبتمبر. إذ يبين استطلاع للرأى أجرته مؤخرًا «إيه بى سى نيوز/بيليفنت» أنه بينما ذكر ٣٩٪ من الأمريكيين أنه تكَوَّن لديهم انطباع سيئ عن الإسلام فى أعقاب الهجوم على مركز التجارة العالمى، هبط هذا الرقم إلى ٢٤٪. وطبقًا لما أظهره الاستطلاع نفسه، ينظر ٤١٪ من الأمريكيين إلى الإسلام نظرة طيبة، ويعتقد ٤٢٪ أن الإسلام يدعو إلى احترام معتقدات غير المسلمين، ولا يعتقد ٥٧٪ من الأمريكيين أن الإسلام يشجع العنف. وهذا يعطينا شيئًا ننطلق منه. ففى الوقت الذى يزداد فيه اهتمام الأمريكيين بالشرق الأوسط، تكون هناك فرصة لعرض وجهة النظر العربية والإسلامية على الأمريكيين الذين يسعون للحصول على المزيد من المعلومات وعلى قدر أكبر من الفهم.

على سبيل المثال، وفيما يتعلق بالدين، لم يكن هناك قبل الحادى عشر من سبتمبر كتاب واحد ضمن المائة كتاب الدينية الأكثر مبيعًا على قائمة موقع «أمازون» عن الإسلام، أما الآن فهناك أربعة كتب عن الإسلام ضمن الكتب العشرة الأكثر مبيعًا. وبالمثل، اتجه ٢٣٪ من مرتادى الإنترنت الأمريكيين منذ الحادى عشر من سبتمبر إلى مصادر الشبكة للحصول على مزيد من المعلومات. وفى الجامعات كذلك يزداد عدد المتقدمين لبرامج فى الدراسات العربية والشرق أوسطية، ولأول مرة فى التاريخ الأمريكى يصبح الإسلام والعالم العربى جزءًا مطلوبًا فى منهج الجامعات والمدارس الثانوية فى أنحاء البلاد. فعلى سبيل المثال، يلزم فى إحدى مدارس كاليفورنيا الآن أن يحضر طلاب الصف السابع (١٣ عامًا) دورة مكثفة لمدة ثلاثة أسابيع عن الإسلام يتعلمون فيها مبادئ العقيدة، ويدرسون أهم الشخصيات، ويرتدون الجلباب، ويتخذ كل منهم اسمًا مسلمًا، ويمثلون جهادهم (بغض النظر عما يعنيه هذا). ورغم وجود مشاكل فى مثل هذا المنهج، إلا أن وجوده أفضل من عدم وجوده بالمرة.

وكان لا بد أن يكون هناك رد فعل معاكس. إذ اشتكى بعض أولياء الأمور من أن القوانين التى تحكم الفصل بين الكنيسة والدولة تمنع تعليم المسيحية بنفس الطريقة. وفى أماكن أخرى رفع ثلاثة طلاب ومنظمة مسيحية محافظة دعوى ضد جامعة نورث كارولينا بشأن شرط جديد يقضى بأن يقرأ كل الطلاب الجدد كتاب Approaching the Qur'an: The Early Revelation الذى يشمل تفسيرًا للإسلام وخمسة وثلاثين نصًا مترجمًا من القرآن نفسه. كما يلزمهم بحضور مناقشة جماعية للكتاب. سوف يكون الجيل المقبل من الأمريكيين على علم بالإسلام أكثر من آبائه. ويتبقى أن نرى كيف سيكون رد فعل الليبراليين داخل المؤسسة السياسية، وسائر العالم بصورة عامة، تجاه هذا. وكما أشار ستيفن والدمان وديبورا كالدويل، فإن الحادى عشر من سبتمبر يسرع عملية إيجابية كانت تحدث بشكل من الأشكال. ومع أن هذا لا يبدو محتملاً فى الوقت الراهن، فإننا بعد عشرين سنة من الآن قد ننظر إلى هذا على أنه اللحظة التى أصبح فيها الإسلام واحدًا من أديان التيار العام الأمريكية.



إنها فرصة أخرى فى سبيلها للوجود. وبإمكان من تهمهم صورة الإسلام أن يحدثوا فرقًا. إذ يمكنهم عن طريق دعم منظمات مثل مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية، ومجلس التنسيق السياسى الإسلامى الأمريكى، والمجلس الإسلامى الأمريكى، المساعدة فى تشكيل مواقف الأجيال القادمة. وسوف يكون من المفيد بصورة خاصة لو أعطيت الفرصة لأفراد أمريكيين حقيقيين أحياء كى يجلسوا ويتحدثوا مع أفراد عرب ومسلمين حقيقيين أحياء؛ ولكن معظم الأمريكيين لم يلتقوا بأى من هؤلاء. ولأننا نعيش فى الشرق الأوسط، ننسى أحيانًا مدى اختلاف السكان المسلمين والعرب فى أمريكا. فمعظم الأمريكيين العرب ليسوا مسلمين، ومعظم المسلمين الأمريكيين ليسوا عربًا.

وقرأت مؤخرًا أن حوالى ٣٠٠ ألف أمريكى اعتنقوا الإسلام فى الولايات المتحدة منذ الحادى عشر من سبتمبر. وأنا أرى أن هذا رقم مبالغ فيه، إلا أن هناك اتفاقًا - وإن لم يكن



أمـريكيـــون فـقـــــط!

عامًا ـ على أن الإسلام أسرع الأديان انتشارًا فى أمريكا. ومع ذلك فالأعداد نفسها غير مؤكدة، وهى مصدر للتصارع الإعلامى بين الأطراف المعنية. وتتراوح تقديرات عدد المسلمين الأمريكيين بين مليون وستة ملايين.

وهناك على أقل تقدير ثلاث دراسات قومية أجراها فى منتصف التسعينيات مركز أبحاث شيكاغو، وجامعة ميشيجان، وجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس، حيث وجدت جميعها أن المسلمين يمثلون حوالى ١,٥ بالمائة من عدد السكان فى أمريكا، وهو ما يجعلهم أكثر قليلاً من المليون. ويرد بعض علماء السكان بأن تلك التقديرات المنخفضة تقلل عدد المسلمين بصورة كبيرة، لأن الكثيرين لا يثقون فى الحكومة ويرفضون الرد على أية استطلاعات. ومع ذلك يعترف الكثير من المسلمين بأن هناك شكًا كذلك فى رقم الستة ملايين. وهم تبعًا لتركيبتهم العرقية ٢٦,٥٪ عرب من الشرق الأوسط، و١٠,٣٪ شرق أوسطيون غير عرب، و٢٤,٧٪ من جنوب آسيا، و٢٣,٨٪ أمريكيون أفارقة، و٦,٤٪ من شرق آسيا، و١١,٦٪ من أماكن أخرى. وفى هذه الحالة كذلك ليس هناك «مسلم أمريكى عادى». ويدلنا هذا على أنه كما هو شأن البروتستانت والكاثوليك واليهود، إذا أثبت المسلمون أنفسهم فى أمريكا فسوف يكون شكل الإسلام الخاص بهم شكلاً أمريكيًا مميزًا. ولا بد أن يؤخذ هذا كذلك فى الحسبان فى تحليلات المناخ الاجتماعى السياسى فى أمريكا.

ينطبق الشىء نفسه على الأمريكيين العرب. فهم جماعة مختلفة، ولا يعلم أحد كم عددهم على وجه الدقة. ويزعم المدافعون عن الأمريكيين العرب أن هناك خطأ فى تعدادهم وأنهم مقدرون بأقل من عددهم الحقيقى، إلا أن أعدادهم مبالغ فيها من جانب نفس المدافعين عنهم. وإذا أخذنا كل الأمور فى الحسبان، فمن المعتقد أن ما يتراوح بين مليون وثلاثة ملايين عربى يعيشون فى أمريكا، ٤٧٪ منهم لبنانيون، و٩٪ مصريون، و١٥٪ سوريون و٣٪ عراقيون وغيرهم ممن يمثلون اثنتين وعشرين دولة. ويتركز معظمهم فى المدن الكبرى فى كاليفورنيا وميشيجان ونيويورك. وأغلب هؤلاء من المسيحيين موزعون كالتالى: ٤٢٪ كاثوليك، ٢٣٪ كاثوليك، و٢٣٪ مسلمون، و١٢٪ بروتستانت. ومن بين الأمريكيين العرب المشهورين كيسى قاسم وياسمين بليث وسلمى حايك ودوج فلوتى ورالف نادر وسبنسر ابراهام وشانون إليزابيث وتونى شلهوب وبولا عبدول. والمواجهة الشخصية المباشرة مع أى من ملايين الأشخاص هؤلاء سيكون لها أثر فى تشكيل رأى أمريكى عن الإسلام والعالم العربى أكبر بكثير من التصريحات الصوتية القصيرة نصف المهضومة من السى إن إن. وهذا هو ما يجب أن نوجه جهودنا إليه.

لماذا يصعب تحقيق الفهم المتبادل؟ إذا نظرنا إلى الأمر من اتجاه واحد لوجدنا أن العرب والأمريكيين تجمعهم أشياء مشتركة كثيرة تفصلهم عن الأوروبيين. فهناك الإيمان بواجب الضيافة والصداقة، وروح الدعابة، وعمق الشعور الدينى، وتقدير الأسرة، والمقاربة البريئة المرحة للحياة. فلماذا لا يكونون على وفاق؟ شعورى هو أنهم كانوا كذلك فى الماضى، وسيعودون كذلك من جديد فى المستقبل القريب، وأنه بمجرد تغير المناخ السياسى الحالى ـ وسوف يتغير ـ سيتقارب الشرق الأوسط والغرب الأوسط الأمريكى. وهما قريبان بالفعل، وإن كان هناك الكثير الذى يجب عمله.

إن أعظم وسائلنا لتحقيق ذلك هى أنفسنا. غير أن هذه الوسيلة لا تحقق النتيجة المرجوة دائمًا. فقد أمضيت نصف عمرى مدافعًا عن الوطن العربى وشرحه للأمريكيين، والنصف الآخر مدافعًا عن الأمريكيين وشرحهم للعرب، ولم تكن أى من الجماعتين فى يوم من الأيام سعيدة بسماع ما كان يجب أن أقوله. والتفكير فى هذه الأشياء يقلب ميزان افتراضاتنا الدقيق. وما من أحد يريد ذلك، لأنه مزعج شديد الإزعاج. وفى يوم من الأيام قال صمويل جونسون: «الغضب من شخص يعارض رأيًا تقدره أنت هو النتيجة الحتمية لما تشعر به من ضيق. فأى إنسان يهاجم معتقدى يقلل إلى حد ما ثقتى فى هذا المعتقد، الأمر الذى يجعلنى أشعر بالضيق. وأنا أغضب ممن يجعلنى أشعر بالضيق».

سمعت أمريكيين يقولون كلامًا معاديًا للعرب، غير أنى لم أواجه قط أى تحامل شخصى ضدى، ولا ضد عائلتى المصرية، ولا ضد أصدقائى المصريين. بل على العكس من ذلك، يخرج الناس عن عاداتهم كى يشعرونا بالترحيب. وبالمثل، حين يكون لدى أصدقاء وزملاء عرب يتفوهون بأشياء سيئة عن أمريكا، لم أواجه قط أى تحامل شخصى ضدى، ولا ضد عائلتى الأمريكية، ولا ضد أصدقائى الأمريكيين. إن أكثر الأنماط المقولبة سلبية، على الجانبين، عابرة وليست ذات صفة رسمية وغير متروية. فأى تعليق معاد للمسلمين غير صادر عن تفكير متروٍ لا يتساوى مع السياسة الراسخة الموالية لإسرائيل أو المعادية للعراق. فمعظم آراء الناس سطحية، ومن السهل زعزعتها.

ولكن مواقع الإنترنت، ومقالات صفحات الرأى، وحشد الجماعات، والمؤتمرات الأكاديمية لا يمكنها وحدها أن تؤدى الغرض. أول كل شىء هو أن الأحداث العالمية لا بد أن تأخذ مجراها، وهناك القليل الذى يمكننا كأفراد عمله بشأن ذلك. إلا أنه يمكننا فى الوقت ذاته كأفراد أن نحدث فرقًا، مع الأفراد الآخرين. وهذا ما ينبغى أن يفعله العرب والأمريكيون؛ فنحن أفراد متفردون مستقلون فى أفكارنا ولدينا أنساقنا الشخصية من الحاجات والمعتقدات والحدود والتناقضات. وإذا تذكرنا ذلك، حين ندلى برأى عن الجانب الآخر، سوف نقطع بذلك خطوة كبيرة فى اتجاه التمهيد لفرص جمة تنتظرنا فى المستقبل. ■



مقدمة ابن خلدون

مقدمة ابن خلدون التى اشتهرت بهذا الاسم هى مدخل موسع لكتابه الشهير «العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر».

ويقع الكتاب فى سبعة مجلدات يتصدرها المقدمة التى تحدث عن حقائق جغرافية ورياضية وعمرانية وفلكية كثيرة.

كما تناولت أحوال البشر واختلاف طبائعهم والبيئة وأثرها فى الإنسان وتطور الأمم والشعوب وأسباب انهيارها.

وقد سبقت أفكار ابن خلدون فى هذا المجال علماء غربيون كثيرون وخاصة فى أحوال المجتمع الإنسانى أو ما أسماه العمران البشرى، واعتبرها المؤرخون نقلة نوعية فى دراسة التاريخ التى لم تعد مجرد سرد للأحداث، بل ميدانًا للتفكر والتحليل والاستنباط.

ولد ابن خلدون، واسمه بالكامل عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، عام ١٣٣٢ ميلادية فى تونس لأسرة تنتمى إلى فرع من قبيلة كندة ودخل أجداده الأندلس وبسقوط أشبيلية انتقلوا إلى تونس وفيها درس العربية والقرآن والفقه وتقلد عدة مناصب ثم غادر تونس إلى القاهرة عام ١٣٨٢، ثم زار الأماكن المقدسة فى الحجاز وعاد للقاهرة ثانية حيث توفى عام ١٤٠٦ ميلادية.

امتاز ابن خلدون بسعة اطلاعه وقدرته على استعراض الآراء ونقدها ودقة الملاحظة مع حرية فى التفكير وكان لخبرته فى الحياة السياسية والإدارية وفى القضاء وكذلك أسفاره أثر بالغ فى موضوعيته وعلمية كتاباته.

العـــولمة.. والعـــولمة

أولا: عن معضلة العولمة والعولمة المضادة، وكيفية تناولها

(أ) العولمة: ويالها من ظاهرة..!!

العولمة مصطلح طاغ، شاع استخدامه حتى شبهت هذه الظاهرة الكونية بالغانية التى تطوف بجميع الموائد: موائد أقطاب السياسة، وأباطرة الإعلام، ورجال الأعمال والأموال، وكبار التكنوقراط، ومنظرى الثقافة وعلم الاجتماع، بل وفلاسفة العلم والفن والأخلاق. تصبو العولمة الراهنة إلى احتواء كل أنشطة الإنسان وممارساته، وعلاقاته وأفكاره وقيمه ومعتقداته، وأمور تنميته وبيئته وصحته وشغل أوقات فراغه، بالإضافة إلى كل ما يتعلق بالسيادة والهوية وحقوق الأقليات والملكية الفكرية، وحتى عالم الشر لم يحرم هو الآخر نصيبه من غطاء العولمة: من جرائم المافيا وغسيل الأموال وتجارة المخدرات، وفساد الحكومات والمؤسسات.

إن العولمة مفهوم مجرد مركب يعنى الكثير ويختلف معناه لدى الكثيرين، وربما يكون ذلك هو ما حدا بجون جراى أن يخصص فصلا فى كتابه «الفجر البازغ» بعنوان «ما لا تعنيه العولمة»، وهذا حالها، فقد تعددت الآراء بشأنها: فهناك من يراها دين الحداثة ومن يعتبرها نذير نهايتها، فالمتحمسون لها يسيطر عليهم اعتقاد بأن الجنس البشرى لديه القدرة ـ لأول مرة ـ على بناء مستقبله، لا على أوهام أيديولوجية سقيمة، بل على مجموعة من الأسس والقيم العامة المشتركة بين البشر جميعا، ويقوم هذا الاعتقاد على أن حداثة الغرب لا نهاية لها، ولا تعمل على نمط نهائى: فهى إلى تطوير مستمر منفتح على المجهول، وهى ـ أى الحداثة ـ تتجدد دوما كلما تجددت العلاقات بالقديم، والوعى بخصائص ما هو قادم. على النقيض من ذلك، هناك من يرى العولمة وهمًا وخداعًا، ومحاولة متسرعة لإضفاء نوع من المشروعية على الرأسمالية الراهنة وليدة التكنولوجيا الحديثة.



ومن منظور تاريخى، هناك من يرى عولمة هذه الأيام مجرد بداية تمهد لنقلة نوعية حادة من حداثة غاربة إلى ما بعد حداثة بازغة، ومن يراها مجرد طور جديد متقدم من الحداثة، واستمرار لنفس مسار التقدم القائم على استمرارية التطور التكنولوجى والنمو الاقتصادى. وأخيرًا وليس آخرًا، هناك من يرى العولمة وفاقًا يجمع البشرية جمعاء فى «هيتروطوبيا» من تنوع الثقافات وامتزاج الحضارات، ومن يرى ذات العولمة صراعًا يؤجج النزعات العرقية والدينية واللغوية.

(ب) العولمة المضادة: ويالها من غموض..!!

لم يعد شعار «التقدم الاقتصادى بأى ثمن» ينطلى على أحد، ولم يعد العالم مستعدا لأن يصغى مرة أخرى لآدم سميث جديد يبشر الإنسانية بخير عميم فى ظل سوق عالمية جديدة. لقد انفردت ظاهرة العولمة بأن أفرزت نسختها المضادة وهى مازالت فى مهدها، وكما تسرع مناصرو العولمة فى التنظير لها ليجعلوا منها أيديولوجية حاكمة تفسر من خلالها الظواهر الكونية، وتنبثق منها الحلول الجذرية للمشكلات التى يواجهها المجتمع الإنسانى الحديث، كما تسرع هؤلاء، كذلك تسرع مناهضو العولمة لتجىء عولمتهم المضادة بلا أجندة واضحة، مفتقدة إلى الحد الأدنى من الأسس النظرية القادرة على الصمود أمام تيار العولمة الجارف.

وقد تراوحت ردود الأفعال إزاء العولمة من حيث مدى حدتها، بدءا من الاستسلام التام لها، والتسليم بها بصفتها مرحلة تاريخية حتمية فى مسار تطور المجتمع الإنسانى، إلى الرفض التام لجميع الأسس التى قامت عليها والأهداف التى تسعى إليها، ويعد الموقف العربى إزاء العولمة نموذجًا مثاليًا لهذين الموقفين النقيضين، فبعض المفكرين العرب يرون العولمة خيرًا للأمة العربية، بل هناك من يتمادى فى القول بأن أمة العرب أكثر حاجة من غيرها إلى العولمة، من أجل إشاعة الديموقراطية، وضمان حقوق الإنسان، والإسراع فى حركة التنمية المجتمعية، وتوطين التكنولوجيا المتقدمة فى التربة العربية. على الطرف النقيض، هناك بعض يرى العولمة شرًا وتغريبًا يهدد الهوية القومية، ويقيد قدرة المجتمعات العربية على التنمية الذاتية، وضمن هذا البعض المعارض من يرى فى العولمة تناقضًا جوهريًا مع «عالمية الإسلام».

بعيدا عن حدة التنافس لثنائية القبول والرفض، هناك داخل معسكر العولمة ذاته بعض من ساسته يرى ضرورة تهذيبها، وهو موقف يقوم على قناعة بأن حل مشاكل الرأسمالية هو مزيد من الرأسمالية، وحل مشاكل التكنولوجيا هو مزيد من التكنولوجيا، وإن نجاح العولمة مرتهن بوجود سلطة مركزية، عن طريق المنظمات الدولية، قادرة على التوحيد والتنسيق وعلى إلزام الجميع بسياساتها وقراراتها. أما فيما يخص تصور هؤلاء الساسة عن حل مشاكل الدول الفقيرة، فليس هناك أكثر من زيادة المعونات والهبات، وتشجيع الاستثمارات، ولا ريب أن أكثر المواقف إجحافا بالفقراء هو القول بأن قارب العولمة لا يتسع للجميع، ولا بد لفقراء العالم أن يستسلموا لقدرهم المحتوم، وبينما اقتصر الحديث فيما مضى على سكنى الفقراء، نجده الآن قد اتسع ليشمل غذاء للفقراء، ورعاية صحية خاصة بالفقراء، وتربية للفقراء، وإعلامًا للفقراء، وتكنولوجيا للفقراء، وأضاف إليها أخيرًا عالمنا أحمد زويل علم الفقراء، بل ولا يجد البعض حرجًا فى الحديث عن ذكاء الفقراء، وحتمية النشأة الاجتماعية ممزوجة برواسب من الحتمية الوراثية مازالت عالقة بأذهان البعض.



خلاصة القول، فالعولمة باتت واقعًا على الجميع أن يتعايش معه، والعولمة المضادة – بالتالى – أصبحت أكثر حاجة إلى تجاوز مرحلة الاحتجاج إلى مرحلة التأسيس والتأصيل واقتراح البديل، ولن يتأتى ذلك إلا إذا تم التخلص من المنطق التكنولوجى والتمركز الاقتصادى، ولا سبيل إلى ذلك إلا من خلال النظر إلى معضلة «العولمة والعولمة المضادة» من رؤى متعددة تغطى المكونات المختلفة لمنظومة المجتمع: الاقتصادية والسياسية والثقافية والتربوية والأخلاقية والعلمية والتكنولوجية، ويأتى على رأس هذه الرؤى ـ فى رأى الكاتب ـ الرؤية المعلوماتية بهدف إبراز الآثار الناجمة عن المتغير المعلوماتى الذى كاد أن يطيح بمعظم الصروح التى قامت عليها مكونات منظومة المجتمع سالفة الذكر.

(ج) الرؤية المعلوماتية: ويالها من أهمية..!!

اجتمعت آراء الكثيرين على أن إشاعة استخدام تكنولوجيا المعلومات ستسرع من معدلات التنمية البشرية، ليس فى الدول المتقدمة فقط، بل أيضا فى الاقتصاديات الأقل تطورا. تستند هذه الآراء إلى الإمكانات الهائلة التى توفرها هذه التكنولوجيا فى التنمية العلمية والتكنولوجية، وفى زيادة إنتاجية عمالة المصانع والمزارع والمكاتب، وإلى ما توفره من بدائل كثيرة فى مجالات التعليم والرعاية الصحية وتنشيط التجارة، علاوة على تنمية روح المشاركة وترسيخ الديموقراطية. وتأتى الإنترنت لتزيد من نزعة التفاؤل تلك، بزعم أن هذه الشبكة الفريدة ستجعل المعرفة متاحة للجميع، فى أى وقت، وفى كل مكان. كما هو متوقع، اعترض كثيرون على هذه السيناريوهات المسرفة فى تفاؤلها بالنسبة إلى الدول النامية، وتصاعدت الشكوك حول كون تكنولوجيا المعلومات وحدها هى وسيلة العلاج، بل ربما لا تكون أيضًا هى الحل الوحيد.

ولا جدال فى أن تكنولوجيا المعلومات ـ إن أحسن استغلالها ـ يمكن أن تكون أداة فعالة للتنمية البشرية، إلا أنه من الضرورى إدراك أن جميع الإنجازات التكنولوجية على مدى التاريخ لا تؤدى إلى تسهيل الأمور بل عادة ما تكشف عن ظواهر أكثر تعقيدا، وتستحدث أوضاعًا أكثر تداخلاً وتشابكًا. إن كل تكنولوجيا يمكن أن تحقق الشىء ونقيضه تبعًا للأسلوب الذى يتم تطبيقها به، ويصدق هذا القول ـ أكثر ما يصدق ـ على تكنولوجيا المعلومات، وذلك نظرًا لسهولة توجيهها والمناورة بمواردها، ومرونة تكييفها وفقًا لظروف الاستخدام.

ترجع أهمية الرؤية المعلوماتية لمعضلة «العولمة والعولمة المضادة» إلى عدة أسباب رئيسية نلخصها فيما يلى:

* كون تكنولوجيا المعلومات هى المحرك الرئيسى لعملية العولمة، لذا فرؤية القضية من زاويتها يعد تصديًا لها فى موضع القلب.

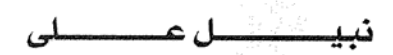
* المحاولات المضنية من قبل مروجى النموذج الرأسمالى العولمى الساعية إلى اعتبار تكنولوجيا المعلومات مجرد مرحلة أحدث فى مسار التقدم التكنولوجى، وذلك بهدف إخضاعها إلى نفس الآليات الاقتصادية السائدة، حفاظا على موازين القوى وتأمينا لمصالح الأقوياء. إنهم بذلك يطمسون الفروق الجوهرية بين طبيعة تكنولوجيا المعلومات وما سبقها من تكنولوجيات، ويكفى هنا أن نذكر أنها ترتكز ـ أساسا ـ على العنصر البشرى وقدراته الذهنية والإبداعية، وما أكثر ما انهزم الكبار أمام الصغار المبدعين ذوى الأفكار المبتكرة، ولا شك أن هذا التحول الحاسم فى التوجه التكنولوجى يتيح فرصًا حقيقية للتخفيف من سطوة رأس المال المادى، وسيطرة التنظيمات المؤسسية التقليدية وليدة تكنولوجيا الصناعة.

* كون تكنولوجيا المعلومات هى همزة الوصل بين التكنولوجيا والثقافة، وقد أصبحت الثقافة هى محور عملية التنمية الاجتماعية، فى حين أصبحت تكنولوجيا المعلومات هى محور التنمية التكنولوجية الشاملة، وعليه يصبح فهم العلاقة بين الثقافة وتكنولوجيا المعلومات ركيزة أساسية لفهم الأداء الكلى لمنظومة المجتمع الإنسانى الحديث.

* الرؤية المعلوماتية أكثر قدرة من غيرها فى كشف تناقضات النموذج العولمى التى تتضح أكثر ما تتضح على صعيد المعلومات، ويكفى هنا أن نشير إلى أن تكنولوجيا المعلومات تفوق التكنولوجيات الأخرى من حيث قابليتها للاستقطاب والهيمنة، وخير شاهد على ذلك ما نسمعه حاليًا عن شكوى الشركات الأمريكية العملاقة فى مجال البرمجيات والاتصالات من شدة الاستقطاب الاحتكارى الذى تمارسه عليها شركة ميكروسوفت، إنها احتكارية عصر المعلومات التى لا ترحم، والتى استطاعت أن تنفذ إلى قلب القطب الرأسمالى الأمريكى ذاته.

* الأهمية البالغة للمدخل المعلوماتى اقتصاديًا. لقد قام نموذج اقتصاد عصر

المضــــــادة.. رؤيــــة معلوماتيــة



الصناعة على «طور الإنتاج»، وعلى ما يبدو فإن النموذج الاقتصادى لعصر العولمة سينطلق من النقلة النوعية وليدة المتغير المعلوماتي، ويقصد بها النقلة من «طور الإنتاج» إلى «طور تكرار الإنتاج»، وهو الطور الذى يقوم على أساس أن منتجات صناعة المعلومات وأصولها، من برامج وبيانات ومعلومات وموسيقى وأفلام ونصوص وأفكار، جميعها قابل للنسخ، أى تكرار الإنتاج، ولا يقتصر تكرار الإنتاج عند حد منتجات المعلومات وأصولها، بل يمتد إلى العمالة البشرية أيضا، وذلك بـ«نسخها» عن طريق الروبوت (الإنسان الآلى) والنظم الذكية والخبيرة.

* إبراز الآثار الجانبية لتكنولوجيا المعلومات، فما أن ظهرت حتى انبرى الكثيرون زاعمين أنها التكنولوجيا الرهيفة النظيفة، الودودة مع البيئة. لقد نسى هؤلاء - أو تناسوا - أن الجوانب السلبية لأية تكنولوجيا لا تظهر إلا بعد مرور وقت ليس بقصير، فما فعلته عوادم السيارات بالبيئة لم تظهر آثاره إلا بعد عدة عقود من التراكم التدريجي. وليس ثمة شك من أن تكنولوجيا المعلومات - مثلها فى ذلك مثل كل ما سبقها من تكنولوجيات - لها هى الأخرى وجهها القبيح الذى أخذت ملامحه تزداد وضوحًا يومًا بعد يوم، وها نحن نسمع عن «فجوة رقمية» تزداد اتساعًا بين من يملك المعلومة ومن يفتقدها، وعن مخاطر أخرى مستحدثة ينذر بها عصر المعلومات من قبيل: الإرهاب الرمزى، والعنف الترفيهي، والابتزاز المعلوماتي، وسوء الاستغلال الرقمى.

* الأهمية المتزايدة للمعلومات بالنسبة لفلسفة العلم الحديث. لقد تضافرت تكنولوجيا المعلومات مع اللغة من جانب، ومع الميكروبيولوجي الحديث من جانب آخر[1]، وأصبح مثلث «اللغة - الميكروبيولوجي - تكنولوجيا المعلومات» بمثابة رأس الحربة لقاطرة المعرفة الإنسانية: فلسفة وعلمًا وفنًا وتقانة، وهى المعرفة التى تعد أمضى الأسلحة فى ترسانة معسكر العولمة، وهى ذاتها مناط أمل العولمة المضادة فى إيجاد البدائل التى تحررها من حتميات العولمة وقيودها.



* وأخيرًا وليس آخرًا، إن التصدى لسطوة القوى المركزية، وقدرتها الطاغية على تهميش الأطراف، لن يأتى إلا بالبحث عن شكل جديد يتخلص من تراتبية hierarchy منظومة القوى الاجتماعية السائدة. لقد ترسخت هذه الهيكلية ذات الطابع الهرمي، منذ جمهورية أفلاطون إلى يومنا هذا، لتحكم معظم أمور حياتنا، سواء على مستوى الفكر أو الواقع، ويعتقد الكثيرون أن المتغير المعلوماتي هو الكفيل بتخليصنا من صرامة هذه التنظيمات الهرمية، فقد كانت تكنولوجيا المعلومات سباقة فى التخلص منها، وذلك بتحولها من نظم المعلومات المركزية إلى نظم المعلومات اللامركزية الموزعة جغرافيًا ووظيفيًا، ويتبدى هذا التوجه اللامركزى - أكثر ما يتبدى - فى شبكة الإنترنت، فهى شبكة بلا محور، وبلا سلطة مركزية، وبلا هرمية أو تراتبية.

ثانيا: العولمة والعولمة المضادة فى كبسولة

يلخص جدول رقم ١ فى نقاط مركزة أهم مقولات العولمة والعولمة المضادة مصاغة فى مناظرة ثنائية بين الآمال التى تبشر بها العولمة، والمخاطر التى تحذر منها العولمة المضادة، وقد تم تصنيفها وفقا لأهم جوانب هذه الظاهرة الكونية، كما يراها الكاتب، وهى:

* النموذج الاقتصادى العولمى
* توزيع العمل وتنويعه وإثراؤه
* سلطة الدولة وسيادتها
* منظومة القيم والهوية القومية

لن يتعرض حديثنا الراهن لأية تفاصيل حول هذه المقولات، وقد أعفانا كثيرون من مفكرى الغرب والعرب

من الخوض فيها، وقد أوردناها هنا في كبسولة كخلفية عامة نسقط عليها حديثنا الخاص عن الرؤية المعلوماتية وقد تمت صياغته هو الآخر في ثنائية قوائم الآمال والمخاطر - جدول رقم ٢



يتمحور النموذج المعلوماتي العولمي حول إقامة مجتمع كثيف الاتصالات، يرتبط أفراده وكياناته، وتتفاعل ديناميا، من خلال شبكة من الطرق السريعة للمعلومات. إن هذا الطريق هو الخلف لسلفه طريق السيارات السريع

ثالثا: تأسيس الرؤية المعلوماتية

سنتناول فيما يلي كلاً من جوانب المناظرة الأربعة السالفة الذكر، وذلك بطرح الآمال التي تعد بها العولمة المعلوماتية متبوعة مباشرة بالمخاطر التي ينذر بها نظيرها المضاد على مستوى كل نقطة من النقاط وفقا للتسلسل الواردة به في الجدول رقم٢

(أ) جانب المناظرة: النموذج المعلوماتي العولمي

الآمال

يتمحور النموذج المعلوماتي العولمي حول إقامة مجتمع كثيف الاتصالات، يرتبط أفراده وكياناته، وتتفاعل ديناميا، من خلال شبكة من الطرق السريعة للمعلومات Information Super Highways، وهو المصطلح الذي أطلقه آل جور، نائب الرئيس الأمريكي الأسبق. إن الطريق السريع للمعلومات هو بمنزلة الخلف لسلفه طريق السيارات السريع، وكما كان السلف «الأسمنتي» هو شريان نقل بضاعة الصناعات الأمريكية التقليدية «محليا»، فسيكون الخلف «المعلوماتي» هو شريان نقل «بضاعة» صناعة الثقافة الأمريكية «عالميا»، ويقصد بـ «بضاعة» الثقافة هنا ما تنتجه هذه الصناعة من سلع وخدمات، والتي تشمل - على سبيل المثال لا الحصر - الأفلام، والبرامج التليفزيونية، ووسائط تسجيل الموسيقى والأغاني، وبرامج الكمبيوتر الترفيهية والتعليمية. وكما هو معروف، يحتاج نقل هذه السلع والخدمات، من منابع إنتاجها إلى أماكن استهلاكها، سعة هائلة لتدفق المعلومات تفوق بكثير سعة الكابلات النحاسية التقليدية، لذا فإن شبكة الطرق السريعة للمعلومات يتم إنشاؤها باستخدام الألياف الضوئية ذات السعة الهائلة، وهو ما يسعى إلى تحقيقه الجيل الثاني من الإنترنت، الذي سيمكن - على سبيل المثال - من نقل فيلم سينمائي من هوليوود إلى أبعد نقطة في العالم في أقل من دقيقة، وهو ما يستغرق ساعات عديدة بافتراض إمكانية نقله عبر الجيل الحالي من الإنترنت.



في إطار هذه الإستراتيجية لدعم صناعة الثقافة الأمريكية، حرص آل جور على أن ينقل طموحه المحلي خارج حدود بلاده، حيث نادى بإقامة بنية أساسية معلوماتية عالمية ينعم فيها - سواء بسواء - أغنياء عالمنا وفقراؤه، ولنسترق السمع إلى تلك الصيحة السامية النبيلة التي أعلنها «ملاكنا السياسي»، مبشر عصر الإنترنت، يقول آل جور: «دعونا نتجاوز الأيديولوجيا لنتحرك معًا صوب هدف مشترك لبناء بنية أساسية معلوماتية عالمية لمصلحة جميع الدول، من أجل خدمة اقتصادنا الحر، وتحسين خدمات الصحة والتعليم وحماية البيئة والديموقراطية».

المخاطر

لا يخفى على أحد ما يستتر وراء دعوة آل جور من دوافع لخدمة المصالح الأمريكية، وكم كان فطنا جون ستراتون عندما لفت نظرنا إلى «سندويتش» آل جور الوارد في دعواه تلك، حينما وضع أحلام التنمية البشرية، من صحة وتعليم وحماية بيئة، بين شطري هذا السندويتش، ونعني بهما «الاقتصاد الحر والديمقراطية». لقد اعترض على نموذج آل جور هذا الكثيرون من داخل الاتحاد الأوروبي، بل من داخل الولايات المتحدة نفسها، فقد عابوا عليه تمركزه الاقتصادي، وتركيزه على الجوانب الفنية، وإغفاله للجوانب الاجتماعية للتنمية التكنولوجية، وهي الجوانب التي تنامت أهميتها بقدر كبير بالنسبة لتكنولوجيا المعلومات التي تفوق - وبقدر كبير - ما سبقها من تكنولوجيات من حيث شدة العلاقات التي تربطها بالمنظومة المجتمعية. هذا عن موقف بعض أهل الشمال إزاء نموذج الطرق السريعة للمعلومات، أما فيما يخص دول الجنوب، فإن كلفة إنشاء البنية التحتية للمجتمع الشبكي تتجاوز بكثير قدرة هذه الدول، ولا يمكن أن تحظى بالأولوية في خضم المشاكل العديدة التي تواجهها هذه الدول، وهو ما أدى بالبعض إلى رفع شعارات من قبيل «النفاذ إلى مصادر المياه قبل مصادر المعلومات»، و«البنسيلين قبل البنتيوم»(٢).

لقد أدى التقدم التكنولوجي الصناعي في الماضي إلى تراكم الثروة المالية، ويقينا فإن التقدم التكنولوجي المعلوماتي الموعود سيعمل على توسيع الفجوة الرقمية بين الأثرياء معلوماتيا وفقرائها، وهكذا يظهر إلى الوجود تراكم ثنائي أكثر ضراوة يجمع بين تراكم الثروة الصناعية المادية (المالية) وتراكم الثروة المعرفية.

الآمال

يفترض النموذج القائم على الطرق السريعة للمعلومات الخصخصة الكاملة لقطاع الاتصالات، ضمانا لسرعة إنشاء البنى التحتية اللازمة، وتحقيق خدمات اتصالية أكثر تنوعا وأفضل من حيث مستوى الخدمة ومدى توافرها. وكم يبدو براقا الشعار الذي ترفعه حاليا كبرى شركات الاتصالات العالمية «أية معلومات، في أي وقت، ومن أي مكان. لقد توازى مع التوجه نحو الخصخصة الكاملة لقطاع الاتصالات تحريره من كثير من التنظيمات والتشريعات التي كانت تحد من نطاق نشاطه في الماضي، وهو ما أدى إلى إنشاء اندماجات غير مسبوقة بين صناعة الاتصالات، وصناعة الإعلام، وصناعة السينما، ودور النشر، وشركات برمجة الكمبيوتر وخدمات الإنترنت. لقد انتشر هذا التوجه نحو التكامل الرأسي ذي التراكم الرأسمالي غير المسبوق تحت دعوى حسن استغلال تكنولوجيا الوسائط المتعددة multi media من أجل تقديم خدمات مبتكرة وميسرة بفضل اقتصاديات الحجم مقرونة باقتصاديات النطاق.

المخاطر

كيف لنا أن نوفق بين هذه «الطوبائية الاتصالية»، وكل ما نسمعه من تشفير القنوات الفضائية، وما نشهده حاليا على ساحة الإنترنت من تفشي ظاهرة النوادي الخاصة للمعلومات (للأعضاء فقط)، ومع ما أورده نلسن مانديلا في إحدى خطبه من أن ثلثي سكان العالم لم يجر مكالمة هاتفية واحدة طيلة حياته. إن ترك الحبل على الغارب لتنمية قطاع الاتصالات من خلال الاستثمارات الخاصة، وجعله رهنا بالمنافسة وفقا لقوانين السوق، سوف يؤدي - بالقطع - إلى حرمان شرائح عديدة من الطبقات الفقيرة من أحقية الاتصال والنفاذ إلى مصادر المعلومات، وهي الأحقية التي تعد حاليا ضمن حقوق الإنسان الأساسية، وعلى المستوى العالمي، يمكن أن تؤدي سيطرة القطاع الخاص على قطاع الاتصالات إلى نوع من طبقية الاتصال. ينعم فيه العالم المتقدم عبر شبكات الألياف الضوئية بخدمات ذات طابع إيجابي، تسمح بالتفاعل الدينامي الحي بين المستخدمين ومصادر المعلومات، وبين بعضهم البعض، في حين يظل العالم الفقير أسير الاتصال السلبي، تحت رحمة ما تلقيه عليه القنوات الفضائية عبر الأقمار الصناعية، وشتان الفرق بين التواصل الإيجابي التفاعلي المثري للعقل والوجدان، والتلقي السلبي، أحادي الاتجاه، الذي ينمي نزعات الاسترخاء الذهني والعزوف عن المشاركة.



من حيث ظاهرة الاندماج المؤسسي بين قطاعات خدمات المعلومات المختلفة، فمن المتوقع أن تعمل على جعل هذه الخدمات حكرا على هذه الكيانات العملاقة القادرة على تحويل صناعات المعلومات، ذات الطابع الذهني، إلى صناعات كثيفة التكنولوجيا، كثيفة رأس المال، بما يترتب عليه استبعاد الصغار من الدخول في هذا المضمار الحيوي ذي الأهمية البالغة بالنسبة للتنمية الإنسانية.

الآمال

يعد النموذج المعلوماتي العولمي بإتاحة المعرفة للجميع بما يضمن الإسراع من معدلات التنمية، ومساهمة الجميع في مسيرة التقدم العلمي والتكنولوجي والإبداعي.

المخاطر

يخلط أصحاب هذه الوعود الزائفة بين المعلومات والمعرفة، ويتجاهلون الفارق الشاسع بينهما، فكما تساءل تي. إس. إليوت في مقولته الشهيرة: «أين هي الحكمة وقد ضاعت في خضم المعرفة»، يمكن لنا أن نتساءل على ضوء ما يجري حاليا على جبهة الإنترنت: «أين هي المعرفة وقد ضاعت في خضم المعلومات». لقد بات العقل الإنساني مهددا بالانسحاق أمام ظاهرة الإفراط المعلوماتي over-information، وأصبح من الضروري إدراك أن الدورة الكاملة لاكتساب المعرفة لا تنحصر فقط في إمكانية النفاذ إلى المعلومات، بل تتعداها إلى المهام الأخرى لتحويل فيض المعلومات هذا إلى أداة فعالة لتنمية الفكر الإنساني، وهي تشمل المهام التالية:

* نقل المعرفة واستيعابها
* ترشيح المعرفة وتقطيرها في صورة مفاهيم أساسية وأفكار محورية
* توظيف المعرفة في حل المشاكل الفعلية
* استخدام المعرفة المتاحة من أجل توليد معرفة جديدة

لإيضاح المقصود هنا، نأخذ - كمثال - معلومات مشروع الجينيوم (الخريطة الوراثية للإنسان) والتي تنشر دوريا على شبكة الإنترنت، ولكن شتان بين توافر هذه المعلومات البيولوجية، وبين تحويلها إلى معرفة فعالة للعلاج الجيني سواء لأغراض التشخيص، أو استحداث أصناف جديدة من الدواء.

الآمــــال	جانب المناظرة	المخاطـــــــر
* ليبرالية جديدة لتحرير الأسواق وتوحيدها لتوفير السلع والخدمات وتخفيض أسعارها. * تذويب الفوارق، والإسراع من معدلات التنمية وزيادة الاستثمارات فى البلدان النامية. * استمرارية التقدم الاقتصادى لمواجهة زيادة السكان، وتلبية مطالبهم المتزايدة.	النموذج الاقتصادى العولمى	* إفقار الدول النامية، وعجزها عن المنافسة عالميًا، وتلبية مطالب أسواقها المحلية. * فجوة اقتصادية وتكنولوجية تزداد اتساعًا، وتراكم ديون العالم الثالث واستغلال القروض كوسيلة للهيمنة. * استنزاف الموارد الطبيعية وزيادة الخلل فى توزيع الدخول والثروات وتضخم النزعة الاستهلاكية
* خلق مزيد من فرص العمل من خلال المنافسة وانفتاح سوق العمل عالميًا. * مساهمة الشركات المتعددة الجنسية فى تأهيل العمالة المحلية. * زيادة إنتاجية العمالة مما يؤدى إلى ارتفاع الأجور، وتوفير وقت الفراغ.	توزيع العمل وتنويعه وإثراؤه	* سوء توزيع سوق العمل، واحتكار الصناعات الراقية وتصدير الأعمال المتدنية للدول النامية. * نزيف العقول نتيجة لعوامل الجذب من قبل الشركات متعددة الجنسية لذوى المهارات العليا. * مزيد من البطالة، بعد أن أصبح النظام الرأسمالى منتجًا أكثر من اللازم، وتدنى مستوى الأجور.
* توافر سلطات مركزية عالمية تحد من تسلط الحكام المحليين. * حكومات رشيقة أكثر فاعلية، وأقل أعباء، وأكثر تجاوبًا مع مطالب شعوبها. * إشاعة الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وضمان حقوق الأقليات.	سلطة الدولة وسيادتها	* تقليص سيادة الدول، وانحسار دورها، وهيمنة المنظمات الدولية فى مقدرات شعوبها. * تصبح الحكومات أضخم من مواجهة مشاكل الداخل، وأضعف من التصدى لقوى الخارج. * زيادة الخلل الاجتماعى واستبداد الدولة بحجة تلبية مطالب التكيف الهيكلى والاقتصادى.
* خلق نظام عالمى جديد يسمو فوق الفوارق الثقافية ويقوم على القيم والمبادئ الإنسانية المشتركة. * الاحتفاء بالتنوع الثقافى، وإحياء التراث، وامتزاج الثقافات وتشجيع الحوار بين الأديان. * التصدى لفساد المؤسسات، والسمو بالقيم الإنسانية.	منظومة القيم والهوية القومية	* تأجيج النزعات العرقية والدينية واللغوية كرد فعل للعولمة والاحتماء بالمحلية والقومية. * تجنيس الثقافات، وطمس خصوصياتها وتسطيحها وطرد الثقافة الرديئة للجيدة. * تقويض الروابط الأسرية، ونمو جرائم الكبار بدافع الجشع، وجرائم الصغار بدافع حب البقاء.

جدول رقم ١: الآمال والمخاطر (مستقاة من خطاب العولمة والعولمة المضادة)

الآمــــال	جانب المناظرة	المخاطـــــــر
* إقامة شبكة الطرق السريعة للمعلومات توفر خدمات معلومات جديدة لخدمة التنمية الإنسانية. * خصخصة قطاع الاتصالات، وتوسيع نشاطه لتوفير خدمات أرقى وأكثر تنوعًا ميسرة للجميع. * إتاحة المعرفة للجميع للإسراع من معدلات التنمية ومساهمة الجميع فى المسيرة العلمية.	النموذج المعلوماتى العولمى	* ظهور فجوة رقمية تزداد اتساعًا، وإغفال الجوانب الاجتماعية للتنمية المعلوماتية. * حرمان الطبقات الفقيرة من أحقية الاتصال، والنفاذ إلى مصادر المعلومات. * ستعجز الدول النامية عن تحويل المعلومات إلى معرفة فعالة لحل المشاكل وتوليد المعارف الجديدة.
* ظهور نوعيات جديدة من الأعمال والوظائف الأكثر ثراءً والأقل ضجرًا. * زيادة فرص الإبداع، وتحرير الفنان من القيود التى تحد من إبداعه. * توفير فرص عديدة لمداومة التعلم ذاتيًا لجميع الأعمار، تلبية لمطالب سوق العمل.	توزيع العمل وتنويعه وإثراؤه	* زيادة البطالة واحتكار الكبار للأعمال الراقية وتكليف الصغار بالأعمال التافهة الروتينية. * ارتداد الفن إلى الحرفية وضمور الدافع للإبداع الأصيل. * الإهلاك السريع للمعارف والمهارات وعجز الإنسان والمجتمع عن ملاحقة التطور.
* تقليص حجم الحكومات وأعبائها، والتخلص من سطوة البيروقراطية من خلال الحكومة الإلكترونية. * إقامة نظم حكم عالمية لزيادة التنسيق والتعاون الدولى وإشاعة نظم الحكم الصالح. * توفير مناخ أفضل لممارسة الديمقراطية والتصدى لسطوة النظم وسيطرة المنظمات.	سلطة الدولة وسيادتها	* عجز الحكومات عن خدمة مواطنيها، وظهور مزيد من معوقراطية لزيادة الاعتماد على نظم المعلومات. * انتهاك سيادة الدول واختراق الحدود باستخدام المعلوماتية. * استخدام نظم المعلومات كسلاح أيديولوجى، وكأداة للرقابة الإلكترونية على الأفراد والجماعات.
* تكنولوجيا المعلومات كأداة للدعوة الدينية والتسامى الرمزى المتجاوز لعالم الماديات. * دعم تكنولوجيا المعلومات للغات القومية، والاحتكاك اللغوى، وكسر الحواجز اللغوية. * نظم المعلومات كوسيلة فعالة للمحافظة على التراث وإعادة بناء التاريخ خائليًا.	منظومة القيم والهوية القومية	* مزيد من الخواء الروحى، بفضل المعلوماتية وانحسار الخطاب الدينى مع التقدم العلمى والتكنولوجى. * انقراض اللغات تحت طغيان اللغة الإنجليزية فى نظم المعلومات والإعلام. * تكنولوجيا المعلومات كأداة لنهب تراث الشعوب وتزييف التاريخ بإعادة بنائه خائليًا.

جدول رقم ٢: الآمال والمخاطر (من منظور الرؤية المعلوماتية المطروحة هنا)

(ب) جانب المناظرة: توزيع العمل وتنويعه وإثراؤه

الآمـــــال

ستؤدى تكنولوجيا المعلومات إلى ظهور نوعيات جديدة من الأعمال والوظائف، أبعد ما تكون عن تلك التى أفرزتها تكنولوجيا الصناعة، وهى بحكم طبيعتها أكثر ثراء، وأقل ضجرًا، وتتسم بالتجدد الدائم، وذلك لعدة أسباب من أهمها:

* التوسع الشديد للتطبيق التكنولوجى ذى الأساس المعلوماتى فى جميع مجالات الأنشطة الاجتماعية.
* المعدل السريع لتطوير تكنولوجيا المعلومات مما يستوجب مداومة تحديث النظم والتنظيمات وأساليب أداء العمل، وهو الأمر الذى يولد بدوره فرصا جديدة للعمل والإنجاز.
* تزايد حجم المشاكل التى يواجهها مجتمع المعلومات مما يتطلب مزيدا من الجهد البشرى لحلها.

المخـــــاطـــر

لقد كاد العمل أن يصبح نوعًا من الرفاهية فى مجتمع المعلومات، مجتمع الخمس الوحيد العامل كما أطلق عليه البعض، وذلك بعد أن أطاحت تكنولوجيا المعلومات ونظم أتمتتها بفرص العمل، وأصبح العامل، شأنه شأن قطع الغيار، يمكن استبداله بغيره من أصحاب الياقات الزرقاء أو من أصحاب «الياقات المعدنية» من فصيل الروبوتات. لقد اكتملت فصول تراجيديا العمالة الإنسانية على مرأى ومسمع من الجميع، بعد أن تم استقطاب المهارة إلى أعلى، وقد احتكرها أصحاب الياقات البيضاء من نخبة التكنوقراط، من مخططين ومستشارين ومصممين ومحللين اقتصاديين ومسوقين محليين وإقليميين وعالميين، المدججين بنظم معلومات فعالة تجعلهم فى غنى عن الوظائف الوسطى التى كانت تفصل بينهم وبين مستويات التنفيذ النهائية التى تقوم بها عمالة المصانع والحقول والمكاتب. بالإضافة إلى ما سبق، وبرغم أن تكنولوجيا المعلومات تتيح أعمالا أكثر ابتكارية وإثارة على المستويات العليا، إلا أنها ـ على العكس من ذلك ـ تؤدى إلى مزيد من الضجر والاغتراب على المستويات الدنيا من سلم العمالة.

إن أخطر أسباب اغتراب عمالة العصر يرجع إلى ما تطبقه الإدارة الحديثة من أساليب تكنولوجية وتنظيمية لتفتيت المهارات، أى تفكيكها إلى مهارات أصغر فأصغر ليتلاشى مع عملية التفتيت هذه الطابع الشخصى لمهارات العمال. ولا شك أن تكنولوجيا المعلومات تلعب دورا حاسما فى الإسراع من عملية تفتيت المهارات، ولا غرابة فى ذلك، فهل لنا أن ننسى أن جميع المسائل، من ظواهر ومشكلات وحلول يتم «تفتيتها» من خلال البرمجة وهندسة النظم، وغيرها من وسائل تكنولوجيا المعلومات، القادرة على سحق هذه المسائل فى نهاية الأمر إلى «ذرات» «الصفر والواحد»، وهل لنا أن ندرك مغزى ما خلص إليه أحد علماء الكمبيوتر فى صدد تعريفه لعملية الذكاء الاصطناعى بأنها تلك العملية التى نظل نفتت من خلالها حتى لا يبقى هناك ذكاء..!!.

خلاصة القول، لقد احتكرت مراكز التطوير المعلوماتى الأعمال الراقية، وطردت إلى الأطراف الأعمال التافهة ذات الطابع المتكرر، الباعث على الضجر، وكمثال بارز على ذلك هو ما أوردته دراسة حديثة عن زيادة فرص العمل فى دول جزر الكاريبى بفعل المد المعلوماتى الوافد إليها من الولايات المتحدة، فقد اقتصرت أنواع الأعمال الموكلة

لهذه الدول - أساسا - على المهام البسيطة لإدخال البيانات وما شابه، وينطبق القول - بدرجة أقل - على كثير من الأعمال التى تحيلها تلك المراكز إلى الشركات الهندية لتطوير البرامج، حيث غالبا ما يقتصر دور هذه الشركات على المهام شبه الميكانيكية لـ «تكويد البرامج» التى يتم تصميمها وتحديد مواصفاتها تفصيلا فى مراكز التطوير الأمريكية.

الآمـــــال

ستعمل تكنولوجيا المعلومات على توسيع نطاق الإبداع على اختلاف مجالاته، ونكتفى هنا - دلالة على ذلك - بسرد بعض مما تتضمنه باقة فنون عصر المعلومات: فن الوسائط المتعددة multimedia art - الفن التفاعلى interactive art - الفن الاتصالى communicative art - الفن السيبرى cyber art - الفن المفهومى conceptual art. لقد أسقطت تكنولوجيا المعلومات كثيرا من القيود التى تكبل الإبداع الفنى، فحررت فنان التشكيل من قيود إطار اللوحة وثنائية أبعادها؛ حيث أصبح بإمكانه أن يرسم أشكاله فى فراغ غير محدود ثلاثى الأبعاد، وحررت فنان الموسيقى من سطوة الآلات؛ حيث أصبح بإمكان المؤلف الموسيقى أن يصمم ألحانه بحيث تسجل مباشرة على الشرائط دون الحاجة إلى عازفين، بل بإمكانه أيضا أن يصمم آلات عزف جديدة، تماما كما يؤلف ألحانه الجديدة، وحررت النحات من صلابة مادته، واستاتية كتله، من خلال آليات التحريك، وبرامج توليد الأشكال المجسمة إلكترونيا، وكذلك حررت الأديب من خطية السرد المكتوب الذى فرضته عليه تكنولوجيا الطباعة. وكان للمبدع السينمائى نصيبه الوافر من دعم تكنولوجيا المعلومات: حيث أصبحت كل الخدع السينمائية والمناظر الخلفية والنماذج الخيالية، كمركبات الفضاء وخلافه، قابلة للتنفيذ الخائلى virtualization من خلال أساليب المحاكاة الرقمية، أما المبدع الدرامى، الذى طالما ضاق ذرعا بمحدودية خشبة مسرحه، فقد وفرت له تكنولوجيا المعلومات وسائل عديدة كى يتحرر من قبضة هذا الحيز؛ وذلك من خلال نقل المناظر الخلفية عن بعد، والمشاركة فى التمثيل عن بعد وما شابه.

المخــــاطـر

تمثل تكنولوجيا المعلومات تهديدا حقيقيا للمبدع، سواء من حيث إنتاجه أو طبيعة عمله، فتكنولوجيا المعلومات قادرة على نسخ الأعمال الفنية ومزجها وإعادة استخدامها وتوظيفها. لقد كان الفن فى بداية نشأته حرفة مثل باقى الحرف، كالنجارة والحدادة والبناء، ونجح الفن - بشق الأنفس - فى أن يسمو بنفسه فوق الحرفية، بعد أن نجح فى إثبات تفرده، والمحافظة على تجدده، وانتهاكه الدائم للقواعد السائدة. وتأتى تكنولوجيا المعلومات لتنغص عليه سكينة برجه العاجى، تكاد ترتد به إلى سابق عهده، حرفة يزاولها هؤلاء المهنيون الجدد من «أسطوات» عصر المعلومات، ذوى القدرة على دمج الأشكال، ومزج الألحان، وتكرار إنتاج التصميمات. وهكذا، كادت نبوءة شوينبرج، رائد الموسيقى اللانغمية، أن تتحقق، فقد سبق له أن أنذرنا بأن الفنان على وشك أن يفقد ذاتية تفرده، والفن يقترب رويدا رويدا من الوقوع فى فخ الحرفية، وهو ما حذرنا منه - أيضا - أديبنا الإيطالى ألبرتو مورافيا عندما استشعر الخوف من قرب وقوع الأدب فى فخ الوثائقية.



العولمة والعولمة المضادة

لا يخفى على أحد ما يستتر وراء دعوة آل جور من دوافع لخدمة المصالح الأمريكية، وكم كان فطنا جون ستراتون عندما لفت نظرنا إلى «سندويتش» آل جور الوارد فى دعواه تلك، حينما وضع أحلام التنمية البشرية، بين شطرى السندويتش، ونعنى بهما «الاقتصاد الحر والديمقراطية»

الآمـــــال

تتيح تكنولوجيا المعلومات فرصا عديدة لمداومة التعلم ذاتيا مدى الحياة من أجل تجديد المعارف والمهارات تلبية لمطالب سوق العمل، وزيادة قدرة العامل على المحافظة على لياقته المهنية.

المخــــاطـر

إن معدل التطور السريع لتكنولوجيا المعلومات، وما يترتب عليه من تسارع تغيير النظم والأعمال والتنظيمات وعلاقات العمل، سيؤدى إلى زيادة معدل إهلاك المعارف والمهارات بصورة ربما تفوق قدرة البشر على ملاحقتها. إن المجتمع الإنسانى بات يلهث وراء ركب التكنولوجيا المنطلق، وهو يدفع بالمعارف والمهارات دفعا إلى محرقة الاستهلاك السريع، السمة السائدة والمتفاقمة لعصرنا هذا.

(ج) جانب المناظرة: سلطة الدولة وسيـادتهـا

الآمـــــال

تساعد تكنولوجيا المعلومات على تقليص حجم الحكومات، وتحجيم سلطاتها، وذلك نتيجة للتوسع فى الخصخصة، وزيادة مشاركة المنظمات غير الحكومية فى صنع القرار، وفى قيامها بكثير من الخدمات والمهام التى توكل للحكومات عادة. سيؤدى كل هذا إلى التخفيف من الأعباء التى تفرضها هذه الحكومات على مواطنيها فى صورة ضرائب ورسوم أو تشريعات وتنظيمات، من ناحية أخرى ستعمل الحكومة الإلكترونية بفضل نظم المعلومات بصورة أكثر فاعلية، وأقل بيروقراطية، وذلك من خلال إسقاط الكثير من الحلقات الوسيطة التى تفصل بين طالبى الخدمات ومقدميها.

المخــــاطـر

لا شك أن خصخصة كثير من الخدمات الاجتماعية التى كانت تتكفل بها الحكومات، خاصة فيما يخص خدمات التعليم والرعاية الصحية، سوف يجعل هذه الخدمات دون متناول الطبقات الفقيرة غير القادرة على سداد كلفة هذه الخدمات، خاصة مع ازدياد هذه الكلفة نتيجة لزيادة اعتمادها على التكنولوجيا بصفة عامة، وتكنولوجيا المعلومات بصفة خاصة.

وفيما يخص مساهمة الحكومة الإلكترونية فى تخفيف حدة البيروقراطية، فيلوح فى الأفق بزوغ بيروقراطية من نوع جديد، أو «معلوقراطية»، إن جاز القول، تحل بها الآلة ونظمها محل طبقة البيروقراط الحالية، لتحكم قبضتها على حياة البشر بعد أن أصبح كثير من المؤسسات والمرافق اليوم رهينة النظم الآلية، وعرضة للشلل التام ما أن تتعطل هذه النظم، أو يتدهور أداؤها.

الآمـــــال

ستوفر نظم المعلومات البنية التحتية لإقامة نظم حكم عالمية من خلال المنظمات الدولية والمنظمات الأهلية العالمية، وعن طريق زيادة كفاءة هذه المنظمات وتوسيع نطاق نشاطها، وهو الأمر الذى سيعمل على زيادة التعاون الدولى والتنسيق ما بين النظم المحلية وإشاعة نظم الحكم الصالح فى البلدان النامية.

المخــــاطـر

حذر كثيرون من المصير المشئوم الذى تدفع العولمة إليه دول الأطراف، فهى تقلص من سلطات هذه الدول، وتضيق الخناق على كيفية ممارستها لهذه السلطات، وهكذا تظل سيادتها تتآكل إلى أن تصبح هذه الدول عاجزة عن الوفاء بالتزامات العقد الاجتماعى تجاه مواطنيها. يحدث هذا تدريجيا ولكن بصورة متسارعة، لتجد تلك الدول نفسها وقد تحولت من راعية لمصالح المواطنين إلى حارسة لليبرالية السوق الجديدة، حامية لرأس المال الخارجى والمحلى. وما أن يشتد عود العولمة حتى تجد الحكومات المحلية نفسها أضعف من أن تفى بواجباتها كالتأمينات الاجتماعية والخدمات التعليمية والرعاية الصحية وحماية البيئة وما شابه. ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل تصبح هذه الحكومات المحلية عاجزة أيضا عن تقديم العون للشركات متعددة الجنسية فيما يخص حماية وتأمين حقوق الملكية بأنواعها، والحفاظ على الأمن الاجتماعى، وحماية الاستثمارات ضد الجريمة المنظمة، وضد ردود أفعال المقهورين. وهنا تشيح المؤسسات المتعددة الجنسية بوجهها عن الحكومات، لتستدير صوب المنظمات الدولية طالبة دعمها، والتساؤل الذى يفرض نفسه هنا: هل سينجح نظام الدولة، الذى أثبت جدارته فى عصور ثروات الأراضى وثروات الأموال، هل سينجح فى عصر الثروة المعرفية والعمالة الذهنية؟!!، هناك من يشكك فى ذلك متوقعا فشل الدولة فى تنظيم أمور اقتصاد المعرفة، مما سيقوض مركزها ويهدد باندثار نظامها.

الآمـــــال

إن تكنولوجيا المعلومات، وشفافية مجال الرأى العام الذى توفره، ستعمل على توفير مناخ أفضل لممارسة الديموقراطية، فما أبعد الديمقراطية السياسية السائدة حاليا عن تلك التى شهدتها ساحات أثينا القديمة، ويتردد على أسماعنا حاليا بشرى ظهور ديموقراطية جديدة، ديموقراطية الإنترنت (أو الميكروديمقراطية كما يطلق عليها البعض)، التى سوف تسقط الحلقة الوسيطة للتمثيل النيابى الحالى التى تفصل بين الجماهير وأجهزة اتخاذ القرار. علاوة على ذلك فقد أصبحت شبكة الإنترنت من أقوى أسلحة العولمة المضادة، والتصدى لمظاهر الظلم الفادح الذى تنطوى عليه اتفاقيات الجات بصيغتها الحالية، وقد وفرت بالفعل قنوات جديدة لمناهضة نظم الحكم، ومواجهة عنف القوى القابضة على زمام السلطة.

المخــــاطـر

لقد برعت أجهزة سلطة الحكم فى استغلال نظم الإعلام كأمضى الأسلحة الأيديولوجية لتضليل جماهيرها، وتمرير قراراتها، وتبرير ممارساتها، وتسعى هذه الأجهزة - حاليا - لضم الإنترنت ضمن ترسانة هذه الأسلحة، مما يخشى معه فى ظل هذا الوضع أن تصبح ديموقراطية الإنترنت الموعودة مجرد وسيلة للتنفيس مآلها إلى الفوضى، مما يؤدى - بدوره - إلى مزيد من تدخل الحكومة من أجل السيطرة على جماهيرها، خاصة أن الإنترنت توفر الوسائل العملية الفعالة لإحكام هذه السيطرة؛ حيث تسجل للمواطنين مواقفهم وأفعالهم، لتكشف - بالتالى - عن أهوائهم السياسية والفكرية، مما يجعلهم أكثر عرضة لهذه الرقابة الإلكترونية التى لا تغفو لها عين، ويفسر ذلك الموقف الشديد السلبية، الذى اتخذه من الإعلام الحديث المفكر الفرنسى جان بودليار، إلى حد اعتباره ثقافة «الميديا» هى بمثابة الجريمة الكاملة التى تدفع جماهير مشاهديها إلى جحافل التجنيس والتهميش. وتعمل على

إخماد نوازع التفرقة الطبقية، وعلى ضمور الوعي الثوري لدى الطبقات المستضعفة، وعلى دمج العمال في نسيج المجتمع الرأسمالي المعاصر.

(د) جانب المناظرة: منظومة القيم والهوية القومية

تنطوي علاقة تكنولوجيا المعلومات بمنظومة القيم والهوية القومية على العديد من القضايا الشائكة، سنكتفي منها هنا بثلاث:

* تكنولوجيا المعلومات والدين.
* تكنولوجيا المعلومات واللغة
* تكنولوجيا المعلومات والتراث

وسنتناول كلا منها فيما يلي بإيجاز:

(أ) تكنولوجيا المعلومات والدين

الأمال

مازال تصور الكثيرين عن علاقة الدين بتكنولوجيا المعلومات محصورا في الأمور الخاصة بالنشر الإلكتروني الديني، ونشر الدعوة عن طريق وسائل الإعلام، وأثر وسائل الإعلام الجماهيري والإنترنت على منظومة القيم. بقول آخر، تنحصر النظرة إلى العلاقة «الدينية - المعلوماتية» في إطار ثنائية تكنولوجيا المعلومات كأداة للدين، وتكنولوجيا المعلومات كقضية أخلاقية، ولا شك أن علاقة الدين بتكنولوجيا المعلومات تتجاوز هذه الثنائية، حيث أصبحت هذه التكنولوجيا تمس قضايا جوهرية في صلب الظاهرة الدينية ومنظومة القيم، وتكمن العلاقة الوثيقة بين الدين وتكنولوجيا المعلومات في صلة كل منهما بالرمز، ومن الجلي أن تكنولوجيا المعلومات، تقع - برمتها - في مجال التعامل مع الرمز. أما صلة الدين بالرمز، فتتضح لنا إذا ما أمعنا النظر في التعريفات المختلفة لمفهوم الدين كما يطرحها علم الأنثروبولوجيا، والتي نوردها في القائمة التالية:

* الدين كنظام للمعتقدات والممارسات السلوكية والأخلاقية.
* الدين كنظام للأفكار والتوجهات.
* الدين كمجموعة من الطقوس والشعائر.
* الدين كمؤسسة اجتماعية ثقافية.
* الدين كمجموعة من التشريعات والسنن.
* الدين كنسق من الرموز، يرسخ لدى الإنسان حالات وجدانية، ودوافع قوية، وذلك من خلال تشكيل رؤيته الكلية عن الوجود.

وكل من هذه التعريفات، خاصة التعريف الأخير، ذو صلة وطيدة بالرمز، وهناك دلائل عديدة تشير إلى أن تكنولوجيا المعلومات، سيكون لها دور حاسم في بلورة هذه العلاقة الإنسانية الرمزية، والسبب الرئيسي وراء ذلك، أن إنسان هذا العصر مثلما يرى العالم من منظور معتقداته، يراه أيضا - بصورة أو بأخرى - من خلال تكنولوجيا المعلومات، وذلك بعد أن أصبحت هذه التكنولوجيا هي وسيط الإنسان للتعامل مع حقائق واقعه. علاوة على ذلك، فإن الرموز المقدسة ذات طبيعة مجردة، وكلما ضاقت المسافة بين المحسوس والمجرد، زاد الإنسان قربا من رموزه المقدسة، وزادت قدرته على التسامي، وإقامة الروابط بين شواهد واقعه، وما مضى من دنيا هذا الواقع، أو غاب عنه. ومن هنا تتضح صلة أخرى تربط بين الدين وقيمه الروحية، وبين تكنولوجيا المعلومات، مصدر هذه الصلة أن هذه التكنولوجيا تعمل - بلا هوادة - على إسقاط الحواجز الفاصلة بين المادي واللامادي، وعلى شحذ وسائلها لتجسيد المجردات بصورة مرئية ومحسوسة، وقد تجلى ذلك بصورة حاسمة في تكنولوجيا الواقع الخائلي Virtual Reality.

العولمة والعولمة المضادة

احتكرت مراكز التطوير المعلوماتي الأعمال الراقية، وطردت إلى الأطراف الأعمال التافهة، وكمثال على ذلك ما أوردته دراسة حديثة عن زيادة فرص العمل في دول الكاريبي بفعل المد المعلوماتي من الولايات المتحدة

المخاطر

لقد قامت حياتنا المادية على تكنولوجيا غاية في النجاح، في حين تئن حياتنا الروحية تحت وطأة الخواء؛ فقد ألهتنا هذه التكنولوجيا ذات القدرة الفائقة على إحداث التغيير، فنسينا ما بقي - وسيبقى دوما - ثابتا بداخلنا دون تغيير، لقد نسينا مطالبنا الوجدانية، وحاجتنا الدائمة إلى المثل العليا وإلى الألفة والتآخي والإحساس بالذات وبالهوية. ومع المد العلمي والتكنولوجي، انحسر الخطاب الديني، ومضى غلاة العقلانيين في غيهم، وفي أحادية نظرتهم، يعلنون أن الدين ظاهرة لاعقلانية، مآلها إلى الاندثار حتما في مجتمع انتصار العقل والحسم العلمي. فالإنسان - كما يقول أحد أدعيائهم - مخلوق له هذا القدر من حرية التصرف، الذي يمكنه - في أية مرحلة من مراحل تطوره - أن يصنع آلهته كما يحلو له، فالحضارة التي صنعت الأقمار الصناعية، والمركبات الفضائية، والعقول الإلكترونية ليست في حاجة إلى آلهة..! لقد فات عبدة التكنولوجيا هؤلاء، أن كل ما صنعوه من تكنولوجيات، وما تبعها من أيديولوجيات، قد فشل في حسم تناقضات عالمهم، وفي تلبية الحد الأدنى من مطالبه الاجتماعية والنفسية. لقد أثبت أهل الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع ما للدين من أهمية في منظومة المجتمع، فهو - أي الدين - ليس مجرد ظاهرة نفسية - كما زعم البعض - بل هو أحد الثوابت الاجتماعية التي لن تضمحل مع التقدم العلمي.

الأمال

توفر تكنولوجيا المعلومات عديدا من الوسائل لمؤازرة اللغة: تنظيرا وتعليما واستخداما وتوثيقا، وتمثل الإنترنت ساحة ساخنة للاحتكاك اللغوي، وأرشيفا هائلا للنصوص اللغوية قديمها وحديثها، وتتأهل تدريجيا لتصبح ناديا عالميا لتعدد اللغات، ومعملا تجريبيا للدراسات المقارنة والتقابلية في المجال اللغوي، علاوة على ما سبق ستكون نظم الترجمة الآلية، ما أن يشتد عودها، أداة حاسمة لإسقاط الحواجز اللغوية التي تفصل بين الشعوب والثقافات.

المخاطر

تضيق الإنجليزية الخناق على ما عداها من اللغات في معظم المجالات العلمية والإعلامية والتكنولوجية، وهي توشك أن تخرج منفردة كلغة عالمية، أو إسبرانتو الأمر الواقع كما يقولون. لقد جعلت شبكة الإنترنت شعوب العالم بأسره، أكثر وعيا بطغيان اللغة الإنجليزية؛ حيث كشفت عنه بصورة سافرة، وأظهرت مدى خطورة العامل التكنولوجي في التعجيل بحركة الانقراض اللغوي. إن الرصيد الإستراتيجي الثقافي للبشرية جمعاء، صار مهددا ويخشى الكثيرون من أن تكنولوجيا المعلومات كادت تقضي على التنوع الثقافي كما كادت تكنولوجيا الصناعة أن تقضي على التنوع البيولوجي.

الأمال

أثبتت تكنولوجيا المعلومات كونها وسيلة فعالة للمحافظة على التراث، حيا أو غير حي، ثابتا أو منقولا، وذلك من خلال ما توفره من وسائل الوسائط المتعددة، والأرشفة الإلكترونية، ونظم المحاكاة والتجسيد الرقمي التي يمكن من خلالها استعادة أزمنة الماضي فيما يعرف حاليا بإعادة بناء التاريخ خائليا virtual reconstruction of history، إن تكنولوجيا المعلومات ستمكن من عرض تراث الشعوب في نطاق جغرافي أوسع، وسياق تاريخي أشمل، بما يساعد على خلق مناخ عالمي لامتزاج أفكار الشعوب وفنونها، والاقتراض المتبادل للقيم واللغات وأساليب الحياة.

المخاطر

تتعرض الهوية القومية إلى تهديد شديد في ظل عولمة أعطت لنفسها الحق في تجنيس ثقافات العالم وطمس ملامح خصوصياتها. فهم - على ما يبدو - يريدون لنا بعولمتهم تلك أن نكون عالميين بلا مكان وبلا تاريخ، وكان تكنولوجيا المعلومات التي سحقت الزمان والمكان قد عمقت لدى أهلها استخفافا بالمكان من ناحية، ممثلا في إضعاف الارتباط بأرض الأهل وفقدان الأمكنة لطابعها الخاص، ومن ناحية أخرى استخفافا بالزمان ممثلا في نسيان تاريخ الأجداد وإهدار تراثهم.

ولا يخفى على أحد أنه يمكن استغلال تكنولوجيا المعلومات لنهب تراث الشعوب من قبل من لديهم الوسائل التكنولوجية لتوظيف التراث عمليا، وذلك في ظل ما يشاع حاليا في إطار خطاب العولمة من أن التراث الإنساني ملكية مشاعة للجميع. في نفس الوقت إن المحافظة على التراث الإنساني تتطلب تسجيل هذا التراث في صورة رقمية، ومع ارتفاع كلفة الرقمنة digitization ربما تجد الدول الفقيرة نفسها مضطرة إلى مقايضة جزء من تراثها في مقابل رقمنته.

إضافة لما سبق، هناك تهديد حقيقي في استغلال تكنولوجيا إعادة بناء التاريخ خائليا من أجل تزييف هذا التاريخ، وتوجيه مساره لخدمة الأغراض الإستراتيجية، وخير شاهد على ذلك ما تقوم به إسرائيل حاليا من إعادة صياغة كل ما يتعلق بصلة اليهود بتاريخ الشعوب العربية، من يهود الأندلس والمغرب إلى يهود العراق وشبه الجزيرة العربية، ناهيك عما يفعله الاحتلال الإسرائيلي حاليا في ادعاء ملكيته للتراث الفلسطيني كما تشهد على ذلك مقتنيات المتحف اليهودي بالقدس.

رابعا: الحاجة الماسة إلى تنظير جديد

يشهد التاريخ الإنساني الحديث بأن الوسائل قد طغت على الغايات لتضطرب الأمور وتختلط الرؤى إزاء معظم الإشكاليات التي يواجهها المجتمع المعاصر، ووسط هذه الفوضى تخرج إلى الوجود تكنولوجيا المعلومات لتهز أرجاء جميع الأسس الفكرية التي تأسست عليها المنظومة المجتمعية، وتخلخل الركائز الأساسية لمؤسساته السياسية والاقتصادية والثقافية، وتكشف عن مدى العجز الذي أصاب نظمه ومنظماته، ومدى الجمود الذي لحق بمنظومة قيمه ومعتقداته. هذا، في نفس الوقت الذي استحدثت فيه تكنولوجيا المعلومات العديد من الوسائل غير المسبوقة لإعادة توصيف الإشكاليات التي يواجهها، وينتظرها المجتمع الإنساني، والتعامل مع مظاهر تعقدها المتفاقم، وطرح بدائل مبتكرة للتعامل معها، ولكن - يقينا - لن تؤتي تكنولوجيا المعلومات ثمارها دون أن يساندها تنظير جديد مغاير تماما لما هو سائد نكتفي منه هنا بثلاثة فروع، هي:

* تنظير اجتماعي جديد
* تنظير سياسي جديد
* تنظير اقتصادي جديد

وسنلخص فيما يلي ما نراه من أهداف ومجالات أساسية لفروع التنظير الثلاثة هذه.



المغلوب والغالب

إن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده.

والسبب فى ذلك أن النفس أبدًا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه: إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعى إنما هو لكمال الغالب فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقاد فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء أو لما تراه، والله أعلم من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضًا بذلك عن الغلب وهذا راجع للأول. ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدًا بالغالب فى ملبسه ومركبه وسلاحه فى اتخاذها وأشكالها، بل فى سائر أحواله. وانظر ذلك فى الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائمًا وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم. وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زى الحامية وجند السلطان فى الأكثر لأنهم الغالبون لهم حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسرى إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو فى الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة، فإنك تجدهم يتشبهون بهم فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء والأمر لله. وتأمل فى هذا سر قولهم: العامة على دين الملك، فإنه من بابه إذ الملك غالب لمن تحت يده والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم. والله العليم الحكيم وبه سبحانه وتعالى التوفيق.

(أ) تنظير اجتماعى جديد قادر على:

* تأكيد محورية الثقافة فى منظومة التنمية الإنسانية، بهدف بلورة تنظير لا يرى الثقافة مجرد عامل مساعد يدفع المجتمع صوب غاياته كما فى نموذج ماكس فيبر، ولا يجعل من الثقافة ناتجا فرعيا لطور الإنتاج السائد كما فى نموذج كارل ماركس، ولا يختزل دور الثقافة فى كونها مؤسسة ضمن مؤسسات اجتماعية أخرى كما فى نموذج إميل دوراكيم.
* إقامة جسور الوفاق، وإظهار أوجه التناقض بين المحلى والعولمى، وبين العام والخاص، وبين الحكومى وغير الحكومى، وبين الرسمى وغير الرسمى، وبين النخبوى والجماهيرى.
* تأسيس معرفة جديدة أكثر صلابة، تمكن الإنسان من أن يعى عالمه على حقيقته، لا كما يصوره له فكر نخبته، أو كما يقدمه له إعلام سلطته.
* التخلص من الحتميات التى خلفها الماضى، من حتميات تاريخية واقتصادية ولغوية وبيولوجية، والتعامل مع «عدم اليقين» كعنصر جوهرى كامن فى صلب الكائنات والكيانات: مادية كانت أم غير مادية.
* التخفيف من سطوة السلميات الهرمية، وافتراض النمط الشبكى القادر على استيعاب التفاعل بين أنواع الخطابات المختلفة والمتباينة التى تسرى داخل الكيان المجتمعى، وإبراز دور آليات التصحيح الذاتى بفضل نظم المعلومات.
* التأسيس لمجتمع التعلم بمفهومه الواسع، الذى لا يقتصر فيه التعلم على البشر فقط، بل يشمل الجماعات والمؤسسات والنظم والآلات، والتعامل مع الذكاء الجماعى الذى يتضاعف بصورة أسية مع زيادة التفاعل، وزيادة إنتاج المعرفة وتداولها واستهلاكها.
* تبنى مبدأ اللاكتلية demassification لتخلصنا من نزعة التكتيل وليدة تكنولوجيا الصناعة، والمتمثلة فى إنتاج الجملة، والإعلام الجماهيرى وتعليم المجموعات الغفيرة ومؤسسات العلم الضخم.
* وأخيرًا وليس آخرًا، ضمان عدم طغيان القيم المادية على القيم الروحية، واستيعاب فروع شجرة أخلاق عصر المعلومات ومن ضمنها أخلاق الإعلام وأخلاق العلم وأخلاق التكنولوجيا، والنظر إلى الأخلاق بوصفها مزيجا يجمع بين التزام تفرضه القوانين وإلزام نابع من الضمير.

(ب) تنظير سياسى جديد قادر على:

* التخلص من تبعية الفكر السياسى للفكر الاقتصادى، وتأسيسه على فلسفة اجتماعية جديدة ترد له طابعه الأخلاقى، وذلك حتى يتسنى للسياسة القيام بدورها من أجل فرض حد أدنى من النظام وسط فوضى وشيكة ينذر بوقوعها مجتمع المعلومات.
* الكشف عن وهم الديموقراطية الزائف، وتحرير «سجناء الهواء الطليق» على حد تعبير تيودور أدورنو - الذين يعتقدون فى كونهم أحرارًا وما هم بأحرار، يساقون إلى صناديق الانتخابات كالقطيع، وتحصد آراءهم وموافقتهم إحصائيات قياس الرأى العام، وذلك بغية أن تتحول هذه الديموقراطية الشكلية إلى مشاركة إيجابية حقيقية.
* التخلص من الخمول الذى أصاب خيالنا السياسى - كما خلص إلى ذلك أحد تقارير اليونسكو - فقد أصبحت هناك هوة واسعة تفصل بينه وبين خيالنا العلمى والتكنولوجى، لقد حان الوقت لهذا الفكر السياسى أن ينزل من برجه العاجى، وأن يتخلص من برجماتياته، وأسلوب إدارة الأزمات، وبرودة تجاوبه مع مشكلات الجماهير بحجة الحرص على سلامة الإجراءات وشرعية المؤسسات.

(ج) تنظير اقتصادى جديد قادر على:

* التخلص من أسر الاقتصاد العولمى، المعصوب العينين، القائم على المضاربات فى الأسواق المالية، «اقتصاد الكازينو» الذى جعل من مصير البشرية لعبة تتقاذفها أياديه الخفية، وتقلبات أسواقه، وقصر نظر إستراتيجياته وتكتيكاته. لقد بات ضروريا أن يهجر الاقتصاد انعزاليته كى يتشبث بغاياته الأصلية كما يعنيه مصطلحه اليونانى لتوفير سبل المعيشة وتلبية احتياجات الفرد.
* التصدى لمشكلات الظلم الاقتصادى والفقر والتهميش الاجتماعى المتزايد، وتفسير هذا اللغز الذى مازال يحير الجميع - على حد تعبير أمارتا سين الاقتصادى الهندى الحائز على جائزة نوبل - ونقصد به لماذا يتساقط الناس جوعى برغم توفر موارد الغذاء؟!!.
* استيعاب أثر المتغير المعلوماتى على الأسس التى قام عليها التنظير الاقتصادى الراهن، وعلى رأسها مفهوما القيمة والملكية. فالقيمة لم تعد مقصورة على ثنائية «قيمة المنفعة وقيمة التبادل»، بعد أن قام بتوسيعها بودليار لتصبح رباعية؛ وذلك بإضافة القيمة الرمزية (قيمة التهادى مثلا)، وقيمة الرمز (أو الإشارة) حيث أصبحت المعلومة ذات قيمة يمكن قياسها وحساب عائدها المادى، وقد توازى مع مفهوم القيمة هذا التوسع فى مفهوم الملكية، ليشمل الملكية الفكرية، وما يرتبط بها من رأس المال الذهنى، واقتصاد المعرفة، وما شابه، يرتبط بما أسلفناه ضرورة مراعاة التنظير الاقتصادى المنشود للطبيعة الخاصة التى ينفرد بها مورد المعلومات من حيث اختلافه عن جميع الموارد الأخرى فى كونه المورد الوحيد الذى لا ينقص، بل يزيد مع زيادة استهلاكه.
* تخليص الفكر الاقتصادى من وضعية العلوم الطبيعية، وما أدت إليه من استغراقه فى المؤشرات الكمية والمعادلات الرياضية والسلاسل الزمنية، فالأولى بالاقتصاد أن يتوجه بمناهجه صوب الإنسانيات لا الطبيعيات، بوصفه علما إنسانيا فى المقام الأول. إن المنطق الأخلاقى يفرض علينا ألا تتحول احتياجات الإنسان الأساسية إلى سلعة، وقد أصبحت المعلومات - بالفعل - ضمن هذه الاحتياجات الأساسية، بعد أن أضحت موردا لا غنى عنه لإنتاج غذاء الإنسان، وتوفير مسكنه وملبسه وتعليمه ورعاية صحته والترفيه عنه.

هوامش:

(١) يقوم الميكروبيولوجى الحديث على لغة الجينات ذات الكود الوراثى الرباعى المكون من زوج من ثنائيات الرموز، وهو سر العلاقة الوثيقة بينه وبين تكنولوجيا المعلومات القائمة على الكود الثنائى binary code.

(٢) البنتيوم Pentium طراز شريحة المعالجة الرئيسية central processor chip الشائع استخدامها فى الكمبيوترات الشخصية.

لغة الجنرالات القاتلة

مريد البرغوثي

سيكرر الاحتلال إعادة تعريف الفلسطيني مرة بعد مرة وبلا هوادة: سيسمونه المخرب. المسلح. المطلوب. القاتل. الإرهابي. الفائض عن الحاجة. السرطان. الصرصار. الأفعى. الفيروس. إلخ. ولا نهاية للقائمة! ولا يتحقق ذلك بدون الوسائل الملائمة: اغتيال اللغة، وقتل المعنى، وفرض التعميمات، واحتقار الدقة

أحمد اللباد

«الفلسطينيون كالسرطان. هناك اكثر من طريقة لعلاج الظواهر السرطانية. في هذه المرحلة انا أمارس معهم العلاج الكيماوي»
موشيه يعالون
رئيس الأركان الإسرائيلي

«ذات يوم علينا أن نقلّص عدد الفلسطينيين الذين يعيشون في المناطق»
إيتان بن إلياهو
قائد سلاح الجو الإسرائيلي

«مقابل كل ضحية تسقط منا يجب أن يسقط ١٠٠٠ فلسطيني»
ميكائيل كلاينر
رئيس حزب حيروت الإسرائيلي

«انا اومن بالتصفيات الجسدية»
الجنرال مئير داجان
رئيس جهاز الموساد الإسرائيلي

ماذا بوسع شاعر أن يفعلَ إزاء لُغَة كهذه؟ لغة تُحلّقُ عالياً مع قاذفات القنابل، وتغوصُ عميقاً إلى حضيض الجريمة؟ وبما أنني الفلسطيني المقصود بهذا الخطاب، وبما أنه تصادف أنني الشاعر الذي على هذا الحال، فإنه يسهلُ تَصَوُّرُ كم هو شائكٌ وصعب أن أكون الشاعرَ الذي أصبو إليه. ذلك أن من يقاتل الوحش، كما قال نيتشه، يجب أن يحرص على أن لا يصبح بدَوْره وَحْشاً: «عندما تُحَدِّقُ في الهوَّة، فإن الهوَّةَ تُحَدِّقُ فيك».

أتوق إلى أن أهمس قصيدتي في أسماع الكون نايًا خفيفاً، بينما تاريخي الغليظ وجغرافيتي الفظة يقرعان الطبول حول كتفيَّ. وهكذا، محاطاً بأهوالِ الموت اليومي، أحلم بكتابة قصيدة عن «الحياة»! ومرجوماً باللغة العنصرية لجنرالات إسرائيل، المعززة بجوقة الحضيض التي يمثلها بناة الإمبراطورية الجدد من أمثال بوش وتشيني ورامسفيلد ورايس وولفوفيتس وبيرل، أتوقُ لكتابة قصيدة عن «الحُب»!

التجلِّي الأوحدُ «لما بعد الحداثة» في فلسطين هو جيش الاحتلال الإسرائيلي! وأرقى فنون «التجديد» في فلسطين هي ابتكارات السلاح الإسرائيلي! لقد أدى الاحتلال إلى تَصلُّب نسيجِ لغتنا، وجعل قصيدتنا مزدحمةً أكثر من شوارعنا. ورغم ذلك يدرك معظمنا أن واجبه يتمثل في تجنب السقوط في الإيقاع الحربي والصور التبسيطية والشعر الكاكي. إنها مهمة لا سهولةَ فيها، لكننا نلاحقها بمحاولات مضنية، ونحيطها بعناية تجلبُ الألمَ. وفي أحيان كثيرة ننجح! وهكذا، مبعثرين في المنابذ والمنافي، مُعَرَّضينَ للقتل والسجن ومنع التجول والعقوبات الجماعية والإذلال وإعادة - إعادة - إعادة الاحتلال، فإننا، نحن الشعراء الفلسطينيين، ومعنا الشعراء العرب أيضاً، لا نقاوم هذه الأخطار المادية والوجودية وحدها، بل نقاوم أيضاً، أخطار الهشاشة الجمالية التي تهدد شعرنا. نعم. نحن الذين نعيش تحت ضغط الألم ونموت تحت ضغط الأمل (فالأمل يضغط كما الألم)، نحن المحاصَرين بين كابوس واقعٍ مُلَوَّثٍ وملَوِّث، وحلمٍ نظيف، إذا أردنا أنْ نكتبَ شعراً حقيقياً، فإن علينا أن نناضل «لتحرير» قصيدتنا من «عبء الحرية»!

انا أكبر من دولة إسرائيل بأربع سنوات.

ولدت عام ١٩٤٤ في دير غسانة قرب رام الله على التلال الشرقية من فلسطين. شاهدت في طفولتي المبكرة عائلات وأفراداً تختلف لُكناتهم إلى حدٍّ ما عنْ لُكْنة آل البرغوثي الذين يشكلون كل سكان القرية وعدد آخر من القرى المجاورة. كان واضحاً أنهم أتوا من أماكن بعيدة. كانوا يطلبون الطعام أو المأوى أو يتدبرون شكلا من أشكال الإقامة. في تلك الأيام سمعت للمرة الأولى كلمة «لاجئين». قيل لي إنهم طردوا من بيوتهم في مئات القرى والمدن الساحلية التي دمرتها الفرق الصهيونية المسلحة التي أعلنت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨.

لاجئون؟ كنت أسأل والدي «لماذا نسميهم لاجئين بينما هم فلسطينيون مثلنا؟» إجابات بلا نهاية على أسئلة بلا نهاية سَبَّبَها ظهورُهم غيرُ المفهوم في قريتنا. ولم أعرف معنى كلمة لاجئ إلا عندما أصبحت واحداً عند سقوط دير غسانة وكل الجزء الشرقي من فلسطين تحت الاحتلال عام ١٩٦٧، كانت نشرات الأخبار تتحدث عن «الضفة الغربية». لا يوجد ما يوضح «تلويث اللغة» أكثر مما يوضحه مصطلح «الضفة الغربية» الذي عشنا معه سنوات دون تأمل مغزاه الحقيقي. ضفة ماذا؟ وغربية بالنسبة لأي شرق؟ الإشارة هنا إلى نهر الأردن. نحن ضفة النهر لا ضفة فلسطين. ولو كانت الإشارة إلى فلسطين لتحدثوا عن الجزء الشرقي منها. الضفة الغربية للنهر موضع جغرافي وليست بلداً أو وطناً. معركة اللغة تصبح معركة الأرض. تدمير الأولى يساوي تدمير الثانية. عندما تختفي فلسطين كاسم تختفي كوطن. لا بد من قتل اسم فلسطين وطمسه. القادة الإسرائيليون، ممارسين إيمانهم بأن فلسطين التاريخية كلها لهم، سيقومون بتجسيد الخرافة ويعطون لبلدي اسما توراتياً هو يهودا والسامرة وسيمنحون مدننا

إذا كانت اللغة العادية المتداولة عبئاً على الشعر فإن لغة السياسة والسياسيين والجنرالات هي التلوّث بعينه. هذا ما كان عليه الوضع باستمرار، لكن العالم يشهد هذه الأيام «لغة تقتل». لغة غبية تلد قنابل ذكية. لغة متوحشة ترسل الشباب والصبايا إلى مراعي الفتك. فهل يؤدّي اغتيالُ الكلام إلى اغتيال البشر؟

وقرانا أسماء عبرية. لكن، سمّها ما شئت، تظل الحقيقة أن هذه الأرض «محتلة». لكنهم لن يسمحوا لهذه الحقيقة أن تُحرِجَهم، والحل بسيط جداً: هذه الأراضي سيسميها حكام إسرائيل «المناطق». نقطة! إنه حل في منتهى البراعة! أنا فلسطيني لكن بلدي اسمه «المناطق»! ما الذي يحدث هنا؟ بكلمة واحدة يقوم الغزاة بإعادة تعريف شعب بأكمله ويحذفون التاريخ.

وسيكرر الاحتلال إعادة تعريف الفلسطيني مرة بعد مرة وبلا هوادة: سيسمونه المخرب. المسلّح. المطلوب. القاتل. الإرهابي. الفائض عن الحاجة. السرطان. الصرصار. الأفعى. الفيروس. إلخ. ولا نهاية للقائمة! ولا يتحقق ذلك بدون الوسائل الملائمة: اغتيال اللغة، وقتل المعنى، وفرض التعميمات، واحتقار الدقة، وتجسيد الخرافة بحيث تصبح حقيقة سياسية على الأرض، وكسوة الاستراتيجيات العسكرية والتكتيكات الحربية بكساء المفردات الرسولية والأخلاقية. حينذاك يسهل كل شيء، فالوصفة جاهزة: كُن الطرفَ الذي يضعُ التعريف. عَرِّفْ! صنِّفْ! بَسِّطْ!، اختزلْ! شَوِّه المعلومات! أخفِ المعلومات! علِّق الوصمة! ثم: أرسل الدبابات والقاذفات. من سيلومك بعد كل ما فعلت؟ ألست في حالة دفاعٍ عن النفس؟

إذا كانت اللغة العادية المتداولة عبئاً على الشعر فإن لغة السياسة والسياسيين والجنرالات هي التلوّث بعينه. هذا ما كان عليه الوضع باستمرار، لكن العالم يشهد هذه الأيام «لغة تَقْتُل». لغة غبية تلد قنابل ذكية. لغة متوحشة ترسل الشباب والصبايا إلى مراعي الفتك. فهل يؤدّي اغتيالُ الكلام إلى اغتيال البشر؟

نعرف أن التّسطيحَ أهمُّ أسباب خراب الشعر والنثر. وعندما يكون السمةَ الغالبةَ على خطاب صُنّاع السياسة ومحترفيها، فهو يؤدي حتماً إلى تفريخ أشكال التعصب والسلفية يميناً ويساراً. وإذا أضيف له الشعور المريض بالرسولية والتفوق معاً، كما هو الحال الراهن في لغة الولايات المتحدة وإسرائيل، فإن التسطيح، كما علّمنا التاريخ، يؤدّي إلى الفاشيّة. وعليه، فإن الخطاب القائم على «هم/نحن» أو «إما معنا أو مع الشر» ليس رطانة غبيّة هوجاء فقط، بل هو عمل من أعمال القتل.

كان الهجوم الإرهابي على نيويورك عملاً مُداناً من قبل العالم كله. وكفلسطينيّ من ضحايا الإرهاب الإسرائيلي، وكغيري من الشعراء الذين لا يتصالحون مع القبح، فإنني تماثلت على الفور مع الضحايا داخل البرجين وتعاطفت مع كل روح أزهقت آنذاك. الآن وبعد مرور سنة وبضعة أشهر أتساءل لماذا سُجِّلَ ذلك اليوم في التاريخ على أنه ١١ / ٩ فقط، دون الإشارة إلى عام ٢٠٠١؟ يقولون لك ١١/ ٩ ولا يشيرون إلى السنة أبداً! المؤكد أن علماء السياسة يستطيعون الإجابة عن هذا التساؤل بدرجة من الدقة لا يمتلكها أمثالي من غير المختصين، لكنّ الواضح أن هذا التبسيط الشيطاني سيتيح لجورج بوش ومستشاريه ذوي الأنياب في البيت الأبيض أن يصوروا ذلك اليوم بصفته يوماً خارج التاريخ وخارج السياسة، وذلك من أجل تدمير فكرة استمرارية التاريخ وترابطيته. وهكذا يمهدون الطريق لنظرية خبيثة وخطيرة تفضّل أن ترى ١١/ ٩ بصفته بداية القانون، بداية الحق، بداية الباطل، بداية الأعراف، بداية الصداقات، بداية العداوات، بداية المصالح، و.. «بداية التاريخ»!

سيتيح هذا النوع من التسطيح فكرةً جهنميةً توحي بأن التعامل مع ذلك اليوم يجب أن يُختزَل إلى معادلة الشر المطلق ضد الخير المطلق. لا أكثر ولا أقل. هكذا سيتمكن البيت الأبيض من منع أي تحليل سياسي أو تاريخي وتحريم أي محاولة للربط بين ذلك اليوم وأية قضية أخرى على سطح هذا الكوكب. وهكذا يرغم جورج بوش دول العالم على تقبل أي خيار تختاره الولايات المتحدة، والرضى عن أية ضربة توجهها إلى أي طرف، في أية لحظة، في أي مكان. هكذا ينهي جورج بوش «مفهوم الحياد» في الحروب، فينقلب على تحالفاته التقليدية دون أدنى اعتراف بالجميل للأتباع والأعوان التاريخيين، ويتمكن من تشكيل عجينة القانون الدولي والأمم المتحدة والنظام الدولي العالمي برمته، كما تشتهي يداه. عن طريق «اغتيال اللغة» وتلويث الكلام يهدف هو وإدارته إلى تحطيم نُظُم الاعتقاد المألوفة لدى البشر. نعم. إن أبشع ما يخشى أن تحققه هذه الإدارة بقيادة جورج بوش هو إعادة الكون إلى الفوضى وقديماً قال الشاعر العربي:

وإن النّارَ بالعودَيْن تُذْكى
وإنّ الحَرْبَ أوّلُها الكَلامُ

والآن، هل يحق للشعب الأمريكي وشعوب الأمم الأخرى أن يفكروا وأن يحللوا وأن يفحصوا هذا «الكلام» الملوث؟ نعم، نظرياً نعم. لكن إدارة جورج بوش لا تحب التحليل «الزائد» ولا تسمح به. إنها تريد أن تنظِّم النتائج الناجمة عن التفكير، وأن تسيطر على مستقبل الأفكار!

وماذا عن الكتابة والكتّاب في عصر كهذا؟ ماذا بوسعي كشاعر فلسطيني أن أفعل بشعري وبلغتي، هنا والآن، في هذا الجزء من العالم حيث الموت «لا يقع لأسباب طبيعية كالشيخوخة والأمراض وحوادث الطرق. الموت هنا ينتسب، يقيم، يتجوّل في الأرض، في المنفى، يمارس حياته العادية بيننا، يحدِّق في وجوهنا جميعاً، يجعل البلد يطالب عكاز الشيخ وطرحةَ العجوز ورضّاعةَ الطفل بالتّذكُّر اليوميّ، بالنسيان اليومي، وبما هو أقسى من ذلك كله: بالبطولة... اليوميّة!

إنها حافة الحياة أو هي الحياة على الحافة. فلسطين حاضرة. وهي أيضاً ملغاة. هي النكبة. هي المقاومة. هي متاحة. هي ممنوعة. هي خائفة. هي مخيفة. هي هوية أهلها. هي فقدانهم الكامل للهوية. هي ذهابنا، مضطرين إلى الأمل. هي ذهابنا مضطرين، إلى اليأس. هي مشكلة إنساننا من الرضعة الأولى إلى الشهقة الأخيرة. إنها الطوارئ التي تقترض صفة الديمومة» حيث الاحتلال «يتدخل في الحياة كلها وفي الموت كله. يتدخل في السهر والشوق والغضب والشهوة والمشي في الطرقات. يتدخل في الذهاب إلى الأماكن ويتدخل في العودة منها، سواء كانت سوق الخضار المجاور أو مستشفى الطوارئ أو شاطئ البحر أو غرفة النوم أو عاصمة نائية»!

في مكان آخر تحدثتُ عن «الشعر في مجتمع الكارثة» حيث تختل جميع الأولويات بما في ذلك الأولويات الثقافية بمعناها الأشمل، وبمعناها الأدبي على الأخص، والشعر على وجه التحديد. قلت إنه ينبغي أن يظل هناك، حتى في بؤرة العاصفة، نفَرٌ من المبدعين الراغبين في اكتشاف قدرة الفن الساحرة على الاحتفاظ بجدارته وصفاته، وعدم السماح بتدميره. وفي واحد من مقالاته المبكرة كتب الشاعر الأمريكي و.س. مارفن:

عندما يسود الظلم (وأين لا يحدث ذلك؟) لا خيار أمام الشاعر سوى أن يسمي الخطا باسمه وبأدق صورة ممكنة وأن يحاول الإشارة إلى مطالب العدالة، كما يراها الضحايا الذين يشاطرهم حياتهم.

وأنا أتفق معه هنا، كما أنني أشاركه مخاوفه من الخطر الذي يواجه الشاعر في هذه الحالة، من حيث المجازفة بفرديته التي لا تُعوَّض، وتشويه موهبته ذاتها إذ يتحول إلى «مكبّر صوت». لقد أخذت منا إسرائيل أرض القصيدة وتركت لنا قصيدة الأرض. لكنّ أفق قصيدتنا يحاول أن يكون أكثر اتساعاً من هذه الثنائية المخنوقة، ليحيط بالكونيّ والإنسانيّ من جهة، وبالشخصي والحميم من جهة أخرى. ويعي أفضل الشعراء الفلسطينيين والعرب الحقيقة التالية: التبسيط أو التجريد يفيد المتعصب لكنه بالنسبة للشاعر، انتحار.

إن معاناة أمة من الأمم يجب ألا تكون ذريعة لتبرير الركاكة والتسطيح في أي شكل من أشكال التعبير الفني. فليس مقبولاً، لأننا نعيش على الحافة المأساوية للتاريخ، أن نختزلَ اللوحةَ إلى المُلصَق، والأغنيةَ إلى نشيد، والمسرحيةَ إلى موعظة، والروايةَ إلى أيدلوجيا عارية، والشعرَ إلى شِعار.



وقد اختلفت دائماً مع المفهوم المنتشر حول ما اصطلح النقاد الكسالى على تسميته الشعر الوطني، رغم أن عالمنا يشهد أوقاتاً ضاغطة قليلة الرحمة أصبحت الحرب فيها هي الخيار «الأول» في إدارة شئون الكون؛ وانتشرت الحروب الصغيرة كالفطر في أكثر من مكان على امتداد السنوات الأخيرة، وصار مصطلحُ «عملية السلام» أبلغ علامة من علامات التلوث اللغوي بل أصبح بذاءةً لغوية تشير إلى إطالة أَمَدِ الصراعات الدّامية عن قصدٍ وتصميم، وبذل كل جهد ممكن من أجلِ تغييب العدالة. ولأن القوة تُملي ولا يُملى عليها، فإن العدالةَ التي تروقُ للطرف الأقوى هي الظلمُ الشامل.

تساءلتُ دائماً: «نحن اخترعنا



لغة الجنرالات القاتلة

النظارات والعدسات اللاصقة ولكن، هل نرى بوضوح أفضل من الأعمى تيريسياس»؟ وحاولت الإجابة:

«هذا عالم انكمشت فيه الأسئلة الميتافيزيقية والفلسفية الكبرى إلى الزوايا بينما تقدمت فيه العضلات وغطرسة القوة إلى المركز. «الموت» يتم بثه بثًا «حيًا» ومباشراً على الشاشات. اللغة النظيفة، اللغة التي تحاول أن تعني ما تقول، هي نوع من الرد الأخلاقي على اللغة الملوثة. فاللغة عنصر مشترك بين عالم السوق وعالم الجَمال، والشعر يحاول أن يعيد لكل مفردة خصوصيتها الملموسة بالابتذال الجماعي. لاحظ شغف الطاغية باللغة الرنانة ولاحظ الشاعر الحقيقي إذ يختار لغة التقشف الزخرفي والدقة الجراحية في مفردات عمله. لم يعد الشاعرَ هو الشعر».

إن الشعر المعاصر أو الجزء المهم منه هو دحض الشاعر لقبح الطاغية وقبح السوق. فالشعر لا يكف عن تجديد لغته. على عكس مؤسسة الأمر الواقع التي تصاب بالهلع من التجديد وتسعى باستمرار لتثبيت لغتها السعيدة كجزء من دفاعها عن تثبيت وجودها ذاته.

«هكذا تصبح لغة الشعر الحقيقي إدانة للغة الصفقة المتواطأ عليها من ناحية، وتعبيرًا عن عجز الشعر عن هزيمة هذه الصفقة من ناحية أخرى. ولعل هذا العجز هو الذي يفسر «حزن الشعر» في العالم كله».

واللغة المسمومة لا تعمل بدون الدور الحاسم الذي يلعبه إعلامٌ مَسمومٌ. إن مليارات الدولارات يتم إنفاقها لإقناعنا بأن حروب الولايات المتحدة حقٌ، وضرورةٌ، واحتياج تمامًا كالأدوات المنزلية! ومن خلال البرامج الزاهية اللون وتشويق الحوارات الكَلْبيّة اللاهبة، والمؤتمرات الصحفية المُعدة النتائج والمحددة المسار، تقوم موهبة التليفزيون العملاقة، والإمبراطوريات الصحفية الشاسعة بحشرنا في ثقافة الحرب الأمريكية ولا تكتفي بمحاولة إقناعنا بوقاحة القوة، بل تريدنا أن نُصَفِّقَ لها! ولكن، ما شأن المثقفين في كل هذا؟ الإجابة هي أن شأنهم كبير: أليس هؤلاء الإعلاميون كُتّابًا؟ أليسوا مبدعين ومفكرين ومنظرين وأكاديميين وفنانين وأصحاب معرفة بالحياة وباللغة، ارتضى كل واحد منهم أن يمارس مهنة «كبير الخَدَم» في احتفال القتل، وأن يكون نادلاً من سقاة الجحيم؟ أما الطراز الآخر فهم المثقفون الذين اختاروا الصمت والتواطؤ المدروس لإخلاء الساحة من البدائل.

من هنا تبرز أهمية دور الأقلية الثقافية الشجاعة في كل مجتمع. وفي هذا الوقت الكاكي بالذات، لا يمكن الاستهانة بمدى حاجتنا لشرف وجودهم. ففي المعركة على اللغة، الصمتُ ليس حلاً، والتواطؤ جريمة. وبينما يحوم شبحُ الحرب في أرجاء الكون، تتصاعد بين الأقوياء والضعفاء لُغةٌ أحب أن أسميها «لُغة أبارتهايد كونيّة». إنها لغة للقطع لا للوصل. لُغةٌ تَصِم وتتهم. تُعَرِّفُ وتُقَسِّم. لغة تضيء القذائف وتُعْتِمُ المعنى. تمزق المحتوى الإنساني للفلسفات، والعقائد، والهويات العديدة على اتساع كوكب الأرض. الحرب فيها جوابٌ لا سؤال والموت أرقام لا أجساد وأرواح. لغة تختزل أممًا وشعوبًا بأكملها إلى خيرٍ لا شرَّ فيه، أو شرٍّ لا خيرَ فيه.



افتتحت الولايات المتحدة القرنَ الواحدَ والعشرين ببداية كارثيّة بالنسبة للأسوياء من بني البشر، محبي الحياة والجمال والسلام والكرامة والعدل والساعين للحقيقة. وها هي ظواهر الإرهاب الفردي وإرهاب الدولة والتعصب لا تزال طاغية على جانبي الصراع. أما لغة فقهاء العولمة الرأسمالية وبناة الإمبراطورية في البيت الأبيض، المولعين بتفصيل الحروب كالأزياء، فقد ازدادت انكشافاً بصفتها لغةً جرائمية تهدد حياتنا وتجعل كوكبنا أقلَّ أمْنًا كل صباح. وبما أننا لا نستطيع أن نغسلَ الكلمات الملوثة بالماء الساخن والصابون «كما نَغسلُ الصَّحْنَ من دهنه»، فإننا، نحن شعراءَ العالم وكُتّابَه، سنظل نشير بقوة إلى خطر «اغتيال اللغة» وتلويثها بأشكال التعميم والتبسيط والتسطيح. وسنواصل العناية بقصائدنا وكتاباتنا، بلغة ملموسة تعرف فضيلة الدِّقّة وجدارة الأعماق، لكي نسترد احترامَ المعنى، ولإنقاذ معنى وجودنا المهدد بالعبث والهباء واللاجدوى. ورغم إدراكنا لحقيقة أننا سنظل دائماً الأقلية، وأنّ نجاحَنا ليس مضموناً على الإطلاق، إلا أننا لا نستطيع أن نتواطأ مع أولئك الذين لا يَرِفُّ لهم جفنٌ وهم يقتلون اللغة ويقتلون طمأنينة البشر، ويكرِّزون بحرب قد تَحصدُ أرواحَ الملايين، ليفرضوا على الإنسانية «عَدالتَهم المُطلَقَة»! ■



كتاب الزاوية

الأمة إذا غلبت

إن الأمة إذا غُلبت وصارت فى ملك غيرها أسرع إليها الفناء، والسبب فى ذلك والله أعلم ما يحصل فى النفوس من التكاسل إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم، فيقصر الأمل ويضعف التناسل والاعتمار إنما هو عن جدة الأمل وما يحدث عنه من النشاط فى القوى الحيوانية. فإذا ذهب الأمل بالتكاسل وذهب ما يدعو إليه من الأحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم فأصبحوا مغلبين لكل متغلب وطعمة لكل آكل وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا.

وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الإنسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذى خلق له والرئيس إذا غلب على رئاسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه ورى كبده وهذا موجود فى أخلاق الأناسي. ولقد يقال مثله فى الحيوانات المفترسة وإنها لا تسافد إذا كانت فى ملكة الآدميين. فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره فى تناقص واضمحلال إلى آن واعتبر ذلك فى أمة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرةً ولما فنيت حاميتهم فى أيام العرب بقى منهم كثير وأكثر من الكثير. يقال أن سعداً أحصى ما وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفًا منهم سبعة وثلاثون ألفًا رب بيت. ولما تحصلوا فى ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم إلا قليلاً ودثروا كأن لم يكونوا. ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم فملكة الإسلام فى العدل ما علمت وإنما هى طبيعة فى الإنسان إذا غلب على أمره وصار آلة لغيره.



كليلة ودمنة

قراءة جديدة .. في كتاب قديم

قليل من الكتب نال من إقبال الناس وعنايتهم ما نال هذا الكتاب. فقد تنافست الأمم الجادة في ادخاره منذ كتب، وحرصت كل أمة أن تنقله إلى لغتها، فليس في لغات العالم ذات الآداب لغة إلا ترجم هذا الكتاب إليها، وبحق عنيت الأمم بهذا الكتاب العجيب الذي يحوي من الحكم والآداب وضروب السياسة وأفانين القصص ما يملأ القارئ عبرة وإعجابًا وسرورًا.

لقد كان «كليلة ودمنة»، ولايزال، مثار اختلاف حول أصله وترجماته، وتساءل كثير من المؤرخين والنقاد عن اللغة التي ظهر بها أولاً واللغة التي جرت ترجمته إليها بعد ذلك، وفي هذا ظهرت خلافات بيّنة لم تكن هناك وسيلة لحسمها بشكل قاطع.

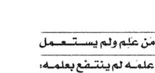
وتنسب الموسوعة العربية العالمية (الرياض ١٩٩٩) قصة الكتاب إلى العالم الفارسي برزويه الذي كان مولعًا بالحكمة والعلم وكان مقربًا من كسرى أنوشروان فقرأ في كتاب الهنود زعمًا يقول إن لديهم نباتًا ينثر على الميت فيتكلم في الحال، فارتحل برزويه إلى الهند بتشجيع من كسرى أنوشروان وواجهته مصاعب كثيرة حتى عرف أن النبات المقصود هو رمز لكتاب كليلة ودمنة الموجود لدى الراجا حاكم الهند. وبعد محاولات جهيدة استطاع برزويه الحصول على النسخة الهندية وكان يرسل إلى كسرى أنوشروان ما يحفظه منها تباعًا وتولى بُزُرجُمهُر كتابة ما يصل من برزويه وصدر الكتاب وبه نبذة عن العالم برزويه.

الكتاب كله يرتكز حول قصص يرويها الفيلسوف بيدبا للملك دبشليم. وقد اطلع ابن المقفع (توفي ٧٥٩ ميلادية) على النسخة الفارسية لكليلة ودمنة وكان لها أثر بالغ في نفسه وتفكيره وثقافته، كان الظرف الاجتماعي والسياسي للفيلسوف الهندي بيدبا مع الملك دبشليم يشابه ما كان فيه ابن المقفع مع الخليفة العباسي المنصور الذي كان بحاجة إلى النصح غير المباشر لما عرف عنه من قوة الباس والبطش بكل من يمالئه أو يخرج عن طاعته، لذا اتسمت ترجمة ابن المقفع للكتاب بخصوصية ظرفها الزماني والمكاني. فأضاف ابن المقفع بعض القصص من نسج تأليفه وعدل في بعضها وأكسب المترجم منها روحًا جديدة أضافها أسلوبه المشوق وعرضه الرائع.

يتناول الكتاب قصصًا تجرى على لسان الحيوان في ظاهرها وتستنطق الحيوان لتصل إلى أهداف أخرى أخلاقية وإصلاحية لشئون المجتمع والسياسة. وقد يتحقق الهدف بعرض الحكمة مباشرة أو من خلال الفكاهة التي تظهر في قيام الحيوان بالدور الإنساني سواء في المسلك أو الحوار. وفي هذا الصدد يقول ابن المقفع: «وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوًا فاختاره الحكماء لحكمته والسفهاء للهوه والمتعلم من الأحداث ناشط في حفظ ما صار إليه من أمر يربط في صدره ولا يدري ما هو».

إن للكتاب عرضًا ظاهريًا وآخر باطنيًا وحسب ابن المقفع أيضًا: «من قرأ هذا الكتاب ولم يفهم ما فيه ولم يعلم غرضه ظاهرًا أو باطنًا لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه».

ويقول «كليلة ودمنة» على حكاية مثل يسأل الملك دبشليم الفيلسوف بيدبا عنه فيسوق له الأخير قصة عن هذا المثل وتأخذ تلك القصص شكلاً خرافيًا على ألسنة الحيوانات تطول وتتسع لتضم في جوانبها قصصًا أخرى متداخلة إلى أن تصل في النهاية إلى حلقة متشابكة من القصص يفضي بعضها إلى بعض، عاقدة عالمًا من الحكم والتجارب ينهل منه القارئ في كل قراءة جديدة للكتاب منبهرًا برشاقة الأسلوب وعمق الفكرة.



مَن علِم ولم يستعمل علمه لم ينتفع بعلمه:

وكان كمَثل الرجل الذي بلغني أنّ سارقًا دخل عليه في منزله، فاستيقظ الرجلُ فقال في نفسه: لأسكُتَنّ حتى أنظر غايةَ ما يصنع، ولأتركَنّه حتى إذا فرَغ مما يأخذ قمتُ إليه فنغّصتُ ذلك عليه وكدّرته. فسكت وهو في فراشه. وجعل السارق يطوف في البيت، ويجمع ما قدَر عليه حتى غلب على صاحب البيت النُّعاس، وحمله النوم فنام ووافق ذلك فراغ السارق. فعمَد إلى جميع ما كان قد جمعه فاحتمله وانطلق به. واستيقظ الرجل بعد ذهاب السارق فلم ير في منزله شيئًا. فجعل يلوم نفسه ويُعاتبُها ويعَضُّ كفّيه أسَفًا. وعرف أنّ فِطنَته وعلمَه لم ينفعاه شيئًا إذ لم يستعملهما.

في حمق تصديق ما لا يصدق:

زعموا أنّ جماعة من اللصوص ذهبوا إلى بيت رجل من الأغنياء ليسرقوا متاعه، فعلَوْا ظهر بيته ليلاً، فانتبه صاحب البيت لوَطئهم، وأحسّ بهم، فعرف أنه لم يعلُ ظهرَ بيته في تلك الساعة إلا مُريب. فأيقظ امرأته وقال لها: رُويدًا! إني لأحسَبُ اللصوص قد علَوْا ظهر بيتنا. وانا مُتناوِمٌ لك، فأيقظيني بصوت رفيع يسمعُه مَن فوقَ البيت من اللصوص، ثم قولي لي: ألا تُخبِرُني عن أموالكَ الكثيرة هذه وكنوزك، من أين جمعتَها؟ فإذا أبيتُ عليك فألحّي في السؤال. ففعلت المرأة ذلك. وسمع اللصوصُ كلامها. فقال الرجل: أيتها المرأة، قد ساقك القدَر إلى رزقٍ واسع، فكُلي واشربي واسكتي ولا تسالي عما لو أخبرتك به لم آمن أن يسمعَه سامع فيكون في ذلك ما أكره وتكرهين. فقالت المرأة: لَعَمْري ما يقْربنا أحدٌ يفهم كلامنا. قال الرجل: فإني مخبرُك أني لم أجمع هذه الأموال والكنوز إلا من السرقة. قالت: وكيف كان ذلك وأنتَ في أعيُن الناس عَدْلٌ مَرْضيّ لم يتّهمك ولم يسترب بك أحد؟ قال: ذلك لعلم أصبتُه في السرقة كان ألطفَ وأرفقَ من أن يتّهمني أحد أو يرتابَ فيّ. قالت: وكيف كان ذلك؟ قال: كنت أذهب في الليلة المُقمِرة ومعي أصحابي حتى أعلوَ ظهر البيت الذي أريد أن أسرقه، فأنتهيَ إلى الكُوّة التي يدخل منها الضوء إلى البيت فأرقيَ بهذه الرُّقية وهي: «شَولَم، شَولَم» سبع مرات، ثم أعتنق الضوء فاهبط فيه إلى البيت، ولا يحسّ بوقوعي أحد. ثم أقومُ في أسفل الضوء فأعيدُ الرُّقية سبعَ مرات فلا يبقى في البيت مالٌ ولا متاع إلاّ ظهر لي، وأمكنني أن أتناوله، وقويتُ على حمله. ثم أعيدُها وأعتنقُ الضوء وأصعدُ إلى أصحابي فأحمِلُهم ما معي، ثم ننسلّ ولا يَشعر بنا أحد.

فلما سمع اللصوص ذلك فرحوا وقالوا: لقد ظفرنا من هذا البيت بأمرٍ هو خيرٌ لنا من المال، وأمِنّا به من السلطان. وأطالوا المُكث حتى ظنّوا أنّ الرجل قد نام. ودنا رئيسهم إلى مَدخل الضوء من الكُوّة فقال: «شَولَم، شَولَم» سبع مرات. ثم اعتنقَ الضوء لينزل إلى البيت فوقع مُنكّسًا فوثب إليه صاحبُ البيت بهراوة فأوجعه ضربًا وقال له: من أنت؟ قال: أنا المصدِّق المخدوع، وهذه ثمرة تصديقي.

النصوص واللوحات مأخوذة من النسخة التي حققها الدكتور عبدالوهاب عزام والصادرة عن دار الشروق (الطبعة الرابعة ١٩٩٤)

فى مواجهة البغى والاستعلاء



لوحات الغلاف: للفنانة سوزانا فريتز .

العدد الواحد والخمسون - أبريل ٢٠٠٣م



في الخوف يودي إلى التهلكة:

يحكى أن رجلاً ألجاه الخوف إلى بئر تدلّى فيها وتعلّق بغصنين نابتين على شُفرها فوقع رجلاه على شيء عَمَدَهما، فنظر فإذا هو بأربعِ أفاعٍ قد أطلعن رءوسهنّ من أجحرتهنّ. ونظر إلى أسفلها فإذا هو بِتنّينٍ فاغرٍ فاه نحوَه. ورفع بصره إلى الغصنين فإذا في أصولهما جُرذان أبيضُ وأسودُ يقرضانهما دائبَينِ لا يفتُران. فبينما هو على ذلك يهتمّ بالحيلة لنفسه إذ نظر فإذا قريب منه كُوارة نحل فيها شيء من عسل، فتطعّم منه واشتغل بحلاوته عن التفكر في أمره، ونسى الحيّاتِ الأربعَ التي رجلاه عليها ولا يدرى متى يَثُرن به، أو إحداهنّ، ولم يَذكُر أن الجُرَذين دائبان في قطع الغصنين، وأنهما إذا قطعاهما وقع في فم التّنين فهلك. فلم يزل لاهياً ساهيًا حتى هلك.

في الدهاء والحيلة

أمام القوة والشدة:

قال دمنة: لا تنظرنّ إلى صِغَرى وضعفي؛ فإنّ الأمور ليستَ بالقوّة والعِظَم. ورُبَّ ضعيف صغير قد بلغ بدهائه وحيلته ورأيه ما يعجز عنه كثير من الأقوياء. أوَ لم يَبلغْك أنّ غُرابًا احتال لأسْوَدِ (نوع من الحيات) حتى قتله. قال كليلة: وكيف كان هذا الحديث؟

قال دمنة:

زعموا أنه كان وَكْر لغراب في شجرة في جبل. وكان بقربه جُحرُ أسوَد. وكان الغراب كلما فرّخ عَمَد الأسوَدُ إلى فراخه فأكلها. فاشتدّ ذلك عليه، وبلَغ منه مَبلغًا شديدًا. فشكا ذلك إلى صديق له من بنات آوى، وقال: أردتُ أن أستامرك في شيء هممتُ به إن أنت وافقتَني عليه. قال: وما هو؟ قال: آتيَ الأسوَدَ وهو نائم، فأنقرُ عينيه لعلّي أفقأهما. فقال ابن آوى: بئست الحيلة هممتَ بها! فالتمس أمرًا تصيبُ منه حاجتَك، ولا يصلُ فيه مكروهٌ إليك. وإياك أن يكون مَثَلُك مَثَلَ العُلجوم الذي أراد قتلَ السرطان فقتَل نفسه. قال الغراب: وكيف كان ذلك؟ قال ابن آوى:

كان عُلجوم مُعَشِّشًا في أجَمة مُخصبة كثيرةِ السمك. فعاش هنالك ما عاش، ثم هرِمَ فلم يستطع الصيد، فأصابه جوع وجَهد، فالتمس الحِيَل وقعد مفكرًا حزينًا، فرآه سَرَطان من بعيد. فلما رأى حاله عرف ما به، فأتاه فقال له: مالى أراك كئيبًا حزينًا؟ قال العُلجوم: وكيف لا أكتئب وأحزن، وإنما كان معاشى من السمك ههنا. وهنّ كثير. وإني رأيت اليوم صيَّادَيْن أتيا مكاننا هذا فقال أحدهما لصاحبه: إنّ ههنا سمكًا كثيرًا أفلا نصيده؟ فقال صاحبُه: إني عرفت أمامَنا مكانًا فيه سمك أكثر منه. فأنا أُحبُّ أن نبدأ به ثم نرجعَ إلى ما ههنا، فنفنيَه. وقد علمتُ أنهما لو فرغا من هناك رجعا إلينا فلم يَدَعا في هذه الأجَمة سمكةً إلاّ صاداها، فإذا كان ذلك فإنّ فيه هلاكي وموتي. فانطلق السرَطان إلى جماعة السمك فأخبرهنّ بذلك. فأقبَلن إلى العُلجوم وقُلن: أتيناك لتُشير علينا؛ فإنّ ذا العقل لا يدع مشاورة عدوّه، إذا كان ذا رأى في الأمر الذى يَشْرَكه فيه. وأنت ذو رأى، ولك في بقائنا صلاح، فأشِرْ علينا برأيك. قال العُلجوم: أما مُكابَرة الصيادَيْن وقتالُهما فليسا عندنا ولا نطيقهما، ولا أعلَمُ حيلة إلاّ أنى قد عرفت مكانًا كثيرَ الماء والخُضَر، فإن شئتُنّ فانتقلن إليه. فقلن له: ومن يَمُنّ علينا بذلكَ؟ فقال: أنا. وجَعَل يَحمِل منهنّ اثنتين في كل يوم، ينطلقُ بهما إلى بعض التّلال فيأكلُهما.

ثم إنّ السرَطانَ قال له: إني قد أشفقتُ مما حذّرتنا؛ فلو ذهبتَ بى. فاحتَمَله حتى دنا من المكان الذى كان يأكلهُنّ فيه. فلما بَصُر بعظامهنّ مجموعةً تلوح، عرف أنه هو صاحِبُهُنّ وأنه يريد به مثلَهنّ. فقال: إذا لقى المرء عَدوَّه في المواطن التي يعلم أنه هالكٌ فيها، فهو حقيقٌ أن يقاتل كَرَمًا وحفاظًا. فأهوى بكَلاليبه على عُنُق العُلجوم فعَصَره، فوقع إلى الأرض مَيتًا. ورجع السرَطانُ إلى السمك فأخبرهنّ.

وإنما ضربتُ لك هذا المَثَلَ لتعلم أنّ بعض الحيَل مُدَمِّر على صاحبه، مُهلك له. ولكن انطلق فالتمس حَلْيًا، فإذا ظفرتَ به فاختطَفه، ثم طِرْ بَه - وأصحابُه ينظرون إليك حيث لا تفوتُهم فإنهم سيطلبونك - حتى تنتهي به إلى جُحر الأسوَد فترميَ به عليه.

وإنما ضربتُ لك هذا المَثَل لتعلم أنّ الاحتيال ربما أجزَى مالا تُجزِي القوّة.

بين الحزم والعجز:

قال دمنة للأسد: وأنت أيها الملك أعلمُ بالأمور، وأبلغ فيها رأيًا. وأنا أرى أن تحتال للأمر قبل تفاقمه، ولا تنتظر وقوعه، فإنك لا تامن أن يفوتك ثم لا تستدركه؛ فإنه كان يقال: الرجالُ ثلاثةٌ: حازمان وعاجز. فأحد الحازمين من إذا نزل به البلاء لم يدهش، ولم يذهب قلبه شعاعًا، ولم يَعْيَ برأيه وحيلته أو مكيدته التي بها يرجو المخرج والنجاة. وأحزَمُ من هذا، المتقدم ذو العدة، الذى يعرف الأمر مبتدأ قبل وقوعه، فيعظمه إعظامه، ويحتال له حيلته كأنه قد لزمه، فيحسم الداء قبل أن يبتلى به، ويدفع الأمر قبل وقوعه. وأما العاجز فهو الذى لا يزال في التردد وتمنى الأماني حتى يهلك نفسه. ومثل ذلك مثل السمكات الثلاث. قال الأسد: وكيف كان مثلهن؟ قال دمنة: زعموا أن غديرًا كان فيه ثلاث سمكات: كيسةٌ، وأكيس منها، وعاجزة. وكان ذلك المكان بنجوة من الأرض، لا يكاد يقربه من الناس أحد. فلما كان ذات يوم، مر صيادان على ذلك الغدير مجتازين، فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا الثلاث السمكات اللواتى رأياهن فيه. فلما رأتهما الحازمة ارتابت بهما، وتخوفت منهما، فلم تعرج أن خرجت من مدخل الماء إلى النهر. وأما الكيسة فتلبثت حتى جاء الصيادان، فلما أبصرتهما قد سدًا مخرجها، وعرفت الذى يريدان بها، قالت: فرَّطتُ، وهذه عاقبة التفريط، فكيف الخلاصُ وقلما تنجح حيلة المرهوق؟ ولكن العالم لا يقنط على كل حال، ولا يدع الأخذ بالرأى. ثم تماوتت وجعلت تطفو على وجه الماء منقلبة، فأخذاها فألقياها على الأرض غير بعيد من النهر، فوثبت فيه فنجت منهما. وأما العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صاداها.

وأنا أرى لك أيها الملك، معاجلة الحزم والحيلة، فتحسم الداء قبل أن تُبتلى به، وتدفع الأمر قبل نزوله.

أوهام التمني:

قال دمنة: ألا إنه لا يحمله على ذلك إلا ذلك؛ فإن اللئيم الكفور لا يزال ناصحًا نافعًا، حتى يرفع إلى المنزلة التي ليس لها بأهل، فإذا فُعل ذلك به، التمس ما فوقها بالغش والخيانة. ولا يخدم السلطان ولا ينصح له إلا عن فَرَق أو حاجة؛ فإذا استغنى وأمن عاد إلى أصله وجوهره؛ كذنب الكلب الأعقف، لا يزال مستقيمًا ما دام مربوطًا، فإذا حل عاد إلى ما كان عليه. واعلم أنه من لم يقبل من نُصحائه ما يثقل عليه مما ينظرون له فيه، لم يحمد مَغَبّة أمره ورأيه؛ كالمريض الذى يترك ما ينعت له الطبيب ويعمد لما تشتهي نفسه. وخيرُ الأعوان أقلُّهم مصانعةً، وأفضلُ الأعمال أحلاها عاقبةً، وأحسن الثناء ما كان على أفواه الأحرار، وأشرَف السلطان ما لم يخالطه بطر، وأيسَرُ الأغنياء من لم يكن للحرص أسيرًا، وأفضل الأصدقاء من لم يُخاصم، وأمثَلُ الأخلاق أعوَنُها على الورع. وقد



قيل لو أن امرأً توسّد النار، وافترش الحيّات، كان أحقَّ بأن يَهنئه النومُ عليها، منه إذا أحسّ من صاحبه الذى يغدو عليه ويروح، بعداوة يُريد بها نفسه. وأعجزُ الملوك آخَذُهم بالهُوينا، وأشبههم بالفيل المغتلم الذى لا يلتفت إلى شىء، فإن حزبه أمر تهاون به، وإن أضاع ما ينفعه، جعل ذلك على قرابينه.

صاحب الشر لا يسلم منه:

قال دمنة: قيل إن نزل بك ضيفٌ ساعةً من النهار، وأنت لا تعرف أخلاقه، فلا تأمَنه على نفسك، واحذَر أن يصلَ إليك منه مثلُ ما وصل إلى القَملة من ضيافة البُرغوث. قال الأسد: وكيفَ كان ذلك؟ قال دمنة:

زعموا أن قملةً لزِمت فِراش رجُل من الأشراف، فكانت تُصيبُ من دمه وهو نائم، وتدبّ دبيبًا رقيقًا فلا يشعُر بها. ثم إنّ بُرغوثًا ضافها فقالت له: بِت هنا الليلة فى دم طيب وفراش وطىء لين، ففعل. فلما آوى الرجُل إلى فراشه، لذعه البُرغوث فأوجعه، فاستيقظ وأمَر بفراشه أن يفتَّش ويُنظَر ما فيه. فوثب البرغوث فنجا، وأخذوا القملة فقتلوها.

وإنما ضربتُ لك هذا المثل أن صاحب الشر لا يُسلم منه.

قد يهلك الظلمة البرىء

لو اجتمع المَكَرةُ الظَّلَمةُ على البرىء الصحيح كانوا خُلَقاء أن يُهلكوه، كما أهلك الذئبُ والغرابُ وابنُ آوى الجَمَلَ، حين اجتمعوا عليه بالمكر والخِلابة. قال دمنة: وكيف كان ذلك؟ قال الثور:

زعموا أنّ أسدًا كان فى أجَمة مجاورة طريقًا من طرق الناس، له أصحاب ثلاثة: ذئبٌ وابنُ آوى وغُراب، وأن أناسًا من التجار مروا فى ذلك الطريق فتخلف عنهم جمل لهم، فدخل الأجمة حتى انتهى إلى الأسد، فقال له الأسد: من أين أقبلتَ؟ فأخبره بشأنه. فقال له: ما تريدُ؟ قال: أريد صحبة الملك. قال: فإن أردت صُحبتى فاصحَبنى فى الأمن والخصب والسعة. فأقام الجمل مع الأسد حتى إذا كان يومٌ توجه الأسد فى طلب الصيد فلقى فيلاً فقاتله قتالاً شديدًا ثم أقبل الأسد تسيل دماؤه مما جرحه الفيل بنابه. فوقع مُثْخَنًا لا يستطيع صيدًا. فلبث الذئبُ وابن آوى والغراب أيامًا لا يُصِبنَ شيئًا

مما كُنَّ يَعِشْنَ به من فضول الأسد، وأصابهم جوع وهزال شديد. فعرف الأسد ذلك منهم فقال: جُهِدتُنّ واحتجتن إلى ما تأكلن. فقلن: ليس هَمُّنا أنفسنا ونحن نرى بالملك ما نرى، ولسنا نجد للملك بعض ما يُصلحه. قال الأسد: ما أشُكُّ في مودّتكم وصحبتكم، ولكن إن استطعتم فانتشروا، فعسى أن تُصيبوا صيدًا فتأتوني به، ولعلي أكسبكم ونفسي خيرًا. فخرج الذئب والغراب وابن آوى من عند الأسد فتنحوا ناحية، وائتمروا بينهم وقالوا: ما لنا ولهذا الجمل الآكل العُشب، الذي ليس شأنه شأننا، ولا رأيه رأينا؟ ألا نُزيِّن للأسد أن يأكله ويطعمنا من لحمه؟ قال ابن آوى: هذا ما لا تستطيعان ذكره للأسد، فإنه قد أمّن الجمل، وجعل له ذمّة. قال الغراب: أقيما مكانكما ودَعاني والأسد.

فانطلق الغراب إلى الأسد. فلما رآه قال له الأسد: هل حصلتم شيئًا؟ قال له الغراب: إنما يجدُ مَن به ابتغاءٌ، ويُبصر مَن به نظر. أما نحن فقد ذهب منّا البصر والنظر لما أصابنا من الجوع؛ ولكن قد نظرنا في أمر واتفق عليه رأينا، فإن وافقتنا عليه فنحن مخصبون. قال الأسد: وما ذلك الأمر؟ قال الغراب: هذا الجمل الآكل العشب، المتمرّغُ بيننا في غير منفعة. فغضب الأسد وقال: ويلك! ما أخطأ مقالتك، وأعجز رأيك، وأبعدك من الوفاء والرحمة. وما كنتَ حقيقًا أن تستقبلني بهذه المقالة. ألم تعلم أني أمّنت الجمل، وجعلت له ذمّة؟ ألم يَبلُغك أنه لم يتصدق المتصدّق بصدقة - وإن عظمت - هي أعظم من أن يُجير نفسًا خائفة، وأن يَحقن دمًا مهدورًا؟ وقد أجَرتُ الجملَ، ولستُ غادرًا به. قال الغراب: إني لأعرف ما قال الملك؛ ولكن النفسَ الواحدة يُفتدى بها أهلُ البيت، وأهلَ البيت تُفتدى بهم القبيلةُ، والقبيلةَ يُفتدى بها المِصرُ، والمِصرُ فدى الملك إذا نزلت به الحاجة. وإني جاعلٌ للملك من ذمّته مَخرجًا، فلا يتكلّفُ الأسدُ أن يتولى غدرًا ولا يأمر به؛ ولكنّا محتالون حيلة فيها وفاءٌ للملك بذمّته وظفرٌ منّا بحاجتنا. فسكت الأسد.

فأتى الغرابُ أصحابَه فقال: إني قد كلّمت الأسد حتى أقرَّ بكذا وكذا. فكيف الحيلةُ للجمل إذا أبى الأسدُ أن يليَ قتله أو يأمرَ به؟ قال صاحباه: برفقك ورأيك نرجو ذلك. قال الغراب: الرأي أن نجتمع والجمل، ونذكرَ حالَ الأسد، وما قد أصابه من الجوع والجَهد، ونقول: لقد كان إلينا مُحسنًا، ولنا مُكرمًا. فإن لم يَرَ منّا اليوم - وقد نزل به ما نزل - اهتمامًا بأمره وحرصًا على صلاحه، أنزلَ ذلك منّا على لُؤْم الأخلاق وكُفر الإحسان. ولكن هلمّوا فتقدموا إلى الأسد نذكر له حسن بلائه عندنا، وما كنا نعيش به في جاهه، وأنه قد احتاج إلى شكرنا ووفائنا، وأنّا لو كنا نقدر له على فائدة نأتيه بها لم نَدّخر ذلك عنه، فإن لم نقدر على ذلك فأنفسُنا له مبذولة. ثم ليَعرض عليه كلُّ واحد منّا نفسَه وليَقل: كُلني أيها الملك، ولا تَمُت جوعًا. فإذا قال ذلك قائل، أجابه الآخرون وردوا عليه مقالته بشيء يكون له فيه عُذر، فيسكت ويسكتون، ونسلمُ كلّنا ونكون قد قضينا ذمام الأسد. ففعلوا وواطاهم الجمل على ذلك.

ثم تقدّموا إلى الأسد، فبدأ الغراب وقال: إنك احتجتَ أيها الملك إلى ما يُقيمك، ونحن أحقُّ أن نَهبَ أنفسنا لك؛ فإنّا بك كنا نعيش، وبك نرجو عَيش مَن بعدنا من أعقابنا، وإن أنت هلكت فليس لأحد منّا بعدك بقاء، ولا لنا في الحياة خيرٌ؛ فأنا أُحبّ أن تأكلني، فما أطيبَ نفسي لك بذلك. فأجابه الذئب والجمل وابن آوى أن اسكت فما أنت؟ وما في أكلك من الشِّبع للملك؟ قال ابن آوى: أنا مشبعُ الملك. قال الذئب والجمل والغراب: أنت مُنتن البطن والريح، خبيثُ اللحم؛ فنخاف إن أكلك الملك، أن يقتله خُبثُ لحمك. قال الذئب: لكنّي لست كذلك، فليأكلني الملك. قال الغراب وابن آوى والجمل: مَن أراد قتل نفسه فليأكل لحم الذئب، فإنه يأخذُه منه الخُناق. وظنّ الجمل أنه، إذا قال مثل ذلك عن نفسه، يلتمسون له مَخرجًا كما صنعوا بأنفسهم، ويسلَمُ ويُرضي الأسد. قال الجمل: لكن أيها الملك، لحمي طيِّب ومريء، وفيه شبع للملك. قال الذئب والغراب وابن آوى: صدقت وتكرّمت وقلت ما نعرف. فوثبوا عليه فمزّقوه.

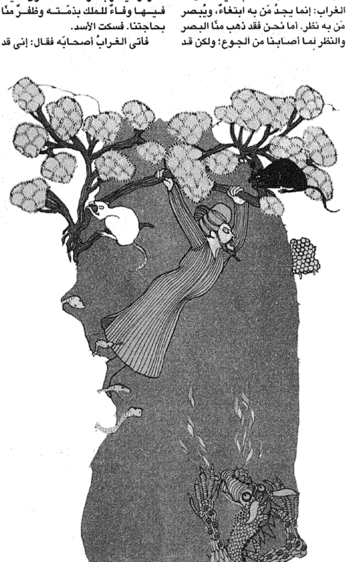
في حمق الاستهانة بالأعداء

مَن استصغر أمر عدوّه وتهاون به، أصابه ما أصاب وكيل البحر من الطيطوى. قال شنزبة: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أن طائرًا من طيور الماء يُدعَى الطيطوى كان هو وزوجته في بعض سواحل البحر. فلما كان إبّان بَيضها أعلمتْه بذلك، وقالت له: التمس مكانًا حريزًا (آمنا) أبيضُ فيه. فقال لها: ليكُنْ ذلك في منزلنا؛ فإنّ العُشب والماءَ كثير، ومنا قريب، وذلك أرفقُ بنا من غيره. فقالت: يا غافلُ، لتُحسنْ نظرك فيما تقول؛ فإننا بمكاننا هذا على غَرَر؛ لأنّ البحر لو قد مَدّ ذهَب بفراخنا. فقال: لا أراه يحمل علينا لما يخاف الوكيلُ عليه من الانتقام منه. فقالت: ما أشدَّ بَغْيك في هذه المقالة! أو ما تستحي وتعرفُ قَدْر نفسك، في وعيدك مَن لا طاقة لك به، وتهدُّدك إياه؟ وقد قيل: إنه ليس من شيء أشدَّ معرفة لنفسه من الإنسان. وذلك حقّ فاسمع كلامي، وأطع أمري؛ فأبى أن يجيبها إلى ما تدعوه إليه.

فلما رأت ذلك قالت: إنّ من لا يسمع القول النافع من أصدقائه، يُصيبه ما أصاب السُّلحفاة. قال: وكيف كان ذلك؟ قالتا: زعموا أن غيثًا كان فيها بطّتان وسُلحفاة، وكان قد ألف بعضهم بعضًا وصادقه. ثم إن تلك العين نقص ماؤها في بعض الأزمان نُقصانًا فاحشًا. فلما رأت البطّتان ذلك قالت: إنه ينبغي لنا تَركُ ما نحن فيه، والتحوّلُ إلى غيره. فودّعتا السُّلحفاة وقالتا: عليك السلام فإنا ذاهبتان. قالت السُّلحفاة: إنما يشتدُّ نُقصان الماء على مثلي، لأني لا أعيش إلا به؛ فاحتالالي واذهبا بي معكما. فقالتا: لا نستطيع أن نفعل ذلك بك، حتى تشترطي لنا أننا إذا حملناك فرآك أحد فذكرك، ألا تُجيبيه. فقالت: نعم؛ ولكن كيف السبيل إلى ما ذكرتما؟ فقالتا: تَعَضّين على وسط عُود، وتأخذُ كلُّ واحدة منا بطرفه. فرضيتْ بذلك وطارا بها، فرآها الناس فقال بعضهم لبعض: انظروا إلى العجب: سلحفاة بين بطّتين تطيران بها في الهواء. فلما سمعت ذلك قالت: رَغمٌ لأنفكم. فلما فتحت فاها بالمنطق، وقعت إلى الأرض فماتت.

فقال الطيطوى للأنثى: قد فهمتُ ما ذكرت، فلا تخافي وكيل البحر، ولا ترهبيه. فباضت مكانها وفرّخت. فلما سمع وكيلُ البحر ذلك أحبّ أن يَعلم كُنْه الذي يقدر عليه الطيطوى من الاجتزاء منه، وما حيلته في ذلك. وأمهله حتى مد البحرُ، وذهب بالفراخ في عُشِّهنّ فغيّبهنّ. فلما فقدتهن أمُهن قالت للطيطوى: قد كنت عارفة في بدء أمرنا أن هذا كائن، وأنها سترجع على وعليك، قلة معرفتك بنفسك. فانظر إلى ما أصابنا من الضُّر في سبب ذلك. فقال: ستَرَين صُنعي، وما يصيرُ إليه عاقبةُ أمري. وانطلقَ إلى أصحابه فشكا ذلك إليهم، وقال: إنكم إخوتي وأهل مودّتي وثقتي، وأنا أطلب ظُلامتي، فأعينوني وظافروني؛ فإنه عسى أن ينزل بكم مثلُ ما نزل بي. فقالوا له: نحن على ما وصفتَ، وأنت أهل لأن تُسعف بما طلبتَ؛ ولكن ما عَسَينا أن نقدر عليه من ضُرِّ البحر ووكيله؟ قال: فاجتمعوا بنا، فلنأت سائر الطير، فلنذكر ذلك لهم.



فأجابوه إلى ذلك، وأعلمهن ما أصابه وحلّ به، وحذّرهنّ أن ينزل بهنّ مثله. فقلن له: الأمرُ على ما ذكرت؛ فما الذى نستطيع من مساءة البحر ووكيله؟ فقال: إن مَلِكنا معشرَ الطير العنقاءُ، فتعالوا نُصرِخْ بها حتى تبدو لنا. ففعلوا ذلك، فظهرت لهن وقالت: ما جمعكنَّ؟ ولمَ دعوتمونى؟ فانهَين إليها ما لَقين من البحر ووكيله، وقلن لها: إنك مَلِكتُنا، والملك الذى يقتعدك أقوى من وكيل البحر، فانطلقى إليه فليُعِنّا عليه. ففعلت ذلك، فأجابها إلى ما سألت، وانطلق ليقاتله. فلما عَلِم بذلك وكيلُ البحر، وعرَف ضعفه عند قوته، رد فراخ الطيطوى عليه.

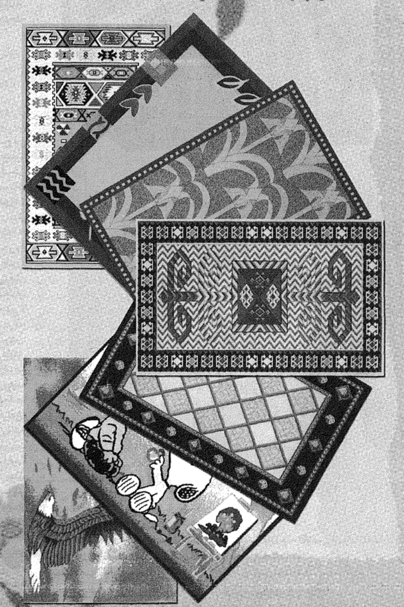
لا تبصّر من لا يفهم.

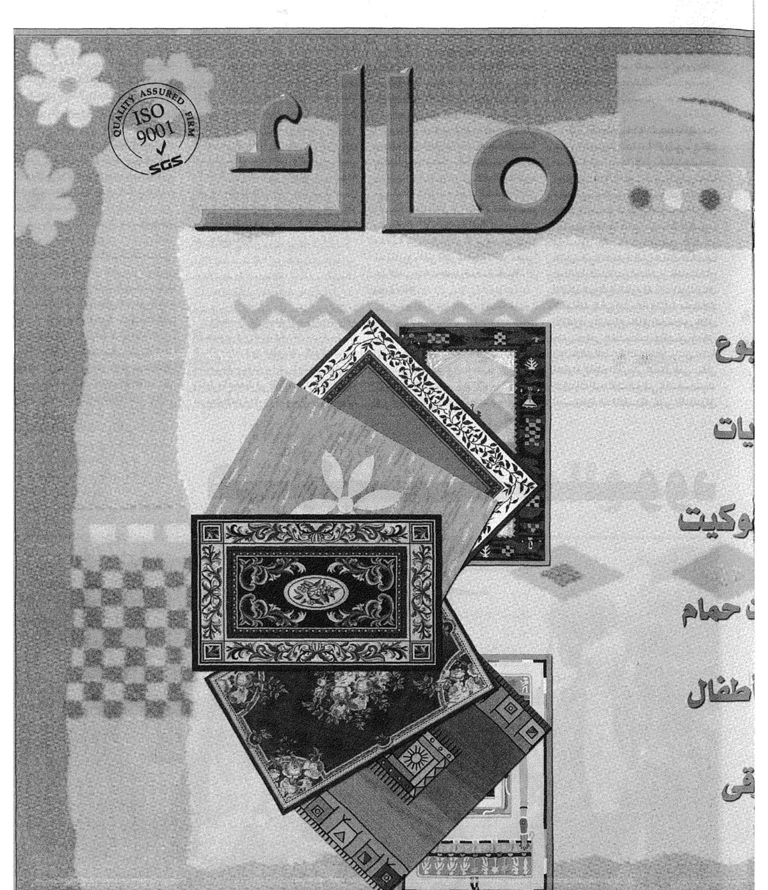
قال كليلة مخاطبًا دمنة: زعموا أن جماعة من القِرَدة كُن فى جبل. فرأين فى ليلة باردة يراعةً، (حشرة تلمع فى الظلام) فحسبنها نارًا، فجَمَعن حطبًا فوضعنه عليها، وجعَلن ينفُخن بأفواههن، ويُروِّحن بأيديهن. وقُرب ذلك الموضع شَجرةٌ عليها طائر، فقال لهن: لا تُتعبن أنفسكُنّ، فإنّ الذى تَرَين ليس بنار كما تَحسبن. فلم يسمَعن منه، ولم يُطعنه. فلما طال ذلك عليه، نزل إليهنّ، فمر به رجل، فقال: أيها الطائر، لا تلتمس تقويم ما لا يعتدل، وتبصير من لا يفهم؛ فإن الحَجَر الذى لا يُقدَر على قطعه لا تُجَرَّب فيه السيوفُ، والعود الذى لا ينحنى لا يعالَجُ حنيُه؛ فإن مَن فعل ذلك ندم. فلم يلتفت إلى قوله، ودنا منهن ليبصّرهنّ، فتناوله بعضهم وضرب به الأرض فقتله.

فهذا مَثَلك فى قلّة الانتفاع بالموعظة: مع أنه قد غلب عليك المكر والعُجب، وهما خَلّتا سُوء. إنه سيصيبك، من عاقبة ما أنت فيه، ما دخل على الخَب (المخادع) شريكِ المغفّل. قال دمنة: وكيف كان ذلك؟ فقال كَليلة: زعموا أن رجلين، أحدهما خَبٌّ والآخرُ مغفّل، اشتركا. فبينما هما يتمشيان إذ وجدا بَدرةً فيها ألفُ دينار فأخذاها. وبدا لهما أن يَرجعا إلى مدينتهما، فلما دَنَوا منها قال المغفل للخَبِّ: خذ نصفها وأعطنى نصفها. فقال الخَبُّ، وكان قد أضمر الذهاب بها كلّها: لا، فإنّ المفاوضة أدوم للمصافاة؛ ولكن يقبضُ كل واحد منّا منها شيئًا ينفقه، وندفنُ بقيتها مكانًا حريزًا. فإذا احتجنا إليها استثرناها. فأجابه إلى ذلك، ودفناها تحت شجرة عظيمة. ثم خالف إليها الخَبُّ، فذهب بها. ولقيه المغفل فقال: اخرُج بنا إلى وديعتنا فلنقبِضها. فانطلقا إلى المكان فاحتفراه فلم يجداها. فجعل الخَبُّ ينتف شَعره ويدُق صدره، ويقول: لا يَثِقَنَّ أحد بأحد؛ رجعت إليها فأخذتها. وجعل المغفل يحلف أنه ما فعل. ثم انطلق به إلى القاضى فقص عليه الأمر. فقال له: هل من يشهدُ؟ قال: نعم! الشجرة تشهد لى بما أقول. فأنكر ذلك عليه القاضى أشد الإنكار، وأمر به فكفل، وقال: وافُونى به غدًا باكرًا. فانصرف إلى أبيه وأعلمه بذلك، وقال: إنى لم أقل الذى ذكرت إلا لأمر قد رَوَّأتُ فيه؛ فإن أنتَ طاوعتنى أحرزنا ما أخذنا، وأضفنا إليه مثله من المغفَّل. فقال: وما ذاك؟ قال: إنى قد كنتُ توخّيت بالدنانير شجرة عظيمة من الدَّوح جوفاءَ فيها مدخل لا يُرى، فدفنته فى أصلها، ثم خالفته إليها فأخذتها وادّعيت على المغفَّل: فأنا أحِبّ أن تذهب الليلة فتدخلها. فإذا جاء القاضى فسألها قلتَ: «المغفَّل أخذ الدنانير». فقال: يا بُنى إنه رُبَّ امرئ قد أوقعه تمحله فى ورطة؛ فإياك أن تكون كالعُلجوم الذى أهلكه تحيّلُه. قال: وكيفَ كان ذلك؟ قال:

زعموا أن علجومًا كان مُجاورًا لأسود. وكان لا يدع له فرخًا إلا أكله. وكان وطنُه قد وافقه وأعجبه، فحزن لذلك واهتم. ففطن له سرطان، فساله عن حاله فأخبره به. فقال: ألا أدُلك على شىء يُريحك منه؟ قال: بلى! فأشار إليه، وقال: انظر إلى ذلك الجحر، إنه جُحر ابن عِرس - وأعلمه عداوته إياه، وجوهره - وقال: اجمع سَمَكًا واجعله له سَطرًا فيما بين مكانيهما؛ فإنه يأكل الأول فالأول حتى ينتهى إليه فيهلكه. ففعل ذلك به فتبعه حتى وجد الأسود، فقتله. ثم جعل ابنُ عرس يخرج بعد ذلك يلتمس العادة. فلم يزل يطوف حتى وقع على عُش العُلجوم، فأكله وفراخه.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنه من لم يثبت، أوقعه ما يحتال به فيما عسى ألا يخلص منه. قال قد فهمت ما ذكرت. ■




QUALITY ASSURED FIRM
ISO 9001
SGS
بوع
يات
وكيت
حمام
أطفال
قى
التصدير المنتشرة فى كل أرجاء مصر

(إن ما سمعتموه عن امريكا التي لا تريد الحرب هو شيء تافه، فالأمريكيون طالما احبوا الحرب. كل أمريكي يحب القتال. عندما كنتم اطفالاً كنتم تبدون إعجابكم بأبطال الملاكمة وسباقات الركض. الأمريكيون يحبون الرابحين ولا يحتملون الخاسرين، فهم دائماً يلعبون ليربحوا. إنني أحتقر احتقاراً عميقاً كل خاسر لا يبالي بالخسارة، ومن هنا فإن الأمريكيين لم يخسروا ولن يخسروا حرباً قط، لأن مجرد التفكير في الخسارة أمر مكروه بالنسبة لهم).

من خطبة للجنرال «جورج س. باتون» في فيلم (باتون).

عندما أعلن جنرالات البنتاجون وصقور البيت الأبيض أنهم سيخوضون حرباً على ما وصفوه بـ«الإرهاب» قالوا إنها ستكون «حرباً طويلة» («روائية» بمعنى ما، لأن «الواقعي» سيشتبك فيها بـ«المتخيل»)، وغالباً ستلبي هذه الحرب ولع الأمريكيين بالسلاسل، على غرار ما يحدث في هوليوود، ومن ثم سيجري «تصويرها» في أكثر من موقع Location. وقد صور الجزء الأول بالفعل في أفغانستان، وكان محكماً من الناحية الدرامية إلى حد كبير، واستخدمت فيه أحدث تقنيات «صناعة الصورة»، وحقق مردوداً أدبياً معقولاً على الرغم من أن ابن لادن وفلولاً من القاعدة لاتزال طليقة (فيما يشبه النهايات المفتوحة). وفي حين استقر الرأي على أن يتم «تصوير» الجزء الثاني في العراق، وأن يكون الإنتاج (أي الحشد السياسي والدبلوماسي والعسكري والتقني) باهظاً، لأن «كعكة الإيراد» ستكون هائلة هذه المرة، فإن الإدارة الأمريكية تفاضل من الآن بين أكثر من موقع لتصوير الجزء الثالث، بينها كوريا الشمالية.



وفضلاً عن عدد الأجزاء ومواقع التصوير فإن «نهاية» كل جزء - شأن أفلام هوليوود الطويلة - لابد أن تكون «سعيدة»، بقدر ما هي زائفة ومراوغة (تأمل ما يحدث في أفغانستان الآن). وقد طرحت الإدارة الأمريكية بالفعل مسودة لنهاية «مبهجة» للجزء المزمع تصويره في العراق: «مشروع» لفرض الديمقراطية ولو بالقوة، ليس في العراق فقط، بل في كافة البلدان العربية التي نكبت بأنظمة حكم مماثلة لنظام الرئيس صدام حسين!.

ومما يؤكد عزم الإدارة الأمريكية على جعلها «حرباً سينمائية».. استخدام كلمة «سيناريو» لوصف «الخطط» العسكرية والسياسية، وهو في الغالب تقليد مستحدث بدأ مع حرب الخليج الأولى وأصبح شائعاً الآن. إن كلمة «خطة» تبدو واقعية، أي أكثر ملاءمة لفعل الحرب على ما فيه من خشونة وتقريرية، أما كلمة «سيناريو» فهي أكثر عصرية، أكثر تعبيراً عن الحرب كـ«صورة» متخيلة، أي معدة سلفاً.

يبدو الأمر في ظاهره وكأنه «توارد خواطر» بين صانعي الأفلام وصانعي القرار في أمريكا، غير أن العلاقة بين الاثنين منذ عشرينيات القرن الماضي، وتحديداً منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى، لم تخل من «تنسيق» تختلط فيه الدوافع الوطنية بالمصالح المادية المباشرة، ويبلغ ذروته عادة في أوقات الحروب والأزمات.

قبل أغسطس ١٩١٤ - عندما اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى - كانت صناعة السينما الأمريكية تتقاسم أسواق العالم مع إنجلترا وفرنسا وإيطاليا والدنمرك والسويد وألمانيا، وكان لانحسار السوق الفرنسية خلال الأشهر القليلة التي سبقت الحرب، وتضاؤل اهتمام الجمهور بالأفلام التاريخية المبهرة التي كانت تنتجها إيطاليا، فضلا عن استقرار نظام إنتاج الأفلام الروائية الطويلة ذات الميزانيات الضخمة في أمريكا، وتزايد معدلات الإنتاج، واتساع نطاق الجمهور الذي يتردد على السينما، وظهور بعض الكتابات الجادة التي تعبر عن بداية احترام الفيلم الأمريكي كشكل فني...كان لكل ذلك أثره البالغ في التمهيد لسيطرة هذا الفيلم على الأسواق

هوليـــــــوود

.. والحــــــــــرب

محـــمـــود الكردوسي

العالمية. ثم جاءت الحرب ـ بما ترتب عليها من تدهور في صناعة الفيلم الأوروبي نتيجة استخدام المواد التي يصنع منها السليلويد في صنع القنابل ـ لتحسم هذه السيطرة بصورة نهائية ودائمة.

وقد لعبت التأثيرات الاجتماعية التي شهدتها سنوات ما قبل الحرب دورا أساسيا في التزام هوليوود بموقف الحياد الرسمي خلال الأشهر الأولى للحرب. كانت هناك حركات قوية تدعو إلى السلام وكبح جماح قوى الاحتكار، وكان «الحس الاجتماعي المتصاعد» سببا في انتخاب ويلسون رئيسا عام ١٩١٢ ونجاح مبادئه التي تدعو إلى «حرية جديدة». ولم يكن برنامج الرئيس ويلسون سوى تعبير عن «تطرف الطبقة الوسطى» التي هالها نمو القوى الاقتصادية وتركيزها، وفساد السياسيين الأخلاقي والإضرابات العمالية وانتشار الفقر والبطالة.. إلخ. وقد حاولت هوليوود أن تعكس المشاعر التقدمية التي سادت تلك الفترة، وظهرت خلال الأشهر التالية لاندلاع الحرب بعض الأفلام التي تندد بعدم إنسانية العنف، فكانت وجهة نظر ديفيد وارك جريفيث المعادية للحرب في فيلمه (التعصب) جزءا من الاتجاه العام لدى مخرجي الأفلام البارعين الذين يعكسون إحساس الجماهير، هذا الإحساس الذي أمد ويلسون بملايين الأصوات عام ١٩١٦، على أساس أنه سيبعد الأمريكيين عن الحرب. وقيل إن فيلم (الحضارة) لتوماس إنس كان تصويرا حيا لشعارات السلام التي رفعها الحزب الديمقراطي، حيث يتجسد المسيح في هيئة مهندس في غواصة يبشر العالم بإنجيل السلام، وذكرت صحافة الديمقراطيين أن هذا الفيلم كان أحد أسباب إعادة انتخاب ويلسون عام ١٩١٦، غير أن السينما كانت في طريقها إلى الظهور كفن جماهيري يخضع مباشرة لضغوط العصر، كما أن بعض الشركات السينمائية كانت مرتبطة بعلاقات مالية مع هيئات اقتصادية لها مصلحة مباشرة في تخلي أمريكا عن حيادها ودخول الحرب إلى جانب الحلفاء، وبذلك سبقت هوليوود الموقف الرسمي، وظهرت منذ منتصف عام ١٩١٥ مجموعة من الأفلام التي ساهمت في تشكيل الرأي العام الأمريكي وإعداده لتقبل قرار دخول الحرب. وأخرج ستيوارت بلاكتون فيلما بعنوان (معركة السلام) يصور الألمان وهم يحاصرون نيويورك من البحر ويدمرون ناطحات السحاب. وظهر الألمان أيضا في فيلم (القيصر إلى الجحيم) وهم يغرقون السفن التجارية ويطلقون الغازات السامة ويضربون مراكز الصليب الأحمر. ومثل هذه الأفلام كانت ساذجة وبدائية وفقيرة، لكنها كانت مؤثرة في ذلك الوقت.



وعندما أصبحت الولايات المتحدة شريكا فاعلا في الحرب.. أنشأت الحكومة وحدة سينمائية لأعمال الدعاية باسم «لجنة العلاقات العامة» كان يترأسها «جورج كريل» الذي كلف بمهمة «بيع الحرب لأمريكا»، وعملت اللجنة على تشجيع الاستوديوهات على إنتاج أفلام «ذات محتوى وطني»، وزودتها بالفنانين والفنيين والأموال وبمقترحات للقصص وشرائط من مشاهد المعارك الحربية.

وإذا كان جريفيث قد تعرض لضغوط من قبل وزارة الحرب البريطانية وأخرج فيلما هزيلا بعنوان (قلوب العالم) اعتبره النقاد والمؤرخون بداية تدهوره.. فإن جماهيرية شارلي شابلن جعلت من المستحيل فرض قيود على عمله من دون إفساد تأثيره كممثل كوميدي. ومن خلال هذا الوضع المتميز قدم شابلن فيلمي (حياة كلب) و(كتفا سلاح) اللذين سخر فيهما من هيستيريا الحرب. ومع ذلك قص الرقيب آخر مشاهد الفيلم الثاني الذي يسخر فيه شابلن من انتصار الحلفاء. وكان حذف هذا المشهد دليلا قويا على ذلك التناقض النامي بين تطور الفيلم الديناميكي والضغوط التي تتطلب أنماطا موحدة ومضامين مأمونة. ويلاحظ المؤرخ السينمائي الفرنسي الأشهر «جورج سادول» أنه حتى بعد أن أصبحت هوليوود قوة دولية، وأخذت في تدويل موضوعات أفلامها.. فإن قلائل من صانعي الأفلام التجارية الناجحة هم الذين جعلوا من «أمريكا» إطارا لأفلامهم، ويقول إن نزع الطابع القومي عن السينما الأمريكية كان ظاهرة عامة، بدليل عدم استطاعة هنري كنج تحقيق فيلم (داود المتسامح) القائم على دراسة الحياة في المقاطعات الأمريكية، وتحويله عوضا عن ذلك نحو الروايات العاطفية الرائجة. وحتى أفلام رعاة البقر التي جعل منها توماس إنس ووليام هارت «فنا» سينمائيا.. أصبحت ـ باستثناء أفلام جون فورد ـ مرادفا للأفلام الرخيصة.

أتت أواخر العشرينيات بحدثين فاصلين: دخول عنصر الصوت إلى صناعة السينما والأزمة الاقتصادية، فانكفأ الأمريكيون على أنفسهم، وأصبحت عناوين الصفحات الأولى للصحف مصدرا أساسيا لقصص العديد من الأفلام الرخيصة، باستثناء بعض الأفلام التي قدمت معالجات واقعية أشبه بالتسجيلية مثل (قيصر الصغير ـ ١٩٣٠) و(عدو الشعب ـ ١٩٣١) و(الوجه ذو الندبة ـ ١٩٣٢)، وأتاحت تقنية الدوبلاج لهوليوود استعادة بعض أسواقها الخارجية التي كانت قد فقدتها بسبب نقص عدد الأفلام من ناحية، وحاجة كل جمهور إلى ممثلين يتكلمون لغته من ناحية أخرى.

وانتصف الثلاثينيات على حدثين آخرين لا يقلان أهمية، أولهما إنشاء «فرقة الأدب»، أول جهاز رقابي غير حكومي، والثاني اقتحام اثنين من عمالقة وول ستريت هما «مورجان» و«روكفلر» مجال صناعة السينما، حيث فرضا على الشركات الكبرى في هوليوود «عملية إعادة تنظيم هائلة»، انتهت بوضع الإنتاج السينمائي تحت الرقابة المباشرة لحفنة من رجال المال. وهكذا أصبحت السينما الأمريكية بين رقابتين: أخلاقية واقتصادية، كلتاهما أشرس من الأخرى. وما إن دقت طبول الحرب الثانية حتى كانت هوليوود قد تهيأت تماما لنفس الدور الذي لعبته قبل وأثناء الحرب الأولى: خرق الموقف المحايد أو تجاوزه، والترويج للحرب بوصفها «سلعة وطنية».

قبل الحرب أنتجت هوليوود أفلاما تصور «بهجة» الحياة العسكرية وتقدمها في صورة جذابة، ووضعت وزارة الحرب كافة إمكانياتها ـ من قاذفات قنابل وبوارج وحتى قواعد عسكرية ـ تحت تصرف أي منتج يصور فيلما يشجع المواطنين على التطوع في القوات المسلحة. وفي عام ١٩٤٠ أخرج ألفريد هتشكوك فيلمه المثير (المراسل الأجنبي) الذي هز فيه مشاعر المتفرجين عندما أبرق بطل الفيلم «جويل ماكري» إشارة لاسلكية من قلب لندن التي مزقتها الغارات الجوية الألمانية: «إن الأنوار تنطفئ في أوروبا.. دثري نفسك بالفولاذ يا أمريكا». وكان الفيلم صيحة تحريض ضد الذين ينادون بالعزلة وتجنب الاشتراك في الحرب. وعندما دخلت أمريكا الحرب تحول الألمان واليابانيون والإيطاليون في أفلام هوليوود إلى أشرار، ومن أصل ١٣١٢ فيلما قدمت خلال سنوات ٤٢ و٤٣ و١٩٤٤ ساهم نحو ٥٠ فيلما فقط (أي حوالي ٤٪) في إيضاح أسباب الحرب للجمهور، سواء داخل أمريكا أو خارجها.

ثم انتهت الحرب، وتسلمت الولايات المتحدة زمام المعسكر الرأسمالي لتشعل حربا أخرى ضد الأيديولوجيا الشيوعية، ودخلت هوليوود مرحلة تخبط بلغت ذروتها أواخر عام ١٩٤٧ بمثول عدد من السينمائيين أمام لجنة مكارثي المعروفة. وبينما كانت اللجنة تباشر عملها نشرت مجلة «سترداي ريفيو» أوائل ١٩٥٠ مناقشة حول دور صناعة السينما في دعم السياسة الخارجية للولايات المتحدة. فقد ظهرت سلسلة مقالات في أربعة أعداد من المجلة تكشف عن الصعوبات التي تواجه القائمين على أمر الدعاية للبرنامج العسكري لحكومة الولايات المتحدة، كما تكشف عن المهام الخاصة الملقاة على عاتق هوليوود في الخطة العالمية.

وقد أبدى «نورمان كازينز» ـ وكان أحد الخبراء البارزين في شئون الدعاية والإعلام آنئذ ـ أسفه لأن الأفلام الأمريكية غالبا ما تصور الولايات المتحدة كما لو كانت أمة من القتلة ورجال العصابات والكسالى والمفلسين ومدمني الخمر وسماسرة القمار والعاهرات والنصابين، وطالب بضرورة أن تحث الأفلام على «توقير العدالة واحترام الحكومة النيابية»، فعارضه «إريك جونستون» الذي كان رئيسا لاتحاد المنتجين قائلا: إن هوليوود تؤدي دورا عظيما بإنتاجها أفلاما «للتسلية.. خالية من الوعظ والإرشاد المذهبي». كان «كازينز» يدعو في الحقيقة إلى ستر برنامج الحرب بمسوح الديمقراطية والحرية (وكان المأزق الذي واجهته أجهزة الدعاية واضحا خلال الأشهر التي سبقت التدخل المسلح في كوريا، ثم عمقته الحرب الكورية بالفعل)، فيما لم يكن «جونستون» يكن احتراما كبيرا لهذه الشعارات، بل لعله لم يكن يفهم معانيها. فهو يعبر عن احتقار كبار رجال الأعمال

للشعوب وأمانيها، ويدلل على وجهة نظره بثناء الجنرال «ماك آرثر» على أفلام هوليوود.. «لأنها أسهمت بفعالية في واجب مهم هو إعادة توجيه الشعب الياباني». لكن الاثنين - كازينز وجونستون - يتفقان مبدئيا على وجوب الحكم على الفيلم بوصفه «أداة للسياسة الخارجية»، وعلى ضرورة أن تخدم الأفلام التي تصدرها هوليوود «احتياجات الدعاية الحكومية».



في هذا السياق ظل تناول السينما الأمريكية لحرب فيتنام موضوعا محرما، بحجة أنه ليس من المناسب استغلال ذنوب وندم أمة، والأهم: كيف يمكن تصور إمكانية تحقيق ربح مهما كان ضئيلاً من عرض أحداث حرب تابعها الشعب الأمريكي ليلة بعد ليلة على شاشة التليفزيون؟. وقبل أن يعلن فرانسيس فورد كوبولا عن مشروعه الملحمي (نهاية العالم الآن).

لم يفلت من هذا الحصار سوى عدد محدود من الأفلام التي تعبر بالطبع عن الموقف الرسمي، مثل (البيريهات الخضراء) الذي أخرجه جون فورد، رائد أفلام «الويسترن» أو أفلام الغرب الأمريكي، عام ١٩٦٨، ودافع فيه عن تواجد البحرية الأمريكية في فيتنام. وقد عرف عن فورد أنه كان واحداً من أشد «صقور» هوليوود عداءً للشيوعية، وعمل أثناء الحرب العالمية الثانية رئيساً لفرع التصوير الميداني التابع لـ «مكتب الخدمات الاستراتيجية»، النواة الأساسية لوكالة المخابرات المركزية، حيث كانت مهمته تصوير العمليات التي تقوم بها مجموعات العمليات الخاصة والتخريب في أوروبا المحتلة، وتصوير الأفلام السرية التي تعرض على القادة ورؤساء الحكومات. وفي ١٩٤٦ أدمج شركة الإنتاج الخاصة به «أرجوسي بيكتشرز» مع مساهمين آخرين كانوا جميعاً من كبار مسئولي مكتب الخدمات الاستراتيجية. وقد كان فورد متعاطفاً تماماً مع فكرة أن تقترح أجهزة ووكالات المخابرات الحكومية موضوعات لتقديمها إلى جمهور هوليوود، وطلب منهم أن يتركوا لديه ٦ نسخ من كتيب بعنوان (الحرية المقاتلة)، كان خلاصة اجتماع سري عقده رؤساء هيئات الأركان المشتركة في ١٦ ديسمبر ١٩٥٥ لبحث كيفية التصدي سينمائياً للشيوعية، كما طلب منهم أن يرسلوا إليه ١٢ نسخة أخرى ليمررها إلى كتاب السيناريو الذين يتعاون معهم، بل إنه طلب حضور ممثل لرؤساء الأركان المشتركة إلى موقع تصوير فيلم (أجنحة النسور) للمساعدة في وضع عناصر «الحرية المقاتلة» في الفيلم.

وثمة فيلم آخر يعد من أكثر الأفلام الحربية نجاحاً فنياً وجماهيرياً هو (باتون) الذي يتناول سيرة الجنرال الأمريكي «جورج س. باتون» منذ ١٩٤٣ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد قدم الفيلم عام ١٩٧٠، أي في ذروة إحساس الأمريكيين بوطأة الهزيمة في فيتنام، لكنه - لهذا السبب على الأرجح - حصد سبع جوائز أوسكار. وهو ليس فيلماً عن الحرب، بل عن الجنرال «باتون» الذي وصفه النقاد بأنه «الرمز العصري لإله الحرب». ومن المفارقات اللافتة أن سيناريو الفيلم كتبه اثنان، أحدهما «إدموند نورث» المتخصص في هذا النوع من الأفلام، والآخر «فرانسيس فورد كوبولا» الذي استهل بعد ذلك سلسلة من الأفلام التي تندد بعبثية ما جرى للأمريكيين في فيتنام مثل (العودة إلى الوطن) و(صائد الغزال) و(ماتوا أبطالاً) وغيرها.

كان كوبولا قد أصبح - بفضل فيلم (الأب الروحي) - نجم شباك، ومن ثم كان الوحيد الذي يستطيع أن يفرض رأيه. وما أن أعلن عن فيلمه الضخم (نهاية العالم الآن) حتى بدأت الشركات المستقلة في إعادة قراءة السيناريوهات التي تدور أحداثها في فيتنام، والتي كان بعضها مدفوناً في أدراج مكاتبها منذ منتصف الستينيات.

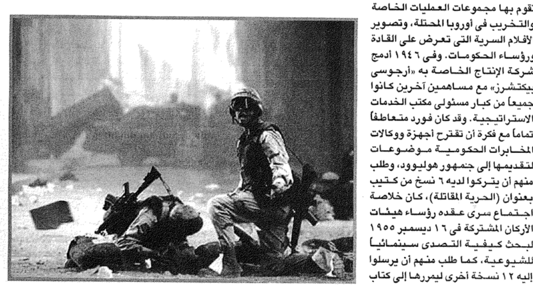
• لقد أنفق كوبولا على (نهاية العالم الآن) كل ما حققه (الأب الروحي) من أموال، ويقول إن فيلمه.. «عن جنون الحرب الفيتنامية، حيث كانت التكنولوجيا الأكثر تقدماً في العالم تواجه فلاحاً بسيطاً، وحيث كان يتم إرسال علب البيرة المثلجة إلى الصفوف الأولى للقوات العسكرية بطائرات الهليوكوبتر، وحيث كانت فتيات مجلة (بلاي بوي) يقدمن عروضاً في مواقع المعارك، وحيث كان المراسلون الصحفيون يصيحون في الجنود لكي لا ينظروا إلى كاميرات التصوير وهم يلتقطون لهم صوراً تذكارية».

وفي نفس الوقت الذي كان كوبولا في صالة المونتاج في سان فرانسيسكو يحاول أن يعطي شكلاً نهائياً لحوالي ٨٠٠ ألف متر خام (٤٤٠ ساعة عرض) صورها من الفيلم.. كانت جين فوندا تسعى منذ ١٩٧٣ لإعلان موقفها المناهض للحرب من خلال فيلم سينمائي.



كانت جين في ذلك الوقت حاملاً في طفلها الثاني، وكانت تتعرض لاضطهاد مكتب التحقيقات الفيدرالية بسبب نشاطها المعادي لأمريكا، كما كانت هوليوود قد قاطعتها بعد رحلتها إلى هانوي، مما دفعها إلى التفكير في اعتزال التمثيل. ولم تكن فوندا مهتمة في ذلك الوقت إلا بفيلم روائي عن فيتنام: «سرعان ما انتهيت إلى ضرورة أن تدور أحداث القصة في الولايات المتحدة، وأن تعيد تحديد مفهومي البطولة والرجولة». وذات يوم التقت فوندا بجندي معوق يدعى «رون كوفيتش» قال لها إنه فقد القدرة على استخدام جسده.. لكنه استعاد وعيه. ونمت بينهما صداقة، وناضلا سوياً من أجل قضية واحدة هي وقف المعارك في فيتنام وانسحاب القوات الأمريكية من هناك. وكان كوفيتش قد استغل عجزه كسلاح وقام بجولة في أمريكا، وحاول حضور مؤتمر الحزب الجمهوري في ميامي عام ١٩٧٢، لكن رجال الكونجرس منعوه: «لقد أحسست أنهم يفضلون إسقاطهم بالمظلات الواقية فوق دانتج عن النظر إليّ!». وبفضل كوفيتش عثرت جين فوندا على موضوع فيلمها. وبدأت كاتبة السيناريو «نانسي دود» في العمل، إلا أن النتيجة لم تعجب فوندا التي كانت قد كونت شركتها الخاصة وبدأت في البحث عن مساعدين مخضرمين. وهكذا انضم إلى المشروع كل من الكاتب «والدو سولت» والمخرج «جون شليزنجر» والمنتج «جيروم هلمان»، وهم نفس طاقم عمل فيلم (راعي بقر منتصف الليل). وخلال عام واحد أنفق سولت أكثر من ٥٠ ألف دولار من ماله الخاص لجمع المعلومات والوثائق والمستندات اللازمة، في حين مثلت فوندا فيلماً كوميدياً بعنوان (المرح مع ديك وجين) بهدف استعادة لياقتها، ومن ثم استعادة مكانتها كواحدة من نجمات السينما العالمية، وبهذه الطريقة تستطيع أن تجبر شركات هوليوود - التي كانت حتى ذلك الوقت تعارض إنتاج أية موضوعات عن فيتنام - على تمويل فيلم (العودة إلى الوطن). وبالفعل وافقت شركة «يونايتد آرتستس» عام ١٩٧٥ على توزيع الفيلم بعد أن قرأ مسئولوها ملخصاً له من ٦٥ صفحة، غير أن شليزنجر - وهو بريطاني الجنسية - فاجأ الجميع بالاعتذار عن عدم إخراج الفيلم بحجة أنه ليس من حقه «التدخل في مشكلة أمريكية صرف»، فاختير «هال أشبي» الذي بدا آنئذ مثل هيبي عجوز رغم أنه كان في الخامسة والأربعين، وأبدى حماساً كبيراً للمشروع: «أثناء الحرب كنت أشعر بالإثم لعدم حديثي عنها في أفلامي، وسيتيح لي هذا الفيلم فرصة التكفير عن ذنوبي».

ويقول «جيرومي هيلمان» منتج الفيلم إن من بين المشاكل التي واجهتهم اعتراض إدارة المحاربين القدماء على التصوير في المستشفى الخاص بها في لونج بيتش، لكن الاعتراض الأهم جاء من قبل البحرية والجيش والحرس الوطني:



«كلهم امتنعوا عن مساعدتنا حتى عثرنا على مستشفى في كاليفورنيا لجراحة العمود الفقري.. تعاونوا وتعاطفوا معنا». ورغم ذلك فاز الفيلم بثلاث جوائز أوسكار، اثنتان لكل من جين فوندا وجون فويت، والثالثة لكاتب السيناريو فالدو سولت.

وبعيداً عن أن هناك أفلاماً أخرى لم ترق إلى مستوى كارثة فيتنام وما ترتب عليها من آثار نفسية واجتماعية ـ مثل (الجنود الكلاب) الذي أخرجه «كارل رايز»، وتناول محاولة مراسل عسكري في فيتنام تهريب ثلاثة كيلو جرامات من الهيروين النقي إلى الولايات المتحدة بمساعدة أحد جنود البحرية الأمريكية! ـ فإن هذه الموجة سرعان ما أجهضتها نعرة ريجانية (نسبة إلى الرئيس رونالد ريجان) برزت في الثمانينيات وأطلقت سلسلة من الأفلام والأبطال الجدد، بهدف إعادة الثقة إلى المواطن الأمريكي: في نفسه أولاً، وفي كونه «أمريكياً» بالأساس.



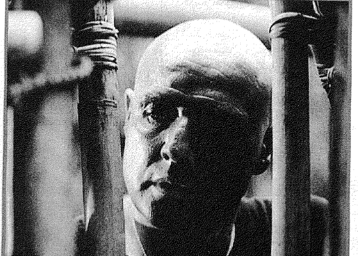
سئل الممثل الإيطالي الأصل سلفستر ستالون عام ١٩٨٥ عن ضرورة العنف الذي يحفل به الجزء الثاني من سلسلة «رامبو» فقال: «إنه فيلم حربي أو بعد فترة الحرب.. أقوم فيه بتحرير مجموعة من الأسرى المعتقلين بشكل غير قانوني منذ نحو ثلاثين عاماً، ويعتقد الكثيرون أنه ما زال يوجد اليوم مثل أولئك الأسرى. هل كنت تود أن ترى بطلاً يصل إلى المعسكر ممسكاً بوردة ليقدمها إلى أعدائه مقابل تسليمه الأسرى؟. مهمة رامبو في غاية الخطورة، وهي تشمل العنف عند الأعداء، ورامبو يدافع عن نفسه فقط.. لكنه لا يتردد إذا اضطر لذلك أن يتحول إلى آلة للقتل. لقد شكلته الحرب، وهو ما أردنا تقديمه.. أقصد تأثير الحرب على الإنسان». أما الجزء الرابع من «روكي» فيراه ستالون فيلماً سياسياً لأنه يقدم «مباراة في الملاكمة بين أيديولوجيتين: الشيوعية التي يمثلها ملاكم سوفيتي عملاق، وروكي الذي يجسد الديمقراطية والرأسمالية الأمريكية».

ومع أنني أشك في أن أياً من الممثلين الذين لعبوا أدوار البطولة في أفلام مثل (رامبو) و(روكي) و(كوماندو) و(غزو الولايات المتحدة) و(مت بصعوبة) وغيرها، كان مدركاً تماماً لجوهر الرسالة السياسية التي يعبر عنها.. فإن أياً منهم لم تكن تنقصه الجاهزية. فهم إما أبطال في لعبة كمال الأجسام مثل أرنولد شوارزينجر، أو لاعبو كاراتيه مثل شاك نوريس، أو ملاكمون هواة مثل سلفستر ستالون. وقد حققت أفلامهم إيرادات هائلة في ذلك الوقت، ولعبت دوراً بالغ الأهمية في إذكاء الطابع الدعائي للسياسة الخارجية الأمريكية، لكن الأهم أنها مهدت الطريق لظهور «الإرهابي» بوصفه عدواً جديداً، ليس لحضارة الولايات المتحدة فحسب.. بل لكل القيم المرتبطة بالنموذج الأمريكي. وهو أحياناً أمريكي لاتيني، وأحياناً أخرى روسي أو جنوب شرق آسيوي، وأحياناً ثالثة عربي مسلم. ومع أن أحداً لا يستطيع أن يجزم بحصة أي من هؤلاء الإرهابيين فيما جرى في الحادي عشر من سبتمبر.. فقد قررت الإدارة الأمريكية على الفور، ولأسباب لم يعلن عنها حتى الآن، أن المتهم لابد أن يكون «عربياً مسلماً»، وبدأت تنسق بالفعل مع القائمين على صناعة السينما في هوليوود لبحث سبل دعمها في حربها على الإرهاب، وتم تكليف لجنة فنية من ٤٠ خبيراً لهذا الغرض، اختير لرئاستها «جاك فالانتي» رئيس جمعية الصور المتحركة الأمريكية التي شكلت اللجنة، وعقدت أول اجتماع لها على شكل مؤتمر هاتفي في ١٦ نوفمبر. وكانت فكرة اللجنة قد ولدت بعد شهرين بالضبط من وقوع الكارثة، أي في الحادي عشر من نوفمبر، وذلك أثناء لقاء تم في بيفرلي هيلز بين كارل روف، كبير مستشاري بوش السياسيين والقيادي في الحزب الجمهوري، ومجموعة من خبراء صناعة السينما في هوليود، عرض خلاله روف سبعة موضوعات تعطيها إدارة بوش أولوية على المديرين التنفيذيين لأخذها في الاعتبار عند إعطاء الضوء الأخضر لإنتاج مشروعات سينمائية وتليفزيونية جديدة. ومن بين هذه الموضوعات ما تؤكده إدارة بوش من أن الحرب لن تكون موجهة ضد الإسلام أو أي دين آخر، لكنها حرب على الإرهاب والشر.



وعلى الرغم من أن اللجنة لم تكن قد تشكلت حتى ذلك الوقت فإن مسئوليها كانوا مصرين على أنها تعمل بصورة مستقلة عن إدارة بوش، موضحين أن تلك الإجراءات «مجهود خاص بصناعة السينما وليست عملاً حكومياً موجهاً». ونفى جاك فالانتي أن يكون هناك تنسيق بين البيت الأبيض وهوليوود بشأن الدعم السينمائي للحرب على الإرهاب، كما نفى البيت الأبيض من جانبه وجود أية خطط لاستخدام السينما والتليفزيون للترويج للرسائل التي توجهها الإدارة الأمريكية. وقد يكون ذلك صحيحاً إزاء كارثة بهذا الحجم، وضعت الجميع في خندق واحد من دون أدنى حاجة إلى خطط أو تنسيق، وحيث الحرب هذه المرة ليست اختياراً. لكن المؤكد أن هوليوود، في كل حروب القرن العشرين التي خاضتها أمريكا أو التي شاركت فيها، كانت تقف صراحة في طليعة المؤسسات الداعية إلى تخلي الولايات المتحدة عن حيادها ودخول الحرب. وحتى في غير أوقات الحرب كان السينمائيون الأمريكيون يخضعون لضغوط عنيفة لكي يغيروا أو يعدلوا حبكات أفلامهم نظير الإفادة من العتاد العسكري المكلف جداً، والتصوير فوق ممتلكات عسكرية. وما أكثر المرات التي تم فيها تعديل الفيلم بحيث تظهر القوات المسلحة الأمريكية بصورة بطولية، ولم يكن أمام شركات الإنتاج سوى أن تبادر إلى الموافقة، لأن ذلك سيوفر عليها الملايين، ولأن رفض التغيير يعني ببساطة رفع الدعم عن الفيلم.

ثمة مذكرة عسكرية داخلية تحمل على فيلم (فورست جامب) الذي لعب بطولته توم هانكس، وتوصي بأن.. «الانطباع المعمم الذي يوحي بأن الجيش في فترة الستينيات كان يعج بالموظفين الحمقى والجنود محدودي الذكاء.. أمر غير مقبول. إن هذا الانطباع غير دقيق، بالإضافة إلى أنه غير مفيد للجيش». وبخصوص المشهد الذي جمع بين هانكس والرئيس الأمريكي تقول مذكرة ساذجة أخرى: «إن قيام جندي في زي رسمي بكشف مؤخرته للرئيس يعد تجاوزاً سينمائياً غير مقبول». وفي فيلم G.i Jane الذي قامت ببطولته ديمي مور وظهرت فيه حليقة الرأس تماماً.. يجد أحد الجنود صعوبة في قضاء حاجته بسبب وجودها في نفس الخندق: «عند التعرض لمسألة تتعلق بوجود امرأة في الخطوط الأمامية للقتال، فإن مشهد التبول في خندق لا يحمل أي فائدة للقوات البحرية الأمريكية».. هذا ما كتبه القائد جاري شروت من قوات البحرية الأمريكية موجهاً كلامه إلى المخرج ريدلي سكوت الذي رد باستبعاد المشهد، ووافق على إجراء تغييرات أخرى، لكن النتيجة النهائية ظلت غير مقبولة. وفي فيلم توم كروز الشهير(توب جن) لم يحدث التعاون إلا بعد تعديل الدور الذي لعبته كيلي مكجيليس، من متطوعة في الجيش إلى امرأة من خارج الخدمة، فالعلاقات العاطفية بين الضباط والمتطوعين في القوات البحرية ممنوعة. وتظهر الوثيقة أن شركات الإنتاج غالباً ما تكون متلهفة للتعاون مع البنتاجون. فقد كتب فيليب نيمي المدير التنفيذي لشركة ديزني: «نحن نؤمن بقوة بأنه وبمساعدة الجيش الأمريكي سيكون (أرماجيدون) أضخم أفلام ١٩٩٨ الذي سيصور ويجسد ريادة وبطولة جيش الولايات المتحدة الأمريكية». أما فيلم The Jackal (ابن آوى) لبروس ويليس وريتشارد جير فقد وافق البنتاجون على دعمه بعد أن منح دوراً أفضل لقوات المارينز، لكن الرائد «نانسي لالونتاس» اعترضت رغم ذلك



على أن دور طيارى الهيليكوبتر.. «ليس فاعلاً فى الأحداث»، وأنهم عملياً ليسوا سوى «سائقى تاكسى»!. وتقول الرسالة التى كتبها مخرج الفيلم مايكل كيتون جونز:«أنا متأكد من أننا نستطيع أن نناقش النقاط التى أثرتموها ونستطيع أن نتوصل إلى تغييرات مناسبة فى السيناريو حسب طلبكم». وفى السيناريو الأصلى لفيلم جيمس بوند (العين الذهبية) يفشى أدميرال فى الأسطول الأمريكى أسرارا للدولة، وبعد الاتفاق على التعاون أصبح الأدميرال الخائن فرنسياً. وفى (يوم الاستقلال) وافق صناع الفيلم على استبدال وزير الدفاع الذى يفشل فى صد هجوم المخلوقات الفضائية برئيس الأركان فى البيت الأبيض، لكن الفيلم لم ينل أى دعم، وقال الكاتب والمنتج دين ديفلين للبنتاجون متحديا:« إذا لم يجعل هذا الفيلم كل فتى فى البلاد يرغب فى أن يقود طائرة مقاتلة سأكل السيناريو». غير أن توصية قسم الدفاع تضمنت ما يلى: « يظهر الجيش ضعيفاً و/ أو أحمق، والنجاح فى إيقاف الغزو كان نتيجة لجهود مدنية ».



لا يخلو الأمر بطبيعة الحال من وجود أفلام معادية للحرب، بعضها مستقل مثل Wag the Dog أو (هز ذيل الكلب) الذى لعب بطولته داستن هوفمان وروبرت دى نيرو وآن هيش وأخرجه بارى ليفنسون، وتكلف ١٥ مليون دولار فقط وصور فى ٢٩ يوماً، وبعضها إنتاج هوليوودى مثل (مولود فى الرابع من يوليو) و(من قتل كينيدى؟) و(نيكسون)، وكلها من إخراج أوليفر ستون.

يروى (هز ذيل الكلب)، الذى سبق اعتراف بيل كلينتون بعلاقته الجنسية مع مونيكا لوينسكى وتوجيه ضربة عسكرية لأفغانستان والسودان، قصة رئيس أمريكى يتهم بالتحرش الجنسى بطالبة كانت تزور مكتبه ولم يكن متبقيا على الانتخابات سوى عشرة أيام. يطلب الرئيس من مساعدته «وينفريد» (آن هيش) الاستعانة بـ«كونراد براين» (روبرت دى نيرو) خبير المواقف الصعبة الذى لم تخلق بعد المشكلة التى لا يستطيع حلها. يجد الخبير حلا سحريا: «نحن فى حاجة إلى حرب»!. تسأله وينفريد: «ضد من؟». يقول براين: «ضد ألبانيا». تسأله من جديد: «ولماذا ألبانيا؟». فيرد: «و لم لا؟».. ثم يطمئنها قائلاً: إنها لن تكون حرباً حقيقية!. ويبدأ بالتمهيد لهذه الحرب بخطوة ذكية جداً، حيث يعلن المتحدث باسم البيت الأبيض عن أنه ليس فى نية أمريكا الآن القيام بأى عمل عسكرى ضد ألبانيا. وتبلع الصحافة الطعم وتبدأ التكهنات عن إمكانية نشوب هذه الحرب. ثم يستعين براين بـ«ستانلى موتس» (داستن هوفمان) المنتج السينمائى الكبير، وتبدأ عملية الخداع الرهيبة والمتقنة إلى حد الكمال. ومن خلال تفاصيل ومفارقات لا تخلو من كوميديا.. يكشف الفيلم عن الواقع المظلم لسيطرة وسائل الإعلام على كل شىء، وكيف يمكن تسخير هذه الوسائل لخداع الأمريكيين، بل والعالم بأسره.

أما أوليفر ستون فقد كان أكثر حسماً ومباشرةً فى إدانته للمؤسسة العسكرية وللإدارة السياسية الأمريكية، إذ يتهمها فى (جيه. إف. كيه.) - إنتاج شركة «وارنر» - بالتواطؤ لاغتيال الرئيس جون فيتزجيرالد كينيدى، ويوثق اتهامه بمشهد حقيقى للرئيس ليندون جونسون - الذى تولى الحكم خلفا للرئيس المغدور - وهو يخطب فى عدد من جنرالات البنتاجون قائلا: «أيها السادة.. إننى لن أترك فيتنام تضيع كما ضاعت الصين. إننى ملتزم بألا أسحب جنودنا من هناك حتى يعلموا أننا جادون فى أمر آسيا». وبعد أن يوقع جونسون مذكرة الأمن القومى رقم ٢٧٣ التى تعكس سياسة كينيدى فى الانسحاب وتقر فى نفس الوقت العمل السرى ضد فيتنام الشمالية.. يعود أوليفر ستون إلى جونسون وهو يستعطف جنرالاته: «انتخبونى.. وسأعطيكم الحرب». وفى فيلم (نيكسون) الذى لعب بطولته أنتونى هوبكنز، تقول فتاة فقدت شقيقها فى حرب فيتنام للرئيس: « أنت لا تستطيع أن توقفها.. أليس كذلك؟. حتى لو أردت فإنك لن تستطيع لأنك لست السبب. إنه النظام، والنظام لن يسمح لك بأن توقفها». ويرد نيكسون: «الأمر أكبر مما تريدين. وحتى أكبر مما أريد أنا». تقول الفتاة: «إذن ما الموضوع؟. ما أهمية أن تكون رئيسا؟. أنت بلا سلطة». ويرد الرئيس: « لا..لا.. لست بلا سلطة، لأننى.. لأننى أفهم النظام. أعتقد أننى أستطيع السيطرة عليه. ربما لا أستطيع السيطرة عليه تماما.. لكننى أروضه بما يكفى لأن أجعله يفعل شيئا طيبا». تقول الفتاة: «يبدو أنك تتحدث عن وحش برى». يصمت نيكسون طويلا ثم يقول: «ربما». ■



وزارة الطيران المدني
الشركة القابضة لمصر للطيران
مصر للطيران للخطوط الجوية
تعلن عن
تخصيص خدمة تليفونية للجمهور
٣٩٠٣٤٤٤
(ثمانية خطوط) من ١٠ص حتى ٥م
لسرعة الرد على استفساراتكم في الحجز و تأكيد الحجز
و معرفة اسعار و مواعيد الرحلات
كما تعلن عن تخصيص ارقام التليفونات
التالية للرد على استفسارات شركات السياحة
ت: ٣٩٢٩٧٨٧ - ٣٩٢٧٤٤٤
٣٩٢٧٤١٧ - ٣٩٢٧٢٣٦
و للأستعلام عن مواعيد الأقلاع
و وصول رحلات مصر للطيران
يمكن الأتصال بأستعلامات المطار ارقام :
ت: ٦٣٥٠٢٦٠ - ٦٣٥٠٢٧٠
EGYPTAIR
www.egyptair.com.eg

خطاب الكراهية يضمن الفوز في إسرائيل

إسحاق لاور



قبل إجراء الانتخابات العامة في أواخر فبراير الماضي، فرضت إسرائيل مجددًا إغلاقًا تامًا على الأراضي المحتلة. وتم ذلك باسم الحفاظ على الأوضاع الطبيعية، والتي أصبحت في حد ذاتها إحدى القيم الوطنية «لن ندع الإرهاب يتحكم في حياتنا» وباسم الديمقراطية «نحن جزء لا يتجزأ من الدول الغربية». واحتجز مئات الآلاف من الفلسطينيين في قراهم وبلداتهم، حتى يتمكن سادتهم - أي نحن، الإسرائيليين - من التمتع بحرية الاختيار.

وسيأتي يوم نفكر فيه في عدد الجنود الصاخبين الذين تطلّبهم الأمر لحماية الهدوء في أي موقع من مواقع الاقتراع. وكم تطلب من عمليات القبض والاستيلاء، ومن الركلات والصفعات، وكم من الإذلال وأعمال حظر التجول، وإغلاق المدارس وسد الشوارع، وإفراغ المستشفيات من مرضاها، وتدمير للأحواش التي يلعب فيها الأطفال. هذه الأعمال التي أتاحت لنا أن نفخر ونزهو بأن «الإرهاب لم تكن له الكلمة العليا»؟ أي قدر من الظلام يجب أن يسود هناك حتى نضيء أسواقنا (ومقاهينا ومسارحنا وسينماتنا ومراقصنا وصالات الزواج)؟ ما مدى شدة الدكتاتورية العسكرية التي ينبغي لديمقراطيتنا أن تفرضها على الفلسطينيين حتى تتاح لنا حرية اتخاذ القرار بشأن مصيرهم، بينما نحن نتفاخر طوال الوقت بأننا الديمقراطية الوحيدة في هذا الجزء من العالم؟

إن هذه الرغبة في إعادة الأوضاع الطبيعية هي الوجه الآخر للامبالاة. هل يمكن أن نعطي أصواتنا لأحزاب لا تطرح غير حلول عسكرية؟ القارئ العادي سيقول لا، ومع ذلك فالأوضاع الطبيعية هنا تعني اللامبالاة، واللامبالاة هي درع لا تخترقه المعلومات. لقد شارك آلاف الإسرائيليين في «الاحتلال»، وبذل آلاف جهودهم لتنفيذ اتفاقات أوسلو، وقاموا بقياس جغرافية نقاط التفتيش. وآلاف الإسرائيليين قد تعرفوا على واحد أو اثنين على الأقل من الفلسطينيين الذين اعتادوا أن يشتغلوا هنا كأيد عاملة رخيصة، والذين ذهبوا الآن في طوايا النسيان في الأراضي المغلقة. ومع ذلك ففي الحملة الانتخابية لم يتجاسر حزب يهودي واحد على الحديث عن العذاب الذي يعانيه الفلسطينيون.

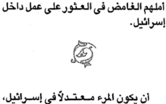
وتم انتخاب المستوطنين ليصبحوا أعضاء في الكنيست الجديد. والسلطة الفلسطينية لم يعد لها وجود، إلا كهدف سهل لجميع أنواع الاتهامات والعقوبات. ويبدو الاحتلال كأنه في مكان بعيد أو تبدو المستوطنات قريبة للغاية، وعندما يذيع الراديو تقريرًا عن «مواطنين إسرائيليين قتلوا بالقرب من كريات عربة» (مستوطنة كبيرة بالقرب من الخليل) فإن الحديث يكون عن الإرهاب داخل وطننا، ولكن عندما يقوم جيش الدفاع الإسرائيلي بتحركاته داخل مدينة فلسطينية فإن الراديو يتحدث عنه كأنه تحرك يجري هناك، في مكان بعيد، وكأنه في موقع ناء عبر البحار.. أو على الأقل كان هذا هو الأسلوب الذي يتحدث به «اليمين» لبعض الوقت - ولكن هكذا أيضًا يتحدث «اليسار الصهيوني» الذي قبل لأكثر من سنتين الآن هذا التوصيف الجديد للحدود المتخيلة.

وجيش الدفاع الإسرائيلي فوق الشك بطبيعة الحال. ولا يقتصر الأمر على أن الجنرالات السابقين يلعبون دورًا مهمًا على كل من جانبي الخريطة السياسية، بل إن الأحزاب اليهودية جميعًا بما فيها ميريتس، حزب مثقفي اليسار، وحزب العمل، يستنكر مواقف الرافضين. إن «شجاعة الرفض» حركة الجنود المقاتلين الذين أعلنوا «الحرب على الحرب» ستدفعهم إلى رفض الاستمرار في أداء الخدمة العسكرية في الأراضي المحتلة، قد أصابتها صدمة عندما اكتشفت أن ميريتس لا تريد أن تتعامل معها. إن إسرائيل في حالة جمود أيديولوجي، وقد استسلم اليسار، وكانت حكومة التحالف السابقة هي التعبير المؤسسي عن هذه الحقيقة. وحتى عندما كانت الأيدي هي أيدي عيسو، أي جيش الدفاع الإسرائيلي، كان الصوت صوت يعقوب، أي صوت ليكود. واليسار الصهيوني - ميريتس، والعمل، والسلام الآن - لا ينبغي أن يظل بعد الآن جزءًا من هذه اللعبة، ولكن للأسف ليس هناك سبيل لإقناعه بالابتعاد عن العسكريين، حتى عندما يؤدي هذا التقارب إلى ارتماء الناخبين مباشرة في أحضان الليكود. وفي نهاية المطاف، لماذا ينبغي للناخبين أن يقبلوا أقوالاً زائفة عندما يستطيعون أن يستمعوا لمن يتحدثون بكلمات صادقة؟

لقد كان حزب العمل عضوًا نشيطًا في حكومة شارون السابقة، ولكن ميريتس أيضًا قبل الحكاية الأساسية التي تقول أن «رئيس الوزراء الأسبق إيهود باراك عرض على الفلسطينيين كل شيء في كامب ديفيد لكنهم أرادوا أن يحصلوا حتى على أكثر من ذلك». وهكذا، أين ذهبت تلك الحفنة من أعضاء اليسار الراديكالي؟ لقد أعطوا أصواتهم لصالح «الجبهة الديمقراطية» (الحزب الشيوعي ومرشحون آخرون) أو لحزب البلد، الحزب العربي الوطني الذي يقوده عزمي بشارة. أما غالبيتهم فقد لجأوا إلى الجامعات، في انتظار أن يقوم مؤرخو المستقبل بالكشف عن أسرار النجاح الوحيد الذي حققه باراك وهو: تمزيق «حركة السلام».

لقد وجه أثناء الحملة العديد من الاتهامات، كما يحدث في كل حملة انتخابية. فاليمين اتهم اليسار بالمسئولية عن «ضحايا أوسلو» أي عن اليهود الذين قتلوا في هجمات الفدائيين والإرهابيين منذ عيد بوريم في فبراير ١٩٩٤ عندما اغتال باروخ جولدشتاين، وهو مستوطن من كريات عربة، المسلمين الأبرياء الذين كانوا يصلون في «كهف الآباء» في الخليل. وقد نسيت الآن واقعة أن هذه كانت هي بداية الأعمال الانتحارية. لماذا نسي الإسرائيليون جريمة جولدشتاين؟ ولماذا يهتمون في كل سنة في عيد بوريم بالانتقام دون أن يفكروا للحظة في المذبحة التي وقعت؟ والأهم من ذلك، لماذا نسي حزب العمل الدور الذي قام به شارون في لبنان؟ لأنهم جلسوا معه في حكومته عشرين شهرًا، كما لو كانت حرب لبنان لم تقع قط. وكيف كان في وسعهم أن يتحدثوا عن صابرا وشاتيلا بالطريقة القديمة وهم لا يرون في صابرا وشاتيلا إلا أدوات للدعاية المناهضة لإسرائيل؟

لقد وجه حزب العمل اللوم لشارون عن العمليات الانتحارية داخل إسرائيل، ولكن ذلك - إلى جانب الفساد - كان كل ما أخذوه عليه. وكان سبب لومهم له أنه كان مترددًا في بناء «سور فاصل» على امتداد الحدود القديمة بين إسرائيل وفلسطين. وكان تردد اليمين في بناء السور راجعًا إلى التردد في وضع حدود هناك، أما اليسار فيؤيد فكرة التحديد، ولكنه يريد أن يدخل كثيرًا من المستوطنات في جانبنا من السور. والواقع أن السور يجري بناؤه الآن ويقوم بابتلاع قضمات أخرى من فلسطين التي يتضاءل حجمها. والأسواق تدمر، والقرى تقسم إلى نصفين، والمزارعون لا يستطيعون الوصول إلى مزارعهم، وعمال التراحيل الفقراء يفقدون أملهم الغامض في العثور على عمل داخل إسرائيل.



أن يكون المرء معتدلاً في إسرائيل، وإلى جانب «اليسار العاقل» (وهو الوصف الذي يطلقه اليسار الصهيوني على نفسه، تمييزًا له عن اليسار الراديكالي الذي أيّد النضال الفلسطيني) يكون معناه أن يؤيد السور الفاصل. ولكن إذا سافر المرء ورأى بعينيه تلك الأجزاء من فلسطين التي فصلها السور بالفعل (مدينة قلقيليه) فإنه يستطيع أن يرى كيف أن السور يفصل المدن والقرى الفلسطينية ليس فقط عن إسرائيل بل أيضًا عن بقية فلسطين. والفصل يجري بطبيعة الحال من جانب واحد فللإسرائيليين الحق في دخول الجانب الفلسطيني، ولكن لا يستطيع الفلسطينيون أن يدخلوا وطننا. ونفس المنطق يطبق في كل مكان هنا. فـ«الطرق الفاصلة» كانت دائمًا تعني ليس الفصل بين إسرائيل وفلسطين بل بين المقاصد الفلسطينية والإسرائيلية. والآن، وقد أصبحت عملية الأبرتهايد والفصل العنصري أكثر رسوخًا، لم يعد الفلسطينيون يستطيعون قيادة السيارات على تلك الطرق، بل وعلى الكثير من الطرق الأخرى في الضفة الغربية. ومن الضروري أن نفهم معنى عدم وجود الفلسطينيين في الوعي الإسرائيلي. فهم خطر. وبالتالي يجب استبعادهم من أراضينا. إن الطرق الفاصلة تخلق استمرارية حقيقية بين المستوطنات اليهودية، بينما تقضي في

بترتيب خاص مع:
London Review of Books

ترجمة: أسعد حليم

الوقت نفسه على أي شكل من أشكال استمرارية الأراضي الفلسطينية، وما نقاط التفتيش إلا استكمال لتلك العملية.

وكل المستوطنين يدلون بأصواتهم في مستوطناتهم: فهم مواطنون إسرائيليون، والمستوطنات هي جزء من دولة إسرائيل الديمقراطية، وقد أعطوا أصواتهم بالجملة لأحزاب اليمين بطبيعة الحال، وذلك أساسًا لصالح الأحزاب التي تدعو إلى «الترانسفير» وهو التعبير المستخدم لطرد الفلسطينيين. وقد فقد حزب ميريتس ما يقرب من نصف الأصوات التي اعتاد أن يحصل عليها، وأصبح حزبًا صغيرًا له ستة مقاعد في الكنيست، وبقي حزب العمل ثاني أكبر الأحزاب في الكنيست، ولكن مقاعده انخفضت إلى ١٩ مقعدًا (في حين حصل الليكود على ٣٨ مقعدًا). وبين الناخبين الذين يقل عمرهم عن ٣٠ عامًا، وبين المهاجرين الجدد القادمين من الاتحاد السوفيتي السابق والبالغ عددهم مليونًا، وبين الفقراء، ليس لحزب العمل غير أنصار قليلين. وكان ما يحتاجه شارون من حزب العمل هو إضفاء الشرعية عليه في المجتمع الدولي. وقد منحوه إياها.. لماذا؟ بالتعبيرات المستخدمة في إسرائيل يقولون إن السبب هو «سيارة الفولفو والسائق» بما يعني أنهم يستمتعون بوجودهم في السلطة. والحقيقة أكثر مدعاة للأسف: فهم لا يعرفون كيف يقاومون إغراء السلطة.

وقد ساد الإرهاب. وفي السنوات الأخيرة ألغى المزيد والمزيد من الفروق السياسية لصالح «هوية إسرائيلية جديدة»، ذلك الشعور الذاتي الهش الذي لا تظهر قوته إلا في أيام الحداد الوطني. وليس هناك عامل مشترك آخر، ولا حتى اللغة (فمعظم الأحزاب اليهودية استخدمت اللغة الروسية في العناوين الفرعية والبيانات الانتخابية التي أذاعتها بالتليفزيون) وفي بعض الحالات لم يكن هناك حتى ديانة مشتركة (فنسبة تقرب من ٢٠ بالمائة من المهاجرين الروس الجدد ليسوا من اليهود). وقد لعبت كراهية الفلسطينيين دورًا رئيسيًا في الهوية الإسرائيلية الجديدة (إن لم تنشأ مع الموجة الحالية من الإرهاب). والإسرائيليون بوجه عام لديهم آذان صماء في مواجهة معاناة الفلسطينيين - وذلك ليس مجرد تكنيك واستراتيجية، بل هو أسلوب للحياة. ولم يكن الأدب الإسرائيلي السائد في أي وقت أدبًا حربيًا أو شوفينيًا، وهو لم يتناول التراجيديا الفلسطينية إلا في حالات قليلة نادرة.

ولعبت الكراهية دورًا رئيسيًا في الحملة الانتخابية، وذلك الجزء من اليسار الذي دعا إلى إنهاء الاحتلال لم يحقق أي قدر من النجاح، فقد بدا أن الرحمة والعطف ليس لهما مؤيدون. وإذا كان هناك أي شعور بالعطف فقد حظي به شارون. وقد دعا الشعب، والجمهور، والفقراء، للدفاع عنه في مواجهة «التحريض اليساري». ورفعت لافتات ضخمة عبر الشوارع تحمل حروفًا زرقاء وبيضاء تقول: «الشعب ينتخب شارون» و«الشعب ينتخب الليكود في مواجهة تحريض اليسار» (وكانت هناك لافتات أخرى تدعو نفس الشعب لانتخاب نفس شارون لأسباب أخرى).

وفي وقت ما من أوقات الحملة بدا أن الليكود سيخسر بعض مؤيديه بسبب انتشار الاتهامات بالفساد والرشاوى بين المرشحين في انتخابات الحزب الأولية، وهذه الاتهامات لم تتوقف حتى الآن، وحتى شارون قد ينتهي الأمر بطلبه للتحقيق معه أمام الشرطة، إن لم يكن الأمر أسوأ من ذلك. ولكن نقطة التحول في الحملة كانت اللحظة التي تمكن فيها أنصاره من تصوير الجنرال السمين العجوز آكل لحوم الخنزير وعاشق اللذات - وهو أغنى رئيس للوزراء عرفته إسرائيل في أي وقت - على أنه ضحية لـ«وسائل الإعلام اليسارية والنظام القضائي»، وأصبحت اتهاماته بالفساد، وعلاقته بمليونير إنجليزي معين، وادعاؤه أنه «لم يعرف» شيئًا عن وديعة بمبلغ ١,٥ مليون دولار حصل عليها حتى يتمكن من سداد تبرعات غير مشروعة استخدمها في حملته السابقة، والاتهامات بوجود ارتباطات بين ابنه عمري (والذي أصبح الآن أيضًا عضوًا في الكنيست) وبين أشخاص متهمين بالإجرام - كل هذه أصبحت نقاط قوة لشارون.

ولا يكف مؤيدو حزب العمل في الصحافة الإسرائيلية عن الشكوى من أن اليهود السفرديين ينسون أن حزب العمل لم يكن هو المتصرف في أحوال البلد خلال سنوات طويلة. وهذا صحيح - وإن كان حزب العمل يميل لأن ينسى ذلك أيضًا. ومنذ ١٩٦٧ فإن شارون، ومن قبله بنيامين نتنياهو، ومن قبلهما مناحم بيجين، كانوا يطرحون على «الإسرائيليين الجدد» وسيلة سهلة للالتقاء بالدولة، وهي كراهية العرب. وهذا يتطلب قليلاً من الشرح.

فالتفرقة بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين لها جذور عميقة في حياتنا، وليس هناك جانب في حياة الإسرائيليين لا يهدد فيها هذا التوتر بالظهور. واليهود القادمون من العراق أو مصر أو اليمن أو المغرب يجب، حتى يصبحوا إسرائيليين، أن يصبحوا أولاً.. يهودًا شرقيين: - أي أن تكون لهم هوية «شرقية» مشتركة لم يكن لها وجود قبل أن يصبحوا إسرائيليين. ثم يكون عليهم أن يصبحوا «إسرائيليين» بعد ذلك. والكراهية التي توفرها لهم الدولة - ويوفرها لهم اليمين بقدر أكبر - كانت دائمًا هي الكراهية القائمة بين إحدى الأقليات والأخرى. وأية قراءة ذكية لروايات أ.ب. يهوشوا - أشهر الكتّاب السفرديين في إسرائيل - تستطيع أن تكشف عن الرغبة في إلغاء هذا الفارق بين الشرق والغرب «في داخلنا».

ولكن كيف حدث أن اليهود السفرديين لم ينجحوا في أي وقت في تنظيم أنفسهم لتحقيق مطالبهم، بدلاً من إعطاء أصواتهم للقادة الاشكنازيين اليمينيين؟ هذا موضوع للمناقشة داخل الدوائر الأكاديمية وخارجها، ولكن هناك أمرًا واحدًا واضحًا: وهو أن العنصرية السياسية لم تعد مقبولة. وعلى امتداد سنوات، قوبلت أية محاولة لتشكيل حزب على أساس عنصري باستنكار شديد، ومع ذلك ففي سنوات الثمانينيات أُنشىء حزب شاس. وبدا أن هذا الحزب الذي يقوده يهود سفرديون متشددون يتوجه إلى اليهود المنحدرين من أصول شرق أوسطية سعيًا إلى هدف مزدوج: إعادة الجماهير السفردية إلى عالم التوراة، وحماية اليهود السفرديين من التمييز ضدهم، وحقق الحزب نجاحًا فلكيًا. وخلال عشر سنوات أصبح ثالث أكبر حزب في البلد.



وكان ما يدعو للانزعاج من حزب شاس الذي حصل في الانتخابات الأخيرة على ١١ مقعدًا لدى أحزاب الاشكنازي هو أنه وجد طريقًا جديدًا إلى السلطة السياسية لليهود السفرديين: فقد كان كل ما يهمه - هكذا بدا الأمر - هو توسيع بنيته الأساسية الدينية العنصرية، وعلى حين كان ذلك التصرف مقبولاً عندما قام به المستوطنون، أو الحركات الأخرى في تاريخ الصهيونية، فهذا أمر لا يمكن احتماله عندما قام به حزب شاس. وفي سنوات أوسلو كان حزب ميريتس هو الذي يوجه لعبة الكراهية هذه، في حين يقامر بحدوث انشقاق نهائي بين اليسار السفردي واليسار الاشكنازي. وكان ميريتس يعرف أن أنصاره يكرهون «الآخرين» بحيث بدا كل شيء بغيض في إسرائيل يرتبط بأولئك «الآخرين». فهل نحن ندفع ضرائب أكثر مما ينبغي؟



إذن فاللوم يقع على اليهود الأرثوذكس لماذا؟ لأن لديهم أبناء أكثر مما يجب، شأنهم شأن العرب، ونحن لا نريد أن نتولى تمويل زيادة أعدادهم. وميريتس لا يعلن ذلك صراحة، ولكن كانت تلك هي الروح السائدة فيه. هل نحن ملزمون بأن نقضي وقتًا أكثر من اللازم في الجيش، كمتطوعين وكجنود احتياطيين؟ إذن فلنلق اللوم على اليهود الأرثوذكس لماذا؟ لأنهم لا يتطوعون في صفوف الجيش، على الأقل الاشكنازيين من بينهم لا يتطوعون.

وفي هذه الانتخابات الأخيرة كان على حزب ميريتس أن يتنافس مع حزب آخر، وهو الحزب الذي حل محله في الواقع: حزب شينوي الذي يضم الأجلاف المتشددين rednicks فئة متزايدة في دولة تكاد تخلو تمامًا من العمل المنظم. وبالرغم من أن شينوي ليس لديه غير عضو واحد «سيفردي»، فهو يمثل شيئًا جديدًا في السياسة الإسرائيلية: فهو حزب ليست لديه ممنوعات، حتى في الطريقة التي يعرض بها مواقفه، وما رأيه بالنسبة للفلسطينيين؟ ليست هناك فرصة للسلام على أية حال.

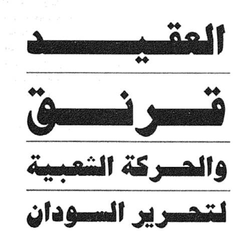
إن رئيسه يوسف «طوني» لبيب، وهو نجم سابق على شاشة التليفزيون، يتفوق على «حيدر» و«لوبان». فهو لا يتحرج من شيء، لأن لديه الهولوكوست إلى جانبه، ولكن فلننس الهولوكوست: فطوني يعتبر نفسه الممثل الحقيقي للثقافة الأوروبية، فقد ولد لأسرة مجرية تعيش في يوغوسلافيا، لذا يعتقد أنه يعرف كل شيء عن أوروبا، وتشمل سيرته الذاتية إعداد كتب سياحية، وبعض الكوميديات من الدرجة الثالثة، قمت بالتمثيل في واحدة منها عندما كنت تلميذًا في المدارس الثانوية، وقمت فيها بدور أحد رؤساء الجمهورية الأفريقيين الذي يزور إسرائيل، ثم يتبين أنه يهودي بولندي وجد طريقه إلى واحدة من «تلك الدول الجديدة». وكما ذكرت من قبل فإن الخطاب الإسرائيلي مسكون بالقتال «للحفاظ على القيم الأوروبية».

دعوني أتحدث بصراحة: ثمة حاجة حقيقية لتشجيع العلمانية في إسرائيل. وهذه دولة لا يستطيع أحد فيها أن يتزوج خارج المؤسسة الدينية. ولكن هل سيحدث شينوي تغييرًا في التشريع؟ لا بطبيعة الحال. فمعظم القوانين لها غرضها السياسي، بل والعنصري: فهي تحرص على وصف إسرائيل بأنها دولة يهودية، ثم تفسير اليهودية بعبارات دينية، وليس هناك حزب يهودي واحد يؤيد الديمقراطية الحقيقية، حيث تكون الدولة هي دولة كل المواطنين.

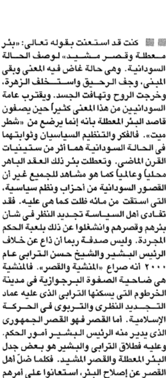
إن ما أثبته حزب شينوي بمقاعده الخمسة عشر مرة أخرى هو أن خطاب الكراهية يحقق نجاحًا كبيرًا في إسرائيل، والأحزاب التي لم تجد موضوعًا تكرهه فشلت. ولكن شينوي أعطى ميريتس درسًا يجب على حزب العمل أن يتعلمه بسرعة: إنك إذا دخلت في منافسة حول أيّنا سيوجه «إليهم» ضربات أشد؟ سيكون هناك دائمًا حزب يقف إلى يمينك، حزب ليست لديه محرمات، وكما عاد ميريتس إلى حجمه السابق كحزب صغير من أحزاب الحمائم إلا أن شينوي كان أكثر نجاحًا في رسالة الكراهية التي يطلقها ضد السفرديين والأرثوذكس المتشددين، وكذلك فقد حزب العمل مكانة قوية محورية بسبب تأييده «للاحتلال». وأي شيء كان على حزب العمل أن يقوله بشأن الفلسطينيين كان يستطيع أن يجد موقعًا أكثر ملاءمة في خطاب «اليمين».

تُرى هل هناك من يعتقد أن إسرائيل قادرة على الخروج من هذه البلبلة بدون مساعدة من الخارج؟ ■

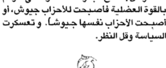
فى وصــــــف الحـــــــالة الســـــــودانية:



العقيــــد قــرنــق والحـــركة الشعبية لتحـــرير الســـودان



كنت قد استعنت بقوله تعالى: «بئر معطلة وقصر مشيد» لوصف الحالة السودانية. وهى حالة غاض فيه المعنى وبقى المبنى، وجف الرحيق واستخلف الزهرة، وخرجت الروح وتهافت الجسد. ويقترب عامة السودانيين من هذا المعنى كثيراً حين يصفون قاصد البئر المعطلة بانه إنما يرضع من «شطر ميت». فالفكر والتنظيم السياسيان وثوابتهما فى الحالة السودانية هما أثر من ستينيات القرن الماضى. وتعطلت بئر ذلك العقد الباهر محلياً وعالمياً كما هو مشاهد للجميع غير أن القصور السودانية من أحزاب ونظم سياسية، التى استقت من مائه ظلت كما هى عليه. فقد تفادى أهل السياسة تجديد النظر فى شأن بئرهم وقصرهم وانشغلوا عن ذلك بلعبة الحكم المجردة. وليس صدفة ربما أن ذاع عن خلاف الرئيس البشير والشيخ حسن الترابى عام ٢٠٠٠ أنه صراع «المنشية والقصر». فالمنشية هى ضاحية الصفوة البرجوازية فى مدينة الخرطوم التى يسكنها الترابى الذى عليه عماد التجديد النظرى والتربوى فى الحركة الإسلامية. أما القصر فهو القصر الجمهورى الذى يدير منه الرئيس البشير أمور الحكم. وعليه فطلاق الترابى والبشير هو بعض جدل البئر المعطلة والقصر المشيد. فكلما ضلّ أهل القصر عن إصلاح البئر، استعانوا على أمرهم بالقوة العضلية فاصبحت للأحزاب جيوش، أو أصبحت الأحزاب نفسها جيوشاً. و تعسكرت السياسة وقل النظر.



جدلية البئر المعطلة والقصر المشيد وراء أكثر متاعبنا ومظاهرها الفاشية مثل الحرب الأهلية المستدامة، والحلقة الشريرة بين الحكم المدنى والعسكرى، وانفلاق الأحزاب على نفسها بصورة نازفة. وقد سبق أن صدر لى كتاب بعنوان «الإرهاق الخلاق» فى محاولة لتشخيص كساد جسد السياسة السودانية من جراء فقدان سوائل الفكر. واسترعت نظرى مؤخراً كتابات بعض أهل النظر، وهم أهل البئر، على سدنة القصر فى أحزابهم. وقد أماطوا فى تلك الكتابات اللثام عن فساد فكر تلك الأحزاب وخيالها. وقد سمّيت هذا الجنس الكتابى بـ «وخرجوا بغصة منه» عملاً بقول الشاعر عن الزمان الذى نخرج منه بالحسرة والخيبة برغم أنه ربما سرنا أحياناً.

وقد اعتنيت بوجه خاص بما صدر من هذا الجنس الكتابى مؤخراً باقلام أولئك الذين خرجوا بغصة من الحركة الشعبية لتحرير السودان والجيش الشعبى لتحرير السودان اللذين ظل يقودهما العقيد الدكتور جون قرنق منذ ١٩٨٣ لغاية بناء سودان جديد يقتسم أهله الثروة والسلطان بالسوية. ورغبت فى الاستعانة بهذه الكتابات فى معرفة هذه

Inside An African Revolution

(داخل ثورة أفريقية)

Lam Akol
Khartoum: Khartoum University Press, 2001, 348pp, £ 15.00

خلافاً لما ظل يذيعه قرنق، فى مضمار تقديم نفسه كمناضل لوحدة السودان، من أن أول رصاصة أطلقتها الحركة كانت ضد الانفصاليين الجنوبيين يشير واقع الحال إلى أن تلك الرصاصة قد أطلقت نحو صدور منافسين له حول الشوكة والمركز الأول فى الحركة»

الحركة والجيش عن كثب من أفواه أهلها. فقد حجبت معرفة هذه الحركة الحق عنى، كشمالى سودانى، أمور. وأول هذه الأمور كما لا يخفى هو مصادر المعرفة الشمالية التى خالطها الغرض. ومن الأمور المهمة ذنب السودانيين الشماليين من ذوى الحساسية تجاه مأزقهم التاريخى والمعاصر فى الجنوب. وهو ذنب دفعهم لتغليب حسن الظن على الدوافع والأداء الجنوبى وإرجاء الحكم عليهما مادام الجنوبيون على جانب الصحة السياسية من حيث طلب الإنصاف ورفع الاستضعاف عنهم. بل دفع هذا الذنب بكتاب من الشماليين من أمثال الدكتور منصور خالد و الدكتور الواثق كمير للانضمام للحركة الشعبية وليكونوا «صوت عربها» فى كتابات صدرت لهم بالإنجليزية والعربية عن أفكار الزعيم جون قرنق وحركته الشعبية. وهى كتابات غلّبت الحديث عن ظلم الجنوبيين ومشروعية جهادهم وخلت من النظر الدقيق فى ديمقراطية الزعيم وحركته. والحق أنها لم تقصد أبداً أن تجيل النظر فى هذا الباب إلا دفعاً لما يقوله خصوم الحركة ونقدتها.

توفر لنا من جنس «الخروج بغصة» وبقصة من الحركة الشعبية كتابان مرموقان. مؤلف الأول هو الدكتور لام أكول، الأستاذ السابق بكلية الهندسة بجامعة الخرطوم وعضو القيادة العسكرية العليا من الحركة الشعبية منذ ١٩٨٨ حتى خروجه منها فى ١٩٩١، ووزير النقل الحالى فى الحكومة السودانية. وعنوان مؤلفه هو الحركة الشعبية لتحرير السودان والجيش الشعبى لتحرير السودان: داخل ثورة أفريقية الذى صدر بالإنجليزية عام ٢٠٠١ بالخرطوم. أما الكتاب الآخر فهو نزاع السودان الذى خطه قلم الأستاذ محمد هارون كافى، الكاتب المشغول بثقافة شعب النوبة فى وسط غرب السودان، والذى انضمّ للحركة فى عام ١٩٨٦ وخرج عنها فى عام ١٩٩٦.



كتاب لام صادر عن فكر قسيم وعاطفة رحيمة. فلم يجعل الكاتب خلافه مع العقيد قرنق أكبر همه فينشغل به عما عداه فيمل القارئ. فهو لم يتطرق إلى الوقائع المخصوصة التى أدت إلى خروجه من الحركة. وبدا لى أنه خشى أن يدخل فى لجاج الخصومة فيحمّل القارئ عبء الحكم له أو عليه. وكبديل لذلك اختار الكاتب أن يحكى قصة الحركة الشعبية من ألفها إلى يائها ليعين القارئ لا لفهم خلافه مع قرنق وحسب بل لفهم هذه الثورة الأفريقية المشروعة: أشواقها، بسالتها، مواقعها، ومنعطفاتها. فهو لم ينتهز سانحة خلافه مع قرنق للتهوين من الحركة أو تبخيسها على أن الخصم هو الذى على رأسها. فواضح أن لام قصد إلى القول أن إدارة ظهره للحركة فى الملابسات المعروفة لا تعنى تنصله من المعانى الغراء التى فى أصل بواعثها. وسيخرج قارئ لام وهو أكثر احتراماً للحركة وفهما لمتاعبها من أولئك الذين يروجون لها بالحق والباطل. وأهم من هذا كله سيقف القارئ على كدحنا جميعا لبناء وطن أفضل بأثمان باهظة ومنها الفجيعة فى رفاق الصحوة والحلم والثورة.

يرد لام مازق الحركة الشعبية إلى عاهة فى مَنْشَئها. وقد جاء فى هذا بمثل حى لإصرار امليكار كابرال، زعيم حركة الاستقلال المسلحة فى غينيا بيساو، ألا تتحول حركته، التى وصفها بانها جماعة ثورية مسلحة، إلى مجرد عصبة من المسلحين. ومنشأ ومآل الحركة الشعبية، فى رواية لام، مثل حى لما حذّر منه كابرال. فقد بدأت الحركة، أو كادت، كحركة سياسية ثم استأثر بها، وهى فى المهد، العسكر بقيادة قرنق. وقد وقعت هذه العسكرة، وبنظر لام، عبر ثلاثة تطورات مهمة. وهى:

١) القضاء على العنصر المدنى السياسى فى بدايات الحركة فيما بين مايو ١٩٨٣ ومارس ١٩٨٤.

٢) تجميد قرنق للقيادة السياسية وتنصل الحركة عن ميثاقها التاسيسى.

٣) وتمكن العالم الكافكى (نسبة إلى كافكا، الكاتب التشيكى المشهور) لقرنق فى الحركة وهو عالم يغرب الناس عن واقعهم بهدف إخضاعهم لإرادة غالبة.

بدأت الحركة فى ١٦/٥/١٩٨٣ بتمرد حامية مدينة بور الجنوبية إثر الأمر الصادر لها بالانتقال إلى شمال السودان. وقع هذا الأمر فى سياق خطة دمج فرق الجيش من الجنوبيين، واكثرهم ممن كانوا قد استوعبوا من حركة القوميين الجنوبيين المسلحة (ممن تطلق عليهم الحكومة اسم «المتمردون». وسنستخدم هذا الاسم الحكومى لذيوعه للتسهيل) بعد اتفاقية أديس أبابا للسلام فى ١٩٧٢. وقد تشككت الحامية فى نوايا قيادة الجيش من هذا الأمر. فقد خشيت الحامية أن تكون عرضة للإبعاد إلى الشمال بقصد تغييبها عن مسرح السياسة فى الجنوب. وهو المسرح الذى طغت عليه الريبة فى الحكومة فى الشمال وبخاصة ما تعلق بـ «أسلمة» الدولة التى لاح لائحها منذ مصالحة الرئيس نميرى مع المعارضة الشمالية الموصوفة بالإسلامية، فى ١٩٧٧، وقد سبق تمرد حامية بور لجوء جماعات مسلحة للغابة. ولدى هجوم الحكومة على الحامية دخلت الأخيرة الغابة وانسحبت إلى الحدود الأثيوبية. وتبع الحامية المتمردة العقيد جون قرنق، الضابط المستوعب من حركة «التمرد» فى جيش السودان، والذى كان يقضى إجازته فى نواحى بور. واصطحب قرنق فى رحلته هذه السيدين صاموئيل توت وأكوت أتيم. والأول من قادة حركة أنانيا فى الستينيات وجرى استيعابه كعميد فى القوات المسلحة السودانية ثم استمزج السياسة وصار نائبا فى البرلمان الجنوبى ووزيرا مرات عديدة. أما الثانى فهو من دهاة ساسة الجنوب.



بدأت الجماعة التى لاذت باثيوبيا، بما فيها قرنق وأتوت، بتكوين لجنة سمتها اللجنة التنفيذية التمهيدية اختارت أتيم رئيساً لها كما ذكرنا سلفاً. وتشكلت قيادات متخصصة لهذه اللجنة منها اللجنة العسكرية التى ترأسها توت، ولجنة العلاقات الخارجية التى ترأسها جوزيف أدوهو، الذى مات سجيناً غبيناً فى معتقلات قرنق، ولجنة الإدارة والقضاة التى تراسها مارتن ماجيير قاى. أما قرنق فقد اختير

بئر معطلة وقصر مشيد!

عبدالله علي إبراهيم

قائداً لهيئة أركان حرب الحركة. ولم يقبل قرنق نتيجة هذه الانتخابات وسعى في تأليب الضباط على هذه الخطة «المدنية» ونجح في إقصاء جماعة توت وأتيم وشتت شملها. وعاد أتيم يطلب الصلح مع قرنق في جماعته المكونة من ٨٠٠٠ بين حامل للسلاح وأعزل. وكان القائد العسكري الأثيوبي للمنطقة يؤثر توت فزوده بالسلاح خلافاً للموقف الأثيوبي الرسمي الذي انحاز لقرنق. وذاع أن قرنق غير راغب في الصلح. وبقيت جماعة أتيم تنتظر قدوم قرنق في المكان والزمان المطلوبين. وحين لم يحضر قرنق انسحب أتيم وصحبه من الموقع في جنح الظلام لأن خيار المصالحة قد تبخر. وهاجموا جماعة قرنق وأجلوها واحتلوا مكانها. واستعاد قرنق زمام المبادرة وهاجم جماعة أتيم في مارس ١٩٨٤ بقوة متجددة وقتل أتيم. ومثّل كاربينو كوانين، نائب قرنق، بجثة القتيل. وقد جلد كاربينو الجثة ٥٠ جلدة. وكان نميري قد سبقه بجلد الخصوم والسكارى والزناة بالسياط بعد أسلمته للقوانين في سبتمبر ١٩٨٣. وكان قرنق حاضراً في المشهد يرى ولا يحرك ساكناً. وقد كتب قرنق لاحقاً لمندوبه في بريطانيا زاعماً أنهم قد دفنوا توت وشرفوه بجنازة عسكرية. ومن ثمّ تراجعت جماعة توت إلى السودان وكونوا جيش أنيانيا ٢ (وكانت أنيانيا رقم ١ هي التي بدأت حرب الحكومة في ١٩٦٢ حتى تصالحت معها في أديس أبابا في ١٩٧٢). وقد نشب صراع دموي بين قرنق وهذا الجيش لسنوات أربع. وانتهزت الحكومة حرب الأخوان هذه وأمدت أنيانيا٢ بالسلاح والعتاد كيداً لقرنق. ونعى لام حرب الإخوة هذه قائلاً: «إن الأرواح التي أزهقت في هذه الحرب لهي أكثر من تلك التي فقدناها في حرب العدو، الجيش السوداني، في نفس المدة». ولم يقبل قرنق مبدأ الصلح مع «أنيانيا٢» أبداً. وكان يسميها بـ«نياقات» (أي الشفته وقطاع الطرق في لغة العوام) وجاء الصلح أخيراً لأن قرنق لم يقو على كسر شوكة هذه الجماعة لأنها كانت تتمتع بعطف وولاء السكان. وتصالحت الحركة الشعبية وأنيانيا بالحوار وبفضل جهود بذلها ضباط ذوو حيلة في الحركة الشعبية. وعلق لام على هذه البدايات الصعبة للحركة بقوله: «وعليه فإن الحركة الشعبية قد دشنت نفسها في الساحة الوطنية بحرب أهلية بين الجنوبيين. وخلافاً لما ظل يذيعه قرنق، في مضمار تقديم نفسه كمناضل لوحدة السودان، من أن أول رصاصة أطلقتها الحركة كانت ضد الانفصاليين الجنوبيين، فواقع الحال يشير إلى أن تلك الرصاصة قد أطلقت نحو صدور منافسين له حول الشوكة والمركز الأول في الحركة».



ولم يكد قرنق يتخلص من أتيم حتى جعل نفسه رئيساً للجنة التنفيذية التمهيدية. وتسنى بذلك أن يعقد للعسكريين لواء الصولة والجولة في الحركة. وقد صحب ذلك تبخيس مستمر للسياسة و



فى وصف الحالة السودانية

اضطرت الحركة الشعبية حين رأت خسائرها من جراء فصاحة ميثاقها السياسى إلى ابتلاع صفتها الماركسية وتوصيفها لنظم السودان المتعاقبة. وشرعت الحركة فى تنقيح الميثاق، أسقطت بموجبه صفة أنها ماركسية لينينية، واستبدلت مصطلح «العرب المبتذلين» بـ «طغم الأقلية»

تمجيد للعسكرية بوصفها سبيل وضمانة النصر على العدو. وقال لام «إن ذلك كان إيذانًا بأن الحركة قد انعطفت بشدة نحو أن تكون عصبة عسكرية». ولم يتوقف تبخيس السياسيين فى حدود اللفظ والدعاية بل أصبحوا عرضةً للاغتيال حتى يتمكن قرنق من الحركة. فقد اغتيل بنجامين بول أكوك، خريج جامعة إكسفورد والبرلمانى الجنوبى والوزير السابق وممثل الحركة الشعبية فى لندن، فى سبتمبر ١٩٨٤ بامر من قرنق الذى كان يخشى طموح أكوك للقيادة. وأتبع قرنق ذلك بتجريد جوزيف أدوهو، من مؤسسى الحركة القومية الجنوبية فى الستينيات، ومارتن قاى، عضوىَ اللجنة التنفيذية التمهيدية، من كل سلطة، ثم سرعان ما اعتقلهما فى مارس ١٩٨٥ بتهم مختلفة. وكان اعتقال أدوهو وأقاى بمثابة إغلاق وتشميع نهائى للجنة التنفيذية التمهيدية المدنية. وقد كانت الموئل الذى تبقى للقيادة الجماعية. فقد أعقب ذلك زحف اللجنة العسكرية واستئثارها بالقيادة. التى تغير اسمها إلى القيادة العسكرية العليا حتى يناسب لفظها فعلها. وسرعان ما بدأت هذه القيادة عسكرة الحركة. وكان قرارها الأول هو لزوم أن ينال كل عضو بالحركة تدريبًا عسكريًا وأن يؤدى الخدمة العسكرية فى جبهات القتال. وكان هذا بمثابة إرساء لمبدأ تتبيع أعضاء الحركة لزعيمها لا فى المعنى السياسى المعروف بل فى مبدأ الضبط والربط العسكرى. وهكذا، فى عبارة لام، انسدل الستار على الآمال التى جاشت فى نفوس الجنوبيين بإنشاء حركة سياسية شعبية. وتناوشت الأدواء الحركة من جهة تغاضيها العمل السياسى.

جاءت الحركة الشعبية إلى ساحة السياسة فى أصيل الماركسية. فقد عرّفت نفسها فى ميثاقها لعام ١٩٨٣ بأنها حركة ماركسية -لينينية. وسرعان ما تباطأت الحركة دون هذه الصفة النظرية الباكرة. ولتنصلها عن هذه الصفة قصة. فقد أرسل قرنق ميثاق الحركة أول صدوره فى ١٩٨٣ إلى الرائد بيو كوان، قائد حامية الناصر وأحد الضباط المستوعبين من حركة أنيانيا بعد ١٩٧٢، وعضو مجلس قيادة ثورة الإنقاذ الوطنى عام ١٩٨٩ (وقد توفى فى حادث طائرة وقد أطلق اسمه على شارع رئيسى بالخرطوم). وقام كوان بإرسال الميثاق إلى الرئيس نميرى والذى وجد فيه ضالته فى التشهير بالحركة بأنها دسيسة شيوعية لا تخشى فى ماركسيتها لومة لائم. وكان نميرى يتقرب بهذا التشهير إلى الأمريكان الذين لم يريدوا للسودان، الذى أصبح حليفاً لهم، أن يعود إلى حضن السوفييت كما كان على عهد نميرى الأول. كما وجد نميرى ضالة له أخرى فى وصف ميثاق الحركة لأنظمة الحكم المتعاقبة على السودان بأنها عربية مبتذلة (pseudo-Arab) ليؤلب الدول العربية على هذا الخصم الجديد الشديد لهم. واضطرت الحركة الشعبية حين رأت خسائرها من جراء فصاحة ميثاقها السياسى إلى ابتلاع صفتها الماركسية وتوصيفها لنظم السودان المتعاقبة. وشرعت الحركة فى تنقيح الميثاق، أسقطت بموجبه صفة أنها ماركسية لينينية، واستبدلت مصطلح «العرب المبتذلين» بـ«طغم الأقلية».



وقد بدت الحركة الشعبية بعد هذا التنقيح كحركة ناقصة فى عنصر المبدئية. غير أن ما شقّ على الجنوب حقاً الطريقة الظالمة التى عرضت بها الحركة لتاريخ حركة الجهاد القومى الجنوبى الذى سبقها. فانت تجد مثلاً أن حركة أنيانيا، التى قادت ذلك الجهاد لـ١٧ عامًا (١٩٥٥-١٩٧٢)، قد جرى الاستخفاف بها فى التاريخ الموضوع بواسطة الحركة الشعبية. فقد وصفت أنيانيا فى هذا التاريخ بانها قد نشات من ضيق الجنوبيين بقسمته الضيزى لأسلاب سودنة الوظائف بعد الاستقلال التى استاثرت صفوة الشمال المتبرجزة بنصيب الأسد منها وتركت الفتات لصفوة الجنوبيين المتبرجزة. كما وصف هذا التاريخ الموضوع من قبل الحركة الشعبية اتفاقية ١٩٧٢ للسلم بانها من إملاء الشمال على الجنوب. وأنها مصالحة متاخرة جداً بين هاتين الصفوتين حول أسلاب الاستقلال غنمت بها صفوة الجنوب جملة وظائف قيادية فى الدولة فى حين ضحت بمصالح الجماهير.

انحلال القيادة العسكرية العليا: ولم تكن القيادة العسكرية العليا نفسها سوى قناع يخفى انفراد رئيسها والقائد العام، قرنق، بالقرار فى كل شان كبر أم صغر. ولذا سماها لام بـ«الدمية». فليس للقيادة دستور يقنن سلطتها أو يبوب نظمها فى تصريف أمورها. قد يستانس قرنق، متى شاء، برأى من شاء، على انفراد. وضرب لام لذلك مثلا. فقد أنشا قرنق فى عام ١٩٨٥ ما أسماه بـ «العضوية المناوبة» فى القيادة العسكرية العليا كمكافاة لضابط هزم خصماً لقرنق وقتله ولآخر حقق نصراً فى معركة ما. ولم يكترث قرنق لوصف مهام وحقوق وواجبات الأعضاء المناوبين أبداً حتى كان هناك منهم عدد فاق الأعضاء الخمسة الأوّل الذين جرى وصفهم بالأعضاء الدائمين بنسبة ثلاثة إلى عضو دائم واحد. وكانت سنة العضو المناوب فاشية فى الأحزاب الشيوعية. وقارن لام بين هذه السنة محاكاة قرنق لها وخلص إلى أن قرنق قد أخذ المقام وأفرغه من موجباته ونظمه.

وقال لام إن الذى أبقاه بالحركة للزمن الذى بقى فيها هو ثقته أن بوسعه إقناع قرنق بالعودة من سكة العسكرية الخرقاء إلى الشرعية السياسية، ومن قيادة الرجل الواحد إلى القيادة الجماعية. وقد قاد الكثيرون إلى هذه القناعة خلوص نيتهم وثقتهم فى العقيد قرنق الذى اجتمعت له صفات فى القيادة لم تجتمع لقائد جنوبى ممن سبقوه. فلم يكن من بين من جاءوا إلى الحركة ممن لابسته نزعة لمنافسة قرنق فى موقع القيادة. كان أكثرهم بالطبع يريد أن يرتب الحركة بصورة تكفل لهم المساهمة المسئولة فى إدارة الحرب التى تطوعوا لخوضها تطوعاً. غير أن هذا الشاغل الجماعى هو ما أزعج قرنق وجعله يشتبه فى رفاقه الذين واصلوا محضة النصح لوجه الإصلاح. والتزم لام، كمثقف، ألا يالو جهداً فى الإفضاء إلى قرنق بدخيلة نفسه بشان الحركة و وجهاتها. وكانت آخر مساعيه فى طرق هذا الباب المسدود إلى فؤاد قرنق هو مذكرته المعنونة «نحو تنظيم الحركة الشعبية لتحرير السودان» . . وقد نشرها كملحق فى كتابه وعلق قائلاً: «إننى ما أزال أعتقد فى سداد ما جاء فى هذه المذكرة وليس لدىّ مزيدٌ عليها».

وكانت عاقبة هذه القيادة العضوض لقرنق ارتكابه لأخطاء سياسية بلقاء. ويذكر القارئ أن الحركة قد لاقت ببرود انتفاضة أبريل ١٩٨٥ التى أطاحت بنظام الرئيس نميرى. وهو برود حير وما زال يحير كثيرًا من السودانيين ممن اعتقدوا أن سقوط حكم الفرد هو البداية الصحيحة لترتيب أوضاع السودان كله على هدى الديمقراطية والإخاء السودانى. وبلغ هذا البرود حد قول الحركة أن انتفاضة أبريل ليست سوى تجديد لنظام نميرى بقرينة الدور البارز الذى قامت به قيادة القوات المسلحة السودانية فى دعم وإنفاذ الانتفاضة فى أطوارها الأخيرة. وصار اسم الانتفاضة فى أدب الحركة الشعبية هو «مايو٢» ومعناها أننا لم نستبدل مايو نميرى ١٩٦٩ إلا بمايو الانتفاضة. وبناءً على هذا التحليل طلبت الحركة من المجلس العسكرى الانتقالى العالى، الذى كان مرجع الانتفاضة، بالتنحى عن الحكم. وناشدت الحركة حلفاءها فى التجمع الوطنى لإنقاذ الوطن، القيادة الشعبية للانتفاضة، بتشديد النضال ومواصلته لإسقاط ذلك المجلس العسكرى ذى الأصول المايوية.

ولعل أجرأ ما جاء به الكتاب هو اتفاقه مع القائلين بان قرنق إنما يريدها حرباً أهليةً لا تبقى ولا تذر ولن يجنح للسلم أبداً. وهذا اتفاق ذو خطر لأنه يصدر عن لام الذى كان المفاوض الأول عن الحركة منذ دخلها فى ١٩٨٦ حتى بارحها فى ١٩٩١. ففى قول لام أن قرنق ظل يكرر قناعته من أن القوة السياسية تاتى من فوهة البندقية. وقد وسع من معنى «المناورة السياسية» حتى شملت اجتماعات له انعقدت مع الوطنى الاتحادى وزعيمه السيد محمد عثمان الميرغنى التى أثمرت وثيقة السلام المعروفة فى نهاية ١٩٨٨. وهى وثيقة ينسب لها أهلها الأصالة والصدق وصفاء النية. وقال لام، فى معرض نقده لقرنق وعقيدته الحربية الراسخة: «لا يخالطنى شك أن قرنق لا يملك برنامجاً للتسوية السلمية للحرب فى الجنوب. فقد خلصت إلى هذا الرأى كرئيس لوفد مفاوضات الحركة فى مباحثات السلام منذ ١٩٨٨: سواء مع الحكومة أو الأحزاب أو النقابات المهنية. وكان قد سمّى هذه العناصر فى حكومة الأحزاب منذ عهد ميثاق الحركة الباكر بـ (الثورة المضادة) و (الصفوة البيروقراطية المبرجزة)».

ورد لام هذا النقص فى موهبة قرنق للسلام إلى أمرين. أولهما أن قرنق قد أصبح أسيراً لطموحاته نفسها حتى خاف أن ينافسه عليها المتنافسون. أما الأمر الثانى فهو أنه لم يات إلى ساحات الحرب بالمؤهل القاطع والتزكية المعلومة. فهو غير مطمئن إلى قبول من هم دونه بجدارته العسكرية. وقال لام أن زملاء قرنق فى القيادة العليا، الذين نصروه فى صراعه مع السياسيين المدنيين كما رأينا، ظلوا يذكرونه بانه من اللاحقين لا السابقين فى الحركة لأنه جاء مؤخراً إلى ساحة الوغى. فقرنق لم يحضر معركة بور ضد الجيش السودانى عام ١٩٨٣ وهى المعركة المؤسسة للحركة الشعبية كما رأينا أعلاه. كما وصفوه بانه الجنرال الذى لم يات بجندى واحد إلى الميدان. وقالوا عنه أيضاً أنه الجنرال الذى لم يقد كتيبةً مقاتلةً فى حومة الوغى. وأحرج هذا قرنق. ولذا كان يبذل طاقته القصوى للبرهنة على أنه قائد سياسى وعسكرى فذ فى آن معاً. فاضحت الحرب عنده شغلاً للنصر لا للتسوية متى ما لاح سبب قوى لها. ولذا كان قرنق يلزم نفسه بحضور كل العمليات الحربية متى ما عنّ له أنها قد تؤدى إلى سقوط مدينة ما. وكان ياتى مدججاً بالعتاد والجند متى ما جاء إلى هذه العمليات ليؤمن سقوط المدينة المقصودة. ولم يكن يكترث للخسائر والضحايا البشرية. وبدا للام أحياناً وكان الجيش الشعبى لتحرير السودان هو جيشان لا جيش واحد. فقد كان هناك الجيش الشعبى العادى ذو الإمكانيات والمعدات المتواضعة. وكانت هناك، من الجانب الآخر، كتائب القائد العام المدججة ذات التاهيل والإعداد الحسن.

وترتب على انعقاد القيادة السياسية والعسكرية فى شخص واحد أن الجانب السياسى والدبلوماسى للحركة الشعبية يتعطل متى ما انشغل قرنق فى معركة ما. ومن الجانب الآخر كان العمل العسكرى يتعطل متى ما انشغل قرنق فى أسفاره المكوكية السياسية والدبلوماسية.



ولعل من أميز ما جاء به لام فى نقد استراتيجية الحركة للسلام أيضاً هو قوله أنها تعتصم بشروطها الواجب استيفاؤها من قبل الحكومة قبل أن تشرع فى الحديث عن السلام نفسه. فهى لن تتحدث عن السلام قبل أن ترفع الحكومة حالة الطوارئ أو تلغى اتفاقيات الدفاع مع مصر وليبيا، أو تشطب قوانين شريعة الرئيس نميرى أو الرئيس البشير. وقد وجد لام فى خطاب هذه الشروط نوعاً من أنواع التقاعس عن السلام وقال: «فلم يصدر عن



فى وصف الحالة السودانية



لعل أجرأ ما جاء به الكتاب هو اتفاقه مع القائلين بأن قرنق إنما يريدها حرباً أهليةً لا تبقى ولا تذر ولن يجنح للسلم أبداً. وهذا اتفاق ذو خطر لأنه يصدر عن لام الذى كان المفاوض الأول عن الحركة منذ دخلها فى ١٩٨٦ حتى بارحها فى ١٩٩١



الحركة بيان هادٍ مرشد إلى موقفها من السلم يبين طرائقها فى مقاربة حل مسائل السودان المركزية حتى تنفض يدها عن الحرب وتخلص إلى السلم. والحق أن أمر هذا البيان الهادى لم تناقشه الحركة على أى مستوى من مستوياتها. فالقائد يصر على مناقشة الشروط المسبقة التى تؤدى إلى عقد مؤتمر السلام الموعود بدلاً عن الإمساك بالمسائل التى هى أس النزاع. فهو إذا ناقش هذه المسائل المركزية فإنما يناقشها مع الأحزاب بدلاً عن الحكومة السودانية التى تصادف وجودها فى الحكم. فقرنق لا يريد من هذه الحكومة إلا تنفيذ الشروط المسبقة أولاً. و قد ترك هذا المنهج وغيره من مناهج الحركة فى التفاوض انطباعاً سلبياً لدى المراقبين ألقى ظلاً من الشك عميقاً عن استعداد الحركة الشعبية للسلام».

وجاء لام بملحوظة نبيهة عن جفاء الحركة الشعبية للديمقراطية وعن ثمن ذلك فى أدائها الداخلى والخارجى. فقد لاحظ لام أن كلمة «ديمقراطية» لم ترد أبداً فى ميثاق الحركة التى جرها تمييزها بأنها المنظمة الوحيدة التى ستحرر الوطن الموحد وتحكمه على نهج الاشتراكية. وقد درجت الحركة فى الترويج لاشتراكيتها بإهمال لعنصر الديمقراطية مثلها فى ذلك مثل النظم والأحزاب الشمولية المعروفة فى أفريقيا وغير أفريقيا آنذاك. ويقول لام أن صمت الميثاق عن ذكر الديمقراطية مما يطعن فى اشتراكية الحركة الشعبية ذاتها. ولم يطل مع ذلك صمت الحركة عن الديمقراطية. فقد صدرت عنها بيانات مختلفة تشجب الديمقراطية الليبرالية. ويرى لام أن هذا الجفاء للديمقراطية الليبرالية هو الذى حال دون الحركة ودون الخروج بتحليل واقعى مفيد لانتفاضة أبريل ١٩٨٥. فلم تكن الحركة مستعدة برنامجيّاً للحديث إلى الأحزاب الطائفية التقليدية. فهذه الأحزاب هى قوام الجماعة التى وصفتها الحركة بالصفوة العربية المبتذلة المتبرجزة، التى يقع لها الحكم والسلطان عن طريق الانتخابات متى ما استردت البلاد نظاما ديمقراطياً ليبرالياً من براثن نظام عسكرى. وهذه حقيقة لا سبيل دونها بدفن الرؤوس فى الرمال إلا بثمن سياسى فاجع. وقد كان فرع الحركة الشعبية بالخرطوم، الذى كان لام من قادته، قد لفت انتباه قيادة الحركة العليا لمراجعة موقفها من خصام الأحزاب الطائفية التقليدية. واستمعت الحركة للقول واتبعته وأخذت تتعامل مع الأحزاب التقليدية. وقال لام أن انتفاضة أبريل، التى ازدرتها الحركة أول مرة، هى التى حلت عقدة لسان الحركة المزمنة عن ذكر الديمقراطية الليبرالية. فاصبحت الحركة تلهج بذكر هذه الديمقراطية، وتنتمى إليها، وتزعم أنها تدير شئونها، كجماعة سياسية، على هدى مبادئ هذه الديمقراطية. وفخرت الحركة بأن قراراتها لا تصدر إلا بعد نقاش مستفيض طويل فى خلاياها وإطاراتها. وهذا بالتحديد ما زعمه قرنق فى رسالته للسيد الجزولى دفع الله، رئيس وزراء حكومة الانتفاضة، رداً على رسالة كان تسلمها منه. وجاء هذا التوضيح فى معرض تبرير قرنق لتاخير رده على رئيس الوزراء. ولم يكن زعم قرنق عن ديمقراطية حركته صحيحاً. فقد كان معلوماً لكادرات الحركة أن قول قرنق للجزولى قول مجانب للحقيقة لخلو الحركة من كل إطار سياسى سوى القيادة العليا التى هى دمية فى يد قرنق. فلم تكن تعرف عن خطاب الجزولى لقرنق هذا حتى جماعة فى القيادة العليا نفسها التى لم تجتمع أبداً لمناقشة الخطاب. ولم يرد قرنق على الجزولى إلا بفضل إلحاح السيدين مارتن مانيل والطاهر بيور. وكان تأخر رد قرنق على الجزولى تباطؤا مقصودا، وهذا سبب بعيد عما روج له قرنق عن الحركة وديمقراطيتها. وقد حمل رد قرنق شروطه للتفاوض مع الحكومة وهى الشروط المعجزة التى يعتقد لام أن الحركة قد تورطت فيها وظلت تحملها بشكل عقيم من مائدة مفاوضات مع الحكومة إلى أخرى كما تقدم.



منذ أن وطئت أقدام لام الحركة الشعبية وجد نفسه داخلاً فى عالم قرنق الكافكى. فقد جعله قرنق عضواً بالقيادة العسكرية العليا فى لمح البصر حتى قبل أن يتلقى التدريب العسكرى المقرر. وأعجب من ذلك أن قرنق، أو أى قيادى آخر، لم يبلغه بهذا الترفيع المفاجئ. وقد تلقى لام التهنئة على هذه الترقية من أحد ضباط الحركة وفى حضرة قرنق. وكان هذا الضابط قد سمع النبأ فى إذاعة الحركة. ولم يجد قرنق بداً من أن يمد يده للام بالتهنئة قائلاً «مبارك، طالما أصبح ترفيعك معلومةً عامةً الآن». وكانت هذه خطوة لام الأولى فى عالم قرنق الكافكى. فقد ظل شاغله أن يعثر على هذه القيادة العسكرية التى تمّ ترفيعه لعضويتها. فقد بحث طويلاً عن دستورها ولوائحها الداخلية ولم يوفق إلى شىء من هذا حتى خرج من الحركة. ولم يسمع عن هذه القيادة إلا ما يترامى إليه وهو فى الجبهة أو المؤخرة عن اعتقال بعض أعضاء القيادة العليا مثل كاربينو، نائب القائد العام، وأروك.

وتكمن تراجيدية موقف لام فى أنه اختار هجرة بيئة سياسية واجتماعية فى الخرطوم تميزت بليبرالية نسبية، على عنتها العظيم، إلى الحركة الشعبية طمعاً منه فى صحبة رفاقية لتغير ظلم الجنوبيين بقوة وبالقوة. وخاب ظن لام ووجد نفسه حبيس عالم قرنق الكافكى. وما بكيت من شىء إلا بكيت عليه. لقد جاء لام أكول من بيئة نقص الحرية فى الخرطوم ليجد أن الحركة الشعبية هى بيئة للإجهاز على الحرية. فلم يمنع عنت بيئة الخرطوم ومصادراتها العرقية لام من أن يكون له مقبض عليها، ورأى فيها، وصحبة ماجدة فى فعل تغييرها كما هو واضح فى دوره القيادى المرموق فى انتفاضة أبريل ١٩٨٥. ظن لام أنه سيستثمر الكفاءات والمواهب والصنائع التى استفادها من بيئة نقص الحرية فى الخرطوم ليغنى ويثرى بيئة الحركة الشعبية التى هى ملاذ الخلاص الجذرى لجنوبى مثله مشغول بحالة أهله. فآيات إحسانه وانضباطه فى الحركة الشعبية، كما جاءت فى كتابه، هى بعض مهاراته كأكاديمى ونقابى وسياسى فى المجتمع المدنى السودانى. كان قرنق قد دعاه إلى الانضمام إلى الحركة فى بداياتها فلبى لام النداء. وكلفه قرنق بالبقاء فى الخرطوم حيث هو ليروج للحركة ويجند لها خيرة أبناء وبنات المناطق المهمشة وغير المهمشة فى الوطن. وأبلى البلاء الحسن فى هذه المهمة حتى لفت النظر إليه فاعتقل اعتقالاً أضطره إلى الهجرة إلى الغابة بعد الإفراج عنه.

جاء لام إلى مكتب الحركة فى أديس أبابا فوجده خلواً من أى نظام متفق عليه لفهرسة وثائق ومكاتبات الحركة ومسك دفاترها. فساءه هذا النقص فانكب على مهمة الفهرسة وانجزها فى أقل من أسبوع. كما حمل خبراته هذه إلى مائدة المفاوضات فى صلاحيته كرئيس لوفود الحركة التى جلست إلى وفود أخرى من حكومة السودان كما حمل كفاءاته هذه إلى المؤتمرات الأكاديمية، التى مثل فيها الحركة، أو فى مهامه لإعادة تنظيم هيئة الإغاثة والتنمية والإنتاج بالحركة، أو فى التحقيقات التى قادها حول إهمال فى الأداء أو فى البطش بأموال الحركة. وكان حضور خبراته الأكاديمية والنقابية ساطعاً فى كل هذه الأداءات. كانت له أذن يقظة تلتقط دقائق النبض السياسى ويد كالنول تغزل خيوط التعاطف مع الحركة. وقسم الملاحق من كتاب لام، الذى شغل ١٠٢ صفحة من كتاب ذى ٤٣٠ صفحة، شاهد على هذا الحضور. وقد حوت الملاحق الرسائل المتبادلة بالراديو بين الكاتب وقرنق وبقية أفراد القيادة، وبعض خططه العسكرية ومشروعاته لإصلاح الخطأ التنظيمى فى الحركة، ووثائق المبادرات المختلفة التى ساهم فيها لحل النزاع السودانى. إن حرصه على حفظ هذه الأوراق لخمس سنوات من حياة مترحلة بين الغابة والحضر، وبين الجبهة والمؤخرة، لتعكس حسا بالتاريخ مرغوبا فيه فى الكادر السياسى وتدريباً حسناً فى الولاء للوثيقة.

ومع انضباط لام فى تنفيذ المهام الموكلة له فهو لم يتخل عن عادة التفكير فى بواعثها وسياقاتها ومآلاتها وملاءمتها لظرف الزمان والمكان. فهو لم ير مثلاً فى اتفاقية السلام مع السيد محمد عثمان الميرغنى زعيم الحزب الاتحادى ١٩٨٨، التى سار بذكرها الركبان، سوى طبعة ثانية أو متاخرة لاتفاقية كوكادام التى وقعتها الحركة فى عام ١٩٨٦ مع سائر الأحزاب والمنظمات السودانية خلا حزب السيد محمد عثمان الميرغنى. وبدا للام أن السيد الميرغنى قد احتاج لاتفاق مع الحركة إثر خلافته اللاحقة مع الأحزاب التى ائتلف معها أو اختلف حول كراسى الحكم. ومن ذلك أن لام سمع قرنق يتحدث عن تكوين حكومة جنوبية بعد معركة ما ضد الحكومة فخطر له مباشرة بؤس الفكرة لأن القائد لم يطلع أحداً من القيادة العليا على نيته المبتكرة هذه.



غير أن عادة الولاء للخاطرة، والثبات عند انثيالها، والصبر على تبعتها، هو طبع لم تأذن به عقيدة الزعيم ضاربة الأطناب فى النظم الحديثة فى السياسة السودانية. وهى عقيدة ستالينية المناطق الحارة التى جمعت بين أسوأ ما فى البطريكية التقليدية وطقوس عبادة الفرد فى أحزاب الماركسيين وأشياعهم. ولما حاربت أحزابنا الخاطرة صوحت وهجرت أذكى الطيور سربها. ولم يبق فيها إلا الفدم وصاحب الحاجة الأرعن والمرجئة الذين عطلوا نقد حركتهم خشية أن يفيد منه العدو ومادروا أنه يتسرب من ثقوب الصمت و التواطؤ. وتأخرت بذلك تنشئة عادة الديمقراطية فى قصورنا المشيدة. فقد رأينا لام يلح بخاطر ديمقراطى على تقنين سلطات وإجراءات وأحكام ونظم القيادة العسكرية والسياسية العليا، مركز الحركة وعصبها. ولم تستبن الحركة إلا ضحى الغد. فقد كونت القيادة لجنة فى اجتماع توريت، الذى انعقد خصيصا لإدانة خروج لام على الحركة، لجنة لذلك التقنين بمقتضى القرار رقم ١٦ الصادر ضمن قرارات أخرى لحصر الانقسام وضبطه. وهكذا لا تصغى النظم السياسية عندنا لأهل الخاطرة النافذة فيها إلا بعد رحيلهم عنها، وفى سياق الالتفاف على مظالمهم منها وتهوين شانها. ولا غرابة أن غاض ماء البئر فى حين ظنت القصور ألا نفاد لها.



الكتاب الثانى فى الجنس الكتابى «وخرجوا بغصة منه» هو كتاب نزاع السودان للسيد محمد هارون كافى الذى خرج على الحركة الشعبية وقيادة قرنق فى جمهرة من رفاقه من شعب النوبة فى عام ١٩٩٦ ووقع اتفاقية للسلام مع الحكومة عام ١٩٩٧. وكان كافى فى السبعينيات فى طليعة الباحثين فى الثقافات غير العربية. وجعل ثقافة شعب النوبة، أهله، الذين يسكنون وسط غرب السودان، شغله. وأصدر كافى كتاباً حسناً عن أدب هذه الجماعة هو كتاب الكجور. والكجور هو العراف بين النوبة. وترافقت عناية كافى بثقافة أهله بانشغاله بهامشيتهم السياسية. وكان فى طليعة الجهود التى سبقت انتفاضة ١٩٨٥ واتصلت بعدها لتعبئة قوى الريف فى تحالف سياسى عريض. وكان من بين من رأوا وعد الانتفاضة لأهالى الأطراف يتبدد بعد عودة الأحزاب السياسية التقليدية وغير التقليدية، المتهمة بالزيغ الثقافى العربى، إلى سدة الحكم.

وستجد فى انجذاب كافى للحركة الشعبية ١٩٨٦ ذلك السحر الذى سرى من ميثاق الحركة إلى أفئدة وعقول أبناء وبنات القوميات غير العربية. فقد توافقت نفس كافى مع دعوة

الميثاق إلى الحرية والاشتراكية ووحدة السودان الديمقراطي وشجب الحزبية، التي هي عبارة أخرى عن سيادة الثقافة العربية والإسلامية وحملتها على مصائر البلاد. وبقى كافي وغيره في الحركة حتى خرجوا منها بغصة بعد أن سرتهم أول الأمر. فقد أخذ كافي في كتابه على الحركة أنها، برغم إلحاحها لفظاً على كونها منبراً لكافة مهمشي البلاد، إلا أنها ظلت تغلب المشكل الجنوبي على ما عداه. وترتب على ذلك أن أصبح معذبو الأرض كشعب النوبة منفيين في الحركة الشعبية نفيهم عن مركز السلطان الحكومي. وليس أدل على ذلك من قرار الحركة الشعبية ضم منطقة أبيي، التي هي عظمة نزاع طويل بين الشمال والجنوب، إلى الإقليم الجنوبي بغير استشارة أبناء إقليم كردفان، ومنهم النوبة، الذين يعدون أبيي جزءا من إقليمهم. كما لم تعتن الحركة بالسوية في تمثيل كادر النوبة في مؤسساتها بما يتناسب مع وجودهم الغزير بين مقاتلي الحركة حتى قال كافي أنهم بلغوا بين ٦٠٪ إلى ٨٠٪ من عدد جيش الحركة الذي قاتل في إقليم الاستوائية وانتصر على الحكومة في مواقع معلومة.

ولم تحسن الحركة الشعبية لكادر النوبة من وجوه أفحش كثيراً مما ذكرنا. فقد أبعدتهم إلى القتال في جبهات للحرب بعيدة عن أهلهم. وكان من المبعدين هؤلاء كافي نفسه. وكانت الحركة شديدةً في ضبط كادر النوبة. فقد قتلت المرحوم يوسف كندة كودي وهو يحاول العودة إلى جبال النوبة. كما جرت تصفية القائد المناوب عوض الكريم توتو تيه وآخرين اتهمتهم الحركة بالميل للام أكول ومشار، اللذين شقا عصا الطاعة على قرنق عام ١٩٩١. وقد جرى تعذيب لهؤلاء المتهمين بمشايعة العصاة بعد أخذهم في رحلة طويلة من جبال النوبة إلى حدود السودان الجنوبية لمحاكمتهم. وجاء كافي في كتابه بقائمة من ٤٣ اسماً من النوبة وعرب إقليم كردفان ممن صفتهم الحركة الشعبية. وقال كافي أن أطفال النوبة الجنود كانوا بمثابة «مخزون استراتيجي» يدفع بهم قرنق إلى حومة الوغى متى تراخى كبار النوبة عن خوض الحرب.



أما كافي نفسه فقد تجرع ويلات عالم قرنق الكافكي وشقىَ بعشوائيته. وهو عالم في بؤس رد الجميل. فكثيراً ما وردت في كتاب كافي مثلاً الجملة الاعتراضية «كان فلان يقول أنه أخلص الناس لقرنق ولكن اعتقله قرنق فيما بعد». وشقىَ كافي بغلظة ذلك العالم. فقد التقى يوماً بجماعة من رفاق الحركة على ظهر عربة ما في موضع ما. وقد استرعى انتباهه أنهم سألوه عن الأحوال والأهل من حيث جاء هو بلهفة وسرعة. واكتشف مؤخراً سر سرعتهم. فقد كانوا رفاقاً معتقلين مرحلين بواسطة الحركة. وانتهزوا فرصة لقائهم العابرة بكافي للسؤال عما أرادوا السؤال عنه بسرعة فلربما تحركت العربة قبل أن تنفد أسئلتهم.

وشقىَ كافي بزبانية عالم قرنق الكافكي. فقد اشتهر الضابط بول مادوت، قائد منطقة ومعتقل جبل بومة، بالشدة. وكان يحشر معتقليه في زنزانة هي عبارة عن حاوية جوها ساخن ولا دورة مياه فيها. وكان مادوت يقرأ الخطابات التي ترد للمعتقلين قبل تسليمها لهم. غير أنه كان طريفا أحياناً. فقد طلب من كافي أن يأخذ له صورة وهو يتوسط خرافه ونعاجه الطليقة.

وبقيت في خاطر كافي بعض وصايا الضحايا عالم قرنق الكافكي. فقد رأى كافي السيد جوزيف أدوهو، من آباء الحركة



في وصف الحالة السودانية

كان قرنق يبذل طاقته القصوى للبرهنة على أنه قائد سياسي وعسكري فذ في آن معاً. فأضحت الحرب عنده شغلاً للنصر لا للتسوية متى ما لاح سبب قوى لها. ولذا كان يلزم نفسه بحضور كل العمليات الحربية متى ما عن له أنها قد تؤدى إلى سقوط مدينة ما

الجنوبية، في معتقل بومة. وقال عنه أنه قتل في آخر الأمر «في ظروف معتمة». وانتهز أدوهو سانحة لقائه بكافي ليستودعه وصايا وحشة وصقيع المعتقل. سأل كافي عن زوجته التي كانت تقيم بأديس أبابا. ووصاه أن يذهب إليها ويطلب منها أن ترسل جوارب صوفية طويلة وغياراً ومذياعاً صغيراً. كما سأله أن يطلب من ابن أخيه أن يرسل له بطانية. والتمس أدوهو من كافي أن يذهب إلى مدينة كبيوتا ويلتقي السيدة روز، زوجة أخيه، وأن يقول لها أنه بخير. واستمع كافي إلى وصايا آخرين من ضحايا الحركة. فقد حمّله البروفسير بول أنادي أنيو، الذي خرج على الحركة ومات في معارك خاضها ضد جيش الحركة، رسالة إلى زوجته الأمريكية التي تدرس الأدب الإنجليزي بولاية نيويورك.

لقد نعى كافي الصدق الثوري في الحركة. فقد تبددت الزمالة وخلقها في الحركة من جراء العالم الكافكي الذي سادها. فقد حزّ في نفس كافي أن يتأخر الدكتور منصور خالد والسيد ياسر عرمان عن التوسط لدى قرنق لإطلاق سراح صديقهما الصدوق أروك تون. كما اختطفت الحركة الدكتور كارلو مادت من قطر مجاور وأخذته إلى حدود السودان، وقيده رفاقه وربطوه بحبل إلى حجر ورموه في بحر الجبل. وحكى كافي عن كيف تقمص حرس قرنق دور البوليس الكيني وألقوا القبض على أروك تون، العضو الأصيل بالقيادة العسكرية العليا للحركة الذي اعتقل في ١٩٨٨ حتى هروبه من السجن في ١٩٩٣، في منزله في مدينة نيروبي. ولم يشفع له إلا تدخل البوليس الكيني الذي كان يراقب حرس قرنق، فتدخل، وعاد بأروك إلى داره.



وعاش كافي عالم قرنق الكافكي في خاصة نفسه. فمنذ أبعد من جبال النوبة، دار أهله ومرتع غضبته السياسية، في عام ١٩٨٠ أصبح في حال «ملطشة» من المهام. فقد نصبته الحركة خبيراً ثقافياً غير أنّ المهام التي أوكلت إليه كانت باباً في الكيد له وسبباً لإقصائه. فبعد تكليفه بمراسلة الصحف الاشتراكية والثورية بأخبار الحركة ووجهاتها لم يمكث كافي سوى أيام معدودة في الوظيفة ليؤمر بليل ليمتطي عربة متحركة إلى موضع آخر ليؤدي مهمة أخرى. وبعد تحويله إلى مركز البحوث، الواقع في حيز مسئولية القائد العام، تلقى إشارة للذهاب إلى دار قبائل بعينها في إقليم الاستوائية ليدرس أوضاعها الاجتماعية. وهي قبائل لم تجد الحركة بينها موطئ قدم وكان يجري وصفها عند كادر الحركة بـ «التوحش» جرياً على عادة الإنجليز. وقد بدا لي كافي هنا في حذاء الأنثروبولوجي الاستعماري الذي كان يوفد ليدرس ديناميكية العصيان عند البدائيين حتى يتسنى للاستعمار، بفضل مثل هذه الدراسة، كسر شوكة مقاومتهم وترويضهم على قبول حقيقته. وتشكك زملاء لكافي في طبيعة هذه المهمة الأخيرة وخشوا عليه من خاتمتها. فقد قال له زميله يونس أبو صدر «اذهب وفدنا أين أنت. فسنتحرك إن حدث لك مكروه». ولم ينتظر أبو صدر هذه الإفادة من كافي الذي قال «وكانت المقادير فقد اغتيل أبو صدر قبلي».

الفصل الرابع من كتاب نزاع السودان قطعة روائية غراء ضلت سبيلها إلى هذا السفر السياسي. فالفصل عذب جداً لأنه ثمرة خبرة واستثمار روحي شفيف طويل لكاتب مطبوع. فقد خبر الكاتب الحرب الأهلية، وهي أفحش الحروب، عن كثب. فالحرب الأهلية حرب إخوة. وعلى بشاعتها، فهي أيضاً ساحة إلفة وتعارف لهؤلاء الإخوة الأعداء واكتشاف عسير لمسارب هذه الأخوة التي لا تبدو للعيان. والحرب في كتاب كافي هي ما علم وذاق «وما هو عنها بالحديث المرجم». فمن مفاجآت هذه الأخوة الدفينة ما رواه كافي عن الجنوبي الذي استغرب لوجود شمالي من جند الحركة ذي لون «منقاوي» بين محاربين سود. ولم يجد الجنوبي ما يصف به زميله المحارب الشمالي إلا بقوله «أنه يشبه أسرى الحرب». فلم يعرف هؤلاء المحاربون السود من الشماليين إلا الخصوم في جيش الحكومة. وما كانوا ليقتربوا من هؤلاء الخصوم إلا حين يقع الواحد منهم أسيراً في قبضتهم. وهذه صورة عجيبة في جدل الألفة.

لا أذكر أنني قرأت مؤخراً شيئا في كثافة وعبثية الصورة الأدبية مثل وصف كافي لنهر البارو في أثيوبيا الذي عبره «داخل أكمة ملأى بالقرود والظلال». ولم يقع لي قريباً وصف في الاستثناء له طرافة وصف كافي لأحد المقاتلين في الحركة الشعبية. كان الرجل من شعب التبوسا الجنوبي وهذا شعب من العراة لا تخجلهم دون العري فكرة الستر وقد تستهويهم الملابس فيختارون منها ما يروقهم دون اشتراطهم الستر. وكان الرجل رائدا في جيش الحركة الشعبية وقد ارتدى بدلة وضع عليها علامة رتبته العسكرية وبقي في ماعدا ذلك عارياً كما ولدته أمه. قال كافي عن الرجل، وقد رآه يوماً، أنه «ظل يسير عارياً تماماً سوى من غنائه العالي المصاحب مشيته عبر الجو الساخن».



تمط الحرب الواقع مطاً لم يخلق له وتدمجه بالخيال دمجاً لا يتوقعه أحد. وحكاية كلاب مدينة توريت الجنوبية مثل على هذا الهجين المفاجئ من الواقع والخيال. فقد وصف كافي كيف اتفق لهذه الكلاب عادة جديدة من فرط الحرب وطولها. فإذا جاء النهار، وهو موعد قصف طائرات الحكومة للمدينة، تنادت الكلاب واجتمعت وهجرت المدينة ولاذت بالغابة. وكانت تعود إلى البلدة ليلاً حين يتوقف قصف الطائرات. وكان تنادي الكلاب لهجرة المدينة عويلاً فاجعاً. وكانت تعود في المساء بنفس النشيج الفاجع. فتامل.

يستمد هذا الفصل البديع في الكتاب نفسه الروائي من استثمار آخر في مؤسسة الحرب الأهلية. فقد أودع شماليون تقدميون، من الناقمين على استعلاء قومهم وظلمهم للجنوبيين، أملهم في حالة سودانية مستقبلية مثلى بالانضمام إلى جيش التحرير في الحركة الشعبية. وأخذهم هذا القرار إلى الغابة الجنوبية الاستوائية التي وصفها كافي بأنها «عديمة اللغة العربية». وحمل هذا الرعيل الشمالي عادات التقدميين الشماليين في الزهادة ومحبة الشعر العربي والقراءة إلى «خط تقسيم المياه (الاستوائي) حيث الأدب العربي بعيد». وروى كافي عن أحدهم الذي احتفظ بمقال لكاتب مغربي لسنوات خمس منذ انضمامه للحركة في ١٩٨٧. وقد أظهره لكافي وآخرين في قلب الغابة عام ١٩٩٢. وكان هؤلاء النفر من الشماليين المحاربين إذا خلوا تجاذبوا أطراف الشعر وبخاصة شعر الأستاذ محجوب شريف ذي المزاج الثوري الأنيق. وكان كافي يترجم النصوص إلى الإنجليزية لفائدة من لا يحسنون العربية.

نشأت من سانحة هذه الهجرة الشمالية إلى الجنوب نصوص هجين غاية في اللطف والدلالة. وقد عرّف هومي بهابها، الكاتب الهندي، النصوص الهجين، التي تنشأ في خلطة الثقافات، بأنها نصوص «مقردة mimicry» بقرينة المحاكاة. فمفردات ثقافة ما تلتبس بمفردات ثقافة أخرى، يقتحم واحدها الآخر، وتتوالد بصورة عشوائية يضحك لها الناس. وأكثر ما يضحك الناس ربما هو أن هذه النصوص، لفرط هجنتها، تزهد الناس في الصفاء الثقافي الذي يزعمونه أو يشتهونه. فقد فوجئ كافي يوماً بأن الغابة الاستوائية الوثنية، التي تعبئ الحكومة الطاقات لأسلمتها وتعريبها في زعم الخصوم، قد شهدت بأن لا إله إلا الله حتى قبل أن تحيق بها الهزيمة المرجوة. فقد سمع كافي شجار امرأتين من الجنوب تبادلتا فيه عنف اللغة والنعوت. ثم فجاة قالت إحداهما للأخرى، وهما ما تزالان في عنف الشجار، «بسم الله الرحمن الرحيم». وسيكون مثيراً أن يعرف المرء لماذا احتاجت هذه المرأة غير المسلمة إلى البسملة في السياق والزمان والمكان.

ومن أنماط المقردة في حرب الإخوة ما رواه كافي عن ما جرى لكمال الوسيلة وهو من الشماليين الذين التحقوا بالحركة. فقد سأله يوماً ولسن كوور، الجنوبي الذي درس بالشمال وعمل في الجيش السوداني حتى صار ضابطاً ثم انضم إلى الحركة، قائلاً:

* أنت قلت اسمك منو؟
* كمال الدين الوسيلة.
* الوسيلة ولا الوسيطة؟
* الوسيلة.
* أنت عارف اسمك الوسيطة مش الوسيلة.
* لكن أبوي اسمه الوسيلة مش الوسيطة.
* اسم الوسيلة دا ما حصل سمعت بيهو.

أنت اسمك كمال الدين الوسيطة مش الوسيلة.

* يا عم ولسن أنت عارف لو أبوي سمع اسمو ذي دا بعدين يزعل.

وضحك الحضور بما فيهم كوور وكمال. لقد احتاج كمال أن يستل الصواب من غمده الشمالي ليرد غائلة هذا التصحيح الجنوبي الجزافي على عقبيه.

وظل كمال الوسيلة، وليس الوسيطة، في مهجره الاستوائي نهباً لهذه النصوص الهجينة. ولم يكن دائماً هدفاً لها. فقد كان هو البادئ أحياناً. من ذلك ما رواه كافي عن حكاية كمال مع مارجريت الشايقية. وهذا الاسم، مارجريت الشايقية، نص مقردة في حد ذاته. فقد نسب النص مارجريت، وهي جنوبية، إلى شعب الشايقية وهم قوم شماليون في أقصى الشمال. وقد قال كافي أنه لا يدري لماذا نسبت مارجريت إلى الشايقية الذين ينعى عليهم حتى أهل الشمال دهاءهم وطول حيلتهم في بلوغ المارب. وتجرى قصة مارجريت والوسيلة على هذا النحو. جاءت مارجريت نحو عربة توقفت عند حيّهم وكان بالعربة الوسيلة وصحبه من الحركة الشعبية. وكانت العربة محملة بخيرات الاستوائية من موز ومانجو. قالت مارجريت للوسيلة:

* ادوني موز معاكم.

فرد الوسيلة:

* أنت عندك ولد؟
* لا. أنا لسه ما ولدت. . . ليه؟
* الموز دا بدوه للمرة العندها ولد.
* ولو ما ولدت؟
* ولو ما ولدت يونسوها، يونسوها لحد ما تلد بعدين يدوها موز.

لقد استدعى الوسيلة هنا كلمة «يونس» التي هي «يؤنس» في لهجة عرب السودان. غير أنها أضحت تعني في مصطلح الجنوبيين، الذين استلفوا الكلمة، الفعل الجنسي أو الجماع. ويبدو أنّ إيحاءات الوسيلة الجنسية أغضبت مارجريت فنادت كافي وسألته عن أصل الوسيلة وفصله فقال كافي:

* هو من (مدينة) شندي (أي جعلي وهم شعب من الشمال) معانا في الحركة.
* الزول دا هو ذاتو برجوازي.



وضحك كافي لما رأى النص الذي استمع إليه قد ازدحم بما فوق طاقته من الثقافات بما في ذلك الثقافة الماركسية التي كانت سادت ثم بادت في الحركة الشعبية كما رأينا فيما تقدم.

إن النصوص التي استعرضناها استثمار سوداني فريد جمع في هجنة تراجيدية أقباساً عربية وإسلامية أفريقية وماركسية عبر سد حشائش النيل المعروفة التي حجبت الشمال عن الجنوب حيناً طويلاً، وعبر حبائل الاستعمار الذي عمق الفجوة بين شقي القطر،

في وصف الحالة السودانية



جاء لام أكول من بيئة نقص الحرية في الخرطوم ليجد أن الحركة الشعبية هي بيئة للإجهاز على الحرية. فلم يمنع عنت بيئة الخرطوم ومصادراتها العرقية لام من أن يكون له مقبض عليها، ورأى فيها، وصحبة ماجدة في فعل تغييرها كما هو واضح في دوره القيادي المرموق في انتفاضة أبريل ١٩٨٥



وعبر عنجهية النظم المركزية السودانية بعد الاستقلال التي زادت الطين بلة. وقد أينعت هذه النصوص في حنايا الغاب الجنوبي بفضل الحركة الشعبية. ولا يتفاءل المرء بأن هذه النصوص الذكية ستفضي بنا إلى الوطن الهجين الجميل. فالحركة الشعبية التي أذنت بميلاد هذه النصوص قد كسدت فيها الحرية التي هي شرط نماء هذه النصوص ووعدها وخيرها. ويكفي أن كافي الذي نقل لنا خبر هذه النصوص قد آثر أن يغادر الحركة من فرط غلظتها وانسداد دروبها في وجه الحق حتى صارت حركة تنزف شجاعة وتغيب عنها الحكمة.



خاتمة

هذه كتب عن الغصة التي تجرعها هؤلاء الكتّاب في تنظيم سياسي أودعوه حلمهم في وطن مغاير وخاطروا بحياتهم فداء له وهو في رحم الغيب. وقد رأيت فيها حجراً يرمى في ماء البئر المعطلة لتجديد النظر وإعمار القصر. وسينتقص من فعل هذه الكتب المرجو في الإصلاح أن نلقاها باللعن أو بالتبخيس من فرط تعلق بعضنا بما وجدْ عليه الآباء. وقد ناش اللعن والاتهام أصحاب هذه الكتب لدى خروجهم من الحركة الشعبية. فقد لعن المطران مكرم ماكس، مطران كنيسة النوبة، الجماعة النوبية التي خرجت من الحركة الشعبية، ومنها محمد هارون كافي، وابتهل في صلاة جامعة إلى الله أن ينزل بهم عذابه. وكاد اليساريون والعاطفون الشماليون على الحركة الشعبية، من جهة أخرى، للام أكول اتهموه بالتخاذل عن رفاق الحركة و ببيع القضية رخيصة لحكومة البشير. وقد أزعج هؤلاء اليساريون والعاطفون تجديد لام وصحبه لمسالة انفصال الجنوب عن السودان بطرحهم لمبدأ تقرير المصير للجنوبيين. وهو مبدأ هدتهم له قناعتهم باستحالة عيش الجنوبيين في نظام كنظام دولة الإنقاذ التي لا يرونها نشازاً، كما يراها خصومهم الشماليون، بل مرحلة أعلى في مشروع أسلمة وتعريب السودان. وهو المشروع الذي يعتقد الجنوبيون أنه لم تتعفف منه حكومة سودانية واحدة منذ الاستقلال في ١٩٥٦.

وكان التقدميون قد انتهوا إلى تكفير كل داع إلى انفصال الجنوب. فقد اعتقدوا يوماً في هذا المبدأ الجميل والتزموا به وعطلوا كل اجتهاد آخر برغم المشاهد من نزيف والتواء حال السودان من جراء الحرب الأهلية. وقد استهوى قرنق هؤلاء التقدميين لأنه ظل يلح على الوحدة. هي وحدة مشبوهة في نظر خصومه لأنها في رأيهم لن تقع إلا بشروط قرنق وتحت زعامته. وأكثر ما أغرى التقدميين في الحركة الشعبية هو طلبها لوحدة السودان. وهذا رصيد سياسي يعول عليه التقدميون. فحجتهم على علمانية الدولة تقوم على تنوع السودان الثقافي والديني والعرقي. فإذا انسحب الجنوب عن السودان ضعفت هذه الحجة و أضحى دعاة العلمانية في قلة وتخطفهم حزب تديين الدولة وهو حزب كبير.

يبدو أن من خرجوا من الحركة الشعبية قد لقوا الأمرين من التقدميين حتى سماهم كافي في كتابه بـ «التقدميين جزافاً». وسيجد القارئ سوء كيل التقدميين والعاطفين على الحركة الشعبية للام أكول وصحبه في كتاب الدكتور منصور خالد المعنون نداء من أجل الديمقراطية في السودان الذي هو الطبعة الثانية المنقحة المزيدة لكتابه المعنون جون قرنق يتحدث (١٩٨٧).

وهو كتاب خال من المروءة لكاتب ما انفك يسالنا نحن السودانيين الشماليين بالتحلي بعمق الذاكرة في مواجهة ما أسماه بعارنا السياسي حيال الجنوب حتى نقوم اعوجاجنا الثقافي والتاريخي بشجاعة. فقد تفادى الكتاب الذاكرة المشوبة وراء خروج لام ومشار من الحركة الشعبية. وانحدر إلى درك معلوم في تنزيه الزعيم، العقيد قرنق، عن المماثلة والتحدي من مثل ما كان ينشر عن الزعيم كيم ايل سونغ في إعلانات شغلت الصحف العربية والأجنبية دهراً طويلاً. فقول منصور أنّ انقسام لام ومشار لم يهز جنان قرنق الذي ظل «ثابتاً على دفة المركب» هو من دارج أدبيات كيم إيل سونغ. وقد استنكر منصور على لام ومشار الحديث عن الديمقراطية بينما يعرف القاصي والداني فخرهما بيساريتهما وأن من عصبتهم من كان يفخر بماركسيته الفاقعة على الملا. وهكذا أوقع منصور طلاقاً بائناً بين اليسار والديمقراطية على أنه غير مأذون في هذا الفقه. واعتذر منصور عن تجاوزات الحركة بقول رديد عن حرج الظرف ومقتضيات الكفاح. وقال عن تجاوزاتها لحقوق الإنسان فيها بأنها من المقدور أن تقع في حركة هي حزب وجيش ولا يجوز عقلاً أن تمتحن بمعايير عالمية إنسانية لحقوق الإنسان. وجاء منصور بحكاية «دموع التماسيح» التي لا يصح تبخيس إنسان بدونها. فقد استغرب لاحتجاج لام ومشار على خروق الحركة للحقوق الإنسانية ووصف تباكيهم عليها بأنها دموع تماسيح. وقال أنه حتى الحكومة السودانية ذات السجل المعروف في تجاوز حقوق الإنسان قد سبقتهم إلى هذا التباكي. وكان بكاء أناس مما يلغي مشروعية بكاء أناس آخرين. وجاء منصور بحكاية «الأجندة الخفية» التي لا يصح تجريد إنسان من حق النقد بدونها. فقد انتهى إلى القول بأن لام ومشار من ذوي الأجندة الخفية الخائنة التي انطوت على هجر الكفاح واستسلام للعدو يدفعهم إلى ذلك مزيج مرتجل من الياس والطموح الفطير. وهكذا لم يبق منصور مفردة من مفردات أدب التخوين اليساري إلا واستدعاها ليستاصل شأفة الدوائر التي تحركت في بئر الحركة المعطلة بفضل ذاكرة وشجاعة لام ومشار.



أكثر ما يفجع المرء في كتاب منصور ما يراه من تكذيبه للام ومشار تكذيباً جامعاً مانعاً. فقد جعل من ثقته في الزعيم قرنق وبيعته للحركة الشعبية سداً دون أن يسترق السمع إلى شكاة الرجلين عن ظلم الزعيم والحركة لهما. فقد عطل منصور بهذا آلة المثقف فيه، وهي استصحاب الذاكرة على علاتها بشجاعة، ليدين الخارجين بنص وحرف مقررات مؤتمر مدينة توريت لعام ١٩٩١ الذي عقدته القيادة العسكرية العليا برئاسة قرنق خصيصاً لمحاصرة الانقسام والسيطرة على آثاره. وهذا تأليف تعودنا عليه في الكتاب المعروف عن تاريخ الحزب الشيوعي السوفيتي الذي ما كانت تصدر منه طبعة جديدة إلا في مناسبة فراغ الزعيم من نصر مؤزر على أهل الزيغ والضلالة والنفاق في حزبه.

ربما أتاح مرور مياه كثيرة تحت جسر انقسام لام وكافي على الحركة الشعبية، أن تقرأ الحركة، وكادرها وجهازها القيادي بوجه خاص، هذه الكتب التي استعرضناها في كلمتنا هذه كجزء لا ينفصل عن ذاكرتها لا ذاكرة مضادة لمن ساءت نيتهم وارتعدت فرائصهم فباعوا القضية قبل صياح الديك. هذا إذا أرادت الحركة الإصلاح لقوامها والإحسان في أدائها بتحريك بئرها المعطلة حتى تتسع للنقد من حيث جاء كما اتسعت للثناء والبروبجندا. فهذا سبيلها الذي لا سبيل غيره لتجدد ولاء الكثيرين الذين اقبلوا عليها من خمول الهامش السوداني ثم ارتدوا عنها حين أضحت قصراً مشيداً تعطلت بئره فانشغل بهمّ الحكومة، لا الحكم، ودسائسها وترهاتها. ■

شـــركات الأدويــــة روجـــت لــــه



«إن ما نشـهده وبـاء حـقيقى». ومع ذلك لا يوجـد على حـد علم الجميع شيء يسمى بفيروس الاكتئاب. كيف إذن تحولت تلك القلة من مرضى المنخوليا فى خمسينيات القرن العشرين إلى ملايين المرضى فى تسعينيات نفس القرن؟



كلنا نعلم كيف يحدث الاكتئاب. ففى يوم من الأيام، وبدون سابق إنذار، تشعر على نحو غريب أنك منتزع بعيداً عن الأشياء والناس، كما لو كان يفصلك عنهم حائط زجاجي خفي. يؤدى الناس أعمالهم ولكن لسبب لا تفهمه لم يعد يستهويك أى شيء. بمقدورك الصراخ ولكن ما الجدوى؟ فأنت لا تستحق ذلك، ومبادرات الآخرين الودودة تبدو لك كأنها تأنيب له ما يبرره. بمرور الأيام يصبح الجدار أكثر سمكاً. وسرعان ما تصبح عاجزاً عن مغادرة منزلك أو حجرة نومك أو سريرك. الشيء الوحيد الذى يتبقى لك هو ألم الوجود ذاته. لم يعد بمقدورك أن تأكل أو تستحم أو تنام. فأنت متوتر ومجهد فى نفس الوقت. وتواصل التفكير فى المهدئات، وفى حد الموسى الذى سيسمح لك بقطع الأرق الرهيب.

لقد قرأنا جميعا مثل هذه القصص فى السير الذاتية أو فى المقالات الغزيرة المخصصة لهذا المرض الغريب بالصحف. ربما يكون الشخص المكتئب أحد أقربائنا أو جاراً أو زميلاً لنا. ربما تغدو قصته قصتنا. يقال إن الاكتئاب يهاجم امرأة من كل خمس نساء ورجلاً واحداً من كل عشرة. ويقدر انتشاره بين سكان العالم فى أى لحظة محددة بنسبة ثلاثة فى المائة. ويُقدم واحد من كل ستة مكتئبين على الانتحار.

على الرغم من ذلك ولحسن الحظ تطالعنا الأخبار من كل حدب وصوب بأن مرض الاكتئاب لم يعد قدراً محتوماً. فالعقاقير المضادة للاكتئاب يتم تداولها منذ منتصف خمسينيات القرن العشرين، والجيل الجديد منها - مثبطات إعادة امتصاص السيروتونين الانتقائية- SSRIsيفعل المعجزات. فتحت تأثير عقاقير بروزاك أو زولوفت أو باكسيل يجد الأشخاص الذين أصبحت حياتهم عبئاً غير محتمل متعة مجددة فى الحياة فجأة، دون الاضطرار للمعاناة من الآثار الجانبية الكريهة للجيل القديم من مضادات الاكتئاب، مثل مضادات الاكتئاب ثلاثية الحلقات وعقاقير MAOIs (مثبطات أكسدة المركبات الأمينية). ولا يمكننا أن ننكر أن الجيل الجديد يؤدى أحياناً إلى تقليل الطاقة الجنسية، بل والعجز الجنسى أحياناً عند الرجال؛ لكن هذا بالتأكيد ثمن ضئيل مقابل استرداد القدرة على الإحساس بالسعادة. الاعتقاد السائد الآن أن ٢٠ مليون شخص على مستوى العالم يتناولون عقار بروزاك، ونسمع تقارير حول عصر جديد من «علم العقاقير النفسى التجميلى» الذى تستخدم من خلاله العقاقير ليس لعلاج الاكتئاب الإكلينيكى فحسب بل لعلاج التقلبات المزاجية اليومية والقلق الوجودى. لذا وداعاً كيركجارد وهيدجر.

مع ذلك هناك مشكلة فى هذا التفاؤل العلاجى. فإذا كان صحيحاً أن مضادات الاكتئاب تعالج الاكتئاب حقاً، إذن كيف ينتشر المرض الآن أكثر من أى وقت مضى؟ يؤكد بقوة كتابا ألن إهرينبرج وفيليب بينار، بالإضافة لكتاب ثالث، نشر منذ سنوات قليلة من تأليف ديفيد هيلى، الحقيقة المتناقضة التى تقول إن الاكتئاب لم يكن على الإطلاق واسع الانتشار مثلما أصبح منذ ظهور مضادات الاكتئاب. لقد كان الاكتئاب دائماً معنا، بالرغم من اتخاذه أسماء أخرى وظهوره أحياناً بأشكال مختلفة فى كل عصر. فمنذ أبقراط وحتى الطب النفسى الحديث، توصف «المنخوليا» - أى الذهان الاكتئابى أو الاكتئاب «الباطنى» - فى ألفاظ ومصطلحات متسقة بشكل ملحوظ. ومع ذلك حتى وقت قريب للغاية كان هذا النوع من الاكتئاب يُعتبر نادراً جداً. يشير هيلى إلى أنه ما بين عامى ١٩٠٠ و ١٩٤٥، دخل ٥٠ فقط من إجمالى مليون مريض مستشفى شمال ويلز باعتبارهم مرضى بالمنخوليا. بالمقارنة يدخل اليوم ٩٤٨ مريضًا من كل مليون مريض المستشفيات النفسية بسبب «الاكتئاب»، ويعتبر ٢٦٨ مريضًا منهم مرضى بالمنخوليا أو الذهان بشكل حاد.

الأكثر إثارة للدهشة أنه عند اكتشاف الطبيب النفسى السويسرى، رولاند كون، فى منتصف الخمسينيات من القرن العشرين لآثار الإيميرامين المضادة للاكتئاب بالتجربة على مجموعة من المرضى الذين يعانون من الاكتئاب «الباطنى»، رفضت شركة الأدوية جايجى أول الأمر تمويل عملية تطوير العقار، لأنها رأت أن سوقه ستكون محدودة للغاية. وبعد أقل من أربعين سنة فى عام ١٩٩٤، أصبح بروزاك ثانى أكثر الأدوية مبيعاً على مستوى العالم بعد دواء القرحة زانتاك مباشرةً. فى غضون ذلك استشرى الاكتئاب بدرجة لا يمكن مقاومتها. وفى ١٩٧٠ قدر الطبيب النفسى هاينز ليمان حالات الاكتئاب على مستوى العالم بـ ١٠٠ مليون حالة. ففى الولايات المتحدة وحدها، قفز عدد الاستشارات الطبية المؤدية لوصف أدوية مضادات الاكتئاب من ٢,٥ مليون إلى ٤,٧ مليون. وفى فرنسا ارتفع الرقم إلى سبعة أضعاف فيما بين ١٩٧٠ و ١٩٩٦ وتم تسجيل ما لا يقل عن ١٤ مليون وصفة طبية فى عام ١٩٩٤، وتتوقع منظمة الصحة العالمية أن يصبح الاكتئاب قريباً ثانى أضخم مشكلة صحية عامة - وتحتل مشكلة مرض القلب المرتبة الأولى. يقول بينار «إن ما نشهده وباء حقيقى». ومع ذلك لا يوجد على حد علم الجميع شيء يسمى بفيروس الاكتئاب. كيف إذن تحولت تلك القلة من مرضى المنخوليا فى خمسينيات القرن العشرين إلى ملايين المرضى فى تسعينيات نفس القرن.

أكثر التفسيرات شيوعاً هى أن الاكتئاب كان دائماً حولنا، لكن تقدم العلم مكننا من التعرف عليه بسهولة أكبر. ففى عام ١٩٥٦، عندما أعلن رولاند كون اكتشافه، ظن أنه عثر على الجزيء المسبب تحديداً للاكتئاب «الباطنى» أو البيولوجى، مستثنياً اضطرابات العصاب الاكتئابى التى تُعزى لسبب «خارجى» أو نفسى. ومع ذلك سرعان ما شككت البحوث الدوائية فى هذا التمييز عن طريق إثبات أن جزيئات أخرى لها نفس التأثير من حيث تخفيف كلا النوعين من الاكتئاب. و قد كان واضحاً من تلك النقطة أن خطوة قصيرة فحسب تؤدى إلى الفكرة القائلة بأن نفس الاختلال الوظيفى البيوكيميائى قائم فى كل حالات الاكتئاب، ويمكن علاجه بعقاقير تستهدف التأثير على الإدراك أو السلوك تأثيراً إيجابياً.

وببساطة عن طريق تبديل الجزيئات وملاحظة آثارها، بدأ الباحثون يميزون السمات العامة لمستحضر جديد قابل للتطور فى مجال العلاج النفسى. و نظراً لأن عائلات مضادات الاكتئاب المختلفة أثبتت كذلك فاعليتها فى علاج كل أنواع الأمراض الأخرى، تم استنتاج أن هذه الأمراض ما هى إلا اكتئاب «مستتر» (قد يبدو ذلك استنتاجاً واهياً، فربما ينتهى البعض إلى أن تلك الأدوية ليست بمضادات اكتئاب). ومن ثم أضيفت على التوالى حالات أخرى إلى الاكتئاب وهى: نوبات الذعر، والقلق، والشره المرضى، واضطرابات الوسواس (الحواذ) القهرى، و«الرهاب الاجتماعى» (ما كان يسمى بالخجل)، والتوحد، وعَرَض توريت (نسبة إلى الطبيب الفرنسى جورج جيل دى لا توريت وهو اضطراب عصبى حاد يتمثل فى تقلصات لا إرادية فى الوجه والجسم - المترجم)، وسلس البول أو الغائط، وآلام الأعصاب والسرطان والمعدة والرقبة،



من الخطأ الاعتقاد بأن للأمراض العقلية حقيقة راسخة وأن دور شركة الدواء هو العثور على المفتاح الملائم لقفل محدد سلفاً... فى الوقت الحاضر نحن فى حالة تستطيع فيها الشركات ليس فقط السعى للعثور على المفتاح الملائم للقفل فحسب ولكن تحديد شكل القفل الذى لابد أن يلائمه المفتاح



La Fatigue d'etre soi: Depression et Societe
(تعب النفس: الاكتئاب والمجتمع)
Alain Ehrenberg
Odile Jacob, 414PP., £8.35

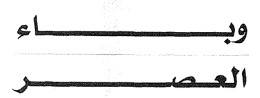
Comment La Depression est Devenue Une epidemie
(كيف أصبح الاكتئاب وباءً)
Philippe Pignarre
Decouverte, 2001, 92PP., $ 14.48

بترتيب خاص مع:
London Review of Books

ترجمة: هانى حلمى حنفى

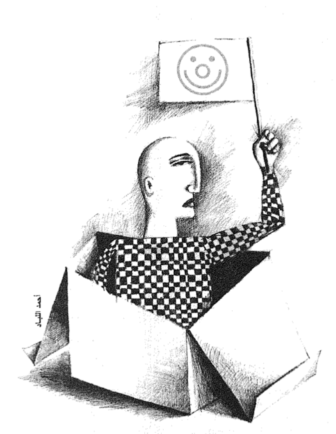
... ثم أقنعتنا بالعلاج!

الاكتئاب



مِيكل بورخ - جاكوبسن

والصداع النصفي، والاضطراب العقلي الذي يعقب الصدمات النفسية، وإدمان الكحوليات، وإدمان التبغ والهيروين، والإمساك، وسقوط الشعر، وفرط الحساسية لنزلات البرد. وتحت تأثير مضادات الاكتئاب زال الفرق بين اضطرابات الأذهان واضطرابات الأعصاب؛ وبالمثل زال المجال المهني المميز للمحللين النفسيين، حيث اختفى الفرق بين الطب النفسي والطب العام. فأصبح كل شيء اكتئاباً، لأن كل حالة تستجيب لمضادات الاكتئاب، ذلك البلسم الجديد الشافي لكل الأدواء.



وهناك بالطبع تفسير آخر أكثر سخرية وتشككاً لانتشار هذا التشخيص انتشاراً لا نهاية له فيما يبدو: وهو أنه يحقق أرباحاً لصناعة الأدوية، المُورِّد الدائم لعقاقير مضادات الاكتئاب الجديدة. فلم يمض وقت طويل على ذلك الزمن عندما كان الطبيب النفسي مضطراً أن يقنع زملاءه ومرضاه بطريقة تدريجية، بالاستعانة بالعديد من التقارير الطبية وقدر كبير من التشجيع والملاطفة، إذا أراد أن يروج لنوع جديد من التشخيص أو العلاج. أما الآن فالاضطرابات النفسية وأدويتها الملائمة يتم تعبئتها وبيعها معاً من قبل شركات الأدوية التي لا تألو جهداً لضمان ربحية استثماراتها في الأبحاث. والسؤال الذي يطرح نفسه: ألم تكن هناك سوق لمضادات الاكتئاب في عام ١٩٥٦؟ لا تعبأ بالإجابة، فصناعة الأدوية كانت قادرة على خلق سوق لها من لا شيء. ففي بداية الستينيات من القرن العشرين، كانت شركة ميرك تسعى لترويج خواص عقار أميتريبتيلين المضادة للاكتئاب، فاشترت ٥٠٠٠٠ نسخة من كتاب اسمه التعرف على المريض المكتئب من تأليف الطبيب النفسي فرانك آيد، ووزعتها بسخاء على أطباء النفس والأطباء الآخرين في أنحاء العالم. وكانت فرضية آيد أن الاكتئاب، رغم حصره في مستشفيات الأمراض العقلية، يمكن تشخيصه بنفس الكفاءة في المستشفيات العامة وعيادات المارسين العاملين بالتأمين الصحي. وكما يصف هيلي الأمر فإن «ميرك لم تبع عقار الأميتريبتيلين فقط وإنما باعت فكرة بعينها».

ومنذ ذلك الوقت نبه العديد من الحملات المعنية بالصحة العامة أطباء الممارسة العامة والجمهور بضرورة التعرف على علامات الاكتئاب، وأجريت الأبحاث حول أضرار الاكتئاب الاجتماعية والاقتصادية، وظهرت سلاسل خاصة حول الموضوع في المجلات، وروجت إعلانات التليفزيون بلا تحفظ لمزايا أحدث مضادات الاكتئاب ـ كل هذه الأنشطة مولتها صناعة الأدوية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. فلم تتم رشوة الأطباء أو زعماء الرأي العام أو الصحفيين: لا أحد يغش هنا، فكل شخص مقتنع بحق أنه أو أنها تردد أحدث منجزات العلم بدءاً من الباحثين أنفسهم. وكان من قبيل الصدفة المحضة أن تنفق أموال الصناعة على إجراء الأبحاث العلمية حول هذا الجزيء وليس أي جزيء آخر، أو حول هذا الاختبار الإكلينيكي بدلاً من غيره، أو تخصص لهذا القسم النفسي أو لهذا المؤتمر أو لهذه الدراسة المتصلة بعلم الأوبئة بالأخص.

لا عجب إذن أن النظريات الوحيدة التي صمدت بعد هذه العملية الداروينية في الانتقاء هي تلك التي تخدم مصالح الصناعة. فنحن نعلم على سبيل المثال أن حوالى الثلث تقريباً من كل مرضى الاكتئاب يستجيبون بصورة إيجابية مهما كانت حدة اكتئابهم للـ بلاسيبو (المواد غير الفعالة المستخدمة بدلاً من الدواء لمجرد إرضاء المريض الذي يظن أنه بحاجة للدواء ولتعزيز توقعاته في الشفاء) (يتضاعف المعدل مع النساء اللائي يمررن بفترة اكتئاب غير متكررة). برغم ذلك، لا أحد يمول الدراسات الخاصة بدور العوامل غير المحددة في علاج الاكتئاب لعدم وجود سوق لبيع البلاسيبو. فشركات الأدوية تستطيع ادعاء التفوق على منافسيها في حالة إثبات صلة قوية و«محددة» بين منتجها وبين هذا أو ذاك العرض الاكتئابي ـ ومن ثم يعاد تعريف الاكتئاب باستمرار كلما انطلق في السوق عقار جديد تلو الآخر. يلخص هيلي الموقف بدقة قائلاً:

إذا أخذنا في الاعتبار التعديلات المتعددة في علم تصنيف أمراض الطب النفسي خلال الثلاثين عاماً الماضية، يتضح أن من الخطأ الاعتقاد بأن للأمراض العقلية حقيقة راسخة وأن دور شركة الدواء هو العثور على المفتاح الملائم لقفل محدد سلفاً... في الوقت الحاضر نحن في حالة تستطيع فيها الشركات ليس فقط السعي للعثور على المفتاح الملائم للقفل فحسب ولكن تحديد شكل القفل الذي لابد أن يلائمه المفتاح.



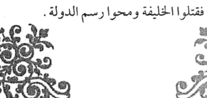
مع ذلك لا يشرح منطق الرأسمالية كل شيء. حقاً لماذا كانت الغلبة للاكتئاب بهذه الطريقة بدلاً من أي مرض آخر؟ كان بوسع صناعة الأدوية أن تروج بنفس الأسلوب للقلق كما فعلت أثناء الستينيات من القرن العشرين مع «المهدئات» (مركبات بنزوديازيبامين المهدئة) مثل ليبريم وفاليوم. لذا من المغري البحث في مكان آخر عن تفسير للازدياد المطرد للاكتئاب في سوق اضطرابات الطب النفسي. إذا كانت أعداد المكتئبين تتزايد باستمرار، ألا يمكن أن يرجع ذلك إلى أننا نعيش في مجتمع يبعث على الاكتئاب باستمرار؟ كثيراً ما يذهب المعلقون ذوو الميول اليسارية إلى أن صناعة الدواء أضفت صبغة طبية مبالغاً فيها على البؤس الاجتماعي الحقيقي الناتج عن ضغط الحياة الحديثة، وفقدان محددات الهوية، وعزلة الفرد والبطالة إلى آخره. هذا التحليل ليس بجديد: ففي نهاية القرن التاسع عشر كان جورج ميلر يربط بالفعل بين «النوراسنيا» (الإنهاك العصبي) و«الإجهاد العصبي» الناتج عن ضغوط المعيشة في المدن الأمريكية الكبرى. والمشكلة التي تواجه هذا التفسير الاجتماعي هي أنه لا يفسر أي شيء. حتى مع افتراض أن المجتمع أصبح أكثر قسوة عما كان عليه في الماضي عندما لم يكن للتأمين الصحي وإعانات البطالة وجود بعد، فلماذا يؤدي ذلك إلى الاكتئاب بدلاً من القلق أو الإجهاد أو «الانهيار العصبي» أو الغضب العادي فقط؟



الدولة والعصبية

إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغنى عن العصبية والسبب فى ذلك أن الدول العامة فى أولها يصعب على النفوس الانقياد لها إلا بقوة قوية من الغلب للغرابة وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه. فإذا استقرت الرئاسة فى أهل النصاب المخصوص بالملك فى الدولة وتوارثوه واحداً بعد آخر فى أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الأولية واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة ورسخ فى العقائد دين الانقياد لهم والتسليم، وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية فلم يحتاجوا حينئذ فى أمرهم إلى كبير عصابة، بل كأن طاعتها كتاب من الله لا يبدل ولا يعلم خلافه. ولأمر ما يوضع الكلام فى الإمامة آخر الكلام على العقائد الإيمانية كأنه من جملة عقودها. ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة: إما بالموالى والمصطنعين الذين نشأوا فى ظل العصبية وغيرها وإما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين فى ولايتها.

ومثل هذا وقع لبنى العباس. فإن عصبية العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق واستظهارهم بعد ذلك إنما كان بالموالى من العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم. ثم تغلب العجم الأولياء على النواحي وتقلص ظل الدولة، فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف إليها الديلم وملكوها وصار الخلائق فى حكمهم. ثم انقرض أمرهم وملك السلجوقية من بعدهم فصاروا فى حكمهم. ثم انقرض أمرهم وزحف آخر التتار فقتلوا الخليفة ومحوا رسم الدولة.





الاكتئاب وباء العصر

يحاول عالم الاجتماع ألن إهرينبيرج الإجابة عن هذا السؤال فى كتابه تعب النفس. فيتتبع بالتفصيل تاريخ الاكتئاب منذ خمسينيات القرن العشرين (بالأخص فى فرنسا)، لكى يوضح كيف تم التوقف عن تعريف الاكتئاب من منظور الألم النفسى وأصبح ينظر إليه أكثر فأكثر على أنه مرض سلوكى. فـ «المكتئب» الجديد يفتقد الطاقة وغير قادر على «الإنجاز» ومعوق فى عمله وعلاقاته بالآخرين. ويشير الأطباء النفسيون إلى أنه يعانى من «إعاقة نفسية حركية». وكما لو كان من قبيل المصادفة، يظهر هذا المرض الجديد فى مجتمع يقدر المسئولية والمبادرة الفردية تقديراً لا يدانيه شىء. ومثلما كانت أشكال العصاب الفرويدى تعبيراً عن مرض ذات تتصف بالكف والصراع الداخلى، كذلك الاكتئاب المعاصر «هو النقيض للفرد المستقل، النقيض للإنسان الذى يعتقد أنه هو الذى يصنع حياته». وبهذا المعنى، فالمجتمع المعاصر ليس هو المثير أو المسبب المباشر للاكتئاب. يذهب إهرينبيرج إلى أن الاكتئاب هو بالأحرى «النظير» السلبى للذاتية التى صنعها هذا المجتمع وقدرها بشدة».



مع ذلك فى التحليل الأخير يستمر إهرينبيرج فى تفسير التطور التاريخى للاكتئاب باعتباره انعكاساً بسيطاً - حتى وإن كان مقلوباً وتتحكم فيه عوامل كثيرة - للتغيرات الحادثة فى المجتمع، وبالتالى يغفل حلقة الوصل بين الوباء وتسويق مضادات الاكتئاب. يشير إهرينبيرج إلى أن فكرة تصوير مرضى الاكتئاب من منظور الكف والإعاقة النفسية الحركية «وطدت نفسها فى نفس اللحظة التى أُطلقت فيها مضادات الاكتئاب الجديدة فى السوق والتى كان أغلبها فعالاً فى مواجهة هذه الاضطرابات»، ولكن يظل الأمر بالنسبة له مجرد مصادفة كما لو أن تطور العقاقير عكس فى التوقيت المناسب صعود حالة عكست هى الأخرى التحولات فى «الشخصية الفردية فى نهاية القرن التاسع عشر». لكن لماذا لا يتم الاعتراف بالعكس وهو أن شيئاً اجتماعياً ما قد برز فى هذه الحالة بعد اكتشاف مضادات الاكتئاب: وبأنه إذا كان الاكتئاب قد انتشر إلى هذا الحد فذلك مرجعه أن الاكتئاب هو المرض الذى تؤثر عليه مضادات الاكتئاب؟

هذا هو الحل الذى يقترحه بينار. فإذا كان الاكتئاب الجديد قد ازدهر، فهذا يرجع إلى أن مضادات الاكتئاب فعالة، وأهم من ذلك أنها أكثر عملية من المهدئات والجيل الأول من مضادات الاكتئاب. فـ «حبوب السعادة» كانت تسبب الإدمان وكانت مضادات الاكتئاب ثلاثية الحلقات وعقاقير MAOIs (مثبطات أكسدة المركبات الأمينية) ذات آثار جانبية كريهة. من ناحية أخرى لم تعد مثبطات إعادة امتصاص السيروتونين الانتقائية SSRIs فعالة، لكن آثارها الجانبية قليلة للغاية. لذا لا يجب أن نندهش إذا وصفها أطباء الممارسة العامة بسهولة أو إذا طلب المرضى المزيد منها. فمن يكترث إذا كانت تساعد فقط على إخفاء الاكتئاب مادامت تتيح للمريض أن «يؤدى وظائفه»؟ من يهوى تعذيب نفسه إلى الحد الذى يجعله يتحمل جلسات التحليل النفسى الطويلة المكلفة غير مضمونة النتائج، بينما كل ما يحتاج إليه هو الذهاب لطبيب الأسرة ليحصل على جرعته من عقار السعادة؟ وكما يشير بينار «فلولا موافقة المرضى وتعاونهم الصامت لما تسنى للطب النفسى الجديد أن يحرز هذا النصر الساحق».

وبمعنى آخر «تُجنِّد» مضادات الاكتئاب المكتئبين، وهى تنجح فى ذلك بسبب فاعليتها. فكل مضاد جديد يجب أن يخضع أولاً لاختبارات تحت المراقبة بقصد إثبات أنه أكثر فاعلية من العقاقير المنافسة ومن أدوية البلاسيبو. ولاجتياز هذه الاختبارات يجب على الدواء المُقترَح أن يثمر نتائج أفضل من نتائج العقاقير السابقة على مجموعة من المرضى الذين تم اختيارهم لأنهم يمثلون عرضاً مرضياً من المرجح أن يستجيب للدواء. وكما يوضح بينار، فى هذه المرحلة المبكرة يتم تجنيد المرضى. فكل جُزىء جديد يثبت فاعليته يخلق مجموعة جديدة من المرضى، الذين يتم تحديدهم من خلال الآثار التى يحدثها: هناك مكتئبون بحاجة للاستشارة أو مكتئبون بحاجة للتهدئة أو مكتئبون قلقون أو عدوانيون إلى آخره. ثم تنتشر التحديدات المرضية الجديدة فى المجتمع بينما ينفذ العقار إلى الأسواق ويُجند أعداداً متزايدة من «الزبائن».

تكمن قوة حجة بينار فى أنها لا تختزل الوباء قط إلى مجرد وهم أو إلى تأثير التسويق أو إلى انعكاس أيديولوجى باهت للتحولات الاجتماعية. فلم يتم خداع أحد.



حتى مع افتراض أن المجتمع أصبح أكثر قسوة عما كان عليه فى الماضى عندما لم يكن للتأمين الصحى وإعانات البطالة وجود بعد، فلماذا يؤدى ذلك إلى الاكتئاب بدلاً من القلق أو الإجهاد أو «الانهيار العصبى» أو الغضب العادى فقط؟



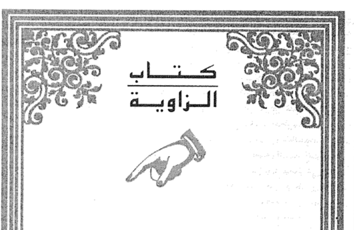
هل يعنى هذا أن الطب النفسى البيولوجى قد وجد أخيراً سبب الاكتئاب لأنه يعرف كيف يعالجه؟ هذا هو ما ترغب إعلانات الصناعات الدوائية فى أن نصدقه، لكن الباحثين أنفسهم أكثر دراية بالحقيقة. فليس لأن المادة (س) تحدث تأثيراً على العرض (ص) يمكننا أن نستنتج أن هذه المادة تؤثر بشكل محدد على مسبب العرض (ص). فلا أحد يستطيع القول مثلاً أن الأسبرين دواء مضاد للأنفلونزا تحت دعوى أنه يريح أعراض الأنفلونزا أو أن الويسكى «مضاد للاكتئاب» لأنه يرفع معنوياتك. لإقامة علاقة سببية بين المرض والدواء لابد من تجاوز الارتباط البسيط بينهما وعزل سبب ضرورى وكاف، كما هو الحال مع الأمراض المُعدِية. لا يوجد دليل فى الطب النفسى يسمح لنا بأن ندعى أننا وصلنا لتلك النقطة. ويحرص هيلى وإهرينبيرج وبينار على الإصرار على أن كل الجهود المبذولة حتى الآن لربط أحد المحددات البيولوجية بعرض إكلينيكى ما باءت بالفشل. فمضادات الاكتئاب ثلاثية الجزيئات على سبيل المثال لديها تقريبا نفس التركيبة الكيمائية لمضادات الذهان، وتُستخدَم بعض من مضادات الذهان بجرعات مخفضة كمضادات للاكتئاب، الأمر الذى يبرهن على أنك لا تستطيع إقامة رابطة بين جزىء بعينه ومشكلة نفسية معينة. يقول هيلى أن «مضادات الذهان و مضادات الاكتئاب ليست محددة من حيث إنها لا تختص بمرض معين وكذلك فهى ليست محددة من حيث إنها تعمل بغض النظر عن المحيط الذى توجه إليه».



لا تنبع قوة الطب النفسى البيولوجى الجديد من اكتشاف الأسباب العضوية ولكن من التجارب التى تعتمد على الضبط باستخدام الأدوية غير الفعالة (البلاسيبو) حيث تقاس آثار الجزيئات و تقارن ببعضها. ولا تكشف هذه التجارب عن كيفية عمل الدواء، ولكن فقط عما إذا كان يحدث أثراً وما الذى يؤثر على أحسن وجه وعلى من يؤثر. إن الطب النفسى البيولوجى هو صورة من صور علم البلاغة: فهو يعرف كيف يُحدث التأثيرات دون معرفة كيفية معالجة الأسباب. ويقترح بينار تسميته «البيولوجيا الصغرى» لتمييزها عن البيولوجيا الكبرى التى تحاكيها. فى نهاية المطاف، لا شىء يميز الطب النفسى البيولوجى عن الطب النفسى الديناميكى وأنواع العلاج النفسى المختلفة، التى تعتمد أيضاً فى النهاية على الآثار (التغييرات) التى تلاحظ بين المرضى. الاختلاف الوحيد هو أن بلاغة «البيولوجيا الصغرى» لا تُضاهى فى طريقتها فى الإقناع: كيف يستطيع المرء بأى حال أن ينكر أن مضادات الاكتئاب تحدث بالفعل أثراً، ولاسيما إذا وُوجِه بكم التجارب العشوائية التى تُحجَب فيها هوية المشاركين حرصاً على الموضوعية وعدم الانحياز.

ومع ذلك يبقى السؤال: ما الذى تترك فيه المضادات أثراً؟ من الخطأ القول أن مضادات الاكتئاب تؤثر على الاكتئاب، كما لو كان المرض قد وُجِد مستقلاً عن مضادات الاكتئاب؛ فالاكتئاب ما هو إلا الشىء الذى تؤثر فيه مضادات الاكتئاب. واكتئاب الكثير منا ليس مرجعه أن الاكتئاب ينتشر ولكن لأنه تم إقناعنا أن «الاكتئاب» موجود و يمكن علاجه. هذا ما يسميه بينار «القياس المنطقى»: ١ـ أنا أشعر بالاكتئاب. ٢ـ أريد أن أشعر بتحسن. ٣ـ سوف أحصل على وصفة طبية بمضادات الاكتئاب. (المقصود هو أننى لم أكن لأشعر «بالاكتئاب» لولا علمى بوجود عقاقير لعلاجه. وهذا لا يعنى عدم وجود التعاسة والتعب والكف، لكنهم ما كانوا ليتبلوروا فى صورة «اكتئاب» ما لم تربط مضادات الاكتئاب هذه الأعراض الإكلينيكية بعضها إلى بعض. ومع ذلك، هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن البشر الذين كانوا فى زمن آخر يشعرون بالقلق، أو لديهم أعراض سيكوسوماتية (اضطرابات جسدية نابعة من أسباب عقلية أو عاطفية)، يصنفون أنفسهم الآن باعتبارهم «مكتئبين» لأن الاكتئاب هو المرض الذى نعرف معرفة جيدة كيفية علاجه. وهذا هو نفس الحال بالضبط فى الطب النفسى الديناميكى، فالطلب المرتبط بالأعراض يتلو المتغيرات المرتبطة بعرض الأدوية وفقاً لقانون العرض والطلب، وعلى المرضى أن يكيفوا مشكلاتهم مع الطريقة التى يتوقعون أن يتم علاجهم بها.

ليس الهدف هنا هو الزعم بأن الاكتئاب الحديث أسطورة، أو وهم نحتاج فقط أن نبدده لكى نبرأ منه. إن محنة المكتئبين حقيقية بالفعل؛ لكن هذه الحقيقة ليست متواشجة مع جيناتهم أو موصلاتهم العصبية. وهذا يعنى أن الاكتئاب ليس قدراً محتوماً فتغيير الدواء والعلاج سوف يسفر عن مرض جديد. ■



عمر الدولة

اعلم أن العمر الطبيعى للأشخاص على ما زعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة وهى سنة القمر الكبرى عند المنجمين. ويختلف العمر فى كل جيل بحسب القرانات فيزيد عن هذا وينقص منه، فتكون أعمار بعض أهل القرانات مائة تامة وبعضهم خمسين أو ثمانين أو سبعين على ما تقتضيه أدلة القرانات عند الناظرين فيها. وأعمار هذه الملة ما بين الستين إلى السبعين كما فى الحديث.

ولا يزيد على العمر الطبيعى الذى هو مائة وعشرون إلا فى الصور النادرة وعلى الأوضاع الغريبة من الفلك كما وقع فى شأن نوح عليه السلام وقليل من قوم عاد وثمود.

وأما أعمار الدول أيضًا وإن كانت تختلف بحسب القرانات إلا أن الدولة فى الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال. والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط، فيكون أربعين الذى هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته. قال تعالى: «حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة». على اعتبار الأربعين فى عمر الجيل الذى هو عمر الشخص الواحد.

وإنما قلنا أن عمر الدولة لا يعدو فى الغالب ثلاثة أجيال: لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك فى المجد، فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون.

والجيل الثانى تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والخصب.



■ يحتفظ متابعو الرواية العربية المعاصرة بمكانة خاصة لثنائية الروائية الفلسطينية سحر خليفة: «الصبار»، ١٩٧٨/ عباد الشمس. ١٩٨٠». وهي تشغل هذه المكانة لا في إبداع صاحبتها وحده، بل في مجمل الرواية المعاصرة، فقد استطاعت أن تحقق إنجازات فكرية وفنية مهمة، لعل أهمها أنها قدمت لوحة بانورامية هائلة للحياة في كبرى مدن الضفة الغربية (نابلس) في ظل الاحتلال الإسرائيلي. فجزؤها الأول يبدأ بعده بخمس سنوات (١٩٧٢)، والثاني بعد الأول بست سنوات أخرى، أي أن أحداثه تدور في ١٩٧٨/١٩٧٩. وعلى نحو من الأنحاء يمكن القول إن هذه الجدارية الهائلة التي قدمتها للحياة اليومية في مدن الضفة وقراها هي ما جعل الانتفاضة التي شملت جسد فلسطين كله في ١٩٨٧: أرض الاحتلال الجديد في ١٩٦٧، والقديم في ١٩٤٨، أمرًا طبيعيًا يتم في سياقه الموضوعي والإنساني، مثل طفل يخرج للحياة مكتمل الجسم موفور البدن، من خلال شخصيات توفرت لها شروط الحياة وأسباب الإقناع، إضافة لمشاهد ولوحات نابضة من أسواق المدينة (نابلس: العروس التي كانت!) وطرقاتها وبيوتها ومقاهيها، ومعرفة بشروط الحياة عند تلك الطبقات المرمية أسفل السلم الاجتماعي.

من ناحية ثانية طرحت سحر في روايتها العلاقة القائمة بين المواطنين العرب والقهر الإسرائيلي، ووقفت - بوجه خاص - عند قضية كانت مطروحة هناك وآنذاك، أعني العلاقة القائمة بين المثقفين التقدميين من العرب واليهود، وحددت - على نحو ذكي ورمزي ودال - المدى الذي لا يمكن لهذه العلاقة أن تتجاوزه، والبقية التي يتعين على العرب أن يقطعوها وحدهم إلى قلب الناس واللهب: القضية قضيتهم والهوية هويتهم. من ناحية ثالثة أثبتت رواية سحر - بين ما أثبتت - قدرة الأدب الصادق، لا على رصد الواقع وتسجيله فقط، بل على استقرائه والتنبؤ بمسار الأحداث فيه أيضًا. الدليل الذي لا ينقض هو أن المشهد الأخير الذي تنتهي به «عباد الشمس» أصبح - قبل انقضاء عشر سنوات - حياة كل يوم في أرض الاحتلال القديم والجديد خلال الانتفاضة الأولى.



على أن هذه الثنائية لم تكن أول أعمال سحر خليفة. سبقتها رواية صدرت في القاهرة في ١٩٧٤. «لم نعد جواري لكم» لم تثر اهتمامًا كبيرًا، كانت تنويعًا على لحن أسرفت في عزفه اللبنانية ليلى بعلبكي والسورية كوليت خوري والمصرية نوال السعداوي، على تفاوت بينهن في إجادة العزف، أعني العلاقة المتوترة بالرجل والحرب الدائرة معه، وتدور رواية سحر بين جماعة من «المثقفين» يبدون محاصرين داخل مدينة «رام الله» الصغيرة من جانب، وهمومهم الخاصة من الجانب الآخر، عدد من الرجال والنساء. كلٌ في طراد وراء الآخر، تتباين وجوههم لكن الوجه الغالب عليهم جميعًا هو الفشل والإحباط في علاقاتهم بالجنس الآخر، لأنهم - ببساطة - نماذج بالغة التشوه. كانت في الرواية وجوه ضعف عديدة: احتشاد الصفحات بالمناقشات والثرثرات، والإسهاب في الوصف والسرد دون ضرورة، والعودة - المرة بعد المرة - إلى مناقشة القضايا ذاتها: الحب والفن، العلاقة بين الحب وممارسة الجنس، العلاقة بين الأخلاقيات والمستوى الاجتماعي.. إلخ، ثم احتشاد الصفحات الأخيرة بالأحداث والمفاجآت.

صورة الحياة الفلسطينية بين انتفاضتين...

وبعد الثنائية رجعت سحر لموضوعها الأثير وهي أكثر دربة وأفصح تعبيرًا. في «مذكرات امرأة غير واقعية، ١٩٨٦» تصحبنا لنطل على الواقع النفسي للمرأة التي اختارتها «نموذجًا»، وقد سلكت أيسر السبل وأكثرها تحقيقًا للهدف: المذكرات الشخصية التي تنطلق مرة من الواقع المعيش، ومرة من ذكريات الطفولة والصبا. هكذا نعرف كيف تكونت «عفاف» بنت مفتش التعليم بين مدينتها الفلسطينية الصغيرة والقدس سنوات الأربعينيات الأولى، وفي الأعماق ذكرى تعود لها أكثر من مرة: ذكرى الاحتفال «بالولد» الذي انفتحت السماء عن عضوه، على هذا الفارق التشريحي الخالص تترتب نتيجة، يظل الجنس «المحروم من هذا العضو» يحملها - كالصليب - على دروب النضج: «الولد صح، والبنت غلط». ومن ثم تخضع عفاف - مثل بنات جيلها وبلدها - لسيطرة الرجل / الأب / الأخ / الزوج، وسيطرة مفاهيمه ورؤاه لما يجب وما لا يجب، فتختنق فيها البراءة والعفوية والانطلاق وحس الفهم، حتى

سحر خليفة: «الميراث»،
دار الآداب، بيروت، ١٩٩٧.
سحر خليفة: «صورة وأيقونة وعهد قديم»،
دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٢.

سحر خليفة

تتابع مشروعها الروائي

فاروق عبد القادر

تتحول - في نظر نفسها قبل الآخرين - مجرمة دون جريمة، هكذا: تتزوج عفاف دون رأى أو رغبة، وتجهض لأنها لا تريد ما يربطها بهذا الرجل إلى الأبد، وتعقُم بعد إجهاضها، ثم تأتى مع زوجها لهذه المدينة الصحراوية البعيدة، حيث لا أهل ولا أصحاب أو معارف، وتتبادل وزوجها الكراهية والعداء، فهما فى معركة لا تنتهى، وانحصر عالمها فى المطبخ وغسل الثياب ومناجاة قطتها واسترجاع حياتها كما تدونها فى هذه المذكرات، وتحس عفاف بالحنين إلى أمها وبلدها.. وهما عندها الشىء ذاته، فتعقد صفقة مع زوجها: أن يذهب، وحده، إلى أوروبا، وتعود هى إلى بلدها. وفى عودتها هذه لا تلتقى بأمها فقط، بل بحبيب صباها كذلك، ويشتعل الحب القديم.. «منذ تلك اللحظة لم تفارق يده يدى.. (..) وحين قبَّل يدى وقبَّلت يديه أحسست أننى آخذ وأعطى ما أستحق لى على الدنيا منذ الأزل، فقد كان لى وكنت له..» على أن هذا لم يدم طويلاً، وجاءت النهاية: بعد أن أعطت عفاف كل شىء اكتشفت - كأنما فجأة - أنه رجل، وأنه - مثل كل الرجال - لابد له من حياتين: واحدة زوجية وأخرى عاطفية، واحدة علنية وأخرى سرية. هكذا تَحبط العلاقة وتكتمل هجائية الرجل: أبًا كان أو أخًا أو زوجًا أو حبيبًا، ثوريًا كان أو متوائمًا، كلهم منقسمون منفصمون مزدوجون: بين الفكر والممارسة هم منقسمون، بين الوعى والواقع هم منقسمون، بين أخلاقيتين ومنظومتين للقيم هم منقسمون، والمرأة موضوع الانقسام وضحيته فى آن، كلٌ يمارس قهره عليها، ويطلب منها أن تتقبل قهرها فى ظله، هو العاجز المحبط يطلب منها أن ترى فى عجزه قدرة، وفى إحباطه إنجازًا وتحققًا.

لنرجئ أية ملاحظات حول هذا التأرجح بين «تحرير المرأة» و«تحرير فلسطين» وهما القطبان اللذان يؤطران عمل سحر خليفة ومشروعها الروائى كله، لننظر فى عملها التالى «باب الساحة، ١٩٩٠»: بنت نابلس المحبة، وصافتها وراويتها، تقدم لقارئها وجهًا جديدًا من وجوه مدينتها القديمة، وجه نابلس التى تعيش الانتفاضة، «جاءت الانتفاضة فطار النوم، بدأ الخوف يتساقط كأوراق الخريف، والتهبت الجبال والكروم والأودية.. (..)

انقلبت الساحة الحجرية المسماة باب الساحة إلى مسلخ يعلق فيه العملاء على الكلابات مثل الغنم، وسموها الساحة الحمراء». هذا الوجه الدامى من وجوه الساحة يتدخل فى صميم الرواية، بل يكاد أن يكون قوامها، ففى ذلك «البيت المشبوه» الذى اتُهمت صاحبته بالفُجر والعمالة فغرس الشباب خنجرًا فى قلبها وطرحوا جثتها فى الساحة - تدور معظم الأحداث، وبنتها «نزهة» المقيمة على عهدها تكاد تكون الشخصية الرئيسة فيها، كان بيتًا يتجنبه الجميع، لا يُلقون على نزهة تحية الصباح ولا يردون تحيتها، لكن الذى حدث جعل البيت محطًا ومزارًا وبؤرة للفعل: إليه لجأ «حسام» جريحًا بعد الاشتباك، وإليه جاءت «سمر» التى تعد بحثًا اجتماعيًا عن التغيرات التى طرأت على المرأة بعد الانتفاضة، وإلى البيت المشبوه أيضًا جاءت «الست زكية»: أم الشباب، عمة حسام وراعيته، وواحدة من أكثر الشخصيات فى الرواية العربية صدقًا وأصالة، جعلت لها الروائية مهنة وثيقة الصلة بالحياة، فهى التى تخرج أطفال الحى إلى نورها، لكنها حين يجِدُ الجد وتشتعل الأرض «تنقلب أدواتها البسيطة أدوات جراحة، فتخيط هذا وتجبِّر ذاك وتستخرج رصاصة وتحقن إبرة..» حول تلك الشخوص الرئيسة القليلة تدير سحر أحداث روايتها، وهى قليلة كذلك، لكن السياق الذى يشمل الشخوص ويحرك الأحداث هو تفجر الانتفاضة. والحياة اليومية فى ظلها، إن المشهد الأخير الذى تنتهى إليه ثنائية «الصبار / عباد الشمس» أصبح حياة كل يوم فى «باب الساحة». منذ تفجرت الانتفاضة لم يعد شىء أو شخص على حاله، وعرف كلٌ دوره الذى يجب أن يؤديه: الشباب لهم الدور الأول، وللفتيان دور، وللنساء دور، وللأطفال دور، وكلٌ يؤدى دوره دون تلكؤ، ومن جماع هذا كله تتطور أساليب المواجهة وتتصاعد، لكن للانتصارات الصغيرة ثمنها الذى يجب أن يُدفع كاملاً غير منقوص: شهداء وجرحى ومسجونون ومهانون وبيوت مهدومة ومحال مقفلة وملاحقات ومطاردات وشباب تركوا أعمالهم أو تخلوا عن طموحاتهم لينغمسوا فى تلك الحركة التى شملت كل جسد فلسطين ودامت سنوات.



والمرأة فى قلب باب الساحة. المرأة فى قلب أعمال سحر خليفة، ولكن.. أية امرأة هى التى تطالعنا بها الآن؟ الشخصيات النسائية فى الرواية: نزهة وزكية وسمر، هى التى تحظى بالقدر الأكبر من الاهتمام والتفصيل. كلهن واقعات تحت قهر الرجل، بشكل أو آخر، بدرجة أو أخرى. ونكتفى بما حدث مع سمر فهو دليل ناصع: جاء منع التجول وهى فى بيت نزهة، ولم تستطع العودة لبيتها إلا بعد أيام، وهى تعرف ما يترصدها من عقاب على أيدى إخوتها القساة الساخرين بالمرأة ودورها، وتفكر: «الواقع يتغير والانتفاضة نفضت عنا الغبار وهزت الأرض بلا إنذار».. لا للمظاهرات» وفوجىء الإخوة بالمظاهرات تأتى للنسوة فى قعر الدار.. «لا للخروج والبهدلة».. وجاءت البهدلة إليهن فى غرف النوم، واشتبكت النسوة بالأيدى، وصِحْن وتبادلن الشتائم والتحمن بالجند وهنَّ فى ملابس النوم والشعر المنبوش، وبعد بلدنا ما لنا دين، أيام ذهبية كالميلاد.. يولد المرء فى الثورة مائة مرة ويموت ألوفًا لا تحصى..». لكن هذا الوعى الناضج والحس المتوهج لا يحولان دون إحساسها بالمهانة حين تتساقط ضربات الأخ الأكبر على كل مكان من جسدها حتى تركها حطامًا.. «وانطلق الأذان فجأة فأحسست بالموت، فلا الاحتلال ولا الجيش ولا كل عفاريت الأرض أقدر على سحقها أكثر مما سُحقت..» إنما فى هذا المشهد تبلغ هجائية سحر خليفة للرجل قمتها، حتى الصيغة الجديدة «للرجل الملثم» لا تنجو منها. نعم، هى هجائية للرجل: الحاضر والغائب، المناضل والمتخلى، الشاب والشيخ، الأب والأخ والزوج، وفى هذه الهجائية يشغل «السياسى» أو «المناضل» مكانه الذى يليق به، وثمة حكاية مترددة عن المناضل الذى يتخلى عن رفيقته فى النضال، ويتزوج من سواها، ويقطع ما بينه وبينها، أو يبقيها عشيقة فى أفضل الأحوال!

ها أنت ترى: تشغل سحر مقعدًا بين المقعدين، وقد أعادت صياغة السؤال: تحرير المرأة أم تحرير فلسطين، ليصبح: قهر الاحتلال أم قهر الرجال؟ (لمن شاء مزيدًا من التفصيلات عن الأعمال سالفة الذكر، راجع، من فضلك: «قراءة فى أعمال الكاتبة الفلسطينية سحر خليفة» فى «أوراق أخرى من الرماد والجمر»، القاهرة، ١٩٩٠، وكذلك: «نساء نابلس فى ظل الانتفاضة» فى «من أوراق الرفض والقبول»، القاهرة، ١٩٩٢).

ومازالت السيدة سحر تتابع مشروعها الروائى، فاتحة لقارئها نافذة يطل منها على الواقع الفلسطينى فى ظل قيام «السلطة الوطنية» بعد أوسلو. وفى هذا السياق قدمت «الميراث» فى ١٩٩٧، ثم «صورة وأيقونة وعهد قديم» فى ٢٠٠٢، وهما موضوع هذا الحديث.

ومن الواضح أن الروائية لا تعنى هذا «الميراث» الذى استُدعيت «زينب» أو «زينة» من حيث تقيم وتعمل فى واشنطن إلى «وادى الريحان» فى الضفة، قريبًا من نابلس لتثبت حقها فيه قدر ما تعنى «الميراث» الفلسطينى الذى تراكم عبر سنوات طويلة من الحياة والنضال. زينة نموذج فتاة من أب فلسطينى نزح إلى أمريكا وعمل بائعًا يحمل الأشياء على ظهره ويدور بها بين البيوت، واستطاع - «بفهلوة شرق أوسطية» كما تقول - أن ينجح فى امتلاك بقالة فى بروكلين، وحين تزوج من الأمريكية حصل على «البطاقة الخضراء» وحصل على زينة، ثم كان الطلاق وحين حبلت زينة وهى فى الخامسة عشرة هربت من أبيها ولجأت إلى جدتها لأمها، وعاشت معها كل تفاصيل الحياة الأمريكية، وهى الآن فى الثلاثينيات، أستاذة جامعية وعالمة ناجحة فى مجال عملها «الانثروبولوجى»، لكنها تحس إحساسًا راسخًا بأنها كائن هجين ليست عربية وليست أمريكية، ليست مسلمة وليست مسيحية، لذا رحَّبت بالرسالة التى جاءتها من عم لها يقول لها ما معناه «عجِّلى قبل أن ينقطع الخيط ويسقط حقك فى الميراث»، يعنى ميراث الأب الذى لم تره زينة مرة أخرى إلا وهو فى النزع الأخير.



أعطت الروائية لزينة رخصة شاملة، فنحن نرى الأحداث والأشخاص من وجهة نظرها وحسب روايتها، لكن هذه الرخصة الشاملة تتيح لها أن تمارس امتياز المؤلف العليم بكل شىء. فترى الأحداث التى لم تكن شاهدة عليها، وتكشف عن السرائر والخواطر والأفكار والمشاعر. وكان طبيعيًا أن تقيم فى بيت عمها فى وادى الريحان، وأن تعرف أبناءه: مازن، الذى يبدو الشخصية الرئيسة فى الرواية، إنه الثائر المهزوم.. «كان بلبنان وانفجر فيه لغم صغير طيَّر قدمه، تعالج فى موسكو وأمريكا، وعاد بوساطة إلى الضفة..»، و«كمال» مهندس يقيم ويعمل فى ألمانيا حيث درس وتزوج، سيأتى إلى الضفة بعد قيام السلطة الوطنية لينفذ مشروعًا فكر فيه وأعدَّ له الدراسات اللازمة، بعدهما يأتى «سعيد»: الوحيد بين الأبناء الذى لم يتم تعليمه، يمتلك مصنعًا «للطوفى» فى نابلس وخمسة أولاد، ثم «نهلة» التى قضت عمرها معلمة فى الكويت «ثم طُردت مثل كل الناس بسبب الحرب..»، فى الخمسين لم تتزوج. إلى جانب هؤلاء ثمة «فتنة» امرأة الأب التى مات عنها وأمها «أميرة» وقريبهما «عبد الهادى بك» وهم جميعًا ينتمون لعائلة مقدسية عريقة (كانت معها مفاتيح الأقصى) ويقيمون فى القدس. ومن الجيران والأصدقاء ستتعرف إلى «ڤيوليت» التى تملك محل كوافير، وأمها الممرضة المتقاعدة، وأخيرًا هذا «السمسار» الأمى الثرى من أقارب زوجة العم، سيقدر له أن يلعب دورًا مهمًا فى أحداث الرواية: سوف تتعلق به نهلة: هو الرجل الوحيد المتاح وشمعة أنوثتها مهددة بالانطفاء، وتهرب لتتزوجه فتقوم قيامة أبنائه العشرة، وتتعقد الأحداث حين يخطفون نهلة، فترى وجهًا آخر - وجهًا «سفليًا» لو صح التعبير - للمدينة التى قدمت سحر كل وجوهها.

من بين الخطوط الكثيرة التي يمكن متابعتها في «الميراث» (خلّ جانبًا الميراث الذي استُدعيت من أجله زينة. فقد عمدت امرأة أبيها إلى عملية تلقيح صناعي في مستشفى «هداسا» كي تنجب ابنًا!) سوف نختار خط التغيير الذي حدث في الواقع بعد قيام السلطة الفلسطينية: حين جاء كمال من ألمانيا كان لديه مشروع لتدوير الزبالة وتنقية مياه الصرف، في محطات مثل تلك التي عرفها في فرانكفورت. وسوف تكون خطوات هذا المشروع، وقد شاركه فيه السمسار، نافذة فسيحة نرى منها الواقع. أما مازن فلديه مشروع آخر يحدث به زينة: «بيت ضخم أو قصر قديم مهجور، نعيد إليه سمات الحياة، نجعل من القصر دار ثقافة، منتدى للفكر، ومجمع فنون..»، وسوف نرى ما ينتهي إليه المشروعان.

قال السمسار لنفسه قبل أن يقرر مشاركة كمال، بعد أن رفض أبوه بيع جزء من أرض البيارة لمشاركته: هذا أوان تصنيع، الكل يتغنى بالصناعة والتصنيع، الضفة ستكون هونج كونج العرب، وغزة تايوان الشرق.. «فإذا اجتمع برجل العلم، قلنا الصناعة في الجيب..»، لكن الذي حدث كان شيئًا آخر: أمهر السمسار عروسه الجديدة أسهمه في الشركة، وحين قام أولاده بخطفها وإرغامها على التنازل آلت الشراكة إلى سعيد، صاحب مصنع «الطوفي»، «سقط العائلة» كما يسميه أبوه.. «وهكذا انقلب المشروع وعادت الرائحة لتملأ الجو وتملأ خياشيم المارة وسكان الدور والقرى المجاورة وحقول القمح، وامتلأت المنطقة بالجرذان والضفادع وذباب أزرق وثعابين، وشاع جو من التعاسة والاشمئزاز..»، وأوفدت الروائية مندوبتها زينة كي ترى ما آل إليه المشروع: «ما هذا القبح؟ ما هذا القرف؟ ما هذا المشهد والكارثة؟ (...) هبّت الريح من الغرب فحملت إلينا رذاذ النضح والبكتريا من مراوح ضخمة خرافية تدور فوق أديم البرك. أما البرك فحاش الله! أية مصيبة.. أية جريمة!» ترتب على هذا الفشل أن قرر كمال العودة لألمانيا والبقاء هناك. أما مازن فقد رأى فيه صورة لما آل إليه الوضع كله. هاهو يتفلسف: «قامت الثورة ولحقها الناس، دخلها المثقف والأزعر، دخلها المفلح والفاشل، وقادت الناس إلى هذا، وقبل ذلك قادتهم هناك وعصرتهم، أخذت عصارة نسغ الحياة، خلقت جيلاً غير مؤهل، غير كادح، ينام إلى الظهر ويسهر إلى الصبح، يتواصل عبر الطيارات والمطارات، يعيش بحلم فقد بريقه، فقد الأسطورة والأحلام وعاد إلى ما ثار عليه وبات قبيلة، بل قبائل، وشيخ القبيلة هو المرجع، وحين غربلنا القبيلة خرجنا بهذا: رأس واحد والكل قطيع. قطيع رؤوس ورؤوس قطيع»!



أما ما انتهى إليه مشروع دار الثقافة فكان أفدح وأفضح، وأكثر دلالة وكشفًا. كان أشبه بعدسة جمعت كل الأشعة المتناثرة في الواقع وركزتها في بؤرة واحدة. عن غشم وجهل بالواقع طبع مازن آلاف الدعوات والبرامج، فتجمّع الناس من كل صوب حتى ضاق بهم وادي الريحان. والقلعة القديمة - التي كانما اكتشفوا وجودها فجأة - جسدت لهم وهم أن لديهم «آثارًا» و«مواقع سياحية» تستحق أن يأتي إليها الناس من كل مكان، فتزدهر أمورهم وتنتعش. ومادام الناس قد تجمعوا فلابد أن تقام نقاط التفتيش العربية والعبرية (بتعبير الرواية: «انتشرت نقاط التفتيش من الجانبين، جانب العرب وجانب اليهود، أي جانب السلطة وسلطتها!») وحين بدأ الاحتفال وسط الصخب والفوضى والضجيج لم ينتبه أحد إلى أن القلعة ووادي الريحان قد عزلا تمامًا عن العالم بقوات أمن إضافية، ثم.. «لا أحد يعرف بالتحديد سبب انفجار ذلك الحفل واندفاع الناس إلى الخارج والاشتباك مع الشرطة وقوات الأمن في أعنف مواجهة حدثت بين الناس والحجارة». ماذا بوسع مازن أن يفعل بحشد الصحفيين والقناصل والمحافظ نفسه؟ ماذا يفعل والسيدة فتنة لم تجد وقتًا لولادة طفلها - ابن هداسا والتلقيح الصناعي - إلا في كواليس الاحتفال ذاته؟

إليك ما انتهى إليه الموقف، وانتهت به الرواية كلها: ثمة طريق التفافية وراء القلعة لكنها تمر بمستوطنة «كريات راحيل»، والطريق الآخر تقف فيه السيارات رتلاً طويلاً أمام نقطة التفتيش الإسرائيلية، مازن: الثوري الذي كان اسمه مازن جيفارا اختار في البداية الطريق الأول، وحين أنكره أبوه وأخوه وتردد المحافظ، لم يجد سوى الآخر، وراح يقطع الساعات الطويلة بالحديث إلى المحافظ (لنا إليه عودة)، وفي الجزء الخلفي من سيارة الإسعاف فتنة وأمها وبينهما الطفل الوليد، ماتت فتنة بعد أن نزفت دمها كله، ثم «هجم جنديان على مازن وسيارة الإسعاف وهما يصوّبان السلاح ويصيحان: «وقّف.. وقّف»، وضربه أحدهما بخشبة الرشاش على رأسه فسقط، أفاق الطفل وأطلق صرخة، نظرت الجدة إلى الجنود وإلى ابنتها، وصاحا ثانية وصاح الطفل، وقال أحدهم وهو يصوّب بوز الرشاش: «بقول وقّف..»، فقالت بهدوء: «حاضر.. حاضر»، ومدت يديها لهم بالطفل وهو يصرخ وقالت بهدوء ورأس مرفوع، بالإنجليزية: «Thank You Very Much, This is Your Share» (شكرًا جزيلاً.. هذا نصيبكم)». هكذا إذن استرد الإسرائيليون بضاعتهم، ولم يقدر.. لابن هداسا.. أن يكون حفيدًا لعائلة «الشايب» المقدسية العريقة. واستنتج من هذه النهاية ما تشاء!

إن اختيار الروائية لشخصياتها كان دقيقًا، هادفًا لرسم صورة الحياة على أرض السلطة الفلسطينية بوجه عام، ونابلس وما حولها بوجه خاص. لدينا عائلتان يمكن أن تعدا «نموذجيتين»، ولكلٍ منهما نصيب من «الميراث»، لننظر إليهما عن قرب: عائلة العم «أبوجابر»: أولاده جميعًا كانوا بالخارج عدا واحدًا هو أكثرهم غباءً وتخلفًا.

أولهم مازن: الثوري المهزوم، يقول عن نفسه وحياته في لحظة سُكر وبَوْح: «عمري ضاع على حكي فاضي، وما بقي فيَّ غير حلاوة الروح.. (..) طبعًا جيفارا سيد الكون لأنه الفدائي المتزنر بحزام الموت، وأنا اللي حاطط روحي بكف والوطن بكف. وهلقيت لا باقي روح ولا كف ولا حتى وطن. راحت الشعلة من إيدي وصرت الضايع في سوق مسروق كله عتمة. من موريتانيا لحدو إيران، ومن القاهرة حتى الظهران.. كله عتمة!» وتصفه صاحبته فيوليت فتحسن وصفه وتبلغ أعماقه: «هو من لعن الشعب وهو سكران وهو صاحٍ، وهو محبط، هو من تكبّر على أهله وعلى المزرعة والوظيفة، وبقي يتخمع هنا وهناك.. هو من تكبّر عليها وعلى كل امرأة مرّ بها (..) هي حلاّقة وهو ثوري، هي تحكي لغة بسيطة وهو يحكي لغة كبرى، لغة التحرير والقضية». ويراه أبوه.. «تعبان ومتعب الناس من همومه... داير من دار لدار ومن بنت لبنت وبين الأصحاب والقهاوي.. لما كان يحكي سياسة قلنا: آمين.. طب وبعدين؟ بعد السياسة ووجع الراس ايش ناوي يعمل بحياته؟ لا عنده شغل ولا وظيفة ولا مرة ولا ولاد ولا سيارة. ايش آخرتها؟ (..) شبعنا أمرا وسياسة، وشبعنا ناصر وجيفارا.. يا ولدي قوم، يا ولدي فيق، ايش بدك تصير، ايش بدك تعمل بباقي عمرك؟.. (..) الأشياء واضحة وما بدهاش واحد عيونه مفتوحة، لكن مازن ليش مابيشوفهاش؟». هكذا يرى نفسه وتراه صاحبته وأبوه، أما نحن فنراه مناضلاً سابقًا، يتعالى على العمل والزوجة والأبناء وهموم الناس، يهرب من الممكن إلى المطلق، مهزوم يلوك هزيمته، ولا يفعل شيئًا سوى «طق حنك» فارغ!

كمال كان، منذ طفولته، مجتهدًا مقبلاً على العلم والدراسة، كان دائمًا «غير» كما تصفه أخته، في ألمانيا تفوق في علمه وعمله، ثم أعاده الحنين إلى وطنه، شيء في أعماقه كان يناديه كي يعود، أعطاه الغرب كل شيء كواحد منهم، لكنه لم يحس أبدًا أنه منهم، كتب إلى أبيه «يابا دنياهم ما بترحم..»، وهو يريد استعادة إحساسه «يريد أن يحيا بين أناس لا يولدون في مختبرات، يريد أن يأكل فاكهة من غير لقاح أو تطعيم، يريد أن يجلس بين الناس على الأرصفة أو في المقهى، ويأكل كنافة أو تمرية.. يريد أن ينسى أنه عاش في الغربة مثل الحصان..» غير أن تجربته بعد أن عاد كانت مريرة: رأى قبح الواقع وفساده وتعقد خطوطه، أخفق مشروعه العملي كما رأينا، واكتمل إخفاقه حين سعى لتخليص نهلة بعد اختطافها، ولقي الضرب والمهانة من أبناء شريكه القديم، وكانت آية غربته وانفصاله التام عن الواقع اقتراحه بحل مشكلة نهلة عن طريق سفرها إلى ألمانيا!



ثمة ابنان آخران يعيشان في الإمارات، أحدهما مهندس والثاني محام، لا نراهما ولا يرد ذكرهما إلا على نحو عرضي، لكننا نرى سعيد أو «سقط العائلة» بغبائه وسوقيته وامرأته وأبنائه الخمسة، يعيش في نابلس، في منطقة اسمها «المخفية»، عاشت معه نهلة يومين، مرغمة، أثناء حصار المدينة بعد عملية فدائية جريئة: «أُغلقت المدينة وحوصرت، وفُرض نظام منع التجول وبدأت حملات التفتيش المسعورة عن الفاعل، لكن الفاعل اختفى فجأة كما جاء فجأة، انشقت الأرض وابتلعته كما أنبتته، فلم تجد السلطة مخرجًا إلا باتباع الأسلوب نفسه الذي ما عاد يخيف أو يضايق أحدًا، فالناس اعتادوا التفتيش ومنع التجول والإضراب وإغلاق الشوارع والدكاكين وتعفن الخضر والفواكه وامتلاء المدينة بالقاذورات وانفتاح المجاري والبلاعات وتهرؤ الأرصفة والأسفلت وانكشاف عظام المباني وانكشاف عظام البشر..». داخل هذا الحصار حصار ثان في بيت سعيد. سعيد هذا هو الذي سيحاول قتل نهلة حين عرف نبأ زواجها، رأت زينة المشهد فأعادها إلى ماضيها الخاص، حين اقتحم أبوها بيت جدتها في واشنطن ليقتلها بعد حملها وهروبها قبل أكثر من عشرين سنة، وتعلّق زينة: «لو أن أحدًا أنبأني أني ساعود إلى



الماضى عبر نفق الزمان لما صدَّقت، إذ بات الماضى هو الحاضر، ولا فرق كبيرًا إلا بالصوت والصورة..». (أليس هذا بعض الميراث؟)، وسعيد هذا نفسه سوف يسعى لإطلاق سراحها، وسيكون الاقدر على التفاهم مع أبناء السمسار، فهو يعيش واقعهم نفسه ويتكلم لغتهم نفسها، وسوف يدفع الأمور بحيث يحلُّ شريكًا محل أخيه.

بقيت نهلة: امرأة سحر خليفة النموذجية، التمرين المشهور الذى تقدمه تدليلاً على صحة قضيتها، وطبيعى أن تحظى بالنصيب الأوفى من تحليل أفكارها ومشاعرها ورؤاها للحياة والناس. كانت فتاة جميلة نضرة حين خرجت تعمل معلمة فى الكويت، وظلت هناك، تعمل وتدفع للجميع، وهاهى اليوم عانس وحيدة فى الخمسين. إنها تنفض همومها أمام زينة، تتحدث عن مازن وعن الآخرين: «قاعد بلا شغلة ولا عملة وداير عامل لى جيفارا وقيس وليلى.. هذا اللى صرفت عليه من شقا عمرى وعرق الكويت عشان ألقاه؟ هذا، وهدول كلهم، كلهم عصرونى مثل الليمونة وراحوا لحالهم.. داروا الدنيا وداروا ظهرهم.. صاروا مهندسين ما شاء الله وأنا فى الكويت زى البقرة أحلب وأعلّم وأربى.. (..) سنة ورا سنة لما صاروا العمر، والعمر مر وسنين ضاعت وصحيت لقيتنى ختياره بلا جوز ولا بيت ولا مين ينادينى! ماما.. هاى آخرتها. هاى آخرة نهلة بنت عمك، بقرة منسية فى الماخور بعد ما نشفوا حليباتها..».

ألا يبدو معقولاً وطبيعيًا وإنسانيًا كذلك أن تتعلق بالقشة الأخيرة التى لاحت فى أفق حياتها؟ ولا تحسبها غافلة عن حقيقة من اختارت. هل اختارت؟ أدمنت نهلة الجلوس أمام مرآتها، تخلع وتلبس، تتجمل وتتطرى، فى جلوسها هذا تتحدث إلى نفسها حديثًا طويلاً بعاميتها المعبِّرة، من هذه المونولوجات تتكشف أعماق عانس فى الخمسين: «بدأت تكبر، بدأت تشيخ، الدورة تغيب وتنقطع.. ذهبت للعلاج عند الدكتور فقال الدكتور: «هذا طبيعى، هذا أوانها». بكرة بتقطع، نهلة الحلوة الحركة النغشة تقطعها؟ لم تبدأ بعد لتقطعها! لم يبدأ الخصب لتقطعها، ولم تجربه ولا مرة، مرة فى العمر، مرة واحدة..». بهذا التوق الجارف، إذن، اندفعت نحو الرجل وهى تعرف ماضيه وحاضره تعرف أنه أمى جاهل متخلف، بدأ حياته يرعى الغنم ثم «صار يتاجر بكل شىء حتى «اختمر» أى حوَّش خميرة للمشروع، وكان المشروع شراء الأرض بسعر البلاش من الفلاحين، وبيعها للمدن بسعر الذهب، وهكذا صار غنيًا». ولكن ماذا بوسع نهلة أن تفعل، والحب كما تقول، يأكل العقل، ويجعل من المرأة الحرة عبدة ذليلة لعواطفها، ويجعل من الرجل المحموم الذى ما ذاق غير ابنة عمه عديمة الطعم، رجلاً حمشًا على استعداد للاستشهاد فى سبيل الحب والمحبوبة.

هذا ما تقوله نهلة لنفسها، وأرجو ألا تصدقها فيما تقوله عن السمسار الذى هربت لتتزوجه، إذ ما أن لاحت نُذر الخطر، وخطفها أبناؤه ليرغموها على التنازل عن كل ما قيل أن أباهم منحه لها، حتى لاذ بالفرار «قطع تصريحًا وهرب من فوره إلى عمان، فعلى الأقل هناك شرطة وجيش وأمن وحكومة، أما هنا فالقتيل يُدفن بلا جنازة..». وفى عملية البحث عن نهلة والوصول لمختطفيها تكشف الرواية عن وجه من وجوه نابلس لم تعرضه من قبل: «نابلس القديمة كالأندر جروند، عالم تتشابك أبنيته مع أقبيته ودهاليزه وأزقته وظلام الليل فى وضح النهار.. (..) فى الانتفاضة هرب السكان من الاشتباكات بين الجيش والشبيبة والاقتحامات المتتالية ليلاً ونهارًا.. (..) فى دار ما، فى قبو ما، كانت نهلة محوطة بالظلمة والأشباح..». وللوصول إليها كان على أخويها ـ يقودهما دليل ـ أن يهبطا فى العبَّارة إلى مجارى المدينة، وأن يصعدا إلى المكان الذى احتجزت فيه. إن كل المشاهد التالية التى تدور فيها المفاوضات بين الطرفين ـ ويقول عنها كمال أنها «حوار الطرشان» ـ تكشف عن مواقف مختلفة أفرزها هذا الواقع نفسه، ثم تكشف غربة كمال وانفصاله عن واقع حياة الناس: شرطه الأول أن تطلق نهلة، والحل الذى يراه لمشكلتها كلها أن تسبقه إلى ألمانيا!



لنلق نظرة إلى العائلة الأخرى: كانت «فتنة» امرأة الأب فى سن نهلة أو أصغر قليلاً، شقراء بيضاء، «مزوقة جدًا، تصطبغ بشكل غريب»، صارحت زينة بأنها كانت تتمنى أن تنجب من أبيها.. «لولا النصيب كنت عوضته وجبت لكم ولد.. (..) الولد بيحجب الميراث، من غير ولد عمك بيورث..»، وما أن لفظ الأب أنفاسه حتى سارعت إلى مستشفى هداسا وأتمت عملية التلقيح الصناعى. تقول لأمها وهى تحاول إقناعها «بنظافة» ما فعلت: «ما عملت شىء يزعل الله، كلها عملية عملها الدكتور فى المستشفى وهو لابس كفوف وكمامة ومعاه ممرضة..»، غير أن أمها ترفض ما فعلت، «فالست أميرة «شىء مختلف» هى سليلة عائلة «الشايب» المقدسية العريقة، هى التى أحبَّت عبد الناصر وآمنت به، وبمصر. «كانت تحس بأن حب القدس هو حب مصر، وحب مصر هو حب القدس، وخان الخليلى وباب العمود هما فى الواقع من الظهر نفسه، وأن الجنين فى أحشائها ليس سليل آل الشايب ولا سليل القدس فقط، بل هو سليل عبد الناصر، وحين ولدته قالوا لها: «ماذا نسميه؟»، قالت بوجد وهى تستمع لأم كلثوم «طبعًا ناصر»، وكان ابنها عبد الناصر، أما فتنة فماذا تسميه؟ تسميه هداسا؟ تسميه كهانا؟ تسميه شلومو؟»، وقد رأيناها كيف أعادت طفل هداسا إلى آبائه بعد موت ابنتها.

ابن عمها، وكبير عائلة الشايب، نموذج فذ فى الواقع الفلسطينى، تقول عنه إنه علامة ومؤرخ وسياسى وعارف بالأنساب والأصول، لكن زينة تحكم عليه، من النظرة الأولى، بأنه «قمىء قبيح»، كانوا ينادونه بالباشا والبيك، لأنه عمل فى بلاطات عدة عواصم، عربية طبعًا، قنصلاً أو مستشارًا، ثم إنه من مدينة عريقة وعائلة عريقة ودار ورثها عن الأجداد تشهد بالعز القديم، أما زينة فقد رأت فيه، بعد قليل، «خروفًا محشوًا بصنوف الدهن، من غير عضل..». وقد نفرت من حديثه عن الماضى: أيام المرحوم الحاج أمين «الحسينى» كانت الدنيا دنيا..«كان القائد يرفع الرأس بأصله وفصله وطريقة لبسه، فاللبس مهم جدًا..»، أما اليوم «فمن هم قادتنا سوى الزعران؟»، وتستطيع أن تتوقع، بطبيعة الحال، ماذا يمكن أن يكون رأي مازن فيه، وهو ليس سوى واحد ممن كانوا يطمحون لأن يكونوا بين الزعران!

لكن فيوليت هى التى تعريه وتفضحه وتكشف ستره: مندفعًا بأوهامه ورؤيته الفاسدة للحياة والناس، قرر أن تكون فيوليت عشيقته، وقرر أن يكون هذا الأمر سرًا.. «فماذا يقال لو انتشرت قصته مع فيوليت بين الناس؟ يقال الشايب مع حلاقة؟ يقال الشايب سليل العز وورِيث مفتاح القدس مع نصرانية؟ يقال أصغر من بنته؟»، والمهم أنه قرر هذا كله دون أن يعرف رأى فيوليت فى هذا كله! هذا موقف نموذجى تستعد له الرواية جيدًا، والحوار المتبادل بينهما ـ فى غيبة الأم التى تجهز العشاء بعد أن فرض البيك زيارته عليهما ـ أشبه بمبارزة حامية بين طاووس منتوف الريش، من ناحية، وفتاة ذكية حساسة، ذات جمال وكبرياء، من الناحية الأخرى، أطاحت به وبسيفه المفلول فى نهايتها: «كان صوتها أعلى مما يجب، قد يصل للناس، فبدأ يخاف: يعنى أنت بدك شرموطة، شرموطة نظيفة وظريفة وكمان ببلاش! (..) وقف دون أى تعليق، نهض بتلكؤ ودون ضجيج (..) هزَّت رأسها بهزء ومرارة وأوصلته نحو الباب، وحين خرج وهو يمشى نحو الدرجات رأته قصيرًا وصغيرًا، رأته أقصر مما هو، وهى طويلة..». هكذا: حققت انتقامها ـ هى وبقية النساء ـ من البك وبقية الرجال كذلك!

غير أنها ـ فيوليت ـ تلعب دورًا آخر فى هجائية لون خاص من الرجال، هم الثوريون، أو بالأحرى: المشتغلون بالثورة. إن فيوليت، الجميلة الذكية، التى تعزف على الجيتار وتغنى للحب، تسترجع علاقتها بالرجال، وتقف عند هؤلاء فتطيل الوقوف، ربما كان رجال «وادى الريحان» لهم العذر فى أن تكون المرأة عندهم مجرد جنس لا أكثر «هم عمال وفلاحون سرقتهم مصانع إسرائيل من مزارع مقفرة مهجورة ما كانت لهم..»، ولكن: أى عذر للسياسيين والقادة؟ إنها تتذكر، بمرارة، زميلاتها فى «ثانوية صلاح الدين» فى القدس، وترسم صورة واقعية ساخرة لكيفية استدراجهن من جانب «سياسيين كانوا هم القادة، وكانت أصداء مقالاتهم وتلك الأشعار تثير الضجيج فى كل مكان»، وصبايا السبعينيات مبهورات بهم، ينظرن إليهم من خلال الهدير وتهليل الناس، وتبدأ عملية الاستدراج: يبتسم لها واحدهم ويقول: «تمام.. أنت المرأة، وأنت الرفيقة، وأنت الصديقة، أنت الأمل والتغيير. أسمعت بروزا لوكسمبورج؟ فتقول: لا. أسمعتَ بمايا تيرشكوفا؟ فتقول: لا. أسمعتَ بمايا جولدمان؟، فتقول: لا. أسمعت وسمعت وسمعت؟ وتصمت خجلاً ويبدأ العرقَ يتصبب فيقول لها بعطف آسر: يا مسكينة، ولسه عايشة؟ تعالى معى، تعالى أعلمك فنون الحياة، ويأخذ بيدها ويدخل بها قاعة وأخرى وأخرى وأخرى، ثم دكانًا وتكية، وآخر يدخل وآخر يدخل، وهى الأخرى مجرد أخرى، ثم السقوط، تسع فتيات تعرفهن مررن بهذا، وسقطن سقوط البغايا. الفرق الواضح أن البغى تقبض ثمنًا، أما الفتيات فرُحن ببلاش وقبض الثورة والتحرير..». وحين تصل فيوليت إلى الاقتناع التام بأن الرجال حالة ميؤوس منها فى هذه البلاد، تقرر الهجرة إلى أمريكا.

وقد لا يكتمل النظر إلى الشخصيات الرئيسة فى العمل دون إشارة سريعة إلى «المحافظ»، رجل السلطة الوطنية، الذى حوصر أمام نقطة التفتيش الإسرائيلية، فراح يقطع الوقت بالثرثرة مع مازن، يقول له ولنفسه ولنا ما يكشف عن تكوينه العقلى والنفسى وماضيه النضالى، لا شىء لديه سوى ما بقى من تلك الكتب القليلة التى قرأها فى الخمسينيات، ولديه اقتناع راسخ بأن أمريكا سوف تتغير من الداخل، سيغيرها السود، مثلما نقلت البسكليتات والزى الموحد الصين والصينيين من حال لحال، لا عجب إن

أحس بغربة شديدة بين الناس رغم أنه ابن هذا القضاء ذاته، «غير أن سنوات الغربة والمنفى فى الظهران ولبنان ثم تونس أبعدته عنهم «وهم لهذا لا يشعرون بانه منهم، أو بالأحرى لا يعرفون إن كان منهم أو «منهم»، أى نحن وهم. وهذا يعنى لغة أخرى، فعلاً آخر، شعبًا آخر ومنفى آخر، منفى جديدًا لم يجربه أو يسمع عنه: أنت فى بلدك ولست ببلدك..».

تلك صورة الحياة كما تقدمها سحر خليفة، وهذا هو «الميراث» الذى بقى لجيل الحاضر فى فلسطين. فى المطار كان عم زينة يودعها. للمرة الأولى منذ جاءت سالت دموعها وهى تؤكد لعمها أنها «راجعة، راجعة، والله راجعة». فهل ترجع حقًا؟



إذا كنا التقينا فى «الميراث» بعائلتين فإننا نلتقى فى «صورة وأيقونة وعهد قديم» برجل وحيد، أو بالأحرى رجل يحاول العثور على ما يتصور أنه عائلته: امرأة عرفها ثم هجرها قبل أكثر من ثلاثين عامًا، وشاب يظن أنه ابنه منها. وقد لا نكون بحاجة لاستباق القول إنه عاد من رحلة بحثه خلو اليدين (ما أصدق ما يقول المتصوفة: إن كنت تريدنى حقًا، فلم هجرتنى؟)، لكن الرواية هى - على نحو آخر - رواية القدس: القدس التى كانت والتى أصبحت.

هو إبراهيم وهى مريم، بكل ما يثيره الاسمان من أصداء ذات طابع دينى ومقدس، لا عجب، فنحن فى أرض الأنبياء، وإنْ لم نعد فى عصرهم. تحابا فى أول الشباب، كان هو معلمًا فى قرية إلى جوار القدس التى تقيم فيها عائلته، أما هى فكانت عائدة لتوها من البرازيل، حيث هاجر أبوها وحيث يقيم ويعمل إخوتها السبعة..«ناس يقولون رجعت لتتزوج من قريب فى القرية، وناس يقولون رجعت لتترهبن وتدخل الدير، وناس يقولون رجعت البلد لتُنَصَّبَ لأن البنت فلتانة هناك..». أما هى فقد اعترفت له - بعد أن أسقط الحب والشباب كل الأقنعة - إنها أحبَّت راهبًا جميلاً هناك، وحين عُرفت الحكاية قال الإخوة إن البلاد أحسن وأستر، هناك تتزوج وتنساه. هكذا جاءت القرية مع أمها شبه العمياء. يقول لنفسه معددًا الفوارق بينهما: هى مسيحية وأنا مسلم، هى غنية وأنا فقير، هى تعرف الدنيا والقارات وأنا لم أصل حتى بيروت، هى من طينة وأنا من طينة أخرى. رغم ذلك ربط الشباب وتاجج العاطفة بينهما، وفى القدس عاشا أجمل ساعات عمريهما، فى زيارتهما الأولى، ما أن دخلا من باب العمود إلا وصارت أخرى..« صارت مارى، سائحة مجنونة مذهولة تشهق وتصيح وتناديني: إبراهيم.. إبراهيم.. شوف، ما أحلاه..»، انتقت ثوبًا فلاحيًا مطرزًا، وضاعت منه فى كنيسة القيامة ثم وجدها، وبعد القداس «خرجنا بصمت وهى لصقى كأنها جزء منى، ومن هناك صعدنا الأدراج إلى الحارات والأزقة ودخلنا ديرًا للأرمن، وفى إحدى الزوايا تعانقنا حتى ارتطمت فجوات العظم..»، فى تلك الليلة باحت له وحدثته عن غربتها: غريبة فى أرض الوطن، وغريبة فى تلك الأرض البعيدة، وحيدة بين الإخوة، وحيدة بين الأغراب، لا تجد نفسها إلا فى القدس، فى دير مظلم تختبئ فيه، تحب الرقص وتحب الله وتحب أن تلبس كل جميل وأن ترى صورتها فى المرآة. فى زيارتهما الثانية قضيا الليلة معًا فى «هوستيل» قادته إليه..«دخلنا الهوستيل وجه الصبح، وكان الأذان فى الأقصى يعلن القيام وصلاة الفجر.. وقفنا فى الساحة العلوية ورأينا القدس تغرق فى الندى وضباب الفجر والياسمين يصل إلينا.. ينضح شذاه وأنسامه فيعطر الجو ويطير بنا فوق القباب والجرسيات. ومع الظلمة اكتشفت النور وظلال الجنة فى امرأة جُلبت من نار. تلك المرأة باتت ملكى..»، وفى القرية واصلا لقاءاتهما مستفيدين من ضعف إبصار الأم، لكن الحمل فاجأهما، ولم تُجْدِ الوسائل الشائعة فى التخلص منه، وبدأ هو يتهرب منها، وتزامن هذا التأزم فى علاقتهما مع التأزم فى الوضع العام: عبد الناصر أطلق بيانات عن شرم الشيخ فاشتعل الجو، وراحت إذاعات العالم، و«صوت العرب» تُرغى وتزبد، وامتلأت القدس بأقواس النصر وصور عبدالناصر.. «واجتاح الهياج كل شارع، وركب الشباب السيارات والشاحنات وهم يُلَوحون بقمصانهم ويرددون: «يا فلسطين.. جينالك»، وغنى كبار المطربين أغنيات النصر والحرية ووحدة العرب المنبثقة من قلب القدس..»، وقبل الحرب مباشرة وصل اثنان من الإخوة وحاولا قتل إبراهيم، وسط هذا الهياج كله «ضاعت مريم وضاعت ذكراها وضعتُ أنا وضاعت القدس..».



الآن.. ماذا يريد هذا الرجل الستينى الذى عاد، كيف ولماذا عاد؟، واضح - مما يرويه عن نفسه: هو الراوية فى أقسام الرواية الثلاثة - إنه أتم دراسته فى تلك الجامعة الإنجليزية التى كان يراسلها، ثم تنقل بين الشركات والعواصم، تزوج وطلق، أمريكية ونمساوية وعربية، وفى السعودية التقى باخته وزوجها، وعمل فى مشروع الحجارة الذى بداه أبوه، وكان يرفض مشاركته فيه (استخراج حجارة الضفة ونقلها لبناء العمارات والقصور فى السعودية والخليج)، يقول: «انتعشت السوق وتدفق النفط، بتنا نعوم فى البترودولار، فدخلت السوق وامتطيته وجلبت الحجارة والعمال من الضفة.. (..) ثم تعاطيت المقاولات فى حرب الخليج وزَوّدت الجيش الأمريكى بالمناشير والجرافات لحفر الخنادق وشق الطرق، وهكذا صرت ثريًا بالملايين..»، وشانهم جميعًا: لا باس بغسل أمواله وتطهير روحه: فتح مؤسسة لرعاية الأرامل واليتامى فى فلسطين فعُرف بانه محسن كبير وراعية للأدب، وعاد مع العائدين (بعد ١٩٩٣ طبعًا)، اشترى دارًا فخمة فى رام الله، يعيش فيها وحيدًا مع خادمة فلبينية وطباخة مغربية «لكن لا حب ولا زوجة ولا ولد ولا بنت ولا أصدقاء..»، ولكن بجواز سفر جديد أحمر ذى امتيازات، وهو يعى التغيرات ويوظفها لصالحه.. «عالم مختلف عما عرفنا» فى الستينيات والسبعينيات والتسعينيات.. صرنا بالألفين.. صرنا سلطة، أنا سلطة مال وأنفذ منها لسلطات الحكم وما يحدث خلف الكواليس، صرنا فلسطين بدل الضفة، وصارت أمريكا هى المرجع بدل السوفييت، راح السوفييت وراح العالم باتجاه السوق وتخصخصنا، بتنا فلسطين المخصوصة والمقصوصة وتغيرنا. بتنا أتباعًا لا ثوارًا. بتنا شظايا..».



القسيس الذى شهد علاقته بمريم فى القرية وتطوراتها أصبح مطرانًا كبيرًا فى القدس، معاديًا للاحتلال متخذًا مواقف مشهودة منه، حين التقى به وساله عن مريم ألقى إليه ما قال إنه طرف الخيط: كان راهبًا يقول عنه المطران إنه ليس دجالاً لكنه غريب، تَرَبَّى فى الدير بين الرهبان، وأتقن تدبيج الأيقونات ونحت تماثيل القديسين، ثم اتجه نحو التصوير فالموسيقى، ثم اللاهوت، ويقول عنه الناس إنه يجد المخبوء ويشفى المرضى ويرى ما يجئ به المستقبل. رحلة إبراهيم للقاء الراهب ميشيل وما دار بينهما هو قلب العمل، وهو ما يعكس رؤية إبراهيم للواقع الذى رآه على أرض فلسطين فى مطلع القرن الجديد، زمن الكتابة. ولعل أهم ما رآه فى هذا الواقع هو تغلغل الإيمان بالخرافة وممارسات القوى الخفية، من جانب، ثم الموضوع الأثير عند الروائية، أعنى القهر الواقع على المرأة، من الجانب الآخر. إن إيغال القرويين الفقراء، أهل «الخربة» التى يقيم بها الراهب حيث قضى إبراهيم يومًا وليلة يرى ويشهد ويحاور الراهب فى ممارساته، فى إيمانهم بتلك القوى، وتنافسهم فى رواية الحكايات التى تدور حول قدراتها الخارقة، هو ما يدفع إبراهيم إلى أن يحس بغربة كاملة.. «أحسست أننى فى عالم لا أمت إليه بأى صلة، كما لو كنت فى السنغال، كما لو كنت فى البنغال، أمن المعقول أن الثورة جاءت منهم؟ من واقعهم؟ كل الأفكار الأممية والكونية وحركات التحرر والتحرير جاءت منهم؟..»، وحين تاتى الآفة الثانية، متمثلة فى ارتفاع صراخ «سكينة» القروية الفقيرة وزوجها يكيل لها الضربات فى قلب الليل، دون أن يبادر أحد من الساهرين فى مضافة المختار إلى نجدتها، بل لا يرى أحد فيما يحدث شيئًا غير عادى يستحق التدخل، بل يقول له المختار: «سكينة مبسوطة بعيشتها (..) إذا أنت عملتها وتدخلت - لا سمح الله - بتدور عليك وبتدعى عليك وتقول: روح، أنت مالك؟ هذا جوزى وهذا بيتى وأنت شو دخلك؟..» - أقول حين تاتى هذه الآفة الثانية يبلغ صاحبنا قمة يأسه، فيندفع إلى الأدلجة والتفلسف: «لا ضوء هنا. لا ماء هنا. لا مال هنا. حتى سواعد من يبنون لا تبنى هنا. فكيف، إذن، نبنى أمة؟ (..) فيما مضى كنا نقول: تغيير العام يؤدى إلى الخاص، وعشنا ومتنا على هذا. كانت قناعة، بل إيمانًا. وماذا تمخض عن ذاك الفهم؟ لا قام العام ولا قام الخاص وتمرمرنا. ثم قلنا: التوعية والتثقيف، أى معناه: لا للسلاح والثورة، ونعم للوعى والتثقيف، وعشنا سنوات على هذا، فأين وصلنا: أو بالأحرى: مَن وصلنا؟».

غير أن المشكلة هنا أننا لا نستطيع أن نقبل شهادته كما هى، فهى شهادة يسهل تجريحها، كما يقول أهل القانون: هذا نموذج، بالغ الامتياز، للفلسطينى المتخلى، كان تخليه عن المرأة التى أحبها وأحبته، وجنينه الذى يتحرك فى أحشائها بداية الطريق، وقاده هذا الطريق إلى الغرق فى مستنقع البترودولار، لم تكفه الملايين التى جمعها من نقل حجارة الضفة لبناء القصور فى صحارى النفط، فى ذات الوقت الذى كانت فيه هذه الحجارة نفسها أدوات التصدى الوحيدة فى أيدى الفتيان الفلسطينيين، لم يكفه هذا كله فوضع نفسه وشركاته فى خدمة الأمريكيين فى ضربتهم الأولى للعراق، ثم عاد مع العائدين بعد اتفاق سلام بائس، وأقام ناعمًا مرفهًا فى بيته برام الله، وشاء أن

يغسل يديه وأمواله فاقام تلك المؤسسة الخيرية، ثم مضى خطوة أبعد في محاولة إلغاء ماضيه واكتساب ماضٍ آخر لا يعود فيه متخليًا، فانطلق يبحث عمّا سبق له أن تخلى عنه!، ولأنه جهد عابث كان لابد أن يعود بيدين فارغتين: لم تستمع إليه مريم وأنكره ميشيل إنكارًا تامًا ونهائيًا.

ميشيل هذا يثير من الأسئلة حول مسلكه ومعتقداته أكثر مما يثير حول صحة نسبه إلى إبراهيم ومريم. إن الأدلة حول صحة هذا النسب ملتبسة مراوغة، وهو يكاد يعترف مرة ويُنكر أخرى، و«جميلة» التي عرفت جانبًا من ماضي مريم بعد أن أنجبت طفلها، والتي كانت تقوم، هي، على رعايته حين كانت أمه تمضي للرقص والسهر لا تعرف أين هو، والرواية تتقصد ألا تحسم هذا الأمر، ويبقى بين أيدينا - نحن القراء - شكوك حول اسمه وتاريخ مولده، ثم حرصه الدائم على زيارة أم مريم حين كانت ماتزال تقيم في القرية قبل أن يحملها أبناؤها إلى دار المسنين التابعة للدير الذي تنتسب إليه مريم، ثم ما يراه فيه إبراهيم من شبه بخاله، هو، الفنان القديم!

أما مسلكه ومعتقده فمزيج متناقض محيِّر من الرغبة في خدمة الناس وتقديم العون لهم، من ناحية، والنأي عنهم واللامبالاة بهم، من الناحية الأخرى. يعبِّر عن الأولى موقفه حين كاد «الباص» الصغير يهوي إلى الوادي السحيق وبداخله طفل هو ابن سكينة التي سبقت لها الإشارة. يروي إبراهيم: «رأيت الراهب معلقًا بين الأغصان محاولاً الوصول إلى الموقع، كان قد فتح رداءه وربطه حول وسطه(..) ورأيته يجعل من حبله أنشوطة يشد بها أكرة الباب ثم «توفيق»، ورأيت الولد بين يديه كعصفور صغير منزوع الريش، وحين قذفه نحو الجمهور من تلك المسافة فوق الجرف فقدت الوعي..». مسلكه هذا نحو الطفل يناقض تمامًا مسلكه حين دب الشجار بين رفاقه الذين صحبهم من الخربة ليقضوا ليلة الجمعة في القدس. ولعل أوضح ما نجده تعبيرًا عن معتقده هو ما يقوله أثناء حواره مع إبراهيم قبل أن يستجيب للاستفزاز ويصارحه برأيه فيه. يقول إنه يعالج الناس بأن يعينهم على استخدام الطاقة الموجودة بداخل كلٍ منهم: «أنا لا أفعل شيئًا سوى التكثيف، ألملم الشحنات المنفلتة وأجمعها في بوتقة فتصبح قنبلة ضوئية، وحين تنفجر وينطلق الضوء يضيء الكون، وينتشر النور وتتحرر من كل القيود..(..) قيود الجسم وقيود النفس وقيود الدين والقومية وقيود اليهود». وحين تسمع مثل هذا القول ممن في مثل وعيه ومعرفته، في ظل الشروط التي تعيشها أرض فلسطين الآن، ألا تحس بأنها دعوة جديدة، ومبتكرة، للون جديد من التخلي؟

كذلك شأن مريم، إننا لا نراها - خارج المستدعيات - إلا هادئة صامتة، لا تكاد تجيب بشيء عن الأسئلة التي تناوش حبيبها القديم. بعد البحث المتصل والتنقل وراءها من هنا لهناك التقى بها في دير «المسكوب» في القدس حيث تعتكف.. «رفعت رأسي لأجدها تقف أمامي وتتأملني. وجه محاط بالأبيض تحت الأسود وصليب ضخم، لكن الوجه لم يتغير.. (..) تبدو مرتاحة بلا أشواق..». كان كلٌّ في عالمه، لم يدر بينهما حوار بالكلمات، هو يلهث وينفعل



ويريق ما عنده وهي هادئة مبتسمة لا تكاد تقول شيئًا. إننا لا نعرف عنها شيئًا منذ فقدت «جميلة» أثرها بعد أن سكنت في بيتها، ولم نعرف كيف وصلت لذلك الحال، ولكن مهما كانت الأسباب وراء ترهبها واعتكافها وانسحابها من الدنيا، هل يمكن ألا يكون هذا المتخلي مسئولاً عما آلت إليه؟



في الحوار الأخير بينه وبين ميشيل، قال له ميشيل إنه غاضب منه لأنه يتدخل في شئونه ويتجسس عليه.. «تبحث عني في كل مكان، تبحث عن أمي في القرية. وجئت الخربة بحثًا عنها، وبين الأنقاض عند جميلة.. من بضع سنين تبحث عن أمي في الجليل، وها أنت الآن تبحث في القدس، فماذا تريد؟ تريد أمي؟ هي لا تريدك. تريد رجوعي؟ أنا لن أرجع. تريد مني أن أرضى بك؟ أنا لن أرضى(..) أمي ماتت. دخلت الدير. وحين أراها أرى أختًا لي، أختي الكبرى، وأراك أنت رجلاً غريبًا مقهورًا لا يعنيني، يريد أن يتشبث بالقشة.. (..) أرجو منك أن تنساني وتنسى أمي وتدعنا كلينا لعالمينا..».

اشتعلت القدس في اليوم الأخير. كنا في أيلول.. «ذلك الأيلول، آخر أيلول..». تقول الرواية إن أيلول ذلك الموسم كان حريفًا (واضح أنها تعني أيلول ٢٠٠٠ حين تفجرت الانتفاضة الأخيرة): بدأ الرشق بالحجارة فانهال الرصاص مثل زخات المطر، واتسعت الاشتباكات في كل مكان حول الأقصى. في هذه اللوحة التي تنتهي بها الرواية تقول الروائية الكثير: كانت قبلها قد جاءت بكل أهل الخربة إلى القدس: سكينة وزوجها وابنها الصغير الذي أنقذه ميشيل من قبل، إضافة إلى المختار وصاحب نُزل الناصرة، وهذا الروسي الذي كان مؤلفًا مسرحيًا مرموقًا في بلاده قبل أن تتفكك، وبعد أن تفككت جاء إلى إسرائيل وراء الراقصة الصغيرة التي يعشقها. كانوا جميعًا في القدس حين اشتعلت، وكانت جميلة أيضًا هناك. هذه امرأة من نوع «الست زكية» التي رأيناها في «باب الساحة»، وهي لا تفقد صوابها أبدًا، ولا تتوانى عن أداء دورها الذي تعرفه وتجيده: وسط الهول والجحيم والرشاشات والصراخ والقتلى والجرحى والمصابين، نزلت إلى قلب الناس، حملت شنطة فيها أدواتها الطبية - هي ممرضة - لتطبِّب هذا وتضمِّد ذاك، حملها عنها إبراهيم وانطلق معها (هل هي صحوة متأخرة بعد أن أيقن عبث استعادة الماضي الذي تخلى عنه؟ ربما).

لكن أهم ما تقوله الروائية - عندي - يتمثل في هذا المشهد الصغير: «توفيق»، الطفل ابن سكينة، هرب منها ثم رأته على طرف السور بين الشباب والحجارة، ناداه إبراهيم.. «لكن توفيق لم يسمعني، كان يناول أحد الشباب حجارة صغيرة فيضعها ذاك في المقليعة ثم ينشن.. (..) الشاب هناك في أعلى السور ملأ المقليعة بحجر جديد، نشنها على جوقة جنود، أصابت أحدهم فسال الدم، نظر الجندي وأشار إليه فصوَّب أحدهم رشاشه وقتله بدم بارد. ارتمى الشاب فارتمى توفيق فوق الجثمان وأخذ يبكي فسحبه شاب بالكوفية وقال له ما لم أسمعه. ربت رأسه وخلع الكوفية عن الميت وألبسها له..».

إنما على هذا النحو يتواصل الصمود، وتتقدم أجيال جديدة نحو قلب اللهب. هل تقول إن «توفيق» ليس سوى طفل؟ هذه «الست جميلة» تجيبك: «اسمع. بأيام الغفلة ما حدا صغير».

ها قد وجد المتخلي القديم نفسه وسط الاشتباك. مرة ثانية: هل هي صحوة متأخرة أم هي خيالات الكاتب الذي حلم يومًا بأن يكونه، ثم تخلى عن حلمه بين ما تخلى عنه، هي التي تجعله يرى ما يرى: السماء بدأت تصحو في عز الخريف، وأوراق النرجس والنعنع بدأت تخضر، وشعاع أزرق يتلألأ في غيمة برد.. (..) نظرتُ لفوق، حيث القمة وجبل الزيتون، رأيت الليل وقد بدأ هناك من جهة الشرق، ورأيت أضواء البلدية والكشافات حول الأقصى تنير طريقي..»؟

تلك صورة الحياة على أرض فلسطين بين انتفاضتين، فمن الواضح أن الرواية الأولى تبدأ بعد قيام السلطة الفلسطينية في ١٩٩٤، وأن المشهد الأخير في الثانية يشير إلى بدء انطلاق الانتفاضة الثانية في أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٠.

بقي أن نقول كلمات قليلة حول أبرز الملامح في تلك الصورة: من الواضح أن السلطة التي جاءت بعد معاهدة سلام بائسة، مليئة بالثغرات ووجوه النقص لدى تطبيقها على أرض الواقع، إنما هي سلطة هشة خائرة، لا تستطيع بسط نفوذها على أرضها، ولعل ما تنتهي إليه «الميراث» دليل ساطع: أمام نقطة التفتيش الإسرائيلية وقف الجميع والجنود شاهرو السلاح يهددون الناس ويوجهون إليهم الإهانات، لا فرق بين مسئولي السلطة وسواهم من الناس. انظر ما حدث للمحافظ: «نزل من السيارة، وحاول التقدم من أحد الجنود، لكن الجندي صاح به بصوت كالرعد: «وقِّف.. وقِّف..»، مد يده ليفهمه أنه ينوي خيرًا وأنه فقط يريد كلمة، لكن الجندي عاد يصيح: «وقِّف.. وقِّف..». تشبث المحافظ بموقفه فرفع صوته «كلمة.. كلمة..». هدد الجندي: «ولا نص كلمة. ارجع يا اللا..»، وحين رأى تلكؤًا وعدم رضوخ فوري وسريع، رفع سلاحه وصوَّبه نحو المحافظ وقال بحدة: «يا اللا.. مكانك..». فعاد المحافظ إلى سيارة الإسعاف وجلس مكانه..». إذا كان هذا يحدث مع المحافظ، رجل السلطة التي وقعت على «أوسلو»، فلك أن تتصور ما يحدث مع الآخرين!



وعلى أرض الواقع فإن الخطر الماثل دائمًا هو تزايد الاستيطان واتساع رقعته. هذا ما يدور بخاطر عبد الهادي الشايب في «الميراث»: هم يطبقون على الوادي ويعتلون الجبال ويتمترسون في المرتفعات، كما فعلوا في جبال القدس. القدس حاطوها وخنقوها ثم ابتلعوها وانتهى الأمر، وجبال الضفة بلعوها وسهول غزة وأريحا. هم مازالوا في كل مكان «يتمترسون في كل مكان ويتوسعون في كل مكان، فأين السلطة؟ أية سلطة؟ أبدون السلطة يكون وطن؟».

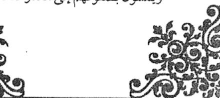
ولدينا مثالان نموذجيان لما يفعله الاستيطان: الأول ما يحدث في مستوطنة «كريات راحيل» المجاورة لتل الريحان. فبعد ثلاثين عامًا من الاحتلال (١٩٩٧) تمت مصادرة التل وإقامة مستوطنة كريات راحيل فوق الهضبة، وإحاطة المستوطنة بسياج كثيف ونقطة تفتيش وحراسة. ها هو المحافظ - رجل السلطة وممثلها - يرى بيوت المستوطنة عن قرب.. «أرى مساكن مختلفة وملاعب وأدراجًا غريبة وأنابيب مياه ضخمة جدًا تقتحم التل وتحفر ترابه وصخوره.. باتت الأرض غريبة أرض الوطن باتت غريبة، حلم التحرير بات



الحروب ومذاهب الأمم

اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله. وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصبيته. فإذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع كانت الحرب وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل.

وسبب هذا الانتقام في الأكثر: إما غيرة ومنافسة وإما عدوان، وإما غضب لله ولدينه، وإما غضب للملك وسعي في تمهيده. فالأول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة. والثاني وهو العدوان أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر كالعرب والترك والتركمان والأكراد وأشباههم لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم. والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد. والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها، فهذه أربعة أصناف من الحروب: الصنفان الأولان منها حروب بغي وفتنة والصنفان الأخيران حروب جهاد وعدل وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين: نوع بالزحف صفوفًا ونوع بالكر والفر. أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم. وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب. وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر. وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدمًا.



شعارًا لا يصل إلى الأرض.. كم حلم في الظهران ثم لبنان ثم تونس (..) وعاد يسترجع ما كان، كل السنين، كل الشهداء، كل الضحايا والتضحيات، ثم مدريد، ثم أوسلو، ثم هنا.. تل الريحان واسمه الرسمي على اللافتة: كريات راحيل!».

المثال الثاني ما حدث لبيت جميلة نفسها في قلب القدس: اقتحم شابان أمريكيان بطاقيتين وسوالف الطابق العلوي من دارها وأقاما فيه، ثم استصدرا أمرًا بامتلاك المكان.. «كيف ولماذا وبأي شرع أو قانون؟ هذا ما عجزت الست جميلة عن إيجاد تفسير له. فما تفسير أن يأتي شابان يهوديان من نيويورك ويقطنا دار امرأة رغمًا عنها، ويستصدرا أمرًا بامتلاك الدار، رغم «القوشان» (حجة الملكية) بحوزتها وعليه ختم عثماني ثم بريطاني ثم الأردن؟»، لمن تتوجه الست جميلة بسؤالها ومن يجيبها عنه؟ إن ما يشغلها هو: من سيرث الدار بعد موتها؟ من سيتابع قضايا المحاكم ويستخلص لها بيتها؟ تمسك جميلة ببيتها هو، تمامًا، تمسك العم بأرض البيارة التي يملكها في «الميراث»، يقول لابنه المهندس الذي يطلب منه بيع الأرض لإقامة مصنع (فهو تحت وهم أن الضفة سوف تكون هونج كونج العرب، وغزة سوف تكون تايوان الشرق!)، يقول: «بلا قلة عقل.. بعد هالعمر وبعد هالشيب واللي شفناه وتحملناه عشان الأرض أبيعها بالسوق؟ الموت يسبق. طول ما أنا عايش ممنوع تتباع.. واللي يبيعها رح أغضب عليه.. روحي من القبر رح تلعنكم إذا بعتوها..». تلك هي الروح التي تغذي الصمود وتُبقي على جذوة النضال رغم الأنواء والعواصف.



ولأنها سلطة هشة، تقف على أرض زلقة، مليئة بالعقبات والعثرات، فطبيعي أن تخطئ وتشتبك خطاها، وطبيعي أيضًا أن يزدهر في ظلها الانتهازيون والسماسرة وطلاب الربح السريع، أصبح الجميع: المواطنون و«المعاد توطينهم» لا يفكرون إلا في المشاريع، كيف تُنتهز الفرصة في هذا الوقت ـ «وقت البناء وأجواء السلم وقرف الناس من فقر الحرب والانتفاضة والفوضى وتكسير العظام..»، وتقيم مشروعًا مضمون الربح السريع؟، وانهال الناس على المشاريع ذات الخدمات والسياحة والأكل والشرب من غير هدف إلا الربح.. «فحلم التصنيع وتايوان الشرق وكوريا وهونج كونج بات جزءًا من ماض مليء بالأحلام المندثرة، مثل موسكو، مثل كوبا، مثل إيران والجزائر، كلها أحلام، كلها أوهام فكوابيس. وخذوا العبرة يامرتدين!»، لا عجب، إذن، أن يكون سمسار الأرض هو أكثر شخصيات «الميراث» ثباتًا ورسوخًا واطمئنانًا إلى ثروته ونفوذه وحاضره ومستقبله. وأن يأتي هذا الفلسطيني المتخلي بامتياز، بعد أكثر من ثلاثين عامًا، وبعد أن باع حجارة الضفة لأصحاب النفط، وعبَّ من مستنقع البترودولار حتى اكتظ، وعمل في خدمة الأمريكيين وهم يجتاحون العراق، ليحاول أن يزرع جذورًا جديدة في واقع مختلف، شرط دخوله إليه أن يلغي ماضيه، وأن يربح فرصة عذراء كي يستعيد ما سبق أن تخلى عنه: محاولة عابثة وجهد خائب!



ونحن لا نستطيع اعتبار هذين العملين «الميراث» و«صورة وأيقونة وعهد قديم» ثنائية روائية على غرار «الصبار/عباد الشمس». هما عملان يستقل أحدهما عن الآخر، تدور أحداثهما في عقد التسعينيات من القرن الماضي: أوائله وأواخره، وفيهما معًا تتجلى قدرة الروائية على بناء أعمالها بناءً متوازنًا تتقدم حركته إلى الأمام، رغم الانتقالات الدائمة بين الحاضر المعيش والماضي المستدعى للذاكرة. إنها لا تقدم أعمالاً ذات طابع «تسجيلي» أو «توثيقي» قدر ما تقدم أعمالاً روائية تزخر بشخصيات حية مكتملة، نابعة من قلب الواقع، تختلف أطرها العامة من حيث التكون الفكري والنفسي، ومن حيث المصالح والاهتمامات، لكنها تتكامل لترسم صورة الواقع زمن الكتابة. في هذه الصورة تلعب الشخصيات الثانوية أدوارًا ضرورية، بدونها قد لا تكتمل عناصر الصورة وتكتسب الصدق والصحة (في العمل الأول: شخصيات العم وعبد الهادي وأميرة وأم جريس، وفي الثاني: المطران والسائق عزيز وأبو يوسف صاحب نُزل الناصرة وإيلاي: الفنان الروسي الذي لقي مصرعه في اضطرابات الأقصى)، إلى جانب صور من الواقع تفلح الروائية في رسمها، مما يشي بمعرفتها بتفاصيل هذا الواقع، وأن راوية نابلس لم تفقد أبدًا صلتها بما يحدث ومعرفتها بتفاصيله (في العمل الأول: لقاء النساء بامرأة السمسار وبناته، والنزول إلى نابلس المختفية تحت السطح، ومعرفتها ببيوت القدس، وفي الثاني: تفاصيل حياة المسيحيين الفلسطينيين في نابلس والناصرة، والقدس بوجه خاص).

وتبقى أعمال سحر خليفة نافذة مهمة مشرعة على الواقع الفلسطيني، منذ تنبأ أبطال «عباد الشمس» بالانتفاضة الأولى في ١٩٨٧، حتى شهد أبطال «صورة وأيقونة..» انبثاق الثانية في أيلول ٢٠٠٠. ■

علاّمة بغداد في عصرها الذهبي

الجاحظ.. سيد البيان العربي

محمد عبد الرحمن يونس

الجاحظ هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، الليثي، المعروف بين عامة الناس بالجاحظ. ولد في عام ١٦٣هـ / ٨٦٩م في مدينة البصرة العراقية، وهو من أشهر كتّاب العربية وأدبائها على الإطلاق، ويعدّ إماماً فذاً من أئمة اللغة العربية، ولا نخطئ حين نصف هذا الرجل العظيم بأنه سيّد البيان العربي في جماله وصحته وقوته.

لُقّب بالجاحظ لجحوظ عينيه ونتوء حدقتيهما، اشتُهر بالذكاء الحاد والذاكرة الحافظة والقدرة البالغة على الإنشاء الأدبي. ودرس علوم عصره الأدبية والفكرية جميعها، وقرأ المصنفات الفلسفية التي تُرجمت إلى العربية من اللغة اليونانية. ومنذ صغره أبدى ميلاً قوياً نحو المعرفة، فاخذ ينهل منها، وكانت المعارف في عصره سيولاً تتدفق في ولايات الدولة الإسلامية المترامية الأطراف ومدنها. هو العاشق للماء، والماء يجري أنهاراً متدفقة أمامه، فاخذ يشرب منه ولا يرتوي، وكلّما شرب ازداد معرفة وعلماً وفهماً لنفسه ومجتمعه وكلّ ما يحيط حوله. ومنذ أن وعى الغلام أخذ يتردّد مندفعاً إلى أماكن العلم والمعرفة، فزار الكتاتيب، وبدأ يتعلّم فيها مبادئ القراءة والنحو والفقه والحساب، ويحفظ بعض الآيات القرآنية الكريمة، وشبّ ونما، ونما معه اندفاعه القوي لتحصيل العلم والمعرفة، وأحسّ أنّ هذه الكتاتيب، بما تقدّمه من معارف وعلوم غير قادرة على إشباع نهمه العميق للتحصيل العلمي والمعرفي، فمضى إلى المساجد التي كانت في عهد الدولة العباسيّة بمثابة الجامعات العريقة في أيامنا المعاصرة، وهناك أخذ يستمع إلى المحاضرات بعقل نيّر، وقلب عاشق للمعرفة والأدب، وسرعان ما أبدى نبوغاً واضحاً، إذ أخذ ينهل مما يُقدّم في هذه المساجد من فقه وعلوم وشريعة، و من نحو وصرف وعلوم لغة، ومن مناقشات ومحاورات بين الدارسين، أسهمت فيما بعد في أن دفعته شجاعاً واثقاً من نفسه لولوج عالم الأدب والفكر والثقافة من أبوابها الواسعة. وقد تأثّر في هذه المساجد تأثراً واضحاً برجال الأدب والعلم في البصرة الذين سيسميهم في كتابه «البيان والتبيين» بالمسجديين، لأنهم كانوا يجتمعون في المسجد الجامع بالبصرة، ثمّ أخذ يتردّد إلى سوق المربد بالبصرة، وكانت من أهمّ الأسواق الأدبيّة والتجاريّة الكبيرة والمعروفة في الدولة الأمويّة، والتي بقيت محافظة على أهميتها في العصر العباسيّ، وفي هذه السوق بدأ يستمع إلى فصحاء العرب، ويأخذ عنهم اللغة السليمة، ويحفظ ما ينشدونه من الأشعار الكثيرة.



اللوحات من كتاب «الواسطى» إصدار دار الشروق



• نشأ الفتى بسيطاً وفقيراً، وهذه حال المفكرين والمبدعين في التاريخ الإنسانيّ - قديمه وحديثه - فأخذ يبيع السمك بسيحان إحدى مناطق البصرة، وكان عليه أن يؤمّن دخلاً كريماً له ولوالدته، يدفع عنهما ذلّ الفاقة والجوع، إلاّ أنّ انهماكه الشديد بالدرس والقراءة جعله يتقاعس عن تحصيل أسباب معاشه ومعاش والدته، ممّا جعل هذه الوالدة تبدي تضايقها بهذا الانهماك الشديد.

وتروى الكتب أنّه ذات ليلة رجع من حلقات الدرس إلى منزله، وطلب من أمّه أن تعدّ له طعامه اليومي، فسارعت الأمّ وقدّمت أوراقه وكراريسه على طبق قائلة: «ليس عندي من طعام سوى هذه الكراريس». وأحسّ أنّ أمّه تنبّهه إلى تقاعسه، وتوبّخه، وتدعوه إلى العمل والكسب لتقديم ضروريات العيش، فاحسّ بالألم يعتصر فؤاده، فخرج كئيباً حزيناً إلى الجامع. وفي الجامع التقى بصديقه الثرىّ مُوَيس بن عامر، الذي كان من أصدقائه في الدراسة، فسأله مويس عن سرّ حزنه الشديد، فحدّثه بحديث أمّه، وكيف وضعت له طبق الكراريس بدلاً من الطعام، وسرعان ما صحب الصديق صديقه إلى داره، وأعطاه خمسين ديناراً. وكم كانت فرحة الجاحظ كبيرة بهذه الدنانير، فهي أوّل مرّة في حياته يحصل فيها على هذا المبلغ الكبير. وأخذ الجاحظ الأموال، ودخل أحد أسواق البصرة، واشترى الدقيق والطعام الكثير، واكترى الحمّالين، وطلب منهم أن يحملوا ما اشتراه إلى داره، ودهشت الأمّ عندما شاهدت ولدها الجاحظ والحمّالين يدخلون دارها بهذه الأطعمة الكثيرة، وسألت ولدها: من أين لك كلّ هذا؟، فقال سعيداً واثقاً بنفسه: من الكراريس التي قدّمتها لي في المرّة الماضية.

ولم يكتف الجاحظ بنهل علومه من المسجد الجامع في البصرة فحسب، بل دفعه توقه الشديد إلى المعرفة لأن يعمد إلى دكاكين الورّاقين فيكتريها، ويبيت فيها حتى الصباح متفحصاً كتبها، قارئاً لها قراءة المجدّ والناقد والمحلل لمضامينها، فقد وهبه الله سبحانه وتعالى ذاكرة قوية حافظة، إذ لم يقع في يده كتاب إلاّ استوفى قراءته بصبر رجل العلم الباحث عن الحقيقة والمعرفة. وتؤكّد سيرته التاريخية أنّه لم يكن يكتفي بقراءة كتاب في اليوم بل كان يقرأ عدة كتب. ويقول أبو هفّان عنه، وهو أحد معاصريه:«لم أرَ قطّ ولا سمعت من أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنّه لم يقع بيده كتاب قطّ إلاّ استوفى قراءته كائناً ما كان».

ووعى الرجل أهميّة المعرفة، ودورها في العصر العباسيّ، فاخذ ينهل منها، ثمّ يمجّدها فيما بعد مبيّناً فضائلها الكثيرة، فقد كتب مقدمة لكتابه «الحيوان» في حوالى مائة صفحة يمجّد فيها المعرفة والكتب، ويقول في أولها: «جنّبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سبباً، وحبّب إليك التثبّت، وزيّن في عينيك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عزّ الحقّ، وأودع صدرك بَرْد اليقين، وطرد عنك ذلّ الياس، وعرّفك ما في الباطل من الذلّة، وما في الجهل من القلّة».

منح الله الجاحظ قدرة فائقة على القراءة والتاليف، وصبراً عجيباً على اكتساب المعرفة، وما كان بمفرده قادراً على تحقيق مطمحه، وتحصيل هذا الكمّ الهائل من المعارف الكثيرة التي أدهشت معاصريه، والذين أتوا من بعده، بل استعان بمجموعة من أصدقائه الورّاقين الذين كتبوا له وكتبوا عنه، ومن هؤلاء الورّاقين: زكرياء بن يحيى، وعبد الوهّاب بن عيسى بن أبي حيّة الورّاق، وهما أشهر ورّاقين استعان بهما الجاحظ في مسيرته الفكرية.

ولم تقف ثقافة الجاحظ



عند المسجد الجامع وسوق المربد الأدبيّ ودكاكين الوراقين التى أمدته بزاد كبير من المعارف فحسب، بل اتصل بأهم وبأشهر شيوخ العلم وأئمة الأدب فى عصره، ومن هؤلاء: أبو عبيدة والأصمعى وأبو زيد الأنصارىّ وأبو الحسن الأخفش وأبو الهذيل العلاّف وبشر بن المعتمر وثمامة بن أشرس، وتخرّج فى علم الكلام على يدَ أبى إسحق النظام، ونجده فى كتبه الكثيرة يأخذ عن جماعة من الفقهاء، كأبى يوسف صاحب أبى حنيفة، ويزيد بن هارون، والسرّى بن عبدويه.



عاش الجاحظ فى العصر الذهبى للأمة العربية والإسلاميّة، عصر الخليفة هارون الرشيد وولده عبد الله المأمون، الذى ازدهرت فيه العلوم والآداب والفنون العربيّة فى معاهد البصرة وبغداد والكوفة وقرطبة، وفى هذا العصر ترجم علماء العرب أهمّ ما وقع فى أيديهم من ثقافة اليونان والهنود والفرس، من فلسفة وآداب ومعارف كثيرة، وفى هذا العصر الثرىّ بالمعارف العديدة المزدهرة امتدّت معرفة الجاحظ لتنهل من جميع فروع الثقافة الموضوعة أو المترجمة فى البصرة وبغداد، ويُقال إنّه تعلّم اللغة الفارسيّة وأتقنها، واستخدم كثيراً من مفرداتها فى كتبه الكثيرة، ولم يترك الجاحظ علماً من علوم زمانه إلاّ ونظر فيه، وأخذ منه، فقد درس الفلسفة والمنطق والطبيعيات والرياضيات والتاريخ والسياسة والأخلاق والفروسيّة، وقد كان بارعاً فى الأدب واللغة والمنطق، راوياً للأخبار والأشعار الكثيرة، باحثاً حقيقيّاً فى علم الحيوان والنبات، ناقداً للأخلاق والعادات فى مجتمعه، عالماً بالفلك والموسيقى والغناء، دارساً محللاً لشخوص عصره، وعلاقاتهم، وكرمهم وبخلهم، وتصرفاتهم فى أفراحهم وأحزانهم، وجدّهم وهزلهم. لقد كان الرجل بحقّ موسوعيّاً فى معرفته، مستوعباً لكلّ الثقافات فى عصره من فارسيّة وهنديّة وعربيّة وإسلاميّة.

وفى بداية عهده بتأليف الكتب والرسائل وجد كثيراً من الإهمال فى مجتمعه العباسىّ، فاضطرّ عندما كان يؤلّف الكتب والرسائل إلى أن ينسبها إلى بعض الكتاب القدماء المرموقين حتى تلقى رواجاً وإقبالاً، ومن هؤلاء الكتاب: عبد الله بن المقفع، والخليل بن أحمد الفراهيدىّ واضع كتاب معجم العين (أول معجم فى اللغة العربيّة)، وسلّم صاحب مدرسة بيت الحكمة فى بغداد، فقد تعوّد الناس أن يقرءوا للكتاب المرموقين المعروفين فى ذلك العصر، ويهملوا الكتب التى ليس لصاحبها اسم معروف فى دكاكين الورّاقين، ومجالس العلماء والوعّاظ.

تمضى الأيام، وتزداد قدرات الجاحظ المعرفيّة، وسرعان ما تضعه فى أعلى درجات سلم المجد والشهرة، وتنقله إلى مجالس الخلفاء ورجال الدولة. ويسمع الخليفة عبد الله المأمون بأخبار الجاحظ، ويستدعيه إلى قصر الخلافة ببغداد، ويطلب منه أن يؤلّف كتاباً فى عقائد عصره، وينكبّ الجاحظ على تأليف هذا الكتاب، وينتهى منه، ويقدّمه إلى الخليفة، وما إن ينتهى الخليفة المأمون من قراءته حتى يُعجب به إعجاباً لامثيل له، فيستدعيه إلى القصر ليقلّده منصب ديوان الرسائل الرسميّة، وعندما سمع سهل بن هارون أنّ الجاحظ تصدّر ديوان الرسائل قال: «إن ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتاب». ومن قصر الخليفة ببغداد ستطير شهرة الجاحظ إلى آفاق الدولة الإسلاميّة المترامية الأطراف، فى مشرقها ومغربها، وجنوبها وشمالها.

غير أنّ الجاحظ الذى اعتاد الانطلاق الرحب فى ميادين المعرفة وأرجائها الواسعة، لم يطب له المقام فى ديوان الرسائل إلاّ ثلاثة أيام، بعدها حنّ إلى فضاء الحريّة الشاسع المفتوح الذى لن يتحقّق بالنسبة له إلاّ فى النوادى الأدبيّة والمجالس العلميّة، والمساجد وحلقات الدرس والحوار الفكرىّ، فترك وظيفة ديوان الرسائل، وانصرف إلى القراءة الغزيرة والكتابة الأدبيّة. واستوعب الخليفة المأمون الذى يشهد له التاريخ بحكمته وعقله الراجح، وحبّه للمعارف والعلوم، توق الجاحظ للتحرّر من قيد الوظيفة الحكوميّة، فأعفاه من منصبه، وخصص له راتباً من الدولة، أعانه كثيراً على تصريف شئون حياته.

ويبدو أنّ دمامة الجاحظ التى عُرف بها كانت سبباً حقيقيّاً فى أنه اعتذر عن قبول منصب ديوان الرسائل، فمثل هذه الوظيفة ذات علاقة وثيقة بالناس المرموقين فى الدولة من جهة، وذات علاقة أوثق بالخليفة من جهة أخرى. وقد عُرف عن الملوك والمسئولين فى التاريخ أنّهم كانوا يؤثرون من كان رصيناً وقوراً، والجاحظ عابثاً مازحاً ناقداً. وقد كانت هذه الدمامة فيما بعد السبب الرئيس الذى جعل الخليفة العباسىّ المتوكل على الله يرفض أن يجعل الجاحظ مؤدباً لأولاده، فعندما اتصل الجاحظ بالفتح بن خاقان وزير المتوكل على الله، وقدّم له كتابه المعروف بـ: «فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة»، حصلت بينهما مودة عميقة وصداقة ومراسلات، عندها اقترح الوزير الفضل بن خاقان على الخليفة المتوكل أن يستقدم الجاحظ إلى قصر الخلافة، ويعيّنه مؤدباً لبعض أولاده، لكنّ الخليفة عندما رآه نفر منه ورفضه. ويذكر الجاحظ لنا هذه الحادثة قائلاً: «ذُكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده فلمّا رآنى استبشع منظرى، فأمر لى بعشرة آلاف درهم ثمّ صرفنى».

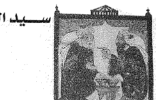


وتتوالى الأيام، ويطيب المقام لصاحبنا فى بغداد، ويرتاد النوادى الأدبيّة والمساجد، وحلقات البحث والمناظرة، وفى كلّ يوم فى بغداد تتسع ثقافته، ويكثر عدد المعجبين بأدبه وكتاباته. ويأتى عهد الخليفة العباسىّ المعتصم بالله، ومعه تتحوّل الخلافة من بغداد إلى سامرّاء، وينتقل الجاحظ معها. وفى سامرّاء ينكبّ الجاحظ على القراءة والتأليف، واصلاً نهاره بليله، كما كان فى بغداد، وتزداد شهرته. وفى سامرّاء يعرف كثيراً من الأدباء والمثقفين، وتتوطّد علاقته بأصحاب الحكايات والفكاهات والنوادر أمثال أبى العيناء والجمّاز، وغيرهما من ندماء الخلفاء والمهرّجين فى قصورهم. وتبتسم له الأيام السعيدة، وتفرد له جناحيها، إذ يتقلّد الوزارة فى عهد المعتصم ابن الزيّات، الكاتب والشاعر المعروف، والعاشق للأدب والتاريخ والثقافة. فيتّصل به الجاحظ، وتنشأ بينهما صداقة عميقة، ويقيم معه الجاحظ فى ديوان الوزارة، ويكتب له، ويمدحه. ومن شدّة إعجابه به يقدّم له كتابه الشهير «الحيوان»، فيكافئه عليه ابن الزيات، ويعطيه مالاً وفيراً.

لقد أتاحت إقامة الجاحظ فى كنف ابن الزيّات أن يخرج من سامرّاء، ويسافر إلى دمشق وإنطاكية ومصر، وهناك يتعرّف على عادات الناس وتقاليدهم، ويلتقى بالأدباء والكتّاب، وقد وسّع هذا السفر خياله الأدبيّ، وزاده علماً وخبرة ومعرفة بأحوال الشعوب، وبالتالى أثرى كتاباته الجديدة بالمعارف الجديدة والعميقة.



وكما تنشأ ـ عادة ـ عبر التاريخ العداوة والحساسيّة السياسيّة بين أفراد السلطة فى البلد الواحد، نشأت بين الوزير ابن الزيّات والقاضى أحمد بن داود، قاضى القضاة بسامرّاء، عداوة شخصيّة كبيرة، وبحكم الصداقة العميقة بين الجاحظ وابن الزيّات نجد أنّ الجاحظ يقف فى صفّ ابن الزيّات، ويتحزّب له ضدّ أحمد بن داود. ويبيّت القاضى أحمد بن داود أمراً ضدّ الجاحظ، ويصمّم أن ينتقم منه، إذا سمحت له الأيام بذلك. وفى سامرّاء يتوفّى المعتصم، ويستلم الخلافة ابنه الواثق، ثمّ تصير الخلافة إلى المتوكل على الله، وكان المتوكل يحقد على ابن الزيّات أحقاداً سياسيّة شديدة، فقبض عليه، وعذّبه، وأدخله فى تنّور محمّى بالنار، ويموت الوزير من شدّة التعذيب. ويصفو الجوّ لابن داود، إذ يقرّبه المتوكل، ويعتمد عليه فى أمور سياسيّة كثيرة، فيصبح رجلاً قويّاً، ويقرر أن ينتقم من الجاحظ. ويعرف الجاحظ ذلك فيهرب ويختفى بعيداً عن الناس، لكنّ أعوان القاضى يجدّون فى طلبه، ويقبضون عليه، ويحضرونه إلى القاضى ابن داود مغلول العنق بسلسلة غليظة، مقيّد الرجلين، فى قميص سمل. ويبدو أنّ السعادة والهناءة لا تصفو لأحدٍ مهما كان عالى الحسب والنسب والشأن والمقدرة، وكما قال الشاعر الأندلسىّ أبو البقاء الرندىّ:



لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصان
فلا يغرّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول
من سرّه زمن ساءته أزمان

وفي مجلس القاضي ابن داود يقف الجاحظ منكسراً، فيأخذ ابن داود في توبيخه وتعنيفه قائلاً: «والله ما علمتك إلاّ متناسياً للنعمة، كفوراً للصنيعة، معدناً للمساوئ، وما قصّرت باستصلاحي لك، ولكنّ الأيام لا تُصلح منك لفساد طويتك (...) وسوء اختيارك، وتغالب طبعك..».

وبأسلوب البلاغة الرفيعة والجمال الأدبي الذي وسم كتابات الجاحظ الكثيرة، يردّ معتذراً قائلاً: «أيدك الله! فوالله لأن يكون لك الأمر عليّ خيرٌ من أن يكون عليك. ولأن أسيء وتحسن أحسنُ في الأحدوثة عنك من أن أحسنَ فتسيء. ولأن تعفو عني في حال قدرتك أجمل بك من الانتقام». فقال القاضي: «جيئوا بحداد». فقال الجاحظ: «أعزّ الله القاضي! ليفكّ عني أو ليزيدني؟» فقال القاضي «بل ليفكّ عنك». فجيء بحداد بالحداد فأشار بعض أهل المجلس إلى الحداد أن يشدّ على ساق الجاحظ، ويتباطأ في فكّ القيد، فلطمه الجاحظ قائلاً، بأسلوبه الأدبي الساخر: «اعمل عمل شهر في يوم، وعمل يوم في ساعة، وعمل ساعة في لحظة، فإنّ الضرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة». فضحك القاضي وأهل المجلس منه، وقال القاضي: «أنا أثق بظرفه». ثمّ عفا عنه. ولعلّ العفو عند المقدرة من أهمّ الخصال العربيّة الكريمة الأصيلة في المجتمعات الإسلاميّة، وقد قال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه حاضّاً عليها: (...فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر..). سورة آل عمران، آية ١٥٩. وقد بيّن الشعراء العرب فضل العفو، فهاهو أحد الشعراء العرب يقول:

والعفو عند لبيب القوم موعظة
وبعضه لسفيه القوم تدريب

ثمّ قال القاضي ابن داود: «يا غلام صر به إلى الحمّام وأمط عنه الأذى، واحمل إليه تخت ثياب وطويلة وخفّاً». فذهبوا به إلى الحمام، وغسلوه، ثمّ أتوا به، فأجلسه القاضي في صدر المجلس مرحّباً به قائلاً: «هات الآن حديثك يا أبا عثمان».

وظلّ الجاحظ في كنف القاضي ابن داود سنة كاملة، وكتب كتابه المشهور «البيان والتبيين»، وقدّمه له، فأعجب القاضي به إعجاباً شديداً، وكافاه عليه بخمسة آلاف دينار.

ثمّ اتّصل الجاحظ بالفتح بن خاقان، وزير الخليفة المتوكل على الله، ونشأت بينهما صداقة عميقة. وكان الفتح بن خاقان محبّاً للجاحظ ومعجباً بأدبه و شغوفاً بمجالسه، فما كان من الجاحظ إلاّ أن ألفّ كتاباً بعنوان: «مناقب الترك وعامة جند الخليفة»، وقدّمه له فكافأه عليه الوزير مكافأة كبيرة.

وفي مجلس الخليفة المتوكل كان الوزير الفضل بن خاقان يثني على الجاحظ وعلى قدراته المعرفيّة الكبيرة، وأدبه الجميل، ويأخذ له المكافآت والجوائز الماليّة من الخليفة، وكان المتوكل يثق بأقوال وزيره الفضل، وعندها أمر وزيره أن يطلب من الجاحظ أن يصنّف رسالة، ويردّ بها على النصارى وذلك في سنة ٢٣٥هـ. وألّف الجاحظ الرسالة، ونال عليها مكافأة من الخليفة. وهكذا كانت كتب الجاحظ قادرة على أن تدرّ عليه دخلاً مادياً كافياً لأن يعيش مرفّهاً، متفرّغاً لقراءاته وكتاباته الغزيرة. وقد عُرف عنه أنّه يهدي كتبه إلى كبار رجال الدولة من الوزراء والقادة. فقد أهدى كتابه الموسوم «بالزرع والنخيل» إلى أحد الرجال المرموقين وهو (إبراهيم بن عباس الصوليّ)، فكافأه عليه مكافأة كبيرة. ولم يكن الجاحظ بحاجة إلى مال كثير ليصرّف به شئون حياته، فهو لم يتزوّج، ولم يُرزق بأولاد، بل كان يعيش مع جاريتين تخدمانه، وكان المال الذي يأتيه من كتبه كافياً للإنفاق على نفسه وعلى جاريتيه.



تتّفق الروايات التي تحدّثت عن الجاحظ أنّه أُصيب بمرض الفالج وهو في أوج عطائه العلميّ، لكنّ هذا المرض لم يمنعه عن الحركة، أو عن القراءة والسهر وتأليف الكتب، بل ألّف كتاب الحيوان، والبيان والتبيين، والزرع والنخيل، وكثيراً من الرسائل الأدبيّة وهو مصاب بهذا الفالج. وتروي الكتب القديمة أنّ سبب علّة الجاحظ «أنّه حضر مائدة ابن داود، وفي الطعام سمك ولبن، وكان ابن بختيشوع الطبيب حاضراً، فنهاه عن الجمع بينهما، فقال الجاحظ: إنّ السمك إن كان مضاداً للّبن فإنّي إذا أكلتهما دفع كلٌّ منهما ضرر الآخر. وإن كانا متساويين فكأني أكلت شيئاً واحداً! فقال ابن بختيشوع: أنا لا أحسن الكلام، ولكن إن شئت أن تُجرّب فكل. فأكل فأصابه فالج عظيم».

غير أنّه ينبغي القول: إنّه علينا عدم الإيمان القطعي بهذه الرواية، لأنّ الجاحظ كان يشكو من مرضه في عهد ابن الزيّات (ت ٢٣٣هـ)، وقبل أن يكون صديقاً للقاضي أحمد بن داود ومقرّباً منه (ت ٢٤٠هـ). وقد أشار الجاحظ إلى مرضه في كتابه الحيوان الذي أهداه إلى الوزير ابن الزيّات، من دون أن يسمي هذا المرض تحديداً، إذ قال: «وقد صادف هذا الكتاب مني (أي كتاب الحيوان) حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه: أول ذلك العلّة الشديدة، والثانية قلّة الأعوان، والثالثة طول الكتاب».

وفيما بعد أُصيب بالنقرس، وعندما قوى عليه هذا المرض في آخر أيامه غادر سامراء، ورجع إلى موطنه الأول البصرة، وبقي فيها إلى أن توفي سنة ٨٦٨م.

ويقول المبرّد عن آخر أيام الجاحظ: «دخلت على الجاحظ في آخر أيام حياته، فقلت له: كيف أنت؟ فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج لو حُزّ بالمناشير ما شعر به، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه».

ويروي ياقوت الحموي في كتابه معجم الأدباء أنّ الخليفة المتوكل على الله وجّه إلى الجاحظ في آخر أيامه من يحملونه إلى قصر الخلافة، فقال الجاحظ حزيناً يائساً: «وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل ذي شقّ مائل، ولعاب سائل، وعقل حائل».

توفي الجاحظ بالبصرة مسقط رأسه في عام ٢٥٥هـ/٨٦٨م، وترك آثاراً أدبيّة كبيرة ومهمّة في تاريخ الفكر الإنساني لم يتركها أحدٌ من الكتاب الذين أتوا قبله، ولا الذين أتوا بعده، ويقال إنّه كتب ثلاثمائة وستين كتاباً في شتى ألوان المعرفة الإنسانيّة السائدة في عصره. ويقول المسعودي عنه في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر: «ولا يعلم أحدٌ من الرواة و أهل العلم أكثر كتباً منه». وأثبت ياقوت الحموي في كتابه معجم الأدباء فهرساً بأسماء كتب الجاحظ ورسائله، التي بلغت مائة وثمانية وعشرين كتاباً ورسالة، إلاّ أنّ أهم الكتب التي بقيت لنا، واحتفظت بها المكتبة العربية هي: الحيوان، و البيان والتبيين، والتاج أو ما يُسمّى أخلاق الملوك، والمحاسن والأضداد، والبخلاء، والتبصّر بالتجارة، وذمّ القوّاد، والدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير، والعرافة والفراسة، والربيع والخريف، والنبيّ والمتنبيّ، والحنين إلى الأوطان، ومسائل القرآن، وصياغة الكلام، وفضيلة المعتزلة، وكتاب المعلمين، والأصنام، والبلدان، والجواري والقيّان، والنساء، وجمهرة الملوك، والقول في البغال، والبرصان والعرجان والعميان والحولان، والاستبداد والمشاورة في الحرب، وكتاب المغنين، ومجموع رسائل ضمّ أربع رسائل وهي: المعاد والمعاش، وكتمان السرّ وحفظ اللسان، والجدّ والهزل، والحسد والعداوة، وكتاب آخر بعنوان: في مناقب الترك وعامة جند الخلافة، ورسالة بعنوان: التربيع والتدوير، وكتاب بعنوان: الطفيليّون، بالإضافة إلى كثير من المخطوطات الموجودة في المكتبات والتي لم تُحقق بعد.



ويبدو أنّ معظم كتب الجاحظ قد ضاعت، مثلها مثل كثير من كتب الأدباء العرب والمسلمين، وهذا الضياع شكّل خسارة كبيرة للمكتبة العربيّة، وكان سببه الفوضى السياسيّة، والخصومات والصراعات الكثيرة التي عصفت بالأمّة الإسلاميّة أيام الدولة العبّاسيّة، والتي أدّت بدورها إلى التدمير والانتقام والتخريب، وأسهمت فيما بعد في ضياع كثير من مخطوطاتنا الأدبيّة.

وكان الجاحظ في جميع ما كتبه عبقريّاً، موسوعيّاً، يدلّ على ثقافته الغزيرة، وعقله الوافر، وقدرته الكبيرة على الحفظ والترتيب والتبويب، ولا ننسى فضل الورّاقين الذين أمدّوه بكثير من مادّته العلميّة. ولا عجب أن يكون لكتب الجاحظ تأثير كبير على الأدباء الذين أتوا بعده، إذ أسهمت هذه الكتب في تقويم ألسنتهم، وزيادة ثقافتهم، فنهلوا منها، وأخذوا عنها، فقد كان الجاحظ في رسائله



عاش الجاحظ في العصر الذهبي للأمة العربية والإسلامية، عصر الخليفة هارون الرشيد وولده عبد الله المأمون، الذي ازدهرت فيه العلوم والآداب والفنون العربيّة في معاهد البصرة وبغداد والكوفة وقرطبة



ومصنّفاته باحثاً علميّاً، من حيث تعليلاته واختياراته، ولا يبزّه أيّ باحث آخر في العصر القديم والحديث، ولقد كان قدوة للكتّاب بعده، فكثر طلابه ومقلّدوه، وكثر خصومه وأعداؤه في الوقت نفسه، إذ حسدوه على قدراته الكثيرة، وعلى صبره، وعلى كتبه الكثيرة، وعلى الحظوة التي نالها من الخلفاء والوزراء ورجال الدولة، وقديماً قالوا: «كلّ ذي نعمة محسود»، إلاّ أنّ خصومه على الرغم من هجومهم الشديد عليه وتحاملهم، لم يتمكنوا من إسقاطه، فقد كان الرجل قامة شامخة، لا يزيدها الهجوم إلاّ شهرة وشموخاً. والغريب في الأمر أنّ الذين هاجموه وحطوا من قيمته، قد قلّدوه في طريقة كتابته، وأخذوا طريقته في ترتيب موضوعاتهم وتبويبها، فعلى سبيل المثال نجد أنّ ابن قتيبة الذي كان يكره الجاحظ، قد سار على خطّته في كتابه «عيون الأخبار»، إذ «قلّده في تناول الأغراض المختلفة، وبحث مثله عن الطبائع والأخلاق والحيوان والبخلاء والطعام»، ومن الأدباء الذين تتلمذوا على كتابة الجاحظ أبو العبّاس المبرد، وابن عبد ربّه الأندلسيّ، وأبو القاسم الآمديّ، والقاضي الفاضل، أمّا ابن العميد فقد سلك طريقة الجاحظ من حيث قصر الجملة وتقطيعها، والإكثار من الشواهد الشعريّة والنثريّة. ولا أحد يستطيع أن ينكر مكانة الجاحظ العلميّة الرفيعة مهما كان جاحداً، ومختلفاً معه، وكارهاً له، فكتب الجاحظ «تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان، لأنّه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ. وكان إذا تخوّف ملل القارئ وسآمة السامع خرج من جدّ إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة»، كما يقول المسعودي عنه في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر. وكتب الجاحظ «تعلّم العقل أولاً، والأدب ثانياً»، كما يقول أبو الفضل بن العميد لصديقه أبي القاسم السيرافي. وأمّا القاضي الفاضل فإنّه يقول في الجاحظ:

«وأمّا الجاحظ فما منّا معشر الكتّاب إلاّ من دخل داره، أو شنّ على كلامه الغارة». أمّا الجاحظ فقد كان يعرف قدر نفسه، ويعرف قيمة كتاباته، وقدرتها على النفاذ إلى قلوب العامة والخاصّة، وجذبهم، والتأثير فيهم، فهاهو يقول في مقدمة كتابه الحيوان: «وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنّه وإن كان عربياً أعرابياً، وإسلامياً جَماعياً، فقد أخذ من طُرَف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الحاسّة، وإحساس الغريزة. وتشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللّهو كما يشتهيه المجدّ ذو الحزم، ويشتهيه الغُفْل كما يشتهيه الفَطِن.».

كان هدف الجاحظ في كتابته أن يقدّم للناس جديداً وبديعاً، يستميل به قلوبهم بالدعابة المحبّبة، والهزل والفكاهة اللذين يبعدان السأم والضجر عن نفوسهم، وكان حريصاً، في جميع أعماله، على استرضاء عامة الناس من ذوي الثقافات المتوسطة، ولم ينس في الوقت نفسه استمالة خاصّة القوم من المثقّفين والحكّام ذوي الثقافات العاليّة في الآداب والعلوم والفلسفة، وفن السياسة والأخلاق، والفقه واللغة والبيان، وجميع معارف العرب في تلك الفترة الذهبيّة من العصر العبّاسيّ. لقد كان في كتاباته جاداً مرّة وضاحكاً ساخراً مرّة أخرى، وأديباً مرّة أخرى، وفيلسوفاً في بعض الأحيان. وهو يعلّل ذلك قائلاً في رسالته الموسومة بـ(التربيع والتدوير): «ولو استعمل الناس الرصانة في كلّ حال والجدّ في كلّ مقال(...) لكان السفه الصّراح خيراً لهم(...) ولكن لكلّ شيء قدر ولكلّ حال شكل، فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه».



إنّ الجاحظ هو أوّل أديب عربيّ يخرج بالكتابة العربيّة السائدة آنذاك من دائرة النقل والرواية إلى دائرة الاستنباط والإبداع، ووصف الواقع، وتصوير عاداته بجراءة كبيرة لم تشهدها الكتابات العربيّة قبله، فقد صوّر أخلاق مجتمعه وحياة سكانه من دون رياء أو نفاق، حيث صوّر خفايا المجتمع، وطبقاته، وخيره وشرّه ولصوصه وشحاذيه، وعبيده، ومغنياته، وخلفائه، ووزرائه، وقضاته، وقادته، وأهل الذمّة فيه من المجوس والنصارى واليهود، وتحدّث عن الحيوان والنبات، والعرب والعجم، والشعوب وعاداتها وفضائلها، وهو ينتقل في ذلك من حادثة إلى أخرى، ومن حكاية إلى أخرى، ومن آية قرآنيّة كريمة إلى حديث نبويّ شريف، ومن قصيدة إلى أخرى، ثمّ نراه يدلف إلى شوارع المدن التي عاش فيها ليصف الأزقّة والحوانيت الصغيرة والكبيرة، ودور النخاسة والجواري فيها، ثمّ يدخل قصور الأغنياء، ويصف ترفها ونعيمها وبطرها. ولم ينس أن يدخل بيوت البصرة وبغداد وسامرّاء البسيطة، ليصف سكانها ببؤسهم وفقرهم ومعاناتهم. لقد وصف الشعب بكلّ طبقاته، وعاداته وقيمه، وأعرافه. ومن هنا أحبّه الناس لأنّهم رأوا في كتبه شيئاً جديداً، لم يسبقه إليه أحد من قبل.

كان بلاغيّاً وفيلسوفاً عميقاً في تحليلاته، وساخراً فذّاً في سخريته من عادات مجتمعه. ولعلّ هذا الجانب الساخر هو الأهمّ والأجمل في كتاباته. وهاهو يصوّر مظهراً من مظاهر سلوك أحد معلّمي الصبيان في كتابه (المعلّمون) قائلاً: «كنت ألّفت كتاباً في نوادر المعلّمين وما هم عليه من الغفلة، ثمّ رجعت عن ذلك وعزمت على تقطيع الكتاب. فدخلت يوماً قرية، فوجدت فيها معلّماً في هيئة حسنة، فسلّمت عليه فردّ عليّ أحسن ردّ، ورحّب بي، فجلست عنده، وباحثته في القرآن، فإذا هو ماهر، ثمّ فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب، فإذا هو كامل الأدوات، فقلت: هذا والله مما يقوي عزمي على تقطيع الكتاب. وكنت أختلف إليه وأزوره، فجئت يوماً لزيارته وطرقت الباب، فخرجت إليّ جارية وقالت: ماذا تريد؟ قلت: سيّدك. فدخلت وخرجت، وقالت: بسم الله! فدخلت إليه، وإذا به جالس كئيباً، فقلت: عظّم الله أجرك (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)، (كلّ نفس ذائقة الموت)، فعليك بالصبر، ثمّ قلت له: هذا الذي توفّي ولدك؟ قال: لا. قلت: فوالدك؟ قال: لا. قلت: فأخوك؟ قال: لا. قلت: فزوجتك؟ قال: لا. فقلت: وما هو منك؟ قال: حبيبتي. فقلت في نفسي: هذه أوّل المناحس، فقلت: سبحان الله! النساء كثير، وستجد غيرها. فقال: أتظن أنّي رأيتها؟ قلت: هذه منحسة ثانية، ثمّ قلت: وكيف عشقت من لم تر؟ فقال: اعلم أنّي كنت جالساً في هذا المكان، وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلاً عليه بُرْد وهو يقول:

يا أمّ عمرو جزاك الله مكرمة
رُدّي عليّ فؤادي أينما كانا
لا تأخذين فؤادي تلعبين به
فكيف يلعب بالإنسان إنسانا

فقلت في نفسي: لولا أنّ أمّ عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر، فعشقتها، فلمّا كان منذ يومين مرّ ذلك الرجل بعينه، وهو يقول:

لقد ذهب الحمار بأمّ عمرو
فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنّها ماتت، فحزنت عليها، وأغلقت المكتب، وجلست في الدار. فقلت: يا هذا: إنّي كنت ألّفت كتاباً في نوادركم معشر المعلّمين، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه، والآن قد قوّيت عزمي على إبقائه، وأوّل ما أبدأ فيه بك إن شاء الله تعالى».



وهاهو الجاحظ يصوّر في كتابه البخلاء أحد بخلاء البصرة الأثرياء ساخراً منه، مستهزئاً به، لأنّه يبخل على أخيه الفقير، ولا يدفع عنه الفاقة والحرمان. ويقول: «قال ابن حسّان: كان عندنا رجل مقلّ، وكان له أخ مكثر، وكان مفرط البخل، شديد النّفج، فقال له يوماً أخوه: أنا فقير معيل، وأنت غنيّ خفيف الظهر، لا تعينني على الزمان، ولا تواسيني ببعض مالك، ولا تفرّج لي عن شيء! والله ما رأيت قطّ، ولا سمعت بأبخل منك!. قال: ويحك! ليس الأمر كما تظنّ، ولا المال كما تحسب، ولا أنا كما تقول في البخل ولا في اليسر، والله، لو ملكت ألف ألف درهم لوهبت منها خمسمائة ألف درهم، يا هؤلاء، فرجل يهب في ضربة واحدة خمسمائة ألف درهم يقال به: بخيل!». (البخلاء، دار الفكر، بيروت، دون تاريخ، ص ٢٢١).

وقد شهد عصر الجاحظ تباينا طبقيا حادا حيث أثرى السلطان وحاشيته والتجار الكبار ثراء فاحشا، وعانى البسطاء فيه فقرا شديدا، وكانت كتابات الجاحظ شاهدا معريا لمظاهر الثراء التي تزامنت مع حالات بخل بدت أقرب إلى الأسطورة، فأثرياء الجاحظ بخلاء أنانيون، يأكلون حقوق الناس، ونادرا ما يجودون، وإن جادوا فإنهم لا يجودون إلاّ في حالات السكر، وعندما يصحون من الثمالة سرعان ما يندمون ويطالبون باسترجاع ما وهبوه. وهذه حال الصيرفي

لقد أتاحت إقامة الجاحظ في كنف ابن الزيّات أن يخرج من سامراء، ويسافر إلى دمشق وانطاكية ومصر، وهناك يتعرّف على عادات الناس وتقاليدهم، ويلتقي بالأدباء والكتاب، وقد وسّع هذا السفر خياله الأدبيّ، وزاده علما وخبرة ومعرفة بأحوال الشعوب





الجاحظ سيد البيان

الثرى زبيدة ابن حميد، الذى يروى الجاحظ عنه الحادثة الآتية: «وأمّا زبيدة بن حميد الصيرفى، فإنّه قد استلف من بقال كان على باب داره درهمين وقيراطا، فلما قضاه بعد ستة أشهر، قضاه درهمين وثلاث حبات شعير، فاغتاظ البقال وقال: سبحان الله أنت ربّ مائة ألف دينار، وأنا بقّال لا أملك مائة فلس، وإنّما أعيش بكدى، وباستفضال الحبّة والحبّتين، صاح على بابك حمّال، والمال لم يحضرك، وغاب وكيلك، فنقدت عنك درهمين وأربع شعيرات، فقضيتنى بعد ستة أشهر درهمين وثلاث شعيرات؟ فقال زبيدة: أسلفتنى فى الصيف فقضيتك فى الشتاء،وثلاث شعيرات شتويّة ندية أرزن من أربع شعيرات يابسة صيفية، وما أشك أنّ معك فضلاً». وهاهو زبيدة الثرى يندم على ثوب كان قد وهبه إلى أحد ندمائه، ويحاول استرجاعه. يروى الجاحظ الحادثة قائلاً: «وسكر زبيدة فكسى صديقاً له قميصاً، فلما صار القميص على النديم خاف البداوات، وعلم أنّ ذلك من هفوات السكر، فمضى من ساعته إلى منزله فجعله برشكاناً (من ثياب النساء) لامرأته، فلما أصبح سأل عن القميص وتفقّده، فقيل له: إنك قد كسوته فلاناً! فبعث إليه ثمّ أقبل عليه فقال: ما علمت أنّ هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز؟. وبعد فإنى أكره أن لا يكون لى حمد، وأن يوجه الناس هذا منى على السكر، فردّه علىّ حتى أهبه لك صاحياً، عن طيب نفس، فإنى أكره أن يذهب شيء من بالى باطلاً.

فلما رآه قد صمم، أقبل عليه فقال: ياهناه إنّ الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشيء من ذلك، فردّ القميص عافاك الله، قال له الرجل: إنى والله قد خفت هذا بعينه، فلم أضع جنبى إلى الأرض حتى جيّبته لامرأتى، وقد زدت فى الكمين وحذفت المقاديم، فإن أردت بعد هذا كله أن تأخذه، فخذه، فقال نعم آخذه لأنه يصلح لامرأتى كما يصلح لامرأتك، قال: فإنه عند الصبّاغ، فهاته. قال: ليس أنا أسلمته إليه. فلما علم أنّه قد وقع قال: بأبى وأمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول: (جمع الشر كله فى بيت وأغلق عليه فكان مفتاحه السكر)».

ولم يكن الجاحظ يسخر من مجتمعه وعاداته وقيمه والبخلاء فيه فحسب، بل كان جريئاً على نفسه، وكان لا يجد عيباً أو منقصة من أن يسخر من نفسه إذا وجد ذلك طريفاً ومسليّاً. فها هو يقول ساخراً من نفسه ومن إحدى الجوارى الأجنبيّات التى لا تعرف نطق الحروف العربية بسلاسة ودقّة: «أتيت منزل صديق لى، فطرقت الباب، فخرجت إلىّ جارية سنديّة. فقلت لها: «قولى لسيدك: الجاحظ بالباب». فقالت: «الجاحد بالباب؟» على لغتها، فقلت: «لا، قولى: الحدقى بالباب». فقالت: «أقول الحلقى؟» فقلت: «لا تقولى شيئاً»، ورجعت». وهاهو يسخر من أحد الثقلاء قائلاً: «أتانى بعض الثقلاء فقال: «سمعت أنّ لك ألف جواب مُسكت، فعلّمنى منها»، فقلت: «نعم»، فقال: «إذا قال لى شخص: «يا.. يا ثقيل الروح، أىّ شيء أقول له؟» قلت: «قل له صدقت».

كان الجاحظ جريئاً على نفسه، وعلى شكله القبيح، مثلما كان جريئاً على عيوب مجتمعه وعلى البخلاء فى هذا المجتمع، لأنّ ذلك يخدم أدبه، ويزيده تأثيراً فى نفوس القرّاء، ويمكن أن ينطبق عليه المثل الشعبىّ القائل: «من ساواك بنفسه ما ظلمك». ويُرْوى أنّه كان هناك امرأة ثريّة فى البصرة، ولديها خاتم نفيس، وقد أرادت يوماً أن تزيّن فصّ هذا الخاتم برسم، فذهبت إلى أحد الصاغة، وقالت له: أريد أن ترسم لى صورة الشيطان على فصّ هذا الخاتم. فقال لها الصائغ: والله يا سيدتى لا أعرف كيف يكون شكل الشيطان حتّى أرسمه لك، أحضريه وأنا أرسمه لك.فخرجت المرأة من محلّ الصائغ، ودارت فى أزقّة البصرة وشوارعها فوقعت عيناها على الجاحظ، فقالت له: أرجوك يا سيّدى أن تأتى معى. فأتى معها إلى محلّ الصائغ، وهو لا يدرى إلى أين هو ذاهب. وعندما وصلا إلى محلّ الصائغ، قالت المرأة للصائغ: هذا هو مطلبى فارسمه لى.ويروى الجاحظ هذه الحادثة الغريبة المضحكة قائلاً: «ما أخجلنى إلاّ امرأة مرّت بى إلى صائغ فقالت له: اعملْ مثل هذا، فبقيت مبهوتاً،ثمّ سألت الصائغ، فقال: هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان، فقلت: لا أدرى كيف أصوّره، فأتت بك لأصوّره على صورتك».

لقد أثرى الجاحظ المكتبة العربيّة بأهم المؤلّفات التى تركت أثراً عظيماً فى الأدب العربىّ والثقافة العربيّة، ولا نغالى إذا قلنا إنّ الأدب العربى ابتداءً من العصر العبّاسىّ حتّى أيامنا هذه لم يعرف كاتباً كبيراً وموسوعيّاً حقّق حضوراً قويّاً فى مجالس الأدب والعلم والمعرفة مثل الجاحظ، ولم يعرف كاتباً أكثر تأليفاً للكتب والرسائل الأدبيّة من هذا الرجل العظيم الذى استوعب ثقافة عصره، والثقافات الأجنبيّة الأخرى الوافدة على هذا العصر.

وعلى الرغم من بعد المسافة الزمنيّة بيننا وبين عصره فإنّه يظلّ حاضراً فى نفوسنا وأذهاننا حضوراً كبيراً وأليفاً، إذ تظلّ كتاباته منهلاً عذباً ننهل منه الفصاحة والبيان والجمال الأدبىّ والحكم والمواعظ وفلسفة الحياة والمعارف الغزيرة المختلفة.

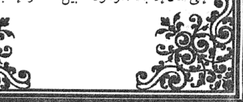


كتاب الزاوية

الظلم مؤذن بخراب العمران

اعلم أن العمران على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعى فى ذلك. وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعى فى الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيرًا عامًا فى جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جمله بدخوله من جميع أبوابها. وإن كان الاعتداء يسيرًا كان الانقباض عن الكسب على نسبته. والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعى الناس فى المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين. فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال.

وانظر ما حكاه المسعودى فى أخبار الفرس عن الموبذان صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام وما عرض به للملك فى إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرب المثال فى ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له: إن بومًا ذكرًا يروم نكاح بوم أنثى، وإنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب فى أيام بهرام فقبل شرطها وقال لها: إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية وهذا أسهل مرام. فتنبه الملك من غفلته وخلا بالموبذان سأله عن مراده فقال له: أيها الملك إن الملك لايتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل.



إصـــــدارات جـــــديـدة

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

سفر الموت من أفغانستان إلى العراق

محمود المراغي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ٢٢٨ صفحة



بعد كتابه «حرب الجلباب والصاروخ» والذي اعتمد فيه على وثائق الخارجية الأمريكية في تحليل أسباب ودوافع وأهداف العدوان الأمريكي على أفغانستان. يأتي هذا الكتاب الذي يعتمد أيضًا على وثائق الخارجية الأمريكية، خصوصًا تلك التي تتناول الإرهاب حول العالم. حيث تبدو الولايات المتحدة الأمريكية ساعية وبقوة نحو إعادة تشكيل العالم بزعم مقاومة هذا الخطر الجائم الذي أجمع ٩١٪ من الأمريكان في استقصاء للرأي أعقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر أنه الإرهاب.

ستمتد الحرب ضد الإرهاب إلى عشر سنوات قادمة، هذا ما أكدته الإدارة الأمريكية، التي أعطت نفسها الحق في التدخل في أي مكان في العالم لدحر الإرهاب ومطاردة الإرهابيين في الكهوف وفي الجبال وبين الأحراش، هذا هو ما يسميه المؤلف «سفر الموت» وبدايته التقرير السنوي الذي أصدرته الخارجية الأمريكية حول الإرهاب في العالم وحددت فيه الخصوم والأعداء أو من أطلقت عليهم «محور الشر».. ففي انتظار العالم مزيد من الحرائق.



الوصايا في عشق النساء

أحمد الشهاوي

الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣، ٢٥٥ صفحة



قانون العشق الأول ـ كما يقول الناقد الدكتور محمد عبد المطلب في تذييل الديوان ـ هو الوصال الذي يستغرق الروح والجسد، فإذا كانت الروح تهوى الصعود إلى السماء، فإن الجسد هو فردوسها الأرضي، وهذه الوصايا بلا نهاية، فما أن تنتهي واحدة حتى تبدأ منها أخرى وهكذا.. من الوصايا:

إذا رأيت عاشقك في وجد عظيم عليك، فلا تفارقه، افديه وابذلي الود، لا تتمنعي، فابتلاء الرجل بمحبة امرأته، ولعب الغرام بقلبه أمر جلل، لا يقع للمرء إلا مرة واحدة.



الجماعات الإسلامية المسلحة

ترجمة: عبد الرحيم خُزّل

الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٢، ١٧٥ صفحة



يسعى مؤلفو الكتاب إلى رسم خريطة للجماعات الإسلامية المسلحة، وهو في الأصل ملف أعدته مجلة «دفاتر الشرق» الفرنسية، ويبدأ بدراسة عن الدولة والجيش والعنف في الجزائر كتبها «محمد مداوي». تصل إلى استنتاج مبدئي هو أن الازدواجية التي جمعت جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني، جعلتهما معًا يشكلان جهازًا سياسيًا وعسكريًا، حتم ألا تنتقل الدولة المستقلة من حكومة أحادية يجسدها حزب وحيد وعسكرية تكون الغلبة فيها للسلاح.

ويتابع المؤلف صراع العشائر في سبيل تكوين دولة وطنية، ثم وصول بديله إلى السلطة في ١٩٦٢ وخلعه الذي أكد سطوة الجيش واستحالة تحديه أو تقليص سلطاته، وهو ما انعكس على فترة ولاية بومدين الذي توفي في عام ١٩٧٨، لكن وفاته لم تؤثر على موازين القوى وبقي للجيش حضوره القوي في المجالين السياسي والاقتصادي، وتأكد هذا الحضور مع الشاذلي بن جديد، لكن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية أفرزت حالة من الاحتقان الاجتماعي على خلفيتها جماعات إسلامية، رأت أن حل مشكلات الجزائر يكمن في تطبيق الشريعة وإكمال بناء الدولة الإسلامية لتكون سبيلاً جديدًا بين الاشتراكية والليبرالية، ومهدت انتفاضة أكتوبر عام ٨٨ لظهور الإسلاميين بقوة، وسطع نجم الجبهة الإسلامية للإنقاذ، واكتسحت الانتخابات التشريعية واعتقل قادتها عباس مدني وعلي بلحاج وألغيت نتائج الانتخابات، وبقية القصة معروفة، ومازالت الجزائر تعانيها حتى اليوم، والتي يرجعها المؤلف إلى صراع العشائر، سواء في صفوف الجيش أو الإسلاميين.

وتحت عنوان الجماعة السلفية للدعوة والقتال، يتابع جون ميشيل سالكون دور هذه الجماعة التي تشكلت في عام ١٩٩٨ في إذكاء وتأجيج عمليات العنف في الجزائر حتى اليوم، وبالذات مواقف الأمير «حسن خطاب» وعمليات القتل المتبادل في صفوف الجماعة وصفوف العسكريين، ويرصد كيف استطاعت هذه الجماعة أن تجند عشرات الأشخاص في مناطق مختلفة من الجزائر، ويكشف عن مصادر تمويلها في الداخل والخارج.

ويقدم «آلان كرينيان» قراءة تاريخية للجماعات الإسلامية المسلحة، ينتهي فيه إلى أن هذه الجماعات مازالت نشيطة على الساحة برغم ما نالت من ضربات، ومازالت بداخلها عناصر من تلك التي كان يتزعمها عنتر الزوابري وحسن خطاب، وأن قدرتها على تحدي العسكر والمجتمع مازالت قائمة.

ويرصد «ريشار لابيفير» في دراسة أخرى الشبكات الإسلامية العاملة في أوروبا. ويبدأ من جمال لونيسي، الذي اعتبرته دوائر أوروبية عديدة المحرك الرئيسي لتزويد الشبكات الجزائرية بالسلاح، وتشكل بريطانيا أهم بؤرة أوروبية لتجمع الإسلاميين الجزائريين، ويقدم الباحث تفاصيل أخرى عن شبكات الجماعات الإسلامية في بلجيكا وسويسرا وألمانيا وإيطاليا والسويد وفرنسا، وينتقد في الختام الخطاب الإصلاحي الذي يبشر به طارق رمضان في أوساط الإسلاميين العائشين في أوروبا.



تولستوي

محمود الخفيف

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة ذاكرة الكتابة)، ٢٠٠٣، ٤٣١ صفحة



صدر هذا الكتاب لأول مرة قبل خمسين عامًا، وهو أول دراسة عميقة في المكتبة العربية عن الأديب الروسي الأشهر ليو تولستوي.

ودراسة المؤلف عن صاحب الحرب والسلام لا تتوقف عند تحليل آثاره الأدبية وأعماله الفكرية، وإنما تتجاوزها إلى مواقفه الإنسانية، ذلك أن تولستوي لم يكن مجرد أديب ترك أعمالاً خالدة مازالت باقية حتى اليوم، وإنما كان صاحب دعوة للعدالة والسلام والمساواة، وقد وضع أفكاره العظيمة موضع التطبيق، حتى أنه ـ وقد كان غنيًا يمتلك مساحات هائلة من الأراضي التي يعمل فيها عشرات المزارعين ـ وزّع جزءًا كبيرًا من أرضه على المزارعين الذين يعملون لديه، وافتتح لأبنائهم مدارس كان يدرس لهم فيها بنفسه، وأنفق ثروته كلها تقريبًا على الأقنان والفقراء حتى أن زوجته هجرته لاعتقادها أنه صار سفيهًا غير مسئول عن تصرفاته، هذه الدراسة الشاملة تلقي أضواءً باهرة على تولستوي الأديب الكبير والإنسان صاحب المبادئ العظيمة.

فلسطين.. من النكبة إلى أوسلو (طبعة ثانية)

عماد جاد

القاهرة: مؤسسة الأهرام، ٢٠٠٣، ٣٦٨ صفحة



بنهاية الحرب الباردة تزايدت الآمال بقرب التوصل إلى مستويات شاملة للصراعات الإقليمية. وهو ما جرى فعلاً في عديد من تلك الصراعات تحت مظلة النظام العالمي الجديد، لكن بقي الصراع العربي الإسرائيلي يراوح مكانه حتى بعد المبادرة الأمريكية بعقد مؤتمر دولي في مدريد ٤ أكتوبر ١٩٩١، لكن يوميات الصراع تشير إلى أن الأمور ازدادت سوءًا منذ ذلك الحين ومازالت، فهل تكمن الأسباب في طبيعة الصراع بوصفه نموذجًا لصراع اجتماعي ممتد، أم في الانحياز الغربي ـ والأمريكي خصوصًا ـ للجانب الإسرائيلي.

من النكبة إلى أوسلو، يتابع المؤلف يوميات الصراع، وهو يعطي أهمية كبيرة للعامل الديموجرافي والهجرات والنزوح ومعدلات الزيادة السكانية وطبيعة الأنشطة التي يمارسها السكان الفلسطينيون والإسرائيليون، والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لهم وتأثير ذلك على هويتهم، ثم يبحث في الخيارات

المطروحة لحل الصراع وخطوط كل منها من النجاح، ويتابع مسيرة التفاوض والحل السلمي وما انتهت إليه في أوسلو.

العلم والفرضية

هنري بوانكاريه
ترجمة وتقديم: حمادي بن جاد بالله
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ٣٤٣ صفحة



الكتاب هو أول إصدار للمنظمة العربية للترجمة، وهو من أبرز ما كتب الفيلسوف بوانكاريه، وفيه يضع الحقائق العلمية موضع الشك والتساؤل، ويؤكد على أن ما يمكن بلوغه من العلم ليست الأشياء في ذاتها، بل العلاقات الرابطة بين هذه الأشياء. الكتاب مقسم إلى أربعة أقسام تتضمن ١٤ فصلاً.



المغرب في حلى المغرب

أكمل تأليفه: ابن سعيد الأندلسي
تحقيق: زكي محمد حسن - شوقي ضيف - سيدة كاشف
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، ٢٠٠٣، ٤١٨ صفحة



يختص هذا الجزء من هذا السفر الذي خلَّفه علماء المسلمين في الأندلس بالفسطاط، ويتحدث عن الأقاليم الواقعة شرقي النيل، وهو يحتوي على عديد من التراجم والأخبار عن شعراء وأدباء وفقهاء وأماكن تذكر بأسمائها التي عرفت بها آنذاك، وهو كتاب شارك في تأليفه ستة مؤلفين حتى انتهى إلى مؤلفه (ابن سعيد الأندلسي) الذي أكمل تأليفه، وقد عنيت بهذا الكتاب الأسرة ذاتها أسرة ابن سعيد التي كانت نموذجًا للأسر التي عنيت بالعلوم والآداب في ذلك الزمن، والكتاب يكشف عن الحالة الاجتماعية والفكرية التي كانت عليها المدينة آنذاك، فضلاً عن علمائها وشعرائها الأفذاذ، كما أنه يجمع أخبارًا تتنوع بين الطرافة والجدة.

لماذا يكرهوننا.. لماذا نكرههم؟



كراهية تحت الجلد

صلاح الدين حافظ
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ٣٨٣ صفحة

بحسب ما يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل في تقديمه للكتاب، فقد تحولت الولايات المتحدة الأمريكية من قوة عظمى إلى قوة أعظم، ثم هي تنعم الآن بوصف القوة الكاسحة (Hyper-Power).

وهذا الكتاب يسعى للإجابة عن السؤال: لماذا يكرهوننا.. لماذا نكرههم؟

ويقدم الإجابة تقريبًا - العنوان التالي للكتاب: إسرائيل عقدة العلاقات العربية الأمريكية.

الإجابة السهلة الساذجة قدمها المنظرون وصناع السياسة الأمريكية عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، التي كانت صاعقة وانعطافية بدرجة مذهلة، قالوا: إنهم يكرهوننا لأننا أقوياء متقدمون وديمقراطيون.

وهي كما نرى إجابة استعلائية فضلاً عن كونها بعيدة الصلة بالحقائق أو منبتة عنها، فإسرائيل - كما يقول المؤلف - هي عقدتنا وعقدتهم، ولأن إسرائيل تدرك القضية على وجهها الصحيح، فإنهم لم يفوتوا الفرصة.

وبدأ الإسرائيليون يطرحون قضيتهم على الرأي العام الأمريكي وعلى صناع السياسة وفق معادلة بسيطة، أنهم مع الأمريكيين ضد الإرهاب الذي طال رموز حضارتهم السياسية والعسكرية والاقتصادية، وتصفيتهم للفلسطينيين وسحقهم، هي جزء من هذه الحملة الدولية ضد الإرهاب العالمي.

المؤلف يبدأ بالبحث في أصول هذه الكراهية وجذورها، فالعرب تعرفوا بالأوروبيين عبر احتكاكات وصدامات وصراعات عنيفة وسنوات طوال من الاستعمار والقهر، أما الأمريكيون فإن الاحتكاك بهم تميز بمسحة تبشير دينية، منطلقة من مبادئ الرسالة الإلهية التي خص بها الرب الأمريكيين أصحاب الحضارة الجديدة.

وعبر الإيمان بهذا الدور توافدت الإرساليات الأمريكية حاملة الدعوة البروتستانتية، لكن شيئًا فشيئًا تحولت هذه المهمة الرسولية الهادئة الهادية إلى دعوة سياسية تستدعي أنياب القوة وحوافرها عند اللزوم، ولم تكن إسرائيل بعيدة عما يجري، فقد استغلت هذا التحول، واقتربت بالدوافع الرسالية ذاتها من سيدة العالم الجديد التي صارت صاحبتها وربيبتها، وانتعشت فكرة ظهور المسيح من جديد بين اليهود وفوق أرض صهيون، فلا بد إذن من إقامة وطن يتجمع اليهود فيه حتى يظهر المسيح ويخلص المؤمنين، ويقودهم إلى الانتصار على قوى الشر ويقيم مملكة السلام لألف عام حتى قيام الساعة.

وبقوة السياسة وسحرها، انتقل الفريقان إلى مرحلة التحالف، التي لعبت فيها المعتقدات الدينية دورًا رئيسيًا، ورسخت في العقل الأمريكي عدة مبادئ مفادها أن حماية إسرائيل واجب ديني وقومي، وصارت إسرائيل جزءًا أصيلاً في نسيج المجتمع الأمريكي بوصفها جزءًا من الحضارة الغربية، ولدورها في حماية مصالح أمريكا والغرب، ولردع الطموحات الأصولية في العالم العربي.

فلا عجب إذن أن يكيل الأمريكان بمكيالين إذا كانت إسرائيل طرفًا في خصومه - وأن يناصروها على طول الخط، دفاعًا عن مصالحهم التي اكتست غطاء دينيًا زائفًا.

لكن العجب - بعد هذا كله - أن يتساءل الأمريكيون: لماذا يكرهنا العرب والمسلمون؟

أسفار موسى (العهد الأخير)

موسى حوامدة
عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٣، ١٤٣ صفحة



بامتلاكه الاسم، توهم الشاعر أنه موسى كليم الله فراح يناجيه، ويطلب منه أن يعود إلى أرض ميعاده (فلسطين) كما فعل موسى.

إنه يقاوم روح الطغيان - كما يقول الدكتور صلاح فضل - باستثارة أنبل المكنون في تراثه الأصيل، وإذا كان عدوه الصهيوني المهووس قد أقام حلمه القومي المتعصب على أساس التأويل التوراتي، فإن التوظيف القرآني الناجح يصبح مصدر الرؤية الخلاقة للمستقبل.

يضم الديوان عددًا من الأسفار هي سفر الخطيئة، سفر الهزيمة، سفر اللعنة، سفر التثنية، سفر الرؤيا، سفر الأيام، سفر الرموز، سفر الخيانة، سفر العبث، سفر القرن العشرين.

من أجواء الديوان:

أراني / غريبًا في بلاد الناس
غريبًا في بلادي
سجينًا في قيودي
طليقًا في قصائد لم تلاسني
نشيدًا في مدائح لم تغنّ
حروفًا في رسائل لم تكاتبني.

صناعة العداء للإسلام

رجب البنا
القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٣، ٤٦٥ صفحة



يضم الكتاب ملفًا بأقوال وكتابات زعماء ومفكرين من أوروبا وأمريكا عن الإسلام والمسلمين، فضلاً عن أعمال سينمائية وتليفزيونية غربية تناولت المسلمين، تكشف عن جذور العداء الغربي للحضارة الإسلامية والتي تفجرت في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

وبين ما يقدمه المؤلف تقرير بريطاني أعدته لجنة خاصة لدراسة الإسلاموفوبيا هناك، وقال التقرير إن المسلمين في بريطانيا يعانون من الظلم والحرمان والإقصاء والتفرقة في التعليم وفي المعاملة فضلاً عن التحرش

والعنف الذى يصل إلى حد المواجهة الصراعية، ويشير التقرير إلى أن هذه الإسلاموفوبيا هى السبب فى أنه لم يظهر حزب إسلامى فى بريطانيا، ولا يوجد عضو مسلم واحد فى مجلس اللوردات ولم يظهر مرشح واحد فى مجلس العموم برغم أن مسلمى بريطانيا يبلغ عددهم نحو مليون شخص، كما يشير المؤلف إلى تقرير نشرته مجلة الإيكونوميست فى أغسطس عام ١٩٩٤ عنوانه: الإسلام والغرب.. الحرب القادمة، ونشرت رسمًا بحجم صفحة كاملة يمثل الحروب الصليبية وغزو أوروبا للإسلام، وتحذر من أن هذه الحرب الصليبية ستتكرر، وتطالب بمنعها، ويتناول المؤلف بالتحليل كتاب جاك فريمو «فرنسا والإسلام»، والذى يؤكد مؤلفه أن فرنسا اكتشفت من خلال حرب الاستقلال الجزائرية أن الإسلام هو المحرك الذى أشعل نيران الثورة فى نوفمبر عام ١٩٥٤، أما شعور فرنسا بالخطر الإسلامى فجاء فى أعقاب الثورة الإيرانية وتداعياتها، ثم العديد من مظاهر العنف فى عواصم عربية عديدة، خلقت حالة من العداء للإسلام والخوف من أصحاب هذه الديانة، وشعورهم أن المسلمين يمكن أن يهددوهم فى عقر دارهم، أما فى أمريكا فإن الجماعات اليهودية المتعصبة واليمين المسيحى المتطرف كان له دور كبير فى إذكاء نار العداء للإسلام والمسلمين والذى زادت حدته اضعافًا فى أعقاب أحداث سبتمبر.

الكتاب يضم نحو ثلاثين مقالاً يدور جميعها فى هذا الإطار ويتساءل عما فعله المسلمون لمواجهة هذا التشويه.

■

تورا بورا أولى حروب القرن

يوسف الجهمانى

دمشق: دار الكتاب العربى، ٢٠٠٣، ٢٩٦ صفحة



النفط هو عنوان أولى حروب القرن فى أفغانستان وأبرز دوافعها، كما أنه - وفق تحليلات عديدة - أحد أهم أسباب المحاولات الأمريكية لضرب العراق.

الإرهاب وملاحقة فلول الطالبان والقاعدة والإيقاع بأسامة بن لادن حيًا أو ميتًا أسباب ظاهرة مرددها الرئيس الأمريكى وإدارته، لكن ثمة أسبابًا أعمق وأهم تغلى تحت السطح البارد.

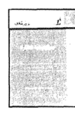
الكتاب يشير إلى تلك الأسباب فى إطار ما يسميه بالمؤامرة الأمريكية الصهيونية الكبرى، مستعرضًا فى الوقت ذاته بعض الموضوعات ذات الصلة، ومواقف دول عديدة تبدو فى خلفية الحدث، لكنها تؤثر عليه بدرجة أو بأخرى، مثل الصين وباكستان وروسيا وإيران ودول أوروبا، وعلاقة ما جرى فى أفغانستان بالصراع العربى الإسرائيلى وتأثيرها عليه، كما يتضمن نحو سبعة عشر ملحقًا ووثيقة ليوميات الصراع فى تورا بورا وما آل إليه.

■

سيكولوجية الذاكرة

محمد قاسم عبد الله

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٣، ٥١٠ صفحة



الذاكرة هى جوهر العمليات المعرفية، وهى ضرورية جدًا لاسترجاع ما تم تعلمه، وهى حين تعانى ضعفًا أو اضطرابًا فإن ذلك ينعكس مباشرة على الشخص نفسه. وهذا الكتاب يقدم خلاصة لأهم وأحدث النتائج عن الموضوعات التى تخص الذاكرة، طبيعتها، علاقتها بالتعلم، بالإبداع، بالتغذية، أشكال الذاكرة وروابطها بالصحة النفسية وكبر السن والأمراض المزمنة.

لكن النسيان ليس دائمًا مما ينكب به الفرد، فبحسب علماء مختصين يشير إليهم المؤلف، فإنه - أى النسيان - من المظاهر المهمة للذاكرة طويلة المدى، وهو ضرورى للإنسان، ولولاه لغدا التفكير مضطربًا وغير منظم.

ومما يدهش فى هذه الدراسة المهمة ما يذهب إليه المؤلف من وجود ذاكرة لدى النبات، تمكن من الاستجابة الطبيعية لعوامل نموه كالماء والهواء والشمس (راقب زهرة عباد الشمس فى اتجاهها الدائم نحو الشمس مثلاً)، كما أن بعض النباتات تفرز مواد كيماوية معينة كى تقتل بها الآفات الضارة، فيما تفرز بعضها مواد أخرى تجذب إليها حشرات تقتات عليها، علماء كثيرون يوافقون على أن هذه ذاكرة موجودة فى الحمض النووى الريبوزى DNA، وهى عبارة عن تعليمات تحرك النباتات وتتحكم فى تصرفاتها. وبالمثل فإن للحيوانات والحشرات ذاكرتها.

وضمن فصوله الـ ٢٢، يجيب المؤلف عن السؤال: لماذا تضعف ذاكرة كبار السن، ويجيب بأن التقدم فى العمر يصاحب عادة بتغيرات بيولوجية وكيماوية تؤثر على وظائف الدماغ، فتموت عديد من الخلايا ويحدث ضعف عام فى عمليات الهدم والبناء، وبشكل عام فإن المتقدمين فى السن يعانون انخفاضًا فى أداء الذاكرة طويلة المدى، ويصبحون أقل قدرة على استدعاء الأحداث والذكريات السابقة.

التذكر إذن إحدى العمليات المهمة التى تجرى فى المخ، والمؤلف فى سياق دراسته المطولة يشير إلى ما يعرف بالذاكرة الكاذبة أو المزيفة، والذكريات اللاشعورية، والذاكرة التى تعرضت لصدمة، وذاكرة الخاضعين لاستجوابات فى قضايا معينة، وغيرها.

■

أسرار وحكايات فى بلاط صاحبة الجلالة

محمود صلاح

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ٢٨٧ صفحة



يضم الكتاب مذكرات الكاتب الصحفى الشهير الذى لقب بأمير الصحافة العربية محمد التابعى، وقد كان على صلة وثيقة بالقصر ورجاله، كما ربطته صلات وطيدة بزعماء الأحزاب السياسية جميعًا، وقد أتاحت له هذه الصلات أن يتابع عن كثب مجريات الأحداث وأن يقترب بشدة من صناع القرار والسياسة فى مصر قبل الثورة، وكان ضيفًا فى الرحلات الملكية إلى أوروبا، والتى لم تكن متاحة إلا للمقربين جدًا، وهو الذى كتب حكاية الملكة نازلى ورئيس الديوان الملكى أحمد حسنين.

لكن المؤلف يتخير فى هذا الكتاب ما كتبه التابعى عن حادث ٤ فبراير عام ١٩٤٢ الشهير، حين حاصرت الدبابات الإنجليزية قصر عابدين وأجبرت الملك على أن يأتى بحزب الوفد، صاحب الجماهيرية الكبيرة إلى الحكم، كى يتحقق الاستقرار الذى تتمناه إنجلترا أثناء الحرب، وتداعيات هذا الحادث الخطير على البلاد وردود أفعال الأحزاب والقوة السياسية تجاهه.

كما يتناول المؤلف مذكرات اللواء محمد نجيب أول رئيس جمهورية مصرى فى أعقاب ثورة يوليو ١٩٥٢، حيث يحكى تفاصيل مثيرة عن حياته تحت الإقامة الجبرية فى فيلا المرج.

ويحاور المؤلف زكريا محيى الدين، وهو واحد من أبرز رجال الثورة الذين لعبوا أدوارًا مهمة وتقلدوا مناصب خطيرة، وقد عرف زكريا محيى الدين بلقب الرجل الصامت، فقد كان عزوفًا عن التحدث إلى الصحافة، لا يرد حتى على من يسيئون إليه، وفى هذا الحوار يتكلم عن فكر الضباط الأحرار فى بداية الثورة وعن القوائم السوداء ومراقبة التليفونات، وغيرها من الموضوعات والأسرار المهمة فى التاريخ المصرى.

■

وشم على ريم الفراغ

خالد أمين حجازى

القاهرة: هيئة قصور الثقافة (سلسلة إبداعات)، ١٧٥ صفحة



ديوان بالعامية لواحد من جيل الشعراء الشباب فى مصر يحتفى بالخيال والتشكيل ويعتمد المفارقة وسيلة لإدهاش قارئه.

من قصائد الديوان:

غيمانه فى المدارات
تحضن عصافيرى/ وتقول لها طيرى
وفى الهوا الجناحات/ ندخل دواير عشق
ونلملم المسافات/ ننزل على الجنة
علشان ما نتحنَّى/ ما نلاقى غير جمرات

■

الغزل فى عصر صدر الإسلام

حسن جبار الشمس

عمان: الوراق للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣، ٢٦٠ صفحة



وضع القرآن حدودًا أخلاقية للشعر والشعراء، وفسر الزمخشرى «والشعراء يتبعهم الغاوون»، بأن الناس لا ينبغى أن تتبعهم على باطلهم وكذبهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح فى الأنساب، فالأساس الذى ينشده الإسلام فى الشعر هو الصدق والخير، وكذلك كان للرسول الكريم والخلفاء الراشدين الموقف ذاته، وانعكس ذلك الموقف العام على الموقف الأخلاقى للإسلام من شعر الغزل وموضوع الحب، فقد سعى إلى تحقيق الألفة بين القلوب، وجعل العلاقة بين الرجل والمرأة قوامها العفة والمودة والرحمة.

ويرى كثير من الباحثين الثقات مثل الدكتور شوقى ضيف والدكتور يوسف خليف أن الحياة الإسلامية كانت سببًا فى أن يصبح الحب العذرى هو اللون السائد فى اللوحة البدوية الإسلامية، ومن ثم سادت موجة الغزل العذرى فى صدر الإسلام، وتطور الغزل العذرى الذى طهر النفوس وبرأها من النوازع الحسية الرخيصة. وإلى الغزل العذرى، يخصص الفصل الثانى للغزل الحسى، والرابع

■

لغزل الجند ومعانى الفروسية، ويقدم فى الفصل الثالث طبيعة الغزل فى مقدمات القصائد، ويحلل فى الفصل الخامس أبرز العناصر الفنية لشعر الغزل.

وينتهى المؤلف إلى عدة نتائج منها: أن الشعراء نظموا الغزل فى صدر الإسلام كما فعل الجاهليون والأمويون، وأن الإسلام لم يمنع الغزل بل شجعه وفق شروط أخلاقية محددة، وأن الغزل العذرى تمتد جذوره إلى العصر الجاهلى، وأن بعض الشعراء تغزلوا فى زوجاتهم وكان الإسلام سببًا فى ظهور قصائد هذا الغزل، كما أن الإسلام لم يهدم الموروث الجاهلى فى نفوس الشعراء المسلمين، ولهذا جاء أكثر غزلهم الحسى امتدادًا لغزل الجاهليين فى صوره ومضامينه.

ويقدم المؤلف نماذج عديدة لهذه الأنواع من الغزل بأغراضه المختلفة.

مقالة فى النقرس

أبو بكر الرازى
تحقيق: يوسف زيدان
الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٣، ٥٥صفحة



اشتهر أبو بكر محمد بن زكريا الرازى المتوفى فى ٣١٣ هجرية بأنه من أهم الشخصيات التى تالقت فى سماء التاريخ العلمى الإنسانى، واشتهر بمنهجيته العلمية وبإرسائه الطب على قاعدة البحث الإكلينيكى دون أن يغرق نفسه فى البحوث الإكلينيكية، واعتبر كتابه الحاوى أهم موسوعة طبية إكلينيكية فى الإسلام، فقد سجل فيه الرازى آلاف الحالات المرضية والطرق العلاجية. وإلى كتابه الحاوى، للرازى رسائل فلسفية وطبية، وتعد هذه المخطوطة «مقالة فى النقرس»، أقدم مخطوطة طبية بالإسكندرية، وهى ضمن مقتنيات بلدية الإسكندرية وتقع فى عشرين صفحة، وقد سار فيها على طريقته فى الاهتمام بالجانب الإكلينيكى لمرض النقرس ومتابعة أعراضه وعلاماته وارتباطه بالبنية العامة للجسم وأجهزة الجسم المختلفة، وهى نظرية كلية تشير إلى أثر الفلسفة فى كتابات الرازى الطبية، والكتاب يتضمن ترجمات إنجليزية وفرنسية وألمانية للرسالة، تأتى ضمن مشروع النشر الذاتى متعدد اللغات للمكتبة.

إشــراقة

التجانى يوسف بشير
القاهرة: هيئة قصور الثقافة (سلسلة آفاق عربية)، ٢٠٠٣، ١٩٦ صفحة

يعد الشاعر واحدًا من أكبر شعراء الفكر الصوفى فى السودان، وفى فكره الشعرى مضمونًا وشكلاً وتصوفًا فلسفيًا يصله بأهم النظريات الفلسفية عند المتصوفة.

من أجواء الديوان:

أقم له بين الربى مأتمًا
واستعبر البنيان حر الأسف
وصغ له الأصداف قبرًا فما
يستبطن الدرة غير الصدف
واسكب على قبر النبوغ الدما
وانثر على قبر الشباب الطرف
واختر بواكير الربا أنجما
واجمع لمجد الشعر مجد الترف

العولمة والفكر العربى المعاصر

الحبيب الجنحانى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ١٢٠صفحة

الشرط الأساسى الذى يضعه المؤلف كى تكسب دول العالم النامى وفى مقدمتها الدول العربية رهان العولمة، هو أن تصلح شئونها السياسية إصلاحًا جوهريًا، ويحذر من أنه ما لم تنجح الشعوب العربية فى كسب رهان الديمقراطية ستتخلف عن التحديث قرنًا ونصفًا على الأقل، وستجد نفسها مطالبة فى نهاية المطاف بالعدل السياسى والحرية، وقد كانا مطلبى جيل الرواد مطلع القرن الماضى.

المؤلف يبدأ بتحليل العولمة كظاهرة وكشف تجلياتها فى السياسة والاقتصاد والإعلام وسواها من شئون الحياة، وألقى أضواء على مجالها الحضارى بأبعاده التربوية والثقافية والاتصالية. ويشير إلى أن قوة المجتمع المعاصر تكمن فى سيطرته على الفضاء ووسائل الاتصال، كما أن تحول المجتمع العالمى من مجتمع صناعى إلى مجتمع معلوماتى يستلزم الانتباه إلى شروط هذا التحول وتكلفته.

وإزاء التحولات المهمة فى عصر العولمة، يؤكد المؤلف على أن عصر الأبطال والزعامات قد ولّى، وأن العصر هو عصر الشعوب والتضامن والحلول الحوارية والتوفيق بين الممكن والمأمول، عصر المنظمات غير الحكومية والأفكار التحررية، وليس مقبولاً - بحسب المؤلف - أن «تفكر عالميًا وتتصرف محليًا» وهى المقولة التى عدت قاعدة ذهبية للعولمة، وإنما صار الأصوب هو أن تفكر عالميًا وتتصرف عالميًا.

وفى القسم الخاص بالعولمة والفكر العربى المعاصر يناقش المؤلف الأفكار المحورية الواردة فى نماذج من أبرز النصوص التى تناولت العولمة، خصوصًا عند حسن حنفى وعابد الجابرى وإسماعيل صبرى عبد الله، وينتهى إلى عدة ملاحظات منها: أن الحديث عن العولمة الاقتصادية يقتضى بالضرورة بحث موضوع نمط الإنتاج فى ضوء التطورات التكنولوجية وثورة الاتصالات، ويوجه المؤلف الانتباه إلى أن مقولة الطريق الثالث التى ظهرت فى أوروبا لم يتم التعامل معها فى بلداننا بالجدية الواجبة، فهى تستلزم مؤسسات مجتمع مدنى قوى ومؤثر، كما تستلزم تنسيقًا بين الدول العربية حتى فى المجال الاقتصادى، وانعدام التنسيق فى هذا المجال يجعلها فريسة لليبرالية الجديدة.

ويشير المؤلف ضمن ملاحظاته النقدية إلى أن المرحلة لا تعدو وكونها مرحلة من مراحل تطور المجتمع البشرى، وهى فى هذا الجانب تعد فوزًا للأيديولوجية الليبرالية الجديدة وكسبًا ثمينًا للبشرية جمعاء، ومن ثم فإن عدم التمييز بين الأشياء فى هذا الإطار يضعها فى مقابلة خاطئة على هذا النحو: الاشتراكية هى النقيض الفعلى للعولمة».

وأخيرًا يركز المؤلف كما بدا على الجانب السياسى قبل أى جانب آخر، ويراه الجانب الأساسى فى الفوز بثمار العولمة.

الفلسفة فى الوطن العربى فى مائة عام

مجموعة من الكتاب والأكاديميين
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ٦٤٦ صفحة



يحتوى الكتاب على أوراق ندوة «الفكر الفلسفى العربى فى مائة عام»، والتى عقدت بمناسبة تحول العالم من قرن إلى قرن ومرور ربع قرن على إشهار الجمعية الفلسفية المصرية. ويعرض الكتاب لخمس إشكاليات رئيسية هى: التقليد والحداثة، العقل والعقلانية، الحرية فى الفكر الفلسفى العربى المعاصر، الأخلاق أو الحكمة العلمية عند القدماء، الإشكال السياسى.

ويستعرض التيارات الرئيسية الثلاثة التى سادت الفكر الفلسفى العربى منذ القرن التاسع عشر وهى الإصلاحى والليبرالى والعلمانى، بالإضافة إلى دراسة نماذج من المؤسسات الفلسفية فى مصر والعراق ونماذج من رموز عربية للمشتغلين فى حقل الفلسفة.

حياة البوذا

دايساكو إكيدا
ترجمة: محمود منقذ الهاشمى
دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٢، ١٩٠صفحة



تهتم الديانة البوذية بمبدأ أساسى يدور حول ما إذا كان الشخص يدرك فى داخل نفسه مبادئ الحقيقة الخالدة أم لا؟ هذا هو ما حققه البوذا بحسب ما يرى أتباعه، الذين يرون أن كل شخص ينتمى إليه عليه أن يسير على الدرب ذاته.

«شاكيمونى» هو الاسم الحقيقى لمؤسس تلك الديانة العالمية، أما لقب البوذا الذى اكتسبه فإنه يعنى «الواحد المتنور بالواقع الجوهرى»، وقد ولد فى شبه الجزيرة الهندية ابنًا لحاكم دويلة صغيرة تسمى «شاكية»، كانت ثروتها على وشك الاضمحلال ومقدرًا للدولة ذاتها الانهيار أو الالتحاق بأخرى كبيرة فى أحسن الظروف، لكن «شاكيمونى» وريث العرش، اختار طريقًا آخر، فتخلى عن العرش وباشر حياة التقشف الدينى بحثًا عن جوهر الوجود، حتى بعد أن تزوج وأنجب، فقد كان قراره أن يغادر بيته وأسرته ويلتحق بالحياة الدينية وهو مازال بعد فى التاسعة عشرة من عمره.

انخرط شاكيمونى فى التقشف حتى أضعف جسمه إلى حد الهزال وجلس عند جذع شجرة تين هندى واستسلم لتأمل عميق حيث وصل إلى «التنور» - الحقيقة المطلقة - وهو فى أواسط الثلاثينيات.

وقد درس «شاكيمونى» اليوجا على يد أستاذين حتى يكون أقدر على التأمل والانعتاق من رغبات الجسد، لكنه فى رحلة البحث الطويلة، انتهى إلى أن البوذية التى ينشدها ليست تعليمًا ينحو إلى الزهد والتقشف، ولا هى مجرد فلسفة تأملية مثالية، إنها ديانة السبيل الوسط.

A Medeival Islamic City Reconsidered: An Interdisciplinary Approach to Samarra

(سـامـراء فى القـرون الوسطى: إعادة نظر فى مدينة إسلامية)

Chase Robinson (محرر)
Oxford University Press, 2003,
250PP., $60.00

تعـتبر مدينة سـامراء العـراقية الآن من أهم المواقع الأثرية فى العـالم. وخـلال القرون الوسطى، ازدهرت سـامراء عندما اختـارها الخليفـة العـبـاسى المعـتصم عـاصـمـة له، بعـد أن واجـهـتـه بعض المشاكل السياسيـة فى بغداد. واستمرت سامراء عاصمة للدولة العباسية منذ عام ٨٦٣م وحـتى عـام ٨٩٢م عندمـا عـادت بغـداد مـرة أخـرى عـاصـمـة للخـلافـة العباسية.

يقـدم هذا الكتـاب مـجـمـوعـة من الدراسات عن مدينة سامراء فى العصور الوسطى، تنتمى إلى حـقـول بحـثـيـة متباينة، من تاريخ وعمارة وفن وأدب. ويتـخـذ الكتـاب فى مجـمله من مـدينة سـامراء نموذجًا للمدينة الإسـلامـية والمدنية الإسلامية، بكل ما تضمنه من الحيـاة الثقـافيـة والفنيـة ونظم إدارية وسياسيـة. يتناول أحد الفصـول الفن المعـمـارى الذى مـيـز قـصـور سـامـراء ومسـاجـدهـا، حيث يوجـد بهـا الجـامع الشـهـيـر بالمئذنة الملوية. ويتناول آخر ثقـافة البـلاط، ومـا يسمى بالقـصـيدة السامرائية، وغيرها من المظاهر الأدبية. كـذلك يوجـد فـصل عن المفـهـوم الأيـديـولـوجى خـلـف بنـاء المدينـة وتصميمها، ورمزية البناء والزخرفة فى قصر الخلافة.

الكتاب صادر ضمن سلسلة دراسات أكسفورد فى الفن الإسلامى

Dead Cities

(مدن ميتة)

Mike Davis
The New Press, 432PP.,2003
£14.95



مؤلف هذا الكتـاب أمـريكى يحـذر من أن بلاده فى خطر شديد ويركز على مجال واحـد يعـتقـد أن الكارثة قادمة لا مـحـالـة مـالم تتـحـرك السلطات الأمـريكيـة. إن التقدم الأمريكى فى شتى المجالات كانت له تكاليـفـه المهلكة، خـاصـة فى مجـال البيئة ويشير إلى أن مياه المحيط الهادى على السـاحل الأمريكى لم تعـد صـالحـة لكى يسـبح الأمـريكيـون فيـهـا، والتلوث امتد من السـاحل ليشمل مدنًا بـأكملها، إن الغـرب الأمـريكى مـعـرض لكارثة بيـئـيـة ومدن مـثل كـاليـفـورنيـا ونيـفـادا وأوتا وغيرها تواجه ليس فقط كارثة بيئية، بل اجـتـمـاعـيـة أيضًـا، فـالتـوسع السكانى الرهيب أضر للغاية بهذه المناطق.

ويقـــول المؤلف إن لـوس أنجلـوس أصبـحت تسـتـورد الماء والطاقة وتصدر التلوث والقمامة. ويشير إلى أن الانفجار السكانى فى مدينة مـا يعادل تآكل جبل، فهذا الانفجار السكانى يعنى التوسع غير العقلانى على حساب كل شىء جميل فى المدينة. إن إقامة مـحـلات السـوبر مـاركت العملاقة ومواقف السيارات الضخمة كل ذلك يؤثر سلبًا على البـيـئـة. ويعـتـقـد المؤلف أن حـديثـه عن هذه المدن ليس سوى مثال لما يحدث فى أمريكا ككل.. إنها ليسـت فقط لوس أنجلوس ولكنه الحلم الأمريكى، فهل يقوم الأمريكيون باغتيال هذا الحلم.

Jarhead: A Marines Chronicle of the Gulf War

(جندى أمـريكى من المارينز يؤرخ لحرب الخليج)

Anthony Swofford
Scribner, 2003, 272PP., £14.99



المذكرات الشـخـصـيـة لأحـد الجنود الأمـريكيـين الذين حـاربوا فى حـرب الخليـج التى دارت عـام ١٩٩١. أنتـونى سـوفورد كان عمره آنذاك عشرين عامًا، ومذكراته التى يضمها هذا الكتاب تصور شكل الحـيـاة داخل قـاعـدة عـسكرية أمريكية خـاصة بالمارينز كانت مقامة فى السعودية.

يبين سوفورد فى كتابه مدى العنف والإباحيـة التى ميزت ممارسـات الجنود الأمريكيين مع بعضهم داخل القـاعدة. فـهم يمضـون وقـتـهم فى الحديث عن الجنس ومشاهدة أفلام البورنو والأفلام الحربية. كما يقوم البعض باغتصاب البعض الآخر أحيانًا، وكثيرًا ما تتطور انفعالاتهم ومعاركهم الشخصية إلى حد التهديد بالسلاح.

كذلك تبين مذكرات سـوفورد مدى المعـانـاة الشـخـصـيـة والعـائليـة التى يعـانيهـا معظم هؤلاء الجنود، إلى جـانب السطحية وعدم النضوج الذى تتسم به شخصياتهم. وقد أقام بعضهم «حـائطًا للعـار» يعـلقـون عليـه خطابات وصـور الزوجات والصديقات الخـائنات. ويروى سوفورد كيف كـان بعضهم يمثل بجثث الضحايا فى العراق، مسهبًا فى شرح الدوافع النفسية والعصبية التى تجعل الجندى يقـوم بمثل هذه الممـارسـات الوحشية.

A Concise History of Greece

(تاريخ موجز لليونان)

Richard Clogg
Cambridge University Press,
291PP., £40.00



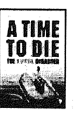
يأتى كتـاب البروفيسورة ريشارد كلوج ليسد فراغًا كبيرًا ويتناول الكتاب اليونان منذ نهاية الحكم العثمانى فى القرن التاسع عـشر وحتى الآن، وهناك فصل خصصـتـه المؤلفة عن اليونان فى التسعينيات من القرن العشرين. كما تفرد فصلًا آخر عن الهجرة التى أصبحت ملمـحًا مميزًا لليونانيين، وعلى سبيل المثال كانت هناك جالية يونانية كبيرة فى مصر. كما يتناول الكتاب السياحة فى اليونان وزيارة الآثار التاريخية ومشكلة بعض الآثار التى استولت عليها الدول الاستعمارية سابقًا قبل بريطانيا.

وأخيرًا تتحدث المؤلفة عن عضوية اليـونان فى الاتحـاد الأوروبى وكـيف أصـبح اليـونانيـون جزءًا من النسيج الأوروبى الجـديد بـعـد أن كـان البـعض يعتقد أنهم فقدوا خلال القرون الماضية علاقتهم بالغرب المتقدم.

A Time to Die: The Untold Story of the Kursk Tragedy

(وقت الموت: القـصـة غـيـر المروية لمأساة كورسك)

Robert Moore
Crown, 271PP.,2003 $ 25.00



فى السـاعـة ١١,٢٨ صـبـاح يوم السـبـت ١٢ أغـسـطس ٢٠٠٠، كـانت الغواصة النووية الروسية كورسك أسفل سطح بـحـر بارنتس تسـتـعـد لإجـراء مناورة عسكرية.. وكانت الأمور لا تنبئ بأى شىء غير متوقع.. لكن العكس حدث وغرقت الغـواصة بعد انفجار كبير. وتسرب الوقود ولم تعد الغواصة قادرة على العمل، بل استقرت فى الأعماق. وفى هذا الكتاب لا يشغل المؤلف نفسه كثيرًا بالحديث عن أسباب غرق الغواصة، لكنه يركز على فشل جهـود إنقاذ بحـارة الغواصة، لقد تمكن ٢٣ رجلًا من النجاة من الانفجار الذى حدث فى الغواصة، وكذلك غرقها لكن جهود الإنقاذ فشلت فى العثور عليهم أحياء.

ويتـحـدث المؤلف وهو صـحـفى تليفزيونى بريطانى عن عدم استعداد أطقم الإنقاذ الروسية جيدًا وعدم قدرتها على تحديد مكان الغواصة الغارقة فى البداية، الأمر الذى استدعى الاستغاثة بأطقم غـواصـة بلجيكية وبريطانية، وكـان الوقت قـد فـات لـيـمـوت هؤلاء الناجون!

إن البـعض اعـتـبـر غرق الغـواصة بمثـابة دليل على الوضـع الحـالى الذى وصلت إليـه روسـيـا وريثـة الاتحـاد السوفيتى. وأكثر ما فى الكتاب إثارة التـحـقـيق الصحفى الذى أجراه المؤلف حول الجهود اليائسة لفتح باب الغواصة الغـارقـة والخـلافـات بين الروس والبلجيكيين حول طريقة الفتح.

Remembering Childhood in the Middle East: Memoirs from A Century of Change

(تذكر الطفولة فى الشرق الأوسط: مذكرات عبر قرن من التغيير)

Elizabeth Warnock Fernea
American Universiy in Cairo
Press, 2002, 354PP.



يضم هذا الكتاب ستًا وثلاثين سيرة ذاتيـة لسـتـة وثلاثين رجـلًا وامـرأة من مـختلف أنحاء الشرق الأوسط. وتتناول هذه السير التى كتبت خصيصًا لهذا الكتاب تجربة الطفولة والنشأة لصاحبها أو صاحبتها.

وقد قامت المحررة إليزابيث فيرنيا بتجميع هذه الكتابات عبر عشر سنين، ثم قامت بتبويبها حسب الجيل والحقبة التاريخية التى تمثلها كل مجموعة من الشخصيات، بحيث تقدم صورة شاملة للحياة الاجتماعية فى الشرق الأوسط خلال العقود المختلفة من القرن العشرين.

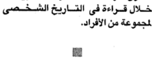
يبدأ القسم الأول فى مرحلة انتهاء الإمـبـراطورية الـعـثـمـانيـة، أى فى العشرينيات من القرن العشرين. وهو يضم مذكرات الطفولة والنشـأة لكل من محمد فاضل الجملى من العراق، تشارلز عـيـسوى من مـصـر، وسلمى خـضـرا الجـيـوسى من فلسطين وآخـرين من سوريا والأردن والسعودية.

القـسـم الـثـانى يتـناول مـرحـلة الأربعـينيـات وتأسيس دولة إسـرائيل، والحكم الاستعمارى الأوروبى، ثم بداية ظهور القومية العربية، ويضم مذكرات عربية وتركية وإيرانية.

أما القسمين الثالث والرابع فيشملان الأجيال التى نشأت فى الخمسينيات والستينيات والسبعينيات ويعبران عن

مرحلة تكوين الدولة القومية، والثراء الذى أحدثه التوسع فى استخراج البترول، إلى جانب الحروب الإسرائيلية العربية، ومعاهدة كامب ديفيد، والثورة الإسلامية فى إيران.

وتوضح المحررة فى بداية كتابها كيف أن اختيارها للشخصيات لا يعنى أنهم عينة ممثلة لشعوبهم أو أجيالهم ولكنهم مجرد أمثلة معبرة. منهم الشعراء والأدباء ومنهم الأساتذة والباحثون ومنهم موسيقيون وفنانون. كذلك فإن بعضهم ينتمى إلى الطبقات الأرستقراطية وبعضهم ينتمى إلى طبقة العمال الزراعيين، كما يمثلون أعراقًا وأديانًا مختلفة. الكتاب يعد تجربة فريدة فى رؤية التغيرات التى طرأت على الشرق الأوسط خلال القرن العشرين من خلال قراءة فى التاريخ الشخصى لمجموعة من الأفراد.



China's New Rulers.. The Secret Files

(حكام الصين الجدد.. الملفات السرية)

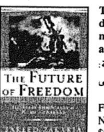
Edited by Andrew Natham and Bruce Gilley
Granta, 120PP., £14.99



فى منتصف مارس الماضى اكتملت عملية الانتقال السلمى الأولى للسلطة فى الصين منذ قيام الثورة الشيوعية عام ١٩٤٩. وهذا الكتاب عبارة عن مجموعة من الملفات السرية التى سبقت المؤتمر العام الأخير للحزب الشيوعى الصينى الحاكم والذى تم خلاله الموافقة على التغيرات والتى أصبح بمقتضاها هوجنتاو سكرتيرًا عامًا للحزب الشيوعى الصينى ثم رئيسًا للبلاد.

وهذه الملفات سربها شخص ما فى الحزب الشيوعى الصينى إلى الخارج. ويقول المؤلفان أن هناك تقليدًا لدى الزعماء الصينيين مفاده نشر الوثائق المهمة، التى لا يمكن توزيعها محليًا، فى الخارج وعلى سبيل المثال الوثائق التى تم تسريبها فى السبعينيات من القرن الماضى عن حياة زوجة الزعيم الراحل ماوتسى تونغ.

ديمقراطية فى خدمة الاقتصاد



The Future of Freedom: Illiberal Democracy at Home and Abroad

(مستقبل الحرية: الديمقراطية غير الليبرالية فى الولايات المتحدة وخارجها)

Fareed Zakaria
Norton, 2003, 256PP., $24.95

فى الوقت الذى تشن فيه الولايات المتحدة حربًا فى الشرق الأوسط بدعوى إرساء نظم حكم ديمقراطية فى المنطقة، يأتى كتاب فريد زكريا الصادر حديثًا برسالة مهمة، مضمونها أن الديمقراطية ليست خيرًا مطلقًا وتحتاج إلى قيود كثيرة لكى تعمل بكفاءة، خاصة فى دول العالم الثالث. وفى حوار أجرته معه إحدى الدوريات بمناسبة قرب صدور كتابه، صرح فريد زكريا رئيس تحرير مجلة نيوزويك الدولية ومدير تحرير مجلة فورين أفيرز الأمريكية سابقًا، أن الولايات المتحدة أدركت أن الحكومات التى لا تعمل بكفاءة تمثل تهديدًا ليس فقط لشعوبها وإنما للولايات المتحدة ذاتها، حيث ينتج عنها حركات الإرهاب المختلفة. كذلك كان من الخطأ التركيز على الإصلاح الاقتصادى والتطوير التكنولوجى فى تلك الدول خلال التسعينيات وإهمال أساليب الحكم السياسى، لأنه فى غيبة الإدارة السياسية الكفء لن يعمل الاقتصاد بكفاءة ولن يستقر النظام الاجتماعى.

يبين زكريا فى كتابه خطورة المبالغة فى التركيز على الديمقراطية والانتخابات الحرة. فيذكر كيف أن الانتخابات الحرة هى التى أتت بهتلر والنازية فى عام ١٩٣٣. أما الحكومات الغربية فتجمع بين الديمقراطية والليبرالية معًا وهذا هو الضمان المهم من وجهة نظره. فالديمقراطية التى تتبناها الولايات المتحدة وتحاول فرضها على باقى العالم هى الديمقراطية الليبرالية، التى تركز على التحرير الاقتصادى ودور الفرد، بعكس الديمقراطية الاشتراكية التى تركز على المساواة الاقتصادية.

لذلك يمتدح زكريا تجارب دول مثل سنغافورة وتشيلى والمكسيك لأنهم قاموا بتحرير الاقتصاد أولاً قبل تحرير النظم السياسية. أما الدعوة الخطيرة التى يوجهها للإدارة الأمريكية فهى أهمية تشجيع دكتاتور مثل بيرويز مشرف الباكستانى لأنه يؤيد التحرير الاقتصادى، بينما يجب التوجس من الرئيس الفنزويلى هوجو شافيز الذى جاء ديمقراطيًا عبر الانتخابات الحرة.

«هذه الدروس ينبغى أن تاخذها الإدارة الأمريكية فى الاعتبار وهى تقوم بإعادة البناء فى كل من العراق وأفغانستان»، هكذا أكد زكريا. «لأن الانتخابات الحرة قد تاتى بمشاكل سياسية كبيرة مثل ما حدث فى البوسنة بعد عام من معاهدة دايتون للسلام، حيث دعمت الانتخابات القوى الإثنية البشعة وجعلت من بناء حكم ديمقراطى ليبرالى أمر أكثر صعوبة».

ويضيف زكريا أنه فى العراق، سيكون هناك ضغط من أجل إجراء الانتخابات بسرعة لإضفاء الشرعية. ولكن الشرعية لن تؤدى إلى حكومة ذات كفاءة. بل إن كفاءة الحكومة ستتحقق باستمرار الوجود الأمريكى هناك لإتمام عملية بناء المؤسسات.

هذا بالنسبة لرؤية زكريا لما يجب أن تكون عليه الحكومة فى العراق وأفغانستان وباقى البلدان، أما فى الولايات المتحدة فيرى أيضًا أن الديمقراطية قد اتخذت فيها شكلاً شعبويًا غير مطلوب. وهو يدعو إلى زيادة الأجهزة المعينة على حساب الأجهزة المنتخبة مثل المحكمة العليا الأمريكية وأيضًا مثل منظمة التجارة العالمية. مثل هذه الأجهزة تعمل بكفاءة من وجهة نظر زكريا لأنها تعمل بعيدًا عن الضغط الشعبى الذى يؤثر فى أداء قرارات الأجهزة المنتخبة.

يذكر أن فريد زكريا من أبرز الخبراء الحاليين فى مجال السياسة الخارجية بالولايات المتحدة الأمريكية. وقد وصفته مجلة إسكوير مؤخرًا بأنه واحد من أهم واحد وعشرين شخصية فى القرن الواحد والعشرين. وقد ولد زكريا فى مدينة مومباى بالهند ودرس فى جامعات ييل وهارفارد فى الولايات المتحدة. وهو يعد أصغر من تولى إدارة تحرير مجلة فورين أفيرز «شئون خارجية» التى يصدرها مجلس العلاقات الخارجية، حيث كان عمره آنذاك ٢٨ سنة.

هديل غنيم

Politics of Mass Consumption in Post war America

(جمهورية المستهلكين: سياسات الاستهلاك الجماهيرى فى أمريكا ما بعد الحرب)

Elizabeth Cohen
Alfred, A.Knopf, 567PP., $35.00



بعد هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، دعا الرئيس الأمريكى جورج بوش الأمريكيين إلى الخروج للشراء ومساعدة الاقتصاد الأمريكى فى النهوض من الأزمة التى وقع فيها، ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى يظهر فيها مصطلح «الاستهلاك العام» أى أن المستهلك يشترى أكثر لمساعدة بلاده، فعند نهاية الحرب الثانية شجعت الحكومة الأمريكية مواطنيها على زيادة استهلاكهم بأكبر قدر ممكن لمساعدة الاقتصاد.

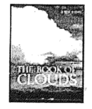
وتجادل المؤلفة اليزابيث كوهين فى هذا الكتاب بأن المستهلكين أعادوا رسم خريطة المجتمع الأمريكى خلال العقود الماضية، حيث رأى هؤلاء المستهلكون بلادهم كنموذج لمجتمع ملتزم بالاستهلاك الضخم لخدمة الاقتصاد الوطنى. إن هناك مستهلكًا حسب المؤلفة، ينظر إلى مسالة الشراء من ناحية مصالحه الخاصة، بينما هناك آخر يعتقد أن هذه العملية، أى الشراء قوة يمكن أن تساعده وتساعد المجتمع كذلك.



The Book of Clouds

(كتاب السحاب)

John A.Day
Silver Lining Books, 2002, $19.95



يعرف جون داى مؤلف هذا الكتاب حول العالم بأنه «رجل السحاب»، فقد كرّس حياته لدراسة وتأمل السحب سواء للأغراض العلمية أو للأغراض الجمالية والفنية. بدأ جون داى مشواره مع السحاب منذ دراسته للفيزياء فى الجامعة، ثم قام بدراسات عليا فى علم الطيران وبدأ يعمل فى الأرصاد الجوية.

أما هذا الكتاب، فهو مقدمة للقارئ العادى لفهم ظاهرة السحاب. كيف يتكون؟ من أين يأتى؟ وإلى أين يذهب؟ ولماذا يتشكل بهذه الأشكال؟ وكيف نعرف طقس الغد بمجرد ملاحظة نوع السحاب؟



قــــــراءة ... مــــن دفتــــــر

«علينا منع أى دولة معادية من السيطرة على مناطق يمكن لمواردها أن ترفع هذه الدولة إلى مصاف الدول العظمى.. وعلينا تثبيط عزيمة الدول الصناعية المتقدمة عن محاولة تحدى زعامتنا أو لقلب النظام السياسى والاقتصادى القائم.. كما أن علينا العمل على عدم بروز أى منافس كبير فى المستقبل».

من دليل السياسة الدفاعية الأمريكية ١٩٩٢-١٩٩٤

«لقد فشل مجلس الأمن.. والولايات المتحدة ستقوم هنا بما تقاعس عن القيام به». «على العسكريين العراقيين عدم إطاعة أوامر قادتهم. كما أن عليهم التصرف بشرف من خلال السماح للقوات الأمريكية بدخول العراق».

جورج دبليو بوش
رئيس الولايات المتحدة
(فى الانذار الشهير)

«التحالف مع الولايات المتحدة أهم من الناحية الاستراتيجية من التحالف مع الأمم المتحدة».

جون هيوارد
رئيس وزراء أستراليا

«مسئولية الولايات المتحدة مؤكدة فى العراق بعد الحرب. قواتنا لن تغادر فجأة لتترك المكان للأمم المتحدة. لذا علينا أن نعمل سويا.. فالمنظمة الدولية ستكون مزودة بقبعتين: الأولى باعتبارها الأمم المتحدة، والثانية باعتبارها جزء من التحالف الذى قام بالعملية العسكرية».

هارود ليتش
السفير الأمريكي لدى فرنسا

عندما كنت أذهب لتغطية المناورات العسكرية، كنت أحرص على تسجيل اسمى ضمن قائمة المصورين. والذين -لطبيعة دورهم- كان يسمح لهم بالاقتراب أكثر مما يجرى. وقتها لاحظت أن القادة الميدانيين يمسكون عادة بقلم من الرصاص. ودفتر من الورق. يؤشرون فيه طوال الوقت. ورغم أنه فاتنى أن أسأل: لماذا هو من الرصاص، إلا أن الأمر كان كافيًا لكى يرتبط لدى مشهد مراقبة الحرب بدفتر الملاحظات.

ها هى إذن الحرب «الميدانية» قد اندلعت. ذهب إليها قادة البنتاجون باطمئنان الذاهب إلى مناورات «النجم الساطع» الروتينية. فالموعد حددوه سلفا (حسب التوقيت المحلى لمدينة واشنطن DC). ومقر القيادة الوثير قد تم تجهيزه بعناية. والصحافيون تلقوا تدريبات (مدفوعة) على أجهزة المحاكاة الإلكترونية. ليتم «تسكينهم» ضمن نظام محكم داخل الوحدات العسكرية الميدانية. وعقود توريد الأغذية و«الكولا» تم توقيعها بالفعل. ومكان التسليم، طبقًا لخطة التحركات العسكرية للحرب/المناورة، داخل الأراضى العراقية.

أيًا ما كان الأمر، فقد اندلعت الحرب، وأيًا ما كانت النتائج القريبة والبعيدة سيبقى فى المشهد «دفتر الملاحظات».

[١]

الزمان: التاسع عشر من الشهر الثالث من العام الثالث من القرن الحادى والعشرين.

بانوراما المشهد (بعرض العالم) كالآتى:

فى العاصمة «الدبلوماسية» لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية «نيويورك»، يجتمع مجلس الأمن «الدولى» على مستوى وزراء الخارجية ليتحدث عن «السلم». وليستمع إلى تقرير المفتشين الدوليين الذين ذهبوا إلى العراق بقرار منه، ثم عادوا راكضين مهرولين تحت سلاح إنذار الـ ٤٨ ساعة الأمريكى الشهير.

وفى واشنطن، التى ينظر إليها الكثيرون على أنها العاصمة «الفعلية» للعالم الجديد. كان «الرئيس» -بأداة التعريف، كما يشير إليه تونى بلير فى مؤتمرات صحفية (غير مشتركة)- يجتمع مع أركان حربه قبل أن يضغط على الزناد، عند منتصف الليل. لتنطلق الصواريخ على الناحية الأخرى من العالم. حيث «ميدان ضرب النار» والتعبير للأستاذ هيكل. الذى سبق الكثيرين، وربما صدمهم بالتنبيه مبكرا إلى «الأبعاد العولمية» لحرب «الصدمة والترويع» كما أسماها تومى فرانكس قائد القوات الأمريكية فى الخليج.

وقد تكون التسمية صحيحة -بغض النظر عن القصد- إن أدركنا ما هو المقصود بالصدمة.. ومن هم هدف للترويع.

[٢]

«لحظة الحقيقة» هى إذن كما قال جورج دبليو بوش. بعد أن بدا واضحًا -لكل من يريد أن يرى- «حقيقة» العالم الذى تريده أمريكا. وبعد أن كشفت مباريات مجلس الأمن، والتصريحات المنفلتة. من هم المقصودون «شرقًا وغربًا» بالضربات «الاستباقية».

أيًا ما كان الأمر. فإننا -على الأغلب- أمام «لحظة فارقة» فى التاريخ وإذا كان صحيحا أو محتملا أن غبار الحرب سينقشع عن نظام دولى جديد. بديل عن نظام الأمم المتحدة الذى جاءت به الحرب العالمية الثانية، فقد يكون من الصحيح أيضًا أن الحدث -إقليميًا- ربما يأتى بنظام بديل لنظام الجامعة العربية. الذى نشأ فى وقت متزامن مع نشأة المنظمة الدولية. وهنا احتمالان، قد لا يكون هناك ثالث لهما. إما أن تذهب الفكرة ذاتها إلى صفحات التاريخ. سواء غاب التنظيم، أو بقيت هياكله. أو أن يدرك ذوو الصلة -والحاجة- أن القيمة واجبة وأن الأمل ممكنٌ. فى تلك اللحظة الفارقة التى يعاد فيها ترتيب الأوراق ويُصار فيها إلى رسم الخرائط. وإن كان لهذا بالضرورة حديث آخر. فقد يكفى التذكرة فقط بالحقائق التالية:

١- أن المظاهرة الوحيدة فى العالم كله التى قامت تأييدًا للحرب، شهدتها شوارع عاصمة عربية.

٢- أن دولة «غربية» مثل بلجيكا، رفضت السماح للطائرات الأمريكية بالتوقف فى مطاراتها للتزود بالوقود. وهى فى طريقها إلى حرب «غير شرعية». حسب تعبير المسئولين فى بروكسل.

٣- ولعلها ثالثة الأثافى. تبقى الحقيقة المجردة، التى لا بد من رؤيتها واضحة، فضلاً عن الاعتراف بها. أنه ورغم قرار على أعلى مستوى من القمتين العربية والإسلامية «بعدم المشاركة» فى الحرب التى وضع الملوك والأمراء والرؤساء توقيعاتهم على قرار برفضها، إلا أن الحاصل أن الصواريخ التى قصفت عاصمة الخلافة الإسلامية الزاهرة وقت العباسيين، انطلقت من قواعد فى أرض عربية. وأن الطائرات التى دكت «التخوم الشرقية» كما كان يسميها دائمًا المتحدثون عن مفهوم الأمن القومى العربى، إنما جاءت من «الداخل».

وإذا كانت القاعدة السيكولوجية تقول إن المرء يميل إلى أن يتجاهل ما لا يحب أن يراه، إلا أن التاريخ يبقى بلا عواطف.. وروزنامته لا تحكمها السيكولوجيا. وكما أن لكل حدث حديثا، كما يقول العرب. تبقى لكل الأحداث ترتيبات ونتائج.. وللحديث -بضرورة الحدث- بقية.

[٣]

«حرب الحواسم»! يبدو أنها المرة الأولى التى تختار فيها الآلة الدعائية العراقية شعارًا -وبغض النظر أيضا عن القصد- يبدو صحيحًا. فتلك الحرب التى يخطئ الكثيرون حين يؤرخون لبدايتها (الحقيقية) بالتاسع عشر من مارس. والتى لم يحدد من ذهب إليها -أو لم يعلن لنا بشفافية- متى يعتبرها انتهت، يبدو أنها ستحسم الكثير والكثير من الأمور. وسترسم الكثير من الخطوط المتلاقية حينًا والمتقاطعة والمتشابكة أحيانًا. إن لم يكن على خرائط الجغرافيا، وهذا وارد. فعلى خرائط (واسعة) للسياسة، والاقتصاد.. والقوة.

ويخطئ من يعتقد أن مشهد «قطع الدومينو المتتالية» سيتوقف عند أفق يحده المحيط أو الخليج. فكما أن تظاهرات الـ (لا للحرب) لم تعف السنغال أو جزر الهاواى، فإن نتائج الحرب ستطال على المدى القريب أو البعيد (ولا مبالغة) المستقبل السياسى لقادة ذهبوا إليها مثل بوش وبلير. أو أيدوها مثل أزنار وهيوارد. أو عارضوها مثل شيراك وجيرهارد شرودر.

«حرب الحواسم» هى إذن. والتى ستحسم -أيًا ما كانت نتيجتها النهائية (القريبة أو البعيدة) المصير النهائى لكثير من رموز وصراعات النصف الثانى من القرن العشرين. إقليميًا ودوليًا.. وفكريًا:

١- النظام الدولى.. قانونًا وأفكارًا ومؤسسات: ففى جزر الأزور أعطى جورج دبليو بوش لمجلس الأمن (الدولى) انذارًا لمدة ٤٨ ساعة «ليتخذ القرار الذى نريد». والا سنذهب «نحن» للقيام بالمهمة.

يومها سحب كوفى عنان رجاله «الدوليين» خوفًا على حياتهم. ولم يكن هناك نيكيتا خرشوف آخر يخلع حذاءه ليطرق به المنصة احتجاجًا. فهذا كان زمان القادة. وتلك كانت مناخات التوازن.

٢- النظام العربى وأفكاره.. وجامعته: وبغض النظر عن الاختلاف الذى لن يحسم أبدًا حول «منطقية» الرئيس بشار، و«واقعية» الوزير حمد، وأفكار العقيد القذافى.. ودبلوماسية الأمين العام.

٣- حزب البعث العربى الاشتراكى: هل تذكرون بداية القصة. وهل تذكرون ميشيل عفلق. وهل تذكرون نصف قرن من الأحلام.. والدماء. ربما نشهد الآن نهاية تراجيدية للقصة الدرامية العاصفة.

٤- الاتحاد الأوروبى: والذى لا يعرف

ملاحظات الحرب

أيمن الصياد

الآن إن كان قد توسع ليقوى بـ «أوروبا الجديدة» أو ليضعف بها.

٥ ـ حلف الناتو: بين مبرر النشأة.. ودواعي الاستمرار.. ورياح الخلافات والانقسام.

٦ ـ القضية الفلسطينية: محور «المسألة» العربية. والضحية الأولى (المحتملة) للمراهنات.. والمقامرات.. وإعادة ترتيب الأوراق.

[٤]

عندما قال لي سائق التاكسي متحمسًا أنه «لا يوجد بين العرب رجل غير صدام»! عرفت أن الديمقراطية هي الخاسر الأول في هذه الحرب، وأدركت كم أن الأمريكيين أغبياء عندما يفرطون في الاعتماد على محللي الرأي العام الجالسين في مكاتبهم الوثيرة في نيويورك والذين ربما كانوا يجيدون أكثر اختيار لون رابطة العنق، ونكهة القهوة، وموقع غرفة الاجتماعات.. حيث تطل النافذة الواسعة ولابد على الـCityscape.

وكان صديق ينتمي إلى عائلة مالكة خليجية قد قال لي في إطار تعليقه على ما يجري: «ليس هذا وقت الحساب.. هذا وقت العواطف، والعواطف لا تعرف حسابات الحقل والبيدر. تعرف فقط أواصر القربى.. ورابطة الدم. إذا أخطا ابنك ربما تعاقبه ضربًا بالعصا.. ولكنك لن تسمح لغيرك بإذلاله..».

هل يفهم الأمريكيون القابعون أمام شاشات الكمبيوتر الباردة هذا المنطق.

لم يفهم خبراء الحرب النفسية في الجيش الأمريكي في فورت براج بولاية نورث كارولينا لماذا يقاتل جندي عراقي فقير «في معركة ميئوس منها وغير متكافئة.. ودفاعًا عن طاغية دموي».

الـSlogans التي عكف خبراء الدعاية الأمريكيون على صياغتها بعناية قبل أن «يبيعوها» للجيش الأمريكي، حملتها ملايين (٨ ملايين) المنشورات من الورق الملون المصقول والتي ألقيت على قوات الجيش العراقي طوال الأيام السابقة لاندلاع الحرب.

هل يفهم البراجماتيون لماذا لم يلقهم العراقيون «المعذبون افتراضًا» بالورود؟! وهل يدركون كيف تتوارى ـ في هذه الثقافة ـ حسابات المكسب والخسارة حينما يتعلق الأمر بالكرامة والشرف.. والأرض والوطن؟! وهل نسوا كيف أساءوا فهم أن تترك فتاة فلسطينية جميلة في ربيع العمر آمالها وأحلامها للتزنر بحزام من متفجرات؟! وكيف كان الحديث عن «الفقر المؤدي للتطرف والعنف» مضللاً حين اكتشفوا أن صفوة القاعدة جاءت من بلاد الخليج الغنية.

وقد يبقى أمرًا مضحكا أن يعتقد هؤلاء الخبراء والذين ألقوا بـ ٣٠ ألف جهاز راديو ثابت الموجة على ثكنات الجيش العراقي، أن جنوده ولأن غالبيتهم من الشباب بطبيعة الحال، ستستمع إلى الإذاعة الخاصة التي وجهوها إليهم «لأنها تذيع أغاني البوب والروك الأمريكية الشبابية»!

وليت أحدهم كان معي في التاكسي.. ليرى كيف لم يرض سائقه «الشاب» بالاستماع إلى الإذاعة المحلية، والتي اعتبرها هادئة. وأخذ يجهد مؤشر المذياع بحثًا عن مارشات عسكرية كما قال لي.

أيًا ما كان الأمر، فقد بدا أن الالتباس في كلام سائق التاكسي «البسيط» في الزقاق القاهري الفقير، حيث حملني إلى الأزهر لأشهد «رد الفعل العفوي» عن قرب، وجد صداه «المرتبك» في مانشتات الصحافة، وفي كتابات المثقفين في صحف عربية تصدر هنا.. أو هناك في عواصم أوروبية، وفي آرائهم «كضيوف المناسبة» في شبكات التليفزيون الأمريكية.

حالة من الاستقطاب والفوضى والارتباك الفكري. إن أشدت بمقاومة العراقيين المحاصرين منذ اثنى عشر عامًا لأكبر قوة عسكرية في التاريخ، اتهمك المعارضون العراقيون و«المبشرون الأمريكيون» بأنك ضد الديموقراطية وضد الكويت. وأنك لا تعير اهتمامًا لمذابح حلبجة الكيماوية، ولا لحقيقة أن أطباق الاستقبال الفضائية محظورة في العراق. وإن أنت أشرت إلى مثالب النظام العراقي، وجدت فورًا من يصرخ في وجهك (بالقلم وعلى الفضائيات) بالخيانة والعمالة والتنكر لدماء العراقيين الذين قضوا في ملجأ العامرية أو في سوق الشعب.

والحاصل أن المشهد البادي في أعمدة الصحف وبيانات المثقفين وشاشات التليفزيون يجسد «أزمة المثقف العربي» المتوارثة والمزمنة.

تتكاثر الأسئلة.. بلا إجابة. كما تتناثر القنابل العنقودية في سماء المعركة.

ونكتب.. ولما تضع الحرب أوزارها بعد.. ويظل دفتر الملاحظات مفتوحًا بالضرورة.. يقبل الإضافة.. والتعديل.

وربما تلك هي الحكمة من «القلم الرصاص». ■

«تلك الحرب تشن من وراء ظهر مجلس الأمن الدولي وبما يخالف القانون.. إنه لأمر يدعو للسخرية، أن تدمر بلدًا بدعوى تحريره ونشر الديمقراطية.. إن ما تفعله الولايات المتحدة وبريطانيا هو محاولة لفرض نظام سياسي بالقوة على دولة ذات سيادة.. العراق دولة مستقلة وعضو في الأمم المتحدة. ومطالبة واشنطن بقطع العلاقات معها تحد للمجتمع الدولي».

إيجور إيفانوف
وزير الخارجية الروسي

«من الناحية القانونية البحتة فإن الغزو الأمريكي للعراق لا يختلف عن الغزو العراقي للكويت قبل عقد من الزمان».

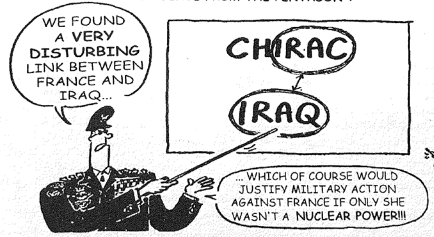
صحيفة «لوفيجارو» الفرنسية

«الأمريكيون لا يريدون إعطاء مهلة أسابيع للتأكد من تنفيذ قرار لمجلس الأمن صدر قبل أشهر. لماذا لا ينفذون القرار ٢٤٢ الصادر قبل ٣٥ عامًا؟».

روبين كوك
زعيم الأغلبية في مجلس العموم البريطاني
والذي قدم استقالته احتجاجًا على الحرب

«أردنا التعبير عن ضيقنا وتوجيه ضربة توجع الأمريكيين في حافظات نقودهم. لم يشتك الزبائن. على العكس معظمهم يرحب بهذه الخطوة».

فابيو إنجيلي
صاحب مطعم «أوستريا» في برلين
(أحد المطاعم التي حذفت الكوكاكولا والمنتجات الأمريكية الأخرى من قوائمها احتجاجًا على الحرب)





حركات الاحتجاج عندنا وعندهم..

تمثل حركات الاحتجاج فى ثقافة الغرب السياسية تقليدًا يمتد إلى جذور بعيدة فى التعبير عن آراء الشعوب وإرادتها، وذلك حين تتسع الفجوة بين السياسات التى تنتهجها حكومة ما وبين ما تؤمن به وما تدعو إليه قطاعات واسعة مؤثرة من الشعب إزاء قضية معينة. وتزداد هذه الحركات قوة وزخمًا فى النظم الديمقراطية، لتجتذب إلى صفوفها تيارات اجتماعية مختلفة واتجاهات سياسية متباينة، قد لا تكون بينها وشيجة صلة، كلما استقوت الحكومة بأغلبية برلمانية تحميها من غضب الشعب وتضفى عليها الشرعية المطلوبة.. ويحدث هذا بشكل خاص فى القضايا المصيرية، التى تتعلق بالحرب والسلام، أو بالأزمات والقرارات الاقتصادية التى تمس حياة المواطن العادى.

ولم يحدث أن شهد العالم منذ حرب فيتنام فى الستينيات من القرن الماضى، مسيرات احتجاج جمعت بين صفوفها هذه الأعداد المليونية الهائلة فى وقت واحد عبر المئات من المدن والعواصم العالمية، على نحو ما حدث فى المسيرات والمظاهرات التى غطت الشوارع والميادين احتجاجًا على الخطط الأمريكية البريطانية للحرب ضد العراق. وكانت مسيرات الاحتجاج الأكبر عددًا والأوسع مددًا، هى تلك التى نظمت فى بلاد تؤيد الحرب، أو تواجه ضغوطًا للانضمام إلى الحرب مثل أمريكا وبريطانيا وإسبانيا فى الحالة الأولى، وفرنسا وألمانيا فى الحالة الثانية.

وخلال السنوات الأخيرة، جرت مسيرات احتجاج عديدة تعبيرًا عن الرفض والمعارضة لقضايا إقليمية أو عالمية. مثل قضايا العولمة والتجارة العالمية وسيطرة الهيئات الاقتصادية الدولية على مصير العالم، والغبن الذى تتعرض له الدول النامية والفقيرة فى توزيع الثروة. ولابد أن نلاحظ هنا كيف نجحت حركات الاحتجاج الغربية فى إعادة إنتاج أشكال الرفض وأساليب التعبير عن مقاومة الاتجاهات الرسمية السائدة.. وكيف استفادت من مهرجانات الغناء والعروض الفنية التى تشارك فيها أعداد غفيرة من أعمار وأجناس مختلفة. فضلاً عن المهارة العالية فى تنظيم مسيرات حاشدة بمئات الألوف.. واستخدام الأقنعة والوجوه الكاريكاتيرية والشعارات الساخرة واللافتات المبتكرة والملابس التنكرية وأضواء الشموع وغيرها من الأساليب المتجددة فى تغذية مشاعر الاحتجاج والتعبير عنها: دون حاجة للجوء إلى العنف والصدام مع الأجهزة النظامية أو تحطيم المرافق العامة.. بحيث يمكن أن يقال إن مسيرات الاحتجاج التى ولدت فى أحضان حقوق العمال بالإضراب عن العمل دفاعًا عن قضايا عمالية أو نقابية، سرعان ما اتسعت وتحولت لتكتسب أبعادًا جديدة وآفاقًا غير مألوفة دفاعًا عن قضايا دولية ومشاكل اجتماعية واقتصادية عابرة للحدود والثقافات، بل والقارات.



غير أن ما يجعل لحركات الاحتجاج فى الغرب قيمة وتأثيرًا فى الحياة السياسية، هو أنها جزء من الحريات العامة والممارسات السياسية المتصلة التى يُنشأ عليها المواطن منذ مراحل حياته الأولى وإلى أن يصبح له حق الانتخاب كمواطن فى مجتمع تتوافر له فيه حقوق وواجبات سياسية ومدنية معينة.. بحيث لا تقف الأمور عند حد مسيرات الاحتجاج والتظاهر، ولكنها تمتد بعد ذلك لتؤثر على الاقتراع فى الانتخابات المقبلة. وهو ما يمكن أن نستقرئه فى الضغوط التى يتعرض لها أنتونى بلير من جانب حزبه فيما يختص بمعارضة حرب العراق، وعلى نحو يهدد مستقبله السياسى ومستقبل حزبه.

وفى هذا الإطار يلعب المثقفون والمفكرون ورجال الدين والسياسة دورًا أساسيًا فى تقديم المسوغات الفكرية والسياسية لحركات الاحتجاج.. وفى حالة الحرب مع العراق لم تتردد أعداد كبيرة من الأدباء والمفكرين والعلماء، وبعضهم من الحاصلين على جائزة نوبل، فى إعلان معارضتهم لهذه الحرب لأسباب إنسانية وأخلاقية وقانونية. وشكل الفنانون والممثلون من نجوم السينما الأمريكية قطاعًا مؤثرًا فى إدانة هذه الحرب. وشارك بعضهم فى الصفوف الأولى من مسيرات الاحتجاج. غير أن هذا لم يمنع نشوب مجادلات حادة بين المثقفين والسياسيين على الجانبين، من المؤيدين والمعارضين للحرب، قطعت الطريق على كثير من الحجج الزائفة أو التى تفتقر إلى المنطق، وأوضحت بجلاء سلامة حجة المناهضين للحرب ووسعت صفوفهم.



لهذه الأسباب، أو ربما لغياب هذه الأسباب والعوامل، لم تنجح حركات الاحتجاج فى بلادنا فى تشكيل ثقافة احتجاج ذات تقاليد راسخة معترف بها، سواء من جانب السلطة أو فى الإطار الفكرى العام. فالمثقفون والمفكرون فى بلادنا العربية لا يقودون حركات الاحتجاج، ولا يتصدون. بالفكر والمعرفة والفهم وليس ضروريًا بالسير فى المظاهرات. لفكر الرفض والخلاف والمعارضة القائمة على منطق متكامل. ولذلك بقيت مراحل التغيير فى بلادنا منوطة بما يعتنقه السياسيون أو الذين تملكوا السلطة من العسكريين تساعدهم طبقة من السياسيين والتكنوقراط والمثقفين، تزين لهم أكثر الأساليب تفردًا وجنوحًا إلى الرأى الواحد، وتمكن لهم فى الأرض لإحكام قبضتهم، وتحقق المنفعة الخاصة لهم من وراء ذلك.

بعض هؤلاء هم من أكثر المثقفين ازدراء لمسيرات الاحتجاج واستهانة بها وخوفًا من عواقبها.. فهم لا يرون لها جدوى إلا إذا خضعت لتنظيم الحزب الحاكم. وأصبحت مسيَّرة فى طريق واحد ولخدمة هدف واحد. والنتيجة الطبيعية لذلك أن تظل مثل هذه المسيرات مقصورة على فئات محدودة من الطلبة أو العمال أو المصلين فى جامع، ولا تضم بين صفوفها كافة فئات الشعب وأجناسه وطبقاته كما يحدث فى بلاد أخرى.. إلا إذا فقدت تلقائيتها وتركت قيادها لممثلى السلطة يوجهونها كيفما شاءوا.

لا توجد لدينا مبادرات تلقائية للاحتجاج تثرى روح الديمقراطية. بل مجرد فوران وردود فعل تقتصر على إصدار بيانات يوقعها عشرات أو مئات من المثقفين، ويتنازعون على مضمونها ولغتها والجهات التى تخاطبها.. وذلك على العكس تمامًا من مسيرات الاحتجاج التى شهدناها فى عواصم الغرب، حيث تتحرك الجموع بصورة تلقائية فى أيام محددة من نهاية الأسبوع، حتى لا تتعطل الأعمال ولا تتوقف عجلة الإنتاج، ولا تتأثر العملية الاقتصادية بسبب فقدان ساعات العمل وما تساويه من أجور.



عندنا، لا يتصدر المثقفون حركات الاحتجاج ولا حركات التغيير الطبيعية أو الثورية. بل يأتون. فى معظم الأحيان. فى ذيل الحدث وقرب نهايته واكتماله.

وفى قضية التنحى التى أثيرت فى المراحل الأخيرة للأزمة العراقية قبل أن تندلع الحرب التى خططت لها أمريكا كنتاج ليس لتغيير الوضع فى العراق فحسب، بل لتغيير الوضع فى المنطقة العربية بأسرها، ردًا على أحداث سبتمبر، لم يكن إسهام المثقفين فى مواجهة الأخطار المحدقة إلا فى البحث عن مخرج سهل يستجيب للمطالب الأمريكية ولا يمس جوهر القضية ولا يحيط بجوانبها المعقدة.

فقد بقى نظام الحكم القائم فى العراق أكثر من ربع قرن، لا يحاكمه المثقفون بالنقد أو مطالب التغيير إلا عندما ضيق الأمريكيون الحصار عليه لأسباب خاصة بهم، على الرغم من المظالم والكوارث التى ارتكبها على امتداد السنين فى حق شعبه وفى حق الأمة العربية.. ولو أن صفوة المثقفين اختاروا فى وقت من الأوقات أن ينكروا على هذا النظام ما ينكرونه عليه الآن، وأن يكونوا فى طليعة المعارضين والمحتجين منذ أصبح نظام البعث عبثًا على مبادئه التى نادت بها طلائع فكرية، فلربما كان العراق قد شهد مصيرًا غير هذا المصير، ولربما كانت الشعوب العربية قد أعادت رسم خرائطها بنفسها وليس بيد الآخرين.

إن إنكار حق الخلاف والرفض والاحتجاج فى الثقافة العربية المعاصرة، تكاد تكون هى المقتل الذى تنفذ منه سهام الضعف والاضمحلال والنكوص. ليس فى حياتنا السياسية فحسب، بل وفى حياتنا الدينية والاجتماعية. ويوم يتخلى المثقف عن دوره كمدّاح فى بلاط السلطة، فسوف تكون هذه هى البداية الحقيقية لكى تتجذر لدينا ثقافة الاحتجاج والمعارضة على أسس سليمة!

سلامة أحمد سلامة

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 52 - May 2003

مجلة شهرية . العدد الثانى والخمسون . السنة الخامسة . مايو ٢٠٠٣ . الثمن عشرة جنيهات



محمد حسنين هيكل

إمبراطور من تكساس!

صدام حسين فى قصر النهاية ! / يوسف القعيد ▪ الحرب النفسية / قدرى حفنى ▪ النفط مقابل الدماء / إبراهيم عبد الجليل ▪ الحملة على العراق أولى مراحل الاستعمار / جلال أمين ▪ المفكرون فى خدمة الطغاة / مارك ليلا ▪ تقاسيم على قانون عراقى / محيى الدين اللاذقانى ▪ النساء يتكلمن أكثر / جانيت هولمز ▪ قراءة : دراما التمثال / أيمن الصياد ▪ نون : العرب وموسم الهجرة إلى الديمقراطية / سلامة أحمد سلامة ▪

من أحرق بغداد!

طالب البغدادى ▪ روبرت فيسك
نصير شمه ▪ زاهى حواس

مصاريف مدرسة سلمى

شراء شقة أحمد

توفير معاش شهرى بعد جواز الأولاد

وثيقة الأمان

الحياة رحلة طويلة.. فأمن مستقبلك وخطط له جيداً.

اشترك الآن فى **البرنامج الادخارى الجديد من البنك العربى "وثيقة الأمان"**
الذى يساعدك على تلبية احتياجاتك المستقبلية. وتحصل من خلاله على عائد مغرى فى نهاية مدة الوثيقة.

مثال:

إدفع شهرياً مبلغ	وأحصل بعد ١٠ سنوات على مبلغ	أو أحصل بعد ٢٠ سنة على مبلغ
١٠٠ جنيه	١٨.٧٢٨ جنيه	٥٣.٣٤٥ جنيه
٢٠٠ جنيه	٣٧.٤٥٦ جنيه	١٠٦.٦٩٤ جنيه
٣٠٠ جنيه	٥٦.١٨٤ جنيه	١٦٠.٠٤٢ جنيه
وفى حالة الوفاة "لا قدر الله" يحصل المستفيدون الشرعيون **فوراً** على كامل قيمة الوثيقة المستثمرة		

بالإضافة إلى المميزات التالية:

- مدة الوثيقة تترواح من ٥ إلى ٢٠ عاماً بأقساط تبدأ من ١٠٠ جنيه شهرياً.
- إمكانية الحصول على العائد فى نهاية المدة على دفعة واحدة أو على دفعات لمدة تصل إلى ١٥ سنة.
- التأمين•• مجاناً على صاحب الوثيقة بكامل قيمتها.
- إمكانية الإقتراض بضمان الوثيقة.
- إمكانية إسترداد المبالغ المدخرة بعد مرور عام طبقاً لجداول الاسترداد.

لمزيد من المعلومات خصصنا لكم هذا الرقم الجديد



فى خدمتكم ٧ ايام فى الأسبوع من ٩ صباحاً حتى ٩ مساءً

البنك العربي
ARAB BANK
رؤية جديدة

www.arabbank.com

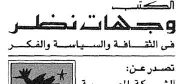
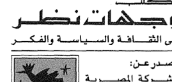
• أحقية الحصول على الوثيقة ترجع الى شروط وقرارات البنك العربى.
•• يتم التأمين من خلال إحدى الشركات التابعة للهيئة المصرية للرقابة على التأمين

RESALA

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد



الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر


تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

السنة الخامسة
العدد الثانى والخمسون
مايو ٢٠٠٣

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إبراهيم عبد الجليل.. خبير فى شئون الطاقة.
- أحمد محمد عبد الله.. مدرس مساعد الطب النفسى بجامعة الزقازيق.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- جانيت هولمز.. أستاذة علم اللغويات بجامعة فكتوريا. نيوزيلاندا.
- جلال أمين.. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- درية عونى..صحفية مصرية من أصل كردى.
- روبرت فيسك.. صحفى بريطانى.
- زاهى حواس.. أمين عام المجلس الأعلى للآثار فى مصر.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- طالب البغدادى.. أستاذ جامعى عراقى وخبير دولى فى الآثار.
- قدرى حفنى.. أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس.
- مارك ليلا.. أستاذ بقسم الفكر الاجتماعى بجامعة شيكاغو.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمد عدنان سالم.. ناشر سوري.
- محيى الدين اللاذقانى.. صحفى وأديب سورى مقيم فى لندن.
- نصير شمّة.. موسيقى عراقى مقيم فى القاهرة.
- يوسف القعيد.. صحفى وروائى.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى - محمد حاكم - سعد الدين شحاتة - أحمد اللباد





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٢٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى. ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

كلمة..

من سرق بغداد؟

■ قدرُ تلك المدينة.. أن يَسرقَ حُلمَها الطغاة، وأن يَحرقَ تاريخَها الغاصبون والغزاة.

بعد ربع قرن ـ أو يزيد ـ من القمع. وبعد عقد من الجوع والحصار، هاهي عاصمةُ الرشيد.. والخلافة.. ومدينةُ السلام. تُنْتَهَب.. وتَحْتَرِق.



قبل قرون سبعة أحرق التتارُ؛ القوةُ الجارفةُ فى ذلك الزمان، مكتبةَ بغداد؛ الأكبر فى زمانها والأكثر ثراءً بالعلم والمعرفة.

واليوم.. وتحت العلم الأمريكي؛ القوة الأولى الطاغية فى أيامنا هذه، وفى ظلال مدافع الدبابات والمدرعات التابعة لمن قرر أن يعتبر نفسه «شرطى العالم»، دمر الرعاعُ أو المأجورون ـ ربما ـ مكتبة بغداد الوطنية.. ومتحفها..ودار المخطوطات والوثائق.



شهودُ عيان، ومنهم صحفيون غربيون، قالوا أن هناك دلائل تشير إلى أن الأمر كان مرتبًا ومنظمًا. وأن الغوغاءَ جاءوا بعد أن كانت الجريمة قد وقعت فعلاً.. ويقول مسؤولون فى اليونسكو أن آثارًا قد خرجت فعلاً من العراق. رغم أن الأمريكيين يراقبون حدوده بالميكروسكوب خشية تهريب مسئولين أو أسلحة أو وثائق.

ومهما شككوا فى الروايات ـ إذا فعلوا ـ يبقى الثابت أن قوات الغزو المدججة بالسلاح والإلكترونيات.. والمعرفة، حرصت على حماية وزارة النفط وآباره المترامية، فلم تمس. ولكنها آثرت أن تتفرج (ولا نقول تآمرت) على مشهد نهب وتدمير سبعة آلاف سنة كاملة من تاريخ البشرية.

والثابت ثانيًا أن بنود اتفاقية لاهاى (١٩٥٤) وتعديلاتها (١٩٩٩) تُحَمِّلُ قوات الاحتلال المسؤولية (كاملة) عن حماية التراث الثقافى والفنى أثناء الحروب.

والثابت ثالثًا أن النهب ـ أو الدمار ـ قد طال كافة الوثائق التى أرَّخت لعلاقة العراق بالخلافة العثمانية، وكافة مراسلات العراق مع الشريف حسين فى مكة قبل الثورة العربية الكبرى. فضلاً عن كل ما يؤرخ لفترة السبى البابلى لليهود. وليهنأ كل مزورى التاريخ.

من انتقى.. ومن هو صاحب المصلحة فى إلغاء فصول من الذاكرة.. والتاريخ؟

فى ملف متكامل تقدم «وجهات نظر» رصدًا وتحليلاً.. وأسى لهول ما حدث.

فيكتب عالم الآثار العراقى والأستاذ فى فلسفة الرياضيات دكتور طالب البغدادى عن ستة عقود أمضاها بين جدران أزقة بغداد القديمة التى تحمل بين جدرانها تراكم حضارة تمتد مع الحروف الهجائية من الألف إلى الياء. ويحكى لنا عن الأماكن التى احترقت واحترقت معها ذكريات لقاءاته ومشاهداته لنازك الملائكة وبدر شاكر السياب والجواهرى.

ويحكى كاتبنا البغدادى كيف كانت المكتبة الوطنية التى لحقها النهب والتدمير « هى المكان الأكثر ارتيادًا من قِبَلنا حين كنا طلابًا فى المدارس الثانوية ثم فى الجامعة حيث كانت مكان دراستنا اليومى، ناخذ من كتبها نراجع فيها ونبحث فيها ونسلمها بعد نهاية اليوم. وكان المرحوم الأستاذ مكى السيد جاسم والمرحوم المؤرخ عبدالحميد العلوجى المشرفين عليها. يستقبلون الرواد لا بابتسامتها الدائمة فقط بل بروح المساعدة والدعم. وقد قضى الأديب الكبير مكى السيد جاسم كل حياته فى خدمة هذه المكتبة والبحث فى كتبها. كان يعتبر كل كتاب من كتبها التى لا تحصى وكأنه ولد من أولاده. كما كان له المذكور مجلس أدبى يعقده فى بيته مرة كل أسبوع، وأصبح واحدًا من أهم المجالس البغدادية، يلتقى فيه كبار الأدباء والمؤرخين والعلماء والفنانين، وكان ـ رحمه الله ـ يعيش وهو فى مجلسه حياة المكتبة الوطنية فكان يتحدث عنها وعن أهم ما اقتنته من كتب ومجموعات».

ولا ينسى كاتبنا البغدادى: «ما غمرت أرواحنا من سعادة وابتهاج حين رأينا نازك الملائكة وهى جالسة تطالع فى بهو المكتبة وأصابعنا تشير فى نفس الوقت إلى سليمان العيسى ولميعة عباس عمارة وعبدالوهاب البياتى وهم يستعيرون الكتب والمجلات، أو نرى حافظ جميل يخرج متأبطًا أحد الكتب وخلفه يسير عبدالكريم العلاف وهو فى حوار مع الشيخ جلال الحنيقى لا نعرف كنهه وفحواه ربما عن آلة العود أو ربما حول الفارابى وما كتبه من أنغام موسيقية».



وليس عن آلة العود، يكتبُ عازفُه المتميز نصير شمة لـ«وجهات نظر». ولكن عن جُرحه العميق وذكرياته الخاصة: «بين جناحى ثور عظيم.. خلفى نابو.. وعلى يمين ألواح آشور» ويحكى كيف أنه استلهم من وقفته فى محراب التاريخ (الذى سرق قبل أسابيع) أمله فى المستقبل. ويتذكر أنه «بعد مرور بضعة أيام علىَ وقف إطلاق النار فى حرب الخليج الثانية قررت أن أقدم أول حفل. كانت الدماء ما تزال ساخنة تنزف من عروق وشرايين الشعب العراقى، وأردت لهذا الحفل أن يكون داخل الصالة الآشورية فى المتحف العراقى وكان عنوان الحفل (آتٍ من الماضى، ذاهب إلى المستقبل) لم يكن هذا العنوان مجرد شعار، بل إننى أردتُ أن أقول من خلاله أن الحاضر ليس دائما كما نتمنى، وحينما اخترت مكانى بين اثنين من الثيران المجنحة العملاقة التى يزن الواحد منها سبعة وثلاثين طنا من الحجر الصلب وهو عبارة عن قطعة واحدة، وخلفى الإله الآشورى نابو الذى يتجاوز طوله اثنى عشر مترا، وعلى اليمين واليسار ألواح عظيمة من الحجر تصف وتقف شاهدا على الحضارة الآشورية العظيمة فى العراق.

ويستخلص نصير شمة الفكرة كأنه يضرب بأنامله ليس فقط على أوتار العود الذى يحتضنه، بل على أوتار قلوب حطمتها الحروب والتوترات.. والمغامرات: «كنتُ قلت للحضور يومها، نحن سلالة هؤلاء الذين يستضيفوننا اليوم، والذين أبدعوا هذه الفنون التى سبقت مايكل أنجلو فى استخدام الحركة فى النحت وفى التفاصيل شديدة الدقة، خاطبت الجمهور شارحا: من هنا يجب أن نبدأ من دون أن نلتفت إلى الأطلال التى خلفتها الحرب، كنت كمن يريد أن يطمئن نفسه على إرثه الذى يعشقه وعلى مستقبله الذى يريد أن يسهم به بقوة، وفى الوقت نفسه كنت أريد أن أشير إلى عراقة شعبنا العراقى بعد أن طوقته كل دول العالم الشقيقة والصديقة والعدوة فى حرب لم يشهد التاريخ مثيلا لها من قبل، خصوصا أن إيمان الشعب بنفسه وبتاريخه وبعروبته وبانتمائه بكل الثوابت كان قد اهتز».



اسمُ بغداد فى كتب التاريخ: «مدينةُ السلام»، وفى كتب التاريخ سنقرأ بعد عام.. أو ألف عام، أنه: «فى التاسع من نيسان من السنة الثالثة للقرن الحادى والعشرين من ميلاد المسيح عليه السلام، دخل الأمريكيون بغداد.. ويومها ضاع التاريخ؛ سرقةً، وانتهابًا.. ودمارًا».

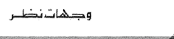
أفليس هناك من يسأل أولئك القادمين «ليعطونا دروسًا فى التَّحَضُّر والمدنية»: هل قرأوا فى كتب التاريخ ـ الذى يكرهونه ويحقدون عليه ـ يومَ رفض عمرو بن العاص (المسلم) أن يُدَمِر «صنم» أبى الهول فى صحراء الجيزة الجرداء؟!

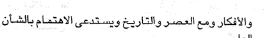


أيًا ما كان الأمر.. فربما لن نعرف أبدًا من نهب وسرق.. ثم دمر وأحرق تراثًا عالميًا يعود إلى سبعة آلاف عام، وجهدًا علميًا وتاريخيًا استغرق قرنين من الزمان. ربما لن نعرف أبدًا.. المجرم الذى تلوثت يداه. ولكننا ـ طبقًا للقانون ـ نعرف المسؤول. والذى ـ بحسب مواده، ارتكب بتقاعسه «جريمة حرب».

ولكن «من يجرؤ على الكلام؟».

وبالاعتذار إلى بول فندلى، صاحب المقولة.. ومؤلف الكتاب. ■





■ خطر على بالى أن هناك حاجة إلى كلمة عن مهمة كاتب اختار لنفسه مجلة شهرية - بعيدة عن أعمدة الصحف اليومية وزحامها - وظروفها أيضا!

وخطر على بالى أننى فى هذا الصدد أستطيع أن أحدد عدة أغراض لا يصح لهذا الكاتب أن يطمح إلى غيرها:

١ - فى مهمته استثارة الذاكرة حتى تترابط الحوادث وتتأكد طبيعتها تيارا يتدفق وموجات تتلاحق، يتواصل بها الأمس واليوم، مع المنتظر والمحتمل.

٢ - وفى مهمته أن يبحث فى الحاضر ويطيل النظر إليه بجهد يتجاوز العارض والعابر حتى يركز على فهم سياقه ومعناه ودلالته.

٣ - وفى مهمته أن يقدم ما يمكن أن يكون حوارا هادئا مع الناس والأفكار ومع العصر والتاريخ ويستدعى الاهتمام بالشأن العام.

٤ - وفى مهمته - أخيرا - أن يقوم بدور يشبه ما يقوم به الراصد الجوى، بحيث يكون قارئه مستعدا لتقلبات الطقس، فلا تدهمه على غير تنبه وتحوط، فإذا وقعت مفاجأة - وجد أمامه بابا أو أبوابا لها مفاتيح قد تتوافق مع الأقفال.

فى هذه الحدود عليه أن يمارس مهمته - يصيب مرة أو يخطئ، وينجح مرة أو يفشل ويجرب دائما، فإذا استطاع الوصول فقد أضاف، وإذا لم يصل فقد غطى جزءا من الساحة.

تلك هى الحدود... أو كذلك أتصور، ولعلى لم أخطئ كثيرا - لم أقصر دون الحدود، ولم أتجاوز بعدها! ■



محمد حسنين هيكل

إمبراطور

أولا:

الإمساك بالبيت الأبيض وبالقرن الحادى والعشرين!

■ لم يتنبه كثيرون في العالم - على الأقل بالقدر الكافى - لانتخابات الرئاسة الأمريكية الأخيرة (نوفمبر ٢٠٠٠) - لأن معظم المراقبين اكتفوا بالنظر إلى ما يجرى على واجهة المسرح، ولم تلفتهم - كما كان لازما - تلك الحركة الهادئة التى تمشى وراء الكواليس حيث يتواجد المشرفون والمديرون والمخرجون والفنيون من كل اختصاص، وكان الاهتمام بهؤلاء أوجب، لأن حركتهم كانت بمثابة التحضير للعرض بما فيه بلورة الفكرة، وكتابة النص، وترتيب المشاهد، واختيار الأبطال، والتأكد من تطابق شخصياتهم مع أدوارهم حين يرتفع الستار ويبدأ حوار المشاهد ويتواصل نحو مقاصده.

وكما بدا فإن معظم المراقبين للمعركة الانتخابية الرئاسية (سنة ٢٠٠٠) - ركزوا على مرشحين واجه كلاهما الآخر فى المناظرات الانتخابية أمام عدسات التليفزيون، ثم أجمعوا على أنها منافسة بين «السطحية» و«الملل» («جورج بوش» عن الحزب الجمهورى - و«آل جور» عن الحزب الديمقراطى) - وهى على هذا النحو منافسة يستحق أن يخسر فيها الرجلان معا لو كان ذلك ممكنا، وهو لسوء الحظ لم يكن، وبالتالى فإن الولايات المتحدة خطت إلى قرن جديد (الحادى والعشرين) وفى البيت الأبيض رجل يمثل عوامل الضعف الأمريكى ولا يمثل عوامل القوة - بمعنى أن ذلك التردى على مستوى القيادة الأمريكية العليا، والذى زاد مع فضائح «بيل كلينتون» فى البيت الأبيض سوف يستمر ويواصل نزوله على السفوح بأساليب أخرى تؤدى فيها التفاهة أو الملل - فى عهد «جورج بوش» الابن أو «آل جور» - ما صنعه الشباب أو الجنس زمن رئاسة «بيل كلينتون» الذى قضى فى البيت الأبيض فترتين رئاسيتين: الأولى: منهما استعراض لفتوة الشباب ووعدها المتحفز، والثانية: عرض للضعف الأخلاقى والمعنوى أفقد مركز لقرار مهابته.

لكن تلك كانت نظرة تركز على الواجهة لا تتجاوزها إلى ما وراءها أو إلى ما سبقها، بظن أن الواجهة تكفى للحكم على أى عمل باعتبار أن المرئى يغنى عن المخفى - ولم تكن تلك كل الحقيقة!

....

....

فى ذلك الوقت لم يتنبه كثيرون - على الأقل بالقدر الكافى - إلى أن هناك فكرة «إمبراطورية» «تملكت» الولايات المتحدة، وأن هذه الفكرة «تمكنت» بعد سقوط حائط برلين (١٩٨٩) وما تلاه من تداعى الاتحاد السوفيتى، ثم إن هذه الفكرة طرحت نفسها بإلحاح فى ظروف حرب الخليج الثانية التى هيأت للقوة الأمريكية فرصة تمارس فيها تجريب ترسانتها الإلكترونية المتطورة فى ميدان قتال، ورغم أن الهدف المعلن فى تلك الحرب كان تحرير الكويت (نفط الخليج) - فإن الهدف الثانى بعده بأن درسا تعطيه أمريكا للعالم - بالذخيرة الحية - فى فاعلية البطش لا ينساه أحد!

وكان مغزى هذا الدرس أن يفهم العالم - وليس فقط أن يعرف العراق - أن الولايات المتحدة الأمريكية لديها الإرادة ولديها الوسائل التى تضمن لها ما لا يصح لطرف أن يجاريها فيه، فضلا عن أن يتحداها عليه.

وكما يتأكد الآن فإن تلك الحرب (حرب الخليج الثانية) كانت فى جانب

 من تكساس!

مهم منها رسالة موجهة إلى العالم بأنه زمن تاريخى مختلف - وأنه أمريكى فى الإعلام والخرائط والبوصلات!

وبالفعل فإنه بعد تحرير الكويت راحت إدارة «بوش» الأب تركز على فكرة رئيسية شاغلها: كيف يمكن تحويل «السابقة» التى عاشها الشرق الأوسط أوائل سنة ١٩٩١ - إلى قانون عام يسود ويتحكم فى القرن القادم (الحادى والعشرين).

والقصد أنه إذا كان القرن العشرين هو قرن الصعود الإمبراطورى الأمريكي - فإن القرن الحادى والعشرين عليه أن يكون قرن التعزيز الإمبراطورى الأمريكي، بما يرسى الدعائم في عمق الأرض ويعلى السقف إلى بعد الفضاء، وكان المفروض أن يكون ذلك هو شاغل إدارة «جورج بوش» (الأب) عندما يُعاد انتخابه - كما كان متوقعا - لمدة رئاسة ثانية، وقد بدا لمن يعنيهم أمرها أنها في اليد - شبه مضمونة أو مضمونة بالكامل!

كان اعتمادهم أن رئاسة «بوش» الأولى (١٩٨٨ - ١٩٩٢) قامت بخطوتها الواسعة على طريق التعزيز الإمبراطورى - بمقدرة وكفاءة:

- ضربت ضربتها في المواقع الصحيحة من الناحية الاستراتيجية، عندما وجهتها نحو الشرق الأوسط وهو المساحة المكشوفة بين آسيا وكتلها البشرية الكبيرة (الصين والهند) - وبين أوروبا (ودولها الصناعية القوية)، وبالتالى تحقق الاختراق نافذا حتى النخاع.

- ثم إن هذا النفاذ تمثل فى انتشار عسكرى واسع مد يده - وقدمه! - إلى أغنى منابع البترول (الذى أكد نفسه، رغم شكوك راودت البعض، باعتباره السلعة الأكثر ندرة والأكثر قدرة على الوفاء بمطالب التقدم والرخاء - على الأقل حتى ثلث القرن الجديد).

- ومع أن هذا النفاذ حقق مطلبه بواسطة تحالف دولى واسع - فإن الولايات المتحدة كانت هى التى رصت أطرافه، وتقدمت صفوفه، ونظمت خُطاه، وضربت باسمه، وقد مشى هذا التحالف وراءها مسلما لها بالقيادة - مبهورا بما ظهر من أدوات قوتها سواء بومض النار أو بوهج الأفكار يشيعها إعلام تفوق في استعمال إلكترونيات توجيه وتركيز السلاح، وبنفس الدرجة في نقل ونشر الصور، وكان سابقا فى الحالتين!

- زاد على ذلك أن النفاذ الأمريكى استطاع أن يعثر على ذرائعه القانونية والأخلاقية، لأن تلك الحرب في الخليج سنة ١٩٩١ بدت لكثيرين حرب تحرير لبلد صغير أغار عليه جار أقوى منه، وذلك أثار فزعه ودفعه إلى طلب النجدة من مصادرها، وقد وصلت النجدة بالفعل إلى طالبها قبل أن يوجه طلبه كتابة أو شفاهة - لأن خطا أحمر وقع تجاوزه، وذلك أخطر من حق الجيرة ومن حق القانون معا!

- وعليه كان التقدير - أن «جورج بوش» (الأب) على خلفية حرب تحرير الكويت، سوف يحصل يقينا على رئاسة ثانية تتم فيها عملية التعزيز الإمبراطورى وتأكيد ثلاثة أهداف:

● سيطرة أمريكية مطلقة في العالم، غير قابلة للمناقشة أو التحدى (الآن وفى المستقبل أيضا).

● سيطرة مباشرة على منابع النفط تتحكم في إنتاجه وتقنين استهلاكه (سواء بضبط الحصص أو توجيه جزء من الموارد للبحث عن بدائل، لأن النفط مورد مستنفد وما هو معروف عن مخزونه يغطى نصف هذا القرن بالكاد).

● ونفاذ غائر وراسخ في منطقة هى على الخريطة - قلب العالم ومفترق طرقه البرية والجوية والبحرية ولا تزال (لأن التكنولوجيا مهما حققت لا تستطيع إلغاء الجغرافيا، باعتبارها الجسم الطبيعى لكوكب الأرض مهما قال وقيل).

....

....

لكن غير المتوقع يحدث دائما (باستعارة عنوان قصة مشهورة لأندريه موروا) - وذلك ما جرى حين خسر «جورج بوش» (الأب) معركته الانتخابية وسقط أمام مرشح آخر مجهول من ولاية «أركانساس» أطلق شعارا سحريا لمس فيه نبض الشعب الأمريكي بقوله «إنه الاقتصاد يا غبى» - موجها الخطاب بالطبع إلى الرجل الحالم بتعزيز

إمبراطور من تكساس!

الإمبراطورية الأمريكية دون أن يتنبه إلى أن الاقتصاد الأمريكي متعب مرهق، فقد خرج من الحرب الباردة مستنزفا، بشاهد أن الولايات المتحدة أصبحت أكبر بلد مدين في العالم، كما أن ظاهر رخائه يعود في صلبه إلى أن أموال الآخرين تدفقت عليه بحثا عن ملاذ بعيد - يمكن أن يكون آمنا (وضمن هذه الأموال فوائض البترول).

وقد نجح «كلينتون» - لكن المشروع الإمبراطوري الكبير الذي تجلى لإدارة «جورج بوش» (الأب) ولأقطابها لم يسقط، فلم يكن ذلك المشروع هو المطروح على الناخبين - لأن المشروعات التاريخية الكبرى أوسع من الضرورات اليومية المؤثرة مباشرة على صناديق الاقتراع!

ومن المفارقات أن الخطوط الرئيسية للمشروع الإمبراطوري كتبت «وثيقة» على الورق في شهر مارس سنة ١٩٩٢، أي بعد دخول «كلينتون» إلى البيت الأبيض بخمسة أسابيع، وتحت إشراف وزير الدفاع السابق «ريتشارد تشيني»، وكان القائم على صياغتها معاون مقرب منه هو «زالماي خالد زاده» (وهو الآن مبعوث الرئيس «بوش» (الابن) للإشراف على ترتيب الأوضاع في أفغانستان - وقد انتقل أخيرا إلى مهمة أخرى هي العراق قبل حرب أمريكا ضده وبعدها).

وحتى هذه اللحظة وبعد إحدى عشرة سنة من كتابة تلك الوثيقة، فإن قراءتها (وهي مدرجة في ملفات مجلس الأمن القومي) - يظل مفيدا وكاشفا لكثير جرى من وقتها وحتى الآن.

وتقول الوثيقة في مقدمتها بالنص:

«إن الولايات المتحدة الأمريكية عليها أن تعمل بكل جهدها حتى تتأكد من أن أي قوة منافسة (أو صديقة) في أي مكان في العالم - لن تبلغ مكانة توازي مكانتها في القوة وعواملها.

إن هذه المهمة في مقدور الولايات المتحدة وهي تستطيع أداءها عندما تتصرف باسم القوى الصناعية الكبرى في العالم - بعد إقناع تلك القوى بأن الولايات المتحدة سوف تراعي مصالحها المشروعة وتحميها بقوتها العسكرية الغالبة، وعلى هذا الأساس فإن الولايات المتحدة مطالبة بإيجاد الآليات التي تضمن ردع أية قوة منافسة لها ورد طمعها - أو طموحها - إلى القيام بدور إقليمي أو عالمي أكبر.

وعلى مثل هذه القوى الطامعة - أو الطامحة - إلى أدوار كبيرة ومنها ألمانيا واليابان وروسيا والصين - أن تفهم مبكرا أن أية محاولة من جانبها لدخول مجال الأسلحة النووية أو زيادة ترسانتها على ما هو موجود فيها - سوف تلقى مقاومة شديدة تتولد من الشك في نواياها ودواعيها إلى زيادة قوتها العسكرية، وحينئذ فإن مثل هذه القوى لابد أن تفهم أن ذلك سوف يضعها - سواء قصدت أو لم تقصد - على طريق «صدام» مع الولايات المتحدة، وعليه فإن الولايات المتحدة لابد أن تظهر استعدادها مبكرا لمنع أية درجة من درجات الانتشار لأسلحة الدمار الشامل - لكي يتأكد للجميع تصميمها على اتخاذ الإجراءات الكفيلة بمواجهة مثل هذه الاحتمالات، سواء كان ذلك بطريقة جماعية أو بطريقة منفردة».

....

....

[ومؤدى الموضوع في هذه النقطة أن حدود السلاح لدى أي دولة في العالم اليوم، هي حدود ما هو موجود لديها الآن فعلا، ولا يحق لدولة منها أن تتجاوزه، وهنا يتكشف أن العالم أمام مشكلة على الطريق بعيدا عن العراق ووراءه، وأن هناك مضاعفات واسعة المدى تترتب عليها - ولعل تلك معركة الغد وما يليه].

....

....

وكانت إدارة «بيل كلينتون» بحقائق الأشياء - واعية بأهمية المشروع الإمبراطوري الأمريكي، مطلعة على وثائقه - لكنها كانت عازمة على تحقيقه بمزاجها وليس بمزاج أصحابه الجمهوريين الأصليين، ولدى إدارة «كلينتون» في ذلك سببين:

■ من ناحية لأن تلك الإدارة أعطت الأولوية للاقتصاد (وبلغت في شأنه درجة مقبولة من النجاح).

■ ومن ناحية أخرى لأن إدارة «كلينتون» آثرت أن تتخذ مع بقية العالم أسلوبا أكثر نعومة (يعتمد الحرير بديلا عن الحديد).

....

....

[والحقيقة أن «كلينتون» كان خليطا من متناقضات شديدة، بعضها يشده إلى النجاح وبعضها يقعده مع الفشل:

● فهو من الأول شاب ذكي، موصول إلى درجة كبيرة بروح عصره، وذلك تجلى في برامجه الاجتماعية التي أعطت الولايات المتحدة فرصة لاستيعاب التحولات التكنولوجية الهائلة دون ضغط على أعصاب الناس أو على مستوى معيشتهم أو على فرصهم في العمل.

وهنا فإن إدارته حققت أدنى نسبة بطالة وأعلى نسبة فائض في الميزانية (رغم استمرار التزايد في الدين العام الأمريكي).

● يلي ذلك أن «كلينتون» أدرك أن مشروع أمريكا الإمبراطوري يصعب تنفيذه بتجاهل أوروبا (أو كتل آسيا البشرية الكبرى التي سارعت تلحق بأسباب التقدم)، وكذلك استقرت إدارة «كلينتون» على أفضلية السماح بقيام مجلس إدارة لشئون العالم له رئيس وعضو منتدب يمثل أغلبية أسهم الشركة الدولية، وذلك يعني حضور أوروبا وكتل آسيا الضخمة في المشاورات والإجراءات (وإلى درجة ما في القرارات) - وتظل الكلمة الراجحة لرئيس المجلس والعضو المنتدب، وهذا ترتيب لا يتجاهل حصة الأقلية أو يهملها، وفي حساب إدارة «كلينتون» أن نجاح المشروع الإمبراطوري الأمريكي يلزمه تجنب إثارة الشكوك، وتقليب مواجع أطراف إمبراطورية أوروبية سابقة مازال لها حتى هذه اللحظة تأثير في القارة وعبر البحار.

● وبعدها كانت إدارة «كلينتون» متفقة على أن النداء الذي يستطيع إقناع الكل بقبول دور متميز للولايات المتحدة هو التصدي للإرهاب الذي تتفاقم مخاطره (مع ظهور انقسام طبقي حاد على مستوى الدنيا بين أغنياء وفقراء وبين متقدمين ومتخلفين)، وفي تقدير الإدارة الأمريكية (وقتها) أن الحرب ضد الإرهاب تستطيع المحافظة على تحالف عالمي واسع يستقطب كثيرين - حتى من الفقراء والمتخلفين - ثم إنه تحت مظلة الحلف المعادي للإرهاب يمكن فتح الساحة أوسع كل يوم لقرار أو فعل أمريكي يضيف إلى قدرة الإمبراطورية الجديدة دون أن يستثير حساسية الآخرين، خصوصا وأن كثيرين في مجتمع الدول يسلمون بأن الإرهاب يحتاج إلى يد طولى تقدر على الوصول إلى أي مكان في العالم - أي وقت من الليل أو النهار، وذلك متوافر لأمريكا قبل أية قوة دولية غيرها!]

....

....

في ذلك كله (مما سبق) كانت إدارة «كلينتون» حريصة وواعية، لكن عُقدة تلك الإدارة - أن شخصية رئيسها لها جانبها الرمادي، فهو أثناء صعوده إلى القمة عقد أحلافا كثيرة مع الشياطين - طاردته أشباحها حين كان حاكما لولاية «أركانساس» - ثم لاحقته عندما انتقل إلى البيت الأبيض رئيسا للولايات المتحدة (وبين الأشباح علاقات منافع متبادلة مع أموال مشبوهة ورجال أعمال يقترب إصرارهم على الثراء من حدود الجريمة).

وزاد أن التكوين الإنساني لكلينتون وظروف نشأته الأولى في بيت محطم، مع أم لم تستطع أن تحدد له على نحو قاطع من كان أبوه - عرضته لتناقض في المعايير ما لبث أن طغى على رئاسته وكسح إيجابياتها.

....

....

وفي مدة الرئاسة الثانية لإدارة «كلينتون»، وبينما الرئيس شبه معوق بمحاولات عزله، وشبه مجروح باضطراره للدفاع عن نفسه أمام شعبه وأمام شعوب العالم - يحاول شرح الفارق بين جنس كامل وجنس غير مكتمل (والناس في كل أرجاء الأرض يسمعون ويضربون كفا بكف ولا يصدقون آذانهم!) - بدت واشنطن حاملة طائرات ضخمة جنحت على الصخور!

وعندما بان لمن يشغلهم «الشأن الإمبراطوري» أن إدارة «كلينتون» لا تقدر على المهمة الإمبراطورية، وأكثر من ذلك لا تُؤتَمَن، وبالتالي فإن عليهم مسئولية استعادة الزمام إلى أيديهم. ولأنهم كانوا بعيدين عن الإدارة (هم جمهوريون وهي ديمقراطية) - فقد صرفوا الجزء الأكبر من جهدهم في النصف الثاني من تسعينيات القرن العشرين في البحث والدرس وصياغة المشروعات والدعوة لها - على أمل أن تجيء إدارة جمهورية (تملك

استقرت إدارة «كلينتون» على أفضلية السماح بقيام مجلس إدارة لشئون العالم يمثل أغلبية أسهم الشركة الدولية، وذلك يعني حضور أوروبا وكتل آسيا الضخمة في المشاورات والإجراءات (وإلى درجة ما في القرارات) - وتظل الكلمة الراجحة لرئيس المجلس والعضو المنتدب أي الولايات المتحدة الأمريكية



إمبراطور من تكساس!

فرصة للفوز إذا استطاعت حملتها الانتخابية استغلال عيب الضعف الإنساني الذى شاب إدارة «كلينتون» بنفس القوة التى استغلت به حملة «كلينتون» ذلك الضعف الاقتصادى الذى عاب إدارة «بوش» (الأب)).

وظهرت عدة بؤر تجمع فيها دعاة المشروع الإمبراطورى الأمريكي المؤمنين بقدره المكتوب والمؤهلين للتنظير له، والساعين لتحقيقه كمهمة مقدسة.

وكذلك ظهرت على الساحة الأمريكية وفي مواقع النفوذ (وإن لم يكن في دائرة السلطة) - وفي مراكز التأثير (وإن لم يكن عند موقع القرار) - جماعات معنية بالأمر راحت تسابق بعضها:

كانت البؤرة - الجماعة - الأولى هى الغلاة من دعاة الإمبراطورية - رجال من أمثال «دونالد رامسفيلد» (وزير الدفاع الحالى)، و«ريتشارد بيرل» (مدير التخطيط الاستراتيجي في وزارة الدفاع الذى اضطر لتقديم استقالته قبل شهر بسبب فضائح مالية ثبت فيها استغلاله لمنصبه) - و«بول وولفويتز» (نائب وزير الدفاع الحالى) - وكلهم من أقطاب إدارة «بوش» (الأب) وأركانها ونجومها، وهؤلاء ركزوا على بند إحكام السيطرة السياسية والعسكرية على الشرق الأوسط. والسائد فى اعتقادهم أن «إسرائيل» هى الدعامة الرئيسية لخططهم في تلك المنطقة، لأن الشرق الأوسط فيه دولتين لديهما المؤهلات اللازمة لخدمة مشروعهم:

● الأولى: إسرائيل لأنها دولة تملك الكفاءة (في حين أن الدول العربية المحيطة بها حسب تعبير «رامسفيلد» هى في أحسن الأحوال أراض عقارية مازالت خالية وبعضها خرائب!!) - وذلك التقدير أدى بأصحابه تلقائيا وبالعاطفة والعقل معا - إلى تحالف مع أكثر العناصر تشددا في إسرائيل، أى أن أصحابه أصبحوا جميعا مؤيدين لحزب الليكود، وأنصارا لزعيمه الحالى «أرييل شارون».

(وقد كتب أحد الأقطاب من غلاة هذا التيار وهو «ويليام سافير» (من أبرز كتاب جريدة نيويورك تيمس) - مقالا أورد فيه «أنه لا يستطيع أن ينام الليل مستريحا إلا بعدما يسمع صوت «شارون» على التليفون ثم يغمض عينيه!).

● وأما الدولة الثانية التى يمكن الاعتماد عليها فهى «تركيا»، لأنها بالحجم أقوى دولة في الإقليم، وفى نفس الوقت فإنها ليست عربية، وإنما على الحافة الموازية للعالم العربي، ولأن السلطة فيها للقوات المسلحة بنص الدستور، فإن القرار التركى يجيء أقرب إلى «الانبهار» بالتكنولوجيا حيث تتفوق أمريكا و(إسرائيل) - وأبعد عن «الالتزام» بالتراث الذى يجمع تركيا بالثقافة مع العرب.

ومن وجهة نظر أقطاب هذه البؤرة - الجماعة - فإن «تاج» الشرق الأوسط يمكن تثبيته على رأس الإمبراطورية الأمريكية بعملية تصفية نهائية لمؤثرات عربية قومية قد تعاودها أحلام قديمة لم يعد لها الآن مجال، وتأمين ذلك يقتضى إجراء عملية جراحية واسعة في العالم العربى تغير أفكاره وتوجهاته - وتغير قيمه ومعتقداته، حتى إذا اقتضت الجراحة زرع قلب جديد، يقبل به الجسم العربى - فكرا وفعلا - مهما كانت درجات الحساسية والمقاومة والرفض - وإذا أصر الجسم العربى على العناد، فإن الجَرّاح القائم على زرع القلب مخول بتوقيع شهادة وفاة!



وكانت البؤرة - الجماعة - الثانية من أقطاب صناعة «البترول»، وبينهم «جورج بوش» (الأب)، و«جيمس بيكر» (وزير خارجيته)، و«ريتشارد تشينى» (وزير دفاعه، والآن نائب الرئيس)، وكان إجماع هؤلاء أن «البترول» هو المستقبل المنظور (حتى يجيء اختراق تكنولوجى يوفر بديلا للطاقة بسعر اقتصادى) - وكذلك كان رأيهم أن «المشروع الإمبراطورى» الأمريكى لا يمكن إسناده بغير سيطرة كاملة على موارد البترول.

وكان الإطار الذى التقى فيه أقطاب هذه الجماعة للبحث والدرس هو مكاتب وقاعات المركز الذى أنشأه «جيمس بيكر» في «هيوستون» (عاصمة تكساس) «لاستراتيجيات البترول» - و(«بيكر» لا يزال يديره حتى الآن)، ومن الملاحظ أن كاتبى التقرير الأول لهذا المركز سنة ٢٠٠٠ اختاروا تصديره بمقدمة لها معنى، منقولة عن نص قديم - من سنة ١٩٥٠ - كتبه السفير الأشهر في الدبلوماسية الأمريكية «جورج كينان» يقول فيه بالنص:

«إن الشعب الأمريكى يمثل ٦,٣٪ من سكان العالم، لكنه يستهلك ٦٠٪ من بترول هذا العالم، والمهمة الأولى للاستراتيجية الأمريكية تقتضى المحافظة على هذه النسبة مهما كانت ظالمة للآخرين والعمل على فرضها بكل الوسائل، دون أن تخدع نفسها بأية أوهام عن مبادئ العدل والمساواة حتى لو اضطرت في سبيل ذلك إلى استعمال قوة السلاح، لأن المبادئ تخاطب الضمائر - والحقائق تصنع الحياة!».

وكانت أبرز الحقائق كما يظهر في الخطوط الاستراتيجية المطروحة للبحث في إطار مركز «بيكر» - منطقا شديد التركيز:

- الخيار الأكفأ للولايات المتحدة هو السيطرة على صناعة البترول (بكافة مراحلها).
- والولايات المتحدة لم تعد تستطيع الاعتماد - كما فعلت - على مصدر رئيسى هو البترول السعودى - كما وقع بعد الثورة الإيرانية - ومع أن السعودية تملك أكبر مخزون احتياطى محقق، إلا أن الاعتماد على البترول السعودى (مع المطالب المالية المتزايدة لأصحابه) - يمكن أن تستنزفه بأسرع من أى حساب.
- ومع ملاحظة أن بترول العراق (وبترول بحر قزوين) كلاهما لم يصل استغلاله إلى الحد الأقصى أو قريبا منه، فإن الاستراتيجية الأمريكية تستطيع إنشاء شبكة واحدة واسعة ومأمونة لبترول الشرق الأوسط يصب فيها بترول السعودية وغيرها من دول الخليج، مضافا إليها البترول العراقى، وبترول بحر قزوين (وبترول إيران بعد تصفية نظام الثورة الإسلامية) - فإن المستقبل يمكن ضمانه «أمريكيا» للولايات المتحدة - وأمريكيا فوق بقية العالم.



وكانت البؤرة - الجماعة - الثالثة هى دائرة مجلس السياسة الخارجية في نيويورك وهو هيئة تساندها أكبر المصالح المالية والتجارية والإعلامية في الولايات المتحدة (من عائلة «روكفللر» - إلى بنك الاحتياطى الأمريكي - إلى بورصة الأوراق المالية في نيويورك - إلى باحثين من مستوى «هنرى كيسنجر» و«زبجنيو برجينسكى» وحتى «كونداليزا رايس» (مستشارة «بوش» (الابن) للأمن القومى).

وكانت هذه البؤرة تولى اهتماما خاصا بالاتحاد السوفيتى (وروسيا بعده) وبالصين، وبأوروبا ودولها الرئيسية مثل فرنسا وألمانيا، إلى جانب حزام الزيتون على شاطئ البحر الأبيض جنوب أوروبا (إيطاليا - أسبانيا - اليونان).

وبرغم علاقات القرب بين أوروبا وأمريكا، فإن مجلس السياسة الخارجية تولد لديه «هاجس» «أن أوروبا هى القوة التى تستطيع أن تبدأ بتحدى التفرد الأمريكى بالنفوذ في العالم».

والدواعى كثيرة:

- بينها أن أوروبا لها مصالح حيوية في الشرق الأوسط - حيث تريد الولايات المتحدة أن تنفرد بالسيطرة.
- وأوروبا تعتمد على بترول الشرق الأوسط في أكثر من ٨٥٪ من استهلاكها، ومن الصعب عليها القبول باحتكار أمريكى يمسك به ويحكم القبضة عليه.
- وأوروبا بلدان قريبة عهد بالمجد الإمبراطورى - لم تنس مكانة سابقة عاشتها ثم تخلت عنها الحظوظ فأضاعتها، ومع أنها اعترفت للولايات المتحدة بحق القيادة فإنها غير مستعدة بعد للاعتراف لها بحق التفرد.
- وأوروبا يسودها اعتقاد بأنها راكمت من الحكمة مخزونا يزيد في تأثيره عما راكمته أمريكا من قوة السلاح.

ويظهر أن فريقا من الإدارة الجديدة فى واشنطن أراح نفسه بمختصر - غير مفيد - عبر عنه «رامسفيلد» بقوله: «إن أوروبا قارة عجوز أرهقها الزمن (الذى تسمى عمرها فيه حكمة)، وأقعدها التردد (الذى تسمى استسلامها لضوابطه فكرا)، وعليه فإن الولايات المتحدة يحق لها أن تتصرف وتترك أوروبا تمارس الحكمة والفكر - كما يحلو لها!

«الشعب الأمريكى يمثل ٦,٣٪ من سكان العالم، لكنه يستهلك ٦٠٪ من بترول هذا العالم، والمهمة الأولى للاستراتيجية الأمريكية تقتضى المحافظة على هذه النسبة مهما كانت ظالمة للآخرين والعمل على فرضها بكل الوسائل، دون أن تخدع نفسها بأية أوهام عن مبادئ العدل والمساواة



وكان حساب هذا الفريق فى الإدارة الجديدة أن دول أوروبا الكبيرة أصبحت مثل غيرها في ملجأ الشيخوخة يهمها أن تقضى بقية عمرها في أمان مدخراتها - ومن أجل تأمين هذه المدخرات فهى على استعداد للاستثمار في أى مشروع رابح، وعندما تصبح الإمبراطورية الأمريكية كذلك - فإن أوروبا مهما كانت دواعى حذرها وأسباب شكها - سوف تهرع للاستثمار فيها على عجل حتى لا تتعرض مدخراتها للتآكل.

وإذن فعلى الإمبراطورية الأمريكية أن تتمسك بمشروعها الأكبر، وتترك أوروبا مع «حساباتها الصغيرة» (حكمة وفكرا)!



كانت هذه البؤر الثلاث - (جماعات المشروع الإمبراطورى - وصناعة البترول - وأصحاب الفكر والتنظير للاستراتيجيات والسياسات) - وربما بؤر وجماعات أخرى تدرس وتستعد لعصر ما بعد «كلينتون» حتى يستأنف «المشروع الإمبراطورى» مسيرته أشد حزما وأسرع اندفاعا في ظل إدارة ترعاه - جمهورية وليست ديمقراطية بالتأكيد!

وكانت وساوس أصحاب المشروع الإمبراطورى أن «إنجاز» إدارة «كلينتون» في مجال الاقتصاد، ربما يستطيع مساعدة نائبه «آل جور» في انتخابات الرئاسة سنة ٢٠٠٠ - كما أن «آل جور» وجه معروف باعتباره النائب الحالى للرئيس، وأى نشاط له خبر، وهو يجاهد ليحتفظ لنفسه بمسافة بُعْد مناسب عن فضائح رئيسه.

وفي الاستعداد لملاقاة الحزب الديمقراطى و«آل جور» على مقدمة الصورة فعلا - ظهر في الحزب الجمهورى رجال رشحوا أنفسهم، لكنهم لم يصمدوا للتجربة:

● فكر «ريتشارد تشينى» (نائب الرئيس الحالى) في ترشيح نفسه اعتمادا على شخصيته المليئة بالحيوية وقت أن كان وزيرا للدفاع «جورج بوش» (الأب) أثناء حرب الخليج - لكن «تشينى» تردد لأسباب عديدة فيها السبب الصحى (علل القلب) وفيها - وهو الأهم - أنه لا يريد تعريض نفسه وأسرته لعملية «العرى المالى والإنسانى والشخصى» التى يتعرض لها أى مرشح للرئاسة وإذا حياته «ميدان رماية» مفتوح (كذلك تعبيره) لأية قناة تليفزيونية أو إذاعية أو أى صحيفة أو مجلة أو أى مخبر أو «كاتب عمود»!

● وفكر «دونالد رامسفيلد» (وزير الدفاع الحالى) أن يرشح نفسه ثم تراجع لنفس الأسباب تقريبا.

● وفكر بعضهم في ترشيح «كولين باول» الذى اكتسب سمعة رجل متزن، صاحب تجربة نضجت فى ميادين القتال (فيتنام)، والسياسة (مساعدا لكيسنجر في البيت الأبيض)، والاستراتيجية (رئيسا لهيئة أركان الحرب المشتركة) - لكن «كولين باول» بعد أن وافق من ناحية المبدأ عاد وتراجع عن التنفيذ بضغط شكوك ألحت عليه:

- بينها تخوفه أن يكون ترشيحه (وهو ملون) مناسبة لإذكاء قضية التفرقة العنصرية، بحيث يجد نفسه إذا فاز أمام معضلة التعامل مع مؤسسة بيضاء، وإذا سقط وسط غضب الملونين قد يتحول إلى فتنة ساخنة.

- وبينها تحسبه لعبء جمع التبرعات اللازمة لإدارة حملته الانتخابية، فالتكاليف باهظة (ثلاثة بلايين دولار) - وجمع التبرعات يحول المرشح رهينة للمتبرعين (بحقهم في استرداد ما دفعوه)، وهو يخشى أن لا تتمكن حملته (بسبب لونه) من أن تجمع ما هو كاف للصرف عليها، وتشهر إفلاسها قبل أن يحل يوم الاقتراع.

- وأخيرا ضغط مارسته عليه زوجته («آلما») التى رفضت الفكرة أصلا، لأنها تخاف عليه من متطرف أبيض - يكرر معه ما حدث للزعيم الزنجى «مارتن لوثر كنج»، و«آلما» فى النهاية تريد زوجها معها حيا في البيت ولا تريده شهيدا بعيدا عنها في القبر!

وساعد على تردد «كولين باول» إحساسه بأن «جماعات الإمبراطورية» تقبل به على مضض، لأنه - في رأيهم - طبعة (أمريكية غامقة) من شخصية «هاملت» في مسرح شكسبير - رجل مُعَذَّب بالحيرة، تتجاذبه الهواجس وتستغرقه التصورات، وكعادة هذا النوع من الشخصيات فإن ترددهم في الفعل يستهلك استعدادهم للقيادة، وهى في النهاية حسم بين البدائل وقرار!

وكذلك فإن «كولين باول» أعفى نفسه - وأعفى غيره - من ترشيح نفسه، وأعلن رسميا أنه خارج السباق الانتخابى!

ثانيا:

«دوبيا» يولد من جديد أمام المرآة!

وعلى خلفية هذه الساحة المزدحمة، تمكنت النخبة الإمبراطورية داخل الحزب الجمهورى وحوله - من وضع مسودة أولى شبه كاملة للمشروع الإمبراطورى ومعها تحديد إطار لتوجهاته وحركته.

● كان واضع المسودة الأولى - فريق عمل محدود ومتحمس يضم (طبقا لتحقيق قام عليه «روبرت نوفاك» - أحد أشهر وأكفأ الصحفيين الأمريكيين) - كلا من:

«ريتشارد تشينى» (نائب الرئيس الآن) - و«دونالد رامسفيلد» (وزير الدفاع الآن) - و«ريتشارد بيرل» (مدير الخطط الاستراتيجى لمجلس الدفاع القومى الآن) - و«بول وولفويتز» (نائب وزير الدفاع الآن) - و«دوج فايث» (وكيل وزارة الدفاع الآن) - و«جيمس وولسلى» (رئيس المخابرات المركزية سابقا) - و«ريتشارد أرميتاج» (نائب وزير الخارجية الآن) - و«فرانك كارلوتشى» (وزير الدفاع سابقا).

وقد تولت السكرتارية العامة لفريق العمل السيدة «كونداليزا رايس» (مستشارة الرئيس للأمن القومى الآن).

● وكان إعداد هذه المسودة الأولى (وفق تحقيق «نوفاك» وآخرين غيره) - قد انتقل ابتداء من صيف سنة ١٩٩٧ - أى مع اقتراب (موسم الحملات الانتخابية) من مركز «جيمس بيكر» لدراسات البترول فى هيوستون (عاصمة تكساس) إلى البيت الصيفى للرئيس «جورج بوش» (الأب) «كينيبكبورت» على شاطئ ولاية «ماين».

والداعى أن الرئيس «جورج بوش» (الأب) أصبح الراعى والحامى لهذه الجماعات - بداعى جملة من الملابسات:

- فهو نائب الرئيس «ريجان» الذى كسر إمبراطورية الشر السوفيتى.

- وهو الرئيس الذى خلف «ريجان» - ثم بدأ في عهده وضع إطار الحلم الإمبراطورى الأمريكى وتوفير أدوات تحقيقه.

- وهو الرئيس الذى قاد الخطوة الافتتاحية الرئيسية في المشروع ببناء تحالف حرب الخليج الثانية لتحرير الكويت.

- وهو أيضا السياسى الذى يملك خبرة متشعبة، فقد شغل «بوش» (الأب) عدة مناصب عُليا: مديرا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وسفيرا للولايات المتحدة فى الصين، وبعدها نائبا لرئيس الولايات المتحدة، ثم إنه بالمولد والأصل من أسرة بنت ثروتها وراكمتها من صناعة البترول، وبالتالى فإن خبرته وافية ومعرفته مباشرة واصلة إلى النواحى التى يمكن أن يتحرك فيها المشروع الإمبراطورى.

- علاوة على ذلك فإن «جورج بوش» (الأب) هو الذى أنشأ في البيت الأبيض مجموعة إدارة الانتشار الإمبراطورى بعد حرب الخليج الثانية، وكان أمله أن يستكمل المشروع في رئاسته الثانية، ثم إنه مثل غيره من أركان إدارته خرج من منصبه الرئاسى، ولم يخرج من مشروعه الإمبراطورى، وهو يستطيع أن يواصل خدمة المشروع - بالرعاية والحماية - ولديه فوق الأسباب العامة - دوافعه الشخصية:

- فهو في أعماق قلبه يحس بجرح، لأن مرشحا شابا مجهولا من أركانساس - «بيل كلينتون» - هزمه في الانتخابات، رغم أنه («جورج بوش» (الأب) - الرجل الذي قاد أمريكا إلى النصر في عاصفة الصحراء.

- وهو في جزء من جهازه العصبي يشعر بحافز يلح عليه في ضرورة استئناف دوره (على نحو أو آخر) - لأن المشروع الإمبراطوري مازال يطغى على عقله وقلبه (رغم اعتزاله السياسة في أعقاب فشله الانتخابي المدوي).

- ثم إن كل الذين شاركوه في المشروع الإمبراطوري - يدفعونه إلى درجة التحريض، بحجة أن عليه مسئولية تاريخية لا يملك أن يتخلى عنها ويتركها (خصوصا لهذا المتورط في الخطيئة، الجالس بدلا منه - دون استحقاق - في البيت الأبيض - «بيل كلينتون»!).

- وأخيرا فإن «جورج بوش» رجل غني - راكمت أسرته ثروة طائلة من صناعة البترول في تكساس، وقد عززت الأسرة هذه الثروة بعلاقات في العالم العربي - توثقت أواصرها واتسعت تعاملاتها بعد حرب الخليج الثانية، وهذا الغنى وما يحيط به يساعده ويكاد يدفعه دفعا إلى أداء دور الراعي والحامي لمشروع الإمبراطورية.



وقضى «فريق العمل» سنة كاملة في بيت «جورج بوش» (الأب) يجدد خطة المشروع، ومرة ثانية تم تجهيز تقرير نهائي وقعه - أيضا! - «ريتشارد تشيني» (نائب الرئيس الآن)، وهو في الحقيقة خلاصة جهد مشترك لكثيرين، وكانت الخطوط الرئيسية محددة - وأحيانا بالتفصيل:

١ - الحزب الجمهوري لابد له أن «يمسك» من جديد (Recapture) موقع رئاسة الولايات المتحدة مرة أخرى، لأنه الحزب المهيأ لمهام الزمن القادم، وفي نفس الوقت صاحب الرؤية الأوضح لمهام ذلك الزمن القادم.

٢ - الرئاسة القادمة عليها أن تدرك بعمق أن الولايات المتحدة الآن في وضع فريد لم يتح لأي قوة غيرها في التاريخ، فلديها الآن شبه تفرد بالنفوذ، لأن انهيار الاتحاد السوفيتي واختفاؤه جعلها قادرة على «نشر قيمها» وترسيخ مسئوليتها عن «حماية هذه القيم»!

٣ - الولايات المتحدة على عهد «ريجان» و«بوش» (الأب) تمكنت من الإمساك باللحظة التاريخية واستغلت الإمكانيات المادية والمعنوية للحفاظ على تلك اللحظة، وذلك ما ينبغي استئنافه مع الرئاسة القادمة والتمسك به وعدم التفريط فيه.

٤ - الإدارة الجمهورية القادمة عليها أن تمارس دورها في الدفاع عن المصالح الأمريكية والتمكين لها بغير «قيود» لا تستوجبها «ضرورات حقيقية»، بل إن الإدارة الأمريكية القادمة يحق لها «وحدها» توصيف المصالح الأمريكية دون اعتبار لغيرها، وهي مطالبة بالعمل على مسئوليتها سواء من داخل الأمم المتحدة أو من خارجها.

٥ - الولايات المتحدة في ممارستها لمسئوليتها الحالية يصح لها أن تتشاور مع غيرها من الأطراف الدوليين، على أن تحتفظ لنفسها بحق التصرف منفردة إذا وجدت ذلك ضروريا.

٦ - التصدي لخطر الإرهاب (حتى بميراث إدارة «كلينتون» الحالية) - هو النداء الذي يمكن حشد القوى الكبرى عليه (والصغرى أيضا)، وهذا النداء مازال قادرا على تحقيق حشد عالمي، لأن الكل معرض لخطر الإرهاب. والولايات المتحدة قبل غيرها مكلفة بالقيادة في مجاله لأنها الأكثر تعرضا لضرباته، وذلك يوفر لها - إلى جانب حق الدفاع المشروع - داعيا أخلاقيا يضيف إلى مشروعية دورها القيادي.

(كان «جورج بوش» (الأب) على عهد خدمته كنائب للرئيس «ريجان» مسئولا عن قضية الإرهاب ومكافحته، وكان مسئولا عن لجنة عليا شكلها «رونالد ريجان» لمتابعة وملاحقة ومواجهة «خطر العصر» كما كان يسميه!).



والآن صيف سنة ١٩٩٨ - بدا أن الخطوط والتفاصيل تحددت مواقعها على الصورة الشاملة للمشروع الإمبراطوري، غير تفصيل واحد مازال معلقا - رغم أنه بالغ الأهمية: شخصية الإمبراطور (القيصر)!

وهنا ظهر «جورج بوش» (الابن) - ولم يكن ظهوره تلقائيا، ولا سهلا، مع أن الأمر تداعى إليه خطوة بعد خطوة دون تصميم سابق يُفصِّل دور «الفاتح» على مقاسه:

- في البداية كان هناك واقع أن «استعادة الجمهوريين للبيت الأبيض» من جديد، جهدا يجري في إطار عائلة «بوش» أكثر مما يجري في المقر الرسمي للحزب الجمهوري، والمبرر أن الحزب أثناء رئاسة «كلينتون» الأولى فقد معنوياته من ناحية، بسبب سقوط مرشحه «بوش» (الأب) - ومن ناحية أخرى ضيع نفوذه بسبب ارتفاع شعبية «كلينتون» الذي تقدم بنجاح يعالج مشكلة الاقتصاد.

- تلى ذلك أن «بوش» (الأب) ظل يستشعر مسئوليته أمام معاونين زينوا أمامه مشروع «تكريس الإمبراطورية» باعتباره رسالته المقدسة بعد أن أتم «رونالد ريجان» رسالة مقدسة سبقت وهي هدم إمبراطورية الشر السوفيتية، وقام بنفسه مدة رئاسته الأولى بوضع الأسس والقواعد لحجر الأساس، لكن الناخب الأمريكي انخدع في «كلينتون» وأرسل «بوش» إلى المنفى بقسوة لم يكن لها تبرير! ثم إن هؤلاء المعاونين ظلوا قريبين منه يبحثون معه عن وسيلة للعودة بكل طريق إلى المفاتيح الذهبية للقرار (البيت الأبيض)، وقد ضاعت منهم عندما تركها «بوش» على مكتبه وخرج من البيت الأبيض (على عكازين!).

- وبطبيعة الأمر فإن «عائلة بوش» وصناديقها المالية المختلفة قامت على تمويل الجماعات الإمبراطورية التي خرجت مع (الأب) من البيت الأبيض وأعانت تفكيرها وتدبيرها. ومع أن أفراد هذه الجماعات كانوا في مواقع متميزة ماليا (مثل «ريتشارد تشيني» الذي يدير واحدة من أهم الشركات في مجال خدمات البترول، وهي شركة «هاليبورتن»)، كما أن كثيرين منهم كانوا ومازالوا يعملون في إطار بيروقراطية واشنطن الدائمة ونخبها المتميزة - إلا أن مظلة رعاية واحدة مطلوبة حتى تغطي الجميع، وكانت عائلة «بوش» مؤهلة لتقديم هذه المظلة الواحدة.

- وفي إطار هذه الأجواء - مضافا إليها مؤثرات السقوط الأخلاقي الذي انزلق إليه «بيل كلينتون» وانكشف أمره خلال مدة رئاسته الثانية - فإن بعض المتعصبين من دعاة الإمبراطورية راحوا يبحثون عما إذا كان هناك سبب دستوري يحول دون ترشيح «جورج بوش» (الأب) نفسه للرئاسة من جديد - بشعور أن رجلهم لم يقض غير مدة رئاسة واحدة في البيت الأبيض، ثم قطعتها مدتان لكلينتون - وربما أن إمكانية عودة «بوش» (الأب) مطلوبة (إذا كانت ممكنة) لاسترجاع الفضيلة (وهي في ضمائرهم عودة مُلحَّة للمشروع الإمبراطوري) - لكن البحث في ترشيح (الأب) توقف بسبب غيبة السوابق حتى وإن غابت موانع الدستور، وبعد عناء بان أن استعادة الماضي محاولة يأس (ليس لديه غير تكرار نفسه) أكثر مما هي استحضار أمل (لديه رؤية على أفق جديد).

- ولم يخطر ببال أحد قبل ذلك الوقت أن «جورج بوش» (الابن) يصلح مرشحا، لأن أوجه القصور في شخصيته وثقافته وجاذبية حضوره تستبعده من أول نظرة. ومن المفارقات أن «الأم» (بربارة بوش) كانت أول من يسلم بعدم صلاحية ابنها لدور «قيصر»، بل إن ابنها ذاته («جورج بوش» (الابن) - الرئيس الحالي للولايات المتحدة) اعترف عندما روى قصة حياته (ونشرتها صحف العالم الكبرى وضمنها الصنداي تيمس) وقدم بنفسه جانبا من الأسباب التي جعلت الآخرين يتشككون في صلاحيته لأي مسئولية على مستوى رفيع، وظل في عرفهم «دوبيا» وليس «جورج».

....

....

[وكانت والدته هي أول من أطلق عليه هذا الوصف، مستندة إلى الاسم الثاني له وهو «ويليام» (وحرفه الأول W)، وذلك لتمييزه عن والده «جورج» الذي اختار لابنه الأكبر نفس اسمه. وكان الحرف الأول من الاسم الثاني للابن وهو (W) الذي جرى تدليله بـ«دوبيا») هو الذي شاع في الإشارة إليه وليس «جورج» حتى لا تلتبس الإشارات].

لم يخطر ببال أحد أن «جورج بوش» (الابن) يصلح مرشحا، لأن أوجه القصور في شخصيته وثقافته وجاذبية حضوره تستبعده من أول نظرة. ومن المفارقات أن «الأم» (بربارة بوش) كانت أول من يسلم بعدم صلاحية ابنها لدور «قيصر»



إمبراطور من تكساس!

....

....

وكان «بوش» (الابن) هو الذى «أمعن» فى الاعتراف بقصوره، قاصدا أن يكون الاعتراف كاملا (حتى يتحقق الغفران)، فقد روى «أنه ظل حتى تجاوز الخامسة والثلاثين من عمره شابا لاهيا - عابثا - كسولا - عازفا عن العلم، خصوصا بعد أن حصل بالكاد على شهادة من جامعة «تكساس» ألحق بها إجازة من جامعة «ييل» (يكاد يلمح إلى أن نفوذ أسرته أتاحها له بأكثر من جَدِه فى طلب العلم!).

واعترف «بوش» (الابن) بعدها بأن ثروة العائلة وحياته بين «تكساس» (حيث مصالح الأسرة) - وبين واشنطن (التى قصد إليها ولده بحثا عن فرص سياسية تحققت له) - أخذت منه الاستقرار العائلى وتركت له فراغا عاش فيه حياة غير مسئولة وصلت به إلى حد الإدمان الشديد على شرب الخمر نهارا وليلا، وكان ذلك يضايق زوجته «لورا»، ويسبب لها حرجا شديدا داخل بيت الزوجية وخارجه، فلم يكن يمر أسبوع إلا ودورية بوليس تستوقفه وتسحب رخصة قيادته، لأنه يقود سيارته مسرعا ومخمورا.

ووصل الحال ببعض النوادى فى تكساس إلى حد منعه من دخولها، لأنه كل مرة يدخلها يثير «خناقة» لا داعى لها، أشهرها أنه قام فى إحدى المرات بتوجيه لكمات متوالية لزوج الصحفية الشهيرة «جودى وودروف» وهى من نجوم وكالة (C.N.N) وزوجها نفسه مسئول كبير فى إحدى المؤسسات الصحفية الكبرى فى تكساس) وكان دافع «دوبيا» إلى التهور أن إحدى صحف تلك المؤسسة أساءت إلى عائلته بسلسلة تحقيقات عن مصادر ثروتها!

وأخيرا وصل «جورج بوش» (الابن) فى اعترافاته إلى وقائع ذلك اليوم الذى وُلد فيه من جديد - متحولا من شاب لاه، عابث، سكير - إلى مؤمن شديد الإيمان بعقيدته، وتقي شديد الولاء لكنيسته، ونادم على الذنب مستعصم بالتوبة، وهنا يصف «جورج بوش» لحظة ولادته من جديد فيقول:

«ليلتها شربت كما لم أشرب من قبل، وفقدت وعيى، وحملونى إلى غرفة نومى لا أشعر بشىء حتى ظهر اليوم التالى، واستيقظت على صداع مروع، وذهبت إلى الحمام مترنحا لا أقوى على المشى، ورأيت صورتى فى المرآة وأحسست بما يشبه نزول صاعقة.

اكتشفت أمام المرآة أنهم عندما حملونى إلى غرفة نومى - ارتميت على سريرى بملابسى التى كنت أرتديها، وكانت شديدة القذارة لأننى كما أدركت - أفرغت كل ما فى جوفى على سريرى وعلى ملابسى قبل أن تخمد حواسى وتغيب.

وتحسست وجهى بيدى أمام المرآة، وإذا يدى متسخة ببقايا القىء التى لطخت وجهى وجفت أثناء نومى، وأصابنى منظرها فى المرآة أمامى بقشعريرة هزت كيانى، وأعدت النظر إلى صورتى، ووجدتنى أسأل المرآة قائلا: «دوبيا.. دوبيا ماذا فعلت بنفسك؟!»، ورُحت أصرخ أمام المرآة أعاهد الله ونفسى أن ذلك «لن يتكرر بعد الآن!»، ولم تصدقنى «لورا» (زوجته) بادئ الأمر، وظنته تأثير «لحظة» المرآة، وأننى بعد أيام عائد إلى ما أدمنت عليه، كذلك أيضا قالت والدتى، لكنى أثبت للجميع أنها توبة بلا عودة، وولادة جديدة لنفسى ولأسرتى ولروح السيد المسيح فى قلبى!».

ومن وقتها حاول «دوبيا» أن يتخذ طريق الجد - وبداية تجربة حظوظه (مولودا من جديد) - فى ترشيح نفسه حاكما لولاية تكساس، لأنها المحيط المباشر لنفوذ الأسرة، وكانت مفاجأة الجميع أنه فاز.



وأغلب الظن أنه عندما بانت علامات الهداية وبُشرى الولادة من البداية - فإن كثيرين لم يأخذوا «دوبيا» (جورج بوش الابن) فى حسابهم وهم يبحثون عن «قيصر»! - لكنه مع مرور الوقت بدأ بعض أصحاب المشروع الإمبراطورى يسألون أنفسهم: «لم لا»؟

كان الصف الأول من المرشحين الذين تخطر أسماؤهم على البال طبيعيا مازالوا بين إقدام وإحجام، كلهم راودهم الاحتمال وكلهم قرر العدول: «تشينى» - «رامسفيلد» - «كولين باول» - حتى «جيمس بيكر» (مع اختلاف أسباب كل واحد منهم فى الإقدام والإحجام).

وعلى الجانب المقابل فإن الحزب الجمهورى الذى تشرد فى التيه ثمان سنوات، لم يكن فى حال تسمح له أن يطرح من صفوفه مرشحا يملك فرصة نجاح مؤكد أمام ديمقراطى هو الآن بالفعل نائب للرئيس (آل جور).

وكان الأقطاب المشهود لهم داخل الحزب الجمهورى قد تساقطوا واحدا بعد الآخر، بما فيهم الرجال الذين لمعت أسماؤهم فى الحملة على «كلينتون»، وفيهم زعيم الأغلبية الجمهورية فى مجلس النواب «نيوت جنجريتش»، وفيهم كذلك الرجل الذى تولى إدارة معركة إدانة «كلينتون» فى مجلس الشيوخ وهو السناتور «فرانك لوت» زعيم الأغلبية الجمهورية، فكلاهما طاردته ظروفه - وطردته:

أولهم وهو زعيم الأغلبية فى مجلس النواب الذى رفع لواء الأخلاق - تكشف أن له عشيقة (وفيما بعد طلق زوجته وارتبط بعشيقته واعتزل السياسة).

والثانى كانت له مشاكل عالقة فى ولاية مسيسيبى (وهو بسببها لا يريد أن يضع نفسه تحت الأضواء الباهرة للحملات الانتخابية الصاخبة).

إلى جانب أن أشهر أقطاب الحزب وهو السناتور «روبرت دول» أنهك قواه فى محاولات فاشلة لترشيح نفسه، حتى أصبح اسمه خامدا بلا إشعاع، ومن هذا الإحساس - حتى لديه هو نفسه - فإنه حاول الدعوة لزوجته «إليزابيث» مرشحة للرئاسة عن الحزب الجمهورى بدلا منه (ولم يكن ترشيحها مقنعا لأحد).

ولم تكن «صحة» الحزب الجمهورى فى كل الأحوال مما يهم جماعة الإمبراطورية المحيطة بعائلة «بوش» - ولعلها استفادت من هذه الغيبوبة الحزبية، خشية بروز مرشح يتقدم الصفوف ومهيأ للفوز، ولعل هذه الغيبوبة للحزب كانت ملائمة أكثر لمطالب الجماعة، فالمطلوب من منظورهم ليس مجرد مرشح جمهورى يعود بالحزب إلى البيت الأبيض، وإنما مرشح جمهورى يمشى معهم إلى آخر الشوط!

وكذلك تغير السؤال عن «دوبيا» بـ «لم لا؟»، وحل محله سؤال بـ «هل يستطيع؟»، وكانت هناك اعتبارات تزكى ردا على هذا السؤال الأخير بالإيجاب:

- «دوبيا» لم يعد لديه ما يخفيه عن ماضيه (وذلك هاجس كل مرشح، لكن «دوبيا» سبق واعترف بكل شىء!).
- «دوبيا» فى سن الشباب ويستطيع أن يتحمل عناء حملة انتخابية.
- «دوبيا» لديه فرصة لاستثارة عطف الناخب الأمريكى الذى حرم والده من رئاسة ثانية (متاحة له بالدستور وكان يستحقها لولا معركة «إنه الاقتصاد يا غبى»، ولعل الناخب الأمريكى شعر بعد فضائح «كلينتون» أنه أساء الاختيار، وعليه واجب اعتذار يستطيع تقديمه للابن مادام لا يستطيع تقديمه للأب.
- «دوبيا» وراءه أسرة ومصالح تستطيع أن تمول حملة انتخابية سوف تكون بالتأكيد «صعود جبل» لأنها ضد منافس فى موقع «نائب الرئيس»، وهو من هناك يملك ميزة أن أى كلمة يقولها تلفت الأنظار وتستوقف الاهتمام وتضع اسمه فى العناوين الرئيسية للصحف وملء شاشات التليفزيون!

وأهم من ذلك كله:

- «دوبيا» سوف يكون - إذا نجح - رئيسا «لينا» يترك الفرصة لمستشاريه وهم حملة مشروع رئاسته، ويسمع منهم وهو ليس غريبا عنهم، لأن معظمهم عرفه أيام رئاسة أبيه، وتابع عن قُرب حكاياته الكثيرة وآخرها حكاية الولادة من جديد، وهذه أمور لها توابع أولها أن كل مساعد أو مستشار للأب، يقدر أن يكون معلما للابن ومرشدا، وفى مطلق الأحوال صوتا مسموعا، وتأثيرا له وزن عند موقع القرار الأكبر فى السياسة الأمريكية (المكتب البيضاوى).

ومع التكرار والحيرة، فإن السؤال بـ «لم لا؟» - ثم السؤال بـ «هل يستطيع؟» وجدا جوابا. السؤال الأول وجد جوابا يقول: دعونا نجرب. والسؤال الثانى وجد جوابا يرى أن «دوبيا» ربما كان أنسب الحلول، وكذلك جرى.

وكان وصول «جورج بوش» بالفعل إلى البيت الأبيض معركة انتخابية شاقة

يروى «بوش» (الابن) أنه ظل حتى تجاوز الخامسة والثلاثين من عمره شابا لاهيا - عابثا - كسولا - عازفا عن العلم، خصوصا بعد أن حصل بالكاد على شهادة من جامعة «تكساس» ألحق بها إجازة من جامعة «ييل» (يكاد يلمح إلى أن نفوذ أسرته أتاحها له بأكثر من جدِه فى طلب العلم!)



وعنيفة، وأسوأ من ذلك مشوبة في شرعيتها إلى درجة غير مسبوقة - تقريبا! - في التاريخ الأمريكي.

كان واضحا أن المنافسة بين «جورج بوش» (الابن) - و«آل جور» (نائب الرئيس) - مباراة بين الأقل سوءا وليس بين الأكثر قبولا، فكلا المرشحين مثقل بالحمولات من كل نوع، بعضها موروث («بوش» بمسحة الفشل الذي لحق والده، وبشعار «إنه الاقتصاد يا غبي» - و«جور» بلطخة ما فعله رئيسه في المكتب البيضاوي وبعوالق ماض لوالده عاد يذكر نفسه). ثم إن بعض الحمولات مكتسب، («بوش» بالشك في صلاحية شهادة ميلاده الجديد، وبحضور باهت لا يشد بصرا أو سمعا - و«آل جور» بمحاولة يائسة بذلها في اللحظة الأخيرة بقصد توسيع المسافة بينه وبين رئيسه، قد حرمته هذه المحاولة من استغلال إنجازات رئاسة «كلينتون» الأولى - إلى جانب أن «آل جور» في حد ذاته ظهر أمام الناس دائما وكأنه لوح من الخشب، وعندما نصحه الخبراء بأن يلين ويتحرك، فإن قصارى ما توصل إليه بدا صناعيا متكلفا مدهونا بزيت ملون لم يجف سائله بعدا).

وكان تقدير الجميع أن نتيجة المعركة الانتخابية سوف تجيء متقاربة - كذلك تقول استطلاعات الرأي العام - وتؤكد الشواهد.

والآن يعرف كل الناس أنه بحساب الأرقام في ولاية فلوريدا - وهي آخر ولاية تم فرز صناديقها - أن عدد الأصوات الحقيقي كان يعطي الرئاسة لـ «آل جور»، لكن المجمع الانتخابي أعطى الرئاسة لـ «بوش» بسبب غياب عدة صناديق انتخابية تخلفت عن الفرز، لأن حاكم ولاية كاليفورنيا (وهو جيب «بوش» شقيق «دوبيا») تصرف بطريقة غريبة، فقد رتب لوضع خمسة صناديق بما فيها من تذاكر على سيارة شحن تنقلها إلى مركز الفرز، ثم قيل إن السيارة «تاهت» في الطريق (ستين كيلومترا) - لمدة خمسة أيام، ثم نشأ نزاع وصل إلى المحكمة العليا، مع مصادفة أن معظم قضاتها من تعيين رؤساء جمهوريين (خمسة من أصل تسعة) - وعندها أعلن فوز «دوبيا» (جورج بوش الابن).

وكان «جيمس بيكر» (أقرب الأصدقاء إلى الأب ووزير خارجيته السابق ومدير حملته الانتخابية) موجودا بنفسه طول الوقت في مراكز الفرز وفي قاعات المحاكم، يقود المواجهة القانونية لإثبات صحة الأصوات المؤيدة للمرشح الجمهوري، وكان «ريتشارد تشيني» الذي وقع الاختيار عليه مرشحا لمنصب نائب الرئيس - يدير من داخل بيت «بوش الأب» معركة التعجل في إعلان فوز المرشح الجمهوري (دوبيا) - مهما كانت الإجراءات، والمخالفات، والطعون، وموجبات الخلل في شرعية عدد الأصوات، وفي الواقع العملي فإن تلك لم تكن مجرد معركة انتخابية، وإنما - في تقدير مديريها ومسئوليها - معركة مشروع إمبراطوري يحتاج إلى إدارة في البيت الأبيض تؤمن به وتقوم على تنفيذه، وهنا يمكن فهم أول تصريح أدلى به «ريتشارد تشيني» بعد صدور حكم من المحكمة العليا، فقد قال: «لست مستعدا للبحث في التفاصيل، لقد فازت التذكرة الانتخابية («دوبيا» رئيسا - و«تشيني» نائب الرئيس) وهذه بالضبط هي التذكرة التي تحتاج إليها أمريكا اليوم، بارك الله في أمريكا دائما!».

وهكذا دخل «جورج بوش» (الابن) إلى المكتب البيضاوي، ووراءه نائبه «ديك تشيني» - وبعدهما أركان الإدارة الكبار: «دونالد رامسفيلد» - «كولين باول» - «ريتشارد بيرل» - «بول وولفويتز» - و«كونداليزا رايس».

ولحظتها استطاع الفريق الإمبراطوري في الحزب الجمهوري أن يعيد القبض «Recapture» على البيت الأبيض من جديد - ويمسك مرة أخرى بالمفاتيح الذهبية للقرار الأمريكي طبقا لأولويات محددة، هي:

- الاحتفاظ بتفوق أمريكي لابد أن يقبل به الجميع (ويبقى إلى الأبد).

- سيطرة كاملة على موارد النفط (في الشرق الأوسط وحوله).

- والمدخل للإمساك بالاثنين: تحالف عالمي مضاد للإرهاب (وذلك هو الغطاء القانوني والأخلاقي الأنسب!). ■

ثالثا:

قادة قيصر لا يهتفون باسمه!

■ لم يكن دخول «جورج بوش» إلى البيت الأبيض يوم ٢٩ يناير ٢٠٠١ - دخول فاتحين، بل لعله كان أغرب دخول عرفه ذلك البيت في واشنطن، وكانت احتفالات قسم اليمين حافلة بهواجس وشكوك تطال كل شيء: مستوى المعركة الانتخابية لمرشحين كلاهما في نظر الناخب لا يستحق الجائزة، ثم المشاكل والتعقيدات القانونية التي حاصرت عملية عد الأصوات، ثم انتظار أسابيع مشوبة بالإحباط في انتظار حيل محامين قبل إرادة ناخبين.

وكذلك تبدى أن الرئيس (الإمبراطور - القيصر) الجديد يصعب أن يكون مقنعا - في أساس شرعيته، أو سابق تجربته، أو توقعات أدائه، أو قيادته لفريقه، أو ما يمكن أن تثيره قيادته من طموح وإلهام.

وسرى إلى العالم كله إحساس بأن الولايات المتحدة الأمريكية سلمت مقاليد السلطة فيها - مع لحظة فاصلة على مسار التاريخ الحديث - لرجل لا يستحق، وفي أحسن الفروض لا يعرف.

وفي عواصم عديدة بدت تلك فرصة مفتوحة لمن يريد أو لمن يقدر:

- في لندن: تصور «توني بلير» رئيس الوزراء (العمالي) أن رئاسة «بوش» (بكل ما يكتنفها) تعطيه مساحة لزيادة حجم التأثير البريطاني في مجتمع الناطقين باللغة الإنجليزية على جانبي الأطلنطي، وبالتالي فرصة لتقوية الوزن البريطاني في العلاقة الخاصة التي تربط واشنطن ولندن.

- وفي باريس: تصور الرئيس «جاك شيرك» (الديجولي) أن أوروبا تستطيع أن تعطي نفسها مجالا أرحب للحركة بعيدا عن دائرة النفوذ «الأنجلوساكسوني» (من لندن وواشنطن).

- وفي برلين: تصور المستشار «شرويدر» أنه بتعاون ألماني - فرنسي تستطيع أوروبا أن تمارس دورا فاعلا، يؤكد دورا لها وحقا في القرار الدولي مع مطلع القرن الحادي والعشرين.

- وفي موسكو: تصور الرئيس «بوتين» أن غيابا أمريكيا - ولو جزئيا - يفتح بصيص أمل لروسيا تستعيد بعض مواقعها الضائعة، أو على الأقل لتدعيم أوضاعها الداخلية دون شغب يمارسه عليها رئيس أمريكي يحاصرها حتى تظل أنقاض «السقوط السوفيتي» مكدسة من حول الاتحاد الروسي الجديد - تعوقه عن إصلاح أحواله ومد الجسور إلى جواره، ووراء ذلك الجوار.

- وفي بكين: سرى شعور بالراحة مع ترجيح أن تكون الرئاسة الجديدة في أمريكا «رخوة» تترك الصين وشأنها تواصل بناء نفسها وتعزز اقتصادها وتكمل تحولاتها الواسعة دون عراقيل أو شواغل خارجية.

- وأما في العواصم العربية خصوصا تلك التي تعاملت بعلاقة ود (ظنته حميما) مع إدارة «بوش» (الأب)، فقد شاع أمل بأن الرئيس القادم إلى البيت الأبيض ضوء أزرق مريح للأعصاب ورقيق، فالقادم الجديد إلى البيت الأبيض «منا وعلينا»، و«بالتأكيد معنا».

وكانت تصورات العرب على تفاوت ما بينها - خاطئة، والحقيقة على العكس منها، لأن ما ظنه بعض العرب فرصة لصالحهم - لاح خطره عليهم، لأن الرئيس الجديد - وهو يقدر حسابات الآخرين لرقته - قصد أن يواجههم بخشونته، وقد

ظلوا بعدها شهورا لا يتصورون ما يرون، وحين اكتشفوا الواقع كان قُصارى جهدهم أن يداروا ويتظاهروا!



في الأسبوع الأول من رئاسة «جورج بوش» وفي إطار اجتماعين لمجلس الأمن القومي برئاسة «جورج بوش» (الابن) - تكشف مناخ يدعو إلى القلق، لأن ما أخفته ضرورات «الاستيلاء على البيت الأبيض» - أخذ في البروز علنا، بمعنى أن المشروع الإمبراطوري تجلى للعيان، كما أن رجاله ظهروا للعلن - ثم زاد أن الداخلين إلى السلطة بدوا وكأنهم في سباق مع بعضهم، وعلى حد تعبير استعمله «كولين باول» «لقد تبين لي أن لحظة الحقيقة حلت علينا، وأن كل الطيور المهاجرة عادت الآن إلى أعشاشها لكي تبيض (في المكتب البيضاوي!)».

كان واضحا أولا - أن الرئيس الجديد لم يتأهل بعد للدور الإمبراطوري الذي أسند إليه، وظلت تطارده حتى في البيت الأبيض نكات ونوادر تركز جميعها على الرأس والعقل والذكاء!

وربما كان ذلك في جزء منه ينطوي على تبسيط قد يكون مخلا، لكنه لا ينفي أن الرجل الذي ظهر في لقاءات العمل المبكرة لإدارته، بدا رجلا «أصغر» من المجال المفتوح لرئيس الولايات المتحدة - وإمبراطور العالم!، والعلة المحسوسة دون انتظار أن تجربة الرجل حتى بعد «الميلاد الجديد» كانت محصورة في ولاية من ولايات الجنوب الأمريكي، ومع أن تكساس ولاية غنية، فإن سلطتها ليست في مكتب حاكمها، وإنما في دهاليز عدد من الشركات العابرة للقارات، وبينها بعض أهم شركات البترول في العالم (مقارها الرئيسية في تكساس).

وكان واضحا بعد ذلك ثانيا - أن الرئيس «جورج بوش» (الابن) وجد على قمم إدارته أصدقاء وزملاء لوالده عرفوه على أنه «دوبيا»، ولم يتأقلموا بعد على أنه السيد الرئيس (Mr President)، وكان بين هؤلاء رجل مثل نائبه «ريتشارد تشيني»، و«دونالد رامسفيلد»، و«كولين باول»، وكل واحد من هؤلاء الثلاثة بالتحديد - (تشيني - ورامسفيلد - وباول) - يعتبر نفسه - وهو صحيح - أصلح من «دوبيا» للرئاسة لولا اعتبارات جعلت كلا منهم يتردد، في حين جازف هو (ولم يكن لديه ما يخسره!). على أن جلوسه داخل المكتب البيضاوي الآن لا يجعله تلقائيا فوقهم - زعيما سياسيا يلهم ويوجه، أو رئيسا تنفيذيا يأمر ويُطاع!

● وكان واضحا أخيرا وثالثا - أن محرك ترشيح «بوش» (الابن) وفوزه وتشكيل إدارته - مشروعا له أصحاب، لديهم جدول أعمال جاهز يريدون طرحه، واعتماده مبكرا مع الأيام الأولى للرئاسة الجديدة، بمنطق طرق الحديد وهو ساخن، مع العلم بأن جدول الأعمال مُتّفَق عليه سلفا:

- إمبراطورية تمسك بمفاتيح السيادة ولا تقبل شراكة معها أو منافسة.

- سيطرة كاملة على موارد البترول (ومواقعه)، تشرف على إدارته وتتحكم في توزيع حصصه.

- حملة عالمية ضد الإرهاب تواجه خطرا يعلن عن نفسه، وفي الوقت ذاته توفر غطاءً أخلاقيا للإمبراطورية الأمريكية.



لكن الاتفاق على جدول الأعمال سلفا، لم يستطع أن يحجب مشاكل رئيسية:

- المشكلة الأولى: خلافات بين دعاة المشروع على ترتيب بنود جدول الأعمال (رغم الاتفاق على قائمته).

- والمشكلة الثانية: اختلافات بين الذين اتفقوا على جدول الأعمال لأنهم متنافرين لأسباب شخصية!

وتشابكت المشكلتان معا - وهي طبيعة إنسانية - وعندها تداخل العام مع الخاص واختلطت الحدود.

- والمشكلة الثالثة وقد راحت تتفاقم، أن «الكبار الذين لم يستطيعوا تقبل زعامة «دوبيا» السياسية (على فرض أنها تجلت)، ولا سلطته التنفيذية العليا (على فرض أنها حسمت) - تركوا خلافاتهم تظهر خارج الاجتماعات، وربما عن عمد، لأن كل واحد منهم اعتبر نفسه مسئولا عن «صورته»، وليس عن «صورة إدارة» متضامنة، ولعدة أسابيع بعد دخول البيت الأبيض كان أقطاب الإدارة الجديدة منهمكين بالكامل في مناورات سياسية تخصهم، فقد راح كلا منهم يحاول إعلاء دوره وتحجيم دور غيره، وإثبات صواب مشورته مع تسفيه مشورة الآخرين، وإفساح مجال نفوذه الشخصي، ولو على حساب «الرئيس» الجالس في المكتب البيضاوي.

وكذلك أصبحت علاقات النفور بين أقطاب الإدارة تسلية نوادي العاصمة، وصالونات «جورج تاون»، وتحولت إلى مادة مشوقة في وسائل الإعلام داخل الولايات المتحدة وخارجها.

وكان «برنت سكوكروفت» (مستشار الأمن القومي في عهد «بوش» (الأب) أول من تحدث عن تلك الأحوال علنا، وإن كان حديثه جاء بأسلوب دبلوماسي محسوب، فقد ذكر في حديث للنشر مع المحقق البارز «فرانسيس فيتزجيرلد» ما نصه:

«هناك في الإدارة الجديدة صراع شخصيات «Personality Conflicts»، وهذه صراعات موجودة باستمرار في كل إدارة، وكانت موجودة على أيامنا في إدارة «بوش» (الأب)، لكن هذه الصراعات ظلت مكتومة في الداخل، وأما الآن وفي عهد هذه الإدارة فإن هذه الصراعات مطروحة في العلن».

وطبقا لما نشره «فيتزجيرالد» فإن «سكوكروفت» وهو خبير مطلع (بحكم أنه كان مستشارا للأمن القومي مع الأب وصديق وفي له بعد سقوطه في الانتخابات، وشريك معه في كتاب واحد بعنوان «عالم يجري تغييره» صدر سنة ١٩٩٨ يحمل اسميهما («بوش» و«سكوكروفت») معا وتجربتهما السياسية جنبا إلى جنب) - فإن هذه الشهادة أشارت دون مواربة إلى أن «ريتشارد تشيني» (وزير الدفاع مع الأب ونائب الرئيس مع الابن) هو مصدر القلق الأكبر بسبب «تطرف زائد وجموح إلى التسرع في الأحكام يمكن أن يتسبب في مخاطر».

ثم يوحي «سكوكروفت» في حديثه مع «فيتزجيرالد» إلى أن «تشيني» كان مشاكسا مع كل وزراء «بوش» (الأب) وكانت له شطحات غير معقولة بعض المرات - ومن شطحاته المشهورة «أنه أشار بعدم تصديق «جورباتشوف» بشك أن ادعاءاته الإصلاحية للنظام السوفيتي ليست إلا عملية تمويه وتضليل، وأن الولايات المتحدة عليها أن تواصل الضغط وتشدده حتى يتفتت عدوها السابق شظايا صغيرة وسحبا من الغبار تغطي الكرملين حتى تدفنه تحتها«! - ولم يكن ذلك رأي وزير الخارجية «جيمس بيكر»».

وفي كلام «سكوكروفت» «أن تشيني كانت له من أيام وزارة الدفاع معارك مع معظم أطراف إدارة «بوش» (الأب) وقتها، وأن هذه المعارك - إذا لم يقع تداركها - سوف تسحب ذيولها إلى إدارة «بوش» (الابن)، فقد اصطدم «تشيني» حين كان وزيرا للدفاع (في رئاسة الأب) مع «كولين باول» (وهو وقتها رئيس الأركان)، وأول الأسباب أن «تشيني» وهو «المدني» حاول أن يتدخل في تحضير وإدارة حرب الخليج (الثانية) - متصورا نفسه «جنرالا على كتفه خمس نجوم» (مثل أيزنهاور) - واضطر «باول» أن يتشاجر معه مرة كل أسبوع على الأقل (طبقا لرواية «فيتزجيرالد» نقلا عن «سكوكروفت»).

والنقطة الحرجة الآن أن «تشيني» خلال تلك الحرب (لحسن الحظ أو سوئه) - بنى لنفسه صورة «مدير كفء»، وهذه الصورة هي التي وضعته على رأس الفريق الإمبراطوري وزكته نائبا للرئيس (خبيرا عارفا) مع رئيس (ليس خبيرا ولا عارفا - بل مولود من جديد) - مع تحسب الجميع من أن الحزب الديمقراطي سوف يركز على قلة خبرة ومعرفة «بوش» (الابن) مقابل خبرة مرشحه «جور» وهو نائب الرئيس وقتها (مع «بيل كلينتون»).

....

....

[وأتذكر أنني قابلت «ريتشارد تشيني» منذ سنوات طويلة (يوم أول أكتوبر ١٩٧٠)، وعندما جاء إلى مصر مرافقا لرئيس بعثة التعزية باسم الرئيس «ريتشارد نيكسون» في جنازة



في الأسبوع الأول من رئاسة «جورج بوش» وفي إطار اجتماعين لمجلس الأمن القومي برئاسة «جورج بوش» (الابن). تكشف مناخ يدعو إلى القلق، لأن ما أخفته ضرورات «الاستيلاء على البيت الأبيض» - أخذ في البروز علنا، بمعنى أن المشروع الإمبراطوري تجلى للعيان، كما أن رجاله ظهروا للعلن



«جمال عبد الناصر»، ولم يكن الرئيس «السادات» فى حالة صحية جيدة، وكان أنه أبلغ «إليوت ريتشاردسون» أثناء مراسم الجنازة وقد تقدم إليه مصافحا يعزيه أنه يستطيع أن يتحدث فيما يشاء معى (وزيرا للإعلام وصديقا مقربا منه أيامها) - بالنيابة عنه، وبالفعل جاء «إليوت ريتشاردسون» إلى مكتبى فى الأهرام فى السابعة من مساء يوم أول أكتوبر، ومعه «تشينى»، وقدمه إلى باعتباره مستشارا فى البيت الأبيض، وكان «تشينى» هو الذى كتب محضر لقائنا ذلك اليوم، ولاحظت تدخله فى مجرى الحديث بأسئلة قام فيها بمقاطعة رئيسه (وكان «تشينى» هو الذى استعاد ذكرى هذا اللقاء فيما بعد)].

....

....

ومن إشارات «سكوكروفت» (فى حديثه مع «فيتزجيرالد» أيضا) «يبين أن «دونالد رامسفيلد» بدوره لا يحب «ديك تشينى»، فهو يعتبر نفسه الرجل الذى رشح «تشينى» كمستشار للبيت الأبيض وقت رئاسة «ريتشارد نيكسون»، وكان عمره وقتها أقل من ثلاثين سنة، لكن «ديك» - كما يناديه رامسفيلد تصغيرا لاسم «ريتشارد» - شق طريقه بسرعة وتفوق.

كذلك يبين ضمن أسباب ضيق «رامسفيلد» أنه لا يستريح مع «عائلة بوش»، ويعرف أنها قبلت به كارهة، لأن «جورج بوش» (الأب) «نما إليه» - ! - أن «رامسفيلد» اعترض على تعيينه مديرا لوكالة المخابرات المركزية فى زمن الرئيس «فورد»، وأنه قال لهنرى كيسنجر (وزير الخارجية وقتها) وهو القائم بدور المرشد والمعلم للرئيس «فورد»: «إن «جورج» (بوش الأب) - لا يصلح مديرا للمخابرات المركزية لأن شخصيته ضعيفة وليست لديه «مواصفات قائد رفيع المستوى»»، ومع أن «بوش» (الأب) حصل على المنصب، فإنه لم ينس لرامسفيلد رأيه فيه.

فوق ذلك فإن «رامسفيلد» لا يحب «كونداليزا رايس»، يراها قريبة أكثر من اللازم من «كولين باول»، متعجلة أكثر من اللازم إلى فتح أبواب المكتب البيضاوى أمام وزير الخارجية حتى يوثق علاقته بالرئيس، وقد أضاف «رامسفيلد» فى حضور الجنرال «ماير» (رئيس أركان الحرب الحالى للجيش الأمريكى) «إنه يستطيع أن يرى الرابط بين «باول» و«كوندى» (يقصد كونداليزا رايس)، ولم يزد «رامسفيلد» على ذلك، لكن الإشارة كانت واضحة إلى اثنين من الملونين فى إدارة بيضاء - تجىء من أقصى اليمين فى الجنوب الأمريكى!

وعلى أى حال فإن «رامسفيلد» لم يستطع إقناع نفسه بأن «تشينى» سبقه، وأصبح نائبا للرئيس فى الإدارة الحالية.

وفوق ذلك فإن «رامسفيلد» يكره «كولين باول» بسبب صيته العريض فى المؤسسة العسكرية الأمريكية، ولا يشعر براحة حين يسمعه يتكلم أمامه وهو وزير الدفاع بخبرة رجل «يظن أنه يفهم» فى شئون وزارته أكثر مما «يفهم» هو.



وفى تلميحات «سكوكروفت» أن «كولين باول» ليس معجبا - على الإطلاق - بكل أفراد «المجموعة الإمبراطورية»، فهو يسمعهم يتحدثون عن «استعمال القوة»، دون أن تكون لأحد منهم معرفة بشئون الحرب، فكلهم - بما فيهم الرئيس «بوش» (الابن) نفسه - تهربوا من الخدمة العسكرية فى فيتنام بعذر أو آخر!

«كولين باول» ليس معجبا - على الإطلاق - بكل أفراد «المجموعة الإمبراطورية»، فهو يسمعهم يتحدثون عن «استعمال القوة»، دون أن تكون لأحد منهم معرفة بشئون الحرب، فكلهم - بما فيهم الرئيس «بوش» (الابن) نفسه - تهربوا من الخدمة العسكرية فى فيتنام بعذر أو آخر!



وتروى السيدة «كونداليزا رايس» أنها كثيرا ما رأت «كولين باول» يعود برأسه إلى الوراء ويقلب عينيه إلى أعلى، إشارة إلى ضيقه بكلام يسمعه حول مائدة اجتماعات مجلس الأمن القومى (وتلك حركة مشهورة عن وزير الخارجية).

وقد فقد «كولين باول» صوابه عندما سمع «رامسفيلد» يتحدث فى أول اجتماع عقده مجلس الأمن القومى بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١، قائلا إنه «أول من لفت الأنظار إلى أن الولايات المتحدة معرضة لهجوم غادر عليها من وزن «بيرل هاربور» (عندما هاجمت اليابان الأسطول الأمريكى فى الباسفيك وتمكنت من تدميره بالكامل فى ديسمبر ١٩٤١) - واضطر «كولين باول» إلى تذكير «رامسفيلد» بأن ذلك التحذير الذى يدعى به الآن جاء فى معرض مناقشة عن كوريا الشمالية وقدراتها فى صناعة الصواريخ، وذلك شىء يختلف عما تعرضت له نيويورك صباح يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

وبالتالى فإن «رامسفيلد» يدعى بأثر رجعى حكمة ونبوءة لم تتحقق، لأن الهجوم على برجى التجارة لم يكن هجوما صاروخيا مفاجئا شنته كوريا الشمالية!».

ومؤدى الأمر فى النهاية أن طاقم «بوش» (الابن) الذى جلس ليبحث المشروع الإمبراطورى أواخر شهر يناير وأوائل شهر فبراير سنة ٢٠٠١ - لم يكن فريقا متجانسا أو منسجما على المستوى الشخصى، حتى مع رابط اقتناع أعضائه بأن مشروعهم الإمبراطورى جاء وقته وأوانه!



....

....

[وكان منطقيا أن يختلف أعضاء الفريق الإمبراطورى فى إدارة «بوش»، رغم اتفاقهم على المشروع الإمبراطورى وبنوده - وكان طبيعيا أن تبرز خلافاتهم على ترتيب الأولويات عندما يجلسون إلى مائدة مجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض أواخر يناير وأوائل فبراير سنة ٢٠٠١.

وذلك بالفعل ما حدث، وما تتفق عليه الروايات والشهادات والوثائق الصحيحة والمعتمدة، فقد برز واتسع الخلاف على ترتيب الأولويات، وانقسمت الآراء منذ المناقشات الأولى على عدة اتجاهات، وكل اتجاه يتزعمه قطب من أقطاب الإدارة الجديدة.

١ - كان هناك رأى يتزعمه «كولين باول» يعتقد أن بند مكافحة الإرهاب هو الذى يصح أن يتصدر قائمة الأولويات، لأنه القادر - قبل غيره - على اجتذاب «أوروبا» (وهى مجموعة دول صناعية كبرى ترى نفسها مهددة بهجرات كثيفة من شباب الجنوب تحمل إليها موجات من كل الأجناس ينفذون إلى مجتمعاتها ويتحولون إلى حقول ألغام نائمة فى وسطها، وأدوات فى يد جماعات إرهابية تستعملها من بعيد حين تشاء) - ثم إن العمل ضد الإرهاب يستطيع أيضا أن يجذب «روسيا» (وهى التى عاشت كابوس أفغانستان وبعده مأزق الشيشان) - وهو فى نفس الوقت يجذب «الصين» (التى يقلقها ما يجرى فى جمهورياتها الغربية من نشاط جماعات إرهابية ترفع لواء الإسلام).

وكذلك كان «كولين باول» يرى (من تقدير لأهمية أوروبا وروسيا والصين) أن مقاومة الإرهاب تصلح مدخلا لما هو أوسع منها - بمعنى أن «المشروع الأمريكى» للزمن الجديد يستطيع بهذا المدخل أن يأخذ معه هذا الثلاثى، حتى وإن سلم لأطرافه بدرجة من الشراكة مع الولايات المتحدة فى تدبير أمور هذا الزمن الجديد.

كذلك كان «باول» يرى أن ضرورات نجاح المشروع الأمريكى - والشرق الأوسط أهم ميادين تحقيقه - تستدعى التوصل إلى تسوية للصراع العربى الإسرائيلى لأنه من خبرته ومما اطلع عليه منذ دخل وزارة الخارجية - يعرف أن تلك المنطقة (الشرق الأوسط) تموج بعداء متزايد للسياسة الأمريكية، وأنه بالحديث إلى «خبراء وزارته» تبين له أن الإدارة السابقة (إدارة «كلينتون») قدمت مشروعا لحل دائم للصراع رفضه الفلسطينيون فى كامب دافيد (خريف سنة ١٩٩٩)، لكن هذا المشروع يمكن أن يُعاد بحثه وعرضه بتعديلات طفيفة تجعله مقبولا للفلسطينيين، وغير مرفوض من الإسرائيليين].

....

٢ - وكان هناك رأى آخر يتزعمه «ريتشارد تشينى»، ملخصه أن الرئيس الجديد لا يصح أن يقتفى خطوات الرئيس السابق («كلينتون»)، ويهدر وقته فى مشكلة الشرق الأوسط، لأنها لا تتحمل ثقل «حل دبلوماسى»، وظنه فى هذا النوع من الصراعات هو تركها للزمن يتكفل بحلها (سواء بالتقادم أو النسيان)، وبدلا من تضييع الوقت (كما فعل «كلينتون») فإن الولايات المتحدة الأمريكية تستطيع أن تدخل إلى قلب الشرق الأوسط عن طريق قضية مقاومة الإرهاب وليس عن طريق قضية فلسطين، ويساعد على ذلك فى تقديره أن حكومات المنطقة الصديقة للولايات المتحدة ليست مهتمة إلى الدرجة التى يتصورها «بعضهم» بقضية فلسطين، فتلك معضلة تعود العرب أن يتعايشوا مع تعقيداتها ولم تعد تهزهم تداعياتها - فى حين الاهتمام الجدى لهؤلاء الأصدقاء العرب يتركز فى

«حماية نظمهم»، فذلك ما يعنيهم قبل غيره، ومع أنهم ينسبون إلى «الإرهاب» وحده أسباب قلقهم كلها ـ فإن الولايات المتحدة تستطيع استغلال هذا القلق لكى تنفذ إلى قلب الإقليم متوجهة إلى مواقع البترول مباشرة، دون تضييع الوقت فى «البدرومات المظلمة الباردة والدامية» للصراع العربى الإسرائيلى.

٣ ـ وكان هناك أخيرا رأى يتزعمه «دونالد رامسفيلد» وزير الدفاع (يؤيده فيه نائبه «بول ولفويتز» ومدير التخطيط الاستراتيجى فى وزارته «ريتشارد بيرل») ـ ملخصه أن الوقت مناسب لضربة مباشرة تستهدف العراق كمدخل لسيطرة كاملة على البترول، لا تضيع وقتها لا مع قضايا مستعصية على الحل، ولا مع مخاوف نظم تهرب من ظلها!

وكان تقدير «رامسفيلد» أن العراق نشيط فى توسيع دائرة التعاطف معه، بسبب فداحة تكاليف الحصار على شعبه، وهذا التعاطف ـ وهو يتزايد ـ مما يصعب إهماله، وإلا فإن موضوع العراق (بترول العراق) سوف يظل مرهونا بظروف متقلبة (Volatile).

مضافا إلى ذلك أن تصفية بقية الحساب مع العراق يفتح مداخل إلى تسوية الحسابات القديمة فى إيران ـ وبهذه التصفية والتسوية للحسابات فإن شرقا أوسطا جديدا يمكن أن يخرج من وراء الظلمات التى تغطى عليه الآن، خصوصا إذا أمكن تكثيف الوجود العسكرى الأمريكى فى الخليج، ليقوم بعرض لقوة النيران فى منطقة لا تفهم غير لغة «الخوف»، رغم استغراقها فى الكلام عن السلام!»].

....

....

وظلت المناقشات واحتدمت الخلافات، وطبقا لسجلات مجلس الأمن القومى الأمريكى فى الاجتماع الثانى له (مارس ٢٠٠١) ـ وضمنها محاضر وتقارير وتوجيهات عمل (أرسلت إلى لجنة الأمن والدفاع فى الكونجرس من قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١) ـ فإن «رامسفيلد» طلب الكلمة (وقصده فى الغالب أن يرد على تقديرات وزير الخارجية «كولين باول») ـ ليقول:

«إنها مضيعة للوقت أن نصرف جهدنا مع «قوى مستنفدة» (Spent Powers) مثل الروس، لأن الاتحاد السوفيتى (وهو الخصم السابق)، لم تبق منه إلا دولة صغيرة يتساوى حجم إنتاجها مع حجم إنتاج «هولندا»، وقوة بهذا الحجم لا تقدر أن تكون منافسا للولايات المتحدة، ومع كون هذه القوة تملك ترسانة نووية ورثتها عن الاتحاد السوفيتى ـ إلا أنها غير قادرة على صيانتها.

وأما أوروبا فإن التنسيق معها ضرورى، أخذا فى الاعتبار أن ذلك التنسيق لا يصح انتظاره طويلا، لأن أوروبا تدرك فى أعماقها أن مصالحها مع الولايات المتحدة، وهى مهما حاولت ـ بأى قدر من الادعاء باق عندها ـ سوف «تجىء إلينا فى النهاية».

وأما العالم العربى فإن النظم فيه مشغولة بأوضاعها، وإذا بقى لها شىء فوق هذا الشاغل، فإن إسرائيل كفيلة به.

وإذن فإن السياسة الأمريكية لابد لها أن تنقل مواقع تركيزها إلى جهات أخرى تستطيع عليها إثبات وتأكيد ذلك التفوق الذى تملكه الآن حتى تضمن السلام المستند إلى النصر الساحق الذى أحرزته (فى الحرب الباردة)!

وعلق الرئيس «بوش» (الابن) طبقا للسجلات على كلام «رامسفيلد» ـ بقوله:

«الحقيقة أننى لازلت متحيرا، فعندما كنت طالبا فى الجامعة، وعندما كنت أعيش مع أبى فى البيت الأبيض (نائبا للرئيس ورئيسا للولايات المتحدة) كنت أعرف أين نحن.

كنت أعرف أننا «هنا» وأن الشيوعيين «هناك»، وأن بيننا وبينهم صراعا، أى أنهم كانوا العدو.

وأما الآن فلدى إحساس بالضياع لا أعرف معه على وجه القطع من هو العدو؟ لكننى فى أعماق شعورى (Gut Feeling) أوافق أن هناك أعداءً لنا، وأن الأعداء «هناك» فى موقع ما «هناك»، ولكن أين بالضبط؟ ـ هذه هى المعضلة!.

....

....

[وتدخل نائب الرئيس «ريتشارد تشينى» ليقول بعد عرض مفصل لرؤيته عن الأوضاع العالمية الراهنة:

«الرئيس محق حين يقرر بثقة أن العدو لابد أن يكون هناك، وهو بالفعل هناك، متمثلا فى الإرهاب العالمى الذى يبدو أن «تنظيم القاعدة وأسامة بن لادن» مجرد سطح ظاهر له يخفى تحته جبلا ضخما غارقا فى ظلام البحر، والمعضلة فى مطاردة الإرهاب أنه «معركة كبرى» ضد عدو مختبئ فى كهوف الجبال المظلمة، له شبكة غامضة واسعة فى كل قارات العالم، وهو يضرب مصالحنا كما فعل فى قواعدنا فى السعودية (الخبر) ـ وضد قوتنا البحرية (المدمرة كول فى ميناء عدن)، ثم يختفى فى الزحام، ومهما كان فإن علينا أن نعثر عليه وأن ندمر بنيته الأساسية وتنظيماته وقياداته حيث تكون، وذلك جهد سوف يستغرق وقتا وموارد، وفى هذا الوقت فإننا لا نستطيع أن نغفو فى انتظار أن يوجه الإرهاب ضربته التالية، ولذلك فإن أمامنا على الفور مهمتين:

ـ زيادة قوتنا الضاربة ونشرها بحيث تستطيع العمل بحزم وحسم فى أى مكان.

ـ وتحديد مصالحنا الحيوية فى الشرق الأوسط (موارد البترول والمواقع الاستراتيجية من حول عمليات إنتاجه ونقله)].

....

....

وتوالت المداخلات وأهمها ما ورد على لسان «كولين باول»، وفيها قوله:

«إن الشرق الأوسط هو المنطقة التى ينبغى أن نركز عليها، ووزارة الخارجية تريد أن تتلقى توجيها فى شأن المفاوضات الجارية بين الحكومة الإسرائيلية وبين السلطة الفلسطينية، وهناك معلومات لدى الوزارة ومن أصدقاء لنا فى المنطقة تشير إلى أن «عرفات» نادم لأنه لم يقبل بالمشروع الذى عرضه عليه الرئيس «كلينتون» فى كامب دافيد، وهو على استعداد اليوم لكى يقبل ما رفضه بالأمس، وربما تكون تلك فرصة لتهدئة الشعور العام فى المنطقة، وهو شعور خطر فى منطقة حساسة تتخبط بعصبية، لأنها لا تعرف طريقها إلى العصر، ولأن نظمها محاصرة بمطالب ملحة على ضرورة التغيير وأوله التقدم نحو درجة أرقى من المشاركة السياسية والإصلاح الدستورى والقانونى».

وتدخل الرئيس «جورج بوش» ليروى نقلا عن والده: «إنه لا يثق على الإطلاق فى «عرفات»، ويراه نموذجا لـ«تاجر سجاد صغير فى سوق شرقى مزدحم»، يعرض بضاعة يعرف أنها ليست أصلية، ويسعى إلى صفقات يعتزم سلفا أن لا يدفع ثمنها.

ويروى «بوش» «إنه فى بداية الحملة الانتخابية قام بزيارة الشرق الأوسط بادئا من إسرائيل، وكان «آرييل شارون» مضيفه ومرافقه فى رحلات استطلاعية بالهليوكوبتر إلى مواقع خطوط الصراع، وأثناء هذه الزيارة فإنه أراد أن يظهر درجة معقولة من الحياد بين الفلسطينيين والإسرائيليين، بناءً على نصيحة من وزارة الخارجية (وكانت «مادلين أولبرايت» وزيرة لها فى إدارة «كلينتون») ـ وكذلك فإن مساعديه الذين رافقوه فى رحلته طلبوا موعدا له مع «ياسر عرفات»، لكن «عرفات» لم يرد، ثم عرف «بوش» فيما بعد «أن عرفات تملص فى الرد وماطل لأنه ظن أن لقاءه معه (مع «بوش») سوف يحرج الإدارة القائمة ويضايق المرشح الديمقراطى «آل جور» (وهو نائب الرئيس)، وذلك ما استغربه «بوش» وكان كافيا لإقناعه أن «عرفات» ـ كما يرى والده بالضبط ـ مجرد «تاجر شرقى محدود الأفق»!

وتظهر السجلات بعد ذلك مباراة بين «ريتشارد تشينى» و«دونالد رامسفيلد» فى الدعوة إلى ضرورة ارتكاز السياسة الأمريكية فى المرحلة القادمة على إسرائيل وعلى «آرييل شارون» بالتحديد. ويضيف «رامسفيلد» تعريفا جديدا لاستعمال القوة يقول فيه: «إن تدخل أمريكا من الآن فصاعدا لا يصح أن تحدده مناطق الأزمات، ولكن تحدده كذلك الإمكانيات المتوافرة لنا فى مناطق الأزمات!».

تدخل الرئيس «جورج بوش» ليروى نقلا عن والده: «إنه لا يثق على الإطلاق فى «عرفات»، ويراه نموذجا لـ«تاجر سجاد صغير فى سوق شرقى مزدحم»، يعرض بضاعة يعرف أنها ليست أصلية، ويسعى إلى صفقات يعتزم سلفا أن لا يدفع ثمنها

رابعا:

١١ سبتمبر ٢٠٠١ وتوابعه

كان واضحا طوال النصف الأول من سنة ٢٠٠١ أن الإدارة الجديدة تتخبط فى سياساتها الداخلية والخارجية، وأن رئيسها لم يكن «مقنعا» فى مكانه وفى زمانه، وأن أقطاب إدارته شردوا بعيدا عن البيت الأبيض، وأن كل واحد منهم يحاول أن يجعل من وزارته «محمية» له محرمة على غيره، وكان ذلك ظاهرا فى وزارة الدفاع، وفى وزارة الخارجية، وفى وزارة الخزانة، وحتى فى وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيق الفيدرالى.

وفى البيت الأبيض ذاته جرت محاولة لإظهار «ريتشارد تشينى» نائب الرئيس، باعتباره الرجل الأول فى الإدارة الجمهورية - رغم أنه فى النظام الرسمى رجلها الثانى، ووقع بالفعل داخل كواليس السلطة أن أصحاب المشروع الإمبراطورى اعتبروا عمليا أن «ريتشارد تشينى» رجلهم، وأن القرار النافذ يستحسن أن يظل فى يده مع وجود رئيس أمريكى «مازال عوده أخضر»، ولم تكن تلك بادرة طيبة إزاء الرئيس حتى وإن كان عوده أخضر، وزاد عليها أن الإيحاء بسلطة «تشينى» العُليا وجد طريقه إلى وسائل الإعلام الأمريكية، وكان الصحفيون الأكثر رفقا بالرئيس هم الذين رأوا أنها إدارة «بوش تشينى» - كلمة واحدة وليست كلمتين إشارة إلى أن الرئاسة هذه المرة شركة بين الرئيس ونائبه: أحدهما لديه اللقب والثانى لديه الصلاحية!

ومع شهور الصيف راح عدد من المستشارين المقربين من الرئيس الجديد وفيهم «أندرو كارد» (رئيس هيئة مستشارى البيت الأبيض)، و«كارل روفى» (أقوى مستشاريه)، و«كارين هيوز» (المسئولة عن علاقاته العامة) - يبدون انزعاجهم من أن صورة الرئيس «مهزوزة» أمام الرأى العام فى الداخل وفى الخارج أيضا، وتوصيتهم أن «جورج بوش» (الابن) يحتاج للمرة الثانية إلى ولادة جديدة (سياسية هذه المرة وليست أخلاقية)، واقتراحهم أن يكون هناك فاصل زمنى، أى إجازة يبتعد فيها الرئيس عن الساحة ثم يعود إليها «رئاسيا بحق وحقيق!».

وكان التخطيط أن يُقال ويُذاع ويُنشر أن الرئيس الجديد سوف يترك واشنطن لشهر على الأقل يلزم فيه مزرعته (كراوفورد) فى تكساس ومعه دراسات وتقارير وأوراق يعكف على دراستها، وسوف يعود من هناك ومعه برنامج عمل يجدد طاقات الإدارة ويحشد مواهبها ويوحد كلمتها ويحدد مهامها دون التباس فى جدول أعمالها أو حول مصدر القرار فيها.

وكذلك أعلن رسميا أن «جورج بوش» سوف يغيب فى تكساس طوال شهر أغسطس حيث يقضى إجازة صيف يقظى وليست مسترخية، ونشيطة وليست كسولة، ومشغولة بالمستقبل وليست مأخوذة بسماع همس الريح أو نسيم البحر!

وبينما كان الرأى العام الأمريكى والعالمى فى حيرة إزاء رئيس لم تمض عليه شهور فى السلطة، ويريد الآن إجازة شهر كامل فى مزرعته - كان الإيحاء من البيت الأبيض أنه «غياب له ما بعده» - وما بعده سوف يكون حضورا طاغيا كأنه وقوع المعجزة!

ويوم أول سبتمبر بعد شهر كامل (أغسطس)، عاد الرئيس «بوش» من مزرعته فى «تكساس» إلى مكتبه فى البيت الأبيض، ودعا إلى سلسلة من اجتماعات لمجلس الأمن القومى بقصد إجراء مراجعة كاملة لستة شهور من إدارته، ولإعادة ضبط وتوجيه أكثر من ثلاث سنوات باقية من هذه الإدارة، وفى نفس الوقت استشراف فرصة مدة ثانية للرئاسة (بحيث يصحح ما لحق بوالده الذى دخل التاريخ رئيس مدة واحدة (وهى مسبة تسىء إلى أى رئيس سابق، باعتبار أن الناس رفضوه فى حق له بنص الدستور).



وفجأة صباح يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ (بتوقيت شرق الولايات المتحدة) - وقعت الواقعة.

● فى الساعة ٨,٤٥ اصطدمت طائرة مختطفة تابعة لشركة الخطوط الأمريكية (الرحلة رقم ١١ من بوسطن) بالبرج الشمالى لمركز التجارة العالمى، فكسرت فيه فجوة ضخمة تحولت فى لحظة إلى فوهة حريق.

● فى الساعة ٩,٠٣ اصطدمت طائرة مختطفة ثانية من مطار بوسطن تابعة أيضا لشركة الخطوط الأمريكية المتحدة (الرحلة رقم ١٧٥) بالبرج الجنوبى لمركز التجارة العالمى، وكذلك انفجر البرج الثانى لمركز التجارة العالمى.

● وفى الساعة ٩,٤٣ اصطدمت طائرة مختطفة ثالثة من مطار بوسطن ذاته تابعة لشركة الطيران الأمريكية المتحدة (الرحلة رقم ٧٧) بمبنى وزارة الدفاع فى واشنطن وهدمت ركنا منه وأشعلت لهبا فى ركن آخر يقع فيه مكتب وزير الدفاع نفسه.

● وفى الساعة ١٠,٠٥ كانت أبراج مركز التجارة العالمى - برجان هما أهم معالم نيويورك عاصمة المال والثقافة والإعلام فى الولايات المتحدة - يتهاويان حطام أنقاض، ورماد حريق يتساقط على الأرض.

....

....

● وفى مدينة «ساراسوتا» (فى فلوريدا) حيث كان الرئيس الأمريكى فى زيارة قصيرة ظهر للناس وكأنه طائر بحرى كاد يغرق تحت بقعة زيت تسربت من ناقلة زيت أصابها العطب فتعطلت وتدفقت حمولتها تغطى خليج فلوريدا تنبئ بكارثة بيئية مروعة، وقال الرئيس دون أن يظهر لسامعيه إنه استعاد حواسه بعد المفاجأة:

«أمريكا تحت النار - تعرضنا لهجوم إرهابى!».

كان المشهد مشهدًا غريبا عند مركز القرار الأمريكى وأمام الشعب الأمريكى، وأكثر غرابة خارجه وراء البحار والمحيطات].

....

وفى البيت الأبيض كان المشهد أشبه ما يكون بمؤامرات قصور الأمراء الباباوات الإيطاليين من آل «بورجيا» ونظرائهم ممن تمرسوا فى دسائس القصور ومؤامرات الاغتيال بالتناحر وبالسم وبالشائعات.

وبعد أن وقع الهجوم على أمريكا كان «جورج بوش» على وشك أن يركب طائرته الرئاسية من فلوريدا عائدا بسرعة إلى واشنطن وإلى البيت الأبيض - وإذا به يتلقى اتصالا هاتفيا من نائبه «ريتشارد تشينى» يرجوه فيه أن لا يقترب من أجواء واشنطن، لأن طائرته مستهدفة بكمين إرهابى يتربص بها، وابتعدت الطائرة الرئاسية عن أجواء واشنطن، وظلت عشر ساعات شاردة وضائعة بين القواعد العسكرية والمطارات.

كل ذلك وأسرة «بوش» وفى المقدمة منها والدته «بربارة» يستعجلون عودته إلى واشنطن، لأن مكانه هناك فى المكتب البيضاوى وليس فى غيره.

....

....

[وفى هذه اللحظات الحرجة راح رجال مثل «دونالد رامسفيلد» وغيره من أركان الإدارة يقولون - وبحيث تسمع أسرة «بوش» - أن «ديك تشينى» يريد أن يظل «دوبيا» بعيدا عن مركز القرار ليتأكد الرأى العام أنه رئيس فى الشكل وليس فى الموضوع، لأن الموضوع كله فى يد «ريتشارد تشينى»، وبالفعل فإن «تشينى» انتهز الفرصة ليتصرف فعليا أمام أمريكا باعتباره الرئيس الحقيقى الموجود فى البيت الأبيض، وعندما طلبت الأسرة (على الأقل الأب والأم) من «دوبيا» أن يعود على عجل، وأن يضع نفسه فورا وسط الصورة].

....

....

وقد كان وفى وسط موقف شديد الحرج بالنسبة لأمريكا - كانت دسائس القصور تفرض على نائب الرئيس أن يبتعد عن الأنظار، وأن يتجنب الأضواء، وأن يختفى من مواقع النظر بحيث يخلو المسرح لرجل واحد هو «دوبيا»، والحجة أن الرئيس ونائبه فى زمن حرب لا يصح أن يتواجدا فى نفس المكان.

كان البيت الأبيض يريد قيصرا واحدا يقف عند دخوله كل القواد يهتفون باسمه عندما يدخل - ويكررون الشىء نفسه عند الخروج.



لكنه على طول الولايات المتحدة وعرضها ومن خط الماء إلى خط الماء، كان الصوت والصدى اسم رجل غامض يُشار إليه بالكراهية والرهبة، كأنه من عوالم السحر - هو «أسامة بن لادن» الذى قيل أن أعوانه حضروا كالعفاريت خفية من جبال وكهوف أفغانستان - وانقضوا نارا ودمارا فوق الأبراج العالية لأقوى إمبراطورية فى التاريخ!



من أحرق بغداد ؟



هل يدرك العالم كم كان مذنبا بحق حضارته وتاريخه وحتى مستقبله عندما سمح بمرور جريمة نهب وسلب المتحف الوطنى العراقى دون أى رد فعل سوى الكلام. كثيرون حملوا الغازى الأمريكى المسئولية وآخرون اتهموه بالمشاركة صمتا أو فعلا. وفى الحالتين تباكى الجميع على أطلال متحف جسد صورة زاهية لاحدى أهم حضارات العالم القديم. فى ملف متكامل تقدم «وجهات نظر» رصدا وتحليلا.. وأسى لهول ما حدث

حلى من ذهب
أور - ٢٤٥٠ ق م

من أحــرق بغـــداد؟

التـــــراث.. الذاكـــــرة.. التـــــاريـــخ

طـــالـــب البـغـــدادي



■■ من المتحف الوطني إلى مكتبة بغداد ودار المخطوطات والوثائق، أمضيت أكثر من ٦ عقود أشم رائحة الزمن والتاريخ وألون بخضرة الطحالب النامية فوق جدران أزقة بغداد القديمة التي تحمل بين جدرانها تراكم حضارة تمتد مع الحروف الهجائية من الألف إلى الياء.

ومازالت ذاكرة تلك الأيام الخوالي تجري في شراييني.. تعيش معي كأنما حدثت بالأمس وليس قبل سنوات طويلة في هذه المكتبة.. رأيت للمرة الأولى نازك الملائكة وهي تطالع أحد الكتب وتعرفت فيها على بدر شاكر السياب وكانت فرحتي الكبرى عندما رأيت وجه الجواهري والآن وبعد أن اكتوت هذه المؤسسات الثقافية بحرائق النيران أكثر استهدفت ماضي وتاريخ العراق وحاضره، لا أملك سوى تنشيط ذاكرتي الزمنية محاولاً أن أبعث الروح من خلال الكتابة، في تراث لم يكن فقط ملكًا للعراق أو الأمة العربية بل العالم أجمع لعلني أصبح في النهاية حجرًا ضئيلاً يساهم ولو قليلاً في إعادة ما ضاع أو قطرة دم صغيرة تجدد الروح فيما احتضر.



بعد أن نفذت الولايات المتحدة وبريطانيا احتلالها للعراق وبعد أن تهاوى النظام وسقطت جميع مؤسساته وقع العراق في فراغ أمني وسياسي قامت بمحاولة ملئه عصابات اللصوص التي عرفها الشعب طوال عقدين من الزمن قبل وقوع الحرب العدوانية، وهذه العصابات هي من إفرازات النظام نفسه وقد حوّلت كل نتائج الحرب ولو مؤقتًا لصالح أعمال النهب والسلب والحرق والتدمير والاغتصاب ضد كل البنى التحتية خصوصًا ضد البنى الثقافية والاجتماعية التي هي ملك المجتمع بأسره بل ملك الإنسانية بكاملها. ولم تقم القوات الغازية المحتلة بحماية البنى والممتلكات الثقافية ضمن موقفها العام بالتنصل من حماية حتى أمن المواطنين والممتلكات العامة والخاصة، ورفضت قيادتها بإصرار النداءات التي وجهت إليها من مختلف الأطراف والمؤسسات والمنظمات الدولية وحتى الوطنية التي رأت أن في نداءاتها شكلاً من الاعتراف بشرعية الاحتلال حيث إنها وجدت أن حماية البنى الثقافية هي مهمة آنية ملحة وواجب تاريخي لا يخضع لعناصر القرار السياسي أو المرحلي، رفضت تلك القيادات المختلفة هذه النداءات ورفضت بإصرار تطبيق ما نصت عليه معاهدة جنيف الرابعة التي تلزم قوات الاحتلال بملء الفراغ الأمني وممارسة مسئوليتها في نشر الأمن والنظام والطمأنينة والحفاظ على الممتلكات العامة والخاصة وعلى أرواح المواطنين.

وكانت المتاحف والمكتبات والجامعات والمختبرات ومراكز التوثيق أكثر ما استهدفته تلك الزمر والعصابات العابثة، وقامت بعد نهبها وتدمير ما تركته بحرق تلك المؤسسات وبقيت النيران وألسنتها تلتهم المباني وما تحويه دون وجود أية محاولة حتى لإطفائها وتقليل مخاطرها من قبل القوات الغازية التي بقيت وإلى الآن تتفرج من قريب على شكل هذه الكارثة المأساوية وكأنها تنفذ مخططًا مرسومًا لها تنفيذًا دقيقًا يصل حتى التفاصيل الصغيرة.

وقد أثبتت مشاهد هذه الكارثة أن هناك تركيزًا موجهًا على نهب وتدمير المؤسسات التاريخية والثقافية واستمر هذا الدمار والخراب حتى بعد وقف القتال ولايزال مستمراً دون أية محاولة لوقفه أو حتى تحجيمه.

وبالرغم من انعدام وجود الأرقام والمعلومات والمعطيات حاليًا بما يتعلق بما فقد لكنني أستطيع أن أقدم بعض المعلومات عن بعض المؤسسات الثقافية التي راحت ضحية على مذبح الإنسانية والحضارة.



١- المتحف العراقي:

أقيم في أعوام الثلاثينيات وافتتح عام ١٩٣٧. أسسه المرحوم العلامة ساطع الحصري وشارك في تطويره الدكتور ناجي الأصيل الذي ترك الوزارة ثم السلك الدبلوماسي ليتفرغ لهذه المهمة الثقافية وساعده جمهور من الباحثين والأعلام العراقيين أمثال فرج بصمة جي - وفؤاد سفر - وكوركيس عواد - وناصر النقشبندي.. وغيرهم. يضم المتحف أهم الآثار والكنوز المكتشفة من الحضارات القديمة التي مرت على العراق منها العراقية الأصيلة كالحضارة السومرية والأكدية والبابلية والآشورية ومنها ما اتصلت بحضارات قامت في مناطق أخرى ثم اتخذت العراق كمركز لها كالحضارة الفارسية واليونانية على عهد الإسكندر المقدوني الذي اتخذ بابل عاصمة له والساسانية التي بنت المدائن عاصمة لها والتي لاتزال قصور الأكاسرة شاهدة إلى اليوم ومنها الحضارة العربية ما قبل الإسلام (الأنباط) التي أسست مدينة الحضر العظيمة عاصمة لها ثم الملوك العرب المناذرة الذين أسسوا الحيرة القريبة من الكوفة الإسلامية التي كانت تسمى حينذاك بكوفى الأديرة عاصمة لهم بعصريها الشهيرين السدير والخورنق. ومن هذه المدينة انطلق الحرف العربي بخطه الكوفي إلى الحجاز لينتشر هناك على يد أمية بن عبد شمس وبشر بن مالك.

ثم جاءت الحضارة الإسلامية لتؤسس أعظم مدينتين هما الكوفة والبصرة وتأسس فيهما الفكر الإسلامي، وتطورت فيهما علوم الدين واللغة ووضعت فيها مبادئ النحو والبلاغة لتكون أساساً لمبادئ التفسير وأصول الفقه وبقية العلوم التي تطورت بعدئذ في مدينة بغداد التي تأسست عام ١٤٥ هجرية لتصبح منار البشرية ومركز العالم في الفكر والحضارة والتمدن. وأصبحت على يد العباسيين المركز العلمي الذي تطورت فيه كل العلوم الإنسانية الصرفة منها والأدبية والفلسفية في نفس الوقت، فكان الكندي وابن سينا وابن حيان وابن الهيثم وابن النفيس والفارابي والغزالي وغيرهم. ولا يمكن في هذا المجال سرد ما يحتويه المتحف من نوادر خصوصًا إذا ما تطرقنا إلى ما تحويه المخازن التي كسرت ونهبت. فقد ضم المتحف أولى شرائع المجتمع الإنساني وهي المسماة بشرائع «أورنمو» والتي كتبت بالحروف المسمارية سبقت في تاريخها شرائع حمورابي الشهيرة المثبتة على المسلة المسماة باسمه والموجودة في متحف اللوفر بعد أن عثر عليها المنقبون الفرنسيون في مدينة سوسة في إيران. وإلى جانب هذه الشرائع هناك العديد الكبير من الرقم الطينية المكتوبة بالخط المسماري وبمختلف الأحجام. وتضم عقودًا ورسائل ومواثيق وقصائد ودراسات بعضها في علم الفلك والنجوم وبعضها في مسائل ومحاولات رياضية. وقد حاول السومريون ومن بعدهم الأكديون والبابليون أن يوثقوا كل شيء في حياتهم فنجد التماثيل الملكية والدينية مليئة بالكتابات المسمارية سواء على قواعدها أو على ظهورها. وأستطيع القول أن كل معركة خاضها ملوك المدن السومرية الأكدية والبابلية قد وثقت بالصور والرموز والكتابة المسمارية.

←

يضم المتحف أهم الآثار والكنوز المكتشفة من الحضارات القديمة التي مرت على العراق منها العراقية الأصيلة كالحضارة السومرية والأكدية والبابلية والآشورية ومنها ما اتصلت بحضارات قامت في مناطق أخرى ثم اتخذت العراق كمركز لها كالحضارة الفارسية واليونانية





أما فيما يتعلق بالآشوريين الذين كتبوا ورسموا على الصخر والمرمر فقد طوروا من خلال ما نراه في المتحف العراقي أو في مواقع الآثار في نمرود ونينوى وخرسباد فن النحت والتجسيم بالحفر، فإلى جانب الثيران المجنحة المليئة بالكتابات والرسوم هناك اللوحات الكبيرة الضخمة التي تروي سريان المعارك أو حفلات الصيد التي كان الملوك يقومون بها. وأهمها لوحات السبي اليهودي ويقال أنها اختفت بيوم واحد قبل النهب والسلب وقد تم العثور على المكتبة الملكية لآشور بانيبال التي تضم عشرات الألوف من اللوحات والرقم التي تروي تاريخ من سبقهم وآدابهم وعلومهم وأساليب حياتهم. وما ملحمة جلجامش الشهيرة إلا واحدة من الأدبيات الآشورية التي تعيد ما كتبه السومريون في تاريخهم من طريق الملاحم والقصص والسرد الشعري. وإذا درسنا النصوص نجد فيها فكرًا متناسقًا وعميقًا يرقى إلى مستوى الفلسفة في النظرة إلى المسائل الأكثر تعقيدًا في مواجهة الإنسان وصراعه في معادلات ومتغيرات ليس من السهل الربط بينها. وفي الموسيقى يضم المتحف القيثارة السومرية التي تعد أول قيثارة بالمعنى المتطور للموسيقى، وقد صنعت بشكل فني رائع ووزوقت بالذهب الخالص والنحوت ولا ننسى الآلاف من الأختام الدائرية المصنوعة من أغلى الأحجار الكريمة وشبه الكريمة والتي نحتت بأجمل الصور والكتابات. وإذا ما انتقلنا إلى العصور الوسيطة قبل الإسلام فإن أهم ما في المتحف تماثيل ملوك الأنباط كالملك سلطروق والملك نصر والموثقة بالكتابة الآرامية وغيرهم إلى جانب النماذج المعمارية الهائلة لتلك الحضارة إضافة إلى العديد من الأواني المكتوبة وغيرها من التي توثق تاريخهم وسيرتهم بالإضافة إلى الآثار الساسانية والفارسية الرائعة الجمال وبمختلف المواد كالذهب والفضة والأحجار الثمينة.

وإذا ما انتقلنا إلى العصور الإسلامية التي تزخر بما أنتجه الفن الإسلامي والمنتشر في كثير من المتاحف والمجموعات في العالم فإن أهم ما يحويه المتحف العراقي من هذه الفنون الآثار التي تختص بمرحلة (مدرسة) سامراء التي شهدت انعطافات مهمة في المعمار والفن الإسلامي. وهناك شواهد مادية رائعة من فنون الآجر والسيراميك والخشب ما يندر وجوده حاليًا. وباندثار هذه الشواهد يكون الفن الإسلامي قد فقد ركيزة تاريخية حساسة، أما المنبر الخاصكي فيعتبر أجمل وأهم منبر إسلامي في جميع مقتنيات المتاحف الإسلامية منها الخاصة والعامة الشاملة.

وإذا ما تحدثنا عن النقود الإسلامية فقد تم ضم متحف السكوتان الذي أسسته دائرة الآثار بإشراف المرحوم ناصر النقشبندي. والمجموعة العراقية تعتبر أهم مجموعة في هذا المجال فإلى جانب مجموعة المتحف المذكور يضم المتحف العراقي مجموعة عبدالله شكر العراق، ومجموعات أخرى اقتناها المتحف عن طريق الاكتشافات الأثرية والاقتناء المباشر من المواطنين عن طريق الشراء أو قبول الهدايا والتبرع. وتحتوي المجموعة المسكوكات منها عدد معين من عملة الخليفة عبدالملك بن مروان التي سُكّت عام ٧٧ هجرية.



٢- دار المخطوطات:

وقد أسستها دائرة الآثار بإشراف الأستاذ الخبير أسامة النقشبندي والذي أمضى كل سنوات عمره في الإشراف عليه وتطويره. ونتيجة لجهوده فقد أصبح أكبر وأهم دار للمخطوطات العربية والإسلامية في العالم. فبالإضافة إلى المخطوطات التي كانت تحتفظ بها مكتبة المتحف قامت دار المخطوطات باقتناء آلاف الكتب والوثائق واللوحات المخطوطة إما عن طريق الشراء المباشر من المواطنين أو وضع مكتبات ومجموعات مهمة كمجموعات المحامي عباس الفرّاوي ومجموعات بعض علماء الدين. وقد قامت الدار بإجراء مسح عام وفق خبرتها وخبرة المشرفين عليها للمخطوطات المتوفرة في العراق.

تحتوي دار المخطوطات على عدد كبير جداً من نسخ القرآن الكريم بخط أشهر الخطاطين أمثال ابن مقلة الوزير العباسي الذي وضع قواعد خط الثلث والنسخ وابن البواب وياقوت المستعصي وحمدالله الأماسي. وهناك عدد كبير من الرقع الخطية واللوحات لعدد كبير من أشهر الخطاطين أمثال مير علي التبريزي الذي وضع قواعد خط النستعليق وعمادالدين الحسني والشيرازي وحافظ عثمان ومصطفى راقم والسلطان محمود خان وأمة در خاتم واللذان كتبا بخط الثلث البسملة وكلمة لفظ الجلالة وكل هذه المخطوطات من الكتاب الكريم ومن الرقم واللوحات مزخرفة ومذهبة ويمكن القول أن دار المخطوطات العراقية قد جمعت خطوطًا لجميع جهابذة الخط العربي بدءًا من الإمام علي بن أبي طالب، إلى هاشم القيسي البغدادي.

وتحتوي الدار على عشرات الألوف من المخطوطات الأصيلة لأنفس الكتب والموسوعات الإسلامية واليونانية لأشهر الفلاسفة والعلماء منها المحققة والمطبوعة ومنها عدد كبير لم يتم تحقيقها إلى الآن. ولم تكتف الدار بحفظ المخطوطات إنما قامت بتصويرها بالأفلام المصغرة لتكون في خدمة الباحثين والمحققين ومد يد المساعدة لهم بتحقيق أي كتاب. وكان الأستاذ النقشبندي يعطي من وقته وخبرته بشكل مطلق لدعم ومساندة أي باحث ومحقق. وقد كانت لي تجربة شخصية في هذا المضمار حيث حصلت على مخطوط كان في وقت ما من مجموعة آل المتولي في الأعظمية بعنوان «المناقب الحسان في حياة الإمام أبي حنيفة النعمان» وحينما قررت الشروع بعدما تأكدت من أهمية هذا الكتاب وما يعطيه من معلومات ومعطيات جديدة في تحقيقه راجعت الأستاذ النقشبندي شخصيًا فانبرى يهيئ لي كل ما أحتاجه من مصادر أصيلة مخطوطة تتعلق بحياة الإمام الأعظم وأبدى لي كل الحماس وكأنه هو الذي يقوم بتحقيقه والبحث عنه.

كانت دار المخطوطات مفتوحة أبوابها لجميع المهتمين وتشكل واحدة من المنتديات الأدبية يؤمها الباحثون وتدور فيما بينهم المناقشات وإبداء الآراء السديدة التي تساهم فعلاً في تطوير المعرفة. وفي مناسبة أخرى قصد الأستاذ النقشبندي أثناء كتابتي لبحث فكري حول «الخط العربي. الانتيكات الإسلامية» أبدى لي من الاهتمام ما ساعدني على إكمال البحث وإلقائه في جمعية الخطاطين العراقيين ثم تم نشره في مجلة العمارة التي تصدر عن جمعية المعماريين العراقيين بإشراف الأستاذة المعمارية وجدان نعمان ماهر.



٣- دار الوثائق:

نشأت في أجواء الستينيات، وقد قامت وزارة الثقافة والإرشاد بتأسيسها بإشراف وجهود الأستاذ العلامة سالم الألوسي الذي فقدت زوجته الآثارية السيدة مهاب البكري ذراعها أثناء مهمة تنقيب في جبال تمريز في شرقي العراق. وبقيت تمارس عملها عقودًا عديدة في التنقيب والبحث بذراع واحدة حتى تقاعدها.

وقد ضمت هذه الدار ما تهيأ من جمعه من وثائق رسمية وغير رسمية منذ تأسيس العراق الحديث عام ١٨٧٠ على يد المصلح العثماني مدحت باشا. وتراكمت في هذه الدار وثائق العهد العثماني في العراق ووثائق مرحلة ما قبل الحرب الأولى والحرب نفسها ثم وثائق الاحتلال البريطاني وما تبعه من حرب الجهاد الأولى التي هيأت لها فتاوى الحوزة العلمية في النجف الأشرف، وفي الكاظمية وبغداد وسامراء ووثائق مقاومة العراقيين للاحتلال. وكذلك وثائق ثورة النهضة الإسلامية عام ١٩١٨ التي قادها العلامة محمد جواد الجزائري الذي نفي مع مجموعة من العلماء الذين أقر القضاء عليها إلى جزيرة هنجام وبعد أن قامت سلطات الاحتلال بإعدام القادة المدنيين لها أمثال الشهيد كاظم صبي وشبيبة عائلة الحاج راضي المعروفة في مدينة النجف.

ومن أهم ما تحويه هذه الدار وثائق ثورة العشرين وما جرى في مكاتبات ومراسلات بين العراقيين في مدينة بغداد والنجف وكربلاء والمدن الأخرى، واشتملت على خطب وبيانات قيادة الثورة والمشتركين فيها إلى جانب وثائق الاتفاقات بين الشخصيات العراقية حول مقاومة الاحتلال وتحقيق أهداف الشعب في الاستقلال والحرية ووقائع مؤتمر كربلاء ومؤتمر الحيدرخانة في بغداد. وكذلك الوثائق التي تؤرخ لمفاوضات العراقيين مع الإنجليز وعلاقاتهم بقادة الثورة العربية سواء في الحجاز أو في سوريا ومصر والوثائق الكثيرة الأخرى المتعلقة بحكم الانتداب البريطاني ثم الاستقلال. وقد استطاعت الدار أن تحصل

تحتوي دار المخطوطات على عدد كبير جداً من نسخ القرآن الكريم بخط أشهر الخطاطين أمثال ابن مقلة الوزير العباسي الذي وضع قواعد خط الثلث والنسخ وابن البواب وياقوت المستعصي وحمدالله الأماسي



فن آشوري:
نمرود. الملك
آشور ناصر بال (من العاج)
القرن التاسع قبل الميلاد

على جميع وثائق البلاط الملكي التي تتضمن أسرار العلاقة بين البلاط والمندوب السامي البريطاني ومراسلات وزارة المستعمرات المختصة بالعراق وأسرار تأليف الوزارات العراقية وتشكيلة البرلمانات المتلاحقة وعقد المعاهدة مع بريطانيا.

لقد كانت لدار متحفًا يوثق كل ما يتعلق بتاريخ العراق المعاصر على جميع الأصعدة السياسية والاجتماعية والإدارية ومؤسسات الإعلام ولصحف والمؤسسات المدنية في المجتمع العراقي. وكانت الوثائق محفوظة بشكل مرتب ومنظم ومصورة بالأفلام المصغرة بحيث يسهل على المؤلفين والباحثين وطلبة لدراسات العليا الاسترشاد بها والاستفادة منها كمصادر أولية أصيلة. وكانت فعلاً واحدة من الأسباب المباشرة لظهور لعدد الكبير من الكتب ومن أطروحات الدكتوراة ورسائل الماجستير التي كشفت جوانب كثيرة من حياة الشخصيات والأحزاب السياسية لتي برزت خلال ثمانية عقود مرت على استقلال العراق وتأسيس حكومته وأنظمته.



٤ ـ مكتبة المتحف:

أنشأتها دائرة الآثار بعد تأسيس المتحف العراقي بإشراف الباحث والمؤرخ المرحوم الأستاذ كوركيس عواد. وضمت الآلاف من الكتب المتنوعة. وكانت هذه المكتبة تستقبل من حين لآخر المكتبات الكاملة التي يتبرع بها أصحابها من الأدباء والعلماء سواء قبل وفاتهم وإثر وصيتهم لورثتهم بإهداء مكتباتهم إلى مكتبة المتحف.

تضم هذه المكتبة موسوعات متنوعة في التاريخ والآداب والعلوم وتزخر بالكتب النادرة خصوصًا لنافدة منها. وقد استعنت شخصيًا بمصادرها أثناء كتابتي لبحوث عديدة أتذكر منها بحثًا حول «النواحي الفلسفية في ملحمة جلجامش» وحول «طبيعة الفن الاستشراقي» و«الدور لسياسي لهذا لفن». وكذلك بحثًا عن الربط بين محلات وأحياء بغداد العباسية وبغداد المعاصرة.

وقد كانت هذه المكتبة في مراحل عديدة ندوة لكبار المؤرخين العراقيين يؤمونها ويجتمعون فيها. وطالما دارت حوارات عديدة فيها. وتتذكر من هؤلاء المؤرخين العلامة الكبير المؤرخ المرحوم الدكتور مصطفى جواد الذي أصدر كتبًا عديدة أهمها «دليل خارطة بغداد» الذي كتبه بالاشتراك مع العلامة المرحوم الدكتور أحمد سوسة وكذلك الأستاذ المحامي عباس العزاوي الذي كتب «تاريخ العراق بين احتلالين» بأجزائه الثمانية، وكتاب «القبائل العراقية» وكتاب «النقود الإسلامية» وهذه الكتب الثلاثة تعتبر في الحقيقة موسوعات مهمة في مواضيعها المطروحة. ولا ننسى منهم العلامة محمد بهجت الأثري والأب يوسف غنيمة الذي ألف الكتاب الأصيل والمهم الموسوم بـ«نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق». وقد التقيت شخصيًا في هذه المكتبة في فترة المرحلة الأولى من بدء اهتمامي وبحثي بالأستاذ مصطفى جواد وكنت حينها أبحث عن هوية قبر وجدته في إحدى غرف وزارة المعارف القديمة على نهر دجلة، وكان هذا القبر في غرفة منعزلة ومغطى بغطاء أخضر اللون. فسألته إن كان يرشدني على صاحب هذا القبر ـ فكان جوابه السريع الفوري بمثابة محاضرة قيمة غيّرت في نتائجها بعض القناعات السائدة حينئذ عن قبور ومدافن شخصيات إسلامية. حيث يعتقد ـ رحمه الله ـ أن القبر هو للشيخ عمر السهروردي والمعروف قبره في مكان آخر يبعد عنه في شرقي بغداد داخل مسجد كبير يعرف باسمه. والعلامة مصطفى جواد هو الذي وجد أن المنارة المخروطية الاملجنانية المقامة على قبر السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد في غربي بغداد أن القبر والمنارة لا يعودان إلى السيدة زمردة خاتون وأن قبر السيدة زبيدة الرشيد يقع في مكان آخر من بغداد حيث إنها دفنت إلى جوار الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق في مقبرة قريش والتي تطورت وتسمى حاليًا بمدينة الفاطمية، وقبر السيدة زبيدة في الحقيقة يقع حاليًا ضمن الجامع الصفوي الكبير الذي أسسه إسماعيل باشا الصفوي أثناء احتلاله لبغداد. وقد قام المرحوم الأستاذ مصطفى جواد بتثبيت وتوثيق الأمكنة الحالية لقبور الإمامين الكاظم والجواد. والإمام أبي يوسف (القاضي) والإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان بن ثابت وغيرها من قبور العلماء والأئمة كمعروف الكرخي ومنصور الحلاج والشيخ عبدالقادر الكيلاني والشيخ جنيد البغدادي والوكلاء الأربعة للإمام المهدي.

وقد سألته يومًا ما في مكتبة المتحف عن قبر الإمام أحمد بن حنبل الذي مات ودفن في بغداد وليس له قبر معروف، فأجابني بأنه يقع في وسط نهر دجلة حيث إن تغيير اتجاه المياه قد التهم مكان دفنه في الجزء الواقع بين الكاظمية والأعظمية أي أن قبره يتوسط قبور الكاظمية من جهة والإمام أبي حنيفة.

تلك هي أهم الذكريات لي في مكتبة المتحف وليس لي إلا أن أدعو بالرحمة على أرواح هؤلاء المؤرخين والباحثين. وأرى روح

مـــن أحـــــرق بغــــــداد؟

المرحوم كوركيس عواد ترفرف وتحوم حول الأيادي المجرمة التي عبثت وأضرمت النار فيها.



٥- المكتبـــة الوطنيـــة:

كانت تسمى سابقًا بالمكتبة العامة التي تقع في منطقة باب المعظم وتشغل منذ تسيسها في الثلاثينيات مبنى جميلا من الآجر تغطيه قبة كبيرة أشبه بقبة جامعة القاهرة. وقد تناولتها أعمال الهدم والتخريب العمراني عام ١٩٦٠ لتتخذ مكانا متواضعًا في شارع الزهاوي شملي بغداد إلى أن انتهت بنايتها الجديدة اللائقة بها في باب المعظم مقابل القلعة القديمة التي شغلتها وزارة الدفاع.

كانت هذه المكتبة هي المكان الأكثر ارتيادًا من قبَلنا حين كنا طلابًا في المدارس الثانوية ثم في الجامعة حيث كانت مكان دراستنا اليومي نأخذ من كتبها نراجع فيها ونبحث فيها ونسلمها بعد نهاية ليوم. وكان المرحوم الأستاذ مكي السيد جاسم والمرحوم المؤرخ عبدالحميد لعلوجي المشرفين عليها. يستقبلون الرواد لا بابتسامتهما الدائمة فقط بل بروح المساعدة والدعم. وقد قضى الأديب الكبير مكي السيد جاسم كل حياته في خدمة هذه المكتبة ولبحث في كتبها. كان يعتبر كل كتاب من كتبها التي لا تحصى وكأنه ولد من أولاده. وللأديب المذكور مجلس أدبي يعقده في بيته مرة كل أسبوع، وأصبح واحدًا من أهم المجالس لبغدادية، يلتقي فيه كبار الأدباء والمؤرخين ولعلماء والفنانين، وكان -رحمه الله- يعيش وهو في مجلسه حياة المكتبة الوطنية فكان يتحدث عنها وعن أهم ما اقتنته من كتب ومجموعات.

وأمام بناية المكتبة تم وضع نصب كبير من النحاس الأحمر لشاعر العراق ولعرب على مر لعصور أبي لطيب المتنبي الخالد الذكر وقد صنعته ونحتته أنامل الفنان الكبير محمد غني حكمت. لكن هذا التمثال رُفع أخيرًا من مكانه ليُنصب أمام لبناية الجديدة لنادي الضباط في مدخل حي الأعظمية في شملي بغداد.

لقد أدت هذه المكتبة دورًا رئيسيًا في البناء الثقافي المعاصر، وساهمت بعمق في خلق كثير من الشخصيات الأدبية والفكرية المعروفة فهي تقع في قلب بغداد في شارع الرشيد (جادة خليل باشا) ولم تكن بعيدة خلال عقود عديدة عن أهم الكليات، فكانت بنايتها تقع أمام كليتي الطب والصيدلة وتقع خلفها كلية الآداب والعلوم وكلية الهندسة وكلية التربية (دار المعلمين العالية) وكلية التجارة والاقتصاد وكلية الهندسة. وليست كلية الحقوق ببعيدة عنها. ويقع على بُعد خطوات منها شارع المتنبي وسوق السراي اللذان ينتشر على جانبيهما المكتبات ودور النشر وتحرير الصحف، لذا فقد كنا ونحن شباب صغار نرى كل يوم واحدا من عمالقة الشعر والأدب والعلوم لنتعرف على وجوههم ولو من بعيد ثم نتباهى مع عوائلنا حين نقفل راجعين إلى البيت أن رأينا اليوم الجواهري، ويومًا آخر تعرفنا على بدر شاكر السياب، وبلند الحيدري.. ولا أنسى ما غمرت أرواحنا من سعادة وابتهاج حين رأينا نازك الملائكة وهي جالسة تطالع في بهو المكتبة وأصابعنا تشير في نفس الوقت إلى سليمان العيسى ولمسية عباس عمارة وعبدالوهاب البياتي وهم يستعيرون الكتب والمجلات، أو نرى حافظ جميل يخرج متأبطًا أحد الكتب وخلفه يسير عبدالكريم العلاف وهو في حوار مع الشيخ جلال الحنفي لا نعرف كنهه وفحواه ربما عن آلة العود أو ربما حول الفارابي وما كتبه من أنغام موسيقية. ذاك هو دور المكتبة الوطنية. إنها سجل لأعلام العراق وأرشيف كان حيًا لأسماء تخلدها حركة الفكر والنور الإنسانيين.

٦- المكتبـــة المركـــزية:

وقد أقامتها جامعة بغداد بإشراف الأستاذ لدكتور أحمد البسام بمعاونة الأستاذ عدنان الدوري المعروف بميوله القومية ولوطنية والذي ترك السلك الدبلوماسي ليكرس نفسه لخدمة وتطوير هذه المؤسسة الثقافية التربوية. وتضم هذه المكتبة الألوف من الكتب والمصادر لتي يحتاجها طلاب وأساتذة جامعة بغداد والجامعات الأخرى، كالجامعة المستنصرية وجامعة التكنولوجيا فيها من المصادر العديدة ولثمينة التي لا يستطيع لطلاب أو الأساتذة توفيرها بسبب أثمانها لعالية وبمختلف العلوم. فكانت توفر الاحتياجات الأكاديمية لطلاب وأساتذة جميع الكليات الطبية منها والعلمية والاقتصادية والإنسانية. وفي نفس الوقت كانت تساعد الأساتذة في استيراد الكتب والموسوعات بأثمانها الأصلية وتستوفي مبالغها بأقساط بسيطة، فكان الأساتذة يزودون مكتباتهم الشخصية بما يستجد من إصدارات في مجال اختصاصاتهم وفيما يتعدى ذلك إلى مواضيع عامة.

وطيلة عمري التدريسي في جامعة بغداد كنت أرتادها بشكل يومي مبرمج وأحيانا أقود حلقات من الطلاب للتجمع فيها حول بحث من البحوث، وكنت كبقية الأساتذة الآخرين يعطي للطلبة المصادر الموجودة فيها بهدف تشجيعهم على ارتيادها. وكانت هذه المكتبة الملجأ الدائم لطلبة الدراسات العليا جميعًا، ففي أروقتها كانوا يمارسون البحث ويفتشون عن المصادر ويقومون بتحرير أطروحاتهم ورسائلهم. وتضم المكتبة في رفوفها نسخًا من تلك الأطروحات حيث كانت شروط مناقشتها تلزم الطلبة بإيداع نسخة من الأطروحة أو الرسالة حتى قبل مناقشتها إلى هذه المكتبة.

وقد استطعت شخصيًا أن أحقق حلمًا من خلالها طالما تمنيته وهو أن أتمكن من اقتناء نسخة من موسوعة «البريتانيكا» الإنجليزية وأخرى من موسوعة «اللاروس» الفرنسية. وقد استوردتهما لحسابي ودفعت ثمنهما بأقساط شهرية بسيطة على مدى سنتين ونصف.



٧- مركز صدام للفنون:

تأسس كاستمرار وتوسيع للمتحف الوطني للفن الحديث. ويقوم هذا المركز في بناء حديث جميل وضخم في قلب الجانب الغربي في بغداد (الكرخ القديمة) ليس بعيدًا عن دار المخطوطات ودار الوثائق. وقد ألحق به متحف الفنانين الرواد ونقلت جميع أعمال ولوحات هؤلاء الفنانين إليه. ويضم هذا الصرح المهم في قاعاته الكبيرة وفي مخازنه الآلاف من الأعمال الرائعة لكل الفنانين العراقيين المعروفين منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى اليوم. فنجد فيه لوحات عبد القادر الرسام الذي بدأت لوحاته تعرف منذ ذلك التاريخ وتقتنى لحد هذا اليوم، فهناك بعض الرسوم مؤرخة في عام ١٣٠٠ هجرية أي في عام ١٨٨١ ميلادية ولوحات عاصم حافظ والحاج سليم أبو الفنانين جواد سليم وسعاد سليم ونزار سليم ونزيهة سليم ولوحات محمود سامي والد الفنان الكبير عطا صبري ولوحات الفنانين أكرم شكري وقاسم ناجي وفرج عبود وصالح زكي وغيرهم إلى جانب لوحات فنان العراق الكبير ومنحوتاته جواد سليم والفنان ذي الشهرة العالمية فايق حسن وحافظ الدروبي والفنان الموصلي الكبير نجيب لويس آل شريف بك وعميد الفنانين إسماعيل الشيخلي والدكتور خالد الجادر وزير صالح ونوري الراوي بالإضافة إلى لوحات مديحة عمر وسعاد العطار وليلى العطار التي قتلها صاروخ أمريكي عام ١٩٩٦. ويزخر المتحف بأعمال فنانين كبار ومتعددين أعطوا في فن النحت كل قدراتهم وعواطفهم فهناك خالد الرحال ومحمد غني وإسماعيل مفتاح ونداء كاظم والدكتور علاء بشير وبران السعدي وهيثم حسن وغيرهم.

أما الفنانون المعاصرون فإن لوحاتهم وأعمالهم يزخر بها المركز وتلمع من خلالها أسماء سعدي الكعبي وراكان دبدوب ورافع الناصري، وعلي طالب وضياء العزاوي ومحمود صبري والمرحوم ارواش وصلاح جياد وماهود أحمد ومحمد مهر الدين ومخلد المختار وموريس حداد وغيرهم الكثيرون بالإضافة إلى أعمال الشباب المبدعين وإلى جانب ذلك نجد أعمال الخزافين المختلفة والذين هم ورثة خزافي بابل وآشور وسامراء وبغداد، منهم من مات ومنهم من لايزال يمد ساحة الفن بالطين والألوان والتشكيل، يذكر منهم سهام السعودي وسعد شاكر وماهر السامرائي وعبلة العزاوي وغازي السعودي وآخرون وآخرون.

يقوم المركز إلى كونه متحفًا ومعرضًا للأعمال القديمة والحديثة المختلفة برعاية الفن التشكيلي وحركته في العراق وهو المسؤول عن تنظيم أمور الفنانين التشكيليين وينظم في الوقت ذاته محاضرات ومؤتمرات وندوات مستمرة ومعارض داخل العراق وخارجه إلى جانب نشاطاته الأخرى في إقامة دورات تعليم وتطوير الفن التشكيلي.

ومن أهم أعمال الرعاية التي يقوم بها المركز توثيق أعمال الفنانين المتوفين من قبل لجنة خاصة حفاظًا على أصالة الفن التشكيلي ومنعًا للتزوير والتزييف

أمام بناية المكتبة تم وضع نصب كبير من النحاس الأحمر لشاعر العراق والعرب على مر العصور أبي الطيب المتنبي الخالد الذكر وقد صنعته ونحتته أنامل الفنان الكبير محمد غني حكمت



فن أكدى من نينوى:
رأس سرجون - برونز
٣٠٠٠ قبل الميلاد

الذين تتعرض لهما أعمال الرواد ولطالما اكتشف مثل هذه المحاولات وقام بفضحها وتعرية القائمين بها مما يجعل ساحة الفن التشكيلى فى العراق ساحة نقية ومبدعة.

إن هذا التدمير الجنونى الهمجى قد تم بتدبير مبرمج وبشكل منظم له أهدافه ومعاييره. وخلال كتابتى هذا الموضوع ظهرت مواقف وآراء وتعليقات فى أماكن عدة من المعارك تؤكد على حقيقة أن ما جرى هو مؤامرة. أمريكية - بريطانية - إسرائيلية. وأهم ما يؤكد ذلك استقالة المسؤول الثقافى فى إدارة اللجنة الاستشارية الثقافية فى تلك الإدارة موضحين أسباب هذه الاستقالة بأنها جاءت أولاً: كاحتجاج على ما جرى فى المتاحف العراقية والمعاهد الثقافية وثانيًا: تأكيدًا على إدانة حكومة الولايات المتحدة لقيامها بهذا العمل الإجرامى. وثالثًا: تنصلها من تحمل المسؤولية التاريخية أمام الضمير الإنسانى الذى احتجت كل مفاصله ضد تدمير البنية الثقافية للعراق. وجاء بعد ذلك تصريح البيت الأبيض بأن نهب المتحف العراقى هو أمر مؤسف. وهذا التصريح يعتبر اللغة الدبلوماسية اعترافًا صريحًا بأن حكومة الولايات المتحدة هى التى كانت وراء تلك العملية. ثم ما صرح به الخبير الأمريكى الذى لم يعلن عن اسمه من أن «عصابات منظمة قامت بسلب وحرق المتاحف فى العراق وأن القوات الأمريكية سهلت لها ذلك». إلى جانب ذلك فقد بنى خبراء اليونسكو فى اجتماعهم الخاص بمسألة تدمير البنية الثقافية من أنهم ومنظمتهم قاموا قبيل الحرب بتنبيه حكومة الولايات المتحدة بضرورة حماية المتاحف والممتلكات الثقافية فى العراق إذا ما شنت الحرب. وفى حديث لإحدى الإذاعات المهمة فى فرنسا مع الأستاذ المؤرخ الدكتور شهاب الصراف بين أن خبراء الآثار الأمريكان فى شيكاغو قد أجابوا على طلب للولايات المتحدة أن ضرب العراق يؤدى إلى إلحاق الضرر بالآثار والمتاحف وأنهم يخشون من أن الجيش الغازى لا يوفر الحماية لها.

كل ذلك يؤكد أن تدمير البنية التحتية الثقافية للعراق قد خطط له بشكل منظم وأن جيش الاحتلال قد استعمل العصابات الإجرامية المنظمة لتنفيذ المخطط بشكل يخدم الأهداف المستوحاة فى ذلك لا يخلو من العنف والهمجية وبقساوة يهتز لها الضمير الإنسانى وأعطى تنبيها لكل الشعوب بأن تأخذ اليقظة والحذر من المخططات المشبوهة التى تستهدف تدمير البنى الثقافية بهدف تحقيق السيطرة الكاملة بعد تغيير الأنماط السلوكية الثقافية لتلك الشعوب بما يتناسب ومصالح الولايات المتحدة وشركائها. ■

شاهد عيان:
«حرب تحرير» أم «حرب تدمير»؟!

روبرت فيسك

تناثرت أشلاء الآثار على الأرض؛ وتفتَّتت - بل قل تمزقت - إلى آلاف القطع المبتورة المشوهة. تلك الآثار، التى لا تُقدر بثمن؛ تلك الآثار التى أنتجها عبق التاريخ العراقى وأفرزتها أصالة الحضارة العراقية، ذهبت أدراج الرياح فى ثوان معدودة على يد عصابة من الناهبين السارقين، الذين انتقلوا - بدون وعى أو تفكير - من رف إلى رف، ضاربين بالتماثيل والأباريق عرض الحائط؛ غير عابئين بكونها عصارة جهد، تعبت فيه أجناس متعددة: من الآشوريين إلى البابليين إلى السومريين إلى الفارسيين إلى اليونانيين.

وإذا بأقدامنا - فى وسط هذه المأساة - تدوس على حطام التماثيل والأباريق الحجرية، والقواعد الرخامية التى صمدت خمسة آلاف سنة، متحدية كل حصار وكل احتلال فُرض على بغداد بالقوة؛ صمدت طيلة هذه القرون لتلقى مصيرها - أو حتفها - فى النهاية بعد دخول «المحررين» الأمريكيين، الذين أتوا بهدف «تحرير» بغداد. هل فعلها العراقيون؛ فقاموا وهبوا لطمس معالم تاريخهم، وتحطيم دلائل حضارتهم صاحبة الخمسة آلاف سنة؟

هذا التخريب للآثار - الذى حدث بشكل سخيف لا مبرر له وبشكل منظم لا مثيل له - لم نر مثله من قبل؛ اللهم إلا فى أفغانستان، حينما اعتدت طلبان على الآثار البوذية فى متحف كابول. بل، إننا - ربما - لم نشهد مثل هذا لتخريب منذ لحرب العالمية الثانية فى منتصف القرن الماضى.

«هذا ما فعلوه فى تاريخنا»..قالها لنا رجل عراقى فى منطقة الرمادى؛ قالها لنا فى أثناء تجوالنا بين أكوام الأباريق السومرية والتماثيل اليونانية، التى كانت تُعد من «التحف» النادرة، وأضحت الآن من «العجائب» التى لا رأس لها ولا ذراع. وأكمل قائلاً - ونحن مازلنا نمسك بمشاعلنا فى حجرة المخزن بالمتحف الوطنى العراقى - «نحن فى حاجة إلى الجنود الأمريكيين لحراسة ما خلفوه وراءهم. نريد رجال الأمن». لم يكن هذا الرجل - ذو المعطف الرمادى واسمه بالمناسبة عبد الستار عبد الجابر - سوى حارس المتحف، الذى شاهد، بأم عينيه، المعارك المسلحة التى اندلعت بين الناهبين وبين السكان المدنيين. أما خارج المتحف، فكانت طلقات الرصاص تتطاير من فوق رءوسنا، لتسقط على حوائط المنازل المجاورة. وفى غمار كل هذا، إذا بالحارس يلتقط جزءاً نادراً من آنية فخارية ضخمة - «كانت» تعلو حوالى قدمين أو أكثر - فأضحت بعد تهشيمها بقايا محطمة. «انظروا إلى هذه..إنها آشورية». قالها الحارس فى حسرة؛ يتحسر على «بقايا» الآشوريين، الذين حكموا العراق طيلة قرنين من الزمان، قبل قدوم المسيح عليه السلام.

والآن..لنلتفت إلى الأمريكيين - الذين جاءوا «لتحرير» بغداد - لنسألهم: ماذا فعلتم حيال كل هذا؟ ألستم أنتم حكام بغداد الجدد؟ إذن..فأين كان دوركم من كل هذا الخراب الذى حدث؟ لماذا سمحتم لهذا الحشد الغوغائى باختراق واقتحام هذا الميراث الفريد، الذى لا يُقدر بمال..ميراث بلاد الرافدين؟ والغريب أن تتم كل هذه الكوارث الفادحة، فى الوقت الذى يقوم فيه وزير الدفاع الأمريكى - دونالد رامسفيلد - موجهاً سخريته إلى الإعلام، لأنه «زعم» بأن الفوضى قد اندلعت فى بغداد.

لقد سمح الأمريكيون «بغزو» ذلك المتحف، الذى جُمعت تحفه وعجائبه على مدى قرنين من الزمان؛ جُمعت من قصور وأبراج وقبور عمرها ٣٠٠٠ سنة، على يد علماء الآثار، سواء كانوا عراقيين أو غربيين. أولئك العلماء الذين خلفوا من ورائهم عشرات آلاف الملفات المفهرسة، التى عكفوا عليها ليكتبوها بأيديهم.. فى القرن لتاسع عشر. فخرجت لنا هذه الملفات - صاحبة لخطوط الرشيقة القديمة - وهى «باكية».. «متألمة».. مبعثرة وسط ركام الخراب، لتلقى نفس مصير «رفقائها» من التماثيل والأباريق. وفى غمرة هذا السكون الحزين، قمت لألتقط قطعة صغيرة، كانت ملقاة على الأرض، لأقرأ عليها عبارة مكتوبة بالقلم الرصاص، تقول: «نهاية القرن لثانى، رقم ١٦٨٠»

لقد استخدم الحشد الغوغائى الغناء الخارجى ليتسللوا إلى المخزن لقد حطموا الأبواب المصنوعة من الصلب الثقيل؛ وحملوا المقتنيات الأثرية إلى السيارات والشاحنات؛ ورحلوا قبل قدومى إلى «مسرح الجريمة» بساعات قليلة. حينما سألت الحارس، صاحب المعطف الرمادى، عن عدد المقتنيات المسروقة، أجابنى بأنه لا يعلم حقيقة عدد المسروقات. لا أحد يعلم ماذا حدث لبقايا الآثار الآشورية التى كانت موجودة فى القصر الملكى بـ«خرس أباد»؛ ولا أحد يعلم ماذا حدث للأقراط الذهبية التى دُفنت مع جثث الأميرات السومريات منذ ٤٥٠٠ عام. أما الكارثة الكبرى، فقد تمثلت فى هدم صندوق زجاجى، كان يحتوى على حجر، عمره أربعون ألف سنة. والكارثة الأكبر تتمثل فى كيفية تصنيف الأشلاء التى تركها السارقون من ورائهم..من أحجار مهشمة، إلى مجوهرات متلألئة، إلى أباريق محطمة. هذا التصنيف سيأخذ سنوات، بل سيأخذ عقوداً، ليتم إدراج الآثار من جديد.

لقد انقطع عن بغداد كل شىء: الماء، الكهرباء، القانون، النظام. أما نحن، فظللنا ماكثين فى ظلمات البدروم بالمتحف، واقفين بين الأشلاء المبعثرة. وبينما نحن واقفون، مددت بصرى نحو ركن البدروم، فإذا بى أجد رفاً مكتوبا عليه «جميع المقتنيات المرصوصة تعود إلى ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد». ومع كل أسف، حتى هذه المقتنيات النادرة لم ترحمها أيدى السارقين.

أما ما شهدته مكتبة المتحف..فهو لم يكن بالفظاعة التى شهدتها التماثيل والتحف والأباريق. فالسارقون لا يبالون كثيراً بالكتب. ومن ثم، كان عدد الكتب المسروقة - والتى كانت تتناول الأعمال الأثرية فى منتصف القرن التاسع عشر - ضئيلاً جداً بالنسبة للمسروقات «الثمينة» الأخرى. فرأيت العدد الكامل «للدورية الجغرافية» من سنة ١٨٩٣ إلى سنة ١٩٣٦؛ وبجانبها وجدت كتاباً مغلفاً، يحمل



فن سومرى - مارى خاتم أسطوانى وطبعته التى يظهر عليها نقش تصويرى لمعركة



لقد سمح الأمريكيون «بغزو» ذلك المتحف، الذى جُمعت تحفه وعجائبه على مدى قرنين من الزمان؛ جُمعت من قصور وأبراج وقبور عمرها ٣٠٠٠ سنة



The Independent

ترجمة: شيرين حامد فهمى



فن آشورى- نمرود
الموناليزا الآشورية
من العاج القرن
الثامن قبل الميلاد

عنوان «بغداد: مدينة السلام». وبالرغم من ذلك، اعتدى الناهبون على بطاقات الفهرسة، فنزعوها من صناديقها، وألقوا بها في آبار السلالم والدرابزينات.

لقد لعب علماء الآثار الغربيون - البريطانيون والفرنسيون والألمان - دوراً رائداً في اكتشاف أجود وأنفس الآثار العراقية. فها هي البريطانية «المستعربة» والمخططة الدبلوماسية «Getrude Bell» التي كانت تسمى «أميرة العراق غير المتوجة»، والتي يقع قبرها على مقربة من المتحف - والتي كانت تُظهر حماسة غير عادية في تلك الاكتشافات. وها هم الألمان، الذين قاموا ببناء المتحف الحديث على ضفاف نهر دجلة؛ وقاموا بإعادة فتحه في عام ٢٠٠٠، بعد أن كان مغلقاً طيلة تسعة أعوام بعد حرب الخليج في عام ١٩٩١.

ومنذ أسابيع قليلة - وقبل الحدث المؤسف - صرح «جابر خليل إبراهيم»، رئيس مجلس الدولة العراقي للآثار، بأن محتويات المتحف تمثل «ميراث الوطن العراقي». «إذ أنها ليست فقط للمتعة والتسلية والرؤية؛ وإنما هي تمثل عظمة العراق». أما الآن، فقد اختفى الأستاذ إبراهيم؛ مثله مثل الكثير من موظفي الحكومة في بغداد. ولم يعد هناك سوى عبد الجابر - صاحب المعطف الرمادي - الذي يقف حلياً ليحمي ما تبقى من تاريخ بلاده، بصحبة زملائه، وبصحبة بنادق الكلاشينكوف. ويقول عبد الجابر: «نحن لا نريد امتلاك السلاح؛ ولكن كل فرد منا يتحتم عليه الآن امتلاك السلاح». «لابد أن نحمي أنفسنا لأن الأمريكيين هم الذين سمحوا بتفجير تلك الأوضاع. لقد قاموا بحرب ضد رجل واحد، فلماذا يتركوننا إذن فريسة لهذه الحرب ولهؤلاء المجرمين؟»

وبعد نصف ساعة، قمت بالاتصال بوحدة الشئون الإدارية التابعة للبحرية الأمريكية في شارع سعدون، لأعطي لهم عنوان المتحف، واصفاً لهم الحالة المخزية التي آل إليها. فجاءني الرد التالي: «إننا سنصل في الغالب إلى هناك». للأسف.. لم يأتوا. وعندما أتوا أخيرا كان الوقت متأخرا جدا؛ بعد فوات الأوان.. جاءوا بعد أن تبدد التاريخ الحضاري على يد عصابة من السارقين والمغتصبين الذين تركهم الأمريكيون يعيثون في الأرض؛ فأطلقوا أيديهم على بغداد، باسم «التحرير».

ولا غرابة بعد ذلك، أن تلقاني سيدة عراقية وتصرخ في وجه قائلة: «أنت أمريكاني! ارجع إلى بلدك. اخرج من هنا. نحن لا نقبلك في بلادنا. نحن كنا نكره صدام، والآن نحن نكره بوش لأنه دمر مدينتنا». لقد صبت على جام غضبها، معتقدة - خطأ - أني أمريكي الجنسية. لقد صبت جام غضبها، بدون أن ترى المتحف الذي دُمر وسلب، فضاع ميراث بلادها، كما أضاع ميراث مدينتها. فماذا لو رأت المتحف على صورته الحالية؟؟ ■

آتٍ من الماضي.. ذاهب باتجاه المستقبل

بين جناحي ثور عظيم!

نصير شمه

■■ لم يخطر ببال أحد أن الحرب على العراق ستكون عدوانا مدمرا تبدأ بالإنسان، مرورا باجتثاث جذر حضارته وآثاره وثقافته وهويته، وكذلك حاضره ومستقبله.

قد أصبح جليا الآن أن للعدوان أهدافا غير البترول بعد أن تأمنت السيطرة عليه، فورا اتجهت الآلة المدمرة للعبث بأصل الانسان الذي أبدع وابتكر واكتشف وعلم.

دمروه بحاضره، وعبثوا بتاريخه عبر السرقة والحرق.



لم يحصل في أي حرب أو عدوان أو احتلال أن دمرت مدينة أو منطقة تدميرا شاملا كما حدث للعراق، هذا الوطن الذي كان أرضا لحضارات كثيرة متعاقبة وعرف بأن فيه ابتدأت الأبجدية والعلوم والثقافة والشعر والفلك والطب والرياضيات والموسيقى وأشياء أخرى كثيرة أهمها الفيزياء والكيمياء والهندسة، علما بأن هذه العلوم كانت متاحة للجميع، لكن لا ينبغي لنا أن نفخر بهذا التاريخ وأن نعتز به، إذا كانت أمريكا تمتلك عقدة في هذا المجال كونها خليطا هجينا ليس له جذور حقيقية ولا يمتد تاريخه إلى أكثر من خمسة عقود معظمها الحديث عنه غير مشرف، فقد تأسست أمريكا على جماجم الهنود الحمر الذين استبيحت دماؤهم ونساؤهم وأرضهم، وهذا تقليد يتوارثه الأمريكان.

بعد مرور بضعة أيام على وقف إطلاق النار في حرب الخليج الثانية قررت أن أقدم أول حفل، كانت الدماء لاتزال ساخنة تنزف من عروق وشرايين الشعب العراقي، وأردت لهذا الحفل أن يكون داخل الصالة الآشورية في المتحف العراقي وكان عنوان الحفل (آت من الماضي، ذاهب إلى المستقبل) لم يكنْ هذا العنوان مجرد شعار، بل إنني أردت أن أقول من خلاله أن الحاضر ليس دائما كما نتمنى، وحينما اخترت مكاني بين اثنين من الثيران المجنحة العملاقة التي يزن الواحد منها سبعة وثلاثين طنا من الحجر الصلب وهو عبارة عن قطعة واحدة، وخلفي الإله الآشوري نابو الذي يتجاوز طوله اثني عشر مترا، وعلى اليمين واليسار ألواح عظيمة من الحجر تصف وتقف شاهدا على الحضارة الآشورية العظيمة في العراق.



كنتُ قلت للحضور يومها، نحن سلالة هؤلاء الذين يستضيفوننا اليوم، والذين أبدعوا هذه الفنون التي سبقت مايكل أنجلو في استخدام الحركة في النحت وفي التفاصيل شديدة الدقة، خاطبت الجمهور شارحا: من هنا يجب أن نبدأ من دون أن نلتفت إلى الأطلال التي خلفتها الحرب، كنت كمن يريد أن يطمئن نفسه على إرثه الذي يعشقه وعلى مستقبله الذي يريد أن يسهم به بقوة، وفي الوقت نفسه كنت أريد أن أشير إلى عراقة شعبنا العراقي بعد أن طوقته كل دول العالم الشقيقة والصديقة والعدوة في حرب لم يشهد التاريخ مثيلا لها من قبل، خصوصا أن إيمان الشعب بنفسه وبتاريخه وبعروبته وبانتمائه بكل الثوابت كان قد اهتز، من هنا جاءت أهمية هذا الحفل الذي أعاد الحياة الثقافية إلى بغداد بعد أيام من وقف إطلاق النار.

لم يكن ليخطر ببالي أن هذا المكان الذي يحتضن بين جدرانه تاريخا متسلسلا لتطور البشرية في أغلب مجالات الحياة يدمر أو يسرق بمنهجية مدروسة ومخطط لها مسبقا، فقد وقفت الدبابات الأمريكية تطوق المتحف الوطني العراقي وأطلقت طلقتها الأولى باتجاه بوابة المتحف لتدمرها ثم لتنقل الأعمال التي تمثل حضارات أور وسومر وآشور وأكد والحضر وبابل، وبعد ذلك الآثار الإسلامية إلى أماكن لا نعرفها وقد لا نفاجأ بوجودها قريبا في إحدى ولايات أمريكا، ومن ثم سمحوا لأناس لا نعرفهم ولا نعرف سحنهم ولا إلى أي بلد ينتمون حقيقة ليهشموا زجاج وباقي الأواني التي بالتأكيد لا يمكن لأمريكي معرفة قيمتها لتبدو وكأنها حالة فوضى ونهب يمارسها أبناء الشعب العراقي.



هنا أريد أن أذكر شيئا وهو أن الشعب العراقي غالبيته القصوى متعلمة، وفي المدارس كانوا يصطحبوننا إلى زيارة هذه الآثار والمواقع والمتاحف وكنا نخرج ومعنا كمية أحلام لها



فن آشورى: خرصاباء
ثور مجنح برأس بشرى. من
المرمر الجبسى. القرن الثامن
قبل الميلاد

بداية وليس لها نهاية عما كان يروى لنا بخصوص الملوك والحضارات التي قامت في بلاد ما بين النهرين، فهل يعقل أن يقوم عراقي عادي بتهشيم وتدمير وسرقة حضارة بلاده وتاريخه العريق.

أما ما يتعلق بدار الوثائق ومكتبة الأوقاف والمكتبة الوطنية العامة ومركز الفنون فهذه أماكن نرتادها بشكل متواصل ونعلم أن العراقيين هم الذين أودعوها في هذه الأماكن كي تحفظ، وفي كل يوم كنا نقرأ عن أحد كبار المثقفين وقد تبرع بعدد من المخطوطات النادرة حتى أصبح هناك خزين نادر جدا من المخطوطات، وهناك نسخ نادرة من القرآن الكريم خطها ابن البواب وأخرى لياقوت وحمدالله الأماسي والتبريزي وابن مقلة. بالإضافة إلى نسخة نادرة من القرآن خطت بأصابع الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بين طيات هذه المخطوطات أجمل فنون الخط العربي وزخارفه إضافة إلى كتب العلم والطب والفلك وصنوف الإبداع والعلوم الأخرى بخط مبدعيها مثل الكندي والفارابي والأرموي وابن سينا وكل من سمعنا أو قرأنا عنه في الحضارات التي سبقت الإسلام ثم فجر الإسلام وما تلاه.

أما لوحات الفنانين الرواد فقد قدمت جزءا بسيطا منها في مركز الفنون بدار الأوبرا المصرية في مطلع عام ٢٠٠٣، وقد تناولها النقاد المصريون باحتفاء كبير. هل أقول الآن أن هذه اللوحات والأعمال الفنية الرائعة التي حملت توقيعات جواد سليم وفائق حسن وشاكر حسن آل سعيد ومحمد غني حكمت وسعدي الكعبي وضياء العزاوي ورافع الناصري ونوري الراوي ومحمد مهر الدين وعلاء بشير وعلي طالب وسالم الدباغ، وأعمال الشباب كلها حرقت، هل فعل هذا هولاكو يا ترى أم أنها رؤية دانيال الذي أوصى بإنشاء دولة إسرائيل وصب اللعنة على أهل بابل.

طوفـــان جلجـــامش

عندما قلت هذه الجملة كنت أعلم حق العلم أن الشعب الذي يعايش تاريخا عريقا لا بد أن ينسج مستقبلا مهمًا، وأن الإنسان الذي يمتلك جذورا قوية سيظل موصولا بها عكس الذي ينبت هشـًا على سطح الماء من دون جذور حتى وإن نجحت تجربة عديم الجذور مؤقتا.

هذه الفكرة هي الاستراتيجية التي هيمنت على هذه الحرب، فهذه الحرب تحمل بجدارة عنوان الحرب / النفط / التاريخ.

أي الحرب على الماضي ممثلا بالتاريخ، والحاضر ممثلا بالإنسان والعمران والمستقبل الذي يمكن أن نقول أن النفط يسهم إسهاما كبيرا بصناعته لكن ليس وحده.

اترى هل أن سرجون الأكدي (٢٣٩٠ ق.م) وزيمري-ليم الماري (١٨٥٠ ق.م) وأدد-نيراري الآشوري (١٢٢٠ ق.م) ونبوخذ نصر الأول (١١٢٠ ق.م) ملوك الفتوحات الذين أسسوا بين دجلة والفرات مملكات وإمبراطوريات حكمت الجهات الأربع في الأرض، اتراهم يعلمون ما حل بأرضهم وبأبنائهم؟

هل إن الطوفان الذي تحدث عنه جلجامش في الملحمة الشهيرة هو ما يجري الآن؟

صـــلاة بابليـــة

حين عزفت مقطوعة صلاة بابلية لأول مرة في باريس عام ١٩٩٤. كانت الثقة تملؤني لأني كنت بينما أعزف أستعيد حضارة ستة آلاف عام من الثقافة والموسيقى كانت كلها تتقافز بين ناظري وبين زند العود، كنت أصف طقس عبادة بين الملك البابلي وآلهته، وكنت فخورا بأن أجدادي تعاملوا مع الموسيقى بهذه المرتبة حيث أصبحت الوسيط بين الإنسان وآلهته كما كانوا يعتقدون، وفي الحفلة نفسها قدمت من آشور إلى أشبيلية وكنت التقطت فكرة العزف بالأصابع الخمس من دون استعمال الريشة من المنحوتات الآشورية التي تصور أحد عازفي العود الآشوريين وهو يضرب على العود بأصابعه، تتبعت هذا الأمر أشهر طويلة حتى توصلت إلى طريقة عزف عرفها قبلي الآشوريون عدة آلاف من السنين لكنها انقطعت عنا، وعبر بحث طويل قمت بإعادة ربط الخيوط، ومن الكندي تعلمت أول نظام للهارموني الذي احترقت مخطوطاته اليوم في مكتبة دار المخطوطات.

ها أنا سليل حضارات عظيمة، وأمة صنعت أمجادها بالحفر على الحجر، وها هو الشاهد الأكبر الحجر يُهان بما يحمل ويهشم كما لو أنه قطعة بسكويت صغيرة، وها هو تاريخنا كله أصبح في جملة غريبة، وليس باستطاعتي أن أعرف كيف سيتعلم أطفالنا تاريخ بلادهم، وهل سيقرءونه مجرد حبر على ورق؟

إنني أشعر بأن ما أحمله من ألم ووجع يفوق ما ستمنحني إياه الديمقراطية بكثير، أشعر بأن عشبة الخلود التي حملها جلجامش قد اقتلعت من جذورها، وها أنا أتحرق ألما على جهد العلماء والمبدعين والمفكرين على مدى تسعة آلاف عام الذين ميزوا حضارات بلاد ما بين النهرين وقد أضاعها برابرة العصر الحديث.■

في التـــاريخ

زاهـــي حـــواس

■■ مرت حضارة العراق القديم مثلها مثل باقي حضارات الشرق الأدنى القديم بعصرين: عصور ما قبل التاريخ، وعصور تاريخية.

وعصور ما قبل التاريخ تم العثور على شواهدها ومنتجاتها الحضارية في عدة مراكز مختلفة بالعراق في الشمال والجنوب فكانت من أهم حضارات الشمال حضارة «جرمو» وحضارة «تل حسونة» و «سامراء» وكذلك «تل حلف» حوالي (٤٥٥٠-٤٠٠٠ ق.م). أما حضارات الجنوب فتركزت في «العبيد» و «الوركاء» و «جمدة نصر» حوالي (٣٢٠٠-٣٠٠٠ ق.م). ونحن نعلم أن العصور التاريخية اكتملت باختراع الكتابة وقصة الطوفان.

ولم تكن العراق دولة ذات وحدة مركزية وإنما تكونت من عدة مدن تسمى (دويلات المدن) وكان السبب في ذلك هو تلك الطبيعة الجغرافية للعراق. وتطورت قصة الحضارة في العراق القديم إلى أن وصلت إلى حضارات العصور التاريخية منذ حوالي ٣٠٠٠ق.م. فكانت الحضارة السومرية التي تعد من أولى حضارات العصور التاريخية في العراق القديم، وينقسم العصر السومري إلى فترتين منفصلتين تخللتهما الحضارة الأكدية.

وينقسم العصر السومري إلى: عصر بداية الأسرات السومرية، وعصر الإحياء السومري بعد انهيار الحضارة الأكدية. على أن أهم المواقع التي تركزت فيها الحضارة السومرية كانت في «كيش» والتي تقع جنوب العراق. والموقع الثاني هو «نيبور» التي تقع في الجنوب أيضاً وربما كانت تلك المدينة العاصمة الرئيسية لسومر. وكذلك كانت مدينة «أور» من أهم المدن السومرية ومثلها «لجش». ومن أهم القطع الأثرية التي ترجع لتلك الفترة لوحة للملك «أورنانشي» أول ملوك لجش واللوحة مصور عليها الملك بحجم كبير وهو يحمل فوق رأسه سلة بها مواد بناء وهي محفوظة بمتحف اللوفر وهي تمثل لنا اهتمام الملك بأعمال البناء والتشييد، وهناك أيضاً لوحة لخليفته «إياناتم» تعرف باسم (لوحة العقبان - لوحة



فن سومرى جديد: تلد
الرأس المعمم القرن ٢٢ قبل الميلاد من حجر الديوريت

النصر) يسجل عليها انتصارد على خصومه فى مدينة أوما وهى مدينة تقع شمال غرب لجش وهى محفوظة بمتحف اللوفر وترجع لحوالى ٢٤٧٠ ق.م.

وكانت الحضارة الآكدية ثانى الحضارات التى مرت بها العراق، حيث استقر الآكديون فى وسط العراق واستمرت تلك الحضارة حوالى ١٥٠ عاماً سيطر فيها حكامها على العديد من المدن السومرية، وكان من أهم ملوك تلك الفترة الملك «سرجون الآكدى» الذى حكم حوالى ٥٤ عاماً وكذلك الملك «نيرام سين»، ومن أهم آثاره لوحة تعرف باسم (لوحة النصر) سجل عليها انتصاراته على شعوب الجبل وهذه اللوحة رغم سوء حالتها إلا أنها تعتبر من أفضل الأعمال الفنية فى النقش البارز من بلاد النهرين، وهى مصنوعة من الحجر الرملى وذات قمة مدببة يبلغ ارتفاعها حوالى مترين، وقد نقشت على وجه واحد وعثر عليها بمدينة سوسة عاصمة عيلام وهى محفوظة حالياً بمتحف اللوفر.

ونصل بعد ذلك إلى عصر الإحياء السومرى فكان من أهم ملوك تلك الفترة الملك «جوديا»، وعثر له على حوالى ثلاثين تمثالاً منحوتاً من حجر الديوريت الأسود ومعظم هذه الأعمال تمثله وهو واقف، أما الجالس من هذه الأعمال فهو يعبر عن طاعة وولاء «جوديا» للإله، والكثير من هذه التماثيل محفوظ فى متحف اللوفر بباريس.

أما العصر البابلى فكان أزهى عصور العراق القديم حيث ظهرت فيه تشريعات الملك «حمورابى». حكم الملك «حمورابى» ٤٣ عاماً تمكن خلالها أن ينهض ببابل من دويلة صغيرة لعاصمة دولة كبيرة ذات شهرة وكان هدفه الأساسى هو توحيد بلاد النهرين تحت حكم ملك واحد.

ويعتبر «حمورابى» أحد أهم وأشهر مشرعى العالم القديم، وتشريعات «حمورابى» عبارة عن مجموعة من القوانين التى تنظم علاقات الأفراد بالدولة.

وهذه التشريعات كغيرها من القوانين عادة ما تبدأ بالمقدمة الدينية التى تعطى الملك قوة أمام شعبه وإنذار لهم بألا يتخلف أحد عن العمل. وبدأت هذه التشريعات فى الظهور منذ العام الثانى من حكم «حمورابى» وهذا العام سمى (عام إقرار حمورابى إلى العدالة على الأرض). ونُقشت هذه التشريعات على حجر كبير من الديوريت يجمع المسلة المحورة وشكل اللوحة وأقيمت هذه اللوحة فى معبد الإله «شمس» إله الشمس فى سيبار أو بمعبد مردوك فى بابل، وتم العثور على هذه اللوحة فى سوسة عاصمة دولة عيلام وهى موجودة بمتحف اللوفر.

وبرع البابليون فى العديد من المظاهر والعلوم الحضارية مثل الجغرافيا والطب والفلك والعلوم الطبيعية. وتمر العراق بالعصر الكاسى الذى اختلف المؤرخون فى أصل سكانه. أما العصر الآشورى الوسيط فيبدأ من نهاية مملكة بابل الأولى (١٣٨٠ – ٩١٣ ق.م).

والآشوريون لهم أصول سامية، هاجروا من الجزيرة العربية وسكنوا شمال العراق منذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد. وينقسم تاريخ الآشوريين إلى ثلاث فترات: العصر الآشورى القديم، ثم الوسيط (١٣٨٠–٩١٣ق.م)، ثم العصر الآشورى الحديث أو الإمبراطورية الآشورية (٩١٣–٦١٢ق.م). ومن أهم ملوك الآشوريين الملك «شلما نصر الأول» و الملك «آشور نصر بال الثانى» والملك «سرجون الثانى» وغيرهم من الملوك. وخلال تلك الفترة الآشورية تم غزو مصر من خلال ثلاث حملات عسكرية آشورية منذ عصر الأسرة الخامسة والعشرين فى مصر.

وتمر العراق أخيراً بالعصر البابلى الأخير أو المملكة الكلدانية التى كان آخر ملوكها الملك «نابونهيد» حيث ضعفت المدينة فى عهده إلى أن استطاع الملك الفارسى «كورش» فى عام ٥٤٥ ق.م، أن يسيطر على العراق حيث دخلت تحت الحكم الفارسى إلى أن غزاها «الإسكندر الأكبر» عام ٣٣١ ق.م، وإلى أن أرسل خليفة المسلمين «أبو بكر الصديق» جيشه لفتح بلاد فارس حيث بدءوا بجنوب العراق. والذى أمر ببناء مدينة بغداد هو الخليفة «المنصور»، وقام بجمع الفنانين المهرة من كل الممالك الإسلامية وكذلك المهندسين ليشيدوا بغداد، حيث ظلت العراق حاضرة الخلافة الإسلامية لمدة ٥٢٤ عامًا. ■

تقاسيم على قانون

الحزن العراقي معتق ومصفى، توقيته ليس كذبة أبريل، ورياحه ليست موسمية، فتحت كل حجر على الضفاف الأربع لدجلة والفرات حضارة وشهيد، وما كان اعتباطًا أن تولد أسطورة شقائق النعمان هناك حيث يعود دم الشهداء مطلع كل ربيع ليذكر الأحياء بتضحيات الموتى في سبيل المستقبل في بلاد يكاد الماضي يلتهمها.

وإنه لمستقبل غامض، وملتبس، وكئيب. فبعد كل ذاك الخراب هل يجرؤ أحد مهما كان طوباويًا أن يضيف إليه صفة المشرق بعد خراب البصرة والنجف والموصل وبغداد والناصرية والحلة وغيرها مما لم توفره الجحافل في زحفها غير المقدس.

وفي الأخيرة وهي حلة بني مزيد بين الكوفة وبغداد قال إبراهيم بن عثمان الغزي حين نزلها وتعرض له واليها، وأهلها:

أنا في الحلة الغداة كأني
علوي في قبضة الحجاج

وجميع العراقيين وفي عصورهم كلها من حجاج إلى هولاكو ومن قبضة طغاة إلى استعمار غزاة يسألون دون أن يجيبهم أحد:

- أليس بين الغزاة والطغاة طريق ثالث ولماذا لم يسمح أحد للعراقيين أن يسلكوه..؟

إنهم بلد الشعر والنفط والنخيل، والشعب الذي يهرب من الدلف إلى المزراب دون أن يجد من يفهم إشكاليات مواجهاته المعقدة بين غزو وديكتاتورية.

أغلبية الناس ضد الأنظمة وما أحد ضد الأوطان وذاك الذي يحترق أمام أعينهم ليس نفط الرميلة والخريبة فحسب، بل نخيل البصرة الذي قال عنه الأصمعي: «سمعت الرشيد يقول نظرنا، فإذا كل ذهب وفضة على وجه الأرض لا يبلغ ثمن نخل البصرة».

وأين الملك حسين وكل من دقوا الأسافين التاريخية والمعاصرة لينظروا ما حصل لبصرة الشعر والنخيل، وما هي الصورة التي ينقلها الرائي عن شعبها لعالم بلا رؤية لا يدري معظمه أن هؤلاء أحفاد من كانوا أكثر أهل الأرض تحضرًا فحولهم الاستبداد والغزو إلى موضع لا يليق بذاك الثوب الحضاري الزاهي للأمة التي اخترعت أول قيثارة ووضعت للبشرية أول قانون مكتوب.

حضاريًا البصرة واسطة العقد، فهي وككل المدن البحرية انفتحت على الثقافات كلها، ولم يكن عجيبًا ولا غريبًا أن تكون دارًا للفراهيدي، صاحب معجم العين، وبحار الشعر، ولسيبويه مؤلف الكتاب الذي قوم الألسنة ولايزال، وللجاحظ علم الثقافة العربية وعلامة مجدديها ولأبي نواس أقحوانة الشعر العربي. هؤلاء كلهم بصريون والقنابل لا تسقط في خلاء بل على دورهم وكتبهم وأحفادهم.

في البصرة نشأ النحو والمنطق والاعتزال ولم يكن عند العرب مع الشعر الذي ازدهر في مربدها غير هذه العلوم والفنون، فهناك عاشت الكوكبة الموهوبة التي وضعت أسس أرقى مدارس الفكر العربي، وما كان الفقه بعيدًا عن إنجازات البصرة وكيف يبتعد عن مدينة درج فيها واصل بن عطاء وسكن حواريها الحسن البصري.

وفيما الغربيون مشغولون في البصرة بالبحث عن رفات «الكيماوي» يتذكر عشاقها شاعرها ابن أبي عيينة الذي لو جاءها ما عرفها فليس ليلها المشتعل بالقنابل والرصاص هو ذاته الذي تشوق إليه ذاك الشاعر بحنان الأمهات من جرجان:

فإن أشك من ليلي بجرجان طوله
فقد كنت أشكو منه بالبصرة القصر

إن هذا النوع من الحنين معلق مرحليًا كالعطل الإجبارية في زمن الانقلابات - إلى إشعار آخر - فالناس تنشغل عن الحب والحنين في أزمنة الخراب، وفي هكذا أزمنة يقع الخلط، فيظن الناس أن المثل القائل «بعد خراب البصرة» من نتاج بصرة العراق، وما هو كذلك، فالبصرة التي خربت وصارت مثلاً هي بصرة المغرب في بلاد البربر كما يؤكد ابن حوقل، وكانت تعرف قبل مراكش باسم الحمراء وبينها وبين فاس حسب رواية البكري في «المسالك والممالك» أربعة أيام، وكانت تعرف أيضًا باسم «بصرة الكتان» لاشتهارها بتصنيع ذلك القماش المرتبط بالطيلسانات والأكفان

فهل يعرف المتفرجون على حرائق العراق أن ذلك البلد كان ممنوعًا من استيراد الأكفان لموتاه وقت الحصار..؟

ولماذا سيرة الأكفان الآن..؟ بل لماذا لا..؟ وهل هناك غيرها وليس في أرض العراق غير الشهداء والضحايا فشعب العراق كله «علوي في قبضة الحجاج» والحجاج هذه المرة بالزي العسكري الأمريكي ويخطب من CNN وليس من فوق منبر الكوفة كي لا يحصبه أحد بالحجارة، ولو حصل وحصب فابن جلا وطلاع الثنايا يعتمر الخوذة بدل العمامة بينما الحجاج العراقي أثناء نزف هذا الكلام في مخبئه السري في بغداد ينقح مسيرة الطغاة التاريخيين والمعاصرين، وبوده لو يمحو منها أبيات الشاعر البصري عمران بن حطان التي قالها لابن جلا الأول متندرًا بهروبه أمام غزالة الخارجية حين ترك نعله في أرض المعركة واختبأ كالفئران خلف خندق وسور:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة
ربداء تجفل في صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة بالوغى
بل كان قلبك في جناحي طائر

أسد علينا.. لا بأس هكذا يحصل دومًا مع السفاحين وسفر الطغاة مليء بهذه المواقف، فما أن يهدأ هدير البصرة حتى تشتعل الموصل والطريق طويل ما بينها وبين دمشق بوابة الدنيا الثانية، فياقوت قال عنهما وعن نيسابور في معجم البلدان: «بلاد الدنيا العظام ثلاثة نيسابور لأنها باب الشرق، ودمشق لأنها باب الغرب، والموصل لأن القاصد على الجهتين قلما لا يمر بها».

إنها موصل الحمدانيين وشقيقة حلب، وفيها قابل المتنبي قبل أن يصل إلى سيف الدولة أبا الهيجاء الحمداني، وياه.. ما أصعب هذا الاسم الحربي حين تثور الهيجاء لاحتلال بلد عربي، فيتفرج عرب كثر ويصطلي بنار الهيجاء نفر قليل.

من تلك المدينة خرج السري الرفاء إلى حلب فلما افتقدها صار مثلنا هذه الأيام لا يعرف هل يندبها أم ينوح عليها أم يشمخ متفاخرًا بروح المقاومة فيها، فهي دومًا على مفرق الغزاة في أساطيل الدم وطرق الحرير.

ومن قصائد السري الرفاء في حبيبته الموصل:

سقى ربى الموصل الفيحاء من بلد
جود من المزن يحكي جود أهليها
أأندب العيش فيها أم أنوح على
أيامها أم أعزي في لياليها
أرض يحن إليها من يفارقها
ويحمد العيش فيها من يدانيها

ولاحقًا سوف تتنازل الموصل عن لقب الفيحاء لدمشق تقديرًا لمروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين الذي ارتبط اسمه تاريخيًا بتجديدها، وترتيب رساتيقها وأفكارها ولعله وبعد بحار الدم التي خاضها أجداده، كان يفكر في تحويلها مدينة للتسامح، وتلك محاولة فشلت كما فشل إطلاق لقب مدينة السلام على بغداد بعد أن استلفته من نهرها حيث كان يطلق على وادي دجلة اسم وادي السلام لكن من قال أن ما يجوز على الأنهار ينطبق على المدن..؟

فعلاً السؤال مشروع: لماذا يسمون بغداد مدينة السلام، وهي لم تعرف الراحة يومًا واحدًا منذ أن وضع أبوجعفر المنصور أول حجر فيها وقال في تدشينها حسب رواية سليمان بن مختار: بسم الله والحمدلله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

هذه المرة جاءت العاقبة للأمريكيين فبغداد المنذورة لسلام لا يأتي قد لا تعرف الهدوء إلا بعد أن يرحلوا، هذا إذا قدر لها أن تعرفه، فهي ومنذ حجر المنصور من فتنة إلى حرب إلى حصار، ودومًا يصلها الغزاة في شهر صفر الهجري، فالجنرال تومي فرانكس لم يخلف التاريخ المتفق عليه مع هولاكو، وجميعهم يأتون ويهدمون ويرحلون، ويظل دجلة الخير يسيل بالبركة والأمنيات والأغاني، وأحلام القمح والصبايا.



وبغداد ليست متحجرة القلب كغزلانها وطغاتها فهي أول مدينة تدلَّع نهرًا وتطلق على أحد فروع دجلة اسم «دجيل» ولو قرأت ما كتبه أبوحيان التوحيدي عن طيب أيامها الخوالي لنزف قلبك دمًا وأنت ترى القنابل والصواريخ تهوي على قصر «الخلد» الذي كان مركز المدينة، وعلى قصر «القرار» الذي بنته زبيدة زوجة هارون الرشيد وقبل أن تستمتع به وجدت نفسها تراقب من شناشيله ومشربياته حرب الفتنة بين ولدها الأمين وأخيه المأمون، وكأن بغداد على موعد دائم مع فتن يحسمها سلاح الأجانب بعد أن يشعلها الظلم المحلي.

هناك وفي تلك المرابع البغدادية تجد التاريخ العربي كله يقف ساهمًا على جسر الغزل فالرصافة والكرخ توأمان يصل ما بينهما بدل حبل السرة جسور على مد البصر، وعلى أحدها وقف ذات يوم علي بن الجهم ليقول ذلك البيت الندي الطري الذي حفظته أجيال وأجيال، وتغنى به العشاق في كل العصور:

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

ولم تكن بغداد تدري من أين تأتيها القذائف الشهر الماضي، فليلها صار من الانفجارات الدائمة نهاراً، فانقبض صدر جسر علي بن الجهم ودخلت المها مرابضها ودمعت عيون الغزلان في الخنادق والفنادق على الأيام الخضر، ولا وقت للهوى بين جسرين ونهرين وحزنين، حزن على أبرياء يجرفهم سيل الكراهية، وحزن على أعرق عواصم الدنيا، وهي تتدمر يوميًا أمام سمع العالم وبصره دون أن تسمع صوت حراس التراث الإنساني الذين قلقوا الدنيا يوم تدمير أصنام باميان الأفغانية، ثم خيَّم على رؤوسهم الطير و«القنابل» الأمريكية تدمر في بغداد المارستان العضدي،

عـــــــراقـى

محـــيى الـــدين اللاذقــــانى

ونواعـيـر الـصـراة وصـرصـر والقطائع وجامع المنصور وقصر ابنته أسماء ودار ابن طاهر، ومـحـلة بـاب الطاق، ومـقـبـرة الرصـافـة حـيث مـراقـد مـعظم الـخلفـاء العباسيين.

وقد قيل للمنصور حيث بنى بغداد أن النجوم تقول أنه لن يموت فيها خليفة أبدًا حتف أنفه، وهي رواية أثبتها أبوسهل بن نوبخت وأرفقها بتوضيح مبتهج بعلم الفلك حيث قال: «وكان من أعجب العجب أن المنصور مات وهو حاج والمهدي ابنه خـرج إلى نـواحي الـجـبل فـمـات في مـاسبذان بموضع يقال له الرذ، والهادي ابنه مات بـعـيسـاباذ قـريـة شرق بغداد والرشـيـد مـات بطوس والأمـين أخـذ في شبارته وقتل بالجانب الشرقي والمأمون مـات بالبـذندون من نواحي المصيـصـة بالشـام والمـعـتـصـم والـواثق والمتـوكل والمنتصر وباقي الخلفاء ماتوا بسامرا ثم انتقل الـخلفـاء إلى التـاج من شرق بغداد وتعطلت مدينة المنصور منهم».

ولاحقًا سوف نجد التوحيدي يتحدث في الرسالة البـغدادية عن خـمول مـحلة الخلد حـيث مـدينة المنصـور التي لاتزال تـحـمل اسم الخليـفـة المؤسس، وهي ذات المنطقة التي دمرت الصـواريخ الأمريكية في الثامن من الـشهر الماضي مطعمًا فيها قبل سقوط بغداد بيومين ظنًا أن بعض أفراد القيادة العراقية يجتمعون فيه.

ولم يـدمـر المـبـتـهـجـون بسـلاحـهـم الحديث تراث الرشيد والمنصور فـحسب بل ومـعـهـما إرث أبوالعـباس الـسفاح في الأنبـار ـ المنطقة المعـروفـة حـاليـاً باسم الفلوجة ـ وفيها قصف الأمريكيون موكب الـسـفـيـر الروسي في الأسـبـوع الـثـالـث للحرب.

وهذا الخراب الأمريكي لم يطل التراث العـربي والإسـلامي وحـده بل وصل إلى الإرث الـسـومـري والـبـابلي، فـهناك مـدن سـومـرية كـثيـرة تعرضت للقصف منها واحـدة قـرب الناصـرية من القـرن الرابع قبل الميلاد كـان اسمهـا «لجش» وتـعـرف حـاليًا باسم هبـاء، ولا أحـد يعرف قبل أن ينجلي دخـان المعارك إن كان التـدمير قد طال «أور» و«الزاقورة» وعـشرات المواقع البابلية التي صدحت فيها عشتار داعية إلى الحب بدلاً من الحرب.



تُرى هل كـان الـسـيـاب ابن جـيـكور وجـار الـبـصـرة وعـاشق بـغـداد ينظر إلى هذه الأيام حين قـال واصـفًا أحزان عشتار في قصيدة «مدينة بلا مطر»:

عشتار عطشى ليس في جبينها زهر
وفي يديها سلة ثمارها حجر

ترجم كل زوجة بها وللنخيل
في شطها عويل

العراق يعول وقسم منه يفرح، ومن جنوبه إلى وسطه حيرة وخوف مما يأتي وعلامات استفهام مما يجري في الشمال، فالمأساة في كل بيت وأيوب البابلي الذي سرق أسطورته العـبـرانيـون ينطق باسم جميع العراقيين المحاصرين بين مطرقة الـغـزو وسندان الـديكـتـاتـورية، ولـسـان بـعـضـهـم يـسـأل هـل جـاء الأمـريـكـيـون لـتـحـريرنا أم لنفطنا أم انـتـقـامًا للـسـبي البـابلي؟ أمـا من كف عن الأسئلة فينشد مع أيوب الرافدين:

تآمر على المخادع والمرائي
وأنت يا إلهي لا تحبط مسعاه
أنا الحكيم لماذا أقيد مع الجهلة
أنا المدرك العاقل
لماذا أحسب مع الجهال

وفي منطقة تـخـتـلط فـيـهـا الـوقـائـع بالأساطير، والأرقام بزبد المخيلة ويتحكم خـوف المـاضي بـفـرح الـحـاضـر وأمل المسـتـقبل تظل عـيـون الناس على النهر والجسر والإنسـان والنخل السـامق الذي يعلم من حـوله بعض فـصـول الكبـرياء، ويحن مثلهم إلى عودة غزل الجسور.

دولا العذبوني.. دولا المرموني
وعلى الجسر المسيب سيبوني
وما مثل بغداد في أيامها الزاهيات

هكذا قال عنها عـمارة بن عقيلي حفيد جرير:

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين
على تقلبها في كل ماحين
ما بين قطربل فالكرخ نرجسة
تندى ومنبت خيري ونسرين
تحيا النفوس برياها إذا نفحت
وخرشت بين أوراق الرياحين.

ولعله في الفترة ذاتها كان أبوالمطهر الأزدي يصف بغـداد نثرًا على لـسـان أبي القاسم البـغـدادي في رسـالـة أبي حـيـان: «دجلة مـشـحـونـة بالمراكب والـزواريق محفوفة بالقصور والجواسق، ترتفع ما بينها أصوات الأغاني وخفقات النايات والسواني، وأصوات الملاحين، وزعقات المؤذنين إن رأيتها ترى والله جمالاً وكمالاً وتسمع من ألحانها الشجية سحرًا حلالاً.

هكذا كـانت مدينة أول قـيـثـارة وأول قانون واليوم لا تسمع في بغداد التي لا تحب يوم الأربعـاء ولا صفر الهجري غير أنينها ولا أحد يعـبر الشطين على مود الأحباب والأصحاب:

ـ عبرت الشطر على مودك

فـاللهب في كل مكان، والسمـاء تمطر حـمـمًـا فـتطيـر فـوق الـنهـر الأرواح بدل الـعـصـافـيـر، وتلك حـالـة لـن يـغـفـرهـا العراقيون الذين لم يرحموا طغاتهم عبر التـاريخ ولا تعـاملوا بمودة مع غـزاتهم، فهم الـذين صنعـوا أقـبـح صـورة للتـتـار والسـلاجـقـة، والـغـزنويين وهـم الذين حـولوا الحـجاج إلى مـسخ مـشـوه حـين أشـاعـوا عنه أنه ولـد بلا دبر فـثـقـبـوا له واحـدًا على عـجـل، وهـذه الـجـراحـة الـخـيـالـيـة إن صـحـت تكون أول عـمليـة جراحـيـة نـاجـحـة في الـتـاريخ لمؤخـرة سفاح عربي سبح كـغيره فوق بحيرات النفط والنعم في بلد أعطاه الله كل شيء لكن حكامه نادرًا مـا عـرفـوا طريقـة الاسـتـفـادة من ثروات الأمـة وروحـهـا الـحـضـارية الـتـواقـة لـلـعـمـران والـبـنـاء وتعمير الكون واحترام القوانين.

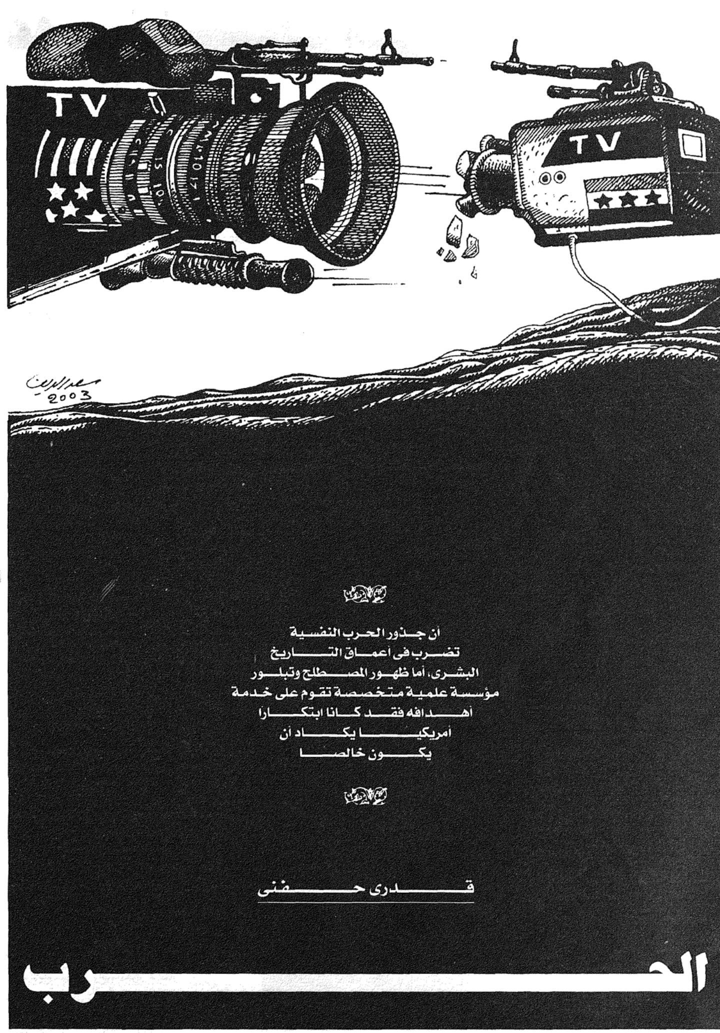


من أور في الـعـراق خـرج جلجـامش جنوبًا إلى شط العرب ليـصل إلى دلمون بحـثًـا عن عـشـبـة الـخلود ولما خـسـرها لاأفـعـى قدم للبشرية خلاصة تجربته الروحـيـة وأعطاها كنزها الذهبي الأثمن من «الجـرة الذهـبـيـة» فـقـد اكـتـشـف جلجامش، وهذا ما أوحت به أسطورته لمن جاء بعـده بأن بناء حضارة الإنسان هو الطريق المستقيم للخلود، وتلك حكمة لا تعرفها القوات الغازية ولا المتطفلون على الـحـضـارات الذي ينسـفـون ألواح حمورابي في مكتبة آشور ـ بانيبال دون أن يفكر أحد بعدل أو حرية أو قانون على الأرض الـتي طورت قـــبـل أن يـشـب السفاحون أول وأرقى القوانين المدنية.

لقد تحول بلد حمورابي وجلجامش وعشتار ونبوخذ نصر والرشيد إلى غابة بلا حـرية ولا قـانون ولا فـرح، فـالـغناء تحـبسه دومًـا هناك الحناجر لتفسح طريق الوديان لأنهار البكاء.. ألم أقل لكم أنه الـحـزن الـعـراقي الأبدي المعـتق والمصفى، فكلما أوشكت الدمعة أن تجف أو تكاد أطلقـهـا من منابع الروح ظلم جديد.



فن سـومـري ـ القـرن الـثـانـي والـعـشـرون قبل الميلاد



TV
TV
2003
أن جذور الحرب النفسية
تضرب فى أعماق التاريخ
البشرى، أما ظهور المصطلح وتبلور
مؤسسة علمية متخصصة تقوم على خدمة
أهدافه فقد كانا ابتكارا
أمريكيا يكاد أن
يكون خالصا
قدرى حفنى
الحرب

وقفة أمام المصطلح

الحرب أيًا كان نوعها فعل يقوم به فرد أو تقوم به جماعة بهدف إجبار الخصم على التسليم بما هومطلوب منه أو بالأحرى مفروض عليه. وتتباين الحروب تبعًا لأهدافها أو لنتائجها أو لأدواتها. ثمة حرب كيمائية، وحرب بيولوجية، وحرب نووية، أواقتصادية، أوإعلامية إلى آخره. الحرب النفسية وفقًا لهذا التصنيف هى تلك الحرب التى تعتمد على أدوات التأثير النفسى لتحقيق نفس أهداف الحرب بعامة. وإذا كانت الحروب «المادية» تستهدف الماديات بما فيها أجساد البشر، فإن الحرب النفسية إنما تستهدف «تعديل سلوك وأفكار البشر» وذلك وفقًا لما هو متوافر من قوانين علمية تتيح التحكم فى السلوك وتعديل أنماطه.

ولايتسع المقام للتفصيل فى عرض لتطورالعلمى لاكتشاف تلك القوانين، واتساع وتحديث مجالاتها التطبيقية لتمتد من مراكز مكافحة الإدمان، ومؤسسات إعادة تأهيل المرضى، إلى معسكرات الاعتقال والتعذيب. وإذا ما نظرنا إلى الحرب النفسية باعتبارها سلاحًا من أسلحة القتال -وهى كذلك بالفعل- فإننا سوف نستوعب حقيقة أن العاملين فى هذا السلاح القتالى يحتاجون شأن غيرهم من المقاتلين إلى توافر مايشبه خطوط الإمداد والتموين. تحديث معلوماتهم عن الجماعة التى ينتمون إليها، ومعلوماتهم عن العالم المحيط بهم من أصدقاء وأعداء على حد سواء، وكذلك تحديث معلوماتهم فى مجال تخصصهم أى علم النفس بفروعه المختلفة. وإذا كانت المعلومات العسكرية تهتم بحجم القوات ونوعية تسليحها ومواقع انتشارها، فإن المعلومات النفسية تشمل كل مايتعلق بالسلوك لبشرى الراهن والمتوقع للجماعات المستهدفة فى الداخل والخارج. وتزداد أهمية تلك المعلومات كلما اقترب السلوك المرصود من مناطق التأثير على الروح المعنوية للخصم وللنحن وللآخرين على حد سواء.

نظرة إلى التاريخ

يبدو للوهلة الأولى كما لوكان مفهوم الحرب النفسية مفهومًا حديثًا، وقد يكون الأمر كذلك لو وقفنا عند حدود ظهور المصطلح بصيغته الراهنة، والتى بدأ تداولها مع نذر الحرب العالمية الأولى. أما من حيث الممارسة الفعلية فقد عرف البشر الحرب النفسية ومارسوها منذ عرفوا ومارسوا الحرب بمختلف أشكالها، أى منذ فجر التاريخ. مارسوها فى البداية بصرخة توقع الرعب فى قلب العدو، أو تثير الشجاعة فى قلب المهاجم. وتطورت الصرخات البدائية شيئًا فشيئًا لتصبح منشورات وإذاعات ومحطات بث تليفزيونى، وخططًا فنية معقدة يضعها المتخصصون فى فروع الحرب النفسية.

ولعلنا لا نبالغ إذا ما قلنا أن ممارسة الحرب النفسية لم تتوقف قط حتى فى فترات السلام القليلة المتناثرة التى عاشتها البشرية عبر تاريخها الطويل، حيث ظلت الحرب النفسية قائمة لا تفتر فى فترات القتال والسلام على حد سواء، ولعلها تكون أكثر صخبًا، بل وأشد خطرًا حين تخمد نيران القتال وتصمت المدافع. حينئذ تكون هى السلاح العامل الوحيد. ولعل نموذج ما يعرف بحقبة الحرب الباردة، أوحقبة اللاحرب واللاسلم التى بدأت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية واستمرت إلى انهيار الاتحاد السوفيتى كانت نموذجًا مثاليًا لحرب ضارية لم تعرف الرحمة اعتمدت على ترسانة من الأسلحة الفتاكة الصامتة تضم الاقتصاد والدبلوماسية وغيرها، وعلى رأس تلك الترسانة سلاح الحرب النفسية.

فى عام ١٩٤١ اعتمد رئيس الولايات المتحدة الأمريكية قرار الكونجرس بتأسيس ما أطلق عليه «مكتب الخدمات الاستراتيجية» وكانت الخدمات الاستراتيجية الموكلة لهذا المكتب تشمل جمع وتحليل المعلومات عن أنشطة الأعداء، والاعتماد على تلك المعلومات «فى رفع الروح المعنوية لجنودنا، وخفض الروح المعنوية للأعداء». وكان فى مقدمة من اعتمد عليهم ذلك المكتب فى إنجاز مهامه مجموعة متميزة من أبرز المتخصصين فى علم النفس آنذاك. وقد أصبح مكتب الخدمات الاستراتيجية فيما بعد مكونًا رئيسيًا من مكونات وكالة المخابرات المركزية الأمريكية حين أنشئت عام ١٩٤٧. وقام المكتب تحت تلك المظلة طيلة حقبة الحرب الباردة باستخدام كافة منجزات علم النفس فى إدارة حرب نفسية مكثفة ضد الاتحاد السوفيتى وحلفائه، وظلت تلك الحرب مشتعلة على كافة الجبهات إلى أن انهار الاتحاد السوفيتى وتفكك. ورغم أن أحدًا لا يستطيع الزعم بأن تلك الحرب النفسية كانت السبب الوحيد أوحتى الأساسى فى حدوث انهيار الاتحاد السوفيتى وما ترتب على انهياره من تغير حاسم فى علاقات القوى الدولية، إلا أن أحدًا لا يستطيع كذلك إنكار الدور الذى لعبته الحرب النفسية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية فى هذا الصدد.

وتعددت مسميات المؤسسة المسئولة عن هذا النوع من الأنشطة، فشهد عام ٢٠٠٢ افتتاح مكتب جديد، يحمل اسمًا جديدًا، وإن كان يتولى نفس المهام، تحت اسم «مكتب التأثير الاستراتيجى» Office of Strategic Influences وأوكلت إليه مهمة ما يسمى بعمليات المعلومات Information Operations ولم يلبث وزير الدفاع الأمريكى رامسفيلد أن قام بإلغاء المكتب فى فبراير الماضى بعد أن ثارت بشأنه فضيحة تتعلق بتورطه فى زرع مقالات إخبارية كاذبة فى أجهزة إعلام أجنبية، وأنشئ بديل له أطلق عليه مكتب جديد هو «مكتب الأنشطة المعلوماتية» Office of Information Activities.

خلاصة القول أن جذور الحرب النفسية تضرب فى أعماق التاريخ البشرى، أما ظهور المصطلح وتبلور مؤسسة علمية متخصصة تقوم على خدمة أهدافه فقد كانا ابتكارًا أمريكيًا يكاد أن يكون خالصًا.

تحولات فى خريطة الحرب النفسية

اتخذت المعسكرات المتقاتلة فى ساحات الحرب النفسية مع انتهاء الحرب العالمية الثانية، نفس الشكل الذى تتخذه الصراع العالمى. لقد انقسم العالم عشية انتهاء تلك الحرب إلى معسكرين أساسيين. أحدهما بقيادة الاتحاد السوفيتى يضم أساسًا دول أوروبا الشرقية، والآخر بقيادة الولايات المتحدة ويضم أساسًا دول أوروبا الغربية. وتحيط بهذين المعسكرين بقية دول العالم التى اختلفت تسمياتها بين دول العالم الثالث، أو دول عدم الانحياز، أو دول الحياد الإيجابى، أو الدول النامية إلى آخر تلك التسميات التى قد تعكس فى حد ذاتها ملمحًا من ملامح الحرب النفسية التى نحن بصدد تناولها.

تعددت جبهات المواجهة بين المعسكرين الكبيرين، وتمثلت جبهة المواجهة العسكرية فى قيام حلف الأطلنطى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية فى مواجهة حلف وارسو بقيادة الاتحاد السوفيتى. ولكن تلك الجبهة العسكرية لم تكن الجبهة الوحيدة، بل إنها لم تكن أكثر الجبهات ظهورًا طوال فترة الحرب الباردة. كان ثمة جبهة أخرى أكثر سخونة وظهورًا وأشد صخبًا، هى جبهة الحرب النفسية. كل يحاول كشف مثالب وعورات المعسكر الآخر، ويسعى فى نفس الوقت لإبراز إيجابياته وإنجازاته. كل يحاول أن يتوجه بحربه النفسية إلى جمهوره ليضمن تماسكه، وإلى جمهور «العدو» لدفعه للثورة، وإلى تلك الدول المحيطة بالمعسكرين سعيًا لكسب الحلفاء.

ولا يتسع المقام لاستعراض أدوات وآليات ومراحل تلك الحرب النفسية الضارية، فقد أصبح الأمر كله فى ذمة التاريخ بعد أن انهار الاتحاد السوفيتى وتغيرت ملامح العالم، وكان ضروريا تبعا لذلك أن تتغير ملامح الحرب النفسية.

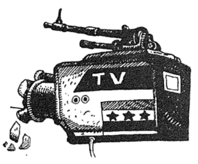
وفيما نرى فإن الحرب النفسية التى نشهدها اليوم مواكبة للحرب العسكرية الجارية على أرض العراق لم تبدأ مع بداية هذه الحرب منذ أسابيع قليلة، ولا حتى مع بداية ما يعرف بحرب تحرير الكويت. لقد بدأت تلك الحرب عشية انهيار الاتحاد السوفيتى مباشرة. ويصعب علينا محاولة فهم ما يجرى أمام أعيننا اليوم من حرب نفسية ضارية إذا لم تسبق ذلك محاولة لتبين ما جرى عندما سقط الاتحاد السوفيتى، فبسقوط الاتحاد السوفيتى وتغير الخريطة السياسية للعالم، كان لابد أن تتغير خريطة جبهات الحرب النفسية.

لقد فقدت أوروبا بسقوط الاتحاد السوفيتى ذلك الخطر الذى كان يهدد الغرب الرأسمالى بعامة، والذى كان التحالف تحت قيادة الولايات المتحدة فى مواجهته، ولعلنا لا نبالغ إذا ما قبلنا القول بأن مبرر وجود حلف الأطلنطى قد اهتز من أساسه بعد اندثار حلف وارسو بانهيار الاتحاد السوفيتى.

أما بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية فقد كان تأثير انهيار الاتحاد السوفيتى عليها مزدوجًا. لقد فقدت بانهياره ذلك الخطر الذى كان ضمن قوى التوحيد الداخلى للمجتمع الأمريكى متعدد الثقافات والأصول. وكان لزامًا عليها فى هذا الصدد أن تختار لها خطرًا تضمن به استمرار وحدة الصف الداخلى. والاختيار فى هذا السياق لا يعنى الاصطناع من لاشىء، بل تضخيم خطر فعلى قائم والترويج الدعائى له بحيث يقوم بوظيفة الاتحاد السوفيتى فى العالم القديم.



النفسية



وجدت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية ضالتها في ذلك العمل الإجرامي الذي وقع في ١١ سبتمبر الشهير، فأصبح الخطر لدى الشارع الأمريكي متجسدا فيما عايشه الجمهور الأمريكي في ١١ سبتمبر



إن الدور التوحيدي الذي يلعبه الخطر الخارجي، قد أصبح من الحقائق الكلاسيكية في علم النفس الاجتماعي وديناميات الجماعات. ويصبح وجود هذا الخطر بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية في إطار متغيرات العالم الجديد أكثر ضرورة إذا ما وضعنا في الاعتبار حقيقة أن قيام الولايات المتحدة الأمريكية على توفير مناخ ليبرالي يؤكد حرية الفرد. لقد كانت تلك الليبرالية ثمنًا مقبولا في إطار الحرب النفسية الأمريكية ضد الاتحاد السوفيتي، أما وقد انهار الاتحاد السوفيتي، فقد أصبحت تلك الليبرالية ذاتها تمثل عبئا بل تهديدا بحيث أصبح ثمنها في نظر البعض قد يفوق عائدها. ووجدت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية ضالتها في ذلك العمل الإجرامي الذي وقع في ١١ سبتمبر الشهير، فأصبح الخطر لدى الشارع الأمريكي متجسدا فيما عايشه الجمهور الأمريكي في ١١ سبتمبر والذي اعترف أسامة بن لادن بتبنيه له سياسيًا رغم تحفظ البعض حول أن ذلك التبني السياسي الواضح والمتكرر لا يرقى ليكون اعترافًا صريحًا بالمسئولية الجنائية عن ذلك الفعل الإجرامي، وبصرف النظر عما يشوب التحقيقات الأمريكية في هذا الصدد من غموض، فإن الحقيقة التي أصبحت راسخة لدى جمهور كبير من الأمريكيين، والتي تبرزها وتؤكدها يوميا آلة الحرب النفسية الأمريكية هي أن «الخطر الذي يهدد الوجود الأمريكي يتمثل في الإرهاب» وأن الرمز الأساسي لذلك الخطر يتجسد فيما يمثله أسامة بن لادن «المسلم العربي» ولم يكن غريبًا ولا صعبًا أن يعمم نموذج بن لادن ليشمل المسلمين والعرب خاصة. إن قانون تعميم رمز التهديد ليشمل أشباهه، قد أصبح أيضًا من كلاسيكيات علم النفس في مجال نظريات التعلم. وتزداد مهمة ذلك التعميم الأمريكي سهولة في ظل نفور عربي متفاوت الدرجات حيال السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، وهو نفور ظاهر لا يحتاج لجهد متخصص لرصده، فالعين المجردة تقع بشكل متكرر على مشاهد حرق الأعلام الأمريكية.

ولكن آلة الحرب النفسية الأمريكية رغم كفاءتها الحرفية الفائقة، لم يكن في مقدورها أن تحقق نجاحًا كاملاً. لم يكن المستهدف من تلك الحرب النفسية مجرد تجسيد الخطر الخارجي، بل كان الهدف الداخلي والأهم -فيما نرى- هو التخلص من تلك الليبرالية الأمريكية التي فقدت وظيفتها بالنسبة للسلطة الحاكمة مع غياب الاتحاد السوفيتي عن الساحة.

وبدأت السلطة الجديدة في الولايات المتحدة الأمريكية، وتحت قصف مكثف من آلة الحرب النفسية، في توجيه ضرباتها للداخل. ولعل خير ما يعبر عن ذلك تلك الوثيقة التي يجري نشرها وتداولها حاليًا، والتي تحمل حتى الآن توقيعات ما يزيد على ٦٥ ألفًا من معارضي الحرب وسياسات الإدارة الأمريكية الحالية، تضم قائمة أسمائهم العديد من مشاهير المثقفين والعلماء. إن قراءة مدققة لتلك الوثيقة تكشف بوضوح أن تلك النخبة من الأمريكيين قد كشفوا عن هدف أساسي وثيق الصلة بغزو العراق. هدف يبدو بعيدًا عن الشرق الأوسط برمته. إن الموقعين على الوثيقة يربطون بوضوح بين ما حدث في ١١ سبتمبر وغزو العراق وما أقدمت عليه السلطات الأمريكية حيال الليبرالية في الداخل، فتقول الوثيقة: «.. شاهدنا مصدومين أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ المرعبة... إلا أن الحداد ما كاد يبدأ حتى أطلق أكبر قادة الأرض العنان لروح الثأر. وضعوا سيناريو مفرطًا في التبسيط عن الخير في مقابل الشر، والذي تم تناوله من قبل وسائل إعلام طيعة وخائفة إلى حد أنهم قالوا لنا إن التساؤل عن سبب حدوث هذه الكارثة يقارب الخيانة. لم يعد هناك مجال لأي جدل. لم يعد هناك أي أسئلة سياسية أوأخلاقية شرعية، وأمسى الجواب الوحيد المحتمل هو الحرب في الخارج والقمع في الداخل.... نشرت الحكومة الأمريكية فوق المجتمع حجابًا قاتمًا من القمع. وقد أنذر الناطق الرسمي باسم الرئيس الناس للانتباه إلى ما يتفوهون به...».

أما التأثير الثاني لانهيار الاتحاد السوفيتي واختفائه من الساحة الدولية، فقد تمثل في ترسيخ تصور لدى الولايات المتحدة الأمريكية بأن العالم قد انفتح أمامها لتسعى لإعادة تشكيله ليصبح عالمها هي فحسب. عالم القطب الواحد، ومن ثم فقد وجدت أوروبا نفسها في مواجهة تحدٍ جديد قد لا يرقى لدرجة الخطر الذي كان يمثله الاتحاد السوفيتي. التحدي الاقتصادي والحضاري الذي تمثله الولايات المتحدة الأمريكية، وإن ظلت ضمن تحالف دولي جديد تقوده الولايات المتحدة الأمريكية أيضًا وإن كان يستهدف هذه المرة ذلك الخطر الجديد، خطر الإرهاب الدولي والدول التي ترعاه.

أما بالنسبة لبقية دول العالم، دول العالم الثالث، فقد فقدت بانهيار الاتحاد السوفيتي ميزة العيش في عالم القطبين الكبيرين. ذلك العالم الذي كان يتيح لها قدرًا من المناورة المقصودة، أوالتأرجح غير المقصود، بين العملاقين المتصارعين بما يسمح لها بالاستفادة من صراعهما باعتبارها ضمن أهداف كل من العملاقين لكسب حلفاء. لقد أصبحت تلك الدول في مواجهة خطر جديد هو التحدي الحضاري والاقتصادي بل والعسكري الذي تمثله الولايات المتحدة الأمريكية بالنسبة لها.

مقدمات لما يجري

ليس من شك في خطورة الدور الذي لعبته وتلعبه أسلحة الحرب النفسية في تطور الأحداث منذ البداية. وقبل أن نقترب من محاولة تبين ملامح ذلك الدور، قد يكون من الملائم أن نشير إلى أن جوهر الحرب النفسية لم يختلف عبر التاريخ. تتمثل البداية في رسالة يقوم على صياغتها قادة الحرب النفسية، وأهم مكونات هذه الرسالة هو تبرير الإقدام على القتال. وتوجه الرسالة إلى نوعيات ثلاث من الجمهور: جمهور الجماعة وأبنائها المقاتلين بهدف رفع معنوياتهم، وجمهور العدو ومقاتليه بهدف خفض معنوياتهم، ثم جمهور العالم وقادته بهدف كسبهم كحلفاء. ويقاس مدى نجاح أوإخفاق أية خطة للحرب النفسية بمقدار تحقيقها لتلك الأهداف المنوطة بها وعلى رأسها «الرسالة».

بدأت الحلقة الأولى من حلقات المسلسل بفعل يبدو عربيًا: إقدام العراق على غزو الكويت، وتوالت مشاهدها لتنتهي بإجبار الجيش العراقي على الانسحاب من الكويت وتتوج الحلقة بانعقاد مؤتمر السلام الدولي في مدريد. تتلخص الرسالة العراقية في تلك الحلقة الأولى، أي مرحلة غزو/تحرير الكويت في إبراز أن الكويت قد عادت أخيرا وبشكل نهائي للوطن الأم وانتهى الأمر بلا رجعة. وصاحبت تلك الرسالة الأساسية بعض الرسائل الفرعية المتعلقة بسرقة حكام الكويت لبترول العراق، واستغراقهم في ملذاتهم وما إلى ذلك.

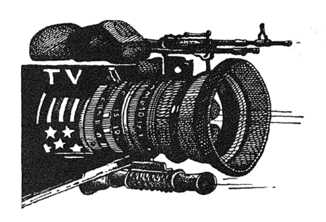
أما الحرب النفسية الأمريكية بالنسبة لتلك المرحلة فتتلخص رسالتها في أن العراق قد انتهك الشرعية الدولية بغزوه لدولة الكويت المستقلة كاملة السيادة. وصاحبت تلك الرسالة الأساسية بعض الرسائل الفرعية المتعلقة بممارسات العراق في مجال انتهاك حقوق الإنسان.

ونجحت الولايات المتحدة الأمريكية في حشد تحالف دولي مساند للحملة العسكرية، في حين أخفق العراق حتى في حشد تحالف عربي يساند رسالته.

وتبدأ الحلقة الثانية بالدعوة لإجبار العراق على نزع ما لديه من أسلحة للدمار الشامل. وتتوالى مشاهد تلك الحلقة من حصار للعراق، واتفاقيات للنفط مقابل الغذاء، وتقدم وانحسار لعمل المفتشين الدوليين في البحث سدى عن أسلحة الدمار الشامل. وتنتهي الحلقة الثانية من المسلسل بقرار الولايات المتحدة الأمريكية بشن الحرب على العراق.

ولقد قامت الحرب النفسية الأمريكية في تلك المرحلة على فكرة أن العراق يمتلك أسلحة للدمار الشامل ينبغي تجريده منها، ونجحت الولايات المتحدة الأمريكية مرة أخرى في حشد تأييد دولي لتنفيذ هذا القرار من خلال عمليات التفتيش التي تشرف عليها الأمم المتحدة.

وقامت المواجهة العراقية للموقف على فكرتين أساسيتين. الفكرة الأولى نفي امتلاك العراق لمثل تلك الأسلحة في الوقت الراهن. والفكرة الثانية أن العراق يلتزم بالشرعية الدولية في هذا الصدد. ونجح العراق بذلك في كسب تعاطف دولي يساند تعاونه مع جهود الأمم المتحدة في هذا الصدد.



لقد اعتمد الطرفان فى الترويج لرسائل الحرب النفسية بشكل أساسى على الإعلام التليفزيونى الذى يكتسب مصداقية من خلال أن المشاهد يرى ويسمع، فيظن أنه يعايش الحدث بالفعل

الحلقة الجارية:

هانحن نعيش اليوم وقائع الحلقة الثالثة من ذلك المسلسل الممتد الذى يمكن أن يحمل اسم «إعادة تشكيل عالم ما بعد الاتحاد السوفيتى». ولقد بدأت هذه الحلقة الثالثة بشن الولايات المتحدة الأمريكية بالاشتراك مع بريطانيا الحرب على العراق. ورغم خفوت أصوات الرصاص والمدافع، وإعلان سقوط بغداد فى أيدى قوات التحالف، واختفاء رموز النظام فجاة وبشكل غير مسبوق، رغم كل ذلك، بل و ربما بسببه فقد اتسع نطاق الحرب النفسية وتزايدت أسلحتها.

لقد انتصرت قوات التحالف الأمريكى البريطانى انتصارًا حاسمًا، ولكن ذلك لا يعنى بالضرورة انتصاراً مماثلاً وبشكل تلقائى للحرب النفسية التى شنتها تلك القوات، و لنحاول أن نسترجع ملامح المكونات الأساسية لرسائل الحرب النفسية الأمريكية التى صاحبت القتال والتى مازالت تتدفق لتاكيد الانتصار، ولإعداد المسرح للمشاهد التالية.

لقد تمثلت أهم تلك الرسائل فى التركيز على التفوق العسكرى الأمريكى غير المسبوق، وعلى الإمكانيات المرعبة لأسلحة أمريكية جديدة لم يشهد العلم لها مثيلاً من قبل. وكان لهذه الرسالة هدف مزدوج: إثارة الرعب فى قلوب العراقيين، وبث الطمأنينة فى قلوب الأمريكيين.

و تمثلت الرسالة الثانية فى صياغة هدف يبدو مشروعًا للقتال، و هو تخليص العالم من خطر امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل، ومن ثم كفالة الأمن لجيران العراق وللعالم، وأيضًا تحرير العراق من الحكم الديكتاتورى لنظام صدام حسين.

وفى مقابل هذه الرسالة الأمريكية المركبة كانت الرسالة العراقية الرئيسية شديدة التركيز. إنه غزو استعمارى خائب سوف نقاومه وندحره.

لقد اعتمد الطرفان فى الترويج لرسائل الحرب النفسية بشكل أساسى على الإعلام التليفزيونى الذى يكتسب مصداقية من خلال أن المشاهد يرى ويسمع، فيظن أنه يعايش الحدث بالفعل، رغم أنه فى كل الأحوال لا يطل من خلال رؤية مخرج المشهد. و على أى حال فقد أتيح للمشاهدين متابعة ما يشبه المناظرة الحية بين المتحدثين الرسميين لقوات التحالف سواء فى واشنطن أو فى قاعدة السيلية بقطر، وبين وزير الإعلام العراقى محمد سعيد الصحاف. و لقد كان كل من الطرفين يعكس بصدق طبيعة الجمهور الذى ينتمى إليه والذى يخاطبه. كان المتحدثون الأمريكيون يؤكدون ثقتهم بانتصارهم فى النهاية، ويبرزون فى نفس الوقت أنهم يخوضون معركتهم حيال عدو قوى لا يعرف الرحمة. و إذا ما ووجهوا فى المؤتمرات الصحفية بوقائع قد تمس تفوقهم العسكرى كوقوع أسرى منهم أو خسائر بين صفوفهم، أو قد تمس ما يعلنون التزامهم به من تجنب لإصابة المدنيين، لم يستمروا فى الإنكار بل اعترفوا بالحقائق واصطنعوا لها تفسيرات لا تمس أسس رسالتهم الحرب نفسية. سمعنا تعبيرات مبتكرة مثل «النيران الصديقة» باعتبار أن من سقطوا منهم إنما سقطوا بفعل أخطاء داخلية، وليس بفعل نيران العراقيين. و أنهم حريصون على دقة اختيار أهدافهم بحيث لا تصيب المدنيين، وأنهم إذا ما اضطروا لإصابة مدنيين فإن ذلك إنما يرجع لاحتماء الجنود العراقيين بهم. أما على الجانب العراقى فقد كان أداء وزير الإعلام العراقى محمد سعيد الصحاف متميزًا جذابًا لجمهوره العربى الذى ينتمى إليه ويخاطبه. كان يبدو شجاعًا يجده الإعلاميون بينهم فور توقف القصف ووسط المناطق التى تعرضت لذلك القصف. كان يبدو شديد الثقة بنفسه وبما يقول، إجاباته فورية و نادرًا ما يؤجل الإجابة لحين التيقن من الخبر مثلاً. وكلها صفات قد لا تثير إعجاب جمهور أوروبى، بل لعلها تثير نفوره وتقلل من مصداقية صاحبها. أما بالنسبة للجمهور العربى الذى ألف لسنوات طوال أن تبهره الشجاعة الفردية، وأن يضيق باللون الرمادى فى الرسائل الإعلامية مفضلاً أن تكون الألوان إما بيضاء أو سوداء. فإن محمد سعيد الصحاف كان النجم الإعلامى العربى دون منازع خلال فترة الحرب.

و لعل الوقت ما زال مبكرًا لرصد مدى إخفاق أو نجاح الحرب النفسية الدائرة بالنسبة للجانبين من حيث التاثير على الروح المعنوية. فالطريق إلى نقطة إجراء الحسابات النهائية مازال طويلاً.

لقد بدت لنا استجابة الشارع العراقى فى البداية استجابة إيجابية لرسالة النظام العراقى، ولكن الأمر لم يستمر كذلك. و لنقف أمام مشاهد ثلاثة غنية بالدلالات فى مجال الحرب النفسية. المشهد الأول لصدام حسين يتجول فى أحد شوارع بغداد و المعركة مازالت مشتعلة ليلتقى بجمع من المواطنين العراقيين يهتفون باسمه. المشهد الثانى لجمع من المواطنين العراقيين يتدافعون لهدم تمثال لصدام حسين حتى ينجحوا بمساعدة دبابة أمريكية فى انتزاعه من قاعدته. المشهد الثالث لجماهير عراقية تمارس ما أطلق عليه أعمال النهب فى شوارع بغداد. المشهد كان جزءًا من الحرب النفسية العراقية، و المشهدان التاليان كانا جزءًا من الحرب النفسية الأمريكية. وكنا نحن المشاهدين جزءًا من الجمهور المستهدف. و لنسلم أولا بان تلك المشاهد الثلاثة كانت مشاهد واقعية بمعنى أنها جرت فعلاً.



لقد كان إخراج المشهد الأول رائعًا سواء من حيث التوقيت أو من حيث الرسالة لتى يحملها المشاهد. رسلة تعبر عن الخصائص الأساسية للجمهور المستهدف: «قائد يتميز بشجاعة فردية خارقة وثقة غير محدودة بلنصر، يخرج إلى شعبه فى لشارع دون حراسات، وللمعركة مازلت قائمة ليلتف حوله الجمهور ويهتف بحياته «وقد تساءل أحد المعلقين المتحمسين آنذاك «ترى هل هنا سلوك دكتاتور يخشى شعبه؟»». مشهد ياخذ حقًا بافئدة جمهور عربى يتطلع لقائد فردى استثنئى فى شجاعته وثقته بنفسه ليقوده إلى النصر. و لم يفت صاحب الرسالة حقيقة لاحظها الجمهور وهى قلة عدد المشاركين، ولكنه بادر بتقديم إطار تفسيرى يدعم الرسلة ولا ينتقص من دلالتها، فظهور لرئيس كان مفاجئًا دون إعداد أو بروتوكول وفى الحرب لا تكون الشوارع عادة غاصة بالبشر.

أما المشهد الثانى فقد تميز أيضًا بإخراج مبهر، وحمل رسالة مليئة بالدلالات: جمهور عراقى يرى الدبابات الأمريكية تعلن بشكل مادى انهيار النظام واختفاء رموزه وعلى رأسهم الرئيس صدام حسين، فيتجه ذلك الجمهور فورا إلى تمثال صدام حسين محاولاً انتزاعه من قاعدته وحين يعجز عن ذلك يستعين بلدبابة الأمريكية لتحقيق هدفه. رسالة واضحة يقول مخرجه من خلالها لقد تنفس لشعب لعراقى لصعداء بعد سقوط الطاغية واتجه إلى التعبير الفورى الحاد عن مشاعر حياله. ولم يقف أصحاب لرسلة طويلاً هذه المرة لتفسير قلة الأعداد المشاركة، ربما لأنهم لم يعودوا حيال رسلة نفسية عرقية مضادة.

أما المشهد الثالث فقد كان يحمل رسالة ذات وجهين: كراهية السلطة البائدة، والحاجة لسلطة تحفظ النظام ولعله بسبب ذلك الازدواج فقد استغرق المشهد وقتًا أطول. ثمة جماهير عراقية تنهب محتويات المبانى والمؤسسات الحكومية فى مناخ تسوده فوضى عارمة. والهدف الأول لأصحاب هذا المشهد يتمثل فى تاكيد الرسالة التى حملها مشهدهم الأول. إن كراهية الشعب للطاغية لا تقف عند حدود تحطيم تمثال. إنها تمتد لكافة رموز السلطة التى غاب أفرادها و لم يعد أمام الجماهير الغاضبة سوى نهب القصور والمبانى الحكومية.

أما الوجه الثانى للرسالة فهى أن الفوضى تهدد الجميع ومن ثم فالمطلب العاجل هو قيام سلطة أيّاً كانت لإعادة النظام، وليس من جهة يمكن التقدم إليها بمثل هذا المطلب سوى قوات التحالف.

ترى ماذا عن نجاح كل من الرسالتين فى كسب الحلفاء؟ لعله مما يستوقف النظر أن صنّاع الرسالة الأمريكية ومديرى حركتها لم يبدوا حرصًا على كسب الحلفاء، بعكس ما فعلوه فى الحلقة الأولى حين بذلوا كل ما فى طاقتهم حتى حققوا تحالفًا دوليًا واسعًا. إننا لا نستطيع أن نرجع ذلك ببساطة إلى خطأ فى الحسابات الأمريكية، أو حتى عجز موضوعى عن بناء تحالف ما، وإن كان كل ذلك واردًا على سبيل الاستثناء غير المبرر. ترى هل حرصت الولايات المتحدة الأمريكية على تضييق نطاق التحالف المطلوب؟ هل هو سعى للانفراد بالغنيمة المتوقعة؟ هل هى رسالة غير مكتوبة تقول للأوروبيين بل و للعالم بأسره إن زعيم عالم القطب الواحد لم يعد فى حاجة لأحد؟ كلها تساؤلات مطروحة لم يحن الوقت بعد للإجابة عليها.

أما على الجانب العراقى فإن الأمر لا يختلف كثيرًا من

... والمعارك النفسية

حيث النتيجة الواقعية. لم تنجح الرسالة العراقية حتى الآن فى بناء تحالف دولى أو عربى يساند المقاومة العراقية بدرجة فعالة.

وتبرز فى هذا السياق تلك الرسالة العراقية المتوقعة فى مثل هذا الموقف، والتى كانت تتوجه إلى «الجماهير» و«الشعوب» مباشرة، داعية إياها للثورة على حكامها باعتبار أن الخطر لا يتهدد العراق وحدها بل العرب والمسلمين جميعًا.

وماذا بعد؟

ترى ماذا عن رسائل المستقبل؟ هل جرى إعداد رسائل الحرب النفسية للمرحلة القادمة؟ لو كانت الأمور تجرى وفقًا للتخطيط العلمى الصحيح، فإن هذه الرسائل ينبغى أن تكون جاهزة بالفعل، أو فى طور وضع اللمسات الأخيرة لها. بل إن ما شهدناه خلال القتال من تكرار تداول مصطلحات مثل «مرحلة ما بعد صدام» أو «مرحلة إعادة تعمير العراق» إلى آخر تلك القائمة من المصطلحات التى شاع استخدامها منذ وقت مبكر بين الأطراف جميعًا، إنما تعنى أن الاستعداد لإطلاق تلك الرسائل الحربية النفسية كان يجرى على قدم وساق.

لقد نجحت قوات التحالف الأمريكى البريطانى بالفعل فى الإطاحة بنظام صدام حسين. والسؤال هو: هل يؤدى ذلك تلقائيًا إلى تكريس عالم القطب الأمريكى الأوحد؟ ترى هل سيقبل العالم بذلك؟ وماذا عن العالم العربى؟ هل ستقبل الدول العربية باحتلال أمريكى سافر فى المنطقة؟ وإذا ما قبلت فكيف ستواجه شعوبها التى لن تكون آنذاك مدفوعة للمفاضلة بين تأييد «دكتاتورية صدام» ومقاومة «استعمار العراق»؟. ثم ماذا عن موقف إسرائيل والموقف من إسرائيل فى ظل هذا السيناريو؟ هل ستظل الولايات المتحدة الأمريكية فى حاجة إلى وكيل معتمد يمثلها فى المنطقة وهى متواجدة بشحمها ولحمها فى قلبها؟ أم أن الدور الوظيفى لإسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية سوف يشحب؟ وهل ثمة دور جديد لها فى ظل هذا السيناريو؟ وما هى ملامحه لو وجد؟

ويبقى تساؤل مثير للقلق؟ هل لدى النظم العربية مثل هذا النوع من الرسائل الحربية النفسية المستقبلية؟ أظن ذلك ... وإلا.

اهتدت الإنسانية عبر مسارها الطويل، وعبر المائة وواحد وتسعين مليون إنسان الذين فقدوا حياتهم كأثر مباشر أو غير مباشر للنزاعات المسلحة فى القرن العشرين، ونصفهم من المدنيين بالمناسبة، إلى حقيقة أن الحروب تبدأ فى العقول والضمائر، وعلى هذا الأساس قامت سياسات اليونسكو الثقافية والتربوية فى برامج «التعليم والتربية من أجل السلام»، ومقالنا التالى قد يقنعك أن الحروب تدور أساسًا فى النفوس والعقول، وتظل الانتصارات والهزائم هناك، فى الذاكرة والعقل الجمعى، حتى وإن زالت آثارها من على الأرض.

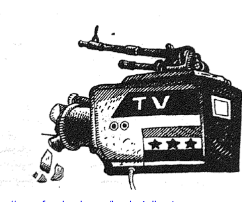


تابع العالم كله على مدار الأسابيع الماضية كابوسًا رهيبًا أفظع ما فيه أنه فى اليقظة يحدث لا فى المنام، والأفظع من ذلك أن الرأى العام العالمى كان مهيئًا له عبر الخطط التى كانت تنشر تباعًا فى وسائل الإعلام بوصفها اكتشافات وسبقًا صحفيًا لهذه الجريدة أو تلك بينما هى فى الحقيقة تسريبات متعمدة من البنتاجون أو المخابرات المركزية للتحضير المعنوى وبث الرعب من ناحية، ولإحباط كل محاولات المعارضة للحرب على المستوى الداخلى الأمريكى، وعلى المستوى العالمى كله شعبيًا ورسميًا، ولذلك فقد ذهبت أمريكا وبريطانيا للحرب وحدهما، وبقيت أوروبا تشجب وتستنكر، والمظاهرات تنطلق بالملايين حتى بدأت «العمليات»، وليس من قبيل المصادفة أن تحمل الهجمة شعار «الصدمة والرعب» (Shock and Awe)، والعالمون باللغة الإنجليزية، والناطقون بها يعرفون أن كلمة (Awe) لها ظلال روحية، فهى تحمل خليطًا من المعانى وتتضمن نوعًا من مشاعر الرهبة، والاحترام، والدهشة إلى درجة الذهول، والإنسان الذى يتملكه هذا الشعور يكون مشدوهًا، محتبس الأنفاس، مأخوذًا بما يراه من آثار الدمار، أو عنف القصف، أو شدة الصدمة،

وأحسب أن ترجمة Awe إلى «رعب» لم تكن موفقة أو غير كافية على أحسن تقدير.

ويعود هذا التعبير إلى عنوان كتاب صادر عام ١٩٩٦ عن الجامعة لوطنية للدفاع التابعة للبنتاجون، والكتاب يتحدث عن استراتيجية عسكرية هدفها تحقيق السيطرة السريعة على العدو، ودفعه إلى الاستسلام بأقل خسائر ممكنة، والأهم من ذلك كله، بل السبيل إليه أن يتم ضرب إرادة العدو ومعنوياته فيشعر بالعجز التام، وبأنه لا مفر من التسليم، ولذلك فإن الصورة التى ارتسمت فى أذهان مؤلفى الكتاب، وهم يرسمون خطتهم كانت صورة نظرات الذهول والألم التى ملأت عيون من بقوا أحياء بعد القصف الواسع فى الحرب العالمية الأولى، ورأوا فى هذه الصور من المعانى ما يتجاوز خيال الجنس البشرى، والثقافة، والتاريخ.

هذه الصور كانت هى «الملهمة» لواضعى استراتيجية الصدمة و«الرعب»!! ونفس الألفاظ تم استخدامها لوصف مشاعر الأمريكان بعد تفجيرات سبتمبر ٢٠٠١، مما دفع بعض المحللين إلى القول بأن جزءًا من أغراض الحملة على العراق هو الانتقام للحادى عشر من سبتمبر عبر تدمير الكلى للمدن العراقية، أو أهم معالمها، والتدمير النفسى لمعنويات العرب والمسلمين، بل وكل معارضى الحرب حول العالم وإشعارهم بالذل والإهانة.



وليس غريبًا أن نفس الألفاظ قد استخدمت لوصف الهولوكوست كسياسة دولة استهدفت إخضاع مواطنيها وغيرهم عبر لصدمة و«الرعب». وقد اتضح بالفعل أن الهدف لم يكن «صدام حسين» أو أسلحة الدمار الشامل، ولكنه تحديدًا كما قال مؤلف الكتاب: «تحطيم شعب العراق ماديًا وشعوريًا ونفسيًا»، ويقارن المحللون بين قصف بوش للعراق، وقصف هتلر لقرية «جورنيكا» فى إقليم «الباسك» الإسبانى خلال الحرب العالمية الثانية، فهذه القرية لم تكن لها أية أهمية عسكرية أو استراتيجية على الإطلاق، ولكنها كانت ـ مثل بغداد ـ مركزًا ثقافيًا ودينيًا، وجاء قصفها لإرهاب الإسبان وكسر روحهم المعنوية، وشل قدرتهم بل ورغبتهم فى المقاومة.

هل نجحت الحملة الأمريكية؟! وهل حققت أهدافها النفسية والعسكرية؟! سؤال قد يرى البعض من المبكر الإجابة عليه بسبب قلة المعلومات أو غموض الصورة الحالية، ولكن دعونا نرصد المشهد خارج ميدان القصف.

أولا: الخداع:

لا نبالغ إذا قلنا أن «الخداع» هو الحرب التى بدأت قبل الهجوم بكثير، ويبدو أنها لن تنتهى، ونحاول هنا استكشاف جوانب الخداع ثم ننتقل لاحقًا لبيان آثاره النفسية العميقة.

ـ منذ أن وصفت «مادلين أولبرايت» المليون طفل عراقى الذين ماتوا بسبب الحصار على أنهم (Collateral damage)، أو مجرد آثار جانبية للدواء الأمريكى(...)، وربما من قبل تصريحات أولبرايت تم حشد ترسانة من الأكاذيب والمفاهيم والتعبيرات المغلوطة، ولا يتسع مجلد من ألف صفحة للإحاطة بكل هذه الأكاذيب التى وصلت إلى درجات غير مسبوقة من الفجور، وأذكر هنا أمثلة قليلة:

* تدمير الطرق وشبكات المياه والصرف الصحى = استهداف البنية التحتية للجيش المعادى

* إغراق المدن بوابل مستمر من القنابل الفتاكة = تدخلات جراحية

* احتلال العراق وتدمير شعبه ومدنه = تحرير العراق شعبًا وأرضًا

ويمكن رصد العديد من الأمثلة على التلاعب بالألفاظ، واختلاق الأكاذيب،

فى حرب العراق

أحمد محمد عبدالله

وليس أقلها الأفلام أو المعلومات الملفقة عن أسلحة الدمار الشامل، أو الربط بين النظام العراقى، وتنظيم القاعدة، أو أن من أهداف الهجوم تأسيس نظام ديمقراطى فى العراق فى الوقت الذى تتحول فيه أمريكا نفسها إلى دولة فاشية وبوليسية تعتقل الآلاف دون تهمة، ودون محاكمة، وتضرب المتظاهرين من مواطنيها المناهضين للحرب بالرصاص المطاطى!!

ألا تذكرنا هذه الأكاذيب بمقولة «جوبلز»: اكذب حتى يصدقك الناس.

- معركة الإعلام:

سيتوقف التاريخ كثيرًا أمام الإدارة الأمريكية للمستوى الإعلامى من الحملة، وهنا قد يكون من المفيد استعادة كتاب ظهر فى أواخر عام ١٩٩٩ لمؤلفين أمريكيين يجمعان بين الصفتين الأكاديمية والعسكرية، ويعملان معًا فى معهد «راند» (Rand) للأبحاث الذى يقدم استشاراته لجهاز المخابرات العسكرية الأمريكية، ولأسباب غير واضحة لم يلق الكتاب الاهتمام الكافى فى ظل إدارة كلينتون، والمفهوم الرئيسى الذى يدور حوله الكتاب أن حروب المستقبل ستدار أساسًا بالإعلام أكثر من أى سلاح آخر، ويرى الكتاب أن الرسالة الإعلامية الموجهة ونشرها على أوسع نطاق بما يربك العدو، ويشتت قدرته، هى الانتصار الأهم بالسيطرة على المعلومات والاتصالات، وهى الأساس الضرورى لتحقيق النصر النهائى.



ويطرح المؤلفان مفهوم «الحرب الافتراضية» التى تفتح جبهات عسكرية متفرقة، وتغطية إعلامية محكومة بعناية، ودعاية صارخة قبل وأثناء وبعد الهجوم.

والمتابع للأداء الإعلامى الأمريكى سيجد تطبيقًا لهذه الأفكار، ولجميع أدوات البروباجندا داخل أمريكا، وفى ميدان المعركة نفسه.

بحيث تم التركيز على جوانب دون جوانب، وإذاعة معلومات دون أخرى، ونقل صور ومشاهد بعينها، بل وتم منع أية محاولات لتغيير ذلك.

وطبقًا لروبرت فيسك فى الإندبندنت بتاريخ ٢٥/٢/٢٠٠٣ فإن شبكات CNN والـ CBS والـ ABC، وصحيفة «نيويورك تايمز» قد وافقت على تواجد مسئولين من مشاة البحرية الأمريكية بغرفة أخبار تلك الشبكات فى ولاية أتلانتا للموافقة على مسودة تقارير المراسلين قبل إذاعتها أو نشرها.

وعلى أرض العراق لم يكن مسموحًا للصحفيين أو الإعلاميين إلا بالتجول فى أماكن محددة، وبصحبة الوحدات العسكرية الأمريكية، وعلى الشاشات الأمريكية المختلفة كان الضيوف من العسكريين والمحللين يتلقون ردودًا وتعليقات من عسكريين سابقين، وكل ذلك تحت السيطرة الهادفة لأنصار الحرب، بينما الرأى الآخر لا يجد غير الشوارع ليتظاهر فيها، أو وسائل إعلامية أقل انتشارًا وأضعف تأثيرًا، وحتى هذه لم تنج من التدمير مثل موقع «الجزيرة» على الإنترنت، والذى تم تعطيله لمدة عشرة أيام تقريبًا. وكمثال على التلاعب بالصور أجرت العديد من الهيئات ومنها: بيت تنقية المعلومات Information Clearing house مقارنات وتحليلات بالكمبيوتر أظهرت أن أهم مشاهد العراقيين المهللين بتحرير بغداد(...) ليس سوى صورة حفنة من عملاء المعارضة العراقية العائدة من الخارج، وأن ميدان الفردوس الذى شهد إسقاط تمثال صدام لم يكن مكتظًا بالناس كما بدا فى الصور، وإنما كان خاويًا تمامًا إلا من بضع عشرات ركزت عليهم زاوية اللقطة.. إلخ.

وعندما حاولت بعض وسائل الإعلام مواجهة هذا السيل المتدفق من الأكاذيب أو المعلومات التفصيلية التافهة، وحجب الأجزاء القبيحة من الصورة كانت النتائج التى يعرفها الجميع بقصف الصحفيين، وقتل المراسلين، وطرد وإقصاء أسماء كبرى مثل: بيتر أرنيت مراسل NBC، وفوكس نيوز بقرار من البنتاجون.

- وبالمقابل لعبت القيادة العراقية دورًا هزليًا مؤسفًا فى تشويه الحقائق عن موازين القوى على الأرض، وحجم الخسائر لدى الجانبين فأعطت أملاً خادعًا، وصورة وردية عن مقاومة صلبة ستدوم، وجحيم سيطول للغزاة ثم اختفت عن المشهد بين عشية وضحاها.

وإن كنا لا نحب التفسير التآمرى، ولكننا نرى أن اكتمال الصورة بالخداع من الطرفين أطبق على عقول الناس ونفوسهم، وساهم فى إحباطهم وانكسارهم كما سنرى.

ثانيًا: الالتباس:

فى غمار الحرب على الأرض بدت الصورة واضحة فى ذهن البعض على أنها غزو أجنبى لبلد عربى مسلم بقصد إخضاعه بالقوة، والتحكم فى مقدراته وثرواته فى غطرسة واضحة، ومنافاة لكل قوانين الأرض، ولكن لدى آخرين كانت الصورة أكثر غموضًا، فالقيادة العراقية بكل تاريخها الأسود الدموى، والشعب المقهور تحت الاستبداد والحصار يتطلع إلى التحرر، والعجز العربى يملأ المشهد، والمحللون العرب يتضاربون فى ولائهم أو إدراكهم للمشهد، وتزداد الحيرة، وعامة الناس لا يملكون القدرة على التمييز بين المستويات أو الخيارات، ولا يتفادون الوقوع فى فخاخ الأسئلة الخاطئة من قبيل خيارين لا ثالث لهما: إما استقلال العراق وقيادة صدام، أو احتلاله وسقوط نظام البعث؟!! وانطرحت قضايا من قبيل: هل هى حرب صليبية أم استعمارية؟!! هل نقاتل فى صفوف العراقيين، ولو كان ذلك فى مصلحة النظام العراقى؟!، وصدرت فتاوى تحض على القتال، وفتاوى أخرى تدعو للعمليات الاستشهادية ضد الغزاة، وتضاربت الأنباء، وتاهت الحقيقة التى يبدو أنها كانت أول ضحايا الحرب، وسقطت العقول فريسة للتشويش.

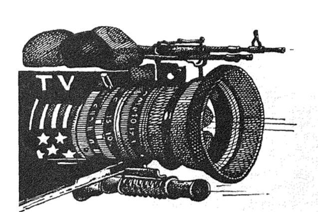
ثالثًا: بين العنف والعجز:

فى مقابل الحشد المبالغ فيه للعدد والعدة الأمريكية، والحرب الإعلامية الضروس التى نصبتها أمريكا بالخداع، ثم بالرصاص والقنابل عندما لزم الأمر، بدا المشهد العربى منكسرًا وشديد العجز، وبدت الأمم المتحدة - قمة النظام الدولى - فى مقاعد المتفرجين، وبدت القوى المختلفة فى موقف المتململ، أو المتعض، أو المطالب بالإنهاء السريع لعملية تدمير/ تحرير العراق.

وشعر الناس أنهم يعيشون فى عالم بلا قواعد ولا قوانين، ولا صوت فيه إلا لبلطجى واحد لا يعبأ بمعارضة، ولا يشبع من الدم والأشلاء، ومع استمرار سقوط الضحايا تصاعدت مشاعر الغضب والحنق والقهر، ولم يجد الناس منفذًا لمقاومة ذلك، إلا المتابعة اليومية، مع المزيد من التشويش والاختلاط فى المفاهيم والمشاعر، وكان من الطبيعى أن يلجأوا إلى الدعاء - فهو كل ما بقى لديهم - وتطلعوا إلى أى نصر ولو كان كاذبًا، وحلموا فى اليقظة بطعم الصمود المستمر، ومشهد اندحار الغزاة، ولكنهم استيقظوا على العلم الأمريكى فى سماء بغداد.



هذا العنف الضارى فى التدمير، والعجز الكامل عن الفعل، والتشويش فى المفاهيم، والتضارب فى المعلومات ثم الانكسار المفاجئ للدفاع النظامى عن بغداد خلق مناخًا مستمرًا من الشحن والتفريغ، والصعود والهبوط ثم السقوط فى هوة سحيقة من الخوف والإحباط، وازداد الشعور بالمرارة، وتأنيب الضمير، والكآبة واليأس لدى البعض، واللامبالاة والتجاهل هروبًا من الواقع المؤلم عند آخرين، أو تبرير ما حدث أو عقلنته أو محاولة البحث عن تفسير غيبى له، وكلها محاولات تهدف إلى تسكين الألم النفسى.



هذا هو المناخ النفسي الذى لابد من فهمه كمدخل إلى ما حدث من تداعيات نفسية، وآثار معنوية.

رابعًا: الضغط النفسي:

لا يمكن فهم الآثار النفسية التى شعرنا بها، وشعر بها الناس من حولنا إلا إذا عرفنا قدرًا من المعلومات عن الضغط النفسي والعصبي الذى أصبح موضوعًا مهمًا من موضوعات الطب النفسي الحديث، ويحدث هذا الضغط مع أية تغيرات حياتية تحمل صدمة مفاجئة، أو أزمة كبيرة، أو مجرد تراكم لصغائر يومية، والحروب هي من أكثر الأوضاع ضغطًا على نفوس الناس.

وللضغط النفسي تأثيرات على كيمياء المخ ونواقله العصبية، وعلى مجموعة من الهرمونات التى تفرزها الغدة الصنوبرية، والغدة فوق الكظرية، وعبر مسارات بيولوجية وفسيولوجية متعددة، وعمليات مركبة تظهر تأثيرات الضغوط النفسية على شكل أعراض وجدانية وجسمانية متنوعة فنرى الضجر، والعصبية الزائدة، ومشاعر الخوف والرهبة، واضطراب النوم، واختلال الرغبة الجنسية، وكل مظاهر الإحباط والاكتئاب، كما نرى الرعدة والغثيان والصداع، وفقدان الشهية، وخفقان القلب، والأوجاع الجسمانية المختلفة، والشعور المستمر بالإرهاق.

والضغط النفسي في تلك الحرب حدث عبر طرق عدة منها:

- رؤية الخوف والذعر، والجرحى والقتلى العراقيين.
- الإدراك السلبي للذات وللآخرين، وللواقع والمستقبل.
- أفكار غير منطقية عما هو كائن، وعما كان ينبغي أن يكون.
- الاعتقاد بالعجز الكامل، وقلة الحيلة، وعدم القدرة على فعل شيء.
- الشعور بفقدان الثقة، وفقدان القدوة، والتوجيه السليم.
- انقطاع الصلة المباشرة بأهلنا في العراق، وتضارب الأنباء حول ما حدث هناك.
- سيادة أو شيوع أساطير أو تنبؤات عسكرية أو غيبية تحمل مشاهد مستقبلية سالبة: تقسيم العراق، حروب أهلية، المهدى المنتظر.
- إلقاء اللوم على الذات أو على الآخرين دون وجود خطة واضحة للحل.
- التفكير المستمر في الموت، وعدم جدوى أو معنى الحياة.

ونتيجة لهذه المؤثرات، وتصاعد معدلات الضغط النفسي شاهدنا حالات - في واقع ممارستنا الإكلينيكية - ظهرت فيها أعراض اكتئاب، أو وسواس قهرى، وحالات أقل - من الأصغر سنًا - ظهرت عليها أعراض ذهانية من ضلالات وهلاوس، وتعددت شكاوى من قلق وخوف، وروت بعض الحالات - وأكثرهن نساء - عن تكرار أحلام مزعجة يسمعن فيها أصوات المراسلين، وتتكرر فيها مشاهد القتل والتدمير بما يقترب من أعراض اضطراب ما بعد الصدمة PTSD الذى يكون مصحوبًا باختلال الاتزان النفسي في الإدراك والتفكير، والتركيز، واستعادة مشاهد القتال أو صور الجرحى والقتلى، وبعد ذلك تجتاح النفس مشاعر عدم الاطمئنان وأحيانًا الإحساس بالذنب لعدم قدرته على تقديم المساعدة، وقد تتنابه نوبات من الإحباط والغضب الشديد.

وفي الأطفال تباينت ردود الأفعال من معاناة التخيلات والأحلام، والكلام أثناء النوم إلى فقدان الشهية للطعام، والبكاء بدون سبب علاوة على ضعف التركيز، والإهمال الدراسي، واشتكى البعض من صداع أو مغص، وظهرت مشاعر الأطفال في ألعابهم ورسومهم التى تمثلت الحرب وآثارها.

ولم يتأثر الناس بنفس الدرجة بالطبع صغارًا وكبارًا، وتعتمد قدرة الإنسان على التكيف مع الضغوط على عدة عوامل منها:

- مدى سلامة نشأته الطفولية من العوامل السالبة.
- التعرض لخبرات سابقة بالفعل، أو بالتدريب على التعامل مع الأزمات.
- طبيعة الشخصية وبخاصة فيما يتعلق بنمط تعبيره عن مشاعره أو كتمانها.
- الظروف المحيطة بالإنسان من دعم أسرى واجتماعي.
- وجود معنى وجودى عميق مثل الإيمان بمعتقد أو التمحور حول هدف مثالي.
- الوعي بأبعاد ما يحدث، والقدرة على التفسير والتقييم.
- شدة التعرض لمشاهد القتل والدمار، ومتابعة الأخبار.
- الاندراج في عمل محدد لمواجهة ما يحدث، أو الاكتفاء بالفرجة.

خامسًا: آليات المقاومة:

ولكن الناس لم تسكت في مواجهة هذه الضغوط النفسية، وظهرت أشكال من الآليات الدفاعية النفسية والاجتماعية منها:

- تبرير الحملة بأن صدام هو السبب الرئيسي لكل ما وقع ويقع وسيقع للعراق، وبالتالي هو المسئول، وشعبه مسئول بالتبعية لأنه لم يسقطه، ولكن هذه الآلية لم تستمر طويلاً.
- الاعتراض على موقف الأنظمة العربية بالتظاهر الذى فاق في سرعته واتساعه كل الحسابات والتوقعات حتى قال المراقبون أن مظاهرات القاهرة في ٢٠ و٢١ مارس هي أكبر مظاهرات عفوية خرجت منذ جنازة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.
- الشعور بالتضامن العالمي، والامتداد الخارجي بأن حركتنا المناهضة للحرب هي حركة إنسانية دولية، وبأننا لسنا وحدنا.
- اللجوء إلى الإيمان لتسكين الآلام، واستمداد العون، واستلهام إرادة التماسك من التوكل على الله، والاستعانة به.
- خروج قطاعات واسعة من الكتلة السلبية الصامتة عن صمتها وسلبيتها، وظهور حالة جديدة من النشاط والإبداع في التعبير عن الرفض للوضع القائم، ولا يمكن تجاهل التنكيت والرفاهية كآلية دفاع مهمة يستخدمها الناس.
- التواصل مع آخرين محليًا وعالميًا يحملون نفس الهموم والاهتمامات، وتبادل وجهات النظر، والتواصي باستمرار مناهضة الحرب.
- الخروج من موقف الضحية العاجزة إلى دور المتفاعل مع الأحداث، المشارك في صناعتها.

وقد رأيت أثناء تجوالي خلال التجمعات المختلفة أنماطًا متباينة الأعمار والخلفيات الثقافية والوظيفية خرج كل واحد فيهم لحاجة في نفسه، ولكنهم التقوا جميعًا على هدف واحد هو مناهضة تلك الحرب الظالمة مثلهم مثل الملايين حول العالم.

وهكذا فإن الضغوط النفسية ليست شيئًا سلبيًا على طول الخط، فالضغط النفسي هو مصدر من مصادر الطاقة الداخلية، ويمكن توجيهه إلى خدمة أهداف دافعة، وهو صمام أمن مهم للحركة ضد الخطر، وخلق الدوافع المستندة إلى اعتبارات مادية أو معنوية حقيقية.

كنت أطالع تقرير منظمة الصحة العالمية لعام ٢٠٠٢ عن العنف والصحة في العالم، ووجدت تحت عنوان العنف الواسع «الجماعي» إجراءات لمنع هذا النوع من العنف المدمر أو التقليل من آثاره منها:

- التقليل من الفقر.
- التضييق على امتلاك الأسلحة البيولوجية والكيمائية والنووية، وبقية الأسلحة.
- التأكد من نشر وتطبيق المعاهدات الدولية، وبخاصة المتعلقة بحقوق الإنسان.

ثم يختتم هذا الفصل بالحديث عن معاهدة جينيف عام ١٩٤٩، وسرحت بخاطرى متخيلاً أن من صاغوا التقرير كانوا يقصدون قبائل أفريقيا، أو الجماعات المسلحة في آسيا، وترددت بين أن أعتبر الأمر برمته حبرًا على ورق، أو آخذه معي مكبرًا على لافتة في المظاهرة القادمة ضد الحملة الأمريكية على العراق!! ■

المراجع:

(1) Shock And Awe: Achieving Rapid Dominance.
Ullman, Harlank., and James P.Wode, with L.A.Wdney et al Washington, D.C: National defence Univ., 1996.
(2) The Emergence of Neopolitik, John Arquilla and David Ronfellt Rand Monograph Report, Santa Monica, California, 1999





من تكساس إلى بغداد

إبراهيم عبد الجليل

في صباح يوم بارد من أيام يناير عام ١٨٤٨ صاح أحد الأمريكيين في أقصى الغرب الأمريكي وكان يدعى جيمس مارشال في العاملين معه بأنه قد عثر على منجم للذهب. وكانت تلك الصيحة بداية لأكبر حركة هجرة عرفها التاريخ الإنساني حيث اندفع نحو تسعين ألف شخص إلى كاليفورنيا خلال العامين التاليين لصيحة جيمس مارشال ليصل بعد ذلك عدد المهاجرين هناك إلى نحو ٣٠٠ ألف شخص، وكان سكان أمريكا حينئذ لا يزيدون على ٢٥ مليون نسمة. ولم يكن هؤلاء المندفعون نحو الذهب في الغرب الأمريكي قادمين للاستقرار والبناء شأنهم شأن باقي المهاجرين الأوائل للعالم الجديد.

ولكنهم جميعًا كانوا قد أتوا من أجل الذهب، ومن أجل نهب ما يمكن نهبه من هذا الذهب بأي وسيلة وبكل وسيلة ممكنة ولم يقتصر ذلك على الأمريكيين وحدهم، بل لقد امتد جنون الذهب ليشمل الإنجليز والفرنسيين والأسبان والعديد من الجنسيات الأخرى الذين عبروا المحيط الأطلنطي في ظل ظروف بالغة القسوة طمعًا في بريق الذهب الأصفر. ولم تكن تلك الرحلة سهلة، ولم يكن البحث عن الذهب في الأرض الجديدة غربًا أمرًا ميسورًا، فلقد لقى نحو ٢٠٪ من هؤلاء حتفهم، إما نتيجة للإصابة بأمراض الكوليرا والملاريا، أو أمراض سوء التغذية، أو نتيجة لأعمال العنف الدموى التي اشتهر بها هؤلاء المغامرون في الغرب الأمريكي حيث سادت بينهم شريعة الغاب بلا رادع من أي قانون سوى منطق القوة والنهم والجشع من أجل مزيد من الذهب والثروة.

وهكذا كتبت تلك الهجرة بداية التاريخ لولاية كاليفورنيا الأمريكية والتي أصبحت الآن أغنى الولايات الأمريكية وأكثرها تحررًا وتقدمًا، فهي معقل صناعة السينما، وموطنا لنجوم هوليوود، ومقرا للصناعات المتقدمة بدءًا من التكنولوجيا الحيوية وانتهاءً بصناعات الإلكترونيات والاتصالات في وادي السليكون الشهير.

وتمر نحو مائة وخمسين عامًا أو تزيد قليلاً منذ اندفع هؤلاء المغامرون إلى الغرب الأمريكي بحثًا عن الذهب داسوا خلال اندفاعهم الجشع على كل ما اعترض طريقهم. فهل يا ترى يعيد التاريخ نفسه الآن لنرى موجة جديدة من أحفاد هؤلاء الأفاقين تندفع هذه المرة نحو المشرق العربي بحثًا عن الذهب الأسود. أتوا يحملون معهم كل ما في جعبة آلة الحرب الأمريكية من أسلحة للدمار والخراب، أتوا يدقون أبواب عاصمة الرشيد تحت شعار تحريرها من قبضة صدام حسين، لكنهم في الحقيقة أتوا ليضعوا أيديهم على منابع الذهب الأسود في منطقة تحوى تحت رمالها ومياهها نحو ثلث مخزون النفط في العالم. بعد كل تلك السنين، وفي غيبة من الزمن، سطا حفنة من المغامرين ورجال الأعمال على مفاتيح القوة في البيت الأبيض، وراحوا منذ اللحظة الأولى يخططون للاستيلاء على مقدرات الثروة في العالم مستلهمين في ذلك روح الأجداد الأوائل، تساندهم الشركات الأمريكية العملاقة التي أتت بهم إلى مقاعد السلطة في واشنطن.

الولايات المتحدة البترولية

في دولة يعيش الناس فيها ويصحون وينامون على استهلاك البترول، حيث نصيب المواطن الأمريكي منه يتعدى عشرة أضعاف نظيره في أي بقعة من العالم، وحيث سعر جالون البنزين في محطات التموين يمثل لهم كل صباح اهتمامًا يفوق أي اهتمام آخر بأحوال الدنيا والعالم.

في تلك الدولة الأكبر استهلاكًا للبترول في العالم (نحو ٢٧٪ من الاستهلاك العالمي) تصبح قضية البترول والطاقة هي أم القضايا، ويصبح توفير البترول بسعر رخيص هو محور السياسة للجالسين في البيت الأبيض والمخابرات الأمريكية والبنتاجون.

في شهادة أمام الكونجرس الأمريكي عام ١٩٩٩، صرح الجنرال أنتوني زيني قائد القوات المركزية الأمريكية، أن منطقة الخليج بمصادرها البترولية الهائلة تعد ذات قيمة حيوية للمصالح الأمريكية في المدى البعيد، لذا - ولازلت أنقل عن الجنرال الأمريكي - فإن على الولايات المتحدة الأمريكية أن تكون لها حرية الوصول لتلك المصادر، وتطوع بنفسه لشرح ماذا يقصد بحرية الوصول، وقال بمعنى السيطرة على تلك المصادر اقتصاديًا وعسكريًا. وهكذا دون أي مواربة شهد شاهد منهم بأن السيطرة على منابع البترول في الخليج كانت هدفًا استراتيجيًا للسياسة الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. فحتى عام ١٩٧١ كانت بريطانيا تقوم بدور الشرطي الحارس لتلك الثروة في منطقة الخليج، أما الآن فلقد تقدمت أمريكا لتلعب نفس الدور بدعم من بريطانيا التي توارت خطوات إلى الوراء بحكم تغير موازين القوى في العالم، وارتضت أن تلعب دور التابع الأمين للقوة الأحادية المهيمنة والمسيطرة.

لذلك لم تكد تمضي أسابيع عدة على فوز بوش الابن الآتي من تكساس إلى البيت الأبيض حتى أمر بتشكيل مجموعة عمل برئاسة نائبه ديك تشيني وكانت المهمة صياغة سياسة جديدة للطاقة في الولايات المتحدة الأمريكية. وديك تشيني هذا كان قبل أسابيع عدة من توليه منصب نائب الرئيس الأمريكي يشغل منصب الرئيس لواحدة من أكبر شركات الخدمات البترولية في العالم (شركة هاليبرتون)، كما أن باقي المجموعة الحاكمة في البيت الأبيض قد جاءوا من تكساس معقل صناعة البترول الأمريكية بعد أن ساندت حملتهم الانتخابية دولارات البترول التي ساهمت بها الشركات الأمريكية التي تسيطر على مقدرات صناعة البترول في العالم، تلك الشركات كانت ولازالت تقف بضراوة ضد أي محاولة لتهميش دور البترول كمصدر رئيسي للطاقة في العالم منذ اكتشافه وحتى يومنا هذا مهما كانت المبررات بيئيًا واقتصاديًا وسياسيًا.

النفط مقابل الدماء!

سياسة جديدة للطاقة في أمريكا:

وضع ديك تشيني سياسة جديدة للطاقة في أكبر دولة مستهلكة لها في العالم، تلك الدولة التي تعتمد بالدرجة الأولى على البترول، والتي زادت وارداتها منه لتصل حاليًا لنحو ١٠٠ مليار دولار أمريكي سنويًا، وتشير التقديرات المستقبلية إلى أن تلك الواردات ستصل لنحو ٥٠٠ مليار دولار عام ٢٠٢٠.

فإذا علمنا أن نسبة كبيرة من تلك الواردات (٣٠٪) سوف تأتي من منطقة الشرق الأوسط، تلك المنطقة التي يتزايد فيها العداء والكراهية للولايات المتحدة الأمريكية يومًا بعد يوم كنتيجة طبيعية للسياسة الظالمة وغير العادلة التي تساند من خلالها إسرائيل على طول الخط، والتي أطلقت من خلالها يد القوة الغاشمة في إسرائيل لكي تمارس كل أنواع الانتقام والبطش بالشعب الفلسطيني الأعزل، الذي تم الاستيلاء على أرضه ونهبت ثرواته بمباركة مستمرة من الحكومات المتعاقبة في واشنطن.

وتعترف سياسة لطاقة التي وضعها ديك تشيني بأن جهود ترشيد الاستهلاك، ومحاولات تنمية مصادر الطاقة المتجددة صديقة البيئة لن تفلح في مواجهة الطلب المتزايد على الطاقة في المستقبل، لذا فإن الحل هو زيادة المعروض من خلال بناء محطات جديدة وزيادة المعروض من منتجات البترول، ولتذهب صيحات حماية البيئة إلى الجحيم. ولم يكن ذلك بالشيء الغريب على المراقبين. فلقد وقف الرئيس الأمريكي بنفسه في مارس عام ٢٠٠١ ليزف للعالم نبأ انسحاب أمريكا من بروتوكول كيوتو الذي يدعو إلى خفض انبعاثات ثاني أكسيد الكربون المسبب لواحدة من أكبر مشكلات البيئة العالمية، ألا وهي قضية تغير المناخ.

وكان ذلك إشارة البدء بالتزام الإدارة الجديدة في واشنطن بدعم صناعة البترول وشركاتها التي أصبحت تؤثر بشكل مباشر في عملية صنع القرار في البيت الأبيض، ولم تمض سوى شهور على ذلك، حتى وقف الوفد الأمريكي بشدة ضد أي محاولة لتشجيع استخدام الطاقات المتجددة النظيفة، وكان ذلك أثناء انعقاد قمة التنمية المستدامة التي عقدتها الأمم المتحدة في ديسمبر من عام ٢٠٠٢ بمدينة جوهانسبرج في جنوب أفريقيا. وللأسف الشديد، فلقد بلغت بعض الدول المنتجة للبترول في العالم بما فيها دول عربية الطُعم الأمريكي وراحت تساند موقف الولايات المتحدة، بل لقد بلغت المأساة ذروتها حينما ساند الوفد العراقي في هذا المؤتمر الموقف الأمريكي دعمًا لصناعة البترول العالمية.

اقرأوا التاريخ:

منذ نحو عشرين عامًا كانت السياسة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط ترتكز بشكل أساسي على ضمان إمدادات البترول إلى شرايين الاقتصاد الأمريكي، فكان دعم صدام حسين ضد إيران وجر الدولتين في حرب مدمرة استمرت نحو عشر سنوات استنفدت فيها عائدات البترول لصالح شركات السلاح الأمريكية، ثم جاءت حرب الخليج الثانية حينما اعتدى النظام العراقي على دولة الكويت، فكانت فرصة ذهبية أخرى لا أقول استغلها مخطط السياسة الأمريكية لتثبيت الوجود العسكري الأمريكي قرب منابع البترول، بل لا أكون مبالغًا لو قلت أن تلك الفرصة قد تم التخطيط لها لدعم استراتيجية بعيدة المدى للبقاء في تلك المنطقة من العالم لسنوات طويلة قادمة.

لقد بلغت مبيعات السلاح الأمريكي لدول الشرق الأوسط خلال الفترة من ١٩٩٠ وحتى ٢٠٠١ نحو ١٠٠ مليار دولار أمريكي، تم سحبها من عائدات النفط العربي ومعها قيمة فواتير حرب تحرير الكويت لتضخ في شرايين الاقتصاد الأمريكي الذي عاش خلال سنوات إدارة كلينتون أزهى فترة في تاريخه.

وفي تلك الفترة تغاضت الولايات المتحدة الأمريكية أكبر داعية أو مدعية لحقوق الإنسان والديمقراطية، تغاضت تلك الداعية عن الجرائم التي تُرتكب في حق الشعوب العربية والإسلامية لا لشيء إلا من أجل الإبقاء على استقرار مصنوع تسانده واشنطن ويتم بالتوازي معه تنفيذ مسلسل من التسويف والخداع والمماطلة لحل مشكلة الشعب الفلسطيني حتى يتم إحكام قبضة إسرائيل على الأراضي المحتلة بينما النظم العربية غارقة في أوهام السلام.

وبعد عشر سنوات من الحصار والتجويع والإذلال لشعب العراق الصامد تملأ أمريكا العالم ضجيجًا عن ضرورة نزع أسلحة الدمار الشامل من العراق وتغيير نظام الحكم في بغداد تحت دعاوى وأكاذيب ساذجة لم تعد تنطلي على أحد في العالم.

كل ما هنالك أن المستعمرين القدامى وأصحاب المصالح من شركات البترول لازالت تغذي تلك النزعة النهمة للسلب والنهب لكي تستعيد سيطرتها على بترول العراق، الدولة التي تمتلك تحت أرضها نحو ١١٪ من إجمالي المخزون العالمي، وتشير تقديراتهم إلى أن ذلك الرقم سيقفز في المستقبل لكي يصل إلى نحو ٢٥٪ من جملة الاحتياطي في العالم، وما العراق سوى بوابة للخليج وباقي دول المنطقة التي كانت دائمًا هدفًا للأطماع الاستعمارية.

أما منظمة «أوبك» فإن دورها للأسف الشديد يتقلص يومًا بعد يوم وبعد أن كانت تستهدف الدفاع عن مصالح أعضائها من الدول المصدرة للنفط، ومنها ٧ دول عربية، تحول بها الحال لكي تكون أداة لضمان ضخ مزيد من النفط في شرايين الاقتصاد العالمي حتى أثناء دوي الصواريخ والقنابل في كل أنحاء العراق. فلم نسمع من أوبك وأعضائها سوى تأكيد الالتزام بضمان عدم حدوث أي نقص في إمدادات البترول العالمية أثناء الحرب الظالمة على العراق، وهكذا تحول البترول العربي من سلاح في يد العرب إلى سلاح في يد أعدائهم يرتد إلى صدورهم، وكان ذلك الموقف المتردي لمنظمة الأوبك نتيجة حتمية لكل السياسات التي تبنتها الدول الصناعية المستهلكة للبترول منذ صدمة الطاقة في أكتوبر عام ١٩٧٣، والتي هدفت إلى تهميش دور الأوبك حتى تحقق لها ما أرادت. أما منظمة «الأوابك» التي تضم الدول العربية المصدرة للبترول في إطار الجامعة العربية فلا أسكت الله لها صوتًا، فلم نسمع عنها أو منها أي همسة كما لو كان قد أصابها صاروخ أمريكي في مقتل.

ولو حدث - لا قدر الله - أن سيطرت الولايات المتحدة على بترول العراق وربما باقي المنطقة فإن ذلك يعني النهاية لأوبك وأوابك وكل تلك المنظمات الهشة التي انكشفت عند أول صاروخ انطلق ليصيب هدفًا في بغداد. فلا هم قادرون على السيطرة على معدلات الإنتاج ولا هم قادرون على تحديد الأسعار، ولا هم قادرون على دعم مصالحهم في مواجهة قوى الشر والعدوان.

وأخيرًا..

هل تصبح تلك الحرب الظالمة على العراق بداية لفرض السيطرة الأمريكية على بترول الشرق الأوسط ومقدراته وتغيير خريطته لصالح القوى الاستعمارية والصهيونية؟

هل تصبح تلك السياسة الأمريكية المفضوحة بداية لتراجع تاريخي في جهود المجتمع الدولي من أجل حماية البيئة، تلك المسيرة التي بدأت في ستكهولم عام ١٩٧٢ مرورًا بريو عام ١٩٩٢ وانتهاءً بجوهانسبرج عام ٢٠٠٢، وهل كان انسحاب أمريكا من بروتوكول كيوتو بداية لتخلي الدولة الكبرى عن التزاماتها الدولية بسبب مصالحها التجارية والاقتصادية؟

هل معنى ذلك تراجع صناعات الطاقة المتجددة الصديقة للبيئة وتراجع كل الجهود التي يبذلها المجتمع الدولي للبحث عن بديل للطاقة يفي بمتطلبات التنمية المستدامة، وهل تراجع ذلك أمام الهجمة الشرسة لشركات البترول العالمية وغيرها من أصحاب المصالح في صناعات الفحم والسيارات وغيرها؟

هل معنى ذلك دفعة قوية لصناعة الطاقة النووية التي تراجعت بشدة منذ حادث تشيرنوبيل الشهير عام ١٩٨٦؟

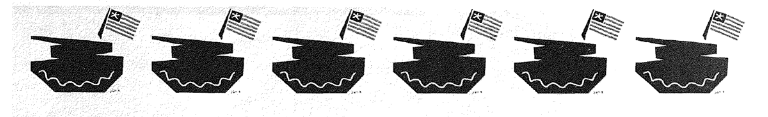
هل سيكون ذلك بداية النهاية لمنظمات الأمم المتحدة العاملة في مجالات البيئة والساعية للم شمل المجتمع الدولي من أجل مواجهة تحديات البيئة العالمية التي تعدت الحدود الجغرافية بين الدول، وأصبح لا بديل لمواجهتها عن التعاون الدولي؟

بل هل سيكون ذلك بداية النهاية للنظام العالمي الذي استقر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، والذي بدأت أولى خطواته حينما تحركت الجيوش الأمريكية لضرب العراق ضد إرادة المجتمع الدولي وبدون موافقة من مجلس الأمن؟

هل سيكون ذلك نهاية لما سُمي بالنظام العالمي الجديد الذي سقطت عنه الأقنعة التي خدعتنا طويلاً أو كادت تحت شعارات العولمة وحرية التجارة وحقوق الإنسان.. وبقي القائمة والتي كانت كلها تخفي استعمارًا حقيقيًا كذلك الذي تخلصنا منه خلال الخمسين عامًا الأخيرة. فلا فارق، وكان التاريخ يعيد نفسه، ولكن هذه المرة من واشنطن، الإمبراطورية الجديدة التي تريد استرداد العروش القديمة التي سقطت وتهاوت تحت أقدام الشعوب.

أسئلة كثيرة وتداعيات مرعبة كأنها كابوس ثقيل يجثم فوق الصدور لازالت تبحث عن إجابة! ■


متواجد في مراك



الحملة على العراق أولى مراحل الاستعمار

جلال أمين

ما أكثر الفضائح التى تتكشف فى أوقات الكوارث. فالمفاجأة لا تترك لأحد الوقت الكافى لتغطية نفسه وإخفاء ما هو متورط فيه. والهزة الشديدة تسقط الأقنعة التى كانت تغطى الوجوه الدميمة فيظهر قبحها للجميع.

حدث مثل هذا فى مصر، كما حدث فى غيرها، أكثر من مرة. فعندما وقع الزلزال الكبير فى مصر فى سنة ١٩٩٢، ظهر فجأة كم من المدارس والمبانى الحكومية كانت قد بنيت بأسمنت مغشوش، وكم منها لم يجر ترميمه وصيانته لسنوات طويلة، رغم أن أموالاً كانت قد رصدت وقُبضت من أجل الترميم والصيانة. وعرفنا كلنا كم من الناس كانوا يسكنون بيوتًا غير صالحة للسكنى، بل وصدرت بشأنها قرارات بالإزالة، ومع ذلك استمروا فى الإقامة بها وهم يدركون أن من الممكن أن تقع على رؤوسهم فى أية لحظة لمجرد أنهم لا يعرفون أية طريقة للنجاة بأنفسهم فى ظل إمكانياتهم المادية القاصرة، وعجز الحكومة أو امتناعها عن مساعدتهم.

حدث مثل هذا أيضًا عندما وقع الحريق المأساوى لقطار الصعيد فى العام الماضى. إذ تكشف للناس فجأة بسبب هذا الحادث كيف تعيش نسبة لا يستهان بها من المصريين، وما يتعرضون له يوميًا من أخطار يعرفونها جيدًا، ولكنهم يئسوا تمامًا من أن تتخذ الحكومة أى إجراء ينقذهم منها.

حدثت مثل هذه الفضائح أيضًا عندما هجم الجيش العراقى فجأة على الكويت فى ١٩٩٠، فتبين أن كل البلايين من الدولارات التى أنفقتها الكويت والسعودية على الأسلحة، لم تجلب أى نفع إلا لبائعى هذه الأسلحة، إذ لم يوفر كل هذا السلاح أية حماية للكويتيين أو السعوديين عندما جد الجد.

وقبل هذا كشفت حرب فلسطين فى ١٩٤٨ عن فضيحة الأسلحة الفاسدة التى كانت تباع للجيش المصرى، وكشفت هزيمة ١٩٦٧ عن أن الطائرات المصرية، عندما وقع الهجوم الإسرائيلى، كانت لاتزال فى صناديقها على الأرض.

كان لابد أن نتوقع فضائح مماثلة عندما وقع الهجوم الأمريكى / البريطانى على العراق فى أواخر مارس وأوائل أبريل الماضيين: وعلى الرغم من أن الهجوم كان متوقعًا من جانب الكثيرين، ولم تكفّ الولايات المتحدة عن التهديد به يوميًا لعدة شهور، فقد كان لابد أن يكون لحدث بهذا الحجم وهذه الخطورة مفاجآته وفضائحه، وأن تمتد المفاجآت والفضائح لتشمل القائمين بالهجوم والمعرّضين له على السواء. وهذا هو ما حدث بالفعل، وما أتناوله فى هذا المقال، مكتفيًا الآن بفضائح المهاجمين.

[١]

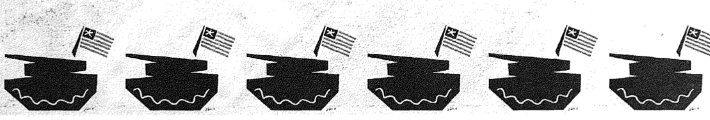
ولأبدأ بفضيحة بسيطة، كان المفروض أن يكون أمرها مكشوفًا حتى من قبل أن يبدأ أى هجوم، إذ لم يكن فى الحقيقة ليعجز عن كشفها أى تلميذ صغير فى مدرسة ابتدائية ولديه مستوى متوسط من الذكاء. وأقصد بذلك زعم الولايات المتحدة وأبواقها الدعائية أن الغرض من هجومها على العراق هو إرساء قواعد الديمقراطية والقضاء على الديكتاتورية. صحيح أن هذا الزعم قد تحوّل إلى فضيحة عندما رأينا ما أحدثته القوات المهاجمة من خراب وتدمير وقتل وتشريد، ثم عندما أخطرنا بعد تمام الهجوم بأن الذى سيتولى الحكم فى العراق عسكريون أمريكيون بدلاً من العسكريين العراقيين، ولكن درجة العبثية وفساد الذوق فى هذا الادعاء، كان من المفروض أن تكون واضحة حتى من قبل أن يبدأ الهجوم. أما كيف بدت نسبة كبيرة من الشعب الأمريكى على استعداد لتصديق هذا الزعم فهو أمر مدهش كما أنه مؤسف للغاية، ويدل على أية حال على القدرة الشيطانية التى تحوزها وسائل الإعلام. فها هو مثال آخر على الحقيقة المحزنة الآتية: وهى أنه مهما كانت الكذبة كبيرة، فيكفى أن تكررها عددًا من المرات، وبإلحاح وصوت مرتفع، حتى يصدقك عدد كبير من الناس.

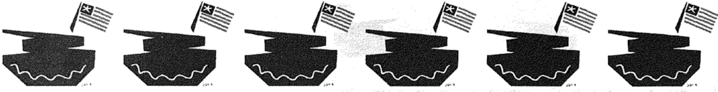
كان المفروض من قبل أن نرى ما حدث من تدمير وخراب أن نعتبر كل هذا الكلام عن العلاقة بين ديكتاتورية صدام حسين وبين الهجوم على العراق من قبيل اللغو من القول الذى لا يحتاج لأدنى جهد لتفنيده.

فمنذ متى تقبل دولة كبيرة أن تضحى بالمال والعتاد، ناهيك عن أرواح أولادها، من أجل سعادة ورفاهية شعب صغير لا ينتسب إليها لا برابطة الدم ولا بالثقافة، بل ولا تكف هذه الدولة الكبيرة منذ زمن طويل، على تحقير ثقافته والإساءة إلى الأمة التى ينتسب إليها؟ وتاريخ الولايات المتحدة فى تأييد نظم ديكتاتورية فى العالم الثالث أطول من أن يحكى، وكذلك تاريخها فى تدبير الانقلابات الدموية وغير الدموية لقلب نظم ديمقراطية من أجل مصالح مادية بحتة لشركاتها. كما أن الأدلة هى أكثر من تحصى على أن مثل هذه المصالح هى أيضاً وراء هذا الهجوم على العراق.

ثم فلنفترض جدلاً أن العراق كان قد بدأ تطبيق نظام ديمقراطى رائع منذ بضعة شهور، فهل كان هذا سيمنع الولايات المتحدة من الهجوم على العراق لاحتلال آبار البترول، أم كان من شأنه فقط أن يجعل هذا الهجوم وهذا الاحتلال أكثر صعوبة وأكثر دموية، مثلما حدث عندما قامت المخابرات الأمريكية بترتيب الانقلاب الدموى فى شيلى لقلب نظام الليندى الديمقراطى الذى لم تكن ترضى عنه الشركات الأمريكية؟

كل هذا كان من الممكن استنتاجه حتى قبل أن يقع الهجوم، ولكن الفضيحة الحقيقية حدثت بعد بداية الهجوم. إذ لم تستطع الشركات الأمريكية صبرًا ولم تطق الانتظار حتى تنتهى الحرب ويتم إرساء قواعد الديمقراطية ثم تبدأ بعد هذا بتوقيع الاتفاقات وإرساء العطاءات التى تعطى الشركات الأمريكية الأولوية على





ما عداها في اقتناص فرص الربح المتولدة عن الاحتلال، بل شرعت القوات المهاجمة في توزيع العقود وإرساء العطاءات بمجرد دخولها أرض العراق، وأحيانًا كانت تعطى عقد المقاولة الخاص بإعادة تعمير مرفق أو إصلاح منشآت أو أنابيب حتى قبل أن يتم تدميرها، خوفًا من أن تنازع هذه الشركات شركات أخرى غير أمريكية أو لا تتمتع بنفس الحظوة لدى المسئولين عن هذا الهجوم.

ثم اشتدت الفضيحة عندما رأينا القوات المهاجمة، وقد تم احتلالها لبغداد، تفرض حراسة مشددة على وزارة البترول العراقية، حيث الوثائق والرسوم والخرط الضرورية لإحكام القبضة على البترول، ولكنها تقف متفرجة لا تحرك إصبعًا وهي تشاهد الناس وهم ينهبون متحف الحضارة العراقية وتحرق المكتبة الوطنية في بغداد (بترتيب خاص بلا شك مع المسئولين عن الهجوم لما يحققه هذا النهب والإحراق من فوائد لا تقدر بثمن لإسرائيل على وجه الخصوص). وكأن إرساء قواعد الديمقراطية لشعب ما، شيء، وحماية الحضارة والتراث القومي لهذا الشعب شيء آخر، أو كأن تدمير نفسية الشعب بالحكم الديكتاتوري شيء وتدمير ذاكرة نفس هذا الشعب شيء آخر.

إننا لم نعهد مثل هذه الجرأة في تجارب الاستعمار القديم، إذ كانت المصالح الاقتصادية (التي كان لها دور أساسي بالطبع) يجري تحقيقها بدرجة أكبر من الحياء والتستر. الواضح إذن أن الخوف من الفضيحة قد أصبح أقل قوة بكثير مما كان منذ مائة عام.

[٢]

لا شك أن الفضيحة قد طالت أيضًا الأستاذين الأمريكيين فوكوياما وهانتنجتون صاحبي النظريتين الشهيرتين: نهاية التاريخ وصراع الحضارات. كان المفروض هنا أيضًا أن تكون النظريتان مفضوحتين من البداية، فالحقيقة أن منطقهما كان من الهزال والضعف بحيث إنه لم يكن يجدر بالمثقفين أن يعاملوهما بكل هذا الاحترام والاهتمام، وعلى الأخص لم يكن يجدر بمثقفي العالم الثالث، والعالمين العربي والإسلامي على وجه الخصوص، أن يقعوا بهذه السهولة في هذا الفخ الذي نصب لهم، فيرددون مع غيرهم كل هذا الكلام الغريب عن نهاية التاريخ وصراع الحضارات.

كان المفروض أن يكون واضحًا من البداية أن الترويج لمقولة «نهاية التاريخ» كان بمثابة احتفال فكري بانتصار الولايات المتحدة في الحرب الباردة وسقوط المعسكر الاشتراكي، يقول فيه المنتصر إنه «ها قد اتضح أنني كنت دائمًا على صواب، ولا مجال بعد الآن للشك في أن نظام الحرية السياسية والاقتصادية الذي أحمل لواءه هو النظام الأصلح، بل هو النظام الوحيد الصالح». ولكن حتى لو كان البعض قد انخدعوا بهذه المقولة في نهاية الثمانينيات، عندما سمعنا عن نهاية التاريخ لأول مرة، فهل يجوز هذا الآن، بعد أن أخذت الولايات المتحدة تتصرف في العالم وكأنها صبي أهوج مجنون، وتقييد الحريات وتراقب تصرفات الناس في داخل الولايات المتحدة وكأنها قد عادت إلى أسوأ أيام المكارثية؟ ثم ها هي تقوم بالهجوم على العراق غيرعابئة باحتجاج ملايين المعترضين في داخل الولايات المتحدة وخارجها، في سبيل مصالح ضيقة لشريحة صغيرة جدًا من الممسكين بمقاليد القوة والمال. هل يمكن لفوكوياما أن يقف الآن ويقول نفس الكلام عن «نهاية التاريخ» بنفس الثقة التي كان يقوله بها منذ عشر سنوات؟

أما عن «صراع الحضارات»، فأين هو بالضبط صراع الحضارات في هجوم الولايات المتحدة وبريطانيا على العراق؟ إذ لو كان الذي حدث بينكم وبين صدام حسين هو حقًا «صراع حضارات»، أكان من الجائز أو المتصور أن تقفوا إلى جانبه وتصادقوه إلى هذه الدرجة وتدعموه بالسلاح والعتاد مادام يشن حروبًا في صالحكم، ثم تضربونه وتضعون نهاية لنظامه عندما تتطلب مصالحكم نظامًا مختلفًا؟ هل تسمية هذا الذي حدث «بصراع الحضارات» هي أنسب تسمية ممكنة، بينما الصراع هو عادة بين طرفين متقاربين في القوة؟ هل هو صراع حضارات ذلك الذي ينتهي بفقدانكم نحو مائة جندي وفقدان العراق لعشرات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال؟ وأي شيء مما حدث من جانبكم أو من جانب العراق، كان يعبر ياترى عن قيم حضارة بعينها؟ هل كان ضربكم للعراق حماية للحضارة الغربية وتظاهر صدام حسين بالحرب حماية لحضارة عربية أو إسلامية؟ أم أن إقحام لفظ «الحضارة» في الأمر كان مجرد عمل من أعمال الدعاية استدرج إليه للأسف عدد لا بأس به من المهتمين بالشئون الثقافية؟

[٣]

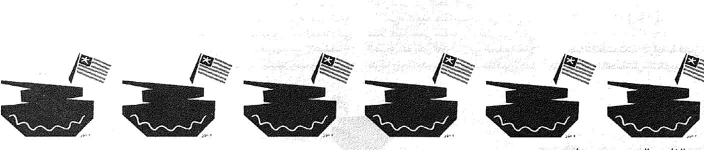
لم يكن ما حدث في العراق إذن أكثر أو أقل من هجمة استعمارية جديدة من طرف مدجج بأحدث أنواع السلاح، على طرف تم التأكد من تجريده من السلاح قبل أن يبدأ الهجوم، ولأهداف لا تختلف قط عن الأهداف المعروفة والمشهورة لأي هجوم استعماري عبر التاريخ، والتي تتلخص في النهاية في النهب والاستغلال الاقتصادي. ولكن هذا في حد ذاته يشكل فضيحة أخرى لا يمكن أن يستهان بها. إذ هل كان أحد يتصور أن يعود الاستعمار على هذا النحو، وبهذه الصورة الفجة، وبهذه الغلظة، ولنفس الأغراض القديمة؟ ألم نكن نظن أن الاستعمار قد انتهى إلى غير رجعة منذ نحو خمسين عامًا، وحصلت البلاد المستعمرة على استقلالها وأصبحت تتمتع بكل مظاهر السيادة، وتعبر عن رأيها الحر المستقل في الهيئات الدولية، وتقف موقف الند للند أمام الدول الاستعمارية القديمة في المنظمات والمحافل الدولية؟

المؤكد أننا خُدعنا في هذا أيضًا، وأن الأمر كله يحتاج إلى إعادة نظر. فعندما ننظر إلى القرن العشرين بأكمله، في ضوء تصرفات الولايات المتحدة خلال السنوات القليلة الماضية، وعلى الأخص في أعقاب حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، نجد أن تاريخ ذلك القرن المنصرم يتخذ شكلًا مختلفًا إلى حد كبير عما كنا نتصوره من قبل. وهذا في حد ذاته ليس بالجديد، فما أكثر ما تطلب حادث جديد إعادة النظر في حقبة تاريخية بأكملها، وما أكثر ما ألقى حادث ما من ضوء جديد تمامًا على أحداث ماضية. ولكن الذي نراه الآن، تحت هذا الضوء الجديد، ليس شيئًا سارًا بالمرة، وإن كان علينا - شئنا أم أبينا - أن نعد أنفسنا لقبوله.

ذلك أن ما سمي بحصول دول العالم الثالث على استقلالها في منتصف القرن العشرين، أي في أعقاب الحرب العالمية الثانية، يبدو الآن أنه كان صوريًا إلى حد بعيد، وقصير العمر بأكثر مما نتصور، وأن الفرق بين حال الدول المسماة بدول العالم الثالث خلال النصف الثاني من القرن العشرين وبين حالها خلال النصف الأول، لم يكن يتعلق بالضبط باستقلال الإرادة أو فقدانها، بل كان يدور في الأساس حول صور فقدان الإرادة، أو بعبارة أخرى حول الطريقة التي يجري بها فرض إرادة على أخرى.

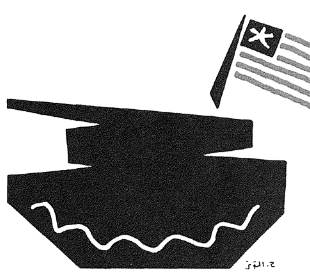
كان الاحتلال العسكري، كما هو معروف، هو الطريقة الأساسية لفرض الإرادة في النصف الأول من القرن العشرين «وأواخر القرن السابق عليه»، ولكن هذا الاحتلال العسكري لم يعد لازمًا أو ضروريًا في النصف الثاني من القرن العشرين مع تقدم وسائل الاتصال وصور التهديد والوعيد، فأصبحت الانقلابات العسكرية، وتقديم ما يسمى بالمعونات الأجنبية أو منعها، طريقة فعالة لتحقيق نفس الأغراض القديمة. فبدلًا من الاحتلال العسكري أصبح من الممكن الوصول إلى نفس النتائج عن طريق حكام محليين لهم كل سمات الحكم الوطني المستقل (بل وأحيانًا حتى التمرد على الاستعمار) وبمساعدة من بعض المؤسسات الدولية كصندوق النقد والبنك الدولي.

استمرت هذه الطريقة في إخضاع دول العالم الثالث طوال عمر الحرب الباردة التي انتهت قرب نهاية القرن العشرين، ولكن حدثت خلال هذه الفترة تطورات خطيرة ومذهلة أوجدت وسائل





جديدة، ومذهلة بدورها، جعلت من الممكن تحقيق نفس الأهداف القديمة للاستعمار بطرق أقل كلفة فيما يتعلق بالأرواح «على الأقل أرواح جنود الدولة الاستعمارية» كما أن نتائجها مضمونة أكثر، وأكثر ملاءمة لما حدث من تطور في أفكار الناس وقيمهم. ربما كان من اللازم استخدام بعض التحركات العسكرية وبعض الصور المحدودة من الاحتلال العسكري، وكذلك قد يكون من اللازم تنصيب حكومة عميلة تتلقى التوجيهات مباشرة من الخارج، ولكن الجديد في وسائل التحكم عن بُعد هو ما أصبحت تتيحه ثورة الاتصالات والمعلومات بدرجة غير مسبوقة، خلال العشرين سنة الماضية، من قدرة على التحكم في المعلومات



والأفكار والمشاعر بدرجة عالية من الكفاءة والسرعة، عن طريق استخدام الصوت والصورة.

انظر كيف سمح هذا التطور بتحقيق نفس الأهداف القديمة بطريقة أسهل وأرخص وذات نتائج مضمونة أكثر. كان إسكات رأى المعارضين للاستعمار (سواء المعارضين في البلاد الخاضعة للاستعمار أو في داخل الدولة الاستعمارية نفسها) يعتمد على استخدام السلاح استخدامًا مباشرًا: دكّ حصون البلاد المطلوب فتحها؛ وإطلاق الرصاص على المتظاهرين أو إيداعهم السجون. أما في ظل «الاستقلال» الذي حصلت عليه دول العالم الثالث في النصف الثاني من القرن العشرين، فلم تعد الدولة الاستعمارية في حاجة، من أجل إسكات المعارضين، إلى استخدام السلاح إلى هذه الدرجة ولا إلى نقل الجيوش من مكان لآخر. كان إسكات المعارضين يتم عن طريق استخدام حكام محليين، يحققون للمستعمر نفس الأغراض القديمة ولكن في ظل شعارات وطنية ومستقلة، ويجري ترويضهم، عند اللزوم، بالمعونات الاقتصادية، كما يجري عزلهم، عند الضرورة، بانقلاب عسكري جديد. أما على الساحة الدولية، فقد كان الأمر يبدو في صورة مشرقة تمامًا: دول مستقلة تتعامل مع دول كانت استعمارية في الماضي ولكنها لم تعد كذلك، والجميع لهم نفس الحق في التصويت في هيئات الأمم المتحدة وهيئات التمويل الدولية أو الهيئات المنظمة للتجارة العالمية.

كل هذه الوسائل القديمة لازالت مفيدة، بل وأحيانًا لاتزال ضرورية، ولكن كلاً منها أصبح الآن يتعرض لمصاعب ويخلق متاعب لابد من مواجهتها. فإرسال جيوش الاحتلال بأعداد غفيرة لم يعد أمرًا مقبولاً بالدرجة التي كانت في الماضي، إذ أن أرواح الجنود أصبحت أغلى على النفس وأعلى سعرًا مما كانت، بل حتى أرواح الناس في بلاد العالم الثالث نفسه أصبح ينظر إليها الآن نظرة مختلفة عما كان سائدًا في الماضي، مع انتشار الشك في تفوق عنصر بشري على عنصر آخر. أما استخدام حكام محليين لتأدية نفس الأغراض فهو أقل كلفة بالطبع من الاحتلال العسكري المباشر، وهو وسيلة لا يمكن في الحقيقة الاستغناء عنها، وإن كان من المفيد دائمًا أن تصبح أكثر دقة ونتائجها أكثر إحكامًا.

لقد أتاحت ثورة المعلومات والاتصالات الفرصة لتحقيق هذه الدقة المطلوبة ولزيادة درجة الإحكام في النتائج المرغوب فيها، مع الاحتفاظ بنفقات الاستعمار عند أقل مستوى ممكن.

فكما يحدث في الفيلم السينمائي من استخدام حيل بصرية وسمعية تجعل من الممكن إيهام المتفرج بوجود آلاف مؤلفة من الناس في ميدان واسع، بينما الحقيقة هي أن التصوير يجري لعدد محدود من الأفراد، في جزء صغير من الأستوديو، يمكن أيضًا الإيهام بقيام حرب ضروس يقع فيها ضحايا كثيرون وتسال فيها أنهار من الدماء، مع أن الحقيقة لا تزيد على مقتل عشرة أو عشرين شخصًا من أفراد الجيش القائم بالهجوم (بعضهم أصيب برصاص أطلقته أيد «صديقة»)، وذلك بالاستخدام الملائم لحيل صوتية وبصرية مما أصبح الآن متاحًا نتيجة لثورة المعلومات والاتصالات. ولكن الأغرب والأفدح من هذا هو ما أصبح من الممكن صنعه مع «العدو» نفسه. إن وجود عدو أمر ضروري بالطبع ولا غنى عنه، إذ كيف تبرر عملية الاعتداء كلها بدون وجود عدو؟ وهو عدو لابد أن يصور بأنه شرس وماكر إلى أبعد حد، وذو قوة أسطورية ويتحكم في وسائل للدمار يصعب وصفها أو الإحاطة بتفاصيلها أو تحديد مكانها. هذا هو ما يجب قوله للناس وإلا فكيف يبرر إنفاق هذه المبالغ الطائلة على السلاح والعتاد، وكيف تبرر الطلبات المتتالية إلى الكونجرس لاعتماد مبالغ طائلة جديدة يذهب معظمها بالطبع في صورة أرباح للشركات ذات الحظوة والنفوذ؟ ولكن من المهم مع ذلك ألا يكون هذا «العدو» بهذه الشراسة والمكر وكل هذه القوة في الحقيقة. إذ لو كانت له هذه الصفات بالفعل لأصبح الأمر أكثر صعوبة ولأصبحت تكاليف الاستعمار أعلى بكثير.

الأمر المذهل حقًا هو أن نفس هذه الثورة في المعلومات والاتصالات قد جعلت من الممكن جدًا الجمع بين هاتين الصفتين المتناقضتين: الشراسة والمكر والقوة الأسطورية من ناحية، والوداعة والمسالمة وسهولة الانقياد من ناحية أخرى. إذ ماذا لو استطعنا التحكم في تصرفات هذا «العدو» على نحو يجعله يأتمر بأمرنا في كل كبيرة وصغيرة من ناحية، ونجعل صورته تبدو على الملأ وكأنه شيطان رجيم من ناحية أخرى؟ بهذا نتقي أي خطر قد يأتي من وقوع قتال فعلي وطبيعي بين الطرفين، ومن انحراف مسار الأحداث عن المسار المرسوم مقدمًا، ونضمن في نفس الوقت كسب رضا المتفرجين وتخفيض أصوات المعارضين إلى الحد الأدنى.

شيء شبيه جدًا بهذا هو في رأيي ما حدث فيما سمى «بالحرب» التي دارت في العراق. لم يكن الطرفان في الحقيقة إلا طرفًا واحدًا يقوم بدورين مختلفين، كما يحدث أيضًا في الفيلم السينمائي حيث يظهر الممثل الواحد في صورتين مختلفتين وبرداءين مختلفين، وكأنه شخصان يجلسان متجاورين ويحادث أحدهما الآخر. وقد توفرت للقصة كافة عناصر التشويق والإثارة المطلوبة والتي تحقق فضلاً عن التشويق والإثارة بعض الأغراض الثانوية.

فقد أثير الحماس في البداية وكان القصة يمكن أن تنتهي بانتصار الطرف الأضعف، ثم سرعان ما أُنهي هذا الجزء من القصة خوفًا من أن يثير آمالاً من الخطر أن تزيد على حد معين، فإذا بالإحباط النهائي يفوق أي إحباط (إذ أن الإحباط الذي يأتي في أعقاب ارتفاع في مستوى الآمال يكون أشد منه عندما يكون الأمر ميئوسًا منه في البداية). وهذا الشعور بالإحباط مطلوب لأنه يسهل مهمة ترسيخ الوضع الجديد الذي يعاد فيه ترتيب كل شيء.



أما «العدو» الأسطوري، الشرس جدًا والماكر للغاية، وصاحب القوة الأسطورية وأسلحة الدمار الشامل، فقد ظهر أنه لم يكن ينوي القتال طويلاً، بل لا ينوي القتال على الإطلاق، مما لابد أن يثير الدهشة الشديدة لدى من لا يقبل التفسير المتقدم، إذ كيف يكون الرجل بتلك الدرجة الخارقة من الشجاعة قبل ساعات من بدء الحرب (بل وخلال أيامها الأولى)، ويدلي بتصريحات مدهشة عن المقاومة والصمود، ثم يكفّ هكذا فجأة عن عمل أي شيء مع أنه كان في مقدوره (مهما كان ضعفه الحقيقي) أن يفعل الكثير ولو على سبيل إنقاذ ماء الوجه؟

ثم يختفي هذا «العدو» فجأة وكأن الأرض قد انشقت وابتلعته، ويزول كل أثر له، باستثناء بعض المقاعد الوثيرة التي جلس عليها بعض الجنود المهاجمين وهم يدخّنون السيجار (وقد ظهروا في صورة أقرب إلى ما نراه في فيلم ذي جو كافكاوي مخيف)، أو على المسرح في مسرحية بارعة الإخراج). كما يستمر ترديد اسم هذا العدو الشرير كرمز للشيطان نفسه، الواجب التصدي له والبحث عنه، كما حدث من قبل لرجل مماثل يسمى «أسامة بن لادن».

[٤]

أما الفضيحة الرابعة فهي تلك المتعلقة «بالحضارة الغربية»، لقد



اقترنت الحضارة الغربية منذ نشأتها منذ نحو خمسة قرون بشن الحروب الاستعمارية بين الحين والآخر، جريًا وراء الربح، سواء كان الربح من وراء الاستيلاء على أراضي الغير وطرده منها أو إبادته، كما حدث في الفتح الأوروبي لأمريكا الجنوبية والشمالية، أو الحصول على أيد عاملة رخيصة، كشن الحملات على أفريقيا لاصطياد الآدميين وإرسالهم إلى القارة الأمريكية حيث يجرى تشغيلهم كعبيد، أو الحصول على مواد أولية رخيصة وفتح أسواق جديدة أمام فائض السلع الصناعية، كما هي الحال في سائر الهجمات الاستعمارية الأوروبية والأمريكية على أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

لقد اقترنت الحضارة الغربية منذ نشأتها كذلك بالحروب فيما بين الدول الأوروبية نفسها، ثم انضمت إليها الولايات المتحدة في القرن العشرين، سعيًا وراء أهداف ليست أفضل من الناحية الأخلاقية من الهجمات الاستعمارية. ولم يعد خافيًا على أحد أن الشعارات التي اقترنت بها هذه الحروب أو تلك كانت دائمًا شعارات زائفة تستخدم لإخفاء أهداف دنيئة.

لم يعد أحد الآن يصدق أن استعمار بلاد أفريقيا أو آسيا كان بغرض تمدين أهالي هذه البلاد، أو نشر الحضارة بينهم أو حماية الأقليات، كما لم يبق كثيرون الآن ممن يصدقون أن الحربين العالميتين في القرن العشرين كانتا بغرض الانتصار للديمقراطية ودحر النازية والفاشية، أو أن الحرب الباردة في ذلك القرن كانت منافسة شريفة بين أيديولوجيتين: الرأسمالية والاشتراكية. وإنما يعرف الجميع الآن أو يجب أن يعرفوا أن كلتا الأيديولوجيتين كانت تستخدم لتغطية أهداف أخرى تتعلق إما بالكسب الاقتصادي أو توسيع مناطق النفوذ.

كان كل هذا يلقي بظلال كئيبة وقاتمة للغاية على الحضارة الغربية دفعت عددًا من الكتاب والمفكرين الغربيين أنفسهم إلى التعبير عن شعورهم بالإحباط الشديد وخيبة الأمل إذ يكون هذا هو مصير حضارة عُلقت عليها كل هذه الآمال الكبرى منذ حركات التنوير المتفائلة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وإذ يرون أن هذه النهاية العبثية هي منتهى ما وصلت إليه العقلانية في الغرب، وأن يكون هذا التقدم في إنتاج الأسلحة وإلقاء القنابل، بما في ذلك القنابل النووية على شعب كان قد استسلم بالفعل، هو أقصى ما يمكن أن يتفتق عنه التقدم العلمي والتكنولوجي، وأن يكون نشر الأفكار النمطية واستخدام الدعاية الفجة هو أقصى ما يتفتق عنه كل هذا التقدم في جمع ونقل المعلومات وفي تسهيل الاتصال بين الناس.

كان كل هذا هو ما دفع كتابًا ومفكرين من أمثال شبنجلر، وهـ. ج. ويلز، وهكسلي، وأورويل، وسارتر، وكامي، وبرتراندرسل.. إلخ إلى التحذير من مصير بائس للبشرية إذا استمر سير الحضارة الغربية في هذا الاتجاه، وهو أيضًا ما جعل المهاتما غاندي يجيب ساخرًا على سؤال لصحفي بريطاني عن رأيه في الحضارة الغربية، بقوله: «إنها لتكون فكرة طيبة جدًا، لو كان بالإمكان تحقيقها!» (It Would be a very good idea!). ما الجديد إذن مما يمكن أن تكون قد جلبته هذه «الحرب» الأخيرة في العراق؟

هناك بالطبع ما سبق أن أشرت إليه من جرأة بالغة وغير معهودة وعدم اكتراث بالفضيحة، بالمقارنة بمحاولات أكثر جدية للتستر على فضائح الاستعمار في الماضي. وهناك الفجاجة والركاكة اللتان يتسم بهما الخطاب الإنشائي وتقترن بهما هذه الهجمة الاستعمارية الجديدة بالمقارنة بالخطاب الاستعماري القديم، وهو ما يشبه الفارق بين شخصية رئيس للولايات المتحدة من نوع جورج بوش (خاصة الابن) وشخصية استعمارية أخرى ولكنها أقدم بنصف قرن على الأقل، مثل رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل.

ولكن كل هذا يهون في رأيي بالمقارنة بشيء واحد أعتبره هو الطامة الكبرى فيما يحدث الآن، وقد ظهر بصورة بالغة الوضوح في هذه الهجمة الاستعمارية الأخيرة على العراق، وهو ما يشكل في رأيي أكبر فضيحة للحضارة الغربية الحديثة. وهو هذا الالتجاء غير المسبوق، في سبيل تمرير الأعمال غير الأخلاقية، وفي سبيل إسكات أصوات المعارضين، إلى استخدام وسائل غسيل المخ والتلاعب بعقول الناس إلى هذه الدرجة الشيطانية. إن هذا هو الشيء المخيف حقًا: أكثر من سلب أموال الناس، وأكثر من الاستيلاء على أراضي الغير بالباطل، وأكثر من قتل الأبرياء. إن هذا الإصرار الشيطاني على خلط الحق بالباطل، وغرس الأكاذيب في عقول الناس، ومحو ذاكرتهم، هو أسوأ ما تمخضت عنه هذه الأحداث الأخيرة في العراق. والمرء يأمل أن يكون الأمر مجرد فضيحة، إذ الفضيحة يمكن على الأقل العمل على عدم تكرارها. أما إذا تمخض الأمر عن أن يصبح هذا الأسلوب في مخاطبة الناس هو السمة الثابتة لوسائل الإعلام والاتصال، فإنه يكون بذلك قد تجاوز الفضيحة إلى ما هو أسوأ بكثير. ■

كتاب الزاوية



البيان والتبيين للجاحظ

يعد هذا الكتاب من أهم كتب التراث العربي خاصة في مجال إرساء قواعد الفكر البلاغي، وهو يجمع بين كونه كتابًا في الأدب بالمفهوم الواسع القديم لكلمة الأدب الذي يعني الأخذ من كل علم بطرف وكونه كتابًا في النظرية الأدبية.

والجاحظ هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي ولد في عام ١٦٣هـ/ ٨٦٩م في مدينة البصرة جنوب العراق واشتهر بالذكاء الحاد والذاكرة القوية والقدرة البالغة على الإنشاء الأدبي، وقد درس علوم عصره الأدبية والفكرية، كما قرأ المؤلفات الفلسفية التي تمت ترجمتها إلى العربية من اليونانية. وعاش الجاحظ في العصر الذهبي للأمة العربية والإسلامية، عصر الخليفة هارون الرشيد وولده عبد الله المأمون.

توفي الجاحظ في البصرة عام ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م وترك آثارًا أدبية كبيرة ومهمة في التاريخ الفكري والأدبي الإنساني. ويقال أنه كتب ثلاثمائة وستين كتابًا في شتى ألوان المعرفة الإنسانية السائدة في عصره. وقد ضاعت معظم كتبه ولم يتبق سوى القليل منها وفي مقدمتها الحيوان والبيان والتبيين والبخلاء والطفيليون وفضيلة المعتزلة وأخلاق الملوك ومسائل القرآن ورسالة التربيع والتدوير.

وقد أصدرت الهيئة العامة لقصور الثقافة في مصر بداية العام الحالي ضمن سلسلة الذخائر كتاب «البيان والتبيين» في أربعة أجزاء وهو من تحقيق وشرح المحقق الكبير الراحل الأستاذ عبد السلام هارون.

المشكلة الكردية

هل تجد حلاً أم تزداد تعقيداً؟

درية عوني

نكتب هذه السطور بعد أن انهار النظام العراقي ورموزه وسقطت بغداد وانتهت الحرب، أو كادت واستسلمت مدينتا كركوك والموصل بدون قتال أو مقاومة.

طيلة الأزمة التي سبقت الغزو الأمريكي - البريطاني وأثناء هذا الغزو وإلى الآن برزت القضية الكردية كأحد أهم المحاور التي تركزت حولها التحليلات والتوقعات لما سيكون عليه عراق مابعد صدام حسين.

فعندما كانت أمريكا تهيئ قواتها لفتح «جبهة الشمال» معتمدة على حليفتها الاستراتيجية تركيا وعلى قواعدها الحربية فيها بالإضافة إلى أن تركيا عضو في الحلف الأطلسي «ناتو» انفجر أول لغم كردي عندما رفض قادة وشعب كردستان العراق شروط تركيا المجحفة للسماح للقوات الأمريكية بالمرور من أراضيها وأهمها «دخول ستين ألف جندي لحراسة المقاتلين الأكراد بعد نزع أسلحتهم، الاشتراك مباشرة في إدارة كركوك خاصة والعراق عامة» واكتشفت واشنطن أن تركيا بالإضافة إلى الخمسين مليار دولار التي تطلبها كمساعدة تريد أن تحصل على أكثر من نصف «الكعكة» التي حشدت لها أمريكا كل هذه القوات ودخلت في عداوة مع معظم سكان الكرة الأرضية وترفض أن يشاركها فيها أحد حتى حليفتها بريطانيا.



ما هي الأسباب التي أدت إلى أن تحتل القضية الكردية هذا الحيز الكبير عل مسرح الأحداث؟ هل ستجد المشكلة الكردية حلاً؟ وفي أي حدود؟ وهو احتمال وارد كما أن هناك سؤالاً آخر يطرح نفسه أيضاً وهو: هل ستزداد هذه المشكلة تعقيداً خاصة إذا تفجر الجوار الإقليمي حيث توجد أقليات كردية في جميع الدول المحيطة بالعراق (تركيا وإيران وسوريا) وهذا احتمال وارد أيضاً؟

من الصعب الإجابة عن هذه الأسئلة بدون التذكير ولو بإيجاز شديد ببعض النقاط التاريخية والجيوجغرافية والجيوسياسية المتعلقة مباشرة بالموضوع الذي نحن بصدده: سنذكر بأصول الشعب الكردي وتاريخه ووضعه حتى انهيار الإمبراطورية العثمانية: ثم نذكر بظروف نشأة الدولة العراقية الحديثة بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨).

ثم نسرد بإيجاز أهم تطورات علاقة الحركة القومية الكردية مع الأنظمة العراقية المتتالية وخاصة مع النظام البعثي وصعود نجم نائب رئيس الجمهورية ثم رئيس الجمهورية العراقية صدام حسين إلى حرب الخليج الثانية أو اجتياح الكويت في أغسطس ١٩٩٠، والتي أدت إلى نشأة إقليم كردستان وتطوره بعد أن فصله الرئيس العراقي إدارياً عن باقي العراق عام ١٩٩١، وحتى وقوع الغزو الأمريكي - البريطاني في مارس ٢٠٠٣.

أصل الكرد

الشعب الكردي هو أحد ثلاثة شعوب أصيلة في منطقة الشرق الأوسط، هذه الشعوب هي: الفرس - العرب - الكرد.

وهو شعب آري من مجموعة الشعوب الهندو - أوروبية من العائلة الإيرانية، لغته الخاصة وهي اللغة الكردية ذات لهجتين أساسيتين: السورانية (يتكلم بها كرد شرق كردستان العراق وكرد إيران) والبهديدانية (يتكلم بها كرد غرب كردستان العراق وكرد تركيا وسوريا).

ومن الصعب جداً إن لم يكن من المستحيل إعطاء رقم حديث ودقيق عن تعداد الشعب الكردي، فأقل رقم يذكر من سنين هو ٢٥ مليوناً وأكبر رقم يذكر هو ٤٠ مليون نسمة وكردستان مقسمة سياسياً في الوقت الحاضر بين خمس دول هي: تركيا (من ١٥ إلى ١٨ مليون نسمة) وإيران (من ٦ إلى ٨ ملايين) والعراق (من ٥ إلى ٦ ملايين) وسوريا (مليون ونصف) وأرمينيا (الاتحاد السوفيتي سابقاً بضعة آلاف) وتمثل كردستان وحدة جغرافية متصلة. وهم يمثلون المجموعة العرقية الوحيدة في العالم التي يزيد تعدادها على ٣٠ مليون نسمة والتي لم تحصل بعد على حقوقها القومية.

وتزخر المناطق الكردية بالثروات المعدنية ويأتي البترول على رأسها ويقدر احتياطي البترول في كل أجزاء كردستان بأكثر من ٤٥ مليار برميل (أي أكثر من احتياطي الولايات المتحدة) ففي كردستان العراق يوجد البترول بوفرة في حقول كركوك وعين زاله وخانقين وباباكركر (وهي من أغزر آبار البترول إنتاجاً).

وفي كردستان تركيا يوجد البترول في ديار بكر وباطمان، وفي كردستان إيران يوجد في منطقة كرمنشاه وقصر شيرين وخانه، وفي كردستان سوريا يوجد البترول في روميلان وكراتشوك.

بجانب البترول يوجد كثير من المعادن المهمة مثل الكبريت والفوسفات واليورانيوم والذهب والنحاس والفضة والحديد، فضلاً عن أن المنابع الأساسية لنهري دجلة والفرات تبدأ من كردستان تركيا، لذلك نجد أن أكبر السدود في تركيا (GAP) أو مشروع جنوب شرق الأناضول) وسدي «دوكان» و«دربندخان» في العراق تقع في أراض كردية.

أما ديانة الأغلبية العظمى من الكرد فهي الإسلام على المذهب السني الشافعي، ويوجد حوالي ستة ملايين كردي شيعي نصفهم في كرمنشاه (إيران) كما يوجد علويون أكراد، وينتمي المسيحيون منهم إلى الشعب الآشوري الذي حكم نينوى (الموصل الآن) قبل الميلاد ومنهم قلة تعتبر نفسها كردية.

كذلك توجد أقلية كردية يهودية هاجر معظمها إلى إسرائيل عام ١٩٤٨ وهي الآن تشكل جالية كردية يهودية تعدادها حوالي ١٠٠٠٠٠ نسمة في إسرائيل.



وكانت معاهدة سايكس - بيكو قد أناطت ببريطانيا حكم منطقة وادي الرافدين من جنوب الموصل إلى الخليج العربي (أي ما يطلق عليه بالعراق العربي) ثم انتقلت إليها ولاية الموصل التي كانت من نصيب فرنسا بعد الحرب.

ورغم أن إنجلترا وقّعت على معاهدة سيفر إلا أنها لم تطبق أي بند منها وسارت في مخططها بإلحاق ولاية الموصل الكردية بولايتي البصرة وبغداد العربيتين وتنصيب الأمير فيصل ملكاً على العراق، وبعد عدة انتفاضات كردية للحصول على دولة مستقلة قمعتها إنجلترا بشدة وبالسلاح الكيماوي رضخ الأكراد وقبلوا بحكم ذاتي فقط داخل العراق، ففي ١٦/١٢/١٩٢٥ تحت تأثير بريطانيا وحلفائها اتخذت عصبة الأمم قراراً بضم ولاية الموصل للعراق ولكن بشرط إعطاء الأكراد حكماً ذاتياً وتكوين إدارة كردية واستعمال اللغة الكردية.

وبهذا انفصلت ولاية الموصل نهائياً عن تركيا، ولكن تركيا لم تقبل حتى الآن هذا الانفصال وحاولت في كل مناسبة استرجاعها كما حصل أثناء حرب تحرير الكويت، وكما تحاول الآن منذ بدء الأزمة العراقية ثم الغزو الأمريكي - البريطاني.

وبانتهاء الانتداب البريطاني على العراق في ١٩٣٠ واستقلال العراق

من الصعب جداً إن لم يكن من المستحيل إعطاء رقم حديث ودقيق عن تعداد الشعب الكردي، فأقل رقم يذكر من سنين هو ٢٥ مليوناً وأكبر رقم يذكر هو ٤٠ مليون نسمة



الرسمي والاسمي أصبحت العلاقة السياسية الرسمية بين النظام العراقي وقادة الحركة الكردية علاقة مواجهة، وأصبحوا في خندقين في مواجهة مباشرة وفي حالة حرب أو شبه حرب لأكثر من ٤٠ سنة. وتطورت الحركة الكردية مع إنشاء الحزب الديمقراطي الكردستاني عام ١٩٤٦ (المعروف بالبارتي) والذي رأسه الزعيم مصطفى البرزاني ويرأسه حاليًا ابنه مسعود البرزاني بهدف الحصول على حق تقرير المصير. وفي ١٤/٧/١٩٥٨ أطاح انقلاب عسكري بقيادة عبد الكريم قاسم بالنظام الملكي، وفي محاولة لإعادة الحياة الديمقراطية إلى العراق اعترف بالأحزاب بما في ذلك «البارتي» وظهرت ١٤ صحيفة ومجلة كردية في هذه الفترة. وتم إعلان الدستور المؤقت الجديد الذي يعيد الحياة الديمقراطية وأعلن البند الثالث منه وبصراحة أن (الشعب العراقي يتكون من قوميتين: العرب والأكراد وأنهما شركاء في هذا الوطن) وأكد الدستور على ضمان الحقوق الوطنية الكردية داخل إطار الكيان العراقي.

وساد لفترة قصيرة جو من الديمقراطية وسمح للقائد مصطفى البرزاني بالعودة من منفاه في الاتحاد السوفيتي، وساعد هذا المناخ على الإسراع في بلورة التيارات السياسية الكردية وبروز حركة قومية تحررية منظمة سياسيًا وعسكريًا مرتكزة على قاعدة شعبية.

ولكن سرعان ما نزع عبد الكريم قاسم قناعه وظهرت حقيقة ممارساته الديكتاتورية على العرب وعلى الأكراد معًا. وفي ١٩٦٠ قرر إلغاء البند الخاص بالشعب الكردي للدستور المؤقت وأمر طائراته بدك منطقة برزان بالقنابل.

بعد هذا التصرف من قبل عبد الكريم قاسم قرر حزب «البارتي» بقيادة مصطفى البرزاني الدفاع عن الشعب الكردي، وفي يوم ١١/٩/١٩٦١ اندلعت الحرب بين السلطة العراقية والحركة الكردية وظلت هذه الحرب مستمرة مع الأنظمة العراقية المتتالية حتى عام ١٩٩١ مع فترات قليلة من الصلح والوفاق سرعان ما كانت تنتهي بانفجار جديد.



وفي ٨ فبراير ١٩٦٣ أطاح ضباط بعثيون في الجيش بحكم عبد الكريم قاسم وأعدموه وولوا عبد السلام عارف على الحكم وتم تعيين أحمد حسن البكر رئيسًا للوزراء، وصدام حسين نائبًا له.

بعد قتال عنيف بين النظام والحركة الكردية اتصل أحمد حسن البكر سرًا بمصطفى البرزاني ثم بدأت مفاوضات بينهما أدت إلى الاتفاق الشهير باتفاق «آذار ١٩٧٠» من ١٥ بندًا واعتبر كل طرف أن الاتفاق حقق له الحد المقبول من مطالبه، فالأكراد اعتبروا اعتراف الاتفاق بوجود أمة كردية شريكة في الوطن العراقي كسبًا كبيرًا كما اعتبر الحكم في بغداد التأكيد على وحدة التراب العراقي مكسبًا مهمًا.

ولكن الفرحة لم تدم طويلاً فقد نشرت الحكومة العراقية في ١٧/٧/٧٠ ومن طرف واحد مشروع الدستور المؤقت دون البند العاشر الذي يعلن أن الشعب العراقي مكون من شعبين (العربي والكردي) واستمر النظام في تهجير الأكراد من كركوك وكذلك تهجير ١٢٠ ألفا من الأكراد الشيعة «الفيلية» إلى إيران واندلعت الحرب مرة أخرى ودار قتال شرس بين القوات العراقية والبيشمركة الكردية.



لم تدم الفرحة طويلاً فقد نشرت الحكومة العراقية في ١٧/٧/٧٠ ومن طرف واحد مشروع الدستور المؤقت دون البند العاشر الذي يعلن أن الشعب العراقي مكون من شعبين (العربي والكردي) واستمر النظام في تهجير الأكراد إلى إيران واندلعت الحرب مرة أخرى



اتفاقية الجزائر مارس ١٩٧٥:

أمام احتمالات انهيار الجبهة العراقية وتقدم المقاتلين الأكراد الذين أرسلت لهم إيران كمية كبيرة من الأسلحة، سارع صدام حسين، وكان لازال نائبًا للرئيس، منع هزيمة كانت محتملة وتنازل عن السيادة العربية على أهم ممر مائي عربي في الخليج أي شط العرب مقابل منع هذه الكارثة.

فبمساعدة الرئيس الراحل بومدين ووزير خارجيته عبد العزيز بوتفليقة رئيس الجزائر الآن - تمت صفقة مشينة للعرب والأكراد في الجزائر أثناء مؤتمر الأوبك - في ٦/٣/١٩٧٥، تنازل العراق عن السيادة العراقية على كل شط العرب وأن يكون خط تالوك هو الحدود بين العراق وإيران وأن توقف بغداد حملاتها الدعائية ضد طهران، وأن تكف عن مهاجمة معاهدة فك الاشتباك في سيناء بين مصر وإسرائيل مقابل أن توقف إيران مساعداتها للأكراد وتغلق حدودها مع العراق وتشديد الحراسة عليها لمنع الأكراد من الهرب من قنابل صدام، كذلك أغلقت تركيا حدودها في وجه الأكراد مقابل تحقيق هدفين: تزويدها ببترول عراقي بأسعار خاصة وإضعاف الأكراد، انهارت الثورة الكردية تمامًا، وفي ١٨/٣/١٩٧٥ ألقى مصطفى البرزاني السلاح وقرر اللجوء إلى إيران وكانت أكبر كارثة نفسية وحربية وإنسانية عرفها الشعب الكردي في تاريخه الحديث.

في هذه الأثناء وبعد انهيار الثورة الكردية عام ١٩٧٥ نجحت الحركة الكردية في المنفى في إعادة تنظيم صفوفها، وتركت القيادة الفردية التقليدية المكان لبروز قيادات شابة وأحزاب جديدة، ففي دمشق عام ١٩٧٥ تكون الاتحاد الوطني الكردستاني الذي يترأسه حتى الآن جلال الطالباني (كان لمدة طويلة من أهم معاوني مصطفى البرزاني قبل حدوث الانشقاق الكردي عام ١٩٦٤م).

أما مصطفى البرزاني والذي كان موجودًا في إيران فقد أعاد تنظيم حزبه (الحزب الديمقراطي الكردستاني) بتشكيل قيادة مؤقتة تألفت من نجليه إدريس البرزاني (توفي) ومسعود البرزاني (رئيس الحزب الآن) إضافة إلى عدد من الكوادر الشابة، وظهرت أحزاب واتجاهات جديدة مثل الاتجاه الاشتراكي والتيار الإسلامي (ففي سنة ١٩٨٤ تأسست الحركة الإسلامية الكردستانية بقيادة الشيخ عثمان عبد العزيز من قيادة الإخوان المسلمين سابقًا) وهي ليست لها علاقة بأنصار الإسلام الذين هوجموا في الأيام الأولى من الغزو الأمريكي - البريطاني. وقد صعدت بغداد من سياسة التهجير والتعريب إلى أن أصبحت حرب إبادة منظمة باستعمال كل أنواع الأسلحة وبالذات الأسلحة الكيماوية، في هذه الفترة أزيلت أكثر من ٤٥٠٠ قرية من على سطح الأرض، أكثر من نصف مليون كردي هجروا من كركوك إلى جنوب العراق في الصحراء وآلاف من الأكراد يقدر عددهم بـ ٣٠٠ ألف نسمة واستولت السلطات العراقية على منازلهم وأعطتها العائلات من جنوب العراق في محاولة لطمس الهوية الكردية لكركوك في ١٦/٣/١٩٨٨.

ولابد أن نذكر هنا مأساة حلبجة، فقد حررت القوات الكردية مدينة حلبجة (تقع على بعد بضعة كيلو مترات من الحدود الإيرانية) وأيقنت بغداد أن الخطر جسيم وكان رد الفعل رهيبًا وسريعًا وبموافقة ضمنية أمريكية قامت الطائرات العراقية (فرنسية الصنع) بإلقاء أطنان من المواد الكيماوية (ألمانية الصنع) على هذه المدينة الحدودية وفي ثوان كان حوالي ٦٠٠٠ (ستة آلاف) شخص أغلبهم من الأطفال والنساء ورجال مسنون (الشباب كانوا يقاتلون في الجبال) قد تجمدوا في أماكنهم وكأنهم تماثيل في متحف الرعب.

ورغم أن الصحف العالمية نشرت الصور والأخبار التي تكشف عن بشاعة المجزرة لم يمنع أحد من الغرب أو الشرق النظام العراقي من الاستمرار في استعمال الأسلحة الكيماوية ضد الأكراد طيلة شهري أبريل ومايو ١٩٨٨، ولم يندد بهذه المجزرة غير عدد قليل من المثقفين العرب.



اجتياح الكويت

عندما اجتاحت القوات العراقية الكويت رفضت الأغلبية الكردية تأييد غزو الكويت وواجه الأكراد إشكالية واجهها الكثيرون

بعد فشل المفاوضات فى بغداد
حسم صدام حسين الوضع بجرة قلم،
فقد قرر فصل إقليم كردستان إداريًا عن باقى
العراق وسحب جميع الإدارات من المدن الكردية
تحت الحماية وتوقف عن دفع رواتب
الموظفين الأكراد وأعلن حصارًا
اقتصاديًا على كل المناطق الكردية



وهى الانحياز إلى أمريكا وحلفائها مع عدم ثقتهم فى النوايا الأمريكية، ولكن أمريكا حسمت الموقف عندما قررت الابتعاد عن أى حوار أو تعاون مع الأكراد خوفًا من إغضاب تركيا التى كان لها دور مهم فى حرب الخليج، وبلغ حرص أمريكا وحلفائها على عدم الاتصال بالأكراد، إلى درجة أنهم كانوا يمتنعون عن استقبال القادة الأكراد فى واشنطن أو باريس أو لندن.

وبدأ القادة الأكراد يضعون خططهم لمواجهة كل الاحتمالات سواء سقوط صدام أو قيامه بهجوم يائس على كردستان. وفى سبيل مواجهة كل هذه الاحتمالات تحرك قادة الأكراد فى العراق للتنسيق مع قادة الأكراد فى كل من تركيا وإيران، وأكد القادة الأكراد على تصميمهم على عدم تقسيم العراق ونيتهم فى عدم إقامة دولة كردية مستقلة.

وبدأوا فى مفاوضات مع المعارضة العراقية لإيجاد خيار آخر لنظام صدام. وفى دمشق يوم ٢٧/١٢/١٩٩٠ تم اتفاق ١٧ مجموعة وحزبًا عراقيًا على ضرورة الإطاحة بصدام حسين وإقامة دولة ديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وضرورة منح الحكم الذاتى لأكراد العراق.



الانتفاضة:
ولادة «إقليم كردستان»

بعد هزيمة العراق فى حرب الخليج، انتفض الشعب العراقى فى الجنوب واستمرت الانتفاضة لمدة أسبوعين وبدت بغداد وكأنها غير قادرة على عمل شيء، وفى كردستان قامت انتفاضة عفوية فى ٤/٣/١٩٩١ فى مدينة «رانية»، ولكن سرعان ما انتشرت الانتفاضة فى كل أنحاء كردستان، والتحق بها القادة والمقاتلون، وبسرعة استطاع البيشمركة أن يسيطروا على عشرات المدن مثل السليمانية وأربيل ودهوك.

بعد وقف إطلاق النار مع الحلفاء وعدم تعرضهم لنظام صدام القابع فى قلعته البغدادية شعر النظام العراقى بأنه طليق اليدين داخليًا فسحق الانتفاضة فى الجنوب بوحشية منقطعة النظير، ثم اتجهت جيوشه وطائراته إلى الشمال حيث كانت مساحة تصل إلى ٨٥٪ من مساحة كردستان قد تم تحريرها خاصة مدينة كركوك.

بعد ذلك استطاع الأكراد أن يواجهوا القوات العراقية التى لم يكن يحميها غطاء جوى بسبب حماية الحلفاء وأن يستعيدوا من القوات العراقية التى أخذت تنسحب من أهم المدن الكردية: السليمانية - أربيل - دهوك التى أصبحت تحت السيطرة الكردية لتتمركز وراء خط ٣٦، واعتقد الأكراد أن الظروف الدولية والإقليمية والداخلية مهيأة للتفاوض مع صدام، وفعلاً توحدت الأحزاب الكردية فى جبهة واحدة وذهبت إلى بغداد للتفاوض ومعها مشروع كامل حول الحكم الذاتى وفق التصور الكردى ومستندًا إلى حد كبير على اتفاق آذار مارس ١٩٧٠، بعد إضافة المسائل التى جدت (إلغاء القوانين الاستثنائية حول التعريب - رجوع المهاجرين - رجوع المفقودين خاصة ٨٠٠٠ مفقود من عشيرة البرزانى - تحديد حدود كردستان بما فيها مدينتا كركوك وخانقين) ولكن المفاوضات فشلت بعد انتظار الوفد الكردى أكثر من ٤٠ يومًا فى بغداد. وفى أثناء ذلك كانت القضية الكردية تمر من جانبها وعلى المسرح الدولى بتطورات سريعة، فقوات التحالف كانت تتخذ مواقعها فى القواعد العسكرية خاصة فى تركيا (إنجرليك) وتوفر حماية جوية للمنطقة المنحصرة ضمن خط ٣٦ والتى تشمل دهوك - الموصل - أربيل إلى أطراف السليمانية، ومنعت القوات العراقية من الدخول إلى هذه المنطقة.

بعد فشل المفاوضات فى بغداد حسم صدام حسين الوضع بجرة قلم، فقد قرر فصل إقليم كردستان إداريًا عن باقى العراق وسحب جميع الإدارات من المدن الكردية تحت الحماية وتوقف عن دفع رواتب الموظفين الأكراد (حوالى ١٥٠ ألف موظف كردى) وأعلن حصارًا اقتصاديًا على كل المناطق الكردية التى كانت تعيش أيضًا الحصار الدولى على كل العراق.

الوضع الحالى
فى إقليم كردستان:

سمح قرار مجلس الأمن ٦٨٨ بوجود «إقليم كردستان العراق» وهو يضم ٦٥٪ من مساحة كردستان ولم يعترف بهذا الكيان دوليًا بطريقة رسمية، لكن كثيرًا من القادة والمسئولين وبالذات من أمريكا وأوروبا تتعامل معه ككيان شبه مستقل. وحتى الدول المجاورة التى تتقاسم كردستان والمعادية لهذا الكيان تتعامل معه على المستوى الرسمى عن طريق مكاتب للحزبين الرئيسيين الكرديين، كما زارته وفود رسمية إيرانية وتركية. ويوجد ممثلون للحزبين فى أغلب العواصم بما فى ذلك القاهرة.

ولكن الأزمة الاقتصادية الطاحنة (تحت حصار مضاعف دولى وعراقى) والوضع غير المستقل للإقليم ومناورات الدول (غير الصديقة) المجاورة ومحاولة كل فريق توسيع نفوذه.. كل ذلك فجر اقتتالاً كرديًا كرديًا أدى إلى تقسيم إقليم كردستان إلى قسمين، فسيطر حزب «الاتحاد» على أربيل والسليمانية وضواحى كركوك وسيطر برزانى على محافظة دهوك وبعض مناطق أربيل.

وبضغط من أمريكا بدأت مفاوضات بين برزانى وطالبانى أدت إلى توقيع اتفاقية واشنطن فى ١٧/٩/١٩٩٨ بإشراف مادلين أولبرايت وزيرة خارجية أمريكا بين حزبى طالبانى وبرزانى لحل المشاكل المعلقة بينهما، وأهمها توحيد الحكومتين ووضع كل الإيرادات تحت تصرف حكومة موحدة وإجراء انتخابات جديدة واستعدادًا للحرب على العراق تم تشكيل قيادة موحدة بين الحزبين فى مارس ٢٠٠٣.

وقد عملت جبهة الأحزاب الكردية منذ الثمانينيات على الاتصال بالمعارضة العراقية وعقد مؤتمرات عديدة خاصة فى دمشق ثم فى ليبيا، وبعد اجتياح الكويت اجتمعت المعارضة فى بيروت فى مارس ١٩٩١، ثم فى صلاح الدين (كردستان) فى أكتوبر ١٩٩٢ ثم مؤتمر لندن فى ديسمبر ٢٠٠٢ الذى انبثقت منه لجنة تنسيق ومتابعة اجتمعت ثانية فى صلاح الدين أواخر فبراير ٢٠٠٣ حيث تم تشكيل الهيئة القيادية للمعارضة العراقية التى تضم «مسعود البرزانى وجلال الطالبانى عن الأكراد، أحمد الجلبى عن المؤتمر الوطنى العراقى، إياد علاوى عن حركة الوفاق الوطنى العراقى، عبد العزيز الحكيم عن الثورة الإسلامية - شيعة) كما دُعىَ عدنان الباجه جى ولكنه لم يحضر ودعى فى لندن لمؤتمر للمستقلين.

وأعلنت الهيئة القيادية أنها ترفض أى احتلال أو غزو للعراق وترفض تنصيب حاكم عسكرى أمريكى وترى تشكيل حكومة انتقالية عراقية تعد لإجراء انتخابات بعد فترة مناسبة من أجل إقامة نظام ديمقراطى برلمانى تعددى فيدرالى فى عراق موحد، كما ترفض الهيئة القيادية أى تدخل إقليمى فى شئون العراق وخاصة فى كردستان العراق.

احتمالات المستقبل:

حتى كتابة هذه السطور لم تتضح بعد النوايا الأمريكية لمستقبل العراق. وقد أكدت لى شخصيات مطلعة فى المعارضة العراقية من أكراد وعرب وشيعة وسنة أنهم أيضًا لا يعرفونها وأكدوا لى أنه حتى إنجلترا ليست على اطلاع كامل بكل التفاصيل. ويبدو حسب مؤشرات كثيرة أن الجناح اليمينى المسيحى - الصهيونى فى الإدارة الأمريكية هو فقط الذى يعلم بخطوات السيناريو الأمريكى.

وأول دليل على ما نقول هو حالة

الفوضى والنهب والقتل التى سادت المدن العراقية «المحررة» والتى فاجأت الجميع وخاصة جبهة المعارضة التى كانت تعتقد أن وجود الجنود الأمريكيين سيمنع مثل هذه الفوضى التى كان يخشاها الجميع على نحو ما كان يحدث بعد كل انقلاب منذ النظام الملكى ثم نظام عبد الكريم قاسم ثم عبد السلام عارف وبعده عبد الرحمن عارف.

مع ذلك سنحاول أن نقدم السيناريوهات المحتملة للقضية الكردية فى إطار الوضع الكردى فى العراق وأيضًا فى دول الجوار (تركيا - إيران - سوريا).

السيناريو الأول: (وهو الأكثر احتمالا)

** أن يُثبِّت الأكراد الحكم الذاتى الذى فرض عليهم منذ ١٩٩١ مع إضافة المناطق المحررة مؤخرًا من باقى الأراضى لكردية مثل خانقين وعدد من المدن التابعة لمحافظتى كركوك والموصل ماعدا مدينة كركوك داخل عراق ديمقراطى فيدرالى موحد، ونذكر هنا أن مدينة الموصل مدينة عربية لا يطالب بها الأكراد.

** إعادة الأكراد الذين هجروا فى إطار التعريب من كركوك على مدى ثلاثين عامًا وعددهم ٣٠٠ ألف نسمة وإدارتها من قبل أغلبية كردية بالاشتراك مع أقلية تركمانية عربية وآشورية عقب تحرير كركوك يوم ٢٠٠٣/٤/١٠ وأكد القادة الأكراد أنهم سوف يجعلون من كركوك نموذجًا للإخاء بين أكراد وعرب وتركمان وآشوريين. وهم يصفون كركوك بأنها مدينة كردستانية (وليست كردية) أى أنها تشمل عناصر غير كردية.

** أما آبار النفط فسوف تخضع لسيطرة المارينز الأمريكى، ولم يكن فى نية الأحزاب الكردية التى تعتبر نفسها من جبهة المعارضة العراقية، احتلال الآبار البترولية فى كركوك، لأن النظرة المستقبلية هى أن آبار البترول فى الشمال وكذلك الآبار فى الفاو فى الجنوب (وهى الأغزر ولم تستهلك مثل آبار كركوك لتى تستغل منذ قرن تقريبًا) هى ملك للشعب العراقى ككل، ومن مطلب الأكراد أن يحصلوا على نسبة من كل بترول العراق حسب تعدادهم لإعمار الإقليم الذى سيكون داخل الحدود العراقية.

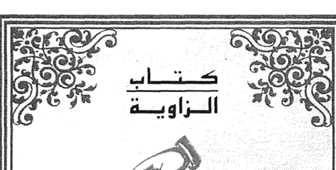
إن أهم المشاكل التى كانت تتحطم عليها محاولات التفاهم بين الحركة الكردية والأنظمة العراقية المتتالية كما رأينا فيما سبق هى: الاعتراف بوجود شعب كردى على أرضه شريك مع الشعب العربى فى عراق موحد، تحديد حدود كردستان، تقسيم ميزانية العراق حسب تعداد السكان، عودة المهجرين إلى كركوك، والأكراد الشيعة (الفيلية) إلى خانقين.

السيناريو الآخر: أن تتعقد المشكلة الكردية

وذلك إذا أصرت تركيا التى صرحت أكثر من مرة بأنها لا تقبل حكمًا فيدراليًا ولا حكمًا ذاتيًا لأكراد العراق «كى لا يطالب أكراد تركيا بالشىء نفسه». كما لا تقبل أن يدخل البيشمركه كركوك والموصل. وقد أعربت كل من إيران وسوريا عن قلقهما من الدور الكردى المتصاعد وبدءوا يتشاورون.

وقد حاولت أنقرة فى ضوء هذه الأزمة أن تسترد ولو جزءًا من ولاية الموصل التى انسلخت عنها عام ١٩٢٥ وانضمت إلى العراق. ولذلك حاولت إدخال أكثر من ٦٠ ألف جندى تركى «لمنع وصول البيشمركة إلى كركوك!! «ونزع سلاحهم والمشاركة فى حكم العراق، وهى تحاول بكل الوسائل تهميش الدور الكردى وتقليص حدوده. ونحن نعتقد أنه أصبح من الصعب جدًا أن تحقق ذلك، فتركيا ليس لها أى سيطرة على أكراد العراق، كما أصبح من الصعب أيضًا عليها أن تستمر فى عدم تلبية مطالب حوالى ٢٠ مليون كردى فى تركيا، فالوضع متفجر بعد أن نفد صبر الأحزاب الكردية وخاصة (حزب العمال الكردستانى) Pkk الذى اختطف رئيسه «عبد الله أوجلان» ويقبع فى سجن انفرادى فى جزيرة وسط بحر إيجة منذ ٤ سنوات. لقد تنازل هذا الحزب الذى أصبح اسمه «المؤتمر الوطنى الديمقراطى الكردستانى» (كادك) عن طلبه فى الانفصال ونبذ الكفاح المسلح فى مقابل حصوله على حقوق سياسية وثقافية داخل تركيا، ولكن تركيا لم تستجب.

المشكلة الكردية حسب أكثر السيناريوهات احتمالاً سوف تجد حلاً فى داخل العراق ولكنها ربما تتفجر فى تركيا أو سوريا أو إيران، إذا لم تسرع هذه الدول بإعطاء الحد الأدنى لأكرادها أى نوع من الحكم الذاتى أو - على الأقل - اللامركزية. ■



فى الصمت

كان أعرابى يجالس الشعبى فيطيل الصَّمت، فسئل عن طول صمته فقال: «أسمع فأعلم، وأسكت فأسلم».

وقالوا: «لو كان الكلام من فِضّة لكان السكوت مِن ذَهب».

وقالوا: مَقتل الرّجُل بين لَحييه وفَكّيه».

وأخذ أبو بكر الصديق، رحمه الله، بطرف لسانه وقال: «هذا الذى أوردنى المَوَارد».

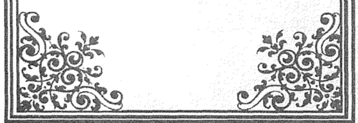
وقالوا: ليس شىء أحق بطول سجن من لسان.

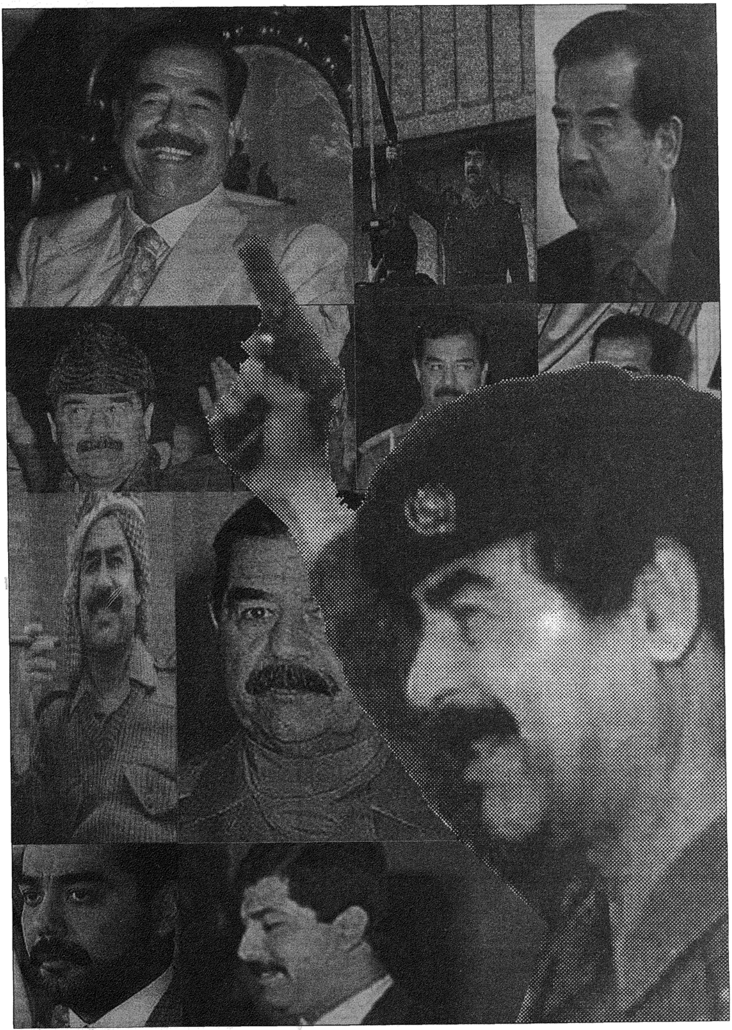
وقالوا: اللسان سَبع عَقُور.

وقال النبى عليه الصلاة والسلام: «وهل يكُبُّ الناس على مناخرهم فى نار جهنَّم إلا حصائد ألسنتهم».

وقال ابن الأعرابى، عن بعض أشياخه: تكلم رجل عند النبى عليه الصلاة والسلام فخطَل فى كلامه، فقال النبى ﷺ: ما أعطى العبدُ شرًا من طلاقة اللسان».

وقال العائشى، وخالد بن خِداش: حدثنا مَهدى بن ميمون، عن غيلان بن جرير، عن مطرف بن عبد الله بن الشخير، عن أبيه قال: قدمنا على رسول الله ﷺ فى وفد فقلنا: يا رسول الله، أنت سيدنا، وأنت أطولنا علينا طولاً (فضلاً)، وأنت الجفنة الغراء. فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستفزنكم الشيطان، فإنما أنا عبد الله ورسوله».





صدام حسين في قصر النهاية!

في فترات الشباب والمراهقة قيل عن صدام أنه شاب صموت وكتوم لا يميل إلى المزاح، يبتعد عن الآخرين. يؤمن أن الحياة ما هي إلا معركة مستمرة بلا نهاية. وأن الخصم الذى على قيد الحياة يشكل خطراً على الإنسان

يوسف القعيد

■■ أين صدام حسين؟! هل قتله جنرال عراقي ينتظر مكافأته الآن؟ هل ضربت قوات التحالف المكان الذى كانت توجد فيه القيادة العراقية وقتلوا جميعاً مرة واحدة وحملوا أسرارهم معهم؟ أم هل صفوا بعضهم بعضاً على الطريقة العراقية؟ هل تمكنوا من الهروب جميعاً؟ هل هم موجودون في روسيا خاصة أن كونداليزا رايس تركت واشنطن بشكل غريب وذهبت إلى موسكو في مهمة لا نعرف عما جرى فيها الكثير؟ وهناك قابلت أحد أبناء عمومة صدام حسين. حيث أبرمت الصفقة. أم أنهم الآن في أقبية ومخابئ تحت أرض تكريت المدفون فيها التكريتي الأول: صلاح الدين الأيوبي؟ هل يوجد صدام في أحد مساجد بغداد؟ أم ينتظره مصير أسامة بن لادن حيث يتبخر في الهواء ولا يعثر عليه أحد. وتحاول أمريكا أن تبدو وقد أهملت أمره. وتركت قضيته معلقة.

لكن جرح العراق يبدو أكبر من الجسد العربي نفسه، من أجل مستقبل شعب العراق، نكتب عن صدام الرجل الذى لخص الدولة في شخصه. أكتب وفي خيالي. أن الذين سيكونون هنا بعد نصف قرن من الزمان. سيطلون في صفحات التاريخ وهم يسألوننا: ماذا فعلتم من أجل أطفال العراق؟!

الهروب من الطفولة

في قرية «العوجة» التابعة لتكريت كان ميلاد صدام حسين. وإن كان مكان الميلاد معروفاً فإن هناك تاريخين محتملين للميلاد: ٢٧ أو ٢٨ أبريل من عام ١٩٣٧. عانى من اليتم المبكر. ووالدته صبحة. والتي يكتب اسمها خطا صابحة. تزوجت وأنجبت له أربعة إخوة غير أشقاء. برزان ووطفان وسبعاوي وأخت واحدة. ظلت علاقته بهم غير مستقيمة. لكن هذا اليتم المبكر جعل خاله خير الله طلفاح يتولى تربيته. بدأ تعليمه متأخراً عن موعده. بالتحديد بدأ في العاشرة. حصل على الابتدائية من تكريت سنة ١٩٥٥. وحاول دخول الأكاديمية العسكرية ولكن أبوابها أغلقت دونه. ولم يحاول الاقتراب منها. حصل من مدرسة قصر النيل بالقاهرة على شهادة إتمام الدراسة الثانوية خلال إقامته في مصر.

ثم انتسب في الحقوق. هذا ما كان يقال. أما الحصول على شهادة من هذا الانتساب. فليست هناك إجابة شافية عنها. الأمر المؤكد أنه لم يتحقق له الاستمرار والانتظام في الدراسة. والرئيس البكر أنهى هذه الحكاية في حياة صدام عندما منحه رتبة جنرال رغم أنه لم يكن حتى جندياً في يوم من الأيام. أما خير الله طلفاح فهو والد عدنان الذى سبق صدام إلى صفوف حزب البعث. وإن كان صدام قد خلفه وراءه بعد ذلك. وعندما أصبح صدام الرئيس والقائد أصبح عدنان وزير دفاع. ثم سرعان ما جاءت وفاته بطريقة غامضة. مازالت لغزاً حتى الآن في حادث سقوط طائرة. بعد أن بدأت صورته الإعلامية في البروز. وكتب عنه البعض - بعد الحرب مع إيران - غزال شط العرب.

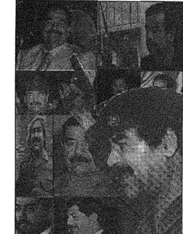
تزوج صدام من ساجدة ابنة خير الله. وشقيقة عدنان. ولدت قبله بعام واحد. أو عامين. ورغم بعض المغامرات التي قيلت عن صدام حسين من قبل خصومه. الخاصة بسميرة شاهبندر التي يقال أنه تزوجها وأنجب منها ابنة واحدة. وقصة الفاتنة اليونانية كريستين نيكوس كازنزاكيس ليس هناك خطأ في اسم الوالد. فهو يحمل نفس اسم الروائي المعروف. هذه المرأة الجميلة لحد الوجع والتي استخدمتها المخابرات الأمريكية قبل الحرب الأخيرة حيث حكت صحفياً وتليفزيونياً قصتها مع الشاب العراقي الغامض. أقول رغم هذه القصص والحكايات. فقد ظلت ساجدة هي الزوجة وأم البعث. بل عندما راجت هذه القصص جرى تكريمها بصورة علنية وحصلت على الأوسمة والنياشين والأنواط. لكن ذلك لم يؤد إلى أي دور لها في الحياة العامة. ولم يتعد نفوذها أبعد من حماية أبنائها وإخوتها. وحتى هذا لم يتم بالصورة التي كانت تتمناها. في فترات الشباب والمراهقة قيل عنه أنه شاب صموت وكتوم لا يميل إلى المزاح، يبتعد عن الآخرين. يؤمن أن الحياة ما هي إلا عبارة عن معركة مستمرة بلا نهاية. وأن الخصم الذى على قيد الحياة يشكل خطراً على الإنسان. لن أتوقف أمام القصص الشبيهة بالفلكلور التي تتحدث عن أن زوج أم صدام كان يدفعه للسرقة. وإن كان من المؤكد أن الحياة في قرية طفولته كانت أكثر من صعبة. الحفاء منتشر والفرص معدومة. وفي شتاء ١٩٥٦ أقسم يمين الولاء الحزبي.. في حزب البعث العربي الاشتراكي.

كانت العملية الكبرى في شباب صدام حسين. هي محاولة فاشلة لاغتيال عبد الكريم قاسم. «١٧ أكتوبر ١٩٥٩» لم يكن مطلوباً من صدام حسين سوى تأمين حماية رفاقه الأربعة والانسحاب بعد أن يكون هؤلاء قد انسحبوا. لكن وبسبب شدة حماسه. وجد صدام حسين نفسه يسحب رشاشاً صغيراً من تحت سترة طويلة أخذها من خاله ويطلق النار على سيارة عبد الكريم قاسم.

كانت محاولة الاغتيال مجرد صراع على السلطة. لم يكن في ذهن من قاموا بها دكتاتورية عبد الكريم قاسم أو تصرفاته الليلية الغريبة. والتي راجت عنها قصص كثيرة. كانت نتائج العملية مثيرة. الرئيس لم يقتل. اخترقت رصاصة واحدة كتفه وعندما كان في المستشفى. وفي اللحظة التي كانوا يضمدون فيها جراحه. أمر بمداهمة جميع أوكار حزب البعث. وإلقاء الأعضاء في السجن. إلى أن تتم محاكمتهم. أعلن فقط عن مقتل سائق الرئيس وأصحابه ومرافقيه بجراح خطيرة. أما صدام حسين فقد تلقى رصاصة. في كتاب راجعه صدام حسين بنفسه وصف للحظة المعالجة. واستخراج الرصاصة من قدمه:

- جرى قص اللحم بالسكين. قبض صدام على الأرض الطين. أظافره انغرزت في الأرض. حين جرى إدخال المقص في الجرح للبحث عن الرصاصة وسط اللحم والدم. فقد صدام الوعي. وحين استعاد وعيه بعد عشرين دقيقة وجد الجرح مربوطاً في القماش.

كان هذا ما جرى في أرض الواقع.. فكيف جرى التعبير عنه في فيلم سينمائي عن صدام حسين. لنقرأ ما كتبه المخرج السينمائي العراقي المتميز قاسم حول. من منفاه الأوروبي عن تنفيذ فيلم الأيام الطويلة. المأخوذ عن رواية عبد الأمير معلة. ومن إخراج واحد من أهم مخرجي السينما العربية توفيق صالح. قال قاسم أنه تم جمع كل من يحملون شبهاً من صدام حسين من كل أنحاء العراق. وصدام حسين نفسه هو الذى اختار من يقوم بالبطولة. كان صدام كامل. شقيق حسين كامل الذى صعد فجأة ليصبح وزيراً للتصنيع العسكري. فيما بعد تزوج صدام كامل. وحسين كامل من كريمتي صدام حسين. وهما اللذان هربا إلى الأردن. وأعيدا وتم قتل صدام وحسين في تصفية جسدية دموية أخذت منحى عائليا بعيداً عن الدولة العراقية. وأن صدام حسين شاهد بنفسه الفيلم ليلة عرضه في دور العرض العراقية. كان معه أركان دولته ومخرج الفيلم. ولم يعلق صدام حسين إلا على المشهد الذى يتألم فيه لحظة استخراج رصاصة من جسمه بدون مخدر. قال صدام إنه لا يتألم. ولم يتألم عندما جرى استخراج هذه الرصاصة فعلاً من جسمه.



وقف وزير الإعلام وقال إن الألم شعور إنساني. فأشار صدام بيده للوزير زاجراً إياه. ووصفه بكلمة نابية. وانهى صدام اللقاء.

مخرج الفيلم ما لبث أن ترك العراق عائداً إلى مصر. وإن كان لم ينطق بكلمة واحدة عن تجربته مع صدام وأركان حكمه. أما عبد الأمير معلة الذي كان قد أصبح وكيلاً لوزارة الإعلام والثقافة. وكان مسئولاً حزبياً كبيراً. فقد لاحظ بعد عرض الفيلم بفترة. أن هناك سيارة تتبعه إلى أي مكان يذهب إليه. وعندما يدخل بيته تبقى هذه السيارة حتى يخرج منه. لم يكن عبد الأمير قد لاحظ أن ابنه الكبير قد بدأ يتردد على مساجد بغداد. ولم يكن قد أدرك أن ابنه كان مرصوداً. وهكذا كانت النهاية التي لا تختلف كثيراً عن نهاية الشاعر شفيق الكمالي الذي كتب النشيد القومي للعراق. بعد حكم البعثيين له. وعزيز السيد جاسم. الشقيق الأكبر للدكتور محسن جاسم الموسوي. الذي كان نائباً لوزير الثقافة ورئيساً لدار الشئون الثقافية. والنكبة التي جرت للعائلة. بعد أن كتب عزيز السيد جاسم كتاباً عن الفرق الدينية في الإسلام. ومن الطبيعي أن يتعرض فيه للسنة والشيعة وقد اعترض الرقيب على نشر الكتاب. إلى هنا والأمور طبيعية. ولكن غير الطبيعي كان صدور الكتاب في بيروت. اختفى عزيز السيد جاسم. وأصبح محسن الموسوي مغترباً أبدياً من صنعاء إلى تونس إلى الإمارات العربية المتحدة.

السيد النائب

حتى الرئيس أحمد حسن البكر لم يكن يقول عن صدام حسين سوى عبارة «السيد النائب» وعندما كان يذهب إليه أحد الرفاق القدامى شاكياً من تصرفات صدام حسين كان يخرج من وراء مكتبه ويتوسط الحجرة - خاصة في أيامه الأخيرة - ويقول للشاكي أنه - أي البكر - لا يستطيع حتى الاستقالة من منصبه.

تلك كانت صورة السيد النائب. الذي جمع مناصب رئيس أمن حزب البعث والأمين العام للحزب علاوة على أنه نائب البكر الوحيد بعد أن تخلص من النائبين الآخرين: حردان التكريتي وصالح مهدي عماش. وتلك هي صفات السيد النائب: وجه داكن. شارب قاتم. عظام بارزة من الكتفين والصدر. أما داخله فلا توجد في اللغة العربية كلمة واحدة قادرة على اختصاره رغم تراث هذه اللغة بالعديد من المفردات. صوت بارد ودود. صوت هادئ قادر على أن يكتم مشاعره مهما كان غيظه. كان يتكلم دون أن يرف له جفن. يؤمن أن الخصم لا يمكن أن يستسلم إلا بعد أن يصبح قتيلاً. كان صدام يحكم العراق بسلطات البكر النهائية. وكان يمكن أن يعصف به الآخرون. لو أن البكر رفع غطاءه من فوق رأسه. لكن الخيوط هي ما يجمع بين الرئيس ونائبه. الخيوط تتلاشى وتضيع من بين يدي الرئيس. لتتجمع بين يدي النائب. كان الرئيس البكر قد أصبح متعباً. والنائب عنده من الهمة والعافية ما لا يعرف ماذا يمكنه أن يفعل بهما؟.

كان العراق جزءاً من منطقة جرى اختراعها قبل عقود. رسم الإنجليز خرائطها مع حلفاء الحرب العالمية الأولى. حيث كانت تعرف بأرض العراق قبل خروج دولة العراق إلى الوجود. والعراق تعني الأرض المعرقة بالخير والنماء. عندما كان نائباً زار وفد من الأمم المتحدة العراق وذلك للبحث في أحوال السجون والقتلى. حضر البكر وصدام الاجتماع. البكر انصرف مبكراً. وصدام بقي طوال ثلاث ساعات لم ينطق بكلمة واحدة. ولكن عبد الخالق السامرائي قال للوفد أن كل دولة تحتاج إلى أمن يحميها. الفيلسوف هوبز قال أن العالم غابة. والدولة هي محاولة لفرض قوانين حياة هذه الغابة. قد يظلم الأبرياء لكن هذه هي طبيعة الدولة عموماً. لكن المشكلة أن الهاجس الأمني تعدى كل الحدود بعد هذا.

ظل هذا الوضع حتى السادس عشر من يوليو تموز سنة ١٩٧٩، وهي اللحظة التي أعلن فيها الرئيس أحمد حسن البكر - بنفسه - على التليفزيون. وعلى مشهد من الأمة كلها اعتزاله لأسباب صحية. كان صدام حسين يصغر البكر بـ ٢٥ عاماً كاملة. ومع هذا تمكن من خلعه بهدوء. وسلامة.

القائد الضرورة

لن أتحدث عن نظام حكم يقوم على شرعية الرجل الواحد. فكل الشرعيات هكذا في العالم الثالث والوطن العربي جزء منه. ولكن الكلام عن فكرة السلطة المطلقة التي تصبح - دائماً وأبداً - مفسدة مطلقة. دعك من الألقاب الخطيرة التي أطلقت على صدام حسين. فهي تحتاج لمجلد وحدها. ولكنه كان رئيس الجمهورية. ورئيس مجلس قيادة الثورة. ورئيس مجلس الوزراء. والأمين العام للقيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي. والقائد الأعلى للقوات المسلحة العراقية. جرى هذا من لحظة استيلائه على السلطة. حتى لحظة اختفائه منها.

طبيعة العراق تتطلب التوقف أمامها. في كتابه حروب تلد أخرى: التاريخ السري لحرب الخليج. يكتب سعد البزاز:

- لا يوجد شعب على وجه الأرض يشعر أنه معرض للمخاطر ومحاط بالأعداء مثل شعب العراق. الذي تتشكل عند أبنائه مشاعر خوف جماعية من وجود من يعمل على إفنائهم. مع إحساسهم بوجود عدو قائم. وعدو محتمل. وهي مشاعر متأتية عن إرث تاريخي متراكم عمره ستة آلاف سنة. تعززه مشاعر أخرى تولدت في العصر الحديث الذي نشأ على أنقاض بغداد المدمرة سنة ١٢٥٨ للميلاد عندما استباحها المغول.

إلى أن يكتب:

- ويذهب العراقيون إلى أبعد من ذلك في التساؤل: هل يستطيع العراق أن يحيا في كنف السبات والركود والسكون؟ أم أنه يذوي ويضمحل وقد يتفتت عندئذ؟ إن للحرب وظيفة لا يمكن إنكارها بالنسبة للعراق بوصفها اختياراً لقدرة المجتمع على التكتل والتضامن وتجديد نفسه. إنه يكتب عن ظلم الجغرافيا للعراق. فالوضع الجغرافي ترك بصماته على التكوين النفسي للعراقيين. فالشعور بالعزلة والانغلاق وسط جيران منافسين وأعداء على البر يولد إحساساً بالضيق تحت ثقل طوق بري تتفاوت فيه درجتا الانحباس والانفتاح. وكثيراً ما جسدت حكاية السندباد روح العراقي المحروم من البحر. وينقل عن المؤرخ طه باقر قوله: إن حضارة وادي الرافدين تمتاز بالحدة وتوقع المفاجآت والفواجع.

ولهذا فإن العراق الذي امتاز بالأرض الخصبة والمياه الوفيرة والبترول والخطة الصناعية الكبرى. دخل من الحروب ما جعله دولة مديونة. كانت ديون العراق عند لحظة انتهاء الحرب مع إيران ٧٠ مليار دولار. يضاف إليها ما أنفقه العراق من الاحتياطي قبل بدء الحرب. وكان يزيد على ٥٠ مليار دولار. إن تحرير الفاو كبد العراق وحده ٥٢ ألف قتيل. العراق كشكول مفتوح. ليست مجرد بلد عادي. عند تسلم صدام حسين السلطة كانت تركيبة سكان العراق التقريبية هكذا: ٢٠٪ أكراد و٢٠٪ عرب سنة و٦٠٪ شيعة وذلك إضافة إلى أقليات لم تحص أبداً من كلدان وصابئة ويهود وآشوريين وسريان. لذلك كان من الصعب على سلطة البعث أن تحاول أن تستمد شرعيتها من الدين. إنه قنبلة موقوتة. إن هؤلاء السكان يمكن أن يجتمعوا حول: القومية العربية. وهي أيضاً قد تمكن العراق يوماً من قيادة الوطن العربي. لذلك كان يقال القطر العراقي وليس الدولة العراقية. إن الهاجس الأمني الذي تضخم عند صدام حسين جعله يغير أمكنة إقامته بصورة مستمرة. مع تضييق دائرة من يعرفون مكانه. كان مجرد السؤال عن مكان تواجده يساوي قضية تجسس للأعداء. حتى الوزراء ومن هم أكبر منهم لم يكونوا يعرفون مكانه. وعند الذهاب لمقابلته. لم يكن الذاهب يعرف أنه سيقابل صدام حسين أبداً. وكان يذهب إلى أكثر من مكان. وقبل الوصول إلى مكانه كان يستقل سيارة عليها ستائر سوداء. وعندما يصل إلى المكان يمشي في طرق طويلة. إما أن حيطانها وأرضيتها وسقفها عبارة عن مرايا. أو أن يمشي في طرقة ضيقة يقف على جانبيها مجموعات من المرافقين يصفقون ويهتفون لصدام بصوت عال في مكان ضيق. حتى يصل الضيف إليه وهو شبه ميت. بسبب كل هذا الهول الذي يمر به. كان صدام حسين يغير أماكن إقامته بصورة منتظمة. حتى أفراد أسرته لم

صدام حسين

وجه داكن. شارب قاتم. عظام بارزة من الكتفين والصدر. أما داخله فلا توجد في اللغة العربية كلمة واحدة قادرة على اختصاره. صوت هادئ قادر على أن يكتم مشاعره مهما كان غيظه

يكونوا يعرفون مكانه. وكان يتولى أمور أمنه الشخصي بنفسه. وكانت له عيون في كل مكان سواء داخل العراق أو خارجه. لدرجة أن المصريين الذين كانوا يعملون في العراق. عندما كانوا يتكلمون عنه بينهم وبين أنفسهم كانوا يرمزون له بأسماء ممثلين مصريين. خوفاً من التنصت أو التجسس عليهم. وما أن تكتشف شفرة اسم الممثل حتى يتم تغييرها واستبدالها بشفرة أخرى.

صناعة الطغاة

هناك مسئولية تقع على المثقفين. في صناعة الظاهرة. سواء مثقفو الداخل العراقي. أم الخارج من أبناء الوطن العربي الذين تخصصوا في كتابة الكتب الأولى عن صدام حسين. «القائد الضرورة». وهذا أحد التعبيرات التي أطلقت عليه مبكراً جداً. في كتب صدرت عنه في الخمس سنوات الأولى في حكمه. كتبها مؤلفون عرب سواء من الذين عاشوا في العراق. أو الذين كانوا خارجه. وإن كان البعض يصف حربه مع إيران ١٩٨٠ - ١٩٨٨ على أنها مغامرة غير مفهومة الهدف والتوجه. فقد صدر في هذه الفترة ١٧٤ مؤلفاً منها ٧٤ رواية و٩٧ مجموعة قصص قصيرة. والباقي كتابات أخرى خارج سياق النص الروائي والقصصي. علاوة على ٤٠٠ قصة قصيرة نشرت في الصحف والمجلات ولم يتم جمعها في كتب. وذلك كما تؤكد ببيلوجرافيا أدب الحرب في العراق. وإن كان سلام عبود يعلق في كتابه المتميز والمبهر عن ثقافة العنف في العراق. على هذا النتاج الأدبي:

- في ظل ثقافة قائمة على تدمير الضمير يكون التعبير الفني ضربا من بلاغة الأفاعي السامة. إن ما عبر عنه المعنيون بقصة الحرب. هو أن شجرة السم لا يمكن لها أن تثمر لوزاً. في مثل هذه الحرب لا يوجد حيز للإبداع. لأنه لا توجد مساحة لمساءلة الواقع. ولا توجد مساحة للصدق في التعبير عما يجري. لقد كانت الحرب هي التي تتكلم بأقلام الكتاب. سلام عبود يتساءل: إذا كانت الحرب من مسئولية صدام حسين. فمن المسئول عن ثقافة جيلين من العراقيين؟! تلك مسئولية لا أحد يريد أن يتحمل أعباءها. لكنها مسئولية الجميع. جميعاً بدون استثناء، وأولنا من ساهموا في كتابة نصوص عن الحرب. ومن صمتوا. ولم يقولوا للشعب أنه كان ضحية لهذه الحرب. إن ثقافة الموت، ثم ثقافة الخراب الجميل هي مسئولية المثقف العراقي وليست مسئولية السلطة، أي سلطة كانت.

أدب الحرب كان جزءاً من الثقافة العراقية التي سرعان ما تحولت إلى أدب الداخل وأدب الخارج. وفي الداخل وجد شاعر صدام وشاعر القادسية. وشاعرة أم المعارك. في زمنه كان هناك ثلاثة شعراء كبار الجواهري الذي مات ودفن في دمشق والبياتي الذي دفن في المنفى. ونازك الملائكة التي ما زالت تعالج في القاهرة بمنحه شخصية من شاعر كويتي. هو عبد العزيز سعود البابطين. في المقابل نجد عبد الرزاق عبد الواحد. شاعر الرئيس. الذي قال أنه كتب عن صدام ما لم يقله المتنبي عن سيف الدولة الحمداني: فإن قلت يا صدام، ناديت أمة / لأن المنادى زهوها وفخارها. ويا حبذا صدام وصدام أمة / وتاريخ أرض يستعاد ازدهارها. في المقابل نجد سعدي يوسف. المعارض المنفي الذي يستبدل منفى بمنفى: تحت الأسوار ولدنا / وعلى الأسوار نموت / لم نعرف في بابل / غير القتل لأجل القوت.

وإن كان هناك نموذج ثالث لمبدعين لم يتركوا العراق، وحافظوا على قدر معقول من الاستقلالية مثل محمد خضير قاص البصرة وحسب الشيخ جعفر الشاعر البغدادي. قد اختبأ كل واحد منهما وراء كلماته. وتسلح بالصمت في مواجهة بعض المواقف العصيبة والصعبة. ورغم الانقسام الرهيب في حالة المثقفين العراقيين الذين تحولوا إلى مثقفي الداخل ومثقفي الخارج. إلا أن من يذهب إلى العراق في سنوات حكم صدام حسين سيكتشف أنه في كل مكان من العراق تمثال أو جدارية له. حتى أصبح له أكثر من ٢٣٨٠ تمثالاً ونصباً في العراق. وهكذا أصبح صدام حسين صاحب حسابات براجماتية منطقية. ولديه إحساس مبالغ فيه بالعظمة. وأنه قائد بارع ولكن حساباته ربما تكون خاطئة أحياناً. وأنه تطرق في الاستغراق في الذات. ولذلك لا يستوعب آلام ومعاناة الآخرين. متفائل أكثر مما ينبغي بشأن فرص النجاح. غير مستعد لأن يظهر أي تردد. لا يصيبه الإرهاق من استمراره في العمل أكثر من أربع عشرة ساعة يومياً بصفة مستمرة. إن هدفه الجوهري هو إحكام سيطرته الكاملة على هذا الجزء من العالم الذي يسميه: الوطن العربي. إن النتيجة الطبيعية لكل هذا. ما ذهب إليه صدام حسين. وكان يحدث لأول مرة في تاريخ العراق. عندما جعل من الولاء الشخصي له عقيدة قتالية ثابتة للقوات المسلحة بدلاً من الولاء للوطن. كما يؤكد ذلك أحمد الزبيدي في كتابه الأزمنة الضائعة. أيضاً فقد تحول الحرس الجمهوري إلى جيش مواز للجيش. بل إن تسليحه والإنفاق عليه أصبحت له الأولوية على القوات المسلحة نفسها. وفي السنوات الأخيرة خرجت إلى الوجود أشكال أخرى: فدائيي صدام، كتائب الموت. التي جعلت فكرة جيش البلاد تتراجع كثيراً. ومع هذا فإن حروبه كانت تلد حروباً أخرى. حرب في الشرق. تلد حرباً في الشمال. تلد حرباً في الجنوب. تلد مواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية. وهي في طريقها إلى عسكرة العولمة.

جدارية صدامية

من الحكايات الإنسانية التي تروى عن صدام حسين أنه عندما كان منفياً في مصر تعرف على صاحب مقهى في ميدان الدقي. وأن الرجل كان يراعي ظروف صدام المالية حيث يقدم له الطلبات مؤجلاً الدفع. إلى أن أصبح صدام رئيساً للعراق. وحدث أن جلس مثقف مصري كان يعرف صلة صاحب المقهى بصدام على المقهى. وقال له أن زبونه القديم أصبح رئيساً للعراق. فقال الرجل: هل وجد الأستاذ صدام وظيفة؟! ألف مبروك. ما أن سمع صدام الحكاية حتى دعاه لزيارة بغداد حيث أغراه بافتتاح مقهى له في العراق. المقهى أصبح أهم مطعم في حي المنصور منذ عشرين عاماً. وأبو وليد جعل المطعم الذي يمتلكه في العراق من طابقين. الأرضي يقدم بعض الأكلات المعروفة في الوطن العربي. ولكن الدور الثاني كان مخصصاً لعلية القوم وأغنى الأغنياء. الوجبة فيه لشخص واحد تكلف خمسة عشر ألف دينار عراقي حوالي سبعة دولارات.

القصة القديمة. أصبحت جديدة وتحولت إلى جزء من القصف الذي تعرض له المطعم يوم الإثنين. السابع من أبريل الماضي. لقد جاء هذا القصف بعد ورود معلومات «دقيقة» تؤكد أن الرئيس العراقي موجود في هذا المطعم مع نجليه عند صديقه المصري. وهكذا جرى قصف المطعم وتم تدميره بالكامل وثلاثة بيوت حوله. لكن لم يتم التأكد بعد القصف إن كان صدام فعلاً ضمن القتلى. ويبدو أنهم لن يعرفوا أبداً. لكن الحفرة الناتجة عن القصف يبلغ عمقها عشرين متراً وقطرها نحو خمسة وعشرين متراً. ولم يتم حصر عدد شهداء هذه الضربة. وبعض الجيران أكدوا أنه غادر المكان قبل الضربة بدقائق. والبعض الآخر قال أن الضربة أخطأت العمارة التي يوجد فيها المطعم ونزلت على عمارة مجاورة. الذين عملوا مع صدام عن قرب يقولون أنه كريم بلا حدود لمن يضمر له الولاء الشخصي بلا حدود أيضاً. وأنه ينفق بسخاء. لكن الذين عرفوه عن قرب أيضاً يقولون أنه لا يعتمد سوى على نفسه ونفسه فقط. ولا يثق بالآخرين مهما كانت صلاتهم الشخصية به. وجيرولد بوست مسئول برنامج علم النفس بجامعة واشنطن ومؤسس مركز تحليل السلوك الشخصي والسياسي التابع للمخابرات الأمريكية منذ عشرين عاماً. يقول عن صدام حسين أنه يعاني من هوس الارتياب. يعتقد أن خصومه يلاحقونه في كل مكان. ويحمل أحلام المجد. وأن إساءة معاملة زوج أمه له في طفولته. وبدء التعليم متأخراً. ثم استئنافه بعد ذلك بسنوات. كل هذه الأمور تركت آثاراً نفسية بارزة عليه. وأنه يعاني من ذات هشة. وربما كان هذا هو السبب في كثرة تماثيله ومنحوتاته وصوره.

زرت أمين عز الدين بعد عودته النهائية من العراق. وأمين عز الدين مع سامي الليثي كانا مسئولين عن شئون صدام حسين. عندما كان لاجئاً سياسياً في مصر. وبعدما أصبح صدام رئيساً. وتغيرت الأحوال في مصر. لاقت أسرة أمين وهو شخصياً كل الرعاية والعناية من صدام. لم يقصر الرجل في شيء أبداً. في اليوم الذي ذهب فيه أمين عز الدين

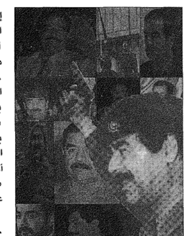


تركيبة سكان العراق هكذا: ٢٠٪ أكراد و٢٠٪ عرب سنة و٦٠٪ شيعة وذلك إضافة إلى أقليات لم تحص أبداً من كلدان وصابئة ويهود وآشوريين وسريان





إلى صدام حسين ليسلم عليه سلام الوداع وهنا تنبه صدام حسين إلى أهمية أن يقدم هدية لضيفه المسافر إلى القاهرة. مد يديه معاً. فك المسدس الذي كان يلفه حول وسطه. وقدمه له مع الجراب الخاص به. كان ذلك أعز ما يمكن أن يقدمه له. والذي حدث بعد ذلك أن سلطات مطار صدام الدولي. رفضت أن يسافر أمين عز الدين ومعه مسدس صدام الخاص. الذي أعيد إلى داخل بغداد مرة أخرى. وتقرر أن يتم إرسال المسدس عن طريق الحقيبة الدبلوماسية وتسلمه أمين عز الدين في القاهرة.



صدام حسين

وكان فتحي غانم قد حصل على جائزة صدام حسين. وكانت قيمتها مائة ألف دولار أمريكي. لفها في جريدة وحملها بيده من القاهرة إلى بغداد. ليحصنها ضد السرقة. ثم جاء صدام حسين إلى مصر. وفوجئ فتحي غانم بدعوته لحضور حفل العشاء الرئاسي المقام على شرف صدام حسين. واعتذر فتحي غانم عن عدم الحضور. وكانت المفاجأة الثانية أن اتصل به وزير مهم في الدولة المصرية. يسأله عن سبب اعتذاره. ويبلغه أن الرئيس صدام بنفسه هو الذي طلب حضوره العشاء. قال فتحي غانم إنه يعاني كثيراً من مسألة ركن سيارته. ولهذا اعتذر. فما كان من مسئولي المراسم في الرئاسة إلا أن اتصلوا به وقرروا إرسال سيارة رئاسية لإحضاره. لحظة دخوله قاعة العشاء فوجئ بالرئيس حسني مبارك يمسكه من يده ويقدمه لصدام حسين قائلاً هذا هو فتحي غانم.

لعنة العائلة

ينتمي صدام حسين إلى عائلة كبيرة ممتدة. سرعان ما تحولت إلى قبيلة. وبسبب الهاجس الأمني الذي كان يتحكم في تصرفاته فقد توسع صدام حسين في الاعتماد على إخوته غير الأشقاء وأبناء عمومته. لقد شكلت هذه القبيلة درعاً واقياً للرئيس. لكن متاعبه الكثيرة جاءت من هذه العائلة. فعندما أشيع زواجه من سميرة الشاهبندر بعد تطليقها من زوجها نور الدين الصافي. وإنجابه منها ابنته عليا تم قتل الطباخ الخاص للرئيس كامل حنا ججو لأنه كان عراب هذه الزيجة. أيضاً عندما هرب حسين كامل زوج ابنة الرئيس إلى الأردن ٩٥-١٩٩٦. وقدم صهر الرئيس. المسئول السابق عن التطبيع العسكري في العراق كل ما يملكه من معلومات وهي ليست قليلة، مثلت هذه المعلومات أول اختراق حقيقي في الجدار المنيع الذي أقامه صدام حول صناعاته العسكرية، وتحول الاختراق إلى ثغرة. والثغرة أصبحت عرياً كاملاً أمام أمريكا. مما دفع صدام إلى استعادة صهريه من الأردن وتصفيتهما بمعرفة العائلة والقبيلة كعقوبة لهما على إفشاء ما كان عندهما من الأسرار. بعد هذه التصفية الدموية. ظلت ابنة الرئيس الكبرى رغد مبتعدة عن الحياة العامة. وتمتلك وتدير شركة البادية للنقل البرى التي كان قد أسسها زوجها القتيل حسين كامل سنة ١٩٩١. أما رنا أرملة صدام كامل الشقيق الأصغر لحسين كامل، فقد تزوجت في عام ١٩٩٩ من الفريق الركن كمال مصطفى العمر أمين سر مقر قيادة الحرس الجمهوري. وهو شقيق جمال زوج حلا ٣١ عاماً الابنة الصغرى للرئيس صدام.

كانت فكرة صدام أن رابطة الدم والمصاهرة توفر له حالة من الإحساس بالأمان. إلا أن الوجه الآخر لهذه المسألة كان: الأهل والغنيمة. حيث تعاملوا مع كل ما في العراق باعتباره ملكاً لهم جميعاً. لقد كشف السلب والنهب في المدن العراقية أحزمة البؤس التي تحيط بهذه المدن. وتدني مستوى الحياة اليومية. وغياب الخدمات. ولأن السلب والنهب شمل القصور فقد كانت المسافة بين القصر والحي الشعبي مثل المسافة بين السماء والأرض. حيث شاهد الناس الحنفيات المصنوعة من الذهب الخالص. والخيول العربية الأصيلة. وأدوات الرفاهية التي لا يوجد مثلها في أي مكان آخر من العالم.

عقدة مصر

في سنة ١٩٧٥ أقام العراق مؤتمراً ضخماً لنصرة العراق ضد تهديدات إيران التي كانت توزع كتبًا تحدد مهمة الشاه في أن والده قد حرر شرق الخليج. وأن على الشاه - ابنه - أن يحرر غرب الخليج الفارسي. كانت هناك أوصاف كثيرة تقال لإيران. مما يوحي أن العراق استبدلت العدو الصهيوني بالعدو الإيراني «الفارسي المجوسي». مع أن إسرائيل كانت ما تزال مشروعاً استعمارياً يهدد المنطقة كلها بخطر الابتلاع.

يومها كانت الدعوات بلا حساب لحضور هذا المؤتمر. لدرجة أنه كانت في مطار القاهرة الدولي طائرة ضخمة خاصة بضيوف هذا المؤتمر. وكان الرئيس أنور السادات قد قال لمن استأذنه في السفر إلى بغداد، أنه مع الشاه وأعطى كلمة بذلك. ومع هذا لا مانع لديه من سفر ما يمكن أن يسمى بتمثيل رمزي محدود.

كنا خمسة في طائرة تسع المئات. لطفي الخولي وفتحي خليل ومحامي السفارة العراقية في القاهرة، وممثلة لأمانة المرأة في الاتحاد الاشتراكي العربي. واستكمل الوفد المصري من المصريين الذين كانوا يعملون في العراق. وما كان أكثرهم في ذلك الوقت. وكان صدام حسين قد دعا الوفد المصري إلى غداء في حديقة تقع في قلب بغداد. وصلنا إلى قاعة الطعام قبله بوقت. وقبل حضوره ولم يكن رئيساً للدولة بعد. جاء من بدل الكرسي الذي سيجلس عليه. وعندما همست لمصري مقيم هناك عن السبب في ذلك. هل هو الهاجس الأمني؟ قال لي أن عنده مرض الديسك في العمود الفقري. ولابد من مقاعد خاصة يجلس عليها. لكن بعد حضوره ورغم تبسطه مع القادمين من القاهرة. إلا أنني شاهدت حول قاعة الطعام أعداداً كبيرة من الحراسات. وكان التسليح أكبر من مجرد تأمين.

كان صدام حسين قد عاد من مصر بعد إقامته فيها مبهوراً بكاريزما عبد الناصر. وكان يتصور إمكانية تكرارها في العراق. ولأنه لم تكن لديه إنجازات كثيرة. ولأن الشخصية العربية في العراق تختلف عن الشخصية المصرية. ولأن صدام كان متعجلاً. فقد توصل إلى أن هذه الكاريزما إن لم تحدث بالحب فلابد أن تحدث حتى بالتخويف. كان يقول إذا لم يحبك الناس عليهم أن يخافوك. لابد أن يدرك الناس أنك الأقوى والأشرس. ذلك أن الخوف مسألة أساسية في أعماق النفس الإنسانية. لقد عذبت مصر صدام حسين ثلاث مرات. الأولى بكاريزما عبد الناصر. وانجذاب الجماهير - حتى العراقيين نحوه - والثانية بعد كامب ديفيد حيث تصور صدام أن العراق هي الدولة العربية الوحيدة المهيأة لوراثة الدور المصري. وهذا الهوس لم يحدث في العراق فقط. ولكن الغياب المصري أغرى العديد من الدول العربية. بأن يحاولوا وراثة الدور المصري. والعذاب يأتي من اكتشاف أن أدوار البلدان لا تورث.

في هذا السياق جرت أكثر من محاولة مع الدكتور جمال حمدان لقضاء فترة من الوقت في العراق. من أجل كتابة كتاب ضخم عن شخصية العراق. دراسة في عبقرية المكان. وقد رفض جمال حمدان حتى مناقشة هذه الفكرة سواء مع العراقيين. أو مع غيرهم من بعض الدول العربية الأخرى.

عذبته مصر ثالثاً عندما اكتشف أن مصر دولة محور. دولة قلب. وأن العراق دولة أطراف. وأن إمكانية أن تقوم دول الأطراف بأدوار قيادية مسألة صعبة لأن ذلك ضد حقائق الجغرافيا ودروس التاريخ المستفادة. وقد جرت محاولة لرسم خريطة للعراق وهو يتوسط الدول من حوله. ولكن اتضح أن الدول العربية التي قد تظهر في مثل هذه الخريطة. ليست كثيرة. فصُرف النظر عنها.

مؤلفات الرئيس

عندما وصلت عمليات السلب والنهب إلى بيت عدي نجل صدام حسين. لاحظ مشاهدو الفضائيات كتاباً ضخماً ملقى على الأرض. على غلافه صورة ضخمة لصدام حسين. أما العنوان فهو: المؤلفات الكاملة لصدام حسين. والواقع أن حرص صدام حسين على أن تكون له مؤلفات يعود إلى ما هو أكثر من ربع قرن مضى.

في ١٩٧٧ صدر عن منشورات دار الثورة في بغداد كتاب جمع مقالات ومحاضرات ومقابلات نائب أمين عام حزب البعث الرفيق صدام حسين. عنوان الكتاب: الديمقراطية مصدر قوة للفرد والمجتمع. وفي محاضرة للمعلمين. قال صدام حسين: علموا الطالب أن يعترض - بعيون أمينة وعقل ثابت - على أهله إذا سمعهم يناقشون أسراراً حزبية أو ينتقدون سياسة الدولة. علموا الطالب أن يحذر أهله ويقول لهم أن هذا خطأ. إن هذا

كان صدام حسين يغير أماكن إقامته بانتظام. حتى أفراد أسرته لم يكونوا يعرفون مكانه. وكان يتولى أمور أمنه الشخصي بنفسه. وكانت له عيون داخل العراق وخارجه

الاعتراض هو مفتاح الديمقراطية. علموا الطالب الحذر من الأجنبي. فهو عين دولة أجنبية وأذنها. وهكذا إن كانت الماركسية قد اعتبرت العمال هم الخلية الأولى في بناء المجتمع الشيوعي فإن صدام حسين - وهو ما يزال نائباً - اعتبر أن العائلة هي النواة الأولى لبناء المجتمع البعثي. وكان رهانه أساسياً على الطفل والصبي والشاب الذين هم كل مستقبل العراق. لقد كان الهاجس الأمني قد سبق الخيال السياسي في هذا التصور.

في عام ١٩٧٩ نشرت دار الحرية في بغداد كتاباً جمعت فيه محاضرات ألقاها صدام حسين في منتصف السبعينيات مع ملاحظات وهوامش عليها بأقلام ١٦ أكاديمياً عراقياً مختصاً في علم التاريخ يحملون الدكتوراه من جامعات أمريكية وأوروبية. عنوان الكتاب: حول كتابة التاريخ. يقول صدام:

- إن البعثي ليس محايداً في شئون الوطن والأمة مهددة بالخطر دائماً. البعثي عليه واجب مقدس. عليه الكلام عن العرب كأمة واحدة. معتبراً أن هذا حقيقة مطلقة. وكان يركز على أن القوة ولا شيء سوى القوة القادرة على تحقيق كل شيء.

عندما تحول صدام حسين لكتابة النص الروائي. واجتمع مع كتاب الرواية والقصة في العراق لكي يتكلم معهم عن فن كتابة الرواية. طلب منهم الإكثار من كتابة النص الروائي. لأن القدرة على الحكي قوة في حد ذاتها. وربما كانت كلمة القوة هي التي يمكن أن تصبح مفتاحاً لشخصيته. صدام حسين الذي تحول في سنواته الأخيرة إلى كتابة الرواية. خاصة أن العراق كان قد تعرض لهجرة مثقفيه ومبدعيه إلى المنافي البعيدة. الرواية الأولى كانت زبيبة والملك. التي كتب على غلافها رواية لكاتبها. وصدرت في بغداد عام ٢٠٠١ وزينت غلافها لوحة: سيدة من بغداد للفنان وليم كلارك ونتر. وتحت اللوحة رسم لملكة جميلة وفارس يرفع سيفاً. وتحت الاثنين حصان عربي أصيل. وكتب في الصفحة الأخيرة من الرواية: يخصص ريع هذا الكتاب للفقراء واليتامى والمساكين وبتاريخ ٢٥/٥/٢٠٠١ كتبت نيويورك تايمز:

- أثارت هذه الرواية عندما صدرت في بغداد ٢٠٠١ اهتماماً خاصاً لدى الإدارة الأمريكية ووكالة المخابرات المركزية. فقد كانت كل الاحتمالات تشير إلى أن الرئيس العراقي صدام حسين هو كاتبها. رغم أن المؤلف لم يضع اسمه الصريح عليها. وقد انهمك رجال الإدارة في ترجمتها وتحليلها وتكرار قراءتها. حتى قال أحدهم «كل مرة أقرأ فيها الكتاب أحس بالتعاطف مع الملك». والرواية تدور حول قصة حب وخيانة ومؤامرات وحروب. وهي تدور حول قصة حب في بلاد الرافدين القديمة.

في مقدمة الرواية كلام عن العراق: ألا يمتد العراق بين الأرض والسماء وما بينهما منذ الصفحات الأولى من الأزل؟ ألم يقم له وليس في غيره بناء بارتفاع شاهق امتد بين الأرض والسماء؟ ألم تكن فيه وليس في غيره، واحدة من عجائب الدنيا السبع هي الجنائن المعلقة في بابل؟ ألم يهبط آدم وحواء إلى العراق بأمر الله؟ ويولد إبراهيم عليه السلام فيه؟ وتنتسب إليه النبوة والأنبياء لمرحلة ما بعد نبي الله إبراهيم وما بعد ذلك. إلى آخر رسول نبي هو محمد صلى الله عليه وسلم؟ أليس هو، أو جباله، أو هضبة «النجف» فيه، موطن نبوة نوح عليه السلام؟ هي المرحلة الثانية بعد نبي الله آدم عليه السلام. ألم تنهض رسالة الأمة من جديد في العراق معطرة بأريج النبوة وبركتها وبما يوصل الحي بما هو في ذمة الخلود قبل وأثناء أم المعارك الخالدة لترتفع راية الأمة العربية من جديد. بعد أن لطخها العملاء والضعفاء ممن نسبوا زوراً بهتاناً إلى الأمة بعارهم. بعد أن طغت الصهيونية وتجبرت هي وتحالفها البغيض مع أمريكا.

وبعد أن يكتب عن الاستحواذ على العالم وإذعان العالم كله لهذا الكابوس يكتب: أليس من العجب العجاب. بل وما يقرب من وصف معجزة. أن ينهض راكبا حصانه، ممتشقاً حسامه ليقول: ها أنذا العراق. وحدى على الأرض. أقول بصوت مسموع وجنان ثابت: قف مكانك. أو تراجع أيها الظلم والطغيان.. هنا أرض الرسالات والأنبياء. لن تركع إلا لله. وليخسأ كل جبان أو عميل. لا لن نستسلم. وليخسأ كل عربي نسي أنه يعربي. وأنه إلى الله وحده يسلم.

لولا العراق ما كانت الشمس لتخلق ولا وجد القمر سبيله في السماء، ولا استقام نبت على ساقه، ولما كان المطر. في العراق لا يفرخ الدجل ولا يوجد فيه هزال وليس فيه صفة الهزل فيه: كان يا ما كان.

والرواية تحكى عن ملك في بلاد الرافدين القديمة. يحاول الاقتراب من الشعب إلا أن البطانة الفاسدة حوله تمنعه حتى يلتقى بزبيبة التى تغير مسار حياته. وتبدأ المعركة الأخيرة حيث يكون الملك وأتباعه وزبيبة ضد الأعداء. وتستشهد زبيبة. ويهزم العدو. الذى كان في البداية بطانة الرئيس. ولكنه يصبح في النهاية العدو الأجنبي. إن زبيبة تستشهد من طعنة سهم وهي على جوادها الأبيض. وكانت قد تعرضت للاغتصاب بعد أن حاصرها الأعداء وإن كانت لا تنسى أن تكتب رسالة للملك تناديه فيها بكلمة حبيبي. لأنها لا تحب أن تناديه بجلالة الملك. فهي تعرف مدى امتعاضه من الكلمات التي تفتعل الألقاب. إنها تفضل مناداته باسمه: أبقاه الله عليه مهابة وعنوان محبة له ولشعبه لجيشه.

سأمر سريعاً على مستوى الرواية الفني. ولكن لابد من ملاحظة أنه لم ينشر مقال نقدي واحد يتكلم عن تدني مستواها، وكثرة الخطب فيها. وشفونية الكلام عن العراق. ومن المؤكد أن الرئيس لم يستعن بأي روائي محترف في إلقاء نظرة عليها. حتى يخلصها من عيوب البدايات الأولى في كتابة النص الروائي. أو أنه لجأ إلى هذا الروائي وخاف أن يقول أن النص في حاجة إلى تنقيح أو إعادة صياغته. فور صدورها ترجمت إلى الصينية. وترجمها جيل مونيه الأمين العام لجمعية الصداقة الفرنسية العراقية إلى الفرنسية. وأعلن أنه سيتم تحويلها إلى فيلم ومسلسل تليفزيوني وعرض مسرحي. مونييه يترجم الآن رواية صدام حسين الثانية: «القلعة الحصينة». التي يوحي الرسم الموجود على غلافها بقرب موضوعها من الرواية الأولى ملكة جميلة وحولها الفرسان من كل جانب. الحصان كان الوحيد الذي ظهر في الغلافين.

الرواية الثالثة: مدينة ورجال. لم يرها أحد خارج العراق. نقلت وكالات الأنباء أن الرئيس العراقي خلال الأيام الأربعة الأولى لقصف بغداد الأخير «من ٢٠ إلى ٢٣ مارس الماضي» كان مشغولاً بمتابعة ردود فعل روايته الجديدة. التي كانت موجودة مع باعة الصحف والمكتبات لدى الجمهور. وإن كانت لم تخرج نسخة منها خارج العراق.

إن الدرس الكبير لحكاية صدام حسين يدور حول حلم تحويل دولة إقليمية إلى دولة عظمى. حتى لو أدى ذلك إلى التناطح رأساً برأس مع سقف العالم، وتحويل البلد من بلد يمكن أن يكون سويسرا الشرق الأوسط. إلى بلد فقير. أقول أن هناك حدوداً تحول دون ذلك. والإصرار عليه ربما كان قريباً من الانتحار. وقراءة ما كتبه سلام عبود تحت عنوان وطن يبحث عن منفى تلخص الموقف المأساوي الذي يعيشه الآن ٢٦ مليون عراقي:

- من يحتلون لفترة أقصر صدام أم الأمريكان؟ من يقتل منا أقل: صدام أم الأمريكان؟ من يعطينا حرية صحافة أكبر صدام أم الأمريكان؟ من يضربنا أقل بالكيماوي صدام أم الأمريكان؟

لم يبق أمام العراقيين سوى اختيار طريقة موتهم. هذا إن لم يفاجئوا بحالة من المقاومة تستعيد لهم حريتهم من صدام الذي لا وجود له. ومن الأمريكان الذين يملأون كل مكان في العراق الآن.

وفي بداية النهاية أكتب: ليت صدام حسين. عشق نفسه أقل. وأحب العراق أكثر. إذن لتغيرت الأحوال وتبدل مسار التاريخ. أصل المشكلة وجوهرها أن كلمة «يا ريت» لا تعمر بيتاً. فما بالك ببناء وطن له ظروف وتعقيدات العراق؟! ■

هوامش:

* عالم صدام حسين: رواية، مهدى حيدر.
* زبيبة والملك: رواية لكاتبها.
* ثقافة العنف في العراق: سلام عبود.
* أوكار الهزيمة: تجربتي في حزب البعث العراقي: هاني الفكيكي.
* ثلاثة وجوه لبغداد: غالب هلسا.
* ذاكرة الغد: شهادات ورؤى وتجارب عن أدب الحرب القصصي في العراق.



في زمنه كان هناك ثلاثة شعراء كبار الجواهري الذي مات ودفن في دمشق والبياتي الذي دفن في المنفى. ونازك الملائكة التي ما زالت تعالج في القاهرة

مــــــارك ليــــــلا



عندما أبحر أفلاطون من سيراكوزا سنة ٣٦٨ ق.م أو نحو ذلك، كان ذهنه - طبقاً لما قاله هو - مشوشاً. فقد سبق له زيارة تلك المدينة قبل ذلك، حينما كان لا يزال يحكمها لطاغية المخيف ديونيسيوس الأكبر، ولم ترق له حياة صقلية الحسية. وتساءل أفلاطون: كيف يمكن للشباب تعلم الاعتدال والعدل في مكان «تكمن فيه سعادة المرء في إشباع نفسه مرتين يومياً وعدم النوم بمفرده ليلاً» إن مثل هذه المدينة لا أمل لها في الخروج من دائرة لا آخر لها من الاستبداد والثورة.

فلماذا يعود إذن؟ ما حدث هو أن أفلاطون كان له تلميذ في صقلية اسمه ديون، وهو شاب بات مخلصاً لأفلاطون وقضية الفلسفة، قد كتب له رسالة يبلغه فيها بوفاة ديونيسيوس الأكبر وبتولي ابنه ديونيسيوس الأصغر الحكم. وكان ديون صديقاً وصهراً لديونيسيوس الأصغر، وكان مقتنعاً بأن الحاكم الجديد منفتح على الفلسفة ولديه الرغبة في أن يحكم بالعدل. وكان كل ما يحتاجه - في رأي ديون - هو تلقي التوجيه الصحيح، الذي لا بد أن يخرج من بين شفتي أفلاطون ذاته. وألح ديون على أستاذه في رجاء زيارته. وفي النهاية أبحر أفلاطون، بعد أن تغلب على لشكوك والظنون الخطيرة.

هذه حكاية قديمة عن أفلاطون تدل على أنه كان مؤيداً لمشروع مجنون لإقامة حكم «الملوك الفلاسفة» في المدن اليونانية، وأن «المغامرة الصقلية» التي قام بها كانت الخطوة الأولى في اتجاه تحقيق ما يطمح إليه. وعندما عاد مارتن هيديجر إلى لتدريس سنة ١٩٣٤ بعد وظيفته المخزية كرئيس نازي لجامعة فرايبورج، سألوه بتهكم: «هل عدت من سيراكوزا؟» وهذه عبارة ليس هناك ما هو أفضل منها. إلا أن ما كان يبغيه أفلاطون لم يكن يختلف كثيراً عما كان يهدف إليه هيديجر. وكما يروي أفلاطون في «الرسالة السابعة»، فقد كان يحلم بدخول الحياة لسياسية ولكن حكم الثلاثين الطاغي في أثينا (٤٠٤-٤٠٣ ق.م) أثناه عما كان يحلم به. وبعد ذلك هجر لسياسة بالمرة، عندما أعدم النظام الديمقراطي الذي خلف الثلاثين صديقه ومعلمه سقراط. وانتهى أفلاطون، كما هو حال شخصية سقراط في «جمهورية» أفلاطون، إلى أنه ما دام النظام السياسي فاسداً فالفرصة ضئيلة لاستعادة عافيته «بدون الأصدقاء والزملاء» - أي بدون من هم أصدقاء فلاسفة للعدل وأصدقاء صدوقين للمدينة. وفي غياب المعجزة، التي يصبح فيها الفلاسفة ملوكاً، أو يتجه فيها الملوك إلى الفلسفة، فإن أقصى ما يؤمل في السياسة هو إقامة الحكومة المعتدلة في ظل حكم القانون.

إلا أن ديون كان رجلاً يتمتع بقدر كبير من الحيوية بشأن توقع المعجزات. فقد قنع نفسه، ومن ثم سعى إلى إقناع أفلاطون، بأن ديونيسيوس يمكن أن يكون ذلك الشيء النادر الذي هو الحاكم الفيلسوف. وكانت لدى أفلاطون شكوكه؛ فمع أنه كان يثق في شخصية ديون، فقد كان يعلم كذلك أن «لشباب غالباً ما يكونون عرضة للوقوع فريسة للدوافع المفاجئة لتي كثيراً ما تكون متقلبة». إلا أنه ظن كذلك - أو ربما برر الأمر لنفسه - أنه ما لم يقتنص هذه الفرصة النادرة، ويبذل الجهد للدفع بطاغية ناحية العدل، فإنه قد يتهم بالجبن وعدم لولاء للفلسفة. وبذلك وافق على لذهاب.

ولكن نهاية هذه الزيارة الثانية لم تكن سعيدة. فقد كان جلياً أن ديونيسيوس يهفو إلى الحصول على شارة التعلم، ولكنه كان يفتقر إلى النظام والالتزام اللذين يقتضيهما الخضوع للجدل الديالكتيكي ويجعل حياته متسقة مع نتائجه. (ويقارنه أفلاطون برجل يريد أن يقف تحت الشمس بشرط ألا تحرقه.) كان أشبه إلى حد كبير بالطبيب الذي لا يمكنه علاج مريضه ضد إرادته. ولذلك ثبت أنه من المستحيل الوصول بديونيسيوس العنيد إلى الفلسفة والعدل. بل إن أفلاطون وديون في محاوراتهما كانا يخاطبان طموحات الطاغية السياسية، قائلين له إنه كفيلسوف سوف يتعلم كيف يقدم قوانين طيبة للمدن التي يفتحها، وبذلك يكسب صداقتها، الأمر الذي يمكنه حينئذ استغلاله في توسيع مملكته أكثر وأكثر. ولكن ديونيسيوس، الذي كان يعطي أذنيه للشائعات، أخذ يشك في أن ديون يمهد لطموحاته هو السياسية، فطرده على الفور من سيراكوزا. وعندما فشل أفلاطون في الصلح بين صديقيه السابقين، قرر الرحيل.

إلا أنه عاد مرة أخرى بعد ست أو سبع سنوات، بناء على طلب من ديون كذلك. فمع أن ديون كان لا يزال في المنفى، فقد سمع أن ديونيسيوس عاد إلى دراسة الفلسفة وأبلغ أفلاطون بذلك. في البداية لم يحرك أفلاطون ساكناً، حيث كان يعلم أن «الفلسفة غالباً ما يكون لها ذلك الأثر على الشباب»، وكان يشك في أنه لا رغبة لديونيسيوس إلا في إثارة القيل والقال بشأن رفض أفلاطون له باعتبار أنه لا قيمة له. واتباعاً من أفلاطون لنفس المنطق الذي جعله يقوم بزيارته الثانية، فقد قرر القيام برحلته الثالثة، والأخيرة. لكن من وجده حين وصوله كان رجلاً أكثر صلفاً وغروراً يعتبر نفسه فيلسوفاً وقيل إنه ألف كتاباً. وضاعت تلك القضية ولكن أفلاطون لم يلم إلا نفسه، حيث قال: «لم يكن لدى من سبب لأن أغضب من ديونيسيوس أكثر من غضبي من نفسي ومن هؤلاء الذين أجبروني على المجيء». ولم يكن ديون شديد التفاؤل. وبعد ثلاث سنوات من سفر أفلاطون الأخير، هاجم سيراكوزا بالمرتزقة وحرر المدينة وطرد ديونيسيوس، إلا أنه كان هناك من خانه واغتاله بعد ثلاث سنوات. وبعد سلسلة من الانقلابات العنيفة استعاد ديونيسيوس العرش لكي يخلعه منه جيش كورنيث المدينة الأم لسيراكوزا. وامتد العمر بديونيسيوس وعاد إلى كورنيث، حيث يقال إنه أنهى حياته مديراً لمدرسة يعلم فيها مبادئه.

إن ديونيسيوس معاصر لنا. وقد تخذ على مدار القرن الماضي أسماء عدة مثل: لينين وستلين، وهتلر وموسوليني، وماو وهو، وكاسترو وتروهيو، وأمين وبوكاسا، وصدام وخميني، وتشاوشيسكو وميلوسيفتش - والقائمة تطول. وفي القرن التاسع عشر كان المتفائلون يعتقدون أن

شحذ أساتذة بارزون وشعراء موهوبون وصحفيون ذوو نفوذ مواهبهم كي يقنعوا كل من يستمعون إليهم بأن الطغاة المحدثين محررون وبأن جرائمهم التي لا رادع لها تتسم بالنبل، إن نحن نظرنا إليها من منظور صحيح!



بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
ترجمة أحمد محمود

الطغيان أمر من أمور الماضى. وعلى أية حال، كانت أوروبا قد دخلت العصر الحديث وكان لكل يعرف أن المجتمعات الحديثة المعقدة، ذات الصلة بالقيم الديمقراطية الدنيوية، لا يمكن حكمها بالوسائل الاستبدادية العتيقة. قد تكون المجتمعات الحديثة سلطوية، وتتسم بيروقراطيتها بالبرود وتتصف أماكن العمل فيها بالقسوة، إلا أنها ليست أنظمة طاغية بالصورة التى كانت عليها سيراكوزا. لقد كان من المعتقد أن التحديث كفيل بإحالة مفهوم الطغيان التقليدى إلى أمر لا وجود له. وأنه مع دخول أمم أخرى من خارج أوروبا مسيرة التحديث، فإنها ستدخل هى الأخرى المستقبل ما بعد الاستبدادى. ونحن الآن نعرف مدى خطأ ذلك. صحيح أن الحريم ومتذوقى الطعام فى العصور القديمة اختفوا، إلا أن أماكنهم شغلها وزراء الدعاية والحرس الثورى وبارونات المخدرات والبنوك السويسرية. فما زال الطاغية يحيا.

ومشكلة ديونيسيوس قديمة قدم الخلق. إلا أن مشكلة أنصاره المفكرين جديدة. وبينما أخرجت القارة الأوروبية فى القرن العشرين نظامين مستبدين كبيرين، هما الشيوعية والفاشية، فقد أخرجت كذلك نمطاً اجتماعياً جديداً نحتاج اسماً جديداً له: إنه المفكر الفيلسوف الطاغية. لم يجرؤ عدد قليل من كبار مفكرى تلك الفترة - الذين لا تزال أعمالهم مهمة لنا حتى الوقت الحالى - على خدمة ديونيسيوس الحديث صراحة بالقول والفعل، وحالاتهم يعرفها الجميع ومنهم مارتن هيديجر وكارل شميت فى ألمانيا النازية، وجورج لوكاش فى المجر، وربما آخرون غيرهم. وانضم كثيرون إلى الأحزاب الفاشية والشيوعية على جانبى الستار الحديدى، سواء بدافع من الانجذاب الاختيارى أو الطموح المهنى، دون مخاطرات كثيرة؛ وقليلون من قاموا بدور الجنود لبعض الوقت فى غابات العالم الثالث وصحاريها. وقام عدد يدعو للدهشة بالحج إلى السيراكوزات الجديدة التى تشيد فى موسكو وبرلين وهانوى وهافانا. وهؤلاء هم العيون السياسية التى قامت برحلات خُطِّطت بدقة على أراضى الطغاة وفى أيديها تذاكر العودة، حيث كانوا يبدون إعجابهم بالمزارع الجماعية ومصانع الجرارات ومزارع قصب السكر والمدارس. إلا أنهم لسبب أو لآخر لم يزوروا السجون.

لكن معظم المفكرين الأوروبيين بقوا على مكاتبهم، حيث زاروا سيراكوزا فى خيالهم وحسب، وأنتجوا أفكاراً لافتة للانتباه ورائعة فى بعض الأحيان لتوضيح معاناة الشعوب التى ما كان لعيونهم أن تلتقى بها أبداً. فقد شحذ أساتذة بارزون وشعراء موهوبون وصحفيون ذوو نفوذ مواهبهم كى يقنعوا كل من يستمعون إليهم بأن الطغاة المحدثين محررون وبأن جرائمهم التى لا رادع لها تتسم بالنبل، إن نحن نظرنا إليها من منظور صحيح. ولا بد لكل من يأخذ على عاتقه كتابة تاريخ فكرى صادق لأوروبا القرن العشرين أن يتمتع بقدر كبير من الشجاعة، إلا أنه سيحتاج كذلك إلى شىء آخر. إذ سيكون عليه التغلب على كراهيته بالقدر الذى يتيح له تدبر جذور هذه الظاهرة الغريبة والمحيرة. فما هو ذلك الشىء الموجود فى العقل البشرى الذى يجعل الدفاع الفكرى عن الطغيان ممكناً فى القرن العشرين؟ كيف بلغ الأمر بالتراث الغربى الخاص بالفكر السياسى، الذى يبدأ بانتقاد أفلاطون للطغيان فى «الجمهورية» ورحلاته غير الموفقة إلى سيراكوزا، بحيث يصل إلى النقطة التى يصبح عندها من صحة القول أن الطغيان طيب، بل جميل؟ سيكون علينا طرح هذه الأسئلة الكبيرة، ذلك أنه سنجد أنفسنا نتعامل مع ظاهرة عامة، وليس مع حالات منفصلة من السلوك الذى يتعدى الحدود المعقولة. وما حالة هيديجر إلا أوضح أمثلة القرن العشرين لانحدار الفلسفة، التى هى حب الحكمة، إلى حب الطغيان، خلال الذاكرة الحية.



ولكن من أين نبدأ؟ قد يكون أول ما يرد على الخاطر هو الاتجاه إلى تاريخ الأفكار، على افتراض أن حب الطغيان الفكرى والممارسات الاستبدادية الحديثة تشترك فى جذورها الفكرية. وهو سيجد الكثير من التحقيقات العلمية بشأن مصادر الفكر السياسى الحديث الذى يشترك فى هذا الافتراض، كما يشترك فى منهج يقسم التراث الفكرى الأوروبى إلى اتجاهات متضاربة، ومن ثم يسم أحدها بأنه محب للطغيان. والهدف المفضل لمثل هذه الدراسة هو عصر التنوير، الذى شاع تصويره اعتباراً من القرن التاسع عشر على أنه انتزاع الجذور الأوروبية المعقدة من تربة الديانة والتراث المسيحيين، وتشجيع التجارب المتعجرفة لإعادة تشكيل المجتمع تبعاً لأفكار النظام العقلانى البسيطة.

وطبقاً لهذه الصورة، فإن عصر التنوير لم يأت بالطغاة وحسب، بل إنه كان مستبداً فى أساليبه الفكرية ذاتها، التى كانت تتسم بأحكامها المطلقة وبعدم المرونة وعدم التسامح والقسوة والعجرفة والعمى. وهذه المجموعة من الصفات مأخوذة من كتابات إيسايا برلين، الذى عرض، فى سلسلة من المقالات شديدة الأهمية فى التاريخ الفكرى كتبها فى عقود ما بعد الحرب، أعقد قضية بإلقائه اللوم فيما يخص نظرية الطغيان الحديث

وممارساته على «الفلاسفة». وكان هم برلين الأساسي هو معاداة لتنوع والتعددية لتي لاحظها في تيار رئيسي في التراث الغربي بدأ بأفلاطون وبلغ ذروته لفكرية في عصر التنوير، قبل أن يؤتي ثمارد لسياسية في شمولية لقرن لعشرين. وكانت افتراضات هذا لتيار لفكري الرئيسية هي ن كل المسائل الأخلاقية والسياسية لها إجابة صحيحة واحدة، ون هذه الإجابة يمكن لتوصل إليها من خلال العقل، ون كل هذه الحقائق تتوافق بلضرورة مع بعضها لبعض. وبناء على هذه الافتراضات، أقاموا معسكرات الكولاك ومعسكرات الموت ودافعوا عنها. وكان عصر التنوير هو لذى قدم النموذج المثلى «الذى ضحت في عصرنا من أجله كائنات بشرية بنفسها وبغيرها، ربما أكثر من أية قضية أخرى في التاريخ الإنساني»، كما يقول برلين.



تبدو هذه قصة مقنعة. ولكن مشكلتها، هى نها تتضارب مع قصة أخرى تبدو مقنعة يرويها مؤرخو الفكر تتوصل إلى حكم مختلف بعض لشيء بشأن المسئولية لفكرية بلنسبة للطغيان الحديث. وتركز هذه القصة الثانية على الدوافع الدينية أكثر من تركيزها على المفاهيم الفلسفية، وعلى قوة اللاعقلاني فى الحياة الإنسانية، وليس على ادعاءات العقل: وقد نقول إنها تقدم التاريخ الفكرى بالطريقة التى ربما كتبه بها دوستيوفسكى، وليس روسو. وفى العقود التى تلت الحرب العالمية مباشرة حظيت النزعة اللاعقلانية الدينية بقدر كبير من اهتمام المؤرخين لغربيين الذين قدموا حلقة تربط بين نظرية لطغيان الحديث وممارسته والظواهر الدينية، مثل التصوف واليسوعية والعقيدة الألفية والقبلانية ولفكر الغيبى بصورة أكثر عمومية. وما كانوا يرونه أثناء العمل فى عقول الثوار والمفوضين هو نزعة لاعقلانية قديمة لتعجيل المجيء إلى مملكة الرب فى علم بنيوى. وفى كتاب The Pursuit of the Millennium (1957) وضع نورمان كون أسساً تاريخية راسخة لهذا المنهج. فقد عرض مدى أهمية انتشار النزعة الألفية الثورية والنزعة الفوضوية لصوفية فى أوروبا فيما بين لقرنين الحادى عشر والسادس عشر، كما أوجد تشابهاً بين لخيالات الأخروية الخاصة بتلك لفترة وخيالات لقرن العشرين.

وفى دراستيه بعنوان The Origins of Totalitarian Democracy (1952) و Political Messianism (1960) قرَّب المؤرخ الإسرائيلى يعقوب تالمون هذا المنهج من الحاضر بقوله إن أهم ملامح الفكر السياسى الأوروبى فى القرنين الثامن عشر ولتاسع عشر لم يكن نزعته العقلانية، لتى ربما كانت ستقوده إلى اتجاه ليبرلى، بل هو حماسه الدينى والآمال اليسوعية لتى باتت الأفكار الديمقراطية الحديثة مشربة بها. على خلاف ما قاله برلين. وفى عنفوان الثورة لفرنسية، لم يعد العقل عقلانياً وأصبحت الديمقراطية ديانة زائفة بلنسبة للرجال المحدثين المحرومين من الإيمان لتقليدى بالآخرة. وكان تالمون يعتقد أنه فى هذا السياق لدينى فقط يمكننا فهم كيف أن النموذج المثالى الديمقراطى الحديث صار حلماً استبدادياً دموياً فى لقرن لعشرين.

إنها قصة أخرى تبدو مقنعة. ولكن أياً من هاتين لقصتين سنختارها لنرويها؟ إذ إن هذا سيعتمد اعتماداً كبيراً على أى جوانب الطغيان الحديث الفكرية ولسياسية يشعر هو نها تستحق اهتمامنا. وإن كان الأمر على سبيل الحصر فهناك «التخطيط» السوفيتى، وبرنامج النازيين شديد لفاعلية للقضاء على اليهود، وتدمير كمبوديا الذاتى المنظم، وبرامج التلقين الأيديولوجى، وشبكات المخبرين المصابة بجنون الارتياب، والشرطة السرية، أما إذا كانت المسألة تفسير الطريقة التى تكونت بها هذه الممارسات الاستبدادية وكيفية الدفاع عنها، فإن هناك ما يغرى لإلقاء اللوم على لنزعة العقلانية الفكرية القاسية التى سحقت كل من وقف فى طريقها. ومن ناحية أخرى، فإنه إذا خطر على البال الدور الذى يقوم به فى الطغيان الحديث كل من تقديس الدم ولتراب، والانشغال لهستيرى بلفئات لعرقية، وتمجيد العنف الثورى باعتباره قوة من قوى التطهير، وعبادة الفرد، والاجتماعات الجماهيرية التى تتسم بالعربدة، فسيكون هناك ما يغرى على القول بأن العقل انهار أمام العواطف اللاعقلانية لتى هاجرت من الدين إلى السياسة. ولكن ماذا لو كنا أكثر طموحاً ورغبة فى تفسير كلتا الفئتين من الظواهر؟ فى هذه الحالة سيكون علينا الابتعاد عن تاريخ الأفكار.



هناك طريقة أخرى لبحث حب الطغيان الفكرى، وهى فحص لتاريخ الاجتماعى للمفكرين فى لحياة لسياسية الأوروبية، وليس تاريخ الأفكار التى كانوا يؤمنون بها. وهناك كذلك بعض الروايات التى تقدم تفسيرات يعتد بها لحب الطغيان فى لقرن لعشرين. وأكثر القصص شيوعاً قصة مأخوذة من التجربة الفرنسية. وهى تبدأ بقضية دريفوس، التى يصورها الجميع على أنها أخرجت المفكرين لفرنسيين من مستنقعات «الفن للفن» l'art pour l'art ونبهتهم إلى مهمتهم الأسمى باعتبارهم المراقبين الأخلاقيين على الدولة الحديثة. ولفصول لتالية يمكن أن يتلوها غيباً أى تلميذ فرنسى: الاشتباكات بين الدريفوسيين الجمهوريين وخصومهم الوطنيين الكاثوليك؛ والاختلاف بشأن الثورة الروسية والجبهة لشعبية بعد الحرب العالمية الأولى؛ وتسويات فيشى الفكرية ولسياسية؛ وسيطرة ماركسية سارتر الوجودية بعد الحرب؛ والانقسامات الحادة بين المفكرين بشأن الجزائر؛ وبعث الراديكالية ليسارية بعد مايو ١٩٦٨؛ وأزمة الضمير crise de conscience بعد نشر كتاب سولجنتسين Gulag Archipelago فى السبعينيات؛ وظهور إجماع جمهورى ليبرالى فى عهد ميتران.

إلا ن الدروس الأخلاقية المستفادة من هذه لقصة تختلف تبعاً لما تلقاه الراوى من تعليم سياسى. فقد أصبحت حسب رواية جان بول سارتر أسطورة بطولية عن ظهور المفكر المنعزل «الملتزم» لذى أكد «ذاته المفردة» فى مقابل أيديولوجيا المجتمع البورجوازى والأنظمة لطاغية التى أفرزها فى أوروبا (الفاشية) وفى الخارج (الاستعمار). وفى كتابه المهم Plaidoyer pour les intellectuals الذى يضم نصوص محاضرات ألقاها سنة ١٩٦٥، وصف سارتر المفكر على أنه جان دارك يسارى يمثل ما هو فى المقام الأول إنسانى فى مواجهة قوى «السلطة» الاقتصادية والسياسية اللاإنسانية، وكذلك فى مواجهة تلك القوى الثقافية لرجعية، بمن فى ذلك لزملاء الكُتَّاب الخونة لذين تدعم أعمالهم الطاغية الحديث «بموضوعية».

وكان الأمر بالنسبة لخصمه ريمون آرون هو على وجه لتحديد أن هذه المقابلة الساذجة بين «الإنسانية» و«السلطة» كانت تصور عجز المفكرين الفرنسيين، منذ قضية دريفوس، عن فهم لتحديات الحقيقية للسياسة الأوروبية فى القرن لعشرين. ويرى آرون أنه لم يكن من قبيل المصادفة - بل كان بالفعل أمراً متوقعاً إلى أقصى حد - أن نموذج سارتر المثلى للالتزام سوف يحوله إلى مدافع لا يلين عن لستالينية فى لعقد لتالى للحرب لعالمية لثانية. وفى كتابه L'Opium des intellectuals (1955) أعاد ريمون رواية قصة ظهور المفكر الحديث، ولكن لا شك فى أن ذلك كان وراءه قصد مضاد لما هو شائع، حيث أوضح مدى عجز المفكرين وسذاجتهم كفئة، عندما كان الأمر يتعلق بالأمور السياسية الخطيرة. وكان يرى أن مسئولية المفكرين الأوروبيين الحقيقية بعد الحرب هى أن يجعلوا ما لديهم من خبرة متصلاً بلسياسة الديمقراطية الليبرالية، وأن يبقوا على الشعور بالقدر الأخلاقى فى الحكم على المظالم النسبية الخاصة بالأنظمة السياسية المختلفة - وهو ما يعنى باختصار أن يكونوا مشاهدين مستقلين لديهم إحساس معقول بأدوارهم كمواطنين وكصناع رأى. وهذه المسئوليات لم يتقبلها سارتر ولا أتباعه.

كان آرون محقاً. ففى فرنسا كان المفكرون لرومانسيون «الملتزمون» هم من خدم قضية لطغيان فى القرن العشرين. إلا أن الصورة فى ألمانيا، التى لم يكن آرون يعرفها حق المعرفة، كانت مختلفة تمام الاختلاف. فقد كانت المشكلة هناك هى على وجه التحديد الانفصال لسياسى. فلعدة أسباب يناقشها مؤرخو ألمانيا - وهى تراث اللامركزية لسياسية، وعدم وجود عاصمة ثقافية، ونموذج الجوهر الروحى innerlichkeit، والنزعة المحافظة الفطرية، واحترام السلطة العسكرية - لم تُكَوِّن ألمانيا طبقة فكرية على لنمط الفرنسى، وبالتالى فإن الالتزام السياسى لم ينشأ نفس النشأة. وكان الافتراض





بينما أخرجت القارة الأوروبية فى القرن العشرين نظامين مستبدين كبيرين، هما الشيوعية والفاشية، فقد أخرجت كذلك نمطاً اجتماعياً جديداً نحتاج اسماً جديداً له: إنه المفكر الفيلسوف الطاغية



شرقي الراين في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هو أن أساتذة الجامعات مشغولون بعلم Wissenschaft لا يتقطع في الجامعة المعزولة، وأن الكُتّاب يسعون وراء ثقافة bildung الخاصة وهم يكتبون أعمالهم، وأن الصحفيين وحدهم هم الذين يجرؤون على الكتابة في السياسة، وهم ليسوا جديرين بالثقة.

كانت تلك خرافة، ولكنها خرافة شديدة الجاذبية في الثقافة الألمانية الحديثة. ولا يتضح هذا أكثر من وضوحه في كتاب توماس مان «تأملات رجل لاسياسي» (١٩١٨)، وهو عمل شديد الشخصية، وهو كذلك أكثر أعمال مان السياسية قسوة. فبينما كان مان يستهدف أخاه هاينريش، حاول توجيه ضربة إلى ادعاءات الأديب الفرنسي Zivilisztionsliterat بما لديه من ولع طفولي بالديمقراطية والتنوير الشعبي. ودافع مان عن تراث الجوهر الروحي Innerlichkeit الألماني على أسس جمالية وسياسية. وقد كتب يقول: التراث الألماني ثقافة وروح وحرية وفن وليس حضارة ومجتمعاً وحقوق تصويت وأدب... فعلى العكس من العقل raison والروح esprit الفرنسيين، هناك الجوهر الروحي Innerlichkeit الألماني الذي يضمن عدم إعلاء الألمان المشاكل الاجتماعية فوق المشاكل الأخلاقية وفوق التجربة الروحية.

ومع ذلك فإنه كما كان هو نفسه يعلم - وهو ما أسف عليه فيما بعد - فقد كان موقفه «اللاسياسي» المبدئي يحمل قدراً كبيراً من المغزى السياسي وكان بمثابة مبرر للأهداف الألمانية في الحرب العالمية الأولى، وشجع الرأي الشائع القائل بأن صلح فرساي كان عملاً من أعمال الحرب الثقافية. وكتب يقول: «هذه الروح السياسية المعادية ثقافياً لألمانيا هي بالضرورة المنطقية معادية لألمانيا من الناحية السياسية».

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يستهل فيها مفكر ألماني «لاسياسي» حياته السياسية استهلالاً مريعاً. فعند إنشاء الرايخ سنة ١٨٧١، وعند نشوب الحرب في أغسطس ١٩١٤، ومرة أخرى في ليلة أول مايو Walpurgisnacht 1933، اقحم العشرات من كبار أساتذة وكُتّاب ألمانيا أنفسهم بحماقة وجهل في السياسة، سواء على أسس متناقضة للدفاع عن التراث الألماني «للاسياسي»، أو بدافع من الاعتناق الساذج المفاجئ للسياسة التي لم يكونوا قد بدءوا في فهم أساليبها (ومن أبرز هؤلاء هيدجر). وانتهى معظمهم إلى أن اقتحامهم المفاجئ للسياسة كان خطأ، وسرعان ما عادوا إلى دراساتهم ومعاملهم.

وقال الفيلسوف يورجن هابرماس في عدد من الكتابات المهمة في فترة ما بعد الحرب عن الموقف السياسي والثقافي الألماني إن هذا كان على وجه الدقة الدرس الخطأ المستفاد من تلك الغلطات. فمنذ بداية القرن التاسع عشر صار الكُتّاب والمفكرون الألمان، بانسحابهم من السياسة الحديثة من حيث المبدأ، معتادين على العيش في عالم فكري خرافي تحكمه الخيالات بشأن بلاد اليونان أو الغابات التيوتونية، وهي الخيالات التي جعلت الطغيان النازي يبدو لبعضهم على أنه بداية التجديد الروحي والثقافي. وفي رأي هابرماس أنه فقط بالنزول من على جبال العلم Wissenschaft والثقافة Bildung إلى سهول الخطاب السياسي الديمقراطي، كان يمكن تطعيم المفكرين الألمان ضد هذا الإغراء الاستبدادي.

وتبدو مقولة هابرماس مقنعة. ولكن إذا كان محقاً في إلقائه باللوم على الفلسفة الألمانية بشأن الانفصال السياسي، وإذا كان آرون محقاً في إلقائه باللوم على الالتزام السياسي الأعمى في فرنسا، فأين يصل هذا الأمر بنا؟ من الواضح أن أياً من التفسيرين لا يعني أوروبا القرن العشرين بصورة عامة. إذ يبدو أنه لا يمكن لأي من «العقلانية» ولا «اللاعقلانية» في تاريخ الأفكار أن تفسر نظرية الطغيان الحديث وممارسته، كما يخفق كل من «الالتزام» و«الانفصال» في التاريخ الاجتماعي للمفكرين في الوصول بنا إلى قلب الموضوع. ومن الواضح أن كل هذه الاتجاهات والميول كان لها دورها في التاريخ الأوروبي، سواء باعتبارها أسباباً وثيقة أو آثاراً، إلا أن أياً منها لا يدلنا بحال من الأحوال على سبب ظهور حب الطغيان الفكري. وعند هذه النقطة فإن مؤرخنا - إن كان لا يزال معنا - قد يبدأ في الشعور باليأس. ربما يبدأ في التساؤل عما إذا كانت الإجابة عن هذا السؤال التاريخي موجودة في التاريخ أم يجب البحث عنها في مكان آخر. وكان هذا سيصبح تساؤلاً مفيداً، ذلك أنه ربما شجعه على إعادة بحث تاريخ أفلاطون وديون وديونيسيوس القديم من زاوية أخرى، سعياً وراء أدلة على القوى الأعمق التي تجتذب العقل إلى الطغيان.

أكثر ما يلفت النظر بشأن ديونيسيوس الشاب هو أنه كان مفكراً. ربما كان أول طاغية لديه مثل تلك الادعاءات، ولكن من المؤكد أنه لم يكن الأخير. فاليوم، وفي أركان مكتبات بيع الكتب الأوروبية ذات الميول اليسارية، مازال بإمكاننا أن نجد مجموعات غير مرغوب فيها من الأعمال الكاملة للينين وماو، بل وستالين، التي تولت ترجمتها مكاتب الدعاية في العالم الشيوعي ونشرتها منظمات كانت واجهة لها في الغرب. وقد يبدو مضحكاً لنا الآن أن هناك من كان يشعر بحاجة إلى الرجوع إلى مثل هذه الأعمال، أو حتى إلى كتابتها. إلا أنني أشك في أن أفلاطون أو ديون كان قد فكر في ذلك. واحتكاماً إلى أعمالهما في سيراكوزا، فقد أدركا أن دافع ديونيسيوس الفكري كانت له علاقة مهمة ما بطموحاته السياسية الاستبدادية - ومن ثم كان أملهما في أنه بإحداث تحول في ديونيسيوس يمكنهما الحد من طموحاته السياسية الاستبدادية. والواقع أن ذلك بدا مستحيلاً. ولكن إذا كان أفلاطون وديون مخطئين في أملهما، فهما لم يخطئا بالضرورة في افتراضاتهما بشأن القوة النفسية والمنطقية التي تجتذب بعض الرجال إلى الطغيان.

تلك القوة هي الحب، إيروس. ويرى أفلاطون أنك لكي تكون إنساناً لا بد أن تكون مخلوقاً ساعياً، أي مخلوقاً لا يعيش فقط لكي يلبي حاجاته الأساسية، بل هو مدفوع بصورة أو بأخرى إلى توسيع تلك الحاجات والارتقاء بها في بعض الأحيان، وحينئذ تصبح غايات جديدة للسعي. فلماذا «يبذل» البشر «قصارى جهودهم» على هذا النحو؟ يرى أفلاطون أن هذا سؤال نفسي عميق، وهو سؤال تجيب عنه الشخصيات في محاوراته بطرق مختلفة. وربما كان أحب تلك الإجابات هو ما قدمته ديوميتا وأورده سقراط في Symposium، وهو أن «كل الرجال مبدعون من الناحيتين الجسدية والروحية». فنحن - أو على الأقل نشعر أننا كذلك - مخلوقات ناقصة ولا يمكننا البقاء إلى أن يصبح احتمال ما نشعر به داخلنا واقعاً ملموساً، وإلى أن يمكننا «إنجاب الجميل» كما تقول هي. وهذا الشغف، وهذا الحب، موجود في كل رغباتنا الطيبة والصحية، في رغبات الجسد ورغبات الروح؛ وبعض الناس يشعرون في المقام الأول برغبات الجسد ويلبونها، بينما يصبح أصحاب الأرواح المتلهفة فلاسفة أو شعراء، أو يشغلون أنفسهم بـ«التنظيم الصحيح للمدن والمنازل» - أي بالسياسة في أسمى معانيها. وتقول ديوميتا لسقراط إنه حيثما رأينا النشاط الإنساني الذي يستهدف الخير، فسوف نجد بعضاً من آثار الحب.

ولكن ما هو النشاط الموجه لما هو ضار لنا أو لغيرنا - هل هو لسُكْر مثلاً أم القسوة؟ وهل هذان يدفع إليهما الحب كذلك؟ يقودنا أفلاطون في Phaedrus إلى الظن بأن الأمر كذلك، عندما يجعل سقراط يقدم صورة شهيرة للروح تبينها على أنها فريق يضم حصانين مجنحين يقودهما سائق عربة. ويقال إن أحد الحصانين نبيل ومشدود إلى ما هو خالد وصادق، بينما يتسم الحصان الآخر بالوحشية ولا يمكنه التحكم في نفسه ويعجز عن التمييز بين ما هو غث وما هو سمين: فهو يرغب في كل شيء. ويرى سقراط أنه إذا كان الحصان الأدنى أشد قوة من الحصان الأعلى فإن الروح تظل قريبة من الأرض، أما إذا كان الحصان النبيل هو الأقوى، أو كان بإمكان سائق العربة مساعدته، فإن الروح ترتفع لتكون أقرب إلى الحقيقة الخالدة. ويمكن أن توجد كل الأرواح - وبالتالي كل الأنماط البشرية - في مكان ما من هذا السبيل السماوي، حيث يكون بعضها أدنى للأرض والبعض الآخر أقرب للسماء، تبعاً لطريقة سير خيولها التي تحركها الشهوة. ويصف سقراط تسعاً من تلك الأرواح، أعلاها هي روح الفلاسفة والشعراء، وأدناها روح الطاغية.



الرجل المستبد صورة عكسية للفيلسوف: فهو ليس متحكماً في طموحاته ورغباته، وهو رجل يمتلكه جنون الحب، وهو عبد لطموحاته ورغباته وليس متحكماً فيها



ومن خلال قراءة تاريخ سقراط وأعمال أفلاطون خاصة كتابه «الجمهورية» يتضح لنا أن هناك صلة بين الطغيان الذي في العقل والطغيان الذي في الحياة السياسية. فبعض الأرواح المستبدة تصبح حاكمة للمدن والدول، وفي هذه الحالة تصبح شعوب بكاملها خاضعة

سحر الاقتراب من الحاكم

لجنون الحكام الشهواني. إلا أن مثل هؤلاء الحكام نادرون وقبضتهم على السلطة ضعيفة. وهناك فئة أخرى أكثر شيوعاً من الأرواح المستبدة التي يفكر فيها سقراط، وهي تلك التي تدخل الحياة العامة ليس في صورة حكام، بل كمعلمين وخطباء وشعراء - وهم من نسميهم الآن مفكرين. وهؤلاء الرجال يمكن أن يكونوا خطرين، لأن الأفكار «لوّحتهم». وكما هو حال ديونيسيوس، فإن هذا الصنف من المفكرين عاطفي بشأن حياة العقل، ولكنه على العكس من الفيلسوف لا يسعه التحكم في عاطفته؛ فهو غارق حتى أذنيه في النقاش السياسي، وكتابة الكتب، وإلقاء الخطب، وتقديم النصح بنشاط محموم لا يكاد يغطي عجزه وعدم تحمله للمسئولية. وهؤلاء الرجال يعتبرون أنفسهم عقولاً مستقلة، بينما الحقيقة هي أنهم قطيع تقوده شياطينهم الداخلية وتعطشهم إلى تقبل جمهور متقلب الأهواء لهم. ومن يستمعون إلى هؤلاء - وهم عادة من الشباب - قد يشعرون بتأجج المشاعر داخلهم؛ إذ يجعلهم ذلك الشعور موضع ثقة، ذلك أن التوجيه الصحيح قد يسبغ عليهم الشرف وينشر العدل في مدنهم. إلا أنهم بحاجة إلى تعلم التحكم الفكري في النفس إن هم أرادوا تحويل تلك العاطفة تحولاً خالصاً إلى الانتفاع الطيب.

ويدرك سقراط ذلك. إلا أن هؤلاء المفكرين يفتقرون إلى تواضعه وحرصه التعليمي؛ فسمعتهم تعتمد على إثارة العواطف وليس توجيهها. ويرى سقراط أن هؤلاء المفكرين يقومون بدور مهم في دفع الديمقراطيات ناحية الطغيان بدفعهم عقول الشباب إلى حالة من الإثارة والجنون، إلى أن ينتقل بعضهم - ربما أكثرهم ذكاء وشجاعة - من الفكر إلى العمل ويسعى إلى تحقيق طموحاته الاستبدادية في السياسة. وبعد أن يشعر هؤلاء المفكرون بالرضا لتحقق أفكارهم في الواقع، يصبحون مداهنين للحاكم خانعين له ويؤلفون «أناشيد الطغيان» عندما يتولى السلطة.

يقدم سقراط فكرة الملوك الفلاسفة المثيرة في «الجمهورية» ليخرج محاوريه من رضاهم في التفكير في هذه العلاقة بين المفكرين والطغاة. وكان هذا الملك الفيلسوف - سواء أكانت تلك فطرته أو نشئ عليها - سيقضي على الفئتين معاً. فالملك الفيلسوف «نموذج مثالي»، ليس بالمعنى الحديث لهدف الفكر المشروع الذي يتطلب التحقيق، بل ما يسميه سقراط «حلماً» يساعد على تذكيرنا بكيف أنه من غير المحتمل الجمع في يوم من الأيام بين الحياة الفلسفية ومطالب السياسة. فقد لا يكون في قدرتنا إصلاح الطاغية، إلا أننا قادرون دوماً على ممارسة التحكم الفكري في الذات. وهذا هو السبب في أن أولى مسئوليات الفيلسوف الذي يجد نفسه محاطاً بالفساد السياسي والفكري قد تكون هي الانسحاب. وفي «الجمهورية» يشبّه سقراط قَدَر الفيلسوف الحق في مدينة ناقصة بـ«كائن بشري رافق وحوشاً برية، دون أن تكون لديه الرغبة في الانضمام إليها فيما ترتكبه من ظلم، في حين أنه لا يكفي كرجل وحيد لمقاومة كل الحيوانات المتوحشة». ولأنه يضع كل هذا في حسبانه فإن يظل هادئاً ويفكر ويتدبر ما يخصه من أمور - كرجل في عاصفة، يلجأ إلى جدار يعصمه، حين تثير الريح التراب والأمطار من حوله.

هل يعني هذا أن أفلاطون تخيل الحياة الفلسفية حياة منفصلة انفصالاً تاماً؟ لا. فبعد إلقاء شخصية سقراط كلمتها عن الفيلسوف في العاصفة، تمضي في القول بأن هذا الرجل لا يحيا الحياة الفضلى، ذلك أنه في المدينة الطيبة وحدها «سوف يزداد نمواً ويصون الأشياء العامة إلى جانب الأشياء الخاصة». وكما نعرف فإن سقراط الحقيقي قُتل بسبب محاربته الطغيان، ليس بتجلياته السياسية الواضحة وإنما في مصدره النفسي داخل العقل البشري.

وهذا الوعي الذاتي هو ما يميز سلوك أفلاطون وديون في سيراكوزا عن المفكرين المحبين للطغيان في أوروبا القرن العشرين. ولأن أفلاطون وديون كانا قد اتبعا النموذج السقراطي وانتزعا كل طغيان من روحيهما، فقد كانا قادرين على فهم طبيعة حكم ديونيسيوس وكان هناك ما يبرر سعيهما لتحرير سيراكوزا من طغيانه. وكان كل منهما يأمل كمفكر تحويل ديونيسيوس إلى الفلسفة وجعله يرى ما في أعماله من ظلم وما في كتاباته من حمق. وكانا يأملان كذلك مكافحة الطغيان بالكلمة، وليس بالسيف. وفشلا، ورغم اتخاذ كل منهما سبيلاً منفصلاً فيما بعد، حيث عاد أفلاطون إلى أثينا ونزل ديون إلى ساحة الوغى، فقد دافع أفلاطون عما قام به ديون في المجالين. فقد اعترف بأن ديون، بصفته مواطناً من سيراكوزا يحب وطنه، ربما ترك آماله تضلله بشأن فرص إقناع ديونيسيوس وبأنه شعر بضرورة رفع السلاح بعد فشل مساعيهما. إلا أن أفلاطون كان مقتنعاً بأن ديون فعل هذا كله دون أن يدع الطغيان الذي حاربه يدخل روحه. فليس من العار أن يفشل المرء أو يموت في السياسة، مادام متحرراً من ذلك الطغيان. ولم يكن بإمكان ديونيسيوس إدراك هذا المبدأ البسيط. فقد طالت حياته ولكنه عاش في خزي، بينما مات ديون ميتة مجيدة، حيث بقي على وفائه للحق ولمدينته.



إن سحر سيراكوزا قوي بالنسبة لأي مفكر أو مفكرة، ولا بد أن يكون كذلك. فلا ينبغي للمرء أن يقبل خرافة سارتر النرجسية الخاصة بالمفكر كبطل كي يرى ما رآه أفلاطون منذ زمن بعيد. ذلك أن هناك صلة ما في العقل البشري بين النزوع إلى الحق والرغبة في المساهمة في «الترتيب الصحيح للمدن والأسر». ولكن لأن أفلاطون تعرف بالتحديد على هذه الرغبة الملحة باعتبارها حافزاً - أي كدافع يمكن أن ينقلب إلى عاطفة هوجاء - فقد كان واعياً بقدرته الهدامة ومشغولاً بتوجيهها لمصلحة الحياة الفكرية والسياسية الصحيحة. وهناك ما يغري المرء على القول بأن هذا الوعي الذاتي السامي بشأن كيفية معالجة العقل للأفكار هو الذي يميز في المقام الأول الفيلسوف بالمعنى الأفلاطوني عن كثيرين من المفكرين المحدثين. وهذا الوعي الذاتي نفسه هو ما ينبغي أن يكون بحوزتنا عند التفكير في حب الطغيان في القرن العشرين والتعلم منه.

ومن الصعب الظن بأن أي قرن من قرون التاريخ الأوروبي قد رُتّب أفضل من القرن الماضي بحيث يثير عواطف العقل المفكر ويجره إلى كارثة سياسية. إن كثيراً من مبادئ لشيوعية وللفاشية، والماركسية بأشكالها المختلفة، والنزعة القومية، والعلم الثلث، قد أوحت به كراهية الطغيان، وجميعها قادر على الإيحاء للطغاة البغيضين وعلى إغماض عيون الكثيرين عن جرائمهم. ومن الممكن تصور هذه الاتجاهات باعتبارها جزءاً من سرد تاريخي رفيع المستوى يمكن أن نعزو إليه بعض القوى الخارجية لتي تحرك كلاً من الأحداث وتأويلاتها.

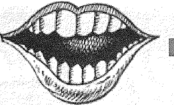
وعندما نقرأ الآن ما كتبوه ونبذل الجهد كي نفهم أفعالهم، فلا بد لنا أن نتعدى نفورنا لداخلي ونواجه القوى الفكرية الأعمق المؤثرة في العقل المحب للطغيان - وربما أثرت في عقلنا كذلك. ومع أن أيديولوجيات القرن العشرين تخاطب غرور بعض المفكرين وطموحهم لفج، فهي تخاطب كذلك - بخبث وغش - مايبثه فينا لتفكير ذاته من إحساس بالعدل وكراهية للاستبداد، وهو ما يمكن أن يتملكنا بالمعنى الحرفي للكلمة إن نحن لم نحكم السيطرة عليه. وسوف تبدو الدعوة إلى الاعتدال والشك - لمن تملّكهم - ضرباً من الجبن والضعف. وهذا هو سبب تعرض المفكرين الأوروبيين الذين أثاروا هذه الدعوة - ومنهم آرون - لهجمات بغيضة باعتبارهم خونة لمهنتهم.

لقد قر القضاة بأن القضايا الصعبة تخلق قوانين سيئة. وعليه فقد يكون علينا أن نغمض أعيننا عن الأخطاء السياسية التي ارتكبها الفلاسفة الأوروبيون، ونحاول فهمها في ضوء ظروف لقرن العشرين غير العادية، ونأمل في أيام أكثر هدوءاً فيما هو آت. إلا أننا نخطئ إن نحن استسلمنا لذلك. فالطغيان لم يمت، لا في السياسة ولا في أرواحنا بكل تأكيد. ربما يكون عصر الأيديولوجيات السائدة قد ولى، ولكن مادام الرجال والنساء يفكرون في لسياسة - ومادام هناك مفكرون ومفكرات بأي حال من الأحوال - فسيكون هناك إغراء للخضوع لجاذبية فكرة ما، وللسماح للعاطفة بأن تعمينا عن قدرتها الاستبدادية، وللتخلي عن مسئوليتنا الأولى، وهي السيطرة على الطاغية الذي بداخلنا.

ولم تكن أحداث القرن الماضي سوى مناسبة لإظهار حب الطغيان الفكري غير العادي الذي لن تختفي مصادره في الظروف لسياسية الأقل تطرفاً، لأنها جزء من تكوين أرواحنا. وإذا كان مؤرخنا يريد حقاً فهم خيانة المثقفين، فإن عليه هو الآخر أن يتظر داخله.

قد لا يكون في قدرتنا إصلاح الطاغية، إلا أننا قادرون دوماً على ممارسة التحكم الفكري في الذات. وهذا هو السبب في أن أولى مسئوليات الفيلسوف الذي يجد نفسه محاطاً بالفساد السياسي والفكري قد تكون هي الانسحاب

النساء



■■ هذا الكتاب «خرافات لغوية»، نُشر في مجموعة بنجوين ١٩٩٨. حرره «لوري بوير» مدرس علم اللغويات في جامعة فيكتوريا، في ويلنجتون- نيوزيلاندة، و«بيتر تروجل» أستاذ اللغة الإنجليزية وعلم اللغويات في جامعة لوزان في سويسرا.. وهو عبارة عن مجموعة من الدراسات كتبها عدد من علماء اللغويات، شرحاً ونقداً وتفسيراً لعدد من الشائعات اللغوية التي تنتشر في المجتمعات على شكل حكمة أو قول مأثور، كأنها حقائق علمية معترف بها.

في مقدمتهما للكتاب، ذكر المحرران أنهما فكرا في تحرير هذا الكتاب لأنهما يريان أن علماء اللغويات قد قصروا في تقديم هذا العلم إلى عامة الناس غير المتخصصين. ويرجعان ذلك التقصير إلى السرعة القياسية التي توسع بها هذا العلم في النصف الثاني من القرن العشرين، حتى إن العلماء أنفسهم كانوا مشغولين بمتابعة تطوراته وملاحقة المعلومات والنتائج الكثيرة التي يُتَوَصّل إليها. لذلك كانت أغلب كتاباتهم موجهة إلى بعضهم بعضاً وليس إلى عموم الناس.

ويلفتان النظر إلى أن أغلب من تصدى لهذا النوع من الكتابات اللغوية كانوا من الصحفيين والمحررين والشعراء وعلماء النفس. وهم للأسف لا يصلحون أن يكونوا مراجع في هذا المجال لمجرد أنهم أكثر الناس احتياجاً إليه واستعمالاً له.. ثم يقرران أنهما يعتقدان أننا إذا أردنا أن نعرف شيئاً عن الجهاز التنفسي، فإننا نسأل طبيباً أو أخصائياً في علم وظائف الأعضاء. ولا نلجأ إلى شخص رياضي مثلاً لمجرد أنه يجيد التنفس. إذا أردنا أن نعرف كيف تعمل قطارات الأنفاق، فإننا نسأل مهندساً ميكانيكياً وليس راكبا منتظماً لهذه القطارات. وكذلك إذا أردنا أن نعرف شيئاً عن علم اللغويات، فإننا نسأل عالم لغويات متخصصاً وليس شخصاً يجيد استعمال اللغة.

ويقول المحرران إن للناس عادة بعض «الآراء اللغوية» التي تبدو مؤكدة ومستقرة تماماً كأنها جزء من تراثهم الثقافي.. وهما يطلقان على هذه الآراء اسم «خرافات لغوية» لأنها سرت بين الناس مسرى الأساطير مع أنها قائمة على غير أساس علمي، فهي إما أن تكون خطأ محضاً، أو مشوشة يختلط فيها الصحيح بالخطأ، أو مبسطة تبسيطاً مخلاً، أو أنها قائمة على فرض خاطئ أصلاً، أو أغفلت جانباً مهماً من جوانب الموضوع.

وقد اختار المحرران بعض هذه «الخرافات اللغوية» الشائعة، وطلبا من عدد من العلماء أن يفسروها، ويبينوا ما تحتويه من تشويش وأغلاط، وأن يشرحوا حقيقتها، ومن أين جاءت الفكرة أصلاً، ثم جعلا عنوان كل دراسة عبارة عن جملة تلخص تلك الخرافة الشائعة.. لأنهما يعتقدان أن تفنيد هذه «الخرافات اللغوية» ليس أمراً سهلاً تكفي فيه عبارة موجزة مثل «هذا خطأ» أو «هذا صواب»، لكنه يحتاج جهداً علمياً حقيقياً، إذ ليس الموضوع موضوع «صواب» و«خطأ» فقط، وإنما «للموضوع دائما جوانب أخرى» كما يقول المحرران.

وسوف نلاحظ في النهاية أن هذه الأفكار المبسطة لا تعجب العلماء بأية حال من الأحوال، حتى لو وافقوا على بعض جوانبها.

و يتضمن الكتاب واحدًا وعشرين بحثاً عن إحدى وعشرين خرافة شائعة، مثل القول بأن بعض اللغات أسهل من غيرها. أو أن إحدى اللغات أجمل من الأخرى. أو أن بعض اللغات ليس لها قواعد نحو. أو أن وسائل الإعلام هي السبب في إفساد اللغة. أو أن بعض الشعوب أقل قدرة على التعبير من غيرهم. أو أن اللغة الفلانية بدائية، لا يمكنها استيعاب مفردات الحضارة المستجدة. أو أن اللغة العلانية لا تستحق الاستمرار، لأنها جامدة وغير قابلة للتطور.

ويقرر المحرران أن كثيراً من هذه الخرافات الشائعة قائم على عوامل عنصرية أو على ذوق خاص أو انطباع شخصي، أو جهل شديد بالموضوع نفسه أو بحقيقة تطور اللغات أصلاً.. مثل الآراء التي تشير إلى رفعة بعض اللغات وانحطاط بعضها، أو أن لغة معينة جميلة وأخرى قبيحة، أو أن قواعد إحدى اللغات منطقية وأخرى غير ذلك.. بينما الحقيقة أن لكل لغة خصائصها الدقيقة وجمالياتها الخاصة التي هي نتاج العقل البشري متفاعلاً مع ظروف المعيشة واحتياجات مستعمليها. لذلك لابد من دراسة اللغات دراسة موضوعية محايدة، بعيدة عن الأهواء والأذواق.

«النساء يتكلمن أكثر من اللازم» إحدى دراسات هذا الكتاب، وكاتبتها هي «جانيت هولمز» أستاذة علم اللغويات في جامعة فيكتوريا في ويلنجتون، نيوزيلندة.. وهي تُدرِّس علم اللغويات، وعلم اللغويات الاجتماعي، وقد نُشرت لها عدة كتب، منفردة، أو بالاشتراك مع غيرها، وآخر كتبها: «مفردات المجاملة عند الرجال والنساء». لونجمان: ١٩٩٥ وفيما يلي تعريب لهذه الدراسة. ■

أماني العشماوي



■■ **هل صحيح أن النساء يتكلمن أكثر من الرجال؟..**

الأمثال والأقوال الشائعة في كثير من اللغات تؤكد ذلك، وتشير إلى أن النساء لا يتوقفن عن الكلام أبداً.

١ـ لسان المرأة مثل ذيل الشاة: لا يتوقف عن الحركة أبداً.. مثل إنجليزي.

٢ـ بحر لشمل، قد تنقصه المياه.. أما المرأة فلاتنقصها الكلمات أبداً.. مثل شمالي

٣ـ تزوج المرأة ذات اليدين والقدمين النشيطتين. أما المرأة ذات اللسان النشيط، فابتعد عنها.. مثل ماوري (شعب نيوزيلندة الأصلي)

Language Myths

(خرافات لغوية)

Edited by: Laurie Bauer & Peter Trudgill

Penguin Books, 1998.

وبعض الأقوال الشائعة تصور الرجل يستمع في صمت وبصبر، بينما المرأة تتكلم بلا انقطاع.

١ـ إذا ماارتدى الزوجان الثياب نفسها، من السهل التفريق بينهما، فالرجل هو المستمع.. مثل أمريكي.

٢ـ ليس هناك أغرب من رجل متكلم، إلا امرأة صامتة.. مثل اسكتلندي.

وهناك أقوال كثيرة تشير إلى تفاهة حديث المرأة، وأنه مجرد ثرثرة مزعجة:

١ـ هناك ضجيج دائم، حيثما وجدت النساء والإوز.. مثل ياباني.

وإن كانت صورة المرأة في الأمثال اليابانية ترتبط بالضجيج، إلا أن المثل الصيني يربط حديثها بالقوة:

١ـ لسان المرأة هو سيفها، وهي لا تتركه يصدأ أبداً.

والآن، ماهي الحقيقة؟..

هل صحيح أن النساء يسيطرن على المجالس بالكلام طول الوقت، كما هو شائع؟..

هل صحيح أن الرجال يجاهدن طول الوقت لينالوا حصة من الحديث؟.. ولو كلمة واحدة؟..

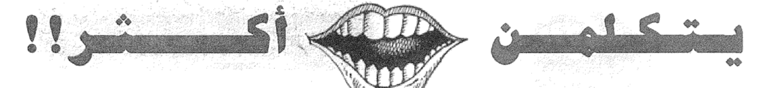
بالرغم من هذا الاعتقاد الشائع، أن النساء يتكلمن أكثر من الرجال، فأغلب الدراسات التي أجريت على هذا الموضوع تشير إلى العكس من ذلك تماماً.. فكلما اجتمع الرجال والنساء، فالرجال هم الذين يتكلمون أغلب الوقت.

قامت الباحثتان الكنديتان «ديبورا جيمس» و«جانيس دراكيش» باستعراض ٦٣ دراسة تقيس مقدار الكلام الذي ساهم به الرجال والنساء الأمريكيون في سياقات مختلفة.. فاكتشفتا أن النساء تكلمن أكثر من الرجال في دراستين اثنتين فقط.

وفي نيوزيلندة، أثبتت الدراسات أن الرجال عادة يسيطرون على أغلب الوقت المتاح للكلام.

فقد قارنت «مارجريت فرانكن» بين مقدار الكلام الذي يتكلمه رجل وامرأة متخصصان، يعملان مساعدين لمقدمة برنامج تلفازي تستضيف شخصيات معروفة. وكانت في كل مرة، تقسم مدة الحديث المخصصة للمضيفين الثلاثة، المقدمة ومساعدها الرجل ومساعدتها المرأة، وفي كل مرة كان الرجل يستولي وحده على نصف المدة المتاحة للثلاثة.

وقد وجدت، أنا، النتيجة نفسها عند تحليلي لعدد من الأسئلة التي سألتها لعدد من المشاركين في مائة ندوة عامة،



يتكلمن أكثر!!

جانيت هولمز

فقد سيطر الرجال على الحديث فى ثلاث وتسعين ندوة تلك الندوات المائة.

وعندما كان عدد الرجال مساوياً لعدد النساء، كان الرجال يسألون ثلثى الأسئلة أثناء النقاش.. فمن الواضح إذن أن النساء لم يكن يتكلمن أكثر من الرجال، فى تلك الحالات على الأقل.

وأما فى المجالات التى كانت النساء فيها متحدثات من موقع القوة، فقد كن يجدن صعوبة فى المساهمة فى النقاشات بالقدر الذى يساهم به الرجال. فمثلا: عَيَّنَت شركة بريطانية أربع نساء وأربعة رجال فى أعلى ثمانية مناصب إدارية، أجراً ومركزاً.. وقد لاحظ المدير الإدارى أن الرجال يحرصون دائماً على السيطرة على جو الاجتماعات، وإلى توجيه حديث النساء.. فقد قال: «ذات مرة، اجتمعت بمديرة مبيعات واحدة وثلاثة مديرين من مساعدىَّ، واستغرق الاجتماع ساعتين، تحدثت فيها المديرة مرة واحدة.. وحتى فى تلك المرة قاطعها زميل رجل قائلاً لى: «إن «آن» تقصد كذا وكذا»!!..

وفى هذا تلخيص للموقف كله، فهو يرى أنه يعرف قصدها أكثر منها، ولهذا لم يتح لها الفرصة لتقول رأيها بنفسها».



لماذا إذن تختلف الحقيقة عن الشائعة كل هذا الاختلاف؟؟

للإجابة عن هذا السؤال، لابد أن نبتعد عن لتعميمات لفضفاضة، ونتأمل تلك الحالات السابقة بالتفصيل. فمثلا: يرى بعض المعلمين أن الصبيان أكثر نشاطا من البنات، وأقل انضباطا منهن.. لكن الحقيقة أنه ليس هناك دليل علمى يؤكد أن لذكور يتكلمون، بالفطرة، أكثر من الإناث.. فمن الراجح لإن أن الأسباب تعود لعوامل اجتماعية أخرى غير الفطرة.

إن لكلام يؤدى وظائف مختلفة، فى لسياقات المختلفة. فالحديث الرسمى العلنى، مثل الخطب السياسية والمناظرات لعامة والمحاضرات، أو للقاءات الإذاعية المسموعة والمرئية، كلها تهدف عادة إلى لتثير على لناس وإقناعهم بوجهة نظر معينة. لذلك، فهذا النوع من الأحاديث يقوم به عادة أناس حريصون على تأكيد مكانتهم الاجتماعية، مثل رجل لسياسة. لذلك، فإدارة الحديث والتنافس فى لسيطرة على الكلمة فى المنتديات العامة من الأمور المرغوب فيها والمتعارف عليها.. وفى المقابل، فهو يتضمن مخاطر كثيرة، لأن الأداء السيئ يدمر مكانة الفرد أكثر مما ينفعه.

وقد لاحظنا فى الفصول الدراسية أن كثرة الكلام تتماشى مع ارتفاع مكانة المتحدث وزيادة سلطته. فقد أظهرت الدراسات أن المعلمين، رجالاً ونساء دون تفرقة، يقومون بالحديث فى ثلثى المدة المتاحة أصلا للكلام داخل الفصل. وأن الصبيان يستولون على الجزء الصغير الباقى من المدة المتاحة للطلبة. إذ يبدو أن صاحب المكانة الأعلى تكون له أولوية الحديث، كلما كان للكلام أهمية وتقدير. ربما لهذا السبب، يحاول الصبيان تاكيد ارتفاع مكانتهم عن البنات بالاستيلاء على أغلب الوقت الذى يتبقى للطلبة.

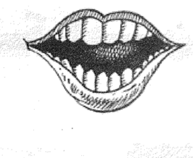
تصرفات الرجل والنسء فى الاجتماعات العامة ولندوات الرسمية تعزز هذا لتفسير.. فقد جمع الباحثون من أمريكا وبريطانيا ونيوزيلندة مزيداً من الأدلة التى تؤكد سيطرة الرجال على لوقت المحدد للكلام فى اجتماعات أعضاء المجلس والندوات وجماعات اتخاذ القرارات.

وإذا كنتَ تشكَ فى هذه النتيجة، استعمل ساعة مؤقتة لتحديد الوقت الذى يتكلم فيه كل من الرجال والنساء فى أى اجتماع سياسى أو لجنة تكون حاضراً بها. ستكتشف أن الرجال يتكلمون أكثر من النساء فى المجالات العلنية والرسمية، لأنهم يعتبرون مساهمتهم الكلامية تدعم مكانتهم.. ومن الواضح أن الرجال أكثر اهتماماً بتأكيد مكانتهم وإثبات سلطتهم من النساء.

وعلى سبيل المقارنة، فإنه فى المجالات الأكثر خصوصية، حيث يؤدى الكلام غير الرسمى، أو الحميمى، إلى تحقيق تواصل إنسانى بين الأطراف أو يساعد على توطيد العلاقات الاجتماعية وينمى الصداقة. فإن الأبحاث القليلة التى درست الكلام فى تلك المجالات الاجتماعية غير الرسمية، أظهرت فروقا أقل بين مساهمات الرجال والنساء.

فقد تكلم الرجال أكثر من





النساء فى ثلث الدراسات فقط، التى أجرتها «ديبورا جيمس» و«جانيس دراكيش» فى المجالات غير الرسمية. إذ يبدو أن النساء يفضلن الكلام فى جو اجتماعى مسترخ، خصوصا إذا كانت موضوعات الكلام تدعم العلاقات الاجتماعية. وهناك دليل آخر على هذا التفسير، وهو نوع الكلام الذى يساهم به كل من الرجال والنساء فى المناقشات والحوارات المختلفة. فقد حلل الباحثون وظيفة الكلام، فوجدوا أن الرجال يكثرون من الإدلاء بمعلومات أو آراء، أما النساء فتكون أغلب مساهمتهن الكلامية دعماً لآراء غيرهن أو موافقةً عليها أو تشجيعاً للآخرين على الكلام.

على العموم، يبدو أن لنساء يستعملن الكلام لتوثيق لصلات لعقلية ولصداقات أكثر مما يتكلمن لتأكيد مكانتهن أو لتغير المباشر على الآخرين. هناك بلطبع استثناءات، كما هو الحال مع «مارجريت تاتشر» مثلا أو بى نظير بوتو وجينى شيبلى.. ولكن حتى وقت قريب لم يكن كثير من لنساء يرين أنفسهن مؤثرات فى الأحاديث الرسمية والعامة.

وقد لاحظنا فى نيوزيلندة مجالاً آخر تساهم فيه النساء بالكلام أكثر من الرجال.. فعندما كنا نلتقى بالناس هناك لنجمع عينات من أحاديثهم لدراستها وتحليلها لغوياً، كنا نجد أن النساء أكثر استجابة من الرجال عموما ومن الشباب خاصة. فقد كن متعاونات جدا وتحدثن إلينا باستفاضة.

مثلا: طلبت «ميريام ماينهوف» من مجموعة من الشباب أن يصفوا لرجل ولامرأة من المشتركين فى الدراسة صورة معينة أطلعتهم عليها. وأكدت للمتحدثين أن المطلوب أن يتكلموا عن تلك الصورة باستفاضة قدر استطاعتهم.

فى ذلك الموقف، ساهمت النساء بنصيب أكثر كثيراً من الرجال، فقد تحدثن باستفاضة إلى كل من الرجل والمرأة عن الصورة التى كن يصفنها. ففى ذلك المجال شبه الرسمى، لا يعتبر الحديث وسيلة لتعزيز مركز المتكلم، لأن الذين كانوا يجرون اللقاءات، مثل الرجل والمرأة فى المثال السابق كانوا شبابا صغارا ليس لهم نفوذ على المتكلمين. لذلك كانت النساء، من كل الأعمار، متعاونات أكثر من الرجال بوجه عام، وكان الرجال أكثر تعاوناً من الشباب.

كلما زادت معرفة الإنسان بموضوع معين، زادت قدرته على الحديث عنه. فالمعرفة والخبرة تؤثران فى مساهمة الإنسان فى الحديث.

فى إحدى الدراسات المثيرة، قدم الباحث القائم على الدراسة معلومات إضافية لبعض المساهمين، فأصبحوا كأنهم خبراء متخصصون فى موضوع الحوار. وبغض النظر عن كون المساهم رجلا أو امرأة، كان الخبراء المتخصصون، هؤلاء، يتحدثون فى تلك النقاشات أكثر من زملائهم غير الخبراء.. ولو أن الرجال الخبراء فى تلك الدراسة كانوا يتحدثون مع زميلاتهم النساء غير الخبيرات أكثر مما كانت النساء الخبيرات يتحدثن مع زملائهن غير الخبراء من الرجال.

إذن، فإسهام الناس فى النقاش أثناء الندوات والمؤتمرات يتأثر بدرجة ملحوظة بمقدار خبرة الشخص أو مدى علمه بموضوع الحوار. وتميل النساء الملمات بالموضوع إلى المساهمة عن طريق إلقاء الأسئلة وإلى الاستفسارات والتعليقات.

وفى دراسة مقارنة عن نسبة الكلام بين الأزواج، لوحظ أنه فى الأسر التى تتبنى آراء تقليدية فى العلاقة بين الرجل والمرأة كان الرجال يسيطرون على الأحاديث التى تجرى بين كل الأزواج. أما النساء ذوات الصلة بحركات التحرر النسوية، فكن يتكلمن أكثر من أزواجهن.

فمن المحتمل إذن أن العاملَيْن معاً، حالة الخبرة والعلم، وحالة حركات التحرر، لهما أثر واضح على زيادة ثقة المرأة فى وضعها الاجتماعى.

وهذا التفسير يتفق أيضا مع كون المرأة تميل إلى الكلام فى جو الأصدقاء والأسرة، أو عندما تكون أغلبية المجلس من النساء، أو عندما يُطلب منها صراحة أن تتحدث، كما حدث فى المقابلات المشار إليها آنفاً.

إذا كانت زيادة الثقة الاجتماعية تفسر زيادة مساهمة المرأة فى بعض المجالات، فلابد من التساؤل: لماذا تقل مساهمة بنات المدارس عن مساهمة الصبيان؟.. هل يشعرن بقلة الثقة فى الفصل؟.. ولماذا؟.

قدمت طالبة فى السادسة عشرة من عمرها الإجابة التالية:

«أود أحيانا أن أعلن عن معارضتى لرأى معين، أو أن أقول إن هناك وجهات نظر أخرى للموضوع.. ولكن، ما النتيجة؟.. سيعتبرنى معلمى استعراضية، ويضحك الصبيان سخرية. أما لو تظاهرت أننى لا أفهم، فسوف يختلف الحال تماما؛ يتعاطف معى المعلم ويساعدنى الصبيان.. لو حاولت إحدانا أن تثبت لهم تفوقها لن تنال إلا الهجوم القاسى».

في الأسر التي تتبنى آراء تقليدية في العلاقة بين الرجل والمرأة كان الرجال يسيطرون على الأحاديث التي تجرى بين كل الأزواج. أما النساء ذوات الصلة بحركات التحرر النسوية، فكن يتكلمن أكثر من أزواجهن

فالحديث في الفصل يعتبر استعراضا للقدرات، خاصة إذا كانت المتحدثة فتاة.. ومازالت الفتيات يفضلن أن يَظْهَرن أقل من مستواهن الحقيقي حتى لا يلفتن الأنظار ويكتسبن عداء الصبيان. والمعلمون عادة لا ينتبهون إلى هذا الوضع القائم في الفصول، بل إنهم يتصورون دائما أنهم يولون مقدارا متساويا من الاهتمام ومن فرص الحديث للبنات والصبيان.. ولم يكتشفوا أو يصدقوا أن الصبيان يسيطرون على أغلب الوقت المقرر للطلبة في الفصل إلا بعد أن استمعوا إلى تسجيلات صوتية للدروس.

«ديل سبندر»، أسترلية من مناصرات حركات التحرر النسوية، ومن أشهر المدافعات عن حقوق المرأة؛ لاحظت أن المعلمين والمعلمات يحرصون على تحقيق المساواة في الفرص بين البنات والبنين في الفصل، وذلك بإعطاء البنات فرصة أكبر للمساهمة في الكلام، ومع ذلك فوجئوا بأنهم، بالرغم من محاولاتهم، مازالوا يعطون البنين فرصا أكثر ووقتا أطول.

في إحدى الدراسات، قسم معلم مادة العلوم، الوقت المحدد لكلام الطلاب في الفصل إلى قسمين متساويين بين البنين والبنات. وبعد ذلك أعلن المعلم أنه شعر أن البنات قد نلن ٩٠٪ من اهتمامه ووقته. وكذلك احتج الطلبة البنون واشتكوا أن البنات قد سيطرن على أغلب الوقت المخصص للحديث.مع أن الوقت كان مقسما حسابياً، ومسجلا بساعة مؤقّتة.

وكذلك في المجالات العامة الأخرى مثل الندوات والمناظرات، كلما أعطى كل من الرجال والنساء مددا متساوية من الوقت المحدد للحديث، سواء عن عمد أو عن غير عمد، كان الحاضرون يعتبرون أن النساء قد حصلن على أكثر من نصيبهن من الوقت.

وقد وضحت «ديل سبندر» السبب في ذلك قائلة:

«إنهم يقيسون مقدار حديث المرأة، ليس مقارناً بحديث الرجل، وإنما مقارناً بالصمت، فالمرأة المتحدثة تتكلم أكثر من المرأة الصامتة.. بمعنى آخر، سواء تكلمت المرأة كثيراً أو قليلاً، فهي تتكلم أكثر من اللازم. فالمفروض فيها أن تظل صامتة، مجرد زينة في الإطار العام للمجالس والأحداث الاجتماعية.. قد يبدو ذلك بشعاً. لكن، إذا أردت أن تفهمه، فتصور رد فعلك، إذا رأيت مجموعة من الأطفال يتدخلون بحذر وتردد في أحاديث الكبار حتى يسيطروا عليها تماماً.. فالنساء قد اقتحمن حديثاً كثيراً من الميادين التي كانت مقصورة قبل ذلك على الرجال، مثل إدارة الأعمال وبعض المجالات المهنية الأخرى، فلا عجب أن مساهمتهن لا تستقبل دائما بالرضا والإعجاب، ولا تقدر بالعدل والدقة».



والآن، لنصل إلى إجابة محددة للسؤال: هل النساء يتكلمن أكثر من الرجال؟

الإجابة ليست فقط «لا» أو «نعم».. وإنما «حسب الموقف».

فالأمر يعتمد على عوامل كثيرة ومتنوعة، فهي تختلف حسب السياق الاجتماعي الذي يجرى فيه الحديث، ونوع الحديث، ومقدار الثقة الاجتماعية التي يتمتع بها المتحدث، وهي قد تتأثر بالدور الاجتماعي، مثل حالة المعلم في الفصل، أو مضيف البرنامج، أو مدير اللقاء.. وكذلك بمقدار معرفة المتحدث وخبرته بموضوع الحديث.

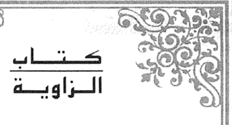
نستنتج من ذلك أن الرجال يتكلمون أكثر من النساء في المجالات الرسمية العامة، حيث يكون الإدلاء بالمعلومات والقدرة على الإقناع هما المطلوبان. وكذلك عندما يكون التحدث دليلاً على امتياز معين، وعندما يكون الحديث فرصة لزيادة المكانة الاجتماعية للفرد.

أما النساء، فأغلب مساهمتهن في الأحاديث الخاصة وغير الرسمية، حيث يكون الحديث وسيلة للتواصل الإنساني، وفي المواقف الأخرى التي يشعرن فيها بالثقة الاجتماعية.

يقول المثل: السكوت من ذهب.. فهل الحديث دائما مدعاة للفخر والمباهاة؟

يعتبر الصمت أبلغ من الكلام في أغلب الثقافات، وقد يكون أنسب من الكلام في بعض المواقف، كأن يكون الكلام أداة قاصرة عن التعبير عن العواطف، أو عندما يكون لصمت معبراً عن الامتنان أو الاحترام. وهناك حالات يكون نموذج «الرجل الصامت» مثار الإعجاب.

ومهما كان الأمر، فلابد من الاعتراف أن للكلام مكانة محترمة وتقديراً خاصاً في الثقافة المعاصرة.. مادام يستعمل للسيطرة على المجالس المختلفة، وبالتالي فهو مرتبط بالمال والسلطان. لذلك سيظل الجدل قائما: من يتحدث أكثر؟.. النساء أم الرجال؟ ■



كتاب الزاوية



من كلام الناس

قال بعض الناس: «من التوقى ترك الإفراط في التوقى».

وقال بعضهم: «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون».

وقال الشاعر:

قــدَر اللــه واردٌ   حـين يُقضي ورودُه
فأرد ما يكون إن   لم يكن ما تريدُه

وقيل لأعرابي في شكاته: كيف تجدُك؟ قال: «أجدُني أجد ما لا أشتهي وأشتهي ما لا أجد، وأنا في زمانٍ من جاد لم يَجِد، ومن وَجَدَ لم يَجُدْ».

وقيل لابن المقفع: ألا تقول الشعر؟ قال: الذي يجيئني لا أرضاه، والذي أرضاه لا يجيئني.

وقال بعضهم: «أعجَبُ من العجَب، ترك التعجّب من العَجَب».

قال عمرُ بنُ عبد العزيز لعَبد بني مَخزوم: «إني أخاف الله فيما تقلدتُ». قال: لستُ أخاف عليك أن تخاف، وإنما أخاف عليك ألا تخاف.

وقال الأحنف لمعاوية: أخافك إن صدَقْتُك، وأخاف الله إن كذَبْتُك.

وقال رجل من النُّساك لصاحبٍ له وهو يَكيدُ بنفسه: أما ذنوبي فإني أرجو لها مغفرة الله، ولكني أخاف على بناتي الضيعة. فقال له صاحبه: فالذي ترجوه لمغفرة ذنوبك فارجُه لحفظ بناتك.



ثقافة استباحة حقوق الملكية الفكرية

محمد عدنان سالم

إن القانون يؤكد الحقوق ولا ينشئها، فما جدوى صدور قانون لحماية الحق الفكرى فى مجتمع يستبيح هذا الحق من فرقه إلى قدمه، يستوى فى استباحته له المنتج والمستهلك والشرطى والقاضى

إن احترام حقوق الملكية الفكرية مسألة أخلاقية قبل أن تكون قانونية. فحق الملكية الفكرية حق طبيعى من حقوق الإنسان يترتب له نظير جهده الذى يبذله، ولئن كان استثماره لجهده العضلى حقاً تعترف به كل الشرائع والقوانين والأعراف، فإن اعترافها بحقه فى استثمار جهده الفكرى يكون من باب أولى.. ذلك أن الجهد الفكرى أسمى وأرقى من الجهد العضلى، ولئن كان عمل اليد يجلب للإنسان التعب والعرق، فإن عمل الفكر يسبب له السهر والأرق، ولئن كانت السخرة تتصور فى الجهد العضلى يساق إليها الإنسان بالإكراه، فإنها لا تتصور فى الجهد الفكرى، إذ لا يمكن تسخير الإنسان للتفكير بالإكراه، ومن المتعذر الدخول إلى تلافيف دماغه لاجتناء ثمرات أفكاره.

وفى هذا المنعطف الحاد الذى تجتاز فيه البشرية اليوم عصر اقتصاد الصناعة إلى عصر اقتصاد المعرفة. وتتبدل فيه معايير تقدم الأمم، فغدا يقاس بمقدار ما تملكه من ثروة المعلومات، أكثر مما يقاس بمقدار ما تملكه من ثروة المال، تعاظم دور العمالة الفكرية واشتد الطلب عليها، وتقلص دور العمالة اليدوية وتراجع سوقها، وأصبحت قضية حماية الحق الفكرى ضرورة من ضرورات التقدم.



إن حماية الحق الفكرى مسألة أخلاقية لا يمكن لأكثر القوانين تشدداً أن يفرضها على مجتمع لا يؤمن بها، ولم تترسخ فى ضميره وتستقر فى وجدانه بوصفها حقاً طبيعياً من حقوق الإنسان يعد تجاهله افتئاتًا على هذه الحقوق وعدواناً عليها وعملاً غير مشروع يدرجها فى عداد السرقة وأكل المال الحرام، ويجعل المتجاهل لهذه الحقوق يشعر بالإثم والذنب والخزى وعار الجريمة، عندما تمتد يده إلى عمل فكرى مقلد، مثلما يخامره هذا الشعور عندما تمتد يده لسرقة سلعة أو حلى أو متاعٍ لا يملكه سواءً بسواء. عند ذلك يصبح للقانون معنى، ويصبح قابلاً للتطبيق. ذلك أن القانون يؤكد الحقوق ولا ينشئها، فما جدوى صدور قانون لحماية الحق الفكرى فى مجتمع يستبيح هذا الحق من فرقه إلى قدمه، يستوى فى استباحته له المنتج والمستهلك والشرطى والقاضى الذى يرى كل منهم فى الجهد الفكرى واجباً لا يستحق بذله الأجر، ويرى فى ثمرات الأفكار ملكًا مشاعًا كالكلأ والماء، من حقه أن يمد يده إليه دون أن تطرف له عين؟!

إيجابيات مزعومة:

إن المجتمع الذى يعتنق ثقافة استباحة الحق الفكرى، ويمارسها من دون أن يكون لهذا الحق فى ضميره أى حرمة أو احترام ـ وهو حال المجتمع العربى والإسلامى برمته ـ لن يرى فى استباحته لهذه الحقوق أى سلبيات

تذكر، بل هو يرى فيها محض إيجابيات تيسر العلم لطلابه، والمعرفة لعشاقها، وأنا ألتمس لديكم العذر كى أبدأ بالحديث عن هذه الإيجابيات المزعومة لسرقة الأفكار، قبل التحدث عن سلبياتها، فبضدها تتميز الأشياء.

وأبادر سلفًا إلى التنويه بأننى لا أعترف بأى من هذه الإيجابيات المزعومة، وأعدها ذرائع واهية لا تقوم بها حجة، ولسوف أفندها واحدة واحدة، قبل أن يدور فى خلد أحد شبهة قبول لها:

إن القرصان لا يتعامل مع الإبداع فى أى مرحلة من مراحله، من تأليف وتحرير وتنقيح وإعداد وتصحيح وتدقيق وفهرسة وتصميم وإخراج، إنما يسطو على العمل بعد أن يستوى على سوقه؛ يصوره، ينسخه، يمسخه، ويسوّقه وليس له فيه إلا الوعاء الذى ملأه سحتًا ومالاً حرامًا

أولا: توفير المعرفة لطلابها بسعر أرخص

وهو ما يصفّق له المجتمع، ويعده خدمة اقتصادية واجتماعية وثقافية جليلة، تُخلّصه من جشع المنتجين الأصليين وفرضهم السعر الأعلى، على الرغم مما يعرفونه من تدنى مستوى الدخل لدى الفرد، وتعقد سبل المعيشة واحتياجاتها، وإذا كانت نسبة تخفيض السعر على الأوعية الورقية (الكتاب) لا تتجاوز ٣٠٪ فإنها على الأوعية الأخرى السمعية والسمعبصرية والإلكترونية (الأشرطة والأقراص الممغنطة والكتاب الإلكترونى) قد تبلغ ٩٠٪، بمعنى أن المستهلك يستطيع أن يحصل على الشريط أو القرص المنسوخ (CD) بعُشر ثمنه الأصلى، فلا يعقل أن يطالب بالتضحية بهذه الفرصة المتاحة مهما تكن الأسباب الداعية لها. وفى تفنيد هذه الذريعة الواهية هناك ما يلى:

١ ـ هل يسوّغ السعر الأرخص لأحد أن يشترى حلية أو متاعًا مسروقًا؟ ولئن فعل فإنه لن يستطيع أن يدارى وخز ضميره وشعوره بالإثم، ولسوف يتستر من الناس مخافة أن تزدريه أعينهم وتلوكه ألسنتهم، كما أنه لن ينجو من سطوة القانون الذى يُعد حيازة المسروق جريمة يعاقب عليها.

فهل تكون ثمرات الأفكار والحقوق المترتبة عليها أدنى مرتبة من الحقوق المادية والعينية؟! وهل يقبل ذلك فى عصر المعلومات الذى يتركز الإنتاج فيه على الأفكار؟!

٢ ـ المستهلك هنا، إنما يقوّم المادة الفكرية بقيمة وعائها المستوعب لها، ورقيًا كان أم رقميًا، على قرص ممغنط (CD) أو على الإنترنت، ويتجاهل أو لا يفطن إلى قيمة مضمونها العلمى الذى بذل فيه مؤلفه وناشره الكثير من الوقت والجهد والمال.

إن إنتاج برنامج حاسوبى واحد يتطلب حشد عدد كبير من الفنيين: مبرمجين ومصممين ومدخلين، وجلب الكثير من المراجع والمصادر، وتوفير الكثير من الأجهزة، ومن الأموال، ومن العمل الدءوب شهورًا وسنين.. بينما لا يتطلب نسخه غير ثانية واحدة من الزمن، تُدخل فيها القرص الذى غالبًا ما يكون من نوع ردىء لتحقيق المنافسة، عبر جهاز بسيط ليس له قيمة تذكر.

وأستبعد أن يكون المستهلك على درجة من الجهل لا يفرق فيها بين الوعاء المملوك ومضمونه المسروق، وخاصة أن استخدامه له يشى بأنه مثقف متحضر ينتمى إلى جيل الكمبيوتر وعصر المعلومات.

٣ ـ وما أظن المستهلك يجهل أن فرق السعر بين المنتج الأصلى والمنسوخ أو المقلد، إنما يمثل حق المؤلف ونفقات الإعداد والتحضير والإخراج، التى يبيح لنفسه سرقتها.

٤ ـ ليس من مصلحة الناشر أو المنتج الأصلى رفع قيمة الكتاب أو المادة الفكرية فى مجتمع عازف عن القراءة، سوف يزيد السعر العالى من إعراضه عنه

ثانيًا: كسر احتكار المعرفة

وهو الذريعة التى يتشبث بها المستهلك فى مواجهة براءات الاختراع التى تُمنح للمبدعين، فتحمى منتجاتهم زمنًا تمنع فيه مزاحمتهم أو منافستهم، وتطلق يدهم فى تحديد سعرها للمستهلك، وقد تكون من ضرورات حياته كالدواء، أو قد تشمل أحيانًا احتياجاته الثقافية كما فى مصحف التجويد الذى أقحم فى مجال براءات الاختراع كسلعة صناعية من غير وجه حق. أو فى مواجهة المجتمعات المتقدمة التى يتركز فيها الإبداع ويتضخم حجم المعارف والعلوم، فتحجبها عن المجتمعات الآخذة بالنمو، مطالبة للإذن بترجمتها بشروط قاسية مجحفة لا تراعى واقعها المتخلف وضعف اقتصادها، وهبوط مستويات الدخل فيها مع شدة احتياجها.

أو يطلقها الطلبة فى وجه أساتذتهم الذين يربطون نجاحهم بالمقررات التى يؤلفونها لهم، ثم يستغلون حاجتهم إليها فيغالون فى أسعارها فى وضع احتكارى مزعج لطلبة لم يبدءوا حياتهم العملية بعد.

إننى أتعاطف كثيرًا مع هذه الذريعة، وأكره الاحتكار والتعسف، لكننى أتساءل بحرقة: أليست لدينا وسيلة غير القرصنة لمعالجة هذه المشكلات؟! وهل استنفدنا كل الوسائل المشروعة قبل أن نعمد إلى إهدار الحقوق وأكل أموال الناس بالباطل؟!

إن الحصر الذى تمنحه براءة الاختراع للمنتج، لا يعفى أجهزة الرقابة على الأسعار فى الدولة من واجب حماية المستهلك، ولا بد من تحقيق المعادلة بين حق الابتكار وحق المستهلك فى منع التعسف فى استعماله.

وإن تعدد المصادر والمراجع بين يدى الطلبة وخاصة فى مراحل التعليم العالى يخلصهم من ربقة احتكار المقرر الواحد، فضلاً عن تنمية روح البحث لديهم، وتوسيع آفاق المعرفة أمامهم.

أما نقل المعرفة من مظان توافرها، بلغاتها الأصلية، أو بترجمتها، فإن التفاوض والمناقشات الثنائية والاتفاقات الدولية.. كل ذلك كفيل بالحد من نزعة الاحتكار والمغالاة بالأسعار.



لقد استطاعت الهند الحصول على أذون بطبعات خاصة محدودة النطاق الجغرافى للتسويق، من كبريات دور النشر العالمية المتخصصة بالكتب العلمية، وباعتها بأسعار رخيصة جدًا بالمقارنة مع الأسعار الأصلية. كما حصل الأفارقة عن طريق التفاوض، والاستفادة من الاتفاقيات والمنظمات الدولية، على مساعدات كبيرة فى مجالات نقل المعرفة والثقافة. وإن فى أنظمة المؤسسات الدولية من الاستثناءات فى هذا المجال ما يغنى عن القرصنة، كمفهوم النشر الإجبارى والترجمة الإجبارية بالسعر العادل.

سلبيات الاستباحة

١ ـ عوز الإبداع:

إن حرمان المبدع من استثمار إبداعه، يثبطه ويجعله عاجزًا عن متابعة إبداعه، فعلام يبحث ويحلل ويورى زناد فكره، ويستقرئ ويستنتج ويبذل ماله ووقته وأعصابه لاستيلاد أفكار جديدة، إذا كان يعرف أن القراصنة يقفون له بالمرصاد، ما إن يطرح إبداعه حتى يتلقفوه ليتولوا استثماره نيابة عنه.

إن القرصان لا يتعامل مع الإبداع فى أى مرحلة من مراحله، من تأليف وتحرير وتنقيح وإعداد وتصحيح وتدقيق وفهرسة وتصميم وإخراج، إنما يسطو على العمل بعد أن يستوى على سوقه؛ يصوره، ينسخه، يمسخه، ويسوّقه وليس له فيه إلا الوعاء الذى ملأه سحتًا ومالاً حرامًا، يستأثر بالغُنم ويترك الغُرم للمبدع خلافًا للقاعدة الشرعية المعروفة (الغنم بالغرم)، فأنى للمبدع المأكول حقه بالباطل أن يبدع؟! وما مستقبل ثقافة مجتمع يخذل مفكريه، ويغضى عن سرقة جهودهم، ويكتفى بما يقدمه له القراصنة فيها؟! أغلب ظنى أنه سيسقط فى حمأة التخلف والجهل؛ ذلك أن القراصنة كالعلق يتشبث بجسد الإبداع يمتص دمه الزكى حتى إذا بلغ منه الثمالة سقطا صريعين جميعًا..

٢ ـ هجرة الأدمغة

فالمواهب والكفاءات والقدرات الفكرية رأس مال هو الأرقى والأسمى والأكثر تقديرًا وتقويمًا فى عالم اليوم، الذى يتحول بسرعة مذهلة إلى عصر المعلومات.. سرعة لم يشهدها فى أى من التحولات البشرية السابقة التى كانت تتم فى آماد أطول على الرغم من النعوت الثورية التى أطلقت عليها، فسميت ثورة زراعية، ثم ثورة صناعية، تعايشتا طويلاً، وما تزال شعوب تعيش عصر الزراعة لم تبلغ عصر الصناعة بعد.. ولديها الفرصة الآن أن تتجاوزه إلى عصر المعلومات، إن هى أعملت فكرها، ووفرت المناخ الملائم لازدهار الأفكار وإعلاء شأنها وتقديرها قدرها، وفى طليعة ذلك صونها من العبث بها وحمايتها من العدوان وتحريرها من الخوف والقيود.

وما لم يتوفر لها هذا المناخ الملائم، فإنها مثل كل طاقة ورأس مال آخر سوف تهاجر باحثة عن متنفس لها فى جو تستمتع فيه بعبق الحرية والحماية والاحترام.. ولسوف تجد على الطرف الآخر من ينتظرها ويتسابق إليها ويتودد لها ويغريها، بل إنها غالبًا ما تجد من يبحث عنها، ويرصد تفتحها منذ أن تبرعمت، فيعرض عليها خدماته: منحًا دراسية، وفرصًا نادرة، ويستدرجها ليستأثر بمواهبها وتفوقها من دون أهلها وأوطانها.

فإن هى تأبّت وتمنعت، احتال لها بكل الحيل، حتى إنه ليستثمر جهدها الفكرى وهى فى مكانها، وقد تكفلت العولمة وثورة الاتصالات له باختزال الأبعاد والآماد وتجاوز كل الحدود والقيود، فأصبحت المعلومات والبرمجيات تنتقل من أقصى المعمورة إلى أقصاها عبر الإنترنت من دون جواز مرور، ولا كيان منظور يخضع لرقابة أو رسوم جمركية أو ضرائب مالية.

٣ ـ المورد التجارى الأهم

تشكل تجارة البرمجيات أرقامًا مذهلة فى ميزانيات الأمم التى أسرعت فى التحول إلى اقتصاد المعرفة؛ تتضاءل إزاءها الأرقام الصناعية، بله الزراعية.. ولئن كان رأس

المال فى الاقتصاد الزراعى يعتمد على خصب التربة وملاءمة المناخ، ويعتمد فى الاقتصاد الصناعى على توافر المواد الأولية - وذلك كله متفاوت بين الأمم - فإن المادة الأولية فى اقتصاد المعرفة هى الفكر، والفكر مشاع بين الشعوب، موزع بينها بالسوية، مما يضع الجميع على عتبة سباق واحدة، أمام فرص متكافئة، يحوز قصب السبق فيها كل من كان الأسرع لاغتنامها.

يقول بيل جيتس صاحب شركة مايكروسوفت، الذى ارتقى مرتبة الرجل الأغنى فى العالم: «لست أخشى منافسة أى شركة نظيرة فى العالم، إنما أخاف أن تنقدح فكرة فى ذهن ميكانيكى فى مرآب فى زاوية مهملة من العالم؛ تتجاوز أفكارى وتتفوق عليها».

لقد قررت إيرلندا التحول إلى اقتصاد المعرفة، وأعدت عدتها لذلك، فدخلت إلى عصر المعلومات من بوابة التعليم، واستطاعت خلال عقدين من الزمان فقط أن تحصد فى ميزانها التجارى لعام ٢٠٠٠، ستين مليار دولار منافسة بذلك كبريات الدول. وكان احترام الملكية الفكرية بطبيعة الحال مستقرًا فى ضمير شعبها، لا يسمح فرد منه لنفسه أن يمد يده إلى عمل فكرى انتهكت حرماته، ولا يطيق أن تقع عينه على انتهاك لها، فإن وقعت ونادرًا ما تقع، فسرعان ما يتطوع بإحالته إلى القانون.. فيتساند الوعى الاجتماعى الرافض لانتهاك الحقوق مع القانون الذى يقف له بالمرصاد لينزل به أشد العقوبات.

٤ - دعم القرصنة رسميًا

تطرح المؤسسات الثقافية الرسمية (وزارات وجامعات ومراكز ثقافية) مناقصاتها مشروطة بتقديم السعر الأرخص، من دون أى التفات لحق المؤلف، فهى بذلك تقرر سلفًا إخراج المؤلف والناشر الأصلى من خطاب المناقصة.. فالقراصنة وحدهم المستهدفون فيها، لأنهم الأقدر على المنافسة وتقديم السعر الأرخص لأسباب عديدة، أولها: تخلصهم من عبء حق المؤلف الذى يسقط نسبة ١٠٪ على الأقل من السعر، وثانيها: تحررهم من تكاليف إعداد الكتاب أو البرامج وتصميمها وإخراجها، مما يضيف لصالحهم نسبة أخرى لا تقل عن ١٠٪، وثالثها: عبثهم بالمواصفات المادية للكتاب لتخفيف تكاليف إنتاجه من ورق وطباعة وتجليد.

هكذا أسهمت المؤسسات الثقافية الرسمية فى الوطن العربى فى تكوين شبكات القرصنة الثقافية وتنميتها وازدهارها.

فقد أثارت هذه الفرصة الثمينة التى أتاحتها المناقصات الرسمية شهية الكثيرين من الطفيليين والدخلاء ممن لا يمتون بصلة لصناعة الثقافة والنشر للدخول فى الحلبة، وتضخم عددهم، وبعد أن كانوا معدودين على أصابع اليد يستخفون بقرصنتهم خزايا فى الأقبية ومن وراء الكواليس أيام كان سوق الكتاب يقتصر على القارئ المحدود، أصبحوا يُعدون بالعشرات وبالمئات، مستغلين بفعلتهم الشنيعة، أيام سوق المناقصات، يحضرون ممارساتها مختالين مفاخرين؛ بياقاتهم البيضاء وحقائبهم (السمسونايت) حتى بلغ بهم الاستخفاف بالثقافة حد انتحال الصفات العلمية (فدكتر) بعضهم وهو لا يكاد يبين، وحق له ذلك فهو المنافس الأوفى حظًا، والمؤكد فوزه سلفًا، وسيُطلب منه المثول أمام الوزراء ومديرى الجامعات لتوقيع العقود، وتلقى التهانى بالخدمات العظيمة التى سيؤديها لثقافة المجتمع.

ولم تنفع مع المؤسسات هذه، كل التحذيرات التى وجهت إليها، لتجنب الإساءة البالغة التى تقدمها لثقافة الأمة، بتشجيعها على أكل الحقوق ووأد الإبداع، مدعية أن مسألة الحقوق قضية قانونية مردها إلى القضاء، وأن أنظمتها تنص على تحرى السعر الأرخص، ولا علاقة لها بحق المؤلف، متجاهلة أن القانون الذى ترد إليه يعدها شريكة فى سرقة حق المؤلف، متواطئة مع اللصوص فى تسهيل ارتكابهم الجريمة وتسترهم عليها، مرتكبًا أساسيًا لإثم وأد الإبداع وضمور ثقافة الأمة. كل القوانين تعاقب على حيازة المسروق والتصرف به، وتعد الحائز كالسارق سواءً بسواء.

٥ - إحباط الناشر الملتزم

يجتهد الناشر الملتزم فى تحرى ثغرات الثقافة ومستجدات العلوم؛ يبحث عنها، يتصيدها، ينشئ السلاسل والموسوعات والمشاريع، ينقب عن مخطوطات التراث المتوارية فى المكتبات العامة والخاصة، يرتاد آفاق المعرفة المتجددة فى العالم، يُعدُّ فريقه للتأليف والتحرير والتحقيق والترجمة، وأجهزته للتدقيق والتنقيح والتصحيح والإخراج، يبذل ماله فى الإنتاج، يفتح مخازنه لاستقبال ما أنتج، ريثما تلتهمه القرائح النهمة إلى المعرفة ومستجداتها.

كان كلما جاءه البشير بنبأ إصدار جديد له، يحتفى به مثل مولود جديد، يؤذّن فى أذنه، يَعُقُّ له العقيقة، يقدمه لوسائل الإعلام، يهديه لذوى الاختصاص، يعلن عنه لقرائه، يحلم بأن يطوره ويتلافى مثالبه فى طبعة قادمة وشيكة عندما يؤذنه الخازن بنفاد طبعته الأولى.



لكن الخازن لا يؤذنه بغير ضيق المخزن وعجزه عن استقبال وافد جديد، بعد أن تكدست فيه المواليد.

يستنجد بمال قارون، وخزائن يوسف، وصبر أيوب، ويتمنى لو كان له عمر نوح وسفينته يحمل فيها بنات أفكاره إذا فار التنور، إلا من سبق عليه القول منهن.

وفى غمرة أحلامه وأوهامه، يأتيه النذير مهنئًا: لقد رست المناقصة على فلان متضمنة ستين عنوانًا من إصداراته من كل عنوان ألف نسخة، سيطبعها الفائز المحظى، غير مبال بأضعافها المكدسة فى مخازنه.

وقبل أن يبتلع ريقه يأتيه نذير الشؤم بخبر مفاده أن المخطوطة التى جمعت أجزاءها من أنحاء المعمورة حتى اكتملت لك، واستنفرت لتحقيقها ثلاثة عشر محققًا، وقضيت فى إنجازها ثلاث عشرة سنة، وأنفقت عليها ثلاثة عشر مليونًا لتصدرها فى تسعة وعشرين مجلدًا، قد طبعت بكل أمانة، كما أصدرتها تمامًا، فى إيران، وسوِّقت فى باكستان، ووزعت فى المشارق، وانتقلت منها إلى المغارب، وسقط قسم منها فى بلدان الشرق الأوسط.



وتتلاحق النذر:

أرأيت إلى كتاب يعكف محقق من وزن ثقيل على تحقيقه سبع سنين دأبًا، ليصدر فى ثلاثة مجلدات، ثم نفاجأ جميعًا بطبعة جديدة، تحمل اسم محقق لم يسمع أحد باسمه بعد، ويكشف التحقيق عن أن مغامرًا أعطاه خمسة آلاف جنيه، ومعها سبعة كتب، لا يريد منه سوى أن يمسك ببعض المعاجم، يعبث من خلالها فيما بين يديه من الكتب، ببعض الهوامش والمعالم.. إنه مبلغ مغر لطالب ثانوية سيظهر اسمه إضافة إلى المبلغ الذى تسلّمه على سبعة كتب بوصفه المحقق الكبير، ولا يشعر بأى حرج إن هو احتفظ بكل بصمات المحقق الشهير على الكتاب، حتى بهفواته وأخطائه المطبعية.

ثم ما رأيك إن حاولت أن تواكب تقنيات العصر، وتمارس النشر الإلكترونى إلى جانب الورقى، ثم تجد السوق وقد أغرق بعشرات البرامج التى تعبت بإعدادها وإنتاجها، بأسعار تكاد لا تجاوز سعر القرص (CD) الخام إلا قليلاً.

يضرب الناشر الجاد المثالى المتشبث بقيم الحق والثقافة يدًا بيد، هل تصدق فيه القاعدة المالية الشهيرة (العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من التداول)، فيهجرُ الكتاب وصناعة النشر؟

هل يجارى مثل غزية إن غوت غوى وإن ترشد يرشد؟!

هل ينسحب؟ هل يأوى إلى جبل يعصمه من الماء يفر بدينه من الفتن؟

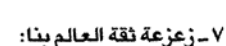
٦ - إضعاف الوازع الأخلاقى

ما أظن أحدًا ممن يسوغ لنفسه شراء كتاب مقلَّد أو برنامج منسوخ، أو حتى مجرد استخدامه، يجهل أنه يمارس اعتداءً على حق، ويقترف إثمًا، ويرتكب ذنبًا، ويستحل حرامًا، ويأكل سحتًا يستوجب منه مخافة الله ووخز الضمير.

غير أن إغضاء المجتمع، وعجز القانون، وصمت أولى النهى، وتشجيع المؤسسات المعنية. كل أولئك يشكل ثقافة تساعد الفرد على إسكات ضميره كلما استيقظ فاستنكر، وعلى انتحال الأعذار الشرعية واستخدام الحيل الفقهية، ولى أعناقها لتناسب الحال: فالضرورات تبيح المحظورات، والمحظورات تباح عند عموم البلوى، فما مصير القيم إذا كان لدى المجتمع لكل محظور فتوى؟!

ولماذا تقشعر أبدان الناس فى البلدان المتحضرة، إذا رأوا مثل هذه المشاهد؟ هل للالتزام بالقيم وأداء الحقوق، والوفاء بالعهود، واجتناب المحظورات صلة بمستوى التحضر؟!

لا أشك فى ذلك، وقد كان لنا هذا الالتزام قبل الآخرين عندما كنا نتسنم صهوة الحضارة.



٧ـ زعزعة ثقة العالم بنا:

لم يعد العالم جزرًا منعزلة.. لم يعد بوسع أمة أو شعب أن يضرب حوله ستارًا حديديًا ويعيش منغلقًا على نفسه.. وإذا كان الاكتفاء الذاتي يمكن تصوره في السلع المادية ـ على الرغم من أن هذا التصور قد تجاوزه الزمن ـ فإنه لا يمكن أن يتصور في مجال الفكر والثقافة والمعرفة.

إن لدى كل أمة ثقافة وفكرًا ومعارف، تحتاج إليها الأمم الأخرى لتثرى بها معارفها وتنمي أفكارها.. لا تنمو الأفكار إلا بالتعدد، والتعدد والاختلاف آية من آيات الله تعالى امتن بها على عباده ﴿ومن آياته اختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ [الروم ٣٠/٢٢]، وجعلها وسيلة لتعارفهم وتكاملهم ﴿وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا﴾ [الحجرات ٤٩/١٣] هكذا أرسى الوحي الإلهي قواعد التبادل الثقافي وحوار الحضارات بين الأمم والشعوب على أسس التعارف والتكامل والحوار، مثلما وضع للصراع والتدافع قواعد أخرى تقوم على مبادئ الحق والعدل والمساواة بين البشر لدحض الباطل والظلم والتمييز العنصري عندما تطل برؤوسها بعيدًا عن إطار الحوار والتعاون.



فما الصورة التي سترتسم لنا في أذهان الأمم الأخرى؟!

عندما يعمد مؤلف غربي على التأليف في نصرة قضيتنا الكبرى فلسطين وفضح أحابيل اليهود المعتدين معرِّضًا نفسه لمكرهم ونقمتهم، ثم يتعاقد مع ناشر عربي على ترجمته ونشره باللغة العربية، فلا يلبث أن يرى مؤسسة رسمية مرموقة في الوطن العربي قد ترجمته وطبعته على خمسين ألف نسخة من غير إذن ولا مجرد إخبار، وزعتها في أرجاء الوطن العربي قبل أن تصدر الطبعة الشرعية المأذونة، فيما أسمح لنفسي أن أسميه (قرصنة الكبار)، يزدهون بقرصنتهم ويمنون على الناس أنهم يرتادون لهم آفاق المعرفة؛ يقدمونها لهم بثمن بخس، ويكافئون الأجنبي الذي انتصر لقضيتهم بأكل حقوقه.. فبئست المكافأة.

وعندما يتسابق (صغار الناشرين) على إصدار عشرين ترجمة لنعوم تشومسكي وتيري ماسان (مؤلف الخديعة الكبرى) وباولو كولو وسبوزيتو وكارين أرمسترونج وفاطمة المرنيسي وروجيه جارودي وماركيز، ثم يكتبون في صفحة المعلومات في الكتاب أن حقوق الطبع محفوظة لهم (أي إنها محفوظة لمن سبق للسطو عليها، شأن إحياء الموات).

وعندما يضطر الناشر العربي في عقوده مع الناشر الأمريكي بأن يشترط عليه تزويده بالمخطوط قبل نشره لتتم ترجمته وإصداره في آن واحد؛ بالعربية هنا وبالإنجليزية هناك، لتفويت الفرصة على القراصنة ـ ما أمكن ـ أو لتحقيق سبق عليهم ربما يثنيهم عن عزمهم.

أليس لدينا من الإبداع ما نخاف عليه، إذا خطر في بال أحد أن يعاملنا بالمثل؟!

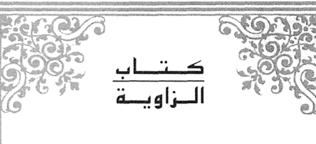
وإذا كنا نعاني من فقر مدقع في الإبداع ـ ونحن كذلك بالفعل ـ فهل استطعنا بالتسوُّل وقرصنة الأفكار أن نتحول إلى مبدعين، أم تُرانا ازددنا بهما فقرًا على فقر؟!

٨ـ الهبوط بمستوى الإنتاج

حتى عندما يحاول القرصان تقليد كتاب، فلن يستطيع أن يحاكيه بنسبة تفوق ٨٥٪ منه من الوجهة الفنية. أما على صعيد المواد المستخدمة في الإنتاج، فإن الغرض الربحي لديه وحرصه على تحقيق أرباح سريعة يملأ بها جيوبه على حساب الجودة، سيدفعه إلى استخدام الأردأ والأدنى والأقل جودة، لتحقيق ما يستطيع من وفر في تكاليف الإنتاج من حيث نوع الورق والتجليد والتغليف.

فإذا كان المنتج إلكترونيًا على قرص ممغنط (CD) فستكون الطامَّة الكبرى التي ستعود على المستخدم بأوخم العواقب: أقراص رديئة بأسعار متدنية تحقق المنافسة، ونُسخ مستعجل لا يعتمد أيًا من قواعد الحماية من (الفيروسات) التي غالبًا ما تأتي على جهاز المستخدم وتخرِّب برامجه، فضلًا عن حرمانه من الحصول على الإصدارات التالية المحسنة التي يصدرها المنتج الأصلي والخدمات التي يقدمها للمتعاملين معه.

أرجو أن يكون ما قدمت من سلبيات ثقافة استباحة حقوق التأليف ما يلقي الضوء على مخاطرها، وضرورة التحرك لاجتثاثها وإحلال ثقافة وأخلاق الاحترام لهذه الحقوق محلها، وهو ما يتطلب تضافر جهود تربوية واجتماعية وإعلامية وقانونية كبيرة، تتنوع أساليبها وتستمر لمدة طويلة، نظرًا لأن التغيير الاجتماعي لا يتم بين عشية وضحاها ■





في خطأ العلماء

قال أبو الحسن: قال الشَّعْبي: سايرت أبا سلَمةَ بن عبد الرحمن بن عوف فكان بيني وبين أبي الزِّناد، فقال: بينكما عالم أهل المدينة. فسألته امرأة عن مسألة فأخطأ فيها.

القَلُوشكي قال: قلتُ لأعرابي: أي شيء تقرأ في صلاتك؟ قال: أم الكتاب، ونسبة الرَّبّ، وهجاء أبي لهب.

قال الهيثم: ومن النُّوكى (الحمقى): عُبيد الله بن الحُر وكنيته أبو الأشوس.

قال الهيثم: خطب قبيصة، وهو خليفة أبيه على خراسان وأتاه كتابُه، فقال: هذا كتابُ الأمير، وهو الله أهلٌ لأن أطيعه، وهو أبي وأكبر مني.

وكان فيما زعموا ابنٌ لسعيد الجوهري يقول: صلى الله تبارك وتعالى على محمد ﷺ.

قال أبو الحسن: صعِد عديُّ بن أرطاةَ على المنبر، فلما رأى جماعة الناس حَصِر فقال: الحمد لله الذي يُطعم هؤلاء ويسقيهم!

وصعد رَوح بن حاتم المنبر، فلما رآهم قد شَفَنوا أبصارهم، وفتحوا أسماعهم نحوه، قال: «نكسوا رءوسكم، وغُضوا أبصاركم؛ فإن المنبر مركَبٌ صعب، وإذا يسَّر الله فتح قُفل تيسَّر».



دراما التمثال

الوجه الأمريكي

«انتهت اللعبة».. قالها بين دموعه الصادقة الدبلوماسي المهذب محمد الدوري، السفير العراقي في الأمم المتحدة (لا أعرف إن كانت كلمة «السابق» هنا دقيقة من الناحية القانونية أم لا).

انتهت لعبة (الشطرنج) الدولية، والتي دامت ستة أشهر تحت سقف مجلس الأمن، وأمام الملايين من المشاهدين. انتهت بعد أن قرر اللاعب الرئيسي ذو العضلات المفتولة أن ليس من الحكمة ألا يلعب بعضلاته تلك. ولأن رقعة الشطرنج «ذات المربعات المتساوية» ليست الميدان الأنسب لأدواته، قرر ببساطة - وعلى الملأ - أن يقلب الطاولة.

ولم يكن المشهد - رغم ما بدا فيه من هرج ومرج - غريبًا عما تعودناه في أفلام الغرب الأمريكي. فهذا «القادم من تكساس» نهض ليعتمر قبعته، ويتمنطق بمسدساته.. ويخرج ليلعب المباراة بطريقته.

انتهت لعبة الشطرنج إذن، لتبدأ - بعد أن تبخرت رائحة البارود - لعبة «البوكر». ولعلها الأنسب فعلاً لمرحلة تكثر فيها المراهنات.. ويجد فيها النصابون حتمًا مكانهم إلى الطاولة.

«انتهت اللعبة».. قالها الدوري على باب منزله في نيويورك. وتذكر الكثيرون العبارة عندما رأوا فنسنت بروكس المتحدث الرسمي للحملة الأمريكية يخرج من جعبته - أو أكمامه.. لا فرق - مجموعة من «أوراق اللعب» تحمل - ولننس القانون الدولي - صور مسؤولين وعلماء عراقيين، مطلوبين «أحياء أو أموات». ولا أعرف - لجهلي بأصول اللعبة وقواعدها - ما هي المصادفة التي جعلت من عددهم مساويًا بالضبط لأوراق الكوتشينة(!)

«انتهت اللعبة».. العبارة تذكرها أيضًا أولئك الذين يفترضون أن صدام كان - بصورة أو بأخرى - عميلاً للأمريكان، أو «لاعبًا في فريقهم»، وإن لم يقصد. وأن رامسفيلد نفسه هو الذي اتفق معه يومًا على حرب إيران «الإسلامية» بعد عهد من الود مع إيران «الشاه»، وأن سيدة أمريكية أفهمته - أو فهم منها - ما دفعه يومًا آخر لأن يجتاح الكويت، مثيرًا «عاصفة في الصحراء» هزت قواعد إقليمية كثيرة، وخلفت كثيرًا من القذى في العيون.

ويفترض أولئك أن الرجل كان - كلاعبين غيره - قد شاخ. كما أن طموحه - ومن ثم تسديداته - بدت متجاوزة حدود الملعب. فتقرر أن يذهب. وأن تحرز «جولة» اعتزاله، والذي يجب أن يكون قسرًا، «أهدافًا كثيرة».



انتهت اللعبة، بمعنى أو بآخر إذن.. ولكن تبقى النتائج النهائية غائبة وغير واضحة. تطمرها أكوام التراب التي أهيلت على قبور آلاف العراقيين. ويخفيها الغبار المتصاعد من مسيرة الملايين «الكربلائية» قبل أيام. ويربكها حتمًا نقص «الخبرة الاستعمارية» لمستعمر القرن الحادي والعشرين.

انتهت اللعبة.. ذهب صدام ونظامه وسقطت بغداد. ومعها سقطت ثوابت كثيرة. وطويت صفحات وطارت أوراق ولكن هل انتصرت أمريكا؟

ربما كان الوقت مبكرًا جدًا لإجابة قاطعة. نعرف أنها ترتبط - بحكم التعريف - بالأهداف على الورق من ناحية، وبالواقع على الأرض من ناحية أخرى.

قد يتصل بهذا. وقد يكون غريبًا - أو لا يكون - ولكنه يبقى لافتًا وينبغي رصده على أية حال، أن أول مظاهر المقاومة للغد الأمريكي «القسري» جاء من حناجر، وعلى لافتات عراقيين عاديين، يُفترض أن جوعَ حصار الاثني عشر عامًا أنهكهم. وسجن طاغية الثلاثين عامًا أنلهم. وانفجارات الثلاثين ألف قنبلة وقذيفة وصاروخ أخافتهم،



ساحة الفردوس. التاسع من نيسان ٢٠٠٣

ولكن بعد أيام فقط مما أسماه جورج دبليو بوش «انتصار الأمريكيين العظيم». وفي الساحة نفسها التي شهدت العرض الهوليوودي لتغطية وجه الطاغية بالعلم الأمريكي قبل أن تسقطه الدبابة «الأمريكية»، خرج عشرون ألف متظاهر يرفعون لافتات تعددت، وهتافات تنوعت. ولكنها جميعًا تلخصت في رأي واحد: «لا لاستبداد الطاغية.. ولا لاحتلال الغزاة» وبدا أن المشهد كله لخصته إحدى اللافتات في كلمتين فقط: «بوش = صدام».

وبغض النظر عما يقصده العراقيون بتشبيه طاغيتهم الذاهب، بذلك «القادم من تكساس» ليوزع عليهم صناديق الحلوى.. و«وعود المستقبل»، فإن هناك من يلاحظ كيف يتصرف الإمبراطور العالمي الجديد؟ «لدينا قوة كاسحة.. وعلينا أن نجعل الجميع يدركون ذلك» كما يقول رامسفيلد، صقر الإمبراطورية الصريح.

استخفت الولايات المتحدة بالأمم المتحدة. ورأينا كيف لم تجد واشنطن حرجًا في أن تُنَصِّب نفسها خصمًا وحكمًا وجلادًا في الوقت ذاته. وهو تجسيد فج للديكتاتورية في أبشع صورها.

هل تذكرون المشهد الذي تحاكي به الكثيرون لصدام حسين يختلف في أحد الاجتماعات مع أحد «الرفاق»، فيبادر إلى محاكمته - في ذهنه على الأقل - ومن ثم إدانته. ثم تنفيذ ما حكم به. فينزع إلى المسدس في خاصرته حاسمًا وقاطعًا، ولسان حاله يقول ربما ما معناه بالإنجليزية: It's Over. وهي العبارة نفسها - ولا مفارقة - التي قالها جورج دبليو بوش معلنًا أن صبره قد نفد.. وأنه ليس بحاجة إلى مجلس الأمن (الحكم). وأن جيشه ذاهبٌ إلى هناك «ليحسم الأمر». هل ترون فرقًا..؟!

الفارق الوحيد - ربما - هو ما بين الدول والأفراد من فارق. وما بين طلقة من مسدس الخاصرة، وصاروخ ينطلق من حاملة للطائرات، أو من أراضي أبناء العمومة.. لا فارق.



ماذا بعد..؟

لا أحد قطعًا وسط الهرج والمرج ودخان البارود يستطيع أن يعرف. ولكن يبقى لاعب البوكر القوي يحتفظ بمسدسه على الطاولة وبكثير من أوراق اللعب في أكمامه.

ويبقى في المشهد رامسفيلد «لسان القوة الأمريكية الطاغية» حريصًا أن تتجه أنظار الجمهور - ولو إلى حين - إلى حيث تتجه سبابته: «على السوريين أن يتعلموا من درس العراق».

هل تذكرون صور الحاويات التي عرضها كولين باول على مجلس الأمن في تلك الأيام التي صارت بعيدة بما تلاحق بعدها من أحداث. والتي حاول بها دون جدوى إقناع المجتمعين باعتبارها دليلا على امتلاك العراقيين أسلحة دمار شامل. ها قد خرج الأسترالي المشكوك في ذمته وحياديته ريتشارد باتلر رئيس لجنة الأونسكوم السابقة، ليبحث له عن مكان في «الجوقة» المدعوة للمسرح المفتوح، معلنًا أنه يؤيد الاتهامات الأمريكية لسوريا بامتلاك أسلحة دمار شامل. ودليله على هذا الاتهام، الذي قد يكون من شأنه أن يقذف بالمنطقة إلى أتون حرب أخرى مدمرة، هو - مرة أخرى - وحسب نص تصريحاته «صور جوية أظهرها لي الأمريكيون بين عامي ٩٧ - ٩٩ لحاويات مغلقة تتحرك من العراق إلى الحدود السورية»!!

يا له من «دليل»!! وعذرًا لكل القانونيين لما لحق «باللفظة» من ابتذال.

.. والرمز للطاغية

أيمن الصياد

وعذرًا للدبلوماسي الأول (دوليا) السيد كوفي عنان الذي لن يلتفت المفتونون بقوتهم بكل تأكيد لتصريحاته الهادئة، مهما ألح في تأكيده - حسب النص - إلى أنه «مقتنع بأن أي اتهام بتهديد السلم والأمن لدوليين، يجب التعاطي معه بموجب ميثاق الأمم المتحدة».

وفي حين ستقتصر تصريحات عنان، على الأغلب، على الاحتفاظ بمكانها - طبقًا للأصول البيروقراطية المرعية - ضمن حافظة مستندات رسمية على أحد أرفف المنظمة العريقة، يبدو أن تصريحات - أو بالأحرى اشتراطات - رئيس الوزراء الإسرائيلي أريل شارون الفجة هي التي ستجد طريقها إلى أرض الواقع، ليتم التعامل معها في نهاية المطاف «ضغطًا أو رفضًا» لتشكل مفرداتها مانشتات الصحف في مستقبل نرجو ألا نراه.

شارون حدد لصحيفة يديعوت أحرونوت قائمة بخمسة مطالب سلمها إلى واشنطن لتضطلع بها حال التعامل مع سوريا.

وتشمل القائمة طبعًا طرد حماس والجهاد الإسلامي من سوريا فضلاً عن طرد الحرس الثوري من سهل البقاع اللبناني.. وكذا وقف التعاون السوري مع إيران. وطرد حزب الله من جنوب لبنان، وتفكيك منظومة الصواريخ التي نصبها (في أرضه) على الحدود مع إسرائيل.. وفوق كل ذلك وقف التحريض الذي يستهدف الكيان العبري.

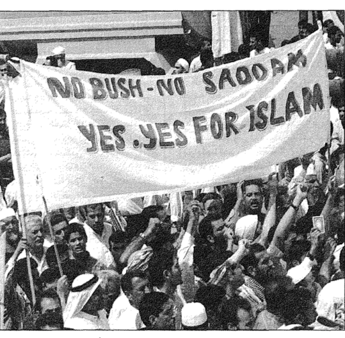
ولا تعليق.. فنتنياهو قال إن بغداد سقطت.. «وحان وقت قطف الثمار».

هل أخطأ جندي المارينز عندما وضع العلم «الأمريكي» على وجه صدام؟!

ربما.. فلعله كان من الأصدق أن يبحث في جيب سترته عن العلم ذي الخطين الزرقاوين والنجمة. مادام أرادوا للمشهد أن يكون رمزيًا ودالاً على عنوان المرحلة.



رغم ذلك، وبعيدًا عن استقطابية بن لادن «بين فسطاطين» أو بوش «بين محورين»، يرى العقلاء أن ليس كل ما يأتي من أمريكا شر. ففي حين تقمع دول الجوار المظاهرات السلمية، صرخ المتظاهرون العراقيون «المقموعون لأكثر من ربع قرن» في وجه جنود المارينز المدججين بالسلاح، بعد أيام فقط من احتلالهم المدينة. ورفعوا لافتات تندد بالرئيس.. بوش.



من مظاهرات بغداد

وقد يكون هذا صحيحا.. وهو كذلك. ولكن يبقى الأصح منه خطورةُ أن تضيع وسط الصياح والغبار ورمال الصحراء الناعمة، علاماتُ الطريق. فننجرف - وأخص أهل الرأي والفكر.. والقيادة - إلى نهج استقطابي قد لا يختلف كثيرًا عما فعله بن لادن أو بوش. ونختزل القضية كلها في الاختيار بين الدكتاتور المستبد ذي الوجه الكالح الصدئ، أو المحتل الغاصب بعَلَمه ذي الألوان الزاهية. وأن تغشى عيونُ البعض إرهاقًا.. ويأسًا، فيخيرون بلاد ما بين النهرين.. ما بين النارين.



انتهت اللعبة.. ربما. بوجه من الوجوه.

هكذا أراد مخرجو مشهد ساحة الفردوس أن يقولوا وأن يروجوا: «As Seen on TV» كما اختارت الجارديان لأحد مانشتاتها.

وكان أن اختاروا تمثال الفردوس، دون مئات غيره من التماثيل، «لصورة» النهاية. ربما (لمصادفة) أنه يقع في ساحة الفنادق، حيث يقيم كل الصحافيين والتليفزيونيين الباحثين - بحكم المهنة - عن المشهد و«الصورة». وحيث كان طبيعيًا أن تتسمر الكاميرات لتسعين دقيقة كاملة على المشهد «الرمزي». حيث يفشل العراقيون بأدواتهم «البدائية» عن إسقاط الديكتاتور. فيطلبون عونًا من دبابة أمريكية «تصادف» أن بها رافعة هيدروليكية، وجنديًا يحتفظ في جيبه بعلم. فيتولى المهمة و«الترميز» بنجاح. مخيبًا رجاء مراسل «الجزيرة» الذي كان يصف المشهد، حين تمنى ألا يفشل العراقي في «عقد» الحبل حول عنق التمثال، حتى لا يضطر للاستعانة بمن يبدو أنهم سيصبحون «أهل الحل والعقد» في قادم الزمان.

كان عدد الصحافيين، وكاميرات التليفزيون أكثر من عدد البغداديين الذين قدموا إلى الساحة الواسعة. كما يلاحظ مصور وكالة «جاما» لوران فان دير ستوكت. والذي رافق فرقة من المارينز منذ بداية الحرب. ولفت انتباهه - كما ذكر للنيويورك تايمز - أن أحدًا من الأمريكيين لم يطلق النار، هذه المرة بالذات، على العراقيين القادمين نحوهم في ساحة الفردوس. رغم أنهم دأبوا على ذلك - خشية الهجمات الاستشهادية - طوال ثلاثة أسابيع رافقهم فيها، قبل أن يصل معهم إلى ساحة العرض ليسجل بعدسته: «الصورة».



ها قد تغير الوجه..

ديكتاتور «محلي» قديم (علا وجهَه المعدني الصدأ) بحكم العوامل الطبيعية لمرور زمن لم يحسن صدام حسين قراءة آثاره، يختفي خلف علم من القماش زاهي اللون. كأنه خرج لتوه من حقيبة الـLaundry البلاستيكية. ويراه كثيرون رمزًا لديكتاتور «عولمي» جديد.

لم يختلف أحد العرب يومًا حول صدام حسين، وحول ما أحدثه من تخريب في العلاقات العربية، رغم ما نجح فيه الأمريكيون من دفع بعض الجماهير لحمل صوره في المظاهرات (كُرهًا فيهم.. لا حُبًا فيه).

كما أنه، ورغم ذهول اعترى الكثيرين في عالمنا العربي المبتلى بإعلام ينقصه الكثير من النضج، وبمحللين سقطوا للأسف في براثن «التوقع بالتمني»، إلا أنه - وباستقراء الواقع الصريح - لم يكن ثمة من مفاجأة. اللهم إلا في استمرار المقاومة عشرين يومًا كاملة. فبلد أنهكه الجوع والحصار. والعقيدة التبست بفعل الطغيان والظلم. ثم ماذا كان يمكن أن تكون نتيجة حرب بين صاروخ وسيف؟! «لم تكن حربًا.. بل كانت مهزلة» كما قال أحد الجنرالات الروس.

كانت النتيجة إذن محسومة. وكان مشهد ساحة الفردوس متوقعًا.. أو مرتبًا.. وكانت «الصورة» في انتظار العدسات.

ورغم أن الكثيرين كان سيبهجهم حتمًا سقوط الديكتاتور «الرمز»، إلا أن المدققين في المشهد وما خلفه، كان صعبًا عليهم ولا شك ابتلاع غصة ما في تفصيلاته من «رمزية».. وأعلام. كما كان صعبًا عليهم ألا يروا أن ثمة ترتيبًا و«إخراجًا» هناك.

كما أنهم، مثل لاعبي الـPuzzel يعرفون أن الصورة لا تكتمل إلا بجمع أجزائها المبعثرة.

وكان لافتًا أنه حتى اللغة تبدو عصية - أونابية - حين لا تجد في معاجمها ثمة فارقًا بين ما يقوله أصحاب العَلَم من «إعمار» العراق.. وبين «استعماره».



وحين يقول الجنرال الأمريكي المتقاعد «جاي جارنر» الذي عينوه لإدارة العراق، حين دخوله إلى مقره في «الموصل» أنه: «لن يحكم العراق». يتذكر قارئو التاريخ يوم سُئل اللورد كرومر في ذلك اليوم البعيد من القرن التاسع عشر: «هل ستحكم مصر؟» قال: «لا.. بل سأحكم من يحكم مصر».

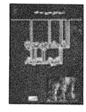
إصــــــــدارات جـــــديـدة

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتَّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

ألفاظ ومعانى التنمية الشاملة

إسماعيل صبرى عبد الله

القاهرة: العربى للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢، ٢٣٠ صفحة



ثمة ترابط يؤكده المؤلف منذ السطور الأولى بين الديمقراطية والتنمية، فلا ديمقراطية بلا تنمية تصنع التقدم المستمر والشامل للمجتمع، ولا تنمية مطردة دون حياة ديمقراطية، والمؤلف يجزم بأنه ليس فى تاريخ مصر الطويل أى تجربة أو حتى نظرية فلسفية عن الديمقراطية، والعصر الليبرالى الذى عاشته مصر (١٩٢٣-١٩٥٢) يراه عصر استبداد الملك وصاحب اليد الحديدية (محمد محمود باشا) وإلغاء الدستور ليحل محله دستور إسماعيل صدقى (١٩٣٠) وحل البرلمان الذى لم يتم دورته إلا برلمان قاطع حزب الأغلبية انتخاباته.

كما أن مفهوم التنمية ذاته تطور بدرجة كبيرة منذ الخمسينيات وحتى اليوم مما يستلزم متابعة النظريات التى ارتبطت بها والأفكار التى صاحبتها، المؤلف يتحدث عن عشرات المصطلحات والألفاظ والظواهر الاقتصادية، مثل المستثمر والرأسمالية الطفيلية والدعم وتجارة الدم وأزمة النمور والرأسمالية الكوكبية والثروة الذكية وإدمان التسوق والركود الرأسمالى والطاقة والأمن الغذائى والتلوث واقتصاد الحقيبة، بأسلوب مختصر ودال فى الوقت ذاته.

■

مفترق الطرق

حسين كامل بهاء الدين

القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٢، ٢٦٠ صفحة



من قبل أصدر المؤلف - وهو وزير التعليم المصرى - مؤلَّفًا عن التحديات التى تواجه التعليم فى المستقبل وكيفية مواجهتها.

فى هذا الكتاب، يتناول قضايا عامة عديدة، بينها التعليم بالطبع، انطلاقًا من رغبته فى تجاوز الإحباط الذى يسيطر على جموع الناس فى التعاطى مع الواقع الدولى الذى تلاشت فيه القطبية، وسادته قوة عظمى وحيدة متغطرسة، جعلت دول العالم النامى تشعر بالانسحاق فى مواجهة هذا الواقع الظالم، والمؤلف يبدأ من التحديات التى تواجه هذه المجتمعات، وأولها وأهمها تحدى التقدم العلمى والتكنولوجى الذى يتجاوز مجالات النشاط السلمى إلى الحروب، ويشير المؤلف بوجه خاص إلى ما يسميه مثلث الرعب G.N.R، أو التزاوج بين العقل البشرى والعقول الإلكترونية، وهو يرى أن هذا المثلث يضعنا أمام احتمالين أحلاهما مر، الأول أن يوكل إلى هذه التكنولوجيا فائقة الصغر والدقة إدارة وضبط معظم الأنشطة على الأرض وأن تكون هناك قلة من البشر محتكرة لهذه المعرفة، والاحتمال الثانى أن يوكل أمر البشرية بالكامل إلى هذه المنظومة المرعبة ويقع الإنسان تحت رحمتها.

وعليه، فليس أمام الدول النامية سوى محاولة اللحاق بهذه التكنولوجيا الفائقة التى يزداد تطورها يومًا بعد آخر.

وفى القسم الثانى من الكتاب يشير المؤلف إلى سقوط الشرعية الدولية خصوصًا بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، كما يلقى أضواءً على التأثيرات السلبية للعولمة التى أزالت الحواجز الجغرافية والوطنية، وارتباطها بسيادة الاقتصاد الحر الذى تراجعت بشيوعه النوازع الأخلاقية لحساب قيم المكسب والخسارة.

ويركز القسم الثالث على توابع ونتائج زلزال الحادى عشر من سبتمبر.

وفى القسم الأخير وتحت عنوان العمل والأولويات يتناول قيم التقدم وكيف يمكن تبنيها لدينا ودور الدولة فى ظل المتغيرات العالمية المعاصرة، وكيف يمكن بناء قوتنا الذاتية وتنمية مواردنا، ويؤكد على أنه لم يعد لدينا سوى تبديل غليان الغضب إلى طاقة عمل، وأن تتحول السلبية إلى مشاركة فعالة، فنحن فى مفترق طرق، والخيارات محدودة.

■

العصر الذهبى للإسكندرية

جون مارلو

ترجمة: نسيم مجلى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣، ٣٥٠ صفحة



كانت الإسكندرية منذ أنشأها الإسكندر الأكبر عام ٣٣ ق. م حتى غزاها أوكتافيوس فى ٣٠ ق. م عاصمة لإمبراطورية عظيمة، كما كانت المركز الثقافى والاجتماعى للعلم الهيللينستى، ومركز الجاذبية الذى تأتيه الثروات من آسيا وأفريقيا وتنجذب إليه كل مصادر الثقافة والفكر من كل بلاد الإغريق، إذ كانت هى مصدر الطاقة المحركة التى تحول هذه الثروة إلى حضارة وتنشرها عبر المتوسط، وحتى بعد أن انتقل مركز الجاذبية غربًا إلى روما، فقد بقى للإسكندرية تفوقها وسيادتها الفكرية والثقافية، وظلت كما هى البوابة الرئيسية التى يمكن من خلالها أن تنتقل الثروة المادية والأفكار الروحية وتراث الشرق إلى ما كان يسمى آنذاك بالعالم الرومانى للبحر المتوسط.

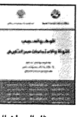
ظلت الإسكندرية طيلة ألف عام أعظم مدن العالم، فكانت أعظم الموانى، ومركز التجارة العالمية، ومجتمع التسامح الذى لا يرقى إلى مستواه مجتمع آخر، واستحوذت مكتبتها على أعظم كنوز المعرفة الأكاديمية والبحث العلمى، وكانت مصدراً لإلهام الفنانين والأدباء فى العالم كله.

■

الوطن العربى.. النواة والامتدادات عبر التاريخ

مجموعة باحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢، ٣١٠ صفحات



يمثل الوطن العربى الذى نعيش على أرضه فى الوقت الحاضر، حصيلة تاريخ طويل من التفاعل بين الإنسان العربى وبيئته الجغرافية التى عاش فى كنفها منذ القدم، بحسب القرب أو البعد عن الوطن الأول الذى ظهر فيه العرب منذ آلاف السنين، وكان هذا الوطن بحسب ما ترجح الأبحاث العلمية هو شبه جزيرة العرب.

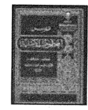
وهذا الكتاب الذى شارك فيه مجموعة من الباحثين المختصين، يضم ثلاثة عشر فصلاً، تركزت حول مختلف الموضوعات التى تعالج أصول وفروع القبائل والأقوام التى عاشت فى هذه المنطقة وتنقلت فيها، وهو حصيلة ندوة موسعة عقدتها دائرة التراث العربى والإسلامى فى المجمع العلمى العراقى، ومن أبحاث الكتاب «الأقوام الجزرية العربية فى بلاد الرافدين» و«الكنعانيون من الأقوام العربية القديمة» و«انتشار العرب فى مصر وشرق أفريقيا قبل الإسلام» و«انتشار قبيلة عبد القيس قبل الإسلام إلى نهاية القرن الأول الهجرى» و«الهلاليون فى المغرب» و«قبائل هلال وجشم والمعقل فى المغربين الأوسط والأقصى» و«بيوت العرب فى الأندلس ودورها فى التعريب».

وهو بذلك يلقى أضواء على الكثير من النقاط المهمة فى التاريخ العربى والهوية العربية التى كثيرًا ما تعرضت للطمس والتشويه.

■

فهرس المخطوطات الأصلية

الكويت: وزارة الأوقاف - قطاع الإفتاء والبحوث الشرعية، ٥٥٠ صفحة



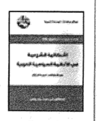
يضم هذا الجزء مخطوطات القرآن وعلومه، ثم مخطوطات الحديث وعلومه ثم مخطوطات العقائد، ويرتبها فى كل موضوع بحسب حروف الهجاء متضمنًا العنوان وبيان الأجزاء والمؤلف وسنة التأليف والناسخ ووصف النسخة وأول المخطوط وآخره وعدد الأوراق وعدد الأسطر وقياس الورقة والإهداءات والمراجع ورقم المخطوط.

■

إشكالية الشرعية فى الأنظمة السياسية العربية

خميس حزام والى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ٣٠٦ صفحات



ثمة إجماع بين الكُتَّاب والباحثين العرب وبعض الأجانب على أن إشكالية المجتمعات العربية الحالية هى إشكالية الشرعية، أى ضعف العلاقة بين المجتمع وسلطته ونظامه السياسى، مما يترتب عليه رجحان كفة السلطة ونظامها وتوغلها فى ممارسة العنف والقهر حفاظًا على وجودها وبقائها فى الحكم.

وهذا الكتاب يوجه اهتمامه إلى إشكالية الشرعية فى الأنظمة السياسية

العربية، وكيفية مواجهتها مع التركيز على الجزائر كنموذج، وهو يضم فصولاً أربعة: الأول في الشرعية، والثاني عن مصادر شرعية الأنظمة العربية، والثالث عن إشكالية الصراع والشرعية في الجزائر، والرابع عن مستقبل الشرعية في الأنظمة السياسية العربية.

المنهج الراديكالي في إدارة المشروعات

جون سي. ريدنج

تعريب: أيمن الأرمنازي

الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٣، ٢٧٥صفحة



صارت المشروعات والعقبات التي تواجهها فرق العمل في إدارة المشروعات أكثر تعقيدًا مما كانت عليه، بالإضافة إلى الضغوط المتزايدة على أي فريق عمل مكلّف بتنفيذ مشروعات معينة للخروج بحلول حقيقية، ويبقى السؤال المطروح هو: كيف تستطيع فرق العمل أن تنهض بمسئولياتها في المناخ التجاري الحالي الذي يتطلب التحرك لمواكبة التطورات المتسارعة.

والمؤلف يرى أن فرق العمل اليوم أصبحت بحاجة إلى إعادة النظر في الأسلوب الذي تنتهجه لتحقيق أهدافها، ويقترح منهجًا جديدًا للعمل هو الأسلوب الراديكالي، القائم على التفكير الإبداعي وتشجيع المجازفة وتنمية الخبرة والمعرفة التي يحتاجها فريق العمل لتحقيق النتائج المرجوة، وهو يقدم مجموعات من التمارين والنماذج التطبيقية للراغبين في الاستفادة من هذا المنهج.

جرائم الشرف

مجموعة باحثين

القاهرة: مركز قضايا المرأة المصرية، ٢٠٠٣، ٩٦صفحة



بدعوى الشرف، تزهق أرواح عشرات النساء، ليس فقط لأنهن تجرأنَ وتجاوزن وهتكن أستار ما تعارف المجتمع على حمايته، وإنما - في كثير من الأحيان - لأنهن ارتكبن ما يظن الرجال أنه يمس الشرف.

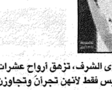
هذا الكتيب يمثل إحدى محاولات رصد وتحليل مظاهر العنف ضد النساء في جرائم الشرف، بتجميع الأحكام القضائية التي صدرت خلال الفترة من ١٩٩٨ وحتى ٢٠٠١ في محافظات مصر كلها، كما يرصد كيفية التعامل مع المتهمين ودور المؤثرات الثقافية والاجتماعية في هذا الإطار، ويضم حصيلة جلسات مناقشات في الموضوع ذاته شارك فيها خبراء ومختصون.

ومن الجداول الإحصائية التي يتضمنها الكتيب تبين أن السبب الأساسي لارتكاب جرائم الشرف هو الشك في السلوك حيث تبلغ النسبة ٧٩٪، وأن نسبة قتل الزوجة للشك في سلوكها تبلغ ٤١٪، والابنة ٣٤٪، والأخت ١٨٪، وأن قتل الضحية عمدًا تبلغ نسبته ٩٠٪، أما الشروع في قتلها والذي قد لا يتم لسبب أو لآخر فهو ١٠٪.

شجرة الجميز

محمد سلماوي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ٥٨ صفحة

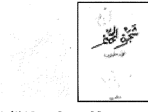


مجموعة قصصية جديدة لمؤلفها صاحب الإسهامات المسرحية البارزة «القاتل خارج السجن»، «فوت علينا بكره»، و«اللي بعده»، «سالومي»، «اتنين في البلاعة»، وهذه المجموعة عن أشجار الجميز وصوت المؤذن وعود الغاب وفأر الحقل، ومفردات أخرى كثيرة تغيرت معانيها في حياتنا.

من أيام عبد الناصر والسادات

سهام ذهني

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢، ٢١٨صفحة

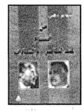


يضم الكتاب مجموعة من الحوارات أجرتها المؤلفة مع عدد من الشخصيات التي تكشف عن كثير من الأحداث المهمة والتي كانت قريبة منها بدرجة تمكنها من إضاءة غوامضها، منها حوار مع الدكتور الصاوي حبيب الطبيب الخاص للرئيس عبد الناصر والشاهد الوحيد على لحظة وفاته، وحديث مع الدكتور ميلاد حنا عن ذكرياته داخل السجن الذي قضى فيه فترة اعتقاله في أحداث سبتمبر ١٩٨٠، ولقاء مع الدكتور صوفي أبو طالب رئيس مجلس الشعب لحظة اغتيال السادات والذي كان رئيسًا لمصر بحكم الدستور لمدة ثمانية أيام حتى ولاية الرئيس مبارك، وذكريات من سجن النساء مع صافيناز كاظم ولطيفة الزيات وعواطف عبد الرحمن وأمينة رشيد وفريدة النقاش، وحوار مع السيدة جيهان السادات والمصور حسن دياب المصور الخاص للرئيس السادات، وآخرين ممن أسهموا بالمشاركة أو بالمراقبة في أحداث سياسية مهمة.

الحصاد.. عامان على الخلع

أحمد الصاوي

القاهرة: مركز قضايا المرأة المصرية، ٢٠٠٣، ١٠٤ صفحات



اعتبر كثيرون من مناصري قضايا المرأة أن صدور قانون الخلع إنجاز في مسيرة تحرير المرأة المصرية ونيلها لحقوقها، وهذا الكتاب يرصد حصاد التجربة منذ صدور القانون قبل عامين، ويقدم إحصاءات ومقارنات تفصيلية عن قضايا الخلع وقضايا التطليق لأسباب مختلفة، وعدد النساء اللائي رفعن قضايا خلع في القاهرة ومحافظات مصر المختلفة، والكيفية التي تعامل بها القضاة مع هذه القضايا، وكيف تناولت الصحف قضايا الخلع رفضًا وقبولاً.

مصر في فكر العالم

مصطفى نبيل

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢، ٣٢٠ صفحة



هذا كتاب عن كتب يضم أبوابًا أربعة: الأول منه يحمل عنوان «مصر والمصريون» ويتناول كتبًا تدور حول مصر في الماضي والحاضر، ليس فقط من حيث العادات وحياة الناس وإنما أيضًا في العمارة والمكانة، ومن هذه الكتب كتاب «مصر والمصريون» للمستشرق السوفيتي اليكس فاسيليفا، وكتاب الرحالة الألماني كريستان نيبور «رحلة إلى الشرق» وكتاب مسعود ضاهر «الهجرة اللبنانية إلى مصر» وغيرها.

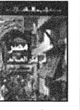
ونطالع في الباب الذي يحمل عنوان «خفايا الشرق» دراسة صادرة عن جامعة واشنطن عنوانها «القهوة والمقهى في الشرق» وكتاب رفاعة الطهطاوي «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» والذي كتبه عقب عودته من فرنسا.

وفي باب «أمريكا وثقافة العالم» قراءة لكتاب «أمريكا والإسلام - صراع الحضارات أم صراع المصالح» للباحث فواز جرجس، وكتاب جارودي «أمريكا طليعة الانحطاط» ونعوم تشومسكي «ماذا يريد العم سام» وغيرها. وكتب أخرى يتضمنها باب «نحن والمستقبل».

أبرز قضايا السياسة الدولية المعاصرة من خلال المفاهيم والبنى

هادي خضراوي

بيروت: دار الكتب الحديثة، ٢٠٠٢، ١٧٥صفحة



يتناول الكتاب السياسة الدولية المعاصرة من خلال أوجه التقارب والتفاعل السلمي والتصادم والإشكاليات البنيوية والمضامين الإنسانية، مستعرضًا المفاهيم والقضايا الأكثر تداولاً في العلاقات الدولية، خصوصًا ما يتعلق بالعولمة وعبر القطرية والتبادل الحر ومنظومة المجتمع الدولي والهيئات الحكومية وغير الحكومية والرأي العام العالمي والأمن الجماعي والتفاوض والتقاضي، وكذلك مفاهيم حقوق الإنسان وتقرير المصير والجرائم الدولية والتدخل لأغراض إنسانية وحق اللجوء، والسيادة والحدود، وغيرها من المفاهيم وذلك في سبعة فصول.

ليالي الحصار

دبي: دار الصدى، ٢٠٠٣، ١٢٢ صفحة



يضم الكتاب قصائد لنخبة من شعراء العراق الذين أبدعوها تحت الحصار المفروض عليهم منذ أكثر من اثني عشر عامًا، ومن ثم فإن هذه الإبداعات ابن شرعي لمناخ الحرب والحصار أبدعها نحو ٤٥ شاعرًا من أبناء وحفدة نازك الملائكة والسياب والبياتي والجواهري والنجفي والرصافي.

يقول الشاعر حمد محمود الدوحي في قصيدته «إنياس»:

إنياس.. أحزان أوتاري / وأغنيتي / وما تبقى من الأنفاس / في رئتي / من لوحة خرجت / لمَّ ضفائرها / سواقيا /



واستدارة نحو مزرعتى / كان المساء يجر الليل من يده / إلى السرير / لكى أنسل من لغتى / طارت ضفائرها للرقص / واشتعلت حولى / كثيرًا / وصار الليل مروحتى.

■

ثقب فى الهواء بطول قامتى

محمد أبو زيد

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣، ٩٦ صفحة



يحمل هذا الديوان سمات جيل الشعرية الجديدة فى مصر وحساسيته، وهو يجمع بين جدة الخيال وطزاجته، وواقعية الذات التى نستطيع أن نتلمس وجودها ونصدقها، كما بين اقتصاد الاستعارة وثرثرة الغنائية، والاحتفاء بالحياة وتفاصيلها اليومية.

من أجواء الديوان:

لا تموتى الآن / فأنا أنتظرك منذ خريفين ووردة / حقيبتى فارغة / عيونى معلقة على البحر / من يمسح بيده فوق صدرى / فارتجف.

■

نماذج التنمية فى فكر القوى السياسية فى مصر

تقديم: مصطفى كامل السيد

القاهرة: مركز دراسات وبحوث الدول النامية - جامعة القاهرة، ٢٠٠٢، ٤٠٢ صفحة



يسعى الكتاب إلى تحليل رؤى القوى السياسية المصرية لنماذج التنمية التى يتبناها كل منها، وهو يبدأ بفصول تمهيدية تستعرض مفاهيم التنمية الاقتصادية والسياسية ورؤى المؤسسات الدولية المالية لها، وخاصة أن علاقة هذه المؤسسات بعملية التنمية وثيقة تمويلاً ومتابعة، وسنلاحظ اختلافات حول مفهوم التنمية السياسية من مرحلة زمنية إلى أخرى، كما سنلاحظ اختلافا حول المفهوم بين المؤسسات الدولية والدول الراغبة فى السير فى طريق التنمية، والمحصلة أنه لا تحديد دقيقًا لمفهوم التنمية وإن كان ثمة إجماع على أنها مفهوم للتغير يشمل الإنسان والمجتمع والدولة ويتغلغل فى جميع مناحى الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، لكن الاختلاف الأكبر سنجده بين رؤية الحكومة المصرية ورؤى القوى والتيارات السياسية المختلفة، ويزداد البون اتساعًا حين نصل للتطبيق، خصوصًا أن الخطاب السياسى للحكومة المصرية حول التنمية يشير إلى شموليتها وإلى أن الإنسان المصرى هو غايتها النهائية، وفى هذا لا خلاف بينه وبين تصورات القوى السياسية الأخرى للتنمية، لكننا سنلاحظ تباينًا فى الأولويات بين القوى الليبرالية والإسلامية واليسارية، فبعضها يمنح أولوية للتنمية السياسية ويراها سابقة على ما دونها، وبعضها يرى التنمية الاقتصادية أسبق، فيما يصر آخرون على الأهمية القصوى للتنمية الثقافية، الكتاب يقدم هذه الرؤى جميعها، ويعد بجزء ثان يناقش مفاهيم التنمية لدى القوى الاجتماعية المختلفة من عمال وفلاحين ومراكز فكرية وبحثية.

■

العولمة.. أفق مفتوح وإرث يثير المخاوف

صالح السنوسى

القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ٢٠٠٣، ١٩٢ صفحة



التجلى الأخير لثقافة الغرب وحضارته بحسب كثيرين هو العولمة، والمؤلف يبحث عن جذور العولمة فى ثلاث ركائز يرى أنها ميزت الفكر الغربى عبر العصور، وهى برغم ما يبدو من اختلاف ظاهر بينها، فإنها حضرت النزعة المركزية الغربية وحددت رؤية الثقافة الغربية إلى الآخر، وهذه المرتكزات هى: المنظور الشمولى، المنظور الإثنى والعرقى، المنظور القومى وإزاء ذلك الطرح يعود المؤلف بالبذور الأولى للعولمة إلى خمسة قرون خلت.

■

تقاعد زير نساء عجوز

عماد فؤاد

القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣، ١٠٨ صفحات



ديوان جديد لصوت شعرى، ينتمى إلى جيل التسعينيات من الشعراء المصريين، أصدر ديوانه الأول «أشباح جرحتها الإضاءة» عام ١٩٩٨.

يتضمن الديوان ٩ قصائد هى: رسالة لا تخص أحدًا سواها، مطرح دافئ على ضفة النهر، مريم، كامرأة تتكئ على رفة ندم، يوم فى حياة ملاك صغير، فى محاولة تعريف معنى غيابك، آخر محاولات التنكر، الوحيدة فى ركنها النائى، بدء تقاعد زير نساء عجوز.

من أجواء الديوان:

تردد / حين قال جملته الأخيرة

ندت عن جبينه العريض / رعشة مفاجئة / فيما قبضت أصابعه الصلبة / على حفنة من الهواء وانسدلت أعضاؤه / بين أيديهم.

■

الإمبراطورية الأمريكية

سمير مرقس

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣، ١٣٥ صفحة



ينطلق هذا الكتاب أيضًا - مثل عشرات الكتب التى واكبت الحدث - من أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. لكنه يسعى فى الأساس إلى محاولة فهم السلوك الأمريكى وكشف محدداته فيما يتعلق بالعلاقة بالعالم، وهو يشير إلى نتيجة أوردها الكاتب الفرنسى «برتران بادى» فى أحد كتبه الصادرة بعد ١١ سبتمبر، وهى أن أهم استدعاءات هذا الحدث هو عودة المقدس إلى مسرح العلاقات الدولية، وهو ما يتجلى فى الخطاب السياسى الأمريكى الذى صار محملاً بمفردات ذات طابع دينى، وكذلك مشاركة قوى اليمين الدينى فى الحكم لأول مرة فى تاريخ أمريكا.

ينطلق المؤلف من حرب الثلاثين عامًا فى أوروبا (١٦١٨ - ١٦٤٨)، والتى شاركت فيها كل دول أوروبا تقريبًا باستثناء روسيا، وقد كانت فى الأصل حرب مصالح، لكنها اكتست غطاء دينيًا (كاثوليكيا - بروتستانتيًا)، والتى انتهت بمعاهدة وستفاليا ٢٤ أكتوبر ١٦٤٨، والتى رسخت عدة مبادئ أهمها إقرار حق السيادة والمساواة فى العلاقات بين الدول، واختفاء سيطرة الدين باعتباره أساسًا للعلاقات الخارجية.

وبدا الأمر فى أمريكا البازغة مغايرًا بظهور «البوريتانيين» الذين حاولوا تطبيق مبادئهم البروتستانتية فى إنجلترا لكنهم حوربوا واضطهدوا، فراحوا يأملون فى تسييدها فى الأرض الجديدة، وقد طورت عقيدتهم ذاتها لتستجيب إلى حاجة العالم الجديد لمرجعية تحكم حركته الناشئة. ولذا، لم يكن غريبًا أن يولد المجتمع والدين فى لحظة واحدة، وكان الكفاح من أجل الثروة والنجاح هو عنوان الإمبراطورية الجديدة، وتوطدت الصلة بين «البوريتانية» الجديدة وإحراز النجاحات الدنيوية، وصيغت الفكرة الأساسية لهذا المجتمع الناشئ على النحو التالى: «مادام المرء لا يستطيع أن يضمن بعمله الصالح موقعه فى الجنة، لأن هذا مكتوب سلفًا، فالثراء مقابل لأن يكون علامة الاصطفاء الإلهى».

وبدأت أمريكا تتسع داخليًا - لا خارجيًا كما أوروبا - فبعد أن انفصلت عن بريطانيا عام ١٧٨٣، شرعت فى قتل سكان البلاد الأصليين من الهنود الحمر، وانتهت منهم نهائيًا عام ١٨٩٠، وشرعت فى تحقيق توسعها وانتقاله من الداخل إلى الخارج بفعل قوتها الاقتصادية المتنامية، كانت انعكاسًا واضحًا للمصلحة القومية الأمريكية.

ويشير المؤلف إلى أن أمريكا دخلت الساحة الدولية بمنطق مغاير للحالة الأوروبية، حيث سلكت سلوكًا إمبراطوريًا، والإمبراطوريات - كما يقول كيسنجر - لا تهتم بأن تدير شئونها فى إطار نظام دولى، فهى تطمح لأن تكون هى ذاتها نظامًا دوليًا، وهكذا حكمت قواعد ثلاث: الدين والقوة والثروة، علاقة الإمبراطورية الجديدة بغيرها من الدول فى إطار المجتمع الدولى. المؤلف يتابع بعد ذلك توجهات السياسة الخارجية الأمريكية وتطبيقاتها على أرض الواقع من بداية القرن التاسع عشر وحتى نهاية القرن العشرين، واستراتيجيتها خلال الحرب الباردة، ثم كيف استعادت أمريكا المشروع الإمبراطورى عبر اليمين الأمريكى الصاعد فى أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتى وتداعى النظام الاشتراكى كله، مشيرًا بالذات: إلى وثيقة كونداليزا رايس حول السياسة الخارجية لأمريكا، ومطلاً فى النهاية على الرؤية التوسعية للإمبراطورية الأمريكية فى ثوبها الجديد.. تلك التى لا تحتاج إلى نظام دولى يقنن سلوكها مهما كان منفلتًا.. فلديها منظومة قيم مطلوب أن تفرضها على العالم بوصفها حاملة رسالة الرب.. لأنها كما يقول الرئيس بوش «قيم إلهية».

■

تعيين الكفاءات الأفضل فى الموقع المناسب

ديان روزنبرج

تعريب: مها حسن بحبوح

الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٢، ٢٨٨ صفحة



تعتبر عملية تعيين أفضل الموظفين فى سوق العمل المعاصرة التى تسيطر عليها روح التنافس، حاسمة، فالأخطاء فى الاختيار قد تكون باهظة الثمن

بالنسبة للشركات التي ترغب في الحفاظ على ريادتها.

هذا الدليل يبين كيفية القيام بعملية التعيين على نحو دقيق والطرق الخاصة بإجراء مقابلات التوظيف، إنها استراتيجية عملية لإجراء المقابلات وصولاً لأفضل النتائج.

■

السيطرة على الإعلام

نعوم تشومسكي

تعريب: أميمة عبد اللطيف

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٢، ٦٠ صفحة



تسعة مقالات للمؤلف الذي عرف بمواقفه السياسية المناهضة للاستعمار بأشكاله المختلفة والمؤيدة للديمقراطية والسلام العالميين، إضافة إلى كتاباته في تخصصه الأصيل كأستاذ للغويات، وفي هذا الكتاب يكشف عن الدور البالغ التأثير للإعلام في طمس الحقائق، والعمليات الدعائية التي تتجاوز الأثر العملي للوقائع على الأرض.

وعناوين دراساته هي: الإنجازات الهائلة للبروباجندا، ديمقراطية المشاهد، العلاقات العامة، إدارة الرأي العام، ثقافة الانشقاق، استعراض الأعداء، انتقاء التصور، حرب الخليج، الصحفي القادم من المريخ.

■

الحرب الكونية الثالثة

السيد ياسين

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢، ٤١٠ صفحات



ثمة إجماع بين الباحثين في العلاقات الدولية والمراقبين للتحولات العالمية الأخيرة، على أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ تمثل قطيعة تاريخية في مسار النظام العالمي الراهن، وأن عالم ما بعد ١١ سبتمبر ليس هو العالم قبلها، وقد أثبتت التداعيات التي أعقبت هذا الحدث الجلل، صحة ما ذهب إليه المراقبون.

المؤلف، وهو معروف ببحوثه السياسية والاجتماعية المعمقة، يرصد تلك التحولات ويحلل ظواهرها، بادئًا بمقدمة عن حركة النظام الدولي «من الفوضى الطليقة إلى الهيمنة المقننة»، ثم خمسة أقسام يتناول فيها الحدث ذاته (الحادي عشر من سبتمبر)، ويشرح ظاهرة العداء بين الإسلام والغرب، ويحلل كذلك خطاب المثقفين بين تبرير الحرب ومعارضتها، ويوصل لحوار نقدي حول مشروع خطاب مصري موجه للمثقفين الأمريكيين، وأخيرًا قسم يختص بأحداث سبتمبر وإرهاصات إمبراطورية أمريكية.

والمسألة الأساسية هنا أن التحولات والتغيرات الكبرى في تاريخ الإنسانية لا تحدث فجأة، بل تسبقها مقدمات وخبرات متراكمة طويلة تقود في النهاية إلى الذروة، غير أن ثمة حدثًا بارزًا - أو أحداثًا - تعجّل ربما بهذا التحول، وهذا بالضبط ما جرى، فقد كانت عملية تفكك كبرى تجري في أعقاب انهيار النظم الاشتراكية وتداعي الاتحاد السوفيتي وسقوط نظام القطبية الثنائية الذي حكم العالم في أعقاب الحرب العالمية الثانية، عملية التفكك تلك بدأت منذ عام ١٩٨٩، ودخل العالم فيما يسميه المؤلف حالة من الفوضى الطليقة، وشيئًا فشيئًا، وبتداعيات الأحداث وبتخطيط صانعيها، بدأت مرحلة الهيمنة المقننة، بانفراد الولايات المتحدة بزعامة العالم، وفجّرت أحداث سبتمبر حملة كراهية غير مسبوقة ضد المسلمين والعرب، وبدا أن الفرصة مهيأة لتقنين الهيمنة، وتأكيد التحول الجديد وإبراز الوجه المستحدث لأمريكا التي انتقلت من دور الدولة العظمى الوحيدة إلى دور الإمبراطورية الكونية، وهكذا برز شعار المرحلة الجديدة «من ليس معنا فهو ضدنا»، وتحولت رغبات أمريكا وقراراتها إلى أوامر جاهزة للتنفيذ فورًا دونما حاجة إلى إجماع دولي أو موقف قانوني مدعوم بقرارات من مجلس الأمن والأمم المتحدة، وظواهر هذا التحول بادية للعيان في حربها ضد العراق برغم كل الاعتراضات من دول كبرى وصديقة في إطار هذه الفكرة الأساسية تدور أبحاث الكتاب ومقالاته.

■

من دفتر أحوال الاقتصاد المصرى

محمود عبد الفضيل

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢، ٢١٠ صفحات



قليلة هي الكتب التي تبسّط المعضلات الاقتصادية كي يفهمها القارئ العادي ويتحاور معها كونها ذات تأثير مباشر على حياته اليومية.

وقليلون هم المختصون القادرون على تحويل الأرقام وجداول الموازنات إلى صياغات أدبية راقية تحقق المتعة والفائدة معًا، بين هؤلاء الاقتصادي الراحل رمزي زكي والدكتور جلال أمين ومؤلف هذا الكتاب.

أجندة لويس فيها - أحيانا - ما يفيد!

أين الخطأ؟

برنارد لويس

ترجمة: محمد عناني

تقديم: رءوف عباس

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٢، ٢٦٨ صفحة

منذ صدوره ملأ هذا الكتاب الدنيا وشغل الناس، فمؤلفه واحد من كبار المستشرقين الذين يصنفون في الغرب بوصفهم «خبراء» في شئون الإسلام والمسلمين. وهو واحد ممن يعتد بتصوراتهم وأفكارهم عن الإسلام لدى صناع القرار ومخططي الاستراتيجية الغربية، حتى أنه «استدعي» - كما يقول الدكتور رءوف عباس في تقديمه - إلى واشنطن ٦ مرات منذ حادث البرجين للقاءات سرية مع كبار المسئولين بالبيت الأبيض والبنتاجون.

والكتاب الذي أقبل عليه الناس في أمريكا بعد أحداث ١١ سبتمبر في محاولة للفهم، لا يتعرض للأحداث، لكنه قريب الصلة بها كونه يفتش في النسق ويحلل الأفكار التي تقف وراءها.

واستنادًا إلى إحاطة شاملة بكتابات لويس وانتماءاته اليهودية العنصرية ومواقفه العملية إزاء العرب والمسلمين، يرفض الدكتور رءوف عباس - وهو أستاذ تاريخ مرموق - كثيرًا من أفكار لويس ويدحضها علميًا، ويبينها أنه يتعامل مع الإسلام والمجتمعات الإسلامية ككتلة واحدة، فلا يرى فيها سوى تركيا والدولة العثمانية، غاضًا البصر عن تمايزات وفروقات مهمة في المجتمعات الإسلامية على اتساع رقعتها الجغرافية، ومنها اعتبار الإسلام دينًا يرفض الآخرين ويعاديهم ولا يقبلهم إلا عبيدًا لا يستحقون المواطنة، وإجمالاً يرى لويس الإسلام والمسلمين محكومًا بمركزية أوروبية وصهيونية مقيتة تحكم رؤاه وتتحكم في آرائه.

غير أن ما يلفت في هذا الكتاب، أن أكثر انتقادات الدكتور عباس في غير موضعها، واظن أن معرفته بكتابات المؤلف السابقة طغت على قراءته للكتاب مستقلاً عن سوابقه، فاستنطقه بما ليس فيه.

مثلاً يرى الدكتور عباس أن لويس اختزل الإسلام في الإمبراطورية العثمانية كي يقدمه للغرب بوصفه خطرًا يهدد وجوده، وأن الخطأ هو في الإسلام ذاته الذي يرفض الآخرين ويمقتهم، فيما يرفض لويس هذه المقولة ويؤكد على أن أصحاب الديانات الأخرى عوملوا في ديار المسلمين بأفضل مما عوملت به الأقليات الأخرى في الغرب.

وفيما يؤكد الدكتور عباس أن لويس يحقّر الإسلام كعقيدة ويعده سببًا في تخلف المسلمين، نجد لويس يقر بأن ذلك لو كان صحيحًا ما حقق المسلمون في الماضي إنجازات في كافة المجالات وأقاموا إمبراطوريتهم التي أضاءت ظلام العصور الوسطى في أوروبا. وبدلاً من السؤال: ماذا فعل الإسلام بالمسلمين؟ يطرح لويس السؤال بطريقة مغايرة: ماذا فعل المسلمون بالإسلام؟

وبشكل عام، فإن «الأجندة» التي يقدمها برنارد لويس فيها الكثير مما يردده عقلاؤنا، فالرجل يشير إلى جناية غياب الحرية، ويعدها سببًا لكثير من متاعبنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهل منّا من يجادل في أن غياب الحرية سبب ما آلت إليه أحوالنا؟ والرجل يدعونا إلى التوقف عن إلقاء تبعات تخلفنا على الغير، سواء كان هذا الغير استعمارًا غربيًا أو صهيونيًا أو أمريكيًا، وأظنني معه، فما جرى قد جرى ولن يفيد كثيرًا البحث عن الجاني، بقدر ما سيجدي اكتشاف طرائق لتصحيح الخطأ، وهو يحذرنا من الاستمرار في هذا الطريق الذي تجرنا إليه الحكومات المستبدة، كونه يغض الطرف عن طغيانها وانعدام فعاليتها ويحيل النظر إلى الآخرين.

ينصحنا لويس نصًا: «إذا استطاعت هذه الشعوب أن تطرح إحساسها بالظلم وبأنها ضحية، وأن تسوي خلافاتها، وتعمل على تكاتف طاقاتها ومواهبها ومواردها لتحقيق أهداف إبداعية مشتركة، فسوف تعيد الشرق الأوسط إلى ما كان عليه، مركزًا رئيسيًا للحضارة».

هذا بعض ما يرد في «روشتة» برنارد لويس، وفيه مكاشفة جارحة لكنها صحيحة ولا يجوز ردها.

يقول العزيز الحكيم «.. ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى».

وجاء في الأثر: «الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها».

عماد الغزالي

إصـــــدارات جـــــديـدة

يغوص الدكتور عبد الفضيل في بحر الاقتصاد المصرى ويجابه أمواجه المتلاطمة خصوصًا تلك الحقبة الممتدة منذ أواسط السبعينيات وحتى اليوم، والتى أفرزت ما اصطلح على تعريفه بمرحلة الانفتاح الاقتصادى، وفيها انتقلت مصر من نظام اقتصادى مغلق إلى نظام مفتوح يحاكى اقتصاديات السوق. وهو يبدأ بنقد التصور القائل بضرورة انسحاب الدولة نهائيًا من لعبة الاقتصاد، وتخليها عن ممارسة أى دور كى تفسح المجال لقوانين العرض والطلب دون تدخل منها، ويرى أن هذه أكذوبة لا تقيم اقتصاد سوق وإنما مافيات سوق، كما جرى فى الاتحاد السوفيتى بعد تفككه، كما أن تطبيق اقتصاد السوق على هذا النحو تلزمه هياكل ومؤسسات اقتصادية ومالية راسخة، وتطور تاريخى يضع الأمور فى نصابها الصحيح. أما فى المراحل الأولى، التى تطمح فيها الدولة إلى تحقيق تنمية حقيقية، فإن دورها كمحفز أو مرشد استراتيجى لا غنى عنه، كى لا تتحول الأمور إلى فوضى.

وفى سياق آخر يشير المؤلف إلى خريطة توزيع الدخل بوصفها مؤشرًا دالاً على تنمية حقيقية، ويرى أن فى مصر ثلاث فئات يتوزع بينها الدخل على النحو التالى: محظوظى الدخل وهؤلاء فى القمة ويحصلون على نحو ٢٠٪ من الدخل القومى فى مصر، ثم ٣٠٪ يعيشون على الكفاف ويلامسون خط الفقر وهؤلاء هم معدومو الدخل، ثم هناك ٥٠٪ يعيشون مستورين بالكاد، وهؤلاء هم من يطلق عليهم محدودى الدخل.

وينبه إلى خطورة ما بات يعرف بالاقتصاد المغلى أو الموازى، وهو نمط لا يدخل فى حسابات الأرقام الرسمية وموازنات الدولة، لكنه بالغ الأهمية والتأثير وكبير الحجم إلى درجة لا يجوز معها تجاهله. فضلاً عن أنه يكتسب فى كل يوم أعدادًا جديدة من العاطلين عن العمل والباحثين عن فرص للرزق. وفى هذا الإطار ثمة أطياف من «اقتصاد رمادى»، يغطى أنشطة اقتصادية غير رسمية لكنها أيضًا غير مجرمة، ثم هناك الاقتصاد الأسود وهو يشمل الأنشطة غير المشروعة المجرمة قانونًا كالاتجار فى المخدرات، ويمثل هذا النوع من الاقتصاد غير الرسمى بنوعيه بين ٣٠ إلى ٥٠٪ من حجم النشاط الاقتصادى الكلى.

وثمة نظرة غير تقليدية يلفت إليها المؤلف تتصل بالمعايير المقترحة لقياس مستويات الدخول، لا تتوقف عند مايجمعه الفرد من نقود خلال مدى زمنى معين، وإنما تمتد إلى مصادرة وقت الفراغ بوصفها تبديدًا للإحساس بالمتعة والترفيه، وافتئاتًا على حقوق الإنسان المعنوية والإنسانية.

وينتقد موقف الدولة التى سعت إلى تحقيق فوائض فى موازناتها على حساب عجز متتال فى موازنات الأفراد، الذين أرهقوا بالضرائب المتلاحقة، وبفقر فى الخدمات التى يفترض أنها مجانية، ففيما تقر الدولة نحو ١٥ مليار جنيه مصرى للإنفاق على التعليم، ينفق المصريون من ١٢ إلى ١٥ مليار جنيه على الدروس الخصوصية للتعليم فى كافة مراحله.

هذه عينة من الموضوعات التى يتناولها المؤلف، والتى يمتزج فيها السياسى بالاقتصادى بالاجتماعى فى تكامل واتساق، كاشفة عن خريطة المجتمع المصرى فى السنوات العشر الأخيرة.

■

الإسلام وتطوير الخطاب الدينى

إشراف: د. جعفر عبد السلام

القاهرة: رابطة الجامعات الإسلامية، ٢٠٠٢، ٢٠٦ صفحات



يضم الكتاب أعمال ندوة عقدت بجامعة قناة السويس فى عام ٢٠٠٢ فى إطار سلسلة فكر المواجهة، والمخصصة لمواجهة الحملة الشرسة ضد الإسلام والمسلمين، وتتضمن الأوراق التى قدمت للندوة عناوين مهمة منها: لماذا الدعوة إلى خطاب إسلامى معاصر، وجهة نظر فى تطوير الخطاب الدينى، خصائص الإعلام الإسلامى فى القرن الحادى والعشرين، الخطاب الإسلامى ودوره فى تأكيد براءة الإسلام من الإرهاب، المستجدات فى خطاب وأسلوب عمل الحركات الإسلامية المعاصرة.

شارك فيها عدد كبير من الباحثين والمختصين.

■

بدائل المضادات الحيوية

جو ماك كينًا

تعريب: د. ياسر العيتى

الرياض: العبيكان، ٢٠٠٣، ٢٧٠ صفحة



اعتبر اكتشاف المضادات الحيوية فى الأربعينيات اختراقًا فى علاج الإنتانات الجرثومية، مما أكسبها صفة الدواء المعجزة؛ فأصبحت منذ ذلك الوقت أكثر الأدوية التى توصف للمعالجة فى العالم. لكن الدراسات تشير اليوم إلى أن الاستخدام الواسع للمضادات الحيوية يسبب المزيد من المشكلات مع نشوء جراثيم مقاومة أو «خارقة» كما يُشار إليها، وقد أعطت منظمة الصحة العالمية تحذيرًا شديد اللهجة من الأخطار الناجمة عن الإفراط فى استخدام المضادات الحيوية. ومع ازدياد التنبه إلى هذه المسألة بدأ الناس يبحثون عن بدائل المضادات الحيوية لهم ولأبنائهم.

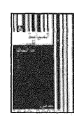
إن الدكتور ماك كينا غطى فى كتابه هذه البدائل بلغة بسيطة بعيدة عن المصطلحات العلمية. لقد قارن بين العلاج التقليدى وبين البدائل وبين مساوئ كلٍ منهما ومحاسنه. وقد أظهر بوضوح، عن طريق البحث فى العلاج بالأعشاب والعلاج المثلى والعلاج بالغذاء أن علاج الإنتانات دون مضادات حيوية ممكن، ولكنه بيَّن أيضًا متى يُحتاج إلى المضادات الحيوية.

■

السياسة أقوى من الحداثة

دلال البزرى

القاهرة: ميريت للنشر، ٢٠٠٣، ٢٩٨ صفحة



ما أن انتهيت من قراءة الحكايات الواردة بهذا الكتاب «١٨ حكاية»، حتى وجدتنى أتساءل: ما علاقة هذا كله بالحداثة؟

لكن المؤلفة بددت حيرتى حين قالت فى أول سطور خاتمتها: كانت الحداثة فى هذه القصص وصراعها مع التقليد أضعف الديناميكيات، وأقواها كانت العائلة والسياسة.

فالعائلة هى مجال التقاء أصحاب القصص مع أقرانهم من الناس، ولا تنافسها سوى السياسة، وبين العينة أربعة أشخاص معنيون بالسياسة، أحدهم تنقل من الاتحاد الاشتراكى إلى الحزب الوطنى الحاكم إلى حزب الوفد المعارض، وهو يقرر أنه لم يشعر بفروق كبيرة فى تنقلاته تلك: «هنا ديكتاتورية فى إدارة الحزب، وهناك ديكتاتورية فى إدارة الحزب»، وهو فى كل الأحوال يستكمل بانتمائه إلى أىٍ من هذه الأحزاب الوجاهة الاجتماعية التى يتطلبها صعوده فى محيط قريته.

والآخر شاب ناصرى يرى أن الأحزاب جميعها أنانية لا تخدم أهدافًا حقيقية، وثالث تنقل بين تيارات الإخوان المسلمين والناصرى والماركسى، وانتهى إلى حزب العمل المعارض.. «انضممت إليه نتيجة ضغط أصدقائى ومجاملة لهم، كانوا يقولون إن الحزب فرصة لنكون مع بعض ومكان نتقابل فيه بدل ما نقعد على قهوة أو بار».

ورابعهم بدأ إخوانيًا ثم ناصريًا، وانتهى مشتغلاً بالشأن العام دون التزام سياسى، عبر مشاركاته فى جمعيات أهلية من نوع الجمعية الخيرية، التى رأى أنها نوع من النشاط الذى يخدم فيه الغير دون أن يكون مضطرًا للالتزام بسياسة حزب معين.

وإلى جانب العائلة والأحزاب السياسية فإن ثمة تأثيرًا للعهود السياسية وتقلباتها، وهى فى مصر حادة وانعطافية فى آن معًا، وقد كان تأثيرها على الناس بالحدة ذاتها، وربما كانت حقبة الانفتاح والهجرة إلى النفط هى الأكثر تأثيرًا على الناس فى العقود الثلاثة الأخيرة كما تبين من حكايات العينة الثمانى عشرة، ولا يكاد بيت مصرى واحد يخلو من آثارها سلبًا أو إيجابًا، فقد فتحت الهجرة إلى الخليج أبواب الأمل أمام كثيرين ممن أحرقوا بنار البطالة، وساهمت فى تحقيق الخلاص على المستوى الفردى لكثير من المصريين، لكنها غرست قيمًا جديدة تركت انعكاساتها على حياة الناس على مستوى العائلة والمجتمع.

وتشير المؤلفة إلى أوجه من الحداثة تأثر بها أصحاب الحكايات كل حسب حالته وهى: حداثة موروثة، حداثة انقلابية، حداثة آتية من بلاد التقليد، حداثة متعايشة مع التقليد، حداثة جزئية، حداثة تعرض لها تقليد خارجى، حداثة يخدمها التقليد، حداثة تم تجاهلها، حداثة كملاذ من الأزمات أو تفسير لها.

الحداثة كما وردت فى هذه الحكايات، والتى كان أبطالها مختلفين ومتمايزين، أحيانًا إلى حد التناقض، تخضع للمعطيات السياسية والاجتماعية التى توفرها العهود التى تسبح الحداثة فى محيطها، لهذا بدت السياسة أقوى من الحداثة.

■

حمل بلا متاعب

ماجدة حلمى

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٢، ١٥٧ صفحة



خمسون عامًا هى كل عمر علم متابعة الحمل، قبل هذا التاريخ كانت معدلات الوفيات فى الحمل والولادة عالية جدًا، وما تقدمه المؤلفة هنا ليس بديلاً عن متابعة الحمل وإنما للمساعدة على استيعاب توصيات الطبيب المتابع، ومتابعة الحياة بصورة جيدة أثناء الحمل، وكى لا تصبح فترة الحمل شاقة مرهقة بالنسبة للمرأة وجنينها.

يضم الكتاب تسعة أبواب تبدأ من رعاية الأم لطفلها وهو فى الرحم وحتى الولادة مرورًا بالمتاعب الصحية التى تواجهها المرأة أثناء الحمل ونمو الطفل أثناء الحمل ومتاعب الحمل الطبيعى والتغييرات الفسيولوجية التى تطرأ على الأم الحامل والتشوهات الجنينية والخلقية وكيفية تلافيها.

■

إصـــــدارات جـــــديـدة

Egyptology at he Dawn of the twenty - first Century

(علم المصريات فى فجر القرن العشرين)

Edited by Zahi Hawass (3 vols)
Auc press, LE. 150 (Each Volume)

يتكون هذا الكتاب من ٣ أجزاء وهو يضم الأبحاث والأوراق المقدمة للمؤتمر الدولى الثامن لعلماء المصريات الذى انعقد فى القاهرة عام ٢٠٠٠ ويحتوى الكتاب الذى حرره الدكتور زاهى حواس أمين المجلس الأعلى للآثار فى مصر على مجموعة متنوعة لأبحاث علماء المصريات تتناول شتى نواحى علم المصريات الذى أصبح يدرس يتم تدريسه فى كل جامعات العالم تقريبًا ويحتوى الكتاب على مراجع عديدة ومتنوعة ويضم بين دفتيه صورًا وخرائط معظمها يتم نشره للمرة الأولى. وكل جزء من أجزاء هذا الكتاب يباع بشكل منفصل.

Music is the Weapon of the Future: Fifty Years of African Popular Music

(الموسيقى هى سلاح المستقبل)

Frank Tenaille
Translate: Hope Sandrine
Chicago Review Press, 2002, 320PP, $18.95





فى هذا الكتاب يقدم الصحفى الفرنسى فرانك تيناى المتخصص فى الموسيقى العالمية ثلاثين نجمًا من نجوم الموسيقى الشعبية الأفريقية، من غرب أفريقيا ووسطها إلى شرقها وجنوبها.. ويتناول فرانك تيناى كل نجم باستعراض حياته المهنية والشخصية، والخلفية السياسية والاجتماعية التى ظهرت فيها موسيقاه. بل ويبين الكتاب كيف أن الموسيقى فى كثير من الأحيان كانت عاملاً من عوامل التمرد السياسى والنقد الاجتماعى، وجزءًا من الحركات السياسية المعارضة للاستعمار أو العبودية أو الحكم الديكتاتورى.

يضم الكتاب النجوم الذين ظهروا فى الخمسين عامًا الماضية، ومنهم من أصبح له شهرة عالمية مثل يوسو دونور من السنغال، وفيلاكوتى من نيجيريا.. ويعد الأخير من أبرز المؤثرين فى الأجيال النيجيرية الشابة، وتعتبر موسيقاه مسيسة إلى حد كبير، وهو صاحب مقولة أن «الموسيقى هى سلاح المستقبل» قبل أن يموت عام ١٩٩٧ بسبب الإيدز.

الكتاب لا يهتم فقط بالتأثير السياسى والاجتماعى للموسيقى الأفريقية الجديدة وإنما يحلل شكل الموسيقى نفسها وتنوعها ومزجها بين القديم والحديث فى قوالب تغزو العالم كله مثل الجاز والفانك والصول والراب.

Not Quite one of us.. The Past and Future of Michael Portillo

(ليس واحدًا منا تمامًا.. ماضى ومستقبل مايكل بورتيللو)

Timothy O'sullivan
Quartet, 2003, £20.00

بطل هذا الكتاب هو مايكل بورتيللو أحد زعماء حزب المحافظين البريطانى المعارض ووزير الدفاع السابق وهو شخص مثير للجدل بشكل كبير ومحط اهتمام غير عادى من جانب وسائل الإعلام البريطانية منذ بداية التسعينيات من القرن الماضى، فقد كانت كل التوقعات تنبئ بأنه سيكون زعيمًا للمحافظين ورئيسًا لوزراء بريطانيا، لكن تسرعه الشديد وتعاليه الواضح وتطرفه فى موقفه من أوروبا أفقده مقعده البرلمانى فى انتخابات أول مايو ١٩٩٧ التى أخرجت المحافظين عن الحكم وأتت بالعمال للمرة الأولى منذ ١٨ عامًا.

وكان على بورتيللو، وهو من أصل أسبانى هاجر أبوه إلى بريطانيا خلال الحرب الأهلية الأسبانية، أن ينتظر عدة سنوات ليخلو له مقعد برلمانى ويعود لمجلس العموم عن دائرة تشيلسى فى لندن، لكن بورتيللو الذى كان نجم التيار اليمينى فى حزب المحافظين تخلى عن بعض أفكاره بعد فشله فى انتخابات ١٩٩٧، ولذلك ابتعد عنه كثير، ولذلك لم يتمكن من الفوز بزعامة الحزب بعد استقالة وليام هيج من زعامة الحزب عقب الهزيمة فى الانتخابات البرلمانية البريطانية الأخيرة وفاز بالزعامة نائب يمينى متشدد هو إيان دنكان سميث. لكن ضعف أداء سميث جعل بورتيللو يشن هجومًا حادًا عليه فى محاولة لزعزعة موقفه. ويتحدث الكتاب عن فرص بورتيللو فى زعامة المحافظين ويشير إلى أن هناك من يعتقد أن الفرصة لازالت سانحة بينما يؤكد كثيرون أن بورتيللو لن يكون زعيمًا للمحافظين ولن يصبح رئيسًا لوزراء بريطانيا على الإطلاق فقد مضى زمنه منذ سنوات.

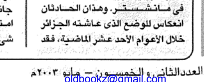
هل خرجت الجزائر من بحيرة التطرف؟

The Battlefield.. Algeria 1988-2002

(ميدان القتال.. الجزائر ١٩٨٨ - ٢٠٠٢)

Hugh Roberts
Verso, 2003, £ 17.00

احتل الجزائريون خلال الأسابيع القليلة الماضية واجهة الأحداث فى الغرب، لكن للأسف لأسباب خاطئة، فقد عثرت الشرطة البريطانية على كميات من غاز قاتل مع جزائريين مقيمين فى لندن، ثم طعن جزائرى ضابط بوليس بريطانيًا طعنة قاتلة فى مانشستر. وهذان الحادثان انعكاس للوضع الذى عاشته الجزائر خلال الأعوام الأحد عشر الماضية، فقد



عانت البلاد من واحد من أكثر الصراعات وحشية فى العالم، ونتيجة لمعركة طاحنة بين الجيش والمتطرفين غرقت الجزائر فى بحيرة امتلأت بدماء ١٢٠ ألف شخص معظمهم من الأبرياء بالإضافة إلى حوادث اغتصاب وتيتيم أطفال وغيرها.

ويأتى نشر هذا الكتاب «ميدان قتال.. الجزائر ١٩٨٨ - ٢٠٠٢» فى توقيت مناسب، فالمؤلف هيو روبرتس الخبير فى الشئون الجزائرية يرى أن تحليل الغرب التبسيطى للعلمانية فى مواجهة الأصولية هو المسئول عن تغذية الأزمة الجزائرية والإبطاء فى حلها.

إن السياسيين الفرنسيين فرضوا رؤيتهم الخيالية للعلمانية على الجزائر خلال فترة استعمارها، واعتبر اليساريون الأوروبيون نضال الجزائر ضد الإمبراطورية الفرنسية بطوليًا، لكنهم سرعان ما فقدوا الاهتمام بهذا البلد، كما أن علماء الإنثربولوجيا أساءوا قراءة تركيبة الجزائر العرقية. ومن جانبهم اعتقد الحتميون الاقتصاديون أن امتلاك الجزائر للمال يمكن أن يحل كل شيء.

لكن ذلك لا يعنى تبرئة الجزائريين أنفسهم، فالمؤلف يلقى باللوم عليهم لأنهم انقسموا شيعًا وطوائف من الانفصاليين البربر والعلمانيين غير المستعدين لحلول وسط والإسلاميين الذين يعتقدون أن الحق معهم إلى العروبيين القوميين. الأسوأ من كل ذلك هو أوليجاركية التكنوقراط ـ العسكر التى حكمت البلاد.

إن هناك نقاشًا كثيرًا حول الإلغاء المفاجئ من جانب الجيش للنصر الذى حققته الجبهة الإسلامية للإنقاذ فى انتخابات عام ١٩٩١. فقد رحب معسكر بما اعتبره إنقاذًا للبلاد من الأصوليين المتطرفين والبعض الآخر اتهم الجيش بإلغاء إرادة الناخبين.

الواقع، كما يقول روبرت، يقع فى وسط هذين الرأيين. إن جبهة الإنقاذ ترى نفسها وارثًا طبيعيًا لجبهة التحرير الوطنية، وليس عدوًا لها، كما أنها ـ أى جبهة الإنقاذ ـ أبعد ما تكون عن الحكم الثيوقراطى الدينى فهى تدعم التحرير الاقتصادى، لكن الرئيس الشاذلى بن جديد رئيس البلاد فى ذلك الوقت اتهم الجبهتين بإغراق البلاد فى دوامة عدم الاستقرار، وبالطبع القضاء على مستقبله السياسى.

إن دراسة الأعوام المائة والثلاثين من الاستعمار الفرنسى للجزائر مهمة للجزائر لتفسير الأوضاع حاليًا. فقد وقعت خلال تلك الفترة الطويلة أحداث جسام بلغت الذروة بمقتل أكثر من مليون جزائرى خلال حرب الاستقلال. ويتهم المؤلف فى الوقت نفسه النظام الذى حكم البلاد بعد ذلك بإزاحة القانون جانبًا وفرض حكم شمولى.

مؤلف الكتاب يبدو متفائلاً إلى حد ما بأن الجزائر بدأت تجد مخرجًا، فعلى الأقل هناك معارضة ظهرت بعد انتخابات مايو ٢٠٠٢، وهناك بعض الاعتدال فى المواقف. إن الجزائر مازالت فى حاجة إلى إعادة تأسيس نفسها دون تدخل خارجى.

لورانس جوفى
عن الإندبندنت البريطانية
مارس ٢٠٠٣

Breathless to Casablanca

(منقطع الأنفاس إلى الدار البيضاء)

James Douglas

Tracey Evans

Welcome Rain, 2003, 448PP., $15.00



صـدرت هذه الرواية أول مـرة في ألمانيا في شهر سبتمبر من عام ٢٠٠٠، وبعـد عـام بالضـبط كـان المؤلف السويسري جايمز دوجلاس صاحب الرواية يشغل عناوين الصحف في ألمانيا والنمسا وسويسرا. في روايته التي تدور في عالم الجاسوسية الإجرام والمكتوبة باللغة الألمانية تبدو وكأنها نبوءة مبكرة لما حدث في ١١ سبتمبر ٢٠٠١. بل إن عمـلاء من جهاز الإف بي آي الأمريكي قـامـوا بالاتصال بالمؤلف بعـد حدوث الهجمات بعدة أيام بسبب هذا التشابه المذهل بين أحداث الرواية وبين هجمات سبتمبر.

تدور الرواية حـول محـاولة زعيم إرهابي يرتبط بمنظمة القاعدة يدعى يوسف بن جولام إغراق حاملة الطائرات الأمريكية «روزفلت» في مضيق جبل طارق. وفي محاولة منه لتحويل الانتباه عن هذه العملية يقوم جولام بتـفـجير مـبنى تجـاري وإداري في نيـويورك، وبالتحديد في حي مانهاتن حيث يوجد مكتب لوكـالة المخـابرات المركـزية الأمريكية.

ويتـصـدى روائي سـويسـري في الرواية يدعى بولنسكي للإرهابي الخطير يوسف بن جـولام بعـد سلسلة من الأحداث تتضمن اختطاف طائرة أمريكية محملة بشخصيات أمريكية مهمة.

■

After: How America Confronted the September 12 Era

(ما بعد: كيف واجهت أمريكا عصر ١٢ سبتمبر)

Steven Brill

Simon & Schuster, 2003, 736PP., $29.59



يكتب الصحفي الأمريكي ستيفن بريل عما يسميه عصر ١٢ سبتمبر، أي التـغـيـر الذي حـدث في أمـريكا والذي أدخلها في عصر جديد، لا بسبب الأحداث التي وقعت في ١١ سبتمبر، وإنما بسبب ردود الفعل الأمريكية منذ اليوم التالي.

يتخذ الكتاب الضخم الذي يقع في أكثر من سبعمائة صفحة شكل السجل اليومي، فهو يتناول مجموعة منتقاة من الشخصيات الحقيقية التي تمثل قطاعات متخلفة من المجتمع الأمريكي ليرصد رد الفعل لديها وكيف تأثرت بالأحداث وأثرت في الواقع الجديد لأمريكا.

من ضمن هذه الشخصيات، يوجد: الضحايا والأبطال وكذلك المستفيدون والمستثمرون للأزمة، مثل شركات بيع أجهزة التنصت والمراقبة.

ويتناول بريل شخصيات عادية كما يتناول شخصيات سياسية مثل جون أشكروفت. وهو يبين مقدار الظلم الذي تعرض له كثير من العرب والمسلمين بعد الأحداث على يد السلطات الأمريكية بتفاصيل مخيفة.

■

Harvard and the Unabomber: The Education of an American Terrorist

(هارفـارد والأونابومـر: التـعليم الذي تلقاه إرهابي أمريكي)

Alston Chase

Norton, 2003, 352PP., $26.95



«أونابومر» هو الاسم الذي أطلقته الصحافة على الإرهابي الأمريكي تيد كازنسكي الذي أدى الكشف عنه والقبض عليه في عام ١٩٩٦ إلى هزة في المجتمع الأمريكي.

فقد قام هذا الأمريكي الأبيض خريج جامعة هارفارد بإرسال ١٦ رسالة ملغمة بالقنابل من سنة ١٩٧٨ وحتى سنة ١٩٩٥، أسفرت عن مقتل ثلاثة أشخاص وإصابة ٢٩ شخصًا. هذا الكتاب يلقي الضوء مرة أخرى على هذا الإرهابي لا باعتباره مضطربًا عقليًا أو نفسيًا كما فعلت وسائل الإعلام الأمريكية، ولكن باعتباره نموذجًا لقطاع كبير من الشباب الأمريكي المثقف. فقد كان كازنسكي بارعًا في دراسته للرياضيات وقد قام بعملياته الإرهابية بدافع من مواقفه الناقدة للمجتمع الصناعي الحديث، حتى أنه كتب مانيفستو يشرح فيه أفكاره. لهذا كانت رسائله المفخخة موجهة بالأساس للجامعات الأمريكية.

يلقي مؤلف هذا الكتاب ضوءاً مختلفًا على هذه القضية، فهو مثل الإرهابي كازنسكي متخرج من جامعة هارفارد الشهيرة، وهو يرى أن كازنسكي ضحية عصر الحرب الباردة وتأثيرها على المناهج والمقررات الدراسية. فقد رسخت هذه المناهج من وجهة نظره لأفكار مثل النسبية الأخلاقية والنسبية الثقافية، وأن المجتمع الديمقراطي ومؤسساته ما هو إلا مجموعة من علاقات القوة التي تخلو من أية قيم. وهو يرى أن الجامعات بهذا الشكل أصبحت تقوم بوظيفة التخديم على العقدة الصناعية - العسكرية التي تحكم السياسة الخارجية الأمريكية.

■

A Travelers Guide to the Geology of Egypt

(دليل السائح إلى جيولوجيا مصر)

Bonnie M.Sampsell

Auc press, LE. 70, 2003



يصف هذا الكتاب وادي النيل في مصر وكذلك الدلتا والصحاري والجبال وعلاوة على ذلك، فإنه يقدم دليلاً للسائح، المهتم بالتعرف عن قرب على مصر، عن تاريخها من منظور مختلف. وهو يحتوي على مقدمة حول المفاهيم الجيولوجية الخاصة بمصر ويقدم أمثلة توضح كيف أثرت جيولوجية مصر على حضارتها.

كما يضم مجموعة من الخرائط والرسوم التوضيحية والصور التي تساعدها جميعها على تكوين رؤية متكاملة حول جيولوجية مصر. وعدد الرسوم التوضيحية ٧٤، منها ٣٦ ملونة.

■

The Dust of Empire: The Race for Mastery in the Asian Heartland

(غبار الإمبراطورية: سباق السيادة في قلب آسيا)

Karl E. Meyer

Public Affairs, 2003, 256PP., $26



المؤلف هو رئيس تحرير مجلة «وورلد بوليسي جورنال»، كما أنه عضو مجلس تحرير صحيفة «نيويورك تايمز» منذ مدة طويلة. يكتب كارل ماير عن عدة دول من بلدان شرق ووسط وجنوب آسيا، وهي الدول التي لها أهمية خاصة بالنسبة للولايات المتحدة في هذه اللحظة. وهو يوجه نصائح لصناع السياسة الخارجية الأمريكية في كيفية التعامل مع هذه البلدان على المدى الطويل للفوز في الحرب المعلنة ضد الإرهاب. هذه البلدان هي أفغانستان الوسطى وإيران وباكستان والجمهوريات الخمس الوسطى إلى جانب بحر قزوين والقوقاز. يركز الكتاب أيضًا على روسيا وعلى مستقبل المنطقة الذي ستلونه خطوط أنابيب البترول وقضايا حقوق الإنسان!

■

The Code of the Warrior: Exploring Warrior Values Past and Present

(دستور المحارب: استكشاف في قيم المحاربين في الماضي والحاضر)

Shannon E. French

Rowman & Littlefield, 2003, 304PP. $24.95



يستعرض هذا الكتاب الأخلاق التي حكمت المحاربين عبر التاريخ. فالمؤلفة تعتقد أن المحارب في حاجة إلى إطار أخلاقي لكي يحافظ على إنسانيته ويكون أكثر كفاءة في القتال وينقذ روحه من الضياع. وهي تحاول في كتابها اكتشاف هذه الأطر الأخلاقية التي وضعتها الثقافات والحضارات المختلفة لمحاربيها وجنودها.

وهي تستخدم الأدب في دراستها إلى جانب الدراسات التاريخية، حيث تجد جزءًا من مادتها في الإلياذة على سبيل المثال. يتناول الكتاب أخلاق المحاربين عند اليونان والرومان وقبائل الفايكنج وكذلك فرسان المائدة المستديرة ومقاتلي الساموراي في اليابان والكونج فو في الصين.

■

The Monuments of Egypt and Nubia

(آثار مصر والنوبة)

Ippolito Rosellini

Auc press, LE. 100, 2003



مؤلف هذا الكتاب روسوليني ولد في إيطاليا عام ١٨٠٠ ودرس آثار مصر

وساهم في فك شفرة اللغة الهيروغليفية، وفوق ذلك كله فإن إسهامه الأكبر لعلم المصريات يتمثل في هذا الكتاب «آثار مصر والنوبة». ويعد المؤلف من الجيل الأول لعلماء المصريات الغربيين الذين ظهروا في القرن التاسع عشر، وعقب رحلة طويلة قام بها لمصر مع مجموعة من الباحثين الآخرين، يقدم المؤلف إسهامًا فريدًا للتعريف بالآثار المصرية القديمة. ويضم الكتاب ١٢٠ رسمًا توضيحيًا.

■

The New Arab Family - Cairo Papers

(الأسرة العربية الجديدة)

Edited by Nicholas s. Hopkins

Auc press, LE. 15, 2003

هذا الكتاب هو طبعة منقحة لمجموعة من الأوراق مقدمة لمنتدى القاهرة السنوي التاسع الذي انعقد في مايو ٢٠٠٠. وتركزت الأبحاث المقدمة في هذا المؤتمر على الزواج والطلاق والموضوعات ذات الصلة وبشكل خاص النواحي السكانية أو الديموجرافية.

ويغطي الكتاب معظم دول العالم العربي لكنه يركز بشكل خاص على مصر، وبالإضافة إلى ذلك، فإن الأوراق تقدم أبحاثًا عامة حول موضوع السكان من مناطق مختلفة في العالم العربي.

■

The Crisis of Islam: Holy War & Unholy Terror

(أزمة الإسلام: حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس)

Bernard Lewis

Modern Library, 2003, 144PP., $19.95

أحدث ما كتبه المستشرق برنارد لويس بعد كتابه الذي نشر في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر. هذا الكتاب صدر الشهر الماضي وهو يعد نسخة مطولة من مقال نشر للمؤلف في مجلة «نيويوركر»، وهو لا يعالج أحداثًا جديدة وإنما يتناول ما يراه جذور عداء المسلمين للغرب منذ الحملات الصليبية وخلال الاحتلال الأوروبي وحتى صعود الولايات المتحدة كقوة إمبريالية في المنطقة منذ مرحلة الحرب الباردة.

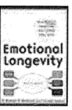
■

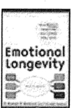
Emotional Longevity: What Really Determines How Long you Live

(طول العمر العاطفي: ما يحدد فعلاً كم من العمر تعيش)

Norman Anderson

Viking, 2003, 318PP., $24.95





المؤلف هو رئيس جمعية الأطباء النفسيين الأمريكية، وهو يعتقد أنه آن الأوان لتبني رؤية جديدة للصحة والطب من أجل فهم ظاهرة طول العمر أو التعمير.

فبدلاً من الرؤية التقليدية للصحة البدنية يقول أندرسون إن التفاعل بين ستة عوامل هو الذي يفسر الاختلافات في طول عمر البشر. هذه العوامل هي البيولوجية والنفسية والسلوكية والاقتصادية والدينية/الروحية والعاطفية. فالمؤلف مصمم على أنه يجب أن يكون هناك سبب علمي يفسر شفاء بعض الأشخاص من الأمراض المستعصية مثل الأزمات القلبية بينما يظل أشخاص آخرون تحت وطأة المرض.

■

Jefferson's Great Gamble: The Remarkable Story of Jefferson, Napoleon and the Men Behind the Louisiana Purchase

(مقامرة جيفرسون الكبرى: القصة الخارقة لجيفرسون ونابليون وصفقة شراء ولاية لويزيانا)

Charles Cerami

Sourcebooks, 2003, 320PP., $22.95





صدر هذا الكتاب ليواكب ذكرى مرور مائتي عام على صفقة شراء ولاية لويزيانا الأمريكية. اشترك في هذه الصفقة عدد من الشخصيات السياسية الأمريكية مثل جيفرسون وماديسون ومونرو، استطاعوا أن يخدعوا نابليون بونابرت بألعاب دبلوماسية استمرت ثلاثين شهرًا.

فقبل هذه الصفقة بعامين كانت الولايات المتحدة وفرنسا على وشك الاشتباك في حرب من أجل ميناء نيو أورليانز، وكان توماس جيفرسون الذي رأس الولايات المتحدة عام ١٨٠١ على وعي بأن مستقبل الولايات المتحدة يقع في هذه الولاية التي تمر بها الملاحة في نهر المسيسبي وتصب في ميناء نيو أورليانز. ثم اكتشف جيفرسون أن بونابرت أقنع أسبانيا سرًا بالتخلي عن لويزيانا لصالح فرنسا وأنه قد أرسل جيوشه للاستحواذ على الميناء. كان الحل الوحيد أمام جيفرسون هو المقامرة! أي إقناع نابليون بأن الولايات المتحدة مستعدة للدخول في حرب من أجل هذا الميناء وهو يعلم أنه ليس في جيشه أكثر من ألف جندي. ومع ذلك فقد قام بخداع نابليون وجعله يصدق أن الولايات المتحدة تستطيع أن تنتصر في تلك الحرب.

■

Leap of Faith: Memoirs of an Unexpected Life

(قفزة إيمان: مذكرات حياة غير متوقعة)

Queen Noor Al Hussein of Jordan

Miramax, 2003, 467PP., $25.95

مذكرات الملكة نور، آخر زوجات ملك الأردن الراحل، الملك حسين. تحكي الملكة نور في البداية عن نشأتها في الولايات المتحدة، حيث ولدت «ليسا حلبي» لأسرة أمريكية ثرية من أصل عربي مسيحي. وكانت «ليسا» قد أنهت دراستها في برنستون وبدأت عملها في مجال التخطيط العمراني عندما التقت بالملك حسين حيث كانت تربطه علاقات عمل مع والدها الذي يعمل في مجال الطيران. كانت في السادسة والعشرين من عمرها، وكان الملك في الحادية والأربعين، وكان قد فقد زوجته الثالثة في حادث أليم. بعد قليل أسلمت «ليسا» وسماها الملكة نور، وتزوجا في صيف ١٩٧٨.

في الجزء الثاني من الكتاب تتناول مذكرات الملكة نور الملك حسين وجهوده من أجل الوحدة العربية والتعايش السلمي مع إسرائيل. فتروي تفاصيل عدد من الاجتماعات التي ضمت الرئيس عرفات وصدام حسين ورؤساء أمريكيين. وتنتهي مذكرات الملكة نور بوفاة الملك حسين عام ١٩٩٩.

■

Dark Star Safari: Overland From Cairo to Cape Town

(سفاري النجم الأسمر: من القاهرة إلى كيب تاون برًا)

Paul Theroux

Houghton Mifflin, 2003,

472PP., $28.00



رحلة بالبر في شرق القارة الأفريقية، من القاهرة شمالاً إلى كيب تاون جنوبًا. قام بهذه الرحلة منذ عامين الكاتب الأمريكي المعاصر بول ثيرو الذي اشتهر بكتابة أدب الرحلات. ولملاحظات بول ثيرو عن بلدان القارة السوداء أهمية خاصة لأنه قام بهذه الرحلة من قبل في الستينيات، أي عندما كانت القارة تتحرر من الاحتلال الأوروبي وفي أوائل عهدها بالاستقلال. يقول ثيرو إنه وجد أفريقيا في هذه الرحلة «أكثر جوعًا وفقرًا، وأقل تعليمًا، وأعمق تشاؤمًا وفسادًا» مما كانت عليه منذ أربعين عامًا.

كذلك فإن ثيرو ينتقد بشكل حاد لفرق الأجنبية التي تعمل في بلدان القارة المختلفة في إطار تقديم المعونات الخارجية، فهو يرى أن أموال هذه المعونات تفسد كلا من المانح والممنوح له.

الجدير بالذكر أن المؤلف زار الأديب المصري نجيب محفوظ في منزله أثناء مروره بالقاهرة وكتب عن لقائه به في هذا الكتاب، كما أنه زار أيضًا الأديبة نادين جورديمر من جنوب أفريقيا والحائزة هي الأخرى على جائزة نوبل في الآداب.

■

Crescent

(هلال)

Diana Abu-Jaber

Norton, 2003, 352PP., $24.95



الرواية الثانية لديانا أبو جابر، وهي كاتبة أمريكية من أصل عربي.. تدور الرواية حول قصة حب تجمع بين «سيرين» التي تعمل طاهية للمأكولات العربية في أحد المقاهي في مدينة لوس أنجيلوس، وأستاذ لدراسات الشرق الأدنى يدعى «حنيف». يتضح من أحداث الرواية أن «حنيف» منفى من العراق، وأن أخاه محبوس في سجون صدام حسين

■




العرب وموسم الهجرة إلى الديمقراطية

▩ أين يقف العرب بعد صدمة الحرب وما أسفرت عنه من نتائج أدت إلى تدمير بغداد، وسقوط النظام العراقي، وانهيار مؤسساته، وفرار أو قتل قياداته، ووقوع العراق - أحد الأركان الأساسية في النظام العربي - تحت سطوة احتلال أمريكي من طراز جديد، أعاد عقارب الساعة إلى مرحلة ما قبل الاستقلال؟

بعض الذين صفقوا لسقوط نظام صدام، وانتحاره سياسيًا وعسكريًا وعقائديًا، لم يدركوا أن سقوطه لم يؤد إلى سقوط «الفكر الصدامي» كنظام سياسي في العالم العربي. وأن السقوط الحقيقي كان يمكن أن يتحقق بشرطين: أن يتم ذلك بيد الشعب العراقي وبناء على تغيرات جذرية في المجتمع العراقي نفسه. يقطف الشعب ثمارها ويعيد بناء حاضره ومستقبله بكامل إرادته واختياره الحر، وطبقًا للمواصفات التي يضعها الشعب لنفسه ويتراضى عليها. والشرط الثاني أن تعمل صدمة السقوط عملها في النظام السياسي العربي. على نحو ما أدى سقوط حائط برلين إلى تغيير جذري كامل في النظم الشيوعية التي حكمت دول أوروبا الشرقية، فأطلقتها من أسر النظام الشمولي، وحررتها من الجمود العقائدي، ووضعتها على مدارج الحرية والديمقراطية، لتصبح بعد مرور عشر سنوات جزءًا لايتجزأ من تيار عالمي واسع يتحرك في اتجاه واحد نحو التقدم.

ولا يبدو أن أيًا من الشرطين قد تحقق أو بسبيله إلى التحقق..

فقد أحدث استخدام القوة العسكرية الأمريكية الرهيبة بكل عنفوانها، حالة ذعر بين النخب الحاكمة في العالم العربي، سوف يجعلها أكثر حرصًا على حماية نظمها داخليًا من عوامل التغيير والتطوير من ناحية، وأكثر انصياعًا لتلبية شروط القوة الكبرى المهيمنة من ناحية أخرى. وتكاد النخب العربية الحاكمة أن تكون على يقين من أن تحول أمريكا من هدف نزع أسلحة الدمار الشامل التي اتهم العراق بحيازتها، إلى هدف إزاحة النظام الصدامي ممثلاً في شخص صدام والذين معه، لم يكن يستهدف إصلاح النظام السياسي العراقي لكي يذوق الشعب العراقي طعم الديمقراطية والحرية وينعم بثرواته المنهوبة من حزب البعث، بقدر ما كان يستهدف نزع شوكة مستعصية في جنب النظام العربي، الذي قدم منذ حرب الخليج الثانية بعد تحرير الكويت أوراق اعتماده كاملة للولايات المتحدة الأمريكية.. فما الذي يمنع من أن تستمر الأوضاع السياسية القائمة في العالم العربي، إذا استجابت الأنظمة للمطالب الأمريكية وخططها الاستراتيجية؟



لقد أقامت معظم الدول العربية حساباتها، منذ اللحظة التي تأكد فيها عزم أمريكا على ضرب العراق وربما قبل ذلك، على أساس ممالأة أمريكا سرًا أو علنًا، ومسايرتها في تحقيق أهدافها. وهو نوع من التقية العربية المعروفة في التاريخ الإسلامي، القائمة على مداهنة الخصم الأقوى تجنبًا لشروره وانتقامه وأملاً في تأييده ودعمه.. فليذهب صدام ونظامه إلى الجحيم مقابل أن يتركهم الأمريكان على حالهم.. ربما مع بعض الإجراءات الشكلية، وعمليات التجميل السياسية، والإصلاحات التشريعية التي تقوم على إصدار قوانين لا تنفذ.

ومنذ بعض الوقت خطت نظم سياسية عربية عديدة في هذا الطريق. فأقامت تعددية سياسية ولكن بدون تعددية حزبية حقيقية.. وإذا كانت هناك أحزاب فليس مسموحًا لها بتداول السلطة.. وسمحت بحرية التعبير فأصدرت الصحف وأطلقت الأقمار الصناعية والفضائيات ولكنها ظلت مقيدة بما تسمح أو لا تسمح به السلطة. وسارعت معظمها إلى إصدار دساتير ولكن هذا لم يمنع من تجاهل نصوصها أو تعديلها بحسب الطلب.

ولهذا السبب، أعرب بعض المعلقين الأمريكيين عن دهشتهم لأن سقوط «حائط بغداد العراقي» لم يفتح الثغرة التي ظن الأمريكيون أنهم قادرون على فتحها في النظام العربي. وزادت دهشتهم لأن أحدًا لم يصدق أنهم جاءوا لتحرير العراق ونشر الحرية والديمقراطية والسلام في العالم العربي. بل زاد عداء النخب المثقفة للقوة العسكرية الأمريكية التي أسقطت النظام الصدامي، ولم تر فيها تحريرًا للشعب العراقي بقدر ما رأوا فيها استعمارًا أمريكيًا صريحًا أطاح باستقلال دولة عربية كبرى، وأصبح يهدد استقلال دول عربية أخرى ويتوعدها بفرض شروط لا قبل لها بها. هذا الاستعمار الجديد القديم يستخدم نفس الحجج التي استخدمها الاستعمار، في القرنين التاسع عشر والعشرين، ونصب عينيه ثروات نفطية، وأسواق تجارية، وممرات مائية، ومواقع استراتيجية.

هناك واقع جديد يهدد استقلال جميع الدول العربية. ولا يفتأ الأمريكيون يتحدثون عنه ويؤكدون على أن هذا الواقع الجديد الذي فرضته القوة العسكرية الأمريكية لا يملك أحد مقاومته أو معارضته. بل ولا خيار أمام شعوب المنطقة وحكوماتها غير التكيف معه. وقد سارعت بالفعل دول عربية كثيرة إلى إبداء استعدادها للتكيف ولو جزئيًا. ليس عن اقتناع بضرورة التغيير وليس عن اختيار كامل وبإرادة حرة، ولكن تجاوبًا مع ما يمليه الواقع الجديد خوفًا على استقلالها أو ما تبقى منه.



إزاء هذه المعضلات الصعبة لا تملك النخب المثقفة في العالم العربي أن تتوقف عن التفكير في التجارب السياسية العربية، ولماذا فشلت؟ لماذا فشلت تجربة ثورة يوليو وحركة القومية العربية؟ ولماذا فشلت تجربة البعث الاشتراكي بجناحيه في العراق وسوريا؟ ولماذا أخفقت التجربة الإسلامية في السودان ومازالت تتخبط في إيران؟ كل التجارب السياسية العربية والإسلامية منيت بهزيمة منكرة على يد قوى خارجية أو على يد قوى داخلية أو كليهما معًا. وظل الجسد العربي مثخنًا بجراحه، عليلاً بأمراضه، عاجزًا عن النهوض من رقدة العدم، ولم يستطع المثقفون أن ينهضوا بدورهم في تحديث مجتمعاتهم.

ربما ازداد العرب ثراء في الأموال وعائدات البترول وفي القصور الفاخرة ومظاهر السلطة وأساليب القمع وإجراءات الأمن، ولكنهم ازدادوا فقرًا في الحرية والديمقراطية والتعليم والعلم والارتفاع بمستوى شعوبهم. ومازالت المنطقة العربية هي الثقب الأسود في مضمار حرية الشعوب وتقدمها.

لقد كررت «الصدامية» أخطاء ثورة يوليو بل زادت عليها، لأنها حولت الشعب العراقي إلى آلة عمياء، تمجد شخصًا واحدًا يملك العبقرية والإلهام، وتركع تحت أقدام نظام لا يعرف الرحمة مع خصومه ولا يعرف التسامح مع أتباعه، ولا يؤمن بحق الشعوب في مشاركة السلطة، ولا يتورع عن استخدام الغازات السامة في قمع معارضيه.

غير أن استخدام القوة العسكرية من قوة خارجية أيضًا مرفوض، لأن الحرب لا تقل قسوة عن الطغيان السياسي. فهي تدمر الإنسان بنفس الدرجة وتقتل روحه، وتعطل إبداعه، وتخلق جيلاً من المرتزقة والانتهازيين الذين يمالئون السلطة الأجنبية في محاولة للاستفادة من ورائها، وارتقاء سلم الحكم سعيًا وراء الثروة والنفوذ وليس من أجل شعوبهم.. وهو المصير الذي ينتظر شعب العراق تحت الاستعمار الأمريكي.

ومن هنا يصبح حتمًا على النخب الثقافية والسياسية أن تؤمن بضرورة التغيير وتعمل على تحقيقه. لا يهم إذا كانت الضغوط الأمريكية تسعى إلى تغيير النظم التعليمية والنظم السياسية بحجة أنها مصدر الإرهاب والتخلف والتعصب الذي فرض على العالم العربي هذا الوضع المهين الذي انتهى بسقوط صدام ونظامه على يد قوة أجنبية. فقد يكون ذلك صحيحًا ومطلوبًا ولكن المهم أن نقتنع نحن بضرورة التغيير.. تغيير في النظم السياسية وفي التعليم وفي الفكر الديني وفي مجالات الثقافة والفن.. وإذا كان موسم الهجرة إلى الديمقراطية للعرب قد بدأ، فليكن ذلك بيدنا وليس بيد غيرنا. فقد سقطت أي مسوغات لتأخير الديمقراطية بحجة أن مجتمعاتنا لم تتهيأ لها بعد.

ماعسانا نفعل ونحن لا نعرف كيف ولا متى تنتهي المحنة التي قضت على استقلال العراق، ووضعت العالم العربي في أضعف الحالات التي تهدد باستقلاله سوى أن نخلص إلى نتيجة واحدة هي أنه إذا مرت هذه الحقبة على العرب دون نهاية للنظم السلطوية السائدة، فقد يخرج العالم العربي من سياق التاريخ إلى غير رجعة!

سلامة أحمد سلامة

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 53 - June 2003

مجلة شهرية . العدد الثالث والخمسون . السنة الخامسة . يونيو ٢٠٠٣ . الثمن عشرة جنيهات

قراءة فى أوراق إدارة بوش .. وعقلها!

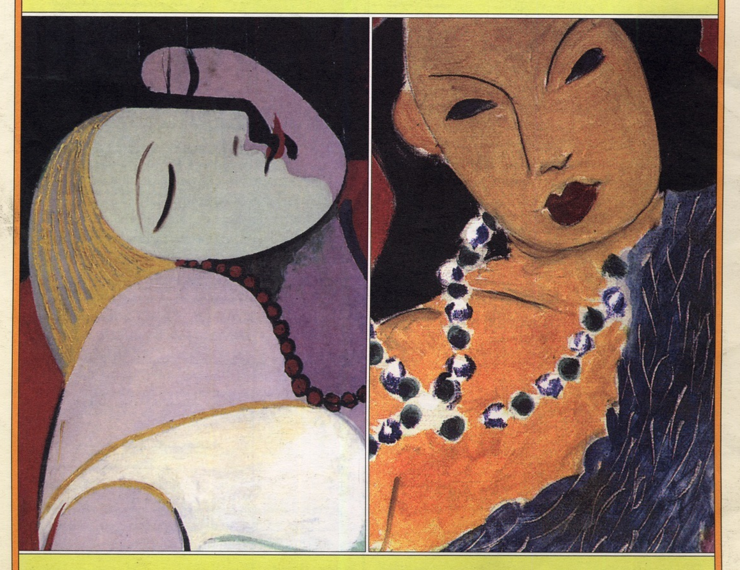
محمد حسنين هيكل

◆◆◆

أمن إسرائيل استراتيجية امريكية / عزمى بشارة ◆ تراجيديا كربلاء / فاروق عبد القادر

اليوجينيا حرب وراثية / أحمد مستجير ◆ إبحار فى محيط اللغة / شوقى ضيف

مائة بن لادن ؟! / أيمن الصياد ◆ نون : تعديل المناهج بيدى أم بيد عمرو ؟! / سلامة أحمد سلامة



ماتيس وبيكاسو .. الصديقان الغريمان فى معرض واحد ! / أحمد مرسى

احصل الآن

مع "وثيقة البنك العربى ذات العائد متعدد العملات ٢" على

١٤٪

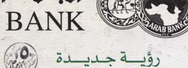
واستفد من هذا الفارق الكبير بين سعرى الفائدة بين الجنيه المصرى والعملات الأجنبية، مع ضمان تلبية احتياجاتك من العملات الحرة

- يتم استبدال اية مبالغ من العملات الحرة ترغب فى تحويلها الى الجنيه المصرى عن طريق البنك وفقاً للأسعار المعلنه.
- الحد الأدنى للوثيقة ٢٥ ألف جنيه مصرى.
- مدة الوثيقة ثلاث سنوات قابلة للتجديد.
- العائد متغير ويصرف كل ٣ شهور.
- يجوز الحصول على العائد بالدولار الأمريكى أو أيه عملة محسوباً بالسعر المعلن يوم صرفه.
- يمكن استرداد قيمة الوثيقة بالجنيه المصرى بعد ٦ أشهر من تاريخ الاصدار (وفقاً لجداول الاسترداد).

لمزيد من المعلومات إتصل بـ ١٩١٠٠ بالإضافة إلى ٢٢ ٩٩ ٣٣١

(٧ أيام فى الأسبوع من ٩ صباحاً حتى ٩ مساءاً)





رؤيــة جديــدة

www.arabbank.com

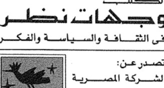
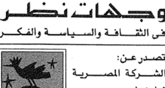
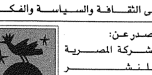
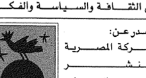
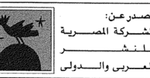
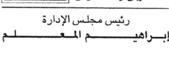
RESALA

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

السنة الخامسة
العدد الثالث والخمسون
يونيو ٢٠٠٣

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم



محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أحمد مرسى.. فنان وشاعر مصرى مقيم فى نيويورك.
- أحمد مستجير.. أستاذ بكلية الزراعة بجامعة القاهرة.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- جون شميد.. كاتب أمريكى.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- شوقى ضيف.. رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- عُبادة كُحيلة.. أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب - جامعة القاهرة
- عزمى بشارة.. سياسى وأكاديمى من عرب إسرائيل.
- فاروق عبدالقادر.. كاتب.
- كاثلين كريستسن.. كاتبة أمريكية متخصصة فى الشأن الفلسطينى.
- ليلى إبراهيم أبو المجد.. أستاذ الدراسات العبرية بكلية الآداب جامعة عين شمس.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.

رسوم العدد للفنانين:
محمد حجى - سعد الدين شحاتة - أحمد اللباد





المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير) e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت www.weghatnazar.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عددا) شاملة أجرة البريد: داخل مصر ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى ٦٠ دولارا أمريكيا - أوروبا وأفريقيا ٧٠ دولارا أمريكيا - أمريكا وكندا ٨٠ دولارا أمريكيا. باقى دول العالم ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى. ص. ب: ٣٣ البانوراما. مدينة نصر
هاتف ٤٠٢٣٣٩٩. فاكس ٤٠٤٨٥٤٦. e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية. السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهما - تونس ٤ دنانير. اليمن ٣٠٠ ريال. فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

كـلـمـة..

المثقف.. والموسوعة.. والفن

أن ينشغل كاتب بعمل واحد نصف عمره فهذه قصة. وأن يتصدى العمل لما هو غير مسبوق فى ثقافتنا العربية.. نصبح إزاء قصة أخرى. تشهدُ بعض تفاصيلها زوابع يستوجبها إقدام المبادرة. وتستدعى كلُ فصولها دهشةً وإعجابًا وتقديرًا بجهد فذ وراء عمل يبقى الأول من نوعه فى المكتبة العربية.

هذا الكتاب.. الموسوعة، أخذ من صاحبه أربعين عامًا من الزمان.. والجهد والبحث والعرق. ليخرج عملاً فريدًا. يحمل عنوانًا لا يقدر عليه ربما غير صاحب الكتاب والجهد، وهذه النوعية من الثقافة: «العين تسمع والأذن ترى».

أكثر من ثلاثين جزءًا / كتابًا تضمه تلك الموسوعة حتى الآن. أولها كان عن الفن فى مصر القديمة. وآخرها يصدر قريبًا عن «دار الشروق» فى ثلاثة أجزاء تتناول الفنون الآسيوية (هندية وصينية ويابانية).

صاحب تلك الموسوعة المثقف السوربونى (الثمانينى) الذى ارتبط اسمه بالثقافة منذ كان وزيرًا لها فى تلك الأيام الجميلة التى لا تتكرر (١٩٥٨ ـ ١٩٦٢) ثم (١٩٦٦ ـ ١٩٧٠): د. ثروت عكاشه؛ أحد رواد حركة التنوير الثقافى فى عالمنا العربى. خريج كلية «أركان الحرب» الذى حصل على الدكتوراه فى الآداب من جامعة السوربون ١٩٦٠. والذى يشهد له تاريخ الثقافة إنجازه مشروع إنقاذ آثار النوبة ومعبد أبوسمبل ومعبد فيلة فضلاً عن إنشاء معاهد السينما والمسرح والباليه والكونسرفتوار، وإقامة دار الكتب والوثائق القومية وقصور الثقافة وفريقى الأوبرا والباليه قبل أن يتم اختياره نائبًا لرئيس اللجنة الدولية لانقاذ مدينة فينسيا وتراثها (١٩٦٩ ـ ١٩٧٨).



يعرف الكافة أن المشكلة الأولى التى تعترض المثقفين بعامة، والمتعطشين إلى الثقافة بخاصة هى «كيفية قراءة العمل الفنى» سواء كان رقصة باليه أو لوحة فنية أو معزوفة موسيقية أو تمثالاً، فإن المتلقى عادةً يستقبل العمل بمشاعره المجردة وبتذوقه التلقائى والفطرى محتكمًا إلى مزاجه الخاص فيحكم له أو عليه دون الرجوع إلى المقاييس التى استقرت فى وجدان الإنسان وثبتت عبر الزمن.

هنا تأتى قيمة موسوعة ثروت عكاشه الفنية. والتى كان جزؤها الخاص بالفن العراقي القديم (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٤) عونًا لـ«وجهات نظر» عندما احتجنا فى العدد الماضى صورًا لمقتنيات متحف بغداد الذى تعرض للنهب بعد الاحتلال الأمريكى.



كان الفنان حسين بيكار يقول إن تذوق العمل الفنى ظل مقصورًا على ما يحتويه العمل من موضوعات ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالحياة العامة أو الخاصة، وكيفية تناول الفنان وسرده لهذه الموضوعات.. ولذلك كان التقييم محصورًا فى الجانب الأدبى أو المعنوى للعمل، وليس فيما وراء قشرته الظاهرية من عناصر تقنية وفنية وجمالية، وهى الأساسيات التى تمنحه قيمته الرفيعة وتجعله يتصدر نظائره من المنجزات الأخرى.

إن كل ما يعرفه الجمهور مثلاً عن رائعة ليوناردو دافنشى الخالدة «الجيوكاندا» هو ابتسامتها الساحرة وأناملها البضة، ونظرتها الحالمة التى تلاحق الرائى أينما اتجه، أما ما وراء هذه الظواهر من قيم ومضامين فنية وتشكيلية فهذا مالايدركه إلا الصفوة المتخصصين أو النقاد. وإذا كانت هذه الجزئية الموضوعية فى الماضى تجذب المتلقى إلى العمل الفنى وتطوى مشاعره فى تلافيف نشوة عاطفية غامرة لا شأن لها بجوهر الفن وجمالياته، فإن ما طرأ على الساحة الإبداعية فى السنوات الأخيرة من تطورات فكرية قد باعد بين الجمهور وبين الفن وألقى به فى دوامة من الطلاسم التخصصية التى تفوق إدراكه، مما أدى إلى اتساع الفجوة بين الفن والجمهور وزيادة الأمية الفنية والثقافية بين عامة الناس.

وهناك فرقٌ بين التذوق الدارج وبين الوعى الناضج. فالمتلقى العادى يستقبل العمل الفنى منقادًا بحاسة فطرية غير مثقفة تسلمه إلى حالة انطباعية من القبول أو الرفض دون أن يدرى لماذا. أما المتلقى الواعى الذى لديه خلفية ثقافية عن الفن الذى يواجهه فإن استمتاعه بالعمل يكون مضاعفًا. ولا عجب أن نرى أغلب الحاضرين فى العروض الموسيقية يمسكون بالنص الموسيقى المكتوب ويتابعون العزف والأداء والقيادة لحظة بلحظة، ويستمتعون بكل حركة أو جملة استمتاعًا مضاعفًا. فهم مستمعون ونقاد فى الوقت نفسه. وهذا هو الفرق بين التذوق والوعى المثقف.



فى «وجهات نظر» ندرك أهمية ما تحدث عنه بيكار. ونحرص على أن نخصص من حين لآخر عددًا من صفحاتها لما يمكن اعتباره ثقافة فنية. فنعرضُ فى هذا العدد قراءةً «فنيةً» لمعرض أُقيم فى نيويورك أخيرًا للوحات بيكاسو وماتيس.

وجهات نظر

محمد حسنين هيكل



قراءة فى أوراق

أولا: محاولة للبحث عن الحقيقة!

■■ تفضل كثيرون غيرى وسبقوا إلى عرض واحد من أهم الكتب السياسية التى صدرت فى الولايات المتحدة عن رئاسة «جورج بوش» (الابن)، والذى ظهر تحت عنوان «بوش فى حرب» (Bush at War) - ومؤلفه «بوب وودوارد» هو الصحفى الأكثر اطلاعا فى العاصمة الأمريكية - ويشغل الآن منصب مدير تحرير جريدة الواشنطن بوست - الجريدة الأكثر نفوذا فى العاصمة الأمريكية.

وكان «بوب وودوارد» قد بدأ صعوده إلى القمة منذ قام (مع زميله «كارل برنشتين») بتفجير فضيحة «ووترجيت» التى كسرت رئاسة «ريتشارد نيكسون» (سنة ١٩٧٤)، وأدت إلى استقالته من رئاسة الولايات المتحدة، ومن يومها راح «بوب وودوارد» يتقدم حتى أصبح الآن عميد «صحافة التحقيق» التى أثبتت كفاءتها فى النفاذ إلى دخائل السياسة، والغوص فى خباياها، وتغطية أكبر مساحة من وقائعها، وكشف أدق أسرارها.

....

....

[وهذه مدرسة صحفية تدرك أن النفاذ إلى العمق - حق قارئ لا يعنيه ولا يرضيه أن تنحصر مهمة الصحافة فى مدح السلطان والإشادة بعظمته فيما فعل ولم يفعل، وتعرف - أيضا - أن قارئها يستطيع النظر إلى سطح الحوادث من متابعة التليفزيون، فى حين أن الكلمة المكتوبة - حياتها وشبابها - أصبحت موصولة بقدرتها على النفاذ إلى عمق لا تستطيع الصور أن تبلغه - أى بقدرتها على الذهاب وراء السطح بكل ما يتزاحم فوقه من اجتماعات واستقبالات ومراسم واحتفالات، وتصريحات وبيانات - وتلك كلها فى هذه الأزمنة وسائل تزويق وليست مناهج توثيق!].

....

....

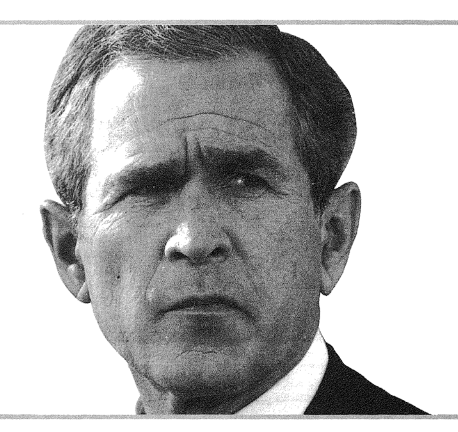
وبرغم أن كتاب «بوب وودوارد» ظهر أواخر سنة ٢٠٠٢، وبرغم أن غيرى سبق إلى عرضه كما أسلفت، فإننى أعود اليوم إليه بمنطق ربما يكون مختلفا لأنه لا يعرض للكتاب فى مجمله، وإنما يركز على صور محددة فى سياقه تكشف - أو كذلك ظنى - عن جواب سؤال يشغلنى، ولعله يشغل غيرى - مؤداه:

«كيف تحول المشروع الإمبراطورى الأمريكى من الحرب ضد الإرهاب إلى حرب ضد العراق؟، وكيف انتقلت بؤرة الحوادث فيما جرى يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ من نيويورك إلى كابول - ثم من كابول إلى بغداد؟، ثم كيف وقع استبدال الأقنعة من ملامح الشيخ «أسامة بن لادن» إلى ملامح الرئيس «صدام حسين» بهذه السرعة؟

والسؤال ليس فقط عن كيف؟، ولكن بعده عن من؟ ومتى؟، وأين؟، ولماذا؟ (وتلك أسئلة أولية - خصوصا فى صحافة التحقيقات التى يمثلها نجوم من مستوى «بوب وودوارد»، و«سيمور هيرش» وغيرهما!).

ومع التسليم - كما طرحت فى أحاديث سبقت - بأن المطلب الأصلى للسياسة الأمريكية فى القرن الجديد - إمبراطورى مزدوج المقاصد فى الشرق الأوسط: يبسط السيطرة على أرضه (باعتبارها قلب العالم من بداية التاريخ وحتى حاضره)، ويمد يده إلى مكامن البترول تحتها (باعتبارها محرك التقدم المضمون حتى هذه اللحظة)، فإن تلك النقلة السريعة من نيويورك إلى كابول، ومن كابول إلى بغداد تظل لافتة للنظر، وداعية إلى التفكير من زاوية كشفها لمنطق القوة الأعظم فى هذا العصر، وفحصها لتركيب وترتيب عقلها، وأسلوبها فى اعتماد السياسات، ونظرها إلى الحوادث، وتقييمها للأطراف، ونبرة خطابها الموجه إلى عالم لابد له أن يهتم ويأخذ ما يراه جدا، لأن القرار الأمريكى - بصرف النظر عن كافة الاعتبارات - مؤثر فى الدنيا حيث يرضى الآخرون - وحيث لا يرضون!

وقد اخترت أن أعتمد فيما أعرضه من كتاب «بوب وودوارد» على أسلوب أشبه بعرض شريط صور، بظن أن ذلك أقرب إلى روح الكتاب، وكذلك أقرب إلى «المزاج الأمريكى» الذى أعطى للعالم «فن السينما» (الفن السابع) - وهو فن يقدم رؤيته لأى موضوع يتناوله فى شريط صور تتتابع إطاراته بسرعة وتكون من سرعتها حركة متصلة، يظهر فيها «الأبطال» بشخصياتهم ومواقفهم وانفعالاتهم وتعبيراتهم عن نواياهم وحتى غرائزهم، إطارا وراء إطار - حكاية وراء حكاية - فكرة وراء فكرة، بحيث يصل العرض فى النهاية إلى رواية لها دلالة - وأحيانا لها قيمة!



إدارة «بوش» وعقلها!

والحقيقة أن كتاب «بوب وودوارد» قصة سينمائية من الدرجة الأولى، وهى قصة تعترف صراحة أنها تنقل عن الحقيقة ولا تتبرأ منها (كما فى بعض أفلام السينما حين ينبه أصحابها مقدما إلى أن أى تشابه بين وقائعهم وأبطالها مع الحقيقة مجرد مصادفة غير مقصودة!) - بل إن الأمر فى هذه الحالة مختلف، لأن الأبطال فى رواية «وودوارد» وبأشخاصهم وذواتهم - بملامحهم وألسنتهم هم الذين يقصون ويحكون، ويقدمون الدليل على صحة ما يقولون. ففى مقدمة الكتاب سجل مؤلفه (وأكد البيت الأبيض) أنه قبل أن يدق حرفا على الكمبيوتر - التقى مرتين بالرئيس «جورج بوش»: مرة فى مكتبه فى البيت الأبيض لمدة ساعة ونصف الساعة فى ديسمبر سنة ٢٠٠١، ومرة ثانية فى مزرعته (كراوفورد) تكساس فى أغسطس سنة ٢٠٠٢ لمدة ساعتين و٢٥ دقيقة.

ثم يسجل «بوب وودوارد» ضمن المقدمة أنه حصل على تصريح سمح له بان يقرأ محاضر خمسين جلسة لاجتماعات مجلس الأمن القومى، وأنه حين بدأ يعد لكتابه استأذن أن يستعمل بعض النصوص مما قرأ بحروفها، وكما أوردتها المذكرات والمحاضرات فى جلسات صنع القرار.

وأخيرا يقرر «بوب وودوارد» أنه قابل مائة رجل وامرأة من الذين كان لهم دور فى صنع الحوادث فى واشنطن ضمن إدارة «جورج بوش» (الابن) على امتداد سنة ٢٠٠١ وحتى ديسمبر سنة ٢٠٠٢ حين مثل كتابه للطبع، ثم يحدد قائمة بأسماء هؤلاء الرجال والنساء الذين قابلهم أثناء جمعه لمادة كتابه - والقائمة تضم أسماء كل من:

رئيس الولايات المتحدة «جورج بوش»
- نائب الرئيس «ريتشارد تشينى» - وزير الخارجية «كولين باول» - وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» - مستشارة الأمن القومى للرئيس «كونداليزا رايس» - مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية «جورج تنيت» - رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة الجنرال «ريتشارد مايز» - رئيس أركان البيت الأبيض «أندرو كارد» - قائد القيادة المركزية الأمريكية الجنرال «تومى فرانكس» - وزير العدل «جون آشكروفت» - رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالى «روبرت موللر» - كبير مستشارى الرئيس «كارل روث» - والقائمة بعد ذلك متواصلة تكاد أن تكون مرجعا شاملا لأقوى مائة رجل وامرأة فى الإدارة الأمريكية الحالية.

ومعنى ذلك أن الصور التى يعرضها «بوب وودوارد» أصلية، وأن المواقف والنصوص دقيقة، وأن السياق المتوالى للحركة صحيح، وأن الحوارات والمناقشات أمينة، وبالتالى فإن القصة كما يرويها يصح اعتمادها ويجوز البحث على أساسها، حتى وإن تعددت فيه وجهات النظر عند التفسير والتحليل.

....

....

[والشاهد أن تعدد الآراء فى التفسير والتحليل لا تكون له قيمة إلا إذا كان عن معرفة ودراية بالحقائق وليس أخذا بالظنون تحسب نفسها تعرف بظاهر ما ترى، وهو على أحسن الفروض جزء من الحقيقة لا يكفى لتأسيس رأى أو تأصيل فتوى، لأن الرأى والفتوى كلاهما يحتاج إلى إلمام بالموضوع، ومتابعة للوقائع، وسماع للشهود، ومداولة تمعن النظر حتى تستوفى جوانب قضيتها، ثم يكون الرأى بعد ذلك والفتوى عن اقتناع رصين وليس عن انطباع هوائى تأخذه الريح معها حيث تسافر!].

....

....

وكما يفعل أى خبير مقتدر فإن «بوب وودوارد» يخصص أول فصلين من كتابه - أى حتى صفحة ٢٩ - للقطات خاطفة تمهد لأجواء روايته، محاولا أن يستعيد مشاهد تلك الساعة المُرْعبة فى التاريخ الحديث (من الثامنة والنصف إلى التاسعة والنصف من صباح يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١)، وهى الساعة التى قيل أن الدنيا تغيرت بها، حتى أصبح ما بعدها مقطوع الصلة بما كان قبلها، (وتلك مقولة بولغ فيها عمدا ومع سبق الإصرار حتى تقدم حيثيات مغرضة لأحكام ظالمة، وجرائم وحشية تُرتكب باسم العدل والقانون والحرية والديمقراطية إلى آخره، مما يسترجع بعد قرنين من الزمان تلك الصيحة المأثورة عن مدام «دى ستايل» أيام فترة الإرهاب فى الثورة الفرنسية حين قالت: «أيتها الحرية - كم من الجرائم تُرْتكب باسمك!»).

BUSH AT WAR
BOB WOODWARD

THE RIGHT MAN
THE SURPRISE PRESIDENCY OF GEORGE W. BUSH
DAVID FRUM



وفى كتابه فإن «بوب وودوارد» يسترجع تلك اللحظات من صباح يوم ١١ سبتمبر، لكى يُهيئ قُرّاء كتابه برسم تأثيرى عام يسهل عليهم متابعة الحركة - وكذلك فإنه فى هذين الفصلين يبسط الأرضية، ويعد الخلفية، ويقدم الأبطال موحيا بشخصية كل منهم، وعلاقته بغيره، وسعى كل واحد منهم - حتى فى لحظة كارثة قومية - أن يعبر عن نفسه ويحقق غرضه. ومن خلال ذلك يعرض «وودوارد» لمحات من أحوال إدارة أمريكية غير منسجمة، لديها مشروع مُتفق عليه، لكن المسئولية عنه موزعة بين مجموعة رجال ونساء بينهم علاقات ملتبسة صنعتها خلافات سابقة، وشكوك متبادلة، وولاءات متعارضة، وكان يمكن للمشروع المشترك الجامع بينهم أن يذيب هذه الرواسب والعوائق، لكن ذلك لم يحدث لأن مسئوليته منوطة - بمنطق الأشياء - بإدارة عُليا واحدة يُفترض أن يقوم عليها الرجل الأول فى الإدارة وهو «جورج بوش» (الابن) (دوبيا)، لكن ذلك الرجل بالذات - فى تلك اللحظة بالتحديد - لم تكن لديه الأهلية، وبين الأسباب أن كبار معاونيه لم يكونوا مقتنعين بكفاءته، بل وكان بعضهم يتصور أنهم أليق منه بالجلوس على مقعد الرئاسة لولا محاذير المعارك الانتخابية وضرائبها الفادحة سياسيا وجسمانيا وإنسانيا!

والنتيجة أن هناك مشروعا إمبراطوريا متفقا عليه، لكن كل مسئول كبير فى الإدارة الجديدة اعتبر نفسه قيما عليه، ولم يكتف بأداء دوره، وإنما شك فى صلاحية غيره، وحاول أن يغتصب اختصاصه، ويسرق الكاميرا لحسابه الشخصى (كما يُقال فى صناعة السينما).

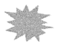
لكن السياسة - وهو طبيعى - تختلف عند هذا الحد عن السينما، وذلك لأن أى مشروع (إمبراطورى أو غير إمبراطورى) يجرى حساباته وتصوراته واستعداداته، ويرسم مشاهد البداية بالتفصيل، ويلقى ما عنده على الواقع الحى، ويكون ذلك كله بمثابة سؤال ينتظر جوابه - لأنه عندما تبدأ تفاعلات أى صراع أخذا وردا، فإن الحوادث تتدافع بغير نص متفق عليه - وهنا يختلف فن السينما عن حركة التاريخ، فالأولى سيناريو له بداية مقررة تمشى نحو نهاية مقررة، ولكن الثانية - السياسة (أى حركة التاريخ اليومية) - لها بداية مقدرة تتحرك نحو نهاية قد تكون مطلوبة، لكن مقاديرها مما يستحيل ضبطه وكتابته سلفا!

وهذا هو الفارق بين السينما والسياسة، لأن الأولى سيناريو يمسك به مخرج يحكم المشاهد، والثانية سيناريو تتولاه حقائق الحياة وعناصرها - ومفاجآتها أيضا - وبالتالى فهو ليس صراع شخصيات ومواقف مرسومة، وإنما صراع إرادات متقابلة ومتعارضة - والحوار فيه مفتوح على كل الاحتمالات! ■

ثانيا:

لابد من قدرة فعل تعبر عن قوة أمريكا!

■ وهكذا يبدأ «بوب وودوارد» كتابه بلمحات خاطفة أقرب إلى ضغط «فرشاة» اللون منها إلى لقطة الكاميرا!



لمحة!

■ على مائدة الإفطار الساعة الثامنة صباحا فى فندق «سان ريجيس»، على مقربة من البيت الأبيض - يظهر «جورج تنيت» مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، مدعوا للإفطار على مائدة راعيه وحاميه السناتور «دافيد بورين» (رئيس لجنة الأمن والمخابرات) وهو ديمقراطى يمثل ولاية أوكلاهوما. ويومئ «وودوارد» بسرعة إلى أن «بورين» هو الذى رشح «جورج تنيت» (ابن أسرة مهاجرين جاءوا قبل جيلين من اليونان) - لرئيسه الديمقراطى «بيل كلينتون» لمنصب مدير وكالة المخابرات المركزية، وكان السناتور «بورين» فيما بعد هو الذى زكى «تنيت» للرئيس الجمهورى الجديد «جورج بوش» - حتى يحتفظ به مديرا للوكالة، لأنه مؤمن بكفاءته، ويرى هناك مصلحة - وطنية - فى بقاء مسئول اختارته إدارة «كلينتون» ليواصل نفس المسئولية فى إدارة «بوش»، لأن وظيفة المخابرات المركزية - رغم السوابق - لا ينبغى أن تخضع بالضرورة لاعتبارات حزبية، وبالذات فى حالة رجل يملك خبرة واسعة فى المجال الذى اعتمدته إدارة «كلينتون» لإطلاق المشروع الإمبراطورى الأمريكى، أى مجال مكافحة الإرهاب. وقد استجاب «بوش» لرغبة «بورين» قائلا له: «إن ما وصله عن «جورج تنيت» يشهد بكفاءته». ثم أضاف قائلا لـ«بورين»: «إننى أعرف أن أول بند فى البرنامج اليومى للرئيس هو اجتماعه فى الصباح المبكر (الساعة السابعة صباحا) مع مدير وكالة المخابرات المركزية كى يطلعه على أسرار ما جرى فى العالم خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، ومعنى ذلك أن رجلك سوف يكون أول وجه يطالعنى كل صباح».

وعلى مائدة الإفطار التى جمعت «بورين» و«تنيت» وفى الساعة الثامنة والربع من صباح يوم ١١ سبتمبر - اقتحم المائدة أحد حراس مدير وكالة المخابرات المركزية يهمس فى أذن «تنيت» «سيدى المدير، هناك كارثة، وقع هجوم على مركز التجارة»، ويتناول «جورج تنيت» من حارسه جهاز تليفون محمول ويسمعه «بورين» يقول (ويفهم أنه يتحدث إلى أحد مساعديه) - بصوت مشحون: «ماذا؟.. طائرة دخلت فى برج التجارة؟!- سوف أكون عندك على الفور».

ثم يلتفت «تنيت» إلى «بورين» ويبادره على الفور: «ذلك عمل بن لادن - ولا أحد غيره!»، هكذا بالانطباع المسبق - وقبل استكمال تفاصيل الواقعة - وقبل المناقشة مع خبراء الوكالة - وقبل أى تحقيق.

وكذلك ينتهى مشهد الإفطار فى فندق «سان ريجيس».



لمحة!

■ فى ليما عاصمة بيرو وعلى مائدة الإفطار أيضا، والمضيف «أليخاندرو توليدو» (رئيس جمهورية شيلى)، والضيف «كولين باول» وزير الخارجية الأمريكية الذى يقوم بزيارة رسمية لعاصمة شيلى لحضور دورة اجتماع رئاسى لمنظمة الدول الأمريكية، وكانت هذه الدورة مخصصة لتسوية مشكلة حصص النسيج فى التجارة بين أمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية، وفجأة يفتح باب الغرفة ويدخل السفير «كريج كيلى» المساعد التنفيذى لوزير الخارجية الأمريكى، ممسكا فى يده بورقة مكتوبة بخط اليد منزوعة على عجل من دفترها، والمكتوب فيها بالنص: «اصطدمت طائرتان قبل قليل ببرج التجارة»، وينهض «كولين باول» واقفا يقول لرئيس «شيلى»: «لابد أن أعود الآن إلى واشنطن»، ثم يواصل «هذا حدث كبير لا أستطيع أن أبقى بعده هنا لمواصلة الكلام عن حصص النسيج»، ثم يلتفت إلى مساعده التنفيذى يطلب تحضير طائرته فورا لرحلة العودة إلى واشنطن، ثم يعود إلى توجيه خطابه لرئيس شيلى: «لا أعرف من فعلها حتى الآن - ولكنه كائنا من كان لابد أن يلقى عقابه، نحن أمة قوية، ونحن نثق فى أنفسنا».

ثم يتصل «كولين باول» بنائبه «ريتشارد أرميتاج» ويسمع منه أن أجواء واشنطن فى فوضى عارمة والأعصاب مفلوتة، والتضارب والتخبط يستولى على أركان الإدارة، والرئيس «بوش» بعيد فى فلوريدا، ولابد من حضورك فورا، لأن البلد

«بوش» موجها حديثه إلى نائبه «تشينى»:
«نحن فى حرب.. لا نعرف حتى الآن من هو العدو فيها.
لكن هناك من سوف يدفع الثمن، نحن سنحارب وهذا
هو الواجب الذى يدفع لنا الشعب الأمريكى مرتباتنا كى نؤديه»



يحتاج الآن إلى يد غير مرتجفة (Steady Hand) تمسك بزمام الأمور!

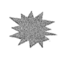
وكانت خشية «باول» تلك اللحظة - في رد فعل شبه غريزي - أن يتعرض الرئيس لعملية «برمجة» تضبطه على اتجاه معين قبل وصوله هو - «باول» - إلى واشنطن.



لحظة!

■ «أندرو كارد» رئيس أركان البيت الأبيض يقترب من الرئيس «جورج بوش» (الذي كان يزور مدرسة بوكر الأولية في قرية ساراسوتا - فلوريدا ويقرأ بصوت عال لتلاميذ أحد فصولها)، ويهمس «كارد» في أذن رئيسه «دخلت طائرة في برج التجارة في نيويورك»، ويخطر ببال «بوش» (كما روى فيما بعد) أنها «حادثة اصطدام مؤسفة من طيار أخطأ مساره»، وكذلك يواصل ما كان يفعله، لكن «كارد» يعود إليه بعد قليل هامسا مرة أخرى في أذنه، ولكن بعصبية ظاهرة «هناك طائرة ثانية دخلت في برج التجارة - أمريكا معرضة لهجوم». وينتفض «بوش» في شبه ذهول قائلا على الفور: «لقد أعلنوا الحرب علينا، ولابد أن نذهب إلى قتالهم حيث يكونون!».

وينهي جلسته مع تلاميذ المدرسة ويتذكر (فيما بعد): «لا أعرف لماذا قلت أنها الحرب ضدنا تلك اللحظة»، ثم يضيف: «لعله كان صدى صوت والدي كما سمعته سنة ١٩٩٠ بعد غزو الكويت» - ويهرع «بوش» إلى المطار ليركب الطائرة الرئاسية عائدا إلى واشنطن ويقول قبل أن يصعد درجات السلم لكارد: «أخطرهم (يقصد البيت الأبيض في واشنطن) أن عليهم القيام على حماية السيدة الأولى («لورا» زوجته) وعلى «الأولاد» (ابنتيه)». ويدفعه أحد حراسه صائحا: «سيادة الرئيس نريدك الآن داخل الطائرة وعلى مقعدك». وطبقا لوصف كبير حراسه فقد استحال لون «بوش» إلى بياض القطن، وتعثرت خطاه وهو يصعد سلم الطائرة (ربما لأنه لا مغامرة ولادته من جديد، ولا ظروف حملته الانتخابية، ولا تجربة ثمانية شهور في البيت الأبيض - هيأته لاستيعاب مثل هذه الصدمة).



لحظة!

■ «لورا بوش» (زوجة الرئيس) في الساعة التاسعة والربع ترتدي فستانا أحمر اللون وحول عنقها عقد من اللؤلؤ تضوي حباته تحت الضوء وهي جالسة في قاعة الاجتماعات بمبنى «راسل» في الكونجرس، فقد ذهبت إلى هناك تُدلي برأيها في «مشكلة التعليم المبكر للأطفال»، أمام لجنة يرأسها السناتور «إدوارد كنيدي» (شقيق الرئيس الراحل «جون كنيدي»)، ويدخل أحد مرافقيها يدعوها إلى الخروج معه فورا، لأن هناك «حادثة» وقعت، وتهرع «لورا» خارجة من القاعة ووراءها السناتور «إدوارد كنيدي» يستمعان إلى بعض التفاصيل ويهرولان من باب جانبي للقاعة، وعندما تصل إلى سيارتها تكون قد سمعت ما يكفيها، وتنتابها حالة رجفة وتمتلئ عيناها بالدموع، ولا تتمكن سيارتها من السير بسبب زحام الشوارع، ويقرر حراسها أنه لا داعي لتعريضها لخطر السير حتى نهاية شارع بنسلفانيا (حيث البيت الأبيض)، وعليه فهم يأخذون «السيدة الأولى» إلى غرفة آمنة في بدروم إدارة البوليس السري، ومن هناك تحاول الاتصال تليفونيا بابنتيها «بربارة» و«جينا»، ويبدأ البوليس السري تحرياته لمعرفة مكان وجود الاثنتين، وتسمع الأم بالأسماء السرية التي يستعملها البوليس السري للكناية عن ابنتي «بوش»: الأولى «تركواز» (حجر نصف ثمين)، والثانية «بريق» (لعله قطع من البللور أو الزجاج).

وأخيرا الساعة ١١,١٠ تمكنت من سماع صوت ابنتيها، وعندما اطمأنت راحت «لورا» تسأل في صوت مرتعش تحاول السيطرة عليه: «إذا كان ممكنا أن تعود إلى بيتها؟».



لحظة!

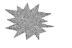
■ الرئيس «جورج بوش» في الطائرة الرئاسية يتمكن من الاتصال بنائبه «ريتشارد تشيني»، وقد وجده في المخبأ الآمن للبيت الأبيض، لأن ضباط الأمن حملوه إلى هناك حملا خوفا على حياته، ويصغي «بوش»، وكل ما يرد به على نائبه هو قوله: «إذن فنحن في حرب»، ثم يضيف «نحن في حرب، لا نعرف حتى الآن من هو العدو فيها - لكن هناك من سوف يدفع الثمن، نحن سنحارب وهذا هو الواجب الذي يدفع لنا الشعب الأمريكي مرتباتنا كي نؤديه».

ويعود «بوش» للاتصال بنائبه في بدروم البيت الأبيض يطمئنه إلى أنه في الطريق إلى واشنطن، لكن «تشيني» يقول له: «لقد أبلغت أن Angel - أي الملاك، (وهو الاسم الرمزي لطائرة الرئيس) ملاحقة بالخطر الآن لأنها الهدف التالي». واقترح «تشيني» على رئيسه أن يبتعد إلى أقصى ما يستطيع عن محيط العاصمة، قائلا بحزم «لا تجيء الآن إلى واشنطن»، وعندما قرر مرافقو الرئيس (ممن كانوا معه على الطائرة) أفضلية توجهه إلى قاعدة «باركسويل» في لويزيانا حيث يكون هناك في أمان.



لحظة!

■ الرئيس «جورج بوش» يتصل بوزير الدفاع «دونالد رامسفيلد»، ويبادره بالصياح بصوت مرتفع (كذلك روى) «واو»، ثم يترك الصياح إلى التعبير باللفظ ليقول «إنه يوم مأساة وطنية، ولابد أن تكون مستعدا للحرب أنت و«ديك مايرز» (يقصد قائد الطيران الذي أصبح بعدها رئيسا لهيئة أركان الحرب المشتركة)، ويضيف «بوش»: «الكرة واصلة بالتأكيد إلى ملعبكم»، ثم يواصل كلامه قائلا لوزير دفاعه «لابد أن تطلق العنان للقوات المسلحة»، ويرد «رامسفيلد» «لا تحتاج أن توصينا بما يتعين علينا عمله!».



لحظة!

■ «دونالد رامسفيلد» يدعو الجنرال «هنري شيلتون» (رئيس أركان الحرب المشتركة) إلى مقابلته، ولم يكن في العادة يستريح له (خصوصا بعد مشادة وقعت بين الاثنين، حين نبه وزير الدفاع على رئيس الأركان المشتركة أن لا يتصل مباشرة بالرئيس عن غير طريقه، وعندما حاول «شيلتون» أن يعترض لأن «الرئيس له الحق الدستوري أن يسمع مباشرة من رئيس أركان الحرب» - كان رد «رامسفيلد» قاطعا - «ليس مادمت أنا جالسا على مقعد وزير الدفاع») - والآن جاء «شيلتون» إلى مكتب «رامسفيلد» الذي بادره بقوله «نحن الآن في لحظة فارقة».

ويرد «شيلتون» بقوله: «إننا على استعداد». ويجيبه «رامسفيلد» «جئني بما لديك من خطط لمواجهة هذا الموقف».

ويضيف «رامسفيلد» «لابد أن نتحرك فورا»، لكن الجنرال «شيلتون» (رئيس الأركان وقتها) - يرد عليه وفي حضور الجنرال «مايرز» (رئيس الأركان الحالي): «إذا كانت المسئولية على «بن لادن»، وإذا كان الفاعل تنظيم القاعدة، وإذا كانت القاعدة - كما نعرف - متحصنة في أفغانستان - فلابد لي من إبلاغك أننا لا نملك خطط طوارئ جاهزة للعمل هناك، لأن ذلك البلد لم يكن على قائمة توقعاتنا، ففي كل حساباتنا لم يكن هناك احتمال أن نشن حربا في أفغانستان».

ويرد «رامسفيلد» بغضب: «لا أظن أن لديكم حسابا لأي حرب لا في أفغانستان ولا في غير أفغانستان، لقد اطلعت على بعض ما عندكم من خطط الطوارئ الجاهزة، وأشعر أن أمامنا شوطا طويلا يجب أن نقطعه حتى نستطيع بناء قدرة فعل تعبر عن قوة أمريكا، ولكم أن تنصرفوا الآن». ويرد الجنرال «مايرز» (رئيس الأركان الحالي) - قائلا بالنص: «أفهم ما تقوله يا سيدي!».



لحظة!

■ مدير وكالة المباحث الفيدرالية «روبرت موللر» يتصل من مكتبه بمدير المخابرات المركزية الأمريكية يستطلع ما عنده من معلومات، لأن «موللر» لم يمض عليه في منصبه غير خمسة أيام، ويكرر عليه «تنيت» أن المسئولية لابد أن تكون





على «بن لادن»، ويرد «مولر» بقوله «محتمل، لأنه ليس هناك تنظيم آخر لديه مثل هذه الوسائل لترتيب عمل إرهابي بهذا الحجم».



لحـــظة!

■ الرئيس «بوش» يعود إلى واشنطن في الساعة السادسة والنصف، وقد نقل إليه أن هناك محاولة لإبقائه بعيدا عن مركز القرار حتى ينفرد به «ريتشارد تشيني» الذي ينتهز الفرصة كي يؤكد لأمريكا أنه رجل الساعة، وأن يده هي التي تمسك بالدفة!

ويستدعي «بوش» رئيس مجموعة كتابة خطبه «مايكل جيرسون»، ويقول له: «إنه يريد أن يتحدث إلى الرأي العام الأمريكي فورا، وتعليماته في شأن النقط الأساسية أنه يريد إعلانها «حربا على الإرهاب»، وتتدخل مستشارته للأمن القومي فتقول للرئيس: «إن ذلك هدف مفتوح، ويتعين عليك أن تكون الآن أكثر تحديدا».

ويتصل «جيرسون» بعدد من أقطاب الإدارة يستطلع رأيهم فيما يقترحون تضمينه في خطاب الرئيس، ويوجه «جيرسون» للجميع استفسارات محددة، يظن أنها تساعده على صياغة النص الأكثر ملاءمة للظروف والأفعال في التأثير على الرأي العام - وضمن استفساراته: «ما هو الهدف الأمريكي الآن؟ - من هو العدو؟ - ما هي الأدلة المتوافرة لدينا عن مسئوليته فيما جرى اليوم؟».

وتجيء إجابات الجميع وفيهم نائب الرئيس «ريتشارد تشيني»، ووزير الخارجية «كولين باول»، ووزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» - متضاربة.

وتروي «كونداليزا رايس» (مستشارة الرئيس للأمن القومي) لـ«وودوارد» (ونقل عنها): «أنها أحست مثل تائه في الضباب - لكنها «استراحت» إلى أنه لابد أن يكون تنظيم القاعدة هو المدبر - وأن يكون «بن لادن» هو المسئول - وإلا فمن فعلها؟».

على أن هواجس «كونداليزا رايس» ما لبثت أن عاودتها، بمنطق أن تحديد مسئولية «بن لادن» عما جرى صباح اليوم في واشنطن لابد أن تتداعى بعده مسئولية على الإدارة الأمريكية، تسائل أطراف هذه الإدارة: لماذا فوجئوا بما جرى؟ - وما الذي كانوا يعرفونه عن تنظيم القاعدة؟ ومتى عرفوه؟ وكيف تصرفوا حياله؟

ولم يكن هناك وقت لهذه الهواجس وغيرها.

....

....

[وتشير عشرات ومئات الأوراق التي تعرضت لأجواء تلك الليلة (ليلة ١٢ سبتمبر في واشنطن) - أنها كانت سهرا طويلا مع الاختلافات والتناقضات - تحولت بعض اللحظات إلى تهم متبادلة بين الأطراف، ثم هدأت الأعصاب مع نهاية الليل على عدة مطلوبات عاجلة تفرضها الضرورات إزاء توترات تزداد حدة في مشاعر الرأي العام الأمريكي، وقد يتفاقم تأثيرها، وكانت قائمة المطلوبات الضرورية طويلة - وبدايتها:

١ - أنه لابد من تصدير هذه الصدمة المفاجئة إلى خارج الولايات المتحدة بسرعة، لأن شحنة الغضب بعدما جرى لا يجب أن تظل محصورة في الداخل - لأن ذلك كفيل بتوليد شحنة ساخنة يصعب التنبؤ بخطرها، أو السيطرة على اتجاه حركتها.

٢ - ومعنى ذلك أنه لابد فورا من «عدو خارجي محدد»، تلقى عليه المسئولية، وقبل انتظار للتفاصيل - لأنه بوجود هذا العدو يسهل تحويل شحنة الغضب القادم بعد قوة الصدمة، وبعد ترويع المفاجأة، وبعد وجع الحزن - إلى بعيد.

٣ - وبوجود هذا العدو فإن تعبئة شاملة ضده تستطيع أن تستوعب المشاعر وتضمها في إطار محدد يلم شملها ويمسك بالشارد والجامح منها، وأكثر من ذلك يعطي الفرصة لتوظيفها.

٤ - وعليه فإن الأمر يقتضي استدعاء الوطنية كإطار جامع للأمة الأمريكية في لحظة خطر، وأن يتم ذلك بكثافة تقطع الطريق على أي تساؤل - بحيث يصبح مجرد الشك - درجة من الخيانة.

٥ - وفي سياق قائمة المطلوبات أن هناك «حاجة روحية» إلى استدعاء الدين، يلعب دوره الإيماني في تحقيق درجة من القبول بنوازل القدر، وبالتالي تخفيف القلق والخوف وحقن جرعات من الصبر والاحتمال، تستحضر أرواح القديسين والشهداء!

وكانت تلك (في واقع الأمر) محاولات شراء فسحة من الوقت قبل التصرف، وكان كل أطراف الإدارة - على خلاف ما بينهم - يرون ذلك ضروريا لتغطية الفجوة ما بين مفاجأة الحدث المروع - وما بين تحديد المسئولية عنه، ولعل فسحة الوقت أيضا كانت نافعة لمساعدة «جيرسون» على إيجاد صيغة جواب لأسئلته الحائرة عن الهدف الأمريكي الآن؟ - ومن هو العدو؟ - وما هي الأدلة المتوافرة «لدينا» ضده في شأن ما جرى صباح الأمس في واشنطن؟ - ومن ثم يتمكن من كتابة أول خطاب عام لرئيس الولايات المتحدة بعد الصدمة.

وكانت فسحة الوقت - أيضا - حاجة ملحة لتهدئة هواجس «كونداليزا رايس» وغيرها بصدد مسئولية إدارة «بوش» عما جرى؟ - ولماذا فوجئت؟ - وما الذي كانت تعرفه؟ - ومتى عرفته؟ - وكيف تصرفت إزاءه؟].

....

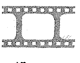
....

وفي حملة مكثفة وشاملة، جرى تحقيق المطلوبات الضرورية كلها وأمكن شراء مهلة من الوقت لالتقاط الأنفاس!

بمعنى أنه جرى بسرعة تصدير الأزمة - ووقع العثور على عدو - وانتقل التركيز إلى هذا العدو - واستدعيت وطنية العلم المخطط بالأحمر والأبيض والمرصع بمربع أزرق تصطف فيه النجوم (وهي حالة من وطنية الخوف موروثة بالتجربة) - وحضر القساوسة والحاخامات (والمشايخ) وبدأت الصلوات، وبين النتائج أن المزاج الأمريكي تحول إلى قوس مشدود بالتوتر جاهز للانطلاق في أي اتجاه، ولابد من إطلاقه قبل أن يتذكر المواطن الأمريكي أن بلاده رصدت ما متوسطه تريليون (ألف بليون) دولار كل سنة تحت بند الدفاع عن نفسها، أي خمسين تريليون دولار - أي حوالي ٢٠٪ من مجمل الدخل القومي الأمريكي طوال خمسين سنة - (وفق تقرير الكاتب الكبير «جور فيدال» في دراسته بعنوان «السلام المتقطع والحرب المستمرة») - ومع ذلك وبرغم هذه التكاليف المهولة، انقضت على الشعب الأمريكي مثل هذه الضربة وفي قلب وطنه (نيويورك) - (وليس كما حدث في «بيرل هاربور» فوق قاعدة نائية وسط المحيط الهادي (جزر هاواي)). ■

ثالثا:
لا نستطيع كسب حروب ضد أشباح!

■ بعد أن يرسم «بوب وودوارد» لوحته التأثيرية بلمحات وظل وفراغ، يدلف هادئا إلى عالم الصور يعرض شريطا متواصلا منها يبدأ به من الأول - أي من قبل أن تنقض صدمة ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وتلك في فن السينما هي العودة إلى الوراء (Flash Back) تسترجع خلفية المشهد.



صـــورة!

قبل أن يتسلم «جورج بوش» (الابن) مسئوليات رئاسة الولايات المتحدة رسميا بأسبوع كامل - جرى ترتيب اجتماع خاص له مع مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية «جورج تنيت»، والمقصود أن يكون الرئيس المنتخب على دراية وإحاطة بالمخاطر المحتملة التي تنتظر رئاسته القادمة. وتوجه «جورج بوش» إلى «بلير هاوس» مقر الضيافة الرسمي المواجه للبيت الأبيض (وكان «بيل كلينتون» لا يزال يعمل منه وأمامه أسبوع كامل قبل أن يقوم بتسليمه إلى شاغله الجديد).

ودخل «جورج بوش» (الابن) إلى «بلير هاوس» ومعه شخصان اثنان، لأن سرية المعلومات التي كان مقدرا أن يسمعها يلزم حصرها في أضيق دائرة، وكذلك لم يجئ مع الرئيس المنتخب إلا اثنان من أركان إدارته المقبلة: «ريتشارد تشيني» نائبه الذي فاز معه على نفس التذكرة،

أحس بعض أعضاء مجلس الأمن القومي أن وكالة المخابرات المركزية تقصد بطريقة غير مباشرة أن تلقى مسئولية التقصير على «مكتب التحقيقات الفيدرالي»، وأن تضع على حسابه فشلا في التصرف على أساس معلومات وفرتها له المخابرات، وبدا أن «جورج تنيت» يحاول إعداد «خازوق» لغيره



ومساعدته التى اختارها مستشارة لشئون الأمن القومى - «كونداليزا رايس».

وعلى الناحية المقابلة جلس مدير وكالة المخابرات المركزية - «جورج تنيت» الذى اصطحب معه رجلا واحدا من مساعديه هو «جيمس بافيت» نائب رئيس المخابرات لشئون العمليات.

ولمدة ساعتين ونصف الساعة استمع «جورج بوش» (ومرافقاه) إلى عرض مفصل عن «الأصدقاء والأعداء» - و«الطيبين والأشرار» - و«الفرص والأخطار» - مما ينتظر الإدارة الجديدة.

وركز «جورج تنيت» و«جيمس بافيت» فيما عرضا على ثلاثة أعداء رئيسيين:

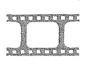
● العدو الأول هو الإرهاب والطليعة فى جبهته العالمية هى تنظيم القاعدة الذى يقوده «أسامة بن لادن»، وهو رجل خطير يعتبر نفسه فى حالة «جهاد إسلامى» ضد الولايات المتحدة، إلى درجة تدعوه لتعقب مصالحها ومطاردة مواطنيها فى أى مكان وفى أى وقت، وذلك يجعل تنظيم القاعدة «خطرا قائما» و«خطرا عاجلا»، والصعوبة فى شأنه «أننا لا نستطيع أن نعرف بالضبط متى؟ وأين؟ يختار ضرباته»، ذلك أن هذا التنظيم كيان يصعب الإمساك به (Elusive)، ثم يعرض «تنيت» «أن الرئيس الحالى «بيل كلينتون» وافق على خمسة أوامر عمليات محددة (Memorandum of Notification) تفوض المخابرات المركزية فى تنفيذ ضربات هدفها تدمير تنظيم القاعدة وتصفية «بن لادن»، والغرض «إرباك نشاط الإرهابيين وإجهاض عملياتهم»، وأنه يستأذن فى تجديد هذه التفويضات بسلطة الرئيس المنتخب فور أدائه للقسم الدستورى».

● العدو الثانى هو الانتشار غير المسبوق لأسلحة الدمار الشامل (الكيماوية والبيولوجية والنووية)، واحتمال وصول مثل هذه الأسلحة إلى دول «مارقة» أو جماعات «متعصبة» تستغلها دون إدراك لطبيعة القوة التدميرية لهذه الأسلحة، أو بإدراك لا تعنيه العواقب طالما كانت هذه الأسلحة تساعد على ردع الآخرين أو الانتقام منهم!

● والعدو الثالث هو الصين التى أفلتت من عوائق التخلف والحصار، وراحت تركز على بناء قوة تجعل منها - فيما لا يزيد على ربع القرن - دولة عظمى «عدوانية» على الشاطئ الآخر من المحيط الهادى.

وكانت الملاحظة الوحيدة التى أبداها «جورج بوش» بعد سماعه لكل ما عرضه عليه رئيس المخابرات المركزية: إنه يتوقع فى وقت مبكر من رئاسته أن يتلقى تقريرا من الوكالة عن مقترحاتها لكسر خطر «بن لادن»، وكان «جيمس بافيت» (مدير العمليات) هو الذى رد: «نستطيع أن نوصى بدءًا من هذه اللحظة بدعم التحالف الشمالى لزعماء قبائل أفغانستان، لأن هؤلاء هم القوة المضادة لنظام طالبان - سند تنظيم القاعدة، وحامى «بن لادن» - بما يوفره للجميع من أسباب للطمأنينة وحرية العمل.

وقال «بوش» «إنه يوافق على التوصية، وينتظر أن يتلقى مشروع تفويض للوكالة، وسوف يوقع عليه لحظة أن يجده على مكتبه فى البيت الأبيض عندما يتسلم مسئوليته!».



صــــورة!

فى الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وبعد أن استجمع الرئيس الأمريكى بعض أعصابه فى أعقاب الصدمة الأولى للأخبار التى وصلته عما جرى فى نيويورك - دعا إلى عقد اجتماع لمجلس الأمن القومى على الشبكة الإلكترونية الرئاسية، وكان «بوش» ساعتها فى قيادة القوات الجوية بولاية «نبراسكا»، ولأنه لم يكن قرر بعد موعد عودته إلى العاصمة، فقد أراد أن يكسب وقتا، وتمت الترتيبات اللازمة بسرعة، وكان أول المتحدثين فى هذه الجلسة الإلكترونية هو «جورج تنيت» مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الذى ظهر جالسا على مكتبه فى واشنطن - قائلا:

«سيادة الرئيس، نستطيع أن نقول فى شبه يقين (near certainty) أن «بن لادن» وراء الهجوم على نيويورك صباح اليوم، فلقد وجدنا من بحث قائمة الركاب على شركة الطيران الأمريكية للرحلة رقم ٧٧ (التى ضربت مبنى البنتاجون) - أن أحد الركاب هو «خالد المدحار»، وذلك رجل تابعنا نشاطه قبل سنة فى ماليزيا، وقد تمكن «عميل فى خدمة الوكالة» من تحديد موقعه فى تنظيم القاعدة، ووقتها قامت الوكالة بإخطار إدارة المباحث الفيدرالية F.B.I كى تضع هذا الرجل على قائمة الممنوعين من دخول الولايات المتحدة، لكن المخابرات المركزية فوجئت عندما وجدت اسم «المدحار» ضمن ركاب الرحلة ٧٧، ومعنى ذلك أنه تمكن من التسلل إلى الولايات المتحدة.

كرر «تنيت» على الشبكة الإلكترونية المشفرة «اعتقاده بأن القاعدة هى التنظيم الوحيد الذى يملك الوسائل لتنفيذ عمل إرهابى على هذا النحو الدقيق المثير (Spectacular).

وواصل «جورج تنيت» «أن الوكالة تمكنت من تعقب مكالمات تليفونية بين بعض أنصار «بن لادن» يهنئون فيها أنفسهم على هذا «التوفيق العظيم»، ويقوم خبراء الوكالة الآن بترجمة هذه المكالمات وغيرها إلى اللغة الإنجليزية، لعلهم يستنتجون منها معلومات عن مفاجآت أخرى قد تكون جاهزة «للانفجار»!

وأحس بعض أعضاء مجلس الأمن القومى على الشبكة الإليكترونية «أن وكالة المخابرات المركزية تقصد بطريقة غير مباشرة أن تلقى مسئولية التقصير على «مكتب التحقيقات الفيدرالى»، وأن تضع على حسابه فشلا فى التصرف على أساس معلومات وفرتها له المخابرات، وبدا أن «جورج تنيت» يحاول إعداد «خازوق» لغيره، وهنا اكتفى الرئيس «بوش» بأن يقول لجورج تنيت:

«حاول أن تفتح آذانك حتى لا تفوتك همسة، تنصت على كل شىء وأى إنسان داخل الولايات المتحدة وخارجها».

وقال «تنيت» إنه سيفعل، ثم عاد يحاول تثبيت «الخازوق» لمكتب التحقيقات الفيدرالى، وقاطعه الرئيس «بوش» قائلا: «إنه مذهول لا يستطيع حتى هذه اللحظة أن يتصور كيف جرى فى اختراق أمن أهم المطارات فى الولايات المتحدة!».

صــــورة!

عاد الرئيس «جورج بوش» إلى مكتبه فى السادسة والنصف من مساء يوم ١١ سبتمبر، وقرر أن يوجه خطابا إلى الأمريكيين، ودعا هيئة كُتَّاب خطبه إلى المكتب البيضاوى يبحث معهم ما يمكن أن يقوله «لأمّة فى حالة فزع»، وكانت هيئة كتاب خطب الرئيس قد تحسبت للطلب واستعدت بمشروع جاهز، أشرفت على تحضيره «كارين هيوز» كبيرة مستشارى العلاقات العامة، وقام بصياغته النهائية «مايكل جيرسون» (الكاتب الأول بين مجموعة كتاب «خطب الرئيس»).

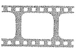
وراح «بوش» يستمع إلى النص المقترح لخطابه، ووصل «مايكل جيرسون» أثناء قراءته مشروع الخطاب إلى عبارة تقول «إن ذلك الذى حدث لم يكن مجرد هجوم إرهابى - بل كان إعلان حرب على الولايات المتحدة»، وتوقف «بوش» وسأل: «لماذا نقول ذلك الآن؟»، وردت «كارين هيوز» «هذا كلام جاء على لسانك أنت فى أول تعليق نُقل عنك من فلوريدا». ورد «بوش» بقوله «شعورى أن مهمتنا الآن هى طمأنة الناس وليس تخويفهم أكثر»، ثم التفت إلى «مايكل جيرسون» يقول له: «احذف هذه الجملة». وأضاف «إننى لا أريد أن أزيد فى قلق الناس، وإنما أن أساعد على تهدئة مشاعرهم».

ثم دارت مناقشة استقر فيها الرأى على «أن يكون الخطاب قويا - متوازنا - يطمئن - وفى نفس الوقت يؤكد حزم الرئيس على العمل ضد الإرهاب والإرهابيين، وضد كل هؤلاء الذين يقدمون لهم المساعدة والمأوى، مع التعهد بأنه سوف يوجه ضربات عقابية للجميع: الإرهابيين - ومناصريهم - وأعوانهم - والذين يتعاطفون معهم ولو بمجرد الإيواء».

وقالت «كونداليزا رايس» مستشارة الرئيس للأمن القومى «إنها تظن باستمرار أن الكلمات الأولى التى يقولها الرئيس بعد حدث من هذا الحجم هى التى تصنع أول الانطباعات وأبقى المؤثرات، وأنه إذا كان الرئيس ينوى «إعلانها حربا شاملة ضد



الإرهاب»، فعليه أن يقولها الآن ـ لأن هذه فرصتك لإعلانها بحسم» ـ وبدا «بوش» مترددا لا يقطع برأى. وراحت النسخة النهائية المعدلة لخطاب الرئيس تتكامل، وعرف أحد مستشاريه وهو «دان بارتليت» أن رئيسه حذف عبارة «أن الهجوم على نيويورك إعلان حرب على الولايات المتحدة»، وتوجه إلى المكتب البيضاوى يحاول إقناع «بوش» بإعادة الجملة إلى نص خطابه، ورد عليه الرئيس بضيق «إننى طلبت حذفها»، وأضاف «ولا أريد اقتراحات بتعديلات أخرى على نص الخطاب، لأنى فى هذه اللحظة أجهز نفسى لإلقائه».



صـــورة!

يوم ١٢ سبتمبر (اليوم التالى للصدمة الكبرى)، دعى مجلس الأمن القومى لاجتماع خاص فى البيت الأبيض (اجتماع بشر من لحم ودم وليس ترددات ذبذبات إليكترونية مشفرة)، وكان «جورج تنيت» أول المكلفين بعرض الموقف، وألقى «تنيت» بالمسئولية على القاعدة، وبعدها على حكومة طالبان التى تؤويها، وبعدها على المخابرات العسكرية الباكستانية التى دعمت حركة طالبان ومكنت لها، واعتبرتها المؤتمنة على الجهاد الإسلامى فى أفغانستان (ضد الاتحاد السوفيتى السابق)، وصاحبة دولته الحاكمة فى ذلك البلد، وعلق «بوش» قائلا: «الحملة ضد الإرهاب فرصة عظيمة لإقناع روسيا والصين بالانضمام إلينا».

ثم التفت الرئيس إلى وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» ـ (وقد أخطره بالأمس أن الكرة فى طريقها إلى ملعب القوات المسلحة) ـ يسأله عما توصل إليه، وكان «رامسفيلد» قد أعد ورقة أمامه كتب عليها مجموعة أسئلة يريد طرحها، والحصول على إجابات عنها تكون توجيها واضحا للقوات المسلحة.

«إذا كنا سنوجه ضرباتنا ضد القاعدة، فنحن نريد أن نعرف:

١ ـ ما هى الأدلة المتوافرة لدينا على مسئولية هذا التنظيم عما جرى بالأمس؟

٢ ـ ما هى الأهداف التى يمكن أن نوجه إليها ضرباتنا لكسر التنظيم؟

٣ ـ ما هو التوقيت المقترح لبداية ضرباتنا؟

وتوقف «رامسفيلد» لحظة ثم استكمل: «أريد أن أكون واضحا:

١ ـ ليست لدينا خطط طوارئ جاهزة للتعامل عسكريا مع تنظيم القاعدة.

٢ ـ ليست لدينا قوات معبأة للعمل فى مناطق تواجد هذا التنظيم فى أفغانستان.

٣ ـ إذا أردنا توجيه ضربات جوية متواصلة فى أفغانستان، فنحن نحتاج فى الإعداد والتحضير والنقل وتشوين الأجهزة إلى مدة ستين يوما.

وتدخل وزير الخارجية «كولين باول» يبدى دهشته من أن وزير الدفاع يطرح أسئلة كان واجبه تقديم إجابات عنها.

ورد «رامسفيلد» بأنه لاحظ فى سير المناقشات أن بعض زملائنا «لا يتصورون أن ننتظر ستين يوما قبل أن نضرب»، بل وسمع أحد مستشارى الرئيس يقول: «إنه لا يمكن تصور الانتظار حتى يوم ١١ نوفمبر حتى ترد الولايات المتحدة على حدث وقع يوم ١١ سبتمبر»، وهو يريد أن يعرف الجميع أن توجيه ضربة عسكرية تختلف عن الإدلاء بتصريحات مرسلة إلى وسائل الإعلام، وأضاف «إن الأسئلة التى طرحها حقيقية وهى ليست أسئلته الوحيدة، وإنما لديه بعد ما ذكر قائمة طويلة».

فيها السؤال عن ـ «أية حدود سوف نلتزم بها فى توجيه الضربة؟».

وفيها السؤال عن ـ «من هم حلفاؤنا فى توجيه هذه الضربة؟».

وفيها السؤال عن ـ «هل هناك حلفاء لنا يساعدون القاعدة؟ ـ وإذا كان فهل نوجه إليهم ضرباتنا أيضا؟».

ثم قال «رامسفيلد» بلهجة درامية: «إن القوات تحتاج إلى توجيهات محددة!».

وقال «تشينى»: «إنه يفهم أن أفغانستان على بعد سبعة آلاف ميل من أمريكا، وأن عدد سكانها ٢٦ مليون نسمة، أى أنها فى حجم تكساس (ولعل «تشينى» أراد بهذه المقارنة أن يقرب الصورة إلى عقل «بوش») ـ فماذا سنفعل بالضبط؟».

وتدخل «بوش» ليقول «كما فهمت فإننا كنا نتابع «بن لادن» حتى خروجه من السودان فى مايو سنة ١٩٩٨ ـ هذا عرفته مما قرأته ـ بعد ذلك ذهب «بن لادن» إلى أفغانستان وهناك احتضنته حكومة طالبان ـ أبلغوا طالبان أننا نفضنا أيدينا منهم ـ طالبان والقاعدة هما نفس الشىء».

وتدخل «رامسفيلد» ـ يرد الجميل لباول ـ فيقول: «نحن نقترب أكثر من تحديد هدفنا، ولكنى أظن أننا نحتاج قبل أن نتحدث عن العمل العسكرى ـ إلى الحديث أيضا عن الدور الذى يمكن أن تقوم به القوة الأمريكية فى مجالات غير عسكرية، وفى التمهيد لهذا العمل العسكرى حين يجىء وقته، فهناك ضرورات لعملية إعداد سياسى وقانونى ودبلوماسى ومالى ومخابراتى، وكل ذلك لازم قبل أن تبدأ الضربات، لهذا قلت إننا نحتاج إلى ستين يوما ليس فقط للعمل العسكرى، ولكن لمقدماته وتجهيزاته غير العسكرية».

وتدخل «جورج تنيت» مدير المخابرات المركزية يقول «إن قيادة القاعدة موجودة فى أفغانستان، ولكن نشاطها عالمى، وهى موجودة فى كل القارات، ونحن لدينا قائمة بستين بلدا رصدنا فيها تحركات للقاعدة».

ورد «بوش» يقول «لنأخذهم بلدا بعد الآخر ـ لأننا لا نستطيع التصرف معهم جميعا فى نفس الوقت».

وعاد «رامسفيلد» يقول «المسألة ليست فقط «بن لادن»، ولكن هناك دولا كثيرة تتعاون ـ أو تتهاون ـ مع الإرهاب!».

وختم «بوش» المناقشة فى هذا الموضوع بقوله «علينا أن نرغمهم أولا على الاختيار، إما نحن وإما القاعدة، إما معنا وإما معهم، إما حلفاء لأمريكا وإما حلفاء للإرهاب».

صـــورة!

عندما انتهت اجتماعات مجلس الأمن القومى وتوجه الرئيس إلى مكتبه ـ لحقت به مستشارته للأمن القومى ـ تعرض عليه بعض هواجسها:

عادت تقول له إنها «تشعر من حولها بضباب، وهى تجاهد للتخلص منه حتى تستطيع المساعدة فى تقدير ما يمكن عمله فى اليوم التالى، وهى مُهيأة لقبول أن المسئولية تقع بالفعل على تنظيم القاعدة، ولكن هناك أسئلة سوف تطرح نفسها على الناس: سوف يتساءل الناس ـ إذا كان تنظيم القاعدة هو المسئول، فما الذى كانت الولايات المتحدة تعرفه عنه ـ وعن نواياه ـ وإمكانياته؟ ـ وماذا عرفت بالتحديد؟ ومتى عرفت؟ ولماذا لم تتصرف؟».

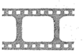
وأحس «جورج بوش» أنه مرهق، وقرر الصعود إلى الجناح الخاص، حيث تنتظره قرينته «لورا»، وآوى الاثنان فعلا إلى الفراش، لكنه فى الساعة الحادية عشرة وثمانى دقائق قام الحرس الخاص للرئيس بإيقاظه من النوم، طالبين منه ومن قرينته التوجه فورا ـ بملابس النوم ـ إلى مخبأ البيت الأبيض، وهرع الاثنان وراء أحد ضباط الحرس إلى هناك، ونسيت «لورا» (قرينة الرئيس) أن تأخذ عدساتها اللاصقة التى تستعملها لتعويض قصور بصرها، لكن «جورج بوش» لم ينس أن يأخذ معه كلبه، وفى الممر الطويل المؤدى إلى المخبأ تحت الأرض، تقابل «بوش» مع رئيس أركان البيت الأبيض «كارد»، ومع مستشارته للأمن القومى «كونداليزا رايس»، ومعها مساعدها «ستيفن هارلى»، وكان الثلاثة يهرولون إلى المخبأ، لأن البوليس السرى تصرف معهم كما فعل مع الرئيس وقرينته، باعتبار أن هناك حالة إنذار بطائرة مجهولة متجهة نحو واشنطن، والخوف أن يكون هدفها هو البيت الأبيض بعد أن جرى الإعلان عن عودة الرئيس إليه.

وبعد عشر دقائق جاء البوليس السرى يقول أن الطائرة المجهولة بانت هويتها، وتأكد أنها طائرة عادية، لكن الاحتياط كان واجبا، ومع أن الإنذار بالخطر لم يعد ساريا، فلا يزال من المستحسن أن يقضى الرئيس وقرينته ليلتهما فى المخبأ، ونظر «بوش» إلى السرير الصغير المُعد لنومه فى المخبأ، وقرر أنه سوف يعود إلى غرفة نومه فى الجناح الرئاسى «وليكن ما

ختم «بوش» مناقشته مع مجلس الأمن القومى بقوله: «علينا أن نرغمهم أولا على الاختيار، إما نحن وإما القاعدة، إما معنا وإما معهم، إما حلفاء لأمريكا وإما حلفاء للإرهاب»



يكون»، وقررت «كوندليزا رايس» أنها في هذه الساعة المتأخرة من الليل لا تستطيع العودة إلى شقتها في عمارات «ووترجيت»، ولهذا فسوف تقضي ليلتها في المخبأ!».



صـــورة!

في الساعة السابعة صباحا يوم ١٢ سبتمبر، وصل «جورج تنيت» مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية إلى البيت الأبيض ومعه التقرير اليومي للوكالة، لكنه في ذلك اليوم كان تقريرا من نوع خاص.

كان الرئيس في مكتبه يتحدث مع مستشارته للأمن القومي، وبدا في حديثه معها أنه يريد إزاحة المسئولية عن إدارته (ويضعها على سلفه «بيل كلينتون») قائلا: «إنه يعتقد أن إدارة «كلينتون» ردت على تحدى الإرهاب بتهاون شديد». ثم تساءل «بوش» «ما معنى أن يرد «كلينتون» على نسف السفارات الأمريكية في أفريقيا بإطلاق دفعة صواريخ موجهة إلى أفغانستان؟ - وأي رد هذا؟ - وما الذي يمكن أن تحققه مثل هذه الضربات؟ حريق في خيمة؟ - هدم بيت من الطين بصاروخ من طراز «كروز»؟ - هذه نكتة!

يضيف «بوش» «لابد أن نتصرف بقوة، وإلا اهتزت صورة أمريكا».

وعندما دخل «تنيت» إلى المكتب البيضاوي، توقف «بوش» عن إبداء سخطه على سلفه ليسمع مدير مخابراته، وراح «تنيت» يتحدث ويقدم للرئيس قوائم بأسماء مسئولين كبار في القاعدة يساعدون «بن لادن»، من «أيمن الظواهري»، إلى «أبو زبيدة» - إلى آخرين.

ولم يكن «بوش» على استعداد لأن يدخل في مجاهل هذا العالم الغامض للإرهابيين، وأحس «تنيت» أن رئيسه يتعجل النتائج ولا تعنيه التفاصيل وكذلك قال: «لدينا خطة لتكثيف نشاطنا حتى نتمكن من توجيه ضربات قاتلة للإرهابيين، لكن هذه الخطة تحتاج إلى اعتمادات مالية طائلة تصل إلى ألف مليون دولار، ورد «بوش» بسرعة «سوف أعطيك كل ما هو لازم لمهمتك».

وأوضح له «تنيت» أن مهمته مهما نجحت - محصورة في معرفة أكثر ما يمكن معرفته عن الإرهابيين، ثم اختراق تنظيماتهم، وإلحاق الضرر بهم إلى أقصى حد، لكن الضربة القاضية القاتلة لابد أن تكون بواسطة العمل العسكري، وهذه مهمة القوات المسلحة!».

صـــورة!

بعد انتهاء اجتماع مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض (يوم ١٢ سبتمبر)، عاد الرئيس «بوش» إلى مكتبه، ومشت بجواره «كارين هيوز» مستشارته للشئون العامة، التي كان يريد أن يتحدث معها عن لغة «الخطاب العام للإدارة» في الأيام القادمة، وعندما استقر وراء مكتبه قال لها: «إنه يريد عقد اجتماعات يومية لتشكيل وتوجيه الرسالة التي يريد توجيهها إلى الشعب الأمريكي عن الحرب ضد الإرهاب!» - وبادرت تسلمه ورقة تحتوى على ملاحظات يصح له إبداؤها أثناء اجتماع مقرر له مع قيادات القوات المسلحة سوف يحضره في البنتاجون بعد ظهر هذا اليوم، ووضع «بوش» الورقة على مكتبه، وعاد يوجه الحديث إلى «كارين هيوز» قائلا:

«دعينا أولا نتفق على الصورة الأوسع، نحن أمام عدو ليست له ملامح (Faceless)، وهذا العدو أعلن الحرب على الولايات المتحدة - إذن نحن في حرب».

ثم يستطرد:

«إننا في حاجة إلى خطة - إلى استراتيجية - إلى رؤية، ولابد لنا أن نُعَلِّم الشعب الأمريكي كيف يستعد لهجوم آخر؟ - الشعب الأمريكي يحتاج أن يفهم أن الحرب ضد الإرهاب هي المحور الرئيسي لجهد الإدارة وللحكومة من الآن فصاعدا».

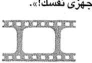
وردت «كارين هيوز» بأنها سوف تذهب إلى مكتبها لتحضير بعض النقط عن هذه «الرسالة»، وكتابتها على ورق، ثم تعود بها إلى الرئيس. وتوجهت «كارين» بالفعل إلى مكتبها في الدور الثاني، وفتحت جهاز الكمبيوتر واستعدت للكتابة، لكن الرئيس طلبها إلى العودة فورا، وحين دخلت إلى المكتب البيضاوي بادرها بقوله: «دعيني اليوم أقل لك كيف يجب أن تؤدي عملك» - ثم ناولها ورقتين من أوراق مكتبه عليها بخط يده «مجموعة أفكار» (كذلك وصف الورقتين)، وراحت «كارين» تقرأ:

«هذا عدو يضرب ويختفي، ولكنه لن يستطيع الاختباء منا إلى الأبد.

هذا عدو يتصور أنه في مكمن آمن، لكنه لن يظل آمنا إلى النهاية.

هذا عدو لم نتعود على مواجهته، لكن أمريكا سوف تتأقلم على الحرب معه».

وأضاف «بوش»: «والآن عودي إلى مكتبك لتجهزي نفسك!».



صـــورة!

في اجتماع ثالث لمجلس الأمن القومي (خلال يومين)، استمع الرئيس «بوش» إلى تقارير عدد من مساعديه، ثم انفض الاجتماع بعد نصف الساعة، ولكن الرئيس استبقى ستة منهم لجلسة محدودة.

وفي بداية هذه الجلسة المحدودة توجه «بوش» بنظره إلى «كولين باول» الذي رد على النظرة بجواب - قائلا: «إن وزارة الخارجية بدأت فعلا في نقل رسالة الرئيس إلى حكومة باكستان ونظام طالبان» - «إما أن تكونوا معنا - أو أنكم ضدنا».

وقال «بوش»: «إنني أريد إعداد قائمة بما نريده من طالبان، لا يكفيهم أن يسلموا لنا «بن لادن» - نحن نريد كل تنظيم القاعدة، إما أن يسلموهم لنا مباشرة، وإما أن يطردوهم من عندهم، ونحن نقوم بالقبض عليهم فور خروجهم».

وتدخل «رامسفيلد» بقوله: «من المهم بالنسبة لنا أن نحدد أهدافنا الآن، فمن الضروري أن نتوافق في عملنا مع شركائنا في التحالف ضد الإرهاب، والذي وَقَّعَ أعضاؤه اتفاقا معنا لمواجهة خطره»، ثم زاد «رامسفيلد» «كل شركائنا في التحالف سوف يطلبون منا معلومات محددة وتوصيفات مقبولة، ومازلت ألح على أن هناك إجابات مطلوبة على أسئلة مطروحة مثل: هل حربنا هي ضد «بن لادن» والقاعدة فقط - أم هي ضد الإرهاب بالمعنى الأوسع؟».

وكان «كولين باول» هو الذي استبق الرئيس برد قال فيه: «الهدف حرب ضد الإرهاب بالمعنى الأوسع - والبداية ذلك التنظيم الذي قام بالعمل المباشر الذي تعرضت له الولايات المتحدة أول أمس».

وتدخل «تشيني» نائب الرئيس ليقول: «الهدف حرب ضد الإرهاب بالمعنى الأوسع، أي الإرهابيين والذين يناصرونهم - لكن عليك أن تلاحظ أنه سوف يكون من الأسهل علينا العثور على مناصري الإرهاب أكثر من العثور على الإرهابيين أنفسهم».

ورد «بوش»: «لنبدأ بالعثور على «بن لادن»، فذلك ما يتوقعه الشعب الأمريكي، وإذا نجحنا فإننا نكون قد وجهنا ضربة قوية إلى الإرهاب بالمعنى الأوسع - نحن أمام «سرطان» ولابد من استئصال الورم، وإذا بدأنا الحرب على الإرهاب بالمعنى الأوسع فلن يكون في مقدور الرجل العادي في أمريكا أن يتفهم ذلك».

والتفت «بوش» إلى «رامسفيلد» يسأله: «هل توصلتم إلى تحديد ما نستطيع عمله عسكريا - في أسرع ما يمكن؟!

ورد «رامسفيلد»: «لم نجد غير قليل جدا، مما يمكن أن يؤثر».

ثم روى وزير الدفاع أنه بالأمس استدعى الجنرال «تومي فرانكس» (قائد القوات المركزية الذي قاد الحرب على العراق حتى الآن) - وسأله عن استعداده للعمل ضد تنظيم القاعدة وضد طالبان إذا أصبح ذلك ضروريا. ورد «فرانكس»: «أن القيادة المركزية تحتاج إلى عدة شهور لرسم خطة عمليات واسعة في أفغانستان»، وعندها قاطعه وزير الدفاع بقوله «لديك فرصة أيام أو أسابيع على الأكثر - ليست لديك فرصة شهور!» - وهنا بدا الضيق على قائد القيادة المركزية وقال: «إننا نحتاج إلى قواعد نعمل منها، وإلى حشد يكفي للمهمة التي نطلبها، وإلى خطوط مواصلات مأمونة نتحرك عليها وإلى أشياء كثيرة، لأن أفغانستان في منتصف الكرة الأرضية على الناحية الأخرى من العالم، مع العلم أن القاعدة تنظيم حرب عصابات، وأعضاؤه مختفون في الجبال، وهم يستعملون البغال في جر المدافع والعربات، ومعسكراتهم - بما في ذلك معسكرات التدريب - خالية ليس فيها شيء».







وأضاف «رامسفيلد»: «إننى قلت لقائد القيادة المركزية، إننا نريد أفكارا خلاقة، شىء ما بين إطلاق صواريخ «كروز» وبين حرب واسعة.

وتدخل «بوش» فى مجرى الحديث ليقول: «أن «تونى بلير» (رئيس وزراء بريطانيا) اتصل بى على التليفون صباح اليوم الباكر يقول لى «إن العالم ينتظر منا عملا قويا، وليس مجرد إجراءات لتهدئة مشاعر الرأى العام الأمريكى، وتجعله يحس أفضل!».

واستطرد «بوش» (فى الغالب بتأثير رئيس أركان البيت الأبيض وربما تلقينه): «إن البنتاجون لابد من دفعه دفعا لكى يفكر جديا فى كيفية التعامل مع حرب عصابات بأسلحة تقليدية - لدينا مشكلة وهى أن العسكريين عندنا مضت عليهم فترة طويلة وهم يحاربون معاركهم عن بعد».

وواصل «بوش» كلامه: «لابد أن نتصرف بسرعة قبل أن يتغير المناخ العالمى، خصوصا فى أوروبا لأننا لابد أن نأخذهم معنا إلى حيث نذهب، ولا يجب أن نعطيهم الانطباع بأننا نتصرف وحدنا».

ثم أضاف «إن العالم الخارجى مازال ينظر إلىّ على أننى «رجل متهور» من تكساس، هم يظنون ذلك - أليس صحيحا؟ - لا يعرفون أننى رجل مختلف عما يظنون!».

وكان الرئيس «بوش» على وشك أن يستقبل زعماء الكونجرس، لكنه قبل مجيئهم إلى البيت الأبيض اتصل بنفسه بكل من الرئيس الروسى «فلاديمير بوتين»، وبرؤساء فرنسا وألمانيا وكندا والصين، ثم ترك مهمة الاتصالات ببقية الحلفاء إلى وزير الخارجية، قائلا له: «إننى أريد أن يمشى الجميع معنا، لكنى على استعداد للمشى وحدى إلى آخر الشوط إذا اقتضى الأمر».

ثم خرج الرئيس إلى الصحفيين يقول لهم: «سوف يكون هذا صراعا هائلا بين الخير والشر - لكن الخير سوف ينتصر!».

صورة!

التقى «بوش» فى الساعة الحادية عشرة والنصف بزعماء الكونجرس، وبدأ كلامه معهم بقوله:

«إن العدو كان يحلم بأن يقابلنا هنا فى هذا المبنى، كان يريد أن يجىء إلى هنا ليحول البيت الأبيض إلى أنقاض. أريد للكونجرس أن يعرف أن تلك لم تكن حادثة منعزلة، ولا أريد أن تتحول أنظاركم عن هذه المعركة، بعد شهر من الآن سوف ينهمك الشعب الأمريكى فى متابعة مباريات كرة القدم لكأس العالم، لكن إدارتى سوف تكون منهمكة فى إدارة حرب لا آخر لها.

إن العدو ليس جماعة محددة، ولكن عقلية معينة، هذه العقلية تكره المسيحية وتكره اليهودية، وتكره كل شىء يختلف عنها، وعلى بقية الأمم أن تختار».

وفوجئ بعض زعماء الكونجرس بلهجة الرئيس، وارتفع صوت زعيم الأغلبية - الأسبق - فى مجلس الشيوخ السيناتور «توماس راسل» موجها كلامه للرئيس - قائلا: «أرجوك أن تكون أكثر تحفظا فيما تقول - وإذا كنت تريد تأييدنا، فإننا نطلب منك الاعتدال ومراعاة وقع كلماتك على أصدقاء الولايات المتحدة».

ثم تدخل السناتور «روبرت بيرد» (زعيم الحزب الديمقراطى فى فرجينيا وعمره ٨٣ سنة) ليطلب من «بوش» أن يهدئ روعه قائلا له: «إننى تعاملت مع عشرة رؤساء للولايات المتحدة قبلك، ولقد فهمت مما قلته لنا أنك لا تريد منا قرارا بشن الحرب، وإنما تريد منا تفويضا لك باستعمال القوة، أى أنك تطلب منا ما سبق للرئيس «جونسون» أن طلبه فى فيتنام سنة ١٩٦٤ (فيما سُمى بقرار «خليج تونكين»، وكانت تلك كذبة كبيرة طلب فيها «جونسون» تفويضا من الكونجرس بالرد على عدوان، ولم يكن هناك بالفعل عدوان).

استطرد السناتور «بيرد» العجوز ليقول لبوش: «لن تحصل من الكونجرس هذه المرة على قرار مماثل لقرار تونكين، الكونجرس لن يسمح لك بهذا، وأمريكا مازال لها دستور يحكمها!».

وأخرج «بيرد» من جيبه نسخة من الدستور!

وتوتر جو الاجتماع!

صورة!

فى الساعة الرابعة من مساء يوم ١٥ سبتمبر - دُعى مجلس الأمن القومى إلى اجتماع آخر، وبدأ «بوش» بإلقاء صلاة فتح بها المداولات (كما أخذ يفعل أخيرا) - وكان وزير الدفاع «رامسفيلد» هو الذى بدأ الكلام قائلا:

«مازلت مُصرًا على سؤال لم أتلق جوابا عنه - هل حَربنا ضد القاعدة؟ - أم هى ضد الإرهاب عموما؟».

ورد «بوش» قائلا: «شعورى أن الولايات المتحدة يجب أن تبدأ بن لادن أولا - لأنه إذا جرى ضرب تنظيم القاعدة، فإن البقية تتداعى تلقائيا».

وعاد «رامسفيلد» إلى الكلام: «إننا لا نستطيع أن نقيم تحالفا دوليا ونحتفظ به على مجرد ضرب القاعدة، لأن ضرب القاعدة هدف محدود ويمكن أن يتلاشى سريعا، وعندئذ ينفك التحالف ضد الإرهاب بوهم أنه أدى مهمته».

وتدخل نائب الرئيس «تشينى» فى الحوار قائلا:

«إننى أريد أن أركز أكثر على قضية الدول التى ترعى الإرهاب، وأريد أن ألفت النظر إلى أن التركيز على «دول لها كيان واضح» أسهل من التركيز على جماعات ليست لها ملامح» - الدول التى ترعى الإرهاب «متجسدة»، والجماعات الإرهابية مجرد «أشباح»، وأظن أننا سوف ننجح أكثر فى العمل ضد «جسد»، ولا ننجح بالقدر الكافى ضد «شبح»».

وكان «بوش» هو الذى رد على نائبه قائلا:

«إننى متخوف من تشتيت عملنا، أظن أننا لابد أن نكون محددين أكثر حتى نحتفظ بتأييد الرأى العام، الناس فهموا أن القاعدة هى التى سببت لنا كل هذه الآلام فى الأيام الأخيرة، وهم ينتظرون منا أن نضرب فى هذا الاتجاه قبل أن نتحول إلى غيره - هذا التركيز على القاعدة أيضا مهم لأصدقائنا فى التحالف».

وعاد «تشينى» يجادل:

«إن تأييد العالم لنا مهم، لكنه لا يصح أن يقيد أيدينا عن التصرف، من حقنا أن نتصرف بمفردنا، المهام هى التى يجب أن تحدد التحالف، وليس التحالف هو الذى يحدد المهام».

وفجأة قال «رامسفيلد»:

«أليس من الضرورى أن نضرب العراق أيضا وليس القاعدة فقط؟ - العراق يمكن أن يكون هدفا متجسدا أمامنا، وقابلا للضرب على أساس أنه من رعاة الإرهاب - «صدام حسين» ليس شبحا وإنما هو بلد!».

أشار «رامسفيلد» إلى معاونين له يجلسون وراءه فى اجتماع مجلس الأمن القومى (وفيهم نائبه «بول وولفويتز» ورئيس لجنة التخطيط الاستراتيجى «ريتشارد بيرل»)، واستطرد: «كنا فى اجتماع البنتاجون ولم يكن هناك حول المائدة من لا يعتقد فى صميم قلبه أن «صدام حسين» خطر شديد لأنه مصمم على حيازة أسلحة دمار شامل يمكن أن تصل إلى يد الجماعات الإرهابية».

ويستطرد «رامسفيلد»:

«ضرب العراق يمكن أن يبدأ بسرعة، والخطط لدينا جاهزة».

وتدخل «كولين باول»:

«ضرب العراق الآن ليس مناسبا، والأنسب هو التركيز على «القاعدة»، والرأى العام الأمريكى مشحون هذه اللحظة ضد القاعدة، وتحويله إلى الاقتناع بعمل ضد العراق، سوف يكون صعبا، والإدارة تحتاج إلى تأييد الشعب الأمريكى، والشعب الأمريكى يريد منا عملا ضد القاعدة».

وجاء الدور على الرئيس الذى قال:

«موضوع العراق يحتاج إلى وقت، الآن نريد خطة عمل لتدمير تنظيمات الإرهابيين، وأريد على الفور قائمة بأسماء هؤلاء البلطجية، وأريد خطة لتعقبهم، إننى ألاحظ أن كثيرين يعودون بأفكارهم إلى أجواء حرب الخليج السابقة، ويقارنون بين الحالتين - المقارنة ليست الآن صحيحة والشعب الأمريكى ينتظر منّا ضربة كبيرة، ولابد أن أقنعهم بأننا بدأنا الحرب ضد الإرهاب، وأن القاعدة هى الخطوة الأولى، إننى أطلب عملا سريعا ضد الإرهاب، وقد بدأت أشعر بالإحباط!».

وقال «كولين باول»:

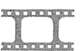
«إن هناك فرصا كبيرة للحرب ضد الإرهاب - ضد القاعدة وحتى طالبان، بطريقة تختلف عن تلك التى شنها السوفييت». ■

روى وزير الخارجية «كولين باول» لـ «بوب وودوارد»
أن الرئيس يريد أن يقتل أحدا، وأنه رأى أمامه رجلا استيقظت
لديه كل غرائز القتل من إحساسه بصدمة ما جرى
فى نيويورك ومن تحرقه للانتقام لها مهما كان الثمن





رابعاً: نحتاج إلى ضرب العراق!



صورة!

■■ بعد أربعة أيام من الصدمة، وفي أول عطلة نهاية أسبوع تليها، وبالتحديد يوم ١٥ سبتمبر - دعا الرئيس «جورج بوش» أركان إدارته إلى اجتماع غير رسمي، لمناقشة أكثر هدوءًا في منتجع «كامب دافيد»، وقد طلب من المشاركين في الاجتماع أن يحضروه بملابس غير رسمية، حتى يكون اجتماعهم حوار زملاء وأصدقاء - صريحا مفتوحا - مرتاحا وديا!

ودخل الرئيس نفسه إلى القاعة بقميص أزرق فتح ياقته، وفوقه جاكيت أخضر اللون، واتخذ مقعده وسط قاعة الاجتماعات المعدة في المبنى المسمى «لوريل لودج»، وعلى يمينه جلس نائبه «ريتشارد تشيني» وعلى يساره جلس وزير خارجيته «كولين باول»، واصطف الباقون حول المائدة، ولاحظ وزير الخارجية أن وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» اصطحب معه نائبه «بول وولفويتز»، كما أن «جورج تنيت» مدير المخابرات المركزية اصطحب معه اثنين من مساعديه هما نائبه «جون ماكلولن» ومدير شئون العمليات في إدارته «كوفر بلاك»، وأبدى «باول» دهشته قائلا: «إنه لم يكن يعرف أن مساعدي الوزراء مدعوون للاجتماع، وإلا لجاء معه بنائبه «ريتشارد أرميتاج»».

وفتح «بوش» الاجتماع بتلاوة الصلوات، ثم دعا وزير المالية للكلام عن تأثيرات الانهيار الذي حدث في بورصات أمريكا للأوراق المالية، مبديا خشيته أن ذلك سوف يؤثر على كل الناس، خصوصا صناديق التأمين والمعاشات، وكلها تستثمر أموالها في السوق، وعرض وزير المالية تقديره للأحوال.

ثم التفت «بوش» إلى وزير الخارجية «كولين باول» يدعوه لشرح مواقف دول التحالف، وقال «باول»:

إن وزارة الخارجية بدأت العمل على الفور - متواصلا وملحا - بادئة من نقطة ملخصها كما سمع من الرئيس «إن الهجمات على نيويورك يمكن اعتبارها فرصة لإعادة تشكيل العلاقات الدولية على مستوى العالم، والطريق إلى ذلك بناء تحالف دولي واسع لابد من إشراك أعضائه في المعلومات والسياسات والأفكار، وقد اتصلت في اليومين الأخيرين برؤساء خمس وثلاثين دولة، أشرح لهم أن ذلك لم يكن هجوما على أمريكا، ولكن هجوما على الحضارة ذاتها».

ثم انتقل الرئيس «بوش» إلى الكلام في صُلب الموضوع الذي دعا الاجتماع في كامب دافيد من أجله، واختار له هذا الجو المريح والهادئ، وكان سامعوه يصغون إليه عارفين أنه صوته - لكن أحدا منهم لم يكن واثقا أن لسان الرئيس ينطق بعقله، وإذا لم يكن فمن الذي قام بتلقينه الدرس - وعلى الأقل فقد كان واضحا للجميع أن «بوش» يتحدث بخليط مما عنده ومما عند غيره.

واستفاض «بوش» في الكلام:

«الشعب الأمريكي يريد عملا كبيرا، مهولا، فرقعة عظيمة (استعمل «بوش» تعبير الانفجار العظيم Big Bang الذي يصف به علماء الطبيعة تلك اللحظة الهائلة التي انفجر معها خلق الكون).

لا أريد معركة واحدة، ولكن أريد حربا ممتدة يشعر بها الشعب الأمريكي ويتأكد أننا نواصل الدفاع عنه حتى أقاصي الأرض.

لا يهمني اعتقال رجل واحد ولا اعتقال عدة رجال، وإنما يهمني أن نتوصل إلى صيغة فعل تعطينا تفويضا مفتوحا للعمل حيث نشاء - لا يهمني أن يحاول أحد منا أن يضع حدودا وهمية على فعل **القوة الأمريكية، أو حدودا مالية تقيد مجال** عملها».

....

....

[روى وزير الخارجية «كولين باول» لـ «بوب وودوارد» أنه:

«في هذه اللحظة أحسست أن الرئيس يريد أن يقتل أحدا، رأيت أمامي رجلا استيقظت لديه كل غرائز القتل من إحساسه بصدمة ما جرى في نيويورك ومن تحرقه للانتقام لها مهما كان الثمن»].

....

....

كان «بوش» مازال يواصل الكلام:

«ما أريده هو حرب تشد مشاعر الشعب الأمريكي، وتشد وراءه بقية العالم».

وأراد وزير الخارجية أن يستوضح بقصد التأكيد:

«الرئيس يقصد حربا على الإرهاب حتى تتم تصفيته».

وتدخل وزير الدفاع «رامسفيلد»:

«الحرب ضد الإرهاب بالمعنى التقليدي لها مواصفات، لا تخدم مطلبنا إلى النهاية:

أولا: لأنها حرب بطيئة، تأخذ وقتا، أي أنها لا تستجيب بسرعة لإحداث التأثير المطلوب.

وثانيا: لأنها حرب يصعب فيها تحقيق نتائج لافتة للنظر (Spectacular).

وثالثا: لأنها حرب لا تملك أن تركز على هدف محدد بالذات، لأنها ضد أشباح.. ضد ظلال.

ورابعا: لأنها بالنسبة لأهدافها على فرض التمكن من تحديدها، لا تسمح بمثل هذا الانفجار العظيم Big Bang الذي أشار إليه الرئيس».

وسادت لحظة صمت قطعه «بول وولفويتز» نائب وزير الدفاع بقوله:

«إن ما يطلبه الرئيس يمكن أن يتحقق في حالة واحدة، هي حالة أن نوجه ضرباتنا إلى الدول الراعية للإرهاب، أو الدول الإرهابية، والعراق أول القائمة بوجود «صدام حسين» على رأسه!».

ولاحظت «كونداليزا رايس» أن وزير الخارجية «كولين باول» عاد برأسه إلى الوراء وقلب عينيه (كما يفعل عادة عندما يسمع ما لا يعجبه أو ما لا يقنعه!).

وكان «جورج بوش» - مرة أخرى! - هو الذي تولى الرد قائلا:

«إن «دون» (يقصد وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد») طرح موضوع ضرب العراق في اتصال معي أمس، وقد رفضت الاقتراح لأسباب:

«صدام حسين» رجل سيئ، وهو خطر على جيرانه العرب وغير العرب، ولكنه خلال السنوات الأخيرة لم يفعل شيئا يستوجب البدء بعقابه ردا على ما حدث في نيويورك، وليس عندنا ما يثبت صلته بما جرى، بحيث نستطيع تأسيس قضية ضده، لقد امتنع عن الشغب أخيرا، ليس لأنه رجل صالح، ولكن لأنه يحاول تفادي ضربات نوجهها إليه».

وهناك اعتباران:

أولهما: أنني لا أريد أن يتهمنا أحد بأننا نتحول إلى ملاحقة «صدام حسين» لأننا لم نستطع أن نمسك بغيره.

والثاني: أنني - كما تعرفون جميعا - أكره «صدام»، لكني لا أريد أن يتصور أحد في العالم أنني أطارده من باب الثأر الشخصي لأبي (My Dad)!

وتشجع الجنرال «هيوشيلتون» (رئيس الأركان الذي كان على وشك قضاء مدته بعد أسبوعين يسلم بعدها رئاسة الأركان إلى الجنرال «مايرز» الذي كان جالسا بجواره على مائدة الاجتماع)، وكذلك قال - كما نقل «وودوارد» عنه في صفحة ٦١ بالحرف:

«إن هيئة أركان الحرب المشتركة لا ترى داعيا لإدخال العراق في المعادلة هذه اللحظة المبكرة، ورأينا أنه يصعب ضرب العراق الآن إذا لم تظهر صلة مباشرة تكشف عن مسئولية «صدام حسين» مباشرة عن هجمات ١١ سبتمبر.

فوق ذلك فإن هيئة الأركان المشتركة ترى أن استهداف العراق يؤدي إلى إحراج دول عربية صديقة نريد دعمها في حربنا ضد الإرهاب. ونحن نرى أن دعم هذه





الدول لجهودنا أمر حيوى، زيادة على ذلك فإن استهداف العراق الآن كفيل بأن يوقف مسيرة عملية السلام فى الشرق الأوسط، ونحن نرى استمرارها ضروريا قبل البدء فى ضرب العراق».

....

....

[يقطع «بوب وودوارد» سياق روايته لوقائع الاجتماع ليقول: «إن «كولن باول» كان قد سبق له أن تحدث مع الجنرال «شيلتون» فى اليوم السابق، ولفت نظره إلى أن هناك مجموعة من المستشارين (أولهم «وولفويتز» و«بيرل») يرونها فرصة سانحة لضرب العراق، حتى إذا لم تكن هناك أسباب تتعلق بالحملة ضد الإرهاب»، وأنه قال للجنرال «شيلتون» أثناء هذا الحديث «إن هذه المجموعة أصبحت فالتة فى تصرفاتها، ومن الضرورى إعادتها بسرعة إلى الصف وإبقاؤها فيه، لأن تحديد الأولويات بحزم ألزم الضرورات للسياسة الأمريكية الآن، ورد عليه الجنرال «شلتون»: «إنه متفق بالكامل مع ما يقوله»].

....

....

وتساءل الرئيس «بوش» موجها كلامه إلى الجنرال «شيلتون» سائلا: «ما هى الإمكانيات الموجودة لدينا لضرب «بن لادن» وحكومة طالبان إذا لم يقوموا بتسليمه لنا؟».

ورد الجنرال «شيلتون»:

«إنه يخشى أن تقديراته فى هذا الميدان سوف تكون «متشائمة»، بمعنى أنه ليست لدينا (البنتاجون) خطط جاهزة للعمل فى أفغانستان، كل ما لدينا هو ضربات موجهة بصواريخ كروز، وهذه عملية لن تُحدث إلا حفرا على سفوح الجبال وليس أكثر!».

وتدخل وزير الدفاع «رامسفيلد» قائلا:

«إن القوات المسلحة الأمريكية تحتاج إلى مراجعة لمهامها إزاء ظروف متغيرة، وكان يمكن لها أن تكون أقدر على الاستجابة، إذا كان التوجيه إليها استهداف الدول التى تناصر «بن لادن»، لأنها هناك تستطيع أن تجد عدوا متجسدا توجه له ضرباتها، عدو حقيقى يملك أهدافا يمكن ضربها، وعدوا لا يظهر حين يشاء ويختفى حين يشاء، يفاجئنا بتوجيه ضرباته إلينا ويختفى حين نطارده بالعقاب».

وأحس الرئيس «بوش» (كما قال لبوب وودوارد) - «أنه ربما ظلم وزارة الحرب الأمريكية لأنه لم يترك لها فرصة كافية للتفكير والتخطيط فى ظروف متغيرة»، وهكذا وجه كلامه للجنرال «شيلتون» قائلا:

«أريد من هيئة الأركان المشتركة أن تعرف أننا أمام عالم جديد، وعلى الجنرال «شيلتون» أن يعود - الآن - إلى هيئة أركان حرب ويدرس معها الاحتمالات والمكنات المطلوبة لضبط أمور هذا العالم الجديد، إننى أريد خطة كاملة، وأريد توقيتات محددة، وأريد أن تكون لدى فكرة عن الثمن الذى لابد أن ندفعه، أريد خيارات واسعة، أريد قرارات عاجلة تواجه أحوالا طارئة، أريد شيئا مؤثرا، شيئا دراميا يلفت الأنظار ويشد!».

....

....

طوال الشهور التالية بعد سبتمبر ٢٠٠١، يتابع «بوب وودوارد» فى كتابه تطورات الحرب على «بن لادن» - وعلى حكومة طالبان - وعلى اتساع أفغانستان - من خلال اجتماعات «بوش» مع مستشاريه، سواء فى المكتب البيضاوى للرئيس، أو فى قاعة اجتماعات مجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض.

ثم يستفيض فى الحديث عن الطيران الأمريكى وقواعد الصواريخ الثابتة أو المتحركة فى البحر الأبيض والبحر الأحمر والخليج العربى، وكيف راحت تصب نيرانها على جبال أفغانستان، ويتابع مندوبى المخابرات المركزية يسلمون حقائب الدولارات بالملايين لزعماء القبائل والطوائف - لكن النتائج «لا تزال غير كافية»، لأن «أسامة بن لادن» وأعوانه اختفوا فى الظلال ولم يظهر لهم أثر، وانفكت دولة طالبان، وتحفزت قوات التحالف الشمالى الذى تشرف عليه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تحاول إقامة حكومة جديدة فى أفغانستان، وتجرى اتصالات بملك أفغانستان العجوز «محمد ظاهر شاه» الذى اختار العاصمة الإيطالية منفى اختياريا له ومقاما، حتى يعود إلى وطنه ليرأس اجتماعا قبليا «لويا جيرجا»، تحضره الفرق المتنازعة فى أفغانستان، لأن البلد كله يوشك بعد الفوضى العارمة التى اجتاحته أن يسقط فى هاوية حرب أهلية تحول أديانه القمعية وسط الجبال الشاهقة إلى بحيرات دم أسود بأحقاد الثار والطمع.

لكن ذلك كله مما يتابعه «بوب وودوارد» ويرصده لا يزال بعيدا عن تحقيق رغبات الرئيس «بوش»، خصوصا أن الجنرال «مايرز» (رئيس أركان الحرب الجديد) لم يتوان لحظة عن لفت الأنظار إلى «أن القوات الأمريكية لم تجد فى طول أفغانستان وعرضها غير تسعة أهداف فقط تستحق الضرب، وهذه الأهداف التسعة تم ضربها فعلا، ولم يعد باقيا شىء، لدرجة أن الضربات الآن توجه إلى ما سبق ضربه وسلاح الدمار ينصب الآن على ما تم بالفعل تدميره».

ويروى «بوب وودوارد» أن القوات الأمريكية التى وصلت إلى أفغانستان، وراحت تطل على ذلك البلد عن قرب - روعها أن الناس هناك يحتاجون إلى الطعام قبل الصواريخ، وفى لحظة من اللحظات رَقَّ قلب الرئيس «بوش»، وتذكر رسالته المقدسة ليقول: «علينا أن نحاول تخفيف آلام هؤلاء الناس، دعونا نضربهم بطرود الطعام»، ثم استدرك بسرعة: «لكنى أريد حريقا هائلا من النيران يتحقق به التطهر، وعندها يكون الغفران لأننا جميعا أبناء الله».

ثم يعود الرئيس الأمريكى كى يلح على «أنه لم يحصل بعد على «الانفجار العظيم» الذى أراده وطلبه!».



وينتقل «بوب وودوارد» بالتفاصيل إلى كواليس البيت الأبيض، حيث تبدأ مجموعة مستشاريه داخل هيئة البيت الأبيض فى القلق، ومبعث القلق عدة أسباب:

١ - الحملة فى أفغانستان يمكن أن تنتهى - دون أن يحقق الرئيس «بوش» ذلك العمل الدرامى الذى يأمل فيه.

٢ - وإذا مضت الأمور على هذا النحو «الفاتر»، فمن المشكوك فيه أن يستطيع الرئيس «بوش» أن يقود حزبه فى انتخابات التجديد النصفى (نوفمبر ٢٠٠٢) إلى انتصار ضد الديمقراطيين، وقد يفقد الحزب الجمهورى أغلبيته الضئيلة (وهو صوت واحد) فى مجلس الشيوخ.

٣ - وإذا حدث ذلك فإن ترشيح الحزب لبوش لمدة رئاسة ثانية (سنة ٢٠٠٤) قد يتأثر، كما أن فوزه أمام مرشح ديمقراطى («آل جور» - أو «هيلارى كلينتون» - أو أى حصان أسود يظهر فجأة ليتقدم صفوف الحزب الآخر) - قد يصبح موضع شك، خصوصا أن ما جرى فى الانتخابات الرئاسية السابقة يصعب تكراره لاحقا.

وعليه فإن القضية لم تعد الإرهاب، ولا «بن لادن»، ولا أفغانستان، وإنما هى مستقبل الرئيس وسجِلْ إدارته.

وهكذا ينتقل مركز الثقل فى القرار الأمريكى إلى هيئة مستشارى البيت الأبيض، وفيها ثلاثة رجال وامرأة:

الرجال هم: «أندرو كارد» (رئيس أركان البيت الأبيض) - و«كارل روفى» (كبير مستشاريه للشئون السياسية الداخلية) - و«آرى فليشر» (المتحدث الصحفى باسمه).

والمرأة هى السيدة «كارين هيوز» المسئولة عن العلاقات العامة (بما فيها المكتب الخاص المكلف بإعداد خُطب الرئيس)].

....

....

صورة!

مع بداية الفصل الخامس عشر من كتابه (صفحة ٢٠٥)، يصل «بوب وودوارد» فى روايته إلى حيث يقول:

تحدث الجنرال «مايرز» رئيس الأركان قائلا: «لم تجد القوات الأمريكية فى طول أفغانستان وعرضها غير تسعة أهداف تستحق الضرب، وتم ضربها فعلا، ولم يعد باقيا شىء، لدرجة أن الضربات توجه إلى ما سبق ضربه وسلاح الدمار ينصب الآن على ما تم بالفعل تدميره



صباح يوم الأحد ٧ أكتوبر، كان «كارل روفى» (كبير مستشارى الرئيس للشئون الداخلية) فى بيته شمال غرب واشنطن، لقد انقضت أسابيع منذ وقعت هجمات ١١ سبتمبر، ولم تكن تلك بالنسبة لهذا الرجل فترة سعيدة، لقد عرف «جورج بوش» (الابن) أثناء عمله السابق مع والده، وأصبح مستشاره الانتخابى عندما طرح ترشيح «دوبيا» للرئاسة جديا، ولم يكن «روفى» قد حضر أيا من اجتماعات رئيسه مع كبار أعضاء إدارته من الوزراء، ولا شارك فى اجتماعات مجلس الأمن القومى، وسبب استبعاده أن الرئيس «بوش» ونائبه «تشينى» توافقا على أنه ليس من المستحسن مشاركة مسئول عن السياسة الداخلية فى اجتماعات إدارة الأزمات الدولية أو مجلس الأمن القومى المخصصة للحرب ضد الإرهاب، لأن ذلك خلط بين «الخارجى والداخلى»، فتلك هى التقاليد، ومخالفتها الآن قد تعطى إشارات خاطئة.

وكان «روفى» يتفهم ذلك، لكنه يوما بعد يوم أخذ يقتنع ويزيد اقتناعه بأن القرارات السياسية المهمة أوشكت أن تتداخل مع الاعتبارات المباشرة والحيوية التى تخص مستقبل «بوش» وإدارته، وكان ذلك التداخل يلح عليه بصرف النظر عن حرب أو لا حرب، واعتقاده الراسخ الآن أن الحكم على «بوش» فى فترة رئاسته الأولى وفرصته الرئاسية الثانية - سوف يتأثر سلبا وإيجابا بما جرى يوم ١١ سبتمبر وبما يجرى بعده.

كان «روفى» يعتبر نفسه «مهندس» نجاح «بوش» فى انتخابات الرئاسة سنة ٢٠٠٠. وكان قد دعا يوم الجمعة ٥ أكتوبر إلى اجتماع فى مكتبه، لاحظ فيه المجتمعون أن شعبية «بوش» قد وصلت إلى الذروة، ولامست نسبة ٩٠٪ (وفق استطلاعات وكالة A.B.C وجريدة الواشنطن بوست معا).

وقد علق «روفى» على هذه الأرقام بقوله:

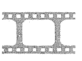
«إن هذه النسبة مزعجة بمقدار ما هى مريحة، والسبب أن دراسة التجارب السابقة تشير إلى أن ارتفاع شعبية أى رئيس إلى هذا الحد سوف يتبعها فى ظرف أسابيع قليلة هبوط ضرورى - صغير أو كبير - ذلك يتوقف على الظروف كما حدث فى تجربة «جورج بوش» (الأب)، والآن (الجمعة ٥ أكتوبر) قرر «كارل روفى» أن يذهب إلى مقابلة الرئيس (الابن) قبل أن تنقله الهليوكوبتر إلى «كامب دافيد» لعطلة نهاية الأسبوع، وقصده أن ينبهه مبكرا إلى الاحتمالات، وبالفعل فقد لحق به فى مكتبه يقول له:

«إنه فى وقت حرب الخليج (الكويت) سنة ١٩٩١، وصلت شعبية والده إلى ٨٢٪، لكنها فى ظرف ثلاثين أسبوعا تراجعت إلى نسبة ٥٩٪، ثم ظلت تتراجع حتى خسر معركة الانتخابات وفاز «بيل كلينتون»».

وحاول «بوش» (الابن) أن يتظاهر بعدم الاهتمام، فقال لرئيس أركان البيت الأبيض:

«لا تضيع وقتى بمثل هذه الأرقام لأنها مزاجية، وأنا أعتبرها بمثابة وضع أصبع على النبض لقياس سرعته فى أوقات يتغير فيها الشعور العام فى ظرف ساعات قليلة».

لكن «روفى» كان يعرف عن اهتمامات رئيسه بأكثر مما يدعى به الآن، فهو من تجربته يرى «بوش» يصرف وقتا طويلا كل يوم فى متابعة قياسات الرأى العام، ويحصى أرقامها ولاية بعد ولاية!



صــورة!

وانتظر «كارل روفى» عدة أسابيع ثم قرر على مسئوليته أن يحاول استطلاع الحقائق بشأن ما يجرى، ومع أنه يتابع أخبار الضرب الذى بدأ فى أفغانستان، فإنه يشعر على نحو ما أن الأمور ليست على الطريق الصحيح - من وجهة نظر انتخابية على الأقل وذلك ما يهمه - وكذلك ذهب بنفسه إلى مقابلة وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» يسأله عن سر هذا الفتور فى إيقاع الحوادث، ورد عليه «رامسفيلد»:

«لأن الأهداف فى أفغانستان انتهت، لم تعد هناك أهداف نضربها، لم تكن فى أفغانستان من الأصل أهداف تستحق الضرب!».

وسأله «كارل روفى»: «إذن فكيف نواصل الحرب؟».

ورد عليه «رامسفيلد» بسؤال: «قل لى كيف يمكن أن نكسب حربا لا نستطيع فيها أن نركز على عدو؟!».

وأبدى «روفى» هواجسه من العواقب السياسية لهذا الفتور فى وتيرة حرب لم تعد لها أهداف تركز عليها، ورد عليه «رامسفيلد» بقوله:

«إنهم لا يريدون أن يأخذوا أية مخاطر.. لا تفعل شيئا ولن يلومك أحد، تحرك لتفعل شيئا وسوف يحصون عليك الأخطاء، وأنا شخصيا مستعد لاحتمال التبعات، لكن المهم أن نتحرك».

واستطرد «رامسفيلد»:

«هناك نقطة سوف يتحتم علينا عندها أن نقوم بشىء ما فى مكان آخر من العالم، مكان آخر غير أفغانستان، ذلك ما قلته وكررته، ومازلت أقوله وأكرره، لكن هناك من لا يريدون أن يسمعوا، لابد أن نوجه ضرباتنا بعد الآن إلى الدول الراعية للإرهاب، الدول الإرهابية.. العراق أولها - «صدام حسين» ليس له صديق فى العالم يدافع عنه حتى فى روسيا وفى الصين، وهو رجل يصعب على أحد أن يقول كلمة طيبة فى حقه».

ثم يزيد:

ليس لدينا - على أى حال - نقص فى قائمة هذه الدول: هناك إيران، سوريا، السودان، ليبيا، وبالطبع كوريا الشمالية.

وتنعقد فى البيت الأبيض اجتماعات ومناقشات وبحث عن خيارات تبدو ممكنة أو حتى مستحيلة، وحلت لحظة تلاقت فيها الضرورات الانتخابية للرئيس، مع الرغبات الملحة للجناح الإمبراطورى فى الإدارة («ريتشارد تشينى»، «دونالد رامسفيلد»، «ريتشارد بيرل»، «بول وولفويتز»، وغيرهم..).

لكن كتاب «بوب وودوارد» بلغ نهايته، والقرار معلق فى الهواء!

خامسا: عندما حلت بغداد محل كابول!

يجىء الدور الآن على صورة أخيرة هى الختام الحقيقى لما كتبه «بوب وودوارد»، مع أنها ليست واردة فى كتابه «بوش فى حرب»، وإنما جاء بها كتاب آخر غيره وهو كتاب «الرجل المناسب» The Right Man، وذلك مرجع مهم لأن صاحبه وهو «دافيد فروم»، كان واحدا من فريق «كارين هيوز» (مستشارة العلاقات العامة للرئيس ومسئولة المكتب الخاص المكلف بكتابة خطبه).

كان «دافيد فروم» محررا مرموقا فى جريدة «وول ستريت جورنال» تميز بقدرته على صياغة الأفكار المعقدة فى عبارات مبسطة، ولذلك فإن «كارين هيوز» بمشورة من مساعدها «مايكل جيرسون» طلبته للعمل فى البيت الأبيض - حتى تستفيد من مواهبه فى كتابة خطب الرئيس «جورج بوش».

وهنا تظهر الصورة الأخيرة - وهى خطيرة - وتستحق أن تتوقف سرعة عرض الكتاب عندها - ابتداء من صفحة ٢٢٤ من كتاب «دافيد فروم» عن «الرجل المناسب» (وهو يقصد «جورج بوش»!).

ويبدأ الفصل الثانى عشر (صفحة ٢٢٤) على النحو التالى:

فى أواخر ديسمبر سنة ٢٠٠١، اتصل بى (فى مكتبى بالبيت الأبيض) كبير كُتاب خطب الرئيس وهو «مايكل جيرسون» (المساعد الرئيسى لكارين هيوز) قائلا لى: «عندى اليوم مهمة تتعلق بخطاب الرئيس السنوى عن «حالة الاتحاد» (يلقيها أواخر شهر يناير ٢٠٠٢) - فهل





نستطيع الاعتماد عليك فى صياغة فقرة أو فقرات تكفى لشرح الأسباب التى تدعونا إلى تقصد العراق (Going after Iraq).

يواصل «فروم» روايته فيقول:

«كان واضحا لى أن طلب «جيرسون» منى هو كتابة الفتوى التى تبرر حربا على العراق توضع فى سياق خطاب الرئيس عن «حالة الاتحاد» (آخر يناير ٢٠٠٢).

يستطرد «فروم»:

«فهمت مقصد «مايكل جيرسون»، وسألته هل يستطيع أن يعطينى مهلة إلى ما بعد الغد أتقدم بعدها إليه بمشروع صيغة يمكن قبولها؟ - ورد على «مايكل جيرسون» بقوله: «شانك غريب، أنت تحتاج إلى يومين كاملين لكى تتوصل إلى صيغة يفتح بها الرئيس هذا الملف».

فهمت وأدركت على الفور أن قرار الحرب ضد العراق قد اتخذ، وأن صياغة أكثر الفقرات حساسية وخطورة فيه قد أوكلت إلىّ، وكنت أعرف أن هناك مجموعة من خمسة غيرى فى مكتب العلاقات العامة يعكفون على كتابة مشروع الخطاب، كل واحد منا يكتب جزءا، ثم يسلم كل منا ما توصل إليه إلى «مايكل جيرسون» الذى يعيد «تحريره» لتوحيد الأسلوب، ثم يعطيه لكارين هيوز (مسئولة العلاقات العامة)، تراجعه وتضيف إليه لمساتها، بحيث يصبح جاهزا للعرض على الرئيس ومستشاريه السياسيين.

(وفى العادة فإن كُتّاب خُطب الرئيس لديهم ما هو كاف من التوجيهات والمعلومات والتقارير ومحاضر الجلسات، بحيث يكتب كل واحد منهم ما هو مُكَلَّف به وتحت يده مادة تكفيه) - وقد شرح «فروم» طبيعة هذا العمل الذى يقوم به حتى وصل إلى صفحة ٢٣١، لكى يركز على تناوله لمسألة العراق، وكيف فكر فى مقاربتها بصياغة فقرة - أو فقرات - عنها فى خطاب الرئيس «جورج بوش» عن «حالة الاتحاد» أمام الجلسة السنوية المشتركة لمجلس الكونجرس - فيقول:

«سألت نفسى من أين أبدأ:

من السهل جدا تبرير حرب على «صدام حسين» لأنه أسوأ من يمكن أن نلقاهم على طول المسافة من الجزائر إلى كابول، لكن المشكلة فى هذه النقطة أن رئيس الولايات المتحدة لا يصح له أن يتحدث عن التاريخ القديم لصدام حسين، (لأنه لا مجال لحسابه الآن عنه بعد السكوت الطويل عليه)، ثم إنه (الرئيس) لا يستطيع أن يتحدث عن التاريخ القريب (وإلا بدا ذلك نقدا للإدارات السابقة التى سكتت على ما فعل ولم تحاسبه)، ونحن لا نريد أن نوجه لوما إلى إدارة سبقت لأننا فى شأن الحرب نفضل سياسة تعلو على أى خلافات حزبية، لأننا فى قرار الحرب نريد وفاقا بين الحزبين.

وإذن فانا لا أستطيع استعمال هذه الحجة.

انتقلت إلى التفكير فى ذريعة أخرى:

لقد قرأت كثيرا عبارة أن «صدام حسين» استخدم الأسلحة الكيماوية ضد الأكراد فى العراق، أى ضد شعبه، لكننى لو استعملت هذه الذريعة فى الخطاب فإن أعضاء الكونجرس وأفراد الشعب قد يتساءلون «وأين كنا منذ حدث ذلك، وهو سؤال وجيه - لكنه مرة أخرى سوف يُلقى اللوم على الذين سكتوا عن هذا العمل الشنيع، خصوصا أن «بوش» (الأب) كان فى البيت الأبيض حينها نائبا للرئيس «ريجان»)، وإذن فإن الذريعة الثانية لا تصلح لتأسيس خطاب عن ضرورة الحرب مع العراق.

وصلت فى التفكير إلى تهمة محاولة اغتيال «بوش» (الأب) أثناء زيارته للكويت سنة ١٩٩٣، لكنى عدلت عن هذه الذريعة مرة ثالثة، لأن أى كاتب من الدرجة الثالثة يستطيع أن يجد فيها مجالا لاتهام الإدارة بأنها تسعى للثأر الشخصى (Omerta) على طريقة عصابات المافيا.



يستطرد «دافيد فروم» (صفحة ٢٣٢) قائلا:

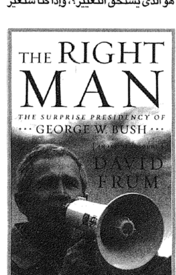
«فى بعض الأحيان يكون أفضل أسلوب للبحث عن مدخل لخطاب سياسى، هو التفتيش أولا عما يحتمل أن يقوله «الخصوم» الذين يعارضونه. وفى حالة العراق تُثار دائما نقطتان:

الأولى: أنه لم تثبت لصدام حسين صلة بحوادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فلماذا نعاقبه؟

والثانية: أن «صدام حسين» ديكتاتور طاغية، لكن «ستالين» كان كذلك أيضا، ونحن لم نحاربه، وإنما اكتفينا باحتواء الاتحاد السوفيتى، فلماذا نشهر على «صدام حسين» حربا لم نقم بها ضد «ستالين»، إلا إذا اعترفنا أن قوة الاتحاد السوفيتى ردعتنا، فى حين أن ضعف العراق يغرينا!».

يستطرد «فروم»:

«كنت أعرف أننا نريد تغيير النظام فى العراق، لكن ظنى أن الرأى العام سوف يتساءل - هل نظام «صدام حسين» وحده هو الذى يستحق التغيير؟، وإذا كنا سنغير المنطقة كلها، إذن فنحن نتحمل بعبء لم تتحمله الإمبراطوريات التى حكمت المنطقة من الرومان إلى آل عثمان!».



يعود «فروم» إلى طرح أفكاره بينما هو منشغل بإعداد ما يخصه فى خطاب الرئيس:

«إن الرئيس يحتاج - باعتباره الرئيس - أن يقول شيئا واضحا يربط «صدام حسين» بمستقبل استقرار السلام فى العالم، بحيث يظهر أن المطلوب هو تصفية الخطر على هذا المستقبل وليس مجرد ردعه!».

توصلت من هنا إلى فكرة رئيسية مؤداها «أن ضرب «صدام حسين» جزء من مواجهة المخاطر التى تهدد سلام العالم»، لأنه أول الشرور.

يواصل «فروم»:

توصلت إلى صياغة حول ما فكرت فيه وعرضتها على «مايكل جيرسون» وعلى «كارين هيوز»، وقد جلسنا لمناقشة الصياغات النهائية لأجزاء الخطاب فى مكتب «كوندليزا رايس» (مستشارة الأمن القومى للرئيس)، وكان عليها أن تراجع نصه الأخير قبل أن ندخل به إلى المكتب البيضاوى.

وقد أعجبت «كوندليزا رايس» بالصيغة التى اقترحتها، ورأت أنها تتسع لآخرين بينهم إيران، وأضافت «نحن نريد إيران كذلك»!

يستطرد «فروم»:

ودارت مناقشة بدا فيها أن أول بلدان فى طابور الشر: العراق وإيران، بلدين إسلاميان، وذلك يمكن أن يولد حساسيات لا نريدها فى العالم الإسلامى، واقترح «جيرسون» أهمية إضافة دولة ثالثة غير إسلامية، وقالت «كوندى»: «كوريا الشمالية!»، وعقبت قائلة: «إذن فإن الثلاثة معا أصبحوا محورا للشر، ولا داعى لأن نقول من الآن أن الشر طابور طويل» - وهكذا جرت ولادة تعبير «محور الشر»، وقد أسعدنى أن الرئيس «بوش» قرأ الفقرة المتعلقة بالعراق فى خطابه كما كتبتها نهائيا - لم يغير فيها حرفا!

وعندما أذيع خطاب الرئيس عن «حالة الاتحاد»، كان العنوان الذى قدم له على شاشات التليفزيون وعلى الصفحات الأولى لكل وسائل الإعلام الدولى هو: «محور الشر».

عندما أذيع خطاب الرئيس عن «حالة الاتحاد»، كان العنوان الذى قدم له على شاشات التليفزيون وعلى الصفحات الأولى لكل وسائل الإعلام الدولى هو: «محور الشر»!



....

....

[كذلك حكى «دافيد فروم» فى كتاب «الرجل المناسب»، وجاءت حكايته واضحة لا تقبل التباسا أو شكا].

....

....



وهنا يثور سؤال:

«ما الذى يدعو أحد كتاب خطب رئيس الولايات المتحدة إلى رواية هذه التفاصيل عن دخائل عمله؟».

والسبب يساوى وقفة أخيرة يتطرق إليها «فروم»، ويروى وقائعها على النحو التالى:

«لقد حدث أن خطاب الرئيس عن «محور الشر» لقى استحسانا واسعا لدى الرأى العام فى الولايات المتحدة، وأصبحت عبارة «محور الشر» حديث الناس فى كل محفل، وكانت زوجة «دافيد فروم» سعيدة، وكذلك فإنها كتبت لأمها رسالة إليكترونية تقول فيها «إن زوجها «دافيد» هو الذى صاغ هذا التعبير فى خطاب الرئيس، وهو سعيد جدا بهذه الدرجة العالية من القبول العام».

وتسرب الخبر إلى صحفى معروف «روبرت نوفاك»، فأشار إليه فى بند لا يزيد على ثلاثة سطور ضمن عامود يكتبه.

وظهرت الواشنطن بوست فى الصباح، وعند الظهر كان «دافيد فروم» يتلقى دعوة عاجلة من رئيسه «مايكل جيرسون» (كبير كُتَّاب خطب الرئيس)، الذى أبلغه بلهجة مقتضبة وملامح عابسة: أولا - أن الرئيس لا يريد «تسريبات» تفشى للصحف عما يجرى فى البيت الأبيض لأن تلك كانت «المصيبة» فى رئاسة والده. وثانيا - فإنه ليس من حق كُتَّاب خطب الرئيس (ولا زوجاتهم) أن يتحدثوا عن أسرار عملهم، مهما كانت دوافعهم إلى ذلك، وعليه ولسوء الحظ «يا عزيزنا دافيد» فإن هذا اليوم هو آخر أيامك فى البيت الأبيض!.

وخرج «دافيد فروم» من البيت الأبيض عائدا إلى عمله الأصلى فى جريدة «وول ستريت جورنال»، وتذكر أنه بالدرجة الأولى صحفى محترف، وقرر أن يكتب حكايته مع عقل الرئيس (يقصد «كارل روفى»)، ومع صوت الرئيس (يقصد كُتَّاب خطبه)!».

....

....

[وهكذا فإن اثنين من الصحفيين فى واشنطن سجلا على الورق ما رأيا وسمعا.

■ «بوب وودوارد» الذى عرض خلفيات ولمحات وشريط صور تحكى وتستفيض.

■ و«دافيد فروم» الذى قدم مشهد الختام فى لعبة الأقنعة، حين جرى استبدال صورة الشيخ «أسامة بن لادن» (الظل - الشبح القادر على الاختفاء فى الظلال) - بصورة الرئيس «صدام حسين» (الجسد الذى يمكن أن يُطال ويُضرب حتى يتحول إلى أشلاء وسط أنقاض).

....

....

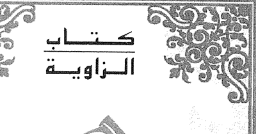
[لم تكن فى حسابات البيت الأبيض تلك اللحظة أسلحة دمار شامل يملكها النظام فى العراق ويُراد نزعها منه، ولم يكن فى الحسابات ديكتاتورية تخنق شعب العراق ويُراد كسر قبضتها عن رقبته، ولم تكن هناك ديمقراطية وحرية غابت عن أرض العراق فجأة ويُراد لها أن تشرق مع الربيع الجديد، ولم تكن هناك صلات بتنظيم القاعدة وخلاياها الإرهابية المنتشرة فوق سطح الكرة الأرضية ويُراد تصفيتها ضمن الحملة العالمية على الإرهاب.

كل ذلك لم يكن فى الحساب، ولا كان مما يمكن أو يصح انتظاره، لأنه مخالف لطبائع وحقائق الأشياء، والواقع والصحيح أنه كانت هناك أحوال إنسانية، وصراعات سياسية، ومطالب إمبراطورية، وضرورات بترولية، ولوازم انتخابية، وكله يتداخل ويختلط فى وعاء طبخ القرار الأمريكى، وكل طبق يحتاج إلى محسنات للطعم ولمسات جمال على الشكل ترضى الذوق وتفتح الشهية، وعندها تجىء لحظة إضافة المغريات من نوع «نزع أسلحة الدمار» و«إبعاد الديكتاتورية» و«ضمان حقوق الإنسان» و«مستقبل الديمقراطية»!]. ■

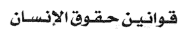
....

....









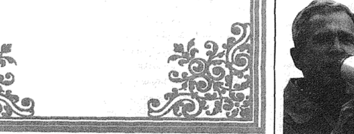
قوانين حقوق الإنسان

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، حدث تقدم ملحوظ نحو تبنى الاتفاقيات والمعاهدات الخاصة بحقوق الإنسان الدولية منها والإقليمية والانضمام إليها، بالإضافة إلى إنشاء آليات التنفيذ. وجاء رسوخ ثقافة احترام حقوق الإنسان فى كافة أرجاء العالم نتاجًا للتطور التاريخى الذى شهده العالم ولتأثير القيم النابعة من الأديان.

ويقول الدكتور شريف بسيونى أستاذ القانون ورئيس المعهد الدولى لقانون حقوق الإنسان فى جامعة دى بول بشيكاغو فى مقدمة كتاب «الوثائق الدولية المعنية بحقوق الإنسان».. المجلد الأول، دار الشروق ٢٠٠٣: إن الفضل فى تطور القانون الدولى لحقوق الإنسان وآلياته وتطبيقه ووسائل تنفيذه عبر العالم يرجع إلى المنظمات غير الحكومية وبعض الحكومات المعنية بحقوق الإنسان والأمم المتحدة وكذلك المنظمات الإقليمية.

ورغم الانتهاكات الكثيرة والمتعددة للقوانين الخاصة باحترام حقوق الإنسان إلا أن السنوات القليلة الماضية شهدت اهتمامًا شعبيًا عالميًا بأهمية تطبيق هذه القوانين وانعقاد مؤتمرات عديدة تطالب الحكومات باحترامها والقوى المتحاربة بالالتزام بقوانين حقوق الإنسان الخاصة بالحروب.

وقد رأت مجلة «الكتب.. وجهات نظر» أن تنشر بعض نصوص من المواثيق والإعلانات والاتفاقيات الخاصة باحترام حقوق الإنسان مشاركة منها فى تشجيع الاهتمام الشعبى بهذه الحقوق التى لم تعد بأى حال من الأحوال أشياء كمالية بل جزءًا لا يتجزأ من حياة الإنسان وكرامته.





أمن إسرائيل

عزمي بشارة

قدمت الورقة موضوع هذه القراءة المطولة يوم ٨ يوليو ١٩٩٦ إلى رئيس حكومة إسرائيل بنيامين نتنياهو في أعقاب انتخابه لرئاسة الحكومة الإسرائيلية وهزيمة شمعون بيرس بعد مقتل رابين. واكتسبت هذه الورقة أهمية إعلامية بأثر رجعي إبان الإعداد للعدوان على العراق حين أكدت ضرورة أن تدعم إسرائيل الحرب على العراق، أولاً: كخيار أمريكي، أي في إطار السياسة الداخلية الأمريكية، وثانياً: كخيار استراتيجي إسرائيلي يكتسب أهمية قائمة بذاتها بالنسبة لإسرائيل، مما جعل الحرب تبدو كأنها حرب بالأصالة عن أمريكا وبالنيابة عن إسرائيل. وقد اكتسبت أهمية بأثر رجعي لأنه حين كتابتها بدت الورقة خارجة عن السياق التاريخي. في ظل سياسة إدارة كلينتون الخارجية.

ولكن رغم ما يبدو ويظهر للوهلة الأولى من محدودية أهمية أو فاعلية الورقة سياسيًا، إلا أن الورقة تصلح للقراءة كنموذج لتحول حقيقي جار في اليمين الأمريكي، كما أنها صورت وجسدت تطابقا بالمفاهيم مع اليمين الإسرائيلي المتطرف، كما عكست تحولاً حقيقياً في اليمين الإسرائيلي ذاته تم تجاهله في حينه مع انتشار الاعتقاد الخاطىء أن انتصار باراك على نتنياهو في العام ١٩٩٩ كان انتصاراً لليسار.

على كل حال نحن لا نرى أن للورقة أهمية قائمة بذاتها ولا نوافق على منح كتابها أهمية شخصية أو قدرات خارقة على التحكم بسياسة الولايات المتحدة الأمريكية عالمياً. فأبرز كتابها وأحد أهم رموز اليمين الأمريكي في الإدارة ورموز المحافظين الجدد عمومًا منذ مرحلة ريجان، ريتشارد بيرل، اضطر للاستقالة من منصب رئيس مجلس الدفاع، وهي هيئة مدنية نصف رسمية تعين من قبل وزير الدفاع كهيئة استشارية للبنتاجون.

وقد استقال بيرل على إثر حملة «النيويورك تايمز» عليه لوجود تعارض بين علاقاته مع الشركات المنتجة للسلاح ووجوده في هذا المنصب شبه الرسمي. وهي علاقة من النوع الذي كان ينبغي أن يدفع تشيني، نائب رئيس الولايات المتحدة، نفسه للاستقالة. وجاءت الاستقالة في بداية الحرب مع تعرض خطة البنتاجون إلى مفاجآت جعلت بعض العرب يتحمس أو يعوم على شبر ماء ليفسر استقالته كنتيجة لـ«فشل» الخطة، وكان الخطة الأمريكية العسكرية قد فشلت.

تنبع أهمية الورقة من أهمية الأفكار الواردة فيها والتي تعكس أيديولوجية عقائدية متماسكة في السياسة الخارجية ما لبثت أن تحولت عندما سنحت الظروف إلى أساس نظري حقيقي يعكس تطابق الرؤية الاستراتيجية بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

A Clean Break: A New Strategy for Securing the Realm

(بداية جديدة: استراتيجية جديدة لأمن الدولة)

Richard Pearle (Study Group leader)

Jerusalem, Washington D.C.: Institute for Advanced Strategic and Political Studies, July 8. 1996.

وكلما ذكرت هذه الوريقة تثور في نفوسنا تصورات حول خطة مؤامراتية قام بها بضعة أفراد لاختطاف السياسة الخارجية الأمريكية، والحقيقة أن التحول في السياسة الأمريكية في مرحلة القطب الواحد أدى إلى تبنيها تدريجياً، ثم إلى تحقق هيمنة هذه المدرسة السياسية في عهد رئيس ضعيف يطرح ألف سؤال حول شرعية انتخابه ناهيك عن مؤهلاته، ويبحث عن معنى ورسالة لرئاسته تتجاوز كونه ابن رئيس سابق.



في العام ١٩٩٢ أعد كل من بول ولفويتز، نائب رئيس وزير الدفاع الأمريكي الحالي، وزميله لويس ليبي، مساعدى ديك تشيني وزير الدفاع في حينه، وثيقة تسمى «دليل تخطيط الدفاع في البنتاجون» Pentagon Defense Planning Guide دعت إلى «إنهاء مهمة» تلك الحرب وإسقاط النظام العراقي. وقد أكدت هذه الوثيقة الأطروحة الأساسية للتغيير في السياسة العالمية الامريكية: الحفاظ بكل ثمن على وحدانية القوة الأمريكية بحيث لا تتجاوز قوتها دولة أو ائتلافا من دول. ولم تشتهر هذه الأطروحة في حينه لأن الواقع ذاته تجاوزها وأكدها دون الحاجة إلى أي تآمر. أي أن الاقتصاد الأمريكي تجاوز حجماً ونجاعة كافة الاقتصاديات الأخرى وبلغ المصروف العسكري الأمريكي عملياً ما يتجاوز الصرف العسكري للعشرين دولة التي تليها في حجم الإنفاق العسكري مجتمعة دون أن يشكل ذلك عبئاً على الدخل القومي. كما تجاوز التطور العلمي الأمريكي في مجالات الحاسوب وتقنيات العدسات والاتصالات والصواريخ أية إمكانية لمنافسة من خارج الولايات المتحدة. وتنفق الولايات المتحدة على الأبحاث وحدها في مجال الأسلحة أكثر من مجمل الإنفاق العسكري لبريطانيا وألمانيا سوياً. وهذا وحده كاف لقطع الطريق على المنافسة النوعية مستقبلا. ويبلغ حجم الاقتصاد الأمريكي ضعف الياباني، كما بالإمكان تدريج اقتصاد كاليفورنيا وحدها خامسا على الصعيد العالمي قبل فرنسا وبعد بريطانيا.

ولكن جورج بوش عاد إلى تأكيد مبدأ الوحدانية والتفرد في المكان الأول نصاً وحرفاً في خطابه الشهير في قاعدة ويست بوينت في يونيو من العام ٢٠٠٢ ليس فقط تأكيداً لهذا المبدأ وإنما تفصيلاً له في السياسة الخارجية كأساس للحرب الإمبريالية في الخليج، كما ورد بشكل واضح في النص الرسمي التالي: «ستكون قدرتنا العسكرية قوية إلى درجة تمنع خصومنا المحتملين من بناء قوة عسكرية على أمل تجاوز قوة الولايات المتحدة أو التساوي معها».

لقد وقع على الورقة موضوع قراءتنا التي تكرر ذكرها في سياق التآمر لشن الحرب على العراق كل من ريتشارد بيرل القادم من عهد إدارة ريجان، والذي أسمته الصحافة الإنجليزية أمير الظلام نتيجة لآرائه المتطرفة، وجيمس كولبرت (المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي)، تشارلز فايربانكس (جامعة جون هوبكنز) وسوف نرى أن لمركز

أكدت وثيقة «دليل تخطيط الدفاع فى البنتاجون» الأطروحة الأساسية للتغيير فى السياسة العالمية الأمريكية: الحفاظ بكل ثمن على وحدانية القوة الأمريكية بحيث لا تتجاوز قوتها دولة أو ائتلافا من دول

الدراسات السياسية والاستراتيجية فى هذه الجامعة شأنا عظيما فى بلورة اليمين المتطرف فى الإدارة الأمريكية دون علاقة مباشرة بالنفوذ الصهيونى الأمريكى القائم بذاته، دوجلاس فيث (شركة فيث أند زيل Faith&Zell) وهو حاليا مساعد وزير الدفاع سوية مع زميله وولفويتز، روبرت لودينر (رئيس معهد الدراسات السياسية والاستراتيجية الذى أصدر الورقة، ومقره فى واشنطن والقدس)، جوناثان توروب (معهد واشنطن لشئون الشرق الأدنى) ووجوده تأكيد على تشابك اللوبى الصهيونى القديم: معهد واشنطن والإيباك واللوبى اليمينى الإسرائيلى، مع اللوبى الجديد، دافيد وورمز (معهد الدراسات السياسية والاستراتيجية) وقد انتقل للعمل فى البنتاجون فى عهد إدارة بوش الابن، وزوجته ميراف وورمز (جامعة جون هوبكنز).

ويضاف مضمون الورقة الذى يشمل دمج الدعوة الصريحة لشن الحرب على العراق ضمن الاستراتيجية الإسرائيلية إلى أسماء الموقعين عليها وتبوئهم مناصب مرموقة فى الإدارة الأمريكية التى شنت الحرب لينتج ظاهرة مثيرة للاهتمام وحب الاستطلاع. ولكن ما يهمنا هو أولاً: مضمون هو من أسس السياسة الأمريكية الجديدة. نص كهذا يذكر بأن الأحداث التخريبية التى شهدها العراق من قبل غوغاء المدن والقبائل ليست بعيدة عن عقل هؤلاء التآمرى.



النـــص:

١ ـ يبدأ النص بهجوم سافر وصريح على حزب العمل الإسرائيلى «الذى يقود الحركة الصهيونية منذ خمسة وسبعين عاماً»، وذلك لأنه أوصل المجتمع الإسرائيلى بسياساته الاقتصادية المعتمدة على قطاع الدولة إلى حالة أزمة وإفلاس (وهى مغالطة بالطبع) وإلى إنهاك المجتمع الإسرائيلى واعتمد على محدودية قدرته على الصمود بدلا من أن ينميها عبر نشر أوهام مثل «الشرق الأوسط الجديد» والتنازل عن أراض، ثم الاستعانة بالولايات المتحدة لتمريرها فى المجتمع الإسرائيلى حيث لا تحظى هذه السياسة بشعبية.

يعادونها هى تلك التى تستخدم للتعبئة ضد انتشار النفوذ الأمريكى.

تنص الورقة أنه باستطاعة إسرائيل أن:

ـ تعزز التعاون مع تركيا والأردن لاحتواء ثم وقف ثم قلب ما يواجهها من تهديدات. وهذا يتطلب الانتقال من تطبيق شعار «السلام الدائم» إلى المفهوم التقليدى للاستراتيجية القائم على توازن القوى.

ـ تغيير طبيعة العلاقة مع الفلسطينيين، بما فى ذلك التمسك بحق المطاردة الساخنة (وتعنى ملاحقة منفذى العمليات الفلسطينيين) إلى داخل مناطق السلطة الفلسطينية و«تغذية بدائل لقبضة ياسر عرفات على المجتمع الفلسطينى».

ـ تؤسس قاعدة جديدة للعلاقات الأمريكية الإسرائيلية تنطلق من الاعتماد على الذات والتعاون الاستراتيجى فى مجالات الاهتمام المشترك ودعم القيم الغربية. ويصبح هذا ممكناً إذا اتخذت إسرائيل خطوات تقليص المعونة الأمريكية المالية لها، هذه المعونة التى تعيق الإصلاح الاقتصادى. ويلتقى معدو التقرير فى هذا المطلب مع عناصر متطرفة فى اليمين الإسرائيلى تعتبر الدعم الأمريكى المالى

لإقامة دولة يهودية والرغبة فى القضاء عليها وذلك بواسطة مبادلة «الأرض مقابل السلام» لا تضمن «السلام الآن». ادعاؤنا على الأرض التى تطلعنا إليها بأمل طيلة ألفى عام هو ادعاء شرعى ونبيل. وليس بوسعنا أن نصنع السلام من طرف واحد مهما قدمنا من تنازلات. وحده قبول العرب غير المشروط بحقنا هذا، خاصة ببعده الإقليمى، «السلام مقابل السلام»، يشكل أساساً صلباً للمستقبل».

يقترح المؤلفون بشكل واضح خرق ومراجعة أو إلغاء اتفاقيات أوسلو. وتشكل هذه التوصية تعبيرًا عن موقف أمريكى رافض لأوسلو أصلاً. مع الفرق أن كلاً من الإدارة الأمريكية ونتنياهو تكيفا مع اتفاقيات أوسلو على أمل أن يؤدى إلى تغيير فى الموقف الفلسطينى، أما هؤلاء فقد ثابروا فى موقفهم الرافض لاتفاقيات أوسلو إلى أن تبنته الإدارة الأمريكية واليمين الإسرائيلى بعد الانتفاضة الثانية. هنا علينا أن نتوقف قليلاً عند الفرق بين هؤلاء وبين اللوبى الإسرائيلى التقليدى الذى عمل من قبل أن يسطع نجمهم فى سماء العاصمة واشنطن.

استراتيجية أمريكية

الورقة باعتباره مؤشراً على نمط صريح ومعلن إلى درجة الوقاحة فى التفكير اليمينى الجديد. وثانيًا غرابة تحويل هذه السياسة إلى نصائح لإسرائيل فى كيفية التدخل فى السياسة الأمريكية والتأثير عليها أيضًا. وهذه الدعوة الصريحة لرئيس حكومة بلد أجنبى للتدخل فى الشؤون الأمريكية الداخلية للتأثير على عملية صنع القرار فيها لا يميز اليمين التقليدى. ولا يمكن تخيل أن يقوم ممثلو اليمين الأمريكى القديم بخطوة كهذه، فالوطنية الأمريكية تصده عن تقديم نصائح كهذه. الوطنية الأمريكية فى حالة هذا اليمين الجديد تشمل إسرائيل، ولا تتعامل معها كدولة أجنبية. ومن هذا المنظور فإن وجود أخطر جاسوس فى تاريخ البنتاجون جوناثان بولارد فى السجن الأمريكى فى هذه المرحلة هو عبارة عن انضباط أمريكى عسكرى حتى تجاه إسرائيل.

يفاجأ المرء من صراحة ووضوح النص إلى درجة التآمر الصريح للعبث فى شئون الدول الداخلية، بواسطة تشجيع «القبائل العربية» مثلا على اختراق حدودها للتخريب كما يتم الحديث عن سورية فى الورقة. وتجاوز سيادة الدول عند الحاجة

لقد سبب حزب العمل على حد تعبير معدى الورقة تآكلا فى قدرة الصمود والاحتمال الوطنية الإسرائيلية، وقد بنى سياسته أيضا على محدودية قدرة الاحتمال وانعدام ثقة «الأمة» بذاتها (يستخدم كاتبو الورقة وهم أمريكيون مصطلح الأمة بدون إضافات أو نعوت والقصد هو الأمة اليهودية أو الإسرائيلية، لا ندرى أيهما المقصود).

هنا يستغرب القارئ من غزارة استخدام المؤلفين لمفاهيم الأمة والقومية وضرورة رفع معنوياتها وثقتها بذاتها كمقدمة لصنع السلام بالشروط الإسرائيلية. والغريب أنهم يرفضون التدخل الأمريكى فى الشؤون الداخلية الإسرائيلية (والمقصود هو استعانة رابين بها ضد شامير مثلا) ولكنهم لا يرحبون فقط، بل يدعون إلى تدخل إسرائيلى فى شؤون الولايات المتحدة الداخلية وفى عملية صنع القرار فيها. هؤلاء قوميون بدون شك، واليمين الجديد يؤكد على دور القومية عالميا فى السياسة الخارجية، ولكن يبدو لى أن قومية هؤلاء هى قومية يهودية مختلطة بوطنية مشتركة أمريكية وإسرائيلية. والقومية الوحيدة التى

المباشر لإسرائيل عائقا أمام استقلال الأخيرة ونموها الاقتصادى السليم فى آن.



وتقوم المقاربة الجديدة التى يقترحها المؤلفون إلى موضوع السلام على نسف كامل لمبدأ الأرض مقابل السلام، ويقترحون مبادئ أخرى تقوم على اعتراف العرب بحاجتهم هم إلى السلام: السلام من أجل السلام والسلام من خلال القوة و مبدأ توازن القوى.

ويقترح المؤلفون النص التالى لتلخيص الموقف الإسرائيلى الرسمى الجديد من السلام:

« لقد قمنا لمدة أربعة أعوام بالسعى إلى سلام قائم على تصور شرق أوسط جديد. نحن فى إسرائيل لا نستطيع أن نلعب دور الأبرياء فى عالم غير برىء. نحن نعيش فى بيئة جيران خطيرة، مع دول هشة تعيش صراعات مريرة. ويعتمد السلام على طبيعة وسلوك أعدائنا. وحالة طمس الحدود الأخلاقية بين الجهد المبذول

لقد قامت AIPAC (The American Israel Public Affairs Committee) بعد العام ١٩٦٧ مع ازدياد أهمية إسرائيل استراتيجيا فى المنطقة. وقد مثلت فى نشاطها تصور الحكومة الإسرائيلية القائمة، أيا كانت، ودافع ممثلوها عن مواقف الحكومة الإسرائيلية وجندوا لها الدعم والتأييد فى واشنطن، وفى الكونجرس على وجه التحديد، على شكل لوبى يعمل على إقناع النواب بدعم الموقف الإسرائيلى سياسيا بما فى ذلك موضوعات خارجية مثل قضايا حق يهود الاتحاد السوفيتى بالهجرة وغيرها، وقضايا التسلح والدعم المالى لإسرائيل.



أما المرحلة الانتقالية من الناحية النظرية، أو من حيث المفاهيم، فشكلها تأسيس معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، وقد تأسس عام ١٩٨٥. وقد تجاوز فى نشاطه الكونجرس إلى العمل المباشر فى التأثير على الإعلام والسلطة التنفيذية.

لعب مارتن أنديك دوراً أساسياً فى تمثيل وجهة نظر هذا اللوبى فى الإدارة الأمريكية. ومن أهم وثائق هذه المؤسسة الصهيونية تقرير «البناء من أجل السلام: استراتيجية أمريكية من أجل السلام». "Building for Peace: An AmericanA Strategy for the Middle East" وقد عارض هذا التقرير الذى صدر عام ١٩٨٨ بعد انفجار الانتفاضة الأولى تدخلاً أمريكياً يفرض إجراءً تفاوضيًا على إسرائيل، أو يفرض تسوية. وقد وجد ستة من مؤلفيه طريقهم عملياً إلى إدارة بوش الأولى حيث ساهموا فى تعزيز موقف يرفض التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية ويدعو الإدارة الأمريكية إلى عدم فرض التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية على إسرائيل. وهذا التجنب الأمريكى هو الذى أنجب صيغة مدريد الفاشلة التى فرضت بموجبها إسرائيل أن يكون الطرف التفاوضى الفلسطينى من خارج منظمة التحرير الفلسطينية.، وعندما وصلت إسرائيل الرسمية إلى قناعة بالحاجة إلى مفاوضات جدية قامت بنفسها بالالتفاف على هذه الصيغة فى أوسلو متجاوزة عملاً تراكميًا لسنوات طويلة مع اللوبى الإسرائيلى فى الولايات المتحدة.

ولكن تقييم نشاط مارتن أنديك ودنيس روس يظهر أنهما واصلا عملياً محاولة إثبات عدم صلاحية منظمة التحرير الفلسطينية للتفاوض. ومع أن روس كان الموفد عابر الرئاسات والإدارات لشؤون اتفاقيات أوسلو، إلا أنه لم يقتنع بأوسلو فى يوم من الأيام مثلما كان موقف «معهد واشنطن» المذكور.

ولا شك أن سياسة الاحتواء المزدوج التى تبناها كلينتون ضد العراق هى الأب الشرعى، أو غير الشرعى، لسياسة محور الشر عند بوش. إلى هنا الاستمرارية والشبه، أما الفرق فيكمن بالضبط فى الفرق بين الاحتواء والمواجهة الشاملة أو الحرب الشاملة فى عهد بوش. وليس غريبا أن يشدد النقاد الأمريكيون المخضرمون من قدامى المناضلين الديموقراطيين ضد سياسة الإدارات الأمريكية المتعاقبة العدوانية فى مناطق مختلفة من العالم من أمثال نعوم تشومسكى وجور فيدال على الاستمرارية كأن سياسة إدارة جورج بوش الابن لا تمثل جديدا على الإطلاق.

«الحدود الشمالية»:

محور توصيات الورقة فى حالة سورية ولبنان المسماة هناك بالحدود الشمالية اعتبار سوريا وإيران وحزب الله أهدافا ملحة فى عملية محاربة الإرهاب. ويفترض أن تعاقب سوريا فى لبنان، ولكن يجب أن تعاقب إسرائيل سوريا فى المستقبل فى سوريا ذاتها إذا لم ينفع الأسلوب الأول. «وأخذاً» بعين الاعتبار طبيعة النظام السورى، فإن من الطبيعى والأخلاقى فى آنٍ أن تغادر إسرائيل شعار «السلام الشامل» وأن تنتقل إلى «احتواء» سوريا وأن تلفت النظر إلى أسلحة الدمار الشامل وأن ترفض شعار «الأرض مقابل السلام فى الجولان».

ثم وفى الإطار ذاته يورد التقرير الفقرة التالية:

«يشدد هذا الجهد على الإطاحة بصدام حسين، وهو هدف استراتيجى بحد ذاته بالنسبة لإسرائيل، كوسيلة لتغليف (اقرأ احتواء) طموحات سورية الإقليمية. لقد تحدى الأردن سورية مؤخراً بطرح إعادة بناء المملكة الهاشمية الأردنية فى العراق، وقد ولد الاقتراح نزاعاً سورياً أردنياً رد عليه الأسد باختراقات فى الأردن تمس باستقرار النظام فيه. لقد أشارت سوريا مؤخراً إلى أنها، ومعها إيران، تفضل صدام حسين ضعيفًا لا يكاد يصمد فى صراع البقاء، وذلك لإجهاض محاولات الأردن وإذلالها».

وإمعاناً فى محاولة إقناع الحكومة الإسرائيلية بضرورة الإسهام بدور لتجهيز الأجواء لشن حرب على العراق يثير التقرير قضية «الشيعة فى لبنان» وضرورة تحريرهم من التأثير الإيرانى، وذلك عبر إعادة ربطهم بالنجف، حيث تربطهم علاقات تقليدية تسبق علاقاتهم مع إيران، وذلك بعد تأمين نجف صديقة بعد الإطاحة بنظام صدام حسين.

حضانات اليمين الجديد فى واشنطن:

قبل ثلاثين عاماً قامت فى واشنطن «لجنة الخطر الداهم»، وشكلت هذه ظلاً للمؤسسة العسكرية فى حينه خارج البنتاجون بحيث تقول ما ليس بوسع العسكريين أن يقولوه ويرغبون بقوله. ولم تترك هذه الهيئة أثراً جدياً فى مرحلة الرئيس كارتر ولكن نفوذها ازداد دون شك فى مرحلة ريجان. هذا النمط من إقامة ظل خارج المؤسسة السياسية للمؤسسة العسكرية فى فترة لا تروق لها السلطة السياسية وقراراتها هو نموذج نسخ فى مرحلة كلينتون بإقامة مؤسسات تعبر فيها قوى اليمين فى الإدارة العسكرية والسياسية الأمريكية عن مواقفها فى متنفس من خارج المؤسسة إلى أن تحين الفرصة لممارسة تأثير مباشر على البنتاجون كما حصل فى فترة بوش الابن.



ونذكر من هذه المؤسسات التى شكلت حضانات لنمو اليمين الجديد على هامش المؤسسة ثم داخلها:

١ ـ مجلس سياسات الدفاع، Defense Policy Board وتذكر على قائمة مجلس إدارته أسماء كل من ريتشارد بيرل، جيمس وولسى رئيس مخابرات سابق، فرانك جافنى، اليوت كوهين، هنرى كيسنجر، جيمس شليزنجر رئيس مخابرات سابق، هيوت جنجريتش رئيس الكونجرس السابق. وتتألف غالبيتهم من موظفين سابقين فى المؤسسة العسكرية والسياسية يجمعون بين اليمين التقليدى واليمين الجديد.

٢ ـ مدرسة الدراسات الدولية العليا فى جامعة جون هوبكنز، SAIS. وقد أسسها بول نتسه Paul Nitze فى العام ١٩٤٤ وقد شغل بول نتسه مناصب رفيعة فى كافة الإدارات الأمريكية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ماعدا إدارة كارتر. وحتى استقالته عام ٨٩ شغل منصب وزير خمس مرات. وبول نتسه هو أبو اليمين الجديد الروحى. وجميعهم إما تلامذته المتأثرون بفكره، أو خرجوا من معطفه روحياً. وقد مثّل الرجل الموقف غير القابل بالتوازن العسكرى مع الاتحاد السوفيتى والردع القائم على أساس خوف الخصم من الضربة الثانية المدمرة والذاهب إلى ضرورة خرق التوازن لضمان التفوق العسكرى الأمريكى وإمكانية القضاء على الاتحاد السوفيتى.

٣ ـ مشروع لقرن أمريكى جديد: PNAC تاسس عام ١٩٩٧ ورئيسه وليم كريستول وينشط معه بشكل خاص روبرت كاجان. كريستول هو رئيس تحرير صحيفة Weekly Standard حالياً بعد أن اشتراها كونراد بلاك الذى اشترى جيروزاليم بوست الإسرائيلية أيضاً وحولها إلى صحيفة يمينية. ويملك شركات صحافة فى بريطانيا وكندا ويتبنى مواقف اليمين الإسرائيلى.

وقد نشر PNAC مشروعًا أو خطة لضرب العراق والإطاحة بنظام صدام حسين بناء على ورقة وولفويتز وليبى من العام ١٩٩٢، «دليل الدفاع الأمريكى»، التى قدمت لتشينى فى حينه كوزير دفاع. ويعتقد وولفويتز أن اليمين الجديد قد حقق انتصارا باقتناع الإدارة بشن حرب على العراق، ولكنه ما زال يشعر على خلاف مع الإدارة فى شأن السعودية، وهو يرى أن المملكة العربية السعودية تنشر بالسطر الأخير فكرًا ديماجوجيا معاديًا للغرب يتناقض مع ممارساتها.

ومن يتواجد على مجلس إدارة هذه المؤسسة؟ وولفويتز، اليوت كوهين (رئيس)، رامسفيلد، جافنى، دونللى، ابرامز، جب بوش.

٤ ـ مركز السياسات الدفاعية CSP: Center For Security Policy، ومن مستشاريها اليوت ابرامز المدان بالكذب وبالتورط فى قضية إيران من مرحلة ريجان. والذى أعيد تعيينه حالياً كرئيس لقسم الشرق الأوسط فى مجلس الأمن القومى.

٥ ـ المعهد اليهودى لشؤون الأمن القومى، JINSA: Jewish Institute for National Security Affairs. تأسس عام ١٩٧٦ لتعزيز الدعم العسكرى لإسرائيل لكى لا تجد نفسها فى وضع كوضعها إبان الحرب عام ١٩٧٣ مرة أخرى. وحتى بداية فترة حكم بوش الابن جلس فى مجلسها الاستشارى كل من: تشينى، جون بولتون، وما زالت على مجلسها أسماء كل من: جيمس وولسى، ريتشارد بيرل، جين كيرباتريك (المندوبة الأمريكية فى الأمم المتحدة فى عهد رونالد ريجان) اويجين روستوف، ومايكل ليدين (وسيط أوليفر نورت إلى إسرائيل فى عملية إيران ـ كونترا).

تجمع المؤسسة بين اليمين القديم من مرحلة ريجان واليمين الجديد. وأهم الناطقين باسمها هو مايكل ليدين صاحب مفهوم الحرب الشاملة ضد الإرهاب. ويمكن تلخيص توجه المؤسسة بأن هنالك تطابقا تامًا بين الأمنين القوميين الأمريكى والإسرائيلى وأن السبيل لتأمين سلامة وازدهار البلدين يبدأ بتحقيق الهيمنة الكاملة على الشرق الأوسط بأساليب التآمر والتمويه والحرب المباشرة.

٦ ـ مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية. رئيسه برنت سكوكروفت مستشار الأمن القومى السابق. وأعضاء: تشينى، وولسى، كيسنجر، شليزنجر، رمى لى هنت (من شركة Hunt Oil فى تكساس).

٧ ـ المجلس الاستشارى للاستخبارات الخارجية: وفى مجلسه سكوكروفت، جون دويتش (رئيس المخابرات السابق) وهانت.

٨ ـ هنا نورد الحالة اللافتة التى تظهر مدى تشعب أذرع التيار اليمينى الجديد بشكل يوضح الصورة ويغلق الدائرة.

غرفة تجارة الولايات المتحدة ـ أذربيجان. وكان مجلسها مؤلف من قائمة معدى الحرب على العراق؛ وولفويتز، بيرل، تشينى، ارميتاج (مساعد وزير

الوطنية الأمريكية فى حالة هذا اليمين الجديد تشمل إسرائيل، ولا تتعامل معها كدولة أجنبية. إن وجود جوناثان بولارد أخطر جاسوس إسرائيلى فى السجن الأمريكى عبارة عن انضباط أمريكى عسكرى حتى تجاه إسرائيل

الخارجية حالياً وأيضاً من أبطال إيران / كونترا سابقا)، وبريجنسكى، كيسنجر، شلينجر، سكوكروفت، جيمس بيكر.



وقد تحولت أذربيجان عملياً إلى دولة محمية أمريكية، دون إشارة أمريكية أو تلميح إلى مدى ديموقراطية أذربيجان، وغيرها من جمهوريات آسيا الوسطى التى تسعى الولايات المتحدة لتحويلها إلى محميات دون إشارة إلى مدى ديموقراطيتها، كأن كلمة آسيا قد بدلت كلمة أمريكا فى عبارة «أمريكا الوسطى». ويبدو أن العراق يجب أن تكون مثل أذربيجان الغنية بالنفط.

لقد أقام الناتو عملياً فى العام ٩٩ مجموعة دول الجوان (جورجيا، مولدافيا، أوكرانيا، أوزبكستان - أذربيجان)، وهى مجموعة الدول على بحر قزوين الغنى بمصادر الغاز الطبيعى. وفى مركز هذه المجموعة دولة أذربيجان.

ولا شك أنه بالإمكان ضم مجلس سياسات الدفاع برئاسة ريتشارد بيرل إلى هذا اليمين الأمريكي الجديد الذى يعتبر فى جلساته العراق كهدف تكتيكى ومصر كهدف استراتيجى والسعودية هى الحلوى. وقد كانت أكثر حركاته إحراجاً وإثارة فى الفترة الأخيرة ما تسرب إلى الإعلام من جلسته ٢٠٠٢/٧/١٠ عندما اعتبر لورين مورافيتش فى مداخلته أمام المجلس السعودية عدواً للولايات المتحدة مستخدما فى وصفها تعبير «نواة الشر» kernel of evil.

وفى تقرير أخير أصدره «مركز النزاهة فى سلك العمل العام» حول هذا المجلس الاستشارى شبه الرسمى تبين أنه من بين ثلاثين عضوًا فى هذا المجلس الذى يقدم المشورة للبنتاجون تسعة على الأقل يحتفظون بعلاقات لشركات صناعات عسكرية حققت فى الأعوام ٢٠٠١ و٢٠٠٢، ٧٦ مليار دولار من أرباح التعاقدات. كما تبين أن أربعة أعضاء مسجلون كأعضاء فى جماعات ضغط للتأثير على الكونجرس، أحدهم يمثل اثنتين من أهم شركات صناعة الأسلحة فى أمريكا.

لقد حاولت أوساط «مجلس سياسات الدفاع» برئاسة بيرل حال وقوع عمليات الحادى عشر من أيلول استغلالها فوراً من أجل توجيه النقمة ضد العراق ومن أجل إعداد المزاج السياسى والجماهيرى لضرب وقلب نظام الحكم فى العراق. ولم يكن ذلك مجرد تطبيق للورقة التى نقوم بقراءتها وإنما لتحقيق هيمنة نمط جديد من التفكير السياسى على البيت الأبيض نفسه. هكذا حددت الإطاحة بنظام صدام حسين كجزء من المعركة ضد الإرهاب. كان هذا موقف رامسفيلد ومن ورائه البنتاجون بأسره.

لقد أوفد هؤلاء الذين اجتمعوا فى «مجلس سياسات الدفاع» بعد عمليات ١١ سبتمبر مباشرة جيمس وولسى إلى لندن للبحث عن أدلة تربط النظام العراقى بالقاعدة. وهو الذى خرج إلى العالم بفرية لقاء براغ بين محمد عطا وأحمد العانى من المخابرات العراقية. هذه الفرية التى كررتها صحف روبرت موردوخ (١٧٥ صحيفة إضافة إلى شبكة فوكس) وغيرها من الصحف الرخيصة وغير الرخيصة دون علاقة بملكيتها. والتى أحرجت حتى المخابرات التشيكية الودودة.



وهكذا يلخص نعوم تشومسكى العملية بأسرها بالأرقام: بعد ١١ سبتمبر مباشرة اعتقد ٣٪ من الأمريكيين فقط أنه توجد علاقة ما للعراق بالعملية. وعشية شن الحرب على العراق اعتقد ٥٠٪ من الأمريكيين أن العراق تقف وراء عملية ١١ سبتمبر أو لها علاقة بها.

لقد نشرت (PNAC) مشروع قرن أمريكى جديد) مذكرة موجهة إلى كلينتون تطالب بشن الحرب على العراق والإطاحة بنظام صدام حسين يوم ٩٨/١/٢٦ وقد وقع على المذكرة أربعون شخصية منهم كريستول، تشينى، ليبى، رامسفيلد، وولفويتز، بولتون، بيرل، ابرامز، خليلزاد (مسؤول الشأن الأفغانى فى الإدارة الأمريكية بعد ١١ سبتمبر، والكلف بلعب دور فى الإدارة العراقية إلى جانب جاى جارنر) وارميتاج، اليوت ابرامز (وزير دفاع سابق وله ضلع فى قضية إيران / كونترا) كاسبر وانبرجر (وزير أمن سابق له ضلع فى إيران / كونترا)، فرانك برلوتشى.

وعندما لم يتعامل كلينتون مع رسالتهم قاموا بالاستعانة بالكونجرس على أسلوب اللوبى الإسرائيلى المعروف. فتم توجيهها إلى جنجرتش رئيس مجلس الشيوخ وإلى رئيس الأغلبية فى ترينت لوت يوم ٩٨/٧/٢٩، وكانت نتيجة هذا المسعى صدور قرار «تحرير العراق» عن الكونجرس فى نوفمبر ٩٨، كان ذلك قبل أسابيع من بدء كلينتون بقصف العراق لمدة أربعة أيام متواصلة فى عملية «ثعلب الصحراء».

نمط التفكير الجديد:

لقد حذر زعماء عرب الولايات المتحدة من أن حربها على العراق سوف تؤدى إلى حالة من عدم الاستقرار فى المنطقة، ظناً منهم أن هذا التحرير سيهز مخططى الحرب على العراق أو يصدمهم. والحقيقة أن مفاهيم الاستقرار أو عدم الاستقرار قد باتت مفاهيم ثانوية بالنسبة إلى مخططى ومنظرى هذه الحرب. ولأن تصورهم للعالم يقوم على مفاهيم أخرى أساسية مثل وحدانية القوة والهيمنة، حق الضربة المانعة، فإن تحذيرًا من نوع «إن الحرب على العراق تمس بالاستقرار فى منطقة الشرق الأوسط» لا تخيفهم إطلاقا.

وتستطيع أن تميز نمط التفكير الأمريكى الجديد بانه استخلاص لنتائج الحرب الباردة ونهاية الاتحاد السوفيتى وإدراك لمعنى قوة ووحدانية قوة الولايات المتحدة، وقد انطلق طريق الوصول إلى هذا الاستنتاج من حرب الخليج الثانية مروراً بالتدخل العسكرى فى البلقان والحرب على أفغانستان وصولاً إلى الإطاحة بالنظام الحاكم فى العراق بعد احتلال ذلك البلد عسكرياً.

وتشتق من التفوق العسكرى المطلق عناصر أخرى مهمة تميز عقيدة وحدانية القوة مثل نهاية سياسة الردع التى تميز مرحلة التوازن فى القوى. فما ميز حالة التوازن لم يعد كافيا ولا حتى سارى المفعول، والمقصود الردع الذى يمنع الطرف الآخر من القيام بعمل عسكرى مباشر ضد الولايات المتحدة أو مصالحها الحيوية جدًا نتيجة لخوفه من رد الفعل المدمر، وقد يفسح الردع المجال للتنفيس عن الصراع عبر نزاعات إقليمية. وأصبح المطلوب مع انهيار التوازن ونشوء حالة القطب الواحد هو المبادرة إلى القيام بعمل أو أعمال فى حال وجود خطر، ولو كان الخطر غير أكيد بل قائم بالقوة أى بالإمكانية وحدها. وتمثله قوى غير ودودة لمصالح الولايات المتحدة.



هنا يتم التمييز بين ضربة وقائية preemptive strike والتى كانت تعتمد إبان الحرب الباردة فى حالة وقوع خطر شديد وملموس وتستخدم قبل وقوعه لشل قدرة الخصم على إيقاعه من ناحية وبين الحرب الوقائية Preventive War والتى تكتفى بتشخيص إمكانية خطر يأتى من دولة أخرى من أجل شن حرب. يطبق إحلال المبادرة إلى الحرب محل غياب الردع مفهوم الوحدانية بشكل كامل، إذ قد تقوم الولايات المتحدة «بما هو ضرورى» بغض النظر عن وجود حلفاء. وتتغير طبيعة التحالفات تبعاً للمهمة وليس العكس كما يقول رامسفيلد، أى أن الولايات المتحدة لم تعد تحدد مهماتها بناء على التحالفات. وهذا يعنى أيضاً تحطيم قواعد اللعبة القديمة والإجماع الدولى وغيرها لغرض شن الحرب أمام إصرار الولايات المتحدة على اتخاذ خطوة العمل العسكرى ولو وحدها. هنا تتحول وحدانية القطب إلى وحدانية الفعل: من unipolarism إلى unilateralism.

وأمام وحدانية قوة الولايات المتحدة وحريتها فى الحركة وأمام زوال الحاجة إلى التوازن والردع والالتزام بالمؤسسات الدولية يصبح الالتزام بالاتفاقيات والمعاهدات والقواعد المتفق عليها أمراً نسبياً، وتميل الولايات المتحدة إلى عدم تقييد نفسها بمعاهدات، وتقوم حتى بالتراجع عن معاهدات موقعة. هكذا تراجعت إدارة بوش عن موافقة إدارات سابقة بالتوقيع على اتفاق كويوتو حول تسخين الغلاف الجوى، وعن اتفاق إقامة المحكمة الجنائية العالمية على أساس معاهدة منع انتشار الأسلحة البيولوجية، ورفضت ومعها إسرائيل التوقيع على معاهدة دولية لإقامة المحكمة الدولية لمحاكمة مجرمى الحرب.

فى سياق «الحرب ضد الإرهاب» اكتسبت الحرب معنى الشمولية. ولا شك أن وجود قوة عسكرية لدى الولايات المتحدة لغرض التدخل فى أى بقعة فى العالم وعلى أهبة الاستعداد للانتشار لدى صدور الأمر لا تعكس توجها جديدا بل إمكانيات جديدة أيضا. ولا شك أن النقاش الذى شهدته واشنطن حول حجم القوة العسكرية اللازمة لاحتلال العراق وإحداث التأثير اللازم بأقل خسائر للقوات الغازية وبأقصر وقت ممكن، وهو النقاش الجدى الوحيد الذى دار فى إعلام المؤسسة الإعلامية الأمريكية، له علاقة مباشرة بمدى صحة هذه النظرية عمليا. فالموضوع لا يتعلق بالعراق وحده وإنما بنمط عمل الإمبراطورية «المضطرة» لتفعيل قوة تدخل سريع لحسم قضايا وقلب أنظمة.

ويستطيع أى محلل نقدى أن يوقف سير العرض الحماسى حول تحول ثورى وجذرى فى السياسة الأمريكية ليقول لنا، أن الجديد الوحيد فى الأمر هو القدرة التقنية العالية وليس التغير الأيديولوجى، فهى التى تمكن الولايات المتحدة من إخضاع الخصم واحتلال الدولة بسرعة وأقل خسائر ممكنة، لأنه يتم تنفيذ المهمة الأساسية قبل الانتشار البرى بواسطة سلاح الطيران وسلاح الصواريخ والقدرة التكنولوجية العالية فى مجالات الرصد والتوجيه والاتصالات. وهذا صحيح إلى حد بعيد.

ولا يكفى بالطبع أن نحمل التكنولوجيا المتطورة المسؤولية كلها، بل يضاف أيضا انهيار القطب

أمن إسرائيل استراتيجية أمريكية

الثاني الذي كان قادرا على إمداد الخصم الإقليمي في الصراع بالدعم الكافي لإطالة صموده ولتحقيق انتصارات بمعنى ما بسبب قدرته على تحييد بعض من قوة أمريكا العسكرية أيضا. ولكن ألم يكن للتكنولوجيا المتطورة بفعل التنافس بين الاحتكارات وتوظيف العلم في عملية الإنتاج أثر على انهيار القطب الثاني كقطب مواز أو رادع؟ هكذا عدنا إلى التطور التكنولوجي.

لقد ذكرنا أن الإدارات الأمريكية السابقة اقتنعت بموقف إسرائيل عدم التفاوض مع منظمة التحرير أكثر مما اقتنعت إسرائيل ذاتها في لحظة تاريخية محددة. ولكن قد يفاجأ المرء أن يسمع أنه كانت قوى أمريكية أساسية تعارض كامب ديفيد الإسرائيلي المصري نفسه. فكيسنجر صاحب نظرية فصل القوات بين إسرائيل ومصر نصح الإسرائيليين بعدم إزالة المستوطنات في سيناء. وفي حينه وبعد مرور زمن على الاتفاقيات رد شارون الذي تولى أمر هدمها على هذه الانتقادات أنه دون إزالة المستوطنات ما كان بالإمكان التوصل إلى سلام مع مصر بل إلى حالة لا حرب في أفضل الحالات. فأجابه كيسنجر، والرواية على ذمة شارون، وماذا لديكم مع مصر الآن؟ أليست حالة لا حرب؟



لقد تطورت فكرة السيطرة العسكرية الأمريكية المباشرة على الخليج تدريجيا، ولم تحصل مثل كسر في التواصل Clean Break الفكري مثلا بفعل من المحافظين الجدد. فمنذ أن ارتفعت أسعار النفط في الأعوام ٧٤-٧٥ بعد الحظر الذي رافق حرب أكتوبر، وموجة الارتفاع الثانية بفعل الثورة الإيرانية، منذ تلك المرحلة يجري تفكير استراتيجي أمريكي حول الموضوع. والموضوع مطروق بكثافة وتزدحم فيه مراكز الأبحاث، وقد لفت النظر مقالة لروبرت درايفوس يذكر فيها عن السفير الأمريكي السابق لدى السعودية أكينز Akins أنه قرأ مقالًا موقعا باسم مايلز اجنوستوس نشر في هاربرز ثم في عدة صحف أمريكية تحت عنوان « السيطرة على النفط العربي» ويدعي كاتب ذلك المقال أنه يستند إلى مصادر عليا في الإدارة الأمريكية تدعو إلى السيطرة الأمريكية المباشرة على منابع النفط العربي وإدارة إنتاجه من تكساس وأوكلاهوما، وما كان من السفير المتحمس الآن هاجم المقال باعتباره دعوة استفزازية لتوتير العلاقة مع دول صديقة في الخليج....ولم ينتظر السفير طويلا ليكتشف أن المصادر العليا هي وزير خارجيته كيسنجر ذاته وأن مهاجمة المقال المذكور كلفه وظيفته كسفير في الخارجية الأمريكية.

لقد أعلن كارتر عن أول قوة للتدخل السريع في الخليج بعد تصريحه الشهير في كانون الثاني عام ١٩٨٠ والذي حدد فيه الخليج كمنطقة حيوية للمصالح الأمريكية والأمن القومي الأمريكي. هكذا أقيمت قوة التدخل السريع وذلك في عهد أحد الرؤساء السابقين صاحب السمعة الأكثر اعتدالا في تعامله مع العالم الثالث.



وفي عهد ريجان قامت قيادة المنطقة الوسطى التي سمعنا تغطية إعلامية مكثفة من مقرها في قطر إبان الحرب العدوانية على العراق. وتمتد المنطقة الخاضعة لهذه القيادة من القرن الإفريقي وحتى أفغانستان. وفي هذه المرحلة تم الرهان بشكل جدي على تسليح تركيا والسعودية إضافة إلى إسرائيل، كما بيعت طائرات اواكس وإف ١٥ للسعودية الأمر الذي أثار حفيظة ونشاط إيباك في الكونجرس ضد هذه الصفقات. ولكن الولايات المتحدة لم تتمكن من إقناع دول الخليج بضرورة وجود عسكري أمريكي جدي ومباشر، عدا في دول مثل البحرين وعمان، إلى أن سهلت حرب الخليج الثانية عليها المهمة باجتياح العراق للكويت. بعده تمكنت الولايات المتحدة من إقامة قواعد عسكرية ضخمة في الكويت والسعودية وقطر. ومنذ ذلك الحين باعت الولايات المتحدة للسعودية أسلحة ومعدات ومباني بمبلغ ٤٣ مليار دولار وللكويت بمبلغ ١٦ مليار دولار، هذا عدا قطر والبحرين والإمارات.

حرب الخليج الثالثة تثبت كما يبدو حاليا الوجود العسكري الأمريكي في الخليج، كما ترجمته في الواقع إلى خطوة عملية هي تغيير نظام، وربما إقامة نظام بديل تحت الحماية الأمريكية في أحد أهم بلدان المنطقة على الإطلاق.

ورغم النقاش المستمر هل هو النفط أم الهيمنة الإمبريالية أم إسرائيل فلا شك أن هنالك علاقة للنفط بالموضوع حتى لو كان المنطلق الأساسي هو الهيمنة. وإسرائيل وحدها أو النفط وحده لم يكن كافيا لشن حرب. ومع أن الهيمنة هي الدافع إلا أن هنالك شكًا إذا كانت الولايات المتحدة ستتدخل عسكريا ضد احتلال الكويت لأنها إمارة صحراوية مهمة بذاتها دون نفط.

إذا سيطرت الولايات المتحدة بواسطة «نظام صديق» على مصادر النفط في العراق تكون الولايات المتحدة قد أحكمت السيطرة على معظم ينابيع النفط في العالم. فاحتياطي النفط العراقي هو الثاني في العالم بعد المملكة العربية السعودية، وتكلفة استخراجه رخيصة بكافة المقاييس، ١,٥ دولار للبرميل الواحد. والولايات المتحدة تستهلك سنويا ربع الاستهلاك العالمي للنفط، وهي في الوقت ذاته لا تنتج إلا نصف ما تستهلك، هذا عدا الطاقة الهائلة الكامنة في السيطرة على هذه المقدرات فيما يتعلق باقتصاديات العالم أجمع. هذه الحقائق دعت الايكونومست البريطانية المؤيدة للحرب والتي اتخذت هي أيضا موقفا صقريا بعد ١١ سبتمبر إلى تقرير ما يلي: «تنطلق مصلحة أمريكا الاستراتيجية في ملاحقة صدام حسين من ضرورة إنقاذ العالم من أسلحة الدمار الشامل القائمة والممكنة، ولكن هنالك اعتبارًا ضخمًا آخر مهما كان ثانويا، إلا أنه لم يحظ بالاهتمام الذي يستحق، والمقصود هو الأثر الهائل الذي سيتركه فتح احتياط هذا البلد الهائل من النفط». وإذا أحكمت الولايات المتحدة قبضتها على احتياطي النفط العالمي فلن تبقى بالتأكيد استقلالية ولو نسبية لتتمتع بها منظمة أوبك فيما يتعلق بكمية النفط التي تضخ وأسعاره.

لقد صرح الرئيس الأمريكي إن مجرد وجود قوة عظمى واحدة عالمية، امبراطورية، معرضة في عقر دارها لهجمات بطائرات مدنية حوّلت سلاحا تدميريا، يضاف إليها مجرد سهولة إنتاج الأسلحة الكيماوية، هذه «المجردات» وحدها تبرر أن تقوم هذه الدولة العظمى بضربات وقائية مانعة خارج حدودها. هذه أصول اللعبة الجديدة. والسؤال هو ما الذي يدخل في نطاق الخطر والوقاية منه، وما هو نوع الوقاية المتاح؟ هكذا نطق جورج بوش بالعقيدة الاستراتيجية الجديدة يوم ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٢.



هذه الأفكار وحدها تغني عن السؤال عن المشترك بين إسرائيل وأمريكا، لأن فكرة الضربة الوقائية المانعة خارج الحدود لتجنب نشاط معاد داخل الحدود، خاصة في المنطقة العربية، هي فكرة إسرائيلية قلبا وقالبا، جسدا وروحا.

وتستطيع الولايات المتحدة أن تدعي أن مجرد وجود النظام العراقي بحد ذاته هو خطر. كما قد تدعي في المستقبل أن وجود حزب الله هو كذلك، وأن التخلص نهائيا من وجود حركات مثله يتطلب تغييرا جذريا في لبنان، وهذا يتطلب بدوره تغييرا جذريا في سوريا. وقد ادعت الولايات المتحدة أمرا مشابها بالنسبة لياسر عرفات شخصيا، وهي تقوم في هذه الأثناء بمحاولة إجراء التغييرات اللازمة على مستوى القيادة الفلسطينية للبدء بمفاوضات إسرائيلية فلسطينية بعد تنفيذ المخططات العدوانية لإقامة دولة فلسطينية بالشروط التي تتصورها أمريكا.

في هذه الأثناء، تبتز الولايات المتحدة أنظمة صديقة لها مثل مصر والمملكة العربية السعودية بإثارة موضوع أوضاعها الداخلية المطلوب إصلاحها كجزء من هذه الوقاية المطلوبة للدولة العظمى ضد «خطر الإرهاب». وقد يتبين أن هذا التكتيك الابتزازي هو جزء من استراتيجية شاملة، أو قد تضطر الولايات المتحدة للتعامل معه بجدية إزاء ديناميكية الأحداث.

أفكار أولية عن عجزنا أمام تناقضات الإمبراطورية

يرجع جور فيدال تاريخ السلوك الإمبراطوري للولايات المتحدة إلى حقبة ترومان ويعرض ولادتها بشكل مسرحي كما يليق بكاتب قصة ويستعير المشهد من كتاب Dean Acheson, Present at the Creation: My Years in the State Department (١٩٦٩) ودين أتشيسون هو وزير خارجية ترومان، والمشهد هو جلسة في غرفة اجتماعات الحكومة في البيت الأبيض بمشاركة كبار المسؤولين في الخارجية والأمن القومي والأغلبية في الكونجرس يوم ٢٧ فبراير ١٩٤٦ لاتخاذ قرار للتدخل في اليونان ضد إمكانية وصول اليسار إلى السلطة في ذلك البلد بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، ويعني هذا القرار بداية تحلل إدارة ترومان من إرث روزفلت وبداية التحلل من اتفاقيات يالطا والتصرف كامبراطورية ذات أجندة سياسية مدعومة بالقوة العسكرية في كل مكان لا يخضع لسيطرة السوفييت المباشرة. إنه عهد ترومان الذي اتخذ فيه القرار بإلقاء نار جهنم على هيروشيما ونجازاكي لغرض إرهاب الاتحاد السوفيتي سياسيا (إرهاب سياسي ضد حكومة بغرض التأثير على قراراتها بواسطة قتل المدنيين) وتحذيره من قدرة أمريكا النووية. وهي أيضا حقبة الانقلاب الدموي المدبر أمريكيا ضد حكومة ديموقراطية في جواتيمالا لأنها تجرأت على فرض ضريبة حد أدنى على شركة يونايتد فروتس الأمريكية العاملة فيها والتي تجاوزت ميزانيتها ضعف ميزانية جواتيمالا. مفتتحة بذلك سلسلة من

تقوم المقاربة الجديدة التى يقترحها المؤلفون إلى موضوع السلام على نسف كامل لمبدأ الأرض مقابل السلام، ويقترحون أن تقوم على اعتراف العرب بحاجتهم إلى السلام: السلام من أجل السلام والسلام من خلال القوة

الانقلابات المدعومة من جهاز المخابرات الأمريكية لأسباب شبيهة فى العديد من دول أمريكا اللاتينية.

وتسلك الولايات المتحدة فى المنطقة العربية سلوكا إمبراطوريا يشير إلى التراتبية ويؤكد مصدر الشرعية، ولكنه أيضا يلمح من الآن إلى تناقضات الحالة الإمبراطورية (الإمبريالية) الأمريكية وحدودها.

خذ مثلا السلوك الأمريكى على الصعيد العالمى الذى يذهب باتجاه تأكيد نسبية الحدود الوطنية للدول فيما يتعلق بحقوق الإنسان كما ادعى بشأن العراق وصربيا، وجرائم الحرب تحديدا. فمن المفترض أن ينسجم هذا السلوك مع محكمة لاهاى بشأن جرائم الحرب، خاصة أن الولايات المتحدة نفسها قد بادرت إلى هذا النوع من المحاكم ضد قادة الصرب وجرائمهم فى الحروب الأهلية البلقانية الأخيرة فى نهاية القرن العشرين. ولكن طابع محكمة لاهاى القانونى المجرد الذى يتعامل مع الكونية بجدية، يناقض السلوك الإمبريالى الذى يلتقى مع الكونية فى حالة واحدة فقط، وهى حالة تطابقها معه (اقرأ! مع مصالحه الخارجية كما تتمخض عنها أيضا بنيته الداخلية ومناقشاته حول الاختلاف على فهمها أيضا) .



إن مجرد محاولة الولايات المتحدة «التهرب» من محكمة مجرمى الحرب فى لاهاى بعد أن وقعت على وثيقتها التأسيسية، ثم عادت ورفضت الانضمام إليها كعضو كامل، يعنى أن الولايات المتحدة قد تحجم ذاتها وتتصرف مثل دولة صغيرة تحتال على القانون. كان هذا أيضا حالها عندما طرحت الحرب على العراق لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة بالقوة العسكرية، ثم تهربت من التصويت فى مجلس الأمن تجنبا لموقع الأقلية هناك. وقد بلغ صغر الإمبراطورية حدا جعلها يوم الثالث من أغسطس ٢٠٠٢ توقع اتفاقية مع إسرائيل، تتفاهم فيها «الدولتان» على عدم تسليم أى منهما مواطنى البلد الآخر لمحكمة مجرمى الحرب الدولية فى لاهاى. هذه الاتفاقية لا تشير فقط إلى وجود دولتين تتهربان من القانون الدولى، مثل مجرمين صغيرين يتفقان على عدم وشاية أحدهما بالآخر، إنها تشير أيضا إلى أن التوازن بين القيم الكونية ومؤسساتها ومدى تأثيرها على الرأى العام ثم على مجموعات من الدول من ناحية، وبين الامبراطورية وسلوكياتها كمصدر للشرعية من ناحية أخرى قد يحل على المدى البعيد محل التوازن بين «المعسكرين». فالتصرف الأمريكى- الإسرائيلى يذكر بأيام محاصرة معسكر لمعسكر آخر فى الأمم المتحدة، الأمر الذى كان يجعل الولايات المتحدة وإسرائيل يرتبان أوراقهما خارج مؤسسات ما سمى بالشرعية الدولية.



ولا تدعى الولايات المتحدة ضمنا فى هذه الاتفاقية أن ما تقوم به قواتها خارج الحدود الأمريكية لا يمكن أن يعتبر جرائم حرب فحسب، بل إن هذا يسرى أيضا على ما تقوم به الدولة اليهودية خارج حدودها المعترف بها دوليا. أى أن الإمبراطورية الكبيرة تفرخ إمبراطورية صغيرة تمضى فى طريقها لا تلوى على شىء. وتخطئ هذه الأخيرة الصغيرة خطأ فادحا ومميتا إذا اعتقدت أنها تستطيع أن تحتل دولا ناسخة الإمبراطورية، فهذا السلوك فى النظام العالمى محفوظ للامبراطورية، ولها فحسب.

تبدأ اللاعقلانية الأمريكية فى المنطقة العربية فى المرحلة الراهنة باستثناء إسرائيل من قواعد الشرعية الإمبراطورية. فبموجب منطق هذه الشرعية ذاته المستثنى الوحيد هو أمريكا لأنها هى مصدرها، ولا يوجد مبرر لاستثناء إسرائيل إلا اللاعقلانية الأمريكية فى التعامل معها. وقد وصلت اللاعقلانية الأمريكية فى التعامل مع إسرائيل مؤخرا حد التحالف مع اليمين الإسرائيلى وإحراج اليسار الإسرائيلى الصهيونى. هنالك أكثر من عنصر لاعقلانى فى تحالف اليمين الأمريكى المسيحى المتطرف مع اللوبى الإسرائيلى اليمينى فى الولايات المتحدة ومع اليمين الإسرائيلى. لقد كنا نقول أن القضية الإسرائيلية هى قضية أمريكية داخلية، فبتنا نضيف أنها قضية أمريكية داخلية متعلقة باللاهوت السياسى الاستيطانى أى بـ«الميتابوليتكس»، ما وراء السياسة.

قد ينسحب بعض كتاب الورقة موضوع قراءتنا من نصائحهم الفجة لنتنياهو حول القضية الفلسطينية، فقد أصبحوا فى السلطة. ووجودهم فى الإدارة يحتم عليهم مسؤولية وتكبلهم بقيود لا تكبل الأيدى التى كتبت تلك الورقة. ولكن ما كتب هناك هو ما يؤمنون به. والحل الوسط الممكن، السلم الممكن للنزول عن شجرة الغرور العالية هو إقامة دولة فلسطينية ضمن ما يرضى الرأى العام الإسرائيلى من شروط، والقيادة الفلسطينية التى ترضى بهذه الشروط هى الشريك المؤهل لتغيير فكرتهم عن الفلسطينيين.

لقد ثبت أيضا أن تحرك الدول العربية كل على حدة فى الحوار مع الولايات المتحدة يجعلها أكثر تعرضا للضغط مما لتوجيه الضغط، فالمتوجه إلى واشنطن بغرض التأثير عليها يجد بانتظاره إدارة تحمل بيدها ملفاته وتضغط عليه فى المكان الذى يؤلمه، «حيث يوجع». قد يكون ما نقوله أضغاث أحلام وكلامًا للتمنى ولكن على العرب أن يحاوروا الولايات المتحدة سوية بالحد الأدنى من الاتفاق. ولا يستطيع التيار القومى أن يحل محل التعاون بين الدول العربية بهذا الشأن، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، ولا يستطيع أن يقنعها أن هذه هى مصلحتها إذا لم تكن مقتنعة، فهو أى التيار ليس أدرى منها بمصلحتها.



ولو كانت الدول العربية دولا ديموقراطية لسهل تبنى الشرعية الدولية على مستوى الرأى العام باتجاه استخدام هذه «الاستثنائية الإسرائيلية» من أجل تثبيت رفض «الاستثنائية الأمريكية» أيضا والتمسك بالقيم الكونية لمحاربتها، ولسهلت أيضًا ترجمة هذا الرأى العام على مستوى عملية صنع القرار العربى الرسمى. ولكن فى غياب الحالة العربية القادرة على استغلال هذه التناقضات القائمة فعلا والتى تحجم الولايات المتحدة، لا يدعو الرئيس بوش أمم العالم للتصدى لـ«إرهاب الفلسطينى» فحسب، بل وإلى احتلال بلد عربى دون توفر حجة شكلية إطلاقا، ودون أن يجهد نفسه بالدفاع عن قراره هذا إلا فى جلسات الإدارة الأمريكية الداخلية التى لن نعلم ما يدور فيها إلا بعد عشرين عاما فى أفضل الحالات.

والطامة الكبرى أن إسرائيل ماضية فى إرهابها فيزداد عندنا الشعور بالغبن والمرارة و«الاستثنائية» العربية أو الإسلامية، ويتحول الموقف المطلوب تجاه بلد عربى يواجه خطر الهجوم الشامل إلى تقاعس وعجز من ناحية، وإلى تعصب وسياسة هوية ترفض أن ترى طبيعة النظام العراقى إلا ضمن المقولة المخففة: «المنطقة كلها ديكتاتوريات». فلماذا العراق؟ ولكن كل هذا التعميم أسهل من سماع مسؤولين عرب يتحدثون بالديموقراطية فى دول غير ديموقراطية كل ما يميزها أنها متحالفة مع المشروع الأمريكى. على أى أساس؟ أو ينتقدون الفساد بغرور من موقعهم فى دول تملك فيها عائلات حاكمة الدولة وثرواتها فلا تحتاج إلى الفساد لأنها تملك كل شىء أصلا، وينتشر فيها نظام العمولات إلى درجة فرض الشراكة فى الأعمال الاقتصادية. فعلى أى أساس يتحدثون عن الفساد؟



سوف يكتشف قباطنة العدوان أن إحدى أكبر جرائم الولايات المتحدة هى التعامل أداتيا مع موضوعة الديموقراطية تعاملا قد يدفع أوساطا واسعة من الشعوب المظلومة والمغلوبة على أمرها وذات المصلحة بالديموقراطية الاجتماعية والسياسية فى أحضان سياسات الهوية المعادية لهذه الأدوات باعتبارها شأنا إمبرياليا. وإذا لم تتحول قضايا هذه الشعوب والمجتمعات الحياتية ومنها الحقوق السياسية والديموقراطية إلى هم القوى الوطنية القومية، فإن ذلك لن يقلل من شأن هذه القضايا بل سيقلل من أهمية هذه القوى على المدى البعيد. وسوف يجعل هذه القضايا موضوع صراع بين سياسات الهوية وبين الأمريكان والنخب المتحالفة معهم، وهذا صراع يتضمن حلولا وسطا كثيرة ولا يتخذ بالضرورة شكل مقاومة الاحتلال. التحول فى العراق إلى مقاومة الاحتلال ليس بديلا لبرامج قومية ديموقراطية سياسية تطبيقية، أى برامج سياسية تمارس، فى كل بلد عربى. لقد ولى العهد الذى ترفع فيه قضية واحدة إلى مرتبة «القضية القومية» وتؤجل بموجب ذلك كافة القضايا فى انتظار حلها، وتتحول مهمة القوميين إلى التضامن معها، مهمة القومى هى أولا مهمة وطنية ديموقراطية فى بلده، ولن يتقن حتى التضامن القومى مع قضية تعتبر قومية إذا لم يشكل قوة وطنية ديموقراطية فى بلده. وكما تحاول الولايات المتحدة أن تقيم نموذجا جذابا كما تعتقد فى العراق، على التيار القومى فى كل بلد عربى أن يشكل فى بلده نموذجا جذابا ولا يمكن أن يتم ذلك دون مشروع سياسى فى الحكم أو فى إصلاح الحكم.

ولكى نفهم ردة الفعل علينا اليوم أن نتذكر بذهول أن الشعوب مغلوبة على أمرها من قبل الديكتاتورية ومن قبل مستوردى الهيمنة الأمريكية بحجة استيراد الديموقراطية إلى درجة أننا لم نحص حتى الآن عدد قتلى وجرحى العدوان الأمريكى على العراق. نحن ببساطة لا نعرف عدد ضحايا هذا العدوان. هل هم عشرة آلاف؟ هل هم أكثر من ذلك؟ هل يهتم أحد بإحصاء القتلى والجرحى والمعاقين العراقيين من المدنيين والجنود؟ والجنود أيضًا بشر، والقتلى الأمريكيون هم جنود أيضًا، وجهلنا بالرقم ليس صدفة ولا هو من مزايا الديموقراطية التى تحترم حياة ومصير حياة المواطن الفرد. ■



يعتقد أحد صناع السياسة البارزين في أواخر القرن العشرين، ممن لم يتقلدوا منصبًا، أن الرأى العام الأمريكي ينظر إلى القضايا الإسرائيلية الفلسطينية، وهو جاهل أساسًا بمشاعر وأوضاع الفلسطينيين، لا شعوريًا على الأقل، وأن الفلسطينيين شعب متخلف محب للقتال، وهم أناس يستحقون الشفقة، وأنهم عمومًا أناس مختلفون عن الأمريكيين، بينما يرون الإسرائيليين أناسًا مقدامين مغامرين ومتقدمين، خاضعين لحصار عربى، وهم «مثلنا». وبمعنى حقيقى، وحتى التسعينيات، كان هنالك أحد صناع السياسة البارزين، ممن لم يستبعدوا الفلسطينيين تلقائيًا من اعتبارات سياسية، لأن الإسرائيليين قد أسسوا ببساطة أمة ذات سيادة، بينما الفلسطينيون لم يفعلوا ذلك.

وتفيد الأعراف المعمول بها عمومًا في الولايات المتحدة أن الصراع قد تأصل لا لأن الفلسطينيين فقدوا أراضيهم وديارهم ووطنهم، وأنهم يحاولون استرداد إرثهم المفقود، بل لأن العرب يضمرون كراهية دفينة لليهود. إن فكرة أن الصراع لا يشمل كراهية غير مبررة فحسب إنما قوميات متنافسة، مفهوم لا يجد له مكانًا في إطار المرجعية، حتى يومنا هذا في الولايات المتحدة.

إن هذه الرؤية الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية ليست وليدة اليوم أو حتى الأمس القريب بل تعود إلى فترات طويلة بحيث أصبحت جزءًا أساسيًا في التفكير الأمريكي.. وقبل ٤ سنوات أصدرت الكاتبة الأمريكية كاثلين كريستسن كتابًا حول تأثير هذه الانطباعات على صنع السياسة الخارجية الأمريكية بشأن الشرق الأوسط تناولت فيه تطور هذه الرؤية والانطباعات على صنع السياسة تجاه القضية الفلسطينية في كل إدارة أمريكية منذ وودرو ويلسون الذى تزامن عهده مع إصدار وعد بلفور عام ١٩١٧. واختارت مجلة «وجهات نظر».. أن تنشر الفصل الخاص بسياسة إدارة الرئيس السابق بيل كلينتون من هذا الكتاب الذى سيصدر قريبًا باللغة العربية عن دار قدمس في دمشق.

■■ قبل ستة أشهر من انتهاء سنوات مدة رئاسته الثماني في يناير عام (٢٠٠١م) واجه الرئيس بل كلينتون أخيرًا تلك القضايا التي كانت لأكثر من نصف قرن في صلب الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وهو الصراع الذى اعتقد أنه يعرفه جيدًا وأنه ينتظر الحل. في الحقيقة، لم يكن الحل النهائي للصراع قريبًا، وهناك رأى بأنه لم يكن لدى كلينتون، في الحقيقة، فهم جيد للصراع وجذوره، وللقضايا التي تكتنفه ولوجهات نظر الفلسطينيين وإسرائيل.



عندما أنهى كلينتون مدة ولايته، كانت عملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية على وشك الانهيار التام. ففي يوليو من عام (٢٠٠٠م) سعى كلينتون لإنهاء العملية السلمية باستدعاء الزعماء الإسرائيليين والفلسطينيين إلى مؤتمر قمة في كامب دفيد، للتعامل مع أكثر قضايا الصراع حرجًا. وبعد أسبوعين من المفاوضات المكثفة، انهار مؤتمر القمة جراء فجوات واسعة بخصوص قضايا مثل مطلب إسرائيل أن تبقى المستوطنات الإسرائيلية في مكانها في الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية؛ والإصرار الفلسطيني على بسط السيطرة على معظم القدس الشرقية؛ ومآل ما يقارب من ثلاثة ملايين لاجئ فلسطيني ممن كانت ديارهم أصلاً في إسرائيل. وبعد شهرين، أى في سبتمبر من عام (٢٠٠٠م) فإن زيارة استفزازية قام بها الزعيم السياسي اليميني الإسرائيلي أرييل شارون إلى موقع مقدس للمسلمين واليهود على حد سواء، وما تبع تلك الزيارة من قتل سبعة فلسطينيين من المحتجين غير المسلحين على أيدى جنود إسرائيليين، فجرت انتفاضة عنيفة قام بها الفلسطينيون على امتداد الأراضي المحتلة. وقد أطلق على تلك الانتفاضة، الشبيهة بالانتفاضة الفلسطينية التي اندلعت في عام (١٩٨٧م) اسم انتفاضة الأقصى، وهو اسم المسجد الذى انطلقت منه. إحباطات الفلسطينيين العميقة، التي تراكمت طوال سبع سنوات من عملية سلمية بدت للفلسطينيين محكومًا عليها بالاستمرار بشكل لا نهاية له ودون تقدم، والذى بدا بدوره بعيدًا من وضع حد للاحتلال الإسرائيلي، ومتيحًا لإسرائيل أن تعزز من سيطرتها، انفجرت بمسيرات قذف شباب فلسطينيين، وإطلاق الشرطة الفلسطينية وأفراد من الميليشيا غير الرسمية النار. أدى رد إسرائيل العنيف الذى تضمن إطلاق قناصة إسرائيليين النار على رماة الحجارة وهجمات دبابات وقصف مروحيات على المنشآت الفلسطينية، إلى سقوط ضحايا في صفوف الفلسطينيين بلغ عددهم في يناير من عام (٢٠٠١م) عندما انتهت مدة ولاية كلينتون في البيت الأبيض (٣٥٠) تقريبًا، معظمهم من الشباب. والفلسطينيون قتلوا حوالي خمسين إسرائيليًا، بمن فيهم جنود شاركوا في إطلاق النار، وبعض المدنيين الذين سقطوا جراء هجمات الإرهابيين، قامت بها مجموعات من الأصوليين الإسلاميين، أو أنهم قتلوا جراء هجمات القناصة على الطرق العامة في الأراضي المحتلة.

وبعد انقضاء ستة أشهر من مؤتمر كامب دفيد، ومع المفاوضات المستمرة المتقطعة، والجهد المكثف الأخير الذى بذله كلينتون ليصوغ اتفاقية خلال شهره الأخير في السلطة، عجز الجانبان عن حل الخلافات الحادة المتبقية. وبعد مرور أقل من ثلاثة أسابيع على انتهاء ولاية كلينتون، اختار الناخبون الإسرائيليون، الذين خاب أملهم باحتمالات السلام، والغاضبون على رئيس الوزراء السابق إيهود باراك الذى قدم للفلسطينيين تنازلات رأوا أنها مبالغ فيها، شارون رئيسًا للوزراء. أما شارون، المعارض العنيد للعملية السلمية التي بدأت بالتوقيع على اتفاقيات أوسلو في عام (١٩٩٣م)، فقد أعلن خلال حملته الانتخابية أن عملية أوسلو قد ماتت، ووعد ألا يقدم المزيد من التنازلات عن الأراضي للفلسطينيين، وألا يتخلى عن أى جزء من القدس، أو أى أراض في الضفة الغربية وغزة تتجاوز نسبتها الـ (٤١٪) التي قدمت للحكم الذاتي الفلسطيني، الجزئي أو الكامل.

وفي الوقت ذاته، كان الفلسطينيون أيضًا في حالة من التشوش. فالقيادة لم تكن مسيطرة على المنظمات الفلسطينية المنشقة، خاصة المجموعات الإسلامية الأصولية، ولم تكن قادرة أن تسيطر بشكل كامل على «الشارع» وعناصر الميليشيات الذين كانوا على رأس الانتفاضة. بدأت الانتفاضة، التي اندلعت احتجاجًا على الفساد الكامن في مستويات القيادة العليا، بالالتفات إلى نفسها ومهاجمة الفلسطينيين الآخرين الذين يعتقد أنهم متورطون بالفساد أو متعاونون مع إسرائيل. ومع أن القيادة استمرت بالالتزام بعملية السلام، إلا أنها كانت منقسمة حول نوع التسويات ومداها، التي يجب على الفلسطينيين أن يقدموها لإسرائيل ليتم التوصل إلى اتفاقية سلام نهائية، كما أنها افتقدت حتى أى رؤية أو استراتيجية طويلة الأمد لتحقيق السلام.

مما يدعو للسخرية حقيقة أن كلينتون أقام مع الفلسطينيين روابط أوثق مما قام به أى رئيس سابق، لكن ذلك لم يكن كافيًا لحل مشاكل جوهرية صعبة؛ فمن الأمور التي افتقدت فهم القضايا ذات الأهمية الحاسمة للفلسطينيين وتناولها بطريقة مساوية لتلك المهمة للإسرائيليين. لقد كان إطار كلينتون المرجعي، مثل صناع سياسة الولايات المتحدة لما يقرب من قرن من الزمان، منحازًا لإسرائيل، ومع روابط الصداقة السطحية بالزعماء الفلسطينيين، فقد استمر حتى نهاية ولايته في التوسط من منظور تركز بشكل رئيسي على اهتمامات إسرائيل، بدلاً



لقد كان إطار كلينتون المرجعي، مثل صناع سياسة الولايات المتحدة لما يقرب من قرن من الزمان، منحازًا لإسرائيل، ومع روابط الصداقة السطحية بالزعماء الفلسطينيين



فلسطين في العقل السياسي الأمريكي
تأليف: كاثلين كرستسن
ترجمة: مفيد عبدوني، مراجعة: زياد منى
دمشق: دار قدمس، (يصدر قريبا)، ٥٠٠ ص.

العقل الأمريكى

من أن يكون مرتكزًا على هموم الطرفين بشكل متساو.

كان تركيز كلينتون منصبًا على الدوام على عملية صنع السلام، بدلاً من الجوهر. فقد استقبل الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات ثلاث عشرة مرة فى البيت الأبيض، أكثر من أى زعيم آخر فى العالم؛ وتعامل بشكل ودى ومألوف مع المفاوضين الفلسطينيين؛ وتفرغ مرتين لمفاوضات مطولة مع الفلسطينيين، خلال تسعة أيام التى احتيج إليها للتوصل إلى اتفاقية «واى» (Wye) فى عام (١٩٩٨م) والأسبوعين الموقوفين لقمة كامب دفيد المخفقة؛ وكان على دراية بجغرافية الضفة الغربية والقدس الشرقية إلى حد جعل تباهيه بقدرته على رسم خريطة وهو نائم، لكن كلينتون لم يتوصل إلى فهم عميق للقضايا الجوهرية الحاسمة التى فصلت بين الفلسطينيين والإسرائيليين حتى نهاية رئاسته، عندما أطلق، بشكل متأخر للغاية، مجموعة من الاقتراحات التى حددت الإدارة الأمريكية فيها لأول مرة موقف الولايات المتحدة إزاء القضايا الرئيسية.



مع نهاية ولاية كلينتون، كانت الولايات المتحدة قد تورطت بعمق فى الأزمة العربية-الإسرائيلية لمدة دامت أطول من الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. فمنذ خمسين عامًا أضحى الجميع، من معلقى وسائل الإعلام إلى الشعب بشكل عام، إلى صناع السياسة أنفسهم، منهكين بسببها. وقاد الإنهاك إلى فقدان الصبر، الذى أدى بدوره إلى ميل الولايات المتحدة لعدم الاهتمام بقضايا لم تكن ذات شأن كبير للأمريكيين، لكنها موضع اهتمام حيوى للجانبين. وما عناه ذلك، عمليًا، أنه، ومع أن الفلسطينيين رأوا اقتراحات إسرائيل فى كامب دفيد غير كافية إطلاقًا لخلق دولة فلسطينيّة، قادرة على الحياة، على أراض متصلة، وذات ما يعدونها عاصمة جديرة بالاحترام، فإنهم تعرضوا لضغوط شديدة، على كل مستويات الخطاب الجماهيرى فى الولايات المتحدة، ليقبلوا ما عرض عليهم، ذلك أن الوقت كان يمضى بسرعة. من ناحية أخرى، حظيت إسرائيل بترحيب وإشادة كبيرين لأنها تزحزحت عن موقف الحد الأقصى، ولأن عددًا قليلاً من الأمريكيين كان يتمتع بفهم عميق للقضايا، ولأن كلاً من إسرائيل والولايات المتحدة كانتا فى عجالة من أمرهما، وكان الإصرار الفلسطينى على تمحيص القرارات ودراستها حتى يتم ضمان الاستقرار وقابلية التطبيق فى دولة فلسطينية يعدُّ عنادًا. وهكذا، ففى صراع محكوم بالمفاهيم أكثر منه بالحقائق، حل فقدان الصبر محل القرارات الحقيقية.

رغم أن كلينتون أوشك على إنجاز اختراق (درامى) فى مفاوضات السلام الفلسطينية-الإسرائيلية، فإنه أخفق فى النهاية فى التحرر من ذات النهج السياسى الذى حد من التفكير، ولم يفلت من سياسة معظم سابقيه من الرؤساء، ذلك النهج السياسى الذى ركز على الدوام على إسرائيل واهتماماتها بشكل أساسى، بدلاً من التعامل مع اهتمامات الفلسطينيين والإسرائيليين ووجهات نظرهم بشكل متساو. لم يعد كلينتون وفريقه من صناع سياسة الشرق الأوسط أنفسهم محايدين لطرف فى الصراع الفلسطينى-الإسرائيلى، كما أنهم جادلوا ضد أى توكيدات بأن بؤرة اهتمام إدارتهم كانت أى شىء عدا أنها متوازنة. لكن يبقى الجدل قائمًا بخصوص أن إخفاق كلينتون فى دفع المفاوضات للتوصل إلى نتائج ناجحة، مع تركيزه الشديد على عملية التفاوض طوال الأشهر الستة الأخيرة من ولايته، كان يعزى للانحياز لإسرائيل المهيمن سلفًا على طريقة سياسة إدارته، وإخفاقه أن يفهم ويركز بشكل متساو على وجهة النظر الفلسطينية أيضًا إزاء القضايا موضع التفاوض. وبإشراف دنس روس، الذى عمل فى وزارة الخارجية كمنسق خاص فى الشرق الأوسط طيلة مدتى ولاية كلينتون، وكان مهندسًا رئيسيا لسياسة الإدارة للقضايا الفلسطينية الإسرائيلية، سمح كلينتون وصناع سياسته لإسرائيل باستمرار بتحديد منطلق مفاوضات السلام، وكذلك جدول أعمالها ووتيرتها.

فى مطلع ولاية كلينتون الأولى، على سبيل المثال، بدأت الولايات المتحدة تقلل من أهمية قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم (٢٤٢) كنقطة بداية للمفاوضات، وذلك، دون ريب، لأنه كان مطلبًا تفضله إسرائيل. إن عدم تشديد إدارة كلينتون على أهمية القرار رقم (٢٤٢) غيّر من هدفه الأصلى: ففى حين أن القرار يفترض، كما جاء فى نصه، أن الأراضى المحتلة هى أراض عربية يمكن لإسرائيل أن تفاوض حول تعديلات عليها، جاء مفهوم الولايات المتحدة فيما يخص الأراضى المحتلة فى فلسطين، الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية، ليطرح أن تلك الأراضى فى مجموعها وكليتها إما أراض إسرائيلية، أو أراض متنازع عليها، والتى يجب على الفلسطينيين أن يفاوضوا بشأنها إن أرادوا السيادة، وإنهاء الوجود العسكرى والمدنى الإسرائيلى الكبير. إن الخط الذى اقترحه ناطقون باسم الإدارة الأمريكية، أثناء مؤتمر القمة فى كامب دفيد فى يوليو ٢٠٠٠م وبعده، والذى يشير إلى أنه ليس بإمكان أى جانب أن يتوقع الحصول على كل شىء يريده فى المفاوضات، كان موجهًا للفلسطينيين، ويحمل رسالة مضمونها أنه خلافًا للتوقعات السابقة، يجب على الفلسطينيين أن يحضروا عملية السلام وهم متوقعون المساومة حول الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية، وليس الحصول عليها وإعادتها.

بذلك غيرت إدارة كلينتون بشكل مثير نقطة البدء لعملية السلام. فنقطة البدء المرغوبة للفلسطينيين هى القرار رقم (٢٤٢) وفق التفسير الأصلى. والفلسطينيون شعروا بأنهم قدموا جميع التسويات التفاوضية الرئيسية فى عام (١٩٨٨م) عندما وافقت منظمة التحرير الفلسطينية على شروط مسبقة وضعتها الولايات المتحدة لإشراك الفلسطينيين فى عملية السلام، بما فى ذلك قبولها القرار رقم (٢٤٢) والاعتراف بإسرائيل، وحقها فى الوجود. وهم بعملهم هذا، فإنهم يتخلون عن مطالبهم فى تلك الأجزاء من فلسطين التى تقع داخل حدود إسرائيل قبل عام (١٩٦٧م). وإسرائيل، من ناحية أخرى، لا تعترف بانطباق القرار رقم (٢٤٢) على الضفة الغربية وغزة أو القدس الشرقية، ولم تقبل أبدًا مبدأ انسحاب كامل. ولكى تضمن أمنها بشكل أفضل، وبسبب التعلق العاطفى الشديد الذى يشعر به الإسرائيليون تجاه الضفة الغربية والقدس الشرقية خاصة، أرادت جميع الحكومات الإسرائيلية الاحتفاظ بكل المستعمرات أو معظمها، التى أقيمت فى الضفة الغربية وغزة، وكل المستعمرات التى أقيمت بشكل خاص فى القدس الشرقية. وبتفسيرها وتأويلها الجديد لمعنى القرار رقم (٢٤٢) تكون إدارة كلينتون قد قوضت منذ البدء أسس



كاثلين كريستسن

حتى بعد اندلاع انتفاضة الأقصى كان لدى الساسة الأمريكان إدراك بسيط لمعاناة الفلسطينيين اليومية، أو للسبب الذى جعلهم يشعرون أن عملية السلام أثبتت عدم ملاءمتها



الموقف التفاوضي الفلسطيني، وتبنت نقطة البدء الإسرائيلية في المفاوضات.

وبجعل الأمن الإسرائيلي موضع الاهتمام الطاغي للولايات المتحدة في المفاوضات، والهدف الرئيسي لعملية السلام، منح مفاوضو إدارة كلينتون الإسرائيليين أيضًا الحق في وضع جدول أعمال المفاوضات. في معظم الأحيان، كان ينظر إلى القضايا التفاوضية وفق الأولويات الإسرائيلية. فعلى سبيل المثال، حظيت ضمانات أمن إسرائيل بأولوية أكبر من أي ضمانات مشابهة للفلسطينيين، أو أي جهد لسحب القوات الإسرائيلية من الأراضي المحتلة، أو في إزالة المستوطنات من الأراضي المحتلة. إن أوضح مثال على الأولويات الإسرائيلية لأمن إسرائيل حدثت في يناير عام (١٩٩٧م) عندما توسط روس وفريقه من المفاوضين لإبرام اتفاقية بين حكومة رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو والسلطة الفلسطينية، حول إعادة انتشار القوات الإسرائيلية في مدينة الخليل. فقد أجلت إسرائيل إعادة الانتشار، الذي كان مقررًا له أن يحدث في مارس عام (١٩٩٦م) إثر عمليات انتحارية بالمتفجرات قام بها إرهابيون فلسطينيون. أكد وزير الخارجية وارن كريستوفر في رسالة تطمين إلى نتنياهو أن «العنصر الأساسي» في تناول الولايات المتحدة للسلام، «سيبقى على الدوام الاعتراف بالمتطلبات الأمنية لإسرائيل»، مضيفًا أن الولايات المتحدة ملتزمة بمساعدة إسرائيل على مواجهة «الحاجات الأمنية التي تحددها». وتزامنًا، أصدر متحدث باسم وزارة الخارجية بيانًا يوضح فيه أن توقيت ومواقع ثلاث عمليات من عمليات إعادة الانتشار الإسرائيلي في الضفة الغربية، كما جاءت في اتفاقية الخليل، «هي قضايا تقوم إسرائيل بتنفيذها، وليست قضايا للتفاوض بشأنها مع الفلسطينيين».



دعا جدول الأعمال الذي وضعته اتفاقيات أوسلو كل الأطراف إلى البدء في التعامل مع قرارات الوضع النهائي «بأسرع ما يمكن» في فترة مرحلية محددة لا تتجاوز مايو عام (١٩٩٧م) والتوصل إلى حل لتلك القضايا، أي: اتفاقية سلام نهائية، بحلول مايو / آيار عام (١٩٩٩م). وبسبب إخفاق حكومة نتنياهو في استكمال انسحاب القوات الإسرائيلية المطلوبة خلال مرحلة مؤقتة، وبسبب عجز حكومة باراك فيما بعد عن تنفيذ التواريخ المحددة، تم التمديد حتى سبتمبر من عام (٢٠٠٠م). وخلال تلك الفترة الطويلة من التأخير، لم تجر أي محادثات جدية لأي قرارات جوهرية. بدأ المفاوضون الفلسطينيون والإسرائيليون محادثات الوضع النهائي في أواخر عام (١٩٩٩م) لكنها سارت بشكل متقطع وغير حاسم، ونادرًا ما تناولت القضايا القائمة، وغالبًا ما كانت تنفض لخلافات حول أمور لا تمت للقضايا النهائية بصلة. وطوال السنوات السبع السابقة على انعقاد محادثات كامب دفيد، لم يستعجل مفاوضو الولايات المتحدة الأطراف ليتوجهوا إلى مهمة تناول تلك القضايا الأكثر خطورة، ومن الأمور التي يمكن معرفتها لم تهيأ أوراق خاصة للوضع، واستكشاف التعقيدات والنشاطات الجوهرية للقضايا، أو سبر نقاط اتفاق وخلاف محتملة. وفي الحقيقة، فمن الصواب أن نقول إنه مع أن تلك القضايا كانت أصعب الأمور وأكثرها أهمية استراتيجيًا، وأكثرها قضايا عاطفية في الصراع تتناول صلب قرارات الهوية الاجتماعية والأمن الوطني لكلا الطرفين، لم يعمل الإسرائيليون والفلسطينيون والأمريكيون على إعداد أرضية لما كان يُتوقع أن يكون أصعب مرحلة حتى الآن من مراحل عملية السلام.

في غضون ذلك، وبينما أتاح مفاوضو الولايات المتحدة لعملية السلام أن تتوقف، تابعت إسرائيل تغيير الوضع على الأرض، في الأراضي ذاتها التي هي قيد المفاوضات، وذلك باستمرارها في بناء مستوطنات أساسية وشبكة واسعة من الطرق تصل بين المستوطنات، والاستمرار في نقل المدنيين الإسرائيليين إلى تلك الأراضي. وخلال السبع سنوات التي تلت التوقيع على اتفاقيات أوسلو ازداد عدد المستوطنين الإسرائيليين في الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية ليصل إلى (٥٠٪) تقريبًا، من (٢٥٠) ألف مستوطن تقريبًا إلى حوالي (٣٧٠) ألف مستوطن، معظمها بتشجيع حكومة باراك الموالية للسلام، وكذلك من حكومة نتنياهو المتشددة الموالية لإنشاء المستوطنات. وترى منظمة العفو الدولية أن شبكة الطرق والمستوطنات في الضفة الغربية بنيت فوق أراض مصادرة من أفراد وقرى فلسطينية تفصل المناطق الواقعة تحت السيطرة الفلسطينية، إلى أكثر من مائتي قطعة من الأراضي ليست مناطق متصلة. أما في القدس الشرقية، فقد ألغت إسرائيل بين الأعوام (١٩٩٥-٢٠٠٠م) تصريحات إقامة أكثر من ثلاثة آلاف عائلة فلسطينية، تمثل آلاف الأشخاص الإضافيين، كما هدمت بيوتًا للفلسطينيين شيدت بدون تصاريح، كما شجعت أعدادًا ضخمة من الإسرائيليين لتستوطن القدس الشرقية وتبني بيوتًا لها فيها.

ومع اقتراب نهاية عهد كلينتون، بدأ هو ومساعدوه يختلقون ذريعة في أن الفلسطينيين عرقلوا عملية السلام من خلال «زرع عداء في المجتمع». فهم لم يشكوا فقط لجوء الفلسطينيين إلى العنف بانتفاضتهم التي اندلعت في سبتمبر عام (٢٠٠٠م)، بل أيضًا لأن الفلسطينيين أخفقوا في حذف النصوص المعادية لإسرائيل من الكتب المدرسية المقررة، وواظبوا في التحريض على الكراهية في نشرات الإذاعة والتليفزيون، مما يعد انتهاكًا لاتفاقيات أوسلو. استغل روس ذلك الموضوع في مقابلاته الصحفية، كما استغلها كلينتون في خطاب سياسي رئيسي قبل أسبوعين على انتهاء ولايته. وذكر روس في إحدى مقابلاته أن «المفاوضات ليست مجرد حلول فنية، بل هي تدور حول إيجاد مناخ». كما أردف قائلاً: إنه طيلة عملية السلام، واظب الفلسطينيون على «خلق عداء اجتماعي بدلاً من التحضير لصنع سلام مع جيرانهم». وكلينتون انتقد أيضًا الفلسطينيين لإثارة العنف، وقال: «إنه يجب أن تكون المحادثات مقرونة بالأفعال، التي تثبت الثقة والشراكة. إن النوايا الطيبة على طاولة المفاوضات غير قادرة على البقاء إلى الأبد وليست أطول عمرًا من النوايا السيئة على الأرض».



اتسمت سياسة إدارة كلينتون، طيلة معظم سنواتها في السلطة بالتشديد الكبير على عملية صنع السلام على حساب جوهرها. اعتقد صناع السياسة في الإدارة، بقيادة روس خاصة، أن مشاركة الولايات المتحدة في قرارات حاسمة، يجب أن تكون في حدها الأدنى، وأنه يجب أن يسمح للطرفين أن يتقدما وفق تسارعهما، تفاوض بالجوهر دون تدخل خارجي، حيث يعتقد فريق كلينتون أنها تميل نحو الإضرار بالمفاوضات. مع أن ذلك التعامل يزعم أنه يتبنى موقفًا حازمًا من الحياد، في موقف تكون فيه إسرائيل الطرف الأقوى، بسيطرتها ماديًا على كل الأراضي الخاضعة للتفاوض، والفلسطينيون في موقف لا مخرج لهم منه سوى موقف لفظي لدفع موقفهم للأمام، فإن طريقة رفع أيدي الولايات المتحدة عن المفاوضات وعدم تدخلها كوسيط، ربما يصطف بقوة وراء إسرائيل، ويطلق لها حرية كاملة للتفاوض أو لرفض التفاوض إدراكًا منها لحاجاتها التي هي أدرى بها، وتتيح لها الحرية لتتخذ خطوات تراها ضرورية لمصالحها الأمنية الخاصة بها، حتى لو حالت تلك دون تحقيق مزيد من المفاوضات.

ومن منظور صنع السياسة، عندما يكون التشديد الرئيسي منصبًا على العملية ذاتها، لا يكون الوسيط بحاجة كبيرة لمعرفة النقاط الجوهرية، وبالتالي لا يتوافر سوى دافع بسيط لمعرفتها. إن الدافع لتحقيق مزيد من العمليات، وجمع الأطراف معًا على طاولة المفاوضات، في عملية مفاوضات مستمرة، يمكن أن يكون الجوهر حينها غامضًا فعلاً. وفي حالة الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، فإن تركيز صناع السياسة في الولايات المتحدة الفردي على العملية بحد ذاتها، أدى إلى إخفاء المعاناة الأساسية التي تشكل دافعًا أوليًا للفلسطينيين من مجال رؤياهم، أو إلى تجاهلها. ويبدو أنه وحتى وقت طويل بعد اندلاع انتفاضة الأقصى كان لدى صناع السياسة إدراك بسيط لما يعنيه الاحتلال الإسرائيلي المستمر لحياة الفلسطينيين اليومية، ولما أراده الفلسطينيون من المفاوضات، أو للسبب الذي جعل الفلسطينيين، بعد سبع سنوات من الاحتلال الإسرائيلي المستمر بعد أوسلو، يشعرون أن عملية السلام أثبتت عدم ملاءمتها. أطلع الرسميون في الولايات المتحدة الصحافة، بعد أن بدأت الانتفاضة، أنهم أخفقوا في التوصل إلى عمق الإحباط الذي يجيش بين أوساط السكان

> **بجعل الأمن الإسرائيلي موضع الاهتمام الطاغي للولايات المتحدة في المفاوضات، والهدف الرئيسي لعملية السلام، منح مفاوضو إدارة كلينتون الإسرائيليين أيضًا الحق في وضع جدول أعمال المفاوضات**



الفلسطينيين؛ فصناع السياسة كانوا في سبات عندما كانوا يعتقدون أن كل شيء على ما يرام على الأرض، من خلال ما شاهدوه من روابط شخصية مضللة بين الإسرائيليين والمفاوضين الفلسطينيين. وذلك يُعدُّ دليلاً واضحًا عن كيف يمكن أن يعمي التركيز على العملية (العلاقات بين المتفاوضين) أنظار المشاركين بعمق في مفاوضات الجوهر (حقائق الحياة في ظل الاحتلال الإسرائيلي). والفلسطينيون أنفسهم لاحظوا أن تشديد الولايات المتحدة على العملية، يؤدي إلى خلق «مفهوم مزيف للحالة السوية»؛ فالأطراف تجتمع، وذلك وحده يعتبر تقدمًا عندما كان السخط الفلسطيني يتفاقم في الواقع، لأنه لم يتم إحراز أي تقدم على الأرض، وكانت هموم الفلسطينيين الأساسية «تحرف عن مسارها باستمرار من أجل الحفاظ على المحادثات».

إن الظلم المتأصل في طريقة تناول إدارة كلينتون لعملية السلام الفلسطينية– الإسرائيلية، يكمن في إخفاقها أن تدرك أن انحيازها الكلي إلى جانب واحد لضمان أمن إسرائيل الكامل يعني بالضرورة أمنًا غير مستقر للفلسطينيين. عمل كلينتون وفريقه لصنع السياسة، الذي من المسلم به أن يكون قد بدأ منذ زمن بعيد استيعاب النهج السياسي المنحاز لإسرائيل، والسائد بين أوساط الأمريكيين، على أساس أن مخاوف إسرائيل الأمنية عميقة جدًا، وأن مهمة الولايات المتحدة الأولية، من خلال علاقات متكافئة فريدة بينها وبين إسرائيل، أن تتغلب على تلك المخاوف. وبالنتيجة، مال صناع السياسة إلى اتخاذ موقف يكونون فيه غير قادرين أن يروا حاجات الفلسطينيين الأمنية، ومعرفة السبب الذي جعلهم يشعرون أن عملية السلام قصرت في ضمان تلك الحاجات. والوسيط الذي يشدد على الهواجس الأمنية لطرف واحد، ويتجاهل أو يغض النظر عن الهموم والهواجس الأمنية للطرف الآخر، لا يعد وسيطًا منصفًا.

يبدو أنه كانت لدى كلينتون ذاته عواطف حقيقية تجاه الفلسطينيين والإسرائيليين، وقد سماها مرة «الألم المروع» الذي يعيشه الفلسطينيون في ظل الاحتلال، إضافة إلى معاناة اليهود الماضية، «والرغبة العميقة للإسرائيليين في العيش دون مخاوف». وقد تمتع كلينتون بقدرة فذة تمكنه من أن يتحدث مع الآخرين عن مشاكلهم، بطرق سطحية على الأقل، مع أن قدرته الضليعة «أن يشعر بألمك» كان موضوعًا يدعو للاستهجان والسخرية السياسية، وقد توافرت لديه تسهيلات فريدة لينقل إحساسًا من التعاطف تجاه مشاكل الآخرين. لكن في النهاية كانت هويته العاطفية تجاه إسرائيل أقوى بكثير من مشاعره تجاه الفلسطينيين وهمومهم. كان فهم كلينتون للفلسطينيين، وما كان يعنيه الاحتلال لحياتهم اليومية سريع الزوال، لا يعبر عنه إلا في لحظات عارضة، عندما تتم مواجهته مباشرة بتلك الحقائق، مثلما حدث ذات مرة عندما سافر إلى غزة في ديسمبر عام (١٩٩٨م) والتقى شخصيًا بالمواطنين الفلسطينيين. إن مما يلفت النظر أنه ورغم أن كثيرًا من الفلسطينيين رحبوا به بعد خطابه في غزة، كأول رئيس فهم حقًا حالة الفلسطينيين والمأزق الذي يعيشون فيه، لم يكرر عواطفه التي عبر عنها في غزة، رغم إشاراته المتكررة عن فهمه مخاوف إسرائيل الأمنية.

إلا أن وجهة نظر مساعدي كلينتون كانت منحازة على الدوام إلى جانب مصالح إسرائيل. وكان كل من روس وأعضاء آخرين كبار في فريق السلام، منهم أهارون دفيد ملَّر ومارتن إندك، ملتزمين بإسرائيل شخصيًا وعاطفيًا. فقد عاشوا جميعهم في إسرائيل قبل انخراطهم في الخدمة الحكومية الأمريكية، وغالبًا ما كانوا يقضون إجازاتهم هناك. وفي إحدى المرات أعرب كل من ملَّر وإندك في مقابلة صحفية عن مشاركتهما الشخصية والمهنية في عملية السلام، وأنها كانت متلاحمة إلى حد لم يستطيعا فيه أن يحددا أين توقف الأول منهما وأين بدأ الثاني. وصرح إندك أن اللحظة المحددة في حياته أتته عندما كان يعيش في إسرائيل أثناء حرب عام (١٩٧٣م) عندما قرر أن يجند نفسه للمساعدة في حل الصراع، واستنتج أن مشاركة الولايات المتحدة كانت مهمة وحساسة لإنهاء الصراع ولأجل «الدفاع عن إسرائيل». وروس قال إن كونه يهوديًا زاد من اهتمامه بالمشكلة العربية الإسرائيلية.

وأخيرًا، فإن السبب الأساسي لارتفاع وتيرة العداء المفاجئ تجاه الفلسطينيين، هو هيمنة نهج سياسي ينحو إلى أن يهتم بوجهة نظر الإسرائيليين وليس الفلسطينيين، حيث عد الإسرائيليين أناسًا متحضرين يشبهون الأمريكيين، بينما رأى الفلسطينيين والعرب عمومًا أناسًا متوحشين وغير متحضرين. يمثل محرر الافتتاحية الذي تساءل حول «طبيعة» الفلسطينيين جميعًا، لأن بعضهم قد قتل مدنيين إسرائيليين أبرياء، دون أن يخطر على باله أن يسأل عن طبيعة جميع الإسرائيليين، لأن بعضهم قد قتل مدنيين فلسطينيين أبرياء عددًا كبيرًا من الأمريكيين الذين يرون الصراع وعملية السلام من خلال إطار للمرجعية منحاز نحو إسرائيل ومصالحها فقط. ثمة رأي شائع نشأ من إطار مرجعية تجاهلت وجهة نظر الفلسطينيين، يرى أن الفلسطينيين يتصرفون انطلاقًا من كراهية عمياء، وليس من معاناة مشروعة، وهو رأي تم التعبير عنه، على سبيل المثال، في مجلة «تايم» في الأشهر الأولى من الانتفاضة، حيث تعزوها إلى الكراهية.

تحدث كلينتون نفسه وكذلك فريقه في صنع السياسة، من حين لآخر في الأشهر الأخيرة من رئاسته، كيف أن الفلسطينيين والإسرائيليين كانوا قريبين جدًا في مواقفهم التفاوضية، بعد قمة كامب دفيد. كان الطرفان فعلاً قريبين أكثر مما كانوا عليه من قبل من أجل التوصل إلى اتفاقية نهائية؛ فقد عرض باراك، كما يتباهى بذلك ومؤيدوه في الولايات المتحدة، مزيدًا من التنازلات بخصوص مدينة القدس والمستوطنات الإسرائيلية أكثر من أي رئيس وزراء إسرائيلي سابق. لكن الهوة بين الطرفين بقيت شاسعة بالمعنى المطلق. كان الطرفان «قريبيَن» من التوصل إلى اتفاقية نهائية لأن القضايا النهائية لم يتم التطرق إليها قبلاً؛ كانت تنازلات باراك مهمة جدًا ليس لأنها تنازلات إلى حد كبير، بل لأن إسرائيل لم تقدم تنازلات حول القدس أو المستوطنات قبلاً.

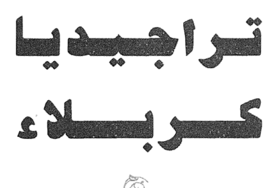


ربما يكون من الدقة أن نحكم على التقدم الذي تم إحرازه في عملية السلام خلال سنوات ولاية كلينتون إن نحن قدرنا التقدم الحقيقي على الأرض مقابل ما هو في توقعاتنا. ففي بداية عملية سلام أوسلو كان التوقع العام، مبنيًا على قرار الأمم المتحدة رقم (٢٤٢) وعلى سياسة الولايات المتحدة سابقا، أن اتفاقية السلام النهائية سوف تسفر عن انسحاب إسرائيلي عسكري ومدني من كل الضفة الغربية وغزة ما عدا جزءا صغيرا منها، إضافة إلى تقاسم السيادة بين الفلسطينيين وإسرائيل في القدس الشرقية. إن «المقاييس» التي عرضها كلينتون في نهاية ولايته تقدم أسسًا لصيغة عادلة لمثل أي اتفاقية في المستقبل. لكنها جاءت متأخرة. لم يتحقق عمليًا أي شيء من توقعات أوسلو ولمدة تتجاوز أكثر من سبع سنوات في عملية سلام، ترمي إلى التوصل إلى نتائج سريعة وسهلة نسبيًا. انسحبت إسرائيل من بعض المناطق في الضفة الغربية وغزة، مانحة الفلسطينيين حكمًا ذاتيًا كاملاً في المدن الفلسطينية. لكن شملت تلك المناطق (١٧٪) من أراضي الضفة الغربية. وبعد سبع سنوات، احتفظت إسرائيل بسيطرتها العسكرية والمدنية على (٨٣٪) من أراضي الضفة الغربية، وكذلك ربع أراضي غزة. بقيت مدينة القدس الشرقية تحت السيطرة الإسرائيلية الكاملة. ازدادت أعداد المستوطنين الإسرائيليين، والمستوطنات، وشبكة الطرق المتقاطعة المتصالبة في الأراضي المحتلة، ونقاط التفتيش التي تمنع تنقلات الفلسطينيين. واستمر أمن (٣٧٠،٠٠٠) مستوطن إسرائيلي يحظى بالأولوية عن أمن ونوعية حياة ثلاثة ملايين فلسطيني تقريبًا.

في نهاية المطاف، أخفقت إدارة كلينتون في إنجاح عملية السلام جراء اختلال هذا التوازن. لقد نفد الوقت أخيرًا لتحقيق اتفاقية راسخة متوازنة، لأن التركيز الرئيسي لإدارة كلينتون كان في النهاية تلبية حاجات الأمن الإسرائيلية، وليس حاجات كلا الطرفين. ■

خلال السبع سنوات التي تلت التوقيع على اتفاقيات أوسلو ازداد عدد المستوطنين الإسرائيليين في الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية ليصل إلى (٥٠٪) تقريبًا، من (٢٥٠) ألف مستوطن تقريبًا إلى حوالي (٣٧٠) ألف مستوطن





تراجيديا كربلاء

فاروق عبد القادر

■■ لفت هذا الكتاب اهتمامي منذ قرأته - للمرة الأولى - قبل أكثر من عام. رأيت فيه وجوه امتياز عديدة، لعل أهمها أنه أول دراسة عربية - فيما أعرف - تضع هذه الظاهرة - ظاهرة «التعزية» - في سياقاتها الموضوعية المتعددة، ثم إنه يلتزم منهجًا علميًا صارمًا في تناولها (أغلب الظن أن الكتاب دراسة علمية للحصول على درجة من جامعة ألمانية)، تتعدد مصادره ومراجعه (في اللغة العربية والألمانية بوجه خاص)، وتشمل مصادره دراسة ميدانية قام بها في «الكاظمية» في ١٩٦٨، وصاحب الدراسة نفسه - الدكتور إبراهيم الحيدري - يثبت في أحد هوامش كتابه عمق جذوره في صميم موضوع بحثه: في حديثه عن إنشاء «الحسينيات» كمؤسسات دينية وثقافية في عراق النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يشير إلى أن أولى هذه الحسينيات في بغداد هي «الحسينية الحيدرية»، وعنها يقول: «شيدت حسينية آل الحيدري في الكاظمية من قبل جدنا الكبير السيد محمد ابن أحمد العطار الحسيني (الحيدري) عام ١٢٩٧هـ - ١٨٧٦م» (هامش ص ٦٨).

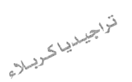
ثم كان ما حدث - ومايزال يحدث - في العراق. وشهد ملايين الناس زحف الملايين نحو كربلاء ليشاركوا في «أربعين» إمامهم الشهيد، كجزء متمم للاحتفال بمصرعه في العاشر من محرم، ولا بد أن هذا الذى شهدوه كان موضع جدل ومناقشة، ولعل بعض ما كان فيه كان محلاً لنقد أو استنكار (خاصة المشاهد المتعلقة بالإيذاء الجسدي)، ورأيت ثمة أهمية مضاعفة لوضع هذا الطقس في سياقه الموضوعي الذى حاوله صاحب الدراسة. هذا من ناحية. من الناحية الأخرى فإن السياق التاريخي لهذه الظاهرة وتطورها، وما عانته - معظم الأحيان - من قهر من جانب السلطة الحاكمة في العراق، من أول الدولة الأموية حتى آخر نظام صدام حسين، إنما يلقى الضوء على دلالة الطقس ووظائفه، وبعضه يلقى الضوء على بعض ما يحدث في عراق اليوم، وما أظن أنه سيتطور في المستقبل القريب، حين ينتظم الصراع ويشتد بين الدولة الغازية والشعب المحتل، وفي ظني أن الشيعة سيلعبون فيه دورًا مهمًا، إن لم يكن أهم الأدوار.

يقسم الدكتور إبراهيم الحيدري دراسته إلى مقدمة وخاتمة وسبعة فصول. أهم فصول الدراسة عندى الفصلان الخامس الذى يتناول «سوسيولوجيا الخطاب الشيعي للعزاء الحسيني»، ثم السادس «الخصائص الفولكلورية للعزاء الحسيني»، ففيهما تتمثل أبرز وجوه أهمية الدراسة كلها على نحو ما سبقت الإشارة.

فيما يتعلق بمضمون الخطاب الشيعي يحدد الباحث موقفه من البداية: «إن هدفنا.. ليس المفاضلة بين خطاب وآخر، ولا الدفاع عن أحدهما ضد الآخر، فأنا لست داعية من الدعاة بقدر ما أنا باحث اجتماعي أحاول دراسة ظاهرة دينية ذات محتوى اجتماعي - سياسي، وهي في الوقت ذاته ظاهرة فولكلورية شعبية ترتبط بالتراث العربي الإسلامي..».

وليس فينا من يجهل تراجيديا كربلاء أو مأساة الحسين. وليس المرء بحاجة لأن يكون شيعيًا أو متشيعًا كي يتفهم دلالاتها، فقد بقيت في الضمير الإنساني كله أسطورة تضحية وفداء، وسعي إلى إثبات الحق وشرعيته في مواجهة القوة، والتضحية بالحياة ذاتها لإثبات صحة القضية. أما عن الشيعي العراقي - وهو ما يعنينا هنا في المقام الأول، فقد ارتبطت ثورة الحسين وشخصيته ومبادئه وبطولته وتضحيته بالألم، والألم بالأمل، والأمل بالإنقاذ والخلاص النهائي، من أجل الإرادة الإلهية التي قررت ذلك الألم وتلك الشهادة وذلك الإنقاذ، لأن البشرية لا

تراجيديا كربلاء.
سوسيولوجيا الخطاب الشيعي
إبراهيم الحيدري
دار الساقي: بيروت، لندن، ١٩٩٩





تستطيع وحدها أن تتغلب على الألم البشرى، وبذلك أصبح الاستشهاد طريق الشفاعة والخلاص، وأصبح الإمام الحسين نفسه «سفينة النجاة»، لأنه ضحى بنفسه لأجلهم فعاش الشهادة بصبره وإرادته وتضحيته بأهله وأصحابه من أجل إنقاذ المسلمين ونجاتهم..(..) إن الاعتقاد باستشهاد الحسين في سبيل الحق والعدالة، وتحمله آلام التضحية والفداء، لاينفصل، في الوقت نفسه، عن مكانة ودور الإمام الحسين في الشفاعة لشيعته ومحبيه يوم القيامة، والتي تظهر بوضوح وبأشكال مختلفة ومتنوعة في العزاء الحسيني وفي الأدعية والزيارات».

يرتبط بهذا التصور العام كثير من التفاصيل التي رصدها الباحث حين قام بدراسته «الميدانية» في الكاظمية في ١٩٦٨ ـ السنة الأخيرة التي سُمح فيها بإقامة مواكب العزاء على هذا النحو من العلانية ـ واستغرقت ستة شهور، بخاصة في شهري محرم وصفر وكذلك «يوم الأربعين» في كربلاء من تلك السنة. يضيف الباحث: «خلال دراستنا لعاشوراء، بخاصة في المدن المقدسة: كربلاء والنجف والكاظمية وغيرها.. استطعنا جمع عدد كبير من المعلومات الإثنوجرافية والحقائق الاجتماعية والوثائق التاريخية، وكذلك عدد كبير من الخطب والأحاديث والقصص والأساطير والقصائد الشعرية والمراثي و«الأبوذيات» وغيرها من المعلومات..(..) لقد اعتمدنا في جمعنا لهذه المعلومات الإثنوجرافية المادية والمعنوية، على طريقة البحث الأنثروبولوجية التي تقوم على الملاحظة العلمية المباشرة وطريقة المعايشة بالمشاركة، إلى جانب المقابلات المباشرة وغير المباشرة مع عدد من علماء الدين والمؤرخين وخطباء المجالس الحسينية ورؤساء المواكب والشعراء الشيعيين والنوّاح وكذلك مع عدد من المشاركين في العزاء الحسيني والمشاهدين له، على مستويات اجتماعية وثقافية مختلفة ومتعددة..».

من التفاصيل المرتبطة بهذا التصور العام طقوس البكاء والأحزان الجماعية، فالبكاء على الحسين يلعب دورًا مهمًا في الشفاعة والخلاص، ويعمد قراء المجالس وشعراء المواكب ومنظمو العروض إلى انتقاء التفاصيل القادرة على إثارة العواطف واستدرار الدموع: سقوط العباس بن علي، حامل راية الحسين، وهو مقطوع الذراعين، وما جرى بعد ذلك من هجوم جند بني أمية على مخيمات أهل البيت وإحراقها وخروج الأطفال والنساء خائفين مذعورين، ثم يتحول إلى وصف السيدة ليلى، أم علي الأكبر بن الحسين، وهي تودع ولدها الخارج للقتال، ثم حين تنظر إليه يسقط صريعًا، ويصف مصرع القاسم بن الحسن الذي كان شابًا وسيمًا يتأهب للزواج من ابنة عمه الحسين فسقط صريعًا وأسمي «عريس الهواشم»، ثم يصف مقتل الرضيع عبد الله بن الحسين بسهم مسموم وهو بين يدي أبيه، وموقف الإمام علي الأصغر بن الحسين، وهو مريض طريح الفراش، يشهد مصارع أهله، ثم سَبْي النساء والأطفال وهو لا يستطيع شيئًا.



ويضيف الباحث: «تاريخيًا، كانت طقوس الموت والحزن والبكاء معروفة في المجتمعات والأديان الشرقية القديمة، وبخاصة في بلاد النهرين، حيث تذكرنا تراتيل البابليين ومناجاتهم على خرائب سومر وأكاد، وكذلك مناحات عشتار على فقيدها إله الربيع المقتول «تموز» في سومر القديمة، بنواح زينب على أخيها الحسين وليلى على وليدها الأكبر في كربلاء». بعبارة أخرى: تعود الميثولوجيا القديمة إلى الظهور وقد ارتدت ثوبًا يلائم مفاهيم العقيدة الإسلامية.

من هذه التفاصيل أيضًا ما يتعلق بالأمل في ظهور المهدي المنتظر، ولاشك في أنه أمل يتغذى ببؤس الحاضر، ومن ثم يرتبط الانتظار بعالم اليوم الذي أصبح ظالمًا ومظلومًا..«وهذا يعني أيضًا أن نهاية العالم قد اقتربت، وأن هناك علامات ودلائل واضحة تؤكد قرب ظهوره.. وحين يظهر الإمام المهدي «فسوف يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلمًا وجورًا»..».

لهذا يذهب آلاف الناس إلى «سامراء» لزيارة المكان الذي يُعتقد أن الإمام المهدي قد اختفى فيه عن الأنظار، وهو يسمى «سرداب الغيبة»، ولزيارته آداب محددة، من بينها أدعية تتلى في هذا السرداب، منها هذا الدعاء الذي يوضح وظيفة الطقس كله: «إلهي، عَظُم البلاء وبرح الخفاء وانكشف الغطاء وانقطع الرجاء وضاقت الأرض ومُنعت السماء، أنت المستعان وإليك المشتكى وعليك المعَول في الشدة والرخاء.. إلخ».

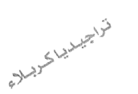
ومن التفاصيل المرتبطة بهذا التصور العام كذلك ما في التعازي من تعبير عن التظلم والإحباط. هنا يناقش المؤلف قضية يسكت الكثيرون عن مناقشتها (وإن كثر الحديث حولها بعد الأحداث الأخيرة) هي قضية الطائفية وعلاقة السنة والشيعة، وهو يحدد موقفه منها ورؤيته لها بوضوح كامل: «مثل أية ظاهرة من الظواهر الاجتماعية تخضع «الطائفية» في العراق لقوانين خاصة بها ذات بُعد سياسي، وليس دينيًا أو عنصريًا أو ما شابه ذلك، فلم يحدث أن اختلف المسلمون في العراق فيما بينهم على مسائل ومشاكل ذات أساس ديني.. (..) وفي الواقع، فما يحدث من اختلاف في العراق هو، في أغلب الأحيان، «تمايز طائفي» ذو دوافع سياسية ـ مصلحية، دفع إليها الحكام والسلاطين المستبدون من أجل تثبيت سلطتهم ومصالحهم، فساندوا طائفة دون أخرى..»، ويستعرض المؤلف تاريخ هذه الظاهرة في العراق الحديث، كاشفًا مختلف العوامل الاقتصادية والاجتماعية المؤثرة فيها، ويرى أن من أبشع أنواع الاضطهاد الذي يلقاه الشيعة، إلى جانب حرمانهم من كثير من حقوقهم المدنية، هو «الخوف من إعلان تشيعهم وعجزهم عن الجهر به..»، رغم ذلك يبقى الحكم العام صحيحًا: «في الحقيقة والواقع فلا وجود لصراع طائفي في العراق، فلم يحدث أنه تنازع شيعي وسني على عقيدته، ولا عربي مع كردي على قوميته، ولامسلم وغير مسلم على دينه، وإنما حدث بين قسم من هؤلاء وبين السلطة الحاكمة.. هناك حقيقة أخرى لابد من ذكرها وهي أن النظام السياسي الحالي لم يلتزم في الواقع بهويته الدينية ـ المذهبية بقدر ما يلتزم بمصالحه السياسية، من هنا يصبح الصراع «الطائفي» صراعًا سياسيًا بالدرجة الأولى قبل كونه صراعًا مذهبيًا..».

ترتبط بهذه القضية أخرى تثار هذه الأيام أيضًا، وهنا كذلك يلتزم الدكتور الحيدري موقفه الثابت بطرحها الذي يراه أجدى من السكوت عنها: «إن التشكيك بعروبة الشيعي ووطنيته إنما ينطلق من نظرة خاطئة ورؤية غير واعية ودافع مصلحي، وهو تشكيك في روح المواطنة والكرامة..(..) من منطلق التمايز والتمييز تعرض الشيعة في العراق إلى أخطار بالغة باتت تهدد وحدة الشعب العراقي وكيانه وهويته ووطنيته، وارتفعت شعارات مهمتها ترويج اتهام الشيعة «بالتبعية الإيرانية»، وهي تهمة خطيرة مهدت لعملية استلاب وطنية حقيقية كان من نتائجها المباشرة تهجير قسري لمئات الألوف من العراقيين «الشيعة» إلى إيران في نيسان ١٩٨٠ قبيل الحرب العراقية ـ الإيرانية وبعدها، بعد أن اغتصبت حقوقهم في العروبة والمواطنة، وصودرت أملاكهم المنقولة وغير المنقولة، وأهينت كرامتهم وإنسانيتهم، وفي الوقت ذاته، اضطر عشرات الألوف من الشباب والتجار وعلماء الدين والأدباء والشعراء والفنانين الذين لم يقبلوا المشاركة باللعبة السياسية القذرة.. (..) إن هذه الإجراءات التعسفية إنما جاءت كتبرير مُقنّع لأساليب التمييز والتمايز «الطائفي» وأشكال العزل والاضطهاد التي مارستها السلطة نفسها، وليس من قبل أهل السنة، عربًا وأكرادًا، لأن كثيرًا منهم مضطهدون أيضًا من قبل السلطة، التي يقف على رأسها أقلية عشائرية متسلطة ومستبدة وطائفية في آن..».



ومن التفاصيل المرتبطة بهذا التصور العام، أخيرًا، التعبير عن الرفض والاحتجاج، ويظهر هذا التعبير بشكل مباشر أو غير مباشر، وخلال الاحتفالات بذكرى استشهاد الحسين تتحول مواكب العزاء، في أحيان كثيرة، إلى فرص مناسبة لعرض حالة التذمر والغضب الخفية.. «وغالبًا ما يتم نقد النظام من خلال مقارنة استبداد رموزه باستبداد معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد، قاتل الإمام الحسين، في الوقت الذي يتحول فيه يزيد بن معاوية إلى «نموذج» للظلم والاستبداد، يكون الحسين، من الجهة الأخرى، «نموذجًا مثالاً» للرفض والثورة على الظلم والاستشهاد في سبيل الحق، وبهذا يصبح العزاء الحسيني، إلى جانب وظائفه وأهدافه الأخرى، وسيلة من وسائل التعبير عن الصراع الخفي مع النظام القائم ومقاومته في الوقت ذاته بشكل صريح أو رمزي..»، ويدلل الكاتب على رأيه مستشهدًا بثروة هائلة من القصائد الشعبية







(يحول دون الاقتباس عنها صعوبة عاميتها على فهم غير أصحابها)، تعبر عن كل وظائف مواكب العزاء، ويعود المؤلف إلى التاريخ القريب ليكشف عن استفادة حركات المعارضة الوطنية من هذه الاحتفالات لتحقيق التضامن فى مواجهة عدو واحد، فخلال فترة الاحتلال البريطانى للعراق تضامنت للوقوف فى وجه هذا الاحتلال، وتجلى هذا، بوضوح، فى ثورة ١٩٢٠: «وفى آيار من ١٩٢٠ شهد العراق ظاهرة لم تكن مألوفة هى نبذ عوامل الاختلاف والتباين بين الشيعة والسنة، وتوحيد صفوفهم، وقد تميز ذلك التقارب بإقامة احتفالات دينية تجمع بين المولد النبوى على الطريقة السنية ومجلس العزاء الحسينى على الطريقة الشيعية (...) وقد أثار ذلك التقارب مخاوف الإنجليز، الذين حاولوا مرارًا إثارة النعرات القومية والطائفية لتعميق التفرقة والصراع الطائفى والدينى والاثنى..» (ألا تراهم يتلمظون الآن كى يلعبوا دورهم القديم فى العراق؟).

ألسنا نقف على أرض صلبة إذن، حين نكاد نكون واثقين أن هذا التقارب سيقوم فى وجه الاحتلال الجديد؟



يستعرض المؤلف أشكال وأنواع مواكب العزاء. هناك، أولا: «مواكب اللطامة»، يتكون الموكب من مجموعة أو عدة مجموعات من الرجال، تقوم بلطم صدورها بالأيدى، وهى من أكثر المواكب شعبية وانتشارًا فى العراق، وهى تنطلق مساء كل يوم خلال الأيام العشرة الأولى من شهر محرم، وتسير بخطوات إيقاعية، وخلال مسيرتها تقوم كل جماعة بترديد «ردة»، ومجموعها «ردات» أى مقطعًا من مقاطع قصيدة شعبية، أما مضامين الردات فهى، على الأغلب، مدح ورثاء وتعداد لمناقب النبى وأهل البيت، وقد يتضمن بعضها شعارات سياسية وانتقادات اجتماعية. ويلاحظ المؤلف أن «أول الردات ذات المحتوى السياسى كانت فى محرم من عام ١٩١٧، التى وجهت ضد الاحتلال البريطانى للعراق، أما الثانية فكانت عام ١٩٣٩ عند مقتل الملك غازى بطريقة غامضة..(..) وقد تطور المحتوى الاجتماعى والسياسى لقصائد العزاء الحسينى مع التطورات والتبدلات التى حدثت فى الخمسينيات والستينيات.. ففى عام ١٩٦٨ كان محتوى عدد كبير من الردات الحسينية فى الكاظمية وكربلاء هو انتكاسة حزيران عام ١٩٦٧.. وقد أعلن شعراء المواكب غضبهم واستنكارهم للهزيمة الكبرى، وخنوع الحكام العرب ومن يقف وراءهم..».

ثم هناك «مواكب اللطم بالسلاسل الحديدية (الزناجيل)». «الزناجيل» مفردها «زنجيل» وهى محورة عن كلمة «زنجير» الفارسية التى تعنى السلسلة. ويتكون «الزنجيل» من مجموعة من السلاسل الحديدية الصغيرة المربوطة من الأسفل بمقبض خشبى أو حديدى، يُضرب بها على الظهر والكتفين..«وكان فى مدينة الكاظمية مكان دراستنا الميدانية عام ١٩٦٨ سبعة مواكب يتكون كل واحد منها من ثلاث إلى أربع مجموعات، وتتألف كل مجموعة من حوالى مائة شخص تقريبًا..(..) تقوم مواكب الزناجيل بطقوسها عصرًا ومنذ اليوم الخامس من شهر محرم، وتبدأ مسيرتها بحدود الساعة الرابعة أو الخامسة مساء متجهة نحو صحن الكاظمية على شكل حلقات بيضوية أو مستطيلة.. وهم يرتدون ثيابًا طويلة سوداء مفتوحة من جهة الظهر حتى الكتفين ليتمكنوا من الضرب بتلك السلاسل الحديدية، وخطوة فخطوة يسير الموكب وهم يضربون بالسلاسل الحديدية على الكتف اليمنى مرة ثم على الكتف اليسرى مرة أخرى، وهكذا فى إيقاع ثلاثى مع ضرب الطبول وصوت الأبواق والصنجات..».

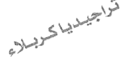
أخطر المواكب وأشهرها، وما ينصرف إليه كثير من الجدل والاستهجان «مواكب التطبير بالسيوف (القامات)..»، و«التطبير» هو جرح الرؤوس الحليقة بالقامات بضربات ليست عميقة، أما «القامات» ومفردها «قامة» فهى سيوف مستقيمة، حادة الجانبين، تشبه السيوف الرومانية القديمة، وتبدأ مواكب المطبرين طقوسها قبل شروق شمس يوم العاشر من محرم، ويرتدى المطبرون أكفانًا بيضاء ملطخة بالدم نُقش عليها «نحن فداء للحسين»، ويسيرون فى شكل بيضوى على إيقاع لحن جنائزى، وإنشاد النائح وهو يردد مرثية حزينة، يتقدمهم حاملو الأعلام وهى رايات بيضاء مخضبة بالدم وقد رسم عليها سيفان متقاطعان بينهما رأس مقطوع يرمز إلى رأس الحسين، وبعض المواكب تحمل تابوتًا يرمز إلى نعشه، ويتبع التابوت عدد من الخيول العربية يتقدمها فرس الحسين البيضاء، وقد لُطخ سرجها ولجامها بالدم.. «وعندما يصل الموكب إلى الصحن الكاظمى يتصاعد حماس المطبرين، وعلى إيقاع الطبول والأبواق وهتافات الجمهور المحتشد، ترتفع الضربات على الرؤوس بوتائر سريعة حتى تصل إلى ذروتها حين يأخذ البعض منهم بالضرب على رأسه بقوة بحيث تحدث شرخًا فى الرأس ينزف دمًا غزيرًا، وقد يسقط البعض منهم مغشيًا عليه، وقد حدث أن توفى البعض منهم..(..)، وحين ينظر المرء إلى هؤلاء المطبرين يرى أمامه منظرًا مرعبًا ورهيبًا.. كتلاً آدمية من الدماء ذات رؤوس مدماة تظهر كأنها مهشمة وتسيل منها دماء قانية تغطى جباههم ووجوههم وأكفانهم البيضاء..».



وقد ناقش المؤلف هذين الموكبين الأخيرين اللذين يشتملان على إيذاء بالغ للجسد أكثر من مرة (راجع، بوجه خاص، الفصل السابع «محاولات الاستغلال والتشويه» تحت عنوان «محاولات الإصلاح»، ص ٤٤٥ وما بعدها، وراجع كذلك ص ٤٧٢ من الفصل نفسه). ومن مناقشاته المتعددة نستنتج ملاحظتين: أولا: إن علماء الشيعة ومجتهديهم لم يتفقوا على رأى موحد فى هذه الممارسات بالتحريم القاطع أو الجواز الصريح، ويرى المؤلف أحد أسباب هذا الموقف أن «كثيرًا من علماء الشيعة يعتمدون فى رزقهم على ما يقدمه الناس من حقوق شرعية إلى المرجعية الدينية أو وكلائها المنتشرين فى جميع أنحاء العالم الإسلامى..(..) إن ابتعاد الشيعة عن طاعة الحكومة وعدم قبول أى عطاء منها أوقع البعض من العلماء تحت ربقة العامة من الناس الذين هم مصدر رزقهم، وبخاصة فى الأحيان التى مورست فيها طقوس ومراسيم تتعارض مع روح الإسلام ومبادئ ثورة الإمام الحسين..»، وبدهى أن هذا لا ينطبق على كل علماء الشيعة ومجتهديهم، ويتابع المؤلف - بتفصيل وحماسة - محاولات المصلحين منهم، وبوجه خاص السادة الشيوخ: محمد رضا المظفر وهبة الدين الشهرستانى ثم محسن الأمين صاحب «رسالة التنزيه فى أعمال الشبيه» ومحمد الخالصى ومحمد جواد مغنية وسواهم.

وعلى أى حال، فليس هذا وجه عدم الاتفاق الوحيد بين علماء الشيعة ومجتهديهم، ثمة ما قد يكون أهم وأخطر، هو عدم اتفاقهم حول ممارسة العمل السياسى والخدمة العامة، من ناحية، أو الانكفاء على دراسة الأصول والاكتفاء بالفتوى فيها، والانصراف عن عالم السياسة وما يموج به من فساد وإفساد، من الناحية الأخرى (يكتب الدكتور الحيدرى ما يمكن أن يفسر بعض الظواهر التى نشهدها فى عراق اليوم: «بقى الشيعة يقفون من مسألة الحكم وما يمت إليه بصلة موقفًا سلبيًا، حتى على المستوى الفردى، فهم يتحاشون الحكم والحكام ويخافون الانخراط فى وظائف الدولة والدخول فى الخدمة العسكرية، ويؤثرون أن يصبحوا تجارًا وحملة شهادات عالية ومالكى عقارات وأراض زراعية، على أن يكونوا رجال دولة وعسكريين ودبلوماسيين..» ص٣٥٣). ورغم «تسييس» الجمهور الشيعى بتأثير أحداث العقود التالية على الخمسينيات. إلا أننا مازلنا نرى مظاهر ونسمع أصداء تلك الاختلافات حتى الآن).

الملاحظة الثانية التى يؤكدها المؤلف أكثر من مرة كذلك هى أن طقوس التطبير بالسيوف والضرب بالسلاسل ليس لها جذور فى أرض العراق، فهى لم تكن معروفة حتى أوائل القرن العشرين، وأن أصولها ليست عربية «بل دخلت العراق عن طريق بعض الحجاج الذين يقدمون من أذربيجان التركية لزيارة كربلاء والنجف عند عودتهم من الحج إلى مكة.. وكانوا يقومون بضرب رؤوسهم بالقامات التى يجلبونها معهم..(..) كما دخلت طريقة الضرب بالسلاسل على الظهر عن طريق الهنود الذين استقروا فى البصرة وكربلاء والكاظمية، كما دخل معهم بعض ما يُحمل فى مواكب العزاء مثل «علم الزنكى» وغيره..». وسواء كانت من أصول فارسية أو تركية أو هندية أو سواها، فإن عالم الاجتماع لا يخفى رأيه الواضح والمحدد: «لقد اختزل البعض ثورة الإمام الحسين بأهدافها الثورية ومعانيها السامية وأبعادها الإنسانية، بتحويلها إلى مجرد طقوس ومناسبات مأسوية لا تعبر إلا عن عنف جسدى وتعذيب ذاتى وبطرق سلبية نكوصية، فى الوقت الذى يمر الشعب العراقى فى أعمق محنة من





التمزق والعجز والنكوص، وإذا كنا مطالبين بانتهاج مبادئ الحسين وأهداف ثورته السامية التي تدعو إلى ضرورة احترام الإنسان والدفاع عن كرامته، علينا التصدي لأي إذلال ونكوص واتخاذ مواقف رفض وتحدٍّ، كما فعل الحسين..».

وإنني أود الوقوف عند «الظاهرة المسرحية» في هذه الطقوس، ليس فقط لولعي الدائم بفن المسرح، ولكن أيضًا لأن «مسرح التعزية» موضوع شغل المسرحيين العرب، وغير العرب، وكان محل دراسات واجتهادات، ومازال يحتمل المزيد.

وسوف نجد في هذه الطقوس شكلين من أشكال «المسرحة» أولهما مسيرة المواكب الكبرى حسب وصف الدكتور الحيدري لها في بحثه الميداني في الكاظمية في ١٩٦٨، وثانيهما مسرحية «الشبيه» أو «التشبيه» أو «التشابيه»، وهي التي ينصرف إليها تعبير «مسرح التعزية» أو «التعازي» وهي التي تقدم في ليلة عاشوراء.

تبدأ مسيرة المواكب عادة منذ اليوم الخامس من محرم، في حدود الخامسة مساء، ماعدا يوم عاشوراء حيث تخرج المسيرة الكبرى في الصباح. يقوم كل موكب من المواكب الرئيسية بمسيرة خاصة به، وتتكون المسيرة من مجموعتين كبيرتين، تمثل الأولى معسكر الإمام الحسين والأخرى معسكر بني أمية، وتقوم باستعراض شعبي فولكلوري، شبه عسكري، يرتدي المشاركون فيها أزياء عربية تقليدية ومتنوعة، وتتصدر كل موكب فرقة موسيقية شعبية تعزف لحنًا عسكريًا بسيطًا بآلات موسيقية هوائية، وتبدأ المسيرة بمن يمثل أهل البيت وأنصارهم يتقدمهم حاملو الرايات الكبيرة متعددة الألوان، تتبعهم مجموعة من الخيول العربية ذات السروج المزركشة يقودها عدد من الرجال في بزات عسكرية.



في هذا الإطار الواسع تبدأ الشخصيات الرئيسة في التقدم: يأتي العباس بن علي، حامل راية الحسين، وهو يمتطي فرسًا عربية ذات سرج ثمين، وقد لبس درعًا حديدية وحمل سيفه بيمينه، وهو في قميص أخضر وعقال أخضر كذلك، يتبعه فارسان شابان يمثلان علي الأكبر بن الحسين والقاسم بن الحسن، وسط مجموعة من الرجال والصبيان يظهر الإمام علي بن الحسين الملقب بالسجّاد وهو مقعد تبدو عليه أمارات المرض، خلفه يسير فارس أسود هو «الحر الرياحي» الذي كان أحد قواد جيش الأمويين لكنه انحاز إلى جانب الحسين وقاتل واستشهد معه، يتوسط المجموعات «موكب العريس» أو «زفة القاسم» التي تتكون من مجموعة من الشباب والصبيان، يحملون على أكتافهم «قبة القاسم» وهي غرفة مثلثة الشكل مزينة بأقمشة حريرية ملونة وأضواء وشموع ومزهريات وأغصان شجر وورود، ثم عدد من الصبية يحملون صواني فيها شموع وحناء وأغصان الآس، ثم يظهر القاسم بن الحسن، يمثل دوره شاب وسيم في زي عربي على فرس مطهمة، تقول القصة الشعبية إنه كان مفروضًا أن يتزوج ابنة عمه الحسين، غير أنه ضحى بعرسه وشبابه وحارب إلى جوار عمه واستشهد معه. بعد «قبة القاسم» يأتي «مهد الرضيع»، وهو مهد صغير مغلف بأقمشة حريرية وردية اللون تحمله فتاة صغيرة، ويشير إلى عبد الله الرضيع ابن الحسين الذي قُتل، عطشان، بسهم نفذ في رقبته وأبوه يحمله بين ذراعيه، ثم مشهد «التوابيت»، وهي مجموعة من التوابيت الخشبية المكشوفة من أعلاها، وقد تمدد في كلٍّ منها رجل يبدو للناظر مقطوع الرأس، بعد أن غُطي الرأس بقطعة قماش، وترمز إلى جثث الشهداء، بينها يختفي جسد الحسين تحت كفن أبيض ملطخ بالدماء، وإلى جانبه تقف حمامتان بيضاوان مربوطتان بخيط رفيع إلى التابوت وقد تلطخت أجنحتهما بالدم، وحسب الرواية الشعبية فإن الحمام الزاجل كان قد نقل خبر مصرع الحسين إلى المدينة، وفي مؤخرة التابوت صبيتان صغيرتان منحنيتان على الجسد تمثلان «بنات الحسين». تتبع التوابيت مجموعات من الأطفال، واحدة تمثل أبناء مسلم بن عقيل رسول الحسين الذي قتل في الكوفة، وأخرى تضم مجموعة من الأطفال مقيدين بالسلاسل، يضربهم أحد الجنود بجريد النخل على رؤوسهم، وهم يمثلون أولاد الحسين وأهل بيته الذين أخذوا سبايا إلى دمشق. ثم يأتي «النصراني» الذي وقف إلى جانب الحسين وحارب معه واستشهد معه، ويعرض النصراني في لباس عسكري عصري.. «وفي الحقيقة، فإن تمثيل الفارس النصراني في هذه المسيرة إنما يشير للأهمية العالمية لثورة الحسين، ليس لدى المسلمين فحسب، وإنما لدى المسيحيين أيضًا..».

بعد انتهاء مسيرة معسكر الحسين، وأهل بيته وأنصاره يأتي معسكر بني أمية، يتصدره أربعة من ضباط الجيش يتقدمهم شمر بن ذي الجوشن الذي ضرب بسيفه نحر الحسين ثم حزَّ رأسه، يتبعه عدد من الفرسان في قمصان حمراء وسراويل صفراء، في حين ينفخ عدد من الصبيان في أبواق طويلة، يتبعهم فارس يمتطي جوادًا أبيض ذا سرج ثمين، يرتدي زيًا عربيًا مع كوفية وعقال ونظارات شمسية ملونة، يمثل عمر بن سعد قائد جيش بني أمية، يسير خلفه قائد روماني وإلى جانبه جنديان أسودان مدرعان يمثلان حراسه، ويتبع قائد الجيش مجموعة من الجنود يحملون الأقواس والنبال، ترافقهم فرقتان موسيقيتان.

ويلاحظ وصّاف هذا المشهد الثري، الدكتور إبراهيم الحيدري.. «أن منظمي المواكب يعلقون أهمية كبيرة على الألوان والأزياء الفولكلورية حتى لو فقدت بعض مصداقيتها التاريخية والواقعية، كما أنهم يعرضون المعسكرين بشكل متناقض تمامًا، فهم يعرضون معسكر الحسين في أزياء عربية، بينما معسكر بني أمية في أزياء «رومانية» أو «حديثة»، وفي الواقع فإن الممثلين يعكسون أدوارًا تكاد تكون منفصلة بعضها عن البعض الآخر، وأن كل دور من هذه الأدوار يرتبط بالشخصية التي يقومون بتمثيلها وأهميتها الدينية والتاريخية.. (..) ومن الملاحظ أن الممثلين الذي يؤدون أدوار أهل البيت وأنصارهم يُظهرون الطيبة والتقوى والبراءة، لذلك يكون تعاطف الجمهور المحتشد معهم قويًا وحارًا، يعبر عن حب واحترام كبيرين، وبخاصة من يقوم بدور العباس ابن علي والسجّاد والقاسم وعلي الأكبر، ومن المعتاد أن يقوم بهذه الأدوار «ممثلون» من السادة المعروفين بانتسابهم إلى الرسول. وعكس ذلك يحاول «الممثلون» الذين يقومون بأداء أدوار قادة وجند بني أمية أن يظهروا وكأنهم غلاظ القلوب ذوو وجوه عابسة ومشية متغطرسة ويرمون الجمهور المحتشد بنظرات غاضبة، في محاولة لإثارة السخط على بني أمية. لهذا توجه إليهم اللعنات.. وبخاصة أولئك الأشخاص الذين يقومون بدوري شمر وعمر بن سعد اللذين يلقيان من الجمهور - أكثر من غيرهم - لعنةً وشتمًا وإهانات، وأحيانًا رميًا بحجارة صغيرة..».

وقبل أن نعرض للتشبيه. يحسن أن نذكر ملاحظة الدكتور الحيدري، بما هو أنثروبولوجي، حول النظر إلى هذه الأعمال من وجهة نظر «ناقد الفن». يقول: «علينا، إذن، ألا ننظر إلى العمل الفني التقليدي نظرة تحكم عليه من خلال قيمنا الفنية المعاصرة، لأن قيمة أي عمل لا تكمن في جاذبيته الجمالية فقط، بل من أهميته الاجتماعية والنفسية والأخلاقية والهدف الذي انبثق عنه. مثال ذلك الموسيقى الشعبية التي تستخدم في مواكب العزاء، والتي تعزف ألحانًا طقوسية ذات إيقاع سهل وبسيط ينسجم مع مسيرة الموكب واللطم على الصدور أو ضرب الظهور بالسلاسل الحديدية والرؤوس بالسيوف والقامات، هذه الموسيقى لا يمكن أن تكون جميلة بقدر ما تكون مرعبة ومثيرة للحماس، لذلك غالبًا ما تكون ذات إيقاع حر، سريع الاستيعاب والتجاوب..».

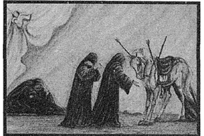


ومثال ذلك أيضًا مسرحية التشبيه: ظاهرة مسرحية قائمة بذاتها، تشكلت - تاريخيًا - وفق المعطيات والمؤثرات الدينية والاجتماعية - السياسية، دون تأثر - من أي نوع - بالمسرح الكلاسيكي أو الحديث في العالم. هو مسرح شعبي شعائري يختص بتمثيل مأساة كربلاء في مشاهد ذات طابع إخباري وتربوي، في حبكة مبسطة و«لغة سهلة الفهم والاستيعاب»، لهذا نستطيع القول بأن «مسرح عاشوراء» يمكن أن يشكل أول عمل مسرحي في العالم العربي الذي لم يعرف المسرح الملحمي والدرامي، كما هو معروف في المسرح الكلاسيكي في اليونان، وحسب النموذج الكلاسيكي الذي وضع أسسه أرسطو..».

البداية قدوم مسلم بن عقيل، رسول الحسين إلى الكوفة ومقتله وتمثل معركة «الطف» في كربلاء بجميع أحداثها وسط المسرحية التي تصل ذروتها حين يتقدم الحسين وأهل بيته للقتال واحدًا بعد الآخر، ثم يقع







الإمام الحسين صريعًا، أما النهاية فتكون عند هجوم جند بني أمية على مخيم أهل البيت وإحراقه وسَبي النساء والأطفال وأخذهم إلى الشام.

ما خصائص هذا المسرح؟ يحددها المؤلف على النحو التالي:

أولاً: إنه مسرح هواة لا مسرح محترفين، يصدر عن ذكاء وإمكانات فطرية ومهارات شعبية وفولكلورية، تطرح بشكل عفوي، وليس مكتسبًا أو عن طريق معرفة أكاديمية منظمة، إنما عن طريق إرث تقليدي ينتقل إلى العاملين فيه، لذا نجد أن جميع الممثلين والمنشدين والمنظمين وكل المشاركين في إنتاج وإخراج وتمثيل هذه المسرحية هم من غير المحترفين، ويقومون بهذه الأنشطة من أجل «خدمة» الإمام الحسين والتقرب منه ومواساته لا يرجون من ذلك سوى طلب الشفاعة.

وغالبًا ما يكون المنظِّم (لنقل: المخرج) رئيس الموكب أو شاعره أو خطيبه، هو الذي يوزع الأدوار ويدرب الممثلين ويحدد الأزياء والديكورات .. وقد يقوم بتقديم موجز لموقعة «الطف» قبل أداء الممثلين، وقد يقوم بإلقاء قصيدة أو مرثية حزينة تصاحب أداء الممثلين، ربما تكون بديلاً للموسيقى التصويرية في المسرحية الحديثة.. «إن هذه الطريقة التي يقدمها المسرح الشعبي في عاشوراء لا نجد لها مثيلاً في تاريخ المسرح الكلاسيكي، ولا في تاريخ المسرح الحديث، أما مكان المسرح فغالبًا ما يكون في صحن إحدى العتبات المقدسة كما في النجف أو الكاظمية، أو في «الخيمكة» وهو الموقع الذي جرت فيه واقعة الطف بكربلاء، أو في إحدى الساحات العامة أو في حسينية أو في أي مكان آخر، أما الزمان فهو، في الحقيقة، تجريد لزمان آخر مضى، لكنه بقي في المخيال الشعبي حيًا ومتحركًا ومرتبطًا بشهر محرم من كل عام..».

ثانيًا: إنه مسرح شعائري، «درامي.. تراجيدي» إن صح التعبير، يعرض، بشكل ملحمي، وقائع وقصصًا وأساطير عن موقعة الطف، ويستمد مادته من كتب «المقاتل» التي وصفت أول تراجيديا دامية عرفها التاريخ الإسلامي، هذه الملحمة تعرض وقائع تاريخية ذات أبعاد دينية واجتماعية - سياسية، وغالبًا ما يصاحب العرض حوار وإنشاد أشعار ومَراثٍ وخطب، تعكس مفاهيم الإيمان والتضحية في سبيل المبدأ والعقيدة. مثلما تعكس مفاهيم القوة والشجاعة والقدرة على الصبر ومواجهة المصاعب.. «وهي بهذا تجسيد لمفهوم الخير الذي ينتصر دومًا على الشر، كفلسفة اجتماعية، هي الهدف الرئيسي لهذه المسرحية، وأبعد من ذلك، فإنه يجعل من هذا الهدف غاية أبعد هي توليد الصراع الاجتماعي في ربطه بين المبادئ والقيم العليا التي أعلنتها ثورة الإمام الحسين في كربلاء، وبين النظام الاجتماعي الاستبدادي والمرفوض الذي يتحكم في مصير الناس، ويتخطى حقوقهم في الواقع الاجتماعي المعيش.. (..) من هنا تبرز خاصية أساسية في مسرح عاشوراء هي إسقاط الأحداث التاريخية الماضية على الزمن الحاضر المعاش بحيث تصبح وكأنها انعكاس لأحداث تجرى اليوم».

وقد لا يركز هذا المسرح على المصداقية التاريخية للوقائع قدر ما يركز على المخيال الشعبي لتلك الوقائع وتأثيرها العاطفي. إنه لا يعرض تسلسلاً تاريخيًا قدر ما يعرض أحداثًا معروفة ومتداولة بين الناس، ولعلها أيضًا محفوظة عن ظهر قلب، المهم أن يعرض تلك الأحداث على شكل مبادئ وقيم ورموز يجسدها تجسيدًا حسيًا، تجسيدًا لابد له من مشاركة وجدانية من جانب المشاهد، وهكذا يكون الممثل والمشاهد وحدة جدلية لا انفصام فيها.

ثالثًا: إنه مسرح حياة، أكثر منه مسرح لغة وتخاطب. الجمهور فيه يتعايش مع الحدث المأساوي ويشارك الممثلين فيه، وينفعل بهم ومعهم انفعالاً شديدًا، ويظهر هذا التجاوب في شكلين: الأول مشاركة الجمهور في العمل المسرحي مشاركة مباشرة أحيانًا وغير مباشرة أحيانًا أخرى، فالجمهور مُشاهد ومشارك. يستمع وينشد ويندمج مع الممثلين بولع شديد، دون معاناة أو ملل، بحيث يصبح جزءًا منهم، وهذا قلب العلاقة الجدلية الحية بين الممثل والمشاهد. الشكل الثاني يظهر في الانفعال الشديد الذي يشد المشاهد - المشارك إلى العمل المسرحي، ومن ثم يصبح مسرح عاشوراء عملاً جمعيًا، من نتاج المجموعة كلها.

«إلى ذلك يعرض مسرح عاشوراء أشكالاً من السلوك الديني - الاجتماعي، مثلما يعكس طرائق التنظيمات الشعبية وأساليب التفكير والانفعال والشعور، وكذلك العلاقات الاجتماعية غير الرسمية. بالمفهوم السوسيولوجي، من جهة، والوقائع التاريخية السياسية - بحسب التصورات الشعبية التي يعبر عنها بالخطب والقصائد والمراثي والحكم والأمثال، التي تبين ماجرى لأهل البيت في كربلاء من ظلم واغتصاب لحقهم المشروع، من جهة أخرى، إضافة إلى أنه يفتح منفذًا للتعبير عن واقع مؤلم وحزين، وبابًا للإعلان والاتصال، وصمامًا للأمان والتنفيس عن بعض ما هو غير مُباح ومكبوت، ولتوطيد ما يعتقد به المرء من قيم ومبادئ، من جهة ثالثة..».

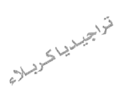
ذلك أوفى وأدق تحليل لهذا المسرح، ومن المعروف أن هذا المسرح لم يكن موضع اهتمام المسرحيين العرب، إنْ هي الإدراسة يتيمة كتبها باحث تونسي هو محمد عزيزة (ترجمها الدكتور رفيق الصبان، ونشرت بعنوان «الإسلام والمسرح»، صدرت طبعتها الأولى في القاهرة في ١٩٧١، والطبعة التي اعتمدت هنا هي الثانية، منشورات «عيون»، الدار البيضاء، ١٩٨٨م)، ولعل أثمن ما في هذه الدراسة الوجيزة هو نص «آلام الحسين أو مأساة كربلاء»، يقول الأستاذ عزيزة في تقديمه إنه «إعداد حر عن عدد من النصوص الشيعية التي درسناها في كثير من المكتبات القومية في العالم.. خصوصًا في كربلاء حيث تُحفظ بعض المخطوطات بعناية وحرص شديدين..»، ثم يثبت قبل النص مباشرة إنه «إعداد مسرحي بتصرف عن الكتاب الفارسي «جونج - ى - شهادتي» فلا ندري هل نصدقه في الأولى أم في الثانية!

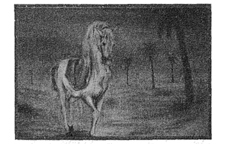


على أي حال، من الواضح أن ثمة اختلافات بين هذا النص، من ناحية، والعرض الذي يقدمه الدكتور الحيدري، من ناحية أخرى، ولعل أبرز نقاط هذا الاختلاف.. وما يشير إلى أن النص إيراني أو فارسي .. هو تزويج الحسين من «أميرة فارسية تدعى شهربانو، ابنة آخر الملوك الساسانيين يزدجرد الثالث..»، شهربانو هذه هي التي تظهر مع الحسين قبل استشهاده، وهي التي يتحدث إليها: «شهربانو.. يا رفيقة شبابي العذبة.. يا رفيقة انهياري.. اعلمي أني لا أفارقك إلا مرغمًا لأن قلبي لم يرغب أبدًا بأن يتحرر من تلقاء نفسه من القيود العذبة التي تربطنا معًا، إني أعهد إليك بأولادي.. إلخ». في الطبعة العراقية، لو صح الوصف، نجد السيدة ليلى، أم علي الأكبر، هي التي تصحب الحسين إلى كربلاء، وهي التي تنوح على ابنها بعد مصرعه، وتُروى عنها القصص في المجالس الحسينية (فلما قتل علي الأكبر توجهت ليلى إلى خيمتها ونثرت شعرها، بناءً على طلب الإمام الحسين، ولأنها نذرت أيضًا إذا ما استجاب الله دعاءها، وأرجع ابنها سالمًا من المعركة ثم أخذت تنشد: نَذْرٌ عليَّ لئن عادوا وإنْ رجعوا / لأزرعن طريق «الطف» ريحانًا..»، ويعلق الدكتور الحيدري: «والحقيقة فإن البيت هو للشاعر مجنون ليلى العامري الذي انتظر ليلاه، التي كانت تقيم في تلك المنطقة، والبيت هو كما يلي: «نذرٌ عليَّ لئن عادوا وإن رجعوا / لأزرعن طريق «التفت» ريحانًا..» (ص ٤٦٤)، إضافة لاختلافات أخرى كثيرة حول الطفل العطشان الذي كان يحمله الحسين: سكينة (في الطبعة الإيرانية) أم عبدالله، وظهور الجِنّي جعفر للحسين يعرض عليه المساعدة.. إلخ. «تلك الاختلافات طبيعية ومألوفة في مثل تلك النصوص. لكننا نلاحظ - بوجه عام - أن معظم الدراسات التي كتبت عن التعزية كتبت عنها كما تقدم في إيران، لا في العراق (بين مراجع الدكتور الحيدري مرجع مهم يحوي عددًا كبيرًا من الدراسات حول مختلف جوانب الموضوع: Peter Chelkoski: zieh, Ritual and Drama in Iran, New York, 1979)، ومن ثم تكتسب دراسة الدكتور الحيدري أهمية إضافية من حيث إنها تضع الظاهرة في سياقها التاريخي والاجتماعي في العراق، صحيح إنه يتابع مظاهر التعزية في الدول الإسلامية: إيران وتركيا وباكستان (الهند)، ثم في الدول العربية: لبنان ومصر ودول الخليج، وسواها، إلا أن مادته الأساسية هي من العراق وعن العراق.

وقد لا تكتمل رؤيتنا لهذا المسرح دون أن نعرف وجهة نظر مسرحي غربي في هذه الطقوس. في كتابه الأخير «الباب المفتوح» - صدرت طبعته الأولى في ١٩٩٥ - يعرض المسرحي الإنجليزي بيتر بروك لهذه التجربة، ويتحدث عنها حديثًا







طويلا (راجع، من فضلك: بيتر بروك: الأعمال الكاملة، ترجمة كاتب هذه السطور، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٥١٠ وما بعدها). لم يكن بروك غريبًا عن الثقافة الفارسية فقد أخرج عمله الكبير «اجتماع الطير» عن الشاعر الفارسي فريد الدين العطار، وكان ما ميَّز بروك دائمًا في اقترابه من الثقافات الأخرى، أعني الثقافات خارج الإطار الغربي، هو أن يقترب منها بتواضع واحترام ورغبة في الفهم، حتى يستطيع أن يتبين منطقها الداخلي، والأدوار التي كانت ـ أو مازالت ـ تؤديها لجمهورها.



يروى بروك: «حين ذهبت إلى إيران للمرة الأولى في ١٩٧٠ شهدت شكلاً من المسرح بالغ القوة هو «التعزية»، قطعت جماعة أصدقائنا الصغيرة طريقًا طويلاً عبر إيران، بالطائرة حتى «مشهد» ثم في تاكسي يغوص بعيدًا في الريف المنفسح المفتوح، وخرجنا عن الطريق الرئيسي إلى درب موحل.. فجأة وجدنا أنفسنا خارج جدار بني اللون يحيط بالقرية، وهناك بالقرب من شجرة قائمة شكّل مائتان من أهل القرية دائرة كاملة، واقفين أو قاعدين تحت الشمس اللاهبة..(..).

كان أهل القرية في حالة توقع تام لأنهم يعرفون ما سيحدث حتى التفاصيل الأخيرة، كل ما قيل لنا إن التعزية هي الشكل الإسلامي من مسرحيات «الأسرار المقدسة»، ورغم أن الشاه كان قد حظرها قبل عدة سنوات، إلا أنها استمرت تقدم في الخفاء في ثلاثمائة أو أربعمائة قرية..(..).

قرع الموسيقيُّ القاعد تحت الشجرة طبلته بإيقاع مُلِحٍّ، فخطا قروي إلى الحلقة، كان ينتعل حذاءً مطاطيًا طويلاً، وله مظهر محارب جميل، وعلى كتفيه ثوب من القماش الأخضر الزاهي، اللون المقدس، وبدأ في إنشاد مقطوعة طويلة منغمة مكونة من نغمات قليلة جدًا في نمط يتكرر ثم يتكرر، وفي كلمات كنا عاجزين عن متابعتها لكن معانيها تتضح على الفور عن طريق الصوت الصادر من أعماق المغني. لم تكن العاطفة عاطفته هو، لكن الأمر بدا لنا وكأننا نستمع إلى صوت أبيه، وأبي أبيه، وهكذا، رجوعًا إلى الوراء. كان يقف هناك، مباعدًا بين رجليه، ممتلئًا بالقوة، مقتنعًا تمام الاقتناع بعمله، كان تجسيدًا لهذا الشخص الذي يُعد في مسرحنا أكثر الشخوص مراوغة على الإطلاق: البطل.(..) حين كنت أقول هذه الأفكار لنفسي، كانت ثمة شخصية أخرى، تلفها ثياب حمر هذه المرة، تدخل الحلقة. وارتفع التوتر على الفور: لقد جاء الشرير. لم يكن يغني، فليس له الحق في التنغيم، اكتفى بأن خطب في الناس بصوت أجش. بعدها بدأت الدراما.

وأصبحت الحكاية واضحة: إن الإمام في أمن حتى الآن، لكنه لابد أن يرحل أبعد، ولكي يفعل فلابد أن يجتاز أرض أعدائه الذين أعدوا له كمينًا بالفعل، وحين كانوا يزمجرون ويصيحون بنواياهم الشريرة اجتاح الرعب والسخط جمهور المتفرجين.

وبطبيعة الحال. فإن كل واحد كان يعرف أنه لابد أن يقوم بهذه الرحلة، وكل واحد كان يعرف أنه سيُقتل، ولكن بدا في البداية أنه يمكن، هذه الليلة، تفادي هذا المصير. طلب منه أصحابه ألا يرحل، ودخل الحلقة ولدان صغيران يغنيان معًا، إنهما ولداه، وهما يطلبان منه، بعاطفة حارة، ألا يرحل. كان الشهيد يعرف المصير الذي ينتظره، فنظر إلى ولديه وغنّى لهما أغنية وداع مؤثرة، وضمهما إلى صدره، ثم أفلتهما وانطلق، وأعانه حذاء الفلاح الضخم على أن يضع قدميه بثبات على الأرض، وقف الولدان ينظران نحوه وهو يرحل، وشفاههما ترتعش. وفجأة أصبح الأمر أكثر من احتمالهما فجريا وراءه ورميا بنفسيهما على قدميه فوق الأرض، مرة ثانية أعادا الأغنية المثيرة للأسى.. ومرة ثانية أجابهما بأغنية الوداع.. (..) كان المشهد ذاته يتكرر. في المرة السادسة انتبهت لهمهمة خفيفة حولي من كل ناحية، وسحبت عيني لحظة عن الحدث فرأيتُ شفاهًا ترتعش، والأيدي والمناديل تغطي الأفواه، والوجوه مرهقة ببرحاء الحزن، بعدها بدأ الرجال والنساء المسنون. ثم الأطفال، وبعدهم الشباب المتكئون على دراجاتهم، راح الجميع ينشجون وينتحبون في حرية كاملة.. (..)



كانت ثمة ظاهرة حقيقية تحدث هي «التصوير المسرحي». إن حدثًا من الماضي البعيد هو في عملية «إعادة تصوير» أو «إعادة تمثيل» كي يصبح حاضرًا. إن الماضي كان يحدث هنا والآن، والبطل يتخذ قراره الآن. ولوعته وكربه يحدثان الآن، ودموع الجمهور تسيل الآن. لم يكن ما حدث هو وصف الماضي أو تصويره. فقد تم إلغاء الزمن. كانت القرية تشارك مباشرة وبأكملها. هنا والآن، في موت حقيقي لشخص حقيقي مات بالفعل قبل مئات السنين، لقد قُرئت عليهم القصة مرارًا، ووُصفت بالكلمات مرارًا، لكن الشكل المسرحي وحده هو الذي استطاع أن ينجز هذا العمل الفذ، أن يجعلها جزءًا من الخبرة الحيَّة..».

هكذا قدمت «التعزية» سرًا في قرية إيرانية بعيدة، وهكذا بدت لعيني مسرحي كبير هو بروك. ولكن كان من حظ بروك أن يرى شكلاً آخر للتعزية، ولعل المقارنة بين العرضين تكشف الكثير عن طبيعة التجربة. يتابع بروك: «بعدها بسنة، حين كان الشاه يحاول أن يقدم صورة بلاده للغرب باعتبارها «ليبرالية طيبة»، تقرر أن تقدم «التعزية» للعالم في «مهرجان شيراز الدولي للفنون» التالي. «طبيعي أن تكون هذه التعزية الدولية الأولى أفضل التعازي». وهكذا أُرسلت البعثات الاستكشافية إلى كل أرجاء البلاد لتلتقط أفضل العناصر، وأخيرًا اجتمع الممثلون والموسيقيون من القرى المتناثرة على نطاق واسع، اجتمعوا كلهم في طهران، حيث أخذ مصممو الثياب مقاساتهم وجهزوهم، يقودهم مخرج مسرحي محترف، ويدربهم معلم تدريب، حُملوا بعدها بالشاحنات كي يقدموا عرضهم في شيراز. هنا.. بحضور الملكة وخمسمائة ضيف عالمي، في ثياب السهرة الاحتفالية، المناقضة تمامًا للمضمون الديني، وُضع القرويون ـ للمرة الأولى في أعمارهم ـ على منصة أمامية، تتوهج فوقهم بقع الضوء فتُغشي عيونهم، وينظرون.. على نحو غائم.. نحو صف من المقاعد تشغلها شخصيات مرموقة في المجتمع، وطلب منهم أن يقدموا «بضاعتهم..» (..) ولم يتوقف أحد ليسأل عن هذه البضاعة التي يتوقع منهم أن يقدموها، ولماذا، وأمام من؟ «هذه الأسئلة لم تُطرح أبدًا، لأنه لا أحد معْنى بإجاباتها، هكذا. نُفخ في الأبواق الطويلة وقُرعت الطبول، لكن هذا كله لم يكن يعني شيئًا على الإطلاق.

ابتهج المشاهدون الذين جاءوا ليشهدوا قطعة طريفة من الفولكلور، ولم يعرفوا أبدًا أنهم خُدعوا، وأن ما رأوه لم يكن أبدًا «التعزية»، كان شيئًا عاديًا، أقرب لأن يكون سخيفًا وغثًا مجردًا من كل ما يُثير الاهتمام، لم يقدم لهم شيئًا. لم يعرفوا هذا لأنه قدم لهم باعتباره «ثقافة»، وفي النهاية ابتسم المسئولون، وتبعهم الجمع السعيد إلى البوفيه.

كانت «برجزة» العرض تامة وشاملة!..



عود على بدء. في تقديم كتابه يضع الدكتور إبراهيم الحيدري يده على الأفكار الأساسية التي قدم بين يديها الأدلة والتفاصيل على طول صفحات دراسته. يكتب: «يرتبط البُعد الديني لعاشوراء بالبُعد الاجتماعي لها. الذي ينعكس، بشكل أو آخر في التمايز «الطائفي» ذي البُعد السياسي ـ المصلحي الذي دفع إليه الحكام والسلاطين، والذي أدى إلى حرمان الشيعة في العراق من كثير من حقوقهم، وبخاصة حين تكون السلطة في يد أقلية مذهبية تتسلط على الأغلبية(...) هذه الوضعية غير الطبيعية تجد صداها في العزاء الحسيني الذي كوَّن من الشيعة وحدة من المشاعر العاطفية الحزينة التي تظهر في الخطب والقصائد والمراثي، والتي تعبر بوضوح عن عزاء وشكوى واحتجاج خفي. (...)

إن ظاهرة العزاء الحسيني هي نتاج ظروف وشروط تاريخية وتناقضات اجتماعية ـ سياسية عميقة الجذور في المجتمع العراقي، ارتبطت بتراجيديا كربلاء من جهة، وبالهموم والآلام التي يعاني منها الفرد. من جهة أخرى. بحيث تحولت هذه المراسيم، وبالتدريج، إلى وسيلة من وسائل التنفيس يستطيع بموجبها أولئك الذين يرزحون تحت وطأة علاقات اجتماعية ـ سياسية مثقلة بالهم والأحزان. وأن يجدوا فيها أيضًا عزاء وسلوى، وهنا تكمن إحدى إمكانات التماثل والتعويض».

فمتى تتحقق «إمكانات التماثل والتعويض» على أرض الواقع الدامي؟ ■

صنع قواعدها الخليل بن أحمد

المعجمات العربية العامة والخاصة

شوقي ضيف

المعجمات كتب تحمل مفردات لغوية إما لأمة، فتسمى معجمات عامة، وإما لفرع من فروع الأمة مثل الجغرافيين والمؤرخين والفلاسفة والأدباء، فينسب إليهم، فيقال معجم الأدباء مثلاً إلى غير ذلك من فروع المعجمات، فتسمى المعاجم حينئذ معجمات خاصة.

أ- المعجمات العامة

والمعجمات العامة لا تكتفي بتسجيل مفردات اللغة، بل تضيف إليها تسجيل هجائها ونطقها وتأصيلها ودلالتها أو معناها. وتعني كلمة معجم إزالة العجمة أو الغموض. وشركتها في وقت متأخر بنفس هذا المعنى كلمة قاموس التي سَمَّى بها الفيروز ابادى معجمه، وأصلها في اللغة (البحر العظيم) وسُمِّي بها كل معجم لغوي على التوسع.

وتشمل المعاجم تأصيل الكلمات أي تاريخها ومصطلحاتها وأصواتها التي جعلتها تسجَّل في ذاكرة الحاسوب بمنطوقها الدقيق، كما جعلتها تسجل على الأقراص المدمجة وعلى شبكات الإنترنت. وانفرد العالم العربي بالسبق في صنع المعجمات منذ وضع الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٠هجرية معجمه الذي سماه معجم العين، اختارها اسمًا له دون الهمزة أول الحروف الهجائية، لأنه تلحقها تغيرات كثيرة بخلاف العين من الحروف الحلقية التي افتتح بها معجمه، والتي لا يسمها تغير في الأبنية الصرفية، وأنا أوجز منهجه في هذا المعجم العام لأن علماء العرب المعجميين تمسكوا بأكثر قواعده في معاجمهم العامة والخاصة.

وقد رتب الخليل مفردات معجمه على أساس مخارج الحروف، فبدأه بالحروف الحلقية، وأنهاه بحروف العلة والهمزة، واتَّخذ فيه القواعد التالية:

١- ترتب مفردات المعجم على أساس حروفها الأصول في الكلمة، ولا أهمية للحروف الزوائد. وظلت هذه القاعدة الأساس في المعاجم العربية بعد الخليل حتى العصر الحديث.

٢- ترتب الكلمات المجموعة في مادة لغوية ترتيبًا داخليًا على أساس الأبنية: الثنائي الثلاثي (الصحيح والمعتل واللفيف أي المجتمع فيه حرفا علة) الرباعي، والخماسي.

٣- توضع الكلمة وتقاليبها في مادة واحدة. وأطلق الخليل على الصيغة الموجودة في المادة لفظ «مستعمل» والصيغة التي لا توجد لفظ «مهمل».

وتمسكت المعاجم بهذه القواعد - بعد الخليل - إلى العصر الحديث، فلابد أن تجمع مفرداتها باعتبار الحروف الأصول وحدها دون الزوائد، ولابد أن ترتب كلماتها على أساس الأبنية، ولابد أن توضع تقاليب الكلمة في مادة واحدة. وأُلِّفت بعض المعاجم مرتبة ترتيبًا صوتيًا على مخارج الحروف مثل معجم العين للخليل، ووصل إلينا منها اثنان: تهذيب اللغة للأزهري، والمحكم لابن سيده الأندلسي. واختلفت المعاجم بعد ذلك فمنها ما أُلِّف حسب الحرف الأول في ترتيبه مثل معجم أساس البلاغة للزمخشري، ومنها ما أُلِّف حسب الحرف الأخير في الكلمات مثل الصِّحاح للجوهري وثلاثة من المعاجم العامة، هي لسان العرب لابن منظور التونسي المتوفى سنة ٧١١ للهجرة، والقاموس المحيط للفيروز ابادى المتوفى سنة ٨١٧ للهجرة، وتاج العروس للزبيدي المتوفى سنة ١٢٠٥ للهجرة.

لسان العرب لابن منظور:

ولد ابن منظور في القاهرة، وقيل في طرابلس سنة ٦٣٠ للهجرة/ ١٢٣٢ للميلاد، وتوفي بالقاهرة سنة ٧١١ للهجرة/ ١٣١١ للميلاد، عمل في ديوان الإنشاء بالقاهرة ثم ولي القضاء في مدينة طرابلس. ومعجمه «لسان العرب» طبع مرارًا منذ سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م. ويقول ابن منظور في مقدمة معجمه إنه اعتمد فيه على خمسة معاجم هي:

١- تهذيب اللغة للأزهري.

٢- المحكم لابن سيده الأندلسي، وهما من أمهات كتب اللغة.

٣- الصِّحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري.

٤- حواشي ابن بري على الصِّحاح. يقول ابن منظور عنه: أتيح له الشيخ أبو محمد بن بري فتتبع ما فيه، وأملى عليه أماليه، مخرجًا لسقطاته، مؤرخًا لغلطاته.. ورتبه ترتيب الصِّحاح في الأبواب والفصول.

٥- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير الجزري، ويقول ابن منظور عن عمله في كتابه: إنه جمع فيه ما تفرق في تلك الكتب (الخمسة) المذكورة ونقل من كل أصل مضمونه ويقول لم أبدل منه شيئًا فيقال: (بدَّل) فإنما إثمهُ على الذين يبدلونه، بل أديت الأمانة في نقل الأصول بالنص، وما تصرفت فيه بكلام غير ما فيها من النص، فليعتد من ينقل عن كتابي هذا أنه ينقل عن هذه الأصول الخمسة إذ نقل عنها حرفيًا ابن منظور مادة كتابه، ولم يتصرف فيها أي تصرف، حتى بلغ بها عشرين مجلدًا ضخمًا، وراجعها عالم حجة من أعظم علماء مصر حينذاك هو الشيخ العلامة أبو محمد بن بري.

محيط الفيروزابادى

ولد الفيروزابادى محمد بن يعقوب الشيرازي سنة ٧٢٩ وانتقل مبكرًا إلى العراق وجال في الشام ومصر وأخذ عن علمائهما جميعًا ودخل الروم والهند، واستقر في زبيد باليمن وبالغ في إكرامه سلطانها الأشرف إسماعيل وتوفي بها قاضيًا سنة ٨١٧ وانتشر معجمه: «القاموس» انتشارًا واسعًا في البلدان العربية حتى صار اسمه علمًا على كل معجم عربي.

والقاموس مطبوع في أربعة مجلدات ضخام وميَّزه الفيروزابادى بسبع ميزات:

الأولى: أنه جعل الكلمة الأصلية فيه بين قوسين ويعلو الكلمات المزيدة على معجم الصِّحاح للجوهري خط ممتد إشارة إلى الفرق بينهما.

الميزة الثانية: تخليص الواوي من اليائي في المعتل، فتكتب صورة الواو، وتذكر مادتها اللغوية، وتصوَّر الياء وتتبعها مادتها اليائية مثل (أتا) فإن العرب استعملوا فيها مادة (الأتْوُ) وهو الاستقامة في السير ومادة الأَتْي وهو الإتيان والمجيء فتكتب أولاً صورة الواو، وتذكر مادتها، فإذا فرغ من المادة الواوية كُتبت صورة الياء وأتبعت بمادتها اليائية، وإن أُهمل أحد الحرفين: الواو أو الياء تُرك وصُوِّر المستعمل فقط، وقد يصور الحرفان معًا مجموعين وتليهما مادتاهما وقد يحذفان وتذكر مادتاهما وقد تحذف إحداهما وتذكر مادتها مما يتطلب الإحاطة التامة بالصيغتين الواوية واليائية ومادتيهما المختلفتين.

والميزة الثالثة: أن جَمْعَ اسم الفاعل المعتل العين إذا جاءت صحيحة مثل جَوَلَة جمع جائل ذكرت فيقال: جَوَلَة، إما إذا اعتلت فإنها تقلب ألفًا مثل بائع وباعة وقائد وقادة وسيد وسادة.

والميزة الرابعة: أن كلمة المؤنث لا تذكر مرة ثانية بعد ذكر المذكر إذ يقال: «وهي بهاء أي أن أنثى هذا المذكر بهاء» وتُرك هذا المصطلح مرارًا.

والميزة الخامسة: أنه إذا ذكر الماضي وحده أو المصدر وحده، فالمضارع مضموم العين مثل يكتب، أما إذا ذكر الماضي والمضارع معه فإن الفعل يكون من باب ضرب ما لم يمنع من ذلك مانع كأن يكون الفعل حَلْقي العين أو اللام مثل منع فإن الباب فيه الفتح، وربما جاء مضمومًا مثل: صرخ يصرُخ ونفخ ينفُخ أو مكسورًا مثل نزع ينزِع ورجع يرجِع، وربما جاء الضم والفتح مثل صلح يصلُح ويصلَح وفرغ يفرُغ ويفرَغ ورعدت السماء ترعُد وترعَد، وربما جاء الفتح والكسر مثل رضع يرضَع ويرضِع ومنح يمنَح ويمنِح ونبح ينبَح وينبِح، وربما جاءت الحركات الثلاث مثل نحت ينحُت وينحَت وينحِت ونبع ينبُع وينبَع وينبِع.

والميزة السادسة: قال اللغوي أبو زيد: المشاهير المتداولة من الأفعال التي يجيء ماضيها الاصطلاحي على فعل بالفتح أنت بالخيار في المضارع فإن شئت قلت يفعُل بضم العين، وإن شئت قلت يفعِل بكسرها، وإذا لم يقيَّد المضارع حينئذ بضم أو بكسر فهو الفتح.

والميزة السابعة: إن الفيروزابادى اتخذ فيه خمسة أحرف رموزًا لدلالات متعددة، فالميم لمعروف والعين لموضع والجيم

للجمع، والرمز بالجيمين لجمع الجمع والرمز بثلاث جيمات لجمع جمع الجمع، وبالهاء لقرية، وبالدال لبلد، وبقيت بالقاموس ضوابط واصطلاحات أخرى تعرف بالممارسة والاستقراء، منها أنه يقدم ذكر المقيس من المصادر والجموع على غيره، ومنها أنه اختار استعمال ـ لفظين ـ التحريك ومحركًا في الكلمة المبدوءة حروفها بفتحتين مثل جَبَل وفَرَح، ويطلق الفتح أو الضم أو الكسر على المحرك بإحداها.

تـاج الـعـروس.. من جواهر القاموس

مؤلفه السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي وهذا المعجم أكبر المعاجم العربية، وهو ليس كتابًا مستقلاً، بل هو شرح على القاموس المحيط للفيروزابادي توسع فيه مؤلفه سعة كبيرة، حتى أصبح أكبر المعاجم العربية، وأوضح المؤلف في مقدمته مصادره فيه، ومنها المعاجم والكتب اللغوية السابقة له مثل الصِّحاح للجوهري وتهذيب اللغة للأزهري والمحكم لابن سيده والجمهرة لابن دريد والمجمل لابن فارس والعباب والتكملة للصاغاني ومعاجم القرآن والحديث النبوي مثل مفردات القرآن للراغب الأصفهاني والأساس والفائق للزمخشري والنهاية لابن الأثير وكتب القراءات وشروح الشعر مثل ديوان الهذليين لأبي سعيد السكري وتاريخ دمشق لابن عساكر وأجزاء من تاريخ بغداد للخطيب البغدادي وطبقات المفسرين للداودي وطبقات الشافعية للسبكي والجواهر المضيئة في طبقات الحنفية للقرشي والبداية والنهاية لابن كثير والإتقان في علوم القرآن للسيوطي والتذكرة في الطب للأنطاكي وكتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري وكتاب المعرب للجواليقي، وكأنه لم يترك كتابًا لهم في المعاجم واللغة وشروح الشعر والدراسات اللغوية مثل الخصائص لابن جني والمقصور والممدود للقالي، وأخذ مالا يكاد يحصي من كتب الطبقات والوافي بالوفيات للصفدي.

وكان الزبيدي ينقل في كتابه التاج عن هذه المصادر وأمثالها نقولاً كثيرة دون أن يدخل عليها أي تبديل أو تغيير، فلم يبدل فيها أي شيء قائلاً: «وأنا مع ذلك لا أدعي فيه دعوى فأقول: شافهت أو سمعت أو رحلت، أو أخطأ فلان أو أصاب أو غلط القائل في الخطاب.. ولعمري لقد جمع فأوعى، وأتى بالمقاصد ووفى، وليس لي في هذا الشرح فضيلة أمتُّ بها ولا وسيلة أتمسك بها سوى أنني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من منطوق ومفهوم، وسميته تاج العروس من جواهر القاموس». وأتبع هذا الكلام بحديث عن عشرة مقاصد للكتاب من أهمها بيان سعة لغة العرب، والمتواتر في الكتاب عن الرواة والآحاد والمطرد والشاذ والمعرَّب والمولد والأضداد. وكانت مصر البلد الذي اختاره الحسيني الزبيدي لتأليف معجم تاج العروس فيه، وبدأ بها جزءه الأول سنة ١١٧٤ للهجرة بعد قدومه إلى مصر بسبعة أعوام كان فيها يعدُّ لكتابته، واستغرق الجزء الأول منه ستة أعوام وبضعة أشهر وأتم الأجزاء التسعة الباقية في سبعة أعوام وبضعة أشهر، إذ انتهى منه سنة ١١٨٨ للهجرة. وأكمل معارضته على كتاب التكملة للصاغاني في جمادى سنة ١١٩٢.

وبتاج العروس انتهت المعاجم العامة القديمة، معاجم الأسلاف وانتقل إلى معاجم المجمع اللغوي العامة، وهي اثنان: معجم كبير ومعجم وسيط، والمواد فيهما مرتبة وَفْق الحروف الأصلية للكلمات دون الحروف المزيدة، وأعرض المنهج الذي وضعه المجمع لكل منهما في إيجاز.

المعجم الكبير

توضع في أول المواد النظائر السامية إن وجدت، وترتَّب المعاني الكلية متدرجة من الأصلي إلى الفرعي، ومن الحسي إلى المعنوي ومن الحقيقي إلى المجازي ومن المألوف إلى الغريب. وقدمت الأفعال على الأسماء والثلاثي منها على الرباعي والمجرد على المزيد واللازم على المتعدي والمبني للمعلوم على المبني للمجهول. وتضبط عين المضارع بوضع خط أفقي صغير عليها، وتوضع الضمة والفتحة فوق هذا الخط والكسرة تحته هكذا: ـُـَـ . وإذا اختلف الفعل الثلاثي الأجوف بين واوي ويائي فُصل بينهما في المعاني والأمثلة. ويذكر ما نصت عليه المعاجم من مصادر الثلاثي ويقدم القياسي، ولا تذكر مصادر غير الثلاثي لأنها قياسية. ولا تذكر المشتقات لأنها قياسية أيضًا.

وتذكر الكلمات التي وقع الإبدال في بعض حروفها مثل وشاح فقد أبدلت الواو همزة فتذكر إشاح، وتحال على مادتها وشاح، ولا يذكر من الجموع إلا جموع التكسير القياسية، أما غير القياسية فلا يذكر منها إلا ما نص عليه. وما تصرف من المعربات في مادته الثلاثية مثل لجام يذكر في مادته وما لم يتصرف فيه بالاشتقاق يذكر كاملاً في مادته مثل أرخميدس فإنها تحال على أصلها: أرشميدس. وما عربه نصارى الشرق ينطق كما عربوه مثل بطرس في (Peter) أو بقطر في (Victor) وبولس في (Poul) وتستكمل المواد اللغوية عند الحاجة، وبالمثل يتوسع في الاشتقاق من الجامد. ويستشهد من القرآن الكريم ـ والحديث النبوي ـ والنصوص الأدبية والمثل والشعر.

الجانب الموسوعي

يذكر من مصطلحات العلوم العربية ما شاع استعماله بين العلماء مما له صلة بالحياة العامة وألفاظ الحضارة، كما تذكر أعلام الأماكن والبلدان وأسماء الدول والمدن الشهيرة وأسماء المشاهير من الرجال، وتذكر وفاة العلم بالتاريخين الهجري والميلادي وتذكر أهم الحيوانات والنباتات العربية. ويشار إلى ما قاله علماء الحيوان والنبات من العرب ويستعان للتوضيح بصور الحيوانات ورسوم النباتات، وتعرَّف تعريفًا علميًا دقيقًا مع ذكر مقابلها الأجنبي.

المعجم الوسيط

وضع المجمع هذا المعجم ليحافظ على سلامة اللغة العربية ويجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون، ملائمة لحاجات الحياة المعاصرة، وبادر باتخاذ الوسائل التي تكفل له ذلك وما يطوى فيها من قرارات لغوية، منها:

١ ـ فتح باب الوضع للمحدثين عن طريق الاشتقاق والمجاز والارتجال.

٢ ـ إطلاق القياس ليشمل ما قيس من قبل وما لم يقس.

٣ ـ الأخذ بالسماع من طوائف المجتمع كالنجارين والحدادين وغيرهما من أصحاب الحرف والصناعات.

٤ ـ الاعتداد بالألفاظ المولَّدة والمعربة والدخيلة والمحدثة.

٥ ـ الاعتداد بالمصطلحات العلمية في مختلف العلوم والفنون وبالتعريفات العلمية الدقيقة.

وأهملت في هذا المعجم الألفاظ الجافية الحوشية: والمترادفات الناشئة عن اختلاف اللهجات مثل: اطمأن واطبأن.

وروعي أن تكون ألفاظ المعجم من السهل الناصع المأنوس من الكلمات والصيغ. وعُزِّز بالاستشهاد المحكم من القرآن والأحاديث والأمثال والأشعار وتراكيب الأدباء وصيغهم البلاغية. وقُدِّمت فيه الأفعال المجردة على المزيدة، والأفعال على





كانت مصر البلد الذي اختاره الحسيني الزبيدي لتأليف معجم تاج العروس فيه، وبدأ بها جزءه الأول سنة ١١٧٤ للهجرة بعد قدومه إلى مصر بسبعة أعوام كان فيها يعدُّ لكتابته





الأسماء والمعنى الحسى على المعنى العقلى والحقيقى على المجازى والفعل اللازم على المتعدى، وفُصل مضعف الرباعى من الثلاثى مثل زلازل وزلّ.

وأهمل من المؤنثات ما كان بالتاء زيادة على مذكره لوضوحه وشهرته، ما كان يؤنث بغير التاء اكتفى منه بما يخفى على كثيرين. ويراعى ذكر ما أقره المجمع مثل:

١ ـ قياس المطاوعة لفعَّل مضعف العين مثل تفعَّل.

٢ ـ قياس المطاوعة من فَعْلَل وما ألحق به مثل دحرجته فتدحرج.

٣ ـ قياس تعدية الفعل الثلاثى اللازم بالهمزة.

٤ ـ قياس صيغة استفعل لإفادة الطلب والصيرورة.

٥ ـ قياس صنع المصدر الصناعى بزيادة ياء مشددة على الكلمة.

٦ ـ قياس صوغ مصدر على فُعال من الفعل اللازم المفتوح العين للدلالة على المرض.

٧ ـ قياس صوغ مصدر على فَعالة من الثلاثى للدلالة على الحرفة أو ما يماثلها.

٨ ـ قياس صوغ اسم على وزن مِفْعل ومِفعال ومفعلة وفعّالة من الفعل الثلاثى للدلالة على الآلة مثل مبرد ـ مسمار ـ مكحلة ـ سماعة.

٩ ـ قياس صوغ مَفْعلة اسمًا للمكان الذى تكثر فيه بعض أسماء الأعيان مثل مأسدة، مبطخة.

١٠ ـ تكمل المادة اللغوية إذا ورد بعضها ولم يرد البعض الآخر.

١١ ـ تذكر الرموز التى وضعت للمعجم مثل (ج)، للجمع و(مو) للمولد و(مع ـــ) للمعرب و(د) للدخيل.

١٢ ـ يوضع فى المعجم ما يحتاج إليه من الصور والرسوم للحيوانات والنباتات للتوضيح.

ب ـ المعاجم الخاصّة

بجانب المعاجم العامة الكثيرة التى وضعها العرب لألفاظ العربية محاولين تفسيرها معاجمُ خاصة وضعوها للألفاظ الغريبة فى كِتاب الله. وبالمثل عُنوا بوضع كتب للحديث النبوى ومعاجمه أو للفقه والشريعة أو لأى علم من العلوم. وتسمى معاجم خاصة لأنها تخص القرآن الكريم أو الحديث النبوى أو علمًا من العلوم، واستهلها بالمعجم الذى وضعه المجمع اللغوى لألفاظ كتاب الله باسم:

معجم ألفاظ القرآن الكريم

تتعقب اللجنة التى عنيت بوضعه فى مقدمته كتب التاريخ والتراجم والدراسات القرآنية وما ألف من كتب فى تفسير غريب القرآن، وبلغت ثلاثة وثلاثين كتابًا أو معجمًا، ولم يكن بد لها من اتباع أحد منهجين فى التأليف:

المنهج الأول: التزام ترتيب السور القرآنية وآياتها على نحو ما نجد فى كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة المتوفى سنة ٢٠٩ للهجرة، وكلمة مجاز المسمى بها الكتاب لا تعنى المعنى البلاغى إنما تعنى المعنى اللغوى أى المسلك والطريق إلى تفسير ألفاظ القرآن الكريم وفهم أساليبه على ضوء طبيعة لغة العرب وأساليبهم فى الكلام.

والمنهج الثانى: الترتيب الهجائى أو المعجمى كما فى «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٠٢ للهجرة وهو يتبع ذكر المواد اللغوية القرآنية، ويذكر فيها تفسير الكلمات القرآنية مستطردًا إلى تفسير ما يعنُّ له من حديث نبوى أو أثر أو أى أسلوب أو أى لفظ من ألفاظ المادة.

وقدمت ورقة عمل مقترحة فى معجم المجمع، وهى:

أولا: فى عرض المادة

١ ـ تحرَّر معانى الألفاظ فى ضوء السياق اللغوى وضوء ما ورد فى القرآن من صور المادة فى دقة وإيجاز.

٢ ـ لا تُعْرَضُ الكلمة إلا فى موطن واحد، وإذا كان للكلمة أكثر من معنى يشار إلى المعانى خلال عرض الآيات.

٣ ـ تجرَّد المواد من ذكر الأرقام، وإن كان من المستحسن أن توضع علامة مميزة أمام بدء المادة أو أمام كل صورة من صورها.

٤ ـ مراعاة الترتيب الهجائى فى عرض المادة، وسيأتى تفصيل ذلك فى الأفعال والأسماء.

ثانيا: منهج العرض والتنسق

أ ـ فى الأفعال

١ ـ تذكر الأفعال بجميع صورها.

٢ ـ تستوفى صور الماضى ومعه الماضى المبنى للمجهول، ثم المضارع ومعه المبنى للمجهول منه ثم الأمر.

٣ ـ يذكر الفعل اللازم أولاً: ثم المتعدى بحرف ـ ثم المتعدى لمفعول به ثم المتعدى لمفعول وبحرف ـ ثم المتعدى لمفعولين وهكذا!

٤ ـ يذكر من الأفعال المجرد بجميع صوره ثم المزيد.

٥ ـ يتبع الترتيب الهجائى فى كل ذلك، كما يتبع مع الضمائر واللواحق فمثلاً تذكر ضرب ثم ضربنا، ثم ضربت ثم ضربتما ثم ضربتم ثم ضربتن ثم ضربوا، ومع الفعل المزيد يذكر: أسلم قبل سالم وسالم قبل سلَّم.

ومع الفعل المضارع يتبع الترتيب الهجائى فى أوله ولواحقه كالتالى: أضرب / تَضرب / نَضرب / يضرب.

ومع تضرب يرتب الفعل هكذا: تضرب / تضربان / تضربون / تضربين.

ثالثا: فى الأسماء

١ ـ يتبع الترتيب الهجائى.

٢ ـ يذكر الاسم النكرة: مرفوعة ومجرورة ثم منصوبة، ثم المعرف بأل ثم المضاف للظاهر ويرتب هجائيًا بحسب ما أضيف إليه، ثم المضاف للضمير ويرتب هجائيًا بحسب ما أضيف إليه.

٣ ـ عندما تتعدد صور الاسم الواحد فى مبدأ حروفه يبدأ بالفتح ثم بالضم ثم بالكسر.

٤ ـ عند التعريف للأعلام يلتزم التعريف المفيد الموجز مع الانتفاع بسياق القرآن ومضامينه فى التعريف.

رابعا: حروف المعانى

كحروف الجر والاستفهام والشرط والنداء: تذكر معانيها فى السياق القرآنى مع الاكتفاء بمثال قرآنى واحد.

الأعلام القرآنية تضاف مع تعريف موجز ومع الانتفاع بالسياق القرآنى فى التعريف ومضامينه.

وكان تفكير المجمع فى وضع هذا المعجم ثمرة سنوات طوال كان أعضاء المجمع فيها يتحاورون فى منهجه ويتناقشون طويلاً فى تأنٍّ شديد حتى استطاعوا إخراجه فى هذه الصورة الحية الخالدة.

غريب الحديث

ألِّفت عشرات من الكتب فى غريب القرآن حتى لتجمع مقدمة معجمه فيها ثلاثة وثلاثين كتابًا، وتكثر بالمثل كتب غريب الحديث تقربًا إلى الله ورسوله وكان أول من بدأ التأليف فى غريب الحديث أبو عبيدة المتوفى سنة ٢١٠ وتبعته جماعة كان منهم أبا عبيد القاسم ابن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ وكتابه: «غريب الحديث» من أروع الكتب التى ألفت فى الموضوع، ونشره المجمع لنفاسته وأهميته.

ضم أبو عبيد فى هذا الكتاب ما كتبه أسلافه فى غريب الحديث من مؤلفات حققها تحقيقًا علميًا دقيقًا ضابطًا لألفاظها ومفسرًا لمعانيها، ومرتبًا بدقة لمسانيده: مسانيد الصحابة وفى مقدمتهم الخلفاء الراشدون، ثم بعض أمهات المؤمنين وغيرُهن، ثم مسانيد التابعين وغيرهم. وعُنى بتأليفه أزمنة طوالاً يعاود النظر فيه، حتى أصبح كما يقول الخطابى إمامًا لأهل الحديث به يتذاكرون وإليه يتحاكمون. وظل طوال أربعين عامًا يراجع فيه وينقح، ما وسعه التنقيح والمراجعة، وبحق لقب فى عصره سابق معاصريه فى علوم القرآن وإمامَهم فى علوم الحديث واللغة والفقه. وقد ذكرت الكتب الكثيرة التى ترجمت له عشرات العلماء الذين أخذ عنهم من مثل أبى عبيدة والأصمعى وأبى زيد والكسائى والشافعى وغيرهم من لغويى الأمة وفقهائها العظام. وفى كتابه: غريب الحديث يقول اللغوى الكبير ابن درستويه: جاء أبو عبيد فجمع عامة ما فى كتب غريب الحديث التى سبقته وفسرها وذكر أسانيدها، وصنف كتابه المسند على حدته وأحاديث كل رجل من الصحابة والتابعين

ألفت عشرات من الكتب فى غريب القرآن حتى لتجمع مقدمة معجمه فيها ثلاثة وثلاثين كتابا، وتكثر بالمثل كتب غريب الحديث تقربا إلى الله ورسوله وكان أول من بدأ التأليف فى غريب الحديث أبو عبيدة المتوفى سنة ٢١٠



على حدته وأجاد تصنيفه، ورغَّب فيه أهل الحديث والفقه واللغة، لاجتماع ما يحتاجون إليه فيه. ويقول أبو سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم الخطابى المتوفى سنة ٣٨٨ للهجرة فى كتاب غريب الحديث لأبى عبيد: كان أول من سبق إلى إتقان هذا التصنيف ودل مَنْ بعده عليه أبو عبيد القاسم بن سلام فإنه قد وعى تصنيفه عامة ما يحتاج إلى تفسير من مشاهير كتب غريب الحديث، فصار كتابه إمامًا لأهل الحديث به يتذاكرون، وإليه يتحاكمون.

ويتكاثر التأليف فى غريب الحديث منذ أواخر القرن الثانى للهجرة ويذكر الأستاذان طاهر الزاوى ومحمود الطناحى فى مقدمة تحقيقهما لكتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦ للهجرة خمسة وأربعين كتابًا فى غريب الحديث ألفت حتى عصره، ومنها كتاب لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ للهجرة، وكتاب الدلائل لقاسم بن ثابت السرقسطى الأندلسى المتوفى سنة ٣٠٢ للهجرة وكتاب لأبى بكر الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٨ للهجرة، وقيل عن مصنفه فى غريب الحديث إنه كان خمسة وأربعين ألف ورقة، ومنها كتاب الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨.

وقد بدأت هذه الجهود فى شرح غريب الحديث منذ أبى عبيدة معمر بن المثنى فى أواخر القرن الثانى الهجرى حتى انتهت إلى كتاب النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير.

المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير

لأحمد بن محمد بن على الفيومى، وهو منسوب إلى فيوم العراق لا إلى فيوم مصر. من علماء القرن الرابع عشر الهجرى إذ توفى سنة ٧٧٠ للهجرة ١٣٦٨ الميلادى.

والمصباح المنير معجم لغوى خاص لشرح غريب كتاب الرافعى فى الفقه، وفى مقدمته أنه استمده من معاجم لغوية مثل تهذيب الأزهرى ومجمل ابن فارس وديوان الأدب للفارابى والصحاح للجوهرى وأساس البلاغة للزمخشرى، ومن معاجم فرعية خاصة مثل إصلاح المنطق لابن السكيت وفصيح ثعلب. ورتب ألفاظه وفقًا لحروفها الأصول مبتدئًا من حرف الألف فى الحروف الهجائية إلى حرف الياء غير أنه وضع الألفاظ الرباعية والخماسية مع الألفاظ الثلاثية، فوضع برقع الرباعية من برق الثلاثية.

وأكثر من الاستشهاد بالأحاديث النبوية، وعُنى بإبراز المعانى الفقهية إلى جانب المعانى اللغوية، وتوسع فى المشتقات والتزم بالإشارة إلى أبواب الأفعال فيقول مثلاً: دَفَّ من باب فعل وأكثر من ذكر جموع الأسماء والصفات، ومن التفصيل فى المسائل اللغوية والصرفية والنحوية. وضبط المادة بالعبارة كأن يقول: الطُّنُب بضم الأول وسكون الثانى. وذيل المؤلف المعجم بخاتمة نحوية وصرفية فى منتهى الدقة. وحاول تخليص الواوى من اليائى. وكتب الباب والفصل ورأس كل مادة باللون الأحمر. وعُنى بالضبط فيه وذكرِه أبوابَ الفعل عناية كبيرة.

المعجم الوجيز

هذا هو المعجم الثالث لمجمع اللغة العربية، فقد عنى المجمع بمعجم كبير ومعجم وسيط تحدثنا عنهما، وبقى هذا المعجم الوجيز الذى جعله المجمع وافيًا بحاجة التلاميذ فى التعليم الثانوى بلغة فصيحة ليس فيها ألفاظ حوشية غريبة مع إدخال ما دعت إليه الضرورة من الألفاظ المولَّدة والمحدثة والمعربة والدخيلة. وقد وعى المعجم من مادة اللغة نحو خمسة آلاف مادة وأضاف فيها الصور والرسوم التى يُحتاج إليها فى معرفة الحيوانات والنباتات وبعض الآلات، واختير له من الجموع والمصادر أشهرُها وأكثرُها استعمالاً.

وقُدِّمت فى المعجم الأفعال على الأسماء والمجرَّد من الأفعال على المزيد ووضعت لهما فى المقدمة جداول تضبط ترتيبهما، وقُدِّم الفعل اللازم على المتعدى والمعنى الحسِّى على المعنى العقلى.

وما ألحق بالرباعى مثل كوثر وضع فى باب: كثر، ووضع المضعف الرباعى مثل زلزل فى بابه الرباعى لا فى زل الثلاثى.

والكلمات التى أبدل أولها الواوى تاء مثل تجه وتؤده وتقى وضعت مع أصلها فى باب الواو، وذكرت الكلمات حسب نطقها لا حسب تصريفها.

وذكرت طائفة من المصطلحات العلمية الشائعة التى يستخدمها التلاميذ فى دروسهم وأحاديثهم، وضبطت التعريفات بلغة سهلة واضحة.

ورتبت الكلمات فى المعجم وَفْقَ الحرف الأول فالثانى فالثالث من حروف الهجاء وتوضع نجمة فى أول المادة. والرموز (ج) للجمع و ـــ (جج) لجمع الجمع وتوضع الحركات: الضمة والفتحة فوق خط والكسرة تحته هكذا ـــُ ـــَ ـــِ.

ومثل أَذِن وتأذَّن واستأذن تطلب فى أصلها الثلاثى: «أذن». وتوضع تعلَّم وعلَّم وتعالم واستعلم فى أصلها «علم». ويطلب فى المعجم: الأديب ومادبة فى أدب. وإن كان المعرب غير مشتق فإن حروفه كلها تعد أصولاً مثل: إبريق، جلسرين. ■



ميثاق الأمم المتحدة (١٩٤٥)

يمتنع أعضاء الهيئة جميعاً فى علاقاتهم الدولية عن التهديد باستعمال القوة أو استخدامها ضد سلامة الأراضى أو الاستقلال السياسى لأية دولة أو على أى وجه آخر لا يتفق ومقاصد «الأمم المتحدة». (مادة ٢)

إذا أمعن عضو من أعضاء «الأمم المتحدة» فى انتهاك مبادئ الميثاق جاز للجمعية العامة أن تفصله من الهيئة بناءً على توصية مجلس الأمن. (مادة ٦)

يتعهد أعضاء «الأمم المتحدة» بقبول قرارات مجلس الأمن وتنفيذها وفق هذا الميثاق. (مادة ٢٥)

إذا أخفقت الدول التى يقوم بينها نزاع من النوع المشار إليه فى المادة ٣٣ فى حله بالوسائل المبينة فى تلك المادة وجب عليها أن تعرضه على مجلس الأمن. (مادة ٣٧)

يقرر مجلس الأمن ما إذا كان قد وقع تهديد للسلم أو إخلال به أو كان ما وقع عملاً من أعمال العدوان، ويقدم فى ذلك توصياته أو يقرر ما يجب اتخاذه من التدابير طبقاً لأحكام المادتين ٤١ و٤٢ لحفظ السلم والأمن الدوليين أو إعادته إلى نصابه. (مادة ٣٩)

إذا رأى مجلس الأمن أن التدابير المنصوص عليها فى المادة ٤١ لا تفى بالغرض أو ثبت أنها لم تف به، جاز له أن يتخذ بطريق القوات الجوية والبحرية والبرية من الأعمال ما يلزم لحفظ السلم والأمن الدوليين أو لإعادته إلى نصابه. ويجوز أن تتناول هذه الأعمال المظاهرات والحصر والعمليات الأخرى بطريق القوات الجوية أو البحرية أو البرية التابعة لأعضاء «الأمم المتحدة». (مادة ٤٩)





■■ جمال حمدان مفكر كبير، عاش في صمت، ورحل عن دنيانا في صمت، وبين صمت وصمت ملأ الدنيا وشغل الناس.

بدأت معرفتي به قبل سنوات بعيدة في زمان الصبا، حيث كنت أطلب العلم بالجامعة، ثم تأكدت هذه المعرفة بعد الجامعة، صرت أختلف إليه، فامضي معه ساعات وساعات، لا أحس خلالها بزمن، وهو يجتاب معي آفاقًا رحبة وعوالم خصبة، بحيث كنت أنسى.. ربما أنسى إلى أي تخصص ينتمي.

تقطعت الجلسات ثم انقطعت، حين علا السياج بين حمدان وبين من هم خارج حمدان.

نشر حمدان نحوًا من عشرين كتابًا، وعشرات من المقالات في مختلف المجلات، كان يصدر فيها جميعها عن حبه لمصر، وكل ما ينتمي إلى تراث مصر.

في هذه الكتب وغيرها جعل حمدان الجغرافيا تنفتح على غيرها من الإنسانيات، بل إنه يجعلها «علمًا بمادتها، فنا بمعالجتها، فلسفةً بنظرتها».. لقد حوّل حمدان الجغرافيا من حقائق إلى أفكار، وصعد بها إلى أعلى مراحلها.. شخصية المكان، وهي جماع ما ينبئ عنه المكان، وصاغ هذه الأفكار بأسلوب راق ومتميز، يصعب معه أن تحذف كلمة من عبارة ولا عبارة من سياق.

«شخصية مصر» هو عمل حياته، صدرت طبعته الأولى ١٩٦٧، حين كان هناك أمل، وصدرت طبعته الثانية ١٩٧٠، حين ذوى الأمل، وصدرت طبعته الثالثة والأخيرة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٤ حين صارت خشية من ضياع الأمل.

والكتاب ملحمة شجية في حب مصر، فوسط أجواء الركاكة التي رانت على حياتنا في العهد الأخير، يبزغ هذا الكتاب شهابًا، لكنه لا يحترق، يظل مضيئًا، بعد انقضاء الكتاب وقضاء الكاتب.

يتفرد جمال حمدان عن غيره.. العقاد، غربال، حسين فوزي وحسين مؤنس بأنه كتب عن «شخصية مصر» وكتبوا هم عن «شخصية المصريين» وكتابه محاولة لتفسير شخصية مصر في إطار بُعدين أساسيين، هما الموضع والموقع، أو أن شخصية مصر هي محصلة هذين البُعدين والعلاقة بينهما.. ولندعه يشرح هذه النظرية لأن على أساسها يقوم الكتاب كله.

يقول حمدان: «والنظرية العامة التي نقدم في تفسير هذه الشخصية الفلتة، هي التفاعل ائتلافًا أو اختلافًا بين بُعدين أساسيين في كيانها، هما الموضع Site والموقع Situation، فالموضع نقصد به البيئة بخصائصها وحجمها ومواردها في ذاتها، أي البيئة النهرية الفيضية

شخصية مصر
جمال حمدان
القاهرة: عالم الكتب،
الطبعة الثالثة ١٩٨٠



بطبيعتها الخاصة، وجسم الوادي بشكله وتركيبه إلخ.. أما الموقع فهو صفة نسبية تتحدد بالنسبة إلى توزيعات الأرض والناس والإنتاج حول إقليمنا، وتضبطه العلائق المكانية التي تربطه بها. الموضع خاصية محلية داخلية ملموسة، ولكن الموقع فكرة هندسية غير منظورة».

في إطار هذه النظرية تتحدد ملامح الشخصية المصرية أولاً: في التجانس، والتجانس هنا طبيعي، مادي، عمراني، حضاري وبشري.. أما عن التجانس الطبيعي فمصر نموذج البيئة الفيضية المطلق، حيث يتدرج الوادي على نحو بطيء بين الشلال والبحر، بحيث لا يصير ثم تباين إلا بين قاصية الشمال في براري الدلتا، وقاصية الجنوب في النوبة السفلى، كما يمتد التجانس إلى المناخ، فمناخ مصر صحراوي لا يعرف سوى فصلين اثنين طوال العام، بحيث يصعب الحديث عن أقاليم مناخية بها.

ويرتبط التجانس الطبيعي بالتجانس المادي، فقد أفضت طبيعة التربة والري والحرارة إلى أن تصير مصر المعمورة بيئة زراعية، أو أنها حقل واحد متصل من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، تتم زراعته بكثافة، ولا تدرج بين الوادي والصحراء، بل انقطاع مفاجئ وحاد.



نتج عن التجانس الطبيعي والتجانس المادي تجانس عمراني، فالنيل هو العامل الأهم في تشكيل العمران، ومدننا وقرانا في معظمها تقع على النيل أو بين أحضانه، وهو الذي يربط بينها ويحدد عدد سكانها.

أما عن التجانس الحضاري فالسمة العامة للقرية المصرية، أنها امتداد للأرض السوداء أي الحقول، وفيما عدا العاصمتين لا تختلف المدينة عن القرية إلا بكونها قرية كبيرة.

ننتقل أخيرًا إلى التجانس البشري وهو يعود إلى بداية العصر التاريخي، فالمصريون المحدثون كأسلافهم القدماء عنصر واحد، لم يعرفوا هجرات ذات شأن سوى الهجرة العربية، وهي هجرة أقرباء، يشتركون مع المصريين في انتمائهم جميعهم إلى عرق واحد.. لذا لم تعرف مصر الحاجز اللوني، ولا التمييز العنصري.

مصر إذن وطن متجانس، أي وطن أحادي النغمة، وهو ما أفضى بدوره إلى ملمح آخر في شخصيتها هو وحدتها، فموقعًا تحددت مصر شمالاً وعلى نحو قاطع بالبحر، وماعداه صحراوات شاسعة، تعد تخومًا للوادي، وتنحدر في اتجاهه، مما يجعلها جزءًا متممًا له، وكفلت له الصحراء الحماية، وموضعًا كانت ضآلة المعمور مساحيًا داعية إلى

التوحيد، يشقه شارع طويل هو النيل، بحيث لا توجد رقعة واحدة من المعمور، تبتعد عن النيل أو فروعه، وليس بغريب إذن أن مصر لم تعرف الطرق الرومانية رغمًا عن طول عهدها بالرومان.

هذه الوحدة الطبيعية عاش في جنباتها شعب واحد حياة اقتصادية مشتركة، هي أهم عنصر في نشوء الأمة، فصارت مصر أول أمة في التاريخ وأول دولة.. دولة غير قابلة للانقسام، فلا يمكن الحياة لدولتين تخطط كل واحدة منهما للرى منفصلة عن الأخرى، وبالتالي تتصارعان على مشكلة المياه، ثم تتصارعان على مشكلة الخروج إلى البحر، مما يؤدى في النهاية إلى الوحدة.

أسفرت الوحدة الطبيعية عن وحدة وطنية، فمن ناحية اللغة لا توجد سوى جيوب لغوية لا وزن لها (النوبة - سيوة - حلايب)، بل إن هذه الجيوب في حقيقتها مزدوجة اللغة، أي تجمع بين العربية ولغاتها الخاصة، أما من ناحية الدين فنسبة الأقباط ثابتة تقريبًا، بل ربما تتناقص، بسبب التحول الديني والهجرة إلى الخارج ومستوى المواليد.

هذا التمايز اللغوى أو الدينى إذا صح أنه كذلك يدنى من وقعه أن تكوين مصر الجنسى سابق لتكوينها اللغوى وتكوينها الدينى، ومما يؤكد الوحدة أن المسلمين والأقباط يتداخلون جميعًا في مصر كلها، ولا يشكل الأقباط أغلبية في إقليم بذاته.

المظهر الأخير للوحدة الوطنية هو الوحدة السيكولوجية، ومصدرها النيل الذى جعل المجتمع المصرى مجتمع حضر، يكاد يخلو من البداوة، بل إنه يتداخل في طقوسها الدينية - فرعونية ومسيحية وإسلامية - ويدنى من ثنائيتها الدينية، فهو دين المصلحة المشتركة والخطر المشترك والحياة المشتركة، وبذا قل أن نجد شعبًا متماثلاً في ملامحه الجسمية والنفسية كالشعب المصرى.

إلى هنا ينتهى الحسم الجغرافي كما يدعوه حمدان، لكن هذا الحسم الذى أدى إلى دولة أحادية في أبعادها هو نفسه الحسم الذى أدى إلى أن تكون حكومتها قوية ومركزية في آن.. وهو الملمح الثالث في شخصيتها.

كيف كان ذلك؟

يعاود حمدان التأكيد على أن البيئة الفيضية، دفعت إلى ضبط النهر، وضبط النهر دفع إلى ضبط البشر، بمعنى أنه لابد من سلطة عامة قوية، تصير وسيطًا بين الفلاح والنهر، وزاد من قوة هذه السلطة، ما نيط بها من حماية البيئة الفيضية من خارجها، أي من البدو الذين كانت هجماتهم على الوادى ظاهرة عامة على مدى التاريخ المصرى.

أما عن المجتمع فلابد أن يكون مجتمعًا تعاونيًا، لا يعرف الفردية، وهو ما نلاحظه في القرية المصرية، حيث يتعاون الجميع في شق الترع والمصارف، وفي درء أخطار الفيضان، ووصل هذا التعاون إلى حد العمل الطوعى غير المأجور، وإن تحول أحيانًا إلى سخرة، دعاها الفلاح بالعونة.

الحكومة المركزية القوية والمجتمع التعاونى بالذات هما ظاهرتان حاكمتان في كيان مصر، وهما اللتان أدتا إلى أن عرفت مصر الحضارة والنظام والقانون.

ننتقل الآن إلى الملمح الرابع في شخصية مصر، هو أنها أو أنها والعراق أصل الحضارة، فهى وإن كانت منفصلة عن غيرها بالموضع، فهى متصلة بغيرها بالموقع، وأتاح لها الموضع كواحة صحراوية حماية لها وحضارتها في مراحل تاريخها الأولى، ولدى اشتداد عودها لعب الموقع دوره كإقليم عبور أو مرور وجعلها في قلب الدنيا من ناحية وحميمة الصلة بحضارات أخرى حولها من ناحية أخرى، تأخذ منها وتعطيها.

وقد مرت مصر عبر العصور بمراحل أربع، مرحلة صناعة الحضارة، مرحلة تصدير الحضارة، مرحلة الاكتفاء الذاتى، وأخيرًا مرحلة استيراد الحضارة، لكنها في هذه المرحلة الأخيرة لم تقف عند حد الاستيراد، إنما قامت على صهر هذه الحضارة الوافدة في بوتقتها.



الملمح الخامس هو أن قوة مصر السياسية تتناسب تناسبًا عكسيًا مع درجة عزلتها وانغلاقها داخل حدودها، وطرديًا مع مدى انطلاقها خارج حدودها، وحدودها الشرقية على نحو خاص.

ربما كان من الممكن أن تعيش مصر في عزلة نسبية عن المنطقة حولها، عندما كان الصراع صراعًا بين رمل وطين، لكنها لم يعد في إمكانها أن تعيش هذه العزلة، عندما صار الصراع صراعًا بين بر وبحر.

والعزلة هنا أو الانطلاق يعنيان بالدرجة الأولى العزلة عن العالم العربى أو الانطلاق فيه.. صحيح أنه تهيأ لمصر عمق استراتيجى ناشئ عن صحراء تحيط بها وبحر وبيئة رى تشكل عائقًا أمام الغزاة، فضلاً عن كونها شبه مغلقة في قاصية الجنوب بجنادل أسوان، وفي الغرب بهضبة الرويسات، إلا أنها مفتوحة من جهة الشمال الشرقى، وهو ما أدى إلى أن ترتبط مصر في استراتيجيتها ببلاد الشام، حيث دارت معظم معاركها فيها أو بسببها.

على أنه من الملاحظ أن مصر حين كونت إمبراطورية في بعض عصورها، كانت هذه الإمبراطورية إمبراطورية دفاعية، وليست إمبراطورية هجومية «فقد أغناها عنها غناها»، وهى بهذه الإمبراطورية كفلت الأمن لنفسها والمنطقة حولها.

يترتب على هذا الملمح ملمح آخر، هو أن مصر هى قلب العالم، فالنيل يفتح لها الطريق إلى قلب أفريقيا، والشام يفتح لها الطريق إلى قلب آسيا، ولديها يلتقى بحران هما أهم بحار العالم القديم، يفضى كل منهما إلى محيط، هما أهم محيطات العالم القديم والعالم الحديث في آن.. إذن ليس بغريب أن تكون مصر هى عاصمة العالم.



المصريون المحدثون
كأسلافهم القدماء عنصر واحد،
لم يعرفوا هجرات ذات شأن سوى الهجرة
العربية، وهى هجرة أقرباء، يشتركون مع المصريين
فى انتمائهم جميعهم إلى عرق واحد..
لذا لم تعرف مصر الحاجز اللونى،
ولا التمييز العنصرى



الملمح التالى ملمح اقتصادى، فتاريخيًا كانت مصر أحادية في اقتصادها، وتتمثل هذه الأحادية في الزراعة، والزراعة هنا وفي الأساس غذاء وكساء، كفلا لشعبها الأمان في عصور مضطربة، وفيما عدا ذلك كانت محدودة الموارد في المعادن وفي المراعى الطبيعية، مما أدى بصناعتها إلى أن تكون حرفة تكميلية، أما التجارة فقد كان دورنا فيها أشبه بدور الوسيط منه بدور التاجر.

هل من الممكن تثوير هذا الواقع؟

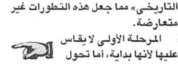
يرى حمدان أن التثوير هنا يأتى من الموضع والموقع معًا، فمادامت الزراعة عندنا كثافة قبل أن تكون مساحة، فعلينا بالبديل، وهو التوسع الرأسى أى إثراء التربة، وجعل الطين للزراعة والرمل للعمران. لكن التثوير الحقيقى يأتى من الموقع، فتستطيع مصر أن تصبح «يابان أفريقيا»، عندما تستورد الخامات وتصنعها في الداخل، وهذا ليس بعيدًا عليها، فقد سبق لها أن أقدمت على ثورة صناعية «محمد على»، لكن الاستعمار لم يلبث أن سرق هذه الثورة.

يأتى بعد ذلك ملمح مهم هو أن لمصر أربعة أبعاد حضارية وسياسية، آسيوى وأفريقى على مستوى القارات ونيلى ومتوسطى على مستوى الأقاليم وتتداخل هذه الأبعاد فيما بينها، كما أن الكل يتداخل مع الإطار العربى الكبير، لكن البعد الآسيوى هو أهم هذه الأبعاد، فالنيل لا يجرى في منتصف الصحراء، لكنه ينحاز إلى الشرق، والدلتا مفتوحة على سيناء، الأمر الذى يجعل مصر جزءًا من الحلقة السعيدة، وتشمل حواف الجزيرة العربية والعراق والشام، ورغمًا عن كون مصر في إفريقيا موقعًا، فقد كانت وأبدًا في آسيا وقعًا، هى في أفريقيا بالجغرافيا، لكنها في آسيا بالتاريخ.

الملمح التالى هو التوسط والاعتدال، والمقصود بالتوسط هنا ليس الجمع بين متناقضات على نسق، إنما يعنى أن مصر تكونت تاريخيًا وسطًا في حدود متجانسة، فهى طبيعيًا تكاد تتوسط كتلة اليابس القديم وكتلة المعمور، وهى متوسطة الحجم بالمقياس العالمى مساحةً وسكانًا وثروة، والغطاء الزراعى يجمع بين المعتدلات والموسميات، تكاد لا تعرف غير فصلين اثنين في العام، وهى بشريًا جمعت تركيبًا من عدة بيئات، وتجاورت لديها حضارة الشرق وحضارة الغرب، وتمازجت داخلها الصفات الجنسية للأجناس الثلاثة الرئيسية في العالم القديم بكل نسب القهوة واللبن، تاريخيًا شهدت عصر الإمبراطورية، كما شهدت عصر الاستعمار، غيرها شهد أحدهما فقط.. أخيرًا هى دولة نامية وليست دولة متخلفة.. هذا كله أدى إلى أن تتوازن في شخصيتها، ولايتطوح اتجاهها نحو عنصرية أو طائفية، لا ترفض الجديد، إنما تأخذ منه ما يناسبها، أى أن لديها ملكة الحد الأوسط والوسط الذهبى.

الملمح العاشر هو تعاقب الاستمرارية والانقطاع في تاريخ مصر وشخصيتها، الاستمرارية موجودة وبالدرجة الأولى في الخصائص المادية لحضارتها المرتبطة بالنيل، والانقطاع موجود وبالدرجة الأولى في الخصائص اللامادية لتلك الحضارة، وثمة مراحل حضارية أربع مرت بها مصر، هى وبالترتيب اكتشاف الزراعة وبدء الحضارة، الإسلام والتعريب، تحول طريق التجارة إلى الرأس، الحضارة الغربية الحديثة، على أن الانتقال بين مرحلة ومرحلة أخرى جرى بطريق التطور، وأعان عليه ترامى «الوراء التاريخى» مما جعل هذه التطورات غير متعارضة.

المرحلة الأولى لا يقاس عليها لأنها بداية، أما تحول





جمال حمدان

طريق التجارة، فهو أقلها تأثيرًا، على أن التعريب والإسلام كانا أهم هذه التطورات وأخطرها، ويبدو أثرهما بوضوح فى الجوانب اللامادية، وهما اللذان جعلا مصر جزءًا من العالم العربى وأحد أقاليمه السياسية.

ظلت الحال كذلك حتى بداية دخول الحضارة الغربية الحديثة، وهى أول حضارة عالمية فى التاريخ، وقد ترتب على دخولها انقطاع فى الجوانب المادية، لكن الجوانب اللامادية ظلت كما هى من ثقافة تتمثل فى العربية والعروبة والتراث العربى، فضلاً عن الدين والعقيدة.

تتصل هذه الملامح أو أنها تؤدى بالضرورة إلى ملمح مهم وأخير فى شخصية مصر هو العروبة، ويختصها المؤلف بالباب الحادى عشر والأخير من رائعته، وكان فى تقديره أن يضم ثلاثة فصول فى هذه الطبعة الأخيرة، لكن الظروف العامة المصاحبة لصدورها، وهى ظروف محزنة، خلاصتها ما جرى من انقلاب فى توجهات مصر العربية، حالت بين المؤلف وبين أن ينجز ما تطلع إليه، فاكتفى بإعادة نشر ما كتبه فى عام ١٩٦٧، وأضاف إليه فى عام ١٩٧٠.

يقرر الكاتب أن مصر جزء من منطقة عربية واحدة، أحدث بها الجفاف ابتعادات جزئية، لا تمنع من أن تكون البلاد العربية جميعها بيئة متوسطية، وأن تصبح مصر والعراق والمغرب «نظائر جغرافية»، كما أن الوحدة السياسية لا تأتى بالضرورة من الوحدة الطبيعية، وإنما من الوحدة البشرية، وهى متوافرة عند العرب.

دينيًا وتاريخيًا العرب أولاد العراق (إبراهيم) ومصر (هاجر)، ثم هناك التأثيرات السامية فى اللغة المصرية القديمة، وهناك أيضًا الهجرة العربية التى جعلت العرب هم الأب الاجتماعى لمصر فى الدرجة الأولى والأب البيولوجى فى الدرجة الثانية.

إن أعظم أمجاد مصر تحققت فى إطار العروبة.. معارك صلاح الدين وقطز وبيبرس أعظم من معارك تحتمس ورمسيس، والتوسع الفرعونى فى مساحته، لم يصل إلى توسع القرن التاسع عشر.

وإذا كانت مصر عربية، فهى زعيمة العرب، أهلّها لذلك ضخامة حجمها وتجانسها، واستيعابها لعينات من كل قطر عربى، سبقها إلى الحضارة الحديثة، موقعها بين آسيا العربية وأفريقيا العربية، لا حدود لها مع غير العرب، تصديها للصليبيين والمغول.. ثم إسرائيل.

مصر بين العرب أولوية بين أكفاء.. العرب بغير مصر هملت بغير الأمير.



ننتقل الآن إلى قضية القضايا.. قلنا إن الحكومة القوية المركزية والمجتمع التعاونى بالذات هما الظاهرتان الحتميتان فى كيان مصر، وهما اللتان أدتا إلى أن عرفت مصر الحضارة والنظام والقانون.

إذا كان الأمر كذلك، وإنه لكذلك فمن أين أتى الطغيان؟

يذهب حمدان إلى أن الطغيان فى مصر حادث بالتاريخ، وليس أصيلاً بالجغرافيا، ويستعين فى هذا بنظرية نمط الإنتاج الشرقى أو الآسيوى.

يفصل حمدان ذلك فيقول.. إنه سادت مصر فى البداية مرحلة من المشاعية البدائية، حيث الملكية على المشاع والإنتاج بدائى، لا يترك فائضًا، ولم يكن ثم تمايز طبقى، بل إن رئيس الجماعة كان يختار لسنه أو حكمته، ووظيفته حماية الجماعة من أعدائها، لكنه مع الزراعة والاستقرار، أضيفت إلى هذا الرئيس مهام أخرى: هى إزالة المستنقعات واستصلاح الأراضى وإقامة قرى وحمايتها من الفيضان، وضبط المياه وتوزيعها، وبدأ تمايز طبقى، تحول معه الرئيس إلى حاكم بالمعنى الدقيق، وبعدما تحقق له من انتصارات على جماعة معادية، صار يؤله محليًا، ثم اندمجت الكيانات الصغيرة فى كيانات كبيرة، عبر مرحلة تاريخية طويلة، إلى أن ظهرت أول دولة فى العالم.

كان قيام الدولة يعنى أن نمط الإنتاج الآسيوى قد اكتملت أركانه، فقد قامت سلطة مركزية قوية، أفادت بظروف البيئة الفيضية فى أن تدعم نفوذها وتبرر وجودها، فصارت تشرف على ضبط المياه وتوزيعها على الفلاحين، عبر جهاز ضخم من الموظفين، وصارت تلك الأرض كلها ملكية عامة كحق رقبة، وتوزعها على الفلاحين وكبار الموظفين كحق انتفاع، وكان على الفلاحين وحدهم أن يعملوا مقابل ما يكفى أودهم، ويعود فائض العمل إلى الحاكم.

هذا النظام وإن وضع أساسه فى حقبة سحيقة، إلا أنه صاحب تاريخ مصر حتى القرن التاسع عشر، وبطبيعة الحال فقد خضع لبعض التعديلات فى بعض العصور، فاقترب فى أحيان من النظام العبودى، واقترب فى أحيان أخرى من النظام الإقطاعى.

يصل نمط الإنتاج الآسيوى إلى مداه فى عصر محمد على، فهو بنظام الرى الدائم الذى أقامه على السخرة صار المالك الوحيد للأرض، أى أنه ألغى الإقطاع بصورته القائمة، ثم فرض الاحتكار على الإنتاج، وبذا أقام نظام رأسمالية الدولة الاحتكارية. لكن هذا النمط وفى العصر ذاته بدأ انحساره، فمع استصلاح الأراضى البور بدأ الإقطاع الحديث، وبدأت تظهر معه بالتدريج ملكية فردية، تقلصت بالتدريج كذلك لصالح الإقطاع، بحيث صار لدينا عشية يوليو ما عرف بطبقة النصف فى المائة التى كانت تستحوذ على نصف الدخل القومى.

هذا النمط الآسيوى للإنتاج كان الأب الشرعى لنمط آخر من الاستبداد أو الطغيان الشرقى الذى كانت مصر صورته المثلى، وزاد منه أن الفلاح المصرى لم يكن يجد منه فكاكًا، حيث لا يعطيه المعمور الضيق فرصة لأن يبتعد كثيرًا عن يدى الحاكم، كما كان من شأن السكنى بالقرى أنه يلغى الفردية، ويفرض تنميطًا جمعيًا، تخفت معه روح المبادرة التى تعين على المقاومة، ثم إن أحادية الاقتصاد المصرى حدّت كثيرًا من وجود طبقة من التجار والحرفيين، كان من شأنها أن تحدث قدرًا من الحراك الاجتماعى، من شأنه أن يكسر طوق هذه الحلقة الرهيبة.

على أن أكبر مضاعف لهذا الطغيان هو الاستعمار الأجنبى، ابتداءً بالبطالمة وانتهاءً بالإنجليز، وكان الطغيان الأجنبى يتخذ من الطغيان المحلى عميلاً له وأداة.

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن.. أين شعب مصر من هذا الطغيان.



ينوه حمدان إلى نقطتين مهمتين، أولاهما أن المصرى عادةً ما كان يقف سلبيًا إزاء هذا الطغيان، فينصرف عن حياته الحاضرة (الدنيا) إلى حياة أخرى (الدين) أو حياة جديدة (الإنجاب)، وفى أحيان يلجأ إلى النكتة السياسية أو السخرية، وفى أحيان يلجأ إلى خلاصه الفردى.

بيد أنه وللإنصاف كان يقوم بهبات أو انتفاضات، يرغم الحاكم خلالها على تقديم تنازلات، ربما كانت مهمة.. فى إحداها نجح فى عزل حاكم (خورشيد) وتولية حاكم آخر (محمد على) وفى أخرى (١٩٧٧) نجح فى وقف قرارات جائرة أصدرتها حكومته. وأحيانًا تتحول الهبة أو الانتفاضة إلى ثورة عارمة، شهد تاريخنا القديم واحدة منها، هى ثورة إيبوير فى عهد الأسرة الخامسة، وفى تاريخنا الحديث ثورتان، كادت إحداهما تصل إلى إعلان الجمهورية (عرابى) والأخرى حققت بعض أهدافها (١٩١٩). وفى منتصف القرن كانت هناك إرهاصة بثورة شعبية أكبر من سابقاتها، سلم الجميع بحتميتها «لولا أن سبق يوليو فقطع عليها الطريق»، وإن كان يوليو بذاته ثورة «هى آخر الثورات تاريخًا، وأولها نجاحًا على نحو أو آخر».

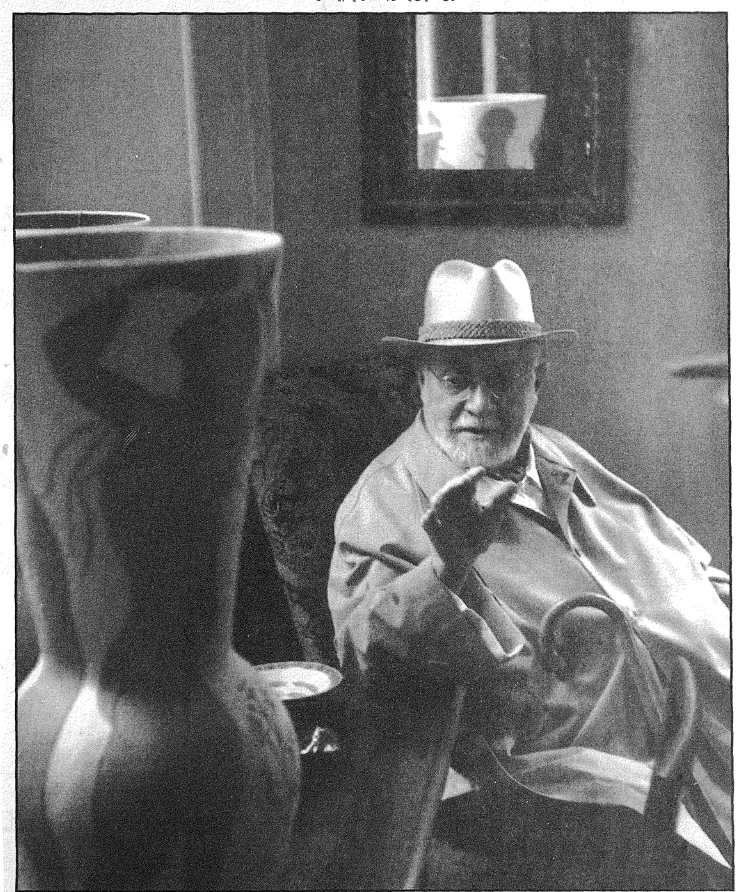
النقطة الأخرى المهمة هى أن ظاهرة الطغيان لم تكن قصرًا على مصر وحدها، إنما هى شملت العالم كله، وعليه يقرر حمدان أن الطغيان فى مصر كان روح العصر، ولم يكن روح المكان، وإذا كان قد طال فى مصر، فالسبب هو طول تاريخها من ناحية، وما جرى من استعمار أجنبى من ناحية أخرى، أى أنه ليس حتمًا جغرافيًا.

على أن نمط الإنتاج الآسيوى، وإن انتهى زمانه، فإن ما صاحبه من طغيان لم ينته زمانه. وقد خلف هذا الطغيان رواسب فى شخصية المصريين (لا شخصية مصر) وشوائب، ليس أولها النفاق، وليس آخرها الخنوع، وعلينا أن نعترف بهذه الرواسب والشوائب، ونمضى فى التعامل معها وعلاجها، لا أن نطرى أنفسنا ولا نسمع إلا ما يرضينا، ولا يعنى هذا بالضرورة أن شخصية المصريين منحرفة بطبيعتها، إنما هى محرفة بطبيعة حكمها، وعلى الشعب أن يتحمل مسئوليته فى هذا الشأن، فهو الذى يصنع الطاغية، وهو الذى يجنى فى الوقت نفسه تبعات طغيانه، أى هو الجانى والمجنى عليه معًا.

واضح إذن أن المفتاح لحل مشكلات مصر.. كل مشكلات مصر، يكمن فى الديمقراطية، ولا شىء غير الديمقراطية.. فالمشكلة عند حمدان «ليست ضبط النيل ولا ضبط الناس، وإنما ضبط الحاكم». ■

ماتيس وبيكاسو.. الصديقان

هنرى ماتيس يتأمل إناء خزفيا لبيكاسو ١٩٥١



الغريمـــان فى معـــرض واحـــد!



بابلو بيكاسو يعلق ثلاث لوحات لماتيس فى مرسمه ١٩٥٩

ماتيس وبيكاسو

نيويورك من
أحمد مرسى

في كتابها «ماتيس وبيكاسو: صداقة في الفن» الصادر عام ١٩٩٠ (دوبلداى)، صوّرت فرانسواز جيلو، التى عاشت فى كنف بابلو بيكاسو زهاء ثمانى سنوات، وأنجبت منه كلود وبالوما، علاقة الفنانين العملاقين على نحو يوحى إن لم يكن يعكس، تركيبة تجمع بين عنصرين متضاربين: إعجاب أحدهما بعمل الآخر والغيرة منه فى نفس الوقت، أو الخوف المتأصل من احتمال تفوق أحدهما على الآخر. ولكن هذه الغيرة المهنية، فى ضوء تاريخ تلك الصداقة الحميمة، إن كان فى الإمكان وجود مثل هذه الصداقة بين قطبين متنافرين، تُعلن عن نفسها بشكل صريح فى حالة بيكاسو بالذات. ويمكن تفسير ذلك، لأسباب مختلفة، فى مقدمتها فارق السن، ١٢ سنة، والذى أتاح لماتيس سبقًا فى النضج وفى التجديد بالمثل.

ولكن جيلو تحدثت عن علاقة الرجلين خلال السنوات التى عاشتها مع بيكاسو، من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٤ فقط، ولم يكونا بطبيعة الحال يفتقران إلى الإحساس بالأمن، وخاصة بالنسبة لبيكاسو الذى كان عمره آنئذ ٦٥ عامًا عندما تعرّف على جيلو، وكان فى أوج شهرته كأعظم فنان غربى عرفه العالم، بينما كان ماتيس يناهز ٧٧ عامًا، وقد تحول بدوره إلى أيقونة فى باريس، التى كانت لاتزال حتى ذلك الوقت منارة الفن الحديث العالمية.

ولذلك، لا أحسب أن الغيرة فى هذه السن، وأقصد الغيرة المهنية، حتى لو كانت لها جذورها القديمة، على الأقل فى بدايات تجربة بيكاسو فى باريس، يمكن أن تكون نفس الغيرة التى توغر صدر فنان شاب يتوسم فى نفسه القدرة، أو حتى الرغبة، فى شق طريق غير مسبوق للتعبير عن العالم، بأشيائه وإنسانه، من منظور جديد، فى مواجهة فنان آخر يرى أنه قد وضع قدميه بالفعل على طريقه غير المطروق.

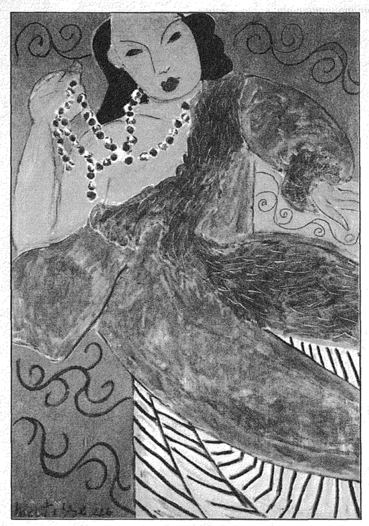


تحكى فرانسواز جيلو، بدون خوض فى التفاصيل، أن معرفتها بأعمال ماتيس والإعجاب بها بدأت فى سن مبكرة. وكما تعرفت على بيكاسو بمحض الصدفة التى جمعت بينها مع بعض الصديقات وبيكاسو مع رفيقته فى ذلك الوقت، دورا مارا، فى كافيه دى فلور، حيث طلب إلى صديقة لها، كان على معرفة بها، ألا تكون أنانية فتعرّفه على صديقاتها الجميلات. وكانت تلك هى البداية التى أدّت إلى دعوتها لزيارة مرسمه.

وقبل أن تصعد لرؤية الفنان فى الطابق الثانى، لفتت نظرها لوحة «طبيعة صامتة» لماتيس معلقة فى المرسم وسط أعماله. وقد بلغت بها الشجاعة حد أن تعبر عن إعجابها باللوحة على مسمع من الحواريين الذين كانوا يحيطون بيكاسو. وقد سُرّ بيكاسو لهذه الجسارة، وزاد سروره عندما أضافت ببلاغة «لا يملك فنان القدرة على أن يضع مثل هذه التحفة بين أعماله، فى وسط مرسمه، إلا إذا كان بقامته».

وفيما بعد، فى نفس السنة، ١٩٤٥، أثناء مشاهدة معرض عن أهم اتجاهات الفن الحديث بمتحف الفن الحديث، فى صحبة بيكاسو، كانت أعمال ماتيس التى شغلت الحائط الرئيسى بإحدى القاعات تضم لوحة «فتاة تقرأ» تحمل تاريخ ١٩٤٤، فيها شبه كبير بفرانسواز جيلو نفسها. وقد أُخذ بيكاسو. وقال ضاحكًا «هل يمكن أن يتمتع صديقى القديم بهذه الرؤية القوية التى تمكنه من رسم وجه لا وجود له إلا فى أحلامى حتى الآن؟ إنه يملك بالفعل الإجابة بينما لا أزال أتأمل فيما يمكن عمله بملامحك».

وقد أسعفها ذكاؤها فى هذه المرة أيضًا فقالت إن محفوراته الشهيرة، المتوالية المؤلفة من ١٠٣ لوحات حفر التى نشرها فولارد فى الثلاثينيات، بها فتيات رسمها من الخيال تحمل هواجس بها. وقد أنتج هذه اللوحات ليس فى وقت لم يكن قد قابلها بيكاسو فيه، ولكنها كانت لاتزال طفلة. وأضافت «نحن نعرف أيضًا أن الطبيعة تتبع الفن وليس العكس». ولم يستطع بيكاسو الآن إلا أن يبتسم قائلاً: «يا لك من دبلوماسية بارعة».



ماتيس - آسيا ١٩٤٦ زيت على قماش ١١٦× ٨١سم

ثم بدآ يناقشان لوحة ماتيس «طبيعة صامتة» مع نبات الماجنوليا، وكان رأى بيكاسو أنها مغرقة فى الزخرفية. فضلاً عن أن التكوين المفتوح، مع نصف المرجل خارج الصورة، بينما تكاد الأشياء يلمس أحدها الآخر، وليست معزولة أو متداخلة بوضوح، كل هذه الأشياء بدت بغيضة لأستاذ التكعيبية.

وقد لاحظ بيكاسو استغراقها فى عمل ماتيس، فعلق أثناء خروجهما من المتحف «إذن أنت تعتقدين أن ترتيب الأشياء هذا بدون علاقة سببية عمل ناجح؟ إن ماتيس ساحر، واستخدامه للون خارق للطبيعة. وهذا يجعلنى أشعر بالجوع فجأة. فلنذهب إلى مارتان، بميدان آلما، لنشرب بعض الشاى مع بقسماط».

وفى الجنوب، حيث كانا يقضيان نصف وقتهما سنويًا. كان بيكاسو عندما لا يكون راضيًا عن اللوحة التى يعمل بها، من بين عدة أعمال فى طور العمل، يبحث عن كبش فداء ليصب عليه جام غضبه. فيبدأ بالأهداف السهلة، السائق السكير، أو ابنه الأكبر بول الكسول، ثم يتحول غضبه إلى أهداف حساسة، طفلها كلود الذى يتهمه بأنه مدلل ويتلف لعبه، وفى نهاية المطاف يتحول للهجوم على فرانسواز نفسها وهنرى ماتيس فى آن واحد!

فهو يلومها لأنها تنظر إلى ماتيس نظرتها إلى قديس لا يقع فى الخطأ، وأنها تقضى وقتها فى حرق البخور تحت قدميه. «دعينى أقل لك أنه ليس مثار إعجاب إلى هذا الحد».

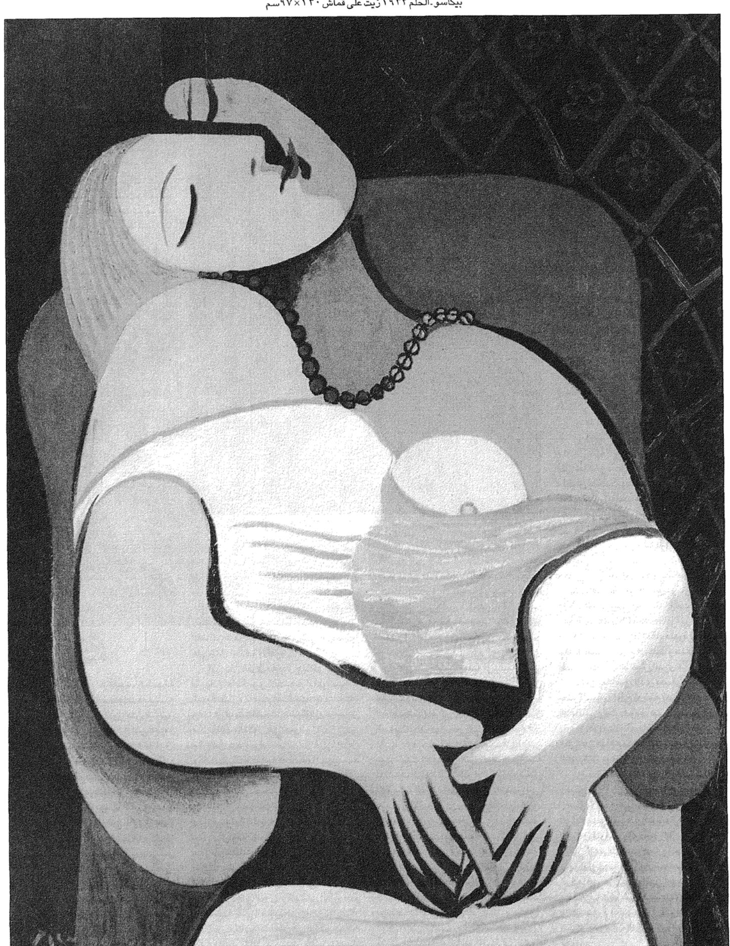
«سوف نرى ما سيحدث فى المستقبل، لكن لنتفق على أننى لست الوحيدة التى تحرق البخور تحت قدميه».

ويرد بيكاسو: «إذن تذاكين، دعينى أقل لك شيئًا أو شيئين عن المقاعد ذات المسندين.

لقد أفحمتك بذلك! أعتقد أنك رأيتها أيتها الراديكالية، لم تسمعى ببيان ماتيس الذى يبدو لى برجوازيًا. فقد كتب أنه يحلم بفن توازن وتطهر وسكينة.. فن يمكن أن يكون لكل الذين يؤدون عملاً ذهنيًا، سواء كان رجل أعمال

matisse-Picasso exhibition
معرض ماتيس - بيكاسو
New York : museum of Modern art, Feb 13 - may 19, 2003

بيكاسو-الحلم ١٩٣٢ زيت على قماش ١٢٠×٩٧سم



أو كاتبًا، بمثابة تأثير مهدئ، شيء مثل مقعد ذي مسندين جيد يمكن أن يرتاح فيه المرء من الإرهاق الجسدي». وخلص بيكاسو إلى استنتاج أن ماتيس يرمي إلى إرضاء المشاهد. ومن ثم، فإن عمله يدخل في خانة الفن الزخرفي.. إلخ.

ولكن هذا التحامل، أو إن شئت الغيرة غير العقلانية، من ثم غير المفهومة، لم تقتصر على ماتيس كفنان، ولكنها في بعض الحالات، كانت تتخذ شكلًا صبيانيًا لا يمكن توقعه من رجل يخطو نحو السبعين. وعلى سبيل المثال، غضب بيكاسو مرة وهو يتفقد البريد عندما اكتشف رسالة موجهة إلى فرانسواز بخط ماتيس الذي لا تخطئه العين.. لم يحاول بيكاسو أن يخفي غيرته - العمياء - عندما تبين أن ماتيس يهنئ فرانسواز بعيد قديسة تحمل اسمها جريًا على تقليد فرنسي. وتساءل: ولماذا لم يرسل تهنئة باسمي؟

ويبدو أن ماتيس لم تغب عنه هذه الحقيقة. ففي إحدى زيارات بيكاسو وفرانسواز لماتيس في أواخر حياته، كان الفنان منهمكًا وهو راقد في فراشه بقص أفرخ الورق الملون مخلقًا أشكالًا تجريدية ليبني بها لوحاته. وإذا به يفاجئ فرانسواز ببورتريه تجريدي أثار إعجابها وغمرها بالسعادة. ولكن ماتيس تدارك الأمر قبل وقوع الطامة فأنجز في الحال بورتريهًا لبيكاسو هو الآخر!

وبطبيعة الحال، اقتصرت شهادة فرانسواز جيلو على صداقة الفنانين الخاصة على سنوات حياتها مع بيكاسو من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٤، فماذا عن السنوات السابقة التي تعود إلى ١٩٠٦؟



تحكي فيرناند أوليفييه، عشيقة بيكاسو الأخرى في سنوات حياته الحاسمة في العقد الأول من القرن العشرين أنه تعرّف في ١٩٠٦ على هنري ماتيس في بيت أسرة جيرترود ستاين، الشاعرة الطليعية ومقتنية بعض أهم الأعمال الفنية لفناني مدرسة باريس البارزين الرواد، هي وشقيقها ليوستاين. وتقول أوليفييه في يومياتها التي صدرت باسم «عشق بيكاسو» في ٢٠٠١، بعد وفاتها، أن الجميع كانوا يتوقعون من ماتيس وبيكاسو أكثر من أي من معاصريهما، وكانا صديقين حقيقيين، برغم أنهما كانا يختلفان اختلافًا كبيرًا في وجهة نظرهما: «يفصلهما بون شاسع، كما كان ماتيس يقول عندما يتحدث عن كليهما وقد فقد ماتيس رباطة جأشه المعتادة عندما ظهرت أول الأعمال التكعيبية،



بيكاسو - بورتريه جرترود ستاين ١٩٠٥ زيت على قماش ١٠٠ × ٨١ سم

واستشاط غضبًا. وتحدث عن تدمير بيكاسو وجعله يتوسل للرحمة، برغم أنه عندما كان تطور بيكاسو الجديد يكتسب القبول، كان على استعداد لكي يدعي أن التكعيبية كانت لها علاقة بأفكاره. «إن الفنانين العظام يحتاجون إلى أن يبنوا على عمل أحدهم الآخر».

إذن كان هنري ماتيس وبابلو بيكاسو، بشهادة عاشقتين لأحدهما، أي شهادة شهود عيان، ناهيك عما تشهد به أعمالهما وهذا هو بيت القصيد، صديقين وغريمين منذ لقائهما الأول في حوالي ١٩٠٦ في باريس حتى وفاة ماتيس في ١٩٥٤. وكانت شخصيتاهما كما تقول فيرناند أوليفييه مختلفتين، اختلاف الليل والنهار، إذ كان ماتيس متحفظًا، وحتى مجاملًا، بينما كان بيكاسو مشبوب العاطفة وبوهيميًا بالسليقة. وقد دأب المؤرخون على عقد المقارنة بين عملهما، وتقديم ماتيس كصانع صور متناسقة ملونة تلوينًا باذخًا، وبيكاسو بصفته الرسام الأكثر مفاهيمية، والذي أكد على الفورم أكثر من تأكيده على اللون، وأكد على القلق أكثر من تأكيده على السكينة.

لكن بيكاسو قد أعلن في أواخر حياته أنه وماتيس كانا ينتهجان نفس المسار طوال الوقت. والحقيقة هي أنهما منذ التقيا انخرطا في منافسة صريحة، وكان يراقب أحدهما تحركات الآخر بريبة بينما يتنافسان على الشهرة والثروة في عالم الفن. ولكن برغم معارضاتهما الكثيرة، كانا كما يقول ماتيس «متفقين على نحو غريب».

ولكن على عكس رواية أوليفييه التي كانت تعيش مع بيكاسو، يقول مؤرخ الفن جون جولدينج - في مقدمة الكتاب القيم الضخم الذي أصدره متحف نيويورك للفن الحديث بالتعاون مع الجرائد باليه في باريس ومتحف تيت الحديث في لندن بمناسبة المعرض الذي استضافته المتاحف الثلاثة. أن أفراد أسرة ستاين الأمريكية الثلاثة اصطحبوا ماتيس إلى مرسم بيكاسو ليرى بورتريه جيرترود ستاين الذي كان يرسمه. وعلى عكس تأكيد جيرترود، فيما بعد، أن ماتيس حتى ذلك الوقت لم يكن قد عرف بيكاسو، كما كان بيكاسو لم يلتق به من قبل، كان الاثنان على بينة بعمل أحدهما الآخر، وربما حتى كانا قد التقيا. فقد كانت أعمال كليهما يمكن مشاهدتها في جاليري بيرث فيل وجاليري فولار الأعلى مكانة. ولكن اللقاء الذي لا يُنسى بالنسبة لبيكاسو ارتبط في ذهنه

بزيارته لصالون المستقلين في عام ١٩٠٦، والذي استمر حتى ٢٠ مارس. فقد مُثّل ماتيس هناك بعمل مفرد «رغد الحياة». وقد أقام جاليري درويه معرضًا شخصيًا كبيرًا لماتيس في نفس الوقت. فقد كان في ذلك الوقت رائد الحركة الحوشية المؤكد والتي مثلت أكثر أعمال التصوير الفرنسي اليافع تقدمًا وجسارة. وقد ظلت هذه اللوحة، يقول جولدينج، تتردد في خيال بيكاسو طوال حياته.

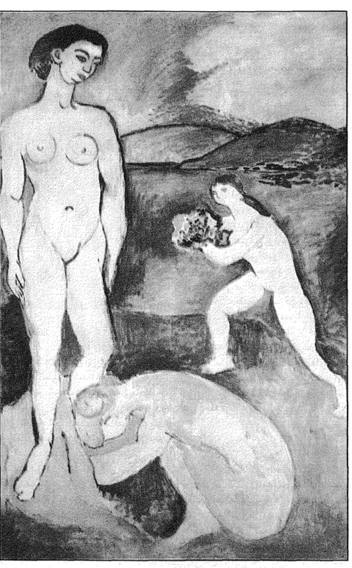
وفي محاولة، ربما غير مقصودة لتفسير ذلك الحوار الفني بين الاثنين، يقول بيكاسو «لا أحد على الإطلاق تطلع إلى لوحات ماتيس بتمعن أكثر مني، ولا أحد على الإطلاق تطلع إلى لوحاتي بتمعن أكثر منه». ويقدم المعرض المقام حاليًا بمتحف الفن الحديث - موما - ثمرة هذه العلاقة البصرية بين أعمالهما. ولا أشك أن اختيار الأعمال ووضع أحدها في مقابلة مع الآخر، حسب الترتيب الزمني لمراحل تطورهما وتفاعل كل منهما بعمل الآخر، إنجاز أكاديمي في حد ذاته.

وبعد لقائهما الأول بقليل في ١٩٠٦، تقابلا بالصدفة في أحد المعارض. وقد تذكر ماتيس أنهما اشتركا في مناقشة مقبولة، لكن بيكاسو تحدث عن اللقاء بإحباط: ماتيس يتحدث ويتحدث. ولا أستطيع أن أتكلم، لذلك اكتفيت بقول نعم نعم نعم.. لكن ذلك هراء».

وتشير القصة إلى وضعيهما في مشهد الفن في باريس في ذلك الوقت فقد كان ماتيس ناضجًا، في أواخر ثلاثينياته ومتزوجًا وله أطفال. وكان يتناقش في الفن والنظريات بثقة في النفس، وكان يرتدي دائمًا حلّة ورباط عنق لا تشوبهما شائبة. ومع ذلك، كانت اللوحات التي عرضها في ١٩٠٥ أعمالًا اعتبرها النقاد مثيرة للصدمة، وقد حققت له ذيوع الصيت وخلعت عليه لقب Fauve، «الوحش البري».

وكان بيكاسو، الذي يصغره باثنتي عشرة سنة، يكافح لوضع بصمته. فلم يكن قد مضى وقت طويل على وصوله إلى باريس من وطنه أسبانيا. لكن «الكاريزما» التي كان يتمتع بها جذبت حوله شلة من الأصدقاء، واعترف النقاد بموهبته.

ويبدأ الحوار البصري بلوحتين: «البذخ» (١٩٠٧) لماتيس. وهي منبثقة عن الأسلوب الحوشي الذي أصبح في ذلك الوقت سيئ السمعة. فقد تخلى ماتيس عن التظليل المرهف والرصين الذي يلجأ إليه الفنان لإكساب شخوصه وأشيائه بعدًا ثالثًا، أو إحساسًا بالتجسيم، بينما استعاض عن ذلك باللون المفعم بالحياة، وضربات فرشاة نشطة ومعبرة، والصورة تنسيق زخرفي مسطح للشكل ودرجات اللون. لكن الشخوص بلا تعبير.



ماتيس - رغد الحياة ١٩٠٧ زيت على قماش ٢١٠× ١٣٨سم

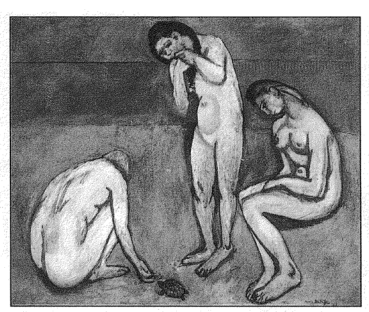
بيكاسو - صبى يقود حصان ١٩٠٦ زيت على قماش ٢٢٠× ١٣١سم

وفى المقابل لوحة بيكاسو «صبى يقود حصانًا» - ١٩٠٦، وعلى عكس لوحة ماتيس، يعطى الموضوع شعورًا بالشجن بينما يستخدم الفنان لونًا متقشفًا، وضربات فرشاة ناعمة، والأشكال مجسمة ونحتية.

ولكن كلا العملين مختزلان ومبسطان إلى درجة تجعلهما يبدوان منهجيين. إذ كان فنانو «الأفانجارد» فى ذلك الوقت يشعرون بدافع للاستغناء عن التفاصيل وعن الاهتمام بصقل العمل النهائى جريًا على تقاليد أكاديميات الفن الفرنسية، وقد فعلا ذلك بتبنى تشكيلة من الأساليب «البدائية»: لقد استكشف ماتيس غرائبية الشرق وعفوية فن الأطفال، بينما انجذب بيكاسو إلى الأساليب الأيبرية العتيقة وسحر النحت القبائلى الأفريقى. ويعتقد جولدينج أن المقارنة بين هذين العملين، تبين أن الألوان غير الطبيعية والشخوص ذات النسب غير المتسقة فى لوحة «البذخ» تشهد بأن ماتيس أكثر راديكالية فى النهج. وأستطيع أن أضيف ملاحظة - نقلاً عن دراسة كتبتها فى السبعينيات عن لوحة «فتيات أفينيون» - أن ماتيس هو الذى اكتشف فى محل الأب سوفاج الكائن فى شارع «دو رين» تمثالاً من ساحل العاج، وقد أطلع صديقه عليه. لكن بيكاسو أكد أكثر من مرة أنه لم يتأثر بالفن الأفريقى قبل ١٩١٠. لذلك يشعر المرء بالبلبلة عندما يلاحظ الجانب الأيمن من «فتيات أفينيون» التى يرى فيها عدد كبير من النقاد إرهاصات التكعيبية، وكذلك جميع الدراسات التى أنجزها الفنان خلال هذه الحقبة، وبصفة خاصة لوحة «الرأس» التى تشبه إلى حد كبير القناع الأفريقى. وكل هذه الأعمال تكشف عن علاقة ما تربطها بقطع النحت التى جلبها المستعمرون من أفريقيا. وقد أكد هذه العلاقة معرض آخر أقامه متحف نيويورك للفن الحديث أيضًا عن بيكاسو / براك واقتصر على نفس الحوار البصرى وتبادل المفردات و«الباليتة» نفسها خلال حقبتيهما التكعيبيتين المتزامنة.

وقد تبادلا المواقع، من حيث التناول الراديكالى، فى عام ١٩٠٧ بإنجاز بيكاسو التاريخى «فتيات أفينيون»، (وقد أطلق أحد أصدقاء بيكاسو هذا الاسم على اللوحة فيما بعد فى إشارة ساخرة إلى ماخور سيئ السمعة فى شارع أفينيو فى برشلونة). وحتى رسم بيكاسو هذه اللوحة «لم يخرج إنتاج الفنان على النظرة المألوفة للفن، ولم يكن يختلف كثيرًا عن إنتاج غيره من فنانى مدرسة باريس. بل إنه برغم نبوغه المبكر، لم يسلم فى بداية حياته من التأثر بفنانى عصره الكبار مثل تولوز لوتريك وفان جوخ وفوييار. كما لم تخرج موضوعات لوحاته عن الموضوعات التقليدية الشائعة بين معاصريه، مثل مشاهد الملاهى الليلية، وسباقات الخيل والمناظر الطبيعية وصور الزهور.

وقد اعتبر المترددون على مرسم الفنان أن شخوص اللوحة - فتيات أفينيون - حادة الأطراف، مكونة من سطوح مجزأة ورؤوس مثل



ماتيس - مستحمات وسلحفاة ١٩٠٨. زيت على قماش ١٧٩× ٢٢٠سم

الأقنعة، فظة بشكل صادم، وغير متماسكة، وحتى تبعث على السخرية.

وكان ماتيس من بين أولئك الذى وجدوا اللوحة مهينة فى وحشيتها، وأعلن أنها عمل زائف. ولكن هل بلغ به الغضب، أو الشعور بالإساءة أمام اللوحة حد التهديد بتدميره؟

وردًا على تبنى بيكاسو الأقنعة والمنحوتات القبائلية، سعى ماتيس إلى الإمعان فى تأكيد انتمائه إلى تقاليد الفن الأوروبى. وتشير أجساد مستحماته فى «مستحمات وسلحفاة» إلى نموذج بدائى مختلف، نموذج رسامى عصر النهضة المبكرين مثل جيوتو.

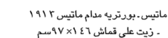
وقد تحدى كلا الفنانين القاعدة، التى سادت لسنوات كثيرة، وهى أن مثل هذه الصور كانت تحتاج إلى قصة أو حكاية، بينما لم تحك أية لوحة من اللوحتين قصة واضحة. فقد غير ماتيس وبيكاسو طبيعة تجربة المشاهد: استعيض عن فعل فك شفرة قصته بفعل النظر والإدراك - حركة العين وهى تتنقل من شكل إلى شكل باحثة عن معنى.

وتنتقل حلبة المنافسة، كما يصورها منظمو المعرض، من المنافسة فى رسم الشخوص إلى ما أطلق عليه «الحوار التكعيبى». وقد اختيرت لوحتان، فيهما من جوانب الاختلاف فى الرؤية والتناول والأسلوب نفسه ما يطغى على أى تشابه يدفع إلى عقد مقارنة.




وقد قسّم معدّو المعرض، وكل منهم خبير فى مجاله، (إليزابيث كولينج، محاضرة فى الفن بجامعة إدنبره، وجون جولدينج، فنان ومؤرخ فن، وآن بالداسارى، أمينة بمتحف بيكاسو بباريس وإيزابيل فونتين، نائبة مدير المتحف الوطنى للفن الحديث بباريس، وجون إدرفيلد الذى عُين أثناء كتابة هذا المقال أمينًا لإدارة الفن الحديث بـ«موما»، خلفًا لكيرك فارنيدو الذى شارك بدوره فى تنظيم المعرض والبروفسور بجامعة برينستون. قسموا تيمة الحوار التكعيبى، على طريقة مباريات الملاكمة، إلى جولتين مرقمتين، وتمثلت الجولة الأولى فى لوحتين، لوحة بيكاسو «امرأة فى رداء أصفر» (١٩٠٧) ولوحة ماتيس «بورتريه مدام ماتيس» (١٩١٣).

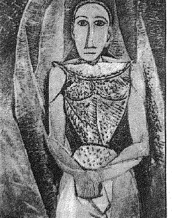
لا شك أن النقاد الأفانجارد انقلبوا على ماتيس لصالح بيكاسو مع مولد التكعيبية التى يقال أن ماتيس كان أول من وصف لوحاتها بأنها مؤلفة من «مكعبات صغيرة». وقد سيطرت هذه الحركة على الحوار بين الفنانين من ١٩٠٩ إلى نهاية الحرب العالمية الأولى. وقد كان ماتيس يتذوق أعمال بيكاسو فى الحال قبل المرحلة التكعيبية مثل لوحة «امرأة فى رداء أصفر»، إلا أن هذه اللوحة قد بشرت بسطوحها المجزأة وخلفيتها ذات الأشكال المزوية، بالرغم من أن شكل المرأة نفسه يبدو كاملاً، بالأسلوب التكعيبى. ويعتقد منظمو المعرض أن ماتيس قد تعلّم شيئًا من هذه الطريقة، ويظهر ذلك فى «بورتريه مدام ماتيس» حيث بنى صورة زوجته حول خطوط عنيفة مجردة. ومع ذلك، لم يستخدم التهشيرات الوحشية التى انتزعت الإنسانية تقريبًا من المرأة موضوع لوحة بيكاسو. وتبين اللوحتان، إلى جانب ذلك، الاختلاف بين مزاجى الرجلين. فبيكاسو يتبنى فى الغالب العدوان، بينما يقيم ماتيس السكينة. وقد واصل ماتيس الاعتماد على لون واحد: وهى الأخضرات والأزرقات الباردة المنشطة بالتماعات من البرتقالى الساطع. وكلتا اللوحتين تكشف عن اهتمام مشترك: وبالرغم من أنه مستوحى من الشخصين المصورين الحقيقيين، وهو أن الوجهين عوملا كقناعين. فقد شك كثير من الفنانين فى مطلع القرن العشرين فيما إذا كان تصوير «شخصية» شخص ما من خلال التمثيل الواقعى، أو ما إذا كان التمثيل الواقعى يمكن أن يكون حقيقيًا. ولذلك، استخدم ماتيس وبيكاسو القناع ليمثل السيكلوجية، والعواطف، والشخصية بطرق جديدة.



ماتيس - بورتريه مدام ماتيس ١٩١٣ - زيت على قماش ١٤٦× ٩٧سم



بيكاسو - امرأة فى رداء أصفر ١٩٠٧ - زيت على قماش ١٣٠× ٩٧سم



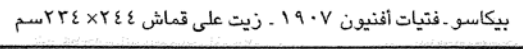
ذلك كان تحليل مؤرخى الفن ومسئولى متاحف الموما والتيت وبيكاسو، وهو فى اعتقادى، ومع تقديرى للجهد الأكاديمى الكبير الذى بذلوه فى تجميع لوحات المعرض من بين آلاف الأعمال، والدراسات القيمة التى تضمنها الكتالوج - الكتاب الضخم (٤٠٠ صفحة من القطع الكبير)، لا يملك المرء أمام بعض المقابلات أو المقارنات بين عملين معينين إلا أن يشعر بفرض رؤية أوجه شبه أو آثار تأثر بهذا أو ذاك من الفنانين لا وجود لها وأن اختيار النموذج الذى يراد منه تأكيد وجهة نظر معينة لم يكن موفقًا. وينطبق ذلك، فيما أعتقد على نموذجى الجولة «١» من الحوار التكعيبى، فلوحة بيكاسو «امرأة فى رداء أصفر» تنتمى فى الأسلوب والحقبة الزمنية إلى «فتيات أفينيون»، أما «بروتريه مدام ماتيس» فليس فيه من إرهاصات التكعيبية ما يلفت النظر. وهو إن كان يمكن أن يذكّر بعمل فنان آخر، فهو فى نظرى بول سيزان. أما بالنسبة لاستخدام القناع، فمن المعروف أن ماتيس كان يُعجب بأعمال الحفر اليابانى التقليدى قبل أن يكتشف الفن الزنجى، أو الأفريقى.

وبرغم انبهارى أمام أعمال العملاقين المنتقاة كعلامات طريق فى مسيرتيهما الحرفية، ولا غرو فى ذلك فهذه الأعمال قبل كل شىء آخر هى بالفعل علامات طريق فى تاريخ الفن الحديث، كنت من وقت إلى آخر أعجز عن الوقوع على شبهة تأثر أو حتى المشاركة فى رؤية أسلوبية بين العملين المتزاوجين.

وقد شعرت حقيقة بالارتياح لأن الناقد المخضرم هيلتون كرامر قد شاركنى فى هذه الملاحظة بالنسبة لأمثلة أخرى. فهو يؤكد حقيقة لا ينكرها ناقد أو أى متابع جاد للفن الحديث، أن المعرض حفل بأروع أعمال ماتيس وبيكاسو و«كان تتويجًا لجميع معارض الفنانين التى شهدناها».

(ولا شك أن كرامر يشير إلى المعرضين الاسترجاعيين أو الشاملين اللذين أقامهما متحف «موما»، بيكاسو فى ١٩٨٠، وماتيس فى ١٩٩٣). «فهو يتناول دراسات "التأثر" الذى يعبر نفسه بسهولة لأكثر أشكال الحذلقة فتكًا، ويرفعها إلى مستوى الاستيطيقا المقارنة التى قلما تُحاول فى المعارض واسعة النطاق.

ومن النتائج المباشرة للترتيب أو التجهيز المقارن للمعرض أنه يُلزمنا بأن نرى حتى فى أكثر الأعمال الفذة ألفة -



بيكاسو - فتيات أفنيون ١٩٠٧ - زيت على قماش ٢٤٤× ٢٣٤سم

بورتريه جيرترود ستاين لبيكاسو (١٩٠٥)، على سبيل المثال، ولوحة ماتيس «مشهد نوتردام» (١٩١٤) - أشياء معينة ربما لم نولها اهتمامًا كافيًا فى لقاءات سابقة. أن يرى المرء بيكاسو من خلال عينى ماتيس، وماتيس من خلال عينى بيكاسو يمكن أن تكون تجربة مسكرة تمامًا، وهى متوفرة فى هذا المعرض فى كل منعطف».

وبعد هذا التقييم المستحق يتساءل كرامر.. «هل بعض النماذج المتزاوجة لماتيس وبيكاسو مُقحمة بعض الشىء، ربما؟ حسنًا، نعم. فى معظم الأحيان، لا تكاد تهم المقارنات الفاشلة، لكنها تهم فى أحيان أخرى. فاللوحة الأكثر ملاءمة من أعمال ماتيس التى تُعلق جنبًا إلى جنب «فتيات أفنيون» بيكاسو، كانت هى «رغد العيش» (١٩٠٥)، الموجودة فى مجموعة مؤسسة بارنيس، ولكن، للأسف لا تعيرُ المؤسسة مقتنياتها. والعمل الذى اختير لذلك الموضع، «مستحمات مع سلحفاة» (١٩٠٨)، عمل رائع، لكنه لا يقول لنا أى شىء عن صدمة بيكاسو أمام «رغد العيش» - تلك الصدمة التى حفزت إبداع «فتيات أفنيون».

«ولا بد من القول أيضًا أن الحائط النهائى فى المعرض يختتم ماتيس / بيكاسو بمذكرة

متجهمة. فلوحة بيكاسو «الظل» (١٩٥٣) هي من أضعف أعمال الفنان. ولوحة ماتيس «عازف الكمان أمام النافذة» (١٩١٨) ليست هي الأخرى عملاً فذًا، برغم أنها أفضل بكثير من لوحة بيكاسو. والشيء المشترك الوحيد فيهما هو الشعور بالكآبة الذى يثيرانه - وهذه طريقة غريبة لإنهاء مثل هذا المعرض المبتهج بالنصر».

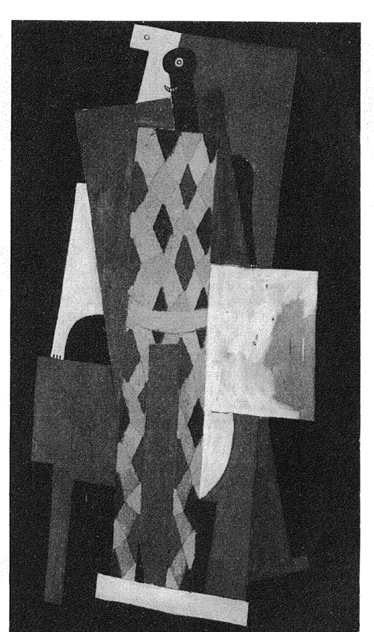
ولابد من التنويه بفضل ماتيس وبيكاسو نفسيهما في لفت الانتباه إلى تأثر أحدهما بعمل الآخر. وإن كان مثل هذا الرأى يمكن ألا يكون موضوعيًا في بعض الأحيان، برغم أن ماتيس بالذات كان يتمتع بحاسة نقدية مرهفة، وقد ارتقت بعض ملاحظاته عن تجربته الخاصة مع الفن إلى مستوى التنظير.

يقول جاك فلام، مؤرخ ماتيس المتخصص، أنه عندما بدأ العمل في كتابه عن كتابات وأقوال ماتيس في الفن في الستينيات، كان معظم الفنانين والنقاد في أمريكا يعتبرونه فنانًا جذابًا ولكنه بالأحرى سطحى. وكان الإحساس العام أنه ليس لديه شيء يذكر ليقوله عن الفن لا للفنانين أو الأكاديميين. وكان لا يبدو أن لديه برنامجًا نظريًا أو سياسيًا معينًا، أو تكنيكًا محددًا ليدعو له - لا هدف شخصيًا له.

ولكن عندما نُشر الكتاب، أسعده أن يسمع من كثير من الفنانين إلى أى مدى كانت كتابات ماتيس تعنى لهم. كما أفادت كتابات ماتيس الدارسين والدراسات الأكاديمية عن ماتيس بصفة عامة.

لذلك، عندما يعلق ماتيس على عمل لبيكاسو يمكن أن تكون له علاقة بلوحة معينة من أعماله، ينبغي على الأقل أن يؤخذ هذا التعليق مأخذ الجد.





بيكاسو - المهرج ١٩١٥ - زيت على قماش ١٨٣ × ١٠٥سم

خادع بشكل خطير. فهو أحيانًا محصلة العقل الباطن لأكثر من قوة متشابكة. فآنجر، وسيزان، وبراك هم مثل أفيال عابرة في هذه الغرف، ظاهرون بواسطة غياب الاعتراف، فيما عدا عندما يعترف بيكاسو بطرف ثالث بشكل صريح، في أعمال مثل «جزائريات، نقلاً عن ديلاكروا»، وهي تحية للغائب ماتيس عن طريق سلف يجله كلاهما.

وقد أعلن بيكاسو مقولته الذائعة «لقد ورّثني ماتيس جواريه». ثم أعاد بيكاسو هذه الجوارى إلى مصدرها الأصلى؛ ديلاكروا.

ومع أن المرء يسلم بسخف المفاضلة بين عبقريتين مختلفتين لا في الأسلوب فقط، بل وفي رؤية الأشياء وأسلوب الحياة والتعامل مع العالم الخارجي، إلا أن فكرة المعرض نفسها التى اختيرت المعروضات لتعزيزها. وبالأحرى والتى فرضت على أصحابها اختيار أعمال بنفسها على أساس معيار واحد، وهو خدمة نفس الفكرة بغض النظر عن القيم الاستيطيقية المجردة من أى غرض عملى آخر. فضلاً عن أن نجاح المنظمين، برغم هذا الاعتبار أو أية اعتبارات أخرى، في تنسيق العرض بطريقة توحى، ولو بطريقة غير مباشرة، بالتنافس والأخذ والعطاء معًا، يجد المشاهد نفسه، بدون أن يشعر، يحصى النقاط لكل من الفنانين كأنه يتابع مباراة ملاكمة ليسأل نفسه في النهاية.. من المنتصر؟ وفي الحقيقة، قبل أن أجيب بصوت مرتفع، لأنى لم أكن في حاجة إلى عملية حسابية، سألت ابنتى التى كانت ترافقنى فأجابت بلا تردد: ماتيس طبعًا.

يقول جاك فلام، مؤلف المجلد الضخم الذى أصدره متحف نيويورك للفن الحديث بمناسبة معرض ماتيس الشامل، في كتاب صدر حديثًا حول فكرة المعرض «بيكاسو / ماتيس».. «يَثْبت في النهاية أن بيكاسو لم يكن إلى حد كبير فنان المستقبل كما كان رجل المستقبل - وكان ماتيس في كثير من الأحوال رجل الماضى لكن فنان المستقبل» فقد كان بيكاسو أول فنان نجم حديث، بينما كان ماتيس في حُلله الرصينة، وهيئة الطبيب، والرجل المتحفظ الذى يحمى حياة حبه المضطربة من الجمهور، كان يبدو من سلالة الأسلاف. بيكاسو البوهيمى المجدد، ماتيس برطريك الكوت دازور، الذى يرسم الحريم ويقص الورق الملون وهو يرتدى البيجامة، يقول مايكل كيملمان: بدون الانتقاص من بيكاسو على وجه الدقة، إن مفاجأة المعرض هى أنه يجعل فن ماتيس يبدو على الأقل راديكاليًا وملائمًا بنفس درجة بيكاسو. بينما لم يتورع نقاد آخرون عن ترجيح كفة ماتيس.

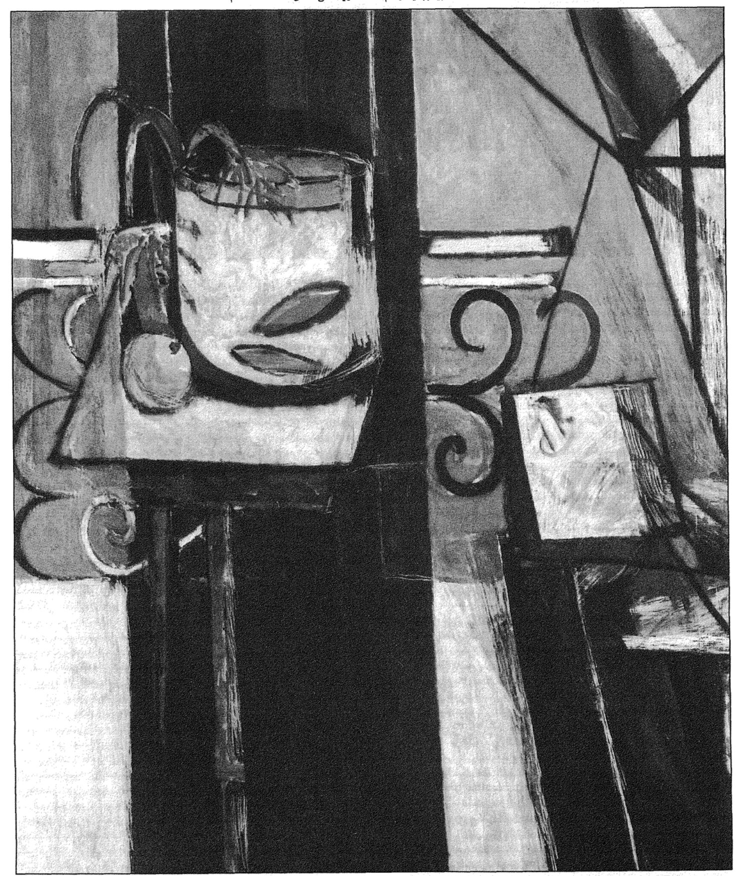
وفي خريف ١٩١٥، زار ماتيس جاليرى ليون روزنبرج وشاهد لوحة «المهرج» لبيكاسو. وكتب روزنبرج لبيكاسو يقول «بعد أن شاهد لوحتك مرة بعد الأخرى، اعترف بأمانة أنها تتفوق على أى شيء فعلته». ثم أضاف «إنه يعرب عن شعور بأن لوحته «السمكة الذهبية» قد قادتك إلى «المهرج»».

ويؤكد كتالوج المعرض أن «السمكة الذهبية والباليتات» (١٩١٤) قد أثرت على «المهرج» ولكن ليس قبل أن تتأثر هى نفسها ببيكاسو. فقد بدأ بيكاسو في ١٩١٢ في استعمال الكولاج، مضيفًا مزقًا من قصاصات الصحف المسطحة، والأوراق الملونة ومواد أخرى إلى تكويناته التكعيبية. وفي السنة التالية بدأ برسم لوحات تكعيبية ملونة تشبه عناصر من الكولاج. وقد كان ماتيس دائمًا ملونًا وصانع أشكال محددة، وأخيرًا رأى في هذه الكولاجات واللوحات التكعيبية أسلوبًا يمكن أن يرتبط به - وحتى محاولة ليتجاوزه.

وتتوالى بعد ذلك المزاوجات أو الثنائيات التى اختيرت بعناية لتشهد بصحة مفهوم، أو إن شئت رسالة المعرض، وهى أن الفنانين العملاقين قد أثر أحدهما في الآخر، أو تأثر أحدهما بالآخر. وقد استمرت عملية الأخذ والعطاء هذى حتى وفاة ماتيس في ١٩٥٤. ولكن بيكاسو، فيما يبدو، آثر عن طيب خاطر أن يكون هذا الحوار الخلاق موصولاً حتى بعد غياب «غريمه» إن صح هذا التشبيه، وصديق العمر.

ولكن تحديد هذا التأثر، كما يلاحظ الناقد مايكل كيملمان، بين عبقريتين تبادلا الإعجاب مثل ماتيس وبيكاسو، وأعلنا افتتانهما وتنافسهما أحدهما مع الآخر،

ماتيس. سمكة ذهبية وباليتة رسم ١٩١٤. زيت على قماش ١٤٦×١١٢سم



السبى البابلى.. دراسة تاريخية

من يقرأ خطبة مبعوث الملك الآشورى سنحاريب (٧٠١ق.م) إلى شعب أورشليم المحاصر والتى يدعوهم فيها إلى الاستسلام ويحرضهم ضد حاكمهم ويعرض عليهم المكافأة بدلاً من توقيع العقوبة، لن يجدها تختلف كثيرًا عن الرسائل التى أسقطتها طائرات الغزو الأنجلو أمريكية على مدن العراق، قبل استسلامها، وتحت نيران القصف الجوى العنيف:

«حققوا السلام معى، استسلموا لى، وسيأكل كل فرد منكم عنبًا من كرمه وتينًا من بستانه، وسيشرب كل واحد ماءً من بئره»



ليلى إبراهيم أبو المجد

أعاد الاحتلال الأنجلو أمريكي للعراق إلى الأذهان سجل تاريخ الاستعمار والإمبراطوريات فى منطقة الشرق الأدنى القديم، وكأنه قد كُتب على الأجيال العربية التى ولدت بعد مرحلة الاستقلال أن تتجرع مرارة الاحتلال عقابًا لها على عدم الاستفادة من دروس التاريخ، فمن لم يقرأ التاريخ كُتب عليه أن يعيده، ومن لم يكن فاعلاً يصبح مفعولاً به. وقد ظلت هذه المنطقة هدفًا استراتيجيًا لكل الإمبراطوريات والدول الاستعمارية التى ظهرت منذ القدم، وسنتناول هنا الإمبراطورية الآشورية والبابلية ثم الفارسية ٥٣٨ق.م، والاستعمار الأنجلو أمريكى (٢٠٠٣م).

وسنحاول فى السطور التالية أن نقارن المخططات الاستعمارية التى تبنتها تلك الإمبراطوريات القديمة[١] والمخطط الأنجلو أمريكي فى غزو واحتلال العراق. كما سنقارن بين دور بنى إسرائيل فى مخططات الإمبراطوريات القديمة، ودور اليهود فى المخطط الأنجلو أمريكى. فنظرًا لأهمية موقع أرض كنعان (فلسطين) الاستراتيجى بالنسبة للإمبراطوريات القديمة وللاستعمار الحديث، فهى تشكل مع مصر أوسط نقطة فى العالم. فإذا شبهنا مصر بثمرة فإن فلسطين بمثابة عنق الثمرة، لذلك ما أن تفرض إمبراطورية ما سيطرتها على بلاد فارس والعراق والهلال الخصيب حتى تقوم بتأمين طريق الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط وإلى مصر. ولا تكتفى باحتلال تلك المنطقة، بل تقوم بتهجير سكان فلسطين، وتوطينهم فى مناطق أخرى وجلب سكان آخرين تابعين للإمبراطورية أو المستعمر وتوطينهم فى أرض كنعان، وهو ما يُعرف بخلخلة التركيبة السكانية، وقد تكرر هذا كثيرًا فى التاريخ القديم والحديث على يد الإمبراطورية الآشورية، فالسبى الآشورى على يد «شلما نصر» سنة ٧٢٢ق.م ما هو إلا تهجير لسكان السامرة من بنى إسرائيل فى شمال فلسطين إلى آشور وميديا وشمال سوريا، وتوطين مجموعات سكانية من شمال سوريا وبابل وعيلام مكانهم.



ثم تكرر أيضًا على يد الإمبراطورية البابلية، فالسبى البابلى الذى قام به «نبوخذ نصر» ٥٨٦ق.م هو تهجير لبنى إسرائيل سكان أورشليم وإقليم يهوذا إلى بابل، أما الإمبراطورية الفارسية فقامت بالتهجير العكسى، أى هجَّرت السكان من كافة أنحاء الإمبراطورية (سفر عزرا ١/١) إلى أرض كنعان تحت اسم (العودة من السبى) وذلك من أجل خلخلة التركيبة السكانية التى كانت موجودة والتى قاومت هذا «الغازى المعتدى» الذى وصف نفسه بأنه «عائد» فالإصحاح ٤-٦ من سفر عزرا يعكس الصعوبات الإدارية التى تواجه سياسة إدخال عناصر سكانية جديدة وديانات مركزية فى منطقة ما، حيث يوجد سكان مستقرون ذوو علاقات وسلطات ذاتية منذ أمد بعيد. ويعكس التوتر والصراع رد الفعل البغيض الذى قوبل به هؤلاء «الغازون - العائدون».

وقد كان آخر مخططات التهجير فى منطقة فلسطين هو ما قام به الاستعمار البريطانى أثناء الانتداب وهو يشبه المخطط الفارسى الذى قام به «قورش». فلقد تعاون الاستعمار البريطانى مع الصهيونية عن طريق وعد بلفور (١٩١٧م) وقام بتوطين سكان تابعين للإمبريالية من كافة أنحاء العالم، فى فلسطين تحت اسم «العودة إلى أرض الآباء» وقام هؤلاء «العائدون» بترويع سكان فلسطين الآمنين وإرهابهم وإجبارهم على مغادرة فلسطين.

ومفهوم «العودة» مفهوم أيديولوجى أساسى فى سياسة التهجير وإعادة التوطين منذ عصر الإمبراطوريات القديمة، وهو محاولة إيجاد صلة دينية قديمة تربط هؤلاء المهجَّرين بتلك الأرض الغريبة. وسنناقشه بتفصيل أكثر فى موضع آخر ونبدأ بأول المخططات الاستعمارية وهو:

١ - التهجير والتوطين:

تذكر النصوص والآثار أن الخطط الاستعمارية للسيطرة على السكان اعتمدت سياسة التهجير والتوطين وكانت مظهرًا شائعًا فى كل حروب مصر القديمة وبابل والعالم الحثى منذ بدايات الألف الثانية قبل الميلاد، وقد قام بها جيش آشور فى القرن السابع ق.م واعتبرت قاعدة للسياسة الاستعمارية البابلية والفارسية بعد انهيار آشور بوقت طويل. وهناك عدة أسباب جعلت الآشوريين يعمدون إلى هذا التغيير فى البنية السكانية فى الإمبراطورية وهى:

أ - تدمير التركيب الاجتماعى فى المناطق المفتوحة، وخلق كيانات مفككة وتابعة ومخلصة للإمبراطورية الآشورية (وهو ما تنويه أمريكا وبدأت تنفيذه بقوة السلاح لرسم خريطة جديدة للشرق الأوسط عبارة عن كيانات مفككة، متناحرة مخلصة فقط لأمريكا).

ب - استخدم الآشوريون التهجير كعقاب للمواطنين على المقاومة أو الثورة، كما استخدم للقضاء على المنافسين المحتملين أو على إمكانيات المقاومة والعصيان (وهو ما تخطط إسرائيل للقيام به مع الفلسطينيين وسنعرضه لاحقًا).

ج - استخدم الآشوريون التهجير وإعادة التوطين كمكافأة للسكان ضد حكامهم، فالتهجير كما عرضه (سفر الملوك الثانى ١٨/٢٨-٣٣) عُرض ليس كعقاب بل كمكافأة على عدم مقاومة السلطة الآشورية. وبالفعل فقد ذهبت بعض النصوص إلى حد وصف الآشوريين بأنهم يتصرفون نيابة عن الشعب، ويرعون مصالحه ويحمونه وينقذونه من طغيان حكامه.

فلم يُوعَد المهجَّرون بالأرض والرخاء عندما يُعيد الآشوريون توطينهم فحسب، بل وُعدوا أيضًا بالدعم ضد السكان المحليين، الذين نظروا إليهم بالطبع على أنهم متطفلون ومغتصبون. (وهذا لا يختلف كثيرًا مع ما فعلته أمريكا مع أكراد العراق عندما سمحت لهم بدخول كركوك، وسمحت لهم بطرد سكانها العرب واحتلال مساكنهم، كمكافأة للأكراد على موقفهم من صدام حسين وتسهيل مهمة أمريكا فى احتلال العراق، ولا يختلف موقف الشعب العراقى من الأكراد ومن شخوص المعارضة العراقية التى تحاول أمريكا فرضها على الشعب العراقى وتوليتها زمام الأمور، لا يختلف كثيرًا عن موقف السكان المحليين فى الإمبراطورية الآشورية).

د - استهدفت سياسة التوطين إيجاد جماعات تعتمد على السلطة الآشورية ضمن الشعوب المحكومة، وبذلك تضمن أن تظل مخلصة لها، لذلك انحصرت فى مجموعة من العسكريين والزعماء السياسيين والنخبة... (وهو ما فعلته أمريكا منذ حرب الخليج الأولى فقد احتضنت المعارضة العراقية وراعت عند اختيارها أن تضم عسكريين وسياسيين (متطلعين إلى الحكم) ونخبة ممن يمكن الاعتماد عليهم فى إدارة البلاد فى عراق ما بعد الحرب).

هـ - كان الهدف من إقامة بعض المستوطنات الجديدة هدفًا استراتيجيًا وشملت عددًا كبيرًا من المستوطنات الحدودية شبه العسكرية (وهو ما خططت

فى استراتيجيات الغزو



لوحة جدارية تصور أحد ملوك إسرائيل وهو يبدى فروض الطاعة للبابليين

أمريكا له بعد حرب الخليج الأولى فى منطقة الحدود الشمالية، فقد سمحت للأكراد بالتجمع فيها وأمدتهم بالسلاح ومنحتهم حكمًا ذاتيًا وفرضت على حكومة صدام حظرًا جويًا على تلك المناطق فجعلتها بمثابة مستوطنة حدودية شبه عسكرية، وحاولت أمريكا تنفيذ نفس المخطط على حدود العراق الجنوبية مع الشيعة، ولكنها فشلت لأسباب ترجع للسكان أنفسهم وهو ما أظهرته حرب الاحتلال الحالية التى تخوضها أمريكا وبريطانيا فقد أظهرت تلك الحرب بسالة وشجاعة أهل الجنوب فى مقاومة القوات الغازية).

و- كانت لسياسات إعادة التوطين أهمية اقتصادية ومدنية بالنسبة للمدن الآشورية، وخاصة توطين الحرفيين والعمال المهرة وعمال السخرة ودورهم فى بناء العاصمة الآشورية الجديدة كما يظهر فى نصوص آشور بانيبال الثانى (٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م). (وهو لا يختلف كثيرًا عما تقوم به أمريكا بإصرار من تهجير علماء العراق إلى أراضيها تحت حجج ومبررات مختلفة). كما أن تركيز أمريكا على تغيير البنية السكانية فى جنوب العراق وشماله يرجع إلى وجود مناطق إنتاج النفط العراقى، وتوطين سكان موالين للمحتل وللقوات الغازية فى مناطق إنتاج النفط هدف اقتصادى، فالنفط مصدر الطاقة الأول ولا قيام لحضارة ولا لمدنية بدونه، فضلاً عن كونه هدفًا استراتيجيًا كما سبق وذكرنا.

ولم يتوقف هذا المخطط الاستعمارى المتمثل فى تهجير وتوطين السكان عند انهيار الإمبراطورية الآشورية فى الربع الأخير من القرن السابع ق.م، فقد استمر هذا المخطط فى الحملات العسكرية البابلية ثم الفارسية بعد ذلك ولكن لم يصلنا إلا نصوص قليلة عنهما، وتختلف فى خطابها عن النصوص الآشورية، فمعظمها موجه إلى الشعوب المحتلَّة، وكُتبت لهدف صريح هو تشجيع هذه الشعوب على قبول التغير الجذرى الذى أدى إليه تغير الإمبراطورية إلى إدارة بابلية أولاً ثم إلى إدارة فارسية بعد ذلك، لذلك أخذت النصوص البابلية والفارسية المتعلقة بالتهجير سمة دعائية ذات طابع أكثر إقناعًا، واعتمدت على مفهوم «العودة» أو «الإعادة» وهو ينسحب على «إعادة الحكام» أو «إعادة الشعوب» أو «إعادة الآلهة»، فقد وُصف الملك فى كل النصوص البابلية المتعلقة بالتهجير بأنه «معيد» الآلهة والسكان إلى موطنهم كما فى النصب التذكارى الذى يُنسب لـ«نابونيد»، ويعيد سرد قصة بناء نابونيد للمعبد فى حاران، ليعيد بناء ماضى حاران العظيم، فقد سمح نابونيد للآلهة «بالعودة من المنفى».

هذا المفهوم الأيديولوجى استخدمه الفرس بإتقان فسفر «عزرا» الإصحاح الأول، يصور قورش كبان للهيكل وكمعيد لما أخذه الآشوريون. كما استغل الاستعمار البريطانى والصهيونى هذا المفهوم الدينى «العودة إلى أرض الآباء» فى الترويج لمشروعهم الاستعمارى فى فلسطين.

٢- الحملة الدعائية:

اعتمدت الإمبراطوريات القديمة على الحملات الدعائية، ومن يقرأ خطبة مبعوث الملك الآشورى سنحاريب ٧٠١ق.م إلى شعب أورشليم المحاصر والتى يدعوهم فيها إلى الاستسلام ويحرضهم ضد حاكمهم ويعرض عليهم المكافأة بدلاً من توقيع العقوبة، لن يجدها تختلف كثيرًا عن الرسائل التى أسقطتها طائرات الغزو الأنجلو أمريكية على مدن العراق، قبل استسلامها، وتحت نيران القصف الجوى العنيف: «حققوا السلام معى، استسلموا لى، وسيأكل كل فرد منكم عنبًا من كرمه وتينًا من بستانه، وسيشرب كل واحد ماءً من بئره حين آتى وأهجِّركم إلى أرض مثل أرضكم.. وستحيون ولن تموتوا ولا تسمعوا كلام حزقيا (ملك أورشليم) لأنه يغرّكم..» (سفر الملوك الثانى ١٨/ ٣١ - ٣٢).

أما الحملة الدعائية فى الإمبراطورية البابلية والفارسية بعد ذلك فقد تركزت على إيجاد الولاء والتعاون مع الشعوب التى احتلوها، لذلك فقد ظهر ملك بابل - نابونيد - فى دور دينى فهو معيد الآلهة من المنفى، وحامى سكان الإمبراطورية التى كانت آشورية ثم أصبحت الآن بابلية. ويلقى باللوم عن الأفعال البربرية على حلفاء تلك الإمبراطورية السابقة، أما هو وإمبراطوريته فهم الذين أعادوا بناء المدن والمعابد القديمة التى وضعها مردوك - الإله القومى - بين يديه.

وقد أتقن الفرس الدافع الأيديولوجى فى سياسة التهجير وفى حملتهم الدعائية فـ«أسطوانة قورش» وهى نص دعائى تزعم أن الملك البابلى السابق قد دمر وحدة الدين، وبدَّل الآلهة الروحية السماوية الحقيقية فعُبدت نسخ - مجرد تماثيل من الطين - فى كل أرجاء الأرض. لقد استعبد الملك البابلى شعبه، والمدن أصبحت خرائب، وهُجرت الحقول، وغضبت الآلهة لأنها أُبعدت قسرًا من موطنها فى بابل، فتخلت عن المدينة. حتى الصلوات والقرابين كلها خاطئة. لكن «مردوك» كان رحيمًا فدعا قورش لإقامة العدل بين كل الشعوب التى جعل مردوك قورش يأتى بها إلى بابل، وقورش بالطبع، لم يكن بحاجة إلى السلاح فى هذا الغزو، فالنص يذكر أن الشعوب استقبلت حاكمها الجديد قورش بأذرع مفتوحة وبدموع الفرح والأغانى، وبدل القتل والنهب، اجتهد قورش فى «إعادة» الشعوب والآلهة إلى مواطنها، وهذه هى المهمة الأولى للإمبراطورية والتى ركزت النصوص الضوء عليها، فقورش وجيشه فى بابل فى مهمة سلمية!! وكل العالم رحب بتولى قورش السلطة. (هذا النص الدعائى من الممكن أن نستبدل اسم بوش بقورش ولن نجده اختلف كثيرًا عما رددته أبواق الدعاية الأمريكية قبل غزو العراق، فلقد زعم بوش أن مهمة جنوده فى العراق مهمة سلمية هى تخليص هذا الشعب من عبودية صدام، وتحقيق الرفاهية لهذا الشعب، لذلك فقد توقعوا أن يقابلوا بالأحضان والترحيب).

٣- التستر وراء الدين:

لعب الدين دورًا بارزًا فى حضارة الشرق الأدنى القديم، وكان هو العامل المسيطر على كل مظاهر الحياة، وكان خلاصة القيم الإنسانية، لذلك فقد احترم الغزاة القدامى دين الشعوب المحتلة ولم يكن غريبًا أن يقبل الغزاة المنتصرون دين الشعوب المهزومة مع إدخال بعض التعديل، وهى ظاهرة تكررت كثيرًا خلال التاريخ، فقد امتزجت الآلهة البابلية والآشورية، وهاهو مردوك إله البابليين القومى يصبح بعد ذلك إلهًا للفرس ويتصرف قورش بأمره. وليس غريبًا كذلك أن يصرح كل ملك من الملوك أن ما يقوم به من أعمال هو تنفيذ لأوامر الآلهة. فهاهو «حمورابى» الملك البابلى، يبدأ قانونه بمقدمة يمجد فيها المهمة التى ألقتها الآلهة على عاتقه وهى





نشر العدل فى الأرض.. وهاهو «نابونيد» الملك البابلى يصف نفسه بأنه خادم مطيع للإله «سين» وأنه يتصرف بناء على تعليمات مباشرة منه.. فقد هجّر السكان من موطنهم إلى حاران ليقرب موعد عودة الإله سين إلى المدينة ويعيد بناء مجدها القديم. وكما ذكرنا فالإله «مردوك» هو الذى اختار «قورش» وأمره بالزحف على بابل. خلاصة القول أن المستعمر القديم غلّف أهدافه التوسعية بستار الدين وتنفيذ الأوامر الإلهية وهو ما يفعله المستعمر الأنجلو أمريكى، وما عبرت عنه زلة اللسان التى وقع فيها بوش واعتذر عنها، فقد وصف حربه ضد الإرهاب بأنها «حرب صليبية».



التعبير الثانى الذى استخدمه بوش بكثرة، ولم يفطن أحد إلى أنه تعبير دينى صهيونى هو: «محور الشر» فقد وصف العراق وإيران وكوريا الشمالية بأنهم محور الشر أو معسكر الشر، وقد علقت مارجريت تاتشر على هذا التعبير، بأن بوش قد أخطأ بضم كوريا الشمالية إلى «محور الشر»، لكنها أيدته فى وصف العراق وإيران بأنهما «محور الشر». فما المقصود بمحور الشر فى المسيحية الصهيونية؟

«معسكر الشر» أو «محور الشر» تعبير مسيحى صهيونى استمده بوش من التفسير الصهيونى لرؤيا يوحنا اللاهوتى وهو السفر الأخير من الكتاب المقدس، وقد وضعه يوحنا اللاهوتى قرب نهاية القرن الأول الميلادى، ويضم مجموعة من الرؤى بعضها ملغز وغامض، وبتأثير من اليهودية فسره البروتستانت والأدفنتست وشهود يهوه تفسيرًا حرفيًا، بأن تلك الرؤى تشير إلى قدوم السيد المسيح فى نهاية الزمان مرة أخرى ليحكم على الأرض، فتكون الأرض بمثابة جنة ويكون مركزها القدس، ويجلس على عرش مملكة داود، ويحكم لمدة ألف عام وهو ما يُعرف بـ«الملك الألفى» إلى أن تكون هناك دينونة أخرى(٢).

والفكرة منشاها سياسى وليس لاهوتيًا، وقد ظهرت فى الأدبيات اليهودية فى القرن الثانى ق.م لعلاج حالة اليأس والاكتئاب التى انتابت اليهود تحت الحكم الرومانى وفى ظل ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية بالغة السوء والتردى فجاءت «الرؤى» فى الأدبيات اليهودية تمثل الأمل والعلاج لهذا اليأس.

ووفق التفسير الصهيونى لرؤى يوحنا أن نزول السيد المسيح سوف تسبقه معركة حاسمة «قتال يوم الرب» ١٦/ ١٤، وستدور تلك المعركة فى جبل مجدو ١٦/ ١٦ (هرمجدون بالعبرية) فى شمال فلسطين، وهذه المعركة الحاسمة هى التى ستأتى بالخلاص، وستكون بين معسكر الخير ومعسكر الشر أو أبناء النور والظلام.

والاعتقاد بحتمية الحرب بين الخير والشر أو النور والظلام لكى يأتى الخلاص أخذها اليهود عن الزرادشتية(٣) فهى تقول: إن وجود العالم سببه امتزاج «النور» و«الظلام» أو «الخير» و«الشر» فلولا امتزاجهما لما كان وجود العالم، وهما أى الخير والشر، أو النور والظلام يتقاومان ويتغالبان إلى أن يغلب «النور» «الظلام» و«الخير» «الشر» وهذا هو «سبب الخلاص».

ففسرت اليهودية «قتال يوم الرب» فى سفر يوحنا اللاهوتى بأنه حرب الخير والشر أو النور والظلام. وهنا قد يتبادر سؤال: ما هى العلاقة بين العراق وإيران و«جبل مجدو» التى ستدور عليها رحى الحرب بين الخير والشر؟

العلاقة تكمن فى التفسير اليهودى الصهيونى لسفر الرؤيا. فقد تردد اسم نهر الفرات ومدينة بابل فى رؤى يوحنا وارتبط ذكرهما بالحوادث والكوارث التى ستحدث على الأرض تمهيدًا «ليوم الرب» ١٦/ ١٢، ١٦/ ١٩. فتوصف مدينة بابل فى ١٧/ ٢-٣ بأنها «الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثيرة التى زنى معها ملوك الأرض».. وفى ١٧/ ٥: «بابل العظيمة أم الزوانى ورجاسات الأرض». وفى ١٧/ ١٥-١٦: «ثم قال الملاك لى المياه التى رأيت حيث تجلس الزانية هى شعوب وجموع وأمم وألسنة. وأما القرون العشرة التى على الوحش فهؤلاء سيبغضون الزانية وسيجعلونها خربة وعريانة ويأكلون لحمها ويحرقونها بالنار. لأن الله وضع فى قلوبهم أن يصنعوا رأيه.. والمرأة التى رأيت هى المدينة العظيمة..».



وفى الإصحاح الثامن عشر تدور رؤيا يوحنا حول سقوط بابل (١٨/ ٢) وسبب سقوطها (١٨/ ٣) ثم يستكمل فى (١٨/ ٥-٧): لأن خطاياها بلغت السماء وتذكر الله آثامها. جازوها كما هى أيضًا جازتكم وضاعفوا لها ضعفًا نظير أعمالها. فى الكأس التى مزجت فيها امزجوا لها ضعفًا. بقدر ما عظمت نفسها وتنعمت بقدر ذلك أعطوها عذابًا وحزنًا». ثم يستكمل السفر وصف الموت والحزن والجوع والحرائق التى ستنزل ببابل.

لقد استغل الصهاينة الأمر الذى ورد فى ١٨/ ٦: «جازوها - أى بابل - كما جازتكم» بأنه دُمّج للمسيحيين باليهود، فبابل لم ترتكب آثامًا فى حق المسيحيين، ولكن وفقًا لوجهة النظر التوراتية، تلك الآثام ارتكبت ضد اليهود، فهم الذين تم سبيهم إلى بابل على يد نبوخذ نصر ٥٨٦ق.م كما ذكرنا. وهذا الأمر الوارد فى (١٨/ ٦)، كأنه استجابة لما ورد فى سفر المزامير (مزمور ١٣٧/ ٨، ٩): يا بنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذى جازيتنا. طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة. فالمزمور (١٣٧) يعرض السبى الذى تعرض له اليهود على يد نبوخذ نصر على أنه عقاب وبلاء ومحنة.

وجاءت رؤيا يوحنا لتفسر وتفصل الجزاء المتوقع الذى تستحقه بابل وهو الدمار والخراب والذل وأكل لحمها.

وعلى النقيض من المزمور (١٣٧)، يصف «سفر عزرا» حال اليهود المسبيين فى بابل فيخيل لنا أنه يتحدث عن يهود أمريكا الآن وليس عن يهود بابل: فقد سمح قورش الملك الفارسى لليهود بالعودة إلى أورشليم، ولكن هناك يهودا فضلوا أن يظلوا فى بابل فطلب منهم أن يتبرعوا بفضة وذهب وأمتعة وبهائم وتبرعات لبناء بيت الرب فى أورشليم (عزرا ١/ ٤). فالسبى يبدو وكأنه مكافأة لليهود.

وعلى النقيض أيضًا من المزمور (١٣٧) يصف «سفر دانيال» نبوخذ نصر بأنه تقى ويمجد إله بنى إسرائيل ويعامل اليهود بلين ورفق (دانيال ٢/ ٤٧، ٣/ ٢٨، ٢٩).

وسواء كان السبى البابلى عقابًا أم مكافأة لليهود، فما يعنينا هنا هو توظيف «اليمين المسيحى الصهيونى» للسبى البابلى فى الحرب الأنجلو أمريكية من أجل تحقيق أهداف دينية لتلك الحرب:

١- فما أنزلته الحرب بالعراق من خراب ودمار وحريق وإذلال وعذاب وحزن، هو جزاء بابل على ما ارتكبت من آثام فى حق اليهود عند السبى البابلى. وهو التنفيذ الصهيونى لرؤيا يوحنا اللاهوتى.

٢- تُمثل بابل فى هذه الحرب «محور الشر» إذًا. فهذه حرب «الخير والشر» أو «النور والظلام» وعند انتصار «الخير» أو «النور» سيكون «الخلاص». فالهدف الدينى من هذه الحرب استعجال «الخلاص» أى نزول المسيح والملك الألفى، فإن لم يأت «الخلاص الدينى» ففى البترول العراقى «الخلاص الدنيوى» من الكساد والركود فى الاقتصاد الأمريكى والإسرائيلى.

بهذا يتضح دور اليهود فى هذه الحرب الأنجلو أمريكية وهو دور «فاعل»، فاليهود حاليًا، تحت ستار الدين، وتعجيل الخلاص، يمعنون القتل فى الفلسطينيين ويمارسون حرب إبادة شرسة لا رحمة فيها ولا هوادة، لأنها وفق تفسيرهم لرؤيا يوحنا «حرب يوم الرب» وهى حرب «الخير والشر» التى ستكون على جبل مجدو (هرمجدون) وهذا يفسر الدعم اللانهائى الذى يدعمه اليمين الأمريكى لإسرائيل وحروبها.

وهنا فى هذا الصدد يجب أن ألفت الانتباه إلى:

أ- إنه بعد انتصار معسكر الخير!! الأمريكان واليهود فى هذه الحرب سوف تُستغل أجزاء من أرض العراق لتنفيذ مخطط «التهجير» كعقاب للفلسطينيين على ثورتهم وتمردهم على جيش الاحتلال الإسرائيلى.

ب- وكمنتصر فى الحرب ستعرض أمريكا تنفيذ خطة أو «خريطة الطريق» وخطة «التسوية النهائية» وستملى شروطها، التى هى شروط إسرائيل، ومنها أن تتنازل السلطة الفلسطينية عن حق عودة اللاجئين الفلسطينيين، وستعرض العراق كبديل عن فلسطين لمن يرغب فى العودة من اللاجئين، ففى المخططات الاستعمارية لا اختيار للشعوب فهم «مفعول بهم» دائمًا كما يذكر لنا التاريخ، إلا إذا أرادوا الحياة وقاوموا واستبسلوا فلا بد أن يستجيب القدر ولابد لليل أن ينجلى ولابد للقيد أن ينكسر. ولنا فى تعاقب الليل والنهار آية، فكلما اشتد سواد الليل كان ذلك بشيرًا بقرب بزوغ الفجر. ■

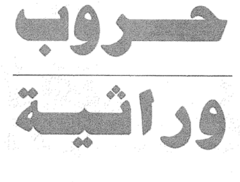
الهوامش:

(١) اعتمدت فى مخطط التهجير والتوطين ومفهوم «العودة» والحملة الدعائية على كتاب: توماس.لى. طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلى، ترجمة صالح على سوداح، بيان، بيروت ١٩٩٥م. ص٢٣٢-٢٤٠ و٢٨٤، ٢٩١.

(٢) ترفض الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية التفسير الحرفى لسفر الرؤيا، ويدرك رجالها الأهداف السياسية اليهودية التى تقف وراء تسريب الفكرة - الملك الألفى - إلى الأدبيات المسيحية. ويعتقد اللاهوت المسيحى الأرثوذكسى أن ملكوت الله ليس ماديًا أرضيًا ولكنه سماوى، وأن بناء الهيكل معارضة صارخة لسر الفداء الذى تؤمن به المسيحية.

(٣) ضمَّهم الشهر ستانى تحت من له شبهة كتاب، ويصف زرادشت بأنه حكيم، ولكن هناك من يصفه بأنه نبى الملل والنحل: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهر ستانى المتوفى ١١٥٣م. تخريج محمد بن فتح الله بدران، الطبعة الأولى، مطبعة الأزهر ١٩٥١م، الجزء الثالث.

سَقطَت اليوجينيا.. ولم يسقط اليوجينيون!



أحمد مستجير

معظم الناس لم يسمعوا عن «اليوجينيا»، ومعظم من سمعوا عنها يعتقدون أنها قد انتهت مع هزيمة هتلر عام ١٩٤٥، كان السير فرانسيس جالتون هو من صاغ المصطلح عام ١٨٨٣، رأى أن التطور الصحيح للجنس البشرى قد انحرف، فقد قادت نزعةُ الخير لدى الأثرياء وإنسانيتُهم إلى تشجيع «غير الصالحين» على الإنجاب، الأمر الذى أفسد آلية الانتخاب الطبيعى، ومن ثم أصبح جنس البشر فى حاجة إلى نوع من الانتخاب الاصطناعى، أطلق عليه اسم «اليوجينيا». كان بها يعنى «علم تحسين الإنسان عن طريق منح السلالات الأكثر صلاحية فرصةً أفضلَ للتكاثر السريع، مقارنة بالسلالات الأقل صلاحية»، أما موضوع بحث اليوجينيا فهو «دراسة العوامل الواقعة تحت التحكم الاجتماعى التى قد تُحَسِّن أو تُفسد الخصائص الطبيعية الموروثة للأجيال فى المستقبل، جسدياً أو ذهنياً». قيل إن اليوجينيا رغبةٌ طبيعية فى الإنسان الفرد، وفى الجماعة. لم يكن ثمة مانع لدى الوالدين فى فجر التاريخ من قتل طفل لتوفير فرصة أفضل لبقاء أخيه، بدلاً من موت الاثنين. وكانت محاولاتُ الإبادة الجماعية للأعداء وسيلةً معروفةً لتحسين فرصة بقاء العشيرة.

ربما كان أفلاطون هو أول اليوجينيين. فعلى رأس «جمهوريته» كان فلاسفةٌ يتمتعون بالصحة الطيبة والقدرة العالية على التفكير، أما محدودو الذكاء فكانوا يشغلون المواقع الدنيا من الهيراركية. كانت الجمهورية ترتكز على الاسترقاق، ولم تتحدث كثيراً عن النساء - كانت مرتبتُهُن على العموم متدنيةً فى المجتمع الإغريقى. كان أفلاطون يعتقد أن «المزاج» يُوَرَّث، وكان على حكام الجمهورية أن يدبروا أمر تزاوج «المرغوبين»، وأن يتيحوا لكل مَنْ يُبلى بلاءً حسناً فى الحروب فُرَصاً للإنجاب أكبر. كانت أفكار أفلاطون فى الواقع تعادل ما نسميه اليوم «اليوجينيا الإيجابية».



إن جوهرَ التطور هو الانتخاب الطبيعى، وجوهرَ اليوجينيا هو أن «نستبدل بالانتخاب الطبيعى انتخاباً اصطناعياً واعياً، بهدف الإسراع من تطوير الصفات المرغوبة والتخلص من الصفات غير المرغوبة»: أن نحسن الأجيال القادمة، على حساب الأجيال المعاصرة. الفرض المستتر إذن هو أن هناك من البشر مَنْ هم أفضل من غيرهم، مَنْ يستحقون أن ينجبوا أكثر من الآخرين، وأن يُمَثَّلوا فى الجيل التالى بنسبة تفوق نسبتهم فى الجيل الحالى، ولقد يتم ذلك بزيادة نسل مَنْ «يستحقون» (اليوجينيا الإيجابية) أو بتقليل نسل مَنْ «لا يستحقون» (اليوجينيا السلبية). التحوير المتعمَّدُ لجنس البشر لأهداف اجتماعية هو ما تطمح إليه اليوجينيا، و«عندما يتغلب الإنسان على تطوره البيولوجى، فسيكون قد وضع الأساسَ للتغلب على كل شىء آخر... سيصبح الكونُ أخيراً طوعَ بنانه»، كما قال يوجينيٌ عتيد.



سيحدد اليوجينيون إذن للتطور مساراً جديداً، أهدافاً جديدة يقررونها هم حسب أهوائهم. هم يرون أننا لابد أن نُسْلِمَ زمام التطور والانتخاب فى المرحلة الراهنة إلى «النُّخبة»، الأرستقراطية الآرية، وألا نترك الأمر للصدفة، لأن الصدفة قاسيةٌ غليظةُ القلب، وهى متقلبة، وعادة ما تكون أكثر تكلفة، ثم إن علينا أن نغير الوسيلة التى يتخذها الانتخاب الطبيعى والصدفة للقضاء على العشائر «التى لا جدوى منها» (يقصدون التخلص منها بالموت)، وأن نستبدل بها وسائل أكثر تحضراً ونبلاً وإنسانية: تحديد النسل. اليوجينيا ترى أن هناك عشائر بشرية « لا جدوى منها».

ذاعت حركة اليوجينيا فى أوائل القرن العشرين فى أوروبا وأمريكا عندما كان علم الوراثة لا يزال طفلا يحبو، وانضم إليها وتعاطف معها الكثيرون من كبار المفكرين والعلماء والساسة والفلاسفة ورجال المال: برتراند راسل، ج.د. برنال، جوليان هكسلى، رونالد فيشر، برنارد شو، هافلوك إليس، د.هـ لورانس، ألدوز هكسلى، هـ. ج. ويلز، روزفلت، تشرشل، جون روكفيلر. خَلَقَت تياراً عارماً يبررها، يحرسها، يدافع عنها، يُشَرِّع لها. اجتاحت أوروبا وأمريكا. أصبحت ديناً. كرست نفسها لتأكيد أن الناس لم يُخلقوا سواسية. كانت أوروبا فى القرن الثامن عشر قد سيطرت - بالأسلحة وبالمفاوضات، بالقوة وبالخداع - على أفريقيا، ثم آسيا، ثم أمريكا. وبقيت مسيطرةً طويلاً طويلاً، حتى اعتبرت نفسَها سيدة العالم، وأن بقية البشر إنما خُلقوا من أجلها، من أجل الرجل الأبيض. «إن الكلاب تكف عن النباح إذا ما استنشقت هواءنا». الشعوب، كما الأفراد، لم تُخلق سواسية. وهذا كارل بريجهام يؤكد سنة ١٩٢٣ أن السود فى أمريكا يشكلون نسبةً من «ضعاف العقول» تزيد على نسبتهم فى المجتمع.

فى عام ١٧٩٨ كان القس الإنجليزى توماس روبرت مالتوس قد نشر كتابه «مقال عن السكان». كانت الفكرة المحورية للكتاب هى أن العشيرة تتزايد فى العدد

كان المنظرون الاجتماعيون بالقرن التاسع عشر، وعلى رأسهم هربرت سبنسر قد أكدوا أن الفقراء بطبيعتهم لا يستحقون، وأن الواجب ألا نشجع بقاءهم أو بقاء نسلهم



الأقوى كما يقول هتلر لابد أن يسود على الأضعف، لا يمتزج معه حتى لا يضحي بعظمته و«لن يجد في هذا قسوة إلا الضعاف»

أُسِّيًا، وستنتهى بالضرورة إلى أعداد لا يكفيها المُتاح من الموارد الغذائية. فإذا عجز الآباء عن تحديد حجم عائلاتهم، فإن الحروب والمجاعات ستقضى على الأعداد الزائدة. فالجزيرة البريطانية مثلاً لا يمكن أن تحمل أكثر من ٢٠ مليون شخص (وبعد مائة وخمسين عاماً كانت تحمل ثلاثة أضعاف هذا العدد). مع زيادة أعداد البشر سيندلع صراع من أجل لقمة العيش ينتصر فيه مَنْ يحمل ميزات معينةً، ينقلها إلى نسله، ليسود هذا بدوره أكثر وأكثر. قال اليوجينيون إن هذا كان وراء حدوث التطور، وأنه كان وراء وجود النبلاء وأساتذة الجامعات والطبقة الأرستقراطية. أما عن الميزات الوراثية فقد رأوا أن أولَها وأهمَّها هو «الذكاء». «إن المحور الأساسى للسلوك الإنسانى» كما يقول هنرى جودارد عام ١٩١٩ «هو العملية الذهنية المتكاملة التى نسميها الذكاء... وعلى هذا فإن أية محاولة للتعديل الاجتماعى لا تضع فى اعتبارها أن صفة الذكاء صفة جبرية وأن درجة ذكاء الفرد لا تتغير، هى محاولة غير منطقية، وغير كفء».

ابتكروا للذكاء المقاييس، وراحوا يجرون أبحاثهم ليؤكدوا أنه صفة عالية التوريث - وإنْ كانوا «يعرفون» مقدماً أن «القدرة الذهنية تُوَرَّث... أن البراهين على هذا براهين حاسمة»، فقد قالها اليوجينى سيريل بيرت عام ١٩١١، ثم إنهم درسوا معامل الذكاء وعلاقته بالجريمة والعنف، ليتأكد لهم «أن العالم يحتاج إلى سيادة الجنس الأبيض»!



وكان المنظَّرون الاجتماعيون بالقرن التاسع عشر، وعلى رأسهم هربرت سبنسر قد أكدوا أن الفقراء بطبيعتهم لا يستحقون، وأن الواجب ألاَّ نشجع بقاءهم أو بقاء نسلهم. وعلى عكس داروين الذى يقول إن «الأصلح» هو الذى يترك نسلاً أكثر، سنجد اليوجينيين يرون أن الأصلح هو المتميز فى الذكاء والصحة والأخلاق الحميدة، وهو - بالطبع - مَنْ يشبه اليوجينى الذى يضع معايير الصلاحية!

ثمة كاتب فرنسى أرستقراطى اسمه آرثر كونت ده جوبينو، نشر فى منتصف خمسينيات القرن التاسع عشر كتاباً عنوانه «مقال عن التفاوت بين سلالات البشر»، قال فيه إن الأرستقراط الآريين الشُقر كانوا دائماً «زهرة أوروبا»، ولكنهم فقدوا قوتهم بالزواج بالسلالات الأدنى. أهمل الفرنسيون الكتاب، لكن الألمان أحبوه. أعيدت الحياة مرة أخرى إلى الكتاب، وأنشأ عشاقُه «جمعية جوبينو» عام ١٨٩٤، وفى عام ١٨٩٩، نشر انجليزى يحمل الجنسية الألمانية، اسمه هوستون سيتوارت شامبرلين، كتاباً عنوانه «قواعد القرن التاسع عشر»، استلهم فيه جوبينو وقال إن الألمان هم أنقى الآريين، وهاجم فيه السود واليهود. وعندما كتب هتلر كتابه «كفاحى» يشيد فيه بالألمان ويزكى اليوجينيا، كان فى واقع الأمر يكرر ما قاله شامبرلين إنما بصورة فصيحة مؤثرة!

على مطلع القرن العشرين إذن كان المناخ الفكرى قد تهيأ لكى تتحول يوجينيا جالتون إلى سياسة. كان قانونا مندل للوراثة قد أعيد اكتشافهما، وانهمك العلماء فى حمية يجربون، لتتكشف نتائج وآفاق فى علم الوراثة جديدة، بينما الفلاسفة يعضدون ويُنَظِّرون، ورجال المال يمولون. ربما كان لنا أن نقول إنه مع بداية القرن العشرين بدأت «الحرب» اليوجينية حقاً فى الولايات المتحدة وألمانيا وإنجلترا والسويد والدانيمرك وفنلندة. ولابد لقيام حرب من وجودِ: عدو، وسلاح، وهدف، ومثال أعلى. العدوُ هو المتخلفون وراثياً. الفقراء (فالفقر عند اليوجينيين صفة وراثية)، المعتوهون والمجانين، مرضى الصرع والدرن الرئوى، المقعدون، المنحلون، الشواذ، المومسات المحترفات، المجرمون بالفطرة، السكيرون، ثم الملونون والمهاجرون من السلالات الأدنى - كلُّ مَنْ يلوثون المستودع الوراثى للسلالة. السلاح هو: التعقيم القسرى، والحد من زواج المتخلفين أو منعه، ومنع الحمل، والإجهاض، بل والقتل إذا لزم الأمر. الهدف هو: توفير الحياة الرغدة الكريمة للرجل الأبيض الذكى فلا يزاحمه فيها مَنْ لا يستحق. المثال الأعلى: السلالة النقية الذكية الأقوى، فالأقوى كما يقول هتلر لابد أن يسود على الأضعف، لا يمتزج معه حتى لا يضحى بعظمته و«لن يجد فى هذا قسوةً إلا الضعاف».

الحرب ضرورية «للتخلص» من البشر المتخلفين، كما يقول اليوجينى الكبير كارل بيرسون: «إن اعتماد التقدم على البقاء للسلالة الأفضل، رغم ما قد يبدو به من شر فظيع، إنما يعطى الصراع من أجل البقاء ملامحه المبتغاة. إذا توقفت الحروب، فلن يتقدم جنس البشر: لن يكون هناك ما يكبح جماح خصب السلالات المتخلفة». أصبح القتل والوحشية سلاحاً. والقسوة أيضاً: «الإحسان لأطفالِ غير الأكفاء نقمة قومية، لا نعمة. إن تدابير مثل الحد الأدنى للأجور، وتحديد ساعات العمل، والطب المجانى، وانخفاض وفيات الأطفال، إنما تشجع البطالة والمتخلفين وضعاف البنية والعقل». فليذهبوا جميعاً إلى الجحيم فى سبيل الهدف اليوجينى الأسمى!

أفكار اليوجينيا تقوم على الفرض بأن الناس ليسوا بطبيعتهم متساوين، أما الديموقراطية الغربية فترتكز على الفرض بأن كلَّ الناس متساوون. «من الصعب إذن أن تُنَفَّذ اليوجينيا فى مجتمع ديموقراطى» كما يقول برتراند راسل «فالديموقراطية تعترض الطريق»، والترويج لليوجينيا إنما يتضمن تقويض الديموقراطية وصناعة «نخبة» عارفة تُخَطِّط وتنفذ. ومثل هذا الهدف لا يمكن إذن أن يتحقق فى مجتمع ديموقراطى إلا عن طريق الخداع والقهر وأموال أثرياء يرفضون الديموقراطية. «فطالما كان هناك من الأثرياء مَنْ يُدَعِّم مشاريع اليوجينيا، فستبقى اليوجينيا».



مضت اليوجينيا إذن فى طريقها بسياستها غليظة القلب، بالخداع وبالقهر. الفرد لا يهم السلالة هى الأهم. السلالة المتخلفة لا تُهم، سلالتنا هى الأهم. انتشرت تعاليمها، آمن بها الكثيرون، سُنَّت القوانين تدعمها، دخلتْ إلى مناهج التدريس بالجامعات، صدرت لها المجلات العلمية، أُنشئت لها الكراسى بالجامعات، عُقدت لها المؤتمرات الدولية والمحاضرات العامة، وعُقِّم باسمها مئات الألوف بطرق اتسمت بالوحشية والبربرية: أكثر من ١٦٠ ألفاً بأمريكا، وأكثر من ربع مليون بألمانيا النازية التى بدأت التعقيم بعد أمريكا بسبعة وعشرين عاماً. قُتل عشرات الألوف. رُبطت بالنازية. فلما أنْ انتهى عهد هتلر، اختفتْ اليوجينيا بعد كل ما جَرَّتْه على البشرية من دمار، بعد أن أهدرت كرامة الإنسان.

جُرحت اليوجينيا، لم تَمُتْ!

سقطت اليوجينيا، ولم يسقط اليوجينيون!

كانوا أساتذة جامعات وأطباء وعلماء اجتماع واقتصاديين وكُتَّابًا. لا أحد يعرفهم. تُركوا وشأنهم ليستمروا فى صياغة المجتمع. كانوا قبل نهاية الحرب يعملون فى العَلَن، أما بعدها فقد رأوا ضرورة أن يعملوا فى الظلام. بدأوا على الفور يمارسون «اليوجينيا المستورة» الخفية، ويوزعون الأدوار فيما بينهم لإعادة بناء اليوجينيا: فجماعة تؤكد على أيديولوجيا تَفَوُّقِ الجنس الآرى الأبيض، وأخرى تعمل كى يصبح الإجهاض قانونيا فى العالم بأسره، وثالثة تطور وسائل منع الحمل، ورابعة تُعيد تسمية السيطرة على موارد العالم فتطلق عليها اسم «الحفاظ على الموارد»، كمقدمة لاستعادة السيطرة عليها عندما يحين الأوان، وخامسة تعمل فى توجيه تدريس علوم البيولوجيا - لتُجْمع فى النهاية كل هذه الأجزاء المتناثرة وتُصاغ فى صورة سياسة اجتماعية. لم يحدث أى تغير حقيقى فى فكر اليوجينيين، هم يسعون إلى تحقيق نفس الأهداف القديمة، وبحيث لا يُشنقون فى نورمبرج لجرائمهم ضد الإنسانية أو لارتكابهم الإبادة الجماعية (على الرغم من أن اليوجينيين النازيين الذى قاموا بالتعقيم القسرى لم يُدانوا فى محاكمات نورمبرج، لأن التعقيم كان يُمارَسُ بالفعل بالولايات المتحدة).

العنصرية دَيْدَنُهم، والديموقراطية عدوهم، لكنهم يعرضون بضاعتهم ويروجون لها تحت أسماء مشفَّرة. غدت السريةُ والمراوغة القانونية والدعاية سلاحَهم. يعملون من خلال منظمات أخرى لا يحمل عنوانها كلمة «يوجينيا». يسعون بالمزيج الشرير من العرقية والداروينية إلى الإجهاض ووأد الأطفال، إلى القتل الرحيم للمرضى المسنين، إلى موت المرضى، إلى التعقيم، إلى تدريس الجنس بصورة فجة تؤدى إلى حمل المراهقات والإجهاض وحبوب منع الحمل. وليس غير الحديث «العقلانى» بوسائل الإعلام سبيلاً إلى قلوب الناس وعقولهم. يقولون «لابد أن يُترك الخيار للمرأة»: تعبير تقدمى جميل بقيته «فى اختيار وسيلة تحديد نسلها». يستبدلون بكلمة «الانتخاب» التى كان يستخدمها يوسف مينجله فى أوشفيتز كلمة «الاختيار»، «القدرة المعرفية» تحل محل «معامل الذكاء»، اسم «الجمعية الأمريكية لليوجينيا» يصبح «جمعية دراسات البيولوجيا الاجتماعية». وهم أبداً لا يستعملون كلمة «سلالة». يستغلون الغموض والثغرات بالقوانين ليمكِّنوا الأطباء اليوجينيين من موالاة النشاط اليوجينى على أنه إجراءات طبية طبيعية تتم بناءً على رغبة المريض. غدا هدفهم النهائى هو تخفيض أعداد سلالات بذاتها وتحويلها إلى شظايا عقيمة.

اليوجينيون، أتباع مالتوس - الذى كان يرى فى الوليد فماً جديداً، ولا يراه يَدَيْن تعملان وتُنتجان - يعتقدون أن هناك الكثير من المرضى، الكثير من المتخلفين، الكثير من الصينيين، الكثير من الهنود، الكثير من العرب، الكثير الكثير من الناس، يزاحمون الإنسان اليوجينى الأسمى ويربضون فوق أراض وفيرة

الثروة لا يستحقونها. اليوجينيون لا زالوا يحلمون بأن يأخذوا بزمام التطور في أياديهم البيضاء الحنون! هم لا يصدقون في قدسية الحياة، ولا في الديموقراطية. لم يتعلموا شيئاً من سلسلة الكوارث الاجتماعية التي سببتها سياساتهم في القرن العشرين. لا. تعلموا درساً واحداً: الحذر من أن يُضبَطوا متلبسين.



والواقع أنهم لم يصمتوا طويلاً. هل رأيت عُمْرَكَ فأراً يمشي؟ إنه دائماً يجري. فعندما أنشئت منظمة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ أصر الأمريكان والإنجليز على أن ينص ميثاقها على أن تكون دراسات السكان من بين مهامها الرسمية. اعترضت بعض الدول. لكنهما نجحتا في إنشاء «وكالة السكان» كجزء من المنظمة. وعندما أنشئت «اليونسكو» وُضع على رأسها اليوجيني جوليان هكسلي، الذي دعا مباشرة إلى أن يُمنح حقُّ الإجهاض للمرأة في كل دول العالم. والواقع أن حركة كبح النمو السكاني قد شكلت جزءاً كبيراً من أنشطة الحركة اليوجينية منذ عام ١٩٥٢، ولقد مضت هذه الحركة بنفس التمويل، بنفس القادة، بنفس التوجهات. أصبح لليوجينيا السلبية (أي وقف التكاثر الزائد «لغير الصالحين») اليد العليا في النشاط اليوجيني، فاتسع انتشار وسائل منع الحمل والإجهاض والتعقيم.

وفي عام ١٩٥٢ أنشأ جون د. روكيفلر الثالث «مجلس السكان» الأمريكي في حملته مع جون فوستر دالاس ضد تكاثر العشائر غير البيضاء. لا يزال هذا المجلس موجوداً ولا يزال يعمل على وقف تزايد السكان بالولايات المتحدة، وبغيرها. ثم إنه قد تبنى مالتوسية نادي روما، النادي الذي أسسه الماسوني أوريليو بيتشي عام ١٩٦٨ بهدف الترويج لليوجينيا ونشر البروباجندة حول الأزمة البيئية لتبرير قمع التنمية الصناعية في دول العالم الثالث. في يناير ١٩٦٦ كتب فريدريك أوسبورن، اليوجيني العتيد، لصديق له حول عمل مجلس السكان في تطوير وسائل جديدة لتحديد النسل، قال «لقد رأينا أنه من الممكن أن يتم ذلك بشكل أكثر فعالية باسم «مجلس السكان» لا باسم «اليوجينيا»، وأنا أعتقد أن هذه (الوسائل) هي أهم ما اتُّخذ من إجراءات يوجينية عملية».

غدا كبح جماح النمو السكاني أهم مهام اليوجينيا، شجعتْه نخبة تستخدم قوة المال في دفع الدول الفقيرة إلى أن «تطلب» إبادة جزء من شعبها. هذه النخبة لا تدافع عن اليوجينيا لأنها قرأت كتاب «أصل الأنواع»، لا سمح الله، لابد أن هناك حافزاً مادياً. إن موارد العالم الثالث تشكل هذا الحافز.

كبح النمو السكاني هو خادم السياسة الاقتصادية وقد تَخَفّى تحت عباءة العلم أو نزعة الخير. في البدء قال أيزنهاور إن الولايات المتحدة لا تتدخل في أمور سكان الدول الأخرى. ولقد تغير هذا عام ١٩٧٤. في ذلك العام قام مجلس الأمن القومي الأمريكي - وكان يحدد التهديدات الرئيسية للدولة - بدراسة مذكرة اقترحتْ أن النمو السكاني في



اليوجينيون النازيون الذين قاموا بالتعقيم القسري لم يدانوا في محاكمات نورمبرج، لأن التعقيم كان يمارس بالفعل بالولايات المتحدة

حروب وراثية

العالم الثالث قد يسبب القلاقل، وقد يؤدي إلى أن تطلب هذه الدول نصيباً أكبر من مواردها، وعلى هذا فإن كبح النمو السكاني لابد أن يكون أمراً «بالغ الأهمية»، يهدد الأمن القومي الأمريكي. تحولت هذه الدراسة إلى سياسة بعد قرار مجلس الأمن القومي رقم ٣١٤ لعام ١٩٧٥ لم تُعلَن هاتان الوثيقتان حتى ١٩٩٢، ومنهما يتضح أن دعم السياسة الأمريكية لكبح تزايد السكان إنما يتم لأن النخبة الأمريكية تريد موارد العالم الثالث لنفسها. إنه استعمار بوسيلة أخرى.

كان الاستعمار العلني الصريح عام ١٩٧٤ أمراً غير مقبول، ومن هنا شرعت الولايات المتحدة تزكي كبح التزايد السكاني للدول الفقيرة «كي تتغلب على متاعبها الاقتصادية» وتصبح ثرية! وكان الجدل هو نفس الجدل المالتوسي: إن التزايد السكاني يسبب الفقر. لكن الاقتصاد لم تكن له علاقة بكبح النمو السكاني ولا بالاستعمار. كان آدم سميث (مؤلف كتاب «ثروة الأمم») يرى أن الابتكار هو مفتاح الثروة، وأن السكان عامل ثانوي. تؤكد ذلك حقيقة أن أوروبا ثرية وهي أكثر مناطق العالم تكدساً بالسكان، وإنجلترا داخل أوروبا ثرية، وهي أكثر تكدساً بالسكان من أفريقيا ومن الصين: فبإنجلترا ٦٠٠ شخص في الميل المربع، والمتوسط في أفريقيا هو ٢٢ شخصاً وفي الصين ٣٠٠. حركة اليوجينيا تحارب الفقراء، لا الفقر.

ولقد اقتنعت الصين بالمزايا الاقتصادية للحد من التزايد السكاني، فقررت الحكومة أن تخفض عدد عشيرتها، ومضت تنفذ ذلك منهجياً باتباع سياسة صارمة لا تسمح إلا بطفل واحد للعائلة، مستخدمة الإجهاض القسري والتعقيم القسري، حتى ليصل الأمر إلى أن يقوم العاملون بمشروع «تنظيم الأسرة» بمراقبة فترات الحيض للنساء في أماكن عملهن، وحتى لتضع بعض المصانع جداول على الحائط تعلن فترات الحيض لكل امرأة بحيث يمكن لكل شخص أن يراقب كل شخص آخر. كل امرأة تحمل بعد طفلها الأول دون موافقة رسمية يلزم أن تجهض. تقول وزارة الصحة الصينية إنه في الفترة ما بين ١٩٧٩ و ١٩٨٤ تم إجهاض ٥٣ مليون امرأة. عُقِم في هذه الفترة ٣,٩ مليون رجل و ٣١ مليون امرأة. كان الموظفون في كل مقاطعات الصين يبحثون في سجلات النساء تحت عمر ٤٥ سنة عمن أنجبن طفلين أو أكثر لتعلن أسماؤهن بالميكروفونات في الأحياء، وتحدد لهن مواعيد يسلمن فيها أنفسهن إلى العيادات الحكومية لإجراء جراحة التعقيم، وإلا رُوِّعْن وعوقبن. أصبح الحَمْل مهمةً من مهام الحكومة: «فلا زَوَاج بدون موافقة، لا حمل بدون موافقة، لا ولادة بدون موافقة»! ثم تَلَقّى كلُّ هذه الإجراءات التعضيد والثناء من الأمم المتحدة، فتمنح إحدى لجانها في عام ١٩٨٣ «جائزة السكان» إلى الوزير الصيني المسئول عن تنظيم الأسرة وإلى إنديرا غاندي التي وافقت حكومتها على الخُصْي الجبري في السبعينيات! وعندما عارضت هيلاري كلينتون الإجهاض القسري في اجتماع بايجنج، أسرعت الحكومة الأمريكية لتؤكد أن هذا رأي يخصها شخصياً ولا يجب أن يُفهم على أنه نقد رسمي للصين.



والحق أن الكثيرين من كبار الرأسماليين كانوا دائماً من وراء الحركة اليوجينية منذ بداياتها الأولى. ففي فجر القرن العشرين أصيب كبار رجال الصناعة الأمريكيين بالذعر عندما لاحظوا المعدل الكبير لنمو عشائر الأمريكان والفقراء. الملايين من المهاجرين يصلون إلى أمريكا كل عام، ويغيرون جذرياً الوضعَ العنصري والعرقي للأمة، في نفس الوقت الذي يهاجر فيه السود من الجنوب إلى الشمال بأعداد غير مسبوقة. وخوفاً من أن تتزايد الأقليات لتفوق البيض عدداً رأى رجال الصناعة أن الحل هو «اليوجينيا»، فبدأ كبارهم، مثل روكفيلر، وهنري فورد وأندرو كارنيجي وآفريل هاريمان وبريسكوت بوش، يموّلون حركة يوجينية تشجع الإجهاض والتعقيم والقتل الرحيم كسبيل لمواجهة هذه «المشكلة» الجديدة. بل إن عائلة هاريمان، شركاء بريسكوت بوش (جد الرئيس الأمريكي الحالي جورج دبليو بوش)، قد قامت بتوفير التمويل لألمانيا النازية، كما أنشأت مكتب التسجيل اليوجيني في كولد سبرينج هاربور (موقع مشروع الجينوم البشري حالياً). أما الدور الذي لعبه رجال الصناعة هؤلاء في تعضيد النازي، والذي كان يحظى بالتعضيد الكامل من الحكومة الأمريكية، فلعله يتضح لنا إذا عرفنا أن مصانعهم بألمانيا النازية لم تُقصف بقنابل الحلفاء رغم أنها كانت تشكل القاعدة الصناعية للنازي. بل إن الكثيرين من كبار النازيين ممن كانوا يعضدون اليوجينيا أثناء الحرب العالمية الثانية قد انتقلوا إلى الولايات المتحدة، وعملوا في الجامعات وأجهزة الإعلام ومعاهد البحوث الحكومية ووكالة المخابرات المركزية (السي آي إيه): جاء بهم نفس الرسميين الذي عملوا مع عائلة بوش في بناء ألمانيا النازية، ولقد شكلت آراؤهم الكثير من الأجندة التي تروج لها النخبة اليمينية في أمريكا.



الواقع أن اليوجينيا قد حققت بعد الحرب الكثير والكثير من أهدافها. لقد كان قدر النجاح في تطوير ونشر «تنظيم النسل» أبعد من كل خَيَال. وفي سبعينيات القرن العشرين اكتشف بول إيرليش لليوجينيين «الانفجار السكاني»، وأثار هستيريا مجنونة حول ضرورة إبطاله. ولقد كُبح الانفجار السكاني في العالم بصورة لم يكونوا يحلمون بها. تم خلال الخمسة والعشرين عاماً الماضية في العالم ما يزيد على بليون ونصف بليون عملية إجهاض. من يصدق هذا؟ تناقص متوسط عدد الأطفال للمرأة بأكثر من الثلث في ظرف ثلاثين عاماً: نقص المتوسط في كل الدول النامية من ٦,١ طفل إلى ٣,٦ طفل. ثم أخذت اليوجينيا تطرق مدخلاً جديداً هو تحويل نمط الحياة والثقافة لسكان العالم الثالث كي يتوافق أكثر مع نظرة الغرب المتحررة نحو الجنس والتكاثر.

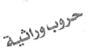
ثم دخل العالم «عصر المعلومات»، عصر الاتصالات والخدمات، عصراً ينصب اهتمامه على المهارات النادرة، عصراً سيتطلب التخلي عن سياسة تعليم الجماهير، والاكتفاء بتعليم صفوة. كان عصر اقتصاديات الإنتاج بالجملة يتطلب تعليم الجماهير لتوفير المهارات البسيطة للكل. أما عصر المعلومات فيتطلب التأكيد على المهارات العالية لأفضل الطلبة. كان نظام المصنع يوفر وظائف تكرارية، أما عصر المعلومات فيتطلب مهارات عالية للغاية في أعمال غير تكرارية، هو عصر ربما أنتجت فيه نخبة لا تزيد على ٥٪ من المجتمع، نسبةً من الدخل القومي تصل إلى ٨٠٪، ليعتمد توظيف الـ ٩٥٪ الباقية من السكان على نجاح هذه الصفوة. سيؤول الأمر إلى «حكم القلة» اليوجينية، الذي يُسقط الحاجة إلى ترف تعليم الجماهير ويعمل على تشجيع التعليم الخلاق اللازم للتقدم العلمي والتكنولوجي. ولقد قالها اليوجيني ألدوس هكسلي عام ١٩٣٤: إن تعليم الجماهير الغفيرة قد خلق طبقة عريضة يمكن أن نسميها طبقة «الأغبياء الجدد». واليوجينيا ضد الأغبياء. بل لقد طالب د. هـ. لورانس بإغلاق كل المدارس فوراً: «إن معظم البشر لا يجب أن يتعلموا القراءة والكتابة». لماذا؟ لأن أشباح المجاعة والمرض والحرب، كما يقول





فى عام ١٩٧٤ قام مجلس الأمن القومى الأمريكى، وكان يحدد التهديدات الرئيسية للدولة، بدراسة اقترحت أن النمو السكانى فى العالم الثالث قد يسبب القلاقل





جورج مور (سنة ١٨٨٨!) «هى أمور أخف وطأة، مقارنةً بالخَطَر الذى يتوعدنا من تعليم الجماهير الغفيرة» - يتوعد النخبة البريطانية بالطبع. اليوجينيا ضد تعليم الجماهير!

بعد هذه النجاحات العريضة بدأ اليوجينيون يظهرون بوجههم علنا. فى عام ١٩٩٤ نُشِر كتاب «منحنى الجرس» لمؤلفَيْن ليس منهمَا وراثى : ريتشارد هيرنشتاين (السيكولوجى) وتشارلس موراى (عالم السياسة). صدر هذا الكتاب «ليؤصل من جديد مفهوم العرقية، ويلبسها رداء العلم، فتنطلى على الكثيرين ممن يعتقدون فى العلم والعلماء كسلطة»، كما كتبتُ ذات مرة، «فجوهر الكتاب يلخصه هذا الاقتراح البسيط: فلنحيا معاً فى أمان، وليعمل كلٌ فيما خُلِقَ من أجله: أنت يا أيها الأسْود تكدح، وأنا الأبيضُ أحكمك». نعم، أفصحت اليوجينيا هنا عن اسمها الصريح : العرقية!



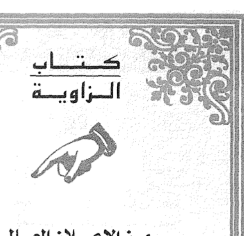
يقول الكتاب إن هناك من الأبحاث ما يشير إلى أن قيمة العمق الوراثى لصفة الذكاء هى ٨٠٪ - هذا الرقم يمثل النسبة من التباين الملحوظ فى الذكاء بين أفراد العشيرة، والتى ترجع إلى التباين فى وراثتهم. ثم قال إن أبحاثاً أخرى قد قدرت القيمة بـ ٤٠٪ فقط. وبمنتهى البساطة اعتبر المؤلفان أن القيمة المثلى التى لا تغضب أحداً هى ٦٠٪، متوسط الرقمين، ثم إنهما أقاما كل مناقشات الكتاب على هذا الرقم. والخطأ هنا خطأ فاحش. ربما كان لنا أن نستطرد قليلاً لتوضيح هذا النقطة. دعنا نتخيل أننا نريد أن نقدر العمق الوراثى لصفة لون البشرة فى عشيرة من الزنوج. لن نجد تبايناً بين الأفراد. العمق الوراثى يساوى صفراً. دعنا نحاول أن نقدره فى عشيرة من المصريين وفيهم ما نعرفه من تباين واسع فى لون البشرة. هنا قد نجد مثلاً أن العمق الوراثى يساوى ٦٠٪. ما سيقوله مؤلفا «منحنى الجرس» هو أن أفضل قيمة هى ٣٠٪، متوسط الرقمين. هذا الرقم الأخير لا يعنى شيئا البتة! فلا هو يصلح للعشيرة الأولى ولا هو يصلح للثانية. إنه مجرد تلفيق بلا مدلول. الرقم الذى نقدره لعشيرة لا يعنى شيئاً على الإطلاق بالنسبة للعشيرة الأخرى. وقيمة الصفر إنما تعنى أن جينات هذه الصفة قد ثُبِّتَت فى كل أفراد الزنوج (بالانتخاب الطبيعى مثلاً) فلم يعد بينهم تباين، وقيمة ٦٠٪ تعنى أن هناك لا تزال اختلافات فى التراكيب الوراثية بالنسبة لهذه الصفة بين أفراد المصريين. وصفة لون البشرة فى كلتا العشيرتين بالطبع صفة وراثية تتحكم فيها الجينات!

فإذا رجعنا إلى صفة الذكاء، فإن قيمة العمق الوراثى فى عشيرة من البيض، وقيمتها فى عشيرة أخرى من السود لن يفيدا إطلاقاً فى مناقشة كتلك التى انهمك فيها هيرنشتاين وموراى. إنما المهم هو مقدار التباين الوراثى فى كل من العشيرتين - وهذا أمر لم يتطرق إليه صاحبا «منحنى الجرس». وياليت اليوجينيين يعرفون أن الصفة قد تكون وراثية حتى وإن كان عمقها الوراثى يساوى صفراً، وياليتهم يكفون عن الإيحاء بأن «ارتفاع» قيمة العمق الوراثى لصفة الذكاء يعنى أنها «وراثية جداً» ومن ثم مُهمة!!! ثم متى يدركون أن ارتفاع العمق الوراثى للصفة فى عشيرة ما إنما يعنى أن الصفة هامشية لا أهمية كبيرةً لها فى البقاء؟

ثم دخلنا عصر الهندسة الوراثية والبيوتكنولوجيا والجينوميا، وتزايدت الأبحاث التى تربط الجينات بالصفات السلوكية، وبالذكاء. وفى عام ٢٠٠١ أعلن ريتشارد لين عن عودة اليوجينيا، هكذا باسمها الصريح. أصدر كتابه «اليوجينيا... إعادة تقييم» وقال فيه إننا على أبواب عصر جديد، إننا نتحرك بسرعة تفوق الخيال الى «نوع» بشرى جديد. وستسبقه حرب عرقية.

قال إن اليساريين قد أمسكوا بزمام البروباجندة الإيديولوجية، وأقنعوا الغرب أنْ لا شىء يسمى «العرق أو السلالة» وأقنعوه أن اليوجينيا علم كاذب. تمكنوا من ذلك بقوة شخصياتهم وسلبية الجماهير التى تُصدِّق كل ما يُقال. بالتكرار والإلحاح والخداع تمكن «إرهابيو الفكر» اليساريون هؤلاء من تحييد المجتمع الغربى ليصدق أن للبشر جميعاً طبيعةً واحدة. ثم قال بجلاء إن علينا الآن أن نحرر أنفسنا من هذه القيود التى كبلونا بها حتى لم يعد فى استطاعتنا أن نعترض على ذات فكرة وجود فروق عرقية بين البشر.

بدأ لين بأن أَجْهَزَ على فكرة



من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان (١٩٤٨)

لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة فى هذا الإعلان، دون أى تمييز، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأى السياسى أو أى رأى آخر، أو الأصل الوطنى أو الاجتماعى أو الثروة أو الميلاد أو أى وضع آخر، دون أية تفرقة بين الرجال والنساء. (مادة ٢)

لكل فرد الحق فى الحياة والحرية وسلامة شخصه. (مادة ٣)

لا يعرض أى إنسان للتعذيب ولا للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة. (مادة ٥)

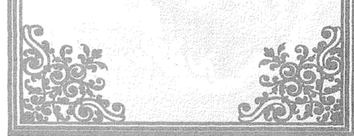
لكل إنسان الحق، على قدم المساواة التامة مع الآخرين، فى أن تنظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظراً عادلاً علنياً للفصل فى حقوقه والتزاماته وأية تهمة جنائية توجه إليه. (مادة ١٠)

لا يعرض أحد لتدخل تعسفى فى حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات على شرفه وسمعته، ولكل شخص الحق فى حماية القانون من مثل هذا التدخل أو تلك الحملات. (مادة ١٢)

(١) لكل فرد حرية التنقل واختيار محل إقامته داخل حدود كل دولة.

(٢) يحق لكل فرد أن يغادر أية بلاد بما فى ذلك بلده كما يحق له العودة إليه. (مادة ١٣)

لكل فرد الحق فى أن يلجأ إلى بلاد أخرى أو يحاول الالتجاء إليها هرباً من الاضطهاد. (مادة ١٤)



معادلة النازية باليوجينيا، ومعادلة اليوجينيا بالهولوكوست. لم يكن لدى ألمانيا النازية برنامج لتعقيم المتخلفين عقلياً يزيد حجمه عن البرامج لدى دول أخرى فى ذلك الوقت. فالسويد، مقارنة بتعدادها، قد عقمت أكثر من أى دولة أخرى فى الغرب. أما «القتل الرحيم» فكان يُجرى لإفساح المكان بالمستشفيات للمجهود الحربى بعد بداية الحرب عام ١٩٣٩، ليس للقتل الرحيم علاقة باليوجينيا. أما قتل اليهود فى الهولوكوست فقد جرى عندما اعتُبروا السبب فى نشر الشيوعية، ولأنهم اعتُبروا سلالة ذكية قادرة على منافسة ألمانيا فى سيادة العالم. البرنامج اليوجينى الألمانى إذن أبداً لم يتطور، وأبداً لم يكن عدوانيا، لكن الماركسيين نجحوا فى أن يلصقوا اليوجينيا بالنازية لتُكْرَه، وثَبَّتُوا هذا فى أذهان الناس.

ولقد بقى الحال كما هو لم يتغير - يقول. إذا ما قارنتَ البيض بالسود فإن التحدث عن التفاوت بينهما عادة ما يُوسم بالعنصرية أو يعزى إلى فشل الحكومة فى أن تقوم بواجبها ليصبح الناس سواسية. أبداً لم يذكر أحد أن دَخْلَ الجماعات العرقية المختلفة يعادل متوسط ذكائهم. السود فى القاع واليهود وشعوب شرق آسيا فى القمة. هم يقولون إن للجماعات العرقية المختلفة نفس متوسط الذكاء، وينشر علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا البحوث التى تؤكد هذه الأسطورة - ويتجاهلون تماماً الفروق الوراثية بين السلالات البشرية!

يستطرد لين. لما كان العمق الوراثى للذكاء مرتفعاً (قال إنه يساوى ٨٠٪ - أخذ التقدير الأعلى الذى تكرم موراى بتخفيضه إلى ٦٠٪) فمن الممكن لليوجينيين أن يحسنوا فيه سريعاً، ومن الممكن أن ينجزوا قفزات واسعة فى جيل واحد باستعمال تكنولوجيات الوراثة الحديثة. إذا ما قام الزوجان بانتخاب أكثر الأجنة ذكاء لزرعه فى رحم الزوجة، فسيرتفع ذكاء النسل ربما بمقدار ١٥ نقطة فى كل جيل، وحتى أن تصل إلى الحد الأعلى نظرياً (٢٠٠ نقطة) دون الحاجة لأى طفرة جديدة. كل ما يحتاجه لين هو تحديد «جين الذكاء»...

مع دخولنا عصر البيولوجيا الجزيئية والهندسة الوراثية والجينوميا، بدا لليوجينيين الأمر وكأننا على وشك الانتهاء من حسم قضية الفروق الوراثية بين السلالات البشرية - فقضية اليوجينيا من أولها إلى آخرها قضية وراثية. توالت نتائج التشريح الجزيئى لمادتنا الوراثية حتى اكتملت خريطة الجينوم البشرى من أسابيع قليلة. الأمر لن يحتاج - فى رأى لين - إلا إلى سنين معدودة حتى نعثر على «الجين» المسئول عن الذكاء (إن كان ثمة!). لكن صفة الذكاء، حتى لو أمكن تعريفها وقياسها، لابد أن تكون صفة كمية مراوغة تعتمد على عدد كبير من الجينات مبعثرة هنا وهناك على طول الكروموزومات، وهى بالضرورة تتأثر بالبيئة الخارجية وبالجينات الأخرى فى نفس الجينوم. هى صفة - إن وُجدت - «بازغة»، لا يمكن أبداً التنبؤ بها من معرفتنا بالتشريح الجزيئى للجينوم. أرأيت إذ طُلِب إليك أن تكتشف خصائص الماء، فَقُدِّمت إليك التفاصيل الدقيقة لذرة الأيدروجين والتفاصيل الدقيقة لذرة الأكسجين؟ خصائص الماء «بازغة» لن تكتشفها أبداً من هذه التفاصيل. إن معرفتنا بتفاصيل جينوم أى شخص لن يمكِّننا يوماً من معرفة «ذكائه».

لَكن لين يتوقع أن يحددوا له جين الذكاء. يستطرد: وحتى لو تكلف «إنتاج» هذا الطفل الذكى مائة ألف دولار، فسيعوض الأبوان ذلك بما سيوفرانه فى تعليم الطفل وما سينتظره من وظيفة ذات شأن. ثم إن ذكاء الطفل المُزَوَّد بالجين سيبقى وينتقل فى كل جيل تال.

يختصر لين اليوجينيا فى جين، بل يختصر الإنسان فى جين. مَنْ يحمل هذا الجينَ، أو قُلْ مَنْ يحمله هذا الجينُ، تُكتبُ له السيادة، أو يجب أن تُكتبَ له. كذا بهذه البساطة. نشأت العنصرية بسبب هذا الجين ولم نكن ندرى! قُتل مَنْ قُتل، وأُجْهِض مَنْ أُجْهِض، وعُقِّم مَنْ عُقِّم فى الحركة اليوجينية لأنهم لم يحملوا هذا الجين.

ماذا إذن لو اقتنص الملونون الجين الذى ينتظره لين، ثم أولجوه بتقنية الهندسة الوراثية فى أجِنَّتهم الملونة لينتجوا سلالة سوداء ذكية فى مثل ذكاء البيض، هل سيسمح لهم الأذكياءُ البيض بالبقاء، ويكفون عن اضطهادهم وتحديد نسلهم واستباحة أراضيهم وثرواتهم الطبيعية؟ أم تُراهم سيتذكرون عندئذ أن هناك جينات أخرى مساعدة لا يزال الملونون يفتقرونَ إليها؟ لو أن نزعة الخير والإنسانية هى المحرك الحقيقى لليوجينيا، لتوقعنا أن يفكر اليوجينيون على الفور فى زرع هذا الجين فى السود لرفع ذكائهم إلى المستوى الذى يرون أنه اللائق بالإنسان!

أَمِنَ الممكن أن يقود الحماسُ لليوجينيا - العنصرية إلى كل هذا القدر من البغض للإنسان؟ أمِن الممكن حقاً أن يتصور اليوجينيون أنْ لن يقدر عليهم أحد؟ أنَّ الأرضَ كلَّها هى أرض الرجل الأبيض، لأنه هو مَنْ تمكن من كل هذا العلم؟ يطغى الإنسانُ إذا استغنى.

إن المخيف هو أن الأصوات قد أخذت تتصاعد وتتعاقب ويتزايد ارتفاعها تمجد اليوجينيا، وتلوث الجو الذى يتنفسه الساسة. عاد الوجه الحقيقى القبيح لليوجينيا. سَقَط القناع!



أكتب هذا المقال بعد انتهاء حرب العراق اليوجينية.

جرس على المنحنى يدق، فهل نستيقظ؟

أســـــرار جـــــديدة فى..

لقـــد كـــان لـــدى أمير ويلـــز
ولـــع بالنســـاء المتزوجـــات، اللاتـــى لديهـــن
تعـــاطـــف تجـــاه ضـــعـــف كفـــاءتـــه الجنســـيـــة،
ويبـــدو أن مســـز ســـيمبســـون كـــانت مـــن أراده تحـــديداً

■■ يبدو أن أسرار العائلة البريطانية المالكة لن تنفد أبداً. فقد كشفت دار الوثائق البريطانية مؤخراً عن فضيحة جديدة فى حياة الملك إدوارد الثامن الذى كان متوقعاً أن يكون ملك بريطانيا فى الثلاثينيات من القرن الماضى. وذلك على الرغم من أن حكومة هارولد ويلسون كانت قد قررت فى عام ١٩٦٧ عدم الإفراج عن هذه الوثائق حتى عام ٢٠٣٦، حيث كان من المتفق عليه أن هذه الوثائق ستبقى سرية فقط طوال حياة الملكة إليزابيث الأم، ربما بسبب الضغينة المزعومة بينها وبين مسز سيمبسون زوجة الأمير إدوارد.

وقد كشفت دار الوثائق البريطانية عن أسرار تخلى الأمير إدوارد عن العرش فى الثلاثينيات من القرن الماضى بسبب حبه لامرأة أمريكية متزوجة، أثارت نيته للزواج منها صراعاً سياسياً عنيفاً بينه وبين البرلمان، انتهى بتخلى الأمير عن العرش برغم إرادته وحرمان زوجته من أى ألقاب ملكية، فقد كانت سلطة البرلمان قوية للدرجة التى لم يستطع الأمير معها أن يقوم بمجرد إلقاء خطاب وداعه للأمة بعد اضطراره للتخلى عن العرش.

كان اللقاء الأول الذى جمع بين مسز سيمبسون وإدوارد أمير ويلز فى عام ١٩٣١، حفلاً منزلياً أقامته فيورنيس، خليلة الأمير وصديقة مسز سيمبسون فى ميلتون موبراى. وفيما بين عامى ١٩٣٢ و١٩٣٣ أصبحت مسز سيمبسون وزوجها الثانى إرنيست، وهو أمريكى المولد ويعمل سمساراً لأعمال الشحن، من الضيوف المعتادين لمنزل الأمير الريفى (فورت بيلفيدير). وكانا غالباً ما يقومان بدعوته إلى حفلات الكوكتيل التى يقيمانها فى شقتهما بلندن. وفى عام ١٩٣٤ قام الأمير بدعوة آل سيمبسون لقضاء أجازة معه فى (بياريتز)، إلا أن السيد سيمبسون لم يستطع المجىء بسبب انشغاله فى أعماله، بينما حرصت مسز سيمبسون على تلبية دعوة الأمير. ومع نهاية العام قام الأمير إدوارد ومسز سيمبسون برحلة للتزلج سوياً على الجبال الجليدية فى النمسا.

لقد كان لدى أمير ويلز ولع بالنساء المتزوجات، اللاتى لديهن تعاطف تجاه ضعف كفاءته الجنسية، ويبدو أن مسز سيمبسون كانت من أراده تحديداً.

كانت مسز سيمبسون، كما جاء فى الوثائق التى أفرج عنها أخيراً، « شديدة الجاذبية وتنفق بإسراف على ملابسها ورفاهيتها الخاصة. على الرغم من ذلك، فقد ذكرت التقارير رفقتها المشبوهة بالليدى إميرالد كونراد، التى كانت مدمنة للمخدرات، وهى والدة نانسى كونراد التى عرفت بانحيازها للرجال السود».

وفى عام ١٩٣٦ أصبحت علاقة الملك بمسز سيمبسون قضية قومية بعدما تطورت علاقة الأمير إدوارد بمسز سيمبسون إلى الحد الذى دفع أحد الصحفيين الكبار فى صحيفة التايمز للاتصال بالملك مطالباً إياه بأن يعلن بياناً عاماً حول مستقبله الشخصى، ومستقبل الملكية.

وتورد الوثائق التى أفرج عنها مكتب السجلات العامة بالتفصيل محاولة الملك الأخيرة والواهنة لأن يتجاوز معارضة

عن صحيفتى:
Sunday Times & The Times
ترجمة واعداد : رانية خلاف

فضيحة ملكية قديمة!!

إدوارد وسيمبسون

العرش.. الحب.. الخيانة

حكومة بالدوين لزواجه من «واليس سيمبسون»، وأن يتوجه بخطابه مباشرة إلى الشعب البريطاني.



تحت ستار الظلام قام الأمير إدوارد باستدعاء رئيس الوزراء ستانلي بالدوين إلى البوابة الخلفية لقصر باكنجهام في محاولة منه لإقناعه بإلقاء خطابه للأمة، ولكن بالدوين كان قد عقد العزم على الايدع الملك يلقى خطابه الأخير.

وكان الأمير إدوارد قد قام بمساعدة من ونستون تشرشل، الذى كان فى تلك الفترة عضواً محافظاً فى البرلمان البريطانى، بإعداد خطاب ليلقيه فى راديو (بى بى سى) فى الرابع من ديسمبر عام ١٩٣٦، وفى هذا الخطاب كان الملك ينوى إعلان نيته للزواج من امرأة أمريكية طلقت للمرة الثانية - الأمر الذى كان محل شائعات احتلت صفحات الصحف الأجنبية. أما الصحف البريطانية فقد كانت الحكومة البريطانية تحكم سيطرتها عليها فى هذا الأمر.

وفى مسودة الخطاب، عرض إدوارد أن يترك البلاد لفترة بعد زواجه حتى تخفت حدة الخلافات التى أثارها أمر زواجه، ولكنه لم يذكر بأى شكل نيته للتخلى عن العرش. لقد كان من الواضح إذن أنه كان لايزال يأمل فى إتمام زيجته ويحتفظ فى الوقت ذاته بمكانه فى العرش.

ولهذا استدعى الأمير إدوارد رئيس الوزراء بالدوين سراً لمناقشة إذاعة الخطاب فى الثالث من ديسمبر فى الساعة التاسعة مساءً إلى القصر الملكى. ورغم أنه وصل عن طريق المدخل الخلفى للقصر، إلا أن الصحفيين تمكنوا من التقاط بعض الصور. وفى اليوم التالى، أعطى بالدوين رده القاطع للملك، قائلاً له: «إن إلقاء الخطاب سيكون خرقاً خطيراً للمبادئ الدستورية. وإنه - أى إدوارد - لن يكون بعد ذلك ملكاً دستورياً».

وأضاف بالدوين، حجة جديدة لمعارضة إلقاء الملك لخطابه قائلاً: «إن هذا سيصدم الكثير من الناس - وخاصة النساء اللاتى يتميزن بالتعاطف الشديد تجاه الملكية - حينما يسمعن من الملك مباشرة نيته للزواج من امرأة لاتزال زوجة رجل آخر. إن الأمر بهذا الشكل سيثير الصحافة ويجعلها تبحث فى ماضى مسز سيمبسون، كما قد يؤدى الأمر إلى تدخل فى إجراءات طلاقها من زوجها التى لم تتم بعد وقد يتطور الأمر إلى حدوث اعتداءات جسدية على مسز سيمبسون».

وقد أثار إصرار الملك على الزواج من سيمبسون قلقاً بالغاً لدى أعضاء البرلمان وعلى رأسهم بالدوين، الذى دعا إلى اجتماع سريع للبرلمان فى الساعة الحادية عشرة والنصف من يوم السابع والعشرين من نوفمبر. ويقول دوف كوبر وزير الحرب البريطانى، فى مذكراته عن هذه الفترة، أنه لا يتذكر بالتحديد السبب العاجل لانعقاد البرلمان، ولكن يبدو أن إحكام الحكومة السيطرة على الصحف قد بدأ فى الانفلات. لقد ذكر رئيس الوزراء أن صحيفة تدعى «كافالكاد» نشرت صورة مكبرة للملك مع مسز سيمبسون مصحوباً بتعليق يقول: «الملك يسير على هواه»، وأن عضواً من أعضاء حزب العمال قد علق مؤخراً قائلاً: «ترى، هل ترغبون فى ملكية فاشية؟».

وبرغم رفضه الصارم لهذه الزيجة، فقد استشار بالدوين فى هذا الأمر كليمينت أتلى، رئيس حزب العمال، الذى رفض حتماً هو وحزبه مجرد النظر فى مسألة الزواج كحل لهذه الأزمة.

ويواصل كوبر فى مذكراته: «انعقدت جلسة تاريخية للبرلمان لمدة الساعة والربع. كانت هناك مناقشة قصيرة بعد انتهاء رئيس الوزراء من حديثه، وكان هناك إجماع عام بأن اقتراح الزواج أمر لا يمكن التفكير فيه. وقالوا أنه لم تكن هناك سابقة مماثلة. كنت فقط أحاول أن أشجعهم على إعطاء فرصة لكسب المزيد من الوقت. قلت لهم عادةً فى الحياة الخاصة حينما يريد شخصان غير مناسبين الزواج، فإن الوسيلة المثلى هى إقناعهما بالانتظار لمدة عام. وقلت لهم أننى حينما قابلت الملك قال لى أن واليس ستكون إما ملكة أو لا شىء.. رد رئيس الوزراء قائلاً أن الأمور قد زادت حدتها بدرجة لا تنفع معها مسألة التأجيل. وأعتقد أن الجميع كان يوافقه الرأى».

فى الثانى من ديسمبر، كانت علاقة الملك بسيمبسون هى الموضوع الساخن فى الصفحات الأولى لكل الصحف البريطانية وقد ساندت صحيفة واحدة هى نيوز كرونيكل أمر الزواج، بينما تجنبت الديلى ميل إعطاء رأى واضح فى هذه المسألة، أما الديلى إكسبريس فقد اتخذت موقفاً أكثر جبناً من صحيفة الميل.

ويبدو أن هذا الأمر هو ما دفع البرلمان للإسراع فى اتخاذ إجراءات البيان الخاص بالتخلى عن العرش.

وفى الخامس من ديسمبر، وفى محاولة أخيرة منه كتب تشرشل، الذى كان من الشخصيات المقربة للملك إدوارد، لبالدوين خطاباً راجياً أن يتعامل مع قضية إدوارد بـ« تعاطف ونبل» حتى تحل ورطته هذه. إن خطاب تشرشل، الذى أذيع للمرة الأولى مؤخراً، كان يحمل تحذيراً واضحاً من خطورة تدهور حالة الملك العقلية. وقد جاء فى خطاب تشرشل «لقد طلبت من بطانته وبشكل ملح أن يقوموا باستدعاء طبيب. إن جلالته يبدو واقعاً تحت ضغط عصبى هائل ويبدو أنه على حافة الانهيار. لقد شاهدت بنفسى حالتى إغماء وقتى فقد فيهما الملك تماماً خيط الحديث». وأكمل تشرشل خطابه راجياً بالدوين: «آمل أن تترك للملك فرصة لاستعادة نفسه وإعادة التفكير فى الأمور بعدما وصلت إلى ذروتها، على المستويين الدستورى والشخصى، حيث وجدت أن من واجبك أن تواجهه بها، آمل أنك لن تخذلنا بنبلك وتعاطفك».

ولكن هذا الالتماس لم يجد سوى آذان صماء، بل الأكثر من ذلك، أن بالدوين أخبر البرلمان فى اليوم التالى أنه لم يكن ليرى الملك فى حالة أفضل من ذلك وأنه كان متفهماً للغاية لرفض البرلمان البريطانى لزواجه من واليس سيمبسون.



وقد جاء نص خطاب التخلى عن العرش مثيراً، فقد بدأه الملك بالقول: «فى هذا المساء سأتحدث إليكم كأصدقائى - أيها الرجال والنساء البريطانيون أينما كنتم تقطنون، داخل أو خارج الامبراطورية. هذه هى المرة الأخيرة التى أوجه إليكم خطاباً، فى يوم القديس دافيد. أقول لكم أنكم قد عرفتمونى جيداً كأمير ويلز. أنا لازلت هذا الشخص ذاته، الذى وضع لنفسه شعار (Ich Dien) أو إننى هنا لأخدم، ولقد حاولت أن أخدم هذا الوطن والامبراطورية طيلة العشرين عاماً الأخيرة».

وأضاف الملك: «وفى هذا المساء لم أنس دول الدومينيون العظيمة - الدول المستقلة من دول الكومنولث البريطانى التى تعترف بالعاهل البريطانى رئيساً للدولة - والبلاد الخاضعة لسلطان بريطانيا فيما وراء البحار الذين كانوا دوماً على علاقة طيبة وودودة معى.

إننى الآن أدرك أن الصحف فى دول أخرى قد أعطتكم مبرراً قوياً للتخمينات فيما يتعلق بما أنتوى أن أفعله - فيما يتعلق بما سوف يحدث بالفعل. وأريد هنا أن أعبر عن امتنانى لصحف بريطانيا العظمى على الكياسة والتفهم اللذين أظهرتهما».

ويستطرد الملك فى خطابه، «لم يكن فى نيتى أبداً أن أخفى أى شىء عنكم. حتى اليوم لم يكن من الممكن بالنسبة لى أن أتحدث فى هذا الموضوع. ولكنى لم أعد أستطيع الاستمرار متحملاً العبء الثقيل الذى دائماً ما يقع علىّ بصفتى ملكاً، إلا باتخاذى وضعاً قوياً فى هذه المهمة الصعبة من خلال حياة زوجية سعيدة، ولهذا فإنى وبشكل حازم عقدت العزم على أن أتزوج المرأة التى أحبها، حينما تكون حرة لتتزوجنى».

وجاء فى نص الخطاب: «إنكم تعرفوننى جيداً لتفهموا أنى لم أفكر فى الزواج لمجرد أن أستريح. لقد استغرق الأمر منى وقتاً طويلاً لكى أجد المرأة التى أريدها أن تكون زوجتى. بدونها، كنت رجلاً وحيداً للغاية. و معها سيكون لى بيت وكل الصحبة والتعاطف والفهم المتبادل الذى يمكن أن توفره الحياة الزوجية. أعلم أن الكثيرين منكم كان لديه الحظ السعيد لأن ينعم عليه بمثل هذه الحياة. وأنا متأكد، أنكم من قلوبكم، ستتمنون الشىء ذاته لى».

واختتم الملك خطابه للشعب البريطانى موضحاً موقفه من الحكم الملكى قائلاً: «لم يفكر أبداً أحد منا، لا أنا ولا مسز سيمبسون فى أمر كونها ملكة. كل ما رغبنا فيه هو أن سعادتنا المتبادلة ينبغى أن تحمل معها لقباً واحتراماً مناسبين لها، ملاءمين لزوجتى. والآن، وقد صارحتكم فى النهاية بما لدىّ، أشعر أنه من الأفضل أن أرحل لفترة، حتى تستطيعوا أن تفكروا بهدوء وروية، ولكن بدون تأخير غير مناسب، حول ما صارحتكم به. لا شىء أقرب إلى قلبى من العودة ثانية، ولكن، مهما كانت ستسير الأمور، فإننى سأحمل دوماً مشاعر

عميقة لوطنى، للامبراطورية، ولكم جميعا».

وهكذا، أعلن الملك تخليه عن العرش فى ١١ ديسمبر ١٩٣٦، كما كان بالدوين يتمنى، وبعد أقل من عام من توليه عرش بريطانيا بعد وفاة الملك جورج وبينما كانت وثيقة التخلى عن العرش يتم تمريرها فى البرلمان وسط مشاعر درامية فى لندن، كانت مسز سيمبسون لاجئة فى فيلا (لو فييه) بمدينة كان بفرنسا. وحينما سمح لإدوارد أخيراً بإذاعة رسالته للأمة فى الثانى عشر من ديسمبر، كان قد نزعت عنه صفته الملكية. وفى الثالث من يونيو ١٩٣٧، تزوج إدوارد بمسز سيمبسون فى باريس بصفتهما دوق ودوقة وندسور.



لقد أفرجت الحكومة عن كل الأوراق التى بحوزتها والتى تتعلق بأزمة التخلى عن العرش. فهل أصبح لدينا أخيراً كل تفاصيل الصورة؟

إن الاتصالات العديدة بين حكومات الدومينيون والوايتهول (مقر الحكومة) والتى تتكشف الآن. إن معارضى زواج الملك قد أصروا على أن الدومينيون كانوا معارضين وبشكل عنيد لهذا الزواج، وبأن إدوارد قد خاطر بكسر رباط الامبراطورية فيما يتعلق بتقاليد التاج الملكى. من الواضح الآن أن حكومات الدومينيون كانت قلقة بالفعل ولكنهم كانوا ينظرون للحكومة البريطانية منتظرين أن تقوم بتوجيههم.

كان السير هوراس ويلسون، مستشار الداوننج ستريت «رئاسة الحكومة البريطانية» أحد الشخصيات التى تورطت فى هذه الدراما بشكل خفى وكان وثيق الصلة بكل من رئيس الوزراء ستانلى بالدوين، وخليفته نيفيل شامبرلين. لقد قام ويلسون بتحذير شامبرلين من خطورة مسز سيمبسون - حيث كانت على علاقة بالحركة النازية - وكانت لديها أفكار محددة لها علاقة بالنظم الديكتاتورية.



وفى محادثة مع بالدوين، تعجب ويلسون من احتمال أن «المؤرخين المستقبليين» سيسألون لمَ لم يوضع الملك إدوارد تحت ضغوط قبل فوات الأوان؟ إلا أن بالدوين ادّعى أنه لم يتصور أن إدوارد سيظل متمسكاً بمسز سيمبسون بعد أن يتوج ملكاً. والأكثر من ذلك، كما أضاف بالدوين: «كان اتصال إدوارد القليل بإخوانه يمنعهم من ممارسة أى ضغوط عليه. لقد جاءت مسز سيمبسون، فى الحقيقة، وكما يحدث غالباً لتصنع جداراً بينه وبين أعضاء الأسرة المالكة».

وفى مذكرات دوف كوبر، وزير الحرب البريطانى الذى كان المؤتمن على أسرار أمير ويلز أثناء أزمة التخلى عن العرش، ذكر لقاءه فى السابع عشر من نوفمبر ١٩٣٦ مع الأمير إدوارد حيث قال له أنه «ينتوى أن يتزوج من واليس سيمبسون، وأنه إن لم يستطع أن يفعل ذلك ويحتفظ بالعرش الملكى فإنه سيتخلى حتماً عن العرش. وقال إنه لو كان مجبراً على أن يفعل ذلك فليكن بأكثر الطرق احتراماً وأقلها ضرراً بالبلاد. وقال إن وضع أبيه الراحل وشعبيته كملك ارتكزت بشكل كبير على حياته الزوجية السعيدة. وأنه يدرك أن مهمة الملكية مهمة ثقيلة لا يقوم بها إلا رجل متزوج. وأن هناك اختلافاً كبيراً بين حياته كأمير ويلز التى كانت تسمح له بالعديد من الأمور التى من الصعب القيام بها مستقبلاً بصفته ملكاً». ويقول كوبر فى مذكراته التى نشرت هى الأخرى مؤخراً فقط، أنه قال للأمير: «أفترض أنك سمعت كل الآراء المعارضة لك والتى كان من الممكن أن تثنيك عن عزمك وأنى لهذا لا أرغب فى إضاعة وقتك ووقتى بتكرار هذا الكلام، ولكنى أردت أن أكرر لك، بالرغم من ذلك، أن اللوم كله بشأن هذه المأساة يقع على واليس، الآن وعلى مدى التاريخ». ويقول كوبر: «إن الأمير بدا مهزوزاً حينما سمع هذا الكلام، وقال إن هذا سيكون ظلماً كبيراً».

يبدو من مذكرات كوبر أن الأمير كان عاقد العزم على الزواج من سيمبسون، وبذلك تتضاءل احتمالات المؤامرة الكبرى من جانب البرلمان لإزاحة الملك إدوارد عن عرشه. ففى التاسع عشر من نوفمبر، كما يستطرد كوبر فى مذكراته «عقدت مأدبة غداء صغيرة فى التروكاديرو لمائتين من كبار رجال الأعمال، وحينما انتهيت من الحفل ذهبت إلى منزل السير هنرى تشيبس تشانون وهو سياسى وكاتب سيرة ذاتية (١٨٩٧-١٩٥٨). كان هناك حفل عشاء كبير حضره الملك إدوارد، الأمير باول، الأميرة أولجا، والعديد من الشخصيات البارزة، وواليس. كان الملك يبدو فى حالة معنوية مرتفعة، تحدث معى عن مسألة توظيف الجيش وفوضى أسلحة المدفعية، وعن إذاعة ال (بى بى سى)، وشرحت له حدود استقلالها». سوف أغير ذلك» أجاب الملك: «سيكون آخر أمر أقوم به قبل الرحيل»، أضاف الملك بصوت عال وهو يضحك، وكأنه كان يتطلع للرحيل. بعد مغادرته الحفل، أخذت واليس جانباً. لقد أخبرها بالتأكيد بمقابلتى له. حاولت أن أقنعها بأهمية رحيلها فى الوقت الحالى عن البلاد. قالت أنه» لن يطيق سماع مثل هذا الكلام، وأنها لو رحلت فإنه سيسعى وراءها أينما ذهبت». أعتقد، من الناحية الأخرى، أنها كانت تستطيع إقناعه بأى شىء، حتى الانفصال لمدة عام. ولكنى لا أعتقد أنها كانت ستخاطر باحتمال فقده خلال هذه الفترة. لقد حاولت أن أقنعها بأن الانفصال كان هو البديل الوحيد للتخلى عن العرش، الذى كان سيكون له نتائج مشئومة. ولكنى أشك أن حديثى معها كان له أى تأثير يذكر».

إن بعض الشخصيات السياسية التى كانت ترى أن إدوارد تعوزه المقومات اللازمة للملكية، كانوا سعداء بأن الأمور تسير على ذلك النحو، بل هناك من يرى أن سيمبسون صنعت معروفاً بالبلاد حيث كانت سبباً لتخلى إدوارد عن العرش. حتى أنه يذكر عن إيرل دادلى قوله: «فى رأيى، كان الملك إدوارد غير مناسب تماماً ليكون ملكاً لإنجلترا خلال فترة الحرب المهمة ضد ألمانيا. ولهذا، أعتقد أنه من حسن الحظ أنه لم تتم الإشارة إلى هذه العلاقة الغرامية. يبدو أنه لم يكن لأحد الجرأة على إخباره بشأن تلك العلاقة».

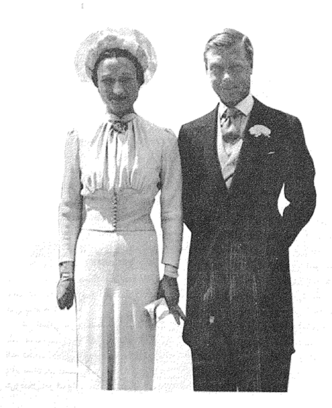
وكان كوبر يعتقد أن التخلى عن العرش كان أفضل الحلول على الإطلاق، فبدلاً من ملك كان سيجلب المصائب لشعبه بموالاته للألمان، فقد حصلنا على ملك رائع، الملكة الأم، بدلاً من دوقة وندسور. وسارت الأمور على مايرام.



من عاهرة إلى دوقة:

لم تهتم التقارير كثيراً بزوج سيمبسون الثانى الذى وصف فى تقارير البوليس بأنه من النوع الذى يتسم بالمرح الصاخب، الذى لم يخف علاقة زوجته بأمير ويلز، بل إنه يبدو أنه كان يستمتع ببعض المجد الذى انعكس على شخصه بسبب هذه العلاقة.

وباقتراب إعلان التخلى عن العرش، توقف السعى وراء معلومات أخرى عن حياة مسز سيمبسون. إلا أنه قبل يومين من إعلان إدوارد التخلى عن العرش فى ديسمبر ١٩٣٦، فإن سير هوراس ويلسون، كتب تقريراً، إلى نيفيل شامبيرلين، الذى كان وقتها وزيرًا للخزانة قائلاً: «من الواضح لى نيتها ليس فقط بالرجوع إلى هنا (انجلترا)، ولكن لتنشىء محكمة خاصة بها وتفعل ما بوسعها لإثارة قلق من سيأتى للعرش بعد إدوارد». واستطرد سير هوراس قائلاً: «لا ينبغى افتراض أنها تخلت عن آمالها فى أن تصبح ملكة إنجلترا. إنه من المعروف أن لديها طموحًا لا حدود له، ورغبة فى التدخل فى الشئون السياسية».



ومن بين الأوراق التى كشفت عنها مؤخراً حزم من الخطابات من أناس عاديين، الكثير منها من أمريكا، تدين مسز سيمبسون. هناك رسالة من مسز نيتى.م.ستريكلاند من أنابوليس، ماريلاند، التى كتبت إلى السكوتلاند يارد: «هناك ستة ملايين امرأة عاهرة فى أمريكا، ونسبة كبيرة منهن يعملن فى أوروبا هذا الصيف، وبشكل خاص إنجلترا».



ومن الفضائح الخاصة بمسز سيمبسون والملك إدوارد، وأكثرها إثارة للضحك ما حدث فى أبريل عام ١٩٣٦ حيث تمت دعوة الملك إدوارد الثامن، واليس سيمبسون، وزوجها إرنيست سيمبسون وصديقته والتى كانت تدعى (باتركوب) أو كأس الزبدة إلى حفل منزلى فى هيملى هول بالقرب من دادلى. وعلى نحو غير متوقع فوجىء صاحب المنزل إيرل الثالث بزيارة مفاجئة من الملكة مارى والدة إدوارد التى طلبت منه إلقاء نظرة على «ترتيبات النوم». لقد كانت شغوفة بمعرفة كيف كان كل شيء يجرى بشكل مكشوف. وقادها إيرل الثالث إلى أعلى الدرج.حيث كانت هناك غرفة نوم الملك، ثم غرفة الحمام المتصلة بغرفة أخرى وهى غرفة نوم واليس، ثم حمام آخرمتصل بغرفة أخرى لنوم مستر سيمبسون، ثم يتصل حمامها بغرفة أخرى لنوم صديقته. كانت الغرف جميعاً متصلة ببعضها.ابتسمت الملكة مارى لدى رؤيتها لنظام الغرف بهذه الطريقة التى تعطى فرصة كبيرة للتلصص.

لم تكشف الأوراق معلومات أخرى عن علاقة سيمبسون بالملك إدوارد، هل كانت تبادله الحب بالفعل، أم أنها كانت تطمع فى سلطة سياسية ولقب ملكى؟

وبرغم ما تردد عن أطماعها السياسية، فقد حرمها الملك جورج السادس من لقب صاحبة السمو الملكى بعد زواجها من أخيه، رافضاً محاولات أخيه الملحة للمطالبة بهذا اللقب.

ومن بين الأوراق التى كشف عنها مؤخراً ملف من الأوراق الشخصية لرئيس الوزراء يوضح: «الخطوات المتعمدة التى اتخذت لحرمان الدوقة من هذا اللقب الرفيع»، الأمر الذى سمم العلاقة بين الأخوين جورج وإدوارد حتى النهاية. فى الثامن والعشرين من أبريل ١٩٣٧ ذكر سير جون سيمون، وزير الداخلية، بالدوين أن الملك وافق رسمياً على منح اللقب فيما يخص أخاه فقط، ولكنه وفى الوقت ذاته أوضح بشكل لا لبس فيه أنه لا ينبغى أن يتمتع بهذا اللقب أحد له صلة ما بأخيه.

كتب سيمون: «أنت تدرك كم يريد الملك والملكة هذا الأمر بشدة، كما أعتقد أن الملكة مارى أيضاً لديها رأى مماثل. لقد أوضح السير جون كيف أن مثل هذه الزيارة سيمكن استغلالها بشكل سيئ بواسطة النقاد الذين سيقترحون أن هذا فيه معاملة غير عادلة للدوق واستخفاف بزوجته. من الأفضل ترك الأمور على حالها لأن أى وضع آخر ستكون له عواقب غير مستحبة».

واستطرد: «حتى لو بقى الزوجان فى الخارج، فإن أمر القضية الخاصة بلقب وأسلوب التعامل مع الدوقة سيظل معلقاً وسيطفو فى الحال على السطح فى أى احتفال رسمى، على سبيل المثال هل ينبغى لزوجة السفير البريطانى أن تنحنى أمامها أم لا. إن مجىء الدوق والدوقة إلى هنا سيجعل الأمور أكثر سوءاً، حيث إن الكثير من النساء يرفضن الانحناء لها، مهما كان لقبها!».

وحينما أثار دوق وندسور هذه المسألة مرة ثانية فى أبريل من عام ١٩٤٩ مع أتلى، تدخل الملك وبحسم. وفى العشرين من أبريل كتب الملك جورج السادس رسالة بخط يده إلى رئيس وزرائه: «أعلم أن أخى قادم لرؤيتك اليوم ويرغب أن يناقش معك مسألة منح لقب صاحبة الجلالة لزوجته. إنى على يقين من أنك ستخبره أن هذه المسألة قد نوقشت بوضوح عام ١٩٣٧ إبان زواجه، وأنك لن تشجعه على التفكير بأن أى تعديل يمكن أن يجرى فى هذا الوقت...لقد تحدثت مع أخى ثلاث مرات فى هذا الموضوع».

ولكن يبدو أنه ليس الملك جورج فقط هو من اتخذ موقفاً حاداً من مسز سيمبسون، حيث تروى مذكرات كوبر أن ستانلى بالدوين رئيس الوزراء فى ذلك الحين قد أخبره فى يناير ١٩٣٦ أنه شديد الرفض لهذه الشخصية، و« أنه لو اكتفى الملك بعلاقته بها كعاهرة فقط، فما كنت لأمانع». ويستطرد كوبر فى مذكراته: «إن رئيس الوزراء كان منزعجاً للغاية من علاقات الملك إدوارد بمسز سيمبسون، وأن الأمر لو أصبح معروفاً بشكل عام لأثار زوبعة فى الرأى العام... وكان يعتقد أيضاً أن حاشية الملك وأعوانه يعارضون هذا الأمر وبشكل خاص السير ليونيل هاسلى أمين خزانة أمير ويلز (١٩٢٠-١٩٣٦)».

ويقول كوبر فى مذكراته أن رئيس الوزراء قد استدعاه فى أحد الأيام بدون سبب واضح: «ولكنه قال أنه يعرف أنى صديق الأمير ولكنه لم يقترح أن أقوم بأى فعل فى هذا الأمر. أعتقد أنه كان يظن أنى قد أنصح مسز سيمبسون بالاختفاء من حياة الأمير بأى ثمن. وبالتأكيد لم أكن لأقوم بشىء من هذا القبيل. لأنها كانت حتماً ستخبر الأمير الذى لم يكن ليغفر لى ذلك أبداً».

ولقد أثار مشهد وجود الأمير مع مسز سيمبسون فى إحدى شرفات قصر سانت جيمس أثناء إلقاء بيان وفاة الملك (والد إدوارد) فى الثانى والعشرين من شهر يناير ١٩٣٦، مشاعر الاستياء لدى الحاضرين حيث بدأوا فى الحديث عنها وانتقاد الأمير إدوارد.



وفى هذا المساء، كما يقول كوبر فى مذكراته: «تناولنا العشاء مع فريدى لونسدال (كاتب مسرحى ١٨٨١-١٩٤٥) فى جاريك كلوب. جلست بجوار واليس حيث تحدثت معى كثيراً عن الملك. وقلت لها: كم كان أداءه حسناً فى خطابه الرسمى القصير فى مجلس شورى الملك، حيث أعادت ذكر الخطاب لى كلمة كلمة. من الواضح أنه مكث وقتاً طويلاً فى كتابة الخطاب - ذارعاً الغرفة مجيئاً وذهاباً، مملياً عليها نص الخطاب الذى كان من محض أفكاره الخاصة. لقد كانت تتحدث بحساسية عالية. أعتقد أنها امرأة لطيفة ورقيقة - ولكنها شديدة الصلابة كما أعتقد أنها لا تبادله الحب».

و يقول نورويش، الابن الوحيد لكوبر: إن أباه قد أصابته الدهشة لدى دعوة أمير ويلز له لمرافقته فى رحلة بحرية للشرق الأوسط مع واليس سيمبسون. «لقد كان الأمير على علاقة حسنة مع كوبر، ولكن من المحتمل أن السبب الحقيقى من الدعوة هو أن أمير ويلز كان مسلوب العقل إزاء واليس وكان يعتقد أن كل من يراها سيقع فى حبها. وكان يعتقد أن قضاء أسبوع معهما سيضم والدى إلى صفهما وأن ذلك سيكسبه حليفاً فى البرلمان. وبالطبع لم يكوّن أحد ممن قابلوا واليس وجهة النظر تلك الخاصة بالأمير».

ويؤكد أن والده كان ينظر للأمير باعتباره رجلاً ضعيفاً، يفتقر لحكم متعلق للأمور، ولم يكن يصدق أبداً أن واليس أحبته للحظة. «كان أبى يعتقد أنها قد انجرفت فى علاقة غرامية مع الأمير غير مبالية بتلك العاطفة المتوهجة التى كان يكنها لها الأمير والتى جعلته يفقد عقله وتوازنه. لقد كان إدوارد رجلاً وحيداً، وكان يرغب فى حياة زوجية لطيفة، قوية وبورجوازية، لو لم يكن ملكاً لنال كل ما أراده وببساطة».

نفوذ الملكة الأم

لعبت الملكة إليزابيث الأم دوراً فى إبقاء إدوارد فى المنفى، فإن عداءها الشديد لواليس سيمبسون كان سبباً رئيسياً فى منع دوق ودوقة وندسور من زيارة بريطانيا من منفاهما الباريسى عام ١٩٣٨. وكانت وبشكل واضح وراء الخطاب الذى أرسله جورج السادس إلى نيفيل شيمبرلين، رئيس الوزراء، الذى أفرج عنه مكتب الوثائق العام مؤخراً، راجياً إياه ألا يسمح للملك السابق وزوجته بدخول البلاد، حتى وإن كان ذلك لزيارة غير رسمية بلا أى غرض. لم يكن لدى الملكة إليزابيث أى رغبة بشكل مطلق لمقابلة الدوقة. وفى خطاب مكتوب بخط اليد موجه إلى تشيمبرلين من قصر باكنجهام والمؤرخ بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٩٣٨، أوضح الملك أنه لا يعتقد أن زيارة دوق ودوقة وندسور فكرة طيبة على الإطلاق وجاء فى رسالة الملك: «أعتقد أنك تعرف أن كلاً من الملكة إليزابيث والملكة مارى ليست لديهما أى رغبة فى رؤية دوقة وندسور، وعلى هذا فإن أى زيارة بغرض تقديمها لأعضاء الأسرة الحاكمة ستكون بشكل واضح مستحيلة».

لقد كانت لدى الملك جورج شكوك حول زيارة محتملة قبل موعدها بأسبوعين، حيث كان رئيس وزرائه يعمل كوسيط بين الملك وأخيه. وكتب الملك جورج فى خطابه: «كلما فكرت فى مجيئه إلى هنا، كلما استأت من الفكرة، وخاصة أن بعض الصحف تسلك سلوكاً غبياً تجاه هذا الموضوع».

ولكن دوق وندسور لم يأخذ هذا الرفض الصارم بشكل متسامح، فقد كتب من محل إقامته فى أحد فنادق كان، شكوى من سبع صفحات وأرسلها إلى شيمبرلين: وجاء فيها «من الضرورى بالنسبة لى أن أكرر ولائى لأخى بصفته ملكاً، وبصفتى رجلاً بريطانيًا أتسم بالوطنية لا يمكن أن أؤيد أى فعل يكون من شأنه أن يحدث تمزقاً فى الأسرة الحاكمة. ولكننى لا أستطيع كتمان، وبالصراحة التى عهدتها منى، أن المعاملة التى خصت بها زوجتى وشخصى منذ ديسمبر الماضى، بواسطة الأسرة الملكية والحكومة، قد سببت لنا ألماً شديد القسوة». وكانت العلاقة بين الأخوين قد تسللت إليها البرودة قبل هذا الحدث بعام حينما أوضح الملك جورج لأخيه أنه لن



يسمح لأى من أعضاء الأسرة المالكة بحضور زفافه.



لقد سبب هذا الأمر انزعاجاً شديداً للدوق بسبب ارتباط منحه مخصصاته المالية الشخصية من أخيه بعدم عودته أبداً إلى بريطانيا بدون موافقة الحكومة. حتى أنه إذا ما فكر فى المجىء لأى فترة من الوقت فإنه سوف تطبق عليه أعلى درجات الضريبة على الدخل. واستطرد إدوارد فى خطابه: «لم أكن أنتوى، ولم أوافق أبداً، أن أتخلى عن موطنى الأصلى أو حقى فى العودة إليه بشكل مطلق. إن هذا الشرط المالى ظالم وغير محتمل، بوصفه معادلاً لقبولى المال فى مقابل بقائى فى المنفى».

لقد نجح نفوذ الملكة بالفعل فى بقاء الدوق والدوقة فى منفاهما الباريسى طيلة حياتهما، إلا أنه فى يونيو من عام ١٩٦٧ ظهر دوق ودوقة وندسور بشكل نادر علنا فى احتفال فى بيت مارلبورو من أجل الملكة مارى.

وبعد خمسة أعوام من تلك العودة التى لم تتكرر بعد ذلك، توفى الدوق فى الثامن والعشرين من مايو ١٩٧٢ فى باريس، وبعد ذلك بأربعة عشر عاماً توفيت دوقة وندسور فى صمت فى أحد بيوت باريس.

العشيق زير نساء

إن الدراما الملكية لم تتوقف عند هذا الحد. فالأمر الذى لم يعرفه الأمير إدوارد، والذى كشفت عنه الوثائق مؤخراً، أن مسز سيمبسون كانت على علاقة برجل آخر فى الوقت الذى كان إدوارد متورطاً فى علاقته بها قبل تخليه عن العرش.

هل كانت الأسرة المالكة على علم بهذه الخيانة؟ ولماذا لم تخبر الأمير إدوارد بذلك؟

لقد كشف عن وجود ترانلد فى حياة الدوقة سيمبسون مؤخراً فقط، وذلك بعد الإفراج عن الأوراق السرية المتعلقة بالتخلى عن العرش - وبشكل خاص حزمة من التقارير السرية المرسلة إلى مفوض العاصمة.

كانت واليس سيمبسون على علاقة سرية مع شخص يدعى ترانلد فى اللحظة ذاتها التى كان يتودد إليها الملك المستقبلى إدوارد الثامن. وبينما كان أمير ويلز يغوى مسز سمبسون بالهدايا الثمينة، كانت هى بدورها تغرق حبيبها الآخر بالأموال والهدايا، بينما تأخذ احتياطاتها الواسعة لإخفاء هذه العلاقة عن الأمير الهائم فى حبها.

كانت مسز سيمبسون وقتها فى التاسعة والثلاثين من عمرها، وترانلد الذى عرف بأنه زير نساء فى السادسة والثلاثين. وحسب تقارير هؤلاء الذين أرسلوا للتجسس عليه، وصف ترانلد بأنه: «مغامر ساحر، جميل المظهر، كريم الأصل وراقص بارع». قد يكون مجرد رجل مبيعات يعمل فى تجارة السيارات ولكنه فاتن للنساء فى بذته المتأنقة وقبعته الناعمة المطوية لأعلى». لقد كان ترانلد بشكل واضح ما يطلقون عليه السحلية المتكاسلة أو بلغة الطيران العسكرى فيما بعد كلب ذكى ودجال ساحر.

كان من الطبيعى أن يقوم البوليس بمراقبة مسز سيمبسون منذ بداية علاقتها بأمير ويلز. ولو كانت مسز سيمبسون تدرك أن البوليس الخاص يتتبعها فى عام ١٩٣٥، لكانت فكرت ملياً قبل أن تطارح عشيقها جى ماركوس ترانلد الغرام فى سريرها.



لقد عرف البوليس الخاص فى عام ١٩٣٥ أن مسز سيمبسون كانت تسلى نفسها مع عشيق آخر غير الملك المستقبلى، ولكن الأمر استغرق منهم عدة أسابيع للتحقق من هويته. وفى الثالث من ديسمبر نجحوا فى كشف النقاب عن شخصيته.

تقول تقارير البوليس البريطانى أن «هوية العشيق السرى لمسز سيمبسون قد كشفت الآن. إنه جى ماركوس ترانلد، يقطن الآن منزلاً فى ١٨ شارع بروتون، ويلز. إنه يقابل مسز سيمبسون علناً تقريباً فى اللقاءات الاجتماعية غير الرسمية كصديق شخصى، ولكن لقاءات سرية أخرى يجرى الاتفاق عليها من خلال مواعيد خاصة بينهما، حيث يمارسان علاقتهما الحميمة». كما ذكر التقرير أيضاً أن «ترانلد كان يتلقى أموالاً من مسز سيمبسون، بالإضافة إلى الهدايا القيمة.. يعمل كمهندس ميكانيكا سيارات ورجل مبيعات ويقال أنه يعمل لصالح شركة فورد. وليس من المعروف المرتب الشهرى الذى يتقاضاه».

ولد جى ترانلد فى يورك عام ١٨٩٩، لأب يدعى ريف جورج ترانلد كان قسيساً وأمه كانت تدعى آمى إليزابيث لايبورن. كانت الأسرة تعيش فى ٨ شارع كاولى، يورك، مع مربية وخادمين، طبقاً لتعداد ١٩٠١. فى عام ١٩٣٢ تزوج ميلوسين كارى برنارد فى بادينجتون، وله ابنة واحدة تدعى باميلا، ولكنهما سرعان ما طلقا وتزوجت مسز ترانلد من جيمس هانبرى عام ١٩٤٦.

التحق جى بسلاح الطيران الملكى عام ١٩١٧ كضابط طيار. وكان يفتخر بأن كل امرأة كانت لابد أن تقع فى حبائله. ويبدو أنه لم يكن ليتوقف عن معاشرة النساء، فبينما كان ترانلد يساعد سيمبسون على خداع الملك إدوارد، كان وبشكل متتابع يقيم علاقة متوهجة مع لاعبة تنس تدعى إلين بينيت. كانت بينيت متزوجة، وكذلك كان ترانلد، وبالتأكيد كانت كذلك مسز سيمبسون.

يبدو ضمنياً من السجلات أن ترانلد تحدث مع الفرقة الخاصة للبوليس البريطانى عن علاقته بسيمبسون. ولكن وحتى الآن من غير المعروف متى بالتحديد انتهت علاقته بسيمبسون.

فى وقت ما قبل الحرب العالمية الثانية قابل ترانلد فيرا أوبراين، والتى ستصبح خليلته لمدة العشرين عاماً القادمة. لم يكن لفيرا فقط علاقة غامضة بالملك إدوارد ولكن، وعلى نحو شاذ، كان ابنها يفتخر بأنه كان يرقص مع أمير ويلز.

كانت فيرا أوبراين، من أصل أيرلندى وإنجليزى - هندى، ابنة مسئول كبير فى السكة الحديد الهندية. كانت فى السابعة عشرة من عمرها حينما تزوجت من رجل أكبر سناً منها بكثير ويدعى بيرسيفال بايلى فى الهند. وبالرغم من إنجابها لطفل، فقد انفصلت عن زوجها بعد وقت قصير ثم طلقت منه بعد خمسة عشر عاماً من الزواج. تزوجت فيرا للمرة الثانية فى غضون اثنى عشر شهراً، ولكنها اعتادت أن تختلى بنفسها لبعض الوقت. كانت تمارس التزحلق فى كيتزبوهل، حيث تعرفت على الأمير إدوارد من خلال مدرب التزحلق. وبشكل ما أصبح فال بايلى، ابن فيرا، الصديق المقرب لترانلد.



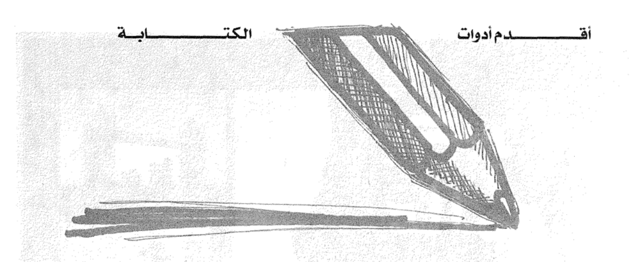
يقول فال فى مذكراته: «إن الحياة فى تلك الأيام كانت لا تعدو عن كونها سلسلة متصلة من حفلات الرقص والعشاء. كانت أوقاتاً جافة وهمجية بطريقتها الخاصة. بعض الناس قد تتخيل أن الأيام السالفة كانت تتسم بالنعومة واليسر بالمقارنة بأيامنا هذه، ولكن هذا غير صحيح، ما حدث فقط أن سلوك المجتمع قد تغير. الكثير مما هو مقبول الآن لم يكن كذلك فى الماضى، فعلى الرغم مثلاً من أن ترانلد يطلق عليه زير نساء اليوم، فإنه لم يكن كذلك فى الماضى.

كان يمكن للمرء أن يشاهد بصحبة سيدة للعشاء فى الخارج بحجة أن زوجها فى مهمة عمل فى الشرق الأوسط. كان هناك عدد مهول من الأزواج فى الشرق الأوسط، هذه مجرد دعابة. لقد كانت تلك فقط كلمة شفرية».

قضى ترانلد أيامه الأخيرة فى تشليسيا، بعدما تخلت عنه زوجته بسبب خياناته الزوجية، وتوفى فى ٣ ديسمبر ١٩٥٨ فى مستشفى فى ستيبنى، شرق لندن بعد علاج لمدة ١٤ شهراً من مرض السرطان. عند وفاته كان يملك حوالى ٤٤٧٤ جنيهًا استرلينيًا أو ما قيمته ٦٠,٠٠٠ جنيه استرلينى اليوم. ترك ترانلد أيضاً بعد وفاته بعض الأوراق الغامضة التى لم يكشف عنها حتى اليوم. يبدو أن أوراقه تلك كانت تحمل معلومات عن علاقته بسيمبسون، التى أراد أن يخفيها وللأبد.

ولكن إذا كانت الخيانة لعبة، فماذا كانت اللعبة التى كانت تلعبها الفرقة الخاصة للبوليس البريطانى وهى بشكل متقن تلاحق كل خطوات ترانلد؟ إن الدليل على علاقة مسز سيمبسون بترانلد قد تم تمريره إلى البرلمان كدليل على خيانة سيمبسون. إن كلمة واحدة تنقل للملك إدوارد حول هذه الخيانة كانت ستوقف حتماً أمر الزواج وتمنع الأزمة الدستورية. فلماذا لم يخبره أحد بأى شىء: هل كان ذلك مراعاة لمشاعره أم أن الأمور كانت قد وصلت لأكثر من ذلك، هل كانت حسابات شيطانية لم يكشف عنها النقاب بعد؟

وعلى الرغم من الإفراج عن كل هذه الوثائق دفعة واحدة، فهناك تخمينات حول وجود أوراق أخرى تتصل بسيرة حياة الملك إدوارد بعد تخليه عن العرش والتى لازالت فى طى الكتمان. هناك أيضاً رسائل خاصة متبادلة لم يتم الكشف عنها. إن المكتبة الخاصة بجامعة كمبريدج لازالت فى انتظار إذن للإفراج عن ملفين حول التخلى عن العرش فى الأرشيف الخاص ببالدوين. وربما، الأمر الأكثر أهمية، الأوراق الشخصية للملكة الأم والمودعة فى مبنى الأرشيف الملكى فى وندسور. ■



القلم الرصاص.. يرفض أن يُمحى!

جـــــون شـــــميـد

■■ إن أقدم وسيلة للكتابة وأقدم نظام لفن الجرافيك لا يمتلك ذاكرة كهربائية أو مصححًا لغويًا مثل جهاز الكمبيوتر الحالي، كما أنه لا يحتاج صيانة مستمرة وجميع أنواعه رغم شدة تشابهها إلا أنها غير متناسقة، ورغم ذلك كله.. فإن الناس لاتزال تستخدمه.

فلقد قاوم القلم الرصاص الكلاسيكي لمدة تزيد على أربعة قرون عاملى الإهمال والزوال، وهو إنجاز لم تستطع تحقيقه أجيال من الكمبيوترات المحمولة والأجهزة الإلكترونية شديدة التقدم - رغم سهولة حملها والتنقل بها حيث إن حجمها لا يزيد على كف اليد.. ورغم هذا التقدم التكنولوجى الكبير، فإن العالم استمر فى إنتاج أقلام الرصاص السوداء بكميات تصل إلى ١٥ بليون قلم فى السنة الواحدة.

ويؤكد الكونت أنطون ولفجنج، الرئيس التنفيذى لشركة بابركاستل - أقدم وأكبر شركة صناعة أقلام - أنه منذ عشرين سنة تقريبًا كان يشعر بالقلق على مصير القلم الرصاص إلا أنه كان ومازال يؤمن بالقلم كوسيلة كتابة أساسية.

ويؤكد الكونت الذى ينتمى إلى عائلة أرستقراطية عريقة تخصصت فى صناعة الأقلام منذ ١٧٦١ أنه لو كان استمع إلى مستشاريه الذين نصحوه بترك صناعة الأقلام والتحول إلى وسائل الكتابة عن طريق أجهزة الكمبيوتر أو أى وسائل أخرى لكان تعرض للإفلاس.

ويقول مانفرد ميللر - رئيس الاتحاد الأوروبى لصانعى أدوات الكتابة، موجود فى نورمبرج - إن كثيرًا من الناس كانوا يسألونه عن السر وراء استمرار استخدام القلم الرصاص فى ظل وجود منتجات أكثر تقدمًا مثل الأقلام الرقمية وغيرها.

وأسباب إصرار الناس على استخدام القلم الرصاص واضحة ومعروفة، أولها أن أقدم وسيلة للكتابة هى أيضًا أقلها تكلفة، كما أن القلم الرصاص لا يتعطل مثل أجهزة الكمبيوتر أو يجف مثل الأقلام الحبر، والقلم الرصاص يمكن استخدامه فى الفضاء الخارجى وتحت الماء أو أى مكان فيما بينهما، بالإضافة إلى أن الدعم الفنى الذى يحتاجه القلم الرصاص لا يتعدى المبراة.

ورغم كل هذه الأسباب التى جعلت استخدام القلم الرصاص ينتقل من جيل لآخر، إلا أنها لا تعطى السبب الحقيقى، فهناك شىء أساسى فى القلم جعل الكثيرين يكتبون عن أهمية الكتابة التقليدية باستخدام أداة معبرة مثل القلم الرصاص تطبع بتلقائية كل شىء بدءًا من النقاط الثقيلة إلى الظلال الخفيفة.

فى الحقيقة، فإن القلم الرصاص أصبح يمثل نقطة التقاء يتجمع عندها الكثير من الكتّاب والمفكرين والمهندسين المعماريين والموسيقيين ممن يعارضون التكنولوجيا المضادة للقلم الرصاص: «يا محبى القلم الرصاص.. اتحدوا» هو شعار جمعية محبى القلم الرصاص الموجودة فى مدينة نيويورك بالولايات المتحدة والتى حوّلت مجهوداتها إلى العالم الذى يعيش حاليًا تحت رحمة أجهزة الكمبيوتر التى قللت من قيمة الكلمة وحوّلت تجربة الكتابة الحسيّة باستخدام القلم ولمسه إلى تجربة واقعية جافة.

وعن سبب شغفه بالقلم الرصاص، يقول بيل هندرسون، مؤسس الجمعية، أن السبب ببساطة يرجع إلى أن القلم الرصاص لا يحتاج كهرباء ليكتب، وهو زهيد الثمن، تكتب به بخطك فيصبح مطبوعًا يمثل كاتبه ويدل على شخصيته على عكس أجهزة الكمبيوتر التى تحولنا جميعًا إلى مجموعة من خطوط الكمبيوتر.



قاوم القلم الرصاص الكلاسيكى لمدة تزيد على أربعة قرون عاملى الإهمال والزوال، وهو إنجاز لم تستطع تحقيقه أجيال من الكمبيوترات المحمولة والأجهزة الإلكترونية شديدة التقدم

وبحساب الأرقام والمبيعات فإن القلم الرصاص يظل أكثر قوة من أجهزة الكمبيوتر فالأخير تصل مبيعاته إلى ١٤٠ مليونًا فى العام الماضى وهى لا تقارن بالبليون قلم التى أنتجت فى نفس العام، ويؤكد ميلر أن إنتاج الأقلام فى أوروبا قد زاد بنسبة ١٢٪ فى عام ٢٠٠١ وفى الدول النامية تزايد الطلب على الأقلام الرصاص بصورة أسرع. أما فى سوق أقلام الرصاص بالولايات المتحدة الذى يبلغ ٢٢٠ مليون دولار، فإن المبيعات فى تزايد مستمر أو على الأقل مستقرة.

ويؤكد دوف مارتن - محرر نشرة الجمعية الأمريكية لمحبى الأقلام الرصاص والذى أنشأ موقعين على الإنترنت مخصصين للأقلام الرصاص - أن الأجهزة الإلكترونية المستخدمة فى الكتابة ليست بجودة أو تلقائية كتابة الخواطر والملاحظات بالقلم الرصاص.

وشركة فابر كاستل، التى مازالت تعمل فى صناعة الأقلام فى نفس المكان الذى أنشأه كاسبر فابر منذ ثمانية عقود ماضية، قد شهدت قفزة هائلة فى معدل الإنتاج والاستهلاك على مدى السنتين الماضيتين، وترجع هذه القفزة بشكل أساسى إلى ما يسمى «Grip ٢٠٠١» وهو التحول الفنى والشكلى الذى حدث فى تكنولوجيا صناعة الأقلام الرصاص مما أدى لمضاعفة الطلب عليها خاصة فى شركة فابر كاستل التى تمتلك ١٥ فرعًا فى جميع أنحاء العالم ويعمل بها حوالى ٥ آلاف شخص. والشكل الجديد للقلم الرصاص «Grip ٢٠٠١» هو شكل ثلاثى بدلاً من سداسى الأبعاد عليه نقاط بارزة موزعة على القلم الأملس بشكل يجعل الإمساك به أكثر راحة وسهولة هذا بالإضافة إلى شكله الجمالى ولونه الفضى

ترجمة: إنجى غنام

المصدر: هيرالد تريبيون (International Herald Tribune)

المميز. والجديد فى هذا الشكل هو محاولة تثبيت هذه النقاط بدهان أقلام عادى وغير سام وليس بمادة قد تجعل القبضة على القلم صمغية أو تلتصق بمبراة القلم أثناء بريه.

وقد فاز هذا الشكل الجديد للقلم الرصاص بخمس جوائز عالمية بالإضافة لكونه سهل التثبيت خلف الأذن وهى عادة يقوم بها الكثيرون من مستخدمى القلم الرصاص حول العالم والكونت يبيع أقلامه الجديدة بسعر ٧٥ سنتًا (يورو) أى ما يعادل ٨٠ سنتًا (دولار) للقطعة متجاهلاً نصائح خبراء التسويق الذين أصروا أن لا أحد يريد أقلام رصاص غالية الثمن عالية الجودة خاصة أن الشركة تصنع أقلامًا ميكانيكية أيضًا.

وتأكيدًا لنجاح الفكرة، يؤكد الكونت أنه منذ تم تصنيع القلم الجديد فى أبريل الماضى والمصنع يعمل ثلاث ورديات يوميًا ليسد حاجة السوق من هذا المنتج الجديد.

وأثناء الجولات التى تتم للزوار بالمصنع، فإن التصوير ممنوع تمامًا فى المكان الذى يتم تصنيع القلم فيه حفاظًا على سرية التصميم الجديد.

والكونت كاستر البالغ من العمر ٦١ عامًا لم يكن أساسًا شغوفًا بصناعة الأقلام فقد قضى سنوات طويلة من عمره يعمل كمستثمر ومصرفى فى البنك المصرفى السويسرى فى لندن ونيويورك خلال السبعينيات حتى تولى على مضض أعمال العائلة فى عام ١٩٧٨، ومنذ ذلك الحين أظهر كفاءة ونجاحًا كبيرين فى مجال صناعة أقلام الرصاص جعلته فى مثل شهرة بيل جيتس فى صناعة الكمبيوتر.

وعن منتجه الجديد المتمثل فى قلم رصاص خشبى مضاف له جزء مصنوع من الفضة يُستعمل ليُغلق به القلم وكمبراة وكغطاء حتى لا يترك القلم أى بقع فى جيب القميص، يقول الكونت إنه يعتبره القلم المثالى، ويباع هذا القلم بسعر ١٣٥ يورو فى حين يباع النوع النادر منه المطلى بالذهب والمرصع بالألماظ بسعر ٩٠٠٠ يورو.

وشركة فابر كاستل التى يُطبع اسمها على حوالى ١,٨ بليون قلم سنويًا هى أول من صمم نظامًا يحافظ على نعومة الرصاص، وأول من قام بتصنيع القلم الرصاص السداسى الأوجه الذى لا يتدحرج على المائدة.

وقد قرر أحد أفراد الجيل الرابع من عائلة فابر أن ينتقل إلى نيويورك لينشئ شركته الخاصة منقسمًا عن بقية عائلته ولينتج القلم الأمريكى الأصفر اللون المعروف باسم سابير هارد فابر ٢».

وآخر خسارة واجهتها شركة فابر كانت فى عام ١٩٧٠ حين غزت الآلات الحاسبية الأسواق مما أدى إلى كساد صناعة المساطر الحسابية التى كانت تنتجها الشركة إلى جانب الأقلام الرصاص.

ويضيف الكونت أن حركة علم التنبؤ الذى يدرس العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها والذى ظهر فى الثمانينيات ساعدت على إحياء القلم الرصاص حيث أظهرت الدراسات أن المنتجات البلاستيكية ومنها الأقلام الجافة قد أصبحت فجأة مضرة للبيئة.

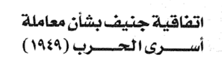
أما القلم الرصاص فهو ينتمى للأرض مثله مثل: الأشجار والكربون الأسود الطرى والصلصال والنحاس التى يُصنع منها القلم الرصاص.

وبسبب هذه الأصول العضوية التى ينتمى إليها القلم الرصاص، قررت جمعية القلم الرصاص اختيار الكاتب الأمريكى هنرى ديفيد ثورو ـ الذى عاش حياة بسيطة فى كوخ فى الغابة ـ كمدير شرفى لها. وقد استفادت الجمعية إعلاميًا من حقيقة أن ثورو استطاع أن يتعلم فى إحدى أكبر جامعات الغرب وهى جامعة هارفرد فقط لكونه ابن أحد صانعى القلم الرصاص ولكونه قد ساعد والده فى هذا العمل.

ويتباهى محبو القلم الرصاص بسرد قصة أن شركة فيشر لصناعة الأقلام الحبر قد أنفقت الملايين لتخترع قلم حبر يكتب وهو مقلوب وفى غياب أية جاذبية أرضية وأرسلته للتجربة فى الفضاء مع سفينة الفضاء أبوللو٧، فى حين أن القلم الرصاص عمل بكفاءة فى خدمة رواد الفضاء فى كل الرحلات السابقة دون أن يحتاج أى تعديل أو نفقات ضخمة لتطويره.

والقلم الرصاص يمثل أهمية كبيرة للكتاب حيث إن أسلس الأقلام الرصاص وأكثرها جودة هو أكثر ما يسعد الكاتب ويبهجه إلى أقصى حد، فمثلاً منذ أن توقف إنتاج القلم الرصاص المميز ابرهارد فابر ٦٠٢ فى عام ١٩٩٨ والكُتّاب يبحثون عنه ويدفعون ٢٠ دولارًا ثمنًا للقلم الواحد من هذه النوعية. ■

كتاب الزاوية



اتفاقية جنيف بشأن معاملة أسرى الحرب (١٩٤٩)

فى حالة قيام نزاع مسلح ليس له طابع دولى فى أراضى أحد الأطراف السامية المتعاقدة، يلتزم كل طرف فى النزاع بأن يطبق كحد أدنى الأحكام التالية:

يقع أسرى الحرب تحت سلطة الدولة المعادية، لا تحت سلطة الأفراد أو الوحدات العسكرية التى أسرتهم، وبخلاف المسؤوليات الفردية التى قد توجد، تكون الدولة الحاجزة مسؤولة عن المعاملة التى يلقاها الأسرى. (مادة ٣)

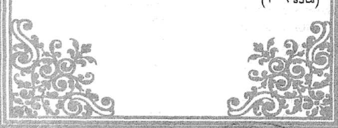
لا يجوز محاكمة أو إدانة أى أسير حرب لفعل لا يحظره صراحة قانون الدولة الحاجزة أو القانون الدولى الذى يكون ساريا فى وقت اقتراف هذا الفعل.

لا يجوز ممارسة أى ضغط معنوى أو بدنى على أسير الحرب لحمله على الاعتراف بالذنب عن الفعل المنسوب إليه.

لا يجوز إدانة أى أسير حرب بدون إعطائه فرصة الدفاع عن نفسه والحصول على مساعدة محام أو مستشار مؤهل. (مادة ٩٩)

إذا صدر حكم بالإعدام على أسير حرب، فإن الحكم لا ينفذ قبل انقضاء مهلة لا تقل عن ستة شهور من تاريخ وصول الإخطار إلى الدولة الحامية. (مادة ١٠١)

لكل أسير حرب الحق، بنفس الشروط المنطبقة على أفراد القوات المسلحة بالدولة الحاجزة، فى استئناف أى حكم يصدر عليه أو رفع دعوى لنقضه أو التماس إعادة النظر فيه. (مادة ١٠٦)



■■ ذهب جورج دبليو بوش إلى العراق «بضرباته الاستباقية» بدعوى «ضمان الأمن» لمواطنيه. وقبل أن ينتهى الإمبراطور العولمى الجديد من ارتشاف نخب انتصاره الذى حرص على إعلانه من سطح حاملة الطائرات العملاقة «إبراهام لينكولن»، كان عشراتٌ من مواطنيه يدفعون الثمن فى عدد من أحياء الرياض الهادئة الآمنة. فيُقْتَلون فى أسرّتهم، «مع غيرهم من الأبرياء للأسف» بالضبط كما حدث فى حى المنصور (بغداد ـ أبريل ٢٠٠٣) وفى أزقة قندهار الفقيرة (أفغانستان ٢٠٠٢). ويحدث يوميًا فى الضفة الغربية وغزة.

هل تذكرون غلافَ النيوزويك الشهير (٢٥ نوفمبر ٢٠٠٢) والذى حمل صورة بن لادن وقولته القاطعة: «كما تَقْتُلون ستُقْتَلون..».

وهل تذكرون ما حذر منه الرئيس المصرى مبارك قبيل الحرب على العراق ـ وبغض النظر عن السياق ـ من أن «سياسة أمريكية غير متوازنة فى الشرق الأوسط، قد تؤدى إلى ظهور مائة بن لادن».

وهل تذكرون أقلامًا فى واشنطن، لم يعجبها الرأى المصرى، فسارعت ـ متعجلةً ربما بغرور الإفراط فى القوة ـ إلى القول بأن زعيم القاعدة «وإن لم يقض عليه.. إلا أنه قد بات رأسًا بلا جسد.. وقائدًا بلا تنظيم».

مرة أخرى يخطىء الأمريكيون، حين يَصُمّون.. أو يصممون أن يفهموا كل الأمور بطريقتهم. رغم عشرات المعاهد البحثية وعديد الأجهزة الاستخبارية. فـ«تنظيم القاعدة» ـ إن جاز لنا أن نعتبره «تنظيمًا» بالمعنى الإصطلاحى للكلمة ـ وأن نسميه «القاعدة» ـ كما درجت العادة إعلاميًا ـ ليس «الألوية الحمراء» فى إيطاليا.. ولا «بادر ماينهوف» فى ألمانيا. ولا حتى ـ رغم قرابة الجغرافيا ـ «أيلول الأسود» أو «جماعة أبو نضال» والتى تتوقف فى معظم الأحوال عن النشاط، أو التأثير، عندما يمرض زعيمها أو يتقاعد.

الأمر هنا يختلف جذريًا. خاصة ونحن هنا على الأغلب بصدد «متبنين» لأفكار أكثر مما هم «منتمين» لتنظيم. وفى كل الأحوال كان أولى بالأمريكيين الذين ابتدعوا الهيكلة «العنكبوتية» للإنترنت، ليحصلوا على شبكة غير قابلة للانهيار، أن يكونوا أول من يفهم كيف يمكن تصور بنيان شبكة لا تتفكك بالقضاء على بعض مراكزها أو وصلاتها.

والواقع أن هذا هو الحال بشأن جماعة بن لادن. كما بشأن كل تلك الجماعات (العقائدية / لا التنظيمية) التى يستريح المحققون بنسبتها إليه كلما كان العمل تفجيريًا أو كلما عثروا فى أمتعة المشتبه بهم على أشرطة للرجل، هى تباع فعليًا وعلى نطاق واسع فى أسواق البلدان الإسلامية الآسيوية.

هذه المرة. ولأسباب «لوجستية» عديدة، طاشت الكرة. وارتجّت بالتفجيرات ـ التى حادت هدفها الصحيح بلاشك ـ حواضرُ عربية. ولطخت دماءٌ ما كان يجب أن تسيل الدار «البيضاء» وياسمين «الرياض». وسرعان ما شغَلَ الجميعُ «هناك» بالسعودية؛ بلدًا ودينًا ونظامًا وحكمًا. وصدّرت النيوزويك افتتاحيتها: «الآن.. يرى السعوديون العدو». وكانت لهجة التوصيات قاطعة.

فبعد أن تؤكد النيوزويك أن «المملكة ستعلن قريبًا تشكيل لجنة لكى تعيد رسميًا فحص مفهوم الجهاد.. وأن الحكومة السعودية ستتصرف، من الآن فصاعدًا، بصورة أكثر اندفاعًا على أساس المعلومات الأمنية» تحدد المجلة الأمريكية معالم خارطة الطريق، وتلخصها فى:

١ ـ إصلاح الأنظمة التعليمية.

٢ ـ إخلاء المساجد والمنظمات الإعلامية من رجال الدين المتطرفين.

٣ ـ تهميش وزارة الشؤون الدينية.

٤ ـ وقف أموال «الإغاثة الإسلامية» التى تتدفق على منظمات متشددة فى الخارج.

والحاصل أن المنطقة لزمن طويل كانت قد أدمنت التعاطى مع خرائط الطرق.

وعليه فقد كان طبيعيًا ـ ولا مصادرة لرأى ـ أن نقرأ فى افتتاحية «جريدة عربية» أن أولئك «الذين يؤيدون بسعادة التفجيرات الانتحارية فى إسرائيل.. يتحملون جزءًا من المسئولية عن تفجيرات الرياض».

كما كان طبيعيًا أن يرى أحدهم فى «الوطن» الكويتية، أن تلك الجماعات الإرهابية التى تتبنى عقيدة الجهاد «تجد لأيديولوجيتها غطاء فى الرسالة الدينية التى تنشرها المساجد والمدارس». وبالتالى يطالب كاتب كويتى آخر واشنطن «بأن تزود السعوديين خارطة طريق أخرى تفصل ما هم بحاجة للقيام به».

وينسى الأمريكيون هنا حقيقة أن البنيان الاجتماعى والثقافى، بل وحتى السياسى والاقتصادى للمملكة متماسك بلحمة واحدة.. أو بالأحرى بمادة لاصقة واحدة. يصبح من الصعب، كما هو من الخطر محاولة تذويبها فى أى ركن من أركان هذا البناء الذى تراصت لبناته وتداخلت و«تلاحمت» إلى مدى قد لا يدركه غير السعوديين أنفسهم.



البادى إذن أن الغبارَ الذى تصاعد فى سماء نيويورك صباح هذا اليوم «المفصلى» من سبتمبر ٢٠٠١ مازال يُرمِدُ كثيرًا من العيون ـ هنا وهناك ـ فصارت لا ترى غير ما رأته يومها. مصممة على تفسير كل حدث وحركة.. بل وكل محادثة هاتفية ورسالة بريد إليكترونى «تفسيرًا سبتمبريًا». (رفعت السلطات الأمريكية حالة التأهب إلى الدرجة البرتقالية قبل أسبوعين بسبب رسالة بريد إلكترونى، ربما كانت مازحة، تطلب من العرب المقيمين فى إحدى الولايات مغادرتها خلال ٤٨ ساعة).

ماذا وراء تلك «الحالة السبتمبرية»؟

قبل ٢١ شهرًا كاملة وقعت الواقعة «وزلزلت الأرض..».

وكان أن الوصفَ قبل التفسير ـ وبحكم «السوق» وهول الخطب ـ أغفل تفصيلات قد تكون مهمة. وأضفى ظلالاً قد تصبح موحية.

وكان أن تم ـ على الطريقة الأمريكية المعتادة ـ تعليبُ التفسيرات لتصبح وجبةً جاهزةً عند الحاجة.. وكل حاجة.

وكان أن ازدحمت ساعات إرسال الشبكات التليفزيونية المتنافسة دومًا بمحللين ومفسرين كل مؤهلاتهم «التفضيلية» أنهم جاءوا يومًا من ـ أو حتى زاروا ـ تلك البلاد البعيدة.

وعبر الآلة الإعلامية «العولمية» الجبارة، لم يعد «تدويرُ» تلك التفسيرات شأنًا أمريكيًا صرفًا. ففى عالم تذوب فيه الحواجز، وتسقط فيه الأسوارُ كما الإرادة، يصبح لكل صوت قادم من هناك حتمًا صدى. بحكم الطبيعة ـ أو بغيرها ـ لا فرق.

والحاصل أن التفسيرات (صوتًا وصدى) كانت تحتاج بضرورة الحكمة إلى إعادة نظر. بعد أن هدأت الجلبة وابتعدت الصدمة.. وهو مالم يحدث ـ للأسف ـ إلا قليلاً. وكان أن شاعت أفكار قد لا تستمد صدقيتها إلا من شيوعها ذاته.

فعلى سبيل المثال يخطىء من يركن إلى وهم أن أفغانستان / طالبان هى (أو كانت هى) المُحَرِّضة الرئيسة للعنف ضد أمريكا، أو الغرب الذى تتزعمه.

كما يخطىء من يقطع بأن المدارس الدينية أو كتب الفقه الإسلامية القديمة هى الرافد الفكرى «للتحريض» على هذه العمليات.

ودعونا نسرد هنا مجموعة من الحقائق التى أغفلها القصد أو العجلة.. أو مسايرة ما هو شائع.

١ ـ لم يوجه الاتهام ـ حقًا أو زورًا ـ فى أحداث سبتمبر لأفغانى واحد، سواء من طالبان أو من غيرها.

٢ ـ فى كل ما صُنِّفَ «إرهابًا» ـ مع التباين فى التعريفات والتحفظ على غموضها ومدى حيدتها ـ لم نر أزهريًا واحدًا أو خريجًا من القيروان أو الزيتونة، أو غيرهما من المدارس الإسلامية العريقة.

٣ ـ إن بعض من تصدى للتضحية بحياته فى عمليات مثل تلك، لم يتجاوز التاسعة عشرة من العمر. وهو بحكم السن على الأقل، لم يشارك قطعًا فى الجهاد الأفغانى (١٩٧٩ ـ ١٩٨٩) ولم ير عبدالله عزام (مات ١٩٨٩) ولكنه بالضرورة رأى (على الفضائيات) صورة الأم العراقية المحترمة التى بالت واقفة فى ملابسها أمام أبنائها (تجسيدًا لمعانى «الصدمة والترويع») أمام فوهات المدافع سريعة الطلقات لجنود المارينز مفتولى العضلات الذين اقتحموا دارها فى أيام الحرب الأولى (الصورة بثتها CNN.. ونقلتها عنها جميع الفضائيات العربية).

وعلى من لا يريد أن يُصَدِّق ربط مبارك بين الحرب على العراق وظهور مائة بن لادن، أن يعود لأرشيف الصحف. ليرى كيف كان آلاف المتظاهرين «ضد الحرب» فى دول آسيا الإسلامية يرفعون صور أسامة / الرمز، الذى لم ينجح الأمريكيون حتى اللحظة فى الوصول إليه.

كما قد يكون مفيدًا لأولئك المطمئنين إلى التوصية بتركيز المناهج على ما هو «علمى» بديلاً عما هو «دينى» أن يتذكروا



«إن الباب الوحيد المفتوح اليوم أمام الشباب العربى للرد على إهانة الأمريكيين هو باب أسامة بن لادن. وهو الباب الذى ندفعهم إليه نحن الغرب قسرًا بأفعالنا»

الجارديان

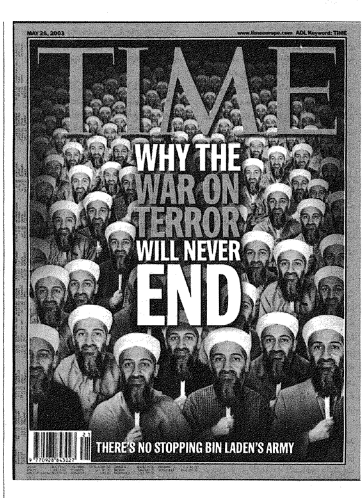
١٠/٤/٢٠٠٣

(قبل شهر من تفجيرات الرياض)



بـــــن لادن!!!

أيمـــــن الصيــــاد



أن أيمن الظواهرى «طبيب». وأن أسامة بن لادن كان دارسًا للهندسة. ومثله القائد الأشهر لعملية سبتمبر محمد عطا الحاصل على الماجستير فى التخطيط العمرانى.

وربما كان علينا - لكى نفهم ما يجرى اليوم - أن نتذكر حديث بن لادن معلقًا على أحداث سبتمبر فى ٧ أكتوبر ٢٠٠١ عن «الذل والهوان الذى يتعرض له المسلمون منذ أكثر من ٨٠ عامًا».

أخطأ بن لادن (فيما نرى) عندما اختزل الأمر كله فى حديث عن «فسطاطين» ويخطىء برنارد لويس؛ نافذة الغرب على الإسلام، والأب الحقيقى لفكرة «صراع الحضارات» عندما يضع لكتابه الأخير «The Crisis of Islam» عنوانًا جانبيًا يختصر فيه القضية فى «حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس Holy War and Unholy Terror».

يخطىء أسامة (الشاب المغامر). ويخطىء لويس (الشيخ الأكاديمى).. ونخطىء نحن عندما تستهوينا تلك الثنائية، وننزلق لما يروجه المستشرق اليهودى على الناحية الأخرى من الأطلنطى. ونصدق أن فكر «الفسطاطين» المختلف عليه، يقف - وحده - وراء تفجيرات الرياض والدار البيضاء. ووراء المشاعر المعادية لأمريكا وإسرائيل ورموزهما. وأن الحل (ينحصر) فى الروشتة الأمريكية بتجفيف منابع هذا الفكر فى المدارس والمساجد.. وفى القرآن والسنة.

ولعلى أزعم - مجربًا - أن حديث البسطاء فى مقاهى القاهرة حول أكواب الشاى الأسود، أو فى جلسات القات فى صنعاء. أو حتى شباب الأثرياء فى ديوانيات الكويت، لم يعرف طريقه أبدًا إلى الجدل العقيم حول «دار الحرب.. ودار الإسلام»، ولكنه - بمنتهى البساطة - يشعر بالظلم والهوان.. وبالعداء الفطرى لمن يبدو وكأنه يستهدف دينه وأرضه. ولمن لا يتردد فى الدفاع عن أنه يكيل بمكيالين. يقول توماس فريدمان فى «الجزيرة»: إننا نعرف أن إسرائيل لديها أسلحة نووية ولكننا «لا ننظر إليها كما ننظر إلى العرب».

هل يعتقد الأمريكيون حقًا أن شعبان عبد الرحيم - الذى لا يعرف القراءة والكتابة أصلاً - قد احتاج أن يقرأ كتب الفقه وأطروحات ابن تيمية لكى يكره إسرائيل فى أغنيته التى ذاعت بعد اندلاع الانتفاضة. أو لكى يعادى أمريكا فى أغنيته الجديدة بعد حرب العراق.

وهل وجد توماس فريدمان الذى رأى بعد ١١ سبتمبر أن العداء لأمريكا يعود إلى «الفقر والحسد» تفسيرًا مقنعًا لنظريته فى مظاهرات بروكسل وطوكيو وبرلين.

وهل مازال المعجبون ببرنارد لويس ورأيه القائل بأن العداء لأمريكا يكمن فى جوهر الإسلام وثقافته، يعتقدون أن فتيات سيدنى اللواتى اخترن «العرى» فى الشارع احتجاجًا على ممارسات القوة الأعظم منشغلات بمسألة «الحجاب الشرعى» التى أراد لها البعض أن تصبح أزمة فى فرنسا هذه الأيام.

الأسئلة محملة بعلامات تعجب أكثر مما هى ملحقة بعلامات الاستفهام.

رغم كل ذلك - ولا عجب - فقد قرأنا لمن لم ير فى هبة ضراغمة، الجامعية الفلسطينية ذات التسعة عشر ربيعًا بطلة عملية العفولة الأخيرة، غير حجابها. كأنه لم يقرأ أن شقيقها معتقل فى السجون «الإسرائيلية». وأن منازلَ لأقاربها فجرتها القوات «الإسرائيلية». وأن مزارع العائلة بشجرات الزيتون المعمرة قد جرفتها الآليات «الإسرائيلية». وأن سيارة مدنية تعبر الزقاق المجاور قصفتها أباتشى «إسرائيلية».

كل ذلك وغيره كثير لم يكن كافيًا وتم - بجرأة بالغة - اختزال الأمر كله فى حجاب الفتاة.. وفى مفهوم «الجهاد» وثقافة الإسلام «الدموية».

مجلة الـTIME الأمريكية، والتى ربما على مدى العامين الماضيين كانت الأكثر احتفاءً بصورة بن لادن على غلافها (الهدف تارة.. والشبح المختفى تارة أخرى) اختارت لغلافها الأخير (٢٦ مايو) عددًا لا نهائيا من الـ«بن لادنيين». أو بالأحرى من أولئك الذين يرتدون.. أو يختفون.. أو يراد لهم أن يبدوا بوجه ذلك الشيخ المعمم ذى اللحية الكثيفة.

الصورة المعبرة المزدحمة بالأوجه (أو بالأحرى بالوجه الواحد) وبالدلالات «ذات الأوجه»، حملت سؤالاً واحدًا، موجزًا ومحوريًا. وقد يكون دالاً أنه خلا من علامة الاستفهام: Why The War on Terror Will Never End.

السؤال يبدو بسيطًا جدًا. والإجابة أيضًا قد تصبح كذلك. فقط إذا نجح الأمريكيون فى ترجمته هكذا: ما الذى يغذى مشاعر التطرف والعنف ضد أمريكا فى عالمنا العربى والإسلامى..؟ وكيف يمكن للأمريكيين أن يشعروا بالأمن.. والسلام؟

وقد يكون لازمًا كمقدمة هنا أن نسأل أولئك الذين يشيرون بسبابتهم دائمًا إلى بن لادن: لماذا ينجح هذا الكهل المريض الطريد فى أن يكون له كل هذا التأييد. الكائن فى لافتات تظاهرات كراتشى وكوالالمبور.. والكامن فى منتديات النقاش الشبابية العربية على الإنترنت. والمتفجر ربما فى ضواحى الرياض الآمنة وأزقة الرباط الفقيرة؟ يسأل كتاب الأعمدة فى الصحافة الأمريكية.. وتذهب بهم الإجابات «المألوفة» والتى يعاد تدويرها، كل منحى. فى حين يعرف جيدًا المتصفح لآراء أولئك الشباب أنه لا قدرات بن لادن التنظيمية - المشكوك فيها بعد كل هذا الحصار الاستخباراتى - ولا المدارس الإسلامية، ولا التبرعات «الإغاثية» لليتامى والمساكين - وإن ذهبت لأسر الشهداء - وإنما هو الإحساس بالظلم والانسحاق.. واليأس من عدل «الإمبراطور الجديد».

فهؤلاء الشباب يشاهدون يوميًا ما تفعله قوات الاحتلال الإسرائيلى فى المناطق التى هى قانونيًا محتلة منذ خمسة وثلاثين عامًا. ويعرفون أن واشنطن استخدمت الفيتو لصالح إسرائيل ٣١ مرة، وأن الأمريكيين الذين يتحدثون عن الإرهاب الفلسطينى أبطلوا قبل عام قرارًا لمجلس الأمن كان يقضى بإرسال قوات لحفظ «أمن الطرفين».

ويسمع أولئك الشباب جورج دبليو بوش يتحدث «كالقديسين» مؤكدًا أنه ذهب للعراق «لينزع أسلحة الدمار الشامل». ثم يفاجأون به يجهض محاولة فى مجلس الأمن لإصدار قرار بجعل منطقة الشرق الأوسط خالية من تلك النوعية من الأسلحة.

وغير ذلك كثير.. وكثير.. يعرفه بالتأكيد السادة فى واشنطن. فهل يقرأون فيه بعضًا من الإجابة على سؤال التايم.



نتفهم «الوصفة» الأمريكية.. ونحترم «أصداءها» فى صحافتنا العربية. ولكننا نعتقدُ فيما قلنا هنا مرارًا وتكرارًا من أن الضمان الوحيد لأمنك هو ألا يكون لك أعداء يكرهونك إلى درجة «الانتحار لإيذائك».

فى عالمٍ له «حاكمٌ واحد».. يبدو أن الوصفة الوحيدة لأمن القوة العظمى «الوحيدة» هى تلك القادمة - وياللمفارقة - من أعماق تراث المسلمين: «حكمتَ.. فعدَلتَ.. فأمِنْتَ.. فنمتَ يا عمر».

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

فصول من سيرة التراب والنمل

حسين عبد العليم

القاهرة: ميريت للنشر، ٢٠٠٢، ٩٢ صفحة



ليس مهمًا التتابع الزمنى، فالمؤلف اختار أن تمضى روايته على وتيرتها ووفق اختيارات شخوصها، متنقلة بلا تعسف عبر أكثر من نصف قرن من الزمان منذ السنوات الأولى للأربعينيات وحتى نهاية التسعينيات، متتبعة ما حل بأسرة الدكتور عزيز بشرى فانوس الذى ينتمى لأسرة من أعيان الصعيد، أو بالأحرى هكذا كانت زوجته التى رحلت عن الدنيا وتركت له ولدين هما فؤاد وفاروق، أولهما فوضوى دخل مع أبيه فى مشاحنات مستمرة لمقاومة التراب والنمل، فيما تعوّد فاروق أن يفعل ذلك تلقائيًا.

يصير فؤاد طبيبًا للقلب، ويعمل فاروق مهندسًا ويقيم فى لندن. اختيارات المؤلف دالة، فالفصل الذى يحمل عنوان العام ١٩٧٧، يقترن فيه غياب الأم والضغوط النفسية التى عانتها الأسرة وخصوصًا الدكتور عزيز، بزيارة السادات «التاريخية» للكنيست الإسرائيلى.

و«تحديدًا» من أيامها بدأ نظام البيت يختل، بدأ التراب والنمل يهاجمان كل شىء».

أى تراب؟ أى نمل؟ أى بيت؟

وفى الفصل الذى يحمل عنوان العام ١٩٤٠ يردنا المؤلف إلى سنة زواج الدكتور عزيز بالسيدة عايدة ولحظات الاكتشاف والانكشاف الأولى، وهوايات عايدة العجيبة وسعيها إلى إدخاله عالمها الخاص. واهتماماتها بصور الأميرات فوزية وفايزة وفايقة شقيقات الملك فاروق، وتشبيهها بالملكة فريدة التى كانت تهوى العزف على البيانو والرسم، ولابد أن نتوقع أن يلقى الفصل الذى يحمل عنوان العام ١٩٧٥ أضواء على حقبة الانفتاح وتأثيراتها وآثارها على أسرة الدكتور عزيز ومصر كلها، وتحول مدينة بورسعيد من رمز للنضال والكفاح ضد العدوان الثلاثى ١٩٥٦ «بورسعيد بورسعيد.. أنت معجزة الوجود.. فى كفاحك المجيد».. كما كان يردد فاروق. إلى مدينة الشامبوهات والبارفانات والملابس المستوردة والتهريب والجينز.

من لندن حيث يدرس فاروق يرسل تهنئة إلى وصفى كمال ونادية فخرى بمناسبة زواجها ومع التهنئة وباقة الورد قصاصة: «ليس ثمة انتماء للوطن، الهم الوحيد والحقيقى أن يؤمن كل فرد نفسه ماديًا، أصبحت الأسرة بعد المال هى الحصن الرئيسى للفرد الذى لم يعد ينتمى للواقع بل لأسرته».

نحن الآن فى العام ١٩٩٦، حيث تتضاءل قيمة الوطن وتتوارى قيم الولاء والانتماء أمام زحف الأنامالية الرهيبة والإحساس العارم بضيق المساحة التى يمثلها الوطن وضيق المعنى خصوصًا لدى أسرة قبطية تنهشها جلافة المتأسلمين من أمراء آخر الزمان.

ترد نادية على هجوم فاروق: طب انت عاوزنا نعمل إيه؟ نسرق والا نرتشى والا نشحت(...) ونتحمل إزاى الجلافة والفظاظة والسوقية اللى وصل ليها الناس.

فاروق لم يصدم بكلمات نادية، وإنما سرح فى معانٍ وتواريخ بعيدة حين خرج مع الطلبة فى انتفاضتهم فى ١٩٧١ و١٩٧٢ يطالبون برد الاعتبار ومحو آثار هزيمة يونيو ١٩٦٧، ويغنون قصائد الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم وعدلى فخرى.

يذهب فاروق، المثالى عاشق تراب الوطن، ويبكيه فؤاد الذى ينهشه الإحساس الطاغى بالوحدة، وتبكيه نادية التى آثرت عليه عريسًا له أفكار عملية واقعية قابلة دومًا للتحقق، يتذكر الجميع أن ما حل بهم سببه ضياع الحلم، لم يعد هناك هدف للحياة، ضاع الحلم تمامًا كما ضاع فاروق وتركهم فى ظلمات موحشة.

أما الدكتور عزيز فقد اختار أن يعتزل الحياة، ويعيش حنينه الدائم للماضى، يرفض بشدة الانتقال إلى أحد بيوت المسنين، وواجه عائلته بشجاعة وكان ذلك آخر ما قاله: دنيتى اللى مش عاجباكم أحسن من دنيتكم التافهة القذرة، راح فى غيبوبة وعندما عاد إليه فؤاد، فوجئ به مستلقيًا على ظهره، صغيرًا كحجم الطفل ومئات من أسراب النمل تدخل وتخرج من فتحة أنفه وتدخل وتخرج من أذنيه وفمه، فادرك أنها النهاية.

■

الديمقراطية والتعددية

رفعت السعيد

القاهرة: الأمل للطباعة والنشر، ٢٠٠٣، ٣١٠ صفحات




يدرس المؤلف هنا، وهو المؤرخ الرئيسى للحركة الشيوعية المصرية، والأمين العام لحزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى، المسافة بين النظرية والتطبيق فى مسألة الديمقراطية والتعددية فى مصر، وهو يطرح فى الصفحات الأولى من الكتاب رؤى مختلفة لمعنى الحرية والديمقراطية والتعددية، لكتاب وأكاديميين وفلاسفة غربيين وعرب، إذ يرى البعض أن التطور الديمقراطى الناجح يحتاج إلى مجتمع ناضج حديث ودولة قوية منفتحة، إذ يؤدى ضعف الدولة - برأى هذا البعض - إلى نزاعات أهلية وانقسامات تحيل المجتمع إلى فوضى، فيما يرى آخرون أن التطور الديمقراطى عملية سياسية اقتصادية ثقافية اجتماعية متكاملة الأبعاد تسهم فيها كل فئات المجتمع، فيما يرى فريق ثالث أن إطلاق الحريات وإفساح المجال للتعددية هو نقطة الانطلاق التى تأتى بعدها كل التحولات الأخرى.

وينبه المؤلف إلى أن كلمة ديمقراطية والتى تعنى باليونانية حكم الشعب، كانت تستخدم كنوع من السخرية على هؤلاء الفقراء الذين يطمحون إلى مزاحمة الأرستقراطية على الحكم. وقد كانت الديمقراطية فى أثينا تعنى الحكم المباشر للعامة، بينما تعنى الجمهورية الرومانية انتخاب العامة لمن يقودهم. وفى كل الأحوال لم تكن هذه الديمقراطية ممنوحة إلا للأحرار أو الأرستقراطيين أما الفقراء والعبيد فلا.

وفى حالة المجتمعات الإسلامية، فقد تطوع فقهاء السوء ونفر من رجال الدين إلى تزيين طريق الاستبداد للحاكم، والتراث الفقهى بل والشعرى يحتشد بنماذج كثيرة.

ويتناسى هؤلاء النصوص الصحيحة التى تلزم الحاكم بالشورى والتى أجملت دون تفصيل، كما تعطى الناس الحق فى اختيار النموذج الذى يصلح لمعاشهم.

ويتناول المؤلف فكرة الديمقراطية بين الماركسية كما طرحها ماركس، وكما طبقها السوفييت.

ويناقش فى الفصل الثالث كيفية تطبيق فكرة الديمقراطية فى مصر، بادئًا بخصوصية الأوضاع المحلية، ومصر بين الدستورية واللادستورية، وحكاية الـ ٥٠٪ عمالاً وفلاحين. ويتساءل عن معنى التعددية المقيدة بصعوبة الطريق نحو الديمقراطية، لكنه مع ذلك يراها جائزة تستحق عناء المحاولة ومكابدة التشريد والسجن والملاحقة، ويذكرنا بحكاية الخيط والعصفور، العصفور هو الشعب والخيط بين الحاكم يشده ويرخيه كيفما شاء فيتحكم فى ارتقاء العصفور ومدى تحليقه، ويطالب بعكس الصورة، أى أن يكون الحاكم هو العصفور والخيط بيد الشعب، ويحلق الحكم وفق إرادة الشعب، ويتساءل: أليس هذا أوفق وأقرب إلى المنطق؟

■

نعم، ولكن، القوة الكامنة فى جمل التخاطب اليومى وكيف يصبح المرء أكثر دقة من خلال التحدث الواعى

تأليف: ليليا كونى دى هان

تعريب: د. حسين عمران

الرياض: العبيكان، ٢٠٠٣، ١٧٦ صفحة



خمس عشرة جملة نستخدمها فى كلِّ يوم، وليس فى الإمكان الاستغناء عنها فى خطابنا، إنها تؤثر تأثيرًا بالغًا فى وعينا وفى حياتنا؛ إذ أن القوة الكامنة فى هذه الجمل تحوّل ما يقال إلى عكس ما نحسُّ به أو نريد الإفصاح عنه أكثر بكثير مما نظن.

فهذه المقولة: صحّتى جيّدة، لكن...، لا يمكن أن تعنى أن صحة المرء جيدة، لأن كل ما يأتى بعد كلمة لكن، يجعل المقولة المعنية والإحساس الحقيقى فى مهب الريح.

توضح ليليان كونى دى هان من خلال كثير من الأمثلة ومن تجاربها فى عيادتها المتخصصة بالمعالجة النفسية، كيف نستطيع أن نعيد الثقة بأنفسنا بواسطة اللغة، ثم نصوغ حياتنا بصدق وإخلاص كبيرين.

إن من يحمّل نفسه الهموم، يبتدع لنفسه المشاكل. ولا يوجد طريق آخر، لكى يكوّن المرء الهموم لنفسه، غير ذلك، وهذه الطريق لن تؤدى إلى أية نتيجة، لأن الذى يحمل نفسه الهموم، يفكر تفكيرًا سلبيًا بدلاً من الفعل الإيجابى، ويشل نفسه بنفسه.

ومن يقل: أعتمد عليك.. «فسيلقى العجب العجاب، وذلك أن ما يفعله فى الحقيقة، ليس أكثر من قوله: إنه يتخلى عن نفسه، وبخاصة عندما يحتاج إلى نفسه أشد الحاجة».

تعرض المؤلفة ليليا كونى دى هان فى هذا الكتاب عن طريق خمسة عشر تعبيرًا من التعابير التى يستخدمها كل شخص فى حديثه اليومى بصورة لاشعورية، كيف تؤثر هذه القوى الضمنية علينا وعلى الآخرين وكيف نستطيع تغييرها بسهولة.

تعرض المؤلفة هنا كثيرًا من الأمثلة المعاشة وتمارين عملية تعطى إرشادات ملموسة عن كيفية التوصل إلى الوعى الذاتى من خلال الكلام الواعى.

وليليا كونى دى هان تعمل فى عيادتها المخصصة للعلاج النفسى منذ خمس عشرة سنة مع مختلف أنواع البشر. ولقد نشأت فكرة هذا الكتاب من عمل المؤلفة مع الزبائن الذين اكتسبوا خبرات إيجابية من

التعامل الواعي مع هذه الجمل، وتوصلوا إلى تغييرات مذهلة في حياتهم.

طورت ليليا كوني دي هان شكلاً جديدًا للمعالجة النفسية القصيرة بعد أن اتبعت مختلف أنواع التأهيل والتدريب في الولايات المتحدة الأمريكية وفي ألمانيا، وقامت بعده بافتتاح عيادة خاصة للمعالجة النفسية والتنويم المغناطيسي في ميونيخ.

وفي السبعينيات من القرن العشرين قامت بعدة رحلات استكشافية إلى عدد من الدول والمناطق منها، نورستان في أفغانستان، وزنسكار في كشمير، والتبت. وعملت بعد ذلك في مجال الصحافة، كما أمضت سنة في الهند، وشاركت في حلقات التأمل الذاتي ومجموعات التجربة الذاتية.

لقد اهتمت أيضًا بالطب البديل وطرائق المداواة غير التقليدية، وأمضت لهذا الغرض مدة أربع سنوات مع ابنتها الصغيرة ذات السنوات الأربع في منطقة للهنود الحمر في هويشول - سيرامادري في المكسيك، ونشرت سنة ١٩٨٠ كتابًا بعنوان «العرافة»، وفي سنة ١٩٨٩ «رُخص الأطباء الشعبيين»، ثم عملت ما بين ١٩٨١ - ١٩٨٩ في معهد أبحاث التنويم المغناطيسي وبين سنوات ١٩٨٩ - ١٩٩٢ في معهد المعالجة المتكاملة، كما تابعت اختصاصاتها في معالجة «الجشتالت» Gestalt والسلوك، والمعالجة الأسرية المنهجية.

■

أبو همام شاعرًا

أحمد سيد شرقاوي

القاهرة: مكتبة النصر، ٢٠٠٣، ٤٠٥ صفحات



يعد عبداللطيف عبدالحليم (أبوهمام) واحدًا من الحرس القديم الأشداء على ناصية الشعر العربي العمودي بأوزانه وقوافيه، وهو إلى ذلك أستاذ جامعي شغل منصب وكيل كلية دار العلوم في جامعة القاهرة، وعضو بالمجلس الأعلى للثقافة ولجانه، وله عديد من الدراسات النقدية المهمة.

أما في الشعر، وهو مناط هذه الدراسة، فله فيه عدة دواوين منها «الخوف من المطر»، «لزوميات»، «هدير الصمت»، «مقام المنسرح»، «أغاني العاشق الأندلسي» و«زهرة النار».

ويلاحظ المؤلف أن المرأة شغلت مساحة واسعة من شعر «أبوهمام» وهو في مناجاته لها شديد الاخلاص والوفاء، متكبر حينما يشتم منها رائحة الكذب والخداع، وهو في قصائده عنها، يترفع عن الغزل الحسي والتعرض لمفاتن جسدها، وهي عنده مصدر من مصادر الإلهام والإبداع.

وإلى المرأة، فإن الرثائيات في شعر «أبوهمام» تحتل جانبًا معتبرًا، وهو حريص على رثاء من جمعته بهم صلة من أمثال الشاعرين على الجندي والعوضي الوكيل وغيرهما، كما يكتب في الإخوانيات إلى أصدقائه وشيوخه وأساتذته. وفي الوطنيات يرثي المجد العربي الضائع في الأندلس. فهو يرى أن المأساة الأندلسية هي وطنية ودينية في آن معًا.

أما من حيث القاموس اللغوي الخاص، فـ«أبوهمام» يختار من اللغة ما يعبر عن لسان حاله من مفردات وتراكيب، وينتقيها بشكل يميزه عن أقرانه من الشعراء المعاصرين، فتصبح هي والإيقاعات المداخل الكبرى لفهم شعره وتعمقه، والنظر إلى التشكيلات الفنية وتعامله مع اللغة، لا ينعزل عن تصوراته الأيديولوجية ورؤيته للثقافة العربية والتراث وكيفية التعامل معه. إلى ذلك يقدم المؤلف رؤية فنية لخصائص شعر أبوهمام والجماليات التي يقوم عليها من رمز وصور وتوازن ودلالات تركيبية ولغوية شديدة الخصوصية.

■

أساسيات تكنولوجيا المعلومات والاتصال والتوثيق الإعلامي

محمود علم الدين - محمد تيمور عبد الحسيب،

٢٠٠٣، ٣٩٦ صفحة



يتصدى الكتاب لمعالجة الجوانب المختلفة لثلاث من أهم الأدوات الأساسية التي يستخدمها الإعلامي في مطلع الألفية الثالثة وهي المعلومات كمادة خام للعمل الإعلامي، وأساليب توثيق هذه المعلومات، ثم أخيرًا التقنيات الحديثة التي يتم من خلالها معالجة تلك المعلومات وتوصيلها وتبادلها خصوصًا مع التغيرات المتلاحقة التي تجرى في هذا القطاع مع تطور وسائل الاتصال بصورة مطردة.

والكتاب الذي يأتي استكمالاً لجهد المؤلفين اللذين أصدرا من قبل «الحاسبات

مراجعة

عــالــم واحـــد كــالـبـلــد الـغــريـب

الاستشراق جنسيًا

تأليف: إرفين جميل شك

ترجمة: عدنان حسن

بيروت: دار قدمس للنشر، ٢٠٠٣، ٤٠٠ صفحة



لم يكف العالم عن أن يكون مسرحًا للغرب وميدانًا خصبًا لتمثيلاته، وتمثيلات الغرب للعالم هي تمثيلاته عن نفسه، مرآته التي لا ينى يُشظيها ويُدمي بها وجهه والعالم. وليست فكرة حاقدة أن يكون الغرب قدر العالم المشئوم بل ربما هي أدعى للابتسام، فما يحمل بين جنباته الموت يحمل الحياة أيضًا.

إذا لم يكن المكان هو الحيز المادي الموضوعي فقط، بل مضافًا إليه الخبرة البشرية التي تجعل منه فضاء اجتماعيًا، فإن الاندياح الغربي صوب العالم اللاأوروبي ما كان دون الاقتران بخبرة بشرية أوروبية تقتحم الفضاء الأصلي وتزرع فضاءها الخاص مستفيدة من الخلل الناتج في توطيد فضاء استعماري ينشر عباءته فوق البلد المستعمر من جهة ومن جهة ثانية فوق بلد المستعمر نفسه بما يضمن الولاء والاستمرارية لمنظومته السلطوية. وبذا تتحول الخريطة الجغرافية إلى شكل من أشكال التعبير عن القوة والسيطرة. فمن يحدد على خارطة العالم مساحة بيضاء، باعتبارها مجهولة، إنما يعقد العزم على اكتشافها وتجييرها لصالحه. ولن تكون الخطوط الوهمية للخارطة نفسها، التمثيلات على الورق، سوى التمزيقات الفعلية على الأرض، تمزيقات على صعيد الواقع وعلى صعيد الفضاء أيضًا. ومن هنا ينشأ صرح التباين الهائل بين الـ«هنا» والـ«هناك» وتمثل الجنسانية أحد أهم تعبيراته وأكثرها إضمارًا ومضمونية، كونها الأشد التصاقًا بالسياسي ودلالاته. إنها (أي الجنسانية) القادرة على تشريب المكان بالمعنى بما يكسبه دلالات رمزية تشكل واسطة التعرف به، وبما يتيح بناءه وإعادة إنتاجه اجتماعيًا عن طريق «أدوات واستراتيجيات يتم بها تكوين الفضاء كمكان» وهو الهاجس الأساسي الذي يشكل محور الكتاب وعقده الناظم.

سياسة الزمن

عمد علم الإناسة (الإثنوغرافيا)، إلى خلق فارق زمني بين منتج الخطاب الإناسي (المستعمر) وبين موضوعه (المستعمر) بإحالته الموضوع (أي المستعمر) إلى زمن آخر مختلف وهو ما أسماه فابيان «سياسة الزمن». فمن غير الممكن تبعًا للفيزياء، وكذلك على ما يبدو للسياسة، أن يشغل جسمان حيزًا واحدًا من الفراغ في نفس الزمن، ولذلك كان لابد من خلق هذا الفارق الزمني المذكور والذي تم على أساسه إنشاء «مخطط وُضعت بموجبه ليس فقط ثقافات الماضي، بل كافة المجتمعات الحية، بشكل نهائي على منحدر زمني، تيار الزمن، البعض في أعلى المجرى، البعض الآخر في أسفل المجرى».

وقد لاحظ «شك» عبر مسحه لمادة كتابه تكرارًا في الموضوع لدرجة «تبعث على الغثيان» وكذلك لاحظ تناقضًا مذهلاً في التوكيدات والأحكام المتعلقة بـ«اللاأوروبي». إذ تتقلب المرأة الشرقية في مختلف الكتابات الغربية من رحلات وروايات وتقارير بين صفات القبح المفرط والجمال المذهل، القذارة الجسدية المشينة والاهتمام لدرجة الهوس بالنظافة، الشذوذ الجنسي والسوائية الجنسية، وهو تناقض لا يمكن تفسيره من وجهة النظر التي ترى في تمثيلات الخطاب الاستعماري كلاً متجانسًا لدرجة الاتساق، إذ أن التناقض الراسخ فيه ليس تعبيرًا عن تفكك وضعف بقدر ما هو تعبير عن قدرة على التكيف والتلاؤم. فطرفا التناقض معًا لا يعبران عن حقيقة المرأة الشرقية مثلاً، بل هما غير معنيين بذلك أصلاً، ولذلك لا يتنافيان، بل يتآزران ويتبادلان المواقع في سياق التعبير عن واقع أوروبا وعن نظرتها إلى ذاتها من خلال إطلالتها التلصصية على الآخر و«أخرنته» (Othering).

كتاب «جميل شك» دعوة جدية للانفلات من أسر الـ«هنا» والـ«هناك»، الـ«نحن» والـ«هم»، أسرٌ ارتفعت أسواره عاليًا عبر مئات السنين من العمل الواعي وغير الواعي، في ذات الوقت، على كذبة امتدت لترسخ وتطالب بأحقيتها كحقيقة. ولن تجد الكذبة، أية كذبة، ميدانًا أكثر رحابة من اللغة لتمارس فيه عنفها واستسلامها، قوتها وضعفها، نبلها وعهرها. لذلك كان الكتاب - حسب رغبة مؤلفه - دعوة لإطلاق بناءات تحررية وخلق بُنى مقاومة قادرة على إنشاء سرديات مختلفة يكون العالم على أساسها بلدًا للجميع، نقاط التمايز والخصوصيات القومية والثقافية فيه هي قنوات اتصال أكثر من كونها متاريس لحرب أبدية سخيفة.

محمد غيث الحاج حسين

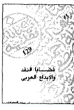
(دمشق)

الإلكترونية وتكنولوجيا الاتصال» ١٩٩٦، و«المعلومات وتكنولوجيا الاتصال» ٢٠٠٢، وهو يتألف من أبواب أربعة، يعرض الأول فيها تحليلاً للمفاهيم والمصطلحات الأساسية للمعلومات، ويختص الباب الثانى بالتوثيق وتطبيقاته الإعلامية والنظام الكفء للمعلومات الصحفية، ويعرض الباب الثالث لتكنولوجيا المعلومات وأهم جوانبها وهى الحاسبات الإلكترونية وتكنولوجيا الاتصال وشبكة الإنترنت، ويخصص الباب الرابع لبعض الإشكاليات التى تثيرها التطورات الراهنة فى تكنولوجيا المعلومات والاتصال.

قضايا النقد والإبداع العربى

سيد البحراوى

القاهرة: هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٣، ٤٩٠ صفحة



وجوه عدة من أزمة النقد والإبداع والسينما والتشكيل يطرحها المؤلف عبر عدة عناوين رئيسية هى: فى المنهجية النقدية، وجوه من أزمة المنهج فى النقد العربى الحديث، وجوه من أزمة الإبداع، السينما، وعزل الفن التشكيلى.

وتحت العنوان الأول يتعرض لأزمة المصطلح النقدى التى يشكو منها النقاد والقراء على السواء، ويطرح لتجاوزها عدة نقاط، منها الاهتمام بالتأسيس النقدى فى مراحل التعليم المختلفة وزيادة الوعى الفلسفى، والاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية، والعمل على إتقان اللغة العربية، وإنشاء مؤسسة عربية موحدة تكون مهمتها إنجاز ما يتفق عليه المختصون فى الأقطار العربية من ترجمات.

والمؤلف لا يرى أملاً فى تغيير قريب للواقع النقدى المأزوم، بل يرجح أن مزيدًا من التردى سيقع.. «لأن فريق الفكر النقدى مازال غير نقدى، ولن يستطيع بتكوينه الطبقى والذهنى أن يحدث النقلة المطلوبة».

ويتناول المؤلف فى دراسة مطولة التبعية الذهنية فى النقد العربى الحديث فى مصر طارحًا نماذج لأصحابها، ويشير إلى نتاجهم بوصفه ثمرة نقص حاد فى القدرات الذاتية يقود إلى الاعتماد على إنتاج الغير دون وعى وبدرجة مريعة من الاستلاب.. «فممارسات الآخر (الأوروبى) كانت تحقق مزيجًا من القمع المادى والإبهار الذهنى فى ذات الوقت، سواء كانت هذه الممارسات على أرض الوطن أو على أرض الآخر» وفى حديثه عن أزمة الإبداع، وبعد سرد لنماذج من المبدعين الجادين المخلصين لشعوبهم المعبرين عن طموحات أوطانهم، مستندين إلى التراث الرسمى والشعبى فيما يبدعون من أمثال إميل حبيبى ورشيد بوجدره وجمال الغيطانى والطاهر وطار ويحيى الطاهر عبدالله وسعدالله ونوس والطيب الصديقى، فإنه يتساءل عما إذا كان بإمكان هؤلاء وأمثالهم أن يحققوا ما يريدون دون نهوض وطنى تقدمى، يحقق الاستقلال والديمقراطية على المستويات المختلفة».

إلى ذلك يقدم المؤلف دراسة مهمة فى مسرح سعدالله ونوس، ويرى قدرًا من عدم التجانس فى بعض منظورات ونوس تجاه القضايا المختلفة، لكنه يشير إلى أن أعماله تبقى نصوصًا خالدة من أجمل نصوص المسرح العربى، بقدرتها على الغوص فى تحولات النفس البشرية ومشكلاتها، كما يقدم دراسة فى عزلة الفن التشكيلى والتى يرجعها فى الأساس - إضافة إلى أسباب فرعية أخرى - إلى أن فنانينا لم يتوجهوا إلى الإنسان وإنما إلى نموذج الإنسان كما قدمته الحضارة الأوروبية، ويرى أن على الفنان أن يعيد النظر فى توجهاته وفى عمله، باحثًا عن متلقيه الحقيقى لا المزيف.

الكون فى قشرة جوز

ستيفن هوكنج

ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمى

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٣، ٢٢٠ صفحة



المؤلف هو صاحب كتاب «تاريخ موجز للزمان» الذى ظل فى قائمة أكثر الكتب مبيعا بصحيفة «صانداى تايمز» لما يزيد على أربعة أعوام وهو يقترح على قارئه أن يبدأ بالفصلين الأولين بوصفهما أساسًا للفصول الخمسة التالية، التى بوسعه أن يتنقل بينها بعد ذلك بالترتيب الذى يراه.

يشرح المؤلف فى الفصل الأول وعبر ملاحقة السيرة الذاتية للعالم الفيزيائى الحائز على جائزة نوبل (١٩٢١) «ألبرت إينشتين»، نظريته الأساسيتين: النسبية والكم، وفى الأولى دحض أينشتين الفكرة القائلة بوجود قيمة مطلقة تسمى الزمن تقيسها كل الساعات، وطرح بديلاً عنها فكرة الزمن الشخصى الذى يختلف من شخص لآخر، وسيتفق هذا الزمن لدى فردين إذا كانا فى وضع السكون أحدهما بالنسبة للآخر، لكن الزمن لن يتفق إذا كانا يتحركان، وبهذه النظرية التى برهنها بمعادلات رياضية عدة، دمر أينشتين مطلقين من مطلقات علم القرن التاسع عشر، وهما السكون المطلق الذى يمثله الأثير، والزمان المطلق أو الكلى الذى تقيسه الساعات كلها، وكالعادة، اكتسبت النظرية أبعادًا فلسفية إضافية، وتساءل كثيرون عما إذا كانت الأخلاق بدورها باتت نسبية وأنه لا توجد قيم أخلاقية مطلقة؟

لكن إحدى النتائج المهمة للنسبية كانت هى العلاقة بين الكتلة والطاقة، والتى صاغها أينشتين فى معادلته المشهورة: الطاقة = الكتلة × مربع السرعة.

وبقدر إفادتها العلمية الكبيرة، بقدر نتائجها الرهيبة التى اتضحت فى الحرب العالمية الثانية، إذ كان بين نتائج هذه المعادلة إدراك أنه إذا انشطرت نواة ذرة اليورانيوم إلى نواتين لهما كتلة إجمالية، فإن هذا سيطلق كمية هائلة من الطاقة، وكانت هذه الفكرة التى عجلت بمشروع مانهاتن الذى قاد إلى تصنيع القنبلتين اللتين انفجرتا فوق هيروشيما وناجازاكى فى ١٩٤٥، وبرغم أن البعض يلقى باللائمة على أينشتين فى هذا الصدد لاكتشافه العلاقة بين الكتلة والطاقة، فإن الثابت تاريخيًا أن أينشتين أصابه الروع عند إسقاط القنبلة الذرية.

ولم تتوافق نظرية النسبية مع نظرية الجاذبية مما دفع أينشتين إلى محاولة إيجاد علاقة بين الجاذبية وانحناء «الزمان» أى هندسة الزمان والمكان والتى غيرت كثيرًا من المفاهيم حول أصل ومصير الكون. وتعطى النظرية العامة للنسبية عند أينشتين شكلاً للزمان سعى هو إلى توفيقه مع نظريته الأخرى المهمة عن الكم، والتى يفيد ما طرحه ماكس بلانك وماكسويل فى إيضاحها على نحو ما يرى المؤلف، كما يفيد كذلك فى تفسيرها نظرية الأوتار الفائقة.

الفصول الخمسة التالية تفسر عديدًا من النظريات العلمية عن الكون ونشأته ومستقبله.

رام الله التى عشتها حصارا

خالد داود

القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠٠٣، ١٧٢ صفحة



المؤلف هو مراسل جريدة الأهرام المصرية حاليًا فى واشنطن، وكتابه تجربة ذاتية عاشها فى مدينة رام الله بفلسطين لمدة سبعة أيام قبل عملية السور الواقى التى ابتدعتها حكومة إيريل شارون فى ٢٩ مارس ٢٠٠٢، وكان شاهد عيان على الفظائع التى ارتكبها جيش الاحتلال الإسرائيلى والمجازر التى راح ضحيتها عشرات الفلسطينيين من الأبرياء، بينهم نساء وشيوخ وأطفال.

والكتاب إلى جانب كشفه لهذه المعاناة، يميط اللثام عن كذبه دولة إسرائيل الديمقراطية، والتى تشير إليها معاناة الباحثين عن الحقيقة من صحافيين وإعلاميين ومصورين لقنوات فضائية عربية وأجنبية، وحتى ممثلين لمؤسسات إغاثة وصحة دولية، عوملوا بوحشية وتم التعتيم عليهم كى لا يتمكنوا من نقل الفضائح التى تجرى فى فلسطين المحتلة على أيدى قوات الاحتلال، وهو ما يتأكد من كل سطر من سطور الكتاب.

المنهاج الإسلامى ومواجهة مشكلات البيئة

على القماش

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣، ٣٠٠ صفحة



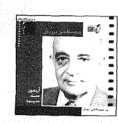
قضايا البيئة وتلوثها من المشكلات المستحدثة فى المجتمع الدولى، وهى عنوان وحدة الكون ومشاركة دوله على اختلاف أنظمتها وشعوبها على تباين ثقافاتها وألسنتها فى وحدة الهدف والمصير، وقد عنى الإسلام عقيدة وشريعة بقضايا البيئة، ودعا إلى حمايتها من التلوث وصيانة الطبيعة من الانهيار بفعل الملوثات الناتجة عن التقدم والمستحدثات.

المؤلف يتناول المنهج الإسلامى المتكامل فى التعامل مع قضايا البيئة ويشير إلى النصوص القرآنية التى تحض على التعامل الرشيد مع البيئة بكل أبعادها، فضلاً عن الأحاديث النبوية الشريفة التى تعاملت مع قضايا البيئة.

أربعون سنة سينما

مصطفى درويش

القاهرة: صندوق التنمية الثقافية (وزارة الثقافة)، ٢٠٠٣، ٢٧٠ صفحة



من منصة القضاء التى أنهى فيها حياته الوظيفية نائبًا لرئيس مجلس الدولة، انتقل المؤلف إلى قاعات العرض مديرًا لجهاز الرقابة سنوات طويلة، ثم ناقدًا يتابع السينما العربية والعالمية على مدى أربعين عامًا.

والكتاب صدر فى مناسبة تكريمه من قبل المهرجان القومى التاسع للسينما المصرية ويضم عشرات المقالات والأبحاث والذكريات التى تحكى مسيرته السينمائية طوال عقود أربعة، وبين ما يكتبه المؤلف

حكايته مع الرقابة التى انتدب إليها فى بادئ الأمر من مجلس الدولة، ثم حكايته مع «التنظيم الطليعى»، وهو كيان سياسى سرى أنشئ فى العهد الناصرى، ملئًا - بدرجة ما - لأداء التنظيم السياسى الوحيد الذى كان موجودًا فى ذلك الوقت (الاتحاد الاشتراكى) ثم علاقته بالوزير الذى ينسب إليه فضل إنشاء العديد من المؤسسات الثقافية والفنية ذات الشان فى مصر فى حقبتى الخمسينيات والستينيات، والتى مازالت شواهدها قائمة حتى اليوم، واتهامه بالتخابر لحساب الأمريكيين والإفراج عنه بعد ثبوت زيف الاتهام.

ويتابع المؤلف فى مختاراته حال السينما العربية والأجنبية، متناولاً حكاية الصهيونية فى السينما، والمرأة فى السينما العربية، والسينما بين أزمة النقد ونوم العقل، والسينما بين الاقتباس والابتكار وحكاية المهرجانات والمعايير الفاسدة التى تحكم الجوائز التى يحصدها النجوم، وعشرات الموضوعات الأخرى.

الديمقراطية (دورية)

هالة مصطفى (رئيس التحرير)

القاهرة: مؤسسة الأهرام، ٢٠٠٣، ٢٦٥ صفحة



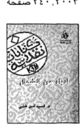
إلى جانب متابعته لحالة الديمقراطية فى العالم، عبر تغطيات للانتخابات فى كوريا الجنوبية وكينيا وجيبوتى وإسرائيل وسورية، ودراسات عن المستقبل السياسى لعراق ما بعد صدام والعلاقات بين شمال السودان وجنوبه، ومستقبل العلمانية فى تركيا وتوصيف للعلاقة بين الحركة الإسلامية والديمقراطية مع التركيز على التجربة المصرية فى ربع القرن الأخير.

إلى ذلك كله تطرح هذه الدورية المعنية بالديمقراطية أساسًا ملفًا مهمًا عن الليبرالية ومستقبل الديمقراطية فى الوطن العربى، فيكتب فؤاد زكريا عن الليبرالية من زاوية فلسفية. ويتناول حازم الببلاوى عن مستقبل الديمقراطية فى مصر، ويكتب سيد القمنى عن أزمة الديمقراطية بين المقدس والسلطان، ويرسم سعيد إسماعيل على الطريق إلى تربية النشء على الثقافة الليبرالية، ويدرس جهاد عودة حال المرأة عضو الجماعات الإسلامية، كما يضم الملف دراسات أخرى عن الفكر الليبرالى والمنطلقات الاجتماعية والخطاب الليبرالى عند أحمد لطفى السيد وتقييمًا لبعض التجارب الليبرالية.

أدباء من الشمال

السيد أمين شلبى

القاهرة: هيئة قصور الثقافة (كتابات نقدية)، ٢٠٠٣، ٢٤٠ صفحة



برغم اهتمامه الأصيل بالشئون السياسية وعمله لسنوات فى السلك الدبلوماسى المصرى، فإن المؤلف معنى بشئون الفكر والثقافة والإبداع، وقد أتاح له العمل القنصلى الاطلاع على أعمال إبداعية لمبدعين كبار فى البلاد التى عمل بها، وهو هنا يقدم خمسة من أعلام أدباء الشمال: هنريك إبسن، كنوت همسن، أوجست ستريندبرج، هانز كريستيان آندرسون وسيجريد آنرست، وجميعهم - باستثناء الكاتب المسرحى النرويجى هنريك إبسن - ليسوا معروفين لقراء العربية.

وهو لا يكتفى بنتاجهم الأدبى وأثره فى الإبداع والفكر العالمى، وإنما يغوص فى حياتهم كاشفًا عن تناقضات وانعطافات كانت لها تأثيرات بالغة على مسيرة كل منهم.

أم كلثوم فى الأدب المصرى

مصطفى بيومى

القاهرة: دار الهدى، ٢٠٠٣، ١٢٠ صفحة



مثلت أم كلثوم حالة فنية خاصة ارتبط بها وجدان الشعب العربى من المحيط إلى الخليج على مدى أكثر من نصف قرن، وهى لم تغب عن صفحات الأدب، فظهرت بوضوح فى أعمال عدد من المبدعين العرب الكبار، وبين هؤلاء نجيب محفوظ وإحسان عبدالقدوس وفتحى غانم ويوسف إدريس وبهاء طاهر وصنع الله إبراهيم وجمال الغيطانى وعلاء الديب.

وهى تظهر عند محفوظ فى أعمال عديدة منها المرايا، قصر الشوق، خان الخليلى، السكرية، ميرامار، والسراب وغيرها، بوصفها جزءًا من نسيج الشخوص ورافدًا أصيلاً فى مخزن الذكريات.

بهذه الطريقة يتابع المؤلف ظهور أم كلثوم فى الأعمال الروائية لهؤلاء المبدعين، سواء بوصفها صاحبة مكانة راسخة فى قمة الغناء المصرى وصاحبة تأثير مدوٍّ على قطاعات مختلفة ومتنوعة فى الواقع المصرى كما فى رواية الشوارع الخلفية لعبدالرحمن الشرقاوى، أو بوصفها جزءًا من واقع الحياة الفنية والاجتماعية وتعبيرًا عن انتماء طبقى بدرجة ما كما تتبدى فى روايات وقصص إحسان عبدالقدوس، أو كجزء من منظومة فنية متنوعة الأطراف وتعبيرًا عن حالات نفسية للسجناء كما فى رواية «شرف» لصنع الله إبراهيم، أو تحولها إلى مجرد مركز تجارى ليس أكثر فى عيون الانفتاحيين كما فى رواية «ذات».

وهكذا وجدت أم كلثوم وتمت صياغتها فى هذه الأعمال الأدبية وغيرها مما يشير إليه المؤلف تعبيرًا عن حالة أو تأكيدًا لفكرة يطرحها.

الأجهزة السرية فى المغرب

أحمد نجارى

المغرب: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٣، ٢٣١ صفحة

كان كتاب مليكة أوفقير «السجينة»، صرخة مدوية ضد غشامة نظام ملكى فاسد، لا يتورع عن التنكيل بخصومه أو من يظن أنهم كذلك، ويلاحق أسرهم انتقامًا من عوائلهم الذين تجرأوا وأعلنوا العصيان والمقاومة. فابنة رجل المغرب القوى الجنرال محمد أوفقير، الذى كان وزيرًا للدفاع وواحدًا من أصدقاء الملك الحسن الثانى المقربين، والذى دفع حياته ثمنًا لمحاولة انقلاب فاشلة جرت فى قصر الصخيرات عام ١٩٧٢، والذى كان قبضة الملك الباطشة بخصومه فى وقت من الأوقات. روت فى الكتاب ما جرى لها هى وأخواتها الخمسة فى سجون الملك طيلة عشرين عامًا، ومحاولاتهم الفاشلة المتكررة للانتحار، إلى أن استيقظت فيهم إرادة الحياة وقرروا أن يتحدوا جلاديهم، وتمكنوا من الهروب بحفر نفق أسفل السجن ثم فروا إلى فرنسا.

وقد شجعت هذه السيرة بما حققته من انتشار وردود أفعال هائلة فى أوروبا الأم «فاطمة» أن تحذو حذو ابنتها، فأخرجت هى الأخرى كتابًا تروى فيه سيرتها وحكاياتها مع الملك وزوجها الجنرال. ومأساتها بين الاثنين.

وقد شجع الكشف عن هذه الأسرار، ومناخ الحرية النسبى الذى تعيشه المغرب اليوم مؤلف الكتاب وهو واحد من رجال المخابرات المغربية أن يدلى بدلوه فى واحدة من أخطر وأهم قضايا الاغتيال التى شهدتها المغرب والتى راح ضحيتها واحد من المناضلين البارزين فى دول العالم الثالث، وفضلاً عن تاريخه النضالى اليسارى الساطع، فقد كان المهدى بن بركة هو أستاذ الرياضيات الذى اعترف الملك بفضله عليه، قبل أن يأمر باختطافه وقتله فى فيلا فونتناى لوفيكونت بباريس فى أكتوبر ١٩٦٥، وهى الوقائع التى يكشفها المؤلف بعد ٣٧ عامًا من الجريمة.

لكن المؤلف لا يكتفى برواية بن بركة، وهى بذاتها دالة وبالغة التأثير، لكنه كعضو سابق فى جهاز المخابرات المغربى، يلقى أضواء كاشفة على الأجهزة السرية فى بلاده، وعلاقتها بالموساد وبالمخابرات المركزية الأمريكية.

وقد بدأت عملية التصفية باكرًا جدًا وفى أعقاب حصول المغرب على استقلاله فى أواسط الخمسينيات، إذ رفض كثير من المقاومين وأعضاء جيش التحرير الوطنى وضع السلاح والخضوع للملك برغم محاولاته استمالتهم، بتوزيع رخص النقل وبيع الخمور وفتح الحانات ومنح بعضهم مراتب سامية فى الجيش وخارجه. وكانت النتيجة الحتمية هى فتح باب التصفيات الجسدية على مصراعيه، وبحسب المؤلف فإن نحو ٨٠٠ مناضل قديم قتلوا خلال السنوات الأخيرة من الخمسينيات. وطالت التصفيات أناسًا عاديين روى عنهم أنهم «شتموا» الملك أو ذكروه بسوء، وهى جريمة يعاقب عليها القانون، فالملك بحسب الدستور مقدس، ومن ١٩٦٠ إلى ١٩٧٣ طالت الملاحقات مواطنين لا علاقة لهم بالسياسة... «انتزعوا من عائلاتهم وقتلوا بدعوى تواجدهم مع مشتبه فيه أو لتشابه بسيط فى الاسم مع مناضل مبحوث عنه».

ويشير المؤلف إلى الروابط الوثيقة التى جمعت بين تل أبيب والرباط منذ تأسيس دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. ويؤكد أن هذه الروابط تدعمت مع مرور الوقت بعد الاستقلال، وتمكن مبعوثو الموساد من اختراق «الدوائر الأكثر سموًا فى النظام»، وسقوط عشرات من السياسيين ومساعدى الملك وممثلى البرجوازية الكبيرة فى «دائرة تأثير المصلحة السرية الإسرائيلية».

وقد عمل «خبراء» الموساد والـ CIA معًا على تصحيح الأمن السياسى المغربى ووضع خطط تطويره لضمان حفظ النظام الملكى وملاحقة معارضيه، وقد عملت الموساد على تنظيم الهجرة السرية لنحو ٢٥٠ ألفًا من اليهود المغاربة إلى إسرائيل، وحصل رجال كبار فى الدولة كان منهم أوفقير نفسه على ملايين الدولارات نظير تقديم هذه الخدمات، التى ارتبطت بعمليات فساد كبيرة ودعارة مورست على نطاق واسع.

ما رواه المؤلف عن الأجهزة السرية فى المغرب، يشير إلى جريمة غياب الديمقراطية والرقابة والمحاسبة فى كل الأقطار العربية، التى تزخر نظمها بحكايات من القصص المشابهة، بعضها يكشف عنه بالصدفة، وبعضها تلوكه ألسنة الخوف دون قدرة على المجاهرة وأكثره مازال طى الكتمان.

A Married Woman

(سيدة متزوجة)

ManJu Kapur
10.99Faber, 2003, 310PP,



مؤلفة هذه الرواية هندية تتحدث فيها عن زوجة هندية عادية ودخولها معترك الحياة مع زوجها وأسرتها بعد أن تربت في أسرة تقليدية، إن هذه الزوجة تمثل الهند بصفاتها المعروفة وفي مقدمتها الصبر والتسامح والحب والشعور بالانسحاب أو الإحجام. فقد تزوجت هذه الشابة الهندية من رجل هندي مناسب طموح حاصل على درجة علمية من الولايات المتحدة وتتناول الرواية رحلة هذه السيدة منذ كانت فتاة لا تحمل أي مسئولية إلى زوجة أدركت مشكلات الحياة وتحاول أن تكون زوجة وأمًا وتعيش في أسرة أكبر. وتسير الرواية إلى أن هذه الزوجة كانت بمثابة بارومتر للتغيير الاجتماعي في الهند فقد أدركت أن العاصمة دلهي لم تعد مدينة الحدائق والهواء النقي بل تحولت إلى مدينة مزدحمة وغابة في الضوضاء والصراعات الاجتماعية والسياسية. وشهدت هذه الزوجة أيضًا تصاعد القوة الاقتصادية الأمريكية في بلادها بعد أن كانت بريطانيا هي القوة الأساسية في الهند.

من خلال الرواية تبدي البطلة آراء كثيرة حول الطعام والملابس والعواطف ومدى تغيرها في الهند اليوم. إن هناك أمورًا كثيرة تغيرت في الهند يمكن للقارئ أن يدركها من خلال قراءة تلك الرواية التي حظيت باهتمام كبير في بريطانيا.

■

Emma's War: Love, Betrayal, and Death in the Sudan

(حرب إيما: الحرب والخيانة والموت في السودان)

Deborah Scroggins
Harper collins, 2003, 220PP.,
17.99



هذا الكتاب يعالج قضية يمكن اختزالها في أنها علاقة العالم الغني بالعالم الثالث.. عالم الوفرة بعالم الحرب والمجاعة واللاجئين ومع ذلك فهو يعالج قضية شخصية. إنه يتحدث عن قصة المغامرة البريطانية إيما ماكوين الشابة الرومانسية الجميلة العملية في السودان. وقد ولدت إيما في الهند عام ١٩٦٤ وعادت لتتلقى تعليمها الجامعي في إنجلترا وفي أكسفورد اكتشفت أفريقيا من خلال الوقوع في حب الأفارقة وبدأت تهتم بالقصص المروعة عن الحروب الأهلية والمجاعات والعبودية في أفريقيا خاصة في أوغندا والسودان. وحصلت إيما على وظيفة في منظمة خيرية صغيرة تسمى منظمة أطفال الشوارع الدولية في جنوب السودان. ومعظم الكتاب يتناول الأعمال التي قامت بها إيما في جنوب السودان ودفاعها عن الجنوب السوداني ثم وقوعها في حب ريك مشار أحد قادة التمرد في جنوب السودان. لقد تزوجته رغم أنه متزوج.

ورغم أن مشار تحول إلى متمرد لا يتورع عن استخدام أبشع الأساليب ضد خصومه إلا أن إيما دافعت عنه. وأصبحت لا تطيق أحدًا يهاجمه وأبلغت أصدقاءها البريطانيين أنها أصبحت سودانية.. لقد دخلت إيما طرفًا في الحرب الأهلية في السودان. ثم وقعت حادثة مفجعة لإيما وهي حادثة سيارة ماتت على أثرها.. وشيع جنازتها آلاف السودانيين. وتزوج مشار زوجة بيضاء أخرى واستمرت الحرب تحصد مئات الآلاف. وكانت إيما نقطة في بحرها.

■

70 Not Out

(في السبعين ولم ينته)

William Hall
Blake Publishing, 2003, 304PP.,
16.99

يتناول هذا الكتاب حياة الممثل البريطاني «الهوليوودي» الشهير مايكل كين الذي بلغ السبعين من عمره هذا العام وهو الممثل الذي فاز بالأوسكار ومنحته الملكة اليزابيث ملكة بريطانيا لقب فارس كما فاز بجوائز أخرى عديدة.

وهو يتحدث عن حياة مايكل كين منذ ولد في جنوب شرق لندن عام ١٩٣٣ ورغبته الشديدة منذ الصغر في أن يكون صاحب ثروة، الأمر الذي جعله في بداية حياته السينمائية يقبل أدوارًا لم يعد يمكنه الدفاع عنها لكن سرعان ما حقق النجاح الأدبي والمادي. ويتوقف المؤلف عند نقطة خاصة بعلاقة كين بمسقط رأسه بريطانيا، فقد شن هجومًا على البريطانيين ووصفهم بأنهم أمة من الخاسرين وأنهم يكرهونه لأنه ناجح. وقال إنه رغم فوزه بالأوسكار فإن النقاد البريطانيين سنوا سكاكينهم لذبحه!

■

Adventures and Exiles.. The Great Scottish Exodus

(مغامرون ومنافي.. الخروج الإسكتلندي الكبير)

Marjory Harper
25.00Profile , 2003, 384PP.,




كثيرة هي الكتب التي تحدثت عن الهجرات الأيرلندية إلى العالم الجديد، إلا أن هذا الكتاب يتحدث عن هجرات كبيرة أخرى للإسكتلنديين الذين عاشوا معززين مكرمين في بلادهم بعكس الأيرلنديين في القرون القليلة الماضية. ويشير الكتاب إلى أنه منذ بداية القرن السابع عشر بدأت رحلة الخروج الإسكتلندية من الجزر البريطانية وفي القرن التاسع عشر وحده هاجر ما لا يقل عن مليوني إسكتلندي من بلادهم. ومع أن الأيرلنديين يحتلون بلا منازع المركز الأول في الهجرة إلا أن الإسكتلنديين يتفوقون على الإنجليز في حب الهجرة إلى بلاد جديدة وعوالم أخرى.

وقد حاول المؤرخون أن يتعرفوا على الأسباب الحقيقية وراء هذا الخروج الإسكتلندي وقال بعضهم إن الخروج كان إجباريًا وليس اختياريًا، فالظروف الاقتصادية حتمت هذه الهجرة فقد تطلع الإسكتلنديون إلى العالم الجديد ذي الوفرة والغنى والمرتبات العالية.

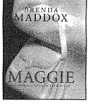
لقد كان الاسكتلنديون يهاجرون مدفوعين بحلم أن يصبحوا أغنياء مثل أبناء جلدتهم الذين سبقوهم. ويورد الكتاب أمثلة كثيرة لهجرات إلى أمريكا وأستراليا وغيرها من دول العالم الجديد. وقد نقل الإسكتلنديون عاداتهم وتقاليدهم إلى العالم الجديد إلا أن أهم ما نقلوه كما يقول المؤلف هو حبهم للمساواة وتطلعهم إلى الحرية.

■

Maggie: The First Lady

(ماجي: السيدة الأولى)

Grenda Maddox
17.99Fodder, 2003, 288PP.,



باستثناء ونستون تشرشل ليس هناك سياسي بريطاني في القرن العشرين أشهر من مارجريت تاتشر، فقد حكمت تلك السيدة التي اشتهرت باسم السيدة الحديدية بريطانيا من ١٩٧٩ حتى ١٩٩٠ وأشاعت في العالم مذهب الليبرالية الجديدة بالمشاركة مع الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان. ورغم استقالتها المذلة التي أجبرها عليها كبار حزب المحافظين البريطاني الحاكم آنذاك، والتي كانت هي أول من أخذ بأيديهم إلى السلطة، فإن تاتشر لازالت لها كلمة في حزب المحافظين، بل إن أي تصريح سياسي لا يحتل حيزًا معتبرًا في الصفحات الأولى من الصحف العالمية. وهذا الكتاب وضعته مؤلفته لكي يتحول إلى برنامج وثائقي تليفزيوني من أربعة أجزاء بثته شبكة «آي تي في» البريطانية مؤخرًا ويتناول الكتاب والبرنامج سيرة حياة مارجريت تاتشر ابنة البقال التي دخلت جامعة أكسفورد ودرست العلوم، ثم تحولت بعد سنوات قليلة (في الخمسينيات) إلى السياسة ثم أصبحت عضوًا في مجلس العموم ثم واصلت صعودها السياسي الصاروخي لتصبح وزيرة للتعليم في أوائل السبعينيات إلى أن انتزعت زعامة الحزب من إدوارد هيث ثم فازت بالانتخابات العامة عام ١٩٧٩.

كما يتحدث الكتاب عن زواجها عام ١٩٥١ من دينس تاتشر الذي أخذت منه لقبها لكنها طغت عليه وأصبح زوج السيدة ويكشف عن مدى استياء دينس من انشغال زوجته الشديد بالسياسة على حساب الاهتمام الشخصي به.

■

Blood Against The Snows

(جرائم ضد الثلوج)

Jonathan Gregson
Fourth Estate, 2003, 240PP.,
8.99

مملكة نيبال القريبة جغرافيًا من الهند معروفة على مدى تاريخها بمزاج القصر لكن الأحداث التي وقعت في أول يونيو ٢٠٠١ لم يتخيلها أحد. فقد قام الأمير ديباندرا ولي العهد بإطلاق النار على ٩ من أعضاء الأسرة المالكة فأرداهم قتلى بمن فيهم والده وشقيقه ثم استدار وقتل نفسه.

وقد وصل مؤلف هذا الكتاب إلى العاصمة كاتماندو بعد أيام قليلة من الحادث المفجع وحاول أن يرسم صورة قلمية للظروف التي أدت إلى وقوع الكارثة. والنتيجة هذا الكتاب الذي يمزج بين البحث العلمي والتحدي الصحفي والعودة للتاريخ. ويشير المؤلف إلى أنه منذ أعلن ناريان شاه نفسه ملكًا على نيبال عام ١٧٦٩ فإن سفك الدماء والصراع أصبح من سمات هذه المملكة فهناك الامتثال الداخلي والتآمر والنفي.

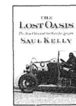
وعودة إلى الأحداث الغريبة. يقول المؤلف إنه بحلول تسعينيات القرن العشرين سارع الملك بيرندرا بالتحول إلى الديمقراطية التعددية والملكية الدستورية بعد أن كان الملك يقترب من الآلهة إلا أن ذلك أشعر ابنه الأمير ديبانيدرا، الذى تلقى تعليمه فى أشهر مدارس إنجلترا (ايتون) بالإحباط وأن دوره كملك فى الانتظار تحول إلى مراسم بروتوكولية من استقبالات وزيارات. إلا أن الكتاب يشير إلى أن دوافع القتل قد تكون أكثر تعقيدًا من ذلك وهناك من يقول إن السبب الحقيقى هو رفض والدته الملكة أن يتزوج من المرأة التى يحبها.

■

The Lost Oasis: The Desert War and the Hunt for Zerzura: The True Story Behind (The English Patient)

(الواحة المفقودة: حرب الصحراء والبحث عن زرزورة: القصة الحقيقية وراء «المريض الإنجليزى»)

Saul Kelly
Westview, 2003, 312PP., $26.00



منذ سنوات قليلة، ظهرت رواية «المريض الإنجليزى» فأحدثت ضجة أدبية بفوزها بجائزة «بوكر» البريطانية، ثم أحدثت نفس القصة التى تدور أحداثها فى صحراء مصر الغربية ضجة سينمائية بتحولها إلى فيلم سينمائى بعنوان «المريض الإنجليزى» حصد عددًا من جوائز «الأوسكار» الأمريكية. هذا الكتاب لا يتحدث عن الرواية الخيالية التى نسجها المؤلف وإنما يتحدث عن القصة الحقيقية وراء الرواية، والتى كان لها دور مهم فى تاريخ الحرب العالمية الثانية.

يؤكد الكتاب على أن بطل الرواية المستكشف المجرى لاديسلاوس دالماسى كان شخصية حقيقية (سمى مطار الماظة على اسمه). وكان الماسى ضمن عدد كبير من المستكشفين الأوروبيين المبهورين بالصحراء الليبية وألغازها، وفى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الثانية كان أهم لغز هو لغز واحة زرزورة التى حاول الماسى الوصول إليها. بل كان هناك ناد للمستكشفين كما يبين الكتاب يسمى «نادى زرزورة»، ولكن بعد إعلان الحرب تحولت القصة من قصة مغامرة واستكشاف إلى قصة عسكرية وجاسوسية. فقد عمل أعضاء هذا النادى كل حسب معسكره السياسى، وكان الماسى ضمن الجيش الألمانى فى أفريقيا واستغل معلوماته عن المنطقة فى الخطط العسكرية وفى التمويه على الأعداء. ويبين الكتاب كيف استطاع المستكشفون البريطانيون مساعدة جيش مونتجمرى فى حسم معركة العلمين الشهيرة التى غيرت مجرى الحرب العالمية الثانية.

■

Ungrateful Daughters.. The Stuart Princesses who Stole Their Father's Crown

(بنات جاحدات.. أميرات ستيوارت اللاتى سرقن عرش أبيهن)

Maureen Waler
8.99London, Sceptre, 2003,



فى عام ١٦٨٥ وعقب وفاة تشارلز الثانى تولى أخوه الكاثوليكى جيمس عرش إنجلترا. وبعد ٣ سنوات فقط كان جيمس فى طريقه إلى المنفى فى فرنسا بعد أن أصبح وليام أوف أورانج ملكًا. وقد لعبت ابنتا الملك جيمس أدوارًا بارزة فى هذا الانقلاب الكبير بكل المقاييس. وقد اختارت مارى أن تخلع أباها وتنضم إلى وليام، الذى تزوجته، والكنيسة الإنجليكانية بعد أن حاول جيمس إحياء الكاثوليكية فى إنجلترا.

ومن جانبها، عملت الأميرة آن، التى خلفت وليام فى العرش، أن تنشر الشائعات والنمائم حول والدها بل إنها تخلت عنه فى لحظاته التى كان فى أمس الحاجة إلى مساندة بناته.

ويتناول الكتاب تأثير الدين فى هذا العصر الذى شهد صراعات ومعارك دموية راح فيها مئات الآلاف بسبب الانتماء الدينى.

■

Putin's Russia

(روسيا بوتين)

Lilia Shevtsova
Camegie. Endowment, 2003,
14.75298PP.,



روسيا اليوم محكومة، كما تقول المؤلفة من جانب رجل بارد العينين وصاحب ماض فى جهاز المخابرات السوفيتية السابق كى جى بى. وكل ما كان يعرفه العالم عن فلاديمير بوتين رئيس روسيا لدى توليه السلطة فى عام ١٩٩٩، أنه الرجل الذى دفع روسيا إلى حرب جديدة فى الشيشان وأنه مؤمن بضرورة أن يعود النظام الصارم إلى روسيا التى تكاد الفوضى أن تدمرها.

وتقوم المؤلفة خلال صفحات الكتاب بعمل يوميات سياسية للعامين الأولين من حكم بوتين حيث تتبعت عناوين الأحداث وقامت بتحليلها وإبداء الرأى فيها. ومثل معظم الليبراليين الروس، تبدو المؤلفة متشككة بشأن بوتين إلا أنها أظهرت دعمًا لسياسته الخارجية بعد ١١ سبتمبر عندما أدت سياسات بوتين الداعمة لواشنطن إلى فتح نادى السبعة الكبار لعضوية روسية ليصبح نادى الثمانية الكبار.

وتعتقد المؤلفة أن التحدى الأكبر الذى يواجه بوتين هو أن يجعل روسيا تقاوم رغبتها التاريخية الطويلة فى شخصنة السلطة وإسنادها إلى رجل واحد.. فهل يجرؤ بوتين؟ مع الملاحظة أن خصومه يتهمونه بتركيز السلطة بين يديه.

■

Fashion Victim: Our Love-Hate Relationship with Dressing, Shopping and the Cost of Style

(ضحية الموضة: الحب والكراهية فى علاقتنا بالملابس والتسوق وثمن المظهر)

Michelle Lee
Broadway Books, 2003



تسلط المؤلفة الضوء على ظاهرة سلاسل محلات الملابس التى تنشر فروعها فى أنحاء العالم، وتلقبها بظاهرة الماك - موضة! فعلى نفس طريقة سلسلة مطاعم ماكدونالدز التى تقدم نفس الوجبة فى أركان معظم مدن العالم، تقدم السلاسل الضخمة لمحلات الملابس الشهيرة ذوقًا موحدًا وقطع ملابس متماثلة فى مئات الفروع حول العالم. ويؤدى هذا النمط من بيع الملابس إلى عدة مشكلات تتناولها المؤلفة فى كتابها من ضمنها التجانس المخيف فى الزى الذى تخلقه بين أفراد العالم. فعلى الرغم من أن الإنسان يميل إلى التميز والتفرد إلا أنه يحب درجة من التجانس والانتماء للجماعة، الأمر الذى يتحقق إلى حد بعيد جدًا بفضل هذه المحلات التى تبيع سلعًا متطابقة فى أرجاء المعمورة. كذلك تقوم فلسفة هذه المتاجر على تغذية نزعة الاستهلاك السريع والمتكرر والذى يصل إلى مراحل الإدمان. حيث تعمل هذه المتاجر على تغيير الموضة بشكل سريع يجعل من الملابس التى تباع فى شهر باعثة للملل ومتأخرة بعد ثلاثة شهور. وبالتالى تقوم دورات قصيرة وسريعة من الشراء والإلقاء تمامًا مثل مرض البوليميا الذى يصيب بعض الناس من جراء الشراهة فى استهلاك الطعام ثم التخلص منه بالقىء من أجل استهلاك المزيد مرة أخرى.

■

Letters to a Young Activist

(رسائل إلى ناشط شاب)

Todd Gitlin
Basic Books, 2003, 192PP.,
$ 22.50



يعمل المؤلف أستاذًا للثقافة والصحافة وعلم الاجتماع بجامعتى نيويورك وكاليفورنيا، كما كان رئيسًا لحركة الطلاب الأمريكية التى اشتهرت فى الستينيات باسم «طلاب من أجل مجتمع ديمقراطى». فى هذا الكتاب يستحضر المؤلف روح النشاط السياسى والاجتماعى التى ميزت شباب الستينيات، ويوجه نصائحه للجيل الجديد لكى يستكمل النضال بالشكل السليم. فهو يشجع شباب النشطاء على التركيز على الليبرالية، باعتبار أن المحافظة تعنى عدم التغيير ولو كان إلى الأفضل.

وهو ينصحهم بالتحلى بالنزاهة والعمق التاريخى والإيمان ويركز على الجمع بين المثالية والواقعية، وبين حب الوطن والإصرار على تحقيق العدالة الاجتماعية. وفى النهاية يبين الناشط المخضرم كيف أن الحركات الاجتماعية لا تستمر إلا بقدر كبير من الإخلاص والالتزام.

■

The Clinton Wars

(حروب كلينتون)

Sidney Blumenthal
Farrar, Straus, & Giroux, 2003,
822PP.,$30.00



المذكرات الشخصية لسيدنى بلومنتال، أحد أهم مستشارى الرئيس كلينتون فى فترته الرئاسية الثانية. فهو كان يمثل «الفارس الأول» فى بلاط كلينتون إن جاز التعبير، وكان مسئولاً عن كتابة خطب رئاسية ومذكرات سياسية مهمة.

تتغنى مذكراته بعهد كلينتون الذى يشبهه بعهد الرئيس فرانكلين روزفيلت،

الذي طغى بظلاله على كل الرؤساء الذين جاءوا من بعده. كما يشبه السيدة هيلارى كلينتون بأن دورها كان مماثلاً لدور روبرت كيندى أثناء رئاسة جون كيندى، وأنه يفوق دور أى سيدة أولى أخرى فى تاريخ أمريكا.

تمر المذكرات على جميع المحطات الرئيسية فى عهد كلينتون من فضيحة وايت ووتر إلى مونيكا لوينسكى وغيرها من الحروب والتحديات التى واجهته مع المحافظين.

■

Jennifer Government: (A Novel)

(جنيفر حكومة «رواية»)

Max Barry
Doubleday, 2003, 336PP.,
$19.95



رواية خيالية سياسية، من نوعية المستقبل القريب. تدور أحداثها فى العهد الذى تحتل فيه الشركات الأمريكية العملاقة العالم كله، وتتولى إدارة شئونه وحكمه حكمًا سياسيًا مباشرًا. ويتخذ كل مواطن من اسم الشركة التى يعمل فيها لقبه العائلى، كما تتحول الدول القومية التى كانت مستقلة (مثل أستراليا التى تدور فيها الأحداث) إلى أراض أمريكية تابعة.

تعتمد الحبكة على محققة من الشركة التى تمثل الحكومة الأمريكية اسمها «جنيفر حكومة»، تقوم بتعقب جريمة ترتكبها شركة «نايك» للأحذية فى إطار حملة تسويقية ينفذها «هاك نايك».

■

Flower Portraits: The Life Cycle of Beauty

(بورتريهات الزهور: دورة حياة الجمال)

Joyce Tenneson
Bulfinch press, 2003, 120PP.,
$ 50.00



تدير المصورة الفوتوغرافية جويس تينيسون عدساتها فى كتابها هذا إلى الزهور، بعد أن تصدر كتابها السابق عن وجوه النساء العجائز قوائم الأكثر مبيعًا

بين كتب الفن. تسجل تينيسون المراحل التى يتم تجاهلها فى عمر الزهرة وهى مراحل التفتح الأولى ومراحل الذبول الأخيرة، فهى ترصد لنا نوعًا خاصًا من الجمال والرقة فى الدورة الكاملة لعمر الزهرة. وهى تصر على أنها تقدم لنا الزهور فى تلك اللقطات ليس باعتبارها زينة، وإنما باعتبارها كائنات حيّة لها تفردها.

■

God's Secretaries: The Making of the King James Bible

(كهنة الرب: عملية إعداد نسخة الملك جيمس من الكتاب المقدس)

Adam Nicolson
Harper Collins, 2003, 281PP.,
$ 24.95



يتناول الكتاب الظروف والملابسات التاريخية التى تم خلالها إعداد نسخة «الملك جيمس» من الكتاب المقدس. وهى تعد أهم الترجمات الإنجليزية للكتاب المقدس، حتى أن صياغاتها الأنيقة وألفاظها الشعرية لها أصداء قوية فى أشعار شكسبير وميلتون وتى إس. إليوت.

يبدأ الكتاب بقصة الملك جيمس، وهو جيمس السادس ملك سكوتلاند، وأيضًا جيمس الأول ملك إنجلترا، فقد كان همه الأول هو الحفاظ على وحدة بريطانيا التى استطاع أن يحققها أخيرًا. ومن أكبر التحديات التى واجهته، ذلك الشقاق الدينى بين البروتستانت الإنجيليين والبروتستانت المتطهرين والروم الكاثوليك.

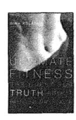
ويرى المؤلف أن دافع الملك وراء الإقدام على تلك الترجمة الضخمة بعد توليه العرش بسنة، عام ١٦٠٤، كان دافعًا سياسيًا أراد من ورائه التقريب بين الجماعات المسيحية المختلفة فى وطن تتجمع فيه سلطة الدولة مع سلطة الكنيسة. وقد كان المتطهرون (أو التطهريون) يفضلون نسخة جنيف من الكتاب المقدس. يبين المؤلف كيف تم تعيين ستة فرق للعمل يضم كل منها ثمانية من العلماء بالإضافة إلى ستة من المراقبين. وقد قام بتجميع معلومات كثيرة عن بعض هؤلاء الأشخاص، رابطًا فى بعض الأحيان بين خبراتهم الحياتية وبين ألفاظ تلك الترجمة من الكتاب المقدس. فمثلاً أحد المترجمين كان له كتاب عن جزيرة دومينيكا فى الكاريبى، فوجد المؤلف أن وصفه لجمالها يشبه إلى حد بعيد وصف الجنة فى الجزء الأول من ترجمة الكتاب المقدس.

■

Ultimate Fitness: The Quest for Truth About Excercise and Health

(الرشاقة المثلى: البحث عن الحقيقة فيما يتعلق بالرياضة والصحة)

Gina Kolata
Farrar, Straus, & Giroux, 2003,
290PP.,$24.00



تتصدى جينا كولاتا، المحررة العلمية لصحيفة نيويورك تايمز، لخضم النصائح والدعاوى الهائلة عن الرشاقة والصحة البدنية والقوام الرياضى التى تزدحم بها الثقافة المعاصرة، فى محاولة لفرز «الدرر العلمية القليلة من بين جبال النفايات».

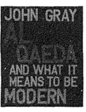
فقد وجدت بعد التدقيق والتحقيق العلمى أن أغلب ما هو مقبول من معلومات عن الرياضة والرشاقة يحتوى على مغالطات ومزاعم باطلة. ويقدم الكتاب إلى جانب ذلك، تاريخ الاهتمام بالرياضة البدنية منذ اليونان القديمة وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأخيرًا فى القرن العشرين الذى ظهرت فيه موضات «الجرى الخفيف» فى السبعينيات، ثم الأيروبكس فيما بعد، ورفع الأثقال بعد ذلك.. إلخ. ويبين الكتاب أيضًا تلك الصناعة التى تقوم حول الرياضة البدنية وتحسين القوام والصحة. فكثير من الأحيان يتم استدعاء النصائح الطبية والعلمية لأسباب دعائية وتسويقية بحتة.

■

Al- Qaeda: And What it Means to Be Modern

(القاعدة: ومعنى الحداثة)

John Gray
Faber & Faber, 2003, 145PP.,
10.99



يقدم جون جراى أستاذ الفكر الأوروبى فى كلية لندن للاقتصاد (ومؤلف كتاب الفجر الكاذب) رؤيته عن علاقة تنظيم القاعدة وهجمات سبتمبر بتحطم أسطورة الحداثة الكاملة التى سيطرت على العقل الغربى لمدة طويلة. فهو يرى أن حركات الإسلام الثورية المتطرفة ما هى إلا عرض من أعراض مرض تعتقد أنها جاءت لتعالجه.

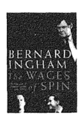
ويبين جراى كيف أن الاعتقاد بأن العلم وحده سيحقق الكمال الإنسانى كان اعتقادًا وهميًا ساقه إلينا علماء اجتماعيون مثل أوجست كونت وسان سيمون. أما القاعدة وما شابهها، فيرى جراى أن فكرها لا يخرج عن نفس القالب، إذ يعتقد بن لادن أنه بتطبيق شريعة القرن السابع يستطيع تحقيق الكمال الإنسانى. بل إن جراى يرى بن لادن جزءًا لا يتجزأ من ظاهرة الحداثة فى مراحلها الأخيرة، خاصة مع خلفيته كرجل أعمال سعودى يستخدم أدوات الحداثة فى هدم مبادئها.

■

The Wages of Spin

(حروب المستشارين الصحفيين)

Bernard Ingham
John Murray, 2003, 261PP.,
18.99



بعد ١٢ عامًا من إصداره مذكراته التى كانت بعنوان «اقتل المرسل» عاد السير برنارد إنجهام المستشار الصحفى لرئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارجريت تاتشر إلى الساحة مرة أخرى بهذا الكتاب الذى يدافع فيه عن زملائه الذين يعملون كمتحدثين أو مستشارين صحفيين حكوميين والذين يعتقد أنه جرى تهميشهم من جانب المستشارين الصحفيين الذين جاء بهم تونى بلير رئيس الوزراء البريطانى من خارج المؤسسة الحكومية. ويقول إنجهام إن هؤلاء المستشارين الجدد فشلوا فى إبراز الخط الفاصل بين الحزب الحاكم والحكومة، فوظيفة المستشار الصحفى أن يدافع عن أعمال الحكومة وليس عن الحزب أى أنه لا يتورط فى نزاعات مع الأحزاب الأخرى، لكن هذا ما يحدث حاليًا من جانب مستشارى بلير الصحفيين. ويقول المؤلف إن تاريخ ظهور هؤلاء المستشارين الجدد، الذين يفعلون كل ما بوسعهم لتجميل صورة رئيسهم بأى وسيلة أخلاقية أو غير أخلاقية، يعود إلى ٢ مايو ١٩٩٧ أى منذ تولى العمال السلطة فى بريطانيا. ويشير إلى أن المتحدثين الصحفيين الذى يعملون فى الحكومة تحكمهم قواعد وأخلاقيات محدودة بعكس المستشارين الصحفيين الذين يتدخلون على سبيل المثال ويهاجمون الأحزاب الأخرى مع أن هذا ليس من عملهم لأنه من المفترض أنهم ليسوا حزبيين.

ويشن المؤلف هجومه بشكل خاص على المستر كامبل المتحدث باسم بلير والذى يعد من أقوى المساعدين لرئيس الوزراء البريطانى.

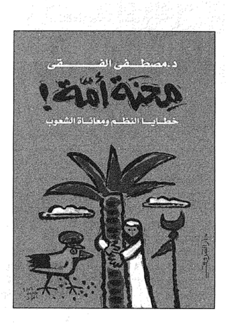
■

التغيير المطلوب فى أنظمة الحكم العربية

■■ لا أظن أن هناك لحظة عربية حاسمة تحتاج منا درجة عالية من الصدق مع النفس والوضوح فى الرؤية مثل تلك التى تمر بها المنطقة حاليًا لأن التطورات اليومية - ولا أقول الأسبوعية أو الشهرية - تحمل معها حقائق جديدة وأنباء مثيرة وتطورات غير متوقعة، لذلك فإن الوعى القومى ومحاولة الخلاص من الأسباب التى أدت إلى ما نحن فيه والتى وضعتنا فى هذا الموقف المعقد هى أمور لازمة فى الفترة القادمة، ويحلو لى أن أركز فى هذه الأيام العصيبة على نهج الإصلاح المطلوب الذى يجب أن ينبع منا ذاتيًا حفاظًا على هويتنا واحترامًا لثقافتنا وتأكيدًا لشخصيتنا الحضارية ونسقها التاريخى، لذلك لابد من تشخيص الداء واكتشاف أسباب العلة قبل أن ندخل فى جوهر المشكلة ونتحدث عن الحلول لها وكيفية الخروج منها، من هنا فإن توصيف طبيعة النظم العربية القائمة وآلياتها الفاعلة وكوادرها الحاكمة يمكن أن تعطينا فى مجملها الصورة كما يراها غيرنا بكل ما لها وما عليها إذ أن هناك حالة ركود حقيقية فى عدد لا بأس به من العواصم العربية فضلاً عن الجمود السياسى والترهل المؤسسى الذى يعكس فى النهاية أزمة حادة لا تخفى على أحد وقد يكون من المفيد أن نستعرض بعض جوانب الوضع الراهن من خلال العناصر التالية:-

أولاً: إن بعض الأنظمة العربية تعانى حالة من التقوقع داخل إطار دوائر مغلقة سواء كانت تلك الدوائر سلطوية أوحزبية أو حتى عائلية، لذلك توقفت المشاركة فى السلطة وغاب دوران النخبة واختفت الدماء الجديدة التى تضخها الشعوب فى نظمها السياسية لتعطيها الحيوية وتوفر لها أسباب المضى نحو آفاق المستقبل بخطى ثابتة ونقلات واعية.

ثانيًا: إن قوائم الطلبات الأمريكية المطروحة - فى الخفاء والعلن - والموجهة إلى عدد من الدول العربية ليس المقصود بها النظم فحسب ولكنها تتجه إلى الشعوب أيضًا إذ أن الدعوة الدينية والبرامج الثقافية والأفكار السائدة كلها أمور لا تقف عند حدود سلطة الحكم ولكنها تتجاوز ذلك إلى هوية الشعوب ومزاج الأمم، ومن هنا تأتى خطورة ما نحن مقبلون عليه، فالنظم تستطيع أن تتكيف بسهولة مع الواقع الجديد بالولاء المطلوب، ولكن



الشعوب لا تقدر على المضى فى ذلك الطريق دون الانتماء المرغوب! فالخصوصية القومية حاجز لا يمكن تخطيه وسد لا يمكن تجاوزه.

ثالثًا: إن من الأسباب الرئيسية للحملة الأمريكية المستمرة على المنطقة هى تلك المفاهيم المغلوطة عن التعليم الدينى والتثقيف الاجتماعى لدى العرب والمسلمين وإحساس الولايات المتحدة بأن المنطقة تحتاج إلى التبشير بقيم أخرى والدعوة إلى مفاهيم مختلفة وذلك كله - فى ظنى - محض هراء.

رابعًا: إن مشهد مئات الألوف من الشيعة وهم يحتفلون منذ أسابيع فى «كربلاء» بذكرى «سيد الشهداء» إنما هى رسالة لا تخطئها العين مؤداها أن التراث الثقافى والتراكم الحضارى لشعوب المنطقة لا يجعل أطماع الآخرين أمرًا سهلاً ولا يسمح للمغامرين بالحديث عن التغيير دون فهم صحيح أو دراسة واعية.

خامسًا: إن منطقة الشرق الأوسط والتى تعكس إلى حد كبير «فسيفساء» الأقليات فى إطار الدولة العثمانية مثلما كان «موزاييك» منطقة البلقان فى ظل تلك الإمبراطورية أيضًا، لذلك فإنه إذا لم تكن المنطقة العربية تنعم بالتعددية السياسية إلا أنها تنعم بتعددية أخرى فى الأصول والأعراق والمذاهب والرؤى.



.. هذه بعض ملاحظات وجدت أن تأملها سوف يكون بالضرورة مصدر إلهام فى هذه الظروف الصعبة والأوضاع المتوترة ويهمنى أن أنوه هنا بحقيقة أرجو أن تكون ماثلة فى الذهن العربى وهى أن التغيير المطلوب سوف يشمل عناصر ثلاثة هى المؤسسات بمعناها الواسع سياسية أو ثقافية، والسياسات سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية، ثم المناخ العام الذى يعبر عنه خطاب إعلامى جديد يستوعب المستجدات ويعبر عن كافة التطورات التى حدثت فى العامين الأخيرين تحديدًا، ولا يعنى ذلك الرضوخ لمطالب أمريكية بقدر ما هو استجابة لروح العصر وإصلاح لأوضاع قائمة حان الوقت لإعادة النظر فيها وقد يكون من الملائم أن أسجل هنا بعض الملاحظات التى توضح ما أسعى إلى إيضاحه:-

١- إن دوائر الحكم المغلقة قد خلقت من السلطة فى العالم العربى مركز جاذبية لبعض عناصر الثورة وعنصر طرد لبعض عناصر الثقافة مما أدى إلى هوة بين المنتمين للنظم والأغلبية الصامتة التى اختارت اللامبالاة طريقًا، وثرثرة النقد بديلاً للتحرك السياسى أو العمل العام.

٢- قد يقول قائل إنه من الطبيعى أن تكون للحكم - أى حكم - دوائر مغلقة، فالمطبخ السياسى فى النهاية يحتوى مجموعة صنع القرار وهذا أمر متفق عليه ولا جدال فيه ولكن المشكلة الحقيقية هى ديمومة المسئولين داخل الدائرة الواحدة بحيث يبقى بعضهم لما يقترب من العشرين عامًا أو يزيد فى منصبه، وهذه فى ظنى ملحوظة تستحق التأمل لأن عطاء المسئول فى الموقع الواحد لا يمكن أن يكون متجددًا ومؤثرًا فى ظل ظروف الاستمرار الذى يجب أن يخضع لحدود العمر الافتراضى لحماس البشر فى المنصب الواحد، فإذا ما تجاوزوه فقدوا الصلاحية الذهنية وأصبح عملهم تكرارًا رتيبًا ليس فيه وجود للمبادرات الخلاقة أو الأفكار الجديدة، فضلاً عما يمثله ذلك من جناية على الأجيال الجديدة وحرمانها من فرص عادلة وهو ما يجعلها بحق مثل من يسكن «الدور المسحور» فى البنايات الكبيرة والذى لا يقف عنده المصعد ويتجاوزه وصولاً إلى أدوار محددة!

٣- إن حيوية النظم مستمدة أساسًا من تدفق الدماء الجديدة وجذب العناصر المتميزة والحملات اليقظة ضد الفساد المالى والإدارى بل والسياسى أيضًا، لذلك فإن النظم التى تعتمد على الدوائر المغلقة لا تخرج منها العناصر المترهلة بسهولة ولا تدخل إليها العناصر القادرة إلا بصعوبة أيضًا بحيث تبدو فى النهاية مثل البحيرات الراكدة التى لا تتدفق إليها مياه من المنبع ولا تخرج منها مياه إلى المصب.



.. إن الشهور الماضية بما أفرزته من شعور بالهوان وإحساس عميق بالثمن الباهظ والفاتورة الفادحة التى ندفعها نتيجة للأنظمة الفردية ودوائر الحكم المغلقة تدعونا اليوم إلى المضى نحو عملية إصلاح شامل لا تتجه إلى تغيير الأفراد بقدر ما تتجه إلى تغيير السياسات وأنماط التفكير وأساليب الإدارة لأن السبب الرئيسى وراء عجز الدول العربية فى السنوات الماضية وإخفاقها فى إدارة الصراع العربى الإسرائيلى إنما نجمت كلها عن تعطيل برامج الإصلاح وتوقف برامج التنمية وغيبة الممارسات الديمقراطية التى تتيح فرص تمثيل كافة القوى السياسية على المسرح السياسى.. إننا مقبلون على سنوات استثنائية تحتاج إلى قرارات صعبة ومواجهات ضرورية ونحن لا ننتظر تعليمات من الولايات المتحدة الأمريكية أو غيرها ممن يقدمون لنا وصفات الإصلاح و«روشتات» العلاج «فأهل مكة أدرى بشعابها»، ونحن أعرف من غيرنا بمشكلاتنا السياسية، وهمومنا القومية، وأمراضنا الفكرية، ولقد آن الأوان لكى يتحرك العرب نحو الإصلاح الجاد والتفكير الشامل والابتعاد عن العشوائية السياسية مع القدرة على الموازنة بين المصالح الوطنية والضغوط الخارجية، إنه وقت للصحوة المطلوبة، والرؤية الغائبة، والرشد المنتظر■

صفحات من كتاب بعنوان:
«محنة أمة» للدكتور مصطفى الفقى،
يصدر قريبا عن دار الشروق



تعديل مناهج التعليم..
بيدنا أم بيد عمرو؟

بعد أن انتهت الحرب على العراق على النحو الذى انتهت به، أصبح من حق أمريكا ـ طبقًا لما يعتقده اليمين المحافظ الذى يسيطر على البيت الأبيض ـ أن تدخل شريكًا فى صياغة مستقبل منطقة الشرق الأوسط، وأن يكون لها دور فى إصلاح ما ينبغى إصلاحه، وإزاحة ما ينبغى إزاحته، وتغيير ما تراه ضروريًا بعد أحداث سبتمبر المشهودة، لقيام شرق أوسط «يشهد يومًا جديدًا يسود فيه العدل، ويومًا جديدًا يتحقق فيه الرخاء» كما جاء فى نص الخطاب الذى ألقاه الرئيس بوش فى جامعة ساوث كارولينا أخيرًا.

من هنا توالت قائمة الطلبات على العديد من الدول العربية.. بعضها جاء بأسلوب هيّن ليّن. والبعض الآخر جاء بأسلوب يتسم بالخشونة وبتهديدات علنية أو مبطنة. ولكنها جميعًا استهدفت غاية واحدة، هى تهيئة المنطقة العربية للتكيف مع المتغيرات الاستراتيجية التى تتصور الولايات المتحدة أنها تحققت أو باتت قاب قوسين أو أدنى من التحقق.

على رأس هذه المطالب إصلاح نظم التعليم، وتغيير القيم الثقافية، وتعديل المناهج الدينية، وتحديث الحياة السياسية والاجتماعية، وتحرير المرأة لتشارك مشاركة فعالة مع الرجل فى الحياة العامة، وتحقيق الديمقراطية. وقد جاءت هذه المطالب فى صورة مقترحات قدمها كولين باول وزير الخارجية الأمريكية فى خطاب له عن الشراكة الديمقراطية قبل بدء التدخل العسكرى فى العراق، وأكملها الرئيس بوش فى خطاب له بعد انتهاء حرب العراق التى لم تدم غير أسابيع قليلة.. تحدث فيه عن منطقة للتجارة الحرة تربط بين الشرق الأوسط والولايات المتحدة، يتحقق فى إطارها السلام الموعود بقيام دولة فلسطينية إلى جانب الدولة الإسرائيلية.



لا تتوجه أمريكا بهذه المطالب الجديدة إلى النظم والحكومات العربية والإسلامية فحسب، بل تتوجه بها أيضًا إلى الشعوب. فإذا كانت الدول والحكومات مطالبة بتعديل القوانين والتشريعات التى تتعلق بحقوق الإنسان وبقوانين الملكية الفكرية وبالتشريعات الضريبية والتجارية التى تسمح بالتواؤم مع ما أصبحت تقتضيه «العولمة» من إسقاط للحواجز التجارية وإطلاق حرية السوق، والانضمام إلى منظمة التجارة العالمية، فإن الشعوب مطالبة بتغيير سلوكياتها، وأساليب حياتها، وطرائق تفكيرها، ومنظومات قيمها.

ووراء هذه المطالب فكر أمريكى راسخ، يروج له دعاة اليمين المحافظ، الذى عبأ القوى والطاقات لشن الحرب فى أفغانستان، ثم لم يلبث أن أغرته القوة العسكرية على غزو العراق، يقوم على أن العالم العربى والإسلامى تسوده أيديولوجية دينية قائمة على الإرهاب والكراهية والتعصب. «تغذيها وتحميها أنظمة طغيانية»، تسعى لحيازة أسلحة الدمار الشامل، وتوظف طغيانها لاضطهاد شعوبها، وتهديد السلام، وقتل الحريات، وممالأة الإرهاب الجماعى الذى يشجع العمليات الانتحارية باسم الجهاد والاستشهاد فى سبيل الدين والعقيدة.

ويمضى هذا الفكر إلى أبعد من ذلك، فيرجع أحوال الفقر والتخلف وانتشار الأمية وانحطاط وضع المرأة فى السلم الاجتماعى وعجز المجتمعات العربية عن اللحاق بقيم العصر وعن الأخذ بأساليب الديمقراطية والتعددية السياسية، إلى نوع من السلطة الدينية الجامدة التى أساءت توجيه الشباب وأفرزت عناصر من أمثال بن لادن والظواهرى وأتباعهما من تنظيم «القاعدة»، الذى تحمله أمريكا مسئولية ضرب برجى نيويورك، وتفجيرات السفارات الأمريكية فى أفريقيا، ونسف السفينة الأمريكية فى عدن، وأخيرًا عمليات التفجير الموجهة ضد المصالح الأمريكية فى السعودية، وما قد يستجد فى المستقبل من جرائم الإرهاب العالمى..



قد يختلف تشخيص أسباب المرض أو الأزمة، ولكن الأعراض صحيحة فى مجملها.. فالأمة الإسلامية تواجه مأزقًا حضاريًا لا سبيل إلى تجاهله. وينخر فى عظامها مرض عضال لا سبيل إلى إنكاره، ولا يمكن إرجاع أسبابه فقط إلى عوامل خارجية تتعلق بموازين القوى أو بالمشاكل والصراعات السياسية التى تفجرت فى الشرق الأوسط بسبب إسرائيل، فأنهكته طوال نصف قرن، ولكنها ترجع أيضًا إلى تعطل النمو الروحى والفكرى والاقتصادى الذى غشى الشعوب الإسلامية وعاقها عن التقدم. وفى كافة اللقاءات والمؤتمرات التى تعقد فى أرجاء العالم العربى يصارح المتحدثون أنفسهم بهذه الحقائق، ولكنهم يعجزون عن مصارحة شعوبهم بها، وبالتالى عن تغيير الأنماط والأفكار السائدة.

وأخطر شىء يحدث الآن هو أن غياب الحراك الاجتماعى، والتفاعل السياسى والثقافى، وجمود النظم السياسية وعدم قدرتها على التجديد والتطور فى المجتمعات العربية كلها بدون استثناء وإن بنسب متفاوتة، هو الذى بات يغرى قوى خارجية على محاولة التدخل لسد الفراغ ولإصلاح الأوضاع فى هذه المجتمعات.. على أساس أن بقاءها على ما هى عليه، أصبح يمثل تهديدًا لها ولمصالحها من خلال جماعات الإرهاب العالمى وتنظيماته المتنامية التى تشن هجماتها بأكثر الأساليب تدبيرًا وبدرجة عالية من التقنية.

وتتشكل الآن تحالفات عالمية لمواجهة هذه الأخطار. عبرت عن نفسها كما رأينا فى حرب أفغانستان، ثم فى الحرب على العراق. وقبل ذلك فى إجراءات وتشريعات واتفاقات دولية حازمة، أصبحت تضع الحواجز أمام حركة السفر والهجرة لهؤلاء القادمين من دول عربية وإسلامية. وتصنفهم ـ منذ البداية ـ كإرهابيين محتملين. وتحد من أعدادهم ومن أنشطتهم التى يعبرون فيها عن هويتهم الثقافية والدينية فى المجتمعات التى يعيشون فيها. وهو ما يمكن أن يؤدى إلى عزل العالم العربى والإسلامى عن حركة التقدم والتفاعل مع العالم، ويحرمه من كثير من منجزات العصر، ويحكم عليه بالذبول والاختناق وقطع الروابط بينه وبين التحديث.



وإذا كانت محاولات التدخل الخارجى فى الماضى قد انصرفت إلى التأثير على السياسات الخارجية أو الأوضاع الاقتصادية، فهى تركز الآن على صميم الأوضاع الداخلية. وأكثر ما بات يهمها الآن هو تفسير المناهج التعليمية والدراسات الدينية واللغوية، باعتبارها المدخل إلى صياغة مستحدثة لعقول الشباب والأجيال الجديدة، لكى تبرأ هذه المجتمعات من «إرثها الاستبدادى» ومن جذور التعصب الدينى، وتتحول إلى مجتمعات حرة مسالمة.

ولتحقيق هذا الهدف كلفت مؤسسات بحثية أمريكية بوضع مناهج وكتب مدرسية جديدة وأجريت أبحاث ودراسات على أساليب وبرامج التعليم فى عدد من الدول العربية بهدف إصلاحها طبقًا للمعايير التى تم وضعها فى أمريكا. وقد كشف بوش فى خطابه الأخير فى ساوث كارولينا عن جانب من هذه الخطط حين أشار إلى عزم أمريكا على «ترجمة كتب القراءة للمراحل التعليمية المبكرة إلى اللغة العربية ثم التبرع بهذه الكتب إلى المدارس الابتدائية».

وأكثر ما يثير القلق هو أن معظم الدول العربية بادرت إلى قبول هذه «النصائح» الأمريكية. وبدلاً من أن تأتى المبادرة من جانب خبراء التعليم والمثقفين ورجال الدين فيها لتجديد الفكر الدينى وإصلاح مناهج التعليم واللغة، لكى تحظى هذه «المجتمعات بتأويل دينى يتعايش مع حقائق العصر، وبنظم تعليمية تدرب الشباب على النقد والتساؤل والفكر المنهجى العلمى.. فإنها استمرت فى انتهاج سياساتها التعليمية الفاشلة، والاستجابة ـ سرًا ـ للضغوط الأمريكية، استرضاءً لها أو حرصًا على استمرار المساعدات.

ومن الطبيعى ألا يؤدى مثل هذا الإصلاح المزعوم فى المناهج التعليمية، والذى يتم تحت ستار من التكتم الشديد، ويركز بصفة خاصة على حصص اللغة والدين والنصوص القرآنية بقصد تجريدها من المعانى والمبادئ التى يعتقد الأمريكيون أنها وراء العنف الإرهابى، إلا إلى مسخ الشخصية المصرية أو العربية، وتذويب الهوية القومية، وترقيع المناهج التعليمية بدلاً من التزام رؤية إصلاحية شاملة. وسوف يفضى هذا فى نهاية الأمر إلى سقوط ذريع لا قيام منه. وهو ما نجحت ألمانيا واليابان فى الإفلات من قبضته، وإلا لما صارت أى من الدولتين إلى ما صارت إليه الآن دون أن تتخلف عن الركب ودون أن تفقد ثقافتها وشخصيتها!

سلامة أحمد سلامة